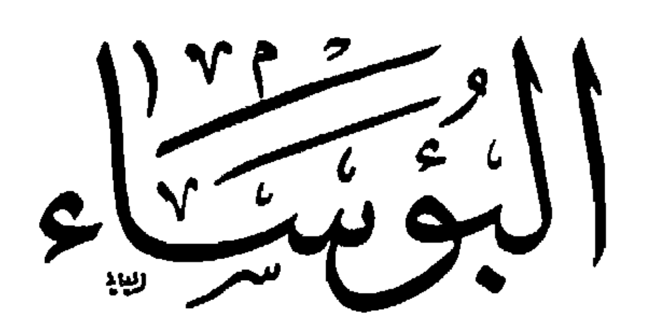


الرِوَايةُ كامِلَةً

في خَمْسَةِ مُجلّداتٍ

البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

١

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مقدّمة

اذا كانت « البؤساء » قد حظيت حين نشرها ، ولا تزال تحظى الى اليوم ، في فرنسة والديار الاوروبية والاميركية ، بمكانة أدبية تكاد لا تدانيها عند جمهور القراء أيما مكانة لأيما رائعة من الروائع الانسانية الخالدة ، فليس من شك في انها تُعتبر أعظم الخوالد الكلاسيكية الغربية شهرةً في العالم العربي ايضاً ، لا استثني من ذلك حتى مسرحيات شكسبير نفسها . وآية هذا ان من النادر ان تجد انساناً في العَرَب اليوم لم يسمع باسم « البؤساء » لفيكتور هيجو أو لم يقرأ عنها ، أو يطالع مختصراً من مختصراتها الكثيرة التي صدرت بالعربية في عشرات الطبعات ، أو لم يشاهدها على الشاشة البيضاء . فمنذ ان اصدر شاعر مصر البائس ، حافظ ابراهيم ، بضعة فصول من الرواية في جزءين صغيرين لا يبلغان عشر الاصل ، أو اقلّ من ذلك قليلاً ، وشخصيةُ « جان فالجان » الخالدة حيةٌ في مخيلة الناشئة العربية جيلاً بعد جيل ، فهي تحبّها وتأسى لها وتُكبر فيها خيرية الانسان القاهرةَ شرورَ المجتمع كلها ، الخارجةَ من اتون تلك الشرور وهي اصفى جوهراً ، وخيرٌ صِقالاً . ومن هنا كان في ميسورنا ان نقول ان « البؤساء » خالطت الوجدان العربي ، وعملت على إيقاظه مُسهمةً في خلق الوعي الاجتماعي

الجديد الذي ننعم به اليوم في ارض العرب من اقصاها الى اقصاها .

ومن أسف ان يكون اطلاع الاجيال العربية على « البؤساء » منذ عهد حافظ ابراهيم حتى هذه الساعة ، اطلاعاً منقوصاً مشوهاً لم يَسْلَمْ معه من تلك الملحمة الانسانية الواسعة رسوخ الاطواد غير هيكلها المجرّد ، واحداثها العاطفية المثيرة . اما التحليل النفسيّ ، واما العبير الشعريّ الذي يغلّف كل صفحة من صفحات الكتاب ، واما التصوير الفني البارع الذي اشتهر به هيجو ، واما اللوحات التاريخية التي انتثرت في حنايا الاثر ، فقد ُكتِبَ على ذلك كلـه أن يُسْحَق ويُزاح من الطريق لكي يكون في الامكان ضَغْطُ ألفين وخمسئة صفحة من القطع الكبير في ثلاثمئة او اربعمئة صفحة صغيرة ليس غير ! ذلك لأن اياً من الاقلام العربية لم يجرؤ — برغم نشاط حركة الترجمة نشاطاً متعاظماً — على ان ينقل الى العربية هذا الاثر الادبي الخالد نقلاً كاملاً لا حذف فيه ولا تشويه ، وذلك لأن اياً من الناشرين العرب لم يجرؤ — برغم نشاط حركة النشر نشاطاً متعاظماً ايضاً — على التفكير في عمل كهذا وإخراجه للناس . لكأنه ُقدّر على القارىء العربي ان ينتظر الذكرى السبعينية * لوفاة شاعر فرنسة العظيم حتى يَنْعَمَ لاول مرة بقراءة « البؤساء » كاملة غير منقوصة .

وأياً ما كان فقد تطورت منذ عهد هيجو مقاييس الفن الروائي واختلفت مفاهيمه ومذاهبه ، ولكن تطوّر المقاييس واختلاف المفاهيم وحدهما لا يَصْلحان ذريعةً لأغفال الخوالد الادبية وتجاوزها الى النماذج الحديثة دون غيرها ، لأن الاثر الادبي الممتاز يتمرّد على هذه القواعد ويزري بها لما يضجّ به من حياة باقية على الدهر ، ومن قيمة ذاتية هي فوق القوالب والاساليب . وهل غضّ تطوّر المفاهيم الفنية والمقاييس

* تصادف هذا العام ذكرى انقضاء سبعين سنة على وفاة هيجو (٢٢ نوار ١٨٨٥) . ومن محاسن المصادفات ان يصدر الجزء الاول من هذه الترجمة في يوم الذكرى بالذات ايضاً .

النقدية من ادب المعري ، وديكنز ، وبلزاك ، وتولستوي ، ومكسيم غوركي ، وذهبَ بجدته ؟ إن الآثار الادبية الانسانية كالآثار المعمارية والفنية لا تزداد مع الايام الا حُرمـــةً ونفاسةً بل واشراقاً في بعض الاحيان . وانما يتأكد هذا المعنى اكثر حين تكون القضايا التي يعالجها الاثر الخالد مطروحةً ، ما تزال ، في بلادنا ، سواء على الصعيد النظري او على الصعيد العملي ، او على الصعيدين النظري والعملي جميعاً . ومن هنا ندرك حاجتنا الماسة الى ترجمة صحيحة للبؤساء -- ولو بعد قرابة مئة سنة من نشرها -- بالاضافة الى انه لا يجوز ان تخلو المكتبة العربية وحدها بين مكتبات الامم الحية كلها من ترجمة كاملة للبؤساء ، بل لا يجوز ان تخلو من ايما اثر ادبي خالد من آثار الفكر الانساني لمجرّد انه عتيق . وعلى أية حال فالبؤساء ابعد ما تكون عن العتق او الشيخوخة . ألم يقل هيجو في الاسطر القليلة التي قدم لها بها :

« ... ما دامت مشكلات العصر الثلاث -- الحطّ من قدر الرجل
« بالفقر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل --
« لمّا تُحلّ بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في
« بعض البقاع ... ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ،
« فان كتباً مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .»

وبعد ، فمن الخير ان نقدم الى القراء الآن كلمة موجزة في حيـــاة المؤلف وآثاره .

●

حياته

ولد فيكتور هيجو في بيزانسون ، عاصمة الـ « فرانش كونتيه » ، شرقيّ فرنسة ، في ٢٧ شباط سنة ١٨٠٢ من أبٍ كان ضابطاً في جيش الامبراطورية ثم غدا جنرالاً . وانتقل هيجو الفتى مع أبيه الى ايطالية ،

وكورسيكة ، وجزيرة ألبا ، ثم الى اسبانية (سنة ١٨١١) حيث قضى عاماً واحداً مع أخيه اوجين في كلية النبلاء بمدريد . وفي عام ١٨١٢ رجع الى باريس حيث تلقى العلم على « أمّه وعلى كاهن عجوز وحديقة » ، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك Polytechnique . ولكن الهموم الأدبية شغلته في سنّ مبكرة ، فاشترك في مسابقة نظمتها الاكاديمية الفرنسية ، وهو بعدُ في الخامسة عشرة من العمر ، ففاز بجائزة شعرية لقصيدته « حسنات الدراسة » . وفي اواخر سنة ١٨١٩ أسس مع اخويه ، وبمساعدة « سوميه » و « فينيي » صحيفة « المحافظ الادبي » Conservateur littéraire ، فلم تعش غير سنة ، وقد كتب هو فيها ٢٧٢ مقالة . وفي سنة ١٨٢٢ اجرى عليه لويس الثامن عشر راتباً بعد نشر ديوانه الاول الموسوم بـ « نشائد » Odes وفي هذه الفترة تزوج من آديل فوشيه فأنجبت له اربعة اولاد ، ثم توفيت سنة ١٨٦٨ .

وابتداء من عام ١٨٢٧ الذي صدرت فيه مسرحيته التاريخية « كورومويل » Cromwell بمقدمتها الشهيرة التي شنّ فيها حرباً لا هوادة فيها على المفاهيم المسرحية الكلاسيكية اعتُبرَ هيجو زعيم الحركة الرومانتيكية . وتعدُّ هذه الفترة التي امتدت حتى عام ١٨٤٣ اخصب عهوده بالانتاج الأدبي اذ وضع فيها مقطوعاته « الشرقيات » Les Orientales ، ومسرحية « هيرناني » Hernani وقصة « نوتر دام دو باري » Notre - Dame de Paris حتى اذا كان عام ١٨٤١ انتُخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية بعد أن أخفق في ذلك أربع مرات متعاقبات . وطوال العشر السنوات التي تلت انصرف هيجو الى النضال السياسي ، مجنّداً نفسه في خدمة الافكار الديموقراطية والجمهورية . وبعد ثورة ١٨٤٨ انتخب عضواً في الجمعية التأسيسية ، ثم في الجمعية التشريعية . وفي تلك الفترة شرع في كتابة روايته الكبرى « البؤساء » . حتى اذا تمّ انقلاب كانون الاول سنة ١٨٥١ ، وأطاح نابوليون الثالث بالجمهورية ليعلن في العام التالي

Qui lui sont impossibles, et moi, c'est le bonheur !
Tu n'en sors pas pour moi ! cherche un autre seigneur !
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
Épouse le Duc !

D. Sol.

Donc ce n'était pas assez !
~~[illegible]~~
Vous aviez déchiré mon cœur, vous le brisez.
Ah ! vous ne m'aimez plus !

Hernani

Oh ! mon cœur et mon âme,
C'est toi ! l'ardent foyer d'où me vient toute flamme,
C'est toi ! ne m'en veux pas de fuir, être adoré !

D. Sol.

Je ne vous en veux pas. Seulement, j'en mourrai.

Hernani.

Mourir ! pour qui ? pour moi ? se peut-il que tu meures
Pour si peu ?

D. Sol. laissant éclater ses larmes

صفحة من مسرحية « هيرناني » لفيكتور هيجو بخط يده .

قيام الامبراطورية الثانية ، وقف فيكتور هيجو في صفوف المعارضة ، فنُفي الى بروكسل ، ومنها انتقل الى جيرزي واخيراً الى غورنيسي وهما جزيرتان من الجزائر الانكليزية النورماندية * وأكسب النفي عبقريته الشعرية رحابةً وقوة جديدتين فمهر الادبَ في هذه الفترة باروع آثاره : **« التأملات »** (١٨٥٦) *Les Contemplations* ، والقسم الاول من **« خرافة العصور »** (١٨٥٩) *La Légende des Siècles* **« والبؤساء »** (١٨٦٢) *Les Misérables* وفي ٥ ايلول سنة ١٨٧٠ رجع الى باريس فشهد اهوال الحرب وذل الهزيمة ، ثم انتخب عضواً في الجمعية الوطنية ، عام ١٨٧١ ، فعضواً في مجلس الشيوخ ، عام ١٨٧٦ . ذلك كان عهد الشيخوخة ، ولقد ظلّ خصباً حافلاً . وفي سنة ١٨٨٢ احتفلت الامة الفرنسية احتفالاً مهيباً ببلوغه الثمانين من العمر . وما هي الا سنوات معدودات حتى قضى نحبه (٢٢ نوار سنة ١٨٨٥) فأقامت له باريس مأتماً عظيماً . وفي نوار – حزيران من عام ١٩٣٥ احتفلت فرنسة بالذكرى الخمسينية لوفاته احتفالاً يعزّ نظيره .

عبقريته

يجمع النقاد ، او يكادون ، على ان فيكتور هيجو أعظم شاعر غنائي فرنسي ، وواحد من اعظم شعراء العالم في مختلف العصور . ورأس مواهب هيجو قوةٌ خارقةٌ على الخيال الموضوعي ، وبراعة عجيبة في التصوير تردفها قدرة فريدة على السموّ بالكلمة حتى لتصبح نغماً .

وقد لا تكون حساسيته الشعرية على مثل العمق الذي يميز الحساسية الشعرية عند لامرتين ، او على مثل الجَيَشان الذي يطبع الحساسية الشعرية عند ألفرد دو موسيه ، ولكنها تتمتع برحابة او بسعة اعظم بكثير . إنها تتبدّى نابضة بالحياة ، مشبوبة بخاصة حين توجّهُ نحو الاطفال

* هي مجموعة من الجزر الانكليزية القائمة على الشاطيء النورمندي.

والمستضعفين من الناس . *

ولئن لم يتّسم تفكير هيجو بأصالة الخلق وعمق الابتداع فليس من ريب في انه امدّ انتاجه الشعري بغذاء من الافكار غنيّ . انه لم يُجرِ القلم قطّ على قرطاس إلا ليمجّد افكاراً عظيمة ، أو ليدافع عن افكار عظيمة . وما الشاعر ، عنده ، إلا المنارة التي يتعين عليها ان ترشد الجماهير وتهديهم سواء السبيل ، والصوت المقدّس الذي يحمل اليهم انجيلهم . ** ومن هنا أثار عدداً كبيراً من المشكلات الاخلاقية والاجتماعية التي يتناظر فيها الفلاسفة : الخير والشر ، والانسان والله ، والله والخلق ، والحكمة والعلم ، والجهل والشر ، والرذيلة والبؤس ، والسعادة والتقدم ، معبراً عن ذلك كله في صور قوية ساطعة .

شعره

كان هيجو شاعراً غنائياً في المحل الاول . ولكن غنائيته كانت دون غنائية لامرتين عفويةً وصميمية ، وان تكن اكثر منها تنوّعاً . والحق ان هيجو وصف نفسه فقال إنه « نَفْسٌ من البلور » و « صدىً مرنان » ، يعني أنه قد عكس ، ورجّع ، وكثّر ، وافرغ في نظام أوركستريّ جميع الاغراض الغنائية . لقد غنى ، قبل كل شيء ، جميع انطباعات عصره فكأن روح القرن التاسع عشر الشعرية تحيا في قصائده من جديد . وغنّى جميع العواطف الانسانية ، من مثل الحب البنويّ ، والحب الأبوي ، والآمال ، والاحزان ، والاسرة ، والوطن . ثم اضاف الى هذا كله الألم الفلسفي ، والتطور الديني ، ولغز الموت والمجهول ، وتوق الانسان الى الجمال والخير ، والتماسه للعدالة ، وايمانه بمستقبلٍ قوامه الحرية والتقدم . وعلى الجملة ، فقد كانت أشبه بموسوعة

* راجع Quillet ; *Dictionnaire Encyclopédique* p. 2282.

** المصدر السابق نفسه .

غنائية للعصر الذي عاش فيه . *

واشهر آثاره الغنائية « **نشائد** » (١٨٢٢) *Odes* ، و « **نشائد جديدة** » (١٨٢٤) *Odes Nouvelles* ، و « **الشرقيات** » (١٨٢٩) *Les Orientales* ، و « **أوراق الخريف** » (١٨٣١) *Les Feuilles d'automne* ، و « **الاصوات الداخلية** » (١٨٣٧) *Les Voix Intérieures* ، و « **الاشعة والظلال** » (١٨٤٠) *Les Rayons et les Ombres* ، و « **التأملات** » (١٨٥٦) *Les Contemplations* .

وكان كذلك شاعراً ملحمياً أعطى الادب العالمي لوحات تاريخية خالدة هي أشبه ما تكون بلحمة في الانسانية تمثل لنا العصور الغابرة ، والحقبة المعاصرة ، وحروب القرن التاسع عشر الكبرى . وهذا التراث الضخم تنتظمه كله فكرة التقدّم ، وتصعيد البشرية البطيء نحو النور عبر الصراع المخوف بين الخير والشر . وما هذه الملحمة غير « **اسطورة العصور** » *La Légende des Siècles* ، وقد نشرت في ثلاثة اجزاء متعاقبة (سنة ١٨٥٩ ، و ١٨٧٧ ، و ١٨٨٣) .

مسرحياته

واقتحم هيجو ميدان التأليف المسرحي بدرامة « كرومويل » التي عُدّت مقدمتها الشهيرة بمثابة « البيان » أو « المانيفيستو » للمدرسة المسرحية الناشئة التي نادت بضرورة الأخذ بشكل مسرحي اكثر حرية . ولكن هيجو لم يوفق على العموم في هذا الميدان ، فشخوصه « غنائيون » اكثر مما ينبغي . وبسببٍ من أنهم غنائيون لم يكن في ميسورهم ان يكونوا « مسرحيين » . انهم ليسوا ارادات تعمل ، ولكن احاسيس تتلاعب بها الظروف الخارجية وكأنها دمية من الدمى .

* راجع Des Granges ; *Histoire de la Littérature Francaise* , p. 794.

وأياً ما كان فأشهر مسرحيات هيجو « كروموبل » ، وهي شعرية (١٨٢٧) ، و « هيرناني » وهي شعرية (١٨٣٠) ، و « الملك يلهو » وهي شعرية ايضاً (١٨٣٢) Le Roi s'amuse ، و « ولوكريس بورجيا » وهي نثرية (١٨٣٣) Lucrèce Borgia ، و « ماري تيودور » وهي نثرية (١٨٣٣) Marie Tudor .

رواياته : « البؤساء »

واعطى هيجو روايات عديدة منها « نوتر دام دو باري » (١٨٣١) و « الرجل الذي يَضحَك » (١٨٦٩) L'Homme qui rit ، و « ثلاثة وتسعون » (١٨٧٢) Quatre - vingt - treize . اما اعظم رواياته جميعاً وأبقاها على الدهر فهي « البؤساء » ، وقد شرع في كتابتها ، كما رأينا ، قبل عام ١٨٥٠ ولم ينجزها الا عام ١٨٦٢ . وإنما وضع هيجو روايته هذه تحت تأثير التعاليم الانسانية والاشتراكية التي نادى بها « كابيه » * و « برودون » ** فدافع فيها عن قضية جميع اولئك الذين يحتقرهم المجتمع ، والذين ينبغي ان تُعزى جرائمهم الى فساد ذلك المجتمع نفسه .

والواقع ان « البؤساء » هي في المحل الاول رواية اجتماعية قصد بها هيجو الى التنبيه على المظالم التي يرزح تحت عبئها المعذبون في الارض باسم النظام حيناً ، وباسم العدالة حيناً ، وباسم الاخلاق حيناً ، وباسم

* Cabet مفكر فرنسي (١٧٨٨ - ١٨٥٦) تخيل مدينة فاضلة اشتراكية في كتابه « رحلة في إيكاريه » Voyage en Icarie . ولقد حاول ان يحقق نظرياته من طريق انشاء مدينة نموذجية في تكساس ، ثم في ايلينويز ، ولكنه اخفق .

** Proudhon اشتراكي فرنسي (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وضع نظريات مشهورة في الملكية الشخصية ، وحاول ان يوفق ما بين البورجوازية والبروليتاريا لكي ينشيء منها طبقة وسطى . ومن مؤلفاته : « ما الملكية الشخصية ? » و « تناقضات اقتصادية . »

الشعب دائماً . ورواية تاريخية ارادها صاحبها معرضاً لافكاره الديموقراطية ونزعاته التحررية ، فزيّنها — على حساب الفن القصصي احياناً — بلوحات قلمية جسّد فيها تاريخ فرنسة في حقبة من اخطر الحقب لا في حياة ذلك البلد فحسب ، بل في حياة اوروبة كلها ، اعني تلك الحقبة المنسحبة على عهدي نابوليون بونابرت ولويس فيليب بما حفلا به من انتفاضات ثورية وانتكاسات رجعية ... وهي الى هذا وذاك قارورة طيب ، ووعاءُ فلسفة ، وملحمة نضال . انها بكلمة ، نشيد الحرية ، وانجيل العدالة الاجتماعية ، وسيمفونية التقدم البشري — عبر العرق والدمع والدم — نحو الغاية التي عمل من اجلها المصلحون في جميع العصور : تحقيق إنسانية الانسان وإقامة المجتمع الامثل . ولعل اروع صفحاتها تلك التي صوّر فيها شخصية الاسقف ميرييل ، وآلام فانتين ، وفرار جان فالجان ، ومعركة واترلو ، وثورة عام ١٨٣٢ . بل لعل اروعَ ما فيها قلبُ هيجو الكبيرُ النابضُ من وراء كل كلمة من كلماتها ، وكل فكرة من فكراتها ، وشاعريتُهُ العارمة الخيّرةُ التي تتخطى الحدود والسدود ، ولا تعرف هدفاً غير المحبة ، والعدل ، والخير العام .

●

وبعد ، فيسعدنا ان نزف الى القراء الكرام في سلسلة « خوالد التراث الكلاسيكي » هذه اول ترجمة صحيحة كاملة للبؤساء ، راجين ان يكون في صنيعنا هذا * سدٌّ لبعض النقص الذي ما تزال مكتبتنا الحديثة تعانيه من دون سائر مكتبات الشعوب الحية ، أعني حاجتَها الى نسخة عربية كاملة عن كل اثر من الآثار الانسانية الشامخة التي ابدعها الفكر البشري في قديم الايام وحديثها .

بيروت ، ٥ نوار ١٩٥٥

منير البعلبكي

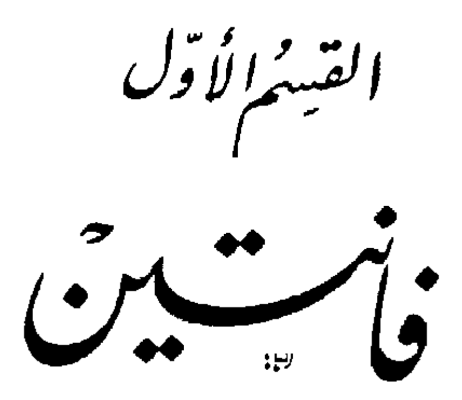
* وفي ترجمتنا النصّ الكامل لرائعة تشارلز ديكنز « قصة مدينتين » التي تؤلف الحلقة الاولى من هذه السلسلة .

كلمة اولى

ما دام ثمة ، بسبب من القانون والعرف ، هــلاك اجتماعي يخلق صناعياً ، وعلى مرأى من الحضارة ومسمع ، ضروباً من الجحيم على الارض، ويعقد في قضاء بشري محتوم مصيرا هو الآهي؛ ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الحط من قدر الرجل بالفقر، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل - لمّا تُحلّ بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ؛ وبكلمة اخرى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضاً ، ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتــــاب لا يمكن ان تكون غيرَ ذات غناء .

هوتفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيجو


القسم الأول
فانتين

الكتاب الأول



١
مسيو ميرييل

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بيينفينو ميرييل هو أسقف د... * كان رجلاً في الخامسة والسبعين، وكان قد شغل اسقفية د... منذ عام ١٨٠٦.

وبرغم ان بعض التفاصيل لا تمس بطريقة ما اساس القصة التي سنرويها، فليس من غير المفيد – ولو من اجل الدقة في الاشياء جميعاً على الاقل – ان نشير هنا الى الاقاويل والاشاعات التي نشأت على حسابه منذ ان وفدَ الى الابرشية.

* يقصد مدينة ديني Digne حاضرة احدى المقاطعات الفرنسية الواقعة في اقصى الجنوب الشرقي على بعد ٧٦٤ كيلومتراً جنوبي شرقي باريس.

وسواء أكان ما يُقال عن الرجال صدقاً ام كذباً فـــأنه كثيراً ما يترك في حيَواتهم ، وفي مصائرهم بخاصة ، اثراً اعظم من ذلك الذي تتركه افعالهم .

كان مسيو ميرييل ابن مستشار لبرلمان إيكس * فهو يتمتع بشرف النبالة الذي كان يُخلع على رجال القانون . وإذ أحب الاب ان يخلفه ابنه في منصبه ذاك ، فقد عمد الى تزويجه في سن مبكرة جداً — في الثامنة عشرة ، او العشرين — وفقاً لعرف سائد عند الأسر البرلمانية . ولقد قيل ان شارل ميرييـــل كان ، برغم زواجه ، موضوع اهتمام القوم واحاديثهم . كان شخصه مُفرغاً في قالب رائع . وكان على الرغم من قِصَر قامته أنيقاً ، كيّساً ، ظريفاً . لقد وقف الشطر الاول من حياته ، كلّهُ ، على الحياة الاجتماعية وملذاتها . ثم جاءت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعاً ؛ وتشتتت الأسر البرلمانية ، بعد ان قُتل منها خلقٌ كثيرٌ ، وبعد ان طوردت ولوحقت . وعند اندلاع الثورة ، هاجر مسيو شارل ميرييل الى ايطالية . وهناك ، توفيت زوجته من علة في الرئتين طالما تهددت حـــياتها بالخطر . ولم تخلّف ايما ولد . ولكنْ ايّ جديد طرأ على مصائر مسيو ميرييل بعد ذلك ؟ هل اثار تفسّخُ المجتمع الفرنسي القديم ، وسقوطُ أسرته نفسهـــا ، ومشاهدُ عام ١٧٩٣ الفاجعة ، التي كانت اشد فظـــاعة في اعين المهاجرين الذين رأوها من بعيد وقد ضخّمها الذعر — هل اثار ذلك كله افكاراً تـــدعو الى الاعتزال وقهر الذات ؟ هل اصيب فجأة ، وسط موجة من موجات الانفعال وشرود الذهن التي استغرقت حياته آنذاك ، بواحدة من تلك الضربات الرهيبة الغامضة التي تصرع احياناً — بطعنة في القلب — الرجلَ الذي عجزت الكوارث العمومية عن زعزعته ، بأن تسدّد جُمع كفها الى حياته او قدَرِه ؟ ذلك ما لم يكن احد بقادر على الاجابة عنه . كل ما عرفه الناس انه حين رجع من ايطالية كان يرتدي ثوب الكهنوت .

وفي سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميرييل كاهن بـ ... (برينيُولّ) ** . كان

* Aix عاصمة « البروفانس » القديمة ، وتقع على بعد ٢٨ كيلومتراً عن مرسيليا .

** Brignolles بلدة صغيرة من اعمال مقاطعة فار (وعاصمتها تولون) على الساحل الجنوبي الشرقي من فرنسة .

آنذاك رجلاً عجوزاً ، وكان يحيا في عزلة مطلقة .

وحوالى عهد التتويج * دعته مسألة صغيرة متصلة بوظيفته الدينيـــة – ولم يبقَ في الامكان معرفة تلك المسألة الآن – الى ان يقصد الى باريس .

وهناك زار الكاردينالَ فيش فيمن زارهم من رجال السلطان خدمةً لبعض مصالح رعيته .

وذات يوم ، حين وفدَ الامبراطور لزيارة عمـــه ، التقى في طريقه بالكاهن الجليل ، الذي كان في غرفة الانتظار . وإذ لاحـظ نابوليون ان الرجل العجوز نظر اليه في شيء من الفضول ، استدار وتساءل في خشونة : « من هذا الرجل الساذج الذي ينظر اليّ ؟ »

فقال مسيو ميرييل : « مولاي ، إنك لترى الى رجـل ساذج ، وإني لأرى الى رجل عظيم . وفي ميسور كل منا ان يفيد من ذلك . »

وتلك الليلة سأل الامبراطورُ عمه الكاردينال ما اسم الكاهن . وبعـد فترة وجيزة غمر الدهش مسيو ميرييل إذ عرف أنه عُيّن اسقفاً لمدينة د ...

وفيما عدا ذلك ، لم يعلم أحدٌ ايّ قدْر من الصحة كانت تنطوي عليـه تلك الحكايات التي سارت بين الناس ، والتي تتصل بالشطر الاول من حيـــاة مسيو ميرييل . ولكنّ أسراً قليلة كانت تعرف أسرة ميرييل قبل الثورة .

وتعيّن على مسيو ميرييل ان يذعن للقَدَر الذي يُلمّ بكلّ وافد جديـــد الى مدينة صغيرة ، حيث توجد ألسنٌ كثيرة تتكلم ، ورؤوس قليلة تفكر . لقد تعيّن عليه أن يذعن برغم انه كان أسقفاً ، ولأنه كان أسقفاً . وعلى اية حال ، فقد كانت الاقاويل المتصلة باسمه مجرد أقاويل ليس غير : لغـــطٍ ، وحديث ، وكلمات ، بل اقلّ من كلمات : *palabres* كما يعبّر اهل الجنوب في لغتهـــم العنيفة .

ومهما يكن من أمر ، فبعد تسع سنوات من نهوضه بأعباء الاسقفية وإقامته في د ... تضاءلت جميع تلك الحكايات وموضوعات اللغو ، الـــتي تَشْغَلُ ،

* اي تتويج نابوليون بونابرت امبراطوراً ، في ١٨ نوار سنة ١٨٠٤ .

بادىء الأمر ، المدنَ الصغيرة والناسَ الصغار ، وغرقت في نسيان عميق . إن احداً ما عاد يجرؤ على ان يتحدث عنها ، بل إن احداً ما عاد يجرؤ عـــلى ان يتذكّرها .

وحين وفد مسيو ميرييل على مدينة د ... كانت تصحبه عانسٌ تدعى الآنسة بابتيستين . وكانت هذه العانس هي أختَهُ ، وكانت اصغر منـه بعشر سنوات .
وكانت خادمتها الوحيدة امرأة في مثل سنّ الآنسة بابتيستين تدعى السيدة ماغلوار . وبعد ان كانت هذه السيدة تُعرف من قبل بـ « خادم السيد الكاهن » غدت الآن تحمل هذا اللقب المزدوج : وصيفة الآنسة ، ومدبّرة منزل صاحب السيادة .

وكانت الآنسة بابتيستين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجـــه ، مهزولة الجسم ، رقيقة الحاشية . كانت تحقيقاً للصورة المثاليـة التي تعبّر عنها لفظـــة « محترمة » ؛ إذ يبدو وكأن من الضروري ان تكون المرأة أمّاً لكي تكون جليلة . إنها لم تكن جميلة في يوم من الايام . وكانت حياتها كلها ، التي لم تكن غير سلسلة موصولة من أعمال التقى ، قد خلعت عليها ضرباً من البياض الشفاف ، حتى اذا شاخت اكتسبت ما يمكن ان ندعوه جمال الصلاح . إن ما كان في صباها هُزالاً انتهى الى ان يصبح في كهولتها شفافية ؛ وهـــذه الاثيرية كانت تمكّن الناظر اليها من أن يرى الملاكَ الذي في ذات نفسها . كانت روحاً اكثر منهـــا عذراء فانية . كان شخصها أشبه بالطيف ، فليس فيها من الجسد ما يكفي لأن يوقع في نفس المرء فكرة الجنس – قليل من المادة ينطوي على شرارة – عينان واسعتان مطرقتان الى الارض ابداً ؛ ذريعة تتخذها الروح للبقاء على هـــذه الارض .

أما السيدة ماغلوار فكانت امرأةً عجوزاً ضئيـــلة الجسم ، بيضاء البشرة ، بدينـــةً ، نشيطةً ، مشغولةً على نحو مطّـرد . كانت دائماً مبهورةً منقطعة النَفَس ، بسببٍ من نشاطهـــا الموصول ، أولاً ، وبسبب من داء الربو الذي تشكو منه ثانياً .

وكان مسيو ميرييل ، لدن وصوله الى المدينة، قد أنزل في قصره الاسقفي ، محوطاً بآيات الأجلال المنصوص عليها في المراسيم الامبراطورية التي تجعل الاسقف في رتبة تلي رتبة قائد الجيش مباشرة . كان العمدة والرئيس يقومان بزيارته قبل زيارتها أيا شخصية اخرى في المدينة ، وكان هو بدوره يخلع الشرف نفسه على الجنرال والمحافظ .

حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف الى العمل .

٢

مسيو ميرييل يصبح مونسينيور* بيينفينو

كان قصر الاسقف في مدينة د ... محاذياً للمستشفى : كان صرحاً رحباً جميلاً ، شيده من الحجارة ، في اوائل القرن الماضي صاحب السيادة هنري بوجيه – وكان دكتوراً في اللاهوت من جامعة باريس ، ورئيس دير سيمور – الذي غدا اسقف د ... في عام ١٧١٢ . كان ذلك القصر ، في الحق ، نُزُلاً أميرياً فخماً ، وكانت سيما الأبهة تغلب على كل شيء فيه : حجرات الاسقف ، والابهاء، والغرف ، وقاعة الشرف – التي كانت رحبة جداً تحيط بها ردهات ذات اقواس رفعت على الطراز البندقي** العتيق – والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة .

وفي قاعة الطعام كان رواق طويل فخم مستو مع سطح الارض ، منفتح على الحديقة . وكان صاحب السيادة هنري بوجيه قد اقام مأدبة كبرى ، في ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، لصاحب السيادة شارل برولار دو جينليز ، كبير اساقفة ايبرون ، وأنطوان دو ميسغريني الكبوشي ، أسقف غراس ، وفيليب دو

---

* او صاحب السيادة ، وهو اللقب الخاص بالاساقفة .

** أو : الفلورنسي .

ڤاندوم ، كبير رؤساء الاديار في فرنسة ، ورئيس دير سان اونورية دو ليرين ، وفرانسوا دو بَرْتون دو غريّون ، رئيس اساقفة ڤنس ، وسيزار دو سابران دوفوركالكييه ، رئيس اساقفة غلانديف ، وجان سوروانـــين ، كاهن كنيسة الأوراتوار ، وواعظ الملك ، ورئيس اساقفه سينيز .وكانت صور هؤلاء الرجال السبعة الموقرين تزين القاعة، وكان هذا اليوم التاريخي ، يوم ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، منقوشاً بأحرف من ذهب على لوحة رخامية بيضاء .

أما المستشفى فكان بناء منخفضاً ضيقاً ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة .

وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا تمت الزيارة دعا المديرَ الى ان يفد عليه في قصره .

وقال لمدير المستشفى : « كم مريضاً عندك ، يا سيدي ؟ »

— « ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . »

فقال الاسقف : « أي كما عددْتُهم أنا . »

فتابعَ المديرَ : « ان اجنحة المستشفى تغصّ بالسرُر التي حُشرت فيهـــا حشراً . »

— « لقد لاحظتُ ذلك . »

— « وليست الاجنحة غير غرف صغيرة ، غرف ليس في الامكان تهويتها بسهولة . »

— « هذا ما يبدو لي . »

— « وفوق ذلك ، فحين ترسل الشمس اشعتها الدافئة تضيق الجنينة الصغيرة بالناقهين » .

— « ذلك ما كنت افكر فيه . »

— « ومن الاوبئة عرفنا التيفوس هذا العام . ومنذ سنتين كان عنـدنا الحمى العسكرية ، وبلغ عدد مرضانا المئة . إننا لا ندري ما الذي ينبغي ان نصنعه . »

— « ذلك ما خطر لي تماماً . »

فقال مدير المستشفى : « اي شيء نستطيع أن نصنعه ، يا صاحب السيادة ؟

يجب ان نفوّض أمرنا الى الله . »

وانما دارت هذه المحادثة في قاعة الطعام من الدور الارضيّ .

وصمت الاسقف بضع لحظات . ثم التفت فُجاءةً الى مدير المستشفى .

وقال : « كم سريراً تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم يا سيدي ؟ »

فصاح المدير مشدوهاً : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »

وأجال الأسقف عينيه في القاعة ، وبدا وكأنه يقيس طولها وعرضها ويحسب .

وقال مخاطباً نفسه : « انها تتسع لعشرين سريراً . » ثم رفع صوته وقال : « إسمع ، يا سيدي المدير ، الى ما سأقوله . إن ههنا خطأ من غير شك . انتم ستة وعشرون شخصاً تشغلون خمس غرف او ست غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ، ومع ذلك فنحن نحتل مكاناً يتسع لستين . اقول لك ان هناك خطأ . انتم تحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . أعيدوا بيتي اليّ . وانزلوا هنا في هذا المكان ، فهو لكم . »

وفي اليوم التالي نُقِل المرضى البائسون الستة والعشرون الى قصر الاسقف وانتقل الاسقف الى المستشفى .

ولم يكن صاحب السيادة ميريل يملك ثروةً ما ، بعد أن دمرت الثورة أسرته . كان لاخته ملكٌ تتصرف به طوال حياتها ولا يحق لها ان تتنزل عنه لاحد ، ولكن هذا الملك ما كان يعود عليها باكثر من خمسمئة فرنك ، كانت - قبل ان يغدو أخوها اسقفاً - تسدّ نفقاتها الشخصية . حتى اذا رُفع مسيو ميريل الى مقام الاسقفية تقاضى من الحكومة راتباً مقداره خمسة عشر الف فرنك . ويومَ انتقل الى بيته الجديد في بناية المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ ، مرةً والى الابد ، على الاغراض التالية . وها نحن اولاء ننقل ههنا هذا الثبت الذي كتبه هو بخط يده .

ثبت بتنظيم نفقاتي المنزلية

– للمعهد الاكليركي الصغير	الف وخمسمئة ليرة .
– رهبانية الارسالية	مئة ليرة .
– لعازاريي موندیدیه	مئة ليرة .
– معهد الارساليات الاجنبية في باريس	مئتا ليرة .
– رهبانية الروح القدس	مئة وخمسون ليرة .
– المؤسسات الدينية في الارض المقدسة	مئة ليرة .
– الجمعيات الخيرية التي ترعى الأمومة	ثلاثمئة ليرة .
– علاوة لجمعية آرل المهتمة بالامومة	خمسون ليرة .
– لتحسين الاوضاع في السجون	اربعمئة ليرة .
– لاسعاف السجناء واطلاق سراحهم	خمسمئة ليرة .
– لتحرير ارباب الأسر المسجونين بسبب الديون	الف ليرة .
– علاوات على رواتب مدرسي الابرشية الفقراء	ألفا ليرة .
– عزن الحبوب الشمي في مقاطعة الألب العليا	مئة ليرة .
– جمعية سيدات د . . . ومانوسك وسيستيرون لتعليم الفتيات المدمات بالمجان	الف وخمسمئة ليرة.
– للفقراء	ستة آلاف ليرة .
– نفقاتي الشخصية	الف ليرة .
المجموع	خمسة عشر الف ليرة .

ولم يُحدث مسيو ميرييل ايما تغيير في هذه الخطة طوال المـــدة التي تولّى خلالها أسقفية د ... كان يدعوها ، كما نرى ، « تنظيم نفقاته المنزلية » .

وتقبّلت الآنسة بابتيستين هذا التدبير في إذعان مطلق . فقد كان مسيو ميرييل هو أخاها واسقفها في آن معاً ؛ كان صديقها برابطة الدم، ورئيسها بحكم السلطة الاكليركية . كانت تحبه وتحترمه في غير تكلّف . فاذا ما تكلم ، أنصتت ، واذا ما عمل منحتْهُ تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتهما ، فكانت تتذمر بعض الشيء . وكان الأسقف ، كما رأينا ، قد احتفظ لنفسه بألف فرنك ليس غير ، فاذا أضيف هذا المبلغ الى دخل الآنسة بابتيستين أمسى الفاً وخمسمئة فرنك سنوياً . وبهذه الالف والخمسمئة فرنك تعيّن على هؤلاء العجائز الثلاثة ان يعيشوا .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة ايما كاهن من كهان القرى يَفِدُ على د ... وإنما يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الآنسة بابتيستين .

وذات يوم – وكان قد انقضى نحو من ثلاثة اشهر على مقامه في د ... – قال الاسقف : « ومع هذا كله أجدني في ضائقة مالية شديدة . »

فصاحت السيدة ماغلوار : « أنا اظن ذلك ايضاً . ان صاحب السعادة لم يطالب حكومة المقاطعة حتى بنفقات مركبته في البلدة ، ونفقاتها اثناء جولاته في الابرشية . لقد كان جميع الاساقفة السابقين يفيدون من هذه المخصصات . »

فقال الاسقف : « اجل ! أنت على صواب ، ايتها السيدة ماغلوار . »

وطالب بحقه ذاك .

وبعد برهة اقرّ مجلس المقاطعة العام مطلب الاسقف ، وصوّت على قرار بمنحه تعويضاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف فرنك تحت هذا العنوان : « تعويض للاسقف يسدّ به نفقات عربته ، ونفقات جولاته الرعائية في ارجاء الابرشية . »

واثار ذلك بورجوازيي البلدة اثارة بالغة . ولهذه المناسبة كتب احد شيوخ الامبراطورية – وكان من قبلُ عضواً في مجلس الخمسمئة * ، ومناصراً لحركة

* Conseil des Cinq - Cents وكان يتألف من خمسمئة عضو ويشكل ، هو « ومجلس القدماء » السلطة التشريعية وفقاً لدستور السنة الثالثة من الجمهورية . وقد حلهما نابوليون في ١٨ برومير .

١٨ برومير * ، وكان يُقيم الآن في مقرّ له فخم قرب د . . . — كتب الى السيد بيغو برياميبنو ، وزير العقائد ، رسالةً مهتاجة وسرّية نقتطف منهـا الفقرة التالية :

« نفقات عربة ! وما حاجته اليها في بلدة يقلّ عدد سكانها عن اربعة آلاف ؟ نفقات زيارات رعائية ! وايّ فائدة لهـذه الزيارات ، في المحل الاول ؟ وفوق ذلك ، كيف السبيل الى التجوّل بمركبة البريد في هذه المنطقة الجبلية ؟ ليس ثمة طرق . وليس في ميسور المرء أن يقصد الى هناك إلا على صهوة الجواد . وحتى الجسر القائم فوق الـ « دورانس » عند شاتو آرنو لا يكاد يحمل عربات الثيران إلا بشق النفس . ان هؤلاء الكهان هم هكذا دائماً : طمّاعون أشحاء . ولقد قام هذا الكاهن بدور الرسول الصالح بُعَيد وصوله ؛ وهـا هو ذا الآن يسلك مسلك الآخرين . إنه يريد عربةً ومركبة أجرة . إنه يبتغي الترف مثل الاساقفـة السابقين . اوه ! تباً لهذا الكهنوت كله ! سيدي الكونت ، إن الاحوال لن تغدو خيراً مما هي إلا اذا أنقذَنا الامبراطور من كهـان المكرونة هؤلاء ، فليسقط البابا ! (كانت العلاقات قد ساءت مع رومة) أما من ناحيـتي ، فأنا لقيصر وحده الخ . الخ . »

وسرّ الطلب الذي تقدّم به الاسقف الى مجلس المقاطعة العام السيدةَ ماغلوار ، من ناحية ثانية ، سروراً عظيماً فقالت للآنسة بابتيستين : « لقد استهلّ صاحب السيادة أعماله بالتفكير في الآخرين ؛ ولكنه وجد آخر الامر ان عليه ان ينتهي بالاهتمام بنفسه . لقد سوّى مهامه الخيرية كلها ، وها قد حصلنا على ثلاثة آلاف فرنك خالصة لنا ، في النهاية . »

---

* برومير Brumaire هو الشهر الثاني من التقويم الذي اصطنعه الجمهوريون بعيـد الثورة الفرنسية ، وهو يقع ما بين ٢٣ تشرين الاول و ٢١ تشرين الثاني . اما يوم ١٨ برومـير فهو اليوم الذي اطاح فيه نابوليون بونابرت — اثر عودته من مصر — بحكومة الادارة يعاونـه « فوشيه » و « سييس » واخوه لوسيان بونابرت (٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، في السنة الثامنة من الجمهورية .)

وفي الليلة نفسها كتب الاسقف مذكرة ضمّنها الكلمات التالية وقدمها الى شقيقته :

نفقات العربة والتجول

– لتقديم مرق اللحم الى مرضى المستشفى	الف وخمسمئة ليرة
– لجمعية « ايكس » الخيرية المهتمة بالامومة	مئتان وخمسون ليرة
– لجمعية « دراغوينيان» الخيرية المهتمة بالامومة	مئتان وخمسون ليرة
– للقطاء	خمسمئة ليرة
– لليتامى	خمسمئة ليرة
المجموع	ثلاثة آلاف فرنك

تلك كانت ميزانية الاسقف ميرييل .

اما دَخْلُ الاسقفية من إجازات الزواج ، والاعفاء من بعض أحكام الدين ، والتعميد الخصوصي ، والعظات ، ومنح البركة للكنائس والمعابد ، وإجراء مراسيم الزواج الخ . فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كان يوزعه بهما على الفقراء .

وما هي الا برهة حتى تدفقت التقدمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء يقرعون باب الاسقف ؛ كان بعضهم يُقبل ليقدّم الصدقات ، وكان بعضهم الآخر يُقبل ليفوز بها . وفي اقل من سنة غدا الاسقف خازناً لفاعلي الخير جميعاً ، ومانحاً للمحتاجين جميعاً . لقد مرت بين يديه مبالغ من المال ضخمة . ومع ذلك ، فلم يغير قط طريقته في الحياة ، ولم يُضِف اقل الترف الى الكفاف الذي يحيا عليه .

على العكس . فما دام في الطبقات الدنيا دائماً فقرٌ يزيد على ما عند الطبقات العليا من إنسانية ، فقد كان كل ما يُقدّم يُوَزّع ، اذا جاز التعبير ، قبل ان

يُستَلَم ، لكأنه الماء فوق ارض عطشى . وكان من الخير ان يتدفق المال عليه ، لانه ما كان يحتفظ بشيء منه . والى هذا ، فقد كان يحرم نفسه ويسلبها.

واذ كان العرف يقضي بأن يتوّج جميع الاساقفة اوامرهم ورسائلهم الرعائية باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف — بدافع من ضرب من الغريزة الودود - ذلك الاسم الذي كان اقوى عندهم دلالةً ، فهم ينادونه دائماً ، مونسينيور بيينفينو . * ولسوف نقتفي اثرهم ونسمّيه هكذا منذ اليوم . والى هذا ، فقد كان ذلك الصنيع يوقع الحبور في قلبه ، فهو يقول : « إني احب هذا الاسم . إن « بيينفينو » تصحح « مونسينيور » وتوازنها . »

ونحن لا نزعم ان الصورة التي نرسمها هنا صورة حقيقية . إن في ميسورنا ان نقول إنها تشبهه ، ليس غير .

٣

اسقف صالح ـ اسقفية جافية

ولم ينقطع الاسقف ، بعد ان حوّل عربته الى صدقات ، عن القيام بجولاته الرعائية النظامية ولم يطفّفها ؛ ولقد كان ذلك الصنيع ، في ابرشية د ... ، عملاً مرهقاً . كانت الاراضي السهلية قليلة جداً ، وكانت المرتفعات الجبليـــة كثيرة جداً ، ولم يكن ثمة طرق ، تقريباً ، من غير شك . كان في الابرشية اثنـــان وثلاثون مركزاً كهنوتياً ، واحدى واربعون نيابة اسقفية ، ومئتان وخمسة وثمانون مركزاً كهنوتياً فرعياً . وكان في زيارة هذه المواطن كلها نَصَبٌ بالغ ، ولكن الاسقف نهض بهذا العبء الثقيل . كان يمشي على قدميـــه حين يكون المكان الذي يقصد اليه مجاوراً ، ويصطنع عربة صغيرة حقيرة ذات عجلتـــين ومظلة ، في السهل ، على حين يصطنع في الجبال سلة مزدوجة ملقاة على متن احد

* Bienvenu وتفيد معنى « الفائز بحسن القبول . »

البغال. وكانت المرأتان العجوزان ترافقانه عادة. فاذا اتفق ان كانت الرحلة شاقة اكثر مما ينبغي فعندئذ كان يمضي منفرداً.

وذات يوم بلغ سينيز، وكانت من قبل مركز اسقفية، ممتطياً حماراً. كان كيس دراهمه فارغاً جداً في ذلك الحين، فهو لا يمكّنه من اصطناع وسلة افضل، من وسائل النقل. وخرج عمدة المدينة لاستقباله عند باب المقرّ الاسقفي، فلم يكد يرى اليه يترجل عن حماره حتى اخذه الدهش المنطوي على الخيبة. وضحك بعض البورجوازيين من حوله. فقال الاسقف: «سيدي العمدة، سادتي البورجوازيين. انا ادري ما الذي يحملكم على الدهش. انكم تعتقدون ان من الغرور البالغ ان يركب كاهن مسكين المطية عينها التي ركبها يسوع المسيح. فأنا اؤكد لكم اني اتخذتها بحكم الضرورة، لا زهواً وعُجباً.»

وكان في جولاته تلك سَمْحاً سهل الخليقة، وكان يعظ أقلّ مما يتحدث. ولم يكن يضع أيما فضيلة في طبق لا سبيل الى بلوغه؛ أو يورد أسباباً وأمثلةً مُتكلّفةً غير مألوفة. كان يجعل من منطقة ما مثلاً يضربه لأبناء منطقة اخرى مجاورة. ففي الاقضية التي يُعامل فيها المعوزون بقسوة كان يقول: «انظروا الى أبناء بريانسون. لقد منحوا الفقراء والأراملَ واليتامى الحقّ في ان يحصدوا مروجهم قبل ثلاثة ايام من سائر القوم. واذا ما خربت بيوت اولئك البائسين جدّدوا بناءها لهم من غير ان يتقاضوا منهم فلساً. وهكذا فهي ارض باركها الربّ. وطوال قرن كامل من الزمان لم تعرف تلك الديار قاتلاً واحداً.»

وفي القرى التي تعصف شهوة الربح بسكانها في ايام الحصاد، كان يقول: «انظروا الى إيمبرون. اذا ادرك موسمُ الحصاد ربّ أسرة فيها بعد ان التحق اولاده بالجيش واشتغلت بناته في المدينة، وكان هو مريضاً، اوصى به الكاهنُ في مواعظه، فما إن تطلع شمس الاحد، وينتهي القداس، حتى يندفع سكان القرية كلهم، رجالاً ونساء واطفالاً، نحو حَقْل الرجل البائس، ويحصدوا له محصوله، ويحملوا التبن والحنطة الى مخزن حبوبه.» وللأُسَر المتنازعة على مسائل الملك والأرث كان يقول: «انظروا الى جبليي ديفولني، وهو اقليم موحش

الى درجة تجعل العندليب لا يُسمع في ارجائه مرةً كل خمسين عاماً . حين يموت ربّ الاسرة في تلك الديار ينطلق اولاده الذكور ساعـــين في طلب الرزق ، ويتركون ممتلكاتـــه للبنات لكي يكون في ميسورهن أن يَفُزْن بأزواج . »

وفي تلك الاقضية المولع اهلها بالدعاوى القضائيـــة ، حيث يشتري المزارعون الخراب والافلاس بالاوراق المثقلة بالطوابـع كان يقول : « انظروا الى فلاحي وادي كيراس . إن عددهم لا يتجاوز الثلاثة الآلاف . يا الهي ، لكأنهـــم يعيشون في جمهورية صغيرة ! إنهم لا يعرفون لا القاضي ولا حاجب المحكمـة . والعمدة هناك ينهض بجميع الأعباء . إنه يقسّط الخراج ، ويفرض الضريبة عـلى كلٍّ وفقاً لما يحكم به الضمير ، ويقضي في المنازعات بالمجـان ، ويقسم التركات بينهم من غير أجر ، ويصدر الاحكام من غير ان يتقاضى رسوماً ، وهم يطيعونه لانه رجل عادل بين رجال بسطاء . » وفي القرى التي يعوزها المدرّسون كان يضرب مَثَل وادي كـيراس ايضاً ، فيقول : « اتدرون ماذا يفعلون ? لما كانت المنطقة الصغيرة المؤلفة من اثني عشر بيتاً أو خمسة عشر بيتاً لا تقـــوى دائماً على النهوض بنفقة مدرّس فان اهل الوادي جميعاً يتعاونون على دفـــع رواتب المعلّمين، فيتنقّل هؤلاء من قرية الى قرية، مُنفقين اسبوعاً هنا، وعشرة ايام هناك ، حيث يدرّسون الناشئة . وكان هؤلاء المعلمون يشهدون الاسواق العامة ، حيث رأيتهم بعيني . وهم يُعرفون بريش الكتابة الذي يعلّقونه بعصائب قبعاتهم . فأما الذين يعلّمون القراءة وحسب فيحملون ريشة واحدة ، وامـــا الذين يعلّمون القراءة والحساب فيحملون ريشتين اثنتين . واما الذين يعلّمون القراءة والحساب واللاتينية فيحملون ثلاث أرياش . وكان ذوو الارياش الثلاث هؤلاء علماء كباراً . ولكن ما أشنع العار الذي يلحقه الجهل بالمرء ! اعملوا مثل ابناء كيراس ! »

هكذا كان يتكلم ، في وقار رجرْس أبويّ . واذا ما عـدم الامثلة اخترع القصص الرمزية ، مقتحماً موضوعه اقتحاماً مباشراً ، في عبـارات قليلة ، وصور كثيرة . وهل كانت بلاغة يسوع المسيح المقنعة المفحمة شيئاً غير ذلك ?

٤
الاعمال تتكافأ مع الاقوال

كان حديثه أنيساً عذباً . لقد كيّف نفسه وفقاً لمدارك العجوزين اللتين تعيشان معه . واذا ما ضحك كان ضحكه اشبه بضحك تلميذ من التلاميذ .

وكانت السيدة ماغلوار تخاطبه ، عادة ، بقولها « يا صاحب العظمة ! » وذات يوم نهض عن كرسيه ذي الذراعين ومضى الى مكتبته التماساً لكتاب ما . وكان ذلك الكتاب على احد الرفوف العالية . واذ كان الاسقف أميل الى القصَر فقد عجز عن ان يبلغه . فقال: « أيتها السيدة ماغلوار . ايتيني بكرسي . انّ عظمتي لا تمتدّ الى هذا الرفّ ! »

وكانت الكونتس دو لو ، وهي سيدة يربطها به نسبٌ غير قريب ، نادراً ما تدع الفرصة تمرّ من غير ان تعدّد في حضرته ما دعته « آمال » ابنائها الثلاثة . ذلك بأنه كان لها عدة أنسباء بلغوا من السنّ مبلغاً عالياً وغدوا على شفا الموت : انسباء كان اولادها هم وارثيهم الشرعيين . فاما اصغر الثلاثة فكان مقدراً له ان يفوز من عمة ابيه بدخل سنوي مقداره مئة الف ليرة . واما ثانيهم فكان مقدراً له ان يرث لقب « دوق » من عمه . واما اكبرهم سناً فسوف يرث رتبة الامارة الاقطاعية من جده . وكان من دأب الاسقف ان يسمع في صمت لهذا التباهي الأمومي البريء الجدير به ان يُغتفر . بيد انه بدا ، ذات يوم ، اشدّ استرسالاً في التفكير الحالم منه في ايا وقت سلف ، وكانت السيدة دو لو تعيد تفصيل هذه المواريث جميعاً ، وهذه « الآمال » جميعاً . فما كان منها الا ان كفت عن الكلام ، فجأةً ، وصاحت في شيء من البرم ونفاد الصبر : « يا الٓهي ! ولكن ما الذي تفكر فيه ، يا ابن العم ؟ » فأجابها الاسقف : « اني افكر في شيء غريب وردَ في ما اعتقد عند القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم في ذلك الذي لن يُورث ابداً ! »

وفي مناسبة اخرى تلقّى نعيَ شريفٍ من اشراف البلاد أُدرجت فيه لائحة

طويلة لم تنتظم رتب الفقيد فحسب بل ألقاب أنسبائه، جميع أنسبائه، الاقطاعية. فصاح: « ما اقوى ظَهْرَ الموت! ايّ حِمل رائع من الالقاب سوف يحمله في ابتهاج! وما اعظم الظرف الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان حتى يتخذ من شاهد القبر وسيلة لاشباع غروره! »

وكان يرسل بين الفينة والفينة بعض السخريات العذبة المنطوية دائماً، تقريباً، على فكرة جدية. وذات يوم، في اثناء الصوم الكبير، وفدَ نائب اسقفي شاب على د... وألقى عظة في الكاتدرائية. كان على جانب من الفصاحة غير يسير. وكان موضوع عظته الاحسان. لقد دعا الاغنياء الى ان يجودوا بالصدقات على الفقراء اذا ما رغبوا في اجتناب عذاب السعير، الذي صوّره تصويراً مروّعاً الى ابعد الحدود، وبالفوز بالجنة التي صوّرها بهجةً فاتنة. وكان بين المصلين تاجر غنيّ متقاعد، انصرف الى الاشتغال بالربا بعض الشيء، يدعى السيد جيبوران، وكان قد جمع نصف مليون ليرة من صنع الجوخ، والنسيج الصوفيّ الغليظ، والاقمشة الصوفية الضيقة الخفيفة، والطرابيش الفرنسية. ولم يتصدّق السيد جيبوران، طوال حياته، بشيء ما، على فقير بائس. ولكن الناس لاحظوا، بعد هذه العظة، انه شرع يعطي كل يوم احد، على نحو مطّرد، جزءاً من عشرين من الفرنك للشحاذات العجائز القائمات عند باب الكاتدرائية. وكان عددهن ستاً يُفترض فيهنّ ان يتوزعن هذه الفلوس القليلة في ما بينهن. واتفق ان رآه الاسقف، ذات يوم، يجود بصدقته هذه، فابتسم وقال لاخته:

« ها هو السيد جيبوران يشتري من الجنة ما قيمته جزء من عشرين من الفرنك! »

وكان اذا التمس العون لعمل خيريّ ما لا يثنيه الرفض ولا يثبط همته. وما كانت الكلمات التي تحمل السامعين على التفكير لتعوزه بحال. كان يجمع الصدقات للفقراء، ذات يوم، في أحد أبهاء المدينة. وكان في ذلك البهو المركيز دو شانتيرسيه، وهو ثريّ عجوز شديد الشحّ، اكتشف السبيل الى ان يكون ملكياً متطرفاً وفولتيرياً متطرفاً في آن معاً. ولم يكن هو الممثل الاوحد لهذه

الفئة من الرجال ، في ذلك العهد . فما ان انتهى الاسقف اليه ، حتى مسّ ذراعه وقال : « يا حضرة المركيز ، ينبغي ان تعطيني شيئاً . » فالتفت اليه المركيز وقال في جفاف : « مونسينيور ، إن عندي فقرائي . » فقال الاسقف : « أعطني إياهم . »

وذات يوم ألقى هذه العظة في الكاتدرائية :

« اخوتي الاثيرين علي ، واصدقائي الطيبين ! إن في فرنسة مليوناً وثلاثمئة وعشرين الفاً من أكواخ الفلاحين ليس لها غير ثلاث فتحات ، ومليوناً وثمانمئة وسبعة عشر الف كوخ لها فتحتان : الباب ونافذة واحدة ، واخيراً ثلاثمئة وستة واربعين الف كوخ ليس لها غير فتحة واحدة : الباب . وما ذاك إلا نتيجة لما يدعونه الضريبة على الابواب والنوافذ . وفي هذه الاسر الفقيرة ، بين النسوة العجائز والاطفال الصغار الساكنين في هذه الأكواخ ، ليس اكثر من الحميات والامراض ! واأسفاه ! إن الله يعطي النور للناس ثم يأتي القانون فيبيعه . أنا لا ألوم القانون ، ولكني أبارك الله . ففي إيزير ، وفي ڤار ، وفي اقليمي الألب الاعلى والادنى ليس عند الفلاحين حتى العجلات الصغيرة ذات الدولاب الواحد فهم ينقلون الزبل على ظهورهم ، وليس عندهم شموع فهم يشعلون اكواز الصنوبر وقطعاً من الحبال مغموسةً بصمغ البطم . والشيء نفسه يصح في الجزء الاعلى من دوفينيه برمّته . إنهم يعجنون الدقيق مرةً كل ستة اشهر ، ويخبزونه على زبل البقر الجاف . وفي الشتاء يتصلب هذا الخبز الى درجة تحملهم على ان يكسّروه بالفأس ، وينقعوه بالماء ، اربعاً وعشرين ساعة لكي يصبح في ميسورهم ان يأكلوه . ايها الاخوة ، كونوا رحماء ! انظروا كم يقاسي الناس من حولكم ! »

واذ كان من مواليد بروفانس فقد ألِفَ في يُسرٍ جميع لهجات الجنوب ، من مثل لهجة لانغدوك السفلى ، ولهجة منطقة الالب الدنيا ، ودوفينيه العليا . وكان هذا يُبهج الناس كثيراً ، ويمهد له السبيل الى افئدتهم. كان يشعر في الكوخ والجبل وكأنه في بيته . وكان يعرف كيف يقول أرفع الاشياء في تعابير عامية

الى ابعد الحدود . واذ كان يتكلم اللهجات كلها ، فقد نفذ الى النفوس كلها .

والى هذا فقد كان مسلكه مع الاغنياء هو عين مسلكه مع الفقراء .

إنه لم يشجب شيئاً من غير روية ، ومن غير ان يأخذ بعين الاعتبار مختلف الظروف والملابسات . وكان من دأبه ان يقول : « لننظر ايّ طريق سلكه الذنب او الخطأ . »

واذ كان – كما وصف نفسه وهو يبتسم – آثماً سابقاً فلم يكن على شيء من وعورة المتزمّتين . وكان يعلن في كثير من الجرأة – حتى تحت ابصار المتعصبين الشرسين المغضَبة – مذهباً يمكن ان يُصاغ في الكلمات التالية تقريباً : –

« إن للانسان جسداً هو عبء عليه وأداة إغواء له في آنٍ معاً . إنه يجرّه حيثما ذهب ، ويذعن له .

« يجب على الانسان ان يراقب ذلك الجسد ، ويكبح جماحه ، ويكبته ، ولا يطيعه إلا في اقصى حالات الضنك والشدة . وقد يكون من الأثم ان يطيع المرء جسده حتى في تلك الحال ، ولكنه يكون عندئذ إثماً عرَضياً وخطيئة غير مميتة . إنه سقوط ، ولكنه سقوط على الركبتين قد ينتهي بصاحبه الى الصلاة .

« إن كون المرء قديساً هو الشذوذ . وإن كونه مستقيماً هو القاعدة . هِمْ على وجهك ، وتردّدْ ، واأثم ، ولكن كنْ مستقيماً .

« إنّ اقتراف اقلّ قدْر ممكن من الآثام هو القانون البشري . اما الحياة من غير إثم فحلم ملاك من الملائكة . وكل ما هو أرضيّ عرضة للاثم . ان الاثم ضرب من الجاذبية . »

وكان اذا ما سمع الناس جميعاً يصيحون ويعبّرون عن اعظم السخط يبتسم قائلاً : « اوه ! اوه ! يبدو ان هذه جريمة ضخمة اقترفها الناس جميعاً . عجباً للرياء المروّع كيف يسارع الى الدفاع عن نفسه ، والاختفاء تحت أيما حجاب ! »

كان سمحاً مع النساء ، ومع الفقراء الذين تقع على عاتقهم اكثر من غيرهم أثقالُ المجتمع البشري . وكان يقول : « إن خطيئات النساء ، والاطفال ، والخدم ، والضعفاء ، والفقراء ، والجهلة هي خطيئات ازواجهنّ ، وآبائهم ،

وأسيادهم ، وخطيئات الاقوياء ، والاغنياء ، والعلماء . »

ويقول : « علِّم الجاهلَ ما وسعك التعليم . إن المجتمع ليُجْرِمُ حين لا يزوّد كل امرىء بالعلم المجاني . انه لمسؤول عن الظلام الذي يحدثه . وحين تُترك النفس في الظلام ، فعندئذ تُقترَفُ الآثام . والمجرم ليس ذلك الذي يقترف الاثم ، ولكنه ذلك الذي يُحدث الظلام . »

وهكذا نرى أنه كانت له طريقة غريبة وخصوصية في النظر الى الاشياء . وأحسب انه اكتسب طريقته تلك من الانجيل .

سمع ذات مرة ، في احد الصالونات ، حديثاً عن قضية جنائية كانت المحكمة على وشك النظر فيها . وتتلخص هذه القضية في ان رجلاً بائساً اغراه حبه لاحدى النساء وللولد الذي انجبته له ، بأن يعمد الى تزييف النقد بعد ان نضبت موارده وسُدّت في وجهه اسباب العيش . وكان الموت لا يزال هو عقابَ المزيّف في ذلك العهد . والقي القبض على المرأة وهي تروّج اول قطعة نقدية زيّفها الرجل . وزُجّ بها في غياهب السجن ، ولكنْ لم يكن ثمة أيما دليل ضد عشيقها . كانت هي وحدها القادرة على ان تشهد عليه ، وان تدينه باعترافها . وأنكرت ان يكون هو المجرم . وأصرّوا . ولكنها كانت عنيدة في إنكارها . وعندئذخطرت للنائب العام الملكيّ فكرة . لقد صوّر لها ان صاحبها غير مخلصٍ لها ؛ ومن طريق بضعة اجزاء من رسائل ضُمّ بعضها الى بعض في براعة ووُفّق الى ان يُقنع المرأة المسكينة بأن لها منافِسةً ، وأن هذا الرجل قد خدعها . حتى اذا عصفت بها الغيرة ، وشت بعشيقها ، واعترفت بكل شيء ، مقيمةً الدليل على إجرامه . وكان متوقّعاً ان يحاكم في إيكس ، بعد بضعة أيام ، مع شريكته في الجريمة ، وكانت إدانته مؤكدة . ولم يكد القوم يستمعون الى القصة حتى أخذهم الذهول لبراعة النائب العام . إن إعمالَهُ الغيرةَ مكّنهُ من ان يكشف عن الحقيقة من طريق الغضب ، وبذلك انبجست العدالة من الانتقام . وأصاخ الاسقف الى ذلك كله في صمت حتى إذا سكت القوم تساءل :

— « اين سيحاكم هذا الرجل وهذه المرأة ؟ »

– « في محكمة الجنايات . »

– « والنائب العام الملكي ، اين سيحاكم ؟ »

ووقعت في د .... حادثة فاجعة . لقد صدر الحكم على رجل بالموت لاقترافه جريمة القتل . وكان ذلك المسكين على ثقافة هزيلة ، ولكنه لم يكن جاهلاً بالكلية . كان يسلي الناس ببعض ألعاب القوة والرشاقة في الاسواق الموسمية ، ويعمل كاتباً عمومياً . واستأثرت المحاكمة باهتمام اهل المدينة . وقبل اربع وعشرين ساعة من الموعد المضروب لأنفاذ حكم الموت في الرجل مرض واعظ السجن . فنشأت الحاجة الى رجل دين يرافق السجين في لحظاته الاخيرة . واستدعي الكاهن ، ولكنه رفض ان يذهب قائلاً : « هذا أمر لا علاقة لي به . وما صلتي بهذه السُخرة ، أو بذاك المشعوذ ؟ والى هذا ، فانا مريض ايضاً . وفوق ذلك كله ، فليس ذاك المكان مكاني . » وحين نُقل هذا الجواب الى الاسقف قال : « إن الكاهن على صواب . ذلك المكان ليس مكانه . إنه مكاني ! »

ومضى ، لتوّه ، الى السجن ، وهبط الى محبس « المشعوذ » المظلم وناداه باسمه ، وأمسك بيده ، وانشأ يحدّثه . لقد قضى الى جانبه النهار كله ، والليل كله ، ناسياً الطعام والرقاد ، مصلياً الى الله من اجل روح الرجل المحكوم عليه بالموت ، حاضّاً هذا الرجل على ان يشاركه في الصلاة . لقد حدثه حديث الحقائق الفضلى ، التي هي اكثر الحقائق بساطة . كان أباً ، واخاً ، وصديقاً ؛ ولم يكن أسقفاً إلا لكي يباركه وحسب . لقد علّمه كل شيء ، بأن شجعه وأوقع العزاء في قلبه . ذلك بأن هذا الرجل كان على وشك ان يموت يائساً . فقد كان الموت ، في نظره ، أشبه بهاوية . واذ وقف مرتعد الاوصال أمام هذه العتبة المروّعة ، ارتدّ الى الوراء وقد عصف به عاصف من الذعر . انه لم يكن جاهلاً الى درجة تُسلحه بلامبالاة مطلقة . وكانت الصدمة الفظيعة التي اصيب بها إثر صدور الحكم عليه بالموت قد مزّقت بمعنى من المعاني ، ههنا وههناك ، ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن سر الاشياء ، والذي ندعوه الحياة . ومن خلال تلك الثغرات المشؤومة

راح ينظر الى ما وراء هذا العـــالم نظراً موصولاً فلم يوفق الى رؤية شيء غير الظلام . لقد أراه الاسقف النور .

وفي اليوم التالي ، حين وفدوا ليساقوا الرجل البائس الى الموت ، كان الاسقف هناك . ومضى في اثره . وبرز امام أعين الحشد بردائه البنفسجي القصير الذي يغطي الصدر ، والصليب الاسقفي يطوّق جيده ، ووقف جنبـاً الى جنب مع ذلك المخلوق البائس الموثق بالحبال .

وامتطى العربة معه ، وصعد الى المشنقة معه . فاذا بوجه الرجل الذي كان مكفهراً مذعوراً في المساء يغدو الآن مشرقاً بالامل . لقد أحسّ بأن نفسه قـد أُرضيت ، وهو عظيم الرجاء بالله . وعانقه الاسقف ؛ وفي اللحظة الـتي اوشكت فيها السكين ان تحتزّ عنقه قال له : « ان النفس التي يزهقهـا الانسان يعيدهـا الله الى الحياة . ومن يطرده إخوته يجد الله أمامه . صلّ ، آمن ، أُدخل الى الحياة ! ان الربّ هناك ! » وحين غادر المشنقة كان في سيما وجهه ما جعل الناس يرتدون الى الوراء . ومن العسير ان نقول أيها كان اروع : شحوبه ام طمأنينته . حتى اذا دخل المنزل المتواضع الذي كان يسميه ، وهو يبتسم ، قصرَه قال لأخته : « كنت احتفل بقداس حبري ! »

واذ كانت الاشياء الاكثر سمـواً هي في الوقت نفسه الاشياء الـتي تحظى من الناس بأقل الفهم ، فقد وُجد في المدينة من يقول تعليقاً عـــلى مسلك الاسقف هذا : « ذلك تصنّع . » ولكن مثل هذه الافكار كانت مقصورة عـلى الطبقات العليا . اما أبناء الشعب الذين لا يبحثون عن الدوافع الخبيثة في الاعمال الدينيـة فقد قابلوا ذلك باعجاب وإشفاق .

وأما الاسقف فقد أوقع مشهد المقصلة صدمة في نفسـه لم ينجُ من آثارها إلا بعد فترة طويلة .

والحق ان للمشنقة حين تُعدّ وتُنصب أثراً في النفس كأثر الهلوسة أو الوهم . فقد لا نبالي بعقوبة الموت كثيراً او قليلاً ، وقد لا نعلن عن رأينا قائلين نعم أو لا ، ما دمنا لا نشهد مقصلة ما بأعيننا . ولكن ما إن نرى الى واحدة حـــتى

تعصف بنا صدمة هي من العنف بحيث تحملنا على ان نقرّر ونتخذ موقفاً إما مع تلك العقوبة وإما ضدّها . ان بعض الناس ، مثل دو ميتر* ، ليمتدحونها ، وان بعضهم ، مثل بيكاريا ** ، ليشجبونها. إن المقصلة هي تخثُّر القانون ، وهي تدعى المنتقمة . انها غير حيادية ، ولا تسمح لك بأن تظل حيادياً . وكل امرىء يراها يُزَلْزَل بارتجافات ليس اعجب منها ولا اشدّ غموضاً . ان جميع القضايا الاجتماعية لتطرح علامات استفهامها حول هذه الفأس . المشنقة خيال . المشنقة ليست مجرد هيكل منجور ؛ المشنقة ليست ماكينة ؛ المشنقة ليست آلة ميكانيكية جامدة لا حياة فيها ، مصنوعة من خشب ، ومن حديد ، ومن حبال . انها تبدو كائناً من نوع ما ، ذا اصل مظلم لا نعرف عنه شيئاً ؛ وفي ميسور المرء ان يقول ان هذا الهيكل المنجور يرى ، ان هذه الماكينة تسمع ، إن هذه الآلة الميكانيكية تفهم ، إن لهذا الخشب ، ولهذا الحديد ، ولهذه الحبال ، ارادة . وفي الهواجس المروّعة التي يقذف مشهدها بالنفس الانسانية الى خضمّها ، تبدو المشنقة فظيعة ، وممتزجة بصنيعها الرهيب . المشنقة شريكة الجلاد في الاثم . انها تفترس ؛ إنها تأكل اللحم ؛ انها تشرب الدم . المشنقة غولٌ من ضرب ما ، يصنعه القاضي والنجار . انها شبح يبدو وكأنه يحيا بضرب من الحياة راعب ، مستَمَدّ من كل الموت الذي سببته .

وكانت الانطباعة مخيفة وعميقة ايضاً . ففي صبيحة الاعدام ، وطوال عدة ايام بعدها ، بدا الاسقف مفتتّاً واهناً . كانت الطمأنينة الموشكة ان تكون عنيفة ، والتي طفَتْ على محياه في اللحظة المشؤومة ، قد زايلته ، ليستبدّ به منذ ذلك الحين طيف العدالة الاجتماعية . لقد أمسى – وهو الذي كان يلتفت في العادة الى جميع أعماله في رضاً بالغ الاشراق – امسى الآن موضوع توبيخ ذاتي .

* de Maistre مفكر فرنسي (١٧٥٣ – ١٨٢١) وضع عدة مؤلفات في القضايا الدينية والسياسية ، مدافعاً عن مبادىء الحكم المطلق ، مناهضاً الثورة الفرنسية .

** César de Beccaria فيلسوف ايطالي (١٧٣٨ – ١٧٩٤) ، وضع مؤلفاً شهيراً في الجرائم والعقوبات شجب فيه المحاكمة السرية ، وتعذيب المتهمين ، وعدم تساوي العقوبات بين شخص وشخص ، ووحشية العقوبات .

وانشأ يخاطب نفسه بين الفينة والفينة ، ويتمتم في همس بمناجاة ذاتية فاجعة .
وذات مساء سمعته اخته ، اتفاقاً ، وهو يخاطب نفسه فالتقطت قوله : « انا لم أعتقد انها ستكون فظيعة الى هذا الحد . من الخطل ان يستغرق المرء في القانون الديني الى درجة تجعله يعمى عن القانون الانساني . إن الموت مِلكُ الله وحده . فبأيّ حق يمسّ الناس هذا الشيء المجهول ؟ »

ومع الايام ، خَبَتْ هذه الانطباعات ، ولعلها ان تكون انمحت . ومع ذلك ، فقد لوحظ ان الاسقف اجتنب ، منذ ذلك الحين ، المرور بساحة الاعدام .

كان في ميسور القوم ان يَدْعوا مونسنيور ميرييل ، في ايما ساعة من الساعات ، الى سُرُر المرضى والمحتضرين . كان يعرف جيداً ان واجبه الاسمى وعمله الاعظم هما ، في الحقّ ، هناك . ولم تكن الأسَر المرمّلة او الميَتّمة في حاجة الى أن تدعوه لزيارتها . كان هو يمضي اليها بنفسه . كان يعرف كيف يجلس صامتاً ، طوال ساعات وساعات ، الى جانب الرجل الذي فقَدَ الزوجة التي يحبّ ، او الى جانب الأم التي احتسبت ولدها . وكما عرف متى ينبغي له ان يصمت ، كذلك عرف متى ينبغي له ان يتكلم. إيه ، ايها المعزّي الرائع ! إنه ما كان يسعى الى محو الالم بالنسيان ، بل الى تعظيمه وتشريفه بالأمل . فهو يقول : « إحترسْ من الطريقة التي تفكر فيها بالأموات . لا تفكر بالذي يبليَ وفسد . أنظرْ مليّاً ، تجد الاشراق الحيّ الذي كان لفقيدك الاثير على قلبك في اعماق السماء . » كان يعرف ان الأيمان صحيّ . وكان يسعى الى ان ينصح الرجل القانط ويوقع الهدوء في نفسه بان يُريه الرجل الراضي بمشيئة الله ، ويعمل على ان ينجي المساكين من الالم الذي يحدّق الى القبر ، بان يريهم الالم الذي يحدّق الى النجم .

٥

كيف جعل مونسينيور بيينفينو ثوبه الكهنوتي يعمر طويلاً

كانت حياة مسيو ميرييل الخاصة حافلةً بمثل الافكار المالئة حياتَه العامة. والواقـــع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف د.. خليقٌ به ان يكون مشهداً خطيراً بقَدْر ما هو فاتنٌ، في نظر من استطـاع ان يرى اليه عن كثب.

ومثلَ جميع الشيوخ، ومثلَ معظم المفكرين، لم يكن ينـام الا غراراً. ولكن نومه القصير ذاك كان عميقاً. كان يقضي ساعة من ساعـــات الصباح في التأمل، ليتلو بعد ذلك قداسهُ، سواء في الكاتدرائية او في منزله هو. حتى اذا تمّ له ذلك أفطرَ على خبز الجاودار مغموساً في حليب بقراتـه؛ وانصرف الى العمل.

والاساقفة رجال مشغولون جداً. إن على الواحد منهـم ان يستقبل كل يوم أمين الابرشية، وهو عادةً كاهن قـــانوني، وان يستقبل وكلاءه الكبـار كل يوم تقريباً. ان ثمة أخويّات يتعيّن عليه ان يديرها، وإجازات يجب ان يمنحها، وكتباً اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع – بعضها كتب صلوات، وبعضها كتب في التعليم المسيحي لابناء الابرشية، وبعضهـــا كتب في أقسام الفرض الكنائسي – ورسائل رعائيـــة يجب ان يكتبها، وعظات ينبغي ان تُجاز، وكهاناً وعُمَداً يتعيّن عليه أن يُصلح مـــا بينهم، ومراسلات اكليركية، ومراسلات ادارية – مع الحكومة من ناحية، ومـع السدّة الرسولية من ناحية اخرى – وآلافاً من المسائل.

فاذا ما تركت له هذه المسائلُ كلها وقداساته الاحتفالية وكتـابُ فرْض الكهنة فراغاً ما، قدّمه قبل كل شيء الى المعوزين، والمرضى، والمكروبين.

فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقيةً من ذلك الفراغ أنفقـــه في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احياناً ، وكان يقرأ ويكتب احيانــاً . ولم تكن عنده غير كلمة واحدة لهذين الضربين من العمل . كان يدعوهمـــا « بَسْتَنةً . » وكان يقول : « الروح بستان . »

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيتمشى في الحقول ، او في المدينة، طارقاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحقيرة . كان الناس كثيراً ما يرونه يمشي وحده متثاقلاً ، مستغرقاً في افكاره ، مطرق الرأس ، متوكئاً على عصاه الطويلة ، مرتدياً بُرْدَه الشتوي البنفسجي ، المبطن الكثير الدفء ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل ، وقبعته المسطحة الـــتي تدلت من زواياها الثلاث ثلاثة ازرار ذهبية على شكل بزور نبات الاسباناخ .

كانت الفرحة تحلّ حيثما برز . وفي ميسور المرء ان يقول انـــه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . فقد كان الشيوخ والاطفال يخرجون الى عتبـــات بيوتهم التماساً الاسقف كما يخرجون اليها التماساً للشمس . كان يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يُرْشَدون الى بيته .

وبين الفينة والفينة ، كان يقف ويتحدث الى الصبية والصبـــايا ، ويبتسم لامهاتهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه ملأى بالمال . امـــا حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

واذ قد أطال في عمر ثوبه الكهنوتي دهراً ليس بالقصير ، وما كان ليرغب في ان يراه النـــاس على جسده ، فانه لم يقصد الى المدينة قط الا ببرده البنفسجيّ المبطن . وكان ذلك يضايقه بعض الشيء ، في الصيف .

حتى اذا عاد، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء.

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخته ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفهما ، في انتظار القيام بأيما خدمة يسألانها اياها . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر تقشفاً من هذا العشاء وأمعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعواً الى تناول العشاء على مائدته فعندئذ كان من دأب السيدة ماغلوار

ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعدّ للمونسينيور بعض سمكات البحيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف . كان كل كاهن ذريعة تُتّخذ لاعداد مائدة جيدة ، وما كان الاسقف ليعترض على هذا . وفي ما عدا ذلك ، لم تكن مائدته العادية لتتألف من غير الخضر المسلوقة ، او الحساء المُعدّ بالزيت . وهكذا سار بين ابناء المدينة هذا القول : « حين لا يكرم الاسقف وفادة كاهن ، يكرم وفادة راهب من الرهبان الترابيستيين . » *

وبعد العشاء ، كان من دأبه ان يتحدث نصف ساعة مع الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار ، ليمضي إثر ذلك الى غرفته ويكتب ، على قصاصات من الورق مستقلة احياناً ، وعلى هوامش بعض كتبه الكبيرة أحياناً . كان حسن الثقافة ، بل كان عالماً الى حدٍّ ما . لقد خلّف خمس مخطوطات او ست مخطوطات غريبة . وكان بينها بحث حول هذه الآية من سفر التكوين : « **في البدء كان روح الله يرفّ على وجه المياه .** » وهو يقابلها بنصوص ثلاثة : النص العربي الذي يقول : « **كانت رياح الله تهبّ** » ، ونصّ فلافيوس جوزيف ** الذي يقول : « **إن ريحاً من الاعالي هبطت على الارض** » ، وترجمة اونكيلوس الكلدانية التي تقول : « **ان ريحاً من لدن الله هبت على وجه المياه .** » وفي بحث آخر يدرس آثار هوغو ، اسقف بتوليمايس ، اللاهوتية — وهو احد انسباء مؤلف هذا الكتاب الابعدين — ويثبت ان مختلف المصنفات الموجزة التي نشرت في القرن الماضي تحت اسم « باروليكور » المستعار ينبغي ان تعزى الى هذا الاسقف .

وفي بعض الاحيان كان يستغرق فُجاءةً — وهو في غمرة من مطالعته ، أياً ما كان الكتاب الذي بين يديه — في تأمّل عميق لا يكاد يخرج منه حتى يدوّن بضعة اسطر على صفحات الكتاب نفسها . وكثيراً ما لا تكون لهذه الاسطر

* Trappist وهي رهبنة أسسها في القرن السابع عشر الراهب دو رانسيه في سوليني لا تراب Soligny - La - Trappe في فرنسة . واشتهر رجالها بالصمت والتقشف .

** مؤرخ يهودي ، ولد في القدس نحو سنة ٣٧ وتوفي نحوسنة ١٠٠ وعمل في خدمة الرومان.

علاقة ما بالكتاب الذي دوّنت على حواشيه . وتحت عينينا الآن ملاحظة كتبها على احد هوامش كتاب من قطع الربع عنوانه « **مراسلات اللورد جيرمين مع الجنرالين كلينتون وكورنواليس واميرالات المستعمرة الاميركية . يباع في فوكساي بمكتبة برانسو ، وفي باريس بمكتبة بيسّو ، رصيف الاوغوسطينيين .** »

وهذه هي الملاحظة :

« إيه ، أهذا الذي في السموات !

« إن سفر الجامعة يدعوك الكلي القدرة ؛ واسفار المكابيين تدعوك الخالق ؛ ورسالة بولس الرسول الى اهل أفسس تدعوك الحرية ؛ وباروخ * يدعوك السّعة التي لا حدّ لها ؛ والمزامير تدعوك الحكمة والحق ؛ وسفر يوحنا يدعوك النور ؛ وسفر الملوك يدعوك السيد ؛ وسفر الخروج يدعوك العناية ؛ وسفر اللاويين يدعوك القداسة ؛ وسفر عزرا يدعوك العدالة ؛ وسفر التكوين يدعوك الرب الاله ؛ وابن البشر ** يدعوك الاب ؛ ولكن سليمان يسميك المرحمة ؛ وهذا هو اجمل اسمائك جميعاً . »

وكان من عادة الامرأتين ان تأويا، حوالى الساعة التاسعة مساءً، الى غرفتيهما في الدور الثاني ، تاركتين اياه وحده ، حتى الصباح ، في الدور الاول .

وهنا من الضروري ان نعطي فكرة دقيقة عن منزل اسقف د ...

٦
كيف كان يحمي بيته

كان المنزل الذي احتله يتألف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثانٍ : ثلاث غرف في الطابق الارضي ، وثلاث في الدور الثاني ، وعلّية فوقها .

---

* هو باروخ بن نيريا الذي دون نبوءات ارميا (سنة ٦٠٠ ق . م .)

** اي السيد المسيح .

ووراء المنزل انبسطت حديقة مساحتها نحوٌ من ربع أكثر . وكانت الامرأتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يحيا في الطابق الارضي . وكانت الغرفة الاولى ، المنفتحة على الشارع ، هي غرفة طعامه ، والثانية هي مهجعه ، والثالثة هي مُصلاه . ولم يكن في ميبورك ان تغادر هذا المصلى من غير ان تجتاز بالمهجع ، وان تغادر المهجع من غير ان تجتاز بغرفة الطعام . وكان في اقصى المصلى مُخدَعٌ * موصدٌ ينطوي على سرير للضيف ، فيرقد فيه الكهان الريفيون كلما دعتهم شؤون ابرشيتهم وحاجاتها الى ان يفدوا على د . . .

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير يحاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد حُوّلت الى مطبخ وبيت للمؤونة .

وكان في الحديقة ايضاً اصطبل ، كان في ما سلف مطبخ المستشفى ، أنزل فيه الاسقف بقرتين . وكان من عادة الاسقف ان يُرسل ، كل صباح ، نصف ما تجودان به من لبن ، بالغاً ما بلغ ، الى مرضى المستشفى . وكان يقول : « إني ادفع عشوري . »

كانت غرفته رحبة جداً ، وكانت تدفئتها عسيرة جداً في ايام الشتاء . واذ كان الحطب غالياً جداً في د . . . فقد خطر له ان يقتطع من مأوى البقرتين غرفة موصدة ذات حاجز خشبيّ ، فهو يُمضي فيها لياليه حين يكون الجو قارساً جداً. وكان يدعو تلك الغرفة «صالونه الشتوي» .

ولم يكن في الصالون الشتوي هذا ، شأن غرفة الطعام ، غير طاولة خشبية بيضاء مربعة ، واربعة كراسيّ من القش . بيد ان غرفة الطعام كانت تحتوي ، فوق ذلك ، على خزانة قديمة للآنية وادوات الطعام مصبوغةٍ باللون الازهر . ومن خزانة مماثلة مجللة على نحو ملائم بغطاء كتاني ابيض ووشيٍ زائف ، اتخذ الاسقف المذبحَ الذي زانَ مصلاه .

وكان تائبوه الاغنياء ونسوة د . . . الورعات كثيراً ما يتبرعون بالمال لاقامة

---

* المخدع ، في المعاجم ، بيت داخل البيت الكبير . وقد اصطنعناها هنا لتؤدي معنى التجويف الذي يُجعل في جدار الغرفة ويوضع فيه سرير ، او ما يقابل كلمة alcove الفرنجية .

مذبح جديدٍ جميل لمصلّى صاحب السيادة . ولكنه كان يأخذ المال ، كل مرة ، ويوزعه على الفقراء . وكان يقول : « خير مذبح على وجه الارض روح رجل بائس نعمتْ بالعزاء وتوجهت الى الله بالشكر . »

وفي مصلاه كان كرسيان قشّيان من كراسي التعبّد ، على حين كان في مهجعه كرسي ذو ذراعين مصنوع من القش ايضاً . فاذا اتفق ان ضمّ منزلهُ سبعة زوّار او ثمانية زوار في آنٍ معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية ، او بعض التلاميذ من المعهد الاكليركي الصغير ، اضطرّ الاسقف الى ان يمضي الى الاصطبل التماساً لكراسيَّ الصالون الشتوي ، والى المصلّى التماساً لكرسيي التعبّد ، والى المهجع التماساً للكرسي ذي الذراعين . وهكذا كان في ميسوره ان يجمع احد عشر مقعداً لزائريه . وعند كل زيارة جديدة ، كانت احدى الغرف تُجرّد من أثاثها .

وقد يتفق في بعض الاحيان ان يبلغ عدد الزائرين اثني عشر شخصاً . وعندئذ كان الاسقف يخفي تحرّجَ الموقف بان يلتزم الوقوف امام نار الموقد اذا كان الفصل شتاء ، وبان يقترح القيام بجولة في الحديقة اذا كان الفصل صيفاً .

وكان في مُخدع الضيوف الموصد كرسيّ اضافي ، ولكنه فاقدٌ نصف قشه . ليس هذا فحسب ، بل لم تكن لهذا الكرسي غير قوائم ثلاث ، فليس في المستطاع استعماله الا مُسنداً الى الجدار . وكان في غرفة الآنسة بابتيستين ايضاً كرسيّ موسّد ضخم جداً ، مصنوع من الخشب ، كان من قبلُ مذهّباً ومغطىً بحرير مزدان برسوم الزهور . ولكن لما كانوا قد اضطروا الى ان يُدخلوا هذا الكرسي ، اول مرة ، من خلال النافذة ، بسبب ضيق السلّم اكثر مما ينبغي ، فلم يكن في وسعهم ان يَعُدّوه في جملة الأثاث المنقول .

وكانت الآنسة بابتيستين ترجو دائماً ان تتمكن ذات يوم من شراء اثاث صالون موسّد بمخمل اوترخت الاصفر المزدان بالزهور ، على ان يكون خشب الماهوغاني على شكل أعناق البَجَع ، مع أريكة . ولكن ذلك كان

خليقاً به ان يكلفها خمسة فرنك على الاقل . حتى اذا وجدت انها لم توفق الى ان تقتصد لهـــذا الغرض غير اثنين واربعين فرنكاً ونصف فرنك طوال خمس سنوات ، اضطرت الى ان تتخلى عن مطمحها ذاك . ولكن من ذا الذي يوفّق دائماً الى تحقيق مثله الأعلى ؟

وليس في إمكان شيء ان يكون أيسر على التصوّر من مهجع الاسقف : نافذة ، هي في الوقت نفسه بابٌ ، تطلّ على الحديقة . وتجاه هذه النافذة كان السرير ، وهو حديدي من سرر المستشفيات تحيط به سُجفٌ خُضر من نسيج صوفي غليظ . وفي ظل السرير ، خلف احدى الستائر ، كانت ادوات الزينة لا تزال تنمّ عن العادات الانيقة التي ألفها الرجل المترف . وكان للغرفة بابان احدهما قرب المستوقَد ، ويؤدي الى المصلّى ، والآخر قرب المكتبة ، وينفتح على غرفة الطعام . وكانت المكتبة ، وهي خزانة ضخمة مزججة ، ملأى بالكتب . اما المستوقد المغطى بخشب دُهِنَ بلون الرخام فكان خلواً من النار ، في العادة . وفي المستوقد كان منصبان حديديان مزدانان بزهريتين نقشت عليهما اكاليـــل وخطوط طُليت ذات يوم بالفضة على نحو كان في ذلك العهد ضرباً من التـــرف الاسقفي . وفوق المستوقد في الناحية التي توضع فيها المرآة عادة نهض تمثـــال المصلوب نحاسيّ زايله الطلاء الفضي ، مركّزٌ على قطعة من المخمل الاسود البالي يحيط بها إطار من خشب نصَلَ طلاؤه الذهبي . وقرب النافـــذة كانت طاولة عريضة عليها دواة ، وقد أثقلت بالاوراق المبعثرة والمجلدات الضخام . وتجـــاه الطاولة كان الكرسي القشّي ذو الذراعين . وتجاه السرير كان كرسيُّ تعبّـــدٍ مستعارٌ من المصلّى .

وكانت لوحتان في اطارين بيضيّي الشكل تتدليان على الجدار عنـد جانبي السرير . وكانت بعض الخطوط الصغيرة المذهّبة المرقومة على خلفية القماش الحرة الى جانب الصورتين تشير إلى ان احدى اللوحتين تمثّـــل الراهب دو شاليو ، اسقف سان كلود ، على حين تمثل الاخرى الراهب تورتو ، نائب « آجـــد » الاسقفي العام ، ورئيس دير « غران شان » ، للرهبانية السيتووية ، في ابرشيـة

شارتر . وإنما وجد الاسقف هاتين الصورتين حين خَلَف مرضى المستشفى في هذه الغرفة ، فتركهما حيث هما . كانا كاهنين ، ولعلهما ان يكونا ممن جادوا عـــلى المستشفى بالهبات – وهما سببان يحملانه على احترامهما . وكل ما عرفه عن هاتين الشخصيتين ان الملك عيّنهما – الاول في اسقفيته ، والثاني في منصبه الديني ذي العائدات – في يوم واحد ، هو اليوم السابع والعشرون من نيسان سنة ١٧٨٥ . ذلك ان السيدة ماغلوار نزعت الصورتين ، ذات يوم ، لكي تنفض الغبـــار ، فاذا بالاسقف يجد هذه الواقعة مدوّنة بحبر ناصل اللون على قصاصة من الورق صغيرة مربعة أحالت الايام لونها الى الصفرة ، وقد أُلصِقتْ بأربع برشامات خلف الصورة التي تمثل رئيس دير « غران شان » .

وكانت على نافذته ستارةٌ عتيقة من قماش صوفيّ غليظ انتهت الى ان تصبح باليةً الى درجة اضطرت السيدة ماغلوار ، لكي تجتنب شراء ستارة جديـــدة ، الى ان ترقعها رقعةً ضخمة في وسطها تماماً . وكانت هذه الرقعة على شكل صليب ، وكان الاسقف كثيراً ما يلفت النظر اليها ويقول : « مـــا احسن الاثر الذي يتركه هذا في النفس ! »

وكانت جميع غرف المنزل ، في الطابق الارضي والدور الثاني ، من غير ما استثناء ، مبيّضةً بماء الكلس ، وفقاً للعُرف الشائع في الثكنات والمستشفيات .

بيد ان السيدة ماغلوار وجدت في السنوات الاخيرة ، تحت ورق الجدار ، كما سنرى بعد ، رسوماً زينت غرفة الآنسة بابتيستين . ذلك بان هذا المنزل كان قبل ان يُتخذ مستشفى ، ديواناً يجتمع فيه المواطنون البورجوازيون ، ومن هنا هذه الرسوم . وكانت ارض الغرف مرصوفة بآجرّ احمر يُنظف كل اسبوع ، وقد نُشرت جدائل القشّ امام الفُرُش . والحق ان هذا المنزل ، وقد تولت امره سيدتان ، كان ينعم بنظافة ممتازة من اعلاه الى اسفله . وكان ذلك هو الترف الوحيد الذي سمح به الاسقف ، قائلاً : « **ان هـــذا لا يسلب الفقراء شيئاً .** »

ومع ذلك فينبغي ان نعترف بأنه ظل يحتفظ بما كان يملكه من قبل بستـــة

اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألقت فوق غطاء المائدة الكتاني الابيض الخشن . واذ كنا نصوّر ههنا اسقف د ... كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة :
« من العسير عليّ ان أقلع عن تناول الطعام بآنية الفضة . »

وينبغي أن يُضاف الى هذه الآنية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اختٍ لجدّهِ . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكانا ينهضان عادة فوق مستوقد الأسقف . فاذا اتفق أن تناول طعام العشاء مع الاسقف ضيفٌ ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكانت في غرفة الاسقف ، عند رأس سريره ، خزانة جدارية صغيرة تعوّدت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكنْ يتعيّن علينا ان نقول ان المفتاح لم يُنزع من تلك الخزانة قط .

أما الحديقة التي أفسدتها بعضَ الشيء تلك المنشآت القبيحة التي تحدثنا عنها من قبل ، فكانت تتألف من اربعة مماشٍ متصالبة عند بالوعة تتوسط الحديقة . وكان ثمة ممشىً آخر يمتدّ حول الحديقة في محاذاة الجدار الابيض الذي يطوقها . وكانت هذه المماشي تترك في ما بينها اربعة مربّعات يحدّها شجر البقس . * وفي ثلاثة من هـــذه المربعات زرعت السيدة ماغلوار شيئاً من الخضر . وفي رابعها زرع الاسقف بعض الازهار . وكانت تقوم ههنا وههناك بضع أشجار مثمرة .

وذات يوم قالت له السيدة ماغلوار في ضرب من اللوم الرفيق : « مونسينيور ، أنت تحرص دائماً على ان تفيد من كل شيء ، ومع ذلك فههنا رقعة من الارض قد أُهملت فليس فيها غَناء . ولقد كان من الخير لنا لو جعلنا فيها سَلَطةً بدل باقات الزهور . » فأجابها الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار : انت مخطئة . ليس الجميل اقلَّ غناءً من المفيد . » وسكت لحظةً ثم أضاف : « بل لعله اكثر منه غَناءً . »

وكان هذا المربّع ، المؤلف من ثلاث مساكب او أربع ، يَشْغَل الاسقفَ

* البقس : شجر كالآس ورقاً وحبّاً .

بقدر ما تشغله كتبُه تقريباً . كان من دأبه ان يقضي ثمة ساعة او ساعتين ، مقلماً الاغصان ، مستأصلاً الاعشاب ، حافراً هنا وهناك ثقوباً يغرس فيها البذور . إنه لم يكن معادياً للحشرات عداء البستانيّ لها . وما كان ليدعي شيئاً من المعرفة في علم النبات ، جاهلاً الفصائل واسباب الامراض . كان لا يبالي اقلّ ما تكون المبالاة بأن يفاضل بين تورنفور * والطريقة الطبيعية . ولم يكن يتعصّب للحويصلات على الفلقات ، ولا لـ « جوسيو » ** على « لينّي » *** إنه لم يدرس النباتات ؛ ولكنه احبّ الازهار . كان عظيم الاحترام للعلماء ، ولكنّ احترامه للجهلة كان اعظم . ومن غير ان يُعوزه هذان الاحترامان كان يسقي مساكبه كلّ ليلة من ليالي الصيف بمرشّة صفيحية دُهنت بلون أخضر .

ولم يكن لايما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المنفتح ، كما أسلفنا ، على اراضي الكاتدرائية كان من قبلُ مثقلاً بالمغالق والمزالج مثل ابواب السجون . فأصدر الاسقف أمره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يُقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء ، الا بسقّاطة . وكان في ميسور عابر السبيل ، في ايما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحه بمجرد دفعه دفعاً رفيقاً . وفي بادىء الامر عصف القلق بالامرأتين بسبب من هذا الباب الذي لا يُقفل ابداً. ولكن اسقف د... قال لهما : « ضعا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنهما انتهتا الى ان تشاركاه ثقته ، آخر الامر ، او الى ان تسلكا و كأنهما تشاركانه هذه الثقة ، على الاقل . بيد ان السيدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات ذعر طارئة . اما فيما يتصل بالاسقف ، ففي ميسورنا

---

* Tournefort نباتيّ ورحالة فرنسي (١٦٥٦ — ١٧٠٨) كان له فضل كبير في تصنيف المملكة النباتية .

** انطوان لوران جوسيو Jussieu نباتي فرنسي شهير ولد في ليون ومات في باريس (١٧٤٨ — ١٨٣٦) وكان صاحب نظام طبيعي في تصنيف النباتات ادى الى إلغاء طريقة العالم ليني .

*** شارل دو ليني Linné نباتي سويديّ شهير (١٧٠٧ — ١٧٧٨) صنّف النباتات اربعة وعشرين صنفاً على اساس الصفات المنتزعة من عدد الانسجة وانتظامها .

ان نجد فكرته مشروحة ، او مشاراً اليها على الاقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظلُّ المعنى : إن باب الطبيب يجب ان لا يُغلق ابداً . وإن باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحاً ابداً . »

وفي كتاب آخر موسوم بـ **«فلسفة العلم الطبي»** دوّنَ هذه الملاحظة أيضاً : « ألستُ طبيباً مثلهم ؟ إن عندي ، انا ايضاً ، مرضاي . عندي أولاً رضاهم الذين يدعونهم معتلّي الاجسام ، وعندي بعد ذلك مرضاي الذين أدعوهم المساكين . »

وكتب أيضاً في موضع آخر : « لا تَسَلْ ذلك الذي يلتمس منك فراشاً يأوي اليه عن اسمه ما هو . لان الرجل الذي يُثقله اسمُهُ ويضايقه هو أشد الناس حاجة الى المأوى . »

ولقد خطر لكاهن جليل لستُ أدري بعدُ أكان كاهن كولوبرو أم كاهن بومبيري ان يسأله ذات يوم ، ولعله فعل هذا بتحريض من السيدة ماغلوار ، ألا يظن سيادته ان ثمة شيئاً من الخطل في ترك بابه ، ليلاً ونهاراً ، تحت رحمة اما راغب في الدخول ؟ ألا يخاف آخر الامر ان تحلّ مصيبة ما بمثل هذا البيت الذي لا يتمتع بأقلّ الحراسة ؟ فوضع الاسقف يده على كتفه ، في رفق وقال :

« *Nisi Dominus custodierit domum , in vanum vigilant qui custodiunt eam* . » *

ثم انتقل الى الكلام في موضوع آخر .

وكثيراً ما كان يقول : « للكاهن شجاعته ، كما أن لقائد سلاح الفرسان شجاعته . » ثم يضيف : « ولكن شجاعتنا ينبغي أن تكون هادئة . »

٧
كرافات

هذا هو المكان الملائم لذكر حادثة ينبغي ان لا نُغفلها ، لأنها احدى تلك

* قول لاتيني معناه : « اذا لم يصن الاله بيتاً من البيوت عبثاً يحرسه حرّاسه » .

الحوادث التي ترينا باكثر ما يكون من الوضوح أيّ رجل ٍ كان اسقف د . . .

بعدان قضي على عصابة غاسبار بيس التي عاثت فساداً في مخارم اوليفول ، فزع احد قادتها ، واسمه كراڤات ، الى الجبال . لقد توارى عن العيـــان فترة من الزمن ، مع قطاع طرقه وهم فلول قوات غاسبـــار بيس ، في ولاية نيس ، ثم اتخذ سبيله الى بيدمونت ليعاود الظهور في فرنسة ، قرب اقليم بارسولونيت . لقد رُئي اول الامر في جوزييه ، ثم في توريل . لقد اختبـــأ في كهوف جوغ دوليغل ، ومن هناك كان يهبط الى الدساكر والقرى عـــبر وادبي « اوباي » و « اوبايت » . بل لقد تجرأ على ان يندفع حتى ايمبرون ؛ واقتحم ذات ليلة الكاتدرائية وسلب مخزن الامتعة المقدسة . وخربت غاراته تلك الديار ودعت سكانها الى هجرها . وجُرِّدت عليه سرايا الدرك ، ولكن عبثاً . كان يفرّ دائماً ، وفي بعض الاحيان إثر مقاومة عنيفة . كان بائساً جريء الفؤاد . وفي غمرة من هذا الهول كله وصل الاسقف . كان يقوم بجولته الرعائية . وفي شاستيلار أقبل العمدة لقائه وحضّه على العودة . فقد كان كراڤات يبسط سلطانه على الجبال حتى آرش وما وراءها . وثمة خطر على الاسقف حتى ولو كان محوطاً بحرس . وقد يعرّض ذلك حياةَ ثلاثةٍ او اربعة من رجال الدرك المساكين للهلاك ، على غير طائل .

فقال الاسقف : « وهكذا فأنا اعتزم ان امضي من غير حرس . »

فصاح العمدة : « اتفكر بشيء مثل هذا ، يا صاحب السيادة ؟ »

— « اني افكر في ذلك الى حد يحملني على ان ارفض حراسة الدرك رفضاً باتاً ، وعلى ان انطلق بعد ساعة . »

— « تنطلق ؟ »

— « اجل ، أنطلق . »

— « وحدك ؟ »

— « وحدي . »

« مونسنيور ، انك لن تقدم على ذلك . »

فأجاب الاسقف : « إن هناك في الجبل جماعةً صغيرة حقيرةً لم أرها منـــذ ثلاث سنوات . إن افرادها من اصدقائي الخلّص ، وهم فلاحون أمناء ذوو وداعة . إنهم يملكون شاةً واحدة من ثلاثين يرعونها . وهم يصنعون خيوطـــاً صوفية جميلة ذات الوان متعددة ، ويعزفون الحانهم الجبلية على مزامير صغيرة في كل مزمار منها ستة ثقوب . وهم في حاجة الى من يحدّثهم ، بين الفينة والفينة ، عن رحمة الله . وما الذي سوف يقولونه في اسقف يُســلمّ به الخوف ؟ ما الذي سوف يقولونه اذا لم أَفِدْ عليهم ؟ »

— « وقطاعُ الطرق ، يا صاحب السيادة ؟ واذا التقيتَ بقطاع الطرق ؟ »

فقال الاسقف : « صحيح . أنا لم أفكر في هذا . انت على صواب . قــد ألتقي بهم . لا ريب أنهم هم ايضاً في حاجة الى من يحدّثهم عن رحمة الله . »

— « مونسينيور ، ولكنها عصابة ! إنها قطيع من الذئاب ! »

— « لعل يسوع قد جعلني راعيَ ذلك القطيع بالذات ، يا سيدي العمــدة . من ذا الذي يعرف اساليب العناية الالـٰهية ؟ »

— « ولكنهم سوف يسرقونك ، يا صاحب السيادة . »

— « ليس معي شيء . »

— « اذن ، فسوف يقتلونك . »

— « يقتلون كاهناً عجوزاً بسيطاً يمضي لسبيله متمتماً بصلواته ؟ لا ، لا ، اي نفع يكسبونه من ذلك ؟ »

— « آه ، يا الـٰهي ! إفرضْ انك التقيت بهم ! »

— « عندئذ اسألهم صدقةً لفقرائي . »

— « مونسينيور ، لا تذهبْ ، بحقّ السماء ! إنك تعرّض حياتك للخطر . »

فقال الاسقف : « وهو كذلك ، يا سيدي العمدة . أنا لم أوجد في هذا العالم لكي اصون حياتي ، ولكن لكي أصون نفوس الناس . »

ولم يكن في ميسور العمدة ان يثنيه عما اعتزم . فانطلق وليس يصحبه غير غلام تطوّع ان يكون له دليلاً . كان عناده حديث المقاطعة ، ولقد خشي القوم

كلهم عواقبه .

ولم يشأ ان يصطحب لا اخته ولا السيدة ماغلوار . واجتاز الجبل على متن بغل ، ولم يلتقِ انساناً ما ، وانتهى آمناً سالماً الى « اصدقائه الخلّص » الرعاة . واقام هناك خمسة عشر يوماً ، واعظاً ، مانحاً الاسرار الدينيـــة ، معلّماً ، منذراً . حتى اذا أوشك على مفارقتهم اعتزم ان ينشد « تسبحة الشكر » عـــلى نحو احتفاليّ . وتحدث الى الكاهن في ذلك . ولكن كيف السبيل الى إنفاذه ؟ لم يكن ثمة ُحلَل ّ أسقفية . ولم يكن في مستطاعهم ان يقدموا اليه غير مخزن حقير من مخازن الامتعة المقدسة القروية ، وبضع حلل كهنوتية عتيقة من دمقس مهترىء مزدانة بأشرطة حريرية زائفة .

وقال الاسقف : « لا بأس . ايها الكاهن المحترم ، اعلن في الموعظـــة اننا سوف نؤدي تسبحة الشكر . ولا بدّ ان يسوّي الامر ُنفسَهُ بنفسه . »

وبحثوا في الكنائس المجاورة ، ولكنّ كل الامتعة المترفة التي ُجمعت من هذه الابرشيات المتواضعة على اختلافها لم تكن كافية لالباس منشد كاتدرائي واحد على نحو ملائم .

وفيما هم في غمرة من هذا الحرَج حمل فارسان مجهولان صندوقاً ضخماً الى دار الكاهن وتركاه هناك من اجل الاسقف ، ثم غادرا الدار في الحال . و ُفتح الصندوق ؛ فاذا فيه غفّارة * من جوخ مذهب ، وتاج اسقفي مزدان بالماس ، وصليب من الصلبان التي يحملها رؤساء الاساقفة ، وعصا اسقفية فخمة ، وجميع الملابس الاحتفالية التي ُسرقت منذ شهر من كاندرائية ايـــبرون . وكان في الصندوق ورقة ُكتبت عليها هذه الكلمات : « **من كرافات الى مونسينيور بيينفينو** » .

وقال الاسقف : « لقد قلت ان الامر سوف يسوّي نفسه ُبنفسه . » ثم اضاف في ابتسامة : « إن من يقنع بقميص الكاهن الخارجي يرسل الله اليه غفّارة رئيس اساقفة . »

---

* الغفارة رداء يلبسه احبار الكنيسة في الكنيسة .

وغمغم الكاهن وهو يهـــز رأسه ويبتسم : « مونسينيور ، الله ..... أو الشيطان . »

ونظر الاسقف الى الكاهن نظراً موصولاً ، وقال في قوة : « الله ! »

حتى اذا انقلب الى شاستيلر احتشد الناس على طول الطريق بجدوهم الفضول الى رؤيته . وفي دار الكاهن هناك ، وجد الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار تنتظرانه ، فقال لأخته :

«واخيراً ، ألم اكن على صواب ؟ لقد قصد الكاهن الفقير صفرَ اليدين الى هؤلاء الجبليين الفقراء ، ثم رجع مليء اليدين . لقد مضيتُ متكلاً على الله وحده ، وها قد عدت حاملاً كنوز كاتدرائية بكاملها . »

وفي المساء اضاف ، قبل ان يؤوي الى فراشه : « لا يأخذنكم الخوف من اللصوص والقُتّاك ابداً . مثل هذه المخاطر خارجية ، وهي اصغر المخاطر واضألها شأناً . يجب ان نخشى انفسنا . إن الضغائن هي هي اللصوص ، وإن الرذائل هي هي القُتّاك . ان الاخطار العظمى كامنة في داخلنا . واي بأس في ان تتعرضَ رؤوسنا او اكياس نقودنا للخطر ؟ ينبغي ان لا نفكر الا بما يتهـــدد نفوسنا . »

ثم التفت الى اخته وقال : « ايتها الاخت ، يتعيّن على الكاهن أن لا يتخذ أيما وقاية ضد جاره . إن ما يفعله جاره يسمح به الله . فلنقتصر على الصلاة لله حين نرى الى الخطر يتهدّدنا . فلنتضرع اليه ، لا من اجل ذواتنا ، بل لكي لا يتورّط أخ لنا في الاثم ، بسبب منا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الاحداث نادرةً في حياته ، وانما نقصّ ههنا ما نعرفه منها . ولكنه كان ينفق حياته ، عادةً ، بأن يفعل الاشياء في اللحظات نفسها . كان الشهر من سَنَته يشبه الساعة من يومه .

أما ما حلّ بـ « كنوز » كاتدرائية ايمبرون فذلك ما يُربكنا أن نُسأل عنه الآن . كانت بينها اشياء كثيرة فاتنة جداً ، مغرية جداً ، صالحة جـــداً لان تُسرَق لمصلحة المساكين . لقد سبق لآخرين ان سرقوها من قبل . ولقـــد تم

نصف المغامرة ؛ فلم يبقَ الا أن تُغيّر وجهة السرقة ، وأن تحوّل الى ناحية الفقراء . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً اكثر في هذا الموضوع . كل ما نستطيع ان ننصّ عليه أنه وجدت بين اوراق الاسقف مذكرة شديدة الغموض لعلّها تتصل بهذه المسألة ، وهي تقول : **« إن السؤال هو هذا : أينبغي ان تُعاد هذه الى الكاندرائية أم الى المستشفى ؟ »**

٨

فلسفة ما بعد الغداء

كان عضو مجلس الشيوخ الذي اشرنا اليه من قبل رجلاً ذكياً شقّ طريقه في الحياة في استواء هدف لم يبالِ البتة بجميع تلك العقبات التي تعترض سبيل الناس ، والتي ندعوها الضمير ، والوفاء المعزّز بقَسَم ، والعدل ، والواجب . لقد اندفع نحو هدفه اندفاعاً مستقيماً من غير ان يحيد ذات مرة عن جادة تقدّمهِ ومصلحته . كان في ما مضى وكيلاً قضائياً ، ألانه النجاح ، ولم يكن رجلاً رديئاً بحال . وكان يقدّم جميع الخدمات الصغيرة التي قَدِرَ عليها الى ابنائه ، وأصهاره ، وانسبائه على وجه العموم ، وحتى الى اصدقائه ، متخيّراً في حكمةٍ جانبَ الحياة البهيج ، مفيداً من جميع فُرَصها المتاحة الطيبة . أما ما عدا ذلك فكان يبدو في عينيه عملاً ممعناً في الحمق . كان مرِحاً طروباً ، وكان على قدر من العلم كافٍ لان يجعله يحسب نفسه تلميذاً من تلاميذ أبيقور ، في حين أنه لم يكن — في ما يبدو — اكثر من ثمرة من ثمرات بيغو لوبران * . كان يضحك في عفوية واستمتاع من أشياء خطيرة وأزلية، ومن « الكلام الباطل الذي ينطق به الاسقف الطيّب . » وكان يضحك منها أحياناً ، وعلى وجهه سيما الرجل

* Pigault — Lebrun كاتب فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٣٥) وضع عدّة روايات داعرة خليعة المذار .

المتنازل ، في حضرة الاسقف نفسه الذي كان يُصغي .

ولست ادري في ايّ من الحفلات نصف الرسمية تناول الكونت ... (وهو عضو مجلس الشيوخ هذا) وصاحب السيادة ميريل طعام الغداء في منزل المحافظ. وحين قُدّمت الفاكهة صاح الشيخ وقد استخفّه الثمل بعض الشيء ، وإنْ لم تفارقه سيما الوقار :

— « بربّك يا سيدي الاسقف ، دعنا نتحدث . إن من العسير ان يلتقي اسقف وعضو في مجلس الشيوخ من غير ان يتغامزا . نحن عرّافان . وان عندي اعترافاً أريد أن أدلي به اليك ؛ إنّ لي فلسفتي الخاصة . »

فأجابه الاسقف : « أنت على صواب . كما يصنع المرء فلسفته ، كذلك يرقد . انت ترقد على فراش ارجواني ، يا سيدي الشيخ . »

ووجد الشيخ في ذلك ما شجعه ، فأضاف :

— « لنكن ولدَين صالحين . »

فقال الاسقف : « بل عفريتين صالحين ايضاً . »

فتابع عضو مجلس الشيوخ : « اؤكد لك ان المركيز دارجان * ، وبيرّون ، ** وهوبس ، *** والسيد نيجون **** ليسوا اوغاداً . إن جميع فلاسفتي مذهّبو الحوافي في خزانة كتبي . »

فقاطعه الاسقف : « مثلك انت ، يا سيدي الكونت . »

وتابع عضو مجلس الشيوخ قائلاً :

— « انا اكره ديدرو . إنه ايديولوجي ، غوغائي ، ثوريّ ، مؤمن في قرارة

---

* Marquis d'Argens اديب فرنسي (١٧٠٤ – ١٧٧١) وضع آثاراً عديدة يرشح بعضها بالشك في الله .

** Pyrrhon اول الشكوكيين الاغريق الكبار في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان ينكر ان يكون بلوغ الحقيقة في ميسور الانسان .

*** Hobbes فيلسوف انكليزي (١٥٨٨ – ١٦٧٩) ، وكان ينادي – في حقل الفلسفة – بالمادية ، وفي حقل الاخلاق بغلبة المصلحة الانانية ، وفي حقل السياسة بالطغيان .

**** Naigeon اديب فرنسي (١٧٣٨ – ١٨١٠) عُرف بتفكيره الماديّ الالحاديّ .

نفسه بالله ، وأشدّ تعصباً من ڤولتير . لقد سخر فولتير من نيدهـام * ولم يكن في هذا مصيباً . ذلك بأن أنقليسات ** نيدهام تثبت ان الله غير ذي غناء . إن نقطة من الخل في ملعقة من العجين قد سدّت مسدّ ال *** fiat lux . ولنفرض ان النقطة كانت اكبر وان الملعقة كانت أضخم ، وعندئذ يتمّ لنا هذا الكون . إن الانسان هو الانقليس . واذن فأيّ فائدة للأب الازليّ ، بعد ذلك ؟ ان فرضية يَهوَه **** تتعبني ، يا سيدي الاسقف . انها لا تصلح لشيء غير انتاج اناس مهزولي الاجسام فارغي الرؤوس . فليسقط هذا « الكليّ » الكبـير الذي يزعجني ويقضّ مضجعي ! وليحيَ « الصفر » الذي يورثني الراحة والطمأنينة ! وبيني وبينك ، ولكي أفضي بسريرة نفسي ، وأعترف لكاهني ، كما ينبغي لي ، فسوف اقرّ بأن عندي حصافة . انا لست مجنوناً بيسوعك الذي يبشّر عند كل حقل بالتنسّك والتضحية . تلـك نصيحة البخيل للشحاذين . التنسّك ! لماذا ؟ التضحية ! من اجل ماذا ؟ انا لا ارى غير ذئب يضحي بنفسه من اجل سعادة ذئب آخر . فلنلزم الطبيعة اذن . نحن في القمة ، ولتكن لنا فلسفة اسمى . وماذا يفيدنا تربّعنا في القمة اذا لم نستطع ان نرى الى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش في مرح وابتهاج ؛ فالحياة هي كل ما نملك . أما القول بأن للانسان حياة ثانية ، في مكان آخر ، فوق ، تحت ، في أيما مكان – فزعمٌ لا اصدق كلمة واحدة منه . آه ، انهم يوصونني بالتضحية ، والتنسّك ، وبأن الزم الحذر في كل ما اعمله ، وبأن احطّم رأسي في التفكير بالخير والشر ، والعدل والظلم ، وبالحلال والحرام . لماذا؟ لأن عليّ ان اقدم حساباً عن أعمالي . متى ؟ بعد الموت . أيّ حلم جميل ! انني

* Needham طبيب انكليزي ولد في لندن وتوفي في بروكسل (١٧١٣ – ١٧٨١) وقد دارت بينه وبين فولتير مساجلات عنيفة .

** الانقليس او الحنكليس : ضرب من السمك معروف.

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نور ! ». وفي ذلك اشارة الى ما جاء في سفر التكوين : « وقال الله ليكن نور فكان نور . » وقد انتهى هذا الاصطلاح الى ان يفيد معنى الخلـق او الابداع من عدم .

**** اسم الله في العهد القديم (التوراة) .

بعد ان اموت لفي حاجة الى اصابع ناعمة لكي تلتقطني . وكم اتمنى لو ارى يداً من الظلّ تلتقط حفنة من الرماد . لنقل الحقيقة ، نحن الذين اطّلعنا على الاسرار ورفعنا تنورة ايزيس : ليس ثمة خير ولا شرّ . ليس ثمة غير وجود جسدي فحسب ، فلنلتمس الحقيقة . فلننبشْ كل شيء . فلنذهب الى الاعماق . ينبغي ان نستروح الحقيقة ، ان نحفر الارض التماساً لها ، ونضع يدنا عليها . وعندئذ تمنحنا الحقيقة مباهج عِذاباً ، وعندئذ نغدو اقوياء . انا مقتنع ، أوطد الاقتناع ، يا سيدي الاسقف ، بأن خلود الانسان سراب . أوه ، يا للوعد الفاتن ! توكل عليه اذا شئت ! تلك رسالة التوصية التي كانت لآدم ! إن لنا ارواحاً ، واننا سوف نصبح ملائكة ، وان اجنحة زرقاء سوف تنمو عند اكتافنا . قل لي ، الآن ، أليس ترتوليان * هو الذي يقول ان السعداء الطوباويين سوف يذهبون من كوكب الى آخر ؟ حسناً ، واذن فسوف نصبح جراد السماوات . وعندئذ سنرى الله . هيء ، هيء ، هيء ! سخيفةٌ هذه الجنات كلها . وليس الله غير اسطورة هائلة . انا لن اقول ذلك في صحيفة ال « مونيتور » طبعاً ، ولكني اهمس به بين اصدقائي . *Inter pocula* ** ولأن يضحي المرء بالارض من اجل الجنة اشبهُ شيء بالتخلي عن الفريسة للتعلق بالظلّ . انا لست مغفلاً بحيث تخدعني اللانهاية . انا لا شيء . انا أدعو نفسي الكونت لا شيء ، عضو مجلس الشيوخ هل وُجدتُ قبل ولادتي ؟ لا . هل سأوجد بعد موتي ؟ لا . اي شيء انا ؟ قليل من الغبار ركّمَهُ جسم عضريّ . ما الذي ينبغي لي ان افعله على سطح هذه الارض؟ انا مخيّر بين واحد من اثنين : ان أكابد أو ان استمتع . الى اين تقودني المكابدة ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد كابدت . الى اين يقودني الاستمتاع ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد استمتعت . لقد اخترت سبيلي . يجب ان آكل أو أن أؤكل . وأنا اختار ان آكل . انا اؤثر ان اكون السنّ لا العشب . تلك هي فلسفتي . وبعدها ، كما اقول لك ، يجيء حفار القبور ... البانتيون ***

* Tertullien لاهوتي نصراني من ابناء شمال افريقية . (١٥٠ ؟ — ٢٤٠ م)

** اصطلاح لاتيني معناه : بين الاقداح أو في مجلس الخمر .

*** Pantheon الاثر الباريسي الشهير حيث يرقد نفر من عظماء الرجال الفرنسيين .

بالنسبة الينا نحن . ولكنا كلنا نسقط في الهوة العظيمة النهاية ، التصفية الكاملة . هذه هي نقطة التلاشي . إن الموت ميت . صدّقني . انا اسخر من الفكرة القائلة بأن ثمة كائناً ما عنده شيء يقوله لي . ذلك من اختراع المرضعات : الفزّاعة * الاطفال ، ويَهْوِه الرجال . لا ، إن غدنا ظلام . وليس وراء القبر غير أعدام ** متساوية . لقد كنتَ ساردانابال *** او كنتَ فنسان دو بول **** - لا فرق . تلك هي الحقيقة . فلنعش ، إذن ، فوق كل شيء . إستعمِل شخصيتك ما دمت مالكاً لها . في الحق ، اقول لك يا سيدي الاسقف ، إن لي فلسفتي وإن لي فلاسفتي . انا لا اسمح لنفسي بأن اقع في شرك الهذر والهراء . ولكن من الضروري ان يكون ثمة شيء لمن هم دوننا من الناس ، للحفاة ، لشاحذي السكاكين ، للبؤساء . نحن نقدم اليهم الخرافات، والاوهام ، والروح ، والخلود، والجنة، والنجوم لكي يبتلعوها . إنهم يمضغون ذلك . انهم ينشرونه على خبزهم الجاف . فمن عَدِمَ كل شيء ، لم يعدم الله الخيّر ذلك اقل ما يستطيع ان يفوز به من خير . انا لا اعترض على ذلك ، ولكني احتفظ بالسيد نيجون لنفسي . إن الله الخيّر لا يصلح إلا للشعب . »

وصفق الاسقف ، وصاح : « ذلك هو الرأي . هذه المادية شيء ممتاز ، شيء رائع حقاً ، فليرفضها من اراد . آه ! حين تتمّ هذه المادية لامرىء ، فعندئذ لا

---

* ما يخوّف به ، وما ينصب في المزرعة تخويفاً للوحش .

** جمع عدَم .

*** ساردانابال : شخصية خرافية تزعم الاساطير القديمة انها ملك اشوري حكم من سنة ٨٣٦ الى سنة ٨١٧ ق . م . وكان آخر من تحدر من الملكة الاسطورية سميراميس . ولا يزال ساردانابال الى اليوم رمزاً للامير الفاجر المخنث .

**** St. Vincent de Paul مصلح فرنسي كاثوليكي (١٥٧٦ - ١٦٦٠) رفع الى مقام القديسين .

يبقى غِرّاً مخدوعاً ، ولا يسمح لنفسه ، في بلاهة بأن ُينفى مثل كاتو * او ُيرجم بالحجارة مثل اسطفان **،او ُيحرق حياً مثل جان دارك . إن اولئــــك الذين فازوا بهذه المادية الرائعة يسعدون بالشعور بأنهم غير مسؤولين ، وبالتفكير في ان باستطاعتهم ان يلتهموا كل شيء في طمأنينة : .. الاماكن ، والمناصب التي ُتجري على اصحابها الرواتب من غير ان تقتضيهم عملاً ما ، والرتب ، والسلطان سواء اكتُسب بالاساليب الخيّرة او الاساليب الشريرة ، وضروب الانكار المُربحة ، والخيانات المفيدة ، وتسخير الضمير على نحو َعذب لذيذ ، وانهم سوف يدخلون قبورهم وقد اتمّوا واجبهم الهضميّ . ما اجمل هذا وما احبه الى النفس! انا لا اقول ذلك من اجلك ، يا سيدي الشيخ . ومع هذا ، فليس في ميسوري الا ان اهنئك . إن لكم ايها السادة الكبار ، كما تقول ، فلسفة خاصة بــــكم ، ُجعلت لمنفعتكم الذاتيــــة – فلسفة ممتازة ، رفيعة ، ليست في متناول احد غير الاغنياء ؛ فلسفة تصلح في جميع الاحوال ، وتضيف التوابل إضافة رائعة ، الى ملذات الحياة . هذه فلسفة ُيغاص عليها في الاعماق البعيدة ، ولا يفوز بها إلا باحثون مخصوصون . ولكنكم امراء طيبون ، ولستم تجدون ضرراً ما في ان يكون الايمان بالله الخيّر هو فلسفة الشعب ، كما ان الاوز بالكستناء هو ديك الفقراء الرومي المطبوخ مع الكمأة ، على وجه التقريب . »

٩
الاخ كما تصوره الاخت

ولو اردنا ان نقدم صورة عن حياة اسقف د ... المنزلية ، وكيف أُخضعت

* Cato زعيم وخطيب روماني (٢٣٢ – ١٤٧ق . م.) اشتهر بنزمته وبعدائه الشديد لقرطاجة ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « يجب ان تدمر قرطاجة » .

** القديس اسطفان : اول شهداء النصرانية ، وقد ُرجم بالحجارة في بيت المقدس .

هاتان المرأتان الطيبتان امالها ، وافكارها ، بل وغرائزهما الذوية التي يسهل توعيها ، لعادات الاسقف ومقاصده من غير ان يجشم نفسه مجرد الكلام التمييز عنها ، فلن نجد خيراً من ان ننسخ رسالة كتبتها الآنسة باتيستين الى رفيقة صباها السيدة الفيكونتيس دو بواشيفرون . ان هذه الرسالة بين ايدينا .

د ..... ، ١٦ كانون الاول سنة — ١٨

« سيدتي الطيبة . لا ينقضي يوم إلا ونتحدث عنك . لقد غدا ذلك عادة من عاداتنا ، ولكنّ لدينا الآن سبباً اضافياً . هل تصدقين ان السيدة ماغلوار اكتشفت بعض الاكتشافات وهي تغسل السقوف والجدران وتنفض عنها الغبار ؟ ان غرفتينا المغطاة جدرانهما بالورق العتيق المبيّض بماء الكلس ما عادتا تشوّهان قصراً مَشيداً على طراز قصرك . لقد نزعتِ السيدة ماغلوار ذلك الورق كله ، فاذا بها تجد أشياء خلفه . ان صالوني العاطل عن الاثاث والذي نصطنعه لنشر الملابس المغسولة حتى تجف ، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، ويبلغ كلٌ من طوله وعرضه ثمانية عشر قدماً ، وله سقف ازدان في ما مضى بالتصاوير المذهبة ، سقفٌ ذو عوارض خشبية كالتي في منزلك . وكان ذلك مغطى بنسيج القنّب منذ ان كان منزلنا مستشفى . واخيراً ، هناك البطانة الخشبية التي ترقى الى عهد جداتنا . ولكن غرفتي الخاصة هي التي ينبغي لكِ ان تَرَيها . لقد اكتشفت السيدة ماغلوار ، تحت عشر طبقات من الورق على الاقل ، بعض الصور التي قد لا تكون جيدة ، ولكنها مقبولة. فصورة تمثل تيلماك* على صهوة جواده ، ومينيرفا تستقبله . واخرى تمثله في الحدائق — لقد نسيتُ اسمها . وثالثة تصوّر المكان الذي آوت اليه السيدات الرومانيات ليلةً ليس غير . ايّ شيء اقوله لك بعدُ ؟ إن عندي رومانيات ورومانيين (هنا كلمة غير مقروءة) وحاشيتهم كلها . لقد نظفت السيدة ماغلوار ذلك كله ، وسوف تُصلح خلال

---

* Télémaque ابن اوليس وبينلوب . كان طفلاً حين قصد ابوه الى طروادة ، ولقد انطلق هو في ما بعد للبحث عنه تقوده مينيرفا ، الآهة الحكمة والفنون .

هذا الصيف بعض العيوب الصغيرة ، وتعيد صقل الرسوم كلها ، وعندئذ تصبح غرفتي متحفاً حقيقياً . كذلك وجدت في احدى زوايا العلّية منضدتَيْ «جو» منحنيتي القوائم من الضرب الذي يُسْنَد الى الحائط . ولقد اقتضانا اهل الصناعة دينارين فضيين من ذوات الستّ ليرات لاعادة تذهيبها ، ولكنّ من الخير ان نقدّم ذلك الى الفقراء . والى هذا ، فهما قبيحتان جداً ، وانا أوثر عليهما منضدةً مستديرةً من خشب الماهوغاني .

« انا سعيدةٌ دائماً . إن اخي طيّب جداً . إنه يقدّم كل ما يملك الى الفقراء والمرضى . نحن جدّ متضايقين . فالجوّ قارس جداً في الشتاء ، ويتعيّن على المرء أن يُسدي خدمةً ما الى المعوزين . نحن على الاقلّ نتمتّع بالدفء والنور ، وانت تعرفين أن الدفء والنور مُتعَتان كبيرتان .

« إن لأخي عاداته الغريبة . وهو حين يتحدث يقول ان الاسقف ينبغي ان يكون هكذا . تصوّري أن باب المنزل ليس يُغلق أبداً . ان ايّا امرىء يستطيع ان يدخله ، فاذا هو في الحال ضيف اخي . إنه لا يخشى شيئاً ، حتى في الليل . وهو يقول ان هذه هي شجاعته الخاصة .

« إنه يودّ أن لا يأخذني الخوف عليه ، وأن لا يستبدّ الجزع بالسيدة ماغلوار ايضاً . وهو يعرّض نفسه لضروب المخاطر جميعاً ، ويؤثر ان لا نبدو وكأننا نعي ذلك مجرد وعي . ان على المرء ان يعرف كيف يفهمه .

« إنه ينطلق تحت المطر ، ويخوّض في الماء ، ويطوّف في البلاد إبانَ الشتاء . إنه لا يخشى الليل ، او الطرق الخطرة ، او اولئك الذين قد يلتقيهم .

«في العام الماضي قصد وحده الى منطقة يعيث فيها اللصوص فساداً . انه لم يشأ ان يصطحبنا . لقد ظل خمسة عشر يوماً غائباً عن البيت . حتى اذا آبَ من رحلته ، وكنا نظنه قد مات ، كان في حالٍ جيدة لم يُصبْه شيء ما . وقال : « أنظرا ، كيف سرقوني ! »وفتح صندوقاً مليئاً بجواهر كاتدرائية ايمبرون التي قدّمها اللصوص اليه .

«وفي تلك المناسبة ، لدنْ عودته ، وكنت قد ذهبتُ لاستقباله على مبعدة فرسخين اثنين مع طائفة من اصدقائه ، لم اتمالك عن ان الومه بعض الشيء ، محاذرةً ان أتكلم إلا

حين كانت العربة تُحدث ضجة، لكي لا يكون في ميسور أيما شخص آخر ان يسمع.

« في البدء كنت اقول لنفسي : انه لا يبالي بايما خطر . ذلك شيء فظيع . أما الآن فقد أَلِفْتُ ذلك . إني اومىء الى السيدة ماغلوار لكي لا تعارضه، فهو يركب متن المغامرة كما يحلو له . وعندئذ أستدعي السيدة ماغلوار، وآوي الى غرفتي، فأصلي من أجله، وأنام أنا مطمئنة، لاني اعلم جيداً انه اذا ما ألمّ به اذى فعندئذ تحين منيّتي. عندئذ يتعين عليّ ان أمضي الى الرب الرحيم مع اخي واسقفي. ولقد وجدتِ السيدة ماغلوار عسراً اكثر في ان تروض نفسها على ان تألف هذا الذي تدعوه تهوّره وعدم تبصّره . اما الان فقد تعوّدنا ذلك . نحن نصلي معاً، ونحن نُروَّع معاً . ثم نأوي الى الرقاد . ولو قد أراد الشيطان نفسه ان يفد على المنزل، اذن لما اعترض احد سبيله . واياً ما كان، فأي شيء يدعو الى الخوف في ذلك المنزل ؟ ان معنا دائماً من هو أشد بأساً من كل أحد . ان الشيطان قد يُلمّ بدارنا، ولكن الرب يسكنها .

« حسبي هذا المقدار . لم يعد اخي في حاجة الى ان ينطق بكلمة واحدة . أنا أفهمه من غير ان يتكلم، ونحن نسلم نفسينا الى العناية الالـهية.

« وكذلك ينبغي ان يكون الامر مع رجل نبيل الروح الى هذا الحدّ .

« لقد سألت اخي ان يُدلي اليّ بالمعلومات التي طلبتِها عن اسرة دو فو . انت تعرفين مدى اطلاعه البعيد في هذا الميدان وغزارة ذكرياته، اذ كان دائماً مَلكياً صميماً، وهذه اسرة نورماندية عريقة من مقاطعة «كان» . إن ثمة خمسمئة عام من سلالة راوول دو فو، وجان دو فو، وتوماس دو فو، الذين كانوا من الاشراف، وكان احدهم سيد روشفور . اما آخرهم فكان غي ايتيين ألكسندر الذي كان قائداً عسكرياً، وكان يحتل رتبة ما في سلاح الفرسان في بروتانْي . ولقد تزوجت ابنته ماري لويز من آندريان شارل دو غرامون نجل الدوق لويس دو غرامون، احد نبلاء فرنسة الكبار، وقائد الحرس الفرنسي، وأحد ضباط الجيش المقدّمين . واسم هذه الاسرة يرسم على وجوه مختلفات :

Faux و Fauq و Faoucq .

« عسى ان تسألي نسيبك القدسي ، السيد الكاردينال ، أن يصلي من اجلنا ياسيدتي العزيزة . اما غاليتك سيلفاني فقد احسنت صنعاً إذ لم تضع اللحظات القصار التي تقضيها الى جانبك في الكتابة اليّ . انها في خير ، كما تقولين ،وهي تعمل وفقاً لمشيئتك ، وما تزال تحبني . ذلك كل ما أطمع فيه . لقد تلقيتُ التذكار الذي بعثتْ به اليّ ، من طريقك ، واني لسعيدة بذلك . ان صحتي ليست سيئة جداً ، ومع ذلك فانا ازداد هزالاً يوماً بعد يوم .

« وداعاً . لقد طفحت ورقتي ، فيتعين عليّ ان اكفّ عن الكتابة . وتقبلي الفاً من التمنيات الطيبة .

« باتيستين

« حاشية — ان السيدة زوجة أخيك هي هنا دائماً مع أسرتها الفتيّة . وان حفيد اخيك لفاتن حقاً . هل تعرفين انه سوف يبلغ الخامسة من عمره وشيكاً؟ لقد مر به ، امس ، جواد وُضعت له رُكَبيات * فصاح : « ما هذا الذي على رُكبه ؟ انه غلام لطيف جداً ، وان اخاه الصغير ليسحبُ مكنَسة عتيقة في الغرفة وكأنها عربة ، ويقول : هي ! »

وهكذا نرى ، من هذه الرسالة ، ان هاتين المرأتين عرفتا كيف تتكيّفان وفق اسلوب الاسقف في الحياة ، بتلك العبقرية النسوية التي تفهم الرجل خيراً مما يستطيع الرجل ان يفهم نفسه . والواقع ان اسقف د ... كان يقوم في بعض الاحيان ، تحت هذه الانطباعة العذبة البيضاء القلب التي لم تتغير قط ، بأعمالٍ عظيمة ، جريئة ، رائعة، من غير ان يبدو وكأنه يعي ما يفعل. كانتا ترتعدان ولكنهما لم تتدخلا . وكانت السيدة ماغلوار تحاول في بعض الاحيان ان تحذره قبل ان يُقدم على عمل ما ، ولكنها ما كانت لتفعل ذلك وهو يقوم به ، او بعد ان يقوم به على الاطلاق .ان احداً لم يحاول ، في يوم ، ان يزعجه بكلمة او باشارة حول عمل استهله . وفي بعض الاحوال ، حين لا يكون في حاجة الى

* الرُكبية كلمة وضعناها لتقابل كلمة genouillère الفرنسية وكلمة knee-cap الانكليزية وتعني غطاء الركبة .

ان يقول ذلك ، او لعله حين يكون على غير وعي له ، كانت بساطته كاملةً الى درجة تجعلها تحسان احساساً غامضاً انه يعمل كأسقف ؛ وعندئذ ما كانتا لتزيدا على كونهما مجرد ظلين في البيت . كانتا تخدمانه من غير اعتراض ، حتى اذا قضت الطاعة بالاختفاء ، اختفتا . لقد ادركتا ، برقة غريزية رائعة ، أن بعض ضروب العناية المحبة المشفقة خليقة بان تزعجه . فهما – حتى حين يبدو لهما انه في خطر – تفهمان طبيعته ، ولا اقول فكره ، الى درجة تحملهما على الكف عن رعايته والسهر عليه . كانتا تسلمان أمره الى الله .

والى هذا ، فقد قالت باتيستين ، كما رأينا ، أن موت أخيها يعني موتها . اما السيدة ماغلوار فلم تقل ذلك ، ولكنها عرفته.

١٠
الاسقف في حضرة ضياء مجهول

وقبيل تاريخ الرسالة التي أثبتناها في الصفحات السابقة قام الاسقف بعمل اعتقدت البلدة كلها انه اشد تهوراً وأحفل بالخطر من رحلته عبر الجبال التي يهيمن عليها قطاع الطرق .

ففي الريف المجاور لبلدة د ... كان رجلٌ يحيا في عزلة . وكان هذا الرجل – وانقل الكلمة الضخمة المذهلة من غير ما مقدمة – عضواً في «المؤتمر الوطني».* كان يدعى ج ...

وفي عالم د ... الصغير كان الناس يتحدثون عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا في ضرب من الرعب . عضو في « المؤتمر الوطني » ، هل تتصور ذلك ؟ إن هذا

* Convention Nationale البرلمان الثوري الذي خلف « الجمعية التشريعية » في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ وحكم فرنسة حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن أعماله أنه أعلن الجمهورية ، وأدان لويس السادس عشر . وكان يتألف باديء الامر من احزاب ثلاثة : الجيرونديين ، وحزب الجبل Montagnards وحزب السهل la Plaine .

يرقى الى ذلك العهد الذي كان الناس يتخاطبون فيه بضمير المفرد (١٥) ويقولون : « أيها المواطن ! » لقد كاد ذلك الرجل ، أن يغدو هُوْلَةً * أو غولاً . إنه لم يصوِّت مع إعدام الملك ، ولكنه اوشك ان يفعل . كان نصف قاتلٍ من قتلة الملوك ؛ وكان فظيعاً . وإلا فكيف جاز ان لا يُدعى هذا الرجل ، لدنْ عودة الامراء الشرعيين ، الى المثول أمام محكمة عسكرية ؟ ومن يدري ؛ فلعلَّ تلك المحكمة ما كانت خليقةً بأن تصدر حكمها بقطع رأسه ، ولكن حتى لو أخذ القضاة باسباب الشفقة إذن لكانوا خليقين بأن يحكموا عليه بالنفي مدى الحياة . والواقع انها كانت جديرةً بأن تجعل منه آخر الامر امثولة لغيره ، الخ . الخ . والى هذا فقد كان زنديقاً ، شأنَ اولئك القوم جميعاً – ثرثرة إوزٍّ ضدَّ النسر .

ولكن هل كان ج . . . هذا نسراً ؟ نعم ، اذا كان المرء ان يجيب على اساسٍ من وحشية عزلته . ذلك بأنه وقد أحجم عن التصويت لقتل الملك لم تشمله أحكام النفي ، فهو قادرٌ على البقاء في فرنسة .

كان يحيا على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من البلدة ، بعيداً عن اية دسكرة أو طريق ، في أخدود منعزل من أخاديد وادٍ موحش جداً . لقد قيل إنه كان له هناك ضربٌ من القبو ، أو قل كان له هناك جحر أو كهف . فلا جيرانَ ، بل لا عابري سبيل . فمنذ ان اقام في هذا الوادي الضيّق غمر العشبُ الطريقَ المؤدية الى مأواه ذاك ، وطفق الناس يتحدثون عن ذلك الموضع وكأنه بيتُ جلاّد .

ومع ذلك ، وبين الفينة والفينة ، كان الاسقف يلتفت مفكّراً نحو الافق حيث كانت احدى الغياض تنتصب شاهداً على وادي البرلماني العجوز ، ويقول : « هناك تعيش نفسٌ متوحّدة . »

وفي اعماق تفكيره كان يضيف : « انا مدين له بزيارة . »

بيد انه يتعين علينا ان نعترف بان تلك الفكرة ، برغم انها بدت طبيعية أول الأمر ، ما لبثت ان تراءت له بعد لحظة من التأمل غريبةً ، متعذرة ، بل وكريهة تتقزز منها النفس أو تكاد . ذلك بأنه كان في أعماق ذاته يشارك القوم

* الهولة : العجب . يقال : وجهه هُولة من الهَوْل .

انطباعاتهم عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا ، وكان الرجل العجوز يوقع في نفسه، من غير ان يدري كيف ، تلك العاطفة التي هي تخم الكراهية ، والتي تعبّر عنها لفظة الاشمئزاز احسن تعبير .

ولكنّ الراعي ينبغي أن لا يجفوَ الخروف المريض . آه ، ولكن ايّ خروف !

واستبدّ الارتباك بالاسقف الصالح : لقد مشى أحياناً في ذلك الاتجاه ؛ ثم انقلب على عقبيه .

وأخيراً سرى ذات يوم ، في البلدة ، نبأ يقول بأن فتىً من الرعاة كان يخدم عضو«المؤتمر الوطني» ج... في مأواه البريّ قد وفد على المدينة التماساً لطبيب. وان الأثيم العجوز يُحتضر ، وان الشلل قد ألمّ به ، فليس في استطاعته ان يعيش حتى مطلع الفجر . واضاف بعض القوم : « شكراً لله ! »

واخذ الأسقف صولجانه ، وارتدى معطفه ، لان ثوبه الكهنوتي كان بالياً جداً ، كما سبق منا القول ، ولأن ريح المساء كانت على وشك ان تهبّ ، وانطلق .

كانت الشمس تجنح للمغيب ، وكانت قد مسّت الافق أو كادت عندما انتهى الاسقف الى البقعة اللعينة المُحرّمة . واستشعر بعض السرعة في النبض فيما هو يقترب من الجُحْر . ووثب فوق حفرة ، وازال بعض الأشواك المعترضة . وشق طريقه عبر سياج من الاغصان الملتفّة ، فاذا به يجد نفسه في وسط جُنينة خربة . ثم انه تقدّم في جراءة خلال الارض الموات فاكتشف فجأةً ، خلف دغلٍ عال ، مغارة الرجل العجوز .

كانت كوخاً خفيضاً حقيراً ، كوخاً صغيراً نظيفاً قام عند واجهته عريش مُستَتِر .

وامام الباب ، وفي كرسي عتيق ذي دواليب ، جلس رجل أشيب ، وأنشأ يحدّق الى الشمس المحتضرة في نظرة باسمة .

والى جانب العجوز الجالس في كرسيه وقف غلام غضّ العود ، هو الراعي

الصغير . لقد قدّم الى العجوز وعاء من اللبن .
وفيما الاسقف ينظر ، رفع العجوز صوته :
— « شكراً . انا لن احتاج بعدُ الى شيء . »
وفارقت ابتسامتُهُ الشمس لكي تستقرّ على الغلام .
وتقدّم الاسقف الى امام . واحدثت خطواته بعض الضجة ، ففتل الرجل العجوز رأسه ، وعبّر محياه عن اعظم مقدار من الدهش يمكن لامرىء ان يعرفه بعد حياة طويلة .
وقال : « هذه اول مرة يزورني فيها زائر منذ أن أقمت هنا . من انت ، يا سيدي ؟ »
فأجاب الاسقف : « انا أدعى بيينفينو ميرييل . »
— « بيينفينو ميرييل ؟ لقد سمعتُ هذا الاسم من قبل . أأنت ذلك الذي يدعوه الناس مونسينيور بيينفينو ؟ »
— « انا هو . »
واضاف الرجل العجوز بنصف ابتسامة : « إذن ، فانت أسقفي ؟ »
— « جائز . »
— « أدخل ، يا سيدي . »
وبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده الى الاسقف ، ولكنه لم يمسّها . لقد اكتفى بالقول :
— « انا سعيد بأن أجد أنهم قد خدعوني . إنك لا تبدو في عينيّ مريضاً حقاً . »
فأجاب الرجل العجوز : « سوف أشفى عما قريب . »
وتمهّل لحظة ثم قال : « سوف اموت في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات . »
وبعد ذلك اضاف :
— « انا طبيب الى حد ما . انا اعرف الخطوات التي يقترب الموت بها . أمس كانت رجلاي وحدهما باردتين . أما اليوم فقد زحف البرد الى رُكبتيّ . وها انا

أحسّ به الآن يتقدّم حتى الخصر . وحين يمسّ القلبَ ، فعندئذ أنتهي . إن الشمس جميلة ، أليس كذلك ؟ لقد كرّرْتُ كرسيي هذا بنفسي لكي ألقي نظرةً أخيرة على الطبيعة . في استطاعتك ان تتحدث اليّ . إن ذلك لن يُتعبني. لقد احسنتَ صنعاً بمجيئك لترى رجلاً في النزع الاخير . فمن الجميل ان يشهد هذه اللحظات بعضُ الشهود . ان لكل منا اطواره الغريبة ؛ فأنا أودّ لو اعيش حتى يرتفع الضحى ، ولكني أعلم أن الاجل لن يمتدّ بي اكثر من ثلاث ساعات على وجه التكثير . وعندئذ سوف يهبط الظلام . ولكن ايّ بأس في ذلك ! إن الانتهاء مسألة هيّنة . والمرء لا يحتاج في هذا الى صباح . ليكن الامر كذلك . سوف أموت في ضوء النجوم . »

والتفت الرجل العجوز الى الراعي الحدث :

— « اذهب الى الفراش ايها الغلام الصغير . لقد سهرتَ الليلة البارحة . انت متعَب . »

ودخل الغلام الكوخ .

وأتبعَهُ الرجل العجوز نظرَتَهُ واضاف وكأنه يخاطب نفسه : « فيما هو نائم ، سوف أسلم الروح . وهكذا يكون في ميسور الرقادَين ان يتجاورا مجاورة حسنة . »

ولم يغلب التأثر على الاسقف بقدر ما كان منتظراً . فهو ما كان يعتقد بأن في ميسور المرء ان يتروح عبق الله بالموت على هذه الشاكلة . والحقّ ان علينا ان نقول كل شيء ، فالتناقضات الصغيرة التي تتردّى فيها القلوب الكبيرة يجب ان يُنصّ عليها . ومن هنا يتعيّن علينا ان نذكر انه هو الذي طالما ضحك ضحكاً قلبياً من لقب « صاحب العظمة » أصيب بعض الشيء بصدمة حين لم يُدْعَ مونسينيور او صاحب السيادة، وكان على وشك ان يُغرى بالردّ فيخاطب ذلك الرجل العجوز بقوله : « ايها المواطن ! » لقد استشعر رغبة في اصطناع تلك الدالة الفظة الشكسة المألوفة عند الاطباء والكهنة ، والتي لم يتعودها هو . فقد سبق لهذا الرجل ، على اية حال — هذا العضو القديم في « المؤتمر الوطني » ، هذا

النائب عن الشعب - أن كان قوة على هذه الارض . ولعلها اول مرة استشعر الاسقف فيها نزعة الى ان يكون قاسياً .

ومع ذلك فقد عامله عضو « المؤتمر الوطني » في احترام ومودة محتشمة ربما كان في ميسور المرء ان يلمح فيهما تلك الوداعة التي تليق بمن كان على مثل هذا القرب من توسد التراب .

اما الأسقف فلم يستطع - برغم احترامه على العموم من سلطان الفضول الذي كان في اعتقاده محاذياً للعدوان - ان يجتنب مراقبة عضو « المؤتمر الوطني » في انتباه كان ضميره خليقاً بأن يؤنبه عليه - بوصفه غير منبثق عن العطف والمشاركة الوجدانية - لو تكشف عن مثله نحو ايما رجل آخر . بيد انه كان ينظر الى عضو في « المؤتمر الوطني » نظرته الى خارج على القانون ، حتى على قانون المحبة .

كان ج ... برباطة جأشه ، وجلسته التي توشك ان تكون منتصبة ، وصوته المتهدج ، واحداً من اولئك المعمّرين ذوي الوجوه النبيلة ، البالغين سن الثمانين ، والمثيرين دهش علماء الفيزيولوجيا . والواقع ان الثورة قد أنجبت كثيراً من هؤلاء الرجال المتكافئين وتلك الحقبة . إن المرء ليحسّ ههنا انه امام رجل تمرس بالتجاوب . لقد احتفظ بمظاهر الصحة كلها ، رغم انه أمسى من الموت قاب قوسين أو ادنى . ولقد بدت نظراته المشرقة ، ولهجته الحازمة ، وحركات كتفيه القوية وكأنها تكاد تبلبل الموت وتحيره . والحق ان عزرائيل ، ملاك الموت عند المسلمين ، كان خليقاً بأن ينكص على عقبيه ظاناً أنه قد أخطأ الباب. لقد بدا ج ... وكأنما يموت لانه اراد ان يموت . كان ثمة حرية في نزعه الاخير . كانت ساقاه وحدهما مشلولتين . لقد تشبثت به الظلمات من هناك. كانت قدماه ميتتين باردتين ، ولكن رأسه عاش بقوة الحياة بكاملها ، وبدا مشرقاً يحف به النور . لقد بدا ج ... في تلك اللحظة المهيبة اشبه شيء بذلك الملك الذي زعمت الحكاية الشرقية ان نصفه الاعلى كان من لحم ، ونصفه الادنى كان من رخام .

وكان ثمة حجر ، فجلس عليه الاسقف . وكان استهلال الخطاب فجائياً ومن

غير ما مقدمة .

قال الاسقف في جرس مؤنب : « إني اهنئك . انت على الاقل لم توافق على إعدام الملك . »

ولم يَبدُ ان عضو « المؤتمر الوطني » قد لاحظ التوكيد المرير الكامن في كلمتي « على الاقل » . فأجاب ، وقد فارق الابتسام كله وجهه :

– « لا تهنئني اكثر مما ينبغي ، يا سيدي . لقد أعطيت صوتي لتحطيم الطاغية . »

كانت هي لهجة الصرامة تواجه لهجة القسوة .

وسأله الاسقف : « ماذا تعني ؟ »

– « اريد ان اقول ان للانسان طاغية ، هو الجهل . لقد اعطيت صوتي للقضاء على هذا الطاغية . لقد ولّد هذا الطاغية الملكية ، وهي السلطة المنبثقة من الزيف في حين ان العلم هو السلطة المنبثقة من الحقيقة . ينبغي ان لا يُحكم إلا بسلطان العلم . »

– « والضمير . » كذلك اضاف الاسقف .

– « لا فرق . إن الضمير هو العلم الفطري الذي في ذات نفوسنا . »

وأصغى مونسنيور بيينفينو ، دهشاً بعض الشيء ، لهذه اللغة التي لم يسمع مثلها من قبل .

وتابع عضو « المؤتمر الوطني » كلامه :

– « في ما يتعلق بلويس السادس عشر : لقد قلتُ لا . انا لا اعتقد ان لي الحق في ان اقتل إنساناً ؛ ولكني اشعر ان من الواجب عليّ ان استأصل الشرّ . لقد أعطيت صوتي لأسقاط الطاغية . يعني لانقاذ المرأة من البغاء ، والرجل من العبودية ، والطفل من الجهل . لقد اعطيت صوتي لهذا ، حين أعطيته للجمهورية . لقد صوّتُّ للمساواة ، للوفاق ، للنور . لقد ساعدت على إسقاط الاحقاد والاخطاء . إن انهيار الاخطاء والاحقاد يبعث النور . لقد قوّضنا دعائم العالم القديم ؛ حتى اذا انقلب ذلك العالم ، وهو إناءٌ من الشقاء ، على الجنس البشري ،

غدا قارورة من الابتهاج . »

فقال الاسقف : « إنه ابتهاج مشوب ، غير صاف . »

– « في استطاعتك ان تقول : ابتهاج كدر . والان ، بعد عودة الماضي المشؤومة التي ندعوها ١٨١٤ * ولى الابتهاج . واأسفاه ! انا اقرّ بان العمل كان منقوصاً . لقد هدمنا النظام القديم في الاعمال ، ولكنا لم نستطع ان نقضي عليه قضاء كاملًا في الافكار . إن تحطيم الفساد وحده لا يكفي ؛ يتعين علينا ان نغير العادات . لقد ذهبت الطاحونة الهوائية ، ولكن الريح ما تزال هناك . »

– « لقد هدَمتم . إن الهدم قد يكون مفيداً ، ولكني لا أثق بهدم يمازجه الغضب . »

– « إن للعدالة غضبها ، يا سيدي الاسقف . وغضب العدالة عامل من عوامل التقدم . وعلى الرغم من جميع المزاعم فان الثورة الفرنسية هي اعظم خطوة خطاها الجنس البشري ، في ميدان التقدم ، منذ مجيء المسيح . قد تكون غير كاملة ، ولكنها سامية رفيعة الذرى . لقد حلّت جميع روابط المجتمع السرّية . لقد رقّقت جميع القلوب . لقد سكّنت ، وهدّأت ، وأنارت . لقد جعلت امواج المدنية تجري على وجه الارض . لقد كانت طيبة . الثورة الفرنسية ... إنها تكريس الانسانية . »

ولم يستطع الاسقف إلا ان يتمتم : « أجل ، ٩٣ ! » **

فرفع عضو «المؤتمر الوطني» نفسه ، في كرسيه ، بجلال يكاد يكون فاجعاً ، وصاح على قدر ما يستطيع محتضرٌ ان يصيح :

– « آه ، لقد وصلت ! عام ٩٣ ! لقد كنت اتوقع ذلك . سحابة تشكلت طوال الف وخمسمئة سنة ، وعند نهاية تلك القرون الخمسة عشر انفجرت . إنك

---

* هو العام الذي شهد سقوط نابوليون ونفيه الى جزيرة ألبا (٢٠ نيسان ١٨١٤)

** يقصد عام ١٧٩٣ الذي زرحت فيه فرنسة الجمهورية تحت وطأة « الهول » Terreur ابتداء من سقوط الجيرونديين (٣١ نوار ١٧٩٣) الى سقوط روبسبيير (٢٧ تموز ١٧٩٤) وقد تميز بالنفوذ المطلق الذي تمّ للجنة السلامة العمومية في باريس ، ونشر « قانون المشبوهين » ، وإعدام المواطنين بأعداد كبيرة .

تد من الصاعقة . »

واستشعر الأسقف ، وربما من غير ان يعترف بذلك ، أن شيئاً في ذات نفسه قد أوذي . ولكنه تقبّل الامر في صبر وأجاب :

– « ان القاضي يتكلم بلسان العدالة ؛ أما الكاهن فيتكلم بلسان الرحمة ، التي لا تعدو ان تكون عدالة أسمى وأرفع . إن الصاعقة ينبغي ان لا تخطيء . »

قال هذا ثم اضاف محدقاً الى عضو « المؤتمر الوطني » :

– « ولويس السابع عشر ؟ »

فبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده وأمسك بذراع الاسقف .

– « لويس السابع عشر . دعنا نرى ! على من تبكي ؟ على الطفل البريء ؟ ليكن ذلك اذن . انا ابكي معك . على الطفل الملكي ؟ انا اطلب مهلة للتفكير . ذلك بأني اعتقد ان اخا كارتوش * ، وهو طفل بريء علق بحبل وُضع تحت ذراعيه في ساحة «غريف » حتى مات، وكلّ جريمته انه اخو كارتوش ، ليس اقل اثارة للشجن من حفيد لويس الخامس عشر ، وهو طفلٌ بريء ُقتل في برج الا « تامبل » وكلّ جريمته انه حفيد لويس الخامس عشر . »

فقال الاسقف : « انا اكره هذا الربط بين الاسماء ، يا سيدي . »

– « كارتوش أم لويس الخامس عشر ؟ على ايهما تعترض ؟ »

وران الصمت لحظة . وكاد الاسقف أن يندم على مجيئه . ومع ذلك ، فقد استشعر ان عاطفة الشفقة قد اثيرت فيه على نحو غامض لا سبيل الى تفسيره .

واردف عضو « المؤتمر الوطني » :

– « اوه، يا سيدي الكاهن! أنت لاتحبّ قسوة الحق، ولكن المسيح أحبها. لقد تناول سوطاً وطهّر الهيكل . ولقد كان سوطه البارق ناطقاً خشناً بالحقائق ؛ وهو حين قال « دعوا الاولاد يأتون الي » لم يميز بين الاطفال . انه لم

---

* Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، ولد في باريس ، وأميت على دولاب التعذيب في ساحة غريف . (١٦٩٣ – ١٧٢١)

يتألم للجمع ما بين ابن باراباس * البكر وبين ابن هيرودس ** البكر . ان البراءة هي تاجُها عينُهُ ، يا سيدي ، وليس للبراءة الا ان تعمل حتى تغدو نبيلة ! انها فخيمة في الاسمال البالية بقدر ما هي فخيمة في الغلائل الموشاة بازهار السوسن ! »

فقال الاسقف في جَرْس خفيض : « هذا صحيح . »

فتابع الرجل العجوز : « اكرر . لقد ذكرتَ لويس السابع عشر . دعنا نبكي معاً جميع الابرياء ، جميع الشهداء ، جميع الاطفال ، سواء منهم من كان وضيعاً أو من كان رفيعاً . أنا واحدٌ منهم . ولكن عندئذ ، كما سبق ان قلت لك ، يتعين علينا ان نرجع الى ما قبل عام ٩٣ ، ويتعين على دموعنا ان تبدأ قبل لويس السابع عشر . أنا مستعدٌ لأن أبكي أولاد الملوك معك ، اذا بكيت معي أبناء الشعب الصغار ! »

فقال الاسقف : « انا أبكيهم جميعاً . »

فصاح ج ... : « على قدم المساواة ! واذا رجحت كفة الميزان فليكن بكاؤك في جانب الشعب . لأن ابناء الشعب قاسوا الآلام منذ عهد أبعد بكثير . »

وران الصمت ، كرة اخرى ، ليقطعه آخر الامر عضو «المؤتمر الوطني» . لقد رفع نفسه على احد مرفقيه ، وحصر جزءاً من خدّه بين ابهامه وسبابته المثنيّة كما يفعل المرء على نحو ميكانيكي حين يستجوب أو يحاكم ، ووجّه الخطاب الى الأسقف في نظرة حافلة بطاقات النزع الاخير كلها . وكاد كلامه ذاك ان يكون انفجاراً .

— « اجل يا سيدي ، لقد قاسى الشعب الآلامَ منذ عهد أبعد بكثير . وليس هذا ، بعدُ ، هو كل شيء . لماذا جئتَ تستنطقني وتحدثني عن لويس

---

* باراباس يهودي كان قد القي به في السجن ، حين سيق يسوع الى والي « اليهودية » بيلاطس البنطي ، بتهمة القتل . حتى اذا خير بيلاطس اليهود ، لمناسبة الفصح ، بين اطلاق سراح باراباس واطلاق سراح المسيح آثروا المجرم ، على البريء . ولا يزال الاوروبيون يقولون في امثالهم الى اليوم : « فلان يفضل باراباس على يسوع . »

** ملك « اليهودية » من عام ٣٩ الى عام ٤ ق . م .

السابع عشر ؟ انا لا أعرفك . منذ ان وفدتُ على هذا الاقليم وأنا أعيش وحيداً ضمن هذه الجدران ، غير منطلق الى ما وراءها البتة ، غير مشاهدٍ احداً غير هذا الطفل الذي يساعدني . صحيح أن اسمك قد انتهى اليّ على نحوٍ مختلطٍ غامض ، وان يكن ، كما ينبغي ان اقول ، محموداً بعض الشيء ، ولكن هـذا لا يغير من الامر شيئاً . ان للمهرة من الناس اساليب كثـيرة لمخادعة هذا الشعب البسيط الطيب . فأنا ، مثلاً ، لم أسمع جَلَبَة مركبتك . ولا ريب في انـك قد غادرتها خلف الغابة ، هناك عند مَفرِقِ الطريق . لقد قلتَ لي انك كنتَ اسقفي ، ولكن هـذا لا يعطيني ايما فكرة عن شخصيتك الخُلُقية . وعلى اية حال ، فأنا اكرر سؤالي : من أنت ؟ انتَ اسقف ، أمير من امراء الكنيسة ، واحد من اولئك الرجال المثقلين بالذهب ، وأشعرة الشرف ، * والـثروة ، الفائزين بدخـل ضخم ـ دار أسقفية د .... ، خمسة عشر الف فرنك ثابتة ، وعشرة آلاف فرنك عارضة ، تبلغ في مجمـوعها خمسة وعشرين الف فرنك ـ واحـد من اولئك الرجال الذين ينعمون بمطابخ ، وبخدم وأتباع ، والذين يولمون الولائم الجيدة ، ويأكلون دجاج الماء يوم الجمعة ، والذين يتبخترون في مركباتهم المزخرفة ، كالطواويس ، يتقدمهم الخدم من أمام ، ويتبعهم الخدم من وراء ، والذين يسكنون القصور ، وينطلقون في العربات باسم يسوع المسيح الذي كان يمشي حافياً ! أنت حَبر من الاحبار . عائدات سنوية ، وقصور ، وجياد ، وخدم ، وموائد شهية ، وجميع ملذات الحياة الحسية ـ كل ذلك تملكه كما يملكه غيرك من الناس ، وكل ذلك تستمتع به كما يستمتع به غـيرك من الناس . حسن جداً ، ولكن هذا ينطق بأكثر مما ينبغي ، أو بمـا هو دون الكفاية . انه لا يلقي ضوءاً على قيمتك الذاتيـة والجوهرية ، انت الذي لا يُستبعَد ان تكون قد جئتَ الى هنا بدعوى تزويـدي بالحكمة . مع مَنْ أتحدث ؟ من انت ؟ »

---

* جمع شعار .

وحنى الاسقف رأسه وأجاب : . *Vermis sum* *

فغمغم عضو المؤتمر الوطني : « دودة ارض في عربة ! »

لقد جاء دور الرجل العجوز في الصَلَف ، ودور الاسقف في التواضع .

واجاب الاسقف في دماثة :

— « ليكن ذلك يا سيدي . ولكن اشرَحْ لي كيف تستطيع عربتي الواقفة على بضع خطوات وراء الاشجار ، ومائدتي الحافلة ، ودجاج الماء الذي أطعَمتُهُ يوم الجمعة ، ودخلي البالغ خمسة وعشرين الف ليرة ، وقصري ، وخدمي — كيف يستطيع هذا كله أن يقيم الدليل على أن الشفقة ليست فضيلة ، وأن الحلم ليس واجباً ، وان عام ٩٣ لم يكن خلواً من الرحمة ؟ »

وأمرّ عضو المؤتمر الوطني يده عبر جبينه ، وكأنه يطرد سحابة .

وقال : « قبل ان اجيبك ، ألتمس منك العفو . لقد ارتكبت خطأ ، يا سيدي . أنت في منزلي ؛ انت ضيفي . ان لك عليّ حق اللطف والبشاشة . إنك تناقش آرائي ، فمن الخير ان اقصر نفسي على دحض حججك . إن ثروتك ومتارفك هي أشياء تقوّي مركزي في مناظرتك ، ولكن حسن الذوق يقضي بأن لا أفيد منها . انا اعدك بأن لا اصطنعها كرة اخرى . »

فقال الاسقف : « أشكرك . »

وتابع ج .... : « لنعد الى الشرح الذي سألتني إياه . اين كنا ؟ ما الذي كنت تقوله لي ؟ ان عام ٩٣ كان خلواً من الرحمة ؟ »

فقال الاسقف : « اجل ، خلواً من الرحمة . ما قولك في مارا ** يصفق لدى المقصلة ؟ »

— « وما قولك في بوسوويه *** ينشد تسبحة الشكر فوق مجازر

---

* تعبير لاتيني معناه : أنا دودة .

** Marat احد زعماء الثورة الفرنسية . كان عضواً في « المؤتمر الوطني » شديد الوطأة على الجيروندنيين ، وعلى الملك لويس السادس عشر يوم محاكمته . مات قتلاً بطعنة سددتها اليه شارلوت كورداي . (١٧٤٣ — ١٧٩٣)

*** Bossuet اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه التي تعتبر آية في البلاغة . (١٦٢٧ — ١٧٠٤)

« الدراغوناد » * ?

كان الجواب قاسياً ولكنه اصاب هدفه بمثل مضاء الخنجر . وارتعد الاسقف ، ولم يحر جواباً . ولكن صدمه الحديث عن بوسوويه على هذه الشاكلة . والواقع ان لأكرم الناس اوثانهم التي يعبدونها ، وانهم ليشعرون في بعض الاحيان ان قلة الاحترام التي يبديها المنطق نحو تلك الاصنام تكاد تسحقهم سحقاً .

وشرع عضو «المؤتمر الوطني» يلهث . كان بهر النزع الذي يمتزج بالنفس الاخير قد جعل صوته متقطعاً خافتاً . ومع ذلك فقد كانت عيناه ما تزالان تؤذنان بصحو كامل . وتابع :

– «لنقل بضع كلمات اخرى في هذا الموضوع او ذاك – انا ارغب في ذلك . ففي خارج الثورة التي كانت ، اذا نظر اليها ككل ، توكيداً انسانياً ضخماً ، يعتبر عام ٩٣ ، واأسفاه ، هو الجواب الاخير . انت تعتبره خلواً من الرحمة ، ولكن ما قولك في الملكية كلها ، يا سيدي ؟ لقد كان كاربيه ** قاطع طريق ، ولكن اي اسم تطلقه على مونتروفيل ؟ وكان فوكييه تينفيل *** صعلوكاً ، ولكن ما رأيك في لاموانيون بافيل ؟ **** وكانت مايار ***** مروعة ،

* لفظ يطلق على حركة الاضطهاد التي انزلت ببروتستانت فرنسة الجنوبية قبل براءة « نانت » وبعدها ، والتي نظمها فرسان الملك المعروفون بالـ « دراغون » dragons ، ومعناها في الاصل التنين . (١٦٨١ – ١٦٨٥)

** Carrier احد اعضاء « المؤتمر الوطني » . ارتكب فظائع مروعة في نانت . وقد اعدم عام ١٧٩٤ .

*** Fouquier - Tinville هو النائب العام في المحكمة الثورية . وكان يزود المقصلة ، في عهد الارهاب ، بسيل من الضحايا لا ينضب . اعدم سنة ١٧٩٥ .

**** Lamoignon Baville محافظ مونبلييه ، اشتهر بقسوته في اضطهاد البروتستانت (١٦٤٨ – ١٧٢٤)

***** Stanislas - Marie Maillard ثائرة فرنسية شهيرة شاركت في الاستيلاء على الباستيل وفي مجازر ايلول . (١٧٦٣ – ١٧٩٤)

ولكن اي شيء تقوله في سولكس تافان * من فضلك ؟ وكان « الاب دوشين »** ضارياً ، ولكن اي صفة يمكن ان نخلعها على « الاب لوتيلييه » ؟ *** وكان جوردان قاطع الرؤوس **** غولاً ، ولكنه كان دون المركيز دو لوفوا ***** وحشية . يا سيدي ، ياسيدي ، أنا آرثي لماري أنطوانيت ، بوصفها كبيرة الدوقات وملكة ، ولكني ارثي ايضاً لتلك المرأة الهوغونوتية ****** البائسة التي جُرّدت من ثيابها حتى الحصر ، يا سيدي ، سنة ١٦٨٥ ، وفي عهد لويس الكبير ******* ، وشُدّت الى وتد وقد حُمِل رضيعها على مسافة منها ، وتفجر ثديها لبناً ، وتفطّر قلبها أسىً . حتى اذا وقعت عينا الرضيع ، الجائع الشاحب ، على الثدي ، بكى بكاء مريراً . فقال الجلاد للمرأة ، للأم المرضعة : « ارتدّي عن دينك ! » مخيّراً اياها بين موت طفلها وموت ضميرها . ما قولك في هذا التعذيب التانتاليّ ******** يُنزَل بأمّ ؟ يا سيدي ، لا تنسَ هذا : إن للثورة الفرنسية اسبابها . إن المستقبل سوف يغفر لها غضبها . أما نتيجتها ، فهي العالم الافضل . ومن ضرباتها الأشد فظاعة تنبثق

* Saulx Tavannes مارشال فرنسة (١٥٠٩ – ١٥٧٣) وكان من منظمي مذبحة القديس برتيلماوس الشهيرة والموحين بها .

** Le Père Duchesne هو الاسم المستعار لـ « هيبر » احد زعماء الثورة الفرنسية وكان يصدر بهذا الاسم صحيفة امتازت بعنفها المتناهي فيه . (١٧٥٧ – ١٧٩٤)

*** Le Tellier كاهن يسوعي كان آخر مرشد للويس الرابع عشر (١٦٤٨ – ١٧١٩) .

**** Jourdan Coupe - Tête احد ارهابي « البروفانس » البارزين . وقد أعدم سنة ١٧٩٤ .

***** de Louvois سياسي فرنسي نظم جيش لويس الرابع عشر وانزل بالبروتستانت افظع الاضطهاد . (١٦٤١ – ١٦٩١)

****** يقصد بالهوغونوت Huguenote بروتستانت فرنسة .

******* لويس الرابع عشر ، وقد حكم فرنسة من سنة ١٦٤٣ الى سنة ١٧١٥

******** نسبة الى « تانتال » أو تانتالوس Tantalus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية ملك غني ، ابن زيوس وابو « بيلوبس » و « نيوب » . وعقاباً له على افشائه اسرار زيوس غُطس حتى ذقنه في الماء وقد تدلت فوق رأسه الثمار اليانعة ولكن كلّاً من الماء والفاكهة كان يفر منه كلما حاول ان يذوقه .

ملاطفةً للجنس البشري . يجب ان اوجز . يجب ان اصمت . لقــد منحت لي فرصة ملائمة لذالك . إني اموت . »

واذ كفّ الرجل العجوز عن النظر الى الاسقف ، أتمّ فكرته بهذه الكلمات القليلة الهادئة :

— « أجل ، إن فظائع التقدم تدعى ثورات . حتى اذا انتهت ادركنا هذا : أنّ الجنس البشري قــد عومل في قسوة ، ولكنه تقدم شوطــاً الى أمام . »

ولم يشكّ عضو «المؤتمر الوطني» في أنه دكّ حصون الاسقف الداخلية كلها ، واحداً اثر واحد . بيد انه بقي ثمة حصن مُفرَد ؛ ومن هذا الحصن الذي كان مصدر المقاومة الرئيسي عند مونسينيور بيينفينو ، انطلقت هـذه الكلمات التي برزت فيها من جديد قسوة الاستهلال كلها تقريباً :

— « يتعين على التقدم ان يؤمن بالله . والخير لا يمكن ان ينهض به رجل ملحد . إن الكافر قائد رديء للجنس البشري . »

ولم يجب ممثل الشعب العجوز . كان يرتعد . كان يرنو الى السماء . وشيئاً بعد شيء تجمعت في عينه دمعة . حتى اذا امتلأ الجفن تدحرجت الدمعة عــلى خده الازرق الضارب الى السواد ، وقال في ما بينه وبين نفسه بصوت خفيض يــكاد يكون متلجلجاً ، وقد تاهت عينه في الأعماق :

— « ايه أنت ! أيها المثل الأعلى ! أنت وحدك الموجود ! »

واستشعر الاسقف ضرباً من الانفعال الذي لا يُعبّر عنه .

وبعد صمت قصير رفع الرجل العجوز احدى اصابعه الى السماء وقال :

— « اللانهاية موجودة . إنها هناك . واذا لم يكن للاّنهاية « انا » ، فعندئــذ تكون الـ « انا » تَخْتُمُها ؛ وعندئذ لا تكون لا نهاية . وبكلمة اخرى ، إنهــا لا تكون موجودة . ولكنها موجودة . وإذن فأن لها « انا » . و « انا » اللانهاية هذه هي الله . »

لقد نطق الرجل المحتضر بهذه الكلمات الاخيرة في صوت عالٍ ، وفي رِعدة

الغيبوبة وكأنما كان يرى احداً . حتى اذا فرغ من قولها اغتمضت عيناه . كان الجهد قد أنهكه . وكان واضحاً أنه عاش في دقيقة واحدة تلك الساعات القليلة التي بقيت له . كان الكلام الذي نطق به قد قرّبه الى عالم الموت . لقد حانت اللحظة الاخيرة .

وادرك الاسقف ذلك ؛ وزَحَمَتْهُ اللحظة . لقد أقبل الى هنا بوصفه كاهناً . وكان قد انتقل شيئاً بعد شيء من اقصى البرود الى اقصى الانفعال . ورنا الى تينك العينين المغمضتين ، وأمسك بتلك اليد المتغضنة الثلجية وانحنى نحو الرجل المحتضر .

— « هذه الساعة هي ساعة الله . ألا تظن أنّ من دواعي الاسف أن يُقَدَّر للقائنا ان يكون عبثاً لا طائل تحته ؟ »

وفتح عضو « المؤتمر الوطني » عينيه كرةً اخرى . كانت الرصانة قد انطبعت على محياه حيث خيّمت سحابةٌ من قبل .

وقال في تمهّل لعله نشأ عن كبرياء نفسه أكثر مما نشأ عن خَوَرٍ في القوى :

—« يا سيدي الاسقف ، لقد قضيت حياتي في التفكّر ، والدرس ، والتأمل . ولقد كنت في الستين من عمري حين دعتني بلادي وأمرتني بان اشارك في شؤونها . ولقد امتثلتُ الأمر . كان ثمة مساوىء ، فحاربتُها . وكان ثمة ضروب من الطغيان ، فحطمتُها . وكان ثمة حقوق ومبادىء ، فأعلنتُها وصرّحتُ باعتقادي بها . لقد غُزِيت الارض الفرنسية ، فدافعتُ عنها . لقد هُدّدت فرنسة بالخطر ، فقدّمتُ لها صدري . أنا لم اكن غنياً ؛ أنا فقير . لقد كنتُ واحداً من المهيمنين على مقاليد الدولة ، وكانت أقبية المصرف مثقلةً بالاموال بحيث تعيّن علينا ان ندعّم الجدران وإلا سقطتْ تحت وطأة الذهب والفضة . كنت اتناول طعام الغداء في شارع دو لاربر سيك باثنين وعشرين « سو » * للوجبة الواحدة . لقد أغثتُ المظلومين ، وواسيت المعذّبين . لقد مزّقتُ غطاء المذبح ، هذا صحيح ، ولكني فعلتُ ذلك لكي أضمّد جراحات الوطن . لقد أيّدتُ ابداً

* الـ « سو » sou جزء من عشرين من الفرنك .

سيرَ الجنس البشري نحو النور، وقاومتُ، في بعض الاحيان، تقدماً لا ينطوي على رحمة . لقد أسبغت حمايتي ، في بعض المناسبات ، على اعدائي انفسهم ، يعني على اصدقائك . وفي بيتيفهام من اعمال الفلاندر ، في ذلك المكان عينــــه الذي نهض فيه قصر الملوك الميروفنجيين * الصيفي ، يقوم دير الاوربانيين - دير القديس كلير في بوليو - الذي أنقذتهُ عام ١٧٩٣ . لقد قمتُ بواجبي على قدْر طاقتي وقَدْر الخير الذي وُفّقت اليه . وبعد ذلك طوردتُ ، ولوحقتُ ، واضْطُهِدتُ ، وطُعِنَ عليّ ، وهُزِيء بي ، وأُهِنْتَ على نحو علنيّ ، ولُعنت ، ونُبذت . ومنذ سنوات عديدة ، وبعد ان اشتعل رأسي شيباً ، وانا احسّ بأن كثيراً من الناس يؤمنون بأن لهم الحقّ في احتقاري ، وان الجماهير الفقيرة الجاهلة ترى في وجهي وجهاً لعيناً ، ومع ذلك فقد ارتضيتُ - غيرَ مبغض انساناً ما - عزلةَ البغض . وها انا ذا الآن في السادسة والثمانين . إني على وشك ان أموت . فمـــا الذي جئتَ تسألني اياه ؟ »

فقال الاسقف : « جئت اسألك بركتك ! »

وركع على ركبتيه .

وحين رفع الاسقف رأسه ، كان وجه الرجل العجوز قد غدا جليلاً . لقد قضى نحبه .

وانقلب الاسقف الى داره مستغرقاً في التفكير، فقضى الليل كله وهو يصلي . وفي اليوم التالي حاول بعض الفضوليين الجسورين ان يحدّثوه حـــديث عضو « المؤتمر الوطني » ج ... فاكتفى بأن أشار الى السماء .

ومنذ تلك اللحظة ضاعف حنانه وحبه الاخوي للمستضعفين والمعذبين .

كانت كل اشارة الى « ج ... ذلك الوغد العجوز » تلقيه في خضمّ من القلق العجيب . وما كان في ميسور احد ان يقول ان صعود تلك الروح الى بارئها قبل روحه هو ، وانعكاس ذلك الضمير المعظم على ضمـــيره هو ، لم يكن لهما اثرٌ في

* السلالة الميروفنجية Mérovingien هي اول سلالة مالكة حكمت في فرنسة ، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى ملك الفرنجة ميروفيه Mérovée (وقد حكم من عام ٤٤٨ الى عام ٤٥٨) وكان آخر ملوكها تشيلديريك الثالث الذي خلع عن العرش سنة ٧٥٢ للميلاد .

اقترابه من الكمال .

وكانت « الزيارة الرعائية » ، طبعاً ، مناسبة متلائمة مكّنت الدساسين الصغار من النقد والتعريض .

- « أيليق بأسقف ان يجلس الى جانب فراش رجل مثل هذا ؟ انه ما كان ليتوقّعَ أن يردّ ذلك الرجل الى الايمان ، طبعاً . ان جميع هؤلاء الثوريين ساقطون وقعوا في الهرطقة مرة ثانية . واذن ، فأيّ فائدة في الذهاب الى هناك ؟ ايّ شيء كان يبتغي ان يراه هناك ؟ لا شك في انه كان شديد الفضول الى ان يرى كيف يتخطّف الشيطان روحاً من الارواح ! »

وذات يوم وجهت اليه ارملةٌ موسرة من ذلك النوع الذي يظنّ في نفسه الظرفَ وخفة الروح ، هذه الدعابة : « إن الناس ليتساءلون ، متى ستعتمر سيادتكم قلنسوة حمراء ؟ » * فأجاب الاسقف : « أوه ! أوه ! هذا لون رفيع . ومن حسن الطالع ان اولئك الذين يزدرونه في قلنسوة ، يُجلّونه في قبعة ! »

١١
تحفظ

نُخدع كثيراً اذا استنتجنا من هذا ان مونسينيور بيينفينو كان « فيلسوفاً أسقفاً » أو « وطنياً كاهناً » . إن اجتماعه بعضو « المؤتمر الوطني » — الذي كان ضرباً من الشركة الروحية تقريباً — تركهُ في حال من الذهول زادته رقة وحباً للخير . هذا كل ما هنالك .

وعلى الرغم من ان مونسينيور بيينفينو كان أيما شيء إلا رجلاً من رجال السياسة ، فلعل من الخير ههنا ان نحدّد ، في ايجاز كثير ، موقفه من احداث

* كانت القلنسوة الحمراء هي غطاء الرأس الذي اعتمر به أنصار الثورة الفرنسية المقدّمون ، وكانت تعتبر رمز الحرية .

العصر ، اذا كان لنا ان نفترض ان مونسينيور بيينفينو فكر في ايما يوم من الايام بأن يكون له موقف من تلك الاحداث .

من اجل ذلك يتعيّن علينا ان نرجع بضع سنوات الى الوراء .

لم تنقض فترة قصيرة على رفع مسيو ميرييل الى مقام الاسقفية حتى جعله الامبراطور باروناً من بارونات الامبراطورية ، كما جعل عدداً آخر من الاساقفة في الوقت نفسه . وتم القاء القبض على البابا ، كما هو معروف ، ليلة السادس من تموز سنة ١٨٠٩ . ولهذه المناسبة دعا نابوليون مسيو ميرييل الى مجمع اساقفة فرنسة وايطالية في باريس ، وعقد المجمع في كاندرائية نوتردام ، وافتتحت اعماله في الخامس عشر من حزيران سنة ١٨١١ برئاسة الكاردينال فيش . كان مسيو ميرييل واحداً من الاساقفة الخمسة والتسعين الذين شهدوا المجمع . ولكنه لم يشارك إلا في جلسة واحدة ، وفي ثلاثة او اربعة من الاجتماعات الخاصة . كان اسقف ابرشية جبلية ، وكان يحيا على مقربة من الطبيعة في غمرة الخشونة والأملاق . من اجل ذلك بدا وكأنه يحمل بين هاته الشخصيات الساطعة افكاراً غيّرت حرارة المجمع . فما كان منه الا ان انقلب وشيكاً الى د ... وحين سئل عن هذه العودة المفاجئة أجاب :

« لقد ازعجتهم . ان الهواء الطلق دخل الى مجمعهم حين دخلت . لقد تركت فيهم الاثر نفسه الذي يتركه الباب المفتوح . »

وفي مرة اخرى قال :

«ماذا تريدون ؟ هؤلاء الاساقفة امراء . أما انا فلست غير اسقف ريفي فقير . »

والحق انهم كانوا يبغضونه . وكان من بين الاسباب الغريبة التي حملتهم على ذلك أنه لم يتمالك عن ان يقول ذات ليلة دُعي فيها الى منزل احد زملائه من أولي المكانة العليا :

— ويا لها من ساعات جدارية رائعة ! يا له من سجاد رائع ! يا لها من ثياب خدَمٍ رائعة ! ينبغي ان يكون هذا كله أنفى للرفهِ والسعادة ! اوه ! ما أشد نفوري

من ان املك هذه الكماليات كلها ، التي تصرخ ابداً في اذني : إن هناك اناساً يجوعون ! إن هنـــاك اناساً يرتجفون من البرد ! إن هناك فقراء ! إن هناك فقراء ! »

وينبغي ان نقول، بالمناسبة، ان بغض الترف ليس بغضاً حصيفاً. إنه ينطوي على كراهية للفنون . ومع ذلك فالترف جريمة عند رجال الدين، خارج طقوسهم واحتفالاتهم . إنـــه يبدو وكأنما يكشف عن عادات ليست خيرية حقاً . إن الكاهن الموسر هو في ذاته تناقض . ان عليه ان يظل قريباً من الفقير ؛ ومن ذا الذي يستطيع ان يحتك آناء الليل واطراف النهار بضروب الشقاء كلها ، وضروب البؤس كلها ، وضروب الحرمان كلها من غير ان يعلق بـه قليل من ذلك الفقر المقدس ، وكأنه غبار العمل ؟ هل تستطيع ان تتخيل رجلاً يجلس الى النار ثم لا يحس بالدفء ؟ هل تستطيع ان تتخيل عاملاً يشتغل على نحو موصول امام فرن من الافران ولم تحترق شعرة من شعره، او يسود ظفر من اظفاره ، أو تتدحرج على خده قطرة من عرق ، أو تعلُ وجهه ذرة من رماد ؟ ان اول البراهين على تمتع كاهن ما ، او اسقف ما على وجه الخصوص ، بالمحبة ، هو الفقر.

وليس من شك في ان اسقف د . . . كان ينظر الى الاشياء عـــلى هذا الضوء .

بيد أنه يتعين علينا ان لا نحسب ان الاسقف شارك في المسائل الدقيقة التي يمكن ان تدعى «فكرات العصر» . إنه ما كان ليتدخل الا قليـــلاً بمنازعات الساعة اللاهوتية ؛ وكان يلتزم الصمت في كل مسألة تنتهي فيها الدولة والكنيسة الى تسوية . أما اذا ألححت عليه الحاحاً شديداً فعندئذ كنت تجـــده ايطالياً * اكثر منه غلـّيكانياً **

وإذ كنا نرسم ههنا صورة فنية لشخص ، وليس في نيتنا أن نخفي شيئاً ما ، فنحن مضطرون الى ان نضيف أنه كان بارداً نحو نابوليون يوم جنـــح نجمه الى

---

* المراد بالايطالي هنا الذي يدين بالولاء للبابوية .

** Gallican وهو من ينادي بالولاء لكنيسة فرنسة .

الافـــول . وابتداء من عام ١٨١٣ أخذ يشايع جميع المظاهرات العدائية او يصفق لها . لقد رفض ان يراه في طريق عودته من جزيرة ألبا * ، واحجم عن أن يصدر الأمر في ابرشيته باقامة الصلوات العامة من اجل الامبراطور خلال «الايام المئة» **

وكان له الى جانب أخته الآنسة باتيستين أخوان اثنان ، احدهما جنرال ، والاخر محافظ . وكان يكتب الى كل منهما بين الفينة والفينة . لقـــد استشعر شيئاً من الفتور نحو الاول ، لأنه كان يتولى قيادة قوة من الجيش في بروفانس ، يوم اقتحم نابليون البرّ الفرنسي عند «كانّ» ، فما كان من الجـــنرال إلا ان وضع نفسه على رأس الف ومئتي مقاتل وتعقّب الامبراطور وكأنــه راغبٌ في ان يفسح له في مجال الهرب . أما رسائله الى اخيه الآخر ، المحافظ السابق ، وكان رجلاً شجاعاً فاضلاً يحيا بمعزل عن النـــاس في شارع كاسيت بباريس ، فكانت أحفل بالمودة والعاطفة .

وحتى مونسينيور بيينفينو غلبت عليه آنذاك النزعة الحزبيـــة ، وكانت له أحزانه وغيومه . لقد طاف ظلُّ اهواء الساعةِ وشهواتها بهذا القلب الكبـــير الرقيق المنصرف الى الاشياء الازلية . وليس من ريب في ان رجلاً مثل هـذا خليقٌ بـه ان يتجرّد عن الآراء السياسية . ولا يُسيئنّ احدٌ فكرتنـا . فنحن لا نخلط ما بين هذا الذي يدعى «آراء سياسية» وبين الطموح العارم الى التقدم ، والايمان الوطني الديموقراطي الانساني الرفيع الذي ينبغي ان يكون في ايامنـا هذه أسّ كل ذكاء سخيّ . ومن غير ان نتعمّق مسائلَ لا تمسّ موضوع هذا الكتاب إلا مسّاً مداوراً نقول بكل بساطة : كان خيراً لمونسينيور بيينفينو لو

---

* هي جزيرة ايطالية صغيرة في البحر الابيض المتوسط ، وتقع شرقي كورسيكة . وكان نابوليون قد نفي اليها عام ١٨١٤

** Les Cent - jours هي الفترة الممتدة ما بين ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ ، يوم رجع نابوليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران من العام نفسه يوم تنازل عـــن العرش للمرة الثانية . وقد تميزت هذه الفترة بالدستور الجديد ذي النزعات المتحررة الذي اعلنه نابوليون في مستهلها ، وبحملة بلجيكا ، وهزيمة واترلو .

انه لم يكن ملكيّ الهوى ، ولو ان عينيه لم تنصرفا قطّ لحظةً واحدة عن ذلك التأمل الساجي حيث نرى في وضوح ، فوق اوهام هذا العالم واحقاده ، فوق مدّ الشؤون البشرية وجزرها ، هذه الكواكب الثلاثةَ الصافيةَ ، المرسلةَ إشعاعاتها على نحو موصول : الحق ، والعدل ، والمحبة .

ومع أننا نُقرّ بأن الله لم يخلق مونسينيور بيينفينو لمهمة سياسية فقد كان خليقاً بنا ان نفهم ونُكبِر احتجاجاً يُطلقه باسم الحق والحرية ، ومعارضةً ضارية ومقاومة عادلة وخطرة يوجّهها الى نابوليون يوم كان كليّ القدرة . ولكنّ ما يرضينا إزاء اولئك الراقين سلّم المجد يكون اقلّ إرضاءً لنا إزاء اولئك الساقطين عن تلك السلّم . إننا لا نُعجب بالقتال حين لا يكون ثمة خطر ، وفي مختلف الاحوال فأن مقاتلي الساعة الاولى لهم وحدهم الحق في ان يكونوا هم المهلكين في الساعة الاخيرة . ومن لم يكن متهماً ضارياً اثناء الرخاء يجب ان يصمت عند الانهيار . إن ذلك الذي يشجب النصر في إبانه له وحده الحقّ في ان يعلن عدالة السقوط . أما نحن فحين تدخلت العناية الالـهية وضربت ضربتها فقد احجمنا عن القيام بأي عمل . إن سنة ١٨١٢ بـدأت في تجريدنا من السلاح . وفي سنة ١٨١٣ لم يكن قطعُ حبل السكوت الجبانُ من قِبَل تلك الهيئة التشريعية الصموت التي شدّدت الكوارث من عزائمها – لم يكن ذلك الصنيع جديراً بشيء غير السخط ، وكان من الاثم التصفيق له . وفي سنة ١٨١٤ ، أمام هؤلاء المارشالات الخونة ، وامام مجلس الشيوخ ذاك المتنقّل من خسامة الى خسامة ، لاعناً بعد أن قدّس وألّهَ ، وأمام عابدي الاصنام هؤلاء ، المرتدّين على اعقابهم ، الباصقين على آلهتهم ، كان واجباً على المرء أن يشيح بوجهه في اشمئزاز . وفي سنة ١٨١٥ حين كان الجوّ عابقاً بالنكبات النهائيةَ ، وحين كانت فرنسة تستشعر قشعريرةَ اقترابها المشؤوم ، وحين كان في امكان المرء ان يرى على نحو ضبابي ساحة واترلو تنبسط امام نابوليون ، فأن ما وجّهه الجيش والشعب من دعاء موجع الى من اصدر القدر حكمه عليه لم يكن ينطوي على شيء مضحك . ومع إبداء مختلف ضروب التحفظات في ما يتصل بالطاغية ، فلعلّ قلبـاً مثل قلب استف د ...

ما كان ينبغي له أن يُنكر كل ما هـو جليل ومؤثـّر — عند سفير الهاوية — في العناق الاخير بين امة عظيمة ورجل عظيم .

وعلى الجملة ، فقد كان ابداً وفي كل شيء منصفاً ، صادقاً ، عادلاً ، ذكياً ، متواضعاً ، فاضلاً ، جواداً، عطوفاً ، وما العطف غير ضرب من الجود . كان كاهناً ، وحكيماً ، ورجلاً . وهنا يتعيّن علينا ان نقول إنه حتى في تلك الآراء السياسية ، التي انتقدناها آنفاً والتي نجد أنفسنا عرضة ً لأن ندينهـا في عنف تقريباً ، كان متسامحاً سهل الخليقة ، ولعل حظه من هاتين الخصلتين ان يكون اوفر من حظنا نحن ، الذين نتحدث الآن . كان بواب « القاعة البلدية » قد أقيم هناك بأمر من الامبراطور . كان ملازماً قديماً في « الحرس القديم » ، وحاملاً وسام جوقة الشرف لابلائه في موقعة اوسترليتز * بلاءً حسناً ، وبونابرتياً صميماً كالنمر . وكانت تند ّ من هذا الرجل المسكين في بعض الاحيان ، من غير ما تفكير ، أقوال كان القانون يعتبرها في ذلك الحين تحريضاً على الفتنة والعصيان . ومنذ ان غاب وجه الامبراطور الجانبي عن وسام جوقة الشرف كفّ عن تزيين صدره بذلك الوسام لكي لا يُضطر ، كما قال ، ان يحمل صليبه . وبدافع من ولائه ازال هو نفسه الرسم الامبراطوري عن الصليب الذي منحه نابوليون إياه. ولقد احدث ذلك فجوة ً في الوسام ، ولكنه أبى ان يضع شيئاً مكانه . كان يقول : « **انا اؤثر ان أموت على ان أحمل الضفادع الثلاث فوق قلبي** » . وكان يسخر دائماً ، وعلى نحو علني ّ ، من لويس الثامن عشر . فهو يقول : « **ذلك العجوز المبتلى بداء المفاصل وساقيّه الانكليزيتين ! دعه يذهب الى بروسية بلحيته المشبهة نبات لحية التيس !** » سعيداً بأن يجمع في السخرية الواحدة بين الشيئين اللذين كانا أبغض الاشياء إلى نفسه : بروسية وانكلترة . ولقد أكثر من مثل هذا الكلام حتى خسر وظيفته . فاذا هو جائع الى الخبز ، طريح الشارع

* Austerlitz الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها في هذه المدينة من مدن مورافيا (٢ كانون الاول سنة ١٨٠٥) والتي هزم فيها نابوليون جيوش النمسويين والروس . وقد دعيت معركة اوسترليتز « معركة الاباطرة الثلاثة » لان اباطرة فرنسة ، والنمسا ، والروسيا اشتركوا فيها جميعاً .

مع زوجته وأولاده . فما كان من الاسقف إلا ان دعاه ، فرجّه بعض الشيء ، وجعله بواباً للكاتدرائية .

لقد كان مسيو ميرييل في الابرشية هو الراعي الحقّ . كان صديقاً للجميع .

وفي مدى تسع سنوات ، وبفضل سلسلة موصولة من العمل الصالح والخلق الرفيع ، وفّق مونسينيور بيينفينو الى ان يملأ مدينة د ... بضرب من التوقير البنوي الرقيق . حتى موقفهُ من نابوليون لقي قبولاً ومعذرة لدى الناس ، وهم قطيع طيب مستضعَف يعبد امبراطوره ، ولكنه يحبّ أسقفه .

١٢
عزلة مونسينيور بيينفينو

يكاد يجتمع حول أيما اسقف جمهرة من الرهبان الشباب كما تجتمع حول ايما جنرال كوكبة من الضباط الشباب . إنهم اولئك الذين دعاهم القديس فرانسوا دو سال * الفاتن ، في مكان ما ، « الكهان الأغرار » . ذلك بأن ثمة في كل مهنة أو سلك فئةً من الطامحين تحوم حول اولئك الذين انتهوا الى القمة . فليس من سلطة إلا ولها بطانتها ، وليس من ثروة إلا ولها بلاطها . والباحثون عن المستقبل يسبحون في فلك الحاضر الزاهي . ولكل عاصمة ، شأنَ كل قائد عسكري كبير ، أركان حربها . كذلك لكلّ اسقف ذي سلطان حَشَدُهُ من طلاب المعاهد الكهنوتية : كروبيّون ** يطوّفون هنا وهناك ويقرّون النظام في القصر الاسقفي ، ويحرسون ابتسامة صاحب السيادة . إن الفوز برضا الاسقف قَدَمٌ في الركاب الموصل الى مرتبة نائب شماس . وان على

* de Sales اسقف جنيف (١٥٦٧ — ١٦٢٢) ومؤلف « مقدمة الى حياة التقوى » و « رسالة في الحب الالهي » . وقد اسس مع القديس جان دو شانتال « رهبانية زيارة العذراء » .

** الكروبيون سادة الملائكة او المقربون منهم . واحدهم كروب .

المرء ان يشق طريقه بنفسه . إن الدعوة الرسولية لا تستخف أبداً بمنصب الكاهن القانوني .

وكما ان في بعض المواطن الاخرى أعياناً أولي سلطان ، كذلك نجد في الكنيسة مطارين ذوي تيجان . إنهم الاساقفة المتأنقون المقبلون على الدنيا ، الاغنياء ذوو الموارد ، اللبقون ، الفائزون برضا المجتمع الراقي ، الذين يعرفون كيف يصلّون – من غير شك – ولكنهم يعرفون ايضاً كيف يسألون الناسَ ان يُسدوا اليهم يداً ؛ الجاعلون من أنفسهم بلا تردّد قنطرةَ التقدّم في ابرشية بكاملها ، وصلة الوصل بين المَوْهف * والديبلوماسية . إنهم رؤساء أديار اكثر منهم كهاناً ، وأحبار اكثر منهم اساقفة . وسعيد هو الشخص الذي يوفق الى الاقتراب نحوهم . وبوصفهم رجالاً ذوي سلطان ، فأنهم يمطرون أهليهم وذوي الحظوة عندهم وجميع اولئك الشبان الذين يوقعون الرضا في نفوسهم أبرشيات بدينةً ، ورواتبَ ، ورئاسات شمامسة ، ومهام كاتدرائية ، وكلها خطوات نحو المراتب الاسقفية . وهم اذ يتقدمون في معارج الرقيّ يقدّمون الكواكب الدائرة في فلكهم ؛ ذلك نظام شمسيّ كامل ممعن في الدوران . إن اشعة مجدهم تصبغ حاشيتهم بلون الارجوان . وإن رخاءهم يوزع فتاته على القائمين خلف الكواليس ، على شكل ترقيات صغيرة مستملحة . وكلما كانت أبرشية الوليّ اعظم كانت وظيفة القس المسندة الى واحد من المقرّبين أعظم وأخطر . واخيراً فهناك رومة . ذلك بأن الاسقف الذي يعرف كيف يصبح رئيس اساقفة ، ورئيس الاساقفة الذي يعرف كيف يصبح كاردينالاً يستطيعان ان يقوداك الى مجمع الكرادلة . ** إنك تدخل الى الروتة ، *** وترتدي الباليوم ، **** وإذا بك في عداد النظارة ، واذا بك حاجباً من حجاب البابا ،

* الموهف (السكرستيا) الغرفة الخاصة بالاواني والاثواب الكنسية .
** الذي ينعقد لانتخاب البابا .
*** Rota او الـ Sacra Romana Rota (الروتة الرومانية المقدسة) وهي محكمة اكليركية في رومة .
**** الباليوم طيلسان الاساقفة .

واذا بك مونسينيور ؛ وليس بين « السيادة » و « النيافة » * غير خطوة واحدة، وليس بين « النيافة » و « القداسة » ** غير دخان اقتراع . إن كل قلنسوة تستطيع ان تحلم بتاج البابوية . والكاهن هو الرجل الوحيد ، في ايامنا هذه ، القادر على ان يصبح بصورة نظامية ملكاً . واي ملك ! الملك الاعظم ! وإذن فأعظِمْ بالمعاهد الاكليركية مغارسَ للمطامح . فما اكثر غلمان الكورس الحجلين، وما اكثر الكهان الشباب الحاملين على رؤوسهم اناء بيريت *** الحافل باللبن ! ومن يدري ؟ فما أيسر ما يختبيء الطموح خلف الحياة الرهبانية ، وقد يكون ذلك عن حُسن نية ، ويخدع نفسه مهما تظاهر بالتقى والورع !

والحقّ ان مونسينيور بيينفينو ، المتواضع ، الفقير، ذا المسالك الغريبة ، ما كان ليُعَدّ من المطارين المتوجين . وإنما كان ذلك واضحاً من عدم تحلّق الكهان الشباب حوله . ولقد رأينا من قبل ان بضاعته لم تَرُجْ في باريس . ان اي مستقبل زاهر لم يفكر ذات يوم في ان يلقح نفسه بالاتصال بهذا العجوز المتوحد . ولم يكن ثمة طموح غض العود هو من الحماقة بحيث يلتمس النضج في ظله . كان

* « صاحب النيافة » هو لقب الكاردينال . والمراد انه ليس بين الاسقف والكاردينال غير خطوة واحدة .

** « صاحب القداسة » هو لقب البابا .

*** Perrette هو الاسم الذي اطلقه لافونتين على بطلة مَثله fable : « الحلاّبة واناء اللبن . » التي قصدت الى المدينة ، حاملة إناءها على رأسها وأنشأت تفكر بثمن اللبن ، وتحلم بالثروة . وبأنها سوف تشتري مئة بيضة ، وخنزيراً تربيه ، ثم تبيعه من جديد ، وتشتري بقرة ... وفجأة زلت بها القدم ، وسُفح اللبن على الارض ، وتبددت الاحلام . ولا يزال اسم « بيريت » الى اليوم علماً على الحالمين و « بناة القصور في اسبانية » الذين يرون الى مشاريعهم تنهار لاقل حادث . وهي تذكّر في ادبنا العربي بحكاية الناسك الذي كان يجرى عليه من رجل تاجر ، في كل يوم ، رزق من السمن والعسل ، فكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرة ، فيعلقها في وتد ، في ناحية البيت ، حتى امتلأت ... الخ الخ ... وقد رواها ابن المقفع في « كليلة ودمنة » وقد تكون هي الاصل لمثل لافونتين هذا .

كهانه القانونيون ونوّابه الاسقفيون كلهم رجالاً صالحين عالي السنّ ، أجلافاً بعض الشيء مثلهُ ، مطوّقين مثله بجدران تلك الابرشية التي كانت خلواً من طريق تؤدي الى مقام الكاردينالية . وكانوا يشبهون اسقفهم ، مع هذا الفارق ، وهو انهم انتهوا ، على حين انه اكتمل . وكانت استحالة الترقي في ظل مونسينيور بيينفينو واضحة الى حد جعل الشبان الذين رسمهُم هولا يكادون يغادرون المعهد الاكليركي حتى يلتمسوا توصية الى رئيس اساقفة ايكس ، او رئيس اساقفة اوش ، وينطلقوا على جناح السرعة ليقدّموها إليهما . ذلك بأن الرجال — ونكرّر ذلك — يحبون الارتقاء في سلم الوظيفة . والقديس الممعن في انكار الذات لا يعدو ان يكون جاراً خطراً . انه قد ينقل اليك من طريق العدوى ، فقراً لا برء منه ، وتخشّباً في المفاصل الضرورية للتقدّم . وعلى الجملة فقد ينقل اليك مقداراً من الزهد اكثر مما ترغب فيه . فغير عجيب ان يفر الرجال بأنفسهم من هذه الفضيلة المعدية . ومن هنا هذه العزلة التي وسمت حياة مونسينيور بيينفينو . اننا نعيش في مجتمع كئيب . « إنجح » ، تلك هي النصيحة التي تسقط قطرة إثر قطرة من الفساد الجثيم علينا .

وفي ميسورنا ان نقول ، بالمناسبة ، إن النجاح شيء بشع مخوف . إن ما بينه وبين الكفاءة من شبه زائف خليق به ان يخدع الناس عن أنفسهم . وعند الجمهور يتخذ النجاح صورة التفوق نفسها تقريباً . وللنجاح — ذلك التوأم الشديد الشبه بالموهبة — احمقهُ المخدوع : التاريخ . ان جوفينال * وتاسيت ** وحدهما يرفضانه ويتذمران منه . وفي ايامنا انضوت تحت لوائه فلسفة تكاد تكون رسمية ، فهي ترتدي ثوب الخادم الملحق به ، وهي تنتظر اوامره في الغرفة الملاصقة لديوانه . النجاح ، تلك هي النظرية . ان الازدهار يفترض القدرة . إربح ورقة

* Juvénal شاعر لاتيني هجاء (٤٢ — ١٢٥ ؟) تتجلى لنا في اهاجيه الاربع عشرة نقمته على الحياة في رومة وضيقه بمساوئها .

** Tacite مؤرخ لاتيني شهير (٥٥ ؟ — ١٢٠ ؟) امتازت مؤلفاته بالرصانة والقوة والايجاز ، كما امتاز هو بالخيال وبالقدرة على تجريد شخصياته من أرديتها الخارجية . وكان يغالي في التشاؤم احياناً ، وينزع الى ان يلتمس للاحداث اسباباً عميقة .

في اليانصيب تصبح رجلاً حاذقا . ومن ينتصر فذلك هو الذي يحظى بالاجلال والتعظيم . ايكن نجمك ، يومَ الولادة ، ذا يمن وسعد تجدِ الدنيا كلها بين يديك . كن حسن الطالع ليس غير تفز بسائر الاشياء . كن سعيداً يحسبك الناس عظيماً . ففيما عدا المستثنيات العظيمة التي لا يزيد عددها على الخمسة او الستة ، والتي هي اعجوبة عصرها ، لا يعدو الاعجاب المعاصر ان يكون ضرباً من قصر البصر . ان الطلاء الذهبي هو في نظر الناس ذهب خالص . وليس يفيد المرء عندهم ان يكون ابن الحظ شريطةَ ان يوفق الى تحسين حظوظه . ان العامة نرسيسٌ عجوز * يعبد نفسه ، ويصفق لكل ما هو شعبي . والواقع ان العبقرية الجبارة التي تجعل من المرء موسى ، او أشيل ** او دانتي او ميكال آنجلو ، أو نابوليون انما يخلعها الجمهور ، في الحال وفي تهليل ، على كل من يوفق الى بلوغ غايته ، مهما تكن تلك الغاية . دع كاتباً عدلاً يلمع حتى يصبح نائباً في البرلمان ؛ دع كورني *** زائفاً يضع مسرحية « تيريدات » **** ؛ دع خصياً علك « حريماً » ؛ دع « برودوم » ***** عسكرياً يكسب بالمصادفة

---

* في الميثولوجيا اليونانية ان نرسيس كان على جمال باهر أسر به القلوب جميعاً ولكنه ازدرى حب الحسان له . كان يعشق نفسه ، وبينا هو يديم النظر الى وجهه الجميل في مرآة ينبوع صاف زلت به القدم ، فاستحال الى الزهرة التي تحمل اسمه « نرسيس » أو النرجس . وتطلق لفظة « النرجسية » اليوم على الظاهرة السيكولوجية التي تجعل من المرء عاشق ذاته .

** ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) ويعتبر من أعظم شعراء العالم في مختلف العصور .

*** Corneille ابو التراجيديا الفرنسية . واشهر مسرحياته « هوراس » ، « السيد » ، « سينا » و « بوليوكت » . وهو يعتبر عند الفرنسيين خالق الفن التمثيلي القائم على اساس التحليل السيكولوجي . (١٦٠٦ — ١٦٨٤) .

**** Tiridate تيريدات الاول ، ملك ارمينية وأخو فولوجيس الاول ملك البارثيين وقد قهره القائد الروماني كوربيلون . وتوفي تيريدات عام ٧٣ للميلاد .

***** Prudhomme نموذج عصري للعجز وعدم الكفاءة وللابتذال الكامل التي ابرزها هنري مونيه في كتابه « مشاهد شعبية » (١٨٣٠) و « مذكرات جوزيف برودوم » (١٨٥٧) .

المعركة الحاسمة في حقبة برمتها ؛ دع صيدلياً يخترع نعالاً من الورق المقـــوّى لاحذية الجيش ، ويجني من وراء ذلك الكرتون المبيع بدلاً من الجلد لقوّات « السامبر والميز » * دخلًا مقداره اربعمئة الف ليرة ؛ دع بائعـاً متجولاً يتزوج الربا ويقود عروسه الى فراش من سبعة ملايين او ثمانية ملايين ، فراش هو أبوه وهي أمه ؛ دع واعظاً يصبح اسقفاً بالتكلم من أنفه ، دع مدبّر احـــد المنازل الطيبة يمسي لدى تركه الخدمة غنياً الى درجة تجعل منه بعد ذلك وزيراً لمالية فرنسة — تجد الناس يدعون ذلك عبقرية ، تماماً كما يدعون وجه موسكوتون جمالاً ، وتغطرس كلاود عظمة وجلالاً . إنهم لا يمـــيزون كواكب السماء من النجوم التي تحدثها اقدام البطّ في الوحل !

١٣
معتقداتـــه

لسنا في حاجة الى ان نسبر أسقف د ... من وجهة النظر الارثوذكسية ** ففي حضرة نفس كهذه لا نستشعر شيئاً غير الاحترام . إن ضمير الرجل المستقيم ينبغي ان يُعتبر شيئاً مفروغاً منه . والى هذا ففي استطاعتنا، وقد مُنحنا طبائع معيّنة أن نسلّم بامكانية نشوء جمالات الفضائل الانسانية كلها في معتقدٍ مختلف عن معتقدنا .

أيّ شيء كان رأيه في هذه العقيدة الاساسية ، او تلك الغامضة من غوامض الدين ؟ هذا سر من اسرار الايمان الباطني التي لا تُعرَفُ إلا في القـــبر حيث تدخل الأرواح عارية . ولكنا واثقون من ان مصاعب الايمان لم تنتهِ به قـط الى الزندقة . إنّ فساداً ما لا يمكن ان يتطرق الى الماس . لقد آمنَ ما وسعهُ

* Sambre - et - Meuse مديرية فرنسية من مديريات الامبراطورية الاولى .

** المقصود بالارثوذكسية هنا صحة المعتَقَد والموافقة للدين الحقيقي ، او المستقيم ، كما تفهمه النصوص ، او كما فهمه اصحابه الاولون .

الايمان . كان يهتف دائماً *Credo in Patrem* * والى هذا فقد كان يستمد من اعماله الصالحة ذلك المقدار من الارتياح الذي يرضي الضمير ، والذي يهمس في أذن المرء : « انت مع الله » .

ونعتقد ان من واجبنا ان ننص هنا على ان فؤاد الاسقف كان عامراً خارج نطاق ايمانه ، اذا جاز التعبير ، ووراء ذلك الايمان – بفرْطٍ من الحب . وبسبب من هذا ، *quia multum amavit* ** ، اعتُبر قابلًا للنقد والتجريح عنـــد « الرجال الجدّيين » ، و « الاشخاص الوقورين » ، واصحاب العقول الرشيـدة » ، وهي تعابير أثيرة في عالمنا الحزين حيث تتلقى الانانية كلمة السرّ من التظاهر بالعـــلم والمعرفة . ولكن اي شيء كان فرطُ الحب هذا ؟ كان لطفاً رائقاً يغمر الرجال كما سبق منا القول ، ويمتدّ في بعض الاحيان الى الاشياء . لقد عاش من غـــير ازدراء واستخفاف . كان شفيقاً على خلق الله . والحق ان لدى كل امريء ، مهما يكن فاضلًا ، خشونة طائشة يحتفظ بها ، من باب الاحتيــــاط ، للحيوانات . ولكن اسقف د ... كان خلواً من هذه الخشونة التي تميّز معظم الكهان . انه لم يذهب الى حد البراهمة *** ولكن يبدو انه تفكّر كثيراً في هذه الكلمات من « سفر الجامعة » : « من ذا الذي يعرف الى اين تمضي روح البهيمة ؟ » إن بشاعة المظهر ، وقباحة الغريزة لم تقلقاه ولم تسخطاه قط . كانتا تحركان فيه عاطفة الشفقة وتوقعان في ذات نفسه مزيداً من اللين والرقة . لقـد بدا وكأنه يبحث ، وراء الحياة الظاهرية ، في روية وتفكير ، عن السبب ، والتفسير ، أو العذر . بل لقد بدا وكأنه يلتمس من الله ، في بعض الاحيان ، تلطيفاً لعقاب الآثمين . كان يدرس من غير انفعال ، وبعين اللغوي الذي يفكّ رموز رقّ قـــديم أزيلت الكتابة الأصلية عنه ليُكتب عليه من جديد ، مقدارَ الاختــــلاط والتشوّش اللذين لا يزالان في الطبيعة . وكان هذا الاستغراق في التفكير ينتزع منـــه في بعض الاحيان كلمات عجيبة . فذات صباح كان يتمشّى في حديقته ؛ لقد حسب

---

* في اللاتينية ، ومعناها : اؤمن بالآب .

** في اللاتينية ايضاً ، ومعناها : لانه أحب كثيراً .

*** جمع برهمي ، وهو احد افراد الطبقة الكهنوتية اعلى الطبقات الوراثية الأربع في المجتمع الهندوسي .

نفسه منفرداً . ولكن اخته كانت تمشي خلفه من غير ان يراها . وفجأة كفّ عن السير ، ونظر الى شيء ما فوق وجه الارض. كانت رتيلاء سوداء ، شعراء، راعبة . وسمعته اخته يقول :

– « يا من بهيمة مسكينة ! الذنب ليس ذنبها ! »

ولمَ لا نتحدث عن طفلية الطيّبة هذه التي تكاد تكون الّهية ؟ انها قد تكون شيئاً صبيانياً ، ولكن هذه الاشياء الصبيانية الرفيعة هي التي عُرف بها القديس فرانسوا الأسّيسي * ، وماركوس اوريليوس ** وذات يوم آثر ان يلتوي مفصلهُ على ان يسحق نملة .

كذلك عاش هذا الرجل المستقيم . كان يقصد الى جنينته ، بعضَ الاحيان ، لينام فيها ؛ وعندئذ لم يكن ثمة شيء ادعى الى التوقير والاحترام .

كان مونسنيور بيينفينو من قبل، وفقاً للروايات المتصلة بصباه بل وبصدر شبابه ، رجلاً شديد الانفعال ؛ وقد لا نخطيء اذا قلنا انه كان رجلاً عنيفاً . ومن هنا لم يكن حلمه الشامل غريزة طبيعية بقدر ما كان ثمرة يقين راسخ 'قطّر، من خلال الحياة ، الى فؤاده ، متساقطاً في مهل ، فكرةً إثر فكرة . ذلك بأن قطرات الماء قادرة على ان تُحدث في الشخصية حفَراً كالتي تحدثها في وجه الصخر سواء بسواء. ومثل هذه التجاويف غير قابلة للمحو. إنها تمتنع على الزوال.

لقد بلغ عامَ ١٨١٥ ، كما نحسب أنا أسلفنا القول ، سنّه السادسة والسبعين ، ولكنه كان يبدو وكأنه لمّا يتجاوز الستين . إنه لم يكن طويل القامة ؛ وكان بديناً بعض الشيء ، فهو كثيراً ما يأخذ باسباب المشي الطويل ابتغاء التغلب على هذه البدانة . كان ثابت الخطو، ولم يكن ظهره محدودباً الا قليلاً؛ وهي ظاهرة

---

* Francois D'assise مؤسس رهبانية الفرنسيكان . وقد اشتهر بعطفه على الفقراء ورفقه بالمستضعف من الحيوان . (١١٨٢ - ١٢٢٦)

** Marcus Aurelius اكثر الاباطرة الرومان صلاحاً ، تولى الحكم من عام ١٦١ الى عام ١٨٠ وخاض غمار حرب طويلة ظافرة ضد البرابرة المهددين للامبراطورية ، واشتهر بحكمته الرواقية ، واعتداله، وحبه للفلسفة والادب .

لا نعتزم ان نخلص منها الى استنتاجٍ ما . فقد كان غريغوار السادس عشر * ، في سنّ الثمانين ، منتصب القامة باسماً ، ولم يمنعه ذلك من ان يكون اسقفاً رديئاً . وكان لمونسينيور بيينفينو ما يدعوه الناس « عقلاً راجحاً » ولكنه كان أنيساً الى حدّ يُنسيك أنه ذو عقل راجح .

فاذا ما تحدّث بذلك الابتهاج الطفليّ الذي كان مظهراً من مظاهر اللطف عنده ، والذي سبق منا الكلام عليه ، استشعر كل امرىء الارتياح في حضرته ، وبدا الحبور وكأنه يشعّ من شخصه كلـه . كانت بشرته النضرة المتوردة ، وأسنانه البيضاء المحتفظة بسلامتها والتي كانت شفتاه تتكشّف عنها حين يضحك ، تخلع عليه تلك السّيما الصريحة الدمثة التي تجعلنا نقول عن الرجل : إنه ولد طيب ؛ وعن الرجل العجوز : إنه رجل طيب . كان ذلك ، كما نذكر ، هو الاثر الذي تركه في نفس نابليون . فللوهلة الاولى ، وبالنسبة الى من يراه اول مرة ، لم يكن مونسينيور بيينفينو اكثر من رجل طيب . ولكن ما إنْ يُنفق المرء بضع ساعات معه ويرى اليه مستغرقاً في التفكير حتى تتحول تلك الصورة شيئاً بعد شيء ، فتغدو ناضحة بالمهابة . كان جبينه العريض الجديّ الذي جعله شعره الاشيب أنيلاً يبدو أنيلاً كذلك لحظةَ التأمّل والتفكير . وكان الجلال ينبثق من هذه الطيبة ، من غير ان تكفّ الطيبة عن الاشراق ؛ فيستشعر المرء شيئاً من تلك الهزة التي تعروه اذا ما رأى ملاكاً باسماً ينشر جناحيه في بطء من غير ان يكفّ عن الابتسام . كان الاحترام – الاحترام الذي يعجز البيان عن وصفه – خليقاً به ان يداخلك تدريجياً ، وان يتخذ سبيله الى فؤادك ، فتحسّ انك امام نفس من تلك النفوس القوية ، المجرّبة ، المتسامحة ، حيث الفكر هو من العظمة بحيث لا يستطيع إلا ان يكون رفيقاً لطيفاً .

وكما رأينا من قبل ، فقد كانت الصلاة ، والنهوض بأعباء الخدمات الدينية ، والتصدّق على الفقراء ، ومواساة المحزونين ، وزراعة زاوية من الارض ، والاخاء ، والزهد ، وقِرى الضيف ، وقهر النفس ، والثقة ، والدّرس ، والعمل

* وقد تولى كرسي البابوية من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٤٦ .

تُفعم كل يوم من ايام حياته . اجل ، « تفعم » هي الكلمة الملائمـــة تماماً . وفي الحق ، إن يوم الاسقف كان مفعماً حتى الشفة بالافكار الطيبة ، والكلمات الطيبة ، والاعمال الطيبة . ومع ذلك فأنه ما كان ليكتمل اذا حال البرد او المطر بينه وبين قضاء ساعة او اثنتين من ساعات الليل – بعد ان تـــؤوي المرأتان الى فراشهما – في حديقته قبل أن يستسلم للرقاد . لقد بدا وكأن الاستعداد للنوم من طريق التأمل أمام مشهد السماء الداجية الناضح بالعظمة كان ضرباً من الطقس الدينيّ عنده . وفي بعض الاحيان ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، كانت المانسان تسمعانه ، إذا ما أطالتا السهر ، يتمشى وئيداً في ممرات الحديقة . كان يخلو هناك الى نفسه ، هادئاً ، رابط الجأش ، عابداً ، مقارناً ما بين صفاء قلبه وصفاء الاثير – وقد حرك عواطفَهُ في الدجنّة بهاءُ الكواكب المنظور وبهاء الله غير المنظور – باسطاً روحه للفكرات التي تهبط من المجهول . وفي مثل هذه اللحظات ، حين كان يقرّب قلبه قرباناً لله في تلك الساعة التي تنفث فيها ازاهير الليل عبيرها ، وحين كان يبدو مُضاءً مثل مصباح في جوف الليل ذي النجوم ، ساطعاً في جـــذل وسط اشماع الكون الكليّ ، لم يكن في ميسوره هو نفسه ان يقول ايّ شيء كان يدور في خَلَده . لقد أحسّ بشيء يزايله ، وبشيء يهبط عليه . مبادلات عجيبة بين أعماق النفس وأعماق الكون .

كان يتفكّر في عظمة الله ، وفي وجود الله ؛ في أبـدية المستقبل ، وهي لغز عجيب ؛ في أزلية الماضي ، وهي لغز اعجب ، وفي جميع اللانهـايات المحتجبة من حوله في كل اتجاه ؛ ومن غير ان يحاول فهْمَ ما لا سبيل الى فهمه كان يراهـا . إنه لم يدرس الله ؛ كان يبهره التفكير في ذلك . لقد تأمل في الاتحادات البهيّـة التي تجمع ما بين الذرات ، والتي تخلع على الطبيعة اشـكالاً منظورة ، كاشفةً عن القوَى من طريق إنشائهـــا ، خالقةً الفَرْديات في الوحدة ، والنِّسَب في الامتداد ، واللامعدود في اللانهاية ؛ مولّدةً الجمال من خلال النور . وإنما تنعقد هذه الاتحادات وتنحلّ في غير انقطاع . ومن هنا الحياة والموت .

كان يجلس على مقعد خشبيّ مسندٍ الى عريشة مكسورة ، وينظر الى النجوم

من خلال أشباح شجراته المثمرة ، المهزولة الكسيحة . فقد كانت هذه الفلذة من الارض ، البالغة مساحتها ربع أكر ، والمزروعة اسوأ زراعة ، والمثقلة بالخِرَب والانقاض ، أثيرةً لديه ؛ وكانت تكفيه .

وايّ شيء اكثر من هذا كان يحتاج اليه ذلك الرجـــل العجوز الذي وزّع ساعات فراغه ، وما كان اندرهـا واقلّها ، بين البَسْتنة في النهار ، والتأمل في الليل ؟ الم تكن هذه الحظيرة الضيقة ، التي تؤلف السمواتُ سَمْكَها ، كافيةً لأن تمكّنه من عبادة الله ، بالتناوب، في مبتدعاته الاكثر جمالاً ، وفي مخلوقاته الاكثر سمواً ؟ اليس هذا كل شيء ، في الواقع ؟ واي شيء يبتغي وراء ذلك ؟ جُنينة يتمشى خلالها ، وفضاءٌ يتأمل فيه . فعند قدميه شيء يمكن ان يُزرع ويُجنى ، وفوق رأسه شيء يمكن ان يُدرَسَ ويُطلق سَرْحُ التأمل فيه ؛ بضعُ زهرات على الارض ، وجميع الكواكب في السماء .

١٤
افكاره

بقيت كلمة اخيرة .

لما كانت هذه التفاصيل –وبخاصة في العصر الذي نعيش فيه ، ولكي نصطنع تعبيراً هو اليوم زيّ شائع– خليقةً بأن تخلع على اسقف د... سيماء « بانتييستية »* ما ، وتوقع في النفس – سواء أأدّى ذلك الى لومه او الى تمجيده – انه كان يدين بأحدى هذه الفلسفات الشخصية التي يتميز بها عصرنا ، والتي تنجم أحياناً في العقول المتوحّدة وتنمو وتستحصد حتى تحلّ محلّ الدين –لمّا كانت هذه التفاصيل

* الـ Panthéisme وحدة الوجود ، او الوهية الكون ، وهو مذهب فلسفي يقول بان الله والكون واحد ، اي ان الله حالّ في كل شيء ، ومن هنا جاز ان يطلق الله على كل شيء .

خليقة بأن توهمنا بهذا كله فاننا نصرّ على القول إن أحداً ممن عرفوا مونسينيور بيينفينو ما كان ليجيز لنفسه أن يزعم هــذا الزعم . لقد كان القلب هو الذي أنار بصيرة هذا الرجل . كانت حكمتُهُ مكوّنة من النور المنبعث من هناك .

لم تكن له طرائق ونُظُم ،ولكن كانت له أعمال كثيرة. إن البحوث النظرية العويصة تورث الصداع ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بأنه سوف يعرّض عقله للمخاطر من طريق الرؤى الصوفية التي تمّت للقديس يوحنا الانجيلي واحدة منها . إن في إمكان الرسول ان يكون مقداماً ، اما الاسقف فينبغي ان يكون هيّاباً . ولعله كان يتردد في ان يسبر غور بعض المسائل التي يُقصَر الخوض فيها بطريقة مــا ، عـلى العقول الكبيرة المخيفة . ان ثمة رعباً مقدساً يكتنف الطريق الى الالغاز الصوفية . إن بعض الفجوات القاتمة لتفغر فاها هناك ، ولكن شيئاً يقول لك فيما انت تقترب من شفير الموت : لا تدخل ! الويل لمن يدخل !

إن هناك عباقرة يرفعون فكراتهم الى الله ، وهم في غمرة مــن التجريد الذي لا تُسْبر أغواره ومن التأمل المحض ، فكأنهم ، اذا جاز التعبير ، فـوق العقائد الدينية جميعاً . ان صلاتهم لتعرِض ، في جراءة ، نقاشاً ما . وإن عبادتهم لتستجوب . ذلك هو الدين المباشر المفعم بالقلق والمسؤولية عند مــن يتسلق جدرانه .

ليس للفكر البشري حدود . انه يحلل ويشرّح ، على مسؤوليتـه ، انبهـاره هو . وفي ميسورنا ان نذهب الى القول إنه ، بطريقة من الرجع الرائع ، يبهر الطبيعة ؛ فالعالم الخفيّ الغامض الذي يحيط بنا يُعيد ما يتلقى ؛ ومن الجـائز ان يكون المتأملون هم أنفسهم موضوع تأمل . وأياً ما كان ، فعلى ظهر الارض رجال – هل هم رجال وحسب ؟ – يستطيعون ان يلمحوا بوضوح ، في أفــق تأملاتهم ، قمم المطلق الشامخة ، ويملكون الرؤيا المروّعة للجبل اللانهائي . ان مونسينيور بيينفينو لم يكن واحداً من هؤلاء الرجال ؛ إنه لم يكن عبقريـاً . كان خليقاً به ان يرهب هذه الذرى التي انزلق منها رجال ، بعضهم عظيم جداً ،

مثل سويدنبورغ * وباسكال **، نحو الجنون الكامل. وليس من شك في ان لهذا الاستغراق في التفكير الحالم فائدته الاخلاقية ؛ ومن هذه الطرق الوعرة يستطيع المرء ان يدنو من الكمال المثالي . أما هو فسلك السبيل المستقيمة ، التي هي قصيرة : الانجيل .

انه لم يحاول ان يجعل حلة القداس التي يرتديها تتخذ ثنيات رداء ايليا . *** وما كان ليلقي أيما شعاع من أشعة المستقبل على تقلب الاحداث المظلم. انه لم يسع قط الى ان يركز وميض الاشياء حتى يغدو شعلة . لم يكن فيه شيء من النبي أو شيء من الساحر . كانت نفسه المتواضعة تحب ؛ هذا كل ما هنالك .

أما أنه بسط صلاته حتى تبلغ مطمحاً فوق بشري ، فهذا مرجح . ولكن الغلو في الصلاة كالغلو في الحب ، غير محمود . واذا كان من الزندقة ان يصلي المرء خارج النصوص فعندئذ تكون القديسة تيريزا **** والقديس جيروم ***** زنديقين .

* Swedenborg فيلسوف متصوف سويدي ، ولد في ستوكهولم وتوفي في لندن (١٦٨٨– ١٧٧٢) وكان يزعم انه على اتصال بالعالم الروحي وانه يوحى اليه منه . وكان له مريدون كثير .

** Pascal هو الرياضي ، الفيزيائي ، والفيلسوف الفرنسي (١٦٢٣ – ١٦٦٢) وقد اتجه اثر حادثة وقعت له ، اتجاهاً دينياً ، ومات في ريعان شبابه قبل ان يتم دفاعاً عن النصرانية كان قد شرع في وضعه ثم نشرت اجزاء منه بعنوان « خواطر » *Pensées* . واتما يشير فيكتور هيجو هنا الى ما رواه الكاهن بوالو – وهو ما لم يؤيده شاهد آخر – من ان باسكال اصيب في آخر أيامه بهلوسة جملته يرى في كثير من الاحيان وكأن هاوية تفغر فاها غير بعيد عنه لكي تبتلعه .

*** هو نبي يهودي تذكر التوراة انه دعا شعبه الى نبذ عبادة بعل وعشتروت وقام بمعجزات كثيرة . وفي التوراة ايضاً انه رفع الى السماء على عربة من نار ، وانه عهد الى أحد تلاميذه في متابعة رسالته تاركاً له رداءه لكي يتمكن من أن يأتي بمثل الاعاجيب التي اتى بها هو . ويرمز الفرنسيون بـ « رداء إيليا » الى ان شخصاً ما قد ورث موهبة ما عن استاذه أو سيده .

**** مصلحة اسبانية اشتهرت برؤاها وتصوفها . (١٥١٥ – ١٥٨٢)

***** احد آباء الكنيسة اللاتينية ، وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية (٣٤٠ – ٤٢٠ م)

كان يحدب على المحزونين والتائبين . لقد بدا الكون في نظره وكأنــه داء ضخم عريض . كان يتروح الحمّى في كل مـــكان ، ويصيخ الى الآلام في كل مكان ؛ ومن غير ان يحاول حل اللغز سعى الى ان يضمد الجرح . لقد أوقـــع مشهد المخلوقات الرهيب رقة في نفسه ولطفاً . وكان منهمكاً دائماً في ان يبحث لنفسه – ويوحي الى الآخرين – عن افضل الطرق الى العطف والمواساة . فقد كان العالم كله ، عند هذا الكاهن الصالح النادر المثال ، موضوع حزن سرمدي ، فهو يلتمس المواساة أبداً .

ان ثمة رجالاً يجهدون بسبيل استخراج الذهب ؛ أما هو فكان يجهد بسبيل استدرار المَرْحمة . وكان الشقاء الشامل هو منجمه ، ولم يكن الالم المتفشي في كل مكان غير مناسبة للعمل الصالح مستمرة . **أحبوا بعضكم بعضاً** ؛ لقد اعتبر ذلك عنوان الكمال . إنه ما كان يتمنى شيئاً اضافياً ، فقد كانت هذه الكلمات تؤلف عقيدته كلها . وذات يوم قال ذلك الرجل الذي عـــدّ نفسه « فيلسوفاً » – عضو الشيوخ الذي أشرنا اليه سابقاً – قال للاسقف :

– « ولكن انظُرْ الى مشهد العالم . ان كل امريء من الناس ليقاتلُ الناسَ جميعاً ، وإنّ أقوى الناس هو افضل الناس . وليست آيتك القائلة « **أحبوا بعضكم بعضاً** » اكثر من حماقة . »

فأجابه مونسينيور بيينفينو من غير ما مناقشة :

– **« حسن . اذا كانت حماقة فيتعين على النفس أن تحتجب فيها كما تحتجب اللؤلؤة في المحارة . »**

واحتجب هو فيها ، وعاش فيها ، واكتفى بها اكتفاء مطلقاً ، مطّرحـــاً المسائل الخفية العجيبة التي تَجْـــذِبُ وتُرعب ، وأغوار التجريد التي لا تُسبر ، ومبادىء الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة – مهملاً كلّ هذه الغوامض الـــتي تنصبّ ، عند الرسول ، على الله ، وعند الملحد ، على العدم : – القَدَر ، والخير والشر ، وتناحر المخلوقات ، وضمير الرجل ، واحلام الحيوان التي تجاور التفكير ، والتحول الذي يتم بالموت ، ومراجعة الحيوات الثاوية في القـــبر ، وتلقّح الأنا

المستمرة بالاهواء المتعاقبة تلقحاً لا سبيل الى فهمه ، والجوهر ، والمـــادة ، واللاشيئية ، والشيئية ، والنفس ، والطبيعـــة ، والحرية ، والضرورة ؛ مسائل عويصة ، وأعماق كالحة ُيجذب نحوها « رؤساء ملائكة » الجنس البشري الضخام؛ وُهوىً * راعبة يتفكر فيها لوكريتيوس ** ومانو *** والقديس بولس ، ودانتي ، بتلك العين الساطعة التي تبدو ، اذ تحدّق الى اللانهاية تحديقاً موصولاً ، وكأنها تضرم النار في النجوم نفسها .

كان مونسينيور بيينفينو مجرد رجل تقبّل هذه المسائل الغامضة من غير ان يتعمّقها ، ومن غير ان يثيرها ، ومن غير ان ُيقلق عقله بها ؛ رجل ٍ ُيكنّ في ذات نفسه احتراماً عميقاً للسرّ الذي يكتنفها .

---

* جمع ُهوّة .

** Lucretius شاعر روماني (حوالى ٩٥ – حوالى ٥٣ ق . م) نادى بمادية ابيقور في قصيدة له مشهورة غنية بالفكر الرحب . ومات منتحراً .

*** Manou او Mānava - bharma - Càstra احد الكتب الهندية المقدسة التي تبسط العقيدة البرهمية . وتطلق هذه اللفظة ، في ما تطلق ، على أنصاف الآلهة الاربعة عشر التي تحكم العالم – حسب المعتقد البرهمي – على التعاقب .

الكتاب الثاني

السقوط

١

بعد مسيرة يوم بكامله

قبل المغيب بساعة تقريباً ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨١٥ ، دخل رجلٌ مترحّل على قدميه مدينة د ... الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم أو على عتبات ابوابها إلا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من القلق . فقد كان من العسير ان تقع العين على عابر سبيل ذي مظهر اشدّ بؤساً . كان ربعة في الطول ، بديناً ، جلداً على الصعاب ، وفي عنفوان العمر ؛ ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانت قلنسوة جلدية مُمالةٌ الى

جانب تخفي ، نصفَ إخفاءٍ ، وجهَهُ الذي برنزته* الشمس والريح ، وسال منه العرق . كان صدره الاشعث بادياً من خلال القميص الاصفر الخشن المشدود حول الرقبة بمثبّت فضي صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالحبل ، وبنطلوناً كتانياً ازرق خشناً ، مترهّلاً بالياً ، ابيضّت احدى ركبتيه وتناثرت الثقوب في ركبته الاخرى ؛ وصدرة رمادية عتيقة رثة رُقعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قنّب . وعلى ظهره كان كيس من أكياس العساكر ، مُحكم الربط ، جديدٌ بالكلية ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عُقَد : كانت قدماه غير المجوربتين تنتعلان حذاءً رُصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوراً ، وكانت لحيته طويلة .

وأضاف العرق، والحرارة ،والسير الطويل،والغبار قذارةً تمتنع عن الوصف الى هذا المظهر الخرب .

كان شعره حليقاً حتى الجلد ، ولكنه مع ذلك قاسٍ خشن . ذلك بأنه كان قد شرع ينمو بعض الشيء ، وبدا وكأنه لم يُحلق منذ مدة قصيرة .

إن احداً لم يعرفه . كان واضحاً أنه عابر سبيل ليس غير . من اين أقبل ? من الجنوب ، وربما من شاطيء البحر . ذلك بأنه دخل بلدة د ... من الطريق نفسها التي سلكها الامبراطور نابوليون ، قبل سبعة اشهر ، من « كانّ » الى باريس. ولا بدّ ان يكون هذا الرجل قد سلخ صحابة يومه وهو يسعى على قدميه، فقد بدا شديد الاعياء . لقد بصُرت به بعض نسوة البلدة العتيقة القائمة في الجزء الادنى من المدينة وقد وقف تحت شجرات جادة غاساندي وانشأ يشرب من الينبوع المتدفق عند اقصى المنتزه . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقّبوه رأوه يقف كرة اخرى ، ولمّا يتقدّمْ مئتي خطوة اضافية ، ليعاود الشرب من الفوّارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواشوفير انعطف يَسْرةً ،ومضى الى مكتب العمدة . ودخل المكتب ؛ ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالساً قرب

---

* اي جعلته يمثل لون البرونز .

الباب على المقعد الحجري الذي ارتقاه الجنرال درووووه * ، في ٤ آذار ، ليتلو على ابناء د... المروّعين إعلان غولف جوان ** فرفع الرجل قلنسوته وحيّا الدركي في ذلة .

ومن غير ان يردّ التحية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، وأتبعه عينيه فترةً ما ثم دخل دار البلدية .

وكان في د ... فندق حسن يدعى « لا كروا دو كولبا » ، وكان يتولى ادارته فندقيّ اسمه جاكان لابارّ ، وهو رجل كان له بعض الاعتبار في المدينة بسبب من صلة النسب التي تربطه بـ « لابارّ » آخر يدير فندقاً في غرينوبل يدعى « تروا دوفين » ، وقد سبق له ان خدم في كتائب الحرس . ومنذ أن وطىء الامبراطور *** الارض الفرنسية ثار في البلاد لغط كثير حول فندق الـ « تروا دوفين » هذا . لقد قيل إن الجنرال برتران رحل الى هناك عدة مرات ، خلال كانون الثاني ، متنكراً بزيّ سائق عربة ، ووزع اوسمة « صليب الشرف » على الجنود ، وحفنات من الليرات المعروفة بـ « نابوليون » على جماعة من البورجوازيين . والحقيقة ان الامبراطور رفض ، يوم دخل غرينوبل ، أن ينزل في دار المحافظ قائلاً له بعد ان شكره : « **سوف امضي الى بيت رجل شجاع لي به معرفة .** » ثم شخص الى فندق الـ « تروا دوفين » . وانعكس هذا المجد الذي حظي به « لابار » صاحب فندق الـ « تروا دوفين » - انعكس عبرَ خمسة وعشرين فرسخاً على « لابار » صاحب فندق « لا كروا دو كولبا » . وتحدث الناس عنه ، في البلدة ، فقالوا : « **إنه ابن عم الرجل الغرينوبليّ !** »

وولى ابن السبيل وجهه قِبَلَ هذا الفندق ، الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل لتوّه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجاقاته موقدة،

---

* Drouot قائد فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٤٧) ، ابلى بلاء حسناً في موقعة واغرام ، وموقعة لوتزن ، وموقعة واترلو .

** Golfe - Juan من اعمال « اقليم الالب البحري » حيث هبط نابوليون الارض الفرنسية عند عودته من منفاه في جزيرة آلبا .

*** نابوليون ، إثر عودته من ألبا .

وكانت نار عظيمة تضطرم رشيقة في الموقد . وكان صاحب النُزُل ، الذي كان في الوقت نفسه كبير الطهاة ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية ذوات المقابض ، منهمكاً في إعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضحكون ضحكاً مدوياً ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة . وكلٌ من قدّر له ان يسافر يعرف ان احداً لا يحيا أحسن مما يحيا سائقو العربات . كان مرموط سمين * يحيط به حِجلانٌ ** بيضٌ وإوزٌ ، يدور على سفّود طويل حول النــار . وعلى الوجاقات نضج شبوطان *** ضخمان من بحيرة لوزيه ، وترُوتة **** من بحيرة آلوز .

وقال صاحب النزل ، وقد سمع الباب يُفتح ، ويدخل قادم جديد ، ولكنْ من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات :

– « ما الذي يريده السيد ؟ »

– « اريد أن آكل وانام . »

فقال صاحب النزل : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقى نظرةً على المسافر أضاف : « لقاء أجرة . »

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جلدياً كبيراً وأجاب :

– « عندي مال . »

فقال صاحب النزل : « اذن ، أنا في خدمتك . »

واعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد أنزل الكيسَ العسكري عن ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، ممسكاً عصاه بيده . ذلك بان بلدة د ... جبلية ، وليالي تشرين الاول قارسة فيها .

وايّاً ما كان فقد أبقى صاحب النزل في غدوّه ورواحه عيناً حذرة على المسافر .

وقال الرجل : « هل العشاء جاهز ؟ »

* حيوان من ذوات الاربع في حجم الارنب تقريباً وفي مثل هيئته إلا أن ذنبه أقصر .

** جمع حَجَل .

*** الشبّوط ضرب من سمك الماء الحلو .

**** من سمك الماء الحلو ايضاً .

فأجاب صاحب الفندق : « سيكون جاهزاً في الحال . »

وفيما الوافد الجديد يتدفأ ، مديراً ظهره ، اخرج صاحب النزل الفاضل ، جاكان لابارّ ، قلماً من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الابيض خطّ سطراً أو سطرين ، وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته مساعدَ طاهٍ وخادماً في آن معاً . وهمس صاحب الفندق بكلمة في أذن الغلام ، فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم ير المسافرَ شيئاً من ذلك .

وتساءَل كرة اخرى :

– « هل الطعام جاهز ؟ »

فأجاب صاحب المنزل :

– « سيكون جاهزاً في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملاً قصاصة الورق . ونشرها صاحب المنزل على عجل ، فعْلَ من يتوقع جواباً . وبدا وكأنه يقرأ في انتباه ، ثم فكّر لحظة طارحاً رأسه الى جانب . واخيراً تقدّم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقاً في تفكير مشوّش كدِر .

وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونهض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

– « لماذا؟ أتخاف ان لا ادفع اليك الثمن، أم انك تريدني ان أدفعه مقدّماً؟ إن عندي مالاً ، اقول لك . »

– « ليس هذا هو السبب . »

– « ما السبب اذن ؟ »

– « إن عندك مالاً ... »

فقال الرجل : « نعم . »

فاردف صاحب النزل : « ولكنْ ليس عندي غرفة . »

فأجابه الرجل في هدوء :

- « ضعني في الاسطبل . »

— « لا استطيع . »

— « لماذا ؟ »

— « لأن الخيل تحتلّ المكان كله . »

فسارع الرجل الى القول :

— « حسن . زاوية في العلّية . حزمة من القشّ . سوف ننظر في هـــذه المسألة بعد العشاء . »

— « انا لا أستطيع ان اقدّم اليك عشاء . »

وبدا هذا الاعلان ، المفرغ في جَرْس موقّع ولكنه جازم ، خطـــيراً في نظر الرجل الغريب . فنهض .

— « آه ياه ! ولكني أموت من الجوع . لقد مشيت منــذ مطلع الشمس ؛ لقد قطعت اثني عشر فرسخاً * . سوف ادفع . أريد ان آكل ! »

فقال صاحب المنزل : « ليس عندي شيء . »

وانفجر الرجل ضاحكاً ، واستدار نحو الموقد والوجاقات .

— « لا شيء ! وهذا كله ؟ »

- « إنه طعام محجوز . »

— « ومن الذي حجزه ؟ »

— « هؤلاء السادة سائقو العربات . »

- « وما عددهم ؟ »

— « اثنا عشر . »

— « إن ثمة طعاماً يكفي عشرين . »

— « لقد حجزوا الطعام ودفعوا ثمنه كله مقدماً . »

وعاود الرجل الجلوس وقال من غير ان يرفع صوته :

* الفرسخ : اربعة كيلومترات .

— « انا في الفندق . إنني جائع ، ولسوف ابقى . »
فانحنى صاحب النزل فوق أذنه وقال في صوت جعله يرتجف :
— « أخرج من هنا ! »
ولم يكد المسافر يسمع هذه الكلمات ، وكان منحنياً يحرّك بعض الجمرات في النار بطرف عصاه المغلّف بالحديد ، حتى استدار فجأةً ، وفتح فاه ليجيب . فما كان من صاحب النزل ، الناظر اليه نظراً موصولاً ، إلا ان اضاف في الصوت الخفيض نفسه :
— « كفى . حذار ان تقول كلاماً كهذا بعد الآن ! أتريد أن أقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان ڤالجان . والآن ، اتريد ان اقول لك من أنت ؟ فمنذ ان رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فاتصلت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاءني . هل تعرف القراءة ؟ »
واذْ قال ذلك ، قدّم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقتْ من النزل الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزل . والقى الرجل نظرةً عليها . وبعد صمت ، استأنف صاحب الفندق كلامه :
— « من عادتي ان اكون لطيفاً مع الناس جميعاً . إذهَبْ ! »
وطأطأ الرجل رأسه ، ورفع كيسه عن الارض ، ومضى لسبيله .
واتخذ الطريق الرئيسية ، هائماً على وجهه ، محاذياً البيوت مثل رجل محزون مَهين : إنه لم يلتفت مرةً واحدة الى وراء . ولو قد فعل ، اذن لرأى صاحب فندق « لاكروا دو كولبا » واقفاً بباب نُزله ، وقد احاط به زبائنه جميعاً ، واجتمع حوله عابرو السبيل كلهم ، متحــدثاً في اهتياج ، مشيراً اليه بأصبعه ؛ وإذن لأدرك من خلال نظرات الحذر والجزع التي تبادلها القــوم ، ان قدومه سوف يصبح عما قليل حديث البلدة برمّتها .
إنه لم ير شيئاً من ذلك كله . فالناس الذين تَبهظهم الهمــوم لا يلتفتون الى وراء . إنهم يعرفون معرفة يقينية ان النحس يلاحقهم .
وواصل سيره على هذه الشاكلة فترةً ما ، هابطاً من غير ما قصــد شوارع

يجهلها ، ناسياً التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائمـــاً . وفجأة استشعر عضّة الجوع . كان الليل على وشك ان يهبط فاجال طرفه في ما حوله باحثاً عن مأوى.

لقد أوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه. فليلتمس الآن حانةً متواضعة، أو قبواً حقيراً .

وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند اقصى الشارع . لقد رأى غصن صنوبر معلقاً بسنادٍ حديديّ ناتيء ، تحت سماء الغسق البيضاء . فمضى الى هناك .

وفي الحق ، أنها كانت حانة . ألحانة القائمة في شارع دو شوفتّو .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعـــة الحانة الخفيضة ، المضاءة بمصباح رُفع على احدى الطاولات ، وبنار عظيمة تضطرم في الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الخمر ؛ وكان صاحب الحانة يتدفأ . وكانت قدر حديدية تتدلى من مِعلاق المِرجل ، فتحملها النار على الغليان .

وكان لهذه الحانة – وهي ضربٌ من المطعم أيضاً – مدخلان اثنان، احدهما منفتح على الشارع ، والآخر منفتح على فِناء صغير مليء بالقاذورات .

ولم يجرؤ ابن السبيل على الدخول من الباب الاول . لقد انسلّ الى الفِناء ، ووقف كرةً اخرى ، ورفع المزلاج في خشية ، ودفعَ الباب .

وقال ربّ الحانة : « مَنْ هناك ؟ »

– « رجل يلتمس عشاء ومبيتاً . »

– « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ؛ فلم يَبْقَ احدٌ من الشَّرْب * إلا التفت نحـــوه . وأضاء المصباح جانباً من وجهه ، واضاءت النار الجانب الآخر . وتأمّله القوم فترةً فيما كان يحطّ كيسه عن ظهره .

وقال له صاحب الحانة : « هذه هي النار . إن العشاء يُنضج في القِدْر . تعال وتدفأ يا رفيقي . »

وجلس قرب المستوقَد ، ونشر رجليه نحو النار ، وقد كاد الأعياء يُميته .

---

* جماعة الشاربين .

وانطلقت من القدر رائحة زكية . وكان كل ما بـــدا من محياه تحت قلنسونه المهالة ينم عن مظهر غبطة غامض ممتزج بتلك السيما المحزونة التي يخلعها عـلى المرء تطاول العذاب الموصول .

كانت هيئته الجانبية قوية ، نشيطة ، حزينة . وكانت سيماه تلك غريبة حقاً : لقد بدت اول الأمر حقيرة ، ثم انتهت الى ان تبدو قاسية . والتمعت عينه تحت حاجبيه وكأنها النار تحت عوسجة .

بيد أن رجلاً ممن انتظمتهم المائـــدة كان صياداً وضع جواده في الاسطبل الملحق بفندق لابارّ قبل ان يفد على الحانة القائمة في شارع دو شوفو . ولقد اتفق أن لقي ، صباح ذلك اليوم نفسه ، هذا الرجـــلَ الغريب المشبوه وهو يقطع الطريق ما بين برا داسّ و ... (لقد نسيت الاسم ، وأظن أنه ايسكوبلون .) فسأله الرجل الغريب ، الذي هدّه الأعياء ، ان يُردفه على جواده، فما كان من الصياد إلا ان أطلق العنان لجواده مضاعفاً من سرعته . وقبل نصف ساعة ، كان الصياد بين الحشد الذي تحلّق حول جاكان لابارّ ، وكان قد روى خبر اجتماعه البغيض به على مسامع القـــوم في « لاكروا دو كولبا » . وأومأ الى صاحب الحانة ، خلسةً ، أن يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض . كان المسافر قد استغرق في التفكير كرة اخرى .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجـل الغريب ، وقال في فظاظة :

— « ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة :

— « آه ! هل تعرف ؟ ... »

— « نعم . »

— « لقد طردوني من ذلك الفندق . »

— « ونحن نطردك من هذا . »

— « والى اين تريد ان اذهب ؟ »

- « الى مكان آخر . »

وتناول الرجل عصاه و كيسه ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة - وكانوا قد تعقبوا أثره من « لا كروا دو كولبا » ، وبدَوا وكأنهم ينتظرونه . فالتفت اليهم مغضَباً ، وتهددهم بعصاه ، فانفضوا من حوله مثل سرب من الطير .

وانتهى الى السجن . كانت سلسلةٌ حديدية تتدلى من الباب مشـــدودةً الى جرس . فأمسك بها وقرع .

وفُتحت نافذة الباب .

وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراماً :

- « سيدي السجان ، هل لك ان تفتح الباب وتسمـــح لي بالمبيت هنا هذه الليلة ? »

فأجابه صوت :

- « السجن ليس فندقاً . إفعَلْ ما يحمل الشرطة على اعتقالك ، وعندئـذ نفتح لك ! »

وأوصدت نافذة الباب .

ومضى الى شارع صغير حافلٍ بالجنائن ؛ كان بعضها مسوّراً بأسيجة ليس غير فهي تُبهج الشارع . وبين تلك الحدائق بَصُرَ ببيت صغير جميل ذي دور واحد ينبعث من نافذته نور . وحدّق من خلال الزجاجِ فعلَهُ حين بلغ الحانة من قبل ، فرأى غرفة رحبة بُيّضت بماء الكلس ، تحتوي على سرير مجلّل بالشيت المطبوع ، ومهد قائم في الزاوية ، وبضعة كراسيّ خشبية ، وبندقية ذات اسطوانتين معلقة على الجدار . وكانت في وسط تلك الغرفة طاولة ، وكان مصباح نحـــاسي يضيء غطاء الطاولة الابيض الخشن . والتمع ابريق صفيحيّ مترعٌ بالخمر وكأنه الفضة ، وتصاعد البخار من صحن الشورباء الأسمر . والى هذه المائدة كان يجلس رجلٌ في نحو الاربعين ، بهيج الفؤاد منطلق الاسارير ، يلاعب على ركبتيه طفلاً صغيراً . وغير بعيد منه كانت امرأة شابة ترضع طفلاً آخر . كان الوالد يضحك ، وكان

الولد يضحك ، وكانت الأم تبتسم .

وظل ابن السبيل لحظةً يتأمل هذا المشهد العذب المهديء للاعصاب .ما الذي دار في خلده ؟ كان هو وحده القادر على ان يجيب عن ذلك . ولعله قد فكّر بأن هذا البيت السعيد لا بد ان يكون مضيافاً ، وبأنه قد يجد قليلاً من الشفقة حيث وقع بصره على هذه السعادة كلها .

ونقر على زجاج النافذة نقرةً واهنة .

ولم يسمعه احد .

ونقر كرةً اخرى .

وسمع المرأة تقول لزوجها :

— « يخيل اليّ ان ثمة شخصاً يقرع النافذة . »

فأجاب الرجل : « لا »

ونقر على الزجاج مرةً ثالثة . فنهض الزوج ، وحمل المصباح ، وفتح الباب .

كان رجلاً فارع الطول ، نصفه فلاح ، ونصفه من اصحاب الصنائع . وكان يرتدي مئزراً جلدياً رحباً ارتقى حتى كتفه اليسرى وشكّل جيباً يحتوي على مطرقة ، ومنديل احمر ، وقرن بارود ، ومختلف ضروب الاشياء التي ينتظمها الحزام . واداز رأسه الى وراء . فكشف قميصه الواسع المفتوح عن رقبته البيضاء العارية الشبيهة برقبة الثور. كان ذا حاجبين غليظين، وشاربين ضخمين سوداوين، وعينين جاحظتين . وكان الجزء الادنى من وجهه محجوباً ، والى ذلك كله فقد كانت تغلب عليه سيما الرجل الآمن في بيته ، الآخذ اكبر قسط من الحرية والراحة ، وهي سيما لا سبيل الى وصفها البتة .

وقال المسافر : « سيدي ، ألتمس عفوك : هل تستطيع ان تقدّم اليّ ، لقاء مبلغ من المال ، صحناً من الحساء ، وزاوية في السقيفة التي في حديقتك أنام فيها؟ قل لي هل تستطيع ان تقدّم اليّ ذلك ؟ لقاء مبلغ من المال أدفعه ؟ »

فسأله صاحب الدار : « من انت ؟ »

فأجابه الرجل : « لقد اقبلتُ من بوي مواسون؟ لقد مشيت طوال النهار.

لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . هل تستطيع ؟ اذا دفعت اليك مالاً ؟ »

فقال الفلاح : « انا لا أرفض أن أؤوي ايّ رجل ملائم يدفع أجر ذلك . ولكن لماذا لا تذهب الى الفندق ؟ »

– « ليس ثمة متسع . »

– « باه ! هذا مستحيل . ليس اليوم موعد معرض ولا سوق عامة . هل قصدتَ الى ٬نزُل لابارّ ؟ »

– « نعم . »

– « ثم ماذا ؟ »

فأجاب المسافر في تردد :

– « لست ادري . لقد رفض ان يؤويني . »

– « هل قصدت الى ذلك المكان الذي في شارع دو شوفو ؟ »

فتعاظم ارتباك الرجل الغريب ، وتمتم :

– « لقد رفضوا إيوائي هناك ايضاً . »

ورانت على وجه الفلاح انطباعة ارتياب . ونظر الى الوافد الجديد من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ثم صاح فجأةً وقد استبدّ به ضرب من الارتعاد:

– « أأنت ذلك الرجل ؟ »

وعاود النظر الى الغريب ، وارتدّ الى الوراء ، فوضع المصباح على الطاولة ، ونزع بندقيته عن الجدار .

ولم تكد زوجته تسمع قوله : « أأنت ذلك الرجل ؟ » حتى أجفلت ، وضمت ولديها بين ذراعيها ، وسارعت الى الاحتماء خلف زوجها . ونظرت الى الرجل الغريب في ذعر ، عارية العنق ، مشدوهة العينين ، وغمغمت في صوت خفيض :

– « Tso - maraude ! » *

* من كلام سكان مناطق الالب الفرنسية ، ومعناها: هرة تسرق غلات الارض قبل ان تحصد، أو كما يسرق الجنود زمن الحرب .

جرى ذلـــك كله في وقت اقصر من ذلك الذي يحتاج اليه المرء لكي يقرأ نبأه . وبعد ان تأمّل الرجلَ كما يتأمل الانسان أفعى ، تقـــدّم رب الدار الى الباب وقال :

– « أخرجْ من هنا ! »

فقال الرجل : « باسم الشفقة ، أعطني جرعة ماء ! »

فأجابه الفلاح : « سوف اعطيك طلقاً نارياً ! »

ثم إنه اوصد الباب في عنف . وسمع الرجلُ مغلاقين ثقيلين يُسحبان . وما هي الا لحظة حتى أُغلقت النافذة الخشبية وقُضّبت * بالحديد على نحو صاخب .

وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الألب القارسة . وعلى ضوء النهـــار المحتَضَر لمحَ الرجل الغريب – في احدى الجنائن المواجهة للشارع – شبهَ كوخ مبنيّ من اللبن . وفي عزم ، اجتاز بسياج خشبي ، فألفى نفسه في الحديقة . ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو اشبه شيء بتلك الاكواخ التي يقيمها معبّدو الطرق لأغراضهم المؤقتة . ولقـــد ظنّ الرجل الغريب ، من غير شك ، انه كان في الواقع مأوى معبّد طرق . وكان يقاسي ألم البرد والجوع جميعاً . ولقد أذعن للجوع واحتمله ، ولكن ههنا وقاية من البرد على الاقل . وقد جرت العادة بأن يكون هذا الضرب من الاكواخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجوّ دافئاً هناك ، ولقد وجد ثمة فراشاً جيداً من قشّ . واستراح على هذا الفراش لحظةً ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما ألمّ به من الاعياء . واذْ أزعجه كيسه المشدود الى ظهره ، وإذ كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيـــس وسادةً ، فقد شرع يفك احد سيوره . وفي تلك اللحظة طرق سمعه نباحٌ ضارٍ ؛ فرفع عينيه فاذا به يرى عند وصيد الكوخ كلباً ضخم الرأس والعنق .

كان ذلك المكان وجارَ كلب !

* قضّبه بالحديد : وضع أحدثناه ليفيد معنى : أحكم إغلاق الباب او غـــيره بالقضبان الحديدية .

وكان هو نفسه شديد البأس راعباً . فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه مجناً ، وغادر الوجار على خير ما كان في وسعه ان يفعل ، وقد اتسعت خروق ثيابه وتعاظمت .

وغادر الحديقة أيضاً ، ولكنْ مرتداً الى الوراء ؛ وقد اضطرّ ، تهيّباً للكلاب ، الى ان يصطنع بعصاه تلك المناورة التي يدعوها المتمرسون بلعبة السيف والترس « الوردة المحجوبة » .

حتى اذا عاود الوثوب ، في مشقة ، من فوق السياج ، ألفى نفسه وحيداً ، كرة اخرى ، على قارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ، ومن غير مأوى ؛ بل ألفى نفسه طريداً حتى من الفراش القشي الذي وقع عليه في ذلك الوجار الحقير . ثم انه طرح نفسه – ولا نقول جلس – على حجر ، وبدا وكأن عابراً مرّ به سمعه يصيح :

– « أنا لستُ حتى كلباً ! »

ثم نهض ، وأنشأ يتسكع من جديد ، متجهاً نحو ظاهر البلدة ، رجاة ان يجد شجرة او ركاماً ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .

وواصل السيرَ على هذا النحو ، فترةً ما ، مطرق الرأس ابداً . حتى اذا خيّل اليه انه أمسى بعيداً عن المنطقة الآهلة بالبشر رفع عينيه ، واجالها في ما حوله مستطلعاً . كان في حقل من الحقول ؛ وكانت امامه احدى تلك التلال المنخفضة المغطاة بقش الزرع المجزوز من أعقابه ، والتي تبدو بعد الحصاد اشبه شيء برؤوس حليقة .

كان الافق قاتماً مظلماً جداً ؛ ولم يكن ذلك بسبب من ظلمة الليل فحسب ، ولكن بسبب من السحب الشديدة الانخفاض التي تراءت وكأنها تتكيء على الكثيب نفسه ، والتي ارتقت مغطية السماء برمّتها . بيد ان بعض الغسق تباطأ في سمت الرأس ؛ وإذ كان القمر على وشك ان يطلع فقد شكلت تلك السحب في كبد السماء قوساً ضارباً الى البياض انبعث منه فوق الارض بعض الضياء .

كانت الارض إذن أحفل بالنور من السماء ، وهي حال توقع في النفس أثراً

مشؤوماً الى حدّ بعيد . وارتسم الكثيب ، الفقير الحقير ، باهتاً شاحباً على الافق القاتم . وكان ذلك كله قبيحاً ، وضيعاً ، فاجعاً ، محدوداً . ولم يكن في الحقل او على الكثيب غير شجرة شائهة — على بضع خطوات من المسافر — شجرة واحدة بدت و كأنها تلوي نفسها وتتثنّى .

وواضح ان هذا الرجل كان بعيداً جداً عن ان يملك تلك السجايا العقلية والعاطفية الرقيقة التي تهب المرء حساسيةً لمَشاهد الطبيعة الممتنعة على الفهم. ومع ذلك فقد كان في تلك السماء ، وذلك الكثيب ، وهذا السهل ، وهذه الشجرة شيء موحش الى درجة جعلت الرجل ينقلب على عقبيه ، بعد لحظة من السكون والتأمل ، ويسارع الى الطريق العام . إنّ ثمة لحظات تبدو الطبيعة خلالها مخاصمةً معادية .

لقد ارتدّ على آثاره . كانت ابواب د ... موصدة . ذلك بأن د ... التي قاست ضروب الحصار اثناء الحروب الدينية كانت لا تزال محاطةً ، سنة ١٨١٥ ، بأسوار عتيقة تقوم على جنباتها ابراج مربعة خُرّبت منذ ذلك العهد . فما كان منه إلا ان عبر من خلال احدى الثغرات ، ودخل البلدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، تقريباً . واذ لم يكن يعرف الشوارع ، فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد اكليركي . حتى اذا مرّ بساحة الكاتدرائية هزّ جُمع كفهِ في وجه الكنيسة .

وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . هنالك كانت تُطبع ، اولَ مرة ، بيانات الامبراطور والحرس الامبراطوري للجيش ، بعد أن يُمليها نابوليون نفسه ، ويُحمَلَ من جزيرة ألبا .

وإذ كان الاعياء قد أنهكه ، وإذ كان لا يطمع في شيء أفضل ، فقد استلقى على مقعد حجري تجاه تلك المطبعة .

وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيسة امرأة عجوز . فرأت هذا الرجل مستلقياً في الظلام فقالت :

— « ماذا تفعل هناك ، أيها الصديق ؟ »

فأجابها في فظاظة والغضب يمازج صوته :

– « انت ترين ، ايتها المرأة الصالحة ، أني أزمع أن انام . »

وكانت المرأة الصالحة ، الجديرة بهذا الوصف حقاً ، هي مدام المركيز دو ر ...

وقالت : « على هذا المقعد ؟ »

فقال الرجل : « لقد سلخت ُ تسع عشرة سنة وأنا أنام علـى فراش خشبيّ . أما الليلة فـأنام على فراش حجري . »

– « أكنت جندياً ؟ »

– « نعم ، يا سيدتي الصالحة ، جندياً . »

– « لمَ لا تذهب الى الفندق ؟ »

– « لأنه لا مالَ عندي . »

فقالت السيدة دو ر ... : « واأسفاه ، ليس في محفظتي غير اربعـة فلوس. »

– « امنحيني إياها . »

وأخذ الرجل الفلوس الاربعة . وتابعت مدام دو ر ... كلامها :

– « هذه الفلوس المعدودات لن تمكّنك من المبيت في فندق . ولكن هل حاولت ؟ إن من المتعذر عليك ان تقضي الليل هكذا . ولا بـدّ انك تشكو البرد والجوع . ينبغي ان يقدّموا اليك مأوى تبيت فيه من غير مـــا مقابل . يجب ان يفعلوا ذلك صدقةً وإحساناً . »

– « لقد طرقت ُ كل باب . »

– « حسن ، ثم ماذا ؟ »

– « ولقد طردني كل إنسان ! »

ومست العجوز ذراع الرجل ودلّته الى بيت صغير منخفض قائم في النـاحية الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف .

وقالت : « تقول انك طرقت كل باب ؟ »

– « نعم . »

— « هل طرقت البابَ الذي هناك ؟ »
— « لا . »
— « أطرقه إذن ! »

٢

الفطنة تستسلم للحكمة

تلك الليلةَ ، مكث اسقف د ... في غرفته - بعد أن قام بنزهته في البلدة — حتى ساعة متأخرة . كان منصرفاً الى العمل في مؤلـّفه الضخم عن **« الواجبات »**، هذا المؤلف الذي لم يتمّ مع الاسف . لقد شرّح ، في عناية ، كلّ ما قاله آبـــاء الكنيسة والثقات من رجال الدين في هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه ينقسم قسمين : الاول ، في واجبات المجموع ؛ والثاني ، في واجبات كلٍّ ، وفقَ الطبقة التي ينتمي اليها . وواجبات المجموع هي الواجبات الكبرى . وثمّ أربعة من هذه الواجبات اشار اليها القديس متى ، وهي : واجبات نحو الله (متى٦) ، وواجبات نحو انفسنا (متى ٥ آية ٢٩ ، ٣٠) وواجبات نحو جيراننا (متى ، ٧ آية ١٢) وواجبات نحو المخلوقات (متى ٦ آية ٢٠ ، ٢٥) . اما الواجبات الاخرى فقد ألفاها الاسقف محدّدة وموصوفةً في مكان آخر . فواجبات الملوك والرعايا في « رسالة بولس الرسول الى اهل رومة » * وواجبات الولاة ، والزوجـــات ، والامهات ، والشبان في « رسالتي بطرس الرسول الاولى والثانيـــة ** » وواجبات الازواج، والآباء،والاولاد،والخدم في«رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس » *** وواجبات المؤمنين في « الرسالة الى العبرانيين » **** وواجبات العذارى في «رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية الى اهل كورنثوس »*****

* إلى ***** هذه كلها من اسفار الانجيل او « العهد الجديد . »

وفي جهد شاق أفرغ هذه النصـــائح جميعها في كلٍّ متناغم كان يودّ ان يقدمه الى النفوس .

وكان لا يزال منصرفاً الى عمله ، في الساعة الثامنـــة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتاباً ضخمـــاً مفتوحاً ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، جرياً على عادتها ، لتـــأخذ آنيـة الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسرير . وبعد لحظـة اغلق الاسقف كتابه ــ وقد ادرك ان المائدة قد مُدّت ، وأن أخته قد تكون في انتظاره ــ ومضى الى حجرة الطعام .

وكانت هذه الحجرة غرفةً مستطيلة ، ذات موقد ، وذات باب يتفتح عـلى الشارع كما سبق منا القول ، ونافذة تطلّ على الحديقة .

وكانت السيده ماغلوار قد اتمت في الواقع وضع الاطباق .

وفيما هي تُعدّ المائدة كانت تتحدث الى الآنسة باتيستين .

وكان على المائدة مصباح . وكانت المائدة قرب الموقد ، حيث اضطرمت نارٌ قوية .

وفي ميسور المرء ان يتخيّل ، في سهولة ، هاتين المرأتين اللتـين تجاوزت كل منهما الستين من العمر : السيدة ماغلوار ، قصيرةً ، بدينةً ، نشيطة ؛ والآنسة باتيستين ، عذبةَ الروح مهزولة ، واهنة ، أطولَ بعض الشيء من اخيهـــا ، وترتدي ثوباً حريرياً اسمر محمرّاً (وهو لون كان شائعاً عام ١٨٠٦) اشترتـــه آنذاك في باريس ولا يزال يخدمها. ولكي نستعير زياً في التعبير يمتاز بقدرته على ان يقول بكلمة واحدة ما لا تعبّر عنه صفحة كاملة الا بشق النفس ننصّ على ان السيدة ماغلوار كانت تبدو عليها سيما **الفلاحة** ،في حين ان الآنسة باتيستين كانت تبدو عليها سيا **السيدة** . وكانت السيدة ماغلوار تعتمر قلنسوة بيضاء ، قمعيّـــة الشكل ؛ ويطوّق عنقها صليبٌ ذهبي صغير كالذي يحمله اهل الارياف ــ وهي الحلية النسوية الوحيدة في ذلك البيت ــ وترتدي منديلَ عنقٍ ناصع البيـــاض ينبثق من ثوبها الصوفيّ الخشن الاسود ذي الردنين الواسعين القصيرين ، ومئزراً

من قماش قطني تزينه مربعات حمراء وخضراء معقوداً عند الخصر بعصابة خضراء ، و « كشكش » صدر من النوع نفسه مثبتاً بدبوسين عند زاويتيه العلويتين ؛ وتنتعل حذاء غليظاً ، وجوربين صفراوين مثل نساء مرسيليا . اما ثوب الآنسة باتيستين فكان مفصلاً وفقاً لزيّ عام ١٨٠٦! — خصر قصير ، وهدب ضيق ، وردنان عاليا الكتفين ، وعرى وازرار . وكانت تخفي شعرها الاشيب تحت لمّة مستعارة جعدة تدعى *à l'enfant* * وكانت تبدو على محيا السيدة ماغلوار أمارات الذكاء والنشاط والطيبة . وكانت زاويتا فمها المرتفعتان على غير تساو ، وشفتها العليا التي تفوق شفتها السفلى ضخامة ، تخلع عليها مسحة « نكدة » متغطرسة . كانت تتحدث الى الاسقف — ما اعتصم هو بالصمت — في عزم وفي مزيج من الاحترام والحرية ، ولكنه ما إن يفتح فمه ، كما قد رأينا ، حتى تذعن له من غير تردد ، مثل الآنسة باتيستين . اما الآنسة باتيستين فما كانت لتتكلم . لقد قصرت نفسها على الطاعة والرغبة في الأرضاء . وحتى حين كانت صبية ، لم تكن جميلة . كان لها عينان زرقاوان كبيرتان جاحظتان الى حد بعيد ، وأنف طويل أعقف ، ولكن وجهها كله ، وشخصها كله ، كانا كما رأينا يتضوعان بطيبة تمتنع على الوصف . لقد كانت مصطفاة ابداً للوداعة ؛ ولكن الايمان ، والمحبة ، والامل — هذه الفضائل الثلاث التي تدفيء القلب في رفق — كانت قد سمت بهذه الوداعة شيئاً بعد شيء حتى بلغت بها مستوى القداسة . لقد جعلتها الطبيعة حَمَلاً ، ثم جاء الدين فجعلها ملاكاً . مسكينة تلك المرأة القُدُسية ! إنها ذكرى عذبة ، ولكنها ضائعة !

وكانت الآنسة باتيستين قد أكثرت منذ ذلك الحين من رواية ما حدث في منزل الاسقف آنذاك الى درجة جعلت كثيراً من الناس الذين ما يزالون على قيد الحياة قادرين على ان يتذكروا أدق تفاصيله .

فلحظةَ دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الانسة باتيستين في موضوع مألوف ، تعوّد الاسقف السماع

* أي : « على غرار الاطفال » .

اليه . كان حديثاً يدور حول وسائل إيصاد الباب الخارجي .

لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغـذية الضرورية للعشاء، سمعت انباء تروى في مواطن شتى. كان القوم يتحدثون عن متسكع خبيث المنبت ، عن متشرّد مشبوه ، وفد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى الآن من غير شك الى مكان ما منها . وإن بعض الاحداث الكريهة قد تصيب اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متأخرة من تلك الليلة . والى هـذا ، فقد كانت أداة الأمن رديئة ، لأن كلاً من المحافظ والعمدة يكره الآخر ويرجو ان يسيء اليه بأحداث مشؤومة ذات خطر . وان من واجب الحكماء من الناس ان يكونوا هم شرطة أنفسهم ، فيعملوا على حماية انفسهم بأنفسهم . وانـه يتعيّن على كل امرىء ان يصطنع الحذر فيقفل بيته ويوصده بالمزلاج ويقضّبه بالحديد ، و**يُحكم اغلاق ابوابه .**

وأطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخـيرة ، ولكن الاسقف أقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النـار ، وانشأ يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء آخر . إنه لم يسمع كلمـة من الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فأعادتـه كرةً اخرى . وعندئذ غامرت الآنسة باتيستين ، وكانت تودّ أن تشفي غليل السيدة ماغلوار من غير أن تغيظ اخاها ، فقالت على استحياء :

— « اخي ، هل سمعت ما قالته السيدة ماغلوار ؟ »

فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »

ثم انه ادار كرسيه نصف دورة ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال رافعاً نحو الخادم العجوز وجهه الودود البشوش الذي اضاءه وهج النار :

— « حسن ، حسن ! ما المسألة ؟ هل نحن اذن في خطر عظيم ؟ »

عندئذ اعادت السيدة ماغلوار رواية الخبر من أوله ، مبالغة في ذلك بعض الشيء على غير وعي منها . لقد بدا ان غجرياً حافي القدمين ، أو قـل شحاذاً خطراً ، قد ألمّ بالمدينة . لقد التمس المأوى في فندق لابارّ ، ولكنه ابى ان

يستقبله . ثم رُئي يدخل المدينة من جادة غاساندي ويهيم على وجهه في الشوارع عند الغسق . إنه رجل ذو كيس وحبل ، وإن له لوجهاً فظيعاً .

فقال الاسقف : « حقاً ؟ »

ووجدت السيدة ماغلوار في سؤاله هذا ما شجعها . لقد بدا لها وكأنه يؤذن بأن الاسقف لم يكن في نجوة من الجزع . فتابعت كلامها في لهجة المنتصر .

— « اجل ، مونسنيور . ما اقوله صحيح . ولسوف يقع شيء ما ، هذه الليلة في المدينة . إن الناس جميعاً يقولون ذلك . إن ادارة الشرطة فاسدة جداً (تكرار مفيد) . تصوّر اننا نعيش في هذا الاقليم الجبليّ ، وليس عندنا حتى مصابيح تضاء في الشوارع ليلاً ! فاذا ما غادر المرء بيته وجد نفسه في ظلمة كظلمة الجب . وانا اقول يا صاحب السيادة ، والآنسة تقول معي ايضاً ... »

فقاطعتها الاخت : « انا ؟ أنا لا اقول شيئاً . كل ما يعمله أخي هو عندي حسن . »

وتابعت السيدة ماغلوار كلامها وكأنها لم تسمع هذا الاحتجاج :

— « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمناً على الاطلاق . واذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ أمضي الى بولين موزبوا ، القفّال ، وأدعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزالج القديمة . انها هناك ، ولن يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة . اقول إن علينا ان نركّب المزالج ، يا صاحب السيادة ، ولو من اجل هذه الليلة فحسب . لأني اعتقد ان الباب الذي يستطيع اول عابر سبيل ان يفتحه من خارج بواسطة سقاطة ، هو غاية في الفظاعة . وفوق هذا ، فان من دأب صاحب السيادة ان يقول دائماً : « أدخلْ ! » حتى في منتصف الليل . ولكن ، يا الـهي ! ليس ثمة حاجة الى التماس الأذن ... »

وفي تلك اللحظة قُرع الباب في عنف ، فقال الاسقف :

— « أدْخلْ ! »

٣
بطولة الطاعة العمياء

وُفتح الباب .

فُتح في خفة ، وعلى نحو واسع جداً ، وكأنما دفعه امرؤ ما في قوة وعزم .

ودخل رجل .

إنه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رأيناه منذ حين هائماً على وجهه يلتمس مكاناً يبيت فيه .

لقد دخل ، وخطا خطوة ، ثم تمهل ، تاركاً الباب وراءه مفتوحاً . كان يحمل كيسه على كتفه ، ويمسك عصاه في يده ، وكانت ترين على عينيه سيما خشنة ، قاسية ، متعبة ، ضارية ، كشفت عنها نار الموقد . كان راعباً . وكان طيفاً يُنذر بالشؤم .

ولم تجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصياح . لقد وقفت مرتعدة الاوصال ، فاغرة الفم .

واستدارت الآنسة باتيستين ، فرأت الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة . ثم إنها ارتدّت ، في بطء ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، فغدا وجهها ساكناً جداً ، رائقاً جداً .

ونظر الاسقف الى الرجل بعينٍ مطمئنة .

وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد – من غير شك – ايّ شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه ، ونقّل طرفه من الرجل العجوز الى كلّ من المرأتين . ومن غير ان ينتظر كلمة ما من الاسقف ، قال في صوت عال :

– « إسمعْ ! أنا أدعى جان ڤالجان . انا رجلٌ حُكم عليه بالاشغال الشاقة . لقد سلختُ تسعة عشر عاماً في سجن المحكومين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام أُطلق سراحي ، فمضيت لسبيلي في اتجاه بونتارليه ، التي أقصد اليها . وها

قد انقضى على مسيري من طولون اربعة ايام ، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخاً . وحين وصلت الليلة الى هذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب من جوازي الاصفر الذي أبرزته في مكتب العمدة . لقد كان إبرازي الجوازَ فرضاً واجباً . وشخصت الى فندق آخر فقالوا لي : « أُخرج من هنا ! » لقد وقفوا كلهم مني موقفاً واحداً . إن احداً لم يرحب بي . لقد قصدت الى السجن ، فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني وكأنه رجل ؛ لكأنما كان هو ايضاً يعرف من أنا . ثم مضيت الى الحقول كي انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبتُ ان المطر سوف يهطل ، ولم يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهماره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثاً عن سقف يؤويني . وهناك في الساحة العامة انطرحتُ على حجر ، فدلّتني امرأة صالحة على بيتك وقالت : « اطرق ذلك الباب ! » وها قد طرقته . ما هذا المكان ؟ أهو فندق ؟ إن لديّ مالاً ؛ إنه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » كسبتها في السجن لقاء عملي طوال تسعة عشر عاماً . سوف ادفع . ماذا يهمني ؟ ان لديّ مالاً . انا متعَب جداً — اثنا عشر فرسخاً قطعتها على قدميّ ، وانا جائع جداً . هل استطيع ان أبقى ؟ »

فقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقاً آخر . »

وخطا الرجل ثلاث خطى ، واقترب من المصباح القائم على المائدة ، ثم صاح وكأنه لم يَفهَمْ جيداً :

— « قف . ليس الامر كذلك . هل فهمتني ؟ انا رجل حُكِم عليه بالاشغال الشاقة . مجرم خرج من السجن منذ فترة قصيرة . (وسحب من جيبه ورقة كبيرة صفراء ونشرها .) هذا هو جوازي . إنه اصفر كما ترى . وهذا وحده كافٍ لأن يطردني الناس من اي مكان أقصد اليه . أتحب ان تقرأ ؟ أنا أعرف القراءة ؛ أجل أعرف. لقد تعلمّتها في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة. إن هناك مدرسة يتعلم فيها من يرغب من السجناء . أُنظرْ ، هذا ما كتبوه على الجواز : « جان فالجان ، محكوم بالاشغال الشاقة أُطلق سراحه . من مواليد ... (انت

لا تبالي بهذا) سلخ في السجن تسع عشرة سنة . خمس سنوات لارتكابه جريمة السرقة مع الكسر ، واربع عشرة سنة لمحاولته الفرار من السجن اربع مرات . إنه رجل خطرٌ جداً . » أرأيت ! لقد طردني الناس جميعاً ، فهل تريد ، انت ، ان تستقبلني ? هل هذا فندق ? هل تستطيع ان تقدّم اليّ شيئاً آكله ، ومكاناً انام فيه ! هل عندك إسطبل ? »

فقال الاسقف : « ايتها السيدة ماغلوار ، ضعي بعض الاغطية البيضاء على سرير المُخْدع . »

لقد سبق لنا أن وصفنا نوع الطاعة التي غلبت على هاتين المرأتين .

والتفت الاسقف الى الرجل :

— « ايها السيد ، إجلس وتدفأ . سوف تتناول طعام العشاء بعد لحظة . ولسوف يُهيَّأ فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيراً فهمَ الرجلُ جيداً . وطفت على وجهه الذي كانت انطباعته حتى الآن قاتمة صارمة — طفت على وجهه هذا انطباعة من الذهول ، والشك ، والابتهاج ، وغدا غريباً حقاً . لقد أنشأ يتمتم مثل رجل معتوه .

— « صحيح ? ماذا ? سوف تبقيني عندك ? انت لن تطردني ? محكوم عليه بالاشغال الشاقة ? انت تناديني **« ايها السيد »** ! انت لا تخاطبني بضمير المفرد ، ولا تقول لي « أخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائماً . لقد حسبت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من أنا . أوه ! شكراً لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت تسع عشرة سنة لم انم خلالها في سرير ! اترغب حقاً في ان ابقى هنا ? أنتم أناس طيبون ! والى هذا ، فأن عندي مالاً . سوف ادفع لكم بسخاء . ألتمس عفوك ، يا سيدي الفندقي ، ما اسمك ? سوف أدفع كل ما تطلبه مني . انت رجلٌ طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ? »

فقال الاسقف : « أنا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! أوه ، كاهن نبيـــل ! واذن فأنت لن تتقاضاني شيئاً من المال ! انت القسّ ، اليس كذلك ؟ انت قسّ هذه الكنيسة الكبيرة ؟ أجل ، هذا صحيح . ما اشدّ بلاهتي ! أنا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح ، فيما هو يتكلم ، كلاً من كيسه وعصاه في احدى الزوايا ، ثم أعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنت اليه الآنســـة باتيستين في ابتهاج . وتابع كلامه :

— « انت متفوق ، يا سيدي القسّ . انت لا تحتقرني . إن الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فانت لا تريد مني ان ادفع اليك اجراً . »

فقال الاسقف : « لا . إحتفظ بمالك . كم معك ؟ لقد قلت مئـــة وتسعة فرنكات ، اليس كذلك ؟ »

فأضاف الرجل : « وخمسة عشر سو . »

— « مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سو . وما المدة التي احتجت اليها حتى تكسب هذا المبلغ ؟ »

— « تسع عشرة سنة . »

— « تسع عشرة سنة ! »

وتنهد الاسقف تنهداً عميقاً .

وتابع الرجل حديثه :

— « انا لا ازال احتفظ بمالي كله . فمنذ اربعة ايام لم أنفق غير خمسة وعشرين «سو» كسبتها من تفريغ العربات في غراس . ولما كنتَ كاهناً ، فيتعين عليّ أن اخبرك أنه كان عندنا مرشد في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . وذات يوم رأيت أسقفاً . كانوا ينادونه مونسينيور . وكان اسقف ماجور ، في مرسيليا . إنه الكاهن الذي يرئس جميع الكهنة . انت ترى — وألتمسُ منك العفو — كيف أتلعثم في رواية ذلك ، ولكن هذا امسى الآن قديم العهد جداً بالنسبة اليّ . لقد

أقام قداساً في وسط السجن ، على مذبح . وكان يضع على رأسه شيئاً ذهبياً محدداً والتمع هذا الشيء في وجه الشمس ، فقد كان ذلك عند الظهيرة . وكنا قد وقفنا صفاً ، في جهات ثلاث . والمدافع وذبالات المصابيح المشعلة أمامنا . إننا لم نستطع ان نراه جيداً . لقد تحدث الينا ، ولكنه كان بعيداً جداً عنا . إننا لم نفهمه . هذا هو ما ندعوه الاسقف . »

وفيما هو يتكلم أغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعاً على مداه .

وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعته على المائدة .

وقال الاسقف : «ايتها السيدة ماغلوار.ضعي هذا الطبق اقربَ ما تستطيعين الى النار . » ثم التفت الى ضيفه وأضاف :

- « إن رياح الليل قاسية في الألب . لا بد أنك تشكو البرد : يا سيدي . »

كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف بصوته الوقور الرفيق، ويحسن وفادته وصدقها ، هذه الكلمة : « سيدي » . إن لفظة « سيدي » تقال لرجل خارجٍ من سجن الاشغال الشاقة اشبه شيء بكوب ماء يقدّم الى رجل يموت ظمأ في عرض البحر . إن الخزي ليتعطّشُ الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يُرسل غير ضوء واهن جداً . »

وفهمت السيدة ماغلوار . فمضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتهما على المائدة بعد ان أضاءت الشمعتين .

وقال الرجل : « سيدي القس ، أنت رجل صالح . انت لا تحتقرني . أنت ترحب بي في منزلك . انت تضيء شموعك من اجلي . مع اني لم أخفِ عليك من اين أقبلتُ ، وأيّ بائس أنا . »

وفي رفق ، مسّ الكاهن يده - وكان يجلس قريباً منه - وقال : « كان في إمكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . إنه بيت يسوع المسيح . إن هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا ألم . أنت تتعذب . انت جائع عطشان . اهلاً بك . ولا تشكرني . لا تقل لي اني استقبلك في بيتي . إن هذا البيت ليس بيت احد ، ما خلا ذلك الذي يلتمس

مفزعاً . اني أقول لك ، انت يا عابر السبيل ، إن هذا البيت هو بيتك اكثر منه بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان أعرف اسمك ؟ والى هذا ، فقد عرفت اسمك قبل ان ُتعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش .

– « حقاً ؟ أكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فأجاب الاسقف : « أجل ، أنت تدعى أخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القسّ . لقد كان الجوع يعضني حين دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما بي . لقد زايلني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال :

– « هل تعذبت كثيراً ؟ »

– « أوه ، القميص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح الخشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبرد ، والشغل ، وجماعة السجناء المحكومين بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصيّ ! السلسلة المزدوجة من أجل لا شيء . والحبس في حجيرة مظلمة عقاباً على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض والانطراح في الفراش . ان الكلاب ، الكلاب ، هم اكثر سعادة ! تسع عشرة سنة ! وأنا في السادسة والاربعين . والان ، هذا الجواز الأصفر ! ذلك كل شيء . »

فقال الاسقف : « أجل ، لقد فارقت موطن بلاء وعذاب . ولكن اسمع . ان السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة ُبرد أبيض يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الأليم وكراهية الناس والحقد عليهم يفعمان قلبك فأنت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة واللطف والسلام تعمر فؤادك فعندئذ تكون خيراً من ايّ امرىء منا . »

وكانت السيدة ماغلوار قد هيأت ، في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان يتألف من حساء أُعدّ بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير ، وقطعة

من لحم الضأن ، وشيء من التين ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يُطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .

وأشرق محيا الاسقف بسيما الابتهاج تلك التي تميّز اصحاب النفوس المضيافة . وقال في نشاط :

– « الى المائدة ! »

وأجلس الرجل الى يمينه ، وفقاً لعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدة ضيف ما . واتخذت الآنسة باتيستين مكانها ، هادئة جداً ، طبيعية جداً ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وفقاً لمألوف عادته . وشرع الرجل يأكل في نهم .

وفجأةً قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئاً ما ، يُعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع على المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جداً . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تُعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضاً بريئاً فوق المائدة ، كلما شارك الاسقفَ عشاءه ضيفٌ ما . وكان مَظهر الترف اللطيف هذا ضرباً من الصبيانية حافلاً بالفتنة في هذا البيت الوادع القاسي الذي رفع الفقر الى مقام الشرف .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ؛ وغادرت الحجرة من غير أن تقول كلمة . وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بها الاسقف تومض على غطاء المائدة ، وقد رُتّبت على نحو متناسق أمام كلٍّ من المشاركين في تناول العشاء .

٤

تفاصيل حول مجابن * بونتارلييه

ولسنا نرى ، لكي نعطي فكرة عما دار على هذه المائدة ، خيراً من أن ننسخ هنا جزءاً من رسالة بعثت بها الآنسة باتيستين الى السيدة دو بواشيفرون راويةً الحديث الذي جرى بين المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وبين الاسقف في تدقيق ساذج .

. . . .

(... ولم يُلقِ هذا الرجل بالاً الى أحد . لقد أكل في شراهة رجل جائع . بيد أنه قال بعد العشاء :

— « سيدي أسقف الربّ ، ان هذا كله يكاد يكون اكثر مما أستحق . ولكن يتعين عليّ أن اقول ان سائقي العربات ، الذين لم يجيزوا لي ان آكل معهم ، يحيون حياةً اكثر ترفاً من حياتك . »

وفي ما بيننا ، أقول لكِ ان تلك الملاحظة صدمتني بعض الشيء . ولقد اجاب اخي قائلاً :

— « إنهم يتعبون اكثر مما أتعب . »

فقال هذا الرجل : « لا ، إن لديهم مالاً اكثر . أنت فقير . أنا ألاحظ ذلك . لعلك لستَ حتى كاهناً . هل أنت كاهن وحسب ؟ آه ، اذا كان الرب عادلاً فعندئذ تستحق أن تكون كاهناً من غير ريب . »

فقال اخي : « إن الرب اكثر من عادل . »

وبعد لحظة أضاف :

---

* جمع مجبنة ، وهي مكان بيع الجبن .

— « مسيو جان فالجان ، انت ذاهب الى بونتارلييه ؟ »

— « إنها رحلة إلزامية . »

أنا واثقة تماماً ان ذلك هو التعبير الذي استعمله الرجل . ثم إنه أضاف :

—« ينبغي ان ابدأ المسير فجرَ غد . انها رحلة شاقة . اذا كان الليل بارداً ، فالنهار حارّ . »

فقال اخي : « انت ذاهب إلى بلد طيب . ففي اثناء الثورة ، حين نُكبت امرتي ، لجأتُ اولاً الى الـ « فرانش كونتيه » وأقمتُ أودي هناك ببعض العمل اليدوي . كانت لديّ الشجاعة . لقد وجدتُ عملاً كثيراً ، ولم يكن عليّ إلا ان أختار . كان ثمة مصانع ورق ، ومدابغ ، ومعامل تقطير ، ومعامل زيت ، ومنشآت ضخمة لصنع الساعات ، ومصانع فولاذ ، ومسابك نحاس ، وعشرون مسبكاً للحديد على الاقل كانت اربعة منها — وهي كبيرة جداً — في لود ، وشاتييون ، وأودينكور ، وبور . »

أحسب اني غير مخطئة ، وان هذه هي الاسماء التي ذكرها اخي . ثم إنه قاطع نفسه ووجّه الخطاب اليّ :

— « ايتها الاخت العزيزة ، أليس لنا أنسباء في تلك الديار ؟ »

فأجبته :

— « كان لنا انسباء . ومن هؤلاء مسيو لوسينيه الذي كان « كابتين الابواب » في بونتارلييه في العهد القديم . »

فأجاب أخي : « اجل ، ولكن في عام ٩٣ لم يَعُدْ لأحد انسباء . كان كل امرىء يعتمد على يديه . لقد كدحتُ . إن عندهم في منطقة بونتارلييه — حيث تعتزم ان تذهب ، يا مسيو فالجان — صناعة مهيبة جداً ، وساحرةً جداً ، ايتها الأخت . وانما اعني مجابنهم التي يدعونها . *Fruitières **

---

* ومعناها في الاصل : المثمرات .

وعندئذ شرع اخي ، فيما يخدم هذا الرجل — على المائدة ، يشرح له في تفصيل ماهية مجابن بونتارليه هذه ، قائلا إنها على نوعين متميزين : الاهراء الكبيرة التي يملكها الاغنياء ، وهي تحتوي على اربعين او خمسين بقرة ، وتنتج سبعة آلاف او ثمانية آلاف قطعة جبن خلال الصيف . والمجابن المشاركة التي يملكها الفقراء ؛ وفيها يضع فلاحو الجبل الاوسط ابقارهم على نحوٍ مشترك ويقتسمون نتاجها . وانهم يستأجرون جبّاناً يدعونه *Le grurin* ، وهذا الجبّان يتسلم اللبن من المشاركين ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ويدوّن المقادير في سجل ذي نسختين . وإنما يبدأ عمل المجابن في اواخر نيسان ؛ وحوالى منتصف حزيران يسوق الجبّانون ابقارهم الى الجبل .

واستعاد الرجل نشاطه فيما هو يأكل . وقدّم اليه اخي شيئاً من خمر موف الجيدة التي لا يشربها هو ، لانها غالية كما يقول . وبسط اخي له جميع هذه التفاصيل بذلك الابتهاج الدمث الذي تعهدينه فيه مازجاً حديثه ببعض المجاملات الموجهة اليّ . ولقد اطنب في الكلام على حالة الـ *Grurin* وكأنما كان يرغب في ان يَفهم هذا الرجل ، من غير ان ينصحه بذلك مباشرةً ومن غير ما تمهيد ، أنه سوف يجد في ذلك مفزَعاً يفيء اليه . إن شيئاً أثّر فيّ . لقد كان هذا الرجل ما ذكرتُه لك ومع ذلك فأن اخي لم ينطق ، خلال العشاء ، وطوال السهرة ، في ما عدا بضع كلمات عن يسوع تلفّظ بها حين دخل — أقول إن أخي لم ينطق بكلمة واحدة تستطيع ان تذكّر هذا الرجل من هو ، او تذكّره من هو اخي . لقد كانت ، في الظاهر ، فرصة ممتازة لالقاء عظة صغيرة ، ولرفع الاسقف فوق المجرم المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لكي يترك في ذهنه انطباعة . ولقد كان غيره خليقاً بأن يحسب ان من واجبه ، وقد وجد هذا الرجل التعس بين يديه ، أن يغذي روحه فيما

هو يغذي جسده ، وان يوجّه اليه لوماً موشحاً بعبرة ونصيحة ، او على الاقل شيئاً من الرأفة المصحوبة بتحريضه على ان يسلك في المستقبل مسلكاً أفضل . إن اخي لم يسأله لا عن بلده ولا عن تاريخه . ذلك بأنّ جريمته كامنة في تاريخه ، ولقد بدا اخي وكأنه يجتنب كل ما يمكن ان يذكّره بها . وذات لحظة ، فيما كان اخي يتحدث عن جبليي بونتارلييه الذين **يقومون بعمل بهيج قرب السماء** والذين اضاف قائلا : **انهم سعداء لانهم ابرياء** ، كفّ فجأة عن الكلام خشيةَ ان يكون في هذه اللفظة التي ندّت منه شيء يمكن أن يجرح مشاعر هذا الرجل . وبعد التفكير ، أحسب اني فهمت أيّ شيء كان يدور في خلد اخي . لقد فكّر ، من غير شك ، ان هذا الرجل ، الذي يدعى جان فالجان ، كان يتمثّل بؤسَهُ باكثر مما ينبغي ، وان من الخير أن يسلّيه عن هذا البؤس ، وأن يوقع في نفسه ، ولو لحظةً ليس غير ، أنه إنسان مثل سائر الناس ، بأن يسلك معه مسلكاً عادياً جداً . أليس هذا هو الفهم الصحيح للمحبة ؟ الا تجدين ، يا سيدتي العزيزة ، شيئاً إنجيلياً حقاً في هذه الرقة التي تَزْهَدُ في الوعظ ، والقاء الدروس الاخلاقية ، وتوشيح الكلام بضروب الرمز والكناية ؟ ألا تقتضينا الرحمة الفضلى ، حين يشكو الانسان ألماً ما ، ان لا نمسّه في موضع الألم على الاطلاق ؟ يخيّل اليّ ان هذا هو في الحق ما دار في خلد أخي . واياً ما كان ، فكل ما استطيع ان اقوله هو انه اذا صحّ ان تلك الافكار كلها قد راودته فقد احجم عن أن يُبديها حتى لي انا . لقد كان طوال الوقت شأنه في الليالي الاخرى كلها . ولقد تناول طعام العشاء مع جان فالجان هذا بالسّيما نفسها ، والطريقة نفسها ، اللتين كان خليقاً به ان يصطنعها لو انه تعشّى مع مسيو جدعون ، رئيس الكاتدرائية ، أو مع كاهن الابرشية .

وحين أوشكنا على الانتهاء من تناول الطعام ، وفيما نحن نأكل شيئاً من التين ، طُرق الباب . وكان الطارق الأمّ جيربو وقد حملت طفلها الصغير بين ذراعيها . وقبّل أخي الطفل ، واستعار مني خمسة عشر « سو » كانت معي ليقدّمها الى الام جيربو . وفي غضون ذلك ، لم يلتفت الرجل لما جرى غير التفات يسير . انه لم يتكلم ، ولقد بدا وكأنه متعب جداً . وغادرتنا السيدة العجوز المسكينة ، وتلا أخي صلاة الشكر التي تُرفع بعد الطعام ثم التفت الى الرجل وقال له : « لا شك في انك بحاجة ماسة الى النوم . » وسارعت السيدة ماغلوار الى نزع الغطاء عن المائدة . وادركتُ ان علينا ان ننسحب لكي يكون في ميسور هذا المسافر ان ينام ، فقصدنا كلانا الى غرفتينا . بيد اني ما لبثت ان ارسلت السيدة ماغلوار ، بعد لحظة ، لكي تضع على فراش هذا الرجل جلد يَحمور * من « الغابة السوداء » كان في حجرتي . ان الليالي قارسة جداً ، وهذا الجلد يبعث الدفء . ومن أسف ان يكون هذا الجلد قديماً جداً ، وان يكون وبره كله قد زايله . لقد اشتراه أخي يوم كان بألمانية ، في توتلنجن ، قرب منابع الدانوب ، كما اشترى السكين الصغيرة ذات المقبض العاجي التي أستعملها على المائدة .

ورجعت السيدة ماغلوار في الحال ، وتلونا صلواتنا في الصالة التي نفيد منها لنشر الغسيل وتنشيفه ؛ ثم انقلبنا الى حجرتنا من غير أن نقول كلمة .)

* اليحمور ، او الروبك ، نوع من الظباء .

٥

ســــكون

وبعد ان تمنى مونسينيور بيينفينو لاخته ليلةً سعيدة ، رفع أحـــد الشمعدانين الفضيين عن المائدة ، وقدّم الآخر الى ضيفه ، وقـال له :

— « سوف اقودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وكما أدرك القارىء مما قلناه آنفاً ، كان البيت منظماً على نحو يحتم على من يريد بلوغ المصلّى ، حيث المخدع ، او الخروج منه ، ان يجتاز بحجرة نوم الاسقف .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها بهذه الحجرة ، كانت السيدة ماغلوار تضع الآنية الفضية في الخزانة الجدارية القائمة عند رأس السرير . وكان ذلك آخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تؤوي الى فراشها .

وغادر الأسقف ضيفه في المخدع ، أمام فراش ابيض نظيف . ووضع الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة .

وقال الاسقف : « ارجو أن تنعم بليلة هانئة . وغـــداً صباحاً ، سوف تشرب ، قبل ان تنطلق ، كوباً من لبن بقرتينا الحارّ . »

فقال الرجل : « شكراً ، يا سيدي الراهب . »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات الناضحة بالمسالمة حتى أتى فجأةً ، ومن غير ما تمهيد ، بحركة غريبة كانت جديرة بأن تلقي الرعب في قلـــبي العانسين الطاهرتين لو أنهما شهدتاها . وحتى في هذه الآونة ، من العسير

علينا ان نفهم لأيّ الحوافز خضع في تلك اللحظة . أيكون قد أراد ان يُرسل تحذيراً أو يلقي إنذاراً ؟ ام أنه كان يدعى مجرد إذعان لحافز غَرَزيّ ليس يجهل هو نفسُهُ كنهه ؟ فقد التفت فجأة نحو الرجـــل العجوز ، وصالب ذراعيــه ، مسدّداً الى مُضيفه نظرة ضارية ، وصاح في صوت أبحّ :

— « آه ، حقاً ! انت تُنزلني في بيتك على مقربة منك على هـذا الشكل ! »

ثم كبح نفسه ، واضاف في ضحكة كان فيها شيء راعب :

— « هل فكرتَ في ذلك ؟ ما يُدريك أني لست سفّاكاً ؟ »

فأجابه الاسقف :

— « الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرّك شفتيه كمن يصلي او كمن يخاطب نفسه ، ورفع اثنتين من أصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع . ومن غير ان يدير رأسه وينظر الى الوراء مضى الى حجرته .

وحين احتُلّ المخدع سُحبت ستارة صوفيـة ضخمة غليظة من جانب المصلّى الى جانبه الآخر ، حاجبةً المذبح . وأمام هذه الستارة ركع الاسقف ، وصلّى صلاةً قصيرة .

وبعد لحظة كان يتمشّى في جنينتِهِ مُسلماً عقله ونفسه جميعاً الى تأمل حالمٍ في تلك الاشياء العظيمة المحوطة بالاسرار ، التي يجلوهـــا الله ، في اثناء الليل ، للأعين التي لا تغمض اجفانُها .

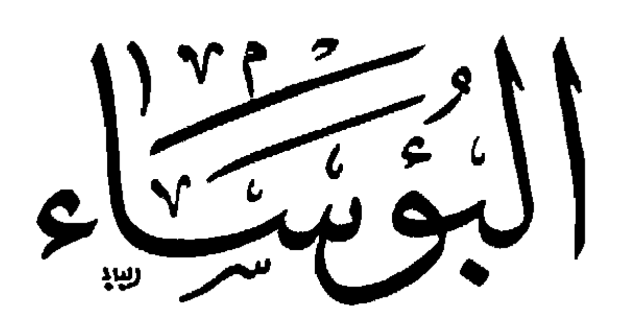
أما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يُفد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد أطفأ الشمعة بأحد منخريه ، على طريقـــة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بثيابه التي يرتديهـــا ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

وأعلنت الساعةُ منتصف الليل فيما كان الاسقف يغادر الحديقة عائداً الى حجرة نومه .

وبعد لحظات ، كان كلّ من في البيت الصغير قد نام .

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٢

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

٦
جان فالجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان ڤالجان .

لقد وُلد جان ڤالجان من اسرة ريفية فقـــيرة في « بري » . وفي طفولته لم يُعلَّم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشذّب اغصان في فافيرول . كانت أمه تدعى جـــانّ ماتيو ؛ وكان ابوه يدعى جان ڤالجان ، او ڤلاجان ، ولعله لقبٌ ضُغِط من لفظتي « ڤوالا جان » *

كان جان ڤالجان ذا مزاج نزّاع الى التفكير ، ولكنه غير حزين ، وهو مزاج يميّز اصحاب الطبائع العاطفية . بيد انه كانت ثمة على الجملة شيء متوانٍ جـداً وعديم الجدوى جـداً في مظهره على الاقلّ . لقـد فَقَدَ والديه وهو بعدُ طفل . فأما أمه فقد توفيت إثر حمّى لبنٍ أسيئت معالجتها . وأما ابوه ، وكان مشذّب أغصان من قبله ، فقد صُرِع إثر سقوطه من احدى الاشجار . ولم يبق لجان ڤالجان بعد ذلك نسيب غير اخت اكبر منه سناً ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات . واحتضنت هذه الاخت جان ڤالجان وآوت أخاها الاصغر واطعمته ما بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبه ، وعمرُ ابنه الاكبر ثماني سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان ڤالجان قد بلغ آنذاك سنّه الخامسة والعشرين ، فحلّ محلّ الأب ، وأعال بدوره تلك الاخت التي ربّتهُ . وإنما فعل ذلك في صدق واخلاص ، بوصفه واجباً ، بل وفي ضرب من النكد والشكاسة . لقد أنفق شبابه على هذه

* *Voilà Jean* اي هوذا جان .

الشاكلة في عمل خشن شاقّ مطفّف الاجر . ولم يُعرف عنه قط انه كانت له في البلد حبيبة ؛ إنه لم يجد متسعاً من الوقت للحب .

وفي المساء كان يرجع الى البيت متعباً ، ويتناول حساءه من غير ان يقول كلمة . وفيما هو يأكل ، كانت اخته ، الأمّ جانّ ، كثيراً ما تأخذ من صحفته خير ما فيها : قطعة اللحم ، وشطيرة شحم الخنزير ، وقلب الملفوفة ، لكي تقدمها الى احد اولادها . وكان هو يواصل الأكل ، منحنياً فوق المائدة ، وقد اوشك رأسه ان ينغمس في الحساء ، وتدلى شعره الطويل حول صحنه حاجباً عينيه ، وكأنه لا يعي شيئاً مما يجري حوله . وكان في فافيرول ، غير بعيد عن بيت فالجان ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، زوجة مزارع تدعى ماري كلود . وكان الاطفال من أسرة فالجان ، الذين كانوا يتضورون دائماً من الجوع ، يذهبون في بعض الاحيان فيستعيرون باسم أمهم كيلَ لبن كانوا يحتسونه خلف سياجٍ ما ، او في زاوية من الزقاق ، متنازعين الاناء في نهم شديد الى حدّ ينتهي بالبُنيّات الى ان يسفحن اللبن على مآزرهن واعناقهن . ولو قد عرفت الام بهذه السرقة اذن لأنزلت بالمذنبين عقاباً قاسياً . وكان جان فالجان ، على خشونته وتضجّره ، يدفع الى ماري كلود ، على غير علم من الأم ، ثمن اللبن ، وهكذا كان الاطفال ينجون من القصاص .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر « سو » كل يوم . ثم إنه اشتغل بعد ذلك حاصداً ، ومعاون بنّاء ، وخادماً في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملاً كادحاً . كان يقوم بأيما عمل يوفق اليه . واشتغلت اخته ايضاً ، ولكنْ انّى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ تلك كانت جماعةً بائسة أحاط بها الشقاء وراح يطبق عليها شيئاً بعد شيء . وأقبل شتاء قاسٍ . ولم يقع جان على عمل . ولم يكن عند الاسرة خبز . اجل ، لم يكن ثمة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة اولاد .

وفي مساء يوم من ايام الاحد ، كان موبير إيزابو ، وهو خباز في ساحة الكنيسة في فافيرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبّكة بالحديد . وهرع في الحال فاذا به يرى ذراعاً مخترقةً الثغرة التي نشأت عن ضرب الشبكة والزجاج بجُمع الكفّ . وقبضت الذراع على رغيف ، واخرجته . وانطلق ايزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق به إيزابو وقبض عليه . كان السارق قد اطّرح الرغيف ، ولكن ذراعه كانت ما تزال تقطر دماً . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وإنما حدث ذلك عام ١٧٩٥ . ومثلَ جان فالجان امام قضاة ذلك العصر بتهمة « السطو ليلاً على بيت آهل ، والكسر تسهيلاً للسرقة » . وكانت لديه بندقية اصطنعها كأحسن ما يصطنع رجل بندقيته ، وكان الى حد ما قانصاً يتصيد في أملاك الآخرين ، وذلك ما آذاه ، اذ كان ثمة ضغينة طبيعية على المتصيدين في املاك الآخرين . إن القانص المتصيد في املاك الآخرين ، كالمهرّب ، يجاور قاطع الطريق مجاورةً شديدة . ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول ، في طريقنا ، إن ثمة برزخاً عميقاً بين هذا العِرْق من الرجال وبين سفّاح المدن المخيف . إن المتصيد في املاك الآخرين يحيا في الغابة ؛ والمهرّب يحيا في الجبل او على متن البحر . إن المدن تنتج رجالاً شرسين ، لانها تنتج رجالاً فاسدين . أما الجبل ، والبحر ، والغابة فتنتج رجالاً وحشيين . إنها تقوي في ابنائها الجانب الضاري ، ولكنْ من غير ان تُفسد في كثير من الاحيان الجانب الانساني .

واعتُبر جان فالجان مجرماً ؛ فقد كانت نصوص القانون صريحة حاسمة . إن في حضارتنا ساعات مخيفة ؛ تلك هي الساعات التي يعلن فيها قانون العقوبات حكمه على رجل ما بالغرق أو السقوط . أية لحظة فاجعة تلك التي ينسحب فيها المجتمع ويتخلى الى الابد عن كائن مفكّر ! لقد حُكم

على جان فالجان بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .

وفي ٢٢ نيسان ١٧٩٦ أعلن في باريس انتصار مونتينوت * وقد احرزه قائد جيش ايطالية العام الذي دعته رسالة حكومة الادارة** الى مجلس الخمسئة في ٢ فلوريال من سنة الجمهورية الرابعة ، بوانابرت *** . وفي ذلك اليوم نفسه أوثقت سلسلة حديدية ضخمة في بيستر . وكان جان فالجان يشكل جزءاً من هذه السلسلة . وثمة سجان عجوز ، هو اليوم في نحو التسعين من عمره ، لا يزال يذكر جيداً هذا الرجل البائس الذي شُدّ بالحديد عند اقصى القاعدة الحجرية الرابعة في الزاوية الشمالية من الفناء . كان جالساً على الارض مثل سائر السجناء . ولقد بدا وكأنه لا يفقه من وضعه شيئاً إلاّ انه وضعٌ راعب . ولعله ان يكون قد امتزج ايضاً ، بافكار الرجل الجاهل الغامضة شعورٌ بأن في العقوبة شيئاً من الافراط .

وحين كانوا يلوون مسمار قَيْدِهِ بضربات مطرقة ثقيلة أعملوها خلف رأسه ، كان هو يبكي . لقد خنقته الدموع ، وحالت بينه وبين الكلام ، فلم يوفق بين الفينة والفينة الى ان يقول غير هذه الجملة : « **كنتُ مشذّب أشجار في فارفيرول** » . ثم إنه رفع يده اليمنى ، في غمرة التنهّد ، وخفضها سبع مرات ، وكأنما كان يمسّ على التعاقب سبعة رؤوس متفاوتة الارتفاع . ولقد كان في ميسور المرء ان يحزر من هذه الايماءات انه إنما فعل ما فعله لكي يطعم ويكسو سبعة اطفال صغار .

---

* Montenotte قرية ايطالية في مقاطعة جنوا . وقد جرت فيها سنة ١٧٩٦ معركة شهيرة بين نابوليون ، والقوات النمسوية بقيادة « بوليو » Beaulieu كان فيها النصر حليف نابوليون .

** Directoire الاسم الذي يطلق على الحكومة التي تولت مقاليد الامر في فرنسة ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ (٥ برومير ، من سنة الجمهورية الرابعة) والتي اسقطها الجنرال بونابرت في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ (١٨ برومير ، من سنة الجمهورية الثامنة .)

*** Buonaparte

واقتيد الى طولون على متن عربة ، فبلغها إثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً ، والقيد ما يزال يطوّق عنقه . وفي طولون ألبس قميصاً أحمر . وهناك امحت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . إنه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ . ما الذي حلّ بالاخت ? ما الذي حلّ بالاطفال السبعة ? من الذي ازعج نفسه بذلك ? ما الذي يحلّ بحفنة الاوراق الخضراء حين تُقطع الشجرة من جذعها ?

إنها القصة نفسها دائماً . لقد مضت هذه الكائنات البشرية الحية ، هذه المخلوقات الالـهية ، وقد تُركت من غير سناد ، ومن غير هادٍ ، ومن غير مَفزع — مضت الى حيثما قادتها المصادفة . وهل من سبيل الى معرفة ذلك ? لعلّ كلّا منهم اتخذ طريقاً مختلفة ، وغرق شيئاً بعد شيء في ذلك الضباب القارس الذي يغمر المصائر المتوحّدة ، تلك الظلمة النكدة التي يختفي فيها كثير من الرؤوس الشقية خلال سير الجنس البشري المعتم . لقد نزحوا عن تلك الديار . لقد نسيتهم كنيسة القرية التي كانت قريتهم ، ونسيهم مَعلَم الحقل الذي كان حقلهم . وبعد بضع سنوات من مقامه في سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه . لقد امسى وفي قلبه نُدبة حيث كان من قبلُ جُرحٌ . هذا كل ما هنالك . وفي اثناء مقامه بطولون لم يسمع عن أخته إلا مرة واحدة . وكان ذلك ، في ما أحسب ، في اواخر السنة الرابعة من سَجنه . ولست ادري كيف بلغه النبأ . لقد رأى اخته رجلٌ ممن كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سولبيس ، هو شارع جيندر . ولم يكن معها غير طفل واحد ، صبيّ طريّ العودِ ، كان هو اصغر الاخوة سناً . اين كان الستة الآخرون ? لعلها هي نفسُها لم تكن تدري . وكل صباح كانت تمضي الى مطبعة تقع في رقم ٣ شارع سابو حيث كانت تطوي ملازم الكتب وتجلدها . وكان عليها ان تباشر عملها في السادسة صباحاً ، اي قبل مدة

غير يسيرة من طلوع الشمس في ايام الشتاء . وكان في البناء الذي تشغله المطبعة مدرسة بعثت اليها بابنها الصغير ، البالغ عمره سبع سنوات . واذ كانت المدرسة لا تفتح ابوابها الا في الساعة السابعة ، واذ كانت مضطرة ً الى ان تلتحق بعملها في السادسة ، فقد تعيّن على الغلام ان ينتظر في الفِناء ساعة ً كاملة حتى تفتح المدرسة — ساعة ً من البرد والظلمة في ايام الشتاء . إنهم ما كانوا يسمحون للغلام بان ينتظر في المطبعة لأنه كان مزعجاً ، في ما زعموا . وكان العمال الوافدون الى المطبعة كل صباح يرون الى هذا المخلوق الصغير البائس جالساً على البلاط ، وقد غلب عليه النعاس ، واستسلم للرقاد في الظلمة ، في كثير من الاحيان ، رابضاً منطوياً فوق سلته . فاذا ما هطل المطر كانت الشفقة تعطف عليه قلب البوابة العجوز ، فهي تجيز له ان يدخل الى مسكنها الضيق الحقير الذي اقتصر أثاثه على فراش من قشّ ، ودولاب للغزل ، وكرسيين خشبيين. وهناك في احدى الزوايا كان الغلام ينام ضامّاً المرة الى صدره لكي ينفي عن جسده البرد . حتى اذا بلغت الساعة ُ السابعة َ ، فتحت المدرسة ابوابها ، فمضى اليها . ذلك ما قيل لجان فالجان . لكأنّ نافذة قد ُفتحت فجأة على مصائر هؤلاء الذين أحبّهم ، ثم أُوصِدت من جديد . ولم يسمع شيئاً آخر عنهم بعدُ . لم يسمع شيئاً عنهم الى الأبد . إن نبأ ما لم ينتهِ اليه عن حالهم . إنه لم يرهم ، ولن يراهم منذ اليوم ! ولن نلتقي بهم بعدُ في بقية هذه القصة الحزينة ، كرة اخرى .

وحوالى ختام هذه السنة الرابعة سنحت لجان فالجان فرصة الهرب . لقد ساعده رفاقه كما يقع دائماً في ذلك الموطن الكئيب ، ففرّ . لقد هام على وجهه حراً طليقاً ، في الحقول ، يومين اثنين — اذا كان من الحرية ان تطارَد ، وان تلتفت الى وراء ، كل لحظة ، وان ترتعد اوصالك لأي صوت ، وان يدبّ الرعب الى فؤادك من كل شيء : من السقف الذي يتصاعد منه الدخان ، من الرجل الذي يعبر السبيل ،

من الكلب الذي ينبح ، من الجواد الذي يخبّ ، من الساعة التي تدقّ ، من النهار لأنك تُبصر فيه ، ومن الليل لانك لا تبصر فيه ، من الطريق ، من الممرّ ، من الدغل ، ومن الرقاد . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . إنه لم يذق طعاماً ولا مناماً طوال ست وثلاثين ساعة . ومدّد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة فغدت ثمانية أعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الهرب كرة اخرى . ولم يضيّع الفرصة ، ولكنه اخفق من جديد . لقد افتقدوه حين نُودي على الاسماء . وأُطلق مدفع الخطر . وفي موهن من الليل عثر عليه العسس الطوّاف مختبئاً خلف قاعدة مركب لمّا يتمّ بناؤه بعد . وقاوم معتقليه من حرس السجن الخاص بالمحكومين بالاشغال الشاقة . هربٌ ومقاومة . وكانت أحكام القانون الخاص تعاقب على هذين باضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منها يصفّد خلالهما السجين بالقيد الحديدي المزدوج . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة اخرى لم يوفّق فيها الى خير مما رفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافية فغدا المجموع ست عشرة سنة . واخيراً جرب مرةً نهائية وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، في ما اظنّ ، فأعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحُكم عليه بثلاث سنين إضافية من اجل هذه الساعات الاربع . وهكذا أمسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، أُطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لأنه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وهنا موضع ملاحظة قصيرة بين هلالين . هذه هي المرة الثانية التي يقع فيها مؤلف هذا الكتاب — في دراساته للمسألة الجزائية ولأحكام القانون — على سرقة رغيف كانت نقطة انطلاق في تخريب مصير . لقد سرق كلود غوو رغيفاً ، وسرق جان فالجان رغيفاً . ويشهد احصاء

انكليزي ان اربع سرقات من كل خمس تقع في لندن سببها المباشر هو الجوع .

لقد دخل جان فالجان سجن الاشغال الشاقة وهو ينتحب ويرتعد ؛ وغادره وقد قسا فؤاده وامتنع على الألم . لقد دخله يائساً ؛ وغادره كالح الوجه .

ما الذي ألمّ بهذه النفس ؟

٧
أعماق القنوط

فلنحاول ان نجيب عن هذا السؤال .

وانها لضرورة ملحة ان ينظر المجتمع في هذه الاشياء ، لأنها من صنع يديه .

لقد كان ، كما سبق منا القول ، جاهلاً ؛ ولكنه لم يكن أبله . كان النور الطبيعي مُضاءً في ذات نفسه . وضاعف البؤس — والبؤس ايضاً ضياؤه — تلك الاشعة القليلة التي انارت عقله . ففي الاصفاد ، وتحت السياط ، وفي حجيرة الحبس المظلمة ، وفي غمرة الاعياء ، وتحت شمس السجن المحرقة ، وفوق الالواح الخشبية التي تشكل سُرر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان يلتفت الى ضميره ويفكر .

لقد أقام من نفسه هو محكمة .

وشرع يحاكم نفسه بنفسه ..

لقد ادرك انه لم يكن رجلاً بريئاً عوقب ظلماً . لقد اعترف بأنه ارتكب عملاً متطرفاً يوجب اللوم ؛ وبأنه كان من الجائز ان لا يُضنّ عليه بالرغيف لو طلبه ؛ وبأنه كان من الخير له على اية حال لو اعتصم

بالصبر في انتظار الرحمة ، او في انتظار العمل ؛ وبأن قول المرء : « وهل استطيع ان أنتظر حين أكون جائعاً » ليس حجة لا تُردّ على الاطلاق ، وبان من النادر جداً ، في المحل الاول ، ان يموت المرء جوعاً بالمعنى الحرفيّ ؛ وبأن الانسان قد خُلق – لحسن الحظ او لسوئه – على نحو يمكّنه من ان يتألم طويلاً وكثيراً معنوياً وجسدياً – من غير أن يموت ، وبأنه كان يتعين عليه ، اذن ، ان يصبر ؛ وبأن ذلك كان خليقاً به ان يكون خيراً حتى لاولئك الاطفال الصغار المساكين انفسهم ؛ وبأنه كان من الحماقة ، بالنسبة اليه وهو الرجل البائس الحقير ، أن يأخذ بخناق المجتمع كله في عنف ، وان يتوهم ان في ميسوره ان ينجو من البؤس عن طريق السرقة ؛ وبأن الباب الذي يقودك الى العار ليس على اية حال باباً صالحاً لأخراجك من الشقاء . وبكلمة ، لقد اعترف بانه قد اخطأ .

ثم إنه سأل نفسه :

أكان هو الشخص الوحيد الذي أخطأ خلال تاريخه المشؤوم ؟ أليس شيئاً فظيعاً في المحلّ الاول ان يلتمس ، هو العامل ، عملاً فلا يجده ، وأن يلتمس ، هو المجتهد ، رغيفاً فلا يقع عليه ؟ وفوق هذا ، أفليست العقوبة – وقد ارتكب الخطأ واعترف به – وحشية مغالى فيها ؟ أليست الاساءة التي ارتكبها القانون ، في العقوبة ، أعظم من تلك التي ارتكبها المذنب ، في الجريمة ؟ أليس ثمة ثقل اضافيّ في احدى كفتي الميزان – تلك التي تمثل جانب التكفير عن الاثم ؟ أليس الافراط في العقوبة محواً للجريمة ؟ أليس من نتيجة هذا الافراط قلب الوضع رأساً على عقب ، وبذلك تحلّ خطيئة القهر محلّ خطيئة الآثم ، ويمسي المجرم ضحية ، والمدين دائناً ، وينتقل الحق نهائياً الى جانب ذلك الذي انتهك حرمته ؟ ألم تنته هذه العقوبة بما اضيف اليها من علاوات متعاقبة بسبب من محاولته الهَرَبَ غير مرة الى ان تصبح ضرباً من الاعتداء يشنه

القوي على الضعيف ، وجريمة من جرائم المجتمع ضد الفرد ، جريمة تتكرر كل يوم ، جريمة استمرت تسع عشرة سنة ؟

وسأل نفسه ما اذا كان المجتمع البشري يملك الحق في ان يسحق اعضاءه باهماله البالغ ، من ناحية ، وباهتمامه الذي لا يرحم ، من ناحية ثانية . وما اذا كان يملك الحق في ان يبقي الى الابد رجلاً فقيراً بين نقص وإفراط : نقص في العمل ، وافراط في العقوبة . وما اذا كان فاضحاً ان يعامل المجتمع بمثل هذا التدقيق القاسي أعضاءه الذين نالوا اقلّ نصيب من توزيع الثروة الذي تمّ بالمصادفة ، والذين هم بسبب من ذلك احقّ الناس بالتساهل والتسامح .

حتى اذا طرح هذه الاسئلة وقرّرها دانَ المجتمعَ وأصدر حكمه عليه .

لقد حكم عليه بالحقد والكراهية .

لقد اعتبره مسؤولاً عن المصير الذي تحمّله ، ولعله ان يكون قال في ذات نفسه انه لن يتردد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بينه وبين نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي أنزله هو ، وبين الاذى الذي أُنزل به . وخلص اخيراً الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظلماً ، ولكنها كانت من غير ريب جوراً وإثماً .

قد يكون الغضب احمق سخيفاً ، وقد يستثار غضب المرء وهو على خطأ ، ولكن المرء لا يمكن ان يستشعر السخط الناشيء عن الاجحاف البالغ إلا وهو في الاساس على حق ، في ناحية من النواحي . لقد استشعر جان فالجان ذلك الضرب من السخط .

وفوق هذا ، فان المجتمع البشري لم يقدّم اليه غير الاساءة . إنه لم يرَ من ذلك المجتمع غير هذا الوجه الحانق الذي يدعوه العدالة ، والذي يبديه لاولئك الذين يصرعهم . إن احداً من الناس لم يمسّ جان

فالجان يوماً إلا ليخدشه . ولقد كان اتصاله كله بالناس لطماً وطعناً .
إنهم لم يوجهوا اليه قط ، منذ طفولته ، منذ عهد امه ، منذ عهد اخته ،
كلمة عذبة ، او نظرة كريمة . وفي مراحل تنقّله من عذاب الى عذاب
خلص شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد بأن الحياة حرب ، وبأنه كان هو المهزوم
في تلك الحرب . لم يكن لديه سلاح غير حقده . ولقد وطن النفس على
ان يشحذه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وان يتسلح به
حين يغادر ذلك الحبس .

وكان في طولون مدرسة للسجناء يديرها بعض الرهبان غير البارعين
جداً ، وكانت هذه المدرسة تعلّم المعارف الرئيسية التي لا يستغنى عنها
للراغبين في ذلك من اولئك البائسين . وكان هو واحداً من هؤلاء .
وهكذا دخل المدرسة وهو في الاربعين ، وتعلم كيف يقرأ ، وكيف
يكتب ، وكيف يحسب . لقد أحسّ بأن تعزيز ذكائه يعني تعزيز حقده .
ففي بعض الاحوال ، يكون في ميسور التعليم والنور ان يكونا عوناً
على الشر .

ومن المحزن أن نقول إنه بعد ان حاكم المجتمع الذي صنع شقاءه
حاكم العناية الالهيّة التي صنعت المجتمع .

ودانَ العنايةَ الالـهية أيضاً .

وهكذا ارتفعت هذه الروح وانخفضت ، في آن معاً ، خلال هذه
السنوات التسع عشرة من التعذيب والعبودية . لقد تسرّب الى نفسه
النور من جانب ، وتسرب اليها الظلام من جانب .

ولم يكن جان فالجان ، كما قد رأينا ، ذا طبيعة شريرة . كان لا
يزال حسنَ الطوية حين دخل السجن . وفي اثناء مقامه هناك دانَ
المجتمعَ البشري ، واستشعر انه امسى شريراً ؛ ودان العدالة واستشعر
أنه امسى ملحداً .

ومن العسير ان لا نتمهل هذا لحظة ونتأمل .

أتستطيع الطبيعة البشرية ان تنقلب هكذا رأساً على عقب ؟ أيكون في مبدور الانسان ، الذي خلقه الله خيّراً ، ان يحيله أخوه الانسان شريراً ؟ هل تستطيع النفس ان تتغير دفعةً واحدة لتجاري قَدَرَها ، وان تصبح شريرة حين يكون قَدَرها شريراً ؟ ايكون في وسع القلب ان يتشوّه ويصاب بالقباحات والعاهات التي لا برء منها ، تحت وطـأة بلاءٍ فادح ، شأن العمود الفقري تحت قوس شديد الانخفاض ؟ اليس ثمة في كل نفس بشرية ، ألم يكن في نفس جان فالجان شرارة ابتدائية — او عنصر الهي — لا يتطرق اليها الفساد في هذا العالم ، ولا يلمّ بها الفناء في العالم الآخر . شرارة يستطيع الخير ان يطورها ، ويؤججها ، ويضرمها ، ويسعّرها ، ويمكّنها من ان تشعّ إشعاعاً يبهر الابصار ، ويعجز الشر ابد الدهر عن اطفائها بالكلية ؟

اسئلة خطيرة معقّدة لعل جميع علماء الفيسيولوجيا يجيبون عن آخرها نفياً ، ومن غير ما تردد ، لو قدّر لهم ان يروا في طولون — خلال ساعات الراحة التي كانت عند جان ڤالجان ساعات تفكير — ذلك السجينَ المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وقد قعد مكفهرّ الوجه ، مطويّ الذراعين فوق قضيب احدى الآلات الرافعة ، وأقحم طرفُ قيده الحديدي في جيبه لكي لا ينسحب على الارض — ذلك السجين المستغرق في التفكير بجد وصمت ، المنبوذ من القانون الذي ينظر الى الانسان في حقد ، المحكوم عليه من المدنية التي تنظر الى السماء في قسوة .

وليس من ريب — ولا نودّ ان نخفي ذلك — في ان الفيسيولوجي الملاحظ خليق به ان يرى في جان ڤالجان شقاء لا سبيل الى شفائه ؛ ولعله أن يرثي لهذا المريض الذي أورثه المجتمع علته ؛ ولكنه غير قمين مع ذلك بأن يحاول معالجته . وأغلب الظن انه سوف يشيح بوجهه عن هذه الكهوف الجدير به ان يراها في تلك النفس ؛ وانه سوف يمسح من هذا الوجود — مثلَ دانتي عند باب الجحيم — تلك الكلمة التي خطتها ،

مع ذلك ، إصبع الله على جبين كل انسان : - **الامل** .

هل كانت حاله النفسية هذه التي حاولنا ان نحللها ، واضحةً عند جان ڤالجان وضوحها بعد محاولتنا هذه في اذهان القراء ؟ هل رأى جـــان ڤالجان في وضوح جميعَ العناصر التي رُكّب منها بؤسه المعنوي ؟ هل رآها قبل ان تتكون ، وفيما هي تتكوّن ؟ هل تتبّع ذلـك الرجل الاميّ الجافي تتبّعاً دقيقاً تعاقب الفكرات التي رفعته وخفضته - شيئاً بعد شيء - حتى انتهى الى ذلك المستوى الفاجع الذي طبع منذ سنوات عديدة افقَ روحه الداخلي ؟ هل كان يعي وعياً واضحاً كل ما يجري في ذات نفسه ، وكل ما كان يحركه ويقلقله ؟ ذلك شيء لا نجرؤ على إثباته ؛ إننا في الواقع لا نؤمن به . كان جان ڤالجان أجهلَ ، حتى بعد ان اصيب بهذا البلاء كله ، من ان يتمّ له تمييز حسنٌ في هـــذه الشؤون . إنه ما كان يدري ، في بعض الاحيان ، ماهية مشاعره على وجه الضبط . كان جان ڤالجان في الظلام ؛ لقد شقيَ في الظـــلام ؛ لقد أبغض في الظلام ؛ وفي وسعنا ان نقول إنه أبغض ببصره هـو . لقد عاش في ذلك الظلام على نحو موصول ، ملتمساً طريقه مثل أعمى من العميان ، ومثل حالم من الحالمين . وبين الفينة والفينة فحسب كان يغمره ُفجاءةً ، من باطن او من خارج ، عاصف من غضب ، وَفيضٌ من عذاب ، ووميض خاطف شاحب يضيء نفسه كلها ، ويكشف من حوله - من امام ومن وراء ، على وهج نور مخيف - عن تلـــك الهُوَى * الفظيعة والمشاهد الكالحة التي ينطوي عليها قَدَره .

وخبا الوميض ؛ وهبط الليـل من جديد ؛ أين كان ؟ انه ما عاد يدري .

إن ميزة هـــذا الضرب من العقوبة التي يهيمن فيها العنصر الذي لا

---

* جمع هوّة .

يرحم ، يعني العنصر الذي يوحّش * ، هي أنه يحوّل الانسانَ — شيئاً فشيئاً — تحويلاً أبله ، الى حيوان ، وفي بعض الاحيان الى حيوان مفترس . وإن محاولات جان ڤالجان العنيدة المتكررة الى الهرب من السجن لتنهضُ دليلاً على ان ذلك هو الاثر الذي يتركه القانون في النفس البشرية . لقد جدّد جان ڤالجان هذه المحاولات ، الحمقاء الى ابعد الحدود ، غير المجدية الى ابعد الحدود ، كلما سنحت له الفرصة ، من غير ان يفكر لحظة واحدة في النتيجة ، او في التجارب التي سبق له ان قام بها . لقد فرّ على نحو ضارٍ ، كالذئب الذي يجد باب قفصه مفتوحاً . قالت له الغريزة : « أنجُ بنفسك ! » وقال له العقل : « إبقَ ! » ولكنْ أمام إغراء قويّ الى هذا الحد ، اختفى العقل . الغريزةُ وحدها هي التي بقيت . كان الوحش وحده هو الناشط العمل . حتى اذا عاودوا إلقاء القبض عليه لم تزده القظائع الجديدة التي أُنزلت به غيرَ ضراوة الى ضراوة .

وثمة ناحية واحدة ينبغي لنا ان لا نُغفلها ، وهي انه كان على قوة جسدية لم ينعم بمثلها ايّ من نزلاء السجن . ففي العمل الشاق ، وفي فتل الحبال المعدنية ، وفي ادارة الآلات الرافعة كانت قوة جان ڤالجان تعدِلُ قوة اربعة رجال . كان في بعض الاحيان يرفع ويحمل على ظهره اثقالاً هائلة ، ويقوم في بعض الاحيان بدور تلك الاداة التي ندعوها رافعة أثقال ، او ما كان يدعى في الفرنسية القديمة *orgueil* وهي الكلمة التي نستطيع ان نقول ، بالمناسبة ، ان شارع مونتورغويّ ، قرب اسواق باريس المسقوفة ، مدينٌ باسمه لها . ولقد لقّبه رفاقه بـ « جان رافعة الاثقال » . وذات يوم ، فيما كانت شرفة دار بلدية طولون ترمّم ، مالَ تمثال من تماثيل النساء الرائعة التي تحمل ثقل الشرفة ، وهو من عمل

---

* الذي يجعل الشيء وحشياً .

بوجيه * - مال عن موضعه ، وكاد ان يسقط . فما كان من جان فالجان ، الذي اتفق ان كان هناك ، إلا ان أسنده بكتفه حتى اقبل العمال .

وكانت لدانةُ جسده تفوق قوته ايضاً . والواقع ان بعض السجناء ، الحالمين ابداً بالفرار ، انتهوا الى ان يجعلوا من القوة والبراعة مجتمعتين علماً حقيقياً . ذلك هو علم العضلات . وان نظاماً غامضاً من توازن القوى ليُمارَس كل يوم من جانب السجناء ، هؤلاء الحاسدين السرمديين للذباب والعصافير . كان تسوّر الجدران واكتشاف نقاط ارتكاز حيث لا يرى المرء نتوءاً ما إلا بشق النفس - كان هذان ضرباً من اللهو عند جان فالجان . أعطه زاوية في جدار تجده - وقد توترت ركبتاه وتوتر ظهره واندمجت يداه ومرفقاه بوجه الجدار الخشن - يرتقي بمثل السحر حتى الدور الثالث . وقد صعد ذات مرة على هذه الشاكلة ، الى سطح السجن الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

لقد تكلم قليلاً ، ولم يضحك البتة . كان في حاجة الى انفعال متطرف لكي ينتزع منه ، مرةً او مرتين في العام ، ضحكة السجين الفاجعة تلك ، التي هي اشبه بصدى ضحكة شيطان من الشياطين . كان يبدو في عين من يراه وكأنه مستغرق في النظر ، على نحو موصول ، الى شيء فظيع .

ولقد كان مستغرقاً حقاً .

فمن خلال الاحساس المريض الذي يميز الطبائع غير الكاملة ، ومن خلال الذكاء المخمَد أحسّ إحساساً غامضاً بأن عبئاً هائلاً يجثم فوقه . وفي ذلك الظل الشاحب القاتم حيث كان يزحف ، وكلما ادار وجهه وحاول ان يرفع عينيه ، كان يرى في ذعر يمازجه الغيظ ركاماً يتشكل ويتجمع ويصعّد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات راعبة - ركاماً مخيفاً

* Pierre Puget نحات فرنسي اشتهر بأصالته الفنية (١٦٢٢ - ١٦٩٤)

من الاشياء ، من القوانين ، من الاحقاد ، من الرجال ، ومن الاعمال التي كانت خطوطها الكبرى تفرّ منه ، والتي كان ثقلها يرعبه ، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة . وهنا وهناك ، في ذلك الركام البشع المتألب ، القريب منه حيناً ، البعيد عنه حيناً ، المغالي في الارتفاع الى أعالٍ لا تُدرَك ، ميّز جان فالجان مجموعةً ما ، بعضَ الجزئيات الشديدة الوضوح ، فهنا السجان حاملاً عصاه ، وهنا الدركي شاهراً سيفه ، وهناك كبير الاساقفة وعلى رأسه التاج ، وهنالك فوقهم جميعاً ، وفي ضرب من وهج المجد ، الامبراطور متوجاً يُعشي بهاؤه العيون . لقد بدا له أن هذه الأبهة النائية كلها ، التي ما كانت لتبدّد ليله ، إنما جعلت ذلك الليل اشد حلكةً وأدعى الى إثارة الشجن . كانت هذه جميعاً — القوانين ، والاحقاد ، والاعمال ، والرجال ، والاشياء ، تغدو فوقه وتروح ، وفقاً للحركة المعقدة الخفية التي يطبع الله بها الحضارة البشرية — فهي تدوسه وتسحقه بوحشية هادئة تمتنع على الوصف ، وبلامبالاة لا تعرف الرحمة . إن النفوس المتردّية في قعر الشقاء الاقصى ، والرجال البائسين الضائعين في الاعماق السفلى حيث يحتجبون عن العيان ، واولئك الذين صبّ عليهم القانون لعنته — إن هؤلاء جميعاً ليحسّون فوق رؤوسهم بكامل ثِقل ذلك المجتمع البشري المخيف الى ابعد الحدود في عين المنبوذ خارجه ، الفظيع الى ابعد الحدود في عين القائم تحته .

في مثل هذا الوضع فكّر جان فالجان ، وأيّ طبيعة يمكن أن تغلب على تأملاته ؟

لو كان في ميسور حبة الذرة البيضاء ان تفكر ، إذن لفكرت بما فكر به جان فالجان من غير شك .

كانت كل هذه الاشياء — وهي حقائق مليئة بالاشباح ، واشباح مليئة بالحقائق — قد احدثت في ذات نفسه آخر الامر حالةً يكاد التعبير

عنها ان يكون شيئاً متعذراً .

وفي بعض الاحيان ، كان يقف ، وهو في غمرة من عمله في سجن الاشغال الشاقة ، ويسترسل في التفكير . كان عقله ، وقد ازداد نضجه وتعاظم قلقه في آن معاً ، ينتفض ويثور . إن كل هذا الذي حدث له ليبدو في عينيه عبثاً ، وإن كل هذا الذي يحيط به ليبدو له مستحيلاً . كان يقول في ذات نفسه : « انه حلم . » وكان ينظر الى السجان الواقف على بضع خطوات منه ، فاذا بالسجان يبدو في ناظره وكأنه طيف من الاطياف ؛ وفجأةً كان هذا الطيف يجود عليه بضربة عصا .

كاد العالم الخارجي ان لا يكون له وجود عنده . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ، بالنسبة الى جان فالجان ، لم تكن ثمة شمس ، ولم تكن ثمة ايام صيف جميلة ، ولا سماء مشمسة ، ولا صبح نضرٌ من أصباح نيسان . كان شيء من نور النافذة القاتم سو كل ما اضاء نفسه .

ولكي نوجز ، في الختام ، ما يمكن ان يُوجز وان يسترجم الى نتائج ايجابية من كل ما بسطناه حتى الآن ، سوف نقتصر على التيقن من ان جان فالجان ، مشذب الاشجار الفافيرولي المسالم ، والرقيق المستعبد في سجن طولون ، أمسى قادراً خلال تسع عشرة سنة ، وبفضل المران الذي تم له في محبسه ، على ارتكاب نوعين من الجريمة ، أولهما قباحة خاطفة طائشة ، مفعمة بالتهور ، مفعمة بالغريزة ، ضربٌ من الثأر للظلم الذي أُنزل به . وثانيهما قباحة خطيرة مترّوًى فيها ، خضعت لمناقشة الضمير ، ونُظر فيها على ضوء الفكرات الخاطئة التي يمكن لمثل هذا المصير البائس ان يقدمها . ومرّ تبصّره في الرأي بالمراحل الثلاث المتعاقبة التي لا تستطيع غير بعض الطبائع المعيّنة ان تجتازها : التفكير ، الارادة ، العناد . كانت دوافعه هي السخط الموصول ، ومرارة النفس ، والوعي العميق للمظالم التي يعانيها ، وردّ الفعل حتى ضد الخيّرين والابرياء والمستقيمين من الناس ، اذا كان على وجه الارض من يستحق هذه

الصفات . كانت بداية افكاره كلها ونهايتها كلها هي الحقد على القانون البشري ، هذا الحقد الجدير به ، اذا لم تكبح من نموّه حادثة ذات نفحة الّهية ، أن يمسي حقداً على المجتمع ، ثم حقداً على الجنس البشري ، ثم حقداً على الخليقة ، ويتجلى في شهوة غامضة موصولة ضارية الى ان يؤذي مخلوقاً حياً ، كائناً من كان . وهكذا نرى أن وصف الجواز لجان فالجان بأنه « **رجل خطر جداً** » كانت له اسبابه المبررة .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثر — ذبلت في بطء ولكن بقضاء محتوم . والى هذا القلب الذاوي كانت له عين جامدة . فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد بلغ تسعة عشر عاماً لم يذرف خلالها دمعة واحدة .

٨

الموج والظل

رجل في عرض البحر !

وأي بأس في ذلك ! إن السفينة لا تقف . وإن الريح لتهبّ ؛ ولهذه السفينة القاتمة طريق مقدّر عليها ان تسير فيها . إنها تمضي لسبيلها .

ويختفي الرجل ، ثم يعاود الظهور ، ويغوص في الماء ، ثم يرتفع ثانية الى السطح . إنه يستغيث ، وينشر يديه ، فلا يسمعونه . ان السفينة المترنحة تحت العاصفة ، لتجند طاقاتها كلها في سبيل الخلاص . ويختفي الرجل الغريق عن اعين الملاحين والمسافرين ؛ إن رأسه البائس لا يعدو أن يكون نقطة في خضمّ الامواج الواسع العريض .

إنه يطلق نداءات يائسة وسط الاعماق . أيّ شبح هو ذاك الشراع المتواري ! إنه ينظر اليه — إنه ينظر اليه في سُعر . ولكنه ينأى ،

ولكنه يغدو قاتماً ، ولكنه يتقلص . لقد كان هناك منذ لحظة ، كان واحداً من الملاحين ؛ لقد ذرع ظهر المركب مع سائر القوم ، جيئة وذهوباً . كان له حظه من الهواء واشعة الشمس ؛ كان كائناً حياً . والآن ، ما الذي اصابه ؟ لقد زلت به القدم ، لقد سقط ، ولقد انتهى كل شيء .

إنه في الاعماق الراعبة . وليس تحت قدميه غير الفرار والانهيار . إن الامواج ، وقد مزقتها الرياح وبددتها ، لتطبق عليه إطباقاً كريهاً ، وان تقلبات اللجة لتحمله على متنها . إن فلذ الماء لتجيش حول رأسه ، وإن سفلة الامواج لتبصق في وجهه ، وان الفجوات المختلطة لتبتلعه نصف ابتلاع . وكلما غاص في الماء يلمح هُوَىً مفعمة بالظلام ، وتتشبث به نباتات مخيفة مجهولة ، فتوثق قدميه ، وتشدّه نحوها . إنه يحسّ بانه قد اصبح لجة وبأنه غدا جزءاً من الزبد . ان الامواج لتتقاذفه ؛ وإنه ليذوق طعم المرارة ؛ وإن الاوقيانوس النهم لتائقٌ الى التهامه . إن العِظَمَ ليعبث بنزعه الاخير ؛ ويبدو أن هذا كله لا يعدو ان يكون حقداً سائلاً .

إنه يحاول الدفاع عن نفسه ؛ إنه يحاول ان يتماسك ؛ إنه يناضل ؛ إنه يسبح . إنه — وهو تلك القوة المسكينة الموشكة على النفاد — يصارع الطاقة التي لا تنفد .

ومع ذلك فهو يكافح .

اين السفينة الآن ؟ بعيداً هناك . إنها لا تكاد تُرى في ظلمات الافق الشاحبة .

وتهبّ الريح هبّات شديدة ؛ وتغمره الامواج . إنه يرفع عينيه ، ولكنه لا يرى غير زرقة السحب الضاربة الى السواد . إنه ليشكل في نزعه الاخير جزءاً من جنون البحر الهائل . إن هذا الخبل لينكّل به حتى الموت . وإنه ليسمع اصواتاً غريبة على الاذن الانسانية ، اصواتاً

تبدو وكأنها لا تُقبل من الارض ، ولكنْ من عالم مخيف قائم وراءها .

إن في السحب طيوراً ، كما أن ثمة ملائكة فوق الاحزان الانسانية ، ولكنْ ايُّ شيء تستطيع ان تفعله من اجله ؟ إنها تطير ، وتغني ، وتطفو ، فيما هو يحشرج .

إنه يستشعر ان هاتين اللانهايتين قد دفنتاه في آن معاً : الاوقيانوس ، والسماء . الاولى قبر ، والثانية كفن .

ويهبط الليل . لقد سلخ ساعات وهو يسبح ؛ ولقد اوشكت قوته على النفاد . لقد امحت تلك السفينة ، ذلك الشيء النائي حيث كان يوجد ناس . إنه وحيد في ظلمة اللجة القظيعة . إنه يغوص ؛ إنه يتصلب ؛ إنه يناضل ؛ إنه يحسّ تحته بغيلان اللامنظور الغامضة ؛ إنه يصيح .

لم يبق ثمة ناس . ولكن اين الله ؟

ويصيح . النجدة ! النجدة ! ويصيح على غير انقطاع .

ليس ثمة شيء في الافق . ليس ثمة شيء في السماء .

إنه يتضرع الى المدى ، الى الموج ، الى الأشنة * ، الى الصخر . ولكن هذه كلها صماء . ويبتهل الى العاصفة . ولكن العاصفة الرابطة الجأش لا تذعن لغير اللانهاية .

إن من حوله الظلمةَ ، والضباب ، والوحدة ، والجلبة الضارية غير الواعية ، وتغضّن المياه الهائجة غير المتناهي . وإن في باطنه الذعر والاعياء . أما تحته فكان السقوط . لم يكن ثمة نقطة ارتكاز . إنه يفكر في مغامرات جسده الميت المظلمة وسط الدجنة غير المحدودة . إن البرد اللاذع ليشلّه . وإن يديه لتَتشنجان وتنطبقان ، ولكن على العدَم . رياح ، غيوم ، زوابع ، عَصَفات ، ونجوم لا غَناء فيها ! ما العمل ؟ إنه يستسلم لليأس . إنه ، وقد هدّه الاعياء ، يلتمس الموت . إنه لا يقاوم بعد الآن . لقد ألقى السلاح ؛ لقد اطّرح القتال ، وها هو ذا

* Algue وهو نبات يحيا على سطح المياه العذبة والمالحة أو في أعماقها .

يغوص الى اعماق اللجة الفاجعة الى الابد .

إيه يا سير المجتمع الانساني الحاقد ! إن تحطيم الرجال والنفوس ليطبع سبيلك ! ايه ايها الاوقيانوس حيث يسقط كل ما يدعهُ القانون يسقط ! أنت انعدام النجدة المشؤوم ! إيه أيها الموت الادبي !

البحر هو الليل الاجتماعي المتحجر الفؤاد الذي يلقي القانون ضحاياه في عبابه . البحر هو الشقاء الذي لا حدّ له !

إن النفس التي تتلاعب بها امواج ذلك البحر قد تصبح جثةً . فمن ذا الذي يعيدها الى الحياة ؟

٩
مظالم جديدة

وحين أزف موعد خروجه من سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وحين ضجت في اذن جان فالجان هذه الكلمات الغريبة : **« أنت مطلق السراح ! »** بدت تلك اللحظة ، في عينيه ، غير محتملة وغير واقعية . وفجأة تسرّب الى روحه شعاع من النور الحيّ ، شعاع من نور الأحياء الحقيقيّ . وشُدِه جان فالجان بفكرة الحرية . كان قد آمن بحياة جديدة . ولقد رأى في الحال ايّ ضرب من الحرية ذلك الذي يُحَمّل جوازاً أصفر .

وكان ثمة الى جانب هذا كثير من التجارب المريرة . كان قد حسب ما ادّخره من مال طوال مقامه في سجن الاشغال الشاقة فبلغ مئة وواحداً وسبعين فرنكاً . ومن العدل ان نضيف انه غفل عن ان يأخذ بعين الاعتبار الراحة الالزامية أيام الاحد والاعياد ، تلك الراحة الجدير بها ان تنقص هذا المبلغ ، خلال تسعة عشر عاماً ، نحواً من اربعة

وعشرين فرنكاً . وعلى أية حال ، فقد أنقصت امواله تلـــك بمختلف الرسوم المحلية حتى أمست مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » دُفعت اليه عند رحيله .

ولم يفهم شيئاً من هذا . واعتقد أنه ظُلم ، بل اعتقـد – ولنقلها بصراحة – انه سُرِق .

وفي اليوم التالي لاطلاق سراحه رأى امام باب معمل من معامل تقطير زهر الليمون في غراس رجالاً يفرغون بعض الأكياس . فعرض عليهم خدماته . وكانوا في حاجة الى المساعدة فقبلوا عرضـه . وانصرف الى العمل . كان ذكياً ، شديد البأس ، رشيقاً . ولقد بذل غاية جهده . وبـــدا ربّ العمل وقد داخله الارتياح . وفيما هو يعمل مرّ بهم دركي ، فرآه ، وسأله ان يُبرز اوراقه . واضطر الى إبراز الجواز الاصفر . حتى اذا تمّ ذلك ، استأنف جان فالجان عمله . وقبل ذلـك بقليل ، كان قد سأل احد العمال عن الاجرة التي تُدفع اليه ، يومياً ، لقاء هذا العمل فكان جوابه : « **ثلاثون سو** » . وهبط الليل ؛ واذ كان مضطراً الى الرحيل صباح اليوم التالي قصد الى رب العمل والتمس ان يدفع اليه أجره . ولم يقل رب العمل كلمة ، ولكنه قدّم اليه خمسة عشر « سو » . واحتجّ . فأجابه الرجل : « **هذا يكفيك** . » وألحّ . فحدّق رب العمل الى عينيه وقال : « **حذار من السجن !** »

وهنا أيضاً اعتبر أنه قد سُرِق .

لقد سرقه المجتمع وسرقته الدولة – حين أنقصا المال الذي ادّخره على نطاق واسع . وها قد جاء دور الفرد في ان يسرقـــه عـلى نطاق مصغّر .

إن اطلاق السراح ليس هو الخلاص . فقد يغادر المرء سجن الاشغال الشاقة ، ولكنه لا يستطيع ان يغادر الحكم الذي صدر بحقه .

ذلك ما أصابه في غراس . ولقد سبق ان رأينا كيف استُقبل في د...

١٠
الرجل يستيقظ

فيما كانت ساعة الكاندرائية تدقّ الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

كان الذي أيقظه أن الفراش وثير اكثر مما ينبغي . فطوال عشرين عاماً تقريباً لم يرقد يوماً في فراش ؛ وعلى الرغم من انه لم يخلع ثيابه فقد كان ذلك الاحساس جديداً عنده الى درجة تجعل من المحتوم عليه ان يعكّر صفو رقاده .

كان قد نام اربع ساعات ونيفاً . وكان الاعياء قد زايله . لقد تعوّد أن لا يستجمّ غير ساعات معدودات .

وفتح عينيه ، وحدّق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم أغمضهما ليستسلم للنوم كرةً اخرى .

وحين تكون احاسيس كثيرة متباينة قد اقلقت نهارنا ، وحين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرةً ، ثم نعجز عن ان نعاود النوم من جديد . إن النوم ينقاد الينا في المرة الاولى بطواعية لا تتمّ له في المرة التالية . وذلك ما وقع لجان فالجان . إنه لم يستطع أن ينام كرةً ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان في احدى تلك اللحظات التي تكون أفكارنا خلالها قلقة مشوّشة . كان ثمة ضرب غامض من المدّ والجزر في دماغه . لقد طفتْ ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق ، وتقاطعت على نحو مختلط ، فاقدةً اشكالها الخاصة ، متضخمة الى ما لا حدّ له ، لتختفي كلّها بعدُ دفعةً واحدة وكأنها وسط سيل موحل هائج . وراودته افكار كثيرة ،

ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها . اما هذه الفكرة فسوف نبسطها في الحال . كان قد لاحظ الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .

لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على مدى بضع خطوات . ففي اللحظة التي اجتاز فيها الحجرة الوسطى ليبلغ تلك التي هو فيها ، كانت الخادم العجوز تضعها في خزانة جدارية صغيرة قائمة فوق رأس السرير . وكان قد لاحظ موضع هذه الخزانة الجدارية جيداً : الى اليمين وانت مقبلٌ من حجرة الطعام . كانت آنية فضية قديمة ، آنية كثيفة ثقيلة . وخليقٌ بها ، إذا ما أضيفت اليها الملعقة الكبيرة ، إن تباع بمئتي فرنك على الاقل ، وهو ضعف المبلغ الذي كسبه خلال تسع عشرة سنة من العمل . صحيح انه كان في امكانه ان يكسب اكثر لو ان « الحكومة » لم « تسرقه » .

وغلى دماغه ساعةً كاملة ، ساعةً طويلة حفلت بالارتجاجات الممتزجة بشيء من الصراع . واعلنت الساعةُ الثالثةَ . وفتح عينيه من جديد ، وانتصب في سريره فجأة ، وبسط ذراعه ومسّ جرابه ، وكان قد طرحه في زاوية المخدع ، وارخى رجليه ، ووضع قدميه على الارض ، ووجد نفسه — من غير ان يدري كيف — جالساً على سريره .

وظلّ فترة من الزمن مستغرقاً في التفكير على ذلك النحو ، وهو وضعٌ كان خليقاً به أن يوقع الرعب في فؤاد الناظر اليه في تلك الظلمة ، وقد أفاق وحده في البيت المستسلم للرقاد . وفجأةً انحنى الى امام ، وخلع نعليه ، ووضعهما في رفق على الحصير المنشور قرب السرير ، ثم استأنف وضعه المفكر ، وغدا ساكناً من جديد .

وفي غمرة من ذلك التفكير البشع أقلقت الفكرات التي اشرنا اليها دماغه على غير انقطاع ، فهي تدخل ، وهي تخرج ، وهي تعود ، وهي تغدو ضرباً من العبء الثقيل عليه . ثم إنه فكر ايضاً — وليس يدري كيف ،

وبذلك العناد الميكانيكي الذي يميّز التفكير الحالم ، بمجرم يدعى بروفيه كان قد عرفه في سجن الاشغال الشاقة ، وكان لا يرفع بنطلونه غير رباط مفرد من نسيج قطني مزرود . وكان نمط ذلك الرباط الشطرنجيّ التربيع لا يفارق خياله أبداً .

وظلّ على هذه الحال ، ولعله كان خليقاً به أن يظل على هذه الحال حتى مطلع الفجر لولا أن دقت الساعة دقة النصف او دقة الربع . لقد بدت الساعة وكأنها تقول له : « هيّا ! »

وانتصب واقفاً ، وتردّد لحظة اخرى ، وأصاخ . كان كل شيء هادئاً في المنزل . فمضى مباشرةً ، وفي حذر ، الى النافذة التي كان قادراً على ان يلمحها . لم يكن الليل حالكاً جداً . فقد كان القمر بدراً تجري عبره سحائب ضخام تطاردها الريح . وكان هذا يحدث ، في الخارج ، تراوحاً بين الظل والنور ، فيظلم الكون حيناً ويضيء حيناً ، ويحدث في الداخل ضرباً من الشفق . وكان هذا الشفق — الكافي لتمكينه من ان يرى طريقه ، المتقطع بسبب من السحائب العابرة — يشبه ذلك الضرب من النور الازرق المسودّ الذي يخترق نافذة سجن مظلم يروح الناس امامها ويغدون . حتى اذا انتهى جان فالجان الى النافذة تلمّسها . لم تكن مقضّبة بالحديد ، وكانت منفتحةً على الجنينة ، ولم تكن موصدةً ، وفقاً للعرف السائد في تلك الديار ، إلا بمسمار مسطّح صغير . وفتح النافذة ، حتى اذا اندفع الهواء القارس الى الغرفة أعاد إيصادها في الحال . وحدّق الى الجنينة بتلك النظرة المستغرقة التي تدرس اكثر مما ترى . كانت الجنينة مطوّقة بجدار ابيض ، شديد الانخفاض ، سهل التسوّر . وهناك ، في المدى ، بَصُرَ برؤوس اشجار متباعدة على مسافات متساوية ، فأدرك من هنا أن هذا الجدار يفصل الجنينة عن جادّة عريضة ، أو زقاق مشجّر .

وحين تمّت له هذه الملاحظة ، استدار مثل رجل وطّن النفس على

أمر ، ومضى الى مخدعه ، وتناول جرابه ، وفتحه ، ونقّب فيه ، ثم اخرج منه شيئاً وضعه على السرير ، ودسّ نعليه في احد جيوبه ، وشدّ جرابه ، وطرحه على منكبيه ، واعتمر قلنسوته ، وخفض حافتها فوق عينيه ، وتلمّس عصاه في الظلام ، ومضى فوضعها في زاوية النافذة ، ثم ارتدّ الى السرير ، وفي عزم تناول الشيء الذي وضعه فوقه منذ برهة. لقد بدا اشبه بقضيب حديدي صغير ، مستدقٍ عند احد طرفيه كالحربة .

كان من العسير على المرء ان يدرك وسط الظلام ، لأيّ غرض ُجعلت هذه القطعة الحديدية ؟ أهي مخل ؟ أهي دبوس *

ولو قد نظر المرء الى ذلك الشيء على ضوء النهار اذن لرأى انه لم يكن غير ِمثقب معدّن . ففي ذلك العهد كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يُكلفون احياناً اقتلاع الحجارة من الكثبان المرتفعة المحيطة بطولون وكانوا كثيراً ما يزوّدون بادوات المعدّنين . ومثاقب المعدنين تصنع من حديد صلب ، وينتهي طرفها الادنى برأس مستدقّ ُتقحم بواسطته في الصخر .

وأمسك المثقَب بيده اليمنى ، وحبس َنفَسه ، وتقدم في خطىً مقلقلة نحو باب الغرفة المجاورة ، التي كانت غرفة الاسقف ، كما نعلم . وحين انتهى الى ذلك الباب ألفاه مفتوحاً بعض الشيء . إن الاسقف لم يرصده قط .

١١
ما الذي يفعله

واصاخ جان فالجان . لم يكن ثمة صوتٌ ما .

* الدبوس ، هنا ، عمود من حديد يضرب به .

ودفع الباب .

دفعه في رفق بطرف إصبعه بمثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع حركات هرة تريد ان تدخل .

واذعن الباب للضغط بحركة صامتة لا تكاد تُدرك ، جعلت الفرجة أوسع بعض الشيء .

وانتظر لحظةً . ثم دفع الباب كرة أخرى في عزم اشد .

وواصل الباب إذعانه في صمت . كانت الفتحة قد أمست عريضة يستطيع ان يمضي من خلالها . ولكن كان ثمة قرب الباب طاولة صغيرة شكلت معه زاوية مُربكة تعوق الدخول الى الحجرة .

ورأى جان فالجان هذه العقبة ، ولكن الفرجة ينبغي ان توسع اكثر مهما كلف الامر .

وإذ أزمع على ذلك ، دفع الباب كرةً ثالثة بأعنف مما دفعه في المرتين السابقتين . فما كان من مفصل الباب الصدىء إلا ان ارسل في تلك الظلمة ، صريراً أبحّ متطاولاً .

وارتعد جان فالجان . لقد ضجّ صوت هذا المفصل في أذنيه صارخاً فظيعاً وكأنه نَفخُ الصور يوم القيامة .

وفي غمرة المبالغة الوهمية التي تلازم الدقيقة الاولى ، كاد يتوهم ان هذا المفصل قد دبت فيه الحياة فجأة وان حياته تلك فظيعة ، فهو ينبح كالكلب ليحذر الناس جميعاً ، ويوقظ النائمين .

ووقف مرتعداً مرتبكاً ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقبيه . واحسّ بشرايينه تنبض عند صدغيه مثل مطرقتي حداد ، وبدا له وكأن نَفَسَه خرج من صدره بمثل هدير الريح المنطلقة من كهف . لقد تراءى له ان من المستحيل ان لا يكون هذا الصياح المروّع الذي اطلقه المفصل المهتاج قد قلقل المنزل كله بمثل رجة الزلزال . لقد أطلق الباب الذي دفعه هو ، صيحةَ الخطر ونادى مستغيثاً . ولن تنقضي لحظة حتى

يستيقظ الرجل العجوز . وتصرخ المرأتان العجوزان ، وعندئذ تُقبل النجدة ؛ وبعد ربع ساعة ليس غير تضج البلدة كلها بالنبأ ويطارده رجال الدرك . واعتقد لحظةً ، انه هالك لا محالة .

ووقف ساكناً ، مثل تمثال الملح ، وقد فقد الجرأة على ان يأتي بحركة ما .

وتقضت بضع دقائق . كان الباب مفتوحاً على مداه . وغامر فألقى نظرةً على الغرفة . إن شيئاً لم يتحرك . وأصغى . لم يغير شيء ما مكانه في البيت . ان جلبة مفصل الباب الصدىء لم توقظ احداً .

وانقضى هذا الخطر الاول ، ولكنه ما يزال يستشعر في ذات نفسه هيجاناً مروّعاً . ومع ذلك ، فانه لم ينقلب على عقبيه . بل إنه لم ينقلب على عقبيه حتى في تلك اللحظة التي اعتقد فيها انه قد هلك . إنه لم يفكر إلا بانجاز ما اعتزم عليه في الحال . وخطا خطوةً ، فاذا هو في الغرفة .

كانت هذه الغرفة غارقة في هدوء كامل . وكان في ميسوره ان يتبين هنا وهناك بعض الاشكال المختلطة الغامضة التي كانت — على ضوء النهار — اوراقاً مبعثرة على طاولة ، وكتباً مفتوحة من قطع النصف ، وكتباً مركومة على كرسي منخفض ، وكرسياً ذا ذراعين مثقلاً بالثياب ، ومرْكعاً ذا مسند لليدين ، ولكنها لم تكن الآن غير زوايا مظلمة ، وبقع ضاربة الى البياض . وتقدّم جان فالجان ، محاذراً ان يمسّ الاثاث . وفي الطرف الاقصى من الغرفة كان في ميسوره ان يسمع انفاس الاسقف النائم ، المتكافئة الهادئة .

ووقف فجأة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه بأسرع مما كان يحتسب .

ان الطبيعة لتشدّ ، في بعض الاحيان ، مفاعيلها ومظاهرها الى افعالنا في ضرب من الملاءمة الجدية الذكية ، وكأنما تريد ان تُكرهنا على التفكير . فمنذ نصف ساعة تقريباً واحدى السحب العظيمة تغطي وجه

السماء . حتى اذا وقف جان فالجان تجاه السرير تبددت تلك السحابة ، وكأنها تفعل ذلك عامدة ، واخترق النافذة العالية شعاع قمريّ ما لبث ان اضاء وجهَ الاسقف الشاحب . كان نائماً في سكون . وكان متلفعاً في سريره – بسبب من ليالي ديار الالب الدنيا القارسة – برداء صوفيّ داكن يغطي ذراعيه حتى المرفقين ، فكأنه مرتدٍ ثيابه كلها تقريباً . وكان رأسه مسترخياً الى الوسادة في وضع الرقاد المُهْمَل . وفوق جانب السرير تدلّت يده المزدانة بالخاتم الاسقفي ، والتي انهمرت منها دفقاتٌ من المبرّات والعمل الصالح . كان محياه كله مشرقاً بانطباعة غامضة من الرضا ، والامل ، والسعادة . كانت اكثر من ابتسامة . كانت إشعاعاً أو تكاد . وعلى جبينه استقرّ انعكاسٌ لا يوصف من نور غير منظور . إن ارواح المستقيمين من الناس لترى في الرقاد سماء عجيبة .

كان انعكاسٌ من هذه السماء يسطع على محيّا الاسقف .

وكان في الوقت نفسه شفافيةً مضيئة ، لأن هذه السماء كانت في ذات نفسه . هذه السماء كانت ضميره .

وفي اللحظة التي استقر فيها شعاع القمر على هذا الضياء الباطني بدا الاسقف النائم وكأنما تحيط به هالة من النور . ولكنها كانت معتدلة ، ومحجوبةً بشفق لا سبيل الى وصفه . وزاد هذا القمر الذي في السماء ، وهذه الطبيعة الوسنى ، وهذه الحديقة التي لا نبضة فيها ، وهذا المنزل الهادىء ، والساعة ، واللحظة ، والصمت ، – زاد هذا كله طمأنينة هذا الحكيم الجليلة ، وغلّف بضرب من الهالة الماجدة الرائقة هذا الشعر الأبيض ، وهاتين العينين المغمضتين : هذا الوجه حيث كل شيء امل ، وحيث كل شيء ثقة – رأس الرجل العجوز ، ورقاد الطفل .

كان ثمة ألوهية تقريباً في هذا الرجل المعظم هكذا على غير وعي منه .

ووقف جان فالجان في الظل ، ومثقبه الحديدي في يده ، منتصب

القامة ، جامداً ، مروّع الفؤاد امام هذا الوجد المشعّ . إنه لم يرَ من قبل نظيراً لذلك البتة . وملأت هذه الطمأنينة فؤاده رعباً . والحق أنه ليس للعالم الاخلاقي مجلىً اعظم من هذا : ضمير قلق مضطرب على وشك ارتكاب عمل شرير ، يتأمل رقاد رجل صالح .

كان هذا الرقاد في هذه العزلة ، وعلى مقربة من رجل مثله ، ينطوي على شيء رفيع أحسّ به في غموض ، ولكن في قوة .

إن احداً ما كان قادراً على ان يعرف اي شيء كان يدور في خلده . حتى هو نفسه لم يكن يدري . ولكي يحاول المرء ان يلمّ بذلك يتعين عليه ان يتخيل أقصى العنف في حضرة اقصى الاعتدال . ولم يكن ثمة على وجهه شيء يمكن ان يُلمح في يقين . كان يرين عليه ضرب من الدهش الشكس . لقد رآه . هذا كل ما هنالك . ولكن ايّ الافكار طافت في ذهنه ؟ كان من المستحيل على المرء ان يحزر ذلك . كان واضحاً ان الاضطراب والارتباك استبدا به . ولكنْ ما طبيعة هذا الانفعال ؟

إنه لم يرفع عينيه عن الرجل العجوز . كان التردد العجيب هو الشيء الوحيد الواضح في مسلكه ومحيّاه . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يعتقد أنه إنما تردّد بين عالمين : عالم الهالكين ، وعالم الناجين . لقد بدا على استعداد لسحق هذه الجمجمة ، او لتقبيل هذه اليد !

وبعد لحظات رفع يده اليسرى ، في بطء ، نحو جبينه ؛ ونزع قلنسوته . ثم رفع يده بمثل ذلك البطء ، واستغرق في تأملاته ، كرةً اخرى ، وقد حمل قلنسوته في يسراه ، وعصاه في يمناه ، وَقفَ شعره فوق رأسه الضاري .

وتحت هذه النظرة المروّعة ، واصل الاسقف رقاده في طمأنينة عميقة .

كان تمثال المصلوب القائم على الموقد يبدو على نحو باهت في ضوء القمر ، وكأنما كان يبسط ذراعيه نحوهما كليهما ، مباركاً احدهما ،

غافراً للآخر :

وفجأةً اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعاً من غير ان ينظر الى الاسقف ، محاذياً السرير ، متجهاً مباشرةً نحو الخزانة الجدارية الصغيرة التي لمحها قرب رأس السرير . ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الآنية الفضية ، فتناولها ، واجتاز الغرفة في خطى واسعة ، غير مصطنع الحذر ولا مبالٍ بالضجة . وانتهى الى الباب ، ودخل المصلّى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالعتبة ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطّرح السلة ، وركض عبر الجنينة ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراراً .

١٢
الاسقف يعمل

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بيينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصف بها الاضطراب . وصاحت :

— « مونسينيور ، مونسينيور ! هل تعرف عَظمَتك اين سلة الآنية الفضية ? »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك اسم الربّ ! انا لم أدرِ ما الذي حلّ بها . »

كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوقَ احدى مساكب الزهور . فقدمها الى السيدة ماغلوار .

— « ها هي ذي . »

فقالت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ اين الآنية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « آه . إن الآنية الفضية هي التي تشغل بالك اذن ؟ انا لا ادري اين هي . »

— « يا الّهي ! لقد سُرِقت ! لقد سرقها هذا الرجل الذي وفد علينا امس . »

وفي طرفة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امرأة في مثل سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، ومضت الى المخدع ، ثم انقلبت الى الاسقف .

وكان الاسقف ينحني في شيء من الحزن فوق نبتة من ذلك النوع المعروف بحشيشة الملاعق كانت السلة قد هشمتها عند سقوطها على الارض . فانتصب لدن سمع صيحة السيدة ماغلوار :

— « مونسينيور ، لقد هرب الرجل ! لقد سُرِقت الآنية الفضية ! »

وفيما هي تنطق بهذه الكلمات وقعت عيناها على زاوية من الحديقة حيث وجدت آثار تسوُّرٍ . كانت عارضة الجدار الخشبية قد طُرِحت على الارض .

— « أنظر ! لقد فرّ من هنا . لقد وثب الى زقاق كوشفيليه ! يا له من رجلٍ مقيت ! لقد سرق آنيتنا الفضية ! »

واعتصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة ماغلوار في رقة :

— « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الآنية الفضية لنا ؟ »

ولم تُجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :

— « ايتها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظتُ بهذه الآنية الفضية ، بغير حقّ ، دهراً طويلاً . إنها ملكٌ للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلاً فقيراً من غير شك . »

فقالت السيدة ماغلوار : « واأسفاه ! واأسفاه ! أنا لستُ ثائرة من

اجلي شخصياً أو من اجل الآنسة. سيان عندنا بقاء الآنية الفضية وذهابها. ولكني ثائرة من اجلك يا صاحب السيادة. بأيّ شيء سوف يتناول مونسينيور طعامه منذ اليوم ؟ »

فنظر الاسقف اليها دهشاً :

— « وكيف ذلك ؟ أليس عندنا أطباق من صفيح ؟ »

وهزّت السيدة ماغلوار كتفيها.

— « للصفيح رائحة . . »

— « حسن . فلنستعمل اطباقاً حديدية اذن . . »

وأومأت السيدة ماغلوار ايماءة ذات مغزى.

— « وللحديد رائحة . . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل اطباقاً خشبية . . »

وبعد دقائق معدودات تناول فطوره على المائدة عينها التي جلس اليها جان فالجان الليلة البارحة. وفيما هو يُفطر ، قال مونسينيور بيينفنو ، في جذل ، لأخته التي لم تنطق بكلمة ما ، وللسيدة ماغلوار التي كانت تدمدم مخاطبة نفسها ، انه ليس ثمة حاجة ، حقاً ، حتى الى ملعقة او شوكة خشبيتين لغمس قطعة من الخبز في كوب من اللبن.

وقالت السيدة ماغلوار لنفسها فيما هي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— « هل يخطر شيء كهذا ببال انسان ؟ أن تستقبل رجلاً مثل هذا ، وتقدّم اليه سريراً الى جانبك ، ثم يشاء حسن الحظ ان لا يفعل شيئاً اكثر من السرقة ! آه ، يا الهي ! ان الرعدة لتسري في اوصالي حين أفكر بذلك ! »

وفيما الاخ والاخت ينهضان عن المائدة قُرع الباب.

وقال الاسقف : « أدخلْ . . »

وفتح الباب. وبرز على العتبة جمعٌ غريب ضارٍ. كان ثلاثة رجال يمسكون بخناق رجل رابع. أما الثلاثة فكانوا من رجال الدرك ، واما

الرابع فكان جان فالجان .

كان أحد ضباط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو . وتقدّم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية .

وقال : « مونسينيور ... »

وهنا رفع جان فالجان رأسه — وكان مقطب الجبين مغتماً — وغمغم في جرس مشدوه :

— « مونسينيور ! اذن فانت لست الكاهن ! »

فقال احد رجال الدرك : « اسكت ! إنه المونسينيور ؛ إنه الاسقف . »

وفي غضون ذلك كان مونسينيور بيينفينو يقترب باسرع ما تمكّنه شيخوخته من الاقتراب .

وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، ها انت ذا ! انا سعيد بأن اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضاً ، وهما فضيان مثل غيرهما ، وفي إمكانك ان تبيعها بمئتي فرنك . لماذا لم تأخذهما مع أطباقك ؟ »

وفتح جان فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا يقدر أيا لسان بشريّ على وصفها .

وقال الضابط : « مونسينيور ، إذن فقد كان ما قاله هذا الرجل صحيحاً ؟ لقد التقينا به . كان منطلقاً مثل رجل هارب ، فالقينا القبض عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الآنية الفضية . »

فقاطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم إن كاهناً عجوزاً طيباً بات الليلة البارحة عنده منحهُ إياها . لقد فهمت . وقد ارجعتموه الى هنا ؟ هذه إهانة . »

فقال الضابط : « اذا كان الامر كذلك فهل نستطيع ان نخلي سبيله ؟ »

فأجاب الاسقف : « من غير شك . »

واطلق رجال الدرك سراح جان فالجان . فنكص على عقبيه .

ثم انه قال في صوت لا يكاد يُفهم ، وكأنما كان يتحدث في نومه :

« أصحيح أنهم يطلقون سراحي ؟ »

فقال احد رجال الدرك : « اجل ! في استطاعتك ان تذهب . ألا تفهم ؟ »

فقال الاسقف : « على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان اللذان قدمتها اليك . خذهما قبل ان تذهب . »

ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيين ، وحملها الى جان فالجان . وراقبته المرأتان وهو يفعل ذلك من غير ان تنبسا بكلمة ، او تومئا ايماءة ، او تلقيا نظرة يمكن ان تزعج الاسقف .

كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو آليّ ، وقد غلب على محياه الذهول .

وقال الاسقف : « والآن ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا رجعت كرةً ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمرّ من خلال الجنينة . ان في استطاعتك دائماً ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . إنه لا يُغلق إلا بسقاطة ، ليلًا ونهاراً . »

ثم التفت الى رجال الدرك وقال :

— « ايها السادة ، في استطاعتكم ان تنسحبوا . »

ومضى رجال الدرك لسبيلهم .

كان جان فالجان أشبه برجل على وشك الاغماء .

وتقدّم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض :

— « لا تنسَ ، لا تنسَ ابداً انك وعدتني بان تصطنع هذه الآنية الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلًا صالحاً . »

ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر أنه وعد الاسقف بذلك قط ،

وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيراً من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال :

— « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعدْ مِلكاً للشر ، ولكنْ مِلكاً للخير . واني انما أشتري نفسَكَ . انا أنتزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، وأقدّمها الى الله ! »

١٣

جيرفيه الصغير

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفرّ منها . لقد اندفع يسعى في اقصى السرعة ، عبرَ الحقول ، سالكاً أولى الازقة والطرق الفرعيـة التي تبدّت له ، غير مدرك انه كان يرتدّ في كل لحظة على آثاره . وظل تائهاً على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاماً ، ولم يحسّ بجوع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضرباً من الغضب ، ولكنه لم يدر على من كان غاضباً . كان لا يدري أأثيرت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدُري وأهين ؟ وكانت تعروه في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قسوة سنواته العشرين الماضيات . وأتعبه هذا الوضع . لقد رأى في ابتئاس الى ذلك الضرب من الهدوء المروّع الذي منحه اياه الظلم المُنزل به — رأى اليه يتقلقل في ذات نفسه . وساءل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتمنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ؛ فقد كان ذلك خليقاً به ان يورثه اهتياجاً اقلّ . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقد كانت ما تزال هنا وهناك ، في أسيجة العليّق ، بعض الزهرات المتخلفة

التي فاح عبيرها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشياً على قدميه ، فأعاد الى مخيلته ذكريات طفولته . وكانت هذه الذكريات لا تُحتمَل او تكاد بعد ان غابت عن ذاكرته دهراً طويلاً .

وهكذا تجمهرت في ذهنه ، طوال النهار ، افكار لا سبيل الى التعبير عنها .

وفيما الشمس تجنح نحو الافق ، مُطيلة فوق الارض ظلّ أصفر الحصى ، كان جان فالجان جالساً خلف دغل في سهل واسع أصهب يكاد يكون صحراء حقيقية . لم يكن في الافق غير جبال الالب . حتى ولا برج كنيسة في قرية نائية . ولعل جان فالجان كان على مبعدة ثلاثة فراسخ من د ... كان مجاز ضيّق مخترقٌ السهل ينبسط على بضع خطوات من الدغل .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بأن يضاعف أثر اسماله الراعب في نفس ايما امرىء يقدّر له ان يراه ، طرق سمعه صوتٌ مرح بهيج .

وأدار رأسه فرأى غلاماً صغيراً يتقدم في ذلك المجاز – غلاماً من من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات ، يتغنّى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الخاص بسمك المرموط على ظهره .

كان واحداً من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين يتنقلون من مكان الى مكان وقد بدت رُكبهم من ثقوب بنطلوناتهم .

ومن غير ان يكفّ الغلام عن الغناء ، كان يقف بين الفينة والفينة ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس يستبعد ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة الاربعين « سو » .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ، وقذف ما بيده من القطع النقدية الصغيرة في الهواء ، فتلقّاها جميعاً ،

حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة .

ولكن قطعة الاربعين « سو » ولتت منه ، هذه المرة ، وكرّت نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان .

ووطئها جان فالجان بقدمه .

ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدّم نحو الرجل مباشرةً .

كان المكان منعزلاً انعزالاً كاملاً . وعلى مدى البصر لم يكن أحدٌ في السهل أو في المجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يُسْمع غير صيحات جماعة من الطيور القواطع * كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم . وادار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره اشبه باسلاك الذهب ، وخضّبت بوهج دامٍ وجهَ جان فالجان الوحشي .

وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبيانية التي قوامها الجهل والبراءة :

— « قطعتي النقدية ، ايها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

— « جيرفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فألحّ الغلام : « يا سيدي ، أعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان رأسه ، ولم يجب .

واردف الغلام :

— « قطعتي النقدية ، يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسمّرة على الارض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعتي

---

* التي تنتقل من بلد الى بلد .

النقدية الفضية ! »

لقد بدا وكأن جان فالجان لم يفهم شيئاً . وأمسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزّه . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزحزحة الحذاء الضخم ، المثقلِ نعلُهُ بالحديد ، الجاثم على كنزه .

— « اريد قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ! »

وبكى الغلام . ورفع جان فالجان رأسه . كان لا يزال قاعداً ، وكانت نظرته قلقة . لقد حدّق الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع :

— « مَنْ هناك ؟ »

فأجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيرفيه الصغير ! أنا ! أنا ! أعطني قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

ثم ان الغضب استبد به ، على الرغم من حداثة سنه ، فهو يتحدث في لهجة تكاد تكون تهديدية :

— « آه ، واخيراً ، ألا تريد ان ترفع قدمك ؟ هيا ، ارفع قدمك . »

فقال جان فالجان : « أهذا انت ايضاً ؟ »

وفجأة انتصب واقفاً ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضية ، وأضاف :

— « من الخير لك ان تنجو بجلدك ! »

ونظر الغلام اليه في ذعر ، ثم شرع يرتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وبعد بضع ثوان من الانشداه اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات ، او الصياح .

بيد أنه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد أنفاسه . ومن خلال تفكيره الحالم سمعه جان فالجان يشهق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن العيان .

كانت الشمس قد غربت .

وكانت الظلمة تتكاثف حول جان فالجان . إنه لم يذق طوالَ النهار طعاماً ما . ومن الجائز ان تكون الحمّى قد اصابته .

وكان قد ظلّ واقفاً لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فراراً . كان صدره يعلو ويهبط في فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثنتي عشرة خطوة أمامه ، وكانتا تبدوان وكأنهما تدرسان في انتباه بالغ شكلَ كسرة من الخزف المطليّ العتيق منطرحة على العشب .

وفجأة ارتعدت اوصاله . لقد بدأ يستشعر برد المساء .

وخفض قلنسوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزرره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى أمام لكي يتناول عصاه عن الارض .

وفي تلك اللحظة بَصُرَ بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمعت بين الحصى .

واصيب بمثل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » وارتدّ خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزاً عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظةَ السابقة ، وكأن الشيء الملتمع هناك ، وسط الظلمة ، كان عيناً مفتوحةً مسمّرة عليه .

وما هي الا بضع ثوان حتى وثب في تشنج نحو القطعة المالية ، وأمسك بها ؛ ثم استقام ، وسرّح طرفه بعيداً فوق السهل ، محدّقاً في وقت معاً الى نقاط الافق جميعاً ، واقفاً ، مرتعداً مثل ظبي مروّع يلتمس مفزعاً .

ولم ير شيئاً . كان الليل قد هبط ، وكان السهل بارداً خالياً ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع في الغسق الواهن النور .

وقال : « آه ! » وشرع يمشي مسرعاً في الاتجاه الذي اتخذه الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحواً من ثلاثين خطوة ، وقف ، وأجال البصر في ما حوله ، ولم يرَ شيئاً .

ثم نادى بأقصى ما يستطيع من قوة :

– « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ثم أصاخ .

ولم يكن ثمة جواب ما .

كان الريف موحشاً كالحاً ، وكان الفضاء يحيط بالمنطقة كلها . ولم يكن حول جان فالجان غير ظلمة ضاعت فيها نظرته ، وغير صمت ضاع فيه صوته .

وهبّت ريح شمالية قارسة خلعت ضرباً من الحياة الجِدادية على كل ما حوله . وهزّت شجيرات العلّيق اذرعها الصغيرة المزيلة في ثورة لا تصدّق . كان خليقاً بالناظر اليها ان يقول انها تتهدد شيئاً ما وتطارده .

وعاود السير من جديد ، ثم أغذّ الخطى حتى صار سيره عَدْواً . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الخلاء بصوت ليس افظع منه ولا احفل بالحزن :

– « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام إذن لألقي في فؤاده الرعب ، واذن لاحجم عن الظهور امامه . ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جداً .

ولقي كاهناً على صهوة جواد . فتقدّم نحوه وقال :

– « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاماً مرّ من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . »

– « غلاماً يدعى جيرفيه الصغير ؟ »

— « انا لم ار احداً . »

واخرج من كيس نقوده قطعتين نقديتين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدمها الى الكاهن .

— « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لفقرائك . سيدي الكاهن ، إنه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقـاً لمسك المرموط في ما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هـذا الاتجاه . انه واحد من صبية سافوا ، أفهمت ؟ »

— « انا لم أره . »

— « جيرفيه الصغير ؟ أليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيـع ان تعلمني ؟ »

— « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير غريباً عن هذه الديار . انهم يطوّفون في هذه المنطقة وليس ثمـة من يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقديتين أخريين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدّمهما الى الكاهن .

وقال : « من اجل فقرائك . »

ثم اضاف في هذيان :

— « سيدي الكاهن . ألق القبض عليّ . أنا سارق . »

ونخس الكاهن جواده بالمهمزين في شدة ، وولى وقد عصف به خوف عظيم .

واستأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذه اول الامر .

وقطع على هذا النحو مسافة غير يسيرة ، مجيلاً الطرف في ما حوله منادياً صائحاً ، ولكنه لم يلتقِ احداً آخر . ومرتين او ثلاث مرات تنكّب المجاز لكي ينظر الى ما بدا له شخصاً منطرحاً على الارض او جاثماً فوقها ، ولكن ذلك لم يكن غير شجيرات عليق او صخور منخفضة .

واخيراً ، وفي موطن التقت عنده ثلاث طرق ضيقة ، وقف . كان القمر قد طلع ، فأمعن النظر في المدى البعيد وصاح كـــرة اخرى : « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! » ولكن صيحاته تلاشت في الضباب ، من غير ان تثير حتى صدى من الاصداء . وتمتم مرة ثانية : « جيرفيه الصغير ! » ولكنْ في صوت واهن لا يـــكاد يُبين . وكان ذلك آخر جهوده . لقد التوت ركبتاه من تحته على نحو مفاجيء ، وكأنه ناء دفعة واحدة تحت ثقل ضميره الفاسد الذي القته عليه قوة غير منظورة . وسقط خائر القوى على حجر ضخم ، ويـــداه متشبثتان بشعره ، ووجهه فوق ركبتيه ، وصاح :

— « انا رجل بائس ! »

وتفطّر فؤاده ؛ وانفجر بالبكاء . كانت هي اول مرة يبكي فيها منذ تسع عشرة سنة .

حين غادر جان فالجان منزل الاسقف ، كما قد رأينا ، كان في حال نفسية لم يسبق له ان عرفها قطّ من قبل . كان عاجزاً عن ان يفهم ايما شيء مما كان يجري في ذات نفسه . لقد ثبت في وجه أعمال الشيخ وكلماته الانجيلية : « لقد وعدتني بأن تصبح رجلاً صالحاً . إني انما أشتري نفسك . أنا انتزعها من روح الفساد وأقدّمها الى الله ! »

لقد عاودته هذه الكلمات على نحو موصول . وفي وجه هذا الحِلم السماوي اقام الغرورَ ، الذي هو حصن الشرّ في الانسان . لقد احسّ احساساً غامضاً بأن مغفرة هذا الكاهن هي اعظم غارة وافظـع هجوم شُنّتا عليه عمرَهُ كله ، وبأن قسوة قلبه تكون كاملة اذا ما قاوم هذه السماحة ، وبأنه اذا ما استسلم فعندئذ يتعين عليه ان يتخلى عن ذلك الحقد الذي ملأت روحَهُ به أفعالُ الآخرين طوال هذه السنوات كلها ، والذي وجد فيه الرضا والارتياح ، وبانه يتعين عليه هذه المرة ان يَغلِب أو يُغلَب ، وبـــأن الصراع — الصراع الهائل الحاسم — قـــد بدأ

بين خباثته هو ، وطيبة هذا الرجل .

وفي حضرة هذه البوارق كلها مشى جان فالجان مثل رجل ثمل . وفيما هو يمشي هكذا ، شارد العينين ، هل كان يدرك ادراكاً واضحاً الى ايّ نتيجة يمكن ان تؤدي به مغامرته في د ...؟ هل سمع تلك المهمهات الخفية التي تحذر النفس وتلحّ عليها في لحظات بعينها من الحياة ؟ هل همس في اذنه صوت انبأه انه يجتاز الساعة الحاسمة من مصيره ؛ وأنه لم يبق امامه طريق وسط ؛ وانه اذا لم يصبح منذ اليوم احسن الرجال فسوف يكون اسوأهم ؛ وان عليه الآن ، اذا جاز التعبير ، ان يسمو الى اعلى مما سما اليه الاسقف ، او يهبط الى ادنى من درك العبد الرقيق في سجن الاشغال الشاقة ؛ وانه اذا شاء ان يصبح خيّراً فيتعين عليه ان يصبح ملاكاً ، واذا شاء ان يبقى شريراً فيتعين عليه ان يصبح غولاً ؟

وهنا ينبغي ان نسأل تلك الاسئلة التي طرحناها من قبل : هل تشكّل في ذهنه ظلٌّ مختلط لهذا كله ؟ لا ريب في ان البؤس — كما سبق منا القول — يربّي الذكاء . بيد اننا لسنا واثقين من ان جان فالجان كان في وضع من يقدر على ان يستجلي كل ما ألمعنا اليه هنا . واذا كانت هذه الفكرات قد خطرت له ، فالراجح انه لمحها لمحاً ، ولم يرها رؤية ، فلم توفق الى اكثر من إلقائه في اختلاط لا يُطاق — اختلاط يكاد يكون أليماً . واذ كان قد فارق ، منذ قريب ، ذلك الشيء المشوّه الاسود الذي يدعى سجن الاشغال الشاقة فقد آذى الاسقفُ روحه ، كما كان خليقاً بالنور الساطع ان يؤذي عينيه لدن خروجه من الظلام . لقد ملأته الحياة المستقبلة ، الحياة الممكنة التي قدّمت نفسها اليه ، منذ تلك اللحظة ، طاهرةً كل الطهارة مشرقة كل الاشراق — لقد ملأته هذه الحياة بالارتعاد والقلق . إنه ما عاد يدري اين كان حقاً . فمثل بومة ترى الشمس تشرق فجأة بُهِرَ ذلك الخارجُ من سجن

الاشغال الشاقة وكأن الفضيلة قد أعمت ناظريه .

اما الشيء الراهن ، الذي لم يشكّ هو به ، فهو انه لم يعد الرجل نفسه ، وان كل شيء فيه قد تغيّر ، وانه لم يعد في ميسوره ان يمنع الاسقف من ان يقول له ما قاله ، او يثير في ذات نفسه من كوامن العاطفة ما أثار .

في هذا الجو النفسيّ التقى جيرفيه الصغير وسرق قطعته النقدية ذات الاربعين « سو » . لماذا ؟ انه ما كان قادراً على ان يفسر هـــذه الواقعة ، من غير ريب ؛ هل كانت هي الاثر الاخير والجهد النهائي للافكار الرديئة التي حملها من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ هل كانت بقية من حافز باطني ، او ثمرةً لما يدعى في علم توازن الاجسام « القوى المكتسبة » ؟ لقد كانت هذا ، ولعلها كانت ايضاً اقلّ من هذا . ولنقل ببساطة ان الذي سرق القطعة النقدية لم يكن هـو ؛ لم يكن الرجل . إن البهيمة هي التي وضعت قدمها في بلاهة وبسائق العادة والغريزة ، على تلك القطعة ، فيما كان العقل يناضل وسط جمهرة من المؤثرات الجديدة ، المجهولة . حتى اذا استيقظ العقل ، ورأى الى مـــا فعلته البهيمة ، ارتد جان فالجان والالم يعتصر فؤاده ، واطلق صيحة ذعر .

كانت ظاهرة غريبة ؛ ولعلها ان لا تكون ممكنة إلاّ في الحالة التي كان فيها آنذاك . ولكن الحقيقة هي انه حين سرق هذا المال من الطفل إنما اقدم على عمل لم يعد قادراً على مثله .

وايّاً ما كان ، فأن هذا الاثم الختامي كان له اثرٌ حاسم في نفس جان فالجان . لقد اندفع عبر فوضى عقلِهِ وبدّدها ، مقيماً السحب القاتمة في جانب والنور في جانب ؛ وفعلَ فعله في روحه ، وهي على وضعها ذاك ، كما تفعل بعض الكواشف * الكيميائية فعلها في مزيج كدِرٍ بأن ترسّب عنصراً وتُحدث من الآخر محلولاً نقياً .

* الكواشف (ومفردها : كاشف) مواد تُكشف بها صفات مواد اخرى .

في البدء ، حتى قبل ان يفرغ للتفكير والتأمل في ذات نفسه ، وفيما هو ذاهل مشتت الذهن ، مثل رجل يحاول ان يولي فراراً ، حاول ان يبحث عن الغلام ليعيد اليـــه ماله . حتى اذا وجد ان ذلك غير مجدٍ ومستحيل ، اقلع عنه يائساً . وفي اللحظة التي صاح فيها : « انا رجل بائس ! » رأى نفسه على حقيقتها ، وكان قد انتهى الى ان يصبح شديد الانفصال عن نفسه بحيث خيّل اليه وكأنه لم يكن الا شبحاً ، وان جان فالجان الفظيع ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان امامه بلحمه ودمه – وعصاه في يده ، وقميصه على ظهره ، وجرابه المليء بالامتعـــة المسروقة فوق كتفيه – وبمحيـــاه الحازم الكالح ، وبفكره الحافل بالمشروعات المقيتة .

إن َفرط الشقاء ، كما لاحظنا ، قد جعله بمعنى من المعاني خياليـاً كثير الاوهام . واذن فقد كان ذلك ضرباً من الوهم . لقد َبصُر فعلاً بجان فالجان ، هذا الوجه المشؤوم ، أمامه . وكان على وشك ان يسأل نفسه َمنْ ذلك الرجل ، وقد عصف به الرعب لمرآه .

كان دماغه في احدى تلك الحالات العنيفة ، الهادئة مع ذلك على نحو مخيف ، حين يكون الوهم من العمق بحيث يبتلع الحقيقة . فنحن لا نرى ، بعدُ ، تلك الاشياء المحيطة بنا ، بل نرى – وكأنها خـــارج انفسنا – تلك الاشكالَ التي في اذهاننا .

لقد رأى الى نفسه اذن ، اذا جاز التعبير ، وجهاً لوجه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال تلك الهلوسة ، رأى على مسافة مبهمة ، ضرباً من النور حسبه باديء الأمر مِشعلاً . حتى اذا حدّق في انتباه اشدّ الى ذلك النور الذي اشرق على ضميره ادرك ان له شكلاً بشرياً ، وان هذا المشعَل كان الاسقف .

ووازن ضميره بين هذين الرجلين اللذين أقيما امامه على هذا النحو : الاسقف وجان فالجان . كان ايما شيء دون الاول خليقاً به ان يحقق

في اذابة الآخر . وبأحد تلك الآثار الفريدة المتميز بها هذا الضرب من الانخطاف . وفيما تطاول وهمه ، رأى الاسقفَ يزداد عِظَماً وتألقاً في عينيه . وانكمش جان فالجان وانمحى . وفي لحظة من اللحظات لم يبق منه غير طيف . وفجأة اختفى . إن الاسقف وحده قد بقي .

لقد ملأ روحَ هذا الرجل البائس باشعاع جليل .

وبكى جان فالجان طويلاً . لقد سفح دموعاً حارة ؛ لقد بكى في مرارة ؛ بكى في ضعف اشدّ من ضعف المرأة ، وفي ذعر اقوى من ذعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ؛ كان نوراً غير عاديّ ، نوراً فاتناً وفظيعاً في آن معاً . إن حياته الماضية ، وخطيئته الاولى ، وتكفيره الطويل ، وظاهره الوحشيّ ، وباطنه الذي قسّته الايام ، واطلاق سراحه المُبْهَج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تمّ له في منزل الاسقف ، وآخر عمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقدية ذات الاربعين « سو » ، وهي جريمة يزيدها خساسة وفحشاً وقوعها إثر مغفرة الاسقف — كل هذا عاد وتبدّى له ، في وضوح ، ولكن على ضوء لم يره قط من قبل . لقد رأى حياته ، فبدت له فظيعة ، ورأى روحه ، فبدت مروّعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان على ضوء الجنة .

كم ساعة ظلّ يبكي على هذه الشاكلة ؟ ايّ شيء فعله بعد البكاء ؟ الى اين ذهب ؟ إن احداً لم يعرف ذلك قط . كل ما عُرف من امره ان الحوذي الذي كان منطلقاً بعربته ، آنذاك ، على طريق غرينوبل ، والذي بلغ بلدة د... في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، رأى فيما هو يجتاز بشارع الاسقف رجلاً متخذاً وضع المصلي ، فهو راكع في الظلام ، على حصباء الطريق ، أمام باب مونسينيور بيينفينو .

الكتاب الثالث

في عام ١٨١٧

١

سنة ١٨١٧

كانت سنة ١٨١٧ هي السنة التي نعتها لويس الثامن عشر ، في ضرب من التوكيد الملكي الذي لا يعوزه التشامخ ، بالسنة الثانية والعشرين من سني حكمه . كانت السنةَ التي لمع فيها نجم مسيو بروغوييير دو سوبرسوم . كانت دكاكين صانعي الشعر المستعار كلها ، الآملة في عودة الذرور والطائر الملكي ، مزخرفة باللون اللازوردي وبزهرات الزنبق * كانت هي العهدَ الساذج الذي كان الكونت لينش يجلس فيه

* وهي شعار ملوك فرنسة .

كل يوم أحد ، بوصفه وكيل كنيسة ، على المقعد الرسمي في سان جيرمين دو بريه ، مرتدياً ثوب بارون من بارونات فرنسة ، بشريطته الحمراء وأنفه الطويل ، وبجلال الصورة الجانبية الذي يميز من قد قام بمأثرة من المآثر . اما المأثرة التي قام بها الكونت لينش ، فهي انه - بوصفه عمدة بوردو - سلّم المدينة ، في ١٢ آذار سنة ١٨١٤ ، بأبكر قليلاً مما ينبغي ، الى دوق انغوليم * . ومن هنا استحق ان يكون باروناً من بارونات فرنسة . وفي سنة ١٨١٧ كان الزيّ يبتلع الصبية الصغار المتراوح عمرهم ما بين الرابعة والسادسة تحت قلانس جلدية حمراء واسعة ذات آذان ، فهي تشبه أغطية مداخن الاسكيمو . كان الجيش الفرنسي يرتدي الملابس البيضاء ، على الطريقة النمسوية . كانت السرايا تدعى كتائب ، وكانت تحمل بدلاً من الارقام اسماء المديريات . كان نابوليون في سانت هيلانة ، واذ ضنّت عليه انكلترة بالجوخ الاخضر فقد اضطرّ الى ان يقلب ثيابه القديمة . في عام ١٨١٧ غنى بليغريني ؛ ورقصت مدموازيل بيغوتيني ، ومَلَكَ بوتييه ؛ ولم يكن أودري قد رأى النور بعد . وخلفت فوريوزو السيدة ساكي . كان لا يزال في فرنسة بروسيون . وكان مسيو دولالو شخصية مرموقة . وكانت الشرعية قد أكدت ذاتها ، منذ قريب ، بأن قطعت بادىء الامر قبضة كلٍّ من بليتييه ، وكاربونو ، وتوليرون ، ثم احتزت رؤوسهم . كان الامير دو تاليران ** الحاجب الاكبر ، والراهب لويس *** ، وزير المالية ، ينظر

* Duc D'Angoulème (١٧٧٥ - ١٨٤٤) هو الابن البكر لشارل العاشر . قاد حملة اسبانية (١٨٢٣) وعند وفاة لويس الثامن عشر امسى ولياً لعهد فرنسة . وقد استقال سنة ١٨٣٠ مع أبيه .

** Talleyrand سياسي فرنسي شهير . (١٧٥٤ - ١٨٣٨) كان في عهد ما قبل الثورة اسقف أوتون ، ثم اصبح رئيس الجمعية الوطنية (١٧٩٠) ووزيراً للخارجية في حكومة الادارة ، ثم في عهد القنصلية ، ثم في عهد الامبراطورية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر فينا ، ثم في لندن حيث عينه لويس فيليب سفيراً .

*** وزير المالية في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم في عهد لويس فيليب . ولد سنة ١٧٥٥ وتوفي عام ١٨٧٢ .

كل منهما في وجه الآخر ، ضاحكين مثل عرّافين . كان كل منهما قد احتفل ، في ١٤ تموز عام ١٧٩٠ بقداس الاتحاد * في شان دو مارس . لقد رئسه تاليران بوصفه اسقفاً ، في حين ساعده لويس بوصفه شماساً . وفي عام ١٨١٧ رُئيت في الطرق الموازية لشان دو مارس هذه اعمدة خشبية ضخمة مدهونة بلون ازرق وعليها بقايا من النسور والنحل زايلها تذهيبها بعد ان هطلت عليها الامطار وتهرأت في العشب . تلك كانت الاعمدة التي ارتفعت فوقها ، قبل عامين ، منصة الامبراطور في شان دو مي . وكانت قد اسودّت ههنا وهناك بنار مخيّمات الجنود النمسويين المعسكرين قرب غرو كايو . وكان عمودان او ثلاثة من هذه الاعمدة قد اختفت وسط نيران هذه المخيمات ، ودفأت أيدي جنود الامبراطور الالماني الضخمة . وقد تميزت ساحة شان دو مي بأنها كانت قد احتُلت في شهر تموز ، على ساحة شان دو مارس . وفي عام ١٨١٧ كان ثمة شيئان شعبيان : الـ « فولتير – توكيه » ، ** وعلب السعوط الدستورية *** وكانت احدث الاخبار البارسية المثيرة هي جريمة دوتين الذي القى رأس اخيه في بركة « مارشيه أو فلور » . وكان التحقيق قد بدأ ، في وزارة البحرية ، حول البارجة المشؤومة « لا ميدوز » التي كان خليقاً بها ان

* في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ احتفل الفرنسيون بعيد الاتحاد fête de la Fédération في باريس لمناسبة انقضاء عام واحد على سقوط الباستيل . وقد رئس اسقف اوتون ، تاليران ، القداس الكبير الذي اقيم لهذه المناسبة ، ولفظ لافاييت عظة الولاء للدستور الذي رضي به الملك ، بينا رفعت الملكة ابنها بين ذراعيها . وهذا العيد يرمز الى عاطفة الاخاء التي ولدت آنذاك في فرنسة .

** ضرب من الكراسي منخفض المقعد مرتفع الظهر حتى الرأس ، انتشر في ذلك العصر .

*** اشارة الى الدستور الذي وضع سنة ١٨١٤ عندما تولى لويس الثامن عشر العرش ، والذي عُدل على نحو جعله أكثر تحرراً عام ١٨٣٠ بعد سقوط شارل العاشر .

تغمر شوماريكس بالعـار ، وجيريكو * بالمجد . ومضى الكولونيـل سيلف الى مصر ، وهناك اصبح سليمان باشا . وحُوّل قصر تيرم ، في شارع دو لا هارب ، الى دكان لصنع البراميـــل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يرى فوق سطح برج اوتيل دو كاروني المثمّن الزوايا تلك السقيفة الخشبية الصغيرة التي كانت بمثابة مرصد لـ « ميسييـــه » ، فلكيّ الاسطول في عهد لويس السادس عشر . وقرأت دوقة دورا ** ، في بهوها المؤثث على طراز لويس العاشر بالاطلس السماويّ الزرقـــة ، مخطوطة « أوريـكا » على ثلاثة او اربعة من اصـدقائهـــا . كانت حروف N قد مُحيت من اللوفر *** . وتنـازل جسر اوسترليتز عـن اسمه فاصبح جسر « حديقة الملك » وهي احجية قنّعت جسر اوسترليتز و « حديقة النباتات » في وقت معاً . ولم يكـن للويس الثامـــن عشر – المستغرق في التعليق بظفرهِ على « هوراس » ، **** فيما هو يفكر في الابطال الذين أصبحوا أباطرة وصانعي الاحذية الذين صاروا ولاة عهد – غير همّين اثنين : نابوليون ، وماتورين برونو . واقامت الاكاديمية الفرنسية مسابقة في موضوع : « السعادة التي تتيحها الدراسة » . وكان مسيو بيلاّر ***** بليغـــاً من وجهة النظر الرسمية . وفي ظله كان في إمكان المرء ان يرى الى نشوء النائب العام المقبل ، دو بروويه ،

---

* Géricault رسام فرنسي (١٧٩١ – ١٨٢٤) امتاز بالليتوغرافيا والنحت ، ومن روائعه تلك اللوحة التي صور فيها حادث البارجة الذي يشير اليه المؤلف وقد دعاها « أطواف البارجة لا ميدوز » .

** duchesse de Duras روائية فرنسية (١٧٧٨ – ١٨٢٨) كتبت روايتين : « اوريكا » Ourika التي يشير اليها المؤلف و « ادوار » Edouard .

*** رغبة في القضاء على آخر أثر من آثار نابوليون الذي يبدأ اسمه كما لا يخفى بحرف N .

**** مسرحية مشهورة لكورني .

***** Bellart (١٧٦١ – ١٨٢٦) النائب العام في عهدي لويس الثامـــن عشر والعاشر وقد عرف بقسوته في قمع الحركات التحررية وخنق حرية الرأي .

الذي كانت تنتظره سخريات بول لويس كوريبه . * كان ثمة شاتوبريان ** مزيف يدعى مارشانجي ، *** كما قدّر ان يكون ثمة في ما بعد مارشانجي مزيف يدعى دارلنكور . **** وكانت « كلير ألبا « Claire d'Albe و « الملك العادل « Malek - Adel رائعتين من الروائع . وأعلنت مدام كوتين ***** كاتبة العصر الاولى . وحذفت « مؤسسة فرنسة « ****** اسم الاكاديميّ ، نابوليون بونابرت ، من جدولها . وأنشأ أمرٌ ملكيّ مدرسة بحرية في آنغوليم ، لأنه كان واضحاً — وقد غدا دوق آنغوليم امير البحر الاكبر — ان لمدينة آنغوليم ، بلا جدال ، صفات المرفأ البحريّ كلها ، التي يتعرض المبدأ الملكي بدونها للخطر . وفي جلسات مجلس الوزراء أثير ما اذا كان ينبغي غض الطرف عن الصور التي تمثل بعض البهلوانيين والتي كانت تزيّن إعلانات فرانكوني ، وتجمع حولها أولاد الشوارع الداعرين . وقاد مسيو پاير ، ******* مؤلف L'Agnese ، وهو رجل فاضل ذو فكين مربعين وثؤلولة على الخدّ ، الحفلات الموسيقية الصغيرة المقصورة على نفر من المقرّبين في قصر المركيزة

---

* Paul - Louis Courier كاتب فرنسي (١٧٧٢ — ١٨٢٥) اشتهر برسائله الساخرة اللاذعة ضد رجال الحكم في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر .

** الكاتب الفرنسي المشهور (١٧٦٨ — ١٨٤٨)

*** Marchangy كاتب فرنسي (١٧٨٢ — ١٨٢٦) عُرف بثراثته وحماسته الملكية .

**** d'Arlincourt روائي وشاعر فرنسي (١٧٨٩ — ١٨٥٦) اشتهر باسلوبه المفخم على نحو غريب .

***** Cottin روائية فرنسية (١٧٧٠ — ١٨٠٧) اتسمت كتبها بطابع الكآبة الرومانتيكية . ومن اشهر رواياتها « كلير ألبا « *Claire d'Albe* التي يشير اليها المؤلف .

****** Institut de France وهي تتألف من اكاديميات خمس اهمها الاكاديمية الفرنسة واكاديمية العلوم واكاديمية الفنون الجميلة .

******* Ferdinando Paër مؤلف موسيقي ايطالي (١٧٧١ — ١٨٣٩) عاش معظم حياته في فرنسة ; وكان مديراً للفرقة الموسيقية الخاصة بنابوليون الاول .

دو سنسوناي ، في شارع « لافيل ليفيك » . وغنّت جميع الفتيات اغنية « نامك سان آفيل » من نظم ادمون جيرو . وحوّل « القزم الاصفر » * الى « ميرواز » . ووقف مقهى لامبلين الى جانب الامبراطور ** معارضاً مقهى ڤالوا الذي كان من انصار آل بوربون *** وكانت احدى اميرات صقلية قد زوجت الى دوق دو برّي **** الذي كان لوڤيل ، ***** في الواقع ، يتربص به الدوائر منذ ذلك الحين . وكانت قد انقضت سنة على وفاة مدام دو ستال ****** وصفر حرس الملك ، ازدراء واستهجاناً ، للآنسة مارس . ******* وكانت الصحف الكبرى كلها صغيرة . كانت صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel دستورية . وكانت صحيفة « مينيرفا » تدعو شاتوبريان Chateaubriand شاتوبريانت Chateaubriant ******** وكان حرف (t) هذا يثير ضحكاً كثيراً بين المواطنين على حساب الكاتب الكبير .

وفي الصحف المشتراة أهان العواهر من الصحفيين مُبعَدي عام ١٨١٥ .

---

* Le Nain jaune لعبة من العاب الورق ، وهي هنا علم على مقهى .

** نابوليون بونابرت .

*** الاسرة الفرنسية الحاكمة التي اطاحت بها الثورة الفرنسية ثم استعادت عرشها في شخص الملك لويس الثامن عشر .

**** de Berry الابن الثاني لشارل العاشر ، وقد قتله لوڤيل في باريس عام ١٨٢٠ .

***** Louvel عامل سروجي قتل دوق دو بري بطعنة خنجر وهو خارج من الاوبرا ، وقد أعدم شنقاً عام ١٨٢٠ .

****** de Staël كاتبة فرنسية شهيرة (١٧٦٦ – ١٨١٧) ذات نزعات تحررية ، وقد أسهمت إسهاماً بارزاً في الحركة الرومانتيكية .

******* Mlle. Mars ممثلة فرنسية كوميدية (١٧٧٩ – ١٨٤٧) لمع نجمها في « المسرح الفرنسي » حيث حظيت بمجد عظيم ، وبرعت بتمثيل دور « سليمين » في رواية « النافر من البشر » Misanthrope لموليير .

******** ضرب من الطعام معروف يصنع من لحم ظهر الثور المشوي مع البطاطس عادة .

فلم يعد دافيد * ذا موهبة ، ولم يعد آرنو ** ذا مقدرة ، ولم يعد كارنو ***
رجلاً ذا فضل وصلاح . ولم يبق لـ « سولت » **** ان كسب نصراً
واحداً في حياته . ولا ريب في ان نابوليون لم يعد ذا عبقرية . وكل امرئ
يعرف ان الرسائل التي توجّه الى المبعَد نادراً ما تصل الى عنوانها ،
لان الشرطة تعتبر ان من واجبها الدينيّ ان تصدّها عن سبيلها .
وليست هذه الظاهرة جديدة . فقد شكا ديكارت منها في منفاه . واذ أبدى
دافيد في احدى الصحف الفرنسية تضايقه لعدم تلقيه الرسائل الموجهة اليه
بدا ذلك مضحكاً للصحف الملكية التي اغتنمت الفرصة لتسخر من المنفيّ .
وكان في قول « قتلة الملوك » بدلاً من « الناخبين » و « الاعداء »
بدلاً من « الحلفاء » ، و « نابوليون » بدلاً من « بوانابرت » ما يكفي
لفصل الانسان عن الانسان باكثر مما تفصلهما هاويةٌ ما . وأجمع اصحاب
الحصافة كلهم على ان عهد الثورات قد اختُتِم بفضل الملك لويس الثامن
عشر الملقب بـ « الواضع الخالد للدستور » . وعلى سطح جسر
« بون نوف » نقشت كلمة *Redivivus* ***** على القاعدة التي انتظرت تمثال
هنري الرابع . وكان مسيو بييه يضع مع متآمريه ، في شارع تيريز رقم
٤ ، الخطة لتدعيم الملكية . وقال زعماء اليمين في المآزق الحرجة :
« ينبغي ان نكتب الى باقو . » واستهلّ ذلك السادة كانوويل ،

---

* Louis David رسام فرنسي شهير (١٧٤٨ - ١٨٢٥) نفي الى بروكسل حيث توفي . وكان في عهد الامبراطورية رسام نابوليون بونابرت .

** Arnault شاعر تراجيدي فرنسي (١٧٦٦ - ١٨٣٤)

*** Carnot ضابط من ضباط الجيش الفرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٣) رئس « المؤتمر الوطني » عام ١٧٩٤ وانشأ جيوش الجمهورية الاربعة عشر وكان فوق ذلك منظم النصر ، وقد نقم عليه نابوليون لنزعاته الجمهورية ، ثم أبعد في عهد لويس الثامن عشر عن البلاد .

**** Soult مارشال فرنسة (١٧٦٩ - ١٨٥١) ابلى بلاء حسناً في معركة زوريخ ، وفي الدفاع عن جنوا ، ولعب دوراً حاسماً في موقعة اوسترليتز .

***** كلمة لاتينية تعني : عاد الى الحياة .

وأوماهوني ، ودو شاتّديلين ، ولم يكن علمهم هـــذا ليعوزه بعض الموافقة من اخي الملك الاصغر منـــه سناً ، وهذا ما عرف بعـــدُ بـ « مؤامرة الشاطيء » . وتآمر « الدبوس الاسود » من ناحيته ايضاً . وتفاوض دولافيردري مع تروغوف . وساد مسيو دوكاز * ، وهـو عقل متحرر بعض الشيء . وكان شاتوبريان ، يقف كل صباح امـــام نافذته في شارع سان دومينيك رقم ٢٧ ، وقد ارتدى بنطلوناً جوربياً وانتعل مشاية ، وغطى شعره الاشيب بمنديل من مناديل مدراس ، واقام امام عينيه مرآة وصندوقاً كاملاً من صناديق ادوات الاسنان ، فهو ينظف اسنانه التي كانت ممتازة ، فيما هو يملي « الملكية وفقاً للدستور » على مسيو بيلورج ، امين سره . وآثر كبّار النقاد لافون ** على تالما *** وكان مسيو دو فيلتز **** يوقع هكذا A وكان مسيو هوفمان ***** يوقع هكذا Z وكان شارل نوديه ****** يؤلف « تيريز اوبير » *Thérèse Aubert* . وألغي الطلاق . ودعت المدارس الثانوية (Lycées) نفسها كليات (Collèges) وكان طلابها ، الذين ازدانت أطواق قمصانهم بالزنابق الذهبية يتقاتلون بسبب من ملك رومة . وشكتْ شرطة القصر السرية لصاحبة السمو ، بنت الملك ، من ان رسم دوق دورليان معروض في كل مـــكان ،

---

* Decazes سياسي فرنسي (١٧٨٠ – ١٨٦٠) تولى منصب الوزارة في عهد لويس الثامن عشر . وكان يسعى الى ان يجعل « الامة ملكية » ويجعل « الملكية قومية » .

** Lafon مسرحي تراجيدي فرنسي (١٧٧٣ – ١٨٤٦)

*** Talma مسرحي تراجيدي فرنسي أيضاً (١٧٦٣ – ١٨٢٦) . وكان مؤلف الكوميديا المفضل عند نابوليون بونابرت .

**** De Feletz ناقد فرنسي (١٧٦٧ — ١٨٥٠) كان يدافع عن القواعـــد الكلاسيكية ويناويء الحركة الرومانتيكية .

***** François—Benoit Hoffmann كاتب مسرحي وناقد فرنسي (١٧٦٠ - ١٨٢٨)

****** Nodier كاتب فرنسي وضع عدة مؤلفات في النقد وفقه اللغة والقصص . وكان له صالون أدبي شهير (١٧٨٠ – ١٨٤٤)

وانه يبدو في اللباس الرسمي لقائد سلاح الفرسان أجمل من دوق دوبري في اللباس الرسمي لقائد سلاح التنانين او الدراغون - وهي مسألة خطيرة . واعادت مدينة باريس تذهيب قبة الانفاليد * على نفقتها . وسأل الجديون من الناس بعضهم بعضاً ما الذي يجدر بمسيو دو ترانكولاغ ان يفعله في هذه الحالة او تلك . واختلف مسيو كلوزيل دو مونتسال في قضايا شتى ، مع مسيو كاوزيل دو كوسيرغ . ولم يكن مسيو دو سالابرّي راضياً . وكانت رواية *Les deux Philiberts* للكاتب المسرحي بيكار عضو الاكاديمية التي لم يوفق موليير الى الفوز بعضويتها ، تمثل على مسرح الاوديون حيث كان لا يزال في مبسور الناظر ان يقرأ في وضوح على مقدّم البناء ، برغم ازالة الاحرف عنه ، هذه العبارة : « **مسرح الامبراطورة** » . وتعصّب بعض الناس لـ « كوغنيه دو مونتارلو » وتعصب بعضهم عليه . كان فابفييه ** مثيراً للشحناء ، وكان باڤو ثورياً . ونشر الكتبيّ بيليسييه طبعةً من كتب فولتير تحت هذا العنوان : « مؤلفات فولتير ، عضو الاكاديمية الفرنسية . » وقال ذلك الناشر الساذج : « إن هذا خليقٌ به أن يجذب المشترين » ! وكان الرأي العام منعقداً على ان المسيو شارل لواسون سوف يكون عبقرية العصر . وبدأ الحسد يلسعه ، وتلك آية المجد . ولقد نظم بعضهم فيه هذا البيت :

« حتى حين يسرق لواسون
نحسّ ان له قوائم ! »

واذ رفض الكاردينال فيش ان يستقيل تولى مسيو دو بين ، كبير اساقفة آماسي ، ادارة اسقفية ليون . وبدأ النزاع بين سويسرة وفرنسة

* Invalides الاثر الباريسي المشهور ، وقد نقل اليه رفات نابوليون بونابرت عام ١٨٤٠ .

** Fabvier جنرال فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٥٥) أسهم إسهاماً كبيراً في الحركة التحريرية التي نشأت في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، ولمع نجمه في حرب الاستقلال اليونانية .

على وادي دابّ بمذكرة وضعها الكابتن دوفور * الذي اصبح في ما بعد جنرالاً . وكان سان سيمون ** المغمور يبني حلمه الرفيع الذرى . وكان في اكاديمية العلوم فوربيه *** شهير نسيته الذرية ، على حين كان في عليّة ما فوربيه **** خامل الذكر سوف يذكره المستقبل . وكان نجم اللورد بايرون ***** قد بدأ يبزغ . وكانت احدى الملاحظات على قصيـــدة لـ « ميلفوا » ****** قد عرفته الى الوسط الادبي في فرنسة بوصفه « رجلاً يدعى اللورد بايرون » . كان داود دانجيه يحاول ان يجبـــل الرخام . وتحدث الراهب كارون باطراء ، في اجـــتماع صغير لطلاب المعاهد الاكليركية في زقاق الفويّانتين ، عن كاهن مجهول يـــدعى فيليـيتيه روبـــير الذي اصبح « لامنيه » ******* في ما بعـد . كان شيء يرسل دخاناً ويهدر في رفق على صفحة السين ، في مثل صوت الكلب السابح ، يروح ويجيء تحت نوافذ التويلـّري ، من « الجسر الملكي » الى « جسر لويس الخامس عشر » . كان جهازاً آليـــاً ليس ذا غَناء كبير ، ضرباً من الدمية ، حُلمَ مخترعٍ ذي أوهام – زورقاً بخارياً . ونظر الباريسيون الى ذلك الشيء غير المجدي في لا مبالاة . وعجز مسيو دو فوبلان ، مصلحُ « مؤسسة فرنسة » على نحو جذري ، بأمر ملكيّ ، والصانع البارز لعدد كبير من اعضاء الاكاديمية – عجز ، بعد ان

* Guillame — Henri Dufour جنرال سويسري (١٧٨٧ – ١٨٧٥) قاد القوات السويسرية الاتحادية في الحرب السويسرية الاهلية وقضى على الحركة الانفصالية(١٨٤٧)

** Saint — Simon فيلسوف فرنسي اشتراكي (١٧٦٠ – ١٨٢٥) نادى بملكية الدولة للثروة العامة ، والغاء الملكية الوراثية ، كما نادى بالمبدأ القائل : « لكل حسب مقدرته ، ولكل مقدرة حسب اعمالها . »

*** Joseph Fourier رياضي فرنسي (١٧٦٨ – ١٨٣٠)

**** Clarles Fourier فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي (١٧٧٢ – ١٨٣٧)

***** Byron الشاعر الانكليزي الشهير (١٧٨٨ – ١٨٢٤)

****** Millevoye شاعر فرنسي تمتاز قصائده بالامعان في الكآبة (١٧٨٢-١٨١٦)

******* Lamennais كاتب وفيلسوف فرنسي شهير (١٧٨٢ – ١٨٥٤)

صيّرهم اعضاء ، عن أن يدخل هو الى حرَم تلك المؤسسة . وتمنّت ضاحية سان جيرمان ومرادق مارسان لو يصبح مسيو دولافو مديراً للشرطة بسبب من ورعه . واختصم دوبويتران * وريكاميه ** في مدرّج مدرسة الطب ، وهزّ احدهما جُمع كفه في وجه الآخر لخلافهما حول ألوهية المسيح . ووضع كوفييه *** احدى عينيه على سِفر التكوين والاخرى على الطبيعة ، وحاول ان يرضي الرجعة المتطرفة في التقوى من طريق التوفيق بين الحيوانات والنباتات المتحجرة المطمورة في الارض وبين النصوص الدينية ، ومن طريق جعل الماستودون **** يؤيّد موسى . وكان مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، الراعي المحمود لذكرى بارمانتييه ، ***** قد بذل جهوداً جبارة لكي يحمل الناس على ان يلفظوا الـ pomme de terre (البطاطا) Parmentière ****** ، بيد أنه لم يوفق قطّ الى النجاح . وكان الراهب غريغوار ، الاسقف السابق ، والعضو السابق في « المؤتمر الوطني » ، والعضو السابق في مجلس الشيوخ — كان قد انتقل الى حالة « غريغوار المرذول » في مهاترات الصحف الملكية . وهذا التعبير الذي استعملناه منذ لحظة « انتقل الى حالة » إنما اعتبره مسيو رويبه

---

* Dupuytren جراح فرنسي شهير كان له على العلم فضل كبير (١٧٧٧ — ١٨٣٥)

** Récamier طبيب فرنسي . (١٧٧٤ — ١٨٥٢)

*** Cuvier عالم طبيعيات فرنسي ، يعتبره الفرنسيون خالق علم التشريح المقارن وعلم الأحاثة او علم مطمورات الارض من النبات وغيره . (١٧٦٩ — ١٨٣٢)

**** حيوان منقرض يشبه الفيل .

***** Antoine — Augustin Parmentier اقتصادي فرنسي وخبير في الزراعة (١٧٣٧ — ١٨١٣) كان عضواً في اكاديمية العلوم . وقد طوّر زراعة البطاطا في فرنسة بتشجيع من لويس السادس عشر .

****** أي على اسم بارمانتييه العالم الاقتصادي المشار اليه آنفاً .

كولار * تعبيراً جديداً لم تعرفه اللغة من قبل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يميز ، ببياضها الظاهر تحت القوس الثالث من جسر إيانا ، تلك القطعة الجديدة من الحجر التي استعملت قبل عامين لسدّ مدخل المنجم الذي شقهُ بلوخر ** لنسف الجسر . ومثل أمام المحكمة رجلٌ كان قد صاح إذ رأى الى الكونت دارتوا *** يدخل كاتدرائية نوتردام : « وحقّ الالـه ، انا آسف على ذلك العهد الذي دخل فيه **بونابرت وتالما الى « مرقص سافاج » وذراع احدهما في ذراع الآخر . »** لغة مثيرة للفتنة . السجن ستة اشهر للقائل .

وبدا الخونة مجرّدين حتى من الرياء . كان نفرٌ من الرجال الذين انضموا الى العدوّ عشية معركةٍ ما لا يخفون الرشوة التي فازوا بها ، ويمشون غيرَ خجلين ، في وضح النهار ، تحيط بهم وقاحة الثروة والجاه . وكان الهاربون من معركتي « ليني » **** و « كاتر برا » ***** يعرضون ، في خلاعةِ عارهم المرتشي ، ولاءهم للملكية عارياً بالكلية ، ناسين ما هو مسطورٌ على الجدران الداخلية في المراحيض العامة بانكلترة : **« الرجاء ان تسويّ ثيابك قبل ان تغادر المكان » !**

تلك هي ، كيفما اتفق ، جمهرة الاحداث التي طفتْ على سطح عام

---

* Royer - Collard سياسي فرنسي (١٧٦٣ – ١٨٤٥) تولى رئاسة مجلس النواب .

** Blucher جنرال بروسي (١٧٤٢ – ١٨١٩) لمع نجمه في الحملة على فرنسة (١٨١٤) ، ولعب دوراً كبيراً في معركة واترلو (١٨١٥) حين هرع لنجدة ولينغتون وبذلك هُزم نابوليون نهائياً .

*** Comte d'Artois أخو لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر . وقد تولى عرش فرنسة سنة ١٨٢٤ فعرف باسم شارل العاشر . (١٧٥٧ – ١٨٣٦)

**** Ligny في بلجيكا حيث هزم نابوليون قوات بلوخر البروسية في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥

***** Quatre - Bras في بلجيكا ايضاً حيث شنّ القائد الفرنسي « ني » Ney الحملة على الانكليز في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥ ايضاً عشية معركة واترلو ، وحيث قتل دوق برونزويك .

١٨١٧ ، والتي نُسيت الآن . ان التاريخ ليهمل هذه الخصوصيات كلها تقريباً ، وليس في وسعه ان يفعل خلاف ذلك ؛ إنه واقع تحت سلطان اللانهاية . ومع ذلك ، فهذه التفاصيل الذي يمدّها الناس ، خطأً ، صغائر – فليس ثمة وقائع صغيرة في الانسانية ، وليس ثمة اوراق صغيرة في الحياة النباتية – لا تخلو من غَناء . إن ملامح السنين هي التي تشكل وجه الاجيال والقرون .

في هذه السنة ، ١٨١٧ ، مثّل أربعة من الشبان الباريسيين « مهزلة حلوة » .

٢
رباعية مزدوجة

كان احد هؤلاء الباريسيين من تولوز ، والثاني من ليموج ، والثالث من كاهور ، والرابع من مونتاوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين نقول « تلميذ » فكأننا قلنا « باريسي » ، فلأن يدرسَ المرء في باريس يعني انه وُلد في باريس .

وكان هؤلاء الشبان تافهين ؛ ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء الاشخاص . وإن اول اربعة منهم لينهضون نماذج لهم جميعاً . إنهم ليسوا صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين وليسوا مغفلين ؛ إنهم شبابٌ أغرّ في نيسان الحياة الفاتن ذاك الذي ندعوه سنّ العشرين . كان كل منهم « اوسكار » * ، لأن طبقة « آرثور » **

* اشارة الى اوسكار الاول ملك السويد ونروج (١٧٩٩ – ١٨٥٩) ، وقد ولد في باريس وتولى العرش من عام ١٨٤٤ – ١٨٥٧

** اشارة الى ولينغتون الوارد ذكره في احدى حاشيتي الصفحة التالية .

لم تكن قد وُجِدت بعد . « **أحرقوا على شرفه طيب جزيرة العرب** » ، هكذا كانت تصيح الاغنية . « **اوسكار يقترب ! اوسكار ، أنا على وشك ان اراه !** » ، كان أوسيان * هو الزيّ الشائع ، وكانت الاناقة اسكنديناڤية وأسكتلندية ؛ أما الضرب الانكليزي المحض فلم يَبْدُ إلا في ما بعد ، وكانت قد انقضت على انتصار اول الآرثوريين ، ولينغتون ** في واترلو فترة قصيرة ليس غير .

كان اول هؤلاء « الأوسكارات » يدعى فيلكس تولوميس ، من تولوز ، وكان ثانيهم ليستوليه ، من كاهور ؛ وكان ثالثهم فامول ، من ليموج ؛ وكان آخرهم بلاشوفيل ، من مونتاوبان . وكان لكل منهم حبيبته طبعاً . أما بلاشوفيل فقد تعشّقَ فافوريت ، وقد دعيت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكلترة . واما ليستوليه فأحبَّ داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسماً مستعاراً لها . وأما فامول فكان يعبد زيفين ، مصغّر جوزيفين . وأما تولوميس فكانت صاحبته هي فانتين ، المسماة بالشقراء ، بسبب من شعرها الجميل المشبه لونه لونَ الشمس .

كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربع فتيات فاتنات ، متألقات منضوحات بالعطر ، ما تزال تبدو عليهن سيما العاملات لانهن لم يهجرن شغل الابرة نهائياً ، قد أثارتهن شؤون الحب ولكنهن احتفظن على وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تعمّر عند النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات

---

* Ossian شاعر اسكتلندي من اهل القرن الثالث الميلادي . تنسب اليه مجموعة من الاناشيد الملحمية . وقد نشر له في عام ١٧٦٠ ديوان من الشعر الكئيب لقي رواجاً كبيراً وترك اثراً عميقاً في الادب الرومانتيكي .

** Arthur Wellesley, duc de Wellington القائد الانكليزي الشهير (١٧٦٩ – ١٨٥٢) الذي قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسة فهزم نابوليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥ .

الاربع تدعى الطفلة ، لأنها كانت صغراهن ، وكانت واحدة اخرى تدعى العجوز . وكانت العجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الأوليات كن اكثر اختباراً ، واشد لا مبالاةً ، واعظم انغماساً في ضجيج الحياة من فانتين - الشقراء - التي كانت ما تزال في أحلامها الاولى .

ولم يكن في ميسور داهليا ، وزيفين ، وبخاصة فافوريت ، أن يزعمن أنهن يُشبهن فانتين من هذه الناحية . فقد كان ثمة اكثر من حادثة واحدة في روايتهن التي ما كادت تبدأ ، وكان المحب الذي يدعى ادولف في الفصل الاول يصبح الفونس في الفصل الثاني ، وغوستاف في الفصل الثالث . إن الفقر والدلال لمستشاران مشؤومان . إن احدهما يؤنب ، والآخر يُطري . وإن فتيات الشعب الحسناوات ليجدن المستشارين جميعاً يهمسان في آذانهنّ ، كلٌ من ناحية . وتصغي نفوسهن غير المصونة الى هذا الهمس ؛ ومن هنا هاوية السقوط التي يتردّين فيها ، والحجارة التي يُرجمن بها . إنهن يُسحقن بالبهاء الذي ينطوي عليه كل طاهر عسير المنال . واأسفاه ! هل عرفت الـ « يونغفراو » * قطّ طعم الجوع ؟

وأعجبت زيفين وداهليا بفافوريت لأن الايام اتاحت لها السفر الى انكلترة . كان لها وهي بعدُ في سنّ مبكرة جداً بيت خاص بها . وكان ابوها استاذاً عجوزاً قاسياً متبجحاً من اساتذة الرياضيات . إنه لم يتزوج قطّ ؛ وكان منغمساً في الملذات برغم سنه العالية . لقد رأى ذات يوم من ايام شبابه الى ثوب احدى الخادمات يعلق بحاجز الموقد ، فوقع في حبها إثر هذا الحادث . وكانت فافوريت هي الثمرة . وكانت تلتقي بين الفينة والفينة بأبيها فيرفع لها قبعته . وذات صباح وفدت على

---

* Jungfrau ، لفظة ألمانية تعني « العذراء » وهي عَلَمٌ على احدى قمم الألب البالغ ارتفاعها ١٣٦٦٨ قدماً .

منزلهـــا عجوزٌ تبدو على وجهها سيا التعصب للدين وسألتها : « الا تعرفينني ، ابنتهـا الانـة ؟ » — « لا . » — « أنا أمّك . » وفي الحال فتحت العجوز خزانة الطعام ، فأكلت وشربت حـــتى الشبع ، واستقدمت فراشاً كان لها ، واقامت هناك . وكانت هذه الأم ورعةً كثيرة التذمر ، ولم تتكلم قط مع فافوريت . لقد سلخت عدة ساعات من غير ان تنبس ببنت شفة . لقد تناولت طعام الفطور ، وطعـــام الغداء ، وطعام العشاء ، وكأنها اربعـــة اشخاص ، وهبطت لتستقبل الضيوف في كوخ البواب ، وتذمّ ابنتها وتطعن عليها .

وكان الذي جذب داهليا الى ليستولييه ، وربما الى غيره ايضاً ، والى البطالة ، اظافرها الوردية الجميلة . كيف السبيل الى حمل تلك الاظافر على العمل ؟ إن تلك التي ترغب في الاحتفاظ بفضيلتها ينبغي ان لا تأخذها الشفقة على يديها . اما زيفين فكانت قـــد غزت فؤاد فامول بطريقتها المتمردة المتوددة ، في قول كلمة : « نعم ، يا سيدي . »

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربع صديقات . إن مثل هذا الضرب من الحب ليكون مُردَفاً دائماً بمثل هذه الصداقة .

إن الحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت ، وزيفين ، وداهليا كنّ ، بعد إبداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الأسر الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد يتساءل متسائل : حكيمة ؟ وتولوميس ؟ ولو قد وُجّه السؤال الى سليمان إذن لأجاب قائلاً إن الحب جزء من الحكمة . أمـــا نحن فنكتفي بالقول إن حب فانتين كان حباً اول ، حباً وحيداً ، حباً مخلصاً .

كانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربع ، التي لم يدللها قطّ غير رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من اولئك المخلوقات المنتزّعة من قلب الشعب . وإذ قد انبثقت من أعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يُسبر غورهـا ، فقد حملت على جبينها آية الغُفْل والمجهول . لقد رأت النور في « مونتروي سور مير » . من كان ابواها ؟ من يدري ؟ إنها لم تعرف قطّ لا اباها ولا أمها . لقد سُميت فانتـــين لماذا ؟ لأنها لم تُعرف قط بأيّ اسم آخر . ويوم وُلدتْ ، كانت حكومة الادارة لا تزال قائمة . ولم يكن لها اسم أسرة ، إذ ما كانت لها أسرة ما . ولم يكن لهـا اسم معمودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سُميت وفقاً لمشيئة اول عابر سبيل عثر عليها ، وهي بعدُ صغيرة جداً ، هائمةً في الشوارع . لقد تلقّت اسمها كما تلقّت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينهـا عندما هطل المطر . لقد دُعيت فانتين . إن احداً لم يعرف عنها ايمـا شيء آخر . تلك هي الطريقة التي وفدت بها هذه المخلوقة البشرية الى الارض . وفي العـاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت تعمل في خدمة زرّاع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شخصت الى باريس « بحثاً عن الحظ » . كانت فانتين جميلة ، واقد احتفظت بطهرها مـا وجدت الى ذلك سبيلا . كانت شقراء مليحة ذات أسنان جميلة . كان عندهـا مَهْر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤهـا كان في ثغرها .

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضاً ، لأن للقلب جوعه كذلك .

لقد احبت تولوميس .

كان ذلك ، عنده ، عشقاً عابراً ، ولكنه كان عندها هياماً . لقد شهدت شوارع « الحي اللاتيني » — التي تعج بالطلبة والفتيات المرتديات ابراداً خفيفة شهباء — بداءةَ هذا الحب . وهناك ، في متاهات هضبـة البانتيون ، حيث تُوثق وتنفصم كثيرٌ من العرى ، كانت فانتين تجتنب

تولوميس فترة طويلة ولكن لتعود بعدُ فنلتقيه من جديد . إن ثمة طريقة في الاجتناب هي اشبه ما تكون بالبحث والالتماس . وبالاختصار ، فقد علقت حبالها بحباله .

وألّف بلاشوفيل ، وليستوليه ، وفامول زمرةً كان تولوميس على رأسها . لقد كان هو عقلها المدبّر .

كان تولوميس تلميذاً عتيقاً من الطراز القديم . كان غنيــاً ، يملك دخلاً مقداره اربعة آلاف فرنك . اربعة آلاف فرنك : فضيحة رائعة فوق جبل سان جانفييف ! وكان تولوميس في الثلاثــين من عمره ، منغمساً في الملذات مفرّطاً في ذات صحته . كان متغضن البشرة ، مهشم الاسنان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرح قائلاً : « **الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين .** » كان يشكو سوء الهضم ، وكانت له عين راشحة . ولكن مرحه كان يزداد اتقاداً كلما خمد شبابه . لقد استعاض عن اسنانه بالايماءات المجونية ، واستعاض عن شعره بالمرح ، واستعاض عن صحتــه بالسخرية ، وكانت عينه الراشحة ضاحكة ابداً . كان متهدماً ، ولكنه مثقل بالازهار . كان شبابه الذاوي قبل الأوان يتقهقر في انتظام ، وينفجر بالضحك ، غيرَ متكشف الا عن نار مشبوبة . لقد قدّم الى مسرح الـ « فودفيل » رواية تمثيلية فرفضت . وكان ينظم الشعر بين الفينة والفينــة في شتى الموضوعات . وفوق ذلك ، فقد كان يرتاب في كل شيء بشموخ وتعالٍ ، وتلك قوة عظيمة في أعين الضعفاء . واذن فقد كان ، بوصفه ساخراً وأصلع ، هو رئيس الزمرة . ان كلمة Iron * انكليزية معناها الحديد ، فهل يكون الحديد هو الاصل الذي اشتُقت منه لفظة السخرية ؟

وذات يوم انتحى تولوميس بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم في إيماءة

---

* يحسن بالقارىء ان يعرف ان كلمة Ironie أو Irony تفيد في الفرنسية والانكليزية معنى السخرية والتهكم .

وقور :

– « منذ سنة تقريباً وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفافوريت يلتمسن منا ان نقدّم اليهن مفاجأة . واقد وعدناهن بذلك وعداً جازماً . وهنّ ما برحن يذكّرننا بالوعد ، ويذكّرنني أنا به بخاصة . وكما تخاطب النسوة العجائز في نابولي القديس جانفييه * صائحات : *Faccia gialluta fa o miracolo* « أيها الوجه الاصفر ، إجترح معجزتك ! » كذلك تقول حساننا في غير انقطاع : « تولوميس ، متى ستلد مفاجأتك ؟ » وفي الوقت نفسه فأن آباءنا يكتبون الينا . فلنصب عصفورين بحجر واحد . لقد آن الاوان فيما يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »

وهنا خفض تولوميس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ماجن الى درجة اطلقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معاً ، قهقهة حماسية متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل يصيح :

– « يا لها من فكرة ! »

وتبدّت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها .

وكانت ثمرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الأحد التالي ، عندما دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربع .

٣

اربعة إزاء اربع

من العسير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة : فلم تبقَ لباريس ضواحيها السابقة عينها ، ولقد تغير وجه ما يمكن ان ندعوه

* راعي مدينة نابولي ، وقد استشهد سنة ٣٠٥ م .

« الحياة حول باريس » تغيّراً كاملاً خلال نصف قرن . فبدلاً من العربة الجافية ذات الجواد الواحد اصبح عندنا الآن عربة السكة الحديدية ، وبدلاً من المركب الصغير اصبحنا نشاهد السفينة البخارية . نحن نقول فيكان * اليـــوم ، كما كانوا يقولون سان كلو ** آنذاك . إن باريس ١٨٦٢ مدينةٌ ضواحيها فرنسةُ كلها .

واستمتع الازواج الاربعة ، في دقة بالغة ، بجميع ضروب الطيش والحماقة التي كانت ميسورةً آنذاك . كانوا في مستهل العطلة ، وكان اليوم يوماً حاراً صافياً من أيام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت – وهي وحدها التي تعرف الكتابة من بين الرفيقات الاربع – قد كتبت الى تولوميس رسالة قالت فيها باسم صواحبها جميعاً : « من حسن الطالع ان ننطلق باكراً . » من اجل ذلك نهضوا في الساعة الخامسة صباحاً ثم امتطوا العربة الى سان كلو ، ورأوا الى الشلال الجافّ وصاحوا : « لا بدّ ان يكون هذا جميلاً جداً حين يحفل بالمـــاء ! » وتناولوا الفطور في « الرأس الاسود » ، ولم يكن كاستين *** قد مرّ بذلك المكان بعد ، ومتعوا النفس بلعبة الخواتم في مربّع الحوض الكبـــير ، وصعدوا الى مصباح ديوجين ، وجعلوا يُكرّون الحلوى ذات الاقراص المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقـــات الزهر في بوتو ، واشتروا صفارات القصب في نويي ، واكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا على غاية السعادة .

وهذرت الفتيات وثرثرن كالطير المغرّدة أُطلقت من اقفاصها . كنّ نشاوى بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كنّ يداعبن رفاقهن الشبان بضربة صغيرة بالكفّ . ذلك غلُ الحياة في فجرها ! سنواتٌ خليق بها ان

* Fécamp ثغر واقع على بحر المانش .

** Saint — Cloud وتقع على نهر السين ، على مسافة تسعة كيلو مترات من فرساي .

*** Castaing طبيب فرنسي ،عرف بأفساده للاخلاق . (١٧٩٧ – ١٨٢٣) .

تعبّد ! إن اجنحة اليعاسيب لترتجف ! أوه ، ألا تزال ، كأنـك من كنت ، تذكر أيامك الماضية ؟ هل قدّر لك ان تمشي في الادغال ، رادّاً الاغصان ليكون في ميسور الوجه الجميل السائر خلفك ان يتابع سبيله ؟ هل قدّر لك ان تنزلق ضاحكـــاً من فوق منحدر بلّله المطر ، وقد شدت بك الى الوراء يد امرأة تحبها ، وانشأت تصيح : « اوه ، حذائي الجديد ! الى اية حالة قد انتهى ! »

ولنسرع الى القول ان هذا العائق البهيج ، المطر ، لم يسعف الزمرة الانيسة المرحة على الرغم من ان فـــافوريت كانت قد قالت ، لحظة انطلقوا ، في جرسٍ أستاذيّ أمومي : « ان البزّاق يتنزه في الممرات . وهذه علامة المطر ، يا ابنائي . »

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفتن العقول . وكان مسيو دو لا بروبس – وهو شاعر كلاسيكي عجوز طيب من مشاهير الادباء آنذاك ورجل ساذج كانت في حياته ايليونورا * – كان يهيم على وجهه ذلك اليوم تحت شجرات الكستناء في ســـان كاو ، فرآهن في طريقه في نحو الساعة العاشرة صباحاً فصاح وهو يفكر في « آلهـــات الملاحة » ** : « ولكن هنا واحدة اضافية ! » وكانت فافوريت ، صاحبة بلاشوفيل ، « العجوز » ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً ، تعدو امامهم تحت الاغصـان الخضر العريضة ، وتقفز عبرَ الحفر ، وتثب في جنون من فوق شجرات العليق ، حاملةً لواء المرح بمثل حميّا آلهة شابة من آلهة الاحراج الرومانيين . أما زيفين وداهليا اللتان حبتهما المصادفة

* في المصادر ان ايليونور دو غوبين تزوجت عام ١١٣٧ من ملك فرنسة لويس السابع الصغير الذي ما لبث ان طلقها عام ١١٥٢ إثر الفضائح التي حفلت بها حياتها الخاصة . فتزوجها هنري بلانتاغنيت الذي اصبح ملك انكلترة سنة ١١٥٤ واغلب الظن ان المؤلف يشير هنا الى هذا المعنى .

** Les Graces عند الاغريق ، وهنّ آلهـــات ثلاث تذهب الاسطورة الى انهن يجسّدن كل ما في الجمال من فتنة . وهن Aglaé و Thalie و Euphrosine .

بضرب من الجمال كان يسمو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احداهما الاخرى بدافع من غريزة الفنج والدلال اكثر مما فعلتا ذلك بدافع من الصداقة ، وانعطفت احداهما على الاخرى في اوضاع انكليزية . كانت الالبومات التذكارية التي اعتاد الشباب والشابات تبادلها في ذلك العصر قد شاعت منذ فترة قصيرة ، وكانت الكآبة زياً شائعاً عند النساء ، كما كانت البايرونية * بعد ذلك عند الرجال ؛ وكانت غدائر الجنس الرقيق قد بدأت تسقط متناثرة . كانت زيفين وداهليا قد زينتا شعرهما على نحو دائري ملتف . واستغرق ليستوليه وفامول في نقاش حول اساتذتهما ، وراحا يشرحان لفانتين الفرق بين مسيو ديلفينكور ومسيو بلوندو .

وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه ، يوم الاحد ، شال فافوريت الشبيه لونه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولوميس ، مهيمناً ، مسيطراً على الزمرة . كان مبتهجاً جداً ، ولكن كان في ميسور المرء ان يتشمم فيه السلطان . كان ثمة ديكتاتورية في جذله . وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نسيج قطني أصفر مفصّل على طريقة رجل الفيل ، مع سير يُربط تحت النعل ذي جديلة بلون النحاس . كانت في يده عصاً ضخمة من أسَل الهند تبلغ قيمتها مئتي فرنك . واذ لم يحرم نفسه شيئاً ، فقد كان في فمه شيء غريب يدعونه سيجاراً . واذ لم يكن ثمة شيء مقدّس عنده ، فقد أنشأ يدخن .

وقال الآخرون في إجلال :

— « ان تولوميس هذا لمدهش . أيّ بنطلون ! أية قوة ! »

أما فانتين فكانت المرحَ عينه . كان واضحاً ان الله قد عهد الى

---

* اي النزعة الرومانتيكية التي عرف بها الشاعر الانكليزي اللورد بايرون والتي كثيراً ما استوحاها الرومانتيكيون الفرنسيون .

اسنانها الرائعة في مهمة واحدة ، هي الضحك . كانت تحمل في يدها ، اكثر مما تحمل على رأسها ، قبعتها الصغيرة من القش المحيـــط ، ذات الاشرطة الطويلة البيضاء . وكانت غدائرها الكثيفة الشقراء ، النزاعة الى التموّج والمتحررة في سهولة من عقالاتها بحيث تكرهها على ان تُحكم وثاقها على نحو موصول – كانت هذه الغدائر تبدو وكأنهـــا جُعلت لفرار غالاتيا * تحت الصفصاف . وكانت شفتاها الزهراوان تثرثران في سحر . وكانت زاويتا فمها المرفوعتان على نحو شهويّ مثل اقنعة اريغون ** العتيقة ، تبدوان وكأنهما تشجعان الجرأة . ولكن اجفانها الطويلة الظليلة انخفضت في رزانة نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنما تريد ان تكبح من نزعاتها المرحة . وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة الى حد يمتنع على الوصف . كانت ترتدي ثوباً رقيقاً خبّازيّ اللون ، وحذاء ذا نعـــل عال أسمرَ ذهبياً تصالب شريطاه فوق جوربيها الرائعين البيضاوين المثقوبين ، وكان ذلك الضرب من الـ « سبنسر » *** المخترَع في مرسيليـــا والذي يدعى كانيزو Canezou – وهي تحريف لكلمتي Quinze Août **** في اللهجـــة الـكانابييرية ***** – يعني الجو البديع ، والدفء ، والظهيرة . أما الفتيات الثلاث الاخريات ، وكنّ اقلّ خجلاً كما ذكرنا ، فارتـــدين ملابس تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون في الصيف ، وتحت القبعات المغطاة بالرياحين ، ناضحـاً بالملاحـة والدلال .

---

* Galatée حورية من حوريات الماء الاسطورية أحبها بوليفيموس . ولكنها آثرت عليه « آسيس » الراعي ، وذات يوم فاجأهما العملاق فسحق رأس منافسه بصخرة .

** Erigone اريغون في الميثولوجيا ، محبوبة باخوس الـٓه الخمر ، وقد تحول ، لكي يغويها ، الى عنقود عنب .

*** ضرب من اثواب النساء يكون ضيقاً عادة . وهو ينسب الى شريف بريطاني يدعى الايرل سبنسر (١٧٨٢ – ١٨٤٥)

**** أي الخامس عشر من آب .

***** نسبة الى la Canebière وهو شارع جميل في مرسيليا .

ولكن الى جانب هذا التبرج الجريء بدا « كانيزو » فانتين الشقراء ، بشفافيته وإفشائه لما دونه وستره له – فهو كاشفٌ حاجبٌ في آن معاً – وكأنه مدعاة الى الاحتشام مُرسلةٌ من عند الله . ولقد كان خليقـاً ببلاط الحب الشهير ، برئـه الفيكونت دو سيت ذو العينين الخضراوين كمثل خضرة البحر ، ان يخلع جائزة الغنج على هذا الـ « كانيزو » الذي خاض المعركة طمعاً في الفوز بجائزة العفة . إن أبسط الاشياء هو في بعض الاحيان أحفلها بالحكمة . كذلك تجري الأمور .

وجه مشرق ، صورة جانبية دقيقة ، عينان عميقتا الزرقة ، اجفان كثيفة ، قدمان صغيرتان متقوستان ، معصمان وعقبان مغلفة تغليفـاً رائعاً ، بشرة ناصعة تنمّ ههنا وهناك عن اشكال الاوردة اللازوردية ، وجنة طفلية نضرة ، عنق قـوية كعنق جينو * ، قفـا عنق ثابت اللدن ، وكتفان كأنما نحتهما كوستو ** في وسطهما حُفـيرة شهوية تتراءى من خلال الشاش الموصليّ ، بهجة مُصقولة بالاحلام ، نقشيّـة سائغة – كذلك كانت فانتين ؛ ولقد كان في ميسور المرء ان يكتشف تحت هذا الثوب وهذه العصائب تمثالاً ، وان يستشعر في هـذا التمثال روحاً .

كانت فانتين حسناء من غير ان تعي ذلك كثيراً . والحق ان اولئك الحالمين القلائل ، كهنة الجمال الخاطين بالاسرار ، الذين يقارنون في صمت ما بين الاشياء كلها وبين الكمال ، كان في ميسورهم ان يلمحوا في هذه العاملة ، من خلال شفافية الملاحة الباريسيـة ، ذلك التطريب المقدّس العريق في القِدم . لقد كان لأبنة الظلام هذه نسبٌ .

---

* Juno في الميثولوجيا الرومانية ، إلاهة رومانية قديمة ، كانت زوجة جوبيتر ، والمهيمنة على شؤون الزواج والنساء . وهي تقابل « حيرا » عند الاغريق .

** Coustou اسم اسرة فرنسية شهيرة في تاريخ النحت ، وقد أطلعت ثلاثة نحاتين معروفين اولهم نقولا كوستو (١٦٥٨ – ١٧٣٣) ووليم كوستو الاب (١٦٧٧–١٧٤٦) ووليم كوستو الابن (١٧١٦ – ١٧٧٧)

كانت تملك ضربيْ الجمال جميعاً : النمط والايقاع . النمط هو شكل المثل الاعلى ؛ والايقاع هو الحركة .

لقد قلنا ان فانتين كانت هي المرح . لقد كانت فانتين ايضاً هي الحياء .

ذلك بأن المراقب القادر على ان يدرسها في انتباه خليقٌ بأن يقع من خلال نشوة العمر هذه ، ونشوة الموسم ، ونشوة الحب كلها على تعبير لا يُقهر من التحفظ والاحتشام . لقد ظلت مندهشة بعض الشيء . وهذا الاندهال العفيف هو الظل الذي يفصل بسيشه * عن فينوس . كانت لفانتين اصابع الكاهنة في هيكل فستا ** ، تلك الاصابع الطويلة المهزولة البيضاء التي تثير رماد النار المقدسة بقضيب ذهبي . وعلى الرغم من انها ما كانت لتضنّ على تولوميس بشيء ، كما نستطيع ان نرى في وضوح ، فقد كان وجهها ، في الهدأة ، بالغاً الغاية في البتولية . كان ضرب من الوقار الجدي ، الذي يكاد يكون كالحاً ، يرين عليه فجأة في بعض الاحيان ، وما كان شيء اغرب ولا ادعى الى القلق من ان يرى المرء الى الابتهاج تخمد جذوته هناك في مثل هذه السرعة ، والى التفكير يخلف الجذلَ من غير ما مقدمة او تمهيد . وكانت هذه الرصانة المفاجئة المؤكّدة على نحو عنيف احياناً ، تشبه ازدراء الاهة من الالآهات . وكان جبينها ، وانفها ، وذقنها تُبرز توازن الخطوط ، المختلف كل الاختلاف عن توازن النِّسَب ، الذي يُحدث تناغم الملامح . وفي الفاصل المميز لها جداً ، والذي يفصل قاعدة الانف عن الشفة العليا ، كانت لها تلك الثنيّة الفاتنة غير الملحوظة — وهي آية غامضة على الطهر — التي

---

* Psyché في الاساطير انها فتاة كانت على جمال عظيم ، حتى لقد احبها الحب . وقصتها ترمز الى مصير الروح الساقطة التي تصعد دائماً ، اثر مصائب متعددة ، بالحب الالهي .

** Vesta إلاهة النار عند الرومان . وهي تقابل هستيا عند الاغريق .

أوقعت برباروسا * في حب « ديانا » ** وجـدها في اطـلال ايقونيوم ***

الحب خطيئة . فليكن . لقد كانت فانتين هي البراءة تطفو عـلى سطح هذه الخطيئة .

٤

تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على انشاد اغنية اسبانية

كان ذلك اليوم مشرقاً بأشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابقـة بالعبير . وفي رفق ، موّجت نسائم السّين اوراق الاشجار . كانت الاغصان تتحدث مكثرة من الاشارات في وجه الريح . وشنت النحل غاراتها على الياسمين . وكانت جمهرة من الفراشات قد حطت رحالها عـلى زهرات القنديل ، والبرسيم ، والشوفان البريّ . لقد غزا حديقـة ملك فرنـسة الفخيمة حشد من المتشردين : العصافير .

وتألّق الازواج المبتهجون الاربعة ، متناغمين مع اشعة الشمس ، والازهار ، والحقول ، والاشجار .

وفي هذه الجماعة الفائحة منها روائحُ الجنة ، الجماعة اللاغية ، المغنية ، الراكضة ، الراقصة ، المطاردة للفراشات ، الجامعـة للّبلاب ، المبلّلة

---

* أمير البحر التركي الشهير الذي قاد اساطيل سليم الاول وتوفي عام ١٥٤٦

** إلاهة رومانية ، بنت جوبيتير ، واخت ابولو .

*** قونية التركية .

جواربها الوردية المثقوبة بالعشب العالي ، النضرة ، المجنونة ، وإن تكن غير شريرة ، اختلس كلٌ ، بين الفينة والفينة ، القبلاتِ من كلٍّ ، ما خلا فانتين التي كانت متحصنة في مقاومتها الغامضة ، الذاهلة ، العنيفة ، والتي كانت عاشقة . وقالت لها فافوريت :

— « انت دائماً منحرفة المزاج . »

تلك هي المباهج الحقيقية . إن هذه المقاطع في حياة الشباب السعيدة هي نداء عميق للحياة والطبيعة ، وهي تُفجّر الوداد والضياء من كل شيء . لقد كانت في غابر الايام جنيّة انشأت المروج والاشجار خصيصاً للعاشقين . ومن هنا مدرسة المحبين السرمدية هذه ، القائمة وسط الغياض ، والمفتوحة الابواب ابداً ، والتي سوف تعمّر ما دام ثمة ادغال وتلاميذ . ومن هنا شعبيةُ الربيع عند المفكرين . إن العظيم والحقير ، والدوق والامير ، والفلاح ، ورجال البلاط ، ورجال المدينة ، كلهم — كما كانوا يقولون في العهود القديمة — خاضعون لسلطان هذه الجنية . إنهم يضحكون . انهم يلتمسون بعضهم بعضاً . إن الهواء ليبدو طافحاً باشراق جديد . أيّ تحوّلٍ في الصورة يُحدثه الحب ! إن الكتّاب العدول ليصبحون آلهة . وإن الصيحات الصغيرة ، والمطاردات وسط الاعشاب ، والخصور التي تطوّق خلسةً ، وهذه الرطانات التي هي نغمات ، وهذا الهيام الذي يتفجّر في مقطعٍ من كلمة ، وحبات الكرز هذه التي ينتزعها فمٌ من فم ، كل اولئك يلتمع ويتحول الى امجاد سماوية . إن الفتيات الحسان لينثرنَ فتنتهن في اسراف عذب . وان المرء ليتوهم انها لن تنضب ابداً . ويرى الفلاسفة ، والشعراء ، والرسامون الى هذه النشوات الوجدية كلها ولا يدرون ما يصنعون بها . انها باهرة الى هذا الحد !

الرحيل الى سيتير * ! كذلك يصيح واتو . ** أما لانكريه *** ، رسام العامة ، فيتأمل بورجوازييه المحلقين في السماء . على حين يفتح ديدرو ذراعيه لجميع هؤلاء المشاق ؛ ويقرنهم دورفيه **** بالـ « ذروينذ » *****

وبعد الفطور ، مضى الازواج الاربعة ليروا ، في ما كان يدعى آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيء بها من الهند حديثاً ؛ نبتة غاب عنا اسمها في الوقت الحاضر ، وكانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى سان كلو . كانت شجيرة غريبة فاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا حصر لها دقيقة كالخيوط ، شعثاء ، غير مورقة ، مثقلة بملايين الزهيرات البيضاء ، مما جعلها اشبه ما تكون بشعر منساب تناثرت فوقه الرياحين . وكان يحتشد حول هذه النبتة دائماً جمهرة من المعجبين .

حتى اذا سعدوا بمشاهدتها صاح تولوميس : « انا أقترح ان نستأجر حميراً . » وبعد مساومة مع سائق حمير ارتدوا من طريق « فانف » و « إيسي » . وفي إيسي كانت لهم مغامرة . ذلك أن الحديقة التي كانت من قبل ملكاً قومياً والتي كان يملكها آنذاك ممون الجند « بورغوان » ، كانت بمجرد المصادفة مشرعة الابواب . فاجتازوا حاجز القضبان المشبكة ، وزاروا الناسك القزم في كهفه ، وجربوا المفاعيل الصغيرة العجيبة الخاصة بحجرة المرايا — وهي شرك داعر جدير برجل

---

* Cythère احدى جزر الارخبيل في شمال غربي كريت . وفي الاساطير اليونانية انها موقوفة على فينوس التي ولدت من زبد الموج . ولقد غدت سيتير ، في لغة الشعر ، موطن الحب الرمزي .

** Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ – ١٧٢١)

*** Lancret رسام فرنسي (١٦٩٠ – ١٧٤٣) اشتهر برسومه المذبة الضاحكة .

**** Honoré d'Urfé كاتب فرنسي (١٥٦٨ – ١٦٢٦)

***** Druides هم كهان الغاليين ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في الهواء الطلق ، وفي الغابات . وكانوا يعبدون آلهة عدة ويؤمنون بخلود النفس وتناسخ الارواح .

بمن في الفسُوق أمسى مليونيراً ، او بـ « توركاريه * » استحــال الى برياب ** – وتأرجحوا في عزم بالارجوحة الكبيرة المشدودة الى شجرتي الكستناء اللتين شهرهما الراهب بـــيرنيس *** وفيما هم يؤرجحـــون الفتيات ، واحدة إثر واحدة ، محدثين بذلك ثنايا من التنانير كان خليقاً بـ « غروز » **** ان يجدها جديرةً بالدرس ، أنشد تولوميس التولوزيّ – وكان فيــه شيء من الدم الاسباني ، فـ « تولوز » هي ابنة عم « تولوزا » ***** – أنشد في نبرة كئيبة اغنية « غاليغا » القديمة التي اوحتها الى الناظم ، في ما يبدو ، فتاة صغيرة تـأرجحت في الهواء بين شجرتين :

Soy de Badajoz.
Amor me llama.
Toda mi alama
Es en mi ojos
Porque ensenas
A tus piernas. ******

---

* Turcaret كوميـــديا لـ « لساج » Lesage (١٦٦٨ – ١٧٤٧) كان بطلها خادماً ثم غدا من طريق النهب غنياً يتحلّق حـــوله مغامرون اشدّ إمعاناً في الاثم منه .

** Priape الـه الجنائن والكرمة والتناسل . ابن ديونيـوس وآفروديت . وهو في الاساطير رمز الرجولة والفتوة .

*** de Bernis شاعر وكاهن فرنسي (١٧١٥ – ١٧٩٤)

**** Greuze رسام فرنسي (١٧٢٥ – ١٨٠٥) وهو يمتاز خاصة في رســم المشاهد المألوفة ووجوه الاشخاص .

***** مدينة اسبانية في اقليم الباسك او البشكنس .

****** أنا من باداغوز
الحب يناديني .
كل روحي
هي في عينيّ ،
لانهما تشيران
الى ساقيك .

ورفضت فانتين ، وحدها ، أن تتأرجح .

وغمغمت فافوريت في شيء من الحدة :

- « انا لا احب هذا النوع من التصنّع . »

وتركوا الحير ، لينصرفوا الى متعة جديدة . وعبروا نهر السين في زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام ، من باسي الى « حاجز الأيتوال » . لقد سعوا على أرجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحاً ، ولكن فافوريت قالت : « **ليس في ايام الاحد تعب . ان التعب لا يشتغل يوم الاحد** ! » وحوالى الساعة الثالثة ، كان الازواج الاربعة يسرعون في الهبوط ، وقد دلّتهم السعادة ، نحو الجبال الروسيـــة * وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان في استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافعواني الممتد فوق شجرات الـ « شان زيليزيه » .

وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح :

- « والمفاجأة ؟ انا اريد المفاجأة ! »

فيجيبها تولومييس :

- « إعتصمي بالصبر ! »

٥

في حانة بومباردا

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكّروا في الغـــداء . وجنح السعداء الثمانية ، وقد أصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا ، وهي مؤســة فرعية انشأها في الشان زيليزيه ذلك المطْعَمي

* يقصد بالجبال الروسية سلسلة من المرتفعات والمنخفضات الشديدة الانحدار يتزلج عليها المتزلجون .

الشهير ، بومباردا ، الذي كانت لافتته تُرى آنذاك فوق شارع ريفولي ، قرب مجاز دولورم .

كانت قاعة رحبة ، ولكنها بشعة ، في ادناها مُخدع وسرير . (كان المكان يغص بالروّاد يوم الاحد بحيث يتعيّن على بعضهم ان يرتضوا هذا المأوى) وكانت ثمة نافذتان كان في استطاعة المرء ان يرى منهما ، خلالَ شجرات الدوداو ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة من شمس آب تمسّ النافذتين مسّاً رفيقاً . وكانت هنالك طاولتان ، احداهما مثقلة بجبل مظفّر من باقات الزهر المختلطة بقبعات الرجال والنساء ، والاخرى ، وهي التي تحلّق حولها الازواج الاربعة ، مثقلة بركام بهيج من الصحاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز الجعة وقناني الخمر . كان ثمة قليل من النظام فوق الطاولة ، وقليل من الفوضى تحتها .

يقول موليير :

« إنهم يحدثون تحت الطاولة
ضجة وقرع طبول عنيفاً بأقدامهم . »

إلى ههنا كانت النزهة الريفية التي انطلقت في الخامسة صباحاً قد انتهت بأصحابها عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس تجنح للغروب ، وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت .

ولم يكن الشان زيليزيه ، الحافل باشعة الشمس وبالناس ، شيئاً اكثر من ضياء وغبار ، وهما العنصران اللذان يتألف منهما المجد . كان جوادا مارلي ، * هذا الرخام الصاهل ، يشبّان في غمامة ذهبية .

* Marly موضع على بعد عشرة كيلومترات من فرساي ، قرب نهر السين . وكان لويس السادس عشر قد انشأ فيه قصراً فخماً خربته الثورة . وكان « جوادا مارلي » *Chevaux de Marly* — وهما تمثالان شهيران من عمل النحات وليم كوستو — يزينان قصر مارلي هذا ثم نقلا الى الشان زيليزيه .

وكانت العربات تروح وتجيء . وكانت كوكبة رائعة من حرس الملك ، تتقدمها الابواق ، تهبط شارع دو نوبي . ورفرف العَلم الابيض ، الذي خضّبته الشمس المحتضَرة بلون احمر باهت ، فوق قبة التويلري . وكانت ساحة الكونكورد ، التي عُرفت آنذاك كرة أخرى ، بساحة لويس الخامس عشر ، تغص بالمتنزهين المبتهجين . وكان كثير من النـــاس يحملون زنابق فضية تتدلى من العصائب البيضاء المتموجة الـتي لم تكن قد اختفت نهائياً ، عام ١٨١٧ ، من عُرى الثياب . وههنا وههناك ، وسط جماعات من عابري السبيل المصفقين ، كانت حلقات من الفتيات تطلق في الهواء لحناً بوربونياً تافهاً ، قُصِد به الى ان يُفحم « الأيام المئة » ؛ وكانت لازمته تجري هكذا :

« اعيدوا الينا ابانا الذي في غان *

« اعيدوا الينا مولانا ! »

وكانت حشود من ابناء الأرباض المرتدين ملابسهم الخـــاصة بيوم الاحد ، المتزينين احياناً بالزنابق مثل البورجوازيين ، قد انتشرت فوق الساحة الكبرى وساحة ماريني يلعبون لعبة الخواتم ، ** ويطوّفون على متون الخيل الخشبية . وكان آخرون يحتسون الخمر . على حين كان نفرٌ قليل ، وهم من عمال المطابع ، يعتمرون قبعات من الورق . كان في ميسور المرء ان يسمع صدى ضحكاتهم . وكان كل شيء مشعاً مشرقاً . كان عهداً من السلام الوطيد والسلامة الملكية العميقة — عهداً اختتم فيه آنغليز مدير الشرطة تقريراً شخصياً وخصوصياً رفعه الى الملك حول الوضع في ضواحي باريس بهذه الاسطر : « اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، يا مولاي ، استطعنا ان نقول ان لا خطر البتة مـــن هؤلاء القوم .

* اي الملك لويس الثامن عشر ، وكان قد لجأ ، خلال « الايام المئة » ، الى مدينة غان Gand احدى مدن بلجيكا .

** jeu de bagues من العاب الرشاقة ، وقوامها ان ينتزع الفارس ، بواسطـــة رمح او سيف ، بعض الحلقات المتدلية ، فيا الجواد منطلق به .

إنهم مهملون متكاسلون كالفررة . واذا كان العوام من ابناء الولايات قلقين غير راضين فأن عوامّ باريس ليسوا كذلك . إنهم جميعاً رجال صغار ، يا مولاي ، اذا وُضع اثنان منهم واحداً فوق الآخر لم يكادا يشكلان رجلاً من رماة قنابلك . لا ، ليس ثمة ما يُخشى من ناحية سكان العاصمة . ومما يلفت النظر ان هذا الجزء من السكان قد تقاصرت قاماته ايضاً خلال السنوات الخمسين الماضيات ، وان ابناء الضواحي الباريسية أضأل اجساماً مما كانوا قبل الثورة . إنهم ليسوا خطرين . وبالاختصار ، فانهم سفلة طيبون . »

أما ان من الجائز ان تنقلب الهرة الى أسد فذلك ما لا يعتقد مدراء البوليس بأنه ممكن . وأياً ما كان فقد يقع هذا ، وتلك هي معجزة شعب باريس . والى ذلك ، فأن الهرة التي يزدريها الكونت آنغليز الى هذا الحد قد حظيت بأجلال الجمهوريات في الاعصر الخالية . كانت تجسُّداً للحرية ، في نظرهم . ولقد كان في ساحة كورنث العامة تمثال ضخم جداً لهرّة ما ، فهو يخيل الى المرء ان القوم قصدوا الى جعله نداً لمينيرفا « بيريه » * غير المجنحة . كانت الشرطة الساذجة ، في عصر لويس الثامن عشر ، تنظر الى شعب باريس نظرة تحفل بالأمل والتفاؤل اكثر مما ينبغي . انهم ليسوا ، بحال من الاحوال ، « سفلة طيبين » بقدر ما يُظن . فالباريسي هو بين الفرنسيين ما كانه الاثيني بين الاغريق . إن احداً لا ينام احسن مما ينام هو ؛ إن احداً ليس اكثر منه ولا أصرحَ طيشاً وكسلا ؛ إن احداً لا يبدو أيسر نسياناً للاشياء منه ، ومع ذلك فحذار ان تطمئن اليه . إنه قادرٌ على مختلف ضروب البلادة والتراخي . ولكن ما إن يتبدّى له طيف تجْدٍ حتى ينتزع اعجابك بأنواع الاحتدام المجنون كلها . أعطهِ حَربةً يُعطك يوم

* Pirée ثغر اثينا .

١٠ آب * أعطه بندقية يُعطك معركة اوسترليتز . إنه مرتكز نابوليون ، ومَعين دانتون ** هل الوطن في خطر ؟ إذن ، يتطوع للنضال . هل الحرية في خطر ؟ اذن ، يقتلع بلاط الشارع . حــــذار ! إن شَعره الطافح بالغضب هو ملحمي ؛ إن قميصه ليبدو وكأنه معطف من معاطف الجند الاغريقي القديم . انتبه ! فعند الزاوية الاولى ، يصنع « غرينيتا » « شوكاتٍ كودية » *** وحين يدق ناقوس الخطر ينمو هذا الرجل الساكن في الضواحي ، وينهض هذا الرجل الضئيل . عندئذ تغــدو نظرته فظيعة ، ويصبح نَفَسه عاصفة ، وتنطلق من صدره البائس المهزول ريح عاتية تقلقل جبال الالب . إن رجل الضواحي الباريسية هو الذي جعل الثورة ، وقد أفرغت في جيوش ، تفتح اوروبة . إنه يغنّي ؛ تلك هي بهجته . وازنْ مـا بين اغنيته وطبيعته ، ثم انظر فما دامَ لا يملك غير الكارمانيول **** لازمةً غنائية فلن يُسقط غير لويس السادس عشر . ولكن دعه ينشد المارسيلياز يخلّص العالم .

وبعد ان كتبنا هذه الملاحظة على هامش تقرير آنغليز نعود الى ازواجنا الاربعة . كانوا قد تناولوا ، كما قد قلنا ، طعام الغداء .

٦
فصل من محبة الذات

إن احاديث المائدة واحاديث الحب لا سبيل الى ان تمسك بها قبضة

---

* يوم ثار الشعب الفرنسي (١٠ آب ١٧٩٢) ثورته التي انتهت بسجن لويس السادس عشر وسقوط الملكية .

** Danton احد زعماء الثورة الفرنسية المشاهير (١٧٥٩ – ١٧٩٤)

*** Fourches Caudines وهو مضيق مجاور لكوديوم (مدينة في ايطالية القديمة) حيث هزم القائد السمني بونتيوس هيرينيوس الجيش الروماني وانزل به ضروب الخسف والاذلال (٣٢١ ق . م) والمقصود انه يعمل عملاً يذل المغلوبين .

**** carmagnole ضرب من الرقص والغناء شاع في اثناء الثورة الفرنسية .

القابض . احاديث الحب سُحُب ، واحاديث المائدة دخان .

ودندن فـــامول وداهليا بالأنغام ؛ واحتسى تولوميس الشراب ؛ وضحكت زيفين ، وابتسمت فانتين . ونفخ ليستولييه في بوق خشبي اشتريَ في سان كلو . ونظرت فافوريت ، في حنان ، الى بلاشوفيل وقالت :

— « بلاشوفيل ، أنا اعبدك . . »

فأدى هذا الكلام الى سؤال من بلاشوفيل :

— « ماذا تفعلين ، يا فافوريت ، إذا اقلعتُ عن حبك ؟ »

فصاحت فافوريت : « أنا ! آه ، لا تقل ذلك ، ولو على سبيل المزاح ! إذا اقلعت عن حبي فسوف ألحق بك . سوف أخدشك . سوف اشدّ بشعرك . سوف اقذفك بالماء . سوف أحمل الشرطة على ان تلقي القبض عليك ! »

وابتسم بلاشوفيل في الاختيال الخليع الجدير برجل دُغــدغ حبّ الذات عنده . واضافت فافوريت :

— « أجل ، سوف استغيث ! لا ! سوف أصيح مثلاً : وغد ! »

وفي نشوة بالغة ارتدّ بلاشوفيل في كرسيه الى الوراء ، وأغمض كلتا عينيه في زهو .

وهمست داهليا ، وكانت لا تزال تأكل ، في اذن فافوريت وسط الضجة :

— « انت مولعة بفلاشوفيل الى حد بعيد ، اذن ؟ »

فأجابت فافوريت ، بالجرْس نفسه ، وهي تمسك بشوكتها من جديد :

— « أنا أكرهه . إنه شحيح . انا احب ذلك الفتى الساكن في المنزل المقابل لمنزلي . إنه شاب ممتاز ، هل تعرفينه ؟ في استطاعة كل امريء ان يرى انه خُلق لكي يكون ممثلاً ! انا احب الممثلين . إنه لا يكاد يدخل البيت حتى تصيح أمه : « اوه ، يا الٓهي ! لقد فقدت

طمأنينتي . ها هو ذا في طريقه الى الصراخ ! إنك سوف تفلق رأسي ! »
وما ذلك إلا لأنه يطوّف في المنزل ويمضي الى العلّية ذات الجرذان
والى الزوايا المعتمة ، مصعّداً أعلى ما يستطيع ان يصعّد ، وهناك يغني
وينشد – ومن اين لي أن اعرف أن في إمكانهم ان يسمعوه تحت ؟ إنه
يكسب الآن عشرين « سو » يومياً من طريق كتابة الدعاوى لأحد
المحامين الصغار . إنه ابن مرتّل كنسي قديم في سان – جاك – دو –
هو – با . آه ! انه شابٌ ممتاز . إنه يحبني الى درجة جعلته يقول لي
ذات يوم ، وكنت اعجن الدقيق لعمل بعض الحلوى : **« يا آنسة ،
اجعلي من قفازيك زلابية أسارع الى اكلها ! »** ان الفنانين وحدهم هم
الذين يستطيعون ان يقولوا اشياء مثل هذه . أنا على وشك ان اجنّ
بهذا الفتى . لست ابالي . انا اقول لبلاشوفيل إني اعبده . يا لي من
كاذبة ! اوه ، يا لي من كاذبة ! »

وتمهلت فافوريت لحظة ثم اردفت :

– « داهليا ، انت تلاحظين أني محزونة . إن هذا الصيف لم يجد
علينا بغير المطر المتواصل . إن الريح تثير عصبيتي ؛ **وان الريح** تشوهني
بالكلَف . بلاشوفيل بخيل جداً . ان المرء لا يكاد يجد شيئاً من
الجلبان في السوق . والناس لا يعنون بشيء غير الطعام . أنا استشعر السأم
والسويداء كما يقول الانكليز . الزبدة غالية جداً ! وفوق ذلك ، انظري !
إن هذا مخيف . نحن نتناول طعام الغداء في غرفة تحتوي على سرير .
إن هذا ليجعلني أتقزز من الحياة . »

٧
حكمة تولومييس

وفي غضون ذلك ، بينا كان بعضهم يتغنى كان سائرهم يتحدثون في

صخب دفعةً واحدة . كان ثمة هدير كامل . واعترض تولوميس صائحاً :

— « لا تتحدثوا كيفما اتفق ، ولا في سرعة فائقة ! يتعين علينا ان نتأمل اذا كنا نرغب في ان نكون متألقين . إن الامعان في الارتجال يجعل الذهن فارغاً على نحو احمق . والجعة الجارية لا تجمع شيئاً من الزبد . ايها السادة ، على رسلكم ! امزجوا الجلال بالقصف والابتهاج . كلوا في تأمل وتنعموا في بطء . لا تتعجلوا . انظروا الى الربيع . اذا اسرع اصابه الجراب ، يعني أنه يتجمّد . ان الافراط في الاندفاع يقتل شجرات الخوخ والمشمش . والافراط في الاندفاع يقتل طلاوة الموائد السخية وبهجتها . لا اندفاع ، ايها السادة ! إن غريمون دو لا رينيير هو من رأي تاليران . »

فقال بلاشوفيل : « اليك عنا ، يا تولوميس . »

فصاح فامول : « ليسقط الطاغية ! »

فهتف ليستولييه : « بومباردا ، بومبانس ، وبامبوش ! » *

فقال فامول : « إن يوم الاحد لم ينته بعد . »

واضاف ليستولييه : « نحن زاهدون في الطعام والشراب . »

فقال بلاشوفيل : « تولوميس ، تأمّل هدوئي . » mon calme

فاجاب تولوميس : « انت مركيزها . »

وكان لهذا التلاعب اللامبالي بالالفاظ مثل اثر الحجر الذي يُلقى في بركة . كان المركيز دو منكالم ** ملكياً من ملكيي العصر المشهورين . وصمتت الضفادع كلها .

وصاح تولوميس في لهجة من استعاد السلطة :

— « ايها الاصدقاء ، التزموا الرصانة . هذه النكتة الجناسية لا ينبغي ان تُستقبل رغم هبوطها من السماء ، بكثير من الدهش ، وكل

* بومباردا هو صاحب الحانة . وبومبانس Bombance وبامبوش Bambocbe تفيدان معنى القصف والتلذذ بالطعام والشراب . وفي ذلك كله تلاعب بالالفاظ واضح .

** Montcalm ويبدو الجناس واضحاً بين هذا الاسم وبين قوله في الاسطر السابقة mon calme

ما يهبط على هذه الشاكلة لا يستحق ، بالضرورة ، الحماسة والاحترام .
النكتة الجناسية هي رَوْث الروح المحلقة . والمزاح الماجن يتساقط في ايما
مكان . حتى اذا تحرّرت الروح من حماقتها غاصت في السُّحب . إن
الرقعة البيضاء المنبسطة على الصخر لا تحول بين القندر * وبين التحويم
في الجو . لستُ انا الذي يزدري النكتة الجناسية ويسفّهها ! أنا أُجلّها
على قدْر براعتها . إن كل ممعن في العظمة ، وكل ممعن في السمو ،
وكل ممعن في السحر ، سواء في الانسانية او خارج الانسانية ، قد
اصطنع التلاعب بالالفاظ . فقد اطلق المسيح نكتة جناسية حول القديس
بطرس . واطلق موسى نكتة جناسية حول اسحق . وكذلك فعل
أشيل ببولينيس ** وكليوباترة بأوكتافيوس . ولا تنسوا ان نكتة كليوباترة
هذه سبقت معركة آكتيوم *** ، وانه لولاها لما استطاع احد أن
يتذكر مدينة تورين ، وهو اسم يوناني يعني المغرفة . والآن وقد
حسمنا هذه المسألة ، استطيع ان اعود الى موعظتي . ايها الاخوة ،
إني اكرر : لا اندفاع ، لا ضجة ، لا إفراط ، حتى في النكت ،
والحبور ، والابتهاج ، والتلاعب بالالفاظ . اسمعوا لي . ليكن لكم
تبصّر آمفياراووس **** وجارة قيصر . ينبغي ان يكون ثمة حدّ
حتى للألغاز Est modus in rebus ***** ينبغي ان يكون ثمة حدّ حتى للموائد .
أنتنّ تحببن حلوى التفاح ، يا سيداتي ، فلا تفرطنَ في ذلك . ينبغي أن

---

* عقاب ضخم طويل الاجنحة شديد التحليق في الفضاء .

** polynice ابن اوديب ، وفي الميثولوجيا اليونانية انه تقاتل مع اخيه ايتيوكل Etéocle وان الموت نفسه عجز عن ان يطفيء البغضاء بين الاخوين العدوين فرئيت نيران الحطب تنفصل الى قسمين .

*** هي المعركة البحرية التي انتصر فيها اوكتافيوس وآغريبا على أنطونيوس وكليوباترة عام ٣١ ق . م .

**** Amphiaraüs عرّاف إغريقي شهير .

***** من كلام هوارس الشاعر اللاتيني ومعناه : يحسن الاعتدال في كل شيء .

يتحلى المرء ، حتى حين يأكل حلوى التفاح ، بالحصافة والمهارة . وان الشرَه يعاقب الشَّره . ولقد عهد الربّ الى سوء الهضم في توبيخ المعدة . واذكروا هذا : لكلٍّ من أهوائنا ، حتى الحب ، معدة ينبغي ان لا تُحمَّل فوق ما تطيق . وفي كل شيء ، ينبغي ان نكتب كلمة « **انتهى** » في الوقت المناسب . يجب ان نكبح جماح انفسنا حين يغدو الامر ملحّاً . يجب ان نوصد على شهوتنا بالمغاليق الحديدية ، وأن نزج اهواءنا في في السجن ، ونمضي الى محطة البريد . الرجل الحكيم هو ذلك الذي يعرف متى يقف وكيف يقف . ثقوا بي . واذا كنت قد درست القانون بعض الشيء ، كما تثبت امتحاناتي ؛ واذا كنت اعرف الفرق ما بين الدعوى المرفوعة الى المحكمة ، والدعوى التي لمّا تقطع المحكمة بأمرها ؛ واذا كنت قد وضعت اطروحة باللاتينية عن طرائق التعذيب في رومة يوم كان مونانيوس ديمز قاضياً ينظر في الدعاوى الخاصة بقاتلي آبائهم وأمهاتهم ، واذا كنت على وشك ان اصبح طبيباً في ما يبدو ، فلا يستفاد من ذلك ، بالضرورة ، أنني أبله . أنا أوصيكم بالاعتدال في رغباتكم جميعاً . أنا واثق بأني اقول قولاً حكيماً ثقي بأن اسمي فيلكس تولوميس . سعيدٌ هو ذلك الذي يتخذ ، عندما تأزف الساعة ، قراراً بطولياً ، ويستقبل مثل سيلاّ * أو أوريجين ! »

وأصغت فافوريت في انتباه عميق . وقالت :

— « فيلكس ! ما اجملها كلمة ! انا احب هذا الاسم . إنه لاتيني . إنه يفيد معنى الازدهار . »

وأضاف تولوميس :

— « ايها المواطنون ! أيها السادة ! ايها الاصدقاء ! اتريدون ان لا تشعروا بأي حافز ، وان تستغنوا عن المطبخ الزوجي ، وتتحدّوا

* ديكتاتور روماني (١٣٦ — ٧٨ ق . م) وقد استقال سنة ٧٩ ق . م .

الحب ؟ ليس ثمة ما هو أيسر من ذلك . واليكم الوصفة : شراب الليمون ، والافراط في الرياضة البدنية ، والعمل الشاق . ارهقوا انفسكم بالتعب ؛ إسحبوا الاثقال ؛ لا تناموا ؛ أطيلوا السهر ؛ اكرعوا الاشربة النطرونية وماء النيلوفر ؛ تمطّقوا بمستحلبات الخشخاش وكفّ مريم ؛ تبّلوا ذلك بغذاء خشن ؛ جوّعوا انفسكم ؛ وأضيفوا الى هذا الابترادَ بالماء ، وأحزمة الاعشاب ، واستخدام طبق رصاصيّ ، وضروب الغَسُول * مع سائل ملح الرصاص ، والكمادات مع مزيج من الخلّ والماء . »

فقال ليستوليه : « أنا أفضل امرأة على ذلك كله . »

فأضاف تولوميس : « المرأة ! إحترز من هذا . شقيّ هو ذلك الذي يُسلم نفسه الى قلب المرأة المتقلب ! المرأة خاتلة غادرة . إنها تكره الافعى بحكم التنافس في الصناعة . الافعى هي الدكان المقابل . »

وصاح بلاشوفيل : « تولوميس ! انت سكران ! »

فقال تولوميس : « وحق الشيطان ! »

فاضاف بلاشوفيل : « كن مبتهجاً اذن . »

فأجاب تولوميس : « موافق . »

ثم إنه أترع كأسه ونهض :

— « المجد للخمر ! ** *Nunc , te. Bacche. Canam* عفواً ، ايتها الآنسات ، هذا كلام اسباني . واليكنّ البرهان ، سينيورا : مثلُ هذا الشعب يحتاج الى مثل هذه الدنان . إن « آرّوب » قشتالة يحتوي ستة عشر ليتراً ؛ وقنطار « لقنت » اثني عشر ؛ و « آلمودا » جزر الكاناري خمسة وعشرين ؛ و « كوارتن » جزر الباليار ستة وعشرين ؛ و « جزمة » القيصر بطرس ثلاثين . فليحيَ هذا القيصر الذي كان عظيماً ، ولتحيَ جزمته التي كانت أعظم ! ايتها السيدات ، إني أُسدي اليكنّ نصيحة

* الغَسول : ما يُغسل به من الماء . وقد اعتمدناها لتؤدي معنى « لوسيون » Lotion في اللغات الاجنبية .

** « والآن سأغني لك ، يا باخوس ! » وهو كلام لاتيني وليس اسبانياً .

صديق : إخدعن جيرانكنّ اذا بـــدا ذلك حسناً في أعينكنّ . إن خاصة الحب الاولى هي انه يهيم على وجهه . فالحب لم يُجعل لكي يجلس القرفصاء ويصيبه الخبل مثل خادمة انكليزية يدّس الفرك العنيف ركبتيها. إن الحب اللطيف لم يُجعل لهذا ؛ إنه يهيم على وجهه مبتهجاً . لقد قيل : إن الهيام على الوجه ظاهرة إنسانية . أما انا فأقـــول : الهيام على الوجه ظاهرة عشقية . ايتها السيدات ، انا أعبدكنّ جميعاً . اوه زيفين ، اوه جوزيفين ، يا ذات الوجه الاكثر من متجعد ، لقد كنتِ جديرة ان تكوني فاتنة لو لم تكوني عبوساً . ان وجهك اشبه ما يكون بوجه جميل جلس عليه بعضهم خطأً . اما فافوريت ، إيه حوريات المـــاء وعرائس الشعر ! ففي ذات يوم كان بلاشوفيل يعبر مجرى شارع غورين بواسّو فرأى فتاة حسناء ترتدي جوربين بيضاوين مشدودين شداً محكماً، وكانت تلك الفتاة تكشف عن ساقها . وأعجب بلاشوفيل بهذا الاستهلال ، فوقـــع في الحب . وكانت تلك التي أحبها هي فافوريت . اوه ، فافوريت ! إن لك شفتين يونانيتين . لقـــد كان في غابر الزمن رسام اغريقيّ ، اسمه أوفوريون ؛ وكانوا يلقبونـــه برسام الشفاه . إن هذا الاغريقي وحده ليستحق ان يصور فمك . اسمعي ! قبلك لم يكن ثمة مخلوقة جديرة بهذا الاسم . لقد جُعلتِ لكي تتلقّي التفاحة مثل فينوس ، او لكي تأكليها مثل حواء . إن الجمال يبتديء بك . لقد تحدثتُ عن حواء ؛ إنكِ أنتِ التي خلقتِها . انت تستحقين ان تُمنحي شهادة اختراع المرأة الجميلة . أوه ، فافوريت ، إني انتقل من مخاطبتك بضمير المفرد الى مخاطبتك بضمير الجمع لأني أنتقل من النثر الى الشعر . لقد تحدثتِ منذ لحظة عن اسمي . لقد أثّر ذلك فيّ . ولكن يتعيّن علينا ، كائناً من كنا ، ان نحذَر الاسماء . إنها قد تكون خادعـــة . أنا أدعى فيلكس * ، ولست بالرجل السعيد . إن الكلمات لتكذب : فليس ينبغي ان

* تفيد لفظة félix في اللاتينية معنى السعادة واليمن .

نقبل دلالاتها قبولاً أعمى . وانه لمـــن الخطل ان نكتب الى ليبج * التماساً للفلين والى « بو » * الـــتماساً للقفازات . ويا آنـسة داهليا ، لو كنت مكانك لسميت نفسي روزا ** يجب ان يكون للزهرة شذى ، وان يكون للمرأة ذكاء . انا لا اقول شيئاً عن فانتين . إنها متخيّلة ، حالمة ، متفكرة ، حساسة . إنها طيفٌ له شكـل حورية من حوريات الماء ، وحياء راهبة تاهت فاتخذت سبيل عاملة مغناج ، ولكنها تفـزع الى الاوهام ، وتغني ، وتصلي ، وتحدّق الى السماء من غير ان تعرف في وضوح ما الذي تراه وما الذي تعمله ، وتتيه — وعيناها مسمرتان الى السماء — في حديقة تنتظم من الطير أكثر مما يوجد هناك . أوه ، فانتين ، اعرفي هذا : أنا ، تولوميس ، وهمٌ — ولكنها لا تسمعني مجرد سماع ، هي ابنةَ الاوهام الشقراء . ومع ذلك ، فكل ما فيها نضارة ، وحلاوة ، وشباب ، وضياء صباحيّ ناعم . أوه ، فانتين ، انت خليقة بأن تسمّي « مرغريت » *** أو « لؤلؤة » . انت امرأة ذات لمعان ليس أجمل منه . ايتها السيدات ، اليكنّ نصيحة ثانية : لا تتزوّجنَ ابداً . الزواج طُعم كالذي تطعّم به الاشجار . وقد ينجح هذا الطعم وقد يخفق ، فاجتنبن هذه المغامرة . ولكن ماذا أقول ؟ أنا أضيع كلماتي سدى . إذ لا شفاء للنساء من داء الزواج . وكل ما نستطيع نحن الرجال الحكماء قوله لن يحول بين صانعات الصُدْرات ورابطات ساقيّات الاحذية وبين ان يحلمن في ازواج مثقلين بالماس . حسن ، ليكن ذلك . ولكن ، ايتها الحسان ، اذكرن هذا : انكن تسرفن في أكل السكّر . إن لكنّ خطيئةً واحدة ، ايتها النساء ، ليس غير ، هي قضْم السكّر . أوه ، ايهـــا الجنس

---

* « ليبج » و « بو » مدينتان ، الاولى بلجيكية والثانية فرنسية .

** اي وردة . و « داهليا » في الاصل اسم زهرة نجمية الشكل ، جميلة ولكنها غير ذات عبير .

*** الزهرة المعروفة بهذا الاسم . وتدعى ايضاً زهرة اللؤلؤ وزهرة الربيع .

القاضم ، إن اسنانكن الصغيرة البيضاء مدلّهة بالسكّر . والآن ، انتبهن جيداً ! السكّر ملح . وكل ملح يجفّف . والسكر اكثر الاملاح تجفيفاً . إنه يمتص سوائل الدم من طريق الأوردة ، ومن هنا ينشأ تخثر الدم ، ثم تصلّبه . ومن بعد ذلك يكون السلّ الرئوي ، فالموت . وهذا هو السبب الذي من اجله يتاخم الداءُ السكريّ داء السلّ . فلا تقضمن شيئاً من السكّر ، اذن ، وعندئذ تعشن ! ولالتفت الآن الى الرجال . ايها السادة ، عليكم بالفتوح . لينهب بعضكم محبوبات بعضكم الآخر من غير ان تستشعروا وخز الضمير ! اقتنصوا وتقاتلوا ! فليس في الحب اصدقاء . وحيثما توجد امرأة جميلة ينفتح باب الخصومة على مصراعيه . لا رأفة ولا استبقاء ، ولكنْ قتالٌ حتى الموت ! المرأة الجميلة هي *Casus Belli* * المرأة الجميلة هي جرم مشهود . إن جميع غزوات التاريخ إنما قرّرتها تنانير النساء . المرأة هي حقّ الرجل . فقد سبا رومولوس ** نساء سابين *** وسبا وليم **** نساء السكسون ، وسبا قيصر نساء الرومان . إن الرجل غير المحبوب يحوّم كالعُقاب فوق معشوقات الآخرين . أما أنا ، فأقدّم الى جميع الارامل البائسات الاعلان السامي الذي قدمه نابوليون الى جيش ايطالية : « ايها الجند ، إنكم في حاجة الى كل شيء . وان العدوّ ليملك كل شيء . »

وكبح تولوميس جماح نفسه .

وقال بلاشوفيل : « خذ نَفَساً ، يا تولوميس . »

وفي الوقت نفسه همهم بلاشوفيل ، يساعده ليستوليه وفامول ، في صوت نادب ، باحدى اغنيات العمال المؤلفة من أُولى الكلمات التي ترد على الخاطر ، الغنية بالقوافي والمحرومة منها في وقت معاً ، المجرّدة من

* تعبير لاتيني يعني : حالة حرب .

** Romulus ، مؤسس رومة الاسطوري واول ملوكها (٧٥٣ – ٧١٥ ق.م)

*** Sabine من ممالك ايطالية الوسطى في العصور القديمة .

**** وليم الفاتح الذي استولى على انكلترة عام ١٠٦٦ (١٠٢٧ – ١٠٨٧)

المعنى مثل حركة الشجر وعزف الرياح ، والمولودة من بخار الانابيب ، المتبدّدة معه المولية في إثره . وهذا هو المقطع الذي اجابت به الزمرة على خطاب تولوميس .

« لقد دفع الآباء المغفلون
مالاً الى احد الوكلاء ،
لكي يتمكن مسيو كليرمون تونير ،
من ان يصبح بابا في « سان جان » .
ولكن كليرمون لم يكن قادراً على ان يصبح بابا .
لانه لم يكن كاهناً :
وعندئذ تميز وكيلهم من الغيظ ،
واعاد اليهم مالهم . »

وما كان ذلك ليهدئ من وحي تولوميس . لقد افرغ كأسه ، ثم أترعها ، واستأنف الكلام :

ــ « فلتسقط الحكمة ! أنسوا كل ما قلته . ينبغي ان لا نكون مفرطين في التعفف ، ولا متبصرين ، ولا حكماء صالحين . انا اشرب نخب الجذل . لنكن جذلين . لنختم دراستنا للقانون بالحماقة والغذاء . سوء الهضم ومجموع الفتاوى . * ليكن جوستنيان هو الذكَر والشراهة هي الانثى . إن في الاعماق لبهجة . عيشي ايتها الخليقة ! ان العالم ماسة ضخمة . انا سعيد . ان الطيور مدهشة ! أيّ عيد هـذا الذي يعمّ الكون ! إن العندليب هو « ايليفيو » ** مجاني . ايها الصيف ، اني احييك . ايه يا حديقة اللوكسمبورغ ، ايه يا قصائد « رو مـدام » وزقاق الاوبسرفاتوار ! ايه ايها الحالمون الذاهلون ! ايه يا جميع أولئك

* Digeste وهي مجموعة الفتاوى التي وضعها اشهر رجال القانون الرومان بامر من الامبراطور جوستنيان . وبين سوء الهضم indigestion ولفظة Digeste تلاعب لفظي واضح .

** Francois Elleviou مغنّ فرنسي مشهور . (١٧٦٩ — ١٨٤٢)

الخادمات الفاتنات اللواتي يتسلّين برسم الاطفال فيما هنّ يقمن بخدمتهم !
لقد كانت سهول اميركة الجنوبية الواسعة المغطاة بالعشب خليقة بأن
تبهجني لو لم تكن عندي قناطر الاوديون * إن روحي لتنطلق نحو
الغابات العذراء ونحو السهوب . كل شيء جميل . ان الذباب ليدندن
في أشعة الشمس . وان الشمس لتدعو صغار الطير الجوائم الى العطاس .
قبّليني ، يا فانتين ! »
وضلّ ، وعانق فافوريت .

٨

موت فرس

وصاحت زيفين :
– « الغداء في حانة إيدون خيرٌ من الغداء في حانة بومباردا . »
فقال بلاشوفيل : « انا افضل بومباردا على إيدون . إنه اكثر ترفاً .
إنه أشد آسيوية . انظري الى القاعة السفلى . هناك مرايا *glaces* على
الجدران . »
فقالت فافوريت : « انا أفضل ان اجد المرطبات *glaces* في صحني . »
وأصرّ بلاشوفيل :
– « انظري الى السكاكين . إن مقابضها فضية عند بومباردا ،
وعظمية عند إيدون . والفضة طبعاً أثمن من العظم . »
فلاحظ تولوميس قائلاً :

* اثر اغريقي قديم اطلق اسمه على « المسرح الفرنسي الثاني » الذي اسس عام ١٧٩٧ ، والذي ألحق عام ١٩٤٦ بـ « الكوميدي فرضيه » تحت اسم « صالة اللوكسمبورغ » .

— « إلا عند اصحاب الذقون الفضية . »

وفي هذه اللحظة القى نظرة على قبة الانفاليد ، وكانت تبدو لعيني الناظر من نوافذ حانة بومباردا .

وران الصمت .

ثم صاح فامول :

— « تولوميس ، لقد جرى اللحظة نقاشٌ بيني وبين ليستوليه . »

فاجاب تولوميس : « النقاش حسن . ولكن النزاع أحسن . »

— « كنا نتناقش في الفلسفة . »

— « ليس عندي اعتراض . »

— « من تفضّل : ديكارت أم سبينوزا ؟ »

فقال تولوميس :

— « انا افضل ديزوجييه * . »

حتى اذا اطلق هذا القرار ، احتسى قليلاً من الخمر واضاف :

— « انا أرتضي ان اعيش . ليس كل شيء بمنتهٍ على الارض ما دام لا يزال في امكاننا ان نهذي . وانا اعزو الفضل في هذا الى الالهة الخالدة . نحن نكذب ، ولكننا نضحك . نحن نؤكد ، ولكننا نشك . ان غير المتوقع لينفجر من قياس منطقي . هذا شيء جميل . ولا يزال ثمة على الارض ناس يعرفون كيف يفتحون ويغلقون ، في ابتهاج ، صندوق المفاجآت المنطوي على ما يناقض الآراء السائدة . إلا فاعلمن ، ايتها السيدات ، ان هذه الخمرة التي تشربنها في كثير من الهدوء هي خمر ماديرا المعتصرة من كروم « كورال داس فريراس » التي تعلو ثلاثمئة وسبع عشرة قامة فوق سطح البحر . إنتبهن وانتنّ تشربن ! ثلاثمئة وسبع عشرة قامة ! ومسيو بومباردا ، هذا المطعميّ الرائع ، يقدّم اليكنّ هذه الثلاثمئة والسبع عشرة قامة لقاء أربعة

* Désaugiers مغنٍّ وممثل فرنسي (١٧٧٢ – ١٨٢٧)

فرنكات وخمسين سنتيماً . »

وقاطعه فامول كرة اخرى :

– « تولوميس ، إن آراءك فانون . من هو الكاتب المفضل عندك ؟ »

– « بير ... »

– « ... كين ؟ » *

وتابع تولوميس :

– « المجد لبومباردا ! إنه جدير بأن يكون صنواً لـ « مونوفيس ديليفانتا » اذا استطاع أن يأتيني بعـــالمة ** وصنواً لـ « تيجيليون دو شيرونيه » اذا استطاع ان يأتيني بأحدى بنات الهوى ! لانه كان ثمـة – اوه ، ايتها السيدات – بومباردات في اليونان ومصر . ذلك مـا يخبرنا به « آبوليه » *** وأسفاه ! الشيء نفسه دائماً ، ولا جديد البتة . لم يبق شيء غير منشور في خليقة الخـالق ! **** *Nil sub sole novum* كذلك يقول سليمان الحكيم . ***** *Amor omnibus idem* كذلك يقول فيرجيل . وتركب كارابين مع كارابان في الزورق في سان كلو كما ركبت آسباسيا ****** مع بريكليس ******* مثن اسطول ساموس . كلمة اخيرة . هل تعرفن ، ايتها السيدات ، من كانت آسباسيا هذه ؟ على

* المقصود « بيركين » Berquin الكاتب الفرنسي (١٧٤٧ – ١٧٩١) صاحب كتاب « صديق الاطفال » .

** هكذا في الاصل almée وهي كلمة عربية مصرية تعني الراقصة المغنية .

*** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني .

**** في اللاتينية ومعناها : لا جديد تحت الشمس .

***** في اللاتينية : الحب واحد عند الجميع .

****** Aspasie بغيّ اغريقية اشتهرت بجمالها وذكائها ، وقد اصبحت في ما بعد زوجة بريكليس ، وكان منزلها موئلاً لاعظم الفلاسفة والفنانين والكتاب وبخاصة سقراط .

******* Périclès رجل الدولة الاغريقي الكبير ، وكانت له يد بيضاء على الحياة الادبية والفنيـــة في اثينا . وقد جرد حملة بحرية على ساموس ، احـــدى جزر الارخبيل اليونانية .

الرغم من انها عاشت في عصر كانت المرأة لا تزال فيه غير ذات روح ، فقد كانت روحاً ، روحاً ذات ظلّ ورديّ وارجواني ، اشدّ توهجاً من النار ، وأنضر من الفجر . كانت آمباسيا مخلوقة مست طرفي المرأة الاكثر تطرفاً ، كانت البغيّ الالاهة . كانت سقراط ، مضافاً اليه مانون ليسكو . * لقد خُلقت آمباسيا للظرف الذي قد يحتاج فيه بروميثيوس ** الى زانية . »

ولم يكن من اليسير ان يُكبح جماح تولوميس ، بعد ان انطلق ، لو لم يسقط جواد ، في هذه اللحظة ذاتها ، على رصيف الشاطيء . لقد اوقفت الصدمة كلاً من العربة والخطيب . كانت فرساً من افراس مقاطعة بوس ، عجوزاً مهزولة جديرة بالقصّاب ، تسحب عربة ذات ثقل ثقيل . حتى اذا انتهت الدابة الى حانة بومباردا ، وقد هدّها الاعياء ، أبت ان تتقدم خطوة واحدة . وادى هذا الحادث الى تجمهر القوم . ولم يكد سائق العربة ، المجدّف المغتاظ ، يجد الوقت الذي يمكنه من ان يلفظ ، في عزم ملائم ، تلك الكلمة الحاسمة : « كلب ! » مردفاً اياها بضربة سوط رهيبة ، حتى خرّت الفرس الحقيرة على الارض لكي لا تنهض بعد ذلك ابداً . وعلى جلبة عابري السبيل أدار رفاق تولوميس ، المستمعون الى خطابه ، رؤوسهم ، واغتنم تولوميس هذه الفرصة فختم الخطاب بهذا المقطع الكئيب :

« كانت من ذلك العالم حيث تنتهي طيور الوقواق
والعربات الفاخرة الى المصير نفسه .

---

* Manon Lescaut هي بطلة الرواية التي تحمل اسمها وقد عاشت عيش البغايا المغامرات . والرواية من تأليف الراهب بريفوست (١٦٩٧ – ١٧٦٣)

** الـه النار ، وهو يبدو في الاساطير الكلاسيكية وكأنه مبدع اول حضارة انسانية . فبعد أن شكل الانسان من الوحل الراسب في قعر المياه الراكدة سرق النار من السماء لكي يبعث الحياة في انسانه ذاك ، فانتقم منه جوبيتير ، الخ ...

والفرس الضعيفة ، لقد عاشت على قدر ما تعيش المنادل ، فترة صباح ! »

وتنهدت فانتين : « يا لها من فرس مسكينة ! »

وصاحت داهليا :

— « هي ذي فانتين ترثي للخيل ! هل عرفتم قبل اليوم شيئاً اكثر حماقة من هذا ؟ »

وفي هذه اللحظة صالبت فافوريت ذراعيها ، وادارت رأسها الى الوراء ، وحدّقت الى تولوميس قائلة :

— « آه ! والمفاجأة ؟ »

فأجابها تولوميس :

— « تماماً . لقد أزفت اللحظة . ايها السادة ، لقد آن لنا ان نقدم المفاجأة الى هاته السيدات . ايتها السيدات ، انتظرننا لحظة . »

فقال بلاشوفيل : « إنها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس :

— « على الجبين . »

وفي رصانة ، طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبته ، ومن ثم تقدم الشباب الاربعة نحو الباب ، واحداً إثر واحد ، وقد وضع كل منهم إصبعه على فمه .

وصفقت فافوريت فيما كانوا يخرجون .

وقالت : « إنها ممتعة منذ الآن . »

وتمتمت فانتين :

— « لا تتأخروا اكثر مما ينبغي ! نحن في انتظاركم ! »

٩
نهاية الابتهاج البهيجة

واسندت الفتيات مرافقهن ، اثنتين اثنتين ، — وقد غودرن وحدهن — على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثرن ، حانياتٍ رؤوسهن ، ويتكلمن من نافذة الى اخرى .

لقد رأين الشبان يغادرون حانة بومباردا متشـــابكي الاذرع ، ثم يلتفتون الى وراء ويومئون اليهنّ ضاحكين ، ليختفوا بعد ذلك وسط حشود يوم الأحد المغبرّة التي تغزو الـ « شان زيلـــيزيه » مرة كل اسبوع .

وصاحت فانتين :

— « لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « ايّ شيء سيحملونه الينا ؟ »

فقالت داهليا : « سيكون شيئاً جميلاً من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول :

— « ارجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطئ الماء — تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي ألهتهنّ إلهاء شـــديداً . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات المسافرين . ولقد مرّت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب — مرّت كلها تقريباً ، آنذاك ، بـ « الشان زيليزيه » . واتخـــذ القسم الاعظم منها سبيـل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » . ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوّهـــة

بصناديق الامتعة ، والاغطية الجلدية ، والحقائب ، الملأى بالرؤوس التي كانت تختفي على نحو موصول ، المفتّتة الجزءَ المقوّس من الطريق ، المحوّلة حصباء الشارع الى زناد للقدح - في كل دقيقة كانت احدى هذه العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حلّ الغبار محلّ الدخان ، وبدت عليها سيا الحدة والغضب . وسرت الفتيات بهذه الجلبة . وصاحت فافوريت :

- « يا لها من ضوضاء ! يخيّل الى المرء ان اكواماً من السلاسل تولي فراراً . »

وشاءت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان في ميـورهن رؤيتها في عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة على جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين .

وقـالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف أبداً . »

وهزّت فافوريت كتفيها :

- « ان فانتين هذه تثير الدهش ؛ أنا انظر اليها في فضول . إنها تعجب لابسط الاشياء . لنفرض اني مسافرة من المسافرات ؛ عنـدئذ أقول للعربة العمومية : انا راحلة ؛ في استطاعتك أن تحمليني في طريقك من على رصيف الشاطيء . وتمر العربة ، وتراني ، وتقف ، وتقلّـني على متنها ، هذا يقع كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة ، يا عزيزتي . »

وتقضّى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجـأة أجفلت فافوريت إجفال نائم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن ... اين المفاجأة ؟ »

فقالت داهليا :

- « اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين :

— « لقد تأخروا كثيراً جداً ! »

ولم تكد فانتين تتمّ تنهدتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة . كان يحمل في يده شيئاً بدا وكأنه رسالة .

وتساءلت فافوريت :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »

— « ولماذا لم تحملها الينا في الحال ؟ »

فأجاب الغلام :

— « لأن اولئك السادة امروني ان لا اقدمها الى هؤلاء السيدات الا بعد ساعة من تسلّمي اياها . »

وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقاً .

وقال : « عجيب ! ليس ثمة عنوان . ولكن انظرن ما كُتب فيها :

هذه هي المفاجأة

وفي مثل لمح البصر ، فضّت الرسالة ، وفتحتها وقرأت (كانت تعرف القراءة) :

« أوه ، يا احبّتنا !

« إعلمن ان لنا أهلاً . أجل أهلاً . إنكنّ لا تكدن تعرفن معنى هذه الكلمة . إنهم اولئك الذين ندعوهم في القانون المدني آباء وامهات . إنهم بسطاء ولكنهم فاضلون . إنهم يحنّون الينا . ان هؤلاء العجائز يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطيبات يدعوننا « الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا ، ويعدون بأن يذبحوا العجول لنا . ولما كنا متعلقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم . وهكذا ستنطلق

حالما تقرأن هذه الورقة ، خمسة جياد قوية عائدة بنا الى آبائنا وامهاتنا . نحن ننصب خيامنا ، كما يقول بوسوويه . إننا ذاهبون ؛ لقد ذهبنا . نحن نطير بين ذراعي لافيت ، وعلى جناحي كايّار . ان عربة تولوز العمومية تنتشلنا من الهوّة ، وما هذه الهوة الا انتنّ ، يا صغيراتنا الجميلات ! نحن عائدون الى المجتمع ، الى الواجب والنظام ، في سرعة عظيمة بمعدّل ثلاثة فراسخ في الساعة . إنه لمما يهمّ الوطن ان نصبح مثل سائر الناس ولاةً ، وارباب أسر ، ونواطير ، ومستشاري دولة . إحترِمْننا ووقّرْننا ! نحن نضحي بانفسنا . إنتحبن علينا في الحال ، وسارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه الرسالة افئدتكن ، فمزّقنها بدوركنّ . وداعاً .

« لقد أدخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريباً . فلا تحقدن علينا من اجل هذا .

« التواقيع : بلاشوفيل .

« فامول .

« ليستولييه .

« فيلكس تولومييس .

« حاشية : — نفقات الغداء قد دُفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربع النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « إنها مهزلة حلوة حقاً . »

وقالت زيفين :

— « إنها مضحكة جداً . »

واردفت فافوريت :

— « لا شك في ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني أحبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقالت داهليا :

– « لا . إنها فكرة تولوميس . هذا شيء واضح . »

فعادت فافوريت الى القول :

– « اذا كان ذلك ، فليسقط بلاشوفيل ، وليحي تولوميس ! »

وهتفت داهليا وزيفين :

– « فليحي تولوميس ! »

وانفجرن ضاحكات .

وضحكت فانتين مثل غيرها .

وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، سفحت الدمع . كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبّها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى تولوميس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أمّ ولد .

الكتاب الرابع

الإبداعُ يعني التخلّي أحيانا

١
أمّ تلتقي اماً

كان في الربع الاول من هذا القرن ، في مونفيرماي قرب باريس شبه مطعم حقير لم يعد قائماً اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى تيناردييه ، وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجيه . وفوق الباب كان المرء يرى لوحة مسمّرة على الجدار تماماً . وكان مرسوماً على هذه اللوحة شيء يشبه رجلاً على ظهره رجلٌ آخر يحمل كتافتين * ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملها الجنرالات ، وقد زانتهما

* الكتافة لفظة اصطنعناها لتقابل كلمة épaulette وهي ما يضعه الجندي من زينة عسكرية على كتفيه .

نجوم كبيرة مفضضة . وكانت ثمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخاناً ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كان مكتوباً : **رقيب * واترلو .**

وليس شيء اكثر شيوعاً من عربة او عجلة ذات دولابين أمام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعترضت الشارع امام مطعم « رقيب واترلو » ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨ ، كانت خليقة من غير شك بأن تلفت بضخامتها انتباه أيما رسام يمرّ بها .

كانت عربةّ أمامية من تلك العربات الضخام ، التي تُصطنع في الديار المحاطة بالغابات لنقل ألواح الخشب الغليظة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخم ذي قطب يُشدّ اليه جَرّ ثقيل ، وتنهض على عجلتين هائلتين . وعلى الجملة ، فقد كانت ضخمة قصيرة ، ساحقة ، مشوّهة : لقد كان من الجائز ان يحسبها الرائي عربة مدفع عملاقة .

كانت الطرق قد غطّت العجلتين وإطاريها ، ومركزيها ، والمحور ، والجرّ بطبقة من الطين قبيحة ضاربة الى الصفرة شبيه لونُها بذلك الذي نرغب في ان نزين به جدران الكاتدرائيات . لقد اختفى الخشب تحت الطين ، واختفى الحديد تحت الصدأ .

وتحت المحور كانت تتدلى سلسلة ضخمة تلائم جباراً من جبابرة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما كانت هذه السلسلة لتعيد الى الذاكرة العوارض الخشبية الضخمة التي كانت تحملها ، ولكنْ صُوَرَ الحيوانات المنقرضة من ماستودون وماموث ** التي كان خليقاً بها أن تَقْرِنها . كانت لا تذكّر المرء

---

* الرقيب رتبة عسكرية تقابل « سرجان » sergent

** الماموث mammoth ضرب من فيلة الاعصر الجيولوجية المنقرضة .

بسجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الخاصة بالبشر ، ولكن بسجون الاشغال الشاقة الخاصة بجماعة السيكلوب * ومن هم فوق البشر . ولقد بدت وكأنها قد نُزعت عن مارد من المردة . كان هوميروس خليقاً بأن يوثق بها بوليفيموس ** ، وكان شيكسبير خليقاً بأن يوثق بها كاليبان ***

لمَ كانت هذه العربة الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولاً ، لكي تعترض السبيل ، وثانياً لكي تستكمل صدأها . إن في النظام الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي نجدها هكذا معترضةً سبيلنا ، والتي ليس لوجودها أي مبرر آخر .

كان وسط السلسلة يتدلى فُوَيق الارض ، تحت المحور . وعلى منحناها ، جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتاتان صغيرتان ، وكأنهما فوق حبل ارجوحة من الاراجيح . كانت صغراهما تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً ، وكانت كبراهما تبلغ من العمر سنتين ونصف سنة تقريباً . وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كان منديل بارع العَقْد يقيهما من السقوط . ولقد رأت احدى الامهات هذه السلسلة المروّعة ، ذات يوم ، فقالت : « آه ، هي ذي لعبة لأولادي ! »

كانت الطفلتان مزينتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق مُشرقتي الوجه ، فكأنهما وردتان غُرستا في الحديد الصدىء . كانت أعينهما تومض إيماضة الظفَر ، وكانت وجناتهما النضرة تضحك . كانت احداهما

* Cyclope في الاساطير اليونانية عملاق ذو عين واحدة في وسط الجبين . وعمالقة السيكلوب هؤلاء كانت مهمتهم ان يطرّقوا الصواعق لجوبيتير ويساعدوا فولكان ، اله النار والمعادن ، في اعماله .

** Polyphème هو اشهر عمالقة السيكلوب ، وابن نبتون . وقد اقتلع اوليس بطل اوذيسة هوميروس عينه الوحيدة ، وحبسه في كهفه مع سائر رفاقه .

*** Caliban من شخصيات شيكسبير في روايته « العاصفة » . وهو يمثل القوة البهيمية الجبارة التي تُكره على الخضوع لقوة عليا ، ولكنها تحاول دائماً الثورة عليها .

كستنائية اللون ، وكانت الاخرى حمراء . وكان وجهاهما الساذجان عجيبين فاتنين . وكان العبير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنوّرة غير بعيد منها يبدو وكأنه انفاسها . وكانت الصغرى تكشف عن جسدها اللدن بقلّة الاحتشام العفيفة التي تميز الطفولة . وفوق هذين الرأسين الناعمين وحولهما – هذين الرأسين المفرغين في السعادة ، المستحمين بالضياء – تقوّست العربة الهائلة – سوداء بالصدأ ، مروّعة ، او تكاد ، بانحناءاتها المتشابكة وزواياها الوعرة – وكأنها فم مغارة من المغاور .

وكانت أمهما – وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثّرة في هذه اللحظة – جالسة على عتبة الفندق ، تؤرجح الطفلتين بحبل طويل ، حاضنة اياهما بعينيها خشية ان يصيبهما حادث ما ، وقد طفت على محياها تلك الانطباعة الحيوانية السماوية التي تميز الامومة . ومع كل اندفاعة من اندفاعات السلسلة الى امام والى وراء كانت الحلقات البشعة تطلق ضجة صارّة أشبه ما يكون بصيحة غضب . كانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ؛ ولم يكن ثمة شيء اكثر فتنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل العمالقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفيما الأم تهز الطفلتين غنّت في صوت ناشز أغنية كانت شعبية آنذاك :

« يجب ، يجب ، قال احد المحاربين ، »

ومنعها غناؤها ومراقبتها طفلتيها من ان تسمع وترى ما كان جارياً في الشارع .

كان شخص ما يقترب منها ، على اية حال ، فيما هي تستهل المقطع الاول من الاغنية . وفجأةً سمعت صوتاً ، قريباً جداً من اذنها ، يقول :

– « إن لكِ هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

بهذا اجابت الأم ، منمّمة اغنيتها . ثم ادارت رأسها .

كانت امرأة واقفةً على بضع خطىً منها . وكان لها هي ايضاً طفلة تحملها بين ذراعيها .

وكانت تحمل ايضاً ُخرجاً ضخماً من اخراج السفر ، بدا ثقيلاً جداً .

وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاءً وألوهية . كانت فتاة يراوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلتين الصغيرتين الاخريين في مسابقة في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على كتفيها عصائب ، وعلى قبعتها وشيٌ . كانت ثنيّات تنورتها مرفوعة الى درجة تكشف عن ساقها البيضاء البدينة المكتنزة . كانت وردية ناضحة بالصحة الى حد فاتن . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تغري المرء بأن يعض تفاح خديها . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً عن عينيها إلا أنهما كانتا من غير ريب متسعتين جداً ، محوطتين باجفان باهرة . كانت نائمة .

لقد استغرقت في ذلك الرقاد الموغل في الطمأنينة ، الذي لا يعرفه غير الاطفال . إن اذرع الامهات مصوغة من حنان . وإن الاطفال لينامون عليها نوماً عميقاً .

أما الأم فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تطفو عليها انطباعةُ عاملةٍ من العاملات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود – وجميلة ؟ جائز . ولكن الجمال لا يمكن ان يتبدّى في تلك الكسوة . وكان شعرها ، الذي تدلّت منه خصلة شقراء ، يبدو أثيثاً جداً ، ولكنه كان محجوباً في قسوة تحت قلنسوة من قلانس الراهبات بشعة ، محكمة الربط ، ضيقة ، معقودة تحت ذقنها . ومن شأن الضحك ان يكشف عن الاسنان الجميلة حين يكون للمرء اسنان جميلة ، ولكنها لم

تضحك . ولقد بدت عيناها وكأنها سلختا دهراً طويلاً تسفحان العبرات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سيما الاعياء الشديد ، والمرض الطفيف . لقد نظرت الى طفلتها الراقدة بين ذراعيها تلك النظرة التي لا تتمّ الا لأمّ تُرضع فلذة كبدها . وكان منديل عريض أزرق كمناديل العجزة مطويّ عبر صدرها ، يقنّع شكلها على نحو تعوزه البراعة . وكانت يداها مسفوعتين ، منقطتين بالنمش ؛ وكانت سبابتها متصلبة متمزقة من اثر الابرة . كانت ترتدي رداء فضفاضاً بنياً من صوف غليظ ، وفستاناً من خام ، وتنتعل حذاء ضخماً ثقيلاً . كانت فانتين .

أجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك فما ان يمعن النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجمالها . كان خطٌّ كئيب كذلك الذي يتشكل عند مطلع التهكم ، يطبع خدها الايمن . اما زينتها — تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصليّ ومن عصائب ، والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحماقة ، والموسيقى ؛ والتي حفلت بالبهارج ، وتعطرت بالزنابق — فكانت قد ذابت كما يذوب الجليد المتألق الجميل الذي نحسبه تحت اشعة الشمس ماساً متوهجاً . لقد ذابت ، مخلّفة الغصن اسود موحشاً .

كانت عشرة أشهر قد تقضّت على « المهزلة الحلوة » .

ايّ شيء جرى خلال هذه الاشهر العشرة ؟ في استطاعتنا ان نحزر .

فبعد التهوُّر يأتي البلاء . فما هي إلا فترة حتى غابت فافوريت ، وزيفين ، وداهليا عن ناظريْ فانتين . ذلك بأن الصلة التي قُطعت من جانب الرجال ما لبثت أن حُلّت من جانب النساء ، فهن خليقات بأن يدهشن اذا ما زعمت إحداهنّ ، بعد اسبوعين اثنين ، انهنّ كنّ صديقات . لم يكن ثمة سبب يدعوهن الى الابقاء على تلك الصداقة .

وغودرت فانتين وحدها . وإذ مضى والد طفلتها لسبيـــله — وأسفاه ! فأمثال هذه الهجرة تكون دائماً الى غير رجعة — ألفت نفسها في عزلة مطلقة ، وقد تضاءلت عندها عادة العمل ، وتعاظمت عندها الرغبـة في الملذات . كانت صلتها بتولوميس قد قادتها الى ان تزدري المهنـــة الصغيرة التي عرفتها ، فاذا هي تشيح بوجهها من المنافذ التي عرضت لها ، واذا بهذه المنافذ توصد آخر الامر في وجهها . وغدت ولا مورد لها . كانت فانتين لا تكاد تفك الحرف ، ولم تكن تعرف الكتابة . لقـد علّموها في طفولتها كيف توقّع اسمها ليس غير . وعهدت الى احـــد كتاب الرسائل العموميين في ان يسطر لهـا رسالة الى تولوميس . ثم عهدت اليه في ذلك ثانية وثالثة . ولكن تولوميس لم يجب على ايّ من تلك الرسائل . وذات يوم ، سمعت فانتين بعض النـوة الثرثارات يقلن ناظرات الى ابنتها : « وهل ينظر الناس الى هؤلاء الأطفال نظرة جدية ؟ إنهم يهزون اكتافهم حين يرون امثال هؤلاء الاطفال ! » وعندئـــذ فكرت في تولوميس الذي هزّ كتفيه لولده ، والذي لم يأخـــذ هذه المخلوقة البريئة أخذاً جدياً . وغدا فؤادها مظلمـاً في الموطن الذي كان موطنه . ما الذي يتعين عليها ان تفعله ؟ لم يكن ثمة من تستشيره . لقد ارتكبت خطيئة ، ولكن طبيعتها كانت ، في اعماقها ، كما عرفنا ، عنوان الحياء والفضيلة . وراودها شعور غامض بانها على وشك التردّي في الشقاء والانزلاق الى الشارع . ينبغي ان تكون لديها الشجاعة الكافيـــة . ولم تعوزها الشجاعة . وتحملت مصيبتها في صبر . وخطر لها ان ترجع الى موطن رأسها ، قرية مونتروي سور مير ، فقد تجد هناك من يعرفها ، ويعطيها عملاً . اجل ، ولكنّ عليها ان تخفي خطيئتها . وتراءى لهـــا على نحو غامض شبح فراقٍ اشدّ ايلاماً من الفراق الاول . وانقبض صدرها ، ولكنها وطّنت النفس على ذلك . لقد كانت فانتـين تملك ، كما سوف نرى ، شجاعةَ الحياة الضاريةَ .

وكانت قد تخلّت ، في بسالة ، عن تبرّجها ، وارتدت الملابس المصنوعة من الخام ، وحوّلت اثوابها الحريرية كلها ، وخِرَقها كلها ، وعصائبها كلها ، ووشيها كله الى ابنتها – زهوها الأوحد الذي بقي لها، وإنه لزهوٌ إلهي . وباعت كل ما تملك ، فعاد عليها بمئتي فرنك . حتى اذا وفت ديونها الصغيرة لم يبق معها غير ثمانين فرنكاً تقريباً . وذات صباح جميل من ايام الربيع ، وفي سنها الثانية والعشرين ، غادرت باريس حاملة طفلتها على ظهرها . وخليق بكل من رأى اليهما تجوزان الشوارع ان يأخذه الاشفاق عليهما . فهذه المرأة لم يكن لها في العالم غير هذه الطفلة ، وهذه الطفلة لم يكن لها في العالم غير هذه المرأة . كانت فانتين قد ارضعت ابنتها ؛ وكان ذلك قد اوهن صدرها بعض الشيء ، فهي تسعل سعالاً طفيفاً .

وليست بنا حاجة ، بعدُ ، الى ان نتحدث عن مسيو فيلكس تولوميس . فنجتزيء ههنا بالقول انه انتهى الى ان يصبح ، بعد عشرين سنة ، وفي عهد الملك لويس فيليب ، نائباً عاماً ريفياً بديناً ، ذا ثروة وذا نفوذ ؛ وناخباً حكيماً ومحلّفاً شديد القسوة ، بيد انه ظلّ دائماً رجل لهو ومتعة .

وحوالى الظهر ، وبعد أن امتطت بين الفينة والفينة – التماساً للراحة ومقابل ثلاثة فلوس او اربعة الكلّ فرسخ – متنَ ما كان يُعرف آنذاك بـ « العربات الصغيرة الخاصة بضواحي باريس » وصلت فانتين الى مونفيرماي ، ووقفت في زقاق بولانجيه .

وفيما هي تجتاز بفندق تيناردييه ، ترك منظر الطفلتين القاعدتين في ابتهاج على اورجوحتها الهائلة ، اثراً مذهلاً في نفسها ، وتمهلت امام هذا المشهد المرح .

إن ثمة رُقىً . ولقد كانت هاتان الطفلتان الصغيرتان رُقية لهذه الأمّ .

وتأملتهما في انفعال غامر . ان وجود الملائكة بشرى بالجنة . وخيل لها انها رأت فوق هذا الفندق لفظة « هنا » الخفية التي تخطّها العناية

الالـهية . كانت هاتان الطفلتان سعيدتين من غير شك ! وحدّقت اليها وأعجبت بها ، وقد غلب عليها التأثر الى حد جعلها لا تملك نفسها — حين اخذت الأمّ نفساً بين بيتي أغنيتها — عن ان تقول ما سبق ان قرأناه :

— « إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

إن اشد الحيوانات ضراوة لتلقي السلاح حين ترى صغارها موضع تودد وملاطفة .

ورفعت الامّ رأسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة السبيل ان تجلس على درجة السلّم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب . وتجاذبت المرأتان اطراف الحديث .

فقالت امّ الفتاتين الصغيرتين :

— « اسمي مدام تيناردييه . نحن ندير هذا الفندق . »

ثم واصلت انشادها فغنت من بين اسنانها :

« يجب ، يجب ، فأنا فارس
« ولسوف اسافر الى فلسطين ! »

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا ونتوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحي به من الرعب . ومن عجب انه كانت تطفو على محياها انطباعة استرخاء اكتسبتها من قراءة الروايات . كانت مغناجاً مترجّلة . والواقع ان الروايات القديمة المنطبعة على خيال صاحبات الفنادق لتخلّف مثل هذه الآثار . كانت لا تزال شابة لمّا تتجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المرأة ، الجالسة القرفصاء ، واقفة منتصبة القامة ، اذن لكان من الجائز لقامتها الشامخة وكتفيها العريضتين المشبهتين كتفي تمثال عظيم متحرك — الجديرة بامرأة من نساء السوق الموسمية — ان تجفّل عابرة السبيل ، وتعكر صفو اطمئنانها وتحول

دون وقوع الاحداث التي سنرويها . شخصٌ جالس بدلاً من ان يكون واقفاً : إن القَدَر ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .

وقصت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ؛ واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتمسه في مكان آخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ؛ وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعياً على قدميها ؛ وان حملها طفلتها قد اورثها إعياءً شديداً ؛ وانها التقت عربة فيلموبل فركبتها ؛ وانها انطلقت من فيلموبل الى مونفيرماي سيراً على القدمين ؛ وان الطفلة الصغيرة مشت قليلاً ، ولكنْ ليس كثيراً ، فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ؛ وانها اضطرت الى ان تحملها ؛ وان الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبعت على جبين ابنتها قبلةً حنوناً أيقظتها من نومها . لقد فتحت الطفلة عينيها الزرقاوين الواسعتين ، مثل عيني أمها ، وأبصرت - ماذا أبصرت ؟ لا شيء ، كلَّ شيء ، بانطباعة الاطفال الصغار الجدية ، الصارمة في بعض الاحيان ، التي هي احد اسرار براءتهم امام فضائلنا المعتمة . وفي ميسور المرء ان يزعم أن اولئك الاطفال يستشعرون انهم ملائكة ، ويعرفون اننا بشر . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبحت جماحها ، فقد انزلقت الى الارض بمثل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفرّ . وفجأة رأت الطفلتين الاخريين على ارجوحتها ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلّت السيدة تيناردييه وثاق طفلتيها وأنزلتها عن الارجوحة ، قائلة :

- « إلعَبْنَ كلكن معاً . »

إن الاطفال في مثل هذه السنّ ليأنس بعضهم الى بعض في سهولة

ويسر . فما هي إلا لحظة حتى كانت بنتا السيدة تيناردييه تلعبان مع الوافدة الجديدة ، حافرات ثقوباً في الارض بابتهاج غامر .

كانت هذه الرافدة الجديدة مرحة ً جداً : ان طيبة الأم لمسطورة في بهجة الطفلة . كانت قد تناولت شظية من خشب واتخذت منها مجرفة ، وراحت تشق في نشاط حفرة ً تلائم ذبابة . إن عمل حفار القبور ليصبح سائغاً جميلًا حين يقوم به طفل .

واستأنفت المرأتان حديثهما .

— « ما اسم طفلتك الصغيرة ؟ »

— « كوزيت . »

ولكن عليك ان تقرأ أوفرازي بدلاً من كوزيت . فقد كانت الصغيرة تدعى أوفرازي . بيد ان الأم جعلتها كوزيت بتلك الغريزة الحلوة الفاتنة التي تجعل الامهات والناس يحوّلون « جوزيفا » الى « بيبيتا » و « فرانسواز » الى « سيليت » . ذلك ضرب من الاشتقاق يزعج علم علماء الاشتقاق ويشوّشه كله . فنحن نعرف جدة وُفقت الى ان تقلب « تيودور » الى « غنون » .

— « ما عمرها ؟ »

— « انها تخطو نحو الثالثة . »

— « هي اذن في عمر ابنتي الكبرى . »

كانت الفتيات الثلاث قد اجتمعن في وضع من القلق والغبطة العميقين . لقد وقع حادث خطير . كانت دودة كبيرة قد انبثقت من الارض . وكنّ قد خفن منها ، وكنّ قد غمرتهن النشوة لمرآها .

لقد تماسّت جباههنّ الوضاحة ، ولقد كان في وسع المرء ان يزعم أنها كانت ثلاثة رؤوس تحيط بها هالة من النور .

وصاحت السيدة تيناردييه :

— « ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! أنظري اليهن ! ان المرء

ليقسم انهن ثلاث أخوات . »

واغلب الظن ان تلك الكلمات كانت الشرارة التي انتظرتهـــا الام الاخرى . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحدقت اليها قائلة :

— « هل لكِ ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

وأتت السيدة تيناردييه بحركة من حركات الدهش التي لا تفيد ايـاً من القبول أو الرفض .

واردفت والدة كوزيتـه :

— « انتِ ترين اني لا استطيع ان أصحب ابنتي الى الريف . إن العمل يحظّر ذلك . إني لن اجد عملاً ، هناك ، ما دامت طفلتي معي . إنهم على غاية السخف في تلك الديار . إن الرب هو الذي جعلـــني امرّ بفندقك . وحين وقعت عيناي على ابنتيك الصغيرتين ، البالغتي الجمـال ، والنظافة ، والسعادة ، غلبني التأثر . لقد قلت : ههنا أمّ طيبة . إنهنّ سوف يكنّ مثل ثلاث أخوات . وعندئذ فلن أغيب طويلاً . هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه :

— « ينبغي ان افكر . »

— « سوف اقدّم اليك ستة فرنكات في الشهر . »

وهنا سُمِع صوت رجل من داخل المطعم الحقير :

— « لا نرضى بأقل من سبعة فرنكات . وستـــة اشهر مدفوعة مقدماً . »

فقالت السيدة تيناردييه :

— « ستة في سبعة يساوي اثنين واربعين . »

فقالت الامّ : « سوف اعطيكما ذلك . »

فأضاف صوت الرجل :

« وخمسة عشر فرنكاً إضافية مقابل النفقات الاولى . »

فقالت السيدة تيناردييه : « اصبح المجموع سبعة وخمسين فرنكاً . »
وفي غمرة من هذه الارقام غنت على نحو غير مبين :

« يجب ، يجب ، قال احد الفارين ... »

فقالت الأم : « سوف ادفعها اليكما . إن عندي ثمانين فرنكاً . وهذا سوف يترك لي ما يكفيني للذهاب الى الريف اذا مشيت على قدميّ . ولسوف اكسب شيئاً من المال هناك ، وحالما يجتمع لديّ مبلغ قليل ارجع الى هنا لآخذ حبيبتي الصغيرة . »

واستأنف صوت الرجل الكلام :

— « هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي . »

— « طبعاً ، إن عند حبيبتي المسكينة ملابس . لقد أدركت جيداً أنه زوجك . وملابس جميلة ايضاً ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من كل شيء دزينات ، وفساتين حريرية كفساتين السيدات . إنها هناك في جراب سفري . »

فاسرع صوت الرجل الى القول :

— « يجب ان تعطينا هذا كله . »

فقالت الامّ : « طبعاً ، سوف اعطيكما اياه . وهل يُعقل ان اترك ابنتي عارية ؟ »

وبرز وجه صاحب الفندق .

وقال : « هذا حسن . »

وخُتمت المساومة . وأمضت الأم ليلتها في الفندق ، ودفعت ما طُلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عَقْد جرابها الذي تقلّص بعد ان جرّد من ملابس الطفلة وغدا خفيفاً ، ومضت لسبيلها في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكاً . إن هذه الهجرات ونظائرها

تنظم في هدوء ، ولكنها مفعمة بالقنوط .

والتقت احدى جارات امرأة تيناردييه هذه الام فيما هي تمضي لسبيلها . حتى اذا رجعت قالت :

- « لقد رأيت اللحظة امرأة تبكي في الشارع وكأن قلبها يتمزق . »

وحين مضت والدة كوزيت قال الرجل لزوجته :

- « إن في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند المالي البالغة قيمته مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق أداؤه غداً . كنت في حاجة الى خمسين فرنكاً . أتدرين ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يفد عليّ ، وأن وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان تحرر بحقي ؟ لقد مثلتِ انتِ وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران تمثيلاً جيداً .

فقالت المرأة : « من غير أن نعرف ذلك . »

٢

رسم إعدادي أول لوجهين مبهمين

كانت الفأرة التي القي القبض عليها ضعيفة البنية جداً ، ولكن القطة ابتهجت لاصطيادها مجرد فأرة مهزولة .

من كان تيناردييه هذا وزوجته ؟

سوف نجتزيء بكلمة نقولها هنا . وفي ما بعد سنكمل الصورة .

كانا ينتسبان الى تلك الطبقة النغلة المؤلفة من اناس أجلاف ارتفعت بهم الايام ، ومن أناس اذكياء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض خطيئات الثانية ، الى رذائل الأولى كلها تقريباً ، من غير أن تملك حوافز

العامل الكريمة ، وسجايا البورجوازيّ الباعثة على الاحترام .

كانا من تلك الطبائع القزمة التي اذا اتفق ان مسّتها نارٌ كالحـــة أمست ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المرأة ، في اعماقها ، بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في أعماقه ، وغداً محتالاً . وكان كلاهما ، في اعلى الدرجات ، قادراً على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن تحقيقه في اتجاه الشرّ . إن ثمة نفوساً تزحف مثل عقرب الماء * زحفاً موصولاً نحو الظلمة ، راجعةً القهقرى في الحياة ، بدلاً من ان تتقدم فيها ، مصطنعة ما تمّ لها من تجارب لكي تزيد تشوّهها الذاتي ، فكل يوم يمر بها يجعلها اكثر سوءاً ، واكثر انحداراً نحو الرذيلة المتكاثفة . هذا الرجل وهذه المرأة كانا من اصحاب هذه النفوس .

لقد كان الرجل على الخصوص خليقاً به ان يحير المتمكن من علم الفراسة . اننا لا نحتاج الى اكثر من النظر الى بعض الناس لكي نرتاب فيهم ، ذلك لأننا نستشعر ظلمة نفوسهم من ناحيتين . انهم قلقون بالنسبة الى ما فاتهم ، مهدّدون بالنسبة الى ما يستقبلهم . إنهم لغز من الالغاز . فنحن لا نستطيع بعدُ ان نقرر ما قد فعلوه باكثر مما تستطيع ان تقرر ما سوف يفعلونه . إن الظلمة التي في نظراتهم تشي بهم . فاذا ما سمعناهم ينطقون بكلمة ، او رأيناهم يومئون ايماءة وقعنا على لمحات اسرار مجرمة في ماضيهم ، والغاز قاتمة في مستقبلهم .

وكان تيناردييه هذا ، اذا شئنا ان نصدقه ، جندياً ، برتبة رقيب كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قــد ابلى بلاءً حسناً في ما يبدو . ولسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه هذا . والواقع ان اللافتة التي تعلو باب فندقه ترمز الى احدى مآثره الحربية . لقد رسمها بريشته ، إذ كان يعرف شيئاً من كل شيء ، ويعرفه على نحو رديء .

---

* او الحيوان المائي المعروف بالسرطان .

كانت تلك الحقبة هي الحقبة التي ألهبت فيهـــا الرواية الكلاسيكية العتيقة (التي كانت من قبل « كليلي » * فهبطت حتى امســـت « لودويسكا » ، والتي احتفظت بنبلها ؛ ولكنها امعنت في الابتـذال يوماً بعد يوم ، هابطة من مدموزيل دو سكوديري الى مدام بارتيليمي هادو ، ومن مدام دو لا فاييت ** الى مدام بورنون مـالارم) نفوسَ بوّابات باريس المحبّة ، واحدثت بعض الاضرار حتى في الضواحي . وكانت السيدة تيناردييه على قدر من الذكاء يكفي بشقّ النفس لتمكينها من قراءة هـذا الصنف من الروايات . لقد اغتذت بها . لقد اغرقت فيها عقلها الصغير كله . وهذا ما منحها منذ صباها الاول ، وحتى بعـد ذلك بقليل ، ضرباً من النزعة التأملية تجاه زوجها ، وكان نذلاً على شيء من العمق ، خليعاً لا تكاد ثقافته تبلغ حدّ علم النحو ، جلفـــاً ومصقول الحاشية في آن معاً ؛ اما في القضايا « العاطفية » — وكان من قراء بيغو لوبران *** — و « في كل ما يتصل بشؤون الجنس » — كما عبّر برطانته — فكان احمق حقيقياً ، احمق صرفاً غير مشوب . وكانت زوجته اصغر منه باثنتي عشرة سنة او خمس عشرة سنة . وفي فترة متأخرة ، عندما بدأ شعر الباكين الرومانتيكيين يشيب ، وطلقت الـ « ميجير » **** الـ « باميلا » ***** ، انتهت مدام تيناردييه الى ان تصبـــح مجرد أمرأة بدينة شريرة تذوّقت الروايات الحمقـــاء . والحق ان الناس لا

* Clélie رواية من تأليف الاديبة الفرنسية مادلين سكوديري (١٦٠٧ — ١٧٠١) .

** Madame de La Fayette اديبة فرنسية (١٦٣٤ — ١٦٩٣)

*** كاتب فرنسي وضع عدة روايات داعرة وقد ورد ذكره سابقاً .

**** Mégère احدى آلهات الجحيم الثلاث ، رمز الحقد والكراهية . ويقصد بها هنا المرأة الحزقة الشريرة .

***** Paméla رواية للكاتب الانكليزي ريكاردسون (١٦٨٩ — ١٧٦١) وهي قصة خادمة شابة تنجيها الفضيلة من جميع ما نُصب لها من الاشراك . وقد جعلها المؤلف هنا نموذجاً للرواية الاخلاقية .

يقرأون الحاقات من غير ان يمسهم الضرر . فكان من عاقبة ذلك ان سميت ابنتها الكبرى ايبونين ، وان ابنتها الصغرى كانت عـــلى وشك ان تسمى غولنار ، ولكن انحرافاً سعيداً سببته رواية من تأليف دوكري دومينيل * جعلها لا تسمى إلا آزيلما .

وايّاً ما كان فلنقل بالمناسبة إن كل شيء لم يكن مضحكاً وسطحياً في هذه الحقبة الغريبة التي نُلمع اليها ، والتي نستطيع ان ندعوها فوضى أسمـــاء المعمودية . فالى جانب العنصر الرومانتيكيّ الذي اشرنا اليـه كان ثمة العَرَض الاجتماعي . فليس من النادر ، اليوم ، ان نرى صبْيـةً بقّارين يدعون آرثور ، وألفرد ، أو آلفونس ؛ وان نرى فيكونتـات – اذا كان لا يزال ثمة بقية من هؤلاء – يدعون توماس ، وبطرس ، أو جاك . وهـــذا التغير الذي يخلع الاسم « الأنيـق » عـــلى ابن السوقة ، والاسم الريفي على ربيب الارستقراطية ، ليس غـير اندفاعة من اندفاعات الموج في مدّ المساواة . ان تسرّب الايحاء الجديد الذي لا يقاوَم ناشطٌ هناك نشاطه في كل شيء آخر . وان تحت هذا التنافر الظاهري لحقيقةً ضخمة وعميقة : الثورة الفرنسية .

٣
القبرة

ان تكون المرء شريراً لا يكفل له الرخاء ؛ وآية ذلك ان المطعـم الحقير لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعه والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين

* Ducray - Duminil روائي شعبي فرنسي (١٧٦١ – ١٨١٩)

السبعة والخمسين . وفي الشهر التالي كانا لا يزالان في حاجة الى المال ، فحملت المرأة ملابس كوزيت الى باريس حيث رهنتها في مـــون دو بييتيه مقابل ستين فرنكاً . حتى اذا نفد هذا المبلـــغ شرع تيناردييه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتهما الى طفلة يؤويانهـا صدقـــة واحساناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها أيّ ملابس ، فقد ألبساها قمصان طفلتيهما القديمة وتنانيرهما العتيقة ، يعني انهـما البساها أسمالاً بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطعماها فضلاتهما وفضـــلات بنتيهما – أطعماها على نحو أحسن قليلاً من الكلب ، وأسوأ قليلاً من الهرة . كان الكلب والهرة رفيقي مائدتها الدائمين . لقد أكلت كوزيت معهما تحت الطاولة في صحن خشبي مثل صحنيهما .

وكانت أمها ، التي استقرت كما سوف نرى بعدُ في مونتروي سور مير ، تكتب اليهما ، او على الاصح تكلف احداً بالكتابة اليهما ، مرةً كل شهر ، مستطلعةً انبـاء ابنتها . وكان تيناردييه وزوجته يجيبانهـا جواباً لا يتغير :

– « كوزيت في حال ممتازة جداً . »

وتقضّت الاشهر الستة الأولى . وأرسلت الأم سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هـذا المبلغ على نحو نظاميّ شهراً إثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تيناردييه : « إن هــــذا لثمن رائع حقاً ! ايّ شيء تنتظر منـا ان نفعله مقابل فرنكاتها السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالباً باثني عشر فرنكاً . ووافقت الأم – وهي التي أقنعها صاحب المطعم وزوجته بأن ابنتها سعيدة مسرورة – وارسلت اليهما الفرنكات الاثني عشر .

ان ثمة بعض الطبائع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غـــير أن تكره من ناحية اخرى . كانت تيناردييه الأم هـذه تحبّ طفلتيها الصغيرتين حباً جماً ، ولقد حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

وانه لمن المؤسف ان يفكر المرء بأن حب امّ من الامهات يمكن ان تكون له مظاهر بشعة . فعلى الرغم من ضيق المجـــال الذي احتلته كوزيت في منزلها ، فقد تراءى لها ان هذا المجال الصغير قد انتُزع من طفلتيها ، وان هذه الغريبة الصغيرة قد أنقصت الهواء الذي تتنفسه ابنتاها . وكانت لهذه المرأة ، شأن كثيرات من نوعها ، جمهرةٌ من الملاطفات ، وجمهرة من الضربات والشتائم تنفقهـــا كل يوم . ولو لم تكن كوزيت ضيفة عليها اذن لكان من الثابت ان تتلقى ابنتاها – برغم حبها العظيم لهما – ذلك كله . ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحوّلت الضربات الى جسدها هي . وهكذا لم يُصِب ابنتيها غير الملاطفات . فما ان تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابلٌ من ضروب العقـاب القاسي الذي لا تستحقه . كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئاً عن هـــذا العالم ، او عن الله ، تُسام الخسف عـــلى نحو موصول ، وتُقرّع ، وتعاقب ، وتُضرب ، ثم ترى الى جانبها طفلتين صغيرتين تعيشان وسط هالة من المجد !

لقد أساءت المرأة الى كوزيت وخاشنتها . وكذلك فعلت ايبونين وآزيلما ايضاً . فليس الاطفال في هذه السن إلا نسخاً طبق الاصل عن الأمّ . إن القَطْع أصغر ، ليس غير .

وانقضى عام ، وتبعه ثانٍ .

وقال الناس في القرية :

– « ما اطيب تيناردييه وزوجته ! إنهما ليسا غنيين ، ومع ذلك فهما ينشّئان فتاة مسكينة تُركت عندهما ! »

لقد حسبوا أن أمّ كوزيت نسيتها .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفيّ ان الطفلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان امها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكاً في الشهر قائلاً ان « المخلوقة » كانت تنمو

وانها « تسرف في الأكل » ، مهدداً بطردها .

وصاح : « انها لن تخدعني ! سوف اسحقها وطفلتها في قلب المكان الذي تختبيء فيه ! يجب ان احصل على مبلغ اكبر . »

ودفعت الأم خمسة عشر فرنكاً .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضاً .

كانت كوزيت اول الامر « تيس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب الفتاتين الأخريين . ولكن ما ان اخذت تنمو قليلاً ، يعني قبل ان تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وقد يقول قائل : خمس سنوات ؟ هذا غير محتمل الوقوع . واأسفاه ! انه صحيح . إن العذاب الاجتماعي يبدأ في مختلف الاعمار . ألم نشهد منذ قريب محاكمة دومولارد ، ذلك اليتيم الذي امسى قاطع طريق ، والذي وجد نفسه وحيداً في هذا العالم فحاول — وهو بعدُ في الخامسة من العمر كما تقول الوثائق الرسمية — أن « يكسب قوته فسرق ؟ »

وكُلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكنس الغرف ، والفناء ، والشارع ، وغسل الاطباق ، بل وبحمل الاثقال . واستشعر تيناردييه وزوجته ان حقهما في معاملتها على هذا النحو يتعاظم بعد ان بدأت الأم ، المقيمة ابداً في مونتروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد استحقت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الأم الى مونفيرماي ، عند نهاية هذه السنوات ، اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاحة ممعنة في النضارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الآن مهزولة شديدة الشحوب . كانت تطفو على وجهها انطباعة قلقة مضطربة . وكان تيناردييه وزوجته يقولان : « خبيثة ماكرة ! »

كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها قبيحة .

ولم يبق لها غير عينيها الجميلتين ؛ وكان النظر اليها يوقع الالم في النفس لانها بدتا ، بسبب من اتساعها ، وكأنها تزيدان في مقـــدار حزنها وكآبتها .

وكان مما يمزق القلب ان ترى ، في ايام الشتاء ، الى هذه الطفـــلة البائسة التي لم تتجاوز السادسة ، ترتجف تحت الخرق البالية التي كانت ذات يوم فستاناً من الخام ، كانسة الشارع قبل مطلع الفجر بمكنسة ضخمة تحملها بيديها الصغيرتين الحمراوين ، وقد ترقرقت الدموع في عينيهـــا الواسعتين .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبّرة . ان الناس ليحبون الاسماء المجازية ، ومن هنا سرّهم ان يخلعوا هذا الاسم على تلك المخلوقة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتعدة ، المروّعة ، المرتجفة ، المستيقظة كل صباح قبل اهل المنزل جميعاً واهل القرية جميعاً ، العاملة ابداً في الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبّرة المسكينة لم تنطلق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .

الكتاب الخامس

الانحدار

١
قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود

ما الذي حلّ ، في غضون ذلك ، بهذه الأم التي بدت – وفقاً لما ذهب اليه أبناء مونفيرماي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ اين كانت ؟ ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عند تيناردييه وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور مير .

وانما كان ذلك ، كما نذكر ، في عام ١٨١٨ .

كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً ،

وكانت معالم مونتروي سور مير قد تغيرت . ففيما كانت فانتين تنحدر في بطء من شقاء الى شقاء كان مسقط رأسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار .

فمنذ سنتين تقريباً تمّ في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة .

وهذا الحدث ذو خطر . ونحسب ان من الخير ان نروي خبره ، بل ان نرويه بأحرف ضخام .

فمن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سو مير الخاصة تقليد الزجاج الانكليزي الملوّن والخرز الالماني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو أزمة موصولة بسبب من غلاء المواد الاولية على نحو كان له اثره في اليد العاملة . حتى اذا رجعت فانتين الى منتروي سور مير كان تغيّر كامل قد طرأ على انتاج هذه « البضائع السوداء » . ذلك بأن رجلاً مجهولاً كان قد استقرّ في تلك البلدة ، اواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان يحِلّ صمغ اللّك * ، في تلك الصناعة ، محل صمغ الصنوبر . اما في عمل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد فتل احد طرفي المعدن على الآخر بدلاً من لحمها بالالتحام .

واحدث هذا التغير البالغ الضآلة ثورة في الصناعة .

ان هذا التغير البالغ الضآلة قد خفض نفقات المواد الاولية تخفيضاً هائلاً ، وهذا ما جعل من الممكن ، اولاً ، رفع اجرة اليد العاملة — وفي ذلك فائدة للبلاد — وثانياً ، تحسين الانتاج — وفي ذلك خدمة للمستهلك — وثالثاً بيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة اضعاف الربح القديم — وفي ذلك كسب للمنتج .

وهكذا نشأت عن هذه الفكرة نتائج ثلاث .

وفي اقلّ من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنياً ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنياً ، وهذا أحسن . كان غريباً

---

* اللّك : نبات يتخذ منه نوع من الصمغ .

عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن اصله شيئاً ، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل .

وتحدّث الناس بأنـــه وفد على المدينة وليس معه غـــير دراهم معدودات – بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .

ومن رأس المال الضئيل هذا ، المسخّر في خدمـة فكرة عبقرية ، المثمّر بالنظام والروية ، أستمدّ ثروة لنفسه ، وثروة للمنطقة كلها .

وعند وصوله الى مونتروي سور مير لم يكن عنده غير ثياب العامل ، وعادات العامل ، ولغة العامل .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مـــير على هذا النحو الغامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصاً شوكية ، اندلعت نار هائـــلة في دار البلدية . فاقتحم هذا الرجل النار ، وأنقذ ... مغامراً بحياته – طفلـــين ظهر بعدُ انهما ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احدٌ قط في ان يسأله إبراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

٢

مسيو مادلين

كان رجلاً في نحو الخمسين ، تبدو عليه سيما المستغرق في العمل ، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في مستطاع المرء ان يقوله عنه .

وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تمّ لهذه الصناعة من تقدم سريع أسبغ هو عليه حياة رائعة جداً ، مركزاً تجارياً ذا خطر . لقد اخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتدّ الرغبة في الخرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هـــذا

الميدان ، كلاً من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية السنة الثانية ، من ان ينشيء مصنعاً ضخماً يحتوي على معملين واسعين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . كان في ميسور ابا جائع ان يطرق ابواب هذا المصنع ، وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملاً وخبزاً . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة ، ويتطلب فيهم جميعاً الامانة والاخلاص . لقد قسم المصنع لكي يفصل ما بين الجنسين ، ولكي يحتفظ النسوة والفتيات باحتشامهن . وفي هذه المسألة ، كان صلباً لا يلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط . وانما زاده تعلقاً بهذه النسوة ان المزالق الاخلاقية كانت موفورة في مونتروي سور مير بوصفها مقرّ حامية من الحاميات العسكرية . واخيراً كان قدومه نعمة ، ووجوده فضلاً من الله . فقبل ان يصل الاب مادلين الى المنطقة كانت ذابلة كلها ، اما الآن فقد غدا كل ما فيها ناضراً بحياة العمل الصحية . لقد أوقع الدم الناشط الدفء في كل شيء ، وتسرّب الى كل شيء . وامحت البطالة والبؤس ، فلم تبق ثمة جيب قائمة الى حد يجعلها خلواً من بعض الدراهم ، ولم يكن ثمة مأوى فقير الى حدّ يجعله حراماً على شيء من البهجة .

وشغّل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير : « كن رجلاً أميناً ! » ، « كوني امرأة أمينة ! »

وفي غمرة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه ومحوره ، جمع الاب مادلين ثروته . ولكن ذلك لم يبدُ همّهُ الرئيسي ، وهي ظاهرة غريبة جداً بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الآخرين كثيراً ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلاً . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفاً انه يملك ستمئة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكنْ قبل ان يدّخر هذه الستمئة والثلاثين الف

فرنك كان قد انفق اكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء .

كانت اوقاف المستشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سُرُر إضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احداهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلّمَيْن من جيبه هو ضعف راتبها الحكومي الهزيل . وذات يوم قال لجار له استغرب هذا الوضع : « ان أسمى موظفَيْن في الدولة هما الممرضة والمعلم . » وشيّد على نفقته الخاصة ملجأ للعاجزين ، وهي مؤسسة تكاد تكون غير معروفة في فرنسة ، ورصد اموالاً للعمال الشيوخ والمعتلين . وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حيّ جديد نما نمواً سريعاً ، وانتظم كثيراً من الأسر الفقيرة . وهناك اسس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام ، قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين رأوه يُغني البلاد قبل ان يُغني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم : « هذا الرجل طموح . » ولقد بدا هذا اكثر احتمالاً ، اذ كان تقياً ، حريصاً على اداء الطقوس الكنسية ، الى حد ما ، وهو شيء كان يُستقبل في ذلك الزمن بكثير من الرضا . كان يمضي يوم الاحد ، على نحو نظامي ، لسماع القداس . فما هي الا فترة قصيرة حتى استشعر نائب المنطقة — وكان يستروح المنافسة في كل مكان — شيئاً من القلق بسبب من تديّن مادلين . وكان هذا النائب — العضو في هيئة الامبراطورية التشريعية — يقول بالآراء الدينية التي نادى بها احد آباء رهبانية الأوراتوار ، ويُعرف باسم فوشيه دوق اوترانت ، وكان صنيعته وصديقه . وفي المجالس الخاصة ، كان هذا النائب يسخر من الله سخريةً خفيفة . ولكنه ما إن رأى الصناعيّ الموسر ، مادلين ، يشهد القداس غير الصارخ في الساعة السابعة حتى

استشفّ فيه مرشحاً من مرشحي المستقبل المنافسين له على النيابة ، وعزم على أن يبزّه . فاصطحب كاهناً يسوعياً معرّفاً ، وشهد وإياه القداس الصارخ وصلوات العصر او الغروب . وكان الطموح في ذلك العهد ، كما يدل المعنى المباشر لهذه اللفظة ، ضرباً من سباق يُجرى بين الفرسان في حقل كثير العوائق والعقبات . وافاد الفقراءُ ، وأفاد اللهُ ايضاً ، من هذا الهول ؛ ذلك بأن النائب النبيل تبرّع بنفقة سريرين اضافيين من سرر المستشفى ، وهكذا أصبح عددها اثني عشر .

واخيراً ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من ايام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديراً للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة ، فقد اصدر الملك امراً بتعيينه عمدة لبلدة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الوافد الجديد بأنه « رجلٌ طموح » إلا ان اغتنموا هذه الفرصة — التي يتمناها كل انسان — ليصيحوا في حماسة بالغة :

— « أرأيتم ! ألم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبأ . وما كان النبأ كاذباً . فبعد بضعة ايام نُشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها — ١٨١٩ — وجدت نتائجُ الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكاناً لها في المعرض الصناعي . وبناء على تقرير لجنة المحكّمين منح الملك مخترعها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! وإذن فقد كان يطمع في وسام جوقة الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . وألقى الطيبون من الناس سلاحهم قائلين :

— « وعلى اية حال ، فهو لا يعدو أن يكون مغامراً ! »

كانت البلدة مدينةً لهذا الرجل كثيراً ، كما قد رأينا ، وكان الفقراء مدينين له بكل شيء . كان نافعاً الى درجة اكرهتهم كلهم على إجلاله ، وكان دمثاً الى درجة جعلتهم كلهم يجمعون على حبه . وكان عماله ، على الخصوص ، يحبونه حتى العبادة ، وكان هو يتقبّل حبهم هذا بضرب من الوقار الكئيب . وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم « المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ أهل المدينة يدعونه « مسيو مادلين » . اما عماله ، واما الاطفال فظلوا يدعونه « الاب مادلين » ؛ وكان وجهه يشرق دائماً بابتسامة ، لدن سماعه هذا النداء . وطفقت الدعوات تنهال عليه كالمطر بعد ان اتخذ سبيله في مراقي العزّ والشهرة . وادعاه « المجتمع الراقي » . وفتحت صالونات مونتروي سور مير الصغيرة المتكلفة للعظمة ، الحسنة التنظيم ، والتي كانت في الايام الأولى محرّمة على الصانع الحقير — فتحت هذه الصالونات ابوابها على مصاريعها للمليونير . لقد قُدّم اليه الف عرض وعرض ، ولكنه رفضها كلها .

وهذه المرة ايضاً لم يكفّ اصحاب النفوس الطيبة عن لغوهم . « إنه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . إن احداً لا يعرف من اين أقبل . إنه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعات الراقية . وليس من الثابت بحال من الاحوال أنه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبذّر ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والاوسمة قالوا : « إنه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : « إنه بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتروي سور مير ، كانت خدماته التي قدّمها الى المنطقة ساطعةً جداً ، وكانت رغبة السكان كلهم إجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة

للمدينة . ورفض كرةً اخرى . ولكن الحافظ لم يقبل رفضه ذاك ، ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرّع اليــــه الناس في الشوارع ، وكان الالحاح شديداً الى درجة حملته آخر الأمر على الاذعان . ولقد لاحظ القوم ان الذي دعاه الى القبول اكثر من ايّ شيء آخر ، في ما يبدو ، تلك الصيحة التي توشك ان تكون غاضبة ، والتي أطلقتها من على عتبة بابها – في شيء من الحنق – امرأة من الطبقة الاكثر فقراً :

– « العمدة الصالح شيء مفيد . فهل انت خائفٌ من الخير الذي تستطيع أن تعمله ؟ »

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين قد أمسى مسيو مادلين ، وها قد غدا مسيو مادلين السيّد العمدة .

٣
اموال مودعة عند لافيت

وأياً ما كان ، فقد ظلّ بسيطاً شأنه في ايامه الاولى . كان ذا شعر اشيب ، وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، ومحيّا مفكر كمحيّـــا الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتمر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي سترة طويلة من قماش خشن ، مزرّرة حتى الذقن . لقد ادى واجباته بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشاً منعزلاً . كان يتحدث مع نفر قليل من الناس ؛ وكان ينفر من المجاملات ، فهو يمسّ قبعتــه تلك ويمضي لسبيله في غير اناة . كان يبتسم اجتناباً للكلام ، وكان يعطي ، اجتناباً للابتسام . وقالت النسوة عنه : « يا له مـــن دب طيب نافر من الناس ! » كانت متعته التمشي في الحقول .

كان يتناول طعامه وحده دائماً ، وامامه كتاب مفتوح يطالع ف
كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، فالكتاب صديق بارد ، ولكنه موثوق . واذ سمحت له ثروته المتعاظمة بمقـــدار اكبر من اوقات الفراغ ، فقد بدا وكأنه يفيد من هـذا الفراغ ، في تثقيف عقله . ومنذ ان وفد على مونتروي سور مير لوحظ ان لغتـه غدت اكثر صقالاً ، واحسن اختياراً ، وارقّ حاشية ، عاماً إثر عام .

وكان يحب ان يحمل في نزهاته ، بندقيةً ، ولكنه لم يكن يستعملها الا نادراً . حتى اذا اتفق له ذلك احياناً ، كان هدفه لا يخطيء ، الى حدّ مرّوع . إنه لم يقتل قط حيواناً غير مؤذٍ ، ولم يطلق النار قط على أيٍّ من صغار الطـير .

وعلى الرغم من أنه لم يعدْ شاباً فقد قيل إنه كان على قوة أسطورية . كان يمدّ يد العون الى كل من يحتاج اليها ، فيُقيل عثرة جواد كبـــا ، ويدفع عجلةً ساخت في الطين ، او يمسك بقرني ثور هـارب . وكانت جيوبه مملوءة بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيوبه فارغة مـــن النقود كلما رجع . فاذا اجتاز بقـــرية من القرى لحق به الاطفال ذوو الاسمال البالية فرحين مبتهجين ، وتحلّقوا حوله مثل سرب مـــن الذباب .

وحدسَ القوم بأنه ينبغي ان يكون قد عاش ، قبـل ذلك ، في الريف ، فقد كان على علمٍ بضروب الاسرار النافعة يعلّمها للفلاحـين . لقد علّمهم كيف يقضون على عثّة القمح بان ينضحوا العنبر ، ويغسلوا فجوات ارضـــه ، بسائل الملح ، وكيف يطاردون سوس القمح بأن يعلّقوا في كل مكان – على الجدران وعلى السطوح ، في الحيطان الفاصلة وفي البيوت – زهرات الاورفيو . وكانت لديه وصفات لتحرير الحقول من وباء دود الحرير ، وسوسة الزرع ، ومن الكرسنّة ، وذيل الثعلب ، وجميع النباتات الطفيلية التي تعيش على القمح . ولقد حمى الارانب من

الفئران برائحة خنّوص * من خنـــانيص بلاد البربر وضعه هنـــاك ليس غير .

وذات يوم رأى بعض ابناء المنطقة منهمكـــين في اقتلاع القُرّاص فنظر الى كومة النبات المستأصلة ، والتي بدأ الجفاف يصيبها وقـال :

— « هذه ميتة . ولكن من الخير ان نعرف كيف نفيـد منها . فحين يكون القُرّاص صغيراً تكون اوراقه بقلًا ممتازاً . وحـــين ينمو يصبح ذا خيوط وألياف مثل القنّب والكتان . والنسـيج المصنوع من القرّاص لا يقلّ قيمة عن نسيج القنب . والقراص ، مفروماً ، يصلح طعاماً للطيور الداجنة . والقرّاص ، مسحوقاً ، يصلح طعاماً للماشيـة ذوات القرون . وبذرُ القرّاص ، ممزوجاً بعلف الحيوانات ، يخلع على جلودها بريقاً . وجذرهـــا ، ممزوجاً بالملح ، يحدث صِبغـاً اصفر جميلًا . وهو ، الى ذلك ، صائرة ممتازة نستطيـع ان نجزّها مرتـين في الموسم الواحد . وإلام يحتاج القرّاص ؟ الى قليـل من التربة ، والى لا عناية ، ولا حراثة . بيد ان بذوره تتساقط حالما تنضج ، ومن العسير جمعها . هذا كل ما هنالك . فاذا ما تجشمنا بعض العنـــاء ، أمسى القراص ذا غناء . واذا ما أهملناه ، اصبح مؤذياً . وعندئـذ نقتله . ما اكثر الرجال الذين يشبهون القراص ! »

وصمت لحظة ثم اضاف :

— « يا اصدقائي ، اذكروا هذا : ليس ثمة اعشاب رديئة ، وليس ثمة رجال اردياء . ليس ثمة غير زرّاع اردياء . »

وتعاظم حب الاطفال له لانه عرف كيف يعمل لعباً صغيرة فاتنة من القش ومن جوز الهند .

وكان اذا ما ما رأى باب كنيسة مجللًا بالسواد ، دخل . كان يلتمس الجنازة كما يلتمس غيره المعمودية . وكان ثكل الآخرين وأرزاؤهم تجذبه

* الخنوص : الخنزير الصغير .

بسبب من رقته البالغة . وكان يختلط بالاصدقاء اللابسين ثوب الحداد وبالأسر المتشحة بالسواد ، وبالكهنة المنتحبين حول نعش . لقد بدا سعيداً بأن يتخذ موضوعاً لافكاره من هذه التراتيل الزمورية المأتمية الحافلة برؤيا عالم آخر . وبعينين مرتفعتين الى السماء كان يصيخ في ضرب من التوق الى اسرار اللانهاية جميعاً ، الى هذه الاصوات الحزينة التي تُنشد عند حافة هاوية الموت المظلمة .

لقد قام بجمهرة من الاعمال الصالحة بمثل الكتمان الذي يُصطنع عادة في الاعمال الطالحة . كان يتسلل ، في موهن من الليل ، الى المنازل ، ويرتقي السلالم خلسة . فكم من بائس رجع الى علّيته فوجد بابها مفتوحاً بل مكسوراً في بعض الاحيان ، أثناء غيابه ، فصاح : « لقد كان ههنا لص ! » حتى اذا دخل العلية كان أول ما يراه قطعة من الذهب منسية على طاولة . إن « اللص » الذي كان هناك لم يكن غير الاب مادلين .

كان انيساً ومحزوناً . وكان الناس يقولون :

— « هو ذا رجل غني لا يشمخ بأنفه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه أمارات الرضا . »

وزعم بعضهم أنه شخصية غامضة ، واعلنوا ان أحداً لم يدخل قط غرفته التي كانت حجيرة ناسك حقاً — حجيرة مؤثثة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبجماجم الموتى . واكثر القوم من تكرار هذه المزاعم حتى لقد زارته ذات يوم بعض سيدات مونتروي سور مير الشابات ، الانيقات ، الماكرات وقلن له :

— « أيها السيد العمدة ، هل لك ان ترينا غرفتك ؟ لقد سمعنا أنها مغارة . »

فابتسم ، وقادهن في الحال الى هذه « المغارة » . وعوقبن عقاباً قاسياً على فضولهن . كانت غرفة مزوّدة على نحو ملائم جداً بأثاث مصنوع من خشب الماهوغاني ، البشع مثل سائر الاثاث المماثل ، وكانت

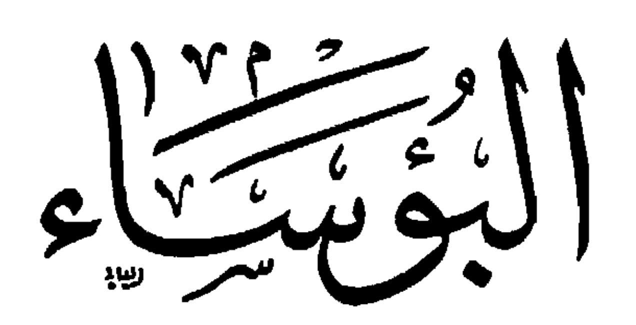
جدرانها مغطاة بورق لا يزيد ثمنه على اثني عشر « سو » . ولم يستطعن ان يرين شيئاً غير شمعدانين ذوَيْ شكل عتيق قائمين فوق الموقد ، وقد ظهرا وكأنهما فضيان ، « اذ كانا موسومين بسِمةٍ رسمية » ، وهي ملاحظة تنضح بروح هذه المدن الصغيرة .

ومع ذلك فما كفّ الناس عن القول إن احداً لم يدخل الى تلك الغرفة ، وإنها كانت كهف ناسك ، وموطن احلام ، وحفرة ، وقبراً .

وتهامس القوم ايضاً بأنه أودع مصرف لافيت مقادير « هائلة » من المال على شرط خاص يجعلها دائماً تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مسيو مادلين - كذلك اضافت هذه الهمسات - ان يشخص صباحاً الى مصرف لافيت ، فيوقّع ايصالاً ويحمل مليونيه الاثنين أو ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق أن « هذين المليونين الاثنين » أو « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكمشت ، كما سبق منا القول ، الى ستمئة وثلاثين الف فرنك ، أو ستمئة واربعين الف فرنك .

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٣

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

٤

مسيو مادلين في ثياب الحداد

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميرييل ، اسقف د .... « الملقب بمونسينيور بيينفينو » ، الذي توفي عابق الصيت بعبير القداسة في الثانية والثمانين من العمر .

وكان اسقف د ... — وهذه حقيقة أغفلت الصحف الاشارة اليها — قد فقد حاسة البصر قبل وفاته ، ببضع سنوات ، وقد ارتضى ذلك اذ كانت اخته الى جانبه .

ولنقل بالمناسبة لأن يكون المرء اعمى ومحبوباً هو من غير ريب شكل من اطيب اشكال السعادة واعجبها ، في هذه الارض حيث لا شيء كامل . لأن تكون الى جانبك على نحو موصول امرأة ، بل فتاة ، بل اخت ، بل كائنة فاتنة ، تقيم هناك لانك في حاجة اليها ولأنها لا تستطيع ان تحيا بدونك ؛ ولأن تعلمَ انك ضروري لا سبيل الى الاستغناء عنك في نظر من تحتاج اليها ؛ ولأن تستطيع في مختلف الظروف والاحوال ان تقيس حنانها بمقدار مثولها بين يديك ، وأن تقول لنفسك : « انها تقف وقتها كله لخدمتي لاني املك قلبها كله » ؛ ولأن ترى الفكر بدلاً من الوجه ؛ ولأن تستيقن من ولاء مخلوقة ما بعد إظلام الكون ؛ ولأن تتخيل حفيف ثوبها وكأنه حفيف اجنحة ؛ ولأن تسمعها تتحرك جيئة وذهوباً ، خارجةً من الغرفة ، داخلة اليها ، متحدثة ، مغنّية ، وان تفكر انك نقطة الدائرة في هذه الخطى ، وهذه الكلمات ، وهذه الاغنية ؛ ولأن تُظهر في كل دقيقة جاذبيتك الخاصة ؛ ولأن تستشعر انك تزداد سلطاناً كلما ازددت عجزاً ؛ ولأن تغدو في

الديجور ، وبسبب من الديجور ، النجمَ الذي يدور حوله هذا الملاك – لأن يتم لك ذلك كله مرتبة في السعادة يندر ان تدانيها مرتبة . إن اسمى مراتب السعادة في الحياة إيماننا بأننا محبوبون ؛ محبوبون لذواتنا – وبكلمة افضل – محبوبون برغم ذواتنا . وهذا الايمان يتمتع به الاعمى . إنه يجد في الخدمة التي تسدى اليه ، في محنته ، ضرباً من الملاطفة والتدليل . اهو محروم من ايّ شيء ؟ لا . ان النور لا يعوز الموطن الذي يدخل اليه الحب . وايّ حب ؟ حبّ مؤسس كلهُ على الطهر . ليس ثمة عمى حيث يوجد يقين . ان الروح لتتلمّس في الظلام بحثاً عن الروح ، وإنها لتجدها . وتلك الروح المكتشفة المثبتة على هذا النحو هي امرأة . ان يداً لتسندك ، تلك هي يدها . وان شفتين لتمسّان جبينك مساً رفيقاً ، إنهما شفتاها . انك لتسمع نفَساً يتردد قريباً منك ؛ إنها هي . ولأن تنعم بها كاملة ، من تقواها الى شفقتها ؛ ولأن لا تُترك وحدك البتة ؛ ولأن تسعد بذلك الضعف العذب الذي هو سنادك ؛ ولأن تتوكأ على تلك القصبة التي لا تلتوي ؛ ولأن تمسّ العنايةَ الالـٰهية بيديك وتتمكن من ان تضمها بين ذراعيك ؛ ولأن يصبح الله جلياً ملموساً – لأن تفوز بهذا كله لهوَ انخطاف ايّ انخطاف ! إن القلب – تلك الزهرة السماوية المظلمة – ليتفتح على نحو عجيب . وخليق بك ان لا تبيع هذا الظلام بالنور كله ! إن الروح الملاك هي هناك ، هي هناك الى الابد . واذا ما ابتعدت مرة فلكي ترجع ثانية . انها تنمحي كالحلم ، ثم تعاود الظهور كالحقيقة . انك تستشعر دفئاً يقترب ؛ إنها هناك . انك تفيض صفاءً ، وجذلاً ، ونشوة ؛ إنك لتشع وسط الظلمة . وألفٌ من ضروب الالتفات والعناية الصغيرة ! تلك التوافه التي هي هائلة في هذا الفراغ . ونبرات الصوت الانثوي الاكثر امتناعاً على الوصف التي تُصطنع لهدهدتك ، وتعويضك من الكون المتلاشي ! إنك تُلاطَف وتدلل من خلال الروح . انت لا ترى شيئاً ، ولكنك

تحس انك موضع حب عظيم . انها جنة من ظلام .

من هذه الجنة انتقل مونسينيور بيينفينو الى الجنة الاخرى .

وردّدت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح اليوم التالي برز مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوّق قبعته بعصابة حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحدثوا عنه في كل مكان . لقد بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم أنه كان على صلة ما بالاسقف الجليل . وقال المختلفون الى الصالونات : « انه يلبس السواد حداداً على اسقف د... » ورفع ذلك من مقام مسيو مادلين شيئاً كثيراً ، وأسبغ عليه فجأة ، ودفعة واحدة ، اعتباراً ملحوظاً في مجتمعات مونتروي سور مير الراقية . وفكرت « سان جيرمان » ، وهي ضاحية بالغة الصغر من ضواحي المنطقة ، في ان ترفع الحجْر عن مسيو مادلين ، نسيب الاسقف المحتمل . وادرك مسيو مادلين اي تقدم احرزه ، من خلال إجلال السيدات العجائز له على نحو متعاظم ، وابتسام السيدات الشابات في وجهه على نحو متزايد . وذات يوم تجرأت احدى السيدات الاكثر إمعاناً في الشيخوخة ، في ذلك الوسط الارستقراطي الصغير – وقد غلب عليها الفضول بحقّ الطعن في السن – على ان توجه اليه هذا السؤال :

– « ان سيد العمدة هو من غير ريب ابن عم اسقف د... المتوفى ، أليس كذلك ؟ »

فقال :

– « لا ، يا سيدتي . »

فأصرت العجوز الموسرة :

– « ولكنك تلبس ثوب الحداد عليه ؟ »

فاجابها قائلاً :

– « لقد كنت أيام شبابي ، خادماً في منزله . »

ولاحظ القوم كذلك انه كلما مر بالمدينة غلام صغير من غلمان سافوا يطوّف في البلاد باحثاً عن مداخن ينظفها ، كان العمدة يستدعيه ويسأله عن اسمه ، وينفحه بشيء من المال . وتحدّث غلمان سافوا بذلك ، ومرّ كثير منهم في تلك الطريق .

٥

بوارق غامضة في الافق

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة بادىء الامر اقوال خبيثة وافتراءات ضد مسيو مادلين – وهذا ما يحدث دائماً لاولئك الذين يلمعون بجهدهم الخاص . وما هي الا فترة قصيرة حتى تضاءلت هذه الافتراءات والاقوال الخبيثة فغدت هجاءً ، ثم انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائياً . لقد أمسى الاحترام كاملاً ، اجماعياً ، ودياً . ولقد انقضت آونة ، حوالى عام ١٨٢١ ، ’لفظت خلالها هاتان الكلمتان : « السيد العمدة » في مونتروي سور مير بمثل النبرة ، تقريباً ، التي ’لفظت بها هذه الكلمات : « صاحب السيادة الاسقف » في مدينة د ... عام ١٨١٥ . كان الناس يقبلون من مواطن تقع على مبعدة ثلاثين ميلاً ليستشيروا مسيو مادلين . لقد سوّى الخلافات ، وحال دون اقامة الدعاوى ، واصلح ما بين الاعداء . واختاره كل امرىء ، بطوعه ، قاضياً . لقد بدا وكأنه يحفظ كتاب القانون الطبيعي عن ظهر قلب . وفي مدى ست سنوات ، انتشرت عدوىً من الاجلال ، شيئاً بعد شيء ، في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلاً واحداً ليس غير ، في المدينة وما حولها ، اجتنب

هذه العدوى اجتناباً كاملاً . كان يعتصم باللامبالاة ، أياً ما كان العمل الذي يأتيه الاب مادلين ، وكأن اعتصامه ذاك كان يضرب من الغريزة ثابتٍ رابط الجأش . وكان يلتزم اليقظة والحذر . والذي يبـدو ، في الواقع ، ان في بعض الناس غريزة بهيمية حقيقية ، خالصة وكاملة مثل جميع الغرائز ، غريزة تخلق النفور والمشاركة الوجدانية ، وتفصل طبيعة عن طبيعة فصلاً سرمدياً ؛ غريزة لا تتردد ابداً ، ولا تتكدر أبداً ، ولا تعتصم بالصمت ابـداً ، ولا تجيز لنفسها ان تخطيء ابـداً ؛ غريزة صافية في غموضها ، منزّهة عن الضلال ، منغطرسة ، متمردة على جميع نصائح الفطنة ، وجميع تحليلات العقل ؛ غريزة تحـذّر سراً الرجل الكلب من وجود الرجل الهرة ، والرجل الثعلب من وجود الرجـل الاسد ، مهما تكن مصائرهم ومقاديرهم .

وفي كثير من الاحيان ، فيما يكون مسيو مادلين مجتازاً بأحـــد الشوارع ، هادئاً ، ودوداً ، محوطاً ببركات الجميع ، كان يتفق ان يلتفت خلفه فجأةً رجلٌ طويل القامة مُرتدٍ قبعة مسطحة وسترة رمادية ضارباً لونُها الى لون الحديد ومسلح بخيزرانة ضخمة ، فيُتبعه نظرَه حتى يتوارى عن البصر ، ويصالب ذراعيه ، هازاً رأسه بعض الشيء ، رافعاً شفته العليا بشفته السفلى حتى تحاذي أنفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تُترجم على هذا النحو : « ولكـن من هو هذا الرجـل ؟ أنا واثق من اني رأيته في مكان ما . وعلى اية حال ، فلستُ انا مغفلاً يُخدع به . »

وكانت هذه الشخصية ، الرصينة على نحو يكاد يكون مهدّداً ، من اولئك الذين يسيطرون على انتباه المراقب ، حتى حين يلقاهم لقاءً خاطفاً .

كان اسمه جافير ، وكان رجلاً من رجال البوليس .

كان يقوم في مونتروي سور مير بمهمة مفتش الشرطة البغيضة ، ولكن النافعة . إنه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مديناً

بمنصبه لحماية مسيو شابوييه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغليز ، وكان آنذاك مديراً للشرطة في باريس . وحين أقبل جافير على مونتروي سور مور كان الصناعي الكبير قد مكّن لنفسه في المدينة ، وكان الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

إن لبعض رجال الشرطة سيما فريدة تستطيع ان تلمح فيها الخسة ممزوجةً بالسلطان . لقد كانت لجافير تلك السيما ، ولكنْ من غير خسة .

ونحن على مثل اليقين من أنه لو كان في ميسور العيون ان تطّلع على النفوس اذن لتجلّت لنا في وضوح هذه الواقعةُ الغريبة : ان كل فرد من الانواع البشرية يطابق واحداً من انواع الخليقة الحيوانية . واذن لادركنا في يُسر هذه الحقيقة التي لا تخطر للمفكر الا بشق النفس : أنه ابتداءً من المحارة الى النسر ، ومن الخنزير الى النمر ، تجتمع الحيوانات كلها في الانسان ؛ وان كلاً منها ماثلٌ في احد الرجال ، بل إن عدداً منها لتلتقي في الشخص عينه في آنٍ معاً .

وليست الحيوانات غير اشكال من فضائلنا ورذائلنا هائمة أمام أعيننا . إنها اطياف نفوسنا المنظورة . ان الله يرينا اياها لكي يحملنا على التفكير . ولكن ، لما كانت الحيوانات مجرد ظلال ، فأن الله لم يجعلها قابلة للتربية بمعنى الكلمة الكامل . وما الداعي الى ذلك ؟ على حين أنه منح نفوسنا — بوصفها حقائق وبوصفها ذات اهداف خاصة بها — فطنةً وذكاء ، يعني انه منحها قابلية للتربية . ان في ميسور التربية الاجتماعية السليمة ان تستلّ من النفس دائماً ، كائنةً ما كانت ، الخيرَ الذي تنطوي عليه .

بيد ان هذا ينبغي ان يقال من وجهة النظر المحدودة الخاصة بالحياة الارضية الظاهرية ، ومن غير ما افتئات على المسألة العميقة المتصلة بالشخصية السالفة والمستقبلة للكائنات غير البشرية . إن الـ « أنا » المنظورة لا تخوّل المفكر ، بأية حال من الاحوال ، إنكار الـ « أنا » الخفية . وبعد هذا التحفظ نستطيع ان نمضي في سبيلنا .

والآن ، اذا سلّم المرء لحظةً معنا بأن في كل رجل نوعاً من انواع الخليقة الحيوانية فسوف يكون يسيراً علينا ان نصف ضابط الامن جافير .

ان فلاحي آشتوريش * يعتقدون بأن في كل مجموعة من الجراء التي تلدها الذئاب من بطن واحد كلباً تسارع الأمّ الى قتله ، خشيةَ ان يفترس الجراء الصغيرة عندما يكبر .

إخلع على ولد الذئب الكلبيّ هذا وجهاً بشرياً تحصل على جافير .

لقد وُلِدَ جافير في سجن . كانت امه عرّافة ، وكان ابوه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وحين ترعرع وقع في روعه أنه خارج نطاق المجتمع ؛ ويئس من امكان اجتياز ذلك النطاق في يوم من الايام . لقد لاحظ ان المجتمع يوصد ابوابه ، من غير ما رحمة ، في وجه طبقتين من الناس : اولئك الذين يعتدون عليه ، واولئك الذين يحرسونه . ولم يكن في ميسوره اكثر من ان يختار احدى هاتين الطبقتين ليس غير . وفي الوقت نفسه استشعر ان له اساساً لا سبيل الى وصفه من الصرامة والنظامية ، والنزاهة مُرْدَفاً بكراهية لا سبيل الى وصفها ايضاً لذلك العرق الغجري الذي ينتسب اليه . والتحق بالشرطة .

ووفق الى النجاح . وفي الاربعين من العمر غدا مفتشاً .

وكان قد استُخدم في صدر شبابه في سجون الجنوب الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقبل أن نمضي الى ابعد ، يحسن بنا ان نفهم ما الذي نعنيه بكلمتي « الوجه البشري » اللتين اصطنعناهما اللحظة في الكلام على جافير .

كان وجه جافير البشري يتألف من انف افطس ، ذي منخرين عميقين يحيط بهما شاربان ضخمان كثيفان يغطيان خديه جميعاً . وان المرء

* من مقاطعات الاندلس القديمة ، وهي بلاد جبلية تغطيها البيرينيه (جبال البرانس) الآشتوريشية .

ليأخذه شيء من الضيق حين يرى اولَ مرة الى هاتين الغابتين وهاتين المغارتين . وكان جافير اذا ما ضحك – وهو شيء نادر وفظيع – تنفرج شفتاه الرقيقتان وتنكشفان لا عن اسنانه وحسب ، بل عن لثاته ايضاً . وحول أنفه كانت ثنيّة عريضة ووحشية كتلك التي تكون حول خطم الايّل او الظبي . كان جافير ، اذا ما غلبت عليه الصرامة كلباً من كلاب درواس الشرسة الطباع الغليظة الرأس ، وكان اذا ما ضحك نمراً . وفي ما عدا ذلك كان ذا رأس صغير ، وفكّين ضخمين ، وشعر يخفي الجبهة وينوس فوق الحاجبين ، وعبسة بين العينين مركزية سرمدية كأنها نجم الغضب ، ونظرة قاتمة ، وفم مُطبَق مروّع ، وسيما من السلطة الضارية .

كان هذا الرجل مزاجاً من عاطفتين هما في ذاتهما بسيطتان وصالحتان جداً ، ولكنه كاد يجعلهما شريرتين بغلوّه في توكيدهما : احترام السلطة ، وكره التمرد . وفي عينيه لم تكن السرقة ، والقتل ، وجميع الجرائم غير اشكال من التمرد . لقد احاط كلّ ذي وظيفة في الدولة ، ابتداء من رئيس الوزراء حتى الناطور ، بضرب من الايمان الاعمى العميق . ولم يكن عنده ما يقدمه الى جميع اولئك الذين تخطّوا مرةً حدود القانون غيرَ الازدراء ، والكراهية ، والاشمئزاز . كان جازماً معمّماً لا محل عنده لاستثناء ما . فمن ناحية ، كان يقول : « الموظف لا يمكن ان يُخدع ، والقاضي لا يمكن ان يخطيء ! » ومن ناحية ثانية ، كان يقول : « اولئك قد فُقدوا نهائياً فليس الى شفائهم من سبيل . إن ايما خير لا يمكن ان يصدر عنهم » . كان يشايع مشايعةً كاملة اولئك المتطرفين الذين يعزون الى القانون البشري قدرةً ما ادريها على صنع ، او اذا شئت فقل على تحقيق ، الملكى من البشر ، والذين يضعون نظيراً لـ « ستيكس » * في ادنى المجتمع . كان رواقياً ، جدياً ، كالح الوجه . كان حالماً كئيباً ؛ وكان وضيعاً

* Styx في الميثولوجيا الاغريقية انه نهر في جهنم يطوّقها سبع مرات .

ومتشامخاً مثل جميع المتعصبين . كانت نظرته باردة ، وكانت ثاقبة مثل المخرز . كانت حياته كلها مفرّغةً في هاتين الكلمتين : اليقظة والمراقبة. لقد رسم خطاً مستقيماً عبرَ اشدّ الاشياء التواءً في العالم . كان ضميره رهنَ جدواه ، وكان دِينه رهن واجباته ، وكان جاسوساً كما يكون غيره من الناس كاهناً . والويل لمن يُقدّر له ان يقع بين يديه ! كان خليقاً به ان يعتقل اباه لو فرّ من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ويشي بأمه اذا خالفت الحكم الذي يفرض عليها الاقامة في مكان بعينه بعد الخروج من السجن . وكان خليقاً به ان يفعل هذا بمثل ذلك الضرب من الارتياح الباطني الذي ينبثق من الفضيلة . كانت حياته حياة حرمان، وعزلة ، وانكار ذات ، وعفة ؛ حياة لا تعرف اللهو البتة . كانت هي الواجب العنيد ، الحقود ، المستغرق في عمله كشرطيّ كما استغرق الاسبارطيون في اسبارطة . ترصّدٌ لا يرحم ، واخلاص ضارٍ ، وجاسوس بوليسيّ قاسٍ رخاميّ القلب . كان هو بروتوس * متحداً بفيدوك . **

كان شخص جافير كله يمثل الجاسوس والمخبر . وكان خليقاً بمدرسة جوزيف دو ميستر *** الصوفية - التي كانت تُنعش في ذلك العهد ما كان يدعى الصحف الموالية للنظام القديم موالاةً عنيدة بالنظريات المجلجلة حول تكوّن العالم - ان تزعم ان جافير كان رمزاً . لم يكن في ميسورك ان ترى جبينه المحجوب تحت قبعته ، ولم يكن في ميسورك ان ترى عينيه الضائعتين تحت حاجبيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى

---

* لوسيوس جونيوس بروتوس الزعيم الروماني الكبير الذي قاد الثورة على الملوك التاركين واقام النظام الجمهوري في رومة . واذ تآمر اولاده لاعادة التاركين لم يتردد في محاكمتهم واصدار حكم الموت عليهم .

** Vidocq مغامر فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٣٨) انتهى الى ان يصبح مديراً للامن العام بعد ان كان شريراً .

*** de Maistre فيلسوف ديني كان شديد التعصب لرومة ، شديد المداوة للثورة الفرنسية (١٧٥٣ - ١٨٢١)

ذقنه المدفونة في ربطة عنقه ، ولم يكن في مسيورك ان ترى يديه المرتدّتين الى ردنيه ، ولم يكن في مسيورك ان ترى خيزرانته التي كان يحملها تحت سترته . ولكن ما ان تأزف الساعة حتى تقع عينك على جبين ضيّق ذي زوايا ، ونظرة مشؤومة ، وذقن مهدّدة ، ويدين هائلتين ، وهراوة ضخمة جداً ، وقد انبثقت كلها ، فجاءةً ، من هذا الشبح ، وكأنها تنبثق من كمين .

وفي لحظات فراغه ، التي كانت نادرة ، كان من دأبه ان يطالع على الرغم من كراهيته للكتب . ومن هنا لم يكن أميـاً مئة بالمئة . ذلك ما كان يلاحظ ايضاً من بعض التوكيد في حديثه .

كان في نجوة من الرذيلة ، كما قلنا . فاذا ما استشعر الرضا عن نفسه أمتعها بقبضة من السعوط ، وهذا ما اثبت انه كان بشرياً .

ولسوف ندرك ، في غير عسر ، ان جافير كان « بعبعاً » لجميع افراد تلك الطبقة التي تدرجها احصاءات وزير العدل السنوية تحت عنوان: « اناس متشردون » . كان مجرد النطق باسم جافير كافياً لأن يحمل اولئك جميعاً على الفرار ، كأنّ وجه جافير يحجّرهم تحجيراً .

كذلك كان هذا الرجل الرهيب .

كان جافير اشبه بعين مسدّدةٍ أبداً الى مسيو مادلين . عين مفعمة بالشك والظنون . ولاحظ مسيو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يأبه به . إنه لم يوجّه أيما سؤال الى جافير ؛ إنه لم يلتمسه ولم يجتنبه . لقد تحمّل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الوطأة ، من غير ان يبدو منتبهاً لها . لقد عامل جافير كما عامل ايّ امرىء آخر ، في طمأنينة وكرم نفس .

ومن بعض الكلمات التي ندّت من جافير كان في ميسور المرء ان يحزر أنه استقصى على نحو سرّي — وبذلك الفضول الخاصّ بالعرق الذي ينتسب اليه ، والمنبثق من الغريزة اكثر من انبثاقه من الارادة —

جميعَ الآثار السالفة التي خلـّفها الاب مادلين في مواطن اخرى . لقد بدا انه يعرف ، ولقد ذكر احياناً على نحو مغلـّف ، ان شخصاً قد جمع بعض المعلومات في منطقة ما ، عن اسرة مفقودة ما . وذات يوم اتفق أن قال ، مخاطباً نفسه : « أحسب اني امسكت به ! » وطوال ثلاثة أيام ظل مضطرب البال لم ينطق بكلمة واحدة . لقد بدا وكأن الخيط الذي حسب انه امسك به كان مقطوعاً .

ولكن – وهذا هو التصحيح الضروري لما يمكن لمعنى بعض الكلمات ان يمثله حين تكون مطلقة اكثر مما ينبغي – ليس يمكن ان يكون ثمة ما هو معصوم عن الضلال ، حقاً ، في الكائن البشري ، وان خاصة الغريزة الرئيسية ، هي على وجه الضبط كونها قابلةً لأن تُزعَج وأن تُقتفى آثارها وان تُضلل . ولولا ذلك لكانت اسمى من الذكاء ، وعندئذ تكون البهيمة متمتعة بنور أصفى من ذلك الذي يتمتع به الانسان .

ومع هذا فقد بدا ان مسلكه العجيب ترك انطباعةً ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادثة .

٦
الاب فوشلوفان

كان مسيو مادلين يتمشى ذات صباح في احد ازقة مونتروي سور مير غير المعبّدة . فسمع صراخاً ، ورأى حشداً على مسافة قصيرة . فمضى الى هناك . كان رجل عجوز يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خرّ فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحداً من النفر القلائل الذين ظلوا اعداء لمسيو

مادلين في ذلك الحين . فحين وفد مادلين الى تلك المقاطعـــة ، كانت لفوشلوفان هذا ، وهو كاتبٌ عدلٌ وفلاح يكاد يكون امياً ، صناعـــة آخذة في البوار . لقد رأى هذا العاملَ البسيط يصبح غنياً ، على حين كان هو ـ الخبير العالم ـ يخطو نحو الافلاس . وملأه ذلك حسداً ، فبذل غاية جهده ، في جميـع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ؛ واذ لم يبق للرجل العجوز غير عربة وفرس ، واذ لم تكن له اسرة وأولاد ، فقد اضطرّ الى ان يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد ُكسرت فخذا الفرس ، فليس في ميسوره ان يتحرك . وعلق الرجل العجوز بين العجلات . وكانت سقطتُهُ ، لسوء الحظ ، على نحو جعل الثقل كله منصباً على صدره . كانت العربة مثقلة بالاحمال ، وكان الاب فوشلوفان ُيطلق حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا سحبـــه ، ولكن على غير طائل . ان الجهد الذي يعوزه النظام ، والعون الذي تعوزه البراعة ، والدفعة التي لا يحالفها الصواب قد تجهز عليه . كان من المتعذر إنقاذه إلا برفع العربة من أدنى . وكان جافير ، الذي اقبـــل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الاثقال .

ووصل مسيو مادلين . وارتدّ الحشد في احترام .

وصاح فوشلوفان العجوز :

ـ « النجدة ! اليس فيكم فتىً صالح ينقذ حياة رجل عجوز ؟ »

والتفت مسيو مادلين الى حشود النظارة :

ـ « هل عند احد منكم رافعة ؟ »

فأجاب احد الفلاحين :

ـ « لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

ـ « ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

ـ « لقد طلبناها من اقرب مكان ـ من « فلاشو » حيث يوجد حداد

ولكن لن تصل قبل ربــع ساعة او اكثر ، على كل حال . »

فصاح مادلين :

– « ربــع ساعة ! »

كان المطر قد هطل الليلة البارحة ، وكانت التربة دمثـة لينة ، فاذا بالعربة تسيـخ في الارض ، اكثر فأكثر ، لحظة اثر لحظة ، واذا بها لا تزداد إلا ضغطاً على صدر السائق العجوز . كان واضحاً ان اضلاعه سوف تسحق في اقلّ من خمس دقائق .

فقال مادلين مخاطباً الفلاحين الذين كانوا يشهدون المأساة :

– « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربــع ساعة . »

– « يتعين علينا ان نفعل . »

– « ولكن الاوان يكون قد فات ! الا ترون ان العربة تسيـخ اكثر فاكثر ؟ »

– « لا حيلة لنا في ذلك . »

فاستأنف مادلين القول :

– « إسمعوا ! لا يزال ثمة متسع ، تحت العربة ، يمكّن رجلًا ما من ان يزحف الى هناك ويرفعها بظهره . وفي نصف دقيقة يكون في إمكاننا ان نخرج الرجل البائس . اليس فيكم رجل ذو قوة وشجاعـة ؟ خمس ليرات ذهبيـة لمن يتقدم ! »

ولم يتحرك احدٌ من افراد الحشد .

وقال مادلين :

– « عشر ليرات ذهبية ! »

وخفض القوم ابصارهم . وغمغم احدهم قائلًا :

– « ينبغي ان يكون المرء قوياً الى حد شيطاني . ومع ذلك فقد يعرّض جسده للسحق . »

فقال مادلين :

– « هيّا ! عشرون ليرة ذهبية ! »
وران الصمت ، شأنه في المرة الأولى .
وقال صوت :
– « ليست الرغبة هي التي تعوزهم . »
والتفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد رآه حين أقبل .
وتابع جافير كلامه :
– « إنها القوة . ينبغي ان يكون المرء رجلاً فظيعاً حتى يتمكن من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه .
ثم انه سدّد نظراته الى مسيو مادلين ، وأضاف مؤكداً كل كلمة من كلماته :
– « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قطّ غير رجل واحد قادرٍ على ان يفعل ما تدعو اليه . »
وارتعد مادلين .
واردف جافير ، في انطباعة لامبالية ، ولكنْ من غير ان يرفع عينيه عن مادلين :
– « كان واحداً من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »
فقال مادلين :
– « آه ! »
– « في السجن الخاص بهؤلاء ، في طولون . »
وغدا وجه مادلين شاحباً .
وفي غضون ذلك كانت العربة تسيخ شيئاً فشيئاً . وهدر الاب فوشلوفان وصاح :
– « إني أختنق ! إن اضلاعي تتحطم ! إيتوني برافعة اثقال ! إيتوني بأيّ شيء ! اوه ! »

واجال مادلين بصره في ما حوله :

— « ليس هناك اذن شخص يرغب في ان يكسب عشرين ليرة ذهبية ، وينقذ حياة هذا الرجل العجوز البائس ؟ »

ولم يتحرك احدٌ من النظارة . واستأنف جافير كلامه :

— « انا لم اعرف قط غير رجل واحد كان يقدر على ان يحلّ محلّ رافعة أثقال . كان هو ذلك المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . »

وصاح الرجل العجوز :

— « اوه ، إنها تسحقني ! »

ورفع مادلين رأسه ، فألفى عين جافير الصقرية ما تزال مسدّدة اليه . ونظر الى الفلاحين المسمّرين في اماكنهم ، وابتسم ابتسامة حزينة . ثم إنه ركع ، من غير ان ينبس بكلمة . وحتى قبل ان يجد الحشد متسعاً من الوقت لاطلاق صيحة ، أمسى تحت العربة .

كانت لحظة رهيبة من التوقع والصمت .

لقد شوهد مادلين ، منبطحاً على بطنه تقريباً تحت هذا الثقل المخيف ، يحاول مرتين ان يجمع ما بين مرفقيه وركبتيه ، ولكنْ على غير طائل . وصاح القوم :

— « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »

وقال فوشلوفان العجوز نفسه :

— « مسيو مادلين ! اذهب من هنا ! لا مفرّ من الموت ؛ انت ترى ذلك . دعني وشأني . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »

ولكن مادلين لم يجب .

وحبس النظارة انفاسهم . كانت العجلات لا تزال تسيخ في الارض ، وكان قد غدا شبه متعذر على مادلين ان يخرج من تحت العربة .

وفجأة ، أجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة في بطء ، وشرعت العجلات تخرج من مغارزها . وسُمع صوت مختنق يصيح :

« عجلوا ! ساعدوا ! »

كان صوتَ مادلين الذي بذل في تلك اللحظة جهداً نهائياً .

واندفعوا كلهم الى العمل . كان في التفاني الذي اظهره رجل فردٌ ما أوقع القوة والشجاعة في نفوس الجميع . وتعاونت عشرون ذراعاً على رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ونهض مادلين . كان شديد الشحوب ، برغم انه كان يتصبب عرقاً . وكانت ملابسه ممزقة يعلوها الطين . وبكى القوم جميعاً . وقبّل الرجل العجوز ركبتيه ، ودعاه « الربّ الطيب » . أما هو فكانت تعلو وجهه انطباعة من الألم المبتهج ، السماوي لا أقدر على وصفها . وسمّر عينه الهادئة على جافير الذي كان لا يفتأ يراقبه .

٧
فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس

كان فوشلوفان قد كسر رَضفته * اثر سقوطه تحت العربة . فنقله الاب مادلين الى دار للمرضى كان قد انشأها لعماله في بناء مصنعه نفسه ، وعهد في شؤونها الى اثنتين من راهبات المحبة . وفي صباح اليوم التالي وجد الرجل العجوز ، على الطاولة القائمة الى جانب سريره ورقة ، نقدية من فئة الالف فرنك ، وهذه الكلمة مكتوبةً بخط الاب مادلين :

« إني اشتري منك عربتك وحصانك . »

كانت العربة مهشمة ؛ وكان الحصان ميتاً . ونعمَ فوشلوفان بالشفاء . ولكن ركبته ظلت متصلبة . ووُفق مادلين — من طريق توصيات حصل عليها من الراهبات ومن الكاهن — الى ان يمكّن الرجل العجوز

* الرضفة : عظام الركبة .

بستانياً في دير للراهبات في حيّ سان انطوان بباريس .

وبعد ذلك بقليل ، عُيّن مسيو مادلين عمدة . واولَ ما رأى جافير الى مسيو مادلين متقلداً الوشاح الذي يمنحه السلطة المطلقة على المدينة ، استشعر مثل تلك الرعدة التي يجـــدر بكلب من كلاب درْواس ان يستشعرها حين يتروح ذئباً في ثياب سيده . ومن ذلك الحـــين انشأ يجتنبه ما استطاع . فاذا ما حتمت ضرورات المصلحة الاتصالَ بالسيد العمدة ، فليس من سبيل الى التفادي من ذلك البتة ، تحدّث اليـه في احترام عميق .

وكان للازدهار الذي خلقه الاب مادلين في مونتروي سور مير — بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرنا اليها — مظهر آخر غير منظور ، ولكنه ليس اقلّ شأناً وخطراً . وهذا المظهر لا يخدع المرء عن نفسه ابداً . فحين يتألم السكان ، وحين يطلبون العمل فلا يجدونه ، وحـــين تصاب التجارة بالكساد ، يقاوم المكلف الضريبةَ ، بحكم الفاقة ، ويستنفد المُهَل القانونية ويتخطاها ، وتضطر الدولة الى ان تنفق اموالاً طائلة على جباية الضرائب وعلى تحصيلها عنوةً من المكلفين . اما حـــين يكون العمل موفوراً ، وحين يكون البلد غنياً سعيداً فعندئذ تُدفع الضرائب في يُسر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالاً كثـــيراً في جبايتها . وفي ميسورنا القول ان للفقر والثروة العامين ميزاناً لا يخطيء ، هو نفقات جباية الضرائب . وخلال سبع سنوات خُفّضت نفقات جبـــاية الضرائب في اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، مما جعـــل كثيراً من المسؤولين — وبخاصة مسيو دو فيليل وزير المال آنذاك — يكثرون من الاشارة الى ذلك الاقليم والاستشهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احـــداً لم يتذكّرها . ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان اشبه بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخصت الى هناك ، فألحقت بالمصنـــع

الخاص بالنساء . كان العمل جديداً عليها ، تماماً ؛ فلم يكن في ميسورها ان تبرع فيه براعةً كبيرة ، ومن هنا لم توفق الى ان تفوز بأكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي . ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد حُلّت المشكلة ؛ فهي تكسب رزقها .

٨
مدام فيكتورنيين
تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفتْ لحظةً من الابتهاج . أيّ نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعاودتها الرغبة في العمل حقاً . لقد اشترت مرآة ، وابهجت نفسَها بمشهد شبابها ، وشعرها الجميل ، وأسنانها الرائعة ، ونسيت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بأمكانيات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريبـــاً . واستأجرت غرفة صغيرة ، واثثتها على ان تدفع نفقات ذلك من دخل عملها في المستقبل . وتلك بقية من بقايا عدم التنظيم الذي تعوّدته من قبل .

واذ لم يكن في وسعها ان تقول انها كانت متزوجة ، فقد عُنيت اشدّ العناية ، كما ألمعنا سابقاً ، بأن لا تتحدث عن بنتها الصغيرة .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردييه وزوجته بالمبلـــغ المتفق عليه تماماً . واذ كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحداً من الكتاب العموميين .

كانت تبعث اليها بالرسائل بين الفينة والفينة ؛ ذلك ما لاحظـــه

الناس . وشرعت العاملات في قسم النساء يتهامسن بأن فانتين « تكتب رسائل » وان « لها مسالك غريبة » .

وليس اقدر على ترصّد أعمال الناس من اولئك الذين لا تعنيهم تلك الأعمال . « لماذا لا يرجع هذا الرجل الا بعد الغسق ؟ » « لماذا لا يستغني عن مفتاحه يوم الخميس ابداً ؟ » « لماذا يسلك الطرق الفرعية دائماً ؟ » « لماذا تغادر هذه السيدة عربتها ، دائماً ، قبل ان تصل الى المنزل ؟ » « لماذا تبعث من يشتري لها دفتراً من ورق الرسائل على حين تمتلىء حقيبتها بذلك الورق ؟ » الخ . الخ . وهناك أناسٌ لا يحجمون — لكي يحلوا هذه الاحاجي التي هي برغم ذلك غير ذات اهمية البتة بالنسبة اليهم — عن ان ينفقوا مالاً اكثر ، ويضيعوا وقتاً اكبر ، ويجشموا أنفسهم عناءً اعظم من ذلك الذي يقتضيه القيام بعشرة اعمال صالحات ، يفعلون ذلك بالمجان ، لمجرد اللذة ، ومن غير ان يقبضوا ثمن فضولهم شيئاً غير الفضول . انهم يتعقبون هذا الرجل او تلك المرأة اياماً بكاملها ، ويقفون موقف الحرس ساعات بطولها في زوايا الشارع ، تحت ابواب الازقة ، في موهن من الليل ، وقد استبدّ بهم البرد واصابهم المطر ، ويرشون الرسل ، ويسكرون سائقي العربات والخدم ، ويدفعون الاجور الى احدى الخادمات ، ويشترون احد البوابين . من اجل ماذا ؟ للاشيء . بمجرد توقٍ الى النظر ، الى المعرفة ، الى النفاذ الى الاشياء . بمجرد رغبة عاومة في القال والقيل . وكثيراً ما يؤدي الكشف عن هذه الاسرار ، ونشر هذه الخفايا ، وبسط هذه الاحاجي في وضح النهار الى كوارث ، الى مبارزات ، الى افلاسات ، الى خراب أسر ، الى إشقاء نفوس ، ليغتبط اعظم الاغتباط اولئك الذين « اكتشفوا كل شيء » ، من غير ان تكون لهم مصلحة ما ، وبدافع من الغريزة ليس غير . شيء محزن !

وبعض الناس تأتيهم النزعة الى الشر من مجرد حاجتهم الى الكلام .

إن حديثهم ، وإن سمرهم في الصالونات ، وإن ثرثرتهم في غرف الانتظار هي اشبه ما تكون بتلك المواقد التي تستنفد الحطب على نحو سريع . انهم في حاجة الى مقدار كبير من الوقود . وما ذلك الوقود غير جارهم .

وهكذا أخضعت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فأن غير واحدة كانت تحسدها لشعرها الاشقر واسنانها البيضاء .

ولقد روى بعضهم انها كثيراً ما كانت تشيح بوجهها ، في المصنع ، وقد تحلّقت النسوة من حولها ، لكي تكفكف عبرة من عبراتها . تلك كانت اللحظات التي فكّرت فيها بابنتها . ومن يدري ، فقد تكون فكرت في تلك اللحظات بالرجل الذي سبق لها ان احبته ايضاً .

إنها لمهمة فاجعة تلك التي تقتضي المرء ان يقطع صلات الماضي القاتمة .

لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الاقل ، وتوجه تلك الرسالة الى العنوان نفسه دائماً ، وانها كانت تدفع اجرة البريد سلفاً . ووفقت النسوة الى معرفة العنوان : « **مسيو ، مسيو تيناردييه ، صاحب فندق ، في مونفيرماي .** » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل عجوز ساذج ما كان قادراً على ان يملأ معدته بالنبيذ من غير ان يُفرغ جيبه من الاسرار ، قد أُغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الخمر . وبالاختصار ، فقد عُرف ان لفانتين ولداً . « ينبغي ان تكون من ذلك النوع من النساء » . ولقد وُجدت امرأة ثرثارة قصدت الى مونفيرماي ، وتحدثت مع تيناردييه وزوجته ، حتى اذا رجعت قالت :

— « لقد دفعت خمسة وثلاثين فرنكاً فوقفت على جلية الامر . لقد رأيت الطفلة بعيني ! »

وكانت المرأة الفضولية التي فعلت ذلك عجوزاً تدعى مدام فيكتورنيين ، الحارسة فضيلةَ كل انسان ، الموكلة بالمحافظة عليها . كانت مدام فيكتورنيين في السادسة والخمسين ، وكانت ترتدي قناع الشيخوخة فوق

قناع البشاعة . كان صوتها يرتجف ، وكانت اهواؤها متقلبة . والواقع ان هذه المرأة العجوز كانت في يوم من الايام شابة – شيء عجيب حقاً . وفي صباها ، وفي قلب عام ٩٣ ، تزوجت راهباً فرّ من الدير بقلنسوة حمراء ، وانتقل من البرناردين * الى اليعقوبيين ** . كانت مهزولة ، عنيدة ، فظة ، نزقة ، شائكة ، تكاد تكون سامة . انها لم تنس قطّ راهبها ، التي كانت ارملته ، والذي كان يعـــاملها في قسوة وغلظة . كانت 'قرّاصاً فتّنه' ثوب راهب . وبعد سقوط نابوليون ، غدت متطرفة في التقوى ، وكان تطرفها هذا حماسياً الى درجة حملت الكهنة على ان يغفروا لها حكايتها مع الراهب . وكان لها مِلْك صغير ، اوصت به – في كثير من الطنين والرنين – لاحدى الرهبانيات الدينية . وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في قصر الاسقفية في آراس . إن مدام فيكتورنيين هذه ، اذن ، قصدت الى مونتفيرماي ، ثم رجعت قائـلة : « لقد رأيت الطفلة بعيني . »

واستغرق ذلك كله بعض الوقت . وكانت فانتين قد سلخت مـــا يزيد على عام في المصنـــع عندما تقدّمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكاً ، قائلةً لها إن المصنع لم يعـــد في حاجة اليها ، داعيةً اياها – باسم العمدة ايضاً – الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تيناردييه وزوجته بخمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر ، بعد ان سبق لهما ان فازا باثني عشر فرنكاً بدلاً من ستة فرنكات .

وصُعقت فانتين . لم يكن في مستطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من أجر الغرفة وثمن الاثاث ، وما

---

* البرناردينون Bernardins رهبانية دينية تنسب الى القديس برنارد (١٠٩١ – ١١٥٣) .
** اليعقوبيون او اليعاقبة Jacobins حزب ثوري شهير كان يعقد اجتماعاته في دير اليعاقبة القديم في باريس . وقد لعب اليعاقبة دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية .

كانت الخمسون فرنكاً لتغطي ذلك الدين . وتهدّج صوتها ببضع كلمات متوسلة . فأفهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . والى هذا فلم تكن فانتين الا عاملة من درجة متوسطة . فما كان منها إلا ان غادرت المصنع ، يغمرها الخجل اكثر مما يغمرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد أصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع !

ولم تؤانس في نفسها القدرة على ان تنطق بكلمة . ولقد أشير عليها بأن تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد أعطاها العمدة خمسين فرنكاً ، لأنه كان خيّراً ؛ وطردها من المصنع لانه كان مستقيماً . لقد اذعنت لذلك القرار .

٩
نجاح مدام فيكتورنيين

واذن فقد صلحت ارملة الراهب لشيء .

ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وتلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا في النادر النادر .

لقد أقام على رأس هذا الجناح عانساً اقترح الكاهن اسمها عليه ؛ وكان له كامل الثقة في هذه الناظرة المهيبة حقاً ، الرصينة ، المنصفة ، النزيهة ، العامر صدرها بالرحمة التي تقوم على اساس من العطاء ، اكثر مما هو عامر بتلك الرحمة التي تقوم على التفهم والصفح . لقد فوّض مسيو مادلين كل شيء اليها . وان خير الناس ليضطرون في بعض الاحيان الى ان يُنيبوا عنهم من يباشر سلطتهم . وبهذا السلطان المطلق ، وعلى اساس من الايمان بأنها تأتي عملاً حسناً ، صاغت ناظرة

المصنع الاتهام ، وحاكمت فانتين ، وادانتها ، ونفذّت حكمها فيها .

أما الخمسون فرنكاً فقد قدمتها اليها من اعتماد كان مسيو مادلين اودعها إياه للتصدّق على المعوزات ومدّ يد العون الى العاملات ، من غير ان يسألها عنه حساباً .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة في بيوت المنطقة . لقد طرقت ابواب المنازل باباً اثر باب . ولكن احداً لم يكن راغباً فيها . وما كان في ميسورها ان تغادر البلدة . ذلك بان تاجر الامتعة المستعملة الذي كانت مدينة له بثمن أثاثها ، ويا له من اثاث ، قال لها : « اذا رحلت فسوف أعمل على القاء القبض عليك بوصفك لصّة . » وبأن المالك الذي كانت مدينة له بأجر غرفتها قال لها : « انتِ نضرة العود بهية الطلعة ، وفي ميسورك ان تدفعي . » وقسمت الخمسين فرنكاً بين المالك والتاجر ، واعادت الى هذا الأخير ثلاثة ارباع بضاعته ، مبقية ما هو ضروريّ ليس غير ، فاذا بها تجد نفسها من غير عمل ، ومن غير منزلة ، واذا بها تجد نفسها ولم يبق لها ما تملكه غير سريرها ، ولا يزال عليها دينٌ يبلغ نحواً من مئة فرنك .

وبدأت تصنع قمصاناً خشنة لجنود الحامية ، كاسبةً بذلك اثني عشر « سو » يومياً . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفي هذه الفترة بالذات شرعت تقصّر في أداء ما عليها الى تيناردييه وزوجته في ميقاته المحدّد .

واياً ما كان ، فان المرأة العجوز التي كانت تضيء شمعتها لها حين ترجع الى غرفتها بعد ان يهبط الليل علّمتها فنّ الحياة في غمرة البؤس . فوراء العيش على القليل ، يقوم العيش على لا شيء . انهما غرفتان : الاولى مظلمة ، والثانية حالكة السواد .

وتعلّمت فانتين كيف تستغني عن نار الشتاء استغناء تاماً ، وكيف تتخلى عن طائر يأكل من الذرة البيضاء ما قيمته ربع « سو » كل يومين ، وكيف تصنع من تنورتها الداخلية لحافاً ، وكيف تصنع من

لحافها تنورة داخلية ، وكيف توفر شمعتها بان تتناول طعامها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة . ان افراداً قلائل يعرفون كم يستطيع بعض المخلوقات الضعاف الذين شابوا على الحرمان والامانة ان ينتزعوا من الفلس الواحد . وانما ينتهي ذلك الى ان يصبح موهبة . ولقد اكتسبت فانتين هذه الموهبة الرفيعة ، واستعادت شجاعتها بعض الشيء .

وفي تلك الفترة قالت لاحدى جاراتها :

— « عجيب ! إني اقول لنفسي : اذا لم أنم غير خمس ساعات ، واذا اشتغلت طوال الساعات الباقية في خياطة الثياب ، فعندئذ استطيع أن أكسب دائماً ما يقيم أودي ، أو يكاد . وفوق هذا ، فحين يكون الانسان محزوناً يكون استهلاكه من الطعام اقلّ . وأياً ما كان ، فان الالم والقلق ، وان قليلًا من الخبز في يد ، وقبضة من الاحزان في يد — كلّ ذلك سوف يبقيني على قيد الحياة . »

وفي محنتها تلك كان خليقاً بابنتها ، لو كانت الى جانبها ، أن تُدخل على فؤادها سعادة عجيبة . وفكرت في أن تبعث في طلبها . ولكن ماذا ؟ أتريد أن تقاسمها حرمانها ؟ والى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبيل الى ان تفيها دينها ؟ والسفر ؟ كيف السبيل الى ان تدفع نفقاته ؟

وكانت العجوز التي اعطتها ما يمكن ان يدعى دروساً في حياة الفقر أمرأة تقية ، تدعى مارغريت — أمرأة ورعة ورعاً حقيقياً ، فقيرة ، محسنة الى الفقراء ، ومحسنة الى الاغنياء ايضاً ، عارفة من الكتابة ما يمكنها من ان توقّع « مارغريت » ، مؤمنة بالله ، وذلك هو العلم .

إن ثمة كثيراً من هذه الفضائل في المواطن الدنيا . ولسوف تصبح ذات يوم في المواطن العليا . فلهذه الحياة غدٌ .

وفي بادىء الامر ، كانت فانتين تستشعر الخجل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها .

وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل ان الناس يتلفتون خلفها ويومئون اليها . لقد نظر اليها كل إنسان ، ولكن احداً لم يلق عليها السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحادُّ البارد الى جسدها وروحها وكأنه ريحٌ شمالية .

وفي المدن الصغيرة يبدو وكأن المرأة التعسة تقف عارية أمام تهكم الجميع ، وفضول الجميع . ففي باريس ، على الاقل ، لا يعرفك أحد ، وهذه الظلمة وقاء لك وستر . أوه ! كم قد تاقت الى الذهاب الى باريس ! مستحيل !

والحق انه تعين عليها ان تتعود الاحتقار كما تعودت الفقر . وشيئاً بعد شيء حفظت دورها . وبعد شهرين أو ثلاثة ، نفضت عنها العار وعاودت الخروج من غرفتها وكأنْ لم يكن شيء . لقد قالت في ذات نفسها : « لست أبالي بعد اليوم . » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة رأسها ، مبتسمة ابتسامة مريرة ، شاعرة بأن ماء الحياء عندها قد بدأ يجفّ .

ورأتها مدام فيكتورنيين أحياناً تمرّ بنافذتها ، ولاحظت شقاء « هذه المخلوقة » التي « أعيدت » — بفضلها — « الى مكانها » . وهنأت نفسها بذلك . إن للشريرين سعادة سوداء .

وارهق العمل الموصول صحة فانتين ، وازداد سعالها الجافّ الضئيل . ولقد قالت ذات يوم لجارتها مارغريت :

— « انظري ما أشدّ حرارة يديّ . »

ومع ذلك ففي الصباح ، حين كانت تسرّح بمشط عتيق مكسور شعرَها الجميل الذي ينساب في أمواج حريرية ، كانت فانتين تستمتع بلحظة من لحظات السعادة .

١٠

عاقبة النجاح

كانت قد فُصلت من العمل في أواخر الشتاء . وتقضّى الصيف . ولكنّ الشتاء أقبل من جديد . ايام قصار ، وعملٌ اقلّ . وفي الشتاء ليس ثمة دفء ، ولا نور ، ولا ظهر . إن المساء ليلامس الصباح ، وإن ثمة ضباباً ، وغَسقاً ، ونوافذ مربدّة ، فليس في ميسورك ان ترى في وضوح . إن السماء في الشتاء لا تعدو ان تكون باب مغارة ؛ والنهار كله هو المغارة . إن سيما الفقر لتبدو على وجه الشمس . فصلٌ مخيف ! إن الشتاء ليحيلُ مـاء السماء وقلب الانسان الى حجارة . وأبرمَها دائنوها .

كانت فانتين تكسب اقلّ مما ينبغي . وكانت ديونها قد تضخمت . وامطرها تيناردييه وزوجته بعد أن قصّرت عن دفع المال اليهما — برسائل متلاحقة فطّرت محتوياتها فؤادها ، واستنفدت نفقاتها البريدية آخر درهماتها . وذات يوم ، كتبا اليها ان صغيرتها كوزيت ليس عندها شيء من الملابس تستعين به على برد الشتاء ، وانها في حاجة الى تنورة من الصوف ، وان على امها ان تبعث اليهما بعشرة فرنكات على الاقل في هذه السبيل . لقد تلقّت الرسالة ، وراحت تسحقها بيديها طوال النهار . حتى اذا هبط الليل شخصت الى دكان حلاق عند زاوية الشارع ، ونزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشقر الرائع حتى خصرها .

وصاح الحلاق :

— « يا له من شعر جميل ! »

فقالت :

— « كم تدفع اليّ فيه ؟ »

– « عشرة فرنكات . »

– « فضة . »

واشترت تنورة مزرودة وبعثت بها الى تيناردييه وزوجته .

واثارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المـــال هو طِلبتها . وقدّما التنورة الى ايبونين . وظلت القبّرة المسكينة ترتجف .

وقالت فانتين في ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البرد . لقد ألبستها من شعري ثوباً . » واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطّت رأسها المجزوز . وبرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة .

واعتملت في فؤاد فانتين لواعج مظلمة .

فحين رأت انه لم يعد في ميسورها ان تسرّح شعرها شرعت تنظر في كراهية الى كل ما حولها . كانت قد شاطرت القوم ، منذ زمن بعيد ، حبهم العظيم للأب مادلين ، ولكنها بحكم تكرارها لنفسها انه هو الذي طردها من العمل ، وانه هو سبب شقائها ، ما لبثت ان أبغضته هو ايضاً ، هو بخاصة . كانت اذا ما اجتازت بالمصنع حين يكون العمال لدى الباب تُكره نفسها على ان تضحك وتغني .

وذات يوم رأتها عاملة عجوز تغني وتضحك على هذه الشاكلة فقالت :

– « ههنا فتاة سوف تنتهي الى نهاية سيئة . »

واتخذت لها خليلاً ؛ كان هو الوافد الاول . إنها لم تحبّه ولكنها عاشرته بدافع من التبجح والمباهاة الفارغة ، وقد عصف الحنق بفؤادها . كان رجلاً شقياً – شبه موسيقي متسول – رجلاً كسولاً ذا أطمار بالية ، اوسعها ضرباً ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته في اشمئزاز .

كانت تعبد ابنتها .

وكلما أمعنت في الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها إظلاماً ، تعاظم اشراق هذا الملاك الصغير العذب في فؤادها . وقالت : « حين أصبح غنية سوف أبقي حبيبتي كوزيت الى جانبي . » وضحكت . ان

السعال لم يفارقها ، وان جسدها ليتصبب في الليل عرقاً .

وذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت مصابة بمرض من الامراض الوبائية . إنها الحمى العسكرية ، كما يدعونها ، والادوية الضرورية غالية جداً . ان اثمانهـا تكاد تقتلنا ، وليس في استطاعتنا بعدُ ان نشتريها . وما لم تبعثي الينا بأربعين فرنكاً في خلال اسبوع فأن الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وانفجرت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

– « اوه ، إنهما طيّبان ! اربعون فرنكاً ! فكّري في هـذا ! يعني ليرتين ذهبيّتين ! من اين يحسبان اني استطيع الحصول على هاتين الليرتين ؟ أهما مجنونان ؟ هذان الفلاّحان ؟ »

ومع ذلك ، فقد مضت الى السلّم ، قرب احدى الكوى ، وأعادت تلاوة الرسالة من جديد .

ثم انها هبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضةً واثبةً ، وهي لا تزال تضحك .

والتقاها بعضهم فقال لها :

– « ماذا الذي يحملك على ان تكوني مبتهجةً الى هذا الحدّ ؟ »

فاجابته قائلة :

– « نكتة بلهاء بعث بها اليّ بعض اهل الريف منـذ لحظة . انهم يطالبونني باربعين فرنكاً ! يا لهم من فلاحين ! »

وفيما هي تجوز بالساحة رأت جمهرة من الناس محتشدةً حول عربـة ذات شكل غريب وقد وقف في اعلاهـا خطيب يرتدي ملابس حمراء . كان مشعوذاً يلهي الناس بأعمال الرشاقة وطبيبَ اسنان متجولاً ، وكان يعرض على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ، والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القـوم على

هذا الخطاب الذي اختلطت فيه العامية الموجهة الى الرعاع ، بالرطانــــة الموجهة الى اصحاب الوجاهة . ورأى قالع الاسنان هـذه الفتاة الجميلة الضاحكة ، وصاح فجأة :

— « ان لك اسناناً رائعة ، ايتها الفتاة الضاحكة هناك ! إذا بعتني سنتيكِ القاطعتين أعطكِ ليرة ذهبية مقابل كلّ منهما . »

فسألته فانتين :

— « ما هذا ؟ ما هما سنّاي القاطعتان ؟ »

فاستطرد استاذ طبّ الاسنان قائلًا :

— « السنّان القاطعتان هما السنان الأماميتان ، السنّان الاماميتان من الفك الأعلى . »

فصاحت فانتين :

— « يا للفظاعة ! »

فدمدمت عجوز لا اسنان لها كانت واقفة هناك :

— « ليرتان ذهبيتان ! ما اسعدها وأعظم حظها ! »

وولّت فانتين فراراً ووضعت بعض اصابعها في أذنيهـــا لكي لا تسمع صوت الرجل الابحّ الذي كان يناديها صائحاً :

— « فكّري ، ايتها الحسناء ! ليرتان ذهبيتان ! ما اعظم الخدمة التي تستطيعان اسداءها اليك ! اذا آنستِ في نفسك الجرأة على ذلك فتعالي الليلة الى فندق « تيلاك دارجان » . انك سوف تجدينني هناك . »

ورجعت فانتين الى غرفتها . كانت هائجة غضبى ، وقد روت القصة لجارتها الطيبة مارغريت :

— « هل تفهمين هذا ؟ أليس هو رجلًا فظيعاً ؟ لماذا يجيزون لمثل هؤلاء الناس ان يطوّفوا في البـــلاد ؟ ان اخلع سنّيّ الاماميتين ! ولكن ، سوف أبدو مخيفة عندئذ ! ان الشعر ينمو من جديد ، أما الاسنان ! اوه ، يا له من رجل وحش ! اني افضّل ان ألقي بنفسي

من الدور الخامس الى بلاط الشارع ! لقد قال لي انه سوف يكون ، الليلة ، في الـ « تيلاك دارجان . »

فسألتها مارغريت :

– « وماذا عرضَ مقابل ذلك ؟ »

– « ليرتين ذهبيتين . »

– « يعني اربعين فرنكاً . »

فقالت فانتين :

– « أجل ، انهما تساويان اربعين فرنكاً . »

ولازمها القلق ، وانصرفت الى عملها . وبعد ربع ساعة تركت ما كانت تخيطه ، ومضت الى السلم لتعاود تلاوة الرسالة التي تلقتهـــا من تيناردييه وزوجته .

حتى اذا رجعت ، قالت لمارغريت التي كانت تعمل الى جانبها :

– « ما هي هذه الحمى العسكرية ؟ هل تعرفين ؟ »

فأجابتها العانس :

– « نعم . إنها مرض . »

– « واذن ، فهي تحتاج الى كثير من الادوية ؟ »

– « نعم ، الى ادوية فظيعة . »

– « وكيف تصيب الانسان ؟ »

– « إنها مرض يصيب الانسان في لحظة . »

– « هل تصيب الأطفال ؟ »

– « انها تصيب الاطفال على الخصوص . »

– « وهل يموت الناس فيها ؟ »

فقالت مارغريت :

– « في كثير من الاحيان . »

وانسحبت فانتين ، ومضت كرة اخرى لتعيد تلاوة الرسالة ، فوق

السلم .

وفي المساء غادرت الغرفة ، متجهةً نحو « شارع باريس » حيث تقوم الفنادق .

وفي صباح اليوم التالي ، حين شخصت مارغريت الى غرفة فانتين قبل بزوغ الفجر – ذلك بأنهما كانتا تعملان دائماً معاً ، وهكذا تضيئان شمعة واحدة بدلاً من شمعتين – وجدت فانتين جالسة على سريرها ، شاحبةً مثلوجة . لم تكن قد آوت الى الفراش . وكانت قلنسوتها قد سقطت على ركبتيها . كانت الشمعة قد اشتعلت طوال الليل ، وكانت على وشك ان تلفظ انفاسها الاخيرة .

ووقفت مارغريت على العتبة ، وقد اذهلتها هذه الفوضى الماثلة وصاحت :

– « يا الٓهي ! لقد فنيت الشمعة . لقد حدث شيء ما . »

ثم إنها نظرت الى فانتين ، التي ادارت نحوها رأسها العاطل عن الشعر .

كانت فانتين قد كبِرَتْ عشر سنوات ، منذ الليلة البارحة .

وقالت مارغريت :

– « رحمتك ، يا ربّ ! ماذا دهاكِ ، يا فانتين ؟ »

فقالت فانتين :

– « لا شيء . على العكس تماماً . إن ابنتي لن تموت بذلك المرض الفظيع نتيجةً لانعدام المساعدة . أنا مرتاحة النفس . »

حتى اذا قالت ذلك أرتِ العانس الليرتين الذهبيتين اللتين التمعتا فوق الطاولة .

فقالت مارغريت :

– « اوه ، يا الٓهي ! ولكن هذه ثروة ! من اين جئت بهاتين الليرتين الذهبيتين ؟ »

فأجابتها فانتين :

— « لقد جئتُ بها . »

قالت هذا ، وابتسمت . واضاءت الشمعة محيّاهـا . كانت ابتسامة كليمة ؛ ذلك بأن زاويتي فمها كانتا مضرجتين بالدماء ، وكانت فجوةٌ مظلمة تتبدّى هناك . »

كانت السنّان قد قُلعتا .

وارسلت الاربعين فرنكاً الى مونفيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تيناردييه وزوجته . إن كوزيت لم تكن مريضة .

وطرحت فانتين مرآتها من النافذة . كانت قد انتقلت ، منذ زمن طويل ، من غرفتها الصغيرة القائمة في الدور الثاني الى غرفـــة في أعلى البناية توصد بمزلاج تحت السقف — الى عليّة من تلك العلالي التي يشكل سقفها زاوية مع أرضها ، والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة . إن الفقير لا يستطيع ان يمضي الى أقصى غرفته ، او الى اقصى قَدَره ، إلاّ بان ينحني اكثر فأكثر على نحوٍ موصول . إنها مـا عادت تملك سريراً . لم يبق لديها غير خرقة بالية دعتها لحافاً ، وغير فراش أرضيّ ، وكرسي تقطّع قشّه . وكانت شجرة الورد التي عندها قد جفّت في احــــدى بالزوايا ، وأضرّ بها النسيان . وفي الزاوية الاخرى كان وعاء زبـــدة خصّص للماء ، الذي جلّد في الشتاء ، وقـد ظلّت مختلف المستويات التي انتهى اليها الماء واضحةَ المعالم ، فترةً طويلة ، بدوائر من الجليد . لقد فقدت حياءها ، وها هي ذي تفقد الرغبة في التزين . وتلـك هي الأمارة الاخيرة . أمست تغادر مأواها بقلنسوة قذرة . ولم تعد تغسل ملابسها إما بسبب من قلة الوقت وإما بسبب من اللامبـالاة . وكانت كلما تهرأت اعقاب جواربها تخفض هذه الاعقاب وتخفيها في الحذاء . وإنما كان يتجلّى ذلك ببعض التغضّنات العمودية : لقد رقعت مشدّها العتيق

المتهرىء مخرق من الخام كانت تتمزّق عند أضأل حركة . وعنّفها دائنوها ولم يتركوها ترتاح لحظةً واحدة . كانت تلتقيهم في الشارع ، وكانت تلتقيهم كرّة اخرى على سلّمها . لقد انفقت لياليَ بكاملها وهي تبكي وتفكر . كانت عيناها شديدتي الالتماع ؛ وكانت تحسّ بألم موصول في كتفها ، قرب أعلى عظم الكتف الأيسر . كانت تسعل كثيراً . وكانت تكره الاب مادلين كرهاً عميقاً . ولم تتشكَّ قطّ . لقد خاطت سبع عشرة ساعة يومياً ، ولكنّ احد مقاولي السجون – وكان يشغّل السجناء بثمن بخس – كسر السعر فجأةً ، مما اسقط أجرة العامل الحرّ الى تسعة « سو » في اليوم . سبع عشرة ساعة من العمل ، وتسعة « سو » في اليوم ! وغدا دائنوها اشدّ قسوة مما كانوا في ايما وقت مضى . وكان تاجر الامتعة المستعملة الذي استردّ كل أثاثه تقريباً لا يفتأ يقول لها : « متى ستدفعين اليّ ، ايتها النذلة ! »

يا الهي ! ايّ شيء كانوا يريدون منها ان تفعله ؟ لقد استشعرت انها مطارَدة ؛ وبدأ شيء من الوحش الضاري ينمو في ذات نفسها . وحوالى ذلك الوقت كتب تيناردييه رسالة اليها قال فيها إنه قد انتظر – في سماحة وكرم نفس – اكثر مما ينبغي ، وان عليها ان ترسل اليه مئة فرنك في الحال ، وإلا فأنه سوف يطرد كوزيت الصغيرة ، التي نقهت من مرضها الوبيل ، ويقذف بها الى البرد ، الى قارعة الطريق ، وعندئذ تصبح ما تستطيع أن تصبحه ، وعندئذ تموت اذا شاءت . وفكرت فانتين : « مئة فرنك ، ولكن اين المكان الذي يستطيع الانسان ان يكسب فيه مئة « سو » في اليوم ؟ »

ثم قالت :

– « حسن . سوف أبيع ما بقي لي . »

وأمست المخلوقة البائسة بنتاً من بنات الهوى .

١١
المسيح هو مخلصنا

ما هي قصة فانتين هذه ؟ إنها قصة المجتمع يشتري أمَةً رقيقة .

ممّن ؟ من الشقاء .

من الجوع ، من البرد ، من الوحدة ، من التخلّي ، من الحرمان . صفقة موجعة . نفسٌ بشرية مقابل كسرة من الخبز . الشقاء يَعرض ، والمجتمع يَقبل .

إن شريعة يسوع المسيح المقدسة لتهيمن على حضارتنا ، ولكنها لمّا تنفُذْ اليها بعد . يقولون إنّ الرقّ قد زال من الحضارة الاوروبية . هذا خطأ . إنه لا يزال قائماً ، ولكن المرأة وحدها ترزح اليوم تحت ثقله . وهو يدعى البغاء .

اجل ، إن ثقله ملقىً اليوم على المرأة ، يعني على اللطافة ، على الضّعف ، على الجمال ، على الامومة . وليس هذا خزياً من مخازي الرجل الثانوية .

وفي المرحلة التي انتهينا اليها من هذه المأساة الفاجعة ، لم يكن قد بقي لفانتين شيءٌ مما كان لها من قبل . كانت قد امست رخاماً بعد أن أصبحت وحلاً . فأيما امرىء يمسّها يشعر بقشعريرة . إنها تمضي في سبيلها ؛ إنها تتحملك ؛ وإنها تتجاهلك . انها تحمل وجهاً كالحاً مسربلاً بالعار . لقد قالت لها الحياة وقال لها النظام الاجتماعي آخر كلمة من كلماتها . لقد أصابها كل ما يمكن ان يصيبها . لقد قاست كل شيء ، وصبرت على كل شيء ، وجرّبت كل شيء ، وكابدت كل شيء ، وفقدت كل شيء ، وبكت على كل شيء . إنها لمذعنة لما قُدّر لها ، وإن اذعانها ليشبه اللامبالاة ، مثلما يشبه الموتُ الرقاد . إنها لا تجتنب

بعدُ شيئاً ، ولا تخشى بعدُ شيئاً . فليسقط عليها السحاب كله ، وليغمرها الاوقيانوس كله ! ما الذي يضرّها ؟ لقد أُشربت الاسفنجة حتى الاشباع .

لقد اعتقدت بذلك على الاقل ، ولكن من الخطأ ان نتخيل ان في استطاعة المرء أن يستنفد قَدَرَهُ ، وان يبلغ قعر ايّ شيء مهما يكن .

واأسفاه ! ما هي هذه الاقدار كلها المسوقة هكذا كيفما اتفق ؟ الى اين تمضي ؟ لم كانت كذلك ؟

ان الذي يعرف ذلك يرى الظلام كله .

انه واحدٌ أحد . ان اسمه الله .

١٢
بطالة مسيو باماتابوا

يوجد في جميع المدن الصغيرة ، ولقد كان يوجد في مونتروي سور مير على الخصوص ، طبقة من الشبان الذين يقضون الفاً وخمسمئة ليرة من الدخل ، في الريف ، بمثل الانطباعة التي يزدرد بها زملاؤهم ألفي فرنك سنوياً ، في باريس . إنهم كائنات من النوع المحايد العظيم . انهم خصيان ، طفيليات ، لا شيء . انهم من اولئك الناس الذين يملكون قليلاً من الارض ، وقليـــلاً من البلاهة ، وقليلاً من الظرف ، والذين يكونون اجلافاً في صالون ثم يحسبون انفسهم أشرافاً في حانة ، والذين يتحدثون عن « حقولي ، وغاباتي ، وفلاحيّ » ، والذين يصفرون لممثلات المسرح ازدراءً لكي يثبتوا انهم اصحاب ذوق رفيع ، والذين يتخاصمون مع ضباط الحامية لكي يظهروا انهم رجال حرب ، والذين يتصيدون ، ويدخنون ، ويتثاءبون ، ويحتسون الخمر ، ويستنشقون السعوط ، ويلعبون البليارد ، ويحدّقون الى المسافرين وهم ينزلون من العربة العمومية ،

ويعيشون في المقهى ، ويتمشون في الفندق ، والذين عندهم كلب يأكل العظام تحت الطاولة ، وخليلة تضع الاطباق فوقها ، والذين يتشبثون بالفلس ، ويغالون في اتباع الازياء ، ويُعجبون بالتراجيديا ، ويزدرون النساء ، ويُبلون احذيتهم العتيقة ، ويقلدون لندن من خلال باريس ، وباريس من خلال « بون – آ – موسون » ، والذين يزدادون حماقة كلما تقدمت بهم السنّ ، والذين لا يشتغلون ولا يعملون صالحاً ، ولا يؤذون كثيراً .

ولو قد اقام مسيو فيلكس تولوميس في مسقط رأسه ولم يرَ باريس قط ، اذن لكان واحداً من هؤلاء .

ولو كانوا اكثر غنىً لقلنا : انهم مخنثون . ولو كانوا اكثر فقراً لقلنا : انهم متشردون . والواقع أنهم متبطلون ليس غير ، وبين هؤلاء المتبطلين نفرٌ مُضجِرون ، ونفر ضجرون ، وبينهم قوم حالمون ، وقوم مضحكون .

وفي تلك الايام كان المخنث يتألف من طوق قميص ضخم ، وربطة عنق ضخمة ، وساعة مثقلة بالسلاسل ، وثلاث صُدرات تُلبس احداها فوق الاخرى ، وتكون ذات الوان مختلفة ، فالحمراء والزرقاء منها في الداخل ، وسترة زيتونية اللون قصيرة ذات ذيل كذنب السمكة ، وصفين من الازرار الفضية ، المرزوز بعضها الى بعض ، والمرتفعة حتى الكتف ، وبنطلون زيتوني ازهى لوناً ، مزدان من جهتيه بعدد من الاضلاع غير محدود ، ولكنه وتر * دائماً ، يراوح من واحد الى احد عشر وهو حدّ لا يُتجاوز البتة . اضف الى ذلك حذاءً طويل الساق على عقبيه نعلان حديديتان صغيرتان ، وقبعةً عالية الذروة ضيقة الحافة ، وشعراً مصفّفاً خُصلاً خصلاً ، وخيزرانة ضخمة ، وحديثاً متمماً بنكات

* الوتر من الاعداد : الفرد ، كالواحد والثلاثة والخمسة وضده الشفع كالاثنين والاربعة الخ .

« بوتييه » الجناسية . ولا نغفل فوق ذلك كله ، عن المهازين والشاربين . ففي تلك الايام كان الشاربان شارة المدنيين ، وكان المهازان شارة المشاة .

وكان المخنث الريفي يصطنع مهازين اكثر طولاً ، وشاربين اشدّ ضراوة .

كان عهد النزاع بين جمهوريات اميركا الجنوبية وملك اسبانية ، عهد صراع بوليفار * ضدّ موريللو . كانت القبعات ذات الحوافي الضيقة ملكية ، وكانت تدعى « موريللو » ، على حين كان الاحرار يعتمرون قبعات ذات حوافٍ عريضة يدعونها « بوليفار » .

وبعد ثمانية اشهر او عشرة اشهر انقضت على الاحداث التي رويناها في الصفحات السابقة ، وفي الايام الاولى من كانون الثاني سنة ١٨٢٣ ، وذات ليلة تساقط فيها الثلج ، كان احد هؤلاء المخنثين ، احد هؤلاء العاطلين عن العمل ، وهو رجل « ذو رأي صائب » اذ كان يعتمر قبعة من قبعات « موريللو » ويتلفع في دفء بالغٍ بواحد من تلك المعاطف الضخمة التي تكمل زيّ العصر في فصل البرد — كان هذا الرجل يمتع النفس بالتحرش بمخلوقة كانت تروح وتجيء ، امام نافذة مقهى الضباط ، مرتدية ثوباً للرقص يكشف عن عنقها وكتفيها وقد زينت رأسها بالرياحين . كان المخنث يدخن ، فقد كانت تلك هي الموضة من غير ريب .

كان كلما مرّت أمامه تلك المرأة قذفها ، مع نفحة دخان من سيجاره ، بملاحظة ظنها ظريفة مرحة : « ما أبشعك ! » — « اتحاولين ان تختبئي ؟ » — « لقد فقدتِ اسنانك ! » الخ . الخ . وكان هذا السيد يدعى مسيو باماتابوا . ولم تجبه المرأة — وكانت شبحاً حزيناً متبرجاً يمشي على الثلج جيئة وذهوباً — بل لم تلتفت اليه ، ولكنها واصلت

* قائد ورجل دولة شهير حرر فنزويلا من الحكم الاسباني واسس جمهوريتي كولومبيا وبوليفيا . ويعرف بواشنطون اميركا الجنوبية .

سيرها في صمت وفي نظامية كالحة كانت تعرّضها لسخريته كل خمس دقائق مثل الجندي المُدان الذي يرجع في فترات معينة تحت المخاصر * واثارت هذه اللامبالاة ، من غير شك ، حنق المتبطل ، فما كان منه الا ان افاد من احدى اللحظات التي استدارت فيها ، ومشى خلفها في خطىً مختلسة ، وانحنى خانقاً ضحكته ، وتناول حفنة ثلج من جانب الطريق ، وسارع الى اقحامها في ظهرها بين كتفيها العاريتين . وصرخت الفتاة في حنق ، واستدارت ، ووثبت مثل النمِرة ، وانقضت على الرجل ، منشبة اظافرها في وجهه ، مصطنعة افظع الالفاظ التي يمكن ان تتساقط من اوغاد مركز من مراكز الحرس . وكانت هذه الاهانات المتقيَّأة في صوت جعلته الخمر أبحّ ، تنطلق من فم بشع تعوزه السنّان الاماميتان . كانت هي فانتين .

واندفع الضباط من المقهى ، على جلبة الحادث ؛ واحتشد عابرو السبيل . وتشكلت دائرة ضخمة ، ضاحكة ، ساخرة ، مصفقة ، حول مركز الجذب هذا المؤلف من مخلوقين من العسير ان يُعرف انهما رجل وامرأة . فأما الرجل فكان يدافع عن نفسه وقد انطرحت قبعته على الارض ، واما المرأة فكانت ترفس ، وتضرب ، حاسرةً ، صائحة ، من غير اسنان ، ومن غير شعر ، زرقاء ضارباً لونها الى السواد من شدة الغضب ، مخيفةً مروّعة .

وفجأة اندفع رجل طويل من بين الحشد ، وامسك بالمرأة من النصف الاعلى من فستانها الملوّث بالطين وقال لها :

— « اتبعيني ! »

ورفعت المرأة رأسها وخمد صوتها الضاري في الحال . كانت عيناها زجاجيتين يعوزهما اللمعان ، وكان لونها الازرق الضارب الى السواد قد امسى شاحباً . وارتجفت ارتجافة الذعر . لقد عرفت جافير .

---

* جمع مخصرة ، وهي شيء اشبه بالسوط ، يضرب به ويتكأ عليه .

واغتنم المخنث الفرصة وانسلّ هارباً .

١٣
حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية

وصدّ جافير المتجمهرين ، وحطم الطوق الذي كانوا قد ضربوه حول المرأة والرجل ، وانطلق نحو مكتب الشرطة القائم عند اقصى الساحة ، جاراً المخلوقة البائسة خلفه . ولم تبد اي مقاومة ، تابعة اياه على نحو آليّ . بل انها لم تنطق بكلمة . وفي اثرها مضى جمهور النظارة ، وهو في ذروة الابتهاج ، يرسل النكات المستقبحة . كان البؤس الذي ما بعده بؤس ، مناسبة عندهم للبذاءة والفحش .

حتى اذا انتهوا الى مكتب الشرطة ، وكان قاعة خفيضة يدفئها موقد ويصونها حارس وينفتح لها على الشارع باب مزجج ذو قضبان مشبّكة ، فتح جافير الباب ، ودخل مع فانتين ، ثم اغلق الباب ، مخيباً بذلك آمال الحشد الفضوليّ الذي وقف افراده على رؤوس اصابعهم واتلعوا أعناقهم امام نافذة مركز الحرس القذرة ، تائقين الى ان ينظروا . إن الفضول ضربٌ من الشراهة . والنظر هو التهام .

وحين دخلا المكتب خرّت فانتين في احدى الزوايا خرساء جامدة ، مثل كلب مذعور .

ووضع رقيب المركز شمعة مضاءة على الطاولة . وجلس جافير ، واخرج من جيبه ورقة تحمل طابعاً ، وأنشأ يكتب .

إن هؤلاء النساء ليوضعن وفقاً لقوانيننا ، تحت تصرّف الشرطة المطلق . انهم يفعلون بهن ما يشاءون ، ويعاقبونهن كما يحلو لهم ، ويصادرون من تلقاء انفسهم هذين الشيئين الحزنين اللذين يسمّينهما صناعتهن

وحريتهن . كان جافير عديم الاحساس ؛ وكان وجهه الصارم لا ينمّ عن عاطفة ما . كان ، على اية حال ، مستغرقاً في تفكير جدي عميق . كانت احدى تلك اللحظات التي يمارس فيها ، على نحو غير محدود ، ولكنْ بكامل التردّد والتدقيق الجديرين بالضمير الصارم ، سلطته الرهيبة المطلقة . وفي تلك اللحظة استشعر ان كرسيّ رُجل الامن المنخفض منصةُ قضاء . كان يحاكم . كان يحاكم ويدين . لقد حشد كل ما قدر عليه من فكرات حول الشيء العظيم الذي كان يقوم به . وكلما تعمّق درسَ سلوك هذه الفتاة تعاظمت ثورته . كان واضحاً انه قد بصُر بجريمة تُقترف . لقد رأى ، هناك في الشارع ، الى المجتمع متمثلاً في مالكٍ – ناخب ، يهان ويهاجم من قبل مخلوقة منبوذة . لقد تعدّت مومس على مواطن . وهو ، جافير ، قد رأى ذلك بنفسه . لقد كتب في صمت .

وحين انتهى ، وقّع الورقة ، وطواها ، ثم سلمها الى رقيب المركز قائلاً :

– « خذ ثلاثة رجال ، وسُقْ هذه الفتاة الى السجن . »

ثم التفت الى فانتين وقال :

– « سوف تمكثين هناك ستة اشهر . »

وارتعدت المرأة البائسة .

وصاحت :

– « ستة اشهر ! ستة اشهر في السجن ! ستة اشهر لكي اكسب سبعة « سو » في اليوم ! ولكن ما الذي سيحل بكوزيت ! ابنتي ! ابنتي ! ولكني لا ازال مدينة باكثر من مئة فرنك لتيناردييه وزوجته ، يا سيدي المفتش ، هل تعرف ذلك ؟ »

وجرّت نفسها على ارض القاعة الملوّثة بأحذية جميع هؤلاء الرجال الموحلة ، من غير ان تنهض ، شابكة يديها ، منطلقة في سرعة على

ركبتيها .

وقالت :

– « مسيو جافير ، اسألك الرحمة . اؤكد لك اني لم اكن معتدية . لو شهدت الحادثة من بدايتها لرأيت ذلك ! اقسم لك بالله اني لم اكن معتدية . لقد وضع ذلك السيد ، الذي لا اعرفه ، الثلج في ظهري . هل يملكون الحق في ان يضعوا الثلج في ظهورنا حين نمرّ هكذا في هدوء من غير ان نؤذي أحداً ؟ لقد هاجني ذلك . أنا مريضة بعض الشيء ، كما ترى ! والى هذا ، فقد كان قبل ذلك يوجّه الي ، طوال فترة غير قصيرة ، اشياء مثل هذه : « أنت بشعة ! » « انت بلا اسنان ! » انا اعرف جيداً اني فقدت اسناني . انا لم اعمل شيئاً . لقد قلت في نفسي : « إنه سيدٌ يعبث ويلهو » . كنت محتشمة معه . انا لم اكلمه قط . وفي هذه اللحظة بالذات وضع لي الثلج . مسيو جافير ، يا سيدي المفتش الطيب ! الم يكن هناك شخص رأى الحادث ليقول لك ان هذا صحيح ؟ لعلي أخطأت باستسلامي للغضب . انت تدري ان الانسان لا يستطيع ، في اللحظة الاولى ، ان يسيطر على نفسه . إنه يكون سريع الاهتياج . فما بالك اذا وُضع شيء بارد الى هذا الحد في ظهرك حين لا تكون متوقعاً ذلك البتة ! لقد اخطأت في إتلافي قبعة ذلك السيد . لماذا ذهب ؟ سوف ألتمس عفوه . اوه يا الـهي ، لن يضيرني ان ألتمس عفوه . إرحمني هذه المرة ، يا مسيو جافير . على رسلك ، انت لا تعرف هذا : انهم في السجن لا يكسبون غير سبعة « سو » . هذه ليست خطيئة الحكومة ، ولكنهم يكسبون سبعة « سو » ؛ وتصوّر ان عليّ مئة فرنك ينبغي ان ادفعها وإلا قذفوا بابنتي الصغيرة الى الشارع . آه ، يا الـهي ! انا لا استطيع ان أبقيها معي . إن ما أعمله شنيع جداً . اوه ، كوزيت ، اوه يا ملاكاً صغيراً من ملائكة العذراء الطاهرة الطيبة ! ما الذي سوف يحلّ بتلك الطفلة المسكينة

الجائعة ! اقول لك ان تيناردييه وزوجته صاحبا فندق . إنهما جلفان ، لا يملكان شيئاً من الروية والتفكير . ينبغي ان يُرسل اليهما مالٌ . لا تُلقني في السجن ! أرأيت ، إنها صغيرة سوف يقذفون بها الى عرض الطريق لتعمل ما تستطيع ان تعمله ، في اشدّ ايام الشتاء برداً . ينبغي ان تشفق على هذه المخلوقة الصغيرة ، يا سيدي الطيب جافير . لو كانت اكبر سناً لاستطاعت ان تكسب رزقها ، ولكنها لا تستطيع في هذه السنّ . أنا لستُ امرأة ساقطة بالفطرة . وليس الكسل والشراهة هما اللذان قاداني الى هذا . لقد شربت الخمر . ولكن ذلك كان بدافع من البؤس . أنا لا أحبها ، ولكنها تسلّي عن الهموم . وحين كنت اكثر سعادة كانت نظرة واحدة يلقيها المرء على خزانتي كافية لكي يتأكد أني لم اكن فتاة محبّة للزينة ، لا تعرف النظام . كانت عندي ملابس داخلية ، كثير من الملابس الداخلية . إرحمني ، يا مسيو جافير ! »

لقد تحدّثت هكذا ، محنيّةً بالاعياء ، مرتعدةً بالزفرات ، مكفوفةً بالدموع ، عارية الرقبة ، ملوية الذراعين بالألم ، مرسلة سعالاً جافاً قصيراً ، متلجلجة في وهن بالغ بصوت الحشرجة . ان الالم العظيم شعاع إلـهي وفظيع ينقل البؤساء من صورة الى صورة . ففي هذه اللحظة بالذات عاود فانتين جمالها المفقود . لقد كفّت عن الكلام في بعض الفترات وقبّلت ، في رفق ، ادنى معطف الشرطي . لقد كانت خليقة بان تُلين قلباً من صوان . ولكن المرء لا يستطيع ان يُلين قلباً من خشب .

وقال جافير :

— « والآن ، لقد استمعت اليك . ألم تنتهي بعد ؟ إنطلقي في الحال ! امامك ستة اشهر تقضينها في السجن . إن الأب الازلي نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك . »

حتى اذا سمعتْ هذه الكلمات المَهيبة « **ان الاب الازلي نفسه لا**

يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك » ادركت ان الحكم عليها قد صدر. وخارت قواها وهي تتمتم :

— « الرحمة ! »

وادار جافير ظهره .

وأمسك بها الجند من ذراعيها .

وقبل ذلك ببضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلحظه أحد . كان قد اغلق الباب ووقف مولياً اياه ظهره ، وكان قد سمع توسلات فانتين اليائسة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي أبت ان تنهض ، تقدّم خطوة الى الأمام ، خارجاً من الظلمة ، وقال :

— « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين في ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه إلا ان نزع قبعته ، وانحنى في ضرب من الارتباك المغضَب :

— « عفوك ، يا سيدي العمدة .... »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب في نفس فانتين . فوثبت على قدميها في الحال ، وكأنها شبح ينبثق من باطن الارض ، وردّت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعاً مباشراً الى مسيو مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحدّقت اليه على نحو موصول ، بنظرة ضارية ، وصاحت :

— « آه ، فأنت اذن السيد العمدة ! »

ثم إنها انفجرت بالضحك ، وبصقت في وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال :

— « ايها المفتش جافير ، أطلِقْ سراح هذه المرأة . »

واستشعر جافير وكأنه على وشك ان يفقد صوابه . لقد اصابته ، في تلك اللحظة ، ضربةٌ فوق ضربة ، وأحسّ في الوقت نفسه تقريباً

بأعنف الانفعالات التي قُدّر له ان يعرفها طوال حياته . لقد كان مشهد بنت من بنات الهوى تبصق في وجه عمدة شيئاً شنيعاً خارجاً على الذوق الى حدّ كان خليقاً بأن يجعله يحسب – في اوهامه الاكثر انطلاقاً – ان من الخرق للقدسيات الاعتقاد بأنه ممكن . ومن ناحية ثانية ، فقد عقدَ في اعماق ضميره ، وعلى نحو مبهم ، مقارنة بشعة بين ما كانته هذه المرأة وما يمكن ان يكونه هذا العمدة . وعندئذ لمح في ذعر شيئاً بسيطاً الى حدّ لا يوصف في هذه الاهانة المدهشة . ولكن ما ان رأى الى هذا العمدة ، الى هذا الحاكم ، يمسح وجهه في هدوء ويقول : « **أطلق سراح هذه المرأة** . » حتى استبدّ به الذهول والانشداه ؛ وخانه التفكير والنطق جميعاً . كان قد تجاوز مجموعَ الدهش الممكن . وظلّ معتصماً بالصمت .

ولم تكن الضربة التي انزلتها كلمات العمدة بفانتين اقلّ غرابة . لقد رفعت ذراعها العارية وتشبّثت بلولب الموقد وكأنها تترنّح . وفي الوقت نفسه اجالت طرفها في ما حولها وبدأت تتكلم بصوت خفيض ، وكأنها تخاطب نفسها :

– « إطلاق سراحي ! سوف يسمحون لي ان اذهب ! انا لن أساق الى السجن لأقضي ستة اشهر فيه ! من الذي قال هذا ؟ ليس من الممكن ان يكون احد قد قال ذلك ! لقد اسأت الفهم . إنه لا يمكن ان يكون هذا العمدة الشبيه بالغول ! اكنت انت ، يا سيدي الطيب جافير ، الذي اخبرتهم ان يطلقوا سراحي ؟ أوه ، انظر ! سوف اخبرك ، وسوف تعيد اليّ حريتي . ان هذا العمدة الغول ، ان هذا العمدة الجرو العجوز هو السبب في كل شيء . تصوّر ، يا مسيو جافير ، انه طردني ، بسبب حزمة من الشحاذات اللواتي يروين القصص في المصنع ! ألم يكن مروّعاً ان تُفصل فتاة مسكينة تؤدي عملها في اخلاص ! ومنذ ذلك الحين لم يعد في امكاني ان اكسب مقداراً كافياً من المال ، وجاء

الشقاء كله . قبل كل شيء ، ان هناك تغييراً يجب عليكم يا رجال الشرطة ان تُحدثوه – وهو ان تحولوا بين مقاولي السجون وبين انزال الظلم بالفقراء . سوف اشرح لك ذلك ؛ إسمع . انت تكسب اثني عشر « سو » من صنع القمصان ، فاذا بذلك الرقم يهبط الى تسعة « سو » ، وهو مبلغ لا يمسك الرمق . ثم يتعين علينا ان نفعل ما نستطيع أن نفعله . أما أنا فكانت عندي صغيرتي كوزيت ، وكنت مجبرة على ان أصبح بنت هوى . انت تدرك الآن ان هذا العمدة الشحاذ قد فعل ذلك كله . وبعد ذلك دُستُ على قبعة هذا السيد امام مقهى الضباط . ولكنه كان قد اتلف فستاني كله بالثلج . إننا نحن النساء ، ليس عندنا غير فستان حريري واحد للسهرة . أنظر . انا لم اقصد في يوم من الايام ان اسيء الى احد قصداً . صدقني ، يا مسيو جافير . وانا ارى في كل مكان نساء اكثر خبثاً مني الى حد بعيد ومع ذلك فهنّ اسعد مني الى حد بعيد . اوه ، يا مسيو جافير ، إنك انت الذي قلت لهم ان يطلقوا سراحي ، اليس كذلك ؟ إذهبْ واستطلع . تحدّث الى صاحب الغرفة التي أسكنها . أنا ادفع أقساطي ، ولسوف يقولون لك انني أمينة . اوه ، يا عزيزي ، انا التمس عفوك . لقد لمستُ ، من غير ان ادري ، لولب الموقد ، وهذا ما جعل الدخان ينبعث . »

واصغى مسيو مادلين في انتباه عميق . وفيما هي تتحدث ، كان قد بحث في صدرته واخرج محفظته وفتحها . كانت فارغة . وكان قد أعادها الى جيبه . وقال لفانتين :

– « ما المبلغ الذي قلت انك مدينة به ؟ »

والتفتت فانتين نحوه ، وكانت لا تنظر من قبل إلا إلى جافير ، وقالت :

– « وهل كنت أوجه الحديث اليك ؟ »

ثم خاطبت الجند قائلة :

« قولوا ، انتم أيضاً ، أرأيتم كيف بصقت في وجهه ؟ أوه ، أيها العمدة الوغد العجوز ، أنت تأتي الى هنا لتروّعني ، ولكني لست خائفة منك . أنا خائفة من مسيو جافير . أنا خائفة ، من سيدي الطيب مسيو جافير ! »

حتى اذا قالت ذلك التفتت كرة اخرى الى المفتش :

- « والان ، يا سيدي المفتش ، يجب ان تكون عادلاً . أنا أعرف انك عادل ، يا سيدي المفتش . والواقع ان المسألة بسيطة جداً : رجل يلهو بوضع قليل من الثلج في ظهر امرأة ؛ ذلك ما جعلهم - اولئك الضباط - يضحكون ، فالانسان ينبغي ان يتلهى بشيء ، ونحن الكائنات الشقية لم نخلق إلا لأمتاع الناس ! ثم تأتي أنت ، اجل انت ، فتضطر الى حفظ النظام ، فتعتقل المرأة التي أذنبت ، ولكنك ما تكاد تفكر في الامر - وانت الرجل الطيب - حتى تأمرهم باطلاق سراحي ، وما ذلك إلا من أجل بنتي الصغيرة ، لأن ستة اشهر في السجن سوف تحول بيني وبين إعالة طفلتي . على شرط ان لا تعودي الى مثلها مرة أخرى ، أيتها الوغدة ! أوه ، انا لن اعود الى مثلها مرة ثانية ، يا مسيو جافير ! في استطاعتهم ان يفعلوا ما يشاؤون الآن ، فلن أحرّك ساكناً على الاطلاق . اليوم فقط - كما نرى - صرخت لأن ذلك آذاني . انا لم اتوقع البتة ان يضع ذلك السيد الثلج في ظهري . وفوق هذا ، فقد سبق ان قلت إني مريضة بعض الشيء . انا اسعل . إن في صدري شيئاً مثل الكرة يحرقني ، ولقد قال لي الطبيب : « إعتني بنفسك . » والان ، جسّني . اعطني يدك . لا تخف . ها هي ذي . »

وكفّت عن البكاء ، وغدا صوتها ملاطفاً . لقد وضعت يد جافير الضخمة الغليظة على صدرها الابيض الرقيق ، ونظرت اليه وهي تبتسم . وفجأة سارعت الى تسوية ما اضطرب من ملابسها ، وملّست ثنيات

فستانها ، وكان قد ارتفع فيما هي تجرّ نفسها على الارض حتى بلغ ركبتيها تقريباً . ومشت نحو الباب ، وخاطبت الجند في صوت خافت ، هازة رأسها هزة ودية :

– « ايها الغلمان ، إن السيد المفتش قال يجب ان تطلقوا سراحي . أنا ذاهبة . »

ووضعت يدها على مزلاج الباب . خطوة واحدة وتصبح في الشارع .

وكان جافير قد ظل واقفاً ، حتى تلك اللحظة ، جامداً ، مسمّراً عينيه على الارض ، بادياً وسط ذلك المشهد وكأنه تمثال ينتظر ان يوضع في مكانٍ ما .

وأيقظه صوت المزلاج . فرفع رأسه وعلى وجهه انطباعة السلطة المطلقة ، وهي انطباعة تكون اكثر ترويعاً حين تُسند الى كائنات من الدرجة الدنيا . إنها وحشية عند الظباء البرية ، شرسة عند العُفاشة * من الناس .

وصاح :

– « أيها الرقيب ، الا ترى هذه المتشردة تمضي لسبيلها ؟ من قال لك ان تدعها تذهب ؟ »

فقال مادلين :

– « انا . »

وكانت فانتين قد ارتجفت لدن سماعها كلمات جافير وأفلتت مزلاج الباب كما يُفلت اللص المقبوض عليه ما كان قد سرقه . حتى اذا تكلم مادلين استدارت . ومنذ تلك اللحظة ، ومن غير ان تنبس بكلمة ، ومن غير ان تجرؤ حتى على التنفس في حرية ، نقّلت طرفها من مادلين الى جافير ومن جافير الى مادلين مصغية الى من يتفق ان يكون هو المتحدث منهما .

* العُفاشة : من لا خير فيهم .

كان واضحاً ان جافير قد استثير غضبه كما يقولون والا لما اجاز لنفسه ان يخاطب الرقيب كما قد فعل بعد ان دعا العمدةُ الى اطلاق سراح فانتين . أنسي ان العمدة هناك ؟ أقرر آخر الامر بينه وبين نفسه ان من المستحيل على « سلطةٍ » ما ان تصدر أمراً كهذا ، وان العمدة من غير شك قد قال شيئاً وهو يعني نقيضه ؟ أم انه قال في ذات نفسه ، نظراً للاعمال الفاحشة التي شهدها منذ ساعتين ، إن من الضروريّ ان يلجأ الى الاجراءات القصوى ، وان من واجب الصغير ان يكبّر نفسه ، ومن واجب جاسوس الشرطة ان يحوّل نفسه الى حاكم ، ومن واجب البوليس ان يصبح قاضياً ، وان النظام ، والقانون ، والاخلاق ، والحكومة ، والمجتمع كله كانت تتمثل — في هذه الحالة الاستثنائية المروّعة — في شخصه هو ، جافير ؟

وأياً ما كان ، فحين قال مسيو مادلين تلك الـ « أنا » التي سمعناها منذ لحظة استدار مفتش الشرطة ، جافير ، نحو العمدة ، شاحب الوجه ، بارداً ، ازرق الشفتين ، يائس النظرة ، مضطرب الجسم كله بارتجافة غير ملحوظة ، وقال له — وذلك ما لم يُسمَع به من قبل — مطرقَ العين ، ولكن في صوتٍ ثبْت :

— « سيدي العمدة ، هذا لا يمكن أن يُعمل . »

فقال مسيو مادلين :

— « لماذا ؟ »

— « هذه المرأة الشريرة قد اهانت احد المواطنين . »

فأجابه مسيو مادلين في نبرةٍ مصالحةٍ هادئة :

— « ايها المفتش جافير ، اسمع . انت رجل نزيه ، وليس عندي ما يحول دون شرح وجهة نظري لك . تلك هي الحقيقة : كنت ماراً بالساحة العامة حين اعتقلتَ هذه المرأة . كان لا يزال هناك حشد من الناس . فعرفتُ ظروف الحادث . لقد علمتُ كل شيء . إن

المواطن هو الذي أذنب ، وهو الذي كان ينبغي – لو كان ثمة شرطة صالحة – ان يُعتقل . »

فتابع جافير :

– « إن هذه الساقطة قد أهانت السيد العمدة ، منذ لحظة . »

فقال مسيو مادلين :

– « هذه مسألة تتصل بي شخصياً . إن الاهانة الموجهة الي مرهونة بحكمي أنا ، في ما أظن . في استطاعتي ان افعل بشأنها ما اشاء . »

– « استميح السيد العمدة عفواً . إن الاهانة ليست مرهونة بحكمه ، ولكنها مرهونة بحكم العدالة . »

فقال مسيو مادلين :

– « ايها المفتش جافير . العدالة العليا هي الضمير . لقد سمعتُ هذه المرأة . أنا اعرف ما الذي أصنعه . »

– « وانا ، يا سيدي العمدة ، أعرف ما الذي اراه . »

– « اذن ، فاكتف بالطاعة . »

– « انا اطيع واجبي . إن واجبي يقضي بأن تُسجن هذه المرأة ستة اشهر . »

فاجابه مسيو مادلين في دماثة :

– « إسمع هذا جيداً . إنها لن تقضي هناك يوماً واحداً . »

ولم يكد مسيو مادلين ينطق بهذه الكلمات الحاسمة حتى جرؤ جافير على ان يحدّق النظر الى العمدة ، وان يقول له ولكن في نبرة ما تزال ترشح بالاحترام العميق :

– « انا آسف جداً أن اعارض السيد العمدة . انا افعل ذلك لاول مرة في حياتي ، ولكنه سوف يتفضل ويجيز لي ان الاحظ اني اتصرف ضمن نطاق سلطتي . ولسوف اتحدث عن مسألة المواطن ، ما دام السيد العمدة راغباً في ذلك . لقد كنتُ هناك . إن هذه الفتاة هي التي انقضّت

على مسيو بارماتابوا ، الذي هو ناخب ، ومالك لذلك البيت الجميل ذي الشرفة ، القائم عند زاوية الساحة ، والمؤلف من ثلاثة ادوار ، والمشيّد كله من حجر منحوت . والواقع ان في هذا العالم اشياء ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعلى اية حال ، يا سيدي العمدة ، فهذه المسألة من خصائص شرطة الشارع . انها تتصل بي ، واني أحتجز هذه المرأة . »

وهنا صالب مسيو مادلين ذراعيه وقال في صوت قاسٍ لم يسمعه قط احد في المدينة من قبل :

— « إن المسألة التي تتحدث عنها من خصائص الشرطة البلدية . وانا الذي أقضي فيها وفقاً لأحكام الماده التاسعة ، والحادية عشرة ، والخامسة عشرة ، والسادسة والستين من قانون العقوبات . انا آمر باطلاق سراح هذه المرأة . »

واراد جافير ان يقوم بمحاولة اخيرة .

— « ولكن ، يا سيدي العمدة ... »

— « اني اذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ كانون الاول ١٧٩٩ في ما يتصل بالسجن غير المشروع . »

— « سيدي العمدة ، اسمح لي ... »

— « لا تقل ايّ كلمة اخرى . »

— « ومع ذلك ... »

فقال مسيو مادلين :

— « اخرج من هنا ! »

وتلقّى جافير الضربة ، وهو واقف على قدميه يواجهها بصدره كله ، مثل جندي روسي . لقد انحنى حتى الأرض ، امام العمدة وخرج .

ووقفت فانتين الى جانب الباب ، ونظرت اليه في ذهول بينما هو يمرّ امامها .

ولكنها كانت هي ايضاً فريسة اضطراب عجيب . لقد رأت الى قوتين متعارضتين تتنازعانها بطريقة ما . رأت رجلين يصطرعان امام عينيها ، رجلين يملكان في ايديهما حريتها ، وحياتها ، ونفسها ، وابنتها . فأما احدهما فكان يشدّ بها نحو الظلام ، واما الآخر فكان يقودها نحو النور . وفي هذا الصراع المنظور اليه من خلال تضخيات الذعر ، تراءى لها هذان الرجلان مثل عملاقين . كان احدهما يتكلم وكأنه شيطانها ، وكان الآخر يتكلم وكأنه ملاكها الكريم . لقد قهر الملاكُ الشيطانَ ، ولقد كان في مجرد التفكير بذلك ما جعلها ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها . وكان هذا الملاك ، هذا المخلّص ، هو على وجه الضبط ذلك الرجل الذي ابغضته ، ذلك العمدة الذي اعتبرته منذ عهد طويل صانع بلاياها كلها ، مادلين هذا ! وفي تلك اللحظة عينها التي اهانته فيها على نحو بشع ، عمدَ الى انقاذها ! هل كانت مخدوعة اذن ؟ هل يتعين عليها ان تغيّر قلبها كله اذن ؟ لم تكن تدري . لقد ارتعدت اوصالها ؛ لقد اصغت في انفعال ، واجالت طرفها حولها في هلع . ومع كل كلمة نطق بها مسيو مادلين احسّت بظلمات بغضها المروّعة تذوب في إهابها وتجري منفصلةً عنها ، على حين وُلد في فؤادها دفء يعجز البيان عن وصفه ، دفء البهجة ، دفء الثقة ، دفء الحب .

حتى اذا خرج جافير التفت مسيو مادلين اليها ، وقال لها في تؤدة وفي عُسر مثلَ رجل يناضل حتى لا تسيل عبراته :

— « لقد سمعت كلامكِ . لم اكن اعرف شيئاً مما قلتِه . انا اعتقد انه صحيح ، وانا اشعر انه صحيح . بل اني كنت اجهل انكِ تركتِ العمل في مصنعي . لماذا لم تراجعيني في ذلك ؟ ولكن اسمعي : سوف ادفع ديونك ؛ سوف آتيك بابنتك ، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، او في باريس ، او في ايّ مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية

بك وبطفلتك . إنك لن تشتغلي بعد اليوم ، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . ولسوف تصبحين امرأة فاضلة كرة اخرى بأن تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فأني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلاً : اذا كان كل شيء كما وصفت ، ولست اشك في هذا ، فأنك ما زلت فاضلة طاهرة امام الله . اوه ! ايتها المرأة الشقية ! »

وكان ذلك أكثر مما استطاعت فانتين المسكينة ان تحتمل . ان تفوز بكوزيت ! ان تطلق هذه الحياة الشائنة ! ان تعيش حرة ، غنية ، سعيدة ، فاضلة مع كوزيت ! ان ترى الى حقائق الجنة هذه كلها تنبثق فجأة وسط شقائها ! لقد نظرت وكأنها بلهاء ، الى هذا الرجل الذي يخاطبها ، ولم تستطع ان ترسل غير زفرتين او ثلاث زفرات : « اوه ! اوه ! اوه ! » وخذلتها ساقاها ، فارتمت على ركبتيها امام مسيو مادلين . وقبل ان يتمكن من منعها استشعر انها امسكت بيده ورفعتها الى شفتيها .

ثم غابت عن الوعي .

الكتاب السادس



١

بداية الراحة

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم في منزله نفسه. لقد عهد الى الراهبتين في أمر العناية بها، فوضعتاها في السرير. لقد عصفت بها حمى عنيفة، فسلخت شطراً من الليل وهي تهـــذي وتتكلم بصوت عال. وأخيراً استسلمت للرقاد.

وحوالى الظهيرة من اليوم التالي استيقظت فانتين. لقد سمعت تنفساً قرب سريرها، فأزاحت الستارة، فرأت مسيو مادلين واقفاً يحدّق الى شيء فوق رأسه. كانت نظرته مفعمة بالالم النفسي الشفوق المتوسّل. وتابعت

اتجاه نظرته هذه فوجدت انها كانت مسددة الى تمثال المصلوب المسمّر على الجدار .

ومن تلك اللحظة خُلق مسيو مادلين خلقاً آخر في عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسواً بالضياء . كان مستغرقاً في ضرب من الصلاة . وحدّقت اليه فترة طويلة من غير أن تجرؤ على مقاطعته . وأخيراً قالت في خوف :

— « ما الذي تفعله ؟ »

كان مسيو مادلين قد سلخ ساعة في ذلك المكان . كان ينتظر فانتين حتى تفيق من سباتها . فأمسك بيدها ، وجسّ نبضها ، وقال :

— « كيف حالك ؟ »

فقالت :

— « حسنة جداً . لقد نمت . أظن أني أتحسّن . لن يكون هذا شيئاً . »

ثم إنه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه في البدء ، وكأنما سمعَهُ اللحظة :

— « أنا أصلي للشهيد الذي في الاعالي . »

ثم أضاف بينه وبين نفسه :

— « للشهيدة التي في هذا العالم . »

وقضى مسيو مادلين الليل والصباح مستطلعاً . لقد غدا عارفاً كل شيء . لقد غدا عارفاً قصة فانتين بكامل تفاصيلها الموجعة .

وتابع كلامه :

— لقد كابدتِ كثيراً ، ايتها الام المسكينة . أوه ، لا تنتحبي . لقد فزت الآن بنصيب المختارين من الناس . وإنما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . إنها ليست خطيئتهم على الاطلاق . إنهم لا يعرفون كيف يبدأون على نحو آخر . إن هذا الجحيم الذي خرجتِ منه هو

الخطوة الأولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدأ من هناك .

وأطلق زفرة عميقة . أما هي فابتسمت تلك الابتسامة الرفيعة التي تعوزها سنّان .

وفي الليلة نفسها كتب جافير رسالة . وفي صباح اليوم التالي حمل هذه الرسالة بنفسه الى مركز بريد مونتروي سور مير . كانت موجهة الى باريس ، حاملة هذا العنوان : « الى مسيو شابوييه ، سكرتير السيد مدير الشرطة . »

واذ كانت حادثة مكتب الشرطة قد شاعت بين الناس فقد ظنت مديرة مكتب البريد وغيرها ممن رأوا الرسالة قبل ان تُحمل الى وجهتها ، وممن عرفوا في العنوان خط جافير ، أن مفتش الشرطة قد قدّم بذلك استقالته .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة له بمئة وعشرين فرنكاً . ولقد ارسل اليه ثلاثمئة فرنك طالباً منه أن يقتطع ديونه منها ، وينقل الطفلة في الحال الى مونتروي سور مير لأن أمها المريضة تريد ان تراها .

وأوقعت هذه الرسالة الدهش في نفس تيناردييه .

وقال لزوجته :

— « يا للشيطان ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . ان هذه الفتاة المهزولة سوف تصبح بقرة حلوباً . واحسب ان رجلاً أحمق قد فُتن بالأم . »

وأجاب بأن أرسل فاتورة بخمسمئة وبضعة فرنكات كُتبت كتابة حسنة . وقد تمثلَ في هذه الفاتورة بيانان لا ريب في صحتهما بما يزيد على ثلاثمئة فرنك ، احدهما من طبيب والآخر من صيدليّ عالجا إيبونين وآزيلما وقدّما الادوية اليهما خلال مرضين طويلي الأجل . ذلك بأن كوزيت لم تكن مريضة كما رأينا . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف في الاسماء . وكتب تيناردييه في أدنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثمئة فرنك

على الحساب . »

وفي الحال أرسل مسيو مادلين ثلاثمئة فرنك اخرى وكتب قائلاً : « عجّل بإعادة كوزيت . »

فقال تيناردييه :

— « يا للمسيح ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . »

ولم تشفَ فانتين في غضون ذلك . كانت لا تزال في المستشفى .

ولم يكن استقبال الراهبتين ، لـ « هذه الفتاة » وعنايتهما بها خلواً ، أول الأمر ، من شيء من الاشمئزاز . وكل من رأى نقش « ريمس » ذا الصورة المجسّمة البارزة بروزاً خفيفاً يذكر انتفاخ شفاه العذارى الحكيمات لدى رؤية العذارى الحمقاوات . والحق ان هذا الازدراء القديم الذي تبديه الفتيات الطاهرات نحو الفتيات الاقلّ حظاً غريزة من أعمق غرائز الكرامة الانثوية . ولقد عرفت الراهبتان ذلك الاشمئزاز قوياً ضاعفهُ الدين . ولكن ما إن انقضت بضعة أيام حتى جرّدتهما فانتين من سلاحهما . فقد حرّكت قلبيهما كلماتها الرقيقة المؤثرة ، وعاطفة الامومة التي انطوت عليها . وذات يوم سمعتها الراهبتان تقول وهي محمومة تهذي : « كنت خاطئة ، ولكن حين افوز بابنتي فسوف يكون معنى ذلك ان الله قد غفر لي . ويوم كنت منغمسة في الاثم لم اكن اريد ان ارى صغيرتي كوزيت الى جانبي . أنا ما كنت قادرة على ان أحتمل نظراتها المتعجبة المحزونة . ومع ذلك فمن أجلها هي أثِمت ، وهذا هو السبب الذي من أجله يغفر الله لي . سوف أحسّ ببركة الله حين تأتي كوزيت . سوف أنعم النظر فيها . إن مشهد براءتها سوف يعود عليّ بالخير . إنها لا تعرف شيئاً من ذلك كله . انها ملاك ايتها الراهبتان . ففي سنّها تلك تكون الاجنحة لمّا تسقط بعد . »

ووفد مسيو مادلين لرؤيتها مرتين يومياً ، وكلّ مرة كانت تسأله :

— « هل سأرى كوزيت قريباً ؟ »

فيجيبها :

— « ربما ترينها غداً . أنا أتوقع مجيئها كل لحظة . »

وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .

وتقول :

— « آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا أن صحتها اخذت تتقهقر أسبوعاً بعد أسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سبّبت انقطاع العرَق على نحو فجائي ، فاذا بالداء الذي كان كامناً فيها منذ عدة سنوات يهاجمها آخر الأمر في عنف . وكانوا قد شرعوا في ذلك العهد باتباع نظرية لاينيك* الرائعة في دراسة امراض الصدر ومعالجتها . وفحص الطبيب رئتيها وهزّ رأسه .

وسأله مسيو مادلين :

— « وبعد ؟ »

فقال الطبيب :

— « أليس لها طفلة ترغب في أن تراها ؟ »

— « نعم . »

— « حسن . اذن عجلوا في الاتيان بها . »

وارتعد مسيو مادلين .

وسألته فانتين :

— « ماذا قال الطبيب ؟ »

وحاول مسيو مادلين ان يبتسم :

— « لقد قال لنا ان نأتي بابنتكِ في الحال . إن ذلك سوف يعيد

---

* Laënnec طبيب فرنسي (١٧٨١ - ١٨٢٦) كانت له خدمات جليلة في مكافحة امراض الصدر وتصنيفها .

اليك صحتك . »

فصاحت :

— « اوه . إنه على صواب . ولكن ما الذي يحمل تيناردييه وزوجته هذين على إبقاء صغيرتي كوزيت بعيدة عني ؟ اوه ، إنها سوف تأتي ! وهكذا سأرى السعادة ، آخر الامر ، قريبة مني ! »

بيد ان تيناردييه « لم يتخلّ عن الطفلة » ، وقدّم مئة من الاعذار القبيحة . كانت كوزيت متوجعة بعض الشيء فليس في امكانها أن تحتمل السفر في الشتاء ، ثم كانت هناك بضعة ديون صغيرة يعمل على جمع فواتيرها الخ . الخ .

وقال مسيو مادلين :

— « سوف أرسل شخصاً يجيئني بكوزيت . واذا اقتضى الامر فسوف أذهب أنا نفسي . »

وأملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« مسيو تيناردييه »

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .
« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .
« لي الشرف ان أحييك في احترام .

« فانتين »

وفي غضون ذلك اعترضت مسألة خطيرة . فمهما نُجِدْ نحتَ الكتلة التي تتألف منها حياتنا فأن عِرق القضاء الاسود يبرز فيها دائماً .

٢

كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح «شان»

وذات صباح كان مسيو مادلين في مكتبه يسوّي مقدّماً بعض شؤون وظيفته الملحّة مخافة ان يضطرّ للسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما أبلغ أن جافير، مفتش الشرطة، يريد أن يتحدث اليه. حتى اذا سمع مسيو مادلين هذا الاسم لم يستطع ان يكبت انطباعة كريهة. فمنذ حادثة مكتب الشرطة وجافير يجتنبه اكثر من ذي قبل، فلم يره مسيو مادلين قط.

وقال:

- «دعه يدخل..»

ودخل جافير.

وظل مسيو مادلين قاعداً قرب الموقد، وفي يده قلم، فهو يمعن النظر في ملفٍّ يقلّب صفحاته ويعلّق عليها؛ وكان ذلك الملفّ يحتوي محاضر مخالفات دوّنتها دوريات الشرطة. ولم يزعج نفسه قطّ من أجل جافير. إنه لم يتمالك عن التفكير بفانتين المسكينة، وكان من الملائم ان يستقبله في برود كثير.

وفي احترام، حيّى جافير العمدة الذي كان يوليه ظهره. ولم يرفع العمدة بصره، بل واصل تدوين الملاحظات على اوراقه.

وتقدّم جافير خطوتين او ثلاث خطوات، ثم وقف من غير ان يقطع حبل الصمت.

ولو ان خبيراً في الفراسة قُدّر له أن يألف وجه جافير وان يدرس طوال سنوات عديدة هذا الوحش العامل في خدمة الحضارة، هذا المركّب العجيب من الروماني والاسبارطي، من الراهب والجندي

العريف ، هذا الجاسوس العاجز عن ان يكذب كذبة ، هذا الشرطي السري البتول – لو ان خبيراً في الفراسة اطّلع على كراهيته السرّية القديمة لمسيو مادلين ، وعلى خلافه مع العمدة حول مسألة فانتين ، ورأى الى جافير في تلك اللحظة اذن لكان جديراً بان يقول : « ما الذي دهاه ؟ »

كان واضحاً لكل امرىء عرف هـذا الضمير المستقيم ، الصريح ، الجديّ ، النزيه ، الكالح ، الضاري أن جافير قد عانى اضطراباً داخلياً كبيراً . لم يكن في ذهنه شيء غير مرتسم على محيّاه . كان مثل اهل العنف جميعاً عرضةً لتغيرات مفاجئة . ولم يكن وجهه في أيما وقت مضى أغرب ولا أدعى الى الدهش منه في تلك اللحظة . كان قد انحنى ، لدن دخوله ، لمسيو مادلين في نظرة لم يكن فيها لا حقد ، ولا غضب ، ولا تحدٍّ . ولقد وقف على بضع خطوات خلف الكرسيّ ، وها هو ذا الآن منتصب هناك على نحو يكاد يكون عسكرياً بالشراسة الطبيعية الباردة التي ينكشّف عنها رجلٌ لم يكن قط كريماً ، ولكنه كان دائماً صبوراً . لقد انتظر من غير ان ينطق بكلمة ، أو يأتي بحركة ، في ضراعةٍ حقيقية وإذعان ساكن ، حتى يحلو للسيد العمدة ان يلتفت نحوه – انتظر هادئاً ، جادّاً ، ممسكاً قبعته بيده ، مطرق العينين في انطباعة هي وسطٌ بين سيما الجندي الماثل بين يدي ضابطه ، والمتهم الماثل بين يدي قاضيه . لقد اختفت جميع المشاعر وجميع الذكريات الـتي يمكن للمرء ان يتوقع ظهورها في حاله تلك . ولم يبق على هذا الوجه المغلَق البسيط كالصوّان غير حزنٍ كالح . كان شخصه كله ينطق بالضعة والصلابة ، وبضرب غريب من الكآبة الباسلة .

واخيراً اطّرح العمدة قلمه واستدار على نحو جزئي .

– « حسن . ماذا تريد ؟ ما المسألة ، يا جافير . »

وظل جافير صامتاً ، لحظةً ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوته في خشوع حزين لم تعوزه البساطة ، برغم ذلك :

— « لقد اقتَرِف عمل اجراميّ ، يا سيدي العمدة . »
— « وما هو ؟ »
— « لقد أظهر احد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، على نحو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقد جئت ، يحذوني واجبي ، لكي احيطك بذلك علماً . »
فسأله مسيو مادلين :
« ومن هو ذلك العامل ؟ »
فقال جافير :
— « أنا . »
— « انت ؟ »
— « أنا . »
— « ومن هو الحاكم الذي ينبغي أن يشكو هذا العامل ؟ »
— « انت ، يا سيدي العمدة . »
وتصدّر مسيو مادلين في كرسيه . وتابع جافير كلامه في انطباعة صارمة ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض :
— « سيدي العمدة . لقد جئت لكي ارجوك ان تتلطّف غاية التلطّف وتغري السلطة بصرفي من الخدمة . »
وفي ذهول ، فتح مسيو مادلين فمه . فقاطعه جافير :
— « ستقول إن في استطاعتي ان اقدّم استقالتي . ولكن هذا غير كافٍ . الاستقالة مشرّفة . ولكني قد أذنبت . ويجب ان أعاقب . يجب ان اسرّح من الخدمة . »
وبعد ان تمهّل لحظةً ، أضاف :
— « سيدي العمدة ، لقد كنتَ قاسياً عليّ ، ذلك اليوم ، في غير حق . فكن قاسياً عليّ اليوم ، في حقّ . »
— « آه ، هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا الهراء كله ؟ ما معنى هذا ؟

وايّ عمل إجرامي ارتكبتَهُ ضدي ؟ ما الذي عملتَهُ لي ؟ كيف اذنبتَ في حقي ؟ انت تتهم نفسك . اتريد ان نسند منصبك الى رجل آخر ؟ »
فقال جافير :
– « اريد ان أسرّح من الخدمة . . »
– « فلتُسَرَّحْ ، اذن . هذا غريب جداً . أنا لا أفهم . . »
– « سوف تفهم ، يا سيدي العمدة . . »
وزفر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن وبرود :
– « ياسيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادّة حول تلك الفتاة ، استبدّ بي الغضب ، فشكوتك . . »
– « شكوتني ! »
– « الى مديرية الشرطة في باريس . . »
وشرع مسيو مادلين يضحك ، وهو الذي كان مثل جافير لا يضحك الا نادراً :
– « بوصفي عمدةً اعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »
– « بوصفك رجلاً حُكم عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . . »
وغدا وجه العمدة أزرق ضارباً الى السواد .
وتابع جافير – ولم يكن قد رفع عينيه – قائلاً :
– « لقد اعتقدت ذلك . . منذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعتَها في فافيرول ، وقوتك الهائلة ، ومسألة فوشلوفان العجوز ، وبراعتك في الرماية ، ورجلك المتثاقلة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحاقات الاخرى . ولكني حسبتك ، في آخر الأمر ، رجلاً يدعى جان فالجان . . »
– « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »
– « جان فالجان . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة رأيته منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكوم

عليهم بتلك الاشغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا ، السجن سرق في ما يبدو قصر احد الاساقفة ، ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عامّ ، وكان المسروق غلاماً من غلمان سافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متوارٍ ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . – وبالاختصار ، قمتُ بهذا العمل . وإنما حملني الغضب على ان اقرّر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة . . »

واستأنف مسيو مادلين الكلام – وكان قد عاود الامساك بالملف قبل بضع ثوان – فقال في نبرة من اللامبالاة الكاملة :

– « وبماذا اجابوك ؟ »

– « بأنني معتوه . . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « إنهم على صواب . . »

– « من حسن الحظ ان تعتقد ذلك ! »

– « يجب أن أعتقد . لأن جان فالجان الحقيقي قد وُجد . . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممسكاً بها ، من يده . ورفع رأسه ، ونظر الى جافير على نحو موصول ، وقال في نبرة لا سبيل الى وصفها :

– « آه ! »

وتابع جافير حديثه :

– « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يا سيدي العمدة . يبدو أنه كان ثمة في المنطقة ، قرب « آبي – لو – هو – كلوشيه » رجل بسيط يدعونه الأب شانماتيو . كان فقيراً جداً . ولم يكن احد يلتفت اليه . إن المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيراً ، في هذا الخريف ، اعتقل الاب شانماتيو لسرقته شيئاً من التفاح الذي تصنع منه الخمر ، في ... ؛ ولكن هذا لا يهمّ . لقد وقعت سرقة ، وتسوّر

شخص ما جداراً ، وكسر أغصاناً . واعتقل صاحبنا شاماتيو . كان يحمل حتى في ذلك الحين غصناً من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل الحقير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن العناية الالـهية ما لبثت ان تدخلت . ذلك بأن السجن كان في حال سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن المديرية . وفي ذلك السجن كان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعى بروفيه أدخل السجن لذنب طفيف لا أدريه ثم جُعِل لحسن سلوكه سجاناً . ولم يكد المقام يستقر بشاماتيو حتى صاح بروفيه : « ها ، ها ! انا اعرف هذا الرجل . إنه واحد ممن قُدِّر لهم ان يدخلوا سجن الاشغال الشاقة . انظر اليّ جيداً ، ايها الرجل الطيب . انت جان فالجان ! » فقال له الرجل : « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان هذا ؟ » وتظاهر شاماتيو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل . انت جان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولون . كان ذلك منذ عشرين عاماً . وكنا هناك معاً . » وانكر شاماتيو . يا الـهي ! أفهمت ؟ وتعمّقوا المسألة . وبحثوا ونقبوا ، فاكتشفوا ما يلي . لقد كان شاماتيو هذا قبل ثلاثين عاماً ، مشذّب اغصان في اماكن متعددة ، وخاصة في فافيرول . وهناك نفتقد أثره . وبعد فترة طويلة نجده في أوفيرني ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع عربات ، وانه كانت له بنت عملت غسالة ، ولكن ذلك شيء لم يقم عليه دليل ، واخيراً وجدناه في هذه المنطقة . والآن ، قبل ان يساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة ماذا كان جان فالجان ؟ مشذب اغصان . أين ؟ في فافيرول . وشيء آخر . كان اسم المعمودية عند فالجان هو جان ، وكان اسم اسرة أمه ماتيو . وطبيعي جداً ان يكون عند خروجه من السجن قد اتخذ اسم امه إخفاءً لهويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفاً بـ « جان ماتيو » .

ويذهب الى اوفيرني وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، أليس كذلك ؟ ثم أجريت مباحث في فافيرول . ان اسرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الأسر على هذا النحو كثيراً ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فحين لا يكون هؤلاء القوم وحلاً يكونون غباراً . واذ كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فافيرول الآن من يعرف جان فالجان . ولكن تحقيقات قد أجريت في طولون . فباستثناء بروفيه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . إنهما من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشباي » و « شونيلديو » . وجيء بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالا ، كما قال بروفيه ، إنه جان فالجان . فالعمر واحد – اربع وخمسون سنة – والطول واحد ، والشكل واحد ، والاثنان في الواقع رجل واحد . إنه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس . وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك ، انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق . فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليمثل امامي . »

فقاطعه مسيو مادلين :

– « ثم ماذا ؟ »

فأجابه جافير ، بوجه عفيف محزون :

– « سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جداً ، ولكن

ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفته انا ايضاً . »

فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جداً :

– « اواثق انت من ذلك ؟ »

– وبدأ جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايمان العميق :

– « انا واثق . »

وظلّ شارد الذهن لحظةً ، رافعاً على نحو آلي قبضات من نشارة الخشب التي تصطنع لتجفيف الحبر كانت في صندوق على الطاولة ، ثم أضاف :

– « والآن اذ ارى جان فالجان الحقيقي لا استطيع أن افهم كيف جاز لي ان اعتقد غير ذلك . انا ألتمس عفوك يا سيدي العمدة . »

وفيما هو يوجه هذه الكلمات المتوسلة الرصينة الى ذلك الذي اهانه قبل ستة اسابيع ، امام الحرس كلهم وقال له : « اخرج ! » كان جافير – هذا الرجل المتكبر – مفعماً على غير وعي منه بالبساطة والوقار . واجابه مسيو مادلين عن التماسه بهذا السؤال المفاجيء :

– « وماذا قال الرجل ؟ »

– « اوه ، عجباً ! المسألة قبيحة ، يا سيدي العمدة . اذا كان هو جان فالجان ، فمعنى ذلك عودة الى الجريمة . إن تسوُّر جدار ما ، وكسر غصن من الاغصان ، وسرقة بعض التفاح لا تعدو ان تكون – بالنسبة الى الطفل – ذنباً . وهي – بالنسبة الى الرجل – جنحة . ولكنها – بالنسبة الى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة – جريمة . إن التسور والسرقة يشملان كل شيء . إنها ليست قضية من قضايا شرطة الجنح ، ولكنها قضية تنظر فيها محكمة الجنايات . ان عقوبتها ليست السجن بضعة ايام ، ولكنها الاشغال الشاقة مدى الحياة . والى هذا ، فهناك قضية ذلك الغلام السافواني الصغير

الذي ارجو ان ُيعـــثر عليـه . يا للشيطان ! هناك شيء ينبغي ان ُيناضَلَ ضده ، اليس كذلك ؟ نعم ، من اجل ايّ امرىء باستثنـاء جان فالجان . ان جان فالجان رجل ذو وجهين . وتلك عندي علامته الفارقة . لقد كان خليقاً بايّ انسان آخر ان يدرك أنه في وضع حرج حام فيضطرب . ويصرخ كما يصفر الاناء المعدني فـوق النـــار . كان خليقاً به ان يقول إنه ليس جان فالجان ، الخ . ولكن هذا الرجـل يتظاهر بانه لا يفهم ان يقول : « انا شانماتيو ، ليس عندي ما اقوله غير ذلك . » إنه يتظاهر بالدهش . إنه يمثل دور البهيمة . اوه ، إن الوغد داهيـة ! ولكن ، سيان . فهناك الدليل . لقد عرفه اربعة اشخـاص ؛ وان النذل العجوز سوف ُيدان . لقد رُفعت القضية الى محكمة الجنايات في آراس . واسوف امضي الى هناك لأدلي بشهادتي . لقـــد ُدعيت من اجل ذلك . »

كان مسيو مادلين قد ارتدّ الى منضدته ، وانشأ يقلّب اوراقه في هدوء ، فهو يقرأ حيناً وهو يكتب حيناً ، مثل رجل مثقل بالأعمال . ثم التفت الى جافير كرة اخرى وقال :

— « كفى ، يا جافير . الواقع ان هذه التفاصيل كلها لا تهمني إلا قليلاً . نحن نضيع وقتنا ، ولدينا مهامّ ملحة ، يا جافـير . اذهب في الحال الى منزل المرأة الطيبة بوزوبييه التي تبيع الاعشاب في زاوية شارع سان سولف . وقلْ لها ان ترفع شكواها على سائق العربات بيير شينلون . إنه وحشيّ كاد ان يسحق هـذه المرأة وطفلها . يجب ان يعاقب . ثم اذهب بعد ذلك الى مسيو شارسيلي ، في شارع مونتر دو شاببني . انه يشكو من ان ثمة ميزاباً في احد البيوت المجاورة يقذف بيته بماء المطر، على نحوٍ يقوّض آساس البناء . وبعد ذلك ينبغي ان تحقق في المخالفات التي رُفـــع امرها اليّ ، والتي وقعت عند الارملة دوريس في شارع غيـورغ ، وعند مدام رينيه لو بوسيه في شارع غارو — بلان ، وان

تضع تقريرك عنهما . ولكني أثقل عليك بالعمل . ألم تقل لي انك ذاهب الى آراس ، خلال ثمانية ايام او عشرة ايام ، لأمر يتصل بهذه المسألة؟»

— « أبكر من ذلك ، يا سيدي العمدة . »

— « في ايّ يوم اذن ؟ »

— « أحسب اني انبأت سيدي العمدة ان تلك القضية سوف تُنظر غداً ، وان عليّ ان أسافر بالعربة العمومية الليلة . »

وأتى مسيو مادلين بحركة لا تكاد تُلحظ .

— « وكم ستستغرق هذه المسألة ؟ »

— « يوماً واحداً على الاكثر . ولسوف يُلفظ الحكم غداً مساء على الأبعد . ولكني لن أنتظر صدور الحكم فهو راهن لا شك فيه . فما إن ادلي بشهادتي حتى ارجع الى هنا . »

فقال مسيو مادلين :

— « حسن . »

واذن له بالانصراف بحركة من يده .

ولكن جافير لم ينصرف . وقال :

— « عفواً ، يا سيدي العمدة . »

فسأله مادلين :

— « وماذا بعد ؟ »

— « سيدي العمدة ، هناك شيء آخر ارغب في أن ألفت نظرك اليه . »

— « وما هو ؟ »

— « هو أني يجب ان أسرّح . »

ونهض مسيو مادلين .

— « جافير ، انت رجل شرف ، وأنا أقدرك . انك تبالغ في تضخيم غلطتك . والى ذلك ، فهذه مخالفة تعنيني انا . انت جدير بالترفيع

لا بالاسقاط . انا اريد منك ان تحتفظ بمنصبك . »

ونظر جافير الى مسيو مادلين ، بعينين هادئتين تخيّل الى الناظر انه يرى في اعماقها هذا الضمير ، غير المستنير ، وإن يكن صارماً طاهراً . وقال في صوت هادئ :

— « سيدي العمدة ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك . »

فقال مسيو مادلين :

— « أكرر ان هذه مسألة تتعلّق بي شخصياً . »

ولكن جافير ، المستغرق في فكرته الوحيدة ، تابع الكلام :

— « أما المبالغة ، فأني لا ابالغ على الاطلاق . هذه هي الطريقة التي افكر بها : لقد ارتبتُ بك في غير حق . وليس هذا شيئاً . إن وظيفتنا قوامها الارتياب ، على الرغم من اننا قد نسيء استعمال حقنا اذا ارتبنا في رؤسائنا . ولكن من غير بيّنات ، وفي سورة من الغضب ، وبدافع من الانتقام الشخصي ، شكوتك بوصفك محكوماً سابقاً بالاشغال الشاقة — انت ، الرجل المحترم ، العمدة ، الحاكم . هذه مسألة خطيرة ، خطيرة جداً . لقد أهنتُ السلطة في شخصك ، انا العامل في خدمة السلطة . ولو قد فعل احد مرؤوسيّ ما فعلتُهُ اذن لاعتبرته غير جدير بالعمل ، ولطردته من منصبه . ثم ماذا ؟ كلمة أخرى ، يا سيدي العمدة . لقد كنت في معظم أيامي قاسياً على الناس ، وكان ذلك عدلاً . لقد أحسنت في ذلك . والان ، اذا لم أكن قاسياً على نفسي فان كل ما فعلته بعدل سوف ينقلب الى ظلم . هل يحسن بي أن أترفق بنفسي اكثر من الآخرين ؟ لا . ماذا أقول ؟ اذا لم أحسن إلا معاقبة الناس من دون نفسي فعندئذ اكون دنيئاً حقاً ! وعندئذ يصبح أولئك الذين يقولون « هذا الوغد جافير » على حقّ . سيدي العمدة ، أنا لا اريد منك ان تعاملني في رفق . لقد كان اصطناعك الرفق في معاملة الآخرين يهيج غضبي ، وأنا لا أبغيه لنفسي . ذلك الرفق

الذي قوامه الانتصار ابنت من بنات الهوى على مواطن من المواطنين ، ولشرطيّ على عمدة ، ولمرؤوس على رئيس — إنه ما أدعوه ، « الرفق الموضوع في غير محله » . مثل هذا الرفق يشيع الفوضى في المجتمع . يا الهي ، من اليسير ان يكون المرء رفيقاً ، ولكن من العسير ان يكون عادلاً . ولو أنك كنت كما توهمتك ، لما كنتُ خليقاً بأن أرفق بك . لا ، غيري الذي يرفق . ولقد كنتَ جديراً بأن ترى ، يا سيدي العمدة . يتعين عليّ أن أعامل نفسي كما أعامل أي إنسان آخر . كثيراً ما أقول لنفسي حين أزجر الاشرار ، وحين أعاقب المخالفين : « حذار ان تزلي ، حذار أن أقبض عليك متلبّسة بخطيئة ! » لقد زللتُ . لقد قبضت على نفسي متلبّساً بخطيئة . لأمي المبَل ! يجب ان أقصى ، ان أحطّم ، أن أسرّح . هذا حسن . إن لي ذراعين . أنا لا أزال قادراً على أن أفلح الارض ؛ ولست أجد في ذلك غضاضة . إن المصلحة العامة في حاجة الى مَثَل . وانا لا أطلب غير تسريح المفتش جافير . »

وانما قيل ذلك كله في نبرة متّضعة ، فخور ، يائسة ، جازمة خلعت عظمة غريبة لا سبيل الى وصفها على هذا الرجل النزيه الى حدّ عجيب .

فقال مسيو مادلين :

— « سنرى . »

وبسط يده نحوه .

وارتدّ جافير الى الوراء ، وقال في جرس ضارٍ :

— « عفواً ، يا سيدي العمدة . هذا شيء لا ينبغي ان يكون . ان العمدة لا يبسط يده الى الجاسوس . »

وأضاف من بين أسنانه :

— « جاسوس ؛ أجل . فمنذ اللحظة التي أسأت فيها استعمال سلطتي ، لم أكن أكثر من جاسوس ! »

ثم انحنى انحناءة مغالىً فيها ، ومضى نحو الباب .

وهناك استدار ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض .

– « سيدي العمدة ، سوف استمرّ في الوظيفة حتى أسرّح . »

قال ذلك وخرج . واستغرق مسيو مادلين في تأملاته ، مصغياً الى خطواته الثبتة الراسخة فيما هي تبتعد متلاشية على ارض الرواق .

الكتاب السابع

قضيّة شانماتيو

١

الاخت سيمبليس

إن الاحداث التي سنقرأها لم ُتعرف كلها قطّ في مونترووي سور مير . ولكن القليل الذي تسرّب منها قد ترك في تلك المدينة ذكريات ُيحدث إغفالها ، بتفاصيلها الدقيقة ، ثغرة في هذا الكتاب .

وبين تلك التفاصيل سيلقى القارىء حادثتين او ثلاث حوادث غير ممكنة الوقوع ُنثبتها احتراماً للحقيقة .

ففي الاصيل الذي تلا زيارة جافير ، ذهب مسيو مادلين ليرى فانتين كالعادة .

وقبل ان ينتهي الى غرفة فانتين استدعى الاخت سيمبليس .

كانت الراهبتان القائمتان بعبء الخدمة في المستشفى ، وهما لعازاريتان مثل جميع راهبات المحبة هؤلاء ، تدعيان الاخت بيربيتو ، والاخت سيمبليس .

وكانت الاخت بيربيتو فتاة ريفية عادية انتمت الى راهبات المحبة في غير إبطاء – فتـــاة فظة دخلت في خدمة الله وكأنها تلتحق بأيما عمل من الاعمال . كانت راهبة كما تكون غيرها طاهية . وليس هذا الطراز نادراً . فالرهبانيات ترحب بهذا الفخّار الريفي الثقيل الذي يسهل تحويله الى « كبوشي » او « ارسوليني » . * ومثل هـــذه الكائنات الجلفة تُصطنع عادةً في مهامّ العبادة الأكثر خشونة . وليس ثمة صدمة في انتقال المرء من راعي بقر الى راهب كرمليّ . ان احد هـــذين يستطيع ان يحلّ محل الآخر من غير كبير عناء . فالجهـــل ، وهو الاساس المشترك الذي تقوم عليه القرية والدير ، هو في ذاته إعـــداد مُنجَز ، وهو يضع الريفيّ ، في الحال ، على مستوى واحد مع الراهب . وسّع القميص قليلاً ، تحصل على ثوب الرهبانيـــة . وكانت الاخت بيربيتو راهبة شديدة البأس ، من مارين ، قرب بونتواز ، تُكثر من استعمال التعابير الاقليمية ، وتتلو المزامير على نحو رتيب . وكانت نزّاعة الى التذمر ، تضع السكّر في الدواء ، وفقاً لتطرف المريض في التقوى أو في الرياء ، جلفةً مع المرضى ، خشنة مع الموتى تكاد ان تقذف بهم في وجه الرب قذفاً ، راجمة حشرجاتهم بصلوات مغضبَة ، وقد شاع الدم في وجهها وبدت عليها أمارات الجسارة والطهارة .

اما الاخت سيمبليس فكانت بيضاء شمعية اللون . وكانت اذا مـا قورنت بالاخت بيربيتو اشبه ما تكون بشمعة طويلة عسلية المادة الى جانب شمعة صُنعت من شحم . ولقد سبق للقديس فنسان دو بول ان

* الكبوشية والارسولينية رهبانيتان معروفتان .

رسم أكمل ما يكون الرسم صورة لراهبة المحبة في هذه الكلمات الرائعة التي يمزج فيها كثيراً من الحرية بكثير من العبودية : « إن ديرها الأوحد سوف يكون بيت المرضى ، وقلّيتها * الوحيدة غرفةٌ مستأجرة. ولن يكون لها معبد غير كنيسة الابرشية ، ولا محبسٌ غير شوارع المدينة أوغرف المستشفى. ولن يكون سياجها غير الخضوع ، وحاجزها المقضّب غير خوف الله ، وخمارها غير الحياء . » وإنما تجسّد هذا المثل الاعلى حياً في الاخت سيمبليس . إن احداً ما كان قادراً على ان يحزر عمر الاخت سيمبليس . انها لم تكن شابة في يوم من الايام ، ولقد بدا وكأنها لن تشيخ في يوم من الأيام . كانت شخصاً — فنحن لا نجرؤ على ان نقول امرأة — هادئاً ، عابساً ، حسن العشرة ، بارداً لم تكذب طوال عمرها مرة واحدة . كانت من اللطف البالغ بحيث تبدو قصفة سريعة الانكسار ، ولكنها في ما عدا ذلك أشدّ صلابة من الصوّان . كانت تمسّ البائسين بأصابع فاتنة ، رقيقة ، طاهرة . كان ثمة — اذا جاز التعبير — صمتٌ في كلامها . كانت تقول ما هو ضروريّ ليس غير ، وكان لها جرْس قادر على ان ينير كرسيّ اعتراف ، وعلى ان يفتن صالوناً من الصالونات ، في وقت معاً . وكانت هـذه الرقة تكيّف نفسها مع الثوب الصوفي الاسمر الخشن واجدة في لمسته الجافية مذكّراً دائماً بالجنة وبالله . ولنؤكد مسألة واحدة : ان كونها لم تكذب قط ، ولم تقل قط — لأي غرض مهما يكن ، بل ولغير ما غرض — كلمة واحدة ليست هي الحقيقة ، الحقيقة المقدسة — إن هذه الواقعة كانت هي شيمة الاخت سيمبليس المميزة . كانت آية فضيلتها . وقد كادت تكون شهيرة في الرهبانية بسبب من هذا الصدق الثابت الجنان . وإنما تحدّث الراهب سيكارد عن الاخت سيمبليس في رسالة بعث بها الى « ماسيو » الاصمّ الأبكم . إننا مهما نكن مخلصين ، امناء ، طاهرين نحمل كلنا طابع كذبة صغيرة بريئة . اما هي فلا . كذبة صغيرة ، كذبة

---

* القلاية : شبه الصومعة .

بريئة ، هل يوجد شيء مثل هذا ؟ الكذب هو الشرّ المطلق . والكذب قليلاً ليس شيئاً ممكناً . إن ذلك الذي يكذب ، يكذب كذبة كاملة . الكذب هو وجه الشيطان نفسه . إن لابليس إسمين ، فهو يدعى إبليس ، وهو يدعى الكذاب . تلك كانت افكارها . وكما كانت تفكـّر ، كانت تعمل . ومن هنا هذا البياض الذي تحدثنا عنه ، البياض الذي يغطي باشعاعه حتى شفتيها وعينيها . كانت ابتسامتها بيضاء ، وكانت نظرتها بيضاء . لم يكن ثمة نسيج عنكبوت ، او ذرة من الغبار على زجاج ذلك الضمير . وحين نذرت نفسها للعمل تحت لواء القديس فنسان دو بول اتخذت اسم سيمبليس باختيار خاص . وسيمبليس الصقلية هي ، كما هو مشهور ، تلك القديسة التي آثرت ان يُقتلع ثدياها الاثنان على ان تجيب — وهي التي ولدت في سيراكيوس — بقولها انها ولدت في سيجيستا ، وتلك كذبة كان جديراً بها ان تنقذها . كانت هذه القديسة الشفيعة ، تلائم هذه النفس .

وكانت للاخت سيمبليس ، حين دخلت الرهبانية ، علتان تحرّرت منهما شيئاً بعد شيء . كانت تحب الحلويات ، وتحب ان تتلقى الرسائل . اما الان فلم تعد تقرأ غير كتاب صلاة ضخم الحروف لاتينيّ اللغة . لم تكن تفهم اللاتينية ، ولكنها فهمت الكتاب .

وانعطف قلب المرأة التقية على فانتين ، ولعلها ان تكون قد لمست فيها فضيلة كامنة ما ، ووقفت نفسها وقفاً كاملاً تقريباً على العناية بها .

وانتحى مسيو مادلين بالاخت سيمبليس مكاناً ، وأوصاها بفانتين في نبرة غريبة تذكرتها الاخت في يوم تال .

حتى اذا فارق الاخت ، اقترب من فانتين .

كانت فانتين تنتظر كل يوم ظهور مسيو مادلين كما ينتظر المرء شعاعاً من الدفء ومن البهجة . وكانت تقول للراهبتين :

— « أنا لا أحيا إلا حين يكون السيد العمدة هنا . »

وفي ذلك اليوم اشتدت عليها وطأة الحمى . فلم تكـــد ترى مسيو مادلين حتى سألته :

— « كوزيت ؟ »

فأجابها في ابتسامة :

— « قريباً جداً . »

وبدا مسيو مادلين ، وهو الى جانب فانتين ، في حاله المعتادة . بيد أنه أقام عندها هذه المرة ساعة بدلاً من نصف ساعة ، موقعاً بذلك اعظم الرضا في نفس فانتين . ولقد الحّ ألف مرة على كل امريء بأن تُلبّى مطالب المريضة كلها . ولقد لوحظ أن محيّاه بدا ، في لحظة من اللحظات ، قاتماً جداً . ولكن تفسير ذلك ما لبث ان اتضح عندما عُرف ان الطبيب قال له بعد ان انحنى فوق اذنها :

— « إن قواها تتلاشى في سرعة . »

ثم انه رجع الى مكتب العمدة ، فرآه الخادم يدرس في دقة خريطةً من خرائط الطرق في فرنسة تتدلى على جدار غرفته . ولقد صوّر بعض الارقام بقلم رصاصي على قصاصة من الورق .

٢
ذكاء المعلم سكوفلير

ومن مكتب العمدة مضى الى ضواحي المدينة قاصداً الى رجـــل فلمنكي * يدعي المعلم سكاوفلر — وقد فُرنِسَتْ فأمست سكوفلير — وكان يؤجر الخيل ويؤجر « العربات الخفيفة لمن يشاء » .

وكانت اقصر الطرق للذهاب الى سكوفلير هذا تقضي بسلوك شارع

* الفلمنكيون : ابناء بلاد الفلاندر .

نادراً ما تطأه الأقدام ، حيث كان بيت كاهن الابرشية التي يعيش فيها مسيو مادلين . وكان الكاهن ، كما قيل ، رجلًا جليلًا محترماً ، ذا رأي ونصيحة . وفي اللحظة التي انتهى فيها مسيو مادلين الى بيت الكاهن لم يكن في الشارع غير عابر سبيل واحد . ولقد لاحظ عابر السبيل هذا ما يلي : أن العمدة ، بعد ان تخطى منزل الكاهن ، وقف لحظة ، ثم ارتدّ على آثاره حتى باب ذلك المنزل ، وكان باباً ضخماً ذا قارعة حديدية . وأمسك بتلك القارعة بقوة ، ورفعها ، ثم وقف من جديد ، متمهلًا لحظة وكأنه يفكر ؛ وبعد بضع ثوانٍ اعاد القارعة في تلطُّف الى مكانها بدلاً من ان يقرع الباب بها في صخب ، واستأنف سيره بضرب من العجلة لم يصطنعه من قبل .

ووجد مسيو مادلين المعلم سكوفلير في بيته منهمكاً في إصلاح جهاز من أجهزة الخيل .

وسأله :

— « ايها المعلم سكوفلير ، هل عندك جواد أصيل ؟ »

فقال الرجل الفلمنكيّ :

— « سيدي العمدة ، إن جميع جيادي اصائل . ماذا تعني بالجواد الأصيل ؟ »

— « اعني جواداً يستطيع ان يقطع عشرين فرسخاً في اليوم . »

فقال الفلمنكيّ :

— « يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ! »

— « نعم . »

— « مقروناً الى عربة ؟ »

— « نعم . »

— « وكم سوف يستريح بعد الرحلة ؟ »

— « يجب ان يكون قادراً على ان يعود في اليوم التالي اذا

اقتضت الحال . »

— « ليقطع المسافة نفسها مرة اخرى ؟ »

— « نعم . »

— « يا للشيطان ! يا للشيطان ! وهي عشرون فرسخاً ايضاً ؟ »

واخرج مسيو مادلين الورقة التي سبق له ان دوّن عليها بعض الارقام بقلم رصاصي . وأطلع الرجل الفلمنكي على تلك الارقام . فاذا هي ٥ و ٦ و ٨ ١/٢ .

وقال :

— « ترى ، المجموع تسعة عشر ونصف ، وبكلمة ثانية عشرون فرسخاً . »

فاستأنف الفلمنكي كلامه :

— « سيدي العمدة ، عندي ما تطلبه تماماً . إنه جوادي الابيض الصغير . ولا ريب انك رأيته في بعض الطريق احياناً . إنه بهيمة صغيرة من « بولونيه الدنيا » . إنه مفعم بالنار . لقد حاولوا اول الامر ان يتخذوا منه حصاناً للركوب ، ولكنه اخذ في الرفس ، وأزلّ عن صهوته كل من حاول امتطاءه . وظنوا انه حرون ، ولم يدروا ما الذي ينبغي ان يفعلوه . واشتريته وقرنته الى عربة خفيفة . ذلك ما كان يريده ، يا سيدي . إنه رقيق الحاشية ، مثل فتاة من الفتيات . إنه ينطلق كالريح . آه ، مثلاً ، ينبغي ان لا يمتطي المرء صهوته . ليس من رأيه ان يكون فرس ركوب . إن لكل فرد طموحه الخاص . اريد ان اجرّ ، لا أن أحمل : ينبغي ان نؤمن بأنه قال ذلك لنفسه . »

— « وسوف يقوم بالرحلة ؟ »

— « اجل سوف يقطع العشرين فرسخاً التي تتحدث عنها ، وسوف يقطعها خَبَباً ، وفي أقلّ من ثماني ساعات . ولكن ثمة بعض الشروط . »

— « ما هي ؟ »

— « أولاً ، يجب ان تدعه يتنفس ساعةً حين تبلغ منتصف الطريق . وعندئذ يأكل ؛ وينبغي ان يقف الى جانبه بينا هو يأكل شخصٌ ما لكي يمنع صبيّ الخان من سرقة شوفانه . لاني لاحظت ان الشوفان يشربه صبية الخانات اكثر مما تأكله الخيل . »

— « ان شخصاً ما ، يجب ان يكون هناك . »

— « ثانياً ... ايريد سيدي العمدة العربة لنفسه ؟ »

— « نعم . »

— « هل يعرف سيدي العمدة كيف يسوقها ؟ »

— « نعم . »

— « حسن . اذن فسيدي العمدة سوف يرتحل وحده من غير امتعة . لكي لا يرهق الجواد . »

— « موافق . »

— « ولكن لمّا كان سيدي العمدة سيسافر وحده ، فسوف يُضطر الى أن يتجشّم عناء حراسة الشوفان بنفسه . »

— « لا بأس . »

— « اريد ثلاثين فرنكاً يومياً . على ان تُدفع ايام الراحة ايضاً . ولست أرضى اقلّ من ذلك بربع « سو » . وعلى سيدي العمدة ان يتحمل نفقة العليق . »

واخرج مسيو مادلين من كيس نقوده ثلاث ليرات ذهبية نابوليونية ووضعها على الطاولة قائلاً :

— « هذه اجرة يومين ، مقدّماً . »

— « رابعاً ، إن العربة قد تكون ثقيلة جداً بالنسبة الى رحلة كهذه ، وقد ترهق الجواد . لذلك ينبغي ان يوافق سيدي العمدة على السفر في عربة صغيرة ذات دولابين موجودة عندي . »

— « اوافق على ذلك . »

— « إنها خفيفة ، ولكنها مكشوفة . »

— « كل ذلك سواء عندي . »

— « هل فكر سيدي العمدة أننا في فصل الشتاء ؟ »

ولم يجب مسيو مادلين . وتابع الفلمنكي كلامه :

— « وأن الجوّ بارد جداً ؟ »

وظلّ مسيو مادلين معتصماً بالصمت .

وتابع المعلم سكوفلير :

— « وأنها قد تمطر ؟ »

فرفع مسيو مادلين رأسه وقال :

— « إن الجواد والعربة المكشوفة سوف يكونان أمام بابي غداً في الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »

فأجاب سكوفلير :

— « اتفقنا . »

قال ذلك ، وأنشأ يخدش بظفر إبهامه لطخةً كانت على خشب الطاولة ليستأنف بعدُ حديثه بتلك الانطباعة اللامبالية التي يحسن ابناء الفلاندر مزجها بدهائهم :

— « ولكن يا عجباً ! انا لم افكر بذلك إلا الآن . ان سيدي العمدة لم يخبرني الى اين يعتزم أن يذهب . الى اين سيذهب سيدي العمدة ؟ »

ولم يكن قد فكر بشيء آخر منذ بدء المحادثة ، ولكنه لم يجرؤ – من غير ان يدري لماذا – على أن يطرح هذا السؤال .

فقال مسيو مادلين :

— « هل لجوادك قائمتان اماميتان قويتان ؟ »

— « نعم ، يا سيدي العمدة . يجب ان تكبح جماحه قليلاً حين تهبط الكثيب . هل ثمة منحدرات كثيرة من هنا الى المكان الذي تعتزم

الذهاب اليه ؟ »

فأجابه مسيو مادلين :

— « لا تنسَ ان تكون عند باب داري في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »

وخرج .

وغودر الرجل الفلمنكي « مصعوقاً » ، كما عبّر هو نفسه في ما بعد.

ولم تكد تمضي على ذهاب العمدة دقيقتان او ثلاث دقائق حتى فُتح الباب من جديد . كان القادم هو السيد العمدة .

كانت تعلو وجهه سيماه المعتادة الممتنعة على التأثر ، الشاردة الذاهلة .

وقال :

— « مسيو سكوفلير ، بكم تقيّم الجواد والعربة المكشوفة اللذين ستزودني بهما ، حاملًا أحدُهما الآخر ؟ »

فقال الفلمنكي في ضحكة عالية :

— « جاراً احدُهما الآخر . »

— « كما تحبّ . بكم ؟ »

— « ايريد سيدي العمدة ان يشتريهما ؟ »

— « لا ، ولكني اريد ان اضمنهما لك على أية حال . حتى اذا رجعت كان في إمكانك ان تُعيد اليّ المبلغ . بكم تقيّم الجواد والعربة المكشوفة ؟ »

— « بخمسمئة فرنك ، يا سيدي العمدة ! »

— « ها هي ذي . »

ووضع مسيو مادلين ورقة نقدية على الطاولة ، ثم خرج ، ولكن من غير ان يعود هذه المرة .

وندم مسيو سكوفلير اعظم الندم لأنه لم يقل ألف فرنك . والواقع ان الجواد والعربة المكشوفة لم يكن ثمنها ليزيد — معاً — على مئة

ريال .

ونادى الرجل الفلكي زوجته وروى لها المسألة . يا للشيطان ! ولكن الى أين يمكن للعمدة ان يذهب ؟ وتحدثا في ذلك . فقالت الزوجة : « انه ذاهب الى باريس . » فقال الزوج : « لست اعتقد ذلك » وكان مسيو مادلين قد نسي الورقة التي دوّن عليها الارقام ، تاركاً اياها على الموقد . فتناولها الفلكي وراح يدرسها . « خمسة ، ستة ، ثمانية ونصف ؟ لا شك في ان هذه الارقام تشير الى محطات البريد . » والتفت الى زوجته قائلاً : « لقد اكتشفتها . » — « كيف ؟ » — « هناك خمسة فراسخ تفصل بيننا وبين هسدين ، وستة من هسدين الى سان بول ، وثمانية ونصف من سان بول الى آراس . إنه ذاهب الى آراس . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مادلين قد انتهى الى منزله . ولقد اتخذ عند عودته من منزل المعلم سكوفلير ، الطريق الطويلة ، لكأنّ باب دار الكاهن كان ضرباً من الاغراء ، فهو يريد ان يجتنبه . وصعد الى غرفته ، واوصد من دونه الباب ، وهو امرٌ لم يكن ليلفت النظر ، إذ كان من عادته ان يأوي الى الفراش باكراً . واياً ما كان فأن حارسة المصنع ، التي كانت في الوقت نفسه خادمة مسيو مادلين الوحيدة ، لاحظت ان ضوءه قد انطفأ في الساعة الثامنة والنصف ، فذكرت ذلك لامين الصندوق الذي رجع ادراجه ، مضيفةً :

— « هل السيد العمدة مريض ؟ أحسب ان هيئته كانت غريبة بعض الشيء . »

وكان امين الصندوق يحتلّ غرفة تقع تحت غرفة مسيو مادلين تماماً فلم يُلق بالاً الى كلام البوابة ، وآوى الى فراشه ، ونام . وحوالى منتصف الليل استيقظ من رقاده فجأة . كان قد سمع ، فيما هو نائم ، ضجة فوق رأسه . واصغى . فاذا خطىً تروح وتجيء ، وكأن شخصاً

ما ، يمشي في الغرفة التي فوقه . واصغى في انتباه أشد ، فتبيّن وقع خطى مسيو مادلين . وبدا ذلك غريباً في نظره . فما كانت لتُسمع ، عادةً ، أيّ ضجة في غرفة مسيو مادلين قبل نهوضه من النوم . وبعد لحظة ، سمع امين الصندوق شيئاً كأنه صوت خزانة تُفتح وتغلق . ثم ان قطعة من الاثاث حُركت ، وتبع ذلك فترة صمت اخرى ، وانشأت الخطى تروح وتجيء . واستوى امين الصندوق قاعداً في فراشه ، ونفض عنه النعاس ، ونظر . ومن خلال زجاج نافذته رأى على الجدار المقابل انعكاس النور من نافذة مضاءة انعكاساً ضارباً الى الحمرة . ومن اتجاه الأشعة لم يكن في الامكان أن تكون تلك النافذة غير نافذة غرفة مسيو مادلين . وارتعش الانعكاس وكأنه صادر من نار ساطعة لا من نور من الانوار . ولم يكن في الامكان ان يُرى ظلّ اطار النافذة المزجج ، وذلك ما دل على ان النافذة كانت مفتوحةً على مصراعيها . واذ كان البرد قارساً ، فقد كانت هذه النافذة المشرعة مدعاة الى العجب . واستسلم امين الصندوق للرقاد ، كرة اخرى . وبعد ساعة او ساعتين استيقظ من جديد . كانت الخطى نفسها ، بطيئةً ونظاميـة ، تروح وتجيء على نحو موصول فوق رأسه .

وظلّ الانعكاس مرتسماً على الجدار ، ولكنه غدا الآن شاحباً ثابتاً مثل ضوء مصباح او شمعة . كانت النافذة ما تزال مفتوحة .

فلنَرَ ما الذي كان يجري في غرفة مسيو مادلين .

٣
عاصفة في دماغ

لا ريب في ان القارىء قد حزر ان مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان .

ولقد سبق لنا ان نظرنا الى اعماق ذلك الضمير . وها قـــد أزف الوقت لنعاود النظر اليها من جديد . ولسنا نفعل ذلك من غير انفعال ، ومن غير ارتجاف ، فليس ثمة ما هو ادعى الى الرعب من هذا الضرب من التأمل . فالعين العقلية لا تستطيع ان تجد في ايما مكان شيئاً اعظم إذهالاً وأحلك ظلاماً مما تجده في الانسان . إنها لا تستطيع ان تحدّق الى شيء أرهب ، او أعقد ، او أدهش ، أو اكثر لانهائيةً . هنـاك مشهد واحد اعظم من البحر ؛ ذلك هو مشهد السماء . وهناك مشهد واحد اعظم من السماء ؛ ذلك هو باطن النفس البشرية .

إن نظم قصيدة الضمير الانساني ، ولو كان ضمير رجلٍ َفرْد ، بل ولو كان ضمير اسفل الناس وأحطهم ، يقتضينا اذابة جميع المــلاحم في ملحمة عليا ونهائية . الضمير هو هيولى الاوهـــام ، والشهوات ، والاغراءات ؛ هو بوتقة الاحلام ؛ هو مغارة الافكار التي نستحي بها . إنه وكر المغالطات ، وساحة الحروب التي تصطرع فيها الاهواء . إخترِقْ في بعض الساعات حجاب الوجه الازرق المسودّ الذي يحمله كائن بشريّ مستغرق في التفكير ، وانظر الى ما وراءه . انظر الى تلك النفس . انظر الى تلك الظلمة . ان هناك ، تحت الصمت الخارجي ، صراعاً بين العمالقة كالذي نجده عند هوميروس ، ومعارك بين التنانين والهدْريات * وحشوداً من الاشباح كالتي نقع عليها عند ميلتون ، ومتاهات مخيفة كالتي نلقاها عند دانتي . ايّ شيء مظلم هي تلك اللانهاية التي يحملها كل امريء في ذات نفسه ، والتي يقيس بها في يأس رغبات دماغه ، وافعال حياته !

لقد انتهى آليغيري ** ذات يوم الى باب مشؤوم وقف أمامه متردداً ، وها نحن اولاء امام باب آخر نقف على عتبته مترددين . ومع ذلـك فلندخل .

---

* hydre وهي في الميثيولوجيا افعى ذات سبعة رؤوس .

** يقصد الشاعر دانتي آليغيري صاحب « الكوميديا الالهية » .

وليس عندنا غير القليل نضيفه الى ما سبق للقاريء ان عرفه عما وقع لجان فالجان منذ حادث جيرفيه الصغير . كان منذ تلك اللحظة — كما رأينا — رجلاً آخر . وكان قد حقق ما أراده الاسقف له . كان ذلك اكثر من تحوّل ؛ كان خلقاً جديداً .

لقد وُفق الى الغياب عن العيان ، وباع آنية الاسقف الفضية ، محتفظاً بالشمعدانين فقط للذكرى ، منساباً في هدوء من مدينة الى مدينة ، عبر فرنسة ، وافداً على مونتروي سور مير ، حيث انبعث في ذهنه الفكرة التي وصفنا ، وحقق ما سبق ان رويناه ، وبلغ غاية من الرفعة جعلته أمنع ما يكون ، وأعزّ ما يكون ؛ ومن ذلك الحين استقرّ في مونتروي سور مير ، سعيداً بأن يحسّ بأن ضميره المحزون بماضيه ، وبالنصف الاول من حياته ، قد نعِمَ بالارتياح الى ما حقق في النصف الاخير . لقد عاش في أمن ، وطمأنينة ، وأمل ، وليس يشغل باله غير امرين اثنين : ان يخفي اسمه ، وأن يطهّر حياته . أن يجتنب الناس ، وان يرجع الى الله .

وكانت هاتان الفكرتان تمتزجان في ذهنه امتزاجاً قوياً جعل منهما كلاً واحداً . كانتا كلتاهما على مقدار واحد من القدرة على شغل البال ، وعلى فرض الارادة ، وكانتا تتحكمان بأضأل اعماله واقلها شأناً . وكانتا في الاحوال العادية متناغمتين في تنسيق سلوكه في الحياة . لقد وجهتاه نحو الجانب المظلم من الحياة . لقد جعلتاه عطوفاً بسيط الفؤاد . لقد ارشدتاه الى الاشياء نفسها . بيد ان تعارضاً كان ينشأ بينهما في بعض الاحيان . وفي مثل هذه الأحوال ، كما نذكر ، كان الرجل الذي عرفته المنطقة كلها المحيطة بمونتروي سور مير باسم مسيو مادلين لا يتردد عن التضحية بالاولى في سبيل الثانية ، عن تضحية سلامته من اجل فضيلته . وهكذا احتفظ ، برغم كل احتراسٍ وتبصّر ، بشمعداني الاسقف ، ولبسَ ثوب الحداد عليه ، واستدعى جميع غلمان سافوا

الصغار ووجّه اليهم الاسئلة ، وجمعَ المعلومات عـــن أسَر فافيرول ، وانقذ حياة فوشلوفان العجوز ، برغم ضروب التلميح المقلق التي قذفه بها جافير . لقد بدا ، كما لاحظنا من قبل ، وكأنه كان يعتقد ــ أسوةً بجميع اولئك الذين تحقّقوا بالحكمة ، والقداسة ، والعدل ــ ان واجبه الاسمى لم يكن نحو نفسه هو .

ولكنّ اياً من هذه المناسبات ــ وهو أمرٌ ينبغي ان ننصّ عليه ــ لم تكن لتشبه هذه التي عَرَضَت الآن .

إن الفكرتين اللتين هيمنتا على هذا الرجل البائس الذي نروي آلامه لم يُقدَّر لهما ان تخوضا مثل هذا الصراع الخطير من قبل . لقد ادرك ذلك على نحو غامض ، ولكنه عميق ، من أولى الكلمات التي نطق بها جافير عند دخوله مكتبه . فلم يكد ذلك الاسم الذي دفنه تحت تلك الظلمات كلها يُلفظ على ذلك النحو العجيب حتى استبدّ بـه الذهول ، وكأنما أسكرته غرابـــة قَدَره المشؤومة . ومن خلال ذلك الذهول استشعر الرعدة التي تسبق الصدمات الكبرى . لقد انحنى مثـل سنديانة عند اقتراب العاصفة ، مثلَ جندي عند اقتراب الغارة المعادية . لقـد استشعر ان ثمة سحائب مفعمة بالرعد والبرق تجتمع فوق رأسه . وحتى وهو يصغي الى جافير كان اول ما خطر له أن يمضي ، ان يركض ، ان يعلن عن هويّته ، ان يسحب شاغاتيو هذا من السجن ، أن يضع نفسـه محله . كان ذلك أليماً ممضّاً مثل طعنة في اللحم الحيّ ، ولكنه ما لبث ان تقضّى ، وعندئذ قـال في ذات نفسه : « دعني ارى ! دعني ارى ! » وكبت ذلك الحافز الاول الكريم ، وتراجع أمام مثل هذه البطولة .

ولا ريب في أنه كان يكون من الجميل ــ بعد كلـــمات الاسقف القدسية ، وبعد سنوات متعددة من التوبـة وانكار الذات ، وفي غمرة من ندامة استُهلت استهلالاً رائعاً ــ ان لا يتعثر هذا الرجل لحظةً حتى

أمام حدس فظيع الى هذا الحد ، وان يواصل سيره بخطى مطـّردة نحو تلك الهاوية الفاغرة فاها ، والتي تقوم الجنة في قعرها . اجـل ، كان ذلك يكون جميلاً ، ولكن الامور لم تجر على هذا النسق . ويتعـين علينا ان نتحدث في تفصيل عما اعتمل في تلك النفس ، وليس في استطاعتنا ان نقول غير ما كان هناك . لقد غلبت عليه اول الأمر غريزة حفظ الذات فسارع الى جمع شتات افكاره ، وكبتَ انفعالاته ، واخذ بعين الاعتبار وجود جافير ، ذلك الخطر الكبير ، وارجأ اتخاذ ايّ قرار بمثل رسوخ الذعر ، ونفى من ذهنه كلّ تفكير بالسبيل التي يتعيّن عليه سلوكها ، واستعاد هدوءه كما يستردّ المقاتل ترسه .

وسلخ بقيةَ اليوم على هذه الحال : عاصفة في باطنه ، وهدوء كامل في ظاهره . إنه لم يتخذ غير ما يمكن أن يُدعى إجراءات احتياطية . كان كل شيء لا يزال مختلطاً متلاطماً في دماغه . وكان من الاضطراب بحيث تعذّر عليه ان يتبيّن شكل أيما فكرة على نحو واضح ، وبحيث تعذر عليه ان يقول شيئاً عن نفسه ما خلا انه تلقّى اللحظةَ ضربـةً قوية . ومضى وفقاً لعادته الى سرير فانتين المَرَضيّ ، وأطال زيارته هذه ، بغريزة الطـيّبة ، قائلاً لنفسه إن عليه ان يفعـل ذلك ، وأن يوصي الراهبتين بضرورة العناية الفائقة بها ، في حال اضطراره الى الغيبة. لقد أحسّ احساساً غامضاً بأنه قد يتعين عليه ان يذهب الى آراس . ومن غير ان يعقد النية بحال من الاحوال على القيام بهذه الرحلة قال لنفسه ان في استطاعته ، ما دام في نجوة كاملة من الارتياب ، ان يشهد ما سوف يحدث ، فحجز عربة سكوفلير المكشوفة ، استعداداً لأيما طارىء يطرأ .

وتناول طعام العشاء في شهية حسنة .

حتى اذا انقلب الى غرفته جمع شتات افكاره .

لقد درس الوضع فوجد أنه شيء لم يُسْمَعْ بمثله من قبل . كان

شيئاً لم يُسمع بمثله الى درجة دفعته - في غمرة هواجسه ، وبدافع غريب من قلق يكاد يمتنع على التعبير - الى ان ينهض عن كرسيه ، ويغلق باب غرفته بالحديد . لقد خشيّ ان يدخل عليه شيء آخر . لقد تحصّن دون الاحتمالات جميعاً .

وبعد لحظة أطفأ ضوء مصباحه . كان ذلك الضوء يزعجه .

لقد بدا له ان في ميسور المرء ان يراه .

من ؟ المرء ؟

واأسفاه ! إن ما أراد أن يوصد الباب دونه قد دخل . إن ما أراد ان يُعميه كان ينظر اليه . ذلك هو ضميره .

ضميره ، يعني الله .

ومع ذلك ، فقد خدع نفسه في اللحظة الاخيرة . لقد استشعر الأمن والعزلة . واعتقد - إذ اوصد الباب بالحديد - أنه في حرز حريز . وملكَ نفسه . لقد اسند مرفقيه الى الطاولة ، وأراح رأسه على يده ، وانشأ يتأمل في الظلام :

- « أين أنا ؟ - ألست في حلم ! - ما الذي سمعته ؟ أصحيح حقاً اني رأيت جافير هذا وانه تحدّث إليّ هكذا ؟ - من يمكن ان يكون شانماتيو هذا ؟ - هو يشبهني اذن ؟ - هل هذا ممكن ؟ - حين افكر اني كنت أمس على مثل ذلك الهدوء ، وكنت ابعد ما اكون عن الارتياب بشيء ! - اي شيء كنت أعمله امس في مثل هذا الوقت ؟ - ما الذي تنطوي عليه هذه المسألة ؟ - إلام سوف تؤدي ؟ - ما الذي يجب ان يُعمل ؟ »

ذلك كان الاعصار الذي عصف به . كان عقله قد فقد القدرة على أن يكبح جماح افكاره . كانت تندفع كالأمواج ، وكان يمسك رأسه بيديه الاثنتين لكي يوقفها .

ومن هذه الجلبة التي اقلقت إرادته وعقله ، والتي حاول ان ينتزع

منها يقيناً وعزماً لم ينبعث شيء غير الألم النفسي المبرّح .

كان دماغه يغلي . لقد مضى الى النافذة ، ففتحها على مصراعيها ، لم يكن ثمة نجمٌ واحد في السماء . فرجع ، وجلس قريباً من الطاولة .

وهكذا تقضّت الساعة الاولى .

وشيئاً بعد شيء ، بدأت بعض الخطوط العامة تتشكل ، برغم ذلك ، وتركز نفسها في تأملاته . وامسى في ميسوره ان يلمح ، بدقة الحقيقة ، لا الوضعَ كله ، ولكنْ بعض تفاصيله .

لقد شرع يدرك أنه كان سيداً مطلقاً على ذلك الوضع ، مهما يكن حرجاً ، ومهما يكن فائقاً للعادة .

ولم يزدد ذهوله إلا عمقاً .

فبصرف النظر عن الغاية الزهدية والدينية التي استهدفتها اعماله لم يكن كل ما فعله حتى ذلك اليوم غير قبر كان يحفره ليدفن فيه اسمه . وكان أخوف ما خافه دائماً ، كلما خلا الى نفسه ، في لياليه الأرقة ، هو أن يسمع احداً يتلفظ بذلك الاسم في يوم من الايام . لقد استشعر ان ذلك خليق بأن يكون ، بالنسبة اليه ، نهاية كل شيء ؛ وأن اليوم الذي يعود فيه ذلك الاسم الى الظهور سوف يشهد زوال حياته الجديدة من حوله . ومن يدري ، فلعله ان يشهد زوال روحه الجديدة من ذات نفسه . وارتعد لمجرد التفكير بأن ذلك ممكن . ولو ان امرءاً قال له في مثل تلك اللحظات ان ساعة قد تأتي فترجّع ذلك الاسم في أذنه ؛ وأن هاتين الكلمتين البشعتين ، جان فالجان ، سوف تنبثقان فجأة من قلب الظلام وتقفان أمامه ؛ وان هذا الضياء المخيف المقدّر له ان يبدّد السر الذي أحاط به نفسه سوف يلتمع فجأة فوق رأسه ؛ وان هذا الاسم لن يتوعّده ؛ وأن هذا الضياء لن يزيد الظلام الذي يكتنفه الا حلكة ؛ وأن تمزيق ذلك الحجاب سوف يزيد اللغز إبهاماً ؛ وأن هذا الزلزال سوف يثبّت صرحه ؛ وأن هذه الحادثة العجيبة لن يكون من نتائجها ،

بالنسبة اليه ، وقد بدت له جيدةً جداً ، غير جعل وجوده اكثر اشراقاً ، في الحال ، وأبعد منالاً ؛ وأن المواطن الطيب الجليل ، مسيو مادلين ، سوف يخرج من لقائه مع شبح جان فالجان ، وهو ينعم بتشريف اكبر وأمن أوفر ، واحترام أعظم مما تمتع به في أي وقت مضى — لو ان امرءاً قال له ذلك إذن لهزّ رأسه ، واعتبر هذه الكلمات هراء . حسناً ! لقد وقع ذلك على وجه الضبط . كان تجمّع المستحيل هذا كله قد أمسى حقيقة ، الآن ، وكان الله قد اجاز لهذه الحاقات كلها ان تصبح أشياء واقعية .

وازداد تفكيره وضوحاً ، على نحو موصول . لقد صار أقدر على ان يلقي نظرة أرحب على وضعه .

لقد بدا له وكأنه استفاق اللحظة من سبات عجيب ، وأنه وجد نفسه ينزلق فوق منحدر ، في جوف الليل ، واقفاً ، مرتجفاً ، مرتداً الى الوراء على غير طائل ، وعلى قيد شعرة من هاوية . ولمح على نحو واضح ، في غمرة الظلام ، رجلاً مجهولاً ، رجلاً غريباً ، ظنه القدر إياه ، فهو يدفعه الى الهوة بدلاً منه . كان ضرورياً ، لكي تنغلق تلك الهوة ، ان يقع فيها شخص ما ، هو او الرجل الغريب .

ولم يكن عليه الا ان يترك المسألة وشأنها .

وغدا الضياء كاملاً . وادرك هذا : — أن مكانه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة كان شاغراً ، وانه مهما يفعل فأن مكانه ذاك ينتظره دائماً ، وان سرقته مالَ جرفيه الصغير قد أعادته الى هناك ، وان هذا المكان الشاغر سيظل ينتظره ويجذبه حتى يؤوب اليه ، وان هذا امر محتوم لا مفر منه . ثم قال لنفسه : إن له في هذه اللحظة بالذات بديلاً ، وان رجلاً يدعى شانماتيو ُقدّر عليه ان يتحمل هذا الطالع السيء ، أما هو — هو الذي سيدخل سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في شخص شانماتيو هذا ، والذي يحيا في المجتمع تحت

اسم مسيو مادلين – فليس له ما يخشاه بعد ، شرط ان لا يحول بين الناس وبين ان يثقلوا رأس شانماتيو هذا بحجر العار الذي يوضع مرةً ، مثل حجر القبر ، ثم لا يُرفع ابداً .

وكان ذلك كله من العنف والغرابة بحيث استشعر فجأة ذلك الضرب من الحركة التي لا سبيل الى وصفها والتي لا يعرفها المرء اكثر من مرتين او ثلاث مرات طوال حياته – استشعر ضرباً من اختلاج الضمير الذي يثير كل ما يرتاب فيه القلب ، وهو يتألف من التهكم والبهجة واليأس ، والذي نستطيع ان ندعوه انفجار الضحك الباطني .

وسارع الى إنارة شمعته من جديد .

وقال :

– « حسناً ، ماذا ! ممّ أنا خائف ؟ لماذا افكر في هذه الاشياء ؟ ها أنا ذا قد سلمتُ . لقد انتهى كل شيء . لم يكن ثمة غير باب مفرد نصف مفتوح يمكن للماضي ان يعترض من خلاله سبيل حياتي ، وها قد أوصد ذلك الباب الآن ! أوصد الى الأبد ! ان جافير هذا الذي ازعجني منذ عهد بعيد – تلك الغريزة المخيفة التي يبدو وكأنها اكتشفت الحقيقة ، بل التي اكتشفت الحقيقة فعلاً – جافير الذي تعقّبني في كل مكان ، وطاردني مثل كلب من كلاب القنص ، جافير هذا قد ضُلّل ، وشُغل في مكان آخر ، وخُتل ختلاً كاملاً . لقد داخله الرضا منذ اليوم ؛ انه سوف يتركني وشأني ؛ لقد ألقي القبض على جان فالجانه ! ومن يدري ؟ بل ان من المحتمل ان يرغب ، في غدٍ ، في مغادرة المدينة ! وكل ذلك إنما يتم من غير مساعدتي ! وليس لي به ايما علاقة ! آه ، نعم ، ولكن اين العنصر المحزن في هذا كله ؟ ان من يراني ليحسب – وأقسم بشرفي – أن كارثة قد حلت بي ! وعلى اية حال فاذا كان احد قد أصيب باذىً ما فليست تلك غلطتي . إن العناية الالـٰهية هي التي فعلت ذلك كله . تلك هي رغبتها في ما يبدو . وهل أملك انا الحقّ في نقض ما تدبّره ؟

ما الذي اطلبه الآن ؟ لماذا احاول ان اتدخل ؟ ذلك شيء لا علاقة لي به . كيف ! انا لست قانعاً ! ولكن ما الذي يعوزني اذن ؟ لقد فزتُ بالغاية التي طمحت اليها منذ سنوات عديدة ، فزتُ بحلم لياليّ ، بهدف صلواتي الى السماء ، بالامن والسلامة . إنها مشيئة الله . ويتعيّن عليّ ان لا اعمل شيئاً يتعارض ومشيئة الله . ولماذا شاء الله ذلك ؟ لكي أستطيع ان اتابع ما بدأت به ؛ لكي اتمكن من ان اعمل صالحاً ؛ لكي اكون ذات يوم مثلاً عظيماً ومشجعاً ؛ لكي يصبح في الامكان ان يقال إنه نشأ آخر الامر بعضُ السعادة عن هذا العذاب الذي احتملته وهذه الفضيلة التي عدتُ الى حظيرتها ! والواقع اني لا افهم لماذا خفت ذلك الخوف كله من ان اقصد الى هذا الكاهن الصالح وأعترف له بالقصة كلها ، وأسأله نصيحته ؛ ذلك من غير ريب ما كان يجدر به ان يقوله لي . لقد قضي الامر ؛ دع المسألة وشأنها ! حذار ان تتدخل في شأن من شؤون الله ! »

هكذا تحدّث في أعماق ضميره ، وهو متدلٍّ فوق ما يمكن ان ندعوه هاويته الخاصة . ونهض عن كرسيه ، وشرع يذرع الغرفة وقال : « هيا » ، فلأقلع عن التفكير في ذلك بعد الآن . لقد تمّ اتخاذ القرار . » ولكنه لم يستشعر بهجةً ما .

على العكس تماماً .

إن المرء لا يستطيع بعدُ ان يمنع العقل من العودة الى فكرة ما إلا بقدر ما يستطيع منع البحر من العودة الى شاطيء ما . إن ذلك يدعى في مثل الملاّح مدّاً ؛ وإن ذلك يدعى في مثل المذنب تبكيت الضمير . إن الله ليثيرُ النفسَ كما يثير الاوقيانوس ، سواء بسواء .

وبعد بضع لحظات – ولم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً غير ذلك – استأنف هذا الحوار الكالح ، الذي كانت نفسه هي التي تتحدث

فيه ، وهي التي تصغي ، قائلًا ما كان يريد أن يُخرسه ، مصغياً لما كان غير راغب في سماعه ، مستسلماً الى تلك القوة الخفية التي قالت له : « فكـّر ! » كما قالت لرجل آخر لفظ القضاء حكمه فيه ، منذ الفي عام : « سِرْ ! »

وقبل ان نذهب الى أبعد ، ولكي يفهمنا القاريء فهماً وافياً ، يتعيّن علينا أن نبدي ، مع شيء من التوكيد ، ملاحظةً واحدة .

من الثابت اننا نتحدث الى أنفسنا ؛ وليس ثمة كائن مفكر لم يمارس ذلك . بل ان في ميسورنا أن نقول إن الكلمة لا تكون ذلك اللغز الرائع إلا حين تمضي ، في باطن الانسان ، من فكره الى ضميره ، وتعود بعدُ من ضميره الى فكره . وبهذا المعنى وحده ينبغي ان تُفهم هذه الكلمات التي نُكثر اصطناعها في هذا الفصل : **قال** ؛ **صاح** . نحن نقول لانفسنا ؛ نحن نخاطب انفسنا ؛ نحن نصيح في داخل انفسنا ، من غير ان يُقطع السكوت الخارجي . إن ثمة جلبةً قوية في داخلنا . كل شيء في باطننا يتكلم ، ما عدا اللسان . واذا كانت حقائق النفس غير منظورة وغير ملموسة فليس ينقص ذلك من قيمتها كحقائق .

لقد سأل نفسه اذن اين هو . واستجوب نفسه حول هذا « القرار الذي اتُخذ » . ولقد اعترف لنفسه بأن كل ما كان يهيئه في ذهنه بغيض شنيع ؛ وان « ترك المسألة وشأنها ، وعدم التدخل في شؤون الله » شيء فظيع حقاً ؛ وان السماح لغلطة القدر هذه وغلطة الناس بأن تتمّ ، وعدم الحؤول دون ذلك ، ومساعدته على اتمامها بالاعتصام بالصمت ، والاحجام عن القيام بعمل ما آخر الامر لا تعدو ان تكون في الواقع إقداماً على عمل كل شيء . كان ذلك هو غاية الغايات في الخسّة المرائية ! كان جريمة بشعة ، دنيئة ، مُداجية ، جبانة ، وضيعة .

ولأول مرة ، طوال ثماني سنوات ، ذاق الرجل التعس ذلك الطعم المرير الذي يكون لفكرة شريرة ، وعمل شرير .

ولفظ ما ذاق في اشمئزاز .

وواصل استنطاقه الذاتي . لقد سأل نفسه ، في صرامة ، ما الذي فهمه من هذا الكلام : « لقد حققتُ هدفي . » ؟ فأعلن انه كانت لحياته ، في الواقع ، غاية . ولكنْ ما تلك الغاية ؟ ان يخفي اسمه ؟ ان يخدع الشرطة ؟ أمن اجل شيء ضئيل كهذا فعل كل ما فعله ؟ ألم تكن له غاية اخرى ، كانت هي الغاية العظمى ، وكانت هي الغاية الحقيقية ؟ أن ينقذ ، لا جسده ، ولكنْ نفسَه . أن يصبح صالحاً وخيّراً كرة ثانية . ان يكون رجلاً مستقيماً ! ألم يكن ذلك ، فوق كل شيء ، ذلك وحده ، هو الذي رغب فيه دائماً ، والذي أمره الأسقف به ؟ — ان يغلق الباب على ماضيه ؟ ولكنه لم يكن ليغلقه بحال من الاحوال . كان يعاود فتحه بارتكابه عملاً شائناً ! ذلك بأنه عاد لصاً من جديد ، بل لقد أمسى أشنع اللصوص وادعاهم الى الاشمئزاز . لقد سرقَ من رجل آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ، ومكانه تحت الشمس ! لقد أمسى سفاكاً ! لقد قتَلَ ، لقد قتل معنوياً رجلاً بائساً ! لقد انزل به ذلك الموتَ الحيّ المروّع ، ذلك الدفن في الحياة ، الذي يدعى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! على العكس ، فلأن ينقذ نفسه ، ولأن ينقذ هذا الرجل المبتلى بمثل هذه الغلطة الراعبة ، ولأن يحمل اسمه من جديد ، ولأن يصبح كرةً اخرى بدافع من الواجب جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فذلك في الواقع هو انبعاثهُ الحقّ ، وهو الاغلاق الابدي لباب الجحيم الذي خرج منه ! إن العودة اليه ، في الظاهر ، هي النجاة منه ، في الحقيقة ! يجب ان يفعل ذلك ! إنّ كل ما عمله حتى الآن ليس شيئاً اذا لم يفعل ذلك ! إن حياته كلها كانت غير ذات غَناء ، وان آلامه كلها ذهبت ادراج الرياح ، ولم يكن عليه غير ان يسأل هذا السؤال : « ما الفائدة ؟ » واستشعر أن الاسقف كان هناك ، ان الاسقف كان حاضراً اكثر مما كان ميتاً ،

ان الاسقف كان يحدق اليـــه تحديقاً موصولاً ، وان مادلين العمدة ، بفضائله جميعاً ، سوف يكون منذ اليوم بغيضاً اليه ، وان جان فالجان العبد الرقيق المحكوم عليه بالاشغال الشاقة سوف يكون باهراً وطاهراً في عينيه . واستشعر أن الناس كانوا يرون قناعه ، اما الاسقف فكان يرى وجهه ؛ ان الناس كانوا يرون حياته ، اما الاسقف فكان يرى ضميره . واذن فيجب ان يذهب الى آراس ، وان ينقذ جـان فالجان الزائف ، ويتهم جان فالجان الحقيقي . وأسفاه ! تلك كانت اعظـــم التضحيات شأناً ، وأشد الانتصارات إيلاماً ، والخطوة النهائيـة التي ينبغي ان تُخطى ؛ ولكن عليه ان يفعل ذلك . يا له من قدَر فاجع ! إنـه لا يستطيـع ان يلج باب القداسة في عيني الله ، إلا بالعودة الى العـار في أعين الناس !

وقال :

— « حسن . فلنسلك هذه السبيل ! فلنقم بواجبنا ! فلننقذ هذا الرجل ! »

ونطق بهذه الكلمات في صوت عال ، من غير ان يلحظ أنه كان يتكلم جهاراً .

وتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى في النار رزمـة من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صغار التجار . وكتب رسالة ، وختمها ؛ وكان في ميسور المرء ان يقرأ عـلى ظاهر ظرفها — لو كان في الغرفة أحدٌ آنذاك : **الى مسيو لافيت ، مصرفي ، شارع آرتوا ، باريس .**

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق الماليـة وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسـه للاشتراك في الانتخابات .

ولو ان امرءاً رآه فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمثل ذلك التأمل الوقور اذن لما ارتاب في ما كان يعتمل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكان يرفع رأسه في بعض

الاحيان ويسمّر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأنما وجـــد هناك بالضبط شيئاً يريد ان يجلوه او ان يستنطقه .

واتمّ الرسالة الى مسيو لافيت ، فوضعها هي والمحفظة في جيبـــه ، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغيّر . كان لا يزال يرى واجبـــه مكتوباً على نحو واضح باحرف ساطعة كانت تتوهج امام عينيـــه ، وتتحرك مع نظرته : « **اذهب ! اعترف باسمك ! إتهم نفسك !** »

ورأى كذلك ، وكأنما انتصبتا أمامه عاريتين وفي شكلين محسوسين ، الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين دستور حياته المزدوج : ان يُخفي اسمه ، وان يطهر نفسه . ولأول مرة بدتا له مستقلتين ، إحداهما عن الاخرى ، تمام الاستقلال ، ورأى الفرق الذي يفصل ما بينهما . لقد ادرك ان احدى هاتين الفكرتين خيّرة بالضرورة ، على حين ان الاخرى قد تصبح شريرة ؛ أن الاولى عبادة والاخرى انانية ؛ أن احداهما تقول : « **الجار** » وثانيتهما تقول « **انا** » ؛ ان واحدة تنبثق من النور وواحدة تنبعث من الظلام .

كانتا تتقاتلان . لقد رآهما تتقاتلان . وفيما هو ينظر ، تضخمتا امام عينه العقلية . لقد اصبحتا الآن هائلتين جداً . ولقد بدا انه رأى الى إلـٰهة وماردة تصطرعان في ذات نفسه ، في تلك اللانهاية التي تحدثنـــا الآن عنها ، وسط الظلمات والبوارق .

كان مفعماً بالذعر ، ولكن بدا له ان التفكير الخيّر في سبيله الى الانتصار .

لقد استشعر انه بلغ حركة ضميره وقدَره الثانيـــة الحاسمة . وان الاسقف كان قد طبعَ الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شانماتيو هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي المحنة الكبرى .

وفي غضون ذلك عاودته الحمّى ، شيئاً بعد شيء ، وكانت قد خمدت

لحظة . والتمع في ذهنه ألف خاطر ، ولكنها لم تزد عزمه الا رسوخاً .

وكان قد قال لحظة : لعلي انظر الى القضية ، باكثر مما تستحق من الحماسة . وان شانماتيو لم يكن على اية حال جديراً بالاهتمام ، وانه قد سرق ، فعلاً .

واجاب نفسه بقوله : « اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلاً ، بضع تفاحات فمعنى ذلك انه سوف يُسجن شهراً . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن من يدري ؟ هل سرق ؟ هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان يُثقل كاهله . ويبدو وكأنه في غير حاجة الى الدلائل والبيّنات . اليس من عادة النواب العامّين ان يتصرفوا على هذا النحو ؟ إنهم يحسبونه لصاً ، لانهم يعرفون انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز أن تشفع به بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنوات ، والخدمات التي ادّاها الى المنطقة ، فيُعفى عنه .

ولكن هذا الفرض ما لبث ان تلاشى . وابتسم في مرارة حين فكّر ان سرقة الاربعين « سو » من جيرفيه الصغير قد جعلته ذا سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه سوف يُحكم عليه ، وفقاً لنصوص القانون الحرفية ، بالاشغال الشاقة مدى الحياة .

واشاح بوجهه عن الاوهام كلها ، فاصلاً نفسه اكثر فاكثر عن هذه الارض ، ملتمساً العزاء والقوة في مكان آخر . لقد قال لنفسه إن عليه ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد قيامه بواجبه منه بعد التهرّب من القيام بهذا الواجب ؛ وانه اذا ترك المسألة وشأنها ، اذا ظلّ في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ، وشهرته الحميدة ، وأعماله الخيّرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ،

وإحسانه الى الفقراء ، وثروته ، وشعبيته ، وفضيلته — كل هذه سوف تُلوَّث بجريمة . وايّ متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة حين تُوثق بذلك الشيء البشع ! على حين انه اذا اقدم على التضحية المطلوبة منه فعندئذ تمازجه فكرة سماوية برغم وجوده في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، وغُلّه ، وقلنسوته الخضراء ، وعمله الذي لا يعرف الانقطاع ، وعاره الذي لا يعرف الرحمة !

واخيراً قال لنفسه إن تلك ضرورة ، وان قَدَرَه قد صيغ على هذا الشكل ، وانه لا يستطيع أن ينقض تدبير الله ، وان عليه ان يختار ، مهما تكن الاحوال ، احـــدى خطتين : إما الفضيلة الظاهرية والجبانة الباطنية ، وإما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .

ولم تضعف شجاعته فيما هو يُدير في ذهنه هذه الفكرات القاتمة كلها ، ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في اشياء قليلة الغَنَاء .

واندفع الدم عنيفاً الى صدغيه . وذرع الغرفة جيئة وذهوبـــاً على نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصافَ الليل ، اولاً ، ثم اعلنته بعدها ساعة دار البلدية . وعدّ الضربات الاثنتي عشرة التي أطلقتها كل من الساعتين ، وقارن ما بين صوت الجرسين . ولقد ذكّره ذلك بأنه كان قد رأى ، قبل بضعة ايام ، عند احد تجار الحدائـد العتيقة ، جرساً قديماً معروضاً للبيع ، وقد كُتب عليه هذا الاسم : **انطوان آلبين دو رومينفيل** .

وسرى البرد في اوصاله . وأوقـد ناراً . ولم يخطر بباله ان يوصد النافذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهوله ، كرةً اخرى . ولم يكـــن الجهد الذي احتاج اليه لكي يذكر ايّ شيء كان يفكّر فيه قبل ان تدقّ الساعتان ، جهداً يسيراً . ووفق الى ذلك ، آخر الامر .

وقال :

— « آه ! اجل . لقد اتخذت قراراً يقضي بأن أتهم نفسي . »

ثم إنه فكّر ، فجأة ، بفانتين .

وقال :

— « قف ! وهذه المرأة المسكينة ! »

ونشأت ههنا ازمة جديدة .

كانت فانتين ، وقد برزت فجأةً في هواجسه ، اشبه شيء بشعاع من ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغيّر مظهره . وصاح :

— « آه ! نعم ، حقاً ! أنا لم أفكر حتى الآن إلا بنفسي ! أنا لم أنظر إلا الى ما يوافقني ! لقد درست ما اذا كان يتعيّن عليّ ان أعتصم بالصمت أم اشكو نفسي الى السلطة ، أن أواري جسدي ام أنقذ روحي ، أن اكون حاكماً حقيراً ومحترماً أم ان اكون سجيناً مرذولاً وموقّراً . وكلها اسئلة تدور حول نفسي . نفسي دائماً . ونفسي ليس غير . ولكن ، يا الٰهي ، هذا كله انانية ! اشكال مختلفة من الانانية، ولكنها انانية على كل حال ! هلاّ فكرتُ قليلاً في غيري ؟ فلننظر ، فلندرس ! لنفرض اني وَلّيتُ ، أني مُحيتُ ، أني نُسيت ، فما الذي ينشأ عن ذلك كله ؟ — اذا اتهمت نفسي واستسلمت للقضاء ؟ إنهم سوف يعتقلونني ؛ إنهم سوف يطلقون سراح شانماتيو هذا ؛ إنهم سوف يعيدونني الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . حسن جداً . ثم ماذا ؟ ما الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، هنا ، حيث توجد منطقة ، ومدينة ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجداد عجائز ، واطفال ، وأناس مساكين ! لقد خلقتُ هذا كله ؛ لقد أعلتُ هذا كله . فحيثما ينطلق الدخان من مدخنة كنتُ انا الذي وضع الحطب في النار ، واللحم في القِدْر . لقد أحدثتُ الرخاء ، والنشاط ، والثقة . قبلي لم

يكن شيء . لقد رفعتُ ، وأعمرتُ ، وأنعشت ، وأخصبت ، وأنهضت ، وأغنيت البلاد كلها . اذا ذهبتُ انا فُقـدت روح البلاد . واذا زُلتُ انا مات كل شيء . وهذه المرأة التي قاست كثيراً ، الفاضلة في سقوطها ، والتي سبّبتُ على غير وعي مـــني بلاءها كله ! وتلك الطفلة التي كنت ذاهباً اليها ، والتي وعدتُ الأمّ بأعادتها اليها ! ألستُ مديناً ايضاً لهذه المرأة بشيء ، تعويضـاً عن الاذى الذي أنزلتُهُ بها ؟ فاذا تواريت عن مسرح الاحداث ، فما الذي يحدث ؟ ان الأم سوف تموت . وإن الطفلة سوف تصبـح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا ما شكوتُ نفسي الى القضاء . واذا لم أشكُ نفـسي ؟ فلأدرس هذا الوضع — اذا لم اشكُ نفـــي ؟

وتمهّل بعد ان طرح هـــذا السؤال . لقد تردّد لحظةً وارتجف . ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد أجاب في هدوء :

— « حسن ، إن هذا الرجل سوف يُساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . هذا صحيح . ولكن ايّ بأس في ذلك ؟ لقد سرق ! ومن العبث الذي لا طائل تحته ان ازعم انه لم يسرق ؛ لقد سرق ! اما أنا فأبقى هنا ؛ سوف أتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى اوفق الى ان اكسب عشرة ملايين . ولسوف انثر هذه الملايـــين في البلاد . انا لن أبقي شيئاً لنفسي . وماذا يضيرني ذلك ؟ إن ما أعمـله ليس لنفسي ! إن رفاهية الجميع سوف تزداد تعاظماً ؛ وإن الصنـاعات سوف تنهض وتتسابق ؛ وإن المصانع والمعامل سوف تتضاعف ؛ وإن الأسر ، مئات الأسر ، آلاف الأسر ، سوف تسعد . إن المنطقة ستصبح آهلة بالسكان ؛ وان القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد غـــير المزارع ؛ وان المزارع سوف تنبت حيث لم يكن يوجد شيء . ان الفقر سيزول ؛ وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبغـــاء ، والسرقة ، والقتل ؛ ستزول جميع الرذائل ، وجميع الجرائم ! ولسوف يكون في

ميسور هذه المرأة المسكينة ان تربي طفلتها ! وتصبح المنطقة كلها غنية وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي ! ما هذا الكلام الذي كنتُ أقوله حول اتهام نفسي ? يجب ان اصطنع الروية ، وأن لا أتهوّر . ماذا ? أأقدم على هذا لأن مما يوقع الرضا في نفسي أن اعمل العمل العظيم السخيّ ! — إن ذلك شيء مثير على اية حال ! — لأنني لم أفكّر إلا في ذاتي ، في ذاتي وحدها ! ماذا ? ألكي أنقذ من عقوبة قد تكون مغالىً فيها بعض الشيء ، ولكنها في الاساس عادلة — ألكي أنقذ من هذه العقوبة رجلاً لا يعرفه احد ، لصاً من اللصوص ، وغداً من الاوغاد ، على كل حال ، أدفع ببلاد بكاملها الى الخراب ! ويتعيّن على امرأة مسكينة أن تموت في المستشفى ! ويُقضى على بُنيّة بائسة ان تلاقي حتفها في الشارع ! مثل الكلاب ! آه ، ذلك خليق بأن يكون مقيتاً ! بل ومن غير ان يكون في ميسور الأم ان ترى ابنتها من جديد ? ومن غير ان تعرف الطفلة أمها او تكاد ! وكل ذلك من اجل سارق التفاح الجرو العجوز هذا ، الذي يستحق من غير ريب ان يساق الى سجن الاشغال الشاقة لجريمة اخرى ، إن لم يستحق ذلك من اجل هذه الجريمة ! إنها لوساوس جميلة هذه التي تنقذ مجرماً وتضحّي بأبرياء ، والتي تنقذ متشرداً عجوزاً لم يبق له على كل حال غير بضع سنوات يعيشها ولن يكون أتعس حالاً في سجن الاشغال الشاقة منه في مسكنه الحقير ، والتي تضحي بأهل منطقة بكاملها ، وبالامهات ، والزوجات ، والاطفال ! وكوزيت الصغيرة المسكينة التي ليس لها في هذا العالم احد غيري ، والتي يزرقّ وجهها في هذه اللحظة ، من غير شك ، بسبب ما تقاسيه من البرد في كوخ تيناردييه وزوجته ! وهذان وغدان بائسان أيضاً ! ومع ذلك اقصّر في القيام براجباتي تجاه هذه الكائنات البائسة كلها ! ومع ذلك يتعين عليّ ان اذهب واشكو نفسي الى القضاء ! ومع ذلك يجب ان ارتكب هذه

الحاقة البلهاء ! ولنفرض اسوأ الاحتمالات . لنفرض اني اقترفتُ ، من طريق الصمت ، سيئة ما وان ضميري سوف يجزني في يوم من الايام . فأن قبولي – لمصلحة الآخرين – بهذا الوخز الذي لا يُثقل كاهل احد غيري ، وبهذه السيئة التي لا تصدّع غير روحي ، هو التفاني عينُهُ ، وهو الفضيلة عينها . »

ونهض واستأنف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع .

إن الماس لا يكون إلا في المواطن المظلمة من الارض ؛ وكذلك الحقائق لا تكون إلا في أعماق الفكر . لقد بدا له أنه بعد أن غاص الى تلك الاعماق ، وبعد ان بحث طويلاً في اشدّ هذه الظلمات حلكةً ، عثر آخر الأمر على قطعة من ذلك الماس ، على واحدة من تلك الحقائق ، وأنه يمسك بها بيده . ولقد أعشاه النظر اليها .

وفكّر : « أجل ، تلك هي ! إني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدتُ الحلّ . يجب ان انتهي بالتشبث بشيء . لقد اخترتُ سبيلي . دع المسألة وشأنها ! كفى تردّداً . كفى تراجعاً ! هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصلحتي الشخصية . أنا مادلين ؛ ولسوف ابقى مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحداً . انا لا اعرف هذا الرجل ؛ انا لم أعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصاً ما هو جان فالجان في هذه الساعة فليدبّر أمره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . إنه اسم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على رأس رجل ما فلأمّ ذلك الرجل الحَبَل ! »

ونظر الى نفسه في المرآة المعلقة فوق موقده وقال :

– « اجل ! إن الوصول الى قرار قد ازال عني الغمّ . أنا الآن شخص آخر بالكلية ! »

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة .

وقال :

- « هيا ! يجب ان لا أتردد امام ايّ من نتـائج القرار الذي اتخذته . إنه لا تزال ثمة بعض الخيوط التي تشدّني الى جان فالجـان هذا . هذه الخيوط يجب ان تُقطع . إن ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تتهمني ، اشياء خرساء يمكن ان تشهد عليّ . لقد سُوّيت هذة المسألة ، وينبغي ان تختفي تلك الاشياء كلها . »

وبحث في جيبه ، وسحب كيس نقوده ، ففتحه ، واخرج منـه مفتاحاً صغيراً .

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، بعد ان غاب في الظلال القاتمة الى حدّ بعيد والتي ألقتها التصاوير المرسومة على الورق الذي يغطي الجدار . وفُتح باب سرّي ، فاذا خلفه ضرب من الخزانة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار وبرقع المدخنة . ولم يكـن في ذلك المخبأ غير بعض الخرق البالية : قميص مـن نسيج ازرق خشن ، وبنطلون عتيق ، وجراب قديم ، وعصاً زعرورية ضخمة طُوّق طرفاها بالحديد . إن اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة د .... في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقاً بهم أن يتبيّنوا ، في يسر ، بقايا هذا الزيّ البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشمعدانين الفضيين ، لتذكره دائماً بنقطة انطلاقه . ولكنه أخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقـة ، وأظهر الشمعدانين اللذين حملها من لدن الاسقف .

وألقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان ينفتح برغم الحديد الذي يرصده . وبحركة نشيطة مفاجئة طوّق هذه البقايا كلها بذراعيه ، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها — وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معرّضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات — وقذف بها جميعاً ، الأسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

وأغلق الخزانة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي أمست منذ ذلـك

الحين غير ذات غناء بعد أن أفرغها من محتوياتها ، وخبأ البـــاب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، أضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قـوي أحمر مرتعش . كان كل شيء يشتعل . وفرقعت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الحرق الراعبة فقد خلّف شيئاً عارياً التمع في الرماد . ولو قد انحنى أحدٌ فوق ذلـك الشيء إذن لتبيّن ، في يسر ، قطعة فضية . كانت هي من غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سُلبت من الغلام السافوائي الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرْع الغرفة جيئة وذهاباً ، محافظاً دائماً على السرعة نفسها .

وفجأة وقعت عيناه على الشمعدانين الفضيين اللذين التمعا ، على نحـو باهت ، فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليهما .

وفكر :

— « قف ! إن جان فالجان لا يزال ضمن هذين أيضاً . ينبغي ان يُتلفا مثل غيرهما . »

وتناول الشمعدانين .

كان ثمة نار كافية لاذابتهما الى ضرب مـن السبيكة لا تُعرَف إلا بشقّ النفس .

وانحنى فوق النار ، وتدفأ لحظة . واستشعر الهناءة حقاً .

وقال :

— « يا للدفء العذب ! »

وأثار الجمرات بأحد الشمعدانين .

وما هي إلا دقيقة حتى يكونا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا له أنه سمع صوتاً يصيح في داخله :

— « جان فالجان ! جان فالجان ! »

وقفَ شعر رأسه . كان أشبه برجل يسمع شيئاً فظيعاً .

وقال الصوت :

— « أجل . هكذا . أتمّ ، أكملْ ما أنت فاعله ! أتلف هذين الشمعدانين ! أمحُ هذا التذكار ! إنس الأسقف ! إنس كل شيء ! إقضِ على شانماتيو هذا ! حسن جداً . صفّقْ لنفسك ! وهكذا سُوّي الأمر ، واتخذ فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدري ما الذي يتهمونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئاً ؛ هوذا بريء انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وأنقض اسمك ظهره مثل جريمة من الجرائم ؛ هوذا بريء سوف يؤخذ بدلاً منك ، سوف يُدان ، سوف يقضي أيامه في الذلّ والذعر ! حسن جداً . كن أنت رجلًا مبجلًا . إبقَ السيد العمدة ؛ إبقَ شريفاً ومُشرّفاً ؛ أغنِ المدينة ؛ أطعِم الفقراء ؛ نشّيء الايتام ؛ عِشْ سعيداً ، فاضلًا ، محوطاً بآيات الاعجاب . وطوال هذه الفترة التي ستنعم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل يرتدي قميصك الأحمر ، ويحمل اسمك في الخزي والعار ، ويجرّ أغلالك في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! اجل ! لقد سويت المسألة تسوية حسنة ! آه ! مسكين ! »

وتحدّر العرق من جبينه . ونظر الى الشمعدانين بعين شاردة . ولم يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :

— « جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة تُحدث ضجة كبيرة ، وتتكلم بنبرة عالية جداً ، وتطريك وتباركك ، وصوتٌ واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ، إسمع ، ايها الرجل المرذول ! إن هذه البركات كلها سوف تسقط قبل ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي ستصعّد حتى تنتهي الى الله ! »

وما لبث هذا الصوت الذي كان واهناً جداً اول الامر ، والذي انبعث من أعمق اعماق ضميره – ما لبث ان غدا عالياً مخيفاً ، شيئاً بعد شيء ، فهو يضجّ الآن في اذنيه . لقد بدا له ان ذلك الصوت قد فارقه ، وانه كان يتكلم اللحظةَ من الخارج . ولقد خيّل اليه انه سمع الكلمات الاخيرة في كثير من الوضوح جعله يجيل بصره في الغرفة بضرب من الذعر .

وتساءل في صوت مرتفع ، وفي شرود :

– « هل يوجد احد هنا ؟ »

ثم استطرد في ضحكة كانت اشبه بضحكة رجل أبله :

– « يا لي من مجنون ! لا يمكن ان يكون أحد هنا . »

كان ثمة واحد . ولكن ذلك الذي كان هناك لم يكن من اولئك الذين تستطيع العين البشرية ان تراهم .

ووضع الشمعدانين على الموقد .

ثم استأنف سيره ذاك الرتيب الكئيب ، الذي ازعج الرجل النائم تحت غرفته ، المستغرق في احلامه ، فاستيقظ راجفاً .

وروّح هذا السير عنه وأثاره في آن معاً . والذي يبدو أننا في المناسبات الخطيرة نأخذ انفسنا بالحركة لكي نلتمس النصح من ايما شيء قد نلتقيه نتيجةً لتغيير المكان . وبعد بضع لحظات ، لم يعد يدري اين هو .

وتراجع الآن ، في ذعر متكافيء ، أمام كل من القرارين اللذين اتخذهما واحداً إثر واحد. لقد بدت الفكرتان اللتان قدمتا النصيحة اليه وخيمتي العاقبة على حد سواء . يا له من قدَر ! يا لها من مصادفة تلك التي جعلت السلطة تتوهم ان شانماتيو هو جان فالجان ! أيتردّى في الهاوية بدافع من الوسيلة نفسها التي بدا ، في اول الامر ، وكأن العناية الالٓهية قد سخرتها لتوطيده ؟!

وغبرَتْ لحظةٌ تأمّل خلالها المستقبلَ . أن يتهم نفسه ! يا الــهي ! أن يستسلم ! لقد تجلى له في يأس هائل ، كل ما يتعيّن عليه ان يهجره ، وكلّ ما يتعين عليه ان يستأنفه . يجب عليه اذن ان يودع هذا الوجود الجيّد الى ابعد حد ، الطاهر الى ابعد حد ، المشرق الى أبعد حد ؛ وان يودّع احترام الجميع ، ويودّع الشرف ، ويودّع الحرية ! انه لن يخرج للنزهة في الحقول منذ اليوم ! إنه لن يسمع الطير تغني في شهر نوار منذ اليوم ! إنه لن يوزع الصدقات على الاطفال الصغار منذ اليوم ! إنه لن يستشعر حلاوة نظرات الحب والاعتراف بالجميل المسدّدة اليه ، منـذ اليوم ! ولسوف يضطر الى ان يغادر هذا البيت الذي بناه ، هذه الغرفة الصغيرة ! لقد بدا كل شيء فاتناً في عينيه الآن . إنه لن يطالع بعد اليوم في هـذه الكتب . إنه لن يكتب بعد اليوم على هذه الطاولة الصغيرة ذات الخشب الابيض ! إن حاجبته العجوز ، وهي الخادم الوحيدة التي كانت عنده ، لن تحمل اليه قهوته ، بعد اليوم ، في الصباح . يا الــهي ! وبدلاً من هذا كله سيكون ثمة جمهور السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقـــة ، وطوقُ العنق الحديدي ، والرداء الاحمر ، والاصفاد التي تكبل القدم ، والاعياء ، والحجيرة المظلمة ، والسرير النقّال ، وكل هذه الاهوال التي يعرفها جيداً ! ومتى ؟ في مثل سنه هذه ، وبعـد ان صار الى ما صار اليه ! لو كان لا يزال شاباً ! ولكنْ أن يكون شيخاً ، وأن يهان من قِبَل أول وافد ، ويخاطَب بضمير المفرد من جانب حرس السجن ، ويُضرب بهراوة السجان ! ان توضع قدماه عاريتين في حـــذاء موثق بالحديد ! ان يُسلم رجله صباحاً ومساء الى مطرقة كبير رجال الحرس ليفحص الاغلال ! ان يحتمل فضول الغرباء الذين سوف يقـــال لهم : « هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان عمدة مونتروي سور مير ! » أن يرتقي من جديد في موهن من الليل ، وتحت سوط الرقيب ، درجات سلّم السجن العائم ، اثنتين اثنتين ، وقد سال منه العرق ، وهــدّه

التعب ، وانحرفت قلنسوته فوق عينيه ! اوه ، ايّ شقاء هذا ! هل في ميسور القدر اذن أن يكون خبيثاً مثل وجل ذكي ، وان يصبح راعباً كالقلب البشري ؟

كان مهما عمل يعود الى السقوط دائماً في هذه الورطة الحادة التي كانت في اعماق تفكيره والتي تفرض عليه ان يختار احدى خطتين كلتاهما بغيضة الى نفسه : ان يبقى في الجنة ليصبح هناك شيطاناً ، وان يعاود الدخول الى جهنم ليصبح هناك ملاكاً !

ما الذي ينبغي ان يُعمل ، يا الـهي ! ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟

كان العذاب العاصف الذي تغلّب عليه في كثير من العسر قد آذنه بهجوم باطنيّ جديد . واختلطت فكراته كرةً أخرى . لقد اتخذت ذلك الشكل الذاهل الميكانيكي الذي يمتنع على الوصف ، والذي هو من خصائص اليأس . وتمثّل له اسم رومينفيل على غير انقطاع ، مع بيتين من انشودة سمعها من قبل . وقال في ما بينه وبين نفسه ان رومينفيل غابة صغيرة قرب باريس حيث يذهب العشاق الشباب ليجمعوا زهرات الليلنج في شهر نيسان .

وترنّح ظاهرياً ، كما ترنّح باطنياً . لقد مشى مثل طفل صغير أجيز له ، أول مرة ، ان يسير وحده .

وبين الفينة والفينة ، وفي غمرة من كفاحه ضد الاعياء ، بذل جهداً جديداً لكي يوقظ فكره . لقد حاول ان يحدد ، نهائياً وعلى نحو قاطع ، المشكلة التي سقط أمامها ، بمعنى من المعاني ، مُجهَداً خائر القوى . أيتعين عليه ان يشكو نفسه ؟ أيتعين عليه ان يعتصم بالصمت ؟ لقد عجز عن ان يرى أيما شيء في وضوح . لقد ارتجفت الاشكال الغامضة لجميع الحجج التي رسمها عقله ، وتبدّدت واحدة اثر اخرى في دخان . بيد انه استشعر ان شيئاً من نفسه – مهما يكن قراره – سوف يموت ، ولسوف يكون موته بالضرورة ،

ومن غير ان يكون ثمة سبيل الى النجاة منه ؛ وانه سوف يدخل قبراً سواء جنحَ الى اليمين او جنح الى الشمال ؛ وانـــه كان يعاني حشرجة موت ، حشرجة موت سعادته ، او حشرجة موت فضيلته .

واأسفاه ! لقد عاوده تردّده كله . إنه لا يزال حيث بدأ ، لم يتقدم خطوة واحدة .

كذلك ناضلت هذه النفس التعسة الرازحة تحت وطأة الغمّ . وقبل هذا الرجل البائس بألف وثمانمئة عام كان الكائن المجلبب بالاسرار ، الذي تُختَصَر فيه قداسات الانسانية كلها وعذابات الانسانية كلها ، قد اطّرح هو ايضاً منذ عهد بعيد ، وفيما كانت شجرات الزيتون ترتجف أمـــام إعصار اللانهاية الضاري ، كأسَ العشاء الرباني المخيفة التي تراءت له سائلةً بالظلال ، فائضة بالظلمات ، في الأعماق الحافلة بالنجوم .

٤

اشكال يتخذها العذاب

خلال النوم

وأعلنت الساعةُ الثالثةَ . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يمشي على هذا النحو ، ومن غير انقطاع تقريباً ، عندما انطرح على كرسيه .

واستسلم للرقاد ، وانشأ يحلم .

ولم يكن ثمة صلة بين هذا الحلم – شأن معظم الاحلام – وبـــين وَضْع صاحبه غير طابعه الفاجـــع الموجع . ولكنه كان ذا وَقْع في نفسه . والحق ان هذا الكابوس أثّر فيه تأثيراً قوياً حمله في ما بعد على ان يدوّنه . وهذه احدى الاوراق التي كتبها بخط يده ، وخلّفها

من بعده . ونحن نعتبر ان من واجبنا ان ننسخها ههنا بالحرف الواحد .

وأياً ما كان هذا الحلم ، فأن قصة تلك الليلة تكون ناقصة اذا ما أغفلناه . إنه المغامرة المظلمة تقوم بها روحٌ مريضة .

وها هو ذا . إننا نجد مكتوباً على الظرف هذا السطر : « **الحلم الذي رأيته تلك الليلة . .** »

« كنتُ في حقل . حقلٍ واسع محزون ليس فيه عشب . ولم يبدُ أن ذلك كان نهاراً ، أو أنه كان ليلاً .

« كنت أمشي مع اخي ، اخي صباي . هذا الاخ الذي يتعين عليّ ان اقول اني لا افكر فيه ابداً ، واني لا اتذكره إلا نادراً .

« كنا نتحدث ، ولقد التقينا غيرَنا ماشياً أيضاً . كنا نتحدث عن جارة كانت لنا في ما مضى ، وكانت منذ ان سكنت في ذلك الشارع تعمل ونافذتها مفتوحة ابداً . وحتى فيما نحن نتكلم ، استشعرنا البرد بسبب من تلك النافذة المفتوحة .

« ولم يكن في الحقل أشجار .

« لقد رأينا رجلاً يمر بقربنا . كان عارياً عرياً كاملاً ، وكان بلون الرماد ، وكان ممتطياً جواداً بلون التراب . ولم يكن لذلك الرجل شعر . لقد رأينا جمجمته وأوردة في جمجمته . وبيده كان يمسك عصاً لدنة مثل غصن من اغصان الكرمة ، ثقيلة كالحديد . واجتاز بنا هذا الفارس ، ولم يقل شيئاً .

« وقال لي اخي : فلنسلك الطريق المهجورة .

« كان ثمة طريق مهجورة لم نرَ فيها لا عُلّيقة ولا علوج طحلب . كان كل شيء بلون التراب . حتى السماء كان لونها هكذا . وبعد بضع خطوات لم يُجبني احد حين تكلمتُ . لقد شعرت ان اخي لم يعد معي .

« ودخلتُ قريةً رأيتها . لقد ظننتُ أنها ينبغي ان تكون

رومينفيل (لماذا رومينفيل ؟) *

« كان اول شارع اجتزته مهجوراً . ومنه انتقلت الى شارع آخر . وخلف الزاوية التي شكّلها التقاء الشارعين كان رجلٌ واقفاً بحذاء الجدار . وقلت لهذا الرجل : ما هذا الاقليم ؟ اين انا ؟ فلم يجب الرجل بشيء. ورأيت باب بيتٍ ينفتح . فدخلته .

« كانت الغرفة الاولى مهملة . فدخلت الثانية . وخلف باب هذه الغرفة وجدتُ رجلًا واقفاً بحذاء الجدار . فسألت هذا الرجل : لمن هذا البيت ؟ أين انا ؟ فلم يجب الرجل بشيء . كانت للبيت حديقة .

« وغادرت البيت الى تلك الحديقة . كانت الحديقة مهجورة . وخلف اول شجرة رأيت رجلًا واقفاً . فقلت لهذا الرجل : ما هذه الحديقة ؟ اين انا ؟ فلم يجب الرجل بشيء .

« وطوّفتُ في القرية ، وادركت انها كانت مدينة . كانت الشوارع كلها مهجورة ، وكانت الابواب كلها مفتوحة . لم يكن ثمة كائن حيّ يمرّ بالشوارع ، أو يمشي في الغرف ، او يتنزه في الحدائق. ولكن خلف كل زاوية جدارٍ ، خلف كل باب ، خلف كل شجرة ، كان يقف رجل معتصم بالصمت . ولكن لم يكن في مقدوري ان أرى هؤلاء الرجال الا منفردين : واحداً في كل مرة . ونظروا اليّ فيما كنت أجتاز بهم .

« وغادرت المدينة ، وشرعت أمشي في الحقول .

« وبعد فترة قصيرة ، التفتّ فرأيت جمهرة كبيرة من الناس تلحق بي . لقد عرفتُ جميع الرجال الذين رأيتهم في المدينة . كانت رؤوسهم غريبة . لقد بدا وكأنهم لا يسرعون ، ومع ذلك فقد ساروا بأسرع مما سرت . ولم يُحدثوا في سيرهم صوتاً ما . وما هي الا لحظة حتى أدركتني هذه الجمهرة وأحاطت بي . كانت وجوه هؤلاء الرجال بلون

* هذه الملاحظة المقيدّة بهلالين هي بخط جان فالجان .

التراب .

« ثم إن الرجل الأول الذي سبق أن رأيته وسألته لدن دخولي المدينة قال لي : الى اين انت ذاهب ؟ ألا تدري انك ميّت منذ عهد طويل ؟

« وفتحت فمي لأجيب ، وأدركت انه لم يكن ثمة أحد من حولي . »

واستيقظ . كان مثلوجاً . وكانت ريح باردة كريح الصباح قد جعلت أُطُر النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزّاتها . كانت النار قد خمدت ، وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وكان الليل لا يزال حالكاً .

ونهض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم .

ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطلّ على فناء البيت وعلى الشارع . وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلجلة تؤذي الاذن ، فخفض بصره .

لقد رأى تحته كوكبين احمرين كانت اشعتهما تتراقص جيئة وذهوباً ، على نحو عجيب ، في الظلام .

كان عقله ما يزال نصف مغيّب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه :

— « اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . إنها على الارض الآن . »

بيد أن هذا الاختلاط ما لبث ان تبدّد . وايقظته ضجة أخرى شبيهة بالأولى إيقاظاً كاملًا . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وعلى هدي الضوء الذي انبعث منهما كان في ميسوره ان يتبيّن شكل عربة . كانت عربة مكشوفة يجرها جواد صغير أبيض . وكانت الضجة التي سمعها هي وقع حوافر الجواد على حصباء الطريق .

وقال في ذات نفسه :

- « ايّ عربة هذه ؟ ومن الذي وفد فيها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »

وفي تلك اللحظة قُرع باب غرفته قرعاً خفيفاً .

وارتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وصاح في صوت فظيع :

- « مَنْ هناك ؟ »

واجابه شخص ما :

- « انا يا سيدي العمدة . »

وتبيّن صوتَ المرأة العجوز ، صوت بوابته .

وقال :

- « حسن ، وماذا تريدين ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنها الساعة الخامسة على وجه الضبط . »

- « وماذا يهمني ذلك ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنها العربة . »

- « أية عربة ؟ »

- « العربة المكشوفة . »

- « أية عربة مكشوفة ؟ »

- « ألم يطلب سيدي العمدة ان توافيه الى هنا عربة مكشوفة ؟ »

فقال :

- « لا . »

- « يقول السائق إنه جاء نزولاً عند إرادتك . »

- « ايّ سائق هذا ؟ »

- « إنه سائق مسيو سكوفلير . »

- « سائق مسيو سكوفلير ؟ »

وأجفله هذا الاسم ، فكأن برقاً أومض أمام وجهه .

وقال :

- « آه ، نعم ! مسيو سكوفلير . »

ولو قد كان في امكان المرأة العجوز ان تراه في تلك اللحظة اذن لعصف بها الذعر .

وران صمت طويل . وتأمل لهبَ الشمعة ، في انطباعة بلهاء ، واخذ بعض الشمع المحرق من حول الفتيل وأداره بين اصابعه . وانتظرت المرأة العجوز ، ومع ذلك فقد غامرت فرفعت الصوت مرةً اخرى :

- « سيدي العمدة ، بمَ ينبغي ان أجيب ؟ »

- « قولي ان ذلك حسن ، وإنني أهبط السلم . »

٥
عصيّ في الدواليب

كان البريد من آراس الى مونتروي سور مير لا يزال يجري ، في ذلك العصر ، بمركبات بريدية ترقى الى عهد الامبراطورية . وكانت هذه المركبات البريدية عربات خفيفة ذات دولابين ، فُرش داخلها بجلد أصهب ، وزوّدت بنوابض ذات مفاصل ، وليس فيها غير مقعدين اثنين احدهما للسائق ، والآخر للمسافر . وكانت الدواليب مسلحة بتلك المحاور الطويلة المشاكسة التي تخلّف العربات الاخرى وراءها ، والتي لا تزال تُرى على طرق ألمانيا . وكانت الرسائل تُحمل في صندوق مستطيل ضخم قائم خلف العربة الخفيفة ، فهو يؤلف جزءاً منها . وكان هذا الصندوق مدهوناً باللون الاسود ، على حين كانت العربة مدهونة باللون الاصفر .

وكانت هذه العربات ، التي لا يشبهها اليوم شيء ، شائهة حدباء ،

فاذا ما رآها المرء من مسافة بعيدة زاحفةً فوق طريق ما عند الافق خالَها تلك الحشرات التي يدعونها الأرَضة ، في ما اظن ، والتي تسحب باجسادها الهزيلة قطاراً طويلاً يمتد خلفها . بيد انها كانت تنطلق في سرعة بالغة . كانت مركبة البريد التي تغادر آراس كل ليلة ، في الساعة الواحدة ، بعد تسليم البريد الوارد من باريس ، تبلغ مونتروي سور مير قبل الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وتلك الليلة اصطدمت مركبة البريد الهابطة الى مونتروي سور مير ، من طريق هسدين ، لحظةَ دخولها الى المدينة ، عند احد المنعطفات ، بعربة مكشوفة صغيرة شُدّ اليها جواد ابيض . كانت تلك العربة تنطلق في اتجاه معاكس ، ولم يكن فيها غير شخص واحد ، رجل متلفّع برداء فضفاض . واصيبت عجلتا العربة المكشوفة بصدمة قاسية . وصاح سائق مركبة البريد طالباً من الرجل ان يقف ، ولكن المسافر لم يصغ لكلامه ، وواصل انطلاقه في سرعة عظيمة .

وقال سائق مركبة البريد :

- « هوذا رجل مستعجل الى حد شيطاني ! »

وكان الرجل المنطلق هكذا على عجل هو ذلك الذي شهدناه يناضل في غمرة من القلق العنيف المثير للشفقة .

الى اين كان ذاهباً ؟ إنه ما كان قادراً على ان يجيب . لماذا كان ينطلق في سرعة ؟ لم يكن يدري . كان يندفع الى امام ، كيفما اتفق . إلى اين ؟ الى آراس ، من غير ريب . ولكن لعله كان ذاهباً الى مكان آخر ايضاً . وفي بعض اللحظات ، استشعر ذلك ، فارتعدت اوصاله .

لقد غاص في تلك الظلمة وكأنه يغوص في لجّة فاغرة فاها . كان شيء يستحثه ، كان شيء يجذبه . ما الذي كان يعتمل في ذات نفسه ؟ ذلك ما لا يستطيع احد ان يصفه ، وذلك ما يفهمه كل انسان . فمن ذا الذي لم يدخل ، ولو مرةً واحدة في حياته ، في كهف المجهول المظلم هذا ؟

ولكنه لم يعتزم شيئاً ، لم يقرر شيئاً ، لم يُبْرم شيئاً ، لم يفعل

شيئاً . إن اياً من أفعال ضميره لم يكن نهائياً . كان ، اكثرَ من ايما وقت مضى ، عنـد نقطة الابتداء .

لمَ كان ذاهباً الى آراس ؟

وكرّر ما سبق ان قاله لنفسه حين حجز عربة سكوفلير ذات العجلتين من انه – مهما تكن النتيجة – فليس ثمة بأس في ان يرى بعينيه ؛ وان يحاكم الاشياء بنفسه ؛ وان ذلك نفسه عملٌ حصيف ؛ وأن عليـه ان يعرف ما الذي يجري ؛ وانه ليس في مقدوره ان يقرّر شيئاً من غـير ان يلاحظ ويبحث ؛ وان الامر الضئيل يبدو ، على البعـد ، اشبه بالجبل الكبير ؛ وان ضميره قد يطمئن على كل حال ، اذا ما رأى الى شانماتيو هذا ، وهو بائس من البائسين ، اطمئناناً كبيراً فيرتضي ان يترك هذا الرجل يمضي الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مكانه ؛ وان مما لا ريب فيه ان جافير سوف يكون هناك ؛ وان بروفيـه هذا ، وشونيلديو هذا وكوشباي هذا ، وهم من نزلاء سجن الاشغال الشاقـة القدماء ، سوف يكونون هناك ايضاً ؛ ولكنهم لن يتعرّفوه من غير شك . هراء ! يا لها من فكرة ! وأن جافير كان على بعد مئة فرسخ عـن الحقيقة ؛ وان جميع الظنون والافتراضات منصبّة على شانماتيو هـذا ؛ وانه لم يكن ثمة ، اذن ، خطرٌ على الاطلاق .

واضاف قائلاً لنفسه انها ساعة قاتمة من غير ريب ، ولكنه يجب أن يجتازها ؛ وانه على أية حال يملك قدَرَه – مهما يكن سيئاً – بيده ؛ وأنه هو سيّد هذا القدَر . وتشبّث بهذه الفكرة .

ولكي نقول كل شيء ، ننصّ ههنا على أنه كان ، في أعمق اعماقه ، يؤثر ان لا يذهب الى آراس .

ومع ذلك ، فقد كان في طريقه اليها .

وعلى الرغم من استغراقه في التفكير ، فقد ألهبَ بسوطه الجوادَ ، الذي كان ينهب الارض في ذلك الخبب النظاميّ ، الثبْت ، الكامل ، الذي يجتاز فرسخين ونصف في الساعة الواحدة .

وكلما اندفعت العربة المكشوفة الى أمام ، استشعر في ذات نفسه شيئاً يرتدّ الى وراء .

وعند الفجر بلغ الارضَ الفضاء . كانت مدينة مونتروي سور مير قد خلّفت وراءه على مسافة بعيدة . ورأى الى الافق يُشرق . وبَصُر — ولكن من غير ان يراها — بجميع صور الضحى الشتويّ الباردة تمرّ أمام عينيه . إن للصباح أشباحه ، مثل الليل . انه لم يرها . ولكنْ على غير وعي منه ، وفي ضرب من النفاذ يكاد يكون مادياً ، أضافت ظلال الاشجار والتلال السوداءُ تلك الى وضعه النفسيّ المضطرب شيئاً لست أدريه ، شيئاً كالحاً مشؤوماً .

وكلما اجتاز بواحد من تلك المنازل المنعزلة القائمة هنا وهناك على جانب الطريق ، قال في ذات نفسه :

— « ولكنّ في داخل هذا المنزل اناساً نائمين ! »

وكان خبب الجواد ، وجلجلة جهازه ، ودووان العجلتين على حصباء الطريق تُحدث صوتاً رفيقاً رتيباً . إن هذه الاشياء لتكون فاتنة حين يكون المرء مبتهجاً ، وفاجعة حين يكون محزوناً .

كان النور غامراً حين انتهى الى هسدين . ووقف أمام احد الخانات لكي يدع جواده يتنفس ، ولكي يعمل على تزويده بشيء من الشوفان .

وكان هذا الجواد ، كما ذكر سكوفلير من قبل ، من سلالة جياد « بولونيه » الصغيرة ، فهو ذو رأس كبير اكثر مما ينبغي ، وبطن ضخم اكثر مما ينبغي ، وعنق قصيرة ، ولكنه ذو صدر عريض ، وكفل ضخم ، وقائمة مهزولة وقيقة ، وقدم ثابتة . سلالة بشعة ولكنها قوية سليمة . كان الجواد الممتاز قد اجتاز خمسة فراسخ في ساعتين ولم تَعلُ مؤخرته قطرة واحدة من العرق .

ولم يغادر العربة المكشوفة . وفجأةً انحنى خادم الخان الذي حمل الشوفان ، وأنشأ يفحص الدولاب الأيسر .

وقال هذا الرجل :

— « هل اجتزت مرحلة واسعة على هذا النحو ؟ »

فأجاب ، وهو ما يكاد يقطع حبل تفكيره :

— « لماذا ؟ »

فقال الخادم :

— « هل اقبلت من مكان بعيد ؟ »

— « من نقطة تبعد خمسة فراسخ عن هذا المكان . »

— « آه ! »

— « لماذا تقول : آه ؟ »

وانحنى الخادم كرة اخرى . واعتصم بالصمت لحظةً ، مسمّراً بصره على الدولاب ، ثم انتصب قائلًا :

— « من الممكن ان يفكر المرء ان هذا الدولاب قد فرغ اللحظة من اجتياز خمسة فراسخ . ولكن من الثابت انه لن يستطيع اجتياز ربع فرسخ بعد الآن . »

ووثب من العربة الى الارض .

— « ماذا تقول ، يا صديقي ؟ »

— « اقول إنها لمعجزة ان تكون قد اجتزتَ خمسة فراسخ من غير ان تسقط أنت وجوادك في حفرة ما ، على الطريق . من الخير لك ان تلزم الحذر . »

كان اذىً بالغٌ قد اصاب الدولاب حقاً . ذلك بأن الاصطدام بمركبة البريد كان قد كسر اثنين من انصاف محاوره ، وحلّ وثاق المركز ، فليس في وسع ثقب اللولب ان يُمسكه بعد .

وقال مخاطباً خادم الاصطبل :

— « ايها الصديق ، الا يوجد صانع عجلات هنا ؟ »

— « من غير شك ، يا سيدي . »

– « تكرّم عليّ باستدعائه . »
– « إنه هنا ، على بُعد خطوتين . هاي ! ايها المعلم بورغايار ! »
وكان المعلم بورغايار ، صانع العجلات ، واقفاً على عتبة دكانه . فأقبل وفحص العجلة ، وغضّن وجهه كما يغضّن الجراح وجهه عند رؤيته رجلاً مكسورة .
– « هل تستطيع ان تصلح هذه العجلة ، في الحال ؟ »
– « نعم يا سيدي . »
– « متى استطيع ان استأنف الانطلاق ؟ »
– « غداً . »
– « غداً ! »
– « ان إصلاحها يقتضي عمل يوم بكامله . هل أنت مستعجل جداً يا سيدي؟»
– « أجل ، أنا مستعجل جداً . يجب ان انطلق بعد ساعة ، على الاكثر . »
– « مستحيل ، يا سيدي . »
– « سوف ادفع لك ما تشاء . »
– « مستحيل . »
– « حسن . بعد ساعتين . »
– « ذلك مستحيل ، اليوم . يجب ان أصلح اثنين من انصاف المحاور ، ومركز الدولاب . إن سيدي لا يستطيع ان يستأنف المسير قبل غد . »
– « إن مهمتي لا تستطيع ان تنتظر حتى الغد . اليس في إمكاننا ان نستعيض عن هذا الدولاب بغيره ، بدلاً من ان نصلحه ؟ »
– « كيف ذلك ؟ »
– « انت صانع عجلات ؟ »
– « من غير شك ، يا سيدي . »

– « أليس عندك دولاب تبيعني اياه ؟ عندئذ يكون في ميسوري أن انطلق في الحال . »

– « دولاب للاستبدال ؟ »

– « نعم . »

– « ليس عندي دولاب يلائم عربتك تماماً . إن كل دولابين يشكلان زوجاً . وان الدولابين لا ينسجم احدهما مع الآخر كيفما اتفق . »

– « اذا كان الامر كذلك فبعني زوجاً من الدواليب . »

– « يا سيدي ، ليس كل الدواليب تلائم كل المحاور . »

– « ولكن جرّب . »

– « لا فائدة ، يا سيدي . ليس عندي ما ابيعه غير دواليب عربات اثقال . نحن نعيش هنا في منطقة صغيرة . »

– « هل عندك عربة ذات دولابين تعيرني اياها ؟ »

وكان صانع العجلات قد ادرك ، من اللمحة الاولى ، ان العربة المكشوفة كانت عربة مستأجرة . فهزّ كتفيه .

– « انت تُعنى عناية حسنة بالعربات التي تستأجرها ! واني خليق بان احتفظ باحداها فترة طويلة قبل ان أعيرك إياها . »

– « حسن ، بعني اياها . »

– « ليس عندي واحدة . »

– « ماذا ؟ حتى ولا عُجَيْلة ذات غطاء ؟ أنا لست متعنتاً ، كما ترى . »

– « نحن هنا نعيش في بلد صغير . » قال صانع العجلات ذلك ، ثم اضاف : « ولكن عندي ، تحت السقيفة العتيقة هناك ، عربة قديمة مكشوفة ذات اربع عجلات هي ملكٌ لمواطن من مواطني المدينة عهد اليّ في حفظها ، مواطن يستعملها في التاسع والعشرين من شباط

دائماً . سوف اعيرك اياها . إنها ليست لي طبعاً . ويجب ان لا يراها المواطن تجري . والى هذا ، فهي عربة مكشوفة ذات اربع عجلات ، وهي تحتاج الى جوادين . »

— « سوف آخذ جوادين من جياد البريد . »

— « الى اين يقصد سيدي ؟ »

— « الى آراس . »

— « ويريد سيدي ان يصل الى هناك اليوم ؟ »

— « أجل . »

— « بأن تأخذ جياد البريد ؟ »

— « ولم لا ؟ »

— « هل يرضى سيدي بأن يصل هذه الليلة في الساعة الرابعة صباحاً ؟ »

— « لا ، طبعاً . »

— « اعني ، كما ترى ، ان هناك شيئاً ينبغي ان يقال في ما يتعلق بأخذ جياد البريد ... هل يحمل سيدي جوازه ؟ »

— « نعم . »

— « حسن . اذا اخذ سيدي جياد البريد فأنه لن يصل الى آراس قبل غد . نحن هنا مفرق طرق . إن المحطات لا تخدم الا خدمة رديئة ، والخيل في الحقول . لقد بدأ موسم الحراثة منذ ايام ، والحاجة ماسة الى كثير من الدواب المقرونة . والجياد تؤخذ من كل مكان ، ومن مراكز البريد ايضاً . ولسوف يتعيّن على سيدي ان ينتظر ثلاث ساعات او اربع ساعات ، على الاقل ، في كل محطة . وفوق هذا ، فأن على المرء ان يمشي على قدميه . ان هناك كثيراً من الهضاب يجب ان تُرتقى . »

— « حسن ، سوف أنطلق على صهوة الجواد . حلّ وثاق الفرس

وافصل ما بينه وبين العربة . في استطاعة شخص ما في هذا المكان ان يبيعني سرجاً ، من غير شك . »

— « طبعاً . ولكن هل يحتمل هذا الجواد السرج ؟ »

— « صحيح . لقد نسيت ذلك . انه لن يحتمله . »

— « واذن ... »

— « ولكني سوف اجد في القرية ، من غير شك ، جواداً أستأجره . »

— « جواداً يذهب الى آراس في انطلاقة واحدة ؟ »

— « نعم . »

— « ينبغي ان يكون ذلك جواداً ليس في منطقتنا نظيره . ويجب ان تشتريه قبل كل شيء ، لأن احداً لا يعرفك هنا . ولكنك لن تجد مثل هذا الجواد ، سواء للشراء ام للاستعارة ، وسواء أدفعت فيه خمسمئة فرنك او دفعتَ فيه الف فرنك . »

— « ماذا يجب أن أعمل ؟ »

— « خير ما تعمله ، كرجل ذي ادراك ، هو ان أصلح الدولاب ، وان تستأنف رحلتك غداً . »

— « غداً يفوت الاوان . »

— « لعنها الله ! »

— « أليس ثمة مركبة بريد قاصدة الى آراس ؟ متى تصل الى هنا ؟ »

— « الليلة . كلتا المركبتين تقوم بالرحلة ليلاً . مركبة البريد الصاعدة ومركبة البريد الهابطة . »

— « كيف ! أو تحتاج الى يوم كامل لاصلاح هذا الدولاب ؟ »

— « يوم كامل ، بل يوم طويل ! »

— « ولو جرّدتَ عاملين لاصلاحه ؟ »

— « ولو جرّدتُ عشرة عمال . »

— « واذا شددت انصاف المحاور بالحبال ؟ »

— « انصاف المحاور استطيع ان اشدّها بالحبال . أما مركز الدولاب فلا . ثم إن إطار الدولاب الحديدي في حال غير حسنة ، ايضاً . »

— « أليس في المدينة مؤجّر عربات ؟ »

— « لا . »

— « ألا يوجد فيها صانع عجلات آخر ؟ »

وأجاب خادم الاصطبل وصانع العجلات في آن معاً ، وبهزّة من رأسيهما :

— « لا . »

واستشعر بهجةً غامرة .

كان واضحاً ان العناية الالهية تدخلت في الامر . إنها هي التي كسرت دولاب العربة المكشوفة ، وصدّته عن سبيله . وهو لم يستسلم لذلك لأول وهلة ؛ بل بذل كل جهد ممكن لاكمال رحلته . لقد استنفد ، في في اخلاص وتدقيق ، جميع الوسائل . وهو لم يتراجع لا في وجه الشتاء ، ولا في وجه التعب ، ولا في وجه النفقات ؛ وليس ثمة ما يؤنب نفسه من اجله . واذا لم يستطع ان يذهب الى أبعد من هذا فليس ذلك من شأنه . الذنب لم يعُدْ ذنبه . إن ذلك لم يكن من عمل ضميره . ولكن من عمل العناية الالهية .

وتنفّس . تنفّس في حرية وبملء الصدر للمرة الاولى منذ زيارة جافير . لقد بدا له ان اليد الحديدية التي اعتصرت فؤاده طوال عشرين ساعة قد تراخت .

لقد تراءى له ان الله كان في جانبه الآن ؛ كان في جانبه على نحو جليّ .

وقال في ذات نفسه إنه فعل كل ما في وسعه ان يفعله ، وانه لم

يبقَ عليه الآن الا ان يرتدّ على آثاره ، في هدوء .

ولو ان حديثه مع صانع العجلات جرى في احدى غرف الخان اذن لما شهده احد ، ولما سمعه امرؤ على الاطلاق ، واذن لظلّ هنــاك ، ولكان من المحتمل ان لا نُضطر الى رواية ايّ من الاحداث التي سوف نقرأ نبأها بعد . ولكن ذلك الحديث جرى في الشارع . وخليق بكل محاورة في الشارع ان تنشيء حتماً حلقةً من الناس . فهنـاك دائمـــاً قوم لا يطلبون اكثر من ان يكونوا نظارة . ففيما كان يحاور صانع العجلات تحلّق حولهما نفر من الغادين والرائحين . وبعد ان استمع احد الغلمان الصغار الى الحديث الدائر بضع دقائق — ولم يكن احد قد انتبه اليه — انفصل عن الحشد واطلق ساقيه للريح .

وفي اللحظة التي وطن فيها المسافر عزمه — بعد المذاكرة الباطنيـة التي اشرنا اليها — على ان يرجع من حيث اتى ، عاد هذا الغلام الصغير ، تصحبه امرأة عجوز .

وقالت المرأة :

— « سيدي ، يقول لي ولدي انك راغب في استئجار عربة ذات دولابين . »

وكان في هذا الكلام البسيط ، تنطق به امرأة عجوز قادها الى هناك غلام صغير ، ما جعل العرق يتصبب من ظهره . لقد خُيّل اليه انــه رأى اليد التي تحرّر منها اللحظة تعاود الظهور ، خلفه في الظلّ ، وهي على اتمّ الاستعداد لأن تقبض عليه من جديد .

واجاب :

— « أجل ، ايتها المرأة الطيبة ، أنا أبحث عن عربة ذات دولابين أستأجرها . »

ثم سارع الى القول مُضيفاً :

— « ولكن ليس ثمة واحدة في هذه المنطقة . »

فقالت العجوز :

- « اجل . هناك واحدة . »

فتدخل صانع العجلات قائلاً :

- « اين هي اذن ؟ »

فأجابت العجوز :

- « في بيتي . »

وارتعدت اوصاله . كانت اليد المشؤومة قد اطبقت عليه كرة اخرى .

وكان لتلك المرأة العجوز ، في الواقع ، ضربٌ من عُجيلة ذات غطاء مصنوعة من خيزران ، وكانت قائمة تحت سقيفة ما . وتدخّل الحداد وخادم الخان ، وقد اغضبهما ان يفلت المسافر من بين ايديهما :

- « انها عربة رديئة عتيقة . - إنها خالية من النوابض . - صحيح ان المقعد قد عُلّق في الداخل بسيور جلدية . - إن المطر ينفذ اليها . - إن دواليبها صدئة ثلّمتها الرطوبة . - انها لا تستطيع ان تذهب الى أبعد بكثير من العربة المكشوفة . - إنها عربة سخيفة حقاً - وان هذا السيد ليخطيء اعظم الخطأ اذا امتطاها . » الخ . الخ .

كل ذلك كان صحيحاً . ولكن هذه العربة الرديئة ، هذه العربة السخيفة ، هذا الشيء ، كائناً ما كان ، كانت تجري على دولابين ، وكان في استطاعتها ان تذهب الى آراس .

ودفع ما سُئل ان يدفعه ، وعهد الى صانع العجلات في إصلاح العربة المكشوفة على ان يستلمها حين يعود ، وقرن الجواد الابيض الى العُجَيْلة ذات الغطاء ، وامتطى متنها ، واستأنف السير في الطريق التي سلكها منذ الصباح .

ولم تكد العجيلة تنطلق به حتى اعترف بانه استشعر ، قبل لحظة ، ابتهاجاً ما لدنْ خطرَ له انه لن يذهب بعدُ الى حيث كان ذاهباً . وفحص ذلك الابتهاج في ضرب من الغضب ، فوجد أنه احمق . ولماذا

يستشعر الفرح اذا ارتدّ على عقبيه ؟ وعلى اية حال ، فهو يقوم بهذه الرحلة بطَوْعِهِ . إن احداً لم يُكرهه عليها .

ولا ريب في ان شيئاً ما لن يقع إلا اذا اراد هو ان يقع .

وفيما هو يغادر هسدين ، سمع صوتاً يصيح :

— « قف ! قف ! »

واوقف العُجَيلة بحركة عجلى كان لا يزال فيها شيء لا أدريه من الحمّى والتشنج هو اقرب ما يكون الى الأمل .

وكان الصائح غلام المرأة العجوز .

وقال :

— « سيدي ، اني أنا الذي جئتك بالعجيلة . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « إنك لم تعطني شيئاً . »

واستشعر — وهو الذي كان يعطي الجميع ، ويعطيهم في كثير من السخاء — أن هذا المطلب مغالىً فيه ، وانه يكاد يكون بغيضاً .

وقال :

— « آه ، أنت الذي جئت بها ، أيها الشحاذ ! انك لن تنال شيئاً ! »

وألهب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خببٍ خاطف .

كان قد أضاع كثيراً من الوقت في هسدين ، وكان يريد ان يعوّض ما أضاعه . وكان هذا الجواد الصغير باسلاً ، وكان يجر العجيلة بقوة فرسين اثنين . ولكنّ الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد هطل ، وكانت الطرق رديئة . وفوق هذا فلم يعدْ هو على متن عربته الأولى . كانت العجيلة تمضي في عسر ، وكانت ثقيلة جداً . والى هذا فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

واقتضاه الانتقال من هسدين الى سان بول أربع ساعات . أربع

ساعات لكي يجتاز خمسة فراسخ .

وفي سان بول تقدّم الى أول خان ، وقاد الجواد الى الاصطبل ، بعد ان فصله عن العُجلة . وكما وعد سكوفلير ، وقف قرب المعلف بينا كان الجواد يتناول طعامه . كان يفكر في أشياء محزونة مشوّشة .

ووفدت زوجة صاحب الخان الى الاصطبل .

- « الا يريد سيدي أن يتناول طعام الصباح ؟ »

فقال :

- « ولكنْ ، هذا صحيح . إن لي شهية حسنة ايضاً . »

وتبع هذه المرأة ، وكانت ذات وجه نَضِر طروب . وقادته الى قاعة منخفضة حيث كانت بضع طاولات مغطاة بقماش مشمّع .

وقال :

- « عجلي . يجب أن استأنف السير . أنا مستعجل . »

وسارعت خادم فلمنكية ضخمة الى إعداد المائدة له . ونظر الى هذه الفتاة وقد داخلَهُ الارتياح .

وفكّر فيا بينه وبين نفسه :

- « ذلك ما أوجعني . أنا لم اتناول طعام الصباح . »

كان فطوره قد أُعِدّ . فانقضّ على الرغيف ، ونهش قطعة منه ، ثم أعاده في تؤدة الى الطاولة ، ولم يمسّه بعد ذلك قط .

وكان سائق عربات يتناول الطعام على طاولة اخرى . فقال لهذا الرجل :

- « ما الذي يجعل خبزهم مريراً الى هذا الحد ؟ »

وكان سائق العربات ألمانياً ، فلم يفهم كلامه .

ورجع الى الاصطبل لكي يكون الى جانب جواده .

وبعد ساعة ، كان قد غادر سان بول ، واتجه نحو « تانك » التي لا تبعد عن آواس غير خمسة فراسخ .

ما الذي كان يعمله اثناء هذه الرحلة ؟ بمَ كان يفكر ؟ لقد رأى

الى الاشجار تمرّ به ، شأنه في الصباح ، والى السطوح المبنية من طين وقشّ ، والى الحقول المحروثة ، والى مشاهد الريف الذائب بعضها في بعض ، والمتغيّرة عند كل منعطف من منعطفات الطريق . ومثل هذه المشاهد تشبع النفس في بعض الاحيان ، وتكاد ان تطرد التفكير . وايّ شيء يمكن ان يكون اشدّ كآبة وأعمق حسرةً من رؤية الف شيء للمرة الاولى وللمرة الاخيرة ؟ وغير بعيد ان يكون قد عقد ، في أحلك جزء من عقله ، مقارنة بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود الانساني . إن حقائق الحياة كلها لا تفتأ تفرّ من وجهنا على نحو موصول . وان الظلمات والنور لتتداخل وتتمازج . فبعد الجَهَر * الكسوف . إننا ننظر ، إننا نستعجل ؛ اننا نمدّ ايدينا لنمسك بالذي يحدث ؛ إن كل حادثة هي منعطف من منعطفات الطريق ؛ وفجأة ننتهي الى الشيخوخة. نحن نستشعر صدمة طفيفة ، فاذا كل شيء اسود ، واذا بنا نتبيّن باباً مظلماً . ويقف جواد الحياة القاتم هذا الذي كان يُقلّنا ، ونرى شخصاً عجيباً مجهولاً يُطلقه في الظلمات .

وهبط الغسق لحظةَ شاهد الاطفال المنصرفون من المدرسة هذا المسافرَ يدخل الى تانك . صحيح أن النهار كان ما يزال قصيراً . ولم يقف في تانك . وفيما هو ينطلق خارجاً من القرية رفع ريفيّ كان يصلح الطريق رأسه وقال :

– « ان جوادك متعَب جداً . »

كانت البهيمة ، في الواقع ، تعدو عدواً هو الى المشي أقرب .

واضاف الريفيّ :

– « أذاهب انتَ الى آراس ؟ »

– « نعم . »

---

* جَهِرتِ العين : لم تبصر في الشمس .

– « اذا ذهبت بهذا البطء فلن تصل باكراً . »

ووقف فرسَهُ وسأل الريفيّ :

– « ما المسافة التي تفصل آراس عن هذا المكان ؟ »

– « سبعة فراسخ طويلة ، تقريباً . »

– « كيف ذلك ؟ إن كتاب البريد لا يشير الى اكثر من خمسة فراسخ وربع . »

فأجابه الريفي :

– « آه ! اذن ، فانت لا تعرف ان الطريق قيد الاصلاح ؟ سوف تجدها منقطعة بعد مسيرة ربع ساعة من هنا . وليس ثمة وسيلة للذهاب الى ابعد من ذلك . »

– « حقاً ؟ »

– « سوف تنعطف نحو الشمال ، وتسلك الطريق التي تقود الى كارانسي ، ثم تعبر النهر . وبعد أن تصل الى كامبلين تنعطف نحو اليمين ؛ تلك هي طريق مون – سان – إيلوا التي تقود الى آراس . »

– « ولكن الليل قد هبط . ولسوف اضلّ سبيلي . »

– « ألست من ابناء هذه المنطقة ؟ »

– « لا . »

– « والى ذلك ، فهذه كلها طرق ضيقة اكثر مباشرةً من الطريق العامة . »

قال الريفيّ هذا ثم اضاف :

– « إسمع ، يا سيدي . اتريد ان اقدّم اليك نصيحة ؟ إن جوادك متعَب ؛ فارجع الى تانك . إن فيها نُزُلاً حسناً . نم هناك . ولسوف يكون في إمكانك ان تذهب الى آراس غداً . »

– « ولكن يجب ان اكون هناك الليلة . »

ـ « هذه مسألة أخرى . اذن فارجع على اية حال الى الخان وخذ جواداً إضافياً . وفي ميسور الغلام الذي سينطلق مع الجواد ان يهديك سبيلك عبر الطرق الضيقة . »

وعمل بنصيحة الريفي ، فارتدّ على آثاره ، وبعد نصف ساعة كان يجتاز بالمكان نفسه ، ولكن في خببٍ تامّ ، ومع جواد إضافي جيد . وكان غلام من غلمان الاصطبلات ، دعا نفسه سائق عربات ، قد جلس على ساق العربة .

ومع ذلك ، فقد استشعر أنه يضيع كثيراً من الوقت .

كان الظلام قد امسى حالكاً .

وانتهيا الى احدى السبل الضيقة . وغدت الطريق مروّعة . وسقطت العُجيلة في ثلم إثر ثلم . وقال للسائق :

ـ « إلزمِ الخبب اضاعف لك العطاء . »

وإثر احدى الرجّات ، انكسرت قطعة الخشب الامامية المعلّق بها سَيرُ الجرّ .

وقال سائق العربة :

ـ « سيدي ، لقد انكسرت قطعة الخشب الامامية ، ولست ادري كيف أقرن جوادي الآن . وهذه الطريق رديئة جداً في الليل ، فاذا رغبتَ في ان ترجع الى ثانك وتبيت فيها فعندئذ يكون في إمكاننا أن نصل الى آراس في ساعة مبكرة من صباح غد . »

فأجابه قائلاً :

ـ « هل عندك قطعة من حبل وسكين ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي . »

وقطع غصن شجرة واستعاض به عن الاداة الخشبية المكسورة . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أيضاً . ولكنهما ما لبثا ان انطلقا

خبياً .

كان السهل مظلماً . وكان ضباب منخفض ، أسود كثيف ، يزحف فوق الهضاب ، ويطفو متلاشياً كالدخان . وانبثق من السحائب وميض ضئيل . وملأت ريحٌ عنيفة مقبلةٌ من جانب البحر أرجاءَ الافق كلـــه بصوت اشبه ما يكون بذلك الذي يحدثه شخصٌ يحرّك بعض الاثاث . ورانت سيا الذعر على كل ما تحته عيناه . عجباً ، كيف ترتعد جميـع الاشياء تحت انفاس الليل القظيعة !

وعصف به البرد . إنه لم يأكل شيئاً منذ الليلة البارحة . واسترجع ، على نحو غامض ، ذكرى مسيره الليلي الآخر في ذلك السهل الواسـع المنبسط قرب د ... كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، ولقد بدا له وكأنه لم يكن إلا أمس .

ودق جرس ساعة بعيدة . فسأل الغلامَ :

— « كم الساعة الآن ؟ »

— « السابعة ، يا سيدي . ولسوف تبلغ آراس في الساعة الثامنة . لم يبق أمامنا غير ثلاثة فراسخ . »

وفي تلك اللحظة خطر له لأول مرة — ولقد بدا عجيباً في نظره أن لا يفكر في ذلك من قبل — أن كل العناء الذي يتجشّمه قد يكون غير ذي غَناء ، وانه ما كان يعرف حتى موعدَ المحاكمة ، وأنه كان من واجبه ان يستعلم عن ذلك على الاقل ، وان من البلاهة ان ينطلق في مثل هذه السرعة من غير ان يعرف ما اذا كان لذلك فائـدة ما . ثم تمثّلَ في ذهنه بعض الاعتبارات : ان جلسات محاكم الجنايات تُستهل عادةً في الساعة التاسعة صباحاً ، وان هذه الدعوى لن تستغرق وقتـــاً طويلاً ، وان سرقة التفاح هذه سوف تكون موجزة جداً ، وان المسألة كلها سوف تكون مسألة تحقيق الهوية ، وأنه لن يكون ثمة غير اربعة

شهور او خمسة وشيء من الكلام قليل يقوله المحامون ؛ وانه قد يصل الى هناك بعد ان ينتهي كل شيء !

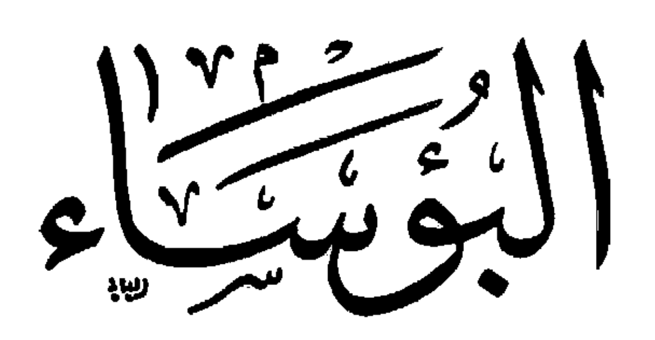
وألهب السائق الجوادين بسوطه . كانا قد عبرا النهر ، وخلّفا مون – سان – ايلي وراءهما .

واحلولك الليل اكثر فأكثر .

انتهى الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وبه يتمّ المجلد الاول

من البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٤

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

٦
الاخت سيمبليس تجرّب

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جذَل .

كانت قد قضت ليلة سيئة جداً . سعالٌ مروّع ، وحمّى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين أقبل الطبيب ، كانت تهذي . كان قلقاً ، وكان قد طلب ان يحاط علماً بمجيء مسيو مادلين حالما يتمّ ذلك .

كانت طوال الصباح مغتمة كئيبة . انها لم تتكلم إلا قليلاً ، ولقد راحت تثني غطاء سريرها متمتمة ، في صوت منخفض ، ببعض الحسابات التي بدت اشبه ما تكون بحساب المسافات . كانت عيناها غـائرتين مـحمّرتين . ولقد تراءتا كأن النور كاد يفارقهما ، ولكنهما كانتا تلتمعان ، في بعض اللحظات ، وتتوهجان ، وكأنهما كوكبان . لكأنّ ضيـاء السماء يملأ — عنـد اقتراب ساعة مظلمة ما — اولئك الذين يغادرون ضياء الارض .

وكلما سألتها الاخت سيمبليس عن حالها كانت تجيبها جواباً لا يتغير .

— « بخير . اريد ان ارى مسيو مادلين . »

قبل بضعة اشهر ، حين فقدتِ البقيةَ الباقية من حشمتها ، البقيـة الباقية من حيائها ، البقية الباقية من سعادتها ، كانت خيالَ نفسها . اما الآن فقد أمست شبحَ نفسها . كان الألم الجسدي قد أتم عمـل الالم المعنوي . فاذا بهذه المخلوقة البالغ عمرها خمسة وعشرين ربيعاً ذات جبين متجعد ، وخدين مترهلين ، ومنخرين مقروصين ، ولثة متقلصة ، وبشرة

رصاصية ، وعنق عظمية ، وتَرْقوَتان * ناتئتان ، واوصال مهزولة ، وجلد ترابيّ شاحب ، وشعر وخطه المشيب . واأسفاه ! كيف يتجلى المرضُ الشيخوخة !

وعند الظهيرة ، اقبل الطبيب كرة اخرى ، وترك بعض الوصفات ، وسأل عن العمدة أوَفَدَ على المستشفى ام لا ، وهزّ رأسه .

كان من عادة مسيو مادلين ان يفد في الساعة الثالثة لــيرى المرأة المريضة . وإذْ كانت الدّقة من الرفق ، فقد كان دقيقاً في المواعيد .

وحوالى الساعة الثانية والنصف نبا الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين دقيقة سألت الراهبةَ اكثر من عشر مرات :

ـ « كم الساعة ، ايتها الاخت ؟ »

وأعلنت الساعةُ الثالثةَ . ولم تكد تستكمل دقاتها حتى انتصبت فانتين في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها إلا في عسر ، وشابكت يديها العجفاوين الصفراوين في ضمة تشنّجية ، وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو وكأنها ترفع ثقلاً ثقيلاً . ثم إن فانتين التفتت ونظرت الى الباب .

إن أحداً لم يدخل . إن الباب لم ينفتح قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسمّرة عينيها على الباب ، غير مبدية حراكاً ، وكأنما كانت تحبس أنفاسها . ولم تجرؤ الراهبة عـلى الكلام . واعلنت ساعة الكنيسة الثالثةَ والربع . وانطرحت فانتين على وسادتها .

ولم تقل شيئاً ، وشرعت تثني غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكنّ أحداً لم يأت . وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح على فراشها كرة اخرى .

---

* الترْقوَة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق . وجمعها تراق .

كان في ميسور المرء ان يطّلع على افكارها في وضوح ، ولكنها لم تلفظ اسماً ما . انها لم تتشكَّ . إنها لم تلُمْ . لقد سعلت على نحـــو فاجع ، ليس غير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يزعم ان شيئاً مظلماً كان يُسِفّ فوقها . كان لونها أزرق ضارباً الى السواد ، وكانت شفتاهـــا زرقاوين . وابتسمت بين الفينة والفينة .

واعلنت الساعة الخامسةَ . وعندئذ سمعتها الراهبة تقول في صـــوت منخفض جداً ، وفي رفق :

— « ولكن ما دمت انا ذاهبة غداً ، فـــأن من الخطأ ان لا يأتي اليومَ ! »

واستولى العجب على الاخت سيمبليس لتأخر مسيو مادلين .

وفي غضون ذلك حدقت فانتين الى مِظلة سريرها . لقد بدت وكأنها تحاول ان تتذكر شيئاً . وفجأة انشأت تغني في صوت واهن اشبه بالهمس . وأصغت الراهبة . كانت هذه هي الاغنية التي أنشدتها فانتين :

سوف نشتري أشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .
ان البنفسج أزرق ، وإن الورود حمراء ،
إن البنفسج أزرق ، وأنا أحب أحبتي .

أمس وفدت مريم العذراء ،
الى فراشي في رداء موشى ،
وقالت لي : « هنا تحت حجابي ،
يختبىء الطفل الذي سألتني إياه يوماً . »
أسرعي الى المدينة ، واشتري نسيجاً قطنياً ،
اشتري خيوطاً ، واشتري كشتبان .

سوف نشتري أشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .

أيتها العذراء المقدّسة الطيبة ، لقد وضعت

الى جانب فراشي مهداً مزيناً بالصائب .
ولو ان الله اعطاني اجمل كوكب من كواكبه
اذن لاحببت الطفل الذي اعطيتني اياه اكثر .
– « سيدتي ، ما الذي أصنعه بهذا النسيج القطني ؟ »
– « اصنعي جهازاً لمولودتي الجديدة . »

إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء .
إن البنفسج ازرق ، وانا احب احبتي .

– « إغسلي هذا القماش القطني . » – « اين ؟ » – « في النهر . »
إجعلي منه ، من غير ان تتلفيه او تلوثيه ،
تنورة جميلة ، تنورة طويلة جداً
اريد ان اوشيها واملأها بالازهار .
– « إن الطفل لم يعد هناك ، يا سيدتي ، فما العمل ؟ »
– « اجعلي منه كفناً أدفَن به . »

سوف نشتري اشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .
إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء ،
إن البنفسج ازرق ، وانا أحب احبتي .

كانت تلك اغنية قديمة من اغاني هدهدة الاطفال تعوّدت في ما مضى ان تنشدها لصغيرتها كوزيت قبيل النوم ، ولم تخطر لها ببال منذ ان فارقت طفلتها لخمس سنوات خلت . لقد غنّتها في صوت جدّ محزون ، وفي لحن جدّ عذب بحيث لم يكن في ميسورها الا ان تستدر الدموع حتى من عيني راهبة واستشعرت الأخت ، برغم تعوّدها الصرامة ، ان عبرةً تنحدر على خديها .

واعلنت الساعةُ السادسةَ . وبدت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت وكأنها لا تلقي بعدُ بالاً لأيما شيء حولها .

ووجهت الاخت سيمبليس فتاةً لتسأل بوابة المصنع هل عاد مسيو

مادلين ، وما اذا كان يعتزم المجيء الى المستشفى وشيكاً ، ام لا ؟
ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

كانت فانتين لا تزال جامدة لا تتحرك ؛ ولقد بدت مستغرقة في أفكارها الخاصة .

وفي همس ، روت الفتاة للاخت سيمبليس ان العمدة ارتحل ذلك الصباح نفسه ، قبل الساعة السادسة ، على متن عربة صغيرة مكشوفة يقودها جواد ابيض ، على الرغم من شدة البرد ؛ وانه ارتحل وحده من غير ان يصطحب حتى سائقاً ؛ وان احداً لم يعرف الطريق التي سلكها ؛ وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذاً طريق آراس ؛ وان آخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ؛ وانه حين ارتحل بدا ، كعادته ، لطيفاً جداً ، وانه اكتفى بأن قال للبوابة ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفيما المرأتان تتهامسان ، موليتين ظهريهما سريرَ فانتين – الراهبة تستجوب ، والخادمة تخمّن – نهضت فانتين في سريرها على الركبتين ، بذلك النشاط الحُمّوي المرافق بعضَ الامراض العضوية والذي تختلط فيه حركةُ الصحةِ الطلقةُ بهزال الموت المروّع ، واسندت قبضتيها المتشنجتين على الوسادة ، مُطلعَةً رأسها من فتحة الستارة ، وانشأت تصغي . وفجأةً صاحت :

– « انتما تتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمان بصوت منخفض جداً ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟ »

كان صوتها أجشَّ خشناً الى حد خيِّل للمرأتين انهما سمعتا صوت رجل . والتفتتا نحوها مذعورتين .

وصاحت فانتين :

– « لماذا لا تجيبان ؟ »

فتلجلجت الخادمة :

— « لقد قالت لي البوابة انه لن يستطيع المجيء اليوم . »
وقالت الراهبة :
— « إلزمي الهدوء ، يا ابنتي . اضطجعي من جديد . »
ومن غير ان تغيّر فانتين وضعها ، استأنفت الكــــلام في صوت مرتفع ، وفي نبرة ثاقبة وآمرة في آن معاً :
— « إنه لا يستطيع المجيء ؟ ولم لا ؟ انتما تعرفان السبب . كنتما تتهامسان به فيما بينكما . اريد ان اعرف السبب . »
وامرعت الخادمة الى الهمس في اذن الراهبة :
— « أجيبيها بقولك إن اعمال المجلس البلدي تشغله . »
واحمرّت الاخت سيمبليس احمراراً طفيفاً . كان ما اقترحته عليها الخادمة كذبةً . ومن ناحية ثانية ، فقد بدا لها ان إعلام المريضـــة بالحقيقة جديرٌ به أن يكون ، من غير شك ، ضربة فظيعة ، وأنه كان خطِراً في مثل حال فانتين . ولم يستمرّ هذا الاحمرار طويـلًا . لقد رفعت الاخت عينها الهادئة المحزونة نحو فانتين ، وقالت :
— « إن السيد العمدة قد ذهب . »
ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتمعت عيناها . لقد أشرق فوق ذلك الوجه الموجـع ابتهاج خارق .
وصاحت :
— « ذهب ! لقد ذهب ليأتيني بكوزيت ! »
ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا محيّاها كله ممتنعاً على الوصف . وتحركت شفتاها . كانت تصلي في صوت خفيض .
حتى اذا انتهت صلاتها قالت :
— « ايتها الاخت ، انا شديدة الرغبة في ان أضطجع من جديد ، ولسوف أفعل كل ما تطلبين مني . لقد كنتُ شكسة في هذه اللحظة ، وانا ألتمس عفوك لأني تكلمت بمثل ذلك الصوت العالي . إن من القبيح

جداً ان يتحدث المرء بصوت عالٍ . انا اعرف ذلك جيداً ، ايتها الاخت الصالحة ، ولكن انظري كم انا سعيدة . إن الرب لطيف . وإن مسيو مادلين طيّب . تصوّري انه ذهب الى مونفيرماي لكي يجيئني بصغيرتي كوزيت . »

واضطجعت من جديد ، وساعدت الراهبةَ على تسوية الوسادة ، وقبّلت الصليب الفضيّ الصغير الذي يطوّق جيدها ، والذي كانت الاخت سيمبليس قد منحتها إياه .

وقالت الراهبة :

— « حاولي ، يا ابنتي ، ان تستريحي الآن ، ولا تنطقي بعدُ بكلمة . »

وأمسكت فانتين بيديها النديتين يدَ الراهبة التي آلمها ان تستشعر هذا العَرق .

— « لقد ذهب هذا الصباح قاصداً الى باريس . الواقع انه ليس في حاجة حتى الى المرور بباريس . ان مونفيرماي تقع الى اليسار بعض الشيء ، في طريق المسافر القادم الى هنا . انت تذكرين ما قاله لي ، امس ، عندما حدثته عن كوزيت : قريباً جداً ، قريباً جداً ! تلك مفاجأة يريد ان يقدّمها اليّ . هل تعرفين ؟ لقد طلب اليّ ان اوقّع على رسالة لاسترجاعها من تيناردييه وزوجته . ان يكون عندهما ما يقولانه ، اليس كذلك ؟ سوف يُرجعان كوزيت اليّ . لأنهما نالا اجورهما . إن السلطات لن تسمح لهما بأن يحجزا طفلة بعد ان تُدفع اليهما اجورهما . ايتها الأخت ، لا تؤمئي اليّ بضرورة الامتناع عن الكلام . انا سعيدة جداً ، انا في صحة حسنة جداً . لم اعد احسّ بألم على الاطلاق ، ولسوف ارى كوزيت من جديد . بل إنني جائعة جداً . لقد انقضت خمس سنوات لم أرها خلالها . إنك لا تتصورين ، إنك لا تستطيعين ان تتصوري ، أيّ سلطان يفرضه الاطفال عليك . والى هذا ، فسوف تكون جميلة جداً ، سوف ترين ! وإن لها ، لو عرفتِ ،

اصابع وردية صغيرة فاتنة جداً ! اولاً ، سوف يكون لها يدان جميلتان جداً . يومَ كان عمرها سنة كانت لها يدان مضحكتان . – هكذا ! يجب ان تكون قد كبرت الآن . إنها في السابعة من عمرها . انها سيدة صغيرة . انا ادعوها كوزيت ، ولكنّ اسمها أوفرازي . اسمي . هذا الصباح كنت انظر الى الغبار الذي كان يعلو الموقد ، فخطر لي اني لا بدّ سأرى كوزيت كرةً اخرى في وقت قريب جداً ! يا الهي ! ما أفدحه من خطأ ان يسلخ الانسان سنوات عديدة من غير ان يرى اولاده ! يجب علينا ان نذكر ان الحياة ليست ابدية . اوه ! كم كان جميلاً من السيد العمدة ان يذهب ! هل صحيح ان الجو بارد جداً ؟ هل ارتدى معطفه على الاقل ؟ سوف يكون هنا غداً ، اليس كذلك ؟ هذا ما سيجعل يوم غدٍ عيداً . وغداً صباحاً ، ايتها الاخت ، سوف تذكّرينني بأن أعتمر قلنسوتي الصغيرة المصنوعة من الوشي . ان مونفيرماي بلدة ريفية . لقد اجتزتُ هذه الطريق ، مرةً ، على قدميّ . كانت الرحلة طويلة جداً بالنسبة اليّ . ولكن العربات العمومية تنطلق في سرعة بالغة ! إنه سوف يكون هنا ، غداً ، مع كوزيت . كم تبعد مونفيرماي عن هذا البلد ؟ »

فأجابت الراهبة ، ولم تكن لديها أيما فكرة عن المسافات :

– « اوه ! أعتقد اعتقاداً قوياً بأنه سيستطيع ان يكون هنا غداً . »

فقالت فانتين :

– « غداً ! غداً ! سوف ارى كوزيت غداً ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، أنا لم اعد مريضة . انا مرحة . واني جديرة بأن أرقص اذا سألني امرؤ ان افعل . »

وما كان في ميسور من قُدّر له ان يراها قبل ربع ساعة ان يفهم هذا . كان لونها كلها وردياً الآن ، وكانت تتكلم في نبرة طبيعية تمور

بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسمة . وبين الفينة والفينـــة كانت تضحك فيا هي تخاطب نفسها في صوت خفيض . إن ابتهاج الأم يكاد يكون مثل ابتهاج الطفل .

وأستأنفت الراهبة كلامها :

– « حسن ، انتِ سعيدة الآن ، فأطيعني . لا تتكلمي اكثر مما فعلتِ . »

وألقت فانتين رأسها على الوسادة وقالت في صوت كالهمس :

– « أجل . اضطجعي كرة اخرى . كوني حكيمة مـــا دمت ستفوزين بابنتك . إن الاخت سيمبليس على صواب . كل من في هذا المكان على صواب . »

ثم انها شرعت تنظر بعد ذلك – من غير أن تتحرك او تـــدير رأسها – الى ما حولها ، بعينين مفتوحتين الى اقصى مدى ، وبانطباعة بهيجة . ولم تنطق بكلمة اضافية .

وأغلقت الراهبة الستارة ، ورجاءً ان تستسلم المريضة للرقاد .

وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذ لم يسمع صوتاً ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب من سريرها على رؤوس أصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء القنديل الباهت رأى عيني فانتين الواسعتين الهادئتين تنظران اليه .

وقالت له :

– « سيدي ، سوف تسمح لها بأن ترقد الى جانبي في سرير صغير ، أليس كذلك ؟ »

وظنّ الطبيب انها تهذي . وأضافت :

– « انظر . إن ههنا مكاناً يتسع لها تماماً . »

وانتحى الطبيب بالاخت سيمبليس جانباً ، فأعلمته ان مسيو مادلين غادر البلدة في رحلة تستغرق يوماً أو يومين ، وأنها رأت من الخير –

وقد أعوزها اليقين – ان لا تخدع المريضة التي اعتقدت ان العمدة قصدَ الى مونفيرماي ، وان من الجائز ، على اية حال ، ان يصدُقَ ظنها . وأقرّ الطبيب ذلك .

وانقلب الى سرير فانتين كرة أخرى . فأضافت :

– « وفي الصباح ، عندما تستيقظ ، سوف يكون في إمكاني أن أقول صباح الخير لهذه المرة الصغيرة المسكينة . وفي المساء سوف يكون في امكاني ، انا التي لا تنام ، ان أسمعها وهي نائمة . ان انفاسها الصغيرة هي من العذوبة بحيث تردّ اليّ العافية . »

وقال الطبيب :

– « أعطيني يدك . »

وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكةً :

– « آه ! رويدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، إنك لا تدري . ولكني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غداً . »

ودُهش الطبيب . كانت في حال خيرٍ من ذي قبل . كان عُسْر التنفس قد خفّ ، وكان نبضها قد قوي . إن ضرباً من الحياة الجديدة قد دبّ فجأةً في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهوكة القوى .

وتابعتْ :

– « ايها الطبيب ، هل اخبرتك الراهبة ان مسيو مادلين ذهب ليجيء بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطبيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال أليم . ووصف لها نقيع الكينا الخالصة ، ناصحاً ، اذا عاودتها الحمى ليلاً ، بأن تُسقى دواءً مسكّناً . وفيما هو يمضي لسبيله ، قال للراهبة :

– « انها احسن حالاً . واذا شاء حسن الطالع ان يرجع العمدة بالطفلة الصغيرة في غدٍ فعلاً ، فمن يدري ؟ إن ثمة نوْباتٍ تدعو الى الدهش . وكثيراً ما رأينا الجذل العظيم يشفي من الامراض في الحال .

انا اعلم جيداً ان هذا مرض عضويّ ، وانه قد انتهى الى مراحـــله الخطيرة ، ولكن هذا كله لغز عجيب ! إننا قد نوفق الى انقاذها . »

٧
المسافر يصل ويعد العدة للرجوع

كانت الساعة الثامنة مساء ، تقريباً ، عندما بلغت العُجيلة التي تركناها على الطريق فناء دار البريد في آراس . وترجّل الرجل الذي تبعناه حتى هذه اللحظة ، وردّ على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهـول ، وأعاد الجواد الاضافيّ ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ؛ ثم دفع باب غرفة البليارد القائمة في الدور الاول ، وجلس على كرسيّ ، وأسند مرفقيه الى الطاولة . كان قد أنفق اوبع عشرة ساعة في هـــذه الرحلة ، التي توقّع أن يقوم بها بستّ ليس غير . وأقرّ نفسه على ان الغلطة ليست غلطته ؛ أما في أعماقه فلم يكن غاضباً لذلك .

ودخلت ربة الفندق .

— « ايريد سيدي ان ينام ، أيريد سيدي ان يتعشى ? »

وهز رأسه .

— « يقول صبيّ الاصطبل ان جواد سيدي متعَب جداً ! »

وهنا قطعَ حبلَ الصمت :

— « ألن يكون الجواد قادراً على العودة صباحَ غد ? »

— « اوه ، يا سيدي ? إنه في حاجة الى يومي راحة على الأقل . »

وسأل :

— « اليس مكتب البريد هنا ? »

— « نعم يا سيدي . »

وقادته صاحبة الفندق الى المكتب . وابرز جواز سفره وسأل ما اذا كان في إمكانه ان يعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير على متن مركبة البريد . ولم يكن قد بقي غير مقعد واحد ، هو المقعد المحاذي للسائق . فاحتجزه ودفع أجر السفر .

وقال رئيس المكتب :

— « لا تنسَ ان تكون على أهبة السفر ، هنا ، في تمام الساعة الواحدة صباحاً . »

حتى اذا تمّ ذلك غادر الفندق وشرع يتمشى في المدينة .

كان لا يعرف آراس ، وكانت الشوارع مظلمة ، فراح يذرعها كيفما اتفق . ومع ذلك فقد بدا وكأنه يُحجم في عناد عن ان يسأل عابري السبيل ان يدلوه على الطريق . وعبَر نهر كرينشون الصغير ، فوجد نفسه في تيهٍ من الشوارع الضيقة ما لبث ان ضلّ فيها السبيل . وأقبل مواطن يحمل فانوساً . وبعد شيء من التردد وطّن العزم على ان يتحدث الى هذا الرجل ، ولكن بعد أن نظر الى امام والى وراء وكأنما كان يخشى ان يسمع احدٌ السؤال الذي كان على وشك ان يطرحه .

وقال :

— « سيدي ، أين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فأجاب المواطن ، وكان رجلاً عجوزاً :

— « انت لست من ابناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، إتبعني . انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ، يعني الى دار البلدية ، ذلك لأنهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالمحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتاً . »

فسأله :

— « وهل تنعقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

— « من غير شك ، يا سيدي . ان دار البلدية ، كما ترى ، كانت قصر

الاسقف قبل الثورة . فقد شيد مسيو دو كونزييه ، الذي كان اسقفاً عام اثنين وثمانين ، قاعة رحبة . وهناك في هذه القاعة تجري المحاكمات . »

وفيما كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الدار قال له المواطن :

– « اذا كان ما يرغب فيه سيدي هو ان يشهد محاكمة فأحسب انه قد جاء متأخراً بعض الشيء . ان الجلسات تختم عادة في الساعة السادسة . »

ومع ذلك ، فحين بلغا الساحة العامة اراه المواطن اربع نوافذ طويلة مضاءة ، عند واجهة بناية واسعة مظلمة

– « قسماً ، يا سيدي ، لقد وصلت في الوقت المناسب ؛ انك ذو حظ سعيد . أترى هذه النوافذ الاربع ؟ تلك هي محكمة الجنايات . إن ثمة نوراً . وإذن فهم لمّا ينتهوا . لا بدّ ان القضية قد تطاولت ، فهم يعقدون جلسة مسائية . هل تهمك هذه القضية ؟ أهي قضية جنائية ؟ هل انت شاهد من شهودها ؟ »

فأجابه :

– « انا لم أقبل لغرض ما . انا اريد ان اتحدث الى احد المحامين ليس غير . »

فقال المواطن :

– « هذه مسألة اخرى . قف يا سيدي ! هوذا الباب . وهوذا الحاجب هناك . وليس عليك إلا ان ترتقي السلّم الكبيرة . »

واتبع ارشادات المواطن . وما هي الا بضع دقائق حتى وجد نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير ، وتناثرت جماعات من المحامين في اروابهم يتهامسون هنا وهناك .

ان مما يقبض النفس دائماً ان يرى المرء الى هذه الجموع من الرجال المتشحين بالسواد يتجاذبون اطراف الحديث في ما بينهم ، بصوت خفيض ، على عتبة قاعة المحكمة . ومن النادر ان تنطلق المحبة والشفقة من

تلك الاقوال كلها . ان ما ينطلق منها في الاغلب أحكام تُلفظ سلفاً . وكل هذه الجموع تبدو في عين الملاحظ الذي يمرّ ويفكّر اشبه بجمهرة من الخلايا القاتمة حيث تنصرف صنوف من الارواح المـــادرة الآزّة الى انشاء مختلف ضروب الابنية المظلمة ، على نحو مشترك .

وكانت هذه القاعة المضاءة ، على رحبها ، بمصباح مفرد ، قاعةً قديمة من قاعات القصر الاسقفي ، وكانت بمثابة غرفـة انتظار . كان باب ذو مصراعين – وكان مغلقاً في تلك اللحظة – يفصلها عن القاعة الكبرى حيث عُقدت محكمة الجنايات .

وكانت الظلمة من الشدّة بحيث لم يستشعر ايّ خوف من مخاطبـــة أول محامٍ التقاه ، قائلًا :

– « سيدي ، الى اين صارت المحاكمة ؟ »

فأجابه المحامي :

– « انتهت . »

– « انتهت ! »

ورُدّدت هذه الكلمة في نبرة جعلت المحامي يستدير .

– « عفواً يا سيدي ، لعلك احد انسباء المتهم ؟ »

– « لا . انا لا اعرف احداً هنا . وهل حُكم على المتهم ؟ »

– « طبعاً . إن شيئاً غير ذلك لم يكن ممكناً . »

– « بالاشغال الشاقة ؟ »

– « مدى الحياة . »

وتابع في صوت واهنٍ الى درجة جعلته لا يكاد يُسمع :

– « لقد اثبتوا هُويّته ، اذن ؟ »

فأجاب المحامي :

– « أية هوية ؟ لم يكن ثمة هوية ينبغي ان تُثبت . كانت المسألة بسيطة . كانت هذه المرأة قد قتلت طفلها ؛ ولقد اقيم الدليل على انها

ارتكبت هذه الجريمة ، ولم يقتنع المحكمون بأنه كان ثمة سابق تصوّر وتصميم ؛ فحكم عليها بالسجن مدى الحياة . »

فقال :

— « هي امرأة اذن ؟ »

— « طبعاً . انها الفتاة الليموسينية . عمّن كنت تحدثني اذن ؟ »

— « عن لا شيء . ولكن ما دامت الجلسة قد انتهت فعلام لا تزال القاعة مضاءة ؟ »

— « تلك قضية اخرى بديء النظر فيها منذ ساعتين تقريباً . »

— « اية قضية اخرى ؟ »

— « اوه ! وهذه قضية واضحة ايضاً . إنه لصٌّ من نوع ما ؛ ذو سوابق ؛ عبدٌ من عبيد الاشغال الشاقة الارقاء . إنها دعوى سرقة . لقد نسيت الاسم . إنه يبدو اشبه بقـــاطع طريق . ولو لم يكن له من ذنب غير حمْلِهِ مثل هذا الوجه لبعثتُ به الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »

وسأله :

— « سيدي ، هل ثمة وسيلة ما للدخول الى القاعة ؟ »

— « اظن ذلك غير ممكن ، حقاً . إن ثمة حشداً كبيراً . وعلى اية حال ، فقد رُفعت الجلسة الآن للاستراحة . ولقد غادر بعض النظارة المكان ، وفي إمكانك ان تحاول عندما يُستأنف النظر في القضية . »

— « من اين يُدخل الى القاعة ! »

— « من ذلك الباب الكبير . »

وفارقه المحامي . وفي بضع ثوانٍ اجتاحته ، في وقت واحد تقريباً ، وعلى نحو متمازج تقريباً ، جميع الانفعالات الممكنة . كانت كلمـــات هذا الرجل اللامبالي قد ثقبت قلبه ، بالتناوب ، مثل إبر من جليد ، او مثل نصال من نار . وحين علم ان الامر لم ينقضِ بعدُ اخذ نفَساً .

ولكنه لم يكن قادراً على ان يحزر أكان شعوره ذاك ارتياحاً أم كان ألماً .

واقترب من بعض الجماعات واصغى الى ما يقولون . واذ كان جدول الدعاوى مثقلاً فقد رأى القاضي ان ينظر في دعويين بسيطتين قصيرتين في يوم واحد . كانوا قد بدأوا بمحاكمة قاتلة ابنها ، وها هم الآن ينظرون في دعوى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، دعوى المجرم ذي السوابق ، دعوى « المتمرس الخبير » . هذا الرجل سرق شيئاً من التفاح ، ولكن يبدو ان الدليل لم ينهض على ذلك . ان الذي نهض عليه الدليل هو انه كان من قبلُ من نزلاء سجن الاشغال الشاقة في طولون ، وهذا ما أفسد قضيته . لقد أنجز استنطاق الرجل ، وأُخذت إفادات الشهود ، ولكن بقيت ثمة مرافعة المحامي ، ومطالعة النيابة العامة ، ومن العسير ان يتمّ ذلك قبل منتصف الليل . واغلب الظن ان الرجل سوف يُدان ؛ فقد كان النائب العام طيباً جداً ، وما كان ليخطيء احداً من متّهميه . كان رجلاً ذا موهبة ، وكان ينظم الشعر .

ووقف حاجب قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة . وسأل هذا الحاجبَ :

— « سيدي ، هل سيُفتح الباب قريباً ؟ »

فقال الحاجب :

— « الباب لن يُفتح . »

— « كيف ! الن يُفتح عند استئناف الجلسة ؟ ألم تُرفع الجلسة للاستراحة ؟ »

فاجابه الحاجب :

— « لقد استؤنفت المحاكمة ، ولكن الباب لن يُفتح كرةً اخرى . »

— « لم لا ؟ »

— « لأن القاعة ملأى . »

— « ماذا ؟ ألم يبق ثمة مقعد ؟ »

— « لم يبق مقعد واحد . الباب مقفل . وليس في استطاعة أحد أن يدخل . »

وبعد صمت ، أضاف الحاجب :

— « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيد رئيس المحكمة ، ولكنّ السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة ان يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاّه ظهره .

وانسحب مطأطىء الرأس ، واجتاز الغرفة المحاذية ، وهبط السّلم في بطء ، وقد بدا متردداً عند كل خطوة . ولعله كان يشاور نفسه ، فالصراع العنيف الذي كان دائراً في ذات نفسه منذ الليلة البارحة لم يكن قد انتهى . وفي كل لحظة كان يشهد تحوّلاً جديداً ؛ حتى اذا بلغ منبَسَط السلم انحنى على الدرابزون ، وطوى ذراعيه . وفجأة ، فتح سترته ، واخرج محفظته ، وتناول قلماً ، ونزع ورقة ، وكتب عليها في عجل — على ضوء باهت منبثق من مصباح ذي مرآة عاكسة — هذا السطر : مسيو مادلين ، عمدة مونتروي سور مير . ثم ارتقى السلم من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجموع ، وتقدّم نحو الحاجب مباشرة ، وقال له في نبرة ذي السلطان :

— « إحمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »

وتناول الحاجب الورقة ، وألقى نظرة عليها ، وامتثل الامر .

٨
دخول بامتياز

ومن غير ان يجتنب هو ذلك ، كان لعمدة مونتروي سور مير ضربٌ من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبّقت شهرة فضيلته آفاق « بولونيه الدنيا » كلها ، لتنتهي بعد ذلك الى ان تتخطى حدود الاقليم الصغير وتَذيع في مديريتين او ثلاثٍ من المديريات المجاورة . فإلى جانب الخدمات الجليلة التي أسداها الى البلدة الرئيسية من طريق إحياء صناعة الخرز الاسود ، لم يكن ثمة قضاء من أقضية اقليم مونتروي سور مير البالغ عددها مئة وواحداً واربعين ليس مديناً له بنعمة ما . بل لقد سبق له ان عمل ، عند الاقتضاء ، على إنعاش الصناعة في المناطق الاخرى ومدّ يد العون اليها . وهكذا عاضد باعتباره ورأسماله ، حين مسّت الضرورة الى ذلك ، مصنع النسيج الرقيق في بولوني ، ومصنع غزل الصوف في فريفان ، والمصنع المائيّ للمنسوجات القنّبية في « بوبر سور كانش » . وفي كل مكان كان اسم مسيو مادلين يُلفظ في إجلال. ولقد حسدت « آراس » و « دوويه » مدينة مونتروي سور مير الصغيرة المحظوظة على عمدتها .

وكان مستشار محكمة دوويه الملكية الذي رئس جلسة محكمة الجنايات هذه في آراس يألف — شأنَ كل امرىء — هذا الاسم الذي ينعم بأعظم التبجيل وأكثره شمولاً . فما إن فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك البابَ الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، وانحنى خلف كرسيّ الرئيس مقدّماً اليه الورقة التي خُطّ عليها السطر الذي قرأناه اللحظةَ ، مضيفاً : « **هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة** » حتى

اتى بحركة عجلى تنضح بالاحترام ، وتناول قلماً ، وخطّ بضع كلمات في ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلاً :

— « دعه يدخل . »

كان الرجل التعس الذي نروي قصته قد ظل واقفاً قرب باب القاعة ، في المكان نفسه ، حيث تركه الحاجب من قبل ، وبالوضع نفسه الذي غادره عليه . لقد سمع ، من خلال هواجسه ، شخصاً يقول له : « هل يرغب سيدي في ان يشرّفني باللحاق بي ؟ » . كان هو ذلك الحاجب عينه الذي ولاّه ظهره منذ لحظة ، والذي انحنى له ، الآن ، حتى الارض . وفي الوقت نفسه قدّم اليه الحاجب قصاصة الورق فنشرها . واذ اتفق ان كان موقفه قرب المصباح ، فقد استطاع ان يقرأ :

« إن رئيس محكمة الجنايات يقدّم احترامه الى مسيو مادلين . »

وسحق الورقة بين يديه وكأن هذه الكلمات القليلة خلّفت في ذات نفسه طعماً غريباً مريراً .

وتبع الحاجبَ .

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفرداً في شبه ردهة مطوّقة بالخشب ، ذات مظهر صارم ، مضاءة بشمعتين اثنتين وضعتا على طاولة مغطاة بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه لا تزال ترن في أذنه : سيدي ، انت الآن في غرفة المذاكرة وليس عليك إلا ان تدير ممسك هذا الباب النحاسيّ لتجد نفسك في قاعة المحكمة خلف كرسيّ الرئيس . » وفي ذهنه اختلطت هذه الكلمات بذكرى غامضة للاروقة الضيقة والسلالم القاتمة التي اجتازها منذ لحظة .

وكان الحاجب قد تركه وحيداً ، وكانت اللحظة الحاسمة قد أزفت . وحاول ان يستجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك الساعات ، بخاصة ، حين نكون في أمسّ الحاجة الى ان نُلمّ بحقائق الحياة الموجعة تتقطّع خيوط الفكر في الدماغ . كان في قلب تلك

الغرفة التي يتشاور فيها القضاة ويصدرون أحكامهم . لقد رأى في سكينة بلهاء الى تلك الغرفة الصامتة الراعبة التي أزهقت فيها ارواح كثيرة ، والتي سيدوّي اسمه فيها في الحال ، والتي كان قَدَرُهُ مجتازها في هذه اللحظة . لقد نظر الى الجدران ، ثم نظر الى نفسه وقد اذهله ان تكون هذه هي تلك الغرفة ، وان يكون هذا هو إياه .

وكان قد سلخ ما يزيد على اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاماً ما . كانت رجّات العُجلة قد رضّت جسده ، ولكنه لم يستشعر ذلك . لقد بدا له انه لا يحسّ بشيء .

واقترب نحو إطار اسود معلق على الجدار كان يشتمل خلف لوح زجاجيّ على رسالة قديمة خطتها يد جان نقولا باش ، عمدة باريس ، الذي تولى منصب الوزارة ايضاً ، وكانت مؤرّخة ، نتيجة خطأ من غير شك ، هكذا : « ٩ **حزيران** السنة الثانية »* وقد وجّهها « باش » الى رجال البلدية مضمّناً اياها ثبتاً بالوزراء والنواب الذين اعتقلوا ضمن حدود منطقتهم . ولو ان امرءاً شاهده وراقبه آنذاك إذن لخيّل اليه من غير ريب ان تلك الرسالة بدت غريبة جداً في نظره ، إذْ لم يرفع عينيه عنها ، وإذ قرأها مرتين أو ثلاث مرات . لقد قرأها من غير ان يلقي اليها بالاً ، ومن غير ان يدري ما الذي كان يفعله . كان يفكر بفانتين وكوزيت .

وحتى فيما هو يفكر استدار على غير وعي منه فوقعت عيناه على المسك النحاسي الخاص بالباب الذي يفصل ما بينه وبين قاعة محكمة الجنايات . كان قد نسي ذلك الباب تقريباً . واضطرب محياه ، وكان

* أي السنة الثانية من الجمهورية ، ويتجلى الخطأ في كلمة « حزيران » على اعتبار ان الثورة الفرنسية ألغت هذه الشهور وأحلّت محلها تقويماً خاصاً . والشهر الذي يوافق حزيران في تقويم الثورة هو شهر بريريال Prairial (من ٢٠ نوار الى ١٨ حزيران) وشهر ميسيدور Messidor (من ٢٠ حزيران الى ١٩ تموز) .

من قبل ساكناً . وسُمّرت عيناه على ذلك الممسك النحاسي ، ثم غدتا منشدهتين محدّقتين ، وامتلأتا بالذعر شيئاً بعد شيء . وتصبّبت من رأسه قطرات العرق ، وتحدّرت على صدغيه .

وفي احدى اللحظات أومأ ، في ضرب من السلطان ممزوج بالتمرد ، تلك الايماءة التي لا سبيل الى وصفها والتي تعني وتقول بأفصح لسان : حسن ! ومن ذا الذي يُكرهني على ذلك ؟ ثم إنه استدار في سرعة ، فرأى امامه الباب الذي دخل منه ، فتقدم نحوه ، وفتحه ، وخرج . إنه لم يمْضِ في تلك الغرفة . لقد أمسى خارجها ، في احد الاروقة — في رواقٍ طويل ضيق تجزّئه الدرجات والابواب الفرعية التي تشكل مختلف ضروب الزوايا ، كانت تنيره هنا وهناك مصابيح معلقة على الجدران هي اشبه بقُنَيديلات المرضى . كان الرواقَ الذي دخل منه . وأخذ نفساً ، واصغى . لم يكن ثمة صوت ما خلفه ، ولم يكن ثمة صوت ما امامه . وركض وكأن احداً كان يطارده .

حتى اذا اجتاز عدداً من منعطفات هذا المجاز ، اصغى كرة ثانية . كان لا يزال محوطاً بالصمت نفسه ، والظلّ نفسه . وضاق نفَسه ، وترنح ، واستند الى الجدار . كان الحجر بارداً ، وكان العَرَق مثلوجاً على جبينه . وتصدّر وهو يرتعد .

وهناك ، في غمرة من الوحدة ، وقد وقف وسط هذه الظلمة ، وارتجف من البرد وربما من شيء آخر ايضاً ، أنشأ يفكر .

كان قد فكر طوال الليل . وكان قد فكر طوال النهار . ولم يسمع الآن ، في ذات نفسه ، غير صوت واحد يقول : « واأسفاه ! »

وانقضت ربع ساعة على هذا النحو . واخيراً حنى رأسه ، وزفر في كَرْب ، وأرخى ذراعيه ، وارتدّ على آثاره . لقد مشى في بطء ، وكأنه يحمل ثقلاً ثقيلاً . لقد تراءى وكأنما ألقي القبض عليه فيما هو يفرّ وأعيد ادراجه .

ودخل غرفة المذاكرة من جديد . كان مقبض البـاب هو اول ما وقعت عليه عيناه . والتمع ذلك المقبض ، المستدير المصنوع من نحاس مصقول ، أمامه مثل نجم مشؤوم . ونظر اليه كما ينظر حَمَـــلٌ الى عين نمر .

ولم تتمكن عيناه من مفارقة ذلك المقبض .

وبين آونة واخرى ، كان يخطو خطوة نحو الباب .

ولو قد أصغى اذن السمع ، كضربٍ من الدمدمة المختلطة ، الضجة المنبعثة من القاعة المجاورة ، ولكنه لم يُصغ ولم يسمع .

وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب البـاب . وأمسك بالمقبض في تشنّج ؛ وفُتح الباب .

كان في قاعة المحكمة .

٩

موطن تتكون فيه البينات

وخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفاً متأملاً ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضاءة اضاءةً باهتةً جداً ، يغمرها الضجيج حيناً ويرين عليها الصمت حيناً ، حيث كانت آليةُ الدعوى الجنائية كلُّها معروضة ، برزانتها الحقيرة الجِدادية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون أرواباً متهرئة يقضمون اظافرهم ، أو يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جمهرة في أسمال بالية ؛ ومحامون في مختلف الاوضاع ؛ وجنود أولو وجوه محتشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوّثة تطوّق الجدران ،

وسقف قذر ؛ وطاولات مغطاة بنسيج صوفي غليظ هو الى الصفرة اقرب منه الى الخضرة ؛ وأبواب مسودّة من أثر الايدي ؛ ومصابيح حانات ترسل الدخان اكثر مما ترسل النور معلّقة الى مسامير دُقت في خشب الجدران ؛ وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ؛ وظلمة وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعثت انطباعة كالحة وجليلة . ذلك ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الأعين كلها مصوّبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبيّ مسندٍ الى باب صغير في محاذاة الجدار القائم الى يسار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي أضاءته عدة شموع ، كان رجل يحيط به اثنان من رجال الدرك .

كان ذلك الرجل هو المتهم .

إنه لم يبحث عنه ؛ لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعيّ وكأنما كانتا تعلمان سلفاً أين هو .

وخيّل اليه أنه يرى نفسه ، وقد تقدمت به السنّ ، وعلى شيء من التباين في المحيّا من غير شك ، ولكن في شبهٍ كامل من حيث الهيئة والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدَقتين الدهباوين المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذاك الذي كان يرتديه يوم دخل مدينة د ... ، يملأه الحقد ، حاجباً في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة من الافكار المروّعة التي سلخ تسعة عشر عاماً في جمعها فوق ارض السجن .

وقال لنفسه وهو يرتعد :

— « يا الّهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟ »

لقد بدا هذا المخلوق في الستين من عمره ، على الأقل . كان ثمة في مظهره شيء جافٍ ، أبله ، مروّع على نحو لا سبيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له في مجـــال الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . وإذ افترض ان الداخل هو عمـدة مونتروي سور مير فقد حنى رأسه تحيةً له . وكان النائب العام قـــد رأى مسيو مادلين في مونتروي سور حيث استُدعي غير مرة بحكم وظيفته ، فعرفه وحنى رأسه تحية له ايضاً . أما هو فـكاد ان لا يلحظها . كان فريسةً لضرب من الملوسة . وتأمل في ما حوله .

قضاة ، كاتب محكمة ، درك ، حشد من الرؤوس الفضوليـــة الى حد وحشيّ — لقد شهد ذلك مرةً في ما مضى ، منـذ سبـع وعشرين سنة . هذه الاشياء المروّعة — لقد وقع عليها كرةً اخرى . لقد كانت هناك ؛ لقد كانت تتحرك ؛ لقد كانت كائنات ذات حياة . إن ذلك لم يَعُدْ جهداً من جهود ذاكرته أو وهماً من اوهام خياله ، ولكنهم درك حقيقيون ، وقضاة حقيقيون ؛ وحشدٌ حقيقي ، واناس حقيقيون من لحم ودم . لقد قضي الأمر . لقد رأى مشاهد ماضيهِ المبغضة ، بكل ما في الحقيقة من فظاعة ، تعاود الظهور وتحيـا من حوله كرةً اخرى .

كان ذلك كله فاغراً فمه امامه .

واستبد به الذعر ، واغمض عينيه ، وصاح من اعمق اعماق روحه : « ابداً ! »

وبلعبة فاجعة من لعب القَدَر التي كانت تثير افكاره كلها وتكاد أن تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ! لقد كان القوم كلهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !

كان امام عينيه رؤيا لم يُستَمَع بها من قبـل . ضربٌ من التمثيل لأرهب لحظة في حياته يقوم به طيفهُ .

كان كل شيء هناك : الاداة نفسها ، والساعة نفسها من الليـل ، ووجوه القضاة والجنود والنظارة نفسها تقريباً . الفرق الوحيد انه كان

يرتفع فوق هامة الرئيس تمثال المصلوب ، وهو شيء لم يكن يُرى في قاعات المحاكم يومَ صدر الحكم عليه . فحين حاكموه ، لم يكن الربّ هناك .

كان خلفه كرسيّ ، فألقى بجسده عليه وقد عصف به الذعر إذ خطر له ان القوم قد يرونه . حتى اذا جلس أفاد من ركام من الاوراق كان على منصة القضاة لكي يخفي وجهه عن القاعة كلها . أمسى في ميسوره ان يرى من غير ان يُرى . وشيئاً بعد شيء استعاد سكينته . لقد انغمس في روح الواقع . لقد بلغ من الهدوء ذلك المبلغ الذي يمكّن المرء من الاصغاء .

كان مسيو باماتابوا محلّفاً بين المحلفين .

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود محجوباً عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا فقد كانت قاعة المحكمة مضاءة اضاءة جدّ باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعته . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستثارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ؛ وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلاً ـ كائناً مجهولاً ، مخلوقاً بائساً ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود ـ يرزح شيئاً بعد شيء تحت ثقل احتمال رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشرداً عُثر عليه في احد الحقول حاملاً غصناً مثقلاً بالتفاح الناضج ، كان قد انتزعه من شجرة في مزرعة مسيّجة تدعى مزرعة بييرُون . من كان هذا الرجل ؟ لقد أجري تحقيق ؛ وسُمِع الى شهود ؛ ولقد أجمعوا كلهم على رأي واحد ؛ وانبثقت اضواء من المناقشة كلها . وقال الاتهام : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من سُرّاق الغلات قبل ان تحصد . إن بين ايدينا هنا قاطعَ طريق ، مجرماً ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي

فُرضت عليه الاقامة فيه بعد خروجه من السجن ؛ نزيلا قديماً من نزلاء سجن الاشغال الشاقة ؛ فاتكاً من اخطر الفتّاك ؛ شريراً يدعى جان فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل ، وكان قد ارتكب لثماني سنوات خلت ، لدنْ خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقـــة في طولون ، سرقةً في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضدّ غـــلام من سافوا يدعى جيرفيه الصغير ، وهي الجريمة المنصوص عليهـــا في المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة بانزال أقصى العقوبة عندما تُثبت الهوية قضائياً . لقـــد ارتكب الان سرقة جديدة . إنها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . أحكموا عليه لسرقته الجديدة . أما جريمته السابقة فسوف يقاضى من اجلها في ما بعد . »

وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، كان الانفعال الذي غلب على المتهم هو الانشداه . كان يقوم بحركات وإشارات تفيد الانكار ، أو يحدّق الى السقف . لقد تكلم في عسر ، وأجاب في ارتباك ، ولكن شخصه كله — من قمة رأسه الى اخمص قدميه — انكر التهمة . لقد بدا اشبه بأبله في حضرة هؤلاء الرجال الاذكياء المتألبين لمقاتلتـــه ، واشبه بغريب وسط هذه الجماعة التي أمسكت به . ومع ذلك فقد كان ينتظره غدٌ منذر بأعظم الشرّ ، وكانت الاحتمالات تتزايد كل لحظة ؛ وكان كل فرد من افراد النظارة ينتظر في قلق أشدّ من قلقه هو ، ذلك الحكم الفاجعَ الذي بدا متأرجحاً فوق رأسه اكثر فأكثر . وكان ثمة احتمال يومئ ، وراء سجن الاشغال الشاقة ، الى عقوبة الموت اذا مـا أثبتت هُويته . وانتهت قضية جيرفيه الصغير الى إدانته . من كان هذا الرجل ؟ من ايّ نوع كانت غفلتُه ؟ أكانت بلاهة أم مكراً ؟ أكان يعرف اكثر مما ينبغي أم كان لا يعرف شيئاً على الاطلاق ؟ تلك كانت اسئلة اختلفت فيها آراء القوم وبدت وكأنها تقسم المحلّفين الى شيَع . كان ثمة شيء مخيف وشيء خفيّ في المحاكمة . إن الفاجعة لم تكن قاتمة

وحسب ؛ لقد كانت غامضة .

وكان محامي الدفاع قد رافع مرافعة" جيدة بتلك اللغة الاقليمية التي طالما كانت قوام بلاغة المحاماة ، والتي اصطنعها من قبلُ جميع المحامين سواء في باريس أو في روموورانتين او مونبريزون ، والتي لم يعد يتكلم بها اليوم – بعد ان اصبحت كلاسيكية – غير خطباء النيابة العامة الرسميين الذين تلائمهم تلك اللغة ، بطنطنتها الوقور وجلها المهيبة . لغة يدعى فيها الزوج بعلاً ، والزوجة بعلة ، وباريس **مركز الفنون والحضارة** ، والملك **العاهل** ، وصاحب السيادة الاسقف **الحَبْر المقدس** ، والنائب العام **الشارح البليغ لانتقام القانون** ، والمرافعة **النبرات التي سمعناها الحظة** ، وعصر لويس الرابع عشر **العصر العظيم** ، واحد المسارح **هيكل ميلبومين** ، * والاسرة المالكة **دم ملوكنا الفخيم** ، واحدى الحفلات الموسيقية **عيداً احتفالياً موسيقياً** ، والجنرال الذي يقود قوات المديرية **المحارب اللامع الذي** ، الخ ؛ وتلاميذ اللاهوت **هؤلاء الاكليركيين الناضري العود** ، والاخطاء المنسوبة الى الصحف **الكذبة التي تقطّر سمّها في أعمدة هذه النواطق بألسنة الاحزاب** . الخ . الخ .
وكان محامي الدفاع قد أسهب في الكلام على سرقة التفاح – وهو شيء لا يتلاءم والاسلوب الفخيم ، ولكن بينيني بوسوويه ** نفسه اضطر ذات مرة الى ان يشير الى دجاجة ما في صميم موعظة تأبينية له ، فتصرّف في أبهة وجلال . وكان المحامي قد قرّر ان سرقة التفاح لم يقم عليها دليل مادي . ذلك بأن موكله ، الذي يصرّ هو بوصفه محامياً على دعوته شانماتيو ، لم يُشاهد قطّ متسوّراً الجدار أو قاصفاً الغصن . لقد قُبض عليه وفي حوزته هذا الغصن (الذي آثر

---

* Melpomène وهي في الميثولوجيا ربة التراجيديا .

** Bossuet الخطيب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به في هامش ماض . (ص ٨٠) .

المحامي ان يدعوه فَنَناً) ، ولكنه قال إنه وجده على الارض فالتقطه . أين الدليل على العكس ؟ لا ريب في ان هذا الغصن كان قد كُسِر ومُرِق بعد تسوُّر الجدار ، ثم اطّرحته على الارض يد السارق المهدّد بالخطر . لا ريب في انه كان ثمة لصّ ، ولكن ما الذي يُثبت ان هذا اللص كان شانماتيو ؟ شيء واحد ليس غير . هو انه كان في ما مضى من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . والمحامي لا ينكر ان هذه الصفة تبدو مع الاسف مُثبتة إثباتاً يقينياً . فقد سكن المتهم في فافيرول ، ولقد كان المتهم مشذب اغصان ، ومن الجائز ان يكون اسم شانماتيو محرّفاً عن جان ماتيو ؛ كل ذلك كان صحيحاً ؛ واخيراً فان اربعة شهود قد أجمعوا على نحو اكيد ، ومن غير ما تردد ، ان شانماتيو هو جان فالجان نفسه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ وليس عند المحامي ما يعارض به هذه الادلة وهذه الشهادات غير إنكار موكله ، وهو انكار تقتضيه مصلحته . ولكن حتى اذا افترضنا أنه جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فهل ينهض هذا دليلاً على انه سارق التفاح ؟ ذلك لا يعدو ان يكون حَدْساً على الاكثر ، ولكنه ليس برهاناً . صحيح ان المتهم — وعلى المحامي ان يقرّ بذلك « بسلامة نية » — قد اصطنع « اسلوباً رديئاً في الدفاع . » لقد أصرّ على انكار كل شيء ، انكار السرقة ، وانكار انه كان قد حُكم قبلُ بالاشغال الشاقة . ولو قد اعترف بالنقطة الاخيرة اذن لكان ذلك خيراً له من غير شك ، واذن لضمنَ له ذلك تساهلَ قضاته . ولقد نصحه المحامي بأن يسلك هذه السبيل ، ولكن المتهم رفض في عناد ، معتقداً من غير شك ان عدم الاعتراف بشيء يكفل له النجاة من العقوبة كلها . كان ذلك خطأ منه ، ولكن ألا ينبغي لنا ان نأخذ قصور عقله بعين الاعتبار ؟ ان هذا الرجل معتوه ، بلا خلاف . فالعذاب الطويل الذي قاساه في سجن الاشغال الشاقة ، والبؤس الموصول الذي عاناه خارج سجن الاشغال الشاقة قد

أصاباه بالحبل ، الخ . انه لم يحسن الدفاع عن نفسه ، ولكن أيكون هذا سبباً لأدانته ؟ اما مسألة جيرفيه الصغير فلم يكن عند المحامي ما يقوله فيها . إنها غير واردة في الدعوى على الاطلاق . وختم المحامي دفاعه بأن توسل الى المحلفين والى المحكمة ، اذا ما بدت هوية جان فالجان واضحة لديهم ، ان يُنزلوا به العقوبات البوليسية التي تُنزل عادةً باولئك الذين لا يلتزمون المواطن المعينة لهم بعد الخروج من السجن ، لا العقوبة المخيفة التي تُنزل بالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة حين يرتكب جريمة جديدة .

وردّ النائب العام على محامي الدفاع . كان عنيفاً منمّق الاسلوب ، مثل معظم النواب العامين .

لقد هنأ محامي الدفاع على « صراحته » ، وأفاد من هذه الصراحة في براعة . لقد هاجم المتهم من خلال جميع النقاط التي سلّم بها محاميه . فقد بدا المحامي وكأنه يسلّم بأن المتهم كان جان فالجان فارتضى هذا التسليمَ . واذن ، فقد كان هذا الرجل هو جان فالجان . واعتبر الاتهام هذه النقطة حقيقة مقررةً ، فلا سبيل بعدُ الى المجادلة فيها . وهنا - وباسلوب مجازي بارع ، رقي الى منابع الجريمة وأسبابها - أرعد النائب العام ضدّ لا أخلاقية المدرسة الرومانتيكية ، وكانت آنذاك في فجرها ، مشيراً اليها بوصفها المدرسة الشيطانية ، وهو الاسم الذي خلعه عليها نقّاد صحيفتي الـ « كوتيديين » والـ « اوريفلام » . وعزا - ولم يكن ذلك خلواً من عنصر الاحتمال - الى هذا الادب الداعر جريمة شانماتيو ، أو على الاصح جان فالجان . حتى اذا استنفد هذه التأملات انتقل الى جان فالجان نفسه . من كان جان فالجان ؟ تلك هي صفة جان فالجان : غولٌ مُتقيأ ، الخ . إنا نجد نموذجاً لهذه الضروب من

الاوصاف في حكاية تيرامين* التي لا غَناء فيها ، من وجهة النظر المسرحية التراجيدية ، ولكنها تسدي خدمات جليلة ، كل يوم ، الى البلاغة القضائية . و « ارتعد » النظارة والمحلفون . حتى اذا تمّ هذا الوصف استأنف النائب العام كلامه في اندفاع خطابي قَصِدَ به الى أن يثير حماسة « جريدة الولاية » الى اقصى غاياتها في صباح غد . « وإنه لرجلٌ يماثل الخ . الخ . الخ . متشرّد ، متسول ، لا يملك من اسباب العيش شيئاً ، الخ . الخ . — تعوّد طوال حياته الماضية الاعمال الاجرامية ، ولم يُفد غير قليل من أيامه التي قضاها في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كما تثبت الجريمة التي ارتكبها ضد جيرفيه الصغير ، الخ . الخ . إن مثل هذا الرجل الذي أُمسك به على الطريق العام في جرم السّرقة المشهود ، على بضع خطوات من جدار كان قد تسوّره ، وهو لا يزال يحمل بيده الشيء الذي سرقه — مثل هذا الرجل يُنكر الجرم المشهود ، يُنكر السرقة ، ينكر تسوّر الجدار ، ينكر كل شيء ، ينكر حتى اسمَه ، ينكر حتى هويته ! وبالاضافة الى مئة اخرى من الادلة التي لن نرجع اليها عرفه اربعة شهود : جافير — جافير ، مفتش الشرطة العفّ النزيه ، وثلاثة من رفاقه القدماء في العار ، هم بروفيه ، وشونيلديو ، وكوشباي المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وبمَ يردّ على هذا الاجماع الصاعق ؟ بالانكار . يا له من تصلب ! انتم سوف تقيمون العدل ، ايها السادة المحلفون ، الخ . الخ . » وفيما النائب العام يتكلم ، اصغى المتهم فاغراً فاه بضرب من الذهول الذي لا يخلو من بعض الاعجاب . كان واضحاً انه ما كان قادراً على ان يصدق ان في إمكان رجل ما إن يتكلم هكذا . وبين الفينة والفينة ، عند المقاطع الاكثر

* Théramène رجل دولة أثيني وخطيب بليغ ، ولكنه كان ذا خلق متقلب متلون . وقد أسهم سنة ٤١١ ق.م في قلب النظام الديموقراطي في اثينا ، ثم اتهم بالخيانة فحكم عليه بشرب الشوكران السامّ عام ٤٠٣ . وتيرامين ايضاً أحد شخوص راسين في تراجيديته « فيدر » Phèdre .

« دوة » مـــن مطالعة النيابة ، وفي تلك اللحظـــات التي كانت الفصاحة فيها تعجز عن ان تملك نفسها فتفيض في سيل من النعـــوت الفاضحة وتحيط بالمتهم وكأنهم عاصفة – كان يحرك رأسه في تؤدة مـن اليمين الى الشمال ، ومن الشمال الى اليمين ، ضربٌ مـــن الاحتجاج الكئيب الاخرس قنع به منذ بدء المناقشة . ومرتين أو ثلاث مرات سمعه النظارة الاشدّ قرباً منه يقول في صوت كالهمس : « كل ذلك ناشيء عن انه لم يسألوا مسيو بالو ! » ولفت النائب العام نظر المحلفين الى هذا الوضع الابله – وهو مدبَّر من غير شك – الذي لا يدل على الغباء ولكن على البراعة ، والمكر ، وتعوُّد مخادعة العـــدالة ، والذي يُظهر في ضوئه الاقوى « فساد هذا الرجل الخلقيّ العميق الجذور . » وختم مطالعته بأن أدلى بتحفظاته حول مسألة جيرفيه الصغير ، طالبـــاً إنزال اقصى العقوبة بالمتهم

وكان اقصى العقوبة بالنسبة الى هذه الجريمة ، كما نذكر ، الاشغال الشاقة مدى الحياة .

ونهض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة « السيد النائب العـــام » على « مطالعته الرائعة » ، ثم ردّ عليه على قدر ما استطاع ، ولكن في نبرة اضعف . كان واضحاً ان الارض مادت تحت قدميه .

١٠
طراز الانكار

وأزفت لحظةُ اختتام المحاكمة . فأصدر الرئيس امره الى المتهم بأن ينهض ، ووجه اليه السؤال المألوف :

– « هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونهض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة رهيبة كانت معه . وبدا وكأنه لم يسمع .

وكرّر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدا أنه فهم . لقد أجفل مثل امرىء يفيق من الرقاد ، وأجال عينيه في ما حوله ، ونظر الى الجمهور ، والى الدرك ، والى محاميه ، والى المحلفين ، والى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمتين على الحاجز القائم أمامه . ونظر كرة اخرى . وفجأة سمّر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم . كان ذلك اشبه بثورة بركان . ولقد بدا من الطريقة التي ندّت فيها الكلمات من بين شفتيه متقطعةً ، عاصفةً ، متصادمة ، مختلطة ، أنها كانت كلها تريد ان تنطلق في آن معاً . قال :

– « احب ان اقول هذا : أني كنت صانع عجلات في باريس ؛ وأن ذلك كان في محلّ مسيو بالو ايضاً . كانت حياةً قاسية حياةُ صانعي العجلات تلك . فأنت مضطر دائماً الى ان تعمل في الهواء الطلق ، في أفنية الدُّور ، تحت السقائف حين يكون معلّمك رجلاً طيباً ، ولكن ليس داخل جدران المحلّ ، لأن العمل يقتضي سعةً من الارض ، كما ترى . وفي الشتاء كان البرد من القسوة بحيث يتعين على المرء ان يضرب كفاً بكفّ لكي يستشعر الدفء ، ولكن معلّمينا ما كانوا يجيزون لنا ذلك ، قائلين انه مَضْيَعة للوقت . إنه لمن اصعب الاشياء ان تمسك بالحديد حين يكون الجليد مغطياً حصباء الطريق . إنه يهرّيء الانسان في سرعة . وهكذا تشيخ وانت بعدُ فتىً في هذه الصناعة ، وما تكاد تبلغ الاربعين حتى تكون قد انتهيت . اما انا فكنت في الثالثة والخمسين . كنت مريضاً مرضاً شديداً ، وفوق هذا فقد كان العمال خبثاء جداً ! إنهم حين يتجاوز الرجل الساذج مرحلة الشباب يسمونه « الطائر العجوز » ، و « البهيمة العجوز » ! ولم اكن أكسب

غير ثلاثين « سو » في اليوم ؛ فقد كانوا يدفعون اليّ اقلّ ما يستطيعون من أجر ، وكان اصحاب العمل يُفيدون من شيخوختي . والى هـــذا فقد كانت عندي ابنتي التي عملت غسالةً على ضفة النهر . وكان ما تكسبه قليلًا ، ولكن دخلي ودخلها كانا يمكّناننا من العيش . وكان عملهـــا مرهقاً ايضاً . كانت تسلـــخ النهار كله غائصةً حتى خصرهـــا في طبق الغسيل الخشبي ، تحت المطر ، تحتّ الثلج ، وفي قلب الريح التي تقصّ الوجه ، وفي غمرة الصقيع . لا فرق ، فالغَسْل ينبغي ان يتمّ . إن ثمة أناساً ليس عندهم كثير من الملابس الداخلية ، فهم ينتظرون هـذه الملابس . واذا لم تغسِل تخسر زبائنك . وألواح الطبق غـــير متماسكة جيداً ، فقطرات الماء تنصبّ عليك من كل مكان . وتبلـّل المياه ثيابك وتغور فيها أبعد فأبعد . إنها تنفـــذ . ولقد اشتغلتْ ايضاً في مصبغة « الاطفال الحمر » حيث تصل المياه بالانابيب . وهناك لا يتحتم عليك ان تعمل في قلب الطبق الخشبيّ . إنك تغسل الثياب قـــدّامك تحت الانبوب ، وتنظفها بعد الغسل خلفك في الحوض . واذ كانت تقـــوم بهذا العمل ضمن اربعة جدران فلم تكن تبرد كثيراً . ولكن كان ثمـة بخار ماء حارّ الى حد فظيع ، وكان ذلك يُتلف العينين . كانت ترجع الى بيتها في الساعة السابعة ليلًا ، فتأوي الى فراشها سريعـــاً . كان الأعياء يهدّ قواها . وكان زوجها يضربها . لقد ماتت . إنها لم تكن سعيدة جداً . كانت فتاةً فاضلة لا تذهب الى المراقص ابـداً ، فتاة هادئة جداً . واذكر أنها آوت الى فراشها في « ثلاثاء المرفـــع » من احد الاعوام في الساعة الثامنة . إنتبه . انا اقول الحقيقة . وليس عليك إلا ان تسأل . آه ، أجل ، إسألْ ! ما أشـــدّ بلاهتي ! إن باريس واسعة جداً . ومن ذا الذي يعرف الاب شانفاتيو فيها ؟ ولكنّ هناك مسيو بالو . إذهبْ الى محل مسيو بالو . ولست ادري ما الذي تريدونه مني بعد هذا ؟ »

وكفّ الرجل عن الكلام ، ولكنه لم يجلس . كان قد نطق بهذه الكلمات في صوت مرتفع ، سريع ، خشن ، قاسٍ ، أبحّ ، ويضرب من السذاجة الغاضبة الضارية . ومرةً واحدة قطع كلامه لكي ينحني تحيةً لأحد افراد النظارة . وكانت ضروب التوكيدات التي كان يلقيها أمامه كيفما اتفق تنطلق منه وكأنها شهقات ، وكان يضيف الى كل منها ايماءة حطّاب يقطع الخشب . حتى اذا انتهى انفجر النظارة بالضحك . فنظر اليهم ؛ واذ رآهم يضحكون ، ومن غير ان يعرف لماذا ، شرع هو نفسه يضحك .

وكان ذلك نذيراً بشرّ .

ورفع الرئيس صوته ، وكان رجلاً يقظاً رفيقاً .

لقد ذكّر « السادة المحلفين » بأن « السيد بالو ، صانع العجلات القديم الذي قال المتهم إنه كان يعمل في خدمته ، قد استُدعي ولكنه لم يحضر . كان قد أفلس ، ولم يكن في الامكان العثور عليه . » ثم إنه التفت الى المتهم وحثّه على الاصغاء الى ما سيقوله له ، وأضاف :

— « انت في وضع يتطلّب التفكير . إن اثقل القرائن لترهق كاهلك ، وقد تقودك الى عواقب مشؤومة . ايها المتهم ، إني اسألك — لمصلحتك الشخصية — مرة أخيرة ان تجيبني في وضوح عن هذين السؤالين : اولاً ، هل تسوّرت ، حائط مزرعة بيرّون ، وكسرت الغصن وسرقت التفاح ، يعني هل ارتكبت جريمة السرقة بالاضافة الى التسوّر ام لم تفعل ؟ ثانياً ، هل انت جان فالجان المحكوم بالاشغال الشاقة والمطلق سراحه ، ام لا ؟ »

وهزّ المتهم رأسه في انطباعة ذكية ، مثل رجل فهمَ ما قيل جيداً وعرف بأي شيء يعتزم ان يجيب . وفتح فمه ، والتفت نحو الرئيس ، وقال :

— « قبل كل شيء ... »

ثم نظر الى قلنسوته ، ورفع بصره الى السقف ، واعتصم بالصمت .

وقال النائب العام في صوت فظّ :

– « ايها المتهم ، إنتبه ! انت لا تجيب عن شيء مما سئلت ان تجيب عنه . ان اضطرابك يدينك . من الواضح ان اسمك ليس شاماتيو ، وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المتستّر بادىء الامر تحت اسم جان ماتيو ، الذي كان اسم أمه ؛ وانك عشت في أوفيرني ، وأنك ولدت في فافيرول ، حيث كنتَ مشذب اغصان . ومن الواضح انك سرقت تفاحاً ناضجاً من مزرعة بييرّون بالاضافة الى تسوّرك الجدار . إن السادة المحلفين سوف ينظرون في هذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس آخر الأمر . ولكنه ما لبث ان نهض فجأةً ، حين أتمّ النائب العام كلامه ، وصاح :

– « انت رجل رديء جداً ، أنت ! ذلك ما كنتُ أريد أن أقوله . أنا لم اعثر على هذه الكلمة بادىء الامر . إني لم اسرق شيئاً قط . إني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنتُ قادماً من آيي ، وكنت امشي إثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ، حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنتُ لا ارى غير طلائع الاعشاب منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدتُ على الارض غصناً يحمل بعض التفاح ، فالتقطت الغصن من غير ان ادري انه سوف يورثني ألماً . فمنذ ثلاثة اشهر وأنا طريح السجن ، أُنقَل من مكان الى مكان . أنا لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون لي : « اجب ! » وإن الدركي ، الذي هو رجل طيب ، يدفع مرفقي ويهمس : « اجب الآن ! » انا لا احسن التعبير عن نفسي ؛ انا لم أتلقّ العلم قط ؛ انا رجل فقير . انكم جميعاً مخطئون لعدم رؤيتكم ذلك . انا لم اسرق ، لقد رفعت عن الارض أشياء كانت موجودة هناك . انت تتحدث عن جان فالجان ، جان ماتيو ! انا لا أعرف هذين الشخصين . لا ريب انهما رجلان قرويان . لقد اشتغلتُ عند

مسيو بالو في « جادة المستشفى » . انا ادعى شانماتيو . ينبغي ان تكون ذكياً حتى تخبرني اين وُلدتُ . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحاً باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وأمي كانا يهيمان على وجهيهما في الشوارع ؛ ولكني لست واثقاً . حين كنت طفلاً كانوا يدعونني « الصغير » أما الآن فأنا ادعى « العجوز » . هذان هما اسما معموديتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنتُ في اوفيرني ، وكنت في فافيرول . عجباً ! الا يستطيع الانسان ان يكون في أوفيرني وفافيرول من غير ان يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم اسرق ، واني الاب شانماتيو . كنت اعمل عند مسيو بالو ؛ لقد عشتُ في منزله . لقد تعبتُ من هرائك الذي لا نهاية له ! لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب المسعورة ؟ »

كان النائب العام لا يزال واقفاً . فوجّه الخطاب الى الرئيس :

– « سيدي الرئيس ، امام الانكارات المشوّشة ، ولكن الحاذقة جداً ، التي يعتصم بها المتهم الذي يحاول ان يوقع في روع المحكمة انه معتوه ، والذي لن ينجح في ذلك – فنحن سوف نحول بينه وبين النجاح – نلتمس ان تستدعوا الى هذه القاعة كرةً اخرى ، اذا شئتم وشاءت هيئة المحكمة ، كلّاً من المحكوم عليهم بروفيه ، وكوشباي ، وشونيلديو ، ومفتش الشرطة جافير ، وتستجوبوهم للمرة الاخيرة حول هوية المتهم وانه هو وجان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شخص واحد . »

فقال الرئيس :

– « احب ان اذكّر السيد النائب العام ان مفتش الشرطة جافير الذي دعته واجباته الى التوجّه الى حاضرة احدى المديريات المجاورة ، قد غادر هذه القاعة ، بل غادر المدينة ، بعد ان ادلى بشهادته مباشرة .

لقد منحناه هذا الاذن بموافقة السيد النائب العام ومحامي المتهم . »

فاجاب النائب العام :

– « هذا صحيح . وفي غيبة مسيو جافير ارى من الواجب ان اذكّر السادة المحلفين بالذي قاله هنا منذ ساعات قليلة . إن جافير رجل محترم يشرّف ، بنزاهته القاسية الصارمة ، المهامّ الدنيا ولكنِ الهامة في وقت معاً . وهذه هي التعابير التي انطوت عليها شهادته : « لست في حاجة حتى الى حدسٍ معنوي وأدلة مادية لكي أناقض إنكارات المتهم . انا اعرفه معرفةً تامة . إن اسم هذا الرجل ليس شانماتيو . انه مجرم قديم حُكم عليه بالاشغال الشاقة ، شريرٌ جداً ومخيف جداً ، يدعى جان فالجان : إن سراحه لم يُطلق عند انتهاء اجل عقوبته إلا في أسفٍ بالغ . لقد قضى تسعة عشر عاماً في سجن الاشغال الشاقة بسبب سرقةٍ موصوفة . وخمسَ مرات او ست مرات حاول ان يفر من السجن . وبالاضافة الى سرقته جيرفيه الصغير ومزرعةَ بيرون يخيّل اليّ ايضاً انه هو الذي قام بسرقة منزل صاحب العظمة اسقف د ... المتوفى . لقد رأيته كثيراً يوم كنت نائباً لضابط حرس سجن الاشغال الشاقة في طولون . اعود فأقول إني اعرفه معرفة تامة . »

وبدا هذا التصريح ، المصوغ في عبارات بالغة الايجاز والدقة ، وكانما ترك اثراً قوياً في نفوس النظارة والمحلفين . وختم النائب العام كلامه بأن اصرّ ، ما دام جافير غائباً ، على ضرورة الاستماع مرة ثانية للشهود الثلاثة بروفيه ، شونيلديو ، وكوشباي ، واستجوابهم في مهابة .

واصدر الرئيس أمره الى احد الحجاب . وبعد لحظة فُتح باب حجرة الشهود ، وقاد الحاجبُ – يصحبه دركي على اتم الاستعداد لأسداء العون – بروفيه المحكومَ عليه بالاشغال الشاقة . وحبس النظارة أنفاسهم ، وخفقت القلوب جميعاً وكأنما كانت لها نفسٌ واحدة ليس غير .

وكان بروفيه هذا يرتدي السترة السوداء والرمادية الخاصة بالسجون .

المركزية . كان في نحو الستين ، وكان له وجه رجل من رجال الاعمال وسيما وغد من الاوغاد . إنهما في بعض الاحيان يسيران جنباً الى جنب . وكان قد اصبح شيئاً أشبه بسجان في ذلك المحبس الذي أعادته اليه آثام جديدة . كان واحداً من اولئك الرجال الذين يقول فيهم رؤساؤهم : « إنه يحاول ان يجعل من نفسه عنصراً مفيداً . » وشهد كهنة السجن شهادة طيبة في ما يتصل بعاداته الدينية . ويجب ان لا ننسى ان ذلك إنما جرى في العهد الذي شهد عودة آل بوربون الى العرش .

وقال الرئيس :

— « بروفيه ، لقد أُنزلت بك عقوبة شائنة ، وليس في استطاعتك ان تقسم اليمين . »

وخفض بروفيه عينيه .

وتابعَ الرئيس كلامه :

— « ومع ذلك ، فقد يظلّ — حتى في الرجل الذي أذله القانون — اذا سمحت العدالة الالـٰهية بذلك ، إحساسٌ بالشرف والانصاف . الى هذا الاحساس أتوجّه ، مناشداً ، في هذه اللحظة الحاسمة . فاذا كان لا يزال حياً فيك ، وهو ما ارجوه ، ففكّر قبل أن تجيبني . فكّر ، من ناحية ، بهذا الرجل الذي قد تقضي عليه كلمة منك ، ومن ناحية ثانية ، بالعدالة التي قد تنير سبيلها كلمة منك ايضاً . إن اللحظة مهيبة ، ولا يزال امامك متسع للتراجع اذا اعتقدتَ انك كنتَ مخطئاً . ايها المتهم ، قف ! بروفيه ، انظر جيداً الى المتهم ؟ اجمع شتات ذكرياتك وقل لنا ، بذمتك وضميرك ، ما اذا كنت تصرّ على ان هذا الرجل هو جان فالجان رفيقك القديم في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

ونظر بروفيه الى المتهم ثم التفت كرة ثانية نحو هيئة المحكمة :

— « نعم ، يا سيدي الرئيس . لقد كنت أول من عرفه ، وانا أصرّ على ذلك . هذا الرجل هو جان فالجان . دخل سجن طولون

سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ . لقد خرجت انا في العام الذي تلا . إن سيا الحبل تبدو على وجهه الآن ، ولكن لا ريب في ان الشيخوخة هي التي خبّلته . أما في سجن الاشغال الشاقة فقد كان مرائياً ذا وجهين . أنا أعرفه ، على وجه التأكيد . »

فقال الرئيس :

— « إجلسْ ! ايها المتهم ، إبقَ واقفاً . »

وجيء بشونيلديو ، وهو محكوم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، كما بدا من ردائه الاحمر وقلنسوته الخضراء . كان يتحمل عقوبته في سجن طولون الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ولقد اقتيد من هناك لهذه المناسبة . كان رجلاً ضئيل الجسم ، في نحو الخمسين من العمر ، نشيطاً ، متجعد البشرة ، مهزولاً ، أصفر ، وقحاً ، قلقاً . وكان في اوصاله كلها وفي شخصه كله ضرب من الضعف المرَضيّ ، وفي نظرته قوة هائلة . كان رفاقه في سجن الاشغال الشاقة قد لقبّوه بـ « جو — ني — ديو » * .

ووجّه الرئيس اليه الكلمات نفسها التي وجهها الى بروفيه تقريباً . وحين ذكّره بأن عاره قد حرمه الحق في ان يُقسم يميناً ، رفع شونيلديو رأسه ونظر الى الجمهور في وجوههم . ودعاه الرئيس الى ان يجمع شتات أفكاره ، وسأله ، كما سأل بروفيه من قبل ، ما اذا كان لا يزال يصر على انه يعرف المتهم .

وانفجر شونيلديو ضاحكاً :

— « يا الهي ! ما اذا كنت أعرفه ! لقد سلخنا خمس سنوات مشدودَين الى السلسلة الحديدية نفسها . انت مستاء مني ، اليس كذلك ، ايها الغلام العجوز ؟ »

فقال الرئيس :

---

* Je - nie - Dieu وترجمتها : « أنا أنكر وجود الله . »

— « إجلس . »

واقتاد الحاجب كوشباي . وكان هذا المحكوم عليه ايضاً بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، والمسوق من سجن الاشغال الشاقة ، واللابس رداء احمر مثل شونيلديو ، فلاحاً من لورد ، ونصف دبٍ من البيرينيه . كان يرعى الماشية في الجبال . ولقد انزلقت به قدمه من راعٍ الى قاطع طريق . وما كان كوشباي اقل فظاظةً من المتهم ، ولقد بدا اكثر بلاهةً منه . كان واحداً من اولئك الرجال التعسين الذين ترسمهم الطبيعة رسماً خفيفاً وحوشاً كاسرة ، ثم يأتي المجتمع فيتمّ عمله فيهم جاعلاً منهم عبيداً أرقاء في سجن الاشغال الشاقة .

وحاول رئيس المحكمة ان يحرّك عواطفه ببضع كلمات جدية مؤثرة ، وسأله كما سأل زميليه الآخرين ، ألا يزال يصرّ ، من غير ما تردد أو عسر ، على انه يعرف الرجل الواقف أمامه .

فقال كوشباي :

— « إنه جان فالجان . انه هو نفسه الذي كانوا يدعونه « جان رافعة الاثقال » بسبب قوته الهائلة . »

وكان كل من التوكيدات التي أرسلها هؤلاء الرجال الثلاثة ، في إخلاص ونية حسنة من غير شك ، قد أثار في صفوف النظارة همهمة من التنبؤ الغاضب ضدّ المتهم ، همهمة كانت تزداد قوةً وتطاولاً كلما أضيف الى التوكيد السابق توكيدٌ جديد . وأصغى المتهم نفسه اليها في تلك السيما المشدهة التي كانت ، في زعم الاتهام ، وسيلة دفاعه الرئيسية . ولقد سمعه رجال الدرك المجاورون له يغمغم من بين اسنانه عقبَ التوكيد الاول : « آه ، حسناً ! هذا واحد منهم ! » وإثر التوكيد الثاني قال في صوت أعلى وفي سيما من الارتياح تقريباً : « حسن ! » . حتى اذا سمع التوكيد الثالث صاح : « عظيم ! »

وخاطبه الرئيس قائلاً :

– « ايها المتهم ، لقد سمعتَ . هل عندك ما تقوله ؟ »
فأجاب :
– « أقول : عظيم ! »
ومرت في صفوف النظارة ضجة اوشكت ان تغزو المحلفين . كان واضحاً أن الرجل قد هلك .
وقال الرئيس :
– « ايها الحجاب ، أقرّوا النظام . اريد أن أختم القضية . »
وفي هذه اللحظة أتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة . وسُمع صوت يصيح :
– « بروفيه ، شونيلديو ، كوشباي ! أنظروا الى هذه الجهة ! »
كان ذلك الصوت فاجعاً وفظيعاً الى حد جعل جميع الذين سمعوه يحسّون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصُوّبت الأعين كلها نحو النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من أولئك الذين احتلوا مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ، ففتحه ، ووقف في وسط القاعة . وعرفه الرئيس ، والنائب العام ، ومسيو باماتابوا ، وعشرون شخصاً آخرون ، وصاحوا في آنٍ معاً :
– « مسيو مادلين ! »

١١
شانماتيو يزداد دهشاً على دهش

كان هو في الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان يمسك قبعته بيده . ولم يكن ثمة ايّ اضطراب في ملابسه ؛ فقد كانت

سترته الطويلة المشقوقة الذيل (الريدنغوت) مزرّرة في عناية . كان شاحباً جداً ، وكان يرتعد ارتعاداً طفيفاً . اما شعره الذي كان اشيب عند وصوله الى آراس فقد امسى الآن أبيض تماماً . كان قــد ابيضّ خلال الساعة التي قضاها هناك .

وأتلعت نحوه الاعناق كلها . كان الاثر الذي تركه هذا الموقف في نفوس الناس ممتنعاً على الوصف . وعبرتِ بالنظارة لحظة تردّد . كان الصوت موجعاً جداً ، وكان الرجل الواقف هناك يبدو هادئاً جداً الى حد جعل الناس لا يفهمون شيئاً أول الامر . وتساءلوا من الذي صاح . إنهم لم يستطيعوا ان يصدّقوا ان هذا الرجل الهادىء قــد اطلق تلك الصيحة المروّعة .

ولم تستمرّ هذه الحيرة غير بضع ثوانٍ . وحتى قبل ان يستطيــع الرئيس والنائب العام ان يقولا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك والحجاب ان يأتوا بإيماءة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهــم حتى تلك اللحظة مسيو مادلين قد تقدّم نحو الشهود كوشباي ، وبروفيــه ، وشونيلديو .

وقال :

— « ألا تعرفونني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة مــن الرأس الى انهم لم يعرفوه . وأدى كوشباي ، وقد استبدّ به الرعب ، التحية العسكرية . واستدار مسيو مادلين نحو المحلفين وهيئة المحكمة ، وقـــال في صوت رخيم :

— « ايها السادة المحلفون ، أطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ، أصدرْ امرك باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنــه . انا ذلك الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس اياً م . كان صمت اشبه بصمت القبور قد عقبَ الانشداه

الأول . كان في مقدور المرء ان يستشعر في القاعة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حتى يُنجَز عملٌ عظيم .

ومع ذلك فقد كان وجه الرئيس موسوماً بالحزن والمشاركة الوجدانية . لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهموسة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل في نبرة فهمها الجميع :

— « هل يوجد طبيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول :

— « سادتي المحلفين ، إن الحادثة الغريبة غير المرتقبة التي تقلق النظارة لتوقعُ في نفوسنا ، كما توقع في نفوسكم ، شعوراً لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فأنتم جميعاً تعرفون ، من طريق الشهرة على الاقل ، مسيو مادلين المبجّل ، عمدةَ مونتروي سور مير . فاذا كان بين النظارة طبيب فنحن نضمّ صوتنا الى صوت السيد الرئيس فنرجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى مسيو مادلين ، ويقوده الى مقره . »

ولم يدع مسيو مادلين النائبَ العام يتم كلامه ، بل اعترضه في جَرْس مفعم بالوداعة والسلطان . وهذه هي الكلمات التي لفظها . هذه هي بالحرف الواحد كما دوّنها حالَ اختتام الجلسة واحدٌ من الذين شهدوا هذا الموقف ، وكما لا تزال ترنّ في آذان اولئك الذين سمعوها قبل اربعين سنة من هذا التاريخ تقريباً .

— « اشكرك ، يا سيدي النائب العام ، ولكني لستُ مجنوناً . سوف ترى . لقد كنتَ على وشك ان ترتكب غلطةً كبيرة . أطلِقْ سراح هذا الرجل . إني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التعس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح في هذا المكان ، وإني لاقول لك الحقيقة . إن ما أعمله في هذه اللحظة يراه الله الذي في الاعالي ، وهذا يكفي . في استطاعتك ان تلقي القبض عليّ ، ما دمتُ موجوداً هنا . ومع ذلك ، فقد بذلتُ غاية جهدي . لقد استترتُ تحت اسم

آخر ؛ لقد غدَوْتُ غنياً ؛ لقد غدوت عمدةً ؛ لقد أودت ان اعاود الدخول الى دنيا الرجـــال الفاضلين . يبدو ان هذا غير ممكن . وبالاختصار ، فهناك اشياء كثيرة لا استطيع ان اقولها ؛ انا لن اروي لك قصة حياتي ، ولسوف تعرفها في يوم من الايام . لقد سرقت صاحب السيادة الاسقف ؛ هذا صحيح . لقد سرقت جيرفيه الصغير ؛ هذا صحيح . لقد كانوا على صواب حين قالوا لك ان جان فالجان كان وجلاً تعساً خبيثاً جداً . ولكن الغلطة كلها قد لا تكون غلطته . اسمعوا ، ايها السادة القضاة ، إن وجلاً يسربله الذلّ بقدر ما يسربلني ليس لديه احتجاج يوجهه الى العناية الالـٓهية ، او نصيحة يقدمهـــا الى المجتمع . ولكن انتبهوا . إن العار الذي حاولت ان اخرج من حضيضه مفسدٌ للرجال . إن سجون الاشغال الشاقة تصنع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . خذوا هذا مثلاً ، اذا شئتم . فقبل ان ادخل سجن الاشغال الشاقة كنت فلاحاً بسيطاً ، قليل الحظ من الذكاء ، شبه معتوه . ولكن سجن الاشغال الشاقة غيّرني . كنت ابـــله ، فاصبحت شريراً . كنتُ حطبةً ، فأصبحت جذوة نار . وفي ما بعد انقذتني الحكمـــة والطيّبة كما سبق للقسوة ان اضاعتني . ولكن ، عفواً ، انتم لا تستطيعون ان تفهموا ما أقوله . سوف تجدون في منزلي ، بين رماد الموقد ، قطعة الاربعـــين « سو » التي سرقتها لسبع سنوات خلت من جيرفيـــه الصغير . ليس عندي ما اقوله غير هذا . ألقوا القبض عليّ ! يا الـٓهي ! إن النـائب العام يهزّ رأسه . أنت تقول : « مسيو مادلين قد اصيب بالجنون . » أنت لا تصدقني ! هذا شيء محزن . لا تدينوا هـــذا الرجل ، على الاقل ! ماذا ؟ هؤلاء الرجال لا يعرفونني ! ليت جافير ذاك كان هنا . لقد كان خليقاً به هو ان يعرفني ! »

وليس في ميسور شيء ان يعبّر عن الكآبة الرفيقة الكالحة التي انطوت عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الى الثلاثة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة :
– « حسناً ، أنا أعرفك ، يا بروفيه ! هل تذكر ... ؟ »
وتمهّل ؛ وتردّد لحظةً ، ثم قال :
– « هل تذكر حمالة البنطلون تلك ، المزرودة ، ذات الرقع ، التي كانت لك في سجن الاشغال الشاقة ؟ »
وأجفل بروفيه إجفالة دهش ، وحدّق اليه من قمة رأسه الى اخمص قدميه بنظرات مروّعة . أما هو فتابع كلامه :
– « وانت يا شوتيلديو الذي لقّبتَ نفسك بـ « جو – ني – ديو » ، لقد احترقت كتفك اليسرى احتراقاً عميقاً لانك القيتها ذات يوم على كانون مليء بالجمر لكي تمحو هذه الاحرف الثلاثة T. F. P. التي لا تزال تُرى على تلك الكتف برغم ذلك . أجبني ، هل هذا صحيح ؟ »
فقال شوتيلديو :
– « هذا صحيح ! »
ثم انه التفت الى كوشباي :
– « كوشباي ، ان لك قربَ مَعْطِفِ ذراعك اليسرى تاريخاً نُقش بأحرف زرقاء بواسطة الذرور المحترق . انه تاريخ هبوط الامبراطور الى البرّ ، عند مدينة « كانّ » ، ١ آذار ١٨١٥ . ارفع رُدْنك . »
ورفع كوشباي رُدنه . وصُوّبت جميع الاعين المحيطة به الى ذراعه العارية . وجاء دركيّ بمصباح . كان التاريخ هناك .
والتفت الرجل التعس الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه ابتسامة لا تزال ذكراها تمزّق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة النصر ، وكانت كذلك ابتسامة اليأس .
وقال :
– « انتم ترون جيداً أني أنا جان فالجان . »
ولم يبقَ في تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال درك ؛

لم يبقَ فيها غير عيون مسدّدة ، وقلوب خافقة . ولم يعد احدٌ يذكر الدور الذي كان يتعيّن عليه القيام به . لقد نسي النائب العام أنه إنما وُجد هناك ليدّعي ؛ ونسي الرئيس انه إنما وُجد هناك ليرئس الجلسة ؛ ونسي محامي الدفاع انه إنما وُجد هناك ليدافع . ومن عجب ان سؤالاً ما ، لم يُسأل ؛ وان سلطةً ما ، لم تتدخل . إن من خصائص المشاهد الرفيعة الذرى أن تستولي على كل نفس ، وان تجعل من كل شاهد مُشاهداً . ولعل احداً من القوم لم يكن يعي ، بجلاء ، تلك الخبرة التي تمّت له . وليس من ريب في ان احداً منهم لم يقل في ذات نفسه إنه رأى ، ثمةَ ، تألقَ ضياء عظيم . ومع ذلك فقد احسّوا جميعاً ، احساساً باطنياً ، أنهم قد بُهروا .

كان واضحاً ان جان فالجان ماثلٌ أمام أعينهم . لقد أطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافياً لكي يغمر بالضياء تلك القضية التي كان الغموض يكتنفها من اقطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهمَ الحشد في الحال ومن اللمحة الاولى ، وكأنما كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يُحكم على رجل آخر مكانه . اما التفاصيل ، أما ضروب التردّد ، أما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

كانت انطباعةً ما لبثت ان تلاشت ، ولكنها كانت في تلك اللحظة أقوى من أن تقاوَم .

وتابع جان فالجان كلامه :

— « انا لا اريد ان أعطل الجلسة اكثر مما فعلت . أنا ذاهب ، ما دمت لم أعتقل . أن عندي اشياء كثيرة يجب ان أقوم بها . والسيد النائب العام يعرف من أنا ، ويعرف الى أين سأذهب ، ولسوف يصدر أمره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجي . ان صوتاً ما ، لم يرتفع . وان ذراعاً ما ، لم تمتدّ لتمنعه . لقد تنحّوا كلهم عن سبيله . كان يغمر نفسَهُ في تلك اللحظة شيء السّمي لا يوصف يجعل الحشود تنكص على أعقابها وتخلي الطريق لرجلٍ ما . واتخذ سبيله من خلال الجمع في خطىً وئيدة . ولم يُعرَف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت أنه كان مفتوحاً حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

— « سيدي النائب العام ، انا دائماً تحت تصرفك . »

ثم وجّه الخطاب الى النظارة قائلاً :

— « انتم جميعاً ، انتم الذين تضمّكم هذه القاعة جميعاً ، تعتبرون اني جدير بالرحمة ، اليس كذلك ؟ يا السّهي ، حين أفكر بالذي كنت على وشك ان أفعله يخيّل اليّ أني جدير بالحسد . ومــع ذلك ، فقد كنت اتمنى لو ان هذا كله لم يحدث . »

وخرج . وأغلق الباب كما قد فُتح من قبل ، لأن اولئك الذين يقومون بأعمال عظيمة سامية هم ابداً على ثقة من ان شخصاً ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقلّ من ساعة صدر حكم المحلفين مبرّئاً المدعــوّ شانماتيو من ايّ تهمة . وأطلق سراح شانماتيو في الحال فاتخـــذ سبيله مشدوهاً ، معتقداً ان الناس جميعاً قد أصيبوا بالجنون ، غير فاهمٍ شيئاً مــن هذه الرؤيا .

الكتاب الثامن

ضربة معاكسة

١

بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد قضت فانتين ليلة محمومة ، أرقة ، مليئة – مع ذلك – بالرؤى السعيدة . ومع الفجر استسلمت للرقاد . واغتنمت الاخت سيمبليس التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب وتعد مقداراً جديداً من سائل الكينا . ولم تكد الراهبة الطيبة تمضي بضع لحظات في مختبر المستشفى ، منكبة على عقاقيرها وزجاجاتها، محدقة اليها عن كثب بسبب الضباب الذي يلقيه الضحى على الاشياء كلها ، حتى ادارت رأسها فجأة ، وأطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين

واقفاً امامها . كان قد دخل عليها ، اللحظةَ ، في صمت .
وصاحت :
– « هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »
فأجابها في صوت خفيض :
– « كيف حال المرأة المسكينة ؟ »
– « إنها احسن ، الآن . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقاً . »
وقصّت عليه ما جرى ، وأن فانتين كانت مريضةً جداً الليلة البارحة ولكنها الآن أحسن حالاً لانها اعتقدت أن السيد العمدة ذهب الى مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على ان تسأل السيد العمدة ، ولكن سيماه أنبأتها ، في وضوح ، انه ليس قادماً من هناك على الاطلاق .
وقال :
– « هذا كله حسن . لقد أحسنتِ صنعاً حين احجمتِ عن خداعها . »
فقالت الراهبة :
– « اجل ، ولكن الآن ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »
وفكّر لحظةً ثم قال :
– « ان الله سوف يلهمنا ما نقول . »
فغمغمت الأخت في صوت كالهمس :
– « ولكنا لا نستطيع أن نكذب عليها . »
وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فأضاءت وجه مسيو مادلين .
واتفق أن رفعت الأخت عينيها ، فصاحت :
– « يا الـهي ! ايها السيد ! ما الذي اصابك ؟ إن شعرك أبيض كله ! »
فقال :
– « أبيض ! »
ولم تكن عند الاخت سيمبليس مرآة . فبحثت في صندوق يحتوي

على بعض الادوات واخرجت منـــه مرآة كان طبيب المستشفى يتثبّت بواسطتها من ان مريضاً ما قد مات فهو لا يتنفس البتة .

وتناول مسيو مادلين المرآة ، ونظر الى شعره وقال :

– « حقاً ! »

ونطق بهذه الكلمة في لا مبالاة وكأنما كان يفكر في شيء آخر .

واستشعرت الاخت قشعريرة اوقعها في اوصالها شيء مجهول لمحتـه في هذا كله .

وسألها :

– « هل أستطيع أن أراها ؟ »

فقالت الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على أن تغامر بطرح السؤال :

– « ألن يعيد اليها سيدي العمدة ابنتها ؟ »

– « طبعاً . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »

فاستطردت الاخت في خشية :

– « اذا لم ترَ سيدي العمدة هنا فلن تعلم أنه قد رجع . وعندئذ يكون من اليسير عليها ان تتصبّر . حتى اذا جاءت الطفلة اعتقـــدت بصورة طبيعية ، ان السيد العمدة قد جاء بها اللحظة . وهكـــذا لا نضطر الى ان نكذب عليها . »

وبدا مسيو مادلين وكأنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال في رصانته الهادئة :

– « لا ، ايتها الاخت ، يجب ان اراها . لعله أن لا يبقى لديّ متسعٌ من الوقت . »

ولم يبدُ ان الراهبة قد لاحظت « لعل » هـذه التي خلعت مغزىً غامضاً وفريداً على كلمات السيد العمدة . فأجـابت خافضةً رأسهـــا وصوتها في احترام :

– « اذا كان الامر كذلك فهي نائمة . ولكن في استطاعة سيدي

أن يدخل . »

وأبدى بعض الملاحظات عن باب لا يُغلق في يُسر فهو يطلق ضجة قد توقظ المريضة .

ثم دخل غرفة فانتين ، واقترب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت نائمة . وكان نفَسُها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع المميّز لهذه الامراض ، والذي يمزّق قلوب الامهات التعسات وهن يشهدن رقـاد اولادهنّ المشرفين على الموت . ولكن هذا التنفس المرهق قليلاً ما عكّر ذلك الضرب من الصفاء الذي يعزّ على الوصف والذي شاع في محيّاها ، وغيّر هيئتها اثناء الرقاد . كان شحوبها قد غدا بياضاً ، وكان خدّاها قرمزيين . واختلجت اجفانها الطويلة الشقراء – الجمال الوحيـد الذي بقي لها من بتوليّتها وصباها – فيما هي ما تزال مُغمَضة مُسدَلة . وارتعد شخصها كله ، وكأنما كان ذلك الارتعاد برفرفة الجناحين اللذين كان يُشعَر بهما ولكنهما لا يُريان ، واللذين كانا على وشك ان ينتشرا ويحملاها . ولو قد رآها المرء على هذه الحال اذن لما كان في مقدوره ان يظنّ مطلقاً أنها كانت مريضة شبه ميئوس منها . لقد بدت وكأنها على اهبة الطيران لا على اهبة الموت .

إن الغصن ليرتجف حين تمتد يدٌ اليه لتقطف الزهرة ، وانه ليبدو وكأنه يرتدّ الى الوراء ويتقدّم نفسه في آن معاً . والجسم البشري ينكشف عن شيء من هذا الاختلاج في اللحظة التي تمتدّ فيهـا اصابع الموت الخفية لاختطاف الروح .

وظل مسيو مادلين فترة من الوقت جامداً لا يتحرك امام هـذا السرير ، ناظراً الى المريضة حيناً والى تمثال المصلوب حيناً ، كما قد فعل منذ شهرين يوم وفدَ للمرة الاولى لكي يراها في هذا المأوى . كانا لا يزالان كلاهما هناك في الوضع نفسه ، هي نائمةً وهو مصلّباً . كل مـا في الأمر ان شعرها الآن ، بعد ان تقضّى هذان الشهران ، أمسى أشيب

وان شعره أمسى ابيض .

ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ، واصبعه على شفتيه وكأنما كان في الغرفة شخص ما ، يريد ان يُسكته .

وفتحت عينيها ، ورأته ، وقالت في سكينة ، وبابتسامة :

— « وكوزيت ؟ »

٢
فانتين سعيدة

إنها لم تُجفل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عينه . وكان هذا السؤال البسيط : « وكوزيت ؟ » قد طُرح بإيمان عميق جداً ، وثقة مكينة جداً ، ونجوة كاملة من القلق والشك بحيث لم يستطع أن يجد كلمة يجيب بها عنه .

وتابعَتْ :

— « لقد عرفتُ انك كنتَ هناك . كنتُ نائمة ، ولكني رأيتك . لقد رأيتك فترة طويلة من الزمن . لقد تتبّعتك بعينيّ طوال الليل . كانت تحيط بك هالةٌ من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه السماوية ! »

ورفع عينيه نحو تمثال المصلوب .

واستطردت :

— « ولكن قل لي ، اين كوزيت ؟ لماذا لا تضعها في سريري لكي يكون في إمكاني ان اراها لحظةَ أستيقظ ؟ »

واجابها على نحو آليّ بشيء ما ، لم يوفّق بعدُ الى تذكّره قطّ .

وكان الطبيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احيط علماً بذلك ،

وتقدّم لنجدة مسيو مادلين ، قائلاً :

– « إلزمي الهدوء يا ابنتي ، إن طفلتك هنا . »

وشعّت عينا فانتين بالجذل ، وأضاءتا محيّاها كله . وشبكت ذراعيها في سيماً مفعمة بكل ما يمكن ان تنطوي عليه الصلاة من أعنف العنف وألطف اللطف .

وصاحت :

– « اوه ، إحملوها اليّ ! »

وهمٌ مؤثر من اوهام الأمّ . كانت كوزيت لا تزال ، في نظرها ، تلك الطفلةَ الصغيرة التي تُحمل بين الذراعين .

وتابع الطبيب كلامه :

– « ليس الآن . ليس في هذه اللحظة . انت لا تزالين محمومة بعض الشيء . وان رؤية ابنتك قد تثيرك وتسيء الى صحتك . ينبغي ان نشفيك أولاً . »

فقاطعته في حدة :

– « ولكني شُفيت ! اقول لك إني شُفيت ! هل هذا الطبيب مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطبيب :

– « أرأيتِ كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمتِ في هذه الحال فلن استطيع ان اسمح لك برؤية ابنتك . ليس يكفي ان تريها ؛ يجب أن تعيشي من أجلها . وحين تتغلّبين العقل اجيئك بها أنا بنفسي . »

وحنت الأم المسكينة رأسها :

– « سيدي الطبيب ، ألتمس عفوك . ألتمس عفوك باخلاص . في الماضي ما كنت لأتكلم كما تكلمت الان ولكني ابتُليت بعدد كبير من المصائب جعلني لا ادري ، في بعض الاحيان ، ما أقول . انا افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف أنتظر ما شئتَ لي ان أنتظر . ولكني اقسم لك ان رؤية ابنتي لن تؤذيني . أنا اراها الآن ؛ انا لم أرفع عينيّ عنها منذ

الليلة البارحة . دعهم يحملونها اليّ الآن ، فلن آكلهـا إلا في رفق . هذا كل شيء . أليس طبيعياً جداً ان ارغب في رؤية ابنتي، التي قصدوا الى مونفيرماي خصيصاً لـكي يأتوني بها ؟ انا لست غاضبة . انا ادري اني سوف اكون سعيدة جداً . فطوال الليل ، رأيت اشياء بيضـاء ووجوهاً تبتسم لي . وحين يحلو للسيد الطبيب ، سوف يحمل اليّ صغيرتي كوزيت . لقد فارقتني الحمّى ، لأني قد شفيت . أنا احس جيداً أني لم اعد اشكو شيئاً على الاطلاق ، ولكني سوف أعمل وكأنني مريضة ولن اتحرك لـكي أدخل السرور على افئدة السيدات في هذا المستشفى . وعندما يَرَيْنَ اني مخلدة الى السكينة يقلن : يجب ان نعطيها ابنتها . »

كان مسيو مادلين جالساً في كرسي الى جانب السرير . والتفتت نحوه ، وبذلت جهداً واضحاً لـكي تبدو هادئة و « عاقلة جـداً » كما قد قالت في وَهَن الداء ذاك الذي يُشبه الطفولة ، لكي يروها لينـة الجانب الى حد بعيد ، فلا يكون ثمة عقبة تحول دون رؤيتها كوزيت . بيد انها ، على الرغم من كبحها جماح نفسها ، لم تتمالك عن ان توجه الى مسيو مادلين ألف سؤال .

— « هل كانت رحلتك سعيدة ، يا مسيو مادلـين ؟ اوه ! كم كنتَ كريماً في ذهابك لـكي تأتيني بها ! ولكن قل لي كيف حالها ؟ هل استطاعت ان تحتمل الرحلة في سهولة ؟ واأسفاه ! إنها لن تعرفني . لقد نسيتني الصغيرة المسكينة بعد هذه الغيبة كلها ! ان الاطفال لا ذاكرة لهم . إنهم مثل العصافير . اليوم يرون شيئاً ، وغداً يرون شيئـاً آخر ، ثم لا يذكرون شيئاً . ولكن قل لي هل كانت ثيابها الداخلية بيضاء ؟ هل كان تيناردييه وزوجته يُعنيان بنظافتهـا ؟ كيف كانا يغذّيانها ؟ اوه ! لو كنت تعرف كم قاسيت في طرح هذه الاسئـلة كلها على نفسي أيامَ شقائي ! اما الآن ، فقد انقضى ذلك . انا سعيدة . اوه ! ما اشدّ شوقي الى رؤيتها ! سيدي العمدة ، هل وجدتها جميلة ؟

اليست ابنتي جميلة حقاً ؟ لا شك في انك احسست بالبرد الشديد في تلك العربة العمومية ! اليس في إمكانهم ان يجيئوا بها الى هنا لحظةً صغيرة فقط ؟ في استطاعتهم بعد ذلك ان يُرجعوها ثانيةً في الحال . قل ! أنت الذي تتمتع بالسلطة هنا ، هل ترغب في ذلك ؟ »

وأمسك بيدها قائلا :

« كوزيت جميلة . كوزيت في حال حسنة . سوف ترينها عما قريب ، ولكن الزمي الهدوء . انت تتكلمين بسرعة اكثر مما ينبغي . والى هذا فأنت تخرجين ذراعيك من السرير ، وهذا ما يجعلك تسعلين . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمة تقريباً .

ولم تتذمر فانتين . لقد خشيت ان تكون قد اضعفت ، بتوسلاتها الملهوفة اكثر مما ينبغي ، تلك الثقةَ التي رغبت في إيحائها ، وشرعت تتحدث في موضوعات ليست ذات أهمية .

— « مونفيرماي جميلة ، اليس كذلك ؟ في الصيف يذهب الناس الى هناك التماساً للمتعة . هل يكسب تيناردييه وزوجته كسباً حسناً ؟ ان قليلا من الناس يمرّون بتلك المنطقة . ان فندقهما ليس اكثر من مطعم حقير . »

وظل مسيو مادلين ممسكاً بيدها ، ونظر اليها في قلق . كان واضحاً انه اقبل ليخبرها أشياء كان عقله يتردّد الآن أمامها . وكان الطبيب قد عادها وانسحب . ولم تبقَ الى جانبها غير الاخت سيمبليس .

ولكنْ في غمرة الصمت ، صاحت فانتين :

— « انا أسمعها ؟ اوه ، يا الـهي ! انا اسمعها ! »

كان ثمة طفل يلعب في الفناء — ابنُ البوابة او عاملةٍ ما . كانت احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف

جزءاً من الوضع المسرحي الخفيّ الاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وتركض ، لكي تنعم بالدفء ، وتغني وتضحك في صوت مرتفع . واأسفاه ! بأي شيء لا يمتزج لَعِبُ الاطفال ومرحهم ! كانت هذه الطفلة هي التي سمعتها فانتين تغني .

وقالت :

ـ « اوه ، هذه كوزيتي ! أنا اعرف صوتها ! »

وانصرفت الطفلة كما اقبلت ، وتلاشى الصوت ، وأصغت فانتين فترةً أخرى . ثم اكفهرّ وجهها ، وسمعها مسيو مادلين تهمس :

ـ « ينبغي ان يكون هذا الطبيب شريراً جداً حتى لا يسمح لي برؤية ابنتي ! ان لهذا الرجل وجهاً مشؤوماً ! »

ومع ذلك فقد عاودها اتجاه أفكارها البهيج . واستمرّت تتحدث الى نفسها ، ورأسها على الوسادة :

ـ « كم سنكون سعيدتين ! سوف يكون عندنا حديقة صغيرة قبل كل شيء . ان مسيو مادلين قد وعدني بذلك . ان طفلتي سوف تلعب في الحديقة . يجب ان تعرف الاحرف الابجدية الآن . سوف أعلّمها كيف تهجّي الحروف . انها ستطارد الفراشات في الاعشاب . ولسوف اراقبها . وبعد ذلك نحتفل بتناولها القربان اول مرة . آه ، متى سيكون تناولها الاول ذاك ؟ »

وبدأت تعدّ على اصابعها .

ـ « ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ... انها في السابعة من عمرها . بعد خمس سنوات . سوف ترتدي خماراً ابيض ، وجوارب ذات ثقوب ، وسوف تبدو مثل سيدة صغيرة . اوه ، ايتها الاخت الطيبة ، انتِ لا تعرفين مبلغ حماقتي ؛ انا افكر الآن في تناول ابنتي الاول ! »

واخذت في الضحك .

كان قد أفلت يد فانتين . واصغى الى هذه الكلمات كما يصغي المرء الى ريح تهبّ ، فعيناه مطرقتان الى الارض ، وروحـــه غائصة في تأملات لا يُسبر لها غور . وفجأةً كفت عن الكلام ورفعت رأسها على نحو آليّ . كانت فانتين قد غدت مخيفة .

ولم تتكلم بعدُ ، ولم تتنفس بعدُ . كانت قد جلست في سريرهـا نصف جلسة وقد خرجت كتفها المهزولة من قميصها . وغـدا وجهها ، الذي كان مشرقاً قبل لحظة ، شديد الشحوب ؛ وبدت وكأنها تصوّب عينها المتّسعة بالذعر الى شيء مروّع واقف أمامها في الطرف الآخر من الغرفة .

وصاح :

– « يا الـٰهي ! ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تُجب ؛ ولم ترفع عينها قطّ عن الشيء الذي بدت وكأنهـا تنظر اليه ، ولكنها مسّت ذراعه بإحدى يديها ، وأشارت اليه بالاخرى ان ينظر خلفه .

والتفت ، فرأى جافير .

٣
جافير منشرح الصدر

فلْنَرَ ما الذي كان قد حدث .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر مسيو مادلين قاعة محكمة الجنايات في آراس . وكان قد رجع الى فندقه في اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي احتجـز فيها ، كما نذكر ، مقعداً له . وقبيل الساعة السادسة صباحاً كان قد بلـــغ

مونتروي سور مير حيث كان أول ما عمله ان حمّل البريد رسالته الى مسيو لافيت ، ليقصدَ بعدُ الى المستشفى ويرى فانتين .

وفي غضون ذلك كان النائب العام قد وجّه الخطاب الى هيئة المحكمة - بعد أن زايله تأثير الصدمة الاولى بُعيد مغادرة مسيو مادلين القاعة - آسفاً للخبل الذي اصاب عمدة مونتروي سور مير المبجل معلناً ان يقينه لم يطرأ عليه تعديل ما نتيجةً لهذه الحادثة الغريبة التي سوف تنجلي في ما بعد ، طالباً - في انتظار ذلك - إدانة شانماتيو هذا الذي كان واضحاً انه جان فالجان الحقيقي . وكان جلياً ان إصرار النائب العام كان مناقضاً لعاطفة الجميع : النظارة ، وهيئة المحكمة ، والمحلفين . ولم يجد محامي الدفاع كبير عسر في أن يدحض هذا الخطاب وان يقرّر ان وجه القضية قد تغيّر ، بعد الذي اعلنه مسيو مادلين ، يعني جان فالجان الحقيقي ، وان هذا التغيّر كان كلياً ، وانه لم يكن امام المحلفين الآن غير رجل بريء . وخلص المحامي من ذلك الى اطلاق بعض الحكم ، غير الجديدة كثيراً مع الأسف ، حول الاخطاء القضائية ، الخ . الخ . وفي تلخيصه للدعوى أيدّ رئيسُ المحكمة محامي الدفاع . وبعد بضع دقائق كان المحلفون قد برأوا ساحة شانماتيو .

ومع ذلك فقد كان النائب العام في حاجة الى جان فالجان ما ، واذ خسرَ شانماتيو فقد استولى على مادلين .

وبعيد إطلاق سراح شانماتيو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة . وكان موضوع حديثهما يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير . » وكانت هذه العبارة الحافلة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده في التقرير الذي رفعه الى كبير النواب العامين .

وإذ انقضى أثر الانفعال الاول فلم يبدِ رئيس المحكمة غير اعتراضات قليلة . يجب ان تتخذ العدالة مجراها . والى هذا فيتعيّن علينا ان

نعترف ، لكي لا نكتم شيئاً ، ان الرئيس – على الرغم من كرم نفسه وذكاء قلبه – كان في الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، بل ملكياً يكاد يكون متأججاً ، وكان قد اصيب بصدمة عندما كان عمدة مونتروي سور مير يتحدث عن غزو الارض الفرنسية عند « كان » فقال « الامبراطور » بدلاً من «بيُونابرت» *Buonaparte*

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير .

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائه بشهادته مباشرة .

وكان جافير قد نهض ، وما كاد ، من فراشه حين حمل اليه الرسول الأمر بالاعتقال ومذكرة الجلب .

وكان الرسول هو نفسه شرطياً ، وكان رجلاً ذكياً استطاع ، بكلمتين ، أن يحيط جافيرَ علماً بكل ما جرى في آراس .

وكان الأمر بالاعتقال ، الحامل توقيع النائب العام ، مُفرغاً في هذه العبارات : –

« ان المفتش جافير سوف يلقي القبض على جسد السيد مادلين ، عمدة مونتروي سور مير الذي ثبت خلال جلسة اليوم انه هو المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان . »

ولو ان امرأ لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئاً مما كان يجري ، ولحسبَ ان سيماه طبيعية الى ابعد حد يمكن تخيّله . كان عابساً ، هادئاً ، رزيناً ، وكان شعره الاشيب صقيلاً أملس ، على نحو كامل ، وكان قد ارتقى السلّم في بطئه المعتاد أما من قدّر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله في انتباه ، فقد كان خليقاً به أن يرتعد . كان ابزيم طوق قميصه

الجلديّ تحت أذنه اليسرى بدلاً من ان يكون على رقبته . وكان ذلك ينمّ عن اهتياج لم يُسمع بمثله من قبل .

كان جافير شخصية كاملة لا تغضّن في واجبه او في سترته العسكرية . وكان مدققاً مع الآثمين ، قاسياً على ازرار سترته .

ولكي ينحرف ابزيم طوق قميصه عن موضعه لا بد ان يكون قد عصف به انفعال من الانفعالات التي نستطيع ان ندعوها زلازل النفس .

كان قد اقبل في غير مباهاة ، وكان قد اصطحب من أحد مراكز الجند المجاورة عريفاً واربعة أنفار ، وترك الجنود في الفناء ، وسأل البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب في امره ، اذ كانت متعوّدة ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيد العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفع الباب في لطف ممرضةٍ او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

ولو اردنا ان نصطنع الدقة في التعبير لقلنا إنه لم يدخل . لقد ظل واقفاً لدى الباب نصف المفتوح ، وقبعته على رأسه ، ويده اليسرى في معطفه المزرّر حتى ذقنه . وفي انثناءة مرفقه كان في ميسور المرء ان يرى رأس عصاه الضخمة الرصاصيّ ، وكانت قد اختفت وراءه .

وظلّ هكذا نحواً من دقيقة لم يحسّ بوجوده احد . وفجأة ، رفعت فانتين عينيها ، ورأته ، ودعت مسيو مادلين الى الالتفات .

وحالما التقت عينا مادلين عيني جافير غدا جافير — من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يبدّل مكانه ، ومن غير ان يقترب — مروّعاً فظيعاً . ان اياً من العواطف الانسانية لا يمكن ان تكون مخيفة كالابتهاج .

كان وجهَ شيطانٍ عثر على ضحيته من جديد .

وكان يقينه بأنه قد ألقى القبض ، آخر الامر ، على جان فالجان قد اظهر

على محياه كل ما كان في ذات نفسه . لقد ارتفعت أعماقه المضطربة الى السطح . وكان الخزي الذي استشعره بسبب من انه ضل الاثر وخُدع عن ذات نفسه ، بضع دقائق ، في مسألة شانماتيو - كان هـذا الخزي قد ضاع في الغرور الذي استشعره بسبب من انه وفّق الى أن يحزر ، منذ البدء ، على هذا النحو البارع ؛ ومن انه احتفظ منذ دهر طويـل بغريزة لا تَكْذِبُ صاحبَها . وتجلى ارتياح جافـــير في مسلكه المفعم بالسلطان والجبروت . لقد انتشرت بشاعة الانتصار فوق جبينه الضيق . كان ذلك أكمل صورة من صور الهول يمكن لوجهٍ جذلان ان يتكشّف عنها .

كان جافير ، في تلك اللحظة ، في السماء . ومن غير أن يحـــدّد احاسيسه على نحو واضح ، ولكنْ في حَدْسٍ مشوّش أشعره بضرورته وبنجاحه ، مثّلَ ، هو جافـير ، العـــدالةَ والنور والحقيقة في مهمّتها السماوية كمدمّرة للشر . كانت من ورائه ومن حولهِ أعماق لا نهاية لها من السلطة ، والعقل ، والسابقة ، والضمـير القضائي ، وانتقام القانون ، وجميع النجوم التي في القبّة الزرقاء . لقد صانَ النظام ؛ لقد أطلـــق رعود القانون ؛ لقد انتقم للمجتمع ؛ لقد مدّ يـد العون الى المطلـّق . لقد وقف منتصب القامة وسط هالة من المجد . لقد كان في انتصاره بقيةٌ من تحدٍّ ومن صراع . كان في وقفته المتغطرسة ، المتألقة ، يعرض في جلالٍ كامل البهيميةَ فوق البشرية الجديرةَ برئيس ملائكة ضارٍ . وكان الظل الرهيب للعمل الذي يقوم به يُبدي ، في جُمـــع كفه المتشنج ، بوارقَ السيف الاجتماعي الغامضة . كان يدوس بعقِب قدمه ، في سعادة وفي حنق ، على الجريمة ، على الرذيلة ، على التمرد ، على الهلاك الابديّ ، على الجحيم . كان يتألق ، وكان يُبيد ، وكان يبتسم . كان ثمة عظمة لا يمكن إنكارها في هذه الصورة الفظيعة من صور القديس ميشيل . *

* كبير الملائكة ، وقائد جند السماء .

لم يكن جافير ، رغم انه مخيف ، خسيساً قطّ .

إن النزاهة ، والاخلاص ، وسلامة النية ، واليقين ، وفكرة الواجب هي اشياء قد تصبح بشعة ، حين تخطىء ، ولكنها تظلّ برغم بشاعتها عظيمة . إن جلالها الخاص بالضمير الانساني ، ليستمرّ في هولها . إنها فضائل ذات رذيلة واحدة : الخطأ . فالابتهاج الصادق الذي لا يعرف الرحمة والذي يتكشّف عنه المتعصب في عمل من أعمال القسوة يحتفظ باشعاع فاجع لا نقدر على وصفه ، إشعاعٍ يوقع في نفوسنا الأجلال . ومن غير ان يشعر بذلك ، كان جافير في سعادته التي توحي بالذعر يستحق الرثاء ، مثل كل رجل جاهل يكسب معركة . إن شيئاً لا يمكن ان يكون أوجع او افظع من هذا الوجه الذي تكشّف عما يمكن ان ندعوه شرّ الخير .

٤
السلطة تسترد حقوقها

لم تكن فانتين قد رأت جافير من يوم ان اختطفها العمدة من هذا الرجل . ولم يأخذ دماغها المريض بأيّ تعليل ؛ إلا انها لم تشكّ في أنه اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان في ميسورها ان تتحمل هذا الوجه الرهيب ؛ لقد استشعرت وكأنها تحتضر ؛ وأخفت وجهها بيديها الاثنتين ، وصاحت في ألمٍ نفسيّ مبرّح :

— « مسيو مادلين ، أنقذني ! »

وكان جان فالجان — ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم — قد نهض . وقال لفانتين في جَرْس ليس ألطف منه ولا اكثر هدوءاً :

— « إلزمي السكينة . إنه لم يأتِ من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال :

ــ « انا اعرف ماذا تريد . »

فأجاب جافير :

ــ « هيا ، أسرع ! »

كان في الطريقة التي نُطِقت بها هاتان الكلمتان شيء لا يمكن التعبير عنه ، شيء يذكّرك بوحش ضار وبرجل مجنون . إن جافير لم يقل : « هيّا ، أسرع ! » ، ولكنه قال : « هيّ ... اسرع ! » وليس في إمكان علم الاملاء ان يعبّر عن النبرة التي أُطلق فيها هذا الكلام . إنه لم يكن كلاماً بشرياً قطّ ؛ كان زئيراً .

ولم يجرِ على مألوف عادته ، ولم يدخل قطّ في الموضوع ، ولم يبرز أيا مذكرة جلب . كان جان فالجان ، في نظره ، ضرباً من المقاتل الخفيّ الذي لا سبيل الى فهمه ؛ كان مصارعاً غامضاً سلخ خمسة اعوام وهو يغالبه من غير أن يَظْهرَ عليه . إن هذا الاعتقال لم يكن بداءة ، لقد كان خاتمة . واكتفى بالقول :

ــ « هيا ، أسرع ! »

وفيما هو يقول ذلك لم يخطُ خطوة واحدة ، ولكنه ألقى على جان فالجان نظرةً اشبه بالكلاّب المعدني كان من عادته أن يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

كانت هي النظرة نفسها التي استشعرت فانتين أنها نفذت الى نخاع عظامها قبل شهرين اثنين .

وكانت فانتين قد فتحت عينيها عندما أطلق جافير صيحته . ولكن العمدة كان هناك ، فمن ايّ شيء يمكن أن تخاف ؟

وتقدّم جافير الى منتصف الغرفة ، صائحاً :

ــ « هاي ، هناك ! ألن تأتي ؟ »

ونظرت المرأة المسكينة الى ما حولها . لم يكن ثمة احد غير الراهبة

والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكـــلام الاستخفافيّ المحقّر موجهاً ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها .

ثم انها رأت شيئاً عجباً ، شيئاً عجباً لم يتمثّلْ لها نظيرهُ حتى في احلك لحظات الحمى وهذيانها .

لقد رأت جاسوس الشرطة جافير يمسك بخناق السيد العمدة ؛ لقد رأت السيد العمدة يحني رأسه . وبدا لها وكأنّ العالم يتلاشى امام ناظريها .

كان جافير قد أخذ بخناق جان فالجان فعلاً .

وصاحت فانتين :

– « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها .

وقال :

– « لم يَعُدْ هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزعج اليد القابضة على طوق سترته الطويلة المشقوقة الذيل .

وقال :

– « جافير .... »

وقاطعه جافير :

– « نادني ايها السيد المفتش ! »

فتابع جان فالجان كلامه :

– « ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . »

فقال ُجافير :

– « تكلم بصوت عال ! تكلم بصوت عال ! ان الناس يتكلمون معي بصوت عالٍ ! »

وتابع جان فالجان كلامه ، خافضاً صوته :

– « انا اريد ان اتقدم اليك برجاء .... »

- « اقول لك تكلم بصوت عالٍ . »

- « ولكن هذا شيء ينبغي ان لا يسمعه احد غيرك . »

- « وما يهمني ذلك ؟ لن اصغي لكلامك ! »

واستدار جان فالجان نحوه ، وقال في سرعة وفي صوت منخفض جداً :

- « أمهلني ثلاثة ايام ! ثلاثة ايام لكي اذهب وأجيء بطفلة هذه المرأة المسكينة ! سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي استطاعتك أن ترافقني اذا شئت . »

فصاح جافير :

- « اتضحك عليّ ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابله الى هذا الحد ! انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تفرّ ثم تزعم انك تريد ان تذهب لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة ! ها ! ها ! هذا جميل ! هذا جميل ! »

وارتعدت فانتين .

وصاحت :

- « ابنتي ! تذهب لكي تجيئني بابنتي ! واذن ، فهي ليست هنا ! أيتها الاخت اجيبيني ، اين كوزيت ؟ انا اريد ابنتي ! مسيو مادلين ! سيدي العمدة ! »

وخبط جافير الارض بقدمه .

- « ها هي الاخرى ، الآن ! اخرسي ، اينها الفتاة الخالعة العذار ! مسكينة هذه البلاد التي يكون فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ولاة ، والتي يمرّض فيها بنات الهوى مثل الكونتيسات ! ها ! ولكن هذا كله سيتغير . لقد آن الاوان ! »

وحدّق الى فانتين تحديقاً موصولاً ، ثم اضاف ممسكاً مرة اخرى بعقدة رقبة جان فالجان ، وقميصه ، وطوق سترته :

- « اقول لكِ انه لم يبق هنا شيء اسمه مسيو مادلين ، ولم يبق شيء اسمه سيدي العمدة . إن هناك لصاً ؛ ان هناك قاطع طريق ؛ ان هناك

رجلاً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة يدعى جان فالجان ! انه هذا الذي امسك به ! ذلك ما يوجد هنا ! »

وانتصبت فانتين في جلستها ، معتمدة على ذراعيها المتوترتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فمها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من حنجرتها حشرجة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في ألم نفسي مبرّح ، وفتحت يديها في تشنج ، متحسسة ما حولها مثل مشرف على الغرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الوسادة .

واصطدم رأسها بمقدّم السرير ، فارتدّ منقلباً على صدرها . كان فمها فاغراً وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين .

لقد ماتت .

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير الممسكة به ، وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير :

— « لقد قتلتَ هذه المرأة . »

فصاح جافير في حنق :

— « كفى هراء ! انا لم اجيء الى هنا لأستمع الى مواعظ . وفّر هذا كله . الحرس تحت . إمشِ في الحال ، وإلا وضعت يديك في الحديد ! »

وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق متهدّم كانت كل من الراهبتين تتخذ منه سريراً نقّالاً حين تسهر على خدمة المرضى . فما كان من جان فالجان إلا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدّمه الواهن — وما كان ذلك بعسير على عضلات كعضلاته — ونظر لى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وارتدّ جافير نحو الباب .

وفي بطء ، تقدّم جان فالجان ، متشبثاً بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يُسمع :

– « أنصحك بأن لا تزعجني الآن . »

وارتعد جافير ؛ ذلك شيء لا يتطرق اليه الشك .

وخطر له ان يمضي ليستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتنم هذه الفرصة فيفرّ . وهكذا ظلّ معتصماً بعقب عصاه ، وأسند ظهره الى إطار الباب ، من غير ان يرفع عينيه عن جان فالجان .

واراح جان فالجان مرفقه على القضيب الحديدي ، وأراح رأسه على يده ، وحدّق الى فانتين وقد تمدّدت امامه وليس بها حراك . وظلّ هكذا ذاهلاً ، أبكم ، غيرَ مفكـّر من غير شك بأيما شيء في هذه الحياة . ولم يبق على محياه ، وفي هيئته ، غير شفقة تمتنع على التعبير .

وبعد بضع لحظات من الاستغراق في التفكير انحنى فوق فانتين ، وخاطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع ان يقوله هذا الرجل الهالك لهذه المرأة الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ إن أحداً على ظهر هذه الارض لم يسمعها . هل سمعتها المرأة الميتة ؟ إن ثمة أوهاماً مؤثـّرة ربما كانت حقائق سامية . والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه هو أن الاخت سيمبليس – الشاهدة الوحيدة لما قد جرى – كثيراً ما روت أنها لحظةَ همس جان فالجان في أذن فانتين رأت في وضوح ، ابتسامةً يعجز البيان عن وصفها تُشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين العينين القاتمتين ، المفعمتين بدهشة القبر .

وأمسك جان فالجان رأس فانتين بيديه ، وقوّمه على الوسادة ، فِعْلَ الأم برأس طفلها ، ثم عقدَ وثاق منامتها ، وأدخل شعرها تحت قلنسوتها . حتى اذا تمّ له ذلك أغمض عينيها .

وفي تلك اللحظة بدا وجه فانتين مشرقاً على نحو عجيب .

إن الموت هو المدخل الى النور العظيم .

وتدلـّت يد فانتين على جانب السرير . وركع جان فالجان أمام

هذه اليد ، ورفعها في رفق ، وقبّلها .
ثم انه نهض ، والتفت الى جافير قائلاً :
— « والآن ، انا تحت تصرفك . »

٥
قبر ملائم

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .
وأثار اعتقال مسيو مادلين خواطر الناس في مونتروي سور مير ، بل الاصح ، ان نقول إنه احدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان لا نستطيع كتمان هذه الحقيقة : وهي أنه ما كادت تذيع تلك الجملة المفردة : **كان عبداً رقيقاً من عبيد سجن الاشغال الشاقة** حتى انفضّ من حوله الناس كلهم تقريباً . وفي اقلّ من ساعتين نُسي جميع الخير الذي اسداه الى البلد والناس ، ولم يعد هو « غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة . » ومن الانصاف ان نقول إن تفاصيل الحادث كما وقع في آراس لم تكن قد عرفت بعد . وطوال النهار كانت احاديث مثل هذه تُسمع في كل جزء من اجزاء المدينة :
— « الا تعرف ? لقد كان محكوماً بالاشغال الشاقة أُطلق سراحه ! »
— « من هذا ? »
— « العمدة . »
— « عجباً ، مسيو مادلين ? »
— « نعم . »
— « حقاً ? »
— « ان اسمه ليس مادلين . إن له اسماً مخيفاً : باجان ، بوجان ، بيجان ! »

– « آه ، يا الـهي ! »
– لقد أُلقي القبض عليه . »
– « القي القبض عليه ! »
– « ووضع في سجن المدينة ريثما يُنقل . »
– « ريثما يُنقل ؟ الى اين سوف ينقل ؟ »
– « سوف يساق الى محكمة الجنايات لسرقة في الطريق العام كان قد ارتكبها في ما مضى . »
– « حسناً ! لقد ارتبت فيه دائماً . لقد كان هذا الرجل طيباً اكثر مما ينبغي ، كاملًا اكثر مما ينبغي ، لطيفاً اكثر مما ينبغي . لقد رفض ان يتقاضى اجراً ، وكان يمنح الدراهم لكل من يلتقيه من هؤلاء الاوباش الصغار . لقد فكرت دائماً بأنه لا بد ان يكون ثمة قصة رديئة خلف هذا كله . »

واخذت « الصالونات » كلها – على الخصوص – بهذا الرأي .

واطلقت سيدة عجوز ، مشتركةٌ بصحيفة **« الراية البيضاء »** ، هذه الملاحظة التي يكاد يتعذر على المرء ان يسبر غورها :
– « انا لست آسفة . ان ذلك سوف يلقي درساً على البونابرتيين ! »

وهكذا تبدّد في مونتروي سور مير ذلك الطيف الذي كان يُدعى فيها مسيو مادلين . إن ثلاثة اشخاص او اربعة اشخاص من اهـــل المدينة كلها ، ليس غير ، ظلوا اوفياء لذكراه . وكانت البوابة العجوز التي عملت في خدمته واحدةً من هؤلاء .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الفاضـــلة جالسةً في كوخها ، وهي ما تزال مشدوهة ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد أُغلق طوال النهار ، وكان الباب الكبير الذي تدخل منه العربات قد أُوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفراً . ولم يكن في المنزل احد غير الراهبتين ، الاخت بيربيتو والاخت سيمبليس ، وكانتا ساهرتين

امام جثمان فانتين .

وحوالى الموعد الذي تعوّد مسيو مادلين العودة فيه الى منزله نهضت البوابة الأمينة على نحو آليّ ، واخذت مفتاح غرفة مسيو مادلين من احد الادراج ، والشمعدان الذي اعتاد ان ينير به سبيله ليلًا وهو يرتقي السلم ، ثم علّقت المفتاح بمسار كان من دأبه أن يتناوله منه ، ووضعت الشمعدان الى جانبه ، وكأنما كانت تتوقع عودته . ثم انهـــا عاودت الجلوس في الكرسي ، واستأنفت تأملاتها . لقـد عملت العجوز المسكينة ذلك كله من غير ان تعي .

وانقضى على ذلك اكثر من ساعتين . وفجأةً أجفلت صائحةً :

— « ولكن ، يا الـهي ! إني انا التي وضعت مفتاحه في المسار ! »

وفي تلك اللحظة ، فُتحت نافذة كوخها . وامتدت يدٌ من خلال تلك الفرجة ، واخذت المفتاح والشمعدان ، وأضاءته بالشمعة المشتعلة .

ورفعت البوابة عينيها فاغرة الفم. ووثبت الى شفتيها صيحة، ولكنها خنقتها.

لقد عرفت اليد ، والذراع ، ورُدن الريدينغوت .

كان مسيو مادلين .

وظلت صامتةً بضع دقائق ، قبل ان توفق الى الكلام ، **مصعوقةً** كما عبّرت هي نفسها في ما بعد حين روت الحادثة .

واخيراً صاحت :

— « يا الـهي ! السيد العمدة ! لقد حسبتُ انك ... »

وصمتت . كان من الجائز ان تأتي خاتمة جملتها وقد أعوزها الاحترام لمطلعها . فقد كان جان فالجان هو دائماً — في نظرها — السيد العمدة .

وأتمّ فكرها ، قائلًا :

— « في السجن . لقد كنت هناك . لقـد كسرت قضيباً حديدياً من احدى النوافذ ، وقفزت من أعلى سطح مـا ، وها أنا ذا . إني ذاهب الى غرفتي . قولي للاخت سيمبليس إني اودّ ان اراها . انها من

غير شك الى جانب تلك المرأة المسكينة . »

وامتثلت العجوز الأمرَ في سرعة بالغة .

ولم يوصها بشيء . كان واثقاً من انها خليقة بان تحرسه أحسن مما يحرس نفسه.

وما عرف احد قطّ كيف وُفّق الى ان يدخل الى فِناء الدار من غير ان يفتح الباب الكبير الخاص بالعربات . كان لديه مفتاح يحمله ابداً في جيبه ، مفتاح عمومي يفتح باباً جانبياً صغيراً . ولكنهم قد فتشوه من غير ريب ، وانتزعوا منه ذلك المفتاح الذي تعنو له الأبواب كلها . إن هذه النقطة لمّا تُجْلَ حتى الآن .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدور الأعلى ترك شمعدانه على درجات السلم الاخيرة ، وفتح باب غرفته في رفق ، وتلمّس سبيله نحو النافذة فأغلقها وأغلق مصراعها ، ثم ارتدّ على آثاره ، فحمل الشمعدان ، ومضى الى غرفته كرة اخرى .

ولم يكن الحذر غير ذي غناء . فنحن نذكر ان نافذة غرفته يمكن ان تُرى من الشارع .

وألقى نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره الذي لم يضطجع فيه منذ أيام ثلاثة . لم يكن ثمة ايما اثر من فوضى الليلة التي قبل البارحة . ذلك بأن الخادمة كانت قد رتّبت الغرفة ؛ بيد أنها كانت قد التقطت من الرماد عقبي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سو التي سوّدتها النار . ووضعها جميعاً ، بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : **ها هما عقبا عصاي الحديديتان وقطعة الاربعين سو المسروقة من جيرفيه الصغير ، والتي تحدثت عنها في محكمة الجنايات .** ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكون أول شيء يراه الداخل الى الغرفة . وأخرج من احدى الخزائن قميصاً له عتيقاً ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش لفّ بها الشمعدانين الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجّلٌ أو اهتياج . وحتى فيما هو

يلفّ شمعداني الاسقف انثأ يقضم قطعة من الخبز الاسود . ولعلّ ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فرّ .

وإنما نهض الفُتات الذي وُجد على ارض الغرفة ، حين أجرت العدالة في ما بعد تفتيشاً دقيقاً ، دليلًا على ذلك .

وخفق شخصٌ ما الباب خفقتين رفيقتين .

وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيمبليس .

كانت شاحبة الوجه ، محمرّة العينين ؛ وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها . إن لصدمات القدر هذه الخاصة ، وهي اننا مهما تكن أحاسيسنا مكبوحة أو حسنة الانضباط فان تلك الصدمات تنتزع الطبيعة البشرية من أعماق نفوسنا ، وتكرهنا على ان نُبديها للناس . ففي غمرة من انفعالات ذلك اليوم كانت الراهبة قد عادت امرأةً كرة اخرى . كانت قد ذرفت الدمع ، وكانت ترتجف .

وكان جان فالجان قد كتب بضعة اسطر على قصاصة من ورق ، فقدّمها الى الراهبة قائلًا :

— « ايتها الأخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن . »

ولم تكن الورقة مطوية . فألقت نظرة عليها .

وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرأيها . »

وقرأت : « إني أرجو سيدي الكاهن ان يتولى أمر العناية بكل ما أتركه هنا . وأرجو أن يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المرأة التي توفيت اليوم . أما الباقي فيوزع على الفقراء . »

وحاولت الراهبة ان تتكلم ، ولكنها تلجلجت فلم تنطلق من فمها سوى اصوات غير مُبينة . بيد أنها ما لبثت ان وفّقت الى القول :

— « ألا يريد السيد العمدة ان يرى هذه البائسة المسكينة للمرة الاخيرة ؟ »

فقال :

— « لا . إنهم يطاردونني . ولست احب ان يلقوا القبض عليّ في غرفتها . ذلك خليق به ان يزعجها . »

ولم يكد يتم كلامه حتى اقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد سمعا جلبة أقدام ترتقي السلم ، والبوابة العجوز تقول في نبرات مرتفعة الى أبعد الحدود ، ثاقبة الى أبعد الحدود :

— « يا سيدي الطيب ، أقسم لك بالله ان أحداً لم يدخل الى هنا طوال النهار وطوال الليل ، وأني لم أغادر باب كوخي ولو مرة واحدة ! »

فأجابها رجل :

— « ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة . . »

وتبيّنا في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب يحجب ، حين يُفتح ، زاوية الجدار القائم الى اليمين . وأطفأ جان فالجان الشمعدان ، وحشر نفسه في تلك الزاوية .

وخرّت الاخت سيمبليس على ركبتيها قرب الطاولة .

وفُتح الباب .

ودخل جافير .

وسُمع همس عدة رجال واحتجاجات البوابة في الرواق .

ولم ترفع الراهبة عينيها . كانت تصلي .

كانت الشمعة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ، ووقف مرتبكاً .

ويذكر القراء ان جوهر جافير ، وعنصره ، والوسط الذي يتنفس فيه كان اجلال السلطة كلها . كان متجانساً اكمل التجانس ، وكان لا يرتضي اعتراضاً او تقييداً . وينبغي ان نعلم ان السلطة الاكليركية كانت عنده اسمى السلطات . كان تقياً ، سطحياً ، دقيقاً في هذه النقطة شأنه في النقاط جميعاً . ففي نظره كان الكاهن روحاً ليس تخطيء ابداً ، وكانت

الراهبة مخلوقة لا تأثم ابداً . كانا روحين يعزلهما عن هذا العالم باب مفرد لا ينفتح ابداً إلا لكي يسمح للحقيقة بالانطلاق .

وهكذا لم يكد يلمح الراهبة حتى كان حافزه الاول يدعوه الى الانسحاب .

ولكن كان ثمة واجب آخر يمسك بـــه ، ويدفعه بصلف في طريق معاكس . كان حافزه الثاني يقتضيه ان يبقى وان يغامر فيطرح سؤالاً واحداً على الاقل .

كانت هذه هي الاخت سيمبليس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يُجلّها على نحو خاص بسببٍ من ذلك .

وقال : « ايتها الاخت ، هل انتِ وحدكِ في هذه الغرفة ؟ »

وانقضت لحظة رهيبة استشعرت البوابة المسكينة خلالها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغماء . ورفعت الراهبة عينيها ، واجابت :

— « نعم . »

وتابع جافير :

— « اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي : ألم تري هذا المساء شخصاً ، رجلاً ، كان قد فرّ ، ونحن نلاحقه — هذا الرجل ، جان فالجان ، ألم تريه ؟ »

فأجابت الراهبة : « لا . »

لقد كذبتْ . كذبتْ كذبتين متعاقبتين ، احداهما اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد ، وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .

— « ألتمس عفوكِ . »

قال جافير ذلك ، وانسحب منحنياً في احترام .

ايه ايتها الفتاة المقدسة ! انتِ لم تعودي من اهل هـــذا العالم منذ سنوات عديـــدة . لقـد التحقتِ باخواتكِ — العذارى — وباخوتكِ — الملائكة — في الضياء . فلتُذكَرْ لكِ هذه الكذبة في الجنة !

كان توكيد الراهبة لجافير شيئاً حاسماً عنده الى درجة جعلته لا يلحظ

حتى غرابة هذا الشمعدان ، المطفأ منذ لحظة ، المرسل دخانه على الطاولة .

وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعداً في سرعة عن مونتروي سور مير موجّهاً وجهه شطر باريس . كان هذا الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين أو ثلاثة من سائقي العربات الذين التقوا به ، أنه كان يحمل صرة ، ويرتدي درّاعة . من اين جاء بهذه الدراعة ؟ إن احداً لم يَدْر . ومع ذلك ، فأن عاملاً عجوزاً كان قد توفي في مستشفى المصنَع قبل ايام قليلة ، غير مخلّف شيئاً خلا هذه الدرّاعة . فلعلّ هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان .

بقيت كلمة اخيرة عن فانتين .

إن لنا جميعاً أماً واحدة : الارض . لقد أعيدت فانتين الى هذه الأم .

وارتأى الكاهن ، ولعله أحسن في ذلك صنعاً ، ان يحتفظ باكبر قدر ممكن من ثمن ما خلّفه جان فالجان ليوزعه على الفقراء . وعلى اية حال ، فبمن كان يتصل ذلك ؟ برجل محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وببنت من بنات الهوى . وهذا هو السبب الذي من اجله بسّط الاحتفال بدفن فانتين ، وقصَرَه على الكفاف الذي يُدعى حقل الفخّاري *

وهكذا دُفنت فانتين في هذه الزاوية المجانية من المقبرة ، الزاوية التي هي لكل فرد وللناس جميعاً ، والتي يضيع فيها الفقراء . ولكن الله يعرف لحسن الحظ أين يجد النفس . لقد أُضجعت فانتين في الظلام ، بين الرمم التي ليس لها اسم . لقد تحملت فوضى رفات الموتى واختلاطه . لقد طُرحت في الجدث العمومي . إن قبرها كان مثل سريرها .

---

* اي مقبرة الفقراء والغرباء . جاء في انجيل متى (٢٧ : ٧) : « فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرةً للغرباء . »

فهرست القسم الاول : « فانتين »

الكتاب الثالث : في عام ١٨١٧

الكتاب الرابع : الايداع يعني التخلي احياناً

الكتاب الخامس : الانحدار

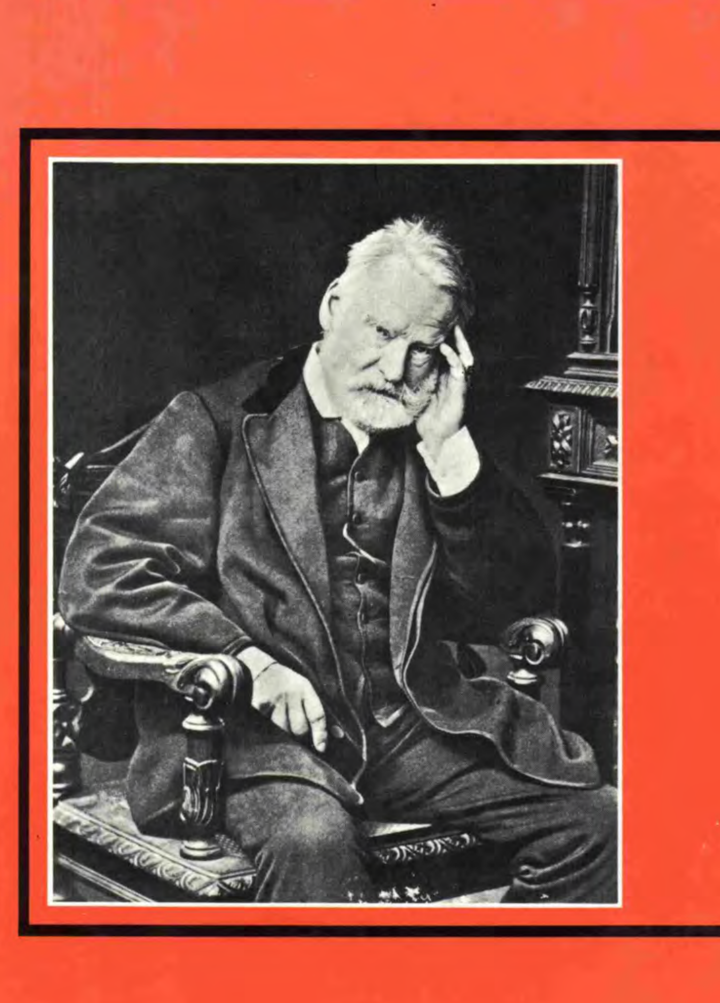
الكتاب السادس : جافير

الكتاب السابع : قضية شانماتيو

الكتاب الثامن : ضربة معاكسة

انتهى المجلد الاول

ويليه المجلد الثاني



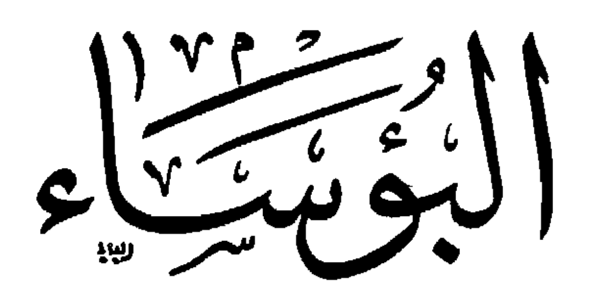
البؤساء



٢

دار العلم للملايين

البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فكتور هيجو

المجلد الثاني

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

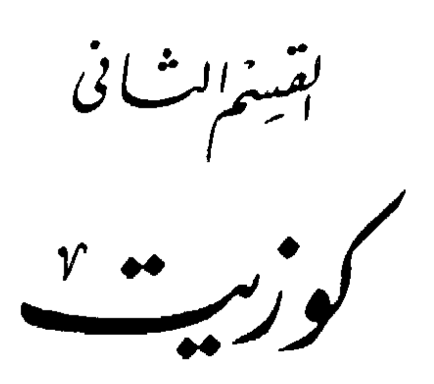
Victor Hugo

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩


القسم الثاني
كوزيت

الكتاب الأول

واترلو

١

ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل

في العام الماضي (١٨٦١) ، ذات صباح جميل من ايام نوار ، كان احد المسافرين – وهو الرجل الذي يروي هذه القصة – يتجه من « نيفيل » الى « لا هوب » . كان يرتحل سعياً على قدميه ، سالكاً – بين صفين من الاشجار – طريقاً عريضة معبدة تتعرج فوق تلال كانت تتعاقب واحدة اثر اخرى ، فترفعها حيناً ، وتهبط بها حيناً ، مثل امواج هائلة . كان قد اجتاز « ليلوا » و « بوا – سينيور – ايزاك » . لقد رأى في ناحية الغرب قبة كنيسة « برين لالو » المصنوعة من حجر الآردواز ،

والتي يشبه شكلها شكل إناء مقلوب . وكان قد خلّف وراءه منذ لحظة غابة على شرَف من الارض . وعند زاوية احدى الطرق الضيقة المختصرة ، الى جانب ضرب من المَعْلَم النّخِر الحامل هذا الكلام : « **باب المدينة القديم رقم ٤** » كانت حانة على واجهتها هذه اللافتة : **حانة الرياح الاربع، ايشابو ، مقهى خصوصي .**

وعلى ثُمن فرسخ وراء هذه الحانة انتهى المسافر الى قعر وادٍ صغير حيث كان جدول يجري تحت قنطرة قائمة عند الطريق المردومة . وكانت باقة الاشجار ، المتناثرة ولكنها شديدة الخضرة ، والمالئة صفحة الوادي من احد جانبي الطريق — كانت هذه الباقة تتبدّد عند الجانب الآخــر في المروج ، وتنبسط في فوضى دمثة نحو « برين لالو » .

هناك ، الى اليمين ، وعلى حافة الطريق ، كان فندقٌ امام بابه كارّةٌ ذات اربع عجلات ، وحزمة ضخمة من عيدان حشيشة الدينار ، ومحراث، وركام من العواسج الجافة قرب سياج من الاشجار الشائكة ، وشيء من الكلس يرسل الدخان في حفرة مربعة ، وسلّم ملقاة في محاذاة سقيفة عتيقة ذات مذاود للتبن . كانت فتاةٌ صغيرة تقتلع الاعشاب الضارة من حقل كانت الريح تعبث فيه باعلان كبير اخضر ، لعله كان خاصاً بمسرح متجول يقدم الروايات لمناسبة سوقٍ سنويةٍ ما . وعند زاوية الفندق ، الى جانب مستنقع صغير كان يُبحر فيه أُسَيْطيلٌ مـــن البط ، اقتحم احدُ الازقة الملبّدة بالاخاديد قلبَ الادغال ، فاضاع فيها نفسه . لقـــد اتخذ ذلك المسافر هذه السبيل .

وبعد ان خطــا مئة خطوة ، مجتازاً بسور يرقى الى القرن الخــامس عشر تعلوه واجهة مثلثة حــادة الزاوية مشيدة بالآجر المنسّق على نحو يُظهر التضادّ بين اجزائه ، وجد نفسه تجاه باب كبير مبنيّ من حجارة مُقَنْطَرة ، ذي كوّة في اعلاه مستقيمة الاضلاع ، عـلى طراز لويس الرابع عشر الوقور ، يحيط بها من جانبيها نقشان مدوران مستويان .

وفوق هذا الباب كانت واجهة كالحة ؛ وعلى خط عمودي مع الواجهة كان جدار يمس الباب أو يكاد ، ويدعمه بزاوية قائمة مقتضبة . وعلى المرج المنبسط امام الباب انطرحت ثلاث مجارف كبيرة مسنّنة انبثقت من خلالها ، على احسن ما استطاعت ، رياحين نوار كلها . كان الباب موصداً . وكان مغلقاً بمصراعين متداعيين للسقوط ، مزدانين بقارعة عتيقة صدئة .

كانت الشمس فاتنة . وكانت الافنان ترتعش ارتعاشة نوار الرفيقة التي تبدو وكأنها ناشئة عن اعشاش الطير لا عن الريح . وكان طائر متأنق ، لعله ان يكون عاشقاً ، يتغنى بيأس في شجرة عالية .

وتمهل المسافر ، وتأمّل الحجر الذي الى يسار الباب ، قرب الارض ، دارساً تجويفاً كبيراً دائرياً يشبه جوف كرة . وفي تلك اللحظة فُتح مصراعا الباب ، وخرجت منه امرأة ريفية .

وبصُرت بالمسافر ، وأدركت أيّ شيء كان يدرس .

وقالت :

— « إن احدى قذائف المدفعية الفرنسية هي التي فعلت ذلك . »

ثم اضافت :

— « وما تراه هناك ، في مكان أعلى ، في الباب ، قرب أحد المسامير ، هو ثقب احدثته بندقية ضخمة من ذلك النوع المعروف بالبنادق البشكنسية .* إن البندقية لم تستطع ان تخرق الخشب . »

فقال المسافر :

— « وما اسم هذا المكان ؟ »

فقالت الفلاحة :

— « هوغومون . »

ورفع المسافر رأسه . وخطا بضع خطوات ، وأنشأ ينظر من فوق الأسيجة .

---

* نسبة الى مقاطعة « البشكنس » أو « الباسك » في أسبانية .

لقد رأى عند الأفق ، من خلال الاشجار ، شبه أكمة ، ورأى فوق هذه الأكمة شيئاً بدا ، من بعيد ، وكأنه أسد .

كان في ساحة القتال بواترلو .

٢
هوغومون

هوغومون – كانت تلك هي البقعة المشؤومة ، وبدء المقاومة ، وأول عائق لقيه في واترلو حطّاب أوروبة العظيم ذاك ، الذي ندعوه نابوليون . أول عقدة تعترض سبيل الفأس .

كانت حصناً ، أما اليوم فلم تعد اكثر من مزرعة . وكانت هوغومون Hougomont تعرف عند جامعي النفائس الاثرية والمتاجرين بها بـ « هيغومون » Hugomons . وكان قد شيد هذا المعقل الاقطاعيّ هوغو ، سيد سوميريل ، وهو نفسه الذي وقف الاوقاف لوظيفة القسّ السادسة في دير « فيلير » .

ودفع المسافر الباب ، ودفر بمرفقه عربة عتيقة كانت تحت مدخل مسقوف ، وتقدّم الى الفناء .

كان أول ما لفت نظره في هذه الساحة باب يرقى الى القرن السادس عشر ، بدا وكأنه قنطرة بعد ان تساقط كل شيء من حوله . إن المشهد الأثري لينشأ في كثير من الاحيان عن الخراب . وقرب القنطرة انفتح باب آخر في الجدار ذو أغلاق * من عهد هنري الرابع يكشف عن اشجار في بستان . والى جانب هذا الباب كانت مزبلة ، ومعاول ، ومجارف ، وبضع عربات من ذوات الدولابين ، وبئر قديمة ببلاطتها وبكرتها الحديدية ، ومُهرٌ يثب ، وديك رومي ينشر ريش زِمكّته ،

* جمع غلق ، وهو الحجر الذي تغلق به فجوة رأس القنطرة .

ومعبد يعلوه برج أجراس صغير ، وشجرة إجاص منوّرة معرّشة على جدار المعبد . ذلك هو الفناء الذي كان احتلاله حُلمَ نابوليون . ولو قد وفق الى الاستيلاء على تلك الزاوية من الارض اذن لكان من الجائز ان تهبه الدنيا كلها . إن ثمة دجاجات تنثر التراب بمناقيرها . وإنك لتسمع زمجرة . ذلك كلب كبير يكشر عن أسنانه ، ويحل محلّ الانكليز .

لقد أبلى الأنكليز بلاء حسناً هناك . إن سرايا الحرس الاربع التي قادها كوك احتفظت بمواقعها سبع ساعات في وجه جيش شنّ عليها هجوماً ضارياً .

وهوغومون ، حين تُرى على مخطّط هندسي ينتظم الابنية والاراضي المسوّرة ، عبارة عن مستطيل غير متّسق بُترت احدى زواياه. في تلك الزاوية يقوم الباب الجنوبي ، يحميه هذا السور الذي يهيمن عليها في مدى البندقية الأقصر . إن لهوغومون بابين : الباب الجنوبي ، وهو باب الحصن ، والباب الشمالي وهو باب المزرعة . ولقد وجّه نابوليون اخاه جيروم لاحتلال هوغومون . لقد سُيّرت عليه فِرقَ « غوييمينو » * و « فوا » ** و « باشلو » *** ولقد جُرّدت الكثرة الكبيرة من قوات « راي » **** ضده ، فهزمت عنده . واستُنفدت قنابل كيلرمان ***** على جزء السور البطوليّ ذاك . وكان قهر هوغومون

---

* Guilleminot جنرال وسياسي فرنسي . (١٧٧٤ – ١٨٤٠)

** Foy جنرال فرنسي (١٧٧٥ – ١٨٢٥) غطى انسحاب الجيش من اسبانية ، وشارك في معركة واترلو وجرح فيها .

*** Bachelu قائد فرنسي من قواد نابوليون الذين شاركوا في هذه المعركة ايضاً .

**** Reille مارشال فرنسة (١٧٧٥ – ١٨٦٠) ابلى بلاء حسناً في واترلو اكسبه مجداً عظيماً .

***** Francois - Etienne Kellermann قائد فرسان فرنسي (١٧٧٠ – ١٨٢٥) توشح بالمجد في معركة مارانغو ثم في معركتي لوتزن وواترلو .

من الشمال اكثر مما يطيقه لواء « بودوين » ؛ ولم توفق فرقة « سوا » الى غير تهديمها من الجنوب . لقد عجزت عن الاستيلاء عليها .

وانما تقوم ابنية المزرعة على الجانب الجنوبي من الفناء . ان جزءاً صغيراً من الباب الشمالي الجنوبي ، وقد حطمه الفرنسيون ، ليتدلى متأرجحاً من السور . انه مؤلف من اربعة الواح خشبية مسمّرة على عارضتين ، حيث يستطيع المرء ان يتبين ندوب * الهجوم .

والباب الشمالي ، الذي استولى عليه الفرنسيون ، والذي اضيفت اليه قطعة جديدة تعويضاً عن المصراع المتدلي من السور ينهض نصف منفتح عند ادنى الفناء . لقد ُفصّل على شكل مربع في جدار اسفله حجري وأعلاه آجريّ ، يحيط بالفناء من ناحية الشمال . إنه جداو كارّيّ ** بسيط ، كذلك الذي نجده في جميع المزارع الصغيرة ، يتألف من مصراعين ضخمين مصنوعين من الواح غلاظ . ووراء ذلك تنبسط المروج . لقد كان النزاع على هذا المدخل ضارياً . وطوال فترة غير قصيرة كان في إمكان المرء ان يرى ، على قائمة الباب ، بصمات الايدي الدامية على اختلافها . فهناك كان بودوين قد ُصرع .

إن عاصفة الصراع لا تزال في هذا الفناء ؛ وان الهول لا يزال مشهوداً هناك . إن الدمار الناشيء عن القتال لمتحجّرٌ في تلك البقعة . هذا يحيا ، وهذا يموت ؛ لكأن ذلك كان بالامس . إن الجدران لتُحتَضَر ، وإن الحجارة لتتساقط ، وإن الثُّلم لتصيح . ان الحُفر ِجراحات . وان الاشجار ، وقد انحنت وارتعشت ، تبدو وكأنها تَبذل جهدها لكي تفر .

هذا الفناء كان ، في عام ١٨١٥ ، في حالٍ خيرٍ من حاله اليوم .

* الندبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجمعها ندَب . وجمع الجمع ندوب .

** نسبة الى الكارّة وهي عربة الوسق ذات الدولابين ، او ذات الاربعة دواليب .

كانت الابنية التي دُكّت منذ ذلك الحين تشكلّ استحكامات ، وزوايا ، وزوايا مثلثة .

كان الانكليز متحصّنين هناك خلف المتاريس ؛ ووفق الفرنسيون الى اختراق هذه المتاريس ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقعهم الجديد . والى جانب المعبد ، ينهض جناح من الحصن - الاثر الوحيد الباقي من قصر هوغومون الاقطاعي - على نحوٍ منقضّ ، بل ان المرء ليستطيع القول انه ينهض مبقوراً مجرداً من احشائه . لقد اتُّخِذ من الحصن برجاً مركزياً للمقاومة ، واتخذ من المعبد معقلاً خشبياً ذا منافذ لاطلاق النار من البنادق . لقد عمل القوم على ان يُفني بعضهم بعضاً . لقد صُرع الفرنسيون بنيران البنادق تنصبّ عليهم من كل ناحية ، من وراء الاسوار ، من سطوح اهراء الحنطة ، من أغوار الأقبية ، من خلال كل نافذة ، من خلال كل منفذ من منافذ الهواء ، من خلال كل فرجة بين الحجارة ، فحملوا حزم الحطب واحرقوا الاسوار والرجال : لقد اجابوا على نيران البنادق والمدافع بنيران الحريق .

وفي وسع المرء ان يلمح في الجناح الخرب ، من خلال النوافذ المقضّبة بالحديد ، الغرفَ المهدّمة من بناء رئيسي مشيد بالآجر ؛ وكان الحرس الانكليزي يكمن للفرنسيين في هذه الغرف . إن السلّم اللولبية المصدوعة من الاساس الى السطح لتبدو مثل داخل صَدَفةٍ مكسورة . ولتلك السلم منبسَطان . وكان الانكليز ، وقد حوصروا في السلم ، واحتشدوا فوق درجاتها العليا ، قد ازالوا الدرجات الدنيا . وكانت هذه صفائحَ عراضاً من حجر ازرق تُرى الآن ،ركومةً بين القُرّاص . إن اثنتي عشرة درجة لا تزال عالقة بالسور ، ولقد نُقشت على أولاها صورة خُطّاف ثلاثي الشُّعَب . وهذه الدرجات التي لا سبيل الى بلوغها مكينةٌ في مغارزها ؛ وكل ما بقي يشبه فكاً أدْرَد . * ان ثمة

* الأدرد : من ذهبت اسنانه كلها .

شجرتين هرمتين ؛ احداهما ميتة ، والاخرى جريحـــة الساق ولا تورق الا في نيسان . ومنذ سنة ١٨٥٠ شرعت تنمو عبر السلـّم .

ووقعت مذبحة في المعبد . إن الجزء الداخلي ، وقد استعاد سكينته ، لغريب حقاً . فلم يُحتفل فيه بقداس منذ تلك المجزرة . ومع ذلك فلا يزال المذبح قائماً — إنه مذبح من خشب غليظ مُسند الى جدار من حجر لم تعالجه يد الصناعة . اربعة جدران مبيّضة بمـــاء الكلس ؛ باب مواجهٌ للمذبح ؛ نافذتان صغيرتان مقنطرتان ؛ وعلى الباب تمثال للمصلوب خشبيّ ضخم ، وفوق تمثال المصلوب فتحة مربعة سدّت بحزمة من التبن ؛ وعلى الارض في احدى الزوايا إطار نافذة مزجج قد تكسّر كلـــه : كذلك هي هذه الكنيسة . وقرب المذبح عُلـّق تمثال خشبيّ للقديسة آنّ يرجع عهده الى القرن الخامس عشر . اما رأس يسوع الطفل فكانت قد اطاحت به طلقة بندقية . لقد هيمن الفرنسيون ، لحظةً ، على المعبد ثم أخرجوا منه ، فأضرموا النار فيه . وملأت ألسنة اللهب هذه الخربة المتداعية فأمست اتوناً . لقد اشتعل باب المعبد ، واشتعلت ارضيته ، ولكن المسيح الخشبيّ لم يشتعل . لقد التهمت النار قدميه اللتين لا نرى منهما بعدُ غير بقية مسودّة ، ثم وقفت عند هذا الحـــد . معجزة — كذلك يقول اهل المنطقة . أما يسوع الطفل ، الذي اقتُطِع رأسه ، فلم يُحالفه الحظ بقدر ما حالف المسيح .

إن الجدران مغطاة بالنقوش . فأمام قدمي المسيح نقرأ هذا الاسم : **هينكينيز** *Henquinez* . ثم نقرأ هذه الاسماء : **الكونت دو ريو مايور . الموركيز والموركيزة دو آلماغرو (هابانا)** *Conde de Rio Maïor . Marques y Marquesa de Almagro (Habana)* وهناك اسماء فرنسية ملحقة بعلامات تعجّب ، إشارة الغضب . لقد بُيّض الجدار بماء الكلس عام ١٨٤٩ . كانت الامم تهين بعضها بعضاً على صفحته .

وعند باب هذا المعبد بالذات التُقطت جثة ممسكةٌ بيدهـــا فأساً .

كانت هي جثة الملازم الثاني ليغروس .

وحين يغادر المرء المعبد يرى الى يساره بئراً . إن في هـــذا الفناء بئرين . وقد تتساءل : لمَ لا يوجد دلو وبكرة لهذه البئر ؟ لأن احداً ما عاد يستقي الماء منها الان . ولكن لمَ لا يستقون الماء منها ؟ لأنها ملأى بالهياكل العظمية .

أما آخر من متح الماء من هذه البئر فكان غيليوم فـان كيلسوم . كان ريفياً يعيش في هوغومون ، وكان بستانياً هناك . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، فرّت أسرته ، واختبأت في الغابات .

وآوت الغابةُ المحيطة بدير « فيلير » هذه الاسرة البائسة المشتتة عدةَ أيام وعدةَ ليالٍ . وحتى اليـوم يستطيع المرء ان يتبيّن بعض الآثار ، من مثل جذوع الاشجار الهرمة المحترقة ، التي تعـــيّن مستقرّ هؤلاء المشردين البائسين ، المرتعدي الاوصال ، في أعماق الأجمة .

وظل غيليوم فان كيلـوم في هوغومون « لكي يحرس الحصن » ، واختبأ في أحد الاقبية . وعثر عليه الانكليز هناك . فانتزعوه من مخبأه . وبوابل من الضربات سدّدت اليه بعرض السيف اكره الجندُ هذا الرجل المروّع على ان يخدمهم . كانوا عطاشاً ، فجاءهم غيليوم هذا بالمـــاء . وإنما استقى الماء لهم من هذه البئر . وشرب كثير منهم آخر جرعاتهم . وكان لا بدّ لهذه البئر ، حيث شربت جمهرة من القتلى ، مـن ان تموت هي ايضاً .

وبعد انتهاء المعركة قضت الحاجة بالتعجيل في دفن الجثث . إن للموت أسلوبه في تنغيص النصر على المنتصرين ، فهو يُتبع المجد بالطاعون . والتيفوس ملحق من ملحقات النصر . وهذه البئر كانت عميقة ، فجعلها القوم قبراً . لقد أُلقي فيها ثلاثمئة قتيل . ولعل ذلك كان بأكثر مما ينبغي من السرعة . هل كانوا كلهم امواتـاً ؟ الاسطورة تقول لا . والذي يبدو انه في الليلة التي تلت دفنهم سُمعت اصوات واهنة تنطلق من البئر

مستفيئة .

والبئر معزولة في وسط الفِناء . وانما تحيط بها من جهات ثـلاث جدران ثلاثة شُيّد نصف كل منها من حجر ونصفه الآخر من آجرّ ، وتثنّت مثل حجاب واقٍ من الهواء (بارافان) ، مشبهةً برجاً صغيراً مربّعاً . اما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة . ومن تلك الجهة كان الناس يمتحون الماء . والجدار الخلفي شبه كوّة لا شكل لها ، ولعلها ثقب ناشيء عن احدى القذائف . ولهذا البُرَيج سقف لم يبق منه غير العوارض الخشبية الضخمة . والحديد الذي يدعم الجدار الايمن على شكل صليب . وتنحني فوق البئر ، فتصِلُ العين في بناء اسطوانيّ آجريّ عميق تملأه اكوام من الظلمات . وحول البئر كلها تختفي الاجزاء الدنيا من الجدران خلف القُرّاص .

وليس يوجـد أمام هذه البئر تلك الصفيحة العريضة مـن الحجر الازرق الـتي تُصطَنَع كحاجز واقٍ في جميع آبـار بلجيكة . لقد استعيض عن الحجر الازرق بعارضة تستند اليها خمس قطع او ست قطع خشبية مشوّهة ، كثيرة العقد متصلبة ، تشبه عظاماً ضخمة . لم يبق ثمّة لا دلو ، ولا سلسلة ، ولا بكرة . ولكن الحوض الحجري الخاص بالمياه الفائضة لا يزال هناك . إن ماء المطر ليجتمع في هـذا الحوض ، وبين الفينة والفينة يفدُ اليه من الغابة المجاورة طائرٌ مـا ، فيشرب ، ويتخذ سبيله في الجو .

ان بيتاً واحداً بين هذه الخرائب ، هو بيت صاحب المزرعة ، لا يزال آهلاً بالسكان . وباب هذا البيت ينفتح على الفناء . والى جـانب صفيحة جميلة قوطية خاصةٍ بموضع المفتاح من القفل كانت فوق هذا الباب حفنة من حديد مائلة الى امام قُصد بها الى ان تكون حليةً على شكل ورق البرسيم . وفي اللحظة التي امسك فيها الملازم الهانوفري « ويلدا » بهذه الحفنة ليجد ملجأ في المزرعة قطع يده جندي فرنسي بضربة فأس .

وكان البستاني السابق ، فان كيلوم ، الذي توفي منذ عهد طويل ، جدّ الاسرة التي تحتل هـذا البيت . إن امرأة ذات شعر اشيب تقول لك : « لقد كنتُ هناك . كان عمري ثلاث سنوات . لقد خافت اختي؛ وهي اكبر مني سناً ، وصرخت . وانتقلوا بنا الى الغابات . لقد كنت بين ذراعي امي . لقد الصقوا آذانهم بالارض لكي يصغوا . اما انا ، فقلدت المدفع ورحت اقول : « **بووم ! بووم !** » .

إن احد ابواب الفنـاء ، ذاك الذي يقوم الى اليسار ، ينفتح كما ذكرنا من قبلُ على البستان .

والبستان فظيع . إنه ذو اقسام ثلاثة ، بل ان استطاعة المرء ان يقول إنه ذو فصول ثلاثة . فالقسم الاول حديقة ، والقسم الثاني هو البستان ، والقسم الثالث غابة . ولهذه الاقسام الثلاثة سور مشترك ؛ فالى جانب المدخل تقوم ابنية الحصن والمزرعة ، والى اليسار سياج ، والى اليمين جدار ، والى الوراء جدار ، والجدار الايمن آجريّ ، اما الجدار الخلفيّ فحجريّ . وانما يدخل المرء الى الحديقة اولاً . انها منحدرة ، نمت فيها شجرات عنب الذئب ؛ وغطّتها النباتات البرية ، وتنتهي بسطيحة فخمة من حجر منحوت ، اعمدة درابزونها مزدوجة الثخانة . كانت حديقة جديرة بسيّد عظيم ، نُسّقت على الطراز الفرنسي الاول الذي سبق طراز عصرنا ، ولكنها اليوم خراب وعوسج . ان ركائزها المربعة والمستطيلة تعلوها كُرَات تبدو وكأنها قذائف مدفعية حجرية . وفي امكاننا ان نحصي ثلاثة واربعين عموداً من اعمدة الدرابزون لا تزال في مواضعها . اما سائرها فمنطرح على العشب . وهي كلها تقريباً تتكشف عن خدوشٍ من اثر نيران البنادق . إن عمود الدرابزون المحطم ليظل منتصباً مثل رجل مكسورة .

وفي هذه الحديقة التي هي اشد انخفاضاً من البستان اضطرّ ستة من رجال فرقة المشاة الفرنسية الخفيفة الاولى كانوا قد دخلوا الى هناك

وتعذر عليهم الفرار بعد ان وقعوا في الشرك كما تقع الدبة في وَجْرتها – اضطر هؤلاء الرجال الستة الى ان يخوضوا المعركة ضد سريتين هانوفريتين * كانت احداهما مسلحة بالكاربينات ** واصطف الهانوفريون على طول اعمدة الدرابزون هذه ، وانشأوا يطلقون النار من أعلى . واجابهم المشاة الفرنسيون من ادنى ، وكانوا ستة مقابل مئتين ، وكانوا باسلين لا يقيهم غير شجرات عنب الذئب ، فاحتاجوا الى ربع ساعة لكي يموتوا .

وتُصعِّد بضع خطوات ، ومن الحديقة تنتقل الى البستان الحقيقيّ . هناكِ ، في هذه الامتار القليلة المربعة ، صُرع الف وخمسمئة رجل في اقلّ من ساعة . ان الجدار ليبدو مستعداً لاستئناف القتال . وإنّ المرامي *** الثانية والثلاثين التي فتحها الانكليز على مرتفعات متفاوتة من من ذلك الجدار لا تزال هناك . والى جانب المرمى السادس عشر يقوم قبران انكليزيان من الصوان . وليس ثمة من مرامٍ إلا في الجدار الجنوبي ؛ لقد جاء الهجوم الرئيسي من هناك . وهذا الجدار محجوب من الخارج بسياج كبير من الاشجار الشائكة . ووصل الفرنسيون ، معتقدين انهم لن يجدوا في طريقهم غير السياج . فعبروه ، فوجدوا هذا الجدار يعترضهم ، فهو عقبة وهو كمين ، ووجدوا الحرس الانكليزي خلفه ، واذا بالمرامي الثانية والثلاثين تصبّ عليهم نارها دفعة واحدة – عاصفة من القنابل والرصاص . وتحطمت فرقة « سوا » هناك . لقد بدأت واترلو على هذا النحو .

ومع ذلك فقد تمّ الاستيلاء على البستان . ولم يكن عند الفرنسيين

---

* نسبة الى هانوفر بالمانية . وكانت في ذلك العهد مملكة مستقلة ، ثم غدت مقاطعة بروسية بعد الحرب النمسوية البروسية (سنة ١٨٦٦) .

** الكاربين carbine ضرب من البنادق القصيرة الخفيفة .

*** جمع مرمى ، ويقصد به هنا تلك الكوة التي تُفتح في جدار الحصن لكي تُطلق منها القذائف .

سلالم للتسوّر ، فتسلقوا الجدار بأظافرهم . لقد حاربوا ، متلاصقي الاجساد ، تحت الاشجار . ولقد ُنقع هذا العشب كله بالدماء . وهناك ُمحِق فوج من افواج ناسّو * ، ِعدّته سبعمئة رجل محقاً خاطفاً . وفي الخارج ، ُثلم السور الذي ُسدّدَت ضده وحدتا كيلرمان المدفعيتان ، من أثر القذائف .

وهذا البستان سريع الاستجابة ، شأن غيره من البساتين ، لشهر نوار . ان له براعمه الذهبية واقاحيه الصغيرة . إن العشب هناك عالٍ ؛ وخيل المحراث َترعى . وان حبال السَّبِيب ** التي تجف عليها الملابس الداخلية لتخترقُ المسافات الفاصلة ما بين الاشجار ، مكرهة المارّة على ان يحنوا رؤوسهم . انك تسير فوق تلك الارض المهملة ، فتسيخ قدمك في أجحار المناجذ *** وفي وسط العشب تلحظ جذع شجرة مقتَلَع الجذور ، منطرحاً على الارض ، ولكنه لا يزال يخضَوْضر . لقد أسند الماجور بلاكمان ظهره الى هذا الجذع وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . وتحت شجرة كبيرة مجاورة سقط الجنرال الالماني ، دوبلا ، وهو من اسرة فرنسية فرّت عند إلغاء براءة نانت **** والى جانبها تماماً تنحني شجرة تفاح هرمة مريضة ُضمّدت بعصابة من التبن والصلصال . وجميع شجرات التفاح تقريباً تتساقط على الارض تحت ثقل

* Nassau دويلة المانية ألحقت ببروسية بعد الحرب النمسوية البروسية عام ١٨٦٦ .

** السبيب من الفرس شعر الذنب والناصية .

*** جمع خلد من غير لفظه ، وهو الفأر الاعمى الذي يعيش تحت الارض وليس له عينان ولا أذنان .

**** Edit de Nantes هي البراءة التي اصدرها الملك هنري الرابع ، عام ١٥٩٨ ومنح فيها البروتستانت حق ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكن الملك لويس الرابع عشر ألغاها سنة ١٦٨٥ ، وقد ادى هذا الالغاء الى هجرة عدد كبير من البروتستانت الى خارج الاراضي الفرنسية .

الشيخوخة . وليس ثمة واحدة لا تتكشف عن اثر من كُرَة مدفع او طلقة بندقية . إن هياكل الاشجار الميتة العظمية لتكثرُ في هذا البستان . وإن الغربان لتطير على الاغصان . ووراء هذا البستان غابة ملأى بالبنفسج .

مصرع بودوين ؛ إصابة « فوا » بجرح ؛ الحريق ؛ المجزرة ؛ المذبحة ؛ جدولٌ يتكون من دم انكليزيّ ، ومن دم ألماني ، ومن دم فرنسي امتزجت في غضب عارم ؛ بئر مليئة بالجثث ؛ تحطيم سرية ناسو وسرية برونزويك ؛ مصرع دوبلا ؛ مصرع بلاكمان ؛ إصابة الحرس الانكليزي بالتشوّه الجسماني ؛ هلاك عشرين فوجاً فرنسياً من أصل اربعين فوجاً من قوات « راي » ؛ ثلاثة آلاف رجل قتلوا بحدّ السيف ، في طلل هوغومون هذا وحده ، وأثخنوا بالجراح ، وذبحوا ، وصرعوا برصاص البنادق ، وأحرقوا بالنيران ... وكل ذلك لكي يستطيع ريفي أن يقول ، اليومَ ، لأحد السياح : « **سيدي ، أعطني ثلاثة فونكات ، اذا أحببت ، أشرح لك مسألة واترلو !** »

٣

١٨ حزيران ، ١٨١٥

فلنرجع الى الوراء ، فذلك حق من حقوق القاصّ ، ولنضع أنفسنا في عام ١٨١٥ ، قبيل تلك الحقبة التي استُهلّت بها القصة التي رويناها في القسم الاول من هذا الكتاب .

لو ان المطر لم يهطل ليل ١٧ — ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ إذن لكان مستقبل اوروبة قد تغير . إن بضع قطرات من الماء اكثر أو أقل جنحت بنابوليون الى السقوط . فلكيْ تكون واترلو خاتمة اوسترليتز لم تكن العناية الالهية في حاجة الى غير قليل من المطر ، فاذا بسحابة

تجتاز السماء في غير أوانها تكفي لانهيار عالم .

إن معركة واترلو – وهذا ما أعطى بلوخر * فرصة الوصول – لم يكن في الامكان أن تستهلّ قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . لماذا ؟ لان الارض كانت ندية دمثة . وكان من الضروريّ انتظارها حتى تثبُتَ بعض الشيء لكي تستطيع المدفعية ان تعمل .

كان نابوليون ضابط مدفعية ، وهو لم ينس ذلك قط . وانما كان أساس هذا القائد القدير المعجز هو ذلك الرجل الذي قال في التقرير الذي رفعه الى حكومة الادارة حول ابي قير ** : « **هذه الكرة من كرات مدافعنا قتلت ستة رجال .** » كانت كل خططه الحربية موضوعة للقذائف . وكان تركيز المدفعية على نقطة ما ، هو مفتاح النصر عنده . كان يعامل استراتيجية القائد العدوّ معاملته لقلعة تشرف على مدينة ، فهو يهاجمها بالمدافع . كان يُمطر النقطة الضعيفة بالقنابل ، وكان يُحكم عقدة المعركة ويحلها بالمدافع . كان ثمة حسن رماية في عبقريته . إن تحطيم القوات المجتمعة في مربّعات ، وسحق الكتائب ، وقطع الخطوط ، وتقتيت الحشود وبعثرتها – كل ذلك كان نابوليون يتوسل الى تحقيقه بان يضرب ، ويضرب ، ويضرب من غير انقطاع ، وكان يعهد في اداء هذا الواجب الى قذيفة المدفع . طريقة رهيبة استطاعت ، وقد أردفت بالعبقرية ، ان تجعل من جبار ملاكمة الحرب هذا ، الكالح الوجه ، رجلاً لا سبيل الى قهره طوال خمسة عشر عاماً .

وفي الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ ، اعتمد على مدفعيته

---

* Blücher جنرال بروسي (١٧٤٢ – ١٨١٩) لمع نجمه خلال حملة فرنسة (١٨١٤) . هزمه نابوليون في لينيي (١٨١٥) ولكنه وفق الى ان ينجد ولينغتون في واترلو وبذلك رجّح كفته في المعركة ، وكان ميزانها حتى ذلك الحين متأرجحاً بين نابوليون وولينغتون .

** المعركة التي انتصر فيها نابوليون على المماليك عام (١٧٩٩) اثناء الحملة الفرنسية على مصر .

اكثر واكثر لأنه كان يتمتع بالتفوق العددي من هذه الناحية . كان ولينغتون لا يملك غير مئة وتسعة وخمسين مدفعاً ؛ اما نابوليون فكان يملك مئتين واربعين .

ولو قد كانت الارض جافة ، ولو قد تمكنت المدفعية من ان تتحرك ، اذن لكان في إمكان القتال ان يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ، واذن لكانت المعركة قد كُسبت واختُتمت في الساعة الثانية ، قبل ساعتين من ترجيح البروسيين كفةَ الميزان .

الى ايّ مدى تقع مسؤولية الانهزام في هذه المعركة على عاتق نابوليون ؟ أينبغي أن يُعزى غرق السفينة الى الربان ؟

هل كان انحطاط نابوليون الماديّ الواضح مصحوباً آنذاك بانحطاط ذهني ما ؟ هل استطاعت العشرون السنة التي قضاها في ميدان القتال ان تُبلي النصل كما أبلت الغمد ، وتوهن الروح كما أوهنت الجسد ؟ هل أحسّ القائد البارع بطيف الجندي المسرّح يُطلع رأسه في ذات نفسه على نحو مفضَب ؟ وبكلمة ، هل كانت تلك العبقرية ، كما اعتقد كثير من المؤرخين ، ترزح تحت وطأة الخسوف ؟ هل أخذ باسباب الغيظ لكي يخفي ضعفَهُ عن نفسه ؟ هل بدأ يترنح ، ذاهلاً ، في وجه عاصفة مفاجئة ؟ هل أمسى غافلاً — وهو خطأ جسيم يرتكبه جنرال — عن الخطر الذي يتهدده ؟ وفي هذه الطبقة من عظماء الرجال أولي الشأن الذين نستطيع ان ندعوهم عمالقة القتال ، هل ثمة سنّ تصاب العبقرية فيها بقصر البصر ؟ إن الشيخوخة لا سلطان لها على عباقرة المثل الأعلى . فلأن يتقدم المرء في السنّ يعني ، بالنسبة الى أضراب دانتي وميكال آنجلو ، أن يزداد عظمةً . فهل يعني تقدُّم المرء في السنّ ، بالنسبة الى أضراب هنيبعل ونابوليون ، ان يتخلف في ميدان العظمة ؟ أكان نابوليون قد فقدَ حسّ النصر المباشرَ ؟ هل قد أمسى عاجزاً عن ان يتبيّن التهلكة منذ اليوم ، وعن ان يتكهّن بموقع الشَرَك منذ اليوم ، وعن ان

يرى شفا الهاوية المنهار ؟ أكان قد َفقَدَ القدرة على استرواح الكوارث ؟ أكان نابوليون — وهو الذي عرف في ما مضى جميع مسالك النصر ، والذي كان يوميء اليهـــا ، من أعلى عربته المومضة ، بأصبع ذات سلطان — قد أصيب بذهول كالح حمله على ان يسوق ركب كتائبه الصاخب الى الهاوية ؟ هل استبدّ به ، في السادسة والاربعين ، خبلٌ رفيع ؟ أكان سائقُ القَدَرِ الجبارُ هذا قد أمسى مجرد متهوّر هائل ؟ لسنا نظن ذلك .

لقد كانت الخطة التي رسمها للمعركة ، باعتراف الجميـع ، رائعة من الروائع . أن يزحف مباشرةً الى قلب الخط الحليف ، ويخرق العدوّ ، ويشطره شطرين ، فيدفع الشطر البريطاني الى « هال » * ، ويدفع الشطر البروسي الى « تونغر » * ، ويجعل ولينغتون وبلوخر شقـين ، وينتزع « مون سان جان » ، ويستولي على بروكسل ، ويلقي بالألمـــاني في الراين ، ويقذف بالانكليزي الى البحر . كل ذلك كان ، عند نابوليون ، منطوياً في هذه المعركة . اما ما ينشأ عن هذا ففي ميسور كل امرىء أن يراه .

وليس من ريب في انا لا نعتزم أن نقدّم ، هنا ، تاريخ واترلو . إن المشاهد التي أدت الى نشوء المأساة التي نرويها تتصلُ بهـذه المعركة ، ولكن هذا التأريخ للمعركة ليس موضوعنا . والى هذا فقد رُوي ذلك التاريخ ، وعلى نحو أستاذيّ بارع . رواه نابوليون ممثلًا وجهـة نظر ، وروته جمهرة من المؤرخين * ممثلةً وجهة نظر اخرى . اما نحن فسنترك المؤرخين يتنازعون . نحن لسنا غير شاهد من بعيد ؛ غير عابر يتخذ سبيله في السهل ؛ غير طالب منحنٍ فوق هذه الارض المعجونة باللحم البشري ،

---

* « هال » و « تونغر » من اعمال بلجيكة .

* م والتر سكوت ، لامارتين ، فولابيل ، شارا ، كينيه ، تيير [هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي .]

ولعلنا ان نخدع عن نفسنا فنحسب المظاهر حقائق . وليس من حقنا ان أن نقاوم ، باسم العلم ، مجموعة من الحقائق لا ريب في ان فيها شيئاً من الوهم . وليس عندنا لا الخبرة العسكرية ولا المقدرة الستراتيجية التي تجيز لنا ان نفترض مذهباً متنسق الاجزاء . والذي نراه ان سلسلة من المصادفات هيمنت في واترلو على قائدي الجيشين . وحين يكون الكلام على القَدَر ، هذا المتهَم الخفيّ ، نحكم مثل الشعب ، ذلك القاضي الساذج .

٤

A

ليس على اولئك الذين يرغبون في ان يتصوروا ، بوضوح ، معركة واترلو إلا ان يطرحوا على الارض ، في اذهانهم ، حرف A مرسوماً بصورته الكبرى * فالقائمة اليسرى من الـ A هي الطريق من نيفيلّ ، والقائمة اليمنى هي الطريق من جينابّ ، والقاطعة الموصلة ما بين قائمتي الـ A هي الطريق الغائرة من اوهين الى برين لالو . وقمة الـ A هي « مون سان جان » ؛ إن ولينغتون هناك . والنقطة السفلى من الذراع اليسرى هي هوغومون ؛ إن « راي » هناك مع جيروم نابوليون . اما النقطة السفلى من الذراع اليمنى فهي « لا بيلّ آليانس » ؛ ان نابوليون هناك . وتحت النقطة التي تلتقي فيها قاطعة الـ A بالقائمة اليمنى وتخترقها – تحت هذه النقطة بقليل تقع « لا هاي سانت » . في حين ان منتصف هذه القاطعة هو على وجه الضبط ، النقطة التي قيلت فيها كلمة المعركة الاخيرة . وهناك وُضع الأسد ، الرمز اللاإراديّ لبطولة الحرس الامبراطوري السامية .

---

* اي majuscule كما يعبر الفرنسيون .

والمثلث الذي تشتمل عليه قمة الـ A ، بين القائمتين والقاطعة ، هو نَجْدُ « مون سان جان » . كان الصراع على هذا النجـد هو كلّ المعركة .

وانتشر جناحا الجيشين الى يمين الطريقين من جيناب ومن نيفيل والى يسارهما . فاذا بـ « ديرلون » * يواجه « بيكتون » ** ، واذا بـ « راي » يواجه « هيل » ** .

وخلف رأس الـ A ، خلف نَجْدِ « مون سان جان » ، تقع غابة سوانيّ .

أما فيما يتصل بالسهل نفسه فينبغي ان نتخيل رقعة من الارض واسعةً متموجة وكل ثِنْيٍ يشرف على الثني الذي يليه ، وجميع هذه التموجات تصعّد نحو « مون سان جان » ، وتنتهي ثمّةَ الى الغابة .

والجيشان العدوّان في ساحة القتال اشبه ما يكونان بمصارعين . إن اذرعهما موثقة . وان احدهما ليحاول ان يطرح الآخر ارضاً . إنهما يتشبثان بكل شيء . فالدّغل نقطة ارتكاز ، وزاوية الجدار متراس ؛ لأن الموقع السيء التحصين اذا استندت اليه كتيبةٌ ما ، زلّت بها القدم. إن انخفاضاً في السهل ، وحركة من حركات التربة ، وان زقاقاً معترضاً ملائماً ، وإن غابة من الغابات ، وشِعْباً من الشعاب قد تُثبّت عقِب هذا العملاق الذي ندعوه جيشاً ، وتنجيه من السقوط . ومن يغادر الميدان فذاك هو المهزوم . ومن هنا كان حتماً على القائد المسؤول ان يفحص اصغر باقة من العشب ، وان يُنعم النظر في اكثر النتوءات ضآلة .

وكان كل من القائدين قد درس ، في عنايةٍ ، سهل « مون سان جان » الذي ندعوه اليوم سهل واترلو . وكان ولينغتون ، بحكمة

* Drouet d'Erlon مارشال فرنسة (١٧٦٥ – ١٨٤٤) وقد ابلى بلاء حسناً في معركة واترلو .

** Picton و Hill من القادة الانكليز الذين شاركوا في معركة واترلو .

متبصّرة ، قد درس هذا السهل في السنة المنصرمة ، بوصفه موقعاً يمكن ان تدور فيه رحى معركة عظيمة . وعلى هذه الارض ، ومن اجل هذه المبارزة كان ولينغتون في الجانب الافضل ، وكان نابوليون في الجانب الاسوأ . كان الجيش الانكليزي في الجزء الاعلى من الارض ، وكان الجيش الفرنسي في الجزء الادنى منها .

وانه ليكاد يكون سطحيـــاً ان نرسم هنا رسماً تخطيطيـــاً صورة نابوليون ممتطياً صهوة جواده ، والمنظار في يده ، فوق رابية روسّوم ، فجرَ اليوم الثامن عشر من عام ١٨١٥ . فقبل ان نومىء اليه كان الناس كلهم قد رأوه . إن هذا الوجه الجانبي الهادىء تحت القبعة الصغـــيرة الخاصة بمدرسة بريين * ، وهـــذا الثوب العسكري الاخضر ، وجانب المدالية الابيض الذي يحجب النجوم على صدره ، والمعطف الرمادي الذي يحجب الكتافتين ** ، وزاوية العصابة الحريرية الحمـراء تحت الصدرة ، والبنطلون الجلديّ ، والجواد الابيض بسرجه المخملي الارجـواني المزدانة زواياه بحروف N *** متوجة وبنـور ، وحـذاء الفرسان العالي الساق فوق جورب من حرير ، والمهامزين الفضيين ، وسيف مارانغو **** — إن هذه الصورة الكاملة للقيصر الأخير لتعيشُ في المخيّلات كلها ، يصفق لها نصف العالم ، وينظر اليها نصفه الآخر في عبوس .

لقد ُغمرت هذه الصورة ، دهراً طويـلاً ، بالضياء ، ولقـد ران عليها قتامٌ تقليديّ ُيلمّ بمعظم الابطال ، ويحجب الحقيقة دائمـاً الى حين

* Brienne - le - Château بلدة فرنسية كان فيها ، خلال القرن الثامن عشر ، مدرسة حربية درس فيها نابوليون .

** الكتافة كلمة اصطنعناها لتؤدي معنى épaulette وهي ، هنا ، ما يكـون على كتف الجندي من زينة .

***: هو كما لا يخفى الحرف الاول من اسم نابوليون بالرسم الفرنجي .

**** Marengo قرية ايطالية جرت فيها معركة شهـــيرة انتصر فيها نابوليون على القوات النمسوية (١٤ حزيران ١٨٠٠)

قد يطول وقد يقصر . أما اليوم ، فالتاريخ مشرق وكامل .
إنّ ضوء التاريخ هذا لا يرحم . إن له هذه الخاصة الغريبة الالـهية وهي : أنه مهما يكن مشرقاً ساطعاً ، بل لانه على وجه الدقة مشرق ساطع ، يلقي ظلّاً حيث نرى الشعاع تماماً . إنه يجعل من الرجل الواحد طيفَيْن مختلفين ، فيهاجم احدهما الآخر ويقتصّ منه ، وتتصارع ظلمة الطاغية مع بهاء القائد العسكري . ومن هنا ينشأ مقياس أصحّ لأعطاء الحكم الاخير حول قيمة الشعوب . فبابل المنتَهكة تضعُ من قدْر الاسكندر ؛ وروما المثقلَة بالاغلال تضع من قدْر قيصر ؛ وبيت المقدس الذبيحة تضع من قدر تيطوس . ان الطغيان يتبع الطاغية . ومن تعاسة المرء ان يخلّف وراءه ظلمةً لها شكلهُ هو .

٥
«الشيء المظلم» في المعارك

إن الناس جميعاً يعرفون وجه هذه المعركة الاول ؛ يعرفون البداءة العسيرة ، الغامضة ، المترددة ، المهددة لكل من الجيشين ، وإن يكن تهديدها للانكليز أشدّ من تهديدها للفرنسيين .
كان المطر قد هطل طوال الليل ؛ وكان قد جعل الارض دمثة لينة . كانت المياه مجتمعة ههنا وههناك في تجاويف السهل وكأنها في احواض ؛ وفي بعض المواطن غرقت الدواليب حتى المحاور . وكانت السيور المطوّقة بطون الخيل تقطر وحلاً سائلاً . ولو لا الحنطة والجاودار اللذان نشرتها جمهرة من العربات المنطلقة ، فملأ أثلام الارض وأقاما مهاداً تحت الدواليب ، اذن لكانت كل حركة ، وبخاصة في الاودية الواقعة نحو بابيلوت ، أمراً متعذراً .

وابتدأ القتال في ساعة متأخرة . كان من عادة نابوليون ، كما شرحنا ، أن يمسك بكامل مدفعيته في يده وكأنها مسدس ، مصوباً النيران الى هذه النقطة من المعركة حيناً ، والى تلك النقطة حيناً . وكان قد رغب في الانتظار حتى تتمكن مدفعية الميدان من ان تجري وتعدُوَ في حرية . ولكي يتم ذلك كان يتعين على الشمس ان تبرز وتجفف التربة . ولكن الشمس لم تبرز . إنه الآن في ساحة غير ساحة اوسترليتز . وحين أطلقت النار من المدفع الاول نظر القائد الانكليزي ، كولفيل ، الى ساعته ، ولاحظ انها كانت الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين .

وافتتحت المعركة بهجوم ضارٍ ، ولعله ان يكون اشدّ ضراوة مما كان الامبراطور يودّ ، شنّه الجناح الفرنسي الايسر على هوغومون . وفي الوقت نفسه هاجم نابوليون الوسطَ ملقياً لواء « كيبوت » على « لا هاي سانت » ، وزحف « ني » بالجناح الفرنسي الايمن على الجناح الانكليزي الايسر المستند الى بابيلوت .

وكان في الهجوم على هوغومون شيء من المخادعة . لقد رمى الى استدراج ولينغتون الى هناك وحمله على الانحراف نحو الشمال – تلك كانت الخطة . ولقد كان خليقاً بتلك الخطة ان تنجح لو لم تثبت سرايا الحرس البريطاني الاربع ، والبلجيكيون الشجعان من فرقة « بيربونشية » في مراكزهم ثباتاً عنيداً ، وبذلك وفروا على ولينغتون حشد قواته في تلك النقطة ، ومكنوه من أن يكتفي بمدّهم باربع سرايا اضافية من الحرس وبفوج من افواج برونزويك ليس غير .

أما هجوم الجناح الفرنسيّ الايمن على بابيلوت فكان مقصوداً به ان يسحق الجناح الانكليزي الايسر ، ويقطع طريق بروكسل ، ويصدّ البروسيين عن سبيلهم اذا ما أقبلوا ، ويستولي على « مون سان جان » ، وان يردّ ولينغتون كرة أخرى الى هوغومون ، ومن هناك الى برين لالو ، ومن هناك الى « هال » . لم يكن ثمة ما هو أوضح من ذلك .

وباستثناء بعض الاحداث الثانوية ، تكلل هذا الهجوم بالنجاح . لقد انُتزعت بابيلوت ؛ ولقد احتُلت « لا هاي سانت » .

وهنا مسألة ينبغي ان ننصّ عليها . كان بين المشاة الانكليز ، وبخاصة في فوج كمبت ، عدد كبير من المجندين الجدد . ولقد تكشّف هؤلاء الجنود الفتيان أمام رجّالتنا الرهيبة عن بطولة . ذلك ان قلة تمرّسهم حملتهم على ان يسلكوا في القتال مسلكاً باسلاً . ولقد أدّوا خدمة ممتازة ، على الخصوص ، بوصفهم مناوشين . والجندي حين يكون مناوشاً يُترك وشأنه الى حد ما ، ويصبح اذا جاز التعبير قائدَ نفسه . لقد أظهر هؤلاء المجندون الجدد شيئاً من الابتداع والجدّشان الفرنسيين . لقد تكشّف هؤلاء الرجّالة الاغرار عن حماسة . وأغضب ذلك ولينغتون .

وبعد الاستيلاء على « لا هاي سانت » تأرجحت المعركة .

إن في ذلك اليوم ، من الظهر حتى الساعة الرابعة ، فترةً غامضة . فمنتصف هذه المعركة يكاد يكون غير واضح ، وهو يشارك القتال في إظلامه . كانت الشمس تجنح الى الغروب ، وكان في ميوورك أن تلحظ تقلقلاً واسعاً في هذا الضباب الكثيف ؛ وسراباً باعثاً على الدّوار ، وادوات حربية تكاد تكون غير معروفة اليوم ، و « القلابق » * المتوهجة ، والجيوب الجلدية المنسدلة المتصلة بمناطق السيوف ، والحِمالات المتصالبة ، والصناديق المثقلة بالقذائف ، والملابس العسكرية الخاصة بقوات الفرسان الخفيفة ، والاحذية الحمراء العالية الساق ذوات الألف ثنية ، والقلانس الثقيلة المكللة بالاهداب الحلزونية الشكل ، ورجّالة برونزويك الذين يكادون ان يكونوا سوداً ، ممتزجين برجّالة انكلترة القرمزيين ؛ والجنود الانكليز وعلى اردانهم وسائد دائرية كبيرة بيضاء بدلاً من الكتافات ، والفرسان الهانوفريين بقلانسهم الجلدية المستطيلة ذات العصائب النحاسية والأعراف

---

* جمع قلبق ، وهو لباس الرأس التركي المعروف . وقد وردت الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي colbacks

المصنوعة من السبيب الاحمر ، والاسكتلنديين بركبهم العارية ، واورديتهم ذات المربعات ، وساقيّات * رماة قنابلنا العريضة البيضاء ؛ لوحات فنية ، لا خطوط استراتيجية ، فهي في حاجة الى سلفاتور روزا ** لا الى غريبوفال ***

ان مقداراً ما من العاصفة ليمتزج دائماً بالمعارك الحربية *Quid obscurum* *quid divinum* . **** وكل مؤرخ يرسم الملامح التي تروق له في هذا المرج والمرج . ومهما تكن تدابير القادة العسكريين من اجل الفوز فان لتصادم الحشود المسلحة ردّاتٍ لا سبيل الى احصائها . فعند القتال تتداخل خطتّا القائدين احداهما في الاخرى ، وتتشوّه احداهما بالاخرى . إن هذه النقطة من ميدان القتال تلتهم عدداً من المحاربين اعظم من ذلك الذي تلتهمه تلك النقطة ، كما تتشرب التربة الماء على نحو اسرع او ابطأ تبعاً لطاقتها الاسفنجية . فانت مضطرّ الى ان تصبّ هناك مقداراً من الجنود اكبر مما ترغب فيه . نفقاتٌ لم تكن متوقعة . ان خطّ القتال ليتموج ويتلوى كالخيط ؛ وان سيولاً من الدم لتجري على نحو غير منطقي ؛ وان جبهات الجيوش لتتراوح ؛ وان السرايا الخائضة الميدانَ او المنسحبة منه لتُحدث رؤوساً وخلجاناً ؛ كل هذه المهالك تتذبذب ، واحدة في وجه الاخرى ، على نحو موصول . فحيث كانت الرّجالة تقبل المدفعية ؛ وحيث كانت المدفعية ، تندفع الخيالة ؛ وما الافواج المقاتلة غير دخان . لقد كان شيء ما ، هناك . إبحث عنه ؛ لقد ولّى.

---

* الساقية كلمة وضعناها لما يعرف بـ « الطماق » او لفافة الساق (guétre)

** Salvator Rosa رسام من نابولي ، ونقاش ، وشاعر ، وموسيقي (١٦١٥ – ١٦٧٣) وقد اشتهر برسم المعارك والمواقع الحربية .

*** Gribeauval جنرال مدفعي فرنسي (١٧١٥ – ١٧٨٩) ابتكر طرازاً من المدافع تفوقت بفضله المدفعية الفرنسية على مدفعيات سائر الجيوش الاوروبية في مطلع عهد الثورة .

**** تعبير لاتيني معناه : شيء مظلم ، شيء الّهي .

إن فجوات الغابة لتنتقل من مكان الى مكان ، وان التغضنات القائمة لتتقدم وتتراجع ، وان ضرباً من ريح القبور ليندفع الى امام ، ويرتد الى وراء ، وينفخ ويبدّد هذه الجموع الفاجعة . ما القتال الذي تتلاحم فيه الاجساد ؟ انه ذبذبة . ان الخطة الرياضية الجامدة لتروي قصةَ دقيقةٍ واحدة لا قصة يوم كامل . وتصوير معركة ما ، يحتاج الى اولئك الرسامين الجبابرة الذين تنطوي ريشتهم على هيولى * إن رامبرانت ** خير من فان در مولن *** . ان فان در مولن ، الدقيق عند الظهر ، يكذب في الساعة الثالثة . الهندسة تخدع ؛ والأعصار وحده هو الصادق . وهذا ما يعطي فولار**** الحق في ان يناقض بوليبوس ***** وينبغي أن نضيف أن ثمة دائماً لحظةً معينة تنحطّ فيها المعركة الى ضرب من المبارزة ، وتنزع الى تجزئة نفسها ، وتتوزّع الى تفاصيل تتصل — اذا استعرنا تعبير نابوليون نفسه — « بسيرة الافواج ، اكثر مما تتصل بتاريخ الجيش . » وواضح ان للمؤرخ ، في هذه الحال ، الحقّ في الاختصار . إنه لا يستطيع ان يضع يده على غير خطوط الصراع الرئيسية . ولم يقيّض قط لأيما راوية ، مهما يكن حيّ الضمير ، ان يحدد على نحو مطلق شكلَ هذه السحابة الرهيبة التي ندعوها معركة .

وهذا ، الذي يصحّ في جميع الاصطدامات الكبيرة المسلحة ، ينطبق

* الهيولى (chaos) اختلاط عناصر المادة في اوائل الكون .

** Rembrandt الرسام الهولندي المشهور (١٦٠٦ - ١٦٦٩)

*** Van Der Meulen رسام من الفلاندر (١٦٣٤ — ١٦٩٠) ، رسم المعارك التي وقعت خلال عهد الملك لويس الرابع عشر .

**** Jean - Charles Folard خبير فرنسي في شؤون الحرب (١٦٦٩–١٧٥٢)وله كتاب علق فيه على تاريخ بوليبوس الذي يشير اليه المؤلف ، وهو بعنوان تعليقات على بوليبوس Commentaires sur Polybe .

***** Polybe مؤرخ اغريقي (توفي حوالى سنة ١٢٥ ق.م) ويعتبر كتابه « التاريخ» الذي يقع في اربعين مجلداً من ذخائر التراث القديم الكبرى .

على واترلو بخاصة .

واياً ما كان ، فعند الأصيل ، في لحظة ما ، تحدّدت المعركة .

٦
الساعة الرابعة بعد الظهر

حوالى الساعة الرابعة كان وضع الجيش الانكليزي حرجــاً . كان البرنس اوف اورانج يقود القلب ، وكان « هيل » يقود الجناح الايمن ، وكان « بيكتون » يقـود الجناح الايسر . وصـاح البرنس اوف اورانج ، في يأس وجراءة ، مخاطبــاً القوات الهولندية البلجيكية : « **ناسّو ! برونزويك ! لا تتراجعوا قط !** » كان « هيل » قد ارتدّ ، وقد استبدّ به الاعياء ، متوكئاً على قوات ولينغتون . وكان « بيكتون » قد قضى نحبه . ففي اللحظة التي انتزع فيها الانكليز الراية رقم ١٠٥ من الفرنسيين قتل الفرنسيون الجنرال بيكتون بقذيفة اخترقت رأسـه . وبالنسبة الى ولينغتون كانت للمعركة نقطتا ارتكاز : هوغومون و « لا هاي سانت » . كانت هوغومون لا تزال صامدة ، ولكنها تحترق . وكانت « لا هاي سانت » قد سقطت . ومن الفوج الألماني الذي دافع عنهـا ، لم يبق على قيد الحياة غير اثنين واربعين رجلاً ؛ كان جميـع الضباط ، ما خلا خمسة ، قد قُتلوا أو أسروا . لقد ذُبح ثلاثة آلاف مقاتل في مخزن الحبوب ذاك . وكان رقيبٌ في الحرس الانكليزي ، مصارع انكلترة الاول الذي اشتهر عند رفاقه بالرجل الذي لا يُجْرَح ، قد قُتِل بيَدِ طبّال فرنسي ضئيل الجسم . كان « بيرينغ » قد زُحزح عن موقعه ، وكان « آلتن » قد ضُرب بحدّ السيف .

كانت رايات كثيرة قد فُقدت ، احداها خاصةً بفرقة « آلتن » ،

والاخرى خاصة بفوج « لونبورغ » * وكان يحملها أمـــير من أسرة « دو بون » . ولم يبقَ احدٌ من الاسكتلنديين الرماديين . وكانت خيالة بونسونبي الثقيلة قد مُزّقت إرْباً إرْباً . وإنما انسحب هؤلاء الفرسان الشجعان في وجه رمّاحة « برو » ودابرعي « ترافير » . ومن خيلهم الألف والمئتين لم ينجُ غير ستمئة . ومن ثلاثة عقداء طُرح عقيدان اثنان ارضاً ، فأما هاملتون فكان جريحاً ، وأما « ماتر » فكان صريعاً . وكان بونسونبي قد سقط ، بعد ان مزقته سبع طعنات من احد الرماح . كان « غوردون » ميتاً ، وكان « مارش » ميتاً . لقد حُطّمت فرقتان اثنتان ، هما الفرقة الخامسة ، والفرقة السادسة .

واذ استسلمت هوغومون ، وانتُزعت « لا هاي سانت » لم يبق ثمة غير عقدة واحدة ، القلب . كانت هذه العقدة لا تزال صامدة ، وكان ولينغتون يدعمها بالامداد . لقد استدعى « هيل » الى هناك ، وكان في « ميرب براين » ، واستدعى « شاسيه » وكان في « برين لالو » .

كان قلب الجيش الانكليزي ، المقعّر بعض الشيء ، الكثيف جداً ، المحُكم جداً ، يحتلّ موقعاً منيعاً . لقد احتل نَجْدَ « مون سان جان » وقد قامت القرية وراءه ، وقام المنحدر أمامه ، وكان شديد التحدر آنذاك . وفي المؤخرة ، كان يتكىء على هذا البيت الحجري الحصين ، الذي كان وقتئذ من ممتلكات الدولة في نيفيلّ والذي كان يميز ملتقى الطرق : بناء يرقى الى القرن السادس عشر ، وطيد الى درجة جعلت قذائف المدافع تنبو عنه من غير ان تصيبه بأذى . وحوالى النجد كله كان الانكليز قد شذبوا الأسيجة ههنا وههناك ، جاعلين فُرَجاً بين الزعرور ، مقحمين فم مدفع بين غصنين ، محدثين في الادغال كوىً يتمترسون خلفها . كانت مدفعيتهم في المكمن الواقع تحت الأجمة . وكان هذا العمل الغادر المباح ، من غير شك ، في الحرب التي تجيز

* Lunebourg مدينة بروسية في هانوفر .

َنصْب الأشراك ، متقناً الى درجـــة جعلت هاكسو * الذي وجّهه الامبراطور في الساعة التاسعة صباحاً لكي يستكشف مدفعية العدو لا يرى منها شيئاً ، فانقلب الى نابوليون ليقول له إنـــه لم يكن ثمة عائق غير المتراسين اللذين يعترضان طريقي « نيفيل » و « جيناب » . وانما جرى ذلك في الايام التي تبلغ فيها سنابل القمح ارتفاعاً حسناً . فعنـد حافة النجد جثم فوج من لواء « كمبت » ، هو الفوج الخامس والتسعون المسلّح بالكاربينات ، وسط القمح العالي .

واذ تمتّع قلبُ الجيش الانكليزي الهولندي بهذه الحماية وهـذا السناد فقد كان في موقع منيـع .

وكان الخطر على هذا الموقع يتمثّل في غابة سوانْيٌ التي كانت ملاصقة آنذاك لساحة القتال ، والتي كان يشطرها مستنقعا غرونندال وبواتسفور . فلم يكن في وسع الجيش ان يتراجع هناك من غير ان ينشتت شمــله ويُمنى بالهزيمة . كانت الكتائب جديرة بأن تتفسّخ في الحال ، وكانت المدفعية خليقة بأن تضيـع في المستنقعات . كان التراجع ، في رأي كثير من أهل الصناعة الحربية - يخالفهم في ذلك آخرون ، من غير شك - يعني الهزيمة التي لا تبقي ولا تذر .

وأمدّ ولينغتون هذا القلب بلواء من ألوية « شاسيه » جيء به من الجناح الايمن ، وآخر من ألوية « وينك » جيء به من الجناح الايسر بالاضافة الى فصيل كلينتون . ودعّم قواتـه الانكلـــيزية ، وسرايا « هالكيت » ، ولواء « ميتشيل » ، وحرس « مايتلند » برجّالة «برونزويك» ، ومجنّدي « ناسو » ، وهانوفريي « كيلمانسيغ » ، وألمان « أومبتيـدا » . كان الجناح الايمن ، كما يقول شاراّ ** ، قد أُميلَ الى ما وراء القلب .

---

* Haxo جنرال ومهندس عسكري فرنسي (١٧٧٤ – ١٨٣٨)

** Charras كولونيل فرنسي (١٨١٠ – ١٨٦٥) وضع عام ١٨٥٧ كتاباً هاماً عن معركة واترلو .

وُقنّعت وحدةٌ مدفعية هائلة باكياس رمل حيث يقوم اليوم ما يدعى بـ « متحف واترلو » . وكان عند واينغتون بالاضافة الى هـذا ، وفي منخفض من الارض ، حرس « سومرست » الخيالة ، وعـــدّتهم الف وأربعمئة . وكان هؤلاء يؤلفون النصف الآخر من سلاح الفرسان الانكليزي ذاك ذي الشهرة البعيدة التي يستحقها أحسن استحقاق . لقـد قضي على بونسونبي ، ولكن سومرست كان لا يزال هناك .

وكانت الوحدة المدفعية ، الجدير بها لو أُتمّت ان تكون متراساً تقريباً ، مُعَدّةً خلف جـدار حديقـة شديـد الانخفـــاض . وقـد غُطّيَت على عَجَل باكيـــاس الرمل ، وبمنخفض من الارض كبير . ولكن هذا العمل لم يتمّ . انهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لتسييجه .

كان ولينغتون قلقاً ولكنه ثبت الجنان ، وكان ممتطياً صهوة جواده . وقد ظل هناك طوال النهار ، محتفظاً بـــالوضع نفسه ، امام مطحنة « مون سان جان » القديمة التي لا تزال قائمـــة ، وتحت شجرة دردار اشتراها منذ ذلك الحـــين رجل انكليزي ، من المولعين بتخريب الآثار القديمة ، بمئتي فرنك ، وقطعها وذهب بها . كان ولينغتون باسلاً عـــلى نحو خالٍ مـــن الشعور . لقد انهمرت القذائف انهمار المطر . وكان غوردون ، الضابط العامل في خدمته ، قد صُرع اللحظةَ الى جـــانبه . وأراه اللورد « هيل » قنبلة صغيرة منفجرة وقال : « ما هي تعليماتك ، ايها اللورد ، وما الاوامر التي تتركها لنا اذا ما سمحت لنفسك بان تُقتل ؟ » فاجابه ولينغتون : « **أن تنسجوا على منوالي .** » وقال لـ « كلينتون » في ايجاز : « **اصمدوا هنا حتى الرجل الاخير .** » كان واضحاً ان كفة الفرنسيين آخذة في الرجحان ، فصاح ولينغتون برفاقه القدماء في

تالافيرا * وفيتوريا ** وسالامانكة *** : « ايها الغلمان ! يجب ان لا تُهزم ! فكروا بانكلترة العجوز ! » .

وحوالى الساعة الرابعة ترنح الخط الانكليزي الى الوراء . وفجأة لم يُرَ على ذروة النجد غير جنود المدفعية ومطلقي النار بتواتر ، اما الباقون فقد اختفوا . كانت كتائب الجند قد تقهقرت في وجه قنابل الفرنسيين وقذائفهم ، وارتدت الى واد لا يزال يقطعه الى اليوم ممرّ الابقار في مزرعة « مون سان جان » . وحدثت حركة تراجعية ، فقد كانت جبهة القتال الانكليزية تنهار . ورجع ولينغتون القهقرى .

وصاح نابوليون :

– « لقد بدأت الهزيمة ! »

٧

نابوليون طلق المحيا

ولم يكن الامبراطور ، برغم مرضه وتضايقه فوق صهوة جواده من ألم محليّ ، طلق المحيا في يوم من الايام باكثر مما كان في ذلك النهار . فمنذ الصباح وأسارير وجهه الغامضة تفترّ عن ابتسامة . ان تلك النفس العميقة المقنّعة بالرخام اضاءت من غير تبصّر في الثامن عشر من حزيران، ١٨١٥ . وإن الرجل الذي كان كالح الوجه في أوسترليتز ، كان جذلان

* Talavera مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين عام ١٨٠٩

** Vittoria مدينة اسبانية ايضاً انتصر فيها ولينغتون على القوات الفرنسية في ٢١ حزيران عام ١٨١٣

*** Salamanque مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون ايضاً على القوات الفرنسية ، سنة ١٨١٢

في واترلو . إن اكبر الرجال الذين اختارهم الله العظائم يتكشّفون عن هذه المتناقضات . ولكن مباهجنا يظللها القتام . فالابتسامة الكاملة لله وحده .

« يضحك قيصر ، ويبكي بومبيوس » Ridet Caesar, Pompeius flebit ذلك ما قاله رجال الفرقة المعروفة بفرقة الـ « فولميناتريكس » * إن بومبيوس ما كان ينبغي له هذه المرة ان يبكي ، ولكن من الثابت ان قيصر قد ضحك .

منذ الليلة البارحة ، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، بينما كان يرود – على صهوة جواده ، في قلب العاصفة وتحت المطر ، والى جانبه برتّران – تلك الكثبان المجاورة لـ « روسوم » وقد أبهجه ان يرى خط النيران الانكليزية الطويل يضيء الأفق من « فريشمون » الى « برين لالو » – منذ تلك الليلة ، بدا له ان القَدَر الذي عيّن له هو موعداً في يوم معلوم فوق ساحة واترلو هذه ، قد أقبل في الموعد المضروب . لقد اوقف جواده ، وظلّ فترةً من الوقت جامـــداً لا يتحرك ، يراقب البرق ويصغي الى الرعد . وقد سُمِع هذا القَدَريّ ينطق في غمرة الظلام بهذه العبارة الخفية : « نحن متفقان » . لقد خُدع نابوليون . إنهما ما عادا ، بعدُ ، متفقَيْن .

لم تكن عيناه قد أغمضتا دقيقة واحدة . لقد حملت اليـه كلّ لحظة من لحظات تلك الليلة بهجةً جديدة . وكان قـــد طاف بخطّ الحرس الامامي كله ، ووقف هنا وهناك ليتحدث الى الفرسان المكلفين بالحراسة . وعند الساعة الثانية والنصف ، قرب غابة هوغومون ، سمع وقع خطى كتيبة تسير . وخيّل اليه لحظةً ان ولينغتون ينكص على عقبيه . وقال : « إنه حرس المؤخرة الانكليزي يشرع في الرحيل . سوف أأسر الستة آلاف انكليزي الذين وصلوا الان الى اوستاند » . وتحدّثَ في غير ما تحفّظ .

---

* légion Fulminatrix

لقد استعاد توقّد الذهن ذاك الذي أبداه يوم هبط البرّ في أول آذار ، حين لفت نظر المارشال الكبير الى فلاّح خليج جوان المتحمس ، صائحاً : **« حسناً ، برتران * ، ها قد عثرنا على المدَدَ من اول الطريق ! »** وفي ليل ١٧ حزيران تندّر على ولينغتون ، فقال : **« هذا الانكليزي الضئيل الجسم في حاجة الى ان يتلقّى درساً ! »** وتضاعف المطر . وقصف الرعد فيما كان الامبراطور يتكلم .

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً تبدّد وهمٌ من أوهامه . فقد أعلمه بعض الضباط الذي وُجّهوا للاستكشاف أن العدوّ ما كان يأتي باي حركة . إن شيئاً ما ، لم يتحرك ؛ وإن ناراً من نيران المعسكر لم تُطفأ . كان الجيش الانكليزي نائماً . وكان الصمت العميق يخيم على الارض . لم يكن ثمة ضجة ما ، إلا في السماء . وعند الساعة الرابعة جاءه الكشافون بأحد الفلاحين . وكان هذا الفلاح قد عمل دليلاً مرشداً لأحد ألوية الخيالة الانكليزية ، لعله لواء فيفيان في طريقه الى التمركز في قرية أوهين ، في أقصى اليسار . وعند الساعة الخامسة أبلغه هاربان بلجيكيان من الجندية انهما فارقا سريتيهما اللحظةَ ، وان الجيش الانكليزي كان يتوقع نشوب المعركة .

وصاح نابوليون :

— **« فليهنأوا بذلك ! إني لافضل ان أقطّعهم إرباً إرباً على ان اردّهم على أعقابهم . »**

وفي الصباح ، ترجّل في الوحل ، عند المنحدر الواقع على زاوية الطريق من بلانسنوا ، واستقدم من مزرعة « روسوم » طاولة مطبخ وكرسياً ريفياً ، وجلس ، متخذاً من حزمة من التبن بساطاً ، ونشر

---

* Bertrand جنرال فرنسي (١٧٧٣ — ١٨٤٤) ، وقد اشتهر باخلاصه لنابوليون اخلاصاً عظيماً تجلى في أنه لحق به الى جزيرة ألبا والى سانت هيلانة ، ومن هناك نقلَ رفاته سنة ١٨٤٠ .

على الطاولة خريطة ميدان القتال قائلا لـ « سولت » * : « رقعة شطرنج جميلة ! »

وبسبب من مطر الليل لم تصل قوافل المؤن ، التي ساخت عجلاتها في الطرق الندية ، مع انبلاج الفجر . ولم تكن اعين الجند قد اغتمضت ، وكانوا مبلّلين لم يذوقوا شيئاً من طعام . وبرغم هذا كله هتف نابوليون جذلانَ قائلًا لـ « ني » : « **سوف نكسب المعركة تسعين في المئة .** » وعند الساعة الثامنة حُمِل الفطور الى الامبراطور . كان قد دعا عدداً من الجنرالات الى تناول الطعام معه . وفيما هم يفطرون روى بعضهم ان ولينغتون كان في الليلة قبل البارحة يشهد حفلة راقصة في بروكسل اقامتها دوقة ريتشموند . فقال سولت ، وهو رجل حرب شرس ذو وجه كوجه رئيس اساقفة : « **الحفلة الراقصة سوف تقام اليوم !** » وكان الامبراطور قد مازح « ني » الذي قال : « **لن يكون ولينغتون من البساطة بحيث ينتظر جلالتكم .** » ذلك كان دأبه عادة . يقول فلوري دو شابولون : « **كان مولعاً بالمزاح .** » ويقول غورغو : « **كانت البشاشة المداعبة أساس شخصيته .** » ويقول بنجامان كونستان : « **كان خصب الفكاهة ، وكانت فكاهته غريبة ، مَضحكة اكثر منها ظريفة .** » ومثل هذه الروح البهيجة حين تكون لعملاق من العمالقة تستحق ان يؤكَّد عليها . كان يدعو رماة القنابل (grenadiers) العاملين في جيشه « المتذمرين » (Les Grognards) ؛ وكان يقرص آذانهم ويشد بشواربهم . « **إن الامبراطور ما كان يعمل شيئاً غير خداعنا والمكر بنا** » . تلك هي كلمة واحد منهم . وخلال الرحلة الخفية من جزيرة ألبا الى فرنسة ، في اليوم السابع والعشرين من شباط ، وفي عرض البحر ، التقى « زيفير » المركبُ الشراعي الحربي الفرنسي بالـ « اينكونستان » المركب الشراعي الحربي الذي كان نابوليون مختبئاً

* Soult مارشال فرنسة (١٧٦٩ - ١٨٥١) وقد لمع نجمه في اوسترليتز وفي اسبانية .

فيه . فسأل رجاله رجالَ هذا المركب الأخير عن انبــاء نابوليون ، الامبراطور ، الذي كان لا يزال يزين قبعته حتى هذه اللحظة بتلك الشارة المستديرة البيضاء والارجوانية الموشوشة بالنحل الـتي اصطنعها في جزيرة ألبا ؛ فما كان منه إلا ان تناول بوق الكلام ، وهو يضحك ، واجاب بنفسه : « **الامبراطور في حال جيدة .** » إن من يضحك بهذه الطريقة يكون على دالّة مع الأحداث . ولقد عرف نابوليون عدداً من نوبات الضحك هذه أثناء فطوره في واترلو . وبعد الفطور استجمع افــكاره طوال ربع ساعة . ثم إن جنرالين قعدا على حزمة التبن ، وفي يد كل منهما قلم ، وعلى ركبته ورقة ، وأنشأ الامبراطور يملي مواقع الجنود استعداداً للقتال .

وفي الساعة التاسعة ، لحظةَ انتشر الجيش الفرنسي (وقد نُظّم في صفوف خمسة وصدر اليه الأمر بالحركة — فالجند صفّان ، والمدفعية بين اللواءين ، والموسيقى في الطليعة تقدّم الأكرام العسكري بقرع الطبول ونفخ الابواق) جباراً ، مترامياً ، مبتهجاً ، بحراً منَ الخُوَذ والسيوف والحراب عند الافق ، في تلك اللحظة صاح الامبراطور طرباً ، معيداً كلمته مرتين :

— « رائع ! رائع ! »

وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة والنصف كان الجيش كله ، وهو في ما يبدو مستغرباً صعب التصديق ، قد اتخذ مواقعه ، مصطفاً في صفوف ستة ، مشكّلاً — اذا اصطنعنا تعبير الامبراطور نفســه — « صورة ستة من حرف V » . وبعد لحظات من تكوين جبهــة المعركة ، وفي غمرة من ذلك الصمت العميق الذي يسبق القتال كما يسبق العــاصفة ، رأى الامبراطور الى وحدات المدفعية الثلاث ذات القذائف التي تزن كل منها اثني عشر رطلاً — رأى اليها تتحرك ، وكانت قد فُصلت نزولاً عند إرادته من فيالق « ديرلون » ، و « راي » ، و « لوبو » لكي تستهل

القتال بالهجوم على « مون سان جان » عند ملتقى طريقي « نيفيل » و « جيناب » ، فربّت على كتف هاكسو قائلاً :

– « ها هي ذي اربع وعشرون فتاةً حسناء ، أيها الجنرال ! »

واذ كان واثقاً من النصر ، فقد ابتسم مشجعاً سرية التحصينات من الفيلق الأول لدنْ مرّت امامه ، وكان قد عهد اليها في ان تقيم المتاريس في « مون سان جان » حالما يتمّ الاستيلاء على القرية . ولم يعكّر هذه الطمأنينة كلها غير كلمة تنضح بالرحمة المتغطرسة ؛ فما إن رأى اولئك الاسكتلنديين الرماديين الرائعين يحتشدون الى يساره ، على جيادهم البهيّة ، في بقعة يقوم فيها اليوم ضريح ضخم ، حتى قال :

– « يا للخسارة ! »

ثم امتطى صهوة جواده ، وانطلق مخلّفاً روسوم وراءه ، واختار لمراقبة المعركة رابيةً معشوشبة ضيقة ، الى يمين الطريق من جينابّ الى بروكسل ، كانت هي محطته الثانية خلال المعركة . اما محطته الثالثة ، تلك التي اتخذها لنفسه في الساعة السابعة مساء ، بين « لا بيلّ آليانس » و « لا هاي سانت » ففظيعة . إنها أكمة مرتفعة لا تزال قائمة الى اليوم ، وكان الحرس قد احتشد خلفها في منخفض من السهل . وحول هذه الاكمة ارتدّت القذائف فوق الطريق المعبّدة حتى كادت تصيب نابوليون . كان صفير القنابل والكُرات فوق رأسه ، شأنهُ في « بريين » . ولقد التقط بعضهم حيث انتصبت قوائم جواده تقريباً ، عدداً من القنابل المسحوقة ، ونصال السيوف البالية ، والقذائف المشوّهة التي اكلها الصدأ . ومنذ بضع سنوات أُخرجت من بطن الثرى ، هناك ، قنبلة يبلغ وزنها ستين رطلاً ، وكانت لا تزال مشحونة ، وقد كُسِر فتيلها على مستواها . وفي هذه المحطة الاخيرة بالذات قال الامبراطور لدليله ، لاكوست ، وهو فلاّح حقود ، مروّع ، مشدود الى سرج

فارس من الفرسان ، كان يستدير كلما انفجرت قنبلة ويحاول ان يختبيء خلف نابوليون : « **أيها الابله ، هذا شيء معيب . انك تعرّض نفسك للموت برصاصة تصيبك في ظهرك !** » ولقد وجد كاتب هذه السطور هو نفسه في منحدر تلك الاكمة السريع التفتّت ، بعد ان "قلَبَ" التراب" ، بقايا قنبلة انحلّت بفعل الصدأ الذي تراكم عليها طوال ست واربعين سنة ، كما وجد بعض كِسَر الحديد التي تحطمت بين اصابعه مثل اغصان الدّبوغ *

إن تموّجات السهول المنحدرة على وجوه مختلفة حيث التقى نابوليون وولينغتون لم تكن كما كانت في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥ . هذا شيء لا يجهله احد . ذلك أنهم بأخذهم من ذلك الميدان المشؤوم مــا يصنعون به نصباً له غيروا شكله الحقيقي . فاذا التاريخ ، وقد شُوّش ، لا يعرف نفسه بعدُ ، في ذلك المكان . لقد ارادوا تمجيده فشوّهوه . ولقد صاح ولينغتون حين رأى الى واترلو بعد سنتين : « **لقد غيّروا ميدان معركتي !** » فحيث ينهض اليوم ذلك الهرم من التراب الذي يعلوه الاسد ، كانت قمّة تتحدّر نحو طريق نيفيل تحدّراً يسهل سلوكه ، على حين كان تحدّرها ، فوق طريق جيناب وعراً جداً . واليوم لا يزال في الامكان ان يقاس ارتفاع هذا المنحدر بعلوّ أكمتيْ المدفنين الكبيرين اللذين يُطوّقان الطريق من جيناب الى بروكسل : القبر الانكليزي الى اليسار ، والقبر الألماني الى اليمين . وليس ثمة قبرٌ فرنسي . فالسهـل كله قبرٌ لفرنسة . وبفضل آلاف وآلاف من أحمال التربة التي استعملت في التلة البالغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً ، ومحيطها نصف ميل ، أمسى الوصول الى نَجْدِ « مون سان جان » ميسوراً في انحـدار رفيقٍ . ذلك انه كان ، يومَ المعركة ، وبخاصة من ناحيـة « لا هاي سانت » ، وعراً صعب المرتقى . والحق ان ذلك الجرف كان متحدراً الى درجـة

* الدبوغ ضرب من الشجر يستخرج من أغصانه صبغ قرمزي وهو يستعمل في الدباغة .

جعلت المدفعية الانكليزية لا ترى المزرعة التي تحتها في قعر الوادي ، مركز الصراع . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، كان المطر قد زاد هذا المنحدر وعورة ، وكان الوحل قد جعل ارتقاءه اكثر صعوبة . إنه لم يعد مضنياً وحسب ، ولكن أقدام الرجال كانت تسيخ في الطين فعلاً . وعلى طول ذروة النجد امتدّ شبه خندق ما كان في ميسور المراقب البعيد ان يتبيّنه .

ايّ شيء كان ذلك الخندق ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال . إن « برين لالو » قرية من قرى بلجيكة ؛ وإن « أوهين » قرية أخرى . وهاتان القريتان ، وكلتاهما محجوبة بانعطاف الارض ، متصلتان بطريق يبلغ طولها نحواً من فرسخ ونصف وتخترق سهلاً غير مستوٍ ، فهي كثيراً ما تدفن نفسها في التلال مثل ثلم من الأثلام ، وذلك ما كان يجعل من هذه الطريق مَسيلاً ، في بعض المواطن . وفي عام ١٨١٥ اخترقت هذه الطريق ، شأنها اليوم ، قمة نَجْد « مون سان جان » بين الطريقين من جيناب ومن نيفيلّ . بيد أنها اليوم على مستوى السهل ، في حين أنها كانت آنذاك طريقاً غائرة . لقد أزيل منحدرلها لأقامة الأكمة التذكارية . وانما كانت تلك الطريق ، ولا تزال ، خندقاً ، في القسم الاعظم من امتدادها . خندقاً يبلغ عمقه في بعض المواطن اثني عشر قدماً ، ويشتد تحدّر جوانبه الى حد يجعلها تنهار هنا وهناك ، وبخاصة في الشتاء ، تحت الامطار . ولقد وقعت هناك عدة حوادث اصطدام . فقد كانت الطريق من الضيق ، عند مدخل « برين لالو » بحيث سحقت احدى العربات عابرَ سبيل ، على ما يؤخذ من صليب حجري قائم قرب المقبرة مدوّنٍ عليه اسمُ الميت : « **مسيو برنار**

دوبري ، تاجر مـــن بروكسل ، وتاريخ الحادث ، شباط ١٦٣٧ *
وكانت من العمق ، عند نَجْد « مون سان جان » بحيث سُحقَ هناك
عابر سبيل آخر ، ماتيو نيكيس ، عام ١٧٨٣ ، بسببٍ من انهيار أحد
جانبيها ، على ما يؤخذ من صليب حجري ثانٍ . لقـد ذهب استصلاح
الارض برأس هذا الصليب ، ولكن قاعدته المنكوسة لا تزال تُرى عند
الجانب المنحدر الى يسار الطريق بين « لا هاي سانت » ومزرعة « مون
سان جان » .

وفي يوم المعركة ، كانت هذه الطريق الغائرة التي لا يـــنمّ شيءٌ عن
وجودها ، والمحيطة بذروة « مون سان جان » — خندقٌ في قمـــة
المنحدر ، أثرٌ من آثار مرور العربات مختبيء في الارض — نقول في يوم
المعركة كانت هذه الطريق غير منظورة ، يعني فظيعة .

---

* وانما يجري الكلام المنقوش على الحجر هكذا :

لله البالغ الرحمة البالغ العظمة
هنا سُحق
بسوء الحظ
تحت عجلات احدى العربات
مسيو برنار
دوبري ، تاجر
من بروكسل (كلمة غير مقروءة)
شباط سنة ١٦٣٧

٨

الامبراطور يوجه سؤالاً الى الدليل لا كوست

واذن ، ففي صباح واترلو كان نابوليون مسروراً .

وكان على صواب . فقد كانت الخطة التي وضعها للمعركة خطة رائعة حقاً .

حتى اذا استهلت المعركة لم يكن في تقلباتها الشديدة الاختلاف ، وفي صمود هوغومون ، وعناد « لا هاي سانت » ، ومصرع « بودوين » ، وإقصاء « فوا » عن الميدان ، بعد ان امسى عاجزاً عن القتال ، والسور غير المرتقب الذي تحطم عليه لواء « سوا » ، وطيش « غويمينو » المشؤوم وقد نفدت قنابله ونفد بارووده ، وغوص المدفعية في الوحل ، والخمسة عشر مدفعاً غير المخفورة التي اوقع بها « اوكسبريدج » في طريق غائرة ، والاثر الضئيل الذي احدثته القنابل الساقطة داخل الخطوط الانكليزية اذ كانت تدفن نفسها في التربة المنقوعة بالمطر فلا توفق الى اكثر من إحداث براكين من الوحل بحيث تحوّل الانفجار الى رشاش ، وعدم جدوى الهجوم المضلل الذي شنه « بيريه » على « برين لولو » ، والقضاء على سلاح الفرسان هذا ، المؤلف من خمس عشرة كوكبة قضاء شبه كامل ، وعدم انزعاج الجناح الانكليزي الايمن إلا قليلاً ، وعدم اصابة الجناح الايسر باكثر من أذىً ضئيل ، وغلطة « ني » الغريبة التي تتمثل في حشده الفصائل الاربع التي يتألف منها الفيلق الاول بدلاً من ان ينشرها ويباعد ما بينها ، وعمق الصفوف السبعة والعشرين وجبهة المئتي رجل التي قـُدّمت على هذا النحو طعاماً للقذائف ، والفجوات

الراعبة التي احدثتها القنابل في هـذه الحشود ، وانقطاع الاتصال بـين كتائب الجيش المهاجمة ، والمدفعية المنحرفة التي كُشف جناحها فجأة ، ووقوع « بورجوا » و « دونزيلو » و « دوريت » في الشرك ، وردّ « كيبو » على عقبيه ، واصابة الملازم الاول ، « فيو » ، ذلك الجبار المنبثق من مدرسة البوليتكنيك ، بجرح في اللحظة التي كان يحطم خلالها ، بضربات فأس ، باب « لا هاي سانت » تحت النار المنصبّة من المتراس الانكليزي الذي يسد منعطف الطريق من جيناب الى بروكـل ، ووقوع فصيل « ماركوتييه » بين حجري الرجالة والخيالة ، وتصويب « بَسْت » و « باك » النار اليه ، من على مدى الذراع في حقل القمح ، وتضريب « بونسوني » اعناق رجاله بحد السيف ، وتسمير رحدته المدفعية المؤلفة من سبعة مدافع ، وصمود أمير ساكس — وايار * في « فريشمون » و « سموهين » واحتفاظه بها على الرغم من الكونت ديرلون ، وانتزاع راية الفوج الخامس بعد المئة ، وراية الفوج الخامس والاربعين ، وهـذا الفارس البروسي الاسود الذي جاء به كشافة الكتيبة المتنقلة المؤلفة من ثلاثمئة قناص يضربون في المنطقة الواقعة ما بين « وافر » و « بلانسنوا » ، والاشياء المقلقة التي قالها هذا الفارس ، وتأخر « غروشي » ، والالف والخمسمئة رجل الذين قُتلوا في بستان هوغومون في اقل من ساعـة ، والالف والثمانمئة رجل الذين صرعوا في فترة اشد قِصَراً حول « لا هاي سانت » — لم يكن في هذه الاحداث العاصفة كلها ، التي مرت مثل سحائب المعركة امام نابوليون ، ما كدّر محيّاه ، او عكـّر انطباعة اليقين الامبراطوري عليه . فقد تعوّد نابوليون ان يحـدق الى الحرب تحديقاً . انه ما كان يُجري جمع التفاصيل الموجعة رقماً رقماً . فلم تكن الارقام لتهمه الا اذا اعطت هذا الحاصل : النصر . وعلى الرغم مـن ان طلائع المعركة كانت سيئة فلم يزعجه ذلك ، وكيف يزعجه وهـو

* اوشيدوقية سابقة في المانية الوسطى .

الذي اعتقد انه سيد النهاية ومالكها ؟ كان يعرف كيف ينتظر ، معتبراً نفسه في عصمة من الطوارىء ، معاملاً القدر كما يعامل النِدّ النِدّ . لقد بدا وكأنه يقول لهذا القدر : « انت لن تجرؤ . »

وحين اختلط نور النهار بظلام الليل استشعر نابوليون انه مصونٌ في الخير ، متجاوَزٌ عنه في الشر . كانت له او كان يعتقد ان له — موافقة على الاحداث ، بل مشاركةٌ فيها تعدِلُ الفكرة القائلة بالعصمة من الجروح ، عند القدماء .

واياً ما كان ، فحين يكون وراء المرء « بيريزينا » * و « لايبسيك » ** و « فونتينبلو » *** يبدو وكأن من الجائز ان يشكّ في واترلو . ان اكفهراراً خفياً قد شرع يظهر في اعماق السماء .

ولحظة ارتدّ ولينغتون اخذت نابوليون هزة الطرب . لقد رأى نَجْدَ « مون سان جان » يعرى فَجاءةً ، ورأى جبهة الجيش الانكليزي تختفي . واجتمع شمل هذا الجيش كرة أخرى ولكنه ظلّ متوارياً . ونهض الامبراطور في ركابه نصف نهضة . لقد اخترق وميض النصر عينيه .

لقد حُصِر ولينغتون في غابة سوانيْ وحُطمت قواته — تلك كانت الهزيمة الحاسمة تُنزلها فرنسة بانكلترة . ذلك كان الانتقامَ لـ « كريسي » ****

---

* Béréaina نهر في روسية البيضاء اشتهر بعبور الجيش الفرنسي له من ٢٦ – ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ .

** المدينة الالمانية المعروفة وقد نشبت فيها معركة بين الفرنسيين والحلفاء (معركة الامم) اضطر نابوليون على اثرها الى الجلاء عن المانية (سنة ١٨١٣)

*** اشارة الى « معاهدة فونتينبلو » التي سوّت ، في ١١ نيسان ١٨١٤ ، بعد استقالة نابوليون الاول ، وضعَ الامبراطور ووضع أسرته .

**** Crécy - en - Ponthieu بلدة في شمال فرنسة جرت فيها موقعة بين الفرنسيين بقيادة فيليب دو فالوا والانكليز بقيادة ادورد الثالث سنة ١٣٤٦ وكان النصر فيها حليف الانكليز .

و « براتيــه » * ، و « مالبلاكيه » ** « راميي » *** كان بطل مارانغو يمحو عار « آزينكور » . ****

وانشأ الامبراطور يتأمل هذا التطور الفظيع الذي طرأ على الموقف ، وأجال منظاره للمرة الاخيرة فوق كل نقطة من ساحة القتال . ونظر اليه حرسه – وكانوا واقفين خلفه وسلاحهم على أرجلهم – في ضرب من العبـــادة . كان يفكر . كان يدرس السفوح ، ويلاحظ المنحدرات ، ويتفحص الغابة الصغيرة ، وحقل الجاودار المربّع ، والمجاز الضيق . لقد بدا وكأنه يُحصي كل دغل من الادغال . ونظر فترة مـن الزمن الى المتاريس الانكليزية القائمة على الطريقين ، وكانا ركامَيْن ضخمين مـــن الاشجار ، احدهما على طريق جينـــابّ ، فوق « لا هاي سانت » ، وهو مسلح بمدفعين كانا وحدهما – بين المدفعية الانكليزية كلها – اللذين يريانِ قعر ساحة القتال ، والآخر على طريق نيفيلّ حيث التمعت حراب لواء « شاسيه » الهولندية . ولاحظ قرب ذلك المتراس كنيسة القديس نقولا العتيقة ، المدهونة باللون الابيض ، والقائمة عنـــد زاوية الطريق المختصرة المتجهة نحو « برين لالو » . وانحنى وهمس في اذن الدليل ، لاكوست . واومأ الدليل برأسه اماءة نفي ، اغلب الظن انها كانت خادعة .

ونهض الامبراطور وفكّر .

---

* حيث انتصر ادورد الشهير بالامير الاسود (وهو ابن ادورد الثالث) على ملك فرنسة جان الثاني الملقب بالشجاع ، سنة ١٣٥٦ وأسره .

** Malplaquet في اقصى الشمال الفرنسي حيث هزم الانكليز الفرنسيين في ١١ ايلول سنة ١٧٠٩ .

*** Ramillies - Offus من اعمال بلجيكة حيث انتصر مارلبورو على مارشـــال فرنسة فيلروا عام ١٧٠٦ .

**** Azincourt في منطقة الـ « با دو كاليه » شمالي فرنسة حيث هزم الانكليز بقيادة هنري الخامس القوات الفرنسية وعلى رأسها دوق اورليان (٢٥ تشرين الاول عام ١٤١٥) .

كان ولينغتون قد انقلب على عقبيه . ولم يبقَ غير إنجاز هـــذا الارتداد بضربة ماحقة .

وفجأة التفت نابوليون ، ووجّه ، على جناح السرعـة ، رسولاً الى باريس ليعلن ان المعركة قد كُسِبت .

كان نابوليون واحداً من اولئك العباقرة الذين تصدر عنهم الرعود . وكان قد وجد صاعقته .

وأصدر أمره الى دارعي « ميلهو » * بالاستيلاء على نجـد « مون سان جان » .

٩
ما لم يكن متوقعاً

كانوا ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل . ولقد شكلوا جبهةً تبلغ نصف ميل . كانوا رجالاً عمالقة على صهوات جياد ذات جسوم هائلة . وكانت تنتظمهم ستٌ وعشرون كوكبةً ، ومن ورائهـــم فصيل « لوفيفر دينوويت » ** وهم مئة وستة من رجـــال الدرك المختارين ، وقناصة الحرس وعدّتهم ألف ومئة وسبعة وتسعون رجـــلًا ، وفرسان الحرس الرمّاحة وعدّتهم ثمانمئة وثمانون . كانوا يلبسون الخوذ من غـير سَبيب ، والدروع المصنوعة من الحديد المطرّق ، وقد شدّوا مسدسات الفرسان في غلافاتها الجلدية الى مقدّم السرج ، وتسلحوا بالسيوف الطويلة المتقوسة.

---

* Milhaud جنرال فرنسي اشتهر بجرأتـــه البطولية على رأس قواتـــه الدارعة . (١٧٦٨ – ١٨٣٣)

** Lefebvre — Desnouettes جـنرال فرنسي (١٧٧٣ – ١٨٢٢) ابـــلى في واترلو بلاء حسناً ، ثم هاجر الى اميركا بعد عودة آل بوربون الى العرش .

وفي الصباح ، كانوا موضع اعجاب الجيش كله عندما أقبلوا في كثافة عند الساعة التاسعة ، وقد ضجّت الابواق وأنشد جنود الموسيقى كلهم : « فلنسهر على سلامة الامبراطورية » * ، وسارت احدى وحداتهم المدفعية الى جانبهم ، والأخرى في وسطهم ، واندفعوا في صفّين بين طريق جيناب و « فريشمون » ، واخـــذوا مواقعهم في ذلك الخطّ الثاني الجبار الذي اقامه نابوليون في كثير من الحكمة ، والذي كان له – وقد واكبه في أقصى يساره داوعو كيلرمـان وفي أقصى يمينه دارعو ميلهو – جناحان من حديد اذا جاز التعبير .

وحمل اليهم ضابط الارتباط برنار أمر الامـبراطور . وشهر « ني » سيفه ووضع نفسه على رأسهم . وشرعت كتائب الفرسان الهائلة تتحرك.

وعند ذلك رئيَ مشهد مروّع .

لقد اندفعت هذه الخيالة كلها ، مشهورةَ السيوف ، خفاقة الرايات ، صادحة الابواق ، في حركة واحدة وكأن افرادها رجـــل واحد وقد شكّل كل فصيل صفاً – وفي مثل دقة آلة برونزية هادمة تشق ثلمة في جدار – وهبطت كثيب « لا بيلّ آليانس » وغطست في ذلك العمق الهائل الذي سبق لكثيرٍ من الرجـــال ان سقطوا فيه ، واختفت في الدخان ، ثم نهضت من هذه الدجّنة ، وبرزت كرةٌ ثانية عند الجانب الآخر ، وهي لا تزال كثيفةً متلازّة ، مصعّدةً بأقصى الخبب ، وسط سحابة من قذائف المدفعية انبعجت فوقها في مرتقى نَجْد « مون سان جان » الموحل المخيف . لقد برزت كالحةً ، مهدّدة ، ثبتة الجنان . وخلال الفترات الفاصلة ما بين انطلاق النيران الجماعيّ من البنادق وانطلاقها من المدافع ، كان في ميسور المرء أن يسمع صدى هـذا الوطأ الجبار .

---

* Veillons au salut de l'Empire اغنيـة وطنية كانت مـن أولى اغنيات الثورة الفرنسية . والواقع ان « الامبراطورية » هنا تعني « الدولة » . وقد خُدع كثيرون بعنوان هذه الأغنية فحسبوها من اناشيد عهد الامبراطورية الاولى .

واد كانا فصيلَيْن فقد شكّلا صفين . كان فصيل « واتيبه » الى اليمين ، وفصيل « دولور » الى اليسار . ومن بعيد ، كان يخيّـــل الى الناظر انهما افعوانان فولاذيان هائلان يتمدّدان نحو قمّة النجد . لقد اخـــترق ذلك المعركةَ وكأنه اعجوبة من الاعاجيب .

ان شيئاً مثل هذا لم تشاهده العيون منذ استيلاء سلاح الفرسان الثقيل على متاريس الـ « موسكوفا » . * إن مورا ** لم يكن هناك . ولكنْ كان هناك « ني » . لقد بدا وكأن هذا الحشد قد امسى غولاً ، وكأنما كانت له "نفسٌ" واحدة ليس غير . لقد تموجت كل كوكبـة ، وانتفخت مثل حلقة الأخطبوط . كان ممكناً ان يُرَوا من خلال الدخان الكثيف ، اذْ كان ممزقاً ههنا وههناك . انها فوضى من الخوذ والصيحات والسيوف ، ووثبُ خيل ضار بين المدافع ونغمات الابواق - جَلَبـــةٌ فظيعة منظمة . وفوق ذلك كله ، كانت الدروع ، وكانت اشبـــه بحراشف أفعى هِدرية ذات سبعة رؤوس .

هذه الاخبار تبدو وكأنما اخبار عصر آخر . ولا ريب في ان شيئاً مثل هذا المشهد قد برز في الملاحم الأورفية القديمة التي تتحـــدث عن الرجال الخيل ، عن اولئك المخبولين الاقدمين الذين كانوا يتصورون انهم قد مُسخوا جياداً ، عن اولئك الجبابرة ذوي الوجـوه البشرية والصدور الشبيهة بصدور الخيـل ، الذين تـوّر خببُهم الاولمب *** ، المخيفين ، الرفيعين ، المصونين عن الجراح ، والذين هم آلهـة وبهائم في

---

* نهر في روسية الوسطى جرت عنـــده معركة دامية بـين الفرنسيين والروس عام ١٨١٢ ، وكان النصر فيها حليف الفرنسيين .

** Murat صهر نابوليون ، وكان جنرالاً لامعاً من قادة سلاح الفرسان . وقد ابلى بلاء حسناً في معركة الاهرام وفي معركة الـ « موسكوفا » التي يشير اليها المؤلف (١٧٦٧ - ١٨١٥)

*** جبل في بلاد الاغريق القديمة يقع بين مقدونيا وتساليا وكانت الاساطـــير تزعم انه مقر الآلهة .

آن معاً .

إنها لمصادفة عددية عجيبة . كان قد استقبل هذه الكوكبات الستّ والعشرين ستةٌ وعشرون فوجاً . وخلف قنة النجد ووراء حجاب من المدفعية المقنّعة كان الرجالة الانكليز يشكلون ثلاثة عشر مربعـــاً ، في كل مربّع فوجان ، وعلى خطين – في الاول سبعة مربعـات ، وفي الثاني ستة – واعقاب البنادق الى الاكتاف ، والعيون على « قمحات » البنادق – فهم ينتظرون هادئين ، صامتين ، غير متحركين . لم يكن في ميسورهم ان يروا الدارعين ، ولم يكن في ميسور الدارعين ان يروهم . لقد اصغوا الى ارتفاع هذا المدّ من الرجال . لقد سمعوا صدى الثلاثة الآلاف جواد ، المتعاظم شيئاً بعد شيء ، ووقْع حوافرهـــا التناوبيّ المتسق ، في خبب كامل ، وجلجلة الدروع ، وقعقعة السيوف ، وشبه هديرٍ ضارٍ . وران الصمت المخيف لحظةً . وفجأة بدا فوق القنة صف طويل من الاذرع المرفوعة التي تهز السيوف ، بخوذها وابواقها وراياتها ، وثلاثة آلاف وجه ذي شارب اشيب تهتف : « يحيـــي الامبراطور ! » لقد تفجرّت هذه الخيالة كلها فوق النجد ، فكان ذلك اشبه باستهلال زلزلة .

وفجأة – ذلك شيء فاجع – الى يسار الانكليز ، والى يميننا ، ارتدّت طليعة الدارعين في جلبة مهتاجة مروّعة . ذلك بأن هؤلاء الدارعين مـا كادوا يبلغون أوج القنّة ، مطلقي الاعنة لخيلهم ، وقد عصفت بهـــم الحماسة البالغة ، واتخذوا سبيلهم نحو القضاء على المربعات والمدافع ، حتى رأوا ان بينهم وبين الانكليز حفرة ، بل قبراً . تلك كانت طريـــق « أوهين » الغائرة .

كانت لحظةً مخيفة . كان الوادي هناك ، فاغراً فاه ، على نحو غير متوقّع ، تحت حوافر الخيل تقريباً ، وقد بلغ عمقه قامتين بين منحدره المزدوج . ودفع الصف الثاني الصفّ الأول ، ودفـــع الصفُّ الثالث

الصفّ الثاني . وشَبَتِ * الخيل ، وارتدّت الى وراء ، وانقلبت على أردافها ، وزلقت بقوائمها كلها في الهواء ، طارحةً فرسانها مكدّسةً إياهم على الارض . لم يكن ثمة وسيلة الى الانسحاب . ولم تكن الكتيبة كلها غير قذيفة . إن القوة المكتسبة لسحق الانكليز قد سحقت الفرنسيين . وما كان في ميسور الوادي المتحجر القلب ان يذعن إلا بعد ان امتلأ ؛ لقد تدحرج الفرسان والجياد فيه على نحو فوضويّ ، ساحقاً احدهما الآخر ، وقد تمازجت لحومهم في تلك الهوة الرهيبة . وحين طفح هذا القبر بالرجال الأحياء مشى الباقون فوقهم واجتازوا بالمكان . لقد سقط ثلث لواء « دو بوا » تقريباً في هذه الهوة .

ومن هنا بدأ نابوليون يخسر المعركة .

ان ثمة رواية محلية ، مغالىً فيها من غير شك ، تذهب الى القول بأن ألفي فرس وألفاً وخمسمئة رجل دُفنوا في طريق اوهين الغائرة . ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم شاملاً سائر تلك الجثث التي طُرحت في هذا الوادي خلال اليوم الذي تلا المعركة .

وينبغي ان ننصّ بالمناسبة على أن لواء « دو بوا » هذا الذي امتُحِن على هذا النحو المشؤوم هو الذي حمل ، قبل ذلك بساعة ، حملةً عنيفة على العدو ، فانتزع راية فوج لونبورغ .

وكان نابوليون ، قبل ان يصدر أمره الى دارعي « ميلهو » بالهجوم ، قد درس طبيعة الارض ، ولكنه لم يستطع ان يرى هذه الطريق الغائرة التي لم تحدث ولو مجرد تغضّن على سطح النجد . ومع ذلك فقد لفتت نظره تلك الكنيسة الصغيرة البيضاء المتصلة بطريق نيفيل ، فوجّه سؤالاً الى الدليل لاكوست ؛ وانما فعل ذلك في أغلب الظن بعد أن تراءى له ان ثمة عقبةً ما . وكان الدليل قد أجاب بقوله لا . ولعل في ميسور المرء ان يقول ان الكارثة التي حلّت بنابوليون إنما انبثقت من هزة

* شبا الجواد يشبو : قام على رجليه .

رأس هذا الفلاح .

وكان لا بدّ من وقوع كوارث اخرى .

أكان من الممكن ان يكسب نابوليون هذه المعركة ؟ نحن نجيب بقولنا لا . لماذا ؟ بسبب من ولينغتون ؟ بسبب من بلوخر ؟ لا . بسبب من الله .

فلأن ينتصر نابوليون في واترلو شيء لم يكن في قانون القرن التاسع عشر . كانت سلسلة جديدة من الحقائق على وشك الوقوع ، سلسلة لم يكن لنابوليون ايما مكان فيها . وكانت نية الاحداث السيئة قد تجلت منذ زمن طويل .

لقد حان سقوط هذا الرجل الهائل .

ان وطأة هذا الرجل المفرطة على المصير الانساني قد أخلّت بالتوازن ، فقد كان هذا الفرد يساوي ، وحده ، المجموع الكونيّ . وهذا الفيض من كامل الحيوية البشرية المركّز في رأس واحد ، وهذه الدنيا الممتطية دماغ رجل واحد ، خليق بهما ان يصبحا شؤماً على الحضارة اذا استمرا. لقد آن للعدالة العليا النزيهة ان تتدبر الامر . واغلب الظن ان المبادىء والعناصر التي تقوم عليها الجاذبيات القياسية في النظام الاخلاقي وفي النظام المادي جميعاً ، قد بدأت تتذمر . فالدماء التي يتصاعد منها البخار ، والمدافن المزدحمة بسكانها ، والامهـــات السافحات الدمع ، كل اولئك محامون مخيفون . ان ثمة ، حين تشكو الارض ضيقاً شديداً ، انّات خفيّة تنبعث من الاعماق ، فتسمعها السماء .

لقد ُشكيَ نابوليون الى اللانهاية ، وكان سقوطه امراً مقرراً .

لقد أغضب الله .

إن واترلو ليست معركة على الاطلاق . إنها تغيُّر جبهة الكون .

١٠

نجد « مون سان جان »

وفي الوقت نفسه كانت المدفعية قد اكتُشفت .

لقد أطلق ستون مدفعاً واطلقت المربعات الثلاثة عشر نيرانها على الدارعين مرعدةً مومضة . وأدّى دولور ، الجنرال الشجاع ، التحية العسكرية للمدفعية الانكليزية .

وفي سرعة بالغة اتخذت المدفعية الانكليزية المتنقّلة كلها موقعاً لها في المربّعات . ولم يجد الدارعون متسعاً من الوقت يأخذون فيه نَفَساً . لقد قضت كارثة الطريق الغائرة على عدد كبير منهم ولكنها لم تفتّ في عضدهم . لقد كانوا رجالاً كلما نقص عددهم كبرتْ قلوبهم .

إن كتيبة « واتيبه » وحدها هي التي أصابتها النكبة . أما كتيبة دولور التي كان « ني » قد حملها على الانحراف نحو اليسار ، وكأنما أشعره قلبُهُ بوجود الشرَك ، فقد وصلت كاملةً .

وانقضّ الدارعون على المربعات الانكليزية .

الخيلُ تلامس بطونها الارض ، والأعنّة مُطلقة ، والسيوف بين الاسنان ، والمسدسات في الأيدي — كذلك بدأ الهجوم .

إن ثمة لحظات في المعركة تقسّي النفسُ أثناءها الرّجُل حتى ليتحول الجندي الى تمثال ، وحتى ليصبح لحمه كله صواناً . لقد أبت الافواج الانكليزية ، وقد هوجمت في يأس ، ان ترتدّ خطوه واحدة الى وراء . وكان ذلك فظيعاً .

لقد هوجمت جوانب المربعات الانكليزية كلها في آنٍ معاً . لقد احاطت بها عاصفة من جنون . وظلت هذه الرجّالة الباردة ثبتة الجنان . فأما الصف الاول ، وكان راكعاً على رُكَبِهِ على الارض ، فاستقبل

الدارعين على رؤوس الحراب ، واما الصف الثاني فأطلق عليهم النار من بنادقه . وخلفَ الصف الثاني شحن المدفعيون مدافعهم ، وانفرجت طليعة المربّع ، لكي تفسح المجال لانطلاق القذائف المحمومة ، ثم انغلقت كرةً اخرى . وكان جواب الدارعين أن انقضّوا على الرجالة في قوة ماحقة . لقد تَشبّتْ جيادهم الضخام ، وتخطّت الصفوف في خطىً واسعة ، ووثبت فوق الحراب ، ثم سقطت – جبّارةً – وسط هذه الجدران الحيّة الاربعة . واحدثت القذائف فجوات في صفوف الدارعين ، واحدث الدارعون ثُلَماً في المربعات . لقد اختفت صفوف من الجند بعد أن سُحقت اجسادها تحت سنابك الخيل . ولقد غُيّبت الحراب في بطون هؤلاء السناطرة * ، ومن هنا تلك الجراح الشائهة التي يغلب على الظن أن احداً لم يشهد ضريباً لها من قبل . وانكمشت المربعات على نفسها ، وقد قرضتها هذه الخيالة المجنونة ، من غير ان تتحرك او تتردد . كانت تملك معيناً من القذائف لا ينضب ، فهي تفجّرها ابداً وسط العدو المهاجم . كان مشهداً رهيباً . إن هذه المربعات لم تعد أفواجاً من الجند ؛ لقد أمست فوهات براكين . وهؤلاء الدارعون لم يعودوا خيّالة ؛ لقد أمسوا إعصاراً . كان كل مربّع بركاناً تهاجمه سحابة . ولقد اصطرعت الحمم والصواعق .

وقضي قضاءً شبه كامل ، من الصدمة الاولى ، على المربّع الذي في اقصى اليمين ، وهو اكثر المربعات تعرضاً للخطر ، بوصفه قائماً في الميدان الطلق . وكان مؤلفاً من رجال السرية الخامسة والسبعين الجبليين الاسكتلنديين . وفيما كانت عملية الاستئصال دائرة كان النافخ بزمار القربة ، قاعداً في الوسط فوق احد الطبول ، وقد غفل غفلة عميقة عن كل ما حوله ، خافضاً عينه الكئيبة الملأى بظلال الغابات والبحيرات ،

---

* Centaurs جمع « سنطر » ، وهو في الميثولوجيا مخلوق وهمي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس .

وكان واضعاً مزماره الاسكتلندي * تحت ذراعه ، عازفاً أنغام الجبل . لقد مات هؤلاء الاسكتلنديون وهم يفكرون بـ « بن لوثيان » ، كما مات الاغريق وهم يذكرون « آرغوس » . ثم إن سيف احد الدارعين هوى على المزمار وعلى الذراع التي تحمله فقطع الاغنية بأن قتل المغني .

وتعيّن على الدارعين وقد غدا عددهم ضئيلاً نسبياً ، بعد كارثة الوادي ، ان يواجهوا كامل الجيش الانكليزي تقريباً . ولكنهم ضاعفوا انفسهم ، فاذا بكل رجل يَعْدِلُ عشرة . ومع ذلك فقد ارتدت بعض الافواج الهانوفرية الى الوراء . ورأى ولينغتون ذلك وتذكّر خيالته . ولو ان نابوليون تذكّر ، في تلك اللحظة نفسها ، رجالته إذن لكسب المعركة. لقد كان هذا السّهو هو غلطته الكبيرة المشؤومة .

وفجأة وجد الدارعون المهاجمون انهم مهاجَمون . لقد انقضّت الخيالة الانكليزية على ظهورهم . كانت المربعات امامهم ، وكان سومرست وراءهم . سومرست بحرسه الفرسان البالغ عددهم الفاً واربعمئة . وكان الى يمين سومرست « دورنبرغ » بخيالته الالمان الخفاف ، السلاح والى يساره « تريب » على رأس حاملي الكاربينات البلجيكيين . واضطر الدارعون ، وقد هوجموا من الجبهة ومن الجناح ، ومن أمام ومن وراء ، وبواسطة الرجالة والخيالة معاً ، اضطروا الى ان يديروا وجوههم الى الجهات جميعاً . وما ضرّهم ؟ كانوا إعصاراً . وغدت بطولتهم ممتنعة على الوصف .

والى هذا ، فقد كانت خلفهم تلك المدفعية المرعدة ابداً . وكان ذلك كله ضرورياً لكي يُجرح امثال هؤلاء الرجال في الظهر . إن أحد

---

* وهو مؤلف من كيس للهواء مصنوع من جلد مزيت ومغطى بقماش من صوف تتصل بفوهته انبوبة ينفخ بواسطتها العازف فيملؤه الكيس هواء ، ويتصل به مزمار ذو ثقوب مختلفة لتوقيع الانغام .

دروعهم ، وقد ثقبته عند صفيحة الكتف اليسرى طلقة مسدس ، محفوظة في مجموعة متحف واترلو .

ان امثال هؤلاء الفرنسيين لا يباريهم غير امثال هؤلاء الانكليز .

إنه لم يعد نزاعاً . لقد أمسى ظلامـاً ، هيجـاناً ، فورة نفوس وبطولات توقع الدوار في الرأس ، وإعصاراً مـن بريـق السيوف . وفي لحظة ، لم يبق من فرسان الحرس الألف والاربعمئة غير ثمانمئة . وخرّ « فولر » وهو ملازمهم الاول صريعاً . واندفع « ني » مع الرّماحة وقناصة « لوفيفر دينوويت » . واحتل الفرنسيون مجدّداً « مون سان جان » ثم فقدوه ، ثم عاودوا احتلاله . وترك الدارعون الخيالةَ لكي ينقلبوا الى الرّجالة ، والاصح ان نقول إن هذه الجمهرة الرهيبة كلها اصطرعت من غير ان يُفلت ايّ من الفريقين الفريقَ الآخر . وواصلت المربعات صمودها . لقد شُنّ اثنا عشر هجوماً . وقُتلت اربعة جياد تحت « ني » . وانطرح نصف الدارعين على ارض النجد . ودام هذا الصراع ساعتين .

وزُعزع الجيش الانكليزي على نحو راعب . ولا ريب في ان الدارعين كان خليقاً بهم ، لو لم توهن من عزائمهم تلك الصدمة الاولى التي اصابتهم اثر كارثة الطريق الغـائرة ، ان يسحقوا الوسط ، ويقرروا النصر . واذهلت هذه الخيالة الرائعة « كلينتون » الذي سبق ان رأى « تالافيرا » * و « باداغوز » **. وأعجب ولينغتون بها عـلى الرغم من انه كان ثلاثةَ ارباع منهزم ، إعجـاباً بطولياً ، وقال في صوت خفيض :

– « باهر ! »

وافنى الدارعون سبعة مربعات من ثلاثة عشر ، وانتزعوا أو سمّروا ستين مدفعاً ، واستولوا على ستٍ من رايات الافواج الانكليزية ، حملها

* مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين ، عام ١٨٠٩

** مدينة اسبانية استولى عليها الفرنسيون ، بقيادة الجنرال سولت ، عام ١٨١١

ثلاثة دارعين وثلاثة قناصين من الحرس الى الامبراطور ، امام مزرعة « لا بيلّ آليانس » .

كان وضعُ ولينغتون يزداد سوءاً . لقد كانت هذه المعركة العجيبة أشبه شيء بمبارزة بين جريحين مَغيظين يفقد كل منهما دمه كله ، ومع ذلك فهو يواصل الكفاح والمقاومة . ايّ الفريقين سوف يسقط على الارض قبل الآخر ؟

واستمر الصراع من اجل النجد .

الى ايّ مدى تقدّم الدارعون ؟ ليس في ميسور احد ان يجيب . ولكن شيئاً واحداً لا يعتريه الريب : ففي اليوم الذي تلا المعركة وُجد دارعٌ وجواده ميتين تحت هيكل قبان العشب المجفّف في « مون سان جان » عند ملتقى طرق « نيفيلّ » ، و « جيناب » ، و « لا هولب » ، و « بروكسل » . وكان هذا الفارس قد اخترق الخطوط الانكليزية . وإن واحداً من الرجال الذين انتشلوا هذه الجثة لا يزال يحيا في « مون سان جان » . إنه يدعى دوهاز . ولقد كان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره .

واستشعر ولينغتون انه هُزم . كانت الازمة وشيكة .

ولم يوفق الدارعون ، بمعنى ان الوسط لم يُسحق . كان كل من الفريقين يحتلّ النجد ، ولم يكن ايّ منهما يحتله ، وفي الحق انه ظلّ في المحل الاول في أيدي الانكليز . كان ولينغتون يملك القرية والسهل الذي يتوجها . وكان « ني » لا يملك غير القنّة والمنحدر . لقد بدا كلّ من الفريقين راسخ الجذور في هذه التربة الفاجعة .

ولكن إضعاف الانكليز بدا عُضالاً . كان النزف الذي اصاب هذا الجيش فظيعاً . فقد طلب « كمبت » ، في الجناح الايسر ، ان يُنجَد ببعض الامداد . فاجابه ولينغتون : « **مستحيل ، يجب ان نموت فوق الارض التي نحتلها الآن !** » ، وفي اللحظة نفسها تقريباً — مصادفة

فريدة تصور الخسارة الفادحة التي حلّت بالجيشين جميعاً – ارسل « ني » الى نابوليون طالباً ان يمـــدّه بقوّة من الرجالة ، فصاح نابوليون : **« رجالة ! ومن اين ينتظر مني أن اجيئه بهم ؟ ايريد مني ان اخلقهم له ؟ » .**

وعلى اية حال ، فقد كان الجيش الانكليزي هو الاشدّ مرضاً . ذلك بان الهجمات الضارية التي شنتها هذه الكتائب ذات الدروع الحديدية والصدور الفولاذية كانت قد سحقت الرجالة سحقاً . كان في وجود نفر قليل من الجند حول راية من الرايات اشارة الى موقع سرية من سرايا الجيش . وامست الافواج الآن تحت إمرة رؤساء (كابيتين) او ملازمين اولين . لقد حُطم فصيل « آلتن » ، وكان قد اصابه ضرر كبير في « لا هاي سانت » ، تحطيماً يكاد يكون كاملاً . وغطّى البلجيكيون البواسل الذين انتظمهم لواء « فان كلوز » سهل الجاودار عـــلى طول طريق نيفيل . ولم يبق غير القليل القليل من رماة القنابل الهولنديـين اولئك ، الذين انضموا الى صفوفنا عام ١٨١١ ، في اسبانية ، وقاتلوا ضد ولينغتون ، والذين انضموا عام ١٨١٥ الى صفوف الانكليز وقاتلوا ضد نابوليون . كانت الخسارة في الضباط بالغة . كان اللورد اوكسبريدج ، الذي دفن رِجله في اليوم التالي ، قد اصيب بكسر في الركبة . واذا كان صراع الدارعين هذا قـــد ادى ، عند الجانب الفرنسي ، الى ان يصبح « دولور » ، و « ليريتييه » ، و « كولبير » و « دنوب » ، و « ترافير » ، و « بلانكار » عاجزين عـــن القتال ، فمن الجانب الانكليزي جُرح « آلتن » ، وجُرح « بيرن » ، وقُتل « ديلانسي » ، وقُتل « فان ميرلن » ، وصُرع « أومبتيدا » ، واصيبت هيئة اركان حرب ولينغتون كلها باعظم الخسارة ، ونالت انكلترة النصيب الاسوأ في هذا التوازن الدامي . كانت السرية الثانية من سرايا الحرس المشاة قد فقدت خمسة عُقداء ، واربعة رؤساء ، وثـــلاث رايات . وكان الفوج

الاول من فرقة الرجالة الثلاثين قد فقد اربعة وعشرين ضابطاً ومئة واثني عشر جندياً . وكان اربعة وعشرون من ضباط القوات الاسكتلندية الجبلية قد جُرحوا ، وثمانية عشر ضابطاً قد قُتلوا ، واربعمئة وخمسون جندياً قد ذبحوا . وكانت خيالة كومبرلاند الهانوفرية ، وهي سرية كاملة على رأسها « الزعيم هاكه » ، الذي حوكم فيما بعد وعُزل ، قد انقلبت على اعقابها قبل بدء القتال ، وولت هـــاربة في غابة سوانـْيي ، ناشرة الذعر حتى بروكسل . ولم تكد الكارّات ، وشاحنات الذخيرة الحربية ، وناقلات الامتعة ، وعربات الاسعاف الملأى بالجرحى ، لم تكد هـــذه كلها ترى الفرنسيين يتقدمون ، ويقتربون من الغابة ، حتى ولت على جناح السرعة . وصاح الهولنديون ، وقد انقضّت عليهم سيوف الفرسان الفرنسيين : « الى القتـال ! » . ومن « فـــيرت كوكو » الى « غرونندايل » ، وعلى مسافة فرسخين تقريباً في اتجاه بروكسل ، غصت الطرق ، وفقاً لشهادة شهود لا يزالون احيـــاء ، بالفارين من الجند . وكان هذا الذعر من الشدة بحيث بلغ البرنس دو كونديه * في « مالين » ولويس الثامن عشر في « غـــان » . وباستثناء الاحتياطي الضئيـــل المرتب صفوفاً متتابعة خلف المستشفى المقام في مزرعة « مون سان جان » ولواءي « فيفيان » و « فانديلور » المواكبين للجناح الايسر ، لم يبق عند ولينغتون شيء من الخيالة . وكان عـــدد من المدافع ملقىً على الارض مفكك الاجزاء . تلك حقائق يعترف بها سيبورن . ويـذهب برينغل ، مبالغاً في الكارثة ، الى حـــد القول إن الجيش الانكليزي الهولندي لم يسلم منه غير اربعة وثلاثين الف رجل . واحتفظ الدوق الحديدي ** بهدوئه ، ولكن شفتيه كانتا شاحبتين . وظـــن المفوض

* من امراء اسرة بوربون الفرنسية المالكة ، وكان قد هاجر من فرنسة عام ١٧٩٢ وشكل في كوبلنتز وعلى ضفاف الراين الجيش الموسوم بجيش دو كونديه .

** الدوق الحديدي Iron Duke هو اللقب الذي خُلع على ولينغتون لقوته الجسدية وإرادته التي لا تلين .

النمسوي ، فينسان ، والمفوض الاسباني ، آلافا ، اللذان شهدا المعركة الى جانب هيئة الاركان الانكليزية ، ان الدوق "هالكٌ" لا محالة .
وعند الساعة الخامسة سحب ولينغتون ساعته ، وسُمع يغمغم بهذه الكلمات الكالحة : « بلوخر ، او الليل ! » .

وفي هذه اللحظة تقريباً التمع صفٌ من الحراب بعيدٌ فوق الربى القائمة وراء فريشمون .

تلك هي نقطة التحول في هذه المأساة العملاقة .

١١

دليل رديء لنابوليون ودليل جيد لبولوف *

كلنا نعرف غلطة نابوليون الموجعة ؛ كان يرجو أن يصل غروشي** ، فوصلَ بلوخر ؛ الموت بدلاً من الحياة .

إن للقدر مثل هذه الانحرافات . ففيما كان نابوليون ينتظر ان يتربع على عرش العالم ، اذا به يلمح جزيرة القديسة هيلانة .

لو ان راعي البقر الصغير الذي أرشد بولوف ، ساعد بلوخر الأيمن ، نصحه بأن ينطلق من الغابة التي فوق فريشمون بدلاً من الغابة التي تحت

* Bulow جنرال بروسي (١٧٥٥ – ١٨١٦) شارك مشاركة فعالة في معركتي ليبسغ وواترلو .

** Grouchy مارشال فرنسة (١٧٦٦ – ١٨٤٧) ، وقد عهد اليه عشية واترلو بمطاردة البروسيين المهزومين في لِني ، ولكنه تركهم ينجون بانفسهم ويلتحقون بالانكليز ، على حين ظل هو بعيداً عن ميدان المعركة . وقد أنّب على تردده هذا الذي يعدّه الفرنسيون إجرامياً تقريباً .

بلانسنوا اذن لكان من الجائز أن يتغيّر شكل القرن التاسع عشر . كان خليقاً بنابوليون ، في هذه الحال ، ان يكسب المعركة . ذلك بأن ايا طريق غير الطريق الممتدة تحت بلانسنوا كانت خليقة بأن تقود الجيش البروسي الى واد تعجز المدفعية عن اجتيازه ، وإذن لما وصلَ بولوف .

ولو قد تأخر ساعة — بذلك يصرّح الجنرال البروسي موفلنج — لما وجدَ بلوخر ولينغتون صامداً . « كان الحلفاء قد خسروا المعركة » .

كان وصول بولوف قد حان ، كما رأينا . وكان قد تأخر كثيراً . لقد عسكر في الفضاء الطلق في « ديون لو مون » ، وانطلق عند الضحى . ولكن الطرق كانت غير سالكة ، وكان فصيله يغوص في الوحل . لقد ساخت المدافع في الثُلَم حتى مراكز دواليبها . والى ذلك ، فقد تعيّن عليه أن يعبر الـ « ديل » * على جسر « فافر » الضيق . وكان الفرنسيون قد أضرموا النار في الشارع المؤدي الى الجسر. واذ لم يكن في ميسور عربات المؤن وناقلات المدافع أن تمرّ بين صفين من البيوت المحترقة فقد اضطرّ الى الانتظار حتى تُخمد النيران . كان النهار قد انتصف قبل ان يصل بولوف الى « شابيل سان لامبير » .

ولو قد بدأ القتال قبل ساعتين اثنتين اذن لانتهى في الساعة الرابعة، وإذن لبلغ بلوخر الميدان وقد كسب نابوليون المعركة . هكذا هي هذه المصادفات الهائلة التي حُفظت النسبة ما بينها الى لا نهاية لا نستطيع ان ندركها .

فمنذ الظهيرة كان الامبراطور قد لمح بمنظاره الحربي قبل أيّ من رجاله جميعاً عند أقصى الافق شيئاً سمّر انتباهه . وكان قد قال : « إني ارى هناك سحابة تبدو لي جيوشاً . » ثم سأل دوق دالماسية ** : « سولت ،

* La Dyle نهر في بلجيكا .

** هو اللقب الذي عرف به « سولت » بعد معاهدة « تلسيت » التي وقعت عام ١٨٠٧ بين نابوليون ، وألكسندر الاول امبراطور الروسيا ، وبروسية .

ماذا ترى نحو شابيل سان لامبير ؟ » وادار المارشال منظاره في ذلك الاتجاه ، واجاب : « خمسة آلاف رجـل ، او ستة آلاف رجل ، يا مولاي . إنه غروشي من غير ريب . » وفي غضون هذا ، ظلّ ذلك الشيء جامداً وسط الضباب الكثيف . وفحصت مناظـير اركان الحرب كلهم تلك « السحابـــة » التي اشار اليها الامبراطور . وقال بعضهم : « إنها كتائب تقف متمهلة . » وقال معظمهم : « إنهـــا اشجار . » والحقّ ان السحابة كانت جامدة لا تتحرك . وعهد الامـــبراطور الى فصيل « دومون » المؤلف من خيالة خفيفة في استكشاف هـذه النقطة الغامضة .

في الواقع ان بولوف لم يتحرك . كانت طليعة قواته ضعيفة جـداً ، ولم تكن قادرة على شيء .. لقد تعيّن عليه ان ينتظر جمّاع جيشه ، ولقد أُمِرَ بأن يركّز قواته قبل ان يتقـــدّم الى خط القتال . ولكنْ في الساعة الخامسة ، أصدر بلوخر أمره الى بولوف – وقد رأى الى الخطر يتهدّد ولينغتون – بأن يشنّ الهجوم ، ونطق بهذه الكلمة الرائعة :

– « يجب ان نعطي الجيش الانكليزي فرصةً للتنفس . »

وما هي الا برهة قصيرة حتى انتشرت فصائـــل « لوستين » ، و « هيلر » ، و « هاكه » و « رايسيل » أمـــام فيلق « لوبو » ، وانطلقت خيالة الامير وليم البروسي من غابة باريس ، وكانت النار تأكل بلدة بلانسنوا ، وشرعت قذائـف المدافـع البروسية تتساقط كالمطر حتى بين صفوف الحرس الاحتياطي خلف نابليون .

١٢
الحرس

والبقية معروفة : غارة الجيش الثالث ، وتشوّش المعركة ، وإرعاد ستة وثمانين مدفعاً على نحو مفاجيء ، ومجيء بيوش الاول مع بولوف ، وخيالة زايتن يقودها بلوخر بنفسه ، وارتداد الفرنسيين الى الوراء ، وطَرْد « ماركونييه » من نَجْدِ أوهين ، وإخراج « دوروت » من « بابيلوت » ، ونكوص « دونزيلو » و « كيو » ، والهجوم على قوّات « لوبو » هجوماً جانبياً ، ومفاجأة كتائبنا المحطمة بمعركة جديدة عند هبوط الليل ، وانتقال الخط الانكليزي كله من الدفاع الى الهجوم وزحفه الى الامام ، والفجوة الهائلة التي حدثت في الجيش الفرنسي ، وتعاون المدفعية الانكليزية والمدفعية البروسية ، والافناء ، والكارثة التي حلّت بمقدّمة الجيش ، والكارثة التي حلّت بالجناح ، ودخول الحرس خطّ القتال وسط هذا الانهيار الفظيع .

واذ استشعروا انهم ذاهبون لملاقاة الموت فقد صاحوا : « **فليحيي الامبراطور** ! » وليس في التاريخ شيء يهز المشاعر اكثر من حشرجة الموت هذه المتفجرة في هتافات .

كانت السماء محجوبة بالغيوم طوال النهار . وفجأة ، وفي هذه اللحظة بالذات ـ كانت الساعة الثامنة مساء ـ انقشعت الغيوم عند الافق ، ومن خلال شجرات الدردار القائمة على طريق نيفيل تدفق ضياء الشمس المحتضرة الأحمر الكالح . كانت هذه الشمس قد اشرقت ، صباحاً ، على اوسترليتز .

وفي هذا الجهد الأخير ، كان كل فوج من أفواج الحرس يقوده جنرال . كان هناك « فرييان » ، و « وميشيل » ، « روغيه » ، و « هارليه » ، و « ماليه » ، و « بوريه دو مورفان » . وحين

برزت قبعات رماة القنابل من الحرس – تلك القبعات الطويلة ذات الصفائح النسرية – منسقةً، مصطفةً، رابطةَ الجأش، وسط دخان ذلك الصراع، استشعر العدوّ الاحترام لفرنسة. لقد حسبَ انه رأى عشرين انتصاراً تدخل ميدان القتال، منشورةَ الاجنحة، فاذا باولئك الذين كانوا غالبين يحسبون انفسهم مغلوبين، فينقلبوا على أعقابهم. ولكن ولينغتون صاح: **« انهضوا، أيها الحرس، وسدّدوا النار اليهم! »** ونهضت سرية الحرس الأنكليزية الحمراء، الجاثمة خلف الاسيجة، وصبّت وابلًا من القنابل على الراية المثلثة الالوان الخافقة حول نسورنا. واندفعوا جميعاً الى امام، وبدأت المجزرة الكبرى. واستشعر الحرس الامبراطوري ان الجيش يتقهقر من حولهم في الظلام، كما استشعروا زلزلة الانهزام الهائلة. لقد سمعوا **« الفرارَ! الفرارَ! »** التي حلت محلّ **« فليحيي الامبراطور! »** ومع هروب الجند من ورائهم، استمروا في اندفاعهم الى امام، تسحقهم المدافع اكثر فاكثر، وبتلقّفهم المـوتُ أسرع فأسرع عند كل خطوة. لم يكن ثمة لا مترددون، ولا جبناء. كان النفر في هذه الفرقة يضاهي الجنرال بطولةً. إن رجلًا واحداً من أفرادها لم ينكص أمام الانتحار.

وتعرّض « ني » يائساً، متحققاً بكامل عظمة المـوت المرتضَى، لمختلف المخاطر في هذه العاصفة. لقد قُتل جواده الخامس من تحته. لقد صاح والعرق يقطر منه، والنار في عينيه، والزبد على شفتيه، وقد فكّت ازرار سترته العسكرية، وقطعت احدى كتافتيه على نحو جزئي بضربة سيف من أحد الحرس الفرسان، واخترقت قنبلةٌ صفيحته التي تمثل نسراً كبيراً، وسال الدم منه، وتلوّث جسده بالوحل، واتشح بالبهاء، ولوّحت يده بسيف مكسور: **« تعالوا وانظروا كيف يموت مارشال من مارشالات فرنسة في ساحة المعركة! »** ولكن على غير طائل. إنه لم يمت. وعصفت به القسوة والغيظ. وطرح على « درووِيه

ديرلون ، هذا السؤال : « ماذا ! ألستَ تبذل جهدك لكي تموت ؟ »
وصاح وسط هذه الرجالة كلها التي تسحق حفنة من الجند : **« أليس ثمة شيء ، إذن ، من اجلي ؟ أوه ! اني أتمنى لو ان جميع هذه القذائف الانكليزية قد دفنت في جسدي ! »** يا لك من رجل بائس ! لقد ادخرتَ للقنابل الفرنسية !

١٣
النكبة

كان الانهزام من وراء الحرس فاجعاً .

لقد انكفأ الجيش فجاءةً ، ومن الجهات جميعاً في آن معاً ، من هوغومون ، من « لا هاي سانت » ، من بابيلوت ، من بلانسنوا . وأتبعت صيحة « خيانة ! » بصيحة « **الفرارَ الفرارَ** ! » . إن الجيش المنحلّ اشبه شيء بالثلج الذي يذوب . فكل شيء يلتوي ، ويتصدّع ، ويقضقض ، ويطفو ، ويتدحرج ، ويسقط ، ويتصادم ، ويُسرع ، ويغوص . ويستعير « ني » جواداً ، ويثب عليه ، من غير قبعة ، او ربطة عنق ، او سيف ، وينطلق الى طريق بروكسل ممسكاً بالانكليز والفرنسيين على السواء . انه يحاول الابقاء على الجيش . انه يدعوهم الى العودة ؛ إنه يعنّفهم ؛ إنه يصارع الهزيمة . ويفرّ الجند منه صائحين : « **فليحيَ المارشال ني !** » وتجيء سريّتا « دوروت » وتروحان ، مذعورتين ، تتقاذفها سيوف الفرسان الالمان ونيران ألوية « كمبت » ، و « بست » ، و « باك » ، و « رايلانت » . والحق ان الهزيمة اسوأ المعارك . فالاصدقاء يذبح بعضهم بعضاً لكي يفرّوا ، وكتائب الخيالة وافواج المشاة يسحق بعضها بعضاً ويشتت بعضها بعضاً ،

زَبَدُ المعركة الضخم . إن الفيضان ليجرف « لوبو » من ناحية ، و « ريّ » من ناحية اخرى . وعبثاً يحاول نابوليون ان يُقيم بالبقية الباقية من حرسه سدوداً . عبثاً يقذف بكوكبة فرسانه الاحتياطية في جهد أخير . ويتقهقر « كيبوت » في وجه « فيفيان » ، و « كيلرمان » في وجه « فاندولور » ، و « لوبو » في وجه « بولاو » ، و « موران » في وجه « بيرش » ، و « دومون » و « سوبرفيك » في وجه الامير غليوم البروسي . ويخرّ « غويو » الذي قاد خيالة الامبراطور تحقيقاً للمهمة التي عهد اليه بها ، تحت سنابك الخيل الانكليزية . ويسرع نابوليون الى الجنود المدبرين ، ويخطب فيهم ، ويحضّهم ، ويهددهم ، ويتوسل اليهم . وتظلّ جميع تلك الافواه التي هتفت في الصباح « فليحي الامبراطور » فاغرةً مشدوهة . إن جنوده لا يكادون يعرفونه . وإن الخيالة البروسية ، التي أقبلت اللحظة ، لتندفع الى امام ، وتلقي بنفسها على العدو ، وتُعمل سيوفها ، وتقطع ، وتحتزّ ، وتقتل ، وتبيد . إن الدوابّ المقرونة لتثب ، وإن المدافع لتُعنى بنفسها ، وإن جنود القُطُر ليحلّون الخيل من العربات ويمتطون متونها هاربين ؛ وإن العربات لتطرح على الارض وقد انتصبت عجلاتها الاربع في الهواء ، فهي تعترض الطريق ، وهي تشارك في المذبحة . إن الجنود لينسحقون ، وإنهم ليُداسون . إنهم يمشون على الاحياء وعلى الاموات . إن الأذرع لمبتورة . وإن جمهرةً توقع الدوار في الرأس لتملأ الطرق ، والازقة ، والجسور ، والسهول ، والتلال ، والاودية ، والغابات ، التي غصّت بهذا الفرار يقوم به اربعون الف رجل . لقد أُلقيَت الصيحات ، وأُلقي اليأس ، وأُلقيت الاكياس والبنادق في الجاودار : مجازرُ تُشق بحدّ السيف . لم يعد ثمة رفاق ، ولم يعد ثمة ضباط ، ولم يعد ثمة جنرالات ، هلعٌ لا سبيل الى وصفه . كان « زايتن » يُعمل السيف في جسم فرنسة من غير ما عناء . وكان الأسود قد أصبحوا يحامير * . كذلك كان هذا الفرار .

* جمع يحمور . واليحمور دابة تشبه العنز .

وفي جيناب بُذل جهدٌ للعودة ، لتكوين جبهة ، للمقاومة . وجمع « لوبو » شمل ثلاثمئة رجل . وكان مدخل القرية قد سُدّ بالمتاريس . ولكن ما ان انطلقت اول مجموعة من القذائف البروسية حتى عاودوا الفرار جميعاً ، وأُسِرَ « لوبو » . إن آثار تلك القذائف لا تزال تبدو اليوم على جدار مثلث جانبيّ عتيق من خربة قائمة الى يمين الطريق ، على مسيرة بضع دقائق من مدخل جيناب . وانقض البروسيون على جيناب ، وقد عصف بهم الغيظ من غير شك لهزال الفتح الذي تمّ لهم. وكان التعقب رهيباً . فقد اصدر بلوخر امره بالابادة . وكان « روغيه » قدوةً سيئة في هذا المضمار حين هدّد بالموت كل رامي قنابل فرنسي يسوق اليه أسيراً بروسياً . ولكن بلوخر فاق روغيه . فقد القي القبض على « دوهيزم » ، جنرال الحرس الفتيان ، عند باب فندق في جيناب ، فسلم سيفه الى فارس من « فرسان الموت » ، فما كان من هذا الفارس إلا ان اخذ السيف وقتل الأسير . لقد أكمل النصر بذبح المغلوبين . فلنعاقب ، ما دمنا نحن التاريخ : لقد تسربل بلوخر بالعار . وكانت هذه الوحشية ذروة الكارثة . واجتازت فلول المنهزمين البائسة « جيناب » ، واجتازت « كاتر برا » ، واجتازت « غوزيلي » ، واجتازت « فران » ، واجتازت « شارلروا » ، واجتازت « تون » ، ولم تقف إلا عند الحدود . واأسفاه ! ومن الذي كان يفرّ الآن على هذا النحو ؟ الجيش العظيم .

هذا الجنون ، هذا الهول ، هذا الانهيار الذي اصاب أسمى شجاعة قُدّر لها ان تُدهش التاريخ ، أيمكن ان يكون هذا كله من غير سبب ؟ لا . ان ظِلّ يد يمنى هائلة ليخيم على واترلو . إنه يوم القدر . لقد هيمنت قوة فوق الانسان على ذلك اليوم . ومن هنا ، فقدان الرشد بالذعر . ومن هنا استسلام هذه النفوس الكبيرة كلها . لقد سقط اولئك الذين فتحوا اوروبة على الارض ، بعد ان لم يجدوا شيئاً اضافياً

يقولونه او يعملونه ، مستشعرين وجوداً رهيباً في الظلام . *Hoc erat in fatis* *
في ذلك اليوم ، تغيّر مستقبل الجنس البشري . إن واترلو هي مَفصِل الباب الذي دار عليه القرن التاسع عشر . فقد كان زوال الرجل العظيم ضرورياً لمجيء القرن العظيم . ولقد تولى القيام بهذه المهمة كائنٌ ما ، لا يُناقَش في ارادته . وهكذا يُفصح ذعر الابطال عن نفسه . إن في معركة واترلو اكثر من سحابة ، إن فيها شهاباً . لقد مرّ الرب من فوقها .

وفيما الليل يهبط على ساحة قرب جيناب أوقف « برنار » و « برتران »، بعد ان امسكا بذيل معطفه ، رجلاً شكساً ذاهلاً كالح الوجه كان التيار قد اساقه حتى تلك النقطة ، ثم ترجّل وأمرّ زمام فرسه تحت ذراعه ورجع ادراجه وحيداً شارد النظرات نحو واترلو . كان هو نابوليون ، وكان يحاول الهجوم كرة اخرى : عملاقٌ يسير ، وهو نائم ، في غمرة هذا الحلم المنهار .

١٤
المربع الأخير

كانت بضعة مربعات من الحرس قد صمدت حتى الليل ، غير متحركة وسط تيار الانهزام ، فكأنها الصخور وسط المياه الجارية . لقد دنا الليل ، ودنا الموت ايضاً ، ولكنها انتظرت هذا الظلام المزدوج ، واستسلمت غير متزعزعة لعناقه . كانت كل سرية ، وقد انعزلت عن سائر السرايا ، وانقطع كل اتصال لها بالجيش ، الذي كان ينهار في

* تعبير لاتيني من كلام هوراس معناه : « ذلك ما كنت ارغب فيه » . وهو يذكر حين يتحدث عن أمنية يكون في تحقيقها استجابة لجميع الرغبات .

الجهات جميعاً – كانت كل سرية تموت وحدها . لقد اتخذت تلك السرايا مواقع لهذا الصراع النهائي : بعضها فوق روابي روسوم وبعضهـا في سهل « مون سان جان » . وهناك ، حشرجت هذه المربعات الكالحة مهجورةً ، مغلوبةً ، فظيعةً – على نحو رهيب . كانت « أولم » * و « واغرام » ** و « جينـا » *** و « فريدلاند » **** تموت فيها .

وعند الغسق ، حوالى الساعة التاسعة مساءً ، وعلى سفح نجْدِ « مون سان جان » لم يبق غير مربع واحد . في هـذا الوادي المشؤوم ، وعند قعر ذلك المنحدر الذي تسلّقه الدارعون والذي ازدحمت فيه الآن الحشود الانكليزية ، وتحت النيران المركزة التي صوّبتها مدفعية العدوّ المنتصرة ، وتحت عاصفة رهيبة من القذائف ، واصلَ هذا المربّع القتال . كان يقوده ضابط مغمور يدعى كامبرون . وعند كل طلقة ، كان هذا المربع يتناقص ولكنه يردّ على النار . كان يردّ على قذيفة المدفع برصاص البندقية ، مضيّقاً جدرانه الاربعة على نحو موصول . ومـن بعيد ، كان الجنود الفارون يسمعون وسط الظلام – وقد وقفوا لحظةً لاهثين – هذا الرعدَ الكئيب يتضاءل .

وحين أمسى ذلك الفيلق مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، حـين أمست رايتهم مجرد خرقة ليس غير ، حين أمست بنادقهم ، وقـد

* Ulm مدينة من مدن وورتنبرغ ، الدويلة الالمانية القديمة ، وتقع على الدانوب واشتهرت بالمعركة التي دارت فيها (٢٠ تشرين الاول ١٨٠٥) بين النمسويـين والفرنسيين وانتهت بهزيمة القوات النمسوية ، يقودها الجنرال « ماك » Mack في وجه نابوليون .

** Wagram قرية في النمسا ، قرب فيينا ، حيث انتصر نابوليون انتصاراً باهراً على الارشيدوق شارل ، في ٦ تموز ١٨٠٩ .

*** Jena مدينة المانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين (١٤ تشرين الاول ١٨٠٦)

**** Friedland احدى مدن بروسية الشرقية ، وقد انتصر فيها نابوليون على الروس (١٤ حزيران ١٧٠٨) وعلى اثر هذه المعركة عقدت معاهدة تلسيت الشهيرة .

أعوزتها الذخيرة ، بجرد عصيّ ليس غير ، حين امسى ركام الاموات اكبر من مجموع الأحياء ، دبّ في نفوس الفاتحين ضربٌ من الذعر المقدس حول هؤلاء الشهداء العظام ، واعتصمت المدفعية الانكليزية – وقد وقفت لتأخذ نفَساً – بحبل الصمت . كان ذلك نوعاً من الاستراحة . ذلك بان هؤلاء المقاتلين وجدوا حولهم شبه جماعة من الاشباح ، وخيالات الرجال الداكنة على صهوات الخيل ، وصورة المدافع الجانبية السوداء ، والسماء البيضاء وقد تبدت من خلال الدواليب وعربات المدافع . لقد تقدم نحوهم رأس المنية الماثل الذي يلمحه الابطال دائماً وسط دخان المعركة ، وحدّق اليهم . لقد سمعوا في ظلمة الغسق شحْن المدافع بالقذائف ؛ وطوّقت الفتائل المشعَلة رؤوسهم وكأنها عيون الاغوار في الليل ، وواكبت المدفعيةَ الانكليزية جميعُ القضبان المزوّدة رؤوسها بفتائل لاطلاق النار من المدافع ، وفجأة انبرى جنرال انكليزي تأثر بتلك البطولة ، فأمسك بلحظة الموت المتدلية فوق رؤوس هؤلاء الرجال ، وكان هذا الجنرال هو « كولفيل » عند بعضهم و « ميتلاند » عند بعضهم الآخر – وصاح مخاطباً اياهم : « ايها الفرنسيون البواسل ، استسلموا ! » فأجابه كامبرون : « خراء ! »

١٥
كامـــبرون

إن الاحترام للقارىء الفرنسي يقضي بأن لا نكرر على مسمعه كلمة قد تكون اروع ما نطق به فرنسيّ مدى الدهر . فمن المحظور علينا ان نتخلى عن الاسلوب الرفيع في التاريخ .

ولكنا ، على مسؤوليتنا ، ننتهك حرمة هذا الحظر .

واذن ، فقد كان بين هؤلاء العمالقة جبار ، إنه كامبرون .

واي شيء اعظم من ان تقول تلك الكلمة ، ثم تموت بعد ذلك ! لأنّ تقبُّلك الموت يعْدل الموت . وليس الخطأ على هذا الرجل اذا كان قد عُمّر وسط عاصفة من القذائف .

ان الرجل الذي كسب معركة واترلو ليس نابوليون المنقلب على عقبيه ، وليس ولينغتون المنكفيء في الساعة الرابعة ، اليائس في الساعة الخامسة . وليس بلوخر الذي لم يقاتل قط . إن الرجل الذي كسب معركة واترلو هو كامبرون..

فلأن تفجّرَ مثل هذه الكلمة في وجه الصاعقة التي تقتلك يعني النصر .

ولأن تردّ على الكارثة بهذا الجواب ؛ أن تقول هذا للقدَر ؛ ان يقدم هذه القاعدة لأسد المستقبل ؛ أن تصفع بهذه الاجابة مطَر الليلة البائحة ، وجدار هوغومون الخائن ، وطريق أوهين الغائر ، وتأخر غروشي ، ووصول بلوخر ؛ ان تكون ساخراً امام عتبة القبر ؛ أن تسلك وكأنك تريد ان تظل واقفاً بعد ان يتحتم عليك السقوط على الارض ؛ ان تُغرق بمقطعين اثنين التحالف الاوروبي ؛ أن تقدّم الى الملوك هذه المراحيض التي عرفها القياصرة من قبل ؛ ان تجعل آخر الكلمات أولاها بان تضمّ اليها مجد فرنسة ؛ ان تختم واترلو ، في سفاهة ، بثلاثاء المرفع * ؛ ان تُكمل ليونيداس ** بـ « رابليه » *** ؛ ان تلخص هذا النصر بكلمة عليا لا يمكن ان

* هو آخر ايام الكارنفال عند الطوائف الغربية .

** ليونيداس الاول ملك اسبارطة من ٤٩٠ – ٤٨٠ ق . م وهو بطل فجاج الـ « تيرموبيل » في تسالية وقد دافع عنها ضد الفرس وليس معه غير ثلاثمئة رجل . واذ لم يستطع ملك الفرس ان يصدق ان في ميسور هذه الحفنة من الرجال ان تصده عن سبيله بعث الى ليونيداس برسالة يقول فيها : « الق سلاحك ! » فكتب الاسبارطي في ادنى الرسالة : « تعال وخذه ! »

*** Rabelais الاديب الفرنسي الانساني الشهير (١٤٩٤ – ١٥٥٣) ولم يكن يجد حرجاً في ان يضمن كتاباته بعض الالفاظ البذيئة .

تلفظ ، ان تخسر الميدان وتحتفظ بالتاريخ ، أن تكون الضحكة الى جانبك بعد هذه المجزرة كلها - أن تفعل ذلك كله شيء عظيم فائق كل حدّ .

إنها إهانة للصاعقة . وفي ذلك ما يسمو الى مرتبة العظمة الاشيلية .

ان كلمة كامبرون هذه لتخلّف أثراً كأثر الانقصاف . انها انكسار قلب بالسخرية ؛ انها طِفاح الحشرجة الذي ينفجر . من الذي غَلَب ؟ ولينغتون ؟ لا . فلولا بلوخر لهلك . بلوخر ؟ لا . فلو لم يبدأ ولينغتون لما كان في ميور بلوخر ان يُنهي . إن كامبرون هذا ، إن عابر اللحظة الاخيرة هذا ، إن هذا الجندي المغمور ، إن صغير الحرب هذا المتناهي في الصغر ليحسّ بان ثمة كذبة في كارثة — شيء مرير على نحو مزدوج — وفي اللحظة التي كان ينفجر خلالها من الغيظ تُقَدّم اليه هذه السخرية اللاذعة : الحياة ! فكيف يستطيع ان يملك نفسه ؟ إنهم كلهم هناك ، ملوك اوروبة جميعاً ، والجنرالات السعداء ، والجوبتيرات * المرعدون . إن معهم مئة الف من الجنود المنتصرين ، وان خلف المئة الف ، مليوناً . إن مدافعهم ، وقد أشعلت فتائلها ، لتفغر أفواهها . لقد داسوا « الحرس الامبراطوري » و « الجيش العظيم » باقدامهم . لقد سحقوا نابوليون ، ولم يبقَ غير كامبرون وحده . لم يبق احد غير حشرة الارض هذه لكي تحتجّ . ولسوف يحتجّ . ثم إنه يبحث عن كلمة كما يبحث المرء عن سيف . ويُزْبد فمه ، فيكون هذا الزبد هو الكلمة . فأمام هذا النصر الاعجوبي المزيل ، امام هذا النصر الذي لا منتصرين فيه ، يتصدّر هذا الرجل اليائس . انه يقاسي ضخامته ، ولكنه يستجلي عَدَميّته ، فلا يزيد على ان يبصق عليه . واذ كان يرزح تحت ثقل الارقام والقوة المادية ، يعثر في روحه على تعبير — الغائط .

---

* جمع جوبتير ، او المشتري ، وهو في الميثولوجيا الرومانية أبو الآلهة وسيدهم ؛ ويقابله « زيوس » عند الاغريق .

ونكرّر ما قلناه من قبل : إن قول ذلك ، إن عمل ذلك ، إن العثور على ذلك ، يجعل كامبرون هو المنتصر .

لقد نفذت روح الايام العظيمة الى هذا الرجل المغمور ، عند تلك اللحظة المشؤومة . ويجد كامبرون كلمة واترلو ، كما يجد روجيه دو ليل * المارسييز ، بإلهام علويّ . ان ومضة من الصاعقة الالهية لتنطلقُ ، فتمرّ من فوق هذين الرجلين فيرتعدان ، فأما احدهما فينشد النشيد الأسمى ، واما الآخر فيطلق الصيحة الفظيعة . وهذه الكلمة ذات السخرية الجبارة ، لا يقذف بها كامبرون في وجه اوروبة وحسب ، باسم الامبراطورية ، فجديرٌ بهذا ان يكون قليلًا . إنه يقذف بها في وجه الماضي ، باسم الثورة . وتُسمع تلك الكلمة ، ويكتشف النـاس ، في كامبرون ، روح العمالقة القديمة . لقد بدت وكأنها خطاب لدانتون ، او زأرة لكليبر . **

وردّاً على كلمة كامبرون هذه أجاب الصوت الانكليزي : « النار ! » والتهبت المدافع ، وارتجفت التلة ، ومن جميع الافواه النحاسية انطلق قيء من القذائف نهائيّ ، مروِّع . والتف دخان عريض باهت البياض على ضوء القمر الطالع ، وحين تبدّد الدخان لم يبق ثمة شيء . لقـد أبيدت تلك البقية المخيفة ؛ لقـد لقي الحرس حتفهم . كانت جدران المتراس الحيّ الاربعة قد انهارت ، فما يكاد المرء يتبين هنا وهناك اختلاجة بين الجثث . وهكذا قضت الفيالق الفرنسية ، وهي اكبر من الفيالق الرومانية ، نحبها ، في « مون سان جان » ، فوق ارض منقوعة بالمطر والدم ، في حقول القمح القاتمة ، حيث يمرّ اليوم عند الساعة الرابعة

---

* Roger de l'Islé وهو الذي وضع ، عام ١٧٩٢ ، نشيد فرنسة الوطـني ، المارسييز : Marseillaise

** Kléber جنرال فرنسي (١٧٥٣ – ١٨٠٠) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر بعد عودة بونابرت . وقد قتل بيد احد المماليك .

صباحاً ، جوزيف الذي يقود عربة البريد من نيفيل ، صافراً مبتهجاً وهو يُلهب حصانه بالسوط .

١٦
كم بارة في الليرة ؟

إن معركة واترلو لغز . إنها مغلقةٌ دون أفهام الذين كسبوها والذين خسروها على السواء . لقد كانت في نظر نابوليون ، ذعراً * ولم يكن بلوخر ليرى فيها غير نار . أما ولينغتون فليس يفهم منها شيئاً . أنظر الى التقارير . إن البيانات الرسمية لمضطربة ، وإن الشروح لغامضة . الاولى تتلجلج ، والاخرى تتلعثم . لقد جزّأ جوميني معركة واترلو أدواراً اربعة . وقسمها موفلنغ الى ثلاثٍ من دورات الحظ . أما شارّا فكان هو وحده – برغم اختلافنا معه في الرأي ، في بعض النقاط – الذي ادرك بثاقب نظره الملامح المميّزة لكارثة العبقرية الانسانية تلك في صراعها مع القَدَر الالّهي . على حين ان سائر المؤرخين يعميهم البهاء ، فهُم يتلمّسون طريقهم في ذلك الظلام . إنه في الحق يومٌ ساطعٌ كالبرق ، يومُ سقوط الملكية العسكرية الذي جرّ وراءه – ويا لدهشة الملوك ! – الممالكَ جميعاً ؛ يومُ انهيار القوة ، وانهزام الحرب .

وفي هذا الحدث ، الحامل طابع الضرورة فوق البشرية ، لم يكن دور الانسان شيئاً مذكوراً .

---

* « لقد اختُتمت معركة ، وأُكمل يوم ، وأصلحت مقاييس فاسدة ، وضُمنت للغد انتصارات أعظم – ولكن كل ذلك ضاع في لحظة من الذعر . »

(نابوليون ؛ أماليّ سانت هيلانة .)

[هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي]

أيؤدي انتزاع واترلو من ولينغتون ومن بلوخر الى انتزاع شيء من انكلترة والمانيه ؟ لا . إن أياً من انكلترة المجيدة أو المانية الجليلة ليست هي المقصودة في مشكلة واترلو . ومن نعم السماء أن الشعوب لا تتأثر بحظوظ السيف الفاجعة . فلا المانية ، ولا انكلترة ، ولا فرنسة ُحبست في غمد . ففي هذه الحقبة التي كانت واترلو فيها صليلَ سيوف ليس غير ، كانت المانية تزهو ، فوق بلوخر ، بـ « غوته » ، وكانت انكلترة تزهو ، فوق ولينغتون ، بـ « بايرون » . إن نهضة فكرية واسعة لتميز عصرنا ، وإن لانكلترة وألمانية نصيباً رائعاً في هذا الفجر . إنهما عظيمتان لأنهما تفكران . وان المستوى الذي يرفعان الحضارة اليه جوهريّ فيهما . إنه ينبثق من ذاتيهما ، لا من حادثة بعينها . إن التقدم الذي حققناه في القرن التاسع عشر لا ينبع من واترلو . فالشعوب المتبربرة وحدها هي التي تنعم بنموّ مفاجيء بعد إحرازها نصراً ما . إنه َصلَفُ السّيول الزائل وقد نفختها العاصفة . اما الشعوب المتمدنة ، وبخاصة في زماننا هذا ، فلا يرفع من قدرها او يحطّ منه حسن طالع قائدٍ عسكري او سوء طالعهِ . إن ثقلها النوعي في الجنس البشري لينشأ عن شيء اكثر من الحرب . إن شرفها — والحمد لله — وكرامتها ، وضياءها ، وعبقريتها ، ليست ارقاماً يستطيع الابطال والفاتحون — اولئك المقامرون — ان يقذفوا بها في يانصيب المعارك . وكثيراً ما تكون المعركة الخاسرة تقدّماً ُيحرَز . مقدار اقلّ من المجد ، يقابله مقدار أكثر من الحرية . إن الطبل ليصمت ، وإن العقل ليتكلم . تلك هي اللعبة التي يربح فيها الفريقُ الخاسر . فلنتحدث إذن عن واترلو ، في برود ، من الجانبين . فلُنرجع ما للحظّ الى الحظّ ، ولُنرجِع ما لله الى الله . مــا هي واترلو ؟ َنصْر ؟ لا . إنها يانصيب .

يانصيب ربحته اوروبة ، ودفعته فرنسة .

ولم يكن كثيراً ان يقام تمثال اسدٍ هناك .

وواترلو ، فوق هذا ، أعجب موقعة في التاريخ . نابوليون وولينغتون : إنهما ليسا عدوّين ، إنهما نقيضان . فلم يُقِم الله في يوم من الايام - وهو المولع بالمتناقضات - مغايرةً اكثر روعة ، والتقاء أشدّ خروجاً على نسق العادة . فمن جانب ، كانت الدقة ، والتبصّر ، والهندسةُ ، والفطنة ، والتقهقر المضمون ، والاحتياطي المقتصَد فيه ، ورباطة الجأش العنيدة ، وطريقة ثبتة الجنان ، واستراتيجية تقوم على الاستفادة من الارض ، وفنّ حربيّ يهدف الى اقامة الموازنة بين الافواج ، ومجزرة تُساق الى خط القتال ، وحرب تدار والساعة في اليد ، وعدم ترك شيء - على نحو إرادي - للمصادفة ، وشجاعة كلاسيكية قديمة ، والضبط المطلق . ومن جانب آخر ، كان الحدس ، والالهام ، والاعجوبة العسكرية ، والغريزة فوق البشرية ، واللمحة الملتهبة ، وشيء خفيّ يحدّق كالنسر ، ويصعق كالصاعقة ، وفنّ مدهش في اندفاع ينضح بالاحتقار ، وجميع اعاجيب النفس البعيدة الغور ، والألفة مع القدَر ، ودعوة النهر والسهل والغابة والكثيب ، بل إكراهها بمعنىً من المعاني ، علـى الخضوع ، وذهاب الطاغية الى حدّ فرض طغيانه على ميدان المعركة ، والايمـان بطالع مقرون الى العلم الاستراتيجي فهو يزيده ، ولكنه يكدره . كان ولينغتون « باريم » * الحرب ، وكان نابوليون « ميكال آنجها » ** ، وهذه المرة غلب الحسابُ العبقرية .

كان كل من الفريقين ينتظر شخصاً ما . وكان الحاسب الدقيق هو الذي نجح . نابوليون انتظر غروشي ، فلم يجيء . وولينغتون انتظر بلوخر ، وقد جاء .

إن ولينغتون هو الحرب الكلاسيكية تنتقم . وكان نابوليون ، وهو في فجره ، قد التقاها في ايطالية ، وهزمها بسموّ . لقد فرّت البومة

---

* B.F.Barême رياضي شهير وضع جدول حسابات حاضرة للاستعمال ، عرف باسمه .

** ميكال آنج، العبقري الايطالي الشهير ، وكان رساماً ، ونقاشاً، ومعماراً وشاعراً في آن معاً.

العجوز من وجـــه العُقاب الشاب . ان الفنّ الحربي القديم لم يُصعق فحسب ، ولكنه أُهين إهانة قاتلة . من كان هذا الكورسيكيّ ذو الستة والعشرين ربيعاً ؟ ما معنى هذا الجاهل الباهر الذي كان كل شيء ضده، ولا شيء معه ، والذي لم يكن عنده مؤن ، ولا ذخائر ، ولا مدافع، ولا احذية ، والذي كان من غير شيء تقريباً فليس معه غير حفنة من الرجال يواجه بها الحشود الغفيرة ، ومع ذلك فقد هجم عـــلى اوروبة المتحالفة و كـب ، على نحو غير معقول ، انتصارات كانت مستحيلة ؟ من اين اقبل هذا المجنون الصاعق الذي وُفق من غير ان يأخذ نفَساً تقريباً ، وفي يده مجموعة المقاتلين نفسها ، الى ان يسحق جيوش امبراطور المانية الخمسة ، واحداً إثر واحـــد ، منكّساً « بوليو » * عـــلى « آلفينزي » ** ، و « وورمسر » *** عـــلى « بوليو » ، و « ميلاس » **** على « وورمسر » ، و « ماك » ***** عـلى « ميلاس » ؟ من هذا الوافد الجديد على دنيا الحرب بوقاحة كوقاحة الكواكب ؟ لقد اصدرت المدرسة الحربية الاكاديمية حَرْمها ضده فيما هي تولي فراراً . ومن هنا تلك الكراهية الحقود التي ابداها نظـام الحرب القديم نحو الجديد ، والحسام الصحيح نحـــو السيف المتألق ، ورقعة الشطرنج نحو العبقرية . وفي ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ كانت لهذه الكراهية

---

* Beaulieu جـــنرال نمسوي (١٧٢٥ — ١٨١٩) اشترك في حرب السنوات السبع ، وهزمه بونابرت في ايطالية .

** Alvinzy جنرال نمسوي (١٧٣٥ — ١٨١٠) هزمه بونابرت في آركولا عام ١٧٩٦ وفي ريفولي عام ١٧٩٧ .

*** Wurmser جنرال نمسوي (١٧٢٤ — ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيغليون من اعمال ايطالية .

**** Melas جنرال نمسوي (١٧٢٩ — ١٨٠٦) هزم في مارانغو .

***** Mack جنرال نمسوي (١٧٥٢ — ١٨٢٨) وقد حاصره نابوليون في « أولم » فاستسلم هو وجنوده الثلاثون الفاً من غير قتال .

الكلمة الاخيرة ، وتحت « لودي » * و « مونتيبيلو » ** و « مونتينوت » *** و « مانتو » **** و « ماراغنو » و « آركولا » ***** كتبت : **واترلو** . انتصار العاديّ ، وإنه لمذب في نفوس الاكثريات . وارتضى القدر هذه السخرية . ففي ساعة سقوطه وجد نابوليون نفسه امام « وورمسر » كرة اخرى ، ولكن « وورمسر » كان غضّ العود هذه المرة .

والحق انه لم يكن محتاجاً الى أكثر من تبييض شعر ولينغتون لكي يرى « وورمسر » رأي العين .

إن واترلو معركة من الطراز الاول كسبها قائدٌ من الطراز الثاني.

وإن ما ينبغي ان نعجب به في معركة واترلو هو انكلترة ، هو الصلابة الانكليزية ، هو العزم الانكليزي ، هو الدم الانكليزي . إن الشيء الرفيع الذي كان لانكلترة هناك – وأرجو ان لا يسوءها ذلك – هو ذاتها . إنه لم يكن قائدها ، ولكن جيشها .

لقد وجّهَ ولينغتون ، في عقوق عجيب ، رسالةً الى اللورد باثورست ، صرّح فيها بأن جيشه ، ذلك الجيش الذي قاتل في ١٨ حزيران ١٨١٥ ، كان « جيشاً بغيضاً » . فما رأي هذا المجتمع الداكن من العظام الدفينة تحت اخاديد واترلو ، في ذلك ؟

لقد كانت انكلترة متواضعة ، اكثر مما ينبغي ، إزاء ولينغتون .

---

* Lodi مدينة في ايطالية انتصر فيها بونابرت على النمسويين عام ١٧٩٦

** Montebello قرية ايطالية هزم فيها النمسويون مرتين ، الاولى على يد القائد لان Lannes سنة ١٨٠٠ والثانية على يد الجنرال فوري Forey عام ١٨٥٩ وانما يشير المؤلف الى الهزيمة الاولى.

*** Montenotte قرية في ايطالية ، انتصر فيها بونابرت على قوات بوليو النمسوية عام ١٧٩٦

**** Mantoue مدينة ايطالية حصينة استولى عليها بونابرت عام ١٧٩٧

***** Arcola من اعمال ايطالية ، حيث هزم بونابرت النمسويين واظهر بسالة شخصية فائقة (١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٦) .

والواقع ان في تعظيم ولينغتون الى هذا الحد انتقاصاً من قدر انكلترة. فليس ولينغتون غـــير بطل مثل سائر الأبطال . ولكن هذه القوات الاسكتلندية الرمادية ، هؤلاء الحرس الفرسان ، هذه السرايا التي قادها « ميتلاند » و « ميتشيل » ، وهؤلاء الرجـالة الذين قادهم « باك » و « كمبت » ، وهذه الخيالة التي على رأسها « بونسونبي » و « سومرست » ، وهؤلاء الاسكتلنديون الجبليون العازفون على مزاميرهم تحت وابـــل القذائف ، وافواج « رايلانت » هذه ، وهـؤلاء المجندون الجدد الذين ما يكادون يعرفون كيف يطلقون النار من البندقية ، والذين صمدوا في وجه افواج « إيسلنغ » * و « ريفـــولي » ** ولكن ذلك كله هو العظيم حقاً . لقد كان ولينغتون عنيداً ، وتلك مـــوهبته ، ونحن لا ننتقص من قدرهـا . بيد أن اصغر جندي من جنوده الرجالة او من جنوده الخيالة تكشّف عن صلابة لا تقلّ عن صلابته . كان الجنـــدي الحديدي يَعدِل « الدوق الحديدي » . *** اما نحن ، فكلّ تمجيدنا ينصبّ على الجندي الانكليزي ، والجيش الانكليزي ، والشعب الانكليزي. واذا لم يكن بدّ من إقامة نُصُب لذكرى انتصار ، فأن انكلترة هي التي تستحق هـذا النصب . ولقد كان نصبُ واترلو خليقاً بأن يكون اقرب الى تمثيل الواقع لو رفع الى الغمام تمثالَ أمة ، لا وجهَ رَجُل .

ولكن انكلترة العظيمة هذه سوف تغضب لما سنقوله هنا . إنها لا تزال تحتفظ ، بعد عام ١٦٨٨ **** ، وهو عامها ، وبعد عام ١٧٨٩ *****

* Essling قرية نموية ، انتصر فيها الفرنسيون على النمسويين سنة ١٨٠٩ .

** Rivoli قرية ايطالية هزم فيها بونابرت النمسويين سنة ١٧٩٧ .

*** يقصد ولينغتون .

**** هو العام الذي ثار فيه الشعب الانكليزي على الملك جيمس الثاني ، وخلعه . وتعرف هذه الثورة بالثورة المجيدة . وقد كان من نتائجها اصدار البرلمان « بيان الحقوق » المشهور .

***** عام الثورة الفرنسية .

وهو عاماً ، بالوهم الاقطاعي . إنها تـؤمن بالحق الموروث ، وبنظام المراتب . وهذا الشعب ، الذي لا يفوقه احدٌ قوةً ومجداً ، يعـتزّ بنفسه كدولة لا كشعب . والانكليز يغالون في ذلك الى درجة تجعلهم يخضعون ، بوصفهم شعباً ، خضوعاً إرادياً ، ويرتّـون عليهم لورداً من اللوردات . فأما العامل فهم يُجيزون ازدراءه ، وأما الجندي فهم يجيزون جلده بالسياط . ونحن نذكر أنـه في معركة إنكرمانٍ * انقذ جندي ، برتبة رقيب ، الجيشَ كله ، في ما يبدو ، ومع ذلك فـلم يكن في ميسور اللورد راغـلان ** ان ينوّه باسمه ، لأن المَرْتبية العسكرية الانكليزية لا تسمح بأن يشاد في التقارير باسم أيمـا بطل لمّا يصلْ الى مرتبة الضباط .

إن ما يعجبنا فوق كل شيء ، في واقعة مثل واترلو ، براعةُ الحظ الأعجوبية . هطول المطر ليلاً ، جدار هوغومون ، طريق أوهين الغائرة ، صمم غروشي عن صوت المدفع ، دليل نابوليون الذي يخدعه ، ودليـل بولوف الذي يهديه سواء السبيل — كل هذا الطوفان قد سِيق على نحو رائع عجيب .

وعلى الجملة — ولنقلْ ذلك — فأن واترلو مذبحةٌ اكثر منها معركة .

فبين جميع المعارك العظمى كانت واترلو هي صاحبة أقصر جبهـة بالنسبة الى عدد الجند الذين خاضوا غمرة القتال . فجبهة نابوليون ثلاثة ارباع الفرسخ ، وجبهة ولينغتون نصف فرسخ *** واثنان وسبعون الف مقاتل في كل من الجبهتين . ومن هذه الكثافة انبثقت المجزرة .

لقد أجري إحصاء أثبتت على ضوئه هذه النسبـة : — الخسائر في

* Inkermann احـدى مدن القرم ، حيث هزم الفرنسيون والانكليز القـوات الروسية في معركة ضارية . (٥ تشرين الثاني ١٨٥٤)

** Raglan جـنرال انكليزي (١٧٨٨ — ١٨٥٥) وقد قاد الجيش الانكليزي في حرب القرم ، ومات بالكوليرا في حصار سيباستوبول .

*** او ميلان وميل ونصف .

الرجال : في **اوسترليتز**، الفرنسيون ، اربعة عشر بالمئـــة ؛ الروس ، ثلاثون بالمئة ؛ النمسويون ، اربعة واربعون بالمئة . في **واغرام** ، الفرنسيون، ثلاثة عشر بالمئة ، النمسويون ، اربعة عشر بالمئـــة . في **الموسكوفا** ، الفرنسيون ، سبعة وثلاثون بالمئة ، الروس ، اربعة واربعون بالمئة . في **بوتزن** * ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، الروس والبروسيون ، اربعة عشر بالمئة . في **واترلو** ، الفرنسيون ، ستة وخمسون بالمئة ، الحلفاء ، واحد وثلاثون بالمئة . المعدّل الوسطي في واترلو ، واحد واربعون بالمئة . مئة واربعة واربعون الف مقاتل ، ستون الف قتيل .

ويبدو على ساحة واترلو اليوم ذلك الهدوء الذي هو مِلك الارض ، دعامة الانسان المعصومة عن التأثر . إنها تشبه ايما سهل آخر .

بيد ان ضرباً من الضباب الوهمي ينبعث منه في الليل ، ولو ان مسافراً اجتاز به ، لو انه نظر ، لو انه اصغى ، لو انه حلم مثـــل فرجيل في سهول فيليبي ** المشؤومة ، إذن لاستبـــدّت به هلوسة الكارثة . إن يوم ١٨ حزيران الفظيـــع ليتمثل له من جديد . وتتلاشى تلك النصب الاصطناعية ، ويتبدّد هذا الاسد ، كائناً ما كان ، ويستعيد ميدان القتال حقيقته ، وتتموج صفوف الرجالة في السهل ، ويعبر الافق خببٌ ضارٍ ، ويرى الحالم الذاهل وميض السيوف ، وبريق الحراب ، وانفجار القنابل ، وتمازُج الرعود الفظيـــع ، ويسمع ، مثل حشرجة في أعماق قبر ، ضجة « المعركة الطّيف » الغامضة . هذه الظلال هي رماة القنابل ، هذه البوارق هي الدارعون ، هذا الهيكل العظمي هو نابوليون ، هذا الهيكل العظمي هو ولينغتون . كل هذا وهميّ ، ومع ذلك فهو يتصادم ويصطرع . وتغدو الاودية ارجوانية ، وترتجف الاشجـــار ،

---

* Bautzen مدينة المانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين والروس عام ١٨١٣ .

** في مقدونية ، على مقربة مـــن البحر ، حيث هزمت قوات انطونيوس واوكتافيوس قوات بروتوس وكاسيوس عام ٤٢ ق.م .

ويعصف الفوران حتى بالسحب ؛ وفي الظلمة ، تبدو جميع هذه الروابي الوحشية – « مون سان جان » ، و « هوغومون » و « فريشمون » و « بابيلوت » ، و « بلانسنوا » ، وكأنها متوّجة على نحو مضطرب بعواصف من الاشباح يفني بعضها بعضاً .

١٧

أينبغي لنا أن نستحسن واترلو ؟

إن ثمة مدرسة متحررة تتمتع باحترام كبير لا تبغض واترلو على الاطلاق . إننا لسنا من هؤلاء . فواترلو ليست ، عندنا ، غير موعد الحرية المشدوه . ولأن ينطلق نسرٌ كهذا من بيضة كهذه لهو من غير ريب شيء غير متوقّع .

ان واترلو – اذا وضعنا انفسنا في أعلى قُنن المسألة – هي عمداً انتصارٌ مضاد للثورة . إنها اوروبة ضد فرنسة . انها بطرسبرج ، وبرلين ، وفيينا ضد باريس . انها « الوضع الراهن » *Statu quo* ضدّ المبادرة . انها ١٤ تموز ١٧٨٩ يُهاجَم من خلال ٢٠ آذار ١٨١٥* . انها العدة التي أعدتها الممالك ضد الانتفاضة الفرنسية الجامحة . يجب ان يُباد ، آخر الامر ، هذ الشعب العريض الآخذ بأسباب الثورة منذ ستة وعشرين عاماً – هكذا كان الحلم . انها تضامن دوقات برونزيك ، ودوقات ناسّو ، وآل رومانوف ، وآل هوهنزيلرن ، وآل هبسبورغ مع آل بوربون . ان واترلو لتردف وراءَها الحقّ الالهي . صحيح أن الامبراطورية ، وقد كانت ديكتاتورية ، أكرهت الملكية ، بالرجع

* هو اليوم الذي دخل فيه نابوليون باريس اثر عودته من منفاه بجزيرة البا .

الطبيعي للاشياء ، على ان تكون متحررة ؛ وأن نظاماً دستورياً قد انبثق – على نحو غير مباشر – عن واترلو ، مما أثار اعظم الاسف عند الفاتحين . والحق ان الثورة لا يمكن ان تُقهر ، وانها بسبب من كونها الـٓهية المنشأ ومحتومة على نحو مطلق تعاود الظهور من غير انقطاع ؛ لقد ظهرت – قبل واترلو – في بونابرت يحطم العروش العتيقة ، وظهرت – بعد واترلو – في لويس الثامن عشر يمنح الدستور ويخضع له . لقد اقام بونابرت سائق عربة على عرش نابولي ، وأقام جندياً برتبة رقيب على عرش السويد ، مصطنعاً اللامساواة لأظهار المساواة . ولقد وقّع لويس الثامن عشر ، بدووه ، في سان أووين ، على اعلان حقوق الانسان . أتريد ان تدرك ما الثورة ؟ سمّها تقدماً . أتريد أن تدرك ما هو التقدم ؟ سمّه الغد . ان الغد يقوم بعمله على نحو لا يقاوَم وهو يقوم به منذ اليوم . وهو يبلغ غاياته ، أبداً ، بوسائل غير متوقعة . انه يستعمل ولينغتون لكي يصنع « فوا » * الذي لم يكن غير جندي ، غير خطيب . ويسقط « فوا » في هوغومون ، ولكنه ينهض كرة أخرى على منبر الخطابة . وهكذا يمضي التقدم الى أمام . وليس من وسيلة تخطىء عند هذا العامل . انه يكيّف وفقاً لعمله الالهي من غير ان يحار أو يقلق ، الرجلَ الذي اجتاز الالب بخطى عراض ، ومريض الـ « بير ايليزيه » العجوز الطيب المترنح . انه يفيد من المصاب بداء مفاصل الارجل كما يفيد من الفاتح في ؛ – الخارج ، ومن المصاب بداء مفاصل الأرجل في الداخل . ان واترلو ، بأعاقتها تقويض العروش الاوروبية بحد السيف ، لم يكن لها من نتيجة غير مواصلة العمل الثوري من طريق أخرى . أما وقد انتهت مهمة ارباب السيوف ، فقد جاء دور المفكرين . ان العصر الذي رغبت واترلو في ان توقفه قد استأنف سيره وتابع طريقه . لقد قهرت الحرية هذا النصر المشؤوم .

* Foy جنرال فرنسي غطى انسحاب الجيش من اسبانية ١٨١٤ وجرح في واترلو (١٧٧٥ – ١٨٢٥)

وجماع القول الذي لا ريب فيه ان ذلك الذي انتصر في واترلو ؛ ذلك الذي ابتسم من وراء ولينغتون ؛ ذلك الذي حمل اليه عصيّ مارشالات أوروبة كلها وفيها ، كما قيل ، عصا مارشال فرنسة ؛ ذلك الذي كرّ ، في ابتهاج ، عربات التراب الملأى بالعظام لاقامة رابية الاسد ؛ ذلك الذي خطّ ، مظفراً ، فوق قاعدة التمثال تلك هـذا التاريخ : ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ؛ ذلك الذي شجع بلوخر على ان يُعمل السيف في رؤوس الجند الفارين ؛ ذلك الذي اطلّ على فرنسة ، من قمة نجـد « مون سان جان » ، وكأنه يطل على فريسة ، لم يكن غير الثورة المضادّة . إن الثورة المضادة هي التي غمغمت بهذه الكلمة المرذولة : التجزئة . حتى إذا وصلت الى باريس°، رأت فوهة البركان عن كثب . لقد استشعرت ان هذا الرماد يحرق قدميها ، فغيرت رأيها . لقد انقلبت على عقبيها وهي تتلعثم بدستور .

إن علينا انْ لا نرى في واترلو إلا ما هو في واترلو . إنها خلو من الحرية المقصودة او المتعمّدة . ذلك ان الثورة المضادة كانت متحررة عـلى نحو لا ارادي ، كما كان نابوليون ، بسبب من ظاهرة مقابلة ، ثورياً على نحو غير ارادي . في ١٨ حزيران ١٨١٥ أُسقط روبسبيير ، وكان ممتطياً صهوة جواده ، عن السرج .

١٨
نكسة الحق الألهي

انتهت الديكتاتورية ، وانهار النظام الاوروبي كله .

لقد غرقت الامبراطورية في ظلمة تشبه تلك التي غرق فيها العالم الروماني المحتضر . ولقد نهضت كرة اخرى من الهاوية كما نهضت ايام البرابرة . مع فارق وحيد هو ان بربرية عام ١٨١٥ ، التي ينبغي ان تدعى باسمها

الخاص ، الثورة المضادة ، كانت قصيرة النفس ، فما لبثت ان استبد بها اللهاث ، ونسيت ما ارادت قوله . والواقع ان الامبراطورية — ويجب ان نعترف بذلك — قد بُكي عليها ، وان الاعـين التي بكت عليها كانت باسلة . واذا كان المجد في الحسام الذي جُعل صولجاناً ، فقد كانت الامبراطورية هي المجد نفسه . لقد نشرت فوق الارض كل الضياء الذي يستطيع الطغيان ان يمنحه — ضياء قاتم . بل فلنذهب الى حد القول : ضياء مظلم . واذا قيس بالنهار الحقيقي كان ليلاً . ولقد كان لزوال الليل هذا مثلُ اثر الكسوف .

ورجع لويس الثامن عشر الى باريس . ومحا الرقصُ حلقاتٍ حلقاتٍ في ٨ تموز * حماسةَ العشرين من اذار . لقد غدا الكورسيكي ** نقيض البيارني *** وامست راية قبة التويلري بيضاء . وارتقى المنفيّ العرش . واتخذت منضدة هارتويل الصنوبرية مكانها امام الاريكة المزدانة بزنابق لويس الربع عشر . وتحدث الناس عن « بوفين » **** و « فونتنوي » ***** وكأنما وقعتا امس ، بعد ان ألمت الشيخوخة باوسترليتز . وتآخى المذبح والعرش في جلال . وتوطد في فرنسة وفي القارة شكل من اشكال المجتمع التي لا يكاد الشك يتطرق الى انها تمتعت باعظم قسط من الامن في القرن التاسع عشر . واصطنعت اوروبة

* يوم سقوط نابوليون واعادة اسرة بوربون الى العرش في شخص لويس الثامن عشر ، سنة ١٨١٥ .

** أي نابوليون بونابرت.

*** Béarnais نسبة الى الـ Béarn وهي مقاطعة فرنسية قديمة في نافار قـدر لها بواسطة هنري الرابع ان توحد فرنسة عام ١٦٠٧ والبيارني هو هنري الرابع رأس اسرة بوربون .

**** Bouvines في الشمال الفرنسي حيث هزم فليب اوغست الامـبراطورَ أوتون الرابع الجرماني ، سنة ١٢١٤ .

***** Fontenoy من اعمـال بلجيكة حيث هزم المـارشال دوساكس الانكليز والهولنديين في ١١ نوار سنة ١٧٤٥ .

شعار القبعـــة الابيض . وغـدا تريستايون * شهـــيراً . وظهر رمـز *non pluribus impar* كرة اخرى في اشعة واجهة ثكنات الـ « كي دورسيه ». فحينما كان من قبل حرس امبراطوري ، كان بيت احمر . وكان قوس كاروسيل ، وقد أثقل بالانتصارات المكسوبة على نحو اخرق ، وأمسى غريباً في هذا العهد الجديد ، وأخذه في اغلب الظن بعض الخجل من مارانغو وآركولا — قد انسلّ من المسألة بتمثال دوق آنغوليم . وكانت جبانة « لا مادلين » ؛ وهي مقبرة عام ٩٣ العمومية ، مغطاة بالرخام واليشـــب ** ، اذ كان رفـــات لويس السادس عشـر ومـــاري انطوانيت في ذلك الثرى . وفي خندق الـ « فينسين » برز من التربة نصب من انصبة المـــدافن يعيد الى الذاكرة ان دوق آنغيين *** مات في الشهر نفسه الذي توج خلاله نابوليون . والواقع ان البابا بيوس السابع ، الذي قام بمهمة التكريس هذه ، قبيل وفاته ، قد بارك السقوط في سكون ، كما بارك الصعود . وفي شونبرون كان خيال صغير في الرابعة من عمره ، وكان من الشغب ان ينادى ملك رومة . وانما تمت هـذه الاشياء كلها ، وعاد هؤلاء الملوك الى عروشهم ، ووُضع سيد اوروبـة في قفص ، وامسى النظام Régime القديم هو النظام الجديد ، وغـيّر كل ظلام الارض وكل ضياء الارض مكانهما ، لانه في اصيل يوم من ايام الصيف قال احد الرعاة لرجل بروسي في غابة : « مُرّ من هنا لا من هناك ! » .

كان عام ١٨١٥ هذا ضرباً من نيسان مظلم . لقد اتخذت الحقائـق

---

* Trestaillon احـــد زعماء العصابات الملكية ، وقـــد عاث فساداً في ضواحي « نيم » و « اوزيس » .

** اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

*** Duc d'Enghien (١٧٧٢ — ١٨٠٤) ابن لويس هـــنري جوزيف ، أمـــير كونديه ، وقد امر نابوليون به فاقتيد الى باريس وقتل رمياً بالرصاص في فينسين .

العتيقة السقيمة السامة ، أشكالاً جديدة . فتزوّج الكذب ثورة ١٧٨٩ ؛ وتقنّع الحق الالهيّ بدستور ؛ وأضحت التلفيقات دستورية ؛ واصطنعت الاحقاد ، والخرافات ، والمواربات ، بفضل المادة ١٤ المشدودة الى القلب ، طلاء من الحرية . ثعابين تبدّل جلودها .

كان نابوليون قد عظّم الانسان وصغّره في آن معاً . ففي ظـــل هذا العهد الماديّ الفخيم تلقّى المثل الأعلى (Idéal) اسم الايديوجيـــة (Idéologie)الغريب . وانها لقلةُ تبصّر خطيرة ان يعمل رجل عظيم على تحويل المستقبل الى هُزأة . ومع ذلك ، فان الشعوب – هذا الغـذاء الذي يلتهمه المدفع ، والذي هو مولع اعظم الولوع بالمدفعي – راحت تبحث عنه . أين هو ؟ ماذا يعمل ؟ وقال زائر لأحد مشوّهي مارانغو وواترلو : « لقد مات نابوليون . » فصاح الجندي : « **هو قد مات ! أواثق أنت من ذلك ؟** » لقد تحدّت الخيالات هذا الرجل المهـزوم . كان قلب أوروبة ، بعد واترلو ، مظلماً ولقد ظل شيء هائل فارغاً ، فترة طويلة ، بعد زوال نابوليون .

وطرح الملوك انفسهم في هذا الفراغ . وأفادت أوروبة العجوز من ذلك لكي تتخذ شكلاً جديداً. لقد عقدت محالفة مقدسة .(Sainte Alliance) *
وكانت ساحة واترلو المشؤومة قـد قالت مقـدّماً « بيـــل آليانس » (Belle Alliance) **

وفي حضرة اوروبة هذه العتيقة المجدّدة ، وتجاهها ، أخذت في الظهور ملامح فرنسة جديدة . لقد برز المستقبل الذي كان موضـــع سخرية

---

* هي المحالفة التي عقدت عام ١٨١٥ بين الروسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة النزعات التحررية والقومية في إيطالية والمانيا .

** حيث كان نابوليون على رأس قواته في واترلو . راجع تفصيل مواقع الجند اثناء هذه المعركة في الفصل الرابع من هذا الكتاب الاول ، وعنوانه (A) . والتجاور اللفظي واضح بين اسم هذا الموقع La Belle Alliance واسم تلك المحالفة La Sainte Alliance

الامبراطور . وكان على جبينه هذا النجم ـ الحرية . وتلفتت نحوه عيون الاجيال الناشئة الملتهبة . ومن عجب ان الناس أولعوا في آن واحد بهذا المستقبل ، الحرية ، وبهذا الماضي ، نابليون . كانت الهزيمة قد عظّمت المغلوب . وبدا نابليون ، وقد سقط ، أسمى من نابليون وفي يده مقاليد السلطة . وعصف الذعر بأولئك الذين انتصروا . وفرضت انكلترة الحراسة عليه بواسطة هودسون لوو * على حين راقبته فرنسة من خلال « مونشينو » . وأمست ذراعاه المتصالبتان قلقاً للعروش . ودعاه الكسندر ** أرَقي . وإنما نشأ هذا الذعر من مقدار الثورة التي انطوى عليها صدره . وهذا هو تفسير النزعة التحررية البونابرتية وعذرها . لقد زلزل هذا الشبحُ العالمَ العتيق . ولقد حكم الملوك ، في تضايق ، وصخرة « القديسة هيلانة » تلوح لهم في الافق .

وفيما كان نابليون يعالج سكرات الموت في لونغوود كان الستون الف رجل الذين صُرعوا في ساحة واترلو يُنتنون في هدوء ، وقد انتشر شيء من سِلمهم في العالم . ومنهم صنع مؤتمر فيينا معاهدات ١٨١٥ ، ودعت اوروبة ذلك « العودة الى الاصل » .

تلك هي واترلو .

ولكن ما ضرّ اللانهاية ؟ إن هذه العاصفة كلها ، هذه السحابة كلها ، هذه الحرب ، ثم هذا السلم ، وهذا الظلام كله لا تُقلق لحظةً واحدة ضياء تلك العين التي لا حدّ لها ، والتي تتساوى أمامها أحقر الحشرات الواثبة من طليعة عشب الى طليعة عشب بالنسر المحلق من برج الى برج في كاتدرائية نوتر دام .

---

* Hudson Lowe جنرال انكليزي (١٧٦٩ – ١٨٤٤) عمل سجاناً لنابوليون في « سانت هيلانة » وكان قاسياً غير انساني .

** هو الكسندر الاول قيصر الروسيا وخصم نابوليون اللدود ، وقد تولى الحكم من عام ١٨٠١ – ١٨٢٥

١٩
ساحة المعركة ليلاً

لنعُدْ ، فتلك ضرورة من ضرورات هذا الكتاب ، الى ساحة القتال المشؤومة .

في ليل ١٨ حزيران ١٨١٥ كان القمر بدراً . وهذا الضياء ساعد بلوخر على القيام بمطاردته الضارية ، وكشف عن آثار الفارّين ، وأسلم هذه الحشود البائسة الى الفرسان البروسيين الظمأى الى الدماء ، ومدّ يد المساعدة الى المجزرة . إن الليل ليقدّم احياناً مثل هذا العون الفاجع الى النكبات .

وحين أُطلقت آخر قذيفة من قذائف المدفع ظل سهل « مون سان جان » خاوياً .

واحتل الانكليز معسكر الفرنسيين ؛ فلقد جرى العرف بأن يؤكّد النصر بالنوم في سرير المهزوم . وأقاموا معسكرهم الطلق حول روسّوم . أما البروسيون ، المتعقبون الفلول المنهزمة مطلقي العنان ، فقد اندفعوا الى أمام . وقصد ولينغتون الى قرية واترلو لينشيء تقريره ويقدّمه الى اللورد باثورست .

واذا كان قولهم Sic vos non vobis * قد انطبق في يوم من الايام انطباقاً كاملاً فليس من ريب في أن انطباقه ذاك كان على قرية واترلو هذه . إن واترلو لم تفعل شيئاً ، ولقد ظلت على بُعد نصف فرسخ من القتال . لقد قُذفت « مون سان جان » بالمدافع ، وأحرقت هوغومون ، وأحرقت بابيلوت ، واحرقت بلانسنوا ، وانتزعت « لا هاي سانت »

---

* من كلام فيرجيل ، باللاتينية ، ومعناه : « وهكذا تعمل انت وعملك ليس لك » . وقد ذهب مثلاً يصور حالة من يحظى بتعويض أو بشرف هو من حق غيره .

إثر غارة عنيفة ، وشهدت « لا بيل آليانس » التقاء الفاتحين . ومع ذلك فنحن ما نكاد نعرف هذه الاسماء . لقد استبدّت واترلو ، التي لم تسْهم في المعركة ايّ إسهام ، بالشرف كله .

نحن لسنا من اولئك الذين يمجدون الحرب ، وحين تسنح الفرصة ننص على حقائقها . إن للحرب جمالات مروّعة لم نُخْفِها قطّ . ولكن لها ايضاً ، كما ينبغي ان نعترف ، بعض البشاعات . ومن ادعى تلك البشاعات الى الدهش تعرية الموتى ، بعد النصر ، تعرية عاجلة . إن اليوم الذي يلي معركة ما ، يبزغ فجره دائماً على جثث عارية .

من الذي يفعل ذلك ؟ من الذي يدنّس النصر على هذا النحو ؟ ما تلك اليد البشعة الخفيّة التي تنزلق الى جيب النصر ؟ من هم اولئك النشالون الذين يقضون مرادهم ، في جرأة ، إثر المجد ؟ إن بعض الفلاسفة ، وفولتير واحد من هؤلاء ، ليؤكدون أنهم على وجه الضبط أولئك الذين أحرزوا النصر . انهم هم أنفسهم – وفقاً لقول هؤلاء الفلاسفة – فليس ثمة أيما تبديل . إن اولئك الواقفين على ارجلهم هم الذين يسلبون أولئك المنطرحين أرضاً . إن بطل النهار هو خفّاش الليل . وعلى أية حال ، فان للرجل الحق في ان ينهب ، بعض الشيء ، جثة كان هو صانعها .

أما نحن فلسنا نعتقد ذلك . إن جني الغار وسرقة الحذاء من رجل ميت يبدوان لنا شيئاً مستحيلاً صدوره عن يد واحدة .

هناك أمرٌ واحدٌ لا ريب فيه ، وهو أنه بعد الفاتحين يَفِدُ اللصوص . ولكن فلنضع الجندي ، وبخاصة الجندي المعاصر ، بعيداً عن هذه التهمة .

لكل جيش ذيل ، وههنا ينبغي ان يُحصر الاتهام . خفافيش نصف كل منها قاطع طريق ونصفه الآخر متذلل دنيء ، وجميع ضروب الطير الليلية التي يلدها هذا الغسق الذي ندعوه الحرب ، ولابسو بذلات عسكرية لم يشتركوا في القتال قط ، ومرضى زائفون ، وعُرجٌ مخيفون ، ورجال

مريبون يملكون محلات تبيع الاطعمة والاشربة للجنود ويندفعون مع زوجاتهم في بعض الاحيان على عربات صغيرة لكي يسرقوا ما يبيعون ، وشحاذون يقدمون انفسهم كادلاء الى الضباط ، وخدمُ عساكر ، وسالبو جنود – كل هؤلاء كانوا يتبعون الجيوش الزاحفة في الايام الخالية – فنحن لا نتحدث عن العصر الحاضر – الى درجة تجعلهم يُدعون في اللغة الفنية « الجند المتخلفين » . وما من جيش أو شعب كان مسؤولاً عن هؤلاء المخلوقات . لقد تكلموا الايطالية ولحقوا بالألمان ؛ وتكلموا الفرنسية ولحقوا بالانكليز . وإنما بيد واحد من هؤلاء الجبناء ، وهو « متخلف » اسباني كان يتكلم الفرنسية ، قُتل المركيز دو فيرفاك غدراً – وقد خُدع برطانته « البيكاردية »* التي لا تُفهم وظنه واحداً من جنودنا – وسُلبَ في ساحة المعركة نفسها خلال الليلة التي عقبت انتصار « سيريزول » ** ومن سلب الجند نشأ سالبو الجنود . ولقد أحدثت الحكمة البغيضة : عش على عدوّك هذا الجذامَ الذي لا يقوى على شفائه غير نظام قاسٍ . إن ثمة شُهرات خادعة . فنحن لا ندري دائماً لماذا يتمتع بعض الجنرالات ، برغم انهم كانوا عظاماً ، بشعبية كبيرة . فقد فُتنَ جنود « تورين » *** به لانه كان يجيز السلب والنهب ؛ والاذن باقتراف الشر جزء من كرم النفس ؛ ولقد كان تورين كريماً الى درجة أباح معها إضرام النار في « البالاتينات » وإعمال السيف في رؤوس أهلها . وإنما يلحق بالجيوش عدد من « سالبي الجند » يقل أو يكثر تبعاً لقسوة القائد

---

* نسبة الى بيكارديا ، وهي مقاطعة فرنسية قديمة في اقصى الشمال ، وعاصمتها آميان .

** Cérisoles قرية ايطالية ، حيث هزم الفرنسيون القوات الاسبانية والامبراطورية عام ١٥٤٤ .

*** Turenne مارشال فرنسة (١٦١١ – ١٦٧٥) ، وقد اشتهر بفتحه للالزاس خلال شتاء ١٦٧٥ .

العام أو لينه . فلم يكن لـ « هوش » * و « مارسو » ** جند متخلفون ، ولم يكن عند ولينغتون – ونحن نقرّ له بذلك في سرور – غير عدد قليل منهم .

وعلى أية حال ، ففي ليل الثامن عشر من حزيران سُلب الجند . كان ولينغتون قاسياً ، وكان قد أصدر أمره بأن يُقتل أيما رجل يلقى عليه القبض متلبساً بذلك الصنيع . ولكن السلب داء يعسر استئصاله . فقد كان سالبو الجند يسرقون في احدى زوايا الميدان ، فيما كانوا يُقتلون رمياً بالرصاص في زاوية اخرى .

كان القمر « مشؤوماً » فوق هذا السهل .

فحوالى منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق أوهين الغائرة ، او يدبّ عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من هؤلاء الذين وصفناهم اللحظة ، ليس بانكليزي ولا فرنسي ، وليس بفلاح ولا جندي . كان غولاً اكثر منه انساناً ، جذبته رائحة الجثث ، وقد حسب السرقة نصراً ، فاقبل ليسلب واترلو . كان يرتدي جلباباً هو ، جزئياً ، برنس عسكري ، وكان قلقاً وجريئاً ، وكان يتقدم الى امام ويتلفت الى وراء . من كان هذا الرجل ؟ لعل الليل عرف أعماله اكثر مما عرفها النهار . ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب واسعة من غير شك تحت برنسه . وبين الفينة والفينة كان يتمهل ، ويتأمل السهل من حوله وكأنما كان يريد ان يستيقن من ان احداً لا يراقبه . ثم انحنى فجأة ، وهزّ فوق الارض شيئاً صامتاً لا حراك به ، وبعد ذلك نهض وانسلّ هارباً . لقد كان في انزلاقه ، وفي ملامحه ، وفي ايماءاته السريعة الخفيّة ما جعله يبدو مثل اشباح الغسق تلك التي

---

* Hoche جنرال فرنسي (١٧٦٨ – ١٧٩٧) وكان من اعظم وجوه الثورة وأكرمها .

** Marceau جنرال فرنسي (١٧٦٩ – ١٧٩٦)

تألف الخرائب ، والتي كانت الاساطير النورمندية القديمـة تدعوها « الراثحات » .

ان بعض الطيور الليلية المدعوّة « طوال الساق » لتحدث مثل هذه الظلال السود في المستنقعات .

ولو قد قدّر لعين ان تخترق ، في انتباه ، هذا الضباب كله اذن لرأت على مسافة ما ، عربة صغيرة من عربات بائعي الاطعمة والاشربة للجند ، وقد وقفت وكأنها مختبئة خلف البيت الخرب القائم على طريق نيفيل عند زاوية الطريق من « مون سان جان » الى « برين لالو » . واذن لرأت ان تلك العربة مغطاة بالصفصاف المطلي بالقطران ، وانها مقرونة الى فرس حقيرة جائعة تقضم القراص من خلال شكيمتها . وفي هذه العربة كان ضربٌ من امرأة جالساً عـلى بعض صناديق الامتعة وبعض الصّرر . ولعله كانت ثمة صلة ما ، بين هذه العربة وذلك الرجل الطائف بالمكان .

كان الليل صافياً . ولم تكن ثمة سحابة واحدة عند سمت الرأس . وعلام يستولي الهمّ عـلى القمر اذا كانت الارض حمراء ؟ انه ليحتفظ ببياضه . كذلك هي لا مبالاة السماء . وفي المروج كانت الاغصان التي كسرتها قذائف المدافع ولكنها لم تسقط بعد ان امسك بها اللحاء ، تتمايل في رفق مع رياح الليل . وحرّكت نسمةٌ ، تكاد تكون نفَساً ، ذلك الدغل . وكان في العشب ارتعاشات بدأت وكأنها مفارقة الارواح للاجساد .

وكان ميسوراً ان يُسمع وطء العسس الطائفين بالمعسكر الانكليزي، سماعاً غامضاً ، في المدى البعيد .

وواصلت النيران التهام « هوغومون » و « لاهاي سانت » محدثة شعلتين ضخمتين ، احداهما في الشرق ، والاخرى في الغرب ، وقـد اتصل بهما ، مثل عقد من الياقوت الاحمر منفرط ، في طرفيه الاقصيين

باقوتتان جمريتان ، شريط نيران المعسكرات الانكليزية القائمة في الهواء الطلق ، والممتدة في نصف دائرة هائلة فوق كثبان الافق .

لقد تكامنا على كارثة طريق اوهين . وان القلب ليكاد يغور ذعراً لمجرد التفكير في مثل ذلك الموت الذي ألمّ بهذا العدد كله من الرجال الشجعان .

واذا كان ثمة شيء مروّع ، واذا كان ثمة حقيقة تفوق الاحلام فهي هذه : ان تعيش ، ان ترى الشمس ، ان تملك القوة الرجولية كلهـــا ، ان تملك الصحة والبهجة ، ان تضحك في بسالة ، ان تندفع نحو مجـــد يدعوك اليه متألقاً باهراً ، ان تحس في صدرك برئة تتنفس ، وبقلب يخفق ، وبارادة تعقل ، ان تتكلم ، ان تفكر ، ان ترجو ، ان تحب ، ان تكون لك امّ ، ان تكون لك زوجة ، ان يكون لك اولاد ، ان تنعم باشعة الشمس ، ثم تستشعر فجأة ، في لحظة ، في اقـــل من دقيقة ، انك تنهار في هوة ، وتسقط ، وتتدحرج ، وتَسحق ، وتُسحق ، وترى سنابل القمح ، والازهار ، والاوراق ، والاغصان ، وتعجز عن ان تتمسك بشيء ، وتحسّ بان حسامك عديم الجدوى ، وان الرجال تحتك ، والخيل فوقك ، وان تنتفض ابتغاء المقاومة ولكن عبثاً ، وقد كسرت عظامك برفسة ما في الظلام ، وان تستشعر عقب قدم تجعل عينيك تثبان من محجريهما ، وان تنهش نعال الخيل الحديدية وفي اسنانك غيظ شديد ، وان تختنق ، وتعوي ، وتتلوى ، وان تكون تحت هذا كله وتقول لنفسك : لقد كنت رجلاً حياً منذ لحظة ليس غير .

هناك ، حيث حشرجت هذه الكارثة المحزنة ، كان كل شيء صامتاً الآن . كان خندق الطريق الغائرة مليئاً بالافراس وبالفرسان وقـــد كدّسوا على نحو مبهم معقد . تشابكٌ فظيـع . ولم يبق ثمة منحدر ؛ فقد جعلته الجثث على مستوى واحد مع السهل وارتفعت الى ضفـــتي الطريق مثل مكيال قديم للشعير ، حَسن الامتلاء ، مستوي السطح .

حشد من الموتى في القسم الاعلى ، ونهر من الدم في القسم الاسفل — كذلك كانت هذه الطريق ليلَ الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ . وجرى الدم حتى الى طريق نيفيل ، واندفق من هناك في بركة واسعة امام حطام الاشجار الذي يعترض الطريق ، في نقطة لا تزال تشاهد الى اليوم . وإنما ألمّت الكارثة بالدارعين ، كما نذكر ، عند النقطة المقابلة ، في اتجاه الطريق المقبلة من جيناب . وتناسبت كثافة ركام الجثث مع عمق الطريق الغائرة . وحوالى الوسط ، في النقطة التي غدت عندها أقل عمقاً ، هناك حيث مرّ فصيل دولور ، أصبحت طبقة الموتى أرقّ .

في هذا الاتجاه ، مضى ذلك الطائف الليلي الذي حدثنا القارىء عنه منذ لحظة . لقد راح ينقّب وسط هذا القبر الهائل ؛ واجال بصره في ما حوله . لقد استعرض الجند الأموات استعراضاً بشعاً الى حد لا يوصف ؛ ومشى وقدماه تغوصان في الدم .

وفجأة كفّ عن المسير .

فعلى بضع خطى امامه ، في الطريق الغائرة ، وفي النقطة التي انتهى عندها ركام الموتى ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والخيل يدٌ مفتوحة اضاءها القمر بشعاعه .

وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خاتماً ذهبياً .

وانحنى الرجل ، وظل منحنياً لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

والحق انه لم ينهض بالمعنى الدقيق . لقد ظلّ في حال شاردة مجفلة ، مولياً ظهره ركام الموتى ، دارساً الافق ، راكعاً على ركبتيه ، وقد استند مقدّم جسمه كله على سبابتيه الاثنتين ، وارتفع رأسه ارتفاعاً جزئياً يمكّنه من اختلاس النظر فوق حافة الطريق الغائرة ليس غير . إن ارجل ابن آوى الاربع تلائم افعالاً بعينها .

حتى اذا تخير سبيله استوى واقفاً .

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احسّ ان يداً كانت تُمسك به من خلاف .

واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي أطبقت ، منشبثة بذيل برنسه .

ولو قد احسّ رجل فاضل بمثل ذلك اذن لاستبدّ به الروع . اما هذا الرجل فشرع يضحك .

وقال :

— « اوه ، انه الميت ليس غير . انا أوثر رؤية الشبح على رؤية الدركي » .

وعلى اية حال فقد تراخت اليد وخلّت سبيله . إن القوة تنفد وشيكاً في القبر .

واضاف المطوّف بالليل :

— « آه ها ! أيكون هذا الميت حياً ؟ دعنا نرى » .

وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد ، مزيلًا كل ما كان يعترضه . وقبض على اليد ، وامسك بالذراع ، وخلّص الرأس ، وسحب الجسد . وما هي الا لحظات حتى راح يجرّ في ظلمة الطريق الغـائرة رجلًا فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان دارعاً ، وكان ضابطاً ، بل كان ضابطاً ذا رتبة ما . وكانت كتافةٌ ذهبية ضخمة تبرز من تحت درعه ، ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضاربة قد شوهت وجهه ، فليس يُرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم يبدُ ان أياً من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع – اذا كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا – ان تُقَوّس الجثث من فوقه على نحوٍ أنجاه من السّحق . كانت عيناه مغمضتين .

وكان معلقاً على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .

ونزع المطوّف بالليل هذا الصليب فاختفى في هوّة من تلك الهوى التي كانت تحت برنسه .

وبعد ذلك تلمّس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فعثر فيه على ساعة ، فأخرجها . ثم بحث في صدرته فألفى محفظة دراهم فنشلها .

حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من الغوث الذي كان يقدمه الى هذا الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه .

وقال في صوت واهن :

— « شكراً » .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه بيديه ، وبرودة الليل ، وتنفّس الهواء النقيّ في حرية ، قد ايقظته من سباته .

ولم يُجب المطوّف بشيء . لقد رفع رأسه . وكان في ميسوره ان يسمع وقع اقدام في السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليليّ يقترب منه .

وغمغم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشرجة :

— « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه المطوّف :

— « الانكليز » .

واضاف الضابط :

— « ابحث في جيوبي . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعـــة . خذهما » .

كان ذلك قد أتِمّ من قبل .

وتظاهر المطوّف بتنفيذ الطلب ، ثم قال :

— « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

— « لقد سرقوهما مني . أنا آسف . ولولا ذلك لكانتا لك » .

وامسى وطء الحارس الليلي واضحاً اكثر فاكثر .

وقال المطوّف ، آتياً بحركة كحركة من يبغي الانصراف :

– « ها قد اقبلوا » .

ورفع الضابط نفسه ، في ألم ، معتمداً على احدى ذراعيه ، وامسك به.

– « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »

فأجابه الطائف الليلي في سرعة ، وفي همس :

– « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا قبضوا عليّ فسوف يقتلونني رمياً بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبّر امرك الآن بنفسك » .

– « ما رتبتك ؟ » .

– « رقيب » .

– « وما اسمك ؟ »

– « تيناردييه » .

فقال الضابط :

– « انا لن انسى هذا الاسم ابداً . وانت اذكرْ اسمي . أنا أُدعى بونميرسي » .

الكتاب الثاني

الدارعة «أوريون»

١

رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠

كانت السلطة قد القت القبض على جان فالجان ، كرة اخرى .

ولسوف نُعذَر لمرورنا بالتفاصيل المؤلمة مراً سريعاً ، مجتزئين بان ننقل هنا نبذتين ليس غير مما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث الغريبة التي وقعت في مونتروي سور مير .

وهاتان المقالتان موجزتان بعض الشيء . ويحسن بالقاريء ان يذكر ان « صحيفة المحاكم Gazette des Tribunaux » لم تكن قد ظهرت في ذلك العهد .

ونحن ننسخ المقالة الأولى عن صحيفة « الراية البيضاء » . إنها تحمل تاريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ :

« كانت احدى مقاطعات الـ « با دو كاليه » ، منذ قريب ، مسرح حادثة نادرة حقاً . ذلك بان رجلاً غريباً عن المنطقة يُعرف بـ « مسيو مادلين » كان قد احيا منذ بضع سنوات ، وبفضل بعض الطرائق المستحدثة ، صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الخرز الكهربيّ والزجاج الاسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة ايضاً على المنطقة نفسها . واعترافاً بخدماته عُين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان مسيو مادلين لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد أدين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد أعيد جان فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ويبدو انه قد وُفق ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغاً يزيد على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ، من صناعته تلك ، على نحو شرعيّ جداً . ومنذ عودته الى سجن الاشغال الشاقة في طولون لم يهتد احد الى المكان الذي خبأ فيه جان فالجان هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، وهي اكثر اسهاباً ، فمنتزعة من عدد « الجورنال دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سيق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في « فار » ، منذ فترة قصيرة ، في ظروف جديرة بان تلفت النظر ، فقد كان هذا الاثيم قد وفق الى الافلات من يقظة الشرطة فغيّر اسمه ونجح في حمل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشمالية الصغيرة . ولقد انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي

القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خليلة هي احدى المومسات ، لم تحتمل الصدمة فماتت لحظة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير ، الذي مُنح قوة جسدية هرقلية ، وجد سبيلاً الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان القت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام او اربعة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقرية مونفيرماي (سين – ايه – واز) . ويقال بانه أفاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسحب مبلغاً ضخماً كان قد أودعه أحد مصرفيينا الرئيسيين . ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب قرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولما تتمكن السلطة من العثور على ذلك المال حتى الآن . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنايات « فار » لسرقة ارتكبها في الطريق العام ، والسلاح في يده ، منذ ثماني سنوات تقريباً ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين الذين وصفهم بطريرك فيرني بابيات خالدة يقول فيها :

« ... المقبلين من سافوي كل عام ،
والذين تمحو يدهم في مهارة
تلك القنوات الطويلة المختنقة بالسخام . »

ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت ممثل التاج القدير البليغ ان اشخاصاً آخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان عضو في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب . وهكذا أعلن جان فالجان مذنباً وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى المحاكم العليا ، ولكن الملك ، برأفته التي لا تنضب ، تنازل فخفف عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سيق جان فالجان الى سجن طولون » .

ولن ننسى ان جان فالجان كانت له في مونتروي سور مـــير بعض العادات الدينية . وقد اعتبرت بعض الصحف ، وفيها صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel ، هذا التخفيف نصراً للحزب الاكليركي .

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . اذ صار يدعى ٩٤٣٠

ولنقل هنـا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، إن ازدهـــار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كان قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحمى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولـّت الروح . فبعد سقوطه تمّ في مونتروي سور مير ذلك التوزيع الاناني لما يتبقى حين يسقط الرجال العظام ، ذلك التجزيء المشؤوم للمؤسسات المزدهرة الذي يجري كل يوم ، على نحو خفي ، في المجتمع البشريّ والذي لم يلحظه التاريخ غير مرة واحدة ، لانه إنما تمّ بعد موت الاسكندر . فالجنرالات يتوجون انفسهم ملوكاً ، ويحتلّ مقدّمو العمال محلّ رجـال الصناعة . ونشأت منافسـات تمور بالحسد . واغلقت مصانع مسيو مادلـين الرحبة ، وتركت الابنية للخراب ، وتشتت شمل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصنعة . ومن ذلك الحين أنتـج كل شيء على نطاق صغير بدلاً من ان يُنتج على نطاق كبير ، وابتغاء الربح لا ابتغاء الخير . لم يكن ثمة مركز ، فالمنافسة في كل مكان والضغينة كذلك . كان مسيو مادلين يهيمن على كل شيء ، ويوجه كل شيء . فلم يكد يسقط حتى ناضل كل امريء من اجل ذاته . لقد حلت روح الصراع محل روح النظام ، والحموضة محـل المودّة ، والبغضاء المتبادلة محل رغبة المؤسس في خـــير المجموع . لقـــد تشابكت الخيوط التي نسجها مسيو مادلين وتقطعت . وغدت الطرائق زائفة ، والنتاج دوناً . لقد قتلت الثقة ، وتناقص الزبائن ، وقلت الصفقات ، وانخفضت الاجور ، وتبطـّل العمال ، واقبل الافلاس . وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد امحى كل شيء .

وحتى الدولة لاحظت ان شخصاً قد سحق ، في ناحية ما . ففي أقل من اربع سنوات انقضت على قرار محكمة الجنايات بأن مسيو مادلين هو جان فالجان نفسه ، لمصلحة سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، تضاعفت نفقات جباية الضرائب في مقاطعة مونتروي سور مير . وقد أشار مسيو فيليو الى هذه الحقيقة ، من على منبر المجلس ، في شهر شباط ، عام ١٨٢٧ .

٢

حيث نقرأ بيتين من الشعر لعلهما من عمل الشيطان

وقبل ان نمضي الى أبعد يحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل ، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريباً ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض أحداس السلطات العامة .

إن في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جداً يزيدها غرابةً ونفاسة أن وجود خرافة شعبية في جوار باريس اشبه شيء بشجرة من شجرات الصَّبْر * في سيبيريا . ونحن لسنا من اولئك الذين يحترمون ايما شيء لمجرّد انه نادر . والى القاريء اذن خرافة مونفيرماي هذه : إنهم يعتقدون ، هناك ، أن الشيطان قد اختار الغابةَ ، منذ الزمان الاقدم ، مكاناً

* ضرب من الزنبقيات يكون على هيئة بقول أو أنجم أو شجيرات كثيرة العصار ، خضة ذاتِ ازهار منتصبة متراكمة ، يزرعه اهل الهند الغربية سياجاً للارض وتصنع من اليافه حبال أو اقشة خشنة . ويقصد المؤلف الى القول ان انتشار الخرافة الشعبية في جوار مدينة مثل باريس مستغرب كوجود شجر الصبر في اصقاع باردة مثل سيبيريا ، لان الصبر من نباتات البلاد الحارة .

تخبيء فيه كنوزه . وتؤكد نسوة المنطقة الصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس ، في المناطق المنعزلة من الغابة ، رجلاً أسود ، يشبه سائق عربة أو حطاباً ، ينتعل حذاء خشبياً ، ويرتــدي بنطلوناً وقميصاً من كتان خشن ، ويتميز بأن له على رأسه ، بدلاً من القلنسوة أو القبعة ، قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرّفه شيئاً يسيراً حقاً . وهذا الرجل مشغول ابداً في حفر الحُفر . وهناك ثلاثة مواقف يمكنك أن تتخذها حين تلقاه .

الاول ان تقترب من الرجل وتتحدث معه . وعندئذ تــدرك ان هذا الرجل ليس غير فلاح ، وأنه يبدو أسود بسبب من الفسق ، وانه لا يحفر أيا حفرة ولكنه يجمع العشب لبقراته ليس غير ، وان ما ظننّا قرنين على رأسه ليسا غير مذراة زبل يحملها على ظهره ، وقد بــدت أسنانها ، بفضل الفن الذي يصطنعه الليل في رسم المناظر البعيدة ، وكأنها نابتة من رأسه . وتنقلب الى بيتك وتقضي نحبك في خلال اسبوع . والثاني ان تراقبه ، وتنتظر حتى يحفر حفرته ، ويعاود ردمها ، ويمضي لسبيله . وعندئذ تعدو في سرعة بالغة الى الحُفر وتنقبها من جديد وتُخرج « الكنز » الذي دفنه الرجل الاسود هناك من غير ريب . وفي هذه الحال تتخطفك المنيّة في خلال شهر . والثالث ان لا تتحدث الى الرجل الاسود على الاطلاق ، وان لا تنظر اليه على الاطلاق ، وان تطلق ساقيك للريح بأسرع ما تستطيع . وفي هذه الحال تموت في خلال العام .

واذ كانت لهذه المواقف جميعاً سيئاتها ، فان الموقف الثاني — الذي ينطوي على الاقل على بعض الحسنات من بينها انه يملّكك كــنزاً ولو مدة شهر واحد فحسب — هو عادةً الموقف الاكثر شيوعاً . ومن هنا ، فان أولي العزم من الرجال ، الذين لا يفوّتون فرصة صالحة ، كثيراً ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحفر التي شقّها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان . ويبدو ان هذا الصنيع ليس رابحــاً

جداً – على الاقل اذا كان لنا ان نؤمن بالتقاليد ونؤمن بخاصة ببيتين من الشعر الملغز باللغة اللاتينية البربرية خلّفهما لنا في هذا الموضوع راهب نورمندي خبيث كان يتعاطى السحر الى حد ما ، واسمه تريفون . وتريفون هذا مدفون في دير « سان جورج دو بوشرفيل » قرب رووان ، ويتولد من ضريحه بعض ضفادع الجبل .

واذن فان الباحث عن الكنز يبذل جهوداً ضخمة ، لأن تلك الحفر عميقة جداً في العادة . إنه يعرق ؛ إنه يحفر ؛ إنه يعمل الليل بطوله لان هذا الصنيع يُباشَر في ساعات الليل ؛ إنه يبلل قميصه ؛ إنه يستنفد شمعته ؛ انه يثلّم معوله ؛ وعندما ينتهي آخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضع يده على « الكنز » ، ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ إنه فلس – وفي بعض الاحيان ريال – أو حجر ، او هيكل عظمي ، أو جثة دامية ، واحياناً شبح مطويّ أربع طيّات مثل ورقة في محفظة ، واحياناً لا شيء . وذلك ما يُعلنه ، في ما يبدو ، بيتا تريفون لقليلي التبصّر الفضوليين :

Fodit , et in fossa thesauros condit opaca,

As , nummos , lapides , cadaver , simulacra , nihilque . *

والذي يبدو ان الباحث عن الكنز ، في عصرنا هذا ، يجد بالاضافة الى ذلك ، قرنَ بارود مع كُرات احياناً ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب الاسمر الشَّحِم كان واضحاً ان الشياطين لعبوا بها ، أحياناً اخرى . ولا يشير تريفون ايما اشارة الى هاتين اللقيتين الاخيرتين ، لانه عاش في القرن الثاني عشر ، وليس يبدو ان الشيطان كان من الذكاء بحيث يخترع البارود قبل روجر بايكون ** وورق اللعب قبل شارل السادس .

والى هذا ، فأيما امريء يلعب بهذا الورق يخسر ، من غير ريب ،

* وقد فصّل المؤلف معناهما ، كما هو واضح ، في الفقرة السابقة .

** Bacon راهب انكليزي (١٢١٤–١٢٩٢) وكان من اعظم علماء القرون الوسطى.

كل ما يملك . اما البارود الذي في الوعاء فمن خصائصه أنه يفجّر بندقيتك في وجهك .

والآن ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوّف – خلال فراره الذي دام بضعة ايام – في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها أن معبّد طرقٍ عجوزاً يـدعى بولاتروويل" صار له « ولوع » بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل" قضى شطراً من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعاً لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملًا في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبّد للطريق الضيقة بين « غاني » و « لاني » .

وكان بولاتروويل" هذا رجلًا ينظر اليه اهل المنطقة شزراً . كان يوقّر الناس اكثر مما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر مما ينبغي ، وكان يسارع الى نزع قلنسوته لكل انسان . كان يرتجف دائماً ويبتسم دائماً في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات اللصوص ، كما تقول الشائعات ، فهو يُتّهم بانه يكمن في زوايا الغابة حين يهبط الليل. ولم يكن ثمة ما هو في مصلحته غير كونه سكيراً .

واليك ما لاحظه أهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاتروويل" ، في ساعة مبكّرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حاملًا معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالى المساء ، في اقصى بقاع الغابة الجرداء ، وفي اشد الآجام إيحاشاً ، وقد بدت عليه سيما رجل يبحث عن شيء ، واحياناً سيما رجل يحفر حُفَراً . وحسبته النسوة الصالحات ، اول الامر ، بيلزيبوث * ، ثم عرفن انه بولاتروويل" ، ولم يزدهنّ ذلك اطمئناناً ، على الاطلاق . وبـدا وكأن التقاء الناس العَرَضي بـ « بولاتروويل" » كان يُقلقه إقلاقاً كثيراً . كان واضحاً انه كان يحاول

* اسم شيطان ، ويعتبر رئيساً للارواح الشريرة في الكتاب المقدس .

ان يختبيء ، وان في ما يعمله لغزاً .

وقالت اشاعات القرية : « من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاتروويل قد رآه ، فهو يبحث عن كنزه . والحق انه هو الرجل المؤهّل لسرقة الشيطان » . واضاف الفولتيريون * قائلين : « أيقبض بولاتروويل على الشيطان أم يقبض الشيطان على بولاتروويل ؟ » واكثرت النسوة العجائز من رسم اشارة الصليب على انفسهن .

وايا ما كان ، فان زيارات بولاتروويل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . وشرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

بيد أن نفراً قليلاً احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منطوية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشياء نصيبها من الجدّ والوجود الماديّ اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبّد الطرق قد اكتشف السرّ ، من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكثرهم « انشغال بال » رجلان هما معلمّ القرية ، وصاحب الفندق تيناردييه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشيء علاقة وديّة حتى مع بولاتروويل نفسه .

وقال تيناردييه :

— « لقد كان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ إيه ، يا الهي ! إن احداً لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك . »

وذات مساء لاحظ معلم القرية ان السلطات في العهود القديمة كان خليقاً بها ان لا تهمل التحقيق حول الغاية التي من اجلها ذهب بولاتروويل الى الغابة ، وان بولاتروويل هذا ، لو سلف به الدهر قليلاً ، اذن لاكرِه على ان يتكلم ، واذن لعُذّب عذاباً شديداً اذا اقتضت الحاجة ذلك ، وان بولاتروويل ما كان ليعتصم بالصمت لو أدخلت مسألة المياه في

* نسبة الى فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير . ويقصد بالفولتيريين : الساخرون .

استجوابه ، مثلاً .

وقال تيناردييه :

— « فلنُدخل مسألة الخمر في ذلك الاستجواب . »

وهكذا دَعَوَا معبّد الطرق العجوز الى سهرة وألحّا عليه في الشراب . وشرب بولاتروويل كثيراً ، ولكنه تكلم قليلاً . لقد أحسن الجمع ، في فن بارع ونسبة أستاذية ؛ ما بين ظمأ رجل مُسرف في الشراب ، ورصانة قاضٍ . ومع ذلك ، فباعادة التجربة مراراً ، وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي ندّت منه وعصْرها استنتج تيناردييه ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينا كان بولاتروويل منطلقاً مع الفجر لأداء عمله ، أخذه الدهش اذ رأى في احدى زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسحاة ومعولاً ، **مخبأين كما قد يقول المرء هناك** . بيد أنه ظنهما مسحاة الأب « سيكس فور » ، حمّال الماء ، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد. ولكنه عاد فرأى في مساء اليوم نفسه ، من غير أن يُرى ، اذ كان مختبئاً خلف شجرة ضخمة ، « شخصاً ليس من ابناء تلك المنطقة على الاطلاق ، ولكنه هو ، بولاتروويل يعرفه معرفة جيدة » ، او كما ترجمها تيناردييه « **رفيقاً قديماً من رفاق السجن الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة** » — رأى شخصاً ينعطف من الطريق العام نحو الجزء الأشد كثافة من الغابة . ورفض بولاتروويل ، في عناد ، ان يذكر اسم الرجل الغريب . وكان هذا الشخص يحمل رزمة ، شيئاً مربعاً مثل صندوق كبير أو وعاءِ امتعة صغير . ودُهش بولاتروويل ، وعلى اية حال ، فقد انقضت سبع دقائق او ثماني دقائق قبل ان يخطر له ان يتعقب « الشخص » . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهى الى الأجمة ، وكان الليل قد هبط ، ولم يوفق بولاتروويل الى ادراكه . وهكذا عقد النية على ان يراقب حواشي الغابة . « كانت

الليلة مقمرة » ، وبعد ساعتين او ثلاث ساعات رأى بولاتروويل هذ الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هـذه المرة صندوق الامتعة الصغير ذاك ، ولكن معولاً ومسحاة . وتركه بولاتروويل يمر ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانه قال في ذات نفسه ان لذلك الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بمعول ، وانـــه سوف يقتله في اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان أمره قد انكشف . يا لها عاطفة جياشة تتدفق في صدرَي رفيقين قديمين التقيا على غير موعد ! ولكن المعول والمسحاة كانا شعاعاً من النور في نظر بولاتروويل . فسارع الى الادغال ، عند منبلج الصباح ، ولكنه لم يجد لا المعول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر ، حين دخل الغابة ، حفرة بمعوله ، ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها بمسحاته . واذ كان الصندوق اصغر من ان يحتوي على جثة ، فلا بد انه ينطوي على مال . ومن هنـــا بحثُه المتواصل . وراد بولاتروويلُ الغابة كلها ، وسَبَرَ غورها ، وبحث فيها بكل دقة ، ونقب الارض حيثما بدت له مقلوبةً منذ قريب . ولكن على غير طائل .

إنه لم يعثر على شيء . ولم يَعُدْ احد يفكر بذلك ، في مونفيرماي . ولكنّ بعض النسوة الثرثارات الصالحات ظللن يقلن : « كونوا على ثقة من ان معبّد طريق غاني لم يُحدث كل هذه الضجة للاشيء . لقد كان الشيطان هناك ، من غير ريب » .

٣

وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد ان تكون قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي تنكسر على هذا النحو بضربة مطرقة

وفي اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان طولون السفينة أوريون تعود الى مرفـأهم ، بسبب العواصف الشديدة وابتغاء إصلاح بعض الخلل الذي أصابها ، وكانت تلك السفينة – التي استخدمت بعدُ في برست مركباً للتدريب – تؤلف آنذاك جزءاً من اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة ، برغم ما المّ بها من "كساح نتيجة" لخاشنة البحر لها ، أثارت هزّةً من الفضول والاهتمام عند دخولهـا المرسى . وكانت ترفع علماً لست ادري ما هو عـلى التحقيق ، ولكنه أهّلها لترحيب نظامي يتألف من احـدى عشرة طلقة ، ردّت عليها واحدةً واحدةً ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلقة . ولقد قدّر المقدرون ان العالم المتمدن ، في كل رجاً من ارجاء الكرة الارضية ، يطلق كل اربع وعشرين ساعة ، مئة وخمسين الف طلقة مدفع غـير مجدية تُهدر على التحيات والمجاملات الملكية والعسكرية ، وتبادل الصخب الملاطف ، وايماءات اللياقة ، وشكليات المرافيء والحصون ، وبزوغ الشمس وغروبها اللذين تحييهما كل يوم جميع القلاع والسفن الحربيـة ، وفتـح الموانيء واغلاقها ، الخ ... فاذا كان ثمن الطلقة الواحدة ستة فرنكات بلغت نفقات ذلك تسعمئة الف فرنك يومياً ، او ثلاثمئة مليون فرنك سنوياً تذهب دخاناً . وليس ذلك غير بندٍ واحد . وفي الوقت نفسه يموت

الفقراء جوعاً .

وكانت سنة ١٨٢٣ هي السنة التي دعاها عصر عودة آل بوربون الى الى الحكم « عهد الحرب الاسبانية » .

وانتظمت تلك الحرب عدة حوادث في واحدة ، وعدداً غير يسير من الفرائد . كانت قضية عائلية كبرى من قضايا آل بوربون ؛ كان الفرع الفرنسي يساعد ويحمي فرع مدريد ، يعني انه كان يقوم بالواجب المفروض على الأرشد ؛ ولقد عدنا عودة ظاهرية الى تقاليدنا الوطنية ، ممزوجـــة بالعبودية والخضوع لوزارات الشمال ؛ وكان دوق آنغوليم ، الذي خلعت عليه الصحف التحررية لقب « بطل آندوجار » يقمع ، في مسلك مظفّر يتناقض بعض الشيء مع نزعته السلمية ، الارهابَ القديم الواقعي الى ابعد الحدود الذي فرضه « المكتب المقدس » * المعادي لأرهاب الاحرار الوهمي ؛ وبُعثت جماعة اللاسراويل ** ، وبا لذعر الارامل ذوات الصّداق ، تحت اسم الا descamisados *** ؛ ووضع الملكيون المراقيل في طريق التقدم الذي نعتوه بالفوضوية ، واعتُرضت نظريات ٨٩ **** على نحو خشن ، وهي تتخذ سبيلها المقوّض ؛ وطاف أمرٌ اوروبيّ بالوقوف ، موجه الى الفكرة الفرنسية الخاصة بالثورة ، حول الكرة الارضية ؛ والى جانب ابن فرنسة ، الجنرال الأعظم ، انضوى البرنس دو كاريـنيان ، الذي أمسى في ما بعد شارل آلبير ***** ، تحت لواء صليبية الملوك هذه ضد

---

* Saint - office ويقصد به ديوان التفتيش . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على ديوان التفتيش الذي اقيم في رومة ، وهو الذي حكم على غاليليو بالموت .

** Sans - culottes وهو اللقب الذي خلعه الارستوقراطيون حوالى عام ١٧٩٢ ، على رجال الثورة الذين استعاضوا عن السروال القصير (الكولوت) بالبنطلون .

*** تعبير اسباني معناه « الذين لا قمصان لهم » . وقد اطلق على جماعة من الثائرين الاسبان . والكلمة كما ترى عربية الاصل تتألف من اداة النفي (des) وكلمة « قميص » على صورة محرفة .

**** يقصد النظريات التي قالت بها الثورة (١٧٨٩)

***** Charles - Albert (١٧٩٨ -- ١٨٤٩) امير من اسرة Carignan ، وهي فرع من اسرة سافوا ، تولى عرش سردينية عام ١٨٣١ واتقذ لومباردية من ربقة النمسويين ، ثم هزمه النمسويون ، عام ١٨٤٩ ، وتنازل عن العرش لابنه عمانويل الثاني .

الشعوب بوصفه متطوعاً يحمل كتافتي رامي قنابل مصنوعتين من صوف أحمر ؛ واستأنف جنود الامبراطورية خوض المعارك ، ولكنهم كانوا بعد ثماني سنوات من الراحة قد شاخوا واكتأبوا وطوقوا قبعاتهم بالعصابة البيضاء ؛ ورفرف العلم المثلث الالوان في الديار الاجنبية بأيدي حفنة مــن الفرنسيين البواســل ، كما رفرف العلم الابيض * في كوبلنتز ** قبل ثلاثين عاماً ؛ واختلط الرهبان بجنودنا ؛ وقُهــرت روح الحرية والتجدد برؤوس الحراب ؛ وأذلت المباديء بطلقات المدافع ؛ ونقضت فرنسة بسلاحها ما كانت قد فعلته بروحهـا . والى هذا ، فقد كان زعماء العدو قد باعوا أنفسهم ، وكانت قواتهم مترددة ، وكانت المدن تحاصر بالملايين من الفرنكات ؛ ولم يكن ثمة أخطار عسكرية ، ومع ذلك فقد كانت الانفجارات ممكنة ، شأن كل منجم يقتحم ويحتل عــلى حين غرة . ولم يسفح غير قليل من الدم ، ولكن قليلاً من الشرف قد كُسب . وسربل العار قلة قليلة ، ولكن المجد لم يكن من نصيب أحد . هكذا كانت هــذه الحرب التي شنها امراء تحدّروا من لويس الرابع عشر ، وقادها جنرالات انبثقوا من نابوليون . لقد كانت ذات مصير تعس ، فهي لا تُدعى حرباً كبيرة ، ولا تدعى سياسة كبيرة.

وكانت بعض أحداث الحرب جدية . فالاستيلاء عــلى تروكاديرو ، كان بالاضافة الى غيره من الاحداث ، عملاً عسكرياً موفقاً . ولكنـا نكرر القول ان ابواق تلك الحرب ، اذا نُظر اليها جملة ، كانت تطلق صوتاً متصدّعاً ، وان هيئتها العامة كانت مريبة ، وان التاريخ يقرّ نفرة فرنسة من الاعتراف بابوّتها لهذا النصر الزائف . ولقد بدا واضحاً ان

---

* هو العلم الملكي ، أما العلم المثلث الالوان فهو علم الثورة كما لا يخفى .

** Coblentz مدينة المانية تجمع فيها عام ١٧٩٢ النبلاء المهاجرون وانشأوا ما يعرف بجيش كونديه l'armée de Condé

بعض الضباط الاسبان المكلفين بالمقاومة استسلموا بأكثر مما ينبغي من اليسر ، وأن فكرة الرشوة انبعثت من فضل تفكير بالنصر . وتراءى وكأن الجنرالات هم الذين كُسبوا ، لا المعارك ؛ وان الجندي المنتصر قد رجع ذليلاً مهيناً . كانت حرباً متضائلة حقاً ، في ميسورك ان تقرأ عبارة « بنك فرنسة » على طيات رايتها .

وقطّب جنود حرب عام ١٨٠٨ ، الذين انهارت سرقسطة تحت اقدامهم ذلك الانهيار الماثل ، لاستسلام الحصون على هذا النحو السهل عام ١٨٢٣ ، وتحسروا على بالافوكس * . إن مزاج فرنسة هو الذي يجعلها تؤثر ان تجد أمامها رجلاً مثل « روستوبشين » ** لا رجلاً مثل « باليّستيروس » ***

ومن جهة نظر أشدّ خطورة أيضاً — وجهة نظر يحسن بنا أن نؤكدها — أثارت هذه الحرب ، التي حطمت روح فرنسة العسكرية ، سخطَ الروح الديموقراطية . كانت مشروع إخضاع . ففي هذه الحملة ، كان هدف الجندي الفرنسي ، ابن الديموقراطية ، أن يفوز بنير يُثقل به أعناق الآخرين . تناقض مخيف . لقد وُجدت فرنسة لكي توقظ روح الشعوب ، لا لكي تخنقها . فمنذ عام ١٧٩٢ لم تكن جميع ثورات اوروبة شيئاً غير الثورة الفرنسية ؛ كانت الحرية تشعّ من كل رجاً من ارجاء فرنسة . تلك حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رائعة النهار . وأعمى هو الذي لا يراها ! إن بونابرت هو الذي قالها .

وإذن فقد كانت حرب عام ١٨٢٣ — وهي اعتداء على الامة الاسبانية النجيبة — اعتداء على الثورة الفرنسية في الوقت نفسه . كانت

---

* Palafox دوق سرقسطة (١٧٨٠ — ١٨٤٧) وقد دافع دفاعاً باسلاً عن سرقسطة عام ١٨٠٩ .

** Rostopchine رجل دولة روسي (١٧٦٣ — ١٨٢٦) كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ وقد أمر باحراق المدينة عند دخول الفرنسيين اليها .

*** Ballesteros جنرال اسباني (١٧٧٠ — ١٨٣٢)

فرنسة هي التي اقترفت صنيع العنف الهائل هذا ، ولكنْ مكرهــة . لانه ، باستثناء حروب التحرير ، تعمل الجيوش كل ما تعمله من طريق الاكراه . إن كلمتي الطاعة العمياء لتشيران الى ذلك . والحـــق ان الجيش رائعة عجيبة من روائع التآلف ، حيث تكون القوة ثمرة مجموع هائل من الضعف . وهكذا نستطيع ان نفسر الحرب التي تشنها الانسانية ضد الانسانية على الرغم من الانسانية .

وفيما يتصل بآل بوربون ، كانت الحرب وبالاً عليهم . لقد اعتبروها نجاحاً . انهم لم يروا قطّ ايّ خطر يكمن في محاولة قتل فكرة بأمر عسكريّ . لقد زلّوا ، ببذاجتهم ، الى حد جعلهم يُدخلون الى كيانهم ، وكأنه عنصرُ قوة ، ذلك الوهنَ الهائل الناشيء عن ارتكاب جريمة . لقد تسرّبت روح الترصّد ونصب الأشراك الى سياستهم . إن بذرة عام ١٨٣٠ * كانت كامنة في عام ١٨٢٣ . فقد غدت الحملة الاسبانية ، في مجالسهم ، حجةً لاتخاذ اجراءات العنف ، ولحبك المؤامرات تدعيماً للحق الالـهي . وفرنسة ، وقد وفقت الى اعادة الملك المستبد الى اسبانية ، خليقة بأن لا تعجز عن اعادة الملكية المطلقة الى ديارها هي . لقد وقعوا في هذه الغلطة الرهيبة وهي أنهم توهموا أن خضوع الجندي يعني موافقة الامة . وهذا الوهم يهدم العروش . يجب ان لا ينام المرء ، لا في ظلّ شجرة من شجرات الاوباس ** ، ولا في ظل جيش من الجيوش .

ولكن فلنعدْ الى السفينة « اوريون » .

في اثناء العمليات التي قام بها جيش الامير القائد الأعلى ، كان اسطول بحريّ يطوّف في مياه البحر الابيض المتوسط . ولقــد سبق

* هو العام الذي نشبت فيه الثورة ضد الملك شارل العاشر ، فخلع عن العرش وحلّ محله لويس فيليب .

** شجرة تنمو في الهند وهي ذات عصير سام .

منا القول إن السفينة « أوريون » كانت جزءاً من هـذا الاسطول ، وان تلاطم الامواج أكرهها على العودة الى مرفأ طولون .

إن في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئاً خفياً يجذب الجماهير ويثير فضولهم . ومردّ ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

والحق ان الدارعة مظهر من مظاهر الصراع بين العبقرية الانسانية وقوى الطبيعة .

إن الدارعة لتتألف من اشد المواد ثقلاً ، ومن اكثرهـا خفةً في وقت معاً ، لان عليها ان تقاوم ، في الوقت نفسه ، اشكالَ المادة الثلاثة : الجامد ، والسائل ، والمائع . ان لها احد عشر مخلباً حديدياً لتتشبث بالصخر في اعماق البحر ، واجنحة وقروناً تزيد على عدد اجنحة الفراشة وقرونها لكي تلتقط النسائم في السحب . وان نفَسها لينطلق من خلال مدافعها المئة والعشرين وكانه ينطلق من ابواب ضخام ، ويردّ في زهو على الصاعقة . ويناضل الاوقيانوس لكي يُضلّها في تشابه امواجه المروّع ، ولكن للدارعة بوصلتها ، التي هي روحها ، فهي ترشدهـا أبداً وتدلها ابداً على الشمال . وفي الليالي الظلماء تحل فوانيسها محـلّ النجوم . وهكذا فأنها تكافح الريح بالحبال والنسيج القنبي ، وتكافح الماء بالخشب ، وتكافح الصخر بالحديد والنحاس والرصاص ، وتكافح الظلام بالنور ، وتكافح لانهائية البحر بأبرة .

وليس علينا لكي نكوّن فكرةً عن هذه الابعاد الهائلة كلهـا التي يكوّن مجموعها دارعة من الدوارع إلا ان نمرّ تحت مصنع من مصانـع السفن المسقّفة ذات الادوار الستة ، في مرفأ برست ، أو مرفأ طولون . إن السفن الجاري انشاؤها لتُرى هناك تحت صناديق زجاجية ، إذا جاز التعبير . فهذه العارضة الخشبية الهائلة هي عارضة الصاري ، وهذا العمود الخشبي الضخم ، المنطرح على الارض والممتد الى ابعد من مدى البصر

هو الصاري الرئيسي ، ولو قد اعتبرته من جذره القائم في القعر الى رأسه الضارب في السحاب اذن لظهر لك ان ارتفاعه يبلغ ستين قامة ، وان محيطه عند قاعدته يبلغ ثلاثة اقدام . ويرتفع الصاري الرئيسي الانكليزي مئتين وسبعة عشر قدماً فوق خط العَوْم . ولقد كانت اساطيل اجدادنا تستعمل الحبال ، اما اساطيلنا فتستعمل السلاسل . والواقع ان لفّة السلاسل الخاصة بدارعة ذات مئة مدفع تبلغ اربعة اقدام طولاً ، وعشرين قدماً عرضاً ، وثمانية اقدام عمقاً . ومن اجل انشاء مثل هذه الدارعة ، ما مقدار الخشب الذي نحتاج اليه ؟ ثلاثة آلاف متر مكعب . إنها غابة تطفو على وجه الماء .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر جيداً اننا لا نتحدث هنا الا عن السفينة الحربية كما كانت منذ اربعين سنة ، عن السفينة الشراعية البسيطة ، ذلك بان البخار — وكان آنذاك في طفولته — قد اضاف منذ ذلك الحين ، عجائب جديدة الى هذه المعجزة التي ندعوها البارجة الحربية . ففي ايامنا هذه مثلاً ، نجد ان البارجة المختلطة ذات المروحة جهازٌ آليٌّ مدهش تسوقه قطعة من قماش قنبي تبلغ مساحة سطحها ثلاثة آلاف متر مربع ، ومولد بخاريّ قوّته الفان وخمسمئة حصان .

ومن غير ان نتحدث عن هذه العجائب الجديدة ، نستطيع ان نقول ان سفينة « كريستوف كولومبوس » و « رويتر » * العتيقة هي رائعة من روائع الانسان الكبرى . إن قوّتها لا تنضب شأن انفاس اللانهاية . إنها تختزن الريح في شراعها ، وانها لراسخة وسط اختلاط الامواج الهائل . إنها تطفو وتهيمن .

ولكن ثمة لحظات تحطم فيها العاصفة عارضة الصاري البالغ طولها ستين قدماً كما تُحطم القشة ، وتلوي فيها الريحُ ذلك الصاري البالغ

---

* Ruyter اميرال هولندي (١٦٠٧ — ١٦٧٦) جرت بينه وبين الاميرال الفرنسي دوكين Duquesne موقعة شهيرة ، في سيراكيوس ، وقد مات على اثرها .

طوله اربعمئة قدم كما تلوى القصبة ، وتنفتل فيها تلك المرساة التي تزن أطناناً في شدق الامواج كما ينفتل شص الصياد بين فكي سمكة من سمك الكراكي ، وتطلق فيها تلك المدافع الجبارة زمجرات نائحة غير مجدية تقذف بها العاصفة الى الفراغ والى الليل ، وتغرق فيها كل تلك القوة وكل تلك الجلالة في قوة اعظم وجلالة أسمى .

وكلما أبرزت قوة هائلة لتنتهي الى ضعف هائل تقف عقول الرجال متأملة . ومن هنا يحتشد اولئك الفضوليون في المرافيء — من غير ان يعلموا هم انفسهم لماذا على وجه الدقة — حول ادوات الحرب والملاحة الرائعة هذه .

واذن ، فكل يوم ، من الصباح حتى المساء ، كانت ارصفة مرفأ طولون تغطى بحشد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم — كما يقولون في باريس — وليس لهم من عمل غير النظر الى الـ « أوريون » .

وكانت الـ « اوريون » سفينة مريضة منذ عهد بعيد . ففي رحلاتها السالفة كانت طبقات كثيفة من المحار قد تراكمت على قعرها الى درجة جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وُضعت في العام الماضي ، في حوض الترميم الجاف كي تكشط طبقات المحار عنها ، ثم انطلقت نحو البحر من جديد . ولكن هذا الكشط كان قد آذى مثبتات قعرها .

وعند خط عرض جزائر الباليار كانت ألواحها قد وهنت وانفرجت . واذ لم يكن تغليف قاع السفينة الخارجي بالنحاس معروفاً آنذاك ، فقد اخذت المياه تتسرب اليها ، واصابتها على نحو مفاجيء ضربة عنيفة من الاعتدال الفلكي نزعت أقواس جانبها الأيسر واحدى كوى مدافعها وعطبت حامل حبل الصاري الامامي . وبعد ان مُنيت الـ « اوريون » بهذا الاذى كله ، أعيدت الى طولون .

وألقيت مرساتها قرب دار الصناعة . كانت مسلحة ، وكانوا يصلحونها . ولم يكن هيكل السفينة قد أوذي من الميمنة ، ولكن بضعة ألواح

كانت قد نزعت ههنا وهناك ، وفقاً للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكلها .

وذات صباح شهد الحشد الذي كان يحدّق اليها حدثاً .

كان الملاحون منهمكين في شدّ الاشرعة الى الصواري . واذا بخفير الصواري – المكلف بتناول الزاوية العليا من شراع الصاري الأعظم القائم في ميمنة السفينة – يفقد توازنه . ورآه القوم يترنح ، وأطلقت الحشود المجتمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحةً ، ورجح رأسُ الرجل جسدَه ، وانفتل حول عارضة الصاري ، وقد انبسطت يداه نحو الاعماق . وفيما هو يهوي تعلّق بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولاً ، ثم بيده الاخرى ، وظل متدلياً على هذا النحو . وكان البحر ينبسط تحته على عمق يوقع الدوار في الرأس . واثارت صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيح . وتأرجح الرجل ، بقطعة الحبل هذه، ذات اليمين وذات الشمال ، مثل حجر مقلاع .

وكان الاندفاع الى نجدته ينطوي على مجازفة مروّعة . ولم يجرؤ احدٌ من الملاحين -- وكانوا كلهم من صيادي الشاطيء الداخلين حديثاً في خدمة الاسطول – على القيام بهذه المحاولة . وفي غضون ذلك كان خفير الصّواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجته واضحةً على اسارير وجهه ، ولكن انهيار قواه المتعاظم كان يُلحظ في حركات اوصاله جميعاً . وتوترت ذراعاه في التواءات رهيبة . ولم تؤدّ كل محاولة قام بها للصعود من جديد إلا الى امعان المرقاة الزائفة في التأرجح . ولم يصرخ قطّ خشية ان يفقد قوّته . وكان القوم كلهم يرتقبون الدقيقة التي يُفلت فيها الحبلَ ، وفي بعض اللحظات أشاحوا جميعاً بوجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي . إن ثمة لحظات تكون فيها قطعة الحبل ، والعصا الطويلة ، وغصن الشجرة هي الحياة نفسها ،

وإنه لشيء رهيب ان يرى المرء الى كائن حيّ ينفصل عنها ويسقط مثل ثمرة يانعة .

وفجأة بَصُرَ القوم برجل يتسلّق حبال الدارعة بخفة سنّور بري . وكان هذا الرجل يرتدي ثوباً أحمر ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة . وكان يعتمر بقلنسوة خضراء ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . حتى اذا انتهى الى سطح أعلى الصاري أطارت الريح قلنسوته ، وكشفت عن رأس أشيب كلهُ . إنه لم يكن شاباً .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المكلفين بالقيام فوق ظهر تلك الدارعة بمهمة من مهامّ السجن كان قد هرع ، منذ اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفي غمرة اضطراب النوتية وترددهم ، حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، سأل الضابطَ ان يأذن له بالمغامرة بحياته لكي ينقذ خفير الصواري . واذ اومأ الضابط له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلةَ التي تطوّق مفصل عقب رجله . ثم تناول حبلاً ، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، في تلك اللحظة ، بأية سهولة كُسِرت السلسلة . إنهم لم يتذكروا ذلك إلا في ما بعد .

وفي طرفة عين انتهى الى عارضة الصاري . وتمهل بضع ثوان ، وبدا وكأنه يقيسها بنظرة منه . وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها تؤرجح خفير الصواري ذات اليمين وذات اليسار عند حبل من الحبال — وكأنها اجيال في أعين المشاهدين . واخيراً ، رفع المحكوم عليه بالاعدام عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى أمام . واخذ الحشد نفَساً طويلاً . لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راكضاً . حتى اذا انتهى الى اقصاها عَقد هناك احد طرفي الحبل الذي كان قد جاء به ، وترك طرفه الآخر يتدلى على مداه ، ثم راح يهبط ويداه متشبثتان بذلك الحبل .

وعندئذ استبدّت بالقوم موجة من الذعر تجلّ عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين ، بدلاً من رجل واحد ، يتدليان فوق اللجّة .

كان في ميسور المرء ان يقول إنها عنكبوت تنقضّ على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . وسُمّرت عشرة آلاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غضّن الانفعال نفسه جميع الجباه . وحبس كل امرىء أنفاسه ، وكأنما كان يخشى ان يُمِدّ الريحَ التي كانت تؤرجح الرجلين البائسين بأقل النَفَثات .

بيد أن المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وفّق ، آخر الامر ، الى ان يشق طريقه نحو الملاّح . وكان ذلك في الوقت المناسب ، فلو انه تأخر دقيقةً إضافية إذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائساً ناضب القوى . وشدّه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شداً محكماً الى الحبل ، وكان يتشبث به بأحدى يديه ، ويعمل بالاخرى . وأخيراً ، رئي يعاود الصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاحَ خلفه . وأسنده هناك ، لحظةً ، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيما هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

في تلك اللحظة صفّق الحشد ؛ وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة الشيوخ ، وتعانقت النسوة فوق ارصفة الميناء ، وسُمِعت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحة في رفق :

— « هذا الرجل يجب ان يُغفَر له ! »

أما هو فقد جعل من واجبه أن يعاود الهبوط ، في الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو أسرع أنشأ ينزلق على الحبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته العيون كلها . وانقضت لحظةٌ استبدّ الذعر خلالها بالمشاهدين جميعاً . وسواء

أكان ذلك لأحساسه بالتعب ، أم لأن الدوار عصف برأسه ، فقد اعتقد القوم أنهم رأوه يتردد ويترنح . وفجأة أطلق الحشد صيحةً مدوّية : كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط في البحر .

وكان السقوط مهلكاً . فقد كانت البارجة « الجزيرة » *L'Algésiras* راسيةً قرب الـ « أوريون » ، ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين. وخشيَ القوم ان يغرق تحت واحدة منها . ووثب اربعة رجال ، في وقت معاً ، الى مركب . وشجعهم القوم ، وغلب القلق ، كرةً اخرى ، على النفوس جميعاً . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح الماء ، من جديد . كان قد اختفى في البحر من غير ان يغضّن صفحة الماء ، فكأنه إنما سقط في برميل زيت . وسبروا غور المكان ، وغاصوا الى الأعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفي صباح اليوم التالي نشرت « صحيفة طولون » الاسطر التالية :

« ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ — أمس ، فيما كان أحد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر الـ « اوريون » عائداً الى عمله بعد ان انقذ حياة احد الملاحين ، سقط في البحر فغرق . ولم يُعثر على جثته قط . ويُفترض أنه علقَ تحت الاوتاد الغارزة في الماء عند مقدّم دار الصناعة . كان هذا الرجل مسجلاً تحت رقم ٩٤٣٠ ، وكان يدعى جان فالجان . »

الكتاب الثالث

الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١

مسألة المياه في مونفيرماي

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك النجد العالي الذي يفصل الـ « أورك » عن الـ « مارن » . إنها اليوم بلدة كبيرة تزدان طوال العام بدارات (فيلات) من جبس ، وفي يوم الاحد ، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة النعيم . أما عام ١٨٢٣ فلم يكن في مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . انها لم تكن غير قرية في الغابات . والواقع أنك كنت تجد فيها هنا وهناك متنزّهات من القرن

الماضي تمتاز بمظهرها الضخم ، وشرفاتها ذات الحديد الملوي ، وبتلك النوافذ الطويلة التي كانت ألواحها الزجاجية الصغيرة تبدي على بياض مصاريعها الموصدة جميع ضروب الاخضرار المختلفة . ولكن مونفيرماي ظلت برغم ذلك كله قرية . ان تجار المنسوجات المتقاعدين والقرويين الهواة لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . كانت بقعة آمنة فاتنة ، ولم تكن تقع على الطريق الى بلد ما . كان اهلها يحيون ، بثمن بخس ، تلك الحياة الريفية البالغة الخصب ، والبالغة اليُسر . ولكن المياه كانت نادرة هناك بسبب من ارتفاع النجد .

كان يتعين عليهم ان يجتازوا مسافة غير قصيرة التماساً للماء . فأما اقصى القرية المجاور لـ « غاني » فكان يستمد ماءه من الغدران الرائعة التي كانت هناك في الغابات ، وأما اقصى القرية الآخر الذي يحيط بالكنيسة والمجاور لـ « شيل » فلم يكن يجد مياه الشفة الا في ينبوع صغير ، عند منتصف المنحدر ، قرب الطريق الى « شيل » ، على مسيرة ربع ساعة من مونفيرماي تقريباً .

واذن فقد كان الحصول على الماء مسألة جدية يتعين على كل أسرة ان تواجهها . فكانت البيوت الكبيرة ، بيوت الارستوقراطيين ، وفي جملتها فندق تيناردييه ، تدفع رُبع « سو » ، ثمناً لكل دلو من الماء الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له ، وكان يكسب من ذلك الصنيع نحواً من ثمانية « سو » في اليوم . ولكن هذا الرجل لم يكن يشتغل إلا إلى الساعة السابعة مساءً في الصيف ، والى الساعة الخامسة مساءً في الشتاء . فاذا هبط الليل ، وأوصدت نوافذ الادوار الاولى ، تحتم على كل من أعوزه الماء أن يلتمسه بنفسه ، او يستغني عنه .

ذلك كان الهولَ الذي احتملته تلك المخلوقة المسكينة التي نرجو ان لا يكون القارىء قد نسيها — كوزيت الصغيرة . ونحن نذكر ان كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا ينتزعان

الأجر من الأم ، والعملَ من الطفلة . وأنه حين اقلعت الأم نهائياً عن الدفـــع – وقد رأينا سبب ذلك في الفصول السابقة – احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت . لقد حلّت عندهما محلّ خادمـة . وبوصفها ذاك ، تعيّن عليها ان تركض هي لجلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فأن الطفلة الصغيرة التي كان يروّعها دائماً مجرد التفكير في الذهاب الى الينبوع تحت جنح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايتها لكي لا يعوز الماءُ البيت على الاطلاق .

وكان عيد الميـــلاد من عام ١٨٢٣ مشرقـــاً على نحو خاص في مونفـــيرماي . كان الشطر الأول من الشتاء معتدلاً ؛ ولم تكن تلك المنطقة قد عرَفتْ بعدُ لا الجليدَ ولا الثلـج . وكان بعض المشعوذين الوافدين من باريس قد استصدروا من العمدة اذناً يجيز لهم أن يضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت جماعـة من الباعة المتجولين قد اقامت ، بفضل الاذن نفسه ، حوانيتها الخشبية الصغيرة في الساحة المنبسطة امام الكنيسة ، وحتى في « زقاق بولانجيه » حيث يقوم مطعمُ تينـاردييه الحقيرُ ، كما قد يذكر القاريء . وهكذا غصّت الفنادق والحانات بالزبائن ، واتخذت هذه البقعة الهادئة مظهراً صاخباً بهيجاً . وينبغي ان نقـول ايضاً لكي نكون مؤرخين امنـــاء ، انه كان بين الغرائب المعروضة في تلك الساحة معرض حيوانات يضمّ مهرجين مخيفين يرتدون اسمالاً بالية ، وليس يدري احـد من اين اقبلوا ، فهم يعرضون ، سنة ١٨٢٣ ، على فلاحي مونفيرماي واحداً من تلك العقبان البرازيلية الراعبة التي لم يملك متحفنا الوطني نظيراً لها إلا في عام ١٨٤٥ ، والتي تشبه عيونها شارات مستديرة ، كالتي تزين قبعات الجنود ، مثلثة الالوان . ويدعو علماء التاريخ الطبيعي هذا الطائر Caracara Polyborus في ما أعتقد . انه من رتبةالـ Apicidae وفصيلة العقبان . وقصد بعض الجنود البونابرتيين العجائز ، الطيبين ، المتقاعدين في القرية ، لرؤية هذا الطائر في خشوع . وزعم المشعوذون ان تلك الشارة

المستديرة ظاهرة فريدة صنعها الله خصيصاً لمعرضهم الحيواني .

في ليلة الميلاد تلك كان بضعة رجال ، بعضهم سائقو عربات وبعضهم باعة متجولون في الارياف ، جالسين الى الطاولات يعاقرون الخمر حول اربع شموع او خمس شموع في القاعة السفلى من فندق تيناردييه . وكانت هذه القاعة تشبه قاعات الحانات جميعاً : طاولات ، وآنية من قصدير ، وزجاجات ، وشاربون ، ومدخنون . قليل من النور ، وكثير من الضجة . ومع ذلك ، فقد كان تاريخ عام ١٨٢٣ يتجلى في ذينك الشيئين القائمين على احدى الطاولات ، وكانا آنذاك زياً شائعاً بين الطبقات الوسطى ، وهما منظار سحريّ ، ومصباح من صفيح متموّج . كانت تيناردييه الزوجة تراقب الحساء الذي كان يُطهى أمام نار مشرقة لاهبة . وكان تيناردييه الزوج يحتسي الشراب مع ضيوفه ، ويتحدث في السياسة .

والى جانب المناقشات السياسية التي كان موضوعاها الرئيسيان الحرب الاسبانية ودوق آنغوليم * كان في ميسور المرء ان يسمع ، في غمرة الضجة ، ملاحظات محلية معترضة من مثل هذه :

– « هناك في ناحية « نانتير » و « سورين » كان موسم الكرمة خصباً . فحيث توقّع القوم عشرة براميل فازوا باثني عشر . لقد استخرجوا مقادير كبيرة من العصير من تحت المكبس . »

– « ولكن اليس من الضروري ان ينضج العنب ؟ »

– « اوه ، في تلك الديار ليس من الضروري ان يُقطف العنب ناضجاً . إن الكرمة لتغدو بدينةً مع الربيع . »

– « اذن فهي خمر هزيلة ؟ »

– « ان ثمة خموراً كثيرة هي اشدّ هزالاً من الخمر التي نعرفها هنا . يتعيّن على المرء ان يجني العنب وهو بعدُ أخضر . » الخ ...

وقد يصيح أحد الطحانين قائلاً :

* كان هذا الدوق هو قائد القوات الفرنسية في الحرب الاسبانية .

– هل نحن مسؤولون عما في الاكياس ؟ إننا نجد ركاماً من البذور الصغيرة هناك ، ولكننا لا نستطيع ان نتسلى بالتقاطها ، وإننا لنضطر طبعاً الى ان ندعها تمرّ بين حجري الرحى . هناك زؤان ؛ هناك شمرة ؛ هناك حبة البركة ؛ هناك جلبان ؛ هناك بزر القنب ؛ هناك ذيل الثعلب ، وجمهرة من النفايات الاخرى ، هذا اذا لم نذكر الحصى التي تكثر في بعض اصناف القمح ، وبخاصة قمح بروتانيّ . أنا لا أحب ان اطحن القمح البروتاني ، أكثر مما يحبّ النجار ان ينشر العوارض التي تنطوي على مسامير . يكفي ان تفكر بالتراب القذر الذي يضيفه ذلك كله الى المحصول . وبعد ذلك يشكو الناس رداءة الطحين . إنهم مخطئون . فلسنا نحن المسؤولين عن الطحين . »

وفي مكان وسط بين نافذتين ، جلس حصّاد الى إحدى الطاولات مع مزارع كان يساومه على عمل يقوم به في الموسم التالي ، وأنشأ يقول :

– « لا ضرر البتة في ان يصيب الندى الاعشاب . إنه يُجزّ على نحو أفضل . إن الندى شيء حسن ، يا سيدي . ولكن سيان ، فهذا العشب ، عشبك ، نضرُ العود ، وإن قطعهُ لعسير جداً . إنه شديد الاخضرار ، وهو ينحني تحت المنجل . » الخ

وكانت كوزيت في مكانها المألوف ، جالسة على عارضة طاولة المطبخ ، قرب الموقد . كانت ترتدي خرقاً ممزقة ، وكانت قدماها العاريتان تنتعلان حذاء خشبياً ، وكانت تزرد على ضوء النار جوارب صوفية لبنتي تيناردييه الصغيرتين . كانت هرةٌ صغيرة تلعب تحت الكراسي . وفي غرفة مجاورة كان صوتان طفليان ناضران يثرثران ويضحكان على نحو مسموع . كانتا ايبونين وآزيلما .

وفي زاوية الموقد كان سوطٌ يتدلى من احد المسامير .

وبين الفينة والفينة كان صوت طفل بالغ الصغر ، ينبعث من مكان

ما من المنزل ، فيطفى على ضجة الحانة . ذلك كان غلاماً صغيراً ُرزقته السيدة تيناردييه في شتاء ماضٍ - « من غير ان تدري كيف ، » كذلك كانت تقول ، « إنه ثمرة الجو البارد » ، ولم يكن عمره ليزيد على ثلاث سنوات . كانت الام قد ارضعته ، ولكنها لم تحبه . حتى اذا غدت صيحات الطفل الجائعة اقوى من ان ُتحتمل كان تيناردييه يقول : « إن ابنك يصيح فلماذا لا تذهبين وترين ما يريد ؟ » فتجيبه الام : « أفٍّ ! لقد ضجرتُ منه ! » ويواصل الطفل المخذول صياحه وسط الظلام .

٢
رسمان يكتملان

إننا لم َنرَ تيناردييه وزوجته في هذا الكتاب إلا من ناحية جانبية . ولقد آن لنا أن ندور حول هـــذين الزوجين ونرى اليهما من الجهات جميعـــاً .

كان تيناردييه قد بلغ الخمسين منذ قريب ، وكانت للسيدة تيناردييه قد بلغت الاربعين ، وهي بمثابة الخمسين عند المرأة . وهكذا فقد كان ثمة توازن في العمر بين الزوج والزوجة .

ولعل القراء قد احتفظوا ، منذ ظهورها الاول ، ببعض الذكرى لتيناردييه هذه ، الضخمة ، الشقراء ، الحمراء ، البدينة ، اللحيمة ، المربعة ، الجسيمة ، النشيطة . كانت كما قلنا سابقاً من ذلك العرق من النسوة الوحشيات الهائلات اللواتي ينعطفن كالقوس في الاسواق الدورية وقـــد تدلت قطع البلاط من شعرهن . كانت تقوم بجميع الاعمال المـــنزلية : تنظيف الغرف ، وغسل الملابس ، والطبخ ، وأيّ شيء يحلو لهـــا ، وتضجّ وتصخب . وكانت كوزيت هي خادمتها الوحيدة ؛ فـــأرة في

خدمة فيل . كان كل شيء يرتجف لجرْس صوتها : زجاج النوافـــذ و والاثاث ، والناس . وكان وجهها العريض ، الذي يعلوه النمش ، اشبه شيء بالمرغاة . وكانت لها لحية . كانت المثل الاعلى لصبي الجزار مرتدياً ملابس نسائية . وكانت تُقسم في فخامة ، وتعتز بقـدرتها على ان تكسر الجوزة بجُمع كفها . وبصرف النظر عن الروايات التي قرأتهـا والتي تعطيك في بعض الاحيان لمحة عجيبة عن المرأة المتـكافة الـكامنة تحت السعلاة * فان اياً من الناس لم يخطر له ذات يوم ان يقول عنها : هذه امرأة . كانت تيناريه هذه اشبه شيء بالنتاج الحاصل من تلقيح امرأة وقحـــة مربية ببائعة سمك . اذا سمعتها تتحدث قلت : « هذا دركي » . واذا رأيتها تشرب قلت : « هذا سائق عربة » . واذا بصرت بها تلمس كوزيت قلت : « هذا هو الجلاّد » . وفي اوقات الراحة كانت احدى الاسنان تبرز من فمها .

اما تيناردييه الزوج فكان رجلًا ضئيل الجسم ، هزيلًا ، شاحباً ، ذا زوايا ، عظمياً ، ضعيف البنية يبدو وكأنه مريض برغم ان صحته ممتازة ، ومن هنا كان يبدأ مكرُهُ وخبثه . كان يبتسم ، بحكم العادة ، من باب الاحتراس ، وكان يحاول ان يكون لطيفاً مع الناس جميعاً ، حتى مع الشحاذ الذي كان يضنّ عليه بربع « سو » . كانت له نظرة نمس ، وسيما أديب . وكان يشبه رسوم الراهب دوليل** شبهاً كثيراً . وكان يهوى معاقرة الخمر مع سائقي العربات . ولم يره احد سكران قطّ . وكان يدخن غليوناً ضخماً . وكان يرتدي قميصاً ، وتحت ذلك القميص سترة عتيقة سوداء . وكان يدّعي فهم الادب والفلسفة المادية . وكانت ثمة اسماء يكثر مـن ترديدهـا تأييداً لاي شيء قد يقوله : فولتير ، رينال *** بارني **** ، واخيراً وهو

* السعلاة : انثى الغول .

** l'Abbé Delille شاعر فرنسي (١٧٣٨ — ١٨١٣) ترجم آثار فيرجيل وميلتون .

*** Raynal مؤرخ وفيلسوف فرنسي (١٧١٣ — ١٧٩٦) وضع كتاباً عن غزو الاوروبيين للهند شجب فيه الاستعمار وحمل على رجال الدين .

**** Parny شاعر فرنسي (١٧٥٣ — ١٨١٤) اشتهر بقصائده الغزلية الانيقة.

شيء عجيب ، القديس اوغسطين *. وكان يؤكد ان له « نظاماً ».
وعلى الجملة ، فقد كان غشاشاً كبيراً ، فيلسوفاً في الخداع . وهذا الضرب من الناس موجود . ونحن نذكر انه ادّعى خوض غمار الحرب ؛ وكان يروي في شيء من الابهة انه في واترلو – وكان رقيباً في سلاحٍ ما خفيفٍ يحمل الرقم اربعة او الرقم تسعة – استطاع وحده ، في وجه كوكبة من « فرسان الموت » ، ان يغطي بجسده وينقذ وسط وابل من القذائف « جنرالاً أصيب بجراح خطيرة » ، ومن هنا تلك اللافتة المتهبة التي على جداره ، واسمُ فندقه الذي كان يعرف في ذلك الاقليم بـ « فندق رقيب (سرجان) واترلو » . كان متحرراً ، وكلاسيكياً ، وبونابرتياً . ولقد اكتتب في انشاء « شان دازيل » . ولقد قيل في القرية انه درس ذات يوم لكي يصبح كاهناً .

اما نحن فنعتقد انه لم يدرس ، في هولندة ، الا ما يمكنه من ان يصبح صاحب فندق . والواقع ان هذا النذل ذا « الطراز المركب » كان ، وفقاً لكل احتمال ، فلمنكياً من « ليل » في الفلاندر ، وفرنسياً في باريس ، وبلجيكياً في بروكسل ، فهو مستعد للانضواء تحت الراية التي يجسد في ظلها النفع . اما شجاعته في واترلو فنحن نعرفها . وهو كما قد رأينا ، يبالغ بها بعض الشيء . كان تقلب اهوال الدهر ، والموارية ، والمقامرة هي عنصر وجوده . إن الضمير الممزق يستتبع الحياة المتفسّخة . ولا ريب في ان تيناردييه كان خلال فترة ١٥ حزيران ١٨١٥ العاصفة ، ينتسب الى تلك الطبقة من المطوفين بالليل ، السارقين جيوب الجند ، التي تحدثنا عنها . فهو يرود البلاد ، يبيع هنا ، ويسرق هناك ، ويترحّل على طراز عائلي – رجل وامرأة ، واولاد – في عُجيلة عرجاء ، على آثار الجيوش الزاحفة ، تسوقه غريزة تجعله يلتحق دائماً بالجيش الظافر . حتى اذا انتهت هذه الحملة ، واصبح ، كما قال ، صاحب « ثروة » انشأ مطعماً حقيراً في مونفيرماي .

---

* احد آباء الكنيسة اللاتينية المشهورين (٣٥٤ – ٤٣٠)

ولكن هذه « الثروة » المؤلفة من صُرر مال وساعات وخواتم ذهبية وصلبان فضية ، والتي جمعت إبان الحصاد في الأثلام المزروعة بالجثث ، لم تشكل حاصلاً ضخماً ، ولم تعمر طويلاً عند هذا الطائف الليـــلي الذي امسى صاحب فندق .

وكانت لتيناردييه خشونة الاباءة تلك التي لا توصف ، والتي تذكـّر المرء – حين تُقرن بقسَم – بالثكنة العسكرية ، وتذكره – حـــين تقرن باشارة الصليب – بالمدرسة الاكليركية . كان محدثاً بارعاً ، وكان مولعاً بأن يحسبه الناس عالماً ؛ ومع ذلك ، فقد لاحظ معلم المدرسة أنه كان يخطىء في اللفظ . كان يعدّ فواتير المسافرين بأسلوب رفيـــع ، ولكن العيون المتمرسة كانت تكشف فيها ، احياناً ، بعض الاخطاء الأملائية . كان تيناردييه مرائياً ، شرهاً ، متبطلاً ، وحاذقاً . ولم يكن ليزدري الخادمات ، ومن هنا لم تبق عند زوجته واحدة منهنّ . فقد كانت هـــذه العملاقة حسوداً ، ولقد بدا لها ان هـذا الرجل الاصفر المزيل ، الضئيل الجسم ، لا بدّ ان يكون موضوع اشتهاء عام .

وكان تيناردييه – وهو فوق كل شيء رجل مكر واتزان – وغداً من ضرب معتدل . وهذا الضرب هو الاسوأ . إنه ممزوج بالنفاق .

وليس ذلك يعني ان تيناردييه لم يكن قادراً في بعض المناسبات على ان يغضب ، بقدر ما كانت امرأته تغضب على الاقلّ . ولكن هذا كان نادراً جداً ؛ وفي تلك الحالات كان يبدو وكأنه في حرب مـع الجنس البشري كله ، وكأن في باطنه اتوناً عميقاً من البغض ، وكأنه واحد من اولئك الذين لا ينفكون ينتقمون لانفسهم ، والذين يتهمون كل امرىء من حولهم بجميع الشرور التي تنزل بهم ، والذين هم دائمـاً على استعداد لأن يطرحوا على أول قادم ، كشكوى مشروعة ، كل ما مُنوا بـه في حياتهم من خيبة وإخفاق ومصائب . وإذ كانت هذه الخميرة تعتمل في ذات نفسه ، ويطفو زبدها على فمه وعينيه ، فقد كان مشهده مروّعاً .

والويل لمن يتعرّض لنقمته عندئذ !

وكان تيناردييه ، بالاضافة الى سائر صفاته ، حسن الانتباه ، ثاقب النظر ، صموتاً أو ثرثاراً وفقاً لمقتضى الحال ، وعلى ذكاء بالغ دائماً . كانت له ، بعضَ الشيء ، سيا الملاحين المتعودين أن يطرفوا بأعينهم في المناظير . لقد كان تيناردييه رجل دولة .

كان كل وافد جديد لا يكاد يدخل المطعم الحقير حتى يقول — لدن رؤيته تيناردييه الزوجة : « هو ذا سيّد البيت . » وذلك خطأ . فهي لم تكن حتى سيدة البيت . كان الزوج هو سيد البيت وسيدته في وقت معاً . كانت هي تعمل ، وكان هو يبتدع . كان يدير كل شيء بضرب من العمل المغناطيسي المتواصل غير المنظور . كانت كلمة واحدة — واحياناً ايماءة — تكفي ، فاذا بالماستودونة * تطيع . كان تيناردييه عندها — من غير أن تعي ذلك حقاً — ضرباً من الكائن الفريد ذي السلطان . كانت لها فضائلها الشخصية . فهي لم تختلف قط ، حول مسألة ما ، مع « مسيو تيناردييه » ، وما كانت لتتشاجر واياه علناً — وهذا افتراض مستحيل — من اجل أيما أمر مهما يكن . ولم تقترف ذات يوم « امام الغرباء » تلك الغلطة التي ترتكبها النسوة في كثير من الاحيان ، والتي ندعوها ، في اللغة البرلمانية : كشف الغطاء عن التاج . وعلى الرغم من ان تفاهمها ما كان يثمر غير الشر ، فقد كان في خضوع السيدة تيناردييه لزوجها غذاء للتأمل . لقد تحرّك جبلُ الضجة واللحم هذا تحت خنصر هذا الطاغية الواهن . وكان ذلك يمثل ، اذا ما نُظر اليه من جانبه القزم المضحك ، هذه الحقيقة الكلية الكبيرة : شغف المادة بالروح . ذلك بان اصل بعض البشاعات كامنٌ في اعماق الجمال الازليّ نفسه . لقد كان في

* الماستودون ، كما مر سابقاً ، حيوان منقرض يشبه الفيل . والمقصود بالماستودونة هنا مدام تيناردييه .

تيناردييه شيء من المجهول ، ومن هنا سلطان هذا الرجل المطلقُ على هذه المرأة . كانت في بعض الاحيان تنظر اليه نظرتها الى شمعة مضاءة، وكانت في بعضها الآخر تستشعر انه مخلب من المخالب .

كانت هذه المرأة مخلوقاً مخوفاً لا يحب احداً غـــير اولاده ، ولا يخشى شيئاً غير زوجه . كانت اماً لانها كانت حيواناً ثديياً . وكانت مشاعرها الأمومية تنتهي عند بنتيها ، ولا تمتدّ ، كما رأينا ، لتشمل الصبيان اما هو ، الرجل ، فلم يكن له من "هم" غير الاثراء .

ولم يوفق الى النجاح . لقد أعوزت الفرصةُ الملائمة مواهبه الكبيرة . كان تيناردييه في مونفيرماي سائراً نحو الافلاس ، اذا كان الافلاس ممكناً عند الصفر . ولو قد كان هذا الرجل الذي لا يملك درهماً ، في سويسرة أو في البيرينيه ، اذن لامسى مليونـــيراً . ولكن حيث يوثق القَدَر الفندقيّ تعيّن عليه ان يرعى العشب .

ومفهوم ان كلمة فندقي تُصطنع هنا بمعنى مقيد ، وانها لا تشمل طبقة برمّتها .

وفي ذلك العام نفسه ، ١٨٢٣ ، كان تيناردييه مديناً بنحو الف وخمسمئة فرنك من الديون الملحّة التي جعلته مشغول البال .

ومهما يكن القدر ظالماً له على نحو عنيد ، فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون احسن الفهم ، وفي اشد ما يكون من العمق واحدث ما يكون من الاساليب ، ذلك الشيء الذي هو فضيلة عند الشعوب البدائية ، وسلعة عند الشعوب المتحضرة ، اعني حسن الضيافة . والى هذا ، فقد كان صياداً بارعاً يتخذ من أرض الاخرين ، دونما إذن ، ميداناً لنشاطه ، وكان يُعدّ من الرماة الممتازين . كانت له ضحكة باردة ساكنة ، وكانت ضحكته هذه خطرة ، بصورة خاصة .

كانت نظرياته في ادارة الفنادق تنبع من نفسه في بعض الاحيان مثل وميض البرق . وكانت له بعض الحكم المهنية التي غرسهـــا في ذهن

زوجته . « إن واجب الفندقي » كذلك قال لها ذات يوم ، في توكيد وفي صوت خفيض ، « ان يبيع الوافد الاول طعاماً ، وراحة ، ونوراً ، وناراً ، وشراشف سرُر قذرة ، وخادمات ، وبراغيث ، وابتسامات ؛ ان يوقف المسافرين ، فيفرغ اكياس النقود الصغيرة ويخفف في لطف من ثقل الاكياس الكبيرة ؛ ان يستقبل في احترام الاسرَ المسافرة ، فيكشط الرجال ، وينتف ريش النساء ، ويحلج الاولاد ؛ ان يتقاضى اجراً عن النافذة المفتوحة ، والنافذة الموصدة ، وزاوية الموقد ، والأريكة ، والكرسي ، والكرسي الذي لا ظهر له ، والموطىء ، وفراش الريش ، والحشيّة ، وفراش القش ؛ ان يعرف الى اي حد اصاب البلى المرآة ويفرض ضريبة على ذلك ؛ وان يحمل المسافر – وأقسم بالخمسمئة الف شيطان – على ان يدفع ثمن كل شيء حتى الذباب الذي يأكله كلبه ! » .

كان هذا الرجل وهذه المرأة هما المكر والغيظ مجتمعين ، ويا له من اقتران راعب فظيع !

وفيما كان الزوج يحسب ويدبر كانت تيناردييه الزوجة لا تفكر بالدائنين الغائبين ، ولا تحمل همّ الأمس او الغد ، بل تحيا في هيجان الدقيقة التي هي فيها .

كذلك كان هذان المخلوقان ، وكانت كوزيت بينهما ، متحملةً ضغطهما المزدوج ، اشبه شيء بمخلوقة تسحقها الرحى وتمزقها الكلابة إرباً إرباً ، في آن معاً . لقد كانت لكل من الرجل والمرأة طريقة خاصة . فكانت كوزيت تُضرب في غير رحمة ؛ وهذا من فضل المرأة . وكانت تمشي حافية في ايام الشتاء ؛ وهذا من فضل الرجل .

وصعدت كوزيت السلم ، وهبطت السلم ، وغسلت ، ونظفت بالفرشاة ، ومسحت ، وكنست ، وركضت ، واجهدت نفسها في السير ، ولهثت ، ورفعت اشياء ثقيلة ، ونهضت بالاعمال الخشنة ، برغم ضعف بنيتها . لا رحمة البتة . سيدة شرسة ، وسيد خبيث . لقد كان مطعم تيناردييه الحقير أشبه بشرك

علقت به كوزيت وراحت ترتجف . ولقد تحقق المثل الاعلى للاضطهاد في هذه العبودية المشؤومة . كانت اقرب شيء الى ذبابة تخدم عناكب .
واطاعت الطفلة المسكينة في استسلام وصمت .
ولكن ما الذي يجري في هذه النفوس التي لم تنفصل عن الله الا منذ قريب حين تجد ذاتها في فجر الحياة ، صغيرة الى هذا الحد ، ضعيفة الى هذا الحد ، بين الرجال ؟

٣

يجب ان يشرب الرجال الخمر

وان تشرب الخيل الماء

كان قد وفد على الفندق أربعة نزلاء جدد .
وفكّرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بأنها كانت قد قاست مـــن ويلات الدهر ما يحملها على التفكير – وهي التي لم تتجاوز الثامنة – بمثل السيما الفاجعة التي ترين على وجه امرأة عجوز .
وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سدّدتها تيناردييه الزوجة اليها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة ، بُجمِّع كفها :
– « ما أقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! »
كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، آنذاك ، ان الليل قد هبط ، وإنه أمسى دامساً ، وإن آنية الماء وزجاجاته العريضة القاعدة ، تلك الآنية والزجاجات التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان تُملأ في الحال ، وانه لم يبق ثمة ماء في الحوض .
وسرّى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في

حانة تيناردييه . وكان بين اولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط اليدَ نحو وعاء الخمر الكبير لا نحو الزجاجة العريضة القاعدة . ولو قد طلب أحد كوب ماء وسط كؤوس الخمر هذه ، اذن لبدا متوحشاً في نظر هؤلاء الرجال . ومع ذلك فقد انقضت لحظةٌ ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القِدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تغلي على الموقد ، ثم تناولت كوباً وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ؛ وكانت الطفلة قد رفعت رأسها وتابعت حركاتِها جميعاً . وجرى من الحنفية خيطٌ من الماء رفيع لم يَشْغَلْ من الكوب غير نصفه .

وقالت :

– « أنظر ! لم يبق شيء من الماء ! »

ثم انها صمتت لحظة . اما كوزيت فحبست أنفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تتفحص الكوب نصف المليء :

– « انا اشك في ذلك ! سوف يبقى مقدار كافٍ منه ، على هذا الشكل . »

واستأنفت كوزيت عملها ؛ ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة او يزيد ، ان قلبها يثب في صدرها مثل كُرة ضخمة .

وعدّت الدقائق فيما هي تتصرّم هكذا ، وتمنت في لهفة لو ان الفجر يبزغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف : « إن الليل حالكٌ مثل فرن ! » أو : « ينبغي ان يكون الانسان هرةً حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح ! » وارتعدت كوزيت.

وفجأة دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في صوت أجش :

– « انكم لم تسقوا جوادي ! »

فقالت تيناردييه الزوجة :

– « بل لقد سقيناه ، من غير ريب . »

فاستأنف البائع المتجول :

– « اقول لك لا ، يا سيدتي . »

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة .

وقالت :

– « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد . لقد شرب من الدلو . الدلو الملآن . ولقد حملتُهُ انا بنفسي اليه ، وتحدثت معه . »

ولم يكن ذلك صحيحاً . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول :

– « هي ذي فتاة في حجم قبضة يدي ، ومع ذلك فهي تكذب كذبة في حجم البيت . أقول لكِ انه لم يشرب ، ايتها الطفلة الحقيرة ! ان له طريقة في اللهاث حين لا يكون قد شرب شيئاً من المـــاء وانا اعرف طريقته تلك جيداً . »

واصرّت كوزيت ، واضافت في صوت أبحّه الألم النفسي المرير ، فهو ما يكاد يُسمع :

– « ولكنه شرب مقداراً كبيراً من الماء . »

فتابع البائع في غضب :

– « كفى ، كفى ! قدّمي شيئاً من المـــاء الى جوادي ، ولا تقولي كلمة إضافية في الموضوع . »

وعادت كوزيت الى مكانها تحت الطاولة .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابـــة لم تشرب بعد فينبغي ان تشرب . »

ثم أجالت البصر في ما حولها وقالت :

— « حسن ، ما الذي حلّ بتلك الفتاة ؟ »

وانحنت ، فاكتشفت كوزيت رابضةً عند الطرف الآخر من الطاولة ، تحت أقدام الشاربين تقريباً .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

— « ألن تأتي ؟ »

وخرجت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وتابعت تيناردييه الزوجة :

— « اينها الآنسة « الكلبة التي لا اسم لها » ، اذهبي واحملي شيئاً من الماء الى ذلك الجواد ! »

فقالت كوزيت في وهن :

— « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء . »

ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه :

— « حسن ، إذهبي واجلبي شيئاً منه ! »

وخفضت كوزيت رأسها ، ومضت تلتمس دلواً فارغاً كان في زاوية الموقد .

كان ذلك الدلو اكبر منها ، وكان في ميسور الطفلة ان تقعد فيه على نحو مريح .

ورجعت تيناردييه الزوجة الى وجاقها ، وذاقت ما كان في القِدر بملعقة خشبية وهي تغمغم :

— « ان في الينبوع ماء . هذه أخبث طفلة وُجدت على ظهر الارض . واحسب اني أحسِن صنعاً اذا تركتُ بَصَلي هذا . »

ثم انها بحثت في احد الادراج حيث كانت بضعة فلوس ، وشيء من الفلفل والثوم .

وأضافت :

— « ايتها الآنسة الضفدع ، إشتري من الخباز ، وانت عائدة ،

رغيفاً كبيراً . دونك خمسة عشر سو . »

كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت القطعـــة النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .

ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح أمامهـــا . لقد بدت وكأنها تنتظر ان يُقبل شخص ما لنجدتها .

وصاحت السيدة تيناردييه :

— « هيا ، إذهبي ! »

وخرجت كوزيت ، وأوصد الباب .

٤

دخول دمية الى المسرح

لقد امتدّ صف الدكاكين ، كما يذكر القاريء ، على طول الشارع من الكنيسة حتى فندق تينارديه . وكانت هـــذه الدكاكين متلألئة كلهـــا – بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليـــل – بالشموع المشعلة في فوانيس من ورق تركت – كما قال معلم مونفيرماي الذي كان جالساً آنذاك الى احدى طاولات تيناردييه – « أثراً سحرياً ». وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمة واحدة في السماء .

وكانت آخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيمت تجاه باب تيناردييه تماماً ، دكان دمىً تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغـة الصغر ، وبالخرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفي الصف الاول ، وفي مكان متقدم ، كان البائع قد وضع ، فوق مهادٍ من المناديل البيضاء ، دميةً ضخمة يبلغ طولها نحواً من قدمين ، وترتدي ثوباً من « الكريب » الأزهر ، وقد جُعلت على رأسها سنابل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينـــين

مصنوعتين من الميناء . وكانت هذه الاعجوبة قد عُرضت طوال النهـــار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد في مونفيرماي كلها أمّ هي من الغنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريهـــا لطفلها . كانت ايبونين وآزيلما قد أنفقتا ساعات في التحديق اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلسة من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مُثقلة بالكآبة والغم ، لم تتمالك ان ترفع عينيها نحو هذه الدمية الرائعة ، نحو هـــذه « السيدة » كما دعتها . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انهـا لم ترَ تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الخشبية كلها قصراً في عينيها . ان تلك الدمية لم تكن دمية ؛ لقد كانت رؤيا . كانت هي البهجة ، والبهـــاء ، والثروة ، والسعادة تراءت في ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه المخلوقة الصغيرة البائسة المدفونة ، أعمق ما يكون الدفن ، في شقاء فاجع بارد . كانت كوزيت تقيس ، بحكمة الطفولة الساذجة البسيطة ، الهوة التي تفصلها عن تلك الدمية . وقالت في ذات نفسها إن الفتاة ينبغي ان تكون ملكة ، او أميرة على الاقل ، لكي تفوز بـ « شيء » مثل هذا . وحدّقت الى هذا الثوب الازهر الجميل ، والى هـذا الشعر الناعم الحلو ، وانشأت تفكر : « اي سعادة عظيمة ينبغي ان تكون هذه الدمية متمتعة بهـــا ! » ولم تستطع عيناها التحول عن هذه الدكان الغريبة . وكلما اطالت النظر تعاظم انشراحها . لقد حسبت انها رأت الجنة . وكانت دمىً اخرى ، خلف الدمية الكبرى ، بدت لها جناً وعفاريت . اما التاجر الذي كان يروح ويجيء في الجزء الخلفي من الدكان فتمثل لها بعض الشيء وكأنه « الأب الأزلي » .

وفي غمرة من هذا التعبد نسيت كل شيء ، حتى المهمة التي عُهد اليها فيها ؛ وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجش الى الواقع :

— « ماذا ايتها الغبية ، الم تذهبي بعد ؟ انتظري . أنا آتية اليك ! إني احب

ان أعرف ما الذي تفعله هناك ؟ ايتها المسخة الصغيرة ، اذهبي ! »

وكانت تيناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع ، ورأت كوزيت في حال من الوجد .

وولت كوزيت حاملة دلوها ، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع ان توسعها .

٥
الصغيرة فريسة الوحدة

واذ كان فندق تيناردييه في ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعيّن على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاور لـ« شيل ».

ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة في الدكاكين . وكانت هـــذه الدكاكين المضاءة تنير سبيلها ما بقيت في زقاق بولانجيه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى آخر شعاع من آخر دكان . والفت الطفـــلة المسكينة نفسها في الظلمة . لقد دفنت فيها . بيد أنها وقد استبد بهـــا انفعالٌ ما ، راحت تهزّ عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، أقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها في وحدتها .

وكلما أمعنت في المسير ، أمست الظلمة اشدّ كثافة . لم يبقَ شخص ما في الشوارع . ومع ذلك ، فقـــد لقيتْ امرأةً استدارت لدن رؤيتها تمر ، وظلت جامدة تتمتم من بين اسنانها : « ولكن الى اين يمكن ان تكون هذه الصغيرة ذاهبة ؟ أهي طفلةُ شبح ؟ » ثم ان المرأة عرفت كوزيت ، فقالت : « اوه ، إنها القبرة ! »

وهكذا اجتازت كوزيت تِيهَ الشوارع المتعرجة المهجورة التي تنتهي بها قرية مونفيرماي من ناحية « شيل » . وكانت تمضي في جرأة كافية ما دامت تجد بيوتاً ، بل جـــدراناً ، على جانبي طريقها . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ؛ كان ذلك نوراً وحياة ، وكان ثمة أناس ، وكان ذلك يسرّي عنها ويُبقي

على شجاعتها . بيد ان سرعتها كانت تتباطأ ، على نحو ميكانيـــكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفّت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخيرة عسيراً ؛ ولقد امسى الذهاب الى أبعد من المنزل الاخير مستحيلاً . ووضعت الدلو على الارض ، وغيّبت يدها في شعرها ، وشرعت تحك رأسها في تؤدة ، وهي حركة خاصة بالاطفال المروّعين المترددين . انها لم تعد في مونفيرماي ؛ لقد امست في الارض الفضاء. كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها . ونظرت في يأس الى هـذه الظلمة ، حيث لم يبقَ شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح في اغلب الظن . وانعمت النظر ، وسمعت الحيوانات الماشية فوق العشب ، وبصرت على نحو واضح بالاشباح المتحركة في الاشجار . ثم تناولت دلوها من جديد ؛ لقد امدّهـــا الخوف بالجرأة . وقالت : « باه ! سوف اقول لها إنه لم يبق هناك شيء من الماء ! » ورجعت في غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكد تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة أخرى ، وشرعت تحك رأسها . كانت تيناردييه الزوجة هي التي تبدّت لها الآن ، تيناردييه الرهيبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينيها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مُبكية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تعمله ؟ ما الذي سيحلّ بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تيناردييه الزوجة ، واما وراءها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وانما تراجعت في وجه تيناردييه الزوجة . واتخذت الطرق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وأنشأت تعدو . لقد خرجت من القرية راكضة ، ودخلت الغابة راكضة ، غير مبصرة شيئاً ، غير سامعة شيئاً . ولم تكفّ عن الركض إلا بعد ان انقطعت انفاسها . وحتى في تلك الحال تابعت طريقها مترنحة . لقد تقدمت الى امام واليأس يعصف بها .

وحتى فيما هي تعدو نازعتها نفسها الى البكاء .

ولفّها ارتعاش الغابة الليلي لفّاً كاملاً . لم تعد تفكر بشيء ؛ ولم تعد ترى شيئاً . لقد واجه الليل اللانهائي هذه المخلوقة الصغيرة . فمن ناحيـــة ، الظلامُ كله ، ومن الناحية الاخرى ذرةٌ ليس غير .

وكان الينبوع لا يبعد عن طرف الغابة إلا مسيرة سبع دقائق او ثماني دقائق . وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها اياها بضع مرات يومياً . ومن عجب انها لم تضلّ سبيلها . لقد هدتها بقية مـــن غريزة ، على نحو أعمى ، ولكنها لم تدر عينيها لا الى اليمين ولا الى اليسار ، خشية ان ترى اشياء على الاغصان وفي الادغال . وهكذا انتهت الى النبع .

كان حوضاً طبيعياً صغيراً أحدثته المياه في تربة رملية دلغانية ، وكان عمقه نحواً من قدمين ، وقد حفت به الطحالب وتلك الاعشاب الطويلة المطبّعة بشكل بارز والتي ندعوها اطواق عنق هنري الرابع ، ورُصف ببضعة حجار ضخام . وكان جدولٌ ينبثق من هناك ، في خرير رفيق ساكن .

ولم تحاول كوزيت ان تأخذ نفساً . كان الظلام دامساً ، ولكنها كانت متعوّدة المجيء الى هذا الينبوع . وبيدها اليسرى تلمّست في الظلمة سنديانةً صغيرة منحنيةً فوق الينبوع -- وكانت كثيراً ما تتخذ منهـــا نقطة ارتكاز – فوجدت غصناً ، فتعلقت به ، وانحنت مغطسةً الدلو في الماء . ومرّت بها لحظة كان الاهتياج غالباً عليها الى درجـــة ضاعفت قوتها أضعافاً ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ ان جيب مئزرها قد أفرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخمسة عشر « سو » في الماء . ولم ترَ كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبت الدلو مليئاً أو يكاد ، ووضعته عـلى العشب .

حتى اذا تم لها ذلك ادركت ان قوتها قد نفدت . كانت راغبـــة اشد الرغبة في ان تنطلق في الحال ، ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيماً الى حد جعل من المتعذر عليها ان تخطو ، بعدُ ، خطوة

واحدة . لقد اضطرت الى الجلوس اضطراراً . فارتمت عـــلى العشب وظلت مقرفصة هنـاك .

واغمضت عينيها ، ثم فتحتهما من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غـير ذلك .

والى جانبها كانت المياه المثارة في الدلو قد احدثت دوائر تشبـــه أفاعي النار البيضاء .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحائب سوداء عريضة كانت أشبه بذيول من دخان . لقد بـــدا قناع الليل الفاجع وكأنه يُطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

كان المشتري (جوبيتير) يغرب في أعماق الافق .

ونظرت الطفـــلة بعينين ذاهلتين الى ذلك الكوكب الضخم الذي لم تعرفه ، والذي ملأها رعباً . وفي الحق ان الكوكب كان ، آنذاك ، قريباً جداً من الافق ، وكان يجتاز طبقة كثيفة من الضباب خلعت عليه حمرة راعبة . وضخّم الضبابُ ، وقد خُضِّب عـــلى نحو فاجع ، ذلك الكوكب . كان في ميسور المرء أن يقول انه جرح ساطع .

وهبّت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمـــة ، ولم يكن فيها أيما حفيف ، أو أيما ومضة من ومضات الصيف تلك المبهمة الفضّة . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وصفرت الادغال الهزيلة المشوهة في البقاع الجرداء من الغابة . وتلوّت الاعشاب الطويلة ، تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . وتمايلت العواسج مثل أذرع طوال ذات براثن تلتمس فرائس لهـا . وساقت الريح بعض الاعشاب البرية اليابسة ، فمرّت في سرعة ، وبدت وكأنها تهرب مذعورةً من وجـــه شيء كان يطاردها . كان كل شيء من حولها فاجعاً حقاً .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وأيما امرىء يغوص في نقيض النهار يستشعر انقباضاً في الصدر . فحين

تقع العين على السواد ، ترى النفسُ القلقَ . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة القاحمة ، يستبد الحصر النفسيّ حتى بأقوى الرجال . فما من أحد يستطيع أن يسري وحده ، في الغابة ، ليلاً ، من غير أن يرتعد . الظلمات والاشجار – ضربانِ من الاعماق الرهيبة . إن واقعاً وهمياً ليتبدّى في المدى المبهم . ويتمثل ما لا يمكن تصوره تمثلا طفيفاً ، في وضوح شبحيّ ، على بضع خطوات منك . ويطفو في المدى أو في دماغك أنت شيء يتراءى لك غامضاً على نحو غريب ، شيء لا سبيل الى الامساك به مثل أحلام الرياحين الهاجمة . إن في الافق لأشباحاً ضارية . وتتنشق روائح الفراغ الاسود الكبير . ويعصف بك الخوف ، وتعصف بك الرغبة في ان تلتفت الى وراء . وتواجه تجاويف الليل ، وشراسة الاشياء كلها ، والصور الجانبية الصامتة التي تتلاشى حين تتقدم نحوها ، والتشعثات الغامضة ، وباقات العشب الغضبى ، والبرك الزرقاء الضاربة الى السواد ، والحِدادي منعكساً على المأتميّ ، ولانهائية الصمت القَبْرية ، والكائنات المجهولة الممكنة ، وتمايل الاغصان الخفية ، والتواءات الاشجار المخيفة ، وحفنات طويلة من الاعشاب المرتعشة – تواجه هذا كله من غير سلاح . وليس ثمة شجاعة لا ترتعد ولا تحس بما يشبه العذاب النفسي المبرّح . انك لتستشعر شيئاً راعباً ؛ لكأن النفس تمتزج بالظلام . وهذا الدخول في الظلام مشؤوم ، بالنسبة الى الاطفال ، على نحو يجلّ عن الوصف .

الغابات رؤىً . وإن خفق أجنحة النفس الصغيرة ليُحدث صوتاً كالحشرجة تحت قُبتها المائلة .

ومن غير ان تعي ما الذي كانت تعانيه ، استشعرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهائي الاسود يمسك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكبّلها ، ولكنْ شيء ما أشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن ان تقول ايّ شيء غريب انطوت عليه تلك

الرعدة التي اثلجتها حتى اعماق الفؤاد . وغدت عينها ضارية . لقد أحسّت انها قد تضطر الى العودة الى هناك في الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم إنها شرعت – بضرب من الغريزة ، ولكي تخرج من هذا الوضع الفريد الذي لم تفهم منه شيئاً ولكنه يروّعها – تعدّ بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، إلى العشرة ؛ حتى اذا انتهت ، عاودت العدّ من جديد . ومكنها ذلك من استعادة الادراك الواقعيّ للاشياء المحيطة بها . واستشعرت البرد في يديها اللتين تبللتا من جراء استقائها من البئر . ونهضت . كان الخوف قد عاودها ، وكان خوفاً طبيعياً لا سبيل الى دفعه . ولم يَجُلْ في ذهنها غير خاطر واحد : ان تفرّ . ان تفرّ بكل ما في قدميها من قوّة ، عبرَ الغابات ، عبرَ الحقول ، الى البيوت ، الى النوافذ ، الى الشموع المضاءة . ووقعت عيناها على الدلو الذي أمامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تينارديه في فؤادها شديداً الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضيّ من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين . ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات او نحوها . ولكن الدلو كان مليئاً ، وكان ثقيلاً ، فاضطرت الى وضعه على الارض . وتنفست لحظة ، ثم امسكت بالعروة كرة اخرى ، ومضت لسبيلها ، مواصلة السير هذه المرة فترة اطول بعض الشيء . ولكنها اضطرت الى ان تكف عن المسير من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشت منحنية الى امام ، مطأطئة رأسها مثل امرأة عجوز . لقد وتّر ثقل الدلو ذراعيها الهزيلتين وصلّبهما . وكانت عروة الدلو تخدّر يديها الصغيرتين المبللتين وتثلجهما . وبين الفينة والفينة ، كانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك في قلب احدى

الغابات ، في موهن من الليل ، وفي الشتاء ، بعيداً عن كل عين بشرية . كانت طفلة في الثامنة من عمرها . ولم يكن ثمة في تلك اللحظة احد غير الله يرى هذا الشيء الكئيب .

وأمها من غير شك ، وا أسفاه !

ذلك بان ثمة اشياء تفتح اعين الاموات في قبورهم .

وتنفست في ضرب من الحشرجة الفاجعة . وخنقتها التنهدات ، ولكنها لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحدّ كانت خائفة من السيدة تيناردييه ، حتى وهي بعيدة عنها . كانت تتخيل دائماً ان السيدة تيناردييه عـــلى مقربة منها .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسورها ان تقطع شوطاً حسناً مـــن الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم في بطء شديد . لقد حاولت جهدها ان تقصّر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول مسافة ممكنة . وتذكرت في ألم نفسي مرير انها قد تحتاج الى اكثر من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي عـــلى هذا النحو ، وان السيدة تيناردييه سوف تضربها . وامتزج هذا الالم النفسي بذعرها الناشيء عـــن وحدتها في الغابة ، ليلًا . وأبلاها الاعياء وهي لمّا تفارق الغابة بعد . حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز الـــتي تعرفها ، وقفت للمرة الاخيرة ، وقفةً اطول من سابقاتها لكي تستريح جيداً . ثم استجمعت قواها كلها ، ورفعت الدلو كرة اخرى ، واستأنفت السير في شجاعة . ومع ذلك فلم تتمالك المخلوقة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح :

— « اوه ! يا الـهي ! يا الـهي ! »

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت يدٌ ، بدت لها هائلة ، قد امسكت اللحظةَ بعروة الدلو ، فهي تحمله في يُسر . ورفعت رأسها . كان شكلٌ اسودُ ضخم ، مستقيم منتصب القامة ، يمشي الى جانبها في الظلام . انـــه رجلٌ كان قد اقبل من

ورائها ، ولم تكن قد احست بقدومه . ومن غير ان يقول كلمة ، كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله .

إن ثمة غرائز لجميع أزمات الحياة .

ولم تستشعر الطفلة خوفاً ما .

٦
وهو ما قد ينهض دليلاً على
ذكاء بولا تروويل

في أصيل يوم الميلاد نفسه ذاك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجلٌ فترةً طويلة في أشدّ أقسام « جادة المستشفى » في باريس وحشةً وانعزالاً . وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سيما من يبحث عن مكان يبيت فيه ؛ ولقد تراءى وكأنه يؤثر الوقوف عند اكثر البيوت تواضعاً في ذلــك الطرف الخرب من ضاحية « سان مارسو » .

ولسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقــع ، غرفةً في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بملابسه وبشخصه كله يحقق النموذج الكامل لما يمكن ان ندعوه متسوّل المجتمع المترف — بؤسٌ متناهٍ تمازجه نظافــة متناهية . وذلك مزاج نادر جداً يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جداً ، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان يعتمر بقبعة مستديرة عريقة في القِدَم ، ومُفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة طويلة (ريدنغوت) باليةً مهترئة الخيوط مفصّلة من جوخ خشن أصفر ضارب الى لون التراب الحديدي ، وهو لون لم يكن شديد الغرابة في

ذلك العهد ، وصدرةً واسعة ذات جيوب عتيقة الزيّ ، وبنطلوناً أسود أحال البلى لونَهُ ، عند الركبتين ، الى رماديّ ، وجوربين صوفيين أسودين ، وينتعل حذاء غليظاً ذا أبازيم نحاسية . ولقد كان في ميسور المرء ان يزعم انه مؤدب قديم لأسرة كبيرة انقلب من المهجر الى الوطن . ومن شعره الأشيب بالكلية ، ومن جبينه المتغضن ، ومن شفتيه الزرقاوين الضاربتين الى السواد ، ومن وجهه حيث كل شيء ينمّ عن الاعياء والسأم من الحياة ، كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه تخطى الستين منذ زمن بعيد . في حين ان خطواته الثابتة وإن تكن بطيئة ، والعزم الفريد الذي يَسِمُ حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء أنه لم يكد يبلغ الخمسين . وكانت تغضنات جبينه حسنة الاتساق فهي قادرة على ان تحبب اليه ايما شخص يتأمله في انتباه . وكانت شفته تتقلص في تعبير عجيب بدا قاسياً ، ومع ذلك فقد كان متواضعاً . أما في أعماق عينيه فكان صفاء فاجع لا سبيل الى وصفه . وكان يحمل بيده اليسرى صرّة صغيرة مشدودة بمنديل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصاً قُطعت من سياج من الاشجار الشائكة . وكانت هذه العصا قد سُويت في بعض العناية ، ولم تكن لتبدو بشعة جداً . لقد ازيلت عُقدها وصُقلت فهي ملساء ، ولقد جُعل لها من الشمع الأحمر رأس مرجاني . كانت هراوة ، ولكنها بدت عصاً من العصيّ .

وليس يجتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة في فصل الشتاء . ولقد بدا أن هذا الرجل يجتنب الناس اكثر مما يسعى الى لقائهم ، ولكن من غير تكلف .

في ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريباً الى « شوازي لو روا » . كانت احدى نزهاته المفضلة . وحوالى الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربة الملكية

وموكب الفرسان الملكي يخترقان «جادة المستشفى» باقصى ما يستطيعان من السرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحيّ الفقيرات اللواتي كنّ يقلن : «انها الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري . .»

وكان بعض القوم يركضون ، وكان بعضهم الآخر يتنحّون ، اذ ما ان يمر ملك في شارع حتى تسوده جلبة وضجيج . والى هذا ، فقد كان ظهور لويس الثامن عشر وغيابه يحدثان هزةً انفعالية في شوارع باريس . فقد كان موكبه سريعاً ، ولكنه مهيب . كان هذا الملك العاجز مولعاً بسرعة السّوق . لقد اعوزته المقدرة على المشي فرغب في العَدْو . والواقع ان هذا المُقعَد كان خليقاً به ان يستشعر مزيداً من السعادة لو ان البرق كان له سائقاً . لقد اخترق الشوارع ، هادئاً قاسياً ، وسط السيوف المسلولة . كانت عربته الضخمة ، المذهبة تذهيباً شاملاً ، المزدانة بأغصان الزنبق المرسومة على مصاريعها ، تكرّ في صخب . كان المرء لا يكاد يجد متسعاً من الوقت لالقاء نظرة عليها . وفي الزاوية الخلفية اليمنى ، فوق وسائد مغطاة بالاطلس الابيض ، كان يُرى وجهٌ عريض ، ثَبْتٌ احمر اللون ، وجبين نُضحَ منذ برهة يسيرة على طريقة الطائر الملكيّ ، وعينٌ فخورٌ ، قاسية حادة ، وابتسامة أشبه بابتسامة الرجل الحسن الثقافة ، وكِتافتان ضخمتان ذواتا اهداب حلزونية الشكل منسدلة فوق بذلة من بذلات المواطنين ، والجزّةُ الذهبية ، وصليب القديس لويس ، وصليب جوقة الشرف ، ووسام الروح القدس الفضي ، وبطن كبير ، وعصابة عريضة زرقاء . ذلك كان الملك . وخارج باريس ، كان يضع قبعته ذات الريش الابيض على ركبتيه المغلّفتين بلفافتي ساق انكليزيتين عاليتين ، حتى اذا عاد الى المدينة وضع قبعته على رأسه ، حانياً هامته بالتحية بعض الشيء . كان ينظر ، في برود ، الى الناس الذين كانوا يبادلونه نظرته . وحين ظهر للمرة الاولى في حيّ سان مارسو كان كل ما وُفق

اليه من نجاح مقصوراً على هذه الكلمة التي وجّهها احـد ابناء الحي الى رفيقه : « ذلك الرجل البدين هو الحكومة . »

واذن فقد كان مرور الملك المحقّق حدوثُهُ في الساعـة نفسها هو حدَث « جادة المستشفى » اليومي .

ولقد كان واضحاً أن ذلك المتجوّل ذا السترة الطويـلة الصفراء لم يكن من أبناء الحيّ ، ولعله لم يكن من أبناء باريس ، اذ كان يجهل هذا الحدث . فحين انطلقت العربة الملكية ، عند الساعـة الثانية ، نحو الجادة ، بعد اجتازت « لا سالبيترييير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملـكي الموشّاة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلاً ، بـل بدا مروّعاً تقريباً . لم يكن ثمة احدٌ غيره عند مفرق الزقاق ، فارتدّ على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هـذا لم يحل بين دوق دافريه وبـين رؤيته . وكان الدوق دافريه ، بوصفه ضابط الحرس المكلف بمرافقة الملك ذلك اليوم ، جالساً في العربة تجاه الملك . فقال لجلالته : « هوذا رجلٌ تبدو على وجهه سيماء بغيضة . » وبصُر به بعض رجال الشرطة الذين كانوا يُخلون الطريـق للموكب الملكي ، ايضاً ، فأمر واحدٌ منهم بأن يتبعه . ولكن الرجل غاص في ازقة الضاحية المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يهبط فقد الشرطي أثره ، على ما هو ثابت من تقرير قُدّم في الليلة نفسها الى الكونت آنغليز ، وزير الدولة ، مدير البوليس .

وحين أضلّ الرجل ذو السترة الطويـلة الصفراء الشرطيّ ، استدار ملتفتاً مرات عديدة لكي يتأكد من ان احداً لا يتبعه . وعند الساعة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح « لا بورت سان مارتان » حيث كانت تقدّم ذلك اليوم مسرحية « المحكوم عليهما بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضـاء بمصابيح المسرح العاكسة النور ، إذ توقف عنده ، على الرغم من إسراعه في السير ، لكي يقرأه .

وبعد لحظة انتهى الى زقاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل « القصعة الصفيحية » ، حيث كان آنذاك مكتب عربة لاني . وكانت هذه العربة تنطلق في الساعة الرابعة والنصف . كانت الجياد قد قُرنت اليها ، وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، يتسلقون مسرعين سلم العربةِ الحديديةَ العالية.

وتساءل الرجل :

— « هل عندك مقاعد ؟ »

فاجابه السائق :

— « لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على السدة » .

— « سوف آخذه » .

— « إصعد » .

بيد ان السائق القى ، قبـــل ان ينطلق ، نظرة على ملابس المسافر الحقيرة ، وصفّر صرته ، وتقاضى اجره .

وسأله السائق :

— « اذاهب أنت حتى لاني ؟ »

فقال الرجل :

— « نعم » .

ودفع المسافر أجر الرحلة حتى لانيي .

وانطلقت العربة بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر في حديث ، ولكن هـذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة . وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الخيل .

وتلفّع السائق بمعطفه . كان الجو بارداً . اما المسافر فبدا وكأنه لا يفكر فيه . وهكذا اجتازوا « غورنيّ » و « نويي سور مارن » .

وحوالى الساعة السادسة مساءً ، بلغوا « شيل » . وتوقف السائق ، لكي يريح جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام في الابنية القديمة من الدير الملكي .

وقال الرجل :

— « سوف أترجل هنا » .

وامسك بصرّته وعصاه ، ووثب من العربة .

وبعد لحظات اختفى عن العيان .

إنه لم يدخل الى الفندق .

حتى اذا انطلقت العربة بعد بضع دقائق قاصدة الى لانيي لم تلقه في شارع لانيي الرئيسي .

والتفت السائق الى المسافرين الراكبين داخل العربة وقال :

— « هو ذا رجلٌ ليس من هذه المنطقة ، فأنا لا أعرفه . إن مظهره يدل على أنه لا يملك فلساً ، ومع ذلك فهو لا يتشبث بالدراهم . إنه يدفع أجر الرحلة الى « لانيي » ثم لا يذهب الى أبعد من « شيل » . الدنيا ليل ، وجميع البيوت موصدة ، وهو لا يدخل الى الفندق ، ونحن لا نلقاه في طريقنا . ينبغي ان يكون ، اذن ، قد غاص في باطن الارض . »

ولم يكن الرجل قد غاص في باطن الارض . ولكنه كان قد اجتاز بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي في « شيل » . ثم إنه انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكاً الطريق القروية المؤدية الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .

وانطلق مسرعاً في تلك السبيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي تتقاطع عندها مع الطريق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي تمتد من « غانيي » الى « لانيي » ، سمع وقع أقدام يقترب منه . فسارع الى الاختفاء في احدى الحفر ، وتربّص هناك ريثما أمسى المارة على مسافة بعيدة . وفي الحق أن ذلك الصنيع كان زيادة في الحذر ، لا داعيَ لها ، لأن الليلة كما ذكرنا كانت احدى ليالي كانون الأول الحالكة جداً . ولم يكن المرء ليرى ، في جهد ، غير نجمين او ثلاثة نجوم ،

هنا ، عند هذه النقطة ، كان يُصعّدُ الى الكثيب . ولم ينقلب الرجل الى طريق مونفيرماي . لقد انعطف الى اليمين ، عبرَ الحقول ، واتخذ سبيلهُ ، في خطىً سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ ينعم النظر في الأشجار جميعـاً ، متقدماً خطوةً خطوةً وكأنه يلتمس أو يتبع طريقاً خفية لا يعرفهـا احد غيره . وانقضت لحظةٌ بدا فيها وكأنه ضـلّ عن سبيله ، ووقف متردداً . واخيراً وصل بتحسسه طريقه في الظلام على نحـو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخم من الحجارة الضاربة الى البياض . وتقدم مسرعاً الى تلك الحجارة ، وراح يفحصهـا في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يُستعرض الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مغطاة بتلك النوامي الغريبة التي هي ثآليل النبات . فمضى الى تلك الشجرة ، وأمرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسعى الى ان يتعرّف ويحصي جميع الثآليل .

وتجاه هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كستناءة مصابة بداء سقوط القشر سقوطاً ذاتياً ، وكانت قد ضمّدت بعصابة من الزنك سُمّرت عليها . فما كان من الرجل إلا ان رفع نفسه ، عـلى رؤوس أصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك .

ثم انه قرع الارض ، بقدميه ، عنـد الفسحة القائمة مـا بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريـد ان يتحقق أن التربة لم تُقلب منذ قريب .

حتى اذا تمّ له ذلك مضى لسبيله مستأنفاً سيره خلال الغابة .

كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك أنه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة التي تُقطع بعض اشجارها بين الفينة والفينة ، متجهاً نحو مونفيرماي ، بَصُرَ بهـذا الظلّ الصغير

الذي كان يشقّ طريقه في أنين ، والذي وضع على الارض حملاً ما ، ثم رفعه ، واستأنف المسير . كان قد اقترب من ذلك الظلّ ، وادرك انه طفلة صغيرة جداً تحمل دلواً هائلاً من الماء . وعندئـــذ مضى الى الطفلة ، وأمسك بعروة الدلو في صمت .

٧

كوزيت مع المجهول

جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام

ولم تستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفاً ما .

وتحدّث الرجل اليها . كان صوته رزيناً يجاور الهمس .

— « إن هذا الذي تحملينه ثقيل جداً عليك ، يا بُنَيّتي . »

فرفعت كوزيت رأسها وأجابت :

— « نعم ، يا سيدي . »

وأضاف الرجل :

— « أعطني اياه . سوف أحمله عنك . »

وخلّت كوزيت الدلو . وانشأ الرجل يمشي الى جانبها .

وقال مخاطباً نفسه :

— « الواقع انه ثقيل جداً . »

ثم أردف :

— « ايتها الصغيرة ، ما سنّك ؟ »

— « ثماني سنوات ، يا سيدي . »

— « وهل أقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »

— « من النبع الذي في الغابة . »
— « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
— « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا . »
واعتصم الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة :
— « اذن فليس لك أمّ ؟ »
فاجابت الطفلة :
— « لست ادري . »
وقبل ان يجد الرجل متسعاً من الوقت لاستئناف الكلام ، اضافت :
— « لا اعتقد . ان جميع الاطفال لهم امّ . اما انا فليس لي امّ . »
وبعد لحظة من الصمت ، اردفت :
— « أعتقد انه لم يكن لي امّ في يوم من الايام . »
وكفّ الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ، ووضع يديه على كتفي الطفلة ، محاولاً ، في جهد ، ان ينظر اليها ، وان يرى وجهها في الظلام .
وارتسم وجه كوزيت المهزول الضعيف البنية ارتساماً غامضا تحت ضوء السماء القاتم .
وقال الرجل :
— « ما اسمك ؟ »
— « كوزيت . »
وبدا وكأن الرجل عَرَتْهُ رجفة كهربائية . وعاود النظر اليها ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف المسير .
وبعد لحظة ، سأل :
— « ايتها الطفلة الصغيرة ، اين تسكنين ؟ »
— « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها . »
— « أإلى هناك نحن ذاهبان ؟ »

– « نعم يا سيدي . »

وسكت كرة اخرى ثم اضاف :

– « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبي الماء في هذه الساعة من الليل ؟ »

– « مدام تيناردييه . »

وتابع الرجل في جَرْس حاول ان يجعله لامبالياً ، ولكنه كان ينطوي برغم ذلك على ارتعاشة فريدة :

– « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ؟ »

فقالت الطفلة :

– « إنها سيدتي . انها تدير الفندق . »

فقال الرجل :

– « الفندق ؟ حسن ، سوف أذهب وأبيت هناك هذه الليلة . دليني على الطريق » .

فقالت الطفلة :

– « نحن ذاهبان الى هناك » .

ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر . إنها ما عادت تستشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينيها نحو هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف . انها لم تُعلَّم قط ان تلتفت الى العناية الالهية وتصلي ، ومع ذلك فقد أحسّت في صدرها بشيء يشبه الامل والبهجة ، شيء ارتفع نحو السماء .

وانقضت بضع دقائق ، وتكلم الرجل :

– « اليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ؟ »

– « لا ، يا سيدي » .

– « هل أنت وحدك ؟ »

– « نعم ، يا سيدي . »

وتقضّت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :

– « يعني ان هناك بنتين صغيرتين . »

– « أيّ بنتين صغيرتين ? »

– « بونين وزيلما » .

وبسّطت الطفلة ، على هذه الشاكلة ، الاسمين الرومانتيكيين العزيزين على السيدة تيناردييه .

– « ومَن بونين وزيلما ? »

– « انهما آنستا مدام تيناردييه ، وفي استطاعتك ان تقول بنتيها . »

– « وما تفعل هاتان البنتان ? »

فقالت الطفلة :

– « اوه ، انهما دميتان جميلتان ، شيئان عليهما ذهب ، انهما مليئتان الشغل . انهما تلعبان . وانهما تتسليان . »

– « طول النهار ? »

– « نعم يا سيدي . »

– « وأنتِ ? »

– « أنا ! انا اشتغل . »

– « طول النهار ? »

ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين ترقرقت فيهما دمعة لم يكن من الميسور رؤيتها في الظلام ، واجابت في رقة :

– « نعم ، يا سيدي . »

ثم اضافت بعد فترة من الصمت :

– « وفي بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وترغبان هما في ذلك ، أتسلى أنا ايضاً . »

– « وكيف تتسلين ? »

– « قدر ما أستطيع . انهم يتركونني وحدي ، ولكن ليس عندي لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بان ألعب بلعبهما ، ولا

يوجد عندي غير سيف رصاصي صغير ليس اكبر من هذا . »
واظهرت الطفلة خنصرها .
- « وليس بقاطع أبداً ؟ »
فقالت الطفلة :
- « بلى ، يا سيدي . انه يقطع الخسّ ورؤوس الذباب . »
وبلغا القرية ؛ وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا بالمخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم يوجه اليها الرجل ايا سؤال آخر ، معتصماً بصمت فاجع . حتى اذا تخطيا الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين رأى تلك الدكاكين كلها :
- « إذن ، فهذا أوان السوق الموسمية ؟ »
- « لا ، يا سيدي ، انه عيد الميلاد . »
وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه في جزع .
- « مسيو ؟ »
- « ماذا ، يا بنيتي ؟ »
- « لقد صرنا على مقربة من البيت . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « أتحب ان تدعني احمل الدلو الآن ! »
- « لماذا ؟ »
- « لان مدام تيناردييه تضربني اذا رأت شخصاً يحمله عني .
واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كانا بباب المطعم الحقير .

٨

ما أبغض ان تضيف فقيراً ربما كان غنياً

ولم تتمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت ما تزال معروضة في دكان الدمى ؛ ثم قرعت الباب . وفُتح الباب ، وظهرت السيدة تيناردييه تحمل شمعة في يدها .

— « آه ، هذا انت ، ايتها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقد مشيتِ على مهلك ! كانت تلعب ، الوقحة ! »

فقالت كوزيت مرتعدة :

— « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل في الفندق . »

وفي سرعة بالغة ، استبدلت السيدة تيناردييه بسيماها الضارية انسراحة وجهٍ متوردة — وتلك القدرة على الاستبدال يتفرد بها الفنــــدقيون ، فهم يصطنعونها لحظة يشاؤون — ونظرت الى الوافد الجديد بعينين متلهفتين . وقالت :

— « اهو هذا السيد ؟ »

فأجابها الرجل ، رافعاً يده الى قبعته :

— « نعم ، يا سيدتي . »

إن المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان في هذه الايماءة ، وفي مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة تيناردييه بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح المحببة تختفي ، والسيما الضارية تعــاود الظهور . واضافت في جفاف :

— « ادخل ، ايها الرجل الساذج . »

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة اخرى عليه ، متأملةً على نحو خاص في سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبعته المنكسرة بعض الشيء . وبهزة رأس ، وغمزة عين ، وتغضين أنف ، شاورت زوجها الذي كان لا يزال يعاقر الخمر مع سائقي العربات . واجاب الزوج بهزة السبّابة تلك التي تعني حين تُردَف بمدّ الشفتين ، في مثل هـذه الحال « فقر مدقع » . وعندئـذ صاحت السيدة تيناردييه :

— « آه . ايها الرجل الفاضل ، انا آسفة جـداً ، ولكن ليس عندي مكان . »

فقال الرجل :

— « ضعيني حيث شئتِ . في العلّية ، في الاسطبل . سوف ادفع وكأنني احتل غرفة . »

— « اربعون سو . »

— « اربعون سو . ليكن ذلك . »

— « مقدماً . »

فهمس احد سائقي العربات في اذن السيدة تيناردييه :

— « اربعون سو ! ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

فاجابت السيدة تيناردييه بصوت مهموس ايضاً :

— « ولكنها اربعون بالنسبة اليه . انا لا أُنزل الفقراء في فنـدقي بأقل من ذلك . »

وأضاف زوجها في رقة :

— « هذا صحيح . إن قبول هـذا الصنف من الناس يؤدي الى خراب المؤسسة . »

وفي غضون ذلك ، كان الرجل — بعد ان ترك عصاه وصرته عـلى أحد المقاعد — قد جلس إلى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها ،

في سرعة ، كأساً وزجاجة من الخمر . كان البائع المتجول الذي طلب دلو الماء قد مضى هو نفسه فحمله الى فرسه . وكانت كوزيت قد انقلبت الى مكانها تحت طاولة المطبخ واستأنفت حبكها .

ولم تمسّ شفتا الرجل الخمر التي صبّها في كأسه إلا نادراً . كان يتأمل الطفلة في انتباه عجيب .

كانت كوزيت بشعة . ولعلها كانت خليقة بان تكون جميلة لو كانت سعيدة . ولقد سبق لنا ان رسمنا هـذا الوجه الصغير الكئيب رسماً اولياً . كانت كوزيت مهزولة ، شاحبة . كانت في الثامنة من عمرها ، ولكن الناظر اليها كان يظن انها لم تكد تتجاوز السادسة . كانت عيناها الواسعتان ، الغارقتان في ضرب من الظلام العميق ، مطفأتين تقريباً من أثر البكاء الموصول . وكانت لزوايا فمها التواءة الألم النفسي المألوف تلك ، الـتي تُرى عند المحكوم عليهم والمرضى بأدواء لا برء منها . وكانت يداها ، كما حزرتْ أمها ، مليئتين بالشقوق الناشئة عن البرد . لقد كان في ضوء النار الذي شعّ من حولها في تلك اللحظة ما ابرز زوايا عظامها ، وجعل هزالها واضحاً على نحوٍ مخيف . واذ كانت ترتعد ابداً ، فقد تعودت ان تشدّ احدى ركبتيها الى الاخرى . ولم يكن ثوبها كله غير خرقة خليقة بان تثير الاشفاق في الصيف ، والذعر في الشتاء . لم يكن على جسدها غير نسيج قطني مليء بالثقوب . إنه لم يعرف خرقة واحدة من الصوف . وكانت ملابسها تلك تكشف عـن بشرتها ههنا وهناك ، وكان في ميسور المرء ان يتبين عليها بقعاً سوداء وزرقـاء تشير الى المواطن التي لمستها السيدة تيناردييه منها . كانت ساقاهـا العاريتان حمراوين خشنتين . وكانت تجاويف تَرْقُوتها تفجّر الدمـع من عيني الناظر . كان شخص هذه الطفلة كله ، مشيتُها ، وهيئتها ، وجرْس صوتها ، والفترات بين كل كلمة من كلماتها وبين الاخرى ، ونظراتها ، وصمتها ، واقتصادها في الحركة — كان ذلك كله يُفصح عن

فكرة وحيدة : الخوف .

كان الخوف منثوراً عليها . كانت مغطاة به ، اذا جاز التعبير . لقد ألصق الخوف مرفقيها بجانبيها ، وردّ عقبيْها تحت تنّورتها ، وجعلها تحتل اقلّ حيز ممكن ، وحملهـــا على ان لا تتنفس الا بالقَدْر الضروريّ ؛ وكان قد أمسى ما يمكن ان ندعوه عادتها الجسدية ، فلا سبيل الى تغيير تلك العادة إلا اذا قُصد بالتغيير الزيادة والتعقيد . كان في أعماق حدقتها زاوية يكمن فيها الذعر .

وكان خوفها ذاك من القوة بحيث أنها ، حين رجعت الى الفندق وقد بلّلت المياه ثيابها كلها ، لم تجرؤ على ان تتقدّم نحو النار تجفيفاً لثيابها . لقد انصرفت الى عملها في صمت .

وكانت السّيما التي تطبع محيّا هذه الطفلة ذات الثمانية أعوام كئيبة ، عادةً ، فاجعة ، في بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبـــدو ، في بعض اللحظات ، وكأنها في سبيلها الى ان تصبح معتوهة أو شيطاناً .

انها لم تعرف قط ، كما ذكرنا من قبل ، ما هي الصلاة ، وانها لم تطأ قط أرض كنيسة في يوم من الايام . كانت السيدة تيناردييه تقول : « وهل عندي متسع من الوقت لمثل ذلك ؟ »

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت .

وفجأة ، صاحت السيدة تيناردييه :

— « أوه ! لقد نسيت ! اين ذلك الرغيف ؟ »

وسارعت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقاً لمألوف عادتها كلما رفعت السيدة تيناردييه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغيف تماماً . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

— « مدام ، كان المخبز مغلقاً . »

— « كان من الواجب عليك ان تقرعي الباب . »

– « لقد فعلت ، يا سيدتي . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « ان الخباز لم يفتح . »

فقالت السيدة تيناردييه :

– « سوف أرى غداً ما اذا كان هذا صحيحاً . واذا كنت تكذبين فسوف أرقّصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، أعيدي إليّ قطعة الخمسة عشر سو . »

وغيّبت كوزيت يدها في جيب مئزرها ؛ واخضرّ لونها . إن قطعة الخمسة عشر « سو » لم تكن هناك .

وقالت السيدة تيناردييه :

– « تعالي . ألم تسمعيني ؟ »

وقلبت كوزيت جيبها جاعلةً داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء . ما الذي يمكن ان يكون قد حلّ بتلك القطعة النقدية ؟ ولم تجد المسكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجّرت تحجّراً .

وصاحت السيدة تيناردييه :

– « هل أضعتها – قطعة الخمسة عشر سو ؟ أم تريدين ان تسرقيها مني ؟ »

وفي الوقت نفسه بسطت ذراعها نحو السوط المعلّق عند زاوية الموقد . وكان في هذه الحركة الرهيبة ما منح كوزيت القوة على ان تصيح :

– « اغفري لي ، يا سيدتي ! أنا لن أفعل ذلك بعد اليوم . »

ونزعت السيدة تيناردييه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبحث في جيب صدرته ، من غير ان يلحظ أحدٌ هذه الحركة . أما المسافرون الآخرون فكانوا يحتسون الخمر ، او يلعبون بالورق ، فهم لا يلتفتون الى شيء .

وتلوّت كوزيت بالألم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة أن تضمّ وتخفي أوصالها البائسة نصف العاريـــة . ورفعت السيدة تيناردييه ذراعها .

فقال الرجل :

ـ « عفواً ، يا سيدتي ، ولكني رأيت في هذه اللحظة شيئاً يسقط من جيب مئزر هذه الفتاة الصغيرة ويكرّ على الارض . قد يكون ذلك ما تطلبين . »

وفي الوقت نفسه ، انحنى ، وبدا وكأنـه يبحث في ارض المكان لحظة من الزمن .

ثم قال وهو ينهض :

ـ « هكذا تماماً . ها هي ذي . »

وقدّم قطعة نقدية فضية الى السيدة تيناردييه .

فقالت : « أجل ، هذه هي . »

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين « سو » ، ولكن السيدة تيناردييه وجدت فيها ربحاً لها . ووضعت القطعة النقدية في جيبها ، واكتفت بالقاء نظرة ضارية على الطفلة ، قائلة :

ـ « لا تدعي ذلك يحدث مرةّ اخرى ، مدى الدهر . »

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تيناردييه تدعوه « جحرها » . وشرعت عيناها الواسعتان ، المسمّرتان على المسافر المجهول ، تفصحان من شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهش ساذج ، ولكن ضرباً من الثقة المشدوهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تيناردييه المسافر :

ـ « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً .

ولثلثت* السيدة تيناردييه :

— « ما هذا الرجل ؟ إنه متسول مخيف . هو لا يملك فلساً يتعشى به . أيعتزم ان يدفع اليّ أجر مبيته فقط ؟ من حسن الطالع ، على اية حال ، انه لم يفكر في سرقة المال الذي كان على الارض . »

وُفتح باب ، وأقبلت إيبونين وآزيلما .

كانتا فتاتين صغيرتين جميلتين حقاً ؛ وكانتا مدينيتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احداهما بجدائلها الكستنائية الحسنة الصّقال ، والاخرى بضفائرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهرها ؛ وكانت كل منهما نشيطة ، نظيفة ، ممتلئة ، ناضرة ، تطفح صحةً الى درجة تجعل النظر اليها بهجة ومتعة . كانتا ترتديان ملابس توقــع الدفء في جسديهما ، ولكنْ في فنّ أموميّ جعــل غِلظَ النسيج لا يذهب بشيء من دلال الزينة . لقد وُقيتا شر الشتاء من غير ما محوٍ للربيع . وأراقت هاتان الفتاتان الصغيرتان الضياء من حولهما . والى هذا ، فقد كانتا قابضتين على زمام السلطة . ففي زينتهما ، وفي بهجتهما ، وفي الضجة التي احدثتاها كانت ثمة سيادة مطلقة . وحين دخلتا ، قالت السيدة تيناردييه لهما في جرس مقرّع كان يمور بالهيام :

— « آه ، انتما هنا اذن ، ايتها الطفلتان ! »

ثم إنها وضعتهما على ركبتيها ، الواحــدة إثر الاخرى ، وانشأت تملّس شعرهما عاقدةً أشرطتهما ، لتتركهما آخر الامر تذهبان بعد ان هزّتهما تلك الهزة الخاصة بالامهات ، وصاحت :

— « أهما رديئتا الهندام ! »

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لديهما دمية ، فراحتا تقلبانها على رُكَبهما ظهراً لبطن وبطناً لظهر ، مغرّدتين مختلف ضروب التغريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينيها عن زردها ، وتنظر

---

* لثلث كلامه : لم يبيّنه .

اليهما في كآبة بينا هما تلعبان .

ولم تنظر إيبونين وآزيلما الى كوزيت . فقد كانت عندهما اشبه بكلبة . إن هاته الفتيات الصغيرات تبلغ اعمارهن ، مجتمعاتٍ ، ثمانيــة وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد كنّ في تلك السنّ يمثلن المجتمع البشري كله : الحسد من جانب ، والازدراء من الجانب الآخر .

كانت دمية الشقيقتين تيناردييه ناصلة جداً ، عتيقة جداً ، محطمةً كلّها . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، **دمية حقيقية** ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحاً يفهمه الاطفال جميعاً .

وفجأة ، لاحظت تيناردييه الزوجة — التي كانت لا تفتأ تذرع الغرفة جيئـــة وذهاباً — أن انتباه كوزيت كان مشوّشاً ، وانها بدلاً من ان تنصرف الى العمل كانت مشغولةً بالفتاتين الصغيرتين اللاعبتين .

وصاحت :

— « اوه ، لقد قبضتُ عليكِ ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها ! سوف أكرهك على العمل بضربات السوط . اجل ، سوف افعل ! »

ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تيناردييه ، وقال مبتسماً في خجل :

— « ولكنْ ، يا سيدتي ، دعيها تلعب ! »

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد أكل شريحة من لحم الضأن ، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء ، ولم يكن له مظهر شحاذ مروّع ، اذن لكانت أمراً مطاعاً . أما ان يجرؤ رجل يعتمر بتلك القبعة فيسمح لنفسه بابداء رغبة ما ، وأما ان يجرؤ رجل يرتدي تلك السترة الطويلة فيسمح لنفسه بأن تعبّر عن ارادة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تيناردييه ان من غير الجائز التسامح به . فأجابت في حدة :

– « يجب ان تعمل ، لأنها تأكل . أنا لا أعيلها لـكي لا تعمل شيئاً . »

فقال الغريب في ذلك الصوت العذب الذي يتناقض الى حد عجيب مع ثيابه الشبيهة بثياب الشحاذين ، وكتفيه الشبيهتين بكتفي الحمالين :

– « وما الذي تعمله ؟ »

وتناولت تيناردييه الزوجة فأجابت :

– « جوارب ، اذا شئت . جوارب لبنتيّ الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئاً من ذلك يستحق الذكر ، واللتين ستضطران ، بعد قليل ، الى السير حافيتين . »

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت الحمراوين المثيرتين للشفقة ، وأضاف :

– « ومتى ستنهي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

«انها في حاجة بعدُ الى ثلاثة ايام او اربعة أيام على الاقل . يا لها من فتاة كسول ! »

– « وكم سيساوي هذان الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »

والقت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

– « ثلاثين سو ، على الاقل . »

فقال الرجل :

– « اتعطينني إياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

فصاح سائق عربة كان يستمع الى الحديث ، في ضحكة مجلجلة :

« يا إلـهي ! خمسة فرنكات ! انها خدعة ! خمس رصاصات ! »

واعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام :

– «نعم ، يا سيدي ، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان تأخذ زوجي الجوارب هـذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع أن نضنّ على النزلاء بشيء . »

فقالت تيناردييه الزوجة في طريقتها المختصرة الجازمة :

– « يجب ان تدفعها في الحال . »

فاجاب الرجل :

– « سوف اشتري زوجي الجوارب هذين . »

ثم اضاف ساحباً من جيبه قطعة من ذات الخمسة الفرنكات ووضعها على الطاولة :

– « ولسوف ادفع ثمنهما . »

ثم التفت نحو كوزيت :

– « والآن ، لقد اصبح شغلك ملكاً لي . إلعبي يا بنيّتي ! »

واهتزّ سائق العربات لقطعة الخمسة الفرنكات اهتزازاً جعله يترك كأسه ويسرع للنظر اليها .

وصاح بعد ان فحصها :

– « انها حقيقية ، مع ذلك . دولاب خلفيّ حقيقي ! إنها غير مزورة ! »

واقترب تيناردييه . وفي صمت وضع القطعة النقدية في جيبه . ولم يكن عند السيدة تيناردييه ما تجيب به . لقد عضت شفتيها وطفت على وجهها سيماء من الحقد .

وفي غضون ذلك ارتعدت كوزيت . وغامرت في السؤال :

– « هل هذا صحيح ، يا سيدتي ؟ هل استطيع ان العب ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة في صوت فظيع :

– « العبي ! »

فقالت كوزيت :

– « شكراً ، يا سيدتي ! »

وفيما كان فمها يشكر تيناردييه الزوجة ، كانت روحها كلها تشكر المسافر.

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمست زوجته في اذنه :

– « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه في صوت آمر :

– « لقد رأيت اصحاب ملايين في سترات طويلة مثل هذه . »

كانت كوزيت قد تركت زودها ، ولكنها لم تغادر مكانها . كان من دأب كوزيت ان تتحرك أقلّ ما يمكنها أن تفعل . وكانت قد اخرجت من صندوق صغير خلفها بعض الخرق البالية ، وسيفها الرصاصي الصغير .

ولم تلتفت إيبونين وآزيلما ايا التفات لما كان جارياً . كانتا قد انتهتا منذ لحظة من القيام بعمل خطير : لقد ألقتا القبض على الهرة . وكانتا قد اطّرحتا الدمية على الارض ، وانصرفت ايبونين ، وهي الكبرى ، الى تقميط الهرة ، برغم موائها والتوائها ، بمجموعة من الثياب ومخرق حمراء وزرقاء . وفيما هي منهمكة في هذا العمل الجديّ العسير تحدثت الى اختها بلغة الاطفال العذبة الفاتنة تلك ، التي تتلاشى طلاوتها ، مثل بهاء جناحي الفراشة ، حين نحاول ان نحتفظ بها .

– « انظري ! انظري يا اختي ، إن هذه الدمية مسلّية اكثر من تلك . إنها تتحرك ؛ انها تصرخ ؛ انها دافئة . تعالي ، يا اختي ، دعينا نلعب معها . انها ستكون بنتي الصغيرة . وسأكون أنا سيدةً . ولسوف آتي لزيارتك ، ولسوف تنظرين اليها ، وشيئاً بعد شيء تشاهدين شاربيها ، وهذا سوف يدهشك . وبعد ذلك ستشاهدين أذنيها ، ثم ذنبها ، ولسوف يدهشك هذا . وستقولين لي : « آه يا الهي ! » وسأقول لك : « نعم يا سيدتي . إنها بنت صغيرة رُزقتها هكذا . » ان البنات الصغيرات هنّ هكذا الآن . »

وأصغت آزيلما ، في اعجاب ، الى ايبونين .

وفي الوقت نفسه ، كان الشاربون يُغنون اغنية بذيئة ضحكوا لها على نحو كافٍ لأن يزلزل الغرفة . وشجعهم تيناردييه وصاحبهم .

وكما تصنع الطير عشاً من كل شيء ، كذلك يصنع الاطفال دمية من ايما شيء . ففيما كانت ايبونين وآزيلما تقمّطان الهرة ، كانت كوزيت ، بدورها ، قد قمّطت السيف . حتى اذا تمّ لها ذلك مددته على ذراعها ، واخذت تغني له في رقة لكي ينام .

ان الدمية احدى الضرورات القصوى ، وهي في الوقت نفسه احدى غرائز الطفولة الانثوية الأشد فتنة . ففي العناية بها ، وكسوتها ، وتزيينها ، والباسها ثيابها ، ونزع ثيابها ، واعادة الباسها من جديد ، وتعليمها ، وتوبيخها قليلاً ، وهدهدتها ، وتغنيجها ، وتنويمها ، والتوهم ان شيئاً ما هو شخص ما – في ذلك كله يكمن مستقبل المرأة كله . وفيما هي تحلم وتهذر ، وفيما هي تصنع رزماً صغيرة وأقمطة صغيرة ، وفيما هي تخيط فساتين صغيرة ، واجزاء عليا من الفساتين الصغيرة ، وصدرات ذوات اكمام ، تصبح الطفلة فتاة صغيرة ، وتصبح الفتاة الصغيرة فتاة كبيرة ، وتصبح الفتاة الكبيرة امرأة . وهكذا يحتل اول اطفال المرأة محل دميتها الاخيرة .

والفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد ان لا تقلّ شقاء عن امرأة من غير اطفال ؛ وهي تعدلُ هذه المرأة استحالةً تاماً .

واذن ، فان كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .

واقتربت تيناردييه الزوجة من الرجـل الاصفر . وقالت في ذات نفسها : « ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت . إن بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد . »

وتقدمت ، وأراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالساً اليها .

وقالت :

– « مسيو ... »

ولم يكد الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة تيناردييه لم تنادِه من قبل إلا بقولها ايها الرجل الطيب ، او ايها الرجل الساذج .

وتابعت كلامها ، خالعة على وجهها أعذب ملامحه ، التي كانت ادعى الى الازعاج من سيماها الضارية :

– « ترى ، يا سيدي ، اني راغبة في ان تلعب الطفلة . انا لا

اعارض في ذلك . ولكن هذا جيدٌ اذا تمّ مرة واحدة ، لانك رجلٌ كريم . غير أنها ، كما ترى ، بنت فقيرة . إن عليها ان تشتغل . »

فسألها الرجل :

— « واذن ، فالطفلة ليست بنتك ؟ »

— « أوه ، يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! إنهـــا شحاذة صغيرة أنزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . انها طفلة شبه معتوهة . ولا بدّ أن في دماغها ماءً . إن رأسها كبير ، كما ترى . ونحن نعنى بها جهد طاقتنا ، لاننا لسنا اغنياء . نحن نكتب الرسائل الى مسقط رأسها ، ولكننا لم نتلقّ جواباً منذ ستة أشهر . ولقد أصبحنا نعتقد ان أمهـــا ماتت من غير شك . »

فقال الرجل :

— « آه . »

واستغرق في تفكيره .

وأضافت تيناردييه الزوجة :

— « إن تلك الأم لم تكن شيئاً ذا شأن . لقد هجرت طفلتها . »

وطوال هذه المحادثة ، لم ترفع كوزيت عينيها عن السيدة تيناردييه ، فكأن غريزة من الغرائز أشعرتها بأنهما كانا يتحدثان عنها . وسمعت بضع كلمات هنا وهناك .

وفي غضون ذلك كان الشاربون ، وكل منهم ثلاثة أرباع سكران ، يكرّرون لازمتهم القذرة في ابتهاج مضاعف . كانت كلاماً مرحاً سفيهاً كثير التوابل يتردّد فيه اسما « العذراء » و « يسوع » . وكانت السيدة تيناردييه قد مضت لتنهض بنصيبها من الطرب . أمـا كوزيت فكانت تنظر ، من تحت طاولتها ، الى نار الموقد التي كانت تنعكس من عينها المسددة . لقد راحت هي ايضاً تهدهـد ذلك الضرب من الطفل الخرَقيّ الذي صنعته . وفيما هي تهدهـده لينام كانت تغني له في صوت خفيض :

لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي !

وبعد إلحاح جديد متواصل من صاحبة الفندق رضي الرجل الاصفر ، « المليونير » ،ان يتعشى .

– « ما يحب سيدي ان يأكل ؟ »

فاجاب الرجل :

– « بعض الخبز والجبن . »

وفي ذات نفسها قالت السيدة تيناردييه : « انه شحاذ من غير ريب » .

وواصل الشاربون إنشاد اغنيتهم ، وكذلك واصلت الطفلة – من تحت الطاولة – انشاد أغنيتها .

وفجأة كفّت كوزيت عن الانشاد . كانت قد التفتت منذ لحظة فرأت دمية ابيونين وآزيلما ، وكانتا قد انصرفتا عنها الى الهرة وتركتاها على الارض ، على بضع خطوات من طاولة المطبخ .

ثم انها أزلّت السيف المقمّط الذي لم يكن ليرضيها غير نصف ارضاء ، وأجالت بصرها في ارجاء الغرفة بتؤدة . كانت السيدة تيناردييه تهمس في أذن زوجها وتعدّ بعض الدراهم ، وكانت إيبونين وآزيلما تلاعبان الهرة ، وكان النزلاء يأكلون او يشربون او يغنون . إن عيناً واحدة ما كانت تنظر اليها . ولم يكن عندها لحظة تضيعها . فزحفت من تحت الطاولة على يديها وركبتيها ، واستيقنت مرة اخرى من ان احداً ما كان يراقبها ، ثم انسلت في سرعة نحو الدمية واستولت عليها . وما هي الا لحظة حتى كانت في مكانها جالسة جامدة ، غير ملتفتة الا على نحو يمكنها من ابقاء الدمية التي كانت تحملها بين ذراعيها ، في الظلام . كانت سعادة اللعب بدمية نادرةً عندها الى حد خلع عليها عنف اللذة الحسية .

ان احداً لم يرها غير المسافر ، الذي كان يتناول عشاءه المزيل ، في بطء .

ودامت هذه البهجة نحواً من ربع ساعة .

ولكن ، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتهـا كوزيت ، فانها لم تلاحظ أن احدى رجلي الدمية كانت قـــد نتأت ، وان نار الموقد كانت تضيئها على نحو قوي جداً . ولفتت هذه الرجل الساطعة ، المنبثقة من الظلام ، نظر آزيلما ، فجأة ، فقالت لأبيونين :

— « أوه ! يا اختي ! »

وكفت الفتاتان الصغيرتان عن اللعب ، وغلب عليهما الذهول . لقد جرؤت كوزيت على ان تأخذ الدمية !

ونهضت ابيونين . ومن غير ان تخلي سبيل الهرة ، مضت الى أمها وبدأت تشدّها من تنورتها .

وقالت الأم :

— « اتركيني ! ماذا تريدين مني ؟ »

فقالت الطفلة :

— « أمي ! انظري هناك ! »

واشارت الى كوزيت .

واذ كانت كوزيت مستغرقة كل الاستغراق في نشوة التملك فأنها لم ترَ شيئاً ولم تسمع شيئاً .

ورانت على وجه تيناردييه الزوجة تلك الانطباعة الخاصة التي تتألف من الفظيع ممتزجاً بالمبتذل ، والتي خلعت على هذا الضرب من النساء اسم إلاهات الانتقام .

وهذه المرة ، زادت الكبرياء الجريح في غيظها ايضاً . لقد تخطت كوزيت جميع الحواجز . لقد وضعت كوزيت يدها على دمية « هاتين الآنستين » .

ولو ان قيصرة رأت الى فلاح رومي (موجيك) يجرّب الوشاح الازرق الكبير الخاص بابنها الامبراطوريّ اذن لما طفت على وجهها غير تلك الانطباعة نفسها .

وصاحت بصوت جعله السُخط أجش :

- « كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زُلزلت من تحتها . وتلفتت حولها .

وكررت السيدة تيناردييه :

- « كوزيت ! »

واخذت كوزيت الدمية ، ووضعتها على الارض برفق ، وفي ضرب من التقديس يمازجه اليأس . ومن غير أن ترفع عينيها عن الدمية ، ضمّت احدى يديها الى الاخرى ، وأنشأت - وهذا شيء من المروّع ان يُروى عن طفلة في تلك السن - تفتلهما وتلويهما . ثم انها - وهو ما لم تستدرّه منها ايّ من انفعالات ذلك اليوم ، لا الركض في الغابة ، ولا ثقل دلو الماء ، ولا ضياع القطعة النقدية ، ولا مشهد السوط ، بل ولا الكلام الصارم الذي سمعته من السيدة تيناردييه - شرعت تسفح العبرات . لقد انخرطت في النحيب .

وفي الوقت نفسه نهض المسافر .

وقال لتيناردييه الزوجة :

- « ما المسألة ؟ »

فقالت مشيرة باصبعها الى « البرهان المثبت للجريمة » منطرحاً على قدمي كوزيت :

- « الا ترى ؟ »

وقال الرجل :

- « حسن ، وما ذاك ؟ »

فأجابت تيناردييه الزوجة :

- « لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تمسّ دمية الطفلتين ! »

فقال الرجل :

- « وهذه الضجة كلها من اجل ذلك ؟ وأيّ بأس في ان تلعب بتلك الدمية ؟ »

وتابعت تيناردييه الزوجة :

— « لقد لمستها بيديها القذرتين ! بيديها الفظيعتين ! »
وهنا ضاعفت كوزيت نحيبها .
فصاحت تيناردييه الزوجة :
— « إخرسي ! »
ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، ففتحه ، وخرج .
ولم يكد يذهب ، حتى افادت تيناردييه الزوجة من غيابه فرفست كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفسةً جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .
وفُتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملاً بيديه الاثنتين تلك الدمية الاسطورية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت موضع اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . واوقفها أمام كوزيت ، قائلاً :
— « خذي ، هذه لكِ ! »
واغلب الظن ان الرجل كان في خلال الوقت الذي قضاه هناك — وهو يزيد على ساعة — قد لمح على نحو غامض ، وهـو في غمرة من التفكير ، دُكانَ الدمى تلك ، المضاءة بالمصابيح وبالشموع على نحو ساطع الى درجة جعلت في ميسور المرء ان يلمحها من خلال زجاج الحانة ، وكأنها شعلة من النور .
ورفعت كوزيت عينيها . لقد رأت الى الرجل يُقبل نحوها حاملاً تلك الدمية وكأنما كانت ترى الى الشمس تُقبل نحوها ، وسمعت هذه الكلمات التي لم يُسمع مثلها من قبل : « هذه لكِ ! » ونظرت اليه ، ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدّت الى الوراء في تؤدة ، فاختبأت ، أبعد ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .
ولم تبكِ بعدُ ، ولم تصرخ بعدُ . لقد بدت وكأنها ما عادت تجرؤ على التنفّس .
وغدت تيناردييه الزوجة ، وايبونين ، وآزيلما ، أشبه بالتماثيل .

وكفّ الشاربون أنفسهم عن الشرب . لقد ران صمت مهيب على الحانة كلهـــا .

واستأنفت تيناردييه الزوجة – وقد تحجّرت واصابها البكم – تحدُسّها ووجها : « من ذلك العجوز ؟ أهو شحاذ ؟ اهو مليونير ؟ لعله الاثنان معاً ، يعني لعله لصّ . »

اما وجه تيناردييه الزوج فتكشّف عن ذلـك التغضّن المعبّر الذي يطبع المحيا البشري كلما تجلت فيه الغريزة السائدة بكامل قوتها الوحشية . لقد نقل صاحب الفندق طرفه من الدمية الى المسافر ، ومن المسافر الى الدمية ؛ ولقد بدا وكأنه يستروح هذا الرجلَ كما يستروح كيس دراهم . ولم يدم ذلك غير لحظة . لقد تقدّم نحو زوجته وهمس في أذنها قائلًا :

– « هذه الماكينة تساوي ثلاثين فرنكاً على الاقل . كفى بلاهةً . واركعي على ركبتيك أمام هذا الرجل ! »

إن اصحاب الطبائع الفظّة ليشاركون اصحاب الطبائع الساذجـــة في هذه الخصلة ، وهي انهم لا يعرفون الانتقال التدرّجي .

فقالت تيناردييه الزوجـــة ، في صوت ارادت ان يكون عذباً ، ولكنه كان مركّباً كلّه من ذلك العسل الحامض – عسل النســوة الشريرات :

– « وبعدُ ، يا كوزيت ، ألا تريدين ان تأخذي دميتك ؟ »

وغامرت كوزيت فخرجت من جحرها .

وقال تيناردييه في جَرْسٍ ملاطف :

– « يا صغيرتي كوزيت . إن السيد يقدم اليك دمية . خذيهـا . إنها لكِ . »

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر . كان وجهها لا يزال غارقاً بالدمع ، ولكن عينيها شرعتا تتلئلئان ، شأنَ السماء عند انبلاج الفجر ، بأشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خامرها

في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجدير به ان يخامرها لو ان احداً قال لها فجأة : « ابنتها الصغيرة ، انت ملكة فرنسة ! »

وبدا لها أنها اذا ما لمست تلك الدمية انبثق الرعد منها .

وهو ما كان صحيحاً الى حد بعينه ، إذ قالت في ما بينها وبين نفسها إن تيناردييه الزوجة سوف توبخها وتضربها .

ومع ذلك ، فقد كان الاغراء اقوى منها . وهكذا تقدمت ، آخر الأمر ، وغمغمت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة :

– « أأستطيع ، يا سيدتي ؟ »

إن اية تعبير لا يقدر على ان يصف ملامح وجهها التي كانت حافلة باليأس ، والذعر ، والحبور ، في آنٍ معاً .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « يا الـهي ! إنها لكِ . ما دام السيد قد اعطاك اياها . »

فقالت كوزيت :

– « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي ؟ هل السيدة لي ؟ »

وتراءى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلـــغ مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافـــةَ ان يبكي . وحني رأسه لكوزيت انحناءة تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » في يدها الصغيرة .

وسارعت كوزيت الى سحب يدها ، وكأن يد « السيدة » قـــد أحرقتها ، وأنشأت تنظر الى الارض . وهنا نضطر الى ان نضيف أنها اخرجت لسانها ، في تلك اللحظة ، على نحو مفرط . وفجأة ، استدارت وأمسكت بالدمية في لهفة .

وقالت :

– « سوف ادعوها كاترين . »

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب الدمية وشاشها الموصلي الأزهر الرقيق ، وضغطت عليها .

وقالت :

— « سيدتي ، هل استطيع ان أضعها على كرسي ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة :

— « نعم ، يا بنيّتي . »

كانت ايبونين وآزيلما هما اللتين نظرتا الى كوزيت في حسد .

ووضعت كوزيت كاترين على كرسيّ ، ثم قعدت على الارض أمامها ، وظلّت جامدة ، لا تنطق بكلمة ، متخذةً وضع المستغرق في التأمل .

وقال الغريب :

— « لماذا لا تلعبين ، يا كوزيت ؟ »

فأجابت الطفلة :

— « اوه ، اني ألعب . »

وفي تلك اللحظة ، كان هذا الغريب ، هـذا الرجل المجهول الذي بدا وكأنه مرسل من لدن العناية الالهية الى كوزيت ، هو الكائن الذي لا تكره تيناردييه الزوجة أحداً في العالم اكثر مما تكرهه . بيد انها كانت مضطرة الى ان تكبح جماح نفسها . كانت انفعالاتها أعنف مما تستطيع ان تحتمل ، وهي التي تعودت المداراة بمحاولتها تقليد زوجها في جميع اعمالها . وفي الحـــال أمرت ابنتيها بالايواء الى الفراش ، ثم التمست من الرجل الاصفر الاذن في أن تدعو كوزيت الى النوم ايضاً ، مضيفة في تجرّس أموميّ ان الفتاة الصغيرة متعبة اليوم جداً . ومضت كوزيت الى النوم ، حاملة كاترين بين ذراعيها .

ومضت تيناردييه الزوجة ، بين الفينة والفينة ، الى الطرف الآخر من الغرفة حيث كان زوجهـا لـكي تسرّي عن نفسها ، كما قالت . وتبادلت وإياه بضع كلمات كانت من الضراوة بحيث لم تجرؤ على ان

تنطق بها جهاراً :

— « يا له من معتوه عجوز ! ما هذا الذي يدور في خاطره ؟ يأتي الى هنا ويزعجنا ! يريد من هذه المسخ الصغيرة ان تلعب ! ويقدّم اليها دمى ! يقدم دمىً من صنف الاربعين فرنكاً الى كابة ابيعها انا باربعين سو ! وبعد قليل ، سوف يقول لها يا صاحبة الجلالة كما يقولون لدوقة بري !* أهو مالك قواه العقلية ؟ لا بد أنه مجنون ، هذا الرجل العجوز العجيب ! »

فأجابها تيناوديه :

— « لماذا ؟ المسألة بسيطة جداً . اذا كان يروق له ! أنت انما يروق لك ان تعمل الفتاة ؛ أما هو فيروق له ان تلعب ! إن له الحق في ذلك . في استطاعة نزيل الفندق ان يفعل ما يشاء اذا دفع الثمن . واذا كان هذا العجوز محسناً محباً للبشر فما يضيرك ذاك ؟ واذا كان معتوهاً فليس هذا من شأنك . لماذا تتدخلين في هذه الامور ، ما دام عللك مالاً ؟ »

لغةُ سيّد ومنطقُ فندقيٍّ لا يدع ايّ منهما مجالاً لجواب .

كان الرجل قد أسند مرفقيه الى الطاولة ، واستأنف وضعه التأملي الحالم . وكان جميع النزلاء الآخرين ، من باعة وسائقي عربات ، قد نأوا بعض الشيء وكفوا عن الغناء . لقد نظروا اليه من بعيد في ضربٍ من الخوف الموقّر . فقد كان هذا الرجل المرتدي مثل هذه الاسمال البالية ، الذي يخرج من جيبه القطع النقدية ذوات الخمسة الفرنكات في كثير من اللامبالاة ، والذي يغدق الدمى الضخمة على فتيات قذرات ينتعلن احذية خشبية — كان هذا الرجل من غير شك إنساناً سليم الطوية ، إنساناً رائعاً ومخيفاً .

---

* Duchesse de Berry (١٧٩٨ — ١٨٧٠) زوجة شارل فرديناند الابن الثاني للملك شارل العاشر ، وكانت ابنة فرنسوا الاول ملك نابولي .

وانقضت عدة ساعات . وتُلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، وأُغلقت الحانــة ، وهُجرت القاعة السفلى ، وخمدت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب في المكان نفسه ، والوضع نفسه . لقد غيّر ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه ، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول ، في القاعة . وغمغمت : « أيعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحاً ، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها:

-« أنا ذاهبة الى الفراش . في استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، في احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرأ صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او تزيد ، قرأ الفندقيّ الفاضل في اثنائها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى اسم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يُحدث بكرسيه صريراً . ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « أهو نائم ؟ » ان الرجل لم يكن نائماً ، ولكن أيما شيء لم يكن قادراً على إيقاظه .

واخيراً نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم في رفق وغامر بالقول :

« الا يعتزم سيدي ان يهجع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال « ألا يعتزم سيدي أن ينام » اذن لكان ذلك ثقيل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله « ان يهجع » فكان ينطوي على ترف وكان ينمّ عن احترام . ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الخفية الرائعة التي تمكنها من تضخيم الفاتورة في صباح اليوم التالي . فالغرفة التي تنام فيها تكلف عشرين سو ؛ على حـــين ان الغرفة التي تهجع فيها تكلف عشرين فرنكاً .

وقال الغريب :

– « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فاجابه تيناردييه في ابتسامة :

– « سيدي ، انا سوف ادلّ سيدي على الطريق . »

واخذ الشمعة ، واخذ الرجل صرّته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة في الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ، وسرير رفيع العماد ، وسجف من نسيج قطني أحمر .

وقال المسافر :

– « ما هذه ؟ »

فأجاب صاحب الفندق :

– « إنها غرفة عرسنا الخاصة . نحن نحتل غرفة مماثلة لهذه ، انا وزوجتي . ان هذه الغرفة لا تفتح غير ثلاث مرات او اربع مرات في العام . »

فقال الرجل في خشونة :

– « انا افضل الاسطبل عليها . »

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه اللباقة .

واضاء شمعتين لم تمسا من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت نار حسنة التأجج تضطرم في الموقد . وعلى غطائه ، تحت صندوق زجاجي ، كانت قبعة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال .

وقال الغريب :

– « ما هذا ؟ »

فأجاب تيناردييه :

– « سيدي ، إنها قبعة زفاف زوجتي . »

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرةً بدت وكأنها تقول : « لقد انقضت إذن لحظةٌ كانت فيها هذه الغولة عذراء . »

ولكن تيناردييه كان يكذب . فحين استأجر هذا البيت الحقير ليحوّله

الى مطعم ، وجـــد الغرفة مؤثثة عـــلى ذلك النحو ، واشترى هذا الاثاث ، ورسوم زهر البرتقال لاعتقاده بأن ذلك يلقي ظلّاً انيقاً على « قرينته » ، ويخلع عـــلى مؤسسته ما يدعوه الانـكليز الجلال .

حتى اذا التفت المسافر كرة اخرى لم يجد صاحب الفندق . كان تيناردييه قد انسلّ في لباقة من غير ان يجرؤ على ان يتمنى الغريب ليلة سعيدة ، لعدم رغبته في ان يعامل بمودة غير محتشمة رجلاً كان يعتزم ان يسلخ جـلده ، في كثير من الابهة ، صباح اليوم التالي .

لقد انقلب صاحب الفندق الى غرفته . وكانت زوجته في سريرها ، ولكنها لم تكن نائمة . فما إن سمعت وقع قدمي زوجها ، حتى التفتت اليه وقالت :

— « هل تعلم اني سوف اطرد كوزيت ، غداً ، من البيت ؟ »

فأجابها تيناردييه في برود :

— « اجل أعلم ذلك حقاً . »

ولم يتبادلا كلاماً آخر ، وما هي الا لحظات حتى كانت شمعتهما قـد أطفئت .

أما المسافر فكان قد وضع عصاه وصرته في زاوية . حـتى اذا ولى صاحب الفندق ، جلس في كرسي ذي ذراعين ، وظل فترة من الوقت يفكر ، ثم خلع نعليه ، وحمل احدى الشمعتين ، وأطفـــأ الاخرى ، ودفع الباب ، وغادر الغرفة ، مجيلاً الطرف في ما حوله وكأنما كان يبحث عن شيء . واجتاز برواق ، وتقدّم نحو السلم . ثم إنه سمـــع صوتاً بالغ العذوبة كان اشبه شيء بتنفس طفل . وعـلى هَدْيِ من ذلك الصوت انتهى الى تجويف مستطيل مبني تحت السلّم ، أو مُشكّل على الاصح بالسّلم نفسها . ولم يكن ذلك التجويف ، غير الفسحة التي تحت السلم . وهناك بين مختلف ضروب السلال العتيقة وأصناف الحطام القديم ، وسط الغبار وخيوط العنكبوت كان فراش ، اذا جاز ان تُدعى فراشاً

تلك الحشيةُ الملأى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشّفت عن التبن، وذلك الغطاء المليء بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشّف عن الحشيّة. ولم يكن ثمة شراشف . كانت الحشية موضوعة على البلاط مباشرةً . وهناك ، في هذا السرير ، كانت كوزيت نائمة .

واقترب الرجل منها ، ونظر اليها .

كانت كوزيت مستغرقة في نوم عميق . وكانت مرتديةً ثيابها كلها . ففي الشتاء كان من دأبها ان لا تنزع ثيابها تخفيفاً لوطأة البرد .

كانت تَضمّ اليها الدمية التي التمعت عيناها ، الواسعتان المفتوحتان ، في الظلام . وبين الفينة والفينة كانت تصّعد زفرة عميقة ، وكأنها على وشك ان تستيقظ ، وتهصر الدمية هصراً يكاد يكون تشنجياً . وكانت فردةٌ واحدة من حذائها الخشبي الى جانب فراشها ، ليس غير .

وكان باب مفتوح على مقربة من مأوى كوزيت الحقير يكشف عن غرفة كبيرة قاتمة . ودخل الغريب تلك الغرفة . حتى اذا بلغ اقصاها لمح ، من خلال نافذة زجاجية ، سريرين صغيرين توأمين شديدي البياض. كانا سريري آزيلما وايبونين . وخلف هذين السريرين كان يحتجب ، نصفَ احتجاب ، سرير خيزراني لا ستائر له . وفي ذلك السرير كان ينام الطفل الصغير الذي لم يكفّ عن الصراخ طوال المساء .

وقدّر للرجل الغريب ان تكون هذه الغرفة متصلة بغرفة تيناردييه الزوجة . وكان على وشك ان ينسحب عندما وقعت عيناه على الموقد ، وكان من تلك المواقد الضخمة التي في الفنادق – حيث النار هزيلة ابداً ، حين يكون ثمة نار – والتي يوقع النظرُ اليها البرد في الاوصال . وفي ذلك الموقد ، لم تكن نار ، بل لم يكن رماد . ومع ذلك فان ما كان هناك لفت انتباه المسافر . ولم يكن ما لفت انتباهه غير فردتي حذاء صغير من احذية الاطفال ، فردتين أنيقتي الشكل ، مختلفتي الحجم . وتذكّر المسافر تلك العادة الظريفة الخالدة التي تقضي ان

بضع الاطفال أحذيتهم في الموقد ليلة عيد الميلاد ، وان ينتظروا هناك في الظلام طمعاً في الحصول على هدية مشرقة من جنيّتهم الطيبة . وبذلت ابيونين وآزيلما جهداً حسناً لكي لا تنسيا ذلك ، فوضعت كل منهما فردة من حذائها في الموقد .

وانحنى تزيل الفندق فوقها .

كانت الجنية – يعني الأم – قد قامت بزيارتها ، وكانت تلتمع في كل من فردتي الحذاء قطعة نقدية جميلة ، بالغة الجـــدة ، من فئة العشرة سو .

ونهض الرجل ، وكان على وشك الذهاب ، عندما لمح في المدى البعيد ، وعلى حدة ، عند زاوية الموقد الاشدّ حلكة ، شيئاً آخر . ونظر ، فرأى حذاء خشبياً ، حذاء مروّعاً من اغلظ الخشب ، نصفَ منكسر ، ومغطّىً كلُّه بالرماد والوحل اليابس . كان ذلك حذاء كوزيت . ذلك ان كوزيت كانت قد وضعت هي الاخرى حذاءها في الموقد ، تحدوها ثقة الطفولة المؤثرة التي يمكن أن تُخدع دائماً من غير ان تثبط عزيمتها البتة .

ما أسمى الأمل وما أعذبه في طفلة لم تعرف قط غير اليأس !

ولم يكن في ذلك الحذاء شيء .

وبحث الغريب في جيوب صدرته ، وانحنى ، ووضع في حـــذاء كوزيت الخشبي ليرة ذهبية لويسية .

ثم انقلب الى غرفته من غير ان يحدث صوتاً ما .

٩
تيناردييه يناور

وفي صباح اليوم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ،

جلس تيناردييه الى طاولة في قاعة الحانة السفلى ، والى جانبه شمعة وفي يده قلم ، وانشأ يُعدّ فاتورة المسافر ذي السترة الطويلة الصفراء .

كانت زوجته واقفة ، نصف منحنية فوقه ، تتبعه بعينيها . ولم يتبادلا كلمة ما . فمن ناحية ، كان التأمل العميق ، ومن الناحية الاخرى كان ذلك الاعجاب الخاشع الذي يستولي علينا حين نرى الى معجزة من معجزات العقل البشري تنبثق وتتفتح . وسمعت في الفندق ضجة . كانت القبّرة تكنس السلم .

وبعد ربع ساعة او يزيد ، وبعد شيء من الشطب ، أخرج تيناردييه هذه الرائعة :

فاتورة السيد النازل في الغرفة رقم ١

عشاء	٣ فرنكات .
غرفة	١٠ «
شمع	٥ «
نار	٤ «
خدمة	١ «
المجموع	٢٣ فرنكاً

وكانت كلمة خدمة مكتوبةً هكذا : **خدمت** * .

وصاحت المرأة في حماسة ممتزجة بشيء من التردد :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ومثلَ جميع الفنانين الكبار ، لم يكن تيناردييه راضياً .

وقال :

---

* في الأصل أن- كلمة Service كانت مكتوبة هكذا Servisse وقد رأينـا ان نؤدي المعنى الذي رمى اليه المؤلف ، وهو جهل تيناردييه لقواعد الرسم او الاملاء ، من طريق كتابة التاء المربوطة تاء مبسوطة .

– « تبأ له ! »

كانت تلك نبرة كاسلري * وهو يُعدُّ لمؤتمر فيينا الفاتورة التي كان على فرنسة ان تدفعها .

وغمغمت المرأة ، وقد فكرت في الدمية التي قُدّمت الى كوزيت في حضرة بنتيها :

– « مسيو تيناردييه ، انت على صواب . إنه يستحق ذلك جيداً . هذا منصف ، ولكنه اكثر مما ينبغي . إنه لن يدفع المبلغ . »

فابتسم تيناردييه ابتسامته الباردة ، وقال :

– « سوف يدفعه . »

كانت تلك الضحكة اسمى أمارات الثقة والسلطان . وما قيل على هذه الشاكلة ، يجب ان يكون . ولم تصرّ المرأة قطّ . لقد اخذت ترتّب الطاولات ، بينا راح زوجها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعد لحظة أضاف :

– « أنا مدين بالف وخمسمئة فرنك ، على الاقل . »

وجلس في زاوية الموقد ، وانشأ يفكر واضعاً قدميه على الرماد الحار .

وقالت المرأة :

– « آ ، ها ! انت لم تنسَ اني سوف أطرد كوزيت ، اليوم ، الى الشارع ؟ يا لها من مسخة ! إنها تسحق فؤادي بدميتها ! إني افضل ان اتزوّج لويس الثامن عشر على ان أبقيها يوماً إضافياً في البيت ! »

وأشعَل تيناردييه غليونه ، وأجاب بين النفثتين :

– « أنتِ ستقدّمين الفاتورة الى الرجل . »

ثم خرج .

ولم يكد يغادر الغرفة حتى دخلها المسافر .

* Castlereagh سياسي انكليزي (١٧٦٩ – ١٨٢٢) كان روح التحالفات الأوروبية التي تمّت ضد نابوليون .

وفي الحال برز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظلّ جامداً لدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زوجته .

وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرّته بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « لقد استيقظت باكراً جداً ! ايعتزم سيدي ان يفارقنا اللحظة ؟ »

وفيما هي تتكلم ، أدارت الفاتورة بين يديها في سيماء مرتبكة ، وراحت تفضّها بأظافرها . ونمّ محيّاها القاسي عن ظلّ من الجبن والشك لم يكن مألوفاً .

لقد بدا لها أن في تقديم مثل هذه الفاتورة الى رجل تبدو عليه مظاهر « الشحّاذ » كاملةً إحراجاً كثيراً .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلاً .

وأجابها :

– « نعم ، يا سيدتي . أنا راحل . »

فأضافت :

– « واذن فليس عند سيدي أعمال في مونفيرماي ؟ »

فأردف :

– « لا . أنا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعيّن عليّ ان أدفع ، يا سيدتي ؟ »

وناولته السيدة تيناردييه الفاتورة المطوية ، ولم تُجب بشيء .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . ولكنّ أفكاره كانت ، على نحو واضح ، في مكان آخر .

وسألها :

– « هل تسير الاعمال على ما يرام في مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت إذ لم تشهد انفجاراً آخر :

- « بين بين ، يا سيدي . »

ثم تابعت في جرس فاجع يدعو الى الرثاء :

- « اوه يا سيدي . الازمة شديدة ، وليس في ديارنا هذه غير نفر قليل من الاغنياء ! انها قرية صغيرة ، كما ترى . ليتنا ننعم بين الفينة والفينة بنزلاء اغنياء ، مثلك يا سيدي ! ان لدينا نفقات كثيرة . ان تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها . »

- « أية فتاة صغيرة ؟ »

- « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبّرة ، كما يدعونها في المنطقة ! »

فقال الرجل :

- « آه ! »

وتابعت :

- « ما أشد بلاهة هؤلاء الفلاحين والالقاب التي يخلعونها على الناس ! انها تشبه الخفّاش اكثر مما تشبه القبّرة . وكما ترى ، يا سيدي ، فنحن لا نلتمس الصدقة ، ولكنا عاجزون عن تقديمها .

نحن لا نربح شيئاً ، وإن علينا اشياء كثيرة يجب ان تُدفع . فهناك الاجازة ، والضرائب ، والابواب والنوافذ ، ومختلف الرسوم المفروضة على كل شيء ! وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل من المال . والى هذا ، فأن عندي بنتيّ . ولست في حاجة الى ان أعيل اطفال الناس . »

واجابها الرجل في صوت رغب في ان يجعله لا مبالياً ولكنه كان ينطوي على ارتجافة :

- « إفرضي ان امرءاً خلّصك منها ؟ »

- « ممن ؟ كوزيت ؟ »

- « نعم . »

وغدا وجه الفندقية الاحمر العنيف متهللاً بانطباعة مخيفة :

— « آه ، يا سيدي الطبيب ! خذها ! احتفظ بها ، اذهب بها ، اصطحبها ، حلّها بالسكّر ، اطبخها بالكمأه ، اشربها ، كُلْها ، ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »

— « اتفقنا ! »

— « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »

— « سوف اذهب بها . »

— « في الحال ؟ »

— « في الحال . نادي الطفلة ! »

فصاحت تيناردييه الزوجة :

— « كوزيت ! »

وتابع الرجل :

— « وفي انتظار ذلك ، سوف أدفع اليك فاتورتي ، ما مبلغها؟ »

والقى نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات الدهش :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ونظر الى صاحبة الفندق وكرّر :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ؟ »

وكان في النطق بهاتين العبارتين ، المكررتين على هذا النحو ، تلك النبرة التي تفصل ما بين علامة التعجب وعلامة الاستفهام .

وكانت تيناردييه الزوجة قد وجدت متسعاً من الوقت لأعداد نفسها للصدمة . فأجابت في توكيد :

— « نعم ، طبعاً ، يا سيدي ! انها ثلاثة وعشرون فرنكاً . »

ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الخمسة الفرنكات على الطاولة وقال :

— « اذهبي وائتيني بالفتاة الصغيرة . »

وفي تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال :

– « السيد مدين بستة وعشرين سو . »

فصاحت المرأة :

– « ستة وعشرون سو ! »

وتابع تيناردييه في برود :

– «عشرون سو مقابل الغرفة ، وستة سو مقابل العشاء . اما الفتاة الصغيرة فيتعين عليّ ان اتحدث مع السيد في شأنها. اتركينا وحدنا ايتها الزوجة.»

واصيبت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشداه الذي توقعه في نفس المرء بوارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان الممثل العظيم قد دخل الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسبيلها .

وما إن خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسياً . وقعد المسافر ، ولكن تيناردييه ظل واقفاً ، وقد اتخذ وجهه انطباعة فريدة من الطيبة والبساطة . وقال :

– « اسمع ، ياسيدي ، ينبغي ان اقول انني اعبد هذه الطفلة . »

فنظر اليه الغريب نظراً موصولاً .

– « اية طفلة ؟ »

وتابع تيناردييه :

– « ما أعجب ذلك ! لقد جمعت المحبة ما بيني وبينها ! ما هذه القطع الفضية كلها ؟ أعد قطع العشرة سو الى جيبك . هذه الطفلة أنا اعبدها . »

وسأله الغريب :

– « من هذه ؟ »

– «اوه ، كوزيتنا الصغيرة ! ألا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اتكلم في صراحة حقاً ؛ فيما لا ريب فيه – كما انه لا ريب في انك رجل فاضل – اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف أفتقد هذه الطفلة ، من غير شك . لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جداً . صحيح انها تكلفنا مالاً ؛ صحيح

ان لها اخطاءها ؛ صحيح اننا لسنا اغنياء ؛ صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غـــير ! ولكنا يجب ان نعمل شيئاً في سبيل الله ! هذه الطفلة لا أم لها ولا اب . لقد نشأتها انا . إن عندي من الخبز ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان أحتفظ بهذه الطفلة . ولا ريب في انك قد فهمت ، فنحن قوم اصحاب عاطفة . انا ، شخصياً ، بهيمة كبيرة . انا لا احكّم العقل . اني أحب هذه الفتاة الصغيرة . إن زوجتي نزقة ، ولكنها تحبها ايضاً . وكما ترى ، إنها مثل ولد من اولادنا . أنا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت . »

كان الغريب يحدق اليه طوال الوقت . وتابـع حديثه :

— « عفواً يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرء لا يقدّم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحاً اني على صواب ؟ وبعد هـــذا فلست اقول — فأنت رجل غنيّ ، وتبدو عليك سيما الرجل الطيب — ان هذا لن يكون لمصلحتها . ولكني يجب ان أعرف ، أتفهمني ؟ لنفرض اني تركتها تذهب واني ضحيت بعواطفي فأني احب ان اعرف الى اين سوف تذهب . انا لا اريد ان أفقد متعة النظر اليها ؛ انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب وأراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذى هو في مقام أبيها ، لا يزال يرعاها . واخيراً فثمة اشياء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ، فاذا ما ذهبت بها فلسوف اقول : وا أسفا على القبرة الصغيرة ! الى اين ذهبت ؟ يجب على الاقل ان ارى قصاصة ورق بالية ، قطعة من جواز سفر ، او شيئاً ما . »

ومن غير ان يكفّ المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير ، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرْسٍ وقور ثبْت :

— « مسيو تيناردييه ، إن الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس . اذا اخذتُ كوزيت اخذتها . هذا كل ما هناك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك

لن تعرف الى أين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها بعد اليوم ابداً . سوف اكسر السلك الذي يطوق قدميها ، ولسوف تمضي. هل يوافقك ذلك ؟ نعم أم لا ؟ »

وكما تحسّ الشياطين والجنّ ، من بعض الأمارات ، أنها في حضرة ربٍّ أسمى ، كذلك ادرك تيناردييه انه امام رجل قوي جداً . كان ذلك أشبه بالحدس ؛ لقد فهمه ببصيرته الصافية الثاقبة . ففيما كان يحتسي الخمر ، الليلة البارحة ، مع سائقي العربات ، وفيما هو يدخن ، وفيما هو يغني الاغاني البذيئة ، جعل من همه أن يراقب الغريب طوال الوقت ، وان يترصده مثل هرة ، ويدرسه مثل عالم رياضيّ . لقد تربص به لحسابه الخاص ، للمتعة وبدافع من الغريزة ، وأحصى عليه الانفاس ، في وقتٍ معاً ، وكأن أحداً قد دفع اليه أجراً على ذلك . إن إيماءة واحدة او حركة واحدة من إيماءات الرجل ذي السترة الصفراء أو حركاته لم تَفُتْهُ . وحتى قبل أن يُفصح الغريب عن اهتمامه بكوزيت ، كان تيناردييه قد تنبأ بذلك . لقد باغت نظرات هذا العجوز المتطلعة ، الملتفتة ابداً نحو الطفلة . علامَ هذا الاهتمام ؟ ومن هذ الرجل ؟ ولماذا يرتدي مثل هذه الملابس البائسة ما دام كيس دراهمه حافلاً بذلك المال كله ؟ تلك كانت اسئلة وجّهها الى نفسه من غير أن يجد لها جواباً ، فهي تقلقه وتثيره لقد سلخ الليل كله وهو يفكر بها . إن هذا الرجل لا يمكن ان يكون أبا كوزيت . أهو جدها ؟ واذن ، فلماذا لم يُعلن عن نفسه منذ اللحظة الاولى ؟ فحين يكون للمرء حق في شيء ، يعمد الى إظهاره . وواضح ان هذا الرجل لا حقّ له في كوزيت . وإذن فمن هو ؟ وتاهَ تيناردييه في ضروب من الافتراضات . لقد لمح كل شيء ، ولكنه لم يرَ شيئاً . وأياً ما كان ، فحين بدأ محادثة هذا الرجل – واثقاً من ان ثمة سراً في ذلك كله ، موقناً من أن الرجل شديد الرغبة في ان يظل مجهول الهوية – استشعر أنه قويّ . حتى اذا جاءه

جواب الغريب الواضحُ الصارمُ وادرك أن هذه الشخصية الغامضة كانت غامضة لا أكثر ولا أقل ، استشعر أنه ضعيف . إنه ما كان يتوقع شيئاً من مثل ذلك . لقد هُزمت ظنونه وأحداسه . واستجمع فكراته. ووازَ ذلك كله في ثانية . فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون وضعاً ما ، من اللمحة الاولى . وقدّر ان هذه هي اللحظة التي يتعين عليه فيها ان يمضي قدُماً وعلى نحوٍ مريع . لقد فعل ما يفعله القادة العظام في تلك اللحظة الحاسمة التي يعرفون هم وحدهم أن يدركوها . لقد كشف القناع ، فجأة ، عن مدفعيته .

وقال :

« يجب ان أحصل على الف وخمسمئة فرنك ، يا سيدي . »

وأخرج الغريب من جيبه الجانبي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد أسود ، وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة . ثم إنه أراح إبهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفندقيّ :

« أدعُ كوزيت . »

وفيما كان ذلك كله يجري ، ماذا كانت كوزيت تعمل ؟

لم تكد كوزيت تنهض من فراشها حتى سارعت الى حذائها الخشبي ، فوجدت فيه القطعة الذهبية . إنها لم تكن ليرة نابوليونية ، ولكن احدى تلك القطع الجديدة ، ذوات العشرين فرنكاً ، التي سُكّت في عهد عودة آل بوربون الى العرش والتي حلّ ساق الزهر البرومي الصغير ، على وجهها ، محل تاج الغار . وشُدهت كوزيت . لقد بدأ قَدَرُها يُسكرها . إنها لم تدرِ أنها قطعة ذهبية ، فهي لم ترَ من قبل ليرة من ذهب ، فسارعت الى إخفائها في جيبها وكأنها قد سرقتها . ومع ذلك ، فقد استبشرت بها خيراً . وحزرت من أين جاءت تلك الهدية ، ولكن ضرباً من البهجة المليئة بالذعر سرى في أوصالها . كانت منشرحة الصدر ، وكانت فوق كل شيء ذاهلة مشدوهة . ان هذه الاشياء الرائعة الى هذا

الحد ، الجميلة الى هذا الحد ، بدت وهمية في عينيها . فالدمية قد أخافتها ، والليرة الذهبية قد اخافتها . لقد ارتجفت في دهش أمام هذا البهاء كله . أما الغريب فكان هو وحده الذي لم يوقع الرعب في فؤادها . على العكس ، لقد هدّأ من روعها . فمنذ الليلة البارحة – من خلال دهشها كله ، وفي أثناء رقادها – وهي تفكر بعقلها الطفليّ الصغير في هذا الرجل الذي كان يبدو عجوزاً ، فقيراً ، وكئيباً الى هذا الحد ، والذي كان على مثل هذا الغنى ، وتلك الطيبة . ومنذ ان التقت هذا الرجلَ الطيب في الغابة ، بدا لها وكأن جميع الاشياء قد تغيرت من حولها . فكوزيت ، وكانت اقل سعادة من اضأل سنونو في السماء ، لم تعرف قط معنى الاحتماء تحت جناح الأم . وطوال خمس سنوات ، اي منذ اقدم الايام التي كان في ميسور ذاكرتها ان ترقى اليها ، ارتجفت الطفلة المسكينة وارتعدت . كانت عارية أبداً تحت ريح الشقاء الشرسة ، وها هي ذي الآن يتراءى لها أن جسمها قد أمسى مكسوّاً . كانت روحها تستشعر لذع البرد ، من قبل ؛ أما الآن فهي دافئة . إن كوزيت لم تعد خائفة من تيناردييه الزوجة ؛ إنها لم تعد وحدها . إن ثمة شخصاً يرعاها ويُعنى بها .

وسارعت الى القيام بعملها الصباحي . ولكن هذه الليرة الذهبية اللويسية – التي كانت قد وضعتها في جيب مئزرها نفسه الذي سقطت منه قطعة الخمسة عشر « سو » الليلة البارحة – ألهتها عن عملها . إنها لم تجرؤ على ان تمسّها ، بيد انها كانت تنفق في كل مرة خمسَ دقائق متواصلة وهي تتأملها – وينبغي أن نعترف – مخرجةً لسانها . وفيما كانت تكنس السلم ، كفّت عن العمل ووقفت هناك جامدةً ، ناسيةً مكنستها ، والعالمَ كله حولها ، وقد انهمكت في النظر الى تلك النجمة المتلألئة في قعر جيبها .

وفي فترة من فترات التأمل هذه فاجأتها تيناردييه الزوجة .

كانت قد مضت للبحث عنها ، نزولاً عند ارادة زوجها . ومن عجب أنها لم تصفعها ، ولم تقذفها بشتيمة .

لقد قالت في جرْس يكاد يكون عذباً :

- « كوزيت ، تعالي في الحال . »

وبعد لحظة ، دخلت كوزيت القاعة السفلى .

وتناول الغريب الصرّة التي كان قد جلبها معه ، وفكّها . كانت تلك الصرّة تحتوي على فستان صغير من الصوف ، ومئزر ، وصدرة ذات كمّين مصنوعة من قماش قطني خشن ، وتنورة داخلية ، ومنديل للعنق ، وجوربين صوفيين ، وحذاء - مجموعةَ ثياب كاملة لفتاة في الثامنة . وكانت تلك الملابس كلها سوداء .

وقال الرجل :

- « خذي هذه ، يا بُنيّتي ، واذهبي فالبسيها في سرعة . »

وكان الضحى يرتفع عندما وقعت أبصار سكان مونفيرماي الذين بدأوا يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى باريس ، ممسكاً بيد فتاة صغيرة ترتدي ملابس حِداد كاملة ، وتحمل بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد اتجها نحو ليفري .

كانا صاحبَنا وكوزيت .

ولم يعرف الرجلَ أحد . واذ لم تعد كوزيت ترتدي اسمالاً بالية فقد عرفها نفرٌ قليل ليس غير .

لقد مضت كوزيت لسبيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك . الى اين ؟ لم تكن تدري . كل ما فهمتْهُ أنها خلّفت وراءها مطعم تيناردييه الحقيرَ . ولم يخطر في بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر في بالها هي ان توجه كلمة وداع الى أحد . لقد غادرت ذلك البيت مكروهةً كارهةً .

يا لها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتى تلك اللحظة

شيئاً غير السّحق !

وسارت كوزيت في رصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين ، ناظرةً الى السماء . كانت قد وضعت ليرتها الذهبية اللويسية في جيب مئزرها الجديد . وبين الفينة والفينة ، كانت تنحني وتلقي نظرة عليها ، ثم ترنو الى الرجل الطيب . لقد استشعرت ، بعض الشيء ، وكأنها قرب الله .

١٠
من يلتمس الاحسن قد يقع على الاسوأ

كانت مدام تيناردييه ، وفقاً لعادتها ، قد تركت زوجها وشأنه . وكانت تتوقع احداثاً ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة أو تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، انتحى بها جانباً وأراها الألف والخمسئة فرنك .

وقالت :

— « ما هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرأت فيها ، منذ زواجها ، على ان تنتقد عملاً من أعمال سيدها .

وأحسّ بأثر الضربة .

وقال :

— « صحيح ؛ انتِ على صواب ، انا معتوه . أعطني قبعتي . »

وطوى الاوراق المالية الثلاث ، وأقحمها في جيبه ، وانطلق باقصى ما يستطيع من سرعة ، ولكنه ضلّ الطريق ، آخذاً يمينه بادىء الامر . ولكنه سأل بعض الجيران فهدوه سواء السبيل . لقد شوهدت القبّرة

والرجل سائرين في اتجاه ليفري . فمضى في ذلك الاتجـــاه ، منطلقاً بخطوات واسعة ، مخاطباً نفسه :

— « هذا الرجل هو من غير شك مليونير في ملابس صفراء ، أما أنا فبهيمة . لقد أعطى ، اول الامر، عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ، ثم خمسين فرنكاً ، ثم الفاً وخمسمئة فرنك ، ودفعها كلها في كثير من اليسر . ولقد كان على استعداد لأن يدفـــع خمسة عشر الف فرنك . ولكني سوف أوقعه في الفخ مرةً ثانية . . »

ثم صرة الثياب هذه المعدّة مقدّماً من اجل الفتاة الصغيرة ، كل هذا كان غريباً . كان وراء ذلك سرّ خفيّ . وحين يضـع المرء يده على سرّ فأنـــه لا يُفلته إن اسرار الاغنياء قِطعٌ من الاسفنـــج مليئة بالذهب . ويتعـيّن على المرء ان يعرف كيف يعصرها . كانت هـــذه الافكار كلها تعصف في دماغه . وقال :

— « أنا بهيمة . . »

إن في امكان المرء ، حين يغادر مونفيرماي ويبلغ منعطف الطريـق الى ليفري ، أن يرى الطريق تمتدّ امامـــه بعيداً بعيداً فوق النجد . حتى اذا انتهى الى هناك قدّر أنه سوف يرى الرجـــل والفتاة الصغيرة من غير ريب . ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه أن تنظرا ، ولكنه لم يرَ شيئاً . واستعلم كرةً اخرى . وفي غضون ذلك ، كان الوقت يضيع . وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث عنهما مضيا نحو الغابة في اتجاه غاني . فسارع الى الانطلاق في هذا الاتجاه . كانا قد سبقاه ، ولكن الطفلة تمشي في تؤدة ، على حين ينطلق هو في سرعة . والى هذا فقد كان يعرف المنطقة معرفة جيدة .

وفجأةً كف عن السير ، وصفع جبينه مثل رجـــل نسي الشيء الرئيسي ، رجلٍ على وشك ان يرتدّ على آثاره .

وقال :

– « كان ينبغي ان اجيء ببندقيتي ! »

كان تيناردييه واحداً من اصحاب تلك الطبائع المزدوجة التي تبرز بيننا في بعض الاحيان من غير ان تدري ، والتي تختفي من غير ان تُعرف ، لان القدر لم يُرِنا إلا جانباً منها . فقد كتب على كثير من الرجال ان يعيشوا هكذا مغمورين نصفَ عُمر . ففي الحال الطبيعية الهادئة ، كان لدى تيناردييه ما هو ضروري لأن يصنع – ولا نقول لأن يكون – ذلك الذي تعودنا ان ندعوه تاجراً أميناً ، او مواطناً صالحاً . وفي الوقت نفسه ، وفي بعض الظروف الخاصة ، تحت وطأة بعض الهزات التي تثير طبيعته الدنيا ، كان في باطنه كل ما يحتاج اليه المرء لكي يكون شريراً فاتكاً . كان صاحب دكان يختفي في بُرديه غول . ولا ريب في ان ابليس قد جلس القرفصاء لحظةً ، في زاوية ما من الثقب الذي يقطن فيه تيناردييه ، ودرس هذه الرائعة المخيفة .

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه :

– « ولكن هذا سوف يمنحها متسعاً من الوقت للهرب ! »

وواصل طريقه ، ماضياً الى الامام في سرعة ، وقد غلبت على محياه سيماء من الثقة تقريباً ، وساقته فطنة كفطنة الثعلب استروح سرباً من الحجلان .

والواقع أنه حين اجتاز المستنقعات ، وعبرَ على نحو موارب ذلك المرج العريض المنبسط الى يمين شارع بيلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب الذي يطوّق الكثيب ، أو يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تجرّ المياه الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبعة كان قد بنى عليها كثيراً من الظنون والاحداس . كانت قبعة رجل ، وكان الدغل منخفضاً ، وادرك تيناوديه ان الرجل وكوزيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن في ميسوره ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادراً على ان يلمح

رأس الدمية .

ولم يخدع تيناردييه . كان الرجل قد جلس هناك لكي يمكّن كوزيت من ان ترتاح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغلَ ، وبرز فجاءة امام أعين هذين اللذين يبحث عنهما .

وقال وهو يلهث لهاثاً شديداً :

— «عفواً ، وألتمس المعذرة يا سيدي ، ولكنْ هذه هي الالف والخمسة فرنك التي دفعتها اليّ . »

وفيما هو ينطق بذلك قدّم الاوراق المالية الى الرجل الغريب . ورفع الرجل عينيه وقال :

— « ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تيناردييه في احترام :

— « هذا يعني انني سوف أسترجع كوزيت يا سيدي . »

وارتعدت كوزيت ، وتشبثت بالرجل الطيب .

اما هو فأجاب ، ناظراً الى تيناردييه في عينه مباشرة ، مباعداً ما بين مقاطع الحروف :

« أنت تـ ـ تر ـ جع كوزيت ؟ »

— « نعم ، يا سيدي ، سوف استرجعها . اريد أن اقول لك . لقد فكرتُ في الواقع ، اني لا حق لي في ان اعطيك اياها . انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة ليست لي . انها ملك لأمها . لقد استودعتني امها اياها ، فليس في استطاعتي ان أسلمها إلا الى امها . وقد تقول لي : ولكن أمها ماتت . حسناً ، في هذه الحال لا استطيع ان أسلم الطفلة إلا الى شخص يحمل اليّ امراً موقعاً من الأم ينصّ على ان من واجبي ان أسلم الطفلة اليه . هذا شيء واضح . »

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجلُ في جيبه ، ورأى تيناردييه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت في اوصال الفندقي رعشة من البهجة .
وقال فيما بينه وبين نفسه :
- « حسن ! إصمد . انه يريد ان يرشوني . »
وقبل ان يفتح حافظة نقوده ، القى المسافر نظرة على ما حوله . كان المكان خالياً تماماً فلم تكن ثمة نفس واحدة لا في الغابة ، ولا في الوادي. وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق المالية التي كان تيناردييه يتوقعها ، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها الى صاحب الفندق قائلاً :
- « أنت على صواب . إقرأ هذا ! »
وتناول تيناردييه الورقة ، وقرأ :

مونتروي سور مير ، في ٢٥ آذار ، ١٨٢٣

« مسيو تيناردييه ،
« سوف تسلّم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .
« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .
« لي الشرف ان احييك في احترام .
« فانتين . »

وأردف الرجل :
- « اتعرف هذا التوقيع ؟ »
كان توقيع فانتين حقاً . ولقد عرفه تيناردييه .
ولم يكن ثمة ما يقوله . لقد استشعر غيظاً مضاعفاً ، فهو مَغيظٌ لاضطراره الى التخلي عن الرشوة التي منّى النفسَ بها ، وهو مغيظ للهزيمة التي اصابته . وأضاف الرجل :
- « في استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كأيصال . »

وانسحب تيناردييه في نظام .
ودمدم قائلاً :
– « هذا التوقيع مزوّر تزويراً بارعاً . حسن ، فليكن ذلك ! »
ثم إنه بذل جهداً يائساً ، فقال :
– « هذا حسن ، يا سيدي . واذن فأنت الناقل المشار اليه . ولكنّ عليك أن « تدفع جميع الديون الصغيرة » . إنها مدينة لي بمبلغ ضخم . »
ونهض الرجل واقفاً ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار عن ردنه المهترىء :
– « مسيو تيناردييه ، في كانون الثاني قدّرت الأم انها مدينةً لك بمئة وعشرين فرنكاً . فأرسلتَ اليها في شباط مذكرة بخمسمئة فرنك . ولقد تلقيتَ ثلاثمئة فرنك في آخر شباط ، وثلاثمئة فرنك في مطلع آذار . وانقضت منذ ذلك الحين تسعة اشهر ، كل شهر بخمسة عشر فرنكاً ، وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكاً . ولقد قبضتَ مئة فرنك مقدّماً ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون فرنكاً . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، ألفاً وخمسمئة فرنك . »
واستشعر تيناردييه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي الشَّرَك الفولاذيين .
وقال في ذات نفسه :
– « أيّ شيطان هو هذا الرجل ؟ »
وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية . كانت الجرأة قد نجحت معه قبل الآن .
وقال في عزم ، طارحاً هذه المرة كل تظاهر بالاحترام :
– « ايها السيد الذي لا اعرف له اسماً . سوف استرجع كوزيت أو تعطيني ألف ريال . »

فقال الغريب في هدوء :

- « كوزيت ، تعالي . . »

وأمسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمني ، وكانت على الارض .

ولاحظ تيناردييه ضخامة الهراوة ، ووحشة المكان .

واختفى الرجل في الغابة ، ومعه الطفـــلة ، مخلّفاً صاحب الفندق جامداً مرتبكاً .

وفيما هما ينطلقان لاحظ تيناردييه منكبيه العريضين ، المقوّسين بعض الشيء ، وقبضتيه الضخمتين .

ثم وقعت عيناه على ذراعيه هو ، القميئتين ويديه هو ، المهزولتين ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

- « لقد كنت مجنوناً حقاً اذ لم آت ببندقيتي ما دمت خارجـاً الى القنص . . »

ومع ذلك فان الفندقي لم يكفّ عن تعقّبه ، قائلا :

- « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب . . »

وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بين يديه شيئان ، اولهما سخرية مريرة ، هي قصاصة الورق الموقعة فانتين ، والثاني عزاء ، وهو مبلغ الالف والخمسمئة فرنك .

كان الرجل يقود كوزيت في اتجاه « ليفري » و « بونـــدي » . كان يمشي في تؤدة ، مطأطئاً رأسه ، وقد رانت على وجهه سيما التفكير والحزن . وكان الشتاء قد عرّى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح في ميسور تيناردييه ان يُتبعهما بصره ، برغم بقائه بعيداً عنهما بعداً غـير يسير . وبين الفينة والفينة ، كان الرجل يتلفت فيرى ما اذا كان احـدٌ يقتفي آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فما كان منه إلا ان دخل هـو وكوزيت غابة تُقطع اشجارها في العادة ، فغابا عن العيان .

وقال تيناردييه :

– « يا للشيطان ! »

وضاعف سرعته .

وأكرهته كثافة الغابة على أن يقترب منهما . حتى اذا انتهى الرجل الى اشد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعاً . وكان تيناردييه قد حاول الاختباء بين الاغصان ، ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والقى الرجل نظرة قلقة ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان من الفندقيّ إلا أن تعقبه كرة أخرى . وتقدّما على هذا النحو مئتي خطوة او ثلاثمئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقيّ . ونظر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حدّ جعل تيناردييه يقدّر أن « من غير المجدي » الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث أتى .

١١

رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى

وكوزيت تربحه في اليانصيب

إن جان فالجان لم يمت .

فحين سقط في البحر ، او على الاصح حين ألقى بنفسه فيه ، كان كما قد رأينا غير راسفٍ في الاغلال . لقد سبح تحت الماء الى سفينة راسية شُدّ اليها مركب من المراكب .

ووجد سبيلاً مكّنته من الاختباء في هذا المركب حتى المساء . وفي موهن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى في الماء ، وانتهى الى

الساحل على مسافة غير بعيدة من رأس « برون » .

واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس ، هناك . فقد كانت في ضواحي بالاغونيه حانة صغيرة تزوّد الفارّين من سجن الاشغال الشاقة بالملابس ، وكانت تجارةً رابحة . وعندئذ سلك جان فالجان سبيلاً غامضاً مترحّلاً ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء الذين يحاولون ان يضلّلوا أرصاد القانون والقَدَر الاجتماعي . ووجد مأوى ، باديء الامر ، في برادو ، قرب بوسيه . ثم اتجه نحو « غران فيلار » قرب بريانسون ، في « الألب العليا » . فرارٌ تحسسي قلق ، وسبيل اشبه بسبيل الخلد ذات التشعبات المجهولة . ولقد اكتُشِف في ما بعد شيء من آثاره في « إين » ، فوق مقاطعة سيفربيو ، وفي البيرينيه ، عند « آكون » ، في مكان يدعى ال « غرانج دو دوميك » قرب قرية شافاي ، وفي ضواحي بيريغو ، عند برونيّ ، وهي قضاء من أقضية « شابيل غوناغيه » . واخيراً وصل الى باريس . ولقد رأيناه بعدُ في مونفيرماي .

وكان اول همومه ، لدن بلغ باريس ، ان يشتري ثوب حداد لفتاة صغيرة يتراوح عمرها ما بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك عن مكان يبيت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القاريء انه كان قد قام ، عند فراره الاول او حوالى ذلك الحين ، برحلة خفية تحت المداة وميضاً منها .

والى هذا ، فقد سرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كثّف الظلمة التي اكتنفته . وفي باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي دونت الواقعة . فاستشعر الطمأنينة وقدراً من الامن يكاد يعدل ذلك الذي كان خليقاً به ان يستشعره لو انه مات حقاً .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وُفق فيه جان فالجان الى انتزاع كوزيت من مخالب تيناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل

المدينة ، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك استأجر عربة ذات دولابين أقلته الى ساحة المرصـــد . ثم ترجل من العربة ، ودفع الأجر الى السائق ، وأمسك بكوزيت من يدهـــا ، وانشآ يمشيان ، في الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة لا « أورسين » والا « غلاسيير » ، نحو جادة المستشفى .

كان النهار غريباً حافلاً بالانفعالات التي حملها الى كوزيت . وكانا قد أكلا خلف الأسيجة المكوّنة من الاشجار الشائكة خبزاً وجبناً اشترياهما من بعض المطاعم الحقيرة المنعزلة ؛ وكانا قد انتقلا عدة مرات من عربة الى عربة ، وقطعا مسافاتٍ قصاراً على اقدامها ، فلم تشكُ ولم تتذمر ، ولكنها كانت متعبة ؛ ولقد ادرك جـــان فالجان ذلك من جذبها ليده اثناء السير جذباً اشدّ وطأة من ذي قبل . وحملها على ظهره . ووضعت كوزيت رأسها ، من غير ان تُفلت كاترين ، عـــلى كتف جان فالجان ، واستسلمت للرقاد .

الكتاب الرابع

بيت غوربو العتيق

١

الاستاذ غوربو

منذ اربعين سنة ، كان المتنزّه المتوحد الذي يغامر في التقدم الى مجاهل « لا ساالبيتريير » ، ويصعّد في الجادة حتى « باب ايطالية » ، ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اختفت . انها لم تكن بقعة مهجورة ، فقد كان ثمة عابرو سبيل . ولم تكن ريفاً ، فقد كانت ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة ، فقد كانت الشوارع ملأى بالاخاديد ، مثل الجوادّ الكبيرة ، وكان العشب نامياً على حوافيها . ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جداً . ماذا كانت اذن ؟

كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ؛ كانت بقعةً مهجورة ينزلها نفر من الناس ؛ كانت جادة من جوادّ المدينة العظيمة ، شارعاً من شوارع باريس ، اشدّ وحشةً — في الليل — من غابة ، واكثر كآبة — في النهار — من مقبرة .

كانت حيّ « مارشيه أو شيفو » القديم .

ولو قد غامر هذا المتنزه بالمضيّ الى ما وراء جدران « مارشيه أو شيفو » الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعد من شارع « بيتي بانكيه » بعد ان يخلّف الى يمينه فناءً تحيط به اسوار عالية ، ثم مرجاً مرصعاً بأكداس من قِشر الدّبغ اشبه ما تكون بتلك السدود الضخمة التي تبنيها كلاب الماء ؛ ثم حظيرةً تغصّ بخشب البناء وأكوام من أرومات الاشجار والنُّشارة والنُّجارة كان ينبح من أعلاها كلب ضخم ، ثم جداراً طويلاً منخفضاً متهدماً ذا باب صغير أسود هرم يكسوه الطحلب المثقل بالازهار في ايام الربيع ، ثم — في البقعة الاكثر وحشة — بناءً مروعاً متهدماً كُتب عليه باحرف ضخام « ممنوع إلصاق الاعلانات » — نقول لو قد غامر هذا المتنزه الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع « فينْيي سان مارسيل » ، وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك ، قرب احد المصانع ، وبين جدارين من جدران الجنائن كان يُرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ، للنظرة الاولى ، صغيراً مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعاً مثل كاتدرائية . كان ينهض وحائط جَمَلونه * متجه نحو الجادة ، ومن هنا صغره الظاهري . لقد كان البيت كله محجوباً تقريباً . إن المرء ما كان في ميسوره ان يرى منه غير الباب واحدى النوافذ ليس غير .

ولم يكن ذلك البيت المتداعي مؤلفاً من اكثر من دور واحد .

* الجملون بناء على هيئة سنام الجمل . وهو يعرف في الفرنسية بـ pignon وفي الانكليزية بـ gable .

وكانت الخاصة التي تبدهُ الناظر اليه، الراغب في درسه، اول ما تبدهه، ان ذلك الباب ما كان يمكن ان يكون، في يوم من الايام، غير باب بيت حقير، على حين ان النافذة كان يمكن ان تكون لو ركبت في حجر مربع او منحوت لا في حجر مرضوم * – نافذة قصر من القصور.

كان الباب مجرد مجموعة من أكواخ خشبية أكلها السوس، شُدّ بعضها الى بعض، على نحو أخرق، بعوارض تشبه قطعاً من الوقود قُدّت قداً رديئاً. وكان ينفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل، والجصّ، والغبار – سلم يبلغ عرضها عرض الباب، وتبدو من الشارع وكأنها تنهض على نحو عمودي مثل مرقاة، وتختفي في الظلام بين جدارين. وكان أعلى الفسحة الشائهة التي ينغلق عليها هذا الباب متمماً بحاجز علويّ ضيق نُشرت في وسطه فوهة مثلثة الزوايا كانت حين يوصد الباب بمثابة كوّة وخادعة ** في آن معاً. وعلى داخل الباب كانت فرشاة مغمسة بالحبر قد رسمت بضربتين من ضربات مُجمع اليد الرقم ٥٢، وفوق الحاجز كانت الفرشاة نفسها قد خربشت الرقم ٥٠ حتى ليتردد الوافد الجديد ويتساءل: «اين أنا». إن اعلى الباب يقول: «في المنزل ذي الرقم ٥٠». ولكن داخله كان يجيب: «لا؛ في المنزل رقم ٥٢». اما الاسمال الغبارية اللون المتدلية مثل الستائر حول الخادعة المثلثة الزوايا فلن نحاول ان نصفها.

كانت النافذة عريضة، وعلى ارتفاع غير يسير. وكانت ذات مصاريع خارجية، وأطر ذات الواح زجاجية عريضة. بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد أصيبت بجروح مختلفة أخفتها وأعلنت عنها، في وقت معاً، ضماداتٌ ورقيّة غير بارعة. وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدّد عابر السبيل بالخطر، اكثر مما تصون النازلين في البيت. كانت تعوزها، هنا وهناك، العوارض الخشبية

* رضم الحجارة جعل بعضها على بعض من غير ان ينحتها ويسويها.
** الخادعة: هي الباب الصغير الذي يكون في الباب الكبير.

الافقية ، وقد استعيض عنها بألواح سُمِّرت عمودياً ، بحيث انّ ما كان في اول الامر مصاريع خارجية ، انتهى الى ان يصبح مصراعاً مصفّحاً .

وكان ذلك الباب بمظهره القذر ، وتلك النافذة بسيماها اللائقة ، رغم تهدّمها ، منظوراً اليهما هكذا في بناية واحدة ، يتركان في النفس مثل الاثر الذي يتركه مشهد شحاذين ممزقي الثياب يمضيان في اتجاه واحد ويمشيان جنباً الى جنب ، وقد تكشّف كل منهما ، تحت الاسمال نفسها ، عن سيما خاصة ، فأما احدهما فأشبه برجل ملغ عمره كلـــه شحاذاً ، وأما الآخر فكان في يوم ما شريفاً من الاشراف .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جداً هو أشبه شيء بسقيفة حُوّلت الى بيت . وكان شريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقاً طويلاً تنفتح الى يمينه والى يساره أشباه غرف ذات أبعاد مختلفة ، غير آهلة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبيه منها الى ان تكون غرفاً . وكانت هذه الحُجُرات تطلّ على الاراضي المجـاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلهـا مظلمة ، قابضة للصدر ، شاحبة ، كئيبة تذكّر بالمقابر ؛ وكانت تخترقها ، تبعاً لمواضع الشقوق وكونها في السقف أو في الباب ، أشعة الشمس البارودة حينـــاً ، ورياح الشمال المثلوجة حيناً آخر . ومن الخصائص الطريفة الماتعة التي يمتاز بهــا هذا الضرب من البيوت ضخامة عناكبها .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطلّ على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريباً عن الارض ، كوّة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هنـاك .

كان جزء من هذا البناء قد هُدم منذ قريب ، ولكن ما بقي منه اليوم لا يزال في ميسوره ان يعطي فكرة مما كان عليه من قبل إن البناء ، بوصفه كلًا واحداً ، لا يزيد عمره على مئة عام . والمئة عـام شبابٌ بالنسبة الى كنيسة من الكنائس ، ولكنها شيخوخة بالنسبة الى

بيت من البيوت . لكأنّ بيت الانسان يشاركه في وجوده الموجز ، على حين ان بيت الله يشاركه في سرمديته .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ – ٥٢ ؛ بيد أنه كان معروفاً في الحي بـ « بيت غوربو » .

فلننظر من اين جاء هذا اللقب .

ان متصيدي الصغائر التافهة الذين يجمعون النوادر والحكايات كما يجمع دارس النباتات والحشائش اعشابه ، ويشكّون التواريخ الزائلة في ذواكرهم بدبوس ، يعرفون انه كان في باريس ، في القرن الماضي ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، نائبان عامان في الـ « شاتيليه » * احدهما يدعى « الغراب » Corbeau والآخر يدعى « الثعلب » Renard – وهما اسمان تنبأ بهما لافونتين . وكانت الفرصة جدّ مواتية لأرسال النكتة ، فليس من المعقول ان يضيعها جماعة المساعدين القضائيين . وهكذا ما لبثت أروقة قصر العدل أن ضجت بالتحريف التالي ، في أبيات عرجاء بعض الشيء :

« كان الاستاذ الغراب جاثماً فوق أحد الملفات
ممسكاً في منقاره حكماً بالاعدام سميناً .
وأغرت الرائحة الاستاذ الثعلب
فروى على مسمعيه هذه الحكاية :
هاي ، صباح الخير ! الخ .. »

واذ اغتاظ هذان الموظفان المخلصان لهذا المزاح المستقبح ، واذ كانت عواصف الضحك التي تعقبه تتعارض وكرامتهما ، فقد اعتزما تغيير اسميهما ملتمسين من الملك ان يجيز لهما ذلك . وقُدّمت العريضة الى لويس الخامس عشر في ذلك اليوم نفسه الذي انحنى فيه ، بخشوع ، سفير البابا والكاردينال « لا روش ايمون » ، في حضرة جلالته ، لكي يضع كل

---

* Châtelet وكان مقر محكمة الجنايات في باريس .

منها فردة من بابوج مدام دو باري * في رجليها العاريتين وهي تنهض من السرير . وواصل الملك – وكان يضحك – ضحكه ذاك ، وانتقل في حبور من الأسقفين الى النائبين العامين ، وأحلَّ رَجُلي القضاء هذين من اسميهما ، أو كاد . فقد أجيز للاستاذ كوربو Corbeau (الغراب) ، مع سرور الملك ، ان يضيف ذيلاً الى الحرف الاول من اسمه ، بحيث امسى غوربو . Gorbeau أما الاستاذ رينار Renard (الثعلب) فكان اقلَّ حظاً ، اذ لم يفز باكثر من إذن اجاز له ان يضع حرف P قبل حرف الـ R ، مما جعل الكلمة « بريناز » Prenard ** ، وهو اسم لم يكن اقلَّ ملاءمة من الاسم الاول .

والآن ، فقد كان الاستاذ غوربو هذا ، وفقاً للرواية المحلية ، صاحب البناء المرقم ٥٠–٥٢ ، جادة المستشفى ، وكان هو ، كذلك ، مبتدع النافذة الفخمة .

ومن هنا اكتسب ذلك البناء اسمه : بيت غوربو .

ومقابل رقم ٥٠–٥٢ تنهض ، بين اشجار الجادة ، شجرة دردار سامقة ، شبه ميتة . وتجاهها تقريباً امتد شارع « باب غوبلين » وهو شارع كان آنذاك من غير منازل ، ومن غير تعبيد ، وكانت تحيط به اشجار هزيلة خضراء او موحلة تبعاً لفصول السنة ، حتى يتصل ، عند زاوية قائمة ، بالسور الذي يطوّق باريس . كانت رائحة كبريتات الحديد تفوح ، هبّاتٍ هباتٍ ، من سطوح مصنع مجاور .

وكان باب باريس قريباً جداً . ففي عام ١٨٢٣ كان سور المدينة لا يزال قائماً .

وكان هذا الباب نفسه يملأ الذهن بالصور القاتمة . كان على الطريق

---

* Contesse du Barry عشيقة لويس الخامس عشر وقد أعدمت في عهد الارهاب (١٧٤٣ – ١٧٩٣) .

** ومعناها الرجل الشره .

المؤدية الى « بيسيتر » . ومن هناك كان السجناء المحكوم عليهم بالموت ، في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش ، يدخلون باريس ، كرّة اخرى ، يوم إعدامهم . وهناك وقعت ، حوالى عام ١٨٢٩ ، تلك الجريمة الخفية التي دُعيت « جريمة باب فونتينبلو » ، والتي لم توفق السلطات قط الى اكتشاف أبطالها - مسألة فاجعة لمّا تُجلّ بعد ، ولغز مروّع لمّا يُحلّ . فاذا تقدمتَ بضع خطوات الى أمام تجد شارع كروليبارب المشؤوم حيث طعن أولباش بخنجره الفتاةَ الايفرّية المعّازة ، تحت قصف الرعد ، على طريقة المآسي المسرحية . واذا تقدمتَ ، كرة ثانية ، بضع خطوات ، انتهيت الى دردارات باب « سان جاك » البغيضة المقطوعة الرؤوس ، تلك الوسيلة التي اصطنعها محبو البشر لاخفاء المقصلة ، الى ساحة الاعدام تلك الدنيئة المخزية التي اقامها مجتمع دكاكينيّ مدينيّ موسر يُجفل من عقوبة الموت ، ومع ذلك فهو لا يجرؤ على ان يلغيها في جلال ، او يحتفظ بها في سلطان .

ومنذ سبع وثلاثين سنة ، وباستثناء « ساحة سان جاك » تلك ، التي بدت وكأنها وازحة تحت وطأة قضاء سبْقيّ محتوم والتي كانت مروّعة دائماً ، كانت النقطة الاكثر عبوساً في هذا الشارع العابس هي في اغلب الظن تلك البقعة التي نهض فيها بناء ٥٠ - ٥٢ العتيق ، والتي لا تزال منفّرة الى اليوم .

ولم تشرع البيوت المدينية تُطلع رؤوسها هناك إلا بعد خمس وعشرين سنة . فقد كانت المحلة مقيتة . فبالاضافة الى الافكار الكئيبة التي تستبد بك هناك ، كنت تستشعر انك بين « لا ساليبتريير » * البادية قبّته لناظريك ، وبيسيتر ** القريب بابها اليك - يعني بين جنون المرأة وجنون

---

* la Salpêtrière مأوى للنسوة العجائز في باريس ، وكانت تعالج فيه ايضاً المعتوهات والمصابات بالهستيريا .

** Bicêtre قرية فرنسية فيها مأوى شهير للعجائز والمجانين .

الرجل . وعلى مدى البصر لم يكن ثمة ما يُرى غير المسالخ ، وسور المدينة ، وقليل من واجهات المصانع الشبيهة بالثكنات او الاديرة . ففي كل مكان اكواخ واكداس من حطام الجبس ، وجدران قديمة سوداء كثوب حداد الارملة ، وجدران جديدة بيضاء كالأكفان . وفي كل ناحية صفوف اشجار متوازية ، وابنية ناهضة على نحو مستقيم : ابنية منخفضة مسطحة ، وخطوط طويلة باردة ، وتلك الكآبة الجِدادية التي توحيها الزوايا القائمة . لا تفاوت في صفحة الارض ؛ لا شذوذ في الفنّ المعماري ؛ لا انحراف او التواء . وكان ذلك في مجموعه شيئاً مثلوجاً نظامياً بشعاً . وليس من شيء يقبض الصدر كالتناظر symétrie فالتناظر هو السأم ، والسأم هو روح الاسى والكآبة . ان اليأس يتثاءب . وفي استطاعتنا ان نتخيل شيئاً أفظع من جهنم التي نُسام فيها العذاب ، هي جهنم التي نصاب فيها بالسأم . ولو قد كان ثمة مثل جهنم هذه ، اذن لكان هذا الجزء من جادة المستشفى جديراً بان يكون هو المدخل اليها .

وحين يهبط الليل ويُحتضر النهار ، وبخاصة في الشتاء ، في تلك اللحظة التي تجرّد فيها ريح المساء شجرات الدردار من اوراقها الناصلة الذاوية ، حين تكون الظلمة حالكة تعوزها النجوم او حين يُحدث القمر والريح صدوعاً في السحب ، تصبح هذه الجادة ، فجأةً ، مروعة . كانت الخطوط المستقيمة تغوص وتختفي في الظلام مثل فِلَذ اللانهاية . فلا يتمالك عابر السبيل من ان يفكر في تقاليد البقعة الدامية التي لا تحصى . فقـــد كان في وحشة هذه المنطقة حيث اقتُرفت جمهرة كبيرة من الجرائم ، شيء مخيف . ان المرء ليخيل اليه ان قلبه يحدثه بان في هذه الظلمات أشراكاً ، واذا بجميع الاشكال المختلطة في العتمة تبدو مريبة ، واذا بالتجاويف الطويلة المربّعة التي يلمحها بين كل شجرة وشجرة ، تبدو كالقبور . في النهار كانت تلك البقعة بشعة ، وفي المساء كانت كئيبة ، وفي الليل كانت مشؤومة .

وفي الصيف ، عند الغسق ، كان المرء يرى هنـــا وهناك بعض

النسوة العجائز الجالسات ، تحت شجر الدردار ، عـــلى مقاعد جعلتها الامطار شبه عفنة . كانت هاتيك العجائز الطيبات مدمنات للشحاذة .

وعلى الجملة ، فان هذا الحي الذي بدا شيئاً زال زمانه اكثر مما بدا شيئاً عتيقاً ، أخذ منذ ذلك الحين يتخذ هيئة اخرى . لقد أمسى كل من يرغب في رؤيته ، ابتداءً من تلك الفترة ، مضطراً الى الاسراع . ففي كل يوم كان يزول جزء من اجزاء ذلك المجموع . فالآن ، ومنذ عشرين سنة خلت ، كانت نهاية خط اورليان الحديدي هناك ، خارج الضاحية القديمة تماماً ، فهي تبقيها على قيد الحركة . فحيثما تجد في ضواحي عاصمة من العواصم مستودعاً من مستودعات السكة الحديدية ، فاعلم ان ثمة قرية تموت ، ومدينة تولد . لكأنما حول هذه المراكز الكبرى لنشاط الامم ، وحول دمدمة هذه الماكينات الجبارة ، وحول خيول الحضارة العملاقة هذه التي تأكل الفحم وتقيء النار ، ترتجف الارض الملأى بجراثيم الحياة ، وتفتح فمها لتبتلع منازل الناس القديمة وتُطلع المنازل الجديدة . إن المنازل القديمة لتنهار ، وإن المنازل الجديدة لتنبثق .

ومنذ أن غزا مستودع سكة حديد اورليان اراضي « لا سالبيتربيير » والشوارعُ القديمة الضيقة المجاورة لخنادق « سان فيكتور » و « حديقة النباتات » ترتجف ، وقد اخذت تجتازها ثلاث مرات او اربع مرات يومياً ، وفي عنف ، سيولٌ من عربات المسافرين ، وعجلات الكراء ، والمركبات العامة التي تردّ البيوت الى الوراء - خلال فترة من الزمان - ذات اليمين وذات الشمال . ذلك بان ثمـــة أشياء تتراءى غريبـة في الآذان ، ومع ذلك فهي صحيحة مئة بالمئة . وكما ان مـــن الصواب القـــول إن الشمس تعمل عـــلى إنماء واجهات البيوت المتجهـــة نحو الجنـوب في المدن الكبرى ، فكذلـــك لا يُنكر ان مرور العربات الموصول يزيد في عرض الشوارع إن أعراض حياة جديدة لواضحةٌ للعيان . ففي ذلـــك الحي البلدي القديم ، وفي زواياه الاشد

إيحاشاً ، بدأ بلاط الشوارع يبرز ، واخذت الارصفة تنبثق وتمتدّ الى مسافات أطول فأطول ، حتى في تلك المواطن التي ما تزال خلواً من عابري السبيل . وذات صباح ــ ذات صباح تاريخيّ في تموز سنة ١٨٤٥ ــ شوهدت قدور سوداء ملأى بالزفت تطلق الدخان هناك . وفي ذلك النهار كان في ميسور المرء ان يقول ان الحضارة وصلت الى شارع الـ « اورسين »، وان باريس قد دخلت ضاحية « سان مارسو » .

٢
عشّ لبوم ودُخَّلة *

أمام بيت غوربو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير ، المكان الاشدّ انعزالاً لكي يبني عشه .

وبحث في صدرته ، واخرج منها ضرباً من مفتاح تعنو له الاقفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم أعاد اغلاق الباب في عناية ، ورقيَ السلم وهو لا يزال حاملاً كوزيت .

وعند أعلى السلم اخرج من جيبه مفتاحاً آخر فتح بـه باباً ثانياً . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلاقها في الحال ضرباً من العلية ، فسيحةً بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشيّة ممددة على الارض ، وطاولة ، وبضعة كراسيّ . وكان في احدى الزوايا موقد مُشعل تبدو جمراته للعيان .

وأضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحقيرة اضاءة باهتةً . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي سُيور . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة من غير ان يوقظها .

---

* الدخَّل والدخَّلة طائر صغير مفرد .

وقدح بالزند ناراً ، وأضاء شمعة ؛ وكان ذلك كله مُعداً على الطاولة مقدماً . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ يحدّق الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليها ان تبلغ حد الخبل! . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد — بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة القصوى او الضعف الاقصى — من غير ان تدري مع مَنْ كانت ، وواصلت نومها من غير ان تعرف اين كانت .

وانحنى جان فالجان وقبّل يد الطفلة .

ولتسعة اشهر خلت قبّل يد الام التي كانت ، ايضاً ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد .

وملأ فؤاده ذلك الاحساس عينه ، ذلك الاحساس الفاجع ، التقيّ ، الممض .

وركع قرب سرير كوزيت .

كانت الشمس قد اشرقت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبَر نافذة العليّة شعاع شاحب من أشعة شمس كانون الاول ورسم على السقف خيوطاً طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجّت كارّة قالع حجارة ، مُثقلة بأحمالها ، فوق حصباء الجادة وهزّت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من آساسه الى قمة رأسه .

وأفاقت كوزيت مجفلةً ، وصاحت :

— « نعم ، مدام ! ها قد جئت ! ها قد جئت ! »

ووثبت من السرير ، وأجفانها ما تزال نصف مغمضة بثقل النوم ، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .

وقالت :

— « آه ، يا الـهي ، يا الـهي ، أين مكنستي ? »

وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مداهما ، فرأت وجه جان فالجان

الباسم .

وقالت الطفلة :

— « اوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »

ان الاطفال ليتقبلون البهجة والسعادة في سرعة وفي ألفة لانهم هم انفسهم ، بالفطرة ، عنوان السعادة والبهجة .

وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليها في الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مئة من الاسئلة : اين هي ؟ وباريس ، أهي بلدة كبيرة ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة جداً ؟ هل سترجع كرة اخرى ؟ الخ . الخ . وفجأة صاحت :

— « ما اجمل هذا المكان ! »

كان كوخاً مخيفاً ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .

واردفت آخر الامر :

— « أليس من واجبي ان اكنس ؟ »

فقال جان فالجان :

— « إلعبي ! »

وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تتعب نفسها بمحاولة فهم شيء ، نعِمت كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير ، بين هذه الدمية ، وهذا الرجل الطيب .

٣

بؤسان يمتزجان فيولدان سعادة

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو على مقربة من كوزيت ايضاً . كان ينتظر هناك ، من غير حراك ، ليرى اليها

وهي تستيقظ .

كان شيء جديد يُداخل روحه .

إن جان فالجان لم يحبّ شيئاً في يوم من الايام . لقد سلخ خمساً وعشرين سنة وهو وحيد في هذا العالم . إنه لم يكن ، ذات يوم ، أباً أو عاشقاً ، او زوجاً ، أو صديقاً . وفي سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان نكداً ، كالح الوجه ، عفيفاً ، جاهلا ، نفوراً . كان فؤاد هـذا العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقـة مليئاً بالبتولات . إن أخته وأطفال اخته لم يخلفوا في نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت آخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم ، حتى اذا لم يجدهم نسيهم . فالطبيعة البشرية هكذا خلقت . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، إن عرف شيئاً من ذلك ، فقد سقطت في هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين أخذها ، حين ذهب بها وانقذها ، استشعر ان فؤاده قد عرته هزّة . لقـد استيقظ كل ما فيـه من مشاعر وانفعالات واندفع في عنف نحو هذه الطفلة . كان يقترب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر أشواقاً باطنية مثل أمّ من الامهات ، من غير أن يدري ما هي . ذلك بأنها جدّ مبهمة وجدّ عذبة هذه العاطفةُ العظيمة الغريبة التي تعمرُ القلب في حبه الاول .

يا له من قلب شقيّ عجوز لا يزال غضاً طرياً !

ولكن ، لما كان هو في الخامسة والخمسين وكانت كوزيت في الثامنة ، فان كل ما كان يمكن أن يستشعره من الحب في حياته كلها ذاب في ضرب من الاشعاع يجلّ عن الوصف .

كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبـدّت له . كان الاسقف قد أطلع في افقه فجر الفضيلة ، ثم جاءت كوزيت فأطلعت في افقه ذاك فجر الحب .

وكرّت الايام القليلة الاولى في غمرة من هذا الانشداه .

وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصاً آخر .
يا لها من كائنة صغيرة بائسة ! كانت صغيرة جداً حين فارقتها أمها فهي لا تتذكرها البتة . وكما يفعل جميع الاطفال ، وهم في ذلك أشبه بطلائع الكرمة الغضة الــتي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت أن تحبّ . ولكنها ما كانت لتقدر على النجاح . لقد صدّها الناس جميعاً : تيناردييه وزوجته ؛ واولادهما ؛ والأولاد الآخرون . وكانت قد أحبّت الكلب ولكنه مات . وبعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء مـا ، ان تكون له صلة بها . وأمرٌ فاجع ينبغي ان نقوله - وقد لمّحنا اليه من قبل - ان فؤادها كان بارداً حتى في الثامنة . ولم تكن هذه غلطتها. إن ملكة الحب ما كانت هي الشيء الذي يعوزها . واأسفاه ! انما كانت تعوزها امكانية الحب . وهكذا فمنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها مـن فكر وشعور يحبّ هذا الرجل الطيب . لقد احسّت اليوم بمـا لم تحس به قط من قبل - استشعرت أنها تتفتح وتنمو .

لقد كفّ الرجل الطيّب عن ان يكون في عينيها عجوزاً أو فقيراً . لقد وجدت جان فالجان جميلاً ، تماماً كما قد وجدت الكوخ جميلاً .

تلك هي آثار الفجر ، والطفولة ، والصبا ، والبهجة . وإن لجدّة الارض والحيـــاة صلةً بذلك . فليس شيء اشد سحراً من الأصباغ الزاهية التي تسفحها السعادة على العليّة . لقد كان لنا جميعاً ، في ماضي ايامنا ، مسكن حقير خرافيّ .

لقد اقامت الطبيعة هوةً عريضة - فترة خمسين عاماً - ما بين جان فالجان وكوزيت . ولكن هذه الهوة ردمها القدر . لقد جمع القَدَر ، فُجاءةً ، وقرن بقوته التي لا تقاوم ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتي الجذور ، المتباينتـين في السن ، المتشابهتين في الأسى . والحـــق ان إحداها تمّمت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن أب ، كما كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان في اجتماعهما مـا يفيد

معنى عثور كلٌ منهما على ضالته . وفي تلك اللحظة العجيبة التي تماسّت فيها أيديهما التحم احدهما بالآخر . وحين تبادلت روحاهما النظر ، ادركا ان كلًا منهما في حاجة الى رفيقه ، وتعانقا عناقاً حاراً .

ولو أردنا ان نحمّل الكلمات معناها الاشدّ شمولاً وإطلاقاً اذن لكان في ميسورنا ان نقول ان جان فالجان – وقد فُصِل عن كل شيء بجدران القبر كما فصلت رفيقته الصغيرة – كان الرجل الأرمل ، وان كوزيت كانت الفتاة اليتيمة . وهذا الوضع انتهى بجان فالجان الى ان يصبح ، بمعنىً سماوي ، أبا كوزيت .

والواقع ان الانطباعة الخفيّة التي احدثتها في نفس كوزيت ، وسط غابة « شيل » ، يدُ جان فالجان تلك التي قبضت على يدها في الظلام لم تكن وهماً ولكن حقيقة . لقد كان دخول هذا الرجل الى قدَرَ تلك الطفلة أشبه شيء بتدخل الله .

وفي غضون ذلك ، كان جان فالجان قد أحسن اختيار مخبأه . كان هناك في حالٍ من الأمن بدت كاملةً غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحجيرة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جارٍ يُخشى أذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠-٥٢ أشبه شيء بملحقٍ خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول في السباخ ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولاً عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف ، والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للمسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي ، كما قلنا ، على عدة غرف وبضع عليّات كانت واحدةٌ منها فقط آهلة بامرأة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبّرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة .

كانت هذه المرأة العجوز ، المشرّفة بلقب **« المستأجرة الرئيسية »** ،

والمكلفة في الواقع بمهامّ الحارسة او البوابة ، هي التي أجّرته هــذا المأوى يومَ عيد الميلاد . وكان قد أوهمها انه ثري أفقرته « سندات اسبانيا » ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيدته . وكان قد دفع اليها اجر الغرفة عن ستة أشهر ، مقدماً ، وكاف العجوز في ان تؤثث الغرفة والحجيرة على النحو الذي وصفنا . وكانت هذه المرأة العجوز هي التي أضرمت النار في الموقد ، وهيأت لهما كل شيء ، ليلة وصولهما .

وتصرّمت أسابيع . وعاش هذان المخلوقان عيشةً سعيدة في ذلك المأوى الحقير .

ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضحك ، وتهذر ، وتغني . إن للاطفال اغانيهم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق في بعض الاحيان ان يمسك جان فالجان بيدها الصغيرة الحمراء ، التي شققها بردُ الشتاء ، ويقبّلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعوّدة ان تُضرَب ، لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتــد الى الوراء في حياء .

وفي بعض الاحيان كان يغلب عليها الجدّ ، وتتأمل فستانهـا الصغير الاسود . إن كوزيت ما عادت ترتدي اسمالاً بالية ؛ إنهـــا ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلمها القراءة . وأحياناً ، كان يتذكر – فيما هو يعلم الطفلة كيف تتهجى – أنه انما تعلم القراءة ، في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها في عمل الشر . وها هو هدفه ذاك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة . وعندئذ كان العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يضحك ضحكة الملائكة الراشحة بالتأمل .

لقد استشعر أن في ذلك تعمداً من قوة علوية ، استشعر انهــا ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق في تفكيره الحالم . إن للافكار الخيرة مهاويها كالافكار الشريرة سواء بسواء .

وكان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريباً . وبعد ذلك راح يحدثها عن امها ويعلمها كيف تصلي .

وكانت تناديه : **أبي** ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلخ ساعات وهو يتأملها تُلبس دميتها ثيابها ثم تنزعها عنها ، ويستمع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة في عينيه ملأى بالمتعة ، وبدا الناس خيّرين منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه ، على احد ما ، او ليحمله تبعة ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الآن الى ان لا يعمّر طويلاً ، بعد أن أحبته هذه الطفلة . لقد تطلّع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن . والحق ان خير الناس ليسوا منزهين عن بعض الافكار الانانية . فقد كان يخطر له ، احياناً ، وبضرب من الابتهاج ، انها لن تكون مليحة الوجه بحال .

وليس هذا غير رأي شخصي . ولكن اذا اردنا ان نعبر عن فكرتنا كاملة ، في النقطة التي بلغها جان فالجان عندما شرع يحب كوزيت ، قلنا ان من غير الثابت عندنا أنه ما كان في حاجة الى هذا الزاد الجديد من الطيبة لكي يتمكن من مواصلة السير في الطريق القويم . كان قد رأى سوء خلق الناس وشقاء المجتمع في مظاهر جديدة مظاهر غير كاملة ، ولا تُظهر مع الأسف غير جانب واحد من الحقيقة — القدر المقسوم للمرأة ملخّصاً في فانتين ، وسلطة الدولة متمثلةً في جافير . لقد أعيد الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، هذه المرة ، لأنه عمل صالحاً . وكانت امواج جديدة من المرارة قد اجتاحته ؛ وعصف به الاشمئزاز والسأم . وكادت ذكرى الاسقف نفسها ان يعتريها الكسوف لتعاود الظهور بعد ذلك وضاءة مظفّرة من غير شك ؛ ولكن هذه الذكرى المباركة اصابها الوهن آخر الأمر . ومن يستطيع ان يثبت ان جان فالجان لم يكن على وشك اليأس والتردّي في هاوية الشر ؟ وهنا أقبل الحبّ فاذا به يغدو قوياً من جديد . واأسفاه ! إنه لم يكن

اقلّ ضعفاً من كوزيت . لقد اسبغ حمايته عليها ، فمنحته هي القوة . بفضله امسى في ميسورها ان تسير في طريق الحياة ؛ وبفضلها أمسى في ميسوره ان يلتزم الفضيلة . كان هو سِناد هذه الطفلة ، وكانت هذه الطفلة هي نقطة ارتكازه . إيه ايهــــا اللغز الالهي الذي لا يسبر غوره ، لغز توازن القدر !

٤
ملاحظات المستأجرة الرئيسية

كان جان فالجان من الحكمة بحيث حظّر على نفسه مغادرة الغرفة في ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للنزهة ، حوالى الغسق ، فيتمشى ساعةً او ساعتين ، وحده في بعض الاحيان ، ومع كوزيت في كثير من الاحيان ، متخيّراً ازقة الجادة الاكثر انعزالاً ، او قاصـــداً الى الكنائس عندما يهبط الليل . وكان مولعاً بالذهاب الى كنيسة « سان ميدار » ، وهي اقرب الكنائس الى مثـــواه . وكانت كوزيت ، تبقى ، اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المرأة العجوز ؛ ولكن الطفلة كانت تجد اعظم البهجة في الذهاب مع الرجـــل الطيب . كانت تؤثر أن تقضي ساعة معه على أن تجلس وجهاً لوجه مـع كاترين نفسها . وكان يمشي ممسكاً بيدها ، ويحدّثها أحاديث حلوة .

واتفق ان أصبحت كوزيت لعوباً الى حدّ بعيد .

وكانت المرأة العجوز تدبّر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ؛ وكانت هي التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .

لقد عاشا عيشة مقتصدة . كانت النار هزيلةً دائماً في موقدهـــا . ولكن جان فالجان – شأنَ الناس الذين تكتنفهم ظروف حرجة – لم

يُحدث أيّ تغيير في اثاث الغرفة ، بل أبقاه كما كان في اليوم الأول . كل ما في الامر أنه أوعز بأن يوضع بابٌ خشبيٌّ محلّ باب حجيرة كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، أبداً ، سترته الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ، وقبعته العتيقة . وفي الشارع كان الناس يحسبونه شحاذاً . وكان يتفق ، في بعض الاحيان ، ان تستدير النسوة الصالحات ، ويقدّمن اليه فلساً .

وكان جان فالجان يأخذ الفلس وينحني في اتضاع . وكان يتفق في بعض الاحيان ايضاً ، ان يلتقي بائساً يلتمس صدقة ، فلا يكون منه إلا ان يلتفت الى وراء ليتأكد من ان احداً لا يراه ، ويقترب من المسكين خلسةً ، ويضع في يده قطعة نقدية ، هي غالباً قطعة فضية ، ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك مساوئه . لقد بدأ الناس يعرفونه ، في الحي ، باسم **الشحاذ الذي يوزع الصدقات** .

وكانت « **المستأجرة الرئيسية** » ـ وهي مخلوقة مقطّبة الوجه ، معجونة بالملاحظة الدقيقة لكل ما يتصل بالجيران ، على طريقة اهل الضواحي ـ تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتيابه . كانت صماء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذارة . وكان قد بقي لها من ماضيها سنّان ، الاولى في الفكّ الاعلى ، والثانية في الفك الاسفل ، وكانت لا تفتأ تقرع هاتين السنين احداهما بالأخرى . وكانت قد وجهت بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت ـ لجهلها كل شيء ـ غير قادرة على أن تقول اكثر من أنها أقبلت من مونفيرماي . وذات صباح رأت هذه الجاسوسة جان فالجان يمضي ، وعلى وجهه سيما بدت غريبةً في نظر المرأة الثرثارة ، الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمثل خطى هرّة عجوز ، ووفّقت الى ان تراه ، من غير ان يراها هو ، من خلال خصاص الباب المقابل مباشرةً . وكان جان فالجان قد ولّى ظهرَهُ ذلك البابَ ، زيادةً في الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به

يبحث في جيبه ، ويخرج منها مِثبرة ، ومقصاً ، وخيطاً ، ثم يعمد الى فتق بطانة جانب من جوانب سترتـــه الطويلة ويخرج من تحتها قصاصة ورق ضاربة الى الصفرة ما لبث ان نشرها . ولاحظت العجوز ، في ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقـــة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هـــذه الفئة ، التي وقعت عليها عيناها منذ ان أبصرت النور . وفرّت والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقة الألف فرنك هذه ، مضيفاً إنها دخلهُ نصف السنويّ ، الذي تلقّاه البارحة . وفي ما بينها وبين نفسها ، تساءلت العجوز : « أين ؟ » إنه لم يغادر الغرفة إلا في الساعة السادسة مساءً ، وخزينة الدولة لا تظلّ مفتوحة - من غير شك - حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، وأطلقت العنان لظنونها وأحداسها . وادّت ورقة الالف فرنك هذه ، وقد عُلّق عليها وضوعفت ، الى نشوء جمهرة من الأحاديث اللاهثة بين عجائز شارع « فينيْ سان مارسيل » الثرثارات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جـــان فالجان ، ينشر الخشب في الرواق ، غير مُرتدٍ سترته الطويلة . وكانت المرأة العجوز في غرفته تنظفها وترتبها . كانت وحدها . ذلك أن كوزيت كانت تحدق ، في إعجاب ، الى الخشب المنشور . وبَصُرَت العجوز بالسترة المعلقة بمسمار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيطت من جديد . وتلمستها في عنـــاية ، واعتقدت انها ستجد في ثنياتها وتحشياتها اكداساً من الورق . اوراقاً مالية اخرى من ذوات الالف فرنك من غير شك !

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبـــه كانت حافلةً بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الأبر والمقص والخيوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت بالاضافة الى ذلك عـــلى حافظة دراهم ضخمة ، ومدية كبيرة جداً ، وعلى عدة لِمَم من الشعر المستعار

ـ وهي ظاهرة تثير الريبة ـ ذات ألوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة يحتوي على شيء يُستعمل به ضدّ حادث مفاجيء .

وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

٥

قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات

تقع على الارض فتحدث ضجة

وكان قرب سان ميدار شحاذ يجلس القرفصاء فوق حافة بئر عمومية مسدودة . وكان جان فالجان كثيراً ما يتصدق على هذا الرجل . إنه ما كان ليمرّ به الا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشحاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادماً عجوزاً في كنيسة من كنائس العوامّ ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهمهم بصلواته وأدعيته على نحو موصول .

وذات مساء ، فيما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق ، ولم تكن كوزيت معه ، لمح الشحاذَ جالساً في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذ لحظة . وبدا الرجل ، وفقاً لعادته وكأنه يصلي ؛ وكان منحنياً انحناءً كاملاً ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشحاذ عينيه ، وحدّق الى جان فالجان ، ثم طأطأ رأسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى له انه لمحَ اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديعَ الفاغرَ الفم ، ولكنْ وجهاً

فظيعاً يعرفه جيداً . وغلب عليه مثلُ ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه ، فُجاءةً ، وتحت جنح الظلام ، وجهاً لوجه أمام غر من الاغمار . وارتدّ الى الوراء ، مذعوراً متحجراً ، غير واجد الجرأة لا على أن يتنفس ولا على أن يتكلم ، لا على ان يبقى ولا على أن يفرّ ، مسدداً نظره الى الشحاذ الذي عاود خفضَ رأسه المغطى بخرقة ممزقة ، والذي بدا وكأنه ما عاد يحسّ بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما - لعلها غريزة حفظ الذات ، الخفيّة - بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، وأسماله البالية ، وهيئته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطباً نفسه : « تباً لي ! اني معتوه ! أنا احلم ! مستحيل ! » وانقلب الى غرفته قلقاً اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بشقّ النفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بأن الوجه الذي ظن أنه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم - وهو يفكر في المسألة - لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يُكرهه على ان يرفع رأسه كرة أخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه . وقال جان فالجان في عزم : « مساء الخير ، ايها الرجل الطيب ! » واعطاه فلساً . فرفع الشحاذ رأسه واجاب في صوت منتحب : « شكراً ، يا سيدي الطيب ، شكراً ! » انه لم يكن ، في الحق ، غير خادم الكنيسة العجوز .

واطمأنت نفس جان فالجان اطمئناناً كاملاً . بل لقد شرع يضحك . وقال في ما بينه وبين نفسه : « يا الشيطان ! كيف كاد يخيل اليّ اني رأيت جافير ? آه ، يبدو ان بصري قد بدأ يضعف حقاً ! » ولم يعاود التفكير في ذلك .

وبعد بضعة أيام ، ولعلّ الساعة كانت الثامنة مساء ، كان جان

فالجان في غرفته يعلم كوزيت التهجية ، فتُردّد الاحرف من بعده في صوت مرتفع ، عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد. وبدا ذلك غريباً في نظره . ذلك ان المرأة العجوز ، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة ، عند هبوط العتمة ، لكي توفر الشمع . واومأ جان فالجان الى كوزيت بان تلزم الصمت . لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم . لعلها المرأة العجوز وقد استشعرت مرضاً فقصدت الى الصيدلي ثم عادت . وأصغى جان فالجان . كان وقع القدمين ثقيلاً ، وكان يبدو وكأنه وقع قدمي رجل . ولكن المرأة العجوز كانت تنتعل حذاء غليظاً ، وليس ثمة ما يشبه وطء أقدام الرجال أكثر من وطء اقدام النسوة العجائز . ومع ذلك ، فقد أطفأ جان فالجان شمعته .

وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها ، قائلاً لها في صـــوت كالهمس :

— « نامي في سكون كثير ! »

وفيما هو يقبّلها من جبينها انقطع وقعُ القدمين . وظل جان فالجان صامتاً ، جامداً ، مديراً ظهره الى الباب ، جالساً على كرسيه الذي لم يتزحزح عنه قط ، حابساً أنفاسه في الظلام . حتى اذا انقضت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيئاً ما ، استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نوراً ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ؛ وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضع دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين ، مما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه .

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه ، ولكنه لم

يستطع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان يُهوِّم من الأعياء أفاق كرة اخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب ، وكان كبيراً ، رجاةَ ان يلمح الشخص ، كائناً من كان ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في موهن من الليل والذي استرق السمع لدى بابه . كان رجلاً ، في الواقع ، ذلك الذي مرّ بغرفة جان فالجان ، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة . وكان الرواق لا يزال مظلماً الى حدّ لم يمكّنه من ان يتبين وجهــه ؛ ولكن حين وصل الرجل الى السلم انعكس عليه من الخارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظللة سوداء ، ورأى جان فالجان ظهره رؤية كاملة . كان الرجل طويل القامة ، يرتدي ريدنغوتاً طويلاً ، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة . كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في ميسور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة اخرى من خلال نافذته المطلة على الجــادة ، ولكن ذلك كان يقتضيه ان يفتح هـذه النافذة ، وهذا ما لم يجرؤ عليه .

كان واضحاً ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟

وعند الساعة السابعة صباحاً ، حين اقبلت المرأة العجــوز لتنظف الغرفة ، رمقها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجّه اليها ايما سؤال . وبدت المرأة الطيبة في حال طبيعية .

وفيما هي تكنس ، قالت :

— « لعل سيدي سمع شخصاً ما ، يدخل البيت الليلةَ البارحة ؟ »

في مثل تلك الـنّ ، وعلى تلك الجادة كانت الثامنةُ مساء هي الليل الاشدّ حلكةً .

واجابها في جَرْس ليس اكثر منه طبَعية :

– « بالمناسبة ، هذا صحيح . من كان ذالك الشخص ؟ »

فقالت المرأة العجوز :

– « إنه مستأجر جديد وَفدَ على المنزل . »

– « وما اسمه ؟ »

– « لم اعد اذكر ذلك . ديون أو دومون . شيء من هـذا القبيل . »

– « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »

وتأملته العجوز ، لحظةً ، بعينيها النمسيتين * الصغيرتين ، وأجابت :

– « إنه رجل يعيش على دخلهِ ، مثلك انت . »

وجائز ان لا تكون العجوز قد رَمَتْ الى شيء ، ولكن جان فالجان اعتقد أنها استهدفت بملاحظتها تلك أمراً ما .

وحين مضت لسبيلها نضد مئة من الفرنكات ، كانت في احد الادراج ، على شكل إصبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الحذر البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يُسْمَع رنين الفضة ، فأن قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضتـه ، وكرّت ضاجةً فوق ارض الغرفة .

وعند الغسق ، هبط السلم ، وأجال طرفه في طول الجادة وعرضها . ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورةً هجراً كامـلاً . صحيح ان من الجائز ان يكون رجلٌ ما ، مختبئاً خلف شجرة .

وارتقى السلم من جديد .

وقال لكوزيت :

– « تعالي ! »

وأمسك بيدها ، وغادرا المكان .

---

* الشبيهتين بعيني النمس .

الكتاب الخامس

المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

١

خطوط الستراتيجية المتعرجة

لكي نفهم الصفحات التي سوف تلي مباشرة ، وصفحات اخرى سنقع عليها في ما بعد ، يتحتم علينا ههنا ان ننص على هذه الملاحظة :

انقضت سنوات طوال ومؤلف هذا الكتاب – الذي يجد نفسه ، في أسف ، مضطراً الى التحدث عن نفسه – غائب عن باريس . ولقد تغيّرت باريس ، منذ ذلك الحين ، تغيراً كبيراً . إن مدينة جديدة قد نشأت ، هي عنده ، بمعنى من المعاني ، مجهولة . وهو في غير حاجة الى القول انه يحب باريس ؛ فباريس هي « مسقط رأس »

روحه . ومن طريق الهدم وإعادة البناء أصبحت باريسُ شبابهِ - باريس التي يحتفظ بها ، بخشوع ، في ذاكرته - باريساً قديمة ترقى الى عهد ماضٍ . فلندعهُ يتحدث عن باريس تلك وكأنها لا تزال قائمة . فقد يقود المؤلف قراءه الى بقعة ما ، قائلاً : « في الشارع الفلاني كان البيت الفلاني » ثم يتفق ان لا يكون قد بقيَ ، بعدُ ، لا شارع ولا بيت . ولسوف يتحرى القراء الحقيقة ، اذا أحبوا ان يتجشموا عناء ذلك . اما هو فيجهل باريس الجديدة ، وهو يكتب وباريس القديمة ماثلة نصب عينيه في صورة خادعة أثيرة لديه . إن ما يوقع في نفسه شعوراً عذباً ان يتخيل أنه لا يزال ثمة ، وراءه ، شيء مما رآه حين كان في وطنه ، وان كل شيء لم يَزُلْ ولم يتلاش . ذلك بأن المرء ، حين ينعم بالعيش في ارض الوطن ، يتوهم ان هذه الشوارع لا تعنيه في قليل او كثير ، وان هذه النوافذ ، وهذه السقوف ، وهذه الابواب ، ليست عنده بشيء ، وان هذه الجدران اجنبية بالنسبة اليه ؛ وان هذه الاشجار لا يميزها شيء عن الاشجار الاخرى ، وان هذه البيوت التي لا يدخلها البتة لا غَناء فيها ؛ وان حصباء الطريق التي يمشي عليها ليست غير حجارة . ولكنْ في ما بعد ، حين يُحرم المرء نعمة العيش في الوطن ، يجد ان هذه الشوارع عزيزة جداً ؛ وان هذه السقوف ، وهذه النوافذ ، وهذه الابواب قد ضاعت من يديه ، وان هذه الجدران ضرورية له ، وان هذه الاشجار غالية على فؤاده ، وان هذه البيوت التي لم يدخلها قط كان يدخلها كل يوم ، وانه قد خلّف شيئاً من احشائه ، ومن دمه ، ومن قلبه ، فوق حصباء الطريق تلك . عندئذ يجد المرء ان جميع تلك المواطن التي لم يعد يراها ، والتي قد لا يراها كرة اخرى ابداً ، والتي احتفظ بصورتها في مخيّلته ، تكتسب فتنةً موجعة ، وتعاوده بمثل كآبة الشبح ، وتجعل الارضَ المقدسة تتراءى لناظريه ، فهي اذا جاز التعبير فرنسة نفسها .

ويجد أنه يحبها ، ويستحضرها كما هي ، كما كانت ، ويتشبث بها ، غير راغب في ان يغيّر شيئاً ، لأن الانسان يتعلق بصورة الوطن كما يتعلق بوجه امه .

فليُسمح لنا اذن ان نتحدث عن الماضي في الحاضر . والآن ، نلتمس من القارىء ان يأخذ علماً بهذا ، ونستأنف الحديث .

كان جان فالجان قد غادر الجادة في الحال ، وشرع يجوب الشوارع في حذر ، مكسّراً خطوط سيره ما وسعه تكسيرها ، مرتداً فجأة على آثاره لكي يستيقن انّ احداً لا يتعقبه .

وهذه المناورة من شيمة الأيّل المطارَد . وفي البقاع التي تخلّف القدم أثراً فيها تتمتع تلك المناورة ــ الى جانب حسناتها الاخرى ــ بالقدرة على خداع القانصين والكلاب من طريق الآثار المضادّة . وذلك ما يُدعى ، في علم القنص بالكلاب ، « عودة الأيّل الزائفة الى كناسه » .

كان القمر بدراً . ولم يكن جان فالجان مغضباً لذلك . فقد فصّل القمر ، وهو ما يزال جدّ قريب من الافق ، مواشير ضخمة من الضوء والظلّ في الشوارع . وكان في ميسور جان فالجان ان ينساب في محاذاة المنازل والجدران ، في الجانب القاتم ، وان يراقب الجانب المضيء . ولعله لم يُدرك إدراكاً كافياً ان الجانب القاتم ، قد فاتَهُ . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغير المهجورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احداً لا يلحق به

ومشت كوزيت من غير ان تسأل أيما سؤال . كانت آلام السنوات الستّ الأولى من حياتها قد أدخلت شيئاً من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها . والى هذا ــ وهذه ملاحظة سوف نرجع اليها في اكثر من مناسبة ــ فقد ألِفَتْ ، من غير ان تعيَها وعياً كاملاً ، صِفات صديقها الطيب الفارقة وغرائب القَدَر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت

تستشعر الأمن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري ، اكثر من كوزيت ، الى اين كان يقصد . كان مفوّضاً أمره الى الله ، كما فوّضت هي أمرَها اليه . لقد بدا له أنه يمسك ، هو ايضاً ، بيدِ كائنٍ اكبر منه . لقد استشعر ان كائناً غير منظور ، يقوده . واخيراً ، فلم تكن عنده أيما فكرة محدّدة ، أو أيما خطة ، أو أيما مقصد . بل إنه لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ذلك الرجل هو جافير . والى هذا ، فقد يكون هذا الرجل جافير ، من غير ان يعلم انه جان فالجان . ألم يكن متنكراً ؟ ألم يعتقد القوم أنه قد مات ؟ ومع ذلك ، فقد حدثت اشياء غريبة منذ بضعة ايام . إنه في غير ما حاجة الى مزيد من ذلك . لقد وطّن العزم على ان لا يدخل بيت غوربو كرةً اخرى . وكالحيوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يختبيء فيه ريثما يجد ثقباً يقيم فيه .

واجتاز جان فالجان متاهات عديدة متباينة في حي موفتار الذي كان قد أوى حتى في تلك اللحظة الى الرقاد ، وكأنه لا يزال يحيا في ظل نظام القرون الوسطى ، وتحت نير منع التجول ليلاً . لقد احدث مزاوجات مختلفة في استراتيجية حكيمة ما بين شارع سانسييه وشارع كوبو ، وشارع باتوار سان فيكتور وشارع بُوي ليرميت . ان ثمة بيوتاً في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل ايّاً منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقتفون اثره ، اتفاقاً ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الآن .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة عَبَرَ شارع بونتواز أمام مكتب مفوضية البوليس الذي يحتل المبنى رقم ١٤ . وبعدبضع لحظات دعته الغريزة التي تحدثنا عنها من قبل الى ان يلتفت الى الوراء . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح — بفضل مصباح المفوضية الذي نمّ عليهم —

ثلاثة رجال كانوا يتبعونه عن كثب يرون واحداً إثر واحد تحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجازَ المؤدي الى بيت المفوضية . ولقد بدا له الرجلُ السائر في الطليعة مريباً على نحو لا يحتمل الشك .

وقال لكوزيت :

— « تعالي ، يا بنيّتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدورةٍ ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موصداً بسبب من انتصاف الليل ، وأغذّ السير في شارع الـ « إيبيه دو بوا » وشارع الـ « آرباليت » ، وغاص في « شارع البريد » .

وكانت ثمة ساحةٌ ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث ينشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

(ولسنا في حاجة الى القول إن شارع « نوف سانت جانفييف » هو شارع قديم ، وان مركبة بريد واحدة ما كانت تجتاز ، مرةً كل عشر سنوات ، « شارع البريد » ! وكان شارع البريد هذا ، في القرن الثالث عشر ، آهلاً بالخزّافين ، واسمه الحقيقي هو شارع الخزف .)

وسفح القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدّراً ان في ميسوره ، اذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته ، أن يراهم على وجه التأكيد رؤية واضحةً وهم يجتازون هذه الرقعة المضاءة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق أو أقلّ . كانوا الآن أربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة سمراء ، ويعتمرون بقبعات مدوّرة ، ويحملون هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة

اكثر ترويعاً من سيرهم المشؤوم في الظلام . كان يخيّل للمرء أنهم اربعة اشباح تنكّرت بملابس المواطنين .

وكفوا عن السير في وسط الساحة وشكلوا حلقةً اشبه بحلقات الناس حين يتبادلون الرأي . كانت تبدو عليهم سيما التردد . واستدار ذلك الذي تراءى انه يقودهم ، واشار بيده اليمنى ، اشارة كلها عزم ، نحو الجهة التي كان جان فالجان فيها . وبدا واحد من الآخرين وكأنه يشير في شيء من العناد الى الجهة المعاكسة . ولحظةَ استدار قائدهم اضاء القمر وجهه إضاءةً تامة ، وتبيّن جان فالجان وجهَ جافير تبيّناً كاملاً.

٢

من حسن الطالع ان في ميسور العربات ان تجتاز جسر اوسترليتز

ونفِدَ الشك عند جان فالجان . ولكنه لم ينفد ، لحسن الحظ ، عند اولئك الرجال . وأفاد من تردّدهم . كان ذلك وقتاً يضاع بالنسبة اليهم ، ووقتاً يُكتسب بالنسبة اليه . وبارحَ المدخل الذي كان يختبيء فيه ، واغذّ السير في « شارع البريد » متجهاً نحو « حديقة النبات » . وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسببٍ من القمر .

وضاعفَ سرعته .

وفي بضع خطىً ، وصل الى معمل غوبليه الخزفي ، وكان على واجهته خطٌ قديم ، جعلته أشعة القمر مقروءاً في وضوح :

« هنا مصنع ابن غوبليه ؛
تعالوا واختاروا جراراً وأباريق ،
وأصصاً للزهور ، وانابيب ، وآجرّاً .
ولكلّ وافد يبيع القلب مربّعات من بلاط . »

وخلّف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عَيّن « سان فيكتور » ، ومضى في محاذاة « حديقة النبات » ، سالكاً الشوارع المنخفضة ، حتى انتهى الى رصيف النهر . وهناك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف مهجوراً ؛ وكانت الشوارع مهجورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس الصعداء .

وانتهى الى جسر اوسترليتز .

وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسماً من عابري ذلك الجسر .

وقدّم نفسه الى موظف المكوس ، في مكتبه ، ودفع اليه فلساً .

فقال الموظف :

— « ينبغي ان تدفع فلسين . انت تحمل طفلةً تستطيع ان تمشي . إدفع رسماً عن شخصين . »

ودفع ، وقد غاظه ان يلفت عبوره النظرَ . إن كل فرار يجب ان يكون انزلاقاً .

كانت كارّةٌ ضخمة تعبر الـ « سين » في تلك اللحظة عينها ، وكانت مثله متخذةً الضفةَ اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يُفيد منه جان فالجان . إن في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظلّ تلك الكارّة .

وحوالى منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خدرت رجلاها ، في أن تسير . فأنزلها الى الارض ، وأمسك بيدها .

واذ اجتاز الجسر لمح اكداساً من الخشب قائمةً امامه ، منحرفة قليلاً الى ناحية اليمين . فمضى في ذلك الاتجاه . وكان عليه لكي يبلغ ذلك المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة واسعة من الارض ، مكشوفة مضاءة.

ولم يتردد . كان واضحاً أن اولئك الذين تعقبوا خطواته قد أضلّوا السبيل. واعتقد جان فالجان انه امسى في نجوة من الخطر . هذا صحيح ، ولكن احداً لم يكن يتبعه .

وأطلّ على شارع صغير ، هو شارع « شومان فير سان انطوان » ، يمتدّ بين مستودعين للخشب مطوّقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقاً ، مظلماً وكأنه صنع خصيصاً من أجله . وقبل ان يدخله ، التفت الى وراء . ومن موقفه ذاك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترليتز بطوله .

وفي تلك اللحظة ، دخل الجسرَ اربعة أشباح .

وسرت في اوصال جـــان فالجان رعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتعقبها من جديد .

كان قد بقي عنده أملٌ واحد ، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لمّا يدخلوا الجسر ، ولم يلمحوه لحظةَ اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة ممسكاً بيد كوزيت .

في تلك الحال ، يكون في ميسوره — اذا ما انـــدفع في الشارع الصغير المنبسط أمامه ، واذا ما وفق الى بـــلوغ مستودعي الخشب ، والمستنقعات ، والحقول ، والارض الفضاء — ان ينجو بنفسه .

لقد بدا له ان في إمكانه ان يفوّض أمره الى هذا الشارع الصامت . فدخله .

٣
انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧

وبعد ان خطا نحواً من ثلاثمئة خطوة بلغ نقطة افترق فيها الشارع . لقد انشعب الى شارعين ، ينعطف احدهما ، منحرفاً ، نحو الشمال ،

وينعطف الآخر ، منحرفاً ، نحو اليمين . كان امام جان فالجان مثل فرعيْ حرف Y ، فأيّ الفرعين يختار ؟

ولم يتردد قطّ . وانعطف نحو اليمين .

لماذا ؟

لأن الفرع الايسر يقود الى الضاحية ، يعنى الى المناطق الآهلة بالسكان ، ولأن الفرع الايمن يقود الى البرية ، يعني الى المناطق المهجورة .

ولكنهما ما عادا يمشيان ، الآن ، في سرعة . لقد أعاقت خطوات كوزيت خطوات جان فالجان .

ورفعها عن الارض حاملاً اياها من جديد . وأسندت كوزيت رأسها الى كتف الرجل الطيب ، ولم تنبس ببنت شفة .

وكان يستدير ، بين الفينة والفينة ، وينظر خلفه . وكان يحرص على ان يلتزم الجانب المظلم من الشارع أبداً . كان الشارع مستقيماً وراءه . وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها ، لم يَرَ شيئاً . كان الصمت عميقاً ، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان . وفجأة ، بدا له ، حين استدار كرّة اخرى ، انه رأى شيئاً يتحرك بعيداً في الظلام ، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع .

وانطرح الى الامام ، ولا نقول مشى ، راجياً ان يجد شارعاً جانبياً يفرّ من خلاله ، ويروغ كرة اخرى من مطارديه .

ووصل الى جدار .

بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد . كان جداراً يحيط بزقاق معترض ينتهي به الشارع الذي كان جان فالجان فيه آنذاك .

وهنا ايضاً تعيّن عليه ان يقرر : أينطلق الى اليمين ام ينطلق الى الشمال ؟

ونظر الى اليمين . كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت إما سقائف أو أهراء ، ثم ينتهي فجأة . كان آخر هـــذا الزقاق غير النافذ بادياً للعيان — جداو ضخم ابيض .

ونظر الى الشمال . كان الزقاق من هذه الناحية مفتوحاً ، وكانت يتصل ، على بعد مئتي خطوة تقريباً ، بشارع كان هو رافداً من روافده . وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظةَ قرّر جان فالجان ان ينعطف شمالاً ، لكي يحاول بــلوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمـــح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وشك الانطلاق نحوه شبه تمثال اسود جامد .

كان شخصاً ما — رجلا — كُلِّف بالوقوف هناك من غير شك ، وكان ينتظره قاطعاً الطريق عليه .

وأجفل جان فالجان .

وهذا الجزء من باريس الواقف فيه جان فالجان اللحظة ، والواقـع بين ضاحية سان أنطوان ولا « لارابيه » واحد من تلك الاجزاء التي غيّرتها الاعمال الحديثة من قمة الرأس الى اخمص القدم ، مبشّعةً اياها في زعم بعض الناس ، مجمّلةً اياها في زعم بعضهم الآخر . لقد ولت جنائن الخُضَر ، ومستودعات الخشب ، والابنية العتيقة . وحلت محلها اليوم شوارع واسعة جديدة ، ومدرجات ، وسيركات ، وميادين سباق ، ومحطـــات السكة الحديدية ، وسجن ، هو سجن مازاس . يعني التقدّم ، كما نرى ، وملطّفاته

منذ نصف قرن ، كانت البقعة التي انتهى اليها جان فالجان تدعى في اللغة الشعبية الدارجة التي تصرّ على اطلاق اسم « الامم الأربع » على « مؤسسة فرنسة » ، واسم ال « فايدو » على « الاوبرا كوميك » — نقول كانت تلك البقعة تدعى ال « بيكبوس الصغير » في هذه اللغة . « باب سان جـاك » ؛ « باب باريس » ؛ « حـــاجز الرقباء » ؛ ال « بورشيرون » ؛ ال « غالبوت » ؛ ال « سيليستين » ؛ ال « كابوسين » ؛

الـ « مايل » ؛ الـ « بورب » ؛ « شجرة الكاركوفي » ؛ « بولونية الصغيرة » و « بيكبوس الصغير » ، تلك هي اسماء باريس القديمة التي تعوم فوق الاسماء الجديـــدة . إن ذاكرة الشعب لتطفو فوق حطام الماضي هذا .

وكان لا « بيكبوس الصغير » - الذي لم يكن له في الواقع وجود حقيقي إلا بشق النفس ، والذي لم يكن اكثر من تصميمِ حيٍّ مـن أحياء السكنى - ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينةٍ اسبانية تقريبـــاً . كانت الطرق معبدة تعبيداً رديئاً ، وكانت الشوارع مُنشأة عـلى نحو هزيل . فوراء الشارعين او الثلاثة الشوارع التي نوشك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الأسوار والوحشة . فلا دكانَ ، ولا عربةَ . بـل لا شمعةَ مضاءة هنا وهناك ، في النوافذ ، الا نادراً . كانت الانوار كلها تطفأ بعد الساعـة العاشرة . جنائن ، وأديرة ، ومستودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة ، وجدران ضخام لا تقـــلّ ارتفاعاً عن المنازل .

كذلك كان هذا الحيّ في القرن الماضي . ولكن الثورة غيّرت معالمه تغييراً كبيراً . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيته وشقّت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعـــات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحيّ يُمحى محواً تدريجياً بأنشاء أبنية جديدة . أما اليوم فقد شُطِب نهائياً . والـ « بيكبوس الصغير » الذي لا يحتفظ أيما مخطّط من المخططات الحاضرة بأثر من آثاره كان يحتل مكانه على نحو واضح في مخطط عام ١٧٢٧ الذي نشره في مدينـــة باريس دونيز تيري ، شارع سان جاك ، تجاه شارع بلاتر ، وفي مدينة ليون جان جيرين ، شارع ميرسيير ، في الـ « برودانس » . وكان لا « بيكبوس الصغير » ما دعوناه منذ لحظة ٧ شوارع ، مؤلفة من شارع « شومان فير سان انطوان » منشعباً الى فرعين اثنين ، ومتخذاً في ناحية اليسار

اسم بيكبوس الصغير ، وفي ناحية اليمين اسم شارع بولونسو . وكان فرعا الـ Y متصلين عند قمتها بمثل قضيب معدني . وكان هذا القضيب المعدني يدعى شارع « دروا مور » . وهناك كان ينتهي شارع بولونسو . أما شارع بيكبوس الصغير فكان يمضي الى أبعد ، مصعّداً نحو سوق لينوار . وكان الوافد من الـ « سين » حين ينتهي الى اقصى شارع بولونسو يجد الى يساره شارع « دروا مور » منعطفاً انعطافاً حاداً على شكل زاوية قائمة ، ويجد أمامه سور ذلك الشارع ، والى يمينه امتداداً أبتر لشارع « دروا مور » من غير منفذ ، يدعى زقاق جانرو .

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد أجفل ، كما ذكرنا من قبل ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمة شك . كان ذلك الشبح يراقبه .

ما الذي يجب أن يفعله ؟

لم يبق ثمة متسع من الوقت للارتداد . وإن ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفهُ ، في اللحظة السابقة ، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الآن الى أول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته . وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها ، يعرف هذا الشرَك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحداً من رجاله ليحرس المنفذ . وفجأة ، عصفت هذه الأحداس الشديدة الشبه بالحقائق في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تتطاير في وجه ريح مفاجئة . لقد تأمل زقاقَ جانرو ؛ كانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ؛ كان ثمة حرس . لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداءَ فوق بلاط الطريق الابيض المغمور بأشعة القمر . كان التقدم الى أمام يعني الانقضاض على ذلك الرجل . وكان الارتداد

الى وراء يعني إلقاء نفسه بين يدي جافير . واستشعر جان فالجان وكأنه مطوّق بسلسلة كانت تضيّق الخناق عليه شيئاً بعد شيء . ورفـع عينيه الى السماء في يأس .

٤

جان فالجان يتلمس

في الظلام سبيله الى النجاة

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكوّن فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور ، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تغـادر شارع بولونسو لتدخل هذا الزقاق . وكان زقاق « دروا مور » مطوقـاً من ناحية اليمين تطويقاً كاملاً تقريبـاً ، حتى شارع بيكبوس الصغير ، بمنازل تبدو عليها سيما الفقر ، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجياً دوراً أو دورين ، فيما هي تقترب من زقاق بيكبوس ، بحيث أن هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولونسو . هناك ، عند الزاوية التي تحدثنا عنها ، أمسى البناء منخفضاً الى حد جعله مجرد حائط ليس غير . ولم يكن هذا الحائط ينتهي ، على نحو متعامد ، الى الشارع . لقـد بدا وكأنه شِقة جدار بُترت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة تحجبها زاويتاها عن اعين المراقبَين اللذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولونسو ، والآخر على مسافة مـا في شارع « دروا مور » .

ومن زاويتي الشقة المبتورة هاتين ، كان الجـدار يمتدّ على شارع

بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩ ؛ وعلى شارع « دروا مور » ، حيث كان ارتفاعه اقلّ بكثير ، حتى ذلك البناء الكالح الذي تحدثنا عنه ، قاطعاً حائط جملونه المثلث الجانبيّ ، محدثاً بذلك زاوية منعكسة جديدة في الشارع . وكان لجدار الجلون هذا مظهر كئيب . لم يكن المرء ليرى ثمة ، غير نافذة واحدة ، او على الاصح مصراعين محجوبين بصفيحة من الزنك ، موصدين ابداً .

إن أوضاع المواطن التي نصفها هنا دقيقة الى حدّ صارم ، وهي توقظ من غير شك ذكرى غالية جداً في اذهان سكان الحيّ القدماء .

وكان يملأ شقة الجدار المبتورة هذه شيء يشبه جداراً هائلًا حقيراً . وكان ذلك مجتمعاً واسعاً غير منسّق من الواح عمودية ، أعلاها أعرض من أدناها ، وقد شدّ بعضها الى بعض بسيور من حديد طويلة معترضة . والى جانب ، كان باب العربات ذو أبعاد عادية ، لا يرقى انشاؤه ، من غير شك ، الى أبعد من خمسين عاماً .

ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المبتورة ، وكان الجدار مغطى باللبلاب من ناحية شارع بولونسو .

وفي الخطر الداهم الذي كان يحيط بجان فالجان تكشّفت هذه البناية الكالحة عن وجه منعزل غير آهل لفت نظره اليها ، وأجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه إنه اذا ما وفّق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعاوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة .

وعند منتصف واجهة البناء المطلة على شارع « دروا مور » احاطت بنوافذ الادوار كلها انابيب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الانابيب الممتدة من أنبوب رئيسي الى كل منها ترسم على الواجهة شبه شجرة . ولقد بدت تشعّبات هذه الانابيب بمرافقها المئة مثل قضبان الكرمة المجرّدة من أوراقها ، والملتفة على واجهات البيوت الريفية القديمة .

وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديد

اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسنداً ظهرها الى أحد الاعمدة ، طالباً اليها ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يمسّ الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجد وسيلة تساعده على ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل . ولكن الانبوب كان متصدّعاً بعيدَ عهدٍ بالاستعمال ، ولم تكن مثبّتاته لتمسك به إلا بشق النفس . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة إضاءة كاملة ، وخليق بالرجل الذي كان يراقبه من اقصى الشارع أن يراه يتسلق الجدار . وأخيراً ، ما الذي يفعله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة أدوار ؟

واطّرح فكرة التسلّق بواسطة الأنبوب ، ودبّ على طول الجدار الى شارع بولونسو .

وحين بلغ شقة الجدار المبتورة حيث ترك كوزيت ، لاحظ أن أحداً لا يستطيع أن يراه هناك . لقد تخلّص ، كما شرحنا اللحظةَ ، من النظرات جميعاً أياً كان مصدرها . والى هذا ، فقد كان الظلام يلفّه . واخيراً ، فقد كان ثمة بابان . لعلهم أن يقتحموهما . وكان واضحاً أن الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون واللبلاب ، يطلّ على حديقة كان في ميسوره ان يختبىء فيها على الاقل - على الرغم من ان الاشجار ما تزال مجرّدة من الاوراق - ويمضي بقية الليل هناك .

كان الوقت ينقضي . إن عليه ان يعمل في سرعة .

وجرّب بابَ العربات ، فوجد في الحال أنه موصدٌ من الداخل والخارج .

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد غمَرَ فؤاده أمل أعظم . كان هرماً الى حدّ مروّع ، وكان حجمهُ الهائل قد جعله حتى أقلّ صلابة . كانت ألواحه الخشبية عفنة ، وأربطته الحديدية - وهي ثلاثة - صدئة . لقد

بدا اختراق هذا النطاق النخِر أمراً ميسوراً .

حتى اذا امتحن هذا البابَ رأى أنه لم يكن باباً . فليس فيه رزّات ، أو صفائح حديدية ، أو قفل ، أو خَصاص في الوسط . وكانت العصائب الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع . ومن صدوع الألواح الخشبية لمح َرضماً * وحجارة ألحم ما بينها بالملاط على نحو أخرق ، كالتي كان لا يزال في ميسور عابري السبيل ان يروها منذ عشر سنوات . لقد اضطر الى الاعتراف في انشداه ان هذا الباب الكاذب لم يكن غير زخرف ُزيّن به ذلك الجدار . وكان يسيراً عليه ان ينزع لوحاً خشبياً ، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجهاً لوجه مع جدار من الجدران .

٥

وهو ما كان متعذراً لو ان الشوارع أضيئت بالغاز

في تلك اللحظة بدأت ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة ما . وغامر جان فالجان فأتلع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة مؤلفة من سبعة جنود او ثمانية جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع بولونسو . لقد رأى وميض حرابهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .

وتقدّم الجند ، وقد تبيّن على رأسهم قامة جافير الطويلة ، في تؤدة وفي حذر . وبين الفينة والفينة كانوا يقفون . كان واضحاً انهم يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكلّ ُفرجة من ُفرَج

* الرضم الحجارة غير المنحوتة .

الابواب والازقة .

وإنما كان هؤلاء الجنود – وهنا لا سبيل الى ان يُخدع الحدس –. يؤلفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان تضع نفسها بتصرّفه .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجة الى ربع ساعة تقريباً ، بسبب من بطئهم وكثرة توقفهم ، حتى يبلغوا البقعة التي تطأها قدما جان فالجان . كانت لحظة مروّعة . إن بضع دقائق لتفصل جان فالجان عن تلك الهاوية المخيفة التي فغرت فاها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الآن ، سجن الاشغال الشاقة وحسب . لقد امسى ذلك السجن ضياعَ كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .

كان ثمة الآن شيء واحد ممكن .

وكانت لجان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كان يحمل جرابين في آن معاً . فأما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار قدّيس ؛ وأما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبة التي يتمتع بها محكوم عليه بالاشغال الشاقة . ولقد كان يلتمس العون من واحد من هذين الجرابين ، تبعاً لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعاته الاخرى ، كان قد أمسى – كما نذكر جيداً ، وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طولون ، استاذاً في ذلك الفنّ الذي لا يُصدّق والذي يجعل المرء قادراً على ان يرفع نفسه ، من غير سلالم ، ومن غير كلاليب ، بالقوة العضلية وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه وركبتيه ، مستعيناً او يكاد ببعض نتوءات الحجر النادرة – ان يرفع نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس من بناية ما عند الحاجة . وهو فن جعل زاوية ساحة الكونسييرجيري

بباريس رهيبةً ومشهورة ، بعد ان فرّ منها « باتومول » المحكوم عليه بالاشغال الشاقة .

وقاس جـــان فالجان ، بعينيه ، الجدار الذي رأى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدماً تقريباً . وكانت الزاوية التي شكّلها مع حائط جلون البناية الضخمة ملأى ، في جزئها الادنى ، بركام من الحجارة مبنيّ على شكل مستطيل لعل القصد من اقامته كان صيانة هذه الخلوة الملائمة من غارات ذلك الضرب من الطيور التي ندعوها عابرة السبيل . والواقع ان هذا الملء الوقائي لزوايا الجدران كثير الشيوع في باريس .

وكان ارتفاع هذا الركام يبلغ نحواً من خمسة أقـــدام . ومن قمته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدماً .

وكان الجـــدار مغطى بطبقة من الحجارة المسطحة لا نتوء فيهـــا على الاطلاق .

كانت كوزيت هي العقبة . فكوزيت ما كانت تعرف كيف تتسلق جداراً . أيتخلى عنها ؟ إن ذلك لم يخطر في بالِ جان فالجان . وما كان حملها أمراً ممكناً . فأن كامل قوة المرء ينبغي ان تُحشد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب . ولا ريب في ان أقلّ عبء خليق بان يفقده مركز ثقله ، ويهوي به الى الأرض .

كان الموقف يقتضي حبلاً . ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك. وأين يستطيع ان يجد حبلاً ، عند منتصف الليل ، في شارع بولونسو ؟ ويقيناً ، لو كان لجان فالجان في تلك اللحظة مملكة ، اذن لتنـازل عنها من أجل حبل .

إن لجميـع الحالات القصوى بُروقها التي تُعمينا في بعض الاحيان ، وتلهمنا في بعض الاحيان .

والتقت نظرة جان فالجان اليائسة بعمود المصباح العام في زقاق جانرو.

في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح . فما إن يهبط الليل حتى تُنار مصابيح الشارع ، التي كانت مُقامة على مسافات معيّنة ، والتي كانت تُرفع وتُخفض بحبل يخترقه الشارع من أقصاه الى أقصاه ، ويجري عبر ثقوب الأعمدة . وكان الملوى الذي يلتفّ حوله هذا الحبل مخبوءاً ، تحت المصباح ، في صندوق حديدي صغير يحتفظ به الموظف المكلف إنارةَ المصابيح ، وكان الحبل نفسه مصوناً ، حتى ارتفاعٍ بعينِهِ ، في بيت معدني .

وبقوة صراعٍ أسمى ، اجتاز جان فالجان الشارعَ بوثبة واحدة ، واقتحم الزقاقَ ، وكسر لسانَ قُفْل الصندوق الصغير برأس مُديته ؛ وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرةً اخرى . كان معه حبل . إن مخترعي الحِيَل اليائسين هؤلاء لينطلقون ، في صراعهم مع القدر ، انطلاقاً خاطفاً ، عند الحاجة .

وفي غضون ذلك كانت الساعة ، والمكان ، والظلمة ، وانهماك جان فالجان ، وسلوكه العجيب ، ورواحه ومجيئه — كانت هذه كلها قد شرعت تقلق كوزيت . ولقد كان خليقاً بأيما طفلة غيرها ان تطلق ، منذ فترة بعيدة ، صيحات عالية . أما هي فاكتفت بأن جذبت جان فالجان من ذيل سترته الطويلة . كانت ضجة الدورية المقتربة تُسمَع أوضحَ فأوضحَ على نحوٍ موصول .

وقالت ، في همس :

— « ابي ، انا خائفة . من القادم ؟ »

فأجابها الرجل التعس :

— « هش ! إنها السيدة تيناردييه ! »

وارتعدت كوزيت .

واضاف :

« لا تقولي كلمة . دعيني أعمل . واذا صرخت ِ ، واذا بكيت ِ ، فعندئذ تسمعك السيدة تيناردييه . لقد جاءت لكي تستردّك ِ . »

ثم إنّ جان فالجان – من غير ما تعجّل ، ولكن من غير ان يكرّر عملًا ما مرةً ثانية ، وفي عزم ثابت وسريع ، وهو شيء يكون ادعى الى الدهش حين نذكر ان دورية العسس وجافير قد ينقضّان عليه في ايّ لحظة – نزع رباط عنقه ، وأمرّه حـول جسد كوزيت تحت الذراعين ، محاذراً ان يصيب الطفلة اذىً ما ، وشدّ رباط الرقبة هذا الى طرف الحبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون « عقـدة السنونو » ، وعضّ على طرفه الآخر باسنانه ، ونزع نعليه وجوربيه طارحاً اياها فوق الجدار ، وارتقى ركامَ الحجارة المبنية على شكل مستطيل ، وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار وحائط الجملون في صلابة وثقة بالغتين وكأن تحت عقِبَيْه ومرفقيه مراقيَ وسلالم . ولم تكـد تنقضي نصف دقيقة حتى كان على ركبتيه ، فوقَ الجدار .

وراقبته كوزيت ذاهلة ، من غير ان تنبس بكلمة . فقد كان في وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تيناردييه ما أصابها بالبكم .

وفجأةً ، سمعت صوت جان فالجان يدعوها في همس :

– « أسندي ظهرك الى الجدار . »

وأطاعت .

فأضاف جان فالجان :

– « لا تنطقي بكلمة ، ولا تخافي . »

واستشعرت انها ترتفع عن الارض .

وقبل ان تجد متسعاً من الوقت للتفكير اين كانت ، ألفت نفسها عند قمة الجدار .

وأخذها جان فالجان بين يديه ، ووضعها على ظهره ، وامسك يديها الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه ، ودبّ فوق قمة الجدار حتى

انتهى الى الزاوية المبتورة . وكما سبق له ان قدّر ، كان ثمــة بنايةٌ يتحدّر سطحها من أعلى السياج الخشبي الى قريب جداً من الارض ، تحدّراً رفيقاً ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيزفون .

وكانت تلك ظاهرةً سارة ، لأن الجدار كان في ذلك الجانب أعلى مما كان في جانب الشارع بكثير . ولمــح جان فالجان الارض ، من تحته ، على عمق بعيد .

كان قد بلغ سطح السقف المنحدر ، ولمّا يغادر قمة الجدار ، حين أعلنت جلبةٌ عنيفة وصول دورية العسس . وسمع صوت جافير الراعد :

– « فتشوا في الزقاق ! إن شارع « دروا مور » تحت الحراسة ، وكذلك شارع بيكبوس . اؤكد لكم أنه في الزقاق ! »

واندفع الجنود الى زقاق جانرو .

وانزلق جان فالجان هابطاً السطح ، متشبّثاً بكوزيت حتى بلغ شجرة الزيزفون ، ووثب الى الارض . وسواء أكان ذلك ثمرة الذعر أم ثمرة الشجاعة ، فان كوزيت لم تهمس همسة واحدة . كانت يداها قد خُدشتا بعض الشيء .

٦
بدء احجية

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جـداً وذات مظهر فريد ؛ حديقة من تلك الحدائق المحزونة التي تبدو وكأنها جُعلت لكي تُرى في الشتاء وفي موهن من الليل . كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل ، في اقصاها صفٌ من شجر الحور الضخم ، وفي زواياها أدواح فارعات الطول ، وفي وسطها فسحة غير ظليلة ، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة

العظَم ، ثم بضع شجرات مثمرة ملتوية شمثاء مثل عواسج ضخـــام ، ومساكب من الخضر ، ومَبْطَخَة * كانت الاواني الزجاجية التي تُغطي ثمراتها تلتمع تحت اشعة القمر ، وبئر قديمة . وكان هنا وهناك مقاعد حجرية بدت سوداء من اثر الطحلب . وكانت الممرات محوطة بشجيرات كئيبة ، بالغة الاستقامة . لقد غطى العشب نصفها ، والطحلب الاخضر سائرها .

وكان الى جانب جان فالجان البنايةُ التي مكّنه سطحها من الهبوط ، وركامٌ من الخشب ، وخلف الخشب ، في محاذاة الحائط تماماً ، تمثال من حجر لم يعد وجهه الابتر غير قناع شائهٍ بدا على نحـــو ضبابيّ في غمرة الظلام .

وكان البناء خراباً ، ولكن بعض الغرف المهدّمة كان يمكـــن ان تميّز فيه . وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها ، بما يؤذن بـــأن القوم يتخذون منها سقيفة .

وكانت بناية شارع « دروا مـــور » الكبيرة المرتجعة على شارع بيكبوس الصغير تطلّ على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان الواجهتان الداخليتان أشدّ كآبة من الواجهات الخارجية نفسها . كانت جميع النوافذ مقضّبة بالحديد . ولم يكن ثمـــة ضوء ما . وفي الأدوار العليا كانت مصاريع كالتي توجـد في السجون . وكانت احدى هاتـــين الواجهتين تلقي بظلها فوق الأخرى ، فينطرح على الحـديقة مثل قطعة ضخمة من قماش أسود .

وما كانت العين لتقع على أيما منزل آخر . كان اقصى الحـــديقة مضمحلاً في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقـد كان في ميسور المرء ان يتبيّن ، على نحو غامض ، جدراناً تتقاطـــع ، وكانت وراء ذلك اراضٍ مزروعـــة اخرى ، وان يتبـــيّن ايضاً سطوح شارع بولونسو المنخفضة .

---

* المبطخة زاوية من الحديقة تفرد لزراعة البطيخ .

وليس في ميسور الانسان ان يتخيّل شيئاً اكـــثر ضراوة واشدّ انعزالاً من هذه الحديقة . فلم يكن ثمـــة احد ، وهو امرٌ طبيعي بسببٍ من تقدّم الليل . ولكن المكان بـــدا وكأنه لم يُجْعَل لكي يمشي فيه إنسان ما ، حتى في رائعة النهار .

وكان أول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وأن ينتعله . ثم ان يدخل السقيفة مع كوزيت . والحقّ ان الرجل الذي يحاول الهرب لا يستشعر ابداً انه محجوب على نحو كافٍ عن اعـــين مطارديه . واذ كانت الطفلة تفكر بتيناردييه الزوجـــة تفكيراً موصولاً فقد شاركته غريزتَهُ ، فربضت اكثر ما استطاعت أن تربض .

وارتعدت كوزيت ، والتصقت به . وسمعا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثاً عنهما ، وصدى الـــتماسّ بين بنادقهم وبين الحجارة ، ونـــداءات جافير للحرس الذين أقامهم هنا وهناك ، ولعناتِهِ الممتزجة بكلمات لم يكن في ميسورهما ان يتبيّناها .

وبعد ربع ساعة ، بدا وكأن هذه الزمجرة العاصفة قد شرعت تنأى . ولم يأخذ جان فالجان نفَساً .

كان قد وضع يده ، في رفق ، على فم كوزيت .

ولكن العزلة التي وجد نفسه فيها كانت ساكنة سكوناً عجيباً الى درجة جعلت تلك الجلبة المروِّعة ، المهتاجة الى أبعد الحدود ، القريبة الى ابعد الحدود ، لا تُلقي عليها ولو ظلّاً من كدَر . لقد بـــدا وكأن هذه الجدران مبنية من تلك الحجارة الصمّ التي يتحدث عنهـــا الكتاب المقدس .

وفجأة ، وفي غمرة من هذا السكون العميق ، ارتفعت ضجـــة جديدة ، ضجة سماوية ، الـهية ، لا سبيل الى وصفها ، ضجة فاتنة بقدر ما كانت تلك مروّعة . كانت ترنيمةً انبثقت من الظلام ، مزاجـــاً مذهلاً من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم المخيف ، أصواتاً نسائية ،

ولكنها أصوات تحمل نبرات العذارى الصافية ، ونبرات الاطفال الساذجة ، تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، والتي تتردد في مسمعي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من البناية الكالحة المطلة على الحديقة . وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها جلبة الأبالسة لم يكن عجيباً ان يُخيل الى السامع أنها جوقـــة من الملائكة تقترب تحت جنح الظلام .

وركعت كوزيت وجان فالجان على رُكَبهما .

انهما لم يعرفا ماهيّة ذلك ، إنهما لم يعرفا اين كانا ، ولكنهما كليهما ، الرجل والطفلة ، التائب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يجثوا على رُكَبهما .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البناية من ان تبدو موحشة . كانت أشبه بأغنية خارقة في منزل مهجور .

وفيما كانت هذه الاصوات تتغنى ، استغرق جان فالجان فيها استغراقاً تاماً . إنه لم يعد يرى الليل . لقد رأى سماء زرقاء . لقد بدا وكأنه يحس بانبساط هذه الاجنحة التي نملكها كلنا في باطننا .

وخمدت الاغنية . ولعلها ان تكون قد استمرت فترةً طويلة . فلم يكن في ميسور جان فالجان ان يدري . إن ساعات النشوة الروحيـــة ليست أبداً غير دقيقة واحدة .

وغرق كل شيء في الصمت كرةً اخرى . لم يبق شيء في الشارع ، ولم يبق شيء في الحديقة . لقد تلاشى كل شيء ، ذلـــك الذي كان يتهدّد ، وذلك الذي كان يوقـع الطمـــأنينة في النفس . وداعبت الريحُ العشبَ الجاف فوق قمة الجدار ، محدثةً ضجة خفيضة ، رفيقةً ، كئيبة .

٧
الأحجية تستمر

كانت ريح الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذنَ بأن الساعة كانت تتراوح من غير شك ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً . ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما . واذ كانت قد جلست الى جانبه ، واسندت رأسها اليه ، فقد ظن جان فالجان انها نائمة . وانحنى قليلاً ، ونظر اليها . كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترينُ على وجهها سيماء أوجعت فؤاد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف .

فقال جان فالجان :

– « هل انت ناعسة ? »

فأجابت :

– « انا اشعر ببرد شديد . »

وبعد لحظة ، اضافت :

– « ألا تزال هناك ? »

فقال جان فالجان :

– « من ? »

– « مدام تيناردييه . »

وكان جان فالجان قد نسي الوسيلة التي اصطنعها ليضمن سكوت كوزيت . وقال :

– « اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئاً بعد الآن . »

وتنهدت الطفلة ، وكأنّ ثقلاً قد رُفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جميعاً ،

وكانت الريح تزداد برودة لحظة بعد لحظة . ونزع الرجل الطيب سترته الطويلة ولفّ كوزيت بها .

– « هل تحسين بالدفء ، الآن ، اكثر من ذي قبل ؟ »

– « اوه ، نعم ، يا أبتِ ! »

– « حسن ، انتظريني هنا لحظةً . سوف ارجع في الحال . »

وغادر المكان الخرِب ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماساً لمأوى افضل . لقد وجد ابواباً ، ولكنها كانت كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الدور الارضي مقضّبة بالحديد .

وفيما هو يجتاز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمح عندها بصيصاً من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال إحدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعـــة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض ، تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء ان يتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قُنَيْديل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مهجورة ، وكان كل شيء ساكناً . ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه رأى ، بإنعام النظر ، شيئاً منبسطاً على ارض القاعة ، شيئاً بدا وكأنه مغطىً بكفن – وكأن له شكلاً إنسانياً . كان منبطحاً على بطنه ، مستقبلاً الارض بوجهه ، متصالب الذراعين ، جامداً جمـــود الموت . ولقد كان خليقاً بالرائي أن يقول ، بسبب من شبه افعى كانت تزحف فوق ارض القاعة ، ان حبلاً كان يطوّق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرينُ على الاماكن الباهتة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيراً ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين إنه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كثيبة لا تكاد تُحصى ، فان بصره لم يقع على مـــا هو افظع وادعى الى الرعب من تلك الصورة المُلْغَزة

المحقّقة لسرٍّ عجيب ما ، ليس يعرفه ، في ذلك الموطن الكالح ، والتي تُلمح على هذا النحو الضبابي في الليل . كان مما يروّع المرء ان يفترض أنها قد تكون ميتة ، وكان مما يروّعه اكثر ان يظن انها قد تكون على قيد الحياة .

وآنس من نفسه الجرأة على ان يضغط جبينه على الزجاج ، وان يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكنْ على غير طائــــل . ان الشكل المنبطح لم يُبْدِ حراكاً . وفجأةً ، عصف به ذعر يجلّ عن الوصف ، وولى فراراً . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى وراءه . فقد بدا له أنه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعــدو خلفه في خطىً واسعة ، هازّةً بذراعيها .

وبلغ السقيفة الخربة مبهوراً منقطع النفَس . وخذلته ركبتــــاه ، وتحلّب العرق البارد من مــامّ جسده جميعاً .

اين كان ؟ مَنْ ذا الذي قدّر له يوماً أن يتخيل أيما شيء مثل هذا الضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل بالاسرار الليلية ، ينادي الارواح ، تحت جنح الظلام ، بأصـــوات الملائكة ، حتى اذا اقبلتْ فاجأها بمثل هذا المشهد الرهيب – يَعِـــدُ بفتح باب الجنة المشعّ ، ويفتح باب القبر المخيف . أكان ذلك بنــــاء حقاً ، بيتاً ذا رقم في الشارع ؟ ألم يكن هذا حلماً ؟ كان في حاجـة الى ان تتقرّى يداه الجدران باللمس لكي يصدّق ذلك .

كان البرد ، والقلق ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليـــلة من آلام – كانت هذه كلها توقع في جسده حمّى حقيقية . وانشأت افكاره كلها تتصادم في دماغه .

واقترب من كوزيت . كانت نائمة .

٨
الاحجية تتعقد

كانت الطفلة قد القت رأسها على حجر واستسلمت للرقاد .

وجلس قربها ، ونظر اليها . وشيئاً بعد شيء ، فيما هو يتأملها ، هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

كان واضحاً انه ادرك هذه الحقيقة ، التي أمست أساس حياته منذ اليوم ، وهي أنها ما دامت على قيد الحياة ، وما دامت الى جانبه فلن يكون في حاجة الى شيء ابداً إلا من أجلها ، ولن يخشى شيئاً ابداً إلا بسبب منها . إنه لم يحسّ حتى بذلك البرد الشديد الذي كان يستبد به وقد نزع سترته الطويلة ليغطيها بها .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضمّه ، طرقت سمعَهُ ، فترةً ما ، ضجة فريدة . كانت أشبه بصوت جُلْجُلٍ* يتمايل . وإنما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . وسمعت في وضوح ، على الرغم من انها كانت واهنة : لقد أشبهت تلك الموسيقى البدائية الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلاً ، في مراعيها .

تلك الضجة حملت جان فالجان على الالتفات .

ونظر ، فرأى ان في الحديقة شخصاً ما .

كان مخلوقٌ شبيه بالرجل يمشي وسط الاواني الزجاجية التي تغطي ثمرات البطيخ ، ناهضاً حيناً ، منحنياً حيناً ، متوقفاً حيناً ، كل ذلك في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئاً على الارض . وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو .

وارتعد جان فالجان بارتعاشة المساكين الموصولة . إنهم يجدون كل

---

* الجلجل : الجرس الصغير . وجمعه جلاجل .

شيء معادياً ومريباً . فهم يحذرون النهار لأنه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويحذرون الليل لأنه يساعـــد اولئك الرجال على مباغتتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحـــديقة خالية ؛ وها هو ذا الآن يرتعد لأن ثمة شخصاً فيها .

وانتقلَ كرةً اخرى من خضمّ المخاوف الوهمية الى خضمّ المخاوف الحقيقية . وقـال في ذات نفسه : لعل جافـير وجواسيسه لمّا يغادروا المكان ، وأنهم قد خلّفوا من غير ريب شخصاً ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقـــة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويسلمه الى السلطة . وفي رفق ، رفع كوزيت النائمة ، بين ذراعيه ، وحملها الى أقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركام من الأثاث القديم لم َيعُدْ موضع الاستعمال . ولم تتحرك كوزيت .

ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في الرقعة المزروعة بطيئاً . ومن عجب ان صوت الجلجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة ، كان يصاحب تلك الحركة ارتجافٌ في الصوت . وحين كان يتوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحاً أن الجلجل كان مشدوداً الى ذلك الرجل . ولكنْ ، ايّ معنى يمكن ان ُيستفاد من ذلك ؟ ايّ رجل هو ذاك الذي يُعلـّق في عنقه جلجل ، كما ُيعلق في عنق كبش او ثور ؟

وفيما هو يفكر في هذه الاسئلة ، لمسَ يـدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال :

– « آه ، يا الـهي ! »

وناداها في صوت خفيض :

– « كوزيت ! »

فلم تفتح عينيها .

وهزّها في قوّة .

ولم تستيقظ .

فقال :

– « أيمكن ان تكون قد ماتت ؟ »

ووثب واقفاً ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه .

واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، أفظع الافكار وأدعاها الى الذعر . فثمة لحظات تحاصرنا فيها الافتراضات البشعة المخيفة مثل جمهرة من آلهة الجحيم ، وتقتحم ابواب دماغنا . وحين يكون اولئك الذين نحبهم في خطر يخترع قلقنا مختلف ضروب الحماقـــات . وتذكّر ان النوم في الهواء الطلق ، وفي الليالي الباردة ، قد يكون مُهلكاً .

كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قـد انطرحت على الارض ، عند قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .

وأصغى الى انفاسها . كانت تتنفس ، ولكنْ تنفساً بدا له واهناً وعلى وشك ان يخمد .

ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى ايقاظها ؟ لقد طُرد كل شيء من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الخرب .

كان ضرورياً جداً ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتُضرَم النار الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

٩
الرجـــل ذو الجلجل

ومضى مباشرةً الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قـد حمل بيده لفّة المال التي كانت في جيب صدرته .

وكان ذلك الرجل مطأطئاً الرأس . فلم يره مقبلاً نحوه . وما هي الا بضع خطوات حتى كان جان فالجان على مقربة منه .

وحاذاه جان فالجان هاتفاً :

— « مئة فرنك ! »

وأجفل الرجل ، ورفع عينيه .

وتابع جان فالجان :

— « مئة فرنك تكسبها ، اذا آويتني هذه الليلة . »

واضاء القمر وجه جان فالجان الذاهل إضاءة كاملة .

وقال الرجل :

« ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعـــة المظلمة ، وفي ذلك المكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فالجان يرتدّ الى وراء .

كان مستعداً لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلاً عجوزاً ، متقوّس الظهر ، أعرج ، مرتدياً ثياباً هي اشبه بثياب الفلاحين ، وعلى ركبته اليسرى واقية للرُكب جلدية يتدلى منها جرس ضخم بعض الشيء . أما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبيّنه المرء .

وفي غضون ذلك كان الرجل الساذج قـــد نزع قلنسوته ، وهتف وهو يرتجف :

— « آه ، يا الـهي ! كيف جئت الى هنـــا أيها الأب مادلين ؟ من اين دخلت ، أوه ، ايها الرب يسوع ! هـل هبطتَ من السماء ؟ اذا كنت قد هبطتَ من مكان ما فليس من ريب في انك هبطتَ من هناك . وما الذي دهـاك ؟ فأنت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر بقبعة ، وليس على جسدك سترةٌ ما ؟ اتدري انك كنتَ جديراً بأن تروّع اي امريء لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الـهي ! أيجنّ القديسون في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

ولم تكن ايّ من كلماته لتنتظر الاخرى . كان الرجـــل العجوز يتحدث في ذلاقة ريفية لم يكن فيها ما يقلق . ولقد قيل ذلك كله في مزيج من الانشداه والطيبة الساذجة .

وسأله جان فالجان :

— « من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل العجوز :

— « اوه ، حقاً ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظّفتَهُ هنا ، وهذا البيت هو المكان الذي وظّفتني فيه . ماذا ؟ انت لا تتذكرني ؟ »

فقال جان فالجان :

— « لا . وكيف اتفق ان عرفتني ؟ »

فأجاب الرجل :

— « لقد أنقذتَ حياتي . »

والتفت ، فأضاءت اشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان أنه فوشلوفان العجوز .

وقال جان فالجان :

— « آه ! هذا أنت ؟ أجل ، أنا أذكرك . »

فقال الرجل العجوز في نبرة عتاب :

— « هذا سارّ جداً . »

واضاف جان فالجان :

- « وماذا تفعل هنا ؟ »

- « أوه ! أنا أغطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده ، لحظةَ دنا منه جان فالجان ، طرفَ حصير من قصب كان منهمكاً في نشره فوق مسكبة البطيخ . وكان قد نشر على هذا النحو عدداً من الحُصُر خلال الساعة التي قضاها في الحديقة . كانت هذه العملية هي التي حملته على القيام بتلك الحركات الخاصة التي لاحظها جان فالجان من السقيفة .

واضاف :

- « لقد قلت لنفسي : القمر نيّر ، ولسوف تُصقِعُ الارضُ . لعل من الخير أن ألبس بطيخاتي سترانها . و ... »

وهنا نظر الى جان فالجان ثم اضاف مُرسلاً ضحكة عالية :

- « ... لقد كنتَ تحسن صنعاً لو انك عُنيتَ بنفسك مثل هذه العناية ! ولكن كيف جئتَ الى هنا ؟ »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على الاقل ، فقد اطّرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعفَ اسئلته . فبدا - ويا للعجب ! - انهما قد تبادلا دوريهما . لقد قام هو - المتطفّل - بدور المستجوب .

- « وما هذا الجلجل المعلّق بركبتك ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

- « هذا ؟ إن الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

- « كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

وغمزه فوشلوفان بعينه على نحو لا سبيل الى وصفه .

- « آه ، يا الـهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير النساء . غير عدد كبير من الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجلجل

يحذّرهن . فحين اجيء يذهَبْن . »

— « ما هذا البيت ؟ »

— « ولكنْ ، انت تعرف جيداً ! »

— « لا ، انا لا أعرف . »

— « ولكنك أنت الذي جعلتني بستانياً في هذا المكان ! »

— « أجبني وكأنني لا أعرف شيئاً البتة . »

— « حسناً ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكّر جان فالجان . كانت المصادفة ، يعني العناية الالـهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حيّ سان انطوان هذا حيث كان فوشلوفان العجوز قد أدْخِل ، بناء على توصية منه ، بعد ان أقعده السقوط من عربته ، قبل عامين اثنين . وكرّر وكأنما كان يخاطب نفسه :

— « دير بيكبوس الصغير ! »

واستأنف فوشلوفان :

— « ولكن ، يا للشيطان ! كيف استطعت ، حقاً ، ان تدخل اليّ هنا ، انت ، ايها الاب مادلين ؟ عبثاً تحاول إقناعي بانك قديس . أنت رجل ، ومحظورٌ على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

— « ولكنك هنا . »

— « ليس هنا رجلٌ غيري . »

فأردف جان فالجان :

— « ومع ذلك فينبغي ان أبقى هنا . »

فصاح فوشلوفان :

— « آه ، يا الـهي ! »

واقترب جان فالجان من الرجل العجوز وقال له في جَرْس فاجع :

— « ايها الاب فوشلوفان ، لقد انقذتُ حياتك . »

فأجابه فوشلوفان :

— « لقد كنتُ انا اول من تذكّر ذلك . »

— « حسناً ، في استطاعتك ان تقدّم اليّ اليوم مثل تلك الخدمة التي قدمتُها اليك بالامس . »

وأمسك فوشلوفان بيديه الهرمتين المتجعدتين المرتجفتين يدي جان فالجان القويتين . وانقضت بضع ثوانٍ قبـــل ان يوفـّق الى الكلام . واخيراً صاح :

— « أوه ! اذا استطعتُ أن اردّ اليـــك بعض جميلك ، فسوف يكون ذلك فضلاً من عند الله . انا ! انا انقذ حياتك ! سيدي العمدة ، ان الرجل العجوز تحت تصرفك ! »

لكأنّ حبوراً رائعاً قد غلب على وجه هذا العجوز فتهلـّل به . لقد بدا وكأن شعاعاً قد انبثق من وجهه .

وأضاف :

— « ما الذي تطلب اليّ ان أعمله ؟ »

— « سوف اشرح لك ذلك . أعندك غرفة ؟ »

— « عندي كوخ منعزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ، في زاوية لا يراها احد . إنّ هناك ثلاث غرف . »

وكان الكوخ ، في الحق ، محجوباً خلف الخرائب وفي منأىً عن اعين الرقباء الى حد جعل جان فالجان يعمى عنه .

وقال جان فالجان :

— « حسن . سوف اسألك ، الآن ، امرين . »

— « ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »

— « اولاً ، ان لا تقول لأحد ما تعرفه عني . وثانياً ، ان لا تحاول ان تعرف من ذلك شيئاً إضافياً . »

— « كما تريد . أنا أدري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرّف

وانك كنت دائماً رجلاً من رجال الله . والى هذا ، فأنك انت الذي وضعتني هنا . هذا المكان لك . وانا طوع أمرك . »

— « حسن جداً . والآن ، تعال معي . سوف نذهب لنأتي بالطفلة . »

فقال فوشلوفان :

— « آه ! هناك طفلة ! »

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلبٌ سيده .

وفي أقلّ من نصف ساعة كانت كوزيت قد أمست وردية اللون بفضل اللهب المنبعث من نار قوية ، ونامت في سرير البستاني العجوز . وكان جان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وسترته الطويلة . وكانت قبعته التي قذف بها من فوق الجدار قد وُجدت ورفعت عن الارض . وفيما كان جان فالجان يلبس سترته الطويلة كان فلوشلوفان قد نزع واقية ركبته ذات الجلجل ، وعلقها بمسمار قرب مصرع النافذة ، فهي تزين الجدار . كان الرجلان يتدفآن ، وقد اسندا مرفقيهما الى مائدة كان فوشلوفان قد وضع عليها قطعة من جبن ، وشيئاً من الخبز الاسمر الدوّن وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال العجوز لجان فالجان واضعاً يده على ركبته :

— « آه ! ايها الاب مادلين ! انك لم تعرفني لأول وهلة ! انت تنقذ الناس ، ثم تتناساهم ! اوه هـذا غير حسن ! انهم يذكرونك . أنت جاحد تنكر الجميل ! »

١٠
وفيه يتضح كيف أضاع جافير الطريدة

والواقع ان الاحداث التي رأينا اللحظة وجهها الآخر ، اذا جاز التعبير ، انما تمّت في ظل ابسط الاحوال والملابسات .

عندما فرّ جان فالجان – في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة – من سجن مونتروي سور مير البلدي ، قدّر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس دردور صاخب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي في دوّامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . وليس من غابة تستطيع ان تخبىء رجلاً كما يخبئه هذا الحشد . والفارّون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . إنهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يغمرهم ؛ فثمة بالوعاتٌ تُنجي وتنقذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضاً ، فهم إنما يبحثون في باريس عمن اضاعوه في ايما مكان آخر . ولقد بحثوا هنـاك عن عمدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جـافير الى باريس ليساعد الشرطة في مباحثهـا . والحق ان جـان فالجان قد ساعد ، في قـوة ، على اعتقال جان فالجان من جديد . ولقد أشاد مسيو شابوييه ، امـين سر الشرطة في عهد الكونت آنغليز ، بالحمية والذكاء اللذين تكشّف عنهما جافير في تلك المناسبة . ومن ثم وفّق مسيو شابوييه ، الذي سبق له ان أسبغ حمايته على جافير ، الى ان ينقل مفتش مونتروي سور مير الى مركز الشرطة بباريس . وهناك ، أثبت جافير بطرائق مختلفة أنه – ولنقلها برغم ان الكلمة تبدو غريبة لم يُسمع بمثلها في الكلام على مثل تلك المصلحة – عظيم الفائدة باستقامة وشرف .

وكان قد اطّرح التفكير في جان فالجان نهائياً – فعند كلاب القنص هذه الموكّلة ابداً بطرائدها يطمس ذنب اليوم على ذكرى ذنب الأمس – عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما ، وهو الذي لم يقرأ الصحف في يوم من الايام . ولكن جافير جعل من همّه – بوصفه ملكياً – ان يعرف تفاصيل دخول « الامير القائد العام » * المظفّر الى بايون . حتى اذا أتم قراءة المقالة التي اثارت اهتمامه لفت نظره في الاسطر الدنيا من احدى الصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نحبه . وانما سيق الخبر في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة . لقد اكتفى بالقول : « إن هذا يضع حداً للمسألة » ، ثم القى الصحيفة جانباً ، وأقلع عن التفكير في ذلك .

وبعد فترة اتفق ان حُوّلت مذكرة بوليسية من مديرية شرطة الـ « سين ايه واز » الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع ، كما قيل ، في ظروف خاصة ، في قضاء مونفيرماي . وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة او الثامنة من العمر كانت أمها قد عهدت في تربيتها الى فندقيّ من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق رجل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تُعرف بكوزيت . وكانت ابنة فتاة تدعى فانتين ، ماتت في المستشفى ، وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها أو اين . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكد عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير .

كان هذا الاسم ، فانتين ، معروفاً عنده جيداً . لقد ذكر ان جان فالجان جعله ينفجر ، هو جافير ، بالضحك حين سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماساً لابنة هذه المخلوقة . وذكر ان جان فالجان اعتُقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قادته

* يقصد دوق آنغوليم الذي قاد حملة اسبانية ، وقد ورد ذكرها في الجزء السابق .

بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العربة ، وانه كان قد قام ، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لأن احداً لم يره في القرية نفسها . ايّ شيء كان يعمله في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احدٌ ان يحزره . ولكن جافير فهمه الآن . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان التماساً لها . وها قد سرق رجل مجهول تلك الطفلة . من عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ أيمكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات . ومن غير ان يقول كلمة لاحد ، امتطى جافير متن العربة العمومية عند « بلاديتين » ، زقاق بلانشيت ، وسافر الى مونفيرماي .

لقد توقّع ان يجد ايضاحات هامة هناك ، ولكنه لم يجد غير غموض كبير .

ففي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد أذاعا ، في غمرة من غيظهما ، نبأ ذلك . وأحدث اختفاء **القبّرة** ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ، ورُويت رواياتٍ مختلفة ، انتهت بأن أمست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرةُ البوليس التي اشرنا اليها . وأياً ما كان ، فحين همدت الفورة الاولى ادرك تيناردييه في غير ابطاء ، تحدوه غريزته الرائعة ، أن ليس من مصلحته أن يستعدي النيابة العامة الملكية ، وانّ أولى نتائج شكاواه في ما يتصل **باختطاف** كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الثاقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . إن آخر ما تتمناه البُوم هو ان تُحمل اليها شمعة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر الف فرنك التي تسلمها ؟ وغيّر وجهته بغتةً ، وكمّ فم زوجته ، وتظاهر بالدهش كلما حدثه امرؤ عن **الطفلة المسروقة** . إنه ما كان يعرف عن ذلك شيئاً . ولا ريب في أنه تشكّى ، في الحال ، أن « تُنتزَع » منه تلك الفتاة

الصغيرة العزيزة بمثل هذه السرعة ؛ ولقد كان يفضل ، بدافـــع من الحنان المحض ، ان يحتفظ بها يومين اضافيين او ثلاثة ايام إضافيـــة . ولكن جدّها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء آخر في العالم . كان قد اضاف الجَد الى القصة ، وهو ما بدا سائغاً في الآذان . على هذه الحكاية وقع جافير في مونفـــيرماي . وكان في ذكر الجدّ ما استبعد جان فالجان ، وأخرجه من الحساب .

ومع ذلك فقد طرح جافير بعض الاسئلة ، وكأنها مسابـــير * في رواية تيناردييه : « من كان هذا الجد ، وما اسمه ؟ » وأجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رأيت جواز سفره . انا اعتقد انه يدعى مسيو غييوم لامبير . »

إن لامبير اسم وقور جداً يوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس .

وقال مخاطباً نفسه :

— « إن جان فالجان ميتٌ حقاً . وإني لمعتوه . . »

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندما سمع بعضهم يتحدث ، خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن في ابرشية سان ميداو ، ويدعى « الشحاذ الذي يوزّع الصدقات . » وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلًا يحيا على دَخْلِهِ ، وليس يعرف احدٌ اسمه تماماً — رجلًا يعيش وحده مع فتاة صغيرة في الثامنة ، لا تدري من أمرها غير شيء واحد وهو أنها أقبلت من مونفيرماي . مونفيرماي ! إن هـذا الاسم ليتكرر دائماً ، وإنه ليلفت انتباه جافير . واضاف جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين — وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه — معلوماتٍ جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد النفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله إلا ليلًا ، وهو لا يتحدث

* جمع مسبار وهو ما يتحن به غور الماء ليعرف مقداره .

الى احد ، ما عدا الفقراء في بعض الاحيان ، ولا يدع أحداً يتعرّف إليه . إنه يرتدي سترة عتيقة صفراء مخيفة تساوي عدة ملايين ، لأنها محشوةٌ كلها بالاوراق النقـــدية . » واثار ذلك فضول جافير من غير ريب . ولكي يرى الى هذا الغنيّ الغريب عن كثب من غير أن يُجفله ، فقد استعار ذات يوم من المستخدم في الكنيسة ملابسه الرثة والمكان الذي تعوّد جاسوس الشرطـــة العجوز ان يجلس فيه القرفصاء كل مساء مُخنخناً بأدعيته ، متجسساً من خلال صلواته .

وفي الواقع فقد وفدَ « الشخص المريب » ، الى جافير المتنكّر على هذا النحو ، وتصدّقَ عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير رأسه . وأصابَهُ ، إذ اعتقدَ انه عرف جان فالجان ، مثلُ تلك الصدمة التي اصابت جان فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعلّ الظلمة قد خدعته ؛ فقد كان موت جان فالجان أمراً مثبتاً عند السلطات . ولكنْ بقيت في نفس جافـــير شكوك ، وشكوك جدية . وفي حال الشك ، ما كان جافير — وهو الحذِر الذي يسعى جهده لاجتناب الخطأ — ليأخذ بخناق أيما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . وأغرى « المرأة العجوز » بالكلام ، وهو أمر لم يكن عسيراً قـــط . وأيدت العجوز رواية السترة المحشوّة بطانتُها بالملايين ، وقصّت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الألف فرنك . لقد رأتها ! لقد لمستْها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجياً ان يبلغ أذنيه جَرْسُ صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، وأحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفي اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان . ولكن العجوز سمعت صدى قطعة الخمسة الفرنكات التي أفلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى إعلام جافير بالأمر قبل حدوثه .

وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة أن تمدّه بقوة اضافية ، ولكنه لم يصرّح باسم الشخص الذي كان يرجو القاء القبض عليـــه . كان ذلك سرّاً من أسراره ، ولقد احتفظ به لثلاثة اسباب : أولاً ، لأن اقل افشاء للسرّ خليق به ان يحذر جان فالجان . وثانياً ، لان اعتقــال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فارٍ معدودٍ بين الاموات – مجرمٍ كانت سجلات العدالة قد صنّفته الى الابد **بين الاشرار الذين هم من الضرب الاشد خطراً** – سوف يكون فوزاً رائعاً لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء ، من غير شك ، لوافد جديد مثل جافير ؛ ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده الهارب من سجن الاشغال الشاقة . واخيراً ، لأن جافير – بوصفه فناناً – كان مولعاً بالمفاجآت . لقد كان يكره تلك الانتصارات المبشّر بها والتي يُزيل بهاءها طولُ التحدث عنها مقدماً . كان يحب ان يُتقن روائعه في الظلام ، ليكشف النقاب عنها بعد ذلك فجاءة .

كان جافير قد تعقّب جان فالجان من شجرة الى شجرة ، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعــه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة . وحتى في تلك اللحظات التي استشعر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مسمّرة عليه .

لماذا لم يلقِ جافير القبض على جان فالجان ؟ لأنــه كان لا يزال في ريب من أمره .

وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، في ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافـــة الحرة تضايقها . والحق ان بعض الاعتقالات الاعتباطية التي أعلنتها الصحف تردّد صداها

حتى في قاعة البرلمان ، مما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد . كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئاً خطيراً . وكان ضباط البوليس يخشون ارتكاب الاخطاء . لقد جعلتهم المديرية مسؤولين عن ذلك ، فاذا ما وقع ضابط في خطأ خسر وظيفته . ولنتخيل الاثر الجدير بهذه الفقرة الموجزة المكررة في عشرين صحيفة ان تتركه في باريس : « أمس ، القي القبض على رجل عجوز اشتعل رأسه شيباً ، وهو مثرٍ محترم كان يقوم بنزهة مع حفيدته البالغ عمرها ثمانية أعوام ، وسيق الى سجن الشرطة كمحكوم عليه بالاشغال الشاقة فارّ من وجه العدالة ! »

ولنكرر ، الى هـذا ، ان جافير كانت له وساوسه . وانضافت وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من أمر الرجل حقاً .

وأدار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .

وكان الحزن ، والقلق ، والحصر النفسي ، وثقل الهموم ، وهذا الشقاء الجديد الذي اكرهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث من غير تبصّر عن مأوى في باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره الى ان يكيّف خطوته وفقاً لخطوة طفلة صغيرة — كل ذلك كان قد غيّر مشية جان فالجان ، وهو لا يدري ، وطبع هيئته بطابع الشيخوخة الى حد جعل في الامكان خداع البوليس نفسه ، المتجسّد في جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكّر بمؤدّب عجوز مهاجر ، وفي تصريح تيناردييه الذي جعله جَداً ، واخيراً في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزّز الشك المتعاظم في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابراز أوراقه . ولكن اذا لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثرياً عجوزاً محمود السيرة فاغلب الظن انه لص متصل اتصالاً عميقاً بارعاً بشبكة

الجريمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء إخفاء لمواهبه الاخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاجيء قريبة يفزع اليها . وكل هذا اللف والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلاً بسيطاً صالحاً . فالقاء القبض عليه باسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهبـــاً » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافـــير مرقناً احسن اليقين من انـــه لـــن يفرّ .

وهكذا واصل تقدمه في كثير مـــن الارتباك ، موجهاً الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية اللغز .

ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجـــان من غير ريب إلا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق مـــن احدى الحانات .

إن في هذا العالم مخلوقين يستطيع الطرب ان يعصف بهما في قـــوة وعنف : الأم التي تجد ولدها الضائع ، والنمر الذي يهتدي الى فريسته من جديد . لقد احسّ جافير بهزة الطرب هذه .

ولم يكد يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل العجوز هو جـــان فالجان ، الاشغاليّ * الرهيب ، حتى انتبه الى انه على رأس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز أن تمدّه بقوة اضافية . فقبل ان يمسك المـــرء بقضيب ذي أشواك يغلف يديه بقفاز .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مـــع رجاله ما جعله يفقد الأثر . ومع ذلك ، فسرعان ما حزر أن جـــان فالجان

---

* نصطنع هذه الصيغة ، أحياناً ، لتقوم مقام « المحكوم عليه بالاشغال الشاقـــة » حين يتعذر إلحاق النعت بذلك التعبير المؤلف من اربع كلمات .

راغب في ان يتخذ من النهر حائلاً بينه وبين مطارديه . ونكس رأسه وفكّر ، مثل كلب ضخم يضع انفه في التراب لـكي يستيقن بأنه على جادة الصواب . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعاً مباشراً نحو جسر اوسترليتز . وطرح سؤالاً على مأمور المكوس أطلعـــه على جليّة الأمر – « هل رأيت رجلاً يصطحب فتاة صغيرة ؟ » فأجابه المأمور : « لقد دفّعته فلسين . » ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض الفضاء التي كانت أشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع « شومان فير سان انطوان » ؛ وفكّر في زقاق جانرو القائم هناك مثل شرَك من الاشراك ، وفي المنفـــذ الوحيد من شارع « دروا مور » الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المـالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله ، من طريق فرعيـــة ، لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من العسس عائدة الى مخفر دار الصناعـــة ، فصادرها وحملها على مرافقته . ففي مثل هذه اللعب يُعتبر الجنـد اوراقاً قوية رابحة . والى هذا فالقاعدة تقول بأن اصطياد الخنزير البري يقتضي علم القانص وقوة الكلاب . حتى اذا أتمّ هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقع في الشرك المؤلف من زقـاق جانرو الى اليمين ، ومساعده الى الشمال ، ومنه هو نفسه ، جافير ، في المؤخرة – عندئذ تناول قبصة * من السـوط .

ثم إنه بدأ يلعب . لقـد استمتع بلحظة نشوى تمور بالخبث . فترك طريده يمضي أمامه ، عارفاً أنه اسيره ، راغباً في ان يرجيء – اكثر ما يستطيـع الارجاء – لحظة اعتقاله ، سعيداً بان يستشعر أنه قد وقـع في قبضته وبأن يراه حراً طليقاً ، ناظراً اليه في مثل لذة العنكبوت التي تدع الذبابة تطنّ ، والهرة التي تدع الفأرة تعدو . إن المخلب والبرثن ليجدان

* القبصة (بالصاد المهملة) : ما تناولته بأطراف اصابعك .

متعة ضخمة في اختلاجة الحيوان الواقع في قبضتها . اي بهجةٍ ينطوي عليها ذلك الخنق !

كان جافير محبوراً . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقاً من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير إطباق يده .

وإذ صحبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطاً ، شديد البأس ، يائساً .

وتقدّم جان فالجان في تؤدة ، جاساً في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية ، فاحصاً إياها ، كما يفعل المرء بجيوب لص من اللصوص .

حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك .

فتصوّرْ حنقه وسخطه .

لقد استجوب الحارس الذي أقامه عند شارعي « دروا مور » و « بيكبوس » . إن ذلك الشرطي ، الذي لزم مركزه من غير ان يبدي حراكاً ، لم يرَ الرجل يمرّ .

قد يتفق في بعض الاحيان ان يسترد أيّلٌ حريته ورأسه مغطّىً ، يعني أنه يفرّ على الرغم من ان كلب القنص جاثم فوقه ، وعندئذ لا يدري أقدم الصيادين ما يقولون . إن دو فيفييه ، ولينييفيل ، وديبريز* ليصابون بالذهول . وفي مناسبة مشابهة تنضح بخيبة الامل صاح آرتونج : « إنه ليس أيّلاً . إنه ساحر ! »

كان جافير يتمنى لو يُطلق مثل هذه الصيحة .

وعرفت خيبة أمله لحظة من اليأس والغيظ الشديد .

من الثابت ان نابوليون ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب ضد الروسيا ، وان الاسكندر ارتكب اخطاء كثيرة في حروبه بالهند ، وان قيصر ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب الافريقية ، وان كوروش

* وهم صيادون مشهورون . وكذلك آرتونج .

ارتكب اخطاء كثيرة في حربه ضد سيثية ، وان جافير ارتكب اخطاء كثيرة في هذه الحملة ضد جان فالجان . لعله قد أخطأ بتردده في إثبات هوية الأشغاليّ العتيق ، فقد كانت النظرة الاولى خليقة بأن تكفيه . ولقد اخطأ إذ لم يُلق القبض عليه ، بكل بساطة ، في ذلك البيت المتداعي . ولقد اخطأ إذ لم يعتقله حين عرفه معرفةً يقينية في شارع بونتواز . ولقد اخطأ إذ تشاور مع مساعديه ، والقمر بدر ، في ساحة رولين . صحيح ان طلب النصح مفيد ، ومن الخير ان يعرف المرء ويستجوب من بين كلابه ذلك النفر الجدير بالاعتماد . ولكن القانص لا يستطيع ان يتخذ من الاحتياطات اكثر مما ينبغي حين يطارد حيوانات قلقة جزوعة كالذئب والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجافير بانهماكه الشديد في وضع كلابه السلوقية على الطريق ، نبّه فريسته الى الخطر إذ جعلها تستروح المطاردة ، وأغراها بالفرار . ولقد اخطأ فوق ذلك كله إذ لعب ، بعد ان اهتدى الى الاثر من جديد في جسر اوسترليتز ، تلك اللعبة الرهيبة الصبيانية التي قضت بأن يُمسك مثلَ هذا الرجل بالطرف الاقصى من الخيط . لقد حسِبَ نفسه أقوى مما كان في الواقع ، واعتقد ان في استطاعته ان يلاعب الأسد كما تُلاعَب الفأرة . وفي الوقت ذاته ظنّ نفسه أضعف مما ينبغي عندما قدّر ان من الضروري ان يلتمس المدد من مديرية الشرطة . فقد كان ذلك الاحتياط مشؤوماً ، بما اضاع عليه من وقت ثمين . لقد ارتكب جافير جميع هذه الاخطاء ، ومع ذلك فقد كان واحداً من اكثر رجال البوليس السريّ حكمةً واشدّهم استقامة في التاريخ كله . لقد كان ، بأقوى معاني الكلمة ، ما يُدعى في فن القنص بالكلاب « كلباً حكيماً » . ولكنْ من ذا الذي يتصف بالكمال ؟

إن لكبار المتمرسين بقيادة الجيوش نصيبهم من الخور ، والاخفاق .

والحماقات الكبرى تتألف عادةً ، كالحبال الضخام ؛ من جمهرة من الخيوط . خذِ الحبل الضخم خيطاً خيطاً ، خذ جميع الدوافع الصغيرة المقرِّرة كلًا على حدة ، تقطّعها واحدةً اثر واحدة ، وعندئذ تقول : « هذا كل ما هنالك ! » . ولكنِ اضفرْها وأحكم إبرامها تصبح قوة جسيمة . إنها آتّيلا * يتردّد بين مارسيان ** في الشرق وفالانتينيان *** في الغرب ؛ وهنيبعل يتأخر في كابوا ؛ ودانتون يستسلم للرقاد في « آرسيس سور أوب » .

وأياً ما كان ، فحتى في اللحظة التي أدرك جافير خلالها ان جان فالجان أفلت من يده لم يفقد صوابه . واذ كان واثقاً من ان الاشغاليّ الفارّ لا يستطيع ان يكون بعيداً ، فقد بثّ الارصاد ، وأقام الاشراك والمكامن ، وجاس خلال الحيّ طول النهار . وكان اول ما رآه ، ذلك التغير الطارىء على مصباح الشارع العمومي الذي قُطع حبله — أمارةٌ ثمينة ولكنها أضلته السبيل ، مع ذلك ، بان جعلته يوجه مباحثه كلها نحو زقاق جانرو . فقد كان في ذلك الزقاق جدران شديدة الانخفاض تطل على حدائق كانت حدودها تمتدّ الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحاً ان جان فالجان قد فرّ في ذلك الاتجاه . والحق ان جان فالجان كان خليقاً بان يفعل ذلك ، لو انه تقدّم الى أبعد قليلًا في زقاق جانرو ، وعندئذ يتعذر العثور عليه . ورادَ جافير تلك الحدائق والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

---

* Attila ملك الهون ، وقد تغلب على عدد من اباطرة الشرق والغرب . ثم ارتدّ اخيراً على ضفاف الدانوب ، حيث توفي عام ٤٥٣ م .

** Marcien مارسيانوس فلافوس امبراطور الشرق الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٥٠ الى عام ٤٥٧ .

*** Valentinien الثالث امبراطور الغرب الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٢٥ الى ٤٥٥ .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد اليهما في أمر الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلاً مثل جاسوس من جواسيس الشرطة اعتقله لص من اللصوص .

الكتاب السادس

پیکپوس الصغیر

١

شارع بيكبوس الصغير ، رقم ٦٢

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن ، ما يمثـــل باب العربات النموذجي الكبير ، في ذلك العهد ، اكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ في شارع بيكبوس الصغير . وكان هذا الباب مُشْرَعاً على نحو نصفيّ مغرٍ الى ابعد حدود الاغراء ، كاشفاً عن شيئين ليسا فاجعين جداً : فِناءٌ مطوّق بجدران مزدانة بالعرائش ، ووجهُ بوّابٍ يقطّع الوقت متنقلاً من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . وفـــوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة . وحين تُبهج اشعة الشمس

الفناء ، وتبهج كأس من الخمر البوابَ يكون من العسير عليك ان تمر برقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تتصرف حاملاً فكرة" ضاحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لمحتَهُ موطناً قاتماً .

لقد ابتسم الجدار . أما المنزل فصلّى وبكى .

ولو قد وُفّقتَ ، وهو امرٌ ليس باليسير ، الى ان تتخطى البوابَ – وهو يكاد يكون مستحيلاً على الكثرة المطلقة من الناس لانه كانت ثمة كلمة سرّ سحرية يجب ان تعرفها – نقول اذا وفقت الى تخطّي البواب فعندئذ تدخل من ناحية اليمين دهليزاً صغيراً يؤدي بك الى سلم محصورة بين جدارين ، ضيقةٍ الى حدّ يجعلها لا تتسع لصاعدَين اثنين في وقتٍ واحد . واذا لم تسمح لنفسك بأن يروّعها ورقُ الجدران الأصفر ذو الاساس الشوكولاتيّ اللون الممتدّ على طول السّلم ، واذا غامرتَ في الصعود ، تصلُ الى منبَسط أول ، ثم الى منبَسط ثانٍ ، وتبلغ الدورَ الثاني برواقٍ يتبعك فيه الصّبغُ الاصفر والقاعدة الشوكولاتية في عنادٍ وديع . إن السلم والرواق مضاءان بنافذتين جميلتين . وفجأة ينعطف الرواق ، ويمسي مظلماً . فاذا تجاوزت ذلك الرأسَ انتهيت ، بعد بضع خطوات ، الى باب يزيده غموضاً وأسراراً كونُهُ غيرَ موصد إيصاداً كاملاً . وتدفع البابَ ، فتجد نفسك في غرفة صغيرةٍ تبلغ مساحتها نحواً من ستة اقدام مربعة ، مفروشةٍ ارضُها بالبلاط ، مغسولةٍ ، نظيفةٍ ، باردةٍ ، مزدانة الجدران بورق نانكين ذي الزهيرات الخضراء ، الذي تُباع اللفّة الواحدة منه بخمسة عشر سو . إن ضوءاً أبيض باهتاً يُقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ، وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنظر ، فلا ترى احداً . وتصغي ، فلا تسمع خطوةً ما ، أو صوتاً بشرياً ما . ان الجدار عارٍ . وليس في الغرفة أثاث ، حتى ولا كرسي واحد .

وتَرْجِعُ البصرَ كرةً اخرى فترى في الجدار الذي يواجه الباب

فتحةٌ مربعة الزوايا تبلغ مساحتها نحواً من قدم مربع ، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية المتعارضة ، السوداء ، الصلبة ، ذات العُقد ، التي ألّفت مربّعات – وكدتُ أقول خلايا شبكة – يقلّ طولها عن إنش واحد . إن زهيرات ورق نانكين الخضراء لتتقدّم في هدوء وفي نظام حتى هذه القضبان الحديدية من غير ان يروّعها أو يشتتها ذلك الاحتكاك الفاجع . ولو قد فرضنا ان كائناً حياً كان من المزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها إذن لحال ذلك الحاجز بينه وبين ما يبتغي . إنه ما كان يجيز للجسد ان يدخل ، ولكنه كان يجيز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا ، بدليل أنهم أردفوا الحاجزَ بصفيحة من التنك رُكّبت في الجدار المتخلّف عنه بعض الشيء وتناثر فيها ألفٌ من الثقوب هي اكثر ميكروسكوبيةً من ثقوب المِرغاة . وفي ادنى هذ الصفيحة كانت فرجةٌ اشبه ما تكون بفم علبة من علب البريد . وكانت شريطةٌ عريضة تتصل بجرس معلق الى يمين الفتحة المقضّبة .

وتحرّك هذه الشريطةَ ، فيرنّ جرسٌ ، وتسمع على مقربة دانية منك صوتاً تجفل منه وترتعد .

ويسأل الصوت :

– « مَنْ هناك ؟ »

إنه صوت امرأة ، صوت عذبٌ ، عذبٌ الى درجة جعلتْه فاجعاً .

وهنا ايضاً كانت ثمةَ كلمة سحرية يجب ان تعرفها . فاذا جهلتها لم تسمع الصوت كرةً اخرى ، ويرتدّ الجدار صامتاً من جديد وكأن ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الآخر .

أما اذا عرفتَ الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

– « أُدخل الى اليمين . »

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، باباً مزجّجاً يعلوه

إطار مزجج ايضاً مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب ، وتحسّ بمثل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شبّاك ، في احد المسارح ، قبل أن يُخفض الشباك وتضاء الأنوار . انك في الواقع في شبه مقصورةٍ مسرحيةٍ ما يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقةٍ ، مؤثثة بكرسيين هرمين ، وحصير من قصب مقطّع الأوصال – مقصورةٍ حقيقية واجهتُها في ارتفاع المتّكأ يعلوها لوح من خشب أسود . وكانت تلك المقصورة ذات شبّاك ، إلا أنه لم يكن شبّاكاً من خشب مذهّب ، كشبابيك الاوبرا ، ولكنْ شباكاً من اعمدة حديدية تداخلت على نحو مخيف ورُسّخت في الجدار بمثبّتات تشبه كل منها جُمْع كفٍّ منشبة الاظفار .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عيناك تألفان هذه العتمة الكهفية ، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة إنشات ليس غير . هناك تبصر حاجزاً من مصاريع النوافذ السوداء وقد ثُبّتت ودُعّمت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وكانت هذه المصاريع ذات مفاصل ، وكانت تنقسم الى أضلاع هزيلة متطاولة ، وتغطي عرضَ القضبان الحديدية بكامله . إنها كانت موصدة ابداً .

وبعد بضع لحظات تسمع صوتاً يناديك من وراء هذه المصاريع ، قائلاً :

– « أنا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

إنه صوت محبّب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتاً تهيم به القلوب . ولا ترى احداً . وما تكاد تسمع تردّد نَفَسٍ من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتاً شبحياً يتحدث اليك من خلال باب القبر .

ولو قد برزْتَ هناك في بعض الاحوال الضرورية ، وهي نادرة جداً ، فعندئذ ينفتح امامك ضلع ضيق من اضلاع تلك المصاريع ،

ويغدو الصوت الشبحيّ طيفاً . فخلف القضبان الحديدية ، وخلف المصراع ، ترى على مقدار ما تسمح القضبان الحديدية ، رأساً لا تلمح منه غير الفم والذقن . أما سائره فمحجوبٌ بنقاب أسود . وتلمح قميصاً نسائياً أسود ، وشكلاً غير واضح المعالم يجلّله كفنٌ اسود . ويتحدث هذا الرأس معك ، ولكنه لا ينظر اليك ، ولا يبتسم لك البتة .

ان النور المنبعث من ورائك مركّز على نحو يجعلك ترى الرأس في النور ، ويجعله يراك في الظلّ . إنه نورٌ رمزيّ .

وفي الوقت نفسه ، تحدق عيناك في لهفة من خلال هذه الفرجة التي انفتحت ، الى ذلك المكان المحجوب عن أعين الرقباء .

إن ظلمة كثيفة لتغلّف هذا الشكل اللابس ثوب الحِداد . وتبحث عيناك في هذه الظلمة ، وتحاول ان تستبين أيّ شيء يحيط بالطيف . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تدرك أنك لا ترى شيئاً . إن ما تراه هو الليل ، والفراغ ، والظلمات ، وضباب الشتاء ممزوجاً ببخار القبور ، ضربٌ من الهدوء المروّع ، وصمتٌ لا تقع فيه على شيء ، حتى على الزفرات نفسها – ظلام لا تتبيّن فيه شيئاً ، حتى الاطياف .

إن ما تراه عيناك هو الجزء الداخلي من دير .

إنه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرناورديات للسجود السرمدي . وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الذي خاطبك أول مرة ، هو صوت البوّابة القاعدة ابداً ، جامدةً صامتةً ، عند الجانب الآخر من الجدار ، قرب الفتحة المربّعة ، تصونها القضبان الحديدية والصفيحة ذات الالف ثقب ، مثل قناع خوذةٍ مزدوج .

أما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المقضّبة فناشئة عن ان غرفة الاستقبال ذات النافذة المطلة على العالم الخارجي لم يكن لها أيما نافذة تطل على ناحية الدير . إن الأعين الدنيوية ينبغي ان لا ترى شيئاً من

هذا المكان المقدس .

بيد أنه كان ثمة شيء وراء هـــذا الظلام ؛ كان ثمة نور ؛ كان ثمة حياة في هذا الموت . وعلى الرغم من ان هـذا الدير كان أمنَع من ايما دير آخر ، فسوف نحاول ان ندخله ، وان نأخذ القارىء معنا ، فنروي بأوسع ما نستطيع مـن الاسهاب شيئاً لم يرو أصحاب القَصَص قط ، فلم يُقدّر لهم بالتالي أن يَرْووه في يوم من الايام .

٢

راهبات الطاعة لمارتن فيرغا

هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤ ، دهراً طويلاً في شارع بيكبوس الصغير ، كان لجماعة من الراهبات البرناورديات اللواتي يدنّ بالطاعة لمارتن فيرغا .

وهكذا فهؤلاء البرناورديات لم يكنّ يُنسبن الى كليرفو ، مثل البرناردين ، ولكنّ الى سيتو ، مثل البنيدكتين . وبكلمة ثانية فانهنّ كنّ من رعايا القديس بنيديكت (بينوا) لا من رعايا القديس برنارد .

وكل مطّلع على الكتب القديمة يعلم أن مارتن فيرغا انشأ عام ١٤٢٥ رهبانية من البرناورديات ـ البنيدكتيات ، وانه جعل سلمنكة مقرّها الرئيسي ، وأسس في آلكالا فرعاً لها .

ثم ان فروع هذه الرهبانية انتشرت في جميع بلدان اوروبة الكاثوليكية .

وتلقيح رهبانية ما برهبانية اخرى على هذا النحو ليس شيئاً غير مألوف في الكنيسة اللاتينية . ونحن نجتزىء بالاشارة الى رهبانية واحدة

هي رهبانية القديس بينوا التي نتحدث عنها هنا . فهذه الرهبانية تنشعب منها ، باستثناء راهبات الطاعة لمارتن فيرغا ، أربع أخويات ، اثنتان في ايطالية ، هما اخوية الـ « مون كاسان » واخوية « سان جوستين » في بادوا ، واثنتان في فرنسة ، هما اخوية « كلوني » وأخوية « سان مور » ، وتسع رهبانيات هي « فالومبروزا » ، و « غرامون » و « السماويون » ، و « الكامالدوليون » و « الكرتوزيون » ، و « المتصنّعون » ، و « الاوليفيتيون » ، و « السيلفيستريون » ، واخيراً رهبانية « سيتو » . لان رهبانية « سيتو » نفسها ، وهي اصلٌ لرهبانيات اخرى ، لا تعدو ان تكون فرعاً من رهبانية القديس بينوا . إن رهبانية سيتو ترقى الى عهد القديس روبير ، راهب موليم ، في ابرشية لانغر ، عام ١٠٩٨ ؛ على حين ان الشيطان الذي اعتزل الناس وانزوى في صحراء سوبياكو (كان عجوزاً ، فهل أمسى ناسكاً ؟) إنما طُرد ، سنة ٥٢٩ ، من هيكل أبولو القديم حيث كان يحيا الى جانب القديس بينوا البالغ عمره آنذاك سبع عشرة سنة .

والواقع ان الأنظمة التي تخضع لها راهبات مارتن فيرغا البرناورديات البنيدكتيات هي أقسى الأنظمة الرهبانية على الاطلاق ، باستثناء أنظمة الكرمليين الذين يمشون حفاةً ، ويطوّقون حناجرهم بقطعة من خيزران ، والذين لا يجلسون أبداً . انهنّ يتشحن بالسواد ، ويرتدين قميصاً يرتفع وفقاً لأمر القديس بينوا الصريح ، حتى الذقن ، وثوباً من نسيج صوفي غليظ ذا ردنين واسعين ، وحجاباً صوفياً كبيراً ، والقميصَ الذي يرتفع الى الذقن وقد شُقّ على شكلٍ مربّع فوق الصدر ، وعصابةَ الرأس التي تنخفض حتى العينين . تلك هي ملابسهن ، وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الرأس فهي بيضاء . والراهبات الحديثات العهد بالترهّب يرتدين الملابس نفسها ، مع فارق وحيد هو ان ملابسهنّ هذه بيضاء كلها . اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هذا بسُبْحة تحملها

كل منهن بجنبها .

وتقوم راهبات مارتن فـيرغا البرنارديات – البنيدكتيات بالسجود الـرمدي على غرار الراهبات البنيدكتيات المعروفات بـ « سيدات سرّ القربان المقدس » ، اللواتي كان لهن في باريس ، عند مطلع هـذا القرن ، ديران احدهما في الـ « تامبل » والآخر في « شارع نوف سانت جانفييف » . وفي ما عدا ذلك فان راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات – البنيدكتيات اللواتي تتحدّث عنهن كنّ يؤلفن رهبانية مستقلة تمام الاستقلال عن « سيدات سرّ القربان المقدس » الحبيسات في « شارع نوف سانت جانفييف » ، وفي الـ « تامبل » . كانت ثمة فروق كثيرة بين أنظمة الجماعتين ، وكان ثمة بعض الفروق في الزيّ . كانت راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات – البنيدكتيات يرتدين قميصاً اسود ، على حين كانت بنيدكتيات سرّ القربان المقـدس وشارع نوف سانت جانفييف يرتدين قميصاً أبيض ويزينّ صدورهن الى ذلك بتمثال للمصلوب مصنوع من الفضة او من النحاس المذهب يبلغ طوله نحواً من ثـلاث بوصات . ولم تكن راهبات بيكبوس الصغير يحملن تمثـال المصلوب هذا . والحق ان السجود الـرمدي ، المشترك بين دير بيكبوس الصغير ودير التامبل ترك الرهبانيتين مختلفتين كل الاختلاف . فثمة تشابه في هذه الناحية فقط بين سيدات سر القربان المقدس وبرنارديات مارتن فيرغا كما كان ثمة تشابهٌ في درس وتمجيـد جميع العجائب المتصلة بطفولة يسوع المسيح وحياته وموتـه ، وبالعذراء ، بـين رهبانيتين منفصلتين أتمّ الانفصال ومتعاديتين في بعض الاحيان : رهبانيـة الـ « اوراتوار » الايطالية التي أسسها في فلورنسة فيليب النيّري ، ورهبانية الـ « اوراتوار » الفرنسية التي أسسها في باريس بيير دو بـيرول . و « أوراتوار » باريس تدّعي حق التصدر ، اذ كان فيليب النيري مجرد قديس ، على حين كان بيرول كاردينالاً .

ولنعد الى انظمة مارتن فيرغا الاسبانية الصارمة .

ان راهبات هذا الدير البرنارديات - البنيدكتيات يمتنعن عن اكل اللحم طوال العام ؛ ويصمن الصوم الكبير واياماً اخرى كثيرة خاصة بهن ؛ وينهضن من نومهن الاول في الساعة الواحدة صباحاً لكي يقرأن كتاب فرض الكهنة ، وينشدن صلاة السَّحَر حتى الساعة الثالثة ؛ وينمن في فُرُش من قش وعلى شراشف من نسيج صوفي غليظ في جميع فصول السنة ؛ ولا يدخلن الى الحمام ابداً ؛ ولا يشعلن ناراً البتة ؛ ويعاقبن انفسهن يوم الجمعة من كل اسبوع ؛ ويلتزمن قاعدة الصمت ، فلا تتحدث احداهن الى الاخرى إلا في اوقات الاستراحة ، وهي قصيرة جداً ؛ ويلبسن قمصاناً صوفية خشنة طوال ستة اشهر ، من ١٤ ايلول ، وهو عيد ارتفاع الصليب ، حتى عيد الفصح . وهذه الستة الاشهر تنطوي على تخفيف ؛ فالنظام يقضي بان يكون ذلك على مدار العام كله . ولكن قميص الصوف الخشن هذا ، غير المحتمل في حر الصيف ، كان يورث لابساته ضروباً من الحمّى والتشنج العصبي . فكان ضرورياً أن يصار الى تحديد استعماله . وحتى مع هذا التلطيف ، فقد كانت الراهبات يُصَبن بعد الرابع عشر من ايلول ، حين يرتدين هذه القمصان ، بحمّى تستمر ثلاثة ايام او اربعة ايام . الطاعة ، الفقر ، العفة ، الثبات على الحياة الرهبانية - تلك هي نذورهن التي كانت انظمتهن تجعل الوفاء بها اشد صعوبة وعسراً .

فكانت رئيسة الدير تُنتخَب من قبل « الامهات » اللواتي كن يسمّين « الامهات الصوتيات » لأن لهن صوتاً في مجلس الراهبات . ولم يكن القانون ليجيز اعادة انتخاب الرئيسة اكثر من مرتين ، وهذا ما جعل أطول ولاية ممكنة لرئيسةٍ ما لا تعدو تسع سنوات .

وما كن يرين قط الكاهن المحتفل بالقداس ، الذي كان محجوباً عنهن ابداً بستار صوفي يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين

يكون الكاهن في الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن . ان عليهن دائماً ان يتحدثن في صوت خفيض ، ويمشين وقد غضضن من ابصارهن ، وطأطأنَ رؤوسهن . ولكن رجلاً واحداً يستطيع ان يدخل الدير ، هو كبير اساقفة الابرشية .

والحق ان ثمة رجلاً آخر قادراً على ذلك ، هو البستاني . ولكنه دائماً رجل عجوز ؛ ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي تُحذّر الراهبات منه فيجتنبنه ، فقد عُلق بركبته جرس صغير .

وهن يدنّ للرئيسة بخضوع مطلق اعمى . انه الخضوع المطابق للقوانين الكنسية بكل ما ينطوي عليه من انكار للذات . الخضوع للايماءة ، للاشارة الاولى *ad nutum, ad primum signum* ، وكأنما هو امتثال لصوت المسيح *ut voci Christi* ؛ الخضوع في الحال ، في سعادة ، في مواظبة ، وفي ضرب من الطاعة العمياء *promptè, hilariter, perseveranter et caeca quadam obedientia* ، كالمبرد في يد العامل *quasi limam in manibus fabri* فهنّ لا يستطعن ان يقرأن او يكتبن شيئاً مهما يكن من غير اذن واضح صريح . *legere vel scribere non addiscerit sine expressa superioris licentia* .

وكانت كل منهن تؤدي ، بدورها ، ما يسمينه « **الاستغفار** » . والاستغفار صلاة يُقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تُقترف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بَغْيٍ وكل جريمة تُرتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحاً ، او من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، تظل الراهبة « المستغفرة » راكعة على الحجر ، امام القربان المقدس ، مشبوكةَ اليدين ، مطوّقةَ العنق بحبل . حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبةَ الذراعين ، مستقبلةً الارض بوجهها . ذلك كل نصيبها من الراحة .

وفيا هي على هذا الوضع تصلي من اجل جميع المذنبين في الكون . إن هذا لشيء عظيم حتى الاعجاز .

واذ كانت الراهبات يقمن بهذا الصنيع أمام وتد تحترق في أعلاه شمعة طويلة فقد كن يقلن من غير تمييز « **ادت صلاة الاستغفار** » او « **ركعت امام الوتد** » . بل ان الراهبات ليؤثرن ، بدافع من الضعة والخشوع ، هذا التعبير الأخير المنطوي على معنى من العقوبة والاذلال .

واداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيهـا النفس كلها . فالراهبة الجاثية امام الوتد لا تلتفت ولو سقطت خلفها صاعقة .

والى هذا ، فهناك ابداً راهبة راكعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجنود في اثناء العمل . وذلك هو السجود السرمدي .

والرئيسة و « الامهات » يحملن دائماً ، تقريبـاً ، اسماء ذات جلال خاص تذكّر ، لا بالقديسين والشهداء ، ولكن بلحظـات من حياة يسوع المسيح ، مثل الأمّ « ميلاد » ، والأمّ « حَمَل » ، والأمّ « تَقْدِمة » ، والأمّ « آلام » . بيـد ان اسمـاء القديسات ليست محظورة .

وحين ترى اليهن لا تبصر غير أفواههن . وكلهن ذوات اسنـان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط . ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلمٍ ادنى درجاتها خسارة النفس .

وكل منهن لا تضيف ، في كلامها ، شيئـاً ما الى ضمير المتكلم المفرد ، فهن لا يملكن شيئـاً ، ولا ينبغي أن يتعلقن بشيء . انهن يُضفن الاشياء كلها الى ضمير جماعة المتكلمين فتقول الواحدة منهن : حجابنا ، وسبحتنا . واذا تحدثت عن قميصهـا قالت : « **قميصنا** » . وفي بعض الاحيان كنّ يولعن بشيء من الاشياء الصغيرة ، بكتاب صلاة ، بأثر نفيس ، بمدالية مقدسة . فما ان يدركن انهن قد شرعن يهمن بذلك

الشيء ، حتى يتعيّن عليهن اطّراحه . إنهن يتذكرن كلمة القديسة تيريز التي قالت لها سيدة عظيمة ، لحظة دخولها في رهبانيتها : « اسمحي لي ، يا أمّ ، ان ابعث في طلب نسخة من الكتاب المقدس أنا شديدة التعلق بها » . فاجابتها بقولها : « آه ، أنت شديدة التعلق بشيء ! وإني افضل ، والحالة هذه ، ان لا تدخلي الى ديرنا . »

ومحظور على ايّ منهنّ ان تنزوي – ان يكون لها بيت ، أو غرفة. إنهن يعشن في قلايا * مفتوحة . وحين تلتقي احداهن بالاخرى تقول : « **الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس !** » فتجيبها زميلتها : « **الى الأبد !** » وتجري المجاملة الاحتفالية نفسها حين تطرق أحداهن باب الاخرى . فما إن يُمس الباب حتى يُسمع من الجانب الآخر صوت عذب يقول في عجلة بالغة : « **إلى الابد !** » ومثلَ جميع الطقوس يصبح هذا الصنيع ، بسبب من العادة ، ميكانيكياً . وقد تقول احداهن في بعض الاحيان « **إلى الابد !** » قبل ان تجد الاخرى متسعاً من الوقت لكي تنطق بهذه الجملة الطويلة حقاً : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! »

وعند « راهبات الزيارة » تقول الراهبة التي تدخل : « *Avé Maria* » ** فتجيبها تلك التي تُدخل عليها في قَليّتها : « *Gratiâ plena* » *** . ذلك هو سلامهن ، وهو « ممتلئ نعمةً » حقاً .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقّات إضافية . وعند هذه الاشارة تقطع الرئيسة ، والامهات الصوتيات ، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمات بالاعمال اليدوية ، والراهبات المستجدات ، وطالبات الترهب – عند هذه الاشارة يقطعن ما كنّ يَقُلْنه ، او ما كنّ يفعلنه ، او ما كنّ يفكرن فيه ،

---

* القلايا : جمع قلية ، وهي الصومعة .

** السلام عليك يا مريم .

*** الممتلئة نعمة .

ويقلنَ جميعاً في صوت واحد ، اذا كانت الساعةُ الخامسةَ مثلًا : « في **الساعة الخامسة ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس !** » فاذا كانت الساعةُ الثامنةَ قلنَ : « **في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة الخ ...** » وهكذا ، وفقاً للساعة كائنةً ما كانت .

وهذه العادة ، المقصود بها أن تقطع التفكير وأن تردّه دائماً الى الله ، معروفة في كثير من الرهبانيات . ولكن الصيغة هي التي تختلف ليس غير . وهكذا فانهم في رهبانية « الطفل يسوع » يقولون : « **في هذه الساعة ، وفي كل ساعة ، فليُضْرِم حبُّ يسوع فؤادي !** »

وراهبات مارتن فيرغا البنيدكتيات ـ البرناردیات ، اللواتي كنّ حبيسات « بيكبوس الصغير » لخمسين سنةً خلتْ ، ينشدنْ قدّاساتهنّ الاحتفالية في نبراتٍ ثقيلة ، وترتيل كنسيّ صافٍ ، رافعاتٍ أصواتهن دائماً طوال القداس . وحيثما وُجدت في كتاب القداس نجمةٌ فاصلة ، يقفْنَ ويقلن في صوت خفيض : « **يسوع – مريم – يوسف** » . وفي الصلاة على الميت يُنشدن في نبرة منخفضة الى درجة يكاد يتعذر على الاصوات النسائية ان تهبط اليها . وإنما يُحدث ذلك اثراً مؤلماً فاجعاً .

وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » قد جعلن كُهَيْفاً تحت مذبحهن المرتفع لدفن مَنْ يتخطّفه الموت من اعضاء الرهبانية . **والحكومة** ، كما كنّ يسمّينها ، ما كانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكُهَيْف . وهكذا كُنّ يفارقن الدير عند الوفاة . وكان ذلك يَحْزُنهنّ ويروّعهن وكأنه مخالفة للشريعة .

وكنّ قد فزنَ ـ وتلك تعزية ضئيلة ـ بامتياز يتيح لهنّ أن يُدفنّ في ساعة مخصوصة ، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيرار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبلُ ملكاً لرهبانيتهنّ .

وكل خميس يسمع هؤلاء الراهبات القداس الصارخ ، وصلاة المساء ، وجميع الصلوات ، فِعلهنّ يوم الأحد من كل اسبوع . والى هذا ،

فهن يتقيدن في ضبط كليّ بجميع الاعياد الصغيرة التي لا يعرفها أبناء الحياة الدنيا ، والتي كانت الكنيسة سخية بها في ما مضى في فرنسة ، ولا تزال سخية بها في اسبانية وايطالية . ولا نهاية لذهابهن الى الكنيسة . أما عدد صلواتهن والمدة التي تستغرقها فليس ثمة ما يمكننا من أن نقدّم فكرةً حسنة عنها خيراً من ان ننقل هذه الكلمة الساذجة التي صدرت عن واحدة منهن : « **ان صلوات طالبات الترهب مروّعة ، وصلوات الراهبات الحديثات العهد بدخول الدير أسوأ ، وصلوات الراهبات ذوات النذور أسوأ وأسوأ .** »

ومرةً كل اسبوع يلتئم مجلس الراهبات ، فتدير الرئيسة الاجتماعَ ، وتشهده « الامهات » . وتُقبل كل راهبة بدورها ، وتركع على الحجر وتعترف ، في صوت عالٍ ، أمامهنّ جميعاً ، بالاخطاء والآثام التي ارتكبتها في اثناء الاسبوع . وتتشاور « الأمهات » ، إثر كل اعتراف ويُعلِنَّ العقوبة جهاراً .

وبالاضافة الى الاعتراف العلني الذي يحتفظن له بجميع الاخطاء الخطيرة ، بعضَ الشيء ، كان عندهن للاخطاء غير المميتة ما يسمينه « عقاب الخطيئة » . وإنما يقضي ذلك العقاب بأن تنطرح الراهبة على وجهها ، أثناء الصلاة ، أمام رئيسة الدير حتى تشير هذه الاخيرة — التي لا تتحدث عنها الراهبات إلا بقولهنّ « أمّنا » — الى الراهبة المعاقَبة ، بضربةٍ رفيقة على كرسيها الخشبي ، أنّ في ميسورها ان تنهض . ويُنزَل « عقاب الخطيئة » بالراهبة لاتفه الاسباب ، كأن تكسر كأساً ، او تمزق حجاباً ، او تتأخر في الصلاة بضع ثوان على نحو غير اراديّ ، او تخرج على اللحن في الكنيسة — إن أياً من هذه الآثام يكفي لانزال « عقاب الخطيئة » . و « عقاب الخطيئة » تلقائيّ مئةً بالمئة . فالمذنبة

نفسُها (وهذه الكلمة هي في محلّها من وجهة النظر الاشتقاقية *) هي التي تحاكم نفسها ، وهي التي تُنزل العقاب بنفسها . وفي الاعياد وأيام الأحد تنشد الصلواتِ اربع من الامهات المرتلات امـــام مقرأ كبير ينتظم اربعة مقــاريء فرعية . وذات يوم استهلت احـدى الامهــات المرتلات مزموراً يبدأ بـ *Ecce* ، وبدلاً من ان تلفظ *Ecce* لفظت هذه العلامات الموسيقية الثلاث في صوت مرتفع : *ut , si , sol* ولقد خضعت ، بسبب من شرود الفكر هذا ، لعقاب استغرق فترة الصلاة بكاملها . ومما جعل الغلطة ضخمةً جداً أن مجلس الراهبات لم يتمالك عن الضحك عند حدوثها .

وحين تُدعى احدى الراهبات الى غرفـــة الاستقبال ، ولو كانت الرئيســةَ نفسها ، فأنها تُسْدل حجابها ، كما نذكر ، على نحو لا يُبدي من وجهها غير الفم .

والرئيســة وحدها تملك حق الاتصال بالغرباء . أما سائر الراهبات فلا يستطعن أن يَرَيْنَ غير اقربائهنّ الأدنَين ، وفي مناسبات نادرة جداً . واذا اتفق ان وفدَ شخص ما ليرى راهبة كان يعرفها او يحبها قبل دخولها الدير اقتضى ذلك مفاوضةً رسمية . فاذا كان الزائر امرأة فقد يُجاز لها هذا في بعض الاحيان . وعندئذ تُقبل الراهبة ، فتتحدث اليهــا المرأة من خلال المصاريع التي لا تُفتح أبداً إلا لأمٍّ او لأخت . ولا نحتاج الى القول ان الزائرين من الرجال لا يحظون بذلك الاذن البتة .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله مارتن فيرغا اكثر صرامة .

إن هؤلاء الراهبات لسنَ مرحات ، متوردات ، ناضرات ، شأنَ فتيات الرهبانيات الاخرى عادةً . إنهن شاحبات الوجوه ، آخـذات باسباب الجِدّ . وبين سنة ١٨٢٥ وسنـــة ١٨٣٠ أصيبت ثلاث منـهن بالجنون .

---

* على اعتبار ان كلمة « الخطيئة » او « عقاب الخطيئة » *Coulpe* وكلمة المذنب *Coupable* مشتقتان في الفرنسية من جذر واحد ، كما ترى .

٣

ضروب من القسوة والصرامة

وتسلخ المرشحة لدخول الدير سنتين على الاقل ، بوصفها طالبة ترهّب ، واربع سنوات في الغالب قبل ان تصبح عضواً في الرهبانية . ثم تقضي اربع سنوات أخرى بوصفها راهبةً مستجدّة . ونادراً ما تعلن النذور النهائية قبل ثلاث وعشرين سنة أو اربع وعشرين سنة . إن راهبات مارتن فيرغا البرناورديات - البنيدكتيات لا يقبلن في رهبانيتهن أرملة مـــا .

وهن يُخضعن انفسهن ، في قلاياهنّ ، لضروب من الأماتة المجهولة التي التي لا يحق لهن أن يتحدثن عنها ابداً .

ويومَ تُتمّ الراهبة المستجدة نذورها الرهبانية تُجلى في أحسن زينة ، وتُحلّى رأسها بالزهر الابيض ، ويُصقل شعرها ويجعّد . ثم إنها تكبّ على وجهها ، وينُشر فوقها حجاب كبير أسود ، وتُنشد صلاة الموتى . وعندئذ تنقسم الراهبات صفّين ، يمرّ احدهما على مقربة منها قائـلاً في نبرةٍ نائحة : « لقد ماتت اختنا ! » ، فيجيبه الآخر في صوتٍ مرنان : « إنها تحيا في السيد المسيح ! »

وفي الفترة التي ترقى اليها هذه القصة أُلحِقتْ بالدير مدرسة داخلية ، تضمّ عدداً من الفتيات النبيلات ، كان معظمه من الموسرات . وكانت من ابرز هؤلاء الآنستان « دو سانت أولير » و « دو بيليسين » ، وفتاة انكليزية تحمل اسم « تالبوت » الكاثوليكي الشهير . وإنما شبّتْ هاته الفتيات – اللواتي نشّأتهن الراهبات بين اربعة جدران – على الخوف من العالم ومن العصر . فقد قالت احداهن لنا ذات يوم : « إن النظر الى حصباء الطريق جعلني ارتجف من قمة رأسي الى اخمص قدميّ » . وكنّ يرتدين ملابس زرقاء ، ويعتمرنّ بقلنسوة بيضـــاء ، ويزيّنّ صدورهن بصلبان من فضة او نحاسٍ مذهّب . وفي بعض الاعياد الكـــبرى ، وبخاصة يومَ عيد القديسة مارتا ، كان يُسمح لهنّ كنعمةٍ عظمى وسعادة قصوى ، أن يرتدين ملابس الراهبات ويؤدين صلوات القديس بنوا وطقوسه يوماً كاملاً . وفي البدء كانت الراهبات ذوات النذور يُعرنهنّ ملابسهنّ السوداء . ولكن ذلك بدا مدنّساً للقدسيات ، فحظّرته الرئيسة . ولم تُجَزْ هذه الأعارة إلا للراهبات المستجدات . ومما يلفت النظر أن هذا التمثيل – الذي كان يُتسامح به ويُشجّع في الدير بروح تبشيرية خفية من غير شك ، ولكي يُغرس في نفوس هؤلاء الفتيات الصغـــار حبّ قَبْليّ للملابس المقدّسة – كان متعة حقيقية وسلوى صحيحة للطالبـات . كنّ يتلهّيْن به ليس غير . كان شيئاً جديداً ، كان تغيـــيراً للجوّ . وإنهما لسببان طفليان ساذجان لا يوفّقان على أية حال الى جعلنا نفهم ، نحن الدنيويين ، تلك السعادة التي ينطوي عليها الامساك بمنضحة المـــاء المقدس ، والوقوف ساعات وساعات على القدمين ابتغاء الانشاد على نحو رُباعيّ امام مِقرأ من المقارىء .

والطالبات يخضعن لجميع طقوس الدير ، خـــلا ضروب التقشف والأماتة . وهناك فتيات عُدّنَ الى العالم ؛ وعلى الرغم من أنهن سلخن عدة سنوات من الزواج فانهن لمّا يُوفقن الى الاقلاع عن عادة القول في سرعة بالغة كلما قرع امرؤ بابهنّ : « إلى الابد ! » . ومثل الراهبات ، كان

محظوراً على الطالبات الداخليات ان يرين احداً غير انسبائهن ، في غرفة الاستقبال . وحتى أمهاتهنّ لم يكن يجاز لهن ان يعانقنهـــنّ . وحسبك دليلاً على الشدة التي اصطُنعت في تطبيق هذه القاعدة ان فتاةً زارتها أمها مصطحبةً اختاً لها صغيرة في الثالثة من العمر . وبكت الفتـــاة ، فقد كانت شديدة التوق الى تقبيل اختها . مستحيل . والتمست ان يُسمح للطفلة بأن تمرّ يدها الصغيرة ، على الاقل ، من خلال القضبان الحديدية لـكي يكون في ميسورها ان تقبّلها . ولكنهنّ أبيْنَ ذلك عليها ، وفي نبرة تـكاد ترشح بالسخط .

٤

مباهج

ومع ذلك فقد ملأت الفتيات الصغيرات هذا البيت المهيب بذكريات فاتنة .

ففي بعض الساعات ، كانت الطفولة تلتمع في هذا الدير . لقد دقت ساعة الاستراحة ، ودار بابٌ على مفاصله . وقالت الطير : حسن ! هوذا سرب من الفتيات الصغيرات ! إن فيضاً من الفتوّة قد أغرق هذه الحديقة التي تخترقها ممرّات على شكل صليب ، مثل كفن من الاكفان . وإن وجوهاً مُشعّة ، وجباهاً بيضاً ، وعيوناً ساذجة تطفح بالضياء البهيج ، وضروباً من الفجر مختلفاتٍ ، قد تناثرت في تلك الظلمة . فبعد ترتيل المزامير ، وقرع النواقيس ، ودقّ أجراس الحزن ، وأداء الصلوات انفجر ، فجأةً ، أزيز هؤلاء الفتيات الصغيرات أحلى وأعذبَ من أزيز النحل . لقد فُتح قفير الجَذَل ، ولقد حملَتْ كلٌّ عسلَها . لقد لعبنَ ؛ لقد تنادَيْنَ ؛ لقد شكّلن جماعاتٍ ؛ لقد ركضْنَ . وهَذَرت في الزوايا أسنان صغيرة جميلة بيضاء . ومن بعيد راقبت الحُجُبُ ضحكَ الضاحكات : ظلال تتجسّس على الاشعة ؛ ولكن ما ضرّهنّ ! إنهن يتلألأن ويضحكن . وهذه الجدران الاربعة المحزونة كانت لها لحظات من الافتتان ايضاً . لقد شاركت ، هي الاخرى — وقد أُضيئت على نحو باهت بما انعكس عليها من ابتهاج غامر — في دوران النحل العذب هذا . وكان ذلك اشبه شيء بوابل من الرياحين يهطل على هذه الجنازة . لقد اخذت الفتيات الصغيرات بأسباب المرح والعبث تحت أعين الراهبات ؛ إن نظرات العصمة لا تُزعج البراءة . وهكذا ، فبفضل هؤلاء الاطفال كانت ثمّةَ ساعةٌ غير متصنّعة وسط

جمهرة من الساعات العابسة الصارمة . لقد وثبت الصغيرات ، ورقصت الكبيرات . ففي هذا الدير امتزجت البهجة بالسماء . ولم يكن ثمة شيء احفل بالفتنة والبهاء من هذه النفوس الناضرة . ولو قد رأى هوميرهذا المشهد إذن لضحك مع بيرّو * ولقد كان في هذه الحديقة السوداء من الصّبا ، ومن الصحة ، ومن الضجّة ، ومن الصياح ، ومن السعادة ما يكفي لازالة التجعدات عن وجوه السيدات العجائز جميعاً ، سواء منهن عجائز الملحمة او عجائز الحكاية ، عجائز العرش او عجائز الكوخ ، من هيكوب ** الى « الأوزّة الأمّ » ***

وفي هذا البيت ، اكثر من أيا مكان آخر في ما يبدو ، كانت تُسمع « نفثات الاطفال » هذه التي تمور بالطلاوة والتي تجعل المرء يضحك ضحكاً حافلاً بالتفكير . فضمن هذه الجدران المأتمية الأربعة صاحت طفلة في الخامسة من عمرها ذات يوم : « **أماه ! إن فتاة كبيرة قالت لي اللحظة إني لن أبقى هنا ، بعدُ ، اكثر من تسع سنوات وعشرة أشهر . ما أعظم سعادتي بذلك !** »

وهناك ، ايضاً ، دار هذا الحوار المأثور :

احدى الامهات الصوتيات . — « لماذا تبكين ، ايتها الطفلة ؟ »

الطفلة (وعمرها ست سنوات) متنهدةً . — « لقد قلتُ لأليس إني اعرف دوس تاريخ فرنسة . فقالت لي بل انتِ لا تعرفينه . وأنا أعرفه حقاً . »

---

* Charles Perrault (١٦٢٨ — ١٧٠٣) كاتب فرنسي وضع عدة حكايات عن الجن خلدت اسمه .

* Hécube زوجة بريام ، وام هيكتور وباريس وغيرهما . وقد خسرت في خلال حرب طروادة جميع اولادها تقريباً البالغ عددهم تسعة عشر ، ورأت زوجها العجوز بريام وزوجها بوليكسين وابنتها وحفيدها يذبحون تحت عينيها ...

*** هي الراوية الخرافية لحكايات بيرو الدائرة كلها حول الجن ، وقد نشرت هذه الحكايات اول مرة عام ١٦٩٧ .

أليس (وعمرها تسع سنوات) . - « لا ؛ إنها لا تعرفه . »
الأم . - « كيف ذلك ، يا بُنيّتي ؟ »
أليس . - « لقد قالت لي ان أفتح الكتاب عند أي موضع منه ، وأن أسألها ايّ سؤال من اسئلة الكتاب ، قائلةً إن في استطاعتها ان تجيب عنه . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « إنها لم تُجب عن السؤال . »
- « حسن . ماذا سألتِها ؟ »
- « لقد فتحتُ الكتاب كيفما اتفق ، طبقاً لقولها ، ووجهتُ اليها اول سؤال وقعتُ عليه . »
- « وما كان ذلك السؤال ؟ »
- كان : « **وما الذي حصل في ما بعد ؟** »
وهناك ، ايضاً ، أبديتْ هذه الملاحظة العميقة حول ببغاء نهمة بعضَ الشيء كانت لاحدى السيدات العاملات في المدرسة الداخلية :
- « **أليست لطيفة ؟ إنها تأكل أعلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة مثل سيدة من السيدات !** »
ومن فوق بلاطة من بلاطات هذا الدير التُقِط هذا الاعتراف ، الذي كتبته مقدّماً ، لكي لا يُنسى ، خاطئة صغيرة في السابعة من العمر :
- « أبتِ ، أنا اتهم نفسي بأني كنت بخيلة .
« أبتِ ، انا اتهم نفسي بأني قد زنيت .
« أبتِ ، أنا أتهم نفسي بأني رفعت عينيّ نحو الرجال . »
وفوق مقعد من مقاعد هذه الحديقة المشوشبة ارتجل هذه القصة فمٌ ورديّ في السادسة من العمر ، وسمعتها أعينٌ زُرْق في الرابعة والخامسة من العمر :

– « كانت ثلاثة ديوك صغار تعيش في بلد مليء بالازهار . فقطفت الديوك تلك الازهار ووضعتها في جيوبها . وبعد ذلك قطفت الديوك الأوراقَ ووضعتها في لعبها . وكان في البلد ذئب ، وكان فيه غابات كثيرة . وكان الذئب في الغابات ، ولقد أكل الديوكَ الصغار . »

وكذلك ، هذه القصيدة الاخرى :

– « كانت هناك ضربة عصا .

« إن بوليشينيل * هو الذي سدّدها الى المرة .

« ولم يُفِدْهُ ذلك شيئاً . ولكنه أوجعها .

« ثم جاءت سيدة فوضعت بوليشينيل في السجن . »

وهناك ، ايضاً ، قيلت هذه الكلمات الرقيقة الممزّقة للقلب على لسان لقيطة صغيرة كان الدير ينشّئها ابتغاء وجـــه الله . لقد سمعت الفتيات الاخريات يتحدّثن عن امهاتهن فهمهمت في زاويتها قائلةً :

– **« أما أنا فأن أمي لم تكن هناك عندما وُلدتُ ! »**

وكانت في الدير بوّابة بدينة كان المرء يراها دائمـاً تجتاز الاروقة في سرعـــة ، حاملةً حزمة مفاتيحها ، وكان اسمها الاخت آغاتة . وكانت الفتيات الكبيرات الكبيرات ، وهن اللواتي يزيد عمرهن عـلى العاشرة ، يناديها آغاتوكليس ** .

وكانت قاعة الطعام غرفةً واسعة متطاولة ومربّعة لا ينفذ اليها النور إلا من نافذة رواقٍ ذات حنيّة ناتئة النقش في مستوى الحديقة . وكانت مظلمةً رطبة ، وملأى – كما قالت الفتيات الصغيرات – بالبهائم . ذلك بأن جميع المواطن المجاورة كانت تزوّدها بأنصبتها من الحشرات . ولقد أطلق على كل من زواياها الأربع ، في لغـــة الطالبات ، اسمٌ خاصّ

* علَم على المهرج ، عند الفرنسيين ، ويقابله في عاميتنا « كراكوز » و«عيواظ».
** Agathoclès طاغية سيراكيوس احدى مدن صقلية . وكان عدواً لدوداً للقرطاجيين (٣٦١ – ٢٨٩ ق . م)

معتبر . فهنـــاك زاوية العناكب ، وزاوية الأساريـــع * ، وزاوية قوارض الخشب ، وزاوية الصراصـــير . وكانت زاوية الصراصير قرب المطبخ ، وكانت تحظى بأجلال كثير ، بسبب من انها كانت أدفأ من سائر الزوايا . ومن قاعة الطعام ، انتقلت هـــذه الاسماء الى المدرسة وساعدت هناك ، كما ساعدت في كلية مازاوان القديمة ، على التمييز مـا بين أربع أمم . وكانت كل طالبة تنتمي الى احدى هذه الأمم الأربع تبعاً للزاوية التي تجلس فيها الى المائدة في غرفة الطعام . وذات يوم ، فيما كان كبير الاساقفة يقوم بزيارتـــه الرعائية ، رأى فتاةً صغيرة جميلة متوهجة الخدين ذات شعر أشقر فاتن تدخل الى الصف الذي كان يمرّ به. فسأل طالبةً اخرى ، وكانت سمراء ساحرةً ذات وجنتين نضرتـــين ، اتفق ان كانت قريباً منه :

– « مَن هذه الفتاة الصغيرة ؟ »

– « إنها عنكبوت ، يا صاحب السيادة . »

– « عجيب ! وتلك ؟ »

– « إنها صرصور . »

– « وتلك ؟ »

– « إنها أسروع . »

– « حقاً . ومن أنت ؟ »

– « انا قارضة من قوارض الخشب ، يا صاحب السيادة . »

ولكل بيت من هذا الضرب فرائده . ففي مطلع هذا القرن كانت إيكووين موطناً من تلك المواطن الجميلة الصـارمة حيث تمت ، في ظل يكاد يكون جليلاً ، طفولة الفتيات الناضرات العود . ففي إيكووين يميّز عند تنظيم موكب القربان المقدس بين العـــذارى وزارعات الرياحين . وكانت ثمة ايضاً « المظلات » و « المباخر » ، وقد حمل الاولون حبال

---

* دود ابيض الابدان ، ينسلخ فيصير فراشاً . واحده أسروع ويسروع .

المظلة ، وأرجح الآخرون المباخر امام القربان المقدس . وكانت الرياحين تُماد الى زارعاتها لا ينازعهن في ذلك احد . وكانت اربع « عذارى » يمشين في مقدمة الموكب . وفي صبيحة اليوم العظيم لم يكن من غير المألوف أن تسمع هذا السؤال في حجرة النوم :

– « ايّكنّ عذراء ؟ »

وتروي السيدة كامبان ان « فتـــاة صغيرة » في السابعة من العمر قالت لـ « فتاة كبيرة » في السادسة عشرة ترأست الموكب ، على حين ظلت هي ، الفتاة الصغيرة ، في المؤخرة :

– « أنتِ عذراء ، أنتِ . اما أنا فلست كذلك ! »

٥
شواغل

وفوق باب حجرة الطعام كُتبت باحرف سوداء ضخمة هذه الصلاة التي كانت تدعى « **الصلاة الربانية البيضاء** » ، والـــتي كانت تملك القوة على ان تقود الناس الى الجنة مباشرة :

– « الصلاة الربانية البيضاء التي صاغها الله ، والتي قالها الله ، والتي وضعها الله في الجنة . في الليـــل ، حين أويت الى الفراش ، أوجدت (كذا) * ثلاثة ملائكة مستلقين على سريري ، أحدهم عنـــد قدَم السرير ، والآخران عند مقدّمه ، ومريم العذراء الطيبة في الوسط ، وقد قالت لي إن عليّ أن أنام ، وان لا ارتاب في شيء . إن الرب الرحيم

* في الاصل Je trouvis بدلاً من Je trouvais أي « وجدت » فالخطأ يتمثل في كيفية صياغة الفعل الماضي من « وجد » ولما لم يكن من سبيل الى التعبير عن ذلك في العربية فقد رأينـــا أن نؤدي المعنى المطلوب بوضع فعل « أوجد » بدلاً من فعل وجد ، أي استعمال صيغة الفعل الرباعية بدلاً من صيغته الثلاثية .

هو ابي ، والعـذراء الطيبة هي أمي ، والرسل الثـــلاثة هم إخوتي ، والعذارى الثلاث هن أخواتي . إن القميص الذي ولد فيه الالـه ليلف جـدي . وان صليب القديسة مارغريت لمكتوبٌ على صدري . وتمضي السيدة العذراء عبر الحقول ، باكيةً من اجـل الرب ، وتلتقي بالسيد القديس يوحنا . سيدي القديس يوحنا ، من اين أقبلت ؟ لقد اقبلت من « آف سالوس » . انت لم ترَ الرب الالـه ، اليس كذلك ؟ إنه على شجرة الصليب ، متدليَ القدمين ، مسمّرَ اليدين ، وعلى رأسه قبعة صغيرة من الشوك الابيـض . إن كل من يردد هذا ثلاث مرات عند المساء ، وثلاث مرات عند الصباح ، يفوز بالجنة في آخر الامر . »

وفي سنة ١٨٢٧ كانت هذه الصلاة المميّزة قد طمست تحت طبقة من الورق مثلثة أُلصقت على الجدار . وهي تذوى حتى هذه الساعة في ذاكرة بعض فتيات ذلك العهد الصغيرات ، وقد امسين الآن سيدات عجائز .

وكان تمثال ضخم من تماثيـل المصلوب معلق على الباب ، يُتمّ زخرف غرفة الطعام هذه التي كان بابها الوحيد ينفتح ، كما نحسب اننا قد ذكرنا ، على الحديقة . وكانت طاولتـــان ضيقتان ، يحيط بكل منهما مقعدان خشبيان ، تمتدان في خطين متوازيين من اقصى قاعة الطعام الى اقصاها. وكانت الجدران بيضاء ، والطاولتان سوداوين ، فقد كان هذان اللونان الحِداديان هما مظهر التنوّع الأوحد في الاديرة . وكانت وجبات الطعام خشنة ، وكانت اغذية الصغيرات أنفسهن صارمة . فكانت الوجبة المترفة عبارة عن طبق واحد يتألف من شيء من اللحم والخضر مجتمعين ، او من سمك مملح . بيد ان هذه اللائحة الموجزة ، التي تُخص بها الطالبات الداخليات وحدهن ، كانت شيئـــاً نادراً جداً . وانما كانت الفتيـــات الصغيرات يأكلن في صمت ، تحت عيني « الأم » المكلفة مراقبتهن ذلك الاسبوع ، والتي كانت تفتح وتغلق ، بين الفينة والفينة ، وفي ضجة ، كتاباً خشبياً ، كلما خطر ببال ذبابة ان تحوّم أو تطنّ خلافاً للقاعدة .

والواقع ان هذا الصمت كان يُتَبَّل بسِيَرِ القديسين تتلى بصوت عال من كرسي صغير ذي مِقرأ قائم عند قدمي تمثال من تماثيل المصلوب . وكانت القارئة طالبة كبيرة تُختار لاداء هذه المهمة طوال اسبوع كامل . وكانت توضع على الطاولة المجردة ، وعلى مسافات بعينهـــا ، آنية فخارية مموهة كانت كل طالبة تغسل فيها قدحها المعدني وصحنها بنفسها ، وكنّ احياناً يُلقين في تلك الآنية بعض النفايات ، كقطعة من لحم قاسية او سمكة فاسدة ؛ وكان ذلك يعرضهن للعقاب . وكانت تلك الآنية تدعى **البرك المستديرة** .

وكانت الطفلة التي تقطع حبـــل الصمت « ترسم بلسانها صليباً » . اين ؟ علـى الارض . كانت تلحس ارض الحجرة . كان التراب ، تلك النهايةُ الواضعةُ حداً لجميع المباهج ، يُكَلَّف بمعاقبة أكمام الرياحين الصغيرة المسكينة هذه حين تُتهم بالزقزقة .

وكان في الدير كتاب لم يطبع منه في ايما يوم من الايام غـــير نسخة وحيدة محظورةٍ قراءتُها . ذلك هو نظام القديس بينوا ؛ سرٌ ينبغي ان لا تنفذ اليـــه عين من الاعين الدنيـــوية غير الطاهرة .

Nemo regulas seu, constitutiones nostras, externis communicabit .

ووفقت الطالبات ، ذات يوم ، الى سرقة هذا الكتاب ، فأخـــذن يقرأنه في لهفة قراءةً كثيراً ما قوطعت بالخوف من ان تفاجئهن احدى الراهبات على تلك الحال ، وهكذا اضطررن الى إغلاق المجلد في سرعة بالغة . انهن لم يَفزْنَ من هذه المخاطرة الكبيرة بغير متعة ضئيلة . ولقد اعتبرن بعض الصفحات المبهمة الباحثة في آثام الصِبْية الصغار « اكـــثر صفحات الكتاب إمتاعاً » .

لقد لعبن في ممر من ممرات الحديقة نهضت على طوله بضع شجرات مثمرة مهزولة ، وبرغم المراقبة الشديدة وقـــوة العقوبات كن يوفقن ،

* كلام لاتيني معناه : لا يجوز لاحد أن يبوح بأنظمتنا وقوانيننا الى الغرباء .

في بعض الاحيان ، حين تهزّ الريح الاشجار ، الى ان يلتقطن ، خلسةً تفاحةً فجةً ، أو مشمشة فاسدة ، أو إجاصة يسرح فيهـــا الدود . وسوف أترك الكلام الآن لرسالة موجودة بين يديّ ، رسالة كتبتْها منذ خمس وعشرين سنة طالبة سابقة ، هي اليوم السيدة دوقة ... ، احدى نساء باريس الاكثر أناقة ، فقد جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد : « كانت الواحدة منا تخبيء إجاصتها أو تفاحتها ما وجدت الى ذلك سبيلاً . حتى اذا صعدنا لنضع الشراشف على الاسرّة في انتظار طعام العشاء وضعَتْها تحت وسادتها ، ثم أكلتها ليلاً في سريرها . فاذا لم تتمكن من ذلك أكلتها في الكنيف . » كانت تلك احدى مُتعهنّ الاكثر حيوية .

وذات مرة ، عند زيارة رئيس الاساقفة للدير ايضاً ، راهنت احدى الفتيات الصغيرات ، الآنسة بوشـــار ، وهي متحـــدرة من اسرة مونمورينسي ، على انها سوف تسأله ان يمنح الطالبات عطلة يوم ، وهو شيء مروِّع في مجتمع كالح الى هذا الحد . وقُبِل الرهان ، ولكـــن أياً من اولئك اللواتي اشتركن فيه لم تعتقد أنها سوف تجـرؤ على ذلك . وحين سنحت الفرصة ، فيما كان رئيس الاساقفـــة يستعرض الطالبات انبثقت الآنـــة بوشار من الصفوف ، مثيرةً ذعر رفيقاتها التي لا يوصف ، وقالت : « مونسينيور ، عطلة يوم واحـــد . » وكانت الآنـــة بوشار طويلة القامة ، ناضرة العود ، ذات وجه ورديّ صغير ليس في العـــالم اجمل منه . وابتسم مسيو دو كيلين وقال : « وكيف ، ايتها **الطفلة العزيزة ، تطلبين عطلة يوم واحد ليس غير ؟ خذي ثلاثة ايام ، اذا شئت . أنا أمنحكن عطلة ثلاثة ايام .** » ولم تستطع الرئيسة ان تفعل شيئاً ، فقد تكلم رئيس الاساقفة . كانت فضيحـةً بالنسبة الى الدير . ولكنها كانت بهجةً بالنسبة الى المدرسة الداخلية . وفي ميسور القراء ان يتخيلوا النتيجة .

بيد ان هذا الدير الفظّ لم يكن من شدة التحصين بحيث تعجز حياة

العالم الخارجي العاطفية ، وبحيث تعجز المأساة وتعجز المغامرة الحبيّة نفسها ، عن النفاذ اليه . ولاثبات ذاك نجتزىء بالنص ، في اختصار ، على واقعة حقيقية لا مراء فيها ، وإن لم يكن لها في ذاتها صلة بقصتنا هذه إذ لا يربطها بها أيما خيط على الاطلاق . وإنما نشير الى هذه الواقعة لكي تتم صورة الدير في ذهن القارىء ، ليس غير .

حوالى تلك الحقبة كانت في ذلك الدير امرأة غريبة ليست براهبة – امرأة كانت تعامل في احترام كبير ، وتدعى **مدام آلبيرتين** . إن احداً لم يكن يعرف عنها شيئاً غير أنها معتوهة ، وان العالم الخارجي كان يفترض أنها ميتة . ولقد كان وراء هذه القصة ، كما قيل ، بعض الترتيبات المالية الضرورية لزواج ضخم .

كانت هذه المرأة البالغة الثلاثين من العمر أو تكاد ، السمراء المليحة ، تحدّق بعينيها السوداوين الواسعتين تحديقاً ضارياً . أكانت ترى ؟ لا أحد يدري . وكانت تنزلق انزلاقاً اكثر مما تمشي مشياً . وما كانت لتتكلم . ولم يكن الناظر اليها ليثق ثقة كاملة من انها تتنفس . فقد كان منخراها رقيقين شاحبين وكأنها لفظت اللحظة آخر نفس من أنفاسها . وكان لمس يدها اشبه شيء بلمس الثلج . وكانت على رقة شبحية عجيبة . فحيثما دخلتْ أوقعت البرد في أوصال الجمع . وذات يوم رأتها احدى الراهبات مارة فقالت لزميلة من زميلاتها : « إن الانسان ليحسبها ميتة . » فأجابتها هذه بقولها : « لعلها كذلك ! »

لقد رُويت قصص كثيرة عن مدام آلبيرتين . كانت موضوع فضول الطالبات الداخليات الدائم . وكان في الكنيسة سدّة تدعى الكوة . وفي هذه السدة ، حيث لم يكن يوجد غير فتحة مستديرة واحدة هي كوة من الكوى ، كانت مدام آلبيرتين تشهد الصلوات والخدمات الدينية . وكانت تستقل بذلك المكان عادةً ، لأن الواعظ أو الكاهن المحتفل بالقداس كان يرى من تلك السدة المرتفعة ، وهو امر محظور

على الراهبات . وذات يوم ارتقى المنبر كاهن شاب ذو رتبة رفيعة هو دوق دو روهان ، عضو المجلس الاعلى الفرنسي ، الذي كان ضابطاً في فرقة « الفرسان الحمر » عام ١٨١٥ ، عندما كان أميرَ ليون ، والذي توفي بعد ذلك ، عام ١٨٣٠ كاردينالاً ورئيس اساقفة بيزانسون . وكانت هذه اول مرة يعظ فيها مسيو دو روهان في دير بيكبوس الصغير . وكان من دأب مدام آلبيرتين ان تستمع الى العظات وتشهد الخدمات الدينية في صمت عميق وسكينة كاملة . اما في ذلك اليوم فأنها لم تكد ترى مسيو دو روهان حتى نهضت نصف نهضة وصاحت وسط سكون الكنيسة الشامل : « ماذا؟ اوغوست؟ » وبُهتت جماعة الراهبات كلها ، والتفتن الى الوراء . ورفع الواعظ عينيه ، ولكن مدام آلبيرتين كانت قد ارتدّت الى جمودها الصامت . إن نفَساً من العالم الخارجي ، إن التماعةً من حياة كانت قد مرّت ، لحظةً ليس غير ، أمام هذا الشكل الميْتِ المثلوج ، ثم تلاشى كل شيء وانقلبت المجنونة ، كرةً اخرى ، الى جثة .

ومع ذلك فان هاتين الكلمتين أطلقتا لسان كل قادرة على الكلام في ذلك الدير . فما اكثر الاشياء التي انطوت عليها تلك الـ « ماذا؟ أوغوست؟ » وما اكثر الايحاءات ! فقد كان اسم مسيو دو روهان ، في الواقع ، هو أوغوست . وكان واضحاً ان مدام آلبيرتين تنتسب الى ارقى طبقة في المجتمع ، ما دامت قد عرفت مسيو دو روهان ، وانها كانت تحتل هي نفسها مكانةً رفيعة ما دامت قد تحدثت بمثل هذه الدالة عن نبيل على مثل هذا العِظَم كله ، وانه كانت لها صلةٌ ما به ، لعلها صلة قرابة ، ولكنها حميمةٌ جداً من غير شك ، ما دامت تعرف « اسمه الصغير » .

وكانت دوقتان قاسيتان جداً ، هما مدام دو شوازيل ومدام دو سيران ، كثيراً ما تزوران الدير ، الذي كان يفتح ابوابه لهما ،

من غير شك ، بفضل مكانتهن النسوية الرفيعة ، فتوقمان الذعر الشديد في المدرسة الداخلية . فما ان تمر السيدتان العجوزان حتى ترتجف الفتيات الصغيرات البائسات ويخفضن اعينهن .

وفوق هذا ، فقد كان مسيو دو روهان ، من غـــير ان يدري ، موضوع انتباه الطالبات واهتمامهنّ . وكان قد عُيّن في تلك الفترة بالذات ، بانتظار رفعِه الى كرسي الاسقفية ، نائباً لرئيس اساقفة باريس . وكان من عادته ان يكثر من المجيء الى الدير لينشد في اثناء الخدمات الدينية المقامة في معبد راهبات بيكبوس الصغير . ولم يكـن في ميسور أيّ من الحبيسات الصغيرات ان تراه بسبب من الستارة الصوفية الغليظـة ، ولكنه كان ذا صوت عذب ، ورقيق بعض الشيء ، فما انقضت برهـة حتى أصبحن يعرفنه ويميزنه من سائر الاصوات . لقد كان فارساً مـن حاشية الملك . والى هذا فقد قيل انه كان شديد الحب للزينة ، وإن رأسه كان مكسواً بشعر كستنائي جميل مُصَفّفٍ دوائرَ دوائرَ ، وانه كان يتمنطق بنطاقٍ عريض متموج رائع ، وإن ثوبه الكهنوتي كان على نحو ليس له في الاناقة ضريب . لقد شغل الى ابعد الحدود جميع هذه المخيلات الفتية التي لا تزيد اعمار صاحباتها على السنة عشر ربيعاً .

ان صوتاً ما لم ينفذ من الخارج الى قلب الدير ، ومع ذلك فقد تقضّتْ سنةٌ نفذَ فيها اليه صوتُ فلوتٍ او ناي . كان ذلك حَدثاً ذا خطر ، ولا تزال طالبات ذلك العهد يذكرنهُ الى اليوم .

كان نايًا يعزف عليه شخصٌ ما في جوار الدير ، وكان ذلك الناي يعزف اللحن نفسه دائماً ، وهو لحن غدا اليوم نسياً منسياً : **يا حبيبتي زيتولبا ، تعالي وتربّعي على عرش روحي !** وكن يسمعنه مرتين او ثلاث مرات يومياً .

وأنفقتِ الفتيات الصغيرات ساعاتٍ في الاستماع الى ذلك اللحن ؛ واضطربت الامهات الصوتيات ؛ وعصف الدوار بالرؤوس ؛ وهطلت

العقوبات تهطالاً . ودام ذلك عدة أشهر . وتدلّهت الفتيات كلهن ، قليلاً أو كثيراً ، بحبّ الموسيقيّ المجهول . فقــد تخيّلت كلّ منهن انها زيتوليا . وكان صوت الناي يُقبل من ناحية شارع « دروا مور » . وكنّ على اتم الاستعداد لأن يقدّمنَ كل شيء ، لأن يضحــين بكل شيء ، لأن يحاولن كل شيء ، لكي يَرَيْنَ ولو ثانيــةً واحدة ليس غير — بل لكي يلمحْنَ هذا « الشاب » الذي كان يعزف هذا العزف العذب على ذلك الناي ، والذي كان يتلاعب في الوقت نفسه ، من غير أن يدري ، بقلوبهنّ جميعاً . والواقع ان بعض الفتيات كن يهربن من باب خلفيّ ، ويصعدن الى الدور الثالث المطـلّ على شارع « دروا مور » محاولاتٍ أن يرينه ، معرّضات أنفسهن لأيام بكاملها من العــذاب . ولكن عبثاً . وذهبت إحداهن الى حدّ ان تمدّ ذراعها فوق رأسها من خلال القضبان الحديدية وتلوّح بمنديلها الأبيض . وخطـتْ فتاتان خطوةً أوسع في ميدان الجرأة . فقد وجـدتا وسيلة للتسلق الى اعلى السطح ، فخاطرتا بنفسيهما ، ووفّقتا آخر الأمر الى رؤية « الشابّ » . كان رجلاً عجوزاً مهاجراً ، مكفوف البصر مهدّماً ، يعزف على الناي في عِلّيّته قتلاً للضجر .

٦
الدير الصغير

كانت ضمن سور « بيكبوس الصغير » هذا ثلاثة أبنية متميّزة كل التميّز : الدير الكبـير حيث تحيا الراهبات ، والمدرسة الداخلية حيث تــنزل الطالبات ، وأخيراً ما كان يدعى **الدير الصغير** . وإنما كان هــذا بناء منفصلاً ذا حديقة ، تتقاسم السكنى فيه عدةُ راهبات عجائز ينتسبن الى

رهبانيات مختلفة ، بقايا أديارٍ خرّبتها الثورة ؛ مجموعة من كل الالوان ، السوداء ، والرمادية ، والبيضاء ، من مختلف الجماعات وجميع الاصناف الممكنة ؛ وهو ما نستطيع ان ندعوه ، اذا جاز مثل هذا التزاوج بين الكلمات ، ضرباً من « الدير اللابس ثوباً متعدد الالوان كثوب المهرّج ».

فمنذ عهد الامبراطورية أجيز لجميع هؤلاء العوانس البائسات ، المشتّتات ، المشرّدات ، أن يجدن مَفزَعاً تحت أجنحة الراهبات البنيدكتيات – البرنارديات . وعيّنت الحكومة لهنّ جعالةً صغيرة ؛ ولقد استقبلتهن راهبات « بيكبوس الصغير » في لهفة . وكان ذلك خليطاً عجيباً . وكانت كل منهنّ تتّبع نظامها الخاص . وفي بعض الاحيان ، كان يُجاز للطالبات ، كتسلية كبرى ، أن يقمن بزيارتهن ، حتى لقد احتفظت هذه الذواكر الغضّة ، في جملة ما احتفظت به ، بذكرى الأم باسيل الطاهرة ، والأم سكولاستيك الطاهرة ، والأم يعقوب .

ووجدت احدى هذه اللاجئات نفسها في بيتها تقريباً . كانت راهبة من راهبات « سانت أور » ؛ وكانت هي الراهبة الوحيدة التي عمّرت من بين المنتسبات الى تلك الرهبانية . وكان دير راهبات « سانت أور » القديم يشغل في مطلع القرن الثامن عشر هذا البيت نفسه الذي امسى في ما بعد ملكاً لراهبات مارتن فيرغا البنيدكتيات . والحقّ أن هذه الراهبة الطاهرة – المعدِمة الى حد لم يمكّنها من ان ترتدي لباس رهبانيتها البهيّ ، وهو ثوب ابيض ذو وشاح قرمزي – كانت قد خلعته ، في تقوىً ، على شخص خشبيّ صغير كانت تريه لزائراتها في رضا وارتياح . حتى اذا حضرتها المنيّة أوصت به للدير . في عام ١٨٢٤ كان قد بقي من هذه الرهبانية راهبة واحدة ، اما اليوم فليس باقياً منها غير دمية .

وبالاضافة الى هؤلاء الامهات الفاضلات كانت بضع عجائز من نساء العالم الخارجي قد حصلن من الرئيسة على إذن يجيز لهنّ ، مثلَ مدام

آليرتين ، ان يتنسكن في الدير الصغير . وكانت بين هؤلاء مــدام بوفور دوتبول ، والمركيزة دوفرين . واخرى لم تكن تُعرف في الدير إلا بالضجة الهائلة التي اعتادت ان تحدثها وهي تتمخّط . وكانت الطالبات يسمينها مدام فاكارميني * . . .

وحوالى سنة ١٨٢٠ او ١٨٢١ التمست مدام جينليس ، التي كانت تحرر في ذلك العهد مجلة صغيرة تدعى « الجَسُور » ، الاذن باحتلال غرفة في دير بيكبوس الصغير . وأوصى دوق اورليان بقبولها . وضجّ القفير بالطنين ، وارتعدت الامهات الصوتيات كلهن . فقد سبق لمدام جينليس ان ألّفت عدة روايات ، ولكنها اعلنت انها كانت اول من يكره هذه الروايات ، وبعد ذلك كانت قد انتهت الى مرحلة تقواها الضارية . وساعدها الله ، وساعدها الامير ايضاً ، فدخلت .

وما هي الا ستة اشهر او ثمانية اشهر حتى غادرت الدير ، مبرّرةً ذلك بان الحديقة غير ظليلة . واستبدّ الطرب بالراهبات . فعلى الرغم من بلوغها سن الشيخوخة فقد كانت لا تزال تعزف على القانون ، وفي براعة فائقة .

وعند مغادرتها الدير ، تركت طابعها في قَلِيّتها . فقد كانت مدام جينليس مؤمنةً بالخرافات ، مولعة باللغة اللاتينية . والواقع ان هاتين الكلمتين تقدّمان الينا صورةً جانبية حسنةً عنها . وبعد بضع سنوات ، كان لا يزال في ميسور المرء ان يرى هذه الابيات اللاتينية الخمسة الملصَقة في خزانة صغيرة في قَلِيّتها حيث كانت تحفظ اموالها وجواهرها . وإنما كتبت هذه الابيات بخطها ، وبحبر احمر ، على ورقة صفراء ، وكانت تؤمن بأن في مقدرتها ان تطرد اللصوص وتروّعهم .

---

* تحسن الملاحظة ان لفظة Vacarmine في الفرنسية تفيد معنى الضجة والضوضاء والجلبة فكأن الطالبات قد سمّين تلك الراهبة « السيدة ضجة » .

Imparibus meritis pendent tria corpora ramis:
Dismas et Gesmas , media est divina potestas ;
Alta petit Dismas , infelix , infima , Gesma .
Nos et res nostras conservet summa potestas .
Hos versus dicas , ne tu furto tua perdas .

وهذه الابيات التي ترقى الى القرن السادس تجعل المرء يتساءل : أكان اسما لصّيْ جلجثة ** « ديسماس » و « جيستاس » ، كما يعتقد الناس ، أم « ديسماس » و « جيسماس » ؟ وهذا الرسم الاخير للكلمة خليق به ان ينافي ما ادّعاه الفيكونت دو جيستاس ، في القرن الماضي ، من انه متحدر من اللص المشؤوم . وفوق هذا فقد كان الأيمان بأن هذه الابيات تضرّ وتنفع عقيدةً جوهرية عند « رهبانية المضيفات » او خادمات المرضى .

وكانت كنيسة الدير ، المشيدة على نحو يجعلها تفصل ، جهد الطاقة ، ما بين الدير الكبير والمدرسة الداخلية ، مَعْبداً مشتركاً ، طبعاً ، للمدرسة الداخلية والدير الكبير والدير الصغير جميعاً . وحتى الجمهور ، كان يُجاز له الدخول اليها من شبه مَحْجَر صحيّ ينفتح على الشارع . ولكن كل شيء كان يُنَظَّم على نحو يجعل من المتعذر على ايّ من اهل الدير رؤية وجه من الوجوه الخارجية . تخيَّلْ كنيسة تهيمن يدٌ جبّارة على جوقة المنشدات فيها ، وتلويها بحيث لا تشكل ، شأنها في الكنائس العادية ، امتداداً خلف المذبح ، ولكن شبه غرفةٍ او كهف

* « هناك ثلاثة اجسام تتدلى باستحقاقات مختلفة ،
ديسماس وجيسماس ، وبينهما السلطة الالـٰهية ،
إن ديسماس يرتفع نحو الاعالي ، اما جيسماس فيهبط الى الهاوية ،
فلتحافظ السلطة الالـٰهية علينا وعلى ممتلكاتنا .
ردّد هذه الابيات إذا أردت ان لا يسرق اللصوص اموالك . »

** جلجثة ، أو موضع الجمجمة ، جبل قرب القدس ، صلب عليه يسوع المسيح . ولصا جلجثة هما اللصان اللذان جُعل احدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وصلبا معه .

مظلم الى يمين الكاهن ؛ تخيّلْ هذه الغرفة وقد أوصدت بالستارة البالغ ارتفاعها سبعة اقدام والتي تحدثنا عنها آنفاً ، وكدّس في ظلّ هـذه الستارة ، وعلى كراسيّ خشبية ، راهباتِ الجوقة الى اليسار ، والطالباتِ الى اليمين ، والراهباتِ القائمات بالاعمال اليدوية والراهبات المستجدات في المؤخرة تَفُزْ بفكرة ما عن راهبات « بيكبوس الصغير » حين يشهدن القداس . وكان هذا الكهف المدعو الجوقة ، يتصل بالدير من طريق مجاز ضيّق . وكانت الكنيسة تستمدّ الضوء من الحديقة . وحين كانت الراهبات يشتركن في احتفالات دينية تفرض انظمتهن عليهن التزام الصمت فيها ، كان الجمهور لا يحس بوجودهن إلا من خلال صوت المقاعد الكنسية المرتفعة حيناً ، المنخفضة حيناً آخر .

٧
بعض الصور المظلّلة في هذا الظلام

في مدى الست السنوات التي تفصل عام ١٨١٩ عن عام ١٨٢٥ كانت رئيسة « بيكبوس الصغير » هي الآنسة دو بلومور ، الذي كان اسمها الديني الأم إينوسانت . كانت من اسرة مارغريت دو بلومور ، مؤلفة « **سِيَر قديسي رهبانية القديس بينوا** . » وكان قد أعيد انتخابها للرئاسة . امرأة في نحو الستين ، قصيرة ، بدينة ، « تغني مثل القدر المصدوعة » كذلك تقول الرسالة التي سبق ان استشهدنا ببضعة اسطر منها . ولكنها كانت امرأة ممتازة ، وكانت الشخصية المبتهجة الوحيدة في الدير كله ، ومن أجل ذلك حظيت بأعظم الاحترام والاجلال .

وكانت الأم إينوسانت تشبه جدتها مارغريت ، مؤرخة الرهبانية

وعالمتها . كانت حسنة الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عالمة ، بارعة ، شديدة الشغف بالتاريخ ، محشوّة باللاتينية ، متخمة باليونانيـة ، ملأى بالعبرية ، وراهباً اكثر منها راهبة .

وكانت نائبة الرئيسة راهبة اسبانية عجوزاً تكاد تكون مكفوفة البصر ، هي الام سينيريس .

وكانت ارفع « الامهات الصوتيات » مقاماً الامّ سانت هونورين ، الخازنة ، والام سانت جيرترود ، معلمة الراهبات المستجدات الاولى ، والأم سان آنج ، المعلمة الثانية ، والأم « البشارة » ، القيمة على الكنيسة ، والأم سان اوغوستين ، الممرضة ، وهي الخبيثة الوحيدة في الدير كله ؛ ثم الأم سانت ميشتيلد (الآنسة غوفان) وكانت غضة العود ذات صوت ساحر ؛ والأم ديزانج (الآنسة درووبه) التي كانت من قبل في دير « راهبات الرب » وفي « دير الكنز » بين « جيزور » و « مانيي » ؛ والأم ســـان جوزيف (الآنسة دو كوغولودو) ؛ والأم سانـت آديلاييد (الانسة دو فــيرني) والأم « الرحمـــة » (الآنسة دو سيفيووانت التي لم تستطع احتمال اسبـــاب التقشف والاماتة) ؛ والأمّ « الرأفة » (الآنسة دو لا ميلتيير التي قُبلت في الستين من عمرهـــا ، برغم النظام ، وكانت غنية جداً ؛ والأم « العنـــاية الالهية » (الآنسة دو لودينيير) ؛ والأم « تقدمة العـــذراء » (الآنسة سيغويانزا) التي كانت رئيسة في عام ١٨٤٧ ؛ واخيراً الأم سانت سيليني (اخت المثّال سيراتشي) وقد اصيبت بالجنون ؛ والام سانت شانتال (الآنسة دو سوزون) وقد اصيبت بالجنون ايضاً .

وكان بين اكثرهن جمالاً ، ايضاً ، فتاة فاتنة في الثالثة والعشرين ، من جزيرة بوربون ، وكانت تنحدر من سلالة الفـــارس روز . ولقد عرفها الناس في العالم الخارجي باسم الآنسة روز ، على حين دعت هي نفسَها الأمّ « انتقال العذراء » .

وكانت الأم سانت ميشتيلد ، المكلفة بالانشاد والجوقة ، تفيـد من

الطالبات ، بسرور ، في هذه المهامّ . كان من دأبها ان تأخذ سُلـّماً موسيقياً كاملاً منهنّ ، يعني سبع طالبات ، من سنّ العاشرة حتى السابعة عشرة ، متناسقات الاصوات والقامات ، وتدعوهن الى الانشاد واقفاتٍ ، ينتظمهنّ صفٌّ اتخذن مواقعهن فيه وفقاً للسنّ ، فهو يبدأ بالصغرى وينتهي بالكبرى . وكان ذلك يعرض على الانظار شيئاً اشبه بشبّابةٍ من الفتيات الصغيرات ، ضرباً من ِمصفارٍ حيٍّ مصنوع من ملائكة .

وكانت الطالبات يُحبّبنَ من بين الراهبات القائمات بالأعمال اليدوية ، بخاصة ، الاخت سانت اوفرازي ، والاخت سانت مارغريت ، والأخت سانت مارتا ، التي كانت مضطربة العقل ، والاخت سان ميشيل التي كان أنفها الطويل يُضحكهنّ .

وكان اولئك النسوة جميعاً لطيفاتٍ مع هؤلاء الفتيات جميعاً . كانت الراهبات قاسياتٍ على انفسهنّ ليس غير . فلم تكن النار تُضْرَم إلا في المدرسة الداخلية ؛ وكان الطعام المقدّم في هذه المدرسة ، اذا ما قيس بطعام الدير ، شيئاً فاخراً . والى هذا ، فقد كنّ ينعمن بألف ضربٍ من العناية . كل ما في الأمر أن الراهبة كانت اذا مرّت بها طفلة وألقت عليها التحية ، اعتصمت بالصمت فلم تردّ على تحية الطالبة قط .

وأدت قاعدة الصمت هذه الى هذه النتيجة ، وهي ان الكلام انتُزِعَ ، في الدير كله ، من الكائنات الحية ومُنِحَ للجمادات . ففي بعض الاحيان كان ناقوس الكنيسة هو الذي يتكلم ، وفي بعض الاحيان كان المتكلم هو جُلجل البستاني . وكان ثمة جرسٌ مرنانٌ جداً موضوعٌ الى جانب المرأة البوابة فهو يُسمع في ارجاء البيت كله . وكان هذا الجرس يُفصح بنبراته المتباينة ، التي كانت ضرباً من التلغراف المقوّي للصوت ، عن جميع أفعال الحياة المادية التي يتعيّن القيام بها ، ويدعو الى غرفة الاستقبال ، عند الاقتضاء ، هذه او تلك من أهل الدير . فقد كان لكل شخص ولكل شيء دَقته الخاصة . فدقة الرئيسة

واحد وواحد . ودقة نائبة الرئيسة واحد واثنان . وكانت ستة وخمسة تعلن بدء الدرس ، بحيث أنّ الطالبات كنّ لا يقلن إنهن ذاهبات الى الدرس ابداً ، ولكنْ يقلن إنهن ذاهبات الى ستة وخمسة . وكانت اربعة واربعة هي دقة مدام دو جينليس الخاصـــة . وكانت تسمع في كثير من الاحيان . فتقول اللواتي لا يحببْنَ القريب أبداً . « هـذا هو الشيطان الرباعيّ . » وكانت الدقات التسع عشرة تعلن حدثـــاً خطيراً . إنه فتح باب الجزء المحرّم من الدير إلا على أهـله - صفيحة حديدية مروّعة شائكة بالمزالج لا تدور على مفاصلها إلا امـام رئيس الاساقفة

فباستثنائه واستثناء البستاني ، كما قد ذكرنا ، لم يكن في ميسور أيما رجل أن يدخل الى الدير . أما الطالبات فرأين رجلـين آخرين : اولهما المرشد ، الأب بانيس العجوز ، القبيح ، الذي كنّ يتمتعن بامتياز النظر اليه أثناء الانشاد ، من خلال قضبان نافذة ما . والثـاني معلّم الرسم ، مسيو آنسيو *Ansiaux* ، الذي تدعوه الرسالة التي اقتطفنا بضعة أسطر منها مسيو آنسيو *Anciot* ، وتصفه بقولها إنه **أحـــدب عجوز راعب** .

ونحن نرى أن جميع الرجال كانوا مختارين .

كذلك كان هذا الدير الغريب .

٨

« بعد القلوب الحجارة » *

بعد أن رسمنا ملامح الدير الاخلاقية رسماً أوليا نرى ان من المفيد

* وقد ورد في الاصل ، باللاتينية هكذا : *Post Corda Lapides*

أن نقول بضع كلمات في هيئته المادية . ولقد كوّن القارئ حتى الآن فكرةً ما عن ذلك .

كان دير « بيتي بيكبوس سان انطوان » يستغرق ، تقريباً ، كامل المربّع المنحرف الكبير المشكّل من تقاطع شارع بولونسو ، وشارع « دروا مور » ، وشارع بيكبوس الصغير ، والزقاق المسدود المدعوّ في الخرائط القديمة شارع أوماريه . وكانت هذه الشوارع الأربعة تحيط بذلك المربّع المنحرف مثل خندق من الخنادق . وكان الدير مؤلفاً من عدة أبنية وحديقة . وكانت البناية الرئيسية ، اذا ما اعتُبرتْ جملةً ، مجموعةً من المنشآت النغلة التي تتبدّى ، إن نُظِر اليها نظرةَ طائر ، أشبهَ شيء بشنقة مطروحة على الارض .

كانت ذراع المشنقة الكبرى تمتدّ على طول شقة شارع « دروا مور » الواقعة ما بين شارع بيكبوس الصغير وشارع بولونسو . أما ذراعها الصغرى فكانت واجهةً عالية ، رمادية ، قاسيةً ، مشبّكةً تطلّ على شارع بيكبوس الصغير . وكان باب العربات ، رقم ٦٢ ، هو حدّها الاقصى . وحوالى منتصف هذه الواجهة كان الغبار والرماد قد بيّضا باباً عتيقاً منخفضاً مقنطراً نسجت العناكب خيوطها عليه ، ولم يكن ليُفتح غير ساعة او ساعتين يوم الأحد وفي المناسبات النادرة حين يُخْرَج من الدير جثمان راهبة . كان هو المدخل العمومي للكنيسة . وكان مرفق المشنقة قاعةً مربّعة تُصْطَنَعُ مكتباً ، وكانت الراهبات يسمينها « بيت المؤونة » . وفي الذراع الكبرى كانت قلايا « الأمهات » و « الاخوات » والراهبات المستجدات . وفي الذراع الصغرى كانت المطابخ ، وقاعة الطعام ، مبطّنةً برواق الدير ، وكانت الكنيسة . وبين الباب رقم ٦٢ وزاوية زقاق أوماريه الموصد كانت المدرسة التي لم يكن في ميسور المرء ان يراها من الخارج . أما بقية المربّع المنحرف فألّفت الحديقة التي كانت أدنى من مستوى شارع بولونسو الى حدّ جعل

الجدران مرتفعة من الداخل اكـــثر من ارتفاعها من الخارج بكثير . وكان في وسط الحديقة ، المحدَّبة بعضَ الشيء ، وعند قمة رابية صغيرة، شجرة شربين جميلة ، محـدّدة الرأس مخروطية الشكل ، تنفصل عنها ، وكأنما تنفصل من نقطة الدائرة في تُرْس ، أربعة ممرات عريضة يتخللها ثمان ضيّقة ٌ تمتدّ اثنين اثنين بحيث كانت خريطةُ الممرات الهندسيـــةُ خليقةً بأن تشبه - لو كان السياج دائرياً - صليباً وُضع على دولاب . وكانت الممرات ، المنبسطة كلها نحو جدران الحديقة غير المتسقة ، ذات أطوال متباينة . وكانت تكتنفها شجيرات عنب الثعلب . وفي طرف الحديقة الاقصى امتدّ صفّ من شجرات الحَور الضخام من خرائب الدير القديم القائمـــة عند زاوية شارع « دروا مور » إلى بناية الدير الصغير القائمة عند زاوية زقاق اوماريه . وأمـــام الدير الصغير كان ما يدعى الحديقة الصغيرة . أضف الى هذا المجموع فِناءً ، ومختلفَ ضروب الزوايا التي شكّلتها عدةٌ من الابنية المنفصلة ، وجدراناً كجدران السجون ، وصفّاً طويـــلاً أسود من السطوح الممتدة في محاذاة الجانب الآخر من شارع بولونسو والتي تشكل المنظر الوحيد والمكان المجاور الوحيد اللذين تُطلّ عليها المؤسسة ، وعندئذ تستطيع ان تكوّن فكرة كاملةً عما كان عليه ، لخمسٍ واربعين سنةً خلت ، دير بيكبوس الصغير الخاص بالراهبات البرنارديات . لقد بُني هذا البيت المقدس على ارض ملعب للتنس حظيَ بشهرة واسعة ابتداءً من القرن الرابـــع عشر حتى القرن السادس عشر وكان يدعى « ملعب الشياطين الأحد عشر ألفاً . »

والى هذا فقد كانت هذه الشوارع كلها من أقـدم شوارع باريس . وهذا الاسمـــان ، « دروا مور » و « أوماريه » عتيقان جـــداً . والشارعان اللذان يحملانها هما أشد عتقاً ايضاً . فقـد كان زقاق أوماريه يدعى زقاق موغو ؛ وكان شارع « دروا مور » يـــدعى شارع الـ « إيغلانتييه » لان الله فتّح الازهـــار قبل ان يقطّع الانسان

الحجارة . *

٩
قرن من الزمان في زي الراهبات

ما دمنا نفصّل القول في ما كان من قبلُ دير بيكبوس الصغير ، وما دمنا قد جرؤنا على ان نفتح نافذة على هذا الملاذ المنعزل فأن القاريء سوف يغفر لنا استطراداً آخر غريباً عن موضوع هذا الكتاب ولكنه مميّز ومفيد اذ يعلّمنا أن لرواق الدير المسقوف نفسِهِ شخصياته الغريبة الشاذة .

فقد كان في الدير الصغير راهبة في المئة من عمرها وفدت من دير فونتيفرو . والواقع انها كانت قبل الثورة من نساء المجتمع الرفيع . ولقد اكثرت من الكلام عن مسيو ميرومسنيل ، وزير العدل في عهد الملك لويس السادس عشر ، وعن سيدةٍ ما ، تُدعى الرئيسة دوبلا ، وكانت تعرفها معرفة جيدة . فقد كان مما يُبهجها ويثير زهوها ان تسوق هذين الاسمين في كل مناسبة . وكانت تروي عجائبَ عن دير فونتيفرو ، وانه كان مثل مدينة من المدن ، وانه كان في داخله شوارع .

وكانت تتحدث بلهجة بيكاردية أبهجت الطالبات الداخليات . وكلّ عام ، كانت تجدّد نذورها في أبهة . وكان من دأبها ان تقول للكاهن عند حلفها اليمين : « إن مونسينيور القديس فرانسوا أعطاه لمونسينيور القديس جوليان ؛ ومونسينيور القديس جوليان أعطاه لمونسينيور القديس

* يحسن بالقاريء ان يعلم ان كلمة إيغلانتيه Eglantier تعني النسرين ، وهو زهر ، وان كلمة « مور » Mur تعني الجدار ، وإنما تشاد الجدران من حجارة .

اوزيب ؛ ومونسينيور القـــديس اوزيب أعطاه لمونسينيور القـــديس بروكوب الخ . الخ ، وهكذا فاني اعطيك إياه ، يا أبتِ ! » وعندئذ كانت الطالبـات يضحكن ، لا في أردانهن" كما يقولون ، ولكن في حُجُبِهن" ، ضحكاتٍ صغيرة ساحرة مكبوحـة كانت تحمل « الأمهات » على العبوس والتقطيب .

وذات يوم كانت الراهبة المئوية تروي بعض الحكايات . فقالت : **إن الرهبان البرناردين كانوا في أيام صباها لا يسمحون لفرسان الملك بأن يتقدموا عليهم في المجالس** . كان قرن من الزمان يتكلم ، ولكنه كان القرنَ الثامن عشر . وتحدّثت عن عادة الخمور الاربع التي كانت شائعة في شامبانْيْ وبورغونْيْ قبل الثورة . فحين كانت شخصية كبيرة ، مـــن مثل مارشال فرنسة ، او امـــير من الامراء ، او دوق من الدوقات ، او عضو في المجلس الاعلى ، يمر بمـدينة من مدن بوغورنْيْ او شامبانْيْ كانت هيئة المدينة تستقبله ، وتخطب بـــين يديه ، وتقدّم اليه أربع كؤوس فضية صُبّت فيها اربعة ضروب من الخمر . وكانت منقوشاً على الكأس الأولى : **خمر القرد** ؛ وعلى الثانية : **خمر الاسد** ؛ وعلى الثالثة : **خمر الخروف** ، وعـلى الرابعة : **خمر الخنزير** ، وكانت هذه النقوش الاربعة تعبّر عن درجات السُّكْر الاربع المنحدرة : الاولى تلك التي تُبهج ، والثانية تلك التي تَهيج ، والثالثة تلك الـــتي تخبّل ، والاخيرة تلك التي تجعل الشارب وحشياً .

وكان لديها في احدى الخزائن المقفلة شيء غريب كانت شديـــدة الهيـام به . ولم يكن نظام دير فونتيفرو ليحظّره . وكانت لا تُري هذا الشيء لامرىء ما . فقد كان من دأبهـا ان توصد الابواب عـــلى نفسها — وهو أمرٌ يُجيزه نظامها — وتختبىء كلما أرادت النظر إليه . حتى إذا سمعت وَقْع أقدام في الرواق اغلقت الخزانة أسرعَ مـا تستطيع إغلاقها بيديها الهرمتين . وما إن يتحدث اليها احد في ذلك حتى تعتصم

بالصمت ، على الرغم من ولوعها بالكلام . وكان أكثر النسوة فضولاً ينقلبن خائبات أمام صمتها ، وأكثرهن إصراراً ينقلبن خائبات امام عنادها. وكان هذا ، ايضاً ، موضوع تعليق عند كل عاطلة عن العمل وكل من أصابها السأم في الدير . إذ ما الذي يمكن أن يكونَهُ ذلك الشيء ، النفيس جداً ، السرّي جداً ، الذي كان كنزَ الراهبة المثرية هذه ؟ لا شك في أنه كتاب مقدسٌ ما ، أو سبحةٌ فريدة ، أو ذخيرة مثبتة . لقد تِهْنَ في مفازة من الأحداس والافتراضات . حتى إذا توفيت العجوز المسكينة هرعن إلى الخزانة بأسرع مما يقضي به العرف ، في ما يبدو ، وفتحنها . فوجدن موضوع فضولهن تحت نسيج قطني ثلاثيّ مثل كأس مقدسة على شكل صَحْفة صغيرة . كانت صُحَيْفةً من صحاف فينزا * تمثّل أحبّة شرعن في الطيران وقد طاردهنّ غلمانٌ صيادلةٌ مسلّحون بمحاقن ضخام . والمطاردة ملأى بالايماءات المضحكة والأوضاع الهزلية . ولقد أثخن أحد الأحبة بالطعنات ، فهو يناضـــل ، وهو يهزّ جناحيه الصغيرين ، محاولاً أن يعاود الطيران ، ولكن الغلام الظافر مرحاً يُطلق ضحكة شيطانية . المغزى : — الحب مهزوماً بالمغص . وهذه الصُحَيْفة الغريبة جداً فوق ذلك ، والتي ربما كان لها شرف الايحاء بفكرة ما الى موليير ، كانت لا تزال موجودةً في أيلول ، عام ١٨٤٥ . كانت معروضة للبيع في دكان من دكاكين السّلع المستعملة في جادة بومارشيه .

إن هذه العجوز الطيبة لم تكن ترغب في استقبال زائر يفد من العالم الخارجي لرؤيتها ، **لان غرفة الاستقبال — كما قالت — كانت مظلمة أكثر مما ينبغي .**

---

* مدينة ايطالية اشتهرت قديماً بصناعة الخزف .

١٠

اصل « السجود السرمدي »

ومع ذلـــك فغرفة الاستقبال هذه التي تكاد أن تكون قَبْرية ، والتي حاولنا أن نعطي القارىء فكرة عنها ، مظهرٌ محليٌّ محضٌ لا نقع على مثله ، بالصرامـــة نفسها ، في الأديرة الأخرى . ففي دير شارع الـ « تامبل » على الخصوص ، الذي كان ينتمي في الحق الى رهبانيـــة أخرى ، استعيض عن المصاريع السود بستائر سمـراء ، وكانت غرفـــة الاستقبال نفسها صالةً مبلطةً بالخشب ، محجوبةً نوافذُها بالشاش الموصلي الأبيض ، مزدانةً جدرانُها بضروب من الصور ، ومنها رسم راهبـــة بنيدكتية حسرت عن رأسها ، وباقات من الزهر ، بل ورأس رجـــل تركي أيضاً .

وإنما نهضت في حديقة دير شارع الـ « تامبل » نفسها شجرة الكستناء الهندية تلك التي كانت تعدّ أكبر زميلاتها وأجملهن في فرنسة ، والـــتي اشتهرت عند شعب القرن الثامن عشر الطيب بأنها **أُمّ جميع شجرات الكستناء في المملكة** .

وكما ذكرنا سابقاً ، كان يحتلّ ديرَ الـ « تامبل » هذا راهباتُ السجود السرمدي البنيدكتيات ، وهن غير أولئك البنيدكتيات المنبثقات مـــن « سيتو » . ورهبانية السجود السرمدي هذه ليست قديمة جداً ، فهي لا ترقى الى أكثر من مئتي عام . ففي سنة ١٦٤٩ دُنّس القربان المقدس مرّتين متواليتين ، خلال بضعة أيام ، في اثنتين من كنائس باريس ، في كنيسة « سان سولبيس » وكنيسة « سان جان آنغريف » — وهو خرق للقدسيات مروّع ونادرٌ أحدث هزة عنيفة في المدينة كلها . فأقام النائب الأسقفي رئيس دير « سان جيرمان دي بريه » موكباً دينياً مهيباً حشد

له كهانه جميعاً ، وقدّس * فيه سفير البابا . ولكن هذه الكفارة لم تكن كافية في نظر سيدتين نبيلتين هما مدام كورتـــين ، المركيزة دو بوك ، والكونتس دو شاتوفيو . فهذا الانتهاك لحرمة « سر المذبح البالغ الجلال » رغم أنه عابرٌ ، لم يبرح ذهنَي هاتين النفسين القدسيتين ؛ ولقد بدا لهما أنْ لا سبيل الى أن يُكفّر عنـــه الا « بسجود سرمدي » في دير ما . فقدّمتا كلتاهما ، الواحدة عام ١٦٥٢ ، والأخرى عام ١٦٥٣، هباتٍ ضخمة الى الأم كاترين دو بار ، الملقبة بكاترين القربان المقدس ، وكانت راهبة بنيدكتية ، لكي تمكّناها من تأسيس دير تابع لرهبانيـــة القديس بينوا ابتغاء تحقيق هذا الغرض التقيّ . وانما مُنحت الأم كاترين دو بار الاجازة الأولى لانشاء هذه المؤســة مـــن لدن مسيو دو ميتز رئيس دير « سان جيرمان » شرط « أن لا تُقبل فيها أيّ فتاة لا تحمل الى الدير دخلًا سنوياً قدره ثلاثمئة ليرة ، أي رأس مال مقداره ستة آلاف ليرة » . وبعد رئيس دير « سان جيرمان » أجـــاز الملـــك انشاء المؤســة ببراءة خاصة . ثم ان مجلس المحـــاسبة والبرلمان أقرّا كلًا من الاجازة الصادرة عـــن رئيس الدير والبراءة الملكية ، في عـــام ١٦٥٤ .

ذلك هو أصل الرهبانية البنيدكتية للسجود السرمدي للقربان المقدس ، في باريس ، وهذا هو تكريسها الشرعي . ولقد جدّد البناء الذي احتله أول دير من أديرة هذه الرهبانية ، في شارع كاسيت ، بأموال مدام دو بوك ومدام دو شاتوفيو .

وهذه الرهبانية ، كما نرى ، ينبغي أن لا يُخلط بينها وبين رهبانية البنيدكتيات الملقبات براهبات سيتو . لقد انبثقت من رئيس دير « سان جيرمان دو بريه » كما انبثقت « سيدات القلب المقدس » من الرئيس العام لليسوعيين ، و « راهبات المحبة » من الرئيس العام للّعازاريين .

---

* قدس الكاهن : أقام القداس .

وهي كذلك مختلفة كل الاختلاف عن راهبات دير « بيكبوس الصغير » البرناورديات اللواتي استعرضنا حياتهن الداخلية من لحظة . ففي سنة ١٦٥٧ أجاز البابا الكسندر السابع لراهبات « بيكوس الصغير » البرناورديات – ببراءة خاصة – أن يمارسن السجود السرمدي مثل راهبات القربان المقدس البنيدكتيات . ولكن كلاً من الرهبانيتين ظلت ، مع ذلك ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها .

١١
نهاية « بيكبوس الصغير »

منذ عودة أسرة بوربون الى العرش ، شرع دير « بيكبوس الصغير » يذوي ويتلاشى . وكان ذلك جزءاً من موت الرهبانية العام ، تلك الرهبانية التي ولت بعد القرن الثامن عشر ، كما ولت جميع الرهبانيات الدينية . ان التأمل ، كالصلاة ، ضرورة من ضرورات الانسانية . ولكنه ، مثل أي شيء مسته الثورة ، سوف يتحول ويتغير ؛ وبدلاً من أن يكون معادياً للتقدم الاجتماعي سيصبح مؤاتياً له .

وأقفر دير « بيكبوس الصغير » في سرعة . وفي عام ١٨٤٠ كان الدير الصغير قد زال ، وكانت المدرسة الداخلية قد زالت أيضاً . لم يبق ثمة لا النسوة العجائز ، ولا الفتيات الصغيرات . كانت الأوليات قد قضين نحبهن ، وكانت الأخريات قد مضين لسبيلهن . *Volaverunt* *

إن نظام « السجود السرمدي » قاس إلى درجة توقع الذعر في النفس . ويتقهقر النداء الرباني ، فلا تنضم الى الرهبانية مجندات جديدات . ففي سنة ١٨٤٥ كانت الرهبانية لا تزال قادرة على ان تجمع من هنا

* في اللاتينية ؛ ومعناها : لقد رحلن .

وهناك بعض الراهبات القائمات بالاعمـــال اليدوية ، ولكنها عجزت عن أن تفوز بأيٍّ من راهبات الأنشاد الجماعي . منذ اربعين عاماً كان عدد الراهبات مئة تقريباً ، ومنذ خمسة عشر عاماً لم يكن ثمة غير ثمانٍ وعشرين . فكم يبلغ عددهن اليوم ؟ وفي عام ١٨٤٧ كانت رئيسة الدير شابة ، وهذا دليل على ان إمكانية الاختيار كانت محدودة . إنها كانت دون سنّ الاربعين . وكلما تناقص العدد ، تعاظم التعب . إن واجبات كلّ منهن تصبح اشد عسراً ؛ ومن ذلك الحين تقترب تحت ابصارهن ، تلك اللحظةُ التي لن يبقى فيها غير دزينة من الاكتاف المورجعة المتقوّسة للنهوض بنظام القديس بينوا الثقيل . إن العبء عنيد لا يعرف المرونة ، وإنه ليظلّ هو نفسهُ بالنسبة الى العـــدد القليل كما قد كان بالنسبة الى العدد الكثير . إنه يُبهظ ؛ إنه يسحق . وهكذا َقضيْن َنحْبَهنّ . ومنذ أن كان مؤلف هذا الكتـــاب لا يزال يعيش في باريس ماتت اثنتان منهنّ ، احداهما كانت في الخامسة والعشرين والاخرى كانت في السادسة والعشرين . وهذه الاخيرة كان في ميسورها أن تقول مع جوليا آلبينولا *Hic Jaceo, vixi annos viginti et tres** وبسببٍ من هذا الانحطاط أقلع الدير عن تعليم البنات .

والحق انه لم يكن في ميسورنا ان نجتاز بهذا البيت المظلم المجهول ، فوق العاديّ ، من غير ان ندخل ونُدخل معنا اولئك الذين يرافقوننا والذين يصغون الينا ونحن نروي — ولربما كان ذلك لفائدة بعضهم — قصة جان فالجان الكئيبة . لقد ألقينا نظرةً على هذه الجماعة المفعمة بممارساتها العتيقة التي تبدو اليوم بالغة الجِـــدة . إنها الحديقـــة المسوّرة . *Hortus conclusus* . ولقد تحدثنا عن هذا الموطن الفريـد في إسهاب منتقـد ، ولكن في احترام ، بقدر ما يمكن التوفيق بين الاحـــترام والانتقاد على الاقل . إننا لا نفهم كل شيء ، ولكننا لا نُهين شيئاً .

* في اللاتينية ، ومعناها : هنا أقمت حيث عشت ثلاثاً وعشرين سنة .

فنحن بعيدون عن تهلل جوزيف دو ميتر الذي يذهب الى حد تقديس الجلاّد بُعْدَنا عن سخرية فولتير الذي يذهب الى حد التهكم على تمثال المصلوب .

ولنقل ، بالمناسبة ، إن هذه مخالفة للمنطق يقع فيها فولتير . ذلك أن فولتير كان خليقاً به أن يدافع عن يسوع كما دافع عن كالا *. وحتى عند اولئك الذين يُنكرون سرّ التجسُّد اي شيء يمثله تمثال المصلوب ؟ إنه يمثل الحكيم مضرّجاً بدمائه .

إن الفكرة الدينية لتجتاز ، في القرن التاسع عشر ، بأزمة . فنحن ننسى اشياء كثيرة مما تعلّمناه ، وإننا نحسن بذلك صنعاً شرط ان نتعلّم – ونحن ننسى امراً ما – شيئاً غيره . فليس من فراغ في القلب الانساني ! إن بعض الاشكال لتُهْدَم ، ومن الخير ان تُهْدَم شرط ان يعقبها الانشاء .

وفي غضون ذلك فلندرس الاشياء التي زالت . إن من الضروري أن نفهمها ، ولو من أجل اجتنابها ليس غير . إن كل تزوير للماضي ينتحل اسماً ، وإن هذه المزوّرات مولعة بأن تدعو نفسها المستقبل . والحق ان ذلك الشبح – الذي هو الماضي – كثيراً ما يزوّر جواز سفره . فلنستعدّ للشَّرَك . فلنأخذ حِذْرنا . ان للماضي وجهاً هو الخرافة ، وقناعاً هو الرياء . فلنشهّر الوجه ، ولنمزّق القناع .

اما الأديرة فتجبهنا بمشكلة مركّبة : مشكلة حضارة ، وهذه تدينها ؛ ومشكلة حرية ، وهذه تحميها .

---

* Jean Calas تاجر من تولوز اتهم خطأ بأنه قتل ابنه لكي يحول بينه وبين الارتداد عن البروتستانتية . وقد حكم عليه البرلمان فقضى تحت دولاب التعذيب عام ١٧٦٢ . وقد اعيد اليه اعتباره سنة ١٧٦٥ بعد ان دافع فولتير عنه دفاعاً مثيراً .

الكتاب السابع

بين هلالين

١

الدير بوصفه فكرة مجردة

هذا الكتاب مأساة بطلها الأول هو اللانهاية .

اما بطلها الثاني فالانسان .

واذ كان الامر كذلك ، فقد تعيّن علينا ، حين وجدنا ديراً في طريقنا ، ان نلجهُ . لماذا ؟ لأن الدير الذي عرفه الشرق كما عرفه الغرب ، وعرفته العصور القديمة كما عرفته العصور الحديثة ، وعرفته الوثنية كما عرفته البوذية ، وعرفه الاسلام كما عرفته النصرانية لا يعدو ان يكون جهازاً من الاجهزة البصرية التي يسلطها الانسان على

اللانهاية .

وليس هذا هو الموطن المناسب لبسط بعض الآراء بسطاً مسهباً . ومع ذلك ، ففيما تتشبث بتحفّظاتنا ، وبقصور التعبير عندنا ، بل وبسخطنا ايضاً تشبثاً قوياً ، يتعيّن علينا ان نقول إننا كلنا وقفنا في الانسان ، على اللانهاية — سواء أأحسن فهمها أم أسيء — استبدّ بنا الاحترام على نحوٍ لا إراديّ . إن في الكنيس ، وفي المسجد ، وفي الهيكل الهندي أو الصيني ، وفي معبد الهنود الحمر جانباً بغيضاً نمقته ، وجانباً رفيعاً نهيم به . فيما له موضوعاً يتفكّر فيه العقل ، ويا له مصدراً لا ينضب من مصادر التأمّل ، انعكاسُ الله ذاك على الجدار الانساني !

٢
الدير بوصفه واقعة تاريخية

من وجهة نظر التاريخ ، والعقل ، والحقيقة ، تقف الحياة الرهبانية موقف المتهم الذي دانته المحكمة .

إن الاديرة ، حين تكثر في بلد من البلدان ، هي عُقَد تعرقل السير ، منشآتٌ معوّقة ، مراكز كسلٍ حيث ينبغي ان تقوم مراكز عمل . والمؤسسات الرهبانية تمثل بالنسبة الى المؤسسة الاجتماعية العظمى ما تمثله الطفيليات بالنسبة الى شجرة السنديان ، والثآليل بالنسبة الى الجسم البشري . ففي ازدهارها وسمنها إفقار البلاد . واذا كان النظام الرهباني صالحاً في فجر الحضارة ، حين حارب الوحشيةَ بالروحانية مخففاً من وطأتها ، فأنه مؤذٍ في الادوار التي تبلغ فيها الشعوب مبلغ الرجولة . والى هذا ، فحين يسترخي النظام الرهباني ويدخل في دور

التفسخ – وهو الدور الذي نراه فيه ، اليوم – يصبح مهلكاً للاسباب نفسها التي جعلته مُنجياً في دور صفائه .

لقد كان للاعتكاف في الأديار زمانه . فالصوامع برغم ما امدته من فائدة في المرحلة الاولى من الحضارة الحديثة ، قد عاقت نمو هـــذه الحضارة ، وأضرّت بتطوّرها . والأديرة ، بوصفها مؤسسة ، وبوصفها طريقة من طرائق تثقيف البشر ، كانت صالحةً في القرن العـــاشر ، وموضعَ خلاف في القرن الخامس عشر ، وإنها لبغيضةٌ في القرن التاسع عشر . والحق ان جُذام الحياة الرهبانية كاد يتأكّل حتى الهيكل العظميّ امتين عظيمتين ، الامة الايطالية والامة الاسبانية ، وكانت احداهما نور اوروبة والاخرى مجدها طوال قرون من الزمان . واذا كانت هاتان الامتان الماجدتان قد اتخذتا سبيلهما ، في عصرنا هذا ، الى الشفاء فالفضل في ذلك راجعٌ الى علم حفظ الصحة * الســليم الحازم الذي وُضعت قواعده عام ١٧٨٩ .

والدير – دير النساء العتيق ، بخاصة – كما كان يبدو حتى على عتبة هذا القرن ، في ايطالية ، والنمسا ، واسبانية ، ليس غير تخـــثّر من أشدّ تخـثّرات القرون الوسطى عبوساً وإظلامــاً . إنه في تلك البلدان نقطة التقاطع لضروب من المخاوف والاهوال . والدير الكاثوليكي ، على الحَصْر ، مليء بأشعة الموت السوداء .

ولكن الدير الأسباني أشدّ مأتميةً من سائر الأديار كلهـــا . هناك ترتفع في الظلمـــة – تحت عقود ملأى بالضباب ، تحت قباب لا تكاد تبدو بسببٍ من العتمة – مذابـــح ضخمة مثل برج بابـــل ، سامقة كالكاتدرائيات . هناك تتدلى من السلاسل في غمرة الظلام تماثيل للمصلوب ضخمة بيضاء . هناك تستلقي ، عاريةً على خشب الأبنوس ، تمـــاثيل للمسيح عاجيّة هائـلة ، دامية لا مخضّبة بالدم فحسب ، فظيعة بديعة ،

* يقصد الثورة الفرنسية .

تنمّ مرافقها عن عظامها ، وتنمّ عظام رُكبها عن أغشيتها ، وتنمّ جراحها عن لحمها ، وقد تُوّجت بأشواك من فضة ، وسُمرت بمسامير من ذهب، وبدت على جباهها قطرات دم من ياقوت أحمر ، وترقرقت في أعينها دموع من الماس . إن اليواقيت وقطع الألماس لتبدو مبلّلة ، وإنهـا لتُجري الدموع ، هناك في الاجزاء الدنيـا ووسط العتمة ، من مآقي مخلوقات محجّبات نُخدّشت خواصرها ومُزّقت بالانسجة الصوفية الغليظة ، وبالسياط ذوات الرؤوس الحديدية ، وسُحقت أثداؤها بحُصُرٍ صغيرة مصنوعة من غصون الصفصاف ، وجُلّفت رُكبها بالصلاة الموصولة . نسوة يحسبن انفسهن زوجاتٍ . أشباح تتخيل أنها في عداد الطبقة العليا من الملائكة . أتفكر هاته النسوة ؟ لا . ألهنّ إرادة ؟ لا . هـل يعشقن ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . لقد تحوّلت أعصابهـنّ الى عظام ، ولقد تحولت عظامهن الى حجارة . إن حجابهن هو الليـل منسوجاً . وإن َنفَسهن ، تحت ذلك الحجاب ، يشبه شيئاً لا سبيل الى وصفه : تنفُّسَ الليلِ الفاجع ذاته . إن رئيسة الدير ، وهي هامـةٌ * من الهامات ، تطهّرهن وتروّعهن . إن النقاء هناك ، مقطّباً كالحَ الوجه. تلك هي أديرة أسبانية القديمة – مغاور للعبادة الرهيبة ، أجحارُ عذارى، مواطنُ وحشيةٌ ضارية .

كانت اسبانية الكاثوليكية رومانية اكثر من رومة نفسها . وكان الدير الاسباني هو نموذج الدير الكاثوليكي . هناك ، كان الهواء عابقـاً بروائح الشرق . وكان رئيس الاساقفة – « كيسلر آغا » ** السماء – يوصد بالحديد سرايَ الارواح هذه التي نـذرت نفسها لله ، ويتجسس

* الهامة روح الميت او القتيل . وكان الرومان يعتقدون ان أرواح المجرمـين واضرابهم تطوف تائهة في الارض لكي تروّع الأحياء . اما العرب فكانت تزعم ان روح القتيل الذي لم يدرَك بثأره تصبح هامة فتزقو عند قبره تقول اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثأره طارت .

** تعبير تركي كان يطلق في عهد العثمانيين على رئيس الخصيان السود .

عليها . كانت الراهبة هي محظية السلطان ، وكان الكاهن هو الخصيّ .
كانت النسوة المولعات بالعبادة هنّ النسوة المختارات ، في أحلامهــــن ، وكنّ مُدَلَّهات بالمسيح . ففي الليل ، كان الفتى الجميل العـاري ينزل عن الصليب ، ويصبح طرب القَلِيَّة المفـرط . إن اسواراً عالية لتـذود شواغل الحياة الواقعية جميعها عن « السلطانة » الصوفية الـــتي تنظر الى « المصلوب » نظرتها الى « السلطان » . ذلك بأن نظرة واحــــدة الى الخارج تُعتبر خيانةً من الخيانة . لقد حل سجن الدير * الأرضي محـل الكيس الجلدي . فما كانوا يقذفون به ، في الشرق ، الى البحر ، كانوا يقذفون به ، في الغرب ، الى الأرض . ففي كلتا الناحيتين كانت بعض النساء يَلْتَعْن توجّعاً : اللجة لهؤلاء ، والحفرة لأولئك . هنا المُغْرَقات ، وهناك الموءودات . توازٍ مخيف !

وفي أيامنا هذه ، أمسى من دأب أنصار الماضي ، وقد عجزوا عـن انكار هذه الأشياء ، أن يبتسموا لها . لقـــد صار زياً عندهم ، وهي طريقة ملائمة وغريبة ، أن يكبتوا موحيَات التـــاريخ ، وأن يدحضوا تعليقات الفلسفة ، وأن يحذفوا جميع الحقائق البغيضة ، وجميـع المسائل المظلمـة . « موضوعات للهجاء » ، كذلك يقول البـــارعون . فيردد الحمقى : « الهجاء » . فجان جاك ** هجّاء ؛ وديدرو هجّاء ، وفولتير في دفاعه عـن « كالا » ، و « لابار » *** ، و « سيرفين » **** هجّاء . ولست

---

* في الاصل in pace وهو الاسم الذي يطلق على سجن الدير والقائم تحت الارض حيث كانت تحبس الآثمات حتى الموت . والتعبير لاتيني معناه « في سلام » .

** يقصد جان جاك روسو .

*** La Barre نبيل فرنسي (١٧٤٧ - ١٧٦٦) اتهم بتشويه تمثال من تماثيـل المصلوب فصدر عليه الحكم بالموت ، ففُصل رأسه عن جسده ، ثم أُحرق رغم عدم شرعية المحاكمة واستنكار الرأي العام . وقد دافع عنه فولتير وحاول ان يعيـــد اليه اعتباره ، بعد الموت ، ولكن عبثاً . ثم ان « المؤتمر الوطـــني » أعاد اليه هذا الاعتبار (في ٢٥ برومير ، السنة الثانية للجمهورية) .

**** Sirven رجل بروتستانتي (١٧٠٦ - ١٧٦٤) حـــكم عليه برلمان تولوز بالموت بتهمة قتل ابنته لكي يحول بينها وبين اعتنـــاق الكاثوليكية . ولكن دفاع فولتير ادى الى اعادة اعتباره بعد خمس سنوات من إعدامه .

أدري من الذي اكتشف أخيراً أن تاسيت * كان هجّاء، وأن نيرون كان ضحية ، وأن علينا من غير شك أن نشفق « على هولوفيرن ** المسكين ذاك . »

بيد أن الحقائق عنيدة ، وليس من اليسير التغلب عليها . فقد رأى مؤلف هذا الكتاب ، بعينيه الاثنتين ، على نحو عشرين ميلاً من بروكسل ، نموذجاً من القرون الوسطى ، هو في متناول كل انسان ، في دير فيلار – كوى السجون المظلمة المؤبّدة في وسط المرج الذي كان في يوم من الأيام فِناء الدير؛ كما رأى على ضفاف الـ « ديل » أربعة محابس حجرية مظلمة ضيقة نصفها تحت الارض ونصفها تحت الماء . تلك كانت سجوناً ديرية in-pace *** وفي كل من هذه المحابس بقية من باب حديدي ، ومرحاضٌ ، ونافذة مقضبة بالحديد ، هي من الخارج على ارتفاع قدمين عن سطح النهر ومن الداخل على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الارض . ان اربعة أقدام من مياه النهر لتجري في محاذاة صفحة الجدار الخارجية . فالتربة المجاورة تظل مبللة أبداً . وهذه التربة المبللة هي الفراش الوحيد الذي تملكه نزيلة ذلك السجن الديري . وفي أحد تلك المحابس لا يزال جزءٌ من غُلّ حديدي مسمّراً على الجدار . وفي محبس آخر كان في ميسور المرء أن يرى شبه صندوق مربّع مصنوع من أربع صفائح من صوان هي أقصر من أن يستلقي فيها كائن بشري ، وأشد انخفاضاً من أن يقف فيها مستقيمَ القامة . هناك في داخل هذا الصندوق كانت توضع مخلوقة بشرية مثلنا ، ثم يوضع فوق رأسها غطاء من حجر . إنه هناك . إن في استطاعتك أن تراه . إن في استطاعتك

---

* المؤرخ اللاتيني الشهير . وقد سبق التعريف به في الاجزاء الماضية .

** احد قواد نبوخذ نصر ، وقد قتلته « يهوديت » بأن دخلت الى خبائه وذبحته وهو نائم منقذة بذلك شعبها اليهودي .

*** راجع الهامش الاول على الصفحة السابقة .

أن تلمسه . هذه السجون الديرية ، هذه المحابس المظلمة ، هذه الرزّات الحديدية ، هذه الأغلال التي تطوّق الاعناق ، هذه الكوى العالية ، القائمة على مستوى مجرى النهر ، هذا الصندوق الحجري المغلق مثل القبر . بغطاء صواني ، مع هذا الفارق وهو انّ الميت هنا كان كائناً حياً ، هذه التربة التي هي وحل ، هذا المرحاض ، هذه الجدران التي ترشح ... أوه ، يا لها من ألسنة هجّاءة !

٣

بأي شرط نستطيع ان نحترم الماضي

إن الحياة الرهبانية ، كما قد كانت في اسبانية ، وكما تبدو في التيبت هي ، بالنسبة الى الحضارة ، ضربٌ من داء السلّ . انها توقف الحياة على الفور . إنها بكلمة واحدة ، تُخلي الديار من سكانها . والترهب خِصاء . وفي اوروبة كان الترهب آفة . أضف إلى هذا ، العنفَ الذي يُخضَع له الضمير في كثير من الاحيان ، والدعوات الاجبارية الى الحياة الرهبانية ، والنظام الاقطاعي المتكىء على الدير ، وحق البكورية * الذي يُفرغ في حياة الترهب فائض الاُسرة ، والفظائع الوحشية التي وصفناها اللحظة ، وسجون الاديرة ، والافواه الموصدة ، والأدمغة المسوّرة ، وكثيراً من المواهب التعسة الملقاة في محابس النذور السرمدية ، وارتداء الثوب الرهباني للمرة الاولى ، ودفن النفوس وهي حية . اضف ضروب التعذيب الفرديّ هذه الى الخراب

* اي حق الولد البكر في امتلاك جميع الميراث دون سائر اخوته .

الذي يصيب الحياة القومية ، وعندئذ تجد نفسك – كائناً من كنت – ترتعد لمشهد ثوب الراهب وحجاب الراهبة ، هذين الكفنين من أكفان الابتداع الانساني .

ومع ذلك ، ففي بعض النقاط وفي بعض المواطن ، على الرغم من الفلسفة ، وعلى الرغم من التقدّم ، تستمرّ الروح الرهبانية في وَضَح القرن التاسع عشر ؛ وإن انبعاثاً زهدياً غريباً ليُدهش العالم المتمدن في هذه اللحظة . والحق ان اصرار المؤسسات الهرمة على البقاء الى الابد أشبه شيء بعناد العطر الزنخ الذي يتشبّث بشَعْرك ، ودعوى السمكة الفاسدة التي تُصرّ على ان تُؤكل ، ولجاجة ثوب الطفل الذي يريد أن يكسو الرجُل ، وحنان الجثث التي تعود لتعانق الأحياء !

إن الثوب ليهتف : « ياالكم من ناكرين للجميل ! لقد صُنتكم في عهد ضعفكم فلماذا تتخلّون عني الآن ؟ »

وإن السمكة لتقول : « لقد كنتُ ذات يوم في أعماق البحر ! »

وإن العطر ليصيح : « لقد كنتُ وردةً من قبل ! »

وإن الجثة لتتمتم : « لقد أحببتك ! »

وإن الدير ليقول : « لقد مدّنتك ! »

وليس لهذا كله غير جواب واحد : « في الماضي . »

فلأن نحلم بتخليد الاشياء الميتة وحُكم الجنس البشري بالتحنيط ، وأن نُرجع العقائد المتهرئة ، ونذهّب صناديق ذخائر القديسين من جديد ، ونجصص اروقة الاديرة ثانية ، ونبارك صناديق بقايا أجساد القديسين كرة اخرى ، ونجدّد الخرافات ، ونعيد تغذية التعصب ، ونضع مقابض جديدة لمناضح الماء المقدّس والسيوف ، وننشىء الحياة الرهبانية والروح العسكرية من جديد ، ونؤمن بخلاص المجتمع البشري من طريق مضاعفة الطفيليات ، ونفرض الماضي على الحاضر – كل اولئك يبدو شيئاً غريباً . ومع ذلك فهناك أنصار لهذه النظريات . ولهؤلاء النظريين ،

وهم رجال فكر في النواحي الاخرى ، طريقة بسيطة جداً : انهم يخلعون على الماضي طلاءً يدعونه النظام الاجتماعي ، والحق الالهي ، والاخلاق ، والاسرة ، واحترام الاسلاف ، والسلطة العريقة في القدم ، والتقاليد المقدسة ، والشرعية ، والدين . وهم ينطلقون هاتفين : « انتبهوا ! خذوا هذا ، ايها الناس الطيبون ! » وهذا الضرب من من المنطق كان مألوفاً عند القدماء . لقد مارسه عرّافوهم . كانوا يفركون عجلةً سوداء بالطباشير ، ويصيحون : « إنها بيضاء ! »
Bos cretatus

أما نحن فنوزّع احترامنا هنا وهناك ، ولا نتعرّض للماضي على الاطلاق شرطَ ان يُقرّ بأنه ميت . أما اذا أصر على الزعم بأنه حيّ فعندئذ نهاجمه ونحاول ان نصرعه .

إن الخرافات ، والتطرف في التقوى ، والمراءاة في التدين ، والآراء المقبولة من غير تحقيق أشبهُ بأطياف الموتى . ومع ذلك فهي تتشبث بالحياة . إن لها في كيانها الخيالي أسناناً وأظافر ، ويتعيّن علينا أن نشتبك معها في القتال ، جسداً لجسد ، ونشنّ عليها الحرب ، وان نفعل ذلك من غير مهادنة ؛ لأنه قد كُتِب على الانسانية أن تصارع الأطياف صراعاً سرمدياً . وليس يسيراً على المرء أن يمسك بخناق الظلّ ، ويطرحه أرضاً .

إن ديراً في فرنسة ، في وَضَح القرن التاسع عشر ، هو مجمعٌ من البُوم يواجه النهار . والدير ، متلبساً بجرم التقشّف المشهود ، وسطَ مدينة عام ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ — رومة تتفتّح أكمامها في باريس — لا يعدو ان يكون خطأ في تأريخ الحوادث *anachronisme* . وفي الايام العادية ، ليس على من يريد أن يزيل خطأً من أخطاء التأريخ ويمحوه الا ان يحمله على تهجّي السنة المدوّنة على صفحته . ولكننا لسنا في ايام عادية على الاطلاق .

فلنقاتل .

فلنقاتل ، ولكنْ فلنميّز . فشيمة الحقيقة أنها لا تعرف الافراط ابداً . وما حاجتها الى الغلوّ ؟ ان ثمة اشياء يجب ان تُهدم ، واشياء ينبغي أن يُسلّط عليها النور وتُدرس ليس غير . أيّ قوة هائلة ينطوي عليها الفحص الملاطف الجدّي ! فلنجتنب ان نحمل النار حيث يكفي النورُ وحده .

واذن ، فما دمنا في القرن التاسع عشر فنحن نقاوم الاعتكاف في الأديرة ، بوجه عام ، وعند كل أمة من الامم ، سواء في آسية او في اوروبة ، في الهند او في تركية . إن من يقول « الدير » فكأنه قال « المستنقع » . إن قابليتها للتعفن واضحة ؛ إن ركودها وبيل ؛ إن تخمّرها يصيب الشعوب بالحمّى وينتهي بها الى الهزال ؛ إن مضاعفتها خليقة بأن تصبح ضربة من ضربات المصريين . وليس في استطاعتنا ان نفكر ، من غير ان نرتعد ، بتلك الديار التي يتكاثر فيها « الفقراء » *fakirs* والكهان البوذيون ، والنساك ، والرهبان اليونانيون ، والمرابطون ، والكهنة البوذيون السياميون ، والدراويش تكاثراً مريعاً كمثل تكاثر الحشرات والهوامّ .

حتى اذا قلنا هذا ، بقيت أمامنا المسألة الدينية . ولهذه المسألة بعض الجوانب الخفية التي تكاد تكون راعبة ، فليُسمَحْ لنا بأن نواجهها على نحو مباشر .

٤
الدير من وجهة النظر المبدئية

يجتمع الناس ويحيون حياة مشتركة . بأي حق ؟ بحق المشاركة .

انهم يوصدون الأبواب من دونهم . بأي حق ؟ بحق كل امرىء في أن يفتح بابه أو يغلقه .

انهم لا يخرجون من محبسهم . بأي حق ؟ بحق الذهاب والمجيء الذي ينطوي على حق المرء في البقاء في بيته .

وهناك ، في بيوتهم هذه ، ما الذي يفعلونه ؟

إنهم يتحدثون في صوت خفيض ؛ انهم يسمّرون أعينهم على الارض؛ انهم يتخلون عن العالم ، عن المدن ، عن الملاذ الحسية ، عن المباهج ، عن الاباطيل ، عن الخُيَلاء ، عن المصلحة الذاتية . انهم يرتدون ألبسة من نسيج صوفي غليظ أو من نسيج قطني خشن . وليس يملك أيّ منهم متاعاً مهما يكن . فمن كان منهم غنياً يمسي لحظة دخوله الى الدير فقيراً . إنه يهب الجميعَ ما كان يملكه . ومن كان منهم نبيلاً أو شريفاً أو سيداً اقطاعياً ، كما يدعونه ، لا يلبث أن يتساوى مع من كان فلاحاً . إن القليّة هي هي بالنسبة اليهم جميعاً . انهم كلهم يقصون شعرهم على النمط الاكليركي نفسه ، ويرتدون الثوب الاكليركي نفسه ، ويأكلون الخبز الاسود نفسه ، ويفترشون الحشيّة نفسها ، ويُدفنون في التربة نفسها. ان المِسْح نفسه لعلى كل ظهر ، وان الحبل نفسه ليطوّق كل خصر . فاذا كان النظام يقضي بأن يسير جميع الرهبان حفاة ، ساروا كلهم حفاة . وقد يكون بينهم أمير ؛ ولكن هذا الامير ظِلٌّ مثلهم جميعاً . لم يعد ثمة القاب . وحتى أسماء الاسَر نفسها قد زالت . فهم لا يحملون غير الاسماء الصغيرة . انهم جميعاً يرزحون تحت مساواة اسمائهم بالمعمودية . لقد أذابوا أُسرة الجسد ، وأقاموا في مجتمعهم أسرة الروح . فليس لهم بعدُ أقرباء غير الجنس البشري كله . انهم يغيثون الفقراء ، ويُعنَون بالمرضى . وانهم يختارون اولئك الذين يتعين عليهم أن يطيعوهم . وينادي بعضهم بعضاً بقولهم : « أيها الاخ . »

وتعترضني قائلاً : « ولكن هذا هو الدير المثالي ! »

حسبي أنه دير ممكن الوجود حتى آخذه بعين الاعتبار .

ومن هنا جاز لي أن أتحدث عن أحد الاديار في الكتاب السابق ، باحترام . انني اذا تركت القرون الوسطى جانباً ، وتركت آسية جانباً ، واعتبرت الامر من وجهة النظر الفلسفية الخالصة ، وراء ضرورات الجدل المقاتل ، وشرط أن تكون الاديار ارادية مئة بالمئة فلا تضم جدرانها غير نساك راغبين في هذا الضرب من الحياة ، فعندئذ لا أستطيع الا أن أنظر الى الجماعة الرهبانية في شيء من الاهتمام الجدي ، وفي بعض الاحيان بشيء من الاهتمام الناضح بالاحترام . فحيث توجد الجماعة الرهبانية فثمة نظام حكم شعبي . وحيث يقوم نظام الحكم الشعبي فثمة عدالة . ان الدير هو ثمرة هذه الصيغة : « المساواة ، الاخاء » . أوه ، ما أعظم الحرية ! ويا له من تجلٍّ مجيد ! ان الحرية كافية لتحويل الدير الى جمهورية ! .

فلنتابع .

هؤلاء الرجال والنسوة الذين يعيشون ضمن هذه الجدران الأربعة ويرتدون الملابس الصوفية الخشنة السمراء إنما ينعمون بالمساواة وينادي بعضهم بعضاً « ايها الاخ » « وأيتها الاخت » . هذا حسن . ولكن ، هل يعملون شيئاً آخر ؟

نعم .

ماذا ؟

إنهم يحدّقون في الظلمة ؛ إنهم يركعون ؛ إنهم يضمّون يداً الى يد.

ما معنى ذلك ؟

٥
الصلاة

إنهم يصلّون .

لمن ؟

لله .

الصلاة لله . أيّ شيء تعنيه هذه الكلمة ؟

أتوجد لانهاية خارج ذواتنا ؟ وهل هذه اللانهاية مفردةٌ ، فطرية ، سرمدية — وهي ذات ماهيّة بالضرورة ، لانها لانهائيّة ، ولأنه اذا كانت المادة تعوزها فعندئذ تكون محدودة ، وهي عاقلة بالضرورة ، لأنها لانهائية ، ولأنه اذا اعوزها العقل فعندئذ تكون قاصرة ؛ هل توقظ هذه اللانهاية في نفوسنا فكرة الجوهر ، في حين أننا عاجزون عن ان ننسب الى انفسنا شيئاً غير فكرة الوجود ؟ وبكلمة اخرى ، أليست هي المطلق الذي لا نعدو نحن أن نكون منه بمثابة النسبيّ ؟

وفيما تقوم لانهايةٌ خارج ذواتنا ، أليس ثمة من لانهاية في ذات نفوسنا ؟ وهاتان اللانهايتان (ايّ مثنى راعب !) ألا تستقرّ احداهما فوق الاخرى ؟ ألا تقع اللانهاية الثانية تحت اللانهاية الاولى ، اذا جاز التعبير ؟ اليست مرآةَ الاولى وانعكاسها ، وصداها : لجّـــة مشتركة المركز مع لجّة اخرى ؟ وهذه اللانهاية الثانية ، أهي عاقـــلة أيضاً ؟ أهي تفكر ! أهي تحبّ ؟ ألها ارادة ؟ واذا كانت اللانهايتان عاقلتـين فأن لكل منهما مبدأ مُريداً ، وإن ثمة « أنا » في اللانهاية العليـــا ، و « انا » في اللانهاية السفلى . ان الـ « أنا » السفلى هي النفس ، وان الـ « أنا » العليا هي الله .

وإقامتنا الاحتكاك ، من طريق التفكير ، بين اللانهاية السفـــلى

واللانهاية العليا هي ما يدعى « الصلاة » .

ينبغي ان لا نطرّح شيئاً من العقل الانساني . فالكبت شر . يجب ان نُصلع ونحوّل . إن بعض مَلكات الانسان موجّهة نحو المجهول : التفكير ، التأمل ، الصلاة . والمجهول اوقيانوس . ما الضمير ؟ إنه إبرة المجهول المغناطيسية . التفكير ، التأمل ، الصلاة ـ تلك هي اشارات الأبرة الخفية الكبرى . فلنحترمها . الى اين تتجه إشعاعات النفس المهيبة هذه ؟ نحو الظلمة ؛ يعني نحو النور .

إن عظمة الديموقراطية تتمثل في أنها لا تنكر شيئاً انسانياً ولا تتبرأ من شيء إنساني . فعلى مقربة من حقوق الانسان ، او الى جانبها على الاقل ، تقوم حقوق الروح .

أن نسحق ضروب التعصب وأن نمجد اللانهاية ـ ذلك هو القانون . حذارِ ان نَقْصُرَ أنفسنا على السجود تحت شجرة الخليقة ، ونتأمل أغصانها الملأى بالنجوم . إن علينا واجباً : أن نثقّف النفس البشرية ، ان ننصر اللغز على العجيبة ، أن نهيم بما لا يُدرَك وننبذ ما لا يتفق مع العقل ، أن لا نسلّم بشيء لا تعليل له إلا ضمن دائرة الضرورة ، ان نطهّر الايمان ، ان نمحو الخرافة عن وجه الدين ، وأن نزيل الديدان عن جسم الرب !

٦
خيرية الصلاة المطلقة

أما طرائق الصلاة فكلها صالحة ، شرط ان تكون مخلصة . اقلب كتابك ظهراً لبطن وكنْ في اللانهاية .

نحن نعلم ان ثمة فلسفة تُنكر اللانهاية . ولكن ثمة ايضاً فلسفة

اخرى مصنّفة مَرَضياً ، تُنكر وجود الشمس . هـــذه الفلسفة تدعى العمى .

ولأن نجعل من حاسة لا نملكها مصدراً للحقيقة غربٌ من الجسارة الرائعة يتكشف عنه الرجل المكفوف .

والغريب في الامر هو الموقف المترفع ، الراشح بالشفقـة ، الشاعر بالامتياز ، الذي تقفه هذه الفلسفة ـ التي تتلمّس طريقها تلمّساً ـ من الفلسفة التي ترى الله . انها تحمل المرء على ان يفكـــر بخُلْدٍ يصيح : « كم يثيرون شفقتي بحديثهم عن الشمس ! »

نحن نعرف ان ثمة ملحدين مشاهير واقوياء . ولكن هؤلاء الرجال ليسوا في الواقع ، وقد أعيدوا الى الحقيقة بقوّتهم نفسها ، واثقـين كل الثقة من انهم ملحدون . ان المسألة ، في ما يتصل بهم ، لا تعـدو ان تكون مسألة حدٍّ او تعريف . وعلى اية حـــال ، فاذا كانوا لا يؤمنون بالله فأنهم ـ لكونهم عقولاً ضخمة ـ ينهضون دليلاً عـــلى وجود الله .

إننا نحيّي ، فيهم ، الفلاسفةَ ، فيما نحن نخاصم فلسفتهم في غـير ما هوادة .

فلنتابـع .

وشيء آخر رائع ، هو سهولة تسوية كل شيء ـ وفقاً لارتياح المرء ـ من طريق الكلمات . والواقع ان مدرسة ميتافيزيكية شمالية مُشربـةً بعض الشيء بالضباب ، تخيلت انها احـدثت ثورة في الادراك البشري عندما استعاضت عن كلمة « قوة » بكلمة « ارادة » .

ان قولك « النبات يريد » بدلاً من « النبات ينمو » خليق به أن يكون خصباً بالمعنى اذا اضفت : « الكون يريد . » لماذا ؟ لأن هذا سوف ينبثق منه : النبات يريد ، اذن فأن له « أنا » ؛ الكون يريد ، اذن فأن له الـهاً .

أما نحن ، الذين لا نرفض على نقيض هذه المدرسة ، شيئاً ابتداءً *a priori* فأن التسليم بأن للنبات ارادة ، وهو ما تؤمن به هذه المدرسة ، يبدو أعسر من التسليم بأن للكون ارادة ، وهو ما تجحده هـذه المدرسة .

ان انكار ارادة اللانهاية ، يعني الله ، لا يمكن ان يتمّ الا بشرط انكار اللانهاية نفسها . لقد اقمنا البرهان على ذلك .

وانكار اللانهاية يقود الى العدمية . ان كل شيء يصبح « مفهوماً من مفاهيم العقل » .

ومع العدمية يتعذر النقاش. لأن العدمي المنطقي يشك في ان مُحاوره موجود ، وليس واثقاً كل الثقة من أنه هو نفسه موجود .

ومن وجهة نظره ، من الجائز ان لا يكون هـو نفسه ، في نظر نفسه ، غير « مفهوم من مفاهيم عقله » .

بيد انه لا يُدرك البتة أنه يعترف جملةً بكل ما انكـره بمجرد تلفّظه بهذه الكلمة : العقل .

والخلاصة ، فأنه ما من سبيل تظلّ مفتوحة للعقل حين يأخذ المرء بفلسفة تجعل كل شيء ينتهي الى نتيجة واحدة ، هي مقطـع « لا » المفرد .

وليس لـ « لا » غير جواب واحد هو : « نعم » .

ليس للعدمية مدى .

وليس ثمة عدم . فالصفر لا وجـود له . وكل شيء هو شيء . لا شيء هو لا شيء .

والانسان يحيا بالاثبات اكثر مما يحيا بالخبز .

بيد أن النظر ولفت النظر لا يكفيان . فالفلسفة يجب ان تكون طاقة . يجب أن يكون جهدها وغايتها السموّ بالجنس البشري . ينبغي

ان يدخل سقراط في آدم وينشيء ماركوس اوريليوس * . وبكلمة اخرى ، أن يُطلع من إنسان المتعة انسانَ الحكمة ، وأن يحوّل جنة عدْنَ الى كلية . إن العلم ينبغي ان يكون ودياً . المتعة ! يا لها من غاية بائسة ، ويا لها من مطمح مهزول ! ان البهيمة تنعم بالمتعة . التفكير ، ذلك هو انتصار النفس الحقيقي . فتقديم التفكير الى ظمأ الناس ، وإعطاء الجميع فكرة الله بوصفها إكسيراً ، والمؤاخاة عندهم ما بين الضمير والعلم ، وجعلهم أناساً مستقيمين بهذا الجمع العجيب — تلك هي مهمةُ الفلسفةِ الحقيقيةِ . ان الاخلاق هي الحقيقةُ متفتّحةَ الأكمام . وان التأمل يقود الى العمل . والمطلق ينبغي ان يكون عملياً . والمثل الأعلى ينبغي ان يُجْعَل هواء وطعاماً وشراباً للعقل الانساني . والمثل الاعلى له وحده الحق في ان يقول : **تناولوا ، هذا هو لحمي ، وهذا هو دمي** . والحكمة تناولٌ مقدّس . وانما على هذا الشرط تكفّ عن ان تكون حباً عقيماً للعلم لكي تصبح الوسيلةَ الوحيدة والعليا لجمع شمل الانسانية ؛ لقد ارتقت من مستوى الفلسفة الى مستوى الدين .

والفلسفة ينبغي ان لا تكون مجرد برج مراقبة، منشأ على الالغاز ، ابتغاء التحديق اليها منه ، في دعة ، من غير ما نتيجة سوى ارواء الفضول .

أما نحن فنرجيء بسط افكارنا الى مناسبة اخرى مكتفين بالقول اننا لا نفهم ، لا الانسان كنقطة ابتداء ، ولا التقدم بوصفه هدفاً ، من غير هاتين القوّتين اللتين هما المحرّكان الأعظمان : الايمان والحبّ .

التقدم هو الهدف ، والمثل الاعلى هو الصورة الأصلية .

وما المثل الأعلى ؟ انه الله .

---

* امبراطور روماني (١٢١ – ١٨١ ب . م) وقد اقرّ النظام في الامبراطورية ، وحسّن حالة العبيد الارقاء ، وادى خدمة جليلة الى القانون المدني . واشتهر هذا الامبراطور بالحكمة والاعتدال وحب الفلسفة والأدب .

المثل الأعلى ، المطلق ، الكمال ، اللانهاية – كل هذه لا تعدو ان تكون مترادفات .

٧

احتياطات يجب ان تتخذ في اللوم

ان على التاريخ والفلسفة واجبات سرمدية هي ، في الوقت نفسه ، واجبات بسيطة : أن يقاوما « قيافا » * أسقفاً ، ودراكون ** قاضياً ، وتريالسيون متشرعاً ، وتيباريوس *** امبراطوراً . وهذا واضح ، مباشر ، صافٍ ، لا لبس فيه ولا غموض . ولكنّ الحق في العيش المعتزل ، برغم أضراره ومساوئه ، يجب ان يُثبَتَ ويُدْرَس في عناية . فالرهبانية مشكلة انسانية .

اننا حين نتحدث عن الأديرة ، تلك المواطن الغارقة في الخطأ ولكنْ على براءة ، وفي الضلال ولكنْ على حُسْن نية ، وفي الجهل ولكنْ على تفانٍ ، وفي العذاب ولكنْ على استشهاد – إننا حين نتحدث عن هذه الاديرة ينبغي ان نقول ، دائماً تقريباً ، « نعم » و « لا » .

الدير تناقضٌ – فغايته الخلاص ، ووسيلته التضحية . الدير هو اعلى مراتب الانانية مؤديةً الى اسمى مراتب إنكار الذات .

تخلَّ عن العرش لكي تتولى مقاليد الحكم – ذلك في ما يبدو هو

---

* Caïphe الكاهن اليهودي الذي حكم على يسوع ، واضطهد الرسل .

** Dracon احد الاراخنة والمشرعين الاثينيين ، وكانت أحكامه قاسية الى درجة أنها كُتبت ، في ما زعموا ، بالدم . (اواخر القرن السابع قبل الميلاد .)

*** Tibére تيباريوس الاول ، ثاني الاباطرة الرومان (٤٢ ق . م – ٣٧ ب . م) وكان رجلاً قديراً ولكنه شديد القسوة كثير الشكوك .

شعار الحياة الرهبانية .

في الدير ، يتألم المرء لكي يبتهج . إنه يسحب حوالةً على الموت . إنه يجسمُ النور السماوي في الليل الارضي . في الدير ، تُرتضى جهنم بوصفها ثمناً يُدفع مقدَّماً ابتغاء الفوز بميراث السماء الموعود .

ان اصطناع الحجاب او الثوب الرهباني انتحارٌ تعوِّض اللانهايةُ من يُقدم عليه .

والذي يبدو لنا أن السخرية ينبغي أن تُطرَّح حين يُعالج موضوعٌ مثل هذا . ان كل ما يتصل به جديّ ، طيّبهُ وخبيثه على حدٍّ سواء .

ان الرجل الصالح يزوي ما بين عينيه ، ولكنه لا يبتسم ابداً ابتسامة شريرة . نحن نستطيع ان نفهم الغضب ، ولكنا لا نستطيع أن نفهم اللؤم .

٨

الايمان ـــ القانون

بقيتْ بضع كلمات اخرى .

نحن نلوم الكنيسة حين تكون مشبعةً بالمكائد . نحن نزدري الروحيّ حين يقسو على الزمني . ولكنا نعظِّم ، في كل مكان ، الرجل المستغرق في التأمل .

نحن ننحني احتراماً للرجل الراكع .

الأيمان ضرورة انسانية ، والويل لمن لا يؤمن بشيء .

والمرء لا يكون عاطلاً عن العمل لأنه مستغرق في التفكير . ان ثمة جهداً منظوراً ، وجهداً غير منظور .

والتأمل جهد . والتفكير عمل .

ان الاذرع المتصالبة تشتغل ، وان الايدي المطبَقة تعمل . وانّ التحديق الى السماء كدح .

لقد سلخ طاليس أربع سنوات جامداً لا يتحرك . لقد انشأ فلسفة .

وعندنا أن الرهبان ليسوا متبطّلين ، وأن الحُبَساء ليسوا كسالى .

ان التفكير في « الظلمة » لهو شيء جديّ .

ومن غير ان ننقض البتة ما قلناه اللحظة ، نعتقد أن تذكُّر القبر على نحو موصول مناسبٌ للاحياء . وفي هذه النقطة يتفق الكاهن والفيلسوف : **ينبغي ان نموت** . ان الأب « لا ترابّ » يجيب « هوراس » .

انّ مزج المرء حياتَهُ بشيء من مثول القبر هو شريعة الرجل الحكيم ، وشريعة الناسك . فمن هذه الجهة يجنح الناسك والحكيم نحو مركز مشترك .

ان ثمة تقدماً مادياً ؛ نحن نرغب في ذلك . وان ثمة ، ايضاً ، عظمة اخلاقية ؛ ونحن نتشبث بذلك .

إن العقول الطائشة الرعناء تقول :

— « ايّ فائدة لهذه الوجوه الجامدة حيالَ سرّ الكون ؟ اي خدمة تؤدّي ؟ اي شيء تعمله ؟ »

واأسفاه ! في حضرة تلك الظلمة التي تكتنفنا وتتربص بنا ، غير عالمين ما الذي سيفعله بنا تبدُّد الاشياء جميعاً ، نجيب : « جائزٌ ان لا يكون ثمة عملٌ اسمى من ذلك الذي تقوم به هذه النفوس » .

ونضيف : « وجائز ان لا يكون ثمة جهد اكثر نفعاً . »

إن اولئك الذين يصلّون دائماً ضروريون لاولئك الذين لا يصلّون ابداً .

وعندنا ان قِوام المسألة كلها رهنٌ بمقدار التفكير الذي يمـــتزج بالصلاة .

إن « لايبنيتز » ، مصلـّياً ، لشيءٌ عظيم . وإن فولتير ، عابداً ، لشيءٌ جميل . *Deo erexit Voltaire* *

نحن للدين ضدّ الأديان .

نحن من اولئك الذين يؤمنون بحقارة الادعية والصلوات ، وبسموّ الصلاة .

والى هذا ، ففي هذه اللحظة التي نجتازها ، وهي لحظة لن تطبع القرن التاسع عشر ، لحسن الحظ ، بطابعها ، وفي هذه الساعة الحافلة بكثير من الناس المنخفضة جباهُهم انخفاضاً كبيراً والمرتفعـــة نفوسهم ارتفاعاً يسيراً والمستغرقين بأشياء المادة المختصرة المشوّهة ، يبدو جميع الذين نفوا انفسهم بأنفسهم موقـّرين في نظرنا . إن الدير تخـــلٍّ . والتضحية بالنفس حتى حين يُساء توجيهها ، تظلّ هي التضحيـــة بالنفس . ولأن يجعل المرء من خطأ قاسٍ واجباً مفروضاً عليه ـ هـذا الصنيـع له عظمته الخاصة .

ولو قد نظرنا الى المـسألة في ذاتها ، وعرضناها على محكّ الحقيقة حتى نقتلها من نواحيها جميعاً بحثاً مجرداً نزيهاً اذن لوجدنا ان للدير ، ولدير النساء بخاصة ـ لأن المرأة في مجتمعنا هي التي تتحمل القسط الاعظم من الآلام ، وفي منفى الدير هذا عنصر احتجاج ـ بعض الجـــلال من غير شك .

هذا الوجود الرهباني الكالح المظلم الذي رسمنا بعض ملامحه ليس هو الحياة ، لانه ليس الحرية ، وليس هو القبر لأنه ليس الكمال . إنـــه ذلك الموطن الفريد الذي نلمح من احدى ناحيتيه وكأننا على قمة جبـل عالٍ ، الهوةَ التي نحن فيها ، ونلمح من الاخرى الهـــوةَ التي سوف

* في اللاتينية ، وتعني : « الرب حرك فولتير الى الثورة » .

نصير اليها . انـــه تخمّ ضيق كثير الضباب يفصل مـــا بين عالمين يضيئه كلاهما ويُظلمانه في آنٍ معاً ، حيث يمتزج شعاع الحيـــاة الواهن بشعاع الموت المبهم . إنه غسق القبر .

أما نحن الذين لا نؤمن بما تؤمن به هاتـــه النساء ولكنْ نعيش ، مثلهن ، بالايمان فلا نستطيع ان ننظر ، من غـــير ضرب من الذعر الرفيق الورع ، ومن غير ضرب من الشفقة المفعمة بالحسد ، الى هاتـه الكائنات المتفانيات ، الراجفات ولكنِ الواثقات مـن انفسهن – تلك النفوس المتّضعة ولكنِ الجليلة ، التي تجرؤ على العيش على تَخْم اللغز الاعظم نفسه ، منتظراتٍ بين العالم الموّصد دونهن والسماء الـــتي لمّا تُفتح لهنّ ، متلفّتاتٍ نحو الضياء الذي لا يَرَينه وليس لهن من السعادة غير التفكير في أنهن يعرفن أين هو ، وقد وُجّهت آمالهن نحو الهاوية ونحو المجهول ، وسُمّرت أعينهن على الظلمة الجامدة ، راكعـــاتٍ ، مذعورات ، ذاهلاتٍ ، مرتعداتٍ ، نصفَ مرفوعات في بعض الاحيان بنبضات الأبدية العميقة .

الكتاب الثامن

المقابر تأخذ ما يقدم إليها

١

وهو يعالج طريقة الدخول الى الدير

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد « هبط من السماء » ، كما قال فوشلوفان .

كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو . وكانت تلك الترنيمة الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السَّحَر تؤديها الراهبات ؛ وكانت تلك القاعة التي لمحها في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممدداً على الارض هو الراهبة المستغفرة ، وكان ذلك الجلجل الذي أدهشه صوته على نحو غريب جداً هو جلجل البستاني

المشدود الى ركبة الأب فوشلوفان .

وحين وُضعت كوزيت في الفراش ، كان جان فالجان وفوشلوفان قد احتسيا ، كما رأينا ، زجاجة من خمر وأكلا قطعة من جبن أمام نار ملتهبة . وإذ كانت كوزيت قد شغلت الفراش الأوحد في الكوخ ، فقد انطرح كل منهما على حزمة من قشّ . وقبل ان يغمض جان فالجان عينيه كان قد قال : « يجب ان أبقى منذ اليوم ، ههنا . » وكانت بعض هذه الكلمات تطارد بعضها الآخر ، في رأس فوشلوفان ، طوالَ الليل .

وفي الحق ، ان أياً منهما لم يكن قد استسلم للرقاد .

فأما جان فالجان ، فقد عَلِمَ علْمَ اليقين – وقد استشعر ان أمره قد افتضح ، وان جافير يطارده – أنه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبّت عليه ، الى هذا الدير لم يَطُفْ في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد : أن يبقى هناك . والواقع ان هذا الدير كان ، لرجلٍ في مثل وضعه الشقي ، آمنَ مكانٍ وأخطر مكان في وقت معاً . كان اخطر مكان لأنه محظورٌ على الرجال دخولُه . فاذا ما اكتُشف جان فالجان فيه يُقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه إلا ان يخطو خطوةً واحدة من الدير الى السجن . وكان آمنَ مكانٍ ، لأنه اذا وفّق الى الفوز بأذن يجيز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يُقبل الى ذلك المكان بحثاً عنه ؟ إن العيش في موطنٍ يمتنع على الناس هو السلامة عينها .

وأما فوشلوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر أنه لا يفهم شيئاً من الأمر . كيف تأتّى لمسيو مادلين ان يفدَ الى هناك برغم هذه الجدران كلها ؟ إن جدران الدير ليس من اليسير تجاوزها . وكيف اتفق أن كان يصطحب طفلة ؟ إن المرء لا يتسلق جداراً شديد الانحدار وبين يديه طفلة . مَنْ هذه الطفلة ؟ مِنْ أين أقبلا كلاهما ؟

فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ايما حديث عن مونتروي سور مير ، ولم يعرف شيئاً مما كان قد حدث . وكانت تغلب على محيا الأب مادلين سيما لا تشجع على طرح الاسئلة ؛ وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطباً نفسه : « إن المرء لا يستجوب قديساً . » وكان مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتباره كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي ندّت من جان فالجان ، ان من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائنوه يلاحقونه ، او ان يكون قد تورّط في قضية سياسية فهو يلتمس مفزعاً يختبىء فيه ؛ وهو ما لم يُحزن فوشلوفان ، البتة ، الذي كان مثل كثير من فلاحينا الشماليين ذا قلب بونابرتي عريق . واذ كان مسيو مادلين يبتغي الاختباء فقد اتخذ من الدير مفزعاً له ، وكان من الطبيعي ان يرغب في البقاء هناك . ولكن الشيء الذي لم يجد له تفسيراً ، والذي كان فوشلوفان يعاود النظر فيه ويحطّم في حلّه رأسه هو ان يكون مسيو مادلين هنا ، وان تكون هذه الفتاة الصغيرة معه . لقد رآها فوشلوفان ؛ لقد لمسها ؛ لقد تحدّث اليها ؛ ومع ذلك فأنه لم يصدّق هذا . كان لغز من الالغاز قد اتخذ سبيله الى كوخ فوشلوفان . وكان فوشلوفان يخبط في غمرة من الظنون والأحداس ، ولكنه لم يرَ على نحو واضح غير هـذا : لقد أنقذ مسيو مادلين حياتي . ولقد كانت هذه الواقعة اليقينية الوحيدة كافيةً ، فاذا هي تحمله على ان يحزم أمره . وقال في ذات نفسه : « لقد جاء دوري الآن . » واضاف في وجدانه : « إن مسيو مادلين لم يفكّر طويلاً الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يُقحم نفسه تحت العربة لكي يسحبني من هناك . » ووطّن العزم على ان ينقذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة وأجاب عنها عدة أجوبة : « بعد الذي أسداه اليّ من معروف ، أيتعين عليّ ان أنقذه

ولو كان لصـــاً من اللصوص ؟ » — « سيان . » — « واذا كان سفاكاً ، فهل ينبغي لي أن انقذه ؟ » — « سيان . » — « وربما أنه قديس ، فهل سأنقذه ؟ » — « سيان . »

ولكنّ ابقاءه في الدير هو المشكل الاكبر ! ولم ينكص فوشلوفان أمام هذه المحاولة التي توشك ان تكون وهمية . الواقع ان هذا الفلاح البيكاردي المسكين ، الذي لم يكن لديه سلّمٌ غير تفانيه واستعداده للعمل الصالح وقليل من الذكاء الريفيّ القديم الموضوع هـــذه المرة في خدمة غرضٍ كريم ، أقدم على تسلّق مستحيلات الدير ، ومنحدراتِ نظام القديس بينوا الوعرة . فقد كان فوشلوفان رجلاً عجوزاً سلخ حياته كلها أنانياً ، حتى اذا بلغ أرذل العمر ، أعرجَ عاجزاً ، ولم يعد له من أرب في الحياة وجد متعة في أن يكون معترفاً بالجميل . وإذ لمح مَحْمَدَةً تغريه بالنهوض بها اندفع نحوها ، مثلَ رجل يرى في متناوله على عتبة الموت ، كأساً من خمر جيدة لم يذق مثلها قط من قبل ، فهو يكرعها في نَهَم . وفي استطاعتنا ان نضيف ان الهواء الذي تنشّقه طوال سنوات عدة في هذا الدير كان قد حطّم شخصيته ، وقدّم اليه آخر الامر ، عملاً صالحاً ضرورياً له .

وصاغ قراره : أن يَنْذُرَ نفسه لانقاذ مسيو مادلين .

لقد وصفناه الحظة بقولنا انه فلاح بيكارديّ مسكين . ان هـــذا الوصف صحيح ، ولكنه ناقص . وفي هذه المرحلة التي انتهينا اليها من القصة أمسى من الخير أن نتعرّف الى فوشلوفان تعرّفاً أوثق . كان فلاحاً ، ولكنه كان قبل ذلك كاتباً عدلاً ، وهو ما اضاف الى ذكائه حذاقةً ، والى سذاجته ألمعيّةً . حتى اذا اخفق في اعماله لأسباب مختلفة ، هبط من كاتبٍ عدلٍ الى سائق عربة وعامل . ولكنه كان قد احتفظ ، برغم الشتائم وضربات السياط الضرورية للخيل في ما يبدو ، بشيء من شيمة الكاتب العدل في نفسه . كان لا يخطىء في تصريف الافعـــال ،

وكان يُحسن الحديث ، وهو شيء نادر في القرية . وكان الفلاحون الآخرون يقولون : انه يتحدث مثل رجل ذي قبعة ، تقريباً . والواقع ان فوشلوفان كان من ذلك الضرب الذي دعته معجمية القرن الماضي الخفيفة الماجنة « **نصف بورجوازي ، نصف ريفيّ** » ، والذي ألصقت عليه الاستعارات الهابطة من القصر الى الكوخ ، في خزائن دناءة النسب ، هذه البطاقات : « **نصف فظّ ، نصف متمدّن – فلفل وملح** » . وكان فوشلوفان ، برغم ان القَدر ابتلاه كثيراً ، وأبلاه كثيراً حتى أمسى اشبه بنفس هرمة بائسة تهرّأت خيوط نسيجها ، كان رجلاً سريعاً الى الانفعال ، ذا قلبٍ مطاوع ، وهي خصلة ثمينة تحول بين المرء وبين ان يكون شريراً في يوم من الايام . وكانت عيوبه ونواحي ضعفه ، اذ كان له نصيبه منها ، سطحيةً غير ذات خطر . واخيراً ، فقد كانت طلعته من ذلك الضرب الذي يلفت انتباه المراقب . فلم يكن في ذلك الوجه العجوز ايّ من تلك التجاعيد البشعة ، التي تكون في أعلى الجبين والتي تنمّ عن الخبث أو البله .

وعند انبلاج الفجر ، وبعد ان رأى في المنام أحلاماً هائلة ، فتح فوشلوفان عينيه ، فأبصر مسيو مادلين جالساً على كومة قشٍّ ، رانياً الى كوزيت المستسلمة للرقاد . ونهض فوشلوفان نصف نهضة ، وقال :

– « والآن وقد أصبحتَ هنا ، ما السبيل التي تعتزم انتهاجها للدخول ؟ »

لقد لخّص هذا السؤال الموقف كله ، وأيقظ جان فالجان من تفكيره الحالم .

وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان :

– « قبل كل شيء ، انك لن تضع قدماً خارج هذه الغرفة . لا أنت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا . »

– « هذا صحيح . »

واستأنف فوشلوفان حديثه :

— « مسيو مادلين ، لقد وصلتَ في وقت جيد جــداً ، أعني في وقت سيء جداً . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من أجل ذلك تجد أنهن لا ينظرن كثيراً الى ناحيتنا . لا شك في انهــا تُحتضر . انهن يَتْلونَ صلوات الاربعين ساعةً . والجماعة كلها في قلق وارتباك . ان ذلك يستأثر باهتمامهن . فالمرأة الموشكة على الرحيل هي قديسة . والواقع ، أننا جميعاً قديسون هنا . كل ما بينهنّ وبيني من فرق هو انهن يقلن : « قلّيتنا » ، في حين اقول أنا : « كوخي » . انهن يعتزمن اداء صلاة الاحتضار ، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم ، في هذا المكان . ولكني لست ادري ما الذي سيحمله الينا الغد . »

فلاحظ جان فالجان :

— « ومع ذلك ، فهذا الكوخ قائمٌ تحت زاوية الجدار . انــه محجوب بضرب من البناء الخرب . ان ثمة اشجاراً . إنهن لا يستطعن ان يرَيْنَه من الدير . »

— « وانا اضيف ان الراهبات لا يقتربن منه البتة . »

فقال جان فالجان :

— « حسناً ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعَتْ تلك الكلمة تعني : يبدو لي ان في استطاعتنا ان نظلّ مختبئين هنا . وكان جواب فوشلوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال :

— « هناك الفتيات الصغيرات . »

فسأله جان فالجان : !

— « أية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكد فوشلوفان يفتح فمه ليشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة

حتى سُمع الناقوس يقرع قرعة واحدة .

وقال :

– « لقد ماتت الراهبة . هوذا الناقوس ينعاها . »

وأشار الى جان فالجان بأن يصغي .

وقرع الناقوس مرةً ثانية .

– « انه النعيّ ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس سوف يقرع مرةً كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يغادر الجثمان الكنيسةَ . وفي العُطَل ، لا تكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الأنظمة ويبحثن عنها مبعثراتٍ كل شيء . إن هاته الملائكة الفاتنات شياطين حقاً . »

فتساءل جان فالجان :

– « مَنْ ؟ »

– « الفتيات الصغيرات . سوف يُكتَشَفُ أمرك في وقت قريب . انهن سوف يصحن : « ماذا ؟ رَجُل ؟ » ولكن ليس ثمة خطرٌ ، اليوم . لن تُعطى الفتيات عطلة . سوف يخصّص النهار كله للصلاة . أنت تسمع الناقوس . دقة واحدة كل دقيقة ، كما قلت لك . انه النعيّ . »

– « لقد فهمتُ ، ايها الاب فوشلوفان . هناك طالباتٌ داخليات . »

وفكّر جان فالجان في ما بينه وبين نفسه :

– « هنا ، اذن ، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضاً . »

وهتف فوشلوفان :

– « وحقّ الالـه ! لو رأتك الفتيات الصغيرات ! اي صيحة سوف يطلقن حين تقع أعينهن عليك ! وبأية سرعة سوف يولين فراراً . فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلاً ، اشبهُ شيء بالطاعون . ألا ترى كيف شدَدْنَ الى رجلي جلجلاً وكأنني وحش ضارٍ ؟ »

وفكّر جان فالجان أعمق فأعمق . وتمتم :

- « الدير سوف ينقذنا . »

ثم رفع صوته :

- « نعم ، الصعوبة هي في البقاء . »

فقال فوشلوفان :

- « لا . انها في الخروج . »

وأحس جان فالجان بالدم يجري بارداً في عروقه .

- « في الخروج ؟ »

- « اجل يا مسيو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج . »

وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تتلاشى ، استأنف فوشلوفان حديثه :

- « ليس من الخير ان يجدنك ههنا على هذا الشكل . من أين أقبلت ؟ اما انا فأعتقد انك سقطتَ من السماء ، لأني أعرفك . وأما الراهبات فسوف يعتقدن أنك دخلت من الباب . »

وفجأةً سمعا قرعاً معقّداً منبعثاً من ناقوس آخر .

فقال فوشلوفان :

- « اوه ! هذا الناقوس يدعو الأمهات الصوتيات . انهن يذهبن الى مجلس الراهبات . ذلك انهن يعقدن مجلساً كلما مات شخصٌ ما . انها لم تمت مع الفجر . والناس انما يموتون عادة ، مع الفجر . ولكن ألا تستطيع ان تخرج من حيث دخلتَ ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ، ولكن من اين دخلت ؟ »

وشحب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . أخرج من غابة ملأى بالأغار ، ثم تخيّل ، بعد ان نجوتَ بنفسك ، ان صديقاً لك ينصحك بالعودة ! وتخيلَ جان فالجان ان رجال البوليس كلهم لا يزالون يجوبون الشوارع ، وأن الشرطة تتربّص به ، وان العسس في كل مكان ،

وأن قبضات رهيبة تمتدّ للأخذ بخناقه . ولعل جافير ان يكون في زاوية المفرق . »

فقال :

— « مستحيل . إفترضْ أني هبطتُ من السماء . »

فأجابه فوشلوفان :

— « آه ! انا اصدّق ذلك ، أنا اصدّق ذلك . لا داعيَ الى ان تخبرني . لا بد ان الله قد اخذ بيدك ، لكي يرى اليك عن كثب ، ثم أفلتك . كل ما في الامر أنه كان يريد ان يضعك في دير للرجال . لقد أخطأ . اسمع ، الناقوس يُقرع مرةً اخرى . هذا تنبيـــه للبوّاب لكي يذهب الى البلدية ويحيط رجالها علماً بالحادث ، لكي يذهبوا ويُعلموا طبيب الاموات فيجيء ويتحقق من ان ثمة امرأة ميتة ، وهـذه كلها طقوس خاصة بالوفاة ، وهؤلاء السيدات الطيبات لا يرحبن بهذه الزيارة كثيراً ، فالأطباء لا يؤمنون بشيء . انهم يرفعون الحجـاب ، بل انهم يرفعون شيئاً آخر ، في بعض الأحيان . ولكن ما اسرعَ ما أعلمنَ الطبيب ، هذه المرة ! فما القصة ، يا ترى ? ان صغيرتك لا تزال نائمة . ما اسمها ? »

— « كوزيت . »

— « اهي بنتك ، يعني انك جدّها ، اليس كذلك ? »

— « نعم . »

— « ان الخروج من هنا سهلٌ بالنسبة اليها . ان عندي باباً خاصاً بي ينفتح على الفناء . سوف أقرعه . فيفتح البواب . ولسوف أحمل سلتي على ظهري ، وفي جوفها الفتاة الصغيرة . ولسوف اخرج . الاب فوشلوفان يخرج حاملاً سلته ، هذا كله هيّن . ولسوف تطلب أنت الى الفتاة الصغيرة ان تلتزم السكينة . ولسوف تكون محجوبة بغطاء . ولسوف اتركها بأسرع ما أستطيع ، عند صديقة لي طيبة عجوز ، بائعة خُضَر وفاكهة ،

في شارع « الطريق الاخضر » . وهذه الصديقة صمّاء ، وعنـدها سرير صغير . وسوف اصرخ في اذن بائعة الخضر والفاكهة أنها ابنة اخٍ لي ، وأسألها ان تحافظ عليها حتى يوم غد . ثم ان الفتاة الصغـيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اردّها اليك . يجب ان يتم هذا . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ »

وهز جان فالجان رأسه .

- « لا تدع احداً يراني ؛ هذا كل شيء ، ايها الاب فوشلوفان . ابحث عن وسيلةٍ ما لاخراجي انا ايضاً ، مثل كوزيت ، في سلة او تحت غطاء . »

وحكّ فوشلوفان أدنى أذنه بالاصبع الوسطى من يـده اليسرى ، وهي علامة على الارتباك الشديد .

وألمامها قرع الناقوس ، مرّة ثالثة ، بعض الألماء .

وقال فوشلوفان :

- « هوذا طبيب الأموات يمضي لسبيله . لقد رآها ، وقرر أنهـا ميتة . هذا حسن . وحين يؤشر الطبيب على الجواز الموصل الى الجنـة يبعث متعهدو مواكب الدفن بتابوت . فاذا كانت « أماً » كفّنتهـا « الامهات » . واذا كانت « أختاً » كفّنتها « الأخوات » . حتى اذا تم ذلك دقَقْتُ المسامير في النعش . ان هذا جزء من عملي كبستاني . فالبستاني ضربٌ من حفار القبور . انهن يضعنها في غرفـة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما أن يدخـل ، باستثناء طبيب الموتى . أنا لا أعدّ نفسي وحمَلة النعش رجـالاً . وفي تلك الغرفة أدق المسامير في النعش . ويقبل حَمَلة النعش ويأخذونها ، ويُعمل السائق سوطه ! هكذا يذهبن الى الجنة . انهم يجيئون بصندوق ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . تلك هي حقيقـة

الدفن . *De profundis

وشعّ خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة التي بدت – وقد فتحت فمها نصف فتحة على نحو حالم – وكأنها ملاك يعبّ الضياء عباً . كان جان فالجان ينظر اليها . انه ما عاد يصغي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصغاء ليس سبباً كافياً للصمت . وهكــذا واصل البستاني العجوز الصالح لغوّه المعاد ، في تؤدة وهدوء :

– « لقد أعِدّ الجدث في مقبرة فوجيرار . ويدّعون أن مقــبرة فوجيرار هذه سوف تلغى . انها مقبرة عتيقة ، لا تنسجم مع الانظمة ، ولا ترتدي اللباس الموحّد ، ولسوف تحال الى التقاعد . أنا آسف من أجل ذلك ، لانها مقبرة ملائمة . ان لي صديقاً هناك ، هو الأب ميتين ، حفار القبور . وللراهبات في هذا الدير امتياز يخولهن الحق في أن يُحملن الى تلــك المقبرة عندما يهبط الليل . ان ثمة أمراً صادراً عن مديرية الشرطــة ، خاصاً بهنّ . ولكنْ أيّ شيء قد حدث منذ أمس ! لقد توفيت الأم كروسيفكسيون والأب مادلين ... »

فقال جان فالجان مبتسماً ابتسامة محزونة :

– « قد دُفن . »

ورجّع فوشلوفان الكلمة .

– « يا الهي ، لو قضيتَ حياتك كلها هنا اذن لــكان ذلك دفنــاً حقيقياً . »

وقُرع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزع واقيــة رُكبته ذات الجلجل عن المسمار المعلقة به ، وأعاد شدها حول ركبته .

– « الناقوس يدعوني ، أنا ، هذه المرة . ان الام الرئيسة محتاجة اليّ . حسن ، أنا أخِزُ نفسي بلســان ابزيمي . مسيو مادلـــين ، لا

* تعبير لاتيني معناه : من الاعماق .

تتحرك ؛ انتظرني . هناك شيء جديد . وإذا كنتَ جائعاً فهي ذي الخمر ، والخبز ، والجبن . »

وغادر الكوخ وهو يقول :

– « لقد جئت ! لقد جئت ! »

ورآه جان فالجان يجتاز الحديقة مسرعاً ، على قدر ما تسمح له رجله العرجاء بذلك ، ناظراً في الوقت نفسه الى بطيخاته نظراً جانبياً .

وبعد عشر دقائق ، او اقلّ ، قرع الاب فوشلوفان – الذي كان جلجله يحمل الراهبات على الفرار فيما هو يتقدم – أحدَ الابواب قرعاً رفيقاً ، فأجابه صوت عذب : « الى الابد ! الى الابد ! » ، يعني : « ادخل . »

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المخصص للبستاني يستعمله حين يحتم الموقف الاتصال به . وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الاوحد ، في غرفة الاستقبال ، تنتظر فوشلوفان .

٢
فوشلوفان يواجه الصعوبة

ان سيماء قلقة رزينة تميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطبائع وبعض المهن ، وتميز بخاصة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية الهمّ المزدوجة تلك تطبع محيا رئيسة الدير الآنسة « دو بلومور » الفاتنة الواسعة العلم – الأمّ اينوسانت التي كانت مبتهجة الفؤاد عادة .

وانحنى البستاني بتحية جازعة ، ووقف عند عتبة القَلّيّة . كانت

الرئيسة تُمِرّ حبات سبحتها تحت ابهامها ، فما إن رأتـــه حتى رفعتْ عينيها وقالت :

– « آه ! هذا أنت ، أيها الاب فوفان . »

كان هذا الاختصار مألوفاً في الدير .

وانحنى البستاني كرة أخرى .

– « أيها الاب فوفان ، لقد دعوتك . »

– « ها أنا ذا ، ايتها الأم الموقّرة . »

– « اريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشلوفان في جراءة اوقعت الرعب في نفسه هو :

– « وأنا ، من ناحيتي ، عندي شيء أقوله للأمّ الموقّرة جداً . »

ونظرت الرئيسة اليه :

– « آه ، عندك ما تُسِر به اليّ . »

– « عندي توسّل . »

– « حسناً ، ما هو ؟ »

كان الرجل الطيب فوشلوفان ، الكاتب العدل السابق ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعتريهم القلق والاضطراب ابداً . إن مزيجاً معيّناً من الجهل والبراعة ليؤلف قوةً ؛ انك لا ترتاب فيه ، وإنه ليستحوذ عليك . ففي اقلّ من سنتين سلخهما فوشلوفـان في الدير وُفّق الى ان يحقق نجاحاً في مجتمع الراهبات ذاك . كان وحده دائماً . وحتى فيما كان يُعنى بحديقته لم يكن لديه في الاعم الاغلب ما يعمله غير أن يكون فضولياً . واذ كان على مبعدةٍ من جميـــع هاته النسوة الغاديات الرائحات فقليلاً ما كان يرى أمامه غير ظلالٍ مرفرفة . وبفضل حسن الانتباه ونفاذ البصيرة نجح في أن يكسو هذه الاطياف كلها رداءً من اللحم ، فاذا بهؤلاء الموتى أحياء في نظره . كان أشبه بأصمّ اكتسب بصرُهُ حدّةً ، وبأعمى غدا سمعُهُ مرهفاً . لقد أفرغ همّتَهُ في استكناه

المعاني التي تنطوي عليها مختلف دقات الناقوس ، فوفّق الى ذلك حتى لم يعد في ذلك الدير الغامض الصموت شيء مخبوءاً عنه . لقـــد نطق ابو الهول هذا ، مثرثراً ، مفرغاً اسراره كافةً في أُذنيـــه . واذ عرف فوشلوفان كل شيء ، فقد اخفى كل شيء . كان ذلك هو فنّه . لقد حسبه الدير كله أبله ؛ وتلك ميزة عظيمة في الدين . و « الامهـات » كن يقمن وزناً لفوشلوفان . كان أخرس نادر المثال . وكان يوحي بالثقة . والى هذا ، فقد كان نظامياً ، ولم يكن ليغادر الدير البتـة ، إلا اذا دعت الى ذلك حاجة ملحوظة من حاجات الحديقة والبستان . وكان هذا السلوك الرصين موضع اعجاب الراهبات . ومع ذلك فقد اطلع على أسرار رجلين اثنين : بوّاب الدير ، الذي كان يعرف غرائب غرفـــة الاستقبال ، وحفّار القبور ، الذي كان يعرف فرائد الجبّانة . وعـلى هذا النحو فقد كان يملك ضوءاً مزدوجاً ، في ما يتصل بهاتـه الراهبات. فأما احدهما فسلط على حياتهن ، وأما الآخر فسلط على مماتهن . ولكنه لم يسيء استعمال ذلك . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج ، لا يرى شيئاً . ولعله ان يكون اصمّ بعض الشيء — يا لها من سجايا وافرة ! إن من العسير إحلال امرىء ما محلّه .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بأنه موضع التقدير ، القى الرجل الطيب في حضرة الرئيسة الموقرّة خطاباً ريفياً مطوّلاً جداً ، عميقاً جداً . لقد أسهب في الكلام على عمره ، وعلى أسقامه ، وعلى عبء السنين الذي أمسى منذ اليوم مزدوج الوطأة عليه ، وعلى مطالب عمله المـــتزايدة ، وعلى اتساع الحديقة ، وعلى الليالي التي يتعيّن عليه أن يسلخها — شأنـه الليلة البارحة مثلاً — حين اضطر الى ان يبسط حُصُر القصب عـــلى مساكب البطيخ من جرّاء القمر . واخيراً ختم كلامه بقوله إن له أخاً (وهنا اجفلت رئيسة الدير) ، أخاً ليس شابـــاً (واجفلت الرئيسة إجفالة ثانية ، ولكنها راسخة) وإن في استطاعة هذا الاخ ان يأتي —

اذا كان ذلك مرغوباً فيه – ويعيش معه ويمد اليه يـد المساعدة ، وإنه كان بستانياً ممتازاً ، وان الجماعة تستطيـع ان تتوقع منـــه خدمات افضل من تلك التي يؤديها هو اليها ؛ على حين أنه ، اذا لم يُلحَق اخوه بالدير ، فسوف يضطر هو – بوصفه الاكبر سناً ، وقـــد استشعر الشيخوخة والعجز عن النهوض بعبء العمل – الى مغادرة الدير ، آسفاً لذلك أعظم الاسف ، وإن لاخيه بنتاً صغيرة سوف تصحبه ، وسوف يكون في ميسورها ان تنشأ تحت راية الله في الدير ، ولعلها ان تصبح – فمن يدري ? – في يوم من الايام ، راهبة .

حتى اذا انتهى ، كفّت الرئيسة عن إمرار حبّات السبحة من خلال اصابعها ، وقالت :

– « هل تستطيع ، من الآن حتى المساء ، أن تحصل عـلى قضيب حديدي قوي ? »

– « لأي غرض ? »

– « لكي نتخذ منه مُخلاً . »

فأجابها فوشلوفان :

– « نعم ، ايتها الأم الموقّرة . »

ونهضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحـدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعةَ مجلس الراهبات حيث كانت الامهـــات الصوتيات مجتمعاتٍ في اغلب الظنّ . وبقي فوشلوفان وحيداً .

٣
الأم اينوسانت

وانقضى ربع ساعة تقريباً . ورجعت الرئيـسة وجلسـت على الكرسي

من جديد .

وبدا كلٌّ منهما مستغرقاً في التفكير . وها نحن ننقل ههنا ، احسن ما نستطيع النقل ، ذلك الحوار الذي تلا :

– « أيها الأب فوقان ؟ »

– « ايتها الام الموقّرة ؟ »

– « انت تعرف الكنيسة جيداً ؟ »

– « إن لي قفصاً صغيراً هناك أسمع منه القداس والخدمات الدينية . »

– « وهل دعتك اعمالك الى ان تدخل في يوم من الايام الجزءَ الخاص بالجوقة ؟ »

– « مرةً او ثلاث مرات . »

– « إن ثمة حجراً ينبغي ان يُرفع . »

– « أهو ثقيل ؟ »

– « إنها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

– « الحجر الذي يغطّي الكُهَيْف ؟ »

– « نعم . »

– « هذه مناسبة تنهض دليلاً على ان من الخير ان يكون ههنا رُجلان . »

– « الأمّ صعود ، القوية مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

– « مهما بلغت المرأة من القوة تظلّ اضعف من ان تضاهي الرجل . »

– « ليس عندنا غير امرأة واحدة لتساعدك . وكلٌّ يعمل على قدْر طاقته . إن المعلّم مابيون يعطينا اربعمئة وسبع عشرة رسالة من القديس برنارد ، في حين يعطينا ميرلونوس هورستيوس ثلاثمئة وسبعاً وستين ليس غير ، ولكن هذا لا يدعوني الى احتقار ميرلونوس هورستيوس . »

– « وانا كذلك . »

– « إن قيمة كل منا تقاس بمقدار عمله بالنسبة الى قوّته . إن الدير ليس مصنعاً للسفن . »

– « والمرأة ليست رجلًا . إن اخي هو القويّ ! »

– « والى هذا فسوف يكون عندك مُخل . »

– « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك الضرب من الابواب. »

– « هناك حلقة في الحجر . »

– « ولسوف أمِرّ المخل من خلالها . »

– « ولقد أقيم الحجر بطريقة تجعله يدور على محور . »

– « حسن جداً ، ايتها الأم الموقرة . سوف أفتح الكُهَيْف . »

– « والامهات الاربع المرتّلات سوف يساعدنك . »

– « وبعد أن يُفتح الكهَيْف ؟ »

– « يجب ان يُغلق من جديد . »

– « أهذا كل شيء ؟ »

– « لا . »

– « أصدري اليّ اوامرك ، ايتها الأم الموقرة جداً . »

– « فوفان ، إن لنا ثقة فيك . »

– « انا هنا لكي أعمل كل شيء . »

– « ولكي تسكت عن كل شيء . »

– « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

– « وحين يُفتح الكهَيْف ... »

– « أغلقه من جديد . »

– « ولكنْ قبل ... »

– « ماذا ، أيتها الام الموقرة ؟ »

– « يجب ان يُنزَّل شيء الى هناك . »

ورانَ الصمت . وبعد اختلاجة من شفتيهـــا الصغيرة بـدت اشبه بالتودد ، أضافت الرئيسة :

– « ايها الأب فوفان ؟ »

– « ايتها الأمّ الموقرة ؟ »

– « انت تعلم ان احدى « الامهات » توفيت هذا الصباح . »

– « لا . »

– « انت لم تسمع الناقوس اذن ؟ »

– « إن المرء لا يسمع شيئاً في أقصى الحديقة . »

– « حقاً ؟ »

– « إني لا أتبيّن دقة الجرس الخاصة بي إلا بشقّ النفس . »

– « لقد ماتت مع الفجر . »

– « والى هذا ، فان الريح لم تهبّ صوبي ، هذا الصباح . »

– « إنها الامّ كروسيفكسيون . احدى الطوباويات . »

وصمتت رئيسة الدير ، وحركت شفتيها لحظةً وكأنهـا تصلي صلاة ذهنية ، ثم استأنفت كلامها :

– « منذ ثلاث سنوات ، ولمجرّد رؤيتهـا الأمّ كروسيفكسيون ، رجعت امرأةٌ يَنْسِينيّة * الى الطريق القويم . »

– « آه ، أجل . أنا أسمع النعيّ الآن ، ايتها الأمّ الموقّرة . »

– « لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المؤدية الى الكنيسة . »

– « ادري . »

– « ليس في استطاعة رجل غيرك ان يدخـــل الى تلك الحجرة ، ولا يجوز له أن يفعل . انتبه جيداً . فسوف يكون من المستغرب أن يُرى رجلٌ داخلاً الى حجرة الموتى ! »

---

* Janséniste من اتباع ينسينيوس Jansénius اللاهوتي الاسباني (١٥٨٥ – ١٦٣٨) وكان له آراء خاصة في النعمة وحرية الارادة اثارت عليه نقمة الكنيسة الكاثوليكية .

— « في الأغلب ! »

— « هيه ؟ »

— « في الأغلب ! »

— « ماذا تقول ؟ »

— « اقول في الاغلب . »

— « اغلب من ماذا ؟ »

— « ايتها الأم الموقرة . انا لا أقول اغلب من ماذا . أنا اقول في الاغلب . »

— « لست أفهمك . »

— « لماذا تقول في الاغلب ؟ »

— « لكي اقول كما تقولين ، ايتها الأم الموقرة . »

— « ولكني لم أقل في الأغلب . »

— « انتِ لم تقوليها . ولكني قلتها لكي أقول كما تقولين . »

وأعلنت الساعةُ التاسعةَ .

فقالت الرئيسة :

— « في الساعة التاسعة من الصباح ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الأقدس . »

فقال فوشلوفان :

— « آمين ! »

ودقّت الساعة في الوقت المناسب . لقد وضعت حداً للنقاش حول « في الاغلب » تلك . ولولا ذلك لكان من الجائز ان لا تُوفّق الرئيسة وفوشلوفان الى الخروج من تلك الورطة أبد الدهر .

ومسح فوشلوفان جبينه .

وغمغمت الرئيسة تمتمةً قلبيّة قصيرة اخرى ، لعلها مقدسة ، ثم رفعت صوتها :

— « كانت الأم كروسيفكسيون تردّ الناس ، في حياتهـا ، الى طريق الدين القويم . وفي مماتها ، سوف تجترح العجائب . »

— « إنهـا سوف تفعل ! » كذلك اجاب فوشلوفـان ، مصحّحاً خطوته ، باذلاً جهداً لكي لا يخطىء كرةً اخرى . »

— « ايها الأب فوفـان ، لقد بوركت جماعـة الدير بفضل الأم كروسيفكسيون . ولا ريب في أنه لم يقيّضْ لجميـع الناس أن يموتوا مثل الكاردينال دو بيرول وهو يتلو القدّاس الطاهر ، وان يلفظ نفَسه الأخير وهو ينطق بهذه الكلمات : *Hanc igitur oblationem* * . ولكـن من غير أن تنعم الام كروسيفكسيون بهذه السعادة كلها ، فقد حظيت بميتةٍ نفيسة . لقد احتفظت بوعيها حتى النهاية . لقد تحـدثتْ الينا ، ثم تحدثتْ الى الملائكة . لقد اصدرت اوامرها الاخيرة الينا . ولو كان لك إيمانٌ أكبر بعضَ الشيء ، ولو كان في ميسورك ان تدخـل الى قليّتها إذن لشَفَتْ رِجلَك بمجرّد لمسها . لقد ابتسمَتْ . ولقد شعرنا بأنها تعود الى الحياة بالربّ . كان ثمةَ شيء من الجنة في تلك الميتة . »

وحَسِبَ فوشلوفان أنه كان يصغي الى صلاة ، فقال :

— « آمين ! »

— « أيها الأب فوفان ، يجب ان ننفّذ رغبات الموتى . »

وأحصت الرئيسة بضع حبّات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتاً. ثم تابعت :

— « لقد استشرتُ في هذه المسألة عـدداً من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، المنصرفين الى اداء المهام الكهنوتية في نجاح كبير . »

— « ايتها الأم الموقّرة ، ان المرء يسمع النعيّ هنـا أحسن مما يسمعه في الحديقة بكثير . »

— « وفوق هذا ، فأنها اكثر من ميتة . إنها قديسة . »

* عبارة لاتينية تردد عند الشروع في القداس . ومعناها تقدمة القربان .

— « مثلكِ ، أيتها الأم الموقرة . »

— « لقد نامت في نعشها منذ عشرين عاماً ، بأذن خاص من أبينا المقدس بيوس السابع . »

— « ذلك الذي توّج الامبر .... بُونُونابرت . »

وبالنسبة الى رجل حاذق مثل فوشلوفان كانت الذكرى مشؤومة . واغلب الظنّ ان الرئيسة ، المستغرقـــة في تفكيرهـــا ، لم تـسمعه . وواصلَتْ كلامها :

— « ايها الأب فوفان ؟ »

— « أيتها الأمّ الموقرة . »

— « لقد رغب القديس ديودوروس ، رئيس اساقفة كابادوسية ، في ان لا تُكتب على قبره غير هذه الكلمة *Acarus* * ، وهي تعني دودة من ديدان التراب . ونُفّذت تلك الرغبة . هل هذا صحيح ؟ »

— « أجل ، ايتها الأم الموقرة . »

— « وميزوكان المبارك ، رئيس دير آكيلا ، رغب في ان يدفن تحت المشنقة . وقد نفذت تلك الرغبة . »

— « هذا صحيح . »

— « والقديس تيرانس ، أسقف « بور » عند مصب نهر الـ « تيبر » في البحر ، رغب في ان تُحفر على قبره العلامة التي توضع على قبور قتلة آبائهم أو امهاتهم ، رجاءَ ان يبصق المسافرون على قبره . ونُفّذت تلك الرغبة . إن علينا ان نطيع الموتى . »

— « ليكن ذلك . »

— « إن جيئان برنارد غويدونيس ، المولود في فرنسة قرب « روش آباي » ، قد حُمِلَ – بناء على رغبته ، وبرغم معارضة ملك قشتالة – الى كنيسة الدومينيكيين في ليموج ، على حين ان برنارد غويـدونيـس

* عثة او سوسة .

كان اسقف توي في اسبانية . هل يستطيع احد انكار ذلك ؟ »

— « لا ، ايتها الأم الموقرة . »

— « لقد أثبت ذلك بلانتافيت دو لا فوسّ . »

وأمرّت بضع حبّات اخرى تحت أصابعهـا في صمت . ثم استأنفت حديثها :

— « ايها الاب فوفان ، ان الأم كروسيفكسيون سوف تـدفن في النعش الذي نامت فيه منذ عشرين سنة . »

— « هذا صحيح . »

— « إنه استمرار في النوم . »

— « سوف اضطرّ الى ان اسمّرها في ذلك النعش اذن ؟ »

— « أجل . »

— « ولسوف نضع نعش الدفّان جانباً . »

— « تماماً . »

— « أنا تحت تصرّف جماعة الدير الموقرة جداً . »

— « إن الامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »

— « لدقّ المسامير في النعش ؟ أنا لست محتاجاً اليهنّ . »

— « لا ، لأنزال النعش . »

— « الى اين ؟ »

— « الى الكهيْف . »

— « ايّ كهيْف ؟ »

— « الذي تحت المذبح . »

وأجفل فوشلوفان :

— « الكهُيْف الذي تحت المذبح ! »

— « تحت المذبح . »

— « ولكن ... »

- « سوف يكون لديك قضيب حديدي . »
- « اجل ، ولكن ... »
- « ولسوف ترفع الحجر بالقضيب بواسطة الحلقة . »
- « ولكن ... »
- « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت أمنية الأم كروسيفكسيون ان تدفن في الكُهَيْف الذي تحت مذبح الكنيسة - لا أن تذهب الى التربة غير الطاهرة - وان تبقى بعد الممات حيث صلّت في الحياة . لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدرت أمرها بذلك . »
- « ولكن هذا محظور . »
- « لقد حظّره البشر ، وامر به الله . »
- « واذا اكتُشِف ذلك ؟ »
- « إن لنا ثقةً فيك . »
- « اوه ، من ناحيتي ، انا مثل حجر من حجارة جدارك . »
- « لقد اجتمع مجلس الراهبات . ولقد قررت الامهات الصوتيات ، اللواتي شاورتهن كرةً اخرى ، واللواتي يتذاكرن الان ، ان تُدفن الام كروسيفكسيون ، وفقاً لرغبتها ، في نعشها تحت مذبحنا . تخيَّلْ أيها الاب فوفان الوضع اذا ما اجتُرحت العجائب من هنا ! ايّ مجد في الربّ ستنعم به جماعة الدير ! ان المعجزات تنبثق من القبور . »
- « ولكن ، ايتها الأم الموقّرة ، واذا أقبل شرطيٌّ مفوضية الصحة ؟ ... »
- « لقد قاوم القديس بينوا الثاني ، في مسألة الدفن ، قسطنطين بوغوناتوس * . »
- « ومع ذلك ، فإن مفوض الشرطة ... »

---

* هو قسطنطين الرابع ، امبراطور الامبراطورية البيزنطية الشرقية (٦٤٨-٦٨٥)

— « وإن كونودمير ، احد الملوك الالمان السبعة الذين دخلوا « غالة » في عهد الامبراطور كونستانس ، اعترف في صراحة بحقّ الرهبان في ان يُدفنوا على الطريقة الدينية ، يعني تحت المذبح . »

— « ولكن مفتش الشرطة ... »

— « ان العالَم ليس شيئاً أمام الصليب . ولقد أوصى مارتن ، الرئيس العام الحادي عشر للرهبانية القرطوسية ، أتباعه بهذه الوصية :

Stat crux dum volvitur orbis

— « آمين ! » كذلك قال فوشلوفان ، وهو رابط الجأش في التعبير عن نفسه على هذا النحو كلما سمع شيئاً من الكلام اللاتيني .

ان جماعة من المستمعين ، مهما يكن عدد افرادها ضئيلاً ، لترضي من سلخ فترة طويلة من الزمان وهو معتصم بالصمت . فيوم غادر الخطيب جيمناستوراس السجنَ ، مفعمَ الصدر بذخيرة مكبوتة من البراهين ذوات الحدين والاقيسة المنطقية ، وقف عند أول شجرة التقاها ، وخطب فيها ، وبذل جهداً كبيراً لاقناعها . كذلك نهضت الرئيسة ، الخاضعة عادة لسدّ من الصمت ، بعد أن وجدت في خزانها فائضاً ، وهتفت بمثل ثرثرة سدّ فُتح بابه :

— « ان الى يميني بينوا ، والى شمالي برنارد . من هو برنارد ؟ هو أول رئيس لدير كليرفو . و « فونتان » في بورغونيْ بلدٌ مبارك لانه كان مسقط رأسه . كان اسم أبيه تيسلين ، وكان اسم أمه آليت . لقد بدأ في « سيتو » وانتهى الى « كليرفو » . لقد أسند اليه رئاسةَ الدير اسقف « شالون سور ساوون » غيوم دو شامبو . كان له سبعمئة تلميذ ، ولقد أسس مئة وستين ديراً . لقد أفحم آبيّار في مجمع صان ، عام ١١٤٠ ، و « بيير دو بْرُوي » وتلميذه هنري ، وجماعة أخرى من الضالين تُعرف بـ « الرسوليين » . لقد ألقم « آرنو

---

* في اللاتينية ومعناها : الصليب ثابت لا يتزعزع ، والدنيا تدور دورانها .

دو بريس ، حجراً ، وصعق الراهبَ والف ، ذابح اليهـود ، ورئس عام ١١٤٨ مجمع ريمس ، وحمل الكنيسة على أن تدين « جيلبرت دو لابوريه » أسقف بواتييه ، وحملها على أن تدين « إيبون دو ليتوال » ، وأصلح ما بين الامراء ، ونصح الملكَ لويس الفتى * ، وقـدّم المشورة للبابا أوجين الثالث ، ونظّم « الهيكل » ، ودعا الى الحرب الصليبية ، واجترح مئتين وخمسين عجيبة في حياته ، تمّ له منهـا تسع وثلاثون في يوم واحد . ومن هو بينوا ؟ انه بطريرك مونت كاسينو ؛ انه المؤسس الثاني « للقداسة الديرية » ؛ إنه باسيل ** الغرب . لقد أنجبت رهبانيته أربعين بابا ، ومئتي كاردينال ، وخمسين بطريركاً ، وألفاً وستمئة رئيس أساقفة ، وأربعة آلاف وستمئة أسقف ، وأربعة أباطرة ، واثنتي عشرة امبراطورة ، وستة وأربعـين ملكاً ، واحـدى وأربعين ملكة ، وثلاثـة آلاف وستمئة قديس معلَني القـداسة ، ولا تزال قائمةً منـذ الف واربعمئة سنة . القـديس برنارد من ناحيـة ، وشرطي اللجنـة الصحية من ناحية ! القديس بينوا من ناحية ، ومفتش الصحة من ناحية ! الدولة ؛ دائرة الطرق العموميـة ؛ الانظمة الجنائزية ؛ القوانـين ؛ الادارة ؛ هل ندرك هذه الاشياء ؟ إن كل امرىء لتثور ثائرته حين يرى الى الطريقة التي نُعامَلُ بها . إنهم يحرموننا حتى من حقنا في ان نقدّم رفاتنا الى يسوع المسيح ! إن لجنتك الصحية هي من اختراعات الثورة . يجب ان يخضع الله لمفوّض الشرطة ؛ ذلـك هو منطق هـذا العصر . إصمت يا فوفان ! »

ولم يستشعر فوشلوفان الارتياحَ ، تحت وابل هذا التأنيب . وتابعت الرئيسة كلامها :

---

* Louis le Jeune هو لويس السابع وقد حكم فرنسة من عام ١١٣٧-١١٨٠

** القديس باسيل ابو الكنيسة اليونانية (٣٢٩ - ٣٧٩) والمقصود انه بالنسبة الى الغرب بمثابة باسيل بالنسبة الى الكنيسة اليونانية ، الشرقية .

— « إن حقّ الدير في الدفن لا يمكن ان يشك فيه احدٌ . وليس ثمة من يُنكره غير المتعصبين والضالّين . نحن نحيا في عصر بلبلة فظيعة . فالناس يجهلون ما ينبغي لهم ان يعلموه ، ويعلمون ما ينبغي لهم ان يجهلوه . انهم أجلاف ملحدون . وهناك في هذا العصر اناس لا يميزون بين القديس برنارد العظيم وبرنارد المعروف بـ « برنارد الكاثوليك الفقراء »، وهو أحد الرهبان الصالحين من اهل القرن الثالث عشر . وآخرون يجدّفون الى حدٍّ يجعلهم يقارنون ما بين دكة المشنقة التي أعدم بها لويس السادس عشر وصليب يسوع المسيح . إن لويس السادس عشر لم يكن غير ملك . فلنحذَرِ الله إذن ! لم يبقَ ثمة لا مستقيمون ولا زائغون . إنهم يعرفون اسم فولتير ، ولكنهم لا يعرفون اسم « سيزار دو بوس » * ومع ذلك فسيزار دو بوس طوباويّ سعيد وفولتير شقيّ منكود الحظّ . ورئيس الاساقفة الاخير نفسه ، كاردينال بيريغور ، لم يعرف ان شارل دو غوندرين قد خَلَفَ بيرول ، وان فرانسوا بورغوان قد خَلَفَ غوندرين ، وأن جان فرانسوا سينو قد خلف بورغوان ، وان الاب « دو سانت مارتا » قد خلف جان فرانسوا سينو . والناس يعرفون اسم الاب « كوتون » لا لأنه كان أحد الثلاثة الذين عملوا في تأسيس رهبانيــة الـ « أوراتوار » ولكنْ لأنه كان موضوع تجديف للملك الهوغونوتي ** هنري الرابع . وإذا كان القديس فرانسوا دو سال قريباً الى نفوس ابناء هذا العالم فلأنه قد غشّ في القمار . ثم إن الناس يهاجمون الدين . لماذا ؟ لانه كان ثمة كهان أشرار ، لان ساغيتير ، اسقف غابٌ ، كان أخــاً لسالون ، اسقف ايمبرون ، ولأن

* Cisar de Bus مؤسس « رهبانية إخوة العقيدة المسيحية » (١٥٤٤–١٦٠٧) وقد ترهّب بعد أن سلخ صدر شبابه منغمساً في الملذات والشهوات .

** الهوغونوت لفظ يطلق على البروتستانت الفرنسيين .

كلاً منهما قد اتّبع « مامون » * وما الذي يمكن ان ينتج عن هذا ؟ هل يمنع ذلك مارتن الثوري من ان يكون قديساً ومن ان يقدّم نصف ردائه الى احد الفقراء ؟ إنهم يضطهدون القديسين . إن الناس ليغمضون أعينهم عن الحق . لقد غدت الظلمة شيئاً مألوفاً . وأشد الوحوش ضراوة هي الوحوش المكفوفة البصر . ان احداً لا يفكر في جهنم تفكيراً جدياً . اوه ! يا للشعب الشرير ! إن « باسم الملك » تعني اليوم « باسم الثورة » . ولم يعد الناس يعرفون لا حقوق الاحياء ولا حقوق الاموات . ولقد غدا الموت على نحو مقدس أمراً محظوراً . كما غدا القبر مسألةً مدنية . وهذا شيء رهيب ! لقد كتب القديس ليو الثاني رسالتين مسهبتين ، الاولى الى « بيير نوتير » والثانية الى ملك القوط الغربيين لكي يدفع ويسفّه ، في المسائل المتصلة بالموت ، سلطة الأكسرخوس ** وسيادة الأمبراطور العليا . ولقد قاوم غوتييه أسقف شالون ، في هذه القضية ، اوثونَ دوق بورغونيْ . ولقد سلّم القضاة القدماء بهذا . وفي العهود الماضية كنا نصوّت في مجلس الراهبات حتى على المسائل الزمنية . وكان رئيس دير سيتو ، وهو مقدَّم الرهبانية ، مستشاراً وراثياً لبرلمان بورغونْيْ . إننا نفعل بموتانا ما يحلو لنا . أليس جثمان القديس بينوا نفسه في فرنسة في دير فلوري المعروف بدير « سان بينوا سور لوار » برغم انه مات في مونت كاسينو بايطالية ، يوم السبت الواقع في الحادي والعشرين من شهر آذار عام ٥٤٣ ؟ إن هذا كله لا يقبل الجدل . أنا امقت جماعة المرتلين ؛ انا اكره رؤساء الاديرة ؛ انا أبغض الهراطقة ، ولكني احقد اكثر على أيما شخص يُثبت لي خلافَ ما قلت . وليس عليك إلا ان تقرأ « آرنول ويون » ،

* الـه المال عند الاشوريين . وقد أطلق هذا الاسم في « الكتاب المقدس » على شيطان المال خصوصاً ، وعلى الشيطان بصورة عامة ايضاً .

** نائب امبراطور القسطنطينية في ايطالية أو في افريقية .

و « غابرييل بوسلين » ، و « تريتيم » ، و « مورروليكوس » ، و « دوم لوقا داشري » .

وأخذت رئيسة الدير نفَساً ، ثم التفتت نحو فوشلوفان :

– « ايها الاب فوفان ، هل حُسِمت المسألة ؟ »

– « لقد حُسِمت ، ايتها الام الموقرة . »

– « هل استطيع ان اتكل عليك ؟ »

– « سوف امتثل امرك . »

– « حسن . »

– « إني أتفانى في خدمة الدير كل التفاني . »

– « لقد غدا واضحاً انك سوف تُغلِق النعش . إن الاخوات سوف يحملنه الى الكنيسة . ولسوف تُتلى صلاة الميْت . وبعد ذلك يرجعن الى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي انت ومعك القضيب الحديدي . ان كل شيء سوف يُصنَع في سرّية كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير « الأمهات » الاربع المرتلات ، والأم « صعود » ، وأنت . »

– « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »

– « إنها لن تلتفت . »

– « ولكنها سوف تسمع . »

– « انها لن تصغي . والى هذا ، فان ما يعرفه الدير لا يعرفه العالم . »

وران الصمت لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها :

– « سوف تنزع جلجلك . لا داعي الى أن تلمح الاخت التي في المركز أنك هناك . »

– « أيتها الام الموقرة ؟ »

– « ماذا أيها الاب فوفان ؟ »

« سوف يقوم بها اليوم ، في الساعة الرابعة . لقد قرع الناقوس الذي يدعو طبيب الموتى الى المجيء . ولكنك لا تسمع أيـــاً مــن دقات الناقوس ، اذن ؟ »

- « أنا لا أنتبه الا لدقاته الخاصة بي . »

- « هذا حسن أيها الاب فوفان . »

- « أيتها الأم الموقرة ، سوف أحتاج الى مخل يبلغ طوله ستـــة أقدام على الاقل . »

- « من أين ستأتي به ؟ »

- « حيث تكثر النوافذ المشبكة تكثر القضبان الحديدية . ان عندي كومة من الحدائد العتيقة في مؤخرة الحديقة . »

- « قبل منتصف الليل بثلاثة أرباع الساعة . لا تنسَ . »

- « أيتها الام الموقرة ؟ »

- « ماذا ؟ »

- « اذا احتجتِ الى القيام بأي عمل آخر مثل هذا ، في المستقبل ، فان أخي قويّ جداً . انه تركي . * »

- « سوف تقوم بذلك بأسرع ما يمكن . »

- أنا لا أستطيع أن أسرع . انا عاجز . من أجل ذلك طلبتُ أن يكون لي مساعد . اني اعرج . »

- « العَرَج ليس جريمة ؛ انه قد يكون بركة . ان الامبراطور هنري الثاني الذي قاتل غريغوري ، البابا الزائف ، واعاد بينوا الثامن الى الكرسي الرسولي كان له لقبانِ (*surnoms*) : القديس ، والاعرج . »

فغمغم فوشلوفان الذي كان ثقيل السمع ، في الواقع ، بعض الشيء :

---

* يطلق لفظ « التركي » في الفرنسية على الرجل القوي جداً .

— « ان معطفَيْن (*surtouts*) اثنين شيء عظيم ! » *

— « ايها الاب فوفان ، بجيل اليّ ، وقد فكرت في ذلك ، اننا سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير . كن قرب المذبح العالي ، حاملًا القضيب الحديدي ، في الساعة الحادية عشرة . إن الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتمّ كل شيء قبل ذلك بربع ساعة او يزيد . »

— « سوف اعمل كل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . لقد تفاهمنا على ما يلي : سوف ادق المسامير في النعش . وعند الساعة الحادية عشرة تماماً سوف اكون في الكنيسة . وسوف تكون الامهات المرتـــلات هناك ، وكذلك ستكون الأم « صعود » هناك . لو كان ثمة رجلان لكان افضل . ولكن لا بأس ! سوف يكــون معي مخـــلي . سوف نفتح الكهَيْف ، ونُنزل النعش ، ثم نغلق الكهيف من جديد . وبعـد ذلك لن يكون ثمة اثر لايما شيء . ان الحكومة لن ترتاب في شيء . ايتها الأم الموقرة ، اهذا كل ما هنالك ؟ »

— « لا . »

— « وماذا بقي بعد ، اذن ؟ »

— « بقي التابوت الفارغ . »

وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرئيسة .

— « ايها الاب فوفان ، ما الذي سوف نعمـله بالنعش ؟ »

— « سوف ندسّه في التراب . »

— « فارغاً ؟ »

وران الصمت كرة اخرى . واومأ فوشلوفان بيـده اليسرى تلـك

---

* وضعنا اللفظ الفرنسي بعد كلمتي « لقبان » surnoms « ومعطفين » surtouts حتى يلاحظ القارىء السبب الذي جعل فوشلوفان يفمغم بهذا الجواب . ذلك انــه ظن أن رئيسة الدير قالت surtouts لا surnoms .

الاءاءة الخاصة التي تطرد سؤالاً بغيضاً .

— « ايتها الام الموقرة ، سوف استمر النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، ولسوف اغطي النعش بالكفن . »

— « اجل ، ولكن حمَلة النعش سوف يلاحظون من غير شك ، حين يضعونه في عربة الموتى ، وحين ينزلونه الى القبر ، انّ ليس في داخله شيء . »

فهتف فوشلوفان :

— « آه ، يا للشّيْ ... ! »

وشرعت الرئيسة ترسم اشارة الصليب على صدرها ، وحدّقت الى البستاني . لقد علقت الـ « ... طان » * في حلقومه .

وسارع الى التفكير بوسيلة تنسيها ذلك التجديف .

— « ايتها الام الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . إن ذلك سيجعله ثقيلاً وكأن فيه جثماناً . »

— « انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . واذن فسوف تسوي مسألة النعش الفارغ ؟ »

— « سوف ادبر الامر . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه ، وكان حتى تلك اللحظة مضطرباً مكفهراً . واومأت اليه اءاءة رئيس يسرّح مرؤوساً . فتقدّم فوشلوفان نحو الباب ، وفيما هو يغادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق :

— « ايها الاب فوفان ، انا راضية عنك . غداً بعد الدفن ، جئني بأخيك ، وقل له ان يصطحب ابنته . »

* وهي البقية الباقية من كلمة « شيطان » .

٤
حيث يظهر جان فالجان بمظهر من قرأ اوستين كاستيليجو تماماً

ان خطوات الاعرج اشبه شيء بنظرات الاعور ؛ إنها لا تنتهي الى غايتها في سرعة . وإلى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكاً . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريباً للعودة الى كوخه في الحديقة . كانت كوزيت يقظى . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . ولحظة دخل فوشلوفان ، كان جان فالجان يُريها سلة البستاني معلقةً على الجدار ، ويقول لها :

— « أصغي الي جيداً ، يا صغيرتي كوزيت . يجب ان نغادر هذا البيت ولكن سوف نعود ، ولسوف نكون سعيدين ههنا . ان الرجل الطيب الذي هنا سينقلك على ظهره . ولسوف تنتظرينني في منزل احدى السيدات . إني سأعود وأصطحبك . وفوق كل شيء ، اذا كنتِ لا تريدين ان تستردّكِ تيناردييه الزوجة ، فيجب عليك ان تكوني مطيعة ، وان لا تقولي شيئاً . »

واومأت كوزيت برأسها وقد غلبت عليها الكآبة .

وحين سمع جان فالجان صوتَ فَتْح فوشلوفان البابَ التفت وقال :

— « خير ؟ »

فقال فوشلوفان :

— « لقد سُوّي كل شيء ، ولم يسوّ شيء . لقد حصلت على اذن بادخالك ، ولكن قبل ان ادخلك يتعيّن عليّ ان اخرجك . هنا المشكلة. أما الصغيرة فأمرها هيّن . »

— « سوف تخرجها ؟ »

— « وهل ستلزم الصمت ؟ »

— « انا واثق من ذلك . »

— « ولكن انت ، ايها الاب مادلين ؟ »

وبعد صمت مشوب بالقلق ، هتف فوشلوفان :

— « ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلتَ ؟ »

فاكتفى جان فالجان بأن أجابه ، شأنه من قبل :

— « مستحيل . »

وغمغم فوشلوفان ، مخاطباً نفسه اكثر منه مخاطباً جان فالجان :

— « هناك شيء آخر يقضّ مضجعي . لقد قلت إني سوف أضع هناك بعض التراب . ولكني أعتقد أن وضع التراب فيه بدلاً من الجثة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جثماناً حقاً . ان هذا العمل لن ينجح . ان التراب سوف يهتز . انه سوف يتحرك . وعندئذ يشعر الرجال به . أتفهم ، أيها الاب مادلين ؟ إن الحكومة سوف تكتشف الامر . »

وحدّق جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي .

واستأنف فوشلوفان حديثه :

— « ما السبيل ، بحقّ الشيْ... طان ، الى خروجك من هنا ؟ لأن هذا كله يجب ان يتمّ غداً . غداً ، سوف أدخلك الى هنا . ان الرئيسة تنتظرك . »

ثم أوضح لجان فالجان ان ذلك كان مكافأة له ، هو فوشلوفان ، على خدمة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ، في جملة ما تقتضيه ، أن يشارك في اعمال الدفن ، وأن يدقّ المسامير في النعوش ، وان يساعد حفار القبور في الجبّانة . وأن الراهبة التي توفيت ذلك الصباح أوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشاً ، وان توارى الثرى في الكُهيف القائم تحت مذبح الكنيسة . وأن أنظمة الشرطة تحظّر ذلك ، ولكنها كانت واحدةً من هاتيك الراحلات

الاواني لا يُردّ لهنّ أمر . وان رئيسة الدير والامهات الصوتيات اعتزمن إنفاذ رغبة الفقيدة . وأن لأمّ الحكومة الهَبَل ! وأنه هو ، فوشلوفان ، سوف يسمّر النعش في القلبيّة ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، ويُنزل الجثمان الى الكهَيْف . وأن الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بأن تُدخل أخاه الى الدير ، بوصفه بستانياً ، وابنة أخيه بوصفها طالبة داخلية . وأن اخاه كان مسيو مادلين ، وان ابنة أخيه كانت كوزيت . وأن الرئيسة قالت له ان يجيء بأخيه صباح غدٍ ، بعد ان يتمّ الدفن الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من الخارج ، اذا لم يكن مسيو مادلين في الخارج . وان تلك كانت هي الصعوبة الأولى . وأنه كانت ثمة ، بعدُ ، عقبة اخرى : النعش الفارغ . »

فسأله جان فالجان :

- « وما النعش الفارغ ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

- « نعش الادارة . »

- « أيّ نعش ؟ واية ادارة ؟ »

- « حين تموت راهبة ، يأتي طبيب البلدية ويقول : لقد ماتت راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ، وبعض الحَمَلة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويُقبل حملة النعش لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

- « ضع شيئاً في داخله . »

- « مَنْ ؟ شخصاً ميتاً ؟ ليس عندي اي ميت . »

- « لا . »

- « ماذا اذن ؟ »

- « شخصاً حياً . »

- « أي شخص حيّ ؟ »

فقال جان فالجان :

— « أنا . »

فوثب فوشلوفان — الذي كان قد جلس — وكأنّ حُقّة بارود قد انفجرت تحت كرسيه .

— « انت ! »

— « ولِمَ لا ؟ »

وانفرجت شفتا جان فالجان عن احدى تلك الابتسامات النادرة التي طفَتْ على محياه مثل وميض في سماء شتاء .

— « انت تعرف ، يا فوشلوفان ، انك قلت : ان الأم كروسيفكسيون قد ماتت . واني اضفتُ : والاب مادلين قد دُفن . ذلك ما سيكون . »

— « آه ، حسن . أنت تهزل . أنت لا تتحدث جادّاً . »

— « جادّاً الى ابعد الحدود . يجب ان اخرج من هنا . »

— « من غير ريب . »

— « ولقد قلت الك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضاً . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « ستكون السلة من خشب الصنوبر ، وسيكون الغطاء من قماش أسود . »

— « قبل كل شيء ، احب ان اصحح الكلام فأقول : من قماش ابيض . إن الراهبات يدفنّ بالبياض . »

— « حسن ، من قماش ابيض . »

— « انت لستَ مثل سائر الرجال ، ايها الاب مادلين . »

وكان في رؤية فوشلوفان هذه الحيل التي لم تكن غير مخترعات سجن الاشغال الشاقة ، الضارية المتهوّرة — نقول كان في رؤية هذه الحيل تنبثق وسط الاشياء الآمنة التي تحيط به وتمتزج بما كان يدعوه غطية

الدير التافهة ، ما اوقع في ذات نفسه انشداهاً أشبه بانشداه عابر سبيل يرى زُمّج ماء * يصطاد في ساقية شارع « سان دونيز » .

وتابع جان فالجان :

— « المقصود ان اخرج من هنا من غير ان يراني احد . هذه وسيلة . ولكن ، قبل كل شيء ، أعلمني . كيف يجري ذلك ؟ اين هذا النعش ؟ »

— « النعش الفارغ ؟ »

— « نعم . »

— « تحت . في ما يُدعى حجرة الموتى . إنه فوق صقالتين وتحت الكفن . »

— « ما طول النعش ؟ »

— « ستة اقدام . »

— « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »

— « إنها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضّبة تطلّ على الحديقة ، وتوصد من الخارج بمصراع وبابين ؛ احدهما يؤدي الى الدير ، والاخر يؤدي الى الكنيسة . »

— « أية كنيسة ؟ »

— « الكنيسة التي على الشارع . الكنيسة التي يدخل اليها كل انسان . »

— « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »

— « لا . عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . أما مفتاح الباب المؤدي الى الكنيسة فهو مع البوّاب . »

— « ومتى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »

— « حين يقبل الحمَلَة لنقل النعش ، ليس غير . وما يكاد النعش يخرج حتى يُغلَق الباب من جديد . »

---

* goéland وهو طائر بحري ابيض اللون .

- « ومن الذي يدق المسامير في النعش ؟ »
- « انا . »
- « ومن يغطيه بالقماش ؟ »
- « انا . »
- « هل انت وحدك . »
- « ليس ثمة رجل آخر – غير طبيب الشرطة – يستطيع ان يدخل الى حجرة الموتى . بل إن ذلك مكتوب على الجدار نفسه . »
- « هل تستطيع الليلة بعد ان ينام كل امرىء في الدير ان تخبئني في تلك الحجرة ؟ »
- « لا . ولكني استطيع ان اخبئك في حجيرة مظلمة تؤدي الى حجرة الموتى حيث أحتفظ بأدواتي الخاصة بالدفن . إنها حجيرة" انا حارسها وحامل مفتاحها .
- « ومتى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غداً ؟ »
- « حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . إن الدفن سوف يتم في مقبرة فوجيرار ، قبَيْل المساء . إنها ليست قريبة جداً . »
- « سوف ابقى مختبئاً في حجيرة ادواتك طول الليل وطول النهار . ومسألة الطعام ؟ سوف أحس بالجوع . »
- « اني سأحمل اليك ما تأكله . »
- « في استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي ، بالمسامير ، في الساعة الثانية . »
وأجفل فوشلوفان واخذ يقضقض عظام اصابعه .
- « ولكن هذا مستحيل ! »
- « دع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول مطرقة وتدق بعض المسامير في لوح خشبي . »
ونحن نكرّر هنا ان ما بدا غريباً لم يُسْمَع بمثله عند فوشلوفان

كان يسيراً عند جان فالجان . فقد سبق ان وجد جان فالجان نفسه في مآزق اسوأ . وكل من دخل السجن يعرف ذلك الفن الذي يمكّن صاحبه من ان ينكمش وفقاً لابعاد المكان الذي يلجأ اليه ابتغاء الهرب . والسجن عرضة للفرار ، كما ان المريض عرضة للأزمة التي تشفيه او تصرعه . والفرار شفاء . واي شيء لا يحتمله المرء لكي يشفى ؟ ولأن تُدَقّ عليه المسامير ، ويُحْمَل في صندوق كما يُحمل الطرد ، ولان يعيش فترة طويلة في علبة ، ويجد الهواء حيث لا هواء ، ويقتصد في التنفس ساعات بكاملها ، ويعرف كيف يختنق من غير ان يموت — ذلك كان جزءاً من مواهب جان فالجان الكالحة .

والى هذا فان نعشاً ينطوي على كائن حيّ ، تلك الحيلة التي ابتدعتها مخيلة المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هو حيلة امبراطورية ايضاً . فاذا كان لنا أن نصدّق الراهب اوستين كاستيليجو كانت هذه هي الوسيلة التي اصطنعها شارل الخامس — وقد رغب بعد تنازله عن العرش في ان يرى « لا بلومب » للمرة الاخيرة — لكي يجيء بها الى دير « سان جوست » ثم يُخرجها منه .

وهتف فوشلوفان وقد ثاب الى رشده :

— « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحلّ عقدته ؟ »

— « سوف اتنفس . »

— « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يميتني اختناقاً . »

— « لا ريب في ان عندك مخرزاً . وفي استطاعتك ان تحدث بعض الثقوب ، حوالى الفم ، ههنا وهناك . وفي استطاعتك ان تسمّر النعش من غير ان تشدّ اللوح العلوي شدّاً محكماً . »

— « حسن ! واذا اتفق ان سعلتَ او عطستَ ؟ »

— « إن الهارب لا يسعل ولا يعطس بحال من الاحوال . »

قال جان فالجان ذلك ثم أضاف :

– « ايها الاب فوشلوفان ، يجب ان اقرّر : إمـا ان أداكمَ هنا ، وإما ان ارتضي الخروج بعربة الموتى . »

لقد لاحظ الناس جميعاً ولوع الهررة بالوقوف عنـد الابواب نصف المغلقة والتردّد امامها . ومن منا لم يسبق له ان قال لهرة ما : « لمـاذا لا تدخلين ؟ » . وثمة اناس ينزعون هم ايضاً ، حـين تنفتح الفرصة لهم بعض الشيء ، الى أن يظلوا مترددين بين قرارين اثنين ، معرّضين انفسهم بذلك الى ان يُسحقوا بيد القَدَر الذي يُوصِد الفرصة إيصاداً مفاجئاً . والواقع أن المبالغين في التروي ، برغم انهم هررة ، بل لانهم هررة ، كثيراً ما يتعرضون للخطر اكثر من الجـورين . ولقد كان فوشلوفان من اصحاب هذه الطبيعة المترددة . ومع ذلك فأن رباطة جأش جان فالجان أعدَته بالرغم منه . فغمغم :

– « هذا صحيح . ليس هناك طريقة اخرى . »

واستأنف جان فالجان كلامه :

– « الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذاـــك الذي سوف يجري في المقبرة . »

فهتف فوشلوفان :

– « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني عـلى وجه الضبط . إذا كنتَ واثقاً من إخراج نفسك من النعش ، فسوف اكون واثقاً من إخراجك من القبر . فحفـار القبور سكّير ، وصديق من اصدقـائي . إنه الاب ميتيين . ابنٌ عجوزٌ من ابناء الكرمة العجوز . إن حفار القبور يضع الموتى في الجدث ، وأنا أضع حفار القبور في جيبي . سأقول لك ما الذي سوف يحدث . إننا سوف نصل قبل الغسق بقليـل ، قبل انـ تُغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . ولسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . ولـسوف أتبعها : تلك هي مهمتي . وسيكون في جيبي مطرقـة وازميـــل ، وبعض الكلاّبات . وتقـف عربة الموتى ، ويشدّ الحمَلة

وثاق نعشك بحبل ، وينزلونك الى الحفرة . ويتلو الكاهن الصلوات ، ويرسم إشارة الصليب ، وينضح الماء المقدس ، ويمضي لسبيله . وأبقى وحدي مع الاب ميتيين . إنه صديقي ، اقول لك . وثمة واحد من امرين : إما ان يكون سكران ، واما ان لا يكون سكران . فاذا لم يكن سكران ، فسوف اقول له : « تعال واشرب كأساً قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها » . واذهب به ، وأسكره . إن الاب ميتيين لا يحتاج إسكاره الى وقت طويل ، فهو ابداً في سبيله الى السُّكْر . وأضعه تحت الطاولة ، وأنتزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وارجع بدونه . ولن يكون لك بعدُ أيما عمل مع غيري . واذا كان سكران ، فسوف أقول له : أغرب من هنا ، سوف أقوم بعملك . ويمضي لسبيله ، وعندئذ أخرجك من الحفرة . »

وبسط جان فالجان يده ، فطرح فوشلوفان نفسه عليها في دفقةٍ ريفية من التفاني المؤثّر .

— « اتفقنا ، ايها الاب فوشلوفان . كل شيء سوف يجري على ما يرام . »

وقال فوشلوفان ، في ما بينه وبين نفسه :

— « شرط ان لا يختل شيء . ويا لفظاعة ذلك الاختلال لو حدث ! »

٥
ليس يكفي ان تكون سكيراً لكي تكون مخلّداً

وفي اليوم التالي ، فيما كانت الشمس تجنح للغروب ، رفع عابرو

السبيل المتناثرون في « بولفار دو مـين » قبعاتهم لدن مرور عربة موتى عتيقة الزيّ ، مزدانة برؤوس المنية ، وعظام الساق ، والدموع. وفي عربة الموتى تلك كان نعش مغطى بغطاء ابيض يختال فوقه صليب اسود ضخم أشبه ما يكون بمومياء هائلة تتدلى ذراعها على جانبيهـا . وكانت تتبع هذه العربة عربة مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلمح فيها كاهناً يرتدي قميصاً من قمصان الاكليروس الفوقية ، وغلاماً من غلمان الجوقة يرتدي بنطلوناً قصيراً احمر . وعن يمين عربة الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعـوش في ملابسهم الرمادية الموحّـدة ذات الحواشي السوداء ، وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيراو .

وكان في ميسور النظارة ان يروا مقبض مطرقة ، وشفرة إزميـل خاص بالحديد البارد ، ومقبضين مزدوجين لزوج من الكلابات ، وقد أطلعت رؤوسها من جيب ذلك الرجل .

كانت مقبرة فوجيرار نسيجَ وَحْدِها بين مقابر باريس . كانت لها تقاليدها الخاصة ، كما كان لها بابها الخاص بالعربات ، وبُوَيبها النغـل الذي كان عجائز الحيّ المتشبثون بالكلمات العتيقة يدعونه باب الفرسان وباب المشاة . وكانت راهبات « بيكبوس الصغـير » البرناردينات البنيدكتيات قد حصلْنَ ، كما قلنا سابقاً ، على الحق في ان يُـدفنَّ هناك في زاوية منفردة ، وتحت جنح الظلام ، باعتبار ان هذه الارض كانت من قبلُ ملكاً لرهبانيتهنّ . وإذْ حتَّمَ ذلك على حفاري القبور بأن يعملوا في المقبرة مساءً — أيام الصيف — وليلاً — ايام الشتـاء — فقد أخضعوا لنظام فريد . كانت مقابر باريس توصد ابوابها ، في ذلك العهد ، عند المغيب ، وإذ كانت اوامر البلدية هي الـتي قضت بذلك الاجراء ، فقد خضعت له مقبرة فوجيرار مثل سائر المقابر . وكان باب الفرسان وباب المشاة متجاورين مقضّبين بالحديد ، وكان في جوارهمـا

سرادق بناه المهندس المعماري بيرونيه حيث يقطن بواب المقبرة . وإذن فقد كان هذان البابان الحديديان يدوران ، في تصلّب ، على رزّاتها لحظة تتوارى الشمس خلف قبة الأنفاليد . ولو قد تخلّف في تلك اللحظة احد حفاري القبور في المدفن اذن لكانت بطاقته المهنية الصادرة عن ادارة المواكب الجنائزية هي سبيله الاوحد الى الخروج . وكان في شبّاك البواب ضرب من علبة للبريد ، فكان حفار القبور يلقي بطاقته في هذه العلبة ، فيسمعها البواب تسقط ، فيجذب الحبل ، فينفتح باب المشاة . فاذا اتفق ان كان حفار القبور غير حامل بطاقته فعندئذ يذكر اسمه ، فينهض البواب من فراشه ـ ذلك انه قد يكون نائماً في بعض الاحيان ـ ويحاول التحقق من هوية حفار القبور ، ويفتح الباب بالمفتاح . وهكذا يخرج حفار القبور ، ولكن بعد ان يدفع غرامة مقدارها خمسة عشر فرنكاً .

والواقع ان هذه المقبرة ، بغرائبها الخارجة على القاعدة ، عطّلت تناغم الادارة واتّساقها . ولقد أُلغيت بعد سنة ١٨٣٠ بقليل . وإنما خلفتها مقبرة مونبارناس ، المعروفة بمقبرة الشرق ، وورثت عنها تلك الحانةَ الشهيرة المحاذية لمقبرة فوجيرار ، والتي تعلوها سفرجلة رُسمت على صفيحة ـ فهي تُطلّ من ناحية على موائد الشاربين ، وتطلّ من ناحية أخرى على القبور ـ والتي تحمل هذا الاسم : **السفرجلة الطيبة** .

وكانت مقبرة فوجيرار ما يمكن أن ندعوه مقبرة عفنة . لقد أخنى عليها الدهر ، فالعفن يغزوها ، والرياحين تفارقها . وكان الاثرياء من المواطنين قليلاً ما يرغبون في ان يدفنوا في فوجيرار ، فقد كانت روائح الفقر تفوح منها . أما مقبرة الأب لاشيز فرائعة جداً ! فلأن تُدفَنَ في مقبرة الأب لاشيز اشبهُ شيء بامتلاك أثاثٍ مصنوع من خشب البلاذُر أو الماهوغاني . إن ذلك لينمّ عن الاناقة . لقد كانت مقبرة فوجيرار حظيرةً ذات جلال منسّقةً على طريقة الحدائق الفرنسية

القديمة . ممرّات مستقيمة ، وشجرات بَقس * ، وشجرات سَندروس ** ، وشجرات شرّابة الراعي ، وقبور عتيقة تحت شجرات طقسُوس *** هرمة ، وعشب فارع الطول . وكان الليل رهيباً جداً هناك . كانت ثمة ظلال تقبض الصدر الى حد بعيد .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربة الموتى ذات الغطاء الابيض والصليب الاسود شارعَ مقبرة فوجيرار . ولم يكن الرجل الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان .

وكان دفن الأم كروسيفكسيون في الكهَيْف الذي تحت المذبح واخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى – كان ذلك كله قد أتمّ من غير ما عائق ومن غير ان يمسه الاخفاق .

ويجب ان نقول ، بالمناسبة ، ان دفن الأم كروسيفكسيون تحت مذبح الدير هو ، في اعتقادنا ، شيء عرضي يمكن اغتفاره ، في كثير من اليسر . واحد من تلك الاخطاء الشبيهة بواجب من الواجبات . لقد قامت الراهبات به ، لا من غير قلق فحسب ، ولكن في ضمير مصفّق ايضاً . فما يدعى « الحكومة » لا يعدو ، في الدير ، ان يكون تدخلاً في السلطة ، تدخلاً هو أبداً موضع الشك . الانظمة اولاً ؛ اما القانون ، فسوف نرى . أيها الناس ، ضعوا ما شئتم من القوانين ، ولكن احتفظوا بها لانفسكم . إن المكوس التي تُدفع الى قيصر ليست بحال من الاحوال غير البقية الباقية من المكوس التي تُقَدَّم الى الله . فالأمير ليس شيئاً في حضرة المبدأ .

وعرجَ فوشلوفان خلف عربة الموتى ، في ارتياح عظيم . كانت مؤامرتاه التوأمان ، وإحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين ،

---

* البقس Buis شجر كالآس ورقاً وحباً تُتخذ منه المغالق والابواب لمتانته .

** ضرب من الصنوبريات دائم الخضرة . (Thuya) .

*** ضرب من السرو او الشربين (ifs) .

الاولى للدير والثانية ضد الدير ، قد نجحتا على حد سواء . والواقع ان مسكينة جان فالجان كانت من ذلك الضرب الجبار الذي يُعدي .
فلم يبق عند فوشلوفان ايما شك في النجاح . أما الاشياء التي ما يزال من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر . فلقد أسكر عشر مرات ، خلال سنتين ، حفار القبور الطيب الأب ميتيين ، وهو رجـل بدين ساذج . لقد كان يعبث بالأب ميتيين عبثاً . كان يفعل به ما يشاء . كان يصفف له شعره وفقاً لارادته وهواه . وكان ميتيين يرى من خلال عيني فوشلوفان . كانت سلامة فوشلوفان كاملة .

ولحظة دخلت الجنازة الشارع المؤدي الى المقبرة نظر فوشلوفان مبتهج الصدر الى عربة الموتى ، وفرك يديه الضخمتين قائلاً في صوت خفيض :

— « هي ذي مهزلة ! »

وفجأة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى الباب . وكان من الضروري أن تُبرَز إجازة الدفن . وتهامس الدفّان مع بواب المقبرة . وفي اثناء هذه المحادثة ، التي تسبب دائماً تأخراً يستغرق دقيقة او دقيقتين ، أقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى ، الى جانب فوشلوفان . كان اشبه بعامل من العمال يرتدي كساءً طويلاً ذا جيوب واسعة ، ويحمل تحت ذراعه معولاً .

ونظر فوشلوفان الى هذا الرجل المجهول .

وسأله :

— « من انت ؟ »

فأجاب الرجل :

— « حفار القبور . »

ولو قد اصابت قذيفة مدفع رجـلاً في صدره فلم تقضِ عليه ، اذن لكان محيّاه اشبه بمحيّا فوشلوفان في تلك اللحظة .

— « حفار القبور ؟ »

- « نعم . »
« انت ! »
- « انا . »
- « إن حفار القبور هو الأب ميتيين . »
- « لقد كان . »
« كيف ! لقد كان ؟ »
« لقد مات . »

كان فوشلوفان مستعداً لكل شيء ، ما خلا هـذا : أن يكون في استطاعة حفار القبور أن يموت . ومع ذلك ، فهـذا صحيـح . إنّ حفاري القبور أنفسهم يموتون . إنهـم بالانصباب على حفر القبور للناس يحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يحر فوشلوفان جواباً . إنه لم يجـد ، إلا بشقّ النفس ، القوة التي تمكّنه من ان يتلجلج :

« ولكن هذا غير ممكن ! »
- « هذا هو الواقع . »

تكرر في وَهن :

« ولكن حفار القبور هو الأب ميتيين . »

- « بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتيين ، غريبييه . ايها الفلاح ، إن اسمي غريبييه . »

وغلب الشحوب على وجه فوشلوفان . وحدق الى غريبييه .

كان رجلا طويل القامة ، مهزولاً ، ازرق ضاربـاً الى السواد ، مأتمياً بكل ما في الكلمة من معنى . كانت تبدو عليه سيما طبيب افتقر فأمسى حفار قبور .

وانفجر فوشلوفان ضاحكاً :

- « آه ! يا لها من احداث مضحكة ! لقد مات الاب ميتيين . الاب ميتيين الصغير قد مات ، ولكـن فليحيَ الاب لونوار الصغير !

أتدري ما هو الأب لونوار الصغير ؟ إنه كوز الصهباء التي يباع ثمن الفالون منها بستة سو. إنه كوز « سورين » . يا سلام ! « سورين » باريسية حقيقية . وهكذا ، فقد مات ميتين العجوز ! أنا محزون عليه. كان فتىً طروباً . ولكن أنت ايضاً ، انت فتىً طروب . أليس كذلك ، ايها الرفيق ؟ سوف نمضي ونشرب شيئاً من الخمر معاً . سوف نمضي في الحال . »

وأجاب الرجل :

— « لقد درستُ . لقد تخرّجت . أنا لم اشرب الخمر في حياتي قط . »

كانت عربة الموتى قد انطلقت . وكانت تتدحرج على مجاز المقبرة الرئيسي الضيّق .

كان فوشلوفان قد تباطأ ، لقد عرج من القلق اكثر مما عرج من عاهته .

ومشى حفار القبور أمامه .

وحدّق فوشلوفان ، كرة اخرى ، الى غريبيه غير المنتَظَر .

لقد كان واحداً من اولئك الناس الذين يبدون ، رغم فتوّتهم ، شيوخاً ، والذين هم ، برغم هزالهم ، على قوة بالغة .

وصاح فوشلوفان :

— « ايها الرفيق ! »

واستدار الرجل .

— « أنا حفار قبور الدير . »

فقال الرجل :

— « زميلي . »

وادرك فوشلوفان ، الحاد الذكاء برغم أميّته ، أنه يواجه شخصاً رهيباً ، محدّثاً بارعاً .

وغمغم :

– « هكذا اذن . لقد مات الاب ميتين . »
فأجاب الرجل :
– « تماماً . لقد راجع الرب الرحيم لائحة سنداته المستحقة الأداء . كان الدور دور الاب ميتين . وهكذا توفي الاب ميتين . »
فردّد فوشلوفان على نحو آليّ :
– « الرب الرحيم . »
فقال الرجل في سلطان :
– « الرب الرحيم . ما يدعوه الفلاسفة الأبَ الأزليّ . وما يدعوه اليعاقبة الكائن الأسمَى . »
فتلجلج فوشلوفان :
– « ألن نتعارف ؟ »
– « لقد تم ذلك . أنت فلاح ، وأنا باريسي . »
– « لن نتعارف إلا حين نحتسي الخمر معاً . فمن يُفرغ كأسه يُفرغ قلبه . تعالَ واشرب معي . انت لا تستطيع ان ترفض . »
– « العمل اولاً . »
فقال فوشلوفان في ذات نفسه :
– « لقد هلكتُ . »
وكان الآن على بضع قصبات ، ليس غير ، من المجاز المؤدي الى زاوية الراهبات .
وتابع حفارُ القبور :
– « ايها الفلاح ، إن لي سبعة اولاد صغار يجب ان أطعمهم . وإذ كانوا مضطرين الى ان يأكلوا فإني مضطرّ الى ان لا اشرب . »
ثم اضاف في ارتياح رجلٍ جدّي يتكلم في زهو وادّعاء :
– « إن جوعهم عدوّ ظمأي . »
واستدارت عربة الموتى حول شجرة مرو ضخمة ، وفارقت المجاز

الرئيسي ، وسلكت مجازاً صغيراً ، ودخلت الجزء المشجّر من المقبرة ، وتوارت وسط أحد الادغال . وكان ذلك يؤذن بأن القبر أمسى جد قريب . وخفف فوشلوفان من سرعة خطوه ، ولكنه لم يستطع ان يخفف من سرعة خطو العربة . ومن حسن الطالع ان التربة الحوّارة ، المندّاة بأمطار الشتاء ، دَبِقت بالعجلات ، فجعلت جريها ثقيلاً .

واقترب فوشلوفان من حفار القبور .

وغمغم :

- « ان عندهم خمرة آرجانتوي فاخرة جداً . »

فتابع الرجل :

- « ايها الريفي ، أنا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور . لقد كان ابي بواباً في بريتانيه . وكان يعدّني للحياة الادبية . ولكنه كان سيء الحظ . لقد ضارب في البورصة فخسر ، وكان عليّ ان أتخلى عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك ، فانا لا ازال كاتباً عمومياً . »

فأجاب فوشلوفان ، متعلقاً بهذه القشّة على وهنها :

- « ولكنك لستَ حفار القبور اذن ؟ »

« إن احداهما لا تتنافى مع الاخرى ؛ انا اجمع بين الوظائف . »

ولم يفهم فوشلوفان هذا التعبير الأخير .

وقال :

- « دعنا نذهب ، ونشرب . »

وهنا لا بدّ من ملاحظة : إن فوشلوفان ، برغم قلقه الشديد ، اقترح معاقرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امراً واحداً : مَن الذي سيدفع ؟

كان من عادة فوشلوفان ان يقترح ، وكان من عادة الأب ميتيين ان يدفع . وواضح ان دعوة الى الشراب قد نشأت عن الحالة الجديدة التي اوجدها حفار القبور الجديد ، وهي دعوة يتعيّن عليه القيام بها ،

ولكن البستاني العجوز ترك أمر الوفاء بالدَّين ، عـــن تعمد طبعاً ، غامضاً يكتنفه الظلام . إن فوشلوفان ، برغم ما كان يساوره من اضطراب ، لم يكترث بمسألة الدفع .

وتابع حفار القبور كلامه ، في ابتسامة من يستشعر الامتياز :

— « يجب ان نعيش . لقد رضيت ان أخلفِ الاب ميتيين . فحين يُشرف المرء على إنهاء دراسته يصبح فيلسوفاً . لقد أضفتُ الى عمل اليد عملَ الذراع . إن عندي دكان كتابتي الصغير في شارع سيفر ، هل تعلم ؟ في سوق المظلات . ان جميع طاهيات « الصليب الاحمر » يَفِدْنَ اليّ . إني أحررّ لهن ، على عجل ، رسائلهن الغرامية الى عشاقهنّ . في الصباح اكتب رسائل الحب ، وفي المساء أحفر القبور . هكذا هي الحياة ، ايها الرجل الريفيّ . »

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، وقد بلغ اقصى غاية القلق ، الى يمين والى شمال ، والى امام والى وراء . كانت قطرات ضخام من العرق تتحدّر من جبينه .

وتابع حفار القبور حديثه :

— « ومع ذلك فليس في ميسور المرء ان يخدم سيدتين . يجب ان اختار إما القلم وإما المعول . إن المعول يؤذي يدي . »

ووقفت عربة الموتى .

وترجل غلام الجوقة من العربة المجللة بالجوخ ، وتبعَه الكاهن .

وارتقت عجلة أمامية من عجلات عربة الموتى كومة من التراب ، وفي خلفها قبر فاغر الفم .

وكرر فوشلوفان في كآبة بالغة :

— « هي ذي مهزلة ! »

٦

بين اربعة الواح

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .

كان جان فالجان قد رتب الاشياء بحيث يستطيع ان يحيا في النعش ويتنفس بعض الشيء .

وفضلاً عن ذلك فعجيب الى أي مدى يستطيع الضمير المطمئن أن يوقع السكينة في النفس . كان التدبير الذي بيّته جان فالجان قد نُفّذ ، ونفـــذ في نجاح ، منذ الليلة البارحة . كان يتكل ، مثلَ فوشلوفان ، على الأب ميتيين . ولم يساوره ريب في النتيجة ، البتة . إن ايما حالة لم تبلغ قط من الحرج ما بلغته هذه الحالة ، وان الهدوء لم يكن قط اكثر كمالاً .

كانت ألواح النعش الاربعة توفر ضرباً من الأمن الفظيع . لقد بدا وكأن شيئاً من راحة الاموات قد تسرب الى سكينة جان فالجان .

ومن باطن ذلك النعش كان في ميسوره ان يتابع ، ولقد تابع ، مختلفَ مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت .

فما إن اتم فوشلوفان تسمير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان ان الحمَلة قد رفعوه ، وأن العربة قد أنشأت بعد ذلك تجري به . حتى اذا خفت الارتجاجات استشعر انه انتقل من البلاط المرصوف الى الارض الموطّأة ؛ يعني أنه غادر الشوارع وانتهى الى الجادّات . * ومن خلال ضجة خافتة قدّر انهم يعبرون جسر اوسترليتز . وعندما وقفت العربة اول مرة ، أدرك انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

* جمع جادة وهي « البولفار » .

وأحس بأيدٍ تسارع الى الامساك بالنعش ، ثم أحس باحتكاك مبحوح فوق الالواح . فاستنتج ان ذلك حبل كانوا يطوقون به النعش لكي ينزلوه الى الحفرة .

ثم انه استشعر ضرباً من الدّوار .

لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدّمه قبل مؤخره . واستعاد وعيه كاملاً حين امسى في وضع أفقيّ ، جامداً عديم الحركة . كان قد مسّ القعر .

وأحس بقشعريرة .

وارتفع صوتٌ فوقه متلوجاً مهيباً . وسمع بضع كلمات لاتينية لم يفهمها ، تلفظ في بطء مكتّنه من ان يلتقطها واحدة إثر اخرى :

- Qui dormiunt in terrae pulvere, evigilabunt ;
alii in vitam aeternam, et alii in
opprobrium , ut videant semper

فقال صوت طفل :

— *De profundis .* **

وأردف الصوت الوقور :

— *Requiem aeternam dona ei , Domine .* ***

فأجاب صوت الطفل :

— *Et lux perpetua luceat ei* ****

وسمع فوق اللوح الذي يغطيه شيئاً مثل تساقط الرذاذ الرفيق . واغلب الظن ان ذلك كان الماء المقدس .

وقال في ذات نفسه :

---

* الذين يرقدون في تراب الارض ويسكنون هناك ، بعضهم يعيش في الحياة الابدية وبعضهم في العذاب المقيم .

** من الاعماق .

*** فامنحهم الراحة الابدية ، ايها السيد .

**** ونورك السرمدي .

- « سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة اخرى قصيرة . ان الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود ميتين الى الخانة . انهم سيفارقونني . ثم يرجع فوشلوفان وحيداً . ولسوف اخرج. إن ذلك سيستغرق ساعة او يزيد . »

واردف الصوت الوقور :

— *Requiescat in pace* . *

وقال صوت الطفل :

— *Amen* . **

وسمع جان فالجان ، مُرهفاً اذنه ، صدىً أشبه بصدى الاقدام المتراجعة .

وقال في ذات نفسه :

- « انهم ينصرفون . لقد امسيتُ وحدي . »

وفجأة سمع فوق رأسه صوتاً بدا له وكأنه قصف الرعد .

كان ملءَ مسحاةٍ من التراب يسقط على النعش .

وسقط ملءُ مسحاة آخر .

وسُدّ احد الثقوب التي كان يتنفس منها .

وسقط ملء مسحاة ثالث .

ثم ملء مسحاة رابع .

ان ثمة اشياء أقوى من اقوى رجل . وأغمي على جان فالجان .

---

* ارقدوا في سلام .

** آمين .

٧

حيث سنكتشف اصل قولهم :

لا تضع بطاقتك *

فلننظر ما الذي حدث فوق النعش الذي ضمّ جان فالجان بين جنباته .

حين مضت عربة الموتى لسبيلها ، وامتطى الكاهن وغلام الجوقة متن العربة وانصرفا ، بَصُرَ فوشلوفان — الذي لم يرفع عينيه قط عن حفار القبور — بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مغروزة على نحو مستقيم في ركام التراب .

وهنا اتخذ فوشلوفان قراراً رفيعاً .

لقد أقحم نفسه ما بين الحفرة والحفار ، وقال مصالباً ذراعيه :

— « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

فحدّق اليه حفار القبور ، في دهش ، واجاب :

— « ماذا ؟ أيها الفلاح ؟ »

فكرر فوشلوفان :

— « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

— « ثمن ماذا ؟ »

— « الخمر . »

— « اية خمر ؟ »

— « خمر الآرجانتوي »

— « اين خمر الآرجانتويْ هذه ؟ »

---

* يقولون في الفرنسية : أضاع البطاقة perdre la carte بمعنى : اضطرب .

— « في حانة السفرجلة الطيبة . »

فقال حفار القبور :

— « اذهب الى الشيطان ! »

وقذف النعش بملء مسحاة من التراب .

ورجّع النعش صدىً غائراً . واستشعر فوشلوفان أنه يترنح ، وكاد يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يمتزج به اختناق الحشرجة ، صاح :

— « تعال ، ايها الرفيق ، قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة أبوابها ! »

ورفع حفار القبور ملء مسحاة آخر من التراب . وتابع فوشلوفان :

— « سوف ادفع . »

وأمسك بحفار القبور من ذراعه .

— « إسمع ، ايها الرفيق . أنا حفار القبور في هذا الدير ، ولقد جئتُ لأساعدك . إنها مهمة نستطيع ان نقوم بها ليلاً . دعنا نشرب كأساً من الخمر أولاً . »

وفيما هو يتحدث ، وفيما هو يتعلق يائساً بهذا الجهد الملحّ ، تساءل في تشاؤم : « وحتى لو شرب ! أواثق أنا من ان السكر سوف يتعتعه ؟ »

وقال حفار القبور :

— « ايها الرفيق ، اذا لم يكن من ذلك بدّ فاني اوافق . سوف نشرب . ولكن بعد إتمام العمل ، لا قبله على الاطلاق . »

وحرّك مسحاته من جديد . وأمسك فوشلوفان به .

— « إنها خمر آرجانتوْيْ التي يُباع ثمن الغالون منها بستة سو ! »

فقال حفار القبور :

— « آه ، هكذا . إنك مملّ . دينغ دونغ ، دينغ دونغ ؛ انت لا تعرف أن تقول شيئاً غير هذا . اذهب ، وانصرف الى عملك . »

وقذف بملء المسحاة الثاني .

وكان فوشلوفان قد بلـــغ تلك النقطة التي لا يعرف المرء فيها أيّ شيء يقول .

وأعاد كرةً اخرى :

ـ « اوه ! تعال ، واشرب كأساً ، ما دمتُ أنا الذي سأدفع . »

فقال حفار القبور :

ـ « بعد أن نضع الطفل في المهد . »

وقذف بملء المسحاة الثالث .

ثم غرز المسحاة في التراب ، وأضاف :

ـ « أترى ؟ سوف يكون الجـو بارداً ، الليلة ، ولـوف تصيح الميتة في إثرنا اذا زرعناها هناك من غير ان نغطيها جيداً . »

وفي هذه اللحظة ، وفيما كان حفار القبور يُثقل مسحاتـه بالتراب ، انحنى انحناءً شديداً ، ففغر جيبُ كسائه فاه .

واستقرت عـين فوشلوفان الذاهلة استقراراً آلياً على هـذا الجيب ، وظلت مسمّرة هناك .

ولم تكن الشمس قد توارت خلف الافق ، وكان لا يزال ثمة ضوء كافٍ لرؤية شيء ابيض في الجيب الفاغر فاه .

والتمع كاملُ البرق الذي يمكن لعين فـــلاح بيكاردي ان تنطوي عليه ، في حدَقتي فوشلوفان . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .

ومن غير ان يلمحه حفار القبور ، الذي كان منهمكاً بمسحاته الملأى بالتراب ، دسّ يـــده من وراء في ذلك الجيب ، واستلّ منه الشيءَ الابيض الذي احتواه .

وقذف حفار القبور بملء المسحاة الرابع الى اللحد .

وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تساءل فوشلوفان وهو ينظر اليه في هدوء عميق :

– « بالمناسبة ، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »
وتوقف حفار القبور :
– « اية بطاقة ؟ »
– « الشمس على وشك المغيب . »
– « حسن . دعه * يضع قلنسوة الليل . »
– « سوف يُغلَق باب المقبرة . »
– « حسن . ثم ماذا ؟ »
– « هل تحمل بطاقتك ؟ »
فقال حفار القبور :
– « آه ، بطاقتي ! »
وبحث في جيبه .
حتى اذا لم يجد فيه شيئاً ، بحث في جيبه الآخر . ثم إنه انتقل الى جيب صدرته ، فنقّب فيه ، ثم جعل داخلَ جيبه الآخر خارجَهُ .
وقال :
– « لا ! لا ! أنا لا أحمل بطاقتي . لا شك في أني نسيتها . »
فقال فوشلوفان :
– « خمسة عشر فرنكاً غرامة . »
وغدا لون حفار القبور أخضر . إن الأخضر هو لونُ الشحوب عند اصحاب البشرة الزرقاء الضاربة الى السواد .
وصاح :
– « اوه ، يا الـٰهي الطيب الرحيم ، ايّ مجنون أنا ! خمسة عشر فرنكاً غرامة ! »
فقال فوشلوفان :
– « ثلاث قطع من ذوات المئة سو . »

* يقصد « الطفل » أي الدفين .

وأفلت حفار القبور ضحكاته .
كان دور فوشلوفان قد جاء .
وقال فوشلوفان :
– « تعال ، تعال ، ايها المجنّد الجديد ، لا داعي لليأس . ليس ثمة ما يحملك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاماً للديدان . إن خمسة عشر فرنكاً هي خمسة عشر فرنكاً ، والى هذا فقد تكون غير قادر على دفعها . أنا عاملٌ عتيق ، وانت عامل جديد . انا أعرف جميع حيل الصنعة ، وأشراكها ، ومنعطفاتها ، والتواءاتها . ولسوف أقدّم اليك نصيحة صديق . إن ثمة شيئاً واضحاً ليس غير ، هو ان الشمس في سبيلها الى المغيب ، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . »
فاجاب حفار القبور :
– « هذا صحيح . »
– « وخمس دقائق لا تكفيك لطمر القبر ، فهو عميق كالشيطان . من اجل ذلك ارى ان تخرج من هنا قبل ان يُغلق الباب . »
– « انت على صواب . »
– « وفي هذه الحال ستدفع خمسة عشر فرنكاً غرامة . »
– « خمسة عشر فرنكاً ! »
– « ولكن لديك متسعاً من الوقت ... اين تقطن ؟ »
– « على بُعد خطوتين من باب المدينة . على مسيرة خمس عشرة دقيقة ؟ رقم ٨٧ شارع فوجيرار . »
– « سوف يكون لديك متسع من الوقت اذا فررتَ في الحال . »
– « هذا صحيح . »
– « وما تكاد تجتاز الباب حتى تعدو الى البيت ، وتجيء ببطاقتك، وترجع الى هنا ، فيُدخلك البواب من جديد . وحين تمسي البطاقة في يدك لا يبقى ثمة داعٍ الى ان تدفع شيئاً . وعندئذ تستطيع ان تدفن

صاحبك الميْت * . ولسوف ابقى أنا هنا ، فأحرسه ربثما تعود ، لكي لا يولي فراراً . »

– « أنا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح . »

فقال فوشلوفان :

– « أغرب ، إذن ، أسرع ! »

وصافحه حفار القبور ، وقد غلبته هزة من عرفان الجميل ، وأطلق ساقيه للريح .

وحين توارى حفار القبور وسط الأدغال ، أصغى فوشلوفان حتى تلاشى وقع قدميه ، وعندئذ انحنى فوق القبر ، ونادى في صوت مهموس :

– « ايها الاب مادلين . »

فلم يقع على جواب .

وارتعد فوشلوفان . وتدحرج نحو القبر ، ولا نقول هبط ، وطرح نفسه على مقدّم النعش ، وصاح :

– « أأنت هناك ؟ »

ولكن الصمت كان يسود النعش .

وتناول فوشلوفان إزميله ومطرقته – وقد كاد يعجز عن التنفس بسبب من الرعدة – واقتلع اللوح الفوقيّ . كان في ميسوره ان يرى وجه جان فالجان في الغسق ، وكانت عيناه مغمضتين ، ولونه شاحباً .

وقفَ شعر فوشلوفان . ونهض واقفاً . ثم تمايل مولياً ظهره جانبَ القبر ، مستعداً لان يسقط فوق النعش . ونظر الى جان فالجان .

كان جان فالجان يرقد هناك شديدَ الشحوب ، عديمَ الحركة .

وتمتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه الهمس :

* واضح ان هذه سقطة من سقطات فوشلوفان ، كاد ان يفضح بها السر كله . وكان ينبغي ان يقول : ان تدفن الميتة ...

– « لقد مات . »

ثم تصدّر ، وصالب ذراعية في عنف بالغ ٍ حتى لقد رنّت قبضتاه المغلقتان فوق كتفيه ، وصاح :

– « تلك هي الطريقة التي انقذته بها ! »

ثم إن العجوز المسكين شرع ينتحب ، موجّهاً الكلام الى نفسه في صوت مرتفع ، لأن من الخطأ ان نعتقد أن مخاطبة المرء نفسَه ليست شيئاً طبيعياً . إن الانفعالات القوية كثيراً ما تتكلم بصوت عال ٍ .

– « إنها غلطة الاب ميتيين . لماذا مات ، المجنـــون !؟ اي فائدة كانت له في ان يَنفَق * في هذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقـع ذلك ؟ إنه هو الذي قتل مسيو مادلين . الاب مادلين ! انه في النعش . لقد استقر هنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهـذا كله ؟ آه يا الهي ! لقد مات ! أجل ، وبنته الصغيرة ما الذي سأعمله بها ؟ أي شيء ستقوله بائعة الفاكهة ؟ ان يموت رجل مثل هذا ميتة مثل هذه ! اينها السماء ، أممكن هذا ؟ حين افكر انه اقحم نفسه تحت عربتي !... ايها الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اختنق ! لقد قلت له ذلك ولكنـه لم يحب ان يصـدقني . والآن ، هوذا عمـل ظريف ! لقد مات ! مات هذا الرجل الطيب ؛ مات اطيب رجـل خلقه الرب الطيب ! وبنته الصغيرة ؟ انا لن ارجع الى هناك بعـد . سوف أبقى هنا . انا لا استطيـع ان افكر اني قمت بعمل كهـذا ! يكفي ان نكون شيخين هرمين حتى نكون معتوهين هرمين . ولكن قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدير ؟ من هنا بدأتْ . مثل هذه الامور يجب ان لا تُعمل . ايها الاب مادلين ! ايهـا الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! مادلين ! مسيو مادلين ! مسيو مادلين ! ايها السيد العمدة ! انه لا يسمعني . أخرِج نفسك من هنا ، الان ، اذا شئت . »

* نفق : مات . وهي تصطنع في الكلام على البهائم بخاصة .

وانشأ يقطّع شعره .

وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سُمِع صريرٌ حادّ . كان باب المقبرة يوصد .

وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه ارتد فجأة الى الوراء بأقصى ما يُستطاع الاندفاع التراجعيّ في قبر من القبور. كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدق اليه .

إن مشاهدة الموت لمروّعة ، ولكن مشاهدة بعث مفاجىء لا تقلّ عن ذلك ترويعاً . وأمسى فوشلوفان شاحباً مثلوجاً كالحجارة ، ذاهلاً مضطربَ النفس بهذه الانفعالات القوية كلها ، غيرَ عالم ما إذا كان امام حيّ ام امام ميت ، محدّقاً الى جان فالجـــان المحدّق ، بدَوْره ، اليه .

وقال جان فالجان :

— « كنتُ نائماً . »

ونهض جان فالجان متخذاً وضعاً قاعداً .

وركع فوشلوفان على ركبتيه .

— « أوه ، ايتها العذراء الطيبة ! كم قد روّعتني ! »

ثم نهض وصاح :

— « شكراً لك ، ايها الأب مادلين ! »

كان قد أغمي على جان فالجان ، ليس غـــير . حتى اذا استنشق الهواء الطلق ثاب الى رشده .

ان البهجة صنو الذعر . ولقد وجد فوشلوفـــان في استعادة رشده مثل ذلك العسر الذي وجده جان فالجان تقريباً .

— « واذن فانت لم تمت ! آه ما اعظم ذكاءك ! لقد ناديتـــك بصوت مرتفع الى حد جعلك تعود الى صوابك . وحين رأيتك مغمض العينين ، قلت : « حسن ، هوذا قد اختنق . وكنت على وشك أن أمسي

مجنوناً .. مجنوناً حقيقياً ذا صَدرة كصدرات المتوهين القنّبية الضيقة . ولقد كان جديراً بهم ان يدخلوني الى بيستر * . ما الذي كنت تريدني ان اعمل لو انك مت ؟ وفتاتك الصغيرة ! كانت بائعة الفاكهة خليقة بأن لا تفهم شيئاً من ذلك ! طفلة تتلقى فجأة في حضنها ، ثم يموت جدها ! يا لها من قصة ! وحق قديسي السماء كلهم ، يا لها من قصة ! آه ! ولكنك حي — هذا خير ما في المسألة . »

فقال جان فالجان :

— « أنا أحسّ بالبرد . »

وكان في هذه الكلمات ما اعاد فوشلوفان إعادة تامة الى واقــــع الاشياء ، الذي كان ملحّاً . وإنما استشعر هذان الرجلان من غير ان يدريا ، حتى بعد ان ثابا الى رشدهما ، اهتياجاً فريداً وقلقاً داخلياً عجيباً لم يكونا غير الانشداه المشؤوم الذي أوقعه المكانُ في نفسيهما .

وقال فوشلوفان :

— « فلنخرج من هنا في الحال . »

وأقحم يده في جيبه ، وأخرج قارورة كان قد تزوّد بها وقال :

— « ولكن خذ نقطة من هذه ، اولاً ! »

وأتمت القارورة ما كان الهواء الطلق قد بدأه . وتناول جان فالجان جرعة من العَرَق ، واستشعر انه استعاد قواه بكاملها .

وخرج من النعش ، وساعد فوشلوفان على تسمير اللوح العــــلويّ من جديد .

وما انقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . وأخذ بأسباب التمهّل . كانت المقبرة موصدةً . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبيـــــه حفار

---

* مأوى شهير للعجائز والمجانين كان في قرية بيستر ، وقد سبق التعريف به في جزء ماض .

القبور . كان « الجند الجديد » في منزله منهمكاً في البحث عن بطاقته ، وما كان محتملاً ان يعثر عليها ، لأنها كانت في جيب فوشلوفان . واذ لم يكن يحمل بطاقته تلك فليس في ميسوره ان يرجع الى المقبرة .

وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان المعول ودفنا النعش الفارغ معاً .

وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان :

— « تعال ، فلنذهب . سوف أحتفظ أنا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالمعول » .

وهبط الليل .

ووجد جان فالجان بعض العُسر في الحركة والمشي . كان التصلّب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد مّا ، جثة هامدة . لقد استبدّ به عَسَمُ * الموت في ذلك الصندوق الخشبي الضيق . وكان يتعيّن عليه ، بمعنىً من المعاني ، أن يذيب نفسه من القبر .

وقال فوشلوفان :

— « انت خدر . ومن أسفٍ أني معوجّ الساقين ، والا لكان في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . »

فأجابه جان فالجان :

— « لا بأس . ان بضع خطوات خليقةٌ بأن تعيد الى رجليّ مرونتهما . »

وارتدّا سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتهيا الى الباب الموصد والى مقر البواب ألقى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل

* العَسَم : يبس في مفصل الرسغ تعوجّ منه اليد والقدم .

ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان :

– « ما احسنَ ما يسير كل شيء ! أية فكرة بارعة هـــذه التي طلعتَ بها ، ايها الاب مادلين ! »

واجتازا حاجز فوجيرار على أيسر نحو في العـــالم . ففي ضواحي مقبرة من المقابر يقوم المعول والمسحاة مقام جواز السفر .

كان شارع فوجيرار مقفراً .

وقال فوشلوفان ، فيما كان يتقدم رافعاً بصره الى البيوت :

– « ايها الاب مادلين ، ان عينيك احسن من عيـــنيّ . ايها رقم ٨٧ ? »

فقال جان فالجان :

– « ها هو ذا بعينه . »

واردف فوشلوفان :

– « ليس في الشارع احد . أعطني المعول ، وانتظرني دقيقتين . »

ودخل فوشلوفان المنزل رقم ٨٧ ، وصعد الى اعلى السلّم ، تقوده الغريزة التي تقود الفقير ، دائماً ، الى العلـّية ، وقرع – في الظـلام – باب غرفة قائمة تحت السقف . وأجاب بصوت :

– « أدخل . »

كان صوت غريبيه .

وفتح فوشلوفان الباب . كان منزل حفار القبور ، شأن منـــازل المعوزين جميعاً ، بيتاً حقيراً غير مؤثث ولكنه مزدحم بالاشياء المبعثرة هنا وهناك . كان صندوق أمتعةٍ من ضربٍ ما – ولعله ان يكـون نعشاً – يقوم مقام خزانة ذات ادراج ؛ وحَشِيّة من قش مقام سرير ؛ وإناء للزبدة مقام حوض مـاء ؛ وكانت ارض الغرفـــة تقوم مقام الكراسي والطاولة . وفي احدى الزوايا ، على خرقة كانت من قبـــل

مزقة بالية من سجادة ، تكدّست امرأة مهزولة وجمهرة من الأولاد ؛ وكان كل ما في هذا المأوى البائس يحمل آثار بلبلة حديثة العهد . لقد كان في ميسور المرء ان يزعم ان زلزالاً وقع ثمة « لشخص واحد » . كانت اغطية الآنية مبعثرة ، والثياب البالية متناثرة ، والابريق مكسوراً ، والأم تبكي ، والاطفال يتوجعون في أغلب الظن من اثر الضرب . كان كل شيء يؤذن بأن المكان قد خضع منذ قريب لتفتيش عنيد شكس . كان واضحاً ان حفار القبور انهمك في البحث عن بطاقته انهاكاً ضارياً وحمّل كل ما في العلّية الحقيرة ، من الابريق الى زوجته ، مسؤولية ضياعه . كان اليأس يرين على محيّاه .

ولكن فوشلوفان كان يتعجل الوصول الى نهاية مغامرته تعجّلاً جعله لا يلاحظ هذا الجانب المظلم من انتصاره .

لقد دخل وقال :

— « إني أحمل اليك مسحاتك ومعولك . »

ونظر غريبييه اليه في انشداه :

— « ماذا ؟ هذا انت ، ايها الفلاح ؟ »

— « وغداً صباحاً ، سوف تجد بطاقتك عند بواب المقبرة . »

ووضع المعول والمسحاة على الارض .

وتساءل غريبييه :

— « ما معنى ذلك كله ؟ »

— « هذا يعني انك سمحت لبطاقتك بأن تسقط من جيبك ؛ أني وجدتها على الارض عندما ذهبتَ ؛ أني دفنتُ الجثة ؛ أني ردمتُ القبر ؛ أني أتممتُ مهمتك ؛ أن البواب سوف يعطيك بطاقتك ؛ أنك لن تضطر الى دفع خمسة عشر فرنكاً . هذا ما يعنيه ذلك كله ، ايها الجنّد الجديد . »

فصاح غريبييه ، في ذهول :

— « شكراً ، أيها الريفي . في المرة القادمة سوف ادفع انا ثمن الخمر . »

٨
استجواب ناجح

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة تجاه رقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سناً قارعة الباب وخفقه .

كانوا فوشلوفان ، وجان فالجان ، وكوزيت .

وكان الرجلان قد انطلقا التماساً لكوزيت في دكان بائعة الفاكهة بشارع « الطريق الاخضر » حيث كان فوشلوفان قد وضعها الليلة البارحة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين متسائلة عن معنى ذلك ، ومرتعدة في صمت . لقد ارتجفت الى درجـــة ذادت عن عينيها الدمع . إنها لم تذق طعاماً البتة ، ولم تنم البتة . وكانت بائعـة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تفوز من الجواب بأكثر من نظرة كئيبة لا تتغيّر على الاطلاق . فقد حرصت كوزيت على ان لا يندّ منها شيء مما سمعته ورأته منذ يومين . كانت قد حزرت أن ازمة قد نشأت . واستشعرت ، في قرارة نفسها ، ان عليها « أن تكون عاقلة » . ومن ذا الذي لم يعرف الاثر الأرفـــع الذي تنطوي عليه هذه الكلمات الثلاث مهموساً بها ، بجَرْسٍ معيّن ، في أذن كائن صغـــير مروّع : « **حذار أن تتكلم !** » إن الخوف أخرس . والى هذا ، فليس ثمة من يصون السرّ مثل طفل صغير .

بيد أنها ما إن وقع بصرها كرةً اخرى — بعد هذه الساعـــات الاربـع والعشرين الفاجعة — على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرحٍ .

كان في ميسور أيما امرئ مشغول البال ان يستشف فيها ، اذا ما سمعها ، نجاة من هاوية .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السرّ . كانت الابواب كلها تفتح في وجهه .

وكذلك حلت تلك المشكلة المزدوجة والمروّعة : مشكلة الخروج ثم الدخول من جديد .

وفتح البوابُ - وكان قد تلقى الأوامر - البُويبَ الجانبي الذي يصل ما بين الفِناء والحديقة ، والذي كان لا يزال في ميسور المرء ان يراه ، منذ عشرين سنة ، من جانب الشارع ، في الجدار القائم في اقصى الفِناء تجاه باب العربات . واجاز البواب للثلاثة جميعاً ان يدخلوا من هذا البويب ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، اوامر رئيسة الدير .

كانت الرئيسة تنتظرهم والسبحة في يدها . وكانت احدى الامهات الصوتيات واقفة قربها مسدَلةَ الحجاب . ولقد اضاءت شمعة كنوم غرفة الاستقبال ، او لعلها بدت وكأنها تنيرها .

وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس من عين مغضوضة .

ثم إنها تقدّمت الى سؤاله :

- « أنت اخوه ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

- « ما اسمك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « أولتيم فوشلوفان . »
لقد كان له اخ متوفى يدعى اولتيم .
— « من اي جزء من البلاد أنت ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « من بيكويني ، قرب آميان . »
— « ما عمرك ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « خمسون سنة . »
— « وما صنعتك ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « بستانيّ . »
— « هل أنت مسيحي صالح ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « كل افراد اسرتنا هم كذلك . »
— أهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « نعم . ايتها الأم الموقرة . »
— « ألأنت أبوها ؟ »
فأجاب فوشلوفان :
— « جدّها . »
وقالت الأم للرئيسة في صوت كالهمس :
— « إنه يجيب اجابة حسنة . »
ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما .
وأنعمت الرئيســة النظر الى كوزيت ، ثم أسرّت في أذن الأمّ الصوتيّة :

- « سوف تغدو بشعة . »

وفي صوت خفيض جداً تحدّثت الأمّان ، بضعَ دقائق ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الرئيسة وقالت :

- « أيها الأب فوفان ، سوف تُعطى واقية رُكَبٍ اخرى ذات جلجل . نحن نحتاج الآن الى اثنتين . »

وهكذا سُمِع ، في الصباح التالي ، جلجلان يرنّان في الجنينـــة . ولم تتمالك الراهبات أن يرفعن احدى زوايا حجُبهنّ . لقد رأين رجلين يحفران جنباً الى جنب ، في اقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوفان وشخصاً آخر .

حدثٌ ضخم ! وقُطع حبل الصمت الى حدّ القول :

- « إنه بستانيّ مساعد ! »

واضافت الأمهات الصوتيات :

- « إنه أخو الأب فوفان . »

والواقع ان جان فالجان قُلّد عمله على نحو نظامي . لقد حُمّـــلَ واقية الرُكَب الجلدية والجلجل . ومن ذلك الحين أمسى موظفاً رسمياً . وكانَ يُعرف باسم أولتيم فوشلوفان .

وكان أقوى الاسباب التي قرّرت قبول كوزيت ملاحظة الرئيسة : سوف تغدو بشعة .

وما إن لفظت الرئيسة هذا الحدس حتى غمرت كوزيت بمودتهـــا وافسحت لها مكاناً في المدرسة الداخلية بوصفها طالبة مجانية .

وليس ثمة شيء غير منطقيّ ، البتة ، في ذلك .

وعبثاً تُقصى المرايا عن الأديرة . فالنساء يَعِيْنَ طَلَعاتهن . والفتيات اللواتي يعرفن أنهن جميلات لا يترهّبْن عن رضا وطيب نفس . واذ كانت النزعة الى الحياة الرهبانية متناسبةً تناسباً عكسياً مع الجمال ، فطبيعيٌ ان يُعقد الأمل على القبيحات اكثر مما يُعقد على المليحات . ومن هنا ذلك الولوع

الشديد بالفتيات البشمات .

ورفعت هذه المسألة كلها من معنوية فوشلوفان الطيب العجوز . كان قد أحرز نصراً مثلثاً – في عيني جان فالجان بعد ان انقذه وآواه ؛ وعند حفار القبور ، غريبييه ، الذي قال : لقد خلصني من دفع الغرامة ؛ وفي الدير الذي استطاع بفضله – من طريق الاحتفاظ بنعش الأم كروسيفكسيون تحت المذبح – ان يجتنب قيصر ، ويرضي الرب . كان ثمة نعش ينطوي على جثمان في « بيكبوس الصغير » ، ونعشٌ من غير جثمان في مقبرة فوجيرار . لقد انتُهكت حرمة النظام العام من غير ريب ، ولكن احداً لم يلمح ذلك . اما الدير فكان عرفانه جميلَ فوشلوفان عميقاً . لقد غدا فوشلوفان أحسن الخدم ، وأغلى البستانيين . فعندما قام رئيس الاساقفة بزيارته التالية للدير قصّت الرئيسة الحادثة على مسامع عظمته من باب الاعتراف ، من ناحية ، ومن باب الاعتزاز من ناحية . حتى اذا غادر رئيس الاساقفة الديرَ أسرَّ بذلك ، في إطراء ، في أذن مسيو دو لاتيل ، معرِّف الشقيق الثاني من أشقاء الملك ، الذي اصبح في ما بعد رئيس اساقفة ريمس وكاردينالاً . وانطلق هذا الثناء على فوشلوفان والاعجاب به الى ابعد من ذلك ، اذ بلغ رومة نفسها . ولقد وقعت تحت عينيّ مذكرةٌ وجّهها البابا المتربع على الكرسي الرسولي آنذاك ، ليو الثاني عشر ، الى احد انسبائه ، السفير البابوي في باريس ، الذي كان يدعى مثله ديلاّ جانغا . لقد انطوت على هذه السطور : « يبدو ان ثمة في احد اديرة باريس بستانياً ممتازاً ذا قداسة ، يدعى فوفان . » ولم يبلغ فوشلوفانَ في كوخه شيء من هذه الشهرة التي تمّت له . لقد واصل تطعيم بطيخاته واقتلاع الاعشاب الضارة من حولها وتغطيتها ، من غير ان يعي امتيازه وقداسته اقلّ الوعي . إنه لم يستشعر مجدَهُ اكثر مما يستشعر مجدَه ايُّ ثور من ثيران دورهام أو دو سوري تُنْشر صورته في مجلة « لندن إلاسترايتد

نيوز » وقد كُتِب تحتها : **الثور الذي نال الجـــائزة في معرض الماشية . . »**

٩
الخاتمـــة

وفي الدير ، واصلت كوزيت صمتها .

لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جداً ، انها بنت جان فالجان . والى هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان تبوح بشيء . وعلى اية حال ، فقد كان خليقاً بهـا ، حتى لو عرفت ، ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعوّد الاطفالَ الصمتَ ، كما سبق أن قلنا ، مثل الشقاء . فقد لقيت كوزيت من البلاء قدْراً جعلها تخشى كل شيء حتى الكلام ، حتى التنفّس . فكم من مرة اسقطت كلمة واحدة وابـلًا من الاذى على رأسها ! وكانت قد بدأت ، وما كادت ، تستشعر الطمأنينة منذ ان رافقت جان فالجان . وسرعان ما أَلِفت حياة الدير . ومع ذلك فقد ظلت تحنّ الى كاترين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك . بيـد انها قالت لجان فالجان ذات يوم :

— « أبتِ ، لو كنت عارفة ، لحملتُها معي . »

وكان على كوزيت ، وقد اصبحت طالبة داخليـة في الدير ، أن ترتدي ملابس الطالبات . ووفّق جان فالجان الى إقناع جماعـــة الدير بأن يُعطوه الثياب التي اطّرحتهـا . كانت هي الثياب الحِدادية نفسها التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البـلى قد أصابها . ولفّ جان فالجان هذه الثياب ، وأضاف اليهـــا الجورب الصوفي والحـذاء ، ومقداراً وافراً من الكافور وغـــيره من ضروب

الطيّب التي تكثر في الأديرة ، ثم وضعها في حقيبة صغيرة وُفّق الى الحصول عليها . ووضع هذه الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بمفتاحها في جيبه .

وسألته كوزيت ذات يوم :

– « أبتِ ، ما هذا الصندوق الذي تفوح منه هذه الرائحة الزكية جداً ؟ »

وكوفىء الأب فوشلوفان – الى جانب هذا المجد الذي وصفنا ، والذي لم يكن يعيه ، على صنيعه الحسن . لقد أوقع عمله ذاك السعادة في قلبه ، اولاً ، وخفّف عنه وطأة الشغل ، بعد ان تقاسمه مع جان فالجان . واذ كان شديد الولوع بالتبغ فقد وجد في هذه الزمالة الجديدة نفعاً من ناحية اخرى . لقد اخذ ثلاثة اضعاف نصيبه القديم من التبغ ، وعلى نحوٍ اكثر شراهةً الى حدٍ بعيد ، ما دام مسيو مادلين هو الذي كان يدفع الثمن .

ولم تتبنّ الراهبات اسم أولتيم . لقد دعون جان فالجان فوفان الآخر .

ولو قد كان لهاتِه النسوة القدسيات عين كعين جافير ، اذن للاحظن ، على مرّ الأيام ، أن فوشلوفان الاكبر سناً ، فوشلوفان العجوز ، العاجز ، الأعرج ، كان هو الذي يخرج الى الخارج كلما قضت مصلحة الحديقة بذلك ، لا الرجل الآخر بحال من الاحوال . ولكن سواء اكانت الاعين المحدّقة ابداً الى الله عاجزةً عن التجسس ، أم كانت منهمكةً على نحوٍ موصول في مراقبة بعضها بعضاً ، فانهنّ لم يلاحظن شيئاً البتة .

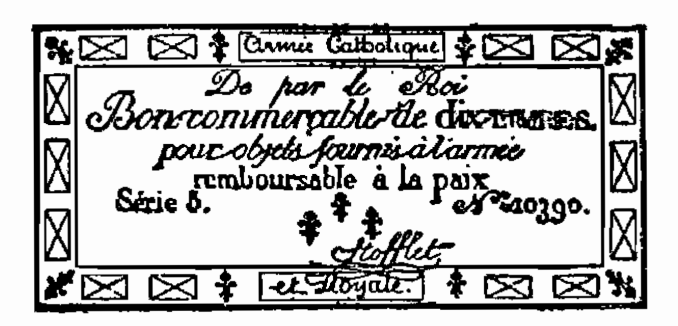
وأياً ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالهدوء والسكينة . وراقب جافير الحيّ شهراً أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان أشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين أمست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمّنها

كان في ميسوره ان يرى السماء الى حـــدّ يوقع الطمأنينة في نفسه ، وكوزيت الى حد يُثلج فؤاده .

لقد استهلّ ، من جديد ، حياةً سعيدة جداً .

وعاش مع فوشلوفان العجوز في الكوخ الذي في أقصى الجنينة . وكان هذا المأوى الحقير ، المبنيّ من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائماً عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسيو مادلين حتى أقنعه ، بعد معارضة مخفقة ، بالنزول في الغرفة الرئيسية منهـــا . وكان يزيّن جدارَ هذه الغرفة بالاضافة الى المسارين المخصصين لتعليق الركبيّة والسلة الكبيرة ، نموذجٌ ملكيّ من الاوراق النقدية الصادرة عـــام ٩٣ ، والملصقة فوق الموقد ، والتي نقدّم ههنا صورة طبق الاصل عنها :



كانت هذه الورقة النقدية التي أصدرت في فانـــديه قد سمّرتها على الجدار يدُ البستاني السابق — وهو احد المتمردين القدماء على الجمهورية — الذي توفي في الدير فخلَفَهُ فوشلوفان .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الغَناء هناك . كان من قبلُ مشـــذّب أغصان ، فانقلب الى بستانيّ عن رضا وطيب خاطر . والقراء يذكرون أنـــه كان يعرف جميـــع ضروب الوصفات

والاسرار الخاصة بالزراعة . ولقد أفاد من ذلك في عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريباً ، شجرات برية . فلقّحها وجعلها تُعطي ثمراً ممتازاً .

وأجيز لكوزيت أن تفِدَ عليه كل يوم ، وتقضي ساعةً معه . وإذ كانت الراهبات مكتئبات ، واذ كان هو لطيفاً ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن ، وهامت به هياماً شديداً . ففي الساعة المعيّنة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجنّة . لقد تهلّل جان فالجان ، وأحسّ بسعادته تتعاظم بسبب من السعادة التي أضفاها على كوزيت . والواقع ان للبهجة التي نُدخلها الى قلوب الناس هذه الخاصةَ الساحرة ، وهي أنها — وهي التي لا تعرف النقصان مثل أيّ انعكاس آخر — ترتجع الينا اكثر اشراقاً من ذي قبل . وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها — من بعيد — تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعاً .

ذلك بأن كوزيت عرفت الضحك الآن .

وحتى محيّا كوزيت تغيّر بعضَ الشيء . كان الطابع الكئيب قد زال . فالضحك شمس . إنه يطرد الشتاء من الوجه البشري .

وهكذا غدت كوزيت ، وهي التي لم تكن جميلة في يوم من الايام ، فاتنةً من ناحية اخرى . كانت تقول اشياء صغيرة معقولة بصوتها الطفليّ العذب .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقته كوزيت ، كان من دأب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفّها . أما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المهجع الذي كانت تنام فيه .

إن لله طرائقه . فقد أسهم الدير ، كما أسهمت كوزيت ، في تثبيت عمل الاسقف وإكماله في نفس جان فالجان . وليس في استطاعة المرء ان

يُنكر ان وجهاً من أوجُـــهِ الفضيلة ينتهي الى الغرور . وعند تلك النقطة يمتدّ جسر بناه الشيطان . ولقد كان جان فالجان ، في ما يبدو ، من غير أن يستشعر ذلك ، على مقربة مـن وجه الفضيلة ذاك عينِهِ ، ومن ذلك الجسر عينِهِ ، حين قذفت العناية الالـٰهية به الى دير بيكبوس الصغير . كان خليقاً به ، ما دام لا يقارن نفسه إلا بالاسقف ، أن يجد نفسه غير كفؤ ، وان يظلّ متواضعاً . ولكنه بدأ ، منذ فترة من الزمان ، يقارن ما بينه وبين سائر الناس ، ومن هنا راح الغرور يُطلع رأسه في نفسه . ومن يـدري ؟ لعله كان خليقاً بأن ينتهي الى الارتداد ، تدريجياً ، نحو البغض .

لقد أوقفه الدير عند هذا المنحدر .

كان هذا هو ثاني موطن من مـــواطن الأَسْر قُدّر له ان يراه . ففي شبابه ، في ما كان بالنسبة اليه بـــدء الحياة ، وبعد ذلك ، منذ فترة قريبة جداً ، رأى موطناً آخر ، موطناً رهيباً ، موطنـاً فظيعاً كانت ضروب القسوة التي ينطوي عليها تبدو له دائمـاً جَوْرَ العدالة ، وجريمةَ القانون . والآن ، بعد ان رأى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، رأى الدير . وإذ فكـّر انه كان في ما مضى جزءاً من سجن الأشغاليين ، وانه امسى اليوم ، اذا جاز التعبير ، مشاهِـــداً في الدير فقد قابل ما بينهما ، في تأملاته ، بقلق شديد .

وفي بعض الاحيان كان يتكيء على مسحاته ، ويهبط شيئاً بعد شيء معارج الاحلام اللولبية التي ليس لها قرار .

لقد تذكـّر رفاقه القدماء ، ومبلغ ما كانوا يعانونه من بؤس . كانوا ينهضون منذ الضحى ، ويكدحون حتى يهبط الليل . وما كان يُسْمَح لهم بالنوم الا نادراً . كانوا ينامون على سرر عسكرية ، ولم يكن ليجاز لهم ان يتخذوا غير حشايا تبلغ سماكتها إنشين ليس غير ، في قاعات ما كانت تدفأ الا في أشهر الشتاء القارسة . كانوا يلبسون أرديـــة حمراء ،

وكانوا يُعطَون ، تكرماً وتلطفاً ، بنطلوناً من نسيج قنّبيّ حين يبلغ القيظ أشدّه ، ورقعة مربعة من نسيج صوفي يضعونها على ظهورهم في أيام الزمهرير . لم يكن عندهم خمر يحتسونها ، ولا لحم يأكلونه الا يوم يساقون الى عمل « شاق فوق العادة » . لقد عاشوا من غير أسماء - فهم لا يميزون إلا بالارقام ، وقد حُوّلوا بمعنى ما الى أصفار - مطرقي الأبصار ، خافضي الاصوات ، حليقي الرؤوس ، تحت العصيّ ، وفي حمأة العار .

ثم ارتدّت أفكاره الى الكائنات اللواتي كنّ أمام عينيه .

لقد عاشت هذه الكائنات ، ايضاً حليقات الرؤوس ، مطرقات الابصار ، مكبوحات الأصوات . إنهن لم يتمرغن في حمأة العار ولكنهن كن محوطات بسخريات العالم . ان ظهورهن لم تتفقّع من هراوة السجان ، ولكن اكتافهن كانت ممزقة بالكفارة التي تُنزلها كل منهن بنفسها . واسماؤهن أيضاً قد زالت من بين أسماء الناس ، فهنّ يعشن الآن بنعوت كالحة ليس غير . انهن لا يأكلن اللحم أبداً ولا يشربن الخمرة ابداً . وكثيراً ما بقين حتى المساء من غير طعام . انهن لم يكنّ يلبسن اردية حمراء ، ولكنْ أكفاناً سوداء من صوفٍ ، غليظٍ في الصيف ، رقيقٍ في الشتاء ، غير قادرات على أن يزدنها او ينقصن منها ؛ غير مالكات حتى حق استبدال معطف من الصوف بثوب من القطن او ثوب من القطن بمعطف من الصوف ، تبعاً للفصول . وطوال ستة اشهر كن يرتدين قمصاناً من انسجة صوفية غليظة تورثهن ضروباً من الحمّى . وكنّ يسكنّ لا في قاعات تدفّأ أيام الزمهرير فحسب ، ولكن في قلايا لا توقد النار فيها البتة . وكن ينمن على حشايا تبلغ سماكتها إنشين ، ولكن على التبن . وفوق هذا فلم يكن ليُسمح لهن حتى بالنوم . فما إن يُتممْنَ كدح النهار ، ويرزحن تحت وطأة النعاس ، حتى يُدْعَون كل ليلة - لحظة تكون الواحدة منهن قد بدأت تستسلم للرقاد وأوقعت في جسدها قليلا

من الدفء – الى الاستيقاظ ، فينهضن ويجتمعن للصلاة في كنيسة مثلوجة مظلمة ، حيث تمس رُكَبهن الارض الحجرية .

وفي بعض الأيام كان يتعين على كل من هاته المخلوقات ، واحدة اثر الاخرى ، ان تظل اثنتي عشرة ساعة متعاقبات راكعةً على البلاط ، او مكبّة على وجهها متصالبة الذراعين .

لقد كان اولئك رجالاً ؛ اما هؤلاء فنساء . ما الذي فعله اولئك الرجال ؟ لقد سرقوا ، واغتصبوا ، وسلبوا ، وقتلوا ، وسفكوا الدماء . كانوا قطاع طرق ، ومزوِّرين ، ومسمِّمين ، ومحرِّقين ، وقتلة ، ومريقي دم آبائهم وامهاتهم . وما الذي فعلته هاته النسوة ؟ إنهن لم يفعلن شيئاً .

في ناحية ، كانت السرقةُ ، والغدر ، والخديعة ، والعنف ، والفسق ، والقتل ، وكل ضرب من ضروب تدنيس القدسيات ، وكل صنف من صنوف انتهاك الحرمات . وفي الناحية الاخرى لم يكن غير شيء واحد :
– البراءة .

البراءة الكاملة التي تكاد ترتفع ، في انتقال مقدس ، الى الاعالي ، فهي لا تزال مشدودة الى الارض بالفضيلة ، ولكنها توشك ان تمس السماء بالقداسة .

في ناحية ، كان الاعتراف بالجرائم يُرْسل في صوت مهموس . وفي الناحية الاخرى كان يُعترف بالخطايا جهاراً . ويا لها من جرائم ! ويا لها من خطايا !

وفي ناحية كانت أبخرة عفنة ، وفي الاخرى كان الطيب الذي يمتنع على الوصف . في ناحية كان الطاعون الاخلاقي ، المراقَب ليلاً ونهاراً ، المسلطة عليه افواه المدافع ، المفترس ضحاياه في بطء . وفي الاخرى ، كانت الارواح كلها تتعانق عناقاً عفيفاً على منبثَق الاشعاع نفسه . هناك الظلمات ؛ وهنا الظلّ ، ولكنه ظلّ مفعم بالنور ، النور المفعم بالاشعة

المتوهجة .

موطنان من مواطن العبودية . ولكنّ في اولهما انعتاقـاً ممكناً ، فهناك نصبَ العيون ابداً حدّ قانوني ، ثم هناك الفرار . اما في ثانيهما فليس غير الخلود ، وليس من أمل ، عند أقصى حدود المستقبل ، سوى شعاع الحرية الذي يدعوه الناس الموت .

في الموطن الأول ، كان الاسرى يُصفّدون بالاغلال فحسب . وفي الموطن الثاني كنّ يصفّدن بالايمان ليس غير .

ما الذي نشأ عن الموطن الأول ؟ لعنةٌ هائلة ، وصرير الأسنان ، والكراهية ، والخبائة اليائسة ، وصرخة غيظ في وجه المجتمع البشري ، وسخرية من السماء .

وما الذي نشأ عن الموطن الثاني ؟ البَرَكة والحبّ .

وفي هذين الموطنين ، المتشابهين جداً المختلفين جـداً ، كان هذان الضربان من المخـلوقات ، الشديـدة التباين ، يقومان بالعمل نفسه : التكفير .

وفهم جان فالجان احسن الفهم تكفير الفئة الاولى ؛ التكفير الشخصي ؛ التكفير من اجل النفس . ولكنه لم يفهم تكفير الفئة الاخرى ، تكفير هذه المخلوقات المنزهات عن اللوم ، المعصومـات عن الدنس . وساءل نفسه في ارتعاد : « التكفير عن ماذا ؟ أيُّ تكفير هذا ؟ »

فأجابه صوت في وجـدانه يقول : « انه أقـدس ضروب الجود الانساني ، التكفير من اجل الآخرين . »

وهنا نحتفظ بنظرياتنا جميعاً . فلسنا غير قاصٍ من القُصّاص . وإنما نقول ما نقوله من وجهة نظر جـان فالجان ، ونعبّر عن انطباعـاته مجرد تعبير .

كانت نصبَ عينيه القمةُ العليا لانكار الذات ، قنّةُ الفضيلة الاكثر سمواً ؛ والـبراءةُ الغافرة للناس آثامهم المكفّرةُ عنهـا بالنيابة عنهم ؛

والعبوديةُ محتَمَلةٌ ، والعذابُ مقبولاً ؛ والعقوبةُ والشقاء وقد ألحت في طلبهما نفوسٌ لم تأثم ، لكي تُنجي منهما نفوساً آثمة ؛ وحبُّ الانسانية فانياً في حب الله ولكنه باقٍ هناك متميّزاً متضرّعاً ؛ وكائناتٌ ضعيفات لطيفات تتحمّل كل عذاب اولئك الذين أُنزلت العقوبـــة بهم ، وتحتفظ رغم ذلك بابتسامة اولئك الذين فازوا بالمكافأة .

وتذكر أنه تجرّأ على الشكوى !

وكان كثيراً ما ينهض من فراشه ، في جوف الليـل ، ليصغي الى الانشاد الشكور المنطلق من حناجر هاته المخلوقات الـــبريئة ، المثقَلة بضروب القسوة . ولقد استشعر الدم يجري بارداً في عروقه حين فكّر ان اولئك المعاقَبين بحـقّ لا يرفعون اصواتهم نحو السماء أبداً إلا لكي يجـــدّفوا ؛ وانه هو - برغم شقائـه كله - قد هزّ جمع كفه في وجه الربّ !

وشيء آخرُ غريبٌ جعله يمعن في التفكير والتأمـــل وكأنه وحيٌ همست به في أذنه العناية الالـهية نفسها : إن تسوّر الجدران ، واجتياز الأسيجة ، والمخاطرة بالحياة حتى الموت ، والصعود العسير المؤلم ، جميع هذه الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من موطن التكفير الاول هي عينها التي بذلها من اجل الدخول الى موطن التكفير الثاني . أيكون هـذا رمزاً على قَدَرِه ؟

لقد كان هذا البيت سجناً ايضاً ، وكان يشبه شبهاً كئيباً ذلـــك المأوى الآخر الذي فرّ منه ؛ ومع ذلك فـــلم يتخيّل قط من قبل شيئاً مثله .

لقد بَصُرَ كرةً اخرى بالابواب والنوافذ المقضّبة ، وبالمزالـــج ، وبالقضبان الحديدية . ولكنْ لتحبس من ؟ الملائكة .

وهذه الجدران السامقة التي رآها في ما مضى تطوّق أنماراً ، أمسى يراها ، اليوم ، تطوّق حملاناً .

كان موطنَ تكفير ، لا موطن قصاص . ومع ذلك فقد كان اكثر جهامة ، واكثر كآبة ، واكثر قسوة ، من الموطن الآخر . كانت ظهور هؤلاء العذارى محنيّة في خشونة دونها الخشونة التي حُنيت بها ظهور المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كانت ريح باردة عنيفة ، الريح التي جعلت شبابه مثلوجاً ، تخترق الخندق المحصّن بالحديد ، وتكبّل العقبان . ولكن ريحاً أشدّ لذعاً واكثر وحشية هبّت على قفص الحائم .

لماذا ؟

حين فكّر في هذه الاشياء تراجع كل ما كان يعتلج في ذاته أمام سرّ السموّ هذا .

وفي هذه التأملات ، تلاشى الغرور . لقد عاد الى نفسه مرّةً ومرّة . لقد استشعر حقارته البالغة . وسفح الدمع في كثير من الاحيان . كان كلُّ ما دخل حياته ، منذ ستة اشهر ، قد ردّه نحو وصايا الاسقف القدسية ؛ كوزيت بالحبّ ، والدير بالخشوع .

وبعضَ الاحيان ، حين يهبط الليل عند الغسق ، في تلك الساعة التي تُقفر فيها الحديقة ، كان يُرى راكعاً وسط المجاز المحاذي للكنيسة ، أمام النافذة التي نظر من خلالها ليلة وصوله ، متجهاً الى حيث كانت الاخت المستغفرة ساجدةً مصلية على ما يعلم . وهكذا صلى راكعاً امام هذه الاخت .

لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الركوع امام الله مباشرة .

ولم يلبث كل ما حوله : هذه الحديقة المطمئنة ، هذه الرياحين العاطرة ، هؤلاء الاطفال الصائحون صيحات البهجة ، هاته النسوة الوقورات البسيطات ، هذا الدير الصامت — لم يلبث كل هذا ان داخَلَ كيانه كله تدريجياً . وشيئاً بعد شيء تكونت نفسه من صمتٍ مثلَ هذا الدير ، ومن عطرٍ مثلَ هذه الرياحين ، ومن طمأنينةٍ مثل هذه الحديقة ، ومن بساطةٍ مثل هاته النسوة ، ومن بهجةٍ مثل هؤلاء الاطفال . ثم فكر ان بيتين من

بيوت الله قد استقبلاه ، على التعاقب ، في لحظتي حيـــاته المصيبتين : الاول حين أوصد في وجهه كل باب ونبذه المجتمع البشري ؛ والثـــاني حين طارده المجتمع البشري من جديد وفغر سجنُ الاشغال الشاقة فمه لابتلاعه . وانه لولا الاول لتردّى في مهـــاوي الجريمة كرة اخرى ، ولولا الثاني لتردّى في مهاوي العقاب .

وذاب فؤاده كله اعترافاً بالجميل ، وتعلق بأهداب الحب اكثر فأكثر .

وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت .

فهرست القسم الثاني : « كوزيت »

الكتاب الاول : واترلو

الكتاب الثاني : الدارعة « اوريون »

الكتاب الثالث : الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

الكتاب الرابع : بيت غوربو العتيق

الكتاب الخامس : المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

الكتاب السادس : بيكبوس الصغير

الكتاب السابع : بين هلالين

الكتاب الثامن : المقابر تأخذ ما يُقَدَّم اليها

قالوا ...

● « ... وكان آخر ما أتحفتنا به « قصة مدينتين » لتشارلز ديكنز . فما هالك منها ضخامة في حجمها ، ولا مشقة في تذليل أوابدها. بل آليت على نفسك ان تنقلها « كاملة غير منقوصة » ، فأحسنت بذلك الى نفسك ، والى العربيـة ، والى ديكنز . وكنت اميناً في عملك منتهى الامانة . فـلا تحوير ولا تزوير كما هي الحال مع الكثيرين من المترجمين . وكنت حذقاً ولبقاً في تغلبك على القصي من التعابير والمصطلحات الانكليزية ثم في خلعك على الترجمة كلها حلة عربية محكمة النسج ، لطيفة التفاصيل ، مشرقة اللون ...

وها انك منصرف في هذه الايام الى ترجمة « البؤساء » لهيغو في نصها الكامل . وهو عمل ضخم ، ولكنه ضروري . اذ من الحيف ان لا يعرف العرب تلك الرواية الشهيرة الا في ترجمـة حافظ ابراهيم الممسوخة . ولست اعرف من هو اقدر منك على إنصاف الرواية وصاحبها لدى القارىء العربي ... »

بسكنتا — ميخائيل نعيمة

● « ... والذي يعجبني في ترجمة البعلبكي هو انه قد يفتش عن الكلمـة الملائمـة بالفتيلة والسراج ، واذا لم يجدها فوراً صبر عليها حتى تأتي . فمن فاتته مطالعة الاثار الادبية بلغتها الأم يمكنه ان يعتمد على ترجمة منير فهي اقرب ما

يُترجَم اليوم الى الأصل. قلت « اقرب » لان لكل لغة حلاوتها وطعمها ولونها.
أما سلامة عبارته فقد تكون ، لا بل هي ، اسلم تعبير عن الفكرة الاجنبية التي ينقلها الاستاذ الى العربية، فلا حشو ولا ثرثرة، بل امانة كلية في التأدية ...»

بيروت، « المجالس المصورة » – مارون عبود

● «... اذا كان للمؤلف فضل فللمترجم في اعتقادي فضلان ! لانه متى اراد القيام بالترجمة كما يجب تحتم عليه ان يكون المؤلفَ عينه من جهة ثم ان يكون هو نفسه من جهة ثانية ... هذه الفكرة خطرت لي غبّ قراءتي لترجمة كتاب « الشيخ والبحر » فقد أُعجبتُ بالتعريب اعجاباً يفوق اعجابي بالقصة . ومنذ ذلك الحين بدأت ارافق صديقي الاستاذ منير البعلبكي في ما ينتج من ترجمات ، واصبحت اقرأ بالعربية ما كنت اقرأه من ادب الانكليز والالمان والروس والاميركان . ثم اعدت النظر في بعض ما كان منير البعلبكي قد ترجمه قبل « الشيخ والبحر » مما فاتني الاطلاع عليه ، فزاد يقيني بأن الترجمة ايضاً من الفنون العالية ما دام عنصر التعب فيها جلياً بمقدار ما هو في الشعر والموسيقى ... »

بيروت – « جريدة الجريدة » – رفيق المعلوف

● «... انت كاتب تربطك بكرامة التعبير ومسؤولية الفكر اسباب واعية، ومن هنا كانت امانتك في الترجمة ، وانت رجل واعٍ لوظيفة الفكر والفن في المرحلة الراهنة من مراحل قوميتنا العربية ، ومن هنا فانت تختار ترجماتك بما يتلاءم مع حاجات الوجدان العربي والذهن العربي على السواء ، مما يساعد على خلق الفرد الواعي لوجوده ، لمشكلاته الحقيقية ، لأبعاد ماضيه وحاضره ومستقبله ... »

القاهرة – رجاء النقاش

● «... اما الاستاذ منير فأن رأيي في انتاجه الرائع هو رأي كل منصف يتذوّق ويميّز الغثّ من السمين . إن ترجماتـــه أشبه بالهضاب الوطيدة الشامخة ، بناءً ولغة وفكرةً ، الى جانب غبار من الترجمات تثيره اقلام لو عرفت قدرها لتتلمذت طويلاً على انتاج الأستاذ منــير قبل أن تخطّ جملة عربية او تمسك بزمام فكرة ...»

حلب – سليمان العيسى

● « ... ولا يكتفي منير البعلبكي بمجرد الترجمة ولكن يضيف اليها من الحواشي والتعليقات والشروح ما يرتفع بجهده الى حيث يغدو مشاركة فعليـــة في التأليف وليس مجرد نقل من لغة الى لغة فحسب . وهو بهـــذه الهوامش الكثيرة جداً التي تنتشر في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً انمـــا ييسّر للقارىء العربي ان لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من الاسماء والاماكن والحوادث التي في الكتاب ... وجهد البحث والتنقيب مضافاً اليه جهد الترجمة والمقارنـــة بين النسخة الفرنسية والنسخة الانكليزية هو الذي أعنيه بالمشاركة الفعليـــة في التأليف ... »

عمان – « جريدة فلسطين » ، عيسى الناعوري

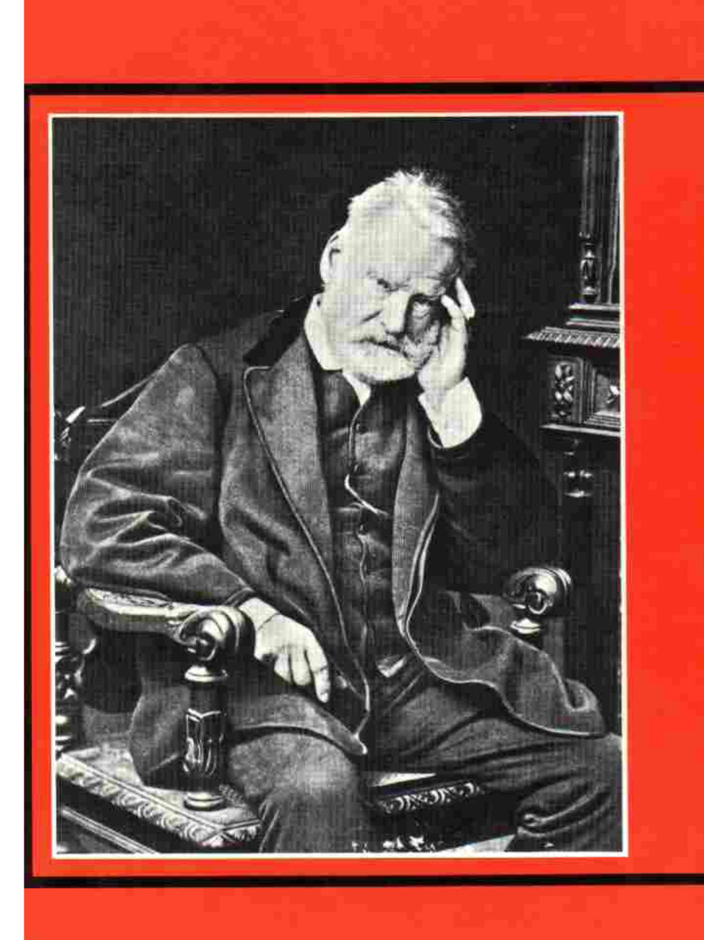
● «...حريّ بنا اذن ان نكبر في المترجم هذا الدأب الموصول وان نقدّر له فضله في تعريف القارىء العربي الى شوامـــخ القصص العالمي التي كان احدثها ترجمة « الشيخ والبحر » لارنست همنغواي ترجمة تكاد ان تكون كاملة بامانتها وصفائها وتلك الروعة التي اضفاها المترجم على اسلوبه ، وما كنت لأقع على مثلها في ترجمة الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية ! »

بيروت – « جريدة الحياة » ، ابن يقظان

انتهى المجلد الثاني

ويليه المجلد الثالث

٢٤٧ / ١٠ / ٥٥ / ٣٠٠٠



البؤساء



٣

دار العلم للملايين



البؤساء

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الثالث

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

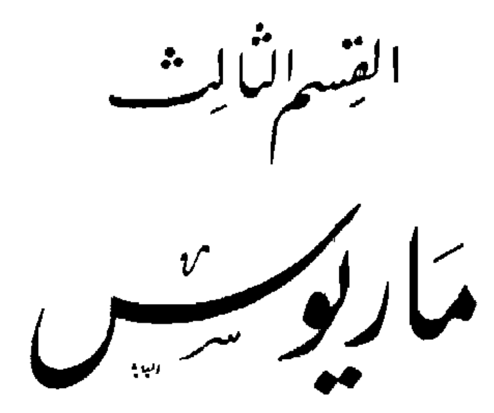
Victor Hugo

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩


القسم الثالث
ماريوس

الكتاب الأول

باريس مدروسة

من خلال ذرّتها

١

في نضارة الصبا

لباريس طفل ، وللغابة طائر . أما الطائر فيدعى الدُوري ، وأما الطفل فيدعى المتشرّد .

زاوِجْ ما بين هاتين الفكرتين ، التي تنطوي احداهما على جميع حرارة الفرن ، والاخرى على جميع ضياء الفجر . إقدح هاتين الشرارتين معاً : باريس والطفولة ؛ وعندئذ يثب منهما كائن صغير ، كان يجدر بـ « بلوتوس » * أن يدعوه Homuncio **

* Plautus شاعر لاتيني هزلي (حوالى ٢٥٠ ــ ١٨٤ ق . م .)

** في اللاتينية ، ومعناها الطرح ، او الجهيض .

هذا الكائن الصغير مفعم بالبهجة . إنـه لا يأكل الطعام كل يوم ، ومع ذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسباً . إنه مخلوق لا قميص على ظهره ، ولا حذاء في رجله ، ولا سقف فـوق رأسه . إنه مثل ذباب السماء الذي لا يملك شيئاً من هذه جميعاً . أما سنه فتتراوح ما بين السابعة والثالثة عشرة ؛ وهو يحيا مع العصابة التي ينتمي اليها ، ويضرب في الشوارع ، وينام في الهواء الطلق ، ويرتدي سروالاً عتيقاً من سراويـل أبيه ينتهي الى عقبَيْه ، وقبعة عتيقة من قبعات أبٍ آخر تهبط الى أبعد من أذنيه ، وحِمالة بنطلون مفردة ذات حاشية صفراء . إنه يعدو ، ويتتبّع الأثر ، ويقتـل الوقت ، ويسوّد الغليون بالاستعمال ، ويُقسم مثل رجل من اهـل الجحيم ، ويختلف الى الحانات ، ويعرف اللصوص ، ويخاطب الفتيات بضمير المفرد ، ويهذر بلغة السوقة ، ويغني اغانيَ داعرة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الاطلاق . ذلك بأن في نفسه جوهرة ، هي البراءة . والجواهر لا تنحلّ في الوحل . وما دام المرء طفلاً فأن ارادة الله تقضي بأن يكون بريئاً .

ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : مَن ذلك المخلوق ؟ اذن لاجابت : إنه ولدي الصغير .

٢
بعض أماراته الخصوصية

إن « متشرد » باريس هو قزم العملاقة .

ولن نبالغ . فعند مَلاك الساقية هـذا قميص في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة قميصٌ مفرد ليس غير . وعنده حـذاء في بعض

الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة حذاء من غير نعل . وإن له في بعض الاحيان مأوى ، وهو يحبه ، لأنه يجد فيه أمه ؛ ولكنه يفضّل الشارع ، لانه يجد هناك حريته . إن له ألعاباً خاصة به ، وحيَلًا خاصة به قائمة على اساس من بغضه للبورجوازيين . وإن له استعاراته الخاصة . فهو يكنّي عن موت الشخص بـ « أكْلِ الهندباء البرية من جذورها » . وإن له مِهَنَهُ الخاصة ، مثلَ إحضار عجلات الكراء ، وخَفْض مواطىء العربات ، وقَبْض مكوس المرور من ضفة الشارع الى الأخرى حين تهطل الامطار الغزيرة ، وهو ما يدعوه « إقامة جسور الفنون » ، ويذيع الخطب التي تُكثر السلطات من إلقائها لمصلحة الشعب الفرنسي ، ويكشط العروق التي تفصل ما بين بلاط الشوارع . وإن له عملته الخاصة ، وهي تتألف من مختلف ضروب القِطَع النحاسية الصغيرة المطرّقة التي يجدها المرء على الطريق العام . ولهذه العملة الغريبة ، التي يُطلق عليها اسم الـ « مِزَق » ، دورة نظامية لا تعرف التغيّر في دنيا الاطفال الغجرية الصغيرة هذه .

و « المتشرد » مجموعة حيواناته الخاصة التي يدرسها في الزوايا بعناية : بقّة الرب الرحيم ، الدودة ذات الرأس الميت ، عنكبوت الحقل ، « الشيطان » ، وهي حشرة سوداء تهددك بأمالة ذيلها المسلّح بقرنين . وان له غوله الحرافيّ ذا الحراشف تحت البطن ومع ذلك فهو ليس بحرذَوْن ، وذا البثور على الظهر ومع ذلك فهو ليس بعُلجوم * — غوله الذي يعيش في ثقوب الاتاتين العتيقة ، والبواليع الجافة : مخلوق أسود ، مخملي ، دبِق ، زحّاف ، بطيء في بعض الاحيان ، سريع في بعض الاحيان ، لا يصرخ البتة ولكنه يحدّق ، وهو فظيع جداً الى حدّ أن احداً من الناس لم يره من قبل . وهو يدعو هذا الغول « الشيء الاصمّ » . والبحث عن « الاشياء الصمّ » بين الحجارة متعة

* العلجوم : ضفدع الجبل .

خطرة الى حدّ مثير . ومتعة اخرى من مُتعه ، ان يرفع بلاط الشارع فجأةً ويرى نمل الخشب . وكل منطقة في باريس مشهورة باللُّقى التي يجدهـا المرء فيها . هناك حُرُش * في مستودعات الخشب والفحم بالـ «أورسولين » ؛ وهناك « كثيرات الارجل » في الـ « بانتيون » ، وهناك أشراغ ** في خنـادق الـ « شان دو مارس » .

وهذا الطفل مشهور بأجوبته المفحمة مثل تاليران : إنه لا يقلّ عنه شكاً وسخرية ، ولكنه اكثر اخلاصاً . ولقد فُطِرَ على ضرب غريب من المزاج الطروب غير متوقع . إنه يُذهل صاحب الدكان بضحكه المرح الذي لا سبيل الى وقفـه . إن سُلّمه الموسيقية لتنزلـق من الكوميديا الرفيعة الى المهزلة الرخيصة .

وتمرّ جنـازة . ويتفق ان يكون في الموكب طبيب . فيصيح « متشرد » :

— « غريب ! من أيّ عهد بدأ الاطباء يشيّعون ضحاياهم ? »

ويضمّ حشد من الناس « متشرداً » آخر . ويلتفت اليه رجل مقطب الوجه زيّن نفسه بنظارة وحليّ ويقول في اشمئزاز :

— « انت ايها الوغد ، لقد كنت تحاصر امرأتي ! »

فيجيبه « المتشرد » :

— « انا يا سيدي ! تعال وفتّشني ! »

---

* جمع حريش ، وهي دويبة تعرف أيضاً بأبي مقص ، وثاقب الاذن .
** جمع شرغ ، وهو ولد الضفدع .

٣
إنه قريب إلى النفس

وفي المساء ، وبفضل بضع دريهمات يعرف دائماً كيف يحصل عليها ، يدخل « الطـّرح » الى احد المسارح . فما ان يجتاز تلك العتبة السحرية حتى ينتقل من حال الى حال . كان « المتشرد » *Gamin* ، فأمسى « متشرد باريس » *Titi* والمسارح أشبه شيء بضرب من المراكب مقلوبة رأساً على عقب ، وقد ُجعل قعرها في اعلاها . وإنما يحتشد « متشردو باريس » في هذا القعر . و « متشردو باريس » بالنسبة الى « المتشرد » بمثابة الفراشة بالنسبة الى اليَرَقانة * . إنها هي هي ، ولكنها مزودة بجناحين يمكّنانها من الطيران في الجوّ . وبحسْبِهِ ان يكون هناك ، بأشراق سعادته ، وبقوة حماسته وبهجته ، وتصفيق يديه الشبيه بتصفيق الاجنحة حتى يجعل من ذلك القعر الضيق ، الآسن ، المظلم ، القذر ، غير الصحي ، البشع ، المقيت قطعةً من الجنة نفسها .

أعطِ الكائنَ البشري ما لا غناء فيه ، واحرمهُ مما هو ضروريّ ، تخلق « المتشرّد » .

و « المتشرد » ليس خلواً من كل ميل الى الادب . ولكن نزعته هذه — ونحن نقول هذا بالقدر الملائم من الاسف — ليست نحو الآثار الكلاسيكية . فهو بطبيعته قليل الحظ من الروح الاكاديمية . وهكذا نقول ، على سبيل المثال ، ان شعبية مادموزيل مارس ** بين هذا الجمهور الصغير المؤلف من اطفال ز ثجين كانت ُمتبّلة بشيء من التهكم . كان « المتشرد » يدعوها مادموزيل « موش » *Muche* ***.

---

* اليرقانة : الدودة التي تتحول الى حشرة .

** Mars كاتبة مسرحية فرنسية شهيرة (١٧٧٩ - ١٨٤٧)

*** اصطلاح عامي يؤدي معنى الشاب الخجول .

وهذا المخلوق يصرخ ، ويهزأ ، ويسخَر ، ويبارك . إن له خرَقاً مثل طفل من الاطفال ، واسمـــالاً مثل فيلسوف من الفلاسفة . وهو يتصيد السمك في البالوعـــات ، ويصطاد الطير في المستنقعات ، ويعتصر البهجة من القذارة ، ويقـــذف مفارق الطرق بثمرات قريحته الوقادة . يتهكم ويلسع ، يصفر ويغني ، يهلل ويوسِعُ سبّاً ، يلطّف هلّلويا * بـ « ماتانتور لوريت » ، ويرتّل من غير تغيير في لهجة الصوت جميعَ الاوزان من مزمور *de Profundis* ** حتى *Chi - en Lit* *** ، ويجد من غير ان يبحث ، ويعرف ما يجهله . اسبارطيّ حتى المَكْر ؛ مجنونٌ حتى الحكمة ؛ غنائي حتى الاقذاع ، يجـــلس القرفصاء على الاولمب ، ويتمرّغ في المزابل ، ويخرج منها مغطّىً بالنجوم . ان « متشرّد » باريس هو « رابليه » **** صغيراً .

إنه لا يرضى عن بنطلونه إلا اذا كان ذا جيبٍ خاص بالساعة .

وهو لا يدهش الا نادراً ، ولا يروّع إلا في أحوال اكثر ندرةً ؛ وهو يحوّل الخرافات الى أبياتٍ من الشعر غير الموزون ويغنيهـــا ، ويحطم المبالغات ، ويسخر من الغوامض والاسرار ، ويخرج لسانـه في وجه الاشباح ، وينزع مسحة الشّعر عن التمدح والفخر ، ويُدْخـــل الكاريكاتور على كل تضخم ملحميّ . وليس مردّ ذلك الى انه ذو نزعة نثرية . لا ، فالمسألة بعيدة عن ان تكون كذلك . ولكنـه يستعيض عن الاحلام الفخمة باختلاط الصور على نحوٍ هزليّ ضاحك . فـاذا برز

---

* تعبير كنسي . والكلمة عبرانية معناها « سبحوا الرب . »

** هو المزمور المئة والثلاثون ، ومعناة الحرفي « من الاعماق » .

*** اسم أغنية . ومعناها الحرفي « قناع الكارنافال » .

**** الاديب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به .

له آداماستر * صاح :
— « مرحباً بك ، ايها الغول ! »

٤
إنه قد يكون ذا غناء

تبدأ باريس بالمتبطّل المضيّع وقته في التحديق الى كل شيء والاصغاء لكل شيء وتنتهي بالمتشرد — كائنان ليس ثمة مدينة اخرى جديرة بها . الرضا المنفعل الذي يكتفي بمجرد النظر ، والمبادرة التي لا تنضب . « برودوم » و « فويئو » . إن باريس وحدها تعتنق هذين في تاريخها الطبيعي . إن الملكية كلها لمنطويةٌ في المتبطّل المضيّع وقتَه . وإن الفوضوية كلها لمنطوية في المتشرد .

إن طفل الضواحي الباريسية الشاحب هذا ليعيش ، وينمو ، ويقتحم المآزق ويخرج منها ، في غمرة من الآلام ، شاهداً مروّياً على واقعنا الاجتماعي ومشكلاتنا الانسانية . إنه يحسب نفسه مُهمِلًا ، ولكنه ليس كذلك . وهو ينظر ، مستعداً لان يضحك ، مستعداً لشيء آخر ايضاً . ألا فليسع التعامل ، وسوء الاستعمال ، والخزي ، والاضطهاد ، والجور ، والاستبداد ، والبغي ، والتعصب ، والطغيان . ولتحذرْ « المتشرد » الفاغر فاه .

إن هذا الصبيّ سوف يكبر .

---

* Adamastor أو « عملاق العواصف » شخصية روائية ابتدعها كاموئين اكبر الشعراء البرتغاليين في قصيدته Lusiades حيث يروي مغامرات فاسكا داغاما ، فما إن يعتزم المكتشف البرتغالي الشهير اجتياز « رأس العواصف » الذي دعي في ما بعد « رأس الرجاء الصالح » حتى يبرز له هذا العملاق ويمنعه من الذهاب إلى ابعد .

من أيّ طين ُجبل ؟ من حمأة الشارع الاولى . حفنةٌ من وحل ، ونفخةٌ ، فاذا آدم بين يديك ! يكفي ان يمرّ ربٌ من هناك . ولقد مرّ بالمتشرد رب ما ، دائماً . فللحظّ أثره في هذا الكائن الصغير . وانما نعني بكلمة الحظ هذه ، المصادفة بعضَ الشيء . والان ، أيقدّر لهذا القزم المجبول بالتراب العامّ الغليظ ، هذا الجاهل ، الأميّ ، المروّع ، السوقيّ ، الغوغائي ، ان يصبح أيونياً * أم بيوتياً ** ؟ إنتظِرْ فأن روح باريس currit rota ، هذا الشيطان الذي يخلق أولاد المصادفة ورجال القدر ، عاكساً عمل الخزّاف اللاتيني ، يصنع من الجرة زهريةً نفيسة .

٥

حدوده

إن « المتشرد » يحب المدينة ، ويحبُّ العزلة ايضاً ، إذ كان فيه شيء من الحكيم . انه urbis amator * مثل فوسكوس و ruris amator ** مثل فلاكوس .

إن التسكع المتفكر ، يعني التبطّل ، هو عند الفيلسوف وسيلة حسنة من وسائل قتل الوقت ، وبخاصة في ذلك الضرب من الريف النغل ، البشع ولكن الغريب ، والمكوّن من طبيعتين ، الذي يحيط ببعض

* Ionien نسبة الى « أيونيا » في آسيا الصغرى القديمة . وكانت لهجة الايونيين اليونانية معروفة بالعذوبة والرقة .

** béotien نسبة الى « بيوتيا » وهي من مقاطعات بلاد الاغريق القديمة ، ويعرف اهلها بالجلافة وعدم المبالاة بالجمال الفني .

*** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي المدينة . »

**** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي الريف . »

المدن الكبرى ، وبباريس على وجه الخصوص . إن دراسةَ ضاحيةٍ ما لا تعدو ان تكون دراسةً لمزدوج الطبيعة . نهاية الاشجـــار ، وبداية المنازل ؛ نهاية الاعشاب ، وبداية الطرق المعبّدة ؛ نهاية الاثـــلام ، وبداية الدكاكين ؛ نهاية آثار العجلات العميقة ، وبداية الآلام ؛ نهايـة الخرير الالـهي ، وبداية الضوضاء البشرية . ومن هنا كان الاهتمام بها فائقاً العادة .

من هنا كانت هذه المواطن غير المغرية ، الموصوفة دائماً بأنها كئيبة هي المواطن التي يختارها الحالم لنزهاته التي تبدو وكـــأن ليس لها هدف ما .

ومدبج هذه السطور تسكع دهراً طويلاً حول « باب باريس » ، ولقد أفاده ذلك مَعيناً من الذكريات البعيدة الغور . فهـــذا العشب الحليق ، وهذه الازقة الكثيرة الحجارة ، وهذه الطباشير ، وهذا التراب الكلسي الممزوج بالصلصال ، وذلك الجبْسِين ، وتلك الرتابة الفظة التي تتكشف عنها الارض المَوات والاراضي التي لم تُزرع ، وطلائع نباتات البساتين وقد ُلمحت فجأةً في ارض غائرة ، وذلك المزيج المؤلف من بريّ ومَدينيّ ، وهذه الرُقع الواسعة المقفرة حيث يقيم طبّالو الحامية مدرستهم الصاخبة ويقلدون دمدمة المعركة ، وهذه العزلة التامة نهاراً ، وتلك المهالك ليلاً ، والطاحون العجوز المتقلقلة التي تدور مع الريح ، والدواليب الرافعة للاثقال في مقالع الحجارة ، والحانات القائمة عند زوايا المقابر ، والسحر الخفي الذي لتلك الجدران الكالحة العالية التي تقطّع على نحو مربّع اراضيَ مترامية الاطراف لا تكاد تُرى في المدى البعيد إلا رؤية ضبابيةً ولكنها مغرَقة بأشعة الشمس ، حافـــلة بالفراشات — كل اولئك كان يجذبه ويأخذ بمجامعُ قلبه .

ولعله لا يوجد فوق ظهر الارض احد لا يعرف هـــذه المواطن الفريدة : « لا غلاسيير » ، و « لا كونيت » ؛ رجدار غرونيـــل

الماثل المرقّش بقذائف المدافع ؛ والـ « مون بارناس » ؛ و « لا فوس أو لو » ؛ وشجرات البندق البيضاء على ضفاف المارن العالية ؛ والـ « مون سوري » ؛ و « لا تومب إيسوار » ؛ و « لا بيير بلات دو شاتيون » ، حيث يوجد مقلع حجارة مستنفَد لم بعد يصلح لغير إنبات الفُطر ، فهو موصد على مستوى الارض بباب يُرفع ويوضع باليد ذي ألواح متهرئة . و « ريف رومة » فكرة . و « ضاحية باريس » فكرة ثانية . وليس إلا سطحياً ذلك النظرُ الذي لا يري في كل ما يشكّل أفقنا غيرَ حقول ، وبيوت ، واشجار . إن مظاهر الاشياء هي أفكار الـَهية . والمكان الذي يتصل عنده السهلُ بالمدينة يحمل دائماً طابعاً لا سبيل الى وصفه من الكآبة العميقة . هناك تخاطبك الطبيعة وتخاطبك الانسانية في آنٍ معاً . هناك تبرز الأصالات المحلية .

وكل من هام على وجهه ، مثلنا ، في تلك البقاع المنعزلة المحاذية لضواحينا التي نستطيع ان ندعوها « يَمْبوس » * باريس ، قد لمح هنا وهناك ، في البقعة الاكثر إقفاراً ، ولحظةَ كان على غاية من عدم التوقع ، خلف سياج مهزول من الاشجار الشائكة ، او عند زاوية جدار كئيب ، أطفالاً مجتمعين على نحو مشوش صاخب ، اطفالاً شاحبي الوجوه ، موحلين مغبّرين ، ممزقي الثياب ، متنفشي الشعر ، يلعبون لعبة المُدْية والوتد متوّجةً بالبنفسج ، انهم جميعاً أطفالٌ آبقون من الأسر الفقيرة . إن الجادة الخارجية هي مَداهم التنفّسي ، وان الضاحية ملكهم . هناك كان من دأبهم ابداً ان يتنزهوا بدلاً من الذهاب الى المدرسة . هناك يغنون ، في براءة ، مجموعة اغانيهم القذرة . إنهم هناك ، او

* أليَمْبوس ، في العقيدة الكاثوليكية ، موطن بين الجنة والجحيم تستقرّ فيه ارواح الرجال الصالحين الذي توفوا قبل مجيء المسيح كما تستقرّ فيه ارواح الاطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا . وهذا يذكّر بالأعراف في العقيدة الاسلامية ، وهو سور بين الجنة والنار .

على الاصح ، انهم يعيشون هناك ، بعيدين عن كل عين ، وسط اشعة نوار او حزيران الرفيقة ، راكعين حول حفرة في الارض ، لاعبين بالكُرّات ، متنازعين على ارباع الـ « سو » ، متحرّرين من المسؤولية ، مرسلي الاجنحة ، مطلقي السراح ، سعداء . فما إن يروا اليك ، حتى يتذكروا أن لهم صناعة ، وان عليهم ان يكسبوا رزقهم ، فاذا بهم يعرضون عليك ان تشتري جورباً صوفياً عتيقاً مليئاً بالخنافس او باقة من الزنابق . وهذه الاجتماعات بالاطفال الغريبين هي احدى المِنَن الفاتنة ، المحزنة في الوقت نفسه ، التي يقع عليها المرء في ضواحي باريس .

وقد يكون بين هذا الحشد من الغلمان ، في بعض الاحيان ، بضع فتيات صغيرات — أهنّ أخواتهم ؟ — يكدن ان يكنّ شابات ، مهزولات ، محمومات ، خلعت عليهن الرياح السافعة ضروباً من القفافيز ، وعلا النمشُ وجوههن ، واتخذن قبعاتٍ من سنابل الجاودار والخشخاش البري ، مبتهجاتٍ ، شاردات الأبصار ، حافيات الأقدام . إننا لنرى بعضهن يأكلنَ حبات الكرز وسط القمح الناهض على سُوقه . واننا لنسمعهن في المساء يضحكن . والواقع ان هذه الجماعات ، التي تجلوها أشعة الظهيرة القوية جلاء دافئاً ، او التي تلمح في الغسق ، لتشغَل المتأمل فترة طويلة ، فتختلط هذه الرؤى بأحلامه .

باريس نقطة الدائرة ؛ والضاحية محيط هذه الدائرة . — ذلك هو العالم كله عند هؤلاء الاطفال . انهم لا يغامرون في الذهاب الى ما وراءه ابداً . وليس في استطاعتهم بعدُ ان يعيشوا خارج الجو الباريسي اكثر مما يستطيع السمك ان يحيا خارج الماء . فعلى بُعد فرسخين من باب المدينة ، لا يوجد في نظرهم شيء . إن « إيفري » ، و « جانتي » ، و « آركوي » ، و « بيلفيل » ، و « اوبرفيلييه » ، و « مينيلمونتان » ، و « سوازي لو روا » ، و « بيلانكور » ، و « مودون » ، و « إيسي » ، و « فانف » ، و « سيفر » ، و « بوتو » ، و « نوئي » ، و « جينفيلييه » ، و « كولومب » ، و « رومانفيل » ، و « شاتو » ، و « آسنيير » ،

و « بوجيفال » ، و « فانتير » ، و « آنغيان » ، و « نوازي لو سيك » ، و « نوجـــان » ، و « غورناي » ، و « دوانسي » ، و « غونيس » – عند هذه المواطن ينتهي الكون .

٦
قليل من التاريخ

في تلك الفترة – برغم انها تكاد تكون معاصرة – الجارية فيهـــا أحداثُ هذه القصة ، لم يكن ثمة ، كما هي الحال اليوم ، ضابط بوليس عند كل زاوية من زوايا الشوارع (وهي حسنة ليس لدينـــا متسعٌ من الوقت للاسهاب فيها) ؛ كانت باريس تغص بالاطفال المتسكعـــين . وتشير الاحصاءات الى ان نحواً من مئتين وستين طفلاً لا مأوى لهم – في المتوسط – يقبض عليهم البوليس سنوياً ، في الاراضي غير المسيّجة ، وفي البيوت التي لمّا يتمّ تشييدها ، وتحت قناطر الجسور . ولقد أنتج احدُ هذه الاعشاش ، ولا يزال شهيراً الى اليـــوم ، « سنونو جسر آركولا » . والى ذلك ، فهذا هو أشد أعراضنا الاجـــتماعية أذىً وتخريباً . إن جميع جرائم الانسان لتبدأ بتشرد الاطفال .

ومع ذلك فيتعين علينا ان نرتضي باريس . وهذا الارتضاء حق ، الى درجة نسبية ، وبرغم الذكرى الـــتي استرجعناها منذ لحظة . فبينا نجد في كل مدينة كبيرة اخرى ان الطفل المتسكع هو الرجل الهالك ؛ وبينا نجد في جميع المواطن تقريباً أن الطفل المستغرق في بطالته قد نذر نفسه واستسلم ، بمعنى من المعاني ، لضرب مـــن الانغماس المشؤوم في الرذائل العمومية التي تفترس فيـــه الحشمةَ والضمير ، نرى ان متشرّد باريس – ونحن نصرّ على ذلك – برغم خشونته البالغة ، وانثلام شرفه

في الظاهر – يكاد يكون سليماً لم يمسّ ، باطنياً . وانه لشيء رائع جدير بالتأمل ، شيء يلتمع في الطهارة الجيدة التي تكشّفت عنها ثوراتنا الشعبية : أن نزاهةً ما ، تنشأ عن الفكرة التي تملأ هواء باريس كما يملأ الملح ماء المحيط . إن استنشاق المرء هواء باريس يحفظ عليه نفسه .

وما نقوله هنا لا يُزيل ، بحال من الاحوال ، انقباض الصدر الذي نستشعره كلما التقينا واحداً من هؤلاء الاطفال الذين يتراءى لنا وكأن روابط الاسرة المتهدمة تطفو من حولهم . ففي حضارتنا الحالية ، التي ما تزال بعيدة جداً عن الكمال ، ليس من غير السويّ ان نرى كِسرات الأسَر هذه تُفرغ نفسَها في الظلام ، غير عارفة ، الا نادراً ، ما الذي حلّ بأولادها ، طارحة فلذاتٍ من حياتها على الطريق العام . ومن هنا تنشأ المقادير المظلمة . وهذا ما يُعرف – ذلك ان الشيء الحزن قد صاغ مصطَلَحه – بـ « إلقاء الطفل على حصباء الطريق في باريس » .

ولنقل بالمناسبة ان هذا التخلي عن الاطفال شيء لم تعمل الملكيات القديمة قطّ على إخماده . إن قليلاً من مصر ومن بوهيميا في الطبقات الدنيا قد لاءم الطبقات العليا ولبّى مصالح الاقوياء . ان كراهية تعليم اطفال الشعب كانت عقيدة جوهرية . أيّ فائدة ترتجى من « الانوار الجزئية » ؟ ذلك كان شعارهم . ومن هنا كان الطفل المتسكع حصيلة الطفل الجاهل .

وفوق هذا فقد كانت الملكية في حاجة الى الاولاد ؛ وهكذا ألقت على الشوارع نظرة خاطفة .

ففي عهد لويس الرابع عشر – لكي لا نذهب الى ابعد – رغب الملك بحقّ ، في ان ينشيء اسطولاً . كانت الفكرة جيدة . ولكن لننظر الى الوسيلة . إن بلداً ما ، لا يستطيع ان يملك اسطولاً اذا لم يكن ثمة ، الى جانب السفينة الشراعية ، دمية الرياح ، مركب آخر قادرٌ على ان يجري بالمجذاف او بالبخار الى حيث يريد لكي يقطرها عند الحاجة .

وآنذاك كان سجن الاشغال الشاقـــة بالنسبة الى الاسطول بمثابة السفن البخارية اليوم . ومن هنا ، كان ينبغي ان تكون ثمة سجون خـاصة بالاشغال الشاقـــة . ولكن سجون الاشغال الشاقـــة لا تتحرك الا بالأشغاليين . واذن ، فيجب ان يكون ثمة اشغاليون . ومن طريق البرلمانات ومدراء المقاطعات صَنَع كولبير * اكبر عـــدد ممكن من رقيق الاشغال الشاقة . ونهض القضاء بالمهمة في حماسة . لقد أبقى رجلٌ قبعته على رأسه أمام موكب دينيّ ، وهي عـادة هوغونوتية ، فأُرسل الى سجن الاشغال الشاقة . وكان الشرطة اذا ما وجـــدوا في الشارع غلاماً قد بلغ الخامسة عشرة ولم يكن له مكان يبيت فيه ، ساقوه الى سجن الاشغال الشاقة . عهدٌ عظيم وعصرٌ عظيم .

وفي ظل لويس الخامس عشر اختفى الاطفال من باريس . لقـــد ساقهم البوليس لغرض خفيّ لم يـدرِ احـــدٌ ما هو . وتهامس الناس باحداثٍ رهيبة مروّعة عن حمّامات الملك الارجوانية . وانما يتحـــدث باربييه ** ، في سذاجة ، عن هـــذه الاشياء . ولقد اتفق في بعض الاحيان ان الضباط ، وقد اعوزهم الاطفال ، اخذوا بعض من كان لهم آباء . وهجم الآباء ، يائسين ، على الضباط . وفي مثل هذه الاحوال كان البرلمان يتدخل ويشنق — مَن ؟ الضباط ؟ لا . الآباء !

* Colbert رجل الدولة الفرنسي المشهور (١٦١٩ — ١٦٨٣)

** Barbier مؤرخ فرنسي معروف (١٦٨٩ - ١٧٧١) أرخ للحقبة الممتدة ما بـين عام ١٧١٨ وعام ١٧٦٣ .

٧

سوف يحتل المتشرد مكانه

بين طبقات الهند

إن أخوية المتشردين الباريسية تكاد ان تكون طبقة من طبقات الهند الاجتماعية المغلقة . وفي استطاعة المرء ان يقول : إن احداً لا يريد ان تكون له علاقة بهم .

وكلمة « المتشرد » هذه طبعت أول ما طبعت ، وانتقلت من اللغة العامية الى لغة الادب ، عام ١٨٣٤ . وانما كان ظهورها للمرة الاولى في كتيّب اسمه « كلود غو » *Claude Gueux* . ولقد احدث ذلك هزةً عنيفة . وسرت الكلمة وحازت القبول

والعناصر التي هي قوام الأجلال بين المتشردين مختلفةٌ جداً . فقد عرفنا وجرّبنا واحداً كان يتمتع باعظم الاحترام ويحظى باكبر الاعجاب لانه رأى رجلاً يسقط من ابراج نوتر دام ؛ وآخر لانه وُفق الى ان يشق طريقه الى الفناء الخلفي حيث وضعت مؤقتاً تماثيل قبة الانفاليد وسرق بعض الرّصاص ؛ وثالثاً لانه بَصُرَ بعربة مسافرين منقلبة رأساً على عقب ؛ ورابعاً لانه عرف جندياً كاد يفقأ عَين رجلٍ من البورجوازيين .

وهذا يفسّر ذلك التعجب الذي أرسله متشردٌ باريسي ، وانها لزفرة عميقة يسخر منها الدهماء من غير ان يفهموا : « اوه ، يا الّهي ! يا الّه الآلهة ! الستُ ميء الحظ ؟ فكر أني لم أرَ الى الآن شخصاً يسقط من الطابق الخامس ! » ، ناطقاً بهذه الكلمات بغُنّة خاصة لا سبيل الى التعبير عنها .

وما أجلها كلمةً تصدر عن فلاّح ! يقول احدهم : « يا أبا فلان ، إن الداء قد أمات زوجتك ؛ فلِمَ لم تستدعِ طبيباً ؟ » فيجيبه الاخر : « ولماذا يا سيدي ؟ اننا نحن الفقراء يجب ان نموت بأنفسنا ! » ولكن اذا كانت انفعالية الفلاح كلها منطوية في هذه الكلمة فان جميع الفوضوية المتحررة التي تسِمُ طفلَ الضواحي منطوية في هذه الكلمة الاخرى : كان احد المحكوم عليهم بالموت يصغي الى الكاهن المعرّف الجالس أمامه في العربة التي تُقلّه الى المشنقة . فصاح أحد غلمان باريس : « **إنه يتحدث الى كاهنه . أوه ، يا له من جبان !** »

إن قدراً من الجرأة في الامور الدينية ليرفعُ من شأن « المتشرد » . فلأن يكون المرء متزندقاً شيءٌ ليس بالقليل .

وهم يرون ان من واجبهم ان يشهدوا إعدام المحكوم عليهم بالموت . إنهم يشيرون الى المقصلة ويضحكون . وهم يخلعون عليها مختلف الالقاب : « **نهاية الحساء** » - و « **العاوية** » - و « **الامّ السماويـــة** » - و « **اللقمة الاخيرة** » الخ . الخ . ولكي لا يفقدوا شيئاً من المشهد ، تراهم يتسوّرون الجدران ، ويتسلقون الشرفات ، ويصعدون الى رؤوس الاشجـــار ، ويتعلقون بالقضبان الحديدية ، ويتشبثون بالمداخن . « المتشرد » يولد بنّاء سطوح كما يولد ملاّحاً . والسطح لا يوقع في نفسه من الخوف اكثر مما يوقعه الصاري . وليس من عيد يَعْدِلُ ساحة الاعدام : « لا غريف » . وشمشون والأب مونتيز هما الاسمان الشعبيان حقاً . إنهم يتادون المحكوم عليه بالموت لكي يشجعوه . وهم يُعلنون ، في بعض الاحيان ، عن إعجابهم به . ولقد لفظ المتشرد ، لاسينير ، عندما رأى « دوتان » الرهيب يموت بشجاعة ، هذه الكلمة المفعمـــة بالمستقبل : « **لقد حسَدْتُهُ** ! » . وفولتير غير معروف عند أخوية المتشردين ، ولكنهم يعرفون « بابافوان » جيداً . إنهم يمزجون رجال السياسة بالمجرمين ، في الخبر الواحد . وهم يروون الاحاديث عن آخر

الملابس التي ارتداها كلٌ منهم . إنهم يعرفون ان « توليرون » اعتمر بقلنسوة وقّاد ؛ وأن « آفريل » اعتمر بقبعة ذات حافة ، مصنوعة من جلد كلب الماء ؛ وان « لوفيل » اعتمر بقبعة مستديرة ؛ وان « دولابورت » العجوز كان أصلع حاسر الرأس ؛ وان « كاستينغ » كان متورّد الوجنتين بالغ الجمال ؛ وأن « بوريس » كان ذا لحية صغيرة حلوة ؛ وأن « جان مارتن » احتفظ بحمالة بنطلونه ؛ وأن « لاكوفيه » وأمه تخاصما . ولقد صاح احد المتشردين في وجه هذين الاخيرين : « لا تنتقدا الآن العروبة التي تحملكما ! » ولكي يرى متشردٌ آخرُ « ديباكر » يمرّ - وكان ذلك المتشرد قصيراً وسط الحشد - راح يتسلق عموداً من أعمدة المصابيح عند الرصيف . فعبس دركيٌّ كان هناك في وجهه . فقال المتشرد : « دعني اتسلّق ، يا سيدي الدركي . » ولكي يلطّف من نقمة ممثل السلطة أضاف : « أنا لن أقع ! » فأجابه الدركي : « أنا لا أبالي أوقعتَ أم لم تقع . »

والحادثة التي لا تُنسى قيمة كبيرة في أخوية المتشردين . وإنما يبلغ أحدهم قمة المجد اذا ما اتفق أن جرح نفسه جرحاً بليغاً « حتى العظم » ، كما يقولون .

وقبضة اليد ليست وسيلة هزيلة من وسائل الاحترام . ومن الاشياء التي يولع « المتشرد » بترديدها ولوعاً شديداً قوله : « أنا قويٌّ جداً ، أنا ! » . ولأن تكون أعسَرَ يجعلك عندهم موضع الحسد . والحوَل ، في نظرهم ، مدعاةٌ الى الاحترام العظيم .

٨
حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق

وفي الصيف ، يمسخ نفسه الى ضفدعة . وفي المساء ، حين يهبط الليل تجاه جسرَيْ أوسترليتز وييناً ، ينبثق من أطواف الفحم ومن مراكب الغسالات ويغطس مخفوض الرأس في الـ « سين » وفي مختلف ضروب الخرق لقوانين الحشمة والبوليس . بيد ان شرطة المدينة له بالمرصاد ، ومن هنا كانت تنشأ عن هذا الوضع حالة مسرحية الى حد بعيد ادّت في احدى المناسبات الى ارسال صيحةٍ أخويةٍ لا تنسى . وهذه الصيحة ، التي كانت شهيرةً حوالى عام ١٨٣٠ ، هي تنبيه استراتيجي من « متشرد » الى « متشرد » . إنها مُقطّعة مثل بيت من شعر هوميروس ، في اسلوب من الاختزال يكاد يمتنع على التفسير امتناع ألحان عيد * مينيرفا الأيلوسينية ** ، وتذكّر مرةً اخرى بـ « ايفوهيه » *** العتيقة . وهذه هي : « اوهيه ، ايها المتشرد ، اوهيه ! انظر هنـاك ! إنهم قادمون ليقبضوا عليك ! خذ ثيابك ، واهرب من خلال البالوعة ! »

وفي بعض الاحيان يكون في ميسور هذه الذبابة الصغيرة — وهو اللقب الذي يخلعه هو على نفسه — ان تقرأ . وفي بعض الاحيان يكون في ميسورها ان تكتب ، ولكنها تعرف دائماً كيف « تخربش » . و « المتشرد » يكتسب بتعليم خفيّ متبادل لسنا نعرفه جميع المواهب

* عند قدماء اليونان .

** نسبة الى ايلوسيس ، وهي مدينة في بلاد الاغريق القديمة ، في آتيكا ، حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية على شرف الألاهة سيريس .

*** Evohé أداة نداء وتعجب في اللاتينية ، وكانت ترسلها كاهنات باخوس الراقصات وهنّ شعث الشعور ، متوجات الرؤوس باللبلاب ، حاملات العصي ذات الرؤوس الصنوبرية الشكل في ايديهن ، مطلقات صيحات متنافرة .

الممكنة النفع في القضايا العامة . فمن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ قلد صياحَ الديك الرومي ؛ ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ كان من دأبه أن يرسم إجاصةً على الجدران رسماً متعجلاً رديئاً . وذات امسية من امامي الصيف ، فيما كان لويس فيليب عائداً الى قصره ماشياً ، تَبَصَّرَ بواحد منهم ، صغيرٍ جداً ، لا يزيد طوله على هذا المقدار ، يتصبب العرق منه ، ويرفع نفسه على رؤوس اصابعه لكي يرسم بالفحم إجاصةً هائلة على أحد أعمدة باب دو نوئي . فما كان من الملك ، بتلك السذاجة التي ورثها عن هنري الرابع ، إلا أن ساعد المتشرد وأتمَّ رسم الاجاصة ، وأعطى الغلام ليرة ذهبية لويسية قائلاً : « **الاجاصة موسومة على هذه ايضاً** ! » والمتشرد يحب الجلبة والصخب . فالعنف والضجة يروقان له . إنه يمقت الكهنة . وذات يوم ، في « شارع الجامعة » ، كان يُخرج لسانه استهزاءً عند باب العربات رقم ٦٩ . فسأله عابر سبيل : « لماذا تفعل ذلك عند هذا الباب ؟ » فأجابه الغلام : « إن هناك كاهناً ! » وكان ذلك ، في الواقع ، مقر السفير البابوي . ومع ذلك ، ومهما تكن نزعات « المتشرد » الفولتيرية قويةً ، فانه ما إن تسنح له الفرصة التي تمكنه من ان يصبح منشداً في الجوقة الكنسية حتى يسارع الى انتهازها ، وفي مثل هذه الحال يخدم القداس في أدب . وثمة شيئان لا سبيل له الى بلوغهما ، فهو يتوق اليهما ابداً ، ولكن على غير طائل : أن يقلب الحكومة ، وان يرقع بنطلونه .

والمتشرد ، في أكمل أحواله ، يعرف جميع رجال الشرطة الباريسية ، فما ان يلتقي واحداً منهم حتى يلصق اسمه على وجهه . إنه يحصيهم على اصابع يديه . إنه يدرس اخلاقهم ويضع ملاحظاته الخاصة عن كل منهم . إنه يقرأ نفوسهم وكأنما يقرأ كتاباً مفتوحاً . وهو يقول لك على البديهة ومن غير تردد : « فلان خائن . » — « فلان خبيث جداً » — « فلان عظيم » . « فلان مضحك » (وجميع هذه الكلمات : خائن ، خبيث ،

عظيم ، مضحك ، لما في فمه معنى خاص) « هـذا الشرطي يتوهم ان « الجسر الجديد » ملكه ويمنع العالم من التنزه عـلى الكورنيش خارج الحواجز . وذاك الشرطي عنده هوسٌ بشدّ آذان الناس ! » الخ . الخ .

٩
روح غالة * القديم

كان ثمة شيء من هذا الغلام في بوكولين ** ، ابن السوق . وكان ثمة شيء منه في بومارشيه . *** والواقـع ان اسلوب « المتشرد » في الحياة لا يعدو ان يكون ظلاً من ظلال الروح الغاليّ . وهذا الاسلوب ، اذا ما مُزج في حكمة ، يُعطي المرء في بعض الاحيان قوةً جديدة ، كما تفعل الكحول بالخمر . وهو في بعض الاحيان ناحية ضعف . إنّ هوميروس يكرّر الكلام على غير طائل . لكن ذلك . وفي استطاعة المرء ان يقول ان فولتير يمثّل دور « المتشرد » . ولقـد كان كامبل ديمولين من ابناء الاحياء الخارجية العتيقة . أمـا شامبيونيه **** الذي جعل المعجزات وحشيةً فكان غلاماً من غلمان الشوارع الباريسية ؛ لقد اجتاح ، وهو بعدُ صغير ، أروقة سان جان دو بوفيه وسان ايتين دو

---

* غالة او بلاد الغال هي فرنسة القديمة .

** يقصد موليير . وكان والده ، جان بوكولين Poquelin ، صانع سجاد .

*** Beaumarchais كاتب فرنسي (١٧٣٢ — ١٧٩٩) . اشهر آثاره « حلاق إشبيلية » و « زواج فيغارو » .

**** Championnet قائـد فرنسي (١٧٦٢ — ١٨٠٠) نظم الجمهورية التي اقامها الفرنسيون في نابولي عام ١٧٩٩ وكان رجلاً نزيهاً وانسانياً .

مون . وكان قد لنا مع صندوق ذخائر القديسة جانفييف الى حـد كاف لايقاع التشنج في قارورة القديس جانفييه المقدسة .

ومتشرد باريس محتشم ، ساخر ، متغطرس . إن اسنانـه قبيحة ، لأنه يشكو سوء التغذية ولأن معدته تؤلمه ، وإن عينيه جميلتان لان له نصيباً من العبقرية . وخليق به ان يطفر مرتقيـاً سلـّم الجنة في حضرة « يهوه » نفسه . وهو ماهرٌ في الملاكمة باليدين والرجلين معاً . وكل ضروب النموّ ممكنة بالنسبة اليه . إنـه يلعب في الساقية وينتصب ثانية بالثورة . ووقاحته لا تشفيها القـذائف ؛ فقد كان ولداً طائشاً . إنـه بطل ! وهو مثل الطيّبيّ * الصغير يهزّ جلد الاسد . وبارّا الطبّال كان متشرداً من متشردي باريس . إنه يهتف « الى الامـام ! » كما يقول جواد التوراة « ها ! ها ! » ، وينتقل في لحظة من طفل الى عملاق .

وغلام الحمأة هذا هو غلام المثل الأعلى أيضاً . قِسْ مـدى انبساط الجناح هذا الممتدّ من موليير الى بارّا .

وعلى الجملة ، ولكي نوجز ذلك كلـه في كلمة ، نقول إن المتشرد مخلوق يعبث ويلهو لأنه تعس .

١٠
هي ذي باريس ، هوذا الانسان

ولكي نوجزَ مرةً اخرى نقـول إن متشرد باريس اليوم اشبه شيء بـ« غريكولوس » ** رومة في العصور القديمة . إنـه الشعبُ طفلاً ، وقد تبدّت تجاعيد العالم القديم على جبينه .

* نسبة الى طيبة ، عاصمة بيوتيا ، احدى مقاطعات بلاد الاغريق القديمة .
** Graeculus لفظة لاتينية تعني الأغريقيّ .

المتشرد نعمة من نعم الله على الأمة ، وهو في الوقت نفسه مرض من امراضها . مرضٌ ينبغي ان يعالج . كيف ؟ بالضياء .

الضياء يشفي .

الضياء ينوّر .

إن جميع الاشعاعات الاجتماعية السخية لتنبثق عن العلم ، عن الادب ، عن الفنون ، عن التعليم . إصنعوا رجالاً ؛ إصنعوا رجالاً . امنحوهم الضياء لكي يعطوكم الدفء . وسواء عاجلاً أم آجلاً ، ستحتل مسألة التعليم الشامل الباهرة مكانها بسلطان الحقيقة المطلقة الذي لا سبيل الى مقاومته . وعندئذ سيتعين على اولئك الذين يحكمون تحت اشراف الفكرة الفرنسية ان يختاروا واحداً من أمرين : أطفال فرنسة ، او متشردي باريس ؛ شُعَلٍ في الضياء ، او شُهُبٍ في الظلام .

المتشرد لسان حال باريس ، وباريس لسان حال العالم .

ذلك بأن باريس حاصلُ جمع . باريس ذروةُ الجنس البشري . إن هذه المدينة العجيبة كلها هي مجمل الاخلاق والعادات الميتة والاخلاق والعادات الحية . ومن يرى باريس يُخيَّل اليه أنه يرى التاريخ كله ويرى السماء وابراجها في اثناء ذلك . في باريس كابيتول * ، وهو الاوتيل دو فيل ، ** . وفيها بارتينون *** هو نوتردام **** وفيها « مون آفانتين » ***** هي ضاحية سان انطوان . وفيها آسيناريوم هو

---

* Capitole هيكل جوبيتير القائم على احدى التلال السبع في رومة القديمة .

** Hôtel de Ville مقر بلدية باريس ، وقد بدىء ببنائه عام ١٥٣٣ وأتم عام ١٦٢٣ ثم جدد ووسع في عهد الملك لويس فيليب ، ثم اتت عليه النار عام ١٨٧١ فاعيد بناؤه من عام ١٨٧٢ - ١٨٨٢

*** parthénon هيكل اثينا الشهير الذي زخرفه فيدياس .

**** كاتدرائية نوتردام دو باري الشهيرة .

***** Mont —Aventin احدى التلال السبع التي بنيت عليها مدينة رومة .

السوربون . وفيها بانتيون * هو البانتيون . وفيها « طريق مقدس » ** هو جادة الايطاليين . و « برج رياح » *** هو الرأي العام : وهي تعوّض عن الـ « جيمونيا » **** بالسخرية . إن « ماجو » ***** باريس هو المفناج ؛ وإن الـ « ترانستفيرينو » ****** فيها هو ابن الضواحي القديمة ، وان حمّالها ******* هو رجل السوق القويّ ، و « لازارونها » ******** هي جماعة اللصوص بوصفها طبقة اجتماعية ؛ والـ « كوكني » ********* فيها هو الشاب المتأنق المضحك . إن كل ما تقع عليه في سائر المدن موجود في باريس . فبائعة سمك « دومارسيه » ********** تستطيع ان تحافظ على مركزها امام بائعة اعشاب يوريبيديس . وفيجانوس قاذف القرص يحيا من جديد في شخص فوريوسو الراقص على الحبال . وثيرابونتيغونوس ميل

---

* Panthéon هيكل شهير شيد في وسط ساحة مارس بروما وقد اتم بناءه فيباليوس آغريبا . اما بانتيون باريس فأثر باريسي مشيد على « الطراز الاغريقي الجديد » ما بين ١٧٥٤ و ١٧٨٠ .

** Via Secra طريق روما من البالاتين الى الـكابيتول مرآ بالفوروم ، وكان يسلكه الفاتحون والمنتصرون .

*** Tour des Vents وقد شيده آندرونيكوس في اثينا (القرن الاول قبل الميلاد) على شكل مثمن الزوايا وجعل على كل وجه من وجوهه صورة مجسمة تمثل هذه الريح او تلك .

**** Gémonies في روما القديمة ، سلم تهبط الجانب الشمالي الغربي من جبل كابيتولين حيث تعرض جثث المحكوم عليهم بالموت وربما يقذف بها الى نهر التيبر .

***** majo لقب يطلق على المتأنقين في اسبانية الجنوبية .

****** Transtévérin لفظ كان يطلق في روما على سكان ما وراء التيبر .

******* وردت هذه الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي مرسومة بالحرف اللاتيني Hammal

******** Lazzarone كلمة يطلقها اهل نابولي على أحط طبقات الشعب .

********* Cockney لفظة انكليزية تعني اللندني الجاهل وتطلق بخاصة على الحي المعروف بالـ *East End*

********** Dumarsais كاتب ونحوي فرنسي (١٦٧٦ — ١٧٥٦)

يستطيع ان يمضي ويده في يد فادبونكيو رامي القنابل . وداماسب المتاجر بالتعف على سبيل الاتفاق خليق به ان يكون سيداً في الدكاكين التي تبيع السلع الجيدة والرخيصة في وقت معاً . وجدير بفانسان * ان تلقي القبض على سقراط كما تضع الـ « آغورا » ** ديدرو في صندوق حديدي . ولقد اكتشف غريمو دو لا رينيير لحم البقر المحمّر المطبوخ بدُهنِهِ نفسه كما اخترع كورتيلوس القنفذ المشويّ . ونحن نرى من جديد تحت منطاد « قوس النجمة » ذلك المربّع المنحرف الذي تحدّث عنه بلوتوس *** . وآكل الأسياف الذي التقاه آبوليوس **** في الـ « بوسيليوم » ***** هو مبتلع السيوف ذوات الحد الواحد في الـ « بونت نوف » . وابن اخت « رامــو » ****** و « كوركيليون » ******* الطُفَيلي يشكلان زوجاً . ويقوم ديغروفوتي بتقديم إرغاسيلوس في صالون كامباسيريس********. وفي استطاعة المرء ان يرى شبان رومة الاربعة المعجبين بأنفسهم ، آلسيبيادشوس ، وفودروموس وديابولوس ، وآغريبا ، يهبطون الـ « كورتي » ********* في مركبة بريد

---

* Vincennes مدينة فرنسية في شمالي فرنسا ، شرقي باريس ، وفيها قصر اثري وكنيسة بالغة الجمال .

** Agora لفظ يطلق على الساحة الرئيسية في المدن الاغريقية القديمة .

*** Plaute شاعر هزلي لاتيني (٢٥٠ – ١٨٤ ق ٠ م)

**** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني للميلاد .

***** Poecilium رواق في آثينا مزدان بالرسوم الفنية .

****** Rameau مؤلف موسيقي فرنسي (١٦٨٣ – ١٧٦٤)

******* Curculion هو بطل مسرحية هزلية للشاعر اللاتيني بلوتوس تحمل اسمه .

******** Cambacérès سياسي فرنسي (١٧٥٣ – ١٨٢٤) كان رئيساً للمؤتمر الوطني بعد يوم ٩ ترميدور (أو ٢٧ تموز سنة ١٧٩٤ وهو اليوم الذي أسقط فيه روبسبيير وانتهى عهد الارهاب)

********* La Courtille حي من احياء باريس القديمة اشتهر بكثرة حاناته .

لابانوت . ولم يقف آلوس جيلوس * أمام كونغريو أطول مما وقف شارل نوديه ** امام بوليشينيل ***. إن مـاوتون ليست غيرة ، ولكن باردالبسكا لم يكن تنيناً . ونرى بانتولابوس المهرج يضحك من نومنتانوس المنغمس في الملذات في « المقهى الانكليزي » ، وهيرموجينوس **** صادحاً في الـ « شان زيليزيه » وحوله تراسيوس الشحاذ في زي بوبيش ***** يجمع الصدقات . والملحاح الذي يتشبث بـأزرار ملابسك في التويلري يعيد الى ذاكرتك ، بعد ألفي عام ، كلمة تيزبريون : quis praeperantem me prehendit pallio ****** إن خمر سورين تقلد خمر آلبا ******* ، و نوازن حافة ديبوجيبه الحمراء كأس بالاترون الضخمة . وتطلق مقبرة « الاب لاشيز » ******** تحت وابل الامطار الليلية البوارق المتوهجة عينها التي كانت تطلقهـا الـ « أسكيليز » ********* وقبر الفقير الذي يشترى لخمس سنوات يساوي نعشَ العبد المستأجَر .

حاوِلْ أن تسمي شيئـاً لا يوجـد في باريـس . إنّ دنّ

---

* Aulus Gellius نحوي وناقد لاتيني من اهل القرن الثاني للميلاد .

** Nodier اديب وكاتب سير فرنسي (١٧٨٠ — ١٨٤٤)

*** نموذج من نماذج الشخصية الكوميدية ، وهو في فرنسة ذو حدبة خلفية وحدبة امامية وقبعة ذات قرنين الخ . وقد سبق التعريف به .

**** Hermogenus خطيب يوناني من اهل القرن الثاني للميلاد .

***** Bobêche مشعوذ فرنسي كان يلهي الناس باعمال الرشاقة . وقد اشتهر في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش .

****** من الذي يمسك بثوبي في إعجال ؟

******* Alba Longa مدينة في لاتيوم القديمة كانت منافسة لرومة ، وقد دمرتها المدن المجاورة خلال حكم الملك الروماني طالوس هوستيليوس .

******** Père - Lachaise هي مقبرة باريس الرئيسية ، وقد سبق التعريف بها .

********* Les Esquilies حدائق أنشأها ميسين الفارس الروماني على احدى تلال رومة السبع شرقيّ المدينة واقام وسطها دارة (فيلا) فخمة .

تروفونيـــوس * لا يحتوي عـــلى شـــيء غير موجود في وعـــاء مَـسْمَر ** الخشبيّ الصغير . ويُبعث إرغافيلاس *** حيـاً في شخص كاغليوسترو **** . ويتجسّد فاسافانتا البوهميّ في الكونت دو سان جيرمان ***** . وتجترح جبّانة سان ميدار من العجائب الخيّرة قدْرَ ما يجترحه المسجد الامويّ في دمشق .

إن لباريس « إيزوب » ****** هو مايو *******، وكانيديا هي الآنسة لينومار ******** . إنها تقف مشدوهةً مثل دلف ********* أمام

---

* Trophonius معمار بارع انشأ معبد دلف . وقد أمسى الغار الذي دفن به شهيراً بهواتفه الالآهية الكاشفة عن الغيب .

** Mesmer طبيب ألماني ، واضع نظرية القوة المغناطيسية الحيوانيـــة المعروفة بـ « المسمرية » . ولقد اقام عـــدة سنوات في باريس حيث تدفق المرضى واهـــل الفضول على « وعاءه الخشبيّ » ليشهدوا مسمر يقوم حوله بمختلف الالعاب المغناطيسية .

*** Ergaphilas مشعوذ قديم .

**** Cagliostro مشعوذ وطبيب ومشتغل بالسحر والتنجيم (١٧٤٣ - ١٧٩٥) وهو ايطالي لقي نجاحاً كبيراً في قصر لويس السادس عشر وفي المجتمع الباريسي الراقي في ذلك الحين ولعب دوراً كبيراً في الحركة الماسونية .

***** Le comte de Saint Germain مغامر شهير ، ولعله يهودي من اصل برتغالي ، توفي عام ١٧٨٤ ولقد ادهش بلاط لويس الخامس عشر بالثقة التي كان يزعم بها انه عاش في القرن السادس عشر . ثم انه طرد من فرنسة فشخص الى انكلترة فالروسيا فالمانية . وكان كاغليوسترو - الوارد ذكره في الحاشية السابقة - يتباهى بأنه تلميذه .

****** Esope مؤلف أمثال يوناني ، وكان شخصية نصف اسطورية يتلونها قيمـــة لتامة محدودبة .

******* Mayeux شخصية ابتكرت بعد ثورة ١٨٣٠ . وكان مايو ، الحرس الوطني برغم حدبته المزدوجة ، يمثل على نحو كاريكاتوري بورجوازية ذلك العهد الذين تتردد على السنتهم دائماً كلمتا الدستور والمواطن وغيرهما .

******** Lenomard وكانت تدعي القدرة عـــلى كشف الغيب من خلال اوراق اللعب . (١٧٧٢ - ١٨٤٣)

********* Delphes مدينة اغريقية قديمة على سفح جبل برناس حيث كان لابولون هيكل يرسل النبوءات والهواتف الالهية .

حقائق الرؤيا الساطعة . إنها تُدير الطاولات كما كانت دودون * تُدير الأثافيّ المثلثة القوائم . إنها تتوّج العاملة المغناج كما كانت رومة تتوج البغيّ اللبقة الذكية . وخلاصة القـــول ، اذا كان لويس الخامس عشر اسوأ من كلوديوس ** فقد كانت مـــدام دوباريّ *** خـيراً من ميسّالين . **** وإنما تجمع باريسُ في طراز واحد رائع كان له وجود حقيقي وقد دَفعنا بمرفقهِ فعلاً ، العُرْيَ الاغريقي ، والقرحة العبرية ، والمزاح الغاسكونيّ ***** المستقبح . إنهـا تمزج ديوجين ، وأيوب ، وبايّـــاس ****** ، وتُلبس احدَ الاشباح ثوباً من أعـــداد صحيفة « الدستوريّ » ******* القديمة ، وتصنع شودروك دوكلو .

وعلى الرغم من ان بلوتارك ******** يقول « إن الطاغيـة لا يشيخ أبداً » فان رومة في عهد سيلاّ ********* ، وفي عهد دوميتيان

---

* Dodone مدينة قديمة في « ابير » جنوبي مقدونية ، وكان فيها هيكل لجوبيتير قرب غابة من السنديان .

** Claude الأول ، امبراطور روماني حـكم من عام ٤١ الى عام ٥٤ للميلاد . تزوّج اولاً من ميسالين ثم من آغريبين . وكان ذا عنصر طيب وضع قوانين تطلق بصلته على العبيد الارقاء ولكنه وقع تحت سلطان زوجته التي ما لبثت ان سمته .

*** Madame du Barry عشيقة لويس الخامس عشر وقـــد سبق التعريف بهـــا (١٧٤٣ - ١٧٩٣)

**** Messaline زوجة الامبراطور كلوديوس الاول وكانت معروفة بفجورها وفسوقها .

***** نسبة الى غاسكونيا ، المقاطعة الفرنسية القديمة .

****** Paillasses احدى شخصيات المسرح الشعبي في نابولي .

******* Le Constitutionnel صحيفة متحررة انشئت عام ١٨١٥ ، وقد وجهت حملات عنيفة ضد حكومة شارل العاشر مهدت لثورة ١٨٣٠

******** Plutarque المؤرخ اليوناني المعروف (٤٥ أو ٥٠ - حوالى ١٢٥ م .)

********* Sylla و Domitien امبراطوران رومانيان .

اذعنت وخففت من غلوائها . كان التيبر نهراً اشبه بـ « ليثيه » . *
اذا كان لنا ان نصدّق المرثية النظامية ، بعضَ الشيء ، التي لفظهـا
فاروس فيبيسكوس : Contra Gracchos Tiberim habemus . Bibere Tiberim
إن باريس تشرب مليون ليتر ماء كل يوم ولكن id est seditionem oblivisci
هذا لا يمنعها في بعض المناسبات من ان تدقّ ناقوس الخطر .

ومع هذا كله فباريس ولدٌ طيب . انها تتقبل كل شيء في أبهة .
وهي غير شكسة في ما يتصل بفينوس . ان « كاليبيـج » ** باريس
هوتنتوتيّ *** الطابع . إنهـا تغفر ، شرط ان تضحك . إن
البشاعة لتُبهجها . وإن الدمامة لتوقع السرور في نفسها . وإن الرذيلة
لتلفتُ انتباهها . كن مضحكاً وعندئذ يكون من الجائز ان تصبـح
وَغداً . حتى الرياء ، ذلك السفهُ الرفيع ، لا تثور باريس عليه . وهي
أدبية النزعة الى حد يجعلها لا تسد أنفها أمام باسيل **** ولا تحفل من
صلاة تارتوف ***** اكثر مما احتفل هوراس ****** من ُفواق (حازوقة)
بريابوس ******* . والواقع ان صورة باريس الجانبية لا يعوزها ايّ من

---

* Léthé احد انهار جهنم ، في الميثولوجيا ، ويعني اسمه « النسيان » . ذلك ان الاشباح تشرب من مياهه لكي تنسى الماضي نسياناً تاماً .

** Callipyge اسم لاحد تماثيل فينوس موجود في متحف نابولي .

*** نسبة الى الهوتنتوت Hottentots وهم شعب من شعوب الريفية الجنوبية قصير القامة ذو بشرة سمراء ضاربة الى الصفرة .

**** هو بطل مسرحية « بومارشيه » الهزلية : « حلاق اشبيلية » . وقد أمسى رمزاً المرائي اللاطف الطمّاع .

***** Tartuffe بطل مسرحية شهيرة لموليير وهو يمثل شخصية الرجل المرائي ايضاً . وقد « مصّرت » هذه المسرحية في فجر النهضة الحديثة ومثلت باسم « الشيخ متلوف » . ولا تزال شخصية الشيخ متلوف الى اليوم تصوّر الورع الكاذب والتقى الخادع .

****** Horace الشاعر الروماني الشهـير (٦٥ — ٨ ق . م)

******* Priapus إلٓه الجنائن والعرائش ، ثم آلٓه الخصب والتناسل . وكان ابن اخوس وفينوس .

ملامح الوجـــه الكلي . إن مرقـــص مابي * لا يعرف رقص الجانيكولوم ** البوليهيمني *** ولكن مؤجرة الملابس هنـاك تلتهـــم بعينيها الحسناء السهلة القياد كما كانت « ستافيلا » القوادة تراقب العذراء « بلانيزيوم » تماماً . والـ « بارييز دو كومبا » ليس كولوسيـوم **** ولكنه يتكشّف عن قدر هائل من الوحشية وكأن قيصر نفسه كان يشهد الحفلة . وصاحبة الحان السورية اكثر ملاحة من الام ساغيه ، ولكن اذا كان فيرجيل قد اختلف الى الحانة الرومانية فأن دافيد دانجيه ***** وبالزاك ****** وشارليه ******* يتخذون مجالسهم في الخمارة الباريسية . إن باريس لتقبض على ازمّة السلطان . إن العبقريات لتسطع في سمائها ، وان الغدائر الحمراء المقفة لتزدهر في ربوعها . ويمر ادونيس هناك بمركبته البارقة الراعدة ذات الاثنتي عشرة عجلة . ويدخلها سيلينوس ******** على أتانه . ذلك أن سيلينوس قد قرأ رامبونو *********

إن باريس مرادف الكون . باريس هي اثينـا ، وروما ،

---

* Mabille مرقص باريسي شهير سطع نجمه من عـــام ١٨٤٠ الى عام ١٨٧٥

** Janiculum رابية قرب نهر التيبر في روما .

*** نسبة الى بوليهيمنيا Polyhymnia عروس الترانيم الرفيعة او الاغاني المقدسة .

**** Coliseum مدرج روما الضخم حيث كان المتقاتلون يصطرعـــون ، وحيث كان يقذف بالمسيحيين طعاماً للوحوش .

***** David d'Angers مثال فرنسي شهير (١٧٨٨ - ١٨٥٦)

****** Balzac الكاتب الفرنسي الكبير ، مؤلف « الأب غوريو » و « اوجي غرانديه » . (١٧٩٩ - ١٨٥٠)

******* Charlet رسام فرنسي برع برسم المشاهد العسكرية (١٧٩٢ - ١٨٤٦)

******** Silenus ابو باخوس بالرضاع وقد جعلته الميثولوجيا الاغريقية مهـــرج الاولمب .

********* Ramponneau مؤسس حانة « الطبل الملكي » المشهورة في باريس . (١٧٢٤ - ١٨٠٢)

وسيباريس * ، وبيت المقدس ، وبانتين ** . إن حقب الحضارة كلها لماثلة فيها على نحو موجز ، وكذلك جميع عهود البربرية ايضاً . وخليق بباريس أن يستبد بها الغيظ لو لم تعرف المقصلة .

إن قليلاً من ساحة غريف *** لمقبول ، إذ اي شيء كان يمكن ان تنتهي اليه تلك الحياة المرحة الصاخبة كلها من غير ذلك التتبيل ؟ لقد احتاطت قوانيننا ، في كثير من الحكمة لذلك . وبفضلها يقطر الدم من ذلك الساطور فوق هذا الكارنافال العام .

١١
سخرية وحكم

وفي باريس لا حدود ولا قيود . إن اياً من المدن الاخرى لم تعرف هذا السلطان الذي يهزأ في بعض الاحيان بأولئك الذين يخضعهم لأمرته . « لكي أرضيكم ، ايها الاثينيون ! » كذلك هتف الاسكندر . ولكن باريس تذهب الى ابعد من وضع القوانين . إنها تضع « الموضة » ، بيد انها تذهب الى ابعد من وضع « الموضة » ايضاً . انها تضع « الروتين » . وقد تتباله باريس اذا بدا ذلك حسناً في عينيها . فهي تجيز لنفسها هذا الترف أحياناً . وعندئذ يغدو الكون كله أبله معها . ثم ان باريس تستيقظ ، وتفرك عينيها ، وتقول : « أأنا بلهاء ؟ » وتنفجر ضاحكة في وجه الجنس البشري . اي اعجوبة هي هذه المدينة !

---

* Sybaris مدينة ايطالية قديمة أسسها الآخيون سنة ٧٢٠ ق . م وكانت ذات تجارة زاهرة افاءت عليها ثروات هائلة جعلت اهلها ينغمسون في الشهوات .

** Pantin محلة قرب باريس تكثر فيها المصانع .

*** Place de Grève ساحة الاعدام في باريس .

ما أغرب أن تلتقي هذه الاشياء العظيمة كلها وهذه الاشياء المضحكة وتتناغم، وأن لا يُزعَج هذا الجلال كله من هذا التزوير المازيء كله، وأن يكون الفم نفسه قادراً على ان ينفخ اليوم في صُور القيامة وينفخ غداً في مزمارٍ ثمنه بضعة دريهات ! إن لباريس مزاجاً مرحاً مطلق السلطان . ان ابتهاجها لمن الصاعقة ، وان أضاحيكها لتحمل صولجاناً . وقد تنطلق اعاصيرها من تقطيب وجه . ان انفجاراتها ، وأيامها الحاسمة ، وروائعها ، وأعاجيبها ، وملاحمها ، لتمضي الى اقاصي الكون ، وكذلك كلامها المتهافت الذي يُعوزه المنطق والترابط . ان ضحكها هو فوهة بركان يصيب رشاشه الارض كلها . وان مزاحها الماجن شَررٌ . انها تفرض كاريكاتورها على الشعوب ، كما تفرض مثلها الاعلى . وأسمى آثار الحضارة الانسانية تتقبّل سخرياتها ، وتُعير خلودها لاقوالها الداعرة . انها شامخة .. ان لها يوم ١٤ تموز الاعجوبي الذي يحرر الكرة الارضية . رمي تحمل جميع الأمم على ان تُقسم يمين ملعب التنس * . إن ليلها في ٤ آب ليبدّد في ثلاث ساعات ألفَ عامٍ من الاقطاعية . انها تجعل من منطقها عَضَلَ الارادة الأجماعية . إنها تضاعف نفسها تحت مختلف اشكال السموّ . إنها تملأ باشعاعها واشنطون ، وكوسييوسكو ** وبوليفار ***

---

* Serment du Jeu de Paume اليمين التي أقسمها ، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٨٩ نواب طبقة العوامّ على « ان لا يتفرّقوا قبل ان يعطوا فرنسة دستوراً » ، وكان الملك قد حظر عليهم الاجتماع في قاعتهم المألوفة فانتقلوا الى قاعة مجاورة تعرف بقاعة « ملعب التنس » وأقسموا اليمين هناك .

** Kosciuszko جنرال بولوني (١٧٤٦ – ١٨١٧) ناضل طويلاً من اجل تحرير بلاده من سيطرة الروسيا القيصرية .

*** بطل من ابطال الاستقلال وحركات التوحيد في اميركة الجنوبية وقد سبق التعريف به .

وبوتزاريس * وريغو ** وبَمْ *** ومانـــين **** ولوبيز *****
وجون براون ****** وغاريبالدي . إنها في كل مكان يتوهـــج فيه
المستقبل . في بوسطون عام ١٧٧٩ ؛ وفي جزيرة سان ليون عام ١٨٢٠ ؛
وفي بيِنْث عام ١٨٤٨ ؛ وفي باليرمو عام ١٨٦٠ . إنهـا تهمس بالشعار
الجبار ، الحرية ، في آذان دعاة تحريم الاسترقـاق الاميركيين المجتمعين
في المركب في هاربوز فيري ، كما تهمس به في آذان وطنيي آنكونـا
المجتمعين في الظلام في آرشي ، أمام فندق غوزي على شاطيء البحر . إنها
تخلق كاناريس *******. إنها تخلق كيروغا ********. إنها تخلق بيزا كان .
وهي تشعّ العظمة على الارض كلها . واذا كان بايرون قد قضى نحبه في
ميسولونغي *********، واذا كان مازيه قد قضى في برشلونة فلأنهما قد انطلقا

---

* Botzaris احد ابطال حرب الاستقلال اليوناني . (١٧٨٨ – ١٨٢٣)

** Riego جنرال ووطني اسباني (١٧٨٥ — ١٨٢٣) وقد مات قتلاً بأمر الملك فرديناند السابع .

*** Bem جنرال بولوني (١٧٩٥ — ١٨٥٠) ابلى بلاء حسناً في القتال ضد النمسويين والروس خلال الثورة الهنغارية عام ١٨٤٩ .

**** Manin وطـــني ايطالي (١٨٠٤ – ١٨٥٧) رئيسُ جمهورية البندقية عام ١٨٤٨ وكان مناوئاً لسيطرة النمسوية .

***** Lopez رجل دولة باراغواني (١٨٢٧ — ١٨٧٠) تولى رئاسة الجمهورية. وقد ناضل ، في عناد ، ضد الارجنتين والبرازيل .

****** John Brown داعية اميركي من دعاة الغاء الرقيق (١٨٠٠ – ١٨٥٩) وقد شنق لأنـــه دعا الزنوج الى امتشاق الحسام ، وكان موته سبباً في انفجار حرب الانفصال .

******* Constantin Canaris ملاح يوناني (١٧٩٠ – ١٨٧٧) استشهد في حرب الاستقلال .

******** Antonio Quiroga جنرال اسباني (١٧٨٤ – ١٨٤١) قـــاد القوات الدستورية ايام ثورة ريغو التي اشير اليها من قبل .

********* Missolonghi مدينة يونانية اشتهرت بصمودها الباسل في وجه الاتراك عام ١٨٢٢ ، و ١٨٢٣ ، و ١٨٢٥ وكان الشاعر الانكليزي بايرون متطوعاً آنذاك في صفوف الثوّار .

الى حيث دفعتها رياحها . إنها منبر تحت قدمي ميرابو ، وفوهة بركان تحت قدمي روبسبيير . إن كتبها ، ومسرحها ، وفنها ، وعلمها ، وأدبها ، وفلسفتها هي الأصول التي ينهل منها الجنس البشري . إن عندها باسكال ، ورينييه ، وكورنيّ ، وديكارت ، وجان جاك ، وفولتير لكل لحظة ، وموليير لكل عصر . إنها تجعل الفم الكونيّ يتكلّم بلغتها ، وتنتهي تلك اللغة الى ان تصبح كلمةَ الله . إنها تنشىء في جميع العقول فكرة التقدم . والعقائد الجوهرية المحرِّرة التي تصوغها ، هي للاجيال سيوفٌ لا تسمو عليها سيوف ؛ وإنما بروح مفكريها وشعرائها صُنِع جميع الابطال في جميع الشعوب ، منذ عام ١٧٨٩ ؛ ولكن ذلك لا يحول بينها وبين أن تمثّل دور « المتشرد » . وهذه العبقرية الهائلة التي ندعوها باريس ، حتى وهي تخلق العالم بضيائها خلقاً جديداً ، ترسم بالفحم أنف بوجينييه على جدار هيكل تيزيه * وتكتب **كريدوفيل اللص** على الأهرام .

إن باريس لتُبدي نواجذها دائماً . فهي إما مزمجرة أو ضاحكة .

تلك هي باريس . إن أدخنة سطوحها هي أفكار الكون . ركامٌ من الوحل والحجارة ، اذا شئت ، ولكنها فوق ذلك كائنٌ اخلاقي . إنها اكثر من عظيمة ؛ إنها غير متناهية . لماذا ؟ لأنها تتجرأ .

الجرأة . هذا هو ثمن التقدم .

إن جميع الفتوح الجليلة هي ، كثيراً أو قليلاً ، ثوابُ الجرأة . فلم يكن كافياً – لكي تندلع الثورة – ان يتنبأ بها مونتيسكيو ، ويبشّر بها ديدرو ، ويعلنها بومارشيه ، ويدبّرها كوندورسيه ** ،

---

* Thésée بطل اغريقي ، وهو شخصية نصف اسطورية تتصل اعمالها البطولية بأعمال هرقل البطولية .

** Condorcet فيلسوف ورياضي فرنسي (١٧٤٣ – ١٧٩٤) لعب في الثورة دوراً بارزاً ثم تجرّع السمّ في عهد الارهاب ، اجتناباً للمقصلة .

ويمهّد لها آرُوويه * ويتعمّدها روسو . كان من الضروريّ أن يجرؤ عليها دانتون .

إنّ تلك الصيحة « الجرأة ! » ** هي ضربٌ من الـ *Fiat lux* *** .
والحق أن تقدّم الجنس البشري الى الأمام يقتضي ان تلتهب القمم التي حوله بدروس في الشجاعة نبيلةٍ دائمة . إن الجراءات لتُذْهل التاريخ ، وهي تشكّل أحد أنوار الانسان المادية . والفجر يتجرأ حين يبزغ . الكفاح ، واقتحام الاخطار ، والمثابرة ، والاصرار ، والاخلاص للذات ، والمصارعة مع القَـــدَر ، وإذهال الهزيمة بالذعر اليسير الذي تنزله بنا ، ومواجهة القوة الغاشمة حيناً ، وتحـــدّي الظـّفَر النشوان ، والصمود ، والمقاومة — تلك هي الأمثولة التي تحتاج اليها الامـــم والنور الذي يكهربها . ان البرق الرهيب نفسه لينطلق من شعلة بروميثيوس ومن بوق كامبرون **** الفخاري .

١٢
المستقبل كامنٌ في الشعب

أما الشعب الباريسي ، حتى حين يبلغ مبلغ الرجال ، فهو « متشرد »

* يقصد فولتير .

** يقصد كلمة دانتون الشهيرة : « الجرأة ! ثم الجرأة ! ودائماً الجرأة ! » التي وردت في خطابــه الذي ألقاه في ٢ ايلول ١٧٩٢ والذي ألهب الجمعية التشريعية ثم ألهب فرنسة كلها .

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نور ! » إشارةٌ الى ما جاء في سفر التكوين: « وقال الرب ليكن نور ، فكان نور . » فكأن المؤلف يريد ان يقول : إن صيحة دانتون تلك كانت بمثابة مولد النور في فرنسة .

**** راجع الفصل الخاص بكامبرون في الجزء الخامس .

من المتشردين دائماً . إنك إذ تصوّر الطفلَ تصور المدينة . ومن أجل ذلك درسنا هذا النسر من خلال ذلك الدُوري الصريح .

إن العِرْق الباريسي ، ونحن نصرّ على ذلك ، إنما يوجد في الضواحي قبل كل شيء . هناك نقع على الدم الصافي ؛ هناك نجد السيماء الحقيقية ؛ هناك يعمل هذا الشعب ويتألم ، والألم والكدح هما صورتا الانسان . هناك أعداد هائلة من الكائنات المجهولة تكثُرُ فيها أغرب النماذج البشرية ابتداءً من مُنزل البضائع من « لا رابيه » حتى قصّاب مونفوكون . *Fex urbis* * كذلك يصيح شيشرون . فيضيف بورك ** الساخط : الرعاع . — القطيع ، الجمهور ، السّوقة . إن هذه الكلمات تُلفظ لفظاً سريعاً . ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فأيّ بأسٍ فيه ؟ وماذا يضيرني اذا كانوا يمشون حفاةً ؟ إنهم لا يعرفون القراءة ؛ يا للخسارة ! أنتخلى عنهم من أجل هذا ؟ أنجعل شقاءهم لعنةً عليهم ؟ الا يستطيع النور أن ينفذ الى هذه الجماهير ؟ فلنعُدْ الى تلك الصيحة : النور ! ولنصرّ على ذلك ! النور ! النور ! ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم أن هذه الكثافات لن تغدو شفافة ؟ أليست الثورات تحوّلاً في الصورة الى ما هو أسمى ؟ فامضوا ، أيها الفلاسفة ، علّموا ، نوّروا ، ألهبوا ، فكّروا جهاراً ، تكلموا جهاراً ، اهرعوا في جذل الى وضح النهار ، آخوا في الساحات العامة ، بشّروا بالانباء السارة ، انثروا الفباءاتكم في سخاء ، أعلنوا حقوق الانسان ، أنشدوا المارسييز ، أبذروا الحماسة ، انزعوا الاغصان الخضراء من شجر السنديان ، اجعلوا الفكر إعصاراً . إن هذه الجماهير يمكن أن يُسْمَى بها . فلنتعلّم كيف نُفيد من اضطرام المبادىء والفضائل الواسع هذا ، الذي يطلق الشرر ، ويفرقع

---

* في اللاتينية ، ولعلّ حثالة المدينة .

** Burke كاتب وخطيب انكليزي (١٧٢٩ — ١٧٩٧) اشتهر بعدائه للثورة الفرنسية .

ويوقع القشعريرة في بعض الفترات . إن هذه الاقدام الحافية ، هــذه الاذرع العارية ، هذه الاسمال البالية ، هذه الجهالات ، هذه الحقارات ، هذه الكلمات ، يمكن ان تُصطنع في النضال من اجــل تحقيق المثل الأعلى . انظُرْ من خلال الشعب تلمــح الحقيقة . إن هذا الــتراب الخسيس الذي تطأه بقدميك ، اذا ما قذفت به في الأتون ، وتركتَهُ يذوب ويفور ، يصبح بلوراً يبهر الأبصار ، وبفضله سوف يلمع غاليليو جديد ، أو نيوتن جديد فيكتشف النجوم .

١٣
غافروش الصغير

بعد حوالى ثماني سنوات او تسع سنوات انقضت على الاحداث التي رويناها في القسم الثاني من هذه القصة شوهد ، على « جادة التامبل » وعلى مقربة من « شاتو دو » فتىً صغير في الحادية عشرة او الثانيــة عشرة من العمر كان خليقاً به أن يحقق في دقة كبيرة المثلَ الاعــلى للمتشرّد ، الذي وصفناه آنفاً ، لو لم يكن — وضحكةُ عمره على شفتيه — ذا فؤاد مظلم فارغ بالكلية كان هذا الطفل يرتدي على نحو غريب بنطلون رجل ، ولكنه لبس بنطلوناً أخذه من أبيه ، وُصدرةً نسائية ذات ردنين ، ولكنها لم تكن صدرةً ورثها عن امه . لقد كساه نفر من الغرباء ، بهذه الاسمال صدقةً وإحساناً . ومع ذلك ، فقد كان له أب ، وكانت له ام . ولكن أباه لم يفكر به قط ، وأمه لم تحبّــه قط . كان واحداً من اولئك الاطفال الجديرين بالشفقة من بين جميــع أولئك الذين لهم آباء وامهات والذين هم — برغم ذلك — يتامى .

ولم يكن هذا الطفل ليستشعر فيضاً من السعادة إلا في الشارع . إن

حصباء الطريق كانت عنده اقلّ قسوة من قلب أمه .

كان ابواه قد ألقياه في خضمّ الحياة برفسة .

وكان قد نشر جناحيه في كثير من البساطة ، وطار .

كان صبياً صاخباً ، شديد الشحوب ، رشيقاً ، نبيهـــاً ، ساخراً تبدو عليه سيما من الحيوية والمرض في وقت واحد . كان يروح ويجيء ويغني ، ويلعب لعبة « النقش والطغراء » ، * ويكشط السواقي ، ويسرق قليلاً ، ولكنه كان يفعل ذلك في ابتهاج ، مثل القطط وعصافـــير الدوري ، ويضحك حين يدعوه الناس صبياً خالع العـــذار ، ويغضب حين يدعونه صبياً زقاقياً . لم يكن عنده لا مأوى ، ولا طعام ، ولا نار ، ولا حب ، ولكنه كان مبتهجاً لأنه كان حراً .

وحين يكون هؤلاء المساكين رجالاً تحتكّ بهم رحى نظامنا الاجتماعي دائماً تقريباً ، وتسحقهم ، ولكنْ حين يكونون اطفالاً يفرّون بأنفسهم لأنهم صغار . إن اصغر الثقوب تنجيهم .

بيد أنه كان يتفق لهذا الولد في بعض الاحيان ، ان يقول لنفسه كل شهرين او ثلاثة اشهر ، برغم الاهمال الذي يحيا في غمرته : « إسمع ، سوف أذهب وأرى أمي ! » ثم يغادر الجادة ، و « السيرك » ، و « باب سان مارتان » ، ويهبط أرصفة النهر ، ويعـــبر الجسور ، وينتهي الى الضواحي ، ويمشي حتى الـ « سالبتريير » ويصل – الى اين ؟ بالضبط الى ذلك الرقم المزدوج ، ٥٠ – ٥٢ ، الذي يعرفه القارىء ، الى بيت غوربو العتيق .

في تلك الحقبة ، كان البيت ذو الرقم ٥٠ – ٥٢ ، الخالي في العادة ، المزدان على نحو سرمدي باللوحة القائلة « غرف للتأجير » – نقول كان ذلك البيت ، وهو وضع نادر ، آهلا بعدد من الاشخاص الذين لم تكن

* هي اللعبة التي ترمى فيها قطعة نقود في الهواء ثم يقبض عليها باليد ، وعلى الشخص الآخر معرفة وجهها .

لأحد منهم ، من جميع النواحي الاخرى ، كما هي الحال في باريس دائماً ، صلة أو علاقة بالاخر . كانوا كلهم ينتسبون الى تلك الطبقة البلدية التي تبدأ بالبورجوازيّ الصغير المُعْسر ، وتهبط درجات البؤس في طبقات المجتمع الدنيا ، درجةً درجةً حتى تصل الى هذين المخلوقين الذين تنتهي بهما اشياء التمدن المادية كلها : البلاليعيّ الذي يكنس الوحل ، والخِرَقيّ الذي يلتقط المِزق البالية .

كانت « المستأجرة الرئيسية » التي عرفها البيت في عهد جان فالجان قد ماتت ، وكانت قد خلفتها امرأة اخرى مثلها تماماً . ولست اذكر ايّ فيلسوف قال : « نحن لن نفتقر ابداً الى نسوة عجائز . »

وكانت العجوز الجديدة تدعى مدام بورغون . ولم يكن في حياتها ما يلفت النظر غير سلالة من ثلاث ببغاوات تربعت واحدةٌ اثر اخرى على عرش فؤادها .

وكان اشدّ سكان ذلك البيت العتيق بؤساً أسرة مؤلفةٌ من اربعة اشخاص — الاب والام وفتاتين في ميعة الصبا — يقطنون كلهم في علية واحدة من تلك العلالي التي تحدثنا عنها من قبل .

ولم تكن تلك الاسرة لتبدهَ المرء ، للوهلة الاولى ، بشيء فريد غير عَوَزها المتطرف . وكان الاب قد اتخذ ، يوم استأجر الغرفة ، اسم جوندريت . ولم تنقض فترة على انتقاله الى هناك — ذلك الانتقال الذي كان يشبه ، اذا اردنا ان نستعير تعبير المستأجرة الرئيسية الجدير بالذكر ، دخول لا شيء على الاطلاق — حتى قال جوندريت هذا لتلك المرأة التي كانت ، مثل العجوز التي سلفتها ، بوابة تكنس السلّم في الوقت نفسه : « ايتها الأم الفلانية ، اذا ما أقبل أحدٌ بالمصادفة وسأل عن رجل بولوني ، او ايطالي ، أو ربما عن رجل اسباني ، فأعلمي أني انا المقصود . »

كانت هذه الاسرة هي اسرة ذلك الصبيّ المرح الحافي القدمين ، وكان

اذا ما وصل الى هناك وجد الفقر ، والبؤس ، ووجد – وهذا أدعى الى الحزن – عبوساً موصولاً . كان يجد موقداً بارداً ، وقلوباً باردة . فاذا ما دخل سألوه : « من أين أقبلت ؟ » فيجيب : « من الشارع » . حتى اذا فارقهم سألوه : « الى اين انت ذاهب ؟ » فيجيب : « الى الشارع . » فتقول له امه : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

لقد عاش ذلك الطفل في انعدام الحنان مثل تلك الاعشاب الشاحبة التي تنبت في الاقبية . ان تلك الحياة لم تورثه ألماً ما ، وانه لم يكن ليحقد على احد . كان لا يدري ، على وجه الضبط ، كيف ينبغي ان يكون الأب والام .

ومع ذلك فقد أحب امه وأختيه .

ولقد نسينا ان نقول ان القوم كانوا ، في جادة التامبل ، يدعون هذا الغلام غافروش الصغير . لماذا سُمي غافروش ؟ لعلّ مرد ذلك الى ان أباه كان يدعى جوندريت .

ان قطع الخيوط جيماً هو ، في ما يبدو ، غريزة عند بعض الأسر البائسة .

لقد كانت الغرفة التي احتلتها اسرة جوندريت في بيت غوربو العتيق هي آخر غرفة في اقصى الرواق ، وكان يحتل الغرفة المحاذية شاب فقير جداً يدعى مسيو ماريوس .

فلنرَ من كان مسيو ماريوس هذا .

الكتاب الثاني

البورجوازي الكبير

١

تسعون عاماً واثنتان وثلاثون سناً

في شارع بوشرا ، وشارع نورماندي ، وشارع سانتونج ، لا يزال بضعة سكان قدماء يحتفظون بذكرى رجل عجوز يدعى مسيو جيلنورمان ويحبّون التحدث عنه . كان ذلك الرجل عجوزاً يوم كانوا في نضـــارة الشباب . وكانت هذه الصورة المظلّلة عند اولئك الذين ينظرون في كآبة الى هذه الجمهرة الغامضة من الظلال التي ندعوها الماضي ، لمّا تختفِ بعدُ من تِيه الشوارع القائمة على مقربة من « التامبل » والتي خُلعت عليها في عهد لويس الرابع عشر اسماء مقاطعات فرنسة كلها ، كما خلعت

في ايامنا هذه اسماء عواصم اوروبة كلها على شوارع حيّ تيفولي الجديد . تدوّ جّ – ولنقل ذلك قولاً عابراً – يتجلى فيه التقدم .

وكان مسيو جيلنورمان ، الذي تمتّع بالحياة قدْرَ ما تمتّع بها أيما رجل آخر ، عام ١٨٣١ ، واحداً من اولئك الرجال الذين أمسوا موضوع فضولٍ لمجرّد أنهم عُمّروا دهراً طويلاً ، والذين تكتنفهم الغرابة لانهم كانوا من قبل مثل أيّ انسان آخر ، ثم غدوا الآن لا يشبهون احداً البتة . كان شيخاً غريباً . وكان في الواقع من أهل جيل آخر ، فهو يمثل بورجوازيّ القرن الثامن عشر الحقيقيَّ ، الكاملَ المتعجرف بعض الشيء ، اللابس بورجوازيته الطيبة العجوز ، كما يلبس المراكيز * مركيزيتهم . كان قد تجاوز التسعين . وكان يمشي منتصب القامة ، ويتحدث بصوت مرتفع ، ويرى في وضوح ، ويشرب الخمر صِرفاً ، ويأكل ، وينام ، ويغطّ في النوم . وكان يحتفظ باسنانه الاثنتين والثلاثين جميعاً . وكان لا يصطنع نظارتيه إلا عند القراءة . كان ذا مزاج غراميّ ، ولكنه قال إنه هجر النساء منذ عشر سنوات هجراً كاملاً لا تردّد فيه . إنه لم يعد يُعجِب ، كذلك قال . وما كان ليضيف : « أنا هرمٌ اكثر مما ينبغي » ، ولكنْ « أنا فقير اكثر مما ينبغي . » كان يقول : « لو لم اكن متهدماً ، هيء ! هيء ! » وكان دخله الباقي لا يتجاوز ، في الواقع ، خمسة عشر الف ليرة تقريباً . وكان يحلم بأن يفوز بأرث ، وان ينعم بدخل مقداره مئة الف فرنك لكي يتخذ بعض الخليلات . إنه لم يكن من ذلك الضرب المريض من ابناء الثمانين الذين كانوا يموتون ، مثل مسيو دو فولتير ، طوالَ حياتهم . إن تعميره ** لم يكن تعميرَ ابنِ رماه . وهذا العجوز المرح كان دائماً في صحة جيدة . كان سطحياً ، طيّاشاً ، سريع الغضب . وكان

* جمع مركيز .

** اي امتداد الاجل به حتى غدا هرماً عجوزاً .

الحنق يستبدّ به في كل مناسبة ، واكثر ما يكون ذلك حيث لا يقتضي الموقف حنقاً البتة . كان يرفع عصاه كلما اختلف امرؤ معه في الرأي ؛ وكان يضرب خدمه كما كانت الحال في العصر العظيم * ؛ وكانت له ابنة غير متزوجة تبلغ من العمر الحسين ، وكان يضربها - حين يستبدّ به الغضب - ضرباً مبرحاً ؛ ويتمنى لو يُلهب ظهرها بالسياط . لقد كانت تبدو في عينيه وكأنها في الثامنة من العمر . وكان يصفع خدمه في عنف ويقول : « آه ، ايتها الجيفة ! » وكانت احدى أيمانه : « قسماً ببابوج البابوجية الاكبر ! » وكان في بعض النواحي على سكينة فريدة . فهو يعهد في حلاقة ذقنه ، كل يوم ، الى حلاّق كان قد جنّ ، حلاق كان يكرهه لحسده مسيو جيلنورمان بسبب من زوجته ، وهي امرأة جميلة ، مغناجة . وكان مسيو جيلنورمان يعجب بفطنته الخاصة في جميع الحقول ، ويصرّح بذكائه الشديد . فمن اقواله : « إن عندي شيئاً من نفاذ البصيرة حقاً . انا استطيع ان احزر ، حين يلذعني برغوث ، من اية امرأة قد جاءني ! » وكانت اكثر الكلمات تردداً على لسانه هي التالية : « **الانسان الحساس** » و « **الطبيعة** » . ولم يكن يضفي على هذه الكلمة الاخيرة المعنى الواسع الذي جعلته حقبتنا لها . ولكنه كان يُقحمها على طريقته في أهاجيه الصغيرة المرسلة من زاوية الموقد . فيقول : « ان الطبيعة ، لكي يكون للحضارة شيء من كل شيء ، تعطيها حتى بعض النماذج من البربرية المسلية . فعند اوروبة نماذج من آسية وافريقية ، على صورة مصغرة . إن الهرة هي تميرة الصالون ، والحزدون هو تمساح الجيب . إن راقصات الاوبرا متوحشات ورديات اللون . انهن لا يفترسن الرجال ، ولكن يعشن عليهم . أو بالاحرى ، فأن الساحرات يحوّلنهم الى محارات ثم يبتلعنها .

---

* يقصد بالعصر العظيم عهد الملك لويس الرابع عشر .

إن قبائل الكارايبب * لا تدع شيئاً غير العظام ، أما هاتيك الراقصات فلا يبقين شيئاً غير الاصداف . تلك هي عاداتنا . نحن لا نفترس ، ولكنْ نقرِض . نحن لا نُبيد ، ولكن ُننشب الاظفار .

٢
سيد كهذا جدير بمسكن كهذا

كان يقطن في ماريه ، شارع « فتيات كالفير » رقم ٦ . وكان البيت ملكه . والواقع ان ذلك البيت كان قد هدم ثم ُشيّد من جديد ، ولعل رقمه قد ُغير في ثورات الترقيم تلك التي تخضع لها شوارع باريس . ولقد احتل شقة عتيقة واسعة في الدور الاول ، بين الشارع والحدائق ، مغطاة حتى السقف ُببُسط « غوبلين » و « بوفيه » تمثل مشاهد من حياة الرعاة . وكانت موضوعات السقوف والجدران ُتكرّر في صورة مصغّرة على الكراسيّ ذوات الاذرع . ولقد طوّق سريره بحجاب (بارافان) عريض ذي تسع أوراق مطلية بلكّ كوروماندل . وكانت ستائر طويلة فضفاضة تتدلى على النوافذ ، فتُحدث طيّاتٍ عريضة متكسرة رائعة . وكانت الحديقة ، الواقعة تحتْ نوافذه مباشرةً ، متصلة بالزاوية التي بينهما بسلّم ذات اثنتي عشرة درجة او خمس عشرة درجة كان الرجل العجوز يرتقيها ويهبطها فى نشاط وجذل . وبالاضافة الى مكتبة ملاصقة لغرفته كان عنده بهوٌ نسائيّ أنيق يحرص عليه كثيراً — خلوة بهيجة مزدانة بالسجاد الرائع التبْنيّ اللون الموشّى بازهار السوسن والمصنوع في سجون لويس الرابع عشر الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال

* Caraïbes هم السكان الاصليون لجزر الآنتيّ الصغرى والشواطيء الاميركية المجاورة ، وقد انقرضوا اليوم أو كادوا .

الشاقة ، وقد امر مسيو دو فيفون * نزلاء تلك السجون بان يصنعوه لحظيته . وانما ورث مسيو جيلنورمان ذلك من اخت شرسة لجدّته ماتت وعمرها مئة عام . وكانت له زوجتان اثنتان . وكان سلوكه منزلةً وسطاً بين رجل البلاط الذي لم يكُنْه ، وبين رجل القانون الذي كان يمكن ان يكونه . كان مبتهجاً كريم النفس حين يشاء . وفي شبابه كان واحداً من اولئك الرجال الذين يُخدعون بزوجاتهم دائماً ولا يُخدعون بخليلاتهم ابداً لانهم ابغض الازواج الى النفس واكثر الأحبة فتنةً ، في وقت معاً . كان خبيراً بالرسم . وكانت في غرفته لوحة تمثل رجلا مجهولاً من عمل جوردين ** ، وقد أُخرجت بضربات فرشاة جليلة وبملايين من التفاصيل ، على نحو مضطرب ، وكأنما كان ذلك محض مصادفة . ولم تكن ملابس مسيو جيلنورمان على غرار ملابس الملك لويس الخامس عشر ، بل لم تكن على غرار ملابس الملك لويس السادس عشر . كان يرتدي ملابس كملابس فتيان عهد القنصلية « الذين لا يصدّقون » *** وكان يحسب نفسه غضّ الاهاب ، حتى ذلك الحين . فهو يتّبع الزيّ أنى اتجه . وكانت سترته من جوخ رقيق ذات ظهر عريض ، وذيل طويل كذيل سمك « مورو » ، وازرار فولاذية ضخام . وكان يرتدي الى هذا بنطلوناً قصيراً وحذاء ذا أبازيم . وكان يضع يديه ، دائماً ، في بعض جيوبه . ويقول في نبرة ذي السلطان : « **الثورة الفرنسية حكومة من اللصوص المسلحين** » .

---

* de Vivonne مارشال فرنسة (١٦٣٦ – ١٦٨٨) ، ونائب الملك في صقلية عام ١٦٧٥ وقد ابلى بلاء حسناً في معركة باليرمو البحرية .

** Jordaens رسام فلمندي (١٥٩٣ – ١٦٧٨)

*** incroyables وهو الاسم الذي اطلق في عهد القنصلية على جماعة من الشبان المكيين المعارضين ، المتكلفين في كلامهم وملابسهم . وكانوا يرتدون ثياباً خضراً مزدانة بازرار ضخام وسترة طويلة مشقوقة تغطي نصف تغطية بنطلوناً ذا ثنيات .

٣
لوقا ـ الروح

ويوم كان في السادسة عشرة شُرّف ذات مســاء ، في الاوبرا ، بتحديق حسناوين اليه في وقت واحد ، وكانت هاتان الحسناوان قد تخطتا آنذاك مرحلة الشباب ، وكانتا شهيرتين تغنّى بهما فولتير : « لا كامارغو » و « لا ساليه » . وإذ وقع بين نارين ، فقد ارتد ارتداداً بطولياً الى راقصة صغيرة – وكانت فتاةٌ تدعى ناهنري يبلغ عمرها ستة عشر عاماً مثله – خاملة الذكر مثل هرة ، قد شغفته حباً . كان مُفعماً بالذكريات . وكان يهتف : « كم كانت جميلة ، غويمارد غويماردين غويماردينيت تلك ، يوم رأيتها آخرة مرة في لونشان ، وقد غضّنتها العواطف الساميـــة ، وازدانت بحليتّها الغريبة المصنوعة من الفيروز ، وارتدت ثوباً لونه كلون الاطفال الذين أبصروا النور منذ قريب ، وفي يديها وقــاء من فرو عصف به الاهتياج ! » وكان قد ارتدى في شبابــه سترة من نوع « اللندني القزم » كان يُكثر من التحدث عنها في طلاقة فيقول : « لقد لبستُ كما يلبس تركيٌ من المشرق المشرقيّ ! » ورأته مدام دو بوفلير مصادفةً ، وهو في العشرين من عمره ، فوصفته بقولها : « مجنون فاتن » . وكان يهزأ بجميع الاسماء التي رآها على مسرح السياسة أو في مناصب الدولة الرئيسية ، إذ كان يجدها وضيعة مبتذلة . كان يقرأ الجرائد ، الصحف ، النشرات الاخبارية ، كما كان يقول ، وهو يكاد يختنق من شدة الضحك ويقول : « من هؤلاء الناس ! كوربيير ! هومانْ ! كازيمير بيريه ! هؤلاء وزراء لكم . أنا اتخيّل اني أرى ما يـــلي في احدى الصحف : مسيو جيلنورمـــان ، وزيراً . سوف يكون ذلك مضحكاً . حسن ! انهم بلهاء الى حدٍّ يجعلهم قادرين على الرضا بذلك ! »

وكان يسمي كل شيء باسمه ، في حرية ، سواء أكان ذلك الاسم نظيفاً أم قذراً ؛ ولم يكن ليستشعر الحرج في حضرة النساء . كان يتلفظ بأشياء جلفة ، بذيئة ، فاحشة بسكينة وبرود غريبين أنيقين . كان ذلك ضرباً من « البساطة وعدم التكلف » اللذين عُرف بهما عصره . فمما تجدر ملاحظته ان عصر الكنايات في الشعر كان عصر الفجاجات في النثر . لقد تنبأ جده بأنه سوف يغدو رجلاً عبقرياً ، وكان قد خلع عليه هذين الاسمين ذوَيْ المغزى : لوقا – الروح * .

٤

يرجو ان يعيش مئة عام

وكان قد ربح في شبابه عدة جوائز ، في كلية مولين ، وهي البلدة التي ولد فيها ، وتُوِّج بيدَيْ دوق نيفيرنيه ، وكان يدعوه دوق نيفير . ولم يستطع لا المؤتمر الوطني ، ولا موت لويس السادس عشر ، ولا نابوليون ، ولا عودة آل بوربون ، ان تمحو من ذهنه ذكرى هذا التتويج . كان دوق نيفير ، عنده ، أعظم شخصيات العصر . وكان يقول : « أيّ سيد عظيم ساحر ! وايّ سيما رائعة له بوشاحه الازرق ! » وفي رأي مسيو جيلنورمان ، ان كاترين الثانية كفّرت عن جريمة تجزئة بولونيا بشراء سرّ إكسير الذهب من بيستوشيف مقابل ثلاثة آلاف روبل . وهنا كانت تعروه هزة ، فيصيح : « إكسير الذهب ، صبغة بيستوشيف الصفراء ، قطرات الجنرال لاموت ، كانت الزجاجة الواحدة منها ، المتسعة لنصف أوقية ، تباع في القرن الثامن عشر بليرة ذهبية لويسية – الدواء العظيم لكوارث الحبّ ، العلاج الكلي لجميع الامراض الناشئة عن فينوس .

* احد الانجيليين الاربعة ، ويُعتبر راعي الرسامين .

لقد أرسل لويس الخامس عشر مئتي زجاجة منه الى البابا . » وكان الحنق يستبدّ به والسخط يعصف به اذا ما قال له امرؤ إن اكسير الذهب ليس شيئاً غير بركاورور الحديد . وكان مسيو جيلنورمان يقدس آل بوربون ، ويرتعد مشمئزاً من ذكرى عام ١٧٨٩ . كان لا يفتأ يروي كيف نجا بنفسه اثناء عهد الارهاب ، وأيّ مبلغ من المرح والذكاء كان ينبغي ان يتكشّف عنه لكي ينقذ رأسه من المقصلة . واذا ما خطر لاي شاب ان يطري الثورة في حضرته اسودّ وجهه واستبد به الغضب حتى الاغماء . ولقد كان يشير في بعض الاحيان ، من طرف خفي ، الى سنه البالغة تسعين عامـــاً ، ويقول : « **لشد ما آمل ان لا ارى الثالثة والتسعين مرتين .** » وفي احيان اخرى ، كان يوحي الى الناس أنه يعتزم ان يعيش مئة عام .

٥
باسك ونيقوليت

وكانت له نظرياته . ودونك واحدةً منها : « حين يحب امرؤ النساء حباً عارماً ، وتكون له زوجة لا يُعنى بها الا قليلاً ، زوجة بشعة ، شرسة ، شرعية ، مولعة بتوكيد حقوقها ، جاثمة على القانون ، حسود عند الحاجة ، فليس له غير سبيل واحدة للخلاص من ذلك واقرار السلم ، وهي ان يلقي بأزمّة صرة ماله الى زوجته . ان هـذا التنازل يجعله حراً . عندئذ تشغل نفسها على نحو موصول ، وتقف ذاتها للاهـــتمام بالقطع النقدية ، مزنجرة بذلك أصابعها ، وتتولى تربية مستأجري الارض المشاركين في غلاتها ، وتروّض الفلاحين ، وتدعو المحامين الى الاجتماع ، وتشرف على الكتّاب العـدول ، وتلقي الخطب في محرّري العقود ، وتزور المحـــامين الصغار ، وتلاحق الدعاوى ، وتحرّر الايجارات ، وتملي العقود ، وتستشعر أنها صاحبة السلطة ،

وتبيـع ، وتشتَّري ، وتنظّم ، وتأمر ، وتَعِدُ ، وتحلّ المشكلات بالتنازل عن بعض الحقوق ، وتعقد وتفسخ ، وتتخلى عن اشياء وتسلّم باشياء كانت موضع خلاف ، وتردّ بعض الحقوق ، وترتب ، وتبعثر ، وتقتصد ، وتبذر . انها ترتكب الواناً من الحماقات - سعادةٌ آمرة وشخصية - وهـــذا ما يعزيها . إنها ، وقد احتقرها زوجها ، تستمد الارتياح من العمل على خراب ذلك الزوج . » وهذه النظرية طبقها مسيو جيلنورمان على نفسه ، فأمست هي تاريخه . فقد دبرت زوجته - الثانية - أمر ثروته على نحو لم يُبق له حين وجد نفسـه ، ذات يوم صاحٍ ، رجلاً أرمل ، (اذا ُحوّل كل شيء تقريباً الى راتب سنوي) ، غير دخلٍ مقـداره خمسة عشر الف فرنك لا بد ان ينفد ثلاثة ارباعها معه . ولم يتردد ، إذ ما كان ليعنى كثيراً بان يخلـف ميراثاً . والى هذا ، فقد رأى الاخطار تحدق بالتركات ، وتصبح مثلاً ممتلكات قومية . كان قد شهد التغييرات الجوهرية التي طرأت على الفوائد التي تدفعها الحكومة للرهون التي لا تُردّ ، وكان قليل الثقة بالدفتر الكبير المعروف بـ « الاستاذ » . وكان يقول : « **سوف يؤول ذلك كـــله الى الى شارع كوينـكامبوا** . »* وكان بيته في شارع « فتيات كالفير » ، كما قلنا من قبل ، ملكاً له ؛ وكان عنده خادمان ، « ذكر وانثى » . وكان مسـيو جيلنورمان يعيد تعميد الخادم حين يدخل بيته . وكان يخلع على الرجال اسماء مقاطعاتهم : نيموا ، كونتوا ، بواتفين ، بيكارد . وكان خادمه الاخير رجلاً ضخم الجثـــة عاجزاً عن المشي ، مبهوراً ضيق النفَس ، في الخامسة والخمسين من العمر ، غير قادر على ان يركض عشرين خطوة ، ولكـن لما كان قد ولد في بايون ، فقد خلع عليه مسيو جيلنورمان اسم «باسك» . أما الخادمات فكنّ كلهنّ يُسَمّين في بيته نيقوليت (حتى مانيون ، التي ستظهر مرة اخرى في ما بعد) . وذات يوم وفدت عليه طاهية مغرورة

* rue Quincampoix شارع في باريس حيث كان يقوم مصرف « لو » الذي اغلق ابوابه بعد ان افلس عام ١٧٢٠

ذات وشاح ازرق ، تنتسب الى جنس البوّابين الرفيع . فسألها مسيو جيلنورمان : « كم تطلبين في الشهر ؟ » - « ثلاثين فرنكاً » - « ما اسمك ؟ » - « اوليمبي » - « سوف تأخذين خمسين فرنكاً ، وسيكون اسمك نيقوليت . »

٦
حيث نرى مانيون وصغيريها

كان الاسى يُترجَم ، في منزل مسيو جيلنورمان ، الى غضب . وكان الغيظ يعصف به حين يستشعر اليأس . كانت له اهواؤه المختلفة ، وكان يبيح لنفسه كل شذوذ . وكان من بين الاشياء التي أقام على أساسها رونقه الخارجي وارتياحه الباطني ، كما أشرنا آنفاً ، أنه لا يزال غزِلاً ناضر العود ، وأنه يُقبَلُ في قوة على أنه كذلك . وكان يدعو ذلك « تمتّع المرء بشهرة ملكية » . ولكن الشهرة الملكية عادت عليه في بعض الاحيان بهدايا فريدة . فقد حُمل اليه ذات يوم ، في سلة مثل سلال المحار ، صبيّ بدينٌ ابصر النور منذ قريب . وكان هذا الصبيّ يصرخ مثل الشيطان ، وقد لُفّ بالاقمطة على أحسن وجه . وكانت خادمةٌ طُردت قبل ستة أشهر تقول إنه ولدهُ . وكان مسيو جيلنورمان قد اتمّ آنذاك عامه الرابع والثمانين . واستبدّ السخط بالحاشية ، وأطلقت صيحات الاحتجاج . وهل حسبت هذه العاهرة الوقحة ان ثمة مخلوقاً يمكن ان يصدّق هذا ؟ يا لها من جسارة ! يا لها من فرية قبيحة ! اما مسيو جيلنورمان فلم يُظهر شيئاً من الغضب . لقد نظر الى الاقمطة في ابتسامة محبّبة كابتسامة رجل وجد في الفرية إطراء له . وقال وكأنما يخاطب شخصاً وهمياً : « حسناً ، ماذا ؟ ما هذا ؟

ما المسألة ؟ ما الذي عندنا هنا ؟ انتم في حالة لطيفـــة من الدهش ، وتبدون مثل شعب جاهل فعلاً . إن دوق آنغوليم ، وهو ابن سفاح من صاحب الجلالة شارل التاسع ، تزوّج في الخامسة والثمانين بامرأة بلهاء في الخامسة عشرة من العمر . وان مسيو فيرجينال ، مركيز آلوي ، أخا الكاردينال دو سورديس ، كبير اساقفة بوردو ، رُزق — وهو في الثالثة والثمانين ، ومن خادمة لزوجة الرئيس جاكان — ولداً ، ولداً من اولاد الحب الحقيقيين أصبح في ما بعد فارساً من فرسان مالطة ، ومستشاراً للدولة من اهل الحسام . وأحد كبار الرجال في هذا القرن ، الأب تابارو ، كان ابن رجل في السابعة والثمانين من العمر . ان هذه الاشياء لا تعدو ان تكون عادية جداً . واخيراً ، الكتاب المقدس ! وبناء على ذلك ، أعلن ان هذا السيد الصغير ليس مني . ولكن احيطوه بعنايتكم . إنها ليست غلطته . » وكانت العملية سهلة جداً . فقدّمت اليه المخلوقة ، تلك التي تدعى مانيون ، هدية ثانيـة في السنة التالية . وكان المولود ذكراً ايضاً . وهذه المرة استسلم مسيو جيلنورمان. لقد ردّ الطفلين الى الأم ، واخذ على نفسه أن يدفع ثمانين فرنكاً كل شهر لأعالتهما ، شريطة ان لا تعود تلك الأم الى مثلها مرةً ثانية . وأضاف : « اريد ان تحسن الأم معاملتهما . سوف اذهب لاراهما بين الفينة والفينة . » وهو ما قام به فعلاً . وكان له من قبلُ اخ كاهن ظلّ طوال ثلاثة وثلاثين عاماً رئيساً لاكاديمية بواتيه ، وقد توفي في التاسعة والسبعين من العمر . وكان مسيو جيلنورمان يقول : « لقد فقدته شاباً » . وكان هذا الاخ الذي كاد يُنسى ، رجلاً بخيلاً لين الجانب استشعر بوصفه كاهناً انه مضطر الى ان يمنح الفقراء الذين يلتقيهم بعض الصدقات ، ولكنه ما كان ليعطيهم أبداً غير قطع نحاسية او فلوس فقدت قيمتها الشرعية ، واجداً بذلك وسيلة للذهاب الى جهنم من طريق الجنـــة . اما مسيو جيلنورمان ، الأرشد ، فلم يتخذ من اعطاء الصدقات تجارة ، ولكنه كان

يعطي عن طيب نفس ، وفي نبل . كان عطوفاً ، خفيف اليد ، محبـاً للاحسان ؛ ولو قـد كان غنياً اذن لكان مَيْلُهُ خليقاً بأن يكون سامياً . كان يرغب في ان يكون كل ما يتصل بـه معمولاً على نطاق واسع ، حتى الغش والخداع . وذات يوم ، بعد ان سرقه احد رجال الاعمال ، في مسألة ميراث ، على نحوٍ صفيق ملحوظ ، أطلق هـذه الصيحة المهيبة : « تباً لك ! هذا شيء قذر ! أنا خجلٌ جداً من هذه المخادعات الصغيرة . لقد فسد كل شيء في هذا القرن ، حتى الانذال . وحقّ الموت ، ليست هذه هي الوسيلة الى سرقة رجل مثلي . لقـد سُـرِقت وكأنني في غابٍ ، ولكني سُـرِقت في خِسّة . *Sylvae sint consule dignae* . وكانت له في وقتٍ مـا ، كما ذكرنا ، زوجتان . وقد رُزق من الاولى فتاةً ظلت غير متزوجة ، ورزق من الثانية فتاةً اخرى توفيت في الثلاثين من عمرها وكانت قـد تزوجت ، بحكم الحب او بحكم المصادفة ، جندياً مثرياً كان قد خـدم في جيوش الجمهورية والامبراطورية ، وفاز بوسام لحسن بلائه في اوسترليتز ، ورُقي الى رتبة كولونيل في واترلو . وكان البورجوازي العجوز يقـول : « هذا هو عارُ أسرتنا . » وكان يتنشّق مقداراً كبيراً من السعوط ، وكانت له براعة فريدة في تفضين مقدّم قميصه المخرّم بظاهر يده وكان لا يؤمن بالله إلا قليلاً .

٧

قاعدة : لا تستقبل احداً إلا في المساء

كذلك كان مسيو لوقا ــ الروح جيلنورمان الذي لم يفقـد شعره

البتة ، الرماديّ اكثرَ منه أبيض ، والمسرّح دائماً على طريقـــة اذني الكلب . وعلى الجملة ، ومع ذلك كله ، فقد كان رجلًا جليلًا .

لقد كان يشبه القرن الثامن عشر : طيّاشاً وعظيماً .

وعام ١٨١٤ ، في السنوات الأولى لعودة آل بوربون الى العرش ، كان مسيو جيلنورمان – الذي كان لا يزال شاباً ، فهو لم يتجاوز آنذاك الرابعة والسبعين - يحيا في ضاحية سان جيرمان ، شارع سيرفاندوني قرب سان سولبيس . ولم يكن قد انسحب الى شارع ماريه إلا حين اعتزل المجتمع بعد ان تخطى عامه الثمانين .

وإذ اعتزل المجتمع احاط نفسه بسور من عاداته . وكانت عادتـــه الرئيسية ، التي لم يشذ عنها قطّ ، هي إبقاء باب داره موصداً طوال النهار ، وعدم استقبال احد كائناً من كان ، ولأيما مسألة من المسائل إلا في المساء . كان يتعشى في الساعة الخامسة ، ثم يفتح باب داره . كان ذلك هو الزي الشائع في عصره ، وما كان ليتخلى عنه بحال . وكان يقول : « النهار سافل ؛ وليس يستحق غير المصاريع المغلقة . إن الناس الجديرين بالاحترام لا يضيئون ذكاءهم إلا حين تضيء نقطـــة سَمْتِ الرأس نجومها . » لقد عترسَ متربصاً بكل انسان ، ولو كان الملك نفسه . تلك هي كياسة عصره القديمة .

٨
واحدة وواحدة لا تساويان زوجاً

أما ابنتا مسيو جيلنورمان فقد سبق منا الكلام عليهما . لقد وُلدت احداهما بعد ولادة الاخرى بعشر سنوات . وفي صباهما ، كان الشبه بينهما ضئيلًا جداً ؛ وكانتا لا توحيان سواء من حيث الشخصية او من

حيث المحيّا ، أنهما شقيقتان . فأما الصغرى فكانت مرحة الروح يجـذبها كل ما هو مشرق ، منهمكةً بالازهار والاشمار والموسيقى ، توّاقـةً الى التحليق في الأجواء المجيدة ، شديدة الحماسة ، لطيفة ، مخطوبة منذ الطفولة ، في الخيال ، لشخصية بطولية غامضـة . وأما الكبرى فكانت لها هي الاخرى اوهامها . ففي الاعماق اللازوردية كانت ترى مقاولاً ، مموّنَ جنودٍ طيّباً ضخماً غنياً جداً ، زوجاً أبله على نحوٍ باهر ، رجلًا مليونيراً ، أو والياً . وكانت الحفلات المقامة في دار الولاية وحاجب غرفـــة الانتظار المطوّق عنقُهُ بسلسلة ، والحفلات الرسمية الراقصة ، والخطب الملقاة في مقرّ العمدة ، وأن تكون « السيدة الوالية » — كان ذلك كله يعصف في خيالهـا عصفاً . وكذلك تاهت الشقيقتان ، كلٌ في حلمها ، يومَ كانتا فتاتين صغيرتـــين . كانت لكلتيهما اجنحة ، فأمـا احداهما فكان جناحاها مثل جناحي ملاك ، وأما الاخرى فكان جناحاها مثل جناحي إوزّة .

ولكنّ أياً من الآمال لا يتحقق تحققـاً كاملًا ، هنا في هذه الدنيا على الاقل . إن اياً من الجنان لا تغدو أرضية خلال الفترة التي نحياها. لقد تزوجت الصغرى فتى أحلامها ، ولكنها ماتت . أما الكبرى فـلم تتزوج .

وكانت هذه ، عند دخولها القصة التي نرويهـــا ، فضيلةً عجوزاً ، مخدّرةً غير قابلة للاحتراق ، أحـد الأنوف الحادة على نحوٍ متطرف ، وأحد العقول التي لا يمكن ان يقـــع المرء على أغلظ منها . وظاهرةً مميّزة : فخارجَ نطاق الأسرة المباشرة ما كان أحدٌ يعرف اسمهـــا . كانت تدعى **الآنسة جيلنورمان الكبرى** .

ومن حيث الرياء كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى خليقة بأن تتفوق على أيما آنسة انكليزية . كانت هي الحياء مغالياً في الشرّ ، وكانت لها في حياتها ذكرى رهيبة : لقد رأى رجلٌ ، ذات يوم ، رباط ساقها .

ولم تزد السنّ على ان ضاعفت من هذا الحياء القاسي الفؤاد . فاذا بثوبها المطرز يمعن في الكثافة ، واذا به يمعن في الارتفاع . لقد ضاعفت عدد الأبازيم والدبابيس هناك ، حيث ما كان ليخطر في بال احد أن ينظر . إن وجه الغرابة في خُلق اللواتي يفرطن في الاحتراس في كل ما يتصل بالعفة أنهن يكثرن من عدد الحرس كلما كانت القلعة اقل تعرضاً للخطر .

ومع ذلك - وليفسّر من يستطيع التفسير ألغاز البراءة القديمة هذه - فقد ارتضت ، من غير ما استنكار ، أن يقبّلها ضابط من الرّماحة ، هو ابنُ ابنِ عمها ، ويدعى تيبودول .

وبرغم هذا الرّماح المفضل فان لقب « المخدّرة » الذي خلعناه عليها يلائمها ملاءمة مطلقة . كانت الآنسة جيلنورمان ضرباً من النفس الغسقية . إن المغالاة في التملق بأهداب العفة هي نصف فضيلة ونصف رذيلة .

ولقد اضافت الى الغلوّ في التعفف التطرفَ في التقوى ، وهي بطانة منسجمة معه . كانت من اخوية العذراء ، فهي تصطنع نقاباً ابيض في بعض الاعياد وتتمتم ببعض الصلوات الخاصة ، وتعظّم « الدم الطاهر » ، وتجلّ « القلب المقدس » ، وتسلخ ساعات من التأمل أمام مذبح يسوعي على الطراز القديم في كنيسة موصدة في وجه العوامّ من المؤمنين ، وتدع روحها تحلق وسط سحائب الرخام الصغيرة ، ومن خلال اشعة الخشب المذهب السابغة .

وكانت لها صديقة من صديقات العبادة ، وهي عانس مثلها تدعى الآنسة فوبوا ، وكانت هذه الصديقة على غاية البلاهة ، فكان فؤاد الآنسة جيلنورمان يطفح ، الى جانبها ، بسعادة ناشئة عن شعورها بأنها نسر . وفي ما وراء ما كانت تردّده من الـ *Agnus Die* و الـ *Ave Maria* * لم تكن الآنسة فوبوا - لتعرف شيئاً غير الاساليب المختلفة في صنع المربيات . لقد كانت الآنسة فوبوا - الكاملة بين افراد نوعها رمزَ البلاهة الخالي

---

* صلاتان ، وتعني الاولى « حَمَل الرب » والثانية « السلام عليك يا مريم . »

من ايما مسحة من الذكاء .

ويتعيّن علينا ان نقول ان الآنسة جيلنورمان كسبت ببلوغها سنّ الشيخوخة اكثر مما خسرت . وتلك هي الحال مع الطبائع المطواعة المنفعلة . انها لم تكن في يوم من الايام عنيدة ؛ وهي طيبة نسبية . والى هـــذا فأن السنين تُبلي الزوايا ، ولقد أدركها عامـــل الزمن الملطّف . كانت محزونة حزناً غامضاً لم تكن هي نفسها لتعلم سرّه . كان في كيانها كله خَدَرُ حياة انتهت ولكنها لم تبدأ قط .

لقد دبرت منزل أبيها . فقد كان مسيو جيلنورمان يحيـا الى جانب بنته ، كما رأينا مونسينيور بيينفينو يحيا الى جانب اخته . وهذه الأسر المؤلفة من شيخ وعانس ليست شيئاً نادراً ، وانها لتوقع في النفس دائمـاً تلك الانطباعة المؤثرة التي يوقعها مشهد ضَعفَيْن يتوكأ احدهما على الآخر .

وكان المنزل يضمّ فوق ذلك ، بين هذه العانس وهذا الشيـــخ ، طفلا ، صبياً صغيراً يرتجف دائماً وينعقد لسانه أمام مسيو جيلنورمان . ولم يكن مسيو جيلنورمان ليكلّم هذا الطفل ابـــداً إلا في صوت فظٍّ ، وبمساعدة عصاً مرفوعة في بعض الاحيان : « هاي ! مسيو ! — ايها الوغد ، ايها الفاجر ، تعال الى هنا ! أجبني أيها الحقير ! دعـــني أراك ، يا من لا يصلح لشيء ! » الخ . الخ . كان يحبه حباً جماً كان حفيده . ولسوف نرى هذا الطفل كرةً أخرى .

الكتاب الثالث

الجَدُّ والحفيد

١

صالون قديم

كان من دأب مسيو جيلنورمان ، يوم كان مجيـــا في شارع سيرفاندوني ، ان يتردد على عدد من الصالونات الفخمة جـــداً ، النبيلة جداً . وكان يُستقبل في تلك الصالونات ، برغم انه بورجوازيّ . واذ كان على ذكاء مضاعف ، ذكائه الذاتي والذكاء الذي كان يُعزى اليه ، فقد كان روّاد تلك الصالونات يلتمسونه ويرحبون به ترحيباً بالغاً . وما كان ليذهب الى ايا مكان إلا على شريطة أن يسيطر هو على المجلس . إن هناك رجالاً يرغبون في ان يفرضوا نفوذهم ، بأيّ ثمن ، ويحرصون

على لفت انتباه الناس اليهم . فحيث لا يستطيعون أن يكونوا جهابذة ناطقين بالحكمة ، يجعلون من أنفسهم مهرّجين . إن مسيو جيلنورمان لم يكن من هذا الضرب من الرجال . فسيطرته على الصالونات الملكية التي كان يختلف اليها لم تكلّفه شيئاً من احترام الذات . كان جهبذاً في كل مكان . ولقد قُدّر له أن يقاوم مسيو دو بونالد ، بل ان يقاوم مسيو بنجي — بوي — فاليه نفسه .

وحوالى عام ١٨١٧ جرت عادته بأن يقضي فترة ما بعد الظهر مرتين كل اسبوع في منزل مجاور لمنزله ، بشارع فيرو ، عند البارونة دو ت...... ، وهي سيدة جليلة محترمة كان زوجها سفيراً لفرنسة في برلين في عهد الملك لويس السادس عشر . وتوفي البارون دو ت...... الذي وقف حياته على ضروب النشوة الروحية والرؤى المغناطيسية ، في ديار الهجرة ، مفتقراً حتى الافلاس ، غير مخلف غير عشرة مخطوطات مجلدة بجلد أحمر ، مذهبة الحواشي ، تنتظم ذكرياته الغريبة عن مَسْمر * ووعائه الخشبيّ الصغير . ولم تشأ مدام دو ت..... ان تنشر المذكرات قطّ بدافع من الوقار ، وأعالت نفسها بدخل ضئيل ليس يدري احد كيف ثبت في وجه الطوفان . لقد عاشت مدام دو ت..... بعيدة عن البلاط — **وهو مجتمع يتفاوت افراده تفاوتاً عظيماً في العادات والمركز الاجتماعي ،** كما قالت — في عزلة نبيلة ، مختالة ، فقيرة . وكان نفر قليل من الاصدقاء يجتمعون حول نارها المترملة مرتين في الاسبوع ، وهذا ما شكل صالوناً ملكياً متحصناً . كانوا يشربون الشاي هناك ، ويُطلقون — وفقاً لهبوب الريح نحو الرثاء أو نحو الشعر الغنائي الحامي — أنات الاسى او صيحات الشتيمة في وجه العصر ، وفي وجه الدستور ، وفي وجه البونابرتيين ، وفي وجه تسليم الطاهيات الماهرات الى البورجوازيين ، وفي وجه نزعة لويس الثامن

---

* سبق التعريف به في الفصل العاشر من الكتاب الاول ، من هذا القسم ، فليراجع .

عشر اليعقوبية * . ولقد تلهوا بالتهامس بالآمال التي كانوا يعلقونها على اخي الملك ، الثاني في تسلسل الاحمار ، وهو الذي تولى العرشَ بعـــدُ فعرف بشارل العاشر .

وكانوا يستقبلون الاغاني السُّوقية التي تدعو نابوليون « نيقولا » بعاصفة من البهجة . وكانت بعض الدوقات ، اكثر نساء العالم رقةً وأشدّهن فتنة ، ينشدنَ بمقاطع مثل هذه موجهةٍ « الى المتحالفين » ** :

« اغرزوا في سراويلكم مرة ثانية ،
اطراف القمصان التي تدلى على اجسامكم ،
لكي لا يقولوا ان الوطنيين
قد رفعوا الراية البيضاء ! »

وتسلّوا بنكت جناسية اعتقدوا أنها فظيعة ، وبتلاعب لفظي بريء حسبوه سامياً ، وببعض الرباعيات الشعرية ، بل وببعض الثنـائيات ، من مثل هذين البيتين اللذين قيلا في وزارة دوسول *** وهي وزارة معتدلة اشترك فيها السيدان « دوكاز » **** و « دوسير » :

« لكي تثبتوا العرش المتزعزع على قاعدته ،
يجب ان تغيروا الارض (de sol) والبرثن (de serre) والكوخ (de case) »*****

* يقصد بالنزعة اليعقوبية النزعة الثورية التحررية نسبة الى جماعة « اليعاقبة » الشهيرة في تاريخ الثورة الفرنسية .

** يقصد بالمتحالفين هنا ، Fédérés ، الحرس الوطني الذي تحالف عام ١٨١٥ لنصرة آل بوربون .

*** Dessolles جنرال فرنسي (١٧٦٧ — ١٨٢٨) وقـــد تولى رئاسة الوزارة عام ١٨١٨ . ولكن « دوكاز » كان هو الرئيس الحقيقي للحكومة .

**** Decazes رجل دولة فرنسي (١٧٨٠ — ١٨٦٠) تولى رئاسة الوزارة ايضاً .

***** لاحظ الجناس بين قوله de sol واسم رئيس الوزارة Dessolles وبين قوله de serre واسم الوزير Deserre ، وبين قوله de case واسم الوزير دوكاز .

وفي بعض الاحيان كانوا يضعون لائحة باعضاء مجلس الاعيان ، « ذلك المجلس اليعقوبي الى حدّ قبيح » ، ويرتبون الاسماء ، في تلك اللائحة ، بحيث تتألف منها مثلاً ، جمل كهذه : * *Damas, Sabran, Gouvion Saint-Cyr* وكانوا يفعلون ذلك كله في مرح وابتهاج .

وفي ذلك العالم الصغير كانوا يقلدون الثورة ساخرين . وكان لديهم ميل غريب الى ان يشحذوا الغضب نفسه بمعنى معكوس . وهكذا أنشدوا أغنية *Ça ira* على هذا النحو :

Ah ! ça ira ! ça ira ! ça ira !
Les buonapartist , à la lanterne ! **

ان الاغاني كالمقصلة . فهي تحتز الرؤوس في غير مبالاة : اليوم هذا الرأس وغداً ذلك الرأس ؛ انه مجرد اختلاف في النسخ .

وفي قضية فويالديس *** التي ترقى الى ذلك العهد ، ١٨١٦ ، تعصبوا لـ « باستيد » و « جوسيون » لأن فويالديس كان « بوونابرتيـاً » . كانوا يسمون الأحرار « **الاخوة والاصدقاء** » وكانت تلك أعلى درجات التحقير .

ومثل بعض ابراج الكنائس كان لصالون السيدة البارونة دو تـ .... ديكان اثنان . احدهما مسيو جيلنورمان ، والاخر الكونت دو لاموت فالوا

---

* أي : « داما » يطعن بالسيف « غوفيون سان سير . » على اعتبار الجناس بين اسم Sabran عضو ذلك المجلس و Sabrant « اي طاعناً بالسيف » .

** أي أن انصار بونابرت سوف يشنقون على رؤوس اعمدة الفوانيس ... والاغنية في الاصل من اغاني الثورة ، وهي تقول في البيت الثاني :

Les aristocrates à la lanterne

وهكذا يكون رواد الصالون الملكي الذي يتحدث عنه المؤلف قد وضعوا كلمة « البونابرتيين » محل كلمة الارستوقراطيين ، اذ كان الملكيون ـ انصار آل بوربون ـ يرون في البونابرتيين عدوهم الاول .

*** Fualdès حاكم فرنسي قتل في روديز عام ١٨١٧ (هكذا في معجم لاروس) وقد احدثت المحاكمة الجنائية دوياً هائلاً في فرنسة كلها .

الذي كان القوم يتهامسون حوله في ضرب من الاحترام : « اتدري ؟ هذا هو لاموت Lamothe قضية العقد * . إن الحزبيين ليصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

ولنضف أيضاً : إن رُتب الشرف ، عند البورجوازيين ، تتناقص من طريق الاتصال الميسّر اكثر مما ينبغي . واذن فيتعيّن عليك أن تعرف من تستقبل . وكما يفقد المرء شيئاً من الحرارة في جوار اولئك الذين يَشكون البرد كذلك يُمنى بنقص في الاعتبار اذا اقترب من المحتقرين من الناس . والواقع ان المجتمع الارستوقراطي القديم جعل نفسه فوق هذا القانون كما وضع نفسه في سائر القوانين جميعاً . فقد كان ماريني اخو مدام بومبادور ** يُستقبل في صالون البرنس دو سوبيز *** . على الرغم ؟ لا . لأنه . وكان دو باري ، عرّاب لا فوبرنييه ، يُستقبل احسن استقبال في صالون المارشال دو ريشيليو **** . إن ذلك المجتمع

---

* قضية العقد فضيحة شغلت الناس في فرنسة في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية (١٧٨٤ – ١٧٨٦) وتفصيل المسألة ان الكاردينال دو روهان كان يحرص على استرضاء الملكة ماري انطوانيت فسمح للكونتيس دو لاموت La Motte بأن تخدعه . ذلك ان هذه المرأة اوهمته ان الملكة ترغب اشد الرغبة في الحصول على عقد تبلغ قيمته مليوناً وستمئة الف فرنك ولكن الملك يرفض ان يشتريه لها . فما كان من الكاردينال الا ان اشتراه لها ، وسلمه الى الكونتيس دو لاموت لكي تحمله الى الملكة . ولكن العقد اختفى . ولم يتمكن الكاردينال من دفع الثمن . واكتشفت المسألة ، فوضع في الباستيل ، ولكن البرلمان برأه فنفي من باريس ... وواضح ان الكونتيس لاموت La Motte بطلة هذه الفضيحة هي غير الكونت دو لاموت Lamothe « ديك » الصالون المشار اليه ... وهذا ما عناه المؤلف بقوله : ان الحزبيين يصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

** المركيزة دو بومبادور Pompadour عظية لويس الخامس عشر . وكان اخوها ماريني Marigny (١٧٢١ – ١٧٨١) المدير العام لمباني الملك .

*** Prince de Soubise مارشال فرنسة (١٧١٥ – ١٧٨٧) وكان خادماً مطواعاً للمركيزة دو بومبادور .

**** Maréchal de Richelieu مارشال فرنسة (١٦٩٦ – ١٧٨٨) لعب دوراً بارزاً في بلاطي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

اشبه بجبل الاولمب . فيه يستشعر كلٌّ من عطارد * والبرنس دو غومينيه أنه في بيته . إن اللص يُسمح له في الدخول الى هناك، شرط ان يكون إلـهاً .

ولم يكن الكونت دو لاموت ، الذي أوفى عام ١٨١٥ على الخامسة والسبعين ، ليمتاز بشيء غير صمته وإفراطه في إطلاق الحكم والامثال ، ووجهه البارد ذي الزوايا ، وسلوكه الممعن في اللطف ، وسترته المزرّرة حتى ربطةِ عنقه ، وساقيه الطويلتين المتصالبتين ابداً في بنطلون طويل رخوٍ ذي لون كاون تراب « سيينّا » ** المحروق . وكان وجهه من لون بنطلونه .

إن مسيو لاموت هذا كان « مبجّلًا » في ذلك الصالون بسبب من « شهرته » ، وبسببٍ من أن اسمه – وهو شيء غريب ، ولكنه صحيح – فالوا . ***

أما مسيو جيلنورمان فكان مديناً بالاحترام الذي أُحيط به لشخصه وحده ليس غير . لقد فاز بالاحترام لأنه جدير بأن يفوز بالاحترام . كانت له – برغم مرحهِ ، ومن غير ان يكلفه ذلك شيئاً من ابتهاجه – طبيعة مهيبة ، وقورٌ ، نزيهة ، متغطرسة على نحو بورجوازيّ ؛ ولقد ظهّرت شيخوختُه ذلك وقوّته . إن المرء لا يكون قرناً من الزمان على غير طائل . فالسنون تُلبس الرأس ، آخر الامر ، تاجاً من الوقار .

والى ذلك كله ، كان يطلق بعض تلك الكلمات التي تنطوي من غير

---

* Mercure ابن جوبيتر ورسول الالهة . وكان هو نفسه إله الفصاحة والتجارة واللصوص . وهو يقابل « هرمس » عند الاغريق .

** sienne تراب حديدي يتخذ منه مادة صبغية تكون سمراء ضاربة الى الصفرة في حالته الخام ، فاذا ما أحرق استخرج منه صبغ اسمر ضارب الى الحمرة .

*** Valois على اسم الاسرة الفرنسية المالكة التي تولت عرش فرنسة عام ١٣٢٨ في شخص فيليب السادس .

ريب على شرَرِ النسب العريق . وهكذا ، حين اقبل ملك بروسيا – بعد ان اعاد لويسَ الثامن عشر الى عرشه – لزيارته تحت اسم الكونت دو روبين استقبله المتحدرون من لويس الرابع عشر وكأنه مركيز من مراكزة براندبورغ ، تقريباً ، وفي جفاءٍ بالغ الرقة . وأقرّ مسيو جيلنورمان ذلك قائلاً : « **إن جميع الملوك ، الذين لا يتربعون على عرش فرنسة هم ملوك مقاطعات** . » ولقد نُطق بالسؤال والجواب التاليين في حضرته ، ذات يوم : « بِمَ حُكم على محرر الـ « **كوريه فرنسيه ؟** » – « بان تعطَّل جريدته » *à être suspendu* فما كان من مسيو جيلنورمان إلا ان قال : « ان *sus* هذه زائدة . » * إن اقوالاً من هذا النوع لتجعل للمرء مركزاً .

وفي « تسبحة شكر » سنوية لمناسبة عودة آل بوربون الى العرش ، قال عند رؤيته مسيو دو تاليران : « هوذا صاحب الفخامة **الشرّ** . »

وكان يرافق مسيو جيلنورمان ، عادة ، ابنته – هذه الآنسة التي تجاوزت آنذاك الاربعين وبدت وكأنها في الخمسين – وغلامٌ وسيم في السابعة ، أبيضُ ، متورد الوجنتين ، غض ، ذو عينين سعيدتين واثقتين ، كان لا يكاد يظهر في هذا الصالون حتى يسمع من حوله أزيزاً : « ما أجمله ! يا للخسارة ! يا له من طفل مسكين ! » وكان هذا الطفل هو الذي قلنا كلمة عنه منذ لحظة . كانوا يدعونه « الطفل المسكين ! » لأن أباه كان « قاطعاً من قطاع الطرق في اللوار » .

وكان « قاطع طريق اللوار » هذا هو صهر مسيو جيلنورمان ، الذي سبق ان اشرنا اليه ، والذي كان مسيو جيلنورمان يدعوه « عار أسرته » .

---

* يقصد انه كان ينبغي ان يُحكم عليه بالشنق *être pendu* لا بتعطيل الجريدة فحسب *être suspendu* ، لان حذف السابقة *sus* من فعل suspendre ينقل المعنى من « التعطيل » الى « الشنق » .

٢
احد اشباح ذلك العصر الحمراء

إن كل من ُقدِّر له ان يمرّ ، في تلك الحقبة ، بمدينة فيرنون الصغيرة وان يسير على ذلك الجسر الجميل الفخم الذي نرجو ان يحل محله في وقت قريب جسر رهيب من اسلاك الحديد ، قد لاحظ من غير ريب ، عندما خفض بصره من أعلى سور الجسر ، رجلًا في نحو الخمسين من العمر يعتمر بقبعة جلدية ذات حافة نائتة ، ويرتدي بنطلوناً وصدرة من جوخ رمادي غليظ خيطَ فوقها شيء اصفر كان في وقت ما عصابة حمراء ، وينتعل حذاء خشبياً ؛ رجلًا لوّحته الشمس ، ذا وجه يكاد يكون أسود وشعر يكاد يكون أبيض ، على جبينه نَدَبةٌ عريضة تمتد فتشغل جزءاً من خده ؛ رجلًا محدودب الظهر ، متقوساً ، ألمّت به الشيخوخة قبل الاوان يتمشّى كل يوم تقريباً ، وفي يده إما مسحاة وإما مدية لتشذيب الاغصان في أحد تلك البيوت المسورة المجاورة للجسر ، والمحيطة بضفة الـ « سين » اليسرى مثل سلسلة من السطائح – أحواش فاتنة ملأى بالرياحين يستطيع المرء ان يقول ، لو كانت اكبر كثيراً : انها حدائق ، ولو كانت اصغر قليلًا : انها باقات . وجميع هذه الاحواش تفضي ، من ناحيـــة ، الى النهر ومن ناحية اخرى ، الى بيت من البيوت . وإنما كان الرجل ذو الصُّدرة والحذاء الخشبي ، الرجل الذي تحدثنا عنه اللحظةَ ، يحيا حوالى عام ١٨١٧ في اصغر هذه الاحواش ، وفي اكثر تلك البيوت تواضعاً . كان يحيا هناك متوحداً منعزلاً ، يكتنفه الصمت والفقر ، مع امرأة ليست بالشابة وليست بالعجوز ، ليست بالجميلة وليست بالقبيحة ، ليست بالريفية وليست بالمدينية كانت تقوم على خدمته . وكان ذلك المربّـع من الارض الذي يدعوه

حديقته شهيراً في المدينة بجمال ازهاره التي كان يتعهدها بعنايته . لقـــد كانت الازهار موضوع اهتمامه .

وبالاكثار من العمل ، والمواظبة ، والانتباه ، ودلاء الماء ، وُفِّق الى ان يخلق بعد الخالق ، وكان قد اخترع بعض الزنابق والزهرات الدهلية التي بدت وكأن الطبيعة قد نسيتها . كان حاذقاً . ولقد سبق سولانج بودين الى تشكيل كتل صغيرة من التربة التي ينبت فيها الخلنج لاستنبات بعض الشجيرات النادرة الثمينة المجلوبة من اميركة والصين . فما إن يرتفع الضحى ، من كل يوم ، في فصل الصيف ، حتى يكون في ممرات حديقته يحفر ، ويشذّب الاغصان ، ويقتلع الاعشاب الطفيلية ، راوياً النباتات ، ماشياً وسط ازهاره في سيما من الطّيبة ، والحزن ، والرقة ، مستسلماً الى الاحلام في بعض الاحيان ، واقفاً لا يتحرك ساعات بكاملهـــا ، مصغياً الى انشودة طائر على شجرة أو زقزقة طفل في بيت ، او محدّقاً الى قطرة من ندىً على طرف نصـل من نصال العشب كانت الشمس تجعل منها ياقوتةً تجرية . كانت مائدته مهزولة جداً ، وكان يشرب اللبن اكثر مما يشرب الخمر . كان جديراً بابا طفل ان يحمله عـــلى الاستسلام ، وكانت خادمته تؤنبه . كان خجولاً الى حد جعله يبدو نفُوراً . وكان نادراً ما يغادر بيته ؛ وما كان ليرى احداً غير الفقراء الذين يخفقون زجاج نافذته بأصابعهم ، وغير كاهنه ، الأب مابوف ، وكان رجلاً عجوزاً طيباً . ومع ذلك فقد كان يفتح باب داره في ابتسامة كلما قرعه احدٌ من ابناء المدينة أو من الغرباء ، كائناً من كان ، يحدوه الفضول الى رؤية زنابقه ووروده . ذلك كان « قاطع طريق اللوار » .

وكل من قرأ ، في الوقت نفسه ، المذكرات العسكرية ، وسيَر

الرجال ، و « المونيتور » * ، وبلاغات « الجيش العظيم » ** الرسمية خليقٌ بأن يبدههُ اسمٌ كثيراً ما يتردد فيها ، هو اسم جورج بوغيرمي . ففي صدر الشباب ، كان جوورج بوغيرمي هـذا جندياً في كتيبة سينتونج . وانفجرت الثورة . وكانت كتيبة سينتونج تؤلف جزءاً من جيش الرين . ذلك ان كتائب النظام الملكي القديمة احتفظت باسمائها المنسوبة الى المقاطعات حتى بعد سقوط الملكية ، ولم توحَّد في ألوية إلا سنة ١٧٩٤ . وقاتل بوغيرمي في « سبير » ، و « وورمز » ، و « نوْيشتات » ، و « تور كهايم » ، و « آلزي » ، و « ميانس » حيث كان احد المئتين الذين شكلوا مؤخرة جيش هوشار *** . لقد صمد هو وأحد عشر مقاتلاً آخرين في وجه فيلق أمير هيسّ بكامله ، خلف متراس آندرناخ القديم ، ولم يرتدّ الى جمّاع الجيش إلا عندما احدثت مدافع العدو ثغرةً من أعلى السور الى منحدَره . وكان تحت امرة كليبر في مارشيينّ ، وفي معركة مون باليسيل حيث كسرت ذراعه بقذيفة من بندقية . ثم انتقل الى الحدود الايطالية ، وكان احد رماة القنابل الثلاثين الذين دافعوا عن شِعْب تاند مع جوبير **** . ورُقي جوبير الى رتبة

* Le Moniteur Universel الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية من السنة الثانية للجمهورية حتى عام ١٨٦٩ .

** هو الجيش الذي نظمه نابوليون عام ١٨٠٤ ابتغاء غزو بريطانية ، اول الامر ثم وجهه لشن الحملات العسكرية التي قام بها عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٦ . (وبعد عام ١٨٠٦ أُطلق على هذا الجيش اسم جيش الرين .) وقد خُلع هذا الاسم نفسه — الجيش المظيم Grande Armée — على الجيش الذي قاده نابوليون عام ١٩١٢ ، الى الروسيا .

*** Houchard جنرال فرنسي (١٧٣٨ — ١٧٩٣) هزم الانكليز في هوندشوت عام ١٧٩٣ ، ولكنه لم يطارد القوات المهزومة فاتهم بمداراة العدو ، وحكمت عليه المحكمة الثورية بالموت على المقصلة .

**** Joubert جنرال فرنسي (١٧٦٩ — ١٧٩٩) أبلى بلاء حسناً تحت إمرة نابوليون في الحملة الايطالية عام ١٧٩٦ .

جنرال معاون ، ورقي بوغيرسي الى رتبة ملازم ثانٍ . وكان بوغيرسي الى جانب بيرتييه * وسط وابل القذائف الذي انصبّ في معركة لودي ** تلك التي قال نابوليون عنها : « **كان بيرتييه مدفعياً ، وفارساً ، ورامي قنابل .** » لقد رأى جنراله القديم ، جوبير ، يخرّ صريعاً في « نوفي » ، لحظة كان يصيح ، شاهراً سيفه : « الى الامام ! » وإذ ركب هو وسَرِيّته ، بحكم ضرورات الحملة ، زورقاً شراعياً خفيفاً كان متجهاً من جنوا الى مرفأ صغير على الشاطىء ، فقد وقعوا في وكر مؤلف من سبعة مراكب او ثمانية مراكب شراعية انكليزية . وأراد الربان ان يلقي بالمدافع الى البحر ، وان يخبىء الجنود في الطبقة القائمة بين جسري المركب ، وينسلّ تحت جنح الظلام مثل سفينة تجارية . فما كان من بوغيرسي إلا ان ثبّت الراية المثلثة الالوان الى حبال سارية العلم ، ومرّ مختالاً تحت مدافع السفن الحربية البريطانية . حتى اذا اجتاز عشرين فرسخاً من هناك هاجم بزورقه الشراعي واعتَقَلَ – وقد تعاظمت جسارته – ناقلةً انكليزية ضخمة تحمل الجنود الى صقلية ، وكانت مثقلة بالرجال والخيل الى حد جعل كل زاوية فيها ملأى بمن تحمل ، حتى الفجوات المؤدية الى « عنبر » البضائع . وفي سنة ١٨٠٥ كان في فصيل مالمر ذاك ، الذي انتزع غونزبورغ من الآرشيدوق فيرديناند . وفي وتنجن تلقّى بين ذراعيه ، تحت وابل من القذائف ، الكولونيل مَوبيني الذي اصيب بجراح مميتة على رأس كتيبة الفرسان التاسعة . ولقد أبلى بلاءً حسناً في أوسترليتز ، اثناء ذلك الزحف الرائع الذي انتشر فيه الجنود انتشاراً مُعمقاً ، تحت نيران العدو . وحين سحقت خيالة الحرس الامبراطوري الروسي فوجاً من كتيبة المشاة الرابعة التي يحارب جنودها مصطفّين كان بوغيرسي بين اولئك الذين ثأروا لهذا الفوج

* Berthier مارشال فرنسة (١٧٥٣ – ١٨١٥) كان من اعوان نابوليون وقائداً من اكبر قواد « الجيش العظيم » .

** Lodi مدينة ايطالية انتصر فيها نابوليون على النمسويين في ١٠ نوار ١٧٩٦

والذين هزموا ذلك الحرس . ومنحه الامبراطور صليب الحرب . وعلى التعاقب رأى بونميرسي الى وورمسر* يقع أسيراً في مانتو ** ، وميلاس*** يقع اسيراً في الاسكندرية ، وماك يقع أسيراً في أولم . كان يؤلف جزءاً من الفيلق الثامن ، من الجيش المظيم ، الذي قاده مورتييه ****، والذي استولى على هامبورغ . ثم انتقل الى الكتيبة الخامسة والخمسين من كتائب الجند المقاتلين مصطفين ، تلك التي كانت من قبل كتيبة الفلاندر . وفي ايلو ***** كان في المقبرة التي قاوم فيها الرئيس الباسلُ ، لويس هيجو ، عمّ مؤلف هذا الكتاب ، هو وأفراد سريته وحدهم ، وعددهم ثلاثة وثمانون رجلاً ، مجهود الجيش العدوّ كله طوال ساعتين كاملتين . وكان بونميرسي واحداً من اولئك الثلاثة الذين خرجوا من تلك المقبرة على قيد الحياة . ولقد شهد معركة فريدلند ، ثم رأى موسكو ، ثم الـ « بيريزينا » ، ثم لوتزين ، وبوتزين ، ودرسدن ، وفاشاو ، وليبزغ ، وفجاج جيلينهاوزن ، ثم مونميراي ، وشاتو تييري ، وكراون ، وضفاف المارن ، وضفاف الأين ، والوضع الرهيب في لاون . وفي « آرنى لو دوك » ، وكان برتبة رئيس ، طعن عشرة من الجنود القوزاق بسيفه ، وانقذ من الموت عريفه لا جنراله . ولقد جُرح في تلك المناسبة ؛ ولقد استُخرجت سبع وعشرون شظية من ذراعه

---

* Wurmser جنرال نمسوي (١٧٢٤ – ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيغليون واكرهه بعد ذلك على الاستسلام في مانتو .

** Mantoue مدينة في ايطالية ، وقد استولى عليها بونابرت ، بعد ان هزم وورمسر عام ١٧٩٧

*** Baron de Mélas جنرال نمسوي (١٧٢٩ – ١٨٠٦) هزمه بونابرت في معركة مارانغو .

**** Mortier مارشال فرنسة (١٧٦٨ - ١٨٣٥) وقد خاض معركة فريدلند ، ولوتزن ، وليبزيغ .

***** Eylau مدينة في بروسية حيث هزم بونابرت (٨ شباط ١٨٠٧) القوات البروسية والروسية .

اليسرى وحدها . وقبل استلام باريس بثمانية ايام اجرى تبادلاً مع رفيق له ، ودخل سلاح الفرسان . كان له ما يدعى في النظام القديم «اليد المزدوجة» يعني انه كان بارعاً – بوصفه جندياً – في اصطناع السيف او البندقية ، وبارعاً – بوصفه ضابطاً – في قيادة كوكبة من الفرسان او فوج من المشاة . والحق ان هذه البراعة ، التي تنتهي بها الثقافة العسكرية الى حد الكمال ، هي التي تخلق بعض الاسلحة الخاصة ، كسلاح « التنانين » مثلاً الذي يتألف من جنود هم خيالة ورجالة في وقت معاً . لقد رافق نابوليون الى جزيرة ألبا . وفي واترلو ، قاد كوكبة فرسان دارعين في لواء دوبوا . وكان هو الذي انتزع الراية من فوج لونبورغ . لقد طرح الراية على قدمي الامبراطور ، وكان مضرجاً بالدم ، فقد اصيب ، وهو ينتزع الراية ، بضربة سيف عبر وجهه . وصاح الامبراطور يخاطبه ، وقد غلبه السرور : « **أنت كولونيل ؛ انت بارون ؛ انت ضابط في جوقة الشرف !** » واجاب بونميرسي : « **مولاي ، إني اشكرك بالنيابة عن ارملتي** ». وبعد ساعة سقط في وادي أوهين . فمن كان جورج بونميرسي هذا ؟ لقد كان « قاطع طريق اللوار » ذاك نفسه .

لقد روينا ، من قبلُ ، شيئاً من قصته . فبعد واترلو أُخرج بونميرسي ، كما نذكر ، من طريق أوهين الغائرة ووفّق الى اللحاق بالجيش ، فنُقِل من عربة إسعاف الى عربة إسعاف حتى بلغ معسكر الجند الموقت في اللوار .

وخفضت حكومة آل بوربون تعويضاته ، ثم ارسلته الى فيرنون ليقيم فيها إقامة جبرية ، تحت الحراسة . وإذ انكر الملك – لويس الثامن عشر – كل ما تمّ خلال « الأيام المئة » ، فأنه لم يعترف لا بمنزلته كضابط في جوقة الشرف ، ولا برتبته ككولونيل ، ولا بلقبه كـ « بارون » . أما هو فلم يغادر فرصة إلا وقّع فيها اسمه هكذا : **الكولونيل البارون بونميرسي** . ولم يكن عنده غير سترة زرقاء عتيقة ،

وما كان ليخرج من بيته البتة من غير ان يعلّق عليها العقدة الوردية الشكل المؤذنة بأن حاملها ضابط في جوقة الشرف . وأعلمه النائب العام أن النيابة سوف تلاحقه لانه يزين صدره ، « على نحو غير شرعي » ، بهذا الوسام . فلما حمل اليه احد الوسطاء غير الرسميين هذا الاعلام اجابه بونغيرسي في ابتسامة مريرة : « يخيل اليّ ان ثمة واحداً من امرين : إما ان اكون أنا لم اعد افهم الفرنسية ، وإما ان تكونوا انتم لم تعودوا تتكلمونها . ولكن الامر الذي لا ريب فيه هو اني لا أفهمكم . » ثم راح يخرج من بيته ، يومياً ، طوال اسبوع ، معلقاً تلك العقدة الوردية . ولكن احداً لم يجرؤ على إزعاجه . ومرتين او ثلاث مرات كتب اليه وزير الحرب أو الجنرال قائد القوات في المقاطعة موجهاً الخطاب على النحو التالي : « **السيد الكومندان بونغيرسي** » . فكان يعيد الرسائل الى مصدرها من غير ان يفضّها . وفي تلك الآونة نفسها كان نابوليون في سانت هيلانة يقف الموقف ذاته من رسائل « السير هدسون لو » المعنونة : **الى الجنرال بونابرت** . وأخيراً انتهى بونغيرسي — وليغفر لنا القارىء هذه الكلمة — الى ان يجد في فمه اللُعاب نفسه الذي وجده امبراطوره .

ولقد كان في رومة ، كذلك ، بضعة اسرى من الجنود القرطاجيين رفضوا الانحناء لفلامينيوس * وكانت تعتلج في صدورهم نفحة من روح هنّيبعل .

وذات صباح التقى النائبَ العام في احد شوارع فيرنون ، فمضى اليه وقال : « سيدي النائب العام ، هل يجاز لي ان احمل نَدَبتي ** ؟ »

---

* Flaminius قائد روماني (٢٣٠ ؟ — ١٧٤ ق . م) وقد تولى منصب (قنصل) في عام ١٩٨ ق . م .

** الندبة : اثر الجرح الباقي على الجلد .

ولم يكن لديه غير نصف راتبه المزيل جداً والذي كان يقدّم اليه بوصفه قائد كوكبة فرسان ؛ ولقد استأجر اصغر بيت استطاع ان يجده في فيرنون . وهناك عاش وحده على النحو الذي وصفنا منذ لحظة . ففي عهد الامبراطورية ، بين حربين اثنتين ، وجد متسعاً من الوقت لأن يتزوج الآنسة جيلنورمان . ولقد اقر البورجوازيُّ العجوز ، الذي استبد به السخط ، ذلك الزواجَ ، وقال وهو يُطلق زفرة : « ان اعظم الاسَر تُكره على ذلك . » وفي عام ١٨١٥ ، توفيت مدام بونميرسي — وكانت امرأة معجِبة من كل ناحية ، مثقفة ونادرة المثـــال ، جديرة بزوجها — مخلفةً وراءها طفلاً ، وكان هذا الطفل خليقاً بأن يكون بهجة الكولونيل في عزلته ، ولكن الجد طالب بحفيـــده في صلف ، معلناً أنه إذا لم يفُز به فسوف يحرمه الميراث . واذعن الأب حرصاً منه على مصلحة الفتى . حتى اذا حُرم ابنَه انشأ يحب الرياحين .

والى ذلك ، فقد هجر كل شيء فهو لا يتحرك ، وهو لا يتآمر مع الآخرين . لقد وزع افكاره بين الاشياء البريئة التي يقوم بهـــا ، والاشياء العظيمة التي قام بها . لقد سلخ وقته آملاً ان يبتدع قرنفلة ، او متذكـّراً اوسترليتز .

ولم يكن لمسيو جيلنورمان ايما اتصال بصهره . كان الكولونيـل ، في نظره ، « قاطع طريق » ، وكان هو ، في نظر الكولونيـــل ، « رجلاً متبلد الذهن » . ولم يتحدث مسيو جيلنورمان الى الكولونيل قط ، إلا لـكي يشير ، في بعض الاحيـــان ، اشاراتٍ ساخرة الى « بارونيّته » . وكان مفهوماً على نحو واضح جداً ان بونميرسي يجب ان لا يحاول رؤية ابنه او التحدث اليه البتة ، والا طُرد الفتى وحرم الميراث . لقد كان بونميرسي عند آل جيلنورمان ، مصاباً بالطاعون . ولقد رغبوا في ان ينشّئوا الطفل كما يحلو لهم . ولعل الكولونيل قد اخطأ في قبول هذه الشروط ، ولكنه اذعن لارادتهم معتقداً أنه يحسن

صنعاً ، وانه يضحّي بنفسه ليس غير . ولم يكن ميراث جيلنورمان الجد شيئاً مذكوراً ، ولكن ميراث الانسة جيلنورمان الكبرى كان ذا شأن . فقد كانت هذه الخالة التي ظلت عذراء ، موسرة جداً من ناحية أمها ، وكان ابن شقيقتها هو وريثها الطبيعيّ .

وعرف الطفل ، الذي يدعى ماريوس ، ان له أباً ولكنه لم يعرف شيئاً اكثر من ذلك . إن احداً لم يقل له كلمة عنه . ومع ذلك ، ففي المجتمع الذي كان جده يصطحبه اليه ، وفّقت الهمسات ، والتلميحات ، والغمزات الى ان تنوّر الفتى الصغير ، آخر الأمر . لقد انتهى الى ان يدرك شيئاً . وإذ تشرّب على نحو طبيعي – بضرب من الترشح والتسرّب البطيء – الافكارَ والآراء التي شكلت ، اذا جاز التعبير ، مداه التنفسي ، فقد أمسى شيئاً فشيئاً ، لا يفكر بأبيه إلا في خجل وفي انقباض صدر .

وفيما كان الفتى يشبّ على هذا النحو ، كان الكولونيل يفرّ – كلّ شهرين او ثلاثة اشهر – ويفِدُ خلسةً على باريس ، وكأنه مجرم قديم يغادر مكان إقامته الاجبارية ، ليمضي الى سان سولبيس ، ساعةَ كانت الخالة جيلنورمان تصطحب ماريوس الى القداس . هناك كان يرى طفله ، وهو يرتجف خشية ان تلتفت الخالة الى الوراء ، ويختفي خلف احد الأعمدة ، جامداً لا يتحرك ، غيرَ واجد في نفسه الجرأة على ان يتنفس . كان المحارب القديم ذو الندبة يخاف هذه العانسَ العجوز .

ومن هنا ، في الواقع ، نشأت صلتُهُ بكاهن فيرنون ، الأب مابوف .

وكان هذا الكاهن الفاضل أخاً لوكيل كنيسة سان سولبيس ، الذي لاحظ ذلك الرجلَ ، عدة مرات ، يحدّق الى هذا الغلام كما لاحظ النَدَبة التي على خده ، والعبرات الكبار التي في عينيه . وكان هذا الرجلُ – الذي كانت له سيما رجلٍ حقاً والذي بكى مثل امرأةٍ – قد لفت انتباه وكيل الكنيسة . ولم يبرح ذلك الوجهُ ذاكرته . وذات يوم ، وكان قد شخصَ الى فيرنون ليرى اخاه ، التقى بالكولونيل

بوغيرسي على الجسر فعرف فيه رَجُلَ سان سولبيس . وحدّث وكيل الكنيسة أخاه في ذلك ، فقام كلاهما ، تحت ستار ذريعة من الذرائع ، بزيارة للكولونيل . وأدت هذه الزيارة الى زيارات أخرى . وما لبث الكولونيل ، الذي اعتصم بادىء الامر بتحفظ شديد ، أن باح بمكنون صدره ، فعرف الكاهن روكيل الكنيسة القصة كلها ، وكيف ضحى بوغيرسي بسعادته من أجل مستقبل ولده . وكان من نتيجة ذلك أن استشعر الكاهن إجلالاً له وحنواً عليـــه ، وان استشعر الكولونيل بدَوره مودةً للكاهن . والى هذا ، فحين يتفق أن يكون كلٌ مـن الكاهن القديم والجندي القديم مخلصاً وصالحاً ، فليس ثمة ما يتمازج ويلتغم اكثر مما يتمازجان ويلتغمان . إنهما ، في الاساس ، ينتسبان الى ضرب واحد من الرجال . لقد وقف احدهما نفسه للوطن الذي عـلى الارض ، ووقف الآخر نفسه للوطن الذي في السماء . ولا فرقَ غير ذلك .

ومرّتين كل عام ، في اليوم الاول من كانون الثـــاني وفي عيد القديس جورج ، كان ماريوس يكتب رسائل بنوية الى ابيه — رسائل كانت خالته تمليها ، وكان في ميسور المرء ان يزعم أنها منقولة عن واحد من تلك الكتب التي تقدم الى الناس نماذج مختلفة من الرسائل الجاهزة. ذلك كان كلّ ما سمح به مسيو جيلنورمان . ولقد كان الوالد يجيب برسائل تفيض حناناً كان الجد يقحمها في جيبه من غير ان يقرأها .

٣

« لقد رقدوا في سلام »

كان صالون مدام دو تـ .... كلّ ما عرفه ماريوس من العـــالم . كان الكوة الوحيدة التي استطاع ان يطلّ منها على الحيـاة . وكانت

هذه الكوة قاتمة ، وكان يخترقها البرد اكثر مما يخترقها الدفء ، وينفذ منها الظلام اكثر مما ينفذ النور . ومـا لبث الطفل – الذي كان عند دخوله هذا العالم الغريب مجرد بهجة وضياء – أن أمسى محزوناً ، وان أمسى – وهو ما يتناقض مع سنه اكثر – وقوراً رصيناً . لقد وجد نفسه محوطـاً بجميع هؤلاء الاشخاص المهيبين الغريبين ، فراح ينظر في ما حوله بدهش جديّ . وتضافر كل شيء لزيادة هذا الذهول . فقد كان في صالون مـــدام دو تـ .... سيدات عجـــائز نبيلات موقّرات يُدعَيْن « ماتان » و « نوح » و Lévis التي كانت تلفظ « ليفي » ، و Cambis التي كانت تلفظ كامبيس . وامتزجت هذه الوجوه العتيقة وهذه الاسماء التوراتية في ذهن الطفل بـ « العهد القديم » الذي كان قد شرع يحفظه عن ظهر قلب . وحين كان عقدهن ينتظم في حلقـــة حول نار محتضَرة ، وفي ضوء مصباح باهت مظلّل بلون اخضر ، وقد بدت صورهن الجانبية الصارمة وشعورهن الرمادية حيناً ، البيضاء حيناً آخر ، واثوابهن الطويلة التي جُعِلت لعصر آخر ، والتي ما كان في مستطاع المرء ان يتبين منها غير الألوان الحدادية ، وراحت تندّ من افواههن بين الفينة والفينة كلمات فخيمة وكالحة في وقت معـاً ، كان ماريوس الصغير ينظر اليهن بعينين مروّعتين حاسباً انه يرى لا نسوةً ولكنْ آباء ومجوساً ، لا كائنات حقيقية ، ولكن اشباحاً .

وبين هاته الاشباح انتثر عددٌ من الكهنة الذين كان مـــن دأبهم أن يختلفوا الى هذا الصالون العتيق ، وعددٌ من الأشراف : المركيز دو ساسني ، سكرتير الاسعاف الخاص بمدام دو برّي ؛ والفيكونت دو فالوري الذي نشر تحت اسم « شارل انطوان » المستعـــار بعض القصائد الوحيدة القافية ؛ والبرنس دو بوفرومون الذي كان شعره قـد خالطه الشيب برغم انه ما يزال شاباً والذي كانت له زوجة جميلة ذكية كان ثوبها المخملي القرمزي ذو الحواشي الذهبية الـكاشف عن جزء غـــير

يسير من الصدر يُجفّل هذه الظلمات ؛ والمركيز دو كوريوليس ديسبينوز ، خير من فهم ، في فرنسة ، « الكياسة المتعادلة » ؛ والكونت داماندر الرجل الطيب ذو الذقن الخيّرة ؛ والفارس دو بور دو غي الكثير التردّد على مكتبة اللوفر المدعوّة مكتبة الملك . وقد روى مسيو دو بور دو غي ، الأصلع ، الهرم اكثر منه طاعناً في سنّ ، انه أرسل في عام ١٧٩٣ ، حين كان في السادسة عشرة ، الى سجن الاشغال الشاقة بوصفه « متمرداً » ، وقُيّد بالحديد مع رجل في العقد التاسع من عمر هو الاسقف ميرْبوا ، وكان متمرداً ايضاً ، ولكنْ ككاهن ، على حين كان هو متمرداً كجنديّ . وكان ذلك في طولون . وكانت مهمتهما ان يذهبا الى المقصلة ليلاً ، ويجمعا رؤوس اولئك الذين أُعدموا ذلك النهار وجثثهم . كانا يحملان هذه الابدان القاطرَ منها الدم على ظهريهما ، وكانت قلنسُوَتاهما الأشغاليتان الحمراوان تعلوهما ، من وراء ، طبقةٌ من الدم ، جافةٌ في الصباح ، نديّة في الليل . وكانت هذه الحكايات الفاجعة تغزر في صالون مدام دو ت ... وبحكم الاكثار من لعن مارا * انتهوا الى ان يصفقوا لـ « تريستايون » ** . ولقد لعب بعض النواب الذين هم من نوع يتعذر وجوده لعبة الـ « هويسْت » * هناك : مسيو تيبور دو شالار ، ومسيو لومارشان دو غوميكور ، ومتهكم اليمين الشهير مسيو كورنيه دينكور . وكان قاضي فوريت ، ببنطلونه قصير ورجليه المهزولتين ، يمرّ أحياناً بهذا الصالون في طريقه ، بيت مسيو تاليران . كان رفيقَ اللهو للكونت دارتوا ؛ وعلى نقيض ارسطو الجاثي أمام كامباسب **** حَمَلَ « لا غيمار » ***** على ان يزحف على يديها

---

*و** مارا احد وجوه الثورة الفرنسية البارزين ، وتريستايون احد زعماء العصابات الملكية ، وقد سبق التعريف بها .

*** whist ضرب من لعب الورق .

**** Cambasbe او Pancaste خليلة الاسكندر المقدوني .

*** Marie — Madeleine Guimard راقصة الاوبرا الفرنسية الشهيرة (١٧٤٣-١٨١٦)

ورجليها . وهكذا مكن الاجيال من ان ترى فيلسوفاً يثأر له احد القضاة .

اما جماعة الكهان فكان يمثلها الأب هالما ، وهو الرجل نفسه الذي قال له مساعده في « الصاعقة » ، مسيو لاروز : « **عجباً ! ومن الذي لم يبلغ الخمسين من العمر ؟ بعض الغلمان الاغرار ، ربما !** » ويمثلهـا ايضاً الأب لوتورنير ، واعظ الملك ؛ والأب فريستّينو الذي لم يكن قد أمسى بعدُ لا كونتاً ، ولا اسقفاً ، ولا وزيراً ، ولا عضواً في مجلس الاعيان ، والذي كان يرتدي ثوباً كهنوتياً عتيقاً يعوزه بعض الازرار ؛ والأب كيرافنان ، كاهن سان جرمان دو بريه . والى جانب هؤلاء كان السفير البابوي ، وكان في ذلك الحين مونسينيور ماتشي ، وكبير اساقفة نيزيبي الذي اصبح بعدُ كاردينالاً ، والمتميز بانفه الطويل المستغرق في التفكير ، وصاحب سيادة آخر يحمل هذه الالقاب : « الآبات بالميري ، حبرٌ أهليّ ، أحد القيّمين السبعة المشاركين في مكتب الوثائق بالكرسي الرسولي ؛ كاهن قـانوني في الكنيسة الملكية الليبرية ، محـامي القـديسين *Postulatore di Santi* وهي رتبة يناط بها أمر إعلان القداسة وتعني تقريباً مقدّم العرائض الى قسم الجنة . واخيراً كان ثمة كاردينالان : مسيو دو لا لوزيرن ، ومسيو دو كليرمون تونّير . وكان الكاردينال دو لا لوزيرن كاتباً ، ولقد كان له بعد ذلك بسنوات شرف توقيع بعض المقالات في صحيفة « المحافظ » *Conservateur* جنباً الى جنب مع شاتوبريان . وكان مسيو دو كليرمون تونير كبير اساقفة تولوز ، وكثيراً ما كان يفـد على باريس لقضاء فصل الصيف فيهـا عند اخيه المركيز دو تونير ، الذي كان وزيراً للبحرية والحربية . وكان الكاردينال دو كليرمون تونير عجوزاً قميء الجسم مرحاً يكشف عن جوربه الاحمر تحت ثوبه الكهنوتي المرفوع . ومن فرائده كرهه الشديد للأنسيكلوبيديا * ، ولعبه اليائس في

---

* هي دائرة المعارف الشهيرة التي وضعها (١٧٥١ - ١٧٦٦) دالامبير وديدرو بالاشتراك مع فولتير ، ومونتيسكيو ، وروسو وغيرهم . وقد كان لها ابعد الاثر في تنوير العقل الفرنسي والتمهيد للثورة .

البيليارد. وكان الناس الذين مرّوا في ذلك العهد ، في ليـالي الصيف ، بـ « شارع السيدة » حيث كان آنذاك « فندق كليرمون تونير » يقفون ليسمعوا تصادم الكُرات ، وصوت الكاردينال الحاد يصيح مخاطباً مساعده مونسينيور كوتريه ، اسقف كاريستا من غير أبرشية : « **أنظر ، ايهـا الاب ، لقد أصبت الكرتين في وقت واحد.** » وانما اصطحب الكاردينالَ دو كليرمون تونير ، اول مرة ، الى صالون مدام دو تـ .... صديقُـهُ المقدَّم عنده ، مسيو دو روكلور ، اسقف سينليس السابق ، وأحد الاربعين الخالدين. وكان مسيو دو روكلور جديراً بالاعتبار لقامته الفارعة ومواظبته على حضور جلسات الاكاديمية . ومن خلال البـاب الزجاجي ، قرب المكتبة ، حيث كانت الاكاديمية تعقد جلساتهـا آنذاك ، كان في ميسور الفضوليين ان يروا ، كل خميس ، اسقف سينليس السابق واقفاً ، في الاغلب ، منضوحاً بالذرور منذ قريب ، مرتدياً جورباً بنفسجياً ، موليـاً البابَ ظهرَهُ ، ولعل مراده من ذلك ان يُظهر قَبّتَهُ الصغيرة احسن ما يكون الأظهار. والواقع ان هؤلاء الاكليركيين جميعاً ، على الرغم من ان اكثرهم كانوا رجال بلاط بقدر ما كانوا رجال كنيسة ، زادوا في رصانة صالون دو تـ .... ، هذه الرصانة التي اكدها خمسة من اعضاء مجلس الاعيان الفرنسي هم المركيز دو فيبراي ، والمركيز دو تالارو ، والمركيز ديربوفيل ، والفيكونت دامبري ، والدوق دو فالانتينوا . وكان الدوق دو فالانتينوا هذا ، برغم انه امير موناكو ، يعني برغم انه امير أجنبي ، يُجِلّ فرنسة وهيئة اعيانها إجلالاً عظيماً الى درجة جعلته يرى كل شيء من خلالها . وكان هو الذي قال : **ان الكرادلة هم « اعيان فرنسة » الرومانيون ، واللوردات هم « اعيان فرنسة » الانكليز.** واخيراً ، ولما كان من الواجب ان تُثبت الثورة وجودها في هذا القرن ، في كل مكان ، فقد كان هذا الصالون الاقطاعي يسيطر عليه ، كما قلنا ، رجل بورجوازيّ . لقد تربع مسيو جيلنورمان على العرش هناك .

كان ثمة جوهرُ المجتمع الباريسي « الشّرعيّ » . فقد كان مُجال بين كثير من الشخصيات الشهيرة ، على الرغم من نزعتها الملكية ، وبين الدخول اليه . ففي الشهرة فوضويةٌ دائماً . ولو قد دخل شاتوبريان الى هناك ، اذن لترك مثل ذلك الاثر الذي يجدر بـ « الأب دوشين » * ان يتركه . ومع ذلك ، فقد تسرّب بعض المنضوين الجدُد تحت لواء الملكية الى ذلك العالم « الصحيح المعتَقَد » بشيء من التسامح . ولقد استُقبِل الكونت بونيو ، هناك ، بمنّةٍ خاصة .

إن صالونات اليوم « النبيلة » لا تشبه تلك الصالونات على الاطلاق . ففضاحية سان جيرمان الحاضرة تفوح منها رائحة الهرطقة . إن ملكيي اليوم هم — ولنقلْها إعجاباً بهم — ديماغوجيون يتظاهرون بخدمة الشعب لاستمالته اليهم .

وفي صالون مدام دو ت .... ، حيث المجتمع رفيعٌ سامٍ ، كان الذوق مصفّى متشامخاً تحت زخرف عريض من المجاملة . وكانت عادات القوم هناك تقتضي مختلف ضروب الرقة ، المبالغ فيها ، على نحو لا إراديّ : هذه الضروب التي كانت هي النظام القديم نفسه ، دفيناً ، ولكنه حيّ . وبعض هذه العادات ، في اللغة بخاصة ، كانت تبدو مضحكة . ولقد كان خليقاً بالملاحظين السطحيين ان يحسبوا كلاماً ريفياً بعضَ ما هو كلامٌ عتيق ليس غير . فقد كان قُصّاد ذلك الصالون يدعون امرأةً ما : « السيدة الجنرالة » . ولم تكن « السيدة الكولونيل » خارج نطاق الاستعمال تماماً . وكانت مدام دو ليون الفاتنة ، إحياءً منها لذكرى دوقة لونغفيل ودوقة شيفروز من غير شك ، تؤثر هذه التسمية على لقبها بوصفها أميرة . وكانت المركيزة دو كريكوي ، هي الاخرى ، تدعو نفسها « السيدة الكولونيلة » .

---

* *le Père Duchesne* صحيفة سياسية كان يصدرها « هيبير » اثناء الثورة الفرنسية ، وقد سبق التعريف بها .

كان ذلك المجتمع الصغير السامي هو الذي اخترع في التويلري تلك الدماثة التي تقضي بأن يقال دائماً ، حين يُتحدث الى الملك في ألفة : **الملك** ، بضمير الغائب ، وليس **جلالتكم** على الاطلاق ، ذلك لأن هذا اللقب ، **جلالتكم** ، قد « دنّسه الغاصب » .

كان القوم يحاكمون الحقائق والناس ، هناك . لقد سخروا من العصر ، وهو ما أسقط عنهم واجب فهمه . وكانوا يتعاونون على الدهش . كان كل منهم يُطْلِع سائر الجماعة على ما عنده من معرفة . كان ميتوشالح * يعلّم أبيمينيد . ** وكان الأصمّ يزوّد الأعمى بالانباء . ولقد أعلنوا ان الزمن الذي كرّ منذ كوبلنتز *** لم يتصرّمْ قط . وكما كان لويس الثامن عشر ، بنعمة الله ، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكمه ، فكذلك كان « المهاجرون » في السنة الخامسة والعشرين من شبابهم ، قولاً واحداً .

كان كل شيء متناغماً . إن شيئاً ما ، لم يكن حيوياً اكثر مما ينبغي . كان الكلام نفَساً أو يكاد . وكانت الصحيفة ، المتساوقة مع الصالون ، تبدو وكأنها ورقة من اوراق البرديّ . كان ثمة شبان ، ولكنهم كانوا امواتاً بعض الشيء . وفي غرفة الانتظار ، كانت الخادمات عجائز . فقد كانت هذه الشخصيات ، التي ولى زمانها نهائياً ، تُخدَم بايدي أناس من الطراز نفسه . وكان ذلك كله تبدو عليه سيما من عاش منذ

---

* من شخصيات التوراة ، وكان جدّ نوح ، وقد عاش في ما رووا ٩٦٩ سنة . وقد غدا اسمه علماً على كل من عمّر دهراً طويلاً .

** Epiménide فيلسوف كريتي من اهل القرن السابع قبل الميلاد ، وكان شخصية نصف اسطورية ، فقد زعموا انه كان ابن حورية من حوريات الماء ، وانه نام سبعاً وخمسين سنة في احد الكهوف . وكثيراً ما يشار الى نوم أبيمنيد **ويقظته** وخصوصاً في لغة السياسة .

*** Coblentz مدينة المانية تجمعت فيها ، عام ١٧٩٢ ، حشود النبلاء المهاجرين وشكلت « جيش كونديه » الملكي ، وقد سبق التعريف بها .

دهر بعيد جداً ، فهو يعاند القبر . كانت هذه الالفاظ ، حافظ ، محافظة ، محافظ ، هي القاموس كله تقريباً . وكان تمتّع المرء بالصيت الحسن هو النقطة الجوهرية . والواقع أنه كان ثمة بعض الطيب في آراء هـــذه الجماعات الجليلة ، وكانت أفكارهم تفوح منها رائحة الاعشاب المنـدية . كان عالـَماً مومياثياً . كان السادة محنّطين ، وكان الخـــدم محشوّين بالتبن .

وكانت مركيزة عجوزٌ فاضلة – احدى المهاجرات اللواتي افتقرن – تواصل القول : « شعبي » وهي التي لم يبق عندها الآن غـــير خادمة واحـدة .

ايّ شيء كانوا يفعلون في صالون مدام دو ت ... ؟ كانوا متطرفين مغالين في التطرف .

والواقع ان كون المرء مغالياً في التطرف – على الرغم من ان ما يمثله هذا التعبير قد يكون قائماً ما يزال – فقد اليوم معناه . فلنوضح ذلك .

إن المغالاة في التطرف هي ان تجاوز المطلوب . إنها ان تهاجم الصولجان باسم العرش ، وتاج الاسقف باسم المذبح . إنها ان تسيء الى من تدعمه . إنها أن ترفس وسط سيور العربة . إنها أن تماحك – أمام ركام الحطب المكدّس لاحراق المجرمين – في درجة اكتواء المراطقة . إنها أن تعيب على الصنم قلة صنميته . إنها ان تُحقر بدافع من الافراط في الاحترام . إنها لا تجد في البابا مقداراً كافياً من البابوية ، وفي الملك مقداراً وافياً من الملكية ، وأن تجد في الليل قدراً من النور اكثر مما ينبغي . إنها أن تستاء من حجر الشطوط * ، من الثلج ، من التّم ** من الزنبق ، باسم البياض . إنها ان تكون مؤيداً للاشياء الى حد ان تصبح عـــدوّاً لها .

---

* ضرب من الرخام الابيض الشفاف . ويعرف في الفرنسية بـ albâtre

** طائر مائي شديد البياض يشبه الاوز ولكنه اطول منه عنقاً . وهو يعرف في اللغات الاجنبية بـ cygne

إنها أن تغلو في الموالاة حتى تنتهي الى المعارضة .

إن روح « التطرف المغالى فيه » خاصةٌ فريدة من خصائص الصدر الاول من عهد عودة آل بوربون الى العرش .

والواقع ان التاريخ لم يعرف شبيهاً لهذه الفترة القصيرة ، التي بدأت عام ١٨١٤ وانتهت حوالى ١٨٢٠ بمجيء مسيو دو فيليل * ، رجـــل « اليمين » العمليّ ، الى الحكم . لقد كانت هذه السنوات لحظةً خارقة للعادة ، فهي مشرقة ومظلمة في آنٍ معاً ، ضاحكـة وعابسة ، مضاءة بمثل اشعة الشمس ، ومغلّفة في الوقت نفسه بظلام الكوارث الكبرى التي كانت ما تزال تملأ الافق على الرغم من أنها كانت تدفن نفسها ، على مهل ، في غياهب الماضي . كان ثمة في ذلك الضوء وفي ذلك الظل عالم صغـير نسيجُ وحده ، عالمٌ حديثٌ عتيق ، بهيجٌ محزونٌ ، فـتيّ هرم ، يفرك عينيه ، فليس من شيء يشبه الاستيقاظ اكثر من العودة . كانت هناك جماعة تنظر الى فرنسة في سخط ، على حين تنظر فرنسة اليها في سخرية. وكانت الشوارع ملأى بمراكزةٍ كالبُوم صالحين عجائز ، ومهاجرين قد عادوا ومهاجرين في سبيلهم الى العودة ، وبجمهرة من المتعلقين باهداب النظام القديم ذاهلين منشدهين أمام كل شيء . رجال ذوو نبالة وشجاعة يبتسمون لوجودهم في فرنسة ويبكون عليها ايضاً . لقد اسعدهم ان يروا وطنهم كرةً أخرى ، واستبدّ بهم اليأس لأن ابصارهم لم تعد تقع على نظامهم الملـكي . كان نبلاء الحروب الصليبية يبصقون على نبـــلاء الامبراطورية ، يعني على نبلاء السـيف ؛ وكانت الأعراق التاريخيـــة تفقد معنى التاريخ ؛ وابناء رفاق شارلمان يحتقرون رفاق نابوليون . لقد

---

* Comte de Villèle سياسي فرنسي (١٧٧٣ – ١٨٥٤) كان زعيماً للفئـــات الملكية المغالية في التطرف ، بعد عوده آل بوربون الى العرش . وقد تولى رئاسة الوزارة من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ .

تبادلت السيوف ، كما ذكرنا ، الشتائمَ والاهانات . كان سيف فونتنوا * مضحكاً ، ولم يكن غير صدأ ؛ وكان سيف مارانغو ** بغيضاً ، ولم يكن غير حسام . لقد أنكرت الايام السالفة يومَ امس . ولم يبقَ ثمة لا احساسٌ بما كان عظيماً ، ولا احساس بما كان مضحكاً . كان هناك من اطلق على بونابرت اسم سكابين *** . لقد انقضى ذلك العالم . إن شيئاً ما — ونكرّر ذلك — لم يَبق منه اليوم . وحين يتفق لنا ان نرسم صورة عنه ، وان نجعلها تعيش كرةً ثانية في أذهاننا ، يبدو غريباً لدينا مثل عالم سابق للطوفان . وفي الحق ، ان طوفاناً قد ابتلعه هو الآخر . لقد اختفى تحت ثورتين . أيّ فيضانات هي الكلمات ! ما أسرع ما تغمر كلَّ ما يُوكَلُ اليها هدُمه ودفنه ، وما اعجل ما تخلق الأعماقَ المروّعة !

تلك كانت سيما الصالونات في تلك العهود النائية الساذجة ، عند ما كان مسيو مارتينفيل **** اشد ذكاء من فولتير .

كان لتلك الصالونات ادبها الخاص وسياستها الخاصة . كانت تؤمن بـ « فييفيه » ***** . وكان مسيو آجيه يضع القوانين لها .

لقد انتقدت مسيو كولنيه ، الصحافي المتاجر بالكتب القديمة في « كي مالاكيه » . ولم يكن نابوليون عندهم غير « غول كورسيكة » . وفي ما

---

* Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم المارشال دو ساكس في حضرة لويس الخامس عشر الانكليز والهولنديين سنة ١٧٤٥ وقد سبق التعريف بها .

** احدى المعارك الشهيرة التي انتصر فيها بونابرت ، وقد سبق التعريف بها .

*** Scapin احدى شخصيات الكوميديا الايطالية وهي تمثل خادماً ذا حيل ومؤامرات . وقد قدم موليير هذه الشخصية في مهزلته المسماة « مخاتلات سكابين » .

**** Martainville صحافي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ — ١٨٣٠) . كان ملكياً متحمساً ، ولقد اسس عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » .

***** Fiévée صحافي واديب فرنسي (١٧٦٧ — ١٨٣٩)

بعد كان إدخال المركيز دو بنوُونابرت ، قائد قوات الملك العام ، الى دنيا التاريخ ، اذعاناً لروح العصر .

ولم تحتفظ هذه الصالونات بصفائها دهراً طويلاً . فمنذ عام ١٨١٨ شرعت بعض العناصر المتحررة في اعتدالٍ تنبت بينهـا ، مشكّلة نوعاً مزعجاً . وكان اسلوب هؤلاء يقتضيهم ان يكونوا ملكيين وان يلتمسوا العـذر بسبب من ذلك . فحيث كان المغالون في التطرف شديدي الزهو ، كانت هذه العناصر المعتدلة في تحررها خجلة بعض الشيء . كانوا ذوي ذكاء ، وكانوا يعتصمون بالصمت ، وكانت عقائدهم السياسية ُمنشّاة" بالكبرياء على نحو لائق . وكان ينبغي ان يوفقوا الى النجاح . لقد انهمكوا في ما كان ملائماً من نواح اخرى : الافراط في عُقد الرقبة البيضاء وفي السترات المزررة . والواقع ان غلطة هذا الحزب المتحرر ، أو مصيبته ، كانت خَلـْقَ الشباب الهرم . لقد اتخذ رجاله اوضاع الحكماء . ولقد حلُموا بأن يلقّحوا مبدأ السلطة المطلقة المفرطة ليفوزوا منه بسلطة معتدلة . لقـــد عارضوا التحرر الهدام ، وعارضوه في ذكاء نادر احياناً ، بتحررٍ محافظ . ولقـــد سمعناهم يقولون : « لا تظلموا الحزب الملكي . لقد ادّى للبلاد اكثر من خدمة . لقد أعاد الينا التقليد ، والعبادة ، والدين ، والاحترام . إنه مخلص ، شجاع ، أبيّ ، محبّ ، متفانٍ . لقد أضاف ، ولو في اسف ، عظمة الملكية القديمة الى عظمة الأمة الجـــديدة . إنه مخطىء في عدم فهمه الثورة ، والامبراطورية ، والمجد ، والحرية ، والافكار الجديدة ، والاجيال الجديدة ، والقرن الذي نعيش فيه . ولكن هذا الخطأ الذي ارتكبه في حقنا ، ألم نرتكب نحن مثله ، بعضَ الاحيان ، في حقه ؟ إنّ على الثورة ، التي نحن ورثتُها ، ان تفهم كل شيء . ان هجوم العناصر المتحررة على الحزب الملكي ضرب من سوء الفهم . ايّ غلطة ! وأيّ عمى ! إن فرنسة الثورة يُعوزها الاحترامُ لفرنسة التاريخية ، يعني لأمّها ، يعني لنفسها . فبعد الخامس من ايلول يعامَل نبلاء الملكية كما عومل نبلاء الامبراطورية بعد الثامن من

تموز . لقد كانوا هم ظالمين للنسر * ، وها نحن أولاء نظلم زهرة الزنبق**
أينبغي ان يكون عندنا دائماً شيء نأمر بقتله أو بجبه من غير محاكمة ؟
رأية فائدة ترتجى من تشويه تاج لويس الرابع عشر ، او ترس هنري
الرابع الحامل شعار أسرته ؟ نحن نسخر من مسيو دو فوبلان الذي محا
حروف N *** التي كان يحملها جسر « يينا » ! ولكن ما الذي فعله
مسيو دون فوبلان هذا ؟ ما نفعله نحن اليوم . إن بوفين **** هي ملك
لنا مثل مارانغو سواء بسواء . وان زهرات الزنبق هي مِلكٌ لنا
ايضاً مثل حروف N تماماً . إنها ميراثنا . ما الذي نكسبه من إنقاصه ؟
ينبغي أن لا نتبرأ من وطننا في الماضي كما ينبغي ان لا نتبرأ منه في
الحاضر . لماذا لا نرغب في تاريخنا كله ؟ لماذا لا نحب فرنسة كلها ؟ »

تلك هي الطريقة التي كانت العناصر المتحررة في اعتدال تنتقد بها
الحزب الملكي وتدافع عنه ، فيستاء ذلك الحزب من الانتقاد ، ويعصف به
السخط بسبب من الدفاع .

لقد طبع المتحررون المعتدلون الفترة الاولى من العهد الملكي بطابعهم ،
في حين ان المجمع ***** طبع الفترة الثانية بطابعه . ان البراعة قد
تخلفت النزوة . فلنوجز هذه اللمحة .

لقد وجد مؤلف هذا الكتاب في طريقه ، وهو يروي هذه القصة ،

---

* شعار نابوليون .

** شعار آل بوربون .

*** الحرف الاول من اسم نابوليون بونابرت .

**** Bouvines هي المعركة التي انتصر فيها فيليب اوغست ، عام ١٢١٤ ، على الامبراطور اوتون وحليفيه ملك انكلترة وكونت الفلاندر .

***** La Congrégation هو « مجمع العذراء المقدسة » الذي أسس عام ١٨٠١ ثم تعاظمت قوته في عهد عودة آل بوربون الى الحكم وتم له في الدولة نفوذ عظيم . ولقد سقط هذا المجمع بسقوط شارل العاشر .

تلك اللحظة الغريبة من التاريخ المعاصر . ولقد كان مضطراً الى ان يلقي عليها نظرةً عابرة ، وان يعيد رسم بعض ملامح ذلك المجتمع الفريدة التي أمست اليوم مجهولة . ولكنه يفعل ذلك على عجل ، ومن غير ما فكرة لاذعة او هازئة . ان ذكرياتٍ ترشح بالحنان والوقار — فهي ذكريات تتصل بأمه — تشدّه الى تلك الحقبة . والى ذلك — ولنقل هذا — فقد كان لذلك العالَم الصغير عظمته . إننا قد نبسم له ابتسامة ساخرة ، ولكننا لا نستطيع أن نزدريه أو ان نبغضه . كان فرنسةَ الايامِ السالفة .

وخضع ماريوس بونميرسي ، شأنَ سائر الاطفال ، لتعليم ما . فحين فارق يدي الخالة جيلنورمان عَهِدَ جدّه في تثقيفه الى استاذ وقور يتميز بأصفى البراءة الكلاسيكية . لقد انتقلت تلك النفس الآخذة في التفتح من يدي امرأةٍ مغالية في التمسك باهداب الفضيلة والاحتراس في كل ما يتصل بالعفة الى يديْ متعالم غليظ مضحك . وأتم ماريوس سنوات دراسته في المدرسة الثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق . كان ملكياً ، متعصباً ، صارماً . كان قليلَ الحب لجده الذي كان مرحهُ وعدم احتشامه يجرحانه ، وكان موضع ابيه في نفسه فراغاً قاتماً .

وكان ماريوس ، في ما عدا ذلك ، ولداً هُماماً ولكنه فاتر ، نبيلاً ، كريماً ، فخوراً ، متديّناً ، متهوساً . كان فاضلاً حتى القسوة ، طاهراً حتى التوحش .

٤
نهاية قاطع الطريق

وإنما أنهى ماريوس دراساته الكلاسيكية في تلك الفترة التي اعتزل

فيها مسيو جيلنورمان الحياة الاجتماعية . ولقد ودع الشيخ ضاحية سان جيرمان ، وصالون مدام دو ت ... وانتقل الى الـ « ماريه » ليستقر في منزله بشارع « فتيات كالفير » وكان يخدمه هناك ، الى جانب البوّاب ، « نيقوليت » تلك التي خلفت مانيون ، وذلك الـ « باسك » المبهور الضيّق النفَس الذي تحدثنا عنه من قبل .

وفي عام ١٨٢٧ بلغ ماريوس سنه السابعة عشرة . واذ انقلب الى المنزل ذات مساء رأى جده وفي يده رسالة .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « ماريوس ، سوف تسافر غداً الى فيرنون . »

فتساءل ماريوس :

— « لماذا ؟ »

— « لكي ترى أباك . »

وارتعد ماريوس . لقد فكر في كل شيء إلا هذا : أن يوماً قد يأتي يُضطر فيه الى ان يرى والده . ان شيئاً ما ، لم يكن أبعد عن التوقّع من هذا ، وأدعى الى الدهش ، وأبغض — ولنقل هذا — الى النفس . كان ذلك هو الجفاء يُكرَه على ان ينقلب مودةً . إنه لم يكن حزناً .. لا . لقد كان عملًا من اعمال السخرة .

كان ماريوس مقتنعاً ، الى جانب الدوافع السياسية التي تنفّره من ابيه ، بأن هذا الأب السياف الجاهل فنّ الحرب — كما كان مسيو جيلنورمان يدعوه في لحظاته الدمثة الرقيقة — لم يكن يحبه . وكيف لا يقتنع بذلك وهو الذي هجره وتركه للآخرين . واذ أحس أنه لم يُحَبّ قط فانه لم يُحِبّ قط . وقال في ذات نفسه : ليس ثمة ما هو طبيعي اكثر من هذا . وكان من الانشداه بحيث لم يوجه الى مسيو جيلنورمان سؤالاً ما . وأردف الجد قائلًا :

— « يبدو أنه مريض . إنه يريد أن يراك » .

وبعد لحظة صمت ، اضاف :

– « إنطلق غداً صباحاً . أحسبُ ان في فِنـــاء دو فونتين عربة تنطلق في الساعة السادسة وتصل الى هناك ليلاً . اركب هذه العربة . هو يقول إن الحالة ملحّة . »

ثم إنه دعَكَ الرسالة ووضعها في جيبه . لقد كان في وسع ماريوس ان يسافر ذلك المساء نفسه فيكون الى جانب ابيه صباح اليوم التالي . كانت ثمة في ذلك العهد عربة عمومية تغادر روان ليلاً وتمر بفيرنون . ولكنّ لا مسيو جيلنورمان ولا ماريوس فكـّر في الاستعلام عنها .

وفي اليوم التالي ، وصل ماريوس الى فيرنون مع الغسق . وكانت الشموع قد بدأت تضيء . وسأل اول عابر سبيل التقاه : بيت مسيو بونميرسي ؟ ذلك بأنه كان متفقاً في تفكيره مع وجهة نظر العهد البوربوني الجديد ، فلم يعترف هو ايضاً ببارونية ابيه او برتبته ككولونيل .

وهدَوْه الى المنزل . وقرع الجرس . واقبلت امرأة ففتحت الباب حاملةً بيدها مصباحاً صغيراً .

وقال ماريوس :

– « مسيو بونميرسي ؟ »

وظلت المرأة جامدة لا تتحرك .

وسألها ماريوس :

– « أهو هنا ؟ »

واومأت المرأة برأسها إيماءة ايجابية .

– « هل استطيع ان اتحدث اليه ؟ »

واومأت المرأة ايماءة سلبية .

فأردف ماريوس :

– « ولكني ابنه . إنه ينتظرني . »

فقالت المرأة :

— « إنه ما عاد ينتظرك . »

ولاحظ عندئذ أنها تبكي .

واشارت بأصبعها الى باب غرفة منخفضة . ودخل .

كان في تلك الغرفة ، المضاءة بشمعة من شحم موضوعةٍ على الموقد ، ثلاثة رجال ، احدهم واقف ، والآخر راكع ، والثالث مرتدٍ قميصَه ليس غير وقد تمدّد بطوله على الارض . كان ذلك الممدّد على الارض هو الكولونيل .

وكان الرجلان الآخران طبيباً وكاهناً يصلي .

كان الكولونيل قد اصيب منذ ثلاثة إيام بحمّى دماغية . وكان قد كتب عند بدء المرض ، وقد استشعر قرب المنية ، الى مسيو جيلنورمان مطالباً برؤية ابنه . وتفاقم الداء . وليلة وصول ماريوس الى فيرنون كان الكولونيل قد أصيب بنوبة من الهذيان . لقد وثب من سريره على الرغم من الخادمة وهو يصيح : « ابني لم يأتِ حتى الآن ! سوف اذهب للقائه ! » ثم انه خرج من غرفته وسقط على ارض غرفة الانتظار . كان قد لفظ انفاسه منذ لحظة ليس غير .

وكان الطبيب والكاهن قد دعيا الى المنزل ، ولكن الطبيب كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ والكاهن كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ وكذلك كان الابن قد وصل بعد فوات الأوان .

وعلى ضوء الشمعة الباهت ، كان في استطاعتهم ان يتبيّنوا على وجنة الكولونيل الشاحب الصريع دمعة كبيرة كانت قد تحدّرت من عينه الميتة . كانت العين خامدةً ، ولكن الدمعة لم تكن قد جفّت . كان قد سفح هذه الدمعة لتأخر ولده .

وتأمل ماريوس هذا الرجل الذي رآه للمرة الأولى ، وللمرة الاخيرة ؛ هذا المحيّا الجليل الناضح بالرجولة ؛ هاتين العينين المفتوحتين اللتين لا تريان البتة ؛ هذا الشعر الأشيب ؛ هذه الأوصال القوية التي كانت في ميسور

المرء ان يتبين عليها ، ههنـــا وههناك ، بعض الخطوط السمراء التي كانت ضرباتِ سيف ، وضروباً من النجوم الحمر التي كانت حفراً احـــدثتها القذائف . لقد تأمل هذه الندبةَ الماثلة التي طبعت البطولة على ذلك الوجه الذي كان الله قد طبع عليه الطّيبة . وفكر في ان هذا الرجل كان أباه ، وان هذا الرجل كان ميتاً ؛ وظلّ جامداً لا يتحرك .

كان الحزن الذي استشعره هو الحزن الذي كان خليقاً بأن يستشعره أمام ايّ امرىء تقع عيناه عليه طريحَ الموت .

كان الحداد ، الحداد الممضّ ، يخيم على تلك الغرفة . فالخادمة تنتحب في احدى الزوايا ، والكاهن يصلي ، مسموعَ الزفرات ؛ والطبيب يكفكف العبرات . إن الجثة نفسها قد بكت .

ونظر هذا الطبيب ، وهذا الكاهن ، وهذه المرأة من خلال اشجانهم الى ماريوس ، من غير ان ينطقوا بكلمة . كان هو — لا غيره — الغريب وسط هذه المناحة . وإذ لم يغلب التأثر على ماريوس إلا قليلًا ، فقد احسّ بالخجل واستشعر الارتباك بسبب من وضعه هذا . وكان يُمسك بقبعته في يده ، فتركها تقع على الارض لكي يحملهم على الاعتقاد بان الاسى قد حرمه القدرة على الامساك بها .

وفي الوقت نفسه استشعر شيئــاً كتبكيت الضمير ، واحتقر نفسه لتصرّفه على هذا النحو . ولكن أهي غلطته ؟ إنه ما كان يحب أباه ، حقاً !

ولم يخلف الكولونيل شيئاً . ان بيع أثاثه لم ينهض بنفقات دفنه إلا بشق النفس . ووجدت الخادمة قصاصة من الورق قدّمتها الى ماريوس كانت تنطوي على هذه الكلمات مكتوبة بخط الكولونيل :

— « الى ولدي : — إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديراً به » .

وعلى قفا تلك القصاصة كان الكولونيل قد أضاف :

— « وفي معركة واترلو تلك نفسها ، انقذ حياتي جندي برتبة رقيب. إن ذلك الرجل يدعى تيناردييه . وأعتقد انه كان يدير ، منذ فترة غير بعيدة ، فندقاً صغيراً في قرية بضواحي باريس ، في « شيل » ، او في مونفيرماي . فاذا ما لقيَهُ ولدي فلسوف يقدّم الى تيناردييه كل خدمة يقدر عليها . »

وبدافعٍ من الاحترام الغامض للموت ، هذا الاحترام الذي يفرض نفسه دائماً على قلب الانسان ، لا بدافع من واجب الطاعة لأبيه ، اخذ ماريوس تلك الورقة ، وضغط عليها .

ولم يبق من الكولونيل أثرٌ ما . كان مسيو جيلنورمان قد باع سيفه وبذلته العسكرية لأحد المتاجرين بالسلع القديمة . وسطا الجيران على الحديقة ، ونهبوا الرياحين النادرة . أما النباتات الاخرى فأمست عوسجاً وعُلّيقاً ، أو ماتت .

ولم يُقم ماريوس غير ثماني وأربعين ساعة في فيرنون . وبعد الدفن ، رجع الى باريس ، واستغرق في دروسه الحقوقية من غير أن يفكر في أبيه اكثر مما كان يفعل لو انه لم يعش قط . لم ينقضِ يومان حتى كان الكولونيل قد دُفن ، ولم تمضِ ثلاثة ايام حتى كان قد نُسي .

وطوّق ماريوس قبعته بعصابة حريرية . ذلك كان كلّ شيء .

٥
فائدة الذهاب الى القداس
في جعل المرء ثورياً

كان ماريوس قد احتفظ بعادات صباه الدينية . وذات يوم من ايام

الأحد ذهب ليسمع القـــداس في « سان سولبيس » ، في « كنيسة العـذراء » نفسها التي كانت خالته تصحبه اليها يوم كان صبياً صغيراً . واذ كان في ذلك اليوم اكثر ذهولاً وأشد استسلاماً للاحلام مما كان في العادة ، فقد اتخذ مكاناً له خلف أحد الأعمدة وركع ، من غير أن ينتبه لذلك ، أمام كرسي من مخمل أوترخت ُكتب على ظهره هذا الاسم : مسيو مابوف ، وكيل كنيسة . ولم يكد القداس يبدأ حتى برز رجلٌ عجوز وقال لماريوس :

– « سيدي ، هذا مكاني . »

وسارع ماريوس الى مغادرة المكان ، واتخذ العجوز كرسيه .

وبعد القداس ، ظل ماريوس مستغرقاً في التفكير على ُبعـــد بضع خطوات . واقترب العجوز نحوه ، كرة اخرى ، وقال :

– « عفوك يا سيدي لازعاجي اياك منـذ لحظة قصيرة ، ولازعاجي اياك الآن مرة ثانية . ولا شك في انك قد حسبتني شرساً ، ومن اجل ذلك ينبغي أن ابرّر لك موقفي . »

فقال ماريوس :

– « هذا غير ضروري يا سيدي . »

فاستأنف العجوز كلامه قائلًا :

– « أجل ! انا لا اريد ان تكوّن فكرة سيئة عني ، انت ترى اني ألزم ذلك المكان ، والذي يبدو لي ان القداس هو هناك افضل . لماذا ؟ سوف اقول لك . فطوال سنوات عـديدة رأيت اباً صالحاً فقيراً في الى ذلك المقعد مرة كل شهرين او كل ثلاثة اشهر من غـير انقطاع – أباً لم تكن لديه ايما فرصة اخرى او ايما وسيلة اخرى لرؤية ولده الصغير بعد ان حرمته ذلك بعضُ التسويات العائلية ، كان يُقبل ساعة يعرف انهم قد جاءوا بابنه الى القداس . و يخطر ببال الصغير قط ان أباه كان هناك . بل لعل ذلك الصبيّ البريء ما كان يدري ان له أباً ! وكان

الأب ، من ناحيته ، يلتزم الجلوس خلف هذا العمود لكي لا يكون في ميسور أحد ان يراه . كان ينظر الى ولده ويبـــكي . كان ذلك الاب المسكين يعبد هذا الولد الصغير ! لقد رأيتُ ذلك . لقد أمسى هذا الموضع مقدساً عندي ، ومنذ ذلك الحين أخذتُ نفسي بالمجيء الى هنـــا لكي اسمع القداس . أنا أؤثره على « مقعد العمل » ، حيث يحقّ لي ان اجلس بوصفي وكيلاً من وكلاء الكنيسة . بل لقد عرفت ذلك السيد المسكين بعض المعرفة . كان له حمٌ * ، وعمة غنية جداً ، وأنسباء ، لم اعد اتذكر تماماً ، وكانوا يهددونه بحرمان الولد من الميراث اذا ما رآه هو ، هـــو أبوه ! لقد ضحى بنفسه لكي يصبح ابنه ، ذات يوم ، غنياً وسعيداً. وإنما تفرّق شملهم بسبب من الآراء السياسية . أنا أقرّ اعتناق الآراء السياسية طبعاً ، ولكن هناك اناساً لا يعرفون اين ينبغي أن يقفوا . يا الـهي ! لأن الرجل الذي شهد واترلو ليس غولاً ؛ إن الاب لا يُفصل عن ابنه من اجل ذلك . لقد كان زعيماً (كولونيل) من زعماء بونابرت . لقد توفي ، على ما أعتقد . كان يسكن في فيرنون ، حيث يعمل أخي كاهناً ، وهو يدعى بوغاري او مونبارسي أو شيئاً مثل ذلك . لقد كان في جسمه ، في الواقع ، اثر من ضربة سيف . »

فقال ماريوس وقد شحب لونه :

— « بونميرسي ? » .

— « تماماً . بونميرسي . أكنت تعرفه ? »

فقال ماريوس :

— « ايها السيد ! لقد كان ابي . »

وشبك وكيل الكنيسة العجوز يديه ، وصاح :

— « آه ! انت ذلك الطفل ! اجل ، هذا صحيح . ينبغي ان يكون قد أصبح رجلاً الآن . حسناً ، ايها الطفل المسكين ، في استطاعتك أن تقول

---

* ابو الزوجة .

إنه كان لك اب أحبك حباً عظيماً ! »
وبسط ماريوس ذراعه الى الرجل العجوز ومشى معه حتى منزله .
وفي اليوم التالي قال لمسيو جيلنورمان :
- « لقد أعددتُ مع بعض الاصدقاء نزهة صيد . هل تسمح لي بان أغيب ثلاثة أيام ؟ »
فاجابه الجد :
- « وأربعة ! اذهب وروّح عن نفسك . »
وبغمزة من احدى عينيه همس في أذن ابنته :
- « مسألة عشق موقت ! »

٦
معنى الالتقاء بوكيل كنيسة

اما الى اين ذهب ماريوس فذلك ما سنعرفه بعد قليل .
وغاب ماريوس ثلاثة ايام ، ثم انقلب الى باريس ، فقصد تواً الى مكتبة مدرسة الحقوق ، وطلب مجموعة أعداد الـ « مونيتور » .
لقد قرأ الـ « مونيتور » . قرأ تاريخ الجمهورية والامبراطورية . قرأ مذكرات القديسة هيلانة * ، وجميع المذكرات ، والصحف ، والبيانات الرسمية ، والاذاعات . لقد التهم كل شيء . ويوم وقع على اسم ابيه ، أول مرةٍ ، في بيانات الجيش العظيم الرسمية عصفت به حمّى تطاولت اسبوعاً بكامله . وسعى الى الاجتماع بالجنرالات الذين

* Mémorial de Sainte Hélène تأليف Las Cases وهو عرض لاعمال نابوليون الاول في مختلف عهوده . وفيه عطف ظاهر على الامبراطور . (١٨٢٣)

حارب جورج بونيرسي تحت امرتهم ، ومن بينهم الكونت ه . وقدّم اليه وكيل الكنيسة مابوف ، وكان قد ذهب لزيارته مرة اخرى ، صورة عن حياة فيرنون واعتزال الكولونيل الحياة الاجتماعية ، ورياحينه ، ووحدته . وهكذا انتهى ماريوس الى ان يفهم ، اوضح الفهم ، هـذا الرجل النادر ، السامي ، الوديع ، هذا الضرب من الاسد - الحَمَل الذي كان اباه .

وفي غضون ذلك لم يعد يرى احداً تقريباً من آل جيلنورمان بعـد ان استغرق في هذه الدراسة التي شغلت وقته كله وأفكاره كلها . كان يبرز عند تناول الطعام ، حتى اذا التمسوه بعد ذلك لم يعثروا عليه . كانت الخالة تتذمر ؛ وكان الجد يبتسم قائلاً : « بوه ! بوه ! إنه عهد البُنَيّات ! » وفي بعض الاحيان كان العجوز يضيف : « يا للشيطان ! لقد حسبتُ انها مغازلة . ولكنْ يبدو أنه هيام . »

كان هياماً ، حقاً .

كان ماريوس في سبيله الى الشغف بأبيه .

وفي الوقت نفسه طرأ تغير فوق العادة على أفكاره . وكانت مظاهر هذا التغير متعددة ومتعاقبة . واذ كان هذا التاريخ هو تاريخ كثير من العقول في عصرنا فنحن نعتقد ان من المفيد ان نتتبع هـــذه المظاهر خطوة خطوة ، وأن نشير اليها جميعاً .

إن ذلك التاريخ الذي وقعت عليه ، الآن ، عيناه ، قد اذهله .

لقد كان الاثر الاول انشداهاً .

ان الجمهورية والامبراطورية لم تكونا عنده ، حتى ذلك الحين ، غير كلمتين مخيفتين . الجمهورية ، مقصلة في غسق ؛ والامبراطورية ، حسامٌ في الليل . كان قد نظر اليهما ، وهناك ، حيث توقّع ان لا يجد غير ظلمات مختلطة ، وجـــدَ في ضرب من دهش خارقٍ مشوبٍ بالخوف

وبالبهجة كواكبَ ساطعة : ميرابو ، فيرنيو * ، سان جوست ، روبسبيير ، كاميل ديمولان ، دانتون ، وشمساً مشرقة : نابوليون . ولم يَدْرِ أين هو . لقد ارتدّ وقد أعمتْهُ الانوار . وشيئاً بعد شيء ، زايلهُ الدهش ، وتعوّد هذه الاشعاعات . وانشأ يتأمّل الاعمال من غير دُوار ، ويدرس الشخصيات من غير ذعر . لقد برزت الثورةُ والامبراطورية بروزاً مضيئاً أمام عينيه الجاهدتين . لقد رأى كلّاً من مجموعتَيْ الحوادث والرجال هاتين تُلخّص نفسها في حقيقتين ضخمتين : الجمهورية ، في سيادة حق المواطن مُعاداً الى الجماهير ؛ والامبراطورية ، في سيادة الفكرة الفرنسية مفروضةً على اوروبة . لقد رأى صورة الشعب الجليلة تنبثق من الثورة ، وصورة فرنسة العظيمة تنبثق من الامبراطورية . وأعلن في ما بينه وبين نفسه ان ذلك كله كان حسناً .

اما ما أهمله انشداهه في هذا التقدير الأول التركيبيّ اكثر مما ينبغي فلسنا نرى ان من الضروري أن نشير اليه هنا . إنما نصفُ حالة عقلٍ يُغذّ الخطى . والتقدّم لا يتم بوثبة واحدة . وإذ قلنا هذا مرةً والى الأبد ، في ما يتصل بما تقدم وفي ما يتصل بما سوف يلي ، نتابع الكلام .

لقد شعر عندئذ انه لم يفهم وطنه ، حتى تلك اللحظة ، باكثر مما كان قد فهم أباه . إنه ما كان يعرف لا هذا ، ولا ذاك ، ولقد كان يغشّي عينيه ضرب من الظلمة الارادية . أما الآن فقد أخذ يرى . واستبدّ به الاعجاب من ناحية ؛ وغلب عليه التقديس من الناحية الاخرى .

كان مفعماً بالاسف وتبكيت الضمير . وخطر له ، في بأس ، انه لا يستطيع الآن أن يبثّ كل ما في روحه إلا الى جدث . أوه ! لو ان أباه كان حياً ، لو لم يُحرَمه ، لو ان الرب قد أجاز ، برحمته وخيريّته ، ان يبقى ابوه على

---

* Vergniaud من رجال الثورة البارزين (١٧٥٣ – ١٧٩٣) وقد اعتقل مع الجيرونديين ومات على المقصلة .

قيد الحياة، اذن لسارع الى العَدْو ، واذن لطرح نفسه على قدميه ، واذن لصاح مخاطباً اياه : « أبي ! انا هنا ! هذا أنا ! إن لي قلباً مثل قلبك ! انا ولدك ! » ما كان اجدره بان يعانق رأسه الابيض ، ويندّي شعره بالدموع ، ويحدق الى ندبته ، ويضغط على يديه ، ويهيم بثيابه ، ويقبّل قدميه ! اوه ! لماذا توفي والده في مثل هذه السرعة ، قبل الكهولة ، قبل العدالة ، قبل حب ولده ! واعتلجت في فؤاد ماريوس زفرة موصولة كانت تقول في كل لحظة : « واأسفاه ! » وفي الوقت نفسه أمسى اكثر أخذاً بأسباب الجدّ ، وأشدّ إمعاناً في الرصانة ، واعظم ثقة بأيمانه وعقله . لقد اقبلت ومضات من الحقّ ، في كل لحظة ، لكي تتمّ تفكيره . كان ذلك أشبه شيء بنموّ باطني ، فقد استشعر ضرباً من الاتساع الطبيعي الذي حمله اليه هذان الشيئان ، الجديدان عليه : أبوه ووطنه .

وانفتح كل شيء ، وكأن في يده مفتاحاً . لقد شرح لنفسه ما كان قد أبغضه ، واستوعب ما كان قد مقته . لقد رأى في وضوح ، منذ ذلك الحين ، المعنى السماويّ ، الالـهيّ ، البشريّ الذي انطوت عليه الاشياء العظيمة التي عُلـّم أن يكرهها ، والرجال العظام الذين لُقّن أن يسبّهم . وحين فكـّر في آرائه السابقة ، التي كان يعتنقها حتى وقت قريب ، والتي بدت له مع ذلك عتيقة جداً ، اخذه السخط على نفسه ، وابتسم . ومن إعادة اعتبار ابيه ، انتقل على نحو طبيعي الى اعادة اعتبار نابوليون .

بيد أن هذا – وهو ما يتعين علينا ان نقوله – لم يتمّ من غير عناء .

لقد أشرب ، منذ الطفولة ، بآراء حزب سنة ١٨١٤ في بونابرت . والواقع ان تحاملات العهد البوربوني الجديد كلها ، ومصالحه كلها ، وغرائزه كلها كانت تنزع الى تشويه نابوليون . لقد أبغضه ذلك العهدُ اكثر مما ابغض روبسبيير نفسه . ولقد استغل في كثير من البراعة تعب الأمة ، وبغض

الأمهات . وكان بونابرت قد أمسى ضرباً من غول يكاد يكون اسطورياً . ولكي يصور هذا الغول لخيال الشعب ، الذي يشبه كما قلنا من قبل خيال الاطفال ، فقد اظهر حزب سنة ١٨١٤ جميع الاقنعة المروّعة ، واحداً بعد واحد ، ابتداء من تلك التي تتسم بالفظاعة ولكنها تظل عظيمة ، حتى تلك التي تتسم بالفظاعة ولكنها مضحكة ، من تيباريوس * الى كروكوميتين ** . وهكذا كنتَ ، عند الكلام على بونابرت ، حراً في أن تنتحب او في ان تنفجر بالضحك ، شرط ان يكون البغض هو الأساس . ولم يسبق لماريوس ان كانت له عن ذلك الرجل – كما كان يدعى – أية افكار غير هذه الافكار على الاطلاق . لقد نمتْ جنباً الى جنب مع الصلابة التي كانت في طبيعته . لقد كان في برديه رجـــل صغير عنيد يكره نابوليون .

حتى اذا قرأ تاريخه ، وبخاصة حين درسه في الوثائق وفي العناصر الرئيسية التي يتشكل منها ، اخذ ذلك النقاب الذي كان يحجب نابوليون عن عيني ماريوس يتمزق شيئاً بعد شيء . لقد لمح شيئاً غير متناه ، وتراءى له انه كان يخدع نفسه – حتى تلك اللحظة – في أمر نابوليون كما خدعها في سائر الامور . وكل يوم ، كان نظره يزداد وضوحاً ؛ وشرع يَرْقى في بطء ، خطوة خطوة – في اسفٍ تقريباً بادىء الامر وفي نشوة بعد ذلك وكأنما كان مسوقاً بسحر لا يقـــاوَم – درجات الحماسة المظلمة اولاً ، ثم درجاتها المضاءة على نحو باهت ، واخيراً درجاتها النيّرة الباهرة .

وذات ليلة ، كان وحده في غرفته الصغيرة القائمة تحت السطـــح . كانت شمعته مضاءة ، وكان يقرأ متكئاً على طاولته الى جانب النافـذة

* هو ثاني اباطرة الرومان (٤٢ ق . م – ٣٧ ب . م) كان حاكماً قديراً ولكنه شديد القسوة . وقد سبق التعريف به .

** كائن خرافي يخوّف به الاطفال . وهو اقرب شيء الى « الغــول » الذي يخوّف به اطفالنا في بعض البيئات .

المفتوحة . وتقاطرت عليه ، من الفضـــاء الرحب ، ضروب الهواجس وامتزجت بتفكيره . أيُّ مشهد هو الليل ! نحن نسمع اصواتاً مبهمة لسنا ندري من اين تقبل . نحن نرى جوبيتير وهو اكبر من الارض ألفاً ومئتي مرة ، يلتمع مثل جمرة . القبّة السماوية زرقـــاء ؛ النجوم تتلألأ ؛ ذلك شيء مخيف .

وقرأ بيانات الجيش العظيم الرسمية ، تلك الفلذات البطولية التي كتبت في ساحة المعركة . كان اسم ابيه يرد فيها احيانـــاً ، وكان اسم الامبراطور يتردّد خلالها دائماً . وتبدّت له الامبراطورية العظيمة كلها . لقد احسّ وكأن مَدّاً كان ينتفخ في ذات نفسه ويرتفع . لقد بدا له في بعض اللحظات ان اباه يمرّ على مقربة منه مثل نسمـــة من النسمات ، ويهمس في أذنه . وشيئاً بعد شيء ، غدا غريباً تائهاً . لقد حسب انه سمع الطبول ، والمدافع ، والابواق ، وخطى الافواج الموزونـــة ، وخبب الفرسان المبهم النائي . وبين الفينة والفينة كانت عيناه ترتفعـــان نحو السماء ، فتريان البروج الهائلة تسطع في الاعماق التي لا قرار لها ، ثم ترتدّان الى الكتاب فتريان هناك اشياء اخرى بالغة الضخامة تضطرب في غير وضوح . كان منقبض الصدر . وكان مهتاجاً ، مرتجفاً ، لاهثاً . وفجأة ، ومن غير ان يدري هو نفسه ايّ شيء يحركه ، أو ايّ شيء كان يطيع ، نهض وبسط ذراعيه خارج النافذة ، وحدّق الى الظلام ، الى الصمت ، الى اللانهاية المظلمة ، الى الرحب الأزلي الذي لا حدّ له ، وصاح : « فليحيَ الامبراطور ! »

ومن ذلك الحين انتهى كل شيء ؛ الغول الكورسيكي — الغاصب — الطاغية — الوحش الذي كان عشيق أخواتـه — الممثل الذي تتلمذ على تالما * — مسمّم يافا — النمر — بُونابرته — كل هذا قد تلاشى وأخلى

---

* Talma مسرحي فرنسي (١٧٦٣ — ١٨٢٦) وكان نابوليون يؤثره على الممثلين جميعاً .

مكانه في عقله لأشراق غامض وساطع تألــق فيه من ارتفاع سامق لا يُدرَك طيفُ قيصر الرخاميّ الشاحب . إن الامبراطور لم يكن عنـد أبيه غير القائد القدير المحبوب ، الذي يُعجب به المرء ، ويقف نفسه لخدمته . أما عند ماريوس فكان شيئاً اكثر من ذلك . كان الرجلَ المختار لأنشاء الفرقة الفرنسية التي خلفت الفرقة الرومانية في السيادة على العالم . كان المهندسَ الأعجوبيّ لسقوطٍ ما ، والمتمّم عملَ شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، وهنري الرابع ، وريشيليو ، ولويس الرابـــع عشر ، ولجنة السلامة العامة ؛ وكانت له ، من غير ريب ، عيوبُهُ ، واخطاؤه ، بـــل وجرائمه ، يعني بوصفه بشراً . ولكنه كان جليلًا في أخطائـه ، متألقاً في عيوبه ، جباراً في جرائمه . كان الرجلَ الذي اختارته الاقدار لكي يُكره الامم على ان تقول : الامة العظيمة . بل لقد كان خيراً من ذلك . كان تجسُّدَ فرنسة نفسَه ، فاتحاً اوروبةَ بالسيف الذي شهره ، والعالمَ بالضياء الذي سفحه . لقد رأى ماريوس في بونابرت ذلك الطيفَ الباهر الذي سيظهر على الحدود دائماً ، والذي سيحرس المستقبل . طاغية، ولكنه حاكمٌ فوق العادة مُنح جميع الصلاحيات وأُطلقت يداه في العمل . طاغية منبثق من جمهورية ، ومختصِرٌ لثورة . لقد أمسى نابوليون ، في نظره ، الرجلَ الشعب ، كما كان يسوع الرب الانسان .

وشأنَ جميع الداخلين حديثاً في دين من الاديان أسكره دخوله في الدين ، واندفع في تشيّعه اندفاعاً متهوراً ، وذهب الى أبعد مما ينبغي . كانت طبيعته هكذا ؛ فما إن يهبط منحدَراً حتى يتعذر عليه أن يتوقف، أو يكاد . واستبدت بـــه العصبية للسيف ، واختلطت في ذهنه بالحماسة للفكرة . إنه لم يدرك أنه ، الى جانب العبقرية ، ومن غير ما تمييز ، قد أُعجب بالقوة ، يعني أنه أقام في رُكنَيْ صنميّته ما هو الـهيّ من جهة ، وما هو وحشيّ من جهة . ومن نواحٍ كثـيرة ، انشأ يخـدع نفسه في شؤون اخرى . لقد أقرّ كل شيء . فثمة وسيلة للوقـوع في

الخطأ فيا يتخذ المرء سبيله الى الحق . وكان له ضرب من سلامة القلب العنيفة الجافية التي ابتلعت كل شيء جملةً . ففي السبيل الجديـــدة التي سلكها ، اهمل في محاكمته أخطاء العهد القديم كما اهمل في تقديره عظمةَ نابوليون مختلفَ الملابسات والاسباب التخفيفية .

وأياً ما كان فقد خطا تلك الخطوة الكبيرة . فحيث رأى من قبلُ سقوط الملكية ، رأى الآن جلوس الشعب على العرش . لقد تغيرت قِبلته . فما كان غروبَ الشمس ، انتهى الان الى ان يصبح إشراقها . لقد دار الى الوراء .

وتمت هذه الثورات كلها في ذات نفسه من غير ان تشعر أسرته بها على الاطلاق .

وحين اطّرح في هذا الجهد الخفيّ جلده البوربوني القديم المغالي في التطرف اطّراحاً كاملاً ؛ حين تعرّى من كل ما هو ارستوقراطي ، يعقوبي ، وملكي ؛ حين أمسى ثورياً بكل معنى الكلمة ، ديموقراطياً الى الاعماق ، جمهورياً او يكاد ، شخص الى حفّار في الدكي ديزورفيفر ، وأوصى على مئة بطاقة تحمل هذا الاسم : **البارون ماريوس بونميرسي** .

ولم يكن ذلك غير نتيجة منطقية جداً للتغير الذي طرأ عليه ، وهو تغير دار كلُّ شيء فيه ، بمثل القوة الجاذبة ، على محور أبيه . وإذ لم يكن يعرف أحداً ، واذ لم يكن في وسعه ان يترك بطاقته عند باب أحد ، فقد وضع تلك البطاقات في جيبه .

وبسبب من نتيجة طبيعية اخرى كان كلما ازداد قرباً من ابيه ، من ذكراه ، من الاشياء التي قاتل الكولونيل من أجلها طوال خمس وعشرين سنة ، ازداد بعداً عن جده . وقد سبق منـــا القول إن خصال مسيو جيلنورمان ما كانت لترضيه منـذ عهد بعيد . كان يكرهه كرهَ شاب آخذٍ باسباب الجدّ شيخاً عاتياً مستهتراً . ان مرح جيرونت * ليصدم كآبة

* Géronte احدى شخصيات موليير ، وتمثل العجوز القاسي الفؤاد ، الشحيح ، العنيد .

فيرتر * ويغيظها . والواقع انه ما دامت الآراء السياسية نفسها والافكار نفسها مشتركة بين ماريوس ومسيو جيلنورمان فقد التقيا بواسطتها وكأنما يلتقيان على جسر ، حتى اذا سقط هذا الجسر برزت الهوة . وفوق ذلك كله ، فقد عصفت الثورة بماريوس على نحو لا سبيل الى وصفه عندما فكر أن مسيو جيلنورمان قد فصله من غير ما رحمة ، وبدوافع حمقاء ، عن الكولونيل ، وبذلك حرم الأبَ ابنه ، والابنَ أباه .

ومن خلال برّه بأبيه كاد ماريوس أن ينتهي الى كره جده .

ومهما يكن من أمر فأن اياً من هذا لم يُعلن ، كما قلنا ، عن نفسه على نحو خارجي . كل في الامر أنه ازداد فتوراً يوماً بعد يوم ، وانه كان قليل الكلام على المائدة ، نادر الاقامة في المنزل . فاذا عنفته خالته من اجل ذلك كان بالغَ الرقة ، وكان يتذرّع بدروسه ، وبالمحاكم ، والامتحانات ، والمحاضرات الخ . وما كان الجد ليغيّر تشخيصه المنزه عن الخطأ : « عاشق ! أنا أفهم ذلك ! »

وكان ماريوس يغيب عن المنزل بين الفينة والفينة .

وكانت الخالة تتساءل :

— « الى اين تراه يذهب ، على هذه الشاكلة ؟ »

وفي احدى هذه الرحلات ، البالغة القصر دائماً ، قصد الى مونفيرماي إنفاذاً للوصية التي تركها له ابوه ، وبحث عن رقيب واترلو السابق ، الفندقي ، تيناردييه . وكان تيناردييه قد أفلس ، وكان الفندق قد أوصد ، ولم يكن احد ليدري ما الذي حلّ به . واضطرّ ماريوس ، من اجل القيام بهذا البحث ، الى التغيب عن المنزل أربعة أيام .

وقال الجد :

— « لا ريب في انه ضلّ السبيل » .

ولقد خيّل اليهما أنهما لاحظا أنه يحمل على صدره وتحت قميصه شيئاً

---

* Werther بطل قصة الشاعر الألماني غوته الشهيرة الحاملة هذا الاسم .

يتدلى من عنقه بشريطة سوداء .

٧
تنورةٌ ما

لقد تحدثنا عن أحد الرّماحة .

كان ابنَ ابنِ أخي مسيو جيلنورمان ، الذي كان يحيا بعيــداً عن الاسرة ، وبعيداً عن الحياة العائلية كلها ، في مقر الحامية . وكان الملازم الاول تيودول جيلنورمان قد حقق جميع الشروط التي يحتاج اليها المرء لكي يكونَ ما يدعى ضابطاً جميلاً . كان له « خصر آنسة » ، وطريقة في جر الحسام المظفّر ، وشاربٌ معقوص . كان نادراً ما يذهب الى باريس ، نادراً الى حد ان ماريوس لم يره قط . والواقع ان ابني العمومة لم يعرف واحدٌ منهما الآخر إلا بالاسم . وكان تيودول ، كما نعتقد أنّا ذكرنا ، اثيراً لدى الخالة جيلنورمان تفضله لأنها لم تكن تراه. إن عدم رؤية الناس يساعدنا على ان نتخيل فيهم مختلف ضروب الكمال .

وذات صباح انقلبت الآنسة جيلنورمان الكبرى الى غرفتهــا وهي مهتاجة الى ابعد ما تسمح لها وداعتها بأن تهتاج . كان ماريوس قــد سأل جده ، كرة اخرى ، ان يأذن له في القيام برحلة قصيرة ، مضيفاً أنه يعتزم الانطلاق تلك الليلة نفسها . وكان الجدّ قد أجاب : « إذهب ! » ، ثم اضاف ، على انفراد ، رافعاً حاجبيه الى أعلى جبينه : « إنه يعاود جريمة المبيت خارج المنزل . » وكانت الانسة جيلنورمان قد رجعت الى غرفتها في ارتباك شديد ، ملقية على السلم علامة التعجب هذه : « هذا جميل ! » وعلامة الاستفهام هذه : « ولكن الى اين تراه يذهب ? » وتخيّلت مغامرة من مغامرات القلب المحظورة قليلاً او كثيراً ، امرأةً

في الظلّ ، موعداً غرامياً ، سراً خفياً ؛ ولم تكن خليقة بأن تغضب لو قُدّر لها ان تُقحم نظّارتيها فيها . إن مذاق سرٍّ من الاسرار أشبه شيء بباكورة ربة . والنفوس الطاهرة لا تكره ذلك البتة . إن في مُحجُرات التطرّف في التقوى بعض الفضول الى الفضيحة .

لقد كانت اذن فريسة رغبة عمياء في معرفة قصة ما .

ولكي تتلهّى عن هذا الفضول الذي كان يُورثها من الاهتياج اكثر مما تعوّدت ، لجأت الى مواهبها وشرعت تنشيء – بخيط من القطن فوق خيط من القطن – قطعةً من وَشْي الامبراطورية وعودة آل بوربون الذي كانت تكثر فيه عجلات العربات ذوات الدولابين . عمــلٌ عبوس ، وعاملة شرسة . وكانت قد سلخت في كرسيّها عدة ساعات عندما فُتح الباب . ورفعت الآنسة جيلنورمان أنفها . كان الملازم الأول تيبودول أمامها يحييها بتحية المرافق العسكري . وأطلقت صيحة ابتهاج . فقد تكون المرأة عجوزاً ، وقد تكون مسرفة في التعفّف ، وقد تكون ورعة ، وقد تكون عمةً أو خالة ، ولكنّ من المستحب دائماً ان ترى رمّاحاً يدخل غرفتها.

وهتفت :

– « انت هنا ، يا تيبودول ! »

– « لقد احببت ان امرّ بكم في طريقي ، ايتها العمة . »

– « عانقني اذن . »

فقال تيبودول :

– « ها أنا ذا افعل ! »

وعانقها . ومضت العمة جيلنورمان الى مكتبها وفتحته .

– « سوف تبقى عندنا طوال الاسبوع على الاقل ، أليس كذلك ؟ »

– « ايتها العمة ، سوف أرحلُ هذا المساء . »

– « مستحيل ! »

– « إني مضطر الى السفر مهما كلف الامر . »

– « إبق ، يا صغيري تيبودول ، ارجوك . »

– « القلب يقول نعم ، ولكن الاوامر تقول لا . القصة بسيطة . لقد ُغيِّر مقرّ حاميتنا . كنا في ميلون ، وها قد ُوجّهنا الآن الى غابون . ولكي نذهب من مقر الحامية القديم الى المقر الجديد يتعين علينا أن نمرّ بباريس . وهكذا قلت : سوف أذهب وأرى عمتي . »

– « دونك هذه جزاء ما لقيتَ من تعب . »

ووضعت في يده عشر ليرات ذهبية .

– « تعنين جزاء ما نعمتُ به من سرور ، ايتها العمة العزيزة . »

وعانقها تيبودول كرةً أخرى ، وسعدتْ بأن خدشت جدائلُ ثوبه العسكري رقبتها خدشاً طفيفاً .

وسألته :

– « اتقوم بهذه الرحلة على صهوة الجواد مع كتيبتك ؟ »

– « لا ، ايتها العمة . لقد اردتُ ان أراكِ . لقد حصلت على اجازة خاصة . ان خادمي يقود جوادي . امـــا انا فاركب العربة العمومية . وبالمناسبة ، هناك سؤال أحب ان أوجهه اليك . »

– « ماذا ؟ »

– « إن ابن عمتي ماريوس بونغيرمي راحلٌ ايضاً ، اليس كذلك ؟ ».

فصاحت العمة وقد استثير فضولها ، فجأة ، الى ابعد حدود الاستثارة :

– « كيف تعرف ذلك ؟ »

– « حين وصولي ، شخصتُ الى مركز العربات العمومية لأحجز محلّاً في القسم الامامي من العربة . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « كان احد المسافرين قد حجز محلّاً في القسم الأعلى من عربة . لقد رأيت اسمه في السجل . »

– « ايّ اسم ؟ »

– « ماريوس بونغيرمي . »

فصاحت العمة :

— « الفتى الشرير ! آه ، إن ابن عمتك ليس غلاماً حسن السلوك مثلك. انا لا أستطيـع ان افكر انه سوف يُمضي الليل في عربة عمومية . »

— « مثلي انا . »

— « ولكنك تفعل ذلك بحكم الواجب . أما هو فيفعله بدافع الفسق والفجور . »

فقال تيبودول :

— « ما الفرق ؟ »

وهنا وقعت حادثة في حياة الآنسة جيلنورمان الكبرى . لقد راودتها فكرة . ولو كانت رجلاً ، اذن لصفعتْ جبينها . وخاطبت تيبودول في لهجة شديدة ، قائلة :

— « اتدري ان ابن عمك لا يعرفك ؟ »

— « لا . لقد رأيته أنا . ولكنه لم يتنازل يوماً فينظر اليّ . »

— « وسوف تسافران معاً على هذا الشكل ؟ »

— « هو في القسم الأعلى من العربة العموميـــة ، وانا في القسم الأمامي منها . »

— « الى أين تذهب هذه العربة العمومية ؟ »

— « الى الآنديلي . »

— « اذن فماريوس ذاهب الى هناك ؟ »

— « إلا اذا غادر العربة ، مثلي ، في بعض الطريق . سوف أنزل في فيرنون لاتخـــذ الطريق الفرعية الى غايون . انا لا اعرف شيئـــاً عن طريق ماريوس .. »

— « ماريوس ! يا له من اسم بشع ! ويا لها فكرة صائبة ، تلك التي جعلتهم يسمونه ماريوس . ولكن انت ، على الاقـــل – انت تدعى تيبودول ! »

فقال الضابط :

– « كنت أوثر ان يكون ألفرد . »

– « إسمع يا تيبودول . »

– « انا سامع ، ايتها العمة . »

– « انتبه . »

– « أنا منتبه . »

– « هل أنت مستعد ؟ »

– « نعم . »

– « حسناً . إن ماريوس يغيب عن البيت في كثير من الاحيان . »

– « إيه ! ايه ! »

– « إنه يسافر . »

– « آه ! آه ! »

– « انه يبيت خارج المنزل . »

– « اوه ! اوه ! »

– « نريد ان نعرف ما وراء ذلك كله . »

وفي هدوء رجل من برونز ، أجاب تيبودرل :

– « تنّورةٌ ما . »

وبتلك الضحكة المكبوحة التي تنمّ عن اليقين أضاف :

– « فتاة صغيرة . »

– « هـــذا واضح » كذلك صاحت العمة التي حسبت أن مسيو جيلنورمان يتكلم ، والتي استشعرت ان اقتناعها بأنه ينبثق على نحـــو لا يقاوَم من هاتين الكلمتين ، « فتاة صغيرة » ، اللتين انطلقتا بالجرْس نفسه من فم اخي الجدّ وفم ابنِ ابنِ الاخ جميعاً . واستأنفت كلامها :

– « قم بهذا الصنيع من أجلنا . إتبَعْ ماريوس قليلًا . إنـــه لا يعرفك ؛ ولسوف يكون ذلك سهلًا عليك . فما دام ثمة « فتاة صغيرة »

فحاول .أن ترى « الفتاة الصغـــيرة » . في استطاعتك ان تبعث الينا بالحكاية . إن ذلك سوف يسلّي جدك . . »

ولم يكن تيبودول شديد الرغبة في مثل هذا الضرب من الترصّد . ولكن الليرات الذهبية العشر وقعت في نفسه موقـع الارتياح العظيم ، وخيّل اليه انه يرى تتمةً يمكن ان تتلوها . فقبل المهمة ، وقال :

– « كما تريدين ، ابنتها العمة . . »

ثم اضاف بينه وبين نفسه :

– « ها أنا ذا قد أمسيتُ دُوْيينا * . . »

وعانقته الآنسة جيلنورمان .

– « إنك لا تقوم بمثل هذه الحيل ، يا تيبودول . أنتَ تطيـــع الانظمة ؛ انت عبـدٌ للاوامر الصادرة اليك ؛ انت رجـــلُ تدقيق وواجب ، وإنك لا تترك أُسرتك لكي تذهب وترى مخلوقة كهذه . »

وصعّر الرمّاح خــــده في ارتياح ، وكأنه كارتوش ** أُطريَتْ أمانته .

وفي المساء الذي تلا ذلك الحوار ، ركب ماريوس العربة العمومية من غير أن يخطر في باله أنه مراَقب . أما المراِقب فكان اول مـــا عمله ان استسلم للرقاد . كان نومه عميقاً يؤذن بضمير مرتاح . لقـد غطّ آرغوس *** طوال الليل .

وعند منبلج الصباح صاح سائق العربة العمومية :

---

* Duenna عجوز تُكلّف في اسبانية بمراقبة فتاة صغيرة او امرأة شابة .

** Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، وقد سبق التعريف به .

*** Argus في الميثولوجيا الاغريقية عملاق ذو مئة عين عُهِد اليه في مراقبة « إيو » التي مُسخت بقرة ، فما كان من « عطارد » الا ان اوقع النوم في عينيه بانغام قيثارته واحتز رأسه . ثم زُرعت عيونه في ذنب الطاووس . والمراد بـ « آرغوس » هنا ، تيبودول .

— « فيرنون ! محطة فيرنون ! المسافرون الى فيرنون ! »

وأفاق الملازم الأول تيبودول من سباته ، ودمدم نصف نائم :

— « حسن . في هذا المكان سوف أنزل . »

حتى اذا انجلت ذاكرته شيئاً بعد شيء ، نتيجة اليقظة ، تذكّر عمته والليرات الذهبية العشر ، والتقرير الذي كلف بتقديمه عن سلوك ماريوس . وأغراه ذلك بالضحك .

وفكّر ، فيما كان يزرّر صدرته غير الرسمية : « لعله غادر العربة . جائز ان يكون قد ترجّل في « بواسي » . لعله قد نزل في « تربيل » . إن لم يكن قد نزل في « مولان » فلعله قد ترجل عند « مانت » ، إلا اذا نزل في « روليواس » وإلا اذا ذهب حتى « باسي » ليس غير ، مع امكان انعطافه الى الشمال نحو « إيفرو » أو الى اليمين نحو « لاروش غويون » . إتبعهُ ، يا عمتي . يا للشيطان ! ايّ شيء سوف اكتبه اليها ، الى تلك العجوز الطيبة ؟ » .

في تلك اللحظة بدا من زجاج القسم الامامي من العربة بنطلون أسود كان يهبط من قسمها الأعلى .

وقال الملازم الاول :

— « أيكون هذا ماريوس ؟ »

لقد كان هو ماريوس .

وكانت ريفيةٌ صغيرة واقفةٌ الى جانب العربة ، بين الخيل والسائقين ، تعرض الازهار على المسافرين ، صائحة :

— « أزهار لسيداتكم ! »

واقترب ماريوس منها ، واشترى اجمل ما في سلتها من الرياحين .

وقال تيبودول واثباً من العربة :

— « والآن ، هو ذا شيء مثير . الى من تُرى يحمل هذه الرياحين ؟ ينبغي ان تكون امرأةً جميلة الى حد فائق تلك التي تُحمَل اليها باقة كهذه .

إني أودّ أن أراها . »

وشرع يتبع ماريوس ، لا تنفيذاً لمهمة عُهِد بها اليه ، هذه المرة ، ولكنْ بدافع من الفضول الشخصيّ ، مثل تلك الكلاب التي تقتنص لحسابها الخاص .

ولم يُلتَقِ ماريوس بالاً الى تيبودول . وخرجت من العربة العمومية بعض النسوة الانيقات . لقد بدا وكأنه لم يرَ شيئاً مما حوله .

وفكّر تيبودول : « ايكون عاشقاً ؟ »

ومشى ماريوس نحو الكنيسة :

وقال ماريوس مخاطباً نفسه :

— « حسن ، الكنيسة ! هذا هو . إن المواعيد الغرامية المتبّلة بشيء من القدّاس هي المواعيد الفضلى . ليس ثمة ما هو ألذّ من غمزةٍ تمرّ عبرَ الربّ الرحيم ! »

حتى اذا انتهى ماريوس الى الكنيسة لم يدخلها ، بل استدار خلف البناء . ثم اختفى عند زاوية عمود من اعمدة صدر الكنيسة .

وقال تيبودول :

— « اللقاء في الخارج . فلنَرَ الفتاة الصغيرة . »

واقترب على رؤوس اصابعه نحو الزاوية التي استدار ماريوس حولها . حتى إذا بلغها وقف مشدوهاً .

كان ماريوس راكعاً على العشب ، مخفياً وجهه بيديه ، فوق قبر من القبور . كان قد نثر باقته هناك . وفي اقصى القبر ، عند مرتفع يعيّن موضع الرأس ، انتصب صليب من خشب أسود كُتِبَ عليه هذا الاسم بأحرف بيضاء : **الكولونيل البارون بونميرسي** . لقد سمع ماريوس ينتحب .

كانت « الفتاة الصغيرة » قبراً .

٨
رخام ضد صوان

الى هناك كان ماريوس قد ذهب أولَ مرة غاب فيها عن باريس . والى هناك كان يعود كلما قال مسيو جيلنورمان : « انه يبيت خارج المنزل . »

واضطرب الملازم الاول تيبودول لهذا الالتقاء ، غير المتوقع ، بقبر . لقد اعتراه شعور مقيتٌ غريب لم يكن قادراً على تحليله – شعورٌ مؤلف من احترام لقبرٍ ، ممزوجٌ باحترامٍ لكولونيل . وانكفأ ، تاركاً ماريوس وحده في المقبرة ، وكان في انكفائه ذاك شيء من النظام . لقد بدا له الموت بكِتافتين ضخمتين ، ولقد أدى له التحية العسكرية أو كاد . وإذ لم يدرِ ما ينبغي ان يكتبه الى عمته ، فقد اعتزم ان لا يكتب اليها شيئاً على الاطلاق . ولعل شيئاً ما كان لينتج عن الاكتشاف الذي تمّ لتيبودول في موضوع غراميات ماريوس لو لم يُتْبَع مشهدُ فيرنون – بفضل تدبير من تلك التدابير الخفية التي تحفل بها المصادفة – بنوع من الضربة المقابلة في باريس .

لقد رجع ماريوس من فيرنون في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث وشخص الى بيت جده . واذ استبدّ به التعب بسبب من الليلتين اللتين قضاهما في العربة العمومية ، واستشعر الحاجة الى التعويض عن قلة نومه بساعة يمضيها في مدرسة السباحة ، فقد ارتقى السلم مسرعاً الى غرفته ، فنزع سترة السفر الطويلة والشريطة السوداء المطوِّقة عنقه ومضى على جناح السرعة الى الحمام .

وكان مسيو جيلنورمان – وقد أفاق باكراً مثل جميع الشيوخ المتمتعين بصحة جيدة – قد سمعه يعود ، فسارع بأقصى ما تمكّنه رجلاه

العجوزان الى ارتقاء السلم المؤدية الى غرفة ماريوس لكي يعانقه ، ولكي يستجوبه في اثناء العناق ، ويستطلعَ بعض الاستطلاع ِمنْ اين أقبل .

ولكن المراهق اقتضاه النزولُ وقتاً أقصر من ذلك الذي احتاج اليه ابن الثمانين في الطلوع . حتى اذا دخل مسيو جيلنورمان عليّة ماريوس لم يجده هناك .

كان السرير مرتباً لم يُمسّ ، وقد انتشرت فوقه ، في غير ما احتياط أو حذر ، سترة ماريوس الطويلة وشريطته السوداء .

وقال مسيو جيلنورمان :

– « انا أفضّل هذا . »

وبعد لحظة دخل غرفة الاستقبال حيث كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى قد جلست ، وأخذت تطرّز عجلات عربتها .

وكان الدخول مظفّراً .

وأمسك مسيو جيلنورمان السترة في يد ، وشريطة العنق في يد ، وصاح :

– « النصر ! سوف ننفذ الى السرّ ! سوف نعرف نهاية النهايات ! سوف نلمس فجور ُمرائينا ! ها نحن مع الرواية كاملة . إن عندي الصورة ! »

والحقّ ان علبة من الجلد الأسود المُبَرْغَل ، اشبه ما تكون بحلية بيضيّة الشكل ، كانت تتدلى من الشريطة .

واخذ الشيخ هذه العلبة وتأملها ، فترةً ، من غير ان يفتحها ، وعلى وجهه سيما الشهوة ، والدهش ، والغضب التي ينظر بها شيطان فقير جائع الى مائدة ممتازة تمرّ تحت أنفه وهي غير معدّة له .

– « ذلك ان في جوف هذه العلبة صورة من غير ريب . أنا أعرف كل شيء عن ذلك . ان هذه العلبة ُتحمل في رفق ، فوق القلب . يا لهم من مجانين ! إنها عاهرة بغيضةٌ ما ، قد توقع الرعدة في اوصال

المرء ! إن للشبان مثل هذا الذوق الرديء كله ، في هذه الايام ! »
فقالت العانس :
- « فلنرَ يا أبتِ ! »
وفُتحت العلبة بالضغط على نابضٍ . ولم يجدا فيها غير قصاصة من الورق طُويت في عناية .
وقال مسيو جيلنورمان ، وهو ينفجر بالضحك :
- « من داعرة الى داعر . أنا ادري ما هي . إنها رسالة غرام ! »
فقالت الخالة :
- « آه ! اذن فلنقرأها ! »
ولبستْ نظارتيها . ثم نشرت قصاصة الورق وقرأت ما يلي :
- « **الى ولدي** : - إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهدُ آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في أنه سوف يكون جديراً به . »
وليس من سبيل الى وصف الشعور الذي اعتلج في صدرَيْ الاب وابنته . لقد أحسّا بالقشعريرة وكأنّ أنفاس رأس الموت قد مسّتها . ولم يتبادلا كلمة واحدة . بيد ان مسيو جيلنورمان قال في صوت خفيض وكأنما كان يخاطب نفسه :
- « انه خطّ ذلك السياف الجاهل . »
وفحصتِ الخالة الورقة ، وقلبتها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، ثم أعادتها الى الصندوق .

وفي تلك اللحظة نفسها سقطت رزمة مستطيلة صغيرة ، ملفوفة بورق أزرق ، من جيب من جيوب السترة . والتقطتها الانسة جيلنورمان ، وفضّت الورقة الزرقاء . كانت بطاقاتِ ماريوس المئة . ودفعت احداها الى مسيو جيلنورمان الذي قرأ : **البارون ماريوس بونميرسي** .

وقرع الشيخ الجرس . واقبلت نيقوليت . وتناول مسيو جيلنورمان الشريطة ، والعلبة ، والسترة الطويلة والقاها على الارض وسطَ غرفة الاستقبال وقال :

— « أعيدي هذه الاشياء الى مكانها . »

وانقضت ساعة كاملة ساد فيها أعمق الصمت . كان الرجل العجوز والعانس العجوز جالسين ، وقد ولّى كل منهما ظهره للآخر ، ولعلهما كانا يفكران — كلٌ من ناحيته — في الاشياء نفسها . وفي ختام تلك الساعة قالت الخالة جيلنورمان :

— « جميل ! »

وبعد لحظات برز ماريوس . ودخل . وحتى قبل ان يجتاز عتبة غرفة الاستقبال لمح جدّه الذي كان حاملاً احدى بطاقاته في يده ، والذي لم يكد يراه حتى صاح في نبرة تفوّقٍ بورجوازية ساخرة كان فيها شيء يسحق سحقاً :

— « قف ! قف ! قف ! قف ! قف ! انت « بارون » الان . انا أقدّم اليك تهنئتي . ما معنى هذا كله ؟ »

وشاع الدم في وجه ماريوس ، بعض الشيء ، واجاب :

— « هذا يعني اني ابنُ ابي . »

وكفّ مسيو جيلنورمان عن الضحك ، وقال في قسوة :

— « أبوك ؟ انا ابوك . »

فأردف ماريوس وقد خفض بصره وغلبت الصرامة على وجهه :

— « لقد كان والدي رجلاً متواضعاً وباسلاً خدم الجمهورية وفرنسة خدمةً ماجدة ؛ رجلاً عظيماً في أعظم تاريخ قُدّر للبشر ان يصنعوه ؛ رجلاً عاش ربع قرن في معسكرات القتال ، في النهار تحت القذائف وتحت القنابل ، وفي الليل وسطَ الثلج ، وفي الوحل ، وتحت المطر ؛ رجلاً انتزع رايتين ، وأصيب بعشرين جرحاً ، ومات منسياً مهجوراً ؛

رجلاً لم يكن يرتكب غير خطأ واحد ، هو انه أحب اكثر مما ينبغي عاقـَيْنِ اثنين : وطنه وأنا ! »

كان ذلك اكثر مما استطاع مسيو جيلنورمان أن يحتمل سماعه . فلم تكد هذه الكلمة ، **الجمهورية** ، تطرق سمعه حتى نهض ، او على الاصح ، حتى انتصب واقفاً . وكانت كلٌّ من الكلمات التي نطق بها ماريوس قد احدثت ، في وجه الملكيّ العجوز ، مثل ذلك الاثر الذي تحدثه أنفاس الكِيرْ في الفحم المشتعل . كان قاتماً فغدا أحمر ، وكان احمر فغدا ارجوانياً ، وكان ارجوانياً فغدا متوهجاً .

وصاح :

— « ماريوس ايها الولد البغيض ! أنا لا أدري ايّ شيء كان أبوك ! انا لا أريد أن اعرف شيئاً عنه ولست اعرفه . ولكن الذي أعرفه انه لم يوجد قط غير جماعة من البؤساء بين اولئك القوم جميعاً . أنهم كانوا كلهم شحاذين ، سفّاحين ، ذوي قلانس حمراء * ، ولصوصاً . أقول كلّهم ! اقول كلهم ! انا لا اعرف أحداً ! اقول كلهم ! إسمع أنت ، ماريوس ! انظر جيداً . ان فيك من البارونية مقدار ما في بابوجي منها ! لقد كانوا كلهم لصوصاً أولئك الذين عملوا تحت إمرة روبسبيير ! وكانوا كلهم قطاع طرق اولئك الذين عملوا تحت امرة بو — وو—نا—برته ! كلهم خونة خذلوا، خذلوا، خذلوا ملكهم الشرعي! كلهم جبناء فرّوا من وجه البروسيين والانكليز في واترلو ! هذا هو الذي أعرفه ، فاذا كان ابوك واحداً منهم فلستُ أعرفه . أنا آسف لذلك ، يا سيدي . » .

وأمسى ماريوس ، بدَوْره ، الفحمَ ، وأمسى مسيو جيلنورمان أَنفاس الكير . وسرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها . انه لم يدرِ ما يجب ان يفعل ؛ لقد اشتعل رأسه . كان الكاهنَ الذي يرى الى قرابينه

---

* يقصد انهم ثوريون ، لان القلانس الحمراء كان يعتمر بها اشد انصار الثورة الفرنسية حماسة .

يُقذف بها كلها في مهب الريح ، و « الفقير » الذي يرى عابرَ سبيل يبصق على صنمه . انه ما كان يستطيع ان يسمح بالتلفظ امامه بمثل هـــذه الاشياء من غير أن يردّ عليها . ولكن ايّ شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ لقد ديس أبوه ورُفس على مسمع منه ، ولكن من الذي داسه ورفسه ؟ جده . فكيف يثأر لأحدهما من غير أن يهين الآخر ؟ كان متعذراً عليه ان يحقّر جده ، وكان متعذراً عليه أن لا يثأر لأبيه ، على حدّ سواء . كان امامه ، من ناحية ، جدث مقدس ، وكان امامه ، من ناحية اخرى شعر أشيب . وأخذه الدوار ، وترنح من أثر تلك الزوبعة التي عصفت في رأسه . ثم رفع عينيه وحدق الى جده ، وصاح في صوت راعد :

— « فليسقط آل بوربون ، وذلك الخنزير الكبير لويس الثامن عشر ! »

كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ اربع سنوات ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم عنده أو يؤخر .

وفجأة غـــدا لون الشيخ ، برغم قرمزيته الشديدة ، اشدّ بياضاً من شعره . لقد استدار نحو تمثال نصفيّ لدوق دو برّي قائمٍ على الموقد . وانحنى له في احـــترام شديد ، وبضرب من العظمة الفريدة . ثم مشى مرتين ، في تؤدة وفي صمت ، من الموقد الى النافذة ، ومن النافذة الى الموقد مجتازاً طوال الغرفة بكامله ، جاعلاً ارض الغرفة تقضقض وكأن صورة من حجر تخطر فوقها . وفي المرة الثانية انحنى نحو ابنته ، التي كانت تتحمل الصدمة في انشداه خروفٍ طاعن في السن ، وقال لها في ابتسامة كادت تكون هادئة :

— « إن باروناً مثل حضرة السيد وبورجوازياً مثلي لا يستطيعـان ان يظلا تحت سقف واحد . »

وتصدّر فجأة ، شديد الشحوب ، مرتعداً ، فظيعاً ، وقـد تعاظم جبينه بأشعاع الغضب المروّع ، وبسط ذراعه نحو ماريوس وصاح به :

— « اغرب من هنا ! » .

وغادر ماريوس البيت .

وفي اليوم التالي قال مسيو جيلنورمان لابنته :

– « سوف ترسلين ستين « بيستولا » * كل ستة اشهر الى شارب الدماء هذا ، ولن تحدثيني عنه بعد اليوم على الاطلاق . »

واذ كان لديه رصيد ضخم من الغيظ ينبغي ان ينفقه ، واذ لم يكن يعرف ما الذي يصنعه به ، فقد تحدث مع ابنته في برود طوال ثلاثة اشهر ونيف .

وانصرف ماريوس ، من ناحيته ، ساخطاً . ويحسن بنا أن ننص هنا على حادثة أذكت غيظه اكثر فاكثر . فثمة دائماً مثل هـذه المقادير * الصغيرة التي تعقّد المآسي العائلية . إن المظالم لتتعاظم برغم ان الأخطاء لم تزد ، في الاساس ، اتساعاً . ذلك ان نيقوليت حين سارعت الى نقل « أشياء » ماريوس الى غرفته – تنفيذاً لأمر العجوز – كانت قد اسقطت من غير ان تشعر ، وربما على سلم العليّة التي كانت مظلمة ، الحليةَ الجلدية السوداء المنطوية على الورقة المكتوبة بخط الكولونيل . ولم يُعثر لتلك الورقة او لتلك الحليـــة على أثر . وكان ماريوس مقتنعاً بأن « مسيو جيلنورمان » – فهو لم يسمّه منذ ذلك الحين بغير هذا الاسم – قـــد قذف بـ « وصية أبيه » الى النار . كان يحفظ عن ظهر قلب تلك الاسطر القليلة التي خطها الكولونيل ، ومن هنا لم يضع شيء البتة . ولكن الورقة ، الخط ، ذلك الاثر المقدس ، كل ذلك كان قلبَهُ نفسه . اي شيء قد صُنع بها ؟

وغادر ماريوس المنزل من غير ان يقول الى اين كان ذاهباً ، ومن غير ان يعرف الى اين كان ذاهباً ، وليس معه غير ثلاثين فرنكاً وساعته وبعض الملابس في قطعة من بساط . واستأجر عربة من عربات الاجرة ، ووثب اليها ، وانطلق كيفما اتفق نحو الحي اللاتيني .

أي شيء سيحلّ بماريوس ؟

---

* عملة فرنسية ذهبية قديمة . (pistole)

* المقادير ، هنا ، جمع مقدور ، وهو الأمر المحتوم .

الكتاب الرابع

أصدقاء الأَلِفْباء

١

جماعة كادت تصبح تاريخية

في تلك الحقبة ، اللامبالية في الظاهر ، كانت فرنسة تحسّ بقشعريرة ثورية غامضة . كانت بعض الهمسات المنبثقة من اعماق عامي ٨٩ ، و٩٢ حديثَ القوم . وكانت باريس الفتيّة ، وليُغفَر لنا هذا التعبير ، على وشك ان تبدّل جلدها . لقد تحوّل الناس من غير ان يعوا ذلك تقريباً ، بحكم حركة العصر نفسها . إن العقرب الذي يمشي فوق ميناء الساعة يمشي في النفوس ايضاً . لقد خطا كل امرىء تلك الخطوة التي كان يتعين عليه ان يخطوها الى أمام . وهكذا اصبح الملكيون متحررين، واصبح المتحررون

ديموقراطيين .

كان ذلك اشبه بمدّ صاعد يعقّده ألف جزر . ان من خصائص الجزر أن يُحدث مزيجات ؛ ومن هنا تلك المتحدات الفكرية البالغة الغرابة . فقد قدّس الناس نابوليون وقدّسوا الحرية في آن واحد . اننا نكتب هنا التاريخ . لقد كان ذلك هو سرابَ تلك الفترة . ان الاواء تجتاز اطواراً متباينة . فالملكية الفولتيرية ، وهي ضرب من المذاهب غريب ، كان لها نِدّ لا يقل عنها غرابة ، هو التحررية البونابرتية .

كانت بعض الجماعات العقلية الاخرى اكثر جدّية . لقد سبرت غور المبدأ ؛ لقد كلِفتْ بالحقّ . لقد تاقت الى المطلق ، ولمحت وميضاً من الثمرات اللانهائية . إن المطلق ، بصرامته نفسها ، ليدفع بالعقول نحو الافق البعيد ، ويجعلها تطفو في اللامحدود . فليس شيء كالحُلم خالقاً للمستقبل . اليومَ مدينة فاضلة ، وغداً لحمٌ ودم .

وكان للآراء التقدمية اساس مزدوج . فقد هدّد بروز السرّ الخفيّ « نظامَ الاشياء الموطّد » ، الذي كان مُريباً مرائياً — وهي أمارة ثورية الى أبعد الحدود . إن موأربة السلطان لتلتقي بمواربة الشعب في الخنادق . وحضانة العصيان تقدّم الجواب على تبييت الانقلابات .

وفي ذلك الحين لم تكن قد نشأت بعدُ في فرنسة ايٌّ من تلك المنظمات السرية التي تشبه منظمة « توجيندبوند » الالمانية ومنظمة الـ « كاربوناري » الايطالية . ولكن بعض « الحفريات » الغامضة كانت قد بدأت تتشعب . كانت جماعة الـ « كوغورد » تتكوّن في إيكس ، وكانت في باريس — الى جانب جماعات اخرى من هذا الضرب — جمعية اصدقاء الالفباء .

من كان اصدقاء الالفباء هؤلاء ؟ كانوا جماعةً هدفها في الظاهر تعليم الاطفال ، وهدفها في الواقع تقويم الرجال .

لقد أعلنوا انفسهم اصدقاء الالفباء A. B. C. وكان الـ « *abaissé* »

(المخفوضون) هم أفراد الشعب . * كانوا يريدون ان يرتفعوا بهم .
وهو تلاعب لفظيّ ينبغي أن لا نسخر منه . فالتلاعب اللفظي كثيراً
ما يكون ذا خطر في عالم السياسة . إعتبِرْ الـ *Castratus ad Castra* التي جعلت
نارسيس ** قائدَ جيش . واعتبر : *Barbari et Barberini* واعتبر *Fueros y Fuegos*
واعتبر *Tu es Petrus et super hanc petram* الخ . الخ . ***

ولم تكن جماعة اصدقاء الالفباء كثيرة الاعضاء . كانت جمعية سرية
في المرحلة الجنينيّة . بل لقد كدنا ان نقول « عصبة متآمرين » لو أن
عصابات المتآمرين تخلق ابطالاً . وكان افرادها يجتمعون بباريس ، في
مكانين ، قرب الـ « هالّ » ، في خمارة تدعى « كورنث » سوف
يشار اليها فيما بعد ، وقرب الـ « بانتيون » ، في مقهى صغير في ساحة
« سان ميشيل » يدعى مقهى الموزين ، ولم يعد اليوم قائماً . كان اول
موطن من موطنَيْ اللقاء هذين قريباً من العمال ، وكان ثانيهما قريباً
من الطلاب .

وكانت اجتماعات « اصدقاء الالفباء » العادية تُعقد في غرفة خلفية
من مقهى الموزين .

هذه الغرفة ، النائية بعض الشيء عن المقهى والمتصلة به بمجاز طويل
جداً ، كان لها نافذتان ومنفذ بواسطة سلم خفيّة الى شارع دو غري الصغير .
كانوا يدخنون هناك ، ويحتسون الخمر ، ويقامرون ، ويضحكون .
كانوا يتحدثون عن كل شيء تقريباً في صوت مرتفع جداً ، وفي همس
عن شيء آخر . وكانت قد عُلّقت على الجدار خريطة قديمة لفرنسة في
عهد الجمهورية ، وهي أمارة كافية لان تثير ظنون رجل من رجال
الشرطة .

---

* والمجاورة اللفظية واضحة بين *A. B. C.* (الالفباء) والـ *abaissé* (المظلومون
أو المخفوضون) .

** احد قواد الامبراطور يوستنيانوس ، وإكسرخوس ايطالية (٤٩٢ - ٥٦٨)

*** وكلها من باب الجناس كما هو واضح .

ومعظم « اصدقاء الالفباء » كانوا طلاباً على تحالف ودّي مع بعض العمال . ودونك اسماء المقدّمين فيهم ، وهي ملكٌ التاريخ الى حدّ ما : آنجولراس ؛ كومبوفير ؛ جان بروفير ؛ فويي ؛ كورفيراك ؛ باهوريل ؛ ليسغل او ليغل ؛ جولي ؛ غرانتير .

وكان هؤلاء الشبان يؤلفون في ما بينهم ، بقوة الصداقة ، شبه أسرة . وكانوا كلهم ، ما عدا ليغل ، من أبناء الجنوب .

كانت جماعةً رائعةً . لقد تلاشت في الاعماق غير المنظورة التي وراءنا . وعند هذه النقطة التي بلغناها الآن من المأساة لن يكون من غير المفيد ان نلقي شعاعاً من النور على هذه الرؤوس الشابة قبل ان يراها القارىء غارقة في ظلام مغامرة فاجعة .

فأما آنجولراس الذي قدّمنا اسمه على غيره - وسنرى في ما بعد لماذا - فكان وحيد أبويه ، وكان موسراً .

كان آنجولراس شاباً فاتناً ، قادراً على ان يصبح فظيعاً . كان وسيماً على نحو ملائكي . كان اشبه بآنتينوس * شرس . وإن من يرى انعكاس نظرتهِ المتفكرة خليق بان يقول إنه قد اجتاز ، في وجودٍ سابقٍ ما ، بالرؤيا الثورية . كان عالماً بحديثها مثل شاهد عيان . وكان يعرف جميع تفاصيل الحدث العظيم . طبيعة حبرية ومقاتلة ، مستغربة في مراهق . كان احتفالياً ومناضلاً ، كان من وجهة النظر المباشرة جندياً من جنود الديموقراطية ؛ وكان ، فوق الحركة المعاصرة ، كاهناً من كهان المثل الاعلى. كان ذا حدقة ثاقبة ، وجفن احمر بعض الشيء ، وشفة سفلى غليظة سريعة الى الازدراء ، وجبين عالٍ . ان الجبين المنبسط كثيراً في وجهٍ ، كالسماء المنبسطة كثيراً في أفق . ومثلَ بعض شبان الصدر الاول من هذا القرن ونهاية القرن الماضي ، اولئك الذين تمّت لهم الشهرة في سنّ مبكرة ، كان ذا طلعة بالغة الفتاء ، ناضرة مثل وجوه الكواعب ، برغم أنه كانت له

* Antinoüs فتى من فتيان آسية الوسطى ، وكان عبداً رقيقاً ذا جمال بالغ .

ساعات من الاصفرار والشحوب . كان قد بلغ الان مبلغ الرجـــال ، ولكنه ظهر وكأنه ما يزال طفلاً . لقد بدت أعوامه الاثنان والعشرون سبع عشرة سنة ليس غير . كان الجدّ أغلب عليه ، ولم يبدُ انه يعرف ان على ظهر الأرض كائناً يدعى المرأة . لم يكن له غير هوى واحد ، هو الحقّ ؛ ولم يكن له غير فكرة واحدة هي ان يذلل العقبات جميعاً. ولو قُدّر له ان يكون في جبل آفنتين اذن لكان غراكثوس * . ولو قدّر له ان يكون في « المؤتمر الوطني » اذن لكان سان جوست . كان لا يرى الرّياحين إلا في النادر النادر ، وكان ينكر الربيع ، ولم يكن يسمع الطيور وهي تغرّد . ولقد كان نحرُ « إيفادنيه » العاري خليقاً بأن لا يحركه اكثر مما يحركه آريستوجيتون ** . ولم يكن للزهور أيما فائدة عنده شأنه في ذلك كشأن هارموديوس *** غير اخفاء السيف . كان زاهداً في الملذات ؛ وكان يغضّ طرفه في عفة أمام كل شيء إلا الجمهورية . كان العاشق الرخاميّ للحرية . وكان حديثه ملهَماً في خشونة ، وكانت فيه ارتعاشة ترتيلةٍ من التراتيل . كان يدهشك بتحليقه . والويل للغرام الذي يغامر فيقترب منه ! ولو انّ عاملة مغناجة من عاملات ساحة كامبري او شارع سان جان دو بوفيه رأت هذا الوجه الآبق من الكلية ، وهذه المشية الشبيهة بمشية غلام نبيل من مرافقي الامراء ، وهـذه الاهداب الطويلة الشقراء ، وهـاتين العينين الزرقاوين ، وذلك الشعر الذي شعّثته الريح ، وهاتين الوجنتين الورديتين ، وهاتين الشفتين الطاهرتين ، وهـذه الاسنان الرائعة — نقول لو ان عاملة مغناجة من اولئك العاملات رأت ذلك ،

---

* Gracchus خطيب روماني شهير دافع عن حقوق الشعب ، وحاول بالقوانين التي اقترحها ان يحد من جشع الارستوقراطية الرومانية . اما جبل آفنتين فاحدى تلال رومة السبع ، وقد سبق التعريف به .

** Aristogiton أثيني تآمر مع صديقه هارموديوس ضد ولدي بيزيسترات ، هيبارك وهيبياس (٥١٤ ق.م.) وقد وفقا الى قتل هيبارك .

*** Harmodius راجع الهامش السابق .

وتشهت هذا الفجر كله ، فحاولت ان تسدد سهام جمالها الى آنجولراس اذن لحدجها هو بنظرة مذهلة رهيبة تريها فجأة ايّ وادٍ سحيق يفصل ما بينه وبينها ، وتعلّمها ان لا تخلط ما بين ملاك بومارشيه الغزِل ، وملاك حزقيال المخيف .

الى جانب آنجولراس الذي مثّل منطق الثورة كان كومبوفير الذي مثّل فلسفتها . وبين منطق الثورة وفلسفتها يقوم هذا الفارق – أنّ منطقها قد يؤدي الى حرب ، على حين ان فلسفتها لا تستطيع ان تنتهي إلا الى السلم . لقد أتمّ « كومبوفير » « آنجولراس » وصحّحه . كان دونه ارتفاعاً ، واكثر منه اتساعاً . وكان يرغب في ان يفرغ في جميع الحقول المبادىء العريضة للفكرات العــامة . كان يقول : « الثورة ، ولكن الحضارة . » وحول الجبل الشديد الانحدار كان ينشر الافقَ الازرق المترامي الاطراف. ومن هنا كان في نظرات كومبوفير كلها شيء قريب التناول ، ميسور الإجراء . كان هواء الثورة مع كومبوفير صالحاً للتنفس اكثر من هواء الثورة مع آنجولراس . لقد عبّر آنجولراس عن حقها الالـهي ، وعبر كومبوفير عن حقها الطبيعيّ . لقد ذهب الاول بعيداً حتى روبسبيير ، ووقف الآخر عند كوندورسيه . وعاش كومبوفير حياة الناس العــامة اكثر من آنجولراس . ولو قُدّر لهذين الشابين أن يبلغا التـاريخ اذن لكان أحدهما الرجلَ المستقيم ، وثانيهما الرجل الحكيم . كان آنجولراس اكثر رجولة ، وكان كومبوفير أعظم إنسانية . إن لفظتي *Homo* * و *Vir* ** تفصحان عن الفرق الدقيق بينهما حقاً . كان كومبوفير سهل الخليقة ، كما كان آنجولراس شرساً ، قاسياً ، بالنقاء الطبيعي . وكان يحب كلمــة « مواطن » ، ولكنه آثر عليها كلمة « انسان » . ولقد كان خليقاً به أن

* في اللاتينية : رجل ، إنسان .

** في اللاتينية : ذكر ، فحل .

يقول مبتهجاً * Hombre مثل الاسبان . كان قد قرأ كل شيء ، وقصد الى المسارح، وشهد المحاكمات العامة ، وتعلم استقطاب الضوء من آراغو** ، وأُغرم بمحاضرة كان جيوفروا سان هيلير قد شرح فيها المهمة المزدوجة للشريان الوداجيّ الخارجي والشريان الوداجي الداخلي ، إذ يمدّ احدهما الوجه بالدم ، ويُمدّ الآخرُ الدماغ به . كان على اطلاع بماجريات العصر ، فهو يتتبع العلم خطوةً خطوةً ، ويعارض نظريات سان سيمون بنظريات فورييه ، ويفكّ رموز الاحرف الهيروغليفية ، ويكسر الحصى التي يعثر عليهـــا ويتحدث عن عـــلم طبقات الارض ، ويرسم فراشة القزّ من الذاكرة ، ويشير الى الاخطاء اللغوية التي وقعت في « معجم الاكاديمية » ، ويدرس بُويسيغور *** وديلوز ، ولا يُثبت شيئاً حتى المعجزات ، ولا ينكر شيئاً حتى الاشباح ، ويقلب مجموعة أعداد الـ « مونيتور » ، ويفكر . كان يعلن ان المستقبل في ايدي المدرسين ، فهو شديد الانهماك في مسائل التربية . لقد دعا الى أن يعمل المجتمع من غير انقطاع على رفع المستوى الفكري والاخلاقي ؛ على سكّ العلم ؛ على وضع الفكرات موضع التداول ؛ على إنماء العقل في الشباب ؛ وكان يخشى أن يؤدي فقر الطرائق الشائعة آنذاك وحقارة العالم الادبي المطوّق بقرنين او ثلاثة قرون تدعى كلاسيكية ، واعتقادية المتعالمين الرسميين الاستبدادية ، والافكار السبْقية الكلامية ، والروتين أو النمطية ـ كان يخشى ان يؤدي هـذا كله الى جعـل معاهدنا الثانوية وكلياتنا مواطن اصطناعية لتربية المحار أو البطلينوس . كان حسن الثقافة ، مفرطاً في الحرص على صحة اللغة ، دقيقـاً ، متعدّد جوانب المعرفة ،

---

* كلمة اسبانية معناها « رجل » او « انسان » .

** Arago احـد كبار العلمـاء في القرن التاسع عشر (١٧٨٦ – ١٨٥٣) وله اكتشافات كثيرة في الفيزياء وعلم الفلك .

*** Puységur مارشال فرنسة (١٦٥٦ – ١٧٤٣) وقــد وضع رسالة شهيرة في فن الحرب .

منكباً على الدرس ، مستغرقاً في التأمل ، « حتى التعلق بالأوهام » كما كان اصدقاؤه يقولون . لقد آمن بهذه الاحلام جميعاً : خطوط السكة الحديدية ؛ والقضاء على الألم في العمليات الجراحية ؛ وتركيز الصورة في الخزانة المظلمة ؛ والتلغراف الكهربائي ؛ وقيادة المناطيد . واذ كان الى ذلك قليل الذعر من المعاقل التي بنتها ، في كل مكان ، لمحاربة الجنس البشري ، ضروبُ الخرافات ، والاستبدادات ، والافكار السبقية ، فقد كان واحداً من اولئك الذين اعتقدوا بأن العلم سوف يوفق آخر الأمر الى ان يقلب الاوضاع . كان آنجولراس زعيماً ؛ امـــا كومبوفير فكان هادياً . وإنه لخليق بالمرء ان يقاتل مع الاول ، وان يمشي مع الثاني . وليس معنى ذلك أن كومبوفير لم يكن قادراً على القتال ، فهو ما كان ليرفض مقارعة العقبات ، ومهاجمتها قسراً وبانفجار ؛ ولكن معناه ان إقامة التناغم التدريجي بين الجنس البشري ومصائره ، بتعليم الحقائق البدهية وإعلان القوانين الوضعية ، كانت أدعى الى سروره . ولو كان له ان يختار واحداً من نورَين ، اذن لآثر ميلهُ الاضاءة على الالهاب . إن الحريق قادر على ان يحدث فجراً من غير ريب ، ولكن لمَ لا ننتظر ارتفاع الضحى ؟ ان البركان ينير ، ولكن الصباح ينير على نحو افضل . ولعل كومبوفير كان يؤثر وضاءة الجميل ، على سطوع الجليل . كان الضوء الذي يكدّره الدخان ، والتقدّم المشترى بالعنف لا يرضيان هذا العقل الرؤوف والجديّ غير نصف إرضاء . كان القاء شعب ما ، القاءً عمودياً ، في لجة الحقّ ، وكان شيء من مثل عام ٩٣ ، يقذفان الرعب في فؤاده ! ومع ذلك فقد كان الركود أبغض الى نفسه ؛ كان يحسّ فيه تعفناً وموتاً . وعلى الجملة ، فقد أحبّ الرغوة اكثر مما أحبّ الأبخرة الفاسدة ، وآثر السيل على المستنقع ، وشلالات نياغارا على بحيرة مونفوكون . وفي اختصار ، فهو ما كان يحب لا الوقوف ولا العجلة . وبينا كان اصدقاؤه الصاخبون ، الكلِفُون بالمطلق كلفاً فروسياً شهماً ، يهيمون بالمغامرات الثورية الباهرة ويلتمسونها ، كان

كومبوفير ينزع الى ان يدع التقدم يعمل عمله ، التقـدّم الصالح ، الذي قد يكون فاتراً ولكنه محضٌ ، وقد يكون منهجياً ولكنه خلوٌ من كل عيب ، وقد يكون خاملًا ولكنه ثابت الجنان . ولقـد كان خليقـاً بكومبوفير ان يركع ويشبك يديه متمنياً ان يفِدَ المستقبل بكامل صفائه المشرق ، وان لا يعكر شيء تطور الشعب تطوراً فاضلًا لا يعرف الحدود. كان يكرر في غير انقطاع : **الخير ينبغي ان يكون بريئاً** . وفي الحق ، اذا كانت عظمة الثورة في أنها تحدق تحديقاً موصولاً الى المثل الاعلى الذي يحسر العيون ، وان تطير اليه عبر الصواعق ، والدم والنار في برائنهـا ، فأن جمال التقدم في انه نقيّ طاهر الذيل . وهناك بين واشنطون الذي يمثل احدهما ، ودانتون الذي يتجسد فيه الآخر ، ذلك الفـارق الذي يفصل ما بين الملاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي التمّ ، والمـلاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي النسر .

وكان جان بروفير درجةً اخرى من درجات المعنى نفسه اكثر رقة وألين جانباً . كان يدعو نفسه جيهان * ، بدافع من ذلك الهـوى المؤقت الذي امتزج بالحركة القوية العميقة التي انبثقت منها دراسةُ القرون الوسطى ، الضرورية جداً . كان جان بروفير عاشقـاً ، وكان يُعنى بأصيص رياحين ، ويعزف على الفلوت ، وينظم الشعر ، ويحب الشعب ، ويرثي للمرأة ، ويبكي على الطفولة ، ويخلط في الثقة نفسها ما بين المستقبل والله ، ويلوم الثورة لانها احتزّت رأساً ملكياً واحداً هو رأس اندريه شينييه ** . كان صوته رقيقاً ، عادةً ، ولكنه ما يلبث ان تغلب عليه

* Jeban de Paris رواية وضعها في القرن الخامس عشر مؤلف مجهول ، يسخر فيها امير فرنسي شاب من منافسه ملك انكلترة العجوز ، واذ ينثر الذهب في طريقه يستميل اليه قلب بنت من بنات ملك الاسبان .

** André Chénier شاعر فرنسي (١٧٦٢ – ١٧٩٤) شارك بادىء الأمر في الحركة الثورية ، ثم احتج على العنف المفرط الذي لجأ اليه الثوريون في عهد الارهاب فمات على المقصلة .

المحولة ، فجأة . وكان حسن الثقافة حتى الموسوعية ، ومستشرقاً أو يكاد . وكان فوق ذلك كله خيّراً . وفي دنيا الشعر كان يُؤثر الباذخ الجليل ، وهو شيء طبيعي جداً عند من يعرف مقدار التجاور ما بين الطيّبة والعظمة . كان يعرف الايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، وهذا ما ساعده على ان لا يقرأ غير اربعة شعراء : دانتي ، وجوفينال ، وأشيلوس ، وأشعيا . وفي الفرنسية ، كان يفضّل كورنيّ على راسين ، وآغريبا دوبينييه * على كورنيّ . كان مولعاً بأن يهيم على وجهه في حقول الشوفان البري والـتُرُنجان ، وكان يُعنى بمتابعة السحب بقدر ما يُعنى بمتابعة الاحداث تقريباً . وكان لعقله وضعان ، احدهما في جوار الانسان ، والآخر في جوار الله . كان إما دارساً ، وإما متفكراً . وطوالَ النهار كان يتعمّق المسائلَ الاجتماعية : الأجور ، ورأس المال ، والبيع على الحساب ، والزواج ، والدين ، وحرية التفكير ، وحرية الحب ، والتربية ، والعقاب ، والبؤس ، والشركة ، والملكية ، والانتاج ، والتوزيع ، والاحجية الدنيا التي تُلقي ظلّاً على قرية النمل الانسانية . وفي الليل ، كان يحدّق الى النجوم ، تلك الكائنات الهائلة . ومثل آنجولراس ، كان موسراً ، وكان وحيد أبويه . كان يتكلم في رقة ، مطأطئاً رأسه ، غاضّاً من طرفه ، مبتسماً في ارتباك ، وكان سيء الهندام ، أخرق السيماء ، شديد الحياء ، يشيع الدم في وجهه للاشيء . وفي ما عدا ذلك ، كان باسلاً جريئاً .

وكان فويي عامل مراوح ، يتيم الأب والأم ، يكسب بشق النفس ثلاثة فرنكات في اليوم ، وليس في رأسه غير فكرة واحدة ، أن يخلّص العالم . وكانت له رغبة اخرى : أن يثقف نفسه ، وهو ما كان يدعوه تخليص النفس ايضاً . كان قد علّم نفسه القراءة والكتابة ؛

* Agrippa d'Aubigné شاعر فرنسي (١٥٥٢ – ١٦٣٠) كان هجّاء بروتستانتياً حارب الى جانب الملك هنري الرابع ، ويمتاز شعره بعنفه وكثرة استعاراته .

وكلُّ ما عرفه إنما تعلمه بنفسه . وكان فوبي قلباً كريماً . كان يعانق الكون . ذلك ان هذا اليتيم تبنّى الشعوبَ جميعاً . لقد أعوزته الأم فأنشأ يفكـّر في الوطن . إنه ما كان راغباً في ان يكون ثمة على ظهر الارض إنسانٌ لا وطن له . لقد حضنَ في ذات نفسه ، بالعرافة العميقة التي لرَجُل الشعب ، ما ندعوه اليوم **فكرة القوميات** . كان قد درس التاريخ خصيصاً لكي يقيم سخطه على اساسٍ من معرفته السبب في ذلك السخط . وفي تلك الندوة الحديثة التي ضمّت اولئك المثاليين الواقفين تفكيرَهم على فرنسة ، كان يمثّل الأمم الاجنبية . وكان اختصاصه يدور على محور اليونان ، وبولونيا ، وهنغارية ، ومقاطعات الدانوب ، وايطالية . كان يتلفظ بهذه الاسماء على نحو موصول ، لمناسبة ولغير مناسبة ، في إصرار الحق وعناده . وكان اعتداء تركية على كريت وتسالية ، واعتداء الروسيا على فرصوفيا ، واعتداء النمسا على البندقية - كانت هذه الاعتداءات كلها تثير غيظه . وكانت وسيلةُ العنف العظمى التي اصطُنعت عام ١٧٧٢ * توغر صدره بخاصة . وليس ثمة فصاحة اعظم سلطاناً من فصاحة الحق المفرغة في قالب من السخط . وكان هو مسلحاً بسلاح هذا الضرب من الفصاحة . فهو لا يملّ الحديث عن ذلك التاريخ الشائن ، ١٧٧٢ ، وتلك الامة النبيلة الباسلة التي مَحَتْها الخيانة ، وتلك الجريمة الثلاثية ، وذلك الكمين الماثل ، الذي فُصّلت على مثاله مختلفُ الاعتداءات الفظيعة التي تعرضت لها الدول فأبادت عدداً من الشعوب النبيلة ، ومحت اذا جاز التعبير سجلّ ولادتها . والواقع ان جميع الهجمات التي شُنت على المجتمع ترقى الى ذلك التاريخ الذي قُسّمت فيه بولونيا . إن تقسيم بولونيا مبدأ مقرر ليست الجرائم السياسية الحاضرة كلها غير نتائج له . فطوال قرن بكامله لم يُطلع التاريخ طاغية ولا خائناً إلا

---

* يشير المؤلف الى تقسيم بولونيا الاول ، بين الروسيا وبروسية والنمسا ، الذي تمّ في ذلك العام .

ووَسمَ ، وأيَّدَ ، وأمضى ، ووقّع بالأحرف الأولى ، تقسيم بولونيا لا نستثني من ذلك احداً من الطغاة أو من الخونة . وحين نبحث في ملفّ الخيانات المعاصرة يبدو ذلك التقسيم في الطليعة . وقد استشار مؤتمر فيينا تلك الجريمة قبل ان يُنجز جريمته . لقد نفخ عام ١٧٧٢ في الصُّوْر محمّساً كلاب القنص ، فكان عام ١٨١٥ هو حصّة الكلاب من الصيد . ذلك كان النصّ الذي لا يملّ فوبي من إعادته كل يوم . لقد جعل ذلك العاملُ الفقير نفسَهُ معلماً للعدالة ، ولقد كافأته العدالة بأن جعلته عظيماً . ذلك بأن للحق أبديته . ففرصوفيا لا تستطيع ان تصبح تتارية اكثر مما تستطيع البندقية ان تصبح تيوتونية . والملوك يضيعون جهدهم في ذلك ، ويضيعون شرفهم ايضاً . فعاجلاً او آجلاً يطفو البلد المُغرَق على سطح الماء ويعاود الظهور . وهكذا تصبح بلادُ اليونان بلادَ اليونان من جديد ، وتصبح ايطاليةُ ايطاليةَ من جديد . إن احتجاج الحقّ على الواقع يستمر الى الابد . والجريمة المتمثلة في نهب شعب من الشعوب لا تسقط بمرور الزمان . إن هذه الاختلاسات العليا ليس لها مستقبلٌ البتة . فليس في ميسورك ان تمحو رسم امة من الامم كما تمحو رسم منديل من المناديل .

وكان لكورفيراك أبٌ يدعى مسيو دو كورفيراك . والواقع ان من أخطاء العهد البوربوني الجديد ، في موضوع الارستوقراطية والنبالة ، إيمانه باداة الاضافة . وأداة الاضافة كما نعلم ليس لها معنىً البتة . ولكن بورجوازية عصر الـ « مينيرفا » رفعت هذه الـ « دو » de المسكينة مقاماً عليّاً الى حدّ جعل الناس يعتقدون انهم مضطرون الى التخلي عنها . وهكذا دعا مسيو دو شوفلين نفسَهُ مسيو شوفلين ؛ ودعا مسيو دو كومارتين نفسَهُ مسيو كومارتين ؛ ودعا مسيو دو كونستان دو روبيك نفسه بنجامان كونستان ، ودعا مسيو دو لافاييت نفسه مسيو لافاييت . ولم يُرِدْ كورفيراك ان يتخلّف عن الركب فسمّى نفسه ، في اختصار ،

كورفيراك .

ويكاد يكون في استطاعتنا ، ان نقف هنا ونجتزيء بالقول ، في ما يتصل بسائر نواحي شخصية هذا الرجل : كورفيراك : انظر تولومييس .

وكان كورفيراك يتمتع ، في الواقع ، بتوقد الخيال الفتيّ الذي نستطيع ان ندعوه جمال العقل الشيطاني . وهـذا التوقد يخبو في مراحل العمر القادمة ، كما تخبو ظرافة الهريرة ، وتنتهي كل تلك الملاحة القائمة على قدمين اثنتين ، عند البورجوازي ، وعلى براثن اربعة ، عند الهرّ .

وهذا الطراز من العقل ينتقل من جيل من اجيال التلاميذ الى جيل ، ويمرّ من يدٍ الى يدٍ بنموّ الشباب المتعاقب ، من غير ان يطرأ عليه تغيّر يستحق الذكر ، بحيث أن من قد قدّر له ان يسمع كورفيراك يتحدث كما اسلفنا ، عام ١٨٢٨ ، كان خليقاً بأن يحسب أنه يسمع تولومييس عام ١٨١٧ . كل ما في الأمر أن كورفيراك كان فتى شجاعاً . فوراء المشابه الظاهرية في العقل الخارجي كان ثمة فرق كبير بينه وبين تولومييس . إن الرجل الكامن في كل منهما غيره في الآخر تماماً . كان في تولومييس محامٍ ، وكان في كورفيراك فارس مغامر .

كان آنجولراس هو الزعيم ، وكان كومبوفير هو الهادي ، وكان كورفيراك هو المركز . كان رفيقاه يرسلان نوراً اقوى من نوره ، على حين كان يرسل هو حرارة اقوى من حرارتها . والحق انه كان يجمع صفتي المركز كلتيهما : الاستدارة والاشعاع .

وكان باهوريل قد شارك في شغب حزيران ١٨٢٢ الدامي بمناسبة دفن « لالمان » الفتى .

وكان باهوريل مخلوقاً دمث الاخلاق ، رديء العشرة ، شجاعاً ، مبذراً ، متلافاً حتى الجود ، ثرثاراً حتى الفصاحة ، جسوراً حتى القحة . كان خير عجينةٍ يمكن أن يكوّن منها شيطان ، وكان ذا صدرات مجازفة ، وآراء

قرمزية ؛ وكان صخاباً من النوع الرفيع ، يعني انه لا يحب شيئاً حبه للشعار اذا لم يكن ذلك الشعار شغباً ، ولا يحب شيئاً حبه للشغب اذا لم يكن ذلك الشغب ثورة . كان مستعداً دائماً لان يكسر احدى بلاطات الشارع ، ولأن يجرد الشارع بعد ذلك من بلاطه كله ، ولأن يقوّض الحكومة بعد هذا وذاك ، لكي يرى اثر صنيعه . تلميذ في السنة الحادية عشرة . لقد اتخذ هذا الشعار : **لن اكون محامياً ابداً** . واصطنع هذا الرمز : طاولة للوازم النوم كان المرء يلمح فوقها قلنسوة مربعة . وكان كلما مرّ بمدرسة الحقوق ، وهو امر نادر ، يزرّر سترته الطويلة – فلم يكن المعطف قد اختُرع بعد – ويتخذ احتياطات صحية . وكان يقول عن باب المدرسة الرئيسي : يا له من عجوز جميل ! وعن عميد المدرسة ، مسيو ديلفينكور : يا له من أثر نفيس ! كان يرى في دروسه موضوعات للاغاني ، وفي اساتذته مناسبات لرسم الصور الكاريكاتورية . وكان يستهلك في القيام بلا شيء جعالةً سنوية تبلغ نحواً من ثلاثة آلاف فرنك . وكان أبواه ريفيين وفِّق الى ان يوقع في نفسيهما احتراماً لابنهما . كان يقول عنهما : « انهما فلاحان ، لا بورجوازيان ، وهو ما يفسر ذكاءهما . »

وكان باهوريل – وهو رجل غريب الاطوار – موزعاً في قهوات عدة . كانت لسائر رفاقه عادات ، اما هو فلم يكن له شيء من ذلك . كان يتسكع . ان الهيام على الوجه إنساني . أما التسكع فباريسيّ . وكان في اعماقه عقلاً نافذاً ، وكان مفكراً اكثر مما يبدو لعين الناظر .

كان أشبه بهمزة وصل بين « اصدقاء الالفباء » وجماعات اخرى لمّا يكتمل تشكلها بعد ولكنها كانت في سبيلها الى ذلك .

وفي هذا المجمع من الرؤوس الفضة كان رأسٌ أصلع .

روى المركيز دافاري الذي خلع عليه لويس الثامن عشر لقب دوق لأنه ساعده على ركوب احدى عربات الاجرة يوم هاجر من البلاد ، ان رجلا قدّم عريضة الى الملك ، عام ١٨١٤ ، فيما كان يطأ ارض كاليه

عائداً الى الوطن .

وقال الملك :

— « ماذا تريد ؟ »

— « ادارة بريد ، يا مولاي . »

— « ما اسمك ؟ »

— « ليغل » L'Aigle (النسر) .

وزوى الملك ما بين حاجبيه * ، ونظر الى التوقيع الذي مهرت به العريضة ، فرأى الاسم مرسوماً هكذا : ليسغل Lesgle فُسرّ الملك لهذا الرسم غير البونابرتي ، وشرع يبتسم .

واستأنف صاحب العريضة كلامه :

— « مولاي ، لقد كان جدي مدرّب كلاب يُلقب بـ « ليغول » *Lesgueules* (الاشداق) . ولقد أمسى هذا اللقب اسماً لي . فأنا ادعى ليغول ، أو ليسغل ** *Lesgle* عند الأدغام ، وليغل *L'Aigle* عند التحريف . »

وهنا أنهى الملك ابتسامته . وفي ما بعد ، عيّن الرجلَ مديراً للبريد في « مو » ، إما سهواً أو قَصْداً .

وكان عضو الندوة الأقرع ابن ليسغل هذا ، أو ليغل ؛ وكان يوقع اسمه ليغل (دو مو) . وكان رفاقه يدعونه ، رغبةً في الايجاز ، بوسوويه .

كان بوسوويه فتىً مرحاً قليل الحظ . وكان اختصاصه هو عدم النجاح في أيّ شيء . ومن ناحية ثانية ، كان يسخر من كل شيء . وفي الخامسة والعشرين أمسى أصلع . وكان ابوه قد توفي ، مخلّفاً بيتاً وحقلاً . ولكنه ، هو الابن ، لم يجد ما هو أكثر إلحاحاً من إضاعة

---

* لان « النسر » شعار نابوليون بونابرت ورمزه .

** السين هنا تُرسم ولا تلفظ .

هذا الحقل وذلك البيت في مضاربة طائشة . ولم يبقَ لديه شيء . وكان على مقدار صالح من المعرفة والذكاء ، ولكنه كان يخيب دائماً . كان كل شيء يُعوزه ، وكان كل شيء يخدعه . فما إن يقيم بناء حتى ينهار على على رأسه . فاذا ما شقّ قطعة من خشب ، قطع إصبعه . واذا ما كانت له خليلة ، اكتشف وشيكاً ان له صديقاً أيضاً . وكلّ لحظة كان يُلمّ به بلاء ؛ ومن هنا مرحه . وكان يقول : « **أنا أحيا تحت سطح القرميد المتساقط** . » وإذ كان يتوقع دائماً وقوعَ حادث ما ، فلم يكن ليدهش إلا نادراً . وكان يتقبّل الحظ السيء في طمأنينة ، ويبتسم لمناكدات القدر مثل رجل يسمع الدعابات والاضاحيك . كان فقيراً ، ولكن جعبته من البشاشة ودماثة الاخلاق لم تكن تنضب . كان ينتهي سريعاً الى فلسه الأخير ، ولكنه ما كان ينتهي ابداً الى ضحكته الاخيرة . وكان اذا ما وفدت المصيبة عليه سلّم في وُدّ على ذلك الصديق القديم . كان يربّت على ظهر الكوارث ، فقد كان يألف القدرَ الى حدٍ جعله يناديه بلقبه ، فهو يقول : « صباح الخير ، ايها العبقري المعجوز ! »

وكانت اضطهادات الحظّ هذه قد جعلته ذا موهبة اختراعية . كان كثير الموارد . لم يكن يملك شيئاً من المال ، ولكنه كان يجد الوسيلة ، حين يبدو ذلك صالحاً في نظره ، الى أن يغالي في « الأنفاق الجموح » . وذات ليلة ، ذهب الى حد انفاق مئة فرنك على عشاء مع فتاة بلهاء ثرثارة ، وهو ما أوحى اليه ، في غمرة من الافراط في الأكل والسُكر ، بهذه الكلمة المأثورة : « يا ابنة الليرات الذهبية الخمس ، إخلعي حذائي من قدميّ ! »

واتخذ بوسوويه سبيله ، في تؤدة ، نحو مهنة المحاماة ؛ فقد كان يدرس القانون على طريقة باهوريل . ولم يكن لبوسوويه بيت ، تقريباً . ولم يكن له في بعض الاحيان بيت البتةَ . كان يُقيم احياناً عند هذا ،

ويقيم احياناً عند ذاك ، وغالباً ما كان يقيم عند جولي . وكان جولي هذا يدرس الطب ، وكان يَصغُر بوسويه بسنتين .

وكان جولي « مريض وهم » * شاباً . لقد أفاد من الطب ما جعله مريضاً اكثر منه طبيباً . وفي الثالثة والعشرين ، حسبَ نفسَهُ مراضاً ، وأنفق أيامه في النظر الى لسانه في المرآة . كان يعلن ان الانسان ممغنط مثل ابرة البوصلة ، وهكذا كان يجعل رأس سريره ، في حجرة نومه ، الى الجنوب وَقدمَه الى الشمال لكي لا يعترض تيار الكرة الارضية المغناطيسي حركةَ الدم ، عنده ، في اثناء الليل . وفي ايام الجوّ العاصف ، كان يجسّ نبضه . ومع ذلك فقد كان أشدّهم مرحاً . وانما اجتمعت هذه المتنافرات كلها — شاب ؛ أهوَس ؛ معتلّ الصحة ؛ مراح — وتناغمت ، لتولّد كائناً غريب الأطوار قريباً الى النفس . كان رفاقه المسرفون في اصطناع الحروف الساكنة المجنّحة يدعونه جوللي . وكان جان بروفير يقول : « في استطاعتك ان تطير على أربع لامات » ** .

وكان من عادة جولي ان يحك أنفه بطرف عصاه ، وهي أمارة على العقل الحصيف .

وكان لهؤلاء الشبان كلهم الشديدي التباين ، والذين يتعيّن علينا ان لا نتكلم عنهم ، في الجملة ، إلا حديثاً جدياً — نقول كان لهؤلاء الشبان كلهم دين واحد ، هو التقدم

كانوا كلهم أبناء مباشرين للثورة الفرنسية . وكان اكثرهم طيشاً يغلب عليهم الخشوع حين يُلفظ هذا التاريخ : ٨٩ . صحيحٌ أن آباءَهم ، باللحم والدم ، كانوا أو سبق أن كانوا من الدستوريين المعتدلين ، أو

---

* *Malade Imaginaire* ، وهي آخر مسرحيات موليير .

** *Quatre L* . واذا عرفت أن كلمة *aile* الفرنسية التي تلفظ كما يلفظ حرف *L* تماماً معناها « الجناح » ادركتَ التورية في كلام بروفير ذاك .

الملكيين ، أو المتحررين المعتدلين ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم او ليؤخر كثيراً . إن هذه الفوضى السابقة لأيامهم لم يكن لها اية صلة بهم ، فقد كانوا شباباً . كان دم المبادىء الصّرف يجري في عروقهم . لقد تعلّقوا ، من غير ما فارق دقيق متوسط ، بالحق الذي لا يبلى ، وبالواجب المطلق .

وإذ انضووا تحت لواء واحد وتثقفوا بثقافة جمعيتهم الواحدة فقد رسموا مثلهم الأعلى ، مرأ ، رسماً خفيفاً .

وبين هذه القلوب السريعة الانفعال كلها ، وهذه العقول المؤمنة كلها ، كان ثمّة متشكك واحد . كيف اتفق أن وُجد هناك ؟ بحكم التجاور . وكان اسم ذلك المتشكك غرانتير ، وكان يوقّع عادةً بهذا الرسم الرمزي R *. وكان غرانتير رجلاً يُعنى عنايةً شديدة بأن لا يؤمن بأي شيء . والى هذا ، فقد كان من الطلاب الذين أفادتهم فترة الدراسة في باريس علماً غزيراً : لقد تعلّم أن القهوة الفضلى كانت تقدّم في مقهى لامبلين ، وأن طاولة البليارد الفضلى كانت في مقهى فولتير ، وانه كان في ميسورك ان تجد الكعك الجيد والفتيات الحسان في « الخلوة » في « جادة مين » ، والدجاج المشويّ في مطعم الأم ساغيه ، والسمك المطبوخ بالسمن وشيء من العجين والخمر في باب لاكونيت ، وضرباً من الصهباء الخفيفة في باب كومبا . كان يعرف المواطن الممتازة ، التي يُلتمس فيها كل شيء . والى هذا ، فقد كان يعرف الملاكمة ، والتنس ، وبعض الرقصات ، وكان الى هذا يجيد اللعب بالنبوت ، سكيراً ، ضخماً . كان قبيحاً الى حدّ مروّع . والواقع ان ايرما بواسي ، اجمل مضرّبة للاحذية العالية في ذلك العهد ، كانت قد نطقت بهذه الجملة ، وقد ثارت على قبحه : « إن غرانتير شخص ميؤوس منه » ، ولكن

---

* ذلك ان هذا الحرف ، مرسوماً بشكله الكبير ، يُلفظ بالفرنسية هكذا : *Grand R.* ومن هنا نفهم لماذا كان غرانتير يوقع اسمه بهذا الحرف R ليس غير .

اختيال غرانتير لم يعرف الحيرة والارتبـاك . كان ينظر ، في حنان وفي تركيز ، الى كل امرأة ، وقد بدا كأنه يقول فيهنّ جميعـاً : لو كنتُ أرضى فقط ! وكأنه يحاول ان يوقع في روع رفاقه انه مهوى أفئدة النساء جميعاً .

هذه الكلمات كلها : حقّ الشعب ، حقوق الانسان ، العقد الاجتماعي ، الثورة الفرنسية ، الجمهورية ، الديموقراطية ، الانسانية ، الحضـارة ، الدين ، التقدّم ، كانت عند غرانتير اقرب شيء الى الكلام الفـارغ الذي لا يعني شيئاً البتة . كان يسخر منها . ذلك أن التشكك — هذا التسوّس الذي يصيب الفكر — لم يُبْقِ في عقله فكرةً كاملةً واحدة . كان يحيا في سخر . وكانت هذه هي الحقيقة البدهية عنده : ليس هناك غير شيء يقينيّ واحد هو كأسي المترعة . كان يهزأ بالتفاني مهما تكن ظروفه وسواء أكان الباذلُ نفسَه أخاً أم أباً ، روبسبيير الفتى ، أم لوازيرول . كان يصيح : « لقد تعجّلوا موتهم كثيراً . » وكان يقول عن الصليب : « تلك مشنقةٌ اقترنت بنجاح عظيم . » وكان يثير استياء هؤلاء المفكرين الشباب — وهو الفاسق ، المقامر ، الخالع العذار ، الثمِل في معظم الاحيان — بأنشاده على نحو موصول : « أحب الفتيات ، وأحب الخمر المعتقة . » على نغم : « فليحيَ هنري الرابع » .

ومع ذلك ، فقد كان لهذا المتشكك عصبية . ولم تكن هذه العصبية لا فكرةً ولا عقيدةً جوهرية ، ولا علماً من العلوم . كانت رجلاً ، هو آنجولراس . لقد اعجب غرانتير بآنجولراس ، وأحبّه ، وكلف به . الى من شد هذا المتشكك الفوضويّ نفسه في هـذه الكتيبة من العقول الجازمة ؟ الى اكثرها جزماً . وبأي وسيلة أخضعه آنجولراس ؟ بالافكار ؟ لا . بالشخصية . ظاهرة كثيراً ما تُلاحظ . متشكك يشايع مؤمناً ، ذلك شيء سهل مثل قانون الألوان المتمّمة . إن ما يعوزنا يجذبنا . وليس ثمـة من يحبّ النور بقدر ما يحبه الاعمى . والقزم يعبد رئيس الطبالين . إن

ضفدع الجبل يتطلع ابداً الى السماء . لماذا ؟ لكي يرى العصفور طائراً . لقد كان غرانتير ، الذي دبّ الشك في ذات نفسه ، يحب ان يرى الايمان يحلق في ذات نفس آنجولراس . ان تلك الطبيعة العفيفة ، السليمة ، الثابتة ، المستقيمة ، القاسية ، الساذجة قد فتنته ، من غير ان يفهم ذلك في وضوح ومن غير أن يحاول شرحها لنفسه . لقد أُعجب ، بحكم الغريزة بنقيضه . لقد تعلقت افكاره الرخوة ، المتذبذبة ، المتفككة ، المريضة ، المشوهة ، بآنجولراس وكأنها تتعلق بعمود فقري . ان سلسلة ظهره الاخلاقية قد اتكأت على تلك الصلابة الراسخة . وفي جوار آنجولراس ،أمسى غرانتير شخصاً ما ، من جديد . وكان هو نفسه ، الى ذلك ، مؤلفاً من عنصرين متنافرين ظاهرياً . كان ساخراً وودوداً . وكانت لامبالاته مُحبة . لقد استغنى عقله عن الايمان ، ولكن قلبه لم يستغنِ عن الصداقة . تناقض عميق ، ذلك بأن المحبة يقين . كانت طبيعته هكذا . إن ثمة رجالاً يبدون وكأنهم ولدوا لكي يكونوا الوجه المقابل ، الظهر ، القفا . انهم بولوكس* وباتروكلوس ** ونيسوس *** وأوداميداس ، وإيفيستيون ، وبيشميجا . إنهم لا يحيون إلا اذا استندوا الى شخص آخر . وهم يُدعون تمات ، ولا يذكر اسم كل منهم إلا مسبوقاً بواو العطف . ان وجودهم ليس ملكاً لهم . انه الجانب الآخر من مصير ليس مصيرهم . لقد كان غرانتير واحداً من هؤلاء الرجال . كان وجه آنجولراس الآخر .

---

* Pollux و Castor بطلان ميثولوجيان ، كانا ولدين توأمين لجوبيتير و « ليدا » ويُجمع ما بين هذين الاسمين عادة كرمز للمحبة .

** Patroclua بطل اغريقي ، كان صديقاً لاخيل ، وقد لحق به عند حصار طروادة وحين رفض اخيل القتال ، لاستيائه من اغاممنون حل باتروكليس محله وقاتل الطرواديين حتى قتل ، وعندئذ عاد أخيل فانضم الى صفوف الاغريق لكي يثأر له .

*** Nisus طروادي شاب تبع « إينيه » إلى ايطالية ، وقد خلّد محبته ا « أوريال » الشاعرُ فيرجيل في الكتاب التاسع من الانيادة . وقد اصبح اسما نيسوس واوريال مثلا في الصداقة المخلصة حتى الموت .

ويكاد يكون في استطاعتنا ان نقول ان القرابات تبـــدأ باحرف الالفباء . ففي تسلسل هذه الاحرف لا تنفصل الـ O عن الـ P البتة . وفي ميـــورك، اذا احببت ، ان تلفـــظ O و P ، أو « أوريست » و « بيلاديس » *.

وعاش غرانتير ، وكان قمراً دائراً في فلك آنجولراس حقاً ، في هذه الحلقة من الفتيان . لقد سكن هناك ، ولم يكن ليجد المتعة إلا هناك . كان يتبع هؤلاء الفتيان حيثما ذهبوا ، وكان قوام بهجته ان يرى هذه الاشكال المظللة تروح وتجيء من خـــلال أثر الخمر في رأسه . وكانوا يحتملونه لبشاشته ودماثة خلقه

واذ كان آنجولراس مؤمناً ، فقد ازدرى هذا المتشكك ، واذ كان زاهداً في الشراب ، فقد احتقر هذا السكير . لقد جاد عليه بشفقة يسيرة متشامخة . كان غرانتير شبه بيلاديس غيرِ مقبول البتة . كان يلقى من آنجولراس معاملة قاسية دائماً ، وكان يُصد في خشونة ، وكان يُبعد ثم لا يلبث ان يعود ، وكان برغم ذلك يقول عن آنجولراس : « يا له من تمثال رائع ! » .

---

* Oreste ابن اغاممنون وكليتمنيستر ، ولا تزال صداقته مع بيلاديس Pylades البطل الفوسيدي (نسبة الى فوسيديا وهي مقاطعة في بلاد اليونان القديمة) مضرب الامثال .

٢
بوسوويه يؤبن بلوندو

وذات أصيل كان له ، كما سنرى ، بعض الموافقة الزمنية للاحداث التي رويناها آنفاً ، أسند ليغل دو مو ، ظهره في تكاسل الى مدخل مقهى الموزين . كانت تبدو عليه سيما « كارياتيد » * في إجازة . إنه ما كان يُقلّ شيئاً غير هواجسه وأحلامه . كان ينظر الى ساحة سان ميشيل . والواقع أن إسناد الظهر الى باب او جدار ضربٌ من الاضطجاع الواقف لا يكرهه الحالمون البتة . وإنما كان ليغل دو مو يفكر ، في غير كآبة ، بمصيبة صغيرة ألمّت به أمس الأول في مدرسة الحقوق ، وعدّلت خطط مستقبله الشخصية ، وهي خطط كانت ، في الأصل ، غير محدّدة ولا واضحة .

والاستغراق في التفكير لا يمنع عُجَيْلة من المرور ، ولا يحول بين الحالم وبين رؤية العجيلة . وهكذا لاحظ ليغل دو مو التائه العينين في ضربٍ من التسكع المُسْهَب — لاحظ من خلال تلك التّبْدلة ** — عُجَيْلة ذات دولابين تنعطف نحو الساحة ، وتمضي في مثل سرعة الخطو وكأنها مترددة متحيرة . ما الذي كانت تريده تلك العجيلة ؟ لمَ كانت تمشي في مثل سرعة الخطو ؟ ونظر ليغل اليها . كان في داخلها ، الى جانب السائق ، شابٌ ، وكان أمام الشاب كيس أمتعة ضخم . وكان ذلك الكيس يُبدي لأعين عابري السبيل هذا الاسم : **ماريوس بونغيرسي** مكتوباً بأحرف سوداء على بطاقة مخيطة فوق القماش .

---

* الكارياتيد cariatides تماثيل على هيئة امرأة او رجل كان الاغريق يتخذون منها دعائم للافاريز في مبانيهم وهياكلهم .

** التبدلة : المشي اثناء النوم ، وهو ما يعرف في اللغات الاجنبية بـ Somnambulisme

وغيّر هذا الاسم وضعَ ليغل . لقد تصدّر وألقى بهـــذا السؤال المفاجيء في وجه الشابّ الذي في العجلة :

– « مسيو ماريوس بونميرسي ؟ »

ووقفت العجيلة التي وُجّه اليها السؤال .

ورفع الشاب ، الذي بدا مستغرقاً في التفكير أيضاً ، عينيه وقال :

– « نعم ؟ »

– « ألستَ مسيو ماريوس بونميرسي ؟ »

– « من غير شك . »

وأضاف ليغل دو مو :

– « كنتُ ابحث عنك . »

– « كيف هذا ؟ » كذلك تساءل ماريوس ، إذ كان هـــو في الواقع قد فارق منزل جده ، وكان أمامه وجه رآه للمـرة الاولى . « انا لا أعرفك . »

فاجابه ليغل :

– « وانا ايضاً لست أعرفك . »

وحسب ماريوس انه قد التقى بماجن مزّاح ، وان تلك بداءة مخاتلةٍ ساخرة على قارعة الطريق . ولم يكن على مزاجٍ رائق في تلك اللحظة عينها . فزوى ما بين حاجبيه .

وتابع ليغل دو مو رابطَ الجأش :

– « أنت لم تكن في المدرسة امس الأول ؟ »

– « ذلك جائز . »

– « هذا مؤكد . »

فسأله ماريوس :

– « هل أنت تلميذ ؟ »

– « نعم ، ياسيدي . مثلك . امسِ الأول ، اتفق ان ذهبتُ

الى المدرسة . تدري ، إن مثل هذه الافكار تراود المرء في بعض الاحيان . وكان الاستاذ على وشك ان يدعو كل طالب باسمه . وانت لا تجهل انهم يكونون مضحكين جداً في تلك اللحظة . فاذا لم تلبّ النداء في المرة الثالثة حذفوا اسمك . ستون فرنكاً تذهب مع الريح .»

وبدأ ماريوس يصغي . وتابع ليغل كلامه :

- « كان بلوندو يتلو الاسماء . انت تعرف بلوندو . إن له أنفاً محدّداً جداً ، خبيثاً جداً ؛ وإنه ليبتهج حين يشمّ رائحة الغائبين من الطلاب . لقد بدأ ، في مداراة ، بالحرف p . ولم أكن أصغي ، لانني ما كنت لأعنَى بذلك الحرف . وسارت عملية المناداة سيراً حسناً . ولم يُمحَ أيما اسم . كان الكون كله حاضراً ، وكان بلوندو محزوناً ، وقلت في ذات نفسي : بلوندو ، ياحبيبي ، إنك لن توفّق إلى اصدار أصغر حكم من أحكام الاعدام اليوم . وفجأةً ، نادى بلوندو : **ماريوس بونميرسي** ؟ ولم يُجب أحد . وغمر الأمل قلب بلوندو فكرر في صوت أقوى : **ماريوس بونميرسي** . وأمسك بريشته . سيدي ، إن فؤادي عامر بالحب . وسرعان ما قلت في نفسي : هو ذا فتىً شجاع سوف يُمحى اسمه . إنتبه . انه شاب مرحٌ حقاً لا يعرف الدقة في المواعيد . إنه ليس غلاماً صالحاً . إنه ليس سوسة كتب ؛ تلميذاً يدرس ؛ مدعياً غرّاً من مدّعي العلم الاغرار ؛ قوياً في العلوم ، والآداب ، واللاهوت ، والحكمة ؛ واحداً من تلك الجماجم البلهاء الشديدة التأنق حتى لكأنها مشدودة بأربعة دبابيس ؛ لكل مقدوة دبوس . كان كسولاً شريفاً يتسكع ؛ يحبّ ان يصطاف ؛ يواظب على معاشرة العاملات ذوات الغنج والدلال ؛ يتزلف إلى الحسان ؛ ولعله ان يكون في هذه اللحظة ذاتها عند خليلتي . فلننقذه . الموت لبلوندو ! وفي تلك اللحظة غمس بلوندو ريشته ، السوداء من أثر المحو ، في الحبر ، وأجال حدقتَهُ الصّهباء في القاعة ، وكرّر للمرة الثالثة : **ماريوس بونميرسي** ! واجبت : **حاضر** ! وهكذا لم يُمحَ اسمك . »

فقال ماريوس :

– « سيدي ! ... »

واضاف ليغل دو مو :

– « وُمحيِيَ اسمي أنا . »

فقال ماريوس :

– « أنا لا أفهمك . »

واستأنف ليغل كلامه :

– « ليس ما هو اسهل من ذلك . لقد كنتُ قريباً من الكرسي ، لكي أجيب ، وقريباً من الباب لكي أفرّ . كان الاستاذ ينظر الي في شيء من التركيز . وفجأة وثب بلوندو – الذي ينبغي ان يكونَ الأنفَ الماكر الذي تحدث عنه بوالو – الى الحرف L . والحرف L هو حرفي . أنا من « مو » واسمي هو ليغل . »

فقاطعه ماريوس :

– « ليغل ! يا له من اسم جميل ! »

– « سيدي ، لقد وصل بلوندو الى هذا الاسم الجميل وصاح : « ليغل ! » فأجبت : حاضر ! وعندئذ نظر بلوندو اليّ في رقة النمر ، وابتسم ، وقال : « اذا كنتَ بوغيرمي ، فلستَ ليغل . » وهي عبارة قد لا تسرّك ، ولكنها لم تكن مأتمية إلا بالنسبة اليّ . فما إن قال ذلك حتى محا اسمي . »

فهتف ماريوس :

– « سيدي ، لقد أحزنتَني ... »

فقاطعه ليغل :

– « قبل كل شيء ، ألتمس أن احنّط بلوندو ببضع كلمات من الرثاء الصادق القويّ . أنا أحسبه ميتاً . ولن يكون ثمة كثيرٌ مما ينبغي أن يُغيّر في نحوله ، وشحوبه ، وبرودنه ، وتوتره ، وراحته . وأنا

أقول *Erudimini qui judicatis terram* هنا يرقد بلوندو ، بلوندو الأنف ، بلوندو نازيكا * ، ثور النظام ، *bos disciplinae* ، كلب الاوامر الحارس ، ملاك المناداة على اسماء الطلاب ، الذي كان مستقيماً ، مربّعاً ، دقيقاً ، قاسياً ، أميناً ، سمجاً . لقد محاه الله كما محاني . »

وأردف ماريوس :

— « أنا آسف جداً ... »

فقال ليغل دو مو :

— « أيها الفتى ، ليكن ذلك درساً لك . في المستقبل ، كن دقيقاً في مواعيدك . »

— « الحقّ ان عليّ ان أقدّم اليك ألف عذر . »

— « حذار ان تعرّض نفسك لأن تكون سبباً في محو اسم جارك ، مرةً اخرى . »

— « أنا آسف جداً . »

وانفجر ليغل ضاحكاً .

— « وأنا في طربٍ بالغ . لقد كانت قدمي على وشك أن تزلّ في منحدر المحاماة . فجاء هذا الشطب فأنقذني . إني اتخلى عن انتصارات المحاماة . أنا لن ادافع عن الارملة ، ولن اهاجم اليتيم . لا « روب » بعد اليوم ، ولا فترة تدرُّج . ها قد تمّ شطب اسمي . وإني لمدينٌ لك بذلك ، يا مسيو بونميرسي . أنا اعتزم أن ازورك ، في كثير من الوقار ، وارفع اليك آيات شكري . اين تسكن ؟ »

فقال ماريوس :

— « في هذه العُجيلة . »

فأجاب ليغل في هدوء :

— « ذلك دليل سعة وثروة . اهنئك . إن عندك هناك بيتاً تبلغ

---

* من كلمة nasus اللاتينية ، وتعني الأنف .

أجرته تسعة آلاف فرنك سنوياً . »

وفي تلك اللحظة خرج كورفيراك من المقهى .

وابتسم ماريوس في كآبة .

– « كنت في ذلك البيت منذ ساعتين ، وإني لأتمنى ان أغادره . ولكنها القصة المعتادة ، أنا لا أدري الى أين أذهب . »

فقال كورفيراك :

– « ايها السيد ، تعال الى منزلي . »

فلاحظ ليغل :

– « كان ينبغي ان يكون لي حق الاولوية ، ولكني لا منزل لي . »

فأجاب كورفيراك :

– « اسكت ، يا بوسوويه ! »

فقال ماريوس :

– « بوسوويه ، ولكني ظننتُ انك تدعو نفسك ليغل . »

فأجاب ليغل :

« ليغل دو مو . وفي المجاز ، بوسوويه . »

ودخل كوفيراك العجلة .

وقال :

– « الى اوتيل دو لا بورت سان جاك ، ايها السائق . »

وفي ذلك المساء نزل ماريوس في غرفة من غرف اوتيل دو لا بورت سان جاك ، جنباً الى جنب مع كورفيراك .

٣
دهش ماريوس

ولم تنقضِ بضعة ايام حتى أمسى ماريوس صديقَ كورفيراك .

فالشباب هو موسم الامزجة * اللاحة ، والالتئامات السريعة . وتنفس ماريوس ، وهو في جوار كورفيراك ، في حرية — وهو شيء جديد بالنسبة اليه . ولم يوجّه كورفيراك اليه أيما سؤال . بل إنه لم يفكر في ذلك البتة . ففي تلك المرحلة من العمر يُفصح المحيّا عن كل شيء في الحال . إن الكلام لا غَناء فيه . وهناك بعض الشباب الذين نستطيع ان نقول ان وجوههم ثرثارة . ينظر احـــدهم الى الآخر ، فيعرف احدهم الآخر .

ومع ذلك فقد وجّه اليه كورفيراك هذا السؤال ، ذاتَ صباح ، على نحو مفاجيء :

— « بالمناسبة ، هل لك رأي سياسي ؟ »

فقال ماريوس وقد غاظه السؤال أو كاد :

— « ماذا تعني ؟ »

— « ما أنت ؟ »

— « ديموقراطي بونابرتي . »

فقال كورفيراك :

— « ظلٌّ أشهب للون فأرة مطمئنة . »

وفي اليوم التالي قدّم كورفيراك ماريوس الى مقهى الموزين . ثم همس في أذنه مبتسماً : « يجب ان افتح لك باب الثورة . » وقـــاده الى حجرة « أصدقاء الالفباء » ، حيث قدّمه الى سائر الاعضـاء قائلًا في صوت كالهمس هذه الكلمة البسيطة التي لم يفهمها ماريوس : « تلميذ . »

كان ماريوس قد وقع في وكرِ عقليّ . ومـــع انه كان صموتاً آخـذاً بأسباب الجـدّ ، فـأنه لم يكن اوهنهم جناحـاً ولا أقلّهم سلاحـاً .

وإذ كان ماريوس ، حتى ذلك الحين ، متوحّداً نزوعاً الى مناجاة النفس

* الامزجة ، هنا ، جمع مزاج ، وهو ما يُمزَج به .

وتوجيه الخطاب الى الذات بسائق العادة والذوق ، فقد اخذه شيء من الذهول لدنْ رؤيته هذه الجماعة من الشبان حوله . لقد هاجمته هـــذه المبادَرات المختلفة ، في آن معاً ، وأربكته . إن الحركة الدائمة الصاخبة التي تكشّفت عنها هذه العقول المتحررة العاملة قد أثارت افكاره وعصفت بها . وفي غمرة من الاختلاط ، بعضَ الاحيان ، كانت تلك الأفكار تنأى عنه الى حد يجعل من العسير عليه ان يعثر عليها كرةً اخرى . كان يسمع أحـــاديث في الفلسفة ، والادب ، والفن ، والتاريخ ، والدين ، في اسلوبٍ غير منتظر . اقد لمح مظاهر غريبة ؛ وإذ لم يكن يتوقعها فما كان واثقاً من ان ما يراه ليس مجرّد تشوّش . لقد ظن ، حين تخلى عن معتقـدات جـده ليعتنق معتقـدات أبيه أنـه قـد نعم بالاستقرار . ولكنه حسِبَ الآن ، في قلق ، ومن غير ان يعترف بهذا أمام نفسه ، أنه لم يكن كذلك . كانت الزوايا ، التي يرى جميع الاشياء منها ، قد شرعت تتغيّر كرة ثانية . لقد أثارت ذبذبةً ما آفاق دماغه كلها . بلبلةً باطنية غريبة . وآذاه ذلك أو كاد .

لقد بدا وكأن هؤلاء الفتيان لم يكن لديهم « أشياء مقدسة . » ففي كل موضوع من الموضوعات ، سمع ماريوس لغةً فريدة مزعجة لعقله الذي ما يزال هيّاباً . [1]

وبرز امامهم إعلان من اعلانات المسرح مزدان بعنوان تراجيديا من القائمة القديمة المسماة كلاسيكية . فصاح باهوريل : « فلتسقط التراجيديا العزيزة على قلب البورجوازي ! » وسمع ماريوس كومبوفير يجيب :

— « انت مخطىء ، يا باهوريل . ان البورجوازية تحب التراجيديا ، وفي هذه النقطة يجب ان ندع البورجوازية وشأنها . إن للتراجيديا ذات اللمة المستعارة مبرر وجودهـا ، وأنا لست واحـداً من اولئك الذين يُنكرون عليها ، باسم أشيلوس ، الحقّ في الحياة . إن في الطبيعة رسوماً أولية . وإن في البرايا تحريفات جاهزة . منقار ليس من المناقير

في شيء ، اجنحة ليست من الاجنحة في شيء ، زعانف ليست من الزعانف في شيء ، مخالب ليست من المخالب في شيء ، وصيحة فاجعة تغرينا بالضحك - تلك هي البطة . والآن ، ما دام الطائر الداجن محيا جنباً الى جنب مع العصفور ، فلست ارى لماذا لا ينبغي للتراجيديا الكلاسيكية ان توجد في وجه التراجيديا العتيقة . »

وفي مرة اخرى اتفق ان كان ماريوس يجتاز شارع جان جاك روسو بين آنجولراس و كورفيراك .

وامسك كورفيراك بذراعه :

— « انتبه . هذا شارع بلاتريير ، المسمى اليوم شارع جان جاك روسو بسبب من أسرة غريبة عاشت فيه لستين عاماً خلت . كانت مؤلفة من جان جاك وتيريز . وبين الفينة والفينة كانت كائنات صغيرة تولد هناك . كانت تيريز تجيء بهم ، وكان جان جاك يُبعدهم . »

فأجابه آنجولراس في قسوة :

— « إلزم الصمت أمام جان جاك ! أنا عظيم الاعجاب بذلك الرجل . لقد أنكر أولاده ؛ حسنٌ جداً ، ولكنه تبنّى الشعب . »

ولم ينطق ايّ من اولئك الفتيان بهذه اللفظة : الامبراطور . كان جان بروفير وحده يقول في بعض الاحيان : نابوليون . أما سائر الجماعة فكانوا يقولون : بونابرت . وكان آنجولراس يلفظها هكذا : بُونابرت .

ودهش ماريوس والتبس عليه الامر . *Initium Sapientiae* *

* في اللاتينية ، ومعناها : اول الحكمة ؛ او رأس الحكمة .

٤
الحجرة الخلفية في مقهى الموزين

ومن بين الاحاديث التي دارت بين هؤلاء الفتيان ، على مسمع من ماريوس ، والتي شارك هو فيها بعض الاحيان ، حديثٌ أصابه بهزة عنيفة .

دار ذلك الحديث في الحجرة الخلفية من مقهى الموزين . وكان « اصدقاء الالفباء » كلهم مجتمعين ذلك المساء . وأضيء المصباح الكبير في احتفال . وتحدّثوا في موضوعات مختلفات ، من غير ما انفعال ، وفي ضجة . وباستثناء آنجولراس وماريوس ، اللذين لزما الصمت ، ألقى كل منهم ، كيفما اتفق ، خطاباً صغيراً . ان محاورات الرفاق تُنتج في بعض الاحيان هذا الصخب الدمث . كان لعباً وفوضى بقدر ما كان حديثاً . وكان الواحد منهم يقذف بكلماتٍ ما يلبث الآخر ان يتلقّفها . لقد تحدثوا في كلّ من الزوايا الاربع .

ولم يكن يجاز لأيّ من النساء ان تدخل الى هذه الحجرة الخلفية ، ما خلا لويزون غاسلة الاطباق في المقهى ، التي كانت تجتازها بين الفينة والفينة لكي تمضي من المغسَل الى « المختبر » .

وكان غرانتير ، وقد تمتعه السُّكر ، يُصمّ الزاوية التي بسط سلطانه عليها . كان يتحدث بأعلى صوته حديثاً بعضه معقول وبعضه هراء . لقد صاح :

ـ « انا ظمىء . ايها الفانون ، لقد حلمتُ حلماً : أن دنّ هايدلبرغ قد أصيب بالسكتة ، واني دزينة العلقات التي اصطُنعت في علاجه . أنا ابتغي الشراب ، انا اريد ان انسى الحياة . ان الحياة اختراع بشع لست ادري

صاحبه . إنها لا تدوم ، وهي لا تساوي شيئاً . وكل منـا يدق عنقه لكي يعيش . الحياة مشهد تمثيلي ليس فيه غير قليل من محتمل الوقوع . والسعادة إطار عتيق دُهن من جانب واحد . يقول « سفر الجامعة » : كل شيء باطل . انا اتفق مع هذا الرجل الصالح الجائز ان لا يكون قد وُجد قطّ . إن الصفر ، وقد رغب عن العري الكامل ، قد ألبس نفسه رداء الباطل . اوه ، ايها البـاطل ! ترقيع كل شيء بالكلمات الضخمة ! المطبخ مختبر ، والراقص استاذ ، والمشعوذ محترف رياضة بدنية ، والملاكم ملاكم ، والصيدلي كيميائي ، والحلاق فنان ، والمتوحّل معمار ، وفارس السباق رياضي ، وقمّل الخشب ظُفر غصنيّ . والبـاطل له قفا وله وجه ، فالوجه أحمق ، إنه الزنجي بخرَزه . والقفا أبله ! إنه الفيلسوف بأسماله البالية . انا أرثي لأحدهما . وأضحك من الآخر . وما يدعونه المراتب والمناصب ، وحتى العزّة والعظمة هي عادةً ذهب زائف . إن الملوك يتخذون من الكبرياء الانسانية لعبة يعبثون بها . فـ « قليقولا » * عيّن أحـد الجياد قنصلاً . وشارل الثاني جعل قطعة من لحم صُلب البقر فارساً . فسيروا في نظام عسكري بين القنصل إينسيتاتوس ، والبارونة شريحـة لحم البقر . أما قيمة الناس الذاتية فلم تعد بعدُ موضع الاحترام . اسمعوا الى المدائح التي يتبادلها الجيران . إن البيـاض قاسٍ على البياض . ولو كان للزنبقة ان تتكلم عن الحمامة إذن لسلقتها بألسنة حداد ! إن المرأة المتطرفة في الورع ، التي تطلق القيل والقال عن امرأة تقية ، هي اشد سماً من الصّلّ والافعى الزرقاء . من المؤسف اني جاهل ، اذ كان يجدر بي ان اقدم اليـكم كثيراً من الشواهـد ، ولكني لا أعـرف شيئاً . لقـد كنت ، مثلاً ، متوقد الذكاء دائماً . فحين كنت تلميذاً عند « غرو » كان من

---

* Caligula امبراطور روماني تولى العرش ما بين عامي ٣٧ و٤١ م وقد بلغ من احتقاره للشعب ان عيّن فرسه ، اينسيتاتوس ، قنصلاً . ولقد قال ذات يوم في كلام له عن رعاياه : « فليبغضوني ، ولكن فليهابوني ! » *Oderint dum metuant*

دأبي أن أنفق الوقت في سرقة التفاح بدلاً من انفاقه في خربشة الصُور . ولا غرابة ، فالتلميذ في التصوير (*rapin*) هو مذكر الاغتصاب (*rapine*)* وفي هذا المقدار من الكلام عن نفسي كفاية . أما أنتم فلا تقلون عني شأناً . إني اهزأ من كمالاتكم ، وفضائلكم ، وسجاياكم . فكل سجية تنقلب الى نقيضة . المقتصد يحاذي البخيل ، والكريم يتاخم المبذّر ، والشجاع يسير جنباً الى جنب مع المتظاهر بالشجاعة ، ومن يقول : ورع جداً ، يقول : متكلف في التقوى . إن في الفضيلة من الرذائل مثل ما في رداء ديوجين من الثقوب . بمن تعجبون : بالقتيل ام بالقاتل ، بقيصر ام بيروتوس ؟ إن الناس على العموم يصفقون للقاتل . مرحى لبروتوس ! لقد قتل . تلك هي الفضيلة . فضيلة ؟ لا بأس ، ولكنها حماقة ايضاً . إن على هؤلاء الرجال العظام لطخات عجيبة . فال «بروتوس» الذي قتل قيصر كان مغرماً بتمثال صبي صغير . وكان ذلك التمثال من صنع النحات الاغريقي سترونجيليون ، الذي صنع ايضاً تمثال تلك الفارسة الباسلة المسمّاة ذات الساق الجميلة ، *Eucnemos* ، الذي كان نيرون يصطحبه في رحلاته . ولم يخلّف سترونجيليون هذا غير تمثالين أقاما التناغم ما بين بروتوس ونيرون . كان بروتوس يحب واحداً منهما ، وكان نيرون يحب الاخر . وما التاريخ كله غير تكرار طويل . إن كل قرن من الزمان ينتحل كلام قرن آخر . لقد حذت معركة مارانغو حذو معركة « بيدنا » ** . إن توليباك *** كلوفيس وأوسترلتيز

---

* يقصد ان التصوير والاغتصاب من جذر لغوي واحد ، وان في الامكان ان يحلّ احدهما محل الآخر . وفي هذا الكلام تلاعب لفظي واضح .

** Pydna احدى مدن مقدونية حيث غلب بولس اميل القائدُ الروماني ، بيرسيه آخرَ ملوك مقدونية عام ١٦٨ ق . م

*** Tolpiac مدينة في غالة (فرنسة) القديمة حيث انتصر كلوفيس الاول – ملك الفرنجة – على اتحاد القبائل الجرمانية المعروف بالـ « آلامان » Alamams عام ٤٩٦ م .

نابوليون تتشابهان مثل قطرتين من دم . انا لا أقيم كبير وزن للنصر . فليس شيء اشدّ حماقة من الفتح والغلبة . المجـد الحقيقي هو الاقناع . ولكن حاولوا الان ان تقيموا الدليل على شيء ! انتم تقنعون بالنجاح ويا لها من حقارة ! وبالغلبة والنصر ، ويا له من شقـاء ! واأسفاه ، عبث وجبن في كل مكان . كل شيء يخضع للنجاح ، حـتى النحو * Si volet usus ، كذلك يقول هوراس . انا أحتقر ، اذن ، الجنس البشري . اتريدون ان نهبط من الكلّ الى الجزء ؟ اتريدون ان اشرع في الاعجاب بالشعوب ؟ ايّ شعب ، من فضلكم ؟ اليونان ؟ إن الاثينيين ، باريسيّي العصور القديمة ، قتلوا فوسيون ** ، كما لو قلنا كوليني *** مثلًا ، وتملقت الطغاة الى درجة جعلت آناسيفوراس يقول عن بيزيستراتوس **** : إن بوله يجذب النحل . وطوال خمسين عامـاً كان اقدر رجل في بلاد الاغريق هو النحوي فيلوتاس الذي كان ضئيل الجسم مهزولاً الى حد اضطره الى ان يدعّم حذاءه بالرصاص لـكي لا تذروه الرياح . ولقـد كان في ساحة كورنث الكبيرة تمثال نحتهُ سيلانيوس ، وقيده بليني ***** في جداوله . وكان هذا التمثال تمثال أبيستات . وما الذي فعله أبيستات ؟ لقد اخترع الشّغزبية ****** . هذه خلاصة لبلاد الاغريق وللمجد . ولننتقل

---

* في اللاتينية ، ومعناها : لان الاستعمال يريد .

** Phocion جنرال وخطيب اثيني (حـوالى ٤٠٠ – ٣١٧ ق م) اشتهر بنزاهته ، ولقد حكم عليه ظلماً بأن يشرب الشوكران السام ، بعـد ان اتهم بالخيانة .

*** Coligny كان احد زعماء البروتستانت اثناء الحروب الدينية ولقـد مات مسموماً بتحريض من كاترين دو مديتشي . (١٥٣١ – ١٥٦٩)

**** Pisistrate طاغية أثيني معاصر لصولون ، وقد توفي عام ٥٢٧ ق.م.

***** Pline او Pliny ، المؤلف الروماني الشهير (حوالى ٦٢ م – ١٢٠ م)

****** الشغزبية والشغربية اعتقال المصارع رجله برجل مصارعه وصرعُه اياه بهذه الحيلة وهو ما يعرف في الفرنسية بـ Croc - en - jambe

الى موطن آخر . أأعجب بانكلترة ؟ أأعجب بفرنسة ؟ فرنسة ؟ لماذا ؟ من اجل باريس ؟ لقد أبديت اللحظة رأيي في اثينا . انكلترة ؟ لماذا ؟ من اجل لندن ؟ انا اكره قرطاجة . ثم ان لندن ، عاصمة الترف ، هي حاضرة البؤس . ففي ابرشية « تشيرنغ كروس » وحدها يموت مئة انسان جوعاً ، كل عام . تلك هي آلبيون * . وأضيف كتكملة ، اني رأيت في يوم من الايام فتاة انكليزية ترقص وعلى رأسها تاج من الزهور ، وعلى عينيها نظارتان زرقاوان . فلننتحب اذن على انكلترة . أنا لا أعجب بـ « جـون بول » ** فهل ينبغي لي ان أعجب بالاخ جوناتان *** اذن ؟ أنا لا أستسيغ هـذا الشعب ذا العبيد الارقاء إلا قليلًا . ضعوا « الوقت من ذهب » جانباً فماذا يبقى من انكلترة ؟ ضعوا « القطن مَلِك » جانباً فماذا يبقى من اميركة ؟ إن المانية هي السائل اللمفاوي . **** وإن ايطالية هي الصفراء التي تفرزها الكبد . ***** هل نسمح للوجود بأن يستبدّ بنا إكباراً للروسيا ؟ لقد أُعجب فولتير بها . ولقد أُعجب بالصين ايضاً . انا أقرّ بان للروسيا جمالاتها ، ومن بين تلك الجمالات حكم استبدادي قويّ . ولكني أرثي للمستبدين . إن لهم صحةً رقيقة جداً . لقد قُطِع رأس ألكسيوس ، وطُعن بطرس بخنجر ، وخُنق بولس ، وسُحق بولسٌ آخر بضرباتٍ

---

* Albion هو الاسم الذي اطلقه القدماء على انكلترة ، ولعل مرد ذلك الى بياض صخورها العالية المشرفة على شاطىء البحر (من كلمة *albus* في اللاتينية وتعني الابيض)

** John Bull (أو حنا الثور) لقب يطلق على الشعب الانكليزي إظهاراً لعدم أناقته ولعناده .

*** Jonathan لقب يطلق على شعب الولايات المتحدة . ويقال انه دعي كذلك على اسم جوناتان ترومبول Trumball حاكم كونكتيكوت ، وكان صديقاً ومستشاراً لواشنطون .

**** يقصد أنها تمثل المزاج الكسول في التفكير والعمل على اعتبار ان القدماء كانوا يرجعون ذلك الى وجود هذا السائل بكثرة في الدم .

***** يقصد انها تمثل المزاج النكد المتبرّم .

بعقب حذاء عالي الساق ، وذُبح عدد ممن حملوا اسم ايفـان ، وسُمّم كثير ممن حملوا اسم نيقولا وباسيل ، وكل هذا يدلّ على أن قصر أباطرة الروسيا هو في حال من الوبال فظيعة . إن جميع الشعوب المتمدنـة تقدّم إلى إعجاب المفكر هذه الواقعة : الحرب . ولكن الحرب ، الحرب المتمدنة ، تستنفد وتختصر كل شكل من اشكال اللصوصية ، ابتـداء من قطع الطريق الذي قام به الـ « ترابوكير » في شعاب جبل جاكسا الى سلب الجنود الذي قام به الـ « كومانش » المنود في « مجاز الشك » . آه ، سوف تقولون لي ان أوروبة هي برغم ذلك أفضل من آسية ؟ أنا اعترف بأن آسية مضحكة ؛ ولكني لا أرى جيـداً بأي حقّ تضحكون على « اللاما الكبير » * ، انتم يا شعوب الغرب الذين ضممتم الى أزيائكم وأناقاتكم جميع اوساخ العظمة المعقدة ، من قميص الملكة ازابيلا القذر ، الى كرسيّ وليّ عهد فرنسة المثقوب ** . ايها السادة الانسانيون ، اني اقـول لكم : خاب ظنكم ! ففي بروكسل لا في غيرها يُستهلك أعظم قـدْر من الجعة ، وفي ستوكهولم لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من العرق ، وفي مدريد لا في غيرهـا يُستهلك اعظم قدر من الشوكولا ، وفي أمستردام لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من شراب الـ « جنّ » ، أو رُبّ العَرْعَر ، وفي لندن لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الخمر ، وفي القسطنطينية لا في غيرها يستهلك اعظم قدر من القهوة ، وفي باريس لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الأفسنتين *** . تلك هي جميع المعلومات المفيدة . وباريس

---

* Grand Lama الرئيس الاعلى للديانة البوذية ، ويعتقد اتباعـه أن بوذا متجسد فيه .

** الكرسي المثقوب ، chaise percée ، كرسي مثقوب يستخدمه المريض للبول او التغوّط .

*** abisinthe مسكر قويّ ، مرير ، اخضر اللون ينطوي على ٦٨ بالمئة من الكحول ، يصنع من الافسنتين وغيره من الاعشاب .

تنتزع قصب السَّبْق من منافساتها كلها . ففي باريس نجـــد ان ملتقطي الخِرَق انفسهم شهوانيون . ولو قد خُيِّر ديوجين اذن لآثر ان يكون ملتقط خِرَقٍ في ساحة موبير لا فيلسوفاً في بيروس . تعلَّموا هـذا ايضاً : إن خمارات ملتقطي الخرق تـدعى *bibines* ، وإن اعظمها شهرةً تدعى « القِدْر ذات المقبض » ، و « المسلخ » . وإذن ، فيا ايتهـا الخمارات ، والمطاعم ، والحانات ، والبارات ، والمسارح الوضيعة ، ومحالّ بيع الخمر بالجملة ، والمراقص ، والمواخـــير ، وخمارات ملتقطي الخرق ، وخانات القوافل الشرقية ، أنا أُشهدكِ على اني خليـــعٌ شهوانيّ . اني اتناول الطعام عند « ريشار » بأربعين سو للشخص الواحد ، واني محتاج الى سجاد فارس لكي ادحرج كليوباترة عاريةً . أين كليـوباترة ؟ آه ! إنها انتِ ، يا لويزون . صباح الخير ! »

وهكذا أفاض غرانتير ، وكان أكثر من ثمِل ، في الحديث ، متعلقاً بغاسلة الاطباق وهي تمرّ به ، في الزاوية التي احتلها من حجرة مقهى الموزين الخلفية .

وبسط بوسوويه ذراعه نحوه محاولاً ان يفرض عليه الصمت ، فاستأنف غرانتير حديثه على نحوٍ أروع :

– « فلتسقط براثنك ، يا ايغل * دو مو ! انت لا تأثير لك فيّ بايماءتك هذه التي تشبه ايماءة أبقراط وهو يأبى عقاقير على أرتحششتا ** . إنني أُعفيك من تهدئتي . والى هذا ، فأنا حزين . أيّ شيء تريدون ان اقول لكم ؟ الانسان شرير ؛ الانسان قبيح . لقد انتصرت الفراشة ، وكبا زَنْدُ الانسان . لقد خان الربُّ هذا الحيوانَ . والحشود لا تقدّم اليك إلاّ بشاعات مختارة . وأول شخص تقع عليه عيناك سافلٌ وغد . إن « المرأة » (*femme*) تتناغم تناغمَ القافيـة مع « الفاضح »

* واضح ان لفظ aigle وهو اسم « ليغل » مجرداً من لام التعريف يعني النسر .
** احد ملوك الفرس القدماء .

او « المرذول » (*infâme*) . أجل ، إني أعاني السأم ، مضافةً اليه الكآبة ، مع الحنين الى الموطن الأول ، الى جانب السوداء * . إني لأغتاظ ، إني لأثور ، إني لاتثاءب ، إني لأتبرّم ، وإني لمرَهقٌ ، وإني لشديد الضجر ! ليذهب الربُّ الى الشيطان ! »

— « اسكت ايها الراء الكبيرة ! » ** كذلك صاح بوسوويه من جديد وكان يناقش نقطة قانونية على حدة ، وكان غارقاً الى أبعد من خصره في سلسلة من عبارات اللغة القضائية ، هذه خاتمتها :

« ... أما أنا ، فبرغم اني لا أكاد أعدّ فقيهاً الاّ بشقّ النفس ، وبرغم اني في أحسن احوالي محامٍ هاوٍ ، فأقرر ما يلي : انه بموجب أحكام العرف السائد في نورمانديا ، في عيد القديس ميشيل ، ومرةً كل عام ، يجب ان يدفع كل منهم ضريبة الى السيد الاقطاعي – مع الاحتفاظ بحقوق الآخرين – يستوون في ذلك جميعاً ، سواء أكانوا اصحاب أملاك أم مَديني ميراث ، وهذا في جميع عقود الايجار البعيدة الأجل ، صكوك الكراء ، والاراضي الحرة ، وعقود الاملاك الخاصة والعامة ، والمرتَهَن عنده ، والراهن ... »

فدندنَ غرانتير :

— « أصداء ، ايتها العرائس النائحات ! »

وعلى مقربة دانية من غرانتير ، وعلى مائدة تكاد تكون صامتة ، أعلنت ورقةٌ ، ومحبرة ، وريشة انتصبت بين قدحيْ خمر أنَّ الخطوط الكبرى لرواية صغيرة ملحّنة كانت قيْدَ الوضع . وكان القائمان بهذه المهمة الضخمة يتحدثان في صوت خفيض ، وقد تماسّ رأساهما اثناء

---

* hypocondric .

** « R majuscule » يقصد غرانتير ، على اعتبار المجاورة اللفظية بين اسمه Grantaire وبين Grand R كما رأينا من قبل .

العمل :

— « فلنبدأ بالبحث عن الاسماء . اذ ما نكاد نعثر على الاسماء حتى نعثر على الموضوع . »

— « هذا صحيح . أملِ عليّ . سوف اكتب . »

— « مسيو دوريمون . »

— « غنيّ ؟ »

— « من غير شك . »

— « ابنته سيليستين . »

— « ... تين . ثم ماذا ؟ »

— « الكولونيل سينفال . »

— « سينفال اسم مبتذل . أفضّل فالسين . »

والى جانب هذين المسرحيّيْن الناشئين ، كانت حلقة اخرى استفادت هي ايضاً من الفوضى فراحت تتحدث في همس ، وتتناقش في مبارزة من المبارزات . كان شيخ — في الثلاثين من العمر — ينصح شاباً — في الثامنة عشرة — ويصوّر له حقيقة الخصم الذي سينازله :

— « يا للشيطان ! ُخذْ حِذْرك . إنه سيف جميل . إن لعِبهُ نظيف . إنه يهجم في غير مداراة ، وإن له معصماً رشيقاً ، ونفساً محتدمة ، وبرقاً خاطفاً ، وخطوةً دقيقة ، وضربات لا تخطىء . يا سلام ! وهو اعسر ايضاً ! »

وفي الزاوية المقابلة لغرانتير كان جولي وباهوريل يلعبان الدومينو ، ويتحدثان عن الحب .

قال جولي :

— « إنك محظوظ . إن الك خليلة لا تكفّ عن الضحك . »

فأجاب باهوريل :

— « هذا خطأ ترتكبه هي . إن خليلة المرء تخطىء إذ تضحك .

ذلك أن الضحك يشجعك على خداعها . فمجرد رؤيتك اياهـا مبتهجة يضع حداً لوخز الضمير . أما إذا رأيتها محزونة فعندئذ يقلقك ضميرك . »

— « يا لك من ناكر للجميل ! المرأة الضاحكة شيء حسن ! أنت لن تتشاجر معها ابداً ! »

— « ذلك جزء من المعاهدة التي وقّعناها . فحين عقدنا « حلفنا المقدس » الصغير عيّنّا لكل واحد منا حدوده التي لا يحق له تخطّيها البتة . فما هو واقعٌ الى الشمال مِلكٌ لـ « فود » ، وما هو واقع الى الجنوب مِلكٌ لـ « جيكس » . ومن هنا السلام الذي ننعم به . »

— « السلام هو السعادة هاضمةً . »

— « وأنت ، يا جوللي ، الى اين وصلت في خصامك مع الآنسة... انت تعرف من اعني ؟ »

— « إنها تتبرّم مني في صبر وحشيّ . »

— « وهكذا فانت عاشق يُلين القلوب بهزاله . »

— « وا أسفاه ! »

— « لو كنتُ مكانك لتخلصتُ منها . »

— « هذا شيء يسهل قوله . »

— « وعمَلُهُ . أليست تسمّي نفسها موسيقيّاً ؟ »

— « نعم . آه ، يا باهوريل المسكين ، إنها فتاة بالغة الجمال ، ذات نزعة أدبية ، ورجلين صغيرتين ، ويدين صغيرتين ، حسنة البزّة ، بيضاء ، بدينة ، ولها عينان مثل عيني قارئة البخت . انا مجنون بها . »

— « اذن فيجب أن تُرضيها ، يا صديقي العزيز . كن أنيقـاً . عرّضْ ساقيك للابصار . إشترِ من محل « ستوب » بنطلوناً من جلد الظبية . إن ذلك يساعد . »

فصاح غرانتير :

– « بكم يباع ؟ »

وكانت الزاوية الثالثة مستغرقة في مناقشة شعرية . كانت الميثولوجيا الوثنية تتصارع مع الميثولوجيا المسيحية . وكان الموضوع هو الأولومب الذي أيده جان بروفير بروح هي الرومانسية نفسها . إن بروفير لم يكن حيياً إلا في فترات السكينة فما إن يُستثار حتى يتفجّر . كان ضرب من البهجة يميّز حماسته ، وكان ضاحكاً وغنائياً في وقت معاً .

وقال :

– « لا تُهينوا الآلهة . فلعل الآلهة لم تفارقنا . إني لا أرى أمارات الموت على وجه جوبيتير . الآلهة اضغاث أحلام . هكذا تقولون . حسناً ؛ ولكنْ حتى في الطبيعة – كما هي الآن ، بعد انقضاء تلك الاحلام – نجد جميع الاساطير الوثنية القديمة الرفيعة الذرى . فهذا الجبل ، ذو الصورة الجانبية الشبيهة بحصن ، ولنقل إنه الـ « فينيمال » * مثلاً ، لا يزال في نظري غطاء لرأس سيبيل ** . ولم يقم الدليل بعدُ على ان « بان » *** لا يَفِدُ ليلاً لينفخ في جذوع الصفصاف الجوفاء سادّاً ثقوبها باصابعه ، ثقباً بعد آخر . ولقد اعتقدت ، ومـا أزال ، ان « ايبو » **** لها علاقة ما بشلال بيسفاش . »

وفي الزاوية الاخيرة ، كانت السياسة موضوع الحديث . كانوا يطعنون على دستور لويس الثامن عشر . ودافع كومبوفير عنه في فتور .

* Vignemale جبل من جبال البيرينيه (البرانس) يبلغ ارتفاعه ٣٢٩٨ متراً .

** Cybèle ابنة السماء ، والاهة الارض والزراعة ، زوجة ساتورن ، وأمّ جوبيتير ونبتون وبلوتون الخ .

*** Pan ابن هرمس ، وكان له قرنان كقرني التيس ورجلان مثل رجليه ايضاً ، وكان يروّع الناس بظهوره المفاجيء أمامهم ، وقد اخترع قيثارة كان يعزف بها لعرائس الغابات الراقصات .

**** Io ابنة ايناخوس ، وقد أحبها زيوس ومسختها هيرا الغيور الى عجلة وجعلتها تحت حراسة آرغوس ، العملاق ذي المئة عين .

وشنّ كورفيراك عليه هجوماً لا هوادة فيه . وكانت على المائدة نسخة سيئة الحظ من دستور توكيه الشهير . وأمسك كورفيراك به وهزّه ، مازجاً ارتعاشَ تلك الورقة بحُججه .

— « اولاً ، أنا لا أريد أيا ملك . لا أريد ، ولو من وجهة النظر الاقتصادية فحسب . الملوك متطفلون ونحن لا نفوز بهم مجاناً . اسمع الى هذا : غلاء الملوك . عند وفاة فرنسيس الاول كان دين فرنسة العام ثلاثين الف ليرة سنوياً . وعند وفاة لويس الرابع عشر كان الفين وستمئة مليون ليرة وكان المارك * يعدلُ ثماني وعشرين ليرة ، وهو مبلغ كان يساوي عام ١٧٦٠ ، وفقاً لرأي دومـاريه ** ، اربعة آلاف وخمسمئة مليون ليرة ، ويساوي اليوم اثني عشر الف مليون ليرة . ثانياً : وارجو ان لا يثير ذلك غضب كومبوفير ، ان الدستور الذي يُمْنح منحاً وسيلةٌ رديئة من وسائل الحضارة . فاجتناب الطفرة ، وتمهيد السبيل ، والتخفيف من حدّة الصدمة ، والانتقال بالامة رويداً رويداً من الملكية الى الديموقراطية بممارسة الاوهام الدستورية — هذه كلها حجج بغيضة . لا ! لا ! إياك وأن تقدّم الى الشعب نوراً زائفاً . إن المباديء لتذوى وتشحب في كهفـك الدستوري . لا انصاف حلول ؛ لا تسويات ؛ لا منحة من الملك الى الشعب . ففي جميع هذه المنح توجد المادة ١٤ . والى جانب اليد التي تعطي تجد البرثن الذي يستردّ . أنا ارفض دستورك رفضاً صريحاً . الدستور الممنوح هو قناع ؛ ان الكذب يكمن وراءه . والشعب الذي يقبل دستوراً ممنوحاً يتنازل عن سيادته . والحق لا يكون حقاً إلا اذا كان كلًا غير متجزىء .

---

* المارك هنا عملة فضية او ذهبية قديمة كانت تستعمل في بلدان مختلفة من اوروبة ، وبقيم متفاوتة .

** Desmarets مراقب المالية العام من سنة ١٧٠٨ الى سنة ١٧١٥ وقد اخترع ضريبة العُشر لكي يتجنب افلاس الدولة .

لا ! لا دستور ! »

كان الفصل شتاء . وكانت قطعتان من الحطب كبيرتان تشتعلان في الموقد . وكان ذلك مغرياً ، ولم يستطع كورفيراك ان يقاوم . فسحق دستور توكيه المسكين بيده ، وألقاه في النار . والتهبت الورقة . ونظر كومبوفير ، على نحو فلسفي ، الى رائعة لويس الثامن عشر تحترق ، فاكتفى بالقول :

— « هو ذا الدستور يتحوّل ، باللهب ، الى خلقة اخرى . »

ولم يكن من السخريات ، والنكات ، والجناسات المستقبحة ، وهذا الشيء الفرنسي الذي ندعوه الحيوية المبتهجة ، وهذا الشيء الانكليزيّ الذي ندعوه الظّرْف ، والذوق السليم والذوق الفاسد ، والحجج القوية والحجج الضعيفة ، وجميع حماقات الحوار المختلطة — لم يكن من هذه كلها إلا ان برزت دفعة واحدة منطلقةً من اطراف القاعة جميعاً ، لتحدث فوق الرؤوس ضرباً من القصف المدفعي المرح .

٥
توسيع الافق

إن لتصادم العقول الشابة هذه الخاصة الرائعة وهي ان المرء لا يستطيع أن يتكهن بالشرر او يتنبأ بالبرق . ايّ شيء يمكن ان ينبثق في تلك اللحظة ؟ لا أحد يدري . إن موجة من الضحك تتبع مشهداً من الرقة والحنوّ . وفي اللحظة المازلة ، يُطلِعُ الجِدّ رأسه . والحوافز رهنٌ بكلمة عابرة . وقريحة كلّ امريء مطلقة السلطان . ونكتة واحدة كافية لأن تفتح الباب لغير المتوقّع . ولقد كانت اجتماعاتهم ذوات منعطفات حادة تتغيّر فيها أبعاد المنظر على نحو مفاجيء . ان المصادفة

هي التي تدير هذه الاحاديث .

وفجأة انبثقت من صليل بعض الكلمات ، وعلى نحوٍ غريب ، فكرة صارمة ، واجتازت فوضى الكلام التي تصارع في غمرتها غرانتير ، وباهوريل ، وبروفير ، وبوسوويه ، وكومبوفير ، وكورفيراك تصارعاً مشوّشاً .

كيف تتخذ عبارةٌ ما سبيلها الى حوار ما ؟ ما الذي يجعلها تفرض نفسها ، ُفجاءةً ، على انتباه اولئك الذين يسمعونها ؟ لقد قلنا منذ لحظة : لا أحد يدري . ففي غمرة الاصوات الصاخبة ختم بوسوويه ، على نحو مفاجيء ، كلاماً كان يوجّهه الى كومبوفير ، بالتاريخ التالي :

— « ١٨ حزيران ، ١٨١٥ : واترلو . »

ولم يكد ماريوس — الذي كان متكئاً على احدى الطاولات ، قرب كأس ماء — يسمع هذ الاسم ، واترلو ، حتى نزع معصمه من تحت ذقنه ، وأنشأ يحدّق الى الجماعة تحديقاً موصولاً .

وصاح كورفيراك :

— « وحق الاله pardieu (كانت parbleu * قد بدأت تبطُلُ في ذلك العهد) إن هذا الرقم ، ١٨ ، لغريبٌ ، وإنه ليُذهلني . إنه رقم نابوليون المشؤوم . ضع « لويس » في المقدمة ، و « بروميير » في المؤخرة تقع على قَدَر الانسان كله ، مع هذه الخاصة المعبّرة ، وهي أن النهاية تطارد البداية مطاردة عنيفة . »

وهنا قطع آنجولراس حبل الصمت ، وكان أبكم حتى ذلك الحين ، وخاطب كورفيراك قائلاً :

— « تريد ان تقول إن التكفير يطارد الجريمة . »

وتجاوزت هذه الكلمة ، **الجريمة** ، حدود احتمال ماريوس ، وكان قد استثير بتلك الاشارة المفاجئة الى واترلو .

* وهي تحريف لـ pardieu .

ونهض ، ومشى في تؤدة نحو خريطة فرنسة المنشورة على الجدار ، وكانت تبدو في أدناها جزيرة طُوّقت باطار منعزل . ووضع اصبعه على هذا الاطار وقال :

— « كورسيكة . جزيرة صغيرة جعلت فرنسةَ دولة عظيمة حقاً . »

كانت تلك هبّةً من هواء مثلوج . وكانوا كلهم صامتين . واستشعروا ان شيئاً ما ، على وشك ان يبدأ .

وكان باهوريل — الرادّ على بوسوويه في سرعة وحدّة — على أهبة اتخاذ وضعٍ كوضع التماثيل النصفية كان يحرص عليه . ولكنه تخلى عن ذلك لكي يصغي .

ولم يكن من آنجولراس — الذي كانت عينه السوداء غير مركّزة على احد ، والذي بدا وكأنه يتأمل الفراغ — إلا ان أجاب من غير ان ينظر الى ماريوس :

— « ان فرنسة لا تحتاج الى شيء مثل كورسيكة لكي تكون عظيمة . إن فرنسة عظيمة لانها فرنسة . * *Quia nominor leo* »

ولم يستشعر ماريوس ايما رغبة في النكوص . لقد التفت الى آنجولراس ، وجلجل صوته في ارتجاج ناشيء عن ارتعاش اعصابه :

— « لست انتقص من قدر فرنسة ، لا سمح الله ! ولكن إدغام نابوليون بها لا ينتقص من ذلك القدْر ، البتة . تعال ، دعنا نتحدث اذن . أنا وافد جديدٌ عليكم ، ولكني اعترف انكم توقعون الدهش في نفسي . اين نحن ؟ من نحن ؟ فلنوضح آراءنا في الامبراطور . اني اسمعكم تقولون بُونابرت مشدّدين على الواو مثل الملكيين . وفي استطاعتي ان اقول لكم ان جدي يفوقكم في ذلك ايضاً ؛ إنه يلفظها بُونابرته .

---

* في اللاتينية ، ومعناها : « لاني ادعى الأسد » . وهي كلمة منتزعة من أحد امثال الشاعر اللاتيني « فيدر » حيث يقدّم الاسد هذه الحجة على حقه في الفوز بالقسم الاعظم من الغنيمة ...

لقد حسبتُ انكم شباب . اين حماستكم اذن ، وما الذي تفعلونه بها ؟ بم تُعجَبون ، اذا كنتم لا تُعجبون بالامبراطور ؟ وهل تطمعون في اكثر من ذلك ؟ واذا لم تتمنّوا مثل هذا الرجل العظيم فأيّ رجـــل تتمنّون ؟ كان كلّ شيء . كان كامـلاً . كان في دمـاغه مكعّب الكفايات الانسانية . لقد وضـــع القوانين مثل جوستنيانوس ؛ وأملى ارادته مثـل يوليوس قيصر ؛ وجمعت احاديثه برقَ باسكال الى رعـد تاسيتوس ؛ لقد صنع التاريخ وكتَبَهُ ؛ إن بياناته الرسمية هي الياذات؛ لقد مزج ارقـــام نيوتن باستعارات محمد ومجازاته ؛ وخلـّف وراءه في المشرق اقوالاً عظيمة كالاهرام . في تيلسيت علـّم الاباطرةَ الجلالَ ؛ وفي اكاديميـة العلوم ردّ على لابلاس * ؛ وفي مجلس الدولة قـــاوم ميرلين ** ؛ لقد اضفى روحاً على هندسة هؤلاء ومماحكات اولئك ؛ كان فقيهاً مع رجال القانون وعالماً بالنجوم مع رجال الفلك . ومثل كروموبل الذي كان يطفىء شمعةً حين تضاء اثنتان ، كان يذهب الى « تامبل » ليساوم البائع في ثمن شرّابة من شراريب السُّجف ؛ لقد رأى كل شيء ؛ لقد عرف كل شيء ؛ وهو مـا لم يمنعه من انـ يضحك ضحكة رجل ساذج أمام مهد طفله الصغير . وفجأة ، أصغت اوروبة المشدوهة ، وزحفت جيوشٌ ، ودارت حظائر المدافع ، وامتدت جـسور من المراكب فوق الأنهـــار ، وانطلقت سحائب من الخيّالة وسط الأعصار ، وضج الكون بالصيحات ، والأبواق ، وارتجافات العروش ، وتذبذبت تخوم الممالك على الخارطة ، وسُمع صليل حُسامٍ سوبرمانيّ ينبثق من الكُور ، ورآه الناس ، رأوه هو ، ينتصب واقفاً عند الافق ، وفي يديه برق ، وفي عينيه ضياء ، ناشراً في الرعد جناحيه الاثنين ، الجيش العظيم والحرس القديم ، وكأنه مَلاك الحرب الأكبر . »

---

* Laplace رياضي وفلكي فرنسي شهير . (١٧٤٩ – ١٨٢٧)

** Merlin سياسي فرنسي (١٧٥٤ – ١٨٣٨) شارك في اسقاط روبسبيير .

واعتصم الجمع كلهم بالصمت ، وخفض آنجولراس رأسه . وللصمت دائماً شيء من وَقْع القبول ، او وَقع ضرب من الدفع الى الجدار . ومن غير ان يأخذ نَفَساً ، تقريباً ، تابعَ ماريوس كلامه في فَضْل حماسة :

— « لنكن عادلين ، ايها الاصدقاء . ايُّ قدَر بهيّ ذلك الذي يجعل الأمة امبراطورية لمثل هذا الامبراطور ، حين تكون تلك الأمة هي فرنسة ، وحين تضيف عبقريتها الى عبقرية رجل كهذا ! فلأن تبرز وتلي العرش ؛ ولأن تزحف وتنتصر ؛ ولأن تتخذ من كل عاصمة من العواصم محطة لك ؛ ولأن تختار رماة قنابلك وتجعل منهم ملوكاً ؛ ولأن تصدر امرك بأسقاط السلالات المالكة ؛ ولأن تسمو بأوروبة في مثل سرعة الزحف العسكري بحيث يشعر الناس ، حين تُهدّد ، انك تضع يدك على قائم سيف الله ؛ ولأن تتبع — في رجل واحد — هنيبعلَ ويوليوس قيصر وشارلمان ؛ ولأن تكون شعبَ إنسان يمزج بكل صباح من أصباحك ايذاناً مجيداً بأن معركة قد كُسِبت ؛ ولأن توقَظَ مع الفجر بمدافع الانفاليد ؛ ولأن تقذف في لجج من النور كلماتٍ جبارةً تلتهب الى الابد : مارانغو ، آركولا ، اوسترليتز ، يينا ، واغرام ! ولأن تُطلع كلّ لحظة في سَمْت القرون ابراجاً من الانتصارات ، ولأن تجعل الامبراطورية الفرنسية خليفة الامبراطورية الرومانية ؛ ولأن تكون الشعب العظيم وتنشىء الجيش العظيم ؛ ولأن تحمل فِرَقك على الطيران فوق الارض برمّتها كما يبعث الجبل بنسوره الى كل ناحية ؛ ولأن تقهر وتحكم ، وتُنزل الصواعق ، وتكون في اوروبة ضرباً من الشعب المذهّب بتواتر المجد وتعاظمه ؛ ولأن تبوّق من خلال التاريخ بألحان الجبابرة ؛ ولأن تفتح العالم مرتين ، بالفتح العسكري وبالجَهَر * إن ذلك لشيء جليل ، وايّ شيء يمكن ان يكون اعظم

* جَهِرتِ العينُ جَهَراً : لم تُبصر في الشمس .

من هذا ؟ »

فقال كومبوفير :

– « أن نكون أحراراً . »

وخفض ماريوس ، بدَوره ، رأسه . كانت هـــذه الكلمات الباردة البسيطة قد شقّت تدفّقه الملحميّ مثل شفرة من فولاذ ، فاستشعر ان هذا التدفق قد تلاشى في قرارة نفسه . وحين رفع عينيه ، لم يكن كومبوفير هناك . ولعله ان يكون قد أحسّ بالارتياح لردّه على ذلك التأليه ، فغـــادر المكان وتبعَهُ الجمع كلهم ما عدا آنجولراس . كانت الحجرة خالية . وانشأ آنجولراس ينظر الى ماريوس في جدّ بعد أن لم يبق غيرهما في تلك الحجرة . وفي غضون ذلك كان ماريوس قد لمّ شتات افكاره فهو لا يعتبر نفسه مهزوماً . كان فيه بقية من ثورة كانت ، من غير شك ، على وشك أن تجد تعبيرها في أقيسة منطقية موجّهة ضـــد آنجولراس عندما سمعا ، فجأة ، شخصاً يغني فيما هو يهبط السلم . كان ذلك الشخص هو كومبوفير ، وكان ينشد الابيات التالية :

« اذا منحني قيصر ،
المجد والحرب ،
واذا تعين علي ان اتخلى
عن حب أمي ،
فعندئذ اقول لقيصر العظيم ،
استرجع صولجانك ومركبتك الحربية
انا افضل أمي ،
انا افضل أمي ! »

وكان في النبرة العذبة الضارية التي اصطنعها كومبوفير في انشاده ما خلع على هذه المقطوعة عظمة غريبة . وعلى نحو آليّ كرر ماريوس ، وقـــد استغرق في التفكير ، وسدد بصره الى السقف : « امي ؟.... »

وفي تلك اللحظة أحسّ بيد آنجولراس على كتفه .
وقال آنجولراس له :
– « ايها المواطن ، إن امي هي الجمهورية . »

٦
موارد مهزولة

قضى ماريوس تلك الليلة في اهتياج عميق ، وفي قتام نفسي كئيب. كان يعاني ما قد تعانيه الارض لحظةَ نشقها بالحديد لكي نودعها حبة القمح . إنها لا تستشعر غير ألم الجرح . أما اختلاجة البذرة ، وابتهاج الثمرة فلن يُلمّا بها إلا في ما بعد .

كان ماريوس مغموماً . لقد اعتنق – وما كاد – عقيدة جديدة . فهل يستطيع ان يطّرحها بمثل هذه السرعة ؟ وفي ما بينه وبين نفسه قرّر أنه لا يستطيع . لقد أعلن لنفسه انه لن يشكّ ، ولكنه شرع يشك بالرغم منه . ولأن يكون المرء بين دينين لمّا يهجر بعدُ أحدهما ولمّا يتبنَّ بعدُ الآخرَ ، شيء لا يطاق ؛ والغَسق ليس بحلو إلا للنفوس الخفافيشية . كان ماريوس عيناً مفتوحة وكان في حاجة الى النور الحقيقي . اما غسق الشك فكان يؤذيه . وعلى الرغم من رغبته القوية في ان يقف حيث هو وان يصمد هناك ، فقد اضطر ، على نحو لا يقاوَم ، الى أن يستمر ، ويتقدم ، ويدرس ، ويفكر ، ويمضي الى أمام . الى اين سيقوده ذلك ؟ لقد خشي ، بعد ان خطا هذه الخطوات كلها ، التي قرّبته الى أبيه ، ان يقوم الان بأي خطوة تبعده عنه . وكان ضيقه النفسي يتعاظم مع كل فكرة تخطر له . وارتفعت من حوله صخور سامقة شديدة التحدر . إنه لم يكن على وئام لا مع جده ، ولا مع اصدقائه . كان متهوراً مع الاول ، وكان

متخلفاً عن الآخرين . ولقد استشعر انه يحيــا في عزلة مضاعفة ، عن الشيخوخة من ناحية ، وعن الشباب من ناحية ثانية ، ولم يعـاود الذهاب الى مقهى الموزين .

وفي غمرة من هذا القلق الذي ألمّ به لم يفكر ببعض وجوه الوجود الجدية إلا قليلاً . إن حقائق الحياة لا تسمـــح لنفسها بأن تُنسى . وفجأة ، وفدت عليه وراحت تنكز ذاكرته بمرفقهـا .

وذات صباح ، دخل مدير الخدم غرفة ماريوس ، وقال له :

– « إن مسيو كورفيراك قد تعهد بأن يدفع دَينك . »

– « نعم . »

– « ولكني في حاجة الى المال . »

فقال ماريوس :

– « سَلْ كورفيراك ان يأتي ويتحدث معي . »

وأقبل كورفيراك . وفارقهما مدير النزُل . وقصّ عليه ماريوس ما لم يفكر في أن يرويه له من قبل ، وهو انه – اذا جاز التعبير – كان وحيداً في هذا العالم ، وأن ليس له أنسباء البتة .

فقال كورفيراك :

– « ما الذي سيحلّ بك ؟ »

فأجاب ماريوس :

– « لست ادري شيئاً من ذلك . »

– « ما الذي سوف تعمله ؟ »

– « لست ادري شيئاً من ذلك . »

– « هل عندك مال ؟ »

– « خمسة عشر فرنكاً . »

– « اتريد ان اقرضك شيئاً من المال ؟ »

– « لا ، مطلقاً . »

— « هل عندك ثياب ؟ »
— « عندي هذه . »
— « هل عندك حلية ما ؟ »
— « عندي ساعة . »
— « ساعة فضية ؟ »
— « ذهبية . ها هي ذي . »
— « انا اعرف متاجراً بالملابس مستعداً لأن يأخذ سترتـك الطويلة وبنطلوناً واحداً . »
— « وأحذيتي . »
— « ماذا ؟ انك لن تمشي حافياً ؟ يا لها من رفاهية ! »
— « هذا سوف يكفيني . »
— « وأنا اعرف ساعاتياً مستعداً لأن يشتري ساعتك . »
— « ذلك حسن . »
— « لا . إنه غير حسن . ما الذي ستفعله في ما بعد ؟ »
— « كل ما يتعيّن عليّ . أيما عمل شريف على الاقل . »
— « أتعرف الانـكليزية ؟ »
— « لا . »
— « هذا مؤسف . »
— « لماذا »
— « لأن لي صديقاً ، صاحب مكتبة ، يُعِدّ ضرباً من الموسوعة . ولقد كان في امكانك ان تترجم له بعض المقالات الالمانية او الانـكليزية لو كنتَ تعرف احدى هاتين اللغتين . إنه يدفع تعويضاً ضئيلًا جداً ، ولـكنه يُقيم الأوَد . »
— « سوف اتعلم الانـكليزية والالمانية . »
— « وفي انتظار ذلك ؟ »

— « في انتظار ذلك سوف آكل ملابسي وساعتي . »

وأرسل في طلب تاجر الملابس ، فاشترى الثياب البالية بعشرين فرنكاً . وقصدا الى الساعاتي ، فاشترى الساعة بخمسة واربعين فرنكاً .

وقال ماريوس لكورفيراك وهما عائدان الى الفندق :

— « هذا مبلغ لا بأس به . واذا اضفت اليه الخمسة عشر فرنكاً التي معي يصبح المجموع ثمانين فرنكاً . »

فلاحظ كورفيراك :

— « وفاتورة الفندق ؟ »

فقال ماريوس :

— « اوه ، لقد نسيتها . . »

فقال كورفيراك :

— « يا للشيطان ! سوف يكون عندك خمسة فرنكات لتأكل بها بينا تتعلم الانكليزية ، وخمسة فرنكات بينا تتعلم الالمانية . ومعنى ذلك ابتلاع لغةٍ في سرعة بالغة ، او ابتلاع قطعة نقدية من ذات المئة « سو » في بطء بالغ . »

وفي غضون ذلك كانت الخالة جيلنورمان ، ذات الجوهر الكريم حقاً في الظروف العصيبة ، قد انتهت الى اكتشاف المكان الذي أوى اليه ماريوس .

وذات صباح ، فيما كان ماريوس عائداً من المدرسة ، وجد رسالة من خالته و « الستين بيستولاً » ، يعني ستمئة فرنك ذهبيّ ، في علبة مختومة .

واعاد ماريوس الليرات الذهبية الثلاثين الى خالته مع رسالة موقّرة أعلن فيها ان لديه بعض اسباب الرزق ، فهو قادرٌ منذ اليوم على أن يسدّ حاجاته جميعاً . ولم يكن قد بقي لديه ، في تلك اللحظة ، غير ثلاثة فرنكات .

ولم تُعلم الخالة جدّ ماريوس بهذا الرفض خشية أن تثير سخطه . ومن ناحية ثانية ، الم يكن قد قال لها : « حذارِ ان يحدثني احدٌ بعد اليوم عن شارب الدماء هذا ! »

وغادر ماريوس اوتيل دو لا بورت سان جاك ، غيرَ راغب في أن يحمّل نفسه ايّ دَيْن .

الكتاب الخامس

فصل الشقاد

١

ماريوس مُعدماً

وغـدت الحياة قاسية على ماريوس . إن أكلَه ملابسَه وساعتَه لم يكن شيئاً . فقد مضغ ذلك الشيء الذي يمتنع على التعبير والذي ندعوه « جِرّة * المرارة » . شيء رهيبٌ يشمل أياماً من غير خبز ، ولياليَ من غير نوم ، وأماسيَ من غير شمـــع ، وموقداً من غـــير نار ، واسابيــع من غير عمل ، ومستقبلاً من غير أمل ، وسترة مثقوبةً عند المرفقين ، وقبعة عتيقة تغري الفتيات الصغيرات بالضحك ، والباب الذي

* الجرة ، بكسر الجيم ، ما تعيد مضغه الحيوانات المجترة .

يوصد في وجهك ليلا لأنك لم تدفع قيمة الايجار المستحقة ، وغطرسة البوّاب وصاحب الفندق ، وسخريات الجيران ، وضروب الاهانات ، والكرامة مكبوحةَ الجماح ، والرضا بالكدح في اعمال حقيرة ، والتقزز ، والغمّ ، والضنى . لقد تعلّم ماريوس كيف يبتلع المرء كل ذلك ، وكيف تكون هذه الاشياء ، في كثير من الاحيان ، كلَّ ما تقدّمه الايام الى افواه الناس . وفي تلك المرحلة من الحياة ، حين يحتاج المرء الى الصلف لأنه في حاجة الى الحب ، استشعر أنه موضع الهزء لأنه كان رثّ الثياب ، وموضع السخرية لأنه كان فقيراً . وفي ذلك العمر ، حين يُفعِم الصبا قلب المرء بخيلاء قيصرية ، خفض بصره ، غير مرة ، الى حذائه البالي فعرف خجل الشقاء الجائرَ وما يشيعه في الوجه من حمرةٍ ممضة . تجربة رائعة وفظيعة يخرج منها الضعفاء مرذولين مهتوكي الستر ، ويخرج منها الاقوياء أجلّةً عظاماً . بوتقة يقذف القدَر فيها برجل من الرجال كلما رغب في ان يصنع جرواً او نصف الٓه .

ذلك بأن معارك الحياة الصغيرة طافحة بالاعمال المجيدة . ان ثمة شجاعة عنيدة ، وان تكن غير ملحوظة ، تدافع عن نفسها رويداً رويداً في الظلام ، ضد الغزوات المهلكة التي تشنها ضرورات الحياة وخبائثها . انتصارات نبيلة خفية لا تراها عين ، ولا تكافئها شهرة ، ولا تحيّيها ابواق النصر . ان الحياة ، والتعاسة ، والتوحد ، والتخلي ، والفقر ساحات قتال لها أبطالها ؛ ابطال مغمورون هم في بعض الاحيان اعظم عظمة من الابطال المشاهير .

وهكذا تُخلق طبائع وطيدة ونادرة . إن الشقاء ، وهو دائماً تقريباً امرأة اب ، قد يكون في بعض الاحيان أماً . فالحرمان يولد قوة نفس والعقل . والشدّة مرضعة احترام الذات . والشقاء لبنٌ صالح لانشاء النفوس العظيمة .

وانقضت فترة في حياة ماريوس كنس فيها غرفته بنفسه ، واشترى

من بائعة الخُضَر والثمار ما ثمنه فلس واحد من جبن « بْري » ، وانتظر فيها هبوط الليل ليتخذ سبيله الى الخباز فيشتري رغيفاً يحمله خلسة الى عليّته وكأنه قد سرقه . وفي بعض الاحيان ، كان القوم يرون فتى ينسلّ — وسط الطاهيات الساخرات اللواتي كنّ يدفعنه بمرافقهن — الى دكان الجزار الذي في الزاوية ، فتىً مرتبكاً متأبطاً بعض الكتب وقد بدت على وجهه سيما حيية مروّعة يدخل الى ذلك الدكان ، وينزع قبعته عن جبينه الناضح منه العرق ، وينحني انحنـــاءة يسيرة للجزار الدهِش ، وانحناءة اخرى لصبي الجزار ، ويسأل عن قطعة من ضلع الضأن ، ويدفع ستة « سو » او سبعة « سو » ثمناً لها ، ويلفّها في ورقة ، ويضعها تحت ذراعه بين كتابين ، ويمضي لسبيله . كان ذلك الفتى هو ماريوس . وعــلى تلك القطعة من ضلع الضأن ، التي كان يطبخها بنفسه ، كان يحيا ثلاثة أيام .

ففي اليوم الاول كان يأكل اللحم ، وفي اليوم الثـــاني كان يأكل الدهن ، وفي اليوم الثالث كان يقرض العظم .

وفي مناسبات عديدة كانت الخالة جيلنورمان تقوم ببعض المحاولات فتبعث اليه بالستين بيستولاً . ولكن ماريوس كان يردها اليها دائمـاً قائلاً انه في غير ما حاجة الى شيء .

وكان لا يزال في حداد على أبيه عندما اندلعت تلك الثـورة في تحدثنا عنها وعصفت بعقله . ومن ذلك الحـين لم يفارق الملابس السوداء قط . بيد ان ملابسه فارقته . فقد أطلّ عليه ، آخر الأمر ، يوم لم يبق لديه فيه ثوب ما . وبليَ بنطلونه ايضاً . فما الذي يستطيـع ان يعمله ? وأعطاه كورفيراك ، وكان قد أسدى هو بدوره بعض الخدمات اليه ، بذلة عتيقة . ودفع ماريوس تلك البذلة الى احد البوابين ، فأعادها اليه جـديدة مقابل ثلاثين « سو » . ولكن تلك البذلة كانت خضراء . وعندئذ لم يعد ماريوس يغادر مأواه الا بعد ان يهبط الليل . فـكان ذلك يجعل بذلته سوداء . واذ كان يرغب دائماً في أن لا ينزع ثوب الحداد ، فقد خلع على جسمه قطعة

من الليل .

ومن خلال هذا كله شق سبيله الى صفوف المحامين . وكان الناس يحسبون انه يقطن غرفة كورفيراك النظيفة ، حيث كانت بضعة من كتب الحقوق ، تردفها وتتممها بضعة اخرى من الروايات الفريدة تؤلف المكتبة التي تقتضيها الانظمة . وكان يطلب الى الناس ان يوجهوا اليه رسائلهم على عنوان كورفيراك .

وحين أمسى ماريوس محامياً اعلم جده بذلك في رسالة باردة ولكنها حافلة بالخضوع والاحترام . وتلقى مسيو جيلنورمان تلك الرسالة بيدين راجفتين ، وقرأها ، وطرحها ممزقة إرَباً في سلة المهملات . وبعد يومين او ثلاثة ايام سمعت الانسة جيلنورمان أباها ، الذي كان خالياً الى نفسه في غرفته ، يتحدث في صوت عال . وأنصتت . كان الرجل العجوز يقول : « لو لم تكن أبله ، لعرفت ان المرء لا يستطيع ان يكون باروناً ومحامياً في آن معاً . »

٢
ماريوس فقيراً

والبؤسُ شأنه كشأن كل شيء آخر . إنه يمسي ، تدريجياً ، شيئاً محتملاً . إنه ينتهي الى ان يتخذ شكلاً ثابتاً . ان المرء ليحيا حياة بائسة مغمورة ، يعني انك تنمو على نحوٍ مهزول ما ، ولكنه كافٍ للحياة . وهذا هو النحو الذي جرت عليه حياة ماريوس بونميرسي :

كان قد غادر الموطن الاضيق . لقد اتسعت الثغرة ، أمامه ، بعض الشيء . وبقوة الكدح ، والشجاعة ، والمثابرة ، والارادة وفّق الى ان يكسب من عمله نحو سبعمئة فرنك كل عام . كان قد تعلّم الالمانية

والانكليزية . وبفضل كورفيراك الذي قدّمه الى صديقه الكُتُبي ، نهض ماريوس ، في الدائرة الأدبية من تلك المكتبة ، بدَوْر صغار الممثلين المفيد . كان يُعِدّ مراجعاتٍ للكتب ، ويترجم مقالات من الصحف ، ويعلق الحواشي على الطبعات الجديدة ، ويجمع سير الأعلام الخ . نتاجٌ صافٍ ثابت يبلغ ، سواء أخصَبَ العامُ أم أمحل ، سبعمئة فرنك . لقد عاش على ذلك . لا بأس . كيف ؟ سوف نفصّل القول في هذا .

لقد احتلّ ماريوس ، لقاء أجر سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً ، غرفة حقيرة صغيرة من غير موقد ، غرفة يدعونها حُجَيْرةً ، لم يكن فيها من الاثاث غيرُ الضروري الذي لا يستغنى عنه . وكان ذلك الاثاث مِلكاً له . ولقد أعطى ثلاثة فرنكات شهرياً الى امرأة عجوز كانت تتولى امر العناية بالبناء لكي تكنس غرفته ، وتحمل اليه كل صباح قليلًا من الماء الحار وبيضةً طازجة ورغيفاً ثمنه فلس واحد . وعلى هذا الرغيف وهذه البيضة كان يُفطر . وكانت نفقات فطوره تراوح ما بين فلسين واربعة فلوس تبعاً لرخص البيض أو غلائه . وفي الساعة السادسة مساء كان يهبط الى شارع سان جاك لكي يتعشى في مطعم روسو ، تجاه محلّ « باسيه » ، تاجر الصُّور المطبوعة على الخشب ، عند زاوية شارع الماتورين . ولم يكن يَطْعَمُ حساء ما ، مجتزئاً بطبق من اللحم بستة فلوس ، ونصف طبق من الخضر بثلاثة فلوس ، وطبق من الفاكهة او الحلوى بثلاثة فلوس . وكان يقدّم اليه ، بثلاثة فلوس ، ايُّ مقدار من الخبز يشاء . اما خمره فكانت الماء . حتى اذا نهض ليسدد حسابه عند المنضدة ، حيث تجلس مدام روسو في عظمة ، وكانت ما تزال في تلك الحقبة بدينة ناضرة البشرة ، أعطى النادل فلساً ، واعطته مدام روسو ابتسامة . لقد فاز ، مقابل ستة عشر فلساً بابتسامة وعشاء .

أما مطعم روسو هذا ـ حيث يُفرَغ قليل من القناني وكثيرٌ من

الاباريق – فكان مُسكِّناً اكثر منه مطعماً . إنه لم يعد قائماً ، اليوم . وكان لصاحبه لقب بديع ؛ كانوا يدعونه **روسو المائي** .

وهكذا : فطور باربعة فلوس ، وعشاء بستة عشر فلساً . كان طعامه يكلفه عشرين فلساً في اليوم ، يعني ثلاثمئة وخمسة ستين فرنكاً في العام . أضف الى هذا ، الثلاثين فرنكاً وهي اجرة غرفته ، والستة والثلاثين فرنكاً وهي أجر المرأة العجوز ، وبعض النفقات الاخرى الضئيلة تجد ان ماريوس كان يأكل ويبيت ويُخدم لقاء اربعمئة وخمسين فرنكاً . وكلفته بذلته مئة فرنك ، وملابسه الداخلية خمسين فرنكاً ، وغَسْلُ تلك الملابس خمسين . وكذلك لم تتجاوز نفقاته كلها ستمئة وخمسين فرنكاً . وهذا ما ابقى له خمسين فرنكاً . كان غنياً . وبين الفينة والفينة كان يُعير صديقاً من أصدقائه عشرة فرنكات . وذات مرة استعار كورفيراك ستين فرنكاً منه . أما التدفئة – ولم يكن في غرفته موقد – فكان ماريوس قد « بسّطها » .

وكانت عند ماريوس دائماً بذلتان كاملتان ، احداهما عتيقة « للايام جميعاً » ، والاخرى بالغة الجِدّة ، للمناسبات الخاصة . وكانت كلتاهما سوداء . ولم يكن عنده غير ثلاثة قمصان ، احدها على بدنه ، والآخر في الدرج ، والثالث عند الغسالة . وكان يجدّدها كلما بليتْ . وكانت رثةً في الاغلب ، وهكذا جرت عادته بأن يزرّر سترته حتى الذقن .

ولم يبلغ ماريوس هذه الحالة الزاهرة إلا بعد صبر دام سنوات طويلة . سنوات شاقة ، عسيرة ؛ بعضها لكي يشق طريقه ، وبعضها لكي يصعد في جدّ . ولم يعرف ماريوس اليأس يوماً واحداً . لقد تحمل كل شيء في مجال الحرمان . ولقد عمل كل شيء ما خلا التردّي في الدّين . لقد تمدّح بهذه المأثرة ، وهي أنه لم يكن في يوم من الأيام مديناً لأحد بفلس واحد . فقد كان الدّين ، في اعتقاده ، اول العبودية . بل لقد استشعر ان الدائن شرّ من السيد . ذلك بأن السيّد لا يملك إلا

شخصك ، أما الدائن فيملك كرامتك ، وفي استطاعته أن يصفعها .
وبدلاً من أن يستدين ، كان يمتنع عن الطعام . لقد عرف أيامَ صومٍ كثيرة . واذ أحسّ بأن جميع الأطراف القصوى تلتقي ، واننا اذا لم تتخذ حذرنا فمن الجائز ان يؤدي انخفاض الحظّ الى انحطاط النفس ، فقد سهر في كثير من الغيرة على شهامته . كانت هذه العادة او تلك المشبة وغيرهما (مما بدا له في جميع الاحوال الاخرى ناضحاً بالاحترام) تبدو له راشحةً بالاحتقار ، فهو ينأى بنفسه عنها . إنه لم يخاطر بشيء اذ كان غير راغب في النكوص على عقبيه . كان يعلو وجهَه ضربٌ صارم من حمرة الخجل . فقد كان حيياً حتى الفظاظة .

وفي جميع محنِهِ استشعر ان قوة خفية باطنية تشجعهُ بل وتحرّضه في بعض الاحيان . إن النفس تُعين الجسد ، وفي بعض الاحيان ترفعه . إنها الطائر الوحيد الذي يحمل قفصه .

والى جانب اسم ابيه كان اسمٌ آخر منقوشاً على قلب ماريوس ، هو اسم تيناردييه . كان ماريوس ، بطبيعته الحماسية والجدّية ، قد طوّق بضربٍ من الهالة ذلك الرجل الذي كان مديناً له — كما توهم — بحياة والده ، ذلك الرقيب الذي انقذ الكولونيل وسط قذائف واترلو وقنابلها . إنه لم يفصل في يوم من الايام ذكرى هذا الرجل عن ذكرى أبيه ، ولقد كان يجمع ما بينهما في إجلاله . كان ذلك الاجلال ضرباً من العبادة على درجتين ، فالمذبح الكبير للكولونيل ، والمذبح الصغير لتيناردييه . وكان مما كثّف عرفانَه للجميل إدراكُه أن تيناردييه قد سقط في مهاوي الفاقة فكادت تبتلعه . فقد علم ماريوس من ابناء مونفيرماي بأفلاس الفندقيّ التعس . ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهوداً لم يُسمع بمثلها لكي يتعقب أثره ، ويحاول العثور عليه في هوة البؤس المظلمة التي اختفى فيها . وكان ماريوس قد جاب البلاد كلها من أجل ذلك . لقد شخص الى شيل ، الى بوندي ، الى غورناي ، الى نوجان ،

الى لانيي . وطوال ثلاث سنوات وقف نفسهُ لهذا الغرض ، منفقاً في تنقيباته هذه كل ما وفره من مال ضئيل . بيد أنه لم يجد من يزوّده بأيّما نبأ عن تيناردييه . لقد اعتقد القوم بأنه هاجر الى بلد أجنبي . وكان دائنوه قد بحثوا عنه ايضاً ، في حبّ اقل من حبّ ماريوس ، ولكنْ في عناد مثل عناده ؛ فلم يوفقوا الى وضع يدهم عليه . ولام ماريوس نفسه ، بل لقد كاد يبغضها ، لاخفاقه في مباحثه . كان ذلك هو الدَّين الأوحد الذي تركه الكولونيل له ، ولقد حسب ماريوس أن في دفعه شرفاً له وكرامة . وفكر في ما بينه وبين نفسه : « عجيب ! عندما كان والدي يلفظ أنفاسه الاخيرة في ساحة القتال عرف تيناردييه كيف يجده وسط الدخان وقذائف المدافع ويرجع به وقد حمله على منكبيه ، ومع ذلك فلم يكن مديناً له بشيء . في حين اني انا ، المدين لتيناردييه بشيء كثير ، أعجزُ عن الوصول اليه في تلك الظلمة التي يعاني وسطها سكرات الموت ، وأعيده بدوْري من الموت الى الحياة ! اوه ! سوف أجده ! » والواقع ان ماريوس كان مستعداً لأن يقدّم إحدى ذراعيه ثمناً للعثور على تيناردييه ، وأن يبذل دمه كله ثمناً لانقاذه من الشقاء . فلأن يرى تيناردييه ، ولأن يسدي خدمةً ما الى تيناردييه ، ولأن يقول له : « انت لا تعرفني ، ولكني اعرفك . ها أنا ذا ! اني تحت تصرفك ! » ـ ذلك كان اعذب أحلام ماريوس وأبهاها .

٣
ماريوس رجلاً

كان ماريوس قد بلغ ، في تلك الفترة ، العشرين من عمره . لقد انقضت ثلاث سنوات على فراقه جدّه . وكان كلٌّ منهما قد لزم موقفه ،

فلم يحاولا إصلاح ذات البين ولم يسعيا الى اللقاء . وما جدوى اللقاء ، في الواقع ؟ ألكي يتصادما ؟ ومن الذي سوف يستخلص حقه من الآخر ؟ لقد كان ماريوس زهرية من نحاس أصفر ، ولكن مسيو جيلنورمان كان إناءً من حديد .

ولنقل هنا إن ماريوس أخطأ في فهمه لقلب جدّه . لقد تخيل أن مسيو جيلنورمان لم يحبه في يوم من الايام ، وأن هذا الرجل العجوز الجافّ القاسي الضاحك الذي كان يجدّف ، ويصيح ، ويعصف ، ويرفع عصاه لم يكن يستشعر نحوه على التكثير غير تلك المودة الخفيفة الصارمة معاً ، التي يتكشف عنها عجائز الكوميديا . لقد خُدع ماريوس . إن ثمة آباء لا يحبون اولادهم . ولكن ليس ثمة جدّ لا يهيم بحفيده . والحق اننا قلنا من قبل إن مسيو جيلنورمان كان يعبد ماريوس . لقد عبده بطريقته الخاصة ، على انغام الكلام اللاذع ، بل على انغام الصفعات . ولكن ما إن ذهب الغلام حتى احسّ بفراغ أسود في فؤاده . لقد أصدر أمره بأن لا يحدثه احدٌ حديثَه منذ اليوم ، آسفاً في ما بينه وبين نفسه لأن يكون أمرُه قد أُطيع على هذا النحو الدقيق . وفي بادىء الأمر ، كان يرجو أن ينكص هذ البُونابرتي ، هذا اليعقوبي ، هذا الارهابي ، هذا الأيلوليّ * ، على عقبيه . ولكن الاسابيع انقضت ، والاشهر تصرّمت ، والسنين حالت ، من غير ان يعود شارب الدماء — ويا لبأس مسيو جيلنورمان ! — الى الحظيرة . « ولكني ما كنت قادراً على أن أفعل شيئاً غير طرده . » كذلك قال الجدّ بينه وبين نفسه ، ثم تساءل : « لو ان ذلك الحادث قد تكرر فهل أعاود الاقدام على ما أقدمتُ عليه ؟ » وعلى الفور ، أجابت كبرياؤه أن نعم ، ولكن رأسه العجوز الذي هزه في صمت اجاب في حزن ان لا . كانت له

* الايلوليون Septembriseurs هم الذين شاركوا في المذبحة التي ذهب ضحيتها المعتقلون السياسيون في سجون باريس من ٢ — ٦ ايلول عام ١٧٩٢ .

ساعات خَوَرِه . وافتقد ماريوس . فالعجائز يحتاجون الى المودّات حاجتهم الى أشعة الشمس . إنها دفء . وبرغم الصلابة التي تميزت بها طبيعته ، كان غياب ماريوس قد غير شيئاً في ذات نفسه . وما كان خليقاً به ان يخطو خطوة واحدة نحو « الوغد الصغير » بأي ثمن ؛ ولكنه تألم . ولم يستطلع نبأه قط ، ولكنه فكر فيه تفكيراً موصولاً . كان يسكن ، معتزلاً المجتمع اكثر فأكثر ، في الـ « ماريه » . وكان لا يزال ، شأنه من قبل ، مرحاً عنيفاً ، ولكن مرحه كان يتّسِمُ بقساوة متشنجة فكأنها تنطوي على وجع وغضب ، وانفجارات عنفِهِ كانت تنتهي دائماً بضرب من الضنى العذب القاتم . كان يقول في بعض الاحيان : « أوه ، ايّ صفعة سوف أصفعه لو قُدّر له ان يعود ! »

اما الخالة فكان تفكيرها أندر من ان يحملها تحب حباً جماً . إن ماريوس لم يعد عندها غير ضرب من الصورة المظلّلة أسودَ غامضٍ ؛ ولقد انتهت آخر الأمر الى ان تشغل نفسها به اقلّ بكثير مما شغلتها بالهرة أو بالببغاء التي كانت عندها في اغلب الظن .

وكان مما ضاعف الآلام الخفية التي عاناها جيلنورمان الأب أنه احتبس تلك الآلام في ذات نفسه ولم يدع ابنته تشعر بشيء من ذلك . كان ثمّة مثل تلك الافران المختَرَعة حديثاً والتي تُحرِق دخانها نفسه . وقد يتفق احياناً ان يحدّثه بعض الاشخاص ، النزّاعين الى الخير المعرّضين للبلايا ، حديث ماريوس ويسأله قائلاً : « ايّ شيء يفعله حفيدك ؟ » أو « ما الذي حلّ بحفيدك ؟ » فيجيبه البورجوازي العجوز ، وهو يتنهد ، اذا كان محزوناً اكثر مما ينبغي ، أو وهو يخفق بسبّابته الحليةَ التي تزيّن طرف رُدْن قميصه ، اذا كان يبتغي ان يبدو مبتهجاً : « إن السيد البارون بونميرسي يترافع في بعض القضايا الحقيرة في زاوية من الزوايا . »

وفيما العجوز يأسف ، كان ماريوس يتهلل . لقد محا الشقاءُ ، شأنه

مع ذوي القلوب الطيّبة ، كربَهُ ومرارته . كان لا يفكر في مسيو جيلنورمان إلا في دماثة ، ولكنه كان قد وطّن العزم على ان لا يتلقى شيئاً اضافياً من الرجل **الذي كان شديد القسوة على أبيه**. كان ذلك ، الآن ، هو التعبير الملطّف لسخطه القديم . والى هذا ، فقد كان سعيداً بأنه قاسى الآلام ، وبأنه ما يزال يقاسيها . كان ذلك من اجل أبيه . لقد أرضته قسوة الحياة ، ولقد سرّته . كان يقول لنفسه في ضرب من البهجة **ان هذا أقل ما ينبغي له** ، وان ذلك كان تكفيراً ، وإنه لولا هذا اذن لعوقب على نحو آخر وفي موعد آجل بسبب من لا مبالاته الملحدة بأبيه ، وايّ أب ! وانه ليس من العدل ان يكون ابوه قد قاسى تلك الآلام كلها وان لا يتحمل هو ألماً ما ، وعلى اية حال فما جهوده وما إملاقه اذا قيسا بحياة الكولونيل البطولية ؟ وإن وسيلته الوحيدة للاقتراب من والده والتشبّه به هي ان يكون باسلاً في وجه العوز كما كان هو شجاعاً في وجه العدوّ ؛ وإن ذلك كان ما عناه الكولونيل ، من غير شك ، بقوله : « **ولسوف يكون جديراً به** » . كلمات كان ماريوس ما يفتأ يحملها ، لا فوق صدره ، بعد ان اختفت وصية الكولونيل ، ولكنّ في فؤاده .

وفوق هذا ، فقد كان مجرد طفل حين طرده جده ، اما الآن فقد أمسى رجلاً . لقد احسّ بذلك . لقد اسدى اليه البؤس — وينبغي ان نصرّ على هذا — خدمةً صالحة . فللفاقة في الشباب — حين ينجح — هذه الخاصة الرائعة ، وهي ان تُوجّه الارادةُ كلها نحو العمل ، والنفس كلها نحو السموّ . إن الفقر يعرّي الحياة المادية في الحال ، ويجعلها بشعة ، ومن هنا تنشأ ضروب من التوق الى الحياة المثالية لا سبيل الى التعبير عنها . إن للغنيّ مئةً من التسليات المشرقة والفظّة : سباق الخيل ، والقنص ، والكلاب ، والتبغ ، والقمار ، والمآدب ، وأضرابها ؛ شُغُلٌ للاجزاء الدنيا من النفس على حساب الاجزاء الرفيعة الرقيقة . إن

على الشاب الفقير ان يعمل كسباً لخبزه . إنه يأكل . حتى اذا أكل لم يبقَ له غير الاستغراق في التفكير الحالم . إنه يشهد ، بالمجان ، المسرحية التي يقدمها الله . إنه يتأمل السماء ، والمدى ، والنجوم ، والازهار ، والاطفال ، والانسانية التي يتألم فيها ، والخليقة التي يتألق فيها . إنه يسرف في النظر الى الانسانية حتى ليرى الروحَ ، وإنه يسرف في النظر الى الخليقة حتى ليرى الله . هو يحلم ؛ هو يشعر بأنه عظيم ؛ وهو يحلم كرة اخرى ؛ وهو يشعر بأنه رقيق القلب . ومن أنانية الرجل الذي يتألم ، ينتقل الى حنان الرجل الذي يتأمل . إن عاطفة رائعة لتتفجّرُ في ذات نفسه : نسيان النفس ، والرحمة للجميع . إنه اذ يفكر في المسرّات غير المعدودة التي تقدمها الطبيعة وتمنحها وتسخو بها للنفوس المنفتحة وتأباها على النفوس المغلقة ينتهي – هو ، مليونير الذكاء – الى ان يرثي لمليونيري المال . ويفارق البغضُ كله فؤاده بقَدر ما يتسرّب النور كله الى عقله . وبعدُ ، أهو تعس ؟ لا . إن بؤس شابٍ من الشبان ليس بائساً ابداً . إن اول فتىً تقع عليه عيناك ، مهما يكن فقيراً ، خليق بأن يثير – بصحته ، وقوته ، وخطوته الرشيقة ، وعينيه اللامعتين ، ودمه الذي يجري حاراً ، وغدائره السوداء ، ووجنتيه النضرتين ، وشفتيه الورديتين ، واسنانه البيضاء ، ونَفَسه الطاهر – حسَدَ الاباطرة العجائز دائماً . ثم إنه ينطلق كل صباح سعياً وراء الخبز ؛ وفيما تكسب يداه الرغيف يكسب عموده الفقريّ شهامةً ، ويكسب دماغه افكاراً . حتى اذا أتم عمله ، انقلب الى النشوات الروحية التي تمتنع على التصوير ، الى التأمل ، الى الجذل . إنه يرى قدميه في المصاعب ، في العقبات ، على بلاط الشارع ، في العُلّيق ، وأحياناً في الوحل ؛ ويرى رأسه في النور . إنه مكينٌ ، بشوش ، رقيق الحاشية ، سهل الخليقة ، يقظٌ ، رصين ، يقنع بالقليل ، عامر القلب بالعطف . وهو يحمد الله لأنه منحه هذين الكنزين اللذين يُعوزان كثيراً

من الاغنياء : العمل ، الذي يُسبغ عليه الحرية ؛ والفكر ، الذي يُلبسه رداء النبل .

ذلك ما جرى في ذات نفس ماريوس . بل لقد ذهب — اذا اردنا ان نقول كل شيء — الى أبعد ، قليلاً ، مما ينبغي ، في حقل التأمل . فما إن بلغ المرحلة التي اطمأن فيها ، او كاد ، الى كسب رزقه ، حتى وقف هناك ، مُؤثراً ان يكون فقيراً ، مقتصداً في العمل لكي ينصرف الى التفكير . يعني أنه كان ينفق احياناً اياماً بكاملها في التفكير ، غارقاً مثل اصحاب الرؤى والاحلام في المباهج الخرساء التي تتيحها النشوة الروحية والسنى الباطني . كان قد طرح مشكلة حياته على هذا النحو : أن يعمل أقلّ قدرٍ مستطاع في ميدان العمل الملموس ، ليعمل اكبر قدر مستطاع في ميدان العمل غير الملموس . وبكلمة اخرى أن يعطي الحياةَ الواقعية بضعَ ساعات ويقذف بسائرها الى اللانهاية . إنه لم يفطن — وقد حسِبَ أن شيئاً ما لا يُعوزه — الى أن التأمل الذي يفهمه المرء على هذا النحو ينتهي الى ان يصبح شكلاً من أشكال الكسل ، ولم يدرك انه كان قانعاً بقَهْر ضرورات الحياة الأولية ، وأنه كان يستريح بأبكر مما ينبغي .

كان واضحاً ان هذا لا يمكن ان يكون — بالنسبة الى طبيعته الهامة النجيبة — غير حالة عابرة ، وان ماريوس سوف يستيقظ عند أول اصطدام بتعقيدات القدَر التي لا مفرّ منها .

وفي غضون ذلك ، وبرغم كونه محامياً ، وأياً ما كانت الافكار التي راودت جيلنورمان الجدّ ، فانه لم يكن يترافع ، بل لم يكن يتولى الدفاع في بعض القضايا الحقيرة . كان الاستغراق في التأمل قد صرفهُ عن القانون . كان الاختلاط بالمحامين ، والتردد الى قصر العدل ، وتصيّد القضايا ، شيئاً يبعث على الضجر . وما حاجته الى ذلك ؟ إنه لم يرَ سبباً يدعوه الى تغيير مرتَـزَقه . فقد قدّمت اليه تجارةُ

الكتب هذه ، الرخيصة ُ الخاملة ُ ، عملاً اكيداً ، عملاً لا يقتضيه غير قليلٍ من الجهد كان يكفيه ، كما شرحنا من قبل .

وكان احد الكتبيين الذين عمل في خدمتهم ، وهو مسيو ماجيميل في ما أعتقد ، قد عرض عليه ان يُنزله في بيته ، ويقدّم اليه غرفة جيدة ، ويزوّده بعمل نظامي ، ويدفع اليه الفاً وخمسمئة فرنك كل عام . أن تكون له غرفة جيدة ؟ ألف وخمسمئة فرنك ! حسن جداً ! ولكن أيتخلى عن حريته ؟ أيصبح شبه موظف يعمل من اجل الراتب ؟ ضرباً من الأديب المستخدَم في مكتب ؟ كان قبول ذلك ، في نظر ماريوس ، يحسّن وضعه ُ ويجعله اسوأ في آنٍ معاً . كان خليقاً بأن يُكسبه شيئاً من الرفاهية ، وبأن يُفقده شيئاً من الكرامة . لقد كان يقتضيه ان يتخلى عن شقاء كامل عذبٍ في سبيل عسرٍ بشعٍ مضحك . إنه شيء اشبه بالأعمى يفوز بعين واحدة . ورفضَ .

وعاش ماريوس في عزلة . وكان قد قرّر ان لا يدخل الجماعةَ التي يرئسها آنجولراس ، وذلك بسببٍ من نزعته الى الابتعاد عن كل شيء ، وبسبب من غلوّ تلك الجماعة وتطرّفها . لقد ظلاّ صديقَين مخلصين . وكانا مستعدين لأن يساعد احدهما الآخر ، اذا قضت الحاجة ، بمختلف الطرق الممكنة ، ولكنْ ليس أكثر من ذلك . كان لماريوس صديقان ، شابٌ هو كورفيراك ، وعجوز هو مسيو مابوف ، وكان أميلَ الى الصديق العجوز . كان قبل كل شيء مديناً له بالثورة التي اندلعت في نفسه ؛ كان مديناً له بمعرفته أباه وحبّه له . وكان يقول : « لقد أجرى لي جراحة ظلام العدسة البلورية . »

حقاً ، لقد كان وكيل الكنيسة هذا حاسماً .

بيد ان مسيو مابوف لم يكن في تلك المناسبة شيئاً اكثر من رسول هادىء مطواع من رسل العناية الالـهية . كان قد نوّر ماريوس مصادفةً ومن غير ان يكون له بذلك علم ، كما تفعل شمعة يحملها شخص

ما . لقد كان هو تلك الشمعة لا ذلك الشخص .

أما ثورة ماريوس السياسية الباطنية فقد كان مسيو مابوف عاجزاً كل العجز عن فهمها ، أو الرغبة فيها ، أو توجيهها .

واذْ كنا سنلتقي مسيو مابوف في ما بعد ، فأن من المفيد ان نقول بضع كلمات فيه .

٤

مسيو مابوف

يومَ قال مسيو مابوف لماريوس : « **أنا اقرّ اعتناق الاراء السياسية من غير شك** » كان يعبّر عن وضعه الفكريّ الحقيقي . كانت جميع الآراء السياسية سواءً عنده ، وكان يقرّها جميعاً من غير تمييز ، شرط ان لا تعكر عليه هدوءه ، كما كان الاغريق يدعون آلهة الجحيم « الحسان ، الخيّرات ، الفاتنات » ، * Les *Euménides* . كان رأي مسيو مابوف السياسي يتلخص بالهيام بالنباتات ، وبالهيام على نحو أخص بالكتب . كان له شأنَ سائر الناس ياء نسبتِهِ الدالة على المذهبية ، والتي ما كان في ميسور أحد ان يحيا بدونها في تلك الايام . ولكنه لم يكن لا ملكياً ، ولا بونابرتياً ، ولا دستورياً ، ولا اورليانياً ** ولا فوضوياً . كان كتبيـاً متاجراً بالكتب القديمة .

انه لم يفهم كيف يشغل الناس انفسهم بالتباغض من اجل اشياء باطلة مثل الدستور ، والديموقراطية ، والشرعية ، والملكية ، والجمهورية الخ . في

* وتعني العطوفات الملاطفات ، وهو اسم التيمن الذي كان الاغريق يخلعونه على آلهة الجحيم (*Erinnyes* او *Furies*)

** نسبة الى دوق اورليان (١٨١٠ - ١٨٤٢) ابن لويس فيليب .

حين يحفل هذا العالم بمختلف ضروب الطحالب ، والاعشاب ، والشجيرات التي يستطيعون النظر اليها ، وبركام من الكتب من قطع نصف الطلحية بل ومن قطع واحد على اثنين وثلاثين من الطلحية يستطيعون تصفّحها . ولقد بذل عناية كبيرة لكي لا يكون قليل الغَناء . إن امتلاكه الكتب لم يمنعه من المطالعة ، وان كونه عالماً بالنبات لم يمنعه من ان يكون بستانياً . وحين عرف بونميرسي ، نشأت بينه وبين الكولونيل هذه المشاركة الوجدانية وهي ان ما فعله الكولونيل من اجل الازهار ، فعلَهُ هو من أجل الاثمار . وكان مسيو مابوف قد وُفّق الى إنتاج إجاص يُزْرَع بذْراً لا يقلّ نكهةً عن اجاص سان جيرمان . وانما ندين لأحدى تركيباته ، في ما يظهر ، بخوخ اوكتوبر الصغير الاصفر ، الذي أمسى اليوم شهيراً ، والذي لا يقل عطريةً عن نظيره من خوخ الصيف . وكان يشهد القداس بدافع من الدماثة اكثر مما كان يشهده بدافع من العبادة ، ولأنه كان يحبّ محيّا الرجال ولكنه يكره صخبهم ، وما كان ليجدهم مجتمعين صامتين الا في الكنيسة . وإذ كان يشعر أن عليه أن يكون شيئاً في الدولة فقد اختار وظيفة وكيل كنيسة . وأخيراً فأنه لم يوفّق قطّ الى ان يحب أيما امرأة حبَّهُ لبصلة من بصلات الخزامى ، أو ايما رجل حبَّهُ لكتاب من مطبوعات أسرة « ايلزيفير » . * وكان قد تجاوز سنّه الستين منذ فترة غير قصيرة عندما سأله شخص ما ، ذات يوم : « ألم تتزوج قط ؟ » فأجابه : « لقد نسيت ! » وحين يتفق له في بعض الاحيان — ومن ذا الذي لا يتفق له ذلك ؟ — أن يقول : « اوه ، لو كنت غنياً ! » فأنه ما كان ليقولها وهو ينظر من طرف خفيّ الى فتاة حسناء ، مثل مسيو

---

* Elzévir أسرة شهيرة من الطابعين لمعت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في لايدن ، ولاهاي ، واوترخت ، وآمستردام . وكان اقدم افرادها لويس ايلزيفير . وكانت مطبوعاتها تتميز بأحرفها النحيلة .

جيلنورمان ، ولكنْ لدن رؤيته كتاباً قديماً . لقد عاش وحده ، مع مربية عجوز . كان مصاباً بنقرس الايدي بعض الشيء ، حتى اذا نام تشبّثت اصابعه الهرمة ، المتصلبة بالروماتزم ، بثنيّات الشرشف . وكان قد ألف ونشر « نباتات ضواحي كوتيريتز » المزين بالرسوم الملونة ، وهو مصنَّف جليل كان يحتفظ بالواحه النحاسية ، وكان يبيعه بنفسه . وكان الناس يقبلون مرتين أو ثلاث مرات في اليوم فيقرعون جرسه ، في شارع ميزيير ، التماساً لذلك الكتاب . وكان يجني من وراثه الفي فرنك كاملةً كل عام ، وكان ذلك كلّ دخله تقريبــاً . وبرغم فقره ، وفق الى ان يلمّ – بالصبر ، والحرمان ، والوقت – مئات مجموعة نفيسة من النسخ النادرة ، في كل موضوع . انه لم يغادر منزله قطّ ، يوماً ، إلا وهو متأبط كتاباً ، وكثيراً ما كان ينقلب اليه حاملاً كتابين . وكان الزخرف الوحيد الذي يزين غرف الدور الارضي ذات الحديقـــة الصغيرة التي تؤلف بيته ، بعض مجموعات النباتات المؤطّرة * المحفوظـــة للدرس ، وبعض النقوش من عمل الفنانين القدماء . كان مشهد سيف ما ، او بندقية ما ، يوقع القشعريرة في جسمه . فطوال حياته ، لم يقف قرب مدفع ما ، حتى في الانفاليد . كان له معدةٌ لا بأس بها ، وأخ كاهنٌ ، وشعرٌ اشيب كلُّه ، ولم يكن قد بقي من اسنانه شيء ، لا في فمه ولا في عقله ؛ وكانت له ارتعاشة تلفّ جسده كله ، ولهجـــةٌ بيكاردية ، وضحكة طفلية ، وأعصاب واهنة ، وسيماء خروف عجوز . ومع هذا كله ، لم يكن له اي صديق أو صاحب حميم بين الأحياء غير كتبيّ عجوز في شارع « دو لا بورت سان جاك » يُـدعى رويول . كان حُلمَ حياته أن يجعل العِظْلِم ** نباتاً وطنياً في فرنسة .

---

* المحاطة بأُطر.

** العظلم : نبات « النيل » الذي يستخرج منــه الصبـــغ الازرق المعروف بهذا الاسم .

وكانت خادمته هي الاخرى ، ضرباً مخصوصاً من البراءة . كانت تلك العجوز الفقيرة الصالحة عذراء . وكان هرُّها ، « سلطان » ، الذي كان قادراً على ان يموء بمزمور آليغري * في كنيسة سيستين ، قد ملأ فؤادها وسدّ حاجة ذلك القدْر الذي كانت تملكه من العاطفة . إن اياً من أحلامها لم يذهب بها الى تخوم رجل ما . وهي لم تجتز في يوم من الايام حدود هرّها ذاك . لقد كان لها ، مثله ، شاربان . وكان مجدها في قلانسها ، الناصعة البياض دائماً . وكانت تنفق وقتها يوم الاحد بعد القداس ، في عدّ ملابسها الداخلية في صندوق امتعتها ، وفي نشر فساتينها التي ما تزال قِطعَ قماش ، تلك الفساتين التي اشترتها ولكنها لم تخطها قط . كانت تعرف القراءة . وكان مسيو مابوف قد اطلق عليها اسم **الأم بلوتارك** **

ووقع ماريوس موقعاً حسناً عند مسيو مابوف ، لأن ماريوس ، الغضّ الاهاب العذب الروح ، أسبغ الدفء على شيخوخته من غير أن يجفّل خوفه . إن الشباب ، مصحوباً بالعذوبة ، ليخلّف في نفوس الشيوخ مثل أثر اشعة الشمس من غير رياح . وحين أُشبع ماريوس بالمجد العسكري ، بالبارود ، وبزحف الجيوش ، وبزحفها في اتجاه معاكس لاتجاهها السابق ، وبجميع تلك المعارك الأعجوبيّة التي أعطى فيها أبوه وتلقّى ضرباتِ سيفٍ ضخمة جداً ، ذهب ليرى مسيو مابوف ، فحدّثه مسيو مابوف عن البطل من وجهة النظر الرياحينية .

وحوالى عام ١٨٣٠ ، توفي اخوه الكاهن . وبعد ذلك مباشرة تقريباً ، كالذي يقع عندما يهبط الليل ، أظلَمَ أفقُ مسيو مابوف كلُّه . لقد خسر ، بأفلاس كاتبٍ من الكتاب العدول ، عشرة آلاف فرنك

---

* Allegri مؤلف موسيقي ايطالي (١٥٨٢ - ١٦٥٢) وضع لحناً مزمورياً شهيراً .

** بلوتارك هو المؤرخ الاغريقي الكبير صاحب كتاب « سير مشاهير اليونان وروما ».

كانت كل ما يملكه من مال باسم اخيه وباسمه . وأدّت ثورة تموز *
الى أزمة في بيع الكتب . ففي ايام الحرج يصيب الكسادُ ، اول ما
يصيب ، الكتب الخاصة بنباتات بـلد من البلدان . وتوقـــف رواج
« نباتات ضواحي كوتيرتيز » فجأة . فتصرّمت أسابيع من غير أن
يفِدَ من يشتريه . وفي بعض الاحيان كان مسيو مابوف يثب طرباً عند
سماعــــه رنين الجرس ، فتقول له الأم بلوتارك ، محزونةً : « إنـــه
السقّاء . » وبالاختصار ، فقد غادر مسيو مابوف شارع ميزيـير ذات
يوم ، وتخلّى عن مهامّ وكيل الكنيسة ، وهجر سان سوليبس ، وباع
جزءاً – لا من كتبه ، ولكنْ من صوره المطبوعـــة على الخشب ،
وكان اقـلّ تعلّقاً بها منه بمجموعة كتبه – وأقـام في بيت صغير بجادة
مونبارناس ، حيث استقرّ ثلاثة اشهر ليس غير ، لسببين اثنين : أولهما
أن الدور الارضي والحديقة كلّفاه ثلاثمئة فرنك وما كان يجرؤ على أن
يدفع اكثر من مئتي فرنك أجراً لمنزله . وثانيهما أنه ، وقد نزل عـلى
مقربـــة من مرمى النار المعروف بمرمى « فاتو » ، كان يسمع طوال
النهار طلقات المسدّسات ، وهو امرٌ لم يكن في وسعه ان يحتمله .

وحمل مصنفه النباتي ، والواحه النحاسية ، ومجموعاته النباتية المحفوظة
المدرس ، ومحافظه ، وكتبه ، واستقرّ قرب الـ « سالبيتربير » في شبه كوخ
بقرية اوسترليتز حيث استأجر ثلاث غرف ، وحديقة مطوقة بسياج من
النبات الشائك ، وبئراً ، لقاء خمسين ريالاً في العام . ولقد أفاد من هذه
النقلة فباع اثاثه كله تقريباً . ويوم دخل الى هذا المأوى الجديد استشعر
ابتهاجاً بالغاً ، وراح يدق المسامير بنفسه ليعلق عليها النقوش والمجموعات
النباتية المحفوظة . وأنفق بقية النهار في حفر حديقته ، حتى اذا هبط الليل
ورأى انطباعة قاتمة متفكرة ترينُ على وجــــه الأم بلوتارك ، ربت على

* هي الثورة التي أطاحت بشارل العاشر (تموز ١٨٣٠) ورفعت لويس فيليب
الى عرش فرنسة .

كتفها وقال وهو يبتسم : « آه ، إن عندنا نبات النيل ! »

كان زائران اثنان ليس غير ، كثبي « لا بورت سان جاك » وماريوس، يُستقبلان في كوخه بأوسترليتز ، وهو امرُ صاحبُ كان – اذا اردنا ان نقول الحقيقة – بغيضاً جداً الى نفسه .

بيد ان العقول المستغرقة في الحكمة ، او في الحماقة ، أو في الحكمة والحماقة في آن معاً كما يتفق في كثير من الاحيان ، لا تنفذ اليها شؤون الحياة ، كما اشرنا من قبل ، الا نفاذاً بطيئاً . ان قدَرها بعيد عنها . وانما ينشأ عن هذا التركيز العقلي انفعاليةٌ خليقٌ بها ، اذا كانت قياسية ، ان تشبه الفلسفة . إننا ننحرف ، إننا نهبط ، إننا نسقط ، بل اننا ننهار ، ولا نلحظ ذلك الا بشقّ النفس . صحيح ان هــذا ينتهي دائماً ، بيقظة ، ولكنها يقظة متأخرة . وفي غضون ذلك يبدو وكأننا نقف موقفاً عادياً من تلك المباراة الجارية ما بين سعادتنا وشقائنا . ان مصيرنا نحن لمرهونٌ بتلك المعركة ، ومع ذلك فنحن نتابع وقائعها في لا مبالاة .

وهكذا احتفظ مسيو مابوف بطلاقة وجهه ، على نحو طفــليّ بعض الشيء ، ولكن في كثير من النفاذ ، وسط هذه الظلمة التي كانت تتجمع حوله ، وقد انطفأت آماله أملاً بعد أمل . لقد عرفتْ عاداتُه العقلية مثلَ ذبذبة رقاص الساعة ، الدائمة . انه وقد عُبيء بالوهم مرة ظلّ منطلقاً فترة طويلة حتى بعـــد ان زايله ذلك الوهم . فالساعة لا تقف فجأة لحظةَ نضيع المفتاح .

وكانت لمسيو مابوف بعض المباهج البريئة . وكانت تلك المباهج رخيصة وغير مرتقبة ، اذ كانت اقلُّ المصادفات تتيحها له . فذات يوم ، كانت الأم بلوتارك تقرأ رواية في زاوية الغرفة ، وكانت تقرأ بصوت مرتفع واجدةً ان ذلك يساعدها على حسن الفهم . إن قراءة المرء بصوت مرتفع تؤكد له ما يقرأه . وثمة أناس يقرأون بصوت مرتفع جداً ، وقد بدت على محياهم سيما من يقسم لنفسه بين الشرف على صحة ما يقرأه .

بمثل تلك الطاقة كانت الأم بلوتارك تقرأ الرواية التي امسكت بها بيدها . وسمع مسيو مابوف ، ولكنه لم يصغ .

وفيما هي تقرأ انتهت الأمّ بلوتارك الى هذه العبارة . كانت تتحدث عن ضابط في سلاح التنانين وإحدى الحسان :

- « إن الحسناء قد أبدت استياءها *bouda* وإن التنّين ... »

وكفّت هنا عن التلاوة لكي تمسح نظارتيها .

فقال مسيو مابوف في صوت كالهمس :

- « بوذا (*Bouddha*) والتنّين . اجل ، هذا صحيح . لقد كان هناك تنين أطلق شدقَهُ اللهبَ ، من اعماق غاره ، فأضرم النار في السماء . ولقد احترقت عدة نجوم ، بسبب من هذا الوحش الذي كانت له براثن نَمِرٍ ايضاً . فما كان من بوذا إلا ان مضى الى الغار ، ووفّق الى هداية التنين . إن هذا الكتاب الذي تقرأينه ، ايتها الأم بلوتارك ، كتاب جيد. ليس ثمة اسطورة اجمل من هذه الاسطورة . »

واستغرق مسيو مابوف في تفكير حالم عذب .

٥
الفقر ، جار طيب للشقاء

ومالت نفس ماريوس الى هذا العجوز الابيض القلب ، الذي راى الى العَوَز يستبدّ به شيئاً بعد شيء ، والذي انتهى الى ان يأخذه الدهش لذلك شيئاً بعد شيء ، ولكن من غير ان يلمّ به الحزن على الاطلاق . وكان ماريوس يلتقي كورفيراك ويمضيان لزيارة مسيو مابوف . بيد أن هذه الزيارات كانت نادرة جداً . مرةّ او مرتين ، كل شهر ، على الأكثر .

وكان يبهج قلب ماريوس ان يتمشى وحده مسافات طويلة ، في الجادات الخارجية ، او في الـ « شـــان دو مارس » ، أو في ممرات اللوكـومبورغ الضيقة التي كان الناس قليلًا ما يسلكونها . وكان ينفق ، في بعض الاحيان ، نصف نهار ناظراً الى بستان خضَر ، والى المربّعات المزروعة بالنباتات التي تُعمل منها السَّلَطة ، والى الدجاج فوق المزابل ، والى الحصان يدير دولاب الناعورة . وكان عابرو السبيل ينظرون اليه في دهش ؛ وظن بعضهم أن له مظهراً مريباً وسيماء مشؤومة . إنـه لم يكن غير شاب فقير ، يحلم من غير ما مأرب .

وفي احدى نزهاته هذه ، اكتشف بيت غوربو العتيق . وإذ جذبه انعزال ذلك البيت ورخصه ، فقد استأجر غرفةً من غرفه . وعرفـــه القوم هناك باسم مسيو ماريوس ليس غير .

ودعاه بعض الجنرالات المتقاعدين وبعض رفاق ابيه القدماء ، حـين عرفوه ، الى زيارتهم . ولم يرفض ماريوس الدعوة قط . كانت تلك مناسباتٍ للكلام عن ابيه . وهكذا كان يزور بين الفينة والفينة الكونت باجول ، والجنرال بيلافين ، والجنرال فريريون في الأنفاليـــد . وهناك كانوا يعزفون الموسيقى ، وهناك كانوا يرقصون . وفي تلك الامسيات كان ماريوس يرتدي بذلته الجديدة . ولكنـــه ما كان يقصد لا الى تلك السهرات ولا الى تلك الحفلات الراقصة إلا حين يصيب الارضَ صقيـع شديد ، اذ لم يكن قادراً على ان يدفع أجر عربة ما ، وكان عظـيم الرغبة في ان يصل وحذاؤه لامع كالمرآة .

وكان يقول في بعض الاحيان ، ولكن من غير اكتئاب :

ـــ « لقد رُكّب الرجال على نحو يجيز لهم ان يكونوا في صالون من الصالونات ، ملوثين بالطين كل التلوّث ، ولكن لا يجيز لاحذيتهم ان تكون ملوثة . انهم لا يسألونك هناك ، لكي يحسنوا استقبالك ، غير شيء واحد ينبغي ان يكون خلواً من العيب . أهو الضمير ؟ لا . الحذاء ! »

وجميع الاهواء، ما عدا هوى الفؤاد، تنقشع في التفكير الحالم . لقد انحسرت حُمّيات ماريوس السياسية . وكان في ثورة ١٨٣٠ التي أرضَتْها وهدّأتها ما ساعد على ذلك . لقد ظل هو هو ، باستثناء اندفاعه وانفعاليته ؛ وظلت آراؤه هي هي ، ولكنها كانت قد لُطّفت . وبكلمة ادقّ ، انه لم يعد صاحب آراء ؛ لقد أمسى صاحب مشاركات وجدانية . الى أي حزب كان ينتمي ؟ الى حزب الانسانية . ومن بين الانسانية اختار فرنسة ، ومن بين الدولة اختار الشعب ، ومن بين الشعب اختار المرأة . فأليها قبل كل شيء انصرفت شفقته . لقد غدا الان ، يؤثر الفكرة على الواقعة ، والشاعر على البطل ؛ وأعجب بكتاب مثل سفر ايوب اكثر من اعجابه بحدث مثل مارانغو . وفوق هذا ، فحين كان يرجع مساءً – بعد يوم من التأمل – مجتازاً الجادات ، ويرى من خلال اغصان الاشجار المدى الذي لا يُسبر غوره ، والانوارَ التي لا اسم لها ، والاعماق ، والظلمات ، واسرار الكون ، كان كل ما هو بشريّ يبدو صغيراً جداً في عينيه .

وظنّ ماريوس انه وصل – ولعله ان يكون قد وصل فعلاً – الى جوهر الحياة والفلسفة الانسانية . وانتهى آخر الامر الى ان لا ينظر بعدُ ، الا نادراً ، الى غير السماء ، وهي الشيء الوحيد الذي تستطيع الحقيقة ان تراه من اعماق بئرها .

ولم يمنعه ذلك من مضاعفة الخطط ، والتدابير ، والاستعدادات ، والتصاميم الموضوعة للمستقبل . ولو ان عيناً استطاعت ان تنظر ، في هذه الحالة من التفكير الحالم ، الى سريرة ماريوس اذن لبهرها صفاء تلك النفس . والواقع انه لو قدّر لاعيننا التي من لحم ودم ان تنفذ الى ضمائر الناس لكان في ميسورنا ان نحكم على المرء من خلال ما يحلم به بأوثق جداً مما نحكم عليه من خلال ما يفكر فيه . ان في الفكرة ارادة ، اما في الحلم فليس من ارادة البتة . والحلم الذي هو تلقائيّ كلُّه ، يتخذ ويحفظ – حتى في العظيم والمثل الاعلى – صورة عقلنا . ان شيئاً ما ، لا ينبثق من اعماق

نفوسنا على نحو اكثر مباشرة وأشدّ اخلاصاً ، من اشواقنا التي لم نفكر بها والتي لا حد لها الى أمجاد القدر . في هذه الاشواق نستطيع ان نجد شخصية الانسان – كل انسان – الحقيقية اكثر جداً مما نجدها في الافكار المركّبة ، القياسية ، المتّسقة . ان أوهامنا هي اكثر الاشياء شبهاً بنا . وكل امريء يحلم بالمجهول وبالمستحيل وفقاً لطبيعته .

وحوالى منتصف تلك السنة ، ١٨٣١ ، علم ماريوس من العجوز التي تخدمه أن جيرانه ، أسرة جوندريت البائسة ، سوف يقذف بهم الى الشارع . والحق ان ماريوس ، الذي قضى ايامه كلها تقريباً خارج غرفته ، لم يكن يدري ، أو لم يكد ، أن له جيراناً .

وقال :

– « ولماذا يخرجونهم من بيتهم ؟ »

– « لأنهم لا يدفعون الأجرة . لقد تأخروا عن دفع قسطين اثنين . »

– « وما مبلغ ذلك ؟ »

فقالت العجوز :

– « عشرون فرنكاً . »

وكان ماريوس يحتفظ بثلاثين فرنكاً في احد الادراج .

وقال للعجوز :

– « خذي . هذه خمسة وعشرون فرنكاً . ادفعي الاجرة عن هذه الاسرة البائسة ، وقدّمي اليها خمسة فرنكات ، ولا تقولي ان هذا المبلغ مني . »

٦
البدل

واتفق ان الكتيبة التي كان الملازم الأول تيبودول منضوياً تحت لوائها عسكرتْ في باريس . وكانت هذه مناسبةً خطرت فيها للخالة جيلنورمان فكرة جديدة . لقد فكرت ، في المرة الاولى ، ان تُخضع ماريوس لرقابة تيبودول . أما الآن فقد ائتمرت لكي تجعل تيبودول يخلف ماريوس .

وأياً ما كان ، وفي حال شعور الجد بحاجة غامضة الى وجهٍ فتيّ في المنزل ــ ذلك أن اشعة الفجر هذه لتُبهجَ الخرائب أحياناً ــ فقد كان من الملائم ان يُبحث عن ماريوس آخر . وفكرت : « أجل ، إنها مجرد غلطة مطبعية كالتي اراها في الكتب ؛ إقرأ تيبودول بدلاً من ماريوس . »

ان ابنَ ابنِ الأخ هو حفيدٌ او يكاد . وعندما لا يجد المرء محامياً يستعيض عنه برمّاح .

وذات صباح ، فيما كان مسيو جيلنورمان يقرأ شيئاً مثل صحيفة « لا كوتيدين » ، دخلت ابنته عليه ، وقالت بصوتها الأكثر رقة ، اذ كانت المسألة تتصل بالشخص الأثير لديها :

ــ « ابي ، تيبودول سوف يأتي هذا الصباح ليقدّم اليك احترامه . »

ــ « من هذا ، تيبودول ؟ »

ــ « ابنُ ابنِ اخيك . »

فقال الجدّ :

ــ « آه ! »

ثم استأنف قراءته ، ولم يفكر بعدُ بابنِ ابنِ اخيه الذي ما كان

غير تيبودول * ما ؛ وسرعان ما غلب عليه الاهتياج ، شأنه كلما طالع شيئاً ، تقريباً . لقد اعلنت الصحيفة التي يقرأها – وكانت ملكية الهوى حقاً ، فهذه مسألة غنية عن البيان – وكان إعلانها ذاك خلواً من كلّ تلطيف ، أن يوم غد سيشهد أحد أحداث باريس اليوميـــة الصغرى آنذاك ؛ أعـــني أن طلاب مدرستي الحقوق والطب سوف يجتمعون في البانتيون ظهراً ، للتداول والمذاكرة . وكان الموضوع يدور حول قضية من قضايا الساعة : مدفعية الحرس الوطني ، والخلاف بين وزارة الحرب و « ميليشيا المواطنين » حول مسألة المدافع المنصوبة في ساحة اللوفر . كان الطلاب يعتزمون « المذاكرة » في أمر ذلك . وكان هذا كافياً ، وحده ، لاثارة مسيو جيلنورمان .

وفكّر في ماريوس الذي كان طالباً ، والذي كان من الراجح ان يذهب ، مثلَ غيره ، « للمذاكرة ، ظهراً ، في ساحة البانتيون . »

وفيما هو مستغرق في هذا التفكير الأليم دخل الملازم الأول تيبودول ، مرتدياً ملابسه المدنية – وكان ذلك بارعاً – فقدّمته الآنسة جيلنورمان في حذر . وقال الرماح في ما بينه وبين نفسه : « إن الكاهن الغاليّ العجوز لم يضع كل شيء وضعاً نهائياً ، مدى الحياة . وهـــذا الأمر يستأهل أن يقنّع المرء نفسه ، بين الفينة والفينة ، بنسيج حريريّ موشى . »

وفي صوت مرتفع ، قالت الآنسة جيلنورمان لأبيها :

– « تيبودول ، ابنُ ابنِ اخيك . »

وفي همس ، قالت للملازم الأول :

– « أقِرّ كل شيء . »

وانسحبت .

ولم يكن الملازم الأول متعوّداً هذه اللقاءات الموقّرة جداً ، فتلجلج

---

* التنوين هنا تنوين التنكير ، اي أنه كان مثل ايّ رجل آخر يحمـــل اسم تيبودول .

في شيء من الحياء : « صباح الخير ، يا عماه ! » وانحنى انحناءة مختلطة ، تتألف من الخطوط الكبرى للتحية العسكرية ، اللاارادية الميكانيكية ، مُنجَزَةً بتحية مدنية .

فقال الرجل العجوز :

— « آه ! هذا انت ! حسن جداً . إجلس ! »

وبعد ذلك ، نسي الرمّاحَ نسياناً كاملاً .

وجلس تيودول ، ونهض مسيو جيلنومان .

وشرع مسيو جيلنورمان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، واضعا يديه في جيبيه ، متحدثاً بصوت مرتفع ، فاركاً بأصابعه العصبية الهرمة الساعتين اللتين كان يحملهما في جيبي صُدرته .

— « هذه الكومة من الغلمان الاغرار ! إنهم يجتمعون في ساحة البانتيون ! وحقّ عاهرتي ! صبيان كانوا أمس في سنّ الرضاع ! ولو أنّ امرءاً عصَرَ انوفهم ، اذن لجرى اللبن منها ! ولسوف يتذاكرون ظُهر غد ! الى اين نحن صائرون ؟ الى اين نحن صائرون ؟ واضحٌ انا صائرون الى الهاوية ! فالى هناك تسوقنا جماعة اللاقمصان ! مدفعية المواطنين ! يتذاكرون في امر مدفعية المواطنين ! يخرجون ويثرثرون في الهواء الطلق عن ضُراط الحرس الوطني المتواصل ! ومع من سوف يجدون انفسهم هناك ؟ انظر قليلاً الى اين تقودنا اليعقوبية . إني اراهن على ما تشاء ، على مليون مقابلَ قشّة ، أنه لن يجتمع هناك غير سجناء سابقين وأشغاليين مُطلقي السراح . إن الجمهوريين والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لينسجمون مثل انفٍ ومنديل . قال كارنو * : « الى اين تريد ان اذهب ، ايها الخائن ؟ » فأجابه فوشيه ** : « حيث تريد ، ايها الأبله ! » هؤلاء

* Carnot سياسي وعالم رياضي فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٢٣) كان عضواً في لجنة السلامة الوطنية ، وانشأ جيش الجمهورية الرابع عشر ، فلقب بـ « منظم النصر . » فلما رجع آل بوربون الى العرش نفي من البلاد .

** Fouché سياسي فرنسي (١٧٥٩ — ١٨٢٠) عمل في خدمة نابوليون ، ثم تخلى عنه بعد « الايام المئة » واحتفظ بمنصبه الوزاري في العهد البوربوني الجديد.

هم الجمهوريون . »

فقال تيبودول :

— « هذا صحيح . »

والتفت مسيو جيلنورمان نصف التفاتة ، فرأى تيبودول ، واضاف :

-- « حسبك ان تفكر ان هذا الحقير كان شريراً الى درجة جعلته يصبح كاربوناريًا *. لماذا تركتَ بيتي ؟ لكي تذهب وتعتنق المذهب الجمهوري ! بش ! قبل كل شيء ، الناسُ لا يريدون جمهوريتك ؛ انهم لا يريدونها ؛ انهم عاقلون . إنهم يعرفون جيداً انه كان ثمة ملوك دائماً وانه سوف يكون ثمة ملوك دائماً ؛ وهم يعرفون جيداً ان الشعب على اية حال هو الشعب ، انهم يسخرون من جمهوريتك ، اسامعٌ انت ، ايها المعتوه ؟ اليس هذا الهوى فظيعاً ؟ لقد أغرموا بالاب دوشين ، وسدّدوا نظرات ولهى الى المقصلة ، وانشدوا الاغاني المؤثرة ، وعزفوا « الغيتار » تحت شرفة عام ٩٣ ؛ يجب ان نبصق على هؤلاء الشباب كلهم ، فما اشدّ حماقتهم ! إنهم جميعاً في كومة واحدة . وليس ثمة واحدٌ خارجها . يكفي ان يتنفسوا الهواء الذي يهبّ في الشارع حتى يصابوا بالخبل . القرن التاسع عشر سُمّ . إن ايّ داعر منهم يرسل لحيته التيسية ، ويحسب نفسه بالغ البراعة ، ويتخلى عن انسبائه العجائز . ذلك جمهوري ! ذلك رومانتيكيّ ! ما المقصود بالرومانتيكي ؟ تلطّفْ واخبرني ما معنى ذلك . جميع الحماقات الممكنة . منذ عام ، ذهبتَ لتشهد هيرناني **. اريد ان اعرف ، هيرناني ! تناقضات ! خباثات لم تُكتب حتى باللغة الفرنسية . وبعد ذلك يريدون ان ينصبوا المدافع في فناء

* نسبة الى الجمعية السرية الايطالية المعروفة بالكاربوناري . وقد انشئت في ايطالية ، مطلع القرن التاسع عشر ، وامتدت الى فرنسة بعد عودة آل بوربون الى العرش . وكان هدفها الرئيسي إشاعة الافكار التحررية ، وتوحيد ايطالية .

** Hernani مسرحية فيكتور هيجو الشهيرة التي مُثلت اول مرة عام ١٨٣٠ فأضفت على مؤلفها شهرة عريضة وجعلته زعيماً للمدرسة الرومانتيكية .

اللوفر . تلك هي لصوصية هذا العصر المسلّحة . »

فقال تيبودول :

— « انت على صواب ، يا عمّاه . »

واستأنف مسيو جيلنورمان كلامه :

— « مدافع في فِناء المتحف ! لماذا ؟ ايها المدفع ، ايّ شيء تريد ؟ أتريد ان تصرع أبولو بيلفيدير * ؟ وأيّ شأن لقذائف المدفع بفينوس آل مديتشي ** ؟ أوه ، إن شباب هذا الجيل كلهم لصوص مسلحون! وما أحقر شأن صاحبهم بنجامان كونستان ! وغير المجرمين منهم حمقى معتوهون ! إنهم يبذلون غاية جهدهم لكي يكونوا بشعين . إنهم يرتدون ثياباً رثة . إنهم يخافون النساء . إن لهم حول صاحبات التنانير سيما شحاذين تُغري خادمات الفنادق الشرسات ، بعض الشيء ، بأن ينفجرن بالضحك . وأقسم بشرفي إن المرء خليق به أن يقول إن الفتيان المساكين مخجولون من الحب . إنهم بشعون ، وهم يُكملون انفسهم بالبلاهة . إنهم يكرّرون نكات « تيرسيلين » و « بوتييه » الجناسية . وإن لهم سترات قصيرة فضفاضة ، وصدرات كصدرات سُوّاس الخيل ، وقمصاناً من قطن غليظ ، وبنطلونات من جوخ غليظ ، واحذية طويلة من جلد غليظ . إن الرسوم المشجرة التي تزين ملابسهم تشبه ريشهم . وفي استطاعة المرء ان يُفيد من رطانتهم فيجدّد بها نعال احذيتهم العتيقة . ولجميع هؤلاء الصِّبْية الحمقى آراء سياسية . إنهم ينشئون الانظمة ؛ انهم يصلحون المجتمع ؛ إنهم يقوّضون الملكية ؛ إنهم يُبطلون جميع القوانين ؛ إنهم يضعون العلّية محلّ القبو ، وبوّاب بيتي محلّ الملك ؛ إنهم يقلبون اوروبة رأساً على عقب ؛ إنهم يُعيدون بناء العالم ، وما حظوتهم غير النظر من طرف

---

* أبولو بيلفيدير من اروع التماثيل لأبولو ، إلٰه الشعر عند الاغريق . وبيلفيدير متحف رومة الشهير ، في الفاتيكان .

** اشهر تمثال من تماثيل فينوس ، وهو محفوظ بمتحف فلورنسة .

خفيّ الى سيقان الغسّالات وهن يصعدن الى عرباتهم ! آه ! آه ! ماريوس ! آه ! ايها الشحاذ ! انت ذاهب لتصيح في ساحة عامــة ! لتناقش ، وتجادل ، وتتخذ إجراءات ! إنهم يَدّعون ذلك اجراءات ، أيتها الآلهة العادلة ! إن البلبلة لتنكمش وتصبح حمقاء . لقد رأيت الفوضى ، وإني لأرى التشوّش . طلاب يتذاكرون في موضوع الحرس الوطني — هذا ما لا تقــع عليه عند الأوجيبواس * أو عند الكادوداش ** ! إن المتوحشين الذين يمشون عراةً تماماً ، وقد بـدت رؤوسهم الضخمة مثل الفلّينة المراشة التي يلعب بها الاولاد ، وشُكّت دبابيس في أرجُلهم ، هم اقلّ توحشاً من حملة البكالوريا هؤلاء ! قرودٌ لا تساوي اكثر من اربعة فلوس ! قرود يحسبها الناس مثقفين وأكفاء ! إنهــم يتداولون ويُعملون الفكر إعمالاً سيئاً ! تلك هي نهاية العالم ! ومن الواضح أنها نهاية هذه الكُرة البائسة المؤلفِ نصفُها من اليابسة ونصفها من المــاء . كانت في حاجة الى شهقة اخيرة ، وها هي فرنسة تطلق تلك الشهقة . تداولوا ، ايها الاوغاد ! مثل هـذه الاشياء سوف تحــدث ما داموا يقرأون الصحف تحت أقواس الأوديون *** . ان ذلك يكلفهم فلساً واحداً ، وحصافتهم ، وذكاءهم ، وقلوبهم ، ونفوسهم ، وعقـولهم . انهم يرجعون من هناك حاملين الحرب الى أسرهم . كل هذه الصحف طواعين . كلها ، حتى « الراية البيضاء » ! إن مارتينفيل **** كان في اعماقه يعقوبياً . أوه ، يا

---

* Ogibewas قبيلة كبـيرة من هنود اميركة الشمالية وهي موزعة بـين كندا والولايات المتحدة .

** Cadodaches من القبائل الهندية في اميركة الشمالية أيضاً .

*** Odéon اثر أثيني مشهور كانت تجري فيه مباريات في الموسيقى والشعر . وقد خلع هذا الاسم على « المسرح الفرنسي الثاني » في باريس ، وقد اسس عام ١٧٩٧

**** Martainville صحفي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ — ١٨٣٠) . كان ملكياً متحمساً ، وقد انشأ عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » *Drapeau Blanc*

للسماء ! في استطاعتك ان تفخر بأنك ادخلت اليـأس على قلب جدك ، اجل في استطاعتك ! »

فقال تيبودول :

— « هذا واضح . »

وافاد الرمّاح من تمهل مسيو جيلنورمان وأخذه نفَساً فأضاف في نبرة جازمة :

— « يجب ان لا يكون ثمة غير صحيفة واحدة هي الـ « مونيتور » ، وغير كتاب واحد هو « الحولية العسكرية » *Annuaire Militaire* .

وتابع مسيو جيلنورمان حديثه :

— « انه مثل سييس * قاتلُ ملكٍ ينتهي الى ان يصبح عضواً في مجلس الشيوخ ! تلك هي الطريق التي ينتهون اليها دائماً . انهم يجلدون أنفسهم بضمير المفرد وبلفظة « مواطن » لكي يصلوا آخر الامر الى ان يدعوهم الناس السيد الكونت ، السيـــد الكونت بطول ذراعي ! يا لسفّاحي ايلول هؤلاء ! الفيلسوف سييس ! انا سعيد بأن اقول اني لم اكترث في يوم من الايام لفلسفات هؤلاء الفلاسفة جميعاً اكثر مـــا اكترثت لنظارتَيْ مهرّج التريفولي . لقد رأيت أعضـاء مجلس الشيوخ يجتازون ذات يوم الـ « كي مالاكيه » وقد ارتدوا معاطف من مخمـل بنفسجي مذرور بالنحل واعتمروا بقبعات من طراز هـــنري الرابع . كانوا فظيعين . ولقد كان في استطاعة المرء ان يقول انهم قرود بـلاط النَّمِر . ايها المواطنون ، اني اقول لـكم ان تقدمكم جنون ، وان

---

* Sieyès راهب وسياسي فرنسي (١٧٤٨ — ١٨٣٦) كان مؤسس « نادي اليعاقبة » ، وقد لعب دوراً بارزاً في السياسة الفرنسية ، فكان عضواً في « الجمعية التأسيسية » ، ثم في « المؤتمر الوطني » ، ثم في « مجلس الخمسمئة » ، ثم وزيراً في حكومة الادارة ، ثم قنصلاً .

انسانيتكم حلم ، وان ثورتكم جريمة ، وان جمهوريتكم هَوْلة * ، وان فرنساكم الفتاة منبثقة من الماخور ! اني اؤكد ذلك لكم جميعاً ، سواء أكنتم صحافيين ، أم علماء اقتصاد ، أم فقهاء ، أم كنتم جهابذةً في الحرية والمساواة ، والاخاء ، اكثر من ساطور المقصلة ! اقول لكم ذلك ، ايها الرجال الطيبون ! »

فصاح الملازم الاول :

– « وحق الالـه ! هذا صحيح على نحو رائع . »

وعدل مسيو جيلنورمان عن ايماءة كان قد بدأ بها ، واستدار ، وحدّق الى ما بين عيني تيبودول الرمّاح ، وقال :

– « انت معتوه ! »

* الهولة : الشيء الغريب البشع المخيف في آن معاً . وقد عبّرنا بها عن كلمة *monstre* في الفرنسية والانكليزية .

الكتاب السادس

التقاء نجمين

١

اللقب : كيف تنشأ اسماء الاسر

في تلك الحقبة ، كان ماريوس شاباً جميلاً ، "ربعة" ، ذا شعر كثيف فاحم ، وجبين عالٍ ذكيّ ، ومنخرين واسعين حميّين ، وسيماء مخلصة هادئة ، وكان يطفو على محياه كله شيء لا سبيل الى وصفه ، شيء شامخ ، متفكّر ، بريء . كانت صورته الجانبية – ذات الخطوط المدوّرة ولكنْ من غير ان تفقد صلابتها – تتمتع بتلك العذوبة الجرمانية التي اتخذت سبيلها الى السّحنة الفرنسية من خلال الالزاس واللورين ، وبانعدام الزوايا ذاك الذي جعل من اليسير جداً على المرء ان

يعرف السيكامبريين * بين الرومان ، والذي يميز العرق الأسدي عن العرق النسري . كان في تلك السنّ التي تكون فيها عقول المفكرين من الناس مؤلفة ، بنسبة متساوية تقريباً ، من العمق والسذاجة . إنه قد يتكشّف ، في بعض مواقف الحرج ، عن جميع مقوّمات الحماقة . ولكنْ أدرِ اللولب دورة اخرى يصبحْ عظيماً جليلاً . كان متحفظاً ، بارداً ، مصقول الحاشية ، قليل المصارحة . ولكن لمّا كان فمه فاتناً ، وكانت شفتاه اشدّ الشفاه احمراراً واسنانه أنصع الاسنان بياضاً ، فقد صحّحت ابتسامته صرامةَ سيماه . وفي بعض اللحظات ، كان ثمة تغايرٌ غريب بين هذا الجبين العفيف وهذه الابتسامة الشهوية . كانت عيناه صغيرتين ، وكانت نظرته عظيمة .

وفي الفترات التي انتهى فيها الى الدرك الأسفل من الفقر لاحظ ان الفتيات كنّ يُشحن عنه بوجوههن حين يمرّ ، فكان يفرّ أو يختبىء وفي صدره شعورٌ قاتل . كان يحسب أنهن ينظرن اليه بسبب من ملابسه البالية ، وانهن كنّ يسخرن منه . والواقع انهن نظرن اليه بسبب من ملاحته ، وانهن اشتهينه .

وكان سوء التفاهم الأبكم هذا ، بينه وبين عابرات السبيل المليحات ، قد أورثه نفرةً من المجتمع . إنه لم يختر أياً منهن ، لسبب وجيه هو أنه كان يفرّ من وجوههن جميعاً . وهكذا عاش من غير هدف – على نحو وحشيّ ، كما قال كورفيراك .

وقال له كورفيراك ايضاً :

– « لا تطمح الى ان تكون حكيماً (كانا يتخاطبان بضمير المفرد . والانزلاق الى ضمير المفرد من خصائص الصداقات الشابّة) . يا صديقي العزيز ، دونك هذه النصيحة . لا تقرأ كثيراً في الكتب ،

* Sicambres احد شعوب بلاد الجرمان القديمة ، وقد قهرهم دروسوس فاختلطوا بالفرنجة .

وانظر اكثر قليلاً الى بنـــات الهوى . إن في الساقطات خيراً لك ، يا ماريوس ! فبالفرار الموصول ، واحمرار الوجه دائماً ، سوف تصاب بالخبل . . »

وفي مناسبة اخرى لقيه كورفيراك فقال له :

– « مرحباً ، ايها السيد الراهب . . »

وكان ماريوس – كلما سمع ملاحظة مثل هـذه من كورفيراك ، يغالي في اجتناب النسوة ، طوال اسبـــوع ، سواء اكنّ شابات أو عجائز ، ويجتنب بخاصة أشباحَ كورفيراك .

بيد أنه كانت ثمـة من بين خلق الله جميعاً ، امرأتان لم يفرّ ماريوس منهما قط ، ولم يجتنبهما على الاطلاق . والحق انه كان جديراً بأن يغلب عليه الدهش لو ان احداً قال له انهما امرأتان . فأما اولاهمـا فالعجوز ذات اللحية التي كانت تكنس غرفته وتحمل كورفيراك على القول : « لمـا كانت خادمة ماريوس تطلق لحيتهـــا فأنه لا يطلق لحيته » . وأما الاخرى فكانت فتاة صغيرة كان كثيراً ما يراها ولكنه لم ينظر اليها قط .

فمنذ اكثر من عام ، لاحظ ماريوس في مجاز منعزل من حـديقة اللوكـسمبورغ ، المجاز الذي يحاذي حاجز الـ « بيبينيير » ، رجلاً وفتاةً صغيرة جداً كانا يجلسان جنباً الى جنب ، دائماً تقريباً ، على المقعد نفسه في طرف المجاز الاقصى ، قرب « شارع الغرب » . وكلما قـــادت المصادفة التي تسيطر على نزهات اولئك القوم المتلفّتة اعينُهم الى الداخل – نقول كلما قادت تلك المصادفة ماريوس الى هذا المجاز ، وكان ذلك كل يوم تقريباً ، وجد هذين المخلوقين هناك . كان الرجل في نحو الستين ، وكان يبدو محزوناً رصينـــاً . وكان شخصه كله يذكـّر المرء بالـسيماء الشديدة ولكنِ المجهَدة التي تطفو على وجوه الجنود المسرّحين من الخدمة العسكرية . ولو قد كان يزين صدره بوسامٍ ما ، اذن لقال ماريوس :

« انه ضابط قديم » . كانت ملامح وجهه تؤذن بالطّيبة ، ولكنها غير مغرية بالاقتراب منه ؛ وما كان يدع عينه تقع على عين امرىء ما . كان يرتدي بنطلوناً ازرق ، وسترة طويلة زرقـــاء ، وقبعة عريضة الحاشية بدت جديدةً دائماً ، وعقدة عنق سوداء ، وقميصاً من قمصان الاصحاب الكويكريين * ، يعني قميصاً ابيضَ ناصعاً ولكنه مخيط من قماش غليظ . ولقد مرت به ، ذات يوم ، عاملة مغناجة فقالت : « هوذا أرمل ممتاز . » كان شعره أشيب كلّه .

وأول مرة جلست فيها الفتاة الصغيرة التي رافقته على المقعد الذي بدا وكأنهما قد تبنّياه ظهرت اشبه بفتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، مهزولة حتى البشاعة تقريباً ، خرقاء ، لا شأن لها ، ومع ذلك فقـــد كانت تَعِدُ في اغلب الظن بأن تنعم في المستقبل بعينين ساحرتين . ولكن عينيها هاتين كانتا تنظران حولها ، دائماً ، في طمأنينة بغيضـة . كانت ترتدي ثوباً عجائزياً وأطفالياً في آن معاً ، كذلك الذي تلبسه الفتيات في مدرسة الدير ، ثوباً رديء التفصيـــل مصنوعاً مـن صوف الضأن المرينيّ ** الأسود الغليظ . كانت تبدو عليهما سيماء أبٍ وابنته .

وطوال يومين او ثلاثة ايام ، تأمل ماريوس هذا الرجل العجوز الذي لم يصبح بعدُ هرماً ، وهذه الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعدُ مبلغ المرأة ، ثم لم يُلقِ اليهما بالاً بعد ذلك قط . أما هما فقد بدا وكأنهما لم يرياه ولو بمجرد رؤية . كانا يتسارّان في وداعة ولا مبالاة . وكانت الطفلة تثرثر في غير انقطاع ، وفي ابتهاج ، أما الرجل العجوز فكان يتكلم قليلاً ، ويتطلع اليها بين الفينة والفينة بعينين مفعمتين بأبوة لا سبيل الى وصفها .

---

* وهم طائفة الفرندز (الاصحاب او الاصدقاء) البروتستانتية المعروفين بتقواهم وزهدهم في الدنيا وزخارفها . وانما عرفوا بالكويكرز ، اي المرتعشين ، لان مؤسس الفرقة قال لاتباعه : « ارتعشوا امام سيف الرب . »

** mérinos نسبة الى ضأن بني مرين في الاندلس .

وكان ماريوس قد اكتسب ضرباً من عادة ميكانيكية تحمله على التنزه في ذلك المجاز . وكان يجدهما دائماً هناك .

ودونك كيف كان ذلك :

كان من دأب ماريوس ان يُقبل من طرف المجاز الذي يواجه مقعدهما ، فيتمشى على طول ذلك المجاز ، ماراً امامهما ، ثم يرتد الى الطرف الاقصى الذي اقبل منه ، وهكذا . كان يقوم بحركة الذهاب والاياب هذه خمس مرات او ست مرات في كل نزهة من نزهاته ، وكان يقوم بكل نزهة من نزهاته تلك خمس مرات او ست مرات في الاسبوع ولكن من غير ان يتبادل ، هو وهذين المخلوقين ، تحية ما . وكان طبيعياً — برغم ما بدا من ان هذا الرجل وتلك الفتاة الصغيرة كانا يجتنبان النظرات ، ولربما بسبب من ذلك نفسه — ان يثيرا انتباه اولئك الطلاب الخمسة أو الستة الذين كانوا يتنزهون بين الفينة والفينة في محاذاة الـ « بيبينير » ، فاما المجتهدون منهم فتحصيلاً لدروسهم ، وأما الآخرون فالتماساً للبليارد يتنافسون في لعبه . ولاحظهما كورفيراك — وكان من الطائفة الثانية — في وقت ما ، ولكنه سارع الى اجتنابهما ، في كثير من العناية ، بعد أن وجد الفتاة قبيحة . لقد فرّ مثل رجل من البارثيين * راشقاً اياهما بلقب . واذ بدَهه ، في المحل الاول ، ثوب الفتاة الصغيرة وشعر الرجل العجوز فقد سمّى البنت **مدموزيل لونوار** (السوداء) وسمى الأب **مسيو لوبلان** (الابيض) . وهكذا — ولما كان ايّ منهم لا يعرفهما باسم آخر ، لعدم وجود ذلك الاسم — فقد فرض هذا اللقب نفسه وكأنه القانون . وقال الطلاب : « آه ، مسيو

---

* كان البارثيون القدماء — الذين انشأوا عام ٢٥٠ ق . م مملكة في ايران — يجيون على صهوات الخيل دائماً . واذ كانوا يتظاهرون بالفرار فقد كانوا يسددون السهام ، من تحت اكتافهم ، الى من يتعقبهم . وقد ادت هذه الحيلة القائلة الى نشوء المثل : رشقه بسهم من سهام البارثيين ، يعني سدد اليه وهو ينسحب سهماً او كلمة جارحة .

لوبلان جالس على مقعده ! » ووجد ماريوس — شأنَ زملائه — أن من الملائم ان يدعو هذا الرجل المجهول مسيو لوبلان .

ولسوف نفعل مثلما فعلوا فنقول مسيو لوبلان حرصاً على السهولة في هذه القصة .

وهكذا رآهما ماريوس ، كل يوم تقريباً ، وفي الساعة نفسها ، خلال العام الأول . لقد وقع الرجلُ في نفسه موقعاً حسناً ، ولكنه وجد الفتاة بغيضةً بعض الشيء .

٢
« وكان نور »

وفي السنة الثانية ، عند مطلع هذا التاريخ الذي بلغهُ القارىء تماماً ، اتفق أن أقلع ماريوس عما ألفهُ من عادة الذهاب الى حديقة اللوكسمبورغ ، من غير أن يدري هو نفسه سبباً لذلك ، فانقضت ستة أشهر تقريباً لم تطأ قدماه في خلالها مجازه ذاك . وأخيراً انقلب الى هناك ، ذات يوم ، كرةً اخرى . وانما كان ذلك في صباح يوم صاحٍ من أيام الصيف ، وكان ماريوس مبتهج النفس شأنَ المرء حين يكون الجوّ رائقاً . لقد بدا له وكأن في قلبه جميع أناشيد الطيور التي سمعها، وجميع أفلاذ السماء الزرقاء التي رآها من خلال الاشجار .

ومضى الى « مجازه » مباشرة . ولم يكد يبلغه حتى رأى ، على المقعد نفسه أيضاً ، هذين المخلوقين المعروفين . حتى اذا اقترب منهما وجد أن الرجل كان هو نفسه من غير شك ، على حين بدا له ان الفتاة لم تعُدْ تلك التي كانت تصحبه من قبل . كانت الفتاة التي رآها الآن مخلوقة كريمة جميلة تتمتع بجميع ملامح المرأة الاكثر فتنةً ، في تلك اللحظة

التي تكون فيها هذه الملامح متصلةً ، ما تزال ، بكامل جمال الطفل ،ـ تلك اللحظة العابرة الطاهرة التي لا تُترجم إلا بهذه الكلمات : الخامسة عشرة من العمر . شعرٌ كستنائي جميـــل تظلله عروقٌ من الذهب ، وجبين بدا وكأنه منحوت من رخام ، ووجنتان بدتا وكأنهما مصنوعتان من ورد ، ولون ارجواني شاحب ، وبياض مُشرَّب بالاحمرار ، وفم رائع تنبثق منه ابتسامة كالضياء ، وصوت كالموسيقى ، ورأس كان خليقاً برافايل أن يقدّمه الى مريم على جيدٍ كان خليقاً بجان غوجون * أن يقدمه الى فينوس . واخيراً لكي لا يُعوز شيء هـذا الوجهَ الفاتن فأن الانف لم يكن جميلاً ولكنه كان مليحاً . إنه لم يكن مستقيماً ، ولم يكن معقوفاً ؛ لم يكن ايطالياً ولم يكن اغريقياً ؛ كان انفـــاً باريسياً ، يعني شيئاً بهيجـــاً ، لطيفاً ، شاذاً ، صافياً ، شيئاً يُؤئس الرسامين ، ويفتن الشعراء .

وحين مرّ ماريوس على مقربة منها ، لم يستطع ان يرى عينيها اللتين كانتا مطرقتين دائماً . انه لم يرَ غير اهدابها الكستنائية الطويلة الراشحة بالظلال والحياء .

ولكن ذلك لم يمنع الطفلة الجميلة من الابتسام فيما أصغت الى الرجل الاشيب الذي كان يتحدث اليها . ولم يكن ثمة شيء أشد سحراً من هذه الابتسامة الطريئة بعينين مطرقتين .

وحسبها ماريوس ، للوهلة الاولى ، بنتاً ثانية للرجل نفسه ، اختاً لا ريب فيها للفتاة التي رآها من قبل . ولكن حين قادته نزهاته المعتـــادة كي لا تتغير الى قريب من مقعدها ، مرة ثانية ، ونظر اليها في انتباه ، أدرك انها تلك الفتاة عينها . ففي مدى ستة اشهر امست الفتـاة الصغيرة شابة

---

* Goujon مثّال فرنسي شهير (حوالى ١٥١٠ ــ حوالى ١٥٦٨) نحت « حوض الابرياء » في باريس وشارك في زخرفة اللوفر .

فتية ؛ ذلك كل ما هنالك . وليس شيء اكثر شيوعاً من هذه الظاهرة . فثمة لحظة تتفتح فيها اكمام الفتيات في طرفة عين ويصبحن وروداً على نحو مفاجىء . لقد تركناهن أمس اطفالاً ، وإنا لنجدهن اليوم شاغلات البال .

ولم تكن تلك الفتاة قد كبرت فحسب ؛ كانت قد غدت مثالية ايضاً . وكما ان ثلاثة أيام من نيسان كافية لأن تَلبس بعضُ الاشجار حلة من الازهار فكذلك كانت ستة اشهر كافية لأن ترتدي تلك الفتاة رداء من الجمال . كان نيسانها قد اقبل .

اننا نرى في بعض الاحيان اناساً ، فقراء حقيرين ، يبـــدون وكأنهم يستيقظون ، وينتقلون فجأة من العوز الى الترف ، وينفقون الاموال ذات اليمين وذات الشمال ، ويصبحون بغتةً لامعين ، مبذرين ، ذوي أبهة . وانما ينشأ ذلك عن دخلٍ تلقّوه ؛ كان أمسِ يوم الدفع . لقد قبضت الفتاة الشابة راتبها نصف السنويّ .

ثم انها لم تعد تلك الطالبة الداخلية بقبعتها المصنوعة من نسيج ذي وَبر ، وثوبه المخيط من صوف الضأن المرينيّ ، وحذائها التلمذيّ ، ويديها الحمراوين . كان الذوق قد وفد عليها مع الجمال . وكانت قد أمست فتاة حسنة البزة تزينها اناقة بسيطة غزيرة ، خلوٌ من التكلف . كانت ترتدي ثوباً من دمقس أسود ، وصدرة من النسيج نفسه ، وقبعة من « كريب » أبيض . وكان قفازاها الابيضان يكشفان عن نعومة يدها العابثة بقبض مظلتها المصنوع من العاج الصيني ، وكان حذاؤها الحريري العالي ينم عن صغر قدميها ، وكانت زينتها كلها تتنفس بأريج الشباب النافذ ، كلما مرّ المرء على مقربة منها .

اما الرجل فكان هو هو لم يتغير البتة .

وحين انتهى ماريوس الى قريب منها ، للمرة الثانية ، رفعت الفتـــاة الشابة جفنيها . كانت عيناها ذواتَيْ زرقة سماوية عميقة ، ولكن لم يكن في ذلك اللازورد المحجّب غير نظرة طفل . لقد نظرت الى ماريوس في

لا مبالاة كما كان خليقاً بها ان تنظر الى القُرَيْد الذي يعـــدو تحت شجرات الجميز ، او الى الزهرية الرخامية التي تلقي ظلهـــا على المقعد .
وواصل ماريوس ، بدَوره ، نزهته وهو يفكر في شيء آخر .
ومرّ اربع مرات أو خمس مرات اخرى على مقربة من المقعد الذي جلست عليه الفتاة الشابة ، ولكن من غير ان يدير عينيه نحوه مجرد إدارة .
وفي الايام التالية وفد كعادته على حديقة اللوكسومبورغ ، فوجـد فيها كعادته ايضاً « الاب والبنت » ولكنه لم يُلق اليهما بالاً . انه لم يعد يفكر في هذه الفتاة وقد امست جميلة بأكثر مما سبق له ان فكر فيها يوم كانت قبيحة . كان يمر دائماً بحذاء مقعـدها لأن عادته جرت بذلك .

٣
أثرُ الربيـع

وذات يوم ، كان الهواء معتدلاً ، وكانت حديقـة اللوكسومبورغ مغمورةً بأشعة الشمس وبالظلال ، وكانت السماء صافية وكأن الملائكة قد غسلتها في الصباح ، وغردت عصافـــير الدوري في اعماق شجرات الكستناء ، وكان ماريوس قد فتح روحه كلها للطبيعة ، ولم يعد يفكر في شيء . لقد عاش وتنفس ، ولقد مرّ بحذاء ذلك المقعـــد ، فرفعت الفتاة الشابة عينيها نحوه ، فالتقى نظراهما .
ولكنْ ايّ شيء كان في نظرة الفتاة الشابة ؟ لقد عجز ماريوس عن الاجابة . لم يكن ثمة شيء ، وكان ثمة كل شيء . لقد كان ذلك ضياء غريباً .

وغضّت من بصرها ، وواصل هو سبيله .

إن ما رآه لم يكن عين طفل ساذجة سليمـــة الطوية . كان هاويةً محاطة بالاسرار ، هاويةً فتحت فاها نصف فتحة ثم اغلقته فجأة .

فثمة فترة تنظر فيها كلُّ فتاة شابة مثل هذه النظرة . والويل لمن يتفق ان يكون هناك !

إن تلك النظرة الاولى التي تسدّدها نفسٌ لمّا تعرفْ بعدُ ذاتهـــا أشبه بارتفاع الضحى في السماء . إنها يقظة شيء مشعٍّ مجهول . وليس هناك ما يستطيـع التعبير عن الفتنة الخطرة الكامنة في هذا الوميض غير المرتقب الذي يُنير فجأة ، وعلى نحو غامض ، ظلمـــاتٍ حبيبة ، والذي يتألف من براءة الحاضر كلها ، واهواء المستقبل كلها . انها ضربٌ من الحنان الحائر الذي تمّ المصادفة عنه ، والذي ينتظر . انها شرك تنصبه البراءة من غير وعي ، وتتصيد به القلوبَ من غير ان تقصد الى ذلك ، ومن غير ان تدري ذلك . انها عذراء تنظر كما تنظر المرأة .

ومن النادر أن لا ينشأ عن هذه النظرة ، حيثما وقعت ، استغراق في تفكير حالم عميق . ان كل ما هو طاهر وكل ما هو متوهج ليتركزان في هذه النظرة السماوية القاتلة التي تتميّز بقدرتها السحرية – اكثر من غمزات الفتيات المغناجات الأشدّ إحكاماً – على ان تفتّـــح فجأة ، في اعماق القلب ، تلك الزهرةَ القاتمة ، المفعمة بالاطياب والسموم ، والتي ندعوها الحب .

وفي المساء ، عندما رجع ماريوس الى عليّته ، القى نظرة عـــلى ملابسه . ولأول مرة ادرك بأية قذارة ، وقلةَ لياقة ، وبلاهة لم يُسمع بمثلها ، كان يتنزه في حديقة اللوكسمبورغ مرتدياً « بذلته اليومية » تلك ، وقبعة محطّمة قرب العروة ، وحذاء غليظاً من احـــذية سائقي العربات ، وبنطلوناً اسود تلتمع ركبتـــاه ، وسترة سوداء شحُبتْ خيوط مرفقيها .

٤
بدء اعتلال عظيم

وفي اليوم التالي ، في الساعة المعتادة ، أخرج ماريوس من خزانته سترته الجديدة ، وبطلونه الجديد ، وقبعته الجديدة ، وحذاءه الجديد ، وتسلّح بهذه المجموعة الكاملة من الملابس ، ولبس قفازيه – ترفٌ مسرف – ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ .

وفيما هو في بعض الطريق ، التقى بكورفيراك وتظاهر بأنه لم يره . حتى اذا انقلب كورفيراك الى غرفته قال لاصدقائه :

– « لقد التقيت اللحظةَ بقبعة ماريوس الجديدة وسترته الجديدة ، وماريوس في داخلهما . وليس من شك في انه كان ذاهباً الى امتحان . لقد بدت على وجهه سيماء بلاهةٍ كاملة . »

حتى اذا وصل الى حديقة اللوكسومبورغ دار دورةً حول الحوض ونظر الى الأوزّ السابح فيه . ثم لبث فترة طويلة مستغرقاً في التأمل أمام تمثال أسود من العفَن تُعوِزه احدى وركَيْه . وعلى مقربة من الحوض ، كان بورجوازي في الاربعين ضخم الكرش يمسك بيد صبيّ صغير في الخامسة ويقول له : « حذار من التطرف . ابتعِدْ عن الاستبداد ابتعادك عن الفوضوية . » واصغى ماريوس الى هذا البورجوازي الطيب . ثم دار دورةً اخرى حول الحوض . واخيراً مضى الى «مجازه» ، في أناة ، وكأنما يمضي اليه في أسف . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يقول إنه كان مُكرهاً على المضيّ وممنوعاً عن المضيّ في آنٍ معاً . كان لا يعي شيئاً من ذلك كله ، ولقد حسب أنه يسلك مسلكه اليوميّ عينه .

حتى اذا انتهى الى المجاز رأى مسيو لوبلان والفتاة الشابة جالسين ،

في الطرف الآخر ، « على مقعدهــا » . وزرّر سترته ، وشــدّها الى أدنى لـكي يزيل ما قد يشينها من تغضّن ، وتأمّل في شيء من العُجْب رونق بنطلونه وبهاءه ، وزحف الى المقعد . كان في ذلك التقــدم شيء من الهجوم ، وكان فيه من غير شك رغبةٌ في الفتح . إني اقول اذن : « وزحف الى المقعد » ، كما اقول : « زحـف هنيبعل الى رومة . »

وفي ما عدا هذا لم يكن ثمة شيء غير ميكانيكي في حركاته جميعاً ، ولم يعترض بأية حال شواغلَ عقله وعمله المعتادة . كان يفكر في تلك اللحظة في ان « المختصر في البكالوريا » كتاب أبله ، وانه لا شك من عمـــل معتوهين يعز نظيرهم ، وإلا فكيف يقدّم عند تحليله لروائع العقل البشري ثلاثاً من مآسي راسين وواحدة ليس غير من ملاهي موليير ؟! وأحس بشبه صفيرٍ حادّ في أذنه . وفيما هو يتقدم الى المقعد ملّس تغضّنات سترته واستقرت عيناه على الطفلة الشابة . لقد بدت ، في نظره ، وكأنها تمـــلأ جانب المجاز كله بضياء ازرق شاحب .

وكلما ازداد من المقعد قرباً ازدادت خطوته تباطؤاً . حتى اذا انتهى الى مسافة ما من المقعد ، وقبل ان يصل الى اقصى المجاز بكثير ، كفّ عن السير ، ونكص على عقبيه من غير ان يدري هو نفسه كيف اتفق له ذلك . بل انه لم يقل لنفسه إنه لن يذهب الى نهاية المجاز . وليس من ريب في انه كان من العسير على الفتاة الشابة ان تلمحه من بعيد وترى هيئته البديعة في سترته الجديدة . واياً ما كان ، فقد وقف منتصب القامة لـكي يبدو حسن السمت اذا ما اتفق لأحدٍ خلفَه ان يرى اليه .

وبلغ الطرفَ المقابل ثم رجع . وهذه المرة اقترب ، اكثر بعض الشيء ، من مقعدها . بل لقد انتهى الى نقطة تقع على مسافة ثلاث شجرات منه ، ولكنه استشعر هناك بعجز عن مواصلة التقدم لا سبيل الى وصفه ، فتردد. لقد خيل اليه ان وجه الفتاة الشابة انحنى نحوه . ومع ذلك فقـــد بذل جهداً رجولياً عظيماً ، فقهر تردده ، وواصل تقدمه . وبعد بضع ثوان مرّ

أمام المقعد ، مستقيماً راسخ القدم ، محمرّ الوجه حتى الاذنين ، من غير ان يجرؤ على ان يلقي نظرة ما الى اليمين او الى الشمال ، واضعاً يده في سترته مثل رجل من رجال الدولة . ولحظةَ مرّ – تحت مدافع القلعة – خفق قلبه خفقاناً مروّعاً . وكانت ترتدي – شأنها في اليوم السابق – ثوبها الدمقسي وقبعتها المصنوعة من الكريب . وسمع صوتاً يمتنع على الوصف كان « صوتَها » من غير ريب . كانت تتحدث في سكينة . وكانت بارعة الجمال . لقد استشعر ذلك ، برغم انه لم يحاول ان يراها . وقال في ذات نفسه : « انها لا تستطيع ، على اية حال ، إلا أن تكنّ لي اجلالاً واحتراماً اذا ما عرفت اني المؤلف الحقيقي للدراسة الموضوعة عن ماركو اوبريغون دو لا روندا التي قدم بها مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، وكأنها من قلمه ، لطبعته الخاصة لرواية « جيل بلا » *

واجتاز بالمقعد ، ومضى الى اقصى المجاز الذي كان بالغ القرب ، ثم استدار ومرّ كرة اخرى امام الفتاة الجميلة . وهذه المرة كان شديد الشحوب . والواقع انه لم يكن يستشعر شيئاً ليس ببغيض جداً . فابتعد عن المقعد وعن الفتاة الشابة . وبرغم انه أولاها ظهره فقد تخيل انها كانت تنظر اليه ، وهذا ما جعل الارتباك يغلب عليه .

ولم يقم بأيما محاولة جديدة للاقتراب من المقعد ؛ لقد وقف عند منتصف المجاز تقريباً ، وجلس هناك – وهو شيء لم يفعله قط من قبل – ملقياً كثيراً من النظرات الجانبية ، ومفكراً في اعماق عقله الاكثر ضبابيةً ان من العسير على اية حال ان تكون الفتاة ذات القبعة البيضاء والثوب الاسود – تلك الفتاة التي أعجب بها – خالية الذهن على نحو كليّ من بنطلونه الصقيل وسترته الجديدة .

وبعد ربع ساعة ، نهض وكأنما يريد ان يستأنف سيره نحو ذلك

---

* Gil Blas de Santillane احدى روايات الكاتب الفرنسي لوساج Lesage (١٦٦٨–١٧٤٧) الشهيرة .

المقعد المطوّق بهالة . بيد أنه ظل واقفاً لا يتحرك . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر شهراً ، قال في ذات نفسه ان هذا السيد المتعوّد ان يجلس هناك مع ابنته كل يوم قد لاحظه ، هو ايضاً ، من غير شك ، ولعله قد وجد في مواظبته شيئاً غريباً .

وللمرة الاولى ايضاً استشعر بعض الأزراء في الاشارة الى هذا الرجل المجهول ، ولو في سريرته ، بذلك اللقب الذي خُلع عليه : مسيو لوبلان .

وظل هكذا بضع دقائق مطرق الرأس ، راسماً بعض الاشكال على التراب ، بواسطة عصا صغيرة كانت في يده .

ثم انه استدار فجأة واعرض بجانبه عن المقعد مبتعداً عن مسيو لوبلان ، وعن ابنته ، وانقلب الى غرفته .

وذلك اليوم نسي ان يتناول عشاءه . وفي الساعة الثامنة مساء ، اكتشف هذه الواقعة . واذ كان أوان الذهاب الى شارع سان جاك قد فات ، فقد قال في ذات نفسه : « لا بأس ! » وأكل قطعة من خبز .

ولم يأوِ الى فراشه الا بعد ان فرشى سترته جيداً وطواها في عناية .

٥
صواعق شتى تنقض على رأس « مام بوغون »

وفي اليوم التالي لاحظت « مام بوغون » * — هكذا سمّى

* اي مدام بوغون ، أو السيدة الكثيرة التذمر والدمدمة .

كورفيراك العجوزَ البوابة الموكول اليها أمر العناية ببيت غوربو العتيق ، وكان اسمهـــا في الحقيقة مدام بورغون كما ذكرنا من قبل ، ولكن كورفيراك الفظيع هذا لم يكن يحترم شيئاً ـ نقول لاحظت «مام بوغون» ، في انشداه ، أن مسيو ماريوس غادر غرفته كرةً اخرى وهو لابسٌ بذلته الجديدة .

لقد مضى كرةً ثانية الى حديقة اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يذهب الى أبعد من مقعده القائم عند منتصف المجاز . وجلس هناك ، كما جلس أمس ، منعماً النظر من بعيد ، لامحاً على نحو واضح القبعةَ البيضاء ، والثوب الاسود ، وبخاصةٍ الضياء الازرق . ولم يتحرك من مجلسه ذاك ، ولم ينقلب الى غرفته الا بعد أن أوصـــدت ابواب اللوكسومبورغ . إنه لم يرَ مسيو لوبلان وابنته ينصرفان . فاستنتج من هنا انهما غادرا الحديقة من الباب المؤدي الى « شارع الغرب » . وبعد بضعة اسابيع ، عندما فكّر في ذلك ، لم يستطع ان يتذكر أين تناول طعام العشاء تلك الليلة .

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك للمرة الثالثة ، صُعقت « مام بوغون » ايضاً . لقد خرج ماريوس وهو لابسٌ بذلته الجديدة . وصاحت :

ـ « ثلاثة ايام على التعاقب ! »

وحاولت أن تلحق به ، ولكن ماريوس مشى برشاقـة وفي خطىً واسعة جداً . كانت اشبه بفرس الماء يحاول أن يطارد شمواةً * . وما هما الا دقيقتان حتى افلت من نظرها ، فارتدّت لاهثةً ، ساخطة ، يكاد الربو أن يخنقها . ودمدمت :

ـ « لستُ ادري ، مـا اذا كان من الحكمة ان يرتدي ملابسه الجديدة كل يوم ويحمل الناس على أن يجروا خلفه على هذه الصورة ! »

كان ماريوس قد ذهب الى حديقة اللوكسومبورغ .

---

* الشمواة chamois ضرب من الغزلان .

وكانت الفتاة الشابة هناك مـــع مسيو لوبلان . واقترب ماريوس ما استطاع الى الاقتراب سبيلا ، وقد بدا وكأنه يقرأ كتاباً ، ولكنه ظلّ بعيداً جداً ؛ ثم إنه رجع وجلس على مقعده حيث انفق اربع ساعات وهو يراقب عصافير الدوري الصغيرة البيضاء الفؤاد فيما هي تثب في المجاز . لقد بدت تلك العصافير وهي تسخر منه .

وانقضى اسبوعان على هذا النحو . ولم يعد ماريوس يقصـــد الى اللوكسومبورغ ابتغاء النزهة ، ولكنْ ليجلس في المكان نفسه دائمـاً ، ومن غير أن يدري لماذا . فما ان يصل الى هناك حتى يمتنع عن الحركة . وكان يرتدي بذلته الجديدة كل صباح ، لكي لا يلفت الانظار ، ثم يستأنف ذلك في اليوم التالي .

كانت على جمال باهر حقاً . والملاحظة الـتي كان في ميـسور المرء ان يبديها ، والتي تشبه النقد ، هي أن ذلك التناقض بين نظرتها ، وهي نظرة محزونة ، وبين بسمتها ، وهي مبتهجة ، أضفى على محيّاهـا مسحةً شاردةً بعض الشيء مما جعل هـذا المحيا العذب يبدو غريباً ، في بعض الاحيان ، ولكنْ من غير ان يفقد شيئاً من فتنته .

٦

في قبضة الاسر

وفي اواخر الاسبوع الثاني ، كان ماريوس جالساً كالعادة على مقعده ، ممسكاً بيده كتاباً لم يقلب صفحة من صفحاته منذ ساعتين . وفجـأة ، سرت في اوصاله رعدة . كان حدث خطير قد وقع في أقصى المجـاز . لقد غادر مسيو لوبلان وابنته مقعدهما ، بعد أن اخذت البنت بذراع

الاب ، ومضيا في أناة نحو منتصف المجاز حيث جلس ماريوس . واغلق ماريوس كتابه ، ثم أعاد فتحه ، ثم حاول ان يقرأ . وارتعد . كانت الهالة تتقدم نحوه مباشرة . وقال في ذات نفسه : « آه يا الـهي ! لن يكون لديّ متسع من الوقت لكي أتخذ موقفاً » . وفي غضون ذلك كان الرجل الأشيب والفتاة الشابة يتقدّمان . لقد بدا له أن هذا سوف يستمرّ قرناً من الزمان وان هـذا لم يكن غير ثانية واحدة . وسأل نفسه : « ما الذي حملها على المجيء الى هنا ؟ كيف ؟ إنها سوف تمرّ من هنا . إن قدميها سوف تطآن هذا التراب ، في هذا المجاز ، على بُعد خطوتين مني ليس غير ! » واضطرب اضطراباً شديـداً ، وتمنى لو كان وسيماً جداً ، ولو كان يحمل صليب جوقة الشرف . لقد سمع وقع خطواتها الرقيقة الموزونة يقترب . لقد تخيّل ان مسيو لوبلان يقذفه بنظرات غضبى . وقال في ذات نفسه : « أيعتزم هـــذا السيد ان يتحدث اليّ ؟ » وحنى رأسه . وحين رفعه كانا على مقربة دانية منه . ومرّت الفتاة الشابة ، ونظرت اليه فيما هي تمرّ . لقد نظرت اليه نظراً موصولاً ، وفي عذوبة متفكرة جعلت ماريوس يرتجف من قمـة رأسه الى اخمص قدميه . لقد بدا له وكأنها تؤنبه لتخلّفه هذه المدة كلها عن المجيء اليها وأنها قالت : « اني انا القادمة . » وظل ماريوس مشدوهاً بهاتين العينين الحافلتين بالاشعة واللجج .

واستشعر وكأن دماغه يغلي على نار . كانت قـــد اقبلت نحوه . يا للسعادة ! وبعدُ ، فما كان أروعَ نظرتها اليه ! لقد بدت أجمل مما بدت في ايما وقت من الاوقات ، وكان جمالها من ذلك الضرب الانثوي الملائكي في آن معـــاً ، والجدير بان يغري بترارك بالغناء ، ودانتي بالركوع . واستشعر وكأنما كان يسبح في سماء عميقة زرقـاء . وفي الوقت نفسه ، غلب عليه استياء مروّع لأن بعض الغبـار كان يعلو حذاءه .

لقد اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها رأت حذاءه ايضاً .

وأتبعَها بصرَه حتى غابت عن النظر ، ثم شرع يمشي في حديقة اللوكسومبورغ مثل رجلٍ معتوه . واغلب الظن أنه أنشأ يضحك في بعض الاحيان ، متوحّداً ، ويتحدث في صوت مرتفع . وكان موزّع الفكر ، أمام جماعة من مربيات الاطفال ، الى درجة جعلت كلاً منهنّ تعتقد أنه متيمٌ بها .

وغادر الحديقة ليبحث عنها في شارع من الشوارع .

والتقى بكورفيراك تحت قناطر الأوديون وقال له : « هيا نتناول العشاء معاً . » ومضيا الى مطعم روسو ، وأنفقا ستة فرنكات . لقد أكل ماريوس مثل غول . وأعطى النادل ستة فلوس . وحين جيء بالحلوى قال لكورفيراك : « هل قرأت الجريدة ؟ أيّ خطاب رائع ألقاه آندري دو بوبرافو ! »

لقد تيّمه العشق .

وبعد العشاء قال لكورفيراك : « سوف ادفع عنك رسم الدخول الى المسرح . » ومضيا الى « بورت سان مارتان » ليريا فريدريك في مسرحية « فندق آدريه » . وسُرّ ماريوس بالرواية سروراً عظيماً .

وفي الوقت نفسه ، أمسى أكثر غرابةً وتوحشاً . فحين غادرا المسرح رفض ان ينظر الى رباط ساق احدى صانعات القبعات النائية وهي تخطو فوق ساقية . وحين قال كوروفيراك : « **لا مانع عندي في أن أضع هذه المرأة في مجموعتي** ! » استبدّ به الذعر او كاد .

ودعاه كورفيراك الى تناول طعام الفطور معه في اليوم التالي في مقهى فولتير . وذهب ماريوس وأكل في شهوة دونها شهوته في الليلة البارحة نفسها . كان مستغرقاً في التفكير ، كثير الابتهاج . ولقد كان في ميسور المرء ان يقول إنه عمد الى تصيُّد جميع المناسبات الممكنة لينفجر بالضحك . لقد عانق في حنانٍ كلّ من قُدّم اليه من ابناء

الريف ، كائناً من كان . وكانت حلقة من الطلاب قد تشكلت حول احدى الموائد ، ودار ثمة حديث عن تُرّهات تنفق عليها الدولة وتجد لها سوقاً رائجة في السوربون ؛ ثم تطرّق الحديث الى الاخطاء والفجوات التي تحفل بها معاجم كويشيرا * وكتبُهُ العروضية . واعترض ماريوس المناقشة صائحاً : « على اية حال ، فأن من المستحبّ ان يفوز المرء بالوسام ! »

فهمس كورفيراك في اذن جان بروفير :

— « هو ذا شيء مضحك ! »

فأجابه جان بروفير :

— « لا . إنه شيء جدّي . . »

وكان ذلك جدياً في الحق . فقد كان ماريوس يجتاز تلك اللحظات العنيفة الفاتنة ، الأولى ، التي تتصدّر ضروب الهيام العظيم .

كانت نظرةٌ واحدة قد فعلت ذلك كله .

فحين يكون اللغم مشحوناً ، ويكون عود الثقاب مستعداً ، فلن تقع على ما هو ايسر واسهل . إن النظرة شرارة .

وقضي الأمر . لقد احب ماريوس امرأةً . كان قدَرُه يتخذ سبيله نحو المجهول .

إن نظرات النساء اشبه شيء ببعض الماكينات الوديعة في ظاهرها ، الرهيبة في حقيقتها . انك تمرّ بها كل يوم مرّاً هادئاً لا ينطوي على ضررٍ ما ، ولا يدعو الى ريبة ما . وتعبر بك لحظةٌ تنسى فيها مجرد وجود تلك الاشياء هناك . إنك لتروح ، وانك لتجيء . انك لتحلم ، وانك لتتكلم ، وانك لتضحك . وفجأةً تحسّ بأنك وقعت في الأسْر ! انتهى كل شيء . لقد امسكت الدواليب بك ، لقد امرتك النظرة .

---

* Quicherat لغويّ فرنسي (١٧٩٩ – ١٨٨٤) وضع معجماً لاتينياً فرنسياً معروفاً ، وكتابين في العروض الفرنسي والعروض اللاتيني .

إستولت عليك – ولا تسلْ أين وكيف – بجزء ما من اجزاء تفكيرك كان يجرّ نفسه متباطئاً ، بذهول كان مستحوذاً عليك . ويُلمّ بك الهلاك . وتُسحبُ الى هناك بكاملك . إن سلسلة من القوى العجيبة لتستحوذ عليك . وتناضل على غير طائل . وليس ثمة سبيلٌ الى نجدة بشرية ما . انك سوف تتدحرج من دولاب الى دولاب ، من ألم نفسي مرير الى ألم نفسي مرير ، من نَكال الى نَكال ؛ أنت ، وعقلك ، وقدَرك ، ومستقبلك ، وروحك . ولن تخرج من بين براثن تلك الآلة الفظيعة إلا بعد أن يشوّهك العار أو يخلقك الحب خلقاً أسمى – تبعاً لشخصية من تقع تحت سلطانه ، وما اذا كان مخلوقاً شريراً او قلبا نبيلاً .

٧
مغامرات الحرف U وقد أُسلم الى الحدس والظن

كانت العزلة ، والانفصال عن كل شيء ، والعُجْب ، والاستقلال ، وحب الطبيعة ، وفقدان النشاط اليومي والماديّ ، والانطواء على النفس ، ونضالات العفة الخفية ، والنشوة الروحية الخيّرة تجاه الكون كله – كانت هذه جميعاً قد أعدّت ماريوس لذلك المسّ الذي ندعوه العشق . كان تقديسه لأبيه قد أمسى ديناً أو يكاد ، وكان قد ارتدّ شأن كل دين الى أعماق القلب . لقد احتاج الى شيء فوق ذلك . وهنا أقبل الحبّ .

وتصرّم شهرٌ كامل قصد ماريوس ، خلاله ، الى حديقة

اللوكسومبورغ كل يوم . فما إن تحين تلك الساعة حتى يعجز كل شيء عن إبقائه بعيداً عن ذلك المكان . وكان كورفيراك يقول : « لقد آن وقت خدمته العسكرية » . وكان ماريوس يحيا في جذل . ومن الثابت أن الفتاة الشابة قد نظرت اليه .

وكان قد أمسى اكثر جراءةً ، فهو يقترب من المقعد اكثر من ذي قبل . بيد أنه لم يمرّ بذلك المقعد بعدُ ، على الاطلاق ، مطيعاً في آنٍ معاً غريزة الخوف وغريزة الفطنة اللتين يتميّز بها العشاق . لقد قدّر ان من الخير له ان لا يلفت « انتباه الأب » . لقد نظّم محطّاته خلف الاشجار وقواعد التماثيل في ميكيافيليّة عميقة بحيث تستطيع الفتاة الشابة ان تراه اكثر ما يكون ، وبحيث يستطيع الرجل العجوز ان يراه اقل ما يكون . وفي بعض الاحيان ، كان يقف جامداً ، طوال نصف ساعة ، خلف تمثالٍ لـ « ليونيداس » * أو لـ « سبارتاكوس » ** أو غيرهما ، وفي يده كتاب كانت عيناه ترتفعان من فوقه على مهل ، وتبحثان عن الفتاة الجميلة ، فيما كانت هي بدوْرها تدير نحوه جانباً من وجهها الفاتن ، في ابتسامة غامضة . وفيما هي تتحدث باكثر ما يكون من الطبّعية والسكينة مع الرجل ذي الشعر الاشيب ، سدّدت الى ماريوس عيناً عذراء مغرمة مستغرقة في الاحلام . وإنه لفنٌ عتيق سابق كلّ تاريخ — فنٌ عرفته حواء منذ اليوم الاول من أيام العالم ، وتعرفه كل امرأة منذ اليوم الأول من حياتها ! كان لسانها يجيب احدهما ، وكانت عينها تجيب الآخر .

ويجب ان نفترض ، مع ذلك ، ان مسيو لوبلان أدرك شيئاً من

---

* Léonidas الأول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل المسيح ، وقد قضى في ميدان المعركة ، مع ثلاثمئة من الاسبارطيين ، وهو يقاوم الجيوش الفارسية.

** Spartacus هو زعيم العبيد الثائرين في وجه القوات الرومانية ، وقد قُتل عام ٧١ بعد أن صمد في وجه الرومان سنتين . وبلغ عدد المنضوين تحت لوائه في وقت من الاوقات سبعين الف رجل .

هذا آخر الامر ، اذ كان ينهض في كثير من الاحيان ويتمشى حالما بجيء ماريوس . كان قد ترك مكانها المألوف ، واتخذ المقعد القائم عند الطرف الآخر من المجاز ، قرب تمثال « المقاتل » وكأنما كان يريد ان يرى أيتبعه ماريوس أم لا . ولم يفهم ماريوس شيئاً من هذا ، وارتكب تلك الغلطة . وأمسى « الاب » اقل محافظة على المواعيد ، ولم يعد يصطحب « ابنته » كل يوم . كان يفد في بعض الاحيان وحده . وفي مثل هذه الحال ، كان ماريوس يسارع الى مغادرة الحديقة . غلطة اخرى .

ولم يحترس ماريوس من هذه الاعراض قط . كان قد انتقل من مرحلة الخوف — وهو تقدُّم طبيعيّ محتوم — الى مرحلة العمى . كان حبه قد نما . لقد امسى يراها كل يوم في ما يرى النائم . والى ذلك ، فقد ألمت به سعادة غير مرتقبة ، فكان هذا اشبه بالزيت صُبّ على النار ، ومن ثم ضُربت على بصره غشاوة مزدوجة . فذات مساء ، عند الغسق ، وجد على المقعد الذي فارقه « مسيو لوبلان وابنته » ، منذ لحظة ، منديلاً — منديلاً بسيطاً غير مطرّز ، ولكنه ابيض ، رقيق ، بدا لماريوس وكأنه يتنفس بأطياب تمتنع عن الوصف . وأمسك به في تهلّل . وكان ذلك المنديل مُعْلَماً بحرفي U. F ؛ ولم يكن ماريوس يعرف شيئاً عن هذه الطفلة الجميلة ، لم يكن يعرف اسرتها ، او اسمها ، او بيتها . كان هذان الحرفان اول شيء عثر عليه ماريوس منها ، وكانا حرفين أوّلين من اسمٍ معبود ، شرع يشيّد فوقهما قصره . كان واضحاً ان اسمها الصغير يبدأ بـ U . وقال في ذات نفسه : « أورسول ، يا له من اسم حلو ! » وقبّل المنديل ، وشم اريجه ، ووضعه فوق قلبه ، وعلى جسده في ساعات النهار ، وكان لا ينام ليلاً الا وقد وضعه على شفتيه .

وصاح :

— « إني أستشعر روحها كلها فيه ! »

وكان ذلك المنديل للرجل العجوز الذي تركه يسقط ، بكل بساطة ، من جيبه .

وفي الايام التي عقبت عثوره على هذه اللقية لم يظهر في اللوكسومبورغ قط إلا مقبّلاً هذا المنديل ، واضعاً اياه على فؤاده . ولم تفهم الطفلة الجميلة شيئاً من هذا ، وأعلمته بذلك بايماءات لم يرها .

وقال ماريوس :

— « يا للحياء ! »

٨

حتى مشوهو الحرب يمكن ان يكونوا محظوظين

وما دمنا قد لفظنا كلمة « حياء » ، وما دمنا لا نخفي شيئاً ، فيتعيّن علينا أن نقول إن « أورسول » تلك ، قد انزلت به ذات يوم — من خلال نشوته الروحية كلها — اذىً خطيراً . وكان ذلك يوم حملت مسيو لوبلان على مغادرة المقعد والقيام بنزهة في مجاز الحديقة . وهبّت ريح شمالية عنيفة رنّحت أعالي شجرات الدلب . وكان الاب وابنته قد اجتازا ، منذ لحظة ، بمقعد ماريوس . فما كان منه إلا أن نهض خلفهما ، وأتبعهما بصره ، وهو امر طبيعي في مثل هذه الحال من الوله والهيام .

وفجأةً هبّت من جانب المغرس ريحٌ اشدّ بأساً من سابقاتها — ولعلها كانت مكلفةً القيامَ بمهامّ الربيع الصغرى — واندفعت نحو المجاز فطوّقت الفتاة الشابة بارتعاشة فاتنة جديرة بعرائس الماء عند

فرجيل ، وآلهات الاحراج عند تيوقريط * ، ورفعت تنّورتها ، تلك التنورة المقدّسة اكثر من تنورة إيزيس ، الى مستوى رباط الساق تقريباً . لقد كشفت تلك الريح عن ساقٍ ذات قالب رائع . ولقد رأى ماريوس تلك الساق ، فاستبدّ به الحنق والسخط .

وكانت الفتاة الشابة قد سارعت الى خَفْض التنورة في حركة مجفلة على نحو رائع ، ولكن ذلك لم يخفّف من سخطه البتة . لقد كان وحده في ذلك المجاز ، هذا صحيح . ولكنْ كان من الجائز ان يكون هناك شخصٌ ما . ولو قد كان شخص ما هناك ! أيستطيع المرء ان يفهم شيئاً مثل هذا ؟ إنه لفظيعٌ هـــذا الذي اقدمت عليه ! واأسفاه ! إن الطفلة المسكينة تفعل شيئاً . فلم يكن ثمة غير مذنب واحد : الريح . ومع ذلك ، فإن ماريوس – الذي ارتجف في ذات نفسه ، على نحو مبهم ، بارتولو ** ذاك الذي يمكن أن ينطوي عليه ملاكٌ من الملائكة الكروبيّين – كان مصمماً على أن يكون ساخطـــاً ، وكان غيوراً من خياله . ذلك بأنه على هذه الصورة تستيقظ غيرة الجسد المريرة والعجيبة ، في القلب البشريّ وتفرض نفسها على الانسان ، ولو من غير حقّ . والى هذا ، وبصرف النظر عن هذه الغيرة ، فانه لم يجد شيئاً مستحباً في مشهد تلك الساق الجميلة ؛ كان الجورب الابيض الذي تلبسه أيما امرأة اخرى خليقاً بأن يوقع في فؤاده سروراً أعظم .

وحين رجعت « أورسول » – هي ومسيو لوبلان ، بعد أن بلغت أقصى المجاز – ومرّت بالمقعد الذي عاود ماريوس الجلوس عليه ،

---

* Théocrite شاعر إغريقي (ولد حوالى ٣١٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد) وكان يمتاز بشدة حساسيته ، وبعد خياله ، وقوة ملاحظته الواقعية . ويعتبر مخترع الشعر الذي يصف حياة الرعاة .

** Bartholo احدى شخصيات « حلاق اشبيلية » لبومارشيه ، وهو لا يزال الى اليوم نموذجاً للوصيّ الغيور الكثير الشكوك .

رمقها ماريوس بنظرة فظة ضـــارية . وتصدّرت الفتاة الشابة ، بعض الشيء ، ورفعت اجفانها على ذلك النحو الذي يقول : « حسن ، ما الذي أصابه ؟ »

كان ذلك هو « خصامهما الأول » .

ولم يكد ماريوس ينتهي من ذلك التوبيخ الذي وجّهه اليها بعينيه حتى عبرَ المجاز شخص ما . وكان ذلك الشخص مشوّهاً من مشوهي الحرب ، محدودب الظهر احديداباً كاملاً ، مغضّن البشرة شديد الشحوب الى حد بعيد . وكان يرتدي بذلة عسكرية من طراز لويس الخامس عشر ، ويضع على صدره تلك الرقعة البيضية المصنوعة من جوخ احمر والمرسوم عليها سيفان متقاطعان ، وسام القديس لويس الخاص بالجند . وكان ذلك المشوّه يزدان ايضاً بِرُدْن سترةٍ ليس في داخلها ذراع ، وبذقن فضية ، وساق خشبية . وحسب ماريوس أنه رأى سيما من الارتيـاح البالغ تطفو على وجه ذلك المخلوق . بل لقد بدا له ان ذلك العجوز الوقح وجّه اليه فيما هو يعرج على مقربة منه عرجـــاً خفيفاً ، غمزةً أخويةً جداً ، مبتهجةً جداً ، وكأنهما تواطآ بمصادفة ما ، على أمر ، واستمتعا معاً بسعادة غير مرتقبة . أيّ شيء رآه فضلة « مارس » * هذا حتى يغلب عليه السرور ؟ ما الذي جرى بين هذه الساق الخشبية وبين تلك الساق ؟ لقد عصفت بماريوس عاصفة من الغيرة . وقال في ذات نفسه : « لعله كان على مقربة منها ! لعله قد رآها ! » وتمنى لو يستطيع أن يُبيد ذلك المشوّه .

وبمعونة الزمن ، يتثلّم كل حدّ قاطع . وهكذا فان غضب ماريوس على أورسول ، مهما يكن عادلاً ومشروعاً ، لم يلبث ان زال . وغفر لها آخر الأمر ، ولكنّ ذلك اقتضاه جهداً كبيراً . لقد أظهر لها استياءه ثلاثة أيام .

---

* الـه الحرب . وهو يقصد بـ « فضلة مارس » مشوّه الحرب ذاك .

وفي غضون ذلك ، وبرغم هذا كله ، بل بسبب من هذا كله ، كان هيامه يتعاظم ، ويغدو جنوناً .

٩
خسوف

لقد رأينا كيف اكتشف ماريوس ، او اعتقد انه اكتشف ، ان اسمها كان أورسول .

ان الجوع يمشي مع الحب جنباً الى جنب . لقد كانت معرفته لاسمها شيئاً ذا شأن ، ولكنها لم تكن كافية . ففي مدى ثلاثة اسابيع او اربعة اسابيع ، التهم ماريوس هذه السعادة . ومن ثمّ كان في حاجة الى سعادة اخرى . لقد اراد ان يعرف أين تسكن .

كان قد ارتكب خطيئة الوقوع في شرك المقعد المجاور لتمثال « المقاتل » . وكان قد ارتكب خطأ آخر عندما احجم عن البقاء في حديقة اللوكسومبورغ كلما أقبل مسيو لوبلان وحده اليها . ولقد ارتكب الآن خطأ ثالثاً ، خطأ هائلا : لقد سار على آثار أورسول .

كانت تسكن في « شارع الغرب » ، بل في جزئه الأشدّ انعزالاً ، في منزل جديد متواضع المظهر مؤلف من ثلاثة ادوار .

ومن ذلك الحين اضاف ماريوس الى سعادته برؤيتها في حديقة اللوكسومبورغ سعادة السير خلفها حتى منزلها .

وتعاظم جوعه . لقد عرف اسمها ، اسمها الاول على الاقل ، ذلك الاسم الفاتن ، ذلك الاسم الانثوي الحقيقي . ولقد عرف اين تسكن . فهو يريد الآن ان يعرف من هي .

وذات ليلة ، بعد ان تبعها حتى المنزل ، ورآهما يتواريان خلف باب

العربات ، دخل على آثارهما وسأل البواب في شجاعة :

– « ايكون هذا السيد الذي دخل اللحظة هو سيد الدور الأول ؟ »

فأجابه البواب :

– « لا . إنه سيد الدور الثالث . »

وكانت تلك خطوةً اخرى مشاها في طريق المعرفة . وضاعف هذا النجاح جرأة ماريوس .

وسأل البواب :

– « من الجهة الامامية ؟ »

فأجابه :

– « يا للسماء ! إن البيت ليس مبنياً إلا على الشارع . »

– « ومن هو هذا السيد ؟ »

– « إنه صاحبُ دخْل . رجل طيب جداً كثير الاحسان الى الفقراء على الرغم من انه ليس غنياً . »

فأردف ماريوس :

– « وما اسمه ؟ »

فرفع البواب رأسه ، وقال :

– « أيكون سيدي رجلاً من رجال المباحث ؟ »

وانصرف ماريوس ، وقد غلب عليه الخجل ، ولكنه ما يزال في نشوة عارمة . وتقدّم ، وهو يقول في ما بينه وبين نفسه :

– « حسن . انا اعرف أن اسمها اورسول ، وانها ابنة رجل ذي دخل ، وانها تسكن هناك ، في شارع الغرب ، وفي الدور الثالث . »

وفي اليوم التالي لم يقضِ مسيو لوبلان وابنته في حديقة اللوكسومبورغ غير برهة قصيرة . لقد انصرفا في وضح النهار . وتبعهما ماريوس الى « شارع الغرب » جرياً على عادته . حتى اذا انتهيا الى باب العربات ، ادخل مسيو لوبلان ابنته امامه ، ثم توقف قبل ان يجتاز العتبة ، واستدار وحدق

الى ماريوس تحديقاً موصولاً

وفي اليوم الذي تلا ، لم يـذهب الى حديقة اللوكسومبورغ . لقـد انتظره ماريوس هناك طوال النهار ، ولكن من غير طائل .

حتى اذا هبط الليل شخص الى شارع الغرب ، فرأى نوراً ينبعث من نوافذ الدور الثالث . وتمشّى تحت هذه النوافذ حتى أطفىء النور .

وفي اليوم التالي لم يجيء احد الى اللوكسومبورغ.لقد انتظر ماريوس طوال النهار ، ثم مضى ليقوم بواجبه الليلي تحت النوافذ . ولقد شغله ذلك حتى الساعة العـاشرة مساء . ولم يتناول طعام العشاء . إن الحمى تُقيت المحموم ، وكذلك يقيت الحبُ المحبّ .

وسلخ اسبوعاً على هذا النحو . ولم يعاود مسيو لوبلان وابنتـه الظهور في حديقة اللوكسومبورغ . وراودت ماريوس ظنون كئيبة . ولم يجرؤ على مراقبة باب العربات في اثناء النهار . فاجتزأ بالذهاب ليلاً ليتأمل ضوء زجاج النوافذ الضارب الى الحمرة . وبين الفينة والفينة ، كان يرى ظلالاً تروح وتجيء ، فيخفق فؤاده خفقاناً شديداً .

وفي اليوم الثامن لم يجد ، حين وصل الى المنزل ، ايما ضوء منبعث من النوافذ . وقال :

— « ماذا ؟ المصباح لمّا يُشعلْ بعد . ومع ذلك فالدنيا ليـل ، أم انهما قد خرجا الى مكان ما ؟ »

وانتظر . انتظر حتى الساعة العاشرة . حتى منتصف الليـل . حتى الواحدة صباحاً . ولكن ضوءاً ما ، لم ينبعث من نوافذ الدور الثالث . ولكن شخصاً ما ، لم يدخل الى المنزل . وانصرف متجهّماً كاسف البال .

وفي غدٍ — إذ انتهى الى ان يعيش من غد الى غد ؛ فلم يعد ثمة لديه اذا جاز التعبير ، شيء اسمه « اليومَ » — لم يجـد احداً في حـديقة اللوكسومبورغ . وانتظر . حتى اذا هبط الليـل مضى الى المـنزل . لم يكن ثمة نور منبعث من النوافذ ، وكانت المصاريـع الخارجية موصدة .

كان الدور الثالث مظلماً بالكلية .

وقرع ماريوس باب العربات ، ودخل وقال للبواب :

– « السيد النازل في الدور الثالث ؟ »

فأجابه البواب :

– « لقد انتقل . »

وترنح ماريوس ، وقال في وهن :

– « متى ؟ »

– « أمس . »

– « اين يسكن الآن ؟ »

– « لست ادري شيئاً من ذلك . »

– « اذن ، فهو لم يترك عنوانه الجديد ؟ »

– « لا . »

ورفع البواب أنفه ، فعرف ماريوس .

وقال :

– « ماذا ؟ هذا انت ! ولكنك من غير شك مفوض شرطة اذن ! »

الكتاب السابع

المعلم مينيت

١

الالغام واللاغمون

إن للمجتمعات الانسانية كلها ما ندعوه في المسارح « الدور التحتيّ الثالث » . والتربة الاجتماعية مزروعة بالالغام في كل مكان ، ابتغـــاء الخير حيناً ، وابتغاء الشر حيناً . وهذه الالغام طبقاتٌ بعضُهـــا فوق بعض . فهناك الالغام العليا ، والالغام السفلى . وهناك قمـة وقعر في هذه الطبقة تحت الارضية ، المظلمة ، التي تَنْلفُ تحت المدنيـــة ، والتي تطأها لامبالاتنا وإهمالنا بأقدامها . فالانسيكلوبيديا ، في القرن الماضي ، كانت لغماً مزروعاً على سطح الارض ، أو يـكاد . والكهوف المظلمة ،

تلك الحاضنات الكالحات الوجوه التي حمت النصرانية البدائية ، كانت تنتظر اول فرصة لكي تنفجر تحت القياصرة ، وتُغرق الجنس البشري بالضياء . ذلك بأن في هذه الدياجير المقدسة نوراً كامناً . فالبراكين ملأى بظلمة قادرة على السطوع والالتماع . وجميع الحمم تبدأ في التكون ليلًا . إن الداميس * ، التي تُلي فيها القداس الأول ، لم تكن غارَ رومة فحسب ، بل كانت كهف العالم .

إن تحت البِنية الاجتماعية – هذه الآية المعقّدة يتكشف عنها بيت عتيق – لحفَراً من كل نوع . فهناك اللغم الديني ، وهناك اللغم الفلسفي ، وهناك اللغم السياسي ، وهناك اللغم الاقتصادي ، وهناك اللغم الثوري. فهذا مِعولٌ مع فكرة ، وذاك معولٌ مع رقم ، وذلك معول مع انتقام . إنها تتداعى وتتجاوب من كهف الى كهف . وإن المدن الفاضلة تتقدم وئيداً ، تحت الارض ، في تلك المسالك . إنها تتشعب في كل اتجاه . وهي تلتقي هناك في بعض الاحيان وتتآخى . فجان جاك يعير ديوجين معوله ، وديوجين يعير جان جاك مصباحه . وهي تتقاتل في بعض الاحيان . فكالفين * يأخذ بشعر سوسينيوس ** . ولكن شيئاً لا يوقف او يعترض سعيَ هذه الطاقات كلها نحو غايتها ، والنشاطَ الضخم المصاحب الذي يروح ويجيء ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود في هذه الارجاء المظلمة ، والذي يسمو بالاعلى بواسطة الادنى ، والخارجي بواسطة الباطني . تجمهرٌ هائل مجهول . والمجتمع لا يكاد يرتاب بعملية

---

* الداميس ، جمع دَيماس ، وهي الكهوف التي كان قدماء المسيحيين يختلفون اليها للتعبد سراً ، ولدفن موتاهم .

* Calvin المصلح البروتستانتي المشهور الذي نادى بفكرته الاصلاحية في فرنسة وسويسرة ، والذي انشأ جمهورية بروتستانتية في جنيف (١٥٠٩ – ١٥٦٤)

* Socin بروتستانتي ايطالي اسس مذهباً خاصاً نُسب اليه فعرف بالمذهب السوسينيوسي (١٥٢٥ – ١٥٦٢)

النسف هذه التي تغيّر جوهره من غير ان تمس سطحه . أدوار دهليزية كثيرة جداً ، واعمال متفاوتة كثيرة جداً ، وحفر شتى كثيرة جداً .
فما الذي ينبثق من هذه التجاويف العميقة كلها ؟ المستقبل .

وكلما امعنّا في الغوص وجدنا القائمين بالعمل هناك اكثر خفاء وغموضاً.
فحتى درجةٍ تستطيع الفلسفة الاجتماعية ان تعترف بها ، يكون العمل صالحاً.
فاذا تعدّى تلك الدرجة أمسى مريباً مشوباً . اما بعد ذلك فيغـدو فظيعاً . وعند عمقٍ بعينه تصبح الحُفر كتوماً لا تنفـذ اليها روح الحضارة ، ويتخطّى مجال الانسان التنفّسي . عندئذ يصبح وجود الغُول ممكناً .

والسلّم الهابطة غريبة حقاً . إن كلّا من درجاتها توافق مَوْطئاً تستطيع الفلسفة أن تضع قدمها عليه ، موطئاً نعثر فيه على احد هؤلاء العمال ، الالـهيين حيناً ، البشعين حيناً آخر . فتحتَ جان هُسّ *
نجد لوثر ؛ وتحت لوثر نجـد ديكارت ؛ وتحت ديكارت نجد فولتير ؛
وتحت فولتير ؛ نجد كوندورسيه ؛ وتحت كوندورسيه نجد روبسبير ؛
وتحت روبسبير نجد مارا ؛ وتحت مارا نجـد بابوف ** . وهكذا دواليك . فاذا غصْنا الى أبعد من ذلك ، وسط الاختلاط والتشوّش ، وبلغنا الحدّ الفاصل ما بين غير الواضح وغير المنظور ، لمحنا في الظلمة رجالاً آخرين ، لعله لم يبقَ لهم اليومَ وجود . إن رجـال الأمس أشباح . وإن رجال الغد يرقانات . إن عملَ المستقبلِ الجنينيّ إحدى رؤى الفيلسوف .

عالَمٌ جنينيّ في السُّدُم . أية صورة مظلّلة رائعة !

---

* Hus مصلح ديني تشيكي حكم عليه بالموت حرقاً (١٣٦٩ – ١٤١٥)

** Babeuf ثوري فرنسي (١٧٦٠ – ١٧٩٧) تآمر ضد حكومة الادارة ، وانتحر طاعناً نفسه بالخنجر قبل أن يصعد الى المشنقة . ويعرف مذهبه ، الذي كان ضرباً من الشيوعية ، بالبابوفية . *Babouvisme*

وسان سيمون ، وأووين ، وفوريبـــه هم هناك ايضاً ، في حُفَر جانبية .

وعلى الرغم من أن سلسلة التّهية غـــير منظورة تربط هؤلاء الرواد الدهليزيين الذين يعتقدون دائمـاً تقريباً انهم منعزلون ومـــع هذا فهم ليسوا كذلك ، فان ألوان نشاطهم تختلف جداً ، وان ضياء بعضهم ليتغاير مع لهيب بعضهم الاخر . بعضهم فردوسيون ، وبعضهم مأساتيون . ومع ذلك ، وأياً ما كان التغاير الذي بينهم ، فأن قاسماً مشتركاً يجمع ما بين هؤلاء العاملين جميعاً ، من أسماهم الى أقتمهم ، ومن اكثرهم حكمة الى اشدهم حماقةً ، وهو النزاهة . ان مارا ، مثل يسوع ، لينسى نفسه . انهما يطّرحان نفسيهما جانباً ؛ إنهما يُغفلان نفسيها ؛ انهما لا يفكران بنفسيهما البتة . انها يريان شيئاً آخر غير نفسيهما . ان في اعينهما نوراً ، وهذا النور يبحث ابداً عن المطلق . اما الأول فالسماء كلها منطوية في عينيه . وأما الآخر فيبدو تحت حاجبيه ، برغم لُغـزيّته كلها ، ضياء اللانهاية الشاحب . فلنقدّس كل من يحمل هذه العلامة ، « الحدقة النجم » ، كائناً من كان .

إن « الحدقة الظلمة » هي العلامة الاخرى .

بها يبدأ الشرّ . وأمام من لا نور في عينه يتعين عليك ان تفكر وترتجف . إنّ للنظام الاجتماعي لاغميه السود .

هناك نقطة ينتهي زرع الالغام فيها الى ان يصبح دفناً ، وينطفىء عندها الضياء .

وتحت جميـع هذه الالغام التي اشرنا اليها ، تحت جميـع هذه الدهاليز ، تحت مجموعة العروق الهائلة المحجوبة ، عروق التقدم والمدينة الفاضلة ، وعند نقطة أعمق في باطن الارض ، في موقع ادنى من موقع مارا ، وادنى من موقع بابوف ، اجل ادنى ، أدنى بكثير ، ومن غير ان تكون بينها وبين الدهاليز العليـــا صلة ما ، تقـــع الحفرة الاخـــيرة . مكانٌ رهيب . ذلك ما دعوناه « الدور التحتيّ الثالث » . إنه قبر الظلمات .

إنه كهف العميان . *Inferi* *

وهو متصل بالهُوَى . **

٢
الدرك الأسفل

هناك تتلاشى النزاهة . إن الشيطان ليرتسم على نحوٍ غامض ؛ وكل يعمل من أجل ذاته . إن « أنا » العمياء تعوي ، وتبحث ، وتتحسّس طريقها في الظلام ، وتقرض . إن « اوغولينو » *** الاجتماعي لفي هذه الهوة .

إن الصُوَر الشرسة المظللة التي تطوّف في هذا القبر ، شبيهةٌ بالبهائم شبيهةٌ بالأطياف ، لا تُعنى بالتقدّم الكليّ . إنها تُنكر الفكرة والكلمة ؛ وليس لها من همٍّ غير إرواء غليلها الفرديّ . إنها تكاد أن تكون لاواعية ، وإن فيها لضرباً من الاندثار الرهيب . إن لها أمَّين ، كلتاهما امرأة أب ، الجهل والبؤس . وإن لها هادياً هو الحاجة . والشكل الأوحد الذي تعرفه ، من اشكال الارتياح ، هو الشهوة الى الطعام . إنها نهمةٌ على نحو بهيميّ ، يعني أنها ضارية ، لا على طريقة الطاغية ولكن على طريقة النَّمِر . ومن المحنة تنتقل هذه اليرقانات الى الجريمة . بُنوّة محتومة . تناسلٌ يوقع الدُّوار في الرأس ، منطق الظلام . إن ذلك الذي يدبّ في « الدور التحتيّ الثالث » هذا ، لم يعُد البحث

* باللاتينية ، وتعني جهنم او الجحيم .

** الهوى : جمع هوّة .

*** Ugolin Della Cherardesca طاغية بيزا الرهيب وقد حبسه اعداؤه في احد الابراج ليموت جوعاً (القرن الثالث عشر للميلاد) .

المكظوم عن المطلق ؛ إنـه احتجاج المادة . إن الانسان هناك ليصبح تنيناً . والجـوع والظمأ هما نقطة الانطلاق . والشيطان هو نقطة الوصول . من هذا الكهف ينبثق لاسينير * .

لقد رأينا في الكتاب الرابع ، منذ لحظة ، احـدى طبقات اللغم الاعلى : اللغم السياسي ، الثوريّ ، الفلسفي الكبير . هناك ، كما قلنا ، كل شيء نبيل ، طاهر ، جليل ، فاضل . صحيح أن المرء ، هناك ، قد يُخدع ، وانه ليُخدَع ، ولكن الخطأ هناك مدعاة للاحترام لما ينطوي عليه من بطولة بالغة . وليس لجمّاع العمل الذي يتم هناك غـير اسم واحد ، هو التقدم .

ولقد آن لنا ان نلقي نظرةً على أعماق أخرى ، أعماق الرعب .

ان تحت المجتمع — ونحن نصرّ على ذلك ، كهفاً ضخماً هو كهف الشرّ ، ولسوف يظلّ هذا الكهف قائماً تحت المجتمع الى يوم يزول الجهل .

وانما يقع هذا الكهف تحت ذلك كله ، وانه لعدوّ لذلك كله . انه البغض الذي لا يقيّده استثناء . وهذا الكهف لا يعرف فلاسفةً البتة . ان مديته لم تبرِ يراعةً ما ، في يوم مـن الأيام . فليس لسواده ايما صلة بسواد المحبرة السَّنيّ . ان اصابع الليل المتشنجة تحت هذا السقف الخانق لم يُقدّر لها ان قلّبت صفحات كتاب ، او بسطت جريدة قط . ان بابوف محتال في نظر كارتوش ، وان مارا اريستوقراطي في نظر شيندرهان . ان لذلك الكهف هدفاً ، هو انهيار كل شيء .

اجل كل شيء . حتى الألغام العليا التي يُبغضها . إنه لا ينسف ، في دبيبه المخيف ، نظام العصر الاجتماعيّ فحسب ، بل إنه ينسف الفلسفة ، إنه ينسف العلم ، إنه ينسف القانون ، انـه ينسف الفكر الانساني ، انه ينسف الحضارة ، انه ينسف الثورة ، انـه ينسف التقـدم

* Lacenaire مجرم سفاح أعدم في باريس (١٨٠٠ — ١٨٣٦)

ايضاً . وهو يسمّى ، بكل بساطة ، اللصوصية ، والبغاء ، والقتل ، والاغتيال . انه مظلم ، وهو يحبّ الفوضى . ان قنطرته مصنوعة من الجهل .

والطبقات الأخرى التي تعلوه ليس لها كلها غير غرض واحد : أن تقضي عليه . ومن اجل هذا الغرض تعمل الفلسفة والتقدم بوسائلها جميعاً في آنٍ معاً ، باصلاح الواقع وإنعام النظر الى المطلق على حدّ سواء . دمّروا الكهف المسمّى الجهل ، تقتلوا الخُلد المسمى الجريمة .

وسوف نكتشف في بضع كلمات جزءاً مما قلناه اللحظة . ان الخطر الاجتماعي الأوحد هو الظلام .

الانسانية هي وحدة الذات . فالناس كلهم مجبولون من طين واحد . لا فرق ، هنا في هذا العالم على الاقل ، في القضاء والقدر . الظلمة نفسُها قبل الحياة ، والجسد نفسُه في اثنائها ، والرفات نفسه بعدها . ولكن الجهل ، ممتزجاً بالجبلّة الانسانية ، يسوّدها . وهذا السواد الذي لا بُرء منه يستحوذ على قلب الانسان ، ويتحوّل هناك الى الشرّ .

٣
بابيه ، غولوميه ، كلاكسو ، ومونبارناس

كان رباعيّ من قطاع الطرق — كلاكسو ، غولوميه ، بابيه ، ومونبارناس — يهيمن على دوْر باريس التحتيّ الثالث من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ .

كان غولوميه جباراً مُبعداً عن ميدانه الطبيعيّ . وكان جُحْرُه بالوعة « آرش ماريون » . كان طوله يبلغ ستة اقدام ، وكان ذا صدر رخاميّ ، وعضلات نحاسية ، ورئتين كهفيّتين ، وجذع تمثال فائق

الضخامة ، وجمجمة عصفور . ويخيّل اليك اذ تراه انك ترى الى فارنيز *
الجبار لابساً بنطلوناً من نسيج كتاني مشدود ، وصدرةً من مخمل
قطنيّ . وكان في استطاعة غولوميه ، وقد انشيء على هذا النحو
النقشيّ ، أن يقهر الهول ، ولكنه وجد أنّ من الأيسر عليه أن
يصبح هو واحداً منهم . جبين منخفض ، وصدغان عريضان ، وسنّ
دون الاربعين ، وقدم اوزّة ، وشعر قصير خشن ، وخدّ شائك ،
ولحية خنزيرية برية ، ومن خلال هذا كنت ترى الرجل . كانت
عضلاته تلتمس العمل ، ولكن حماقته لم تكن راغبة في شيء من ذلك .
كان قوةً هائلة كسولاً . كان سفّاحاً بالتثاقل والتواني . ولقد كان
الناس يحسبونه من مواليد المستعمرات . واغلب الظن انه كان في بُرديه
شيء من المارشال برون ** ، اذ كان بواباً في آفينيون عام ١٨١٥ .
ومنذ تلك الفترة امسى قاطع طريق .

وكانت شفافية « بابيه » تتغاير تغايراً واضحاً مع لحانية غولوميه .
كان بابيه نحيلاً حاذقاً . وكان شفافاً . ولكنه مُغلق لا ينفذ المرء الى
سريرته . كان في ميسورك ان ترى النور من خلال عظامه ، ولكن لم
يكن في ميسورك ان ترى شيئاً من خلال عينيه . كان يدّعي انه
كيميائي . ولقد عمل مشعوذاً عند بوبيش ، ومهرجاً عند بوبينو . وكان
قد مثل بعض ادوار الفودفيل في سان ميهيل . كان رجلاً متكلفاً ،
ومحدّثاً بارعاً ، يضع خطاً تحت ابتساماته ويقيّد ايماءاته بمزدوجين .
كانت تجارته بيع رسوم « رئيس الدولة » وتماثيله النصفية المصنوعة من
الجبس ، في الشوارع . وفوق هذا ، فقد مارس خلع الاضراس . كان

---

* Farnèse رجل حرب وسياسة (١٥٤٥ – ١٥٩٢) ولد في رومة وتولى الحكم في « الاراضي المنخفضة » ، وقد وجّهه فيليب الثاني الى فرنسة لنجدة الكاثوليك .

** Brune مارشال فرنسة (١٧٦٣ – ١٨١٥) وقد لمع نجمه خلال حملتي هولندة وايطالية ، ولقي حتفه في افينيون خلال الارهاب الابيض (١٨١٥) .

قد عرض بعض الغـــرائب في الاسواق الموسمية ، وكان له دكان خشبيّ ذو بوق وهذه اللافتة : « بابيه ، فنّان في طب الاسنان ، عضو في المجامع العلمية ، يجري تجارب فيزيائية على المعادن واشباه المعـادن ، يقتلع الاسنان ، ويستأصل جذورها المكسورة التي خلـّفها اطباء الاسنان الآخرون . التعرفة : سنّ واحدة ، فرنك وخمسون سنتيماً . سنّان ، فرنكان . ثلاث اسنان ، فرنكان وخمسون سنتيماً . اغتنموا الفرصة » (وكانت عبارته « اغتنموا الفرصة » هذه تعني اقلعوا اكبر عدد ممكن من اسنانكم .) وكان قد تزوج ، وكان قد انجب اولاداً . اما ما حلّ بزوجته واولاده فذلك شيء لم يكن يدريه . لقـد اضاعهم كما يُضيع المرء منديله . وكان بابيه يقرأ الصحف ، وهي ظاهرة فريدة في العالم المظلم الذي ينتمي اليه . وذات يوم ، حين كانت اسرته معه في دكانه النقـّال ، قرأ في جريدة « الرسول » ان امرأة وضعت طفلاً تبدو عليه قابلية الحياة ذا وجه كوجه العجل ، فصاح : « **هذا حظ عظيم ! إن زوجتي ليس عندها من الذوق ما يحملها على ان تلد لي طفلاً كهذا .** »

ومن ذالك الحين ترك كل شيء لكي « يهيمن عـــلى باريس » ، كما عبّر هو نفسه .

ايّ شيء كان كلاكسو ؟ كان الليلَ . فقبل ان يبرز للناس كان ينتظر حتى تتّسخ السماء بالسواد . وعند المساء ، كان يخرج من جُحْره ليعاود دخوله قبل ان يرتفع الضحى . اين كان ذلك الجحر ؟ ان احداً لم يعرف ذلك . وفي الظلمة الأشدّ حلكة ، لم يكن يخاطب شركاءه في الجريمة الا مولـّياً اياهم ظهره . أكان اسمه كلاكسو ؟ لا . كان يقول : اسمي « لا شيء على الاطلاق » . وكان اذا مـا جيء بشمعة لبس قناعاً . وكان يتكلم وكأن صوته يخرج مـــن بطنه . ولقـــد قال بابيه : « **كلاكسو طائر ليليّ ذو صوتين .** » كان كلاكسو قلقاً ، تائهاً ، فظيعاً . وليس من الراهن أنه كان له اسم ، فكلاكسو ليس

غير لقب . وليس من الراهن أنه كان له صوت ، اذ كان بطنـــه هو الذي يتكلم في أغلب الاحيان لا فمه . وليس من الراهن انه كان له وجه ، اذ لم يقدّر لأحد ان يرى شيئاً قط غير قناعه . كان يختفي وكأنه قد تلاشى . وكان ظهوره انبثاقاً من الارض .

أما مونبارناس فكان مخلوقاً فاجعاً . كان مونبارناس طفلاً ، فهو لمّا يبلغ العشرين بعد ، وكان وسيماً ذا شفتين اشبه شيء بحبـــتي الكرز ، وغدائر فاتنة سوداء ، يلتمع في عينيه ضياء الربيع . لقد جمع الرذائل كلها ، وطمح الى الجرائم كلها . فقد كان هضم الرديء يحرك شهوتـه الى ما هو اردأ . كان هو المتشرد متحوّلاً الى زقاقيّ داعر ، ولقـــد أمسى الزقاقي سفّاحاً . كان لطيفاً ، مخنثاً ، أنيقاً ، قوياً ، رخصاً ، ضارياً . وكان يعتمر بقبعته مائلةً الى اليسار لـكي يفسح المجـــال لخصلة الشعر وفقاً لزيّ عام ١٨٢٩ . لقد عاش باللصوصية . وكانت سترتـــه مفصّلة على أجمل موضة ، ولكنها رثة متقطعة الخيوط . والحق ان مونبارناس كان رجلاً مثالي الاناقة يحيا في بؤس ، ويرتكب جرائم القتل. وكان السبب الذي من اجله ارتكب هذا المراهق تلك الجرائم كلها رغبته في ان يكون حسن البزة . كانت اول عاملة مغناجة قالت له : « أنت جميل » قد ألقت أدران الظلمة في فؤاده ، وجعلت من « هابيل » هذا « قايينا » * آخر . واذ خيل اليه أنه جميل المحيّا ، فقد أراد ان يكون أنيقاً . واوّل الاناقة البطالة ، وبطالة الفقير هي الجريمـة . ان قليلاً من المطوّفين في الليل التماساً للفريسة كانوا مرهوبي الجانب مثـــل مونبارناس . كان قد خلّف وراءه ، وهو بعد في الثامنة عشرة ، عدداً وافراً من الجثث . وكان اكثر من عابر سبيل واحد يرقد ، في ظلمة هذا البائس ، مبسوط الذراعين ، غارقاً وجهه في بركة من الدم . فتىً

* واضح ان التنوين هنا هو تنوين التنكير ، والمقصود رجلاً قاتلاً مثل قايين الوارد ذكره في الكتب المقدسة .

جعد الشعر ، مطيّب براهم الرأس الخاصة ، ذو جذع كجذع ضابط بروسيّ ، تحيط به وشوشات الاعجاب الصادرة عن فتيات الجادة ، وقد عقد رباط عنقه في دراية بالغة ، ووضع في جيبه عصا قصيرة رصاصية الطرف ، وعلّق في عروته زهرة — كذلك كان فتى القبور ذاك ، المعجب بنفسه .

٤
تكوُّن الشرذمة

وشكّل قطاع الطرق الاربعة هؤلاء شبه « بروتيه » * فهم يلفّون من حول الشرطة ، ويحاولون اجتناب نظرات « فيدوك » ** الفضولية تحت اشكال مختلفة : « شجرة » او شعلة ، او ينبوع » ، ويستعير بعضهم اسماء بعض وحيلهم ، متوارين في ظلالهم ، ويجعل كل منهم نفسه مخبأ وملجأ للآخرين ، مطّرحين شخصياتهم كما ينزع المرء انفه الزائف في حفلة رقص مقنعة ، مبسّطين أنفسهم في بعض الاحيان حتى ليصبحوا شخصاً واحداً ليس غير ، مضاعفين انفسهم في بعضها الآخر حتى ليحسبهم « كوكو لاكور » نفسه حشداً غفيراً .

وهؤلاء الرجال الاربعة لم يكونوا رجالاً أربعة . كانوا ضرباً من لص عجيب ذي اربعة رؤوس يعيث فساداً ، على نطاق واسع ، في

---

* Protée في الميثولوجيا ، الـه بحري منحه أبوه ، نبتون ، القدرة على التنبؤ ، ولكنه كان يرفض الكلام في كثير من الاحيان ، فكان يغير شكله حيناً بعد حين تخلصاً من الحاح السائلين .

** Vidock مغامر فرنسي (١٧٧٥ — ١٨٥٧) شغل مديرية الشرطة بعد ان كان شريراً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

باريس . كانوا أخطبوط الشر المروّع ، ساكناً في مرداب المجتمع .

وبفضل فروعهم المتشعبة وشبكة صِلاتهم الخفية ، سيطر بابيه ، وغولوميه ، وكلاكسو ، ومونبارناس على صناعة المكائد العامة في مديرية السين. كان مبتدعو الافكار في هذا الحقل ، وهم رجالٌ اصحاب خيال ظلاميّ ، يفدون اليهم التماساً للتنفيذ. كانوا يزودون الاوغاد الاربعة بالخطة المفردة فينهضون بعبء إخراجها الفنيّ . كانوا يعملون على أساس تصميمٍ موضوعٍ ، وكانوا دائماً على استعداد لأن يقدّموا جماعة تتناسب مع ايما محاولة للاغتيال تحتاج الى مساعدة ، وتنطوي على كسب . إنهم يقدّمون الى كل جريمة يعوزها العضل من يشارك فيها. ان عندهم شرذمة من ممثلي الظلمة تحت تصرف كل مأساة من مآسي المغاور.

وكانوا يجتمعون عادة حين يهبط الليل ، وهي ساعة استيقاظهم ، في الارض البور المجاورة لـ « لا سالبيتريير » . هناك كانوا يتذاكرون . كانت الاثنتا عشرة الساعة المظلمة امامهم ، فهم يوزعون العمل وينظمونه .

المعلّم مينيت — ذلك هو الاسم الذي أطلق في المجتمع تحت الأرضيّ على هؤلاء الرجال الاربعة مجتمعين . وفي اللغة الشعبية الغريبة العتيقة ، التي تندثر يوماً بعد يوم ، يفيد قولهم « **المعلم مينيت** » الصباح ، كما يعني قولهم « **بين الكلب والذئب** » المساء . وأغلب الظن أن هذا اللقب ، المعلم مينيت ، ناشيء عن الساعة التي ينتهي بها عملهم ، اذ كان الفجر هو ميعاد اختفاء الاشباح وتفرّق اللصوص . لقد عرف هؤلاء الاربعة بهذا اللقب .وحين زار رئيس محكمة الجنايات السفاحَ لاسينير في سجنه استجوبه عن جريمة انكرها لاسينير ، فسأله : « من الذي ارتكبها ؟ » فاجابه لاسينير بهذا الجواب الذي كان ملغزاً عند القاضي ، ولكنه واضح عند الشرطة : « لعله المعلم مينيت » .

إن في استطاعة المرء ، احياناً ، ان يتخيل المسرحية من مجرد الاطلاع على اسماء أبطالها . وكذلك نستطيع ايضاً ان ندرك على نحو

تقريبيّ ماهية عصابة ما من مجرد الاطلاع على لائحة لصوصها المسلحين .
وها نحن نقدّم ههنا الألقاب التي كان مساعدو المعلم مينيت الرئيسيون يستجيبون لها ، فهذه الاسماء محفوظة في الوثائق :

بانشو ، المسمّى بـ « برينتانييه » وبـ « بيغروناي » .

بروجون . (كان ثمة سلالة من الـ « بروجون » سنتحدث عنها في ما بعد .)

بولاترووېل ، معبّد الطرق الذي سبقت الاشارة اليه .

لافوف .

فينيستير .

هومير هوغو ، وهو زنجي .

ماردي‌سوار .

ديبيش .

فونتلوروا ، المسمى بوكوتيير .

غلوريو ، وهو أشغاليّ مطلَق السراح .

باركاروس ، المسمى مسيو دوبون .

ليبلاناد دو سود .

بوسّاغريف .

كارمانيوليه .

كرويدونييه ، المسمى بـ « بيزارو » .

مانجودانتيل .

ليبييه آن ليرِ .

دومي ليار ، المسمى دو ميّار .

الخ . الخ .

ولقد ضربنا صفحاً عن بعضها ، وليس ذلك الذي أهملناه بالأسوأ .
ولهذه الاسماء وجوه . إنها لا تعبّر عن كائنات فحسب ، بل عن انواعٍ

من الكائنات . إن كلّاً من هذه الاسماء يطابق فئة من فئات الفُطر الشائهة تلك ، النامية في سراديب الحضارة .

وتلك الكائنات ، التي لا تسخو بوجودها الا قليلًا ، لم تكن من تلك التي نمر بها في الشوارع . ففي النهار ، بعد ان تكون لياليها الضارية قد أنصبتها ، تستسلم للرقاد ، في افران الجبس حيناً ، وفي مقالع مونمارتر او مونروج المهجورة حيناً ، وفي البواليع حيناً . إنهم يختبئون في أجحار .

ما الذي حلّ بهؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يزالون على قيد الحياة . ولقد كانوا دائماً على قيد الحياة . ان هوراس قد قال فيهم *Ambubaiarum collegia, pharmacopolae, mendici, mimae* وما دام المجتمع كما هو ، فلسوف يظلّون كما هم . فتحت سقف كهفهم المظلم ، ما يفتأ هؤلاء القوم ينشأون من جديد نتيجة للارتشاح الاجتماعي . انهم يعاودون الظهور اشباحاً ، شأنهم دائماً . ولكنهم لا يحملون الاسماء نفسها . لقد خلعوا جلدهم القديم ، وبرزوا بجلد جديد .

الافراد قد أُبيدوا ، ولكن القبيلة ما تزال باقية .

ان لهم مواهبهم نفسها دائماً . ومن الشحاذ الى المتلصّص في جوف الليل يحتفظ العِرْق بنقاء دمه . انهم يتكهّنون بحافظات النقود في الجيوب ، ويستروحون الساعات في جُيَيْبات الصُّدرات . ان للذهب والفضة رائحة في انوفهم . وهناك بورجوازيون سُذّج يستطيع المرء ان يقول ان على وجوههم سيما تؤذن بأن في الامكان سرقتهم . ان اولئك الرجال يتعقّبون هؤلاء البورجوازيين في أناة . فما ان يمرّ على مقربة منهم غريب عن البلد او وافد من الريف حتى تعتريهم ارتعاشة كارتعاشة العنكبوت .

ومثلُ هؤلاء القوم يوقعون الرعب في الفؤاد حين يلتقيهم المرء او يلمحهم من بعيد – حوالى منتصف الليل – في جادة مقفرة .

إنهم لا يبدون رجالاً ، ولكنْ اشكالاً ُصنعت من الظلمة الحيـة . في استطاعتك ان تقول إنهم على العموم جزء لا يتجزأ من الظلمـة ؛ إنهم لا يختلفون عنها ، إنهم لا روح لهم غير الدجنّة ، وإنهم لا ينسلخون عن الليل إلا آنياً ولـكي يحيوا بضع دقائق حياة ً مضادة ً للطبيعة .

إلام نحتاج لـكي نجعل اليرقانات تسقط مغشياً عليها ؟ الى النور . الى فيض من النور . فليس من خفاش يستطيع ان يقـــاوم الفجر . أنيروا أعماق المجتمع السفلي .

الكتاب الثامن

الفقير الشرير

١

ماريوس ، الباحث عن فتاة ذات قبعة
يلتقي برجل ذي قلنسوة

وانقضى الصيف ، ثم انقضى الخريف ، وأقبل الشتاء . ولم يطأ لا مسيو لوبلان ولا الفتاة الشابة ارض اللوكسمبورغ . وسيطرت على ماريوس فكرة واحدة ليس غير : ان يرى ذلك المحيّا الحلو المعبود ، مرةً اخرى . وبحث على نحو موصول ، وبحث في كل مكان ، فلم يجد شيئاً . إنه لم يعد ماريوس الحالم المتحمّس ، والرجل الحازم ، المتقد

الرصين ، ومتحدّي القدر الجريء ، والعقل الذي يصمم ويبني مستقبلاً فوق مستقبل ، والقلب الرخص المليء بالخطط ، والمشاريع ، والحُبلاء ، والافكار ، والارادات . كان كلباً ضائعاً . لقد سقط في لجة كآبة سوداء . وقضي الامر . امسى العمل ينغّصه ، والسير يتعبه ، والوحدة تُضجره ، وأمست الطبيعة الواسعة — التي كانت من قبل حافلةً بالاشكال ، والأضواء ، والأصوات ، والآراء ، والمناظر ، والآفاق ، والدروس — خاوية أمامه . لقد بدا له أن كل شيء قد اختفى .

كان لا يزال مفعماً بالافكار ، إذ لم يكن في ميسوره ان يكون غير ذلك ؛ ولكنه ما عاد يجد متعةً في افكاره . وجواباً على كل ما عرضته عليه في صمت وفي إلحاح كان يقول : « وما الفائدة ؟ »

وعنف نفسه مئة مرة . لماذا تبعتُها ؟ لقد كنتُ سعيداً جداً بمجرد رؤيتها ! ولقد نظرتْ اليّ ، ألم يكن ذلك شيئاً عظيماً ؟ كان محيّاها يؤذن بأنها تحبني ، ألم يكن ذلك كل شيء ؟ ايّ شيء كنت أطمع في ان أنال ؟ ليس ثمة شيء وراء ذلك . لقد كنت احمق ، إنها غلطتي ، الخ . الخ . والحق ان كورفيراك الذي لم يُفضِ ماريوس اليه بشيء — فقد كانت هذه هي طبيعته — والذي حزر برغم ذلك كل شيء تقريباً — فقد كانت تلك هي طبيعته أيضاً — نقول : الحق ان كورفيراك كان قد بدأ يهنئه بالحب الذي استبدّ به ، ويعجب مع هذا لذلك . حتى اذا رأى ماريوس يتردّى في تلك الكآبة ، انتهى آخر الأمر الى ان يقول له : « ارى انك لم تكن إلا حيواناً . هيّا ، تعال الى الكوخ ! »

وذات يوم ، وقد ركن الى شمس ايلول الجميلة ، ارتضى أن يأخذه كورفيراك ، وبوسوويه ، وغرانتير ، الى « مرقص سو » راجياً ، ويا له حلم ! ان يجدها هناك . ولسنا في حاجة الى القول إنه لم يجد هناك الفتاة التي التمسها . « ومع هذا ، فهنا يستطيع المرء ان يعثر على جميع النسوة الضائعات » ، كذلك غمغم غرانتير . وترك ماريوس اصدقاءه في المرقص ،

وانقلب ماشياً وحده ، على القدمين ، مجهداً ، محموماً ، قلق العينين محزونهما في الظلام ، دهشاً بضجة العربات المرحة وبغبارها ، تلك العربات الحافلة بالجماعات المنشدة الراجعة من العيد ، فيما كان يتنشق ، مخيَّبَ الأمل ، روائح شجرات الجوز الحرّيفة القائمة على جانبي الطريق لكي يعيد الى رأسه الصفاء .

واستغرق من جديد ، وعلى نحوٍ متعاظم ، في العيش المتوحد ، التائه ، المثقَل ، فهو يتجرع آلامه الباطنية المريرة ، وهو يروح ويجيء متحملاً وجهه مثل ذئب في قفص ، باحثاً عن ضالته ، في كل مكان ، مخبَّلاً بالحب .

وفي مناسبة اخرى ، تركت احدى المصادفات أثراً فريداً في نفسه . ففي احد الشوارع الصغيرة المجاورة لـ « جادة الانفاليد » التقى رجلاً مرتدياً ثياب العمل ، ومعتمراً بقلنسوة ذات حافة عريضة كانت تبدي بضع ذوائب من شعر ناصع البياض . وتأثر ماريوس بجمال هذا الشعر الاشيب ، وتأمل هذا الرجل الذى كان يمشي في خطى وئيدة ، وكأنه مستغرق في تفكير موجع . ومن عجب ان قد بدا له أنه تبين في ذلك الرجل مسيو لوبلان . كان الشعر شعره ، والصورة الجانبية صورته — بقدر ما ساعدته القلنسوة على الرؤية — والمشية مشيته ولكنها أحفل بالحزن . ولكن لمَ يرتدي ثياب العمال هذه ؟ ما معنى ذلك ؟ علام يدلّ هذا التقنّع ؟ وغلب الانشداه على ماريوس ، حتى اذا ثاب الى نفسه كان أول ما فعله ان لحق بذلك الرجل . فمن يدري ، لعله اهتدى آخر الامر الى الاثر الذي يبحث عنه ؟ وعلى اية حال ، فينبغي ان يرى الرجل كرة اخرى ، عن كثب ، ويحل تلك الاحجية . ولكن هذه الفكرة لم تخطر له إلا بعد فوات الاوان ؛ كان الرجل قد مضى الان لسبيله . كان قد سلك زقاقاً جانبياً ما ، فلم يعثر له ماريوس على اثر . وشغلت هذه المصادفة تفكيره بضعة أيام ، ثم تدثرت . وقال في ذات نفسه :

– « لعله ، على اية حال ، مجرد شبه ليس غير . »

٢
لقيـــة

كان ماريوس لا يزال يسكن في بيت غوربو العتيق . ولم يلقِ بالاً الى احد هناك .

والواقع أنه لم يكن قد بقي ، في تلك الفترة ، احدٌ من سكان ذلك البيت غيره وغير اسرة جوندريت التي دفع عنهـا ، ذات مرة ، اجرة السكنى ، من غير ان يتحدث في يوم مـن الايام الى الأب ، او الى الأم ، أو الى ايّ من البنتين . كان المستأجرون الآخرون قد انتقلوا أو ماتوا ، أو أُخرجوا لتخلّفهم عن دفع الاجرة .

وذات يوم ، من ايام ذلك الشتاء ، تجلّت الشمس قليلاً ، عنـــد الاصيل ، ولكنه كان اليوم الثاني من شباط ، عيدَ تقدمة يسوع في الهيكل ، ذلك العيد القديم الذي اوحت شمسه الغادرة ، المبشرةُ بستة اسابيـع من البرد ، الى ماثيو لينزبيرغ هذين البيتين اللذين أمسيا ، بحق ، من الادب الكلاسيكي :

« دعها تسطع أو ترسل أشعة واهنة
إن الدبّ يرجع الى وجـــاره . »

وكان ماريوس قد غادر وجاره منذ لحظة . كان الليل قد هبط . وكانت الساعة ساعة عشائـــه ، ذ كان لا يزال مضطراً الى ان يمضي لتناول عشائه ، واأسفاه ! آه ، يا لعجز العشق المثالي !

وكان قد اجتاز ، وما كاد ، عتبة بابه التي كانت « مام بوغون » تكنسها في تلك اللحظة مدمدمة في الوقت نفسه بهذه المناجاة الخالدة :

— « وما الشيء الرخيص اليوم ؟ كل شيء غال . ليس من شيء رخيص غير آلام الناس . إن آلام الناس مجانية ! »

وصعّد ماريوس في الجادة ، بخطى وئيدة ، متجهاً نحو باب المدينة لكي ينتهي الى شارع سان جاك . كان يمشي شارد البال ، مطرقاً برأسه الى الارض .

وفجأة ، أحسّ بمن يدفعه بمرفقه ، في الغسق . والتفت ، فرأى فتاتين شابتين في اسمال بالية — الأولى طويلة مهزولة ، والاخرى أقصر منها بقليل — تمرّان به على عجل ، لاهثتين ، مروّعتين ، وقد بدت على وجهيهما سيما الفرار . لقد التقتا به من غير أن ترياه ، ولقد صدمتاه في اندفاعهما . وتبيّن ماريوس ، في الغسق ، وجهيهما البالغي الشحوب ، وغدائرهما المنفوشة المتطايرة ، وقبعتيهما الرهيبتين ، وتنورتيهما الممزقتين ، وأقدامهما الحافية . كانتا تتبادلان الحديث وهما راكضتان . وقالت أطولهما قامةً ، في صوت خفيض جداً :

— « لقد اقبل رجال الشرطة . ولقد اخطأوا الامساك بي عند منتصف الدائرة . »

فأجابت الاخرى :

— « لقد رأيتهم . ولقد ركضت ، وركضت ، وركضت ! »

وفهم ماريوس ، من خلال هذه اللهجة العامية المشؤومة ، ان الدرك او شرطة المدينة ، لم يوفقوا الى القاء القبض على هاتين الطفلتين ، وان الطفلتين قد ولّتا فراراً .

واندفعتا تحت اشجار الجادة من خلفه ، فأحدثتا في الظلمة ضرباً من البياض القاتم ، ما لبث ان تلاشى بعد بضع ثوان .

ووقف ماريوس لحظة .

وكان على وشك ان يستأنف سيره حين لمح رزمة صغيرة ضارباً لونها الى الرماديّ ملقاةً عند قدميه . وانحنى والتقطها . كانت شبه ظرف بدا وكأنه يحتوي بعض الاوراق .

وقال :

— « حسن . لا شك في ان هذه قد سقطت من هاتين المخلوقتين البائستين » !

وارتدّ على آثاره ، وناداها ، فلم يهتدِ اليهما . واستنتج من هذا أنهما قد انتهتا الى مكان بعيد ، فوضع الرزمة في جيبه ، ومضى لتناول طعام العشاء .

وفي بعض الطريق رأى في زقاق من شارع موفتارد تابوت طفل مغطى بقطعة من الجوخ الأسود وقد وُضع على ثلاثة كراسيّ وأضيء بشمعة . وهنا تذكّر فتاتي الغسق .

وفكّر :

— « يا للامهات البائسات ! ان شيئاً واحداً هو ادعى الى حزنهن من رؤية اولادهن يموتون . وما ذلك غير رؤيتهم يحيون حياة الشر . »

ثم إن هذه الظلال التي ادخلت على حزنه عنصراً جديداً ما لبثت ان فارقت تفكيره ، فاستغرق في تأملاته المعتادة . لقد شرع يفكر في أشهر الحب الستة التي نعِمَ بها ، والسعادة التي تمت له في الهواء الطلق وفي وضح النهار ، تحت شجرات اللوكسومبورغ الجميلة .

وقال في ذات نفسه :

— « كم قد أصبحت حياتي مظلمة ! إن الفتيات الشابات لا يزلن يبرزن أمامي . مع فارق واحد ، هو أنهن كنّ من قبلُ ملائكة ، أما اليوم فهنّ غيلان . »

٣

أنصاب ذات أربعة وجوه

وفي المساء ، فيما كان ينزع ملابسه ليأوي الى الفراش ، وقعت يده في جيب سترته على الرزمة التي التقطها في الطريق . كان قد نسيها . وخطر له ان من المفيد ان يفضّها ، وان تلك الرزمة قد تحتوي على عنوان تينك الفتاتين الشابتين ، اذا كانت رزمتهما حقاً . واياً ما كان ، فقد تحتوي على المعلومات الضرورية لاعادتها الى من فقدها .

وفتح الظرف .

كان غير مختوم . وكان يحتوي على أربع رسائل غير مختومة أيضاً .

كانت العناوين مدونة عليها .

وفاحت منها جميعاً رائحة تبغ فظيع .

وكانت الرسالة الاولى معنونة هكذا : **الى سيدتي ، السيدة المركيزة دو غروشيراي ، الساحة المقابلة لمجلس النواب ، رقم ....**

وقال ماريوس في ذات نفسه إنه سوف يجد – على الأرجح – في هذه الرسالة ، المعلومات التي كان يبحث عنها . وفوق ذلك ، فما دامت الرسالة غير مختومة فأغلب الظن ان لا يكون في قراءتها بأس .

كانت تنطوي على هذه الكلمات :

« سيدتي المركيزة :

« إن فضيلة الحنان والشفقة هي التي توحّد المجتمع اكثر ما يكون التوحيد . ايقظي عاطفتك المسيحية ، وألقي نظرة رأفة الى هـــذا

الاسباني البائس الذي ذهب ضحيت * الولاء والتعلق بقضية « الشرعية » المقدسة التي بذل من أجلها دمه ، ووقف في سبيلها ثروته كلها ، والذي يجد نفسه اليوم في أقسى حالات الفاقة والعوز . وهو لا يشك في ان نفسك النبيلة سوف تمدّه بالعون لكي يحتفظ بوجودٍ بالغ الأيلام لجنديّ ذو * ثقافة وشرف ، مفعَمٍ بالجراح ، جنديّ يعتمد مقدّمـاً على الانسانية التي تعمر فؤادك وعلى الاهتمام الذي تبديه سيدتي المركيزة نحو أمة بائسة الى هذا الحد . إن صَلاتهم لن تذهب سدى وان ذاكرتهم سوف تحتفظ بذكراها الفائتة . »

« واقبلي عواطف إجلالي التي اتشرّف معها ان اكون ،

« سيدتي ،

« دون آلفاريز ، كابيتين اسباني في سلاح الفرسان ، ملكيّ لاجيء في فرنسة ، يجد نفسه مسافراً من اجل وطنه ، ولكن موارده لا تمكنـــه من مواصلة رحلاته . »

ولم يُضَف ايا عنوان الى الامضاء . ورجا ماريوس أن يجد العنوان في الرسالة الثانية المكتوب على ظاهرها : **الى سيدتي ، السيدة الكونتيس دو مونفيرنيه ، شارع كاسيت** ، رقم ٩ . وقرأ ماريوس ما يلي :

« سيدتي الكونتيس ،

« هذه أمّ بائسة لأسرة مؤلفة من ستة أطفال آخرهم لا يزيد عمره

---

* وردت في هذه الرسائل كما أثبتها الاصل الفرنسي عدة اخطاء املائيـــة ونحوية قصد المؤلف من ورائهـــا الى اظهار جهالة كاتبها . وقد حاولنا أن نحافظ على هذا الغرض فرسمنا بعض الكلمات على غير صورها الصحيحة وعدلنا ببعضها عن حكمهـــا الاعرابيّ كما يلاحظ القاريء .

على ثماني * اشهر . انا مريضة منذ أن وضعتُ ولدي الأخير ، هجرني زوجي منذ خمسة اشهر ، وليس لي أية * مورد في العالم ، فأنا أعاني اشدّ الفقر .

« وعلى املها بالسيدة الكونتيس ، يشرّفها ان تكون ، يا سيدتي ، في احترام عميق ،

« الأم باليزارد »

وانتقل ماريوس الى الرسالة الثالثة ، التي كانت ، مثل الرسالتين السابقتين ، عريضة تستدرّ العطف .

وقد جاء فيها :

« مسيو بابورجو ، ناخب ، تاجر قبعات بالجملة ،
شارع سان دونيس ، عند زاوية « رو أو فير . »

« إني اسمح لنفسي بأن اوجه اليك هذه الرسالة لأرجوك ان تسبغ عطفك الثمين وأثير اهتمامك في رجل من رجال الادب رسل ، منذ لحظة ، مسرحيةً الى « المسرح الفرنسي » . إن الموضوع تاريخيّ ، والحوادث تجري في اوفيرنيْ في عهد الامبراطوريت * . والاسلوب ، على ما أعتقد ، طبيعيّ ، مختصر ، ولعله يفوز ببعض الاعتبار . إن فيها ابياتاً من الشعر يجب ان تُنشد في اربع * مواضع . إن المضحك ، والجدّي ، وغير المتوقع ، تمتزج كلها مع شخصيات الرواية المتنوعة ، وبمسحة من الرومانس ، تنتشر في رقة فوق كامل العقدة الروائية التي تتقدّم في شكل خفيّ ، وبتحوّلاتٍ مؤثّرة ، الى الحلّ وسط مجموعة

* راجع الحاشية السابقة .

من المفاجآت المسرحية الرائعة .

« إن غايتي الرئيسية هي إشباع الرغبة التي تسيطر شيئاً فشيئاً على الرجل في عصرنا هذا ، أعني « **الموضة** » ، أو دوّارة الهواء ، الغريبة الكثيرة التقلّب ، التي تتغير مع كل ريح تقريباً .

« وعلى الرغم من هذه المزايا فأن عندي سببٌ * يجعلني أخاف ان يؤدي حسد المؤلفين المتمتعين بالحظوة وانانيتهم الى ابعادي عن المسرح ، ذلك لأني لا أجهل التقزّز الذي يتجرعون به الوافدين الجدد .

« سيدي بابورجو ، إن شهرتك الحقة كحامٍ مستنير لأهل الأدب تشجعني على ان ابعث اليك بابنتي ، التي ستشرح لك مبلغ فقرنا ، وحاجتنا الى الخبز والنار في موسم الشتا * هذا . وانا اقول لك اني ارجوك ان توافق على ما ارغب فيه من رفع هذه الرواية وجميع الرواياة * التي سوف أألفها * اليك ، وذلك لكي ابرهن لك عن مدى أملي في التشرف بأن اضع نفسي تحت رعايتك ، وان أزين كتاباتي باسمك . فاذا تنازلت وشرفتني بهذه التقدمة الاشدّ تواضعاً ، فسوف انصرف في الحال الى عمل مقطوعة من الشعر تكون عربوناً على اعترافي بجميلك . وهذه المقطوعة التي سأحاول ان اجعلها كاملةً جهد الامكان ، سوف تُرسل اليك قبل ان تُدرَجَ في مقدمة الرواية وتُلقى على المسرح .

« والى سيدي ،
« ومدام بابورجو ،
« تحياتي المثقلة بالاحترام

« جينفلو ، رجل أدب .

---

* راجع الحاشية السابقة .

« حاشية . ولو لم تكن غير أربعين سو .

« اعذرني لارسالي ابنتي اليك وعدم ذهابي بنفسي ، ولكن دوافع حزينة تتعلق بالملابس تمنعني ، وأسفاه ! ، من الخروج .... »

وفتح ماريوس ، آخر الامر ، الرسالة الرابعة . كان مكتوباً على ظاهرها : « **الى سيدي الخيّر رجل كنيسة سان جاك دو هو با** » . وكانت تنطوي على هذه الاسطر القليلة :

« أيها الرجل الخيّر

« اذا تنازلتَ ، ورافقتَ ابنتي ، فسوف ترى بليّةً قاسمة * للظهر ، وسوف أريك شهاداتي .

« وحين ترى هذه الكتابات فأن نفسك السخية سوف تتحرك بعاطفة حيّة من حب الاحسان ، ذلك لان الفلاسفة الحقيقيين يحسّون دائماً بانفعالات عنيفة .

« إعترِفْ ، ايها الرجل الرؤوف ، أن على الرجل ان يتحمل اقسى الفقر ، وهو شيء مؤلم جداً ، لكي يحصل على الاسعاف ، وان يحمل السلطة على ان تشهد أنه فقير ، كأننا لسنا احراراً في ان نتألم ، ونموت جوعاً ريثما يأتي من ينقذنا من شقاؤنا * . إن الاقدار قاسية اكثر مما يجب على بعض الناس ، مداوية اكثر مما يجب لبعضهم الآخر مبذّرة معهم .

« اني انتظر حضورك ، او تقدمتك ، اذا تنازلت ووافقت على ذلك ، واني اتوسل اليك أن تتكرم فتقبل عواطفي الموقّرة التي اعتزّ

* راجع الحاشية السابقة .

معها بأن اكون ،

« أيها الرجل الشهم حقاً ،
« خادمك الاكثر حقارة ،
« والاكثر انقيــاداً ،

ب . فابانتو ، فنان مسرحي . »

ولم يستشعر ماريوس ، بعد قراءة هذه الرسائل الأربع ، أنه ازداد علماً .

إن أياً من موقّعي تلك الرسائل لم يذكر عنوانه .

ثم إنها بدت وكأنها صادرةٌ عن اربعة افراد مختلفين : دون ألفاريز ؛ الأم باليزارد ؛ الشاعر جينفلو ؛ الفنان المسرحي فابانتو . ولكن العجيب في الأمر ان هذه الرسائل كلها كانت مكتوبةً بخط يدٍ واحدة .

فما الذي يُستنتج من هذا غير أنها صادرة عن شخص واحد ؟

وفوق ذلك ، وهذا ما جعل الحدس اقرب الى الاحتمال ، فـان الورق الذي خُطّت عليه الرسائل – وهو خشنٌ أصفر – كان واحداً في الرسائل الاربع ، ورائحة التبغ كانت هي هي ؛ وعلى الرغم من انه كانت ثمة محاولةٌ واضحة لتغيير الاسلوب فأن الاخطاء الاملائية نفسها تكرّرت في هدوء عميق ، فلم يكن جينفلو ، الكاتب الاديب ، اقلّ تردّياً في مهاويها من الكابيتين الاسباني .

وكانت كل محاولة للكشف عن سرّ هذه المسألة عملاً لا طائل تحته . ولو لم تكن لقيةً ، اذن لبدت وكأنما مخاتلة ساخرة . وكان ماريوس من الحزن بحيث لا يتقبل المزاح ، حتى ولو كان صادراً عن المصادفة ،

بقبول حسن ، او يرتضي اللعبة التي بدا وكأن حصباء الطريق رغبت في ان تلعبها معه . لقد تراءى له انه اشبه برجل معصوب العينين بين هذه الرسائل الاربع ، التي كانت تهزأ به .

وعلى اية حال ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بان هذه الرسائل قد سقطت من الفتاتين اللتين لقيهما ماريوس في الجادة . وهكذا فأنها كانت مجرد اوراق ليس لها ايما فائدة او قيمة .

وأعادها ماريوس الى الظرف ، وقذف بها الى احدى الزوايا ، وأوى الى مضجعه .

وحوالى الساعة السابعة صباحاً ، كان قد نهض من فراشه وتناول طعام الفطور ، وشرع في العمل عندما قُرع باب غرفته قرعاً رفيقاً .

واذ لم يكن يملك شيئاً ، فانه ما كان ليغلق باب غرفته ، الا في بعض الاحيان — وهي نادرة جداً — حين يكون منصرفاً الى عمل مُلحّ . والواقع انه كان ، حتى في الاحوال التي يغادر فيها غرفته ، يترك مفتاحها في القفل . وقالت له مام بوغون ذات مرة : « سوف يسرقك اللصوص . » فأجابها : « وهل عندي ما يُسرَق ؟ » ومع ذلك ، فقد سرق احدهم حذاءً عتيقاً عالي الساق ، من غرفته ، فكان ذلك نصراً مؤزّراً لـ « مام بوغون » .

وقُرع الباب كرةً ثانية ، وفي رفق بالغ ، كالمرة الأولى .

فقال ماريوس :

— « أدخلي ! »

وفُتح الباب .

— « ماذا تريدين ، يا « مام بوغون ؟ » كذلك تساءل ماريوس من غير ان يرفع عينيه عن الكتب والاوراق التي كانت على طاولته .

واجابه صوت ، لم يكن صوت « مام بوغون » :

— « ألتمس عفوك ، يا سيدي .... »

كان صوتاً غائراً ، مرتعشاً ، مختنقاً ، مبحوحاً ؛ صوت رجل عجوز أصدأته الخمر والعرق .

واستدار ماريوس في سرعة ، فرأى فتاة شابة .

٤
وردة في الشقاء

كانت فتاةٌ في ريعان الصبا واقفةً بالباب نصف المفتوح . وكانت الكوة التي ينفذ النور من خلالها الى العلّية قائمةً تجـــاه الباب تماماً ، فأنارت هذا الوجه بضوء باهت . كانت مخلوقةً شاحبةً ، ضعيفة البنية ، شديدة الهزال ؛ ليس يستر عريها المرتجف المثلوج غير قميص وتنورة . خيط من القنب يطوّق الخصر ، وخيط آخر يصفّف الشعر ، وكتفان محددتان ناتئتان من القميص ، وشحوب أشقر ليمفاويّ ، وتَرْقُوَتان وسختان ، ويدان حمراوان ، وفم فاغر غائر ، وبضع اسنان مفقودة ، وعينان خامدتان وقحتان ، ذابلتان ، وشكل كشكل فتـاة شابة غير ناضجة ، ونظرة كنظرة عجوز فاجرة . خمسون عاماً ممتزجة بخمسة عشر عاماً . احدى تلك المخلوقات الضعيفة المخيفة في آن معاً ، والتي توقع الرعدة في أوصال مَنْ لا تُسيل الدمعَ من أعينهم .

ونهض ماريوس ، وحدّق في ضرب من الدهش الى هـــذه المخلوقة الشبيهة ، تقريباً ، بتلك الأشكال الشبحية التي تتبدّى لنا في المنام .

وأوجع ما في الأمر ان هذه الفتاة لم تجىء الى هـذا العـالم لتكون بشعة . بل إن الذي يبدو أنها كانت في طفولتهـا الأولى جميلة . كان جمال صباها لا يزال يصارع الشيخوخة القبيحة التي عجّلت بهـــا الدعارة والفقر . وكانت بقيةٌ من جمال تموت على هذا الوجـه ذي الستة عشر ربيعاً مثل شمس شاحبة تُخمدهـــا سحبٌ مروّعـة فجرَ يوم من ايام الشتاء .

ولم يكن الوجه مجهولاً عند ماريوس بالمرّة . لقـد بدا له أنه رآه في مكان ما .

وسألها :

— « ماذا تريدين ، ايتها الآنسة ؟ »

فأجابته الفتاة الشابة بصوتها الذي يشبه صوت عبد ثمل من عبيد الأشغال الشاقة :

— « هذه رسالة اليك ، يا مسيو ماريوس . »

لقد نادت ماريوس باسمه . فلم يكن في وسعه ان يرتاب في أنهـــا تعنيه . ولكن من هذه الفتاة ؟ كيف عرفت اسمه ؟

ودخلت من غير ان تنتظر دعوة . دخلت في جسارة ، ناظرةً الى الغرفة كلها والى السرير المحطم في ضرب من الثقة توقـــع القشعريرة في القلب . كانت حافية القدمين . وكانت ثقوب واسعة في تنورتها تكشف عن ساقيها الطويلتين ، وركبتيها المهزولتين . لقد ارتجفت .

وكانت تمسك بيدها ، في الحق ، رسالةً قدّمتها الى ماريوس .

واذ فضّ ماريوس هذه الرسالة لاحظ أن برشامة الختم الكبيرة الى حدّ هائل كانت لا تزال رطبة . ومن هنا ادرك ان الرسالة لم تأت من مكان بعيد .

وقرأ :

« جاري المحبوب ، أيها الرجل الشاب !

« لقدْ عرفتُ بمـا أظهرته نحوي من كرم نفس ، وانك دفعت عني اجرة الغرفة منذ ستة اشهر . إني اباركك ، ايها الشاب . إن ابنتي الكبيرة سوف تخبرك أنه ليس عندنا منذ يومين كسرة خبز : اربعـــة اشخاص ، وزوجتي طريح الفراش . واذا لم يكذبني الظن فأظن أنّ في استطاعتي ان ارجو ان يرق قلبك الكريم لهذا الشرح ، فتسارع الى

الاحسان اليّ بأن تتنازل وتنفحني بعطيّة خفيفة .
« إني بالاحترام العظيم الذي يستحقه محسنو الانسانية ،

« جوندريت .

حاشية : إبنتي تنتظر اوامرك ، أيها السيد ماريوس العزيز . »

وهذه الرسالة ، في غمرة الحادثة الغامضة التي شغلت ذهن ماريوس منذ الليلة البارحة ، كانت اشبه بشمعة في كهف . لقد أمسى كل شيء واضحاً على نحو مفاجيء .

لقد صدرت تلك الرسالة من حيث صدرت الرسائل الاربع الاخرى. كان خط هذه هو خط تلك ، واسلوب هذه هو اسلوب تلك ، واخطاء هذه هي اخطاء تلك ، وورق هذه هو ورق تلك ، ورائحة التبغ المنبعثة من هذه هي رائحة التبغ المنبعثة من تلك .

كانت ثمة خمس رسائل ، وخمس قصص ، وخمسة اسماء ، وخمسة توقيعات ، وموقّعٌ واحد . كان الكابيتين الاسباني دون آلفاريز ، والأم باليزاود المسكينة ، والشاعر المسرحي جينفلو ، ومؤلف التمثيليات العجوز فابانتو – كانت هذه الاربعة كلها تدعى جوندريت ، هذا اذا كان اسمُ جوندريت نفسِه هو جوندريت حقاً .

فخلال الفترة الطويلة التي ُقدّر لماريوس ان يقطن في اثنائها ذلك المنزل العتيق لم تسنح ، كما قلنا من قبل ، غير فرص قليلة مكّنته من ان يرى ، بل مكّنته من ان يلمح جيرانه المعدمين . كان عقله في مكان آخر ، وحيث يكون العقل تتجه العينان . ولا ريب في انه قد التقى افراداً من اسرة جوندريت في الرواق أو على السلم ، ولكنهم لم يكونوا عنده غير ظلال قاتمة . كان قليل الالتفات اليهم الى درجة جعلته يصطدم البارحةَ ، بابنتَي جوندريت في الجادة من غير ان يعرفهما ؛

ذلك بأنهما كانتا بنتي جوندريت من غير ريب ؛ وفي كثير من العسر كانت هذه الفتاة التي دخلت اللحظة الى غرفته قد ايقظت في ذات نفسه ، من خلال الاشمئزاز والشفقة ، ذكرى غامضة بأن قد سبق له ان التقاها في مكان آخر .

لقد رأى الآن كل شيء ، في وضوح . لقد فهم ان صناعة جاره جوندريت ، في محنته تلك ، هي استدرار عطف المحسنين ؛ وانه قد حصل على عناوينهم ؛ وأنه كان يحرّر ، باسماء مصطنَعة ، رسائل يوجهها الى أولئك الناس الذين قَدّر انهم اغنياء تعمر الرأفة قلوبهم ، فتحملها بنتاه اليهم معرّضتين نفسَيهما للمخاطر ؛ ذلك ان هذا الاب لم يكن ليتورع عن المغامرة ببنتيه ؛ كان يقامر مع القَدَر ، ولقد قامر عليهما . ورجّح ماريوس — على اساس من فرارهما في موهن من الليل ، ولهاثهما ، وذعرهما ، والكلمات العامية التي طرقت اذنه — ان هاتين البائستين كانتا تمارسان ايضاً بعض صناعات الظلام السرية ، وانه قد نشأ عن هذا كله ، وسط المجتمع الانساني في حالته الحاضرة ، مخلوقتان تعستان لم تكونا لا طفلتين ولا فتاتين ولا امرأتين ، ولكن شبهَ هولتين غير طاهرتين ، وإن كانتا بريئتين ، من عمل الشقاء .

كائنتان كئيبتان من غير اسم ، ومن غير عمر ، ومن غير جنس* ، كائنتان لم يَعُدْ ايٌّ من الخير أو الشرّ ممكناً عندهما ، ولم يبق لديهما في هذا العالم — وقد فارقتا الطفولةَ — ايّ شيء على الاطلاق ، لا حرية ، ولا فضيلة ، ولا مسؤولية . نفسان تفتّحتا امسِ ، وذبلتا اليوم ، مثل تلك الرياحين التي تسقط في الشارع فيُذبلها الوحل ريثما يسحقها دولاب من الدواليب .

وفي غضون ذلك ، وفيما كان ماريوس يسمّر عليها نظرةً دهشة متألمة ، انشأت الفتاة تذرع العلّية جيئة وذهاباً ، في وقاحة شبح .

* المقصود هنا بالجنس sexe اي الذكورة او الانوثة .

كانت تروح وتجيء من غير ان تفكّر في عريها . وفي بعض الاحيان ، كان قميصها الممزّق ، غير المشدود يسقط حتى خصرهـــا . لقد نقلت الكراسيّ ، من مكان الى مكان ، وبعثرت ادوات الزينـة الموضوعـة على الخزانة ذات الادراج ، وجسّت ملابس ماريوس ، وفتّشت ما كان في الزوايا .

وقالت :

— « آه ! عندك مرآة ! »

وهمهمت ، وكأنها كانت منفردةً ، بمقطّعات من بعض الروايات الملحّنة ، وبلازمات غنائية مرحة كان صوتها الحلقيّ الاجشّ يجعلهـــا مأتمية . وتحت هذه الوقاحة كان في ميسور المرء ان يلحظ شيئاً من القسْر ، والقلق ، والضّراعة لا سبيل الى وصفه . إن القِحَةَ عار .

ولم يكن ثمة ما هو أدعى الى الحزن من رؤيتها تلهو ، واذا جاز التعبير ، ترفرف حول الغرفة بمثل حركات عصفور ذهب النور بصوابه ، او عصفور كُسِر واحدٌ من جناحيه . ولقد كان في ميسور الناظر اليها آنذاك ان يُدرك ان مسلك هـــذه الفتاة الشابة ، المرح الحرّ ، كان خليقاً بأن يكون شيئاً عذباً وفاتناً لو كُتِبَ لهـا ان تنشأ في ظروف من التربية مختلفة ، وفي ظلّ قَدَرٍ غير قَدَرها ذاك . والحق أن الكائن الذي وُلد ليكون حمامةً لا يمكن ان يتحوّل بحالٍ من الاحوال الى عُقاب بحرية ، في عالم الحيوان . ذلك شيء لا يقع إلا في عالم الانسان .

وفكّر ماريوس ، وتركها تسترسل في عبثها .

ومضت الى الطاولة .

وقالت :

— « آه ! كُتُب ! »

واخترق شعاعٌ عينيها شبه الزجاجية . واردفت ، وقد افصحت

لهجتها عن تلك السعادة التي نستشعرها ونحن نتباهى بشيء ما ، والتي نتساوى فيها جميعاً من غير استثناء .

— « انا استطيع أن اقرأ . انا استطيع . »

وفي نشاط ، امسكت بالكتاب المفتوح على الطاولة ، وقرأت بكثير من الطلاقة :

« ... وتلقّي الجنرال بودوين الأمر بأن يقود خمسة افواج من لوائه ويستولي على قلعة هوغومونت القائمة وسط سهل واترلو .... »

وكفّت عن القراءة ، قائلة :

— « آه ، واترلو ! أنا أعرفها . إنها معركة وقعت في العصور القديمة . كان ابي هناك . لقد خدم ابي في الجيوش . نحن بونابرتيون الى حدّ بعيد ، في بيتنا . واترلو تعني ضد الانكليز . »

ووضعت الكتاب على الطاولة ، وأمسكت بريشة ، وصاحت :

— « وانا اعرف الكتابة ايضاً ! »

وغمست الريشة في الحبر ، والتفتت نحو ماريوس قائلة :

— « هل تحبّ ان ترى ؟ انظر ، سوف اكتب كلمة لأثبت لك ذلك . »

وقبل ان يجد متسعاً من الوقت للاجابة ، كتبت على ورقة بيضاء كانت في منتصف الطاولة :

« **لقد اقبلت الشرطة .** »

ثم طرحت الريشة ، وقالت :

— « ليس هناك اخطاء املائية . في استطاعتك ان ترى . لقد تلقّينا مقداراً من الثقافة ، اختي وانا . إنا لم نكن دائماً كما نحن اليوم . إننا لم نُخلَق .... »

وهنا صمتت ، وسدّدت عينها الباهتة الى ماريوس ، وانفجرت بالضحك ، قائلةً في نبرة انطوت على ألم نفسيّ مرير كامل ، تخنقه

وقاحة كاملة :

— « باه ! »

وشرعت تدندن بهذه الكلمات ، في نغمة مرحة :

« أنا جائعة ، يا أبي
لا لحم مقليّاً عندي .
أنا مقرورة ، يا أمي
لا نسيج ممروداً على جسدي .
الخ . الخ . »

ولم تكد تتمّ هذه المقطوعة حتى صاحت :

— « هل تذهب في بعض الاحيان الى المسرح ، يا مسيو ماريوس ؟ أنا اذهب . إن لي اخــاً صغيراً تربطه ببعض الفنانين صداقة ، فهو يعطيني بطاقاتٍ احياناً . فمثلاً ، انا لا احب مقاعد الشرفة . ان المشاهدين يزدحمون هناك ، وانك لا تعرف معنى الراحة . وقد يكون هناك قوم أجلاف في بعض الاحيان . وهناك اقوام تفوح منهم روائح كريهة . »

ثم نظرت الى ماريوس ، وغلبت على وجهها سيماء غريبة ، وقالت له :

— « اتدري ، يا مسيو ماريوس ، انك فتىً جميل جداً ؟ »

وخطرت فكرة واحدة لكلٍّ منهما ، في آنٍ معاً — فكرةٌ جعلتها تبتسم . وجعلته يحمرّ خجلاً .

وتقدّمت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه وقالت :

— « انت لا تلتفت اليّ ، ولكني أعرفك ، يا مسيو ماريوس . انا ألتقي بك هنا على السلم ، ثم أراك تزور في بعض الاحيان رجــلاً يدعى الاب مابوف يقطن في اوسترليتز ، حين يتفق لي ان أتنزه في تلك

الناحية . إن شعرك المنفوش هذا يناسبك تماماً . »

لقد حاول صوتها ان يكون رقيقاً جداً ، ولكنه وُفّق الى ان يكون منخفضاً جداً ، ليس غير . وضاعت بعض كلماتها في طريقها من الحنجرة الى الشفتين وكأنما انطلقت من لوحة بيان تعوزها بعض العلامات الموسيقية .

وكان ماريوس قد ارتدّ الى الوراء في هدوء .

وقال في رصانة باردة :

— « ايتها الآنسة ، عندي هنا رزمة اظنها لكِ . فاسمحي لي بأن اعيدها اليك . »

وقدّم اليها الظرف ، الذي كان ينطوي على الرسائل الاربع .

وشبكت يديها وصاحت :

— « لقد بحثنا عنه في كل مكان ! »

ثم اختطفت الرزمة ، وفتحت الظرف قائلةً :

— « يا الٓهي ! يا الٓهي ! كم بحثنا أنا وأختي عنه ! ثم كنتَ أنت الذي وجدته ! في الجادة ، اليس كذلك ؟ لا بدّ انك وجدته في الجادة ؟ ترى ، ان هذه الرزمة سقطت منا ونحن نركض . إن اختي الطفلة هي التي ارتكبت هذه الحماقة . وحين رجعنا الى البيت لم نوفّق الى العثور عليه . وإذْ لم نكن راغبتَيْن في ان نُضرَب ، ما دام ذلك غير مفيد ، غير مفيد بالمرّة ، غير مفيد على الاطلاق ، فقد قلنا لأهلنا إننا أوصلنا الرسائل الى اصحابها ، وإنهم أجابونا : على الله ! والآن ، ها هي ذي ، تلك الرسائل المسكينة . ولكن كيف عرفتَ أنها لنا ؟ آه ، نعم : من الخطّ ! واذن ، فقد كنت أنت الذي اصطدمنا به البارحة . نحن لم نرك ، حقاً . ولقد قلت لأختي : « أهذا سيد ؟ » فقالت اختي : « أظن انه سيد ! »

وكانت قد نشرت ، في غضون ذلك ، الرسالة المعنونة : « الى سيدي

الخيّر ، رجل كنيسة سان جان دو هو با » .

وقالت :

— « هاها . هذه هي الرسالة الخاصة بذلك الرجل العجـوز الذي يذهب الى القداس . وفي الحق ، لقد حان الوقت . سوف أمضي واحملها اليه . ولعله ان يعطينا شيئاً نأكل به طعام الصباح . »

ثم شرعت تضحك ، وأضافت :

— « اتدري ما الذي سيحصل اذا تناولنا طعام الصباح اليـوم ؟ الذي سيحصل أننا سوف نتناول فطـور أمس الاول ، وعشاء أمس الأول ، وفطورَ امس ، وعشاء امس - كلها سوف نتناولها دفعـةً واحدة هذا الصباح . أجل ! وحقّ الالـه ! واذا لم تكونوا راضين ، فانفزروا ايها الكلاب ! »

وكان في هذا ما ذكّر ماريوس بالذي من اجله اقبلت الفتاة المسكينة الى غرفته .

وبحث في صدرته ، فلم يجد ثمة شيئاً .

وتابعت الفتاة كلامها ، وكأنها لم تعد تعي ان ماريوس كان هناك .

— « في بعض الاحيان أنطلقُ ليلًا . وفي بعض الاحيان لا أعود الى الغرفة . وقبل ان نجيء الى هذا المكان ، في الشتاء المـاضي ، عِشْنا تحت قناطر الجسور . كان بعضنا يلتصق ببعضنا الآخر حتى لا تجمد اطرافنا من الصقيع . وبكت اختي الصغيرة . ما أبرد الماء ! وحـين فكرتُ بأغراق نفسي ، قلت : « لا ، الماء بارد اكثر مما ينبغي . » إني أنطلق منفردةً حين ارغب في ذلك . إني انام في الخنـادق ، في بعض الاحيان . أتدري ؟ اني في الليل ، حين أمشي على الجـادة ، أرى الاشجار مثل المذاري ، وأرى بيوتاً سوداء ضخمة كلها مثل ابراج نوتردام ، واتخيّل ان الجدران البيض هي النهر ، فأقـول لنفسي : « هنا ! يوجد ماء ، هنا ! » والنجوم اشبه بمصابيح الاضاءة حتى ليخيّل

الى المرء ان الدخان ينبعث منها وان الريح تطفئها . ويصيبني الذهول ، وكأن خيلًا تتنفس في أذني ؛ وعلى الرغم من هبوط الليل ، اسمع أراغنَ يدويةً صغيرة ، وماكينات الغزل ، واشياء لا ادري ما هي . ويتراءى لي ان شخصاً من الاشخاص يقذفني بالحجارة ، فأركض من غير ان ادري ، وليس ذلك كله غير دُوار ، أجلْ دُوار . فحين يكون المرء جائعاً ، يحسّ باشياء مضحكة حقاً . »

ونظرتْ اليه بعين شاردة .

وبعد ان كاد ماريوس يثقب جيوبه بحثاً وتنقيباً وفّق آخر الأمر الى ان يجمع خمسة فرنكات وستة عشر « سو » . وكان ذلك كلّ ما ملكه في تلك اللحظة . وقال في ذات نفسه : « هذا مبلغ يكفي لعشائي الليلة . وغداً سنرى . » واخذ الستة عشر « سو » ، وقدّم الخمسة فرنكات الى الفتاة .

وأخذت القطعةَ النقدية في لهفة .

وقالت :

— « حسن . هناك شيء من نور الشمس . »

وكأنما حملت تلك الشمس على إذابة كُتَل اللسان العاميّ الثلجية ، في ذهنها ، فتابعت :

« خمسة فرنكات ! كوكب نيّر ! ملك من الملوك ! في هذا المنزل ! انت طفل صغير طيب . انا اعطيك قلبي . مرحى ! يومان من الخمر ! سوف تأكل أكلًا ممتازاً ! وحساءً لذيذاً ! »

ورفعت قميصها الى أعلى ، فوق كتفيها ، وانحنت لماريوس انحناءة عميقة ، ثم لوّحت له بيدها ، ومضت نحو الباب قائلة :

— « طاب صباحك ، يا سيدي . كل الامور سواء . سوف اذهب لأبحث عن الرجل العجوز . »

وفي طريقها ، رأت على الخزانة ذات الأدراج كسرة خبز يابسة كان

العفن قد علاها وسط الغبار . فوثبت عليها ، وقضمتها متمتمة :

– « هذا حسن ! إنها قاسية ! إنها تحطم اسناني ! »

ثم خرجت .

٥

يوضاس * العناية الالـهية

كان ماريوس قد عاش ، طـــوال خمس سنوات ، في الفقر ، في الحرمان ، والضيق ، ولكنه أدرك أنه لم يعرف البؤس الحقيقي في يوم من الأيام . إن البؤس الحقيقي ما قد رآه اللحظة . إنه تلك البرقانة التي مرّت تحت ناظريه الآن . والحق ، ان الذي لم يرَ غـــير بؤس الرجل لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس المرأة . ومن لم يرَ غير بؤس المرأة لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس الطفل .

وحين ينتهي المرء الى الطرف الاقصى ينتهي ، في الوقت نفسه ، الى آخر السبل والوسائل . والويل للمخلوقات العاجزة التي تحيط به . إن العمل ، والأجر ، والخبز ، والنار ، والشجاعة ، والرغبة في الخير كلها تعوزه دفعةً واحدة . وهكذا يبدو نور النهار وكأنـــه ينطفيء في الخارج ، ويبدو النور الاخلاقي وكأنه ينطفيء في الباطن . في هذه الدجنّة يلتقي الناس ضعفَ المرأة والطفل ، فيُخضعونهما عنوةً للخزي والعار .

وعندئذ تصبح الأهوال كلها ممكنة . إن اليأس محاطٌ بحواجز واهنة تؤدي كلها إما الى الرذيلة وإما الى الجريمة .

فالصحة ، والشباب ، والشرف ، ولطافات الجسد الرخص المقدسة الفظة ، والقلب ، والبتولية ، والعفة ، بَشَرة الروح تلك – كل هذه

* هو احد تلامذة المسيح الاثني عشر وقد خانه وأسلمه الى طالبيه .

يتخلى عنها على نحو مشؤوم ذلك التلمّسُ الأعمى الذي يبحث عن العون ، والذى يلتقي الخزي ، والذي يقنع به . إن الآباء ، والامهـــات ، والاولاد ، والاخوة ، والاخوات ، والرجال ، والنساء ، والفتيات ليتشبث بعضهم ببعض ، ويَنْمُون معاً ، تقريباً ، مثلَ تشكُّل معدني ، في اختلاط الجنسين ، والقرابات ، والاعمار ، والفواحش ، والبراءات اختلاطاً مظلماً . إنهم يجلسون القرفصاء ، وقـــد ولى بعضُهم ظهرَه بعضَهم الآخر ، في ضرب من « القَدَر الكوخ » . إنهم يتبادلون النظرات في كآبة . اوه ، يا لهم من مساكين ! ما أشدّ شحوبهم ! ما أقرسَ البرد الذي يعصف بهم ! لكأنهم يعيشون على ظهر كوكب أبعد عن الشمس من كوكبنا – أبعد بكثير .

كانت هذه الفتاة الشابة ، عند ماريوس ، رسولاً من لَدُنِ الظلمات .

لقد كشفت له عن مظهر كامل مخيف من مظاهر الليل .

وكادَ ماريوس يعنّف نفسه لأن استغراقه المطلق في الاحلام والاهواء أدى به الى ان لا يُلقي ، حتى الآن ، نظرةً واحدة الى جيرانه . كان دفعُهُ أجرةَ السكنى عنهم مجرد حركة ميكانيكية ، ولقـــد كان خليقاً بأيما امرىء آخر ان يقوم بتلك الحركة . ولكنْ كان عليه – هو ماريوس – أن يفعل شيئاً أفضل . ماذا ؟ لقد فصلهُ مجرد جدارٍ عن هذه المخلوقات المهمَلة التي تعيش بالانطلاق ليلًا تتحسّس سبيلها في الظلام ، بعيداً عن سائر الأحياء ؛ لقد اصطدم بها ، وكان بمعنى من المعـــاني آخر حلقة من حلقات الجنس البشري لمستها أيديها ؛ لقد سمعها تعيش بل تتنفس الى جانبه ، ولكنه لم ينتبه اليها ! وكل يوم ، وكل لحظـة ، سمعها – من خلال الجدار – تمشي وتروح ، وتجيء ، وتتحدث ، ولم يُعِرها أُذنه ! وفي تلك الاحاديث كانت أنّاتٌ ، ولكنه لم يسمعها ! كانت افكاره في مكان آخر ، كانت مستغرقة في الأحـــلام ، في الأيماضات المستحيلة ، في ضروب من الحب غير المعقول ، في الحماقات .

بينا كان نفرٌ من المخلوقات البشرية – إخوته في يسوع المسيح ، اخوته في الشعب – يعالجون سكرات الموت في جواره ! يعالجون سكرات الموت على غير طائل ! بل لقد سبّب هو جزءاً من شقائهم ، وضاعفَهُ . إذْ لو كان لهم جارٌ غيره ، جارٌ اقلّ تعلقاً بالاوهام ، واقوى ملاحظةً ، رجلٌ عاديّ ومحسن ، اذن للاحظ فقرهم ، ولرأى أمارات شقائهم ، واذن لكان من الممكن أن يحظوا بالغوث ويتمتعوا بالنجاة منذ عهد بعيد ! لقد بدَوْا من غير ريب فاسدين جداً ، داعرين جداً ، دنيئين جداً ، بغيضين جداً ، ولكنْ قليلون هم اولئك الذين يفتقرون من غير ان يَذِلوا . والى هذا ، فهناك نقطة يلتقي عندها منكودو الحظ ومهتوكو الستر ويُخلط ما بينهم بكلمة واحدة ، كلمةٍ مشؤومة : **البؤساء** . من المسؤول عن هذه الخطيئة ؟ وفوق ذلك ، اليس صحيحاً انه حين يكون السقوط أعمق يتعيّنُ ان يكون الاحسان أعظم ؟

وفيما هو يعظ نفسه على هذا النحو – إذ كانت ثمة اوقات كان ماريوس فيها ، مثل جميع القلوب المخلصة ، مرشدَ نفسه المعنّف لها باكثر مما تستحق – نظر الى الجدار الذي يفصله عن أسرة جوندريت ، وكأنما كان يستطيع ان يُرسل نظرته المفعمة بالرأفة ، من خلال ذلك الجدار ، الى اولئك القوم التعساء . وكان الجدار طبقة رقيقة من جصّ مدعومة بألواح وعوارض خشبية كان في إمكان المرء أن يسمع من خلالها – كما ذكرنا من قبل – مختلف الكلمات والاصوات سماعاً واضحاً جداً . والواقع ان المرء ينبغي ان يكون ماريوس الحالم حتى لا ينتبه لهذا كله . لم يكن ثمة ورق ملصق على هذا الجدار ، لا من ناحية اسرة جوندريت ، ولا من ناحية ماريوس ؛ فكان تكوينه الجافي عارياً في نظر العين . وعلى نحوٍ غير واعٍ تقريباً درس ماريوس هذا الجدار ؛ فالتأمّل الحالم يفحص في بعض الاحيان ويلاحظ ويتحرى ، شأنَ الفكر

سواء بسواء . وفجأة نهض ؛ لقد لمح في القسم الاعلى من الحجرة ، قرب السقف ، ثقباً مستطيلاً ناشئاً عن ثلاثة الواح خشبية تُركت في ما بينها فجوة . كان الجبسينُ الذي سُدّت به تلك الفجوة في يوم من الايام قد سقط ؛ وبامتطاء متن الخزانة ذات الادراج كان في ميسوره ان يرى من خلل هذا الثقب ، الى عليّة جوندريت . إن للشفقة ، وينبغي ان يكون لها ، فضولها . فقد كان هذا الثقب أشبه ببوصاص . وانه لمن المباح ان ينظر المرء ، الى الشقاء مثل خائن من الخونة ، من أجل العمل على التخفيف من وطأته . وفكّر ماريوس : « فلنرَ قليلاً من هم هؤلاء القوم ، والى أين قد صاروا . »

وتسلّق الخزانة ذات الادراج ، وأدنى حدقته من الثغرة ، ونظر .

٦
الرجل الضاري في مأواه

إن للمدن ، مثلما للغابات ، اوكارها التي يختبيء فيها كل مُوغلٍ في الشرّ وفي الفظاعة . مع فارق واحد ، هو ان من يختبيء في اوكار المدن شرس ، قذر ، حقير ، يعني أنه بشعٌ . في حين ان ما يختبيء في اوكار الغابات شرس ، وحشيّ ، وجليل ، يعني أنه جميل . أوكار مقابل اوكار ، ولكن اوكار البهائم مفضّلة على أوكار البشر . إن المغاور خيرٌ من اكواخ البشر القذرة .

لقد كان ما رآه ماريوس كوخاً قذراً .

كان ماريوس فقيراً ، وكان أثاث غرفته حقيراً ، ولكنْ كما كانت فقره نبيلاً كانت علّيته نظيفة . أما الوكر الذي سدّد النظر اليه اللحظة فكان زريّاً ، قذراً ، منتناً ، عفناً ، مظلماً ، دنساً . وكان كل ما

فيه من الأثاث كرسياً من قش ، وطاولة كسيحة ، وبضعة صحون عتيقة مهشّمة ، وفراشَين حقيرين لا سبيل الى وصفهما منطرحـــين في زاويتين من زواياه . وكان النور لا يتسرّب اليه إلا من نافذة ذات اربعة ألواح زجاجية تجللها أنسجة العنكبوت . ولم يزد الضـــوء المتسرّب من تلك النافذة على ذلك المقدار الكافي لأن يجعل وجه الانسان يبدو وكأنه وجه شبح . كانت ترين على الجدران سيا جذماء ، وكانت تعلوها التخاريم والندوب مثل محيّا شوّهه مرضٌ رهيب ما . وكانت تنضح منها رطوبة عفنة . وكان في ميسور المرء ان يتبيّن على صفحتها صوراً بذيئة رُسمت بالفحم على نحو يُعوزه الاتقان .

كانت الغرفة التي احتلها ماريوس مفروشةً بأرضية آجرية محطّمـة . أما هذه فلم تكن لا مبلّطة ولا مخشّبة . كانوا يمشون مباشرة عـــلى جصّ المنزل القديم الذي أمـسى أسود تحت أقدامهم . وعلى هذه التربة غير المستوية التي تبدّى الغبار وكأنما قد اكتسب فوقها قشرة حجرية ، والتي لم تكن بكراً إلا من حيث امتناعها على المكنسة ، نقول على هذه التربة اجتمعت كيفما اتفق ابراج من الاحذية القماشية العتيقـــة ، والنعال البالية ، والخرق الرهيبة . بيد ان تلك الغرفة كانت تنطوي على موقد ، ومن أجل هذا كانت أجرتها السنوية اربعين فرنكاً . وفي الموقد كان شيء من كل شيء : كان كانون ، ومرجل ، والواح خشبية مهشمة ، وأسمال تتدلى من المسامير ، وقفص عصفور ، وبعض الرماد ، بل ونارٌ ضئيلة ايضاً . كانت جمرتان ترسلان الدخان في كآبة .

وزاد اتساع تلك العلية في مظهرها الراعب . كانت ذات نتوءات ، وزوايا ، وحُفَر سوداء ، وتضاريس تحت السقف ، وخلجان صغيرة ، وآكام مرتفعة . ووراء ذلك كانت زوايا فظيعة لا يُسبر غورها ـ زوايا بدت وكأنها حافلة بالعناكب التي في حجم جُمْعَ اليد ، وأمّات الاربع والاربعـــين التي في حجم القَدَم ، ولربما ببعض الكائنات البشرية

الرهيبة ايضاً .

كان أحد الفراشين قرب الباب ، والآخر قرب النافذة . وكان طرف كلّ منهما يلامس الموقد ، ويواجه ماريوس .

وفي زاوية قريبة من الفجوة التي كان ماريوس ينظر منها كان يتدلى على الجدار ، ضمن إطار من خشب أسود ، نقشٌ ملوّن مكتوب في أدناه بأحرف ضخام : **الحُلُم** . وكان ذلك النقش يمثّل امرأة نائمة وفي حجرها طفل نائم ، ونسراً وسطَ سحابة حاملاً بمنسره تاجاً ، وقد اخذت المرأة تُبعِد التاجَ عن رأس طفلها ، ولكنْ من غير ان تستيقظ . وفي خلفية الرسم بدا نابوليون وسط هالة ، مستنداً الى عمود ازرق ضخم ذي تاج أصفر مزدانٍ بهذه الكلمات :

مارانغو
أوسترليتز
يينا
واغرام
ايلو

وتحت هذا الاطار كان ضربٌ من لوح خشبي مأطور يزيد طوله على عرضه ، وقد أُوقف على ارض العلية وأُسند الى الجدار مشكّلاً زاوية ما . كان يبدو أشبه بلوحة فنية مقلوبة وجهاً لظهر ، أو إطار متسخ في أغلب الظن من الناحية الثانية ، او مرآة بين نافذتين أُنزلت عن الجدار ثم نسي القوم أن يعلّقوها من جديد .

والى الطاولة – التي رأى ماريوس فوقها ريشةً ، وحبراً ، وورقاً – كان يجلس رجلٌ في نحو الستين ، ضئيل الجسم ، هزيل ، شديد الشحوب ، شرس تبدو عليه سيما الدهاء ، والوحشية ، والقلق ، نذلٌ شنيع .

ولو قد ُقدّر لـ « لافاتير » ان يدرس هذا الوجه اذن لوجد فيه مزيجاً من العُقاب والمحامي الصغير . وقد تمّم كلّ من الطائر المفترس والرجل المحتالِ الآخرَ وبشّعَهُ ، إذ جعل الرجلُ المحتالُ الطائرَ المفترس خسيساً ، وجعل الطائرُ المفترسُ الرجلَ المحتالَ رهيباً .

وكانت لذلك الرجل لحية طويلة شائبة . وكان يرتدي قميصاً نسائياً يكشف عن صدره الاشعث ، وذراعيه العاريتين الشائكتين بالشعر الاشيب . وتحت هذا القميص كان في ميسور المرء ان يرى بنطلوناً لوّنه الوحل ، وحذاءً عالي الساق برزت منه أصابع قدَمي الرجُل . كان واضعاً في فمه غليوناً ، وكان يدخن . لم يكن في الوكر بقية من خبز ، ولكنْ كان فيه بقية من التبغ .

كان يكتب ؛ وأغلب الظن ان ما كتبه كان رسائل مثل تلك التي قرأها ماريوس .

وعلى احدى زوايا الطاولة كان مجلد عتيق فريدٌ ضاربٌ لونه الى الحمرة . وكان قطعُهُ ، وهو قطعُ الواحد على اثني عشر من الطلحية الذي ُطبعت به سلاسل الكتب القديمة ، ينمّ عن أنه رواية . وعلى الغلاف ، كان هذا العنوان مطبوعاً بأحرف كبيرة ضخمة :

الله ، الملك ، الشرف ، والسيدات ، بقلم دوكراي دومنيل ، ١٨١٤ .

وتكلم الرجل بصوت عالٍ فيما كان يكتب . وسمع ماريوس كلماته:

— « ما أصعب ان يفكر الانسان بأنه ليس ثمة مساواة حتى بعد الموت ! انظر قليلاً الى « الاب لوشيز » * ! إن الكبار ، اولئك الذين

---

* Lavater فيلسوف وشاعر سويسري (١٧٤١ - ١٨٠١) كانت له براعة فائقة في علم الفراسة .

* مقبرة باريس الرئيسية .

هم اغنياء ، يرقدون في الجزء الاعلى ، في مجـــاز الآكاسيا ، المعبّد . إن في استطاعتهم أن يذهبوا الى هناك في عربة . اما الصغار ، الفقراء ، التعساء ، فهؤلاء يضعونهم في القسم الأدنى - حيث يرتفع الوحـل حتى الركب – في الحُفـَر ، في الرطوبة . إنهم يضعونهم هناك لكي تفسد جثثهم بصورة أسرع ! انك لا تستطيع ان تذهب لتراهم من غير ان تغوص في الأرض . . »

وهنا سكت ، وضرب الطاولة بجمع كفه ، ثم اضاف وهو يصرف بأسنانه :

– « اوه ! في استطاعتي ان آكل العالم . . »

وكانت امرأةٌ ضخمة ، قد يكون عمرها اربعين وقد يكون عمرها مئة ، جالسةً القرفصاء ، قرب الموقد ، على قدميها الحافيتين .

كانت هي ايضاً لا ترتدي غير قميص وتنورة مسرودة مرقعة بقطع من الجوخ العتيق . وكان مئزر من قماش غليظ يغطي نصف تنورتها . وعلى الرغم من ان تلك المرأة كانت محدودبة منكمشة فقـد كان في إمكان الناظر اليها ان يلمح انهـــا فارعة الطول . كانت شبه عملاقـة الى جانب زوجها . كان لها شعرٌ رهيب ، أحمر فاتحٌ وخطّه الشيب ، كانت تردّه الى الوراء بين الفينة والفينة بيديهـا الضخمتين اللامعتين المسطّحة الاظافر .

والى جانبهـا كان ملقىً على الارض ، مفتوحـاً على مصراعيـه ، مجلد في مثل حجم المجلد الآخر ، ولعله ان يكون جزءاً من الرواية نفسها .

وعلى إحدى الحشيّتين لمح ماريوس شبه فتاة صغيرة مهزولة شديـدة الشحوب وقد جلست ، عارية تقريباً ، وتدلت قدماها ، من غير ان يبدو على محياها ما يؤذن بأنها تسمع ، او ترى ، او تحيا .

كانت من غير ريب الاخت الصغرى لتلك الفتاة التي وفـدت على

علّيته .

لقد بدت وكأنها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر . حتى اذا أنعم النظر اليها تبيّن أنها في الخامسة عشرة . وليس من شك في انها هي الطفلة التي قالت ، البارحة ، على الجادة : **« لقد ركضت ! وركضت ! وركضت ! »**

كانت من ذلك الضرب المعتل الصحة الذي يظلّ متخلفاً فترة طويلة ، ثم ينطلق في سرعة وعلى نحو مفاجىء . إنما العوز هو الذي يُطلع هذه النبتات البشرية الكئيبة . فهذه المخلوقات ليس لها طفولة ولا مراهقة. انها في الخامسة عشرة تبدو وكأنها في الثانية عشرة ، وفي السادسة عشرة تبدو وكأنها في العشرين . وإنك لتراهنّ اليوم فتياتٍ صغيرات ، وانك لتراهنّ غداً نسوةً ناضجات . وفي استطاعة المرء ان يقول انهن يتخطّين الحياة وثباً لكي يتخلصن منها في مدة أقصر .

في تلك اللحظة كانت تطفو على محيا هذه المخلوقة سيما الاطفال .

والى هذا ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بأن عملاً من الاعمال كان يتمّ في تلك الغرفة . فلا نَوْل ، ولا دولاب ، ولا أداة . وكانت في احدى الزوايا بضع قطع حديدية ذات مظهر مريب . وعلى الجملة ، فقد كان يرِنُ على العلّية ذلك الكسل القاتم الذي يعقب اليأسَ ، والذي يسبق سكرات الموت .

ونظر ماريوس ، طوال فترة ما ، الى تلك الغرفة المأتمية التي كانت ادعى الى الذعر من جوف قبر ، إذ كان المرء يستشعر هنا اضطراب النفس البشرية ، وخفقان الحياة .

إن العلّية ، والقبو ، والحفرة السفلى ، حيث يدبّ بعض المعوزين في قعر الصرح الاجتماعي ليست القبر نفسَه . إنها غرفة الانتظار المؤدية اليه . ولكنْ ، كما يعرض اولئك الاغنياء اعظم ما يقدرون عليه من أبهة عند مدخل قصرهم ، كذلك يبدو الموت ، الجاثم

على مقربة دانية ، وكأنه يعرض أقصى ما عنده من تعاسة في هذا الرواق .

وصمت الرجل ؛ ولم تتكلم المرأة ؛ ولم يَبدُ أن الفتاة الشابة تتنفّس . كان في استطاعة ماريوس أن يسمع الريشة تخدش الورق في جريها .

وغمغم الرجل من غير ان يكفّ عن الكتابة :

— « سافل ! سافل ! كل شيء سافل ! »

وكان في هذا التحريف لكلمة سليمان المأثورة ما انتزع زفرةً من صدر المرأة .

وقالت :

— « الزم الهدوء ، يا صديقي الصغير . لا تؤذِ نفسك يا عزيزي . جميل منك جداً ان تكتب الى هؤلاء القوم كلهم ، يا صاحبي ! »

في الفقر تتلاصق الاجسام ، شأنها في البرد ، ولكن القلوب تتباعد . كانت كل المظاهر تشير الى ان هذه المرأة كانت خليقةً بأن تحبّ زوجها بكامل ما تقدر عليه من حب . ولكن هذا الحب انتهى الى ان يخمد ، في اغلب الظن ، نتيجةً لتكرّر التوبيخ المتبادل الناشيء عن الشقاء المروّع الذي رزحت تحته الجماعة كلها . ومن هنا لم يبق في قلبها نحو ذلك الزوج غير رماد المحبة . ومع ذلك ، فأنّ تعابير التحبب ، وهو ما يقع دائماً ، لم تمت على لسانها . كانت تقول له : **يا عزيزي** ، **يا صديقي الصغير** ، **يا صاحبي** الخ ، . بشفتيها ، على حين يظلّ قلبها صامتاً .

وعاود الرجلُ الكتابة .

٧
ستراتيجية وتكتيّة *

وكان ماريوس على وشك ان يهبط ، موجَع القلب ، من شبه المرصد ذاك الذي ارتجله ، عندما لفتت انتباهه ضجة ما ، وأغرته بالبقاء حيث هو .

وفُتح باب العلّية على نحو مفاجيء .

وبرزت الفتاة الكبرى عند العتبة .

كانت تنتعل حذاءً رجالياً ضخماً يعلوه الوحل المتناثر حتى كعبيها الأحمرين ، وكانت تتسربل برداء فضفاض عتيق لم يره ماريوس على جسدها قبل ساعة ، ولعلها ان تكون قد تركته عند بابه لتستدرّ شفقته اقصى ما يكون الاستدرار ، ثم عاودت لبسه حين خروجها ، من غير شك . ودخلتْ ، ودفعت الباب خلفَها ، ووقفت لكي تأخذ نفَساً ، فقد كانت تلهث لهاثاً شديداً ، ثم صاحت وقد طفَتْ على محيّاها سيا النصر والبهجة :

— « إنه آتٍ ! »

وأدار الأب عينيه ، وأدارت المرأة رأسها ، ولم تتحرك الاخت الصغرى .

وتساءل الأب :

— « من ? »

— « الرجل ! »

— « المحسن ? »

* تعريب اصطنعناه للفظة tactique في اللغات الاجنبية وتعني فن الحرب وتنظيم المقاتلين .

– « نعم . »

– « محسن كنيسة سان جاك ؟ »

– « نعم . »

– « ذلك الرجل العجوز ؟ »

– « نعم . »

– « سوف يأتي ؟ »

– « لقد مشى على اثري . »

– « أواثقة أنتِ ؟ »

– « انا واثقة . »

– « ولكنْ ، اهو قادمٌ حقاً ؟ »

– « إنه آتٍ في عربة اجرة . »

– « في عربة اجرة . هذا روتشيلد ! »

ونهض الأب .

– « كيف تقولين انك واثقة ؟ اذا كان قادماً في عربة اجرة فكيف جاز ان تصلي قبله ؟ هل أعطيته عنوان البيت على الاقل ؟ هل قلتِ له جيداً : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين ؟ شرط ان لا يرتكب خطأ ما ! لقد وجدتِهِ في الكنيسة ، اذن ؟ هل قرأ رسالتي ، ماذا قال لكِ ؟ »

فقالت الفتاة :

– « تا ، تا ، تا ! كيف تعدو خَبَباً ، ايها الرجل الساذج ! سوف أقول لك : لقد ذهبتُ الى الكنيسة ؛ كان في مكانه المعتاد ؛ وحنيت له رأسي احتراماً ؛ وقدّمت اليه الرسالة ، فقرأها وقال لي : « اين تسكنين ، يا طفلتي ؟ » فقلت : « سيدي ، سوف اقودك اليه . » فقال لي : « لا ، أعطيني عنوانك . إن ابنتي تريد ان تشتري بعض الحاجات ، ولسوف آخذ عربة ، فأصل الى منزلك حالما تصلين . »

واعطيته العنوان . وحين ذكرتُ اسم البيت ، بدا وكأنه دُهش ، وتردد لحظة ، ثم قال : « سيان ، سوف اذهب . » وعندما انتهى القداس ، رأيته يغادر الكنيسة مع ابنته . لقد رأيتهما يركبان العربة . ولقد قلت له في وضوح : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين . »

— « وكيف تعرفين انه سوف يأتي ؟ »

— « لقد رأيت العربة ، منذ لحظة ، وقد وصلتْ الى شارع « بيتي بانكييه » . وذلك ما جعلني اركض . »

— « وكيف تعرفين انها العربة نفسها ؟ »

— « لأني راقبت رقمها . »

— « وما هو هذا الرقم ؟ »

— « اربعمئة واربعون . »

— « حسن . انت فتاة ذكية . »

فنظرت الفتاة الى ابيها ، في جسارة ، وقالت وهي تشير الى الحذاء الذي انتعلته :

— « فتاة ذكية ، هذا جائز . ولكني اقول لكَ اني لن ألبس هذا الحذاء بعد اليوم ، واني لم أعد اريده ، من اجل الصحة ، اولاً ، ومن اجل النظافة ثانياً . انا لا اعرف ما هو ازعج من النعال التي تَصِرّ : زيء ، زيء ، زيء ، طول الطريق . اني افضل ان امشي حافية . »

فأجابها الاب في نبرة رقيقة تغايرت تغايراً واضحاً مع خشونة الفتاة الشابة :

— « أنتِ على صواب . ولكن اذا مشيت حافية فعندئذ لا يسمحون لكِ بالدخول الى الكنيسة . إن على الفقراء ان يلبسوا أحذية . »

قال ذلك ، واضاف في مرارة :

— « ان الناس لا يذهبون الى بيت الله حفاةً ! »

ثم رجع الى الموضوع الذي يشغل تفكيره :

— « ولكن ، هل انت واثقة من انه آتٍ ؟ »

فقالت :

— « إنه قادمٌ على اثري . »

ووثب الرجل . كان يطفو على وجهه شبه إلهام .

وصاح :

— « ايتها الزوجة ! اتسمعين ؟ هوذا المحسن . أطفئي النار . »

ولم تتحرك الأمّ المشدوهة .

وفي رشاقة مشعوذ أمسك الأب بإناء مكسور كان على الموقـد ، وقذف الجمرات بشيء من الماء .

ثم التفت الى ابنته الكبرى وقال :

— « أنتِ ! أزيلي قشّ الكرسيّ ! »

ولم تفهمه ابنته قط .

فأمسك بالكرسي ، ورفسها رفسةً أتلفها بها . لقد نفذت ساقهُ من خلالها .

وفيما هو يسحب ساقَهُ ، سأل ابنته :

— « الجو بارد ؟ »

— « بارد جداً . الثلج يتساقط . »

واستدار الأب نحو الفتاة الصغرى التي كانت على الحشيّة القريبة من النافذة ، وصاح في صوت راعد :

— « عجّلي ! اخرجي من الفراش ، يا من لا تصلح لشيء ! ألن تفعلي شيئاً على الاطلاق ؟ اكسري لوح زجاج ! »

ووثبت الفتاة الصغيرة من الفراش وهي ترتعد .

وقال كرةً اخرى :

— « اكسري لوحاً من ألواح الزجاج ! »

وظلت الفتاة معتصمة بالصمت .

وكرّر الاب :

— « أتسمعين ما أقول ؟ اقول لك اكسري لوحاً زجاجياً ! »

وفي ضرب من الخضوع المذعور ، انتصبت الطفلة على رؤوس اصابعها وضربت احد الواح النافذة الزجاجية بجُمْع كفها . وانكسر اللوح ، وسقط محدثاً ضجةً كبيرة .

فقال الأب :

— « حسن . »

كان رصيناً ورشيقاً . وفي سرعة ، طافت عينهُ بزوايا العلية جميعاً .

ولو قد رأيتَهُ اذن لقلت انه جنرال يتخذ الاستعدادات النهائية لحظة اوشكت المعركة ان تنشب .

ونهضت الأم — ولم تكن قد نطقت بكلمة ما حتى الان — وسألت في صوت بطيء مخنوق ، وقد بدت كلماتها وكأنها تنطلق متجمدةً :

— « ما الذي تريد ان تصنعه ، يا عزيزي ؟ »

فأجابها الرجل :

— « عودي الى فراشكِ ! »

كانت لهجته حاسمةً لا تحتمل جدالاً . فأذعنت الأم ، وانطرحت في ثِقَل فوق احدى الحشيّتين .

وفي غضون ذلك سُمِعت زفرةٌ في زاوية ما .

فصاح الأب :

— « ما هذا ؟ »

ومن غير ان تخرج من الظلام الذي انكمشت فيه ، أبرزت الفتاة الصغرى جُمْعَ كفّها الدامي . لقد جُرحت عند كسرها زجاج النافذة .

كانت قد ذهبت الى فراش أمها ، وكانت تبكي في صمت . وهنا جاء دور الأم في الانتصاب والصياح :

— « انت ترى جيداً ! أية حماقات هذه التي ترتكبها ! لقد جرحت نفسها لكي تكسر لوحك الزجاجي ! »

فقال الرجل :

— « هذا خير ! لقد كنت أعرف أنها سوف تجرح نفسها . »

فاستأنفت المرأة الكلام :

— « كيف ؟ تقول إن هذا خير ؟ »

فأجابها الأب :

— « الصمت ! إني أكبت حرية الصحافة ! »

ثم إنه مزّق القميص الذي كان يرتديه ، واتخذ منه ضمادة سارع الى رَبْط رسغ ابنته الصغرى الدامي ، بها .

حتى اذا أتمّ ذلك ، وقعت عيناه على القميص الممزق في ارتياح ، وقال :

— « والقميص ايضاً . إن لهذا كله مظهراً حسناً . »

وصفرت ريحٌ مثلوجة عند النافذة ، ودخلت الى الغرفة . وتسرّب الضباب من الخارج ، وانتشر في جنباتها مثل قطن منـدوف ضاربٍ لونُهُ الى البياض تفرّقه اصابع غير منظورة . ومن خلال اللوح الزجاجي المكسور رُئي الثلج يتساقط . كان البرد المرتقَب قبل يوم من عيـد تقدمة يسوع في الهيكل قد أقبل فعلاً .

وأجال الأب نظرهُ في ما حوله وكأنما كان يريد أن يتأكد من أنه لم ينسَ شيئاً . لقد أمسك بمجرفة عتيقة ، ونشر الرماد فوق الجمرات المبلّلة على نحو يخفيها إخفاءً كاملاً .

ثم استقام وأسند ظهره الى الموقد .

وقال :

– « الان ، نستطيع أن نستقبل رَجُل الاحسان ! »

٨
الشعاع في البيت الحقير

ومضت الفتاة الكبرى الى أبيها ، ووضعت يدها على يده .
وقالت :
– « أنظر كم أنا بردانة ! »
فأجابها الاب :
– « هه ! أنا بردان اكثر منك بكثير . »
وصاحت الأم في حدة :
– « إنك تجد كل ما عندك خيراً مما عند غيرك ، حتى الألم ! »
فقال الرجل :
– « إخفضي صوتك ! »
وبعد أن سدّد الرجل الى زوجه نظرةً خاصة ، لزمتِ السكوت .
وعَبَرتِ بالوكر لحظةُ صمت . كانت البنت الكبرى تزيل الوحل ، في سيماء لا مبالية ، عن الجزء الادنى من ردائها ، وكانت الاخت الصغرى تواصل تنهُّدها ، وقد طوّقت الأم رأسها بيديها الاثنتين وغمرتها بالقبلات ، قائلةً لها في صوت خفيض :
– « أتوسل اليكِ ، يا كنزي ! إنّ هذا الجرح سوف يندمل في الحال . لا تبكي . إن ذلك يغضب والدكِ . »
فصاح الاب :
– « لا ! على العكس ! انتحبي ! انتحبي ! هذا يترك أثراً رائعاً . »
ثم ارتدّ الى ابنته الكبرى ، وقال :

– « آه ، ولكنه لم يأتِ ! إذا كان لا يعتزم المجيء ، فعندئذ اكون قد اطفأت ناري ، ونزعتُ القسم الاسفل من كرسيّي ، ومزّقت قميصي ، وكسرت لوح زجاجي من غير فائدة ! »

فدمدمت الام :

– « وجرحتُ الطفلة الصغيرة ! »

ثم استأنف الاب حديثه قائلاً :

– « أتعرفين أن هذه العليّة الشيطانية باردة كالكلب ؟ أما اذا لم يأتِ هذا الرجل ! أوه ! هو ذاك ! إنه يحملنا على انتظاره ! إنه يقول في ذات نفسه : « حسناً ، إنهم ينتظرونني ! ذلك ما خُلقوا من أجله ! » أوه ! كم أكرههم ، وما اجدرني بأن اخنقهم في تهلّل ، وبهجة ، وحماسة ، وارتياح – أولئك الاغنياء ! جميع اولئك الاغنياء ! اولئك الذين يتظاهرون بأنهم رجالٌ محسنون ، والذين هم شديدو التقوى ، والذين يذهبون الى القداس ، والذين يصدقون رجال الدين المردّدين معاني خطبهم على نحو مضحك ، ويصدّقون الكهان ، والذين يحسبون انفسهم اسمى منا ، والذين يجيئون لكي يُذلّونا ، ويحملوا الينا الملابس ! كما يَدْعونها ! خِرَقٌ لا تساوي اربعة فلوس ، وشيء من الخبز ! ليس هذا ما أريده من اولئك السفلة ! انا اريد مالاً ! آه ، ولكنهم لا يقدّمون الينا مالاً البتة ! لانهم يقولون إننا نذهب ونشرب الخمر به ، وإننا سكيرون لا نصلح لشيء ! وحضراتهم ! ايّ شيء هم اذن ، وايّ شيء كانوا في زمانهم ؟ لصوص ! ولولا ذلك لما كان في استطاعتهم ان يصبحوا أغنياء ! أوه ! يجب ان يُمسك احدنا بالمجتمع من زوايا السماط الأربع ويقذف به في الهواء . سوف ينكسر كل شيء ، هذا جائز ، ولكنّ احداً لن يملك شيئاً على الاقل ، وهذا في ذات نفسه ربح ! ولكنْ ، ما الذي يفعله ، الان ، صاحبُك المحسن الغليظ ؟ هل سيأتي ؟ لعل ذلك الحيوان قد نسي العنوان ! أراهن ان ذلك

المعتوه المعوز ... »

في تلك اللحظة ، قُرع الباب قرعاً رفيقاً ؛ واندفع الرجـل الى أمام وفتحه ، هاتفاً منحنياً عدة مرات انحناءً خفيضاً ، ومرسلاً ابتسامات الاعجاب والتقدير :

— « أدخل ، يا سيدي ! تنازل وادخل ، يا محسني النبيل ، وأدخِلْ معك آنستك الفاتنة ! »

وبرز لدى باب العليّة رجلٌ كهل ، وفتاة شابة .

ولم يكن ماريوس قد فارق مكانه . لقد استشعر في تلك اللحظة ما تعجز اللغة الانسانية عن وصفه .

كانت هي .

وكل من أحبّ ، يعرف كاملَ المعنى المشعّ الذي ينطوي عليه حرفا هذه الكلمة : هي .

كانت هي حقاً . وإنما تبيّنها ماريوس ، في كثير من العسر ، من خلال البخار الساطع الذي انتشر فجأة فوق عينيه . كانت ذلك الكائنَ العذب الذاهل ، ذلك النجم الذي كان نورَه طوالَ ستة اشهر ، تلك الحدقة ، ذلك الجبين ، ذلك الفم ، ذلك المحيّا الجميـل الذي امحّى ، والذي خلّف وراءه ظلاماً دامساً . كانت الرؤيا قد اعتراها الكسوف ، وها هي ذي الآن تعاود الظهور !

لقد عاودت الظهور في هذه الظلمة ، في هذه العليّة ، في هـذا الوكر الشائه ، في هذا الهول !

وارتعد ماريوس ارتعاداً عنيفاً . ماذا ؟ إنها هي ! وكان في خفقان قلبـه ما أوقع الاضطراب في بصره . لقـد استشعر ان عينيه على وشك أن تغرورقا بالدموع . ماذا ! لقد رآها من جديد ، آخر الأمر ، بعد ان بحث عنها دهراً طويلاً ! وبدا له وكأنما كان قد أضاع نفسَهُ ثم اهتدى اللحظةَ اليها .

كانت لا تزال هي هي ، ولكنها شاحبةٌ بعض الشيء . كان وجهها الدقيق مطوّقاً بقبعة مخملية بنفسجية ، وكانت قامتها محجوبةً تحت رداء حريري أسود مبطّن بالفرو . ولقد لمح تحت فستانها الطويل قدَمها الصغيرة مُقحَمةً في حذاء حريري عالٍ ذي رباط .

كان مسيو لوبلان لا يفارقها ، جرياً على مألوف عادته .

كانت قد تقدمت بضع خطوات في الغرفة ، ووضعت رزمة كبيرة على الطاولة .

وكانت البنت الكبرى قد ارتدّت خلفَ الباب وانشأت تنظر ، في حسد ، الى تلك القبعة المخملية ، وذلك الرداء الحريري ، وهذه الطلعة المبتهجة الفاتنة .

٩
جوندريت يكاد يبكي

كانت العليّة من الاظلام بحيث استشعر الوافدون اليها من الخارج أنهم يَلِجون كهفاً من الكهوف . وهكذا تقدّم الوافدان الجديدان ، في شيء من التردّد ، وهما لا يكادان يتبيّنان الوجوه الباهتة من حولهما ، على حين كان سكان العليّة الذين تعوّدت أعينهم هذا الغسق يرونهما في وضوح ويدرسونهما في عناية .

واقترب مسيو لوبلان ، بسيمائه الكريمة الكئيبة ، وقال للأب :

— « سيدي ، سوف تجد في هذه الصرّة بعض الملابس الجديدة ، وبعض الجوارب والبطانيات الصوفية . »

فقال جوندريت ، منحنياً حتى الارض :

— « إن محسننا الملائكي يغمرنا بنعَمِه . »

ثم مالَ على أذن ابنته الكبرى ، فيما كان الزائران يفحصان هــذا المسكن المبكي ، وأضاف في سرعة وفي صوت خفيض :

— « هه ؟ ماذا قلت لكِ ؟ خِرَق بالية ! لا مال ! إنهم جميعاً سواء ! أخبريني ، أيّ إمضاء كان يذيّل الرسالة الموجهة الى هذا الأبله العجوز ؟ »

فأجابته الفتاة :

— « فابانتو . »

— « الفنان المسرحي . حسن ! »

وكان ذلك من حسن حظ جوندريت ، إذْ في تلك اللحظة التفت لوبلان نحوه ، وقال له وقد بدت على وجهه سيما من يحاول ان يتذكر اسماً :

— « ارى انك تستحق الشفقة حقاً ، يا مسيو ... »

فسارع جوندريت الى القول :

« فابانتو . »

— « مسيو فابانتو . أجل ، ذلك هو . لقد تذكرت . »

— « فنان مسرحي ، يا سيدي ، وُفّق في ما مضى الى نجاح كثير . »

وهنا حسب جوندريت من غير ريب أن لحظة الاستحواذ على مشاعر « محسنِهِ » قد أزفت . فهتف في جَرْس حافلٍ بزهــو مشعوذٍ في الاسواق الموسمية ومذلة شحاذ في الطريق العام ، في آنٍ معاً :

— « تلميذ من تلاميذ تالما * ، يا سيدي ! انا تلميذ من تلاميــذ تالما ! لقد ابتسم لي الحظ في وقت من الاوقات . وأسفاه ! الآن جاء دور الشقاء . أنظر يا سيدي المحسن : لا خــبز ، لا نار ! إن

* ممثل فرنسي شهير ، وقد سبق التعريف به .

اطفالي الصغار لا نار عندهم . أنظر الى هذا الكرسي الوحيــد الذي تقطّع قشّه ! والى هذا الزجاج المكسور ! وفي مثل هذا الجوّ العاصف ! إن زوجتي في الفراش ! انها مريضة ! »

فقال مسيو لوبلان :

– « مسكينة ! »

فأضاف جوندريت :

– « وابنتي جريحة ! »

وكانت الطفلة – التي أذهلها وصول الزائرين الغريبين – تحدّق الى « الآنسة الصغيرة » ، وكانت قد كفّت عن الانتحاب .

وقال لها جوندريت ، في همس :

– « لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تصرخين ؟ »

وفي الوقت نفسه قرص يدها الجريحة . كل ذلك في براعة مشعوذ من المشعوذين .

وأطلقت الصغيرة صرخات عالية .

وسارعت نحوها الفتاة الشابة البارعة الجمال التي دعاها ماريوس في سريرة نفسه « أورسوله » .

وقالت :

– « ايتها الطفلة العزيزة ، المسكينة ! »

وتابع جوندريت حديثه :

– « انظري ، يا آنستي الجميلة ، الى رسغها الدامي ! ذلك حادث أصابها وهي تعمل بواسطة احدى الماكينات لكي تجني ستة فــلوس في اليوم . وقد نُضطرّ في المستقبل الى ان نبتر ذراعها . »

فقال السيد العجوز مذعوراً :

– « حقاً ؟ »

وإذ أخذت الفتاة الصغيرة هذا الكلام أخذاً جدياً فقد استأنفت الانتحاب على نحو أجمل .

وأجاب الأب :

— « نعم ، وأسفاه ، يا مُحسني ! »

كان جوندريت يتأمل « المحسن » ، منذ بضع لحظات ، تأملاً غريباً . لقد بدا ، حتى وهو يتكلم ، وكأنما كان يفحصه فحصاً دقيقاً ، شأنَ من يحاول ان يسترجع ذكرىً معيّنة . وفجأة — وقد أفاد من اللحظة التي انصرف فيها الزائران الى سؤال الفتاة الصغرى ، في لهفة ، عن يدها الجريح — تقدّم نحو امرأته المنطرحة في فراشها ، وقد بدت عليها سيما الاجهاد والبلاهة ، وقال لها في سرعة وفي صوت خفيض جداً :

— « تأمّلي هذا الرجل ! »

ثم استدار نحو مسيو لوبلان ، وتابع شكواه النائحة :

— « انظر يا سيدي ! كل ما على جسدي من الثياب قميص من قمصان زوجتي ! وهو قميص ممزّق تمزيقاً كاملاً ! وفي قلب الشتاء ! أنا لا أستطيع الخروج من هذا المكان ، لاني لا أملك بذلة . ولو كان عندي بذلة مهما تكن حقيرة اذن لذهبت وزرتُ الآنسة مارس التي تعرفني والتي تحبني كثيراً . إنها لا تزال تسكن في شارع « لا تور دي دام » ، أليس كذلك ؟ أتدري ، يا سيدي ؟ لقد مثّلنا معاً في الأرياف . لقد قاسمتها أكاليل الغار التي تُوّجت بها . إن سيليمين * جديرة بأن تأتي الى نجدتي ، يا سيدي ! إن ايلمير ** خليقة بأن تتصدق

---

* Célimène إحدى شخصيات موليير في رواية « مبغض البشر » Misanthrope وهي تمثل المرأة الشابة ، الجميلة ، المتناجة ، النامة .

** Elmire زوجة اورغون في رواية « طرطوف » لموليير ، وهي تمثل المرأة المخلصة من غير مغالاة في تكلف العفة .

على بيليزاريوس * ! ولكن لا ، لا شيء ! ليس في منزلي فلس واحد ! إن زوجتي مريضة ، وليس من فلس ! إن ابنتي جريح على نحو خطر ، وليس من فلس ! إن زوجتي تصاب بنوبات اختناقية . فهي في سن الشيخوخة ؛ ثم إن للجهاز العصبي صلةً بذلك ايضاً . إنها في حاجة الى مساعدة ، وكذلك ابنتي ! ولكن الطبيب ! ولكن الصيدليّ ! كيف أستطيع أن ادفع ما يطلبانه ؟ ليس في جيبي فلس ! اني جدير بأن أركع على ركبتيّ امام فلس واحد ، يا سيدي ! أنت ترى كيف انهارت الفنون ! وهل تعرفين ! أنتِ يا آنستي الفاتنة ، وانت يا نصيري الكريم ، هل تعلم ، أنت الذي يعبق بالفضيلة والطيبة والذي تعطّر الكنيسة التي تراك فيها ابنتي كل يوم عندما تذهب للصلاة ؟ ذلك أني أنشّيء بنتيّ على الدين ، يا سيدي . انا لم اسمح لهما ان تميلا الى المسرح . آه ، يا للماكرتين ! لو رأيتهما تزلُّ بهما القدم ! أنا لا أهزل ، أنا ! اني أحصّنهما بمواعظ عن الشرف ، عن الاخلاق ، عن الفضيلة ! إسألهما ! ان عليهما ان تسلكا مسلكاً قويماً . ان لهما أباً . انهما ليستا من اولئك التعسات اللواتي يبدأن بأن لا تكون لهن أسرة ، واللواتي ينتهين بالزواج من الجمهور ! ان الواحدة منهن تكون « مدموزيل لا أحد » ، ثم تصبح « مدام كل انسان » ! شكراً للسماء ! ليس ثمة شيء من ذلك في أسرة فابانتو ! أنا أعتزم ان اثقفهما على اساس من الفضيلة ، وأن اساعدهما على ان تكونا طاهرتي الذيل ، وان تكونا لطيفتين ، وأن تؤمنا بالله ! جلّ اسمه ! حسناً ، يا سيدي ، يا سيدي الجليل ، هل تعلم ما الذي سيقع غداً ؟ غداً هو

---

* Bélisaire جنرال بيزنطي (حوالى ٤٩٤ – ٥٦٥) قهر ، في عهد جوستنيان ، القوات الفارسية والفندالية ، وصدّ جماعات الهون . وتذهب بعض الروايات التاريخية الى أنه فقد بصره في اواخر حياته وأمسى شحاذاً . ومن هنا فقد أمسى اسم بيليزاريوس يرمز الى الفقير الاعمى الذي تنطوي نفسه على شيء من النبل والخلق الرفيع .

الرابع من شباط ، اليوم المشؤوم ، المهلة الأخيرة التي أعطاني اياها مؤجري . فاذا لم ادفع اليه الاجرة هذا المساء فان ابنتي الكبرى ، وأنا ، وزوجتي وحُمّاها ، وطفلتي وجرحها سوف نُطرَدُ غداً ، نحن الاربعة ، من هنا ، ونُطرح الى الخارج ، الى الشارع ، الى الجادة ، من غير ملجأ ، وتحت المطر ، وتحت الثلج . تلك هي المسألة ، ياسيدي . أنا مدينٌ لصاحب البيت بأربعة اقساط . بأجرة سنة ! يعني ستين فرنكاً . »

لقد كذب جوندريت . إن الاقساط الاربعة لا يزيد مجموعها على اربعين فرنكاً ، ولم يكن من المعقول ان يكون مديناً بأربعة اقساط اذ لمّا تنقضِ ستة اشهر على دَفع ماريوس قيمةَ قسطَين عنه .

واخرج مسيو لوبلان خمسة فرنكات من جيبه ، وطرحها على الطاولة .

ووجد جوندريت متسعاً من الوقت ليدمدم في أذن ابنته الكبرى :

– « النذل ! ايّ شيء يريد مني ان افعله بفرنكاته الخمسة ؟ إن هذا لا يكفي لاصلاح كرسيي ونافذتي ! يجب ان استرجع نفقاتي ! »

وفي غضون ذلك ، كان مسيو لوبلان قد نزع سترة طويلة واسعة سمراء ارتداها فوق سترته الطويلة الزرقاء ، وكان قد طرحها على ظهر الكرسيّ .

وقال :

– « مسيو فابانتو ، لستُ أحمل غير خمسة فرنكات . ولكني سوف أرجع بابنتي الى البيت ، ثم اعود هذا المساء . ألست مضطراً في هذا المساء الى الدفع ؟ »

وأشرق وجه جوندريت بتعبير غريب . واجاب في سرعة :

– « نعم ، يا سيدي المحترم . في الساعة الثامنة يجب ان اكون عند صاحب البيت . »

– « سوف ارجع الى هنا في الساعة السادسة ، ولسوف احمل اليك الفرنكات الستين . »

فصاح جوندريت في انفعال شديد :

– « يا محسني ! »

واضاف في صوت كالهمس :

– « تأمّليه جيداً ، ايتها الزوجة ! »

وكان مسيو لوبلان قد أمسك بذراع ابنته الجميلة الشابة واستدار نحو الباب .

وقال :

– « الى هذا المساء ، ايها الاصدقاء . »

فقال جوندريت :

– « الساعة السادسة ؟ »

– « الساعة السادسة على الضبط . »

وفي تلك اللحظة لفتَ المعطف الملقى على الكرسيّ نظر الفتاة الكبرى ، فقالت :

– « سيدي ، لقد نسيت سترتك الطويلة . »

وحدج جوندريت ابنته بنظرة صاعقة مصحوبة بهزة كتفين فظيعة .

والتفت مسيو لوبلان ، في ابتسامة :

– « انا لم أنسَها . لقد تركتُها . »

فقال جوندريت :

– « اوه ، يا نصيري ! يا محسني النبيل . إن عينيّ تغرورقان بالدمع ! إسمح لي بأن اشيّعك حتى عربتك العمومية . »

فأجابه مسيو لوبلان :

– « اذا خرجتَ ، فالبس هذا المعطف . ان الجو جدُّ بارد حقاً . »

ولم يضطره جوندريت الى ان يقول ذلك مرتين . لقد سارع الى ارتداء المعطف الاسمر في خفة بالغة .

وخرجوا ثلاثتهم ، وقد تقدّم جوندريت الزائرين .

١٠
تعرقة عربات الاجرة ذوات الدولابين
فرنكان في الساعة

لم يفت ماريوس شيء من هذا المشهد كله ، ومع ذلك فانه لم ير منه ، في الواقع ، شيئاً . كانت عيناه قد رُكّزتا على الفتاة الشابة ، وكان قلبه قد أمسك بها ــ اذا جاز التعبير ــ وطوّقها تطويقاً كاملاً منذ وطئت قدماها ارض العلّية . وطوالَ مقامها هنـــاك غمرته تلك النشوة الروحية الـتي تعطّل المشاعر المـــادية وتحمل النفس على الاستغراق في نقطة واحدة . لقد تأمّل ، لا تلك الفتاة ، ولكنْ ذلك الضياء المتشح برداء حريري مبطّن بفرو ، والمعتمر بقبعة مخمليـة . ولو ان الشّعرى دخلت الغرفـةَ لمـــا بهرت بصرَه عـــلى نحوٍ أشدّ .

وفيما كانت الفتاة الشابة تفتح الصرّة ، وتنشر الملابس والبطانيات ، موجّهة الاسئلة في طيبةٍ الى الأم المريضة ، وفي حنان الى الفتاة الجريح ، راقب انفعالاتها كلهـــا ، وحاول ان يصغي الى كلماتها . كان يعرف عينيها ، وجبينها ، وجمالها ، وقامتها ، ومشيتها ، ولكنه مـا كان يعرف جَرْس صوتها . وحسبَ انه تلقّف بضع كلمات منه ، ذات مرة في اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يكن موقنـــاً كل اليقين . وكان على استعداد لأن يتخلى عن عشر سنوات من حياته لكي يسمعه ، ولكي يتمكن من ان يحمل في روحه قليلاً من تلك الموسيقى . ولكن كل شيء تلاشى وسط استعراضات جوندريت الموجعة وتبويقاته الصارخـة . واضاف ذلك غضباً حقيقياً الى تهلّل ماريوس . لقد حضنها بعينيه . ولم يستطع ان يتخيل ان هذه التي لمحها وسط هذه الكائنات الدنـة في هذا

الوكر الرهيب كانت تلك المخلوقة الالـهية فعلاً . لقد بدا له وكأنه رأى طيراً صغيراً رقيق المنقار بين مجموعة من ضفادع الجبل .

وحين خرجت لم يخطر له غير خاطر واحد : ان يتبعها ، ان يقتفي أثرها ، ان لا يتركها من غير ان يعرف أين تسكن ، وان لا يُضيعها كرةً اخرى ، على الاقل ، بعد ان وجدها على هذا النحو الاعجوبيّ ! ووثب عن الخزانة ذات الادراج ، وتناول قبعته . ولم يكد يضع يده على القفل ، ويخطو الى خارج العلية حتى اوقفتـه فكرة . كان الرواق طويلاً ، وكانت السلم وعرة الانحدار ، وكان جوندريت ثرثاراً ؛ وليس من شك في ان مسيو لوبلان لمـّا يدخل عربته بعدُ . ولو قد اتفق له ان يلتفت في المجاز ، أو على السلم ، او عند العتبة ، ويلمحه – هو ، ماريوس – في ذلك البيت ، اذن لأصـابه الذعر من غير شك ، واذن لوجد وسيلة الى الفرار منه كرة ثانيةً ، وينتهي كل شيء من جديد . ما العمل ؟ اينتظر قليلاً ؟ ولكن العربة قد تمضي لسبيلها خـلال فترة الانتظار هذه . وارتبك ماريوس . واخيراً غامر ، وغادر غرفته .

لم يكن في الرواق أحـــد . وهرع الى السلم . ولم يكن على السلم أحـد . وهبطها في سرعـة ، وبلغ الجادة لحظـة كانت عربـة الاجرة تستدير حول زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » وترجـع الى باريس .

واندفع ماريوس في ذلك الاتجاه . وحين انتهى الى زاوية الجادة رأى عربة الاجرة كرةً اخرى تهبط شارع موفتارد مسرعةً . كانت العربة قد اجتازت مسافة غير يسيرة ، ولم تكن ثمة وسيلة الى اللحاق بهـا . ما الذي يتعـيّن عليه ان يفعله ؟ أيعدو خلفها ؟ مستحيل . انهم سوف يلاحظون من داخل العربة – لا ريب في ذلك – رجلاً يركض لاحقاً بهم باقصى السرعة ، وعندئذ يعرفه الأب . وفي تلك اللحظة – وكانت فرصة ذهبية لم يُسمع بمثلهـــا – لمح ماريوس عربة اجرة ذات دولابين

تخطر فارغةً في الجادة . ولم يكن ثمة غير سبيل واحدة : ان يمتطي متن هذه العربة ذات الدولابين ، ويلحق بعربة الاجرة . كان ذلك مأموناً ، ناجعاً ، خلواً من الخطر .

وأشار ماريوس الى السائق ان يقف ، وصاح قائلاً له :

– « في الحال ! »

كان ماريوس من غير ربطة عنق ، وكان يرتدي بذلة عمله العتيقة التي أعوزتها بعض الازرار ، وكان قميصه ممزقاً عند احدى ثنيات الصدر .

ووقف السائق ، وغمز بعينه ، وبسط يده اليسرى نحو ماريوس فاركاً سبابته في رفق ، بأبهامه .

فقال ماريوس :

– « ماذا ؟ »

فأجابه السائق :

– « إدفع مقدّماً . »

وتذكّر ماريوس أنه ما كان يملك غير ستة عشر « سو » .

وسأله :

– « كم ؟ »

- « اربعون سو . »

– « سوف أدفع حين أعود . »

ولم يُجب السائق باكثر من الترنم صافراً بلحن « لا باليس » ، وإلهاب جواده بالسوط .

ونظر ماريوس ، شارد اللب ، الى العربة تبتعد . فمن أجل اربعة وعشرين « سو » كانت تعوزه ، أضاع بهجته ، وسعادته ، وحبه ! لقد انقلب الى الظلام . كان قد أبصر ، ثم ارتدّ أعمى ! وفكّر في مرارة ، وفي اسف عميق – وهو ما ينبغي ان نقوله – بالفرنكات

الخمسة التي قدّمها ، ذلك الصباحَ ، الى تلك الفتاة البائسة . اذ لو كانت تلك الفرنكات الخمسة في جيبه اذن لفاز بالخلاص ، ولوُلِد من جديد ، ولخرج من الشك والظلام ، ولفارق عزلته ، وسوداويته ، وُثكلَهُ ، ولعاودَ عقدَ خيط قَدَرِه الاسود بذلك الخيط الذهبي الجميل الذي طفا اللحظةَ أمام عينيه ثم انقطع كرةً اخرى . ورجع الى البيت العتيق يائساً .

كان في ميسوره أن يذكر أن مسيو لوبلان وعد بالعودة ذلك المساء ، وانْ ليس عليه إلا ان يبذل غاية الجهد للّحاق به عندئذ ولكنه لم يكد يفهم ، في غمرة من تأمّلهِ الغائم ، شيئاً من ذلك .

وفيما هو يصعد السلم ، لمح على الجانب الآخر من الجادة ، الى جانب حائط شارع « لا بارييرِ دي غوبلين » المهجور — لمح جوندريت مرتدياً معطف « المحسن » يتحدث الى احد اولئك الرجال الخطري الملامح ، الذين يُجمع الناس على تسميتهم « الحائمين ليلاً حول ابواب المدينة » ، اولئك الرجال المبهمي الوجوه ، المريبي المحاورات ، الذين تبدو عليهم أمارات النيّة الشريرة ، والذين ينامون في اثناء النهار عادةً ، مما يحمل على الاعتقاد بأنهم يشتغلون في موهن من الليل .

وألّف هذان الرجلان المتحدثان في سكينة بينما كان الثلج يتساقط من فوقهما مدوّماً — ألّف هذان الرجلان صورةً كان خليقاً برجل من رجال الشرطة ان يلمحها من غير ريب ؛ على حين ان ماريوس كاد ان يخطئها .

ومع ذلك ، وبرغم ما استغرق ذهنَهُ من تفكير فاجع فلم يتمالك عن ان يقول في ذات نفسه ان ذلك « الحائم الليلي حول ابواب المدينة » يشبه « بانشو » — المعروف بـ « بريـنتانييه » ، وبـ « بيغرويناي » — الذي كان كورفيراك قد دلّه عليه ذات مرة ، والذي كان اهل الحيّ يعتبرونه مطوّفاً ليلياً خطراً جداً . لقد رأينا اسم هذا الرجل في

الكتاب السابق . ولقد برز بانشو هذا ، المعروف بـ « برينتانييه » و بـ « بيغروناي » ، بعد ذلك في عدد من المحاكمات الجنائية وامسى منذ تلك الفترة وغداً شهيراً . اما في ذلك الحين فلم يكن غير وَغد رديء السمعة . وهو اليوم حديثٌ يُروَى في اوساط السفاحين وقطّاع الطرق . لقد تزعم مدرسةً ما ، في اواخر عهد الملك السابق . وعند المساء ، لحظةَ يهبط الليل في تلك الساعة التي تجتمع خلالها الحشود وتتكلم في صوت خفيض ، كان موضوعَ الكلام في « لا فورس » عند « حفرة الأسود » . وحتى في ذلك السجن ، عند النقطة التي امتدت فيها ، تحت مجاز العَسس ، قناة المراحيض التي مكّنت ثلاثين سجيناً من الهرب في وضح النهار ، على نحو خارق ، عام ١٨٤٣ – نقول حتى في ذلك الموضع كان في-ميسورك ان تقرأ ، فوق بلاط تلك المراحيض ، اسمه « بانشو » وقد حفره هو نفسُهُ ، في جسارة ، على الجدار الخارجي في احدى المحاولات التي قام بها للهرب من السجن . كان رجال الشرطة قد شرعوا يراقبونه ، عام ١٨٣٢ . ولكنه لم يكن قد استهلّ نشاطه الخطر ، استهلالاً جدياً ، بعد .

١١
عروض خدمة يقدمها البؤس الى الأسى

ورقي ماريوس سلّم البيت العتيق في خطى وئيدة . ولحظة انتهى الى غرفته ، أو كاد ، لمح في الرواق ، خلفَهُ ، ابنة جوندريت الكبرى التي كانت تتبعه . كانت هذه الفتاة بغيضة في ناظره ؛ فهي

التي اخذت منه فرنكاته الخمسة ، ولم تبق ثمة فائدة ترتجى من مطالبتها بها ، فعربة الاجرة ذات الدولابين لم تعد هنــاك ، والعربة العمومية أمست بعيدةً جداً . والى هذا ، فقد كان خليقاً بها أن لا ترجعهــا اليه . أما سؤالها عن عنوان الزائرين اللذين وفدا عليهم منذ برهة وجيزة ، فلم يكن ذا غَناء . كان واضحاً انها لا تعرفه ، لان الرسالة المذيلة بتوقيع فابانتو كانت موجهة الى « سيدي الخيّر ، رَجل كنيسة سان جاك دو هو با » .

ودخل ماريوس غرفته ، ودفع بابها من خلفه .

ولم ينغلق . واستدار ، فرأى يداً كانت تُبقي الباب منفتحاً على نحو جزئيّ .

وسأل :

— « ما هذا ؟ مَنْ هناك ؟ »

كانت ابنة جوندريت .

وقال ماريوس في خشونة ، تقريباً :

« هذا انت ؟ انتِ دائماً ؟ ماذا تريدين مني ؟ »

لقد بدت مستغرقة في التفكير ، ولم تنظر اليه . كانت قد فقدت الثقة التي تكشّفتْ عنهــا ذلك الصباح . ولم تدخل غرفتــه ، بل وقفت في الرواق القاتم ، حيث لمحها ماريوس من خــلال الباب نصف المفتوح .

وقال ماريوس :

— « هاي ، أنت ، ألا تجيبين ؟ ايّ شيء تريدينه مني ؟ »

ورفعت عينيها الفاجعتين ، حيث بدا وكأن ضرباً من الضياء كان يتوهج على نحو مُبهم ، وقالت له :

— « مسيو ماريوس ، أنت تبدو حزيناً . فهل تشكو شيئاً ؟ »

فقال ماريوس :

— « انا ؟ »

— « نعم ، أنت . »

— « انا لا اشكو شيئاً . »

— « بلى ! »

— « لا . »

— « اقول لك بلى . »

— « دعيني وشأني . »

ودفع ماريوس الباب ، كرة اخرى ، ولكنها ظلت متشبثة به .
وقالت :

— « قف ، أنت على خطأ . فعلى الرغم من انك قد لا تكون غنياً ، فقد كنت خيّراً هذا الصباح . كن هكذا الآن . لقد أعطيتني شيئاً آكل به ، فقلْ لي الآن ما بك . أنت محزون ، هذا واضح . أنا لا اريد ان اراك محزوناً . ما الذي يجب ان يُعمل من اجل هذا ؟ هل أستطيع ان اقدّم اليك خدمة ما ؟ إستخدمني . أنا لن اسألك عن اسرارك ، فلستَ في حاجة الى ان تبوح بها اليّ ، ولكني قد اكون مع ذلك ذات فائدة . في استطاعتي من غير شك ، أن أساعدك ، ما دمتُ أساعد ابي . فحين يحتاج الى من يحمل الرسائل ، ويذهب الى البيوت ، ويسأل من بيتٍ الى بيت ، ويبحث عن عنوان ، ويلحق بشخصٍ ما ، أقوم أنا بهذه المهامّ . والان ، في استطاعتك من غير شك أن تقول لي ما بك . سوف اذهب واتحدث مع الناس . إنّ التحدث الى الناس في بعض الاحيان كافٍ لان يفهم المرء الاشيــاء ، وعندئذ تسوّى الامور . استفد مني . »

وخطرت لماريوس فكرة . وهل يزدري المرء قضيباً حين يستشعر انه على وشك الغرق ؟

وتقدّم نحو الفتاة ، وقال لها بضمير المفرد :

— « اسمعي ! »

فقاطعته وفي عينيها وميض ابتهاج :

— « اوه ! اجل ! خاطبني بضمير المفرد ! انا احبّ هذا اكثر . »

فأردف قائلًا :

— « حسن . لقد قُدْتِ ذلك الرجل وابنته الى هنا ... »

— « نعم . »

— « اتعرفين عنوانهما ؟ »

— « لا . »

— « ابحثي لي عنه . »

كانت عينا الفتاة الفاجعتان قد امستا بهيجتين . ولكن الكآبة مـا لبثت ان رانت عليها .

وسألته :

— « اهذا هو الشيء الذي تريده ؟ »

— « نعم . »

— « هل تعرفهما ؟ »

— « لا . »

فقالت في قوة :

— « يعني انك لا تعرفها ، ولكنك تريد ان تعرفها . »

وكانت « ها » هذه التي اصبحت « ها » ، تنطوي عـلى مغزى ومرارة لا سبيل الى وصفهما .

وقال ماريوس :

— « حسن . هل تستطيعين ان تقومي بذلك ؟ »

— « تريد عنوان الانسة الجميلة ؟ »

وكان في هاتين الكلمتين ايضاً ، « الانسة الجميلة » ، معنىً اقلق ماريوس .
واستأنف كلامه :

— « على كل حال ، لا فرق ! عنوان الاب والبنت . عنوانهما . اجل ! »

وصوّبت بصرها اليه على نحو موصول .

— « وايّ شيء سوف تعطيني ؟ »

— « كل ما تطلبين . »

— « كل ما اطلب ؟ »

— « اجل . »

— « سوف آتيك بالعنوان . »

وخفضت رأسها ، ثم اغلقت الباب في حركة مفاجئة .

ووجد ماريوس نفسَه وحيداً .

وارتمى في كرسيّ ، مسنداً رأسه ومرفقيه الى السرير ، مستغرقاً في افكار لم يكن قادراً على فهمها ، وكأنما هو فريسة دُوار . كان كل ما جرى منذ الصباح ، وظهورُ الملاك ، وغَيْبَتُهُ ، وما قالته له اللحظةَ هذه المخلوقة ، وشعاع الأمل الطافي وسط اوقيانوس من اليأس — كان ذلك هو ما يُفعم دماغه على نحو مشوّش .

وفجأة انتُزِع من تفكيره الحالم انتزاعاً عنيفاً .

لقد سمع صوت جوندريت المرتفع القاسي وهو يلفظ هذه الكلمات الحافلة بأغرب ما اثار اهتمامه :

— « اقول لكِ اني واثق من ذلك ، واني قد عرفتُهُ ! »

عمن كان جوندريت يتحدث ؟ لقد عرف مَن ؟ مسيو لوبلان ؟ والد « أورسوله » ؟ ماذا ؟ هل عرفه جوندريت ؟ أكان ماريوس على وشك ان يفوز ، على هذه الطريقة المفاجئة غير المتوقّعة ، بكل المعلومات التي كان جهله بها قد جعل حياته قاتمة في عينيه ؟ أكان على وشك ان يعرف ، آخر الأمر ، من أحب ؟ مَن كانت هذه الفتاة الشابة ؟ من كان أبوها ؟ أكانت الظلمة الكثيفة التي حجبتها عنه في سبيلها الى الانجلاء ؟

اكان اللثام في طريقه الى التمزّق ؟ آه ! يا للسماء !

ووثب ، ولا نقول ارتقى ، الى الخزانة ذات الادراج ، واستعاد موقفه قرب كوة الجدار الصغيرة .

واطّلع على ما كان يجري في وكر جوندريت ، كرةً اخرى .

١٢

كيف استُعملت فرنكات مسيو لوبلان الخمسة

لم يكن قد تغيّر شيء في مظهر الأسرة ، لولا ان الزوجة والفتاتين كنّ قد فتحنَ الصرّة وارتدين الجوارب والصدرات الصوفية . كانت بطانيتان جديدتان قد طُرحتا على السريرين .

كان جوندريت قد رجع الى غرفته ، من غـــير شك . وكان لا يزال يلهث . وكانت ابنتاه جالستين على الارض قرب الموقد ، وقـد انصرفت كبراهما الى تضميد يد الصغرى . وكانت زوجتـه مستلقية ، وكأنها منهوكة القوى ، على الحشيّة المجاورة للموقد ، وقد رانت عـلى محيّاها سيماء مشدوهة . أما جوندريت فكان يذرع العليّة جيئة وذهاباً ، ويخطى ً واسعة . كانت نظراته خارقة للعادة .

وغامرت المرأة – التي بدت جبانةً مذعورة أمام زوجها – فقالت له :

– « ماذا ، حقاً ؟ اواثق انت ؟ »

– « واثق ! لقد انقضت ثمانية أعوام ! ولكني عرفته ُ ! آه ! لقد عرفته ! لقد عرفته في الحال ! ماذا ؟ ألم يتّضح ذلك في عينيك ؟ »

– « لا . »

– « مع اني قلتُ لك انتبهي جيداً ! ولكن القامة هي القامة ، والوجه هو الوجه ، لم يكبر إلا قليلاً . إن ثمة رجالاً لا يهرمون ؛ وأنا لا أدري كيف يفعلون ذلك ؛ وَجرْسُ صوته كذلك لم يتغير . إنه أحسن بزّةً من ذي قبل ، هذا كل ما هنالك ! آه ! ايها الشيطان الغامض العجوز ، لقد أمسكتُ بك ، لقد امسكتُ بك ! »

وكبح جماح نفسه ، وقال لبنتيه :

– « وانتما ايضاً ! أخرجا من هنا ! من العجيب انـــه لم يتّضح لناظريكما . »

ونهضتا تنفيذاً لرغبته .

وتمتمت الأم :

– « ويدها ما تزال تؤلمها ؟ »

فقال جوندريت :

– « الهواء سوف يفيدها . أخرجا . »

كان واضحاً ان هذا الرجل كان من اولئك الرجال الذين لا رادّ لمشيئتهم . وخرجت الفتاتان .

وفيما هما تجتازان الباب ، أمسك الأب بذراع البنت الكبرى وقال في نبرة فريدة :

– « يجب ان تكونا هنا في الساعة الخامسة تماماً . انتِ وهي . سوف أحتاج اليكما . »

وضاعف ماريوس انتباهه .

حتى اذا خلا جوندريت الى امرأته شرع يذرع الغرفة من جديد ، فتمّ له ذلك مرتين او ثلاث مرات في صمت . ثم قضى بضع دقائق في إقحام الجزء الأدنى من القميص النسائي الذي كان يرتـديه ، في الجزء الأعلى من بنطلونه .

وفجأة التفت الى المرأة ، وطوى ذراعيه هاتفاً :

— « وهل تريدين ان اخبرك شيئاً ؟ ان الآنسة ... »

فقالت المرأة :

— « ثمّ ماذا ؟ الآنسة ؟ »

ولم يعد في ميسور ماريوس ان يشك ؛ فعنها هي كان جوندريت وزوجته يتحدثان . وأصغى في قلق محتدم . كانت حياته كلها متركزة في أذنيه .

ولكن جوندريت انحنى ، وأسرّ في اذن زوجته حديثاً . ثم انتصب واكمل كلامه في صوت مرتفع :

— « انها هي ! »

فقالت الزوجة :

— « تلك الفتاة ؟ »

فقال الزوج :

— « تلك الفتاة ! »

ان ايا كلام لم يكن قادراً على تحمّل ما انطوى عليه قول الأم « تلك الفتاة ؟ » من معانٍ . كان في تينك الكلمتين دهش ، وغيظ ، وبغض ، وغضب ممتزجةٌ ومتحدةٌ بنبرة صوت فظيعة . ذلك ان الكلمات القليلة التي همس بها زوجها في اذنها ، وهي اسم شخص ما من غير شك ، كانت كافية لايقاظ هذه المرأة الضخمة الناعسة والى تحويل تقزّزها الى هَوْل .

وصاحت :

— « مستحيل ! حين افكر انَّ بنتيّ تمشيان حافيتين وليس لديها ثوب تلبسانه ! كيف ! رداء حريري مبطّن بالفرو ، وقبعة مخملية ، وحذاء عالٍ ذو رباط ، وكل شيء . ملابس تساوي اكثر من مئتي فرنك ! ان المرء ليحسبها سيدة ! لا ؛ انت مخطيء ! ولكنْ ، قبل كل شيء ، كانت تلك رهيبة ، أما هذه فليست رديئة ! انها ليست

رديئة حقاً ! مستحيل ان تكون اياها ! »

— « اقول لك انها هي . سوف ترين . »

وعند هذا التوكيد الجازم ، رفعت المراة رأسهـا الضخم الأحمر الاشقر ، ونظرت الى السقف وعلى محياها انطباعة مروّعة . وفي تلك اللحظة بدت في عيني ماريوس اشدّ فظاعة من زوجها . كانت خنزيرة لها نظرات نَمِرة .

واستأنفت كلامها :

— « ماذا ؟ هذه الآنسة الجميلة الرهيبة التي نظرت الى بنتيّ وقد غلبت عليها الشفقة ، ايمكن ان تكون تلك الشحاذةَ ! أوه ، كم أتمنى لو أدوس قلبها بعقب حذاء خشبيّ ! »

ووثبت من السرير ، وظلت واقفةً لحظة ، منفوشة الشعر ، منتفخة المنخرين ، فاغرة الفم ، متشنجة الاصابع مردودة الى وراء . ثم انها خرّت على الفراش . وظلّ الرجل يروح ويجيء غير ملقٍ بالاً الى أنثاه .

وبعد بضع لحظات من الصمت ، اقترب من زوجتـه ، ووقف أمامها ، طاوياً ذراعيه شأنَهُ من قبل .

— « وهل تريدين أن اقول لك شيئاً آخر ؟ »

فسألته :

— « ماذا ؟ »

فأجابها في صوت سريع منخفض :

— « لقد تكوّنت ثروتي . »

وحدقت اليه المرأة بتلك النظرة التي تعني : هل أصيب الرجل الذي يتحدث اليّ بمسٍّ من الجنون ؟

وتابع :

— « يا للصاعقة ! لقد انقضت فترة طويلة على انتسابي الى « ابرشية مُتْ من الجوع اذا كان عندك نار ، ومُتْ من البرد اذا كان عندك

خبز » ! لقد شبعتُ بؤساً ! وأنا احمل نيري ونيرَ الآخرين ! إني لا أمزح بعد اليوم ، إني لا أجد ذلك مضحكاً بعد اليوم ! حسبي نُكتاً لفظية جناسية ، ايها الرب الرحيم ! لا تمثيل هزلياً من الآن فصاعداً ، ايها الاب الازليّ ! اني اريد طعاماً اسدّ به جوعي ، وشراباً أطفيء به ظمأي ! اريد أن ألتهم ! أن انام ! ان لا أفعل شيئاً ! أريد ان يجيء دوري ، أجل ان يجيء دوري ، قبل أن أنفجر ! اريد أن أكون جزءاً من مليونير ! »

وذرع العلّية من اقصاها الى اقصاها وأضاف :

– « مثل غيري من الناس . »

وسألته المرأة :

– « ماذا تعني ؟ »

فهزّ رأسه ، وغمز بعينه ، ورفع صوته مثل عالم طبيعي من علماء مفارق الطرق على وشك ان يعرض براعاته .

– « ماذا أعني ؟ إسمعي ! »

فتمتمت المرأة :

– « هِسْت ! لا تتكلم بصوت عالٍ الى هـــذا الحد ، اذا كان الحديث متصلاً بأشياء لا ينبغي لأحد ان يسمعها ! »

– « هه ! ومَنْ هناك حتى يسمع ؟ جارنا ؟ لقد رأيته يغادر الغرفة منذ لحظة . والى هذا ، فهل يسمع ذلك الأبله الكبير شيئاً ؟ ثم إنني قلت لك اني رأيته يغادر الغرفة . »

ومع ذلك ، فقد خفض جوندريت صوته ، بضرب من الغريزة ، ولكن من غير ان يحول ذلك دون سماع ماريوس للحديث . ومما ساعد ماريوس على الاحاطة بذلك الحديث كله ، تقريباً ، ان الثلج المتساقط خنق ضجة العربات المنطلقة على الجادة .

وهذا ما سمعه ماريوس :

— « أصغي جيداً . لقد وقع « فارون » ذاك ! هذا شيء حسن . ولقد تمّ ذلك . إن كل شيء قد أُعِدّ . لقد اجتمعتُ الى الرجال . إنه سوف يجيء هذا المساء في الساعة السادسة . لكي يحمل الينا فرنكاته الستين ، الوغد ! أرأيتِ كيف تقيأتُ الستين فرنكاً ، وصاحب البيت ، والرابع من شباط ! انا لم يستحق عليّ مجرد قسط واحد بعد ! أكان ذلك عملاً احمق ! إنه سوف يأتي ، اذن ، في الساعة السادسة . انها الساعة التي يمضي فيها جارنا لتناول طعام العشاء . والأم بورغون تغسل الاطباق في المدينة . ليس ثمة احدٌ في المنزل . وليس من دأب جارنا ان يرجع قبل الحادية عشرة على الاطلاق . ان البنتين سوف تقومان بالحراسة . وانتِ سوف تساعديننا . انه سوف يُجري ما نطلبه منه . »

فسألته زوجته :

— « واذا لم يجرِ ما نطلبه منه ؟ »

فأومأ جوندريت إيماءة كالحة ، وقال :

— « سوف نحكم عليه بالموت ! »

وانفجر ضاحكاً .

كانت تلك أول مرة رآه ماريوس يضحك . وكانت تلك الضحكة باردةً واهنةً ، ولقد اوقعت الرعدةَ في اوصاله .

وفتح جوندريت خزانة مجاورة للموقد ، وأخرج منها قلنسوة عتيقة ، فاعتمر بها بعد ان فرّشاها بردنه .

وقال :

— « والآن ، أنا ذاهب . هناك رجال آخرون ينبغي ان أراهم . رجالٌ طيبون . سوف ترَيْنَ كيف سيتمّ كل شيء . إني سأرجع في اسرع وقت ممكن . هذه ورقة جميلة يجب ان تُلعب ! انتبهي الى البيت . »

ووقف لحظةً يفكر ، مقحماً قبضتيه في جيبي بنطلونه ، ثم هتف :

ـ « أتعلمين ان من حسن حظنا العظيم أنه لم يعرفني ؟ ولو انه عرفني اذن لما رجع . كان خليقاً به ان يجتنبنا ! إن لحيتي هي التي انقذتني ! لحيتي الرومانتيكية ! لحيتي الرومانتيكية الصغيرة الجميلة ! »

وشرع يضحك من جديد .

ومضى الى النافذة . كان الثلج ما يزال يتساقط ، وكان قد محا السماء الرمادية .

وقال :

ـ « أي جوٍّ خنزيريّ ! »

ثم ثنى سترته الطويلة واضاف :

ـ « هذا الثوب اوسع مما ينبغي . ولكن لا بأس . لقد احسن على نحوٍ شيطانيّ في تركه لي ـ الوغد ! فلولاه لما كنت قادراً على مغادرة الغرفة ، وعندئذ يفسد الأمر كله ! عجيبٌ علام تتوقف الاشياء ؟ »

وأنزل قلنسوته فوق عينيه ، وخرج .

ولم يكد يخطو بضع خطوات في الرواق ، حتى فُتح الباب من جديد ، وأطلّ وجه الأشقر الداهية من شقّه .

وقال :

« لقد نسيت . سوف تنعمين بفحم يدفئك . »

وقذف في مئزر امرأته قطعة الفرنكات الخمسة التي تركها له « المحسن » .

وتساءلت المرأة :

ـ « فحم ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « كم كيساً ؟ »

ـ « كيسان مليئان . »

— « هذان يكلفان ثلاثين سو . وبالباقي ، سوف اشتري شيئاً للعشاء . »

— « لا ، بحقّ الشيطان ! »

— « لماذا ? »

— « إن قطعة المئة « سو » يجب ان لا تُنفق . »

— « لماذا ? »

— « لأن ثمة شيئاً ينبغي ان اشتريه . »

— « ما هو ? »

— « شيء ما . »

— « الى كم ستحتاج ? »

— « هل يوجد بائع الادوات النحاسية والحديدية ، على مقربة من هنا . »

— « في شارع موفتارد . »

— « آه ، نعم . عند زاوية احد الشوارع . إني ارى الدكان . »

— « ولكن قل لي ، الآن ، الى كم ستحتاج من اجل شراء ذلك الشيء ? »

— « الى خمسين سو او ثلاثة فرنكات . »

— « وعندئذ لن يبقى مقدارٌ كافٍ للعشاء . »

— « ينبغي ان لا نتكلم اليوم في امر الطعام . إن عندنا عملاً أفضل . »

— « كفى ، يا جوهرتي ! »

وعند هذه الكلمة التي نطقت بها زوجته ، اغلق جوندريت البابَ من جديد ، وسمع ماريوس خطاه تبتعد في رواق البيت العتيق ، وتهبط السلّم في سرعة .

وفي تلك الساعة ذاتها اعلنت ساعة « سان ميدار » الواحدةَ .

١٣
« وحيد مـــع نفسي في مكان قصيٍّ
فانهم لم يجدوا حافزاً للصلاة ياأبانا ! »

كان ماريوس برغم نزعته الى الاستغراق في التأمل ذا طبيعة حازمة تنضح بالعزم . قد تكون عادة التأمّل الموحّد – التي طوّرت فيـــه الحنان والمشاركة الوجدانية – قد قللت من إمكان غضبه ، ولكنها تركت قدرته على السخط سليمةً لم تُمَسّ . كان له عطفُ برهميٍّ ، وقسوة قاضٍ . كان يشفق على ضفدع الجبل ، ولكنه كان يسحق الافعى . وها هو ذا الآن ينظر الى جُحر أفعى حقاً . كان امـام عينيه وكر من اوكار الهُوَل .

وقال :

– « يجب ان أدوس بقدمي هؤلاء الادنياء . »

إن اياً من الاحاجي التي رجا ان تُحَلّ لم تكن قد انجلت ؛ على العكس ، فلعلّ كلّ شيء كان قد ازداد قتامـــاً . إنه لم يعرف شيئاً إضافياً عن فتاة اللوكسومبورغ الجميلة وعن الرجل الذي كان يدعوه مسيو لوبلان ، باستثناء ان جوندريت كان يعرفهما . ومن خـــلال الكلمات التي نُطق بها ، لم يرَ على نحو واضح غير شيء واحد ، هو ان كميناً كان يُهيَّـــأ ، كميناً غامضاً ولكنه فظيع ؛ وان خطراً عظيماً كان يحيط بكل منهما : بها هي في اغلب الظن ، وبه هو على وجه التحقيق ؛ وان عليه ان يُحبط مكائد جوندريت الرهيبة ويقطع نسيج هذه العناكب .

ونظر لحظة الى جوندريت الانثى . كانت قـــد أخرجتْ كانوناً حديدياً قديماً من احدى الزوايا ، وانشأت تقلّب ضروباً من الحدائد

العتيقة .

وترجل عن الخزانة ذات الادراج بأقصى ما يستطيع من الهدوء ، محاذراً ان يحدث ضجةً ما .

وفي غمرة من ذعره مما كان يُبيَّت والهَوْل الذي القاه جوندريت وزوجته في فؤاده ، استشعر ضرباً من البهجة حين فكّر انه قد يقيّض له ان يُسدي مثل تلك الخدمة الى الفتاة التي يحبّ .

ولكنْ ما الذي يتعين عليه أن يعمل ؟ أيحذّر الشخصين المهدّدين بالخطر ؟ وأين يجدهما ؟ إنه ما كان يعرف عنوانهما . كانا قــد عاودا الظهور لعينيه لحظةً ، ثم غاصا من جديد في اعماق باريس التي لا يُسبر غورها . أينتظر مسيو لوبلان ، لدى الباب ، في الساعة السادسة مساء ، لحظةَ وصوله ، ويحذره من الشرَك ؟ ولكن جوندريت ورجاله سوف يرونه يترصّد ؛ والمكان منعزل ؛ ولسوف يكونون اقوى منــه ؛ وخليقٌ بهم ان يلتمسوا وسيلةً للقبض عليه او ازاحته من الطريق ، وعندئذ يهلك ذلك الذي اراد ماريوس ان ينقذه . لقد دقت الساعةُ الواحدةَ منذ لحظات ، والتدبير يقضي بتنفيذ المكيدة في السادسة . كانت امام ماريوس خمس ساعات .

لم يكن ثمة غير شيء واحد يمكن ان يُعمل .

وارتدى بذلته المقبولة ، وعقد حول عنقه رباطاً ، وتناول قبعته ! وخرج غير محدث من الضجة اكثر مما كان جديراً بأن يُحدثه منها لو سار على الطحالب حافياً .

والى هذا ، فقد كانت جوندريت المرأة ما تزال تقلّب حدائدها العتيقة باحثة عن شيء ما .

حتى اذا غادر البيت ، شخص الى شارع الـ « بيتي بانكييه » .

وكان قد انتهى ، او كاد ، الى منتصف ذلك الشارع قريباً من جدار منخفض جداً في ميسور المرء ان يتجاوزه بخطوةٍ واحدة في

بعض المواطن ، جدار يؤدي الى حقل متوامي الاطراف ، وكان يمشي وئيداً ، مستغرقاً في افكاره وقد خنق الثلج صدى خطواته عندما سمع ، فجأة ، اصواتاً تتحدث على مقربة منه . والتفت . كان الشارع مقفراً ليس فيه احد ، وكانت الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك فقد سمع بعض الاصوات سماعاً واضحاً .

وخطر له ان يطلّ من أعلى هذا الجدار الذي كان يحاذيه .

كان ثمة ، في الواقع ، رجلان جالسان على الثلج ، وقد ولّيا الجدارَ ظهريهما ، وراحا يتجاذبان اطراف الحديث في صوت خفيض .

ولم يكن يعرف هذين الرجلين . كان احدهما ملتحياً ، يرتدي سترة فضفاضة ، وكان الآخر طويل الشعر ، يرتدي اسمالاً بالية . كان الرجل الملتحي يعتمر بقلنسوة إغريقية ، وكان الآخر حاسر الرأس ، وكان على شعره ثلج .

وحين خفض ماريوس رأسه من فوقهما كان في ميسوره ان يسمع . لقد وكز ذو الشعر الطويل صاحبه بمرفق يده ، وقال :

— « اذا تولى المعلم مينيت المسألة فلن تُخفق ابداً . »

فقال الرجل الملتحي :

— « أتعتقد ذلك ؟ »

فاستأنف ذو الشعر الطويل كلامه :

— « سوف ينال كل منا ورقة ألف فرنك ذات خمسمئة صورة . واسوأ ما سوف يصيبنا خمس سنوات ، ستّ سنوات ، عشر سنوات على الاكثر . »

فأجاب الآخر متردداً ، مرتعداً تحت قلنسوته الاغريقية :

— « اجل ، هذا شيء حقيقي . نحن لا نستطيع ان نسير في اتجاه معاكس لمثل هذه الاشياء . »

فقال ذو الشعر الطويل :

— « اقول لك ان المسألة لن تحقق . إن « عربة » الأب فلان سوف تُقرن بالدوابّ . »

ثم بدءا يتحدثان عن مأساة شعبية كانا قد شهداها الليلةَ البارحة ، في مسرح « لا غيتيه » .

ومضى ماريوس لسبيله .

لقد بدا له ان الكلمات الغامضة التي فاه بها هذان الرجلان ، المختبئان على ذلك النحو البالغ الغرابة خلف هذا الجدار والجالسان القرفصاء في الثلج ، لا يبعد ان تكون ذات صلة ما بمشروعات جوندريت الرهيبة . تلك من غير ريب كانت « المسألة » .

وتقدّم نحو ضاحية « سان مارسو » ، وسأل صاحب اول دكان التقاه عن مركز للشرطة قريب .

وسمّوا له شارع بونتواز والرقم ١٤ .

وشخص ماريوس الى هناك .

واذ اجتاز بأحد الخبازين اشترى رغيفاً بفلسين وأكله ، بعد ان تبدّى له انه لن يصيب عشاء ما تلك الليلة .

وفي طريقه الى مركز الشرطة رفع الى العناية الالـٰهية حقها من الحمد . لقد تخيّل أنه لو لم يعطِ فرنكاته الخمسة الى جوندريت الفتاة في الصباح ، اذن للحق بعربة مسيو لوبلان ، واذن لجهل من ثمّ كلّ شيء ، وهكذا تتمّ مكيدة جوندريت من غير ان يعترضها شيء ، ويهلك مسيو لوبلان ، وتهلك ابنته معه من غير شك .

١٤
وفيه يقدم شرطي
الى احد المحامين مسدسين فولاذيين

حتى اذا انتهى الى رقم ١٤ شارع بونتواز ، رقي السلّم وسأل عن مفوض الشرطة .

فقال أحد الخدم :

— « إن مفوض الشرطة ليس هنا ، ولكن ثمة مفتشاً يقوم مقامه . أتحبّ ان تتحدث اليه ؟ هل المسألة ملحّة ؟ »

فقال ماريوس :

— « نعم . »

وقاده الخادم الى مكتب المفوّض . كان رجلٌ فارع الطول واقفاً هناك ، خلف حاجز مشبّك ، أمام الموقد ، مشمّراً عن يديه معطفاً ضخماً مثلّث التلابيب . كان ذا وجه مربّع ، وفمٍ رقيق حازم ، وعارضَيْن ضاريين ، أثيثَيْن ، وخطّهما الشيب ، وعينٍ خليقٍ بها ان تجعل جيوبك باطنَها ظاهرها . كان في ميسورك ان تقول عن هذه العين إنها تبعثر وتبحث ، لا إنها تنفذ الى الاشياء وحسب .

ولم يكن مُظهر هذا الرجل اقلّ ضراوة بكثير او اقلّ هولاً بكثير ، من مظهر جوندريت . إن مواجهة الكلب ليست دون مواجهة الذئب إزعاجاً .

وقال لماريوس من غير ان يُتبع كلامه بلفظة « سيّدي » :

— « ماذا تريد ؟ »

— « السيد مفوض الشرطة ؟ »

— « إنه غائب . أنا أقوم مقامه . »

— « انها مسألة سرية جداً . »
— « تكلم ، اذن . »
— « وملحة جداً . »
— « اذن ، تكلم في سرعة . »

كان هذا الرجل ، الهادىء الغليظ ، مروّعاً ومطمْئناً في آنٍ معاً . كان يوحي بالخوف وبالثقة . وروى ماريوس القصة : — أن شخصاً لم يكن يعرفه الا بالرؤية سوف يأتي ، ذلك المساء نفسه ، الى كمين أعدّ له ؛ وانه ، هو ماريوس بونميرسي ، المحامي ، الساكن في غرفة مجاورة لمغارة اللصوص تلك ، كان قد سمع المكيدة كلها من خلال الجدار ؛ وان الوغد الذي نَصب ذلك الشرَك كان يدعى جوندريت ؛ وانه كان ذا شركاء في الجريمة ، لعلهم من « الحائمين ليلاً حول ابواب المدينة » ، وفيهم رجل اسمه بانشو ، المعروف بـ « برينتانييه » و بـ « بيغروناي » ؛ وان ابنة جوندريت سوف تراقب المكان ؛ وانه ليس ثمة وسيلة الى انذار الرجل المهدّد إذ لم يكن ليعرف عنه شيئاً حتى اسمه ؛ واخيراً ان هذا كله سوف يتمّ في الساعة السادسة من ذلك المساء ، في الجزء الأشدّ انعزالاً من « جادة المستشفى » ، في البيت الذي يحمل الرقم ٥٠ — ٥٢ .

ولم يكد مفتش الشرطة يسمع هذا الرقم ، حتى رفع رأسه وقال في برود :

— « اذن فسيتمّ ذلك في الغرفة التي في اقصى الرواق ؟ »

فقال ماريوس :

— « تماماً . »

ثم اضاف :

— « هل تعرف ذلك البيت ؟ »

فاعتصم المفتش بالصمت لحظةً ، ثم اجاب وهو يدفىء عقب قدمه

عند باب الموقد :

- « في ما يبدو . »

وتابع ، من بين اسنانه ، متحدثا الى رباط عنقه اكثر منه متحدثاً الى ماريوس :

- « ينبغي ان يكون ثمة شيء من « المعلّم مينيت » في ذلك المكان . »

واذهلت هذه الكلمة ماريوس .

وقال :

- « المعلم مينيت . الحقّ اني سمعتُ من يلفظ هذه الكلمة . »

وروى للمفتش الحوار الذي دار بين الرجل ذي الشعر الطويل والرجل ذي اللحية ، وسط الثلج ، وراء جدار شارع الـ « بيتي بانكييه » .

وغمغم المفتش :

- « ان صاحب الشعر الطويل هو بروجون ، من غير شك ، وان صاحب اللحية هو دومي ليبار المعروف بـ « دو مييار » من غير شك ايضاً . »

كان قد خفض بصره ، من جديد ، وانشأ يفكر .

- « اما الأب فلان فعندي ريب في حقيقته . لقد احرقتُ معطفي هناك . انهم يضرمون كثيراً من النار في تلك المواقد اللعينة . رقم ٥٠ - ٥٢ ؛ مِلك غوربو العتيق . »

ثم نظر الى ماريوس :

- « الم ترَ غير هذا الرجل الملتحي وذلك الرجل الطويل الشعر ؟ »

- « رأيت بانشو ايضاً . »

- « ألم ترَ ضرباً من الشابّ المفرط في الاناقة يحوم متلصّصاً هناك ؟ »

– « لا . »

– « وهل رأيت كومةً كبيرة ضخمة غليظة مثل الفيل في « حديقة النبات » ؟

– « لا . »

– « حسن . ألم ترَ ايضاً رجلاً خبيثاً يبدو وكأنه مهرّج تنتهي لمّته المستعارة بذيل معصوب بشريطة حمراء ؟ »

– « لا . »

– « أما الرابع ، فانّ أحداً لا يراه ، حتى أعوانه ومستخدَموه ، وعملاؤه انفسهم . فليس غريباً ان لا تقع عليه عيناك .. »

فتساءل ماريوس :

– « لا . ولكن ما هي هذه المخلوقات كلها ؟ »

فأجابه المفتش :

– « ومن جهة اخرى ، فليست هذه الساعة ساعتهم . »

واستغرق في صمته ، كرة ثانية ، ثم اردف :

– « رقم ٥٠ – ٥٢ . أنا أعرف الكوخ . من المستحيل ان نختبيء في الداخل من غير ان يلمحنا الفنانون ، وعندئذ يغادرون المكان ويلغون المسرحية . إنهم حييّون الى هذا الحد ! إن الجمهور يُربكهم . أنا لا أريد شيئاً من هذا ؛ انا لا أريد شيئاً من هذا . إني اريد ان أسمعهم يغنّون ، وأن اجعلهم يرقصون . »

حتى اذا انتهى هذا الحوار ، التفت الى ماريوس وسأله ناظراً اليه نظراً موصولاً :

– « هل ستخاف ؟ »

فقال ماريوس :

– « ممَّ ؟ »

– « من هؤلاء الرجال ؟ »

فاجاب ماريوس :

– « انا لن اخاف اكثر مما ستخاف أنت ! »

وإنما قال ذلك في قسوة ، وكان قد بدأ يلاحظ ان جاسوس الشرطة هذا لم يوجّه اليه حتى الان لفظة « سيدي » .

وحدّق المفتش الى ماريوس تحديقاً أشدّ ، وتابع كلامه في مهابة مُحكَمَة :

– « انت تتكلم الآن مثل رجل شجاع ، ومثل رجل نزيه . إن الشجاعة لا تخشى الجريمة ، وان النزاهة لا تخاف السلطان . »

وقاطعه ماريوس قائلاً :

– « هذا حسن جداً ، ولكنْ ما الذي سوف تعمله ؟ »

فاكتفى المفتش بمجرد القول :

– « إن سكان ذالك البيت يملكون مفاتيح عمومية تمكّنهم من دخوله ليلاً . ولا ريب في ان عندك مفتاحاً من هذا النوع . » .

فقال ماريوس :

– « نعم . »

– « أهو معك الان ؟ »

– « نعم . »

فقال المفتش :

– « أعطني اياه . »

وأخرج ماريوس مفتاحه من جيب صدرته ، وقدّمه الى المفتش ، مضيفاً :

– « اذا كنت تثق بي ذهبتَ الى هناك باكمل السلاح . »

والقى المفتش على ماريوس نظرةً كمثل تلك النظرة التي يجدر بفولتير ان يلقيها على عضو ريفيّ من اعضاء الاكاديمية الفرنسية اقترح عليه قافية من القوافي . وفي حركة واحدة ، أقحم يديه الاثنتين – وكانتا هائلتين – في جيبي معطفه الواسعين الى حد بعيد ، وأخرج مسدسين فولاذيـــين

صغيرين من النوع المعروف بالاكمة . ثم إنه قدّمهما الى ماريوس وقال في سرعة وفي إيجاز :

— « خذ هذين . إرجع الى المنزل . إختبيء في غرفتك . دعهم يعتقدون انك قد خرجت . إنهما مشحونان . في كل منهما رصاصتان . راقبهم جيداً . هناك ثغرة في الجدار ، كما قلت لي . إن الرجال سوف يُقبلون . دعهم يتقدمون قليلًا . وحين تقدّر ان المسألة بلغت حد الخطورة ، وأن الوقت قد حان لتعطيلها ، أطلِق رصاصةً . لا تتعجّل كثيراً . أما البقية فعليّ . طلقة مسدس في الهواء ، نحو السقف ، في ايما جهة . ولكني اوصيك قبل كل شيء بأن لا تتعجّل . إنتظر حتى يشرعوا في الأجراء . أنت محام . وانك لتعرف معنى هذا . »

واخذ ماريوس المسدسين الصغيرين ووضعهما في جيب سترته الجانبيّ .

فقال المفتش :

— « إنهما يُحدثان حَدَبَةً ، على هذا الشكل . إنهما يبدوان للعيان . ضعهما في جيبي صدرتك . »

وخبأ ماريوس المسدسين الصغيرين في جيبي صدرته .

واضاف المفتش :

— « والآن ، لم يعد ثمة دقيقة واحدة يمكن ان تُضيَّع . كم الساعة ؟ الساعة الثانية والنصف . الموعد الساعة السابعة ؟ »

فقال ماريوس :

— « الساعة السادسة . »

وتابع المفتش :

— « عندي وقت كافٍ ، ولكنْ ليس عندي غير الكفاية . حذار ان تنسى شيئاً مما قلته لك . بَنْغ ! طلقة مسدس . »

فأجابه ماريوس :

— « كن مطمئناً . »

وفيما كان ماريوس يضع يده على مزلاج الباب ابتغاء الخروج ، صاح به المفتش :

– « بالمناسبة ، اذا احتجت اليّ بين فينةٍ وفينة فتعال او أرسل احداً الى هنا . وعندئذ اسأل عن المفتش جافير . »

١٥
جوندريت يتبضّع

وبعد بضع لحظات ، حوالى الساعة الثالثة ، اتفق ان اجتاز كورفيراك بشارع موفتارد يصحبه بوسوويه . كان الثلج قد تضاعف وملأ الارجاء . وكان بوسوويه على وشك ان يقول لكورفيراك :

– « إن رؤية رقاقات الثلج هذه كلها تسقط ، لتخيلُ الى المرء ان ثمة أسراباً من الفراشات البيض في السماء . »

وفجأة وقعت عين بوسوويه على ماريوس ، الذي كان يصعّد في الشارع نحو باب المدينة ، وقد طفَتْ على وجهه سيماء غريبة .

وصاح بوسوويه :

– « انظر ! ماريوس ! »

فقال كورفيراك :

– « لقد رأيته . لا تكلّمه . »

– « لماذا ؟ »

– « إنه مشغول . »

– « بماذا ؟ »

– « الا ترى كيف يبدو ؟ »

– « كيف ؟ »

— « إنه يبدو وكأنه يتبع شخصاً ما . »

فقال بوسوويه :

— « هذا صحيح . »

واضاف كورفيراك :

— « وانظر ايّ نظراتٍ غرامية يرسلها ! »

— « ولكنْ ، يا للشيطان ، ايّ شيء يتبع ؟ »

— « إنها قبعةٌ حبيبة ، ريفية ، منمقة ! إنه عاشق . »

ولاحظ بوسوويه :

— « ولكني لا أرى اية قبعة حبيبة ، أو ريفية ، أو منمقة ، في الشارع . ليس ثمة امرأة . »

فنظر كورفيراك وهتف :

— « إنه يتبع رجلاً ! »

وفي الحق أن رجلاً يعتمر بقبعة — رجلاً استطاعا أن يتبيّنا لحيته البيضاء على الرغم من أنه لم يكن يبدو منه غير ظهره — كان يسير على مسافة عشرين خطوة ، تقريباً ، أمام ماريوس .

وكان ذلك الرجل يرتدي سترة طويلة جديدة ، فضفاضة جداً ، وبنطلوناً رهيباً ممزقاً سوّده الوحل .

وانفجر بوسوويه ضاحكاً :

— « من هذا الرجل ؟ »

فاجاب كورفيراك :

— « هذا ؟ هذا شاعر . الشعراء مولعون بارتداء بنطلون تاجر من تجار جلد الارنب ، وسترة طويلة من سترات عضو في مجلس الاعيان الفرنسي . »

فقال بوسوويه :

— « دعنا نرى الى اين يذهب ماريوس . دعنا نرى الى اين يذهب

هذا الرجل . فلنتبعهما ، هيه ؟ »

فصاح كورفيراك :

– « بوسوويه ! إيغل دو مو ! أنت معتوه مدهش . انتبع رجلاً يتبع رجلاً ! »

وتابعا طريقهما .

كان ماريوس قد رأى جوندريت ، حقاً ، يجتاز بشارع موفتارد ، وكان يراقبه .

ومضى جوندريت لسبيله من غير أن يرتاب في أن عيناً كانت مركّزة عليه .

وترك شارع موفتارد ، ورآه ماريوس يدخل الى احد المواطن الاشدّ إرعاباً في شارع غراسيوز . ولبث هنالك نحواً من ربع ساعة ، ثم انقلب الى شارع موفتارد . ووقف ليدخل دكاناً للادوات الحديدية والنحاسية وغيرها كانت قائمة في تلك الايام عند زاوية شارع بيير لومبار ؛ وبعد بضع دقائق رآه ماريوس يغادر الدكان وفي يده أزميل ضخم للحديد البارد ذو مقبض خشبي ابيض ما لبث ان خبأه تحت سترته الطويلة . وعند الطرف الأعلى من شارع الـ « بيتي جانتييي » انعطف الى اليسار ومشى مسرعاً الى شارع الـ « بيتي بانكييه » . كان الليل يهبط ، وكان الثلج الذي كفّ عن السقوط لحظةً قد شرع يسقط كرة اخرى . وكمنَ ماريوس عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » تماماً ، تلك الزاوية التي كانت مقفرة كشأنها دائماً ، ولم يتبع جوندريت الى أبعد من ذلك . وكان هذا من حسن الطالع ، اذ لم يكد جوندريت يصل الى الجدار المنخفض – حيث سبق لماريوس ان سمع الرجل ذا الشعر الطويل والرجل ذا اللحية يتحدثان – حتى استدار ، واستيقن أن احداً لم يتبعه ولم يرَه ، ثم جاوز الجدار بخطوة واسعة ، واختفى .

وكانت الارض الواسعة التي يحيط بها ذلك الجدار تتصل بالفِناء الخلفي

لمؤجر عربات سابق ٍ ذي شهرة رديئة ، مؤجر كان قد أفلس ، ولا تزال تحت سقائفه بضع عربات عتيقة .

وبدا لماريوس ان من الخير أن يفيد من غيبة جوندريت فينطلق الى البيت . والى هذا ، فقد كانت العتمة تشتدّ ؛ فكلّ مساء ، كان من دأب « مام بوغون » لدنْ خروجها لغسل الاطباق في المدينة ان توصد باب البيت ، فهو مغلق دائماً عند الزوال . وكان ماريوس قد أعطى مفتاحه الى مفتش الشرطة . واذن فقد كان من الضروريّ ان يُسرع .

كان المساء قد اقبل ، وكان الليل قد أطبق على الكون أو كاد . ولم يبقَ في الأفق أو في السماء كلها غير نقطة واحدة مضاءة بالشمس ؛ وكانت تلك النقطة هي القمر .

كانت ترتفع حمراءَ خلف قبة « لا سالبيتريير » المنخفضة .

ورجع ماريوس الى رقم ٥٠ – ٥٢ في خطىً واسعة . كان الباب لا يزال مفتوحاً حين وصل الى البيت . وارتقى السلم على رؤوس اصابعه وتسلّل في محاذاة جدار الرواق حتى غرفته . وكان هذا الرواق ، كما نذكر ، مطوّقاً من جانبيه بالعلالي التي كانت شاغرةً كلّها ، آنذاك ، ومعدّةً للتأجير . وكان من عادة « مام بوغون » أن تترك الابواب مفتوحة . وفيما كان ماريوس يمرّ باحد هذه الابواب خالَ انه لمح في الحُجيرة الفارغة اربعة رؤوس لا تبدي حراكاً ، رؤوس لم تكن لتبدو على نحو باهت إلا بفضل بقية من ضوء النهار كانت تمرّ من خلال النافذة الصغيرة . واذ كان ماريوس راغباً في ان لا يراه أحد ، فأنه لم يحاول أن يرى . ووفّق الى دخول غرفته من غير ان يلمحه أحد ، ومن غير أن يُحدث ضجةً ما . كان الوقت قد حان . وبعد لحظة سمع « مام بوغون » تخرج ، وتغلق باب البيت .

١٦

وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية ذات اللحن الانكليزي دارجةً عام ١٨٣٢

وجلس ماريوس على سريره . لعل الساعة كانت الخامسة والنصف . إن ثلاثين دقيقة ليس غير تفصله عما سوف يحدث . وسمع شرايينه تنبض كما يسمع المرء تكتكة الساعة في الظلام . وفكر في ذلك الزحف المزدوج الذي كان يجري في تلك اللحظة وسطَ الدجنّة : الجريمة تتقدم من ناحية ، والعدالة تتقدم من ناحية . ولم يعترِهِ الخوف ، ولكنه لم يستطع ان يفكر ، من غير ان تأخذه شبه رعدة ، في الاشياء التي توشك ان تقع . لقد بدا له ، شأن جميع اولئك الذين يُلمّ بهم حادث مفاجيء مذهل ، أن ذلك النهار كله لم يكن إلا حُلماً . ولكي لا يقع في نفسه أنه فريسة كابوس من الكوابيس ، تعيّن عليه ان يستشعر برودة المسدسين الفولاذيين الصغيرين في جيبي صدرتِهِ .

كان الثلج قد كف عن السقوط . وكان القمر ، وقد تعاظم إشراقه ، ينجو بنفسه من الضباب . وامتزج ضياؤه بالاشعة البيضاء المنعكسة عن الثلج المتراكم ، فخلع على الغرفة مظهراً غَسَقياً .

كان في وكر جوندريت ضوء . ورأى ماريوس الى ثغرة الجدار تلتمع بنور أحمر بدا في عينيه مضرجاً بالدماء .

وكان على مثل اليقين من ان هذا الضوء لا يمكن أن يكون منبعثاً من شمعة ما . وعلى اية حال ، فلم تكن في غرفة جوندريت وأسرته أيما حركة . إن احداً لم يكن يتحرك هناك ، وإن احداً لم يكن يتكلم . لم يكن ثمة نفَس . كانت السكينة مثلوجة وعميقة . ولولا ذلك الضوء اذن لكان خليقاً به أن يعتقد أنه في جوار قبر .

ونزع ماريوس نعليه ، في رفق ، ودفعهما تحت سريره .

وانقضت بضع دقائق . وسمع ماريوس البـــابُ الادنى يدور على رزّاته . وارتقت السلّم خطىً ثقيـلة سريعة ، واجتـازت الرواق ؛ ورُفع مزلاج الرواق في صخب . كان جوندريت هو الذي دخل .

وفجأةً ، ارتفعت اصوات عديدة . كانت الاسرة كلها في العلّية . بيد أنها لزمت الصمت في غيبـة ربّ البيت ِفعْـلَ الذؤيبـات في غيبـة الذئب .

وقال :

— « هذا أنا . »

وعوّت الفتاتان :

— « مساء الخير ، يا أبانا الرائع ! »

فقالت الأم :

— « والآن ؟ »

فأجاب جوندريت :

— « كل شيء يسير على نحو ساحر . ولكن قدميّ باردتان مثل قدمي كلب ـ حسن ، هذا هو المطلوب . لقد لبستما . يجب ان تكونا قادرتين على إيحاء الثقة . »

— « نحن مستعدتان للخروج . »

— « حذار ان تنسيا شيئاً مما قلته لكما ! سوف تعملان كل شيء على احسن وجه ، اليس كذلك ؟ »

— « كن مطمئناً . »

فقال جوندريت :

— « لأنه .... »

ولم يتمّ جملته .

وسمعه ماريوس يضع شيئاً ثقيلاً على الطاولة ، ولعله أن يكون ذلك

الازميل الذي اشتراه .

وقال جوندريت :

— « آه ، ها ! هل أكلتِ هنا ؟ »

فأجابت الأم :

— « نعم . لقد أكلت ثلاث حبات كبيرة من البطاطا مع شيء من الملح . لقد أفدتُ من وجود النار فطبختها عليها . »

فقال جوندريت :

— « حسن . غداً ، سآخذك لتتناولي الطعام معي . سوف يكون على المائدة بطة وتوابعها . ولسوف تتعشين مثل شارل العاشر . أيجري كل شيء على ما يرام ؟ »

ثم اضاف ، خافضاً صوته :

— « لقد نُصِبَت مصيدة الفيران . والقطط على اتم الاستعداد . »

وخفض صوته اكثر من ذي قبل ، ايضاً ، وقال :

— « ضعي هذا في النار . »

وسمع ماريوس حسيس فحم كانت يدٌ ما تصدمه بكلاّبة صغيرة او بأداة حديدية ما . وتابع جوندريت :

— « هل شحّمتِ رزّات الباب ، بحيث لا تُحدث ايّ صوت ؟ »

فأجابت الأم :

— « نعم . »

— « كم الساعة ؟ »

— « السادسة تقريباً . إن ساعة سان ميدار قد أعلنت النصف بعد الخامسة منذ لحظة فقط . »

فقال جوندريت :

— « يا للشيطان ! يجب ان تخرج الفتاتان وتقوما بالحراسة . تقدّما الى هنا ، ايتها البنتان ، واستمعا اليّ . »

ودار همسٌ .

وارتفع صوت جوندريت كرة اخرى !

— « هل خرجت بورغون ؟ »

فأجابت الأم :

— « نعم . »

— « اواثقة انتِ من انه لا يوجد أحد في غرفة جارنا ؟ »

— « إنه لم يرجع ، اليومَ ، بعد ، وانت تعلم ان هذا هو الموعد الذي يتناول فيه عشاءه . »

— « اواثقة انتِ ؟ »

— « واثقة . »

فأجاب جوندريت :

— « سيان . لا ضرر في الذهاب والتثبت من وجوده في الغرفة او عدمه . خذي الشمعة ، يا ابنتي واذهبي . »

ونزل ماريوس عن الخزانة واثباً على يديه وركبتيه ، ودبّ تحت سريره من غير أن يحدث ضجةً ما .

ولم يكد يختبىء ، حتى لمح ضوءاً ينبعث من خلال شقوق الباب . وصاح صوت :

— « بابا ! لقد خرج . »

وادرك ان الصوت كان صوت الفتاة الكبرى .

وسألها الأب :

— « هل دخلت الغرفة ؟ »

فأجابت الفتاة :

— « لا . ولكنْ لمّا كان مفتاحه في الباب فمن الواضح انه قد خرج . »

فصاح الاب :

— « مهما يكن ، ادخلي الى الغرفة . »

وفُتح الباب ، ورأى ماريوس الفتاة الطويلة تدخل وفي يدها شمعة . كان يبدو عليها ذلك المظهر الذي تبدّت فيه ذلك الصباح ، وإن تكن الآن ، وعلى ضوء هذه الشمعة ، ادعى الى الهول .

وتقدمت نحو السرير مباشرةً . وعبرتْ بماريوس لحظة من الحَصَر النفسي لا سبيل الى تصويرها . ولكنْ كان ثمة مرآة مسمّرة على الجدار ، قرب السرير ؛ وانما كانت الفتاة تتجه نحو تلك المرآة . ورفعت نفسها على رؤوس اصابعها ، ونظرت الى وجهها فيها . وسُمِع صوت حدائد عتيقة في الغرفة المجاورة .

وملّست شعرها براحة يدها ، وابتسمت أمـــام المرآة منشدةً في خلال ذلك بصوتها القبْريّ المهشّم :

« إن حبنا قد دام اسبوعاً ،
ولكن لحظات السعادة قصيرة !
ولأن يهيم المرء حباً ثمانية ايام شيء يستحق الجهد !
ان زمان الحب ينبغي ان يستمر الى الابد !
ينبغي ان يستمرّ الى الأبد ! ينبغي ان يستمر الى الأبد . »

وفي غضون ذلك ، كان ماريوس يرتعد . لقد بدا له ان من المتعذر ان لا تسمع أنفاسه .

ومضت نحو النافذة ، ونظرت الى الخارج ، متحدثةً في صوت عال على طريقتها تلك ، نصف البلهاء .

وقالت :

— « ما أبشع باريس حين ترتدي قميصاً أبيض ! »

ورجعت الى المرآة ، وعاودت القيام بحركاتها المتكلفة ، وتأملت في طلعتها الأمامية ، ثم في طلعتها الجانبية .

وصاح الأب :

— « حسناً ، ما الذي تفعلينه الان ؟ »

فاجابت ، مواصلةً تسوية شعرها :

— « إني انظر تحت السرير والأثاث . ليس هناك أحد . »

فهرّ الأب :

— « ايتها البلهاء . ارجعي الى هنا في الحال ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! »

فقالت :

— « آنا آتية ! انا آتية ! إن المرء لا يجد متسعاً لشيء في كوخه الحقير ! »

وهمهمت :

« لقد تركتني لتذهب الى المجد ،
ان قلبي الحزين ليتبع خطاك حيثا اتجهتَ . »

وألقت نظرة اخيرة على المرآة ، وخرجت ، موصدةً الباب خلفها .

وبعد لحظة ، سمع ماريوس وقع اقدام الفتاتين الصغيرتين الحافيتين ، في الرواق ، وصوت جوندريت يصيح بها :

— « انتبها جيداً ! واحدة نحو باب المدينة ، والاخرى عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » . حذار ان ترفعا عيونكما عن باب المنزل دقيقةً واحدة . واذا رأيتا اقلّ شيء فسارعا الى هنا في الحال ! طيرا الى هنا طيراناً ! إن معكما مفتاحاً يمكّنكما من الدخول . »

ودمدمت البنت الكبرى :

— « نقوم بالحراسة واقدامنا حافية في الثلج ! »

فقال الأب :

— « غداً سوف تنتعلان حذاءين حريريين بلون الخنفسة ! »

وهبطتا السلم ، وبعد بضع ثوانٍ أعلن صوتُ الباب السفليّ المنغلق أنهما قد غادرتا البيت .

وهكذا لم يبق في البيت غير ماريوس وجوندريت وزوجته ؛ ولعل الكائنات العجيبة التي لمحها ماريوس في الغسق وراء باب العليـة الشاغرة كانت هناك ايضاً .

١٧
كيف أُنفقت قطعة ماريوس النقدية ذات الفرنكات الخمسة

وقدّر ماريوس أنْ قد آن له ان يستعيد موقعه القديم في مرصده . وفي غمضة عين ، وفي خفة الشباب ، كان قرب ثغرة الجدار .

ونظر .

كانت غرفة جوندريت تتكشّف عن مظهر فريد ، واهتدى ماريوس الى تفسير للضوء الغريب الذي سبق له أن لاحظه . كانت شمعة تحترق في شمعدان زنجاريّ اللون ، ولكنْ لم تكن هي التي اضاءت الغرفة في الواقع . كان الوكر كله مضاءً بالوهج المنبعث من كانون حديدي ضخم ملقىً في الموقد ، مملوءٍ بفحم مشتعل ؛ وهو الكانون الذي أعدتـــه جوندريت الزوجة ذلك الصباح . كان الفحم متأججاً ، وكان الكانون أحمر حامياً . وتراقصت شعلة زرقاء فوقه ، فساعدت على الكشف عن شكل الازميل الذي اشتراه جوندريت من شارع « بيير لومبار » ، والذي كان يُحمَى وسط الجمرات . وفي زاوية قرب الباب كانت كومتان بدتا وكأن احداهما كومة حدائد عتيقة ، والاخرى كومة حبـال ،

وقد أعدتا على ما يظهر لاستعمالٍ مرتقَب . وكان ذلك كله خليقاً بأن يحمل المرء الذي لم يطلع على شيء مما كان يُهَيَّأ هناك ، على ان يتردد بين فكرة مشؤومة جداً ، وفكرة بسيطة جداً . كانت الغرفة ، وقد أضيئت على هذا النحو ، أشبه بدكان حداد منهـا بفم الجحيم ؛ ولكن جوندريت اتخذ في ذلك الوهج مظهر الشيطان اكثر مما اتخــذ مظهر الحداد .

وكانت حرارة الجمرات قوية الى حد جعل الشمعة التي على الطـاولة تذوب من ناحية الكانون ، وتُستهلك على نحو منحرف . وكان مصباح نحاسي عتيق مظلمٌ جديرٌ بديوجين وقد تحوّل الى كارتوش * ، ينهض فوق الموقد .

وأرسل الكانون ، الذي وُضع في الموقــد نفسه ، قرب الجمرات الموشكة ان تخمد ، دخانَهُ الى مدخنة الموقد ، ولم ينشر رائحة ما .

وألقى القمر ، المضيء من خلال الواح النافذة الزجاجية الاربعة ، بياضَهُ على العلية الارجوانية المتوهجة : وبدا ذلك لعقـــل ماريوس الشاعريّ ، الحالم حتى في لحظة العمل ، مثل فكرة سماوية تمتزج بكوابيس أرضية شائهة .

ونفذ الى الغرفة ، من خلال اللوح الزجاجي المكسور ، نسيمٌ ساعد على تبديد الرائحة وإخفاء الكانون .

كانت مغارة جوندريت ، اذا ذكر القارىء ما قلناه عن بيت غوربو العتيق ، قد اختيرت اختياراً بارعاً لتكون مسرحاً لاعمال الظلمة والعنف ، ولاخفاء جريمة من الجرائم . كانت اكثر الغرف تقهقراً في اكثر البيوت انعزالاً في اكثر شوارع باريس إقفــاراً . ولو ان الكمين لم يكن معروفاً ، اذن لكان خليقاً به أن يُختَرَعَ هناك .

كان عمق بيت بكامله وجمهرة من الغرف غير المؤجرة تفصل هـــذا

---

* زعيم عصابة من اللصوص سبق التعريف به .

الوكر عن الجادة ، وكانت نافذته الوحيدة تطـــل على اراضٍ واسعة مهملة مطوّقة بالاسوار والاسيجة المؤلفة من أوتاد مغروزة .

وكان جوندريت قد اشعل غليونه ، وجلس على الكرسي المنزوع قشّها ، وأنشأ يدخّن . كانت زوجته تتحدث اليه في صوت خفيض .

ولو كان ماريوس كورفيراك ، يعني لو كان واحداً من اولئك الذين يضحكون لكل مناسبة من مناسبات الحياة اذن لانفجر ضاحكاً حين وقعت عينه على هذه المرأة . كانت تعتمر بقبعة سوداء مريشة تشبه الى حدٍ ما قبعات الرسل الحاملين نبأ اعلان الحرب كما بدوا عند مسح الملك شارل العاشر ، وكانت قد ألقت على تنورتها المسرودة شالاً عريضاً جداً من نسيج صوفيّ مربع ، وانتعلت الحذاء الرجالي الذي ازدرتـــه ابنتها ذلك الصباح . وكانت تلك الزينة هي التي انتزعت من جوندريت هذه الصيحة : **« حسن ! انت في أكمل حلة ! لقـــد أحسنت صنعاً ! يجب ان تكوني قادرةً على الايحاء بالثقة ! »**

أما جوندريت فلم يكن قد نزع المعطف الجديد ، الواسع جـــداً بالنسبة اليه ، والذي كان مسيو لوبلان قد أعطاه اياه . وظـــل زيه يكشف عن ذلك التغاير بين السترة والبنطلون الذي ألّف في عيـــني كورفيراك المثلَ الأعلى للشاعر .

وفجأة رفع جوندريت صوته :

— « وبالمناسبة ! أنا افكر في ذلك . ما دامت حالة الجو هكذا ، فسوف يجيء في عربة اجرة . أضيئي المصباح ؛ خذيه ؛ واهبطي السلم . ولسوف تبقين هناك خلف الباب الادنى . ولحظةَ تسمعين العربةَ تقف ، فعندئذ تفتحين الباب في الحال ، فيصعد ، فتضيئين له السلم والرواق ، حتى اذا دخل الى هنا ترجعين في الحال ، فتدفعين الاجرة الى السائق ، وتسرّحين العربة . »

فسألته المرأة :

— « والمال ؟ »
فبحث جوندريت في جيوب بنطلونه ، وناولها خمسة فرنكات .
فصاحت :
— « ما هذا ؟ »
فأجابها جوندريت في وقار :
— « إنه الملك الذي اعطانا جارنا اياه ، هذا الصباح . »
ثم اضاف :
— « أتعرفين ؟ يجب أن نضع هنا كرسيين . »
— « لماذا ؟ »
— « لكي يُجلَس عليهما . »
واستشعر ماريوس رعدةً تسري في أوصاله حين سمع المرأة تجيب بهذا الجواب الهادىء :
— « وحق الألـٰه ! سوف اجيء بكرسي جارنا . »
وفي حركة سريعة ، فتحت باب الوكر ، وخرجت الى الرواق .
وليس من ريب في أنه لم يكن لدى ماريوس متسع من الوقت للوثوب عن الخزانة والاختباء تحت السرير .
وصاح جوندريت :
— « خذي الشمعة . »
فقالت :
— « لا . ذلك يربكني . إن عليّ أن احمل كرسيين . والقمر بدرٌ على كل حال . »
وسمع ماريوس يد « جوندريت الأم » الثقيلة تتحسّس مفتاح غرفته في الظلام . وفُتح الباب . ووقف مسمّراً في مكانه بالتوجّس والذهول .
ودخلت المرأة .
وأدخلت كوةُ العلية شعاعاً من اشعة القمر بين صفحتين صغيرتين من

الظلمة . وكانت احدى هاتين الصفحتين تحجب الجدار الذي استند اليه ماريوس حجباً كاملاً ، فاذا به — ماريوس — يختفي عن العيان .

ورفعت جوندريت الأم عينيها ، ولم ترَ ماريوس ، واخذت الكرسيين ، وكانا الكرسيين الوحيدين اللذين يملكهما ماريوس ، وخرجت ، مغلقةً الباب خلفها في صخب .

لقد رجعتْ الى الوكر :

— « ها قد جئتك بالكرسيين . »

فقال الزوج :

— « وهو ذا المصباح . إهبطي السلم في الحال . »

ونزلت عند أمره لتوّها ؛ وغودر جوندريت وحيداً .

ووضع كلًا من الكرسيين عند جانب من الطاولة ، وقلب الازميل في النار ، ووضع ستاراً عتيقاً أمام الموقد فحجب الكانون ، ثم مضى الى الزاوية التي نهضت فيها كومة الحبال ، وانحنى وكأنما يريد ان يفحص شيئاً . وادرك ماريوس عندئذ ان ما حسبه كومة شائهة كان في الواقع سلّماً حبالية ، متقنة الصنع ، ذات درجات خشبية ، وكلاّبتين ضخمتين تُعلَّق بهما .

هذه السلّم ، وبضع آلات ضخمة — هي كتلٌ حقيقية من الحديد مطروحة فوق ركام الحدائد العتيقة القائم خلف الباب — لم تكن في وكر جوندريت عند الصباح ، فليس من ريب في أنها حُملت الى هناك بعد الظهر ، خلال غيبة ماريوس .

وقال ماريوس في ما بينه وبين نفسه :

— « هذه هي ادوات الحداد . »

ولو ان ماريوس كان على علم اوسع بهذا الضرب من المعرفة إذن لتبيّن في ما حسبه ادوات حدّاد بعضَ الادوات القادرة على ان تخلع قفلًا او تفتح باباً بكلاّبة ، وأدوات اخرى قادرة على القطْع والاحتزاز ،

وهما نوعا الادوات المشؤومة اللذان يدعوهما اللصوص *les cadets* و *les fauchants*

كان الموقد ، والطاولة ، والكرسيان تجاه ماريوس مباشرةً . أما الكانون فكان محجوباً . وكانت الغرفة مضاءةً ، الآن ، بالشمعة ؛ فاذا بأتفه الاشياء التي على الطاولة او على الموقد يُلقي ظلّاً كبيراً . كانت آنية ماء مكسورةٌ تقنّع نصف جدار من الجدران . وكان يرين على تلك الغرفة هدوء رهيب ينذر بالخطر على نحو لا سبيل الى وصفه . لقد كان في استطاعة المرء ان يستشعر اقتراب شيء مخيف .

وكان جوندريت قد ترك غليونه ينطفيء — وتلك علامة تؤذن ، من غير شك ، باستغراقه البالغ في التفكير — وكان قد رجع وجلس . وجعلت الشمعة طرفي وجهه وزواياه الضارية تبرز على نحو يلفت النظر . وكان ثمة تغضّن في حاجبيه وانفتاح مفاجيء في يده اليمنى ، وكأنما كان يجيب عن النصائح الاخيرة التي وجهها اليه حوار باطنيّ كالح . وفي احدى هذه الاجابات الغامضة التي كان يردّ بها على نفسه ، سحب درج الطاولة نحوه سحباً عنيفاً ، وأخرج مدية مطبخ طويلة كانت مخبوءة هناك ، وجرّب شفرتها على ظُفره . حتى اذا تمّ له ذلك ، أعاد المدية الى الدرج ، وأغلقه .

أما ماريوس فأمسك بالمسدس الصغير الذي كان في جيب صدرته الايمن ، وأخرجه منه ، وضغط على نابضه استعداداً لاطلاق النار .

واحدث المسدس ، عند ذلك ، صوتاً صغيراً واضحاً حادّاً .

واجفل جوندريت ، ونهض عن كرسيه نصف نهضة .

وصاح :

— « مَنْ هناك ؟ »

وحبس ماريوس انفاسه . وأصغى جوندريت لحظة . ثم شرع يضحك ، قائلاً :

— « يا لي من مجنون ! ان الجدار الحاجز هو الذي قضقض على

تلك الشاكلة . »

وأبقى ماريوس المسدس الصغير في يده .

١٨
كرسيّا ماريوس يتواجهان

وفجأةً ، قلقلت ذبذبةُ ناقوس قصيّةٌ ومحزونة زجاج النوافذ . لقد اعلنت « سان ميدار » الساعة السادسة .

وأتبع جوندريت كل دقة من تلك الدقات بايماءة من رأسه . وعند الدقة السادسة ، اطفأ الشمعة بيديه .

ثم راح يذرع الغرفة ؛ وأصغى في الرواق ، ومشى ، ثم اصغى من جديد .

ودمدم :

— « شرطَ أن يجيء ! »

ثم انقلب الى كرسيه .

ولم يكد يعاود الجلوس حتى فُتح الباب .

كانت جوندريت الأم قد فتحته ، ووقفت في الرواق ، متكلفة ابتسامة تودّدية رهيبة أضيئت ، من ادنى ، بأحد ثقوب المصباح القاتم .

وقالت :

— « تفضل ، يا سيدي ! »

وكرر جوندريت ، وقد نهض في عجلة بالغة :

— « تفضل يا محسني ! »

وبرز مسيو لوبلان .

كانت تطفو على محياه طلاقة جعلته جليلاً على نحو فريد .

ووضع اربع ليرات ذهبية على الطاولة .

وقال :

– « مسيو فابانتو ، خذ هذه واستعن بها على دفع اجرة الغرفة وسدّ حاجاتك الملحّة . وفي المستقبل سأحاول ان اقدم اليك مبلغاً آخر . »

– « اثابك الله ، يا محسني الكريم ! » قال جوندريت ذلك ، واقترب من امرأته في سرعة وهمس :

– « صرّحي العربة ! »

وانسلّت من الغرفة ، فيما كان زوجها يُسرف في الانحناء احتراماً ، ويقدّم كرسياً الى مسيو لوبلان . وبعد لحظة ، رجعتْ وهمست في اذنه :

– « لقد تمّ ذلك . »

كان الثلج ما انفكّ يتساقط منذ الصباح عميقاً الى درجة جعلتهما لا يسمعان العربة حين وصلت ، ولا يسمعانها حين ولّت .

وفي غضون ذلك كان مسيو لوبلان قد جلس على الكرسي .

وكان جوندريت قد احتل الكرسي الآخر المقابل لمسيو لوبلان .

والآن ، يحسن بالقارىء ، لكي يكوّن فكرة عن المشهد الذي سوف يلي ، ان يتمثّل في مخيّلته ذلك الليل البارد ، وإقفارَ الـ « سالبيتريير » المغطى بالثلج ، الأبيض تحت ضياء القمر ، مثل كَفَنٍ هائل ، ومصابيحَ الشارع المضطربة الضوء ، ههنا وههناك ، المخضّبة هذه الجادّات الفاجعة ، وصفوفَ الدردار الاسود الطويلة ، وقد خلا الشارع أو كاد – على مدى ميل واحد – من عابر سبيل ، وغرِقَ بيت غوربو العتيق في أعمق ما اكتنفه من صمت وهول وظلمة ، وأضيئت عليّة جوندريت الواسعة – في ذلك البيت ، روسطَ هذا الاقفار وتلك الدجنّة – بشمعة ليس غير ، وجلس في ذلك الوكر رجلان اثنان الى طاولة ، مسيو لوبلان هادئاً مطمئناً ، وجوندريت مبتسماً رهيباً ،

وانزوت زوجته ، الذئبة الأمّ ، في زاوية ، وانتصب ماريوس خلفَ الجدار الحاجز ، محجوباً عن الانظار ، متيقظاً ، واعياً كل كلمة ، راصداً كل حركة ، مسدّداً عينيه الى الساعة ، قابضاً على المسدس الصغير بجمع كفّه .

والحق ان ماريوس لم يستشعر خوفاً ما . لقد أحسّ بالغيظ ليس غير . لقد شدّ على عقب المسدس ، فاستشعر الأمن والثقة . وقال في ذات نفسه : « سوف أوقف هذا النذل ساعةَ أشاء . »

وأحسّ ان البوليس كان يكمن ، غيرَ بعيد ، في مكانٍ ما ، في انتظار الاشارة المتفق عليها ، وأنه على اتمّ الاستعداد لأن يبسط ذراعه .

والى هذا ، فقد رجا أن يُلقي هذا الاجتماع الرهيب ، بين جوندريت ومسيو لوبلان ، بعض الضوء على كل ما كان تائقاً الى معرفته .

١٩
شواغل الأعماق المظلمة

لم يكد المقام يستقرّ بمسيو لوبلان حتى أدار عينيه نحو الفراشين الفارغين .

وتساءل :

— « كيف حال الجريح الصغيرة البائسة ؟ »

فأجاب جوندريت في ابتسامة محزنة ولكنها معترفة بالجميل :

— « سيئة . سيئة جداً ، يا سيدي الجليل . لقد اخذتها شقيقتها الكبرى الى الـ « بورب » لكي تضمدها . سوف تراهما . انهما ستعودان

بعد قليل .

— « إن مدام فابانتو تبدو لي أحسن جداً من ذي قبل ؟ » كذلك استأنف مسيو لوبلان كلامه ، مسدّداً بصره الى جوندريت الزوجة بزيّها المضحك ، وقد وقفت بينه وبين الباب ، وكأنما كانت تحرس المخرج ، وانشأت تحدّق اليه في وضعٍ مهدِّد ، وضعٍ يكاد يكون متحدّياً .

وقال جوندريت :

— « إنها تموت . ولكنك ترى ، يا سيدي ، ان تلك المرأة ذات شجاعة عظيمة . إنها ليست امرأة ؛ انها ثور . »

واذ تأثرت المرأة بهذا الاطراء ، اعترضته صائحةً في مثل دلال غولٍ أغدق عليه فيض من ثناء :

— « انت لطيف معي دائماً ، اكثر مما ينبغي ، يا مسيو جوندريت . »

فقال مسيو لوبلان :

— « جوندريت ! لقد حسبتُ ان اسمك فابانتو ؟ »

فسارع الزوج الى القول :

— « فابانتو أو جوندريت ! لقبُ فنّان ! »

وهزّ كتفيه لامرأته هزةً لم يرها مسيو لوبلان ، ثم اضاف في جرْس مفخّم ملاطِف :

— « آه ! لقد عشنا عمرَنا كله على وئام واتفاق ، أنا وهذه العزيزة المسكينة ! وايّ شيء يمكن أن يبقى لنا ، اذا فقدنا هذا ايضاً ؟ نحن منكودو الحظ جداً ، يا سيدي المحترم ! إنّ عندنا أذرعاً ، ولكنْ ليس عندنا عمل ! وإنّ عندنا شجاعة ، ولكن ليس عندنا شغل ! أنا لا ادري كيف تنظم الحكومة هذا ، ولكني أقسم بشرفي ، يا سيدي ، اني لست يعقوبياً ، يا سيدي ، ولست رجلاً محباً للشجار . أنا لا أضمر

لهم ايّ اذى ، ولكنْ لو كنتُ انا الوزراء لسارت الامور ، وأقسم لك بشرفي ، سيراً مختلفاً . خذ مثلاً اني اردت ان أعلم ابنتيّ صناعة الصناديق الكرتونية . قد تقول لي : ماذا ؟ صناعة ؟ أجل ! صناعة ! صناعة بسيطة ! مورد رزق ! ايّ سقوط هو هذا ، يا محسني ! ايّ ذلّ ، بالنسبة الى من كان كما كنا نحن ! واأسفاه ! لم يبقَ لنا من ايام الرخاء شيء ! لم يبق لنا غير شيء واحد : صورة زيتية أنا شديد التعلّق بها ، ومع ذلك فسوف اضطرّ الى التخلي عنها ، لأن علينا ان نعيش ! اجل ، ان علينا ان نعيش ! »

وفيما كان جوندريت يتحدث في اضطراب واضح لم يُنقص شيئاً من سيمائه الرصينة الذكية ، رفع ماريوس عينيه ، فلمح في مؤخرة الغرفة شخصاً لم يره من قبل . كان رجلٌ قد انسلّ الى هناك في خفة بالغة تعذّر معها على ايّ من الجماعة ان يسمع البـــاب يدور على رزّاته . وكان هـذا الرجل يرتدي صدرةً صوفية بنفسجية مسرودة ، صدرة عتيقة ، بالية ، وسخة ، ممزقة ، فاغرة الفم عند كل ثنية من ثنياتها ، وبنطلوناً واسعاً من مخمل قطني ، وينتعل حذاء خشبياً . ولم يكن على جذعه قميص . كان عـاريَ العنق ، عـاريَ الذراعين مَوْشومهما ، وكان وجهه ملطّخاً بالسواد . وكان قد جلس في صمت ، طاوياً ذراعيه على السرير الاقرب . وإذ ظلّ خلف المرأة ، فلم يتبيّنْهُ ماريوس إلا في عسر .

وكان في ذلك الضرب من الغريزة المغناطيسية الذي يحذّر العين ما جعل مسيو لوبلان يلتفت لحظة التفت ماريوس تقريباً . ولم يتمالك ان يُبدي حركة تنمّ عن الدهش ، لم تَفُتْ جوندريت .

وصاح جوندريت ، وهو يزرّر سترته في لهجةِ ملاطفة :

- « آه ، فهمتُ ! أنت تنظر الى معطفك . لكأنه مفصّل خصيصاً لي ، أقسم لك ، لكأنه مفصّل خصيصاً لي ! »

فقال مسيو لوبلان :

— « مَن ذلك الرجل ؟ »

فأجاب جوندريت :

— « ذلك الرجل ؟ إنه جارنا . لا تُلقِ بالاً اليه . »

كانت لذلك الجار هيئة غريبة . وعلى اية حال ، فأن مصانع المنتجات الكيميائية تكثر في ضاحية سان مارسو . وان كثيراً من وجوه العمال الصناعيين لتتلطّخ بالسواد . وفوق ذلك ، فقد كان شخص مسيو لوبلان كله يُفصح عن ثقة ساذجة باسلة . واستأنف حديثه :

— « عفواً . ماذا كنت تقول لي ، يا مسيو فابانتو ؟ »

فأجابه جوندريت ، مسنداً مرفقيه الى الطاولة ، ومحدّقاً الى مسيو لوبلان بعينين ثابتتين رخصتين تشبهان عيني بُواء* ، قائلاً :

— « كنت أقول لك ، ياسيدي ، ويا نصيري العزيز ، كنت اقول لك ان عندي لوحة زيتية اودّ ان ابيعها . »

وسُمعت لدى الباب ضجة ضئيلة . ودخل رجلٌ ثان ، وجلس على السرير قرب جوندريت المرأة . كان عاريَ الذراعين ، مثل الرجل الأول ، وكان على وجهه قناع من الحبر أو من السُخام

وعلى الرغم من ان ذلك الرجل انسلّ ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، الى الغرفة انسلالاً ، فان ذلك لم يمنع مسيو لوبلان من أن يلمحه :

وقال جوندريت :

— « لا تشغل نفسك بهم . إنهم من أهل المنزل . كنتُ أقول لك ، اذن ، انه قد بقيت عندي لوحة زيتية ذات قيمة . هي ذي ، ياسيدي ، انظر . »

ونهض ، ومضى الى الجدار الذي انتصبت في ادناه تلك اللوحة

---

* Boa وهي ضرب من الافاعي .

المؤطّرة التي اشرنا اليها من قبل ، وادارها وجهاً لظهر ، مُبقياً اياها مستندةً الى الجدار . كانت في الواقع شيئاً يشبه لوحة فنية ، شيئاً اضاءته الشمعة على نحو باهت . ولم يستطع ماريوس ان يتبيّن شيئاً منها بعد ان حالت وقفة جوندريت ما بينه وبين اللوحة . غير انه لمح تصويراً غليظاً غير متقن ، وشبه شخصية رئيسية لوّنت بالاسلوب الفجّ الصخّاب الذي نألفه في ستائر المسرح المتجول ، والرسوم التي تُحلّى بها الحُجب الفاصلة (بارافان) .

وسأله مسيو لوبلان :

– « ما هذه ؟ »

فهتف جوندريت :

– « لوحة بريشة فنان كبير . صورة ذات ثمن غالٍ ، يا محسني ! أنا اتعلّق بها كتعلقي بابنتيّ ؛ إنها تذكّرني باشياء واشياء ! ولكني قلتُ لك ، ولستُ أناقض ذلك ، إنني من البؤس بحيث اجدني مضطراً الى التخلّي عنها ... »

وسواء أكان ذلك بحكم المصادفة أم بسبب من ان الارتياب بدأ يُداخله فيما كان يدرس الصورة ، اتجه بصر مسيو لوبلان نحو مؤخرة الغرفة . كان ثمة ، الآن ، اربعة رجال : ثلاثة جالسون على السرير ، وواحد واقف قرب إطار الباب . كان كلٌّ منهم عاري الذراعين ، جامداً لا يتحرك ، ملطّخ الوجه بالسواد . كان احد الذين جلسوا على السرير مستنداً الى الجدار ، مغمض العينين ، حتى ليحسب المرء أنه نائم . وكان هذا الرجل هرماً ، وكان شعره الأشيب رهيباً فوق وجهه الاسود . أما الاثنان الآخران فقد بدت عليهما أمارات الشباب . كان احدهما ذا لحية ، وكان الآخر ذا شعر طويل . ولم يكن أيّ منهما ينتعل حذاء . إن اولئك الذين لم يكن عندهم احذية من نسيج كانوا حفاة .

ولاحظ جوندريت ان عين مسيو لوبلان كانت مركزة على اولئك الرجال ، فقال :

– « إنهم اصدقائي . وهم يسكنون في جوارنا . إنهم سود الوجوه لأنهم يعملون في الفحم . إنهم دكاترة مداخن . لا تشغل بالك بهم ، يا محسني . واشترِ لوحتي الفنية . أشفِقْ على شقائي . انا لن ابيعك اياها بثمن غال . بكم تقدّرها ؟ »

فقال مسيو لوبلان ، محدقاً النظر الى وجه جوندريت مثل رجـل يأخذ حذره :

– « ولكنّ هذه اشبه بلافتة حانة . انها تساوي ثلاثة فرنكات تقريباً . »

فاجاب جوندريت في هدوء :

– « أتحمل حافظة نقودك ؟ إني اكتفي بألف ريال . »

فنهض مسيو لوبلان واقفاً ، واسند ظهره الى الجدار ، واجال بصره في الغرفة على نحو خاطف . كان جوندريت الى يساره ناحيةَ النافذة ، وزوجته والرجال الاربعة الى يمينه ناحيةَ الباب . ولم يتحرك الرجال الاربعة ، بل لم يبدُ عليهم ما يؤذن انهم رأوه . وكان جوندريت قد عاد يتحدث في لهجة شاكية وقد عصف الاهتياج بعينيه وغلبت على صوته نبرة فاجمة الى درجة كان خليقاً بها ان تجعل مسيو لوبلان يعتقد ان هذا الذي امامه ليس غير رجل ذهب الشقاء بصوابه .

وقال جوندريت :

– « اذا لم تشترِ لوحتي الفنية ، ايها المحسن العزيز ، بقيتُ من غير مورد ، ولكن يكون امامي إلا ان القي بنفسي في النهر . آه ، حين افكـّر باني اردتُ ان اعلـّم بنتيّ صنـع الورق المقوّى نصف الرقيق ، الورق المقوى الذي تُعمل منه صناديق الهدايا ! حسناً ، يجب ان تكون عندهما طاولة في ادناها لوح خشبيّ لكي لا يسقط الزجاج

على الارض ؛ يجب ان يكون عندهما كانون مصنوع خصيصاً لهـــذا الغرض ، وقدرٌ ذات ثلاثة أقسام لمختلف درجات القوة التي ينبغي ان يكون الغراء عليها تبعاً لجهة استعماله : خشباً كانت أو ورقاً أو قماشاً. وكذلك ينبغي ان يكون عندهما سكين لقطع الكرتون ، وقالب لإحكامه ، ومطرقة لتسمير الصفائح الفولاذية ، وكلاّبات ، واشياء كثيرة اخرى لا أعلمها وحقّ الشيطان ! وذلك كله لكي تكسبا اربعة فلوس في اليوم ! اربعة فلوس بعد اربع عشرة ساعة من العمـــل ! وكل صندوق ينبغي ان يمرّ من خلال يدي البنت ثلاث عشرة مرة ! وعليهما فوق ذلك ان تبللا الورق ! وان لا توسّخا شيئاً ! وان تُبقيا الغراء ساخناً ! يا للشيطان ! اقول لك ! اربعة فلوس في اليوم ! كيف تريد من المرء ان يعيش ؟ »

وفيما كان جوندريت يتكلم لم ينظر الى مسيو لوبلان الذي راح يراقبه . كانت عين مسيو لوبلان مسمّرة على جوندريت ، وكانت عين جوندريت مسمّرةً على الباب . وكان انتباه ماريوس اللاهثُ ينتقل من احدهما الى الآخر . وبدا مسيو لوبلان وكأنه يسأل نفسه : « هل هذا الرجل معتوه ؟ » وكرّر جوندريت مرتين او ثلاثاً بمختلف ضروب النبرات المتفاوتة في الاسلوب السقيم المتوسّل : « ليس امامي إلا ان اقذف بنفسي في النهر ! لقد هبطتُ ذلك اليوم ثلاث خطوات لهـــذا الغرض من ناحية جسر اوسترليتز ! »

وفجأة اضطرمت عينه الباهتة بتوهج فظيع ؛ وتصدّر هذا الرجـل القميء وأمسى مروّعاً . ثم تقدّم خطوة نحو مسيو لوبلان ، وصاح في وجهه بصوت راعد :

— « ولكن هذا كله لا علاقة له بالمسألة ! هل عرفتني ؟ »

٢٠
الكمين

كان باب العلّية قد فُتح فجأةً ، متكشّفاً عن ثلاثة رجال يرتدون ثياباً عمالية زرقاء ويتقنّعون بأقنعة ورقية سوداء . كان أولهم مهزولاً يحمل هراوة طويلة معصوبة بالحديد . وأما ثانيهم ، وكان ضرباً من عملاق ، فقد حمل مطرقةً كالتي يصطنعهــا الجزارون لقتل الثيران ، خافضاً فأسها ، ممسكاً بها من منتصف مقبضها . وأما ثالثهم ، فكان رجلاً عريض المنكبين ، ليس شديد الهزال كالأول ، وليس شديد الضخامة كالثاني ، وكان يحمل في جُمع كفّهِ مفتاحاً هائلاً مسروقاً من باب سجن من السجون .

لقد بدا وكأن جوندريت إنما كان ينتظر وصول هؤلاء الرجال . ودار حوار خاطف بينه وبين الرجل ذي الهراوة ، الرجل المهزول :

قال جوندريت :

— « كل شيء جاهز ؟ »

فأجابه الرجل المهزول :

— « نعم . »

— « اين مونبارناس ، اذن ؟ »

— « لقد وقف « الفتى الأول » ليتجاذب الحديث مع ابنتك . »

— « مع ايّ منهما ؟ »

— « الكبرى . »

— « هل توجد عربة أجرة ، قرب البيت ؟ »

— « نعم . »

— « هل شدّت الخيل الى العربة الصغيرة ؟ »

— « نُشدّت . »

— « وهل هما فرسان جيدان ؟ »

— « ممتازان . »

— « أهي تنتظر حيث قلت إن عليها ان تنتظر ؟ »

— « نعم . »

فقال جوندريت :

— « حسن . »

كان مسيو لوبلان شاحباً جداً . لقد اجال طرفه في ارجاء الغرفة مثل رجل يعرف أين وقع ؛ ودار رأسه فوق عنقه ، متجهاً على التعاقب نحو جميع الرؤوس المحيطة بـه ، في بطء متيقظ منشده ، ولكنْ لم يكن في سيماه ما يشبه الخوف . كان قد جعل من الطاولة متراساً مرتجلاً ، وكان هذا الرجل الذي بدا ، قبل لحظة ، وكأنه مجرد رجل ساذج عجوز ، قد تحوّل فجأةً الى ضرب من الجبار ، ووضع قبضة يده القوية على مؤخر كرسيه في ايماءة رهيبة مذهلة .

لقد بدا هذا الرجل — الثبت الجنان الى حد بعيد ، الشجاع الى حد بعيد ، أمام خطر كهذا — وكأنه من اصحاب تلك الطبائع التي تجمع البسالة الى الطيّبة ، في بساطة وطبَعيّة . إن أبا الفتاة التي نحبها لا يمكن ان يكون غريباً بالنسبة الينا ابداً . واستشعر ماريوس اعتزازاً بهذا الرجل المجهول .

وكان ثلاثة من الرجال الذين وصفهم جوندريت بقوله « **إنهم دكاترة مداخن** » قد فزعوا الى ركام الحدائد العتيقة . فأما احدهم فتناول مقصاً ضخماً من مقصّات المعادن ، وأما الثاني فتناول قضيباً حديدياً من قضبان القبابين ، وأما الثالث فتناول مطرقة ، ووقفوا معترضين الباب ، من غير ان ينبسوا بكلمة . كان الرجل العجوز لا يزال على السرير ، وكان قد اجتزأ بفتح عينيه . وكانت جوندريت المرأة قاعدة الى جانبه .

وخطر لماريوس أن لحظة التدخل سوف تحين بعد ثوانٍ ، فرفع يده اليمنى نحو السقف ، في اتجاه الرواق ، فهو على استعداد لاطلاق النار .

واذ أتمّ جوندريت محادثته مع الرجـــل ذي المراوة ، التفت الى مسيو لوبلان وكرر سؤاله ، مردفـــاً اياه بضحكته تلك ، الخفيضة ، المكبوحة ، الفظيـة :

– « انت لا تعرفني اذن ؟ »

ونظر اليه مسيو لوبلان في وجهه ، واجاب :

– « لا . »

ثم إن جوندريت تقدّم حتى الطاولة . وانحنى فوق الشمعة ، مصالباً ذراعيه ، دافعاً فكّه الضاري ذا الزوايا نحو وجه مسيو لوبلان الهادىء اقرب ما استطاع ان يدفعه ، من غير ان يحمله على الارتداد الى وراء . وفي ذلك الوضع ، الخليق بوحش مفترس على وشك ان ينهش فريسته ، صرخَ :

– « إن اسمي ليس فابانتو ، إن اسمي ليس جوندريت ؛ إن اسمي تيناردييه ! انا صاحب فندق مونفيرماي ! هـل تفهمني ؟ تيناردييه ! والآن هل عرفتني ؟ »

وسرى في جبين مسيو لوبلان احمرار لا يكاد يُلحظ ، واجاب من غير ان يرتعش صوته ، او يرتفع ، وفي سكينته المألوفة :

– « لم ازدد معرفةً بك . »

ولم يسمع ماريوس الجواب . ولو انّ احداً رآه في هـــذه اللحظة وسط تلك الكلمة اذن لرآه شارد العين ، مشدوهـاً ، مروّع القلب . فحين قال جوندريت : **إن اسمي تيناردييه** سرت الرعـــدة في اوصال ماريوس كلها ، واسند نفسه الى الجدار وكأنه قد استشعر بَرْدَ شفرة سيفٍ يخترق فؤاده . وعندئذ انخفضت ذراعه اليمنى ، وكانت على وشك ان تطلق الرصاصة المتفق عليها ، انخفاضاً بطيئاً ؛ حتى اذا كرّر جوندريت :

هل تفهمني ، تيناردييه ؟ كادت اصابع ماريوس الحائرة ان تُفلت المسدس الصغير . إن إماطة جوندريت اللثامَ عن هويّته لم تُحدث هزةً ما في نفس مسيو لوبلان ، ولكنها احدثت هزة مزلزلة في نفس ماريوس . وذلك الاسم ، تيناردييه ، الذي بدا وكأن مسيو لوبلان لم يعرفه ، قد عرفه ماريوس . فلنذكر ايَّ شيء كان ذلك الاسم عنده ! لقد حمل ذلك الاسم فوق فؤاده ، مكتوباً في وصية أبيه ! لقد حمله في أعمق أعماق تفكيره ، في اعمق اعماق ذاكرته ، في هذه الوصية المقدسة : « إن رجلاً يدعى تيناردييه انقذ حياتي . فاذا ما لقيهُ ولدي فلسوف يقدّم اليه كل خدمة يقدر عليها . » كان ذلك الاسم ، كما نذكر ، احدى صلوات روحه . لقد مزجه مع اسم ابيه في عبادته . ماذا ؟ اهذا هو تيناردييه ، اهذا هو فندقيّ مونفيرماي الذي بحث عنه على غير طائل ، تلك المدة الطويلة كلها ! لقد وجده آخر الامر ، وكيف ! إن منقذ ابيه هذا كان قاطع طريق ! إن هذا الرجل ، الذي كان هو ، ماريوس ، يتحرق لكي يقف نفسه لخدمته ، كان هُولة ! إن مخلّص الكولونيل بونميرسي هذا كان على وشك ان يرتكب جريمة حقيقية ، لمّا يتبيّنْ ماريوس حتى الآن شكلها على نحو واضح جداً ، ولكنها بدت وكأنها جريمة قتل ! وضدّ من ! يا الـهي العظيم ! ايّ قدَر هذا ! ايّ سخرية مريرة من سخريات القضاء ! لقد امره أبوه من اعماق تابوته ان يقدّم الى تيناردييه كل خير يقدر عليه ؛ وطوالَ أربع سنوات لم تراود ذهنه فكرة غير سداد دَيْن أبيه هذا ؛ ولحظةَ اوشك ان يمكن العدالة من القاء القبض على قاطع طريق ، متلبّسٍ بجريمة ، يصيح القدَر في وجهه : هذا تيناردييه ! وحياةُ ابيه ، التي أنقذَتْ وسط وابل من القذائف المدفعية في ساحة واترلو البطولية ، كاد آخر الأمر ان يكافيء هذا الرجل على تخليصها ، وان يكافئه بالمشنقة ! كان قد وطّن النفس ، اذا ما وجد تيناردييه هذا ذات يوم ، ان لا يدنو منه إلا

منطوحاً على قدميه ، وها هو ذا قد وجده الآن فعلًا ، ولكن ليُسلمه الى الجلاد . لقد قال له ابوه : ساعدْ تيناردييه ! وكان هو يجيب ذلك الصوت المقدّس المعبود بسحْق تيناردييه ! اذ يقدّم الى ابيه ، في تابوته ، مشهد الرجل الذي انتزعه من براثن الموت ، وقد أعدم في ساحة سان جاك بفضل تدخّل ابنه ، ابنه ماريوس الذي اوصاه بهذا الرجل ! وأية سخرية اعظم من ان يكون قد حمل فوق صدره ، طوال هذه المدة كلها ، أمنيات ابيه الأخيرة ، مكتوبةً بخط يده ، لا لشيء إلا لكي يعمل بما يناقضها على هذا النحو المروّع الى هذا الحد ! ولكن من ناحية ثانية ، أيرى الى هذا الكمين ولا يحبطه ؟ ! أيدين الضحية ويشفق على السفاح ؟ ! وهل من الممكن ان يكون مديناً بجميلٍ يجب ان يردّه لمثل هذا النذل ؟ لكأن جميع الافكار التي راودت ماريوس في السنوات الاربع الاخيرة قد اخترقتها هذه الضربة المفاجئة اختراقاً . وارتعد . كان كل شيء رهناً به . كان يُمسك بيده ، على غير وعيٍ منهم ، هذه المخلوقات التي تحركت هناك تحت بصره . فاذا اطلق النار من مسدسه الصغير ، نجا مسيو لوبلان وهلك تيناردييه . واذا لم يطلق النار ذهب مسيو لوبلان ضحيةً ، ومن يدري ؟ فقد يفرّ تيناردييه . إنه بين واحد من أمرين : ان يُهلك أحدهما او يدع الاخر يقع في الهاوية ! وفي كلتا الحالين وخز ضمير ! ما الذي يتعين عليه ان يعمله ؟ ايّ الأمرين يجب ان يختار ؟ أيخون ذكرياته الأشدّ إلحاحاً ، والعهود الوثيقة التي اكثر من أخذِها على نفسه ، وواجبه الأشدّ قداسة ، وتلك الوصية الممعنة في الجلال ! أيخون ارادة ابيه ، أم يغضّ الطرف عن جريمة تُرتكب ؟ لقد بدا له من ناحية ، وكأنه يسمع « أورسوله » تتوسل اليه ان ينقذ إباها ، ومن ناحية ثانية وكأنه يسمع الكولونيل يوصيه بتيناردييه . لقد استشعر انه فقدَ صوابه . وخذلته ركبتاه . ولم يجد حتى متسعاً من الوقت للتفكير وقد اندفع المشهد البادي امامه في مثل

هذا الغليان . كان ذلك اشبه باعصار حسبَ ماريوس انه سيده ولكنه كان يعصف به . كان على وشك ان يغمى عليه .

وفي غضون ذلك ، كان تيناردييه – ولن ندعوه منذ اليوم بغير هذا الاسم – يروح ويجيء امام الطاولة ، في ضربٍ من الانشداه وفي ضربٍ من الظفر المسعور .

وأخذ الشمعة بقوة ، ووضعها على الموقد في عنف اطفأ شعلتها ، او كاد ، ونثر شحمها على الجدار .

ثم إنه التفت الى مسيو لوبلان ، التفاتةً مروّعة ، وبصق الكلمات التالية :

– « مُشيَّط ! مدخَّن ! محمَّص ! مشويّ ! »

وشرع يذرع الغرفة من جديد ، وقد انفجر انفجاراً كاملاً .

وصاح :

– « آه ، لقد عثرتُ عليك من جديد ، يا سيدي المحسن ! يا سيدي المليونير البالي الثياب ! يا سيديّ واهب الدّمى ! يا سيدي الغبيّ المخدوع ! ها ! انت لا تعرفني ؟ لا ، لست انت ذلك الرجل الذي جاء الى مونفيرماي ، الى فندقي ، منذ ثماني سنوات ، ليلة عيد الميلاد عام ١٨٢٣ ! انت لم تكن ذلك الرجل الذي انتزع ابنة فانتين ، القبّرة ، من منزلي ! انت لم تكن ذلك الرجل اللابس سترة صفراء ! والحامل في يده صرّة من الثياب مثلما جئتَ الى هنا هذا الصباح تماماً ! قولي ، الآن ، يا زوجتي ! إنه مصاب ، على ما يظهر بمرض حمل الصرر الملأى بالجوارب الصوفية الى المنازل ! ايها المحسن العجوز ، اخرج ! أأنت صانع جوارب ، يا سيدي المليونير ؟ اتعطي الفقراء كُناسة دكانك ، ايها الرجل القدسيّ ! يا لك من بهلوان ! ها ! انت لا تعرفني ؟ حسن ، انا اعرفك ، انا ! لقد عرفتك لحظةَ اقحمتَ خطمك هنا . آه ! سوف ترى آخر الامر ان الورود لا تغطي دائماً طريقَ الدخول

الى بيوت الناس على هذا الشكل ، بحجة انها فنادق ، بثياب ممزقة بالية ، وفي هيئة شحاذ يجدر بأي امرىء ان يمنحه فلساً ، لكي تخدع الناس ، وتمثّل دور الكريم الجواد ، وتسلب مُعيلهم منهم ، وتهددهم في الغابات ، ولسوف تجد ايضاً انك لا تستطيع ان تبرىء ذمتك من ذلك بان تعود بعد مدة ، حين يُصاب الناس بالافلاس ، وتقدّم اليهم سترة طويلة واسعة جداً ، وبطانيّتين خسيستين من بطانيات المستشفيات ، ايها الشحاذ العجوز ، السارق الاطفال ! »

وكفّ عن الكلام ، وبدا وكأنما راح يتحدث الى نفسه لحظةً . كان خليقاً بالمرء ان يقول ان ثورته قد سقطت مثل نهر « الرون » في حفرة من الحفر . ثم انه ضرب الطاولة بجمع كفه ، وصاح وكأنه يُنهي بصوت مرتفع شيئاً كان يقوله لنفسه :

— « بهيئته الهادئة ! »

ووجّه الخطاب الى مسيو لوبلان :

— « وحق الالـه ! لقد سخرتَ مني مرةً ! انت علة مصائبي كلها ! لقد استوليتَ ، بالف وخمسمئة فرنك ، على فتاة كانت عندي ، وهي من اسرة غنية حتماً ، وكانت قد عادت عليّ قبل ذلك بمقدار كبير من المال ، وكان يتعيّن عليّ ان احصل منها على مبلغ اعيش عليه طوال حياتي ! فتاة كانت جديرة بأن تعوّضني من كل ما خسرته في ذلك المطعم حيث كان الناس يسكرون سكرة ملوكية ، وحيث التهمتُ كل ثروتي كالأبله . أوه ، اتمنى لو ان جميع الخمر التي شُربت عندي كانت سماً على شاربيها ! ولكنْ ما لنا ولهذا ! قل لي اذن ! لا ريب في انك حسبتني ساذجاً حين انطلقتَ مع القبّرة ! كان معك نبّوتك في الغابة ! كنت انت الرجل الاقوى ! الانتقام ! إن الورقة الرابحة هي اليوم في يدي ! انت هالكٌ ، ايها الرجل الساذج ! اوه ؛ ولكني اضحك ! انا اضحك حقاً ! هل وقع في الشرَك ؟ لقد قلت له اني ممثل ، وان اسمي فاباتنو ، واني مثلت الادوار الكوميدية مع

مدموزيل مارس ، ومدموزيل موش ، وان عليّ ان ادفع الاجرة الى صاحب البيت غداً في الرابع من شباط ، ولم يخطر له حتى مجرد التفكير بأن موعد دفع القسط هو الثامن من كانون الثاني لا الرابع من شباط ! يا له من ابله مضحك ! وهذه القطع النقدية الاربع الخسيسة التي جاءني بها ! النذل ! إنه لم يؤانس من نفسه الشجاعة الكافية التي تمكّنه من جعلها مئة فرنك ! وكيف ابتلعَ عباراتي الركيكة ! إن هذا قد ملأني . وقلت في نفسي : رجلٌ عديم الفهم ! هيّا ، لقد امسكتُ بك ! لقد لحستُ براثنك هذا الصباح ! ولسوف أقضم قلبك هذا المساء ! »

وسكت تيناردييه . لقد انقطع نفسه . ولهث صدره الصغير الضيق مثل منفاخ الحداد . كانت عينه تمور بمثل البهجة الدنيئة التي تغمر حيواناً ضعيفاً وحشياً جباناً وُفّق آخر الامر الى ان يهزم ما كان يَرهبه من قبل ، ويُهين ما كان أطراه ، تلك البهجة التي تعصف بقلب قزم يضع عقِبَ قدمه على رأس جالوت ، والتي تستحوذ على ابن آوى شرع يمزّق ثوراً مريضاً ، هو من الموت بحيث يعجز عن الدفاع عن نفسه وهو من الحياة بحيث لا ينقطع عذابه .

ولم يقاطعه مسيو لوبلان ، بل قال حين كفّ عن الكلام :

— « لست ادري ما تريد ان تقوله . أنت مخطيء . أنا رجل فقير جداً ، ولست مليونيراً بحال من االاحوال . انا لا اعرفك . انت تخلط ما بيني وبين رجل آخر . »

فصاح تيناردييه :

— « ها ! ايها المخادع الغشاش ! انت لا تزال تتمسّك بهذه النكتة ! انت مُرتبكٌ ، يا صاحبي العجوز ! آه ! إنك لا تتذكر ! انك لا ترى من انا ! »

فأجاب مسيو لوبلان في نبرة من الكياسة كان لها في مثل تلك

اللحظة ، اثرٌ قويّ وغريب :

– « عفواً ، يا سيدي ، اني ارى انك قاطع طريق . »

إن الكائنات البغيضة سريعة التأثر ، وان الهُوَل سريعة الاغتياظ . وهل ثمة من لم يلاحظ ذلك ؟ فما إن سمعتْ تيناردييه الزوجة عبارة قاطع طريق هذه حتى وثبت من السرير . وأمسك تيناردييه بكرسيّه وكأنما كان يعتزم ان يسحقها بيديه . وصاح في وجه زوجته :

– « لا تتحركي ! »

ثم التفت نحو مسيو لوبلان وقال :

– « قاطع طريق ! اجل ، انا اعلم انكم تدعوننا هكذا ، انتم الاغنياء ! اجل ! هذا صحيح ؛ لقد أفلَسْتُ ؛ أنا احيا في مخبأ ؛ انا لا أجد كسرة من الخبز ؛ انا لا املك فلساً ؛ فانا قاطع طريق ! ها قد انقضت ثلاثة ايام لم آكل فيها لقمة ؛ فانا قاطع طريـــق ! آه ! انتم تدفئون اقدامكم ؛ انتم تنتعلون اخفافاً من نوع ساكوسكي ؛ انتم تلبسون سترات طويلة مبطّنة مثل رؤساء الاساقفة ؛ انتم تسكنون في الدور الاول من بيوت يحرسها بوّابون ؛ انتم تأكلون الكمأة ؛ انتم تأكلون حُزَماً من الهليون ثمن الحزمة اربعون فرنكاً في شهر كانون الثاني ، وتأكلون الجلبان ؛ انتم تعلفون انفسكم ، وحين تريدون ان تعرفوا ما اذا كان الجوُّ سوف يبرد تلقون نظرةً على الجريدة لتروا عند اية درجة سوف يقف ميزان الحرارة ، الذي اخترعـــه شوفالييه ! أما نحن ! فأجسادنا هي موازين حرارتنا ! نحن لسنا في حاجة الى ان نذهب الى الرصيف عند زاوية « برج الساعة » لكي نرى كم درجة تحت الصفر بلغت الحرارة ! نحن نحسّ بالدم يتجمد في أوردتنا والثلج يصل الى قلوبنا ، فنقول : « ليس هناك ربّ ! » ثم تأتون انتم الى كهوفنا ، اجل الى كهوفنا ، وتسمّوننا قطاع طرق ! ولكنا سوف نأكلكم ! ولكنا سوف نفترسكم ، ايها الصغار المساكين ! سيدي المليونير ! إعلم هذا :

لقد كنتُ رجلاً ذا تجارة ناجحة ، كنتُ دافـــع ضرائب ، كنتُ ناخباً ؛ أنا مواطن ! أنا ! وقد لا تكون أنت مواطناً ، انت ! »

وهنا خطا تيناردييه خطوة نحو الرجال الذين كانوا قرب البـاب ، واضاف في رعدة :

— « حين افكر انه يتجرأ على المجيء ليحدثني كما يتحدث إلى اسكاف ! »

ثم خاطب مسيو لوبلان في نكسة سُعر :

— « واعلم هذا ايضاً ، يا سيدي المحسن ! أنا لست رجلاً مريباً ، أنا ! أنا لست رجلاً لا يعرف احدٌ اسمه ، رجلاً يأتي الى البيـــوت ليخطف الاولاد ! أنا جندي فرنسي قديم ، كان ينبغي ان أقلد وساماً ! لقد شهدتُ واترلو ، انا ! وفي اثناء المعركة انقذت جنرالاً يدعى الكونت لا أدري ماذا ! لقد قال لي اسمه ، ولكن صوته الكابيّ كان ضعيفاً الى درجة جعلتني لا أسمعه . أنا لم اسمع إلاّ كلمة ميرمي (شكراً) ولقد كنت افضّل ان اسمع اسمه لا أن اسمع شكره . * فقد كان ذلك الاسم خليقاً بأن يساعدني على العثور عليه في ما بعد . واللوحة التي تراها ، والتي رسمها دافيد ** في بروكسيل ، أتدري تمثّل مَنْ ؟ إنها تمثّلني . لقد أراد دافيد ان يخلّد هذه البسالة . إني احمـل ذلك الجنرال على ظهري ، واني انقله تحت وابل من القذائف المدفعيـة . ذلك هو التاريخ . وحتى هذا الجنرال لم يُسْدِ اليّ خدمة مـا في يوم من الايام . إنه ليس أحسن من سائر الناس . ومع ذلك ، فقد انقذت حياته مخاطراً بحياتي ، وإن جيبي مليء بالشهادات على ذلك . انا جندي

---

* كان الكولونيل بونميرسي قد قال لتيناردييه ، وقد توهم انه اقبل لانقـــاذه ، « إن اسمي بونميرسي » كما رأينا من قبل . ويبدو انه لم يسمع من ذلك الاسم الا جزأه الاخير وهو الجزء الذي يؤدي معنى الشكر .

** رسام فرنسي مشهور ، ولد في باريس ، ومات منفياً في بروكسيل (١٧٤٨ — ١٨٢٥) وفي عهد الامبراطورية كان رسّام نابوليون الخاص .

من جنود واترلو ، اسم من الف اسم ! والآن ، وقد حملتني الطيبة على إخبارك بهذا كله ، دعنا نضع حداً للمسألة . يجب ان احصل على المال ؛ يجب ان احصل على مقدار هائل من المال ، وإلا قضيتُ على حياتك ، وحقّ رعود الله ! »

كان ماريوس قد سيطر ، بعض الشيء ، على قلقه البالغ ، وانشأ يصغي . كان آخر احتمال من احتمالات الشك قد تلاشى . كان من غير شك تيناردييه الوصية . وارتعد ماريوس لذلك التوبيخ الذي وُجّه الى أبيه بسبب من نكرانه للجميل ، والذي كان على وشك ان يقدّم تبريراً فاجعاً له منذ لحظات . وتعاظم ارتباكه ؛ والى هذا ، فقد كان في كلمات تيناردييه هذه كلها ، في جَرْسه ، في إيماءاته ، في عينيه اللتين أطلقتا اللهب مع كل كلمة – كان في انفجار هذه الطبيعة الشريرة الكاشفة عن حقيقتها كلها ، في هذا المزيج من الصلف والدناءة ، من الغرور والحقارة ، من الغيظ والحماقة ، في هذا الخليط المشوّش من الشكاوى الحقيقية والعواطف الزائفة ، في هذه الوقاحة التي تكشّف عنها رجلٌ شرير تذوّق حلاوة العنف ، في ذلك العري الذي تبدّت عليه نفسٌ شنيعة ، في ذلك الاضطرام الذي عصف بالآلام كلها وقد اتحدت بالبغض كله ؛ كان في هذه جميعاً شيء فظيعٌ كالشرّ ، موجع كالحقيقة .

ولم تكن اللوحة التي رسمها استاذ من اساتذة الفن ، الصورة التي ابدعها دافيد ، والتي عرض على مسيو لوبلان شراءها ، لم تكن – كما قد حزر القارىء – شيئاً غير لافتة مطعمه الحقير ، وقد رسمها هو كما نذكر بريشته ، وكانت الأثرَ الأوحدَ الذي استخلصه من افلاسه في مونفيرماي .

وإذْ لم يعد يعترض خطّ بصر ماريوس ، فقد صار في امكان ماريوس الآن ان يرى الى ذلك الشيء ؛ وفي طَلي الحيطان ذاك تبيّنَ معركةً ، فعلًا ، وخلفيةً من دخان ، ورجلًا يحمل رجلًا . لقد التقى فيها تيناردييه

وبوغيرسي ؛ الرقيب المنقِذ ، والكولونيل المنقَذ . وبدا ماريوس أشبه بالسكران . لقد أعادت هذه الصورة اباه ، بطريقة ما ، الى الحياة . إنها لم تَعُدِ الآن لافتة فندق مونفيرماي ؛ كانت بعثاً . فيها انفتح تابوتٌ نصف فتحة ، ومنها انتصب طيف . وسمع ماريوس قلبه يدقّ بين صدغيه ، وسمع مدفع واترلو يدوّي في أذنيه . كانت صورة ابيه الدامية المرسومة على نحو باهت في هذا اللوح القاتم قد أذهلته ؛ ولقد بدا له وكأن هذا الظلّ المشوّه كان يحدّق اليه على نحو موصول .

وحين اخذ تيناردييه نَفَساً ركّز عينيه الداميتين على مسيو لوبلان ، وقال في صوت خفيض خاطف :

– « ما الذي تريد ان تقوله قبل ان نبدأ الرقص معك ؟ »

ولم يقل مسيو لوبلان شيئاً . وفي غمرة من هذا الصمت ، طرح صوتٌ أجشّ ، مقبل من ناحية الرواق ، هذه السخرية المأتمية :

– « إذا كان الأمر يستدعي تشقيف حطبٍ ما ، فأنا هنا ! »

كان الرجل الحامل مطرقة الجزار يتندّر .

وفي الوقت نفسه برز وجهٌ ضخم ، شائك ، قذر ، لدى الباب ، وهو يضحك ضحكاً لم يكشف عن اسنان ، ولكنْ عن كلاليب .

كان وجهَ الرجلِ حاملِ مطرقة الجزار .

وصاح تيناردييه في ضراوة :

– « لماذا نزعتَ القناع عن وجهك ؟ »

فأجابه الرجل :

– « لكي اضحك ! »

وطوال بضع لحظات ، بدا مسيو لوبلان وكأنه قد تتبّع وراقب جميع حركات تيناردييه الذي راح ، وقد أعماه غيظُهُ وأذهله ، يذرع الوكر جيئة وذهاباً ، في ثقة مستوحاة من الشعور بأن الباب كان

محروساً ، وانه يهيمن وهو متسلّح على رجل اعزل من السلاح ، وانه وجماعته يشكلون تسعة الى واحد ، حتى ولو اعتُبرت تيناردييه الزوجة بمثابة رجل واحد ليس غير . وفي حديثه ذاك مع الرجل ذي المطرقة التي يصطنعها الجزارون لقتل الثيران أدار ظهره لمسيو لوبلان .

واغتنم مسيو لوبلان الفرصة السانحة ، ودفع الكرسي بقدمه ، والطاولةَ بيده ؛ وبوثبة واحدة ، تمور برشاقة اعجوبية ، قبلَ ان يتمكن تيناردييه من ان يستدير ، انتهى الى النافذة . ولم يستغرق فتحُها ، وتسلُّق دعامتها ، وتخطّيها غير ثانية واحدة . وما إن اصبحت احدى قدميه خارج الغرفة واحداهما داخلها ، حتى امسكت به ستّ أيدٍ قوية ، وردّته الى الغرفة في قوة . كان « دكاترة المداخن » الثلاثة قد وثبوا عليه . وفي الوقت نفسه ، كانت تيناردييه الزوجة قد انشبت اظفارها في شعره .

وفي غمرة الاضطراب الذي نشأ عن ذلك ، هرع قطاع الطرق الآخرون من الرواق . ونزل العجوز — الذي كان فوق السرير والذي بدا صريع الخمر — عن الفراش الحقير ، وتقدم متلمّساً سبيله ، حاملاً بيده مطرقة معبّد طرق .

ورفع واحد من « دكاترة المداخن » اضاءت الشمعة وجهه الاسود وعرف فيه ماريوس برغم هذا الطلاء ، بانشو المعروف بـ « برينتانييه » وبـ « بيغروناي » ايضاً — نقول رفع ذلك « الطبيب » نبّوتاً مصنوعاً من قضيب حديدي ذي كتلة رصاصية في كلّ من طرفيه فوق رأس مسيو لوبلان .

ولم يستطع ماريوس أن يحتمل هذا المشهد . وقال في ذات نفسه : « إغفر لي ، يا أبتِ ! » وتلمّسَ أصبعه زناد المسدس الصغير . وكانت الرصاصة على وشك ان تنطلق حين صاح صوت تيناردييه :

– « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

كانت هذه المحاولة اليائسة التي قامت بها الضحية ، وقد عجزت عن إثارة سخط تيناردييه ، قد هدّأت من غلوائه . كان في ذات نفسه رجلان ، الرجل الضاري ، والرجل الداهية . وحتى تلك اللحظة ، في غمرة النصر ، وأمام فريسته المصعوقة غير المبدية حراكاً ، كان الرجل الضاري هو صاحب اليد العليا . فما إن قاومت الضحية ، وبدت راغبةً في النضال ، حتى برز الرجل الداهية من جديد واستعاد سلطانَهُ .

وكرّر :

– « لا توقعوا به ايّ اذى ! »

ومن غير ان يعي شيئاً من ذلك كانت أولى نتائج هذه الكلمة أن اوقفت المسدس الصغير الذي كان على وشك الانطلاق ، وشلّت ماريوس الذي بدا له ان الألحاح قد زال ، والذي لم يعد يرى حرجاً في الانتظار فترة اخرى . ومن يدري فقد تنشأ مصادفة تنقذه من هذا الخيار الرهيب بين أمرين : أن يدعَ والد أورسول يَهلِك ، أو أن يُهلِك منقذ الكولونيل !

كان صراع جبّار قد بدأ . وبضربة واحدة على أمّ الصدر ، طوح مسيو لوبلان الرجلَ العجوز متدحرجاً وسط الغرفة ، ثم بضربتين من ظاهر يده صرعَ معتدِيَيْن آخرين وأمسك بكل منهما تحت احدى ركبتيه ؛ وصرخ النذلان تحت ذلك الضغط وكأنما كانا تحت رحىً من الصوان . ولكن الاربعة الآخرين كانوا قد امسكوا بالعجوز الرهيب من ذراعيه ورقبته ، وأبقَوْه جالساً القرفصاء فوق « دكتوري المداخن » المذعورين . وهكذا فأن مسيو لوبلان – وكان مسيطراً على هذين الاخيرَين مسيطَراً عليه من اولئك الاوّلين ، ساحقاً اللذين كانا تحته ومختنقاً من اولئك الذين كانوا فوقه ، محاولاً على غير طائل ان يزعزع

جميع تلك الجهود التي تكدست عليه – نقول وهكذا فان مسيو لوبلان اختفى تحت تلك المجموعة الرهيبة من قطاع الطرق ، مثل خنزير بري تحت كومة عاوية من الكلاب الكبيرة الرؤوس ، وكلاب القنص الضارية .

ووفقوا الى طرحه على السرير الأقرب الى النافذة وتشبثوا به هناك في تهيّب . كانت تيناردييه الزوجة لم تفلت شعره بعد .

وقال تيناردييه :

– « أنتِ ! لا تتدخلي في هذه المسألة . سوف يتمزق شالكِ . »

وامتثلت تيناردييه الزوجة أمر بعلها ، كما تمتثل الذئبة أمر الذئب ، في زمجرة .

واستأنف تيناردييه كلامه :

« وانتم الباقون ... هيا فتشوا جيوبه ! »

وبدا مسيو لوبلان وكأنه اطّرح المقاومة . وفتشوا جيوبه . فلم يجدوا فيها غير كيس نقود جلديّ منطوٍ على ستة فرنكات ، ومنديله .

ووضع تيناردييه المنديل في جيبه .

وتساءل :

– « ماذا ؟ لا حافظة اوراق نقدية ؟ »

فأجابه احد « دكاترة المداخن » :

– « حتى ولا ساعة ! »

فغمغم الرجل المقنّع ذو المفتاح الضخم ، وكأنما يخرج صوته من بطنه :

– « سيان . إنه شكسٌ عجوز ! »

ومضى تيناردييه الى الزاوية المجاورة للباب ، وتناول حزمة من الحبال قذف بها اليهم .

وقال :

— « اوثقوه الى مؤخر السرير . »

حتى اذا لمح الرجلَ العجوز المنطرح ، عبرَ الغرفة ، وقد صرعتـه الضربة التي سدّدها اليه مسيو لوبلان بجمع كفه ، تساءل :

— « هل مات بولاترووويل ؟ »

فأجاب بيغروناي :

— « لا ، إنه سكران . »

فقال تيناردييه :

— « اكنسوه الى احدى الزوايا . »

ودفع رجلان من « دكاترة المداخن » بأقدامهما ، الرجلَ الثملَ حتى كومةِ الحدائد العتيقة .

وقال تيناردييه موجهاً الكلام ، في همس ، الى الرجل ذي المراوة :

— « بابيه ! لماذا حشدتَ هؤلاء القوم كلهم ؟ لم يكن من حاجة الى ذلك . »

فأجاب الرجلُ ذو المراوة :

— « ماذا تريد ان افعل ؟ لقد ارادوا كلهم ان يشتركوا في ذلك . الموسم رديء . ليس هناك أشغال . »

كانت الحشيّة الـتي ُقلبت على مسيو لوبلان شبهَ سريرٍ من ُسرر المستشفيات ذي أربع قوائم خشبية ضخمة تكاد ان تكون مربعة . ولم ُيبدِ مسيو لوبلان مقاومة ما . وأوثق قطاع الطرق رباطهُ ، وقد انتصب واقفاً ورجلاه فوق الارض ، الى قائمة السرير الاشدّ بعداً عن النافذة ، والأشد قرباً الى الموقد .

وحين أحكموا العقدة الاخيرة اخذ تيناردييه كرسياً ، وتقـدّم فجلس تجاه مسيو لوبلان تقريباً . كانت سيماه قد تغيرت تغيراً كاملاً ؛ ففي بضع ثوانٍ تحولت اسارير وجهه من العنف الجامح الى الرقة الوادعة

الماكرة . وكاد ماريوس لا يتبين في تلك الابتسامة الكيّسة الجديدة برجل من رجال الدواوين ، ذلك الفمَ الوحشي او يكاد ، الذي كان يُرغي ويزبد قبل لحظة . لقد نظر في ذهول الى هذا التحوّل الغريب الموجع واستشعر ما يستشعره امرؤ يرى نمراً ينقلب الى وكيل دعاوى .

وقال تيناردييه .

– « سيدي . . »

وبأيماءة ، سرّحَ قطاعَ الطرق الذين كانوا ما يزالون متشبثين بمسيو لوبلان ، قائلاً :

– « ابتعدوا قليلاً ، ودعوني اتحدث الى السيّد . . »

وانسحبوا كلهم نحو الباب . واستأنف تيناردييه كلامه :

– « سيدي ، لقد اخطأتَ في محاولة الوثوب من النافذة . كان من الجائز ان تكسر رجلك . والان ، اذا شئت فسوف نتحدث في سكينة . وقبل كل شيء ، يجب عليّ ان انبهك الى هذه الحقيقة التي لاحظتُها ، وهي انك لم تطلق حتى الان اقلّ صيحة . . »

وكان تيناردييه على صواب . فقد كانت هذه الملاحظة صحيحة ، على الرغم من أنها فاتت ماريوس ، في غمرة من القلق الذي استحوذ عليه . كان مسيو لوبلان قد نطق ببضع كلمات من غير ان يرفع صوته . وحتى في صراعه ، قرب النافذة ، مع قطاع الطرق الستة ، كان قد التزم امعق الصمت وأعجبه . وتابع تيناردييه :

– « يا الـهي ! كان في ميسورك ان تصيح قليلاً : « اللص ! اللص ! » اذ ما كنت لاجد في ذلك شيئاً غير ملائم . او ان تصيح : « السفاح ! السفاح ! » فهذا يقال بين الفينة والفينة ، أما انا فما كنت لأفسرها تفسيراً رديئاً . فمن الطبيعيّ جداً ان يحدث الانسان ضجة صغيرة حين يجد نفسه مع اشخاص لا يوحون اليه بقدر كافٍ من الثقة .

كان في إمكانك ان تفعل ذلك ، فلا نحاول ان نزعجك . بل لا نحاول ان نكمّ فمك . وسأقول الك لماذا . لأن هذه الغرفة صماء جداً . هذا كل ما استطيع ان اقوله عنها ، ولكني استطيع ان اقول ذالك . إنها مغارة . في استطاعتنا ان نفجر قنبلة هنا ، فتُسْمع عند اقرب مركز للحرس وكأنها غطيطُ سكران . هنا يعمل المدفع « بُمّ » ويعمل الرعد « بُفّ » . هذا مأوى مريح . ولكنك ، على الجملة ، لم تصرخ . هذا أحسن . إني اقدّم اليك تهنئتي على ذلك ، وسوف اقول لك ايّ شيء أستنتجه من هذا : يا سيدي العزيز ، حين يصرخ المرء مَن الذي يأتي ؟ البوليس . وبعد البوليس ؟ العدالة . حسن ! انت لم تصرخ . لانك لم تكن راغباً ، اكثر منا نحن ، في ان ترى العدالة والبوليس يأتيان . لأن الك — ولقد ارتبتُ في ذلك منذ زمن طويل — مصلحةً ما في إخفاء شيء ما . ونحن نشاركك هذه المصلحة . واذن ، ففي استطاعتنا ان نتفاهم . . »

وفيما هو يتحدث هكذا ، بدا وكأن تيناردييه ، المسمّر بصره على مسيو لوبلان ، كان يحاول ان يُنفذ الخناجرَ ، التي انطلقت من عينيه ، الى ضمير أسيره نفسه . والى هذا ، فقد كانت لغته المطبوعة بضرب من السفاهة المكظومة المرائية ، متحفظةً بل متخيّرة تقريباً . وفي هذا الوغد الذي لم يكن من قبلُ غير قاطع طريق ، كان في ميسور المرء الآن ان يلمح الرجل الذي يدرس لكي يصبح كاهناً .

وكان الصمت الذي لزمه الأسير ، وذلك الحذر الذي اصطنعه الى حدّ تعريض حياته للخطر ، وهذه المقاومة لاول حافز من حوافز الطبيعة ، وهو اطلاق صيحة ما — كان هذا كله ، كما يتعيّن علينا ان نقول ، بعد ان أبديت هذه الملاحظة ، قد أقلق ماريوس وادهشه على نحو أليم .

وكان في ملاحظة تيناردييه ، الحسنة الاساس ، ما ضاعف في عيني ماريوس السُحبَ الخفية التي تغلّف هذا الوجه الرصين الغريب الذي اطلق عليه كورفيراك لقب مسيو لوبلان . ولكنْ أياً ما كانت حـــاله — موثقاً بالحبال ، مطوّقاً بالسفاحين ، نصف مدفونٍ ، اذا جاز التعبير ، في قبر كان يزداد تحته عمقاً في كل لحظة ، أمـــام هياج تيناردييه او امام رقته — فقد ظل هذا الرجل ممتنعاً على الألم ، ولم يستطع ماريوس ان يكبت في مثل تلك اللحظة اعجابه بذلك الوجه الكئيب على نحو بهيّ .

ههنا كانت ، من غير شك ، نفسٌ لا يتطرّق اليها الخوف ، ولا تعرف الذعر . ههنا كان واحد من اولئك الرجـــال الذي هم فوق الدّهش في المواقف اليائسة . فمهما تكن الأزمة حادة ، ومهما تكن الكارثة محتومة ، فلم يكن على وجهه شيء من نزع الرجل الغريق المحدّق بعينين مروّعتين فيما هو يغوص الى الاعماق .

ونهض تيناردييه في هدوء ، ومضى الى الموقد ، وازاح الستار الحاجز مسنداً اياه الى الحشيّة الاكثر قرباً ، كاشفاً القناع بذلك عن الكانون الطافح بالجمرات المتوهجة حيث كان في استطاعة الاسير ان يرى ، بوضوح ، الى الازميل حامياً حتى البياض ، تنقّطه ههنا وههناك نجوم قرمزية صغيرة .

ثم تراجع تيناردييه ، وجلس الى جانب مسيو لوبلان .

وقال :

— « أتابع الحديث . في استطاعتنا الان ان نصل الى تفاهم . دعنا نسوّي هذه المسألة ودّياً . لقد اخطـــأتُ عندما استسلمت اللحظةَ للانفعال . انا لا ادري اين كان عقلي ؛ لقد ذهبتُ الى ابعد مما يجب ؛ لقد كنت أهذي . فمثلاً ، لأنك مليونير قلتُ لك إني محتاج الى مال ، الى مبلغ كبير من المال ، الى مبلغ هائل . فلعل هذا غير معقول .

يا الـهي ! فمهما تكن غنياً فان عندك نفقاتك . وايّ منا لا نفقات عنده . انا لا اريد ان أُنزل الخراب بك ؛ وانا لست موظفاً مهمته القاء القبض على المتخلفين عن دفع الديون ، على كل حال . انا لستُ إلا واحداً من اولئك الذين اذا وجدوا انفسهم في وضع افضل من وضع الخصم افادوا من ذلك لكي يكونوا مضحكين . وها انا راغب في السير نصف الطريق ، والقيام ببعض التضحية من جانبي . انا لا اطلب غير مئتي الف فرنك . »

ولم ينبس مسيو لوبلان بكلمة واحدة . وتابع تيناردييه كلامـه :

— « انت ترى اني اخفف من غلوائي كثيراً . أنـــا لا اعرف حقيقة ثروتك ، ولكني أعلم انك لا تبالي كثيراً بالمال ، ورجلٌ محبٌّ للخير مثلك لن يبخل بمئتي الف فرنك على ربّ اسرة بائس فقير . وانت منطقيّ من غير شك ، فلست تتخيل اني تجشمت ما تجشمته اليـوم من عناء ، ونظمت حادث هذا المساء ، وهو تدبير بارع في رأي هؤلاء السادة كلهم ، لكي اطلب منك ما يكفيني للذهـــاب واحتساء كأس بخمسة عشر « سو » من الخمر الحمراء ، وأكل لحم العجـــل بمطعم دينواوييه . إن مئتي الف فرنك تعويض كافٍ . ومتى خرج هـــذا المبلغ التافه من جيبك اؤكد لك ان كل شيء قد انتهى ، وانك لن تخشى بعد ذلك ضربةً بطرف السبابة . وستقول لي : ولكن ليس في جيبي مئتا الف فرنك ! اوه ! انا لا اتجاوز الحدّ . انـــا لا اطلب ذلك . اني لا اسألك غير شيء واحد . فتلطّف واكتب ما سأمليه عليك . »

وهنا تمهل تيناردييه ، ثم أضاف مؤكداً كل كلمة ، مرسلاً ابتسامة نحو الموقد :

— « احيطك علماً بأني لن أسلّم مطلقاً بانك لا تعرف الكتابة . »

كان خليقاً بمحقق قضائي كبير ان يحسده على تلك الابتسامة .

ودفع تيناردييه الطاولة حتى حاذت مسيو لوبلان ، واخرج من درجها دواة ، وقلماً ، وورقة مبقياً الدرج مفتوحاً نصف فتحة ، وقد اومضت فيه شفرة المدية الطويلة .

ووضع الورقة امام مسيو لوبلان .

وقال :

– « اكتب ! »

وتكلم الأسير آخر الأمر :

– « وكيف تريد مني ان اكتب ؟ أنا مقيد . »

فقال تيناردييه :

– « هذا صحيح ، اعذرني ! أنت على حقّ ! »

والتفت الى بيغروناي وقال :

– « فُكّ ذراع السيد اليمنى . »

ونفذ بانشو ، المعروف بـ « برينتانييه » وبـ « بيغروناي » أمر تيناردييه . حتى اذا أُطلقت يد الاسير اليمنى من وثاقها غمس تيناردييه الريشة في الحبر ، وقدّمها اليه ، قائلاً :

– « تذكّر ، يا سيدي ، انك في قبضتنا ، تحت تصرفنا المطلق ، وأنه ما من قوة بشرية تستطيع ان تنتزعك من هنا ، وانه سوف يسوءنا حقاً ان نضطرّ الى اللجوء الى بعض الاجراءات المتطرفة البغيضة الينا . أنا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف عنوانك ، ولكنني انبهك الى انك سوف تبقى موثقاً حتى يعود الشخص المكلف بنقل الرسالة التي توشك ان تكتبها . والان تلطف واكتب . »

فتساءل الاسير :

– « ماذا ؟ »

– « سوف أملي عليك . »

وتناول مسيو لوبلان الريشة .

وبدأ تيناردييه يملي :

– « ابنتي ... »

وارتعد الأسير ، ورفع عينيه الى تيناردييه .

وقال تيناردييه :

– « ضع : ابنتي العزيزة . »

وامتثل مسيو لوبلان .

وتابع تيناردييه :

– « تعالي في الحال ... »

وقاطع نفسه متسائلاً :

– « انت تخاطبها بضمير المفرد ، اليس كذلك ؟ »

فسأله مسيو لوبلان :

– « مَنْ ؟ »

فقال تيناردييه :

– « يا الهي ! الفتاة الصغيرة ، القبّرة . »

واجاب مسيو لوبلان من غير ان يبدو عليه اقل أمارة من أمارات الانفعال :

« انا لا أدري ماذا تعني . »

فقال تيناردييه :

– « حسن ، تابع الكتابة . »

واستأنف الاملاء :

– « تعالي في الحال . انا في حاجة ماسة اليك . إن الشخص الذي سيقدّم اليك هذه المذكرة مكلّف بأن يقودكِ اليّ . أنا في انتظارك . تعالي في ثقة . »

وكان مسيو لوبلان قد كتب ذلك كله . واضاف تيناردييه :

– « آه ، اشطب تعالي في ثقة ، فقد يقودها هذا الى الاعتقاد بأن

المسألة ليست في غاية البساطة ، وأن عدم الثقة ممكن . »

ومحا مسيو لوبلان الكلمات الثلاث .

وتابع تيناردييه :

— « والآن ، وقّعْ . ما اسمك ؟ »

واطّرح الأسير الريشةَ ، وسأل :

— « الى مَنْ هذه الرسالة ؟ »

فأجاب تيناردييه :

— « انت تعرف ذلك جيداً . الى الفتاة الصغيرة . لقد قلتُ لك هذا منذ لحظة . »

كان واضحاً ان تيناردييه قد تجنب تسمية الفتاة الشابة موضوع السؤال . لقد قال : « القبّرة » ؛ وقال : الفتاة الصغيرة » ، ولكنه لم يلفظ الاسم . حَذَرُ رجلٍ ماكر يصون سره امام شركائه في الجريمة . فلو قد نطق بذلك الاسم اذن لأسلم « المسألة كلها » اليهم ، ولأخبرهم بأكثر مما ينبغي لهم ان يعرفوه .

واستأنف كلامه :

— « وقّعْ . ما اسمك ؟ »

فقال الأسير :

— « اوربان فابر . »

وبحركة مثل حركة الهرة اقحم تيناردييه يده في جيبه ، وأخرج منها المنديل الذي انتزعه من مسيو اوبلان . وبحث عن العلامة التي يحملها ، وقرّبها من الشمعة .

— « أ . ف . U . F ذلك هو . أوربان فابر . حسناً ، وقّعْ : أ . ف . »

ووقّع الأسير .

— « ولما كان المرء يحتاج الى يديه الاثنتين لطيّ الرسالة ، فأعطني

اياها . سوف أطويها انا . »
حتى اذا تمّ له ذلك استأنف الحديث :
– « ضع العنوان . **الانسة فابر** ، في منزلك . أنا اعرف انـــك تسكن في مكان غير بعيد جداً من هنا ، في جوار « سان جاك دو هو با » ، ما دمت تذهب الى هناك لحضور القداس كل يوم ، ولكني لا أعرف في ايّ شارع . أنا ارى انك تفهم وضعك . واذ كنتَ لم تكذب في ما يتصل باسمك ، فلن تكذب في ما يتصل بعنوانك . ضعه انت نفسُك . »
واعتصم الأسير بالتأمل لحظةً ، ثم تناول الريشة وكتب :
– « الانسة فابر ، منزل مسيو اوربان فابر ، شارع سان دومينيك دانفير ، رقم ١٧ » .
وامسك تيناردييه بالرسالة في ضرب من التشنج المحموم .
وصاح :
– « ايتها الزوجة ! »
فاندفعت تيناردييه الزوجة نحوه .
– « هي ذي الرسالة . انت تعرفين ما يتعيّن عليك ان تفعليه . هناك عربة اجرة تحت . اذهبي في الحال ، وارجعي في الحال . »
ووجّه الخطاب الى الرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران ، قائلاً :
– « إسمع ، ما دمتَ قد نزعت لثامك فاذهب مع المرأة . سوف تركب خلف عربة الاجرة . انت تعرف أين فارقت « العربة الصغيرة » .
فقال الرجل :
– « نعم » .
وألقى مطرقته في احدى الزوايا ، وتبع تيناردييه الزوجة .
وفيما هما يمضيان لسبيلهما ، أطلّ تيناردييه برأسه من خلال الباب نصف المفتوح ، وصاح في الرواق :

- « حذار قبل كل شيء ان تضيعا الرسالة ! تذكرا انكما تحملان مئتي الف فرنك . . »

فأجابه صوت زوجته الأجشّ :

- « كن مطمئناً . لقد وضعتها في صدري . . »

ولم تكد تنقضي دقيقة واحدة حتى سُمعت ضربة سوط ما لبثت ان ضعفت ثم تلاشت وشيكاً .

فغمغم تيناردييه :

- « حسن ! انهما منطلقان في سرعة صالحة . وبهذه السرعة سوف ترجع المرأة في ثلاثة ارباع الساعة . . »

وقرّب كرسياً الى الموقد ، وجلس ، طاوياً ذراعيه ، رافعاً حذاءه الملطخ بالوحل الى الكانون .

وقال :

- « قدماي باردتان . . »

لم يكن قد بقي في الوكر ، الان ، غير خمسة قطاع طرق مع تيناردييه والأسير . وكان هؤلاء الرجال - بأقنعتهم او بالطلاء الأسود الذي غطى وجوههم وجعلهم ، وفقاً لما يوحيه الخوف ، فحامين او زنوجاً او أبالسة - ذوي مظهر خَدِرٍ كالح ، وكان خليقاً بمن يراهم أن يعتقد أنهم يقدمون على ارتكاب جريمة كما يقدمون على القيام بأي عملٍ تافه من غير ما غضب ومن غير ما رحمة ، في ضرب من الضجر . كانوا مكدّسين في احدى الزوايا كالبهائم ، وكانوا صامتين . كان تيناردييه يدفيء قدميه . وكان الأسير قد اعتصم بالصمت من جديد . وكانت سكينةٌ مظلمة قد عقبت الجلبة التي ملأتِ العلية قبل بضع لحظات .

وكانت الشمعة التي تكوّنَ فيها ثؤلول ضخم لا تكاد تضيء الوكر الواسع الا بشقّ النفس ، وكانت النار قد خمدت ، والقت جميع تلك

الرؤوس الفظيعة ظلالاً هائلة على الجدران وعلى السقف .

ولم يكن في الامكان سماع أيما صوت غير صوت الانفاس الهادئة التي أطلقها العجوز السكران ، وكان مستسلماً للرقاد .

وانتظر ماريوس في قلق كان كل شيء يزيده حدّة . كانت الاحجية ممتنعة على التفسير اكثر منها في ايما وقت مضى . من كانت هـــذه « الصغيرة » التي دعاها تيناردييه « القبرة » ايضاً ؟ اهي فتاتـــه « أورسول » ؟ ولم يبدُ على وجه الأسير انفعال ما لدن سماعه هـذه الكلمة ، القبّرة ، وأجاب باكثر ما يكون من الطبّعية : انا لا ادري ماذا تعني . ومن ناحية ثانية ، فقـد ُفسّر الحرفان أ . ف U . F . كانا يرمزان الى « أوربان فابر » ، ولم تكن أورسول تدعى أورسول . ذلك كان الشيء الذي رآه ماريوس باكثر ما يكون من الوضـــوح . وأبقاه ضربٌ من السحر المروّع مسمّراً في المكان الذي راقب منـــه هذا المشهد كله وهيمن عليه . كان عاجزاً ، تقريباً ، عن التفكـــير والحركة ، وكأنما قد محقتهُ هذه الاشياء الرهيبة التي كان يراهـــا عن كثب . كان ينتظر ، مترقّباً ان يقع حادث من الحوادث ، كائناً ما كان ، غير قادر على ان يجمع شتات افكاره ، وغير عالمٍ ايّ مسلك ينبغي ان يسلك .

وقال :

— « وعلى اية حال ، اذا كانت **القبّرة** هي اياها ، فسوف أراها من غير شك ، لأن تيناردييه الزوجة سوف تجيء بها الى هنا . وعندئذ يصبح كل شيء واضحاً . إني مستعد لأن ابذل دمي وحياتي ، عند الحاجة ، ولكني سوف أنقذها ! لن يحول بيني وبين ذلك شيء على الاطلاق . »

وتصرّمت على هذا النحو ثلاثون دقيقة . وبدا تيناردييه مستغرقاً في تأمّل مظلم . ولم يتحرك الأسير . ومع ذلك ، فقـد حسبَ ماريوس انه سمع ، بين الفينة والفينة ، وطوال بضع لحظات ، ضجةً صغـــيرة

بكاء مقبلاً من ناحية الأسير .

وفجأةً وجّه تيناردييه الخطاب الى الأسير :

– « مسيو فابر ، إنتبه الى ما سأقوله لك في الحال . »

ووجد ماريوس في هذه الكلمات القليلة بصيصاً من النور ، فأصغى في انتباه . وتابع تيناردييه حديثه :

– « إن زوجتي سوف ترجع وشيكاً ، فلا تكن عجولاً . وأنا اعتقد أن القبّرة هي ابنتك حقاً ، وأجد ان من الطبيعيّ جداً أن تحرص على الاحتفاظ بها . ولكن اسمع لحظة . برسالتك تلك ، سوف تعثر زوجتي عليها . ولقد قلت لزوجتي ان تكون حسنة البزة ، كما رأيت ، لكي تلحق بها آنستك الصغيرة من غير تردد . ولسوف تركبان معاً عربةَ الأجرة التي يتعلق رفيقي بمؤخرتها . وهناك في مكان ما خارج احد ابواب المدينة ، عربة شُدّ اليها فرسان أصيلان . سوف تقودان آنستك الصغيرة الى هناك . ولسوف تترجل من العربة . وعندئذ يركب رفيقي العربة الاخرى معها ، وتعود زوجتي الى هنا لكي تقول لنا « قُضي الأمر . » أما آنستك ، فلن يُنزَلَ بها اذىً ما . ان العربة سوف تسوقها الى مكان تنعم فيه بالهدوء ، وما إن تعطيني المئتي الف فرنك ، هذا المبلغ الصغير ، حتى تعاد الآنسة اليك واذا ما ابلغتَ الشرطة فاعتقلتني ، فعندئذ يقرص رفيقي القبّرة قرصةً ، هذا كل ما هناك . »

ولم ينبس الأسير ببنت شفة . وبعد تمهّل ، استأنف تيناردييه كلامه :

– « المسألة بسيطة ، كما ترى . لن يكون ثمة اذىً الا اذا شئت أنت ان يكون . هذه هي القصة كلها . لقد رويت لك كل شيء ، لكي يكون على بيّنة من امرك . »

وصمتَ . ولم يقطع الأسير حبل الصمت ، فأردف تيناردييه :

– « ما إن ترجع زوجتي وتقول : « القبّرة على الطريق » حتى

نطلق سراحك ، وعندئذ يكون في إمكانك ان تذهب الى بيتك وتنام . انت ترى أننا لا نضمر نيات سيئة . »

وتعاقبت على عقل ماريوس صورٌ رهيبة . ماذا ؟ هذه الفتاة الشابة التي يعتزمون اختطافها ، لن يجيئوا بها الى هنا ؟ إن واحداً من هؤلاء الغيلان سوف يسوقها تحت جنح الظلام ؟ الى اين ؟... واذا كانت هي ! وكان واضحاً أنها هي . واستشعر ماريوس ان قلبه يكفّ عن الخفقان . ما الذي ينبغي ان يعمله ؟ ايطلق الرصاص من المسدس الصغير ؟ أيلقي بهؤلاء الأوغاد كلهم في يد العدالة ؟ ولكن الرجل الفظيع ذا المطرقة سوف يكون بعيداً عن متناول البوليس مع الفتاة الشابة . وتذكّر ماريوس كلمات تيناردييه هذه التي حزر ما انطوت عليه من مغزىً دمويّ : **اذا أبلغت الشرطة فاعتقلتني فعندئذ يقرص رفيقي القبرةَ قرصة .**

والان لم تعد وصية الكولونيل وحدها هي التي تغلّ يده . لقد غلّ يده فوق ذلك ، حبُه نفسُه ، والخطرُ المحدق بتلك التي احبّها .

وفي كل لحظة ، اتخذت هذه الحالة الرهيبة ، التي نشأت منذ ساعة او يزيد ، مظهراً جديداً . ووجد ماريوس القوةَ على استعراض مختلف الافتراضات الموجعة ، على التعاقب ملتمساً املاً ما ، غيرَ واجدٍ ذلك الأمل . وتغايرت جلبة أفكاره تغايراً غريباً مع صمت الوكر المأتمي .

وفي غمرة من هذا الصمت سُمِع صوت باب السلم يُفتح ، ثم يُغلق .

وقام الأسير بحركة في قيوده .

وقال تيناردييه :

— « ها قد أقبلت السيدة . »

ولم يكد يقول ذلك حتى اندفعت تيناردييه الزوجة الى الغرفة ، حمراءَ ، مبهورةً ، لاهثةً ، ملتهبة العينين ، وصاحت لاطمةً شفتيها بكلتا يديها في آنٍ معاً :

– « عنوانٌ كاذب ! »

ودخل قاطع الطريق الذي قادتْهُ معها ، على اثرها ، وتناول مطرقته الخاصة بقتل الثيران ، من جديد .

وكرّر تيناردييه :

– « عنوان كاذب ؟ »

وتابعتْ :

– « لا أحد ! شارع سان دومينيك ، رقم سبعة عشر ، لا يوجد شخص اسمه اوربان فابر ! لم يعرف احد من هو هذا الرجل ! »

وصمتت وقد غصت بريقها . ثم استأنفت كلامها :

– « مسيو تيناردييه ! إن هذا الرجل العجوز قد خدعك ! انت ساذج اكثر مما ينبغي ، أرأيت ؟! لو كنت مكانــك لبدأت بتمزيق فكه الى اربع قطع ! ولولا انه قبيح ، لكان جديراً بي أن أطبخه حياً ! وعندئذ كان يجد نفسه مضطراً الى الكلام ، والى ان يقول اين الفتاة ، واين المال المخبوء ! هكذا أتأتّى للأمر ! فلا عجب اذا مـا قالوا ان الرجال اشدّ بلاهة من النساء ! لا أحد ! رقم سبعة عشر ! إنه باب كبير من ابواب العربات ! لا مسيو فابر في شارع سان دومينيك ! والفرَسان ينطلقان باقصى السرعة ، والرشوة الى السائـق ، وكل شيء ! لقد تحدثت مع البواب والبوابة ، وهي امرأة جميلة قوية ، فلم يعرفا الرجل . »

وتنفس ماريوس الصعداء . كانت هي ، أورسول أو القبرة – تلك التي لم يَعُدْ يعرف بمَ يدعوها – قد نجتْ .

وفيما كانت زوجته الساخطة تصيح ، جلس تيناردييه على الطـاولة . لقد جلس بضع ثوانٍ غيرَ ناطق بكلمة ، مؤرجحاً ساقه اليمـــنى ، المتدلّية ، محدّقاً الى الكانون وقد طفَتْ على وجهه سيما وحشية من الاستغراق في التفكير .

وأخيراً قال للأسير مغيّراً نبرةَ صوته تغييراً بطيئاً وضارباً على نحو فريد :

– « عنوان كاذب ! ما الذي كنت ترجوه من وراء ذلك ؟ »

فصاح الأسير في صوت مجلجل :

– « ان اكسب الوقت ! »

وهزّ ، في الوقت نفسه ، القيود المكبِّل بها . كانت قد قُطِّعت . ولم يعد الأسير موثقاً الى السرير إلا برجلٍ واحدة .

وقبل ان يجد الرجال السبعة متسعاً من الوقت يَصْحون فيه من الدهش ، ويثبون على الأسير كان هو قد انحنى نحو الموقد ، وبسط يده في اتجاه الكانون ، ثم نهض ، فاذا بتيناردييه ، وتيناردييه الزوجة ، وقطاع الطرق ، وقد قذفت بهم الصدمة الى مؤخر الغرفة ، يحدقون اليه في انشداه ، رافعاً فوق رأسه الازميلَ المتّقد ، المرسل ضياءً مشؤوماً ، متمتعاً بحريته تقريباً في وضع رهيب .

وعند التحقيق القضائي الذي استتبعه كمين بيت غوربو العتيق ظهر أن قطعة نقدية كبيرة من فئة الـ « سو » ، مقطوعةً ومعالجةً على نحو فريد ، قد وُجدت في العلّية عندما داهمها البوليس . وكان هذا الـ « سو » الضخم احدى عجائب الصناعة التي ينتجها صبرُ الأشغاليين في الظلام ، ومن أجل الظلام ؛ عجائب ليست غير ادوات للهرب . وهذه الثمرات الدقيقة البشعة الناشئة عن فنّ رائع هي بالنسبة الى الصياغة كاستعارات اللهجة العامية بالنسبة الى الشعر . إن في سجون الأشغاليين عشرات من مثل بينفينيتو سيليني * كما ان في اللغة عشرات من مثل فييّون ** . فالرجل الشقيّ الطامع في الخلاص يجد الوسيلةَ ،

* Cellini نقاش ومثال وصائغ ايطالي شهير ، ولد وتوفي في فلورنسة (١٥٠٠ – ١٥٧١) .

** Villion شاعر فرنسي قديم يعتبر اول شعراء فرنسة الغنائيين الكبار ، وقد توفي حوالى ١٤٨٩ .

من غير ادوات في بعض الاحيان ، بسكين ، او بمدية قديمة ، الى شقّ قطعة نقدية من فئة الـ « سو » الى صفيحتين رقيقتين ، وتقعير هاتين الصفيحتين من غير ان تُمسّ السّمة النقدية بسوء ، وإحداث اسنان لولب على حافة الفلس بحيث يكون من اليسير إلصاق الصفيحتين من جديد . وإنما تُثبّت هاتان الصفيحتان وتُفكّان ساعةَ يشاء المرء ؛ إنها اشبه شيء بصندوق . وفي هذا الصندوق يُخفي الاشغاليون نابضاً من نوابض الساعات . وهذا النابض اذا ما اصطُنِع اصطناعاً جيداً يقطع حلقاتٍ من حجم ما ، وقضباناً حديدية . إن البائس المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يُفترض فيه ان لا يملك غير « سو » واحد . لا ؛ إنه يملك الحرية . وانما كان الـ « سو » الذي عثر عليه البوليس في الغرفة ، في ما بعد ، من هذا الضرب الكبير ؛ وكان مفتوحاً ذا شقّين مطروحين تحت الحشيّة ، قرب النافذة . ولقد اكتشف البوليس ايضاً منشاراً صغيراً من فولاذ ازرق كان ممكناً اخفاؤه في قطعة الـ « سو » النقدية الكبيرة . وأغلب الظن ان الاسير كان يحمل هذا الـ « سو » الكبير عندما فتش قطاع الطرق جيوبه ، وانه قد وُفق الى اخفائه في يده . حتى اذا أُطلقت يده اليمنى ، بعدُ ، من عقالها ، فكّه واصطنع المنشار في تقطيع الحبال التي شُدّ بها وثاقهُ ، وهو ما يفسر الضجة الضئيلة والحركات الخفية التي لاحظها ماريوس .

واذ لم يكن قادراً على الانحناء خشيةَ ان يفضح نفسه ، فأنه لم يقطع الحبال التي تقيّد رجله اليسرى .

وكان قطاع الطرق قد استفاقوا من ذهولهم الأول .

وقال بيغروناي لتيناردييه :

— « لا تجزع . ان احدى رجليه لا تزال موثوقةً بالحبال ، ولن يستطيع الافلات . انا واثق من ذلك . لقد ربطتُ انا ساقهُ هذه . »

وهنا رفع الاسير صوته :

- « انتم مساكين ، ولكني حياتي لا تستحق عناء دفاع طويل . اما تخيلكم انه كان في امكانكم ان تحملوني على الكلام ، انه كان في امكانكم ان تحملوني على كتابة ما لا اريد كتابته ، انه كان في إمكانكم ان تقوّلوني ما لا اريد ان اقوله ... »

ورفع رُدن ذراعه اليسرى ، وأضاف :

- « انظروا ! »

وفي الوقت نفسه ، بسط ذراعه ، ووضـــع الازميل المضطرم على لحمه العاري ، وقد أمسك بذلك الازميل ، من مقبضه الخشبي ، بيـده اليمنى .

وسُمِع فحيح اللحم المحترق . وانتشرت في ارجاء الوكر الرائحة الخاصة بغرف التعذيب . وترنح ماريوس وقـــد ذهب الذعر بصوابه . ومرت الرعدة في أوصال قطاع الطرق أنفسهم . ولم ينقبض وجه الرجل العجوز الغريب الا قليلًا . وفيما كان الحديد الاحمر الحامي يغوص في الجرح الداخن ، الممتنع على الوجع ، والذي كاد ان يكون فخيماً ، ادار نحو تيناردييه وجهه الجميل حيث لم يكن ثمة كره ، وحيث كان الألم قد تلاشى في غمرة من الجلال المشرق .

فعند اصحاب النفوس الكبيرة الرفيعة تؤدي ثورة اللحم والحواس على غارات الألم الجسدي الى إطلاق الروح فتبدو على المحيّا ، كما تُكره ثورة الجنود قائدَ الجيش على البوح بما تُكنّه نفسه .

وقال :

- « ايها الاوغاد ، لا تخافوا مني اكثر مما خفتُ منكم . »

وسحب الازميل من الجرح ، وقذف به الى الخارج من خلال النافذة التي كانت لا تزال مفتوحة . واختفت الأداة الرهيبة المتوهجة ، مدوّمةً في الظلام ، وسقطت في المدى البعيد ، وخمدت وسط الثلج .

واستأنف الاسير كلامه :

- « افعلوا بي ما تشاءون ! »

كان أعزل .

وقال تيناردييه :

- « أمسكوا به ! »

ووضع اثنان من قطاع الطرق أيديهما على منكبيه ، ووقف الرجل المقنّع ذو الصوت البطنيّ تجاهه ، مستعداً لأن يُطيح رأسه بضربةٍ من المفتاح ، اذا ما قام بحركة ما .

وفي الوقت نفسه سمع ماريوس تحته ، عند أدنى الجدار الحاجز ، ولكن على قرب شديد جعل من المتعذر عليه ان يرى المتكلمين - سمع هذا الحوار يدور في صوت خفيض :

- « لم يبق علينا ما نعمله غير شيء واحد . »

- « ان نقتله ! »

- « هو ذاك . »

كان الزوج والزوجة يتشاوران .

وفي خطىً بطيئة تقدم تيناردييه نحو الطاولة ، وفتح الدرج ، وأخرج المدية .

ودغدغ ماريوس زناد المسدس الصغير . ارتباك لم يُسْمَع بمثله من قبل ! فطوال ساعة كان صوتان ينطلقان في ضميره ، الاول يدعوه الى احترام وصية أبيه ، والآخر يهيب به الى إنجاد الاسير . وواصل هذان الصوتان ، في غير انقطاع ، صراعهما الذي أورثه آلاماً نفسية مريرة . وكان قد رجا ، حتى تلك اللحظة ، أن يجد وسيلة الى التوفيق بين هذين الواجبين ، ولكن أيما طريقة ممكنة لم تنشأ . كان الخطر قد أمسى الآن ملحّاً ، وكان هو قد تخطّى آخر تخم من تخوم الرجاء . فعلى بضع خطىً من الأسير كان تيناردييه يفكر والمديةُ في يده .

وأجال ماريوس في ما حوله نظراً شارداً ، وذلك آخر سهم في كنانة اليأس .

وفجأةً ارتعدت أوصاله .

فعند قدميه ، فوق الطاولة ، التمع شعاع مشرق من قمرٍ بدرٍ ، وبدا وكأنما كان يدلّه على قصاصة من ورق . وعلى هذه الورقة قرأ هذا السطر ، مكتوباً باحرف كبيرة ذلك الصباح نفسه ، بخطّ بنت تيناردييه الكبرى :

— « لقد اقبلت الشرطة . »

واخترقت عقلَ ماريوس فكرة ، او قُل ضياء . تلك كانت الوسيلة التي يبحث عنها ، الحلّ لهذه المشكلة الرهيبة التي كانت تعذبه تعذيباً : ان يُبقي على السفاح ويُنقذ الضحية . وركع على الخزانة ذات الأدراج ، ومدّ ذراعه ، والتقط قصاصة الورق . وفي سكون ، انتزع من الجدار الحاجز قطعة جصّ ، ولفّها بالورقة ، وطرحها من خلال الثغرة الى منتصف الوكر .

وكان ذلك في الوقت المناسب . ذلك ان تيناردييه كان قد قهر آخر مخاوفه ، او آخر وساوسه ، وتقدّم نحو الأسير .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

— « لقد سقط شيء ! »

فقال الزوج :

— « وما هو ؟ »

كانت المرأة قد وثبت الى أمام والتقطت قطعة الجصّ المغلّفة بالورق .

وقدّمتها الى زوجها .

وسألها تيناردييه :

— « كيف جاءت هذه الى هنا ؟ »

فقالت المرأة :

– « يا الهي ! من أين تريدها ان تجيء ؟ لقد جاءت من النافذة . »

وقال بيغروناي :

– « لقد رأيتها في طريقها الى الغرفة . »

وسارع تيناردييه الى نشر الورقة ، ورفعَها الى قريب من الشمعة .

– « إنها بخطّ إيبونين . يا للشيطان ! »

وأومأ الى زوجته ، فاقتربت على عجل ، وأراها السطر المكتوب على الورقة . ثم اضاف في صوت غائر :

– « عجلوا ! السلّم ! دعوا اللحم في الشرَك ، وولّوا الادبار ! »

فسألته تيناردييه الزوجة :

– « من غير أن نحتزّ حنجرة الرجل ؟ »

– « ليس لدينا متسع من الوقت . »

وقال بيغروناي :

– « من اين ؟ »

فأجاب تيناردييه :

– « من خلال النافذة . لما كانت ايبونين قد ألقت الحجر من خلال النافذة فمعنى ذلك ان البيت غير مراقب من هذه الجهة . »

واطّرح الرجل المقنّع ذو الصوت البطنيّ مفتاحه الضخم ، ورفع كلتا ذراعيه في الهواء ، وفتح واغلق يديه على نحو خاطفٍ ثلاث مرات من غير ان يقول شيئاً . كان ذلك اشبه بصيحة الاستعداد للقتال على ظهر سفينة من السفن . وخلّى قطاعُ الطرق الممسكون بالاسير سبيله . وفي ومضة عين كانت السلم المصنوعة من حبال قد طُرح طرَفها الى خارج النافذة ، ثم أُحكم تثبيتها الى حافة تلك النافذة بالكُلاّبين الحديديين .

ولم يُلقِ الاسير بالاً الى ما كان يجري من حوله . لقد بدا وكأنه كان يحلم او يصلي .

وما إن ثُبّتت السلم حتى صاح تيناردييه :

— « تعالي ، ايتها الزوجة ! »

واندفع نحو النافذة .

وفيما كان يحاول القفز من النافذة ، أخذ بيفروكاي بخناقِهِ أخذاً عنيفاً :

— « لا ، لا ، أيها الماجن العجوز ! بَعْدَنا ! »

وهرّ قطاع الطرق :

— « بَعْدَنا ! »

وقال تيناردييه :

— « انتم أطفال . إننا نضيع الوقت . إن البوليس يكاد يُدركنا . »

فقال احد قطاع الطرق :

— « حسن ، فلنسحب قُرعةً على من يخرج اولاً . »

فصاح تيناردييه :

— « هل أنتم مجانين ؟ هل انتم مختلّو العقـــل ؟ انتم مجموعة من السذّج ! ضياع للوقت ، أليس كذلك ؟ سحب قرعة ، أليس كذلك ؟ بأصبع مبلّلة ؟ وبواسطة قشّ متفاوت الطول ؟ نكتب اسماءنا ! نضعها في قلنسوة ...! »

وصاح صوت من عتبة الباب :

— « أتريدون قبعتي ؟ »

واستداروا جميعاً . كان جافير .

كانت قبعته في يده ، وكان يبسط ذراعه بها وهو يبتسم .

٢١

يجب ان ُيبدأ دائماً بألقاء القبض على الضحايا

كان جافير قد عهد الى رجاله في مراقبة المنزل ، واختبـأ خلف اشجار شارع « لا باريير دو غوبلين » الذي يواجه بيت غوربو العتيق على الجانب الآخر من الجادة . لقد بدأ بأن فتح « جيبه » ليُدخـل فيه الفتاتين الشابتين اللتين كُلفتا مراقبة المداخـل المؤدية الى الوكر . ولكنه لم ُيلق القبض إلا على آزيلما . اما ايبونين ، فلم تكن في الموقف المعيّن لها . كانت قد اختفت ، فلم يتمكن من اعتقالها . ثم إن جافير اخلد الى الراحة ، وأصغى منتظراً الاشارة المتفق عليها . وأقلقه ذهاب عربة الأجرة وإيابها إقلاقاً عظيماً . واخيراً نفـد صبره . واذ كان **واثقاً من انه كان ثمة وكر لصوص** ، واذ كان واثقـاً من « **حسن حظه** » بعد ان تبين عدداً من قطاع الطرق الذين دخلوا الى هنـاك ، فقد عزم آخر الامر على ان يرتقي السلم من غير ان ينتظر إطـلاق النار .

والقراء يذكرون انه كان يحمل مفتاح ماريوس العمومي .

كان قد أقبل في الوقت المناسب .

واندفع قطاع الطرق المروّعون التماساً للاسلحة التي كانوا قد طرحوها كيفما اتفق حين حاولوا الفرار . وفي اقلّ من ثانية ، كان هؤلاء الرجال السبعة ، ذوو المنظر الرهيب ، قد تجمّعوا في موقف دفاع : احدهم يحمل مطرقة ثيرانه ، والاخر يحمل مفتاحه ، والثالث يحمل هراوته ، وسائرهم يحملون المقصات ، والكلاليب ، والمطارق ، وتيناردييه يتشبّث بمديته . وامسكت

تيناردييه الزوجة بلاطة ضخمة كانت في زاوية النافذة ، وكانت ابنتاها تتخذان منها مقعداً منخفضاً .

واعتمر جافير بقبعته من جديد ، ودخل الغرفة ، طاوياً ذراعيه ، وعصاه تحت إبطه ، وسيفه في قرابه .

وقال :

— « قفوا مكانكم ! انكم لن تفروا من النافذة . إنكم لن تفروا من الباب . هذا اقل وخامة . انتم سبعة ، ونحن خمسة عشر . فلا تكرهونا على ان نمسك بخناقكم وكأنكم من سكان اوفيرنيْ . فلنكن لطافاً . »

واخرج بيغروناي مسدساً صغيراً كان قد خبأه تحت قيصه ، ووضعه في يد تيناردييه وهو يهمس في أذنه :

— « هذا جافير ! انا لا اجرؤ على تصويب النار الى هذا الرجل . اتجرؤ انت ؟ »

فأجابه تيناردييه :

— « وحق الالهة ! »

— « اذن أطلق النار ! »

واخذ تيناردييه المسدس ، وسدده الى جافير .

وحدق اليه جافير ، الذي كان على ثلاث خطوات منه ، تحديقاً موصولاً ، واجتزأ بالقول :

— « لا تطلق النار ! ان زند مسدسك سوف يكبو . »

وضغط تيناردييه على الزند ، فلم يُورِ .

فقال جافير :

— « لقد قلت لكَ ذلك ! »

وطرح بيغروناي عصاه القصيرة المغلّف طرفها بالرصاص على قدمي جافير .

- « أنت امبراطور الابالسة ! إني أستسلم . »
وسأل جافير قطاع الطرق الآخرين :
- « وأنتم ؟ »
فأجابوا :
- « ونحن ايضاً . »
فأجاب جافير في هدوء :
- « هو ذاك ! هذا حسن ! لقد قلتُ ذاك ، انتم لطاف . »
فقال بيغروناي :
- « إني التمس شيئاً واحداً ليس غير ، وهو ان لا أحرم التدخين حين اوضع في الحجيرة المنفردة . »
فقال جافير :
- « لك ذاك . »
والتفت ، ونادى :
- « ادخلوا الآن ! »
واندفعت الى الغرفة ، تلبيةً لدعوة جافير ، شرذمة من شرطة المدينة الشاهري السيوف ، ومن رجـــال البوليس المسلّحين بالعصي القصيرة وبالهراوات . وأوثقوا قطاع الطرق . وملأت هذه الجمهرة من الرجـال الذين لم تُضئهم الشمعة إلا على نحو باهت - ملأت الوكر بالظلام .
وصاح جافير :
- « كبّلوا الجميع بالاغلال . »
وصاح صوتٌ لم يكن صوت رجل ، ولكنّ اياً من الناس ما كان ليقول انه صوت امرأة :
- « اقتربوا قليلاً إذن ! »
كانت تيناردييه الزوجة قد تحصّنت في احدى زوايا النافذة ، وكانت هي التي اطلقت تلك الزأرة .

وارتد شرطة المدينة ورجال البوليس .

كانت قد اطرحت شالها ، ولكنها ظلت معتمرةً بقبعتها . وكان زوجها ، الجالس القرفصاء خلفها ، قد احتجب او كاد تحت الشال الساقط ، وكانت قد غطّته بجسدها ، رافعةً البلاطة بكلتا يديها فوق رأسها في مثل توازن عملاقةٍ على وشك ان تقذف صخرةً ما .

وصاحت :

— « خذوا حذركم ! »

وارتدّوا كلهم الى الوراء في اتجاه الرواق . وترك ذلك فراغاً عريضاً في وسط العلّية .

والقت تيناردييه الزوجة نظرة على قطاع الطرق الذين ارتضوا ان يُشَدَّ وثاقهم ، وغمغمت في نبرة حلقية مبحوحة :

— « الجبناء ! »

وابتسم جافير ، وتقدّم الى الرقعة الفارغة التي كانت تيناردييه الزوجة تبتلعها بعينيها .

وصاحت :

— « حذار أن تقترب . وإلا سحقتك سحقاً ! »

فقال جافير :

— « ايّ رامية قنابل انتِ ! ايتها الأم ، إن لكِ لحية مثل رَجُل ، ولكنّ لي براثن مثل امرأة . »

وواصلَ تقدمه .

وباعدت تيناردييه الزوجة ، شعثاءَ فظيعةً ، ما بين رجليها ، وانحنت الى الوراء ، وقذفت بالبلاطة ، في ضراوة ، رأسَ جافير . وطأطأ جافير رأسه ، فمرّت البلاطة من فوقه واصابت الجدار خلفه ، مُسقطة منه قطعة كبيرة من الجص ، وارتجعت واثبةً من زاوية الى زاوية عبر الغرفة ، الفارغة تقريباً لحسن الحظ ، لتستقر آخر الأمر عند عقبَيْ

جافير .

وفي تلك اللحظة انتهى جافير الى تيناردييه وامرأته . وسقطت احدى يديه الضخمتين على كتف المرأة ، والاخرى على رأس زوجها .

وصاح :

– « الاغلال ! »

وعاود رجال البوليس الدخولَ زمرةً واحدةً ، وما هي الا بضع ثوانٍ حتى نُفِّذ امر جافير .

ونظرت تيناردييه الزوجة ، مهيضة الجناح ، الى يديها المغلولتين والى يدي زوجها ، وخرّت على الارض ، وصاحت والدموع في عينيها :

– « بنتاي ! »

فقال جافير :

– « لقد تدبرنا امرهما . »

وفي اثناء ذلك كان رجال الشرطة قد عثروا على السكران الذي كان نائماً خلف الباب ، وهزّوه . فاستيقظ متلجلجاً :

– « هل انتهى كل شيء ، يا جوندريت ؟ »

فأجابه جافير :

– « نعم . »

كان قطاع الطرق الستة المكبّلون واقفين على اقدامهم . بيد انهم ظلوا محتفظين بمظهرهم الاشباحيّ : ثلاثة كانوا ملطخي الوجوه بالسواد ، وثلاثة كانوا مقنّعي الوجوه .

وقال جافير :

– « إحتفظوا بأقنعتكم . »

واستعرضهم بمثل عين فريدريك الثاني وهو يستعرض قوات الجيش في بوتسدام ، وخاطب « دكاترة المداخن » الثلاثة قائلاً :

– « طاب نهارك ، يا بيغروناي ! طاب نهارك ، يا بروجون ! طاب نهارك ، يا دو ميلّيار ! »

ثم إنه التفت الى المقنّعين الثلاثة ، وقال للرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران :

– « طاب نهارك ، يا غولوميه ! »

وقال للرجل ذي الهراوة :

– « طاب نهارك ، يا بابيه ! »

وقال لصاحب الصوت البطنيّ :

– « تحياتي ، يا كلاكسو ! »

وفي تلك اللحظة فقط لمح اسيرَ قطاع الطرق ، الذي كان قد اعتصم بالصمت منذ دخول البوليس ، وخفض رأسه .

وقال جافير :

– « فكّوا وثاق السيد ، ولا تدعوا احداً يخرج . »

نطق بذلك وجلس ، في سلطان ، أمام الطاولة التي كانت الشمعة وادوات الكتابة ما تزال فوقها ، وسحب من جيبه ورقة تحمل طابعاً وشرع يدوّن محضره .

حتى اذا خطّ الأسطر الاولى التي لا تعدو ان تكون صيغةً مألوفة لا تتغير ابداً ، رفعَ عينيه :

– « قرّبوا مني هذا السيد الذي كان هـؤلاء السادة قد شدوا وثاقه . »

وأجال رجال الشرطة طرفهم في ما حولهم .

وسألهم جافير :

– « حسناً ، اين هو الان ؟ »

كان أسيرُ قطاع الطرق ، مسيو لوبلان ، مسيو أورباني فابر ، أبو أورسول ، أو القبّرة ، قد اختفى .

كان الباب محروساً ، ولكن النافذة لم تكن محروسة . فما ان رأى الى نفسه محاول الوثاق ، وفيما كان جافير يكتب ، حتى اغتنم فرصة الاضطراب والجلبة ، والاختلاط ، والظلمة ، ولحظةً كان انتباههم فيها غير مصوّب اليه ، لكي يثب من النافذة .

واندفع شرطيٌ الى النافذة ، والقى نظرةً منها . بيد ان عينه لم تقع على احد في الخارج .

كانت السلّم الحبالية لا تزال ترتعش .

وقال جافير ، من بين أسنانه :

— « يا للشيطان ! ينبغي ان يكون هذا هو احسنهم جميعاً ! »

٢٢

الصبي الصغير الذي صاح في القسم الثاني

وبعد اليوم الذي تلا وقوع هذه الاحداث في المنزل القائم عند « جادة المستشفى » صعّد طفلٌ ، بدا وكأنه قادم من ناحية جسر اوسترليتز ، في الزقاق الضيق الايمن ، باتجاه حاجز فونتانبلو . كان الليل قد اطبق على الكون . وكان هذا الطفل شاحب الوجه ، مهزول الجسم ، رث الثياب ، يرتدي بنطلوناً من نسيجٍ كتانيّ في شهر شباط ، وكان يغني بأقصى ما يستطيع من قوة .

وعند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » ، كانت عجوز تنقّب في ركام من القاذورات على ضوء مصباح الشارع . واصطدم الطفل بها في طريقه ، ثم انقلب على عقبيه صائحاً :

— « عجيب ! لقد حسبتُ هذه كلباً هائلاً ، هائلاً ! »

ولفظ كلمة « هائل » ، في المرة الثانية ، بصوت منتفخ ساخر تعبّر عنه الاحرف الكبيرة احسنَ تعبير : كلباً هائلاً ، هائلاً ! »

ونهضت المرأة العجوز مغتاظة .

وغمغمت :

— « ايها الجرم الصغير ، لو لم اكن منحنية القامة لعرفتُ اين كان يجب ان اضع قدميّ ! »

كان الطفل قد أمسى الآن على بُعْد يسير .

وقال :

— « بخٍ ! بخٍ ! وعلى اية حال ، فلعلّي لم اكن مخطئاً . »

وغصت العجوز بالسخط ، وانتصبت لتوّها ، وقد اضاء وهجُ الفانوس الأحمرُ ، اضاءةً كاملة ، وجهها الشديد الشحوب ، المخدّدِ كله بالزوايا والتجاعيد ، وبدت أقدام الأوزّ عند طرفي فمها . كان جسدها محتجباً في غمرة الدجنة ، وكان رأسها وحده بادياً للعيان . وخليقٌ بالمرء أن يقول إنها قناع الهَرَم فصّله شعاعٌ في الظلام . وانعم الطفل النظر اليها .

وقال :

— « إن سيدتي ليس لها ذلك الطراز من الجمال الذي يلائمني . »

ومضى لسبيله ، وشرع يغني من جديد :

« الملك كو دو سابو
ذهب الى الصيد ،
الى صيد الغربان . »

وعند نهاية هذه الابيات الثلاثة كفّ عن الغناء . كان قد بلغ رقم ٥٠ — ٥٢ ، واذ وجد الباب موصداً ، انشأ يرفسه بقدمه رفساً مرناناً بطولياً كشف عن الحذاء الرجالي الذي انتعله اكثر مما كشف عن

قدمي الطفل اللتين كانتا له .

وفي غضون ذلك كانت المرأة العجوز نفسها ، التي التقاها عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكيبه » تعدو خلفه مرسـلةً صيحات استقباح ، ومسرفة في الايماءات المخبولة .

– « ما المسألة ؟ ما المسألة ؟ يا الـهي الرحيم ! إنهـم يخترقون الباب ! إنهم يقتحمون المنزل ! »

وتواصلت الرفسات .

واستبدّ اللهاث بالعجوز .

– « ابهذه الطريقة يستعملون البيوت في هذه الايام ؟ »

وفجأةً كفّتْ عن الكلام . كانت قد عرفت « المتشرّد » .

– « ماذا ! إنه ذلك الشيطان ! »

فقال الطفل :

– « ها ها ! إنها المرأة العجوز . طاب نهارك يا « بورغون موش » . لقد جئتُ لأرى اسلافي . »

واجابت العجوز في تكشيرة مركبة – ارتجال رائعٌ مـن البغض أفاد اقصى ما تكون الافادة من الهرم والبشاعة – ضاعت مع الأسف في الظلمة :

– « لا يوجد أحدٌ هنا ، ايها الولد الفظّ . »

فقال الطفل :

– « عجباً ! أين ابي ، اذن ؟ »

– « في لا فورس * . »

– « يا للشيطان ! وأمي ؟ »

– « في سان لازار * . »

– « حسن ، وشقيقتاي ؟ »

* « لا فورس » و « سان لازار » و « المادلونيت » سجون معروفة .

– « في المادلونيت . »

وحكّ الطفل مؤخر أذنه ، ونظر الى « مام بورغون » وقال :

– « آه ! »

ثم انقلب على عقبيه ؛ وما هي الا لحظة حتى سمعته العجوز ، التي وقفت على عتبة الباب ، يغني بصوته الواضح الناضر ، فيما هو يختفي تحت شجرات الدردار السوداء المرتعشة في وجه الرياح الشتوية :

« الملك كو دو سابو
ذهب الى الصيد ،
الى صيد الغربان ،
متباهياً متفاخراً .
وحين يمرّ الناس به
يدفعون اليه فلسين . »

فهرست القسم الثالث : « ماريوس »

الكتــاب الاول : باريس مدروسة من خلال ذرّتها

الكتاب الثاني : البورجوازي الكبير

الكتاب الثالث : الجد والحفيد

الكتاب الرابع : اصدقاء الالفباء

الكتاب الخامس : فضل الشقاء

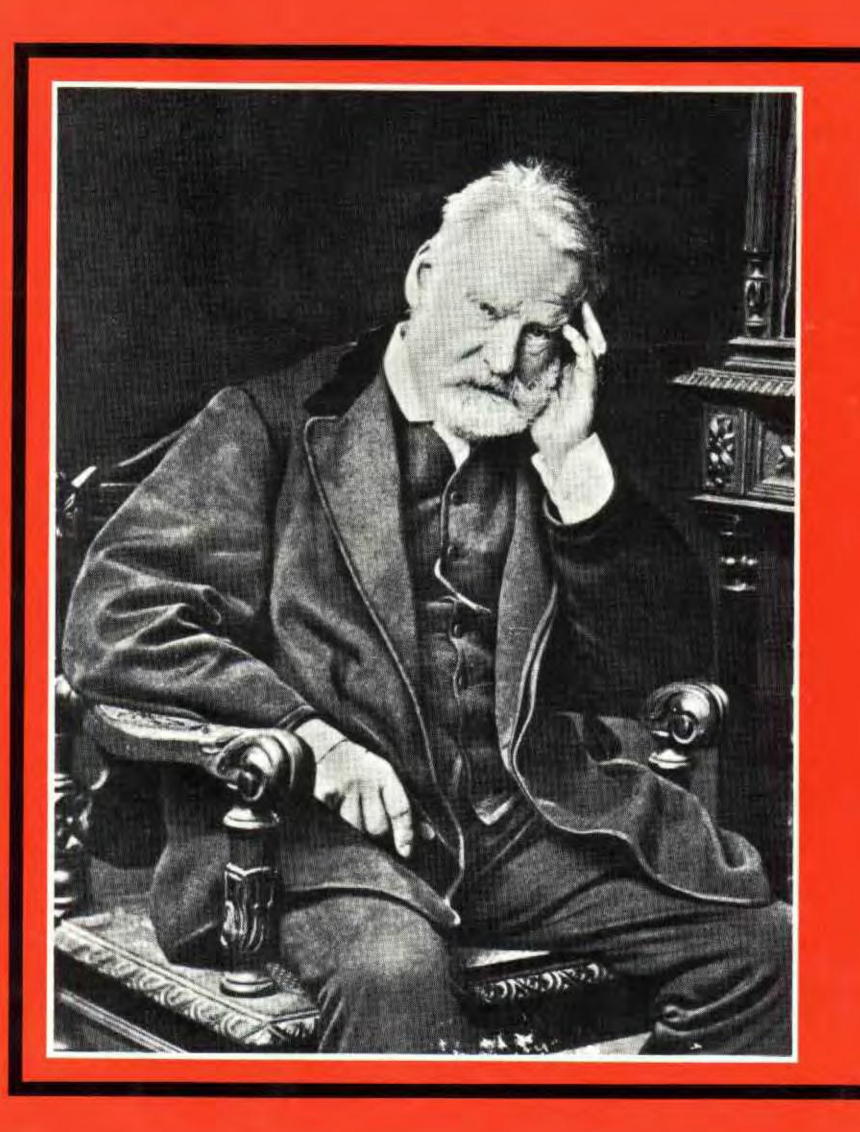
الكتاب السادس : التقاء نجمين

الكتاب السابع : المعلم مينيت

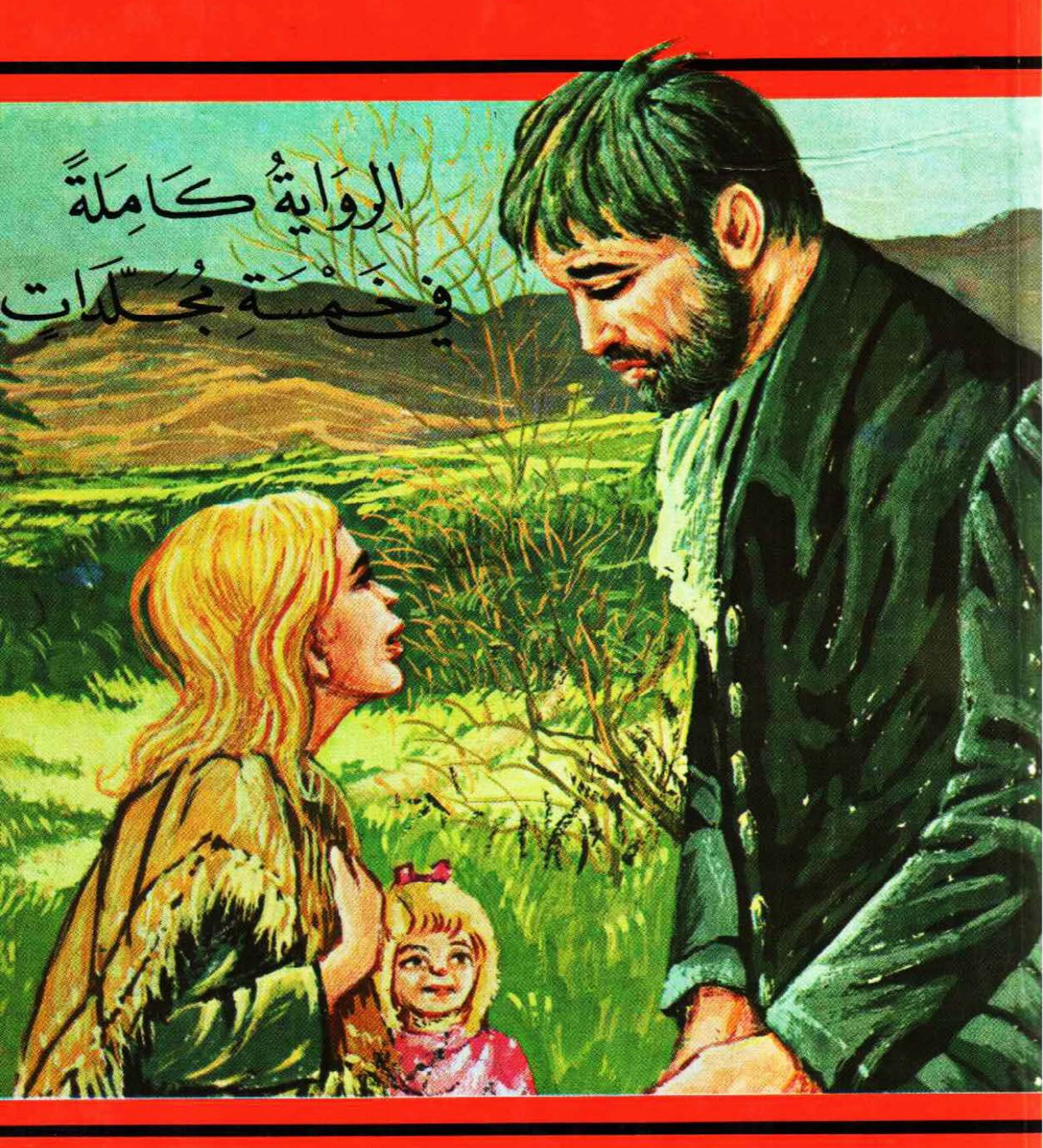
الكتاب الثامن : الفقير الشرير

انتهى المجلد الثالث
ويليه المجلد الرابع

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان



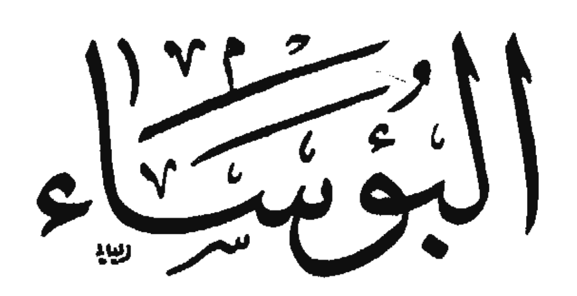
البُؤسَاء



٤

دار العلم للملايين

البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الرابع

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo



الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القسم الرابع

قصيدة شارع پلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز

الكتاب الأول

بضع صفحات من التاريخ

١
تفصيل حسن

إن سنتي ١٨٣١ و ١٨٣٢ ، المتصلتين اتصالاً مباشراً بثورة تموز ، من أغرب حقب التاريخ وأدعاها الى الذهول . فهاتان السنتان هما ، بين السنوات التي سبقتها والسنوات التي تلتها ، أشبه شيء بجبلين . إن هالةً من العظمة الثورية تجلّلها . إننا نتبيّن فيها هوىً وأجرافاً . فيها نرى الكتلَ الاجتماعية ، مداميكَ الحضارةِ نفسَها ، ومجموعةَ المصالح الراسخة ، المنضّدة المتماسكة ، والصورة الجانبية العريقة للوجود الفرنسي القديم ، تظهر وتغيب كل لحظة من خلال سُحب النُّظم ، والأهواء ، والنظريات

العاصفة . وهذا الظهور والغياب ُدعيا المقاومة والحركة . فبين الفينة والفينة نرى الحق ، ذلك الفجر الذي تشرق فيه النفس الانسانية ، يلتمع ويومض .

وهذه الحقبة الرائعة قصيرة جداً ، ولقد شرعت تبتعد عنا بعداً كافياً بحيث أمسى في ميسورنا ان نتبين خطوطها الرئيسية .

ولسوف نقوم بهذه المحاولة .

كان عهد عودة آل بوربون الى العرش من تلك المراحل الانتقالية ، العسير تحديدها ، حيث نجد التعب ، والأزيز ، والدمدمة ، والسُبات ، والضجيج ، والتي لا تفيد غير بلوغ الامة الكبيرة محطةً تقف عندها . وهذه العهود فريدة ، وهي تخدع رجال السياسة الذين يبدون الرغبة في استغلالها . ففي بادىء الامر ، لا تتطلّب الأمة غير الراحة ؛ ولا يظمأ الناس إلا الى السلام ؛ ولا يطمعون الا في شيء واحد : أن يكونوا صغاراً . وهذه ترجمة لقولنا إنهم يرغبون في ان يظلوا مطمئنين وادعين . لقد رأوا ، والحمد لله ، ما فيه الكفاية من الاحداث العظيمة ، والاقدار العظيمة ، والمغامرات العظيمة ، والرجال العظام . ولقد احتملوا من ذلك فوقَ ما يطيقون . فهم خليقون بأن يقايضوا قيصر ببروسياس *، ونابوليون بملك إيفيتو ** . « ايّ ملك صغير طيّب كان ذلك الملك ! » لقد أغذّوا السير منذ انبلاج الفجر ، ولقد أظلّهم يوم طويل قاسٍ . لقد ركضوا الجولة الاولى مع ميرابو ، والجولة الثانية مع روبسبيير ، والجولة الثالثة مع بونابرت ، فخارت قواهم . إن كلّاً منهم يلتمس سريراً .

---

* Prusias ملك بيثينيا في آسية الصغرى . (٢٣٧ – ١٩٢ ق . م)

** Yvetot مقاطعة في السين الأدنى حمل حكامها لقب ملك من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر . و « ملك ايفيتو » اغنية نالت شعبية كبيرة عام ١٨١٣ عندما كانت فرنسة تعبة من مجد كلفها غالياً . وفي الاغنية مقارنة بين طموح نابوليون الاول وحكمة ملك ايفيتو الذي لم يكن يفكر في توسيع رقعة ملكه .

واذ وهنت ضروب التفاني ، وشاخت البطولات ، وأتخمت المطامع ، وأنشئت الثروات فان القوم كانوا كلهم يلتمسون ، ويتطلّبون ، ويتوسلون ، ويلحّون في البحث عن ماذا ؟ عن مكان يرقدون فيه . وينالون مـــا أرادوا . إنهم يملكون الأمن ، والهدوء ، والفراغ ؛ وانهم لراضون . بيد أن بعض الوقائع تبرز ، في لوقت نفسه ، وتنتزع الاعتراف بها ، وتقرع الباب القائم الى جانبها . وهذه الوثائق إنما انبثقت من الثورات والحروب . إنها موجودة ؛ إنها تحيا ؛ إن لهـــا حقاً في الاستقرار في المجتمع ، وإنهـا لتستقرّ فيه . والوقائـــع هي في الكثرة العظمى من الاحيان اشبه ما تكون بالروّاد ، فهي تمهّد السبيل للمباديء ليس غير.

واذن ، فهذا ما يتبدّى للفلاسفة السياسيين .

ففي الوقت الذي يلتمس فيه الناس المرهقون الراحـــةَ ، تتطلّب الوقائع المَقْضيّةُ ضمانات . فالضمانات هي للوقائع بمثابـة الراحة للناس . هذا ما طلبته انكلترة من آل ستيوارت بعد « الحامي » * ، وهذا ما طلبته فرنسة من آل بوربون بعد الامبراطورية .

وهذه الضمانات ضرورة من ضرورات العصر . وينبغي ان لا يُبخل بها . إن الامراء « يمنحونها » ، ولكن الواقع ان قوة الاحداث هي التي تعطيها . حقيقةٌ راسخة ينطوي العلم بها على خـــير كثير ، حقيقةٌ لم يحزرها آل ستيوارت عام ١٦٦٢ ، ولم يلمحها آل بوربون مجرد لمـــح عام ١٨١٤ .

والواقـــع أن الأسرة التي قُدّر لها ان ترجع الى عرش فرنسة عند سقوط نابوليون كانت من السذاجة المهلكة بحيث اعتقدت أنهـا هي التي أعطت ، وان ما أعطته تستطيع ان تستردّه ؛ وأن اسرة بوربون تملك الحق الالـهي ؛ وأن فرنسـة لا تملك شيئاً ؛ وان الحقوق السياسية التي

* « حامي الجمهورية الانكليزية » هو اوليفر كرومويل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) الذي ثار على آل ستيوارت وأنشأ نظاماً جمهورياً لم يعمّر طويلاً .

سلّم بها دستور لويس الثامن عشر لم تكن غير فرع من الحق الالـهي ، نزعته أسرة بوربون المالكة ومنّت به على الشعب الى ان يحين ذلك اليومُ الذي يحلو فيه الملك أن يستردّه . ومع ذلك ، فباعتبار الأسى الذي أنزلته المنحة بهم كان خليقاً بآل بوربون ان يشعروا بأنها لم تصدر عنهم البتة .

كانوا شرسين مع القرن التاسع عشر . وكانوا يقطّبون كلما انبسطت اسارير الأمة . ولو شئنا ان نصطنع لفظاً مبتذلاً ، يعني لفظاً دارجاً وصحيحاً ، إذن لقلنا إنهم كانوا يقلبون وجوههم . ورأى الشعب ذلك.

لقد اعتقدوا أنهم كانوا اقوياء ، لأن معالم الامبراطورية أزيلت أمامهم كما يزال مشهدُ عن مسرح . إنهم لم يدركوا ان أسرتهم نفسها إنما جيء بها بالطريقة ذاتها . إنهم لم يروا ان أسرتهم كانت هي أيضاً في تلك اليد التي قضت على نابليون .

لقد اعتقدوا انهم راسخو الجذور لأنهم كانوا يمثلون الماضي . كانوا مخطئين . لقد كانوا جزءاً من الماضي ، اما الماضي كله فلم يكن غير فرنسة . إن جذور المجتمع الفرنسي ما كانت ممتدةً في أسرة بوربون ، ولكن في الامة . ان تلك الجذور الخفية الخالدة لم تكن لتؤلف حقّ أسرة من الأسر ، ولكنْ تاريخَ شعب . كانت في كل مكان ، إلا تحت العرش .

كانت أسرة بوربون لفرنسةَ عقدة تاريخها الماجدة الدامية ، ولكنها لم تكن العنصر الاساسي في قَدَرها ، أو الاساس الرئيسي في سياستها. كان في ميسورها ان تستغني عن آل بوربون . لقد استغنت عنهم اثنتين وعشرين سنة . وكانت ثمة وسيلة للاستمرار ؛ ولم يرتابوا فيها . وأنّى لهم أن يرتابوا ، وهم الذين تخيلوا ان لويس السابع عشر كان يحكم في التاسع من تيرميدور ، وان لويس الثامن عشر كان يحكم يوم مارانغو . ولم يكن الامراء في زمن من الازمان ، منذ بدء التاريخ ، اكثر عمىً عن الوقائع وعن ذلك الجزء

من السلطان الالـهي الذي تنطوي الوقائع عليه وتعلنـه اعلاناً رسمياً . بل ان الدعوى الارضية التي تدعى حق الملوك لم تنكر في زمن من الازمان الحقّ الالـهي .

خطيئة رئيسية قادت تلك الأسرة الى ان تضع يدهـا على الضمانات « الممنوحة » عام ١٨١٤ ، على التنازلات ، كما كانت هي تدعوهـــا . شيء مؤسف ! إن ما دعوه تنازلاتهم ، كان انتصاراتنا . وإن ما دعوه تطاولاتنا لم يكن غير حقوقنا .

وحين بدا للعهد البوربوني الجديد ان الاوان قد حان ، بعد ان توهم انه انتصر على بونابرت وامتدت جذوره في البـــلاد ، يعني حين ظنّ ذلك العهد أنه قويّ وانه راسخ ، وطّن النفس فجاءةً على القيام بمغامرته. فذات صباح ، تصدّر في وجه فرنسة ، وأنكر - رافعـــاً صوته - الحق الجماعي والحق الفردي : أنكر السيادة على الامـــة ، وأنكر الحرية على المواطن . وبكلمة ثانية ، لقد أنكر على الأمة ما جعلها أمـــة ، وعلى المواطن ما جعله مواطناً .

ذلك هو جوهر تلك الاعمال الشهيرة التي تدعى أحكام تموز .

وسقط العهد البوربوني الجديد .

ولقد سقط بحقّ . بيد انه يتعين علينا ان ننصّ على أنه لم يكن معادياً على نحو مطلق لكل شكل من اشكال التقدم . إن بعض الاشياء العظيمة قد أنجزت في ظله .

ففي ظل العهد البوربوني الجديد تعوّدت الأمة المناقشة في هـدوء ، وهو ما كان يُعوز الجمهورية ؛ وتعودت العظمة في السّلم ، وهو ما كان يُعوز الامبراطورية . وكانت فرنسة ، الحرة القوية ، مشهداً مشجعاً للشعوب الاوروبية الاخرى . لقد قالت الثورة كلمتها في ظل روبسبيير ، وقال المدفع كلمته في ظل بونابرت ، ولكن العقل لم يجيء دوره في الكلام إلا عهدَ لويس الثامن عشر وشارل العاشر . لقد خمدت الريح ، وأضيء المشعل

من جديد . ولقد شوهد نور العقل الصافي يرتعش فوق الذرى المشرقة . مشهد بهيّ ، حافل بالفائدة وبالسحر . فطوال خمس عشرة سنة رأى الناس هذه المبادىء الكبرى العتيقة جداً عند رَجُل الفكر ، الحديثة جداً عند رُجل السياسة ، وهي تعمل في وضح السلم وعلى مرأى من النـــاس ومسمع : المساواة أمام القانون ، وحرية الضمير ، وحرية القول ، وحرية الصحافة ، وحقّ الكفايات جميعاً في المناصب جميعاً . وانما استمرّ هذا الوضع حتى عام ١٨٣٠ . كان آل بوربون اداة من ادوات الحضـارة انكسرت في يدي العناية الالهيّة .

وكان سقوط آل بوربون مفعماً بالعظمة ، لا من ناحيتهم ، ولكنْ من ناحية الأمـة . لقد غادروا العرش في وقـــار ، ولكنْ من غير سلطان . إن سقوطهم في الظلمة لم يكن غيبة من تلك الغيبات الاحتفالية التي تثير في جوانح التاريخ انفعـالاً قاتماً . إنها لم تكن لا سكينة شارل الأول الشبحية ولا صيحة نابليون النسرية . لقد مضَوْا لسبيلهم ، هذا كل ما هنالك . لقد نزعوا التاج ، ولم يحتفظوا بالهـــالة . كانوا فاضلين ، ولكنهم لم يكونوا فخيمين . لقد أعوزهم ، الى حدّ مـا ، جلال تعاستهم . ففي اثناء الرحلة من شيربورغ ، بدا شارل العـــاشر — وقد قُطِعت مائدة مستديرة لتحوّل الى مائدة مربعة — مشغول البال بأدب السلوك اكثر من انشغاله بالعرش المنهار . وأحزن هـذا الصّغار أتباعهم الذين أحبّوهم ، والرجال الجديين الذين كانوا يُجِلّون عِترتهم . وكان الشعب ، بدَوْره ، نبيلاً على نحو رائع . فالأمـة التي هوجمت ذات صباح هجوماً مسلّحـاً ، بضربٍ من الثورة الملكية ، استشعرت انها قوية الى حد جعلها لا تعرف الغضب . لقـد دافعت عن نفـسها ، وكبحت جماحها ، ووضعت الاشياء في مواضعها ، وألقت الحكومة بين يدي القانون ، وبعثت بآل بوربون الى المنفى ، واأسفاه ! ووقفت عند هذا الحد . لقد أخـــذت الملك العجوز ، شارل العاشر ، من تحت

السرادق الذي كان قد أظل لويس الرابع عشر ووضعته في رفق على الارض . انها لم تمسّ اشخاص الملوك إلا في كآبة وفي احتراس . إنها لم تكن رجلاً ؛ انها لم تكن نفراً من الرجال ؛ لقد كانت فرنسةَ ، فرنسةَ كلها ، فرنسةَ المنتصرة النشوى بنصرها وقد بدت وكأنها تذكرت نفسها ، وطبّقت أمام أعين العالم كله هذه الكلمات الوقور التي نطق بها غليوم دو فير بعد يوم المتاريس * : « من اليسير على اولئك الذين تعوّدوا جمع أعطيات العظماء والوثوب ، مثل عصفور ، من فَنَن الى فنن ، من قَدَر ملتاع الى قَدَر مزدهر ، أن يتكشّفوا عن قحة نحو أميرهم في محنته . أما انا فمصائر ملوكي سوف تكون موضع الاجلال دائماً ، وبخاصة حين يكونون في شدّة وضيق . »

لقد حمل آل بوربون معهم الاحترام ، ولكنهم لم يحملوا الأسف . وكما أسلفنا القول ، فان محنتهم كانت اعظم منهم . لقد زالوا أمام اعين الناس .

وسرعان ما وجدت ثورة تموز اصدقاء واعداء في اوجاء العالم كله . لقد اندفع الأولون نحوها في حماسة وابتهاج ، وولاها الآخرون ظهورهم ؛ كلٌّ وفقَ طبيعته الخاصة . وللوهلة الأولى اغلق امراء اوروبة عيونهم ، كالبُوم في الفجر ، وقد عرتهم نَفْرة وانشداه ، ثم لم يفتحوها إلا ليتهددوا ويتوعدوا . وإنه لذعر نستطيع ان نفهمه ، وإنه لغضب نستطيع ان نلتمس له عذراً . والواقع ان هذه الثورة العجيبة كادت ان لا تكون صدمةً . فهي لم تذهب حتى الى حدّ تشريف الملكية المغلوبة بمعاملتها كعدوّ وَهدْر دمها . وفي اعين الحكومات الاستبدادية ، الراغبة دائماً في ان تفتري الحرية على نفسها ، كانت خطيئة ثورة تموز انها برغم هَوْلها ظلت رقيقة . بيد ان شيئاً لم يُحاوَلْ او يُبيَّتْ ضدّها . لقد انحنى لها اكثر الناس نقمة عليها ، واهتياجاً لنبأها ،

* وهو اليوم الذي نصبت فيه المتاريس في شوارع باريس خلال ثورة ١٨٣٠ .

وخوفاً منها . فأياً ما كانت أنانياتنا وأحقادنا فأن احتراماً عجيباً ينبثق من الأحداث التي نستشعر فيها تدخّل يد أعلى من يد الانسان .

إن ثورة تموز هي انتصار الحق معفّراً وجه الواقعة . * شيء مفعم بالسّناء .

الحقّ معفّراً وجه الواقعة . من هنا بهاءُ ثورة ١٨٣٠ ، ومن هنا وداعتها أيضاً . إن الحق لا يحتاج ، إذا ما انتصر ، الى ان يكون عنيفاً .

الحق هو الصحيح والصائب .

وميزة الحقّ هي أنه يظلّ أبد الدهر جميلاً صافياً . والواقعة ، حتى ولو كانت ماسّة الى أبعد حدّ في الظاهر ، حتى ولو اقترنت باعظم القبول من المعاصرين ، مقدّرٌ لها على نحو محتوم (اذا لم تزِدْ على ان تكون مجرد واقعة ، واذا لم تنطوِ الا على قليل من الحق أو لم تنطو على شيء ما منه) ان تصبح مع كرور الايام شائهةً دنسة ، ولربما فظيعةً أيضاً . واذا شئتَ ان تتأكد لتوّك الى اي حدّ من البشاعة قد تنتهي الواقعة ، حين يُرى اليها على مسافة الاجيال والقرون ، فانظر الى ميكيافيلي . إن ميكيافيلي ليس عبقرية شريرة ، وليس ابليساً ، وليس كاتباً نذلاً خسيساً . إنه ليس شيئاً غير الواقعة . وهو ليس الواقعة الايطالية فحسب ؛ إنه الواقعة الأوروبية ، واقعة القرن السادس عشر . إنه يبدو مروّعاً ، وإنه لكذلك ، امام فكرة القرن التاسع عشر الاخلاقية .

وهذا الصراع بين الحق والواقعة مستمرّ منذ نشأة المجتمع الأولى . أما إنهاء المبارزة ، ومزج المثل الاعلى المحض بالواقع البشري ، وتمكين الحقّ من الانسلال في أمن ، الى الواقعة وتمكين الواقعة من الانسلال في أمن الى الحق ، فذلك واجب الحكماء .

* fait ; fact

٢
خياطة رديئة

ولكن واجب الحكماء شيء ، وواجب الحُذّاق شيء آخر .

فسرعان ما انقضت ثورة عام ١٨٣٠ .

إذْ ما ان ترتطم الثورة بصخور الشاطيء حتى يشرّح الحذّاق حادث الغرق .

والحذّاق ، في عصرنا ، قد منحوا انفسهم لقب رجال دولة ، حتى لقد انتهى هذا التعبير ، رجل دولة ، إلى أن يصبح ، الى حد ما ، تعبيراً عامياً . والواقع الذي ينبغي لكل امرىء ان يذكره أنه حيثما كان الحذق وحده فثمة بالضرورة صغار . إن قولك « الحذاق » يَعْدِل قولك « القليلي الذكاء » .

كما ان قولك « رجال دولة » قد يعدل ، في بعض الاحيان ، قولك « خونة » .

وإذن ، فالحذاق يعتقدون ان ثورات مثل ثورة تموز شرايين مقطوعة ، فهي في حاجة الى رَبْطٍ عاجل . إن الحقّ ، حين يُعلَن في أبهة بالغة ، يهزّ ويزلزل . وكذلك ما يكاد الحقّ يُثبَت حتى يتعيّن علينا ان نعمد الى اثبات الدولة من جديد . وما إن تتوطّد الحرية حتى يتعين علينا ان نفكر في السلطة .

وإلى هنا لا ينفصل الحكماء عن الحذاق ولكنهم يتبادلون الحذر وسوء الظن . السلطة ؟ فليكن ! ولكن ، قبل كل شيء ، ما السلطة ؟ وثانياً ، من أين تنبثق ؟

إن الحذاق يبدون وكأنهم لا يسمعون تمتمات الاعتراض ، فهم يواصلون عملهم .

وعند هؤلاء السياسيين ، البارعين في إلباس الاوهام الرائجة أقنعة الضرورة ، ان أول ما يحتاج اليه الشعب بعد ثورة من الثورات ، اذا ما شكل هذا الشعب جزءاً من قارة ملكية ، هو الفوز بسلالة حاكمة . وبهذه الطريقة – كذلك يقولون – يستطيع الشعب ان ينعم بالامن بعد ثورته ، يعني انه ينعم بالوقت الكافي لتضميد جراحه وترميم بيته . إن السلالة الحاكمة تخفي صقالات البناء ، وتغطي عربات الاسعاف .

والان ليس من اليسير ، دائماً ، الفوز بسلالة حاكمة .

وفي حال الاضطرار ، يكفي اول رجل ذي عبقرية ، او اول مغامر تلتقي به لتنصيب ملك . ولديك نابوليون مثلاً على الحالة الاولى ، وإيتوربيد * مثلاً على الحالة الثانية .

ولكن أول اسرة تلتقي بها لا تكفي لاقامة سلالة مالكة . ينبغي ان يكون ثمة قدْرٌ معيّن من القِدَمية في عِرق من الاعراق ؛ وتجاعيد القرون لا تُرتَجلُ ارتجالاً .

ولنفرض اننا اخذنا بوجهة نظر « رجال الدولة » ، محترسين طبعاً بمختلف ضروب الاحتراس ، فما هي ، بعد الثورة ، صفات الملك الذي ينبثق منها ؟ قد يكون ، ومن الخير ان يكون ، ثورياً ، يعني انه قد شارك هو نفسُه في هذه الثورة ، وان يكون قد مارسها ، وان يكون قد تعرّض للتهلكة بواسطتها أو لمع في سمائها ، ان يكون قد مسّ الفأس أو شهر السيف .

وما هي صفات الاسرة المالكة ؟ يجب ان تكون وطنية ، يعني ثورية من بعيد ، لا بالأعمال التي تُنجَز ، ولكن بالفكرات التي تُعتنق .

---

* Iturbide جنرال مكسيكي نودي به امبراطوراً ، عام ١٨٢١ ، ثم اضطر الى الاستقالة عام ١٨٢٣ . حتى اذا رجع الى المكسيك لكي يستعيد عرشه اعدم رمياً بالرصاص في اديلا عام ١٨٢٤ .

يجب ان تتألف من الماضي وان تكون تاريخية ، ومن المستقبل وان تكون عاطفة .

وهذا كله يفسّر لماذا تجتزيء الثورات الاولى بالبحث عن رجلٍ ، عن كرومويل أو نابوليون . ولماذا تصر الثورات التي تليها إصراراً مطلقاً على البحث عن سلالة مالكة ، عن اسرة برونزويك ، او اسرة اورليان .

إن الأسر المالكة تشبه شجرات التين الهندي التي ينعطف كل غصن من اغصانها حتى الارض وتمتدّ له جذورٌ فيها ليصبح هو نفسه شجرة تين هندية مستقلة . فكل فرع من فروع الاسرة المالكة يستطيـــع ان يصبح سلالة حاكمة . على شرط واحد : أن ينعطف نحو الشعب .

تلك هي نظرية الحذّاق .

وهوذا ، اذن ، الفنّ العظيم : ان يُخلَع على النجــاح شيء من نبرة الكارثة ، لكي تصيب الرعدة اولئك الذين يفيدون منه ايضاً ، وأن تُلطّف بالخوف خطوةٌ واقعية ، وان يُكسّر قوس الانتقال الى حدّ إعاقة التقدّم ، وأن يُمسَخ هـذا الفجر ، وان تُبطَل حرارة الحماسة وتُلغى ، وان تُقطع الزوايا والبراثن ، وان يُبطّن النصر ، وان يُغطّى الحق بالفراء ، وان يُلفّ العملاق الشعب بنسيج صوفي رقيق ويُسرَع به الى الفراش ، وان تُفرض حميةٌ على هذا الافراط في الصحة ، وأن يُخضع هرقل الجبار المعاملة الخاصة بالناقهين ، وأن يُكبَح الحدث ضمــــن النطاق الملائم ، وان يُقدّم الى العقول الظامئة للمثل الأعلى هذا الرحيق الممزوج بماء الحشائش والبزور ، وأن تُتّخذ الاحتياطات ضدّ الاسراف في النجاح ، وان تزوّد الثورة بنوافذ مائلة يأتيها النور من فوق .

وأخذت سنة ١٨٣٠ بهذه النظرية ، التي سبق لها ان طُبّقت في انكلترة عام ١٦٨٨ .

ان عام ١٨٣٠ ثورةٌ أُوقفت في منتصف الطريق . تقدّمٌ نصفيّ ؛

شبه حقٌّ . وهنا يُنكِر المنطق ما هو تقريبيّ ، كما تُنكِر الشمسُ الشمعةَ سواء بسواء .

من الذي يوقف الثورات في منتصف الطريق ؟ البورجوازية .

لماذا ؟

لأن البورجوازية هي المصلحةُ مشبعةً . أمسِ كانت شهوة ، وهي اليوم امتلاء ، ولسوف تكون غداً اكتظاظاً .

إن ظاهرة عام ١٨١٤ بعد نابوليون أعادت نفسها عام ١٨٣٠ بعد شارل العاشر .

لقد جرت محاولة ، محاولة خاطئة ، الى ان يُجعَلَ من البورجوازية طبقة . إن البورجوازية لا تعدو ان تكون الجزء الراضي من الشعب . والبورجوازي هو الرجل الذي يجد الآن متسعاً من الوقت للجلوس . والكرسي ليس طبقةً اجتماعية .

ولكننا ، بسبب من رغبتنا في الجلوس ، قد نوقف تقدّم الجنس البشري نفسه . وكثيراً ما ارتكبت البورجوازية هذه الغلطة .

وارتكاب غلطةٍ ما لا يشكل طبقة اجتماعية . فالانانية ليست احد اجزاء النظام الاجتماعي .

وفوق هذا ، فينبغي ان نكون منصفين ، حتى للانانية . فالدولة التي طمح اليها ، بعد صدمة ١٨٣٠ ، ذلك الجزء من الأمة الذي ندعوه البورجوازية ، لم تكن قوة الاستمرار ، التي تتألف من لا مبالاة وكسل ، والتي تنطوي على شيء من العار . إنها لم تكن الرقاد ، الذي يفترض نسياناً موقتاً تتخلله الأحلام . لقد كانت هي الوقوف .

والوقوف كلمة مؤلفة من معنىً مزدوج فريد ، يكاد يكون متناقضاً : جيش زاحف ، يعني حركة ؛ ووقوف ، يعني سكون .

الوقوف هو استعادة القوى . إنه السكون المسلّح اليقظ . إنه الأمر الواقع الذي يقيم ارصاداً ورقباء ويلزم جانب الحذر . الوقوف

يفترض نشوب المعركة أمس ، ونشوبها غداً .

تلك هي الفترة التي امتدت ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ .

وما ندعوه هنا المعركة يمكن ان يدعى ايضاً التقدّم .

لقد استشعرت البورجوازية ، اذن ، كما استشعر رجـــال الدولة ، الحاجةَ الى رجـل ينطق بهذه الكلمة : قف ! شخصية مركّبة تعـــني الثورة ، وتعني الاستقرار . وبكلمة اخرى ، شخصية تكفل الحاضر من طريق توافق الماضي ، على نحو واضح ، مع المستقبل .

ولقد وجد هذا الرجـــل « في متناول اليد » . كان اسمه لويس فيليب دورليان .

ونصّب المئتان والواحد والعشرون * رجـلاً لويس فيليب ملكاً . ونهض لافاييت بعبء التتويج . لقد دعاهـــا **خير الجمهوريات** . ولقد حلّت دار بلدية باريس محلّ كاندرائية ريمس .

وكانت هذه الاستعاضة عن العرش الكامل بنصف عرش هي « صنيع عام ١٨٣٠ » .

وحـين أنجز الحـــذاق عملهم برزت آفة حلّهم الكبرى وأمست واضحة للعيان . وانمـــا تمّ ذلك كله من غير إشاره الى الحق المطلق . وصرخ الحق المطلق : « إني أحتجّ ! ثم ما لبث ، وهو شيء رهيب ، أن ارتدّ الى الظلام .

٣
لويس فيليب

إن للثورات ذراعاً رهيبة ويداً ميمونة . انها تضرب في قوة ، وتتخير

* هم اعضاء المجلس الذين انتخبوا لويس فيليب ملكاً على فرنسة .

جيداً . وحتى عندما تكون ناقصة ، وحتى عندما تكون متفسّخة ، فاسدة ، وساقطة الى مرتبة ثورةٍ طفلةٍ ، مثل ثورة ١٨٣٠ ، فانها تحتفظ دائماً تقريباً بقدْرٍ كافٍ من نور العناية الالـهية يعصمها من سقوطٍ مهلك . ان خسوفها ليس أبداً تخلياً .

ومع ذلك ، فينبغي لنا ان لا نسرف في الزهو . فالثورات ، هي الاخرى ، تُخدع عن نفسها ، وتتكشف عن اخطاء خطيرة .

فلنعد الى عام ١٨٣٠ . لقد كان عام ١٨٣٠ ميموناً في انحرافه . ففي المؤسسة التي دعت نفسها النظامَ بعد ان بُترت الثورة بتراً ، كان الملك خيراً من الملكية . لقد كان لويس فيليب رجلاً نادر المثال :

كان ابن والد سوف يمنحه التاريخ من غير ريب اسباباً تخفيفية ولكنه جدير بالاجلال بقدر ما كان ذلك الوالد جديراً باللوم ؛ كانت له جميع الفضائل الخصوصية وكثير من الفضائل العمومية ؛ كان شديد العناية بصحته ، وبثروته ، وبشخصه ، وباعماله ؛ كان يعرف قيمة الدقيقة وان لم يكن يعرف دائماً قيمة السنة . كان عفيفاً ، رائقاً ، مسالماً ، صبوراً ؛ كان رجلاً صالحاً ، وملكاً صالحاً ؛ كان ينام مع زوجته ، وكان في قصره خدم ليس لهم من عمل غير عرض السرير الزوجيّ على انظار البورجوازيين ، وهو افتخار بالنظامية المخدعية كانت له فائدته بعد ضروب العرض غير الشرعية التي كان فرع الاسرة الأرشد يتباهى بها . كان يعرف جميع لغات اوروبة ، ويعرف - وهو شي اشدّ ندرةً - جميع لغات المصالح على اختلافها ، ويتكلمها ؛ كان ممثلاً رائعاً « للطبقة المتوسطة» ولكنه فاقها ، وكان من جميع النواحي اعظم منها ؛ كان من شدة الذكاء ، فيما هو يقدر الدمَ الذي يجري في عروقه حقّ قدره ، بحيث يعتمد قبل كل شيء على قيمته الذاتية ؛ وحتى في مسألة العِرْق ، وذلك امرٌ فريدٌ جداً ، كان ينتسب الى آل اورليان لا الى آل بوربون . صحيح انه كان اول امير من امراء الدم ، عندما لم يكن غير « صاحب

السو» ، ولكنه أمسى بورجوازياً يوم نعِمَ بلقب «صاحب الجلالة».
كان مسهباً أمام الجمهور ، موجزاً مع المقربين اليه ؛ كان بخيلًا في زعم الناس ولكن الدليل لم ينهض على بخله ، فهو في الواقع واحد من اولئك الرجال المقتصدين الذين لا يحجمون عن الاسراف حين يقتضيهم هواهم أو واجبهم ذلك . كان حسنَ الثقافة ، ولكنه قليل التقدير للأدب ، مصقول الحاشية ولكن روح الفروسية لا تعمر صدره ، بسيطاً ، هادئاً ، قوياً . كان معبودَ أُسرته واهل بيته ، محدّثاً فاتناً ، رجلَ دولةٍ لا يُخدع ، بارداً باطنياً ، تسيطر عليه المصلحة المباشرة ، ويحكم دائماً وفقاً للمناسبة الأشدّ قرباً ، عاجزاً عن الضغن والشُكران ، مبلياً في غير رحمة ضروبَ الامتياز على ضروب التوسط ، قادراً على ان يعارض ، من خلال الاكثريات البرلمانية ، ذلك الاجماع الخفيّ الذي يدمدم على نحو لا يكاد يُسمع تحت العروش . كان كثير البوح بسريرته ، تعوزه الحكمة في ذلك بعض الاحيان ، ولكن قلة حكمته تلك تنطوي على حذاقة رائعة . كان واسع الحيلة ، كثير الوجوه ، متعدد الاقنعة ، يوقع في قلب فرنسة الخوفَ من اوروبة ، ويوقع في قلب اوروبة الخوف من فرنسة ؛ محباً لبلاده بلا جدال ، ولكنه مُؤْثِرٌ لأسرته ، مقيّماً التسلّط اكثر من السلطة ، والسلطةَ اكثر من الفَضْل ، وهو مزاجٌ مهلك بجيز — اذ يعطف كل شيء نحو النجاح — الخديعةَ والاحتيال ، ولا ينبذ الدناءة البتة ، ولكنه مفيد يصون السياسة من الصدمات العنيفة ، والدولة من التقصُّفات ، والمجتمع من الكوارث . كان مدققاً ، محباً للضبط ، محترساً ، يقظاً ، فطناً ، لا يتطرق اليه التعب . كان يناقض نفسه احياناً ، ويكذّب نفسه ، جريئاً على النمسا في آنكونا * ، عنيداً مع انكلترة في اسبانية ، قاذفاً

* Ancône مدينة ايطالية ، وقد احتلها الوزير الفرنسي كازيمير بيريه من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٣٨ وصد عنها القوات النمسوية .

آنفرس * بنيران مدافعه . دافعـــاً التعويض الى بريتشارد ** منشداً المارسييز في ايمان ، ممتنعاً على الخور ، وعلى الاعياء ، وعلى تذوّق الجمال والمثل الأعلى ، وعلى السخاء الجسور ، وعلى المدينة الفاضلة ، وعلى الوهم ، وعلى الغضب ، وعلى الزهو ، وعلى الخوف ، متحققاً بكل شكل من أشكال الشجاعة الشخصية ، فهو جنرال في فالمي *** جنـــدي في جيماب **** تعرّضت حياته للخطر ثماني مرات على ايدي قتلة الملوك ومع ذلك فلم تفارق الابتسامة شفتيه . كان باسلاً كرامي قنابـــل ، شجاعاً كمفكر ، قلقاً أمام احتمالات اضطرابٍ اوروبيّ ليس غير ؛ غير اهل للمغامرات السياسية الكبرى ، مستعداً دائماً لأن يخاطر بنفسه ولكن غير مستعد البتة للمخاطرة بعمله ، مقنّعاً ارادته بقناع التأثير لكي يطاع بوصفه ذكياً لا بوصفه ملكاً ، موهوباً بالملاحظة لا بالتكهن ؛ مهتماً اهتماماً قليلاً بالمعقول ولكنه قادر على ان يقرأ أخلاق الرجال ، يعني انه كان محتاجاً الى ان يرى لكي يعطي حكمه . كان ذا عقل راشدٍ حاضر البديهة ثاقب النظر ، وحكمة عملية ، وحديث طيّع ، وذاكرة أعجوبية . كان دائم النبش في تلك الذاكرة ، وهو وجه الشبه الأوحد ما بينه وبين يوليوس قيصر والاسكندر ونابوليون . كان عارفاً بالوقائع والتفاصيل ، والتواريخ واسماء الأعلام ، جاهلاً للنزعات ، والاهواء ، وعبقريات الجماعة المختلفات ، والمطامح الباطنية ، وفورات النفوس المخبوءة الغامضة ، وبكلمة واحدة ،

---

* Anvers مدينة بلجيكية حصينة احتلها الفرنسيون عام ١٨٣٢ بقيادة المارشال جيرار .

** Pritchard مبشر انكليزي (١٧٩٦ – ١٨٨٣) كان معادياً لفرض الحماية الفرنسية على تاهيتي حيث كان تاجراً وقنصلاً عاماً ، فما كان من الاسطول البحري الفرنسي الا ان دمر مخازنه ، فطلبت انكلترة من فرنسة ان تدفع التعويض اليه .

*** Valmy قرية في مقاطعة المارن ، حيث انتصر دو مورييه وكيليرمان عـــلى البروسيين عام ١٧٩٢ .

**** Jemmapes من اعمال البلجيك ، وفيها انتصر دومورييه على النمسويين عام ١٧٩٢

كلّ ما نستطيع ان ندعوه تيارات الضمير غير المنظورة . كان مقبولاً من جانب الفئات العائمة ولكنه قليلاً ما كان متفقاً مع فرنسة الأعماق . كان يشق طريقه بالحذاقة ؛ وكان يحكم اكثر مما ينبغي ، ويملك على نحو غير كاف . كان رئيس وزراء نفسه ؛ مجيداً في جعل حقارة الأمور الواقعية عقبة تحول دول عظمة الفكرات والمعاني ؛ مضيفاً الى موهبة الحضارة الخلاّقة الحقيقية نظاماً وتنظيماً ووروحاً من النمطية والمماحكة تمتنع على الوصف . كان مؤسس سلالة حاكمة ووكيل دعاواها ؛ ففيه شيء من شارلمان وشيء من محام . وعلى الجملة ، فقد كان وجهاً أصيلاً شامخاً ، ملكاً عرف كيف يكسب السلطة برغم قلق فرنسة ، والقوةَ برغم حسد أوروبة . إن لويس فيليب سوف يُصنّف بين رجال عصره البارزين ؛ وخليق به ان يُرفع الى مصاف ألمع الحكام في التاريخ لو انه أحب المجد بعض الشيء ، ولو أنه قدر ما هو عظيم حق قدره كما قدر ما هو نافع ومفيد .

كان لويس فيليب بهيّ الطلعة ، وحين شاخ ظل مليح الوجه . إنه لم يكن قريباً الى قلب الأمة دائماً ، ولكنه كان قريباً دائماً الى قلب الجمهور . كان مُرضياً ، كانت له هذه الموهبة : الفتنة . كانت الجلالة تعوزه فهو لم يلبس لا التاج ، برغم انه ملك ، ولا الشّعر الابيض ، برغم انه شيخ . كان طراز حياته من النظام القديم ، وكانت عاداته من النظام الجديد : مزيج من النبيل والبورجوازي . كان ملائماً لعام ١٨٣٠ ؛ كان لويس فيليب يمثل انتقالاً ملكياً . كان قد احتفظ بطريقة النطق القديمة وطريقة الاملاء القديمة اللتين وضعهما في خدمة الفكرات العصرية . كان يحب بولونية وهنغارية ولكنه كان يكتب *les polonois* ويلفظ *les hongrais* لقد ارتدى ثياب الحرس الوطني مثل شارل العاشر ، ووشاح جوقة الشرف مثل نابوليون .

كان نادراً ما يذهب الى الكنيسة ، وكان لا يذهب الى الصيد أبداً ، ولم يقصد الى الأوبرا في يوم من الايام . كان ممتنعاً على الفساد بأتيه

من جانب الكهان ، واصحاب كلاب القنص ، والراقصات . وزاد ذلك في شعبيته عند البورجوازيين . ولم يكن له بطانـــة . كان يخرج من القصر ومظلته تحت ذراعه ؛ ولقد شكّلت هـذه المظلة جزءاً من مجده فترةً طويلة من الزمن . كان فيه شيء من البنّاء ، وشيء من البستانيّ ، وشيء من الطبيب . لقد فصَدَ خادماً له سقط عن جواده . ومن ذلك الحـين امسى لويس فيليب لا يخرج إلا ومبضعه معه كما كان هنري الثالث لا يخرج إلا وخنجره معه . وسخر الملكيون من هـــذا الملك المضحك ، أول من سفح الدم لكي يشفي .

وفي شكاوى التاريخ من لويس فيليب ينبغي ان يُجرى شيء من التخفيض . فهناك ما تقع تبعته على الملكية ، وهناك ما تقع تبعته على العهد ، وهناك ما تقع تبعته على الملك . ثلاثة اعمدة ، يعطي كل منها حاصل جمعٍ مختلفاً . فمصادرة الحق الديموقراطي ، وجعل التقـدّم المهمّ الثاني ، وقمع احتجاجات الشارع قمعاً عنيفاً ، والقضاء على العصيان بالقوة العسكرية ، وقهر الفتن بالسيف ، وشارع ترانسنونــين * ، والمجالس الحربية ، واستغراق البلد الشرعي للبلد الحقيقي ، وتطبيق نظرية الحكومة تطبيقاً نصفياً ليس غير مع ثلاثمئة الف شخص من المحظوظـين ، وإنكار دعوانا في البلجيك ، وفتح الجزائر بأكثر مما ينبغي من القسوة ، واتخاذ هذا الفتح صفة البربرية اكثر مما اتخذ صفة التمدن ، كالذي حصل في الهند على يد الانكليز ، ونكث عهد الشرف المعطى لعبد القادر ** ، وشراء بلايي ، ودوتز ، والتعويض على بريتشارد ، هي من أعمال العهد . اما

---

* Transnonain حيث جرت المذبحة المعروفة يوم ١٤ نيسان ١٨٣٤ اثناء الفتنة التي انفجرت في باريس في حيّ سان ميري ، اذ اطلقت رصاصة من المنزل رقم ١٢ من هذا الشارع على الجند فاصابت احد الضباط ، فما كان من الجنود إلا ان اقتحموا المنزل وقتلوا جميع أهله .

** يقصد الامير عبد القادر البطل الجزائري الشهير الذي حارب الفرنسيين طوال المدة الواقعة ما بين عامي ١٨٣٢ و ١٨٤٧ .

السياسة التي كانت عائلية اكثر منها قومية فهذه من عمل الملك .

وهكذا نرى ، بعد اجراء هذا التخفيض ، ان التهمة الموجهة الى الملك قد تقلصت .

كانت غلطته الكبرى هي هذه : أنه كان معتدلاً باسم فرنسة .

من أين نشأت هذه الغلطة ؟

فلننص على ذلك .

كان لويس فيليب ملكاً تغمر الأبوة صدره اكثر مما ينبغي . وهذه الحضانة لأسرة ينبغي ان تُنقف لتصير سلالة ملكية ، كانت تخشى كل شيء ولا تقدر على احتمال الازعاج . ومن هنا ذلك الجبن المغالى فيه ، المثير لسخط شعب يملك ١٤ تموز بين تراثه المدنيّ ، وأوسترليتز بين تراثه العسكريّ .

وفوق هذا ، وإذا تركنا جانباً الواجبات العامة التي ينبغي ان تُنجز قبل كل شيء ، فأن حدب لويس فيليب العميق على اسرته كان شيئاً تستحقه تلك الاسرة . لقد كانت هذه المجموعة العائلية رائعة . لقد نافست فضائلُها مواهبها . فقد وضعت احدى بنات لويس فيليب ، ماري دورليان ، اسمَ سلالتها بين الفنانين ، كما وضع شارل دورليان ذلك الاسم بين الشعراء . لقد نحتت بكل جوارحها تمثالاً دعته جان دارك . وانتزع اثنان من ابناء لويس فيليب هذه المدحة الديماغوجية من ميترنيخ : **« هذان شابان لم نر لهما ضريباً ، واميران لن نرى لهما ضريباً . »**

تلك هي ، من غير أن نكتم شيئاً ، ولكن من غير ان نبالغ في شيء ، الحقيقة عن لويس فيليب .

فلأن يكون « الامير المساواة » ، ويحمل في ذات نفسه ذلك التناقض بين عودة آل بوربون الى العرش وبين الثورة ، ويكون له ذلك المظهر المقلق ، مظهر الثوريّ الذي يصبح مهدِّئاً للروع في شخص الحاكم — ذلك كان قَدَر لويس فيليب سنة ١٨٣٠ . ولم يعرف

التاريخ تكيُّف رجل مع حدَثٍ ما أكمل من هذا التكيّف . لقد دخل أحدهما في الآخر ، وتمّ التجسُّد . إن لويس فيليب هو سنةُ ١٨٣٠ وقد جُمِلت رجلًا . والى هذا فقد كان يشفع له ذلك الاختيار العظيم للعرش : النفي . فقد عبرتْ به ساعة" كان فيها مبعداً عن وطنه محكوماً عليه بالأعدام ، وكان تائهاً ، وفقيراً . لقد سبق له ان عاش من كدِّه وعمله . وفي سويسرة ، كان هذا الوريث لأغنى ممتلكات فرنسة الاميرية قد باع فرساً عجوزاً لكي يشتري بثمنه ما يسدّ به الرمق . وفي رايشناو ، كان قد اعطى دروساً في الرياضيات ، بينا قامت اخته آديليد بأعمال الخياطة والتطريز . وهذه الذكريات ، مرتبطة" بملك من الملوك ، أوقعت الحماسة في نفوس البورجوازيين . كان قد هدم بيديه الاثنتين آخر قفص حديدي في « مون سان ميشيل » ، وقد بناه لويس الحادي عشر ، واستعمله لويس الخامس عشر . كان رفيق دومورييه ، وصديق لافاييت . وكان قد انتسب ، ذات يوم ، الى النادي اليعقوبي . وكان ميرابو قد ربّت على كتفه . وكان دانتون قد قال له : « ايها الفتى ! » وفي الرابعة والعشرين ، عام ٩٣ ، وكان يُعرف آنذاك بمسيو دو شارتر ، ومن مقعد مغمور في المؤتمر الوطني ، شهد محاكمة لويس السادس عشر الذي دُعي في براءة **ذلك الطاغية المسكين** . وذكاء الثورة الاعمى ، الذي سحق الملكية في الملك ، وسحق الملك بالملكية ، وهو لا يكاد يرى الرُجلَ في قهر الفكرة الوحشيّ ؛ وعاصفة « المجلس المحكمة » الهوجاء ؛ وتساؤل الغضبة الشعبية ؛ وحيرة « كابيه » بمَ يجيب ؛ وتذبذب ذلك الرأس الملكي تذبذباً مشدوهاً مروّعاً تحت تلك الضربة الفظيعة ؛ وبراءة كل شيء ، على نحو نسبي ، في تلك الكارثة ، براءة اولئك الذين حكموا ، وبراءة ذلك الذي حُكم عليه — هذه الاشياء كلها كان لويس فيليب قد رآها ؛ كان قد نظر الى هذه الدوّامة المجنونة ؛ وكان قد بَصُرَ بالقرون تَمْثُل أمام المؤتمر الوطني ؛ وكان

قد رأى ، خلف لويس السادس عشر ، عابرَ السبيل الشقي المسؤول ، ذلك المتهم الهائل ، الملكية ، ينتصب في الظلام . وكان لا يزال في نفسه خوفٌ خاشع أمام عدالة الشعب هذه التي لا حدود لها ، والتي تكاد ان تكون مجرّدة كمثل عدالة الله .

وكان الاثر الذي تركته الثورة في ذات نفسه أعجوبيـــاً . كانت ذاكرته اشبه بصورة حية لتلك السنوات العظام ، دقيقةً فدقيقةً . وذات يوم ، وأمام شاهد عيان يتعذر علينا أن نرتاب فيـــه ، صحح من ذاكرته كامل الحرف R من اللائحة الابجدية باسماء اعضاء الجمعية التأسيسية .

كان لويس فيليب ملكاً في وضح النهار . ففي اثناء حكمه ، كانت الصحافة حرة ، وكانت الخطابة حرة ، وكان الضمير والرأي حرّين . إن قوانين ايلول واضحة وصريحة . واذْ كان يدرك ادراكاً حسناً الأثر القارض الذي يخلّفه النور في الامتيازات فقد ترك عرشه معرّضاً للنور . ولسوف يعترف التاريخ له بهذا الاخلاص .

إن لويس فيليب ، مثلَ جميع رجال التاريخ الذين غادروا المسرح ، ينبغي ان يمثل اليوم للمحاكمة امام الضمير الانساني . إنه لم يمثل حتى الآن إلا أمام محكمة بدائية .

ان الساعة التي يتحدث فيها التاريخ بنبرته الحرة الجليلة ، لمّا تحنْ بعدُ بالنسبة اليه . إن الأوان لم يئِنْ لاطلاق الحكم الاخير على هذا الملك . وذلك المؤرخ الشهير الصارم ، لويس بلان ، قد عدّل منذ قريبٍ حكمه الأول . كان لويس فيليب هو الشخص الذي اختاره هذان الشيئان التقريبيان اللذان ندعوهما الـ ٢٢١ ، و ١٨٣٠ ، يعـــني نصف برلمان ، ونصف ثورة . وعلى اية حال ، فمن وجهة النظر التي ينبغي ان تسمو اليها الفلسفة ، لا نستطيع ان نحكم عليه هنا ، كما قد لمحّنا من قبل ، إلا مع بعض التحفظات بأسْمِ المبدأ الديموقراطي المطلق . ان

كل شيء خارج نطاق هذين الحقين ، حقّ الانسان أولاً ، وحق الشعب بعد ذلك ، هو في عينَيْ المطلق اغتصاب . ولكنّ ما نستطيع ان نقوله منذ الآن ، بعد ابداء تلك التحفظات ، هو ان لويس فيليب ، بالاختصار ومن ايما زاوية درسناه ، سوف يظلّ – اذا نُظر اليه في ذات نفسه ومن وجهة نظر الطيّبة الانسانية ، واذا اردنا ان نستعمل اللغة العتيقة المألوفة في التاريخ القديم – واحداً من افضل الملوك الذين قدّر لهم ان يتربعوا على عرش .

أيّ مأخذ يؤخذ عليه ؟ ذلك العرش نفسه . جرّد لويس فيليب من صفة الملِك يَبْقَ الرجل . والرجل صالح . وإنه لمن الصلاح في بعض الاحيان بحيث يصبح رائعاً . فكثيراً ما كان يرجع في موهن من الليل الى منزله ، مثقل الكاهل بالمهامّ البالغة الخطورة ، وبعد نهار كامل من الصراع ضدّ ديبلوماسية القارّة كلها ، وهناك رقد هدّه التعب واستبد به النعاس ، ما الذي كان يعمله ؟ كان يمسك برزمة وثائق ، وينفق الليل في مراجعة دعوى جنائية ، شاعراً بان الصمود في وجه اوروبة شيء عظيم ، ولكنّ انقاذ رجل من بين يدي الجلاّد اعظم من ذلك بكثير . كان عنيداً مع وزير عدليته ، وكان ينازع النواب العامين ، **ثرثاري القانون** كما كان يدعوهم ، أرضَ المقصلة شبراً شبراً . وكانت الوثائق المركومة تغطي طاولته في بعض الاحيان . كان يدرسها جميعاً . فقد كان التخلي عن هذه الرؤوس البائسة المحكوم عليها بالموت يوقع في نفسه آلاماً مريرة . وذات يوم ، قال للشاهد نفسه الذي اشرنا اليه منذ لحظة : **البارحة انقذت سبعة** . وخلال السنوات الاولى من حكمه أُلغيت عقوبة الاعدام ، ومن هنا كانت اقامة المشنقة من جديد ضربة قاسية للملك . وإذ كانت « لا غريف » * قد اختفت مع فرع السلالة المالكة الأرشد ، فقد انشئت « غريف » بورجوازية أطلق عليها اسم « باب سان

* La Grève ساحة الاعدام في باريس ، وقد سبق التعريف بها .

جاك » . لقد استشعر « الرجال العمليون » الحاجـــة الى مقصلة شبه شرعية ، فكان ذلك انتصاراً من انتصارات كازيمير بيرييـــه * الذي مثل جانب البورجوازية الاكثر محافظةً ، على لويس فيليب الذي مثل جانبها الاكثر تحرّراً . لقد علـّق بخط يده على بيكاريا ** وبعـــد مؤامرة فيِيْتـَسكي *** هتف : « **ما اعظـــم اسفـــي لاني لم اصب بجراح ! لقد كان في امكاني ان أغفر له !** » وفي مناسبة أخرى ، كتب مشيراً الى مقاومة وزرائه ، في ما يتصل بمتهم سياسيّ هو وجـــه من أكرم الوجوه في عصرنا هذا : « **أما وقد منحته العفو فلم يبق عليّ إلا ان أنتزعه له انتزاعاً .** » كان لويس فيليب سهل الخليقة مثـــل لويس التاسع ، طيب الفؤاد مثل هنري الرابع .

وعندنا ، بعدُ ، في منطق التاريخ ، حيث الطـّيبة هي الجوهرة النادرة أن الرجل الصالح يكاد ان يحتل مقاماً أسمى من مقام الرجل العظيم .

وطبيعيّ ، بعد ان حكم بعضهم على لويس فيليب في صرامة ، وحـكم بعضهم الآخر عليه في قسوة ، ان يتقدّم رجـــل امسى الآن طيفاً من الاطياف ، رجلٌ عرف هذا الملك ، فيشهد له أمام التاريخ . وهذه الشهادة مهما تكن ، هي من غير ريب وقبل كل شيء ، مجرّدة عن الهوى تجرداً كاملاً . ان الوصف الذي خطته يد رجل ميت يكون مخلصاً . والظل قد يعزي ظلاً آخر . والمشاركة في ظلمة واحدة تمنـــح الحق في الثناء .

---

* Casimir Périer مصرفي غني ورجل دولة فرنسي تولى وزارة الداخلية عام ١٨٣١ فقمع اضطرابات باريس وليون في شدة وعنف ، ثم ما لبث ان قضى نحبه بالكوليرا (١٧٧٧ – ١٨٣٢)

** César de Beccaria فيلسوف وعالم جنائي ايطالي (١٧٣٨ – ١٧٩٤) وضع كتاباً شهيراً في العقوبات ادت مبادئه الى تجديد القانون الجنائي وتلطيفه . وقد احدث كتابه ذاك لدى نشره ضجة كبيرة في اوروبة .

*** Fieschi متآمر فرنسي (١٧٩٠ – ١٨٣٦) حاول اغتيال لويس فيليب فأعدم في ٢٨ تموز مع زميليه « بيبين » و « موري » .

وليس ثمة كبير خوف من ان يقال ، ذات يوم ، عن ضريحين في المنفى : « هذا الضريح قد تملّق ذاك . »

٤
شقوق تحت الأساس

في اللحظة التي توشك فيها هذه الدرامة التي نرويها ان تدخـــل الى أعماق احدى السحب الفاجعة التي تحجب السنوات الأولى من عهد لويس فيليب لم يكن في ميـورنا ان نكون مبهمين ؛ ولقـد كان من الضروري أن يكون هذا الكتاب صريحاً في ما يتصل بذلك الملك .

لقد تولى لويس فيليب السلطة الملكية من غير عنف ، من غير عمل مباشر من جانبه ، بفعل تحويل ثوري كان من غير شك مختلفاً جداً عن هدف الثورة الحقيقي ، ولكنه تحويل لم يكن له هو ، دوق دورليان ، ايما مبادأة شخصية فيه . لقد ُولد اميراً ، ولقد حسب أنه انتُخب ملكاً . إنه لم يمنح نفسه هذه السلطة ؛ إنه لم يأخذها قط ؛ لقد ُقدّمت اليـــه ، ولقد قبلها ؛ مقتنعاً ، على نحو خاطىء ، في نظرنا ، ولكنه كان مقتنعاً على أية حال ، بأن العرض كان وفقاً للحق ، وان القبول كان وفقاً للواجب . ومن هنا كان امتلاكه ناشئاً عن اخلاص . والآن ، ونحن نقول ذلك في توكيد ، لمّا كان لويس فيليب مخلصاً في امتلاكه ، ولما كانت الديموقراطية مخلصة في هجومها ، فان الهول الناشيء عن المعارك الاجتماعية ليست تقع تبعته لا على الملك ، ولا على الديموقراطية . إن صراع المباديء اشبه ما يكون بصراع العناصر . الاوقيانوس يدافع عن الماء ، والاعصار يدافع عن الهواء . الملك يدافع عن الملكية ، والديموقراطية تدافع عن الشعب . إن النسبيّ ، الذي هو الملكية ، يقاومُ المطلق ، الذي هو الجمهورية . وتسيل

دماء المجتمع من جراء هذا الصراع . ولكن ما يُعتبر آلامه اليوم سوف يصبح سلامته في ما بعد . وعلى اية حال ، فليس ثمة ههنا ايّ لوم نوجهه الى الفريقين المتصارعين . إن احدهما لمخطىء من غير ريب . فالحق ليس كتمثال رودس قائماً على شاطئين اثنين في آن معاً ، فرجل في الجمهورية ورجل في الملكية . انه كلٌ لا يتجزأ ، وانه لقائم في ناحية واحـــدة . ولكن اولئك الذين ينخدعون ، ينخدعون في خلوص نية . والأعمى لا يعتبر مجرماً إلا بقدر ما يعتبر الفاندي * قاطع طريق . فلنعزُ ، اذن ، هـــذه المبارزات الرهيبة الى حتمية الاشياء . واياً ما كانت هذه العواصف ، فان المسؤولية البشرية لا تمازجها .

فلننجز هذا العرض .

إن حكومة ١٨٣٠ قد عرفت ، منذ البـــدء ، حياةً قاسية . لقد اضطرّت ، وهي التي وُلدت أمس ، الى ان تقاتل اليوم .

فما انقضت فترة يسيرة على إقامتها حتى شعرت في كل مكان بحركات غامضة موجّهة ضد ملكية تموز ، وكانت ما تزال حديثة عهد بالعرش ، وغير راسخة الدعائم على الاطلاق .

لقد وُلدت المقاومـــة في غد . أمـا هي نفسها فلعلّها لم تولد إلا البارحة .

ومن شهر الى شهر تعاظمت الاعمال العدائية ؛ وبعد أن كانت بكماء ، غدت صريحة واضحةً

والواقع ان ثورة تموز التي لم يرتَضِها الملوك خارج فرنسة إلا قليلاً ، كما سبق منا القول ، قد فُسِّرت في فرنسة على وجوه مختلفة .

إن الله يُبشِر ارادته الى الناس من خلال الأحداث ، وإنـه لنصٌ غامضٌ مكتوبٌ بلغة غريبة . ويقوم الناس بترجمة ذلك النص في الحال .

---

* اي احد المشتركين في حروب « فانديه « Vendée (غربي فرنسة) الاهلية التي اثارتها ، خلال الثورة الفرنسية ، جماعات النبلاء ورجال الدين باسم المبدأ الملكي .

وهي ترجمات عجلى ، ركيكة ، ملأى بالاخطاء ، ومواطن النقص ، وسوء الفهم . إن عقولاً قليلةً جداً لتفهم اللغة الالـهية . واوفرهم حظاً من الحكمة ، واعظمهم نصيباً من الأناة ، وأعمقهم عمقاً يحلّون الغازها في تؤدة . حتى اذا أقبلوا مع نصّهم ، كانت الحاجة قد زالت منذ عهد طويل . وفي الساحة العامة حتى الآن عشرون ترجمة . ومن كل ترجمة يُولد حزب ، ومن كل خطأ في الفهم تنشأ عصبة ، وكل حزب يعتقد ان لديه وحده النصّ الصحيح ، وكل عصبة تعتقد أنها تملك الضياء .

وكثيراً ما تكون الحكومة نفسها عصبة .

وفي الثورات يتجه بعض السبّاحين ضدّ التيار . اولئك هم رجال الاحزاب العتيقة .

ذلك ان الاحزاب العتيقة ، المتشبثة بالحق الوراثي بنعمة الله ، تعتقد ان لها الحق في ان تثور على الثورات باعتبار انها ناشئة من حقّ العصيان . خطأ ! لأن الفريق الثائر ، في الثورة ، ليس الشعب ؛ إنه الملك . فالثورة هي على وجه الضبط نقيض العصيان . فكل ثورة ، بوصفها عملاً سوياً ، تنطوي في ذات نفسها على شرعيّتها ، التي يلحق بها العارَ احياناً ثائرون زائفون ، ولكنها تَثبُت ، حتى بعد ان تلوّث ، وتستمرّ ، حتى بعد ان تخضّب بالدماء . إن الثورات لا تنبعث من المصادفة ، ولكنْ من الضرورة . الثورة عودةٌ من الصناعيّ الى الحقيقيّ . إنها تنشب ، لأنها ينبغي ان تنشب .

ولم تشذْ الاحزاب القديمة الشرعية عن هذه القاعدة فحملت على ثورة ١٨٣٠ بكامل العنف المنبثق من التفكير الخاطيء . إن الاغلاط قذائف ممتازة . لقد سددوا سهامهم ببراعة الى المواطن التي لا تمتنع فيها على الجَرْح ، حيث وجدوا درعها واهياً ، وحيث وجدوا ان المنطق يعوزها . لقد هاجموا هذه الثورة في ملكيتها وهكذا صاحوا في وجهها : أيتها الثورة ، لمَ هذا الملك ؟ إن الاحزاب عميانٌ يحسنون اصابة الهدف .

وهذه الصيحة اطلقها الجمهوريون ايضاً . ولكنها ، وقد صدرت عنهم ، كانت منطقية . فما كان عمىً بالنسبة الى دعاة الشرعية كان نفاذ بصيرة بالنسبة الى الديموقراطيين . كانت سنةُ ١٨٣٠ قد أفلست مع الشعب . وأنبّتها الديموقراطية ، حانقةً ، على ذلك الأخفاق .

وبين هجوم الماضي وهجوم المستقبل تقلقل بنيان ثورة تموز . لقد مثّلتِ اللحظةَ ، فهي في صراع مع الاجيال الملكية ، من ناحية ، وهي في صراع مع النور الأزليّ من ناحية اخرى .

والى هذا فان سنة ١٨٣٠ ، بعد أن لم َتعُدْ هي الثورةَ - وبعد أن اصبحت هي الملكية ، اضطرت الى ان تطبع على غرار اوروبة . إن صيانة السّلم زادت الأمر تعقيداً . فالتجانس الذي يُراد في السبيل المغلوط أبهظ من الحرب وأثقل . ومن هذا الصراع الخفيّ ، المكموم دائماً المزمجر دائماً ، يولد السلامُ المسلّح ، تلك الوسيلةُ الحضارية المتلفة التي ترتاب فيها الحضارةُ نفسها . وشَبَتْ * ملكية تموز ، برغم السّوط ، تحت نير الوزارات الاوروبية . ولقد كان خليقاً بميترنيخ ان يشدّها الى الطِّوَل ** لقد دفعتها الى فرنسة يد التقدم ذات يوم فدَفَعت هي الملكيات في اوروبة ، تلك الثدييات البطيئة . أما حين قُطِرت ، فقد انقادت انقياداً .

وفي غضون ذلك ، داخلَ البلاد ، فأنّ العوز المقيم ، والبروليتاريا ، والاجور ، والتربية ، والعقوبة ، والبغاء ، وقدَر المرأة ، والثروة ، والبؤس ، والانتاج ، والاستهلاك ، والتوزيع ، والمقايضة ، والمال ، والاعتبار ، وحقوق رأس المال ، وحقوق العمل — كل هذه المسائل تضاعفت في وجه المجتمع . جُرُفٌ فظيع .

وخارج نطاق الاحزاب السياسية بمعناها الدقيق ، ظهرت على المسرح

* شبا الفرس : قام على رجليه .

** الطِّوَل : حبل طويل تشد به قائمة الدابة ثم تربطه الى وتد وترسلها ترعى .

حركة جديدة . ذلك بأن الاختيار الفلسفي استجاب للاختيار الديموقراطي . فاذا بالنخبة تستشعر القلق كالدهماء ، سواء بسواء . استشعرته على نحو مغاير ، ولكن بالشدة نفسها .

كان المفكرون يتأملون ، فيما كانت التربة ، يعني الشعب ، وقد عصفت بها التيارات الثورية ، ترتجف من تحت اقدامهم في ارتجاجات صرعيّة خفية . كان هؤلاء المفكرون – وبعضهم منعزلون ، وبعضهم مجتمعون في أمر ، بل وفي اتحاد بالأيمان تقريباً – يدرسون القضايا الاجتماعية ، في سكينة ، ولكنّ في عمق . معدّنون ثابتو الجنان يحفرون دهاليزهم ، بهدوء ، في اعماق بركان ، غير منزعجين أو يكادون من الهزات الخفيّة ، ووهج الحمم نصف المنظور .

وهذا السكون لم يكن اقلّ مشاهد هذه الحقبة المضطربة جمالاً .

وهؤلاء الرجال تركوا الاحزاب السياسية مسألة الحقوق ؛ لقد شغلوا انفسهم بمسألة السعادة .

كانت رفاهية الانسان هي التي رغبوا في انتزاعها من المجتمع .

لقد رفعوا المسائل المادية ، مسائل الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، إلى مثل منزلة الدين السامية ، تقريباً . ففي الحضارة كما قد تكوّنت ، وأقلها من عمل الله واكثرها من عمل الانسان ، تتحد المصالح ، وتتضامّ ، وتلتغم على نحو يمكنها من ان تشكل صخرةً حقيقية قاسية ، وفقاً لقانون ديناميّ يدرسه ، في تؤدة ، علماء الاقتصاد ، الذين هم في الواقع جيولوجيّو السياسة .

وهؤلاء الرجال الذين يتكتّلون تحت اسماء مختلفة ، والذين نستطيع ان نخلع عليهم ، برغم ذلك ، لقب الاشتراكيين النوعيّ ، قد حاولوا ان يثقبوا هذه الصخرة ، ويحملوا ماء السعادة الانسانية الصافي على الانبجاس منها .

واعتنقت جهودهم كل شيء ، من مسألة المشنقة حتى مسألة الحرب .

وإلى حقوق الرجل التي اعلنتها الثورة الفرنسية ، اضافوا حقوق المرأة وحقوق الطفل .

ولن يدهش أحدٌ اذا لم نحاول هنا – لاسباب مختلفة – ان نعالج القضايا التي أثارتها الاشتراكية معالجة اساسية ، ومن وجهة النظر النظرية . إننا سوف نجتزىء بسردها .

والواقع ان جميع المسائل التي طرحها الاشتراكيون ، بعد اقصاء الرؤى المتصلة بتكوّن العالم ، والاحلام ، والتصوف يمكن ان تُدْرج تحت مشكلتين رئيسيتين :

المشكلة الاولى :

إنتاج الثروة .

المشكلة الثانية :

توزيعها .

والمشكلة الأولى تنطوي على مسألة العمل .

والمشكلة الثانية تنطوي على مسألة الاجور .

في المشكلة الأولى يدور البحث حول اصطناع القوى .

وفي المشكلة الثانية يدور البحث حول توزيع المباهج .

ومن اصطناع القوى اصطناعاً حسناً تنشأ قوة الأمة كلها .

ومن توزيع المباهج توزيعاً حسناً تنشأ السعادة الفردية .

وينبغي ان نفهم من التوزيع الحسن لا التوزيعَ المتساوي ولكنِ التوزيعَ العادل . فالعدل اعظم منازل المساواة .

ومن اتحاد هذين الشيئين ، قوة الامة من خارج ، وسعادة الفرد من باطن ، تنجم الرفاهية الاجتماعية .

والرفاهية الاجتماعية تعني ان يكون الانسان سعيداً ، والمواطن حراً ، والأمة عظيمة .

وانكلترة تحلّ أولى هاتين المشكلتين . إنهـــا تخلق الثروة على نحو

رائع ! ولكنها توزعها توزيعاً رديئاً . وهذا الحلّ الذي ليس كاملًا إلا من ناحية واحدة ، يقودها لا محالة إلى هذين الطرفين الأقصيَيْن : الثراء الهائل ، والشقاء الهائل . البهجة كلها لقلة من الناس ، والحرمان كله لسائر الناس ، يعني للشعب ؛ والامتياز ، والاستثناء ، والاحتكار ، والاقطاعية منبثقةً من العمل نفسه ؛ وضع خاطيء وخطِر يُقيم قوة الأمة العمومية على التعاسة الخصوصية ، ويؤصّل عظمة الدولة ، في آلام الفرد . عظمة فاسدة ، تتحد فيها جميع العناصر المادية ، ولا يتسرب اليها أيا عنصر من العناصر المعنوية .

والشيوعية والقانون الخاص بالاراضي يعتقدان أنهما حلّا المشكلة الثانية . إنهما مخطئان . فالتوزيع الذي يقولان به يقتل الانتاج . إن التقسيم المتساوي يلغي التنافس . وبالتالي يلغي العمل نفسه . إنه توزيع يقوم به الجزار ، الذي يقتل ما يوزّعه . واذن فمن المتعذر ان نقف عند هذه الحلول الموهومة . إن توزيع الثروة لا يكون بقتلها .

إن المشكلتين يجب ان تُحلّا معاً لكي يكون حلّهما حسناً . يجب ان يوحّد الحلاّن بحيث يصبحان حلًا واحداً ليس غير .

إنك اذا حللت احدى المشكلتين فحسب تكون فينيسيا ، تكون انكلترة . سوف تكون لك مثل فينيسيا ، قوة اصطناعية ، أو تكون لك ، مثل انكلترة ، قوة مادية ؛ سوف تكون الغنيّ الشرير . سوف تموت بالعنف ، كما ماتت فينيسيا ، أو بالافلاس ، كما ستسقط انكلترة . والعالم سوف يدعك تموت وتسقط ، لان العالم يُسقط ويميت كلّ شيء غير منطوٍ إلا على الانانية ، وكل شيء لا يمثل للجنس البشري فضيلةً أو فكرة .

وواضح اننا لا نشير بهاتين الكلمتين ، فينيسيا وانكلترة ، الى الشعب

ولكن الى المنشآت الاجتماعية ؛ الى حكم الاقلية المفروض على الامم ، لا الامم نفسها . فالامم تتمتع دائماً باحترامنا ومشاركتنا الوجدانية . إن فينيسيا ، الشعب ، سوف تنبعث ؛ وانكلترة ، الارستوقراطية ، سوف تسقط . ولكن انكلترة ، الامة ، خالدةٌ ابداً . حتى اذا قلنا هذا تابع الكلام .

حُلوا المشكلتين ، شجعوا الغني ، إحموا الفقير ؛ الغوا البؤس ، ضعوا حداً للاستغلال غير العادل الذي يُنزله القويّ بالضعيف ، إكبحوا الحسد الطاغي الذي يستشعره ذلك الذي لا يزال على الطريق نحو ذلك الذي بلغ غايته ؛ عدّلوا اجور العمل في دقة وعلى نحو اخويّ ؛ اضيفوا التعليم المجاني والالزامي الى نموّ الطفولة ، واجعلوا العلم اساس الرجولة ؛ نمّوا العقل فيما تمسكون بالذراع ؛ كونوا شعباً قوياً وأسرة من الناس السعداء في آن معاً ؛ إجعلوا الملكية ديموقراطية ، لا بالغائها ، ولكن بتعميمها بحيث يصبح في ميسور كل مواطن بلا استثناء ان يكون مالكاً ، وهو شيء أيسر وأسهل مما يعتقد ، وبكلمتين اثنتين ، تعلموا كيف تُنتجون الثروة ، وتعلموا كيف توزعونها ، وعندئذ تتمّ لكم العظمة المادية والعظمة المعنوية ، متحدتين ، وعندئذ تكونون جديرين بان تدعوا انفسكم فرنسة .

ذلك ، باستثناء آراء بعض الفرق التي ضلّت السبيل ، وفوق تلك الآراء ، هو ما قالته الاشتراكية ؛ ذلك ما سعت الى تحقيقه ، وذلك ما رسمته في عقول الناس رسماً خفيفاً .

جهود رائعة ! محاولات مقدسة !

هذه المذاهب ؛ هذه النظريات ، هذه المقاومات ، هذه الضرورة غير المرتقبة التي تحمل رجل الدولة على التشاور مع الفلاسفة ، والبيّنات المشوّشة نصف المنظورة ، والسياسة الجديدة التي كان من الضروري وضعها منسجمة مع العالم القديم ولكنها مع ذلك غير متنافرة جداً مع

مثل الثورة الأعلى ؛ وذلك الوضع الذي يتعيّن فيه اصطناع لافاييت لمقاومة بولينياك * ؛ وحدْس التقدّم الشفاف في الفتنة ، وفي البيوت ، وفي الشارع ؛ والتنافس على التوازن من حوله ؛ وإيمانه بالثورة ؛ وربما ذلك التخلي المَرَضيّ الغريب الناشيء عن القبول الغامض لحقٍّ جازم أعلى ؛ ورغبته في ان يظلّ جزءاً من سلالته ؛ واعتزازه بأسرته ، واحترامه الصادق للشعب ، وإخلاصه هو – كل ذلك شغَل لويس فيليب على نحو مؤلم تقريباً ، حتى لقد كاد يرزح تحت اعباء العرش برغم قوته البالغة وشجاعته النادرة .

لقد استشعر تحت قدميه تفككاً رهيباً لم يكن ، مع ذلك ، تفتتاً الى هباء – بسبب من ان فرنسة كانت هي فرنسة اكثر من اي وقت مضى .

وغطّت الافق سحب داكنة . كان ظلٌ غريب يقترب شيئاً فشيئاً فينبسط فوق الناس ، فوق الاشياء ، فوق الافكار ، ظلٌ مقبل من ضروب السخط ومن ضروب النظُم . كان كل ما خُنق على عجل قد شرع يهتز ويختمر . وفي بعض الاحيان ، كان ضمير الرجل المخلص يحبس انفاسه ، اذ كان ثمة اضطراب في ذلك الهواء الذي امتزجت فيه المغالطات بالحقائق وارتعدت العقول في غمرة القلق الاجتماعي كاوراق الشجر عند اقتراب العاصفة . كان التوتر الكهربائي قوياً الى درجة جعلت اول عابر سبيل يضيء في بعض الأحيان ، على الرغم من انه قد يكون نكرة من النكرات . ثم إن الظلمة الغَسقية هبطت من جديد . وبين الفينة والفينة ، كانت الدمدمات العميقة البكماء تمكّن الناس من تقدير مبلغ البرق الذي انطوت عليه السحابة .

ولم يكد ينقضي على ثورة تموز عشرون شهراً حتى استُهلت سنة

* Polignac رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ووزير الشؤون الخارجية في نهاية عهد الملك شارل العاشر (١٧٨٠ – ١٨٤٧)

١٨٣٢ بظهر مداهمٍ متهدّد . فشقاء الشعب ؛ وافتقاد العمال للخبز ؛ وطرد بروكسيل لآل ناسوس* كما طردت باريس آل بوربون ؛ وعرضُ بلجيكة نفسَها على أحد الأمراء الفرنسيين وإعطاؤها لأحد الأمراء الانكليز ؛ وكراهية نيقولا الروسيةُ ؛ وقيام إبليسَيْن خلفنا ، فرديناند في اسبانية ، وميغويل في البرتغال ؛ والزلزال الايطالي ؛ وبَسْطُ ميترنيخ ذراعه فوق بولونيّ ، ومقاومة فرنسة للقوات النمسوية مقاومة عنيدة في آنكونا ، وانبعاث صوت مطرقة غريب مشؤوم ، من ناحية الشمال ، كانت تسمّر النعش على بولندة كرةً اخرى ؛ وتسديد النظرات الغضبى الى فرنسة تسديداً موصولاً من مختلف ارجاء اوروبة ؛ وتمثيل انكلترة دور الحليف المريب المستعد لأن يدفع كل من ينحني ، وينقضّ على كل من يسقط ؛ واحتماء اعضاء مجلس الشيوخ خلف بيكاريا لكي يأبى تسليم اربعة رؤوس الى القانون ؛ ومحوُ « زهرات الزنبق » عن عربة الملك ؛ وانتزاع الصليب عن كاندرائية نوتردام ؛ وانحلال لافاييت ؛ وافلاس لافيت ؛ وموت بنجامان كونستان فقيراً ؛ وموت كازيمير بيرييه من ضياع السلطان ؛ وانتشار الداء السياسي والداء الاجتماعي في عاصمتيْ المملكة في آنٍ معاً ، واحداهما مدينة الفكر ، والاخرى مدينة العمل ؛ فنشبت الحرب الاهلية في باريس ونشبت حرب الرقّ في ليون ، وانطلق من المدينتين الاثنتين وهجُ الأتون نفسه ؛ وتوقّد ارجوان فوهة البركان على جبين الشعب ؛ واجتياح التعصب ارجاء الجنوب ؛ وانتشار القلق في انحاء الغرب ؛ ومحاولة الكونتيس دو بيري تحريض مقاطعة لافانديه ؛ والدسائس ؛ والمؤامرات ؛ والانتفاضات ؛ والكوليرا — كل هذا اضاف الى ضجيج الافكار الكالح هديرَ الاحداث المظلم .

* Nassau اسرة اوروبية مالكة حكمت في النذرلند ، او الاراضي المنخفضة ، منذ عام ١٨١٥

٥

وقائع ينبثق منها التاريخ وينكرها التاريخ

وحوالى نهاية نيسان كان كل شيء قد أمسى أسوأ مما كان . كان الاختمار قد أمسى غلياناً . ومنذ سنة ١٨٣٠ كانت ثمة ههنا وهناك فتن صغيرة جزئية سرعان ما أُخمدت ، ولكن لتعاود الاندلاع من جديد — أمارات تؤذن بثورة دفينة واسعة . كان شيء فظيـــع في سبيله الى ان يرى النور . وكان في ميسور المرء ان يلمح أساريره ، ما تزال غير واضحة فهي لا تكاد تُرى ، لثورة ممكنة الوقوع . وتطلعت فرنسة الى باريس ؛ وتطلّعت باريس الى حيّ سان انطوان .

وكان حي سان انطوان ، الذي حميَ خفيةً ، قد شرع يغلي .

وكانت حانات شارع شارونّ ، برغم أن التقاء هـــذين النعتين يبدو غريباً وقد خُلعا على بيوت الخمر — نقول كانت تلك الحانات رصينة عاصفة .

ففيها كان مجرد وجود الحكومة موضع التساؤل . قد تناقشوا هناك على نحو علنيّ ، في ما اذا كان يتعين عليهم ان يقاتلوا او أن يلتزموا الهدوء . وكانت هناك حوانيت خلفية حيث أُخذ على العمال عهدٌ بأن « ينفروا الى الشوارع عند الصيحة الأولى ، وان يقاتلوا مهما تكن قوى العدو عظيمة . » وما إن أقسموا على ذلك حتى أطلق رجـل جالس في زاوية الحانة صوتاً مرناناً وقال : « فهمتَ ! لقد أقسمتَ ! » وفي بعض الاحيان كانوا يرتقون السلم الى غرفة موصدة ، وهناك كانت تمثل مشاهد تـكاد تكون ماسونية . كان يُطلب الى المنتسب الجديد ان يقسم على ان يقدّم الخدمة الى الجماعة كما يقدم الخدمة الى أبويه . تلك كانت الصيغة .

وفي الغرف الدنيـــا كان المرء يقرأ كراريس « تخريبية » . **لقـــد ازدروا الحكومة** ، كذلك قال تقرير سريّ من تقارير ذلك العهد .

وهناك كانت تُسمع كلمات مثل هذه : « انا لا اعرف اسماء الرؤساء . أما نحن فلن نعرف اليوم المضروب إلا قبل ساعتين . » وقال أحـــد العمال : « نحن ثلاثمئـة ، فليضع كل منا عشرة «سو» يجتمـع لدينا مئة وخمسون فرنكاً لصنع القذائـــف والبارود . » وقال آخر : « انا لا اطلب ستة اشهر ، أنا لا اطلب شهرين . ففي اقلّ من خمسة عشر يوماً سوف نقف أمام الحكومة وجهـاً لوجه . وبخمسة وعشرين الف رجـل نستطيع ان نصمد . » وقال آخر : « انا لا آوي الى الفراش ، لأني أصنع الخراطيش طول الليل . » وبين الفينة والفينة كان رجال « ذوو سيماء بورجوازية وثياب أنيقة » يُقبلون « فيُحدثون ارتباكاً » ؛ وكانت تبدو على وجوه اولئك الرجـال « أمارات السلطان » ، فهم يصافحون « الرجل الاكثر أهمية » بطريقـة خاصة وينصرفون . كانوا لا يمكثون غير عشر دقائق . وكان القوم يتبادلون كلـــمات ذات مغزى : « لقد نضجت الخطة ؛ لقد تمت المسألة . » و « كان كل من في المـكان يئز بهذا » اذا اردنا أن نستعير كلمات واحد من الشهـود بالحرف . وكانت الحماسة قوية الى درجة جعلت أحد العمال يصيح ، ذات يوم ، في حانة عمومية : « ليس عندنا سلاح ! » فأجابه احد رفاقه : « الجنود عندهم ! » محرّفاً بذلك ، على سبيل السخرية ، ولكن من غير ان يدري ، بيان نابوليون لجيش ايطالية . ويضيف احد التقارير قائلاً : « وعندما يكون لديهم شيء اكثر سرّيةً فانهم ما كانوا يتسارّون به في تلك المواطن . » ويكاد المرء يعجز عن ان يفهم ايّ شيء يستطيعون ان يُكتّموه بعد ان قالوا ما قالوه .

وكانت الاجتماعات دوريةً أحيانـــاً . وفي بعض تلك الاجتماعات لم يكن يجتمع اكثر من ثمانية نفرٍ أو عشرة نفر بحال من الاحـوال ،

وكان هؤلاء همُ همُ أبداً . وفي بعضها الآخر كان في ميسور كل امرىء أن يدخل اذا شاء ، وكانت الغرفة تغصّ بالوافدين حتى أنهم كانوا يضطرون الى الوقوف على الأقدام . كان بعضهم يشهد تلك الاجتماعات بدافع الحماسة وهوى النفس ، وكان بعضهم يشهدها « لأن طريقهم الى أعمالهم كانت من هناك » . وكالذي حدث في عهد الثورة ، كانت في تلك الحانات نسوة وطنيات كنّ يعانقن القادمين الجدد .

وثمة وقائع اخرى معبّرة كُشِف عنها الغطاء .

دخل رجل الى احدى الحانات ، واحتسى الخمر ، وخرج قائلاً : « ايها الخمار ، إن ثمن ما شربتهُ عندك سوف تدفعه الثورة . »

وفي احدى الحانات المواجهة لشارع شارونّ كانوا ينتخبون المفوضين الثوريين . وكان الاقتراع السري يُجرى في القبّعات .

وكان بعض العمال يجتمعون في منزل معلم من معلّمي المسايفة كان يعطي درساً في شارع كوتّ . كان هناك مجموعة اسلحة تذكارية مؤلفة من سيوف خشبية ، وعصيّ ، وهراوات ، وسيوف كليلة . وذات يوم نزعوا هذه السيوف الكليلة من أغمادها . وقال احد العمال : « نحن خمسة وعشرون ؛ ولكنهم لا يعتمدون عليّ لانهم ينظرون اليّ نظرتهم الى ماكينة » . وهذه الماكينة كانت في ما بعد « كينيسيه » .

وجميع الأشياء الصغيرة التي تمّت بعد تفكّر اكتسبت تدريجياً ضرباً من السيرورة العجيبة . فقد قالت امرأة ، تكنس عتبة بابها ، لامرأة اخرى : « منذ عهد طويل وهم منهمكون في صنع الخراطيش . وتُليت البيانات جهاراً على قارعة الطريق ، موجّهة الى حرس المديريات الوطني . وكان احد هذه البيانات يحمل هذا التوقيع : **بورتو ، تاجر خمر** .

وذات يوم ، وعند باب احد تجار الخمر في سوق لونوار ، ارتقى رجلٌ ذو لحية كثيفة ونبرة ايطالية مَعلَماً من معالم الطريق وقرأ في صوت عالٍ كلاماً مكتوباً بدا وكأنه صادر عن سلطة سرية . وتشكلت

حوله جماعات ، وصفقت هذه الجماعات . والتقطت المقاطـــع التي هزت الحشد ، اكثر ما يكون ودُونت في تلخيص ... « إن عقائدنا تُحجَّر ؛ إن بياناتنا تمزّق ؛ إن ملصقي إعلاناتنا يراقَبون ويُلقى بهم في السجن .. إن السقوط الذي طرأ ، منذ قريب ، على اسعار القطن قد جعل كثيراً من المعتدلين ينضمون الينا ... » و « ... ان مستقبـــل الشعوب يتكوّن في صفوفنا المغمورة ...» و « هذا هو فصْل المسألة : العمل او الرجعة ، الثورة او الثورة المضادة . ذلك لأننا في هذه الحقبـــة لم نعد نؤمن بقوة الاستمرار أو بالجمود . مع الشعب او ضد الشعب ، ذلك هو السؤال ، وليس هناك سؤال غيره . » و « ... يوم لا نعود نلائمكم ، اسحقونا . ولكنْ حتى ذلك الحين ، ساعدونا على المضي الى أمام . » كل ذلك في وضح النهار .

وكانت أعمال اخرى اكثر جسارة موضع ارتياب الشعب بسبب من جسارتها نفسها . ففي الرابع من نيسان ، ١٨٣٢ ، ارتقى عابر سبيـل المَعْلَم القائم عند زاوية شارع مارغريت وصـاح : « أنا بابوفيّ ! * » ولكن الشعب استروح تحت بابوف ريح « جيسكيه » .

وقال هذا الرجل في ما قاله :

— « فلتسقط الملكية الشخصية ! إن المعارضة اليسارية جبانة خائنة . فحين تريد ان تكون عـــلى صواب ، تبشر بالثورة . انها تصطنـــع الديموقراطية لـكي لا تُغلب ، وتنهج نهجاً ملكياً لـكي لا تقاتـــل . الجمهوريون وحوش ذات ريش . إحذروا الجمهوريـــين ، ايها العمال المواطنون . »

---

* نسبة الى بابوف Babeuf وهو ديماغوجي فرنسي (١٧٦٠ — ١٧٩٧) تآمر على حكومة الادارة ، مع نفر من اليعاقبة ، وحكم عليه بالموت ، ولكنه انتحر بضربة خنجر في اللحظة التي تقدم فيها الى المشنقة . وتعاليمه اقرب الى الشيوعيـــة وتعرف بالبابوفية .

فصاح عامل :

ـ « اسكت ، ايها المواطن الجاسوس ! »

ووضع ذلك حداً للخطبة .

ووقعت أحداث عجيبة .

وعند هبوط الليل التقى عاملٌ « برجل حسن البزة » قرب القناة فقال له هذا الرجل : « الى اين انت ذاهب ايها المواطن ؟ » فأجاب العامل : « سيدي ، انا لم اتشرف بمعرفتك . » فقال الرجل : « ولكني اعرفك معرفة جيدة . » ثم اضاف : « لا تخف ، انا مفوّض اللجنة . إنهم يرتابون في صلابة عقيدتك . وانت تعرف انك اذا أفشيت شيئاً ما فأنا لك بالمرصاد . » ثم صافح الرجلَ بطريقة خاصة ، وانصرف قائلًا : « سوف نلتقي ثانيةً في وقت قريب . »

وكان رجال الشرطة يسترقون السمع . فيتلقفون ، لا في الحانات فحسب ، ولكن في الشوارع ايضاً ، محاوراتٍ فريدة :

قال احد الحائكين لنجّار آبنوس :

ـ « حاول ان تدخل على جناح السرعة . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « سوف يجري شيء من اطلاق النار . »

وتبادل عابرا سبيلٍ رثا الثياب هذه العبارات التي تلفت الانتباه ، والطافحة بروح « جاكيّة * » واضحة :

ـ « من يحكمنا ؟ »

ـ « مسيو فيليب . »

ـ « لا ؛ البورجوازية . »

وتخطىء اذا حسبت اننا استعملنا لفظة الـ « جاكيّة » بقصد رديء . لقد كان الـ « جاكات » هم الفقراء .

* يقصد بالروح الجاكية jacquerie الروح الثوري .

وفي مناسبة اخرى ُسمِع عابرا سبيل يتحدثان فيقول احدهما للآخر :

— « عندنا خطة حسنة للهجوم . »

ومن حديث حميميّ دار بين اربعة رجال جالسين القرفصاء في خندق عند مفترق طرق « باب العرش » التُقطت هذه الكلمات ليس غير :

— « سوف يُبذل كلُّ جهد ممكن لكي لا يتنزّه في باريس بعد اليوم . »

الى من يعود الضمير في « يتنزه » ؟ غموض متوعّد .

وكان « الزعماء الرئيسيون » ، كما اعتادوا ان يقولوا في الضاحية ، يحيون في عزلة دائمة . واعتقد القوم ان اولئك الزعماء كانوا يجتمعون لتبادل الرأي في حانة قرب جسر سان اوستاش . وكانوا يحسبون ان رجلًا يدعى أوغ .... ، وهو رئيس جمعية اسعاف الخياطين ، شارع مونديتور ، كان يقوم بدور الوسيط الرئيسي بين الزعماء وبين ضاحية سان انطوان . ومع ذلك ، فقد كان الظلام الكثيف تكتنف هؤلاء الزعماء دائماً ، ولم يكن في ميسور ايما حقيقة واقعية ان تُضعف من الشهامة الفردية التي انطوى عليها هذا الجواب الذي أطلقه في ما بعد أحد المتهمين امام المحكمة المؤلفة من اعضاء مجلس الاعيان :

— « من هو رئيسك ؟ »

— « أنا لم اعرف احداً ، أنا لم أتبيّن احداً . »

ومع هذا ، فانها لم تزد على ان كانت مجرد كلمات ، كلمات شفافة ، ولكنها غامضة . فهي احياناً اشاعات في الهواء ، وهي أحياناً قيلٌ وقال . واكتُشفت بيّنات اخرى .

فقد كاشفَ احد النجارين بأن يسمّر في شارع روبي ألواحَ سياج يطوّق قطعة من الارض ينهض عليها منزلٌ رهن الانشاء ، فوجد في

تلك الارض قصاصة من رسالة ممزقـة كانت الاسطر التالية ما تزال مقروءةً فيها :

— « .... يجب على اللجنة ان تتخذ الاجراءات لمنع الانتساب الى الشُّعَب في مختلف الجمعيات . »

وفي احدى الحواشي :

— « لقد علمنا ان ثمة بنادق في رقم ٥ (مكرر) شارع ضاحية بواسونيير يبلغ عددها خمسة آلاف او ستة آلاف ، عند صانع اسلحة في احد الافنية . إن فصيلة الجيش غير مسلحة البتة . »

وكان الذي أثار النجارَ وجعله يُطلع جيرانه على تلك القصاصة انه التقط على بضع خطىً اخرى ورقة ثانية ، ممزقة هي أيضاً ، ولكنهـا اعظم دلالةً . وها نحن نُثبتها هنا بشكلها ذاته لما لهذه الوثائق الغريبة من قيمة تاريخية :

Q	C	D	E	
				احفظ هذه اللائحة عن ظهر قلب . وبعد ذلك مزقها . ان الرجـال الذين قُبلوا سوف يفعلون الشيء نفسه عندما تبلغهم الاوامر . خلاص واخوة ل u og al fe

والواقع ان اولئك الذين شاركوا ، آنذاك ، في المقاصـد السرية التي انطوى عليها هذا الكشف لم يدركوا إلا في ما بعد معنى هـذه الاحرف الكبيرة الاربعة : *quinturions* (قادة الخمسة) *centurions* (قادة المئة) ، *decurions* (قادة العشرة) ، *éclaireurs* (كشافون) ، ومعنى هذه الاحرف : *u og al fe* التي كانت دائمـاً تاريخاً ، والتي عنتْ هذا الخامس عشر من نيسان ١٨٣٢ . وتحت كل من هـذه

الاحرف الكبيرة ، دُوّنت اشارات ذات دلالة خاصة جداً . هكذا :

Q. Baunerel ٨ بنادق . ٨٣ خرطوشة . رجل موثوق .

C. Boubière بندقية صغيرة ؛ ٤٠ خرطوشة .

Q. Rollet سيف كليل . بندقية صغيرة . خمسمئة غرام بارود .

E. Teissier حسام . صندوق خرطوش . صائب .

Terreur ٨ بنادق . شجاع ، الخ .

واخيراً وجد هذا النجار ، في الارض المسيجة نفسها ، ورقة ثالثة دوّنت عليها بالقلم الرصاصي ، ولكنْ على نحو مقروء جداً ، هذه القائمة اللغزية :

اتحاد . بلانشار . آربر سيك ؛ ٦ .

بارّا . سواز . « سال أوكنت » .

كوسيوسكو . أوبري الجزار ؟

J. J. R.

كييوس غراكوس .

حقّ إعادة النظر . دوفون . أربعة .

سقوط الجيرونديين . ديرباك . موبوريه .

واشنطون . بنسون . بندة ... واحدة ؛ ٨٦ خرطو ...

المارسييز .

سيا .... الشعب . ميشيل . كيكامبوا . سابر .

هوش .

مارسو . افلاطون . آربر سيك .

فرصوفيا . تيلي ، المنادي على صحيفة « لو بوبولير » .

وأدرك البورجوازي المخلص الذي انتهت الى يده هذه اللائحة معناها . لقد بدا ان تلك اللائحة كانت القائمةَ الكاملة بشُعب المديرية الرابعـــة

من جمعية حقوق الانسان ، مع اسماء وبيوت رؤساء الشُّعَب . واليوم ، وقد أمست هذه الوقائع التي كانت مجهولة آنذاك مسألة تاريخ ليس غير ، نستطيع ان ننشرها في الناس . وينبغي ان نضيف ان تأسيس جمعية حقوق الانسان يبدو متأخراً عن العهد الذي وُجدت فيه هذه الورقة . ولعلها كانت مجرد مسوّدة .

وأياً ما كان ، فبعد الاشاعات والاقاويل ، وبعد الاشارات المدونة تبدأ الوقائع المادية في البروز .

وفي شارع بوبينكور ، عند تاجر من تجار البضائع المستعملة ، عُثر في درج احدى الخزائن على سبع صحائف من الورق الرمادي طُويت كلها على نحو متساوٍ بقَطْع الربع . وكانت هذه الصحائف تخفي ستة وعشرين مربعاً من الورق الرمادي نفسه طُويت على شكل خراطيش ، وبطاقة كُتب عليها :

ملح البارود	١٢ ليبرة .
كبريت	ليبرتان
فحم	ليبرتان ونصف
ماء	ليبرتان

ولقد نصّ التقرير الرسمي الذي وُضع إثر اكتشاف هذه الاشياء على ان رائحة بارود قوية انبعثت من ذلك الدرج .

وفيما كان احد البنّائين راجعاً الى بيته ، بعد ان اتمّ عمل النهار ، نسي رزمةً صغيرة على مقعد خشبي قرب جسر اوسترليتز . وحُملت هذه الرزمة الى مخفر الشرطة . وهناك فُتحت فاذا فيها حواران مطبوعان يحملان توقيع *Lahautière* ، وأغنية عنوانها : ايهـــا العمال ، تعاونوا ، وصندوق صفيحيّ مليء بالخراطيش .

وبينما كان أحد العمال يحتسي الخمر مع رفيق له دعاه الى ان يضع يده عليه ليرى مبلغ ما يستشعره من حرارة . ولكن الآخر استشعر تحت صدرته بندقية صغيرة .

وفي خندق بالجادة ، بين الـ « بير لاشيز » والـ « باربير دو ترون » ، وفي اشد النقاط انعزالاً ، اكتشف بعض الصبية ، وهم يلعبون ، تحت ركامٍ من النُّجارة والقُشارة ، كيساً يحتوي علـى قالب من قوالب القنابل ، واسطوانة خشبية لصنع الخراطيش ، وطاساً خشبياً فيه قليل من بارود القنص ، وبوتقة صغيرة تكشف داخلها عن آثار واضحة لرصاص مذوب .

وذات يوم ، في الساعة الخامسة صباحاً ، دخل بعض الشرطة منزل رجل يدعى باردون أمسى في ما بعد رئيساً لشعبة « باريكاد ميري » وقتل في ثورة نيسان ١٨٣٤ فوجدوه واقفاً غير بعيد عن سريره ، وفي يده خراطيش كان منهمكاً في صنعها .

وحوالى الفترة التي يستريح فيها العمال رُئي رجلان يلتقيان بين « باب بيكبوس » ، و « باب شارينتون » في زقاق صغير ضيق بين جدارين قرب بائع خمر كانت أمام بابه مائدة ورق لعب . واخرج أحدهما بندقية صغيرة من تحت ثوبه العمالي وقدّمه الى الآخر . ولحظةَ قدّمه اليه لمح ان العرق الناضح من صدره قد ألحق بعض الرطوبة بالبارود . فأعدّ فتيل البندقية الصغيرة واضاف شيئاً من البارود الى ما كان في خزانها منه . ثم افترق الرجلان .

وافتخر رجل يدعى غاليه – وقد قُتل بعدُ في شارع بوبورغ في أحداث نيسان – بأن عنده في المنزل سبعمئة خرطوشة وأربعاً وعشرين قداحةً .

وأبلغت الحكومة ذات يوم ان اسلحةً ومئتي الف خرطوشة قد وزعت في الحيّ . وبعد اسبوع وزعت ثلاثون ألف خرطوشة . ومن عجب ان الشرطة لم تستطع ان تعثر على واحدة . وقد جاء في رسالة

استولى عليها البوليس : « لن تنقضي فترة طويلة حتى يصبح في ميسور ثمانين الف وطني ان يحملوا السلاح خلال اربع ساعات . »

كان هذا الاختمار كله عمومياً ، بل ان في استطاعة المرء ان يقول انه كان هادئاً تقريباً . لقد جمعت الثورة الداهمة عاصفتها بسكون في وجه الحكومة . ولم تعوز الغرابة هذه الازمة ، التي كانت ما تزال سرية ولكنها لم تعد غير مدرَكة بالكلية . كان البورجوازيون يتحدثون مع العمال في هدوء ، حديث الاستعدادات المتخذة . كانوا يقولون : « كيف حال الثورة ؟ » بالنبرة عينها التي يتساءلون فيها : « كيف حال زوجتك ؟ »

وتساءل تاجر اثاث ، في شارع مورو : « حسناً ، متى ستهجمون ؟ »

وقال بائع آخر :

— « سوف تهجمون في وقت قريب ، أنا ادري . منذ شهر كنتم خمسة عشر الفاً ، وها انتم الان خمسة وعشرون الفاً » — وقدم بندقيته ، وقدّم جار له بندقية صغيرة كان يبتغي ان يبيعها بسبعة فرنكات .

وأياً ما كان ، فقد تعاظمت الحمّى الثورية . ولم تخلُ منها ايما بقعة في باريس وفي فرنسة كلها . لقد نبض الشريان في كل مكان . ومثل تلك الاغشية ، التي تنشأ عن بعض الالتهابات والتي تتشكل في الجسم البشري ، شرعت شبكة الجمعيات السرية تنتشر في البلاد . فمن جمعية « اصدقاء الشعب » العلنية والسرية في آن معاً ، انبثقت « جمعية حقوق الانسان » التي ارخت جدولاً من جداول اعمالها هكذا : **بلوفيوز ، السنة الاربعون من التقويم الجمهوري** ، والتي قدّر لها ان تعمّر حتى بعدَ قرارات محكمة الجنايات القاضية بحلها ، والتي لم تتردّد في ان تطلق على شُعبها مثل هذه الاسماء ذات المغزى :

الحراب .

ناقوس الخطر .
مدفع النفير .
القلنسوة الفريجية *
٢١ كانون الثاني .
المتشردون .
الصعاليك .
الى الامام سِر .
روبسبير .
المستوى .
Ça ira **

وانتجت « جمعية حقوق الانسان » « جمعيةَ العمل » . وكان فاقدو الصبر هم الذين فارقوا تلك الجمعية واندفعوا الى امام . وحاولت منظمات اخرى ان تتزود بالمتطوعين من الجمعيات الأمّ الكبرى . وتشكى المتطوعون قائلين انهم يخضعون بذلك لجذب متواتر . وهكذا نشأت « الجمعية الغاليّة » و « اللجنة المنظّمة للبلديات » . وهكذا نشأت ايضاً جمعيات لـ « حرية الصحافة » و ا « الحرية الفردية » و ا « تثقيف الشعب ضد الضرائب المباشرة » . ثم نشأت « جمعية العمال المنادين بالمساواة » التي انقسمت الى ثلاث شعب : شعبة المساواتيين ، وشعبة الشيوعيين ، وشعبة الاصلاحيين . ثم « جيش الباستيل » ، وهو ضرب من الجماعة ذات التنظيم العسكري ، اربعة رجال يقودهم عريف ، وعشرة يقودهم رقيب ، وعشرون يقودهم ملازم ثانٍ ، واربعون يقودهم ملازم اول ؛ ولم يكن

* نسبة الى فريجيا ، وهي بلد قديم في اواسط آسية الصغرى . والقلنسوة الفريجية *bonnet phrygien* قلنسوة حمراء تشبه تلك التي كان يعتمر بها الفريجيون القدماء ، وقد شاعت في فرنسة عهد الجمهورية الاولى بوصفها رمزاً للحرية .
** أغنية ثورية سبق التعريف بها .

ثة قط اكثر من خمسمئة رجل يعرف بعضهم بعضاً . منظمةٌ امتزج فيها الحذر بالجرأة ، وبدت وكأنها موسومةٌ بعبقرية البندقية (فينيسيا) . وكانت للجنة المركزية القائمة في الرأس ، ذراعان اثنتان ، هما « جمعية العمل » و « جيش الباستيل » . وتحركت بين هذه الجمعيات الجمهورية جمعيةٌ تقول بالشرعية ، وتدعى « جمعية فرسان الوفاء » . ولكنها شُجبت ونُبذت ظِهرياً .

وتفرعت الجمعيات الباريسية الى المدن الرئيسية . فكانت لليون ، ونانت ، وليل ، ومرسيليا جمعياتها الحاملة اسماء « حقوق الانسان » ، و « الكاربوناري » ، و « الرجال الاحرار » . وكانت لـ « أيكس » جمعية ثورية دُعيت « جماعة الكوغورد » . لقد سبق أن لفظنا هذه الكلمة .

وفي باريس لم تكن ضاحية سان مارسو أقلّ صخباً ، أو تكاد ، من ضاحية سانت انطوان ، ولم تكن المدارس اقلّ اهتياجاً من الضواحي . وكانت احدى القهوات في شارع سان هياسينت ، وغرفتا الشراب والتدخين في « سيت بيليار » ، شارع ماتورين سان جاك ، بمثابة ملتقى يجتمع فيه الطلاب . فكانت جمعية « أصدقاء الالفباء » المتصلة بـ « التضامنيين » في آنجيه ، وجماعة الكوغورد في ايكس ، تجتمع ، كما رأينا من قبل ، في مقهى « موزين » . وكان هؤلاء الشبان انفسهم يجتمعون ايضاً ، كما قد رأينا ، في « مطعمٍ حانةٍ » قرب شارع مونديتور يحمل اسم كورينت . وكانت هذه الاجتماعات سرية . وكانت غيرها عامة جهد الطاقة ، وفي ميسورنا ان ندرك مدى جرأة اولئك القوم من هذا المقطع من الاستجواب الذي تمّ في احدى المحاكمات التي تلت : — « أين عُقِد هذا الاجتماع ؟ » — « في شارع دو لا بيه » . — « في بيت مَنْ ؟ » — « في الشارع . » — « ايّ الشُّعَب كانت هناك ؟ » — « كانت هناك شعبة واحدة . »

— « أيّها ؟ » — « شعبة الكتاب الموجز » — « مَنْ كان زعيمها ؟ »
— « أنا » . — « أنت أصغر سناً من ان تتخذ وحدك ذلك القرارَ
الخطير بمهاجمة الحكومة . فمن أين جاءتك تعليماتك ؟ » — « من اللجنة
المركزية . »

وكان الجيش في الوقت نفسه مرهقاً وناقماً مثل افراد الشعب ، كما
اثبتت بعدُ تلك الحركات التي شهدتها بيلفور ، ولونيفيل ، وإيبينال .
لقد اعتمدوا على السرية الثانية والخمسين ، على السرية الخامسة ، والثامنة ،
والسابعة والثلاثين ، وعلى السرية العشرين الخفيفة . وفي بورغونْيْ وفي
مدن الجنوب غُرست « شجرة الحرية » ، يعني عموداً تعلوه قلنسوة حمراء .

كذلك كان الوضع .

وكانت ضاحية سانت انطوان ، كما قلنا منذ البدء ، هي التي جعلت
ذلك الوضع ملموساً وأكدت عليه اكثر مما فعل أيّ جزء آخر من
اجزاء الشعب . كان وجع الخاصرة في تلك الناحية .

هذه الضاحية العتيقة ، الغاصة بالسكان مثل قرية غمل ، الناشطة ،
الشجاعة ، الغضوب مثل قفير نحل ، كانت تلتهب بالتوقّع والرغبة في
الانتفاض . كان كل شيء في اضطراب ، ومع ذلك فأن العمل لم ينقطع
بسبب من هذا . وليس في ميسور شيء ان يعطي فكرة عن مظهر
المسائل ذاك ، المائر بالحيوية ، القاتم في آنٍ معاً . إن في تلك الضاحية
ضروباً من الشِدة مخبوءةً تحت سقوف العلالي ، وإن في تلك الضاحية
أيضاً مواهب متقدة ونادرة . وإنما في موضوع الشدّة والذكاء ، بخاصة ،
يكون من الخطر ان تتماسّ الأطراف القصوى .

وكانت لضاحية سانت انطوان ، الى ذلك ، اسباب اخرى للاهتياج ؛
ذلك انها كانت تستشعر عواقب الازمات التجارية ، والافلاسات ،
والاضرابات ، والبطالة ، الملازمة للاضطرابات السياسية الكبرى . وفي
عهد الثورة ، يكون البؤس هو السبب والنتيجة في وقتٍ واحد .

فالضربة التي يسدّدها ترتدّ اليه . والحقّ أن اهل تلك الضاحية ، الزاخرين بالفضيلة الفخور ، المفعمين الى أبعد الحدود بالحرارة الكامنة ، والمستعدين ابداً لنزاعٍ مسلح ، السريعين الى الانفجار ، المهتاجين ، البعيدي الغور ، المرهقين ، بَدَوْا وكأنهم ينتظرون سقوط شرارةٍ ما ، ليس غير . وكلما طافت بعض الشرارات بالأفق ، تحدوها ريح الحوادث ، لا نستطيع الا أن نفكر بضاحية سانت انطوان وبالمصادفة الفظيعة التي أقامت مخزنَ بارود الآلام والافكار ذاك ، على ابواب باريس .

وخمارات « ضاحية انطوان » ، التي اشير اليها غير مرةٍ في اللمحة السابقة ، ذات شهرة تاريخية . ففي أزمان الاضطراب تصبح كلماتها أدعى الى السكر من خمرها . ان ضرباً من الروح النبوئية وعبْقاً من أعباق المستقبل ليطوفان هناك ، فتعظُم بها القلوب ، وتكبُرُ النفوس . إن خمارات ضاحية انطوان لتشبهُ حانات جبل آفانتين ، المشيدة فوق كهف « سيبيل » والموصولة بانجاءات عميقة مقدسة ، حانات كادت موائدها ان تكون أثافيّ ، حيث كان القوم يحتسون ما دعاه اينيوس * **خمر العرّافات** .

وضاحية سانت انطوان مستودع أناس . والاضطراب الثوري يحدث فيها صدوعاً تجري من خلالها السيادة الشعبية . وهذه السيادة قد تُوقع بعض الاذى ؛ انها ترتكب اخطاء مثل أيّ شيء آخر . ولكنها ، حتى حين تضلّ السبيل ، تظلّ جليلةً . وفي ميسورنا ان نقول فيها ما يقال في السّيكلوب ** الاعمى : *Ingens* *** .

ففي عام ٩٣ ، كانت تنطلق من ضاحية سانت انطوان حشود وحشية حيناً ، وعُصب بطولية حيناً ، تبعاً للفكرة السائدة وما اذا

* Ennius احد الشعراء الرومان الاقدمين (٢٤٠ ق . م - ١٦٩ ق . م)
** السيكلوب Cyclope في الاساطير اليونانية لفظ يطلق على بعض العمالقة الذين ليس لهم غير عين واحدة في منتصف الجبين .
*** في اللاتينية ، وتعني : ضخم ، هائل ، عظيم .

كانت صالحة او طالحة ، وتبعاً لليوم وما اذا كان يوم تعصب او يوم حماسة .

وحشية ! يجب ان نشرح هذه الكلمة . ما كانت غاية اولئك الرجال المتميزين غيظاً ، الذين انقضوا على باريس العتيقة المخرّبة ، في الايام التكوينية من عهد الفوضى الثورية ، ممزّقي الثياب ، صائحين ، مهتاجين في ضراوة ، رافعين عصياً في اطرافها رصاص ، شاهرين حراباً عالية ؟ كانوا يريدون ان يضعوا حداً للمظالم ، ولضروب الطغيان ، وللحرب ، ويطالبون بالعمل للرجل ، بالعلم للطفل ، بالرحمة الاجتماعية للمرأة ، بالحرية ، بالمساواة ، بالاخاء ، بالخبز للجميع ، بالفكر للجميع ، بجعل العالم جنة عَدْن ، بالتقدّم . وهذا الشيء المقدس ، الخيّر ، اللطيف — التقدّم — طالبوا به مروّعين ، أنصاف عراة ، وفي ايديهم نبابيت ، وفي أفواههم زئير ، بعد أن ضاقت بهم المذاهب وعصف بهم الحنق . كانوا وحوشاً ، أجل ، ولكنْ وحوشَ الحضارة .

لقد نادوا بالحق في ضراوة . لقد ارادوا ، ولو من طريق الخوف والارتعاد ، ان يسوقوا الجنس البشري عنوةً الى الجنة . لقد بَدَوْا وكأنهم برابرة ، ولقد كانوا منقذين . لقد طالبوا بالضياء تحت قناع الليل .

وإزاء هؤلاء الناس ، القساة — نحن نقر بذلك — والفظيعين ، ولكنِ القساة والفظيعين في سبيل الخير ، كان ثمة رجال آخرون مبتسمون ، مزركشون ، مذهّبون ، مزدانون بالعصائب ، ذوو جوارب حريرية ، وريش أبيض ، وقفافيز صفراء ، رجال يصرّون في رقة ، وقد انحنوا فوق مائدة مخملية عند زاوية موقد رخاميّ ، على صيانة الماضي ، والاحتفاظ بالقرون الوسطى ، بالحق الالـهي ، بالجهل ، بالعبودية ، بعقوبة الاعدام ، بالحرب ، ممجّدين في همس وفي تلطّف كلّاً من الحسام ، والحطب المعدّ لاحراق المجرمين ، والمشنقة . أما نحن ، فلو اضطررنا

الى ان نختار إما برابرة المدنية ، أو متمدني البربرية إذن لاخترنا البرابرة .

ولكن ثمة اختياراً آخر ممكناً ، والحمد لله . إن أيما سقوط مفاجىء ليس ضرورياً ، سواء أكان ذلك الى أمام او الى وراء . لا استبداد ، ولا ارهاب . نحن نرغب في التقدم في انحدار رفيق .

لقد قضى الله بذلك . ان تلطيف المنحدرات هو جمّاع السياسة الالـٰهية .

٦
آنجولراس وأعوانه

وحوالى هذه الفترة أجرى آنجولراس – نظراً لوشك وقوع بعض الأحداث – ضرباً من الاحصاء العجيب .

كانوا كلهم يشهدون ذلك الاجتماع السري في مقهى الموزين .

وقال آنجولراس مازجاً كلماته ببعض المجـــازات نصف الملغزة ، ولكن الحافلة بالمغزى :

– « من الخير أن نعرف أين نحن ، وعلى من نستطيع ان نعتمد . اذا أردنا مقاتلين فيتعين علينا أن نصنعهم . ينبغي ان نملك الشيء الذي به نضرب . ذلك لن يعود علينا بأذىً ما . إن عابري السبيل خليقون بأن يُنطَحوا في الطريق ، اذا كان ثمة ثيران ، اكثر مما يُنطحون اذا لم يكن ثمة شيء من ذلك . فلنحصِ القطيعَ قليلاً . كم عددنا ؟ نحن لا نستطيع ان نؤجل هذا العمل الى غد . فالثوريون يجب ان يكونوا دائماً على استعداد ، وليس لدى التقدم وقت يضيعه . حذار المفاجآت ، حذار أن نؤخذ على حين غرة . يجب ان نلقي نظرة على مـا خِطناه لنرى أمتماسك هو أم لا . وهذه المسألة ينبغي ان تدرس أعمق الدرس

اليوم . كورفيراك ، يتعين عليك ان تتولى أمر الخبراء الفنيين . انـه يوم انطلاقهم . اليوم الاربعاء . فويي ، انت سوف ترى رجـــال الـ « غلاسيير » ، اليس كذلك ؟ وكومبوفير قــد وعدني بالذهاب الى بيكبوس . ان هنـاك احتشاداً رائعـــاً . وباهوريـل سوف يزور الـ « ايـستراباد » . بروفير ، ان الفتور قد شرع يــدبّ في نفوس الماسونيين . ولـسوف تجيئنا ببعض الاخبار من محفل شارع « دو غرونيل سان هونوريه » . وجولي سوف يمضي الى مستشفى دوبويترين ، ويجسّ لنا نبض مدرسة الطب . وبوسوويه سوف يقوم بجولة صغـيرة في قصر العدل ويتحدث مع المحامين المتدرّجين . أما أنا فسأتولى أمر الكوغورد . »

فقال كورفيراك :

– « واذن فقد سُوّيَ كل شيء . »

– « لا . »

– « ما الذي بقي اذن ؟ »

– « شيء هام جداً . »

فتساءل كومبوفير :

– « وما هو ؟ »

فأجاب آنجولراس :

– « باب مَين . »

وبدا آنجولراس لحظةً وكأنـه مستغرق في التفكير ، ثم استأنف الكلام :

– « ان في « باب مين » ناحتي رخام ، ورسامـين ، ومساعدين في استوديوهات فن النحت . انها اسرة شديدة الحماسة ، ولكنها عرضةٌ للفتور وخمود الهمة . ولكني لا ادري ما الذي اصابهم منذ فترة قصيرة . انهم يفكرون في اشياء اخرى . انهم يذبلون . انهم ينفقون اوقاتهم في لعب الدومينو . يجب ان يقصد اليهم شخص مـــا ، ويتحدث اليهم

قليلاً ، وفي حزم . انهم يلتقون في محل ريشفو . وفي الامكان الاجتماع بهم هناك بين الظهر والساعة الواحدة . يجب ان ننفخ على هذه الجمرات . وكنت قد اعتمدت في هذا على ماريوس الشارد الذهن ذاك ، اذ هو على الجملة طيب ، ولكنه لم يعد يأتي البتة . اني في حاجـــة الى مَنْ ارسله الى « باب مين » . لم يبقَ عندي احد . »

فقال غرانتير :

– « وانا ؟ انا هنا . »

– « انت ؟ »

– « انا . »

– « انت ، ترشد الجمهوريين ؟ انت ، تدفيء – باسمِ المبادىء – قلوباً دبّ اليها البرد ؟ »

– « ولمَ لا ؟ »

– « امن الممكن ان تصلح انت لشيء ؟ »

فقال غرانتير :

– « اجل ، اني احس بطموح غامض الى ذلك . »

– « انت لا تؤمن بشيء . »

– « انا اؤمن بك . »

– « غرانتير ، اتريد ان تؤدي اليّ خدمة ؟ »

– « كلفني بأيّ شيء . بمسح حذاءك . »

« حسناً ، لا تقحم نفسك في شؤوننا . أفق من مرارتك . »

– « انت ناكر للجميل ، يا آنجولراس . »

– « سوف يكون خليقاً بك ان تذهب الى « باب مـــين » ! سوف تكون قادراً على ذلك ! »

– « انا قادر على ان اهبط شارع دي غري ، ان اجتاز ساحة سان ميشال ، ان اسير منحرفاً في شارع مسيو لو برنس ، ان اسلك

شارع فوجيرار ، ان اعبر الـ « كارْم » ، ان انعطف نحــو شارع آمّاس ، ان اصل الى شارع « شيرش ميدي » ، ان اخلـّف ورائي « مجلس الحرب » ، ان اهرول خلال شارع « فيَـيْ تويلري » ، ان اوسع الخطى في الجادة ، ان اتبع مرتفع « مين » ، ان ادخل الى محل ريشفو . انا قادر على ذلك . ان حذائي قادر على ذلك . »

– « اتعرف اولئك الرفاق الذين يجتمعون عند ريشفو معرفة جيدة ؟»

– « معرفة بسيطة . انا نتخاطب بضمير المفرد ، ليس غير . »

– « ما الذي ستقوله لهم ؟ »

– « سوف احدثهم عن روبسبيير ، وحق الالـه . عن دانتون . عن المبادىء . »

– « انت ! » .

– « أنا . ولكنك لا تنصفني ، فحين أحاول ذلك أكون فظيعاً . لقد قرأتُ برودوم . انا اعرف « العقـد الاجتماعي » ، وانا احفظ دستور السنة الثانية عن ظهر قلب . « إن حرية المواطن تنتهي حيث تبدأ حرية مواطن آخر » . أو تحسبني بهيمةً ؟ إن في درجي ورقة مالية قـديمة من اوراق عهد الثورة . حقوق الانسان ، سيادة الشعب ، يا سلام ! بل اني هيبريّ بعض الشيء ، انا استطيـع أن أردّد ، طوال ست ساعات متواصلة ، والساعة في يدي ، بعض الاشياء الرفيعة . »

فقال آنجولراس :

– « إلزم الجدّ . »

فأجابه غرانتير :

– « انا وحشيّ . »

وفكر آنجولراس بضع ثوانٍ ، وأومأ ايماءة من يتخذ قراراً . وقال في رصانة :

– « غرانتير ، لا مانـــع عندي من أن أجربك . سوف تذهب الى

باب مين . »

كان غرانتير يحيا في غرفة مؤثثة على مقربة دانية من مقهى الموزين. فغادر المكان ، ثم رجع بعد خمس دقائق . لقد مضى الى غرفته ليرتدي صدرة روبسبييرية .

وقال وهو يدخل المقهى ، ويحدّق الى آنجولراس :

-- « حمراء . »

ثم إنه ضغط ، براحة يده الضخمة ، على طرفي صدرته القرمزيين ، فوق صدره .

واقترب من آنجولراس ، وهمس في اذنه :

— « كن مطمئناً . »

وهرس قبعته في عزم ، وانصرف .

وبعد ربع ساعة ، هُجرت الغرفة الخلفية من مقهى الموزين . كان اصدقاء الالفباء جميعاً قد ولوا ، كلٌ في سبيله ، وكل الى عمله . وكان آنجولراس ، الذي احتفظ لنفسه بالاتصال بالكوغورد ، قد خرج بعدهم كلهم .

وكان أعضاء جماعة « كوغورد ايكس » الذين في باريس يجتمعون في ذلك العهد في سهل إيسي ، بأحد المقالع المهجورة الكثيرة في تلك الناحية من باريس .

وفي طريقه الى ذلك الملتقى ، استعرض آنجولراس في ما بينه وبين نفسه الوضع العام . كانت خطورة الأحداث واضحةً للعيان . وحين تكون الأحداث ، التي تسبق بعض الامراض الاجتماعية الخفية ، تتقدّم في تثاقل فأن اقلّ تعقُّد خليق بأن يوقفها ويعرقل سيرها . ظاهرة تنبثق منها الانهيارات والولادات الجديدة . ولمح آنجولراس انتفاضة نيرةً تحت اذيال المستقبل . ومن يدري ؟ فلعل اللحظة كانت تقترب . الشعب ينتزع حقوقه من جديد ، يا له مشهداً جميلاً ! الثورة تعاود السيطرة ، في جلال على

فرنسة ، وتقول للعالم : التتمة غداً ! كان آنجولراس محبوراً . كان الأتون محمى ، وكانت لديه في تلك اللحظة نفسها سلسلة متفجرة من الاصدقاء منتثرة في باريس كلها . كان يركّب في أفكاره - بفصاحة كومبوفير الفلسفية الثاقبة ، وحماسة فويي المحبّة للبلدان جميعاً ، وتوقد ذهن كورفيراك ، وظرافة باهوريل ، وكآبة جان بروفير ، وعلم جولي ، وسخرية بوسوويه - ضرباً من المفرقعة الكهربائية التي تلتهب من اقطارها جميعاً في آن معاً . إنهم كلهم منهمكون في العمل . وليس من ريب في أن الثمرة سوف تتكافأ مع الجهد ، وكان هذا حسناً . وقاده ذلك الى التفكير في غرانتير وقال مخاطباً نفسه : « قف ، ان « باب مين » يكاد يحملني على تنكُّب طريقي ، فما ضرّ لو ذهبتُ حتى محل ريشفو ؟ فلنلق لحظة على ما يعمله غرانتير ، والى اين قد انتهى . »

وأعلن ناقوس فوجيرار الساعة الواحدة عندما وصل آنجولراس الى غرفة التدخين في محل ريشفو . ودفع الباب ، ودخل ، طاوياً ذراعيه ، تاركاً الباب يتذبذب بحيث يصفع كتفيه ، ونظر الى الغرفة الملأى بالموائد ، والرجال ، والدخان .

كان صوت يجلجل في هذا الضباب ، فيجيبه في حدّة صوتٌ آخر . كان غرانتير يحاور خصماً وجده هناك .

وكان غرانتير جالساً تجاه وجه آخر ، الى مائدة من رخام سانت آنّ التي نُثرت عليها النخالة ، ورُقشت بحجارة الدومينو ، وكان يضرب هذا الرخام بجمْع كفه ، وتلك هي الكلمات التي سمعها آنجولراس :

- « ستة مزدوجة . »

- « اربعة . »

- « يا للخنزير ! انا لا استطيع ان العب . »

- « لقد متّ ، اثنان . »

- « ستة . »

– « ثلاثة . »
– « آصّ . »
– « الدور دوري في الوضع أولاً . »
– « اربـع نقاط . »
– « بصعوبة . »
– « لك . »
– « لقد ارتكبتُ خطأً جسيماً . »
– « أنت تلعب جيداً . »
– « خمسة عشر . »
– « سبعة اضافية . »
– « هذا ما يجعل مجموعي اثنين وعشرين . (يفكر) اثنين وعشرين . »
– « انت لم تتوقع الستة المزدوجة ، ولو فزتُ بها منذ البدء لتغير اتجاه اللعبة كلها . »
– « اثنان مرة اخرى . »
– « آص . »
– « آص . حسناً ، خمسة . »
– « ليس عندي شيء . »
– « انت الذي وضعت اولاً ، على ما أعتقد ؟ »
– « نعم . »
– « بياض . »
– « ألديه حظ ؟ آه ! ان لديك حظاً واحداً ! (يستغرق في تفكير حالم) اثنان . »
– « آصّ . »
– « لا خمسة ولا آصّ . هذا مزعج لك . »
– « دومينو . »
– « الى الجحيم ! »

الكتاب الثاني



إيبونين

١

حقل القبرة

كان ماريوس قد شهد الخاتمة غير المتوقعة التي انتهى اليها الكمين الذي أحاط جافير بنبأه . ولكن ما كاد جافير يغادر البيت العتيق ، ناقلاً أسراه في ثلاث عربات ، حتى انسلّ ماريوس ، بدوره الى الخارج . لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء . فمضى ماريوس الى غرفة كورفيراك . ولم يعد كورفيراك ذلك القاطن الهادىء النفس في الحي اللاتيني . كان قد انتقل الى شارع الزجاج « لاسباب سياسية » ، وكان هذا الحي واحداً من تلك الاحياء التي أولعت الثورة في ذلك العهد بالاستقرار فيها . وقال ماريوس

لكوفيراك : « لقد جئت لانام عندك . » وسحب كورفيراك حشيّة من سريره الذي كان يحتوي على اثنتين ، ووضعها على الارض ، وقـال : « دونك ما ترقد عليه . »

وفي اليوم التالي ، حوالى الساعة السابعة صباحاً ، رجع ماريوس الى البيت العتيق ، فدفـع اجرة الغرفة وما كان لـ « مام بوغون » في ذمته ، واستأجر كارّةً يدوية حمّلها كتبه ، وسريره ، وطاولته ، وخزانته ذات الادراج ، وكرسيّيه الاثنين ، وغادر الغرفة من غير ان يترك عنوانه الجديد ، حتى اذا رجع جافير بعد الظهر ليستجوب ماريوس عن احداث الليلة البارحة لم يجد غير « مام بوغون » التي اجابته بقولها : « لقد انتقل ! »

كانت « مام بوغون » مقتنعة بأن ماريوس كان بطريقة ما شريكاً للصوص الذين ألقي القبض عليهم الليلة البارحة . وصاحت وسط بوّابات الحيّ : « من كان يستطيع ان يتخيل ذلك ؟ شابّ يكاد يحسبه الناظر فتاةً ! »

وكان ثمة سببان دفعا ماريوس الى الانتقال على هذا النحو الخاطف . اولهما أنه أمسى يخـاف ذلك البيت حيث رأى عن كثب وفي مختلف مراحلها الأدعى الى التقزّز والأشدّ ضراوةً قباحةً اجتماعية هي أشنع من الغنيّ الشرير : الفقيرَ الشريرَ . وثانيهما أنه لم يكن يرغب في ان يشهد المحاكمة التي سوف تتلو تلك الحادثة ، في اغلب الظن ، وفي ان يُساق الى الادلاء بشهادته ضد تيناردييه .

وظنّ جافير ان الشاب ، الذي كان قد نسيَ اسمه ، أخذه الذعرُ فولى هارباً ، أو لعله لم يَعُدْ الى غرفته لحظةَ وقع الكمين ؛ ومع ذلك فقد بذل بعض الجهد في البحث عنه ، ولكنه لم يوفّق .

وتصرّم شهر ، ثم تبعَهُ آخر . كان ماريوس لا يزال يحيـا مع كورفيراك . ولقد علم من محامٍ متدرّج يتردّد دائماً الى أروقة قصر

العـــدل أن تيناردييه كان أسير السجن الانفرادي . وكلّ يوم اثنين ، كان ماريوس يرسل الى كاتب سجن لافورس خمسة فرنكات لكي يُسلمها الى تيناردييه .

وإذْ لم يبق مع ماريوس أيما مال ، فقد دأب على استعارة الفرنكات الخمسة من كورفيراك . كانت هي اول مرة يستدين بهـا ، في حياته . وكانت هذه الفرنكات الخمسة الدورية لغزاً مزدوجاً بالنسبة الى كورفيراك الذي كان يقدّمها ، وبالنسبة الى تيناردييه الذي كان يتلقّاهـا . وقال كورفيراك في ما بينه وبين نفسه : « الى مَنْ تذهب هذه الفرنكات الخمسة ؟ » وتساءل تيناردييه : « من الذي يبعث اليّ بهـذه الفرنكات الخمسة ؟ »

والى هذا ، فقد كان ماريوس محزوناً كسير الفؤاد . كان كل شيء قد غرق ، في الظلام ، كرةً اخرى . إنه لم يعد يرى أيما شيء امامه . وغاصت حياته ، من جديد ، في ذلك اللغز الذي كان يتيه خـــلاله متلمّـساً طريقه تلمساً . وكان قد رأى ، لحظةً ، وعلى مقربة دانية في ذلك الظلام ، الفتاة الجميلة التي أحبها ، والشيخ الذي بدا وكأنه ابوها ، هذين الكائنين المجهولين اللذين كانا شوقَهُ الاوحد ، وأمله الاوحـــد في الحياة . ولحظةَ خُيّل اليه أنه قد عثر عليهما ذهبت ريحٌ بهذه الظلال كلها . ولم تنطلق ايمـــا شرارة يقينٍ أو حقيقةٍ حتى من تلك الصدمة الرهيبة الى ابعد الحدود ، ولم يكن ايما حَدْسٍ ممكناً . فهو لم يعرف حتى الاسمَ الذي كان قد ظن انه عرفه . فليس من ريب انه لم يعد اورسولا . والقبرة كانت مجرد لقب . وما الذي ينبغي أن يقوله في الرجل العجوز ؟ أكان يتهرّب حقاً من وجه البوليس ؟ وعاودت ذهنه صورةُ ذلك العامل الاشيب الذي كان ماريوس قـــد لقيه في جوار الانفاليد . وتراءى له وكأن من الجائز ان يكون ذلك العامل ومسيو لوبلان رجلًا واحداً . أكان متقنّعاً ، اذن ؟ لقد كانت لهذا الرجل

جوانب بطولية ، وجواب ملتبسة . لمَ لمْ يلتمس النجدة ؟ لمَ فرّ ؟ هل كان - نعم أو لا - والدَ الفتاة الشابة ؟ واخيراً ، هل كان حقاً ذلك الرجلَ الذي حسِبَ تيناردييه انه عرفه ؟ امن الممكن ان يكون تيناردييه مخطئاً ؟ اسئلة كثيرة ولا منفذ . صحيح ان هـــذا كله لم يسلب فتاة اللوكسومبورغ شيئاً من سحرها الملائكيّ . شقاء مضّ ؛ كان في قلب ماريوس هوى ، وكان فوق عينيه ظلام . لقد ُدفع ؛ لقد ُجذِب ؛ ولقد أمسى عاجزاً عن الحركة . لقد تلاشى كل شيء ، ما خلا الحب . بل لقد خسر حتى إلهام الحب وايماضاته الخاطفة . ففي الاحوال العادية ، يكون من دأب هذه الشعلة التي تحرقنا أن ُتنيرنا أيضاً بعضَ الشيء ، وان تـفح بعض الضوء النافع في الخارج . وحتى نصائح الهوى الخفية لم يعد ماريوس يسمعها . إنه لم يقل في ذات نفسه قط : ولمَ لا اذهب الى هناك ؟ ولمَ لا اجرب هذا ؟ إن تلك التي لم يَعُدْ في مقدوره ان يسميها أورسولا كانت في مكانٍ ما من غير شك . ولكن شيئاً لم يهد ماريوس الى الوجهة التي يتعين عليه ان يلتمسها فيها . لقد تلخصت حياته كلها ، الآن ، في كلمتين : شك مطلق وسط ضباب لا سبيل الى اختراقه . أما أن يراها مرةً ثانية - أن يراها هي - فذلك ما كان يطمح اليه دائماً ، ولكنه لم يَعُدْ يرجوه منذ اليوم .

وزاد الطين بلة ان الفاقة ألمّت به من جديد . لقد استشعر تلك الريحَ المثلوجة على مقربة منه ، من امامه ومن ورائه . وخلال هذه الآلام كلها ، وطوالَ فترة أمست الآن مديدة ، انقطع عن العمل ، وليس شيء اشدّ خطراً من العمل الذي ينقطع المرء عنه . إنه عادةٌ مفقودةٌ . عادة يسهل هجرها ، ولكن يصعب استئنافها .

إن مقداراً بعينه من الاحلام شيء صالح ، مثل مخدّر ُيعطى بجرعة رصينة . انه يلطّف حمّى الدماغ اثناء العمل ، وقد تكون حـــادةً

احياناً ، ونحدث في العقل مجاراً رقيقاً رطباً يصحح خطوط التفكير المحض الشديدة الخشونة ، ويملأ الفجوات والثغرات هنا وهناك ، ويشدّ بعضها الى بعض ، ويفلّ زوايا الافكار الحادة . ولكن الاسترسال في الاحلام يَغمر ويُغرق . وويلٌ لكل عاملٍ بعقله يجيز لنفسه ان يهبط هبوطاً كاملاً من التفكير الى الاستغراق في الاحلام ! انه يحسب انه سوف يعاود الارتفاع في يسر ، وانه يقول سيان هذا وذاك على اية حال . خطأ !

التفكير كدحُ العقل ، أما الأحلام فهي متعتُهُ . والاستعاضة عن التفكير بالاستغراق في الاحلام يعني عدم التمييز بين السم والغذاء .

وكان ماريوس ، فيما نذكر ، قد شرع يخطو في هذه السبيل . كان الهوى قد داهمه ، وكان قد انتهى آخر الأمر الى القذف به في خيالات لا غور لها ولا هدف . إنه ما عاد يغادر غرفته إلا ليمشي ويحلم . ولادةٌ كسول . لجة صاخبة وراكدة . وفوق هذا ، فبقدْر ما ينقص العملُ تكثر الحاجات . تلك قاعدة . فالانسان ، في الحالة الحالمة ، يكون بطبعهِ مسرفاً مترَفاً . والعقل المسترخي لا يصبر على حياة الضيق والحرمان . فهناك ، في هذا الضرب من الحياة ، بعض الخير ممتزجاً بالشر ، لأنه اذا كان الاتراف وخيم العاقبة ، فان السخاء سليمٌ صالح . ولكن الفقر الذي يتميز بالكرم والنبل ، والذي لا يأتي عملاً ما ، مصيره الى الهلاك . إن موارده لتنضب ، وان حاجاته لتتدفق .

منحدر مشؤوم يُدَحرَج من أعلاه الأشدُّ قوة والاكثر نبلاً ، كما يُدحرج الاشد ضعفاً والأكثر فجوراً ، سواء بسواء . منحدر يقود الى احدى هاتين الحفرتين : الانتحار أو الجريمة .

وبسبب من انطلاقك كل يوم ابتغاء الاستغراق في الاحلام يجيء يوم تلقي بنفسك فيه في اللجة .

ان الاستغراق في الاحلام ينتج رجالاً مثل « إيسكوس »

و « لوبرا » .

كان ماريوس يهبط هذا المنحدر في خطى بطيئة ، وقد سُمّرت عيناه على تلك التي لم يَعُدْ يراها البتة . والواقع ان ما دوّناه هنا يبدو غريباً ، ومع ذلك فهو صحيح . ان ذكرى الكائن الغائب تزداد التماعاً في ظلمة الفؤاد . وكلما تعاظمت غيبته تعاظم تألقه . والنفس اليائسة المظلمة ترى ذلك الضوء في أفقها ؛ كوكب الليل الباطني . هي — ذلك كان كل تفكير ماريوس . انه لم يحلم بشيء آخر ، لقد استشعر على نحو غامض ان بذلته العتيقة قد أمست بذلةً غير ملائمـــة على الاطلاق ، وان بذلته الجديدة قد أضحت بذلة عتيقة ؛ ان قمصانه قد تهرأت ، وان قبعته قد تهرأت ، وان حذاءه قد تهرأ ، يعني ان حياته قد تهرأت . وقـال في ذات نفسه : « ليتني أوفق ، فقط ، الى رؤيتها مرة ثانية قبـل أن أموت . »

ولم تبق له غير فكرة عذبة مفردة هي أنها أحبّته ، أن عينيهـــا أنبأتاه بذلك ؛ أنها لم تعرف اسمه ولكنها عرفت روحه ، وأنهـا قـد تكون — حيثما وُجدت ، وأياً ما كان ذلك الموطن الخفي — ما تزال تحبه . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت تحلم به كما كان يحلم بها . واحياناً ، في تلك الساعات الغامضة التي يعرفها كل قلبٍ عاشق ، كان يخاطب نفسه — وليس ثمة ما يدعوه الى غير الأسى ومع ذلك فهو يستشعر هزةَ ابتهاج غامضة — قائلاً : ان افكارها هي التي تفِدُ علي ! ثم يضيف : وأفكاري تصل اليها ايضاً ، ربما !

وهذا الوهم ، الذي هزّ له رأسه بعد لحظة ، وُفّق مع ذلك الى ان يلقي في نفسه شعاعاً كان يشبه الأمل في بعض الاحيان . وبـين الفينة والفينة ، وبخاصة في ساعة المساء تلك التي توقع في نفوس الحالمين اعظم الحزن ، كان يسفح على دفتر أفرده لتلك الغاية أصفى الاحلام التي أفعم الحبّ بها ذهنه ، واشدّها لا شخصية ، واكثرها مثالية . وكان يدعو

ذلك « الكتابة اليها » .

وينبغي ان لا نحسب أنه خولط في عقله . على العكس تماماً . لقد َفقَدَ القدرة على العمل ، والسيرَ ُقدُماً نحو هدف محدّد ، ولكنه كان اقوى بصيرةً واشدّ استقامةً من اما وقت مضى . لقد رأى ماريوس — على ضوء هادىء وحقيقي ، وان يكن ضوءاً غريباً — ما الذي كان يجري تحت ناظريه ، حتى الوقائع التي لا أهمية لها ، والناس الذين لا شأن لهم . كان يقول الكلمة الحقّ في كل شيء ، بضرب من الضنى الصادق والتجرد الأبيض القلب . كانت محاكاته للاشياء ، وقد انفصلت عن الأمل أو كادت ، تحلّق وتحوم في الجوّ .

ولم يفته شيء ، في ذلك الوضع العقلي ، ولم يخدعه شيء ، ولقد بَصُرَ ، في كل لحظة ، بأعماق الحياة ، والانسانية ، والقَدَر . وسعيدٌ حتى في الآلام المبرّحة ، هو ذلك الذي وهبه الله نفساً جديرةً بالحب وبالتعاسة ! ومن لم يرَ اشياء هذا العالم ، وقلوبَ الناس على هَدْيٍ من هذا الضوء المزدوج فأنه لم يرَ شيئاً من الحق ولم يعرف منه شيئاً .

ان النفس التي تحب والتي تتألم هي نفسٌ بلغت المنزلة السّنية .

وايّاً ما كان ، فقد تصرمت الايام ، واحداً بعد آخر ، من غير ان يبرز شيء جديد . بيد انه خيّل اليه ان المسافة القاتمة التي بقي عليه ان يجتازها كانت تنكمش مع كل لحظة . وظنّ انه قد لمح ، في وضوح ، حافة المنحدر الوعر الذي لا يسبر غوره .

وكرّر مخاطباً نفسه :

— « ماذا ! ألن أوفق الى رؤيتها قبيل ذلك ! »

اذا صعّدتَ في شارع سان جاك ، فدَعْ باب المدينة جانباً ، واسلك الجادة الداخلية العتيقة الى اليسار ، فترةً قصيرة ، تصِلْ الى « شارع الصحة » ، ثم الى شارع « لا غلاسيير » ؛ وقبيل وصولك الى نهر

ال « غوبلين » الصغير ، تجد حقلاً ما ، هو على مدار جادات باريس الطويلةِ الرتيبةِ البقعةُ الوحيد التي تغري « رويسدايل » * بالقعود .

ان ذلك الشيء الخفيّ الذي تنبثق منه الملاحة قائمٌ هناك ، مرجٌ اخضر تخترقه حبال مشدودة شداً محكماً تُجفف عليها في وجه الريح بعض الخرق البالية ؛ مزرعة عتيقة خصّصت للبقول يرجع عهدها الى ايام الملك لويس الثالث عشر ، وقد اخترقت نوافذ العلالي سطحها الواسع ، على نحو تعوزه البراعة ؛ سياج من اوتاد محطمة ؛ بركة بين شجرات الحور ؛ نساء ؛ ضحكات ؛ أصوات ؛ وعند الافق « البانتيون » ، وشجرة الصمّ البكم ، و « وادي النعمة الصغير » ، اسود ، مكتّلاً ، غريب الهيئة ، ممتعاً ، بهيّاً ؛ وفي الخلفية كانت ذرى ابراج نوتردام المربعة العابسة .

واذ كان المكان جديراً بالمشاهدة ، فأن احداً ما كان يقصد الى هناك . وكثيراً ما كانت تنقضي خمس عشرة دقيقة من غير ان تمرّ بالمكان عربة او كارّة .

واتفق ذات يوم ان قادت ماريوس نزهاتهُ المتوحدة الى تلك البقعة المنبسطة قرب تلك البركة . وفي ذلك النهار تبدّى فوق الجادة شيء نادر : عابر سبيل . وسأل ماريوس عابرَ السبيل هذا ، وقد استبدّ به على نحو غامض سحرُ البقعة الموشك ان يكون موحشاً :

– « ما اسم هذا المكان ؟ »

فأجابه عابر السبيل :

– « انه حقل القبّرة . »

ثم اضاف :

---

* Ruysdael رسام هولندي عرف بتصوير المشاهد الطبيعية والريفية (١٦٢٨ – ١٦٨٢) .

– « ههنا قتل اولباخ راعية ايفري . »

ولكن ماريوس لم يسمع شيئاً بعد كلمة « القبّرة » . والواقع ان ثمة مثل هذه التخثّرات المفاجئة في الحالة الحالمة ، تلك التخثرات التي تكفي كلمةٌ واحدةٌ لأحداثها . ان العقل كله ليتخثّر فجأة حول فكرة واحدة ، فلا يعود قادراً على ادراك ايما شيء آخر .

كانت القبرة هي الصفة التي حلت في اعماق كآبة ماريوس محلّ اورسولا . وقال ، في ضرب من ذلك الذهول غير العقلي الملازم لامثال هذه المناجاة الخفية : « هذا حقلها . سوف اعرف هنا أين تسكن . »

كان ذلك سخفاً ، ولكنّ ماريوس كان اعجز من ان يقاومه .

وطفق يفِدُ كل يوم على « حقل القبرة » .

٢
تكوّن الجراثيم الجنيني في حضانة السجون

كان انتصار جافير في بيت غوربو العتيق قد بدا كاملاً ، ولكنه لم يكن كذلك .

ففي المحل الأول ، وكان ذلك هو موضوع أسفهِ الرئيسي ، لم يوفق جافير الى جعل الاسير أسيراً . والمعتدى عليه الذي يولي فراراً يثير الريبة اكثر من القاتل . ولعل هذه الشخصية – التي حرص قطاع الطرق على أمرها بوصفها لقيةً نفيسة – أن تكون غنيمة لا تقلّ نفاسةً في نظر السلطات عنها في نظر قطاع الطرق .

والى هذا ، فان مونبارناس كان قد افلت من جافير .

لقد تعيّن عليه ان ينتظر فرصة اخرى ليضع يده على ذلك الشاب الابليسي المتأنق . والحق ، ان مونبارناس التقى بأيبونين ، التي كانت تقوم بالحراسة تحت اشجار الجادة ، فذهب بها ، مؤثراً ان يكون « نيمورين » مع البنت ، على ان يكون « شيندرهانّ » مع الأب . وحسناً فعل . كان مطلق السراح . أما ايبونين فان جافير كان قد ألقى القبض عليها ؛ تعزية تافهة . والتحقت ايبونين بآزيلما في الـ « مادلونيت » .

واخيراً ، ففي الرحلة من بيت غوربو العتيق الى سجن « لا فورس » فرّ كلاكسو ، احد المعتقلين الرئيسيين . ولم يدر احد كيف وقع ذلك . ولم « يفهم » الضباط والجنود هذا الحادث . لقد تحوّل الى بخار ، لقد انسلّ من بين الاغلال ، لقد سال من خلال شقوق العربة . كانت عربة الاجرة مصدوعة ، وكان قد ولى الادبار . ولم يدر احد ما يقول الا ان كلاكسو لم يكن هناك حين انتهوا الى السجن . كان ثمة إما جِنّ وإما شرطة . هل ذاب كلاكسو في الظلام مثل رقاقات الثلج في الماء ؟ هل كان ثمة إغضاء خفيّ من جانب الضباط ؟ أكان ذلك الرجل ذا صلة باحجية النظام والفوضى المزدوجة ؟ أكان ذا مركز مشترك مع النكث بالعهد ومع الردع والزجر ؟ أكان لأبي الهول ذاك قائمتان أماميتان في الجريمة ، وقائمتان خلفيتان في محلّ السلطة ؟ ولم يتقبل جافير هذه الازدواجات البتة ، ولقد قفّ شعره لمثل هذه الامكانيات . ولكن فصيله كان ينتظم مفتشين آخرين ، لعلهم ان يكونوا اكثر منه اطلاعاً - وإن كانوا مرؤوسيه - على اسرار مديرية الشرطة ، ولقد كان كلاكسو مجرماً ضخماً الى حد يرشحه لأن يكون ضابط شرطة ناجحاً . إن كون المرء على مثل هذه الصلات الحميمة المشعوذة بعالم الظلام لشيء ممتاز بالنسبة الى قطع الطرق ، ورائع بالنسبة الى

حفظ الأمن . ان ثمة مثل هؤلاء الاوغاد ذوي الحدّين . وأياً ما كان ، فقد ُفقد كلاكـو ، ولم ُيعثر له بعدُ على أثر . وبدا جافير مهتاجاً ، لذلك ، اكثر منه مندهشاً .

أما ماريوس ، « ذلك المحامي الغرّ الذي استبدّ به الذعر في اغلب الظن » ، والذي نسي جافير اسمه ، فلم يبالِ به جافير الا قليـلًا . والى هذا ، فقد كان محامياً ، والمحامون ُيعثر عليهم دائماً كرة اخرى . ولكن أكان هو مجرد محامٍ ؟

وبدأت المحاكمة .

واستنسب قاضي التحقيق ان لا يضع احد افراد عصابة « المعلم مينيت » في الحجيرة المنفردة طمعاً في بعض الثرثرة . وكان ذلك الرجل هو بروجون ، ذا الشعر الطويل الذي وجدناه في شارع « بيتي بانكييه » . لقد ُترك في محكمة شارلمان ، وُعهِـد الى الحرس في مراقبته جيداً .

وهذا الاسم ، بروجون ، هو احدى ذكريات سجن « لا فورس » . ففي ذلك الفناء الرهيب المسمّى « البناء الجديد » والذي دعته الادارة فِنـاء القديس برنار ، ودعاه اللصوص « ُحفرة الأسود » ، وعلى ذلك الجدار المغطّى بالقذر والطين ، الناهض عن اليسار الى أعلى السقوف ، قرب باب حديدي عتيق صدىءٍ يقود الى الكنيسة السابقة التي كانت ملحقةً بفندق « لا فورس » الدوقيّ ، والتي أمست الآن مهجعاً لقطاع الطرق ، كان لا يزال في امكان المرء ان يرى ، قبل اثنتي عشرة سنة ، ضرباً من الباستيل منقوشاً في الحجر ، على نحو أخرق ، بواسطة مسمار من المسامير ، وتحته هذا التوقيع :

بروجون ، ١٨١١

لقد كان بروجون ١٨١١ والدَ بروجون ١٨٣٢ .

وكان هذا الأخير ، الذي لم يُلمح في كمين غوربو الا لمحاً فتىً قويّ البنية ، واسع الحيلة ، بالغ الحذاقة ، ذا مظهر منذهلٍ نائح . وبسبب

من هذا المظهر المنذهل اختاره القاضي ، معتقداً ان جدواه في محكمة شارلمان خليقة بان تكون اعظم من جدواه في الجبيرة المنفردة .

ان اللصوص لا يكفّون عن ممارسة اللصوصية لمجرّد انهم في قبضة العدالة . انهم لا يستشعرون الارتباك بمثل هذه السهولة . وكون المرء في السجن بسبب من جريمة ما لا يحول دون الشروع في جريمة اخرى . انهم فنانون لهم لوحة معروضة في الصالون ومع ذلك فهــم ينصرفون بكليتهم الى انجاز اثر جديد في مقرّ عملهم الفني .

لقد بدا وكأن السجن أوقع الذهول في نفس بروجون . كان يُرى ساعات كاملة احياناً في محكمة شارلمان ، واقفاً قرب نافذة البائــع ، محدّقاً كالأبله الى لائحة الاسعار القذرة ، البادئة بـ « ثوم ، ٦٢ سنتيماً » والمنتهية بـ « سيجار ، خمسة سنتيات » . وفي بعض الاحيان كان يمضي وقته في الارتجاف ، صارّاً اسنانه ، قائلاً انه محموم ، ومتسائلاً ألم يشغر احد الاسرّة الثمانية والعشرين في قاعة المحمومين .

وفجأة ، حوالى النصف الثاني من شباط ، ١٨٣٢ ، اكتُشف ان بروجون ، ذلك الفتى الناعس ، قد وجّه بواسطة السعاة الرسميين ، لا باسمه هو ولكنْ باسم ثلاثة من رفاقه ، ثلاثةَ رسائل مختلفة كلفتــه خمسين « سو » ، وهو مبلغ هائل لفت انتباه مدير السجن .

ودرستِ المسألة . وبمراجعة لائحة النفقات الخاصة بالرسائل والملصقة في غرفة استقبال المحكوم عليهم ، تبين ان الخمسين « سو » قد انفقت على الوجه التالي : ثلاثة مرسلين ؛ واحد الى البانتيون ، عشرة « سو » ؛ وواحد الى « وادي النعمة » ، خمسة عشر « سو » ؛ وواحد الى « باب غرونيل » ، خمسة وعشرون « سو » . وكانت هذه اغلى نفقة مدونة في اللائحة كلها . واتفق انه في البانتيون ، ووادي النعمة ، وبــاب غرونيل كانت تقوم بيوت ثلاثة من مطوّفي الليل الاشدّ خطراً في تلك المنطقة : كرويدونييه ، المعروف ببيزارو ، وغلوريو المحكوم عليــه

بالاشغال الشاقة سابقاً ، وباركاروس" الذي لفتت هذه الحادثة عيون الشرطة اليه . لقد حسبوا انهم حزروا ان هؤلاء الرجال على صلة بعصابة « المعلم مينيت » التي القي القبض على اثنين من زعمائها : بابيه وغولوميه . ولقد قدّروا ان رسائل بروجون ، وقد بعث بها لا الى بيوتٍ بعينها ولكنْ الى اشخاص كانوا ينتظرونها في الشارع ، ينبغي ان تكون اشعارات بجريمة مبيّتة . وكانت ثمة ادلة اخرى . لقد القوا القبض على ثلاثة من المطوفين بالليل ، واعتقدوا انهم احبطوا مكيدة بروجون اياً ما كانت .

ولم ينقض اسبوع ، تقريباً ، على اتخاذ هذه الاجراءات حتى رأى حارس كان يراقب ذات ليلة مهجع السجناء في الجزء الادنى من « البناء الجديد » ، لحظةَ كان يلقي كستناءته في صنـــدوق الكستناء ـ وتلك هي الوسيلة التي يصطنعونها للتأكد من أن الحرس يقومون بواجبهم على النحو الأتم ؛ فكلّ ساعة ، ينبغي ان تلقى كستناءة في كل من الصناديق المسمّرة الى ابواب المهاجع ـ نقول ان حارساً رأى آنذاك ، من خصاص باب المهجع ، بروجون قاعداً في فراشه يكتب شيئاً على ضوء العاكسة . ودخل الحارس ، وألقي بروجون في الحبس المظلم شهراً ، ولكنهم لم يعثروا على ما كان قد كتبه . ولم يعرف البوليس شيئاً اضافياً .

بيد ان الامر الثابت هو ان « سائق عربة » قد قُذف بـه ، في اليوم التالي ، من محكمة شارلمان الى « حفرة الأسود » من فـــوق البناية ذات الادوار الخمسة الفاصلة ما بين الساحتين .

ان السجناء يخلعون على كرة الخبز المجبولة في فـنّ ، والمرسلة الى ايرلندة ، يعني فوق سطوح السجن ، من فِناء الى فناء ، اسم « سائق العربة » . أما أصل الكلمة فهو هذا ، فوق انكلترة ؛ من ارض الى ارض ، الى ايرلندة . وهذه الكرة تقع في الفناء ، ومن يلتقطهـــا يفتحها ، فيجد فيها رسالة موجهة الى سجينٍ ما في الفناء . فاذا اتفق ان

عثر عليها احد السجناء حملها الى من وجِّهت اليه . واذا اتفق ان وقعت في يد احد الحراس ، او في يد واحد من اولئك السجنـــاء المرتشين الذين يُدعون في السجون العادية خرافاً ، ويدعون في سجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ثعالب ، حُمِلت الى المكتب وسلّمت الى الشرطة .

وهذه المرة بلغ « سائق العربة » المكان الذي وُجّه اليه ، عـــلى الرغم من ان الشخص الذي حملت اسمه كان آنذاك في المحبس المنفرد . ولم يكن المرسل اليه غير بابيه ، احد زعماء « المعلم مينيت » الاربعة .

كان « سائق العربة » ينطوي على ورقة مكوّرة لم يُخطّ عليها غير هذين السطرين :

« بابيه ، هناك مهمة ينبغي ان يُنْهَضَ بها في شارع بلوميه . سياج من قضبان في حديقة . »

ذلك هو الشيء الذي كان بروجون قد كتبه في الليل .

وعلى الرغم من الجواسيس ، ذكوراً واناثاً ، فقد وجد بابيه وسيلة مكنته من ارسال الرقعة من « لا فورس » الى « لا سالبيتريير » الى « صديقة حميمة » له كانت سجينةً هناك . وهذه الفتاة سلّمت الرقعة ، بدورها ، الى اخرى كانت تعرفها ، وتدعى مانيون ؛ وكان البوليس يراقب مانيون هذه مراقبة شديدة ، ولكنها لم تكن قد اعتُقِلتْ بعد . وكانت لمانيون هذه ، التي رأى القارىء اسمها من قبـــل ، صلات بتيناردييه وزوجته سوف نشير اليها في ما بعد ؛ وكان في ميسورها ، من طريق الاجتماع بأيبونين ، ان تؤلف جسراً يصل ما بـــين « لا سالبيتريير » و الـ « مادلونيت » .

واتفق في تلك اللحظة ذاتها ان أطلق سراح ايبونين وآزيلما بعد ان وجد القاضي الذي استنطق تيناردييه ان ليس ثمة ما يدعو الى ابقائهما في السجن .

وحين غادرت ايبونين السجن قدّمت اليها مانيون التي كانت تنتظرها

عند باب الـ « مادلونيت » رسالة بروجون الى بابيه ، وكلفتها ان تستطلع المسألة .

وشخصت ايبونين الى شارع بلوميه ، واهتدت الى السياج والحديقة ، فنظرت الى المنزل ، وتجسّست ، ولاحظتْ ؛ وبعد بضعة ايام حملت الى مانيون ، التي كانت تسكن في شارع كلوشبيرس قطعة بسكويت حملتها مانيون الى خليلة بابيه في « لا سالبيتربير » . والبسكويتة ، في رمزية السجون القاتمة ، تعني : « ليس ثمة ما يُعمل . »

بحيث ، لم ينقضِ على ذلك اقلّ من اسبوع حتى تبادل بروجون وبابيه هذه الكلمات ، وقد التقيا في الطريق من « لا فورس » ، بينا كان احدهما ذاهباً الى « الاستنطاق » والآخر عائداً منه :

— « حسناً ؟ شارع ب ؟ » كذلك تساءل بروجون .

فأجابه بابيه :

— « بسكويتة . »

تلك كانت خاتمة جنين الجريمة الذي وضعه بروجون في سجن « لا فورس » .

بيد أن ذلك الاجهاض أدى الى نتائج غريبة بالكلية عن برنامج بروجون . ولسوف نرى هذه النتائج .

إننا كثيراً ما نعقد خيطاً ونحن نحسب أننا نُحكم وثاق غيره .

٣
شبح يتبدى للأب مابوف

لم يعد ماريوس يزور احداً ، ولكنْ كان يتفق له في بعض الأحيان ان يلتقي بالأب مابوف .

ففيا كان ماريوس يهبط هذه الدرجات المشؤومة التي يستطيع المرء ان يدعوها سلم الكهوف ، والتي تقود الى مواطن لا نور فيها حيث نسمع السعداء يمشون فوقنا ، كان مسيو مابوف يهبطها بدوره ايضاً .

كان كتاب « مجموع نباتات كوتيريتز » قد كسد كساداً كاملاً . وكانت التجارب على نبات النيل قد اخفقت في حديقة اوسترليتز الصغيرة المعرّضة تعريضاً رديئاً . ولم يوفق مسيو مابوف الى اكثر من زراعة بعض النباتات النادرة التي تحب الرطوبة والظلّ . بيد انه لم ييأس ، برغم ذلك . كان قد فاز بزاوية من الارض معرّضة تعريضاً حسناً في « حديقة النباتات » لكي يجري فيها « على حسابه » تجاربه حول نبات النيل . ومن اجل ذلك ، كان قد وضع الواح مجموعته النباتية في مصرف الرهن . وكان قد قصر فطور صباحه على بيضتين ، وكان يترك احداهما لخادمته العجوز التي لم يدفع اليها اجرها منذ خمسة عشر شهراً . وكثيراً ما كان فطوره ذاك هو وجبة الطعام الوحيدة التي يصيبها في اليوم . ولم يعد يضحك ضحكته الطفلية تلك ، لقد أمسى شكساً ، فهو لا يستقبل احداً من الزائرين . وكان ماريوس على حقّ في الاقلاع عن الألمام بداره . واحياناً ، ساعةَ كان مابوف يمضي الى « حديقة النباتات » ، كان العجوز والشاب يلتقيان في « جادة المستشفى » . ولم يكونا يتبادلان الحديث ، بل يهزان رأسيهما في كآبة . انه لشيء مرير ان تعبر بنا لحظةٌ يُفرّق البؤس فيها ويفصل ! كانا من قبل صديقين ، فأمسيا الآن عابرَيْ سبيل .

كان الكتبيّ ، رواايال ، قد توفي . وغدا مسيو مابوف لا يعرف ، منذ اليوم ، غير كتبه ، وحديقته ، ونيله . كانت هذه هي الأشكال الثلاثة التي اتخذتها السعادة ، والمتعة ، والأمل . لقد غدا ذلك حياته . وقال في ذات نفسه : « اذا وفقت الى صنع ُكراتي الزرقاء فسوف أمسي غنياً ، ولسوف أسترجع ألواحي المعدنية من مصرف الرهن ،

واجعل « مجموعة نباتاتي » رائجة من طريق خداع السذّج والافراط في التمدّح والاعــلان في الصحف ، ولسوف اشتري – وانا اعرف من أين – نسخة من كتاب « فن الملاحة » لبيير دو ميدين ، مع رسوم محفورة على الخشب ، طبعة عام ١٥٥٩ » . وفي غضون ذلك عمــل طوال النهار في مسكبته النيلية ، حتى اذا هبط الليل ارتدّ الى منزله ليروي حديقته ، ويقرأ كتبه . وكان مسيو مابوف يشرف ، آنذاك ، على الثمانين من عمره .

وذات ليلة ، تبدّى له شبح غريب .

كان قد انقلب الى منزله والشمس لمّا تغبْ بعــد . وكانت الأم بلوتارك ، المعتلة الصحة ، مريضة طريحة الفراش . وكان قد تعشّى على عظم بقي فيه بعض اللحم وكسرة من خبز وجدها على طاولة المطبخ . وكان قد جلس على مَعْلم حجريّ حلّ في حديقته محلّ المقعد .

وقرب هذا المقعد ، نهض – على طريقة الرياض القديمة – شبه كوخ مُنشأٍ من ألواح خشبية محطمة اتخِذ من دوره الاول بيت للارانب ، ومن دوره الثاني مستودع للفاكهة . ولم يكن في الدور الاول ارانب . ولكنْ كان ثمة بعض التفاح في مستودع الفاكهة . بقيةٌ من ذخيرة الشتاء .

وكان مسيو مابوف قد شرع يتصفح ويقرأ ، بمساعدة نظارتيه ، في كتابين كانا يسحرانه ، وكان قد استغرق فيهما ، وهو شيء اكثر اهمية في مثل سنه . وكان حيــاؤه الفطري قد جعله مستعداً لتقبل الخرافات . وكان اول هذين الكتابين رسالة الرئيس دولانكر الشهيرة « حول تقلب الابالسة » ، وكان ثانيهما كتاب « موتور دو لا روبوديير » البالغ قطعهُ قطعَ ربع الطلحية : « حول أبالسة فوفير وغيلان لا بييفر » . وكان هذا الكتاب الاخير اكثر إمتاعاً له ، بسبب من أن حديقته كانت من قبلُ احدى البقاع التي ألفتْها الغيلان . وكان الغسق قد شرع يبيّض كل شيء فوق ، ويسوّد كل شيء تحت . وفيما كان

الاب مابوف يقرأ ، ومن فوق الكتاب الذي امسك بـه في يده ، راح يتأمل نباتاته ويتأمل ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، دفلىً * رائعة كانت احدى تعزياته . كانت قد تصرّمت اربعة ايام من القيـــظ ، والريح ، والشمس ، من غير ان تسقط خلالها قطرة مطر . لقد التوت سوق النباتات ، وانحنت براعمها ، وتساقطت اوراقها ، فقد كانت هذه كلها في حاجة الى ماء ، وكانت الدفلى ، على الخصوص ، كثيبة الفؤاد ، فقد كان الاب مابوف واحداً من اولئك الذين يؤمنـون بأن للنباتات نفوساً . وكان رجل العجوز قد عمل طوال النهار في مسكبته النيلية . كان الاعياء يستبدّ به ، ومع ذلك فقد نهض ، ووضع كتابيه عـــلى المقعد وتقدّم ، منحنياً الى امام ، وفي خطىً مترنحة ، نحو البئر . ولكنه ما إن امسك بالسلسلة حتى عجز عن ان يسحبها الى حدّ يمكنه من ان يفكّها . وعندئذ استدار ، ورفع عيناً تنضح بالألم المرير نحو السماء التي كانت غاصة بالنجوم .

كان للعشية ذلك الصفاء الذي يدفن احزان المرء تحت ابتهاج سرمدي ؛ وإن يكنْ حِداديّاً على نحو غريب . وكان المساء يؤذن بانه سيكون جافاً كالنهار ، سواء بسواء .

وقال الرجل العجوز في ذات نفسه :

— « النجوم في كل مكان ! لا سحابة في السماء مهما تكن صغيرة ، لا قطرة مطر ! »

وعاد رأسه ، الذي كان قد ارتفع لحظة ، فسقط على صدره .

ورفعه كرة اخرى ، ونظر الى السماء متمتماً :

— « قطرةً من ندى ! قليلًا من الرحمة ! »

وحاول مرة ثانية ان يحلّ سلسلة البئر ، ولكنه لم يستطع .

وفي تلك اللحظة سمع صوتاً يقول :

* الدفلى ، rhododendron نبت مرّ زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب .

— « ايها الأب مابوف ، انحبّ ان أروي حديقتك ؟ »

وفي الوقت نفسه ، سمع جلبة اشبه بجلبة ظبيٍ يجتاز السياج المقام من اشجار شائكة ، وبَصُرَ بضربٍ من الفتـــاة الطويلة المزيلة تنبثق من وسط العلّيق ، وتنتصب أمامه ناظرةً اليه من غير حيـــاء . كانت تبدو وكأنها شكلٌ وُلِدَ اللحظـةَ من الغسق ، اكثر منها كائنـاً بشرياً .

وقبل ان يوفق الاب مابوف — الذي اجفل في يُسْر والذي كان كما رأينا عرضة للخوف — الى ان يجيب بكلمة ، كانت تلك المخلوقـة التي بدت حركاتها مفاجئة على نحو غريب وسطَ الظلمة قد حلّت سلسلة البئر ، وغطست الدلو في الماء وسحبته منه ، وملأت المرشة . ورأى الرجل العجوز هذا الشبح حافيَ القدمين ممزق الثوب يعدو بين المساكب ويوزع الحياة من حوله . وأفعم وقعُ ماء المرشة على اوراق النباتات قلبَ الأب مابوف بالبهجة الذاهلة . لقد بـدا له أن الدفلى أمست الآن سعيدة .

وحين أفرغ الدلو الاول ، متحت الفتاة دلواً ثانياً ، ثم دلواً ثالثاً . لقد سَقتِ الحديقة كلها .

وفيما هي تخطو هكذا بين مجازات الحديقة ، حيث بدا ظلها أسود بالكلية ، مذبذبةً شالها الممزق فوق ذراعيها الطويلتين ذواتيْ الزوايا ، بدت أشبه شيء بخفاش .

حتى اذا انجزت سقاية الحديقة ، تقدّم الاب مابوف نحوها ، والدمع يترقرق في عينيه ، ووضع يده على جبينها .

وقال :

— « فليباركك الله . انتِ ملاك ، ما دمت تُعنين بالرياحين . »

فأجابت :

— « لا . انا الشيطان ، ولكن سيان عندي ! »

وصاح العجوز من غير ان ينتظر جوابها ومن غير أن يسمعه :

– « ما اعظم اسفي لأن اكون في غاية البؤس ، وفي غاية الفقر ، وان اكون عاجزاً عن عمل شيء من اجلك ! »

فقالت :

– « في استطاعتك ان تصنع شيئاً . »

– « ماذا ؟ »

– « ان تقول لي اين يسكن مسيو ماريوس . »

ولم يفهم العجوز قط .

– « ومن هو مسيو ماريوس هذا ؟ »

ورفع عينيه الخامدتين ، وبدا وكأنه يلتمس شيئاً كان قد تلاشى .

– « شاب كان يتردد الى هنا في الايام الماضية . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مابوف قد نبش ذاكرته .

ثم صاح :

– « آه ! أجل ... أنا ادري ماذا تريدين ان تقولي . انتظري اذن ! ماريوس ... البارون ماريوس بونمرسي ، وحق الاله ! انه يسكن ... او على الاصح انه لم يعد يسكن ... آه ، حسناً ، لست ادري .. »

وفيما هو يتحدث انحنى لكي يثبّت غصناً من اغصان الدفلى ، وأردف :

– « آه ، لقد تذكرتُ الآن ! انه يصعّد في الجادة في كثير من الاحيان ، ويمضي نحو لا غلاسيير . شارع كرولبارب . حقل القبّرة . اسلكي تلك الطريق ، فليس من العسير ان تهتدي اليه . »

وحين نهض مسيو مابوف لم يكن ثمة احد . كانت الفتاة قد اختفت .

وعراه ، من غير شكّ ، شيء من الذعر .

وقال في ذات نفسه :

– « حقاً ، لو لم تُرْوَ حديقتي لاعتقدتُ انها روح من الارواح . »

وبعد ساعة ، حين اوى الى الفراش ، عاوده ذلك من جديد . وفيما هو يستسلم للرقاد – في تلك اللحظة المضطربة التي يتخذ الفكر خلالها شيئاً فشيئاً – مثلَ ذلك الطائر الاسطوري الذي يتحول الى سمكة لكي يعبر البحر – شكلَ الحلم لكي يجتاز الرقادَ ، قال مخاطباً نفسه في اختلاط :

– « حقاً ، ان هذا ليشبه اعظم الشبه ما يرويه روبوديير عن الغيلان . أمن الجائز ان تكون غولاً ؟ »

٤
وشبح يتبدّى لماريوس

وبعد بضعة ايام انقضت على زيارة « احدى الارواح » لمسيو مابوف ، وذات صباح – وكان ذلك يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي اعتاد ماريوس ان يستعير فيه المئة « سو » من كورفيراك ليقدّمها الى تيناردييه – وضع ماريوس قطعة المئة « سو » في جيبه ؛ وقبل ان يمضي لتسليمها الى مكتب السجن راح « يتنزه قليلاً » رجاة ان يمكنه ذلك من العمل بعد عودته . وكان ذلك كذلك على نحو سرمديّ . فما ان ينهض صباحاً حتى يجلس واضعاً امامه كتاباً وقطعة من ورق وينصرف الى الترجمة . وكان منهمكاً آنذاك في ترجمة مناظرة شهيرة بين رجلين المانيين ، غانس وسافيني ، الى الفرنسية . وتناول سافيني ، وتناول غانس ، وقرأ اربعة اسطر ، وحاول ان يكتب سطراً واحداً منها ، ولم يوفق ، ورأى كوكباً بين ورقته وعينيه ، ونهض من

كرسيه ، قائلاً : « سوف انطلق الى الخـارج . ان ذلك سوف يدخل البهجة على فؤادي . . »

وكان يقصد الى حقل القبّرة .

وهناك رأى الكواكب اكثر من أيما وقت مضى ، وكان يرى سافيني وغانس اقلّ من ايا وقت مضى .

وانقلب الى الغرفة ، وحاول ان يستأنف عمله ، ولكنه لم يوفق . إنه لم يجد ايا وسيلة الى اعادة وصل ايّ من الخيوط المتقطعة في ذهنه . وعندئذ قال في ذات نفسه : « انا لن اغادر الغرفة غداً . إن ذلك يحول بيني وبين العمل . » ومع ذلك ، فقد كان ينطلق الى الخارج كل يوم .

لقد عاش في « حقل القبره » اكثر مما عاش في غرفة كورفيراك . وكان هذا هو عنوانه الحقيقي : جادة الصحة ، الشجرة السابعة من شارع كرولبارب .

وذلك الصباح ، كان قد فارق هذه الشجرة السابعة ، وقعد على ضفة نهر الـ « غوبلين » . كانت شمس جذلى تتألق من خلال اوراق الشجر الغضة المبتهجة الشديدة الاشراق .

كان يفكر فيـ « ها » . وعاوده استغراقه في التفكير ، وقد غدا مؤنباً ، كرة اخرى . لقد فكّر ، آسفاً ، في البطالة ، في شلل النفس الذي استحوذ عليه ، وفي ذلك الليل الذي كان يتكاثف أمامه ساعةً بعد ساعة تكاثفاً مريعاً الى درجة جعلته لا يرى الشمس نفسها منذ اللحظة .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال هذا التطور الاليم الطارىء على فكراته الغامضة التي تكن حتى مفاجأة ، فقد أوهن العمل في نفسه الى حد أمسى معه عجز من أن يغالي في الحزن — نقول ومن خلال هذا الاستغراق الكئيب انتهت اليه أحاسيس العالم الخارجيّ . لقد سمع

من خلفه ، ومن تحته ، على ضفتي النهر الاثنتين غسّالات الـ « غوبلين » يطرقنَ بياضاتهن . ومن فوق رأسه كانت الطير تثرثر وتغرد على اغصان الدردار . من ناحية ، صوتُ الحرية ، صوت اللامبالاة السعيدة ، صوت أوقات الفراغ المجنحة ؛ ومن ناحية ثانية ، صوت العمل . وهو شيء جعله يتأمل — او يفكر تقريباً — في هذين الصوتين البهيجين .

وفجأة ، وفي غمرة من نشوته المرهَقة ، سمع صوتاً كان يعرفه يقول :

— « آه ! ها هو ذا ! »

ورفع عينيه ، فتبيّن الطفلة البائسة التي وفدت على غرفته ذات صباح ، كبرى أولاد تيناردييه ، إيبونين . كان يعرف ، الآن ، اسمها . ومن عجب أنها كانت قد أمست اكثر فقراً ، واكثر جمالاً : خطوتان لم يبدُ ان في ميسورها القيام بهما البتة . كانت قد حققت تقدّماً مزدوجاً نحو الضياء ، ونحو الشقاء . كانت حافية القدمين ، ترتدي اسمالاً باليـة ، شأنها يومَ دخلتْ غرفته بتلك الجارة كلها ، باستثناء ان تلك الاسمال كان قد زاد عمرها شهرين إضافيين ، فثقوبها اكبر ، ومِزَقها أقذر . كان هو الصوتَ الاجش نفسه ، والجبين المتجعد نفسه المسفوع من اثر الرياح ، والنظرة الاباحية ، الضالة ، المترجرجة . كان يبدو عليها ، علاوةً على سيمائها القديمة ، ذلك المزيج من الخوف والاسى الذي يضيفه السجن الى البؤس .

كانت على شعرها اعواد من التبن والصائرة ، لا مثلَ اوفيليا بسببٍ من جنونها بعد ان أعداها جنونُ هاملت ، ولكن بسببٍ من انها كانت قد رقدت في مستودع العلف باصطبل من الاصاطب .

ومع هذا كله ، فقد كانت جميلة . ايه أيها الشباب ، يا لك من كوكب ساطع !

وفي غضون ذلك ، كانت قد وقفت أمام ماريوس ، وعلى وجهها

الازرق الضارب الى السواد انطباعةُ ابتهاج ، وشيءٌ يشبه الابتسامة .

ووقفت بضع ثوانٍ ، وكأنما عجزت عن الكلام .

وأخيراً قالت :

— « لقد وجدتك اذن ! كان الاب مابوف مصيباً . كان ذلك على هذه الجادة . كم قد بحثت عنك ! ليتك فقط تدري ! هل تدري ؟ لقد كنت في الحبس . خمسة عشر يوماً ! لقد أطلقوا سراحي ! بعد ان رأوا انه ليس هناك شيء ضدي ، وفوق هذا ، فأنا لم أبلغ بعدُ سنّ التمييز . كان ينقصني شهران حتى ابلغه . أوه ! كم قد بحثت عنك ! لقد قضيت ستة اشهر في ذلك . انت ما عدت تسكن هناك على الاطلاق ؟ »

فقال ماريوس :

— « لا . »

— « أوه ! لقد فهمتُ . بسببٍ من تلك القضية . مثل هذه المخاوف غير مرغوب فيها . لقد انتقلت من هناك . ماذا ! لمَ تلبس مثل هذه القبعة العتيقة ؟ إن امثالك من الشباب ينبغي ان يلبسوا ثياباً ممتازة . اتدري ، يا مسيو ماريوس ؟ إن الأب مابوف يدعوك البارون ماريوس ، ولقد نسيت بقية الاسم . ولكنك لست بارونـاً ، أليس هذا صحيحاً ؟ البارونات عجائز ؛ إنهم يذهبون الى حديقة اللوكسومبورغ أمام القصر حيث الشمس اقوى ما تكون ؛ إنهم يقرأون صحيفة الـ « كوتيديان » بفلس واحد . لقد حملت ذات يوم رسالة الى بارون كان على هذه الشاكلة . كان عمره يزيد على مئة عام . ولكنْ قل لي ، اين تسكن الآن ؟ »

وامتنع ماريوس عن الجواب .

وتابعتْ :

— « آه ، ان قميصك ممزق . يجب ان أرتقه لك . »

واستأنفت حديثها وقد غلبت على وجهها شيئاً بعـــد شيء ، سيماء مكفهرة :

— « يبدو انك غير مبتهج برؤيتي ؟ »

ولم يقل ماريوس شيئاً . واعتصمت هي نفسها بالصمت لحظةً ، ثم صاحت :

— « ومع ذلك فلو اردتُ أنا لكان بامكاني ان اجعلك سعيداً في سهولة . »

فتساءل ماريوس :

— « ماذا ؟ ايّ شيء تريدين ان تقولي ؟ »

فأجابت :

— « آه ! لقد كنتَ تحدثني بلهجة اكثر لطفاً ! »

— « حسناً ، ماذا تريدين ان تقولي ؟ »

وعضت شفتيها . لقد بدت وكأنها مترددة ، وكأنما كانت تجتاز ضرباً من الصراع الباطني . واخيراً بدت وكأنها قد وطّنت نفسها على أمر .

— « ليكن ما يكون ! سيان عندي ! انت تبدو حزيناً ، وأنا أريد أن تكون سعيداً . ولكنْ عِدْني بأنك سوف تضحك وأن اسمعك تقول : آه ! حسناً ! هذا جيـــد . مسكين انت يا مسيو ماريوس ! أتدري ؟ لقد وعدتني بأن تعطيني كل ما ارغب فيه ... »

— « نعم ! ولكنْ تكلمي اذن ! »

ونظرت الى عيني ماريوس ، وقالت :

— « عندي العنوان . »

وران الشحوب على وجه ماريوس . لقد ارتدّ دمه كله الى قلبه .

— « ايّ عنوان ؟ »

— « العنوان الذي سألتني عنه . »

واضافت وكأنما كانت تبذل جهداً :

– « العنوان ... انت تعرف ذلك معرفة جيدة ! »

فتلجلج ماريوس :

– « نعم ! »

– « عنوان الآنسة ! »

وإذْ لفظتْ هذه الكلمة تنهدتْ تنهداً عميقاً .

ووثب ماريوس عن المقعد الذي كان يجلس اليه ، وأمسك بيدِها في وَله .

– « أوه ! تعالي ! دليني على الطريق ! قولي لي ! اطلبي مـــا تشائين ! ما هو العنوان ؟ »

فأجابت :

– « تعال معي . انا لست واثقة من الشارع والرقم . انه هناك في الناحية المقابلة تماماً ، ولكني اعرف البيت جيداً . سوف اريك إياه . »

وسحبت يدها ، واضافت في لهجة كانت جديرة بأن تنفذ الى قلب ايما امرىء يراقبها ، ولكنها لم تمسّ ماريوس الثمل المنتشي بالبهجة ولو بمجرد مسّ :

– « أوه ، ما اعظم سرورك ! »

وعبرتْ بجبين ماريوس سحابة . وأمسك ايبونين من يدها ، قائلاً :

– « إحلفي لي انكِ لن تفعلي أمراً واحداً . »

فقالت :

– « أحلف ؟ ماذا يعني ذلك ؟ آه ، انت تريد مني أن أحلف ؟»

وضحكتْ .

– « ابوكِ ! عديني ، يا ايبونين ! احلفي لي انك لن تعطي هذا العنوان لأبيك ! »

واستدارت نحوه وعلى وجهها أمارات الانشداه .

– « ايبونين ! وكيف عرفت أنني ادعى ايبونين ؟ »

— « عديني بما اسألك اياه ! »

ولكنها بدت وكأنها لم تفهم .

— « هذا جميل ، هذا ! لقد دعوتني ايبونين ! »

وأمسك ماريوس بذراعيها الاثنتين في وقتٍ معاً .

— « ولكنْ أجيبيني الآن ، بحق السماء ! انتبهي لما اقوله . احلفي لي انك لن تعطي العنوان الذي تعرفينه لابيك ! »

فقالت :

— « أبي ؟ آه ، نعم ، أبي ! لا تقلق من هذه الناحية . إنه في الحبس المنفرد . والى ذلك ، فهل أشغل نفسي بأبي ؟ »

فصاح ماريوس :

— « ولكنك لا تعدينني ! »

فقالت ، وقد انفجرت بالضحك :

— « دعني اذهب اذن ! كم تهزّني ! اجل ! اجل ! إني أعدك بذلك ! إني أحلف لك ! وما يضيرني ذلك ؟ انا لن اعطي العنوان لابي . حسن ! ايعجبك ذلك ؟ اليس هذا ما تريد ؟ »

فقال ماريوس :

— « ولا لايّ شخص آخر ؟ »

— « ولا لاي شخص آخر . »

فأضاف ماريوس :

— « والآن ، دليني على الطريق . »

— « في الحال ؟ »

— « في الحال . »

فقالت :

— « تعال . أوه ! ما أعظم سروره ! »

وبعد بضع خطىً ، وقفتْ ، وقالت :

– « أنت تتبعني مبالغاً في الاقتراب مني ، يا مسيو ماريوس . دعني أمضي الى أمام ، واتبعني هكذا ، من غير ان يبدو أنك تفعل ذلك . فليس من الخير لشاب راقٍ مثلك ان يُرى مع امرأة مثلي . »

ولم يكن في ميسور أيما لسانٍ ان يُبلغ ما انطوت عليه تلك الكلمة ، امرأة ، وقد انطلقت على ذلك النحو من فم هذه الطفلة .

وتقدمتْ بضع خطىً ، ووقفت كرة اخرى . وتبعها ماريوس . وخاطبته عن عُرض ومن غير ان تلتفت :

– « بالمناسبة ، اتدري انك وعدتني بشيء ؟ »

وبحث ماريوس في جيبه . ولم يكن يملك في هذا العالم غير خمسة فرنكات مخصصة لتيناردييه . فأخذها ، ووضعها في يد ايبونين . »

وفتحت اصابعها ، وتركت القطعة النقدية تسقط على الارض ، ونظرت اليه في سيماء قاتمة .

وقالت :

– « انا لا أريد دراهمك . »

الكتاب الثالث

المنزل الذي في شارع بلوميه

١

المنزل السري

حوالى منتصف القرن الماضي ، كانت لاحد رؤساء محكمة باريس ذوي القلانس المخملية خليلةٌ ، وكان يخفيها عن العيون . ذلك بأن النبلاء الكبار في ذلك العهد كانوا يُظهرون خليلاتهم ، على حين كان البورجوازيون يُخفونهنّ . وكان ذلك الرئيس قد شيد « بيتاً صغيراً » في ضاحية سان جيرمان في شارع بلوميه المهجور ، الذي يدعى اليوم شارع بلوميه ، غير بعيد عن البقعة التي عُرفت في ذلك العهد باسم « صراع الحيوانات » .

كان منزلاً صيفياً يتألف من دورين ليس غير : غرفتـان في الدور الاول ، وغرفتان في الدور الثاني . مطبخ في القسم الخلفي ، وبهـو نسائي للتبرج في القسم العلوي ، وعليّة تحت السقف مباشرة ، وكان في مقدمة ذلك حديقة ذات باب حـديدي كبير ذي قضبان ، ينفتح على الشارع . وكانت مساحة هذه الحديقة نحواً من خمسة آلاف متر مربع . ذلك كان كل ما في ميسور عـابري السبيل ان يلمحـوه . ولكنْ كان في مؤخرة المنزل فناء ضيق ، وفي اقصى ذلك الفناء بنـاء منخفض يتألف من غرفتين ليس غير وسرداب — موطنٌ ملائم لاخفـاء طفلٍ ومرضع عند الحاجة . وكان هذا البناء متصلاً — من جانبه الخلفي ومن طريق مقنّع ينفتح مرّاً — بمجاز طويل ، ضيّق ، معبّد ، مُلْتوٍ ، غير مسقوف يحيط به جداران عاليان . وكان هذا الباب ، المحجوب في فنّ بديع — وكأنه ضائع بين أسيجة الحدائق والحقول التي كان يتتبع جميع زواياها ومنعطفاتها — ينتهي عند باب آخر ، محجوب ايضاً ، قائم على بُعْد ثُمن فرسخ ، في حيّ آخر تقريباً ، في الطرف الاقصى غير المعمور من شارع بابل .

وكان الرئيس يسلك هذه الطريق ، بحيث لا يستطيع حتى اولئك الذين قد يراقبونه ويتعقّبون خطواته ، والذين ربما لاحظوا ان الرئيس يمضي على نحو خفي الى مكان ما كل يوم — نقول بحيث لا يستطيع حتى هؤلاء انفسهم ان يرتابوا في ان الذهاب الى شارع بابل يعني الذهاب الى شارع بلوميه . ومن طريق شراء الاراضي ، على نحو حاذق ، مرة بعد مرة ، استطاع هذا القاضي الداهية ان يجعل هذه الطريـق السرية الى منزله تمتد فوق ارضه الخاصة ، ومن هنا فهي غير محتاجة الى مراقبة . وكان بعد ذلك قد باع قطعاً صغيرة من الارض محاذية للمجاز لتحوّل الى رياض رياحين وحقول خُضَر . ولقد حسب مالكو هذه القِطع ، عن اليمين وعن الشمال ، ان ما رأوه كان جداراً حاجزاً ، ولم ينتبهوا

حتى الى وجود ذلك الشريط المعبّد الطويل المتلوّي بين جدارين وسط مساكبهم واشجارهم المثمرة . الطيور وحدها رأت تلك الطرفة الغريبة . ومن الراجح أن قبّرات القرن الماضي وعصافير الدوري فيه قد لغَتْ في حق الرئيس لغواً كثيراً .

وكانت المنزل ، وقد شيّد من حجارة على طراز مانسار ، وألبست جدرانه بالخشب وأثث على طراز واتو – أشغال من حصىً في الداخل ، ولمّة مستعارة من خارج – وطُوّق بسياج من الازاهير مثلّث ، نقول كانت المنزل طلعةٌ كتومٌ ، مغناج ، ذات ابهة ، فهي ملائمة لبَدَوات الحب وبَدَوات القضاء .

وهذا المنزل وذلك المجاز ، اللذان اختفيا اليوم ، كانا لا يزالان قائمين منذ خمسة عشر عاماً . ففي عام ٩٣ ، اشترى المنزلَ حدادٌ لكي يهدمه ، حتى اذا عجز عن دفع ثمنه أعلنت الدولة إفـــلاسه . وهكذا كان المنزل هو الذي هدم الحداد . ومن ذلك الحين ظل المنزل شاغراً ، وتداعى الى السقوط تدريجياً ، مثل جميع المساكن التي كفّ وجود الانسان عن مدّها بالحياة . لقد ظلّ مؤثثاً بأثاثه العتيق ، معروضاً دائماً للبيع او للايجار ؛ وكان العشرة الاشخاص أو الاثنا عشر شخصاً الذين يجتازون شارع بلوميه طوال العام يُشعَرون بذلك من طريـــق قصاصة من الورق صفراء ، غـــير مقروءة ، كانت معلّقة على سياج الحديقة منذ عام ١٨١٠ .

وحوالى نهاية العهد البوربوني الجديد كان في ميسور هؤلاء العابرين أنفسهم أن يلاحظوا أن الورقة قد اختفت ، وأن نوافذ الدور الاعلى الخارجية قد فُتحت ايضاً . كان المنزل آهلًا حقاً ، وكانت على النوافذ « ستائر صغيرة » ، مما يؤذن بأنه كانت ثمة امرأة .

في شهر تشرين الاول ، عام ١٨٢٩ ، كان قد برز رجل في سنٍّ ما ، واستأجر المنزل على حاله تلك ، ومعه طبعاً البناء الذي في المؤخرة

والمجازُ الممتدّ الى شارع بابل . كان قد اصلح المدخلين السريين المؤديين الى بابي هذا المجاز . وكان المنزل ، كما ذكرنا منذ لحظة ، لا يزال مؤثثاً تقريباً بأثاث الرئيس القديم . وكان المستأجر الجديد قد أمر باجراء بعض الترميمات ، واضاف ما كان ناقصاً هنا وهناك ، وزوّد الفناء بشيء من البلاط ، والدور الارضي بشيء من الآجرّ ، والسّلم ببضع درجات ، واراضي الغرف بطبقة حجرية ، والنوافذ ببضعة ألواح من الزجاج ؛ واخيراً اقبل على المنزل واستقرّ فيه مع فتاة شابة وخادم مسنّة ، من غير ما ضجة ، فكأنه شخص يتسلل خلسةً ، وليس رجلاً يدخل الى بيته . ولم يلغط الجيران بذلك ، لسبب واحد هو أنـــه لم يكن ثمة جيران .

وكان هذا المستأجر هو ، الى حدّ ما ، جان فالجـــان . وكانت الفتاة الشابة هي كوزيت . وكانت الخادمة عانساً تدعى توسّين كان جان فالجان قد انقذها من مأوى العجزة ومن البؤس ، وكانت عجوزاً ريفية ، تمتامة – ثلاث صفات حملت جان فالجان على ان يصطحبها . لقد استأجر المنزل تحت اسم مسيو فوشلوفان ، صاحب دَخل . وفي جميع ما قد رُوي من قبل ، لا شك في ان القارىء قد تبيّن جان فالجان حتى قبل ان يتبيّنه تيناردييه نفسه .

لماذا غادر جان فالجان دير بيكبوس الصغير ؟ ما الذي كان قد حدث ؟

لا شيء .

فقد كان جان فالجان ، كما نذكر ، سعيداً في الدير ، سعيداً الى درجة جعلت ضميره قلقاً آخر الأمر . لقد رأى كوزيت كل يوم ؛ لقد استشعر الابوة تولد وتنمو في ذات نفسه اكثر فأكثر ؛ لقد حضن هذه الطفلة بروحه ؛ ولقد قال في ذات نفسه إنها ابنته ، وإن شيئاً ما لا يستطيع ان ينتزعها منه ، وإن هذا سوف يكون الى الأبد ، وإنها

سوف تغدو راهبةً من غير ملك ، إذ كانت تُغرى بذلك في لطف كل يوم ، وإن الدير قد أمسى منذ اليوم الكون كله بالنسبة اليها كما كان بالنسبة اليه ، وإنه سوف يشيخ هناك ، وانها سوف تشبّ هناك ، وانها سوف تشيخ هناك وانه سوف يموت هناك ، وان الفراق — وذلك أملٌ فاتن — أمسى مستحيلاً . وفيما هو يفكر في ذلك شرع يجد آخر الأمر بعض المصاعب . لقد استجوب نفسه . لقد ساءل نفسه هل كانت هذه السعادة كلها سعادته فعلاً ؟ اليست مصنوعة من سعادة شخص آخر ؟ من سعادة هذه الطفلة التي صادرها وسلبها ، هو الرجل العجوز ؟! اليست هذه سرقة ؟ وقال في ذات نفسه إن لهذه الطفلة الحـــق في أن تعرف الحياة قبل أن تتخلى عنها ، وأن إبعادها مقدّماً وبطريقة ما ، من غير أن يؤخذ رأيها في ذلك ، عن متّع الحياة جميعاً بدعوى انقاذهـا من ضروب التجارب على اختلافها ، وان الافادة من جهلها وعزلتها لحملهـا على الاخذ بدعوة اصطناعية معناها مسخ كائنٍ بشري والكذب على الله . ومن يدري ، فقد تفكر في ذلك كله ذات يوم ، وتأسف لكونهـا راهبة ، وعندئذ تنتهي الى ان تبغضه ؟ فكرة اخيرة انانية تقريبـاً ، واقلّ بطولية من سائر الفكرات ، ولكنه لم يطق لها احتمالاً . لقـد وطن العزم على مغادرة الدير .

لقد قرّر ذلك ؛ لقد ادرك في يأس ان ذلك واجب عليه . أمـا الحوائل فلم يكن ثمة شيء منها . فقد كان مقامه الذي تطـاول خمس سنوات بين تلك الجدران الأربعة ، محتجباً عن الناس ، قد حطم من غير ريب أو بدد عناصر الخوف . ان في استطـاعته ان ينقلب الى الناس في اطمئنان . كان قد غدا شيخاً كبيراً ، وكان كل شيء قـد تغير . ومن ذا الذي يستطيع ان يتبيّنه الآن ؟ والى هذا ، فلو قـد نظر الى المسألة في أسوأ احوالها اذن لما كان ثمة خطر إلا عليه هـو ، وليس يملك الحقّ في ان يحكم على كوزيت بالعيش في الدير لمجرّد انـه

محكوم عليه بالعيش في سجن الاشغال الشاقة . وفوق ذلك فأيّ شأن للخطر في حضرة الواجب ؟ واخيراً ، فليس يمنعه شيء من ان يكون فطناً حذراً ، وان يتخذ الاحتياطات الضرورية .

أما تثقيف كوزيت فقد كاد ان ينتهي ويكتمل .

حتى اذا وطّن العزم على ذلك ، راح يرتقب فرصة . وما عتمت هذه الفرصة أن تمثّلت له . لقد مات فوشلوفان العجوز .

والتمس جان فالجان مقابلة رئيسة الدير الموقّرة وقال لها إنه وقد عادت عليه وفاة أخيه بأرث يمكّنه من ان يحيا منذ اليوم من غير ان يعمل فهو يعتزم ترك خدمة الدير والانصراف مع ابنته . ولكن لمّا لم يكن من العدل ان تُعلّم كوزيت بالمجان ، ما دامت لم تفِ بنذورها ، فقد التمس من رئيسة الدير الموقرة ، في خشوع ، ان تسمح له بان يقدّم الى الدير خمسة آلاف فرنك تعويضاً عن السنوات الخمس التي قضتها كوزيت فيه .

وهكذا غادر جان فالجان « دير العبادة السرمدية » .

ولدن مغادرته الدير أخذ بيديه الاثنتين ، غير مكلفٍ احداً بمساعدته ، ذلك الصندوق الصغير الذي كان يحمله دائماً . وأذهل هـذا الصندوق كوزيت ، بسبب من عبق الطيب الذي انبعث منه .

ولنسارع الى القول ان هذا الصندوق لم يفارقه قط ، منذ اليوم . كان في غرفته دائماً . كان الشيء الاولَ – وفي بعض الاحيان الشيء الاوحدَ – الذي كان يحمله كلما غيّر مسكنه . وكانت كوزيت تضحك منه ، وتدعو ذلك الصندوق « **ممتنع الانفصال** » ، قائلةً : « اني اغار منه » .

ومع ذلك فأن جان فالجان لم يعاود الظهور في الهواء الطلق من غير ان يستشعر قلقاً عميقاً .

لقد اكتشف البيت الذي في شارع بلوميه ، ودفن نفسه فيه . وكان

منذ ذلك الحين يحمل اسم اولتيموس فوشلوفان .

وفي الوقت نفسه استأجر مسكنين آخرين في باريس ، باعتبار أن مُقامه المستمر في الحيّ نفسه يلفت الانتباه اكثر مما ينبغي ، ولكي يكون في ميسوره ان يغيّر منزله عند الحاجة ، وعند اقلّ قلق قد يستشعره ، واخيراً لكي لا يجد نفسه كرة ثانية في مضيق كذلك الذي فرّ فيه ، ذات مساء ، من وجه جافير ، فراراً أعجوبياً . وكان هذان المسكنان متواضعين جداً ، حقيري المظهر ، قائمين في حيّين جدّ متباعدين ، احدهما في « شارع الغرب » ، والآخر في « شارع الرجل المسلّح » .

وبين الفينة والفينة ، كان يمضي الى « شارع الرجل المسلّح » حيناً ، والى « شارع الغرب » حيناً ، لكي يقضي شهراً أو ستة أسابيع مع كوزيت من غير ان يصحب توسّين . وهناك كان البوّابان يقومان على خدمته ، وقد ادعى انه ريفيّ من ذوي اليسار كان له موطىء قدم في المدينة . لقد كانت لهذه الفضيلة الشامخة ثلاثة منازل في باريس فراراً من وجه الشرطة .

٢
جان فالجان عضواً في الحرس الوطني

ومع ذلك فقد سكن ، بحَصْر المعنى ، في شارع بلوميه ، وكان قد نظّم حياته على الوجه التالي :

لقد احتلت كوزيت ، هي والخادمة ، البيت الصغير . كان لها المهجع الواسع ذو الجدران المدهونة ، والبهو النسائي ذو الاثاث المذهب ، وصالون الرئيس المفروش بالسجاد ، والمؤثث بالكراسي الضخمة ذوات

الأذرع ؛ كانت لها الحديقة . وكان جان فالجان قد رغب في ان يوضع في غرفة كوزيت سريرٌ ذو مظلة مصنوعة من دمقس مثلث الألوان ، وسجادة فارسية عتيقة جميلة اشتريت من محل الأمّ غوشيه في « شارع فيفييه سان بول » . ولكي يرقق من قسوة هذه الامتعة الاثرية الرائعة اضاف الى تلك الذخائر مختلف قطع الاثاث الصغيرة البهيجة الانيقة التي تصطنعها الفتيات : الرفّ والمكتبة والكتب المذهبة ، ومحفظة الكتابة ، والورق النشاف ، وطاولة العمل المرصعة بعرق اللؤلؤ ، وعلبة التبرّج الفضية المذهبة ، ومائدة أدوات الزينة المصنوعة من خزف ياباني . وكانت ستائر دمقسية طويلة مثلثة الألوان فوق خلفيّة حمراء ، مماثلة لستائر السرير ، تتدلى فوق نوافذ الدور الثاني . وفي الدور الاول كانت ستائر من وشي . وطوال فصل الشتاء كان منزل كوزيت الصغير يُدفأ من قمته الى أخمصه . أما هو فكان يقطن في شبه كوخ البواب القائم في الفناء الخلفيّ ، وليس فيه غير حشية فوق سرير ذي سُيُور ، وطاولة خشبية بيضاء ، وكرسيين من قش ، ووعاء ماء من فخار ، وبضعة كتب على لوح خشبي ، وصندوقه الاثير على قلبه في احدى الزوايا ؛ ولم تعرف مأواه ذاك نارُ الموقد قط . كان يتناول الطعام مع كوزيت ، وكان يوضع له رغيف أسود على المائدة . ويوم دخلت توسين في خدمته قال لها : « الآنسة هي سيدة المنزل . » فأجابت توسين مندهشة : « وانت ، يا سيدي ؟ » فقال : « أنا ، أنا شيء خيرٌ من السيد بكثير ، أنا الأب . »

وكانت كوزيت قد دُرّبت في الدير على تدبير المنزل ، فنظّمت الخَرْج وكان متواضعاً جداً . وكل يوم ، كان جان فالجان يأخذ بذراع كوزيت ، ويخرج فيتمشّى معها . كانا يمضيان الى مجاز اللوكسمبورغ الأشد انعزالاً ؛ ويوم الأحد من كل اسبوع كانا يشهدان القداس ، في كنيسة « سان جاك دو هو با » دائماً ، لانها

كانت نائية جداً . وإذ كان ذلك الحيّ حياً فقيراً جداً ، فقد كان يعطي كثيراً من الصدقات هناك . وكان البؤساء يحيطون به في الكنيسة ، مما اسبغ عليه اللقب الذي حملته رسالة تيناردييه وزوجته : « **الى رَجُل كنيسة سان جاك دو هو با الخيّر .** » وكان مولعاً باصطحاب كوزيت لزيارة المعوزين والمرضى . ولم يفِدْ غريبٌ على البيت الذي في شارع بلوميه . وكانت توسين تحمل المؤن ، وكان جان فالجان يمضي بنفسه التماساً الماء من حوض قريب على الجادة . وكانوا يضعون الحطب والخمر في شبه سرداب مفروش بالحصى مجاور للباب المؤدي الى شارع بابل وهو الذي كان الرئيس يتخذ منه غرفةً صيفية كهفية الشكل . ذلك لأنه في عصر « الهيام والجنون » لم يكن ثمة حب من غير كهف صيفيّ .

وكان في الباب المؤدي الى شارع بابل صندوق بريد للرسائل والصحف . واذ كان محتلو البيت الصيفي الثلاثة ، في شارع بلوميه ، لا يتلقون رسائل او صحفاً البتة ، فقد اقتصرت فائدة ذلك الصندوق – الذي كان في ما مضى وسيط المغرمات ، ونجوى العاشقات – على استقبال إخطارات جابي الضرائب وانذارات الحرس . ذلك أن مسيو فوشلوفان كان ينتمي الى الحرس الوطني ؛ كان قد عجز عن النجاة من حلقات احصاء عام ١٨٣١ المحكمة . وكانت التحريات البلدية قد امتدت آنذاك حتى الى دير بيكبوس الصغير ، ضربٌ من سحابة مقدسة خفية خرج جان فالجان منها موقراً جليلاً في عين مشيخة المدينة ، وبالتالي جديراً بأن يُلحق بالحرس الوطني .

وثلاث مرات ، او أربع مرات في العام ، كان جان فالجان يرتدي ثوبه الرسمي ، ويؤدي واجبه . وكان يفعل هذا ، فوق ذلك ، في كثير من الرضا والارتياح . فقد كان ذلك تقنّعاً ملائماً يمزجه بكل امرىء من غير ان يخرجه من عزلته . كان جان فالجان قد بلغ الستين من عمره ، وهي سنّ الاعفاء الشرعي ، ولكنه كان يبدو ابن خمسين

ليس غير . والى هذا ، فلم تكن به رغبة في ان يفرّ من رقيبه الأول وأن يغالط الكونت لوبو . لم يكن له وضع مدنيّ ؛ كان يخفي اسمه ، وكان يخفي هويته . كان يخفي عمره ، وكان يخفي كل شيء . وكان قد التحق بالحرس الوطني في ارتياح كثير ، كما ذكرنا . فلأن يشبه جمهورَ الناس الذين يدفعون ضرائبهم كان أملَه كله . كان الملاك هو المثل الأعلى لهذا الرجل ، في باطنه ؛ وكان البوجوازي هو مثله الأعلى ، في ظاهره .

بيد أن علينا ان نشير الى أمر . فحين كان جان فالجان يغادر المنزل مع كوزيت كان يرتدي الثوب الرسمي كما ذكرنا ، فهو أشبه ما يكون بالضابط القديم . أما حين كان يغادر المنزل وحده ، وغالباً ما كان يفعل ذلك مساءً ، فقد جرت عادته بأن يرتدي صدرةً وسروالاً من صدرات العمال وسراويلهم ، ويعتمر بقلنسوة تحجب وجهه . أكان ذلك احتراساً ام تواضعاً ؟ الشيئين جميعاً . وكانت كوزيت قد تعودت مظهر قَدَرها اللغزيّ ، ولم تلاحظ – إلا بشق النفس – غرابات أبيها . اما توسين ، فكانت تُجلّ جان فالجان ، وتعتقد أن كل ما يعمله صالح خيّر . وذات يوم ، قال لها الجزار الذي تشتري من عنده اللحم ، وقد وقع بصره على جان فالجان : « هذا مخلوق مضحك . » فاجابته : « إنه قـ – قديس ! »

وما كان ايّ من جان فالجان ، او كوزيت ، او توسين ، ليدخل الى المنزل أو يغادره الا من الباب المطلّ على شارع بابل . وما لم يلمحهم المرء من خلال باب الحديقة ذي القضبان الحديدية فلن يكون في ميسوره ان يحزر أنهم يقطنون في شارع بلوميه . وكان هذا الباب مغلقاً ابداً ، وكان جان فالجان قد ترك الحديقة مهملة ، لكي لا تلفت الانتباه .

ولعله ان يكون قد خُدع في ذلك .

٣

مع الاوراق والجذوع

وكانت هذه الحديقة ، التي أسلمت الى نفسها منذ نصف قرن أو يزيد ، قد أمست غريبة جداً ، وفاتنة . كان عابرو السبيل ، قبل اربعين عاماً ، يقفون في الشارع لينظروا اليها ، من غير ان تثير ريبتهم تلك الاسرارُ التي تخفيها خلف أدغالها الغضة الخضراء . وكان غيرُ حالم من حالمي ذلك العصر قد أجاز لعينيه ولأفكاره ان تنفذ ، في غير رصانة ، من خلال قضبان الباب القديم الذي كان مقفلاً ، ملتوياً ، متذبذباً ، مرسّخاً بدعامتين خضراوين يغطيهما الطحلب ، ومتوجاً على نحو غريب بواجهة مثلثة من اشكال هندسية متشابكة (آرابيسك) لا سبيل الى حلها .

كان ثمة مقعد حجري في احدى الزوايا ، وتمثال او تمثالان يعلوهما العفن ، وبعض العرائش التي نُزعت مساميرها مع الزمن والتي أنتنت على الجدار . والى هذا ، فلم يكن ثمة لا مجازات ولا عشب . كان ثمة نَجيلٌ * في كل مكان . كانت البستنة قد ولّت . وكانت الطبيعة قد رجعت . وتكاثرت الاعشاب الضارّة ، مصادفةٌ رائعة بالنسبة الى زاوية بائسة من الارض . كان عيد المنثور الخِيريّ دائماً . إن ايما شيء في هذه الحديقة لم يناقض جهد الاشياء المقدس من اجل الحياة ؛ كان النماء الجليل في مستقرّه هناك . لقد انحنت الاشجار نحو العواسج ، وصعّدت العواسج نحو الاشجار . لقد تسلّق النجم ** ، وانعطف الغصن ؛

---

* النجيل chiendent ضرب من الحمض .

** النجم ، هنا ، النبت الذي لا يقوم على ساق .

كان ذلك الذي يجري فوق الارض قد حاول أن يـــلاقي ذلك الذي ينوّر في الهواء ، وكان ذلك الذي يطفو في الريح قد انحنى نحو ذلك الذي يجبو في الطحلب . لقد تمازجت الجذوع ، والافنان ، والاوراق ، والعروق ، وباقات العشب ، والمعطفات * ، وقضبـــان الكرم ، والأشواك ، وتعارضت ، وتزاوجت ، واختلطت من غير نظام . كان النبات قد مجّدَ وأنجز هناك ، في معانقةٍ محكمة عميقة ، تحت عين الخالق الراضية ، في تلك الارض المسيّجة البالغة مساحتها ثلاثمئة قدم مربـــع ، سرّ الأخوة المقدس ، رمز الاخوة الانسانية . إن هذه الحديقة لم تَعُـــدْ حديقة . كانت دغلاً هائلاً ، يعني شيئاً ممتنعاً على النفاذ كغابـــة ، آهلاً كمدينة ، مرتعداً كعشّ ، قاتماً ككاتدرائية ، أرِجاً كباقة ، متوحّداً كشاهدة قبر ، زاخراً بالحياة كجمهرة من الناس .

وفي فلوريال ** ، كان هذا الدغل الضخم ، المنطلق خلف قضبانه الحديدية وضمن جدرانه الأربعة ، يتطلع الى اللقاح في جَهْد الانبات الكليّ العميق ، ويختلج في وجه الشمس الطالعة وكأنه — أو يكاد — بهيمة تتنشّق هواء الحب الكونيّ وتستشعر نُسْغَ نيـان يصعد ويغلي في عروقها ؛ وفيما هو ينفض شعره الاخضر العجيب في الريح ، كان ينثر فوق الارض الرطبة ، فوق التماثيل المهشمة ، فوق سُلم المـــنزل الصيفي المنهارة ، بل فوق حصباء الشارع المهجور ، نجوماً من الرياحين ولآلىء من الندى ، وينثر الخصب ، والجمال ، والحياة ، والبهجـة ، والشذا . وعند الظهيرة ، كانت الفٌ من الفراشات تَفزع اليـــه ، وكان مشهداً الـهياً ان يرى المرء الى ثلوج الصيف الحية هـذه تدور رقاقاتٍ رقاقاتٍ في الظلّ . هناك ، في ظلمات الاخضرار البهيجة هذه ،

---

* جمع عطفة (بكسر العين) وهي اطراف الكرم المتعلقة منه .

** Floréal الشهر الثامن من السنة الجمهورية (٢٠ نيسان — ١٩ نوار) واسمه مشتق من الزهر والريحان . (fleurs) .

كانت جمهرة من الاصوات البريئة تتحدث الى الروح في رفق ، وكل ما قد نسيت الزقزقة ان تقوله كان الطنين يُتمّهُ . وعنــد المساء ، كانت أنفاسٌ حالمة تتصاعد من الحديقة وتلفّها لفــاً . كان كفنٌ من الضباب ، حزن سماوي وهادىء ، يغطيهــا . وكانت ريا زهر العسل والليلاب المُسْكِرة تفوح من كل مكان مثل سُمّ لذيذ لطيف . كان المرء يسمع آخر نداءات الطيور المعروفة بنقارات الخشب ، ونداءات أمّ عجلان المهوّمة تحت الاغصان . كان في ميسوره أن يستشعر المودة المقدسة التي تجمع بين الطائر والشجرة . ففي النهار تُبهج الاجنحةُ الاوراقَ ، وفي الليل تصون الاوراقُ الاجنحة .

وخلال الشتاء كان الدغل داكناً ، ندياً ، شائكاً ، مرتعداً ، فهو يكشف عن المنزل بعض الشيء . كنت تلمح ، بدلاً من الازهار على الاغصان والندى على الازهار ، عصائبَ الحلازينِ الفضيةَ الطويلة على بساط الاوراق الخضراء البارد الأصفر . ولكنْ على أيّ وجه ، وبأيّ مظهر ، وفي كل فصل – في الربيع ، والشتاء ، والصيف ، والخريف – كانت هذه الحديقة الصغيرة تنفث الكآبة ، والتأمــل ، والعزلة ، والحرية ، وغيبة الانسان ، ووجود الله . وكان الباب الحديدي العتيق الصدىء يبدو وكأنه يقول : « هذه الحديقة حديقتي . »

وعبثاً كانت شوارع باريس المعبدة تطوّقها ، وقصور شارع « فارين » الكلاسيكية الفخمة على بضع خطوات منها ، وقبة الانفاليد قريبة جداً اليها ، ومجلس النواب غير بعيد عنها ؛ عبثاً كانت عربات شارع بورغونيْ وشارع سان دومينيك تجري مزهوّةً في جوارها ؛ عبثاً كانت المركبات العامة الصفراء ، والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء تتقاطع في الساحــة المجاورة ، فقد كان شارع بلوميــه خلاءً قواءً . وكان موت المالكين القدماء ، وانقضاء ثورة ، وانهيار السُّعود العتيقة ، والعدم ، والنسيان ، واربعون عاماً من الاهمال والترمل كافيةً لأن تدعو كرةً اخرى الى

هذا المكان ذي الامتياز الخنشارَ، وآذانَ الدبّ، والشوكران السام ، والأخيليات ، والقمعيات ، والأعشاب الطويلة ، والنباتات الكبيرة المتأنقة بأوراقها العريضة ذات الجوخ الشاحب الضارب الى الخضرة ، والحراذينَ ، والخنافس ، والحشرات القلقة السريعة ؛ وكافيةٌ لأن تُبرز من أعماق الأرض ، وتعرض ضمن هذه الجدران الأربعة ، عظمة وحشية وضارية لا سبيل الى وصفها ؛ وكافيةٌ لكي يكون في ميسور الطبيعة — التي تُحْبِط تدابير الانسان الدنيئة ، والتي تهب نفسَها كاملةً ، دائماً ، كلما وهبت نفسها ، في النملة كما في النسر سواء بسواء — أن تجلو نفسَها في حديقة باريسية صغيرة حقيرة بنفس القسوة والجلال التي تتجلى بها في غابة عذراء من غابات العالم الجديد .

إن شيئاً ما ، ليس صغيراً حقاً . وكل ذي نظر نافذ في الطبيعة يعرف ذلك . وعلى الرغم من أن الارتياح المطلق لا يُتاح للفلسفة ، سواء في حصر السبب أو تعيين المسبب ، فأن المتأمل يغرق في نشوات لا قرار لها بسبب من انحلال القوى هذا كله ، المؤدي الى الوحدة . إن كل شيء يعمل من اجل كل شيء .

ان علم الجبر ينطبق على السُّحب . فاشعاع النجم يُفيد الوردة . وليس يجرؤ أيّ مفكر على القول بأن عبير الزعرور لا يفيد الأبراج السماوية . ومن ذا الذي يستطيع ، اذن ، ان يحسب مسار جُسَيم أو ذرة ؟ وما يُدرينا أن خلائق العوالم لا يقررها سقوط حبات التراب ؟ ومن الذي يعرف ، اذن ، المد والجزر المتبادلين اللذين يتكشف عنهما العظيم الى ما لا نهاية ، والحقير الى ما لا نهاية ، ودويّ الأسباب في هُوى الوجود وهيّالات ثلج الخليقة ؟ إن لدودة اللحم اهميتها ؛ الحقير عظيم ، والعظيم حقير ؛ وكل شيء متكافيء في الحاجة . رؤيا مروّعة للعقل . إن ثمة صلاتٍ رائعة بين الكائنات والاشياء . وفي هذا الكل

الذي لا ينضب ، من الشمس الى الارَق * . ليس ثمـــة ازدراء ، فكلٌ في حاجة الى الآخر . إن الضياء لا يحمل الأرائـج السماوية الى أعماق اللازورد من غير ان يعرف أي شيء يفعله بها ؛ وان الليـــل ليوزع العطر النجومي على الازهار النائمة . وجميع الطيور التي تحلق في السماء تحمل في برائنها خيط اللانهاية . إن الأفراخ يشمل نقف نيزك من النيازك ، ونقرة سنونو يكسر البيضة ، وإنه ليشرف عـلى ولادة دودة من ديدان الارض وعلى ظهور سقراط الى عالم الوجود ، في آنٍ معاً . فحيث ينتهي التلسكوب ، يبـــدأ الميكروسكوب . أيّ منهما يملك النظرة الأوسع ؟ إختر لنفسك . القطعة من العفن هي ثريـا من الازهار ، والسديم مَنمَلة ** نجوم . والاختلاط نفسُهُ ، وعـلى نحوٍ أروع أيضاً ، قائم بين اشياء العقل ووقائع المادة . فالعناصر والمبادىء تمتزج ، وتتحد ، وتتزاوج ، ويضاعف بعضها بعضاً الى درجة تجمع ما بين العالم المادي والعالم الاخلاقي وتسلط عليهما الضوء نفسه . إن الظواهر لتُطوى على ذواتها طياً سرمدياً . وفي المقايضات الكونية الواسعـــة ، تروح الحياة المطلقة وتجيء بمقادير مجهولة ، دائرةً كلها في لغز الانبثاقات غير المنظورة ، غير فاقدة أيما حُلم من أيما رقاد ، باذرةً حيواناً مجهرياً هنا ، مفتتّة نجماً هناك ، متذبذبةً وملتويةً ، جاعلةً من الضوء قوةً ، ومن الفكر عنصراً ، متناثرةً وغير قابلة للانقسام ، مذيبة كل شيء ، ما خلا هذه النقطة الهندسية ، الأنا ؛ مُرجعة كل شيء الى الروح — الذرة ، مفتحةً اكمام كل شيء في الله ، مشبكة جميع الوان النشاط ، من اعلاها الى أدناها ، في ظلمة آلية توقع الدوار في الرأس ، معلقـةً طيران حشرة من الحشرات بحركة الأرض ، مخضعةً — ومن يدري ؟ —

* puceron وهي حشرة صغيرة .

** قرية نمل .

ولو بعينية * القانون ، تطورَ مذنَّب في َفلك السماء لدوران النقاعية ** في قطرة الماء . ماكينة مصنوعة من عقل . تداخلٌ هائل أول محرك فيه الذبابة الصغيرة ، وآخر دولاب فيه منطقة البروج .

٤
تغير الباب الحديدي المقضب

لقد بدا وكأن هذه الحديقة ، التي ُجعلت باديء الأمر لتستر الغوامض الداعرة ، قد ُحولت وعدلت لتلائم الغوامض العفيفة . لم يبق ثمة فيها لا عرائش ، ولا مروج ، ولا خيام ، ولا كهوف . كان ثمة ظلمة بهية شعثاء تهبط كالحجاب من كل جانب . بافوس *** قد أمست جنة َعدْن كرة اخرى . وليس يدري أحدٌ أي توبة كانت قد طهرت هذه الخلوة . إن صانعة باقات الرياحين هذه لتقدمُ الآن رياحينها الى الروح . كانت هذه الحديقة المغناجة ، التي كانت من قبل مشوهة السمعة الى حد بعيد ، قد انقلبت الى البتولية والاحتشام . كان رئيس يساعده بستاني ، رجل طيب يحسب نفسه لاموانيون **** ثانياً ، ورجل طيب آخر يحسب نفسه لو نوتر ثانياً قد شوهاها ، وشذباها ، ودعكاها ، وزيناها ، وكيّفاها للغَزَل . ثم عادت الطبيعة فاستردتها من جديد ،

* Identité اي كون الشيء عين الشيء الآخر .

** النقاعيات دويبات مجهرية وحيدة الخلية تحيا في السوائل .

*** Paphos مدينة قديمة بجزيرة قبرص ، اشتهرت بهيكل فينوس الذي كان قائماً فيها .

**** Lamoignon اول رئيس لبرلمان باريس ، اي محكمتها قبل الثورة . وكان تقياً مستيراً وفاضلاً (١٦١٧ – ١٦٧٧) .

***** Le Nôtre مصمم جنائن فرنسي شهير عرف بتنظيمه حدائق فرساي (١٦١٣ – ١٧٠٠) .

وملأتها بالظلّ ، وأعدّتها للحب .

وكان في تلك العزلة أيضاً قلب على أتمّ الاستعداد . ولم يكن على الحب غير الاعلان عن نفسه . كان ثمة هيكل مؤلف من اخضرار ، من عشب ، من طحلب ، من تنهدات الطير ، من ظلٍ رفيقٍ ، من اغصان مهتاجة ، من نفس مكوّنةٍ من لطافة ، من إيمان ، من سلامة سريرة ، من أمل ، من شوق ، ومن أوهام .

كانت كوزيت قد غادرت الدير وهي ما تزال طفلةً أو تكاد . كان عمرها يزيد على الرابعة عشرة شيئاً ما ، وكانت في « السنّ العقوق » . وبصرف النظر عن عينيها ، بَدتْ كما قلنا من قبل بشعة اكثر منها مليحة . إن ملامحها لم تكن عديمة جمال ، ولكنها كانت خرقاء ، مهزولة ، حيية وجَسُوراً في آنٍ معاً ؛ كانت بكلمة واحدة طفلة كبيرة .

كانت قد اتمت ثقافتها ؛ يعني أنها قد لُقّنت الدين ، ولُقّنت ايضاً فوق كل شيء ، التقوى ؛ ثم « التاريخ » ، يعني الشيء الذي يسمونه هكذا في الدير ، والجغرافية ، والنحو ، واسماء الفاعل ، واسماء المفعول ، وملوك فرنسة ، وشيئاً من الموسيقى ، ورسم الصُوَر الجانبية الخ . ولكنها في ما وراء ذلك كانت تجهل كل شيء ، وتلك رُقية وخطر . إن روح الفتاة الصغيرة ينبغي ان لا تُترك في الظلام ، ففي حياتها المقبلة سوف تنبثق ضروب السراب المفاجئة جداً ، الناشطة جداً ، وكأنها المصوّرة ذات الحجرة المظلمة . ينبغي ان تنوّر في رفق وفي لباقة ، بانعكاس الحقائق لا بضوئها المباشر القاسي . ضوءٌ نصفيّ مُجدٍ وصارمٌ على نحو بشوش ، يبدّد المخاوف الصبيانية ويحول دون الانزلاق . والغريزة الأمومية ، ذلك الحدسُ العجيب الذي تدخل فيه ذكريات العذراء وتجربة المرأة ، هي وحدها التي تعرف كيف ينبغي لهذا الضوء النصفي ان يُصطنع ، ومن ايّ شيء ينبغي ان يؤلّف .

إن شيئاً ما ، لا يستطيع ان يسدّ مسدّ هذه الغريزة . وفي تكوين عقل الفتاة الصغيرة تعجز جميع راهبات العالم عن مضاهاة امّ واحـدة .

ولم تكن لكوزيت أمّ . كان لها أمهات ليس غير ، امهـــات بصيغة الجمع .

أما جان فالجان فكانت تنطوي نفسه حقاً على ضروب الحنان كلها وضروب العناية الودود كلها ؛ ولكنه لم يكن غـير عجوز لا يعرف شيئاً على الاطلاق .

والآن ، في عمل التربية هذا ، في هذه المسألة الخطـــيرة ، مسألة إعداد المرأة للحياة ، ما أوسع المعرفة التي نحتاج اليها للنضال ضد ذلك الجهل الذي ندعوه البراءة .

ليس ثمة ما يُعد الفتاة الصغيرة للانفعالات مثل الدير . الدير يحوّل الافكار في اتجاه المجهول . والقلب ، وقد طُويَ عـــلى نفسه ليتقهرُ بسبب من عجزه عن التدفق ، وإنه ليزداد عمقـاً بسبب من عجزه عن الانطلاق . ومن هنا تنشأ الرؤى ، والاوهام ، والظنون ، والخيالات المرسومة رسماً أولياً ، والتوق الى المغامرات ، والمنشآت الوهميـــة ، والقصور الكاملة التي تشيد داخل ظلمة العقل ، والمواطن القاتمـة السرية حيث تجد الانفعالات مأوى مباشراً حالما يُعبر الحـــاجز ذو القضبان الحديدية ، ويُجاز لها الدخول . إن الدير ضغطٌ يحتاج ، لكي ينتصر على القلب البشري ، الى أن يستمر طوالَ الحياة .

ولم يكن في ميسور كوزيت ان تجد ، لدن مغادرتهـــا الدير ، شيئاً أبهج وأخطر من المنزل الذي في شارع بلوميه . كان هو استمرارَ العزلة مع بدء الحرية ؛ حديقة مقفلة ، ولكنْ طبيعةٌ حرّيفة ، غنية ، مُغرية ، ذات أرج . الأحلام نفسها التي رأتها في الدير ، ولكن مـــع لمحات من شبان يافعين . باب حديدي ذو قضبان ، ولكنه يطلّ على الشارع .

ومع ذلك فنحن نكرر انها حين وفدت الى هناك لم تكن اكثر من طفلة . لقد أعطاها جان فالجان هذه الحديقة غير المحروثة . قال لها « إفعلي بها ما تشائين » . وأبهجها ذلك . لقد تنقلت فيها من بقعة معشوشبة الى بقعة معشوشبة ، وقلبت كل حجر من الاحجار ، وانشأت تبحث عن « الحيوانات » . لقد لعبت فيها هي تحلم . لقد أحبت هذه الحديقة للحشرات التي وجدتها في العشب تحت قدميها ، فيما أحبته للنجوم التي رأتها في الاغصان التي فوق رأسها .

ثم إنها أحبت اباها ، يعني جان فالجان ، من صميم قلبها ، بعاطفة بنوّية صادقة جعلت الرجل الطيب رفيقاً لها فاتناً ومرغوباً فيه . ونحن نذكر ان مسيو مادلين كان مولعاً بالمطالعة ؛ ولقد واصل جان فالجان على ذلك ؛ ومن خلال هذا أمسى محدّثاً بارعاً . كانت له تلك الثروة السرية وتلك الفصاحة اللتان تكونان عادة لعقل متواضع صادق اكتسب ثقافته بنفسه . ولقد احتفظ من الخشونة بمقدار كافٍ لتتبيل طيبته ؛ كان له عقل قاسٍ وفؤاد رقيق . وفي احاديثهما في اللوكسومبورغ ، كان يقدم اليها شروحاً طويلة لكل شيء ، مستقياً مما سبق له أن قرأه ، ومما كان قد قاساه أيضاً . وكانت عينا كوزيت تليه حالمةً فيما هي تصغي الى حديثه .

لقد كان هذا الرجل البسيط كافياً لعقل كوزيت ، مثلما كانت هذه الحديقة المهملة كافيةً لعينيها . فما إن تطارد الفراشاتِ مطاردة ناشطة حتى تهرع اليه لاهثةً وتقول : « اوه ، كم قد ركضت ! » وكانت تطبع على جبينه قبلة .

كانت كوزيت تعبد هذا الرجل . كانت تعدو ابداً في اثره . فحيث كان جان فالجان كانت السعادة . واذ لم يكن جان فالجان يحيا في المنزل الصيفي أو في الحديقة فقد كانت تجد في الفناء الخلفيّ المرصوف بالحجارة متعةً اكثر من تلك التي تجدها في الحديقة الحافلة بالزهور ، وتجد

في حجرة النوم الصغيرة ذات الكراسي القشية متعة اكثر من تلك التي تجدها في غرفة الاستقبال الكثيرة المزينة جدرانها بالسجاد ، حيث كان في استطاعتها ان تتكىء على كراسيّ حريرية ذوات أذرع . وكان جان فالجان يقول لها في بعض الاحيان ، مبتسماً بالسعادة الناشئة عن شعوره بأنها تضايقه : « لماذا لا تذهبين الى البيت ؟ لماذا لا تتركينني وشأني ؟ »

كانت توجه اليه ضروباً من ذلك التوبيخ اللطيف المليء بالكياسة ، الصادر من البنت الى الأب .

— « ابي ، أنا اشعر بالبرد الشديد عندك . فلماذا لا تضع هنا سجادة وموقداً ؟ »

— « يا طفلتي العزيزة ، هناك كثير من الناس الذين هم خيرٌ مني ، ومع ذلك فليس عندهم مجرد سقف فوق رؤوسهم . »

— « واذن ، فلماذا أنعم انا بالنار وبكل ما احتاج اليه ؟ »

— « لانك فتاة ، وطفلة . »

— « عجيب ! معنى ذلك ان الرجال يجب ان يبردوا ، وان يحرموا كل اسباب الراحة ؟ »

— « بعض الرجال . »

— « حسن . سوف أكثر من المجيء الى هنا لكي تُضطر الى إيقاد النار . »

وقالت له ذات يوم ايضاً :

— « أبي ، لماذا تأكل خبزاً رديئاً مثل هذا ؟ »

— « لأنه ، يا ابنتي . »

— حسن . اذا اكلتَ انتَ من هذا الخبز أكلتُ منه أنا . »

ثم ان جان فالجان ، لكي لا تأكل كوزيت خبزاً اسود ، اخذ يأكل خبزاً ابيض .

ولم تكن لدى كوزيت غير ذكرى غامضة عن طفولتها . لقد صلّت

صباحاً ومساءً من اجل امها ، التي لم تعرفها قط . كان تينارديه وزوجته لا يزالان عندها اشبه بصورتين مروّعتين من صور الاحلام . لقد ذكرت انها قد أرسلت « ذات يوم ، في موهن من الليل » الى الغابة التماساً للماء . ولقد حسبت ان ذلك كان في مكان بعيد جداً عن باريس . لقد بدا لها انها استهلت الحياة في هوّة ، وان جان فالجان قد انتشلها منها . وإنما تمثّلت طفولتها عهداً لم يُحط بها خلاله غير أمّات اربع واربعين ، وعناكب ، وثعابين . وحين كان النعاس يُلمّ بها ليلاً قبل ان تأوي الى سريرها ، واذ لم تكن لها فكرة واضحة عن كونها بنت جان فالجان وكونه اباها ، فقد تخيلت أن روح أمها قد انتقلت الى هذا الرجل الطيب وأقبلت لتحيا معها .

وكانت اذا ما جلس تريح خدها على شعره الاشيب ، وتسفح دمعة في صمت ، قائلةً لنفسها : « لعله ..؟ لعل هذا الرجل أمي ! »

وعلى الرغم من ان هذا يبدو غريباً فان كوزيت ، في جهلها الشديد بوصفها فتاةً نشأت في الدير ، وباعتبار ان الامومة الى ذلك تستغلق على العذارى استغلاقاً كاملاً ، كانت قد انتهت الى التخيل أنه كان لها اقلّ قدْر ممكن من الأمّ . إنها لم تعرف حتى اسمَ تلك الام . وكانت كلما سألت جان فالجان عنها اعتصم جان فالجان بالصمت . حتى اذا كررت سؤالها ، اجابها ببسمة . وذات مرة الحت في السؤال ، فانتهت البسمة بدمعة .

وصمتُ جان فالجان هذا غطى فانتين بحجاب من الظلام .

أكان ذلك فطنة ؟ أكان احتراماً ؟ أكان خوفاً من اسلام ذلك الاسم الى أقدار ذاكرة اخرى غير ذاكرته هو ؟

ويوم كانت كوزيت صغيرة ، كان جان فالجان مولعاً بتحديثها عن امها . اما حين غدت شابة فقد امسى ذلك متعذراً عليه . لقد بدا له

أنه لم يعد يجرؤ على هذا . أكان ذلك بسبب من فانتين ؟ لقد استشعر شبه ذعرٍ تقَوي من إدخال ذلك الظل الى افكار كوزيت ، وجعْل الميتة شريكاً ثالثاً في قدَرهما . وكلما تعاظمت قداسة ذلك الظل عنده بدت له اشدّ هولاً . لقد فكر بفانتين واحس انه مُرهق بالصمت . لقد رأى في الظلام ، وعلى نحوٍ غير واضح ، شيئاً يشبه إصبعاً على فم . أكان ذلك الحياء كله ، الذي كان في يوم من الايام حياء فانتين ، والذى أكره خلالَ حياتها على ان يفارقها عنوة ، قد عاد بعد وفاتها ليقع عليها ، وليسهر ، ساخطاً ، على طمأنينة المرأة الميتة ، وليحرسها بضراوة في قبرها ؟ هل احس جان فالجان بضغط ذلك من غير ان يدري ؟ انا نحن الذين نؤمن بالموت لسنا من الذين يرفضون هذا التفسير الخفي . ومن هنا استحالة النطق ، حتى من اجل كوزيت ، بهذا الاسم : فانتين .

وذات يوم ، قالت له كوزيت :

— « ابي ، لقد رأيت أمي في المنام ، الليلةَ البارحة . كان لها جناحان . ولا ريب في ان أمي قد اشرفت في حياتها على القداسة . »

فأجابها جان فالجان :

— « من خلال الألم العظيم . »

ومع ذلك ، فقد كان جان فالجان سعيداً .

وكانت كوزيت اذا ما خرجت معه اتكأت على ذراعه ، فخوراً ، سعيدة بكامل جوارحها . ولدن أمارات هذا الحنان كلها ، هذه الامارات المقصورة عليه من دون الناس جميعاً والتي لم تكن لتُشبع على نحو كامل إلا معه ، كان جان فالجان يستشعر ان تفكيره قد ذاب في البهجة . كان الرجل البائس يرتعد ، وقد غمره حبور ملائكي ، وكان يعلن في جذله ان ذلك سوف يستمر مدى الحياة . كان يقول في ذات نفسه إنه لم يَلْقَ من العذاب ، في الواقع ، مقداراً كافياً لجعله

مستحقاً مثل هذه السعادة المشرقة ، وكان يشكر الله ، في أعماق روحه ، على ما أجاز له ، هو الرجل البائس ، ان ينعم بحب مثل هذه المخلوقة البريئة .

٥
الوردة تكتشف أنها ماكينة حرب

واتفق لكوزيت ان نظرت ، ذات يوم ، في مرآتها ، فقالت في ذات نفسها : « ماذا ! » لقد بدا لها ، تقريباً ، انها كانت جميلة . وقذف ذلك في فؤادها قلقاً غريباً . فحتى تلك اللحظة ، لم تكن قد فكرت بوجهها . كانت قد رأت نفسها في مرآتها ، ولكنها لم تكن قد رأت الى نفسها . والى هذا ، فكثيراً ما كان يقال لها إنها قبيحة . وكان جان فالجان هو وحده الذي يقول لها في تؤدة : « ولكنْ لا ، ولكن لا ! » وايا ما كان ، فقد تعوّدت كوزيت ان تعدّ نفسها بشعة ، ونشأت على تلك الفكرة باستسلام الطفولة السهل . وها هي ذي مرآتها تقول لها ، مثل جان فالجان : « ولكن لا ! » ولم يغمض لها جفن تلك الليلة . وقالت في ذات نفسها : « لو كنت جميلة ! كم يكون مضحكاً ان اكون جميلة ! » واستعادت في ذاكرتها صُور رفيقاتها اللواتي كان جمالهن يلفت الانظار في الدير ، وقالت : « ماذا ! سوف اكون مثل الآنسة فلانة ! »

وفي اليوم التالي نظرت الى نفسها في المرآة ، ولكن ليس مصادفة ، وأخذها الشك . لقد قالت : « أين كان عقلي ؟ لا ، انا قبيحة . » كانت ، بكل بساطة ، قد نامت نوماً قلقاً ، وكانت عيناها داكنتين ، وكان وجهها شاحباً . انها لم تستشعر الليلة البارحة كثيراً من السعادة لتفكيرها بانها جميلة ، ولكنها كانت محزونة لتفكيرها بأنها لم تعد كذلك . ولم تعاود

النظر الى نفسها في المرآة ، وطوال اكثر من خمسة عشر يوماً حاولت ان تصفف شعرها مديرة ظهرها الى المرآة .

وفي المساء ، بعد تناول العشاء ، كانت تقوم وفقاً لعادتها ببعض أعمال التطريز أو ببعض الأعمال الديرية في حجرة الاستقبال ، فيما يقرأ جـــان فالجان الى جانبها . وذات مرة ، رفعت عينيها عن عملها فأخذهـــا اعظم الدهش للطريقة التي كان أبوها ينظر بها اليها .

وفي مناسبة اخرى ، كانت تجتاز بالشارع فبدا لها أن شخصاً لم تره كان سائراً خلفها وانه قال : « امرأة جميلة ، ولكنها رديئة الـــبزة ! » فقالت في ذات نفسها : « لا ، لا . لست انا المقصودة . انا حسنة الـبزة وقبيحة الصورة . » كانت آنذاك تعتمر بقبعتها المصنوعة من نسيج وبـِر وترتدي ثوبها المخيط من نسيج مَرِينيّ .

واخيراً ، كانت في الحديقة ذات يوم ، فسمعت توسين البائسة العجوز تقول : « سيدي ، أتلاحظ الى ايّ حد غدت الآنسة جميـــلة ؟ » ولم تسمع كوزيت جواب أبيها . واوقعت كلمات توسين في اوصالها شبه هزة . فغادرت الحديقة راكضة ، واسرعت الى المرآة ـ وكانت قـد انقضت ثلاثة اشهر هجرتها خلالها فلم تنظر الى نفسهـا فيها ـ وأطلقت صيحة . لقـــد بهرتها نفسها .

كانت جميـــلة ومليحة . ولم يكن في وسعها إلا أن تُقرّ توسين ومرآتها على رأيها . كان قوامها كاملًا ، وكانت بشرتهـــا قد أصبحت بيضاء ، وكان شعرها قد غدا صقيلًا ، وكان بهاء مجهول يضيء في عينيها الزرقاوين . وكان وعيها لجمالها قد ألمّ بها دفعةً واحـــدة ، في دقيقة واحدة ، مثل وضح النهار حين يطلع علينا . والى هـذا ، فقد لاحظ الآخرون ذلك ، ولقد قالته توسين . وحديث عابر السبيل لم يكن إلا عنها ؛ فلم يبق ثمة شك . وعاودت الهبوط الى الحديقة من جديد ، حاسبةً نفسها ملكة ، سامعةً الطيور تغني ، فقد كان الفصل شتاء ، مشاهدةً

السماء مذهّبة والشمس في الاشجار ، والأزهار وسط الأدغال ، مستهامةٌ ، مجنونةٌ ، يغمرها جذل لا سبيل الى وصفه .

أما جان فالجان فاستشعر ، من ناحيته ، حصراً في الفؤاد عميقاً مستغلقاً .

كان قد شرع يفكر في رعب منذ فترة ، بذلك الجمال الذي بدا وكأنه يزداد اشراقاً ، يوماً بعد يوم ، على وجه كوزيت العذب . كان ذلك الفجر ، الضاحك في وجوه الناس جميعاً ، مأتمياً في نظره .

وكانت كوزيت جميلةً فترةً ما ، قبل أن تلمح ذلك . ولكنْ ، منذ اليوم الاول ، جرح ذلك الضياء غير المتوقع الذي ارتفع بطيئاً والذي احاط بشخص الفتاة الصغيرة كله نقول جرح ذلك الضياء عيني جان فالجان القاتمتين . لقد استشعر ان ذلك كان تغيراً في حياة سعيدة ، سعيدةٍ الى درجة جعلته لا يجرؤ على تحريكها خشية أن يزعج فيها شيئاً . والواقع ان هذا الرجل الذي عرف ضروب الشقاء على اختلافها ، والذي كان لا يزال مضرّجاً بصنوف التمزيق التي انزلها به قَدَرُه ، والذي كان من قبلُ شريراً او يكاد ، والذي كان قد أمسى قدُسياً او يكاد ، والذي يجرّ الآن ، بعد أن سبق له جرّ سلاسل سجن الاشغال الشاقة ، سلاسلَ العار اللانهائي غير المنظورة وإن تكن ثقيلة ، هذا الرجل الذي لم يُعتقه القانون ، والذي قد يعاد القاء القبض عليه في كل لحظة ، ويُرجَع به من ظلمة فضيلته الى وَضح عاره الاجتماعي ، هذا الرجل ارتضى كل شيء ، والتمس العذر عن كل شيء ، وغفر كل شيء ، وبارك كل شيء ، وتمنى الخير لكل إنسان ، ولم يسأل العناية الالٰهية ، والناس ، والقوانين ، والمجتمع ، والطبيعة ، والعالم ، غير شيء واحد ، هو أن تحبه كوزيت !

ان تقيم كوزيت على حبه ! ان لا يحرم الله فؤاد هذه الطفلة من ان يُقبل عليه ، وان يظل له ! كان يستشعر ، اذ يغمره حب كوزيت

انه معافىً ، منتعش ، مطمئن النفس ، مرتاح الضمير ، مُثاب ، موفق الى النجاح . كان يستشعر ، اذ يغمره حب كوزيت ، انه سعيــــد . كان لا يطمع في اكثر من ذلك البتة . ولو ان اي امريء قال له : « هل ترغب في شيء افضل ؟ » اذن لأجاب : « لا » . ولو ان الله قال له : « هل ترغب في الجنة ؟ » اذن لأجاب : « عندئذ اكون أنا الخاسر . »

وكان كل ما قد يمسّ هذه الحالة ، ولو بمجرد مسّ سطحي ، يوقع في اوصاله الرعدة ، وكأنه بدء حالة اخرى . انه لم يعرف قط ، على نحو واضح جداً ، ايّ شيء كان جمال المرأة ، ولكنه ادرك ، بالغريزة ، انه شيء فظيع .

وهذا الجمال الذي كانت أكمامه تتفتح أمامه ، تحت بصره ، تفتحاً يزداد ظفراً وجلالاً ، على جبين هذه الطفلة الساذج الرهيب — هذا الجمال نظر اليه جان فالجان من اعماق بشاعته ، وشيخوخته ، وبؤسه ، ونفوره الشديد ، وضناه ، في ذعر .

لقد قال في ذات نفسه : « ما أجملها ! ما الذي سيحلّ بي ؟ »

ههنا في الواقع كان الفرق بين حنانه وحنان الام . ان ما رأى اليه في غصة مريرة كان خليقاً بالأم ان ترى اليه في جذل .

ولم تبطيء الاعراض الاولى في الاعلان عن نفسها .

فمنذ اليوم التالي لذلك الذي قالت فيه : « أنا جميلة حقاً ! » شرعت كوزيت تعتني بملابسها . لقد ذكرت كلمات عابر السبيل : « جميلة ولكنها رديئة البزة » ، نفثة من هتاف الغيب مرت بها ثم تلاشت بعد أن اوقعت في فؤادها احدى البذرتين اللتين ينبغي ان تملآ في ما بعد كامل حياة المرأة : الدلال . اما البذرة الاخرى فهي الحب .

وفي ايمان بجمالها ، تفتحت نفسها الانثوية كلها في باطنها . لقد أخذها الذعر من النسيج المريني وعصف بها الخجل من النسيج الوبر ، ولم يضنّ

عليها والدها بشيء ما ، في يوم من الايام . لقد عرفت في الحال كامل علم القبعة ، والفستان ، والرداء القصير ، والحذاء العالي ذي الرباط ، وزينة طرف كمّ القميص ، والقماش الملائم ، واللون اللائق ، ذلك العلم الذي يجعل المرأة الباريسية شيئاً فاتناً جداً ، عميقاً جداً ، وخطراً جداً . ان عبارة **المرأة المسكِرة** قد اخترعت للباريسية .

وفي أقل من شهر لم تغدُ كوزيت احدى الفتيات الاكثر جمالاً في شارع بابل المنعزل ذاك فحسب ، وهو شيء ليس بقليل ، ولكن واحدة من احسن الفتيات بزة في باريس ، ايضاً ، وهو شيء اعظم شأناً. وكان خليقاً بها ان تتوق الى الالتقاء بـ « عابر سبيلها » لتسمع ما الذي يمكن ان يقوله ، ولكي « تُتيه »! والحق أنها كانت فاتنة من كل ناحية . وانها كانت تميز على نحو رائع ما بين « قبعة جيرار » و « قبعة هيربو » .

وراقب جان فالجان هذه الاعمال المخربة في قلق . لقد رأى – هو الذي استشعر انه لم يكن قادراً قط على غير الزحف ، أو على غير المشي في الاكثر – رأى جناحين ينموان لكوزيت .

ومع ذلك ، فمن مجرد الملاحظة البسيطة لزينة كوزيت كان في ميسور ايما امرأة أن تدرك أن لا أمّ لها . فقد كانت ثمة بعض اللياقات الصغيرة وبعض المتواضعات الخاصة التي لم تكن كوزيت تراعيها . ولو كان لها أمٌ اذن لانبأتها ، مثلاً ، ان الفتيات الصغيرات لا يرتدين الدمقس البتة .

واول مرة خرجت فيها كوزيت بفستانها وردائها القصير المصنوعين من الدمقس الأسود وبقبعتها المصنوعة من « كريب » أبيض ، اقبلت على جان فالجان لتأخذ بذراعه ، بهيجة النفس ، مشرقة المحيا ، متوردة الوجنتين ، معتزة ، ناضرة ، وقالت : « أبي ، كيف تراني الآن ؟ » فاجابها جان فالجان بصوت كان أشبه بصوت الحسد المرير : « فاتنة ! » لقد بدت كعادتها ، خلال تلك النزهة . وحين انقلبا الى المنزل سأل كوزيت :

– « ألن ترتدي فستانك وقبعتك بعد الآن ؟ »

وكان ذلك في غرفة كوزيت . واستدارت كوزيت نحو خزانة الملابس حيث كان فستانها المدرسي معلقاً وقالت :

– « هذا القناع ! ابي ، ماذا تريد مني ان افعل به ؟ أوه ، لا ، من غير شك ، أنا لن ارتدي هذه الاشياء المروّعة بعد الآن . اني حين أعتمر بهذا الشيء البغيض أبدو مثل مدام « الـكلبة المسعورة . »

واطلق جان فالجان زفرة عميقة .

ومنذ ذلك الحين لاحظ ان كوزيت التي كانت من قبل تطلب دائماً ان تلزم بيتها قائلة : « أبي ، اني أسعد بالبقاء معك هنا اكثر » أمست الآن تسأله دائماً أن ينطلقا الى الخارج . وفي الواقع ، ما جدوى ان يكون للفتاة محيا جميل وزينة بهيجة إن لم يرهما الناس ؟

ولاحظ ايضاً أن كوزيت لم تعد تأنس بالفِناء الخلفي كدأبهـا من قبل . لقد أضحت الآن تؤثر البقاء في الحديقة ، متنزهة من غير اكتئاب أمام الباب الحديدي . أما جان فالجان ، النّفور ، فلم تطأ قدمـــه الحديقة . لقد ظل في فنائه الخلفيّ ، ككلب من الكلاب .

واذ عرفت كوزيت انها جميلة فقدَت ملاحةَ جهلها لذلك . ملاحـة بديعة ، لأن الجمال ، حين يُعلـّى بالبساطة ، يكون فائقاً الوصف . وليس شيء اروع من البراءة الباهرة للابصار ماضيةً في سبيلها ، حاملةً في يدها ، من غير ان تعي ، مفتاح جنة من الجنان . ولكن ما فقدته من ملاحةٍ ساذجة عوّضته فتنةٌ جدية مروّىً فيها . كان كيانها كله ، وقد غلبت عليه مباهج الشباب ، والبراءة ، والجمال ، يعبق بكآبة بهيّة .

في هذه الفترة بالذات ، رآها ماريوس من جديد ، بعد انقضاء ستة أشهر ، في حديقة اللوكسومبورغ .

٦
المعركة تبدأ

كان كوزيت ، في عزلتها ، مثل ماريوس في عزلته ، على أتم الاستعداد للاشتعال . وكان القدر ، بأناته الخفية المحتومة ، يقرّب شيئاً بعد شيء ما بين هذين الكائنين المشحونين كل الشحن الواهنين كل الوهن بكهرباء الهوى العاصفة – هاتين النفسين اللتين حملتا الحب مثل سحابتين تحملان البرق ، واللتين كان لهما أن تجتمعا وتمتزجا في نظرة ، كما تجتمع سحابتان وتمتزجان في ومضة .

لقد بالغنا في تشويه قوة النظرة في القصص الغرامية الى درجة جعلتنا نفقد ايماننا بها . فقليل من الناس يجرؤون اليوم على القول ان شخصين قد أحبا لانهما تبادلا النظر . ومع ذلك ، فالحب إنما يبدأ بهذه الطريقة ، وبهذه الطريقة وحسب . والبقية ليست غير البقية ، وهي تأتي في ما بعد . إن شيئاً ليس اكثر واقعيةً من هذه الهزات العظمى التي تتبادلها نفسان اثنتان إذ تتبادلان هذه الشرارة .

في تلك اللحظة التي نظرت فيها كوزيت ، لا واعيةً ، تلك النظرة التي عصفت بماريوس ، لم يستشعر ماريوس انه هو ايضاً قد ألقى نظرة أورثت كوزيت حيرةً وقلقاً .

لقد تلقّت منه الشرّ نفسه ، والخير نفسه .

كانت قد سلخت فترة طويلة وهي تنظر اليه وتتأمل فيه ، كما تتأمل الفتيات وينظرن ، فيما هنّ يتطلعن في الاتجاه الآخر .

وكان ماريوس لا يزال يحسب كوزيت قبيحة ، وكانت كوزيت قد بدأت ترى ماريوس جميلاً . وإذ لم يلتفت ذلك الشاب اليها فانها لم تبالِ به .

ومع ذلك فلم تتمالك عن ان تقـــول في ذات نفسها إن له شعراً جميلاً ، وعينين جميلتين ، واسناناً جميلة ، وصوتاً ساحراً ، عندما سمعته يتحدث الى رفاقه ؛ وإنه يمشي مشية خرقاء ، اذا شئت ، ولكن في ملاحة خاصة به ؛ وإنه لم يبدُ أحمق بحال من الأحوال ؛ وإن شخصه كله كان نبيلاً ، لطيفاً ، بسيطاً ، فخوراً ؛ وأخيراً انه كان ذا مظهر بائس ، ولكنه مظهر حسن .

ويوم التقت عيونهما وقالت لهما ' فجاءة ' ، آخر الأمر ، أولى هـــذه الاشياء الغامضة التي لا سبيل الى وصفها والتي تتمتم بهـــا النظرةُ ، لم تفهم كوزيت للوهلة الأولى . لقد انقلبت ، مشغولة البال ، الى البيت الذي في شارع الغرب حيث كان جان فالجان يقضي ، وفقاً لعادتـه ، ستة أسابيع . وفي اليوم التالي ، عند نهوضها من النـوم ، فكرت في هذا الشاب المجهول ، الذي طالما كان لامبالياً مثلوجاً ، والذي بـــدا الآن وكأنه يلتفت اليها بعض التفات ، ولم يبدُ لها ان هذا الاهتمام كان محموداً بحال من الاحوال . بل لقد اخذهـا الغضب ، بعض الشيء ، من هذا المتأنق المحتقر للناس . لقد أثيرت في ذات نفسها حرب خفية . ولقد بدا لها — واستشعرت في ذلك بهجة ما تزال صبيانية كلها — أنْ سوف يؤخذ بثأرها آخر الامر .

واذ ادركت انها بهية الطلعة ، فقد استشعرت في قوة — ولو على نحو غامض — انها تملك سلاحـــاً . إن النساء يلعبن بجمالهن كما يلعب الاطفال بُمداهم . إنهن يجرحن أنفسهن به .

ونحن نذكر ضروب التردد التي عاناها ماريوس ، وخفقان فؤاده ، وصنوف الذعر التي ألمت به . لقد لزم مقعده ولم يقترب ، وهذا مـا أسخط كوزيت . وذات يوم قالت لجان فالجان : « أبي ، دعنا نمشي قليلاً في هذه الناحية . » ذلك انها حين رأت الى ماريوس لم يُقبـــل نحوها ، قصدت هي اليه . وعلى أية حال ، فمن عجب ان أول أعراض

الحب الصحيح ، عند الفتى ، هو الخجل ، على حين انه عند الفتاة الجسارة . هذا شيء يدعو الى الدهش ، ومع ذلك فليس ثمة ما هو اكثر طبَعية . إنهما الجنسان وقد نزعا الى الاتحاد ، فكل منهما يكتسب صفات الآخر .

وذلك اليوم أثارت نظرة كوزيت جنون ماريوس ، واثارت نظرة ماريوس الرعدة في أوصال كوزيت . ومضى ماريوس لسبيله واثقاً من نفسه ، ومضت كوزيت لسبيلها قلقةً . ومنذ ذلك الحين عبد كل منهما الآخر .

كان أول ما استشعرته كوزيت حزناً غامضاً ولكنه عميق . لقد بدا لها أن نفسها قد أمست — منذ البارحة — سوداء . إنها لم تعد تعرف نفسها . فبياض نفوس الفتيات ، المؤلف من برودة وبهجة ، اشبه بالثلج . إنه يذوب أمام الحب ، الذي هو شمسه .

ولم تكن كوزيت تدري ما الحب . إنها لم تسمع قطّ هذه الكلمة تلفظ في معناها الأرضي . ففي كتب الموسيقى الدنيوية التي دخلت الدير كانت كلمة *amour* (الحب) تحذف ويوضع مكانها كلمة *tambour* (الطبل) او كلمة *pandour* (الرجل الفظ) . وهذا ما أحدث أحاجي كانت تمرن خيال الفتيات الكبيرات ، مثل : « **أوه ، ما أحلى الطبل !** » أو : « **الشفقة ليست رجلاً فظاً !** » ولكن كوزيت غادرت الدير وهي بعدُ أصغر من أن يشغل بالها أمر « الطبل » . واذن ، فما كانت لتدري ايّ اسم ينبغي أن تخلعه على خبرتها الجديدة هذه . أيكون المرء اقلّ مرضاً لمجرد جهله اسم مرضه ؟

ولقد احبت بهيام أعنف إذ أحبت في جهالة . انها لم تدرِ أكان ذلك خيراً أم شراً ، مفيداً أم خطِراً ، ضرورياً أم عارضاً ، سرمدياً ام انتقالياً ، مباحاً أم محرماً ؛ لقد أحبت . ولقد كان خليقاً بها أن تدهش أعظم الدهش لو ان أحداً قال لها : « أنتِ أرقة ؟ ولكن هذا

محظّر ! انت لا تأكلين ؟ ولكن هذا ضرر كبير ! ان قلبك ليفور ويخفق خفقاً سريعاً ؟ ولكن هذا غير حسن ! ان وجهك ليحمر وإن الشحوب ليستبدّ بك حين يبرز كائن ما ، مُرْتدٍ بذلة سوداء ، عند نهاية مجاز أخضر ؟ ولكن هذا مستهجن ! » كان خليقاً بها ان لا تفهم هذا الكلام ، وان تجيب قائلة : « وكيف يجوز ان ألام على شيء لا قِبَل لي به ، ولست اعرف عنه شيئاً ! »

لقد اتفق ان الحب الذي برز لها كان على وجه الضبط ذلك الذي لاءم أحسن الملاءمة حالتها النفسية . كان ضرباً من عبادة قصيّة ، تأملٍ أبكم ، تأليه من مجهول . كان تجلّي المراهقة للمراهقة ، حلمَ لياليها وقد غدا قصة وظلّ حلماً ، الطيفَ المتمنّى وقد تحقق آخر الأمر ، وجُعِل من لحم ودم ، ولكنه ظلّ من غير اسم ، فليس هو خطأ ، وليس هو نقيصة ، وليس هو حاجة ، وليس هو شائبة ؛ وبكلمة ؛ محبّ ناءٍ عائشٌ في المثل الاعلى ، وهمٌ متخذٌ شكلًا . والواقع ان أيما لقاء اوثق من هذا اللقاء وأقرب الى الحس كان خليقاً به ، في هذه الفترة الأولى ، ان يروّع كوزيت ، وهي التي كانت ما تزال نصف مدفونة في سراب الدير المضخّم . كانت خاضعة لجميع مخاوف الاطفال وجميع مخاوف الراهبات ممتزجةً . كانت روح الدير ، التي أُشربت بها طوال خمس سنوات ، لا تزال تتبخر من شخصها كله في بطء ، فتجعل كل شيء من حولها يرتجف . وفي هذه الحال ، لم يكن المحبّ هو ما تحتاج اليه ، بل لم يكن المعجَب هو ما تحتاج اليه . كانت في حاجة الى رؤيا . وشرعت تهيم بماريوس كشيء فاتن ، ساطع ، مستحيل .

واذْ كان اقصى السذاجة يجاور اقصى الدلال ، فقد ابتسمت له في صراحة بالغة .

كانت تنتظر موعد النزهة كل يوم ، في نفاد صبر ، فتجد هناك ماريوس ، وتستشعر أنها سعيدة على نحو لا يوصف . واعتقدت صادقةً

انها عبرت عن كامل تفكيرها عندما قالت لجان فالجان : « ما أروع اللوكسومبورغ من حديقة ! »

كان ماريوس وكوزيت يعيشان في ظلام متبادل . إنهما لم يتطارحا الكلام ، ولم يتبادلا الانحناء ، ولم يتعارفا . لقد رأى احدهما الآخر ليس غير . وكنجوم السماء التي يفصل ما بينها ملايين الفراسخ ، عاشا على تبادل النظرات .

وعلى هذا النحو استوى شباب كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، ونمت ، جميلةً عاشقةً ، واعيةً جمالها ، جاهلةً حبّها . وشبّت ، الى جانب ذلك ، مغناجة ، من خلال البراءة .

٧
للحزن ، حزن ونصف

لكل حال غريزتها . ومن هنا فأن الأم العجوز السرمدية ، الطبيعة ، انذرت جان فالجان بوجود ماريوس . وارتعد جان فالجان في اعماق تفكيره . إنه لم يرَ شيئاً ، ولم يعرف شيئاً ، ومع ذلك فقد حدّق في انتباه موصول الى الظلام الذي أحاط به ، وكأنما كان يلمح في ناحية شيئاً يُشيّد ، وفي ناحية شيئاً ينهار . وأنذر ماريوس ايضاً ، ووفقاً لقانون الرب العميق ، من قِبَل الأمّ نفسها ، الطبيعة ، فبذل غاية جهده للاحتجاب عن « الأب » . ومع ذلك ، فقد كان يتفق ان يلمحه جان فالجان في بعض الاحيان . ولم تعد مسالك ماريوس طبيعية البتة . كانت له فطنة مريبة ، وجسارة خرقاء . لقد كفّ عن الاقتراب منهما كعادته من قبل ؛ أمسى يجلس على مسافةٍ ما ، ويستغرق ثمّةَ في نشوة روحية . وكان يحمل كتاباً ، فهو يتظاهر بالقراءة فيه . لمن كان

يتظاهر بالقراءة ؟ كان من قبل يَفِد ببذلته العتيقة ؛ أما الآن فقد غدا من دأبه ان يرتدي بذلته الجديدة كل يوم . ومن يدري ، فلعله كان يجعد شعره ، وكانت له عينان غريبتان ، وكان يلبس قفازين . وعلى الجملة فقد كره جان فالجان هذا الشاب في ودّ .

ولم تدع كوزيت أيما مجال للريبة . ومن غير ان تدري على وجه الضبط ما الذي ألمّ بها ، فقد استشعرت شعوراً واضحاً جداً بانه كان شيئاً ما ، وان عليها ان تخفيه .

وكان بين الرغبة في التبرج التي نشأت عند كوزيت وبين عادة ارتداء البذلات الجديدة التي نشأت عند هذا الرجل المجهول توازٍ اوقع القلق في نفس جان فالجان . وقد تكون مجرد مصادفة ، من غير شك ، ولكنها مصادفة تنذر بخطر .

ولم ينبس قط ببنت شفة ، امام كوزيت ، عن هذا الرجل المجهول. بيد انه لم يملك نفسه ، ذات يوم ؛ وبذلك اليأس الغامض الذي يُلقي بالمسبار ، فجأةً في خضمّ التعاسة ، قال لها : « أيّ سيما مدّعية تبدو على وجه هذا الشاب ! »

وقبل عام واحد كان خليقاً بكوزيت ، الفتاة الصغيرة اللامباليـــة . ان تجيب : « ولكن لا ؛ إنه فاتن . » وبعد عشر سنوات ، وقد عمر فؤادها حبُّ ماريوس ، كان خليقاً بها ان تجيب : « مـــدّعٍ لا تطيقه العين ! انت على صواب ! » اما في مرحلة العمر والقلب التي كانت تجتازها آنذاك فقد اجتزأت بمجرد القول في هدوء بالغ : « ذلك الشاب ! »

لكأنما رأته للمرة الاولى في حياتها .

وفكّر جان فالجان : « ما اشدّ حماقتي ! انها لم تلمحه مجرد لمح . لقد اريتها اياه بنفسي . »

فيا لبساطة المسنين ! ويا لعمق الشباب !

وثمة قانون آخر لهذه السنوات الفتية من العذاب والشجون ، او هذه الصراعات العنيفة التي يقوم بها الحب الاول ضد العقبات الاولى ، وهو أن الفتاة لا تدع نفسها تسقط في أيا شرَك ، على حين ان الشاب يسقط فيها جميعاً . وكان جان فالجان قد شنّ حرباً نكدةً على ماريوس ، حرباً لم ينتبه لها ماريوس بسبب من الحماقة الرفيعة التي يتميز بها هواه وعمره . لقد نشر جان فالجان من حوله جمهرةً من الاشراك ؛ لقد غيّر مواعيده ، وغيّر مقعده ، ونسي منديله ، ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ منفرداً . وسقط ماريوس عمودياً في كل من تلك الاشراك ، وعن جميع علامات الاستفهام التي زرعها جان فالجان في طريقه اجاب في سذاجة : نعم . وفي غضون ذلك كانت كوزيت ما تزال مسورة في لامبالاتها الظاهرية ، وهدوئها الثبت الجنان ، حتى لقد انتهى جان فالجان الى هذا الاستنتاج : « ان هذا الفتى الاحمق يحب كوزيت حباً جنونياً ، ولكن كوزيت لا تحسّ حتى بوجوده ! »

ومع ذلك فقد كانت في فؤاده رعدة أليمة . فالدقيقة التي ستقع فيها كوزيت في الحب قد تأتي بين لحظة ولحظة . اليس يبدأ كلُّ شيء باللامبالاة ؟

ومرةً واحدة اقترفت كوزيت غلطةً ، وروّعته . لقد نهض من مقعده ليذهب ، بعد ان جلس هناك ثلاث ساعات ، فقالت : « في مثل هذه السرعة ! »

ولم يكن جان فالجان قد اقلع عن التنزه في اللوكسومبورغ ، غير راغب في ان يأتي عملاً شاذاً ، وخائفاً قبل كل شيء من ان يثير ارتياب كوزيت . ولكن خلال هذه الساعات البالغة العذوبة عند العشاق ، فيما كانت كوزيت ترسل بابتسامتها الى ماريوس المدلّه ، الذي لم يلمح شيئاً غير ذلك ، والذي لم يعد يرى في العالم غير وجه مشرق معبود كان جان فالجان يسمّر على ماريوس عينين متوهجتين فظيعتين . كانت

له ، وهو الذي انتهى الى الاعتقاد بانه امسى عاجزاً عـن كل شعور شرير ، لحظاتٌ خطر له فيها - كلما كان ماريوس هناك - انه قد انقلب وحشياً وضارياً كرةً اخرى ، واستشعر أنه يفتح ويهيج في وجه هذا الشاب أعماق روحه القديمة حيث كان في وقت من الاوقات ركام مـن الحقد هائل . لقد بدا له ، او كاد ، وكأن فوهات براكـين مجهولة كانت تتشكل في ذات نفسه من جديد .

ماذا ؟ أكان ذلك المخلوق هناك ؟ لأي غرض أقبل ؟ لقد أقبـل ليسترق السمع ، ليستروح ، ليدرس ، ليجرّب ! لقد اقبـل ليقول : « ايه ؟ ولِمَ لا ؟ » لقد أقبـل ليطوّف حول سعادته ، لـكي يخطفها ويسلبه اياها !

واضاف جان فالجان : « أجل ، هو ذلك ! عمّ يبحث ؟ مغامرة ؟ ماذا يريد ؟ محبوبة ! أما أنا ؟ ماذا ! أنا ، بعد أن كنت ابأس الناس ، سوف أصبح اتعس الناس ! لقد قضيت ستين عاماً من الحيـاة على ركبتيّ ! لقد قاسيت كل ما يستطيع انسان ان يقاسيه ! لقد شخت من غير ان اعرف الشباب ! لقد عشت من غير اسرة ، من غير انسباء ، من غـير اصدقاء ، من غير زوجة ، من غير اولاد ! لقـد تركت شيئاً من دمي على كل حجر ، على كل شوكة ، على كل مَعْلم ، وعلى كل جدار ! لقـد كنت دمثاً على الرغم من ان العالم كان قاسياً عليّ ، وخيّراً على الرغم من ان العالم كان شريراً ، ولقد اصبحت رجلاً اميناً على الرغم من كل شيء ! لقد تبتُ عن الاثم الذي ارتكبته ، وغفرت المظالم التي أنزلت بي ، ولحظةَ عُوّضتُ من ذلك كله ، ولحظةَ انتهى ذلك كله ، ولحظة بلغتُ الغاية ، ولحظة فزت بما ارغب فيه ، في عدل وحق - فقد دفعت ثمنـه وكسبته كسباً - يوشك كل شيء ان يزول ، يوشك ان يتـلاشى ، واذا بي أكاد أخسر كوزيت ، أخسر حياتي ، وبهجتي ، وروحي ، لمجرد ان أحمق كبيراً راق له ان يجيء ويتسكع في حديقة اللوكسومبورغ ! » .

ثم إن عينيه حفلتا بضياء غريب حداديّ . انه لم يعد رجلاً ينظر الى رجل . إنه لم يكن عدواً ينظر الى عدوّ ، كان اشبه ما يكون بكلب ينظر الى لصّ .

ونحن نعرف البقية . وتواصل جنون ماريوس . وذات يوم لحق بكوزيت الى شارع الغرب . وفي يوم آخر تحدّث الى البواب . وتحدث البواب بدوره ، وقال لجان فالجان : « سيدي ، من ذلك الشاب الغريب الذي كان يسأل عنك ؟ » وفي اليوم التالي ألقى جان فالجان على ماريوس تلك النظرة التي لمحها ماريوس آخر الامر . وبعد اسبوع ، كان جان فالجان قد انتقل من منزله . لقد وطّن العزم على ان لا يطأ منذ اليوم لا حديقة اللوكسمبورغ ولا شارع الغرب . ورجع الى شارع بلوميه .

ولم تتشكّ كوزيت ، ولم تقل شيئاً . انها لم تسأل ايما سؤال ، ولم تسعَ الى ان تعرف السبب البتة . كانت قد انتهت الى تلك المرحلة التي يخشى المرء فيها الانكشاف والانفضاح . ولم تكن لجان فالجان خبرة بهذا الشقاء ، وهو الشقاء الوحيد الفاتن ، والشقاء الوحيد الذي لم يعرفه . ومن اجل ذلك لم يفهم المغزى العميق الذي انطوى عليه صمت كوزيت . لقد لاحظ أنها امست حزينة ، ليس غير ، فأظلمت الدنيا في عينيه . كانت في كل من الناحيتين غرارة * مسلحة .

وذات يوم ، قام بمحاولة . لقد سأل كوزيت :

— « أتحبين ان تذهبي الى اللوكسمبورغ ؟ »

واضاء شعاع من نورٍ وجهَ كوزيت الشاحب .

وقالت :

— « نعم . »

ومضيا . كانت ثلاثة اشهر قد تصرمت . وكان ماريوس قد انقطع عن الذهاب الى الحديقة . إن ماريوس لم يكن هناك .

---

* عدم خبرة .

وفي اليوم التالي ، سأل جان فالجان كوزيت ايضاً :
— « أتحبين ان تذهبي الى اللوكسومبورغ ؟ »
فأجابت في حزن وفي لطف :
— « لا . »
واغتمّ جان فالجان لهذا الحزن ، وابتأس لهذا اللطف .
ايّ شيء كان يدور في هذه الروح الغضة الى ابعد الحدود ، العسير فهمها ، برغم ذلك ، الى أبعد الحدود ؟ ما الذي كان على وشك ان يتمّ فيها ؟ ماذا ألمّ بنفس كوزيت ؟ وفي بعض الاحيان ، كان جان فالجان ، بدلاً من ان يأوي الى النوم ، يجلس بجانب فراشه الحقير ، واضعاً رأسه بين يديه ، ويمضي ليالي بطولها سائلاً نفسه : « ما الذي يدور في خَلَد كوزيت ؟ » ، ومستعرضاً اي الاشياء يمكن ان تشغل بالها .
اوه ! أيّ نظرات فاجعة سدّدها ، في تلك اللحظات نحو الدير ، هذه القمة الطاهرة ، ذلك النزل الذي تأوي اليه الملائكة ، كتلة الفضيلة الجليدية التي لا سبيل الى بلوغها ! وبأيّ ذهول مُونس تأمّل حديقة الدير ، الملأى بالرياحين المجهولة ، والعذارى المطوّقات ، حيث كل الاطياب وكل النفوس ترتفع مباشرة نحو السماء ! كم قد هام بجنة عَدْن تلك ، الموصدة في وجهه الى الابد ، والتي غادرها بطوعه ، وهبط منها في حماقة ! كم قد ندم على انكاره لذاته ، وخَبَلِهِ الذي حمله على ان يرجع بكوزيت الى العالم ! — يا له بطلاً من ابطال التضحية البائسين ، يُمسك به تفانيه نفسُهُ ويطرحه ارضاً ! — وكم قال في ذات نفسه : « ما الذي اقدمت عليه ؟ »
ومع ذلك فانه لم يصرح لكوزيت بشيء من ذلك : فلا دمائة ولا قسوة . لقد احتفظ ابداً باساريره وجهه الرائعة اللطيفة نفسها . بل إن مسالكه كانت اكثر حناناً وأشدّ أبوية من أي وقت مضى .

واذا كان شيء يستطيع ان يثير الريبة في أن ثمة نقصاً في السعادة فانما هو الزيادة في الرفق .

اما كوزيت فوهنت وذبلت . لقد قاست من غيـاب ماريوس ، كما ابتهجت لوجوده ، بطريقة فريدة ، من غير ان تعرف ذلك على وجه التحقيق . فحين كفّ جان فالجان عن اصطحابها في نزهتها المألوفة غمغمت غريزتها النسوية ، غمغمةً غامضة ، في اعماق فؤادها تقول لها ان عليها ان لا تُظهر التشبث باهداب اللوكسومبورغ . وانها اذا ما أبدت لامبالاةً بها فعندئذ يعاود أبوها أخذها الى هنـــاك . ولكن الايام تصرّمت ، وتبعتها الاسابيع ، ثم الأشهر . وكان جان فالجان قد ارتضى ، ضمناً ، موافقة كوزيت الضمنية . وندمت على ذلك . كان الاوان قد فات . فيوم رجعت الى اللوكسومبورغ لم يكن ماريوس هناك . كان ماريوس قد اختفى . وكان كل شيء قد انتهى . ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ أيقدّر لها ان تعثر عليه في يوم من الايام ؟ واستشعرت انقباضــاً في صدرها ، انقباضاً لم يفرّج شيء من كربته ، فهو يتعاظم يوماً بعـــد يوم . لم تعد تعرف ما اذا كان الفصل شتاء ام صيفاً ، وما اذا كان الجو مشرقاً ام ممطراً ؛ ما اذا كانت الطير تغرد ام لا ، وما اذا كان الموسم موسم الدهلية ام الاقحوان الصغير ؛ ما اذا كانت اللوكسومبورغ اشد سحراً من التويلري ام لا ؛ وما اذا كانت الانسجة الكتانية التي عادت بها الغسالة الى البيت منشّاة اكثر مما ينبغي ام اقلّ مما ينبغي ، وما اذا كانت توسين تتسوّق حاجات المنزل على نحو حسن أم غير حسن . وغدت متعَبَة ، شاردة اللبّ ، مستغرقة في فكرة واحدة ، مهتاجـة العين مسدّدتها ، كشأن المرء حين ينظر في الظلام الى المكان العميق الاسود حيث تلاشت رؤيا من الرؤى .

ومع ذلك ، فلم تدع جان فالجان يرى ايّ شيء ما خلا شحوبها . ان ابتسامتها له لم تفارق محياها .

وكان هذا الشحوب كافياً ، بل اكثر من كافٍ ، لأن يُقلق جان فالجان . وسألها ذات مرة :

– « ما خطبكِ ؟ »

فأجابت :

– « لا شيء . »

وبعد صمت ، اردفت وقد استشعرت انه محزونٌ ايضاً :

– « وانت يا أبي ، ألست تشكو شيئاً ؟ »

فقال :

– « انا ؟ لا ، على الاطلاق . »

وفي الحق أن هذين الكائنين ، الذين تبادلا اعظم الحب على نحو مقصور ، وعلى نحو مؤثّر الى أبعد حد ، واللذين عاش كل منهما طوال تلك الفترة من اجل صاحبه ، كانا قد انتهيا الى ان يتألم كل منهما بالآخر ، ومن خلال الآخر ، من غير أن يبوحا بذلك ، ومن غير أن تقربها أثارة من حقد ، ومن غير ان تفارق الابتسامة شفاهما .

٨
الأغلال

وكان جان فالجان أشدهما تعاسة . فللشباب حتى في أحزانه ، إشراق خاص به دائماً .

وفي بعض اللحظات بلغت آلام جان فالجان حداً جعله صبيانياً . ومن خصائص الأسى انه يُبرز الجانب الصبياني من الانسان . لقد استشعر على نحو لا يقاوَم ان كوزيت كانت تُفلت منه . ولقد كان خليقاً به ان يكون سعيداً لأن يبذل جهداً للتشبث بها ، ولاثارة

حماستها بشيء خارجيّ مرنان . وهذه الافكار ، الصبيانية كما ذكرنا اللحظة ، والشيخية في آن معاً ، أعطته بأطفاليتها نفسها ، فكرة صحيحة عن تأثير صناعة القياطين في خيال الفتيات الصغيرات . فقد اتفق له مرة ان التقى في الشارع بالكونت كوتار ، قائد قوات باريس ، وقد ارتدي لباسه الرسمي الكامل وامتطى صهوة جواده . لقد حسد هذا الرجل المذهّب ، وفكّر ايّ سعادة يبعثها في نفس المرء ارتداء هذه السترة التي كانت شيئاً لا يمكن انكاره ، قائلاً في ذات نفسه : لو ان كوزيت رأته في مثل هذا الثوب اذن لفتنها ذلك ، حتى اذا اخذ بذراع كوزيت ومرّ أمام باب التويلري فعندئذ يؤدون اليه التحية ، وعندئذ ترضى كوزيت وينزع من رأسها فكرة النظر الى الشبان .

وألمّت به ، وسطَ هذه الافكار الحزينة ، صدمةٌ غير متوقعة .

ففي الحياة الانعزالية التي كانا يعيشانها ، ومنذ ان انتقلا الى شارع بلوميه ، تكونت لديهما عادة جديدة . كانا يبتهجان بالذهاب رغبةً في الاستمتاع بمشهد الشمس وهي تشرق . وانها لبهجةٌ رفيقة تلائم اولئك الداخلين الى الحياة ، واولئك الخارجين منها .

إن التنزه سيراً على القدمين ، عند ارتفاع الضحى ، يَعدِل ـ بالنسبة الى من يحب العزلة ـ التنزهَ بالليل مضافاً اليه بهجة الطبيعة . فالشوارع خالية ، والطير تغرّد . وكان من عادة كوزيت ـ وهي نفسها طائر من الطيور ـ ان تفيق باكراً . وكانت هذه النزهات الصباحية تُعَدّ في العشية . كان هو يقترح ، وكانت هي توافق . كانت تبيّت كالمؤامرات ؛ وكانا ينطلقان قبل الفجر ، وكانت تلك ساعاتٍ سائغة جداً في نفس كوزيت . فمثل هذا الشذوذ البريء يفتن نفوس الشباب .

وكان جان فالجان ينزع ، كما عرفنا ، الى التوجه نحو المواطن الآهلة بقليل من السكان ، والزوايا المنعزلة ، والاماكن المهجورة .

وكانت آنذاك ، في جوار ابواب باريس ، بعض الحقول الفقيرة ، التي كادت ان تكون جزءاً من المدينة ، والتي كان ينمو فيها ، اثناء الصيف ، محصول من القمح هزيل ، حتى اذا جُمع هذا المحصول بدت تلك الحقول وكأنها لم تُحصَد حصداً ، ولكن جُرّدت تجريداً . وكان جان فالجان يؤثر التردد الى هذه الحقول . وما كانت كوزيت لتكرهها . كانت بالنسبة اليه عزلةً ، وكانت بالنسبة اليها حرية . هناك كانت تنقلب الى فتاة صغيرة من جديد ، وكان في ميسورها ان تعدو بل ان تلعب تقريباً . كانت تنزع قبعتها ، وتضعها على ركبتي جان فالجان ، فتجمع الرياحين . كانت تنظر الى الفراشات فوق الازاهير ، ولكنْ من غير ان تلتقطها . إن الوداعة والرقة تولدان مع الحب ، والفتاة الصغيرة التي ينطوي فؤادها على فكرة راجفة قصفة ، تأخذها الشفقة على جناح فراشة . كانت تنسج أكاليل من المنثور تعصب بها رأسها ، فما إن تضيئها اشعة الشمس وتتوهج مثل شعلة ، حتى تُبدع لوجهها النَضْر الورديّ تاجاً من نار .

وحتى بعد أن ألمّ الاسى بحياتهما ، أقاما على عادة التنزه الصباحيّ هذه .

وهكذا انطلقا في صباح يوم من أيام تشرين الاول ، وقد أغراهما خريف ١٨٣١ ذو الصفاء الكامل ، فألفيا نفسيهما في صدر النهار قرب « باب مَين » . ولم يكن ذلك مع الصبح ، ولكنْ عند الضحى . لحظةٌ جذِلة وضارية . كانت هنا وهناك بعض النجوم في اللازورد الشاحب العميق ، وكانت الارض سوداء كلها ، وكانت السماء بيضاء كلها . كانت الرعدة تعصف بنصال العشب ، وكانت رعشة السَّحَر الغريبة تلفّ المواطن كلها . وغنّت قبّرة ، بدت وكأنها بين النجوم ، على ذلك الارتفاع الهائل ، وكان خليقاً بالمرء ان يقول ان ترنيمة الحقارة تلك للانّهاية هدّأت المدى الرحب . وفي المشرق ، كان « وادي

الشفقة ، ينحت على الافق الصافي ، بمثل مضاء الفولاذ ، جِرْمه الغامض . وكانت الزُهرة ترتفع باهرةً خلف تلك القبة مثل روح تفلت من صرح مظلم .

كان كل شيء آمناً صامتاً . لم يكن ثمة أحد في الطريق . وعلى المجازات الضيقة كان بعض العمال المتناثرين يمضون الى عملهم من غير ان تلمحهم العين او تكاد .

وجلس جان فالجان في المجاز الجانبي ، على بضعة ألواح خشبية طُرحت عند باب مستودع للخشب . كان موجّهاً وجهه نحو الطريق ، مولّياً ظهره للنور . كان قد أُنسي الشمس التي ارتفعت منذ لحظة ، وكان قد استسلم لتأمل عميق من ذلك الضرب الذى يستغرق العقل كله ، بل يأسر الحواسّ ، فكأنه اربعةٌ من الجدران . ان ثمة بعض التأملات التي نستطيع ان ندعوها التأملات العمودية ؛ وحين يكون المرء في القاع ، فانه محتاج الى شيء من الوقت حتى يرجع الى سطح الارض . كان جان فالجان قد هبط الى واحد من تلك التأملات الحالمة . كان يفكر في كوزيت ؛ في السعادة الممكنة اذا لم يفصل ما بينه وبينها شيء ؛ في ذلك الضياء الذي ملأت به حياته ، وهو ضياء كان متنفّس روحه . وكان سعيداً بهذه الأحلام ، او يكاد . وكانت كوزيت واقفة قربه ، تراقب السحب التي اصطبغت بلونٍ أزهر .

وفجأة ، صاحت كوزيت :

– « أبي ، يخيّل اليّ ان شخصاً ما ، كان يهبط هذا المكان . »

ورفع جان فالجان بصره . كانت كوزيت على صواب .

ان الطريق التي تقود الى « باب مَين » القديم هي ، كما يعرف كل امرىء ، امتداد لشارع سيفر ، وهي تتعارض على زاوية قائمة مع الجادة الداخلية . وعند زاوية الطريق والجادة ، عند النقطة التي يفترقان فيها ، سُمع صوت من العسير ان يجد له المرء تعليلاً في مثل تلك الساعة ،

وبرز ضرب من الازدحام المضطرب . كان شيء شائه مقبـــل من جانب الجادة يتقدم نحو الطريق .

وتعاظم ذلك الشيء ، وبدا وكأنه يتحرك في نظام ، ومـع ذلك فقد كان مغتاظاً مرتعداً . لقد بدا ذلك اشبه بعربة ، ولكن لم يكن في ميسور المرء أن يتبين حملها . كانت ثمة خيل ، ودواليب ، وصيحات . وكانت السياط تفرقع . وشيئاً بعد شيء تحددت خطوط ذلك الشيء الكبرى ، على الرغم من غرقه في الظلام . كانت في الواقع عربـــة انعطفت اللحظة من الجادة الى الطريق ، واتخذت سبيلها نحـــو باب المدينة ، الذى كان جان فالجان على مقربة منه . وتبعتها عربة ثانية ، تتسم بالمظهر نفسه ، فعربة ثالثة فرابعة . سبع عربات استدارت ، على التعاقب ، وقد مسّت رؤوس الخيل مؤخرات العربات. وكانت اشكال داكنة تتحرك فوق هذه العربات ، وتبدّت بوارقُ في السَّحَر كأنهـا سيوف مسلولة ، وسُمِعت خشخشة اشبه ما تكون بأصفاد تتـلوى . وتقدمت العربات ، وازدادت الاصوات ارتفاعاً ، وكان ذلك شيئاً رهيباً كأنما يخرج من كهف الأحلام .

وفيما ذلك الشيء يتقدم اتخذ شكلاً ، وارتسمت خطوطه خلــــف الاشجار بمثل شحوب الطيـــف . وابيضّت الكتلة ؛ وبسط الصباح ، الذي كان يرتفع شيئاً بعد شيء ، ضياء شاحباً فوق ذلك الشيء الزاحف القبري الحي في آن معاً . لقد اصبحت رؤوس الظلال وجوه جثث ، واليك حقيقة الأمر :

كانت سبع عربات تجري في الشارع ، واحدة اثر اخرى . وكانت ست منها ذات بنية خاصة . لقد أشبهت عربات صانعي البراميـــل . كانت كل منها اشبه بسلم طويلة موضوعة بين دولابـين مشكّلة عريش عربةٍ عند اقصاها الداخلي . وكانت كل عربة ، او على الاصح كلّ سلّم ، قد قُرنت الى اربعة خيول تجري في صف واحد . وعلى هذه

العربات كانت تُحمل عناقيد غريبة من الرجال . وفي الضوء الضئيل الذي انتشر آنذاك لم يكن في استطاعة المرء ان يرى هؤلاء الرجال ؛ كان يحزر انهم هناك ليس غير . اربعة وعشرون رجلاً في كل عربة ، اثنا عشر في كل جانب ، ظهراً لظهر ، موجهين وجوههم نحو عابري السبيل ، مرخين اقدامهم في الفراغ – هكذا ارتحل هؤلاء الرجال . وكان مِنْ خلفهم شيء يصل ولم يكن غير سلسلة حديدية ، وفي أعناقهم شيء يلتمع ولم يكن غير غُل . كان لكلٍّ غُلّهُ ، ولكن السلسلة كانت لهم جميعاً . بحيث ان هؤلاء الرجال الاربعة والعشرين ، اذا ما اتفق لهم ان نزلوا من العربة ومشوا ، أُخضعوا لوحدةٍ لا ترق ولا ترحم ، وتعيّن عليهم ان يتلوّوا على الارض ، والسلسلة بمثابة العمود الفقريّ لهم ، وكأنهم الحُرُش أو كثيرةُ الارجل . وفي مقدّ كل عربة ومؤخرها كان يقف رجلان يتنكب كل منهما بندقيته ، ويدوس احد طرفي السلسلة بقدمه . وكانت الاغلال مربعة . أما العربة السابع – وهي عجلة ضخمة ذات درابزون ، ولكن من غير غطاء – فكانت لها اربعة دواليب وستة أفراس ، وكانت تحمل ركاماً مرناناً من القدور الحديدية ، ومراجل السبك ، والأفران ، والسلاسل ، انتثر فوقها عدد من الرجال ، المشدودي الوثاق ، منطرحين على طولهم ، وقد بدوا وكأنهم مرضى . وكانت هذه العجلة ، المعروضة للعيان عرضاً كاملاً ، مزدانة بحُصر من صفصاف مهشمة بدت وكأنها خدمت في عقوبات عتيقة .

والتزمت هذه العربات منتصف الشارع . وعلى كلّ من الجانبين سار صفٌ من الحرس ذو مظهر مرذول ، وقد اعتمر افراده بقبعات مثلثة القرون مثل جنود حكومة الادارة – حرسٌ ملطخ ، ممزق ، متسخ ، بزيه الغريب المؤلف من ملابس مشوهي الحرب النموذجية وسراويل القبّارين ، فهي نصف رمادية ونصف زرقاء ، وتكاد ان تكون خرقاً

ممزقة ، مع كِتافات حمراء ، وحِمالات صفراء ، ومُدىً مغمدة ، وبنادق وهراوات : نوع من الجند الخدم . لقد بدا هؤلاء الجلاوزة وكأنهم مزيجٌ من حقارة الشحاذ وسلطان الجلاّد . وكان ذلك الذي بدا رئيساً عليهم يحمل في يده سوطاً من سياط العربات . وانما كانت كل هذه التفاصيل التي سوّدها السحَر ، قد اخذت في الوضوح شيئاً فشيئاً مع الضياء . وفي مقدّم هذه القافلة وفي مؤخرها ، مضى الدرك على صهوات جيادهم ، صارمي الوجوه ، شاهري السيوف .

كان هذا الموكب طويلا جداً ، فحين وصلت العربة الأولى الى باب المدينة كانت العربة الاخيرة قد انعطفت ، او كادت ، حول الجادة .

واقبل حشدٌ من مكان لا يستطيع أحدٌ تعيينه ، وتشكّل في مثل لمح البصر ، كالذي يقع دائماً في باريس ، وأنشأ افراده يتزاحمون على جانبي الطريق ويتطلعون . وفي الازقة المجاورة سُمع الناس يصيحون وينادي بعضهم بعضاً ، وسُمع وقع الاحذية الخشبية التي ينتعلها زارعو البقول في السّباخ ، وقد هرعوا ليسرحوا الطرف وينظروا .

كان الرجال المركومون على العربات معتصمين بالصمت فيما الخيل تسوقهم سوقاً مرتجاً . كان لونهم ازرق ضارباً الى السواد بسبب من قرّ الصباح . وكانوا كلهم يرتدون سراويل قنبّية ، وينتعلون في اقدامهم العارية احذية خشبية . امـا بقية زيهم فكانت نسيج البؤس . كانت ملابسهم متغايرة على نحو مروّع ؛ وليس شيء اشدّ مأتميّةً من مرقعات الثياب البالية . قبعات لبدية مهشمة ، قلانس مزفتة ، قلانس كتانية مخيفة . والى جانب السترات القنبية القصيرة ، كانت السترات السوداء الممزقة عند المرفق . كان كثير منهم يعتمرون بقبعات نسائية ، وكان آخرون يضعون على رؤوسهم سلالاً . كان في ميسور المرء ان يرى صدوراً كثة الشعر ، ومن خلال ثقوب ملابسهم كان في ميسوره أن يرى ضروباً من الوشم ، وهيا كل غرام ، وقلوباً ملتهبة ، وآلهة حب . ليس هذا فحسب ، بل لقد

كان في امكان الناظر ان يرى طفحاً جلدياً وقروحاً محمرّة ايدماً . وكان لاثنين أو ثلاثة منهم حبلٌ من تبن مشدودٌ الى عوارض العربة ، فهو يتدلى تحتهم كالرّكاب ، وهو يسند اقدامهم . وكان احدهم يمسك بيده ويحمل بفمه شيئاً بدا مثل خنجر أسود ، فكأنه يعضه . كان خبزاً يأكله ذلك الرجل . ولم يكن بينهم غير عيون جافة ، خامدة ، أو مضاءة بنور شرير . واطلق الحرس الشتائم ، ولم يهمس المكبلون . وبين الفينة والفينة كان يُسمع صوت ضربة هراوة على اكتافهم ورؤوسهم . وتثاءب بعض هؤلاء الرجال . كانت اسمالهم رهيبة ، وكانت اقدامهم تتدلى ، وكانت مناكبهم تتذبذب ، وكانت رؤوسهم تتصادم ، وكانت قيودهم تقعقع ، وكانت عيونهم تتقد في ضراوة ، وكانت أَجماع أكفهم تنقبض أو تنفتح من غير ما حياة مثل أيدي الاموات . وخلف القافلة كان حشد من الأطفال ينفجر بالضحك .

وكان قطار العربات هذا ، كائناً ما كان ، مأتمياً . وكان واضحاً ان وابلاً سوف ينهمر من غد ، بعد ساعة ، وانه سوف يُتبع بآخر ، ثم بثالث ، وان هذه الملابس المتهرئة سوف تُنقع بالماء ، وانه اذا ما ابتلّ هؤلاء الرجال مرة فلن يجفّوا اذن ابداً ، وانهم اذا ما ارعشهم البرد فلن يدفأوا اذن ابداً ، وان سراويلهم القنّبية سوف يلصقها المطر بجلودهم ، وان الماء سوف يملأ احذيتهم الخشبية ، وان ضربات السياط لن تحول دون اصطكاك اسنانهم ، وان السلسلة لن تبرح تمسك بهم من اعناقهم ، وان اقدامهم لن تكف عن التدلي . وكان من المتعذر على المرء ان لا يرتعد لرؤية هذه المخلوقات البشرية موثقة هكذا ومستسلمة هكذا تحت سُحب الخريف الباردة ، وقد تُركت للمطر ، للريح ، لمختلف سَورات الطبيعة ، كالاشجار والحجارة

ولم تعفّ الهراوات حتى عن المرضى الذين طُرحوا مكبّلين بالحبال ،

من غير ما حراك ، في العربة السابقة ، والذين كأنما قُذف بهم الى هناك مثل أكياس ملأى بالشقاء .

وفجأة ، برزت الشمس . لقد انحبس ضياء المشرق المائل ، وكأنما كان يريد ان يضرم النار في جميع هذه الرؤوس الضارية . وأُطلقت الألسن من عقالها ، وانفجر حريق من السخريات ، والتجديفات ، والاغاني . وقسمَ الضياء الافقيّ المريضُ الركبَ كله قسمين ، منيراً رؤوسهم وأجسادهم ، تاركاً أقدامهم ودواليب العربات في الظلام . وتراءت افكارهم على وجوههم ؛ كانت اللحظةُ راعبة ؛ أبالسةٌ منظورة سقطت اقنعتها ، ونفوس ضارية عارية بالكلية . حتى اذا سُلط الضوء على هذه الجماعة ظلت مظلمة . وكان بعضهم – وهم المرحون – يحملون في افواههم انابيب من ريش فهم يقذفون البراغيث منها على الحشد ، وعلى النسوة من افراده بخاصة . وكشّف الفجر هذه الصور الجانبية الفاجعة بسواد الظلّ . ولم يكن بين هذه المخلوقات واحد لم يشوّهه البؤس ؛ وكان ذلك رهيباً الى درجة خليقة بأن تخيّل للمرء أنه حوّل ضياء الشمس الى وميض برق . وكان حَمَل العربة التي تصدرت الموكب قد استهلّ الغنـــاء ، فراح افراده ينشدون بأعلى اصواتهم ، وفي جذل شكسٍ ، اغنية لـ « ديزوجييه » مختلفة الألحان كانت مشهورة آنذاك ، واسمها « فتاة المعبد الطاهرة » . وارتعدت الاشجار في المجازات الجانبية على نحو حِـــدادي . واصغى البورجوازيون ، بوجوه تعلوها غبطة بلهاء ، لهذه الدعابات البذيئـــة تنشدها أشباح .

كانت جميع ضروب الشقاء ماثلة في هذا الموكب الهيولاني ؛ كانت ثمة الزاوية الوجهيّة للبهائم كلها ، شيوخ ، وشبان ، ورؤوس صلعاء ، ولحى شائبة ، وأخلاق نكدة وقحة ، واستسلام كالحٌ ، وانفغار فمٍ وحشيّ ، وهيئاتٌ بلهاء ، وخُطومٌ معتمرة بقبعات ، ورؤوس كرؤوس الفتيات الواضعات مبازل الزجاجات فوق أصداغهن ، ووجوهٌ أطفاليـة

فهي ، لهذا السبب ، رهيبة ، ووجوه هيكلية مهزولة لا يُعوزها شيء غير الموت . وكان في العربة الأولى زنجي امله كان في ما مضى عبداً رقيقاً ، وكان قادراً على المقارنة ما بين السلاسل . كان المسوّي الرهيب ، العار ، قد مرّ بهذه الجباه كلها ؛ وفي هذه المرحلة من الذل كانت التحولات الاخيرة قد حدثت بأقصى درجاتها ، وكان الجهل — وقد انقلب الى بلاهة — معادلاً للذكاء وقد انقلب الى يأس . ولم يكن الاختيار ممكناً بين هؤلاء الرجال الذي بدوا ، من حيث المظهر ، صفوةَ الوحل . كان واضحاً ان قائد هذا الموكب القذر ، كائناً من كان ذلك القائد ، لم يصنّف رجاله . لقد شُدّ بعض هؤلاء الرجال الى بعضهم وقُرن بعضهم ببعض كيفما اتفق ، ولعل ذلك ان يكون على الفوضى الابجدية ، وحُملوا من غير تبصّر على هذه العربات . بيد أن اجتماع المشاهد الرهيبة ينتهي دائماً بإحداث ناتج ما . فكل جَمع للبؤساء يُعطي حاصلاً . لقد انبثقت من كل سلسلة روحٌ مشتركة ، وكانت لكل حمل من أحمال العربات سيماؤه العامة . فالى جانب الحمل الذي كان يغني ، كان حملٌ ينبح ، وثالث يتسوّل . لقد رئي واحد يصرّ بأسنانه ، وآخر يتوعد الواقفين على جانبي الطريق ، وسادس يجدّف على الله . أما الحمل الاخير فكان صامتاً كالقبر . ولو ان دانتي رأى ذلك الموكب اذن لخيّل اليه ان حلقات الجحيم السبع تسير أمامه .

كان سيراً من الأدانة الى العقوبة ، سيراً مشؤوماً ، ولكنْ لا على عربة آبوكاليبس البرقية الرهيبة ، بل على عربة جلاّد فهي اشد شؤماً .

وكان أحد الحرس الحاملين هراوات في اعقابها كلاليب يبدو وكأنه يحرك بين الفينة والفينة هذه الاوساخ البشرية . واشارت عجوز من عجائز الحشد بأصبعها اليهم قائلة لصبيّ صغير في الخامسة من العمر : « أيها النذل ، هذا يعطيك درساً ! »

وفيما الاغاني والتجديفات تتعاظم أطلق ذلك الذي بدا قائداً للموكب

سوطه ، ولدن هذه الاشارة انقضت على العربات السبع ضربات غضبٍ رهيبة نكدة عمياء كان لها جرس البَرَد المنهمر . وزمجر كثيرٌ من الرجال وأرغوا ، وذلك ما ضاعف بهجة المتشردين المحتشدين : جمعٌ من الذباب فوق هاتيك الجراح .

كانت عين جان فالجان قد غدت مروّعة . إنها لم تعُدْ حدقة . اصبحت تلك النافذةَ العميقة التي تحلّ محل النظرة عند بعض المخلوقات البائسة ، التي تبدو غير واعية للواقع ، والتي تتقد بانعكاس المخاوف والكوارث . لم يكن يرى الى مشهد ؛ كانت رؤيا تتبدّى له . وحاول أن ينهض ، أن يفر ، ان يولي هارباً . ولكنه لم يستطع ان يحرك اياً من قدميه . ففي بعض الاحيان تتشبث بك الأشياء التي تراها وتلجمك . لقد ظلّ مسمّراً ، متحجراً ، مسائلاً نفسه ، من خلال ألم نفسي غامض لا سبيل الى وصفه ، ما معنى هذا التنكيل القبريّ ؟ ومن اين اقبلت هذه الجماعة الشريرة التي تلاحقه ؟ وفي الحال ، رفع يده الى جبينه ، وهي حركة مشتركة بين أولئك الذين تعاودهم الذاكرة فجأة . لقد تذكّر ان هذه هي الطريق حقاً ، وان العادة كانت قد جرت بالقيام بهذه الدورة اجتناباً للقاء الملك ، الذي كان ممكناً دائماً على طريق فونتينبلو ، وانه اجتاز قبل خمس وثلاثين سنة بباب المدينة هذا ، نفسِه .

وروّعت كوزيت — ولو بسبب آخر — ترويعاً مماثلاً . إنها لم تفهم شيئاً . وأعوزها النَّفَس . فما رأته لم يبدُ ممكناً في نظرها . واخيراً صاحت :

— « ابي ، ايّ شيء يمكن ان يكون في هذه العربات ؟ »

فأجابها جان فالجان :

— « جماعة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »

— « وإلى اين هم ذاهبون ؟ »

— « الى سجنهم . »

وفي بعض اللحظات انتهت ضربات العصيّ ، وقد ضوعفت بمئة يد ، الى ذورتها . وانضافت اليها ضربات بصفحة السيف . كانت اشبه بسورة سياط وهراوات . وتلوّى رقيق الاشغال الشاقة ، فقد احدثت العقوبة عبوديةً رهيبة ، وران الصمت على الجميع وبدت عليهم سيما الذئاب المكبّلة . وارتعدت اوصال كوزيت . وتابعت :

— « ابي ، ألا يزالون رجالاً ؟ »

فقال الرجل البائس :

— « احياناً . »

وفي الواقع ان قافلة الاسارى المنطلقة قبل الفجر من بيسيتر اتخذت طريق مانس اجتناباً لطريق فونتينبلو ، حيث كان الملك آنذاك . وهذه الدورة جعلت الرحلة الفظيعة تتطاول ثلاثة ايام او اربعة ايام او اكثر . ولكن لا بأس في إطالتها ما دامت توفّر على الذات الملكية رؤية عقوبة من العقوبات .

وانقلب جان فالجان الى منزله مثقلاً بالغمّ . فمثل هذا اللقاء صدمة ، والذكرى التي يخلّفها تشبه زلزلة .

ومع ذلك ، ففي طريق عودته مع كوزيت الى شارع بابل لم يلاحظ انها وجهت اليه اسئلة اخرى عما رأياه منذ لحظات ؛ ولعله كان مستغرقاً في ضناه الى حدّ جعله لا يدرك كلماتها ، ويجيب عنها . حتى اذا هبط الليل ، وفارقته كوزيت لتأوي الى فراشها ، سمعها تقول في همس ، وكأنها تتحدث الى نفسها : « يخيل اليّ اني اذا لقيتُ واحداً من هؤلاء في طريقي — اوه ، يا الـهي — فسوف اموت من مجرد رؤيته قريباً مني ! »

ولحسن الحظ اتفق ان شهدت باريس في اليوم الذي تلا ذلك النهار الفاجع ، وبمناسبة احتفال رسمي لم اعد ادري ما هو — نقول اتفق ان

شهدت باريس سلسلة من الاعياد : استعراض في ساحة مارس ، ومسابقات في التجذيف بنهر السين ، وحفلات تمثيلية في الـ « شان زيليزيه » ، وألعاب نارية في ساحة النجمة ، واضواء في كل مكان . وخرق جان فالجان مألوف عادته واخذ كوزيت الى هذه الاحتفالات لكي يصرف ذهنها عن ذكريات اليوم السابق ، ولكي يمحو ، تحت جلبة باريس الضاحكة كلها ، ذلك الشيء الرهيب الذي مرّ امامها . وكان في الاستعراض الذي زاد العيد حياة ، ما جعل الظهور في الزي العسكري طبيعياً . وارتدى جان فالجان بزته الخاصة بالحرس الوطني بمثل الشعور الباطني الغامض الذي يُحِسه رجل يفزع الى ملجأ . ومع هذا فقد بدا ان الغاية من هذه النزهة قد تحققت . ذلك بان كوزيت التي كانت سُنّتها إرضاء ابيها ، والتي كان كل مشهد شيئاً جديداً عليها ، ارتضت هذا التحويل بارتياح الشباب السهل الطروب ، ولم تنظر في ازدراء مغالىً فيه الى قصعة الابتهاج التي ندعوها عيداً عمومياً ؛ وهكذا كان في ميسور جان فالجان ان يعتقد انه قد نجح ، وأن لم يبقَ في نفسها ايما اثر من آثار ذلك المشهد الرهيب .

وذات صباح من احد الايام القليلة التي تلت ، فيما كانت الشمس مشرقة ، وفيما كانا كلاهما على سلم الحديقة — وهو خروج آخر على القواعد التي بدا ان جان فالجان قد فرضها على نفسه ، وللعادة التي فرضها الحزن على كوزيت فجعلها تؤثر البقاء في غرفتها — وقفت كوزيت ، في مئزرها الذي تلبسه حين تأخذ زينتها ، بمباذل الصباح تلك التي تلفّ الفتيات على نحو رائع ، والتي تبدو وكأنها سحابة فوق كوكب . وفيما كان رأسها مغموراً بالضياء ، وقد تورّد من حُسن الرقاد ، تحت نظرات الرجل الطيب اللطيف الرفيقة ، راحت تنتزع اوراق اقحوانة . كانت كوزيت تجهل الاسطورة الفاتنة ، « **احبكِ ، بعض الشيء ، في هيام** » الخ ... فمن الذي علّمها اياها ؟ كانت تداعب هذه

الزهرة بأصابعها ، بالغريزة ، وفي براءة ، من غير ان تدري ان انتزاع اوراق الاقحوان يعني امتحان القلب . ولو قد كان ثمة إلاهة رابعة من آلهات الاغريق تدعى **الكآبة** ، وكانت تلك الالاهة باسمة ، إذن لكانت كوزيت تلك الالاهة .

وفتن جان فالجان بالتأمل في اصابعها النحيلة على تلك الزهرة ، ناسياً كل شيء أمام إشعاع تلك الطفلة . وهمس « ابو الحنّاء » في الدغل القريب منهما . وكانت السحب البيضاء تعبر السماء في كثير من البهجة حتى لقد كان في ميسور المرء ان يقول إنها قد أطلقت اللحظة من عقالها . وواصلت كوزيت نزع اوراق اقحوانتها في انتباه . لقد بدت وكأنها تفكر في شيء . ولكن ذلك الذي فكرت فيه كان عذباً من غير شك . وفجأة ادارت رأسها فوق كتفها في مثل حركة الاوزة الرقيقة ، وقالت لجان فالجان : « ابي ، من هم اذن ، رفيق الاشغال الشاقة ؟ »

الكتاب الرابع

العون السفلي قد يكون عوناً علوياً

١

جرح من خارج ، شفاء من باطن

وهكذا اظلمت حياتهما شيئاً بعد شيء .

لم يبق لهما غير ألهية واحدة ، وكانت من قبل متعة : وهي ان يحملا الخبز إلى الجائعين ، والملابس إلى المقرورين . وفي هذه الزيارات إلى اكواخ الفقراء ، وكانت كوزيت كثيراً ما تصحب فيها جان فالجان ، وجدا بقية من جذلهما القديم . وفي بعض الاحيان ، حين كانا يمضيان نهاراً طيباً ، حين كانا يسرّيان عن كثير من أحزان الناس ويدخلان العافية والدفء على قلوب الاطفال الصغار ، كانت كوزيت تستشعر مع

المساء شيئاً من البهجة . وفي هذه الفترة بالذات ، قاما بزيارتهما إلى وكر جوندريت .

وفي اليوم الذي تلا تلك الزيارة بـدا جان فالجان في البيت الصغير ، صباحاً ، بمثل هدوئه المـألوف ، ولكنْ كان في ذراعه اليسرى جرح كبير ، شديد الالتهاب ، شديد الاذى . كان ذلك الجرح يبدو وكأنه حرق ، وكان جان فالجان يفسره على نحو ما . وحجزه جرحه ضمن الجدران اكثر من شهر ، استبدت بـه الحمى خلاله . ولم يرغب في استدعاء طبيب ما . وحين ألحت عليه كوزيت في ذلك قال : «استدعي طبيب الكلاب ! »

وضمدت كوزيت جرح جان فالجان صباح مساء في سيماء الـبهيـة وسعادة ملائكية بالغة استمدتها من شعورها بأنها كانت ذات نفـع له ، حتى لقد أحس جان فالجان بجذله القديم يعاوده ، وبمخاوفه وضروب قلقه تزايله ، ونظر إلى كوزيت قائلا : « آه ! يا له من جرح خيّر ! آه ! يا له من أذى كريم ! »

وكانت كوزيت قد هجرت ، لمناسبة مرض ابيهـا ، البيـت الصيفي ، واستعادت أنسها بالبيت الصغير والفناء الخلفي . كانت تنفق وقتها كله ، تقريباً ، مع جان فالجان ، وتقرأ له الكتب التي يحبها . كتب الرحلات على العموم . لقد ولد جان فالجان من جديد . وانبعثت سعادته في اشراق يمتنع على الوصف . وانقشعت اللوكسومبورغ ، والمطوّف الليلي الشاب ، وبرود كوزيت – انقشعت هذه السحب كلهـا عن روحـه . وقال في ذات نفسه : « لقد تخيلت ذلك . إني مجنون عجوز ! »

كانت سعادته عظيمة إلى درجة جعلت اكتشافه الرهيب لتيناردييـه وزوجته ، في وكر جوندريت ، وعلى ذلك النحو غير المتوقـع إلى أبعد الحدود ، يزلّ عنه بطريقة ما . كان قد وفّق إلى الهرب ، وكانت آثاره

قد ضاعت ، فما الذي يهمه بعد ؟ ! لقد فكر في ذلك ليأسى لاولئك البؤساء ليس غير . كان يقول بينه وبين نفسه : « انهم الآن في السجن ، وليس في استطاعتهم أن يُنزلوا الأذى في المستقبل . ولكن يا لهـا من اسرة شقية تثير الشفقة ! »

أما مشهد « باب مَين » الرهيب فان كوزيت لم تذكره كرة اخرى .

وفي الدير ، كانت الاخت سانت ميتشيلد قد علمت كوزيت الموسيقى . وكان لكوزيت صوت دُخَّلة ذات نفس . وبعض الاحيان ، عند المساء ، في المأوى المتواضع الذي كان يقطنه الرجل الجريح ، كانت تغني اغاني شجية تبهج نفس جان فالجان .

وأقبل الربيع . وكانت الحديقة في ذلك الفصل جميلة إلى حد بالغ جعل جان فالجان يقول : « انت لا تخرجين إلى هناك البتة . انا أريد ان تتمشي فيها . » فأجابته : « كما تريد ، يا أبت ! »

ورغبة منها في اطاعة أبيها استأنفت كوزيت نزهاتها في الحديقة ، وحيدة في الاعم الاغلب ، ذلك بان جان فالجان ، الذي خشي في ما يبدو ان يراه احد من خلال الباب ، كان كما ذكرنا نادراً ما يقصد إلى هناك .

كان جرح جان فالجان ألهية .

وحين رأت كوزيت ان ألم أبيها قد تضاءل ، وان حاله آخذة في التحسن ، وان أمارات السعادة بدت على وجهه ، داخلها رضاً ما كادت تلاحظه ، إذ وفد عليها وفوداً هادئاً وطبيعياً . وكان ذلك في آذار ، وكان النهار قد اخذ يتطاول ، فالشتاء كان آخذاً في الانصرام ، والشتاء يحمل معه دائماً شيئاً من أحزاننا . ثم أقبل نيسان ، وهو فجر الصيف ، غضاً ككل ضحى ، بهيجاً ككل طفولة ، باكياً بعض الشيء أحياناً كالطفل الذي هو يشبهه . إن للطبيعة في هذا الشهر بوارق تنطلق من السماء ، والسحب ، والاشجار ، والحقول ، والأزهار ، إلى

قلب الانسان .

وكانت كوزيت لا تزال أصغر من أن تضل بهجةُ نيسان ، التي كانت تشبهها ، سبيلها إلى قلبها . فرويداً رويداً ، ومن غير ما شعور ، انجلى الظلام من ذهنها . ففي الربيع تشرق النفوس الحزينة ، كما تشرق — عند الظهيرة — المغاور والكهوف . ولم تعد كوزيت شديدة الحزن الآن . كذلك كان واقع الأمر ، على اية حال ، ولكنها لم تلاحظه . ففي الصباح ، حوالى الساعة العاشرة ، بعد ان تناولت الفطور ، وبعد ان نجحت في اصطحاب أبيها إلى الحديقة ليقضي هناك ربع ساعة ، وفيما كانت تمشي في الشمس أمام درجات السلم ، مسندة ذراعه الجريح ، لم تلاحظ انها كانت تضحك في كل لحظة ، وانها كانت سعيدة .

ورآها جان فالجان ، في ثمل ، تستعيد نضرتها ولونها الازهر .

وكرر في همس :

— « اوه ، يا له من جرح مبارك ! »

وكان معترفاً بجميل تيناردييه وزوجته ايضاً .

وما إن التأم جرحه حتى استأنف نزهاته المتوحدة الغسقية .

وانه لمن الخطأ ان نعتقد أن في ميسور المرء ان يسير على هذه الشاكلة ، وحده ، في مناطق باريس غير الآهلة بالسكان ، من غير ان يلقى حادثاً غير منتظر .

٢
الأم بلوتارك لا ترتبك
عند تفسير احدى الظواهر

وذات مساء لم يكن غافروش الصغير قد اصاب طعاماً . وتذكّر أنه

لم يتبلغ البارحة بشيء ايضاً . وكان ذلك قد شرع يضايقه . فوطن العزم على أن يحاول تناول طعام العشاء . وهكذا راح يتسكع وراء « لا سالبيتريير » ، في المناطق المهجورة ، فتلك هي مواطن الحظ السعيد . فحيث لا يكون أحد ، يقع المرء على شيء . وانتهى إلى عمران عرف فيه قرية اوسترليتز .

ففي احد تسكعاته الماضية كان قد لاحظ هناك حديقة قديمة يألفها رجل عجوز وامرأة عجوز ، ولاحظ في تلك الحديقة شجرة تفاح لا بأس بها . وإلى جانب شجرة التفاح ، كان شبه مستودع للفاكهة مسيّج على نحو غير محكم ، حيث كان في امكان المرء ان يغزو تفاحة ما . التفاحة عشاء ، التفاحة حياة . إن ما أهلك آدم قد ينقذ غافروش . وكانت الحديقة قائمة عند زقاق منعزل غير معبد ، زقاق تكتنفه الادغال لفقدان المنازل . وكان سياج من نبات شائك يفصلها عن الزقاق .

ووجه غافروش خطاه نحو الحديقة . لقد وجد الزقاق ، وعرف شجرة التفاح ، وتبين مستودع الفاكهة ، ودرس السياج الشائك ؛ إنه على بعد خطوة . كان الليل يهبط ؛ ولم يكن في الزقاق هرة واحدة ؛ وكانت الساعة مناسبة . ورسم غافروش خطة الوثوب ، ثم وقف فجأة . كان شخص ما ، يتكلم في الحديقة . ونظر غافروش من خلال فتحة في السياج .

وعلى خطوتين منه ، عند ادنى السياج من الناحية الاخرى ، في النقطة التي كان جديراً بتلك الفتحة ان تقوده اليها ، انتصب حجر اتخذ منه اصحاب المنزل مقعداً . وعلى هذا الحجر كان الرجل العجوز جالساً وقد وقفت المرأة العجوز أمامه . كانت المرأة العجوز تغمغم . وأصغى غافروش ، في قليل من الترصن .

قالت المرأة :

— « مسيو مابوف ! »

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « مابوف ! إنه اسم مضحك . »

ولم يبد العجوز المخاطب حركة ما . وكررت المرأة العجوز :

— « مسيو مابوف ! »

ومن غير ان يرفع العجوز عينيه عن الارض عزم على ان يجيبها بقوله :

— « ماذا ، ايتها الأم بلوتارك ؟ »

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « الام بلوتارك ! وهذا اسم مضحك آخر . »

واستأنفت الام بلوتارك كلامها ، واضطر الرجل العجوز إلى ان يخوض الحديث .

— « ان صاحب البيت غاضب . »

— « لماذا ؟ »

— « نحن مدينون له بثلاثة اقساط . »

— « بعد ثلاثة اشهر ستصبح اربعة . »

— « هو يقول انه سوف يخرجك فتنام في الشارع . »

— « سوف أخرج »

— « والمرأة البقالة تطالبنا بالدفع . انها تحبس عنا الوقود . بماذا تريد ان تتدفأ في هذا الشتاء ؟ لن يكون عندنا حطب . »

— « عندنا الشمس . »

— « والقصاب يرفض ان يديننا . انه لن يعطينا لحماً بعد اليوم . »

— « هذا حسن . انا لا أهضم اللحم جيداً . إنه ثقيل . »

— « ما سيكون عشاؤنا الليلة ؟ »

— « الخبز . »

— « الخباز يريد شيئاً على الحساب ، ويقول لا دراهم ، لا خبز . »

— « حسن جداً . »

— « ما الذي سوف تأكله ؟ »

— « عندنا تفاحات الشجرة . »

— « ولكن ، يا سيدي ، ليس في استطاعتنا ان نعيش هكذا من غير مال . »

— « انا لا املك شيئاً منه . »

ومضت العجوز لسبيلها ، وظل الرجل العجوز وحده . وشرع يفكر ؛ وكان غافروش يفكر هو الآخر . كان الليل قد أرخى سدوله ، أو كـاد .

وكانت اولى نتائج تفكير غافروش انه زحف تحت السياج الشائك بدلا من ان يثب فوقه . وافترقت الاغصان قليلا عند أدنى الدغل .

وهتف غافروش هتافاً باطنياً : « عجيب ! مخدع صغير ! » واختفى فيه . لقد مس مقعد الأب مابوف ، أو كاد . وسمع أنفاس ابن الثمانين .

ثم انه ، ابتغاء العشاء ، حاول ان ينام .

نام نوم الهرة ، نام بعين واحدة . كان غافروش يراقب كل شيء فيما هو جاثم هناك .

وسفحت السماء الغسقية بياضاً على الارض . ورسم الزقاق خطـاً ازرق ضارباً إلى السواد بين صفين من الادغال القاتمة .

وفجأة ، بدا شكلان باهتان على تلك العصابة البيضاء . كان أحدهما في المقدمة ، وكان الثاني على مسافة قصيرة منه .

ودمدم غافروش : « هذان مخلوقان ! »

لقد بدا الشكل الأول بورجوازياً عجوزاً محدودب الظهر مستغرقـاً في التفكير ، مرتدياً ملابس أكثر من بسيطة ، وكان يمشي بمثل خطوات العجائز البطيئة ، هائماً على وجهه ، ليلا ، في ظل النجوم .

وأما الشكل الثاني فكان مستقيماً ، ثابتاً ، مهزولا . لقد عـــدل خطاه وفقاً لخطى الأول . ولكن اللدانة والرشاقة كانتا باديتين من خلال بطء المشية الارادي . وكان لهذا الشكل ، علاوة على شيء ضار مقلق ، كامل تلك السيما التي غلبت على من عُرف آنذاك بالشاب الانيـــق . كانت القبعة على أحدث زي ، وكانت السترة سوداء حسنة التفصيل ، ومن جوخ ممتاز في أغلب الظن ، وكانت تلف قده لفاً محكماً . كـان الرأس مرفوعاً في ضرب من الجمال القوي . وتحت القبعة كان في امـكان المرء أن يرى ، في الغسق ، صورة جانبية شاحبة لأحد الفتيان . وكانت في فم هذه الصورة الجانبية وردة .وكان غافروش يعرف الشكل الثاني معرفة جيدة . لقد كان مونبارناس .

أما الشكل الآخر فلم يكن في وسعه ان يقول عنه شيئاً باستثناء انـه رجل عجوز طيب .

وفي الحال ، استغرق غافروش في المراقبة .

كان واضحاً ان واحداً من هذين السارين قد بيت أمراً ضد الآخر . وكان غافروش في موقع يمكنه من مشاهدة المآل . كان المخدع الصغير قد تحول – على نحو ملائم – إلى ملجأ .

وكان في ترصد مونبارناس ، في مثل تلك الساعة ، وفي مثل ذلك المكان ، شيء يتهدد بخطر . واستشعر غافروش بالشفقة على الرجل العجوز تحركُ قلب « المتشرد » الذي في صدره .

أي شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ أيتدخل ؟ ضعف يهرع لنجـدة ضعف ؟ كان ذلك خليقاً به ان يكون مدعاة لاضحاك مونبارناس . ولم يكن في مكنة غافروش ان يخفي عن نفسه ان الرجل العجوز اولا ، ثم الطفل من بعده ، ليسا عند قاطع الطريق الفظيع هذا ، البالغ من العمر الثامنة عشرة ، غير لقمتين اثنتين .

وفيما كان غافروش يقلب الرأي ، وقع الهجوم مفاجئاً رهيبـــاً

هجوم نمر على حمار وحشي ، أو هجوم عنكبوت على ذبابة . فعلى حين غرة طرح مونبارناس الوردة ، ووثب على الرجـــل العجوز ، وامسك بتلابيبه ، وتشبث به . ولم يستطع غافروش ان يكبح ، إلا بشق النفس ، صيحة ارادت ان تنطلق من فمه . وبعد لحظة ، كان احد هذين الرجلين تحت الاخر ، مرهقاً ، لاهثاً ، محاولا التملص ، وعلى صدره عقبٌ من رخام . بيد ان كل شيء لم يكن كما توقـــع غافروش . كان الرجل الملاصق للارض هو مونبارناس . وكان الــذي يعلوه هو الرجل الطيب . لقد حدث ذلك كله على بضع خطوات من غافروش .

كان الرجل العجوز قد تلقى الصدمة ، وردها ، وردها في قـــوة بالغة جعلت المهاجِم والمهاجَم يتبادلان دوريهما في لمحة عين .

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « ها هنا كسيح شجاع ! » ولم يستطع ان يحول بين كفيه وبين التصفيق . ولكنه كان تصفيقـــاً ضائعاً . إنه لم يبلغ المتقاتلين ، اللذين استغرق كل منهما في الآخـــر وأصم كل منهما الآخر ، مازجين أنفاسهما في الصراع .

وران الصمت . وكف مونبارناس عن النضال . وقال غافروش على حدة : « هل مات ؟ »

ولم يكن العجوز قد نطق بكلمة ، ولم يكن قد أطلق صيحة . لقـــد نهض . وسمعه غافروش يقول لمونبارناس :

— « إنهض . »

ونهض مونبارناس ، ولكن الرجل العجوز أمسك به . كانت تبدو على مونبارناس تلك السيما الذليلة الضارية التي تبدو على وجـــــه ذئـب اختطفـه خروف .

ونظر غافروش واصغى ، محاولا أن يضاعف عينيه بأذنيه . لقـــد وجد في ذلك متعة كبيرة .

لقد عُوِّض من قلقه القويم كمراقب . كان قادراً على ان يمسك بجناح الحوار التالي ، الذي استعار من الظلمة جرْساً فاجعاً غريباً . كان الرجل العجوز يستجوب ، وكان مونبارناس يجيب :

— « ما سنك ؟ »

— « تسعة عشر عاماً . »

— « انت قوي ، الجسم . فلماذا لا تشتغل ؟ »

— « الشغل يتعبني . »

— « ما صناعتك ؟ »

— « متسكع . »

— « تحدث في جد . هل استطيع ان أقدم اليك خدمة ؟ أي شيء تريد ان تكون ؟ »

— « لصاً . »

وران صمت . وبدا الرجل العجوز وكأنه مستغرق في تفكير عميق . كان جامداً من غير حراك ، ومع ذلك فانه لم يطلق وثاق مونبارناس .

وبين الفينة والفينة كان قاطع الطرق الصغير يبذل ، في قوة و خفة ، مثل جهود بهيمة وقعت في الشرك . لقد حاول أن يثب ، وان يقوم بحركة رشيقة بقدمه ، ولوى أوصاله في يأس ، مجرباً ان يهرب . وبدا الرجل العجوز وكأنه لم يلحظ ذلك . وبيد واحدة امسك بذراعي مونبارناس بلا مبالاة ذات سلطان كالتي تكون للقوة المطلقة .

وواصل العجوز تفكيره الحالم فترة ما ، ثم حدق إلى مونبارناس ، ورفع صوته في رفق ، ووجه اليه — وسط تلك الظلمة التي كانت تكتنفهما — شبه خطبة فخيمة لم يفت غافروش مقطع واحد منها على الاطلاق :

— « يا بني ، أنت تتخذ سبيلك ، خلال الكسل ، نحو وجود ليس ادعى منه إلى الارهاق . آه ، أنت تعلن انك متسكع ! استعد

للعمل . هل رأيت ذات يوم ماكينة تصفيح المعادن الرهيبة ؟ حذار منها ، إنها شيء مراء وضار ، فهي إذا ما تشبثت بطرف ثوبك ، ابتلعتك بالكلية . هذه الماكينة هي البطالة . قف قبل فوات الاوان ، وأنقذ نفسك ! وإن لم تفعل انتهى كل شيء ، ووجدت نفسك بين الدواليب . حتى إذا علقتَ مرة فلا تأمل في شيء . إلى التعب ، أيها الكسول ! لا راحة بعد اليوم . إن يد العمل الحديدية الحقود قد قبضت عليك . اقول لك اكسب رزقك ، قم بعمل ، أدِّ مهمة ، فتجيب : لا أريد . اقول لك كن كالآخرين ، فتجيب : هذا يتعبني . حسناً ، سوف تكون شيئاً آخر . العمل هو القانون . ومن يرفضه بوصفه تعباً يناله بوصفه عقوبة . انت لا ترغب في ان تكون عاملا ، واذن فسوف تكون عبداً . إن العمل لا يعتقك من ناحية إلا ليستولي عليك من ناحية اخرى . انت لا تريد ان تكون صديقه ، ومن اجل ذلك سوف تكون عبده . آه ، لقد رفضت كلال الرجال الأمين ، ومن اجل ذلك سوف يكون لك عرق المغضوب عليهم . ففيما يغني الآخرون ، سوف تهذي انت . سوف ترى الرجال الآخرين ، من بعيد ومن أدنى ، منصرفين إلى العمل . ولسوف يبدو لك أنهم يستجمون . إن العامل ، والحاصد ، والملاح ، والحداد سيتراءون لك في النور مثل المباركين من اهل الجنة . أي إشعاع في السندان ! إن قيادة المحراث وحَزْم القش هما السعادة . القارب طليق أمام الريح ، يا لها من بهجة ! وانت ، ايها العاطل عن العمل ، إحفر ، واسحب ، ودحرج ، وسر إلى الامام ! جرَّ رسنك ، فلست غير بهيمة أثقال في قطار الجحيم ! أن لا تعمل شيئاً ، تلك هي غايتك . حسناً . فلن يمر بك اسبوع ، أو يوم ، أو ساعة من غير إعياء ماحق . انك لا تستطيع ان ترفع شيئاً إلا بضنى . وكل دقيقة تنقضي سوف تمزق عضلاتك . وما سيكون ريشة بالنسبة إلى الناس سوف يكون صخرة

بالنسبة اليك . وأبسط الاشياء سيصبح منحدراً وعراً . ولسوف تصبح الحياة غولا من حولك . والذهاب ، والاياب ، والتنفس ستمسي اعمالا مرهقة فظيعة . ورئتاك سوف تبدوان وكأنهما تزنان مئة رطل . وذهابك إلى هنا لا إلى هناك سيصبح مشكلة يجب ان تحل . إن اىما رجل آخر راغب في مغادرة منزله ليفتح بابه ، ويخرج ، وينقضي الأمر ، أما انت فاذا ما رغبت في الخروج اضطررت إلى ان تثقب جدارك . وما الذي يفعله اىما امريء لكي ينطلق إلى الشارع ؟ ليس عليه إلا ان يهبط السلم ! أما أنت فسوف يتعين عليك أن تمزق أغطية فراشك ، وتعمل منها حبلا ، قطعة بعد قطعة ، ثم تعبر من خلال نافذتك ، وتتدلى بذلك الخيط فوق هاوية ، ولسوف يكون هذا تحت جنح الظلام ، في العاصفة ، تحت المطر ، وسط الاعصار . وإذا ما كان الحبل اقصر مما ينبغي فلن يكون امامك غير طريقة واحدة للهبوط : ان تسقط . – أن تسقط ، مجازفاً ، في الهاوية ، من اىما ارتفاع ، وفوق ماذا ؟ فوق اىما شيء في الاسفل ، فوق المجهول . او يتعين عليك ان تتسلق من خلال مدخنة موقد ، معرضاً نفسك للاحتراق ، أو تدب خلال بالوعة ، معرضاً نفسك للغرق . أنا لا اتكلم عن الثقوب التي يتعين عليك ان تخفيها ، وعن الحجارة التي يتعين عليك ان تخرجها وتعيدها إلى مكانها عشرين مرة في النهار ، وعن الملاط الذي يتعين عليك ان تخفيه في فراشك . ويبرز قفل . إن البورجوازي يحمل مفتاحه في جيبه ، مفتاحه الذي صنعه الحداد . أما أنت فاذا ما أردت ان تجتاز باباً موصداً تحتم عليك ان تقوم برائعة رهيبة . ستجد نفسك مضطراً إلى ان تخرج فلساً كبيراً ، وتفلقه شقين . بأية ادوات ؟ انها ادوات سوف تخترعها بنفسك . فهذه مسألة خاصة بك . ثم انك تجوف باطن هذين الفلقين ، محافظاً على الجزء الخارجي في عناية ، وتسنن الحوافي كلها تسنيناً لولبياً، بحيث ينطبق بعضها على بعض في إحكام ، مثل قعر وغطاء . حتى إذا

اذا ما اغلقا على هذا النحو المحكم لم تخامر الريبة احداً . انه سوف يكون في نظر الحرس — اذ ستخضع للمراقبة — فلساً كبيراً ، أما عندك فسوف يكون بمثابة صندوق . ما الذي ستضعه في هذا الصندوق ؟ مقداراً ضئيلا من الفولاذ . نابضَ ساعة تقطع به الاسنان ، وتستعمله منشاراً . وبهذا المنشار ، الذي لا يزيد طوله على طول دبوس ، والمخبوء في هذا الفلس ، سوف يتعين عليك ان تنشر لسان قفل ما ، وزلاقة اللسان ، وعروة القفل ، والقضيب الحديدي الذي سوف يعترض نافذتك ، والحلقة الحديدية التي ستكبل قدمك . حتى اذا تمت هذه المعجزة ، وأنجزت هذه الاعجوبة ، ونُفذت معجزات الفن ، والرشاقة ، والحذاقة ، والصبر هذه كلها ، ثم اكتُشف انك انت المؤلف فأي جائزة ستنال ؟ الحبس المظلم . ذلك هو مستقبلك . الكسل ، المتعة ، يا لهما من هاويتين ! إن عدم القيام بعمل ما ، هو مسلك فاجع ، من غير شك . أن تعيش متعطلا على مادة المجتمع ! أن تكون غير ذي جدوى ، يعني مؤذياً وضاراً ! ذلك يقود مباشرة إلى الدرك الأسفل من الشقاء . الويل لمن يريد ان يكون طفيلياً ! انه سوف يكون قملة . آه ! انت لا يعجبك ان تشتغل ! آه ، سوف تراودك فكرة واحدة : أن تشرب جيداً ، وتأكل جيداً ، وتنام جيداً . سوف تشرب ماء ، سوف تأكل خبزاً أسود ، سوف تنام على لوح خشبي ، وقد طوّق الحديد أوصالك ، فأنت تستشعر برده ، ليلا ، على لحمك ! سوف تكسر هذه الأغلال ، سوف تفر . حسن جداً . سوف تدب على بطنك في الادغال ، وتأكل العشب مثل بهائم الغابة . ولسوف يقبض عليك البوليس كرة اخرى . وعندئذ تقضي سنوات في حبس مظلم ، مشدوداً إلى جدار تتحسس يدك سبيلها التماساً لجرعة من ابريقك ، عاضاً رغيفاً رهيباً أسود كالظلمات ، رغيفاً تعافه الكلاب ، آكلا فولاً كانت الديدان قد أكلته

من قبلك . سوف تكون « حمار قبان » (*) في كهف . آه ! أشفق على نفسك ، ايها الطفل البائس ، ايها الطفل الصغير ، الذي كان رضيعاً قبل عشرين عاماً ، والذي لا تزال له ، من غير شك ، أمّ حية ترزق ! إني اتوسل اليك ، فاسمعني . انت تريد ثياباً سوداء فاخرة ، وخفين مصقولين ؛ انت تريد ان تجعد شعرك ، ان تضمخ غدائرك بالزيت الزكي ، أن تدخل السرور على قلوب نسائك ، أن تكون مليحاً : فلسوف يُجز شعر رأسك جزاً ، وترتدي سترة حمراء ، وتنتعل حذاء خشبياً . انت تريد خاتماً في إصبعك ، فسوف تفوز بغلّ في عنقك . واذا ما القيت نظرة على امرأة فزت بضربة هراوة . ولسوف تدخل إلى هنــاك في العشرين من عمرك ، ثم تخرج منه في الخمسين ! سوف تدخل فتياً ، متورداً ، نضر العود ، مشرق العينين ، أبيض الاسنان ، ذا شعر مراهق جميل . ثم تخرج محطماً ، محدودباً ، متجعد البشرة ، عاطل الفم من الاسنان ، رهيباً ، ذا شعر ابيض ! آه ، يا بني المسكين ، انت تسلك طريقاً خاطئاً ، وإن الكسل ليقدم اليك نصيحة سيئة . السرقة اشق الاعمال وأصعبها . صدقني ، لا تنهض بعبء هذا الشغل الرهيب الذي هو البطالة . إن صيرورة المرء وغداً لا تورثه الرفاه والراحة . وليس من العسير جداً على المرء ان يكون رجلا صالحاً . فاذهب ، الآن ، وفكر في ما قلته لك . وبالمناسبة ، ما الذي كنت تريده مني ؟ حافظة نقودي ؟ دونك اياها . »

وأطلق العجوز مونبارناسّ ، ووضع حافظة نقوده في يده ، فما كان من مونبارناس إلا أن رازه لحظة . وبالحذر الآلي نفسه أزلّها مونبارناس برفق ، في جيب سترته الخلفي ، وكأنما قد سرقها .

حتى إذا قيل هذا كله وعُمل ، أدار الرجل الطيب ظهره ، واستأنف سيره في أناة .

* حمار القبان cloporte دويبة صغيرة لازقة بالارض ذات قوائم كثيرة .

وغمغم مونبارناس :

— « بليد ! »

من كان هذا الرجل الطيب ؟ لقد حزره القارىء من غير ريب . وفي ذهول ، راقبه مونبارناس حتى اختفى في الغسق . كان ذلك التأمل قاضياً عليه .

وفيما كان الرجل العجوز يمضي لسبيله ، كان غافروش يقترب . وبنظرة جانبية تثبت غافروش من أن الاب مابوف — ولعله كان نائماً — لا يزال جالساً على المقعد . ثم إن المتشرد انطلق من بين الأدغال ، وشرع يدب في الظل خلف مونبارناس الجامد في مكانه . وهكذا انتهى إلى مونبارناس ، من غير ان يُرى أو يسمع ، ودس يده برفق في الجيب الخلفية من السترة المخيطة من جوخ اسود نفيس ، وأخذ حافظة النقود ، وسحب يده ، وعاود الزحف منسلا مثل حنش في غمرة الظلام . ولم يلمح مونبارناس ، الذي لم يجد سبباً يدعوه إلى الاحتراس ، والذي كان يفكر للمرة الأولى في حياته — نقول ، لم يلمح مونبارناس شيئاً من ذلك . حتى اذا وصل غافروش إلى حيث كان الأب مابوف ، طرح حافظة النقود من فوق السياج الشائك ، واطلق ساقيه للريح .

وسقطت حافظة النقود على قدم الاب مابوف . وأيقظته هذه الصدمة . فانحنى والتقط الحافظة . ولم يفهم شيئاً ، وفتحها . كانت حافظة نقود ذات جيبين ، في احدهما بعض القطع النقدية الصغيرة ، وفي الآخر ست ليرات ذهبية نابوليونية .

واستبد الذهول بمسيو مابوف ، وحمل الحافظة إلى خادمته .

وقالت الأم بلوتارك :

— « لقد سقطت هذه من السماء . »

الكتاب الخامس

حيث النهاية لا تشبه البداية

١

العزلة والثكنة مجتمعتين

كان أسى كوزيت ، الذي ما يزال ممضاً والذي كان حاداً جـداً قبل اربعة أشهر أو خمسة اشهر ، قد دخل من غير ان تدري هي بذلك ، في دور النقاهة . كانت الطبيعة ، والربيع ، وشبابها ، وحبها لأبيها ، وبهجة الطير والازهار ، قد شرعت تنضح شيئاً بعد شيء ، ويوماً بعد يوم ، وقطرة بعد قطرة ، في تلك الروح الطاهرة جداً ، الغضة جـداً ، شيئاً يكاد يشبه النسيان . اكانت النار قد شرعت في الخمود بالكلية ؟ أم أنها كانت على وشك ان تصبح مجرد طبقة من رماد ؟ الحق انه لم

يكد يبقى في ذاتها شيء من ذلك الشعور المؤلم المحرق .

وذات يوم فكرت بماريوس فجأة ، فقالت :

— « ماذا ؟ أنا لا افكر فيه الآن . »

وفي خلال ذلك الاسبوع نفسه لاحظت ، اذ مرت بباب الحديقة المقضّب ، ضابطاً وسيماً جداً من ضباط الرمّاحة : قامة هيفاء ، وسترة عسكرية فاتنة ، ووجنتان كوجنتي فتاة ، وحسام تحت الذراع ، وشاربان مشمعان ، وقبعة مصقولة من قبعات الرمّاحين . وفوق ذلك شعر اشقر ، وعينان زرقاوان واسعتان ، ووجه مستدير ، مختال ، متغطرس ، مليح ، نقيض ماريوس تماماً . كان في فمه سيكار . وحسبت كوزيت ان هذا الضابط ينتسب من غير شك إلى الفرقة المعسكرة في ثكنات شارع بابل .

وفي اليوم الثاني ، رأته يمر من هناك كرة ثانية . لقد لاحظت الساعة . ومنذ ذلك الحين اصبحت تراه — أكان ذلك مصادفة ؟ — كل يوم تقريباً .

ولاحظ رفاق الضابط انه كانت ، في تلك الحديقة « المهملة » ، خلف ذلك الباب الحديدي ، العتيق الحقير ، مخلوقة جميلة كان يتفق ان تُرى دائماً عند مرور الضابط الجميل ، الذي لا يجهله القارىء ، والذي كان اسمه تيودول جيلنورمان .

وقالوا له :

— « قف ! ههنا فتاة صغيرة تسمّر عينيها عليك ! لماذا لا تنظر اليها ؟ »

فأجابهم الرمّاح :

— « أتحسبون ان لدي متسعاً من الوقت للنظر إلى جميع الفتيات اللواتي ينظرن إلي ؟ »

وكان هذا في ذلك الوقت بالذات الذي كان ماريوس ينحدر خلاله في

جهامة نحو الألم النفسي المرير قائلا : « ليتني استطيع ان اراها مرة اخرى قبل ان اموت ! » ولو قد تحققت امنيته ، لو قد رأى كوزيت في تلك اللحظة تنظر إلى الرمّاح ،اذن لما كان قادراً على ان ينبس بكلمة ، واذن لفاضت روحه حزناً واسى .

من المسؤول عن تلك الغلطة ؟ لا أحد .

كان ماريوس من اصحاب ذلك المزاج الذي يستغرق في الأسى ، ويبقى هناك . اما كوزيت فكانت من اصحاب ذلك المزاج الذي يغوص في الحزن ثم تخرج كرة اخرى .

وكانت كوزيت تجتاز ، في الحق ، تلك اللحظة الخطرة ، ذلك الدور المشؤوم من الاستغراق الانثوي الحالم المخذول ، حيث يشبه قلب الفتاة المعزولة عطفات العريش التي تتشبث ، وفقاً للمصادفة ، بتاج عمود من أعمدة الرخام ، أو بوتد حانة من الحانات . لحظة خاطفة وحاسمة ، حرجة بالنسبة إلى كل يتيمة ، سواء أكانت فقيرة أم غنية ، ذلك لأن الثروة لا تقي من الاختيار السيء . إن الزواج غير المتكافىء كثيراً ما يقع . ولكن عدم التكافؤ الحقيقي إنما يكون بين النفوس . وكما ان غير واحد من الشبان المغمورين ، الذين لا اسم لهم ، أو مولد ، أو ثروة يكون عموداً من اعمدة الرخام يدعم هيكلا من العواطف الكبيرة والافكار الرفيعة ، كذلك قد تجد بين رجال المجتمع ، السعداء الاثرياء ، ذوي الاحذية اللماعة والحديث المصقول ، رجلا إذا نظرت لا إلى خارجه ولكن إلى داخله ، يعني إلى ما يُحفظ للزوجة ، ألفيته مجرد خُشيبة بلهاء تعصف بها اهواء عنيفة ، نملة ، غير طاهرة — وتداً من اوتاد الحانة .

أي شيء كان يجري في نفس كوزيت ؟ عاطفة ملطفة أو هاجعة ، حب في حالة متذبذبة ، شيء كان رائعاً ، وساطعاً ، كدراً على عمق معين ، مظلماً في القاع . كانت تنعكس من السطح صورة ضابط جميل.

أكانت ثمة ذكرى في القعر ؟ — في القعر نفسه ؟ ربما . إن كوزيت لم تعرف .

وتبعت ذلك حادثة غريبة .

٢
مخاوف كوزيت

في النصف الأول من شهر نيسان قام جان فالجان برحلة . وكان ذلك يتفق له ، كما ندري ، بين الفينة والفينة ، في فترات متباعدة جداً . كان يغيب عن البيت يوماً أو يومين على الأكثر . إلى اين كان يذهب ؟ إن احداً ما كان يدري ، حتى كوزيت نفسها . ومرة واحدة فقط صحبته في احدى هذه الرحلات ، فمضت بها العربة حتى زاوية زقاق غير نافذ قرأت عليها **طريق لا بلانشيت غير النافذ** . وهناك ترجل ، ورجعت العربة بكوزيت إلى شارع بابل . وعلى العموم ، فقد كان جان فالجان يقوم بهذه الرحلات الصغيرات كلما اعوزهم مال يغطون به نفقاتهم المنزلية .

واذن ، فقد كان جان فالجان غائباً . وكان قد قال :

— « سوف أرجع في مدى ثلاثة ايام . »

وفي المساء ، كانت كوزيت وحدها في حجرة الاستقبال . وكانت قد فتحت بيانها ، التماساً للتسلية ، وشرعت تغني عازفة ، في الوقت نفسه ، لازمة « الاوريانث » : **قناصون تائهون في الغابات !** » التي لا يبعد ان تكون أجمل قطعة في الموسيقى كلها .

وفجأة بدا لها أنها سمعت وقع اقدام في الحديقة .

لم يكن ممكناً أن يكون أباها ؛ فقد كان غائباً . ولم يكن ممكناً ان تكون توسين ، فقد كانت في فراشها . كانت الساعة العاشرة ليــلا .

ومضت إلى نافذة الحجرة التي كان مصراعها الخشبي مغلقاً وألصقت أذنهـا بــه .

لقد بدا لها انه وقع قدمي رجل ، وان ذلك الرجل كان يمشي في اناة بالغــة .

وفي الحال هرعت مصعِّدة إلى الدور الأول ، فدخلت غرفتهــا ، وفتحت خادعة * في مصراع نافذتها ، والقت نظرة إلى الحديقة . كــان القمر بدراً . فكان في ميسورها ان ترى بوضوح وكأنها في وضح النهار .

ولم يكن هناك أحد .

وفتحت النافذة . كان السكون مخيماً على الحديقة ، وكان كل ما رأته من الشارع مهجوراً شأنه دائماً .

وحسبت كوزيت انها قد خُدعت عن نفسها . لقد خيل اليها انهــا سمعت هذه الضجة . كان وهماً احدثته لازمة فيبر ** القاتمة الفخيمة التي تفتح امام العقل اعماقاً مذهلة تضطرب في نظر العين كغابة توقع الدوار في الرأس ، غابة نسمع فيها طقطقة الأغصان الميتة تحت اقدام القناصين الذين يُلمَحون اثناء الغسق على نحو باهت .

ولم تعاود التفكير في ذلك .

والى هذا ، فلم تكن كوزيت ، بطبيعتها ، سريعة إلى الذعر . كان يجري في عروقها دم الغجرية والمغامرة التي تنطلق حافية . ويجب ان نذكر انها كانت قبرة اكثر منها حمامة . كانت في اعمق اعماقها ضارية شجاعــة .

---

* الخادعة : الباب الصغير في الباب الكبير . (او النافذة الصغيرة في النافذة الكبيرة) .

** Weber (١٧٨٦ – ١٨٢٦) مؤلف موسيقى الماني يعتبر في بعض الاحيان اعظم مؤلفي المدرسة الموسيقية الالمانية الرومانتيكية .

وفي اليوم التالي ، وليس في تلك الساعة المتأخرة ، بل عند هبوط الليل ، كانت تمشي في الحديقة . وفي غمرة الافكار المشوشة التي ملأت ذهنها ، حسبت انها سمعت ، طوال لحظات ، صوتاً كصوت الليلة البارحة، وكأن امرءاً كان يمشي في الظلام ، تحت الاشجار، غير بعيد جداً عنها ، ولكنها قالت في ذات نفسها إنه ليس ثمة ما يشبه وقع الاقدام في العشب اكثر من تماسّ غصنين يتحركان تلقائياً ، ولم تلق بالا إلى ذلك . وإلى هذا ، فان بصرها لم يقع على شيء .

وغادرت « الدغل » ، وكان قد بقي عليها ان تجتاز الرقعة الصغيرة المعشوشبة الخضراء حتى تصل إلى السلم . وألقى القمر ، الذي كان قد طلع اللحظة خلفها ، – وفيما كانت كوزيت تفارق الدغل – القى ظلها أمامها على تلك الرقعة المخضوضرة .

ووقفت كوزيت مذعورة .

وإلى جانب ظلها رسم القمر رسماً واضحاً ، على العشب ، ظلاً آخر رهيباً فظيعاً إلى حد فريد ، ظلاً ذا قبعة مستديرة .

كان اشبه بخيال رجل من الجائز ان يكون واقفاً عند حافة الدغل ، على بضع خطى وراء كوزيت .

وانقضت لحظة عجزت خلالها عن ان تتكلم ، أو تصرخ ، أو تنادي أو تتحرك ، أو تدير رأسها .

واخيراً حشدت كامل شجاعتها ، واستدارت في عزم .

لم يكن ثمة احد .

لقد نظرت إلى الارض . كان الظل قد اختفى .

وعادت إلى الدغل ، وطفقت تبحث في جسارة خلال الزوايا، ومضت حتى الباب الحديدي ، فلم تجد شيئاً .

واستشعرت دمها مثلوجاً حقاً . أكان ذلك وهماً أيضاً ؟ ماذا ! في يومين متعاقبين ؟ إن وهماً واحداً قد يُحتمل ، أما إذا كانا

وهمين ؟ والذي اوقع في نفسها القلق اكثر ما يكون ان الظل لم يكن طيفاً على وجه التأكيد . فالأطياف لا ترتدي قبعات مستديرة البتة .

وفي اليوم التالي ، رجع جان فالجان . وقصت عليه كوزيت ما اعتقدت أنها سمعته ورأته . لقد توقعت ان قلبها سوف يعرف الطمأنينة ، وان اباها سوف يهز كتفيه قائلاً : « أنت فتاة صغيرة حمقاء . »

وداخل القلق جان فالجان .

وقال لها :

— « قد لا يكون ذلك شيئاً . »

وفارقها بذريعة ما ، ومضى إلى الحديقة . ورأته يفحص الباب في كثير من العناية .

وفي موهن من الليل ، افاقت من رقادها . كانت الآن موقنة ، ولقد سمعت في وضوح شخصاً يسير على مقربة دانية من السلم ، تحت نافذتها . وهرعت إلى خادعة النافذة وفتحتها . كان ثمة في الواقع رجل في الحديقة يحمل بيده هراوة ضخمة . وفي اللحظة التي اوشكت فيها على الصراخ ، اضاء القمر وجه الرجل . كان أباها !

وارتدت إلى سريرها ، قائلة :

— « واذن ، فهو قلق حقاً ! »

وأمضى جان فالجان تلك الليلة والليلتين التاليتين في الحديقة . لقد رأته كوزيت من خلال الثقب الذي في مصراع نافذتها .

وفي الليلة الثالثة كان النقصان قد ألمّ بالقمر ، وكان قد ارتفع في ساعة متأخرة ، ولعل ذلك كان في الساعة الواحدة صباحاً ، عندما سمعت ضحكة مدوية ، وصوت أبيها يناديها :

— « كوزيت ! »

فوثبت من سريرها ، وطرحت مبذلها على جسمها ، وفتحت نافذتها . كان ابوها في الرقعة المعشوشبة .

وقـال :

– « لقد ايقظتك لـكي أوقع في نفسك الطمأنينة . انظري . هو ذا ظلك ذو القبعة المستديرة . »

وأشار إلى ظل بسطه القمر على العشب ، ظل كان يشبه رجلا ذا قبعة مستديرة شبهاً بعيداً جداً . كانت صورة أحدثتها مدخنة موقد ذات غطاء ، صُنعت من صفائح الحديد وارتفعت فوق سطح مجاور .

وشرعت كوزيت تضحك ايضاً ، وخرّت افتراضاتها المظلمة كلهـا على الارض . وفي اليوم التالي ، بينا كانت تتناول الفطور مع أبيهـا تفكهت بحديث الحديقة الغريبة الآهلة بظلال مداخن المواقد .

واستعاد جان فالجان اطمئنانه كاملا . أما كوزيت فلم تلاحظ في كثير من العناية ما إذا كانت مدخنة الموقد فعلا في اتجاه الظل الذي رأتـه أو ظنت انها رأته ، وما إذا كان القمر في موقعه نفسه من السماء . ولم تتساءل قط عن غرابة تلك المدخنة التي تخشى ان يُقبض عليهـا متلبسة بالجريمة ، والتي تنسحب حين تنظر الى ظلها . ذلك بأن الظل كان قد اختفى حين استدارت كوزيت ، وكانت كوزيت قد اعتقدت حقاً انها على ثقة من ذلك . لقد عمرت الطمأنينة فؤاد كوزيت . فقـد بدا الدليل كاملا في نظرها ، ولم تخامرها منذ ذلك الحين تلك الفكـرة القائلة بأن شخصاً من الاشخاص كان يمشي في الحديقة ذلك المساء أو تلك الليلة ، على الاطلاق .

ومع ذلك ، فقد وقعت بعد بضعة ايام حادثة جديدة .

٣
تعليقات كوسين تذكي جذوة مخاوفها

وكان في الحديقة ، قرب الباب الحديدي المؤدي إلى الشارع ، مقعد حجري يحجبه سياج شائك عن أعين الفضوليين ، ولكن في استطاعة يد عابر السبيل ، مع ذلك ، ان تبلغه ببعض الجهد ، من خلال الباب الحديدي والسياج الشائك .

وذات مساء من نيسان نفسه ، غادر جان فالجان المنزل ايضاً . وكانت كوزيت قد جلست ، بعد غروب الشمس ، على هذا المقعد . كانت الريح تشتد في الاشجار ، وكانت كوزيت مستغرقة في التفكير . كان حزن غامض قد شرع يستحوذ عليها قليلا قليلا ، ذلك الحزن القهار الذي يخلعه المساء ، والذي ينبثق — فمن يدري ؟ — من سر القبر نصف المفتوح في تلك الساعة .

ولعل فانتين كانت في ذلك الظل .

ونهضت كوزيت ، ودارت حول الحديقة في أناة ، ماشية على العشب الذي كان مثقلاً بالندى ، قائلة لنفسها من خلال تلك النيدلة * الكئيبة التي اكتنفتها : « ان المرء ليحتاج إلى حذاء خشبي يسير به في الحديقة في مثل هذه الساعة . إني سوف اصاب بزكام . »

وانقلبت إلى المقعد .

ولحظةَ كانت تجلس عليه ، لاحظت في المكان الذي فارقته حجراً ضخماً لم يكن هناك ، من غير ريب ، قبل لحظة .

وتأملت كوزيت هذا الحجر ، سائلة نفسها عن المعنى الذي ينطوي عليه . وفجأة خطر لها أن هذا الحجر لم يجيء بنفسه إلى ذلك المقعد ، وأن شخصاً ما قد وضعه هناك ، وان ذراعاً قد مرت من خلال الباب

* النيدلة : السير اثناء الرقاد .

الحديدي المقضب . وعصف بها الذعر . كان ذعراً حقيقياً هذه المرة . لا مجال للشك على الاطلاق ؛ فالحجر كان هناك . ولم تمسه . وولت هاربة من غير ان تجروء على النظر إلى وراء . وفزعت إلى البيت . وفي الحال أوصدت باب السلم الزجاجي بالمصراع الخشبي ، وبالمتراس والمزلاج . وسألت توسين :

— « هل رجع ابي ؟ »

— « لا ، إنه لم يرجع بعد ، يا آنسة . »

(لقد اشرنا مرة إلى تمتمة توسين . فليسمح لنا القاريء أن لا نصور ذلك من جديد . فنحن نكره العلامات الموسيقية الخاصة بعاهة من العاهـات .)

وكان من دأب جان فالجان — وهو رجل يألف التفكير والمشي في موهن من الليل — ان لا يؤوب إلا في ساعة متأخرة .

واضافت كوزيت :

— « توسين ، اهتمي كل مساء باغلاق المصاريع جيداً بالحديـد ، فوق الحديقة على الاقل ، ولا تنسي ان تُدخلي الاشياء الحديدية الصغيرة في الحلقات الصغيرة التي توصد الابواب والنوافذ . »

— « اوه ، لا تخافي ، يا آنسة . »

ولم تكن توسين لتهمل ذلك ، ولقد كانت كوزيت تعـرف هـذا جيداً ، ولكنها لم تتـمالك أن تضيف :

— « لأن المنطقة منعزلة جداً . »

فقالت توسين :

— « لستِ مخطئة من هذه الناحية . إننا قد نُذبح قبل ان نجد متسعاً من الوقت لنقول آخ ! ثم إن السيد لا ينام في البيت . ولكن لا تخافي ، يا آنسة . إني اوصد النوافذ كالباستيل . أمرأتان متوحدتان ! أنا أعتقد جيداً أن هذا كاف لأن يحملنا على الارتعاد . فكري ، مجرد تفكير ،

بأنك ترين رجالا يدخلون إلى الغرفة ليلا ، ويقولون لك : « هش ! » ويشرعون في حز حنجرتك . ليس خوفنا من الموت . فالناس يموتون ، هذا حسن ، ونحن نعرف جيداً ان علينا ان نموت ، ولكنه الذعر من ان يمسنا مثل هؤلاء الناس . وفوق هذا ، فعندك سكاكينهم . انها تحز على نحو رديء من غير شك ! آه ، يا الـّهي ! »

فقالت كوزيت :

— « اسكتي ! اغلقي كل شيء جيداً . »

ولم تجروء كوزيت ، وقد روعتها المأساة التي ارتجلتها توسين — ولعلها رُوعت ايضاً بذكرى أطياف الاسبوع الماضي التي عاودتها — لم تجرؤ حتى على ان تقول لها : « اذهبي وانظري إلى الحجر الذي وضعه شخص ما على المقعد ! » بسبب من خوفها ان يفتح باب الحديقة كرة اخرى ، وخشية ان يدخل « الرجال » من جديد . لقد أغلقت جميع الابواب والنوافذ في عناية ، وطلبت إلى توسين أن تطوف بالبيت كله ، من القبو إلى العلية ، واحتبست نفسها في غرفتها ، وأحكمت إيصاد الباب بالحديد ، ونظرت تحت السرير ، واستلقت عليه ، ونامت نوماً قلقاً . وطوال الليل ، رأت الحجر الكبير كالجبل ، مليئاً بالكهوف .

وعند شروق الشمس — ومن خصائص شروق الشمس أنه يجعلنا نضحك على مخاوفنا الليلية كلها ، وضحكتنا تكون دائماً متناسبة مع الخوف الذي ألم ّبنا — نهضت كوزيت ، ناظرة إلى ذعرها وكأنه كابوس من الكوابيس ، وقالت في ذات نفسها : « ما الذي رأيته في الحلم ؟ إنها مثل تلك الخطى التي اعتقدت أنني سمعت وقعها ليلا ، خلال الاسبوع الماضي ، في الحديقة ! إنه مثل خيال مدخنة الموقد ! هل سأغدو جبانة منذ اليوم ؟ »

واشرقت اشعة الشمس من خلال فروج النافذة الخشبية ، وخلعت على الستائر الدمقسية لون الارجوان ، فأعادت الطمأنينة إلى نفس كوزيت

حتى لقد زايلتها تلك الأفكار كلها ، ونسيت حتى الحجر .

– « لم يكن ثمة حجر على المقعد ، كما انه لم يكن في الحديقة رجل ذو قبعة مستديرة . لقد رأيت الحجر في منامي ، كما رأيت سائر الاشياء في منامي أيضاً . »

وارتدت ثيابها ، ونزلت إلى الحديقة ، ومضت إلى المقعد ، وأحست بالعرق البارد يتصبب منها . كان الحجر هناك .

ولكن ذلك لم يدم غير لحظة . فما هو ذعر في الليل يصبح فضولاً في النهار . وقالت :

– « عجيب ! دعني أرى ! »

ورفعت الحجر الذي كان كبيراً الى حد لا بأس به ، فاذا تحته شيء اشبه ما يكون برسالة .

كان ظرفاً ورقياً أبيض . وأمسكت به كوزيت . لم يكن على احد جانبيه عنوان ، ولم يكن على جانبه الآخر خاتم . ومع ذلك ، فالظرف على الرغم من انه كان مفتوحاً لم يكن فارغاً . كان في امكانها أن ترى الاوراق فيه .

وقلبته كوزيت بين يديها . لم يعد ثمة ذعر ، ولم يبق ثمة فضول . كان ثمة بدء شوق قلق .

وأخرجت كوزيت ما في الظرف ، كان دفتراً مرقمةً صفحاته كلها ، وقد انطوى كل منها على بضعة اسطر كتبت بخط جميل بعض الشيء ، كما اعتقدت كوزيت ، ودقيق جداً .

وبحثت كوزيت عن اسم ، فلم تجد شيئاً . وعن توقيع ، فلم تجد شيئاً . إلى من كانت الرسالة موجهة ؟ اليها في اغلب الظن ، ما دامت يد قد وضعت الرزمة على مقعدها . من الذي أرسلها ؟ واستبدت بها فتنة لا سبيل إلى مقاومتها ، وحاولت أن تشيح ببصرها عن تلك الاوراق التي ارتعشت في يدها ، ونظرت إلى السماء ، إلى الشارع ،

إلى شجرات الطلح الندية بالضياء ، وإلى حمائم كانت تطير فوق سطح مجاور ، ثم انخفض بصرها ، فجأة ، وفي لهفة ، ملتمساً المخطوطة ، وقالت في ذات نفسها ان عليها ان تعرف ما الذي كان فيها .

واليك ما قرأت :

٤
قلب تحت حجر

اختصار الكون إلى كائن فرد ، وبسط الكائن الفرد حتى الالـه ... ذلك هو الحب .

*

الحب تحية الملاك للنجوم .

*

ما اعظم حزن الروح حين تكون محزونة من الحب !

*

ايّ فراغ هو غياب الكائن الذي يملأ وحده العالم كله ! أوه ! ما اصدق قولهم ان الكائن المحبوب يصبح رباً ! إن المرء ليدرك ان الله خليق به ان يكون شديد الغيرة إذا لم يخلق أبو الجميع الكون من اجل النفس ، والنفس من اجل الحب !

*

حسبُ النفس ومضة ابتسامة تحت قبعة من الكريب الأبيض ذات تُويج زنبقي حتى تدخل إلى قصر الاحلام .

*

إن الله من وراء كل شيء ، ولكن كل شيء يخفي الله . الاشياء

سوداء ، والكائنات غير شفافة . وحبك كائناً ما ، يعني انك تحيله شفافاً .

*

بعض الأفكار صلوات . هناك لحظات تكون فيها النفس جاثية على ركبتيها مهما كان وضع الجسد .

*

إن المحبين اللذين باعد ما بينهما الزمان يخدعان الغيبة بالف شيء وهمي لها برغم ذلك حقيقتها . لقد حُرم احدهما رؤية صاحبه ، وليس في ميسورهما أن يتراسلا ، ولكنهما يجدان جمهرة من وسائل المراسلة الغريبة . انهما يحمّلان تغريد الطيور ، وشذا العطور ، وضحك الاطفال ، وضياء الشمس ، وتنهدات الريح ، وأشعة الكواكب ، والكون كله رسائلهما تلك . ولم لا ؟ إن جميع ما أبدعه الله إنما جُعل لخدمة الحب . والحب هو من القوة بحيث يستطيع ان يحمّل الطبيعة كلها رسائله .

ايه ايها الربيع ! انت رسالة أدبجها لها .

*

لا يزال المستقبل للقلب اكثر مما هو للعقل . فالحب هو الشيء الوحيد القادر على أن يحتل الأبدية ويملأها . إن اللانهائي لفي حاجة إلى اللانافد .

*

الحب يشارك النفس نفسها . إنه من الجبلة ذاتها . هو مثلها شرارة الـهية . وهو مثلها ممتنع على الفساد ، ممتنع على التجزئة ، ممتنع على الزوال . إنه معين نار في باطننا ، خالد ولا نهائي ، فليس في استطاعة شيء ان يضع حداً له ، وليس في استطاعة شيء أن يطفئه . نحن نحس به يضطرم حتى في مخ عظامنا ، ونحن نراه يشع

حتى إلى أعماق السماء .

*

ايه ايها الحب ! لك المجد ! يا ضياء عقلين متفاهمين ، وقلبين متقابضين ، ونظرتين متداخلتين ! إنك سوف تقبل علي ، اليس كذلك، أيها اليُمن ؟ نزهات مشتركة في المناطق المتوحدة ! ايام مباركة مشعة ! لقد حلمت احياناً بأن الساعات كانت تنفصل ، بين الفينة والفينة ، عن حياة الملائكة وتهبط إلى هنا ، على الارض ، لكي تنفذ في مصائر الناس واقدارهم .

*

ليس في استطاعة الرب ان يضيف شيئاً إلى سعادة اولئك الذين يحب بعضهم بعضاً ، غير اعطائهم الديمومة اللامتناهية . فبعد حياة الحب تكون ابدية الحب زيادة حقاً . أما زيادة كثافة السعادة التي لا سبيل إلى وصفها ، السعادة التي يضفيها الحب على النفس في هذا العالم ، فذلك امر متعذر حتى على الاله . إن الله كمال السماء ، وإن الحب كمال الانسان .

*

انك تنظر إلى النجم بدافعين ، لأنه ساطع ، ولأنه ممتنع على الفهم . إن إلى جانبك شعاعاً الطف ، ولغزاً اعظم : المرأة .

*

ان لنا جميعاً ، كائناً من كنا ، اجهزتنا التنفسية . فاذا ما أعوزتنا ، أعوزنا الهواء ، وعندئذ نقضي نحبنا . والموت من فقرنا إلى الحب شيء مروع . إنه اختناق النفس .

*

حين يذيب الحب كائنين ويمزج ما بينهما في وحدة ملائكية مقدسة ينكشف لهما سر الحياة . انهما لا يعدوان ، عندئذ ، أن يكونا تعبيرين

اثنين لقدر مفرد . إنهما لا يعدوان ، عندئذ ، ان يكونا جناحين لروح مفردة . فلأن تحب يعني ان تحلّق !

*

يوم تمر بك امرأة تسفح الضياء عليك فيما هي تمضي لسبيلهـــا ، فيأخذك الذهول ، فعندئذ تكون قد أحببت . وليس امامك ، بعدئذ ، غير شيء واحد ينبغي ان تعمله : أن تفكر فيها بتركيز بالغ يكرههـــا آخر الأمر على ان تفكر فيك .

*

ما يبدأه الحب فليس في ميسور أحد غير الله أن ينهيه .

*

الحب الحقيقي يغالي في الحزن ويأخذه الجذل من أجل قفاز ضائـــع أو منديل يعثر عليه ، وهو محتاج في تفـــانيه وآمـــاله إلى الأبـــديـــة . إنـــه يتألف من العظيم إلى ما لا نهاية ومن الصغير إلى ما لا نهاية فـــي وقت معـــاً .

*

اذا كنت صخرة فكن ودوداً . واذا كنت نبتة فكن حساساً . واذا كنت رجلا فكن حباً .

*

ليس يكفي الحبَّ شيء . فحين نفوز بالسعادة نطمع بالجنة . وحين نفوز بالجنة نطمع بالسماء .

إيه يا من تحبون بعضكم بعضاً ، هذا كله في الحب . كونوا مـــن الحكمة بحيث تعثرون عليه . إن في الحب من التأمل مثل ما في الجنة ، ومن الجذل اكثر مما في الجنة .

*

— « ألا تزال تجيء إلى اللوكسومبورغ ؟ » — « لا ، يا سيدي . » —

« إنها تسمع القداس في هذه الكنيسة ، أليس كذلك ؟ » — « إنها ما عادت تجيء إلى هنا . » — « ألا تزال تعيش في هذا البيت ؟ » — « لقد انتقلت ! » — « إلى أين انتقلت ؟ » — « إنها لم تقل ! »
ما أقتم جهل المرء عنوانَ روحه !

*

للحب صبيانياته ، أما العواطف الاخرى فلها صغائرها . الخزي للعواطف التي تحيل الانسان صغيراً ! والمجد لتلك التي تردّه طفلا !

*

هذا شيء عجيب ، اتعرف ذلك ؟ أنا في الظلام . إن ثمة مخلوقة مضت لسبيلها حاملة السماء معها .

*

أوه ! لأن أرقد معها جنباً إلى جنب في الجدث نفسه ، ويدي في يدها ، ولأن ألمس في الظلام ، بين الفينة والفينة ، اصبعاً من اصابعها في لطف ، كافيان لتحقيق سرمديتي .

*

يا من تتألمون لأنكم تحبون ، أحبوا اكثر . فالموت حباً هو الحياة به .

*

أحبوا . إن تجلياً كوكبياً كئيباً ليمتزج بهذا النكال . إن ثمة نشوة روحية في الحشرجة .

*

يا لابتهاج الطيور ! إن لها تغريدها لأن لها أعشاشها .

*

الحب تنفس سماوي لهواء الجنة .

*

إن القلوب الكبيرة والعقول الحكيمة تتقبل الحياة كما أبدعها الله . إنها تجربة طويلة ، استعداد خفي للقدر المجهول . وهذا القدر – الحقيقي – يبدأ بالنسبة إلى الانسان عند الخطوة الأولى في داخل القبر . . وعندئـذ يتبدى له شيء ، ويشرع في تبين النهائي . النهائي ، فكّر في هـــذه الكلمة . الأحياء يرون اللانهائي ، أما النهائي فلا يتكشف إلا للاموات . وفي غضون ذلك ، أحبوا وتألموا ، وأمّلوا وتأملوا . والويل ، والأسفاه ، لذلك الذي لم يحب إلا اجساداً ، واشكالا ، وظواهر كاذبة ! ان الموت سوف ينتزع ذلك كله منه . حاولوا ان تحبوا نفوساً ، فلسوف تجدون تلك النفوس كرة اخرى .

*

لقد التقيت في الشارع شاباً معدماً تيمه الحب . كانت قبعته عتيقة ، وكانت ثيابه متهرئة . وكان مرفقاه مثقوبين . لقد تسرب الماء من خلال حذائه ، وتسربت النجوم من خلال روحه .

*

ما اعظم أن يكون المرء محبوباً ! واعظم من ذلك ان يحب ! إن القلب ليغدو باسلا بفضل الهيـام . إنـه لا يعود مؤلفاً من شيء غـــير ما هو محض وخالص ، وانه لا يعود ناهضاً على شيء غير ما هو رفيع وعظيم . عندئذ يتعذر على الفكرة غير اللائقة ان تنبثق فيه إلا بمقـدار ما ينبت القرّاص على سطح جبل من جليد . إن النفس الشامخة الرائعة ، الممتنعة على الشهوات والانفعالات المبتذلة ، المرتفعة فوق سُحب هـــذا العالم وظلاله – الحماقات ، والاكاذيب ، والاحقاد ، والاباطيل ، وضروب الشقاء – لتقيم في زرقة السماء ، ولا تستشعر غير ارتجاجات القدر العميقة الخفية ، كما تستشعر قمم الجبال هزات الارض .

*

لو لم يكن ثمـة من يحب ، لانطفأت الشمس .

٥
كوزيت بعد الرسالة

وخلال تلك التلاوة انخرطت كوزيت ، تدريجياً ، في دنيا الأحلام . ولم تكد ترفع عينيها عن السطر الاخير من الصفحة الاخيرة حتى اقبل الضابط الوسيم — فقد حان وقته — ومر بالباب الحديدي مظفراً . ووجدته كوزيت بشعاً مروّعاً .

وعاودت تأملها في الرسالة . كانت مرقومة بخط فاتن ، كذلك فكرت كوزيت . لقد كتبتها يد واحدة ، ولكن باحبار مختلفة ، هي حيناً سوداء فاحمة ، وهي حيناً ضاربة إلى البياض ، عند وضع الماء في المحبرة ، مما يؤذن بأن ذلك قد تم في ايام متعددة . كانت اذن فكرة سُفحت هناك ، زفرةً زفرةً ، من غير ما نظام ، من غير ما نسق ، من غير ما اختيار ، من غير ما غاية ، وكيفما اتفق . ولم يقدر لكوزيت أن تقرأ شيئاً مثل هذا من قبل . وتركت هذه المخطوطة ، التي وجدتّها كوزيت مع ذلك وضوحاً اكثر منها غموضاً ، أثراً في نفسها مماثلا لأثر معبد نصف مفتوح . كان كل من هذه الاسطر العجيبة يتألق امام عينيها ، ويغمر فؤادها بضياء غريب . وكانت التربية التي أخضعت لها قد حدثتها عن الروح دائماً ، ولم تحدثها قط عن الحب ، فهي اشبه ما تكون بشخص يتكلم عن الجذوة ولا يتكلم عن الشعلة البتة . وكشفت لها هذه المخطوطة ذات الصفحات الخمس عشرة ، فجأة وفي عذوبة ، عن الحب كله ، وعن الألم ، والقدر ، والحياة ، والابدية ، والبداية ، والنهاية . كانت مثل يد انفتحت وألقت عليها ، فجأة ، حفنة من شعاع الشمس . لقد استشعرت في تلك الاسطر القليلة طبيعة منفعلة ، محتدمة ، سخية ، صادقة ، وارادة متفانية ، وأسى ضخماً ، وأملا لا

حد له ، وقلباً منقبضاً ، ونشوة روحية بهيجة . أي شيء كانت تلك المخطوطة ؟ رسالة . رسالة من غير عنوان ، من غير اسم ، من غير تاريخ ، من غير توقيع ، ملحّة وغير مغرضة، احجية مؤلفة من حقائق . رسالة حب جُعلت لكي ينقلها ملاك وتقرأها عذراء ، موعد مضروب وراء الارض ، رسالة غرامية من طيف إلى ظل . كان شخصاً غائباً هادئاً ، وإن يكن مرهقاً ، شخصاً بدا وكأنه مستعد لأن يجد في الموت ملجأ ، وقد بعث إلى الغائبة سر القدر ، مفتاح الحياة ، الحب . لقد كُتبت والقدم في القبر ، والأصبع في السماء . إن تلك الاسطر ، الهابطة واحداً اثر واحد على الورق ، كانت ما يمكن ان ندعوه قطرات النفس .

والآن ، عمن يمكن ان تكون هذه الصفحات قد صدرت ؟ من الذي يمكن ان يكون قد كتبها ؟

ولم تتردد كوزيت لحظة . رجل واحد ليس غير .

هو !

كان الضياء قد بُعث في ذهنها ، وتبدى لها كل شيء كرة اخرى . لقد شعرت بابتهاج رائع وحصَر نفسي عميق . كان هو ! هو الذي كتب اليها ! هو الذي كان هناك ! هو الذي مرت ذراعه عبر ذلك الباب الحديدي المقضب ! ففيما كانت هي تنساه ، عثر هو عليها من جديد ! ولكن هل نسيته حقاً ؟ لا ، على الاطلاق ! كانت مخبولة إذ ظنت ذلك لحظة واحدة . لقد أحبته دائماً ، وتدلهت به دائماً . كانت النار مغطاة بالرماد ، وكانت قد خُنقت فترة من الزمان ، ولكنها كانت تراها جيداً . إنها لم تزد على ان غاصت إلى الأعماق ، وها هي ذي الآن تنفجر من جديد وتلهب كيانها كله . كانت تلك الرسالة أشبه بشرارة سقطت من تلك الروح الاخرى إلى روحها . وأحست بالحريق تضطرم نيرانه كرة اخرى . وتشبعت بكل كلمة من كلمات المخطوطة .

وقالت : « آه ، اجل ! كيف أدرك ذلك كله ! ذلك ما سبق لي ان قرأته في عينيه . »

وحين أتمت تلاوة الرسالة للمرة الثالثة عاود الملازم الاول تيبودول الظهور أمام الباب الحديدي المقضب ، وصلّ مهمازُه على حصباء الطريق . ورفعت كوزيت عينيها على نحو آلي . لقد خالته تافهاً ، أبله ، سخيفاً ، لا غناء فيه ، مغروراً ، بغيضاً إلى النفس ، وبشعاً جداً . وحسب الضابط ان الواجب يقتضيه ان يبتسم ، فأشاحت بوجهها خجلة مغيظة . وكانت خليقة بأن تبتهج لو استطاعت ان تقذف رأسه بشيء ما .

وولت فراراً ، وانقلبت إلى المنزل ، واوصدت على نفسها باب غرفتها لكي تعيد تلاوة المخطوطة ، ولكي تحفظها عن ظهر قلب ، ولكي تستسلم إلى التأمل . حتى إذا قرأتها قراءة جيدة ، قبلتها ووضعتها في صدرها .

وقضي الأمر . لقد استحوذ الحب الاثيري العميق على كوزيت ، مرة ثانية . كانت هاوية عدْن قد فُتحت امامها من جديد .

وطوال ذلك النهار ، غلب على كوزيت ضرب من الذهول . لقد تعذر عليها التفكير ، أو كاد . كانت الافكار اشبه شيء بكبة غزل مشوشة متشابكة في دماغها . ولم تستطع ان تحدس بشيء . ورجت ، حتى من خلال رعدتها — ماذا ؟ — اشياء غامضة . ولم تجرؤ على ان تعد نفسها بشيء ، ولم ترغب في ان تأبى على نفسها شيئاً . وران الشحوب على وجهها بعد الشحوب ، وعصفت الرعدة بجسدها بعد الرعدة . لقد بدا لها في بعض اللحظات انها دخلت في دنيا الأوهام . وقالت في ذات نفسها : « هل هذا حقيقي ؟ » ثم لمست الورقة الحبيبة تحت ثوبها ، وضغطتها على فؤادها ، واستشعرت زواياها فوق لحمها . ولو قد رآها جان فالجان في تلك اللحظة اذن لارتعد أمام ذلك الابتهاج الساطع

المجهول الذي أومض من مقلتيها . وفكرت قائلة : « اوه ، أجل ! إنه هو حقاً ! لقد جاءتني هذه منه ! »

وقالت في ما بينها وبين نفسها إن تدخلاً من جانب الملائكة ، إن حظاً سماوياً قد أعاده اليها .

يا لتجلي الحب ! يا للأحلام ! إن هذا الحظ السماوي ، إن تدخل الملائكة هذا ، كان كُرَيَّة الخبز التي القاها لص إلى لص من محكمة شارلمان إلى « حفرة الاسود » ، فوق سطوح سجن لا فورس .

٦
لقد جُعل العجائز للخروج حين يكون ذلك ملائماً

وحين هبط المساء ، غادر جان فالجان المنزل . وارتدت كوزيت فستانها ، ورجلت شعرها على النحو الذي كان يلائمها اكثر الملاءمة ، وارتدت ثوباً كان عنقه — بعد أن اقتطع منه المقص اكثر مما ينبغي فهو يكشف بهذا التجويف عن أصل العنق — « غير محتشم بعض الشيء » كما تقول الفتيات الصغيرات . ولم يكن ذلك الثوب غير محتشم بحال من الاحوال ، ولكنه كان اجمل من اي ثوب من طراز آخر . وإنما اتخذت هذه الزينة كلها من غير أن تدري لماذا .

أكانت تعتزم مغادرة المنزل ؟ لا .

أكانت تنتظر ان يزورها أحد ؟ لا .

وعند الزوال ، هبطت إلى الحديقة . كانت توسين مشغولة في مطبخها المطل على الفناء الخلفي .

وشرعت تمشي تحت الاغصان ، مقصية اياها جانباً ، بين الفينـة والفينة ، لأن بعضها كان خفيضاً جداً .

وهكذا انتهت إلى المقعد .

كان الحجر ما يزال هناك .

وقعدت ، ووضعت يدها البيضاء الناعمة على ذلك الحجر وكأنمـا كانت تلاطفه وتشكره .

وفجأة ، استشعرت ذلك الاحساس ، الممتنع على التحديد ، الذي نستشعره – على الرغم من عدم رؤيتنا شيئاً – حين يكون شخص ما ، واقفـاً خلفنا .

وادارت رأسها ، ونهضت .

كان هو .

كان حاسر الرأس . وكان يبدو شاحباً ومهزولا . ولم تتبين بذلتـه السوداء إلا بشق النفس . فقد أبهت الغسق جبينه الوسيم ، وغطى عينيه بالظلام . كان فيه ، تحت حجاب من العذوبة لا يضاهى ، شيء من الموت ومن الليل . وكان وجهه مضاء بنور يوم محتضر ، وبتفكـير نفس مفارقـة .

لقد بدا وكأنه لمّـا يُمسِ طيفاً ، ولكنه لم يعد بعد رجلا .

كانت قبعته مطروحة على بضع خطوات ، في وسط الأدغال .

وأشرفت كوزيت على الاغماء ، فلم تطلق صيحة واحدة . لقـد ارتدت إلى الوراء ، في مهل ، اذ احست وكأن شيئاً يجذبها إلى أمام . ولم يأت هو بحركـة . ومن خلال ذلك الشيء المحزون الممتنـع على الوصف ، والذي كان يلفه ، استشعرت نظرة عينيه اللتين لم ترهما .

والتقت كوزيت ، في تراجعها ، بشجرة ما، فاستندت اليها . ولولا هذه الشجرة لسقطت على الارض .

ثم إنهـا سمعت صوته ، ذلك الصوت الذي لم تسمعه سماعاً حقيقياً

من قبل قط ، مرتفعاً ، وما يكاد ، فوق حفيف الاغصان ، مغمغماً :

— « عفواً ، أنا هنا . ان قلبي ليتفطر، ولم يكن في ميسوري أن أحيا كما كنت أحيا ، ومن اجل ذلك اقبلت . هل قرأتِ ما وضعته هناك ، على هذا المقعد ؟ هل عرفتني ولو معرفة بسيطة ؟ لاَ تخافي مني . لقد انقضت على ذلك فترة طويلة ، فهل تذكرين يوم نظرتِ الي ؟ كان ذلك في حديقة اللوكسمبورغ ، قرب « المقاتل » . ويوم مررت بي ؟ كان ذلك في السادس عشر من حزيران ، والثاني من تموز . وبعد فترة قصيرة يكون قد انقضى على ذلك عام كامل . أنا لم أرك منذ زمن طويل . لقد سألت مؤجرة الكراسي فأنبأتني انها ما عادت تراك البتة . لقد عشتِ في « شارع الغرب » ، في الدور الثاني من مقدّم البناء ، في منزل جديد ، أرأيتِ ، اني أعرف ! لقد تبعتك . واي شيء كان ينبغي ان افعله ؟ وخيل الي اني رأيتك تمرّين ذات يوم وأنا أقرأ الصحف تحت أقواس الاوديون . وركضت . ولكن لا . كان شخصاً يعتمر بقبعة مثل قبعتك . وعندما يهبط الليل ، اجيء إلى هنا . لا تخافي ، إن احداً لا يراني . اني اجيء لأرى إلى نوافذك عن كثب . انا أمشي في كثير من الرفق لكي لا تسمعيني ، فقد تروّعين لو لم أفعل . وفي احدى الليالي الماضية كنت خلفك ، واستدرتِ ، فوليت فراراً . وذات يوم ، سمعتك تغنين . وغمرتني السعادة . هل يزعجك سماعي غناءك من خلال مصراع النافذة ؟ ان ذلك لا يمكن ان يصيبك بأذى ما . أجل لا يمكنه ان يصيبك بأذى ، أليس كذلك ؟ انظري ، انت ملاكي. دعيني اجيء في بعض الاحيان ، أنا اعتقد اني سوف اموت . ليتك فقط تعرفين ! اعذريني ، انا اخاطبك ، انا لا أدري ما الذي أقوله لك . جائز ان يكون في صنيعي هذا ما يغضبك . هل أغضبك حقاً ؟ »

وقالت :

— « اوه ، واأماه ! »

وتمايلت خائرة القوى ، وكأنما كانت تحتضر .

وامسك بها ، وخرّت على الارض ، فضمها بين ذراعيه ، وهصرها في شدة ، غير واع ما الذي كان يعمله . واسندها فيما كان هو نفسه يتمايل . فقد استشعر وكأن رأسه مليء بالدخان . واخترقت جفنيه ومضات من ضياء . وتلاشت أفكاره . لقد بدا له وكأنه يؤدي فريضة دينية ، وينتهك حرمة شيء مقدس . وإلى هذا ، فأنه لم يحس العاطفة عارمة نحو هذه الفتاة الفاتنة التي كان يستشعر صورتها على فؤاده . كان الحب قد أفقده صوابه .

وأمسكت بيده ، ووضعتها على فؤادها . وأحس بالورقة هناك ، وتمتم :

— « أنتِ تحبينني ، اذن ؟ »

فأجابته بصوت خفيض جداً ، فهو لا يعدو ان يكون نفَساً ما يكاد يُسمع :

— « صه ! أنت تعرف ذلك ! »

وخبأت رأسها المحمرّ في صدر الشاب الفخور الثمل .

وارتمى على المقعد ، وهي إلى جانبه . وتعطلت لغة الكلام . كانت النجوم قد شرعت تشع . كيف اتفق ان التقت شفتاهما ؟ كيف يتفق للعصفور ان يغرد ، وللثلج ان يذوب ، وللوردة ان تنوّر ، ولنوار ان تتفتح أكمامه ، وللفجر ان يبيضّ خلف الاشجار السوداء على قمة التلال المرتعدة ؟

قبلة واحدة ، ذلك كان كل شيء .

وارتعدا جميعاً ، ونظر كل منهما إلى الآخر ، وسط الظلام ، بعينين ملتمعتين .

ولم يحسا لا بالليل المعتدل البرودة ، ولا بالحجر البارد ، ولا بالارض الرطبة ، ولا بالعشب الندي . لقد تبادلا النظرات وفؤاد

كل منهما طافح بالافكار . وكانا قد شبكا يديهما ، من غير أن يدريا .

ولم تسأله – بل ان ذلك لم يخطر لها على بال – كيف وبأيما طريقة وفّق للدخول إلى الحديقة . لقد بدا لها أن من الطبيعي جداً ان يكون هناك !

ومن حين إلى حين كانت ركبة ماريوس تمس ركبة كوزيت . وارتعدا جميعاً .

وبين الفينة والفينة كانت كوزيت تتلجلج بكلمة . وارتجفت روحها على شفتيها ، كما ترتجف قطرة من ندى على ريحانة من الرياحين .

وشيئاً بعد شيء ، شرعا يتكلمان . وخلَفَ التدفقُ الصمتَ الذي هو افراط . كان الليل رائعاً سنياً فوق رأسيهما . وتناجى هذان الكائنان ، الطاهران طهارة الارواح ، بكل شيء : باحلامهما ، وخبالاتهما ، ونشواتهما ، واوهامهما ، وقنوطهما ، وكيف عبد كل منهما الآخر عن بعد ، وكم قد تاق كل منهما إلى الآخر ، واليأس الذي غلب عليهما حين فرقت ما بينهما الأيام . لقد تطارحا ، في حميمية مثالية لم يستطع شيء الآن ان يزيدها قوة ، كلَّ ما عندهما من محجوب إلى ابعد الحدود ، وغريب إلى أبعد الحدود . وروى احدهما للآخر ، بأيمان ساذج باوهامهما ، كل ما اوحاه إلى تفكيرهما الحب ، والشباب ، وما بقي لديهما من طفولة . لقد تدفق احد هذين القلبين في الآخر ، حتى إذا انقضت ساعة من الزمان كان الشاب قد أشرِب روح الفتاة ، وكانت الفتاة قد أشرِبت روح الشاب . لقد تداخلا ، وتساحرا ، وبهر احدهما الآخر .

وحين انتهيا ، حين فرغا من قول كل شيء ، وضعت رأسها على كتفه وسألته :

– « ما اسمك ؟ »

فقال :

– « اسمي ماريوس . وانت ؟ »

– « اسمي كوزيت . »

الكتاب السادس

غافروش الصغير

١

حيلة شريرة من حيل الريح

منذ عام ١٨٢٣ ، فيما كان فندق مونفيرماي يغرق ويُبتلع شيئاً بعد شيء ، لا في هاوية الافلاس ، ولكن في بالوعة الديون الصغيرة ، رزق تيناردييه وزوجته ولدين اضافيين ، كلاهما ذكر . وهكذا أمسى عدد اولادهما خمسة : بنتين وثلاثة صبيان . وكان ذلك كثيراً .

وكانت تيناردييه الزوجة قد تخلصت من هذين الاخيرين ، وهما بعد صغيران جداً ، بمصادفة سعيدة فريدة .

« تخلصت » هي الكلمــة الملائمة . فقد كان في هذه المرأة كسرة من

الطبيعة ليس غير . وفوق هذا ، فتلك ظاهرة نجد لها اكثر من مثل واحد . فمثل « المارشالة دو لا موث — هو دانكور » * كانت تيناردييه الزوجة أماً لبنتيها فحسب . لقد انتهت امومتها هناك . ومع صبيانها ، بدأت كراهيتها للجنس البشري . فمن ناحية صبيتها ، كانت نزعتها الشريرة عمودية شديدة التحدر ، وكان لقلبها عند تلك النقطة منحدر رهيب . وكما رأينا من قبل ، كانت تكره الولد الاكبر ، وتمقت الولدين الآخرين . لماذا ؟ لأنه . أفظع الدوافع وأشد الأجوبة استعصاء على المناقشة : **لأنه** . لقد قالت هذه الام : « انا لست في حاجة إلى رزمة صيّاحة من الاولاد . . »

ويتعين علينا ان نشرح كيف وفق تيناردييه وزوجته إلى التخفف من ولديها الاصغرين ، بل إلى استدرار الربح منهما ايضاً .

نحن نذكر تلك الفتاة ، مانيون ، التي تحدثنا عنها في صفحات سابقة ، والتي وفقت إلى حمل جيلنورمان الطيب على ان يكفل ولديها ويُجري عليهما رزقاً . كانت تحيا في الـ « كي دي سيليستين » عند زاوية شارع « بيتي موسك » القديم الذي بذل غاية جهده لكي يحول سمعته البغيضة إلى شذا عاطر . وكثير من الناس يذكرون وباء الذبحة الذي أحزن ، منذ خمسة وثلاثين عاماً ، تلك الاحياء القائمة على ضفاف السين في باريس ، والذي افاد العلم منه لكي يختبر ، على نطاق واسع ، فعالية إدخال حجر الشب بالنفخ ، هذا العلاج الذي استعيض عنه اليوم ، لحسن الحظ ، بصبغة اليود مستعملةً استعمالا خارجياً . ففي ذلك الوباء فقدت مانيون ولديها ، وهما بعد صغيران ، في يوم واحد ، الاول في الصباح ، والثاني في المساء . وكانت تلك ضربةً . فقد كان هذان الطفلان ذَوَيْ قيمة بالنسبة إلى امهما . كانا يمثلان ثمانين فرنكاً

---

* زوجة المارشال لاموث — هودانكور La Mothe — Houdancourt (١٦٠٥-١٦٧٢) مارشال فرنسة وقد دافع عن « بايون » ، في بسالة ، عام ١٦٥٢

كل شهر . وكانت هذه الفرنكات الثمانون تدفع بكثير من الدقة ، باسم مسيو جيلنورمان ، من قبل وكيل أملاكه ، مسيو بارج ، وهو حاجب محكمة متقاعد ، شارع ملك صقلية . واذ مات الولدان ، فقد دُفن الدخل . والتمست مانيون وسيلة جديدة . ففي ماسونية الشر التي كانت هي جزءاً منها كان كل القوم يعرفون كل شيء ، ويصونون السر ، ويساعد بعضهم بعضاً . لقد احتاجت مانيون إلى ولدين ! وكان عند تيناردييه وزوجته اثنان . اثنان من الجنس نفسه ، والعمر نفسه . وهكذا أمسى الصغيران تيناردييه ، الصغيرين مانيون . وغادرت مانيون الـ « كي دي سيليستين » ، ومضت لتسكن في شارع كلوشبيرس . وفي باريس تنقطع الهوية التي تشد الفرد إلى نفسه من شارع إلى شارع .

واذ لم تُحَط الحكومة علماً فانها لم تعترض ، وبذلك تمت عملية الاستبدال من أيسر الطرق . كل ما في الامر ان تيناردييه طلب ، مقابل إعارته ولديه ، عشرة فرنكات شهرياً ، فوعدته مانيون ذلك ، بل لقد دفعت اليه الجُعل . ولسنا في حاجة إلى القول إن مسيو جيلنورمان واصل الدفع . كان يفد عليهم مرتين كل عام ، لكي يرى الولدين الصغيرين . ولم يلاحظ التغير . وقالت له مانيون : « سيدي ، ما أعظم شبههما بك ! »

وانتهز تيناردييه ، الذي كان التجسد سهلا عليه ، الفرصة لكي يصبح جوندريت . وما كادت ابنتاه وغافروش يجدون متسعاً من الوقت ليدركوا أن لهم اخوين صغيرين . وفي درك معين من البؤس ، يستحوذ على الناس ضرب من اللامبالاة الشبحية ، فهم ينظرون إلى الكائنات البشرية نظرتهم إلى يرقانات . إن اشد الناس قرابة منك كثيراً ما لا يكونون بالنسبة اليك غير اشكال من الظل غامضة لا تكاد تتبينها على خلفية الحياة الكثيرة الضباب ، ومن اليسير مزجها ثانية بالمجهول .

وعشية تسليمها ولديها الصغيرين إلى مانيون ، مسترسلة في التعبير عن

رغبتها في التخلي عنهما إلى الأبد ، عرفت تيناردييه الزوجـــة ، أو تظاهرت بأنها عرفت ، شكاً وتردداً . لقد قالت لزوجها : « ولكن هذا يعني تخلي المرء عن ولده ! » فما كان من تيناردييه ، إلا أن كوى هذا الشك وذاك التردد بهذه الجملة التي قالها في جزم وفي فتور : « لقد فعل جان جاك روسو شيئاً افضل ! » ومن الشك انتقلت الام إلى القلق : « ولكن لنفرض ان الشرطة اقبلت لتنكل بنا ؟ فهل ما صنعناه الآن ، يا مسيو تيناردييه ، قانوني ؟ أجب ! » واجابها تيناردييه : « كله قانوني . لن يرى ذلك احد غير السماء . وإلى هذا ، ففـــي موضوع الاطفال الذين لا يملكون فلساً لن تجدي شخصاً يهمه ان ينظر اليهم عن كثب . »

وكان لمانيون ضرب من التأنق في الجريمة . كانت تتخذ زينتهـــا . وكانت تقاسمها بيتها ، المؤثث على نحو مزخرف ولكنه بائس ، لصة انكليزية متفرنسة ذكية . وهذه المرأة الانكليزية المتفرنسة ، المعروفـــة بعلاقاتها الواسعة ، الوثيقة الصلة بعداليات المكتبة الوطنيـــة وجـــواهـــر « مدموازيل مارس » * ، اشتهرت في ما بعد في السجلات القضائية . كانت تدعى « الآنسة مس » .

ولم يكن ثمـــة ما يشكو منه الولدان اللذان أنزِلا على مانيون . لقـــد شفعت بهما الفرنكات الثمانون فهما موضع العناية شأن كل سلعة من سلع التجارة . لقد أُلبِسا على نحو غير سيء ، وغُذيا تغذية غير رديئة ، وعومِلا معاملة « سيدين صغيرين » تقريباً . وبكلمة ، فقـــد عاملتهما الأم الزائفة خيراً مما كانت تعاملهما الأم الحقيقية . وكانت مانيون تمثل امامهما دور السيدة ، فهي لا تتكلم امامهما بلغة السوقة .

وأنفقا بضع سنين على هذه الشاكلة . وتوسم تيناردييه في ذلك خيراً . وخطر له ذات يوم ان يقول لمانيون ، التي حملت اليه فرنكاته الشهرية

---

* Mlle. Mars ممثلة فرنسية مشهورة (١٧٧٩ — ١٨٤٧) .

العشرة : « ينبغي ان يدخلهما الوالد في احدى المدارس . »

وفجأة قُذف بهذين الطفلين البائسين ، اللذين عني بهما حتى ذلك الحين بفضل قدّرهما السيء نفسه ، في خضم الحياة ، وأكرِها على ان يبدآها من جديد .

إن اعتقالا جماعياً للمجرمين ، كذلك الذي جرى في علية جوندريت، والذي عقّدته بالضرورة مباحث واعتقالات تالية ، ليشكلُ في الواقع كارثة بالنسبة إلى ذلك « المجتمع المعاكس » الخفي ، الفظيع ، الذي يحيا تحت المجتمع العلني . فحادثة مثل هذه تنطوي على مختلف ضروب البلاء في ذلك العالم المظلم . لقد أدت كارثة تيناردييه وزوجته إلى كارثة مانيون .

وذات يوم ، بعد فترة قصيرة تقضت على تسليم مانيون المذكرة المتصلة بشارع بلوميه إلى ايبونين ، داهم رجال الشرطة شارع كلوشبيرس. واعتُقلت كل من مانيون و « الآنسة مس » . وعلق سائر افراد البيت ، وكانوا موضع الريبة ، في الشرك . وكان الصبيان الصغيران يلعبان ، آنذاك ، في الفناء الخلفي ، فلم يريا شيئاً من الغزوة . حتى إذا رغبا في الدخول إلى المنزل ، وجدا الباب موصداً ، والمنزل فارغاً . وناداهما اسكاف ، تقع دكانه تجاه المنزل ، وسلمهما ورقة كانت « امهما » قد تركتها لهما . وعلى الورقة كان هذا العنوان : مسيو بارج ، وكيل ممتلكات ، شارع ملك صقلية ، رقم ٨ . وقال صاحب الدكان لهما : « أنتما لن تقطنا هنا بعد اليوم . اذهبا إلى هناك . إنه قريب جداً . اول شارع ، إلى اليسار . إهتديا إلى المنزل بمعونة هذه الورقة . »

ومضى الولدان ، وقد قاد كبيرهما الصغيرَ ، ممسكاً بيده تلك الورقة التي كان عليها ان تهديه سواء السبيل . كان مقروراً ، وكانت اصابعه الصغيرة التي أقرسها البرد تنطبق في عسر ، وتمسك بالورقة في غير حكام . وفيما هما ينعطفان حول شارع كلوشبيرس ، انتزعتها منه ريح

عاصفة . وإذ كان الليل قد أخذ يهبط فقد عجز الطفل عن العثور عليها .

وشرعا يتيهان ، كما شاءت المصادفة ، في الشوارع .

٢

حيث يفيد غافروش الصغير من نابوليون الكبير

كثيراً ما يرافق الربيع ، في باريس ، رياح شمالية شرسة حادة ، لا تحيل المرء منجمداً على وجه الضبط ، ولكن مصقوعاً . ولهذه الرياح ، التي تكدر اجمل الايام ، مثل اثر تيارات الهواء البارد التي تدخل غرفة حارة من خلال فروج نافذة أو باب لم يُحكم اغلاقه . ويبدو ان باب الشتاء الكالح كان مفتوحاً على نحو جزئي ، وان الريح كانت تندفع من هناك . وفي ربيع ١٨٣٢ ، حين انتشر اول وباء كبير من اوبئة هذا القرن في اوروبة ، كانت هذه الرياح اكثر حدة واشد لذعاً منها في ايما وقت مضى . كان ثمة باب مشرع آخر ، باب أقسى ثلجية من باب الشتاء . إنه باب القبر . فقد كانت انفاس الكوليرا تُشَم في تلك الرياح .

ومن وجهة النظر الميتريولوجية كانت لتلك الرياح الباردة هذه الخاصة ، وهي انها لا تطرد التوتر الكهربائي القوي . لقد كثرت في هذا العصر الرياح المصحوبة بالرعد والبرق .

وذات مساء ، حين هبت هذه الرياح عنيفة ، إلى درجة بدا معها وكأن كانون الثاني قد عاد ، وارتدى البورجوازيون معاطفهم

من جديد ، كان غافروش الصغير ، المرتجف ابداً ، في مرح ، تحت اسماله البالية ، واقفاً في مثل نشوة روحية قرب دكان من دكاكين اللمم المستعارة بجوار الـ « أورم سان جيرفيه » . كان مزداناً بشال صوفي نسوي،لا يدري احد من اين التقطه ، متخذاً منه لثاماً . وبدا غافروش الصغير وكأنه معجب اشد الاعجاب بعروس من الشمع ، ذات عنق عار وغطاء رأس من زهر البرتقال . كانت تدور خلف الزجاج ، عارضة ابتسامتها – بين مصباحين اثنين – على عابري السبيل – ولكنه في الواقع كان يراقب الدكان لكي يرى ما اذا كان في استطاعته ان يسرق قطعة صابون من الواجهة ، لكي يبيعها بعد بفلس واحد لحلاق في الضاحية . وكان يتفق له في كثير من الأحيان ان يفطر على واحدة من قطع الصابون هذه . وكان يدعو هذا الضرب من العمل ، الذي كانت له فيه بعض الموهبة « حلق لحى الحلاقين » .

وفيما هو يتأمل العروس ويختلس النظر إلى قطعة الصابون ، غمغم من بين اسنانه : « الثلاثاء . ليس الثلاثاء . أهو الثلاثاء ؟ لعله الثلاثاء اجل ، انه الثلاثاء . »

ولم يكتشف احد قط إلى اي شيء كانت مناجاة الذات هذه تشير . واذا صادف ان كان في ذلك الكلام اشارة إلى آخر مرة تناول فيها طعاماً فعندئذ يكون قد انقضى على هذا ثلاثة ايام ، إذ كانت وقفته تلك ، أمام الدكان ، يوم الجمعة .

وفي تلك الدكان المدفأة بموقد عامر ، كان الحلاق يحلق لحية احد الزبائن ، ويلقي بين الفينة والفينة نظرة على هذا العدو ، هذا « المتشرد » المثلوج الخالع العذار ، الواضع كلتا يديه في جيبه ، ولكن عقله كان خارج غمده من غير شك .

وفيما كان غافروش يراقب العروس ، والنوافذ ، وصابون وندسور تقدم ولدان متفاوتا الطول ، يرتديان ثياباً ، نظيفة ، ويصغرانه هو

نفسه سناً ، فأحدهما على ما يبدو في السابعة والآخر في الخـامسة ، وادارا تفاحة الباب على استحياء ، ودخلا الى الدكان ، ملتمسين شيئاً ، لعله الصدقة ، في همس كان اقرب إلى الانين منه إلى الصلاة . وتحدثا كلاهما في آن معاً ، وكانت كلماتهما غير مفهومة لان الزفرات خنقت صوت الاصغر ، ولان البرد جعل اسنان الاكبر تصطك . وادار الحلاق وجهاً ضارياً ، ومن غير ان يترك موساه ، رد اكبرهما إلى الوراء بيده اليسرى ، واصغرهما بركبته ، وقذف بهما إلى الشارع ، وأوصـد الباب قائلا :

— « يأتون ويثلّجون الناس من اجل لا شيء ! »

ومضى الولدان لسبيلهما باكيين . وفي غضون ذلك انتشرت في السماء سحابة . وشرع المطر يهطل .

ولحق بهما غافروش الصغير ، وحاذاهما .

— « ما قصتكما ، ايها الصبيان الصغيران ؟ »

فأجابه الاكبر :

— « نحن لا ندري اين ننام ؟ »

فقال غافروش :

— « اهذا كل شيء ؟ هذا ليس بشيء . وهل يبكي الانسان لأمر كهذا ؟ إنه إن فعل يكون أشبه بالعصافير ! »

واصطنع ، من خلال تعاليه الساخر بعض الشيء ، نبرة سلطان رقيقة ، وحماية رفيقة :

— « تعالا معي ! »

فقال اكبرهما :

— « نعم ، يا سيدي ! »

وتبعه الولدان وكأنهما يتبعان رئيس اساقفة . كانا قد كفا عن البكاء .

وصعّد غافروش بهما في شارع سان انطوان باتجاه الباستيل .

وفي طريقه هذه ، القى غافروش نظرة تراجعية ساخطة ، على دكان الحـلاق .

وتمتم :

— « إنه بلا قلب ، هذا البوري ! إنه انقليس ! »

وبصرت بهم فتاة وهم يسيرون ثلاثتهم في صف ، وغافروش على رأسهم ، فانفجرت بضحك صارخ . وكان ضحكها ذاك يعوزه الاحترام للجماعـة .

وقال غافروش مخاطباً اياهـا :

— « صباح الخير ، ايتها الانسة أومنيبوس ! * »

وبعد لحظـة ، اضاف وقـد تمثلت صورة الحلاق ، في ذهنـه ، من جديـد :

— « لقد اخطأت في امر ذلك الحيوان . إنه ليس بورياً . إنـه ثعبان : ايها الصانع للـمم المستعارة ، انا ذاهب إلى دكان حداد ، ولسوف أعلق جرساً في ذنبك ! »

كان هذا الحلاق قد أحاله إلى شخص عدواني . فوجه الخطاب ، بلهجة لاذعـة ، فيما كان يثب من فوق جدول ، إلى بوابـة ذات لحيـة جديره بأن تلتقي فاوستـه على الـ « بروكن » ، وكانت تحمـل مكنستهـا :

— « سيدتي ، لقد انطلقت انتِ وجوادك ، أليس كذلك ؟ »

وهنا لطخ بالوحل حذاء مصقولاً كان ينتعله احد عابري السبيل .

وصاح الرجل ، مغيظـاً :

— « يا لك من حقير ! »

ورفع غافروش انفـه فوق لثامه

* الاومنيبوس : العربة العمومية .

— « سيدي يتشكى ؟ »
فقال عابر السبيل :
— « هذا انت ؟ »
فقال غافروش :
— « المكتب قد اقفل . انا لا اتلقى شكاوى اضافية . »
وفي غضون ذلك ، وبينا هو يواصل التصعيد في الشارع ، رأى تحت باب من ابواب العربات شحاذة مثلوجة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ترتدي ملابس كانت من القصر بحيث كشفت عن ركبتيها . وكانت الفتاة الصغيرة قد بدأت تصبح أعلى سناً من أن يلائمها ذلك . والواقع ان نمو الجسم هو الذي يعابثنا هذا النوع من العبث . فاذا بالتنورة تمسي قصيرة لحظة يصبح العري معيباً .
وقال غافروش :
— « مسكينة هذه الفتاة ! انها لا تملك حتى بنطلوناً ! ولكن ، خذي هذا . »
ونزع كل ذلك الصوف الصالح المطوِّق رقبته ، وطرحه على كتفي الشحاذة المهزولتين البنفسجيتين ، حيث تحوّل اللثام إلى شال .
ونظرت الصغيرة اليه نظرة ذاهلة ، وتقبلت الشال في صمت . فعند نقطة ما في اعماق البؤس ، يكف الفقراء — في غمرة من انشداههم — عن الانتحاب من الشر ، والشكر على الخير .
حتى إذا تم ذلك ، قال غافروش وهو يرتجف على نحو اسوأ من ارتجاف القديس مارتان ، الذي احتفظ على الاقل بنصف معطفه :
— « بررر ! »
ولم يكد يطلق هذه الـ « بررر ! » حتى ضاعفت العاصفة غضبتها ، فاصبحت عنيفة . إن هذه السموات الرديئة لتعاقب المرء على العمل الطيب .

وهتف غافروش :

ـ « آه ، ما معنى ذلك ؟ ايها الرب الرحيم ، إذا تواصل هـذا ، فعندئذ اضطر إلى ان اقطع اشتراكي ! »

وتابـع مسيره .

واضاف ، ملقياً نظرة على الشحاذة التي كانت تتجمع تحت الشال :

ـ « سيان ، ها هنا شخص يحمل قشرة شهيرة . »

ونظر إلى السحب ، وصاح :

ـ « لقد وقع في الشرك ! »

وعرج الولدان وراءه .

وفيما هم يجتازون بواحد من تلك الشبابيك الكثيفة المقضبة التي تؤذن بوجود فرن من الافران ، لأن الخبز كالذهب يحفظ خلف قضبـان حديدية ، التفت غافروش وقال :

ـ « آه ، ها ، ايها الولدان الصغيران ، هل تعشيتما ؟ »

فأجاب اكبرهما :

ـ « سيدي ، اننا لم نذق الطعام من الصباح الباكر . »

واستأنف غافروش كلامه ، في جلال :

ـ « اذن ، فليس لكما لا اب ولا أم ؟ »

ـ « عفواً ، يا سيدي . ان لنا أباً وأماً ، ولكننـا لا نعـرف أين هما . »

فقال غافروش ، الذي كان من اهل الفكر :

ـ « في بعض الاحيان يكون هذا خيراً من المعرفة . »

وتابـع أكبر الولدين :

ـ « لقد سلخنا ساعتين حتى الآن ونحن نمشي . لقد بحثنا عن الاشياء في كل زاوية ، ولكننا لم نجد شيئاً . »

فقال غافروش :

— « ادري . إن الكلاب تأكل كل شيء . »

وبعد لحظة صمت ، أضاف قائلا :

— « آه ، لقد خسرنا مؤلفينا . اننا لا ندري ما الذي فعلناه بهم . وهذا غير مناسب ، ايها المتشردان . إن من البلاهة ان يتيه المرء ، على هذا النحو ، مهما تكن سنه . آه ، نعم ، يجب ان نشرب برغم ذلك. »

ثم انه لم يوجه اليهما اما سؤال . انهما شريدان من غير مأوى ، وهل ثمة ما هو طبيعي اكثر من ذلك ؟

وصاح اكبر الطفلين ، وقد ارتد ارتداداً كاملا تقريباً إلى لامبالاة الطفولة السريعة :

— « انه غريب جداً برغم ذلك كله . ماما التي وعدت بأن تأخذنا لنجيء ببعض ـ البقس * المبارك يوم احد الشعانين . »

فأجاب غافروش : *neurs*

واردف الطفل الاكبر :

— « ان امي سيدة تقطن مع الآنسة مس . »

فأضاف غافروش : *Tanflûte*

وكان قد كف ، في غضون ذلك ، عن السير . وطوال بضع دقائق انهمك في جس مختلف زوايا اسماله والبحث فيها .

واخيراً ، رفع رأسه بسيماء لم يرد بها إلى شيء اكثر من الارتياح، ولكنها كانت في الواقع مظفرة .

— « فلنعتصم بالهدوء ، ايها الطفلان . هو ذا ما نتعشى به ثلاثتنا . »

واخرج من احد جيوبه فلساً .

ومن غير ان يترك للطفلين مجالا للدهش دفعهما أمامه إلى المخبز ، ووضع فلسه على منضدة الخباز قائلا :

---

* البقس : شجر كالآس ورقاً وحباً .

– « ايها الولد ! اعطني خبزاً بخمسة سنتيمات . »

فما كان من الرجل ، الذي كان هو صاحب المخبز نفسه ، إلا أن تناول رغيفاً وسكيناً .

واستأنف غافروش الكلام :

– « اجعله ثلاث قطع ، ايها الولد ! »

ثم اضاف في وقار :

– « نحن ثلاثة . »

وحين رأى ان الخباز تناول ، بعد ان درس ثياب كل منهم ، رغيفاً أسود ، أقحم إصبعه في انفه مستنشقاً على نحو متغطرس وكأنما كانت عند طرف إبهامه قبصة من سعوط فريدريك الكبير ، وقذف وجه الخباز بهاتين الكلمتين المغيظتين :

– « ايش هذا ؟ » ؟ *Keksekça*

ونحن نحب ان نُعلم قراءنا الذين قد ينزعون إلى ان يروا في هذ السؤال الذي وجهه غافروش إلى الخباز كلاماً روسياً أو بولونياً أو واحدة من تلك الصيحات الوحشية التي يتبادلها الـ « يوويز » والـ « بوتوكودوس » من احدى ضفتي النهر إلى الاخرى في بقاعهم المقفرة – نقول اننا نحب ان نعلم هؤلاء القراء انها كلمة يقولونها (هم ، القراء) كل يوم وتقوم مقام هذه الجملة : « ما هذا الذي بين يديك ؟ » وفهم الخباز ذلك الكلام احسن الفهم ، وأجاب :

– « ولكن ! هذا خبز . خبز جيد جداً من الدرجة الثانية . »

فقال غافروش ، في ازدراء هادىء بارد :

– « انت تعني خبزاً أسود ! خبز مُصَوَّبن ! اني أمزح ! »

ولم يتمالك الخباز أن يضحك ، وفيما هو يقطع الخبز الابيض نظر اليهم نظرة رؤوفاً أثارت سخط غافروش .

وقال :

– « آه ها ، يا صبي الخباز ! لماذا تقيسنا على هذه الصورة ؟ »
ولو قد شكلوا ثلاثتهم خطاً مستقيماً لما بلغ طولهم ستة اقدام .
حتى إذا أنجز الخباز تقطيع الخبز ، وضع الفلس في درج المنضدة . وقال غافروش للطفلين الصغيرين :
– « ازيلا القُراضة عن الموسى المسنونة . »
ونظر الطفلان الصغيران إليه مشدوهين .
وشرع غافروش يضحك :
– « آه ، هذا صحيح ! انهما لا يعرفان ذلك . انهما لا يزالان اصغر من ان يعرفاه . »
ثم أضاف :
– « كُلاَ ! »
وفي الوقت نفسه ، قدم إلى كل منهما قطعة من خبز .
واذ حسب ان اكبرهما – الذي بدا له أجدر بأن يحادثه – يستحق بعض التشجيع الخاص ، وينبغي ان يحرَّر من اي تردد في ما يتصل باشباع شهوته إلى الطعام ، فقد اضاف مقدماً اليه القطعة الكبرى :
– « ألصِق هذه في بندقيتك . »
وكان ثمة قطعة اصغر من القطعتين الاخريين . فاحتفظ بها لنفسه .
كان الاطفال جائعين ، وفيهم غافروش . وفيما هم يمزقون الخبز باسنانهم الجميلة ، سدوا الطريق إلى دكان الخباز الذي راح ينظر اليهم ، بعد ان قبض الثمن ، في غير ارتياح .
وقال غافروش :
– « هيا بنا إلى الشارع ! »
ومضوا في اتجاه الباستيل .
وبين الفينة والفينة ، وكلما اجتازوا بدكان مضاء ، كان الطفل الأصغر

يقف ليستطلع الوقت بساعة رصاصية كانت تتدلى من شريطة طوّقت عنقه .

وقال غافروش :

— « هو ذا كنار حقيقي من غير شك . »

ثم انه تمتم ، متفكراً ، من بين اسنانه :

— « الأمر سواء ، لو كان عندي أولاد صغار لهصرتهم هصراً اكثر إحكاماً . »

حتى إذا أتوا على قطع الخبز ، وانتهوا إلى زاوية « شارع باليه » المظلم ، الذي كان بويب سجن « لا فورس » المنخفض البغيض يُرى من طرفه الاقصى قال بعضهم :

— « هالو ، هذا انت يا غافروش ؟ »

فقال غافروش :

— « هالو ، هذا أنت يا مونبارناس ؟ »

كان رجل قد اجتاز بـ « المتشرد » منذ لحظة ، ولم يكن ذلك الرجل غير مونبارناس متقنعاً بنظارتين زرقاوين ولكن غافروش استطاع ان يتبينه .

واضاف غافروش :

— « عجباً ! إن لك قشرة بلون لصقة بزر الكتان ، ونظارتين زرقاوين مثل طبيب من الاطباء ، انت في أحسن زي . اقسم لك قسم رجل عجوز ! »

فقال مونبارناس :

— « صه ! لا ترفع صوتك هكذا ! »

وسارع إلى سحب غافروش بعيداً عن ضوء الدكاكين .

وتبعهما الطفلان الصغيران ، على نحو آلي ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر .

حتى إذا انتهوا إلى قوس باب العربات الأسود ، وأمسوا في نجوة من النظر ومن المطر قال مونبارناس :

— « أتعرف إلى أين أنا ذاهب ؟ »

فقال غافروش :

— « إلى المشنقة ! »

— « يا لك من مهرج ! »

قال مونبارناس ذلك ، ثم استأنف كلامه :

— « أنا ذاهب أبحث عن « بابيه » .

فقال غافروش :

— « آه ! اسمها بابيه ! »

فخفض مونبارناس صوته :

— « ليس اسمها . ولكن اسمه . »

— « آه ، بابيه ! »

— « نعم ، بابيه ! »

— « لقد ظننته سجيناً . »

فأجابه مونبارناس :

— « لقد فر من السجن . »

وروى للمتشرد ، في عجل ، كيف ان بابيه حين نقل في صباح ذلك اليوم نفسه إلى الكونسيرجيري ولى هارباً بأن استدار إلى اليسار بدلا من ان يستدير إلى اليمين في « رواق حجرة التحقيق . »

وأعجب غافروش بتلك البراعة ، وقال :

— « يا له من طبيب أسنان ! »

واضاف مونبارناس بعض التفاصيل عن فرار بابيه ، ثم ختم حديثه قائلا :

— « أوه ، هذا ليس كل شيء . »

وفيما كان غافروش يصغي استولى على عصاً كانت في يد مونبارناس وسحب جزأها الأعلى ، اوتوماتيكياً ، فبدت شفرة خنجر .

وقال وهو يسارع إلى إعادة الخنجر إلى موضعه :

— « آه ! لقد جئت بدركيّك متقنعاً في لباس بورجوازي . »

وغمزه مونبارناس بعينه .

واستأنف غافروش كلامه :

— « اذن سوف نشتبك مع الشرطة ؟ »

فأجابه مونبارناس في لامبالاة :

— « لست أدري . ولكن من الخير دائماً ان تكون مزوداً بدبوس . »

وأصر غافروش :

— « وما الذي ستعمله الليلة ؟ »

وارتد مونبارناس إلى صعيد الجد ، مرة اخرى ، فقال غير لافظ بعض المقاطع :

— « اشياء متعددة . »

وغيّر الحديث فجأة :

— « بالمناسبة ؟ »

— « ماذا ؟ »

— « إحدى القصص التي وقعت لي في يوم ماض . فكر في هذا مجرد تفكير . تخيل أني التقيت بأحد البورجوازيين ، فقدم الي هدية : عظة دينية ومحفظة دراهمه . ووضعت ذلك في جيبي . وبعد دقيقة جسست جيبي فلم أجد فيه شيئاً . »

فقال غافروش :

— « غير العظة الدينية . »

وأضاف مونبارناس :

— « ولكن أنت .. إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ »

وأشار غافروش إلى محميَّيْه ، وقال :

— « أنا ذاهب لأرقد هذين الطفلين . »

— « وأين ذلك ؟ »

— « في منزلي . »

— « إن عندك غرفة إذن ؟ »

— « أجل ، إن عندي غرفة . »

— « وأين غرفتك ؟ »

فقال غافروش :

— « في الفيل . »

فلم يتمالك مونبارناس أن صاح ، على الرغم من انه كان بفطرتـه نادراً ما يأخـذه الدهش :

— « في الفيل ! »

فأجابه غافروش :

— « ولكن ، اجل ! في الفيل ! إيش في هذا ؟ » *Kekçaa*

وهذه كلمة اخرى من كلمات اللغة التي لا يكتبها أحد والتي يتكلمها كل أحد ، *Kekçaa* ، يعني ، وما الغريب في هذا ؟

وكان في ملاحظـة « المتشرد » العميقة مـا رد مونبارناس إلى الهدوء، وإلى الرشاد . لقد بـدا وكـأنـه اخـذ بأهداب عواطف اكثر احتراماً لمنزل غافروش .

وقـال :

— « حقـاً ! أجل ، الفيل ... وهل أنت سعيد هناك ؟ »

فقال غافروش :

— « سعيد جداً . هنـا يعيش الإنسان عيشاً ممتازاً حقـاً . وليس هناك رياح متسربة من الثقوب كما هي الحال تحت الجسور . »

— « وكيف تدخل إلى هناك ؟ »

— « أدخــل . »

وتساءل مونبارناس :

— « واذن فهناك ثقب ؟ »

— « يا سلام ! ولكن ينبغي أن لا أفشي سر ذلك . إنه بين القائمتين الاماميتين . إن رجال الشرطة لم يروه . »

— « وانت تتسلق ؟ اجل ، لقد فهمت . »

— « في لمحــة عين . كريك ، كراك . وينتهي كــل شيء . كــل شيء . »

وبعد لحظـة أضاف غافروش :

— « أمـا من أجـل هذين الصبين الصغيرين فسوف أحتــــاج إلى سـلم . »

وشرع مونبارناس يضحك .

— « ومن اين ، بحق الشيطان ، جئت بهذين الطفلين ؟ »

فأجابه غافروش في بساطـة :

— « إنهما صبيان أهداهما إلي أحد صانعي اللمم المستعارة . »

وفي غضون ذلك كان مونبارناس قد استغرق في التفكير .

وغمغم :

— « لقد تبيّنتني في كثير من السهولة . »

واخرج من جيبه شيئين صغيرين لم يكونا غير قلمين مغلفين بالقطن وأدخــل واحــداً منهما في كــل منخر . وهكذا جعــل لـه أنفــاً جديـداً .

فقال غافروش :

— « لقد غيّرك هذا . انت لست بشعاً إلى هــذا الحـد . يجـب أن تبقى هكذا دائمـاً . »

كان مونبارناس فتى وسيماً ، ولكن غافروش كان مزوحاً .
وقال مونبارناس :
– « دع المزاح جانباً . هل أعجبك هذا ؟ »
وكان جرْساً جديداً أيضاً . وفي لمحة عين ، كان مونبارناس قد غدا شخصاً آخر لا سبيل إلى معرفته .
وهتف غافروش :
– « اوه ! إعمل لنا بورّيشينيل ! »
ولم يكد ينطق بذلك حتى لفت هذا الاسم انتباه الصبيين الصغيرين – اللذين لم يسمعا شيئاً حتى ذلك الحين ، واللذين كانا منهمكين في إقحام اصابعهما في أنفيهما – ونظرا إلى مونبارناس في استهلال بهجة واعجاب .
وكان مونبارناس قلقاً لسوء الحظ .
ووضع يده على كتف غافروش ، وقال له مؤكداً كل كلمة :
– « اسمع ما أقوله لك ايها الغلام . لو كنتُ في الساحة ، وكان معي « دوغ » و « داغ » و « ديغ » ولو تكرمت علي بعشرة « سو » كبيرة ، لما رفضت أن أعمل ذلك . ولكننا لسنا في ثلاثاء المرفع . »
وتركت هذه الجملة الغريبة اثراً فريداً في نفس « المتشرد » . فالتفت على عجل ، وأجال عينيه الصغيرتين اللامعتين في ما حوله بانتباه عميق فرأى على بضع خطوات شرطياً مولياً اياه ظهره . وندّت من غافروش زفرة « آه ، اجل ! » ما لبث أن كبحها في الحال ، وقال وهو يهز يد مونبارناس :
– « حسناً ، طاب مساؤك . انا ذاهب إلى الفيل مع طفلي الصغيرين . وعلى افتراض انك احتجت إلي ذات ليلة ففي امكانك ان تأتي وتبحث عني هناك . أنا اسكن في الطابق الثاني . ليس هناك بواب . في استطاعتك

أن تسأل عن مسيو غافروش . »

فقال مونبارناس :

— « حسن . »

وافترقا ، فاتخذ مونبارناس سبيله نحو « لا غريف » ، واتخـذ غافروش سبيله نحو الباستيل . والتفت الصغير البالغ من العمر خمس سنوات ، والذي كان يسحبه اخوه الاكبر — هذا الذي كان غافروش يجره — عدة مرات ، ليمتع نظره بمشهد الـ « بوريشينيل » .

ولم تكن الجملة الغامضة التي أعلم مونبارناس بها غافروش بوجود الشرطي — لم تكن تلك الجملة تنطوي على طلسم غير ذلـك المقطع « ديغ » مكرراً خمس مرات أو ست مرات في أشكال مختلفة . وهذا المقطع ، غير ملفوظ على حدة ، ولكن ممزوجاً في فن بكلمات جملة ، ما يفيد هذا المعنى : **انتبه ، ليس في استطاعتنا ان نتحدث في حرية** . وإلى هذا فقد كان في جملة مونبارناس جمال أدبي فات غافروش الانتباه اليه . وهو قولـه : و *mon dogue* و *ma dague* و *ma digue* الـتي كانت تعني في لغة السوقة في الـ « تامبـل » **كلبي** ، **ومديتي** ، **وزوجتي** ، والتي كانت كثيرة الاستعمال بين مهرجي العصر العظيم ، الذي كتب فيه موليير ، ورسم فيه كالو (*) .

قبل عشرين عاماً كان لا يزال يرى في زاوية « ساحة البـاستيل » الجنوبية الشرقية ، قرب حوض القناة الذي حفر في الخندق القديم من « السجن القلعة » نصب غريب كادت ذاكرة الباريسيين ان تنساه ، نصب خليق به ان يترك أثراً ما ، ذلك أنه كان من بنات افكار « عضـو الاكاديمية ، القائد الأعلى لجيش مصر . »

وانما نقول « نصب » على الرغم من انه كان تصميماً ليس غير . ولكن هذا التصميم نفسه ، هذا الرسم الاولي الضخم ، تلك الجثـة

* Jacques Callot نقاش ورسام فرنسي (١٥٩٢-١٦٣٥) .

الضخمة لفكرة من فكرات نابوليون التي ذهبت بها هبّتان أو ثلاث من هبات الريح المتعاقبة وطرحتها بعيداً عنا ، أمسى اليوم شيئاً تاريخياً ، واكتسب شخصية محدودة تغايرت مع مظهره الموقت . كان فيلاً ، طوله أربعون قدماً ، وله هيكل وبناء ، وكان يحمل برجه على ظهره ، وهو برج أشبه ببيت ، وكان قد دهنه في عهد مضى احد الدهانين باللون الأخضر ، ولكن الشمس ، والمطر ، والجو أحالت لونه الآن إلى سواد . في زاوية تلك الساحة المكشوفة المهجورة كانت مقدمة ذلك التمثال الهائل العريضة ، وخرطومه وانيابه ، وضخامته ، وكفله الجسيم وقوائمه الاربع الشبيهة بالأعمدة تلقي في الليل ، تحت السماء ذات الكواكب ، ظلا مذهلا وفظيعاً . ولم يكن احد ليدري ما الذي عناه ذلك النصب . كان شبه رمز لقوة الشعب . كان قاتماً ، ملغزاً ، مترامياً . كان طيفاً غريباً جباراً ، ناهضاً على نحو منظور إلى جانب شبح الباستيل غير المنظور .

كان نفر قليل من الاجانب يزورون هذا الصرح ، ولم يكن اي من عابري السبيل ينظر اليه . كان يتداعى إلى الاندثار . وفي كل فصل ، كان الملاط الذي يتناثر من جوانبه يحدث في جسمه جراحاً بشعة . كان « نُظار الابنية والانصاب » ، كما يقولون في اللهجة الانيقة ، قد نسوه منذ عام ١٨١٤ . كان هناك ، في زاويته ، كئيباً عليلا ، منهاراً ، مطوقاً بسياج متهرىء يدنسه في كل لحظة سائقو العربات السكارى . كانت الشقوق تبدو على بطنه ، وكان لوح من خشب طويل ضيق ينبثق من ذيله ، وكان العشب قد نبت عالياً بين رجليه . واذ كان مستوى الساحة قد ارتفع من حوله ، طوال ثلاثين عاماً ، بتلك الحركة البطيئة المستمرة التي ترفع تربة المدن الكبرى على نحو غير محسوس فقد كان ذلك النصب غائراً ، ولقد بدا وكأن الارض قد خُسفت به . كان ضخماً ، مزدرىً ، كريهاً ، شامخاً ، بشعاً في

عيني البورجوازي ، كئيباً في عيني المفكر . كان فيه شيء من الدنس سوف يُزال وشيكاً ، وشيء من الجلال سوف يُستأصل وشيكاً أيضاً .

وكان الليل ، كما قلنا ، يغيّر مظهره . والليل هو الوسيط الحقيقي لكل ما هو مظلم . فما إن يهبط الغسق حتى يستحيل الفيل العجوز كائناً آخر . كان يتخذ شكلا هادئاً وفظيعاً في صفاء الليل الرهيب . وإذ كان جزءاً من الماضي فقد كان جزءاً من الليل . وكانت هذه الظلمة ملائمة لعظمته .

إن هذا النصب الشكس ، المكتّل ، المتثاقل ، القاسي ، الصارم ، شبه الشائه ، وإن يكن جليلا حقاً ، المتسم بطابع من الجد الرائع الفظيع — إن هذا النصب قد زال ، تاركاً السلطان كله ، السلطان الآمن ، لذلك الموقد الهائل المزدان بمدخنته والذي حل محل القلعة البغيضة ذات الابراج التسعة ، كما تحل البورجوازية محل الاقطاعية تقريباً . وطبيعي جداً ان يكون موقد ما رمزاً لحقبة ينطوي فيها المرجل على قوة . وهذه الحقبة سوف تنقضي ، ولقد بدأت تنقضي فعلا . ولقد بدأنا نفهم انه اذا ما كانت في المرجل قوة فلن يكون ثمة سلطة إلا في العقل . وبكلمة اخرى ، فأن ذلك الذي يقود العالم ويسيطر عليه ليس القاطرات ، ولكن الفكرات . إقرن القاطرات إلى الفكرات ، ذلك حسن . ولكن حذار ان تخدعك الفرس عن الفارس .

وأياً ما كان ، فلنعد إلى ساحة الباستيل لنقول إن مهندس الفيل قد وُفق إلى ان يصنع من الجبس شيئاً عظيماً . وان مهندس المدخنة قد وفق إلى ان يجعل من البرونز شيئاً حقيراً .

هذه المدخنة التي عُمِّدت باسم مرنان ودعيت عمود تموز ، هذا النصب الذي لم يتم لثورة جهيض ، كان لا يزال مغلفاً ، في عام ١٨٣٢ ، بهيكل بناء ضخم لا نفتأ نحن ، من ناحيتنا ، نأسف عليه ، وبسور

عريض من ألواح الخشب جعل عزلة الفيل كاملة .

نحو هذه الزاوية من الساحة ، المضاءة على نحو باهت بانعكاس أشعة مصباح قصي ، ساق « المتشرد » الطفلين الصغيرين .

ويتعين علينا ان نقف هنا لنعلن أننا ضمن نطاق الواقع ، وأن محاكم الجنح كانت خليقة بأن تحكم ، قبل عشرين سنة ، وباسم منع التشرد واقتحام نصب عمومي ، على طفل قد يلقى عليه القبض متلبساً بالنوم حتى في داخل فيل الباستيل .

حتى إذا نصصنا على هذه الحقيقة ، أمسى في ميسورنا أن نتابع الكلام .

وإذ اقتربوا من التمثال الهائل ، ادرك غافروش الاثر الذي قد يحدثه ما هو ضخم إلى أبعد الحدود في نفس ما هو صغير إلى ابعد الحدود ، وقال :

— « ايها الطفلان الصغيران ! لا تخافا ! »

ثم دخل من خلال ثغرة في السياج إلى سور الفيل ، وساعد الطفلين على اجتياز الثغرة . وتبع الصبيان الصغيران غافروش ، مروعين بعض الشيء ، من غير ان ينطقا ببنت شفة ، وفوضا أمرهما إلى تلك «العناية» الصغيرة ذات الأسمال ، التي قدمت اليهما الخبز ووعدتهما بمأوى .

وكانت قد انطرحت إلى جانب السياج سلم كان العمال يستعملونها نهاراً ، في مستودع الخشب المجاور . فرفعها غافروش في قوة عجيبة ، ونصبها مسنداً إياها على احدى قائمتي الفيل الاماميتين . وفي النقطة التي انتهت عندها السلم ، كان في استطاعة المرء ان يتبين شبه ثقب أسود في جوف التمثال الهائل .

ولفت غافروش نظر ضيفيه إلى السلم والثقب ، وقال لهما :

— « إصعدا وادخلا . »

وتبادل الصبيان الصغيران النظرات في ذعر .

وصاح غافروش :

— « انتما خائفان ، ايها الصغيران ؟ »

ثم أضاف :

— « سوف تريان . »

ووثب على قدم الفيل المتغضنة . وفي لمحة عين ، ومن غير ان يتنازل للافادة من السلم ، انتهى إلى الثغرة . ودخلها كما يدب حنش إلى جحر ، واختفى . وبعد لحظة رأى الطفلان وجهه الشاحب يبدو على نحو غامض مثل شكل باهت كامد عند حافة الثقب المليء بالظلام .

وصاح :

— « حسن ، لماذا لا تصعدان ، ايها الصغيران ؟ سوف تريان ما أجمل هذا المكان . »

ثم التفت إلى أكبرهما ، وقال :

— « إصعد ، انت . سوف أمد اليك يدي . »

وحث كل من الولدين صاحبه على التقدم . لقد أخافهما « المتشرد » وبعث الاطمئنان في نفسيهما في آن معاً . وإلى هذا فقد كان المطر يهطل بغزارة . وغامر اكبر الولدين . ولم يكد اصغرهما يرى إلى اخيه يصعد ، تاركاً اياه بين براثن هذا الوحش الهائل ، حتى استشعر رغبة قوية في البكاء ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك .

وتسلق اكبرهما درجات السلم مترنحاً . وفيما كان غافروش يتابع طريقه شجعه بمثل الصيحات التي يوجهها معلم المسايفة إلى تلامذته ، أو سائق البغال إلى بغاله :

— « لا تخف ! »

— « أجل ، هكذا ! »

– « هيا ، تقـدم ! »
– « ضع قدمك هنا ! »
– « ضع يدك هناك ! »
– « كن شجاعـاً ! »

وحين أمسى في متناوله ، سارع إلى الامساك بذراعه ، في قـــوة وعزم ، وجذبه نحوه .

وقـال :

– « لقد ُبلعت ! »

كان الغلام قد اجتاز الثغرة .

وقال غافروش :

– « والآن ، انتظرني . تفضل واجلس ، يا سيدي . »

وخرج من الثغرة كما دخلها ، وانزلق بمثـل رشاقة القرد على طول رجل الفيل ، وهبط واقفاً عـلى قدميـه فوق العشب ، وامسك بطفـل الخمس سنوات من خصره ، ورفعـه إلى منتصف السلم . ثم بـــدأ يتسلق خلفه صائحاً لأكبرهما :

– « وسوف أدفعه . وعليك انت أن تسحبه . »

وفي لحظـة ، ُرفـع الطفل الصغير ، وُدفـع ، وُجر ، وسُحب ، وحشر ، وأقحم في الثغرة من غير ان يجد متسعاً من الوقت لادراك ما كان يجري . ثم ان غافروش دخل وراءه ورد السلم برفسة جعلتهـــا تسقط على الارض ، وراح يصفق بيديه صائحاً :

– « ها نحن قد وصلنا ! مرحى للجنرال لافاييت ! »

حتى إذا انتهى هذا الانفجار ، أضاف :

– « ايها الصغيران ، انتما في بيتي . »

وكان غافروش في بيته حقـاً .

ايه ، يا فـائدةً غير متوقعة يسديها ما لا غناء فيه ! يا محبة الاشياء

العظيمة ! يا طيبة العمالقة ! إن هذا الاثر الهائل الذي سبق ان انطوى على فكرة من فكرات الامبراطور انتهى الآن إلى أن يصبح علبة متشرد من المتشردين . كان التمثال الضخم قد ارتضى الطفلَ وآواه . وكان البورجوازيون ، المرتدون ثياب الأحد ، كثيراً ما يمرون بفيل الباستيل فيقولون وهم يحدجونه في ازدراء باعينهم المحدّقة : « ما فائدة هذا ؟ » كانت فائدته ان ينقذ من البرد ، ومن الصقيع ، ومن البرَد ، ومن المطر ، وان يصون من ريح الشتاء ، ويقي من النوم في الوحل الذي يورث الحمى ، ومن النوم في الثلج الذي يورث الموت ، مخلوقاً صغيراً لا أب له ولا ام ، ولا خبز عنده ولا ملابس ولا مأوى . كانت فائدته أن يستقبل البريء الذي نبذه المجتمع . أن يخفف من وطأة الجريمة العمومية . كان وكراً مفتوحاً في وجه من أوصدت في وجهه الابواب جميعاً . لقد بدا وكأن ماستودوناً (*) عجوزاً بائساً غزاه القمل والنسيان ، وعلته الثآليل والعفن والقُرَح ، ماستودوناً مترنحاً ، نخراً ، مهجوراً ، مذموماً ، ضرباً من الشحاذ الهائل يلتمس الصدقات عبثاً من نظرة كريمة في منتصف الساحة قد اخذه هو نفسه العطف على هذا الشحاذ الآخر ، هذا القزم التعس الذي لا حذاء في قدمه ، ولا سقف فوق رأسه ، النافخ على أصابعه ، المرتدي اسمالا بالية ، المتغذي بما يطرحه الناس . تلك كانت فائدة فيل الباستيل . إن فكرة نابوليون هذه التي احتقرها الناس ، قد تلقفها الله . فما كان شهيراً ليس غير ، أمسى الآن فخيماً .وكان ينبغي للامبراطور ، لكي يحقق ما جال في خاطره ، رخام سماقي ، ونحاس أصفر ، وحديد ، وذهب ، ورخام . أما الله فكان حسْبه تلك المجموعة القديمة من ألواح ، ودعائم خشبية وجبسين . لقد حلم الامبراطور بحلم من احلام الامبراطورية . إنه بواسطة هذا الفيل الجبار ، المسلح ، الاعجوبي ، الناصب خرطومه

* الماستودون ، حيوان منقرض يشبه الفيل .

الحامل برجَه ، الجاعل مياهاً مرحةً محيية تنبجس من جميع أطرافه ، أراد ان يجسد الشعب . أما الله فقد فعل به شيئاً أعظم : لقـــد آوى طفــلا .

وكان الثقب الذي ولجـه غافروش ثلمـة ما تـكاد تُلحظ مـــن الخارج ، مخبوءة كما سبق منا القول ، تحت بطن الفيـل ، وضيقـــة إلى درجـة تجعل ولوجهـا شبه متعـذر إلا على القطط والاطفـــال الصغـــار .

وقال غافروش :

— « فلنبدأ بأن نخبر البواب اننا لسنا هنا . »

وإذ انغمس في الظلمة ، باطمئنان ، مثل امرىء يألف غرفته ، تناول لوحاً خشبياً وسدّ الثقب .

وعاود غافروش الانغماس في الظلمة من جديد . وسمع الطفـــلان زفير الشمعة المستدقة في الزجاجة الفوسفورية . ولم تكن الشمعة الكيميائية قد وُجدت بعـد . وكـان زنـد « فومـاد » يمثـل تقدمــــاً في تلك الحقبـة .

وانطلق ضوء مفاجىء طرفت له عيون الاطفال . وكان غافروش قد أشعل منذ لحظات واحداً من ذينك الخيطين المنقوعين في صمغ الصنوبر ، واللذين ندعوهما جرذي الكهف . وهذان الجرذان ، اللذان أطلقـــا دخانـاً اكثر ممـا أطلقـا لهيبـاً ، جعلا باطن الفيـل مرئيـاً عـلى نحـو باهت .

وأجال ضيفا غافروش بصرهمـا في ما حولهـــا ، واستشعرا شيئاً أشبه مـا يكون بذلك الذي يستشعره المرء إذا ما حبس في برميــــل هايدلبرغ الكبير ، أو على الأصح أشبه ما يكون بما قد استشعره يونس في جوف الحوت الوارد ذكره في التوراة . لقد بدا لهما هيكل هـــائل كامل ، وأحاط بهما من اطرافهما . وفوقهما ، امتدت عارضة طويلة

قائمة انطلقت منها عند مسافات نظامية ألواح خشبية ضخمة مطوقة تمثل العمود الفقري بأضلاعه ، وتدلت نوازل من الجبس مثل الاحشاء ، ومن جانب إلى آخر رسمت خيوط العنكبوت الضخمة حجباً مغبرّة . وهنا وهناك ، في الزوايا ، كانت تُرى بقع كبيرة ضاربة إلى السواد ، كان يبدو وكأنها على قيد الحياة ، وكانت تغيّر اماكنها بسرعة في حركة ضارية مشدوهة .

كان الحطام الساقط من ظهر الفيل على جوفه قد ملأ التجويف بحيث أمسى في ميسورهم ان يسيروا فوقه كما يسير المرء فوق أرضية بيت من البيوت .

والتصق أصغر الولدين بأخيه وقال في صوت خفيض :

— « المكان مظلم . »

وانتزعت هذه الكلمة صيحة من غافروش . وكان في سيما الطفلين المتحجرة ما اضطره إلى أن يهزهما هزاً .

وهتف :

— « ما هذا الذي ترمي اليه ؟ أنكذب ؟ انتظاهر بالتقزز ؟ اتريدان ان تكونا في التويلري ؟ هل انتما مجنونان ؟ هاي ، إني اعلمكما اني لست من كتيبة الحمقى . هل أنتما ابنا صانع مزيج الخردل للبابا ؟» (*)

ان قليلا من الخشونة ليفيد عند الهلع . إنه يوقع الطمأنينة في الفؤاد . واقترب الطفلان من غافروش .

وعلى نحو أبوي ، انتقل غافروش — وقد رققت هذه الثقة من حاشيته — « من الوقور إلى العذب » ، فوجه الخطاب إلى أصغر الولدين مخرجاً الاهانة في جرْس ملاطف ، قال :

— « ايها الاحمق ، الظلمة هي في الخارج . هناك ، في الخارج ،

* تعبير يفيد معنى الاعجاب الشديد بالنفس .

يهطل المطر ، أمـا هنا فلا يهطل المطر . وهناك ، في الخارج ، يشعر الانسان بالبرد ، أما هنا فلا توجد كسرة من ريح . في الخارج حشود من الناس ، أما هنا فلا يوجد شخص ما . وفي الخارج لا يوجد حتى القمر ، أما هنا فتوجد شمعتي ، وحق الشيطان ! »

وبدا الولدان ينظران إلى ذلك المسكن نظرة تنطوي عـلى قـــدر أقـل من الذعر . ولكن غافروش لم يترك لهـما متسعاً آخر من الوقـت للتـأمل والتفكير .

وقـال :

— « أسرعـا ! »

ودفعهما نحو ما نجد أنفسنا سعداء جـداً بأن نستطيـع أن نـدعـوه قعر الحجرة .

هنـاك كان سريره .

وكان سرير غافروش كاملا . يعني انه اشتمل على حشية ، وغطاء ، ومخـدع ذي ستائر .

وكانت الحشية حصيراً من القش ، وكان الغطـاء تنورة عريضة من صوف رمادي غليظ ، شديدة الدفء ، جديدة أو تكاد . أما المخدع فكان على هـــذه الصورة :

ثلاثة أوتاد اقرب إلى الطول ، مغروزة ومثبتة في انقاض الأرضية ، يعني جوف الفيل ، اثنـان قدام ، وواحد إلى الوراء ، وقد شد بعضها إلى بعض بحبل عند قمتها ، بحيث شكلت هيكلا هرمياً . وكان هـــذا الهيكل يحمل عريشاً دقيقاً من سلك نحاسي رُفع فوقه ببساطة ، ولكنه رُكّب في فن وثُبّت بمثبتات من الاسلاك الحديدية بحيث غلف الاوتـاد الثلاثة تغليفاً كاملا . وكان قد رسخ في الارض صف من الحجـــارة الضخام يحيط بهـذا العريش فليس يدع شيئاً يمر . ولم يكن هذا العريش غير قطعة من تلك الشباك النحاسية التي تُصطنع لتغطية بيوت الطير في

حدائق الحيوان . وكـان سرير غافروش تحت تلك الشبكـة وكـأنـه في قفص . وكان مجموع ذلك كله يبدو أشبه شيء بخيمـة من خيـام الاسكيمو .

كانت هذه الشبكة هي التي حلت محل الستائر .

وازاح غافروش بعض الشيء تلك الحجازة التي أبقت الشبكة متقدمة إلى أمام ، وهكذا انفتحت طيّتا العريش المتراكبتان .

وقال غافروش :

ــ « ايها الولدان ، إركعا على أيديكما وركبكما ! »

وفي عنـاية ، ادخل ضيفيه إلى القفص ، ثم دخله خلفهما ، زاحفـاً على الارض ، ورد الحجارة إلى الوراء ، وسد الفجوة سداً محكماً .

وتمددوا ثلاثتهم على القش .

وعلى الرغم من صغرهم فـأن احداً منهم لم يستطع ان يقف منتصباً في المخـدع . وكان غافروش لا يزال يحمـل « جرذ الكهف » في يـده .

وقـال :

ــ « والآن ، ارقـدا ! أنا ذاهب لاطفىء الشمعدان الكبير ! »

فتساءل أكبر الاخوين ، مشيراً إلى الشبكة :

ــ « سيدي ، ما هـذا ؟ »

فقال غافروش :

ــ « هذا ؟ إنـه للجرذان . ارقدا » .

ومـع ذلك فقد وجـد نفسه مضطراً إلى ان يضيف بضع كلمـات لتعليم هـذين الطفلين اللذين ما كـادا يشبان عن الطوق ، فتابع :

ــ « إنهـا أشياء من « حديقة النبـات » . إنهـا تستعمـل للوحوش المفترسة . وهناك مخزن كامـل مليء بهـا . وليس عليك إلا ان تتسور جداراً ، وتتسلق نافـذة ، وتمر من تحت باب . وعندئذ تحصـل على

قدر ما تريد . »

وفيما هو يتكلم لف، جزءاً من الغطاء حول اصغر الولدين ، الذي غمغم بقوله :

— « أوه ! هذا شيء حسن ! إنه دافيء ! »

ونظر غافروش إلى الغطاء ، في ارتياح .

وقال :

— « وهذا أيضاً من حديقة النبات . لقد أخذت هذا من القرَدة . »

وأطلع اكبرَ الولدين على الحصير الذي كان متمدداً فوقه ، وهو حصير رائع الصنعة شديد الكثافة ، وأضاف :

— « وهذا كان للزرافة . »

وتمهل قليلا ، ثم واصل الكلام :

— « كانت الوحوش تملك هذا كله . لقد أخذته منها . إنها لم تبال بذلك . لقد قلت لها : هذا من اجل الفيل . »

وصمت من جديد ، ثم استأنف :

— « نحن نتسلق الجدران ، ونسخر من الحكومة ، هذا كل ما هنالك . »

ونظر الولدان في احترام جازع مشدوه إلى هذا المخلوق الشجاع المبتدع ، المتشرد مثلهما ، المنبوذ مثلهما ، البائس مثلهما ، الذي كان شيئاً رائعاً كليّ القدرة ، والذي بدا في أعينهما خارقاً للطبيعة ، والذي كانت سيماه مؤلفة من جميع تغضنات وجه المشعوذ المضحكة ممزوجةً بابتسامة ليس اعذب منها ولا اكثر طبَعيّة .

وقال اكبرهما في جزع :

— « اذن فأنت غير خائف ، يا سيدي ، من الشرطة ؟ »

فاكتفى غافروش بالقول :

— « ايها الولدان ، نحن لا نقول الشرطة . ولكن نقول

البوليس . »

كان الولد الاصغر مفتوح العينين ، ولكنه لم يقل شيئاً . واذ كان على حافة الحصير ، على حين كان الولد الاكبر في منتصفه ، فقد ثنى غافروش الغطاء من تحته كما كان يخلق بأم ان تفعل ، وعلّى الحصير تحت رأسه ببعض الاسمال البالية بحيث يصنع وسادة للولد . ثم التفت نحو اكبرهما وقال :

— « نحن هنا في خير حال ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب اكبر الولدين ، ناظراً إلى غافروش في انطباعة ملاك منقَذ :

— « آه ، نعم . »

كان الطفلان الصغيران البائسان المبللان بللا كاملا قد بدءا يستشعران الدفء .

وتابع غافروش كلامه :

— « آه ، والآن ، من أجل ماذا كنت تبكي ؟ »

وأشار إلى الولد الاصغر وهو يقول مخاطباً أخاه :

— « إذا بكى طفل مثل هذا فلا بأس . أما إذا بكى ولد كبير مثلك فتلك هي البلاهة . انه يجعلك تبدو مثل عجل . »

فقال الطفل :

— « حسن ، لم يكن عندنا غرفة نذهب اليها . »

فأجابه غافروش :

— « ايها الطفل . نحن لا نقول غرفة ، ولكن نقول مأوى . »

— « وفوق هذا فقد كنا نخاف ان نكون وحدنا على هذا الشكل في الظلمة . »

— « نحن لا نقول الظلمة . ولكن نقول العتمة . »

فقال الطفل :

— « شكراً ، يا سيدي . »

فتابع غافروش :

— « أصغ لي . يجب ان لا تهرّ ابداً من اجل لا شيء . سوف أتولى أمرك . ولسوف ترى كم سنتسلى . وفي الصيف سوف نذهب إلى « لا غلاسيير » مع « نافيه » ، وهو احد رفاقي ، وسوف نسبح في ملجأ السفن ، ونركض عاريين تماماً على خط السكة الحديدية أمام جسر أوسترليتز ، وهذا ما سيثير حنق النسوة الغسالات . انهن سوف يصحن ، سوف يغتظن ، وليتك تعرف كم هن مضحكات ! سوف نذهب لنرى الرجل الهيكل العظمي . إنه حي يرزق . في الـ « شان زيليزيه » . إن ذلك الابرشيّ مهزول كأي شيء . وبعد ذلك سوف أذهب بك إلى المسرح . سوف اصحبك إلى « فريدريك لوميتر » . ان عندي بطاقات . أنا اعرف الممثلين . بل لقد مثلت مرة في احدى الروايات . لقد كنا اطفالا لا يزيد طولنا على هذا القدر ، وكنا نركض تحت قطعة من القماش ، وكان هذا يعني البحر . سوف استخدمك في مسرحي . وسنذهب ونرى المتوحشين . ان هؤلاء المتوحشين ليسوا حقيقيين . إن لهم « مايوهات » متجعدة ، وفي استطاعتك ان ترى مرافق ايديهم مرفوّة بخيطان بيضاء . وبعد هذا سوف نذهب إلى الاوبرا . سوف ندخل مع المصفقين المستأجرين . ان جماعة المصفقين في الاوبرا مختارة احسن اختيار . وانا لا ارضى ان انضم إلى جماعة المصفقين في الشوارع . ويكفي ان تفكر أن في الاوبرا من يدفع عشرين « سو » ، ولكنهم مجانين . انهم يسمونهم « ممسحة الصحون » . واخيراً سوف نذهب لنرى كيف تحتز المقصلة الرؤوس . سوف أريك الجلاد . إنه يسكن في شارع الـ « ماريه » . مسيو سانسون . إن في باب بيته صندوق بريد . أوه ! نحن نتسلى تسلية شهيرة . »

وفي هذه اللحظة سقطت قطرة من الشمع على اصبع غافروش ، فاذكرته بوقائع الحياة .

وقال :

— « يا للشيطان ! ها هي الفتيلة قد استُهلكت . انتبه ! أنا لا استطيع ان انفق اكثر من « سو » شهرياً ، على الاضاءة . وحين نذهب إلى الفراش يتعين علينا ان ننام . ليس عندنا متسع من الوقت لقراءة روايات مسيو بول دو كوك * . أضف إلى هذا ، أن الضوء قد يمر من خلال شقوق باب العربات ، فلا يستطيع الشرطة إلا ان يرونا . »

وفي جزع ، لاحظ اكبر الولدين الذي جرؤ وحده على الكلام مع غافروش وإجابته :

— « وإلى هذا ، فقد تسقط شرارة على القش . يجب ان نحذر إحراق المنزل . »

فقال غافروش :

— « نحن لا نقول إحراق المنزل . ولكن نقول اشعال النار في ساحقة المعادن . »

وتضاعفت العاصفة قوة وعنفاً . وفي الفترات الفاصلة ما بين الرعد والرعد ، سمعوا العاصفة تصفع مؤخر التمثال الهائل .

وقال غافروش :

— « اهطل ، ايها المطر الملعون . إن مما يمتعني ان أسمع الزجاجة تُفرغ في سيقان البيت . الشتاء مجنون . إنه يضيع بضاعته ، إنه يضيع جهوده . فهو غير قادر على ان يبللنا ، وهذا ما يجعل ذلك السقاء العجوز يتذمر ! »

هذا التعريض بالرعد ، الذي ارتضى غافروش — كفيلسوف من فلاسفة القرن التاسع عشر — جميع عواقبه أُتبع ببرق قوي كان من السطوع بحيث تسرب بعضه من خلال الثغرة إلى جوف الفيل . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، انفجر الرعد على نحو مروع جداً . وأطلق

* Charles - Paul de Kock روائي فرنسي غزير الانتاج (١٧٩٤ — ١٨٧١)

الطفلان الصغيران صيحة ، ونهضا في سرعة بالغة زحزحت العريش عن موضعه أو كادت . ولكن غافروش أدار وجهه الباسل نحوهما ، وانتهز فرصة انفجار الرعد لكي ينفجر هو بالضحك .

— « الزما الهدوء ، ايها الطفلان . لا تُقلقا الصرح . لقد كان ذلك رعداً رائعاً . أعطنا مزيداً من ذلك . إن ذلك البرق لم يكن عديم الفائدة . مرحى للرب ! باسم الشيطان ! إنه لا يقل روعة عن ذلك الذي نراه في المسرح . »

حتى إذا قال ذلك أعاد العريش إلى مكانه ، ودفع الولدين برفق نحو مقدم العريش ، وضغط على ركبهما لكي يمددهما على مداهما ، ثم هتف :

— « ما دام الرب قد اشعل شمعته ففي استطاعتي ان اطفىء شمعتي . ايها الطفلان ، يجب أن تنام ، يا صاحبي البشريين . إن عدم النوم شيء رديء جداً ، إنه يصفعك على مصفاتك ، أو كما يقولون في المجتمعات الراقية ، ينتن في شدقك . التفا جيداً بالقشر ! سوف اطفيء . هل أنتما في حال حسنة ؟ »

فغمغم اكبر الطفلين :

— « نعم . أنا في حال حسنة . أحس وكأن شيئاً مثل الريش تحت رأسي . »

فصاح غافروش :

— « نحن لا نقول رأس . ولكن نقول أرومة . »

والتصق كل من الولدين بأخيه . وانهى غافروش توضيبهما فوق الحصير ، وجذب الغطاء حتى آذانهما ، وكرر الوصية للمرة الثالثة في لغة كهنوتية :

— « ارقدا ! »

ونفخ على الشمعة .

ولم يكد الضوء ينطفىء حتى شرع ارتجاف شديد يحـــرك العريش الذي نام الاطفال الثلاثة تحته . كانت جمهرة من ضروب الدعك المكظوم الذي اطلق صوتاً معدنيـاً ، فكأن بعض المخالب والاسـنان كـانـت تحـاول سحق سلك نحـاسي . وكان يصاحب ذلك مختلف ضروب الصيحات الحـادة الصغرى .

وغلب الخوف على الطفل الصغير ابن الخامسة حين سمع هـذه الضجـة فوق رأسه ، فدفـع أخـاه الأكبر بمرفقه ، ولكن الأخ الاكبر كـان قـد « رقد » ، كما أمره غافروش . وعندئذ غامر الصغير ، بعد ان لم يعد قادراً على ان يخافه ، وسأل غافروش ، ولكن في صوت خفيض جداً ، حابساً أنفاسه :

— « سيدي ؟ »

فقال غافروش ، وكان قد اغمض عينيه منذ لحظـة :

— « هيه ؟ »

— « ما هذا ؟ »

فأجابه غافروش :

— « إنها الجرذان . »

ووضع رأسه ، من جديد ، على الحصير .

والواقع ان الجرذان التي تـكاثرت بالآلاف في جثة الفيل ، والتي كانت هذه البقع السوداء الحية المشار اليها آنفـاً ، ظلت جامدة فـي مواطنها ، يلفها الذعر ، طوال اشتعال الشمعة . ولكن ما إن اعيـــد هذا الكهف ، الذي كان مدينتها ، حتى استروحت هناك ما دعاه بيرو،* القصصي المجيد ، « بعض اللحم الطازج » . فاندفعت زرافات زرافات إلى خيمة غافروش ، وتسلقت حتى القمة ، وراحت تقرض عُقَدهـــا

---

* Charles Perrault كاتب فرنسي (١٦٢٨ — ١٧٠٣) ألف « عصر لويس الكبير » و « حكايات الجن » وغيرهما .

وكأنها كانت تحاول الدخول من خلال هذه الناموسية الحديثة الطراز .

ومع ذلك فلم يستسلم الصغير للرقاد .

وقال كرة ثانية :

— « سيدي ! »

فقال غافروش :

— « هيه ؟ »

— « ما هي الجرذان ؟ »

— « إنها فيران . »

وهذا الشرح أعاد الاطمئنان إلى نفس الطفل بعض الشيء . كان قد رأى بعض الفئران خلال حياته ، ولم يكن ليخاف منها . بيد أنه ما لبث أن رفع صوته من جديد :

— « سيدي ؟ »

فقال غافروش :

— « هيه ؟ »

— « ولماذا لا يوجد عندك هرة ؟ »

فأجابه غافروش :

— « كانت عندي واحدة . لقد جئت بواحدة إلى هنا ، ولكنهم اكلوها لي . »

ونقض هذا الشرح الثاني ما كان قد أقامه الشرح الأول ، وبدأ الطفل الصغير يرتعد من جديد . واستأنف الحديث بينه وبين غافروش للمرة الرابعة :

— « سيدي ! »

— « هيه ؟ »

— « ما هذا الذي أكِل ؟ »

— « المرة . »
— « ومن الذي أكل المرة ؟ »
— « الجرذان . »
— « الفيران ؟ »
— « نعم ، الفيران . »
وتابع الطفل اسئلته وقد روعته هذه الفئران التي تأكل القطط :
— « سيدي ، وهذه الفيران هل تأكلنا ؟ »
فقال غافروش :
— « يا للشيطان ! »
كان ذعر الطفل كاملا . ولكن غافروش أضاف :
— « لا تخف . انها لا تستطيع ان تدخل . وفوق هذا ، فأنا هنا . والآن ، هذه يدي أمسك بها . اسكت وارقد ! »
وفي الوقت نفسه أمسك غافروش بيد الولد الصغير من فوق أخيه . وضغط هذه اليد على جسده ، فاستشعر الأمن . إن للشجاعة والقوة مثل هذه العدوى الغريبة . وران الصمت من حولهم كرة اخرى ، كانت الأصوات الناطقة قد اذهلت الجرذان وطردتها . ولعلها قد رجعت بعد بضع دقائق وشنت حربها من جديد ، ولكن الغلمان الثلاثة ، المستغرقين في النوم ، لم يسمعوا شيئاً .
وتقضت ساعات الليل . وخيم الظلام على ساحة الباستيل المترامية الاطراف . وهبت نفحات من ريح شتوية يمازجها المطر ، وداهم العسس الابواب ، والازقة ، والأفنية المسيجة ، والزوايا المظلمة بحثاً عن متشردي الليل ، واجتازوا بالفيل في صمت . وبدا ذلك الجبار — المنتصب الجامد الفاتح عينيه في الظلام — وكأنه مستغرق في تفكير حالم ، مرتاح إلى ما قام به من عمل حميد ، وعصم من السماء ومن الناس اولئك الأطفال الثلاثة النائمين .

ولكي نفهم ما سوف نقصه بعد ، يتعين علينا أن نذكر ان حرس الباستيل كان مقره ، في تلك الحقبة ، في اقصى الطرف الآخر من الساحة ، وان ما وقع قرب الفيل ما كان في ميسور الحارس ان يراه أو يسمعه .

وحوالى نهاية الساعة التي تسبق الفجر مباشرة ، انطلق رجل من شارع سان انطوان راكضاً ، واجتاز الساحة ، ودار من حول السياج العريض المطوق لـ « عمود تموز » ، وانسل من بين اشجار السياج إلى ما تحت جوف الفيل . ولو ان ضوءاً مهما يكن قد أشرق على هذا الرجل ، بثيابه المبللة تبللا كاملا ، اذن لحزر المرء انه قد سلخ الليل تحت المطر . حتى إذا انتهى إلى الفيل أطلق نداء غريباً لا يمت بنسب إلى ايما لغة بشرية ، وليس في استطاعة احد غير الببغاء ان يحاكيه . وأعاد مرتين ذلك النداء الذي لا يعطي هذا الرسم إلا فكرة ناقصة عنه إلى أبعد الحدود :

– « كيريكيكيو ! »

وعند النداء الثاني اجاب صوت واضح بهيج غضّ ، من بطن الفيل :

– « نعم ! »

وفي الحال تقريباً ، انزاح اللوح الخشبي الذي يسد الثقب ، وفتح الطريق لطفل هبط على طول قدم الفيل ووثب في خفة قرب الرجل . كان هو غافروش . وكان الرجل هو مونبارناس .

أما هذا النداء ، كيريكيكيو ، فكان فيه من غير شك ما أراد الطفل أن يقوله بـ : سوف تسأل عن مسيو غافروش .

ولم يكد يسمع النداء حتى استيقظ واثباً ، وزحف خارجاً من « مخدعه » ، منحياً الشبكة قليلا ، مغلقاً اياها بعد ذلك في إحكام ، ثم فتح الباب الافقي وهبط .

وعرف كل من الرجل والطفل صاحبه ، في صمت ، وسط الظلام .

واجتزأ مونبارناس بالقول :

— « نحن في حاجة اليك . تعال ومد الينا يد المساعدة . »

ولم يطلب « المتشرد » أيما ايضاح .

وقال :

— « حاضر . »

واتجها كلاهما نحو شارع سانت انطوان الذي اقبل منه مونبارناس ، متلوّيين في سرعة عبر عربات المزارعين ، المنتظمة في صف طويل ، والهابطة في تلك الساعة نحو السوق .

والواقع ان زارعي البقول هؤلاء ، الجاثمين في عرباتهم بين البقول والخضر ، نصف النائمين ، المدفونين حتى عيونهم في ثياب سائقي العربات بسبب من المطر المنهمر ، نقول ان زارعي البقول هؤلاء لم يلاحظوا هذين المارين الغريبين ولو مجرد ملاحظة .

٣
سعود الفرار ونحوسه

ودونك ما كان قد جرى ، في تلك الليلة نفسها ، في سجن لا فورس :

كان « بابيه » و « بروجون » و « غولوميه » قد دبروا أمر الفرار ، على الرغم من ان تيناردييه كان في المحبس الانفرادي . وكان « بابيه » قد قام بذلك لحسابه ، في وضح النهار ، كما رأينا مما رواه مونبارناس على غافروش .

وكان على مونبارناس ان يساعدهم من الخارج .

وكان بروجون قد وجد ، وهو الذي قضى شهراً في غرفة من غرف العقوبة ، متسعاً من الوقت لأن يُبرم حبلا ، أولا ، ولأن يضع خطة كاملة ، ثانياً . وفي ما مضى كانت هذه الحجرات القاسية التي يُسلم فيها نظام السجن المذنبَ المحكوم عليه إلى نفسه ، تتألف من اربعة جدران حجرية ، وسقف حجري ، وأرضية مرصوفة بالبلاط ، وسرير من سرر المعسكرات ، وكوة مقضّبة بالحديد ، وباب حديدي مزدوج ، وكانت تدعى **الزنزانات** . ولكن الزنزانة اعتبرت رهيبة اكثر مما ينبغي . فهي الآن تتألف من باب حديدي ، وكوة مقضّبة ، وسرير من سرر المعسكرات ، وأرضية مرصوفة بالبلاط ، وسقف حجري ، واربعة جدران حجرية ، وتدعى **غرفة العقوبة** . انها لا تنطوي إلا على قليل من النور عند الظهيرة . وعيب هذه الغرف ، وهي كما رأينا ليست زنزانات ، هو انها تسمح بالتفكير لمخلوقات كان ينبغي ان تعمل على العمل .

واذن فقد فكر بروجون ، وغادر غرفة العقوبة بحبل من الحبل . وإذ عُرف في محكمة شارلمان بشدة الخطر فقد وُضع في « البناية الجديدة » . وكان أول ما وجده في « البناية الجديدة » غولوميه ، وكان ثاني ما وجده مسماراً . غولوميه ، يعني الجريمة . ومسماراً يعني الحرية .

وكان بروجون ، الذي آن لنا ان نعطي القارىء فكرة عنه ، ذا مظهر من المزاج الرقيق ، ومن الانحطاط الجسمي المتعمَّد على نحو محكم . وكان لصاً ذكياً حازماً مصقول الحواشي ، تتسم طلعته بالملاطفة ، وابتسامته بالقسوة . كانت سيماه ثمرة لأرادته ، وكانت ابتسامته ثمرة فطرته . وكانت اولى دراساته في فنه موجهة نحو السطوح . وكان قد اجرى تحسيناً كبيراً في صناعة قلاّعات الرصاص التي تجرّد السطوح وتسلخ جلد الميازيب بالعملية المدعوة : الشحم المزدوج .

وكان الذي جعل تلك اللحظة ملائمة على نحو خاص لمحاولة من محاولات الفرار أن بعض العمال كانوا ينزعون ويعيدون وضع جزء من حجارة السجن الضاربة إلى الزرقة في ذلك الوقت بالذات . ولم يكن فناء سان برنارد معزولا عزلا كاملا عن فناء شارلمان وفناء سان لويس . كانت ثمة صقالات ومراقٍ . وبكلمة اخرى جسور وسلالم تقود نحو الخلاص .

وكانت « البناية الجديدة » ، وهي اكثر بنايات العالم تشققاً وهرماً ، نقطة الضعف في السجن . كانت جدرانها مقرّضة بملح البارود إلى درجة اضطرت القيّمين عليه إلى أن يُلبسوا عقود المهاجع وجهاً خشبياً ، لأن الحجارة كانت تتداعى إلى السقوط فتقع على سرر السجناء . وعلى الرغم من هذا التداعي ، اقترفت السلطة هذه الغلطة : لقد احتبست في « البناية الجديدة » السجناء الاشد خطراً ، ووضعت « الحالات الصعبة » هناك ، كما يقولون في لغة السجون .

كانت « البناية الجديدة » تنتظم اربعة مهاجع احدها فوق الآخر ، وعليّة كانت تدعى « الهواء العليل » . وكانت مدخنة كبيرة ، اغلب الظن انها منتزعة من مطبخ قديم من مطابخ دوقات لا فورس ، تنطلق من الدور الارضي ، وتخترق الطوابق الاربعة قاسمة إلى قسمين جميعَ المهاجع التي بدت فيها وكأنها ضرب من عمود مسطح ، ومضت ثاقبةً السطح .

كان غولوميه وبروجون في مهجع واحد . كانا قد وُضعا في الدور السفلي حذراً واحتياطاً . واتفق ان مقدّمي سريريهما استندا إلى مدخنة الموقد .

وكان تيناردييه فوقهما مباشرة ، في العلّية المعروفة بـ « الهواء العليل . »

إن عابر السبيل الذي يقف في شارع « كولتور سانت كاترين » خلف

ثكنات رجـــال الاطفاء ، أمـــام باب العربات المؤدي إلى الحمام العام ، ليرى فنـــاء حافلاً بالرياحين والشجيرات الموضوعة في الصناديق — فناء في طرفه الاقصى بناء مدور صغير ذو قبة وجناحان مزدانان بمصاريـع نوافذ خضراء — * حُلم جان جاك الرعائي . وقبل عشر سنوات ليس غير كان ينهض فوق هذا البناء المدور جدار أسود — جدار هائـل ، رهيب ، أجرد كان البناء مستنداً اليه . ذلك كـان سور لا فـورس المطوّق .

هذا الجدار قائماً خلف ذلك البناء المدور كان هو ميلتون ** منظوراً اليه خلف بيركين ***

وعلى الرغم من ارتفاع هذا الجـدار فقد كان يعلوه سطح اشـــد سواداً كان يمكن ان يُرى وراءه . كان سطح « البناية الجديدة » . وكنت تبصر اربعـاً من كوى غرف النوم ذات القضبان الحديدية . كانت هذه هي نوافذ « الهواء العليل » . واخترقت مدخنةٌ هذا السطح ، كانت هي المدخنة التي اجتازت المهاجع .

وكان « الهواء العليل » ، علّية « البناية الجديدة » تلك ، شبه قاعـة من قاعات العلالي الواسعة ، موصدة بحاجز مثلث ذي قضبان وبأبواب حديدية مصفحة على نحو مزدوج تناثرت فيها المسامير الضخام . حتى إذا تقدمتَ نحو الطرف الشمالي ، وجدتَ إلى يسارك الكوى الاربع ، وإلى يمينك تجاه الكوى اربعة اقفاص مربعة عريضة ، بعيداً بعضها عن بعض ، وقد فصلت ما بينها مجازاتٌ ضيقة ، بنيت حتى النحر بمواد بنـــاء ، وشُيد سائرها حتى السطح من أعمدة حديدية .

وكان تيناردييه قد حُبس حبساً منفرداً في واحد من هذه الاقفـــاص

---

* جان جاك روسو .

** Milton هو جون ميلتون الشاعر الانكليزي العظيم (١٦٠٨ — ١٦٧٤)

*** Berquin أديب فرنسي (١٧٤٧ — ١٧٩١)

منذ ليل الثالث من شباط . ولم يكتشف احد قط كيف ، أو بأية وسيلة، وُفق إلى الفوز بزجاجة من تلك الخمر التي يقال ان « ديرو » اخترعها ، واخفائهــا في مــكان مـا ، تلك الخمر التي يمتزج بها المخدر ، والتي جعلتها عصابة « الشريرين المنوِّمين » ذات شهرة واسعة .

إن في كثير من السجون مستخدمين خونة ، كل منهم نصف سجان ونصف لص — مستخدمين يسهلون عمليات الفرار ، ويبيعون الشرطـة خدمات غير أمينة ، ويكسبون اكثر من مرتباتهم بكثير .

واذن في تلك الليلة نفسها ، ليلة تلقف غافروش الصغير الولدين التائهين ، نهض بروجون وغولوميه في رفق — وقد عرفا ان بابيه الذي سبقهما إلى الهرب ذلك الصباح نفسه كان ينتظرهما هو ومونبارناس فـي الشارع — وشرعا يثقبان بالمسمار الذي وجده بروجون مدخنة الموقد التي كان سريراهما يمسانها . وسقط النثار على سرير بروجون ، فلم يسمـع أحد له صوتاً . وهزت عاصفة البرَد وهز الرعـد الأبواب على رزاتها ، فأحـدثت هديراً رهيباً وملائمــاً في السجن . وتظاهر السجناء الذين أفاقوا بأنهم قـد استسلموا للرقاد من جديد ، وتركوا غولوميه وبروجون وشأنهما . وكان بروجون رشيقـاً ، وكان غولوميه ذا حزم . وقبـل ان ينتهـي ايمـا صوت إلى الحارس ، الذي كان نائمـاً في الحجيرة المقضبة ذات النافذة المطلة على المهجع ، كان الجدار قد ثُقب ، والمدخنة قـد تُسلقت ، والشبكة الحديدية التي توصد منفذ المدخنة الاعلى قد اقتُحمت ، وكان قاطعا الطريق الرهيبان قد بلغا السطح . وتضاعف المطر والريـح شدة ، وكان السطح زلقاً .

وقال بروجون :

— « يا لها من ليلة ملائمة للفرار ! »

كانت هوةٌ عرضها ستة اقدام وعمقها ثمانون قدمـاً تفصلهما عـن السور المطوّق ، وفي قعر هـذه الهوة رأيا بندقية احـد الحرس تلتمـع

في الظلام . وشدّا احد طرفي الحبل الذي أبرمه بروجون في حجيرته إلى فلذ قضبان المدخنة التي سبق لهما ان لوياهـــا منذ لحظة ، وطرحا الطرف الآخر من فوق الجدار المطوّق ، وعبرا الهوة بوثبة ، وتعلقا بالعوارض المنحدرة التي تعلو الجدار ، واجتازاها وانزلق احدهما خلف الآخر على طول الحبل فوق سطح صغير ملاصق للحمام ، وجذبا حبلهما إلى ادنى ، ووثبا إلى فناء الحمام ، واجتازاه ، وفتحا خادعة* البواب ، التي تدلى الحبل قربها ، وجذبا الحبل ، وفتحا باب العربات ، فاذا هما في الشارع .

وإنما تم ذلك ولما يمض ثلاثة ارباع الساعة على نهوضهما من سريريهما في الظلام ، ومسارهما باليد ، ومشروعهما في الرأس .

وبعد لحظات قليلة ، التحقا ببابيه ومونبارناس اللذين كانا يطوّفان في المنطقة المجاورة .

وكانا قد قطعا حبلهما فيما هما يجذبانه ، وكانت قطعة منه قد بقيت معلقة بالمدخنة على السطح . ولم يكن قد اصابهما أيما اذى غير تخدش ايديهما تخدشاً شديداً .

وفي تلك الليلة ، كان تيناردييه قد تلقى تحذيراً ليس في امكان أحد ان يؤكد كيف انتهى اليه ، فلم يغمض له جفن .

وحوالى الساعة الواحدة صباحاً ، وكان الليل حالكاً جداً ، رأى شبحين يجتازان السطح ، تحت المطر ، وفي وجه العاصفة ، أمام الكوة المواجهة لقفصه . ووقف احدهما عند النافذة فترة كافية لالقاء نظرة . كان ذلك هو بروجون . وعرفه تيناردييه ، وفهم . كان ذلك حَسْبَهُ .

وكان تيناردييه ، وقد اعتُبر سفاحاً وحُبس بتهمة إقامة كمين

* الخادعة هي الباب الصغير ضمن باب كبير .

ليلي مسلح ، خاضعاً لرقابة شديدة . كان احد الحرس ، الذين كانوا يبدلون مرة كل ساعتين ، يسير حاملا بندقية مشحونة أمام قفصه . وكان « الهواء العليل » يضاء بعاكسة للنور . وكانت قدما السجين مثقلتين باغلال حديدية تزن خمسين ليبرة . وكل يوم ، في الساعة الرابعة بعد الظهر ، كان حارس يواكبه كلبان – فقد كان ذلك معتاداً في تلك الحقبة – يدخل إلى قفصه ، فيضع قرب سريره رغيفاً أسود يزن ليبرتين ، وابريق ماء ، وطبقا مليئاً بحساء بالغ الهزال كانت تسبح فيه بعض حبات من الحمص ، ويفحص أغلاله ، ويضرب على القضبان . وكان هذا الرجل ، وكلباه الاثنان ، يرجعان مرتين في الليلة الواحدة .

وكان تيناردييه قد استصدر اذناً بالاحتفاظ بشبه رزة حديدية كان يستعملها لكي يسمر رغيفه في ثقب في الجدار « لكي يحفظه » – كما قال – « من الجرذان » . وإذ كان تيناردييه موضوعاً تحت الحراسة الموصولة فأن القيمين على السجن لم يجدوا في احتفاظه بتلك الرزة اية بأس . بيد انهم تذكروا في ما بعد أن احد الحرس كان قد قال : « من الخير أن لا تسمحوا له بشيء غير وتد خشبي . »

وفي الساعة الثانية صباحاً استعيض عن الحارس ، الذي كان جندياً عجوزاً ، برجل حديث عهد بالجندية . وبعد بضع لحظات قام الرجل ذو الكلبين بزيارته ، ومضى من غير ان يلاحظ غير « الحداثة البالغة » و « السيما الريفية » اللتين غلبتا على الجندي . وبعد ساعتين اثنتين ، في الساعة الرابعة ، حين أقبل من يحل محل الجندي الحدث ، وُجد هذا الجندي نائماً ، طريحاً على الارض مثل قرمة من الحطب ، قرب قفص تيناردييه . أما تيناردييه ، فلم يكن هناك . كانت اغلاله المحطمة على الارض . وكان ثمة ثقب في سقف قفصه ، وفوقه كان ثقب

آخر في السطح . كان لوح قد انتُزع من سريره ، وذُهب به من غير شك ، ذلك بأنهم لم يعثروا عليه بعد . وعثروا في الحجيرة أيضاً على زجاجة نصف فارغة ، تحتوي على بقية الخمر المخدرة التي أكره بها الجندي على النوم . كانت حربة الجندي قد اختفت .

ولحظةَ تم هذا الكشف ، اعتقد القوم ان تيناردييه كان بعيداً عن متناولهم بكل ما في الكلمة من معنى . والواقع انه لم يكن في « البناية الجديدة » ، ولكنه كان لا يزال في خطر عظيم .

ولم يكد تيناردييه يبلغ سطح « البناية الجديدة » ، حتى وجد بقية حبل بروجون معلقاً بقضبان باب المدخنة الأفقي الاعلى ، ولكن هذا الطرف الابتر كان قصيراً اكثر مما ينبغي ، فلم يستطع الفرار من فوق مجاز الحرس ، كما فعل بروجون وغولوميه .

إنك حين تنعطف من شارع الـ « باليه » إلى شارع « ملك صقلية » تجد إلى اليمين ، وفي الحال تقريباً ، حفرة قذرة . هناك ، كان في القرن الماضي منزل لم يبق منه غير الجدار الخلفي ، وهو جدار متهدم حقاً ينهض إلى ارتفاع الدور الثالث بين الأبنية المجاورة . وفي استطاعة المرء ان يتعرف هذا الجدار من نافذتين مربعتين كبيرتين لا تزالان تشاهدان إلى اليوم . وتلك التي في الوسط ، والاشد قرباً إلى حائط الجملون الأيمن مسدودةٌ بخشبة نخرة عُدلت على شكل عارضة من عوارض الدعائم . ومن خلال هاتين النافذتين كان في ميسور الناظر ، قديماً ، ان يتبين جداراً حدادياً عالياً كان جزءاً من سور «لا فورس » المطوّق .

والفراغ الذي تركه في الشارع ذلك المنزل المقوض قد مليء على نحو جزئي بسياج ذي الواح خشبية نخرة تدعمها أنصاب حجرية خمسة . وخلف هذا السياج احتجب كوخ صغير مستند إلى ذلك الجزء الذي لا يزال ناهضاً

من البناء الخرب . وكان للسياج باب لم يكن يوصد ، قبل بضعة اعوام ، إلاّ بمزلاج ليس غير .

وكان تيناردييه قد انتهى إلى قمة هذه الخرائب بعد الساعة الثالثة ، صباحاً ، بقليل .

كيف استطاع الوصول إلى هناك ؟ ذلك ما لم يوفق احد قط إلى شرحه أو فهمه . وليس من ريب في ان البرق قد أربكه وساعده في آن معاً . هل اصطنع السلالم وصقالات السقف للانتقال من سطح إلى سطح ، ومن سياج إلى سياج ، ومن بيت إلى بيت ، إلى ابنية محكمة شارلمان ، ثم إلى فناء سان لويس ، إلى الجدار المطوق ، ومن هناك إلى المنزل الخرب في شارع ملك صقلية ؟ ولكن كانت في هذه الطريق فجوات بدت وكأنها تجعل ذلك متعذراً . هل اتخذ من لوح سريره الخشبي جسراً عبر عليه من سطح « الهواء العليل » إلى الجدار المطوق ، وهل زحف على بطنه فوق عوارض الجدار ، على مدار السجن حتى المنزل الخرب ؟ ولكن جدار لا فورس المطوّق كان يجري على خط مسنن غير مستو ، كان يرتفع وينخفض ، كان يغور إلى ثكنات رجال الاطفاء ، ويعلو إلى الحمام ، وكانت الابنية تعترض سبيله ، ولم يكن ارتفاعه عند اوتيل لاموانيون مثل ارتفاعه في شارع بافيه ، وكانت له انحدارات وزوايا قائمة في كل مكان. وإلى هذا فقد كان الحراس جديرين بان يروا ظل الهارب الداكن . وعلى هذا الافتراض ايضاً تظل الطريق التي سلكها تيناردييه ممتنعة على التفسير تقريباً . وفي أي من الحالين ، كان الفرار متعذراً . هل اخترع تيناردييه ، مستنيراً بذلك الظمأ الرهيب إلى الحرية الذي يحوّل الهُوَى * إلى خنادق . والحواجز الحديدية المقضبة إلى قضبان من خيزران ، والكسيح إلى رياضي ، والمصاب بنقرس القدمين إلى طائر ، والحماقة إلى غريزة ، والغريزة إلى ذكاء ، والذكاء إلى عبقرية — هل اخترع تيناردييه وارتجل طريقة ثالثة ؟ ذلك ما لم يقدّر

* جمع هوّة .

لأحد ان يعرفه البتة .

إن المرء لا يستطيع دائماً ان يفهم اعاجيب الهروب . فالرجل الذي يهرب ، ولنكرر ذلك ، يكون ملهماً . إن ثمة شيئاً من النجم ومن البرق في وميض الفرار العجيب . والسعي نحو الانعتاق ليس اقل إدهاشاً من الانطلاق نحو الأسمى . ونحن نقول عن اللص الهارب : كيف وفق إلى أن يتسلق ذلك السطح ؟ تماماً كما قيل عن كورني : كيف اهتدى إلى **انه سوف يموت** ؟

وأياً ما كان فقد انتهى تيناردييه – وقد سال منه العرق ، ونُقع بالمطر ، ومُزقت ملابسه ، وخُدشت يداه ، وجرى الدم من مرفقيه ، ومزقت ركبتاه – انتهى على تلك الحال إلى ما يدعوه الاطفال في لغتهم المجازية ، « حد » جدار المنزل الخرب ، وتمدد على طوله فوقه ، وهناك خانته قواه . كان منحدرٌ وعر ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة أدوار ، يفصله عن حصباء الطريق .

كان الحبل الذي معه أقصر مما ينبغي .

كان ينتظر هناك ، شاحباً ، منهوك القوى ، فاقداً كل أمل كان يراوده ، متلفعاً – ما يزال – بحجاب الليل ، ولكنْ قائلا في ذات نفسه ان الفجر على وشك ان ينبلج ، مذعوراً لتفكيره بانه سوف يسمع بعد بضع لحظات دقات « ساعة القديس بولس » المجاورة تعلن الرابعة ، وهو موعد مجيئهم لاستبدال الحارس ، وعندئذ يجدونه نائماً تحت السطح المثقوب ، محدقاً في انشداه – خلال العمق الرهيب ، وعلى ضوء المصابيح – إلى حصباء الطريق الندية السوداء ، هذه الحصباء التي كانت رغيبة ورهيبة ، والتي كانت الموتَ وكانت الحرية .

وتساءل ما إذا كان شركاؤه الثلاثة في الهرب قد نجحوا ، وما إذا كانوا قد سمعوه ، وما إذا كانوا سيهرعون إلى نصرته . وأصغى . وباستثناء احد الحراس لم يجتز الشارع ، منذ ان انتهى إلى هناك ،

شخص ما ، وإنما تتم الكثرة العظمى من تنقلات مزارعي مونتروي ، وشارون ، وفينسان ، وبيرسي إلى السوق من خلال شارع سانانطوان.

واعلنت الساعةُ الرابعةَ. وارتعد تيناردييه. وبعد بضع لحظات، اندلعت في السجن تلك الضجة الضارية المشوشة التي تعقب اكتشاف الهرب. وبلغت سمع تيناردييه أصوات الابواب تفتح وتغلق ، وصريف الابواب الحديدية على رزاتها ، والجلبة في مركز الحرس ، ونداءات البوابين المبحوحة ، وصدى ارتطام اعقاب البنادق بحصباء الافنية. وارتفعت الاضواء وانخفضت في نوافذ المهاجع المقضبة بالحديد ، وجرى مشعل عبر عليّة « البناية الجديدة » ، واستدعي رجال الاطفاء من ثكناتهم المحاذية. وكانت خوذهم ، التي اضاءتها المشاعل تحت المطر ، تروح وتجيء على طول السطوح . وفي الوقت نفسه رأى تيناردييه في اتجاه الباستيل سحابة شاحبة تبيّض الجزء الادنى من السماء على نحو حدادي .

كان في ذروة جدار عرضه عشر بوصات ، ممدداً تحت العاصفة تكتنفه هوتان عن يمين وشمال ، غير قادر على ان يتحرك ، جزعاً من شبح السقوط ، مذعوراً ليقينه أن الحرس سوف يقبضون عليه لا محالة . وانتقلت افكاره ، مثل رقاص الساعة ، من احدى هاتين الفكرتين إلى الاخرى : « سأموت إذا وقعتُ ، وسيقبض علي إذا بقيتُ . »

وفي غمرة من هذا الألم النفسي المرير رأى فجأة — وكان الظلام لا يزال يلف الشارع — رجلا ينزلق على الجدران مقبلا من ناحية شارع « بافيه » ، ويقف فوق الحفرة التي كان تيناردييه شبه معلق فوقها. وكان يتبع هذا الرجل رجل ثان ، كان يمشي بالحذر نفسه ، ثم ثالث فرابع . حتى إذا التقى هؤلاء الرجال رفع احدهم مزلاج باب السياج ، ودخل الاربعة إلى الفناء المنطوي على الكوخ . كانوا تحت تيناردييه تماماً . وواضح ان هؤلاء الرجال قد اختاروا تلك الحفرة لكي يكون في

ميسورهم ان يتحدثوا من غير ان يراهم عابرو السبيل ، أو الخفير الذي يحرس باب « لا فورس » على بضع خطوات من هناك . ويجب ان نص ايضاً على ان المطر أبقى هـذا الخفير مسمراً في محرسه . واذ لم يكن في استطاعة تيناردييه ان يتبين وجوههم ، فقد أصغى إلى كلماتهم بمثل الانتباه اليائس الذي يغلب على بائس يستشعر أنه هالك عما قريب .

وطاف بعيني تيناردييه شيء يشبه الامل. كان هؤلاء الرجال يتكلمون لغة السوقة . *

قال اولهم ، في صوت خفيض ، ولكن في وضوح :

– « فلنذهب . ما الذي نفعله هنا ؟ *icigo* »

فأجاب الآخر :

– « انها تمطر مطراً كافياً لاطفاء نار الشيطان . وإلى هذا فالشرطة تجوب الشوارع . ان هناك جندياً يقوم بالحراسة . هل ندعهم يقبضون علينا هنا *icicaille* ؟ »

هاتان الكلمتان *icigo* و *icicaille* اللتان تفيدان معنى « هنا » *ici* ، واللتان تنتسب اولاهما إلى لغة « ابواب المدن » السوقية ، وتنتسب اخراهما إلى لغة الـ « تامبل » السوقية ، كانتا بصيصاً من النور في عين تيناردييه . ففي *icigo* عرف بروجون ، الذي كان يطوف بالليل قرب مداخل المدينة ، وفي *icicaille* عرف بابيه الذي كان ، بالاضافة إلى صناعاته الاخرى ، بائعاً من باعة الـ « تامبل » .

إن لغة السوقة القديمة التي كانت شائعة في عصر لويس الرابع عشر لا يُتحدث بها اليوم إلا في الـ « تامبل » ، وكان بابيه هو الشخص الوحيد الذي يتكلمها في صفاء كلي . ولو لا *icicaille* لما استطاع تيناردييه ان يعرفه لأنه كان قد قنّع صوته تقنيعاً كاملا .

وفي غضون ذلك تدخل الرجل الثالث في الحديث :

---

* argot

— « لا داعي إلى العجلة . فلننتظر قليلا . ما أدرانا أنه غير محتاج إلى معونتنا ؟ »

ومن هذه العبارات ، التي لم تكن إلا كلاما فرنسياً ، أستطاع تيناردييه ان يعرف مونبارناس الذي كانت لباقته تقوم على فهمه جميع اللهجات السوقية وعدم النطق بأي منها .

أما رابعهم فاعتصم بالصمت ، ولكن كتفيه الضخمتين نمتا عليه. ولم يتردد تيناردييه . كان ذلك الرجل هو غولوميه .

واجاب بروجون ، في لهجة تكاد تكون حماسية ، ولكن في جرْس خفيض ايضاً :

— « ما الذي تقوله لنا هنا ؟ إن الفندقي لم يستطع الفرار . انه لا يعرف الصناعة ، حقاً ! فلكي يمزق الانسان قميصه ، ويقطع غطاء السرير ليجعل منه حبلا ، ويحدث ثقوباً في الأبواب ، ويصنع اوراقاً زائفة ، ويعمل مفاتيح مزورة ، ويقطع الحديد ، ويدلّي حبله في الخارج ، ويختبىء ويتقنع — لكي يفعل الانسان ذلك ينبغي ان يكون شيطاناً ! إن الرجل العجوز لم يستطع ان يفعل ذلك . إنه لم يعرف كيف يعمل . »

واضاف بابيه ، بتلك اللغة السوقية الكلاسيكية الحكيمة نفسها التي تكلمها بولاتيه وكارتوش ، والتي كانت بالنسبة إلى لهجة بروجون الجريئة الجديدة ، الموشاة ، المخاطِرة ، ما كانته لغة راسين بالنسبة إلى لغة آندريه شينييه :

— « إن صاحبك الفندقي لا بد ان يكون قد قبض عليه وهو يحاول الفرار . يجب ان يكون الواحد منا عفريتاً . أما هو فليس غير تلميذ في هذه الصناعة . لقد خدعه احد الجواسيس ، او ربما احد الخراف ، بعد ان اتخذ منه صديقاً . انتبه ، يا مونبارناس ، هل تسمع هذه الصيحات في السجن ؟ لقد رأيتَ هذه الاضواء كلها . لقد

قبضوا عليه ، هيا ! لقد أعادوه ليقضي سنواته العشرين في السجن . أنا لست خائفاً ، أنا لست جباناً ، هذا شيء معروف ، ولكن ليس ثمة شيء آخر يمكن ان نعرفه ، وإلا أكرهونا على الرقص . لا تغضب ، تعال معنا . فلنذهب ونشرب زجاجة من الخمر المعتقة معاً . »

فغمغم مونبارناس :

— « إن الانسان لا يتخلى عن اصدقائه في الشدة والضيق . »

فأجابه بروجون :

— « اقول لهم انهم قد عاودوا القبض عليه . ففي اللحظة الحاضرة لا يساوي الفندقي فلساً . نحن لا نستطيع ان نفعل شيئاً هنا . فلنذهب . أنا اتوقع ، في كل لحظة ، أن يقبض عليّ رجل من رجال الشرطة ! »

ولم يقاوم مونبارناس إلا في وهن . والحق ان اولئك الرجال الاربعة ، بذلك الوفاء الذي يجعل قطاع الطرق لا يتخلى بعضهم عن بعض البتة ، كانوا قد طوّفوا طوال الليل حول « لا فورس » ، متعرضين لضروب المخاطر ، أملا في ان يروا تيناردييه يُطلع رأسه من فوق جدار ما . ولكن الليل الذي كان قد غدا جميلا اكثر مما ينبغي ، وقد هبط وابل كاف لأن يجعل الشوارع مقفرة تماماً ، والبرد الذي شرع يستبد بهم ، وثيابهم المبللة ، واحذيتهم الندية ، والهدير المقلق الذي انطلق من السجن ، والساعات المتصرمة ، والحراس الذين التقوا بهم ، وضياع الأمل ، وعودة المخاوف ، كل اولئك أكرههم على الانسحاب . ورضخ مونبارناس نفسه ، الذي كان إلى حد ما صهر تيناردييه . وما هي إلا لحظة حتى مضوا لسبيلهم . ولهث تيناردييه فوق جداره مثل ملاحي الـ « ميدوز » الغرقى فوق طوفهم حين رأوا السفينة التي برزت لهم تختفي عند الافق .

ولم يجرؤ على ان يناديهم . فان صيحة مسموعة قد تفسد كل شيء . وخطرت له فكرة ، فكرة اخيرة ، وميض من نور . وآخرج من جيبه بقية حبل بروجون ، وكان قد انتزعه من مدخنة « البناية الجديدة » ، وطرحه إلى السياج .

وسقط ذلك الحبل عند أقدامهم .

وقال بابيه :

— « حبل . »

وقال بروجون :

— « حبلي . »

وقال مونبارناس :

— « هو ذا الفندقي . »

ورفعوا أعينهم . وأتلع تيناردييه رأسه .

فقال مونبارناس :

— « عجّل ! أتحمل الطرف الآخر من الحبل ، يا بروجون ؟ »

— « نعم . »

— « إربط الطرفين معاً . سوف نقذف اليه بالحبل . ولسوف يشده إلى الجدار ، وسيكون لديه مقدار كاف يمكنه من الهبوط . »

وحاول تيناردييه ان يتكلم :

— « ان فرائصي ترتعد . »

— « سوف تدفئك . »

— « أنا لا استطيع ان أتحرك . »

— « حاول ان تنزلق انزلاقاً . سوف نتلقاك بأيدينا . »

— « ان يديّ متصلبتان . »

— « شد الحبل إلى الجدار ليس غير . »

— « لا استطيع . »

فقال مونبارناس :

— « يجب على واحد منا ان يصعد . »

فقال بروجون :

— « ثلاثة طوابق ! »

كانت ثمة مدخنة عتيقة من جص ، استُخدمت من قبل لموقد كان يستعمل في الكوخ . وكانت هذه المدخنة تزحف على طول الجدار مرتفعة إلى النقطة التي رأوا تيناردييه عندها تقريباً . وكانت آنذاك متصدعة كل التصدع متشققة كل التشقق ، وقد سقطت منذ ذلك الحين ، ولكن في ميسور المرء ان يرى آثارها إلى الآن . كانت صغيرة جداً .

وقال مونبارناس :

— « في استطاعتنا ان نصعد من هنا . »

فصاح بابيه :

— « من خلال هذه المدخنة ؟ رجل ؟ مطلقاً ! إنها تحتاج إلى طفل . »

فقال غولوميه :

— « اين نستطيع ان نجد طفلا ؟ »

فقال مونبارناس :

— « انتظروا . عندي هذا الشيء . »

وفتح باب السياج ،في رفق ، وتثبت من ان احداً لم يكن يجتاز بالشارع . وخرج في حذر ، واغلق الباب خلفه ، ومضى راكضاً في اتجاه الباستيل .

وتصرمت سبع دقائق أو ثماني دقائق كانت ثمانية آلف قرن بالنسبة إلى تيناردييه . وأحكم بابيه ، وبروجون ، وغولوميه إطباق اسنانهم بعضها على بعض . وأخيراً فُتح الباب من جديد ، وبرز مونبارناس ،

لاهثاً ، مع غافروش . كان المطر لا يزال ينهمر جاعلا الشوارع مقفرة بالكلية .

ودخل غافروش الصغير السياج ، والقى نظرة على وجوه اولئك اللصوص في سيما هادئة . كانت المياه تقطر من شعره . ووجّه غولوميه الخطاب اليه ، قائلا :

— « ايها الطفل ، هل انت رجل ؟ »

وهز غافروش كتفيه واجاب :

— « ان طفلا مثلي هو رجل . وان رجالا مثلك هم اطفال . »

فصاح بابيه :

— « ما ابرع لسان هذا الطفل ! »

وأضاف بروجون :

— « إن الطفل الباريسي ليس مصنوعاً من قش رطب . »

فقال غافروش :

— « ولكن ، ما الذي تريده مني ؟ »

فأجابه مونبارناس قائلا :

— « ان تتسلق الجدار من خلال هذه المدخنة . »

وقال بابيه :

— « ومعك هذا الحبل . »

وتابع بروجون :

— « وان تعلق الحبل . »

واضاف بابيه :

— « بأعلى الجدار . »

فقال غافروش :

— « ثم ما ذا ؟ »

فقال غولوميه :

— « هذا كل مـا هنالك . »

وتأمل « المتشرد » الحبل ، والمدخنة ، والجدار ، والنوافذ ، وأطلق من بين شفتيه ذلك الصوت المستهزيء الذي لا سبيل إلى التعبير عنه ، والذي يريد ان يقول :

— « ولم ذاك ؟ »

فأجابه مونبارناس :

— « ان هناك رجلاً سوف تنقذه انت . »

وأضاف بروجون :

— « هل ترغب في ذلك ؟ »

فأجاب الطفل ، وكأنما بدا السؤال أحمق في نظره :

— « أبله . »

ونزع حذاءه .

وأمسك غولوميه بغافروش من احدى ذراعيه ، ووضعه على سطح الكوخ ، فالتوت ألواحه النخرة تحت ثقل الطفل ، وناوله الحبل الذي كان بروجون قد وصله خلال غيبة مونبارناس . ومضى « المتشرد » نحو المدخنة ، التي كان من اليسير دخولها بفضل ثقب كبير في السقف . ولحظةً شرع يصعد انحني تيناردييه — الذي رأى السلامة والحيـاة تقتربان — فوق حافة الجدار . واضاءت اشعة الفجر الاولى جبينـه الغارق في العرق ، وخديه الشاحبين إلى ابعد الحدود ، وانفه المهزول الوحشي ، ولحيته الشائبة الشائكة ، وعرفه غافروش :

— « عجيب ! هذا أبي ! حسناً ، ذلك لا يحول بيني وبين العمل ! »

واخذ بالحبل باسنانه ، وبدأ الصعود في عزم .

وانتهى إلى أعلى المنزل الخرب ، وامتطى الجدار وكأنه جواد ، وشد الحبل في إحكام إلى قضيب النافذة المعترض الاعلى .

وبعد لحظة كان تيناردييه في الشارع :

ولم يكد يمس حصباء الطريق ، ولم يكد يستشعر انه في نجوة من الخطر ، حتى زايله التعب ، والخدر ، والارتعاد جميعاً . لقد تلاشت الاشياء الرهيبة التي مر بها وكأنها الدخان ، واستيقظ كل ذلك الذكاء الغريب الضاري ، ووجد نفسه منتصب القامة ، طليق السراح ، مستعداً للسير إلى أمام . وكانت أولى كلمات هذا الرجل هي التالية :

— « والآن ، من الذي سوف نأكله ؟ »

ومن غير المجدي ان نفسر معنى هذه الكلمة الشفافة إلى حد مروع ، والتي تعني في آن معاً القتل ، والاغتيال ، والسلب . ان « **أَكَلَ** » تفيد في معناها الحقيقي : **التَهمَ**

فقال بروجون :

— « دعنا نختبىء اولا . فلنقل ثلاث كلمات ، ولنفترق في الحال . كانت ثمة صفقة تبدو عليها دلائل الجودة في شارع بلوميه : شارع مهجور ، ومنزل منعزل ، وباب حديدي عتيق صدىء على الشارع ، وبعض النسوة المتوحدات . »

وتساءل تيناردييه :

— « حسناً ، ولم لا ؟ »

فأجابه بابيه :

— « ان ابنتك ايبونين ذهبت لترى المسألة . »

واضاف غولوميه :

— « وحملت إلى مانيون قطعة بسكويت . ليس هناك عمل نقوم به . »

فقال تيناردييه :

— « البنت ليست بلهاء . ومع ذلك فيجب ان نرى . »

فقال بروجون :

— « اجل ، اجل ، يجب ان نرى . »

وفي الوقت نفسه لم يبد ان احداً من اولئك الرجال كان لا يزال راغباً في ان يرى غافروش الذي كان ، خلال هذه المحادثة ، قد جلس على احدى دعائم السياج الحجرية . وانتظر بضع لحظات ، ولعله فعل ذلك رجاة أن يستدير أبوه نحوه ، ثم انتعل حذاءه ، وقال :

— « لقد انتهى كل شيء ؟ الم تعد بكم حاجة إلي ، ايها الرجال ؟ لقد خرجتم من ورطتكم . أنا ذاهب . يجب ان اذهب وأوقظ طفلي . »

ومضى لسبيله .

ومضى الرجال الخمسة ، من السياج ، واحداً بعد واحد .

وحين اختفى غافروش عند منعطف شارع الـ « باليه » انتحى بابيه بتيناردييه جانباً .

وسأله :

— « هل رأيت ذلك الطفل ؟ »

— « أي طفل ؟ »

— « الطفل الذي تسلق الجدار وحمل اليك الحبل . »

— « لم أره جيداً . »

— « حسناً . لست ادري ، ولكن يبدو لي أنه ابنك . »

— « عجيب ! هل تظن ذلك ؟ »

ومضى لسبيله .

الكتاب السابع

لُغَةُ السُّوقَة

١



الأصـــل

بيغريشيا *Pigritia* كلمة رهيبة .

إنها تلد عالمـاً : جماعة السارقين *la pégre* ، اقرأ اللصوصية وجحيمـاً ؛ جماعة السارقات *la pègrenne* ، اقرأ الجوع .

وهكذا فالبطالة أمّ .

إن لهـا ولداً هو اللصوصية ، وابنة هي الجوع .

أين نحن الآن ؟ في لغـة السوقة .

ما هي لغة السوقة ؟ انها في الوقت نفسه الأمة واللسان . انهـــا

اللصوصية في شكليها الاثنين ، الشعب واللغة .

منذ اربع وثلاثين سنة ، عندما عمد راوي هذه القصة الكئيبة القائمة إلى إدخال لص يتكلم بلغة السوقة في أثر * ادبي كُتب لمثل الغاية التي كتب لها هذا الاثر تعجب الناس واحتجوا ، وقالوا :

— « ماذا ؟ كيف ؟ لغة السوقة ! ولكن لغة السوقة مروعة ! ولكنها لغة المحكوم عليهم ، لغة سجون الاشغال الشاقة ، لغة السجون العادية ، لغة كل ما هو مرذول في المجتمع ! » الخ . الخ . الخ .

إننا لم نفهم ، في يوم من الايام ، هذا الضرب من الاعتراض .

ومنذ ذلك الحين ، عمد روائيان قويان — احدهما ملاحظ عميق للقلب البشري والآخر صديق باسل للشعب ، بالزاك واوجين سو ** إلى انطاق قطاع الطرق بلسانهم الطبيعي كما فعل مؤلف « آخر ايام سجين » عام ١٨٢٨ ، فارتفعت الصيحات نفسها . لقد كرر الناس : « ما الذي يقصده هذان الكاتبان بهذه العامية المنغصة ؟ ان لغة السوقة لرهيبة ! ان لغة السوقة لتوقع الرعدة في اوصالنا ! »

من الذي ينكر ذلك ؟ هذا شيء لا ريب فيه .

وحين يكون الغرض سبر جرح ، أو هوة ، أو مجتمع ، من الذي يستطيع ان يزعم أن من الاجرام ان يتعمق المرء ، أن يذهب إلى القعر ؟ لقد اعتقدنا دائماً بأن ذلك هو في بعض الاحيان عمل من أعمال الشجاعة ، أو على الاقل عمل بسيط ومفيد ، جدير بالانتباه العاطف الذي يستحقه واجب منجَز مقبول . يريدون ان لا نرود الكل ، ان لا ندرس الكل ، ان نقف في منتصف الطريق . لماذا ؟ ان الوقوف في منتصف الطريق من شيمة المسبار ، لا من شيمة السابر .

* « آخر أيام سجين » Le Dernier Jour d'un Condamné

** Eugène Sue (١٨٠٤ — ١٨٥٧ مؤلف « اليهودي التائه » .

وليس من ريب في أن الغوص إلى اعماق النظام الاجتماعي السفلي ، حيث تنتهي الارض ويبدأ الوحل ، والبحث في تلك المياه الغليظة ، ومطاردة هذا اللسان المرذول ، واصطياده والقاءه وهو لا يزال يرتعش على الحصباء ، هذا اللسان الدّملي الذي يرشح قذارة إذ يرى النور على هذا النحو ، والذي تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها خاتم هائل لغول الطين والظلمة – نقول إن هذا كله ليس مهمة جذابة ، ولا مهمة سهلة . فليس شيء أفجع من التأمل على هذا الشكل العاري ، وعلى ضوء الفكر ، في دبيب العامية الرهيب . لكأنها نوع من بهيمة رهيبة مخلوقة للظلام انتُزعت من بالوعتها . ويخيل الينا اننا نرى عُليقة مروّعة حية شائكة ، عليقة ترتجف ، وتتحرك ، وتضطرب ، وتطالب بظلامها من جديد ، وتهدد ، وتحدق . هذه الكلمة تشبه برثناً ، وتلك تشبه عيناً هامدة دامية . وهذه الجملة تبدو وكأنها تتحرك مثل كلاّبة سرطان . وكل ذلك ينبض بمثل الحيوية الرهيبة التي تنبض بها الاشياء المنظمة في الفوضى .

والآن ، متى كان الذعر حائلا دون الدرس ؟ متى كان المرض طارداً للطبيب ؟ تخيل عالماً طبيعياً يرفض ان يدرس الافعى ، والخفاش ، والعقرب ، وأم اربعة واربعين ، والرتيلاء ، ويردها إلى ظلماتها قائلا : « أوه ما ابشعها ! » والمفكر الذي ينأى بجانبه عن لغة السوقة اشبه بالجراح الذي ينأى بجانبه عن قرحة أو ثؤلول . إنه يكون عالماً لغوياً يتردد في فحص واقعة من وقائع اللغة ، وفيلسوفاً يتردد في تعمق واقعة من وقائع الانسانية . إذ يتعين علينا ان نقول لمن يجهل هذا ان لغة السوقة هي في آن معاً ظاهرة لغوية ونتيجة اجتماعية . ما هي لغة السوقة ، على حقيقتها ؟ لغة السوقة هي لغة البؤس .

وهنا قد يعترضنا معترض . في استطاعتنا ان نعمم الوقائع ، وتلك في بعض الاحيان وسيلة إلى التخفيف من وطأتها . وفي استطاعتنا ان

نزعم ان لجميع المهن ، ولجميع الحرف ، بل ولجميع آعراض المراتب الاجتماعية وجميع اشكال الفكر لغاتها السوقية الخاصة . فالتاجر الذي يقول : **مونبيليه في المتناول ، ومرسيليا بضاعة جيدة** ؛ والدلال الذي يقول : **للبائع ستين . والعمولة**؛ والمقامر الذي يقول : **عشرة بستوني. هل تريد ان تقاتل النمر** ؛ وحاجب الجزر النورمندية الذي يقول : **ان الموظف امواله في اقطاعة ، المشدود الى ارضه ، لا يستطيع ان يدعي ملكية ثمار هذه الاراضي عند الحجز الوراثي على املاك المتخلي** ؛ والفودفيلي الذي يقول : **لقد صفروا للمسرحية** ؛ والكوميدي الذي يقول : **لقد اخفقتُ** ؛ والفيلسوف الذي يقول : **ثلاثية ظاهراتية** ؛ وصائد الحوت الذي يقول : **هوذا يمضي ، هوذا يهرب** ؛ والعالم بالفراسة الذي يقول : **النزعة التناسلية ، والنزعة العدوانية ، والنزعة الى كتمان السر** ؛ والجندي الراجل الذي يقول : **الكلارينيت التي املكها** ؛ والفارس الذي يقول : **فرّوجي الهندي** ؛ ومعلّم المسايفة الذي يقول : **هجوم ، اربعة ، انسحبْ** ؛ والطابع الذي يقول : **قطعة فطيرة** ، كل هؤلاء — الطابع ، ومعلم المسايفة ، والفارس ، والجندي الراجل ، والعالم بالفراسة ، وصائد الحوت ، والفيلسوف ، والكوميدي ، والفودفيلي ، والحاجب ، والمقامر ، والدلال ، والتاجر — يتكلمون لغة السوقة . والرسام الذي يقول **صغيري** ، والكاتب العدل الذي يقول : **تلميذي** ، وصانع اللمم المستعارة الذي يقول : **مستخدمي** ، والاسكاف الذي يقول : **صانعي** ، كلهم يتكلمون لغة السوقة . وعلى وجه التدقيق ، واذا اردناها الاطلاق ، فان مختلف الطرائق للتعبير عن اليمين والشمال ، — قول الملاح : يسار السفينة للناظر إلى مقدمها ، وميمنة السفينة ، وقول الميكانيكي : جانب الفناء وجانب الحديقة ، وقول المستخدم في كنيسة العوام : جانب الرسالة وجانب الانجيل — كلها من لغة السوقة . ان ثمة لغة سوقة للنسوة المتصنعات كما ان ثمة لغة سوقة للنسوة الانيقات . لقد تاخم اوتيل

دو رامبوييه *فناء العجائب ** بعض الشيء . إن للدوقات عامية ، تشهد على ذلك هذه العبارة الواردة في رسالة غرامية لسيدة كبيرة جداً ، وامرأة جميلة جداً من نساء عهد عودة آل بوربون إلى العرش : « انت واجد في هذا اللغو جمهرة من الاسباب التي تدعوني إلى ان آخذ حريتي » . والشيفرة الديلوماسية هي لغة سوقة . والديوان البابوي ، اذ يقول ٢٦ بدلا من رومة و *grkztntgzyal* بدلا من رسالة ، و *abfxustgrnogrkzutu XI* بدلا من **دوق دو مودين** انما يتكلم لغة السوقة . واطباء القرون الوسطى ، الذين كانوا إذا ارادوا ان يقولوا : جزر ، وفجل ، ولفت ، قالوا :
opoponach , perfroschinum , reptitalmus , dracatholicum angelorum . postmegorum
إنما يتكلمون لغة السوقة . ومنتج السكر الذي يقول : **مستقطَر** ، **رغيف** ، **مصفى** ، **مسحوق** ، **كتلة** ، **دبس** ، **فاسد** ، **مشترك** ، **محروق** ، **مخبوز** — ان هذا المنتج الأمين يتكلم لغة السوقة . وبعض المدارس النقدية التي قالت منذ عشرين سنة : « نصف شيكسبير هو تلاعب بالالفاظ ونكات جناسية . » انما تكلمت بلغة السوقة . والشاعر والفنان اللذان يصفان ، بمغزى عميق ، مسيو دو مونمورانسي بأنه « بورجوازي » إذا لم يكن يألف الشعر والتماثيل ، إنما يتكلمان لغة السوقة . وعضو الاكاديمية الكلاسيكي الذي يدعو الازهار **فلورا***** والفاكهة **بومونا ****** والبحر **نبتون******* ، والحب **النيران** ، والجمال **الجواذب** ، والحصان **جوادحروب** ، والشارة البيضاء أو المثلثة الالوان **وردة بلونا** ، والقبعة ذات الزوايا الثلاث

---

* Hôtel de Rambouillet قصر في باريس بناه المركيز دو رامبوييه (١٥٨٨ – ١٦٦٥) وكان يجتمع فيه نخبة من نجوم المجتمع في ذلك العهد . وكان لهذه النخبة اثر محمود في تصفية اللغة الفرنسية وتقدم الادب في ما بين عام ١٦٢٠ وعام ١٦٦٥ .

** Cour des Miracles حي في باريس القديمة كان يأوي اليه الشحاذون والمتشردون خلال القرون الوسطى .

*** الاهة الازهار .

**** الاهة الفاكهة .

***** الـــه الحرب عند الرومان .

مثلث مارس – هذا الاكاديمي الكلاسيكي إنما يتكلم لغة السوقة . وللجبر ، والطب ، وعلم النبات لغاتها السوقية . واللغة المصطنعة على متون السفن ، لغة البحر الرائعة تلك ، الكاملة جداً المعجبة جداً ، والتي كان يتكلمها جان بارت * ، ودوكين ** ، وسوفرين *** ودوبريه **** ، والتي تمتزج بدوي العتاد البحري ، وبصخب البوق ، وبضربات فأس الهجوم على المراكب ، وباضطراب السفينة من جانب إلى جانب ، وبالريح وباندفاع العاصفة المفاجئة ، وبالمدفع – هي لغة سوقة باسلة مجيدة نسبتها إلى لغة الاجرام السوقية الوحشية كنسبة الأسد إلى ابن آوى .

لا ريب في ذلك . ولكن مهما استطعنا ان نقول في هذا الموضوع فأن هذه الطريقة في فهم كلمة « لغة السوقة » هي توسع لا يقره حتى سواد الناس انفسهم . اما نحن فنحفظ لهذه الكلمة مفهومها القديم ، الدقيق ، الضيق المحدود ، ونقصر لغة السوقة على لغة السوقة. إن لغة السوقة الحقيقية ، لغة السوقة بمعناها الأعلى ، إذا كان في الامكان ان نزاوج ما بين هاتين الكلمتين ، لغة السوقة العريقة في القدم التي كانت مملكة ، ليست شيئاً – ونحن نكرر ذلك – غير لغة البؤس البشعة ، القلقة ، المرائية ، الخؤون ، السامة ، الوحشية ، الملتوية ، الدنيئة ، العميقة ، المهلكة . إن في أقصى كل ذل وكل شقاء ، بؤساً نهائياً يثور ويعتزم الدخول في نضال مع مجموعة الوقائع السعيدة كلها ، والحقوق المهيمنة كلها ، نضال رهيب تهاجم به – حيناً بالخداع وحيناً بالقوة ، وعلى نحو سقيم وضار في آن معا – النظامَ الاجتماعي بوخز الدبابيس من طريق الرذيلة ، وبضرب الهراوة

---

* Jean Bart بحار فرنسي شهير (١٦٥١ – ١٧٠٢) خدم الملك لويس الرابع عشر .

** Duquesne بحار فرنسي شهير ايضاً (١٦١٠ – ١٦٨٨) .

*** Suffren بحار فرنسي (١٧٢٦ – ١٧٨٨) حارب في الهند ، ببسالة ضد الانكليز .

**** Duperré اميرال فرنسي (١٧٧٥ – ١٨٤٦) لمع نجمه في عهد الامبراطورية .

من طريق الجريمة . ولضرورات هذا الصراع ، اخترع البؤس لغة حرب هي لغة السوقة .

وإبعاد شبح النسيان ، شبح الهاوية ، ولو عن جزء من أيما لغة قدّر للانسان ان يتكلم بها وقد تضيع إذا حُرمت هذا العون ، يعني عن احد العناصر ، خيراً كان ام شراً ، التي تتألف منها الحضارة أو التي تتعقد بها — إن هذا الابعاد بسطٌ لمعطيات الملاحظة الاجتماعية ؛ إنه خدمة للحضارة ذاتها . وهذه الخدمة أسداها بلوتوس * ، على نحو ارادي أو غير ارادي ، بأن أنطق جنديين قرطاجيين باللغة الفينيقية . وهذه الخدمة أسداها موليير بأن جعل كثيراً من شخوصه يتكلمون اللغة المشرقية ومختلف ضروب اللهجات الاقليمية . وهنا تعود الاعتراضات إلى الحياة . اللغة الفينيقية ، حسن جداً ! اللغة المشرقية ، شيء عظيم ! وحتى اللهجة الاقليمية ، ليكن ذلك ! إن هذه اللغات كانت ذات نسب بأمم وأقاليم . أما لغة السوقة ؟ أي فائدة ترتجى من الاحتفاظ بلغة السوقة ؟ اي فائدة ترتجى من انقاذ لغة السوقة ؟

وعن هذا سوف نجيب بكلمة واحدة . ومن غير شك ، إذا كانت اللغة التي تكلمتها أمة أو أقليم جديرة بالاهتمام ، فثمة شيء يستحق الانتباه والدرس اكثر ، وليس ذلك غير اللغة التي تكلمها بؤس ما .

إنها اللغة التي نُطق بها في فرنسة ، مثلا ، منذ اكثر من اربعة قرون ، لا من جانب شكل بعينه من اشكال البؤس ، ولكن من جانب البؤس ، جميع اشكال البؤس البشري الممكنة .

وإلى هذا — ونحن نصر على ذلك — فان دراسة العلل والاسقام الاجتماعية والاشارة اليها لكي يصار إلى علاجها ليس صنيعاً يجوز فيه

* Titus Maccius Plautus شاعر كوميدي لاتيني (حوالى ٢٥٠ – ١٨٤ ق . م) اشتهر بتصوير الاخلاق والطبائع .

الاختيار . فلمؤرخ الاخلاق والفكرات رسالة ليست أقل صرامة من رسالة مؤرخ الأحداث . فهذا الاخير له سطح الحضارة ، والصراع بين التيجان ، وولادة الامراء ، وزواج الملوك ، والمعارك ، والبرلمانات ، ورجال الدولة الكبار ، والثورات في وضح النهار ، وكل ما هو خارجي . أما المؤرخ الأول فله الباطن ، والاساس ، والشعب الذي يعمل ، الذي يتألم ، الذي ينتظر ، والمرأة المرهقة ، والطفولة المحشرجة ، والحروب الخفية بين الانسان والانسان ، والوحشيات المبهمة ، والأحقاد ، والمظالم المقررة ، وردود فعل القانون المستورة ، وتطور النفوس السري ، وارتعادات الجماهير الغامضة ، والجوعى ، والحفاة ، واشباه العراة ، والمحرومون من الارث ، واليتامى ، والبائسون ، والمرذولون ، وجميع الديدان التائهة في الظلام . إن عليه أن يهبط ، بقلب حافل بالرحمة وبالقسوة في آن واحد ، كأخ وكقاض ، إلى تلك السراديب التي لا سبيل إلى ولوجها ، حيث يزحف ، كيفما اتفق ، اولئك الذين تسيل الدماء من جراحهم واولئك الذين يضربون ، اولئك الذين يبكون واولئك الذين يلعنون ، أولئك الذين يصومون واولئك الذين يلتهمون ، اولئك الذين يقاسون الأذى واولئك الذين يُنزلونه . افتكون واجبات مؤرخي القلوب والنفوس هؤلاء اقل من واجبات مؤرخي الوقائع الخارجية ؟ أتظن ان ما عند دانتي مما يجب ان يقال اقل من الذي عند ماكيافيلي ؟ ايكون عالم المدنية السفليّ ، بسبب من انه اكثر عمقاً واشد قتاماً ، اقل خطراً من عالم المدنية العلوي ؟ وهل نعرف الجبل ، حقاً ، حين لا نعرف الكهف ؟

بيد ان علينا ان نقول ، بالمناسبة ، إن المرء قد يستنتج من بعض الكلمات السالفة تفريقاً قاطعاً بين هاتين الطبقتين من المؤرخين ، وهو شيء لا مكان له في ذهننا . فليس في ميسور رجل ما ، أن يكون مؤرخاً صالحاً لحياة الامة العامة ، الصاخبة ، المرئية ، الجلية إذا لم يكن

في الوقت نفسه ، إلى حد ما ، مؤرخاً لحياتها الخفية والاشد عمقاً . وليس في ميسور رجل ما أن يكون مؤرخاً صالحاً للباطن إذا كان لا يحسن ان يكون ، كلما قضت الحاجة ، مؤرخاً للظاهر . ان تاريخ الاخلاق والفكرات ليتداخل في تاريخ الاحداث ، والعكس بالعكس . إنهما نظامان من وقائع مختلفة — نظامان يتوازيان ، ويتشابكان دائماً ، ويتوالدان في كثير من الاحيان . وإن لجميع الأسارير التي ترسمها العناية الالـهية على سطح الأمة ما يوازيها ، على نحو قاتم ولكنه واضح ، في القعر ، وجميع اختلاجات القعر تحدث تموجات في السطح . وإذ كان التاريخ الحق يبحث في كل شيء ، فأن المؤرخ الحق يبحث في كل شيء .

الانسان ليس دائرة ذات مركز وحيد . إنه شكل اهليلجي ذو مركزين . فالوقائع هي المركز الاول ، والفكرات هي المركز الآخر .

إن لغة السوقة ليست غير خزانة ملابس من خزائن الملاهي تتقنع بها اللغة ، إذ ان لها عملا سيئاً تريد ان تقوم به . إنها تتخذ اقنعة لفظية واسمالاً مجازية .

بحيث تصبح رهيبة .

اننا ما نكاد نتبينها . اهي اللسان الفرنسي حقاً ، اللسان الانساني العظيم ؟ ها هي ذي مستعدة للدخول إلى المسرح وتوجيه الكلمة الاخيرة إلى الجريمة ، ومؤهلة لتنفيذ فهرست الشر كله . إنها ما عادت تمشي ؛ إنها تعرج بعض الشيء . هي تظلع على عكاز « فناء العجائب » ، وهو عكاز يمكن أن يتحول إلى هراوة . انها تتخذ اسم التشرد . لقد لوثتها الاشباح كلها ، التي هي مساعدتها على ارتداء الملابس . إنها تجرر نفسها ، وتنتصب ، وتلك خاصة الثعبان المزدوجة . إنها جديرة بأن تمثل كل الادوار منذ اليوم ، بعد أن جعلها المزور حولاء ، والمسمم صدئة ، وسخام مضرم النيران مفحمة ، وبعد ان خضبها الفاتك بلونه

الأحمر .

وحين نصغي ، من جانب الناس الامناء ، عند باب المجتمع ، نسمع إلى محاورات الذين في الخارج . إننا نتبين اسئلة واجوبة . اننا نتلقف من غير ان نفهم ، دمدمة رهيبة تبدو وكأنها نبرة انسانية أو تكاد ، ولكنها أدنى إلى النباح منها إلى الكلام . تلك هي لغة السوقة . إن الكلمات لشائهة ، تطبعها بهيمية غريبة لا سبيل إلى وصفها . وان المرء ليخيَّل اليه انه يسمع افاعي هيدرية تتكلم .

إنها المبهم في الظلام . إنها تَصِرّ وتهمس ، مكملة الغسق بالاحجية . إنها تغدو سوداء في الشقاء ، وإنها لتمسي اشد سواداً في الجريمة . وهذان السوادان مندغمين يشكلان لغة السوقة . ظلمة في الجو ، ظلمة في الافعال ، ظلمة في الاصوات . لغة ضفادع راعبة ، تذهب ، وتجيء ، وتثب ، وتزحف ، وتلعب ، وتنساب على نحو رهيب في ذلك الضباب الرمادي الذي لا حد له ، والذي يتألف من المطر ، والظلام ، والجوع ، والرذيلة ، والكذب ، والظلم ، والعري ، والاختناق ، والشتاء ، رابعة نهار البؤساء .

فلتأخذنا الرحمة على المعاقَبين . وا أسفاه ! من نحن انفسنا ؟ من أنا ، أنا الذي اخاطبكم ؟ من انتم ، انتم الذين تستمعون الي ؟ من اين جئنا ؟ وهل نحن على يقين من اننا لم نفعل شيئاً قبل أن نولد ؟ إن الارض لا تخلو من شبه بسجن من السجون . ومن ذا الذي يستطيع ان يثبت ان الانسان ليس سجين العدالة الاجتماعية ؟

انظر إلى الحياة ملياً . انها مركبة على نحو يجعلنا نلمس العقوبة في كل مكان .

هل انت ما يدعونه رجلا سعيداً ؟ حسن ، انت محزون كل يوم . فلكل يوم أساه العظيم أو همه الصغير . أمس كنت ترتعد جزعاً على صحة شخص أثير لديك ، واليوم يستبد بك الجزع على صحتك انت.

وغـداً سوف يكون المـال هـو موضوع قلقك ، وبعد غـد قـد يكون مطاعنَ نمام ، واليوم الذي بعده تعاسةَ صديق ، ثم الاحـوالَ الجوية ، ثم شيئاً انكسر او ضاع ، ثم يعقب ذلك سرور يعنّفك عليه ضميرك أو عمودك الفقري ، وفي مرة اخرى يكون السبب في حزنك سير الشؤون العامة . هذا إذا أغفلنا متاعب الفؤاد . وهكذا دواليك . ما إن تتبدد سحابة حتى تتجمع سحابة . فلا تكاد تعرف يوماً واحـداً في كل مئة تستمتع خلاله ببهجة موصولة وشمس غير محتجبة . ومـع ذلك ، فانت واحد من تلك القلة التي تنعم بالسعادة ! أما سائر الناس فالظلام الراكد مخيم عليهم .

إن العقول المفكرة قليلا ما تصطنع هذين التعبيرين : السـعداء والاشقياء . ففي هذا العالم ، وهو مدخل إلى عالم آخر من غير ريب ، ليس أحد سعيداً .

ان التقسيم الحـق للنـاس هو الذي يجعلهم نوعـين : مشرقـين ومظلمين .

والعمل على انقاص عـدد المظلمين ، وزيادة عـدد المشرقين هـو الغاية . من اجـل ذلك نصيـح : التعليم ، المعرفة ! إن تعليم القراءة أشبه شيء باضرام النار . وكل مقطع يهجّى إنما يطلق شرارة .

ولكن من يقول « نور » لا يقول « بهجـة » بالضرورة . فالمرء قـد يتألم في الضياء . إن شدته تحرق . واللهب عدوّ الجناح . ومن هنا كانت القدرة على الاحتراق من غير الكف عن الطيران هي معجزة العبقرية .

وحين تعرف وحين تحب فلن ينقطـع ألمك . فالنهار يولد في غمرة الدموع . والمشرقون من الناس يبكون ، ولو على المظلمين على الاقـل .

٣
الجذور

ولغة السوقة هي لغة المظلمين .

إن الفكر ليستثار في اعماقه الاشد إظلاماً ، وان الفلسفة الاجتماعية لتحرّض إلى تأملاتها الاكثر إيلاماً أمام هذه اللهجة الملغزة التي تتصف بالذبول وبالتمرد في آن معاً . ههنا عقوبة منظورة . إن لكل مقطع سيماء مميزة . وكلمات اللغة العامية تبدو هنا وكأنها متغضنة متصلبة تحت مكواة الجلاد الحامية . وبعضها يبدو وكأن الدخان ما يزال ينبعث منها . وتترك عبارة ما ، في نفسك مثل ذلك الاثر الذي تتركه كتف لص موشاة بالسوسن عُرّيت على نحو فجائي . وتكاد الفكرات ترفض ان يعبّر عنها بتلك الاسماء التي دانتها العدالة . إن استعاراتها تكون وقحة في بعض الاحيان حتى لتحس ان اعناقها كانت مطوقة بالاغلال الحديدية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذا كله ، وبسبب من هذا كله ، فان لهذه اللهجة الغريبة ، غيرَ منازَعة ، ركنها في تلك الخزانة الضخمة المحايدة حيث يوجد مكان للفلس الصدىء كما يوجد مكان للمدالية الذهبية ، تلك الخزانة التي تدعى الأدب . وللغة السوقة ، سواء ارتضيناها أم لم نرتضها ، نحوُها وشعرها . إنها لغة . واذا كنا ندرك ، من تشوه بعض التعابير ، ان لسان ماندرين * قد لاكها ، فان روعة بعض كناياتها تجعلنا نشعر ان فيون ** قد تكلمها .

فهذا البيت البارع جداً ، الشهير جداً :

---

* Mandrin زعيم عصابة فرنسي . (١٧٢٤ — ١٧٥٥)

** Villion شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

« ولكن اين هي ثلوج آنتان ؟

هو بيت من اللغة السوقية . وآنتان *Ante annum — Antan* من لغة سوقة « تون » ، وتعني « **السنة الماضية** » ، وبالتوسع **في الزمن السالف** . ومنذ خمس وثلاثين سنة ، في عهد ذهاب السلسلة الكبرى عام ١٨٢٧ ، كان لا يزال في ميسور المرء ان يقرأ في احد زنزانات الـ « بيسيتر » هذه الحكمة وقدنقشها بالمسمار احد ملوك الـ « تون » المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة : *Les dabs d'antan trimaient siempre pour la pierre de Côesre* وهي تعني : **إن ملوك الزمن السالف يذهبون دائماً الى حيث يُكركَسون .** وكان التكريس ، في ذهن ذلك الملك ، هو سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وكلمة *décarade* ، التي تعبر عن انطلاق عربة ثقيلة تخبّ جيادها خبباً تعزى إلى فييون ، وانها لجديرة به . هذه الكلمة ، التي تقدح النار باربع قوائم ، تختصر في اسم صوتي بارع ، كامل بيت لا فونتين الرائع :

« ستة جياد قوية جرت عربة . »

ومن وجهة النظر الأدبية الخالصة ، يندر ان يكون ثمة دراسات ادعى إلى استثارة الفضول واكثر خصباً من دراسة لغة السوقة . انها لغة كاملة ، ضرب من نامية مرَضية ، لقاحٌ سقيم قد احدث نباتاً ، طفيلي تمتد جذوره في الجذع الغاليّ العتيق ، وتدب اوراقه المشوومة فوق جانب كامل من اللغة . وهذا ما يمكن ان يدعى المظهر الأوليّ ، المظهر العام من لغة السوقة . أما بالنسبة إلى اولئك الذين يدرسون اللغة كما ينبغي ان تدرس ، يعني كما يدرس الجيولوجي الأرض ، فان لغة السوقة تبدو وكأنها طمي حقيقي . وتبعاً لغوصنا في لغة السوقة عميقاً أو اقسل

عمقاً ، نقع فيها — تحت الفرنسية الشعبية العتيقة — على اللغات البروفنسالية ، والاسبانية ، والايطالية ، والمشرقية — لغة موانيء البحر الأبيض المتوسط — والانكليزية ، والالمانية ، والرومانية بضروبها الثلاثة — الرومانية الفرنسية ، والرومانية الايطالية ، والرومانية الرومانية — واللاتينية ، واخيراً البشكنسية والسلتية . تشكّلٌ عميق وغريب . صرح خفي بناه جميع البؤساء مشتركين . لقد وضع فيه كل عرق لعين طبقته الجيولوجية ، واسقط فيه كل ألم حجره ، وقدم اليه كل قلب حصاته . إن جمهرة من النفوس الشريرة ، الوضيعة أو المهتاجة التي اجتازت الحياة وتلاشت في الأبدية ، لمحفوظة هنا كاملةً تقريباً ، أو مرئيةً — ما تزال — على نحو ما ، في شكل كلمة رهيبة .

أتريد الاسبانية ؟ ان لغة السوقة القديمة لتغص بها . دونك *boffette* ، منفخ ، التي تتحدر من *bofeton* ؛ و *vantane* ، نافذة (وفي ما بعد *vanterne*) التي تتحدر من *vantana* ؛ و *gat* هرة ، التي تتحدر من *gato* ؛ و *acite* زيت ، التي تتحدر من *aceyte* . أتريد الايطالية ؟ دونك *spade* ، سيف ، التي تتحدر من *spada* ؛ و *carvel* ، مركب ، التي تتحدر من *caravella* . اتريد الانكليزية ؟ دونك *bichot* ، أسقف ، التي تتحدر من *bishop* ؛ و *raille* ، جاسوس ، التي تتحدر من *rascal* ، *rascalion* نذل ؛ و *pilche* ، صندوق ، التي تتحدر من *pilcher* غمد . أتريد الالمانية ؟ دونك *caleur* ، نادل ، *kellner* ، و *hers* استاذ ، *herzog* (دوق) . اتريد اللاتينية ؟ دونك *frangir* ، كسَرَ ، *frangere* ؛ و *affurer* سرق ، *fur* ؛ و *cadène* سلسلة ، *catena* . وهناك كلمة تظهر في جميع لغات القارة بضرب من القوة والسلطان العجيب ، تلك هي كلمة *magnus* فالاسكتلندي اشتق منها لفظة *mac* التي تفيد معنى رئيس العشَرة : مثلا ، *mac - farlane* و *mac . calummore* اي الفارلان الكبير ، والكالومور الكبير* ؛ ولغة السوقة اتخذت منها لفظة *meck* ثم لفظة *meg* ، يعني الله . اتريد

* بيد ان علينا ان نلاحظ ان *mac* في اللغة السلتية تعني الابن .

البشكنسية ؟ دونك *gahisto* ، الشيطان ، التي تتحدر من *gaiztoa* الشرير ؛ و *sorgabon* مساء الخير ، التي تتحدر من *gabon* ، عم مساءً . اتريد السلتية ؟ دونك *blavin* ، منديل ، التي تتحدر من *blavet* ، الماء المنبجس ؛ و *ménesse* ، امرأة (بمعنى رديء) التي تتحدر من *meinec* مليء بالحجارة ؛ و *barant* ، جدول ، من *baranton* نبع ؛ و *goffeur* قفال ، من *goff* ، حداد ؛ و *guédouze* الموت ، التي تتحدر من *guenn- du* ، بيضاء — سوداء . واخيراً أتريد التاريخ ؟ ان لغة السوقة تدعو التيجان *maltaises* ، ذكرى القطع النقدية التي كانت متداولة في سجون مالطة الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وللغة السوقة ، الى جانب الاصول الفيلولوجية التي اشرنا اليها اللحظة ، اصول اخرى طبيعية اكثر من تلك ، اصول تنبثق اذا جاز التعبير من عقل الانسان نفسه .

أولا ، خلْق الكلمات المباشر . وههنا يكمن سرّ اللغات . أن نرسم ، من غير ان نعرف كيف ولِمَ ، بكلمات ذات أشكال . ذلك هو الاساس البدائي لكل لغة انسانية — ما نستطيع ان ندعوه الصوان . ولغة السوقة تغصّ بكلمات من هذا النوع ، كلمات جذرية ، صُنِعَتْ من قطعة واحدة ، لسنا ندري اين أو لمن ، من غير اشتقاق ، من غير قياس ؛ من غير منشأ ، كلمات متوحّدة ، بربرية ، واحياناً رهيبة ، ذات قدرة على التعبير فريدة ، وذات اهلية للحياة . فالجلاّد *le taule* — والغابة ، *le sabri* ، — والخوف ، الفرار ، *taf* ، — والرجل الوضيع ، *le larbin* ، — والجنرال ، الوالي ، الوزير ، *pharos* ، — والشيطان *le rabouin* ، وليس شيء اكثر غرابة من هذه الكلمات التي تتقنع وتتكشّف برغم ذلك ، للعيان . وبعضها ، كلفظة *le rabouin* مثلا ، هي مضحكة وفظيعة في آن معاً ، وتترك في النفس مثل الاثر الذي تخلّفه تكشيرة سيكلوبية *

* نسبة الى السيكلوب Cyclopes وهم عمالقة ذوو عين وحيدة في منتصف الجبين ، وقد اوردت « اوديسة » هوميروس كثيراً من الخرافات المتصلة بهم .

ثانياً ، المجاز . إن من خصائص اللغة التي تريد قول كل شيء وإخفاء كل شيء إن تزخر بالصوَر . والمجاز احجية يفزع اليها اللص الذي يبيّت ضربة ، والسجين الذي يدبّر فراراً . وليس من لسان هو اكثر مجازية من لغة السوقة . — اعتبرْ قولها : فك لوالب جوزة الهند *dévisser le coco* اي لوى الرقبة ؛ وانفتل *tortiller* اي أكلَ ؛ وحُزِمَ *être gerbé* اي حُوكِمَ ؛ وهرة *un rat* اي سارق الخبز ؛ و *il lansquine* ، اي ان السماء تمطر ، وهي صورة عتيقة رائعة تحمل بطريقة ما تاريخها معهــا ، وتعقد مشابهة بين خطوط المطر الطويلة المنحرفة وبين حراب الـ *lansquenets* الغليظة المنحنية ، وتشمل بكلمة واحدة الكناية الشعبيةالقائلة : **السماء تمطر حراباً** *il pleut des hallebardes* . وفي بعض الاحيان ، وكلما انتقلت لغة السوقة من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية ، تنتقل الكلمات من الحال الوحشية والبدائية الى المعنى المجازي . فلا يعود الشيطان هو *le rabouin* ، ولكــن يصبح *le boulanger* (الخباز) ، اي ذلك الذي يضع في الفرن . وهذا اشد مجازية ، ولكنه اقل فخامة ؛ شيء مثل راسين بعد كورنيّ ، او مثل يوريبيديس بعد ايشيلوس . وبعض عبارات لغة السوقة ، التي تنتسب الى كلتا المرحلتين ، والتي تتسم في الوقت نفسه بالطابع البربري والطابع المجازي تشبه أشباح الفانوس السحري . *les sorgueurs vont sollicer des gails à la lune* (المطوّفون في الليل ذاهبون لسرقة بعض الخيــول في الليل) . ان هذا ليمرّ امام الــذهن مرور جمهرة من الاشبــاح . اننا لا نعرف ما الذي نراه .

ثالثاً ، الوسيلة . إن لغة السوقة تعيش على اللغة . إنها تستعملها على هواها ، وهي تقتبس منها بلا تبصّر ولا قصد ، وكثــيراً ما تقنع — عندما تنشأ الحاجة — بأن تحرّفها في اختصار وفي فظاظة . وفي بعض الاحيان ، وبكلمات مألوفة مشوهة على هذه الشاكلة ومعقّدة بكلمات من

* وهم الجنود الالمان الراجلون في القرن الخامس عشر .

لغة السوقة الخالصة ، تشكل تعابير فاتنة نلمس فيها امتزاج العنصرين الآنف ذكرهما ، الابتداع المباشر والمجاز كقولهم : *le cab jaspine, je marronne, que la roulotte de Pantin trime dans le sabre* اي : « الكلب ينبح وأحسب أن عربـة باريس العموميـة تجتاز الغابـة » . وقولهم : *le dab est sinve , la dabuge est merloussière , la fée est bative* اي ، البرجوازي ابله ، والبرجوازية ماكرة ، والفتاة جميلـة . وفي الاعم الاغلب ، ولكي تضلّل السامعين تقنع لغة السوقة بان تضيف الى جميع كلمات اللغة ، من غير تمييز ، ضرباً من الذيل الخسيس ، نهايةً بـ *aille* ، أو بـ *orgue* أو بـ *iergue* ، أو بـ *uche* ، ومن هنا قولهم *trouvaille vouziergue bonorgue ce gigotmuche* أي : هل تحب فخذ الخروف هذه ؟ وهي جملة وجهها كارتوش الى احد السجانين ليعلم هل اعجبه المبلغ الذي عرضه مقابل الفرار ، أما انهاء الكلمة بـ *mar* فحديث العهد .

واذ كانت لغة السوقة هي لغة التحريف فأنها تُحرّف في يُسْر . والى هذا ، فلما كانت تسعى دائماً الى ان تتقنع حالما تُدرك انها قد فُهمت ، فانها تنقلب الى هيئة اخرى . وعلى خلاف جميع ضروب النموّ الاخرى ، لا يكاد اىما شعاع يمسّ شيئاً منها حتى يقتله . وهكذا تظل لغة السوقة تنحلّ ثم تتكون من جديد في غير انقطاع ؛ عملية غامضة وسريعة لا انتهاء لها . إنها تتغير في عشر سنوات اكثر مما تتغير اللغة في عشرة قرون . وهكذا فأن الـ *larton* * تصبح *le lartif* والـ *gail* ** تصبح *le gaye* ، والـ *fertanche* *** تصبـح *la fertille* ، والـ *momignard* **** تصبح *le momacque* والـ *siques* ***** تصبح *les frusques* والـ

* الخبز .
** الحصان .
*** القش .
**** الطفل
***** الثياب

chique * تصبح *l'égrugeoir* والـ *colabre* ** تصبح *le colas* . والشيطان هو باديء الامر *Gahisto* ، ثم *le rabouin* ، ثم الخباز . والكاهن هو باديء الأمر *le ratichon* ، ثم الخنزير البري . والخنجر هو الاثنان والعشرون ، ثم *le surin* ثم *le lingre* وضباط البوليس هم *railles* ثم *roussins* ثم *rousses* ، ثم تجار الأحابيل ، ثم *coqueurs* ، ثم *cognes* . والجلاد هو *le Taule* ، ثم *Charlot* ، ثم *L'atigeur* ، ثم *le becquillard* . وفي القرن السابع عشر كان فعل « قاتل » يُعبَّر عنه بـ « تناول قليلاً من التبغ » ، وفي القرن التاسع عشر ، « مضغ الفك » . ومرّ بين هذين الطرفين عشرون تعبيراً مختلفاً . ولقد تكلم كارتوش العبرية مع لاسينير . إن جميع كلمات هذه اللغة هي على فرارٍ موصول مثل اولئك الذين يستعملونها .

ومع ذلك ، فبين الفينة والفينة ، وبسبب من هذا التفسير نفسه ، فان لغة السوقة القديمة تعاود الظهور من جديد وتصبح جديدة كرة اخرى . ان لها مراكزها التي تتصل فيها وتستمرّ . فلقد صان الـ « تامبل » لغة القرن السابع عشر السوقية ؛ والـ « بيسيتر » حين كان سجناً صان لغة سوقة الـ « تون » . هناك سُمعت كلمات التونيين القدماء المنتهية بـ *anche* كقولهم *Boyanches tu*؟ *** (هل تشرب ؟) و *il croyanche* **** (هو يعتقد) ، ولكن الحركة السرمدية ، برغم ذلك ، هي القاعدة .

ولو ان الفيلسوف وفق لحظة الى ان يثبّت للمراقب هذه اللغة التي ما تنفك تتبخر ، اذن لاستغرق في تأملات أليمة ولكنها مفيدة . فليس ثمة دراسة اكثر فعالية واخصب منها بالفوائد والدروس . وليس هناك مجاز من مجازات لغة السوقة او اشتقاق من اشتقاقاتها لا ينطوي على امثولة ، فعند

---

* الكنية .

** العنق .

*** بدلا من Bois - tu

**** بدلا من il croit

أولئك الناس تعني لفظة « ضربَ » ، « تظاهر » . إنهم يتظاهرون بمرض ما . فالاحتيال هو قوّتهم .

ان فكرة الانسان عندهم لا تنفصل عن فكرة الظل . فالليل يدعونه la sorgue والانسان يدعونه l'orgue . الانسان مشتق من الظل .

لقد اكتسبوا عادة النظر الى المجتمع كجوّ يقتلهم ، كقوة مهلكة ، وهم يتحدثون عن حريتهم كما يتحدث المرء عن صحته . فالرجل الذي يُلقى عليه القبض مريض ، والرجل الذي دانته المحكمة ميت .

ان افظع ما في الجدران الحجرية الأربعة التي تكفّنُ السجينَ هو ضرب من الطهر المثلوج . وهو يدعو الزنزانة le castus . وفي هذا الموطن الجنائزي ، تكون الحياة الخارجية ، في ابهى مظاهرها دائماً . ان الاغلال تكبّل قدميه ، ولعلك تظن انه قد يفكر ان الناس يسيرون بأقدامهم ؟ لا ، إنه يفكر ان الناس يرقصون باقدامهم . واذن دعه يوفق الى تَشْر أغلاله ، واول فكرة تخطرله عندئذ هي ان في ميسوره الآن ان يرقص . وهو يدعو المنشار الفَنْدغ * . والاسم عنده مَوْكز ، وتلك مماثلة عميقة . ان لقاطع الطريق رأسين ، احدهما ينظم اعماله ويسيطر عليه طوال حياته ، والثاني يحمله على كتفيه يوم وفاته . وهو يدعو الرأس الذي ينصحه بالجريمة السوربون ، والرأس الذي يكفّر عنها ارومةَ الشجر التي تُشْعَل عشية الميلاد . وحين لا يملك المرء غير أسمال على جسده ورذائل في فؤاده ، حين ينتهي الى تلك الذلة المزدوجة ، المادية والمعنوية ، التي تميز بمعنييّها الاثنين كلمة « مسكين » فعندئذ يكون على شفا الجريمة . إنه اشبه شيء بمدية مشحوذة شحذاً جيداً ؛ إن له حدين ، بؤسه وخبثه . ومن هنا فأن لغة السوقة لا تقول « مسكين » ولكن تقول réguisé . ما هو سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ إنه جَمرُ الهلاك الأبدي ، انه جحيم . والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة يدعو نفسه fagot (حزمة حطب) . واخيراً ، أيّ اسم

* الفندغ او fandango ضرب من الرقص الاسباني .

يخلعه الأشرار على السجن ؟ انهم يخلعون عليه اسم collège (الكلية) : ان نظاماً كاملاً خاصاً باصلاحيات السجون يمكن ان ينبثق من هذه الكلمة .

أتريد ان تعرف أين نشأت معظم اغاني سجون الاشغال الشاقة ، تلك الكلمات المكرورة التي تدعى في المعجمية الخاصة lir onfa ؟ اسمع الى ما يلي :

كان في « حُصين باريس » (شاتوليه دو باري) قبو طويل واسع . وكان هذا القبو يقع على عمق ثمانية أقدام تحت مستوى نهر السين ، ولم يكن له لا نوافذ ولا متنفّسات ، فليس فيه من فتحة غير الباب . كان في ميسور الناس ان يدخلوا ، أما الهواء فلم يكن ذلك في ميسوره . وكان سقف القبو عقداً حجرياً ، وكانت أرضيته عشرة إنشات من الوحل . لقد رُصفت بالبلاط ، ولكن تنبُّع المياه أتلف ذلك البلاط وشققه . وعلى ارتفاع ثمانية اقدام من الارضية كانت عارضة خشبية طويلة ضخمة تمتد من جانب ذلك العقد إلى جانبه الآخر . ومن تلك العارضة كانت تتدلى، على مسافات معينة ، سلاسل يبلغ طولها ثلاثة اقدام ، وفي اطراف تلك السلاسل كانت أغلال من حديد . وكان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يوضعون في هذا القبو حتى يوم سفرهم إلى طولون . كانوا يُدفعون تحت تلك العارضة حيث كانت لكل منهم حديدة متدلية في الظلام تنتظره . كانت السلاسل ، تلك الاذرع المعلقة ، والاغلال ، تلك الايدي المفتوحة ، تأخذ بخناق اولئك البؤساء . كان وثاقهم يُشد ، وكانوا يخلَّفون هناك . وإذ كانت السلسلة أقصر مما ينبغي فلم يكن في ميسورهم ان يضطجعوا على الارض . كانوا يبقون من غير حراك في ذلك القبو ، في تلك الظلمة ، تحت تلك العارضة ، نصف مشنوقين ، مضطرين إلى أن يبذلوا جهداً جباراً لكي تبلغ أيديهم الخبز أو ابريق الماء ، العقد فوق رؤوسهم ، والوحل يرتفع إلى ركبهم ، وغائط كل منهم يجري على رجليه ، وقد هدهم الاعياء ، وخانتهم اوراكهم وركبهم ، وتعلقت ايديهم بالسلسلة ابتغاء الراحة ، وعجزوا عن النوم إلا وقوفاً ، وعملت الاغلال الآخذة

بخناقهم على إيقاظهم في كل لحظة ، ومع ذلك فأن بعضهم لم يـــكن يغمض لهـم جفن . ولكي يتناولوا الطعام ، كان عليهم ان يسحبـــوا خبزهم ، الذي كان يلقى في الوحل ، بأعقاب ارجلهم على طول عظم الساق الاكبر ، إلى متناول ايديهم . كم كانوا يبقون على هذه الحال ؟ شهراً ، شهرين ، وفي بعض الاحيان ستة أشهر . ولقد ظل احـــدهم عاماً كاملا . كان ذلك القبو غرفة انتظار يوضع فيها السجين ريثما يساق إلى سجن الاشغال الشاقة . وكان يُقذف اليه بالرجال لسرقتهم ارنباً من الملك . وفي ذلك الجحيم ــ القبر ، ما الذي كانوا يعملون ؟ ما يمكن ان يُصنع في قبر : لقد حشرجوا ، وما يمكن ان يُصنع في جحيم : لقـد غنوا . لأنه حيث لا يبقى شيء من أمل يبقى الغناء . ففي مياه مالطة ، حيث كانت السفينة المقلة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة تتقدم مقتربة، سُمع الغناء قبل أن تُسمع المجاذيف . وقال سورفنسان المسكين ، الصائد في أرض الآخرين من غير استئذان ، والذي كان قد اجتاز قبـــو الـ « شاتوليه دو باري » : **كانت القوافي هي التي جعلتني اتماسك** . عـــدم فائدة الشعر . واي فائدة للقوافي ؟ وجميع اغاني لغـة السوقة ، تقريباً ، ولدت في هذا القبو . ومن زنزانة « شاتوليه دو باري الكبير » هـــذه جاءتنا هـــذه اللازمـــة الكئيبة الخـاصة بسجن مونغومري الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقـة : **Timaloumisaine, timoulamison** ومعظم هذه الاغـــاني حدادية ، وبعضها بهيـج ، وواحدة لدنة :

icicaille est le théatre
Du petit dardant *

وعبثاً تحاول ، فليس في استطاعتك ان تمحق ذلك الاثر السرمدي من آثار القلب البشري : الحب .

---

* ههنا عندنا مسرح
رامي السهام الصغير (كيوبيد).

وفي عالم الافعال القائمة هذا يصان السر ، فالسر أثير على الجميع . والسر عند اولئك البائسين هو الوحدة التي تنهض اساساً للاتحاد . وانتهاك حرمة السر يعني ان تنتزع من كل عضو من اعضاء ذلك المجتمع الضاري شيئاً من ذات نفسه . والوشاية ، في لغة السوقة الصارمة ، تدعى manger le morceau * فكأن الواشي قد استولى على فلذة من جوهر الجميع ، واغتذى بقطعة من لحم كلٍّ .

وما تلقّي اللطمة ؟ إن المجاز المبتذل ليجيب . إنه أن ترى ستاً وثلاثين شمعة ** . وهنا تتدخل لغة السوقة وتقول : chandelle, camoufle وفي هذا تقدم اللغة الدارجة لفظة camouflet مرادفاً للضربة . وهكذا ، وبضرب من النفاذ من أدنى إلى أعلى ، وبمعونة المجاز ، ذلك المسار الهائل ، ترتفع لغة السوقة من الكهف إلى الاكاديمية . وقول بولاييه : « إني أشعل شمعتي » (ma camoufle) يجعل فولتير يقول : « إن لانغلوفيل لا بوميل يستحق مئة إهانة » camouflet .

والتنقيب في لغة السوقة يفضي عند كل خطوة إلى اكتشاف مـا . ودراسة هذا اللسان العجيب والتعمق فيه يؤديان إلى نقطة تقاطع غريبة بين المجتمع الشعبي والمجتمع المنبوذ .

إن لغة السوقة هي الكلام متحولاً إلى محكوم عليه بالاشغال الشاقة .

ولأن يكون في الامكان أن يُترَك بمبدأ الانسان المفكر إلى هذا الدرك، ولأن يكون ممكناً تصفيده وجرّه إلى هناك بطغيان القدر الغامض ، ولأن يكون ميسوراً شد وثاقة في تلك الهاوية بقيود مجهولة — ذلك شيء يثير الشجن .

إيه ، يا فكر البؤساء المسكين !

وا أسفاه ! ألا يهرع أحد لنجدة النفس البشرية في تلك الظلمة ؟

---

* أكل القطعة.

** voir trente — six chandelles

أيكون مقدراً لها إلى الابد ان تنتظر العقل ، والمحرر ، والراكب الهائل لأفراس ذوات جناحين وافراس مجنحة نصفها حصان ونصفها عُقاب ، والمقاتل المصبَّغ بلون الفجر الذي يهبط من السماء بجناحين ، وفـارس المستقبل المشع ؟ ايكون مقدرا لها أن تستنجد دائماً ولكن على غير طائل برمح المثل الاعلى المتلألىء ؟ أيكون مقضياً عليها ان تسمع الشر يتقدم على نحو فظيع من خلال أعماق الهاوية ، وان ترى اقرب اليها فأقرب ، تحت الماء الرهيب ، ذلك الرأس التنّيني ، وذلك الشدق المزبد ، وتموّج البراثن ، والتمددات ، والحلقات على نحو افعواني ؟ اينبغي ان تبقى هناك من غير ضياء ، من غير أمل ، مسلّمة إلى هذا المجاز المروع ، قد استروحها العملاق على نحو غامض ، مرتعدةً ، شعثاء الشعر ، ملوية الايدي ، مشدودة الوثاق إلى صخرة الليل إلى الابد ، اشبه شيء بـ « آندروميديا » * يائسة ، بيضاء عارية ، في الظلام ؟

٣

لغة السوقة التي تبكي ولغة السوقة التي تضحك

إن لغة السوقة كلها ، كما ترى ، لغة السوقة منذ اربعمئة عام ولغة السوقة اليوم ، تتخللها تلك الروح الرمزية القاتمة التي تخلع على كل لفظة سيماً محزونة حيناً ، وسيماً مهددة حيناً . إنا نستشعر فيها تلك الكآبة العتيقة الوحشية التي تسم متشردي « فناء العجائب » الذين لعبوا الورق

* Andromède ، في الميثولوجيا الاغريقية ، ابنة كاسيوبيا وزوجة بيرسيوس الذي انقذها من اشداق غول من غيلان البحر .

بورق خاص بهم حُفظ لنا بعضه . فثمانية « السباتي » مثلا كانت شجرة كبيرة تحمل ثماني ورقات هائلة من ورق البرسيم ، وذلك ضرب من تشخيص الغابة على نحو خيالي غريب . وعند جذع تلك الشجرة بدت نار مضطرمة كانت ثلاث أرانب تشوي عليها صياداً في سفود ؛ وفي الخلفية ، فوق نار اخرى ، كانت قدرٌ داخنة يطل منها رأس كلب . وليس شيء افجع من هذا الانتقام المصور ، على ورق اللعب ، في تلك الايام التي كان المهربون يُشوَون فيها على النار ، ومزيفو العملة يُسلقون فيها في القدور المعدنية الكبيرة . والواقع ان مختلف الاشكال التي اتخذها الفكر في دنيا لغة السوقة ، حتى الاغنية ،حتى السخرية ، حتى الوعيد، تتسم كلها بهذه الصفة العاجزة المرهقة . وجميع الاغاني ، التي حُفظت لنا بعض الحانها ، كانت ضارعة تهز المشاعر حتى البكاء . فالـ pègre (جماعة اللصوص) تدعو نفسها دائماً الـ pauvre pègre (جماعة اللصوص البائسة) ، وهي ابداً الأرنبُ هاربةً ، والجرذ فاراً ، والطائر مطلقاً ساقيه للريح . ونادراً ما تتشكى ، فهي تقنع بزفرة . ولقد وصلتنا احدى أناتها :

je n'entrave que le dail comment meck, le daron des orgues, peut atiger ses mômes et ses momignards et les locher criblant sans être atigé lui-même * والكائن البائس ، كلما وجد متسعاً من الوقت للتفكير ، يتخيل انه حقير امام القانون ، ومسكين أمام المجتمع. إنه يُذل نفسه ، إنه يتوسل ، إنه يتطلع إلى الشفقة . نحن نحس بانه يدرك أنه على خطأ .

وحوالى منتصف القرن الماضي ، حدث تغير . ذلك ان أغاني السجن ، مكرورات اللصوص ، اكتسبت ، إذا جاز التعبير ، معنى ماجناً مرحاً . لقد حل الـ **larifla** محل الـ **maluré** . وفي القرن الثامن عشر،

* أنا لا افهم كيف يستطيع الله ، ابو الناس ، ان يعذب أولاده واحفاده ، ويسمعهم يبكون من غير ان يتعذب هو نفسه .

نجد في اغاني السجون الخاصة بالاشغال الشاقة كلها تقريباً ، واغاني السجون بهجة شيطانية ملغزة . إننا نسمع هذه اللازمة الصارّة الترقة التي يخيل إلى المرء أنها مضاءة بوميض فسفوري ، والتي تبدو وكأنها مقذوفة إلى الغابة بشهاب غازيّ يعزف على زمارة :

Mirlababi, surlababo,
Mirliton ribou ribette,
Surlababi, mirlababo,
Mirliton ribon ribo.

وكانت هذه الكلمات تنشد عندما يحتزون عنق رجل في قبو ، أو في زاوية من زوايا غابة .

عرَض خطير . في القرن الثامن عشر تبددت تلك الكآبة القديمة التي كانت تغلب على هذه الطبقات الفاجعة . لقد بدأت تضحك . لقد سخرت من الـ meg * الكبير ، والـ dab ** الكبير . فاذا ما تحدثوا عن لويس الخامس عشر دعوا ملك فرنسة « مركيز بانتين » *** . انهم مبتهجون أو يكادون . وان ضوءاً من الضياء الواهن ينبعث من هؤلاء البائسين ، فكأن الضمير لم يعد يُنقض ظهورهم . إن قبائل الظلمة المحزنة هذه ليست تملك الجسارة المستميتة في الاعمال فحسب ، بل تملك جسارة العقل غير المبالية أيضاً . وهي أمارة تؤذن بانهم شرعوا يفقدون الشعور بجريمتهم ، وبأنهم يلمسون حتى بين المفكرين والحالمين تأييداً غريباً يقدَّم اليهم على نحو لا واعٍ . أمارة تؤذن بان اللصوصية والسلب قد أخذا يتسربان حتى إلى العقائد والسفسطات بحيث يفقدان شيئاً من بشاعتهما بأن يعطيا كثيراً منها للسفسطات والعقائد . واخيراً ،

* الله .

** الكلب .

*** مركيز باريس .

أمارة تؤذن – إذا لم ينشأ انحراف – ببزوغ أعجوبي قريب .

ولنتمهل لحظة . من الذي نتهمه هنا ؟ أهو القرن الثامن عشر ؟ أهي الفلسفة ؟ لا ، طبعاً . فالعمل الذي قام به القرن الثامن عشر سليم وصالح . فالموسوعيون ، وعلى رأسهم ديدرو ، والاقتصاديون الفيزيوقراطيون * ، وعلى رأسهم تورغو ، والفلاسفة ، وعلى رأسهم فولتير ، وأصحاب المدينة الفاضلة ، وعلى رأسهم روسو – اولئك أربع فرق مقدسة . فاليهم يرجع الفضل في تقدم الانسانية الهائل نحو النور . إنهم طلائع النوع البشري الاربع إلى نقاط التقدم الرئيسية : ديدرو نحو الجميل ، وتورغو نحو النافع ، وفولتير نحو الحقيقي ، وروسو نحو العادل . ولكن إلى جانب الفلاسفة وتحتهم ، كان السفسطائيون ، وهم نبتة سامة امتزجت بالنباتات السليمة ، شوكران سام في الغابة العذراء . ففيما كان الجلاد يحرق فوق سلم قصر العدل الرئيسية كتب العصر المحررة الكبرى كان بعض الكتاب المنسيين اليوم ينشرون ، برعاية من الملك ، كتابات كثيرة مشوشة على نحو غريب قرأها البائسون في نهم . ومن عجب ان بعض هذه المنشورات ، المتمتعة بتأييد أميري – لا تزال في « المكتبة السرية » . وهذه الحقائق ، العميقة الجذور ، برغم إهمالها ، لم يكن ممكناً إدراكها على السطح . فمجرد غموض حقيقة من الحقائق يكون في بعض الاحيان هو الخطر الذي تنطوي عليه . إنها غامضة لأنها سرية . ولعل ريستيف دو لا بروتون كان الكاتب الذي حفر ، تحت الجماهير ، اشد الدهاليز تضليلا .

وهذا العمل الذي تبنّته اوروبة كلها ، كان اعظم إفساداً في المانية منه في اي قطر آخر . ففي ألمانية ، خلال فترة معينة اختصرها شيلر في مسرحيته الشهيرة « اللصوص » ، اتخذت اللصوصية والسلب ، وقد رفعا

---

* القائلون بأن الارض هي مصدر الثروة والضرائب الاوحد ، والمنادون بحرية الصناعة والتجارة .

إلى مقام الاحتجاج على الملكية والعمل ، بعض الافكار الابتدائيـــة ، المموّهـة ، الباطلة ، الصحيحة في الظاهر ، الفاسدة في الواقع ، وأحاطا نفسيهما بهذه الافكار . واختفيا فيها بطريقة ما ، واصطنعا اسماً مجرداً وانتقلا إلى حالة نظرية من النظريات ، وعلى هذه الشاكلة طوّفا في الجماهير العاملة ، المتألمـة ، الفاضلة ، خافيَين حتّى على الكيميائيين العدمي الفطنة الذين أعدوا المزيـج ، مجهولين حتّى من الجماهير التي قبلتهما . وكلمـا حدث شيء من هذا الضرب يكون الموقف خطيراً . إن العذاب يولد الحقد . وفيما الطبقات الموسرة تتعامى ، أو تستسلم للرقاد ، يعني تغمض عينيها في كلتا الحالين ، تضيء كراهية الطبقات البائسة مشعلهـا أمام بعض العقول المحزونة المشوهة الحالمة في زاوية ما ، وتسرع في دراسة المجتمع . والدراسة إذا ما قامت بها الكراهية ، شيء رهيب حقـاً .

ومن هنا – إذا شاءت نحوس العصر – هذه الارتجاجات المروعـة التي كانوا يدعونها « الجاكيات » *jacqueries – وليست الاضطرابات السياسية الخالصة غير لعب اطفال بالنسبة اليها – والتي لا تقتصر على صراع المظلوم ضد الظالم ، بل تعدو ذلك إلى ثورة الضيق على اليسر . وعندئذ ينهـار كل شيء .

ان « الجاكيات » هي « هزات شعبية » .

وهذا الخطر ، الذي ربما كان كامناً في اوروبة في أواخر القرن الثامن عشر ، إنمـا عاقته الثورة الفرنسية . ذلك العمـل الطهـري الضخـم .

ذلك ان الثورة الفرنسية ، وهي المثل الاعلى مسلحاً بالسيف لا اكثر ولا اقل ، انتصبت على قدميها . وبتلك الحركة نفسها ، أوصدت باب

* الجاكية لفظ يطلق على كل ثورة طائشة يلعب فيها إعدام الناس ، على نحو اعتباطي، الدور الرئيسي ، وقد سبقت الاشارة اليها .

الشر وفتحت باب الخير .

لقد أوضحت المسألة ، واعلنت الحقيقة اعلاناً رسمياً ، وزدت الأبخرة الوبيئة ، وطهرت القرن ، وتوجت الشعب .

ونستطيع ان نقول إنها خلقت الانسان من جديد ، بأن منحته نفساً ثانية ، منحته حقوقه :

إن القرن التاسع عشر ليرثُ ويفيد من عمله ذاك ، وهكذا فان الكارثة الاجتماعية التي اشرنا اليها اللحظة هي اليوم — بكل بساطة — أمر متعذر . وأعمى هو ذلك الذي يتهمه ! وأحمق هو ذلك الذي يخافه ! إن الثورة لقاح الجاكية .

فبفضل الثورة تغيرت الاحوال الاجتماعية . إن الامراض الاقطاعية والملوكية لم تعد في دمنا . ولم يبق شيء من القرون الوسطى في دستورنا . إننا ما عدنا نعيش في العصر الذي كانت التألبات الداخلية الرهيبة تشن الغارات فيه ، العصر الذي كان الناس يسمعون فيه ، تحت اقدامهم ، انطلاقاً غامضاً لضجة نكدة ، العصر الذي بدت فيه على سطح المدنية ارتفاعات مناجذ غريبة ، العصر الذي تشققت فيه الارض ، العصر الذي انفتحت فيه أفواه الكهوف ، العصر الذي رأى فيه الناس رؤوساً هائلة تنبثق فجأة من باطن الارض .

إن المعنى الثوري معنى اخلاقي ، ذلك بأن الاحساس بالحق يولد الاحساس بالواجب . وقانون كل شيء هو الحرية ، التي تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين ، وفقاً لتعريف روبسبير الرائع . فمنذ عام ٨٩ كان الشعب كله يتبسط في الفرد المعلّى . فليس ثمة فقير يعوزه الاشعاع حين يفوز بحقوقه ؛ والرجل الجائع يستشعر في داخله شرف فرنسة ؛ وكبرياء المواطن درعٌ باطني ، والرجل الذي يتمتع بالحرية يصبح كثير التدقيق ؛ ومن يصوت يتقلد ملكاً . ومن هنا الامتناع عن الفساد ، ومن هنا اجهاض المطامع المضللة ، ومن هنا انحسار العيون ، على نحو

بطوني ، أمام ضروب الاغراء . إن الجو الصحي الذي تخلقه الثورة هو من القوة بحيث ينعدم في يوم من ايام الخلاص ،يوم كالرابع عشر من تموز ، أو العاشر من آب ، ما يدعونه الرعاع . وأول صيحة تطلقها الجماهير المستنيرة المتعاظمة هي : الموت للصوص ! التقدم انسان أمين ، والمثالي والمطلق لا يقدم على النشل . من الذي خفر ، عام ١٨٤٨ ، الصناديق التي انطوت على كنوز التويلري ؟ إنهم ملتقطو الخرق البالية في ضاحية سان انطوان . لقد قامت الاسمال بمهمة الحراسة على الثروة . إن الفضيلة قد جعلت هذه الثياب الخلقة متألقة . لقد كان هناك ، في تلك الصناديق الكبيرة ، في علب لم تغلق إلا بشق النفس ، علب كان بعضها نصف مفتوح ، وسط مئة من علب الجواهر المذهلة ، تاج فرنسة العتيق المصوغ كله من الماس ، يعلوه ياقوت «الوصي على العرش» الجمري، الذي كانت قيمته تبلغ ثلاثين مليوناً . لقد حرسوا حفاة ، ذلك التاج .

لم يبق ثمة «جاكية» اذن . وأنا لحسر عليها بسبب من اصحاب الدسائس . إنها الارهاب القديم الذي خلف آخر آثاره ، والذي لم يعد ممكناً اصطناعه في السياسة .لقد تحطم نابض الشبح الاحمر الضخم. وكل امرىء يعرف ذلك . إن الفزاعة لم تعد تفزع احداً . لقد صارت للطير دالة على الدمية ، ولقد امست الحشرات تحط عليها ، والبورجوازية تسخر منها .

٤
الواجبان : الحراسة والأمل

وإذا كان ذلك كذلك ، فهل ، تبدد الخطر الاجتماعي كله ؟

لا ، طبعاً . لا « جاكية » . قد يستطيع المرء ان يُطَمْئن المجتمع من هذه الناحية . إن الدم لن يندفع إلى رأسه بعد اليوم ، ولكن يتعين على هذا المجتمع ان يعنى بالطريقة التي يتنفس بها . إن السكتة ما عادت موضع مخافة . ولكن السل ما يزال هناك . وسلّ المجتمع يدعى البؤس .

إننا نموت ملغومين كما نموت مصعوقين ، سواء بسواء .

ولنكرر هنا – من غير ان نمل – ان التفكير قبل كل شيء بالجماهير المنبوذة المثيرة للشفقة ، ومؤاساتها ، وتهويتها ، وتنويرها ، وحبها ، وتوسيع افقها في بهاء ، وإمطارها بالتربية على اختلاف اشكالها ، وإعطائها مثل العمل لا مثل الكسل بحال من الاحوال ، وانقاص عبء الفرد بتكثيف فكرة الهدف العام ، ووضع حد للفقر من غير وضع حد للغنى ، وانشاء حقول واسعة للنشاط الجماعي والشعبي ، وان تكون لنا – مثل بريياروس * – مئة يد لكي نبسطها في كل اتجاه إلى المرهقين والضعفاء ، واصطناع القوة الجماعية للقيام بالواجب الكبير الذي يقتضينا ان نفتح المعامل لجميع الاذرع ، والمدارس لجميع القابليات ، والمختبرات لجميع العقول الذكية ، وزيادة الاجور ، وإنقاص العذاب ، واقامة التوازن بين ما للمرء وما عليه ، يعني مراعاة النسبة بين المتعة والجهد ، والاشباع والحاجة ، وبكلمة ، ان نجعل البنية الاجتماعية – لمصلحة اولئك الذين يتعذبون واولئك الذين يترددون في مهاوي الجهل – تطلق قدراً من النور أعظم ، وقدراً من الرفه اكبر ، ذلك هو – وليذكر اصحاب النفوس الرقيقة هذا ، – أول الالتزامات الاخوية ، وهذا هو – وليعرف أصحاب القلوب الانانية ذلك – أول الضرورات السياسية .

وهنا يتعين علينا ان نقول ان هذا كله ليس غير بداية . ان القضية

---

* Briareus في الميثولوجيا اليونانية ، عملاق ذو مئة ذراع وخمسين رأساً ساعد زيوس على جماعة الـ « تيتان » Titans وهم ابناء « السماء » و « الارض » الذين ثاروا على الآلهة .

الحقيقية هي هذه : العمل لا يستطيع ان يكون قانوناً من غير أن يكون حقاً .

ولسنا نرغب في التوكيد على ذلك . فليس هذا هو مجال هذا الصنيع .

وإذا كانت الطبيعة تدعى العناية ، فالمجتمع ينبغي ان يدعى التبصر والنظر إلى بعيد .

والنمو الفكري والاخلاقي ليس أقل ضرورة من الاصلاح المادي . فالمعرفة زاد ، والتفكير من الضرورات الماسة ، والحقيقة غذاء كالحنطة نفسها . والعقل ، إذا ما صام عن المعرفة والحكمة ، يصاب بالهزال . فلنتحسر على العقول التي لا تأكل ، كما نتحسر على المعد الفارغة . وإذا كان ثمة ما هو اشد مضاضة من الجسد المحشرج لفقدان الخبز ، فتلك هي النفس التي تموت جوعاً إلى الضياء .

إن التقدم كله لينزع نحو الحل . ولسوف نصاب ، ذات يوم ، بالذهول . ففيما يرتفع الجنس البشري ، سيقدر للطبقة الدنيا ان تخرج ، على نحو طبيعي جداً ، من منطقة الشقاء . إن محو البؤس سيتم برفع بسيط للمستوى .

ولسوف نخطيء إذا نحن شككنا في هذا الحل المبارك .

ان الماضي – هذا صحيح – قوي جداً في هذه اللحظة . إنه يحيا من جديد . واستعادة الجثة شبابها شيء يدعو إلى الدهش . ها هي ذي تمشي وتتقدم . إنها تبدو مظفّرة . إن هذا الرجل الميت غاز . إنه يفد مع كتيبته ، الخرافات ، وسيفه ، الطغيان ، ورايته : الجهل . وفي فترة يسيرة ربح عشر معارك . إنه يتقدم ؛ إنه يهدد ؛ إنه يضحك . إنه على أبوابنا . أما نحن ، فلن نيأس ، فلنبع الميدان الذي يعسكر فيه هنيبعل .

ونحن الذين نؤمن ، من أي شيء يمكن ان نخاف ؟

ليس من ارتداد في الافكار إلا بقدر ما يكون الارتداد في الأنهار .

ولكن دع اولئك الذين لا يريدون المستقبل يفكرون في ذلك . إنهم حين يقولون « لا » للتقدم لا يدينون المستقبل ولكن يدينون انفسهم . إنهم يقدمون إلى أنفسهم مرضاً كئيباً ، ويلقحون انفسهم بالماضي . والحق أنه ليس ثمة غير وسيلة واحدة لرفض « الغد » ، هي الموت .

والآن ليس الموت ، موت الجسد مهما تأخر ، وموت النفس إطلاقاً . هو ما نرغب فيه .

أجل . ان الأحجية سوف تقول كلمتها ؛ إن أبا الهول سيتكلم ؛ إن المشكلة سوف تحل . أجل ، إن صورة الشعب التي رسمها القرن الثامن عشر على نحو خفيف ، سوف يتمها القرن التاسع عشر . وأبله هو ذلك الذي يشك في هذا ! إن البزوغ المستقبل ، بزوغ الرفاهية الشاملة القريب ، ظاهرة محتومة على نحو الـهي .

إن عوامل ضم وجمع شتات لتسيطر على الشؤون الانسانية وتؤدي بها كلها ، في ميقات معلوم ، إلى الوضع المنطقي ، أي إلى التوازن ، أي إلى العدالة . ان قوة مؤلفة من الارض والسماء لتنشأ من الانسان وتهيمن عليه . وهذه القوة مجترحةُ معجزات . فالاعمال الاعجوبية ليست عندها بأعسر من التغيرات الفائقة للعادة . واذ كانت مدعومة بالعلم الذي ينبثق من الانسان ، والحادثة الرائعة التي تنبثق من « كائن آخر » ، فأنها لا تهاب ، إلا قليلا ، تلك التناقضات التي تنطوي عليها أوضاع المشكلات ، والتي تبدو في نظر العامة مستحيلات . وليست قدرتها على جعل حلٍ ما ، يثب من الموازنة بين الفكرات لتقل عن قدرتها على جعل درس ما ، يثب من الموازنة بين الوقائع . وفي استطاعتنا ان نتوقع كل شيء من قوة التقدم العجيبة هذه التي تجمع ، ذات يوم من الايام المشرقة ، ما بين الشرق والغرب في أعماق قبر ، وتجعل الائمة المسلمين يتحدثون إلى بونابرت في قاب الهرم الكبير .

وفي غضون ذلك لا تمهل ، ولا تردد ، ولا توقف في تقدم العقول وسيرها العظيم إلى الامام . إن الفلسفة الاجتماعية هي في جوهرها علم وسلم . وغايتها هي ، ونتيجتها ينبغي ان تكون ، حل الاحقاد بدراسة الخصومات . إنها تفحص ، وتحقق ، وتحلل ، ثم تؤلف من جديد . انها تتقدم من طريق التحويل ، مقصية البغض عن كل شيء .

لقد رأينا غير مرة ان المجتمع قد يغرق في عاصفة تنفجر فوق رؤوس الناس : والتاريخ حافل بأحداث الغرق ، غرق الشعوب وغرق الامبراطوريات . والعادات ، والقوانين ، والاديان لا بد أن تعصف بها ، ذات يوم رائق ، أعاصير غريبة ، وتأتي عليها كلها . ولقد زالت مدنيات الهند ، وكلدة ، وفارس ، وأشور ، ومصر ، واحدة بعد اخرى . لماذا ؟ لسنا ندري . ما أسباب هذه الكوارث ؟ لسنا ندري . أكان من الممكن إنقاذ هذه المجتمعات ؟ اكانت الغلطة غلطتها ؟ هل انغمست ، بعناد ، في رذيلة مهلكة قضت عليها ؟ ما مقدار الانتحار الذي تنطوي عليه ميتات الامم والاجناس الرهيبة تلك ؟ اسئلة ليس لها من جواب . إن الظلام ليكتنف هذه المدنيات الهالكة . إنها لم تكن صالحة لمخر البحار بدليل ان المياه قد ابتلعتها . وليس عندنا ما نقوله غير هذا . وانما بضرب من الذهول نرى بعيداً إلى الوراء في ذلك الاوقيانوس الذي ندعوه الماضي ، خلف تلك الامواج الهائلة ، أعني القرون – نرى غرق تلك المراكب الضخمة : بابل ، ونينوى ، وطرسوس ، وطيبة ، وروما ، تحت الرياح المروعة التي تنبعث من جميع أفواه الظلمة . ولكن إذا كانت الظلمة هناك ، فأن الضياء هنا . إننا نجهل أمراض المدنيات القديمة ، ولكننا نعرف عاهات مدنياتنا . اننا نرى فوقها ، في كل مكان ، حق الضياء ، واننا نتأمل في جمالاتها ونعري دماماتها . وحيث تكون عليلة نستعمل المسبار . وما إن نعين المرض حتى تقودنا دراسة السبب إلى اكتشاف العلاج . إن

حضارتنا ، صنيع عشرين قرناً من الزمان ، هي الهُولة والاعجوبة في آن معاً ، إنها جديرة بأن تُنْقَذ . ولسوف تنقذ . والترويح عنها هو الآن كثير ، وتنويرها هو شيء اكثر . وجميع جهود الفلسفة الاجتماعية العصرية ينبغي ان توجه نحو هذه الغاية . وعلى المفكر اليوم واجب كبير : أن يضع اذنه على صدرها ويستطلع حال القلب منها .

وهذا الاستطلاع — ونحن نكرر ذلك هنا — شيء مشجع . وبمثل هذا الالحاح في التشجيع نرغب في أن نختم هذه الصفحات القليلة ، فترة استراحة صارمة في رواية أليمة . فتحت فنائية المجتمع نلمس خاود الانسانية . ولكي تكون ههنا وههناك هذه الجروح ، فوهات البراكين ، وهذه القُوَب * ، مناجم الكبريت ، ومن اجل بركان ينفجر ويقذف بصديده ، لا تموت الكرة الارضية . إن امراض الشعب لا تقتل المرء .

ومع ذلك ، فكل من يتتبع العيادة الاجتماعية يهز رأسه في بعض الاحيان . إن لاعظم الناس قوة واشدهم حناناً واكثرهم منطقاً لحظات إغمائهم .

هل سيأتي المستقبل ؟ يبدو أن في استطاعتنا ، أو نكاد ، طرح هذا السؤال حين نرى كل هذا الظل الرهيب . تواجهٌ كالحٌ بين الانانيين والبائسين . وفي ناحية الانانيين نجد الاحقاد ، وظلمات الثقافة الموسرة ، والشهوة المتعاظمة من طريق الثمل ، وانشداه الرفاه المصم للآذان ، وذعراً من العذاب ينتهي — عند بعضهم — إلى كراهيتهم المعذبين ، ورضاً حقوداً ، و « أنا » متورمة إلى درجة تجعلها توصد النفس . وفي ناحية البائسين نجد الطمع ، والحسد ، وكراهية رؤية الآخرين مستمتعين بالحياة ، وتوق الحيوان الانساني العميق إلى ضروب الاشباع ، والقلوب الحافلة بالظلمة ، والحزن ، والفاقة ، والقدر ، والجهالة الدنسة البسيطة .

---

* القوباء : داء يظهر في الجسد يتقشر ويتسع ، وهو معروف بالحزاز .

هل يتعين علينا أن نقيم على رفع أعيننا نحو السماء ؟ والنقطة المتلألئة التي نتبينها هناك أهي من تلك التي تخمـــد ؟ إن من المروع رؤية المثل الاعلى ضائعاً هكذا بين الاعماق ، صغيراً . منعزلاً ، غير مـدرك ، مشعاً ولكنه محاط بجميـع تلك التهديدات السوداء الكبرى المتجمهرة حوله على نحـو رهيب . ومع ذلك فليس الخطر المحدق به بأعظم من الخطر الذي يلم بنجم في أشداق الغيوم .



الكتاب الثامن

رُقىً وأطلال



١

وضح النهار

لقد عرف القارىء أن ايبونين ، وقـد تبيّنت من خلال الباب الحديدي ذلك الرجل القاطن في شارع بلوميه والذي وجهتها مانيون اليه ، كانت قد بدأت بأبعاد قطاع الطرق عن شارع بلوميه ، ثم قادت ماريوس إلى هناك ، وأن ماريوس ، بعد عدة ايام من النشوة الروحية امام ذلـــك الباب الحديدي – وقد جذبته تلك القوة التي تدفع الحديد نحو حجـــر المغناطيس والمحب نحو حجارة البيت التي بني منها منزل الفتاة الـــتي يحب – قد دخل اخيراً إلى حديقة كوزيت كما دخل روميو حديقـــة

جوليت . بل لقد كان ذلك اسهل عليه مما كان على روميو . فقد اضطر روميو إلى ان يتسور جداراً . أما ماريوس فلم يكن عليه إلا ان يدفع قضيباً صغيراً من قضبان الباب الحديدي الهرم ، كان قد تخلخل في مغرزه الصدىء مثل اسنان العجائز . كان ماريوس مهزولا ، فاستطاع أن ينسلّ إلى الداخل في سهولة ويسر .

وإذ لم يكن في الشارع أحد البتة ، وإذ لم يدخل ماريوس إلى الحديقة — بالاضافة إلى هذا — إلا ليلا فما كان ليخشى ان يراه أحد .

ومن تلك الساعة المباركة المقدسة التي ربطت فيها القبلة ما بين هاتين النفسين أنشأ ماريوس يفد كل مساء . ولو ان كوزيت ، أغرمت ، في تلك المرحلة من حياتها ، برجل داعر لا ضمير له ، اذن لتردّت في مهاوي الهلاك ، ذلك ان ثمة طبائع كريمة تسارع إلى الاستسلام ، وكانت لكوزيت واحدة منها . إن من ضروب الشهامة عند المرأة أن تذعن . والحب ، عند ذلك الارتفاع الذي يكون فيه مطلقاً ، إنما يعقّده عميّ في الحياء سماويٌ لا سبيل إلى وصفه . ولكن ما اكثر المخاطر التي تتعرضين لها ، ايتها النفوس النبيلة ! انك كثيراً ما تمنحين القلب ، فنأخذ نحن الجسد . وهكذا تبقى قلوبك لك ، وتتلفتين حولك في الظلام ، وترتعدين . الحب لا توسط فيه ، إما ان يُهلك ، وإما ان يخلّص . والقدر الانساني كله هو هذا القياس ذو الحدين . وذلك القياس ، الهلاك أو الخلاص ، لا يطرحه اىما قدر على نحو اكثر قسوة مما يطرحه الحب . الحب هو الحياة ، إذا لم يكن هو الموت . إنه المهد ، والكفن ايضاً . والعاطفة نفسها تقول « نعم » و « لا » في القلب البشري . ومن بين جميع الاشياء التي خلقها الله ، فأن القلب البشري هو الذي يسفح اعظم مقدار من الضياء ، ويسفح — وا أسفاه ! — اعظم مقدار من الظلمة .

لقد شاء الله ان يكون الحب الذي لقبته كوزيت حباً من ذلك النوع الذي يخلّص .

فطوال شهر نوار من ذلك العام ، ١٨٣٢ ، كان هناك ، كل ليلة ، في تلك الحديقة الحقيرة المهملة ، تحت ذلك الدغل المتعاظم عبقاً وكثافة كل يوم ، كائنان اثنان مؤلفان من جميع الطهارات وجميع البراءات ، فائضان بكل سعادات السماء ، فهما اقرب إلى رؤساء الملائكة منهما إلى البشر ، صافيان ، نبيلان ، ثملان ، مشعان ، يتألق كل منهما أمام الآخر في الظلام . لقد بدا لكوزيت ان على رأس ماريوس تاجاً ، وبدا لماريوس ان حول رأس كوزيت هالة . ومس كل منهما الآخر ، ونظر كل منهما إلى الآخر ، وأمسك كل منهما بيد الآخر ، واقترب كل منهما اشد ما يكون الاقتراب إلى الاخر ، ولكن كانت ثمة مسافة لم يتجاوزاها . لا لأنهما احترماها ، بل لأنهما جهلاها . لقد استشعر ماريوس حاجزاً ، هو طهارة كوزيت ، واستشعرت كوزيت سناداً ، هو وفاء ماريوس . كانت القبلة الاولى هي القبلة الاخيرة ايضاً . ومنذ ذلك الحين ، لم يذهب ماريوس إلى ابعد من مس يد كوزيت ، أو منديلها ، أو احدى غدائرها بشفتيه . كانت كوزيت عنده عبيراً ، لا امرأة . كان يستنشقها . ولم ترفض هي شيئاً ، ولم يطلب هو شيئاً . كانت كوزيت سعيدة ، وكان ماريوس راضياً . لقد عاشا في تلك الحال الجذلى التي يمكن أن ندعوها انذهال روح بروح . كانت ذلك العناق الأول الذي لا يوصف بين بتوليّتين في المثل الاعلى . بجعتان تلتقيان فوق اليونغفراو *.

في ساعة الحب تلك ، وهي ساعة تخرس فيها الشهوة خرساً مطلقاً تحت قدرة النشوة الروحية الكلية ، كان ماريوس ، ماريوس الطاهر الملائكي ، اقدر على زيارة بنت من بنات الهوى منه على رفع ثوب كوزيت حتى كعب قدمها . وذات ليلة قمراء ، انحنت كوزيت لتلتقط شيئاً عن الارض فتراخى ثوبها كاشفاً عن أعلى صدرها . فما كان من

* Jungfrau أي العذراء ، وهي احدى قمم جبال الالب في سويسرة ويبلغ ارتفاعها ٤١٨١ متراً .

ماريوس إلا ان اشاح ببصره عنها .

ما الذي كان يجري بين هذين الكائنين ؟ لا شيء . كانا يعبد بعضهما بعضاً .

وفي المساء ، حين كانا يجتمعان هناك ، كانت تلك الحديقة تبدو موطناً حياً مقدساً . كانت الرياحين كلها تتفتح من حولهما ، وتبعث اليهما بعبيرها . وكانا هما ايضاً يفتحان روحيهما ويسكبانهما في الرياحين . كانت النباتات الداعرة القوية ترتعش ملأى بالنسغ والثمل حول هذين المخلوقين البريئين ، وكانا يتبادلان كلمات غرامية توقع الرعدة في اوصال الاشجار .

أيّ شيء كانت تلك الكلمات ؟ همسات ، ليس غير . كانت تلك الهمسات كافية لأثارة هذه الطبيعة كلها وإهاجتها . قوة سحرية لا يكاد المرء يقدر على فهمها إذا قرأ في كتاب ما هذه الاحاديث التي جُعلت لكي تختطفها الريح وتبددها ، مثل الدخان ، تحت اوراق الشجر . جرّد همسات المحبيّن هذه من ذلك اللحن الذي ينبثق من النفس ، والذي يرافقهما مثل قيثارة ، فعندئذ لا يبقى غير ظل . وقد تقول : « ماذا ! أهذا كل شيء ؟ » نعم ، اشياء صبيانية ، وكلمات معادة ، وضحكات على لا شيء ، وأعباث * ، وترهات ، وكل ما في العالم من مغالٍ في الرفعة ومغالٍ في العمق ! الاشياء الوحيدة الجديرة بأن تقال وبأن يصغى اليها .

والرجل الذي لم يسمع قط هذه الترهات وهذا اللغو ، والرجل الذي لم ينطق قط بهذه الترهات وهذا اللغو ، هو رجل احمق شرير .

وقالت كوزيت لماريوس :

— « هل تعلم ان اسمي اوفرازي ؟ »

— « اوفرازي ؟ ولكن لا ، ان اسمك هو كوزيت . »

* جمع عبث .

— « اوه ، ان كوزيت اسم بشع جداً خلعوه عليّ بطريقة ما حين كنت صغيرة . ولكن اسمي الحقيقي هو اوفرازي . ألا تحب هذا الاسم : اوفرازي ؟ »

— « أجل ... ولكن كوزيت ليس بشعاً ؟ »

— « أتحبه اكثر من اوفرازي ؟ »

— « ولكن ... نعم . »

— « اذن ، فسأحبه أنا اكثر ، أيضاً . هذا صحيح ، إن كوزيت اسم جميل . نادني كوزيت . »

وكان في الابتسامة التي أضافتها ما جعل هذا الحوار انشودة ريفية جديرة بغابة سماوية .

وفي مناسبة اخرى حدقت اليه وهتفت :

— « سيدي ، انت مليح ، انت جميل ، انت ذكي . انت لست أحمق بالمرة ، انت أعلم مني بكثير ، ولكني اتحداك بهذه الكلمة : أحبك ! »

وخيل لماريوس ، تحت تلك السماء الخالية من الغيوم ، أنه سمع مقطوعة شعرية ينشدها نجم من النجوم .

وذات مرة ، أيضاً ، ربتت على ظهره تربيتة صغيرة لأنه سعل وقالت له :

— « لا تسعل ، يا سيدي . أنا لا أجيز السعال هنا من غير إذن . من القبيح ان تسعل وتزعجني . انا اريد منك ان تكون في صحة جيدة ، لأني — قبل كل شيء — اكون غير سعيدة إذا كنت معتل الجسم . اي شيء تريد أن أصنعه لك ؟ »

وكان ذلك كله الـهياً صرفاً .

وذات مساء قال ماريوس لكوزيت :

— « تخيلي .. أني ظننت في فترة من الزمن ان اسمك اورسولا . »

وكان في ذلك ما جعلهما يضحكان طوال العشية .

وخلال محادثة اخرى ، اتفق ان هتف :

– « اوه ! لقد نازعتني نفسي في اللوكسومبورغ ، ذات يوم ، إلى أن اهشم عظام كسيح من الكسحاء ! »

ولكنه توقف فجأة ، ولم يذهب إلى ابعد من ذلك . ولو قد فعل اذن لاضطر إلى ان يحدث كوزيت عن رباط ساقها ، وكان ذلك متعذراً عليه . كان ثمة ساحل مجهول ، البشرة ، ارتد امامه ذلك الحب البريء الهائل في ضرب من الذعر المقدس .

وتخيل ماريوس الحياة مع كوزيت على هذا النحو ، من غير زيادة أو نقصان : أن يقصد كل مساء إلى شارع بلوميه ، وان يزيح قضيب « باب الرئيس » الحديدي العتيق المرن ، وان يجلس معها جنباً إلى جنب فوق هذا المقعد ، وان يرى من خلال الاشجار إلى تلألوء الليل المستهل ، وان يجعل طية بنطلونه تجاور اتساع ثوب كوزيت ، وان يداعب ظفر إبهامها ، وان يقول لها يا اعز الناس ، وان يتنشق مرة بعد مرة عبق الزهرة نفسها ، إلى الابد ، وعلى نحو لا نهائي . وطوال هذه الفترة كانت السحب تمر فوق رأسيهما . وكانت كل نسمة تحمل معها من أحلام الرجل اكثر مما تحمل من سحب السماء .

ونحن لن نزعم ان هذا الحب الطاهر ، الذي كاد ان يكون صارماً ، كان خلواً من الغزل . فأطراء من نحب هو أولى طرائق الملاطفة ؛ إنه شبه جسارة تقوم بمغامرة . إن الاطراء اشبه شيء بقبلة من خلال حجاب . إن اللذة تضع خاتمها الرقيق هناك ، حتى فيما هي تحتجب وتتوارى . وأمام اللذة يتراجع الفؤاد ، لكي يحب حباً أفضل . وكانت مجاملات ماريوس ، المشبعة بالأحلام ، لازوردية اللون ، إذا جاز التعبير . ولا ريب في ان الطيور ، حين تحلق عالياً إلى جانب الملائكة ، تسمع مثل هذه الكلمات . ومع ذلك ، فقد امتزجت بها الحياة ، والإنسانية ، وكل

ما كان ماريوس قادراً عليه من اجابية . كانت ما يقال في الكهف تمهيداً لما سوف يقال في مخدع النوم : دفقاً غنائياً ، المقطوعةَ الشعريةَ والـ « سونيت » * مجتمعتين ، مبالغاتِ الهديل الرقيقة ، جميعَ دمائث الهيام منظومة في باقة عابقة بعبير سماوي لطيف ، زقزقةً من القلب إلى القلب لا سبيل إلى وصفها .

وغمغم ماريوس :

— « اوه ! ما أجملك ! انا لا اجرؤ على النظر اليك . وهذا هو السبب الذي يجعلني أحدق اليك . أنت فتنة . أنا لا أدري ماذا دهاني . إن ادنى ثوبك ، حين يبدو مقدم حذائك ، ليثير الاضطراب في نفسي . ثم ايّ ضياء ساحر يتبدى لي حين ارى ومضة من تفكيرك . انك تفكرين على نحو مدهش . ولقد يخيل الي في بعض الاحيان انك حلم من الاحلام . تحدثي ، انا مصغ اليك ، انا معجب بك . إيه يا كوزيت ! ما اغرب ذلك وأروعه ! لقد جننتُ حقاً . أنت جديرة بالعبادة ، يا آنسة ! إني ادرس قدميك بميكروسكوب ، وادرس نفسك بتلسكوب . »

واجابت كوزيت :

— « لقد اخذت احبك اكثر فاكثر ، كل لحظة ، منذ هذا الصباح . »

كانت الاسئلة والاجوبة تتهادى كما يحلو لها في هذا الحوار ، واقعة دائماً وقوعاً طبيعياً ، آخر الامر ، على الحب ، مثل تلك الدمى المثقّلة التي تقع على قاعدتها .

كان شخص كوزيت كله سذاجة ، وصفاء قلب ، وشفوفاً ، ووضاءة ، وسلامة سريرة ، واشراقاً . وفي ميسورنا ان نقول ان كوزيت كانت رائعة . كانت توقع في نفس الناظر اليها إحساساً فيه شيء من نيسان وشيء من الضحى . كان ثمة ندىً في عينيها . لقد كانت كوزيت تركيزاً لضياء فجريّ في شكل أنثوي .

---

* Sonnet قصيدة ذات أربعة عشر بيتاً .

وكان طبيعياً جداً ، وقد شغفته كوزيت حباً ، ان يُعجب ماريوس بها . ولكن الحق ان هذه الطالبة الصغيرة ، وقد خرجت طازجة من مطحنة الدير ، كانت تتحدث في نفاذ لذيذ ، وتقول بين الفينة والفينة مختلف ضروب الكلمات الصحيحة الناعمة . كان لغوها محادثة . ولم تكن لتخطيء خطأ ما ، وكانت ترى على نحو صاف . إن المرأة تحس وتتكلم بغريزة الفؤاد الرخصة ، هذه المعصومة عن الضلال . وليس ثمة احد ، غير المرأة ، يستطيع ان يقول أشياء عذبة وعميقة في آن معاً . عذوبة وعمق ، ههنا المرأة كلها . ههنا السماء كلها .

وفي غمرة من هذه السعادة الكاملة كانت الدموع تتدفق على اعينهما كل لحظة . كانت الحشرة التي داستها القدم ، والريشة الساقطة من عش ، وغصن الزعرور المنكسر تثير شفقتهما . وكانت نشوتهما الروحية ، المغمورة على نحو عذب بالكآبة ، تبدو وكأنها لا ترغب في شيء اكثر مما ترغب في البكاء . إن أسمى أعراض الحب حنو يكاد يكون غير محتمل في بعض الاحيان .

وإلى جانب هذا — إن هذه المتناقضات كلها هي لعب الحب الخاطف — كانا مولعين بالضحك ، فهما يضحكان في حرية ساحرة ، وفي دالة كانت تجعلهما يبدوان في بعض الاحيان وكأنهما ولدان صغيران . ومع ذلك ، فعلى الرغم من ان القلوب الثملة بالطهارة قد تكون لا واعية تماماً فان الطبيعة التي لا يمكن ان تُنسى هي ماثلة دائماً . إنها هناك ، بغايتها الحيوانية والرفيعة في آن واحد . ومهما تكن براءة النفوس ، فأننا نشعر ، في اكثر ضروب الاتصال احتشاماً ، بذلك الفارق الغريب الجدير بالعبادة الذي يميز المحبَّين عن الصديقين .

لقد هام كل منهما بالآخر .

ان السرمدي والمستقر ليستمران . فنحن نحب ، ونحن نبتسم ، ونحن نضحك ، ونحن نطيل شفتينا استياء ، ونحن نشابك اصابع أيدينا ، ونحن

تتخاطب في غير كلفة ، ومع ذلك فان هذا لا يعوق الابدية . إن اثنين من المحبين ليختبئان مساء ، في الغسق ، في اللامنظور ، مع الطيور ، مع الورود ؛ وانهما ليفتن احدهما الآخر في الظل بقلبيهما اللذين يضعانهما في اعينهما ؛ وانهما ليغمغمان ، ويتهامسان ، وطوال هذه الفترة تملأ اللانهاية ذبذبات للنجوم لا حد لها .

٢
دوار السعادة الكاملة

كانا يعيشان على نحو غامض مدله بالسعادة . إنهما لم ينتبها إلى الكوليرا التي حصدت أرواح كثير من اهل باريس في ذلك الشهر . لقد تناجيا اكثر ما وجدا إلى التناجي سبيلا ، ولكن ذلك لم يذهب إلى ابعد جداً من اسميهما . كان ماريوس قد اخبر كوزيت انه يتيم ، وان اسمه هو ماريوس بونميرسي ، وانه محام ، وانه يكسب رزقه من كتابة بعض الاشياء للناشرين ، وان والده كولونيل ، وانه كان بطلا ، وانه هو — ماريوس — قد تشاجر مع جده الغني . وكان قد قال شيئاً ما عن كونه باروناً ، ولكن ذلك لم يخلف أيما أثر في نفس كوزيت . ماريوس باروناً ؟ إنها لم تفهم ذلك . إنها لم تعرف معنى تلك الكلمة . لقد كان ماريوس هو ماريوس . وكانت هي قد أسرّت اليه ، بدورها ، انها نشئت في دير بيكبوس الصغير ، وان أمها ميتة مثل أمه ، وان اسم ابيها مسيو فوشلوفان ، وانه كان عطوفاً جداً ، وانه يتصدق كثيراً على الفقراء ، ولكنه هو نفسه فقير ، وانه يحرم نفسه كل شيء في حين لا يحرمها هي شيئاً .

ومن عجب ان الماضي ، حتى الماضي المغالي في القرب ، كان قد امسى — في غمرة

من تلك السيمفونيا التي عاش فيها ماريوس منذ رأى كوزيت ـ مختلطاً جداً في ذهنه ، قصياً جداً بالنسبة اليه ، فاذا بذلك الذي قالته له كوزيت يرضيه كل الرضا . إنه لم يفكر حتى في أن يحدثها حديث تلك المغامرة الليلية في بيت غوربو العتيق ، وحديث تيناردييه وزوجته ، وحديث الحرق ، ومسلك أبيها العجيب وفراره الغريب . كان ماريوس قد نسي هذا كله موقتاً . بل انه لم يكن ليعرف ، في الليل ، أيّ شيء فعله في النهار ، أو اين تناول طعام الصباح ، او من الذي تحدث اليه . كانت في اذنيه أغانٍ اصمته عن كل تفكير آخر ؛ كان لا يحيا إلا خلال الساعات التي يرى فيها كوزيت . وإلى هذا ، فلما كان هو في السماء فقد كان طبيعياً جداً ان ينسى الارض . كان كل منهما يحتمل ، في ضعف ، عبء اللذات غير المادية الممتنع على التحديد . هكذا يعيش هؤلاء المصابون بداء السير في النوم الذين ندعوهم العشاق .

وا أسفاه ! من ذا الذي لم يجرب هذه الاشياء ؟ لماذا تحين ساعةٌ نفارق فيها هذا اللازورد ، ولمَ تستمر الحياة بعد ذلك ؟

إن الحب ليحلّ محل الفكر أو يكاد . الحب نسيان ملتهب لكل شيء آخر . إلتمس المنطق ، اذن ، عند الهوى . فليس في القلب البشري سلسلة منطقية مطلقة ، كما انه ليس في الميكانيك السماوي شكل هندسي كامل . فعند كوزيت وماريوس لم يكن ثمة شيء في الوجود غير ماريوس وكوزيت . كان الكون من حولهما قد توارى عن النظر . لقد عاشا في لحظة ذهبية . لم يكن ثمة شيء من قبل ، ولم يكن ثمة شيء من بعد . ولسنا نحسب ان ماريوس تساءل هل لكوزيت أب . كان من الانشداه بحيث امحى كل شيء من ذهنه . واذن ، فعمّ تحدّث هذان العاشقان ؟ لقد رأينا ذلك : عن الرياحين ، عن السنونو ، عن الشمس المحتضرة ، عن القمر الطالع ، عن كل الاشياء الهامة . لقد قالا كل شيء ، باستثناء كل شيء . و « كل » العشاق هي « لا شيء » . ولكن

الاب ، والوقائع ، وذلك البيت الحقير ، وقطاع الطرق ، وتلك المغامرة ، ما فائدة ذلك كله ؟ وهل كان واثقاً من ان ذلك الكابوس كان حقيقياً ؟ كانا اثنين ، وكان كل منهما شغفاً بالآخر ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا . إن كل شيء آخر لم يكن . ومن المحتمل ان يكون هذا النسيان للجحيم الذي وراءنا جزءاً من وصولنا إلى الجنة . هل رأينا أبالسة ؟ وهل ثمة ابالسة ؟ هل ارتعدنا ؟ هل أصابنا أذى ؟ نحن لا نعرف الآن عن ذلك شيئاً . إن سحابة وردية لتظلل ذلك كله .

كان هذان المخلوقان يعيشان ، اذن ، على هذا النحو ، محلقين عالياً، يحيط بهما كل ما في الطبيعة من اشياء غير محتملة الوقوع . لم يكونا لا في نظير السمت ولا في سمت الرأس ؛ كانا بين الانسان والملاك ؛ فوق الارض ، تحت الاثير ، في السحب ؛ خلواً من اللحم والعظم أو يكادان ، تلفهما الروح والنشوة الروحية من الرأس إلى القدم ؛ متسامين اكثر مما ينبغي بحيث ما كانا يمشيان على الارض ، مثقلين بالانسانية اكثر مما ينبغي بحيث ما كانا يختفيان في السماء ، معلقين مثل الذرات التي تنتظر الرسوب ؛ خارج نطاق القدر في الظاهر ؛ متجاهلين ذلك السبيل المطروق : امس ، اليوم ، الغد ؛ مشدوهين ، جذلين ، طافيين ، خفيفين احياناً بحيث يحلّقان في اللانهاية ، مستعدين أو يكادان للطيران الأبدي .

كانا ينامان يقظين في هذا المهد الهزاز . يا لروعة السبات المستغرق الذي يلمّ بجفنَي الواقع المثقل بالمثل الاعلى !

وفي بعض الاحيان كان ماريوس يغمض عينيه أمام كوزيت برغم جمالها كله . إن اغماض العينين هو السبيل الافضل للتطلع إلى الروح .

ولم يتساءل ماريوس وكوزيت إلى اين سيقودهما ذلك . كان احدهما ينظر إلى الآخر نظرته إلى شخص بلغ محجته . وانها لدعوى غريبة من الناس أن يطلبوا إلى الحب ان يقودهم إلى مكان ما .

٣
بداية الظلمة

ولم يَرْتب جان فالجان في شيء .

فقد كانت كوزيت – وهي اقل استغراقاً في التفكير الحالم من ماريوس – بهيجة النفس ، وكان ذلك كافياً لايقاع السعادة في قلب جان فالجان . إن افكار كوزيت ، ومشاغلها اللدنة ، وصورة ماريوس التي ملأت نفسها لم تسلبها شيئاً من صفاء جبينها الباسم ، الطاهر ، الجميل ، ذلك الصفاء الذي لا يضارع . كانت في تلك السن التي تحمل فيها العذراء حبها كما يحمل الملاك زنبقته . وإلى هذا فحين يكون العاشقان على وفاق يسير كل شيء سيراً حسناً . واما شخص ثالث قد يعكر صفو حبهما يكون في الامكان ابقاؤه في عمى كامل باحتياطات قليلة جداً هي هي بالنسبة إلى العشاق جميعاً . ومن هنا لم تصدر عن كوزيت اية معارضة لجان فالجان . هل يريد ان يخرج في نزهة ؟ اجل ، يا ابي العزيز . هل يريد ان يبقى في البيت ؟ حسن جداً . هل يريد ان يقضي العشية إلى جانب كوزيت ؟ اذن فهي في غاية السعادة . واذ كان يأوي إلى فراشه في الساعة العاشرة دائماً ، فقد كان ماريوس لا يجيء إلى الحديقة ، في تلك الأحوال ، إلا بعد تلك الساعة ، عندما كان يسمع كوزيت ، من الشارع ، تفتح الباب الزجاجي المؤدي إلى السلم . ولسنا في حاجة إلى القول ان ماريوس ما كان ليُرى في النهار ابداً . بل إن جان فالجان لم يعد يحسب ان ماريوس موجود . وذات صباح ، فقط ، اتفق ان قال لكوزيت : « ولكن ، إن على ظهرك شيئاً أبيض ! » كان ماريوس وقد استخفه الطرب في الليلة البارحة ، قد زحم كوزيت عند الجدار .

وتوسين العجوز ، التي كانت تأوي إلى فراشها باكراً ، لم تكن تفكر

بشيء غير الذهاب للنوم ، حالما يُنجِز عملها ، فكانت جاهلة كل شيء ، مثل جان فالجان .

ولم يطأ ماريوس ارض المنزل البتة . كان إذا ما التقى بكوزيت احتجبا في حفرة قرب السلم ، لكي لا يراهما أو يسمعهما من الشارع أحد ، وقعدا هناك مكتفيين من الحديث في كثير من الاحيان بأن يضغط احدهما على يد الآخر عشرين مرة في الدقيقة ، فيما هو ينظر إلى اغصان الاشجار . ولو ان صاعقة سقطت ، في تلك اللحظات ، على مدى ثلاثين خطوة منهما ، اذن لما أحسا بها لاستغراق أحلام أحدهما وانغمارها في أحلام الآخر .

طهارات رائقة . ساعات بيضاء كلها ، متشابهة كلها أو تكاد . ان مثل هذا الحب اشبه شيء بمجموعة من اوراق الزنبق وريش الحمام .

كانت الحديقة كلها تفصل ما بينهما وبين الشارع . وكلما دخل ماريوس أو خرج أعاد قضيب الباب الحديدي إلى موضعه في عناية بالغة بحيث لا يلحظ أحد خللا ما .

وكان يغادر المكان ، عادة ، حوالى منتصف الليل ، عائداً إلى غرفة كورفيراك . وقال كورفيراك لباهوريل :

ــ « هل تصدق هذا ؟ ماريوس يرجع إلى الغرفة في هذه الايام في الساعة الواحدة صباحاً . »

وأجاب باهوريل :

ــ « وماذا تتوقع ؟ ان لكل فتى عهداً ينصرف فيه إلى ملذاته . »

وبين الفينة والفينة كان كورفيراك يطوي ذراعيه ، ويصطنع سيماء من الجد ، ويقول لماريوس :

ــ « أنت مشتت الذهن شارد اللب ، ايها الفتى ! »

كان كورفيراك رجلا عملياً ، ولم يكن ليرتضي انعكاس هذه الجنة غير المنظورة على وجه ماريوس . وكان قليل الرغبة في تلك

العواطف المكبوحة . كان يضيق صدره بها . وكان يوجه إلى ماريوس بين الحين والحين بعض النذر التي تعيده إلى الواقع .

وذات صباح وجه إلى ماريوس هذا التعنيف :

– « يا صديقي العزيز ، انت توقع في نفسي ، هذه اللحظة ، انك مقيم في القمر ، مملكة الاحلام ، اقليم الاوهام ، الذي عاصمته « فقاقيع الصابون » . تعال ، كن ولداً طيباً ، وقل لي ما اسمها ؟ »

ولكن شيئاً لم يستطع أن يحمل ماريوس على « الاعتراف » . كان في إمكان المرء ان ينتزع اظافره بأسرع مما ينتزع منه واحداً من ذينك المقطعين المقدسين اللذين يشكلان ذلك الأسم الممتنع على الوصف : **كوزيت** . ان الحب الصادق نيّر كالفجر ، صامت كالقبر . كان كل ما طرأ على ماريوس من تغير ، في نظر كورفيراك ، أن صمتاً مشعاً قد غلب عليه .

وطوال شهر نوار العذب هذا ، عرف ماريوس وكوزيت هذه المباهج اللامتناهية :

أن صما ، وان يخاطب احدهما الآخر بضمير الجمع ليعودا بعدُ فيتخاطبا بضمير المفرد ؛

أن يتحدثا في اسهاب ، غير تاركين شاردة ولا واردة ، عن أناس لم يكن لهما اهتمام بهم البتة ، وهذا دليل آخر على ان القصيدة الغنائية ، في هذه الاوبرا الفاتنة ، تكاد تكون لا شيء ؛

وبالنسبة إلى ماريوس ، أن يسمع كوزيت تتحدث عن الملابس؛

وبالنسبة إلى كوزيت ، ان تسمع ماريوس يتحدث في السياسة ؛

أن يسمعا ، والركبة تمس الركبة ، العربات تجري في « شارع بابل » ؛

أن يحدقا في الفضاء إلى نجم واحد ، والى دودة واحدة تتوهج بين العشب ؛

ان يلتزما الصمت معاً ، وتلك بهجة أعظم من بهجة الكلام ؛

الـخ . الـخ .

وفي غضون ذلك كانت تعقيدات مختلفـة تقترب .

فذات مساء ، كان ماريوس يتخذ سبيله في جادة الانفاليد إلى لقاء الحبيبة . وكان من دأبه ان يسير مطأطىء الرأس ، وفيما هو ينعطف عند زاويـة شارع بلوميه سمع رجلا يقول على مقربة دانية منه :

— « مساء الخير ، يا مسيو ماريوس . »

ورفع رأسه ، فتبيّن ايبونين .

وخلّف ذلك اثراً فريداً في نفسه . إنـه لم يفكر مرة بهذه الفتاة منذ اليوم الذي قادته فيه إلى شارع بلوميه ؛ إنه لم يرها كرة ثانية قـط ، وكانت قد امّحت من ذهنه بالكلية . كان لا يحمل لها إلا عاطفة اعتراف بالجميل ، فقد كان مديناً لهـا بسعادته الحاضرة ، ومع ذلك فقد ازعجه لقاؤها .

من الخطـأ الافتراض ان العاطفة ، حين تكون سعيدة وطـاهرة ، تقود المرء إلى حال من الكمال ؛ إنها تقوده بكل بساطة ، كما قلنـا من قبل ، إلى حال من النسيان . وفي هذا الوضع ينسى المرء ان يكون طالحـاً ، ولكنه ينسى أيضاً ان يكون صالحـاً . ان الاعتراف بالجميل ، والواجب ، والذكريات الأساسية والمزعجة لتتلاشى . ولو قد التقى ماريوس بأيبونين في ايمـا وقت آخر إذن لـكان شعوره نحوها مختلفـاً بالمرة . إنـه وقد استغرق في التفكير بكوزيت لم ينتبه انتباهاً واضحاً حتى إلى ان اسم ايبونين هـذه كان ايبونين تيناردييه ، وانهـا كانت تحمـل اسماً مكتوباً في وصية أبيه ، اسماً كان خليقاً بـه ، قبل بضعة اشهر ، ان يتفانى في الاخلاص له بحرارة وحماسة . إننا نصور ماريوس كما قد كان تماماً . لقد زال ابوه نفسه ، بعض الشيء ، من وجدانـه تحت سناء حبه .

واجاب في شيء من الارتباك :

— « ماذا ؟ هذا أنت ، يا ايبونين ؟ »

— « لماذا تخاطبني بمثل هذه الصرامة ؟ هل عملت لك شيئاً ؟ »

واجاب :

— « لا . »

ولم يكن لينقم عليها شيئاً ، من غير ريب . لا ، كانت النقمة عليها أبعد شيء عن فؤاده . كل ما هنالك انه استشعر أن ليس في مكنته ان يتحدث إلى ايبونين — بعد ان همس في اذن كوزيت —غير حديث بارد.

واذ التزم الصمت ، صاحت :

— « قل لي الآن ... »

ثم سكتت . لقد بدا وكأن الكلمات خانت هذه المخلوقة التي كانت في وقت ما ، وقحة غير مبالية إلى ابعد الحدود . وحاولت ان تبتسم ، فلم تستطع . واردفت :

— « حسناً ؟ ... »

ثم اعتصمت بالصمت كرة اخرى ، ووقفت مطرقة بعينيها إلى الارض .

وفجأة قالت :

— « مساء الخير ، يا مسيو ماريوس . »

ومضت لسبيلها .

٤
العربة تجري في الانكليزية وتعوي في لغة السوقة

وفي اليوم التالي — وكان اليوم الثالث من حزيران ، الثالث من حزيران عام ١٨٣٢ وهو تاريخ ينبغي أن ننص عليه بسبب من الحوادث

الخطيرة التي كانت تتدلى فوق افق باريس كالسحب المشحونة بالرعد — كان ماريوس يتخذ بعد هبوط الليل تلك الطريق نفسها التي اتخذها البارحة ، وقد اعتلجت في فؤاده الأفكار الجذلى نفسها ، عندما لاحظ ، بين اشجار الجادة ، ان ايبونين تقترب منه . وكان في تكرر ذلك مرتين متواليتين شيئاً فوق ما يحتمله . فاستدار مسرعاً ، وغادر الجادة ، مغيراً طريقه ، قاصداً إلى شارع بلوميه من خلال شارع « لو مسيو » .

فما كان من ايبونين إلا أن لحقت به إلى شارع بلوميه ، وهو شيء لم تقم به قط من قبل . كانت تكتفي حتى ذلك الحين بأن تراه يتخذ طريقه في الجادة من غير أن تسعى حتى إلى الاجتماع به . وفي الليلة البارحة ، فحسب ، كانت قد حاولت ان تتحدث اليه .

لقد تبعته ايبونين إذن ، من غير ان يشعر هو بذلك . ورأته يدفع قضيب الباب الحديدي جانباً ، وينسلّ إلى الحديقة .

وقالت :

— « ولكن ... إنه يدخل المنزل . »

واقتربت من الباب الحديدي ، ومست القضبان واحداً بعد آخر ، وفي سهولة اكتشفت ذلك القضيب الذي سبق لماريوس ان أزاحه .

وغمغمت هامسة ، وفي نبرة فاجعة :

— « لن يتم شيء من ذلك ، يا ليزيت ! »

وجلست على أساس الباب الحديدي ، قريباً جداً من ذلك القضيب ، وكأنما كانت تحرسه . كان ذلك عند تلك النقطة التي التقى فيها الباب الحديدي بالجدار المجاور مباشرة . كانت ثمة زاويةٌ مظلمة استطاعت ايبونين أن تختبىء فيها اختباء تاماً .

وظلت على هذه الحال اكثر من ساعة ، من غير ان تتحرك ، أو تتنفس ، فريسةً لافكارها الخاصة .

وحوالى الساعة العاشرة مساء ، التزم سياجَ الحديقة واحدٌ من عابري

السبيل الاثنين أو عابري السبيل الثلاثة في شارع بلوميه — وهو بورجوازي عجوز متأخر عن موعده فهو يسرع الخطى في ذلك المكان المهجور الرديء السمعة . حتى إذا انتهى إلى تلك الزاوية التي شكلها الباب الحديدي مع الجدار ، سمع صوتاً مهدداً نكداً يقول :

— « انا لن اعجب بعد اليوم إذا ما جاء كل ليلة ! »

وأجال عابر السبيل بصره في ما حوله ، فلم ير أحداً ، ولم يجرؤ على النظر إلى تلك الزاوية المظلمة ، فقد كان مروعاً جداً . وضاعف سرعة خطوه .

وكان من حق هذا الشخص ان يسرع ، إذ دخل شارع بلوميه ، بعد لحظات قلائل ، ستة رجال كانوا يسيرون على انفراد ، وقد فصلت ما بين احدهم والآخر مسافة ما ، في محاذاة الجدار ، على نحو قد يوهم المرء بأنهم حرس نشوان بعض الشيء .

حتى إذا انتهى أولهم إلى باب الحديقة الحديدي وقف وانتظر سائر الجماعة . وما هي إلا ثانية حتى كان الستة كلهم قد اجتمعوا .

وشرع هؤلاء الرجال يتحدثون في صوت خفيض .

وقال واحد منهم :

— « إنه هنا . »

وتساءل آخر :

— « هل يوجد عربة * في الحديقة ؟ »

— « لست أدري . وعلى كل حال فقد جئت برصاصة سوف تجعله يأكل : »

— « هل عندك معجون مثبت لكسر النافذة ؟ » **

---

* العربة في لغة السوقة : تعني الكلب .

** ذلك ان هذا المعجون المثبت (اللاقونة) يمسك الزجاج ، أثناء كسر النافذة ، ويمنع الضجة .

— « نعم . »

واضاف خامس كان ذا صوت أشبه بصوت المتكلم من بطنه :

— « الباب الحديدي عتيق . »

فقال الثاني الذي سبق له ان تكلم :

— « هذا أفضل . إنه لن يصرخ تحت المنشار . ولن يكون من العسير قطعه . »

وشرع السادس ، الذي لم يكن قد فتح فمه بعد ، يفحص الباب الحديدي كما فعلت ايبونين قبل ساعة ، ممسكاً بكل قضيب من قضبانه على التعاقب ، هازاً إياه في عناية . وعلى هذا النحو انتهى إلى القضيب الذي كان ماريوس قد اقتلعه . ولم يكد يمسك بهذا القضيب حتى سقطت على ذراعه يد انبثقت فجأة من الظلام ، واستشعر انه يُدفع من وسط صدره دفعاً عنيفاً إلى الوراء . وقال له صوت أبحّ من غير ان يصيح :

— « هناك عربة » (كلب)

وفي الوقت نفسه رأى فتاة شاحبة الوجه واقفة أمامه .

واستشعر الرجل ذلك الارتجاج الذي تبعثه الاشياء غير المتوقعة دائماً . وتنمّر على نحو مروّع . فليس ادعى إلى الرعب من رؤية الوحوش الضارية مغتاظة ؛ إن منظرها وهي مرعوبة يوقع الرعب في النفس . وارتد إلى الوراء ، وغمغم :

— « من هذه المخلوقة ؟ »

— « ابنتك . »

وفي الحق ان ايبونين هي التي كانت تتحدث مع تيناردييه .

ولدن ظهور ايبونين اقترب الخمسة الآخرون ، يعني كلاكسو ، وغولوميه ، وبابيه ، ومونبارناس ، وبروجون ، من غير ضجة ، ومن غير عجلة بالغة ، ومن غير ان يقولوا كلمة واحدة . لقد اقتربوا بذلك البطء المشؤوم المميز لرجال الليل هؤلاء .

وفي أيديهم كان في ميسور المرء ان يتبين بعض الادوات الرهيبة الغريبة . وكان غولوميه يحمل واحداً من تلك الكلاليب الملوية التي يدعوها المطوفون بالليل Fanchons .

وهتف تيناردييه على قدر ما يستطيع امرؤ ان يهتف في همس :

— « آي ، هاي ، ماذا تفعلين هناك ؟ اي شيء تريدينه منا ؟ هل أنت مجنونة ؟ لماذا تجيئين إلى هنا وتعترضين عملنا ؟ »

وشرعت ايبونين تضحك ، ووثبت إلى عنقه .

— « انا هنا ، يا ابي الحبيب ، لأني هنا . هل ثمة قانون يحرم الجلوس على الحجارة في هذه الايام ؟ إنك انت الذي ما كان ينبغي ان تكون هنا . ما الذي جاء بك إلى هنا ما دامت المسألة « بسكويتة » ؟ لقد قلت ذلك لمانيون . ليس هنا شيء يُعمل . ولكن عانقني الآن ، يا أبي الطيب العزيز ! ما اطول المدة التي حُرمت فيها النظر اليك ! لقد خرجتَ اذن ؟ »

وحاول تيناردييه ان يتحرر من ذراعي ايبونين ، وغمغم :

— « حسن جداً . لقد عانقتني . أجل ، لقد خرجت . أنا لم أعد داخل الجدران . والآن ، اذهبي . »

ولكن ايبونين لم تدع أباها يفلت من بين ذراعيها ، وضاعفت ملاطفاتها له :

— « يا والدي الحبيب ، كيف فعلت ذلك ؟ لا ريب في انك تسلحت بكثير من الذكاء حتى خرجت من هناك ! اخبرني عن ذلك ! وأمي ؟ أين امي ؟ أعطني بعض الأخبار عن أمي . »

وأجاب تيناردييه :

— « إنها في خير . لست أدري . دعيني . اقول لك اذهبي . »

وقالت ايبونين في غنج ولد مدلل :

— « انا لا اريد ان اذهب في هذه اللحظة . انت تطردني بعد ان

انقضى عليّ اربعة اشهر لم أرك فيها . وقبل ان اجد متسعاً من الوقت لمعانقتك . »

وأمسكت أباها كرة اخرى من عنقه .

وقال بابيه :

— « آه ، كفى ، هذا حمق ! »

وقال غولوميه :

— « فلنسرع ! إن رجال الشرطة قد يمرون . »

وانشد ذو الصوت البطيّ هذين البيتين :

ليس هذا اول يوم في السنة الجديدة
حتى نعانق بابا وماما عناقاً حاراً

والتفتت ايبونين إلى قطاع الطرق الخمسة :

— « ولكن ، هذا مسيو بروجون . نهارك سعيد ، يا مسيو بابيه . صباح الخير ، يا مسيو كلاكسو . ألا تذكرني ،يا مسيو غولوميه ؟ كيف حالك ، يا مونبارناس ؟»

فقال تيناردييه :

— « نعم . انهم يعرفونك . ولكن طاب يومكِ طاب مساؤك . أغربي من هنا ! لا تزعجينا ! »

فقال مونبارناس :

— « هذه ساعة الثعالب ، لا ساعة الدجاج ! »

وأضاف بابيه :

— « انت ترين أننا نعتزم ان نشتغل هنا ... »

وأمسكت إيبونين بيد مونبارناس :

وقال :

— « انتبهي . قد تجرحين نفسك . إن معي سكيناً مفتوحة . »

فأجابت ايبونين في رقة بالغة :

– « يا صغيري مونبارناس . ينبغي ان تكون لنا ثقة بالناس . انا ابنة أبي ، ربما . مسيو بابيه ، مسيو غولوميه ، إني انا التي كُلفت باجراء البحث حول هذه المسألة . »

ومما يلفت النظر ان ايبونين لم تتكلم لغة السوقة . فمنذ ان عرفت ماريوس ، أمست تلك اللغة الرهيبة متعذرة عليها .

وضغطت بيدها الصغيرة – العَظْميّة الضعيفة مثل يد جيفة – على اصابع غولوميه الخشنة الضخمة ، وأضافت :

– « انت تعرف جيداً اني لست مجنونة . ان الناس يحسبونني كذلك في الاغلب . ولقد اديت اليك خدمة في بعض الاحيان . حسن ، لقد جمعت كافة المعلومات عن هذه المسألة ، وانت قد تعرض نفسك للخطر ، على غير طائل . أفهمت ؟ أقسم لك انه ليس ثمة ما تستطيعون أن تعملوه في هذا البيت . »

فقال غولوميه :

– « هناك نسوة متوحدات . »

– « لا . إن ساكنيه قد انتقلوا . »

فقال بابيه :

– « ولكن الشموع لم تنتقل على كل حال . »

ولفت نظر ايبونين ، من خلال رؤوس الاشجار ، إلى ضوء كان يتحرك في عليّة البيت الصغير . كانت هي توسين ، استيقظت من رقادها لكي تنشر ثيابه فتجف .

وبذلت ايبونين جهداً أخيراً .

وقالت :

– « حسناً ، إنهم قوم فقراء جداً . وإنه لكوخ ليس فيه فلس واحد . »

وصاح تيناردييه :

— « اذهبي إلى الجحيم . وحين نقلب البيت رأساً على عقب ، وحين نجعل التبو في الاعلى ، ونجعل العلّية في الاسفل ، نخبرك ما الذي وجدناه في الداخل ، وما إذا كانت فرنكات ، ام فلوساً ، ام ارباع فلوس .»

ودفعها لـكي يمـر .

وقالت :

— « يا صديقي العزيز مسيو مونبارناس . اتوسل اليك ، انت الولـد الطيب ، ان لا تدخل إلى هناك . »

فأجاب مونبارناس :

— « احذري . سوف تجرحين نفسك . »

واضاف تيناردييه في لهجـة حاسمة :

— « اغربي ، ايتها البنت ، ودعي الرجال يقومون بعملهم ! »

وخلّت يـد مونبارناس ، التي كانت قـد امسكت بهـا مـرة ثانية ، وقـالت :

— « سوف تدخل إلى المنزل اذن ؟ »

فقال ذو الصوت البطني ، في ضحكة ساخرة :

— « بعض الشيء ! »

ثم اسندت ظهرها إلى الباب الحديدي ، وواجهت قطاع الطرق الستة المدججين بالسلاح ، والذين خلع عليهم الليل وجوهاً كوجوه الابالسة ، وقالت في صوت خفيض وثابت :

— « حسن . انا لا أريد ذلك . »

ووقفوا مشدوهين . أما ذو الصوت البطني فأكمل ضحكتـه الساخرة . واردفت :

— « ايها الأصدقاء . أصغوا الي ! ليس هذا هو المقصود . الآن سأتكلم . قبل كل شيء إذا دخلتم الحديقة ، إذا لمستم هـذا الباب

الحديدي ، فسوف اصرخ ؛ سوف أدق على الابواب ؛ سوف اوقظ كل انسان من نومه ؛ سوف ادعو السلطة إلى اعتقالكم جميعاً ، انتم الستة ؛ سوف انادي الشرطة . »

وفي صوت خفيض قال تيناردييه لبروجون ولصاحب الصوت البطني :

— « إنها لن تتورع عن ذلك . »

وهزت رأسها ، وأضافت :

— « وسأبدأ بأبي ! »

واقترب تيناردييه .

وقالت :

— « لا تقترب إلى هذا الحد ، ايها الرجل الطيب ! »

ونكص على عقبيه ، مغمغماً من بين أسنانه ·

— « ولكن ، ماذا دهاها ؟ »

ثم اضاف :

— « كلبة ! »

وانشأت تضحك في طريقة فظيعة :

— « كما تريد ، انك لن تدخل ، انا لست ابنة كلب ، لانني ابنة ذئب . أنتم ستة . وما يهمني ذلك ؟ انتم رجال . حسناً ، إنني امرأة . أنا لست خائفة منكم ،ولو قليلا . اقول لكم انكم لن تدخلوا إلى هذا المنزل ، لأن ذلك لا يروق لي . وإذا تقدمتم ، فسوف أنبح . لقد قلت لكم ، انا الـ« العربة » * . انا لا ابالي بكم . امضوا في سبيلكم ، فانكم تزعجونني ! اذهبوا حيث شئتم ، ولكن لا تأتوا إلى هنا . انا امنع ذلك . إن معكم سكاكين ، أما انا فعندي قدمان ويدان . لا فرق . والآن تقدموا ! »

وخطت خطوة نحو قطاع الطرق . كانت فظيعة . وبدأت تضحك .

---

* الكلب .

— « يا للشيطان ! أنا لست خائفة . هذا الصيف ، سوف أتضور من الجوع . وهذا الشتاء ، سوف ارتعد من البرد . هل هم مجانين ، هؤلاء الرجال المغفلون ، حتى يعتقدوا أن في امكانهم أن يخيفوا فتاة ! ومن اي شيء ! خائفة ؟ آه ، يا سلام ، حقاً ! لأن عندكم خايلات شريرات يختبئن تحت الفراش عندما ترفعون أصواتكم . ولكن هذا لن يفيدكم هنا . أنا لست خائفة من شيء ! »

وأبقت عينها مسمرة على تيناردييه ، وقالت :

— « وحتى منك انت ! »

ثم تابعت ، مجيلة حدقتيها الشبحيتين الداميتين في قطاع الطرق :

—«وماذا يضيرني سواء انتشلوني غداً عن حصباء شارع بلوميه وقد ضربني أبي بهراوته حتى الموت ، او عثروا عليّ بعد عام في خنادق سان كلو ، أو في « جزيرة البجع » ، وسط الخمارات العتيقة الفاسدة والكلاب الميتة ؟ »

واضطرت إلى الصمت ، فقد استبد بها سعال جاف ، وخرج نفسها كالحشرجة من صدرها الضيق الضعيف .

واردفت قائلة :

— « صيحة واحدة اطلقها وعندئذ يجيئون في الحال ! انتم ستة ، اما أنا فالناس جميعاً . »

وتحرك تيناردييه في اتجاهها .

وصاحت :

— « حذار أن تقترب ! »

ووقف تيناردييه ، وقال لها في رقة :

— « حسن . لا ، لن اقترب . ولكن لا تتكلمي بمثل هذا الصوت المرتفع . انك تريدين ، اذن ، أن تعوقينا عن عملنا ، يا ابنتي ؟ ومع ذلك فأن علينا ان نكسب رزقنا . ألم يعد في قلبك

اي حب لأبيك ؟ »
فقالت ايبونين :
— « انت تُضجرني . »
— « ومع ذلك ، فأن علينا ان نعيش ، إن علينا أن نأكل ... »
— « موتوا . »
قالت ذلك ، وجلست على اساس الباب الحديدي ، متغنية بصوت خفيض :

« إن ذراعي بضة جداً ،
وان ساقي حسنة التكوين ،
ومع ذلك فوقتي ضائع مهدور . »

كان مرفقها على ركبتها ، وذقنها في يدها ، وكانت تذبذب قدمها في سيما من اللامبالاة . كان ثوبها مليئاً بالثقوب ، وكان يكشف عن ترقوتيها المهزولتين . واضاء المصباح المجاور صورتها الجانبية ووضْعها العام . كانت اشد ما يكون المرء عزماً وادعى إلى الدهشة .

أما السفاحون الستة ، وقد أذلهم وأيأسهم ان تصدهم عن سبيلهم فتاة صغيرة ، فقد مضوا تحت ظل المصباح الواقي ، وتشاوروا في الأمر وهم يهزون اكتافهم هزة ذليلة وضارية .

وراقبتهم ، خلال ذلك ، في سيماء هادئة ولكنها رهيبة .

وقال بابيه :

— « هناك شيء ما . هناك سبب . أهي واقعة في غرام «العربة» * ؟ ومع ذلك فمن المؤسف ان نخسرها . أمرأتان ، وعجوز يعشنَ في فناء خلفي . إن هناك ستائر لا بأس بها على النوافذ . ولا شك في أن الرجل العجوز يهودي . احسب ان الصفقة رابحة . »

فهتف مونبارناس :

* الكلب .

— « حسن ، ادخلوا أنتم . قوموا بالمهمة . سوف أبقى أنا هنا مع الفتاة ، وإذا ما تحركت ... »

وجعل المدية المفتوحة التي كانت في يده تتوهج تحت ضوء المصباح .

ولم ينطق تيناردييه بكلمة ، وبدا مستعداً لكل شيء .

أما بروجون ، الذي كان شبه هتاف من هتافات الآلهة ، والذي كان كما نعلم قد رتب المسألة ،فلم يكن قد نبس بحرف . كان يبدو مستغرقاً في التفكير . وكان معروفاً بعدم التراجع في وجه شيء ما ، وكانت الجماعة كلها تعلم انه نهب ذات يوم ، لمجرد الاعتزاز ، مركزاً من مراكز البوليس . وإلى هذا ، فقد كان ينظم الشعر والاناشيد ، وذلك ما أمده بسلطان عظيم .

وسأله بابيه :

— « انت لا تقول شيئاً ، يا بروجون ؟ »

واعتصم بروجون بالصمت لحظة اخرى ، ثم هز رأسه على انحاء متعددة مختلفة ، واخيراً قرر ان يتكلم .

— « اسمع : لقد لقيت هذا الصباح عصفورين من عصافير الدوري يتقاتلان . وهذا المساء اصطدمت بامرأة مخاصمة . وهذا كله يؤذن بالشر . فلنمض لسبيلنا . »

ومضوا لسبيلهم .

وفيما هم يمضون ، غمغم مونبارناس :

— « لا بأس . لو انهم وافقوا ، لجعلتها تحس ثقل يدي . »

أجابه بابيه :

— « أما انا فما كنت لأفعل ذلك . أنا لا اضرب سيدة . »

وعند زاوية الشارع ، وقفوا وتبادلوا هذا الحوار الملغز في صوت مخنوق :

— « اين سننام هذه الليلة ؟ »

– « تحت باريس . »
– « هل مفتاح الباب الحديدي معك ، يا تيناردييه ؟ »
– « اجـل . »

ورأتهم ايبونين – الـتي لم ترفع عينيها عنهم – يرجعون من حيث جاءوا . ونهضت وشرعت تزحف في محاذاة الجدران والبيوت من خلفهم . لقد لحقت بهم حتى الجادة . وهناك افترقوا ، ورأت هؤلاء الرجـــال يغرقون في الظلمة التي بدوا وكأنهم قد ذابوا فيها .

٥
أشياء الليـــل

بعد انصراف قطاع الطرق ، استعاد شارع بلوميه مظهره الليـــلي الســـاجي .

إن ما قـد حدث خلال تلك اللحظـة في ذلك الشارع ما كـــان له ان يدهش غابة . إن الاشجار ، والأدغـال ، ومنـــابت الخلنـــج ، والاغصان المتداخـلة في شراسة ، والاعشاب الطويلة لتنسم بوجود قاتم . وان هذه الجمهرة الوحشية لتشهد هنـاك رؤى مفاجئة من اللامنظور . هناك ، ومن خلال الظلمة ، يتبين ما تحت الانسان ما فوق الانسان ، وهناك في الظلام تلتقي الاشياء التي نجهلها نحن الأحياء . والطبيعة الشائكة الشقراء لتذهل عند بعض المنافذ حيث يبدو انها تلمس الخارق وغـــير الطبيعي . إن قوى الظلام يعرف بعضها بعضاً ، وإن لهـا في ما بينهـــا موازنات غريبة . إن الاسنان والبراثن لتخشى اللاملموس . والوحشيـة الظامئة إلى الدم ، والشهوات الجائعة المتلمسة للفريسة ، والغرائز المسلحة بالاظفار والانياب والتي لا أصل لها ولا غاية غير البطن ، ترى وتستروح ،

في قلق . تلك الاسارير الشبَحية الثبتة الجنان تطوّف تحت كفن ، قائم في ثوبه الداكن المرتعد ، البادي لهم وكأنه يحيا حياة ميتة رهيبة . وهذه القطائع ، التي لا تعدو ان تكون مادة ، تخشى اشد الخشية ان تكون لها ايما علاقة بالظلمة اللامحدودة المكثفة في كائن مجهول . . إن صورة سوداء صادة عن السبيل لتوقف الوحش الضاري فجأة . فذلك الذي يخرج من المقبرة ليرهب ذلك الذي يخرج من الكهف ويُحبط تدبيره . إن الضاري ليخاف المشؤوم ، والذئاب تتراجع في وجه غول من الغيلان .

٦
ماريوس يصبح واقعياً الى درجة تجعله يقدم عنوانه الى كوزيت

فيما كانت تلك الكلبة ذات الصورة البشرية تقوم بعبء الحراسة أمام الباب الحديدي ، وفيما كان قطاع الطرق الستة يولون الأدبار أمام فتاة من الفتيات ، كان ماريوس مع كوزيت .

لم تكن السماء في ايما وقت مضى أحفل بالنجوم ولا اكثر فتنة ، ولم تكن الاشجار اكثر ارتعاشاً ، وعبق الاعشاب اشد نفاذاً ؛ لم تأو الطيور للنوم بين اوراق الشجر ، في ايما وقت مضى ، بصوت ارق وانعم ؛ ولم تستجب جميع انسجامات الصفاء الكوني في ايما وقت مضى بأحسن مما استجابت لموسيقى الحب الباطنية ؛ ولم يكن ماريوس في ايما وقت مضى أبعد هياماً ، واكثر سعادة ، واعمق نشوة روحية . ولكنه كان قد ألفى كوزيت محزونة . كانت كوزيت تبكي . وكانت عيناها حمراوين .

كانت هذه اول سحابة في ذلك الحلم الرائع .

وكانت أول كلمة فاه بها ماريوس :

— « ما بكِ ؟ »

— « انظر . »

ثم جلست على المقعد المجاور للسلم ، وفيما هو يتخذ مجلسه مرتعد الاوصال إلى جانبها ، اضافت قائلة :

— « لقد انبأني ابي هذا الصباح ان اكون على استعداد ، وان لديه اشغالا ، واننا قد نضطر إلى الرحيل . »

وارتجف ماريوس من قمة رأسه إلى اخمص قدميه .

فحين نكون في خاتمة الحياة يؤدي الموت معنى الفراق . وحين نكون في مستهل الحياة يؤدي الفراق معنى الموت .

منذ ستة اسابيع وماريوس يمتلك كوزيت شيئاً بعد شيء ، وعلى مهل ، ودرجة اثر درجة . امتلكها امتلاكاً مثالياً كاملا ، ولكنه عميق. وكما ذكرنا من قبل ، فاننا في الحب الأول نستولي على النفس قبل الجسد بكثير ، اما في ما بعد فاننا نستولي على الجسد قبل ان نستولي على النفس بكثير . وفي بعض الاحيان لا يتم الاستيلاء على النفس البتة . ويضيف الفوبلاويون * والبرودوميون ** قائلين : لأنه لا توجد نفس على الاطلاق . ولكن السخرية هي ، لحسن الحظ ، تجديف . اذن فقد امتلك ماريوس كوزيت كما تمتلك العقول . ولكنه احاطها بروحه كلها وتشبث بها ، في غيرة ، بيقين لا سبيل إلى تصديقه . لقد امتلك ابتسامتها ، وانفاسها ، ورياها ، واشعاع عينيها الزرقاوين العميق ونعومة بشرتها حين مس يدها ، والعلامة الفاتنة التي كانت على جيدها ، وافكارها كلها . كانا قد تعاهدا على ان لا يأويا للرقاد ابداً من غير ان

---

* نسبة الى فوبلا Faublas (أو غراميات فارس فوبلا) وهي رواية شهيرة من تأليف لوفيه دو كوفراي . وهي تصور اخلاق القرن الثامن عشر السيئة تصويراً خفيفاً .

** نسبة الى برودوم Prudhomme وهو شخصية نموذجية تمثل العجز المحبور ، والابتذال الأستاذي ، كما اظهرها هنري مونييه Monnier في كتابه مذكرات جوزيف برودوم ١٨٥٧ .

يحلم احدهما بالآخر ، ولقد أوفيا بعهديهما . لقد امتلك احلام كوزيت كلها . لقد تأمل في غير ملل ، — وفي بعض الاحيان كان يمس بأنفاسه — تلك الشعرات القصار التي على مؤخر عنقها ، وقال في ذات نفسه انه ليس بين هذه الشعرات القصار واحدة لا يملكها هو ، ماريوس؟ كان يرنو مدلهاً إلى ما تلبسه ، إلى عقدة وشاحها ، إلى قفازيها ، إلى الزينة التي ازدان بها طرفا كميها ، إلى حذائها العالي ذي الرباط ، وكأنها اشياء مقدسة هو المهيمن عليها . لقد ظن انه السيد على هذه الامشاط الصدفية الجميلة التي انبثت في شعرها ، بل لقد قال في ذات نفسه — وهي تمتمات خفية مشوشة للذة أشرقت شمسها — انه لم يكن ثمة خيط في ثوبها ، أو عقدة في جوربها ، أو طية في مشدها ليست له . كان إذا جلس إلى جانب كوزيت يستشعر انه جالس إلى جانب ثروته ، إلى جانب شيء يملكه ، إلى جانب طاغيته ، إلى جانب رقيقه . لقد بدا وكأن نفسيهما قد امتزجتا امتزاجاً بعيداً بحيث لو رغبا في فصلهما اذن لتعذر على المرء ان يميز احداهما عن الاخرى . — « هذه لي . » — « لا ، هذه لي .» — « اؤكد لك انك مخطىء . هذا انا من غير شك» : — « ان ما تحسبه نفسك هو أنا » . كان ماريوس شيئاً يؤلف جزءاً من كوزيت ، وكانت كوزيت شيئاً يؤلف جزءاً من ماريوس . واستشعر ماريوس ان كوزيت تعيش في ذات نفسه . كان فوزه بكوزيت ، وامتلاكه لكوزيت لا ينفصلان ، عنده ، عن تنفّسه . وفي غمرة من هذا الايمان ، من هذا الثمل ، من هذا الامتلاك البتولي ، الفذ المطلق ، من هذه السيادة ، رنت في مسمعيه فجأة هذه الكلمات : « سوف نرحل » . وصاح صوت الحقيقة الفظ مخاطباً اياه : « كوزيت ليست لك ! »

واستيقظ ماريوس . لقد عاش طوال اسابيع ستة ، كما قلنا من قبل ، خارج الحياة . فما كان من هذه الكلمة ، « الرحيل » ، إلا ان اعادته اليها في خشونة .

ولم تجد كلمة تقولها . وقالت له بدورها :
— « ما بك ؟ »
فأجابها بصوت خفيض جداً لم تسمعه كوزيت إلا في عسر :
— « لست أفهم ما قلت . »
ثم اضافت :
— « هذا الصباح قال لي والدي ان ارتب جميع اشيائي الصغيرة وان اكون على استعداد . وانه سوف يعطيني ثيابه لكي اضعها في صندوق للأمتعة ، وانه مضطر للسفر ، واننا سوف نرحل ، وان علي ان اعد صندوقاً كبيراً لأمتعتي وصندوقاً صغيراً لأمتعته ، وان اهيء هذا كله في مدى اسبوع ، واننا قد نذهب إلى انكلترة . »
فصاح ماريوس :
— « ولكن هذا شيء رهيب ! »
ومن الثابت انه ما من استبداد ، ما من عنف ، ما من كراهية لأشد الطغاة وحشية ، ما من عمل من أعمال بوزيريس * ، أو طيباريوس ، أو هنري الثامن ، كانت في تلك اللحظة ، تعدل في ذهن ماريوس وحشية هذا الامر الفظيع : أن مسيو فوشلوفان يعتزم ان يأخذ ابنته إلى انكلترة لأن لديه بعض الاعمال .
وسألها في صوت واهن :
— « ومتى ستنطلقان ؟ »
— « إنه لم يقل متى . »
— « ومتى سترجعان ؟ »
— « إنه لم يقل متى . »
ونهض ماريوس ، وقال في برود :
— « كوزيت ، وهل ستذهبين ؟ »

---

* ملك اسطوري من ملوك مصر ، ذكروا أنه كان يقتل على مذبح آلهته جميع الاجانب الذين يدخلون الى مملكته . وقد قضى عليه هرقل آخر الأمر .

وادارت كوزيت نحوه عينيها الجميلتين الطافحتين بالالم المرير ، واجابته في ضرب من الذهول :

— « إلى أين ؟ »

— « إلى انكلترة ؟ هل ستذهبين ؟ »

— « لماذا تتحدث إليّ هكذا ؟ »

— « انا اسألك ما إذا كنت ستذهبين ؟ »

فقالت وهي تشبك يديها :

— « وماذا تريدني ان افعل ؟ »

— « اذن ، فسوف تذهبين ؟ »

— « إذا ما ذهب ابي ؟ »

— « اذن ، فسوف تذهبين ؟ »

وأمسكت كوزيت بيد ماريوس ، وضغطت عليها من غير ان تجيب .

وقال ماريوس :

— « حسن جداً . اذن ، فسوف اذهب إلى مكان آخر . »

لقد استشعرت كوزيت معنى هذه الكلمة اكثر مما فهمتها . وران الشحوب على وجهها حتى غدا ابيض في الظلام . وتمتمت :

— « ماذا تعني ؟ »

ونظر ماريوس اليها ، ثم رفع عينيه في بطء نحو السماء وأجاب :

— « لا شيء . »

حتى إذا خفض عينيه ، رأى كوزيت تبتسم له . ان لابتسامة المرأة التي نحبها بريقاً في ميسورنا ان نراه ليلا .

— « ما اشد بلاهتنا ! ماريوس ، عندي فكرة . »

— « ماذا ؟ »

— « إذهبْ إذا ذهبنا ! سوف اقول لك إلى اين ! ولسوف تتبعني حيث اذهب . »

كان ماريوس ، الآن ، رجلا كامل اليقظة . كان قد ارتـــد إلى الحقيقة . وصاح قائلا لكوزيت :

— « اذهب معك ؟ امجنونة انت ؟ ولكن ذلك يحتاج إلى مال ، وليس معي شيء منه ! اذهب إلى انكلترة ؟ ولكني مدين الآن — لست أدري — باكثر من عشر ذهبيات لويسية لكورفيراك ، احد اصدقائي الذين لا تعرفينهم ! ولكن عندي قبعة عتيقة لا تساوي ثلاثة فرنكات ، عندي سترة ذهبت بعض الازرار من صدرها ، وقميصي ممزق كله ، ومرفقاي مهترئان ، وحذائي ينفذ اليه الماء . ومنذ ستة اسابيع لم افكر في ذلك قط ، ولم اذكر لك شيئاً عن ذلك . كوزيت ! أنا رجل بائس ! انت لا ترينني إلا تحت جنح الظلام ، وانت تمنحينني حبك . ولو قد رأيتني في النهار اذن لما أعطيتني فلساً واحداً . أذهب إلى انكلترة ؟ آه ، أنا لا املك ما ادفع به نفقات الجواز ! »

وطرح نفسه على شجرة مجاورة ، واقفاً وذراعاه فوق رأسه ، وجبينه إلى لحاء الشجرة ، غير شاعر بالشجرة التي خدشت بشرته ، أو بالحمى التي راحت تضرب صدغيه بمثل المطارق . بلا حراك ، موشكاً أن يقع ، وكأنه تمثال اليأس .

وظل على ذلك فترة طويلة . وقد يبقى المرء في مثل هذه الهُوَى إلى ما لا نهاية . واخيراً استدار . لقد سمع خلفه صوتاً صغيراً مخنوقـاً ، صوتاً رقيقاً محزوناً .

كانت كوزيت تنتحب .

لقد سلخت اكثر من ساعتين وهي تبكي ، فيما كـــان ماريوس مستغرقـاً في التفكير .

واقبل نحوها ، وانحنى على ركبتيها ، ثم خر وئيداً وأمسك بمقـدم حذائها المنبثق من تحت ثوبها ، وقبّله .

وتركته يفعل ذلك في صمت . فهناك لحظات ترتضي فيها المرأة ،

مثل إلاهة كئيبة مستسلمة ، دِينَ الحب .

وقال :

— « لا تبكي . »

وغمغمت :

— « إني افعل لأني قــد ارحل ، وليس في استطـــاعتــك ان تذهب معي . »

وأضاف :

— « أتحبينني ؟ »

فأجابته بأن زفرت تلك الكلمة التي تحمل روائح الجنة ، والتي تكون على اعظم قدر من السحر حين تنطلق من خلال الدموع :

— « أنا اعبدك ! »

وأردف في جرس كان ينطوي على ملاطفة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— « لا تبكي . قولي لي . اتريدين ان تكفّي عن البكاء من اجلي ؟ »

وقالت :

— « اتحبني انت ايضاً ؟ »

وأمسك بيدها :

— « كوزيت ، لم يسبق لي قط ان اعطيت كلمة الشرف إلى امرىء ما ، لأن كلمة الشرف توقع الرعب في قلبــي . إني استشعر ان ابــي إلى جانبي . والآن ، أقسم بالشرف الاقدس انك إذا رحلـــت فسوف أمــوت . »

كان في النبرة التي نطق بها هذه الكلمات كـآبة جليلة وهادئة إلى درجــة حملت كوزيت على الارتعاد . لقد استشعرت تلك القشعريرة التي تُنزلها في اوصالنا واقعة حقيقية صارمة تجتاز بها . ونتيجةً لتلك الصدمة كفت عن البــكاء .

وقــال :

— « والآن ، اسمعي ، لا تتوقعي ان اجيء غداً ! »

— « ولم لا ؟ »

— « لا تتوقعي ان اجيء إلا بعد غد ! »

— « اوه ، ولم لا ؟ »

— « سوف ترين . »

— « اينقضي يوم لا اراك فيه ؟ ولكن ، إن هذا مستحيل ! »

— « دعينا نضحي بيوم واحد ، فقد نكسب حياة كاملة ! »

واضاف ماريوس في همس ، وعلى انفراد :

— « إنه رجل لا يغير أياً من ثيابه ، ولم يستقبل قط ايما امرىء قبل هبوط الظلام . »

وتساءلت كوزيت :

— « عن اي رجل تتكلم ؟ »

— « انا ؟ انا لم اقل شيئاً . »

— « ما الذي ترجوه إذن ؟ »

— « انتظر إلى ما بعد غد . »

— « أنت تريد ذلك ؟ »

— « نعم ، يا كوزيت . »

وأمسكت رأسه بيديها الاثنتين ، رافعة نفسها على رؤوس أصابعها لكي تطاله ، محاولة ان ترى أمله في عينيه .

واردف ماريوس :

— « يتراءى لي انه يتعين علي ان اعطيك عنواني . إن شيئاً قد قد يحدث ، لسنا ندري . أنا أحيا مع صديق يدعى كورفيراك ، شارع دو لا فيريري ، رقم ١٦ . »

ووضع يده في جيبه واخرج « مدية — مبراة » ، وكتب بشفرتها على جص الباب :

« ١٦ شارع دو لا فيريري » .

وفي غضون ذلك ، شرعت كوزيت تنظر إلى عينيه من جديد .

— « قل لي ما هي فكرتك . ماريوس ، إن لديك فكرة . قل لي : اوه ! قل لي لكي اقضي ليلة سعيدة ! »

— « ان فكرتي هي هذه : من المستحيل ان يرغب الله في تفريقنا : انتظريني بعد غد . »

وقالت كوزيت :

— « ما الذي سأفعله حتى تلك اللحظة؟ انت ، أنت في الخارج ، انت تروح ، وانت تجيء ! ما اسعد الرجال ! أما أنا فيجب ان أبقى وحدي . أوه ، ما اشد الحزن الذي سيستبد بي ! ما الذي ستعمله مساء غد ، قل لي ! »

— « سوف أحاول شيئاً . »

— « إذن سوف أتضرع إلى الله ، ولسوف افكر فيك من الآن حتى تلك اللحظة ، رجاة ان تنجح . انا لن اوجه اليك ايما سؤال جديد ، ما دمت لا ترغب في أن أفعل ذلك . انت سيدي المطاع . إني سأنفق عشيتي غداً منشدة موسيقى « اوريانت » * التي تحبها ، والتي اقبلتَ ذات مساء لكي تسمعها خلف مصراع نافذتي . أما بعد غد ، فسوف تأتي باكراً . سوف انتظرك ليلا ، في الساعة التاسعة تماماً . لقد أنذرتك ! أوه ، يا الـهي . كم يحزنني ان تكون الأيام طويلة ! أفهمت : عندما تعلن الساعة التاسعة ، سأكون في الحديقة . »

— « وأنا ايضاً . »

واستثارتهما فكرة واحدة ، وجذبتهما تلك التيارات الكهربائية التي تجعل المحبين على اتصال مستمر ، وتملأ بالبهجة حتى في أساهما ،

* Euryanthe أوبرا في ثلاثة فصول . وضعت كلماتها مدام دو شيزي Mme de Chézy ، ووضع موسيقاها ويبير Weber . (١٨٢٣) .

وانكب كل منهما على ذراع الآخر ، من غير ان ينتبها الى ان شفاههما كانت متشابكة فيما كانت اعينهما – الفائضة بالنشوة الروحية والحافلة بالدموع – مركزة على النجـوم .

وحين غادر ماريوس الحديقة ، كان الشارع مقفراً . كان ذلك لحظة لحقت ايبونين بقطاع الطرق إلى الجادة .

وفيما كان ماريوس يفكر ورأسه مسند إلى الشجرة ، كانت قد خطرت له فكرة ؛ فكرة ، اعتبرها هو نفسه ، واأسفاه ، حمقاء مستحيلة . كان قد اتخذ قراراً يائساً .

٧
القلب العجوز والقلب الفتى يتواجهان

كان جيلنورمان الجد قـد أتم ، في تلك الفترة ، سنه الحـاديـة والتسعين . وكان لا يزال يحيا مع الآنسة جيلنورمان – شارع فتيـات كالفير ، رقم ٦ – في ذلك البيت العتيق الذي كان ملكاً له . كان كـ رأينا واحداً من اولئك العجائز العريقين الذين ينتظرون الموت منتصبي القامة ، والذين تثقل الشيخوخة ظهورهم من غير ان تحنيها ، والذين يعجز الغم نفسه عن ان يلويهم .

ومع ذلك ، فمنذ فترة قصيرة كانت ابنته قد قالت : « لقد انحطت قوى ابي . » إنـه لم يعد يضرب خدمه ، ولقد أمست عصاه تضرب سطح السلم في حدة اقل ، كلما تأخر « باسك » ،في فتح الباب . ولم تسخطه ثورة تموز طوال ستة اشهر إلا بشق النفس . وكان قد رأى في الـ « مونيتور » ، وفي هدوء تقريباً ، هذا التزاوج اللفظي : « مسيو هومبلو كونتيه ، احد اعيان فرنسة . » والواقع ان العجوز كان مثقلاً بالضنى . انه لم ينحن ، إنـه لم يستسلم ، فلم يكن ذلك لينسجم مع

طبيعته الجسمانية باكثر مما انسجم مع طبيعته الاخلاقية . ولكنه احس بقواه تخور ، باطنياً . لقد سلخ اربع سنوات وهو ينتظر ماريوس ، بقدم راسخة — فهذه هي الكلمة — وملء نفسه ايمان بأن هذا الشقي الصغير الشكس لا بد ان يقرع بابه عاجلا أو آجلا . ولقد انتهى الآن ، في بعض الساعات المظلمة، إلى ان يقول في ذات نفسه: لو ان ماريوس تأخر فترة اخرى ... — لم يكن الموت هو الشيء غير المحتمل عنده ، ولكن خوفه من ان لا يرى ماريوس كرة اخرى . والواقع ان الفكرة القائلة بأنه قد لا يرى ماريوس بعد اليوم لم تخامره ولو لحظة واحدة إلا في ذلك اليوم . أما الآن ، فقد بدأت هذه الفكرة تساوره ، ولقد اوقعت القشعريرة في أوصاله . ذلك ان الغياب ، كالذي يحدث دائماً حين تكون العواطف طبيعية وصادقة لم تزد الجد إلا هياماً بذلك الولد العاق الذي مضى لسبيله على ذلك النحو . ففي ليالي كانون الأول ، حين تهبط الحرارة إلى ما تحت الصفر ، يفكر المرء اكثر ما يفكر في الشمس . وعلى اية حال ، فقد كان مسيو جيلنورمان ، أو خيل اليه انه كان ، عاجزاً عن ان يخطو خطوة — هو الجد — نحو حفيده . لقد قال : « إني اوثر ان اموت قبل هذا . » ولم يجد في موقفه من ماريوس موضعاً للوم ، ولكنه فكر في ماريوس بحنان عميق وبذلك اليأس الأبكم الذي يرين على رجل عجوز طيب يتخذ سبيله في الظلام .

كان قد بدأ يفقد أسنانه ، وذلك مما زاده حزناً على حزن .

والواقع ان مسيو جيلنورمان — من غير ان يعترف بذلك لنفسه ، فقد كان مثل هذا الاعتراف خليقاً بأن يجعله ضارياً وخجلا — الواقع ان مسيو جيلنورمان لم يحب قط خليلة ما بقدر ما أحب ماريوس .

وكان قد علق في غرفته ، عند قدم سريره ، صورة قديمة لابنته الاخرى ، التي توفيت — مدام بونمرسي — بوصفها أول ما يرغب في ان تتكحل به عيناه لحظة يفيق من رقاده ؛ وكانت تلك الصورة تمثلها

وهي في الثامنة عشرة من العمر . وكان من دأبه ان يحدق إلى هـــذه الصورة على نحو موصول . ولقد اتفق له ان قـال ، ذات يوم ، فيما هو ينظر اليهـا :

— « يبدو لي أن هذه الصورة تشبه الطفل . »

فقالت الآنسة جيلنورمان :

— « تشبه اختي ؟ ولكن طبعـاً . »

واضاف الرجل العجوز :

— « وتشبهه ايضاً . »

وذات مرة ، فيما كان جالساً ، وركبتاه متلاصقتان وعيناه مغمضتان أو تكادان ، في وضع يرشح بالخور ، غامرت ابنته وقالت له :

— « ابي ، ألا تزال غاضباً عليه ؟ »

واعتصمت بالصمت ، غير متجرئة على ان تذهب إلى أبعد من ذلك . وسألهـا :

— « على من ؟ »

— « على ماريوس المسكين . »

ورفع رأسه العجوز ، ووضع قبضة يده المهزولة المتغضنة عـلى الطاولة ، وصاح في نبرة ليس اكثر منها اهتياجاً وارتعاشاً :

— « تقولين ماريوس المسكين ! ان ذلك السيد شخص حقير ، وغد شرير ، مغرور صغير عاق ، من غير قلب ، من غير روح ، رجل تيّاه شرير ! »

واشاح بوجهه لكي لا تتمكن ابنته من ان ترى الدمـع المترقرق في عينيه .

وبعد ثلاثة ايام ، قطع حبل صمتٍ دام اربع ساعات ، وقـال لابنته فجـأة :

— « لقد سبق ان تشرفت بسؤال الآنسة جيلنورمان ان لا تحدثني

عنــه البتة . »

واقلعت الخالة جيلنورمان بعد عن القيام بايما محاولة ، وانتهت إلى هذا التشخيص العميق : « إن ابي ما عاد يحب ابنته على الاطلاق بعـد حماقتها . ومن الواضح انه يكره ماريوس . »

وكانت « بعد حماقتها » تعني : بعد زواجها من الكولونيل .

ومع ذلك ، فان الآنسة جيلنورمان ، على ما قد حزر القارىء في اغلب الظن ، كانت قد اخفقت في محاولة احلال تيبودول الضابط الرماح ، الاثير عليها ، محل ماريوس . كان تيبودول ، العوض ، قـد اخفق . ولم يرتض مسيو جيلنورمان هذا الاستبدال قط . وفراغ الفؤاد لا يتقبّل الشخص الذي لا مهمة له غير ملء الفراغ الذي يخلّفه شخص آخر . والحق ان تيبودول ثار بدوره ، برغم استرواحه عبير الارث ، على مهمة الابهاج المسخَّرة هذه . فقد أسأم العجوزُ الرمّاحَ ، وأصاب الرماحُ ذلك الرجل الطيبَ بصدمة . كان الملازم تيبودول بهيـج النفس من غير شك ، ولكنه مهذار ؛ كان طياشاً ، ولكنه مبتذل ؛ كان بشوشاً ، ولكنه سيء العشرة ؛ كانت له خليلات ؛ هذا صحيح ، وكان يكثر من الحديث عنهن ، هذا صحيح ايضاً ، ولكنه كان يقول فيهن شراً . كان ثمـة عيب في هذه السجايا كلها . فقد سئم مسيو جيلنورمـان الاستماع اليه يتحدث عن ضروب الحظوظ السعيدة التي تمت له في جوار ثكنته ، في شارع بابل . ثم ان الملازم تيبودول كان في بعض الأحيان يفد بثوبه العسكري وشارته المثلثة الالوان ، وذلك ما جعله غير محتمـل بالكلية . واخيراً قال جيلنورمان الجد لابنته : « لقدْ شبعت منـــه ، تيبودولك هذا . استقبليه انت إذا شئت . إني قليلا ما اهضم المحاربين في زمن السلم . أنا لست واثقاً ، ولكني احب الضاربين بالسيف اكثر ممـا أحب الذين يجررون ذيول السيوف . وصليل النصال المتشابكـة في معركة أقل بؤساً ، على اية حال ، من صريف الاغماد على حصبـــاء

الطريق . وإلى هـذا ، فأن تقوسه مثل مدعي الشجاعة ، وحزم خصره مثل امرأة خاملة ، وارتداءه مشداً تحت درع ، كل ذلك يجعله مضحكاً اكثر واكبر . إن الرجل الأصيل يحتفظ بنفسه في موطن يبعد عـن الصلف مثل بعده عن اللطف المتكلف . لا فخوراً ، ولا قاسي الفؤاد . أبقي تيبودولك لنفسك . »

وعبثاً قالت لهابنته : « ومع ذلك فانه ابنُ ابنِ اخيك » فقد اكتشفت ان مسيو جيلنورمان ، الذي كان جداً حتى رؤوس اظافره ، لم يكن أخا َجد بحال من الاحوال .

واذ كان ، في الحق ، حصيفاً يحسن المقارنة ، فان تيبودول لم يزده إلا أسفاً على ماريوس .

وذات مساء ، وكان ذلك في الرابع من حزيران ، وهو ما لم يمنع الجد جيلنورمان من إضرام نار لاهبة في موقده ، تمنى ليلة طيبة لابنتـه التي كانت تخيط في الغرفة المجاورة ، وانفرد في غرفته ذات المشاهـد الريفية . كانت قدماه على مسند حطب الموقد ، وكان محتجباً نصـف احتجاب خلف ستاره الحاجز العريض المنسوب إلى شاطىء كورومانديل* والذي يتألف من تسعة مصاريع ، وكان مسنداً مرفقيه إلى طاولته الـتي أضيئت فوقها شمعتان في ظل عاكسة نور خضراء ، غارقاً في أريكتـه ذات النسيج الموشى ، وفي يده كتاب ، ولكنه لا يقرأ فيه . كـان يرتدي ، وفقـاً لعادته ، ما يعرف بـ « الأنكرويابل » ** ، فهو يشبه تمثالا عتيقاً لـ غارا » *** ولقد كان هذا خليقاً بان يحمـل

---

* جنوب شرقي الهند .

** incroyable اسم كان في عهد حكومة الادارة يطلق على شباب المعارضة الملكية الذين كانوا يتكلفون كثيراً في ملابسهم ومسالكهم ولغتهم . ثم اطلق هذا الاسم على الثياب التي كانوا يرتدونها .

*** Garat سياسي فرنسي (١٧٤٩ – ١٨٢٣) تولى وزارة العدل بعد دانتون ، ثم وزارة الداخلية . وفي عهد الامبراطورية كان عضواً في مجلس الشيوخ .

الناس على اللحاق به في الشوارع ، ولكن ابنته كانت تغطيه ، كلما غادر المنزل ، بثوب اسقف فضفاض يحجب ملابسه . وفي البيت ، لم يكن ليرتدي مبذلا ابداً ، إلا عند نهوضه من الفراش وايوائه إلى النوم. وكان يقول : « ان ذلك يجعل المرء يبدو وكأنه عجوز . »

لقد فكر جيلنورمان في ماريوس بحب ومرارة . ولقد غلبت المرارة على الحب كما هي العادة . كان حنانه إذا ما فاض انتهى دائماً إلى الغليان، فاذا به ينقلب إلى سخط . كان قد بلغ تلك النقطة التي يحاول المرء فيها ان يزمع على أمر وان يتقبّل ما يمزقه . وكان على وشك ان يشرح لنفسه كيف انه لم يبق ثمة اىما سبب لعودة ماريوس ، وان هذه العودة لو كانت ممكنة الوقوع اذن لوقعت قبل اليوم ، وانه ينبغي ان يتخلى عنه . وحاول ان يروض نفسه على الاقتناع بأن كل شيء قد انتهى ، وانه سوف يموت من غير ان يرى « ذلك السيد » مرة اخرى . ولكن طبيعته كلها ثارت ، ولم تستطع أبوته العجوز ان ترتضي ذلك . وقال : « ماذا ؟ » — فقد كانت هذه هي اللازمة التي يعيدها — « إنه لن يعود! » وكان رأسه الأصلع قد سقط فوق صدره ، وكان يسدد ، في ذهول ، نظرة مهتاجة تثير الرثاء ، إلى جمرات موقده .

وفيما هو مستغرق في أعمق أعماق تفكيره الحالم أقبل خادمه العجوز ، باسك ، وقال :

— « هل يستطيع سيدي ان يستقبل مسيو ماريوس ؟ »

وتصدّر الرجل العجوز ، شاحب الوجه مثل جثة تنهض بتأثير صدمة كهربائية . كان دمه كله قد ارتد إلى فؤاده . وتلجلج :

— « مسيو ماريوس ماذا ؟ »

واجاب باسك ، وقد أرعبه مظهر سيده وأقلقه :

— « لست ادري . انا لم اره . لقد قالت لي نيقوليت ، في هذه اللحظة : يوجد هنا شاب يقول إنه مسيو ماريوس . »

وغمغم جيلنورمان الجد في همس :
— « أدخله . »
وظل على وضعه ذاك . مرتعش الرأس ، مصوب العينين إلى الباب . ودخل شاب . كان هو ماريوس .
ووقف ماريوس لدى الباب ، وكأنما كان ينتظر ان يدعى إلى الدخول . ولم تُلحظ ملابسه ، البائسة أو تكاد ، في تلك الظلمة التي احدثتها عاكسة النور الخضراء . ولم يكن في ميسور العجوز ان يتبين غير وجهه الهاديء الصارم ، المحزون على نحو غريب .
وظل مسيو جيلنورمان — وكأنما خبّله الذعر والبهجة — بعض لحظات لا يرى شيئاً غير نور ، شأن المرء امام رؤيا . كان على وشك آن يغمى عليه . ولقد لمح ماريوس من خلال جهرٍ مُعْتِمٍ . كان هو حقاً ، كان ماريوس حقاً !
واخيراً ! بعد أربع سنوات ! لقد أمسك به — إذا جاز التعبير — كله في لمحة عين . ولقد وجده جميلا ، نبيلا ، رائعاً ، نامياً ، ورجلا كاملا ، ذا مظهر أنيق وسيما فاتنة . ولقد كان خليقاً به أن يفتح ذراعيه ، ويدعوه ، ويندفع نحوه ؛ ولقد ذاب فؤاده جذلا ، وانبجست الكلمات وفاضت في صدره . وأخيراً برز ذلك الحنان كله وبلغ شفتيه . ومن خلال المغايرة التي كانت أساس طبيعته انطلقت كلمة جافية . لقد قال فجأة :
— « ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »
فأجاب ماريوس في ارتباك :
— « مسيو ... »
كان جيلنورمان يتمنى لو يلقي ماريوس بنفسه بين ذراعيه . وكان غاضباً على ماريوس وعلى نفسه . لقد استشعر أنه كان جافياً ، وأن ماريوس كان بارداً . ولقد استبد القلق بالرجل الطيب على نحو مثير وغير

محتمل لاستشعاره انه شديد الحزن عظيم الحنان باطنياً على حين لم يكن في استطاعته إلا ان يكون قاسياً خارجياً . وعاودته المرارة . وقاطع ماريوس في نبرة حادة :

— « واذن ، فما الذي جاء بك ؟ »

ولقد عنت « اذن » هذه : « اذا لم تجيء لتعانقني » . ونظر ماريوس إلى جده ، الذي تحول شحوبه إلى وجه من الرخام .

— « مسيو . . . . »

وتابع الرجل العجوز ، في صوت صارم :

— « هل جئت تلتمس عفوي ؟ هل رأيت غلطتك ؟ »

وخطر له أن يرشد ماريوس إلى الطريق ، وان « الولد » سوف ينحني . وارتعد ماريوس . كان مطلوباً منه ان ينكر اباه . وخفض عينيه وأجاب :

— « لا ، يا سيدي . »

وهتف العجوز ، بعنف ، وقد عصف به ألم ممض وغضب عارم :

— « واذن ، فما الذي تريده مني ؟ »

وشبك ماريوس يديه ، وخطا خطوة ، وقال في صوت واهن مرتعش :

— « إرحمني ، يا سيدي ! »

وأثارت هذه الكلمة مسيو جيلنورمان . ولو انها قيلت قبل ذلك بقليل إذن لكانت خليقة بأن تعطف فؤاده . ولكنها جاءت متأخرة جداً . ونهض الجد ، واتكأ بكلتا يديه على عصاه ، أبيض الشفتين ، مرتعد الجبين ، ولكن قامته الطويلة ، اشرفت ، من عل ، على ماريوس المنحني .

— « ارحمك ، يا سيدي ! الشاب يطلب الرحمة من عجوز في الحادية والتسعين ! انت تتخذ سبيلك إلى الحياة ، وانا اتخذ سبيلي إلى مغادرتها . انت تذهب إلى المسرح ، إلى المرقص ، إلى المقهى ، إلى قاعة البليارد . إنك ذكي ، إنك تعجب النساء ، انك فتى وسيم ،

على حين لا استطيع أنا ان افارق زاوية موقدتي في صميم الصيف . أنت غني بضروب الغنى الوحيدة التي في الشباب ، على حين أن عندي فقر الشيخوخة كله ، السقم والتوحد . إن لك اسنانك الاثنتين والثلاثين ، ومعدة جيدة ، وعيناً ثاقبة ، وقوة ، وشهوة إلى الطعام ، وصحة ، وابتهاجاً ، وغابة من الشعر الأسود ، على حين لم يبق لي حتى بقيةٌ من الشعر الأبيض . لقد فقدت اسناني ، وها انا ذا أفقد رجليّ ، ها أنا ذا أفقد ذاكرتي . وهناك ثلاثة من اسماء الشوارع اخلط ما بينها دائماً : شارع شارلو ، شارع شوم ، شارع سان كلود ، ذلك هو الموضع الذي انتهيت اليه . ان المستقبل كله امامك ، مشرقاً بالضياء ، اما انا فقد بدأت لا ارى ذرة منه . إلى مثل هذا الحد غرقت في الظلام . وانت عاشق ، من غير شك ، أما انا فليس هناك في هذا العالم من يحبني . ومع ذلك فأنت تسألني الرحمة . وحق الاله ، لقد غفل موليير عن هذا ! وإذا كانت هذه هي الطريقة التي تمزحون بها في قصر العدل ، يا سادتي المحامين ، فاني اقدم اليكم اصدق تهنئاتي . إنكم مضحكون . »

واستأنف العجوز كلامه في صوت غاضب صارم :

— « والآن ، ماذا تريد مني ؟ »

فقال ماريوس :

— « سيدي ، انا أعلم ان وجودي يسوءك ، ولكني جئت لكي اسألك امراً واحداً ، ومن ثم امضي لسبيلي في الحال . »

فقال العجوز :

— « انت ابله ! من الذي يقول لك ان تمضي لسبيلك ؟ »

كانت هذه هي ترجمة تلك الكلمات الرخصة التي كانت تعمر اعماق فؤاده : « **تعال ، اسألني العفو الآن ! ألق بنفسك على عنقي** » . واستشعر مسيو جيلنورمان ان ماريوس يعتزم ان يفارقه بعد لحظات ،

وان استقباله الجاف قد نفره ، وان قسوته كانت تطرده . وانما قال ذلك كله في ذات نفسه ، فتعاظم ألمه . واذ انقلب ألمه في الحال إلى غضب، فقد تعاظمت قسوته .كان يود لو ان ماريوس قد فهم ، ولكن ماريوس لم يفهم ، وهذا ما اثار ثائرة العجوز . وأردف :

— « ماذا ؟ لقد هجرتني ، هجرتني أنا ، جدك . لقد فارقت بيتي لتذهب إلى مكان لا احد يعرفه . لقد احزنت خالتك . لقد كنت تحيا — وهذا واضح ، وإنه أدعى إلى المتعة — حياة الفتى الغر ، وتمثل دور الشاب المعجب بذاته ، وتعود إلى غرفتك ساعة تشاء ، وتستمتع بالحياة . انك لم تبعث إليّ بعلامة واحدة تدل على انك ما تزال حياً ، ولقد أثقلت نفسك بالديون من غير ان تتصل بي لوفائها عنك ، ولقد جعلت من نفسك صخاباً ومحطم نوافذ ، وفي نهاية سنوات اربع تجيء إلى بيتي وليس عندك ما تقوله غير هـذا ! »

هذه الطريقة العنيفة في دفع الحفيد إلى المحبة والرقة لم تؤد إلى غير صمت ماريوس . وطوى مسيو جيلنورمان ذراعيه ، وهو وضع كان عنده متغطرساً إلى حد بعيد ، وقال لماريوس في صرامة وفي مرارة :

— « فلنضع حداً لذلك . لقد قلت انك جئت تطلب مني شيئاً ؟ حسن ، ما هو؟ ما هو ؟ تكلم ! »

فقال ماريوس ، وعلى وجهه سيما من يستشعر انه على وشك السقوط في هاوية :

— « سيدي ، لقد جئت أطلب إذنك في الزواج . »

ورن مسيو جيلنورمان الجرس . وفتح باسك الباب نصف فتحة :

— « ادعُ ابنتي إلى هنا . »

وبعد ثانية ، فُتح الباب كرة اخرى . ولم تدخل الآنسة جيلنورمان ، ولكنها وقفت بالباب . كان ماريوس منتصباً ، أبكم ، متدلي الذراعين ، وعلى وجهه سيما مجرم من المجرمين . وكان مسيو جيلنورمان يذرع الغرفة

جيئة وذهوباً . والتفت نحو ابنته وقال لهـــا :

— « لا شيء . إنـه مسيو ماريوس . قولي له مساء الخير ؛ حضرته يريد ان يتزوج . هذا كل ما هنالك . اذهبي . »

ونمّ جرْس العجوز الموجز الاجش عن فيض من الحدة عجيب . ونظرت الخالة إلى ماريوس في سيما مروعة ، وبدت وكأنها لم تعرفـه إلا بشق النفس . ولم تدع ايماءة ما أو كلمة ما تندّ عنها ، واختفـت امام نفَس من انفاس أبيها أسرع ممـا يختفي القذى أمـام إعصـار من الأعاصير .

وفي غضون ذلك ، كان جيلنورمان الأب قـد رجـع وولى الموقـد ظهـره .

— « تتزوج ! في الحادية والعشرين ! لقد رتبتَ هذا ! ولم يبـق عليك غير الأذن تطلبه ! شيء شكلي . اجلس ، يا سيدي . حسناً ، لقد عرفتَ ثورة منذ ان حُرمتُ شرف رؤيتك . فاليعاقبة قـد انتصروا . ومن حقك ان تكون سعيداً . انت جمهوري ، أليس كذلك ، مـا دمت باروناً ؟ انت تعدّ ذلك . والجمهورية مرق متَبّل يُصلح البارونية . هـل قُلدتَ وسام تمـوز ؟ هـل اخـذت فـلذة من اللوفـر ، يا سـيدي ؟ ان ثمـة ، على مقربة من هنا ، في شـارع سان انطوان ، تجاه شارع نونانديير ، قذيفة منزّلة في جدار الدور الثالث من ادوار احد المنازل منقوشاً عليها : ٢٨ تموز ، عام ١٨٣٠ . اذهب وانظر اليها . إن ذلك ليحدث أثراً صالحاً . آه ، إن اصدقـاءك ليقومون باشياء جميلة ! وبالمناسبة : ألا ينشئون حوضاً ذا فوارة في ساحة النصب التذكاري لدوق دو بيري ؟ واذن ، فانت تريد ان تتزوج ؟ وممن ؟ هل نستطيع ان نطرح هذا السؤال من غير ان يكون في ذلك قلة تبصر ؟ »

وسكت . وقبل ان يجد ماريوس متسعاً من الوقت للاجابة اضـاف

في عنف :

— « آه ، ان عندك صناعة ؟ ولقد جمعت ثروة ؟ كم تكسب من عملك في المحاماة ؟ »

فقال ماريوس في ضرب من الرصانة والحزم يكاد يكون ضارياً :

— « لا شيء . »

— « لا شيء ؟ أليس عندك ما تعيش به غير الالف والمئتي ليرة التي أرسلها اليك ؟ »

ولم يجب ماريوس قط . وتابع مسيو جيلنورمان :

— « واذن ، فهل أفهم من هذا ان الفتاة غنية ؟ »

— « مثلي . »

— « ماذا ؟ لا بائنة ؟ »

— « لا . »

— « وهل ثمة ميراث منتظر ؟ »

— « لست اعتقد . »

— « عارية تماماً ! وماذا يعمل ابوها ؟ »

— « لست ادري . »

— « وما اسمها ؟ »

— « الآنسة فوشلوفان . »

— « فوش ماذا ؟ »

— « فوشلوفان . »

فقال العجوز :

— « بتتتت ! »

فصاح ماريوس :

— « سيدي ! »

وقاطعه جيلنورمان في لهجة من يخاطب نفسه :

— « ذلك هو : احدى وعشرون سنة ، لا عمل ، الف ومئتا ليرة في العام ، إن السيدة البارونة بونميرسي سوف تذهب إلى السوق وتشتري بقدونساً بفلسين اثنين . »

فقال ماريوس ، بمثل قنوط الأمل الاخير الذي يتلاشى :

— « سيدي ، اتوسل اليك ! استحلفك باسم السماء ، بيدين متشابكتين ، يا سيدي ، وانا اطرح نفسي على قدميك . ان تسمح لي بالزواج منها ! »

وانفجر الرجل العجوز في ضحكة صارّة مأتمية سعل من خلالها وتكلم :

— « ها ! ها ! ها ! لقد قلت في ذات نفسك « يا للشيطان ! سوف اذهب وأبحث عن تلك اللمة المستعارة العجوز ، عن ذلك البليد السخيف ! كم يؤسفني ان لا اكون في الخامسة والعشرين ! اذن لكنت اقذفه بأنذار يرشح بالاحترام ! واذن لكنت امر به مزدرياً له ! لا بأس سوف اقول له : ايها الأبله العجوز ، أنت سعيد جداً برؤيتي . أنا أريد ان اتزوج . أنا اريد ان انكح الآنسة لا ادري من ، ابنة السيد لا ادري من . ليس في رجليّ حذاء ، وليس على جسدي قميص . حسن . أريد أن ألقي إلى الكلاب ، بحرفتي ، بشبابي ، بحياتي . اريد ان اغوص إلى أعماق البؤس وقد شُدت إلى عنقي زوجة ، هذه هي فكرتي ، وعليك ان تقرها ! وعندئذ يوافق تلك البقيةُ الحيوانيـــة المستحجرة في الارض ! » اذهب ، يا بني كما تريد ، اشدد حجرك إلى عنقك ، تزوج فوشلوفانك ، تزوج كوبلوفانك ... ابداً ، يا سيدي ! ابداً ! »

— « أبي ! »

— « ابــداً ! »

ولم يكد ماريوس يسمع النبرة التي انطلقت بها لفظة « ابداً » هــذه حتى فقد الرجاء كله . وراح يذرع الغرفة في خطى بطيئة ، مطــأطيء

الرأس متمايلاً . اشبه برجل يحتضر منه برجل يمضي لسبيله . وتبعه مسيو جيلنورمان بعينيه ، ولحظة فُتح الباب وغادر ماريوس الغرفة أو كاد ، خطا أربع خطوات بتلك الرشاقة الشيخية التي يتّسم بها العجائز المتغطرسون الفاسدون ، واخذ بخناق ماريوس ، ورده في عنف إلى الغرفة ، وطرحه على احدى الأرائك ، وقال له :

— « حدثني عن ذلك ! »

كانت تلك الكلمة المفردة ، ابي ، التي ندت من ماريوس ، هي التي احدثت هذا الانقلاب .

ونظر ماريوس اليه في ذهول . إن سيما مسيو جيلنورمان ما عادت لتعبر عن غير طيبة جافية لا سبيل إلى التعبير عنها . لقد أخلى الوصي المكان للجد .

— « تعال ، دعنا نرى ، تكلم ، حدثني احاديث غرامك ، ثرثر ، أخبرني كل شيء . يا الـهي ! ما اشد حماقة هؤلاء الشباب ! »

واستأنف ماريوس :

— « ابي ! »

واضاء وجه العجوز كله باشراق يعز على الوصف .

— « اجل ، هو ذاك ! ناديني يا ابي ، ولسوف ترى ! »

كان ثمة الآن في هذا الكلام العنيف شيء عذب جداً ، صريح جداً ، أبوي جداً بحيث استشعر ماريوس أثر هذه النقلة المفاجئة من التثبيط إلى الأمل وكأنه مشدوه ثمل . كان جالساً قرب الطاولة ، وكان ضوء الشمعة يبدي عن رثاثة ملابسه . وحدق اليه جيلنورمان الجد في دهش .

وقال ماريوس :

— « حسناً ، يا ابي ! ... »

وقاطعه مسيو جيلنورمان :

— « تعال ، الآن . واذن فانت لا تملك اي فلس حقاً ؟ انت تلبس مثل ملابس اللصوص . »

وبحث في احد الأدراج ، وأخرج محفظة نقود ووضعها على الطاولة :

— « خذ . هذه مئة ذهبية لويسية . اشترِ لنفسك قبعة . »

فاردف ماريوس :

— « أبي ، يا أبي الطيب ، ليتك تعلم . أنا أحبها . انــت لا تدرك ذلك . لقد رأيتها ، أول ما رأيتها ، في حديقة اللوكسومبورغ . كانت تأتي إلى هناك . في البدء لم ألق اليها انتباهاً كبيراً ، ثم ، ولا ادري كيف نشأ ذلك ، وقعت في حبها . اوه ! كم قد جعلني ذلك شقياً ! واخيراً ، اصبحت اراها الآن كل يوم ، في بيتها نفسه . إن أباها لا يعرف ذلك . ولكن فكّر انهما سوف يرحلان . اننا نجتمع في الحديقة مساء . وابوها يريد ان يأخذها إلى انكلترة ، ثم قلـــت لنفسي : سوف اذهب لأرى جدي واروي له المسألة . اني سوف اجن قبل كل شيء ، اني سوف اموت ، اني سوف أصيب نفسي بمرض ، اني سوف اقذف بنفسي في النهر . يجب ان اتزوجها ، خشية ان افقـد صوابي . والآن ، تلك هي الحقيقة كاملة ، ولست اعتقد اني نسيت اي شيء . إنها تسكن في حديقة ذات سياج مقضب ، في شارع بلوميه. انهـا تقع قرب الانفاليد . »

وكان جيلنورمان الجد قـد جلس ، مشرقاً بالابتهاج ، إلى جـانب ماريوس . وفيما كان يستمع اليه ويستمتع بجرس صوته نَعِمَ في الوقت نفسه بنشقة طويلة من سعوط . حتى إذا سمع تلك الكلمة ، شارع بلوميه ، قطع استنشاقه ، وترك بقية سعوطه تسقط على ركبتيه .

— « شارع بلوميه ! تقول شارع بلوميه ؟ — دعنا نرى اذن ! هل توجد ثكنة ما هناك ؟ ولكن اجل ، ذلك هو . ان ابن عمــك تيبودول قد اخبرني عنها . الرمّاح ، الضابط . بنت صغيرة ، يا صديقي

الطيب . بنت صغيرة ! يا الـهي ، اجل شارع بلوميه Plumet . ذلك ما كانوا يدعونه شارع باوميه Blomet . لقد تذكرته الآن . لقد سمعت أحاديث عن فتاة السياج الصغيرة تلك في شارع بلوميه . في حديقة . ان ذوقلك ليس رديئاً . يقولون انها جميلة . وبيني وبينك ، أعتقد ان ذلك الرماح الأبله قد حاول ان يغازلها قليلا . ولست ادري إلى اي حد ذهب في مغازلته تلك . وعلى اية حال ، فليس لهذا اهمية . ثم اننا يجب ان لا نصدقه . إنه فياش . ماريوس ! أنا أحسب ان من المستحسن جداً لفتى مثلك ان يقع في الحب . لقد جعل الحب لاترابك من الشباب. انا احبك عاشقاً اكثر مما احبك يعقوبياً . انا احبك مدلهاً بتنورة * ، يا الـهي ، بل بعشرين تنورة ، اكثر مما احبك مدلهاً بمسيو دو روبسبير ! ومن ناحيتي ، أقر انني ، في ما يتصل بجماعة اللاسراويل ، لم احب اي شيء غير النساء . فالنساء الجميلات جميلات بغض النظر عن الطبقة التي ينتسبن اليها . يا للشيطان ! لا اعتراض على هذا . أمـا تلك الـفتاة الصغيرة فهـي تستقبلك سراً ، وعلى غير علم من أبيها . هذا حسن جداً . لقد عرفت انا نفسي مغامرات مثل هذه . اكثر من واحدة . اتدري كيف نفعل ؟ إنا لا نأخذ المسألة اخذاً ضارياً . إنا لا نقذف بانفسنا في المأساة . إنا لا نختم الامر بالزواج ، وبالسيد العمـدة ووشاحه . اننا ، بحماقة ، فتيان اذكياء . ان عندنا عقلا حصيفاً . إنسابوا ، أيها الفانون ، لا تتزوجوا . ونحن نجيء فنجد جدنا ، وهـو في اعماقه رجل طيب ، رجل يملك دائماً تقريباً بضع اصابع مـن الذهبيات اللويسية في أحد الادراج العتيقة ؛ اننا نقول له : « ايها الجد ، تلك هي القصة . » فيقول الجد : « هذا طبيعي جداً . إن عـلى الشباب ان ينقضي ، وعلى الشيخوخة ان تبلى . لقد كنتُ شاباً ، وستصبح انت شيخاً . اذهب ، يا بني سوف تعيد دفع هذا إلى حفيدك . دونك

* يقصد : بأمرة .

مثّي قطعة ذهبية . استمتع بالحياة أكمل استمتاع . لا شيء افضل من ذلك ! تلك هي الطريقة التي ينبغي ان تصطنع . نحن لا نتزوج ، ولكن ذلك لا يعوقنا . هل تفهمني ؟ »

وهز ماريوس رأسه ، متحجراً عاجزاً عن ان ينطق بكلمة .

وانفجر الرجل الطيب بالضحك ، وغمز بعينه الهرمة ، وربت على ركبة ماريوس ، وحدق إلى عينيه وعلى وجهه سيما غريبة مشرقة ، وقال له وهو يهز كتفيه هزة تنطوي على اكبر قدر من الحنان :

— « ايها الأحمق ، اجعلها خليلتك . »

وران الشحوب على ماريوس . انه لم يفهم شيئاً من كل ما قاله جده. فهذا التكرير غير المفيد لشارع بلوميه ، للشكنة ، للرمّاح ، قد مر امام ماريوس مثل اشباح يظهرها فانوس سحري . وليس في شيء منهـا ما يمكن أن يتصل بكوزيت ، التي كانت زنبقة . كان الرجل الطيـب يهذي . ولكن هذا الهذيان انتهى بكلمة فهمهـا ماريوس ، وكانت إهانة قاتلة لكوزيت . ان تلك الكلمة **اجعلها خليلتك** اخترقت قلب ذلك الفتى المتقشف وكأنهـا حسام .

ونهض ورفع قبعته التي كانت على الارض ، ومضى نحو الباب في خطى واثقة راسخة . وهناك استدار ، وانحنى انحناء خفيضاً أمام جده ، ثم رفع رأسه كرة اخرى ، وقال :

— « منذ خمس سنوات أهنتَ أبي . وها انت اليوم تهين زوجتي . أنا لا اسألك بعدُ شيئاً ، يا سيدي . وداعاً ! »

وفتح جيلنورمان الجد فمه مشدوهاً ، وبسط ذراعيه ، غير قـادر على ان يتكلم أو يتنفس ، وكأن قبضةً محكمة كانت تعتصر حنجرته . واخيراً نزع نفسه من كرسيه ذي الذراعين ، وانطلق نحو الباب باسرع ما يستطيع رجل في الحادية والتسعين ان ينطلق ، وفتحه وصرخ :

— « النجدة ! النجدة ! »

وبرزت ابنته ، ثم الخادمان . وتابع وفي صوته حشرجة تثير الرثاء :

— « اركضوا وراءه ! أمسكوا به ! ما الذي فعلته له ! إنه مجنون ! إنــه راحل ! آه ! يا الـهي ! آه ! يا الـهي ! هــذه المــرة لن يعود ! »

ومضى إلى النافذة المطلة على الشارع ، وفتحها بيديه الهرمتين المرتجفتين وانحنى حتى منتصف قامته أو اكثر ، فيما امسك به باسك ونيقوليت من وراء ، وصاح :

— « ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! »

ولكن ماريوس كان قد انتهى إلى نقطة لا تمكنه من ان يسمــع شيئاً ، وكان في تلك اللحظة ذاتها ينعطف حــول زاويــة شــارع سان لويس .

ورفع العجوز يديه إلى صدغيه مرتين أو ثلاث مرات ، في سيما من الجزع ، وارتد إلى الوراء متمايلا ، وألقى بنفسه في احدى الارائك ، فاقد النبض ، فاقد الصوت ، فاقد الدمع ، هازاً رأسه ، محركاً شفتيه في بلاهة ، وقد خلت عيناه وخلا قلبه الآن من كل شيء إلا شيئاً عميقاً فاجعاً يشبه الظلام .

الكتاب التاسع

الى أين هما ذاهبان ؟

١

جان فالجان

في ذلك اليوم ، نفسه ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، كان جان فالجان جالساً وحده على كتف منحدر من اشد منحدرات الـ «شان دو مارس» انعزالا . وسواء اكان ذلك ثمرة للفطنة ، أم لرغبة في التأمل ، ام مجرد نتيجة لتغير من تغيرات العادة تلك ، غير المدركة ، التي تزحف وئيداً وئيداً إلى حيواتنا كلها ، فأنه امسى الآن نادراً مـا يخرج مع كوزيت . لقد ارتدى صدرته العمالية وبنطلوناً من كتان اسمر ، ولقد حجبت قبعته ذات الحافة الطويلة وجهه . كان الآن مطمئناً سعيداً

من ناحية كوزيت ، وكان ما روّعه وأقلقه فترة من الزمان قـــد تبـدد. ولكن منذ اسبوع أو اسبوعين داهمه قلق من نوع آخر . ففي ذات يوم ، كان يمشي في الجادة ، فرأى تيناردييه ، وبفضل تنكّره لم يستطع تيناردييه أن يتبيّنه ، ولكن جان فالجان عاد فرآه – منذ ذلك الحين – عدة مرات ، ولقد كان واثقاً من ان تيناردييه كان يطوّف متربصاً حول الحي . وكان ذلك كافياً لحمله على القيام بخطوة جدية . تيناردييه هناك ! إنها المخاطر كلها مجتمعة .

وإلى هذا فلم تكن باريس تنعم بالهدوء . والقلاقل السياسية لا تلائم كل من تنطوي حياته على شيء يريد ان يخبئه . ذلك ان رجال الشرطة غدوا ناشطين جداً ، مرتابين جداً ، ولعلهم ان يكونوا يتعقبون رجلا مثل بيبين أو موري فيكتشفون رجلا مثل جان فالجان .

من أجل هذا كله أمسى مهموماً مشغول البال .

واخيراً ، فان حادثة لا يمكن تفسيرها كانت قد داهمته منذ قريب – فهو حديث عهد بها – زادته حذراً على حذر . ففي صباح اليوم نفسه ، ولم يكن قد استيقظ احد غيره في المنزل ، كان يمشي في الحديقة قبل ان تُفتح مصاريع نوافذ كوزيت فاذا به يجد هذا السطر منقوشاً على الجدار ، بمسمار في أغلب الظن :

« ١٦ شارع دو لا فيريري » .

كان النقش حديثاً جداً ، وكانت الاحرف بيضاء في الملاط الأسود العتيق ، وكانت باقة من القرّاص عند ادنى الجدار قد ذُرّ عليها جص ناعم طريء . وأغلب الظن ان ذلك السطر قد خُط ليلا . أي شيء كان ؟ عنواناً ؟ إشارة للآخرين ؟ تحذيراً له هو ؟ وعلى اية حال ، فقد كان واضحاً ان حرمة الحديقة قـد انتُهكت ، وان بعض الاشخاص المجهولين قـد دخلوا اليها . واستعاد في ذاكرته تلك الحوادث الـتي سبق لها ان روّعت المنزل . وحاول عقله ان يحل هذا اللغز . وحاذر ان

يحدّث كوزيت حديث السطر المكتوب على الجدار خشية ان يوقع الرعب في فؤادها .

حتى إذا فكر جان فالجان في ذلك كله ودرسه قرر ان يغادر باريس ، بل أن يغادر فرنسة ، وينتقل إلى انكلترة . وكان قد أعلم كوزيت بذلك . وكان يرجو ان يسافر في مدى اسبوع واحد . كان جالساً على منحدر الـ « شان دو مارس » ، يقلب مختلف ضروب الأفكار في ذهنه : تيناردييه ، الشرطة ، الرحلة ، وصعوبة الفوز بجواز السفر .

وفي غمرة هذه التأملات لمح ، من طريق ظل كانت الشمس قد بسطته ، ان شخصاً ما ، وقف اللحظة فوق ذروة المنحدر خلفه مباشرة . وكان على وشك ان يستدير ، عندما سقطت على ركبتيه ورقة مطوية ، وكأن يداً قد قذفت بها من فوق رأسه . وتناول الورقة ، ونشرها ، وقرأ هذه الكلمة مسطورة عليها بقلم رصاصي وبأحرف ضخمة :

— « إنتقل من منزلك ! »

ونهض جان فالجان في خفة ، فلم يجد احداً فوق المنحدر . وأجال بصره في ما حوله ، ولمح مخلوقاً اكبر من طفل ، واصغر من رجل ، يرتدي درّاعة رمادية ، وبنطلوناً من مخمل قطني ترابي اللون ، مخلوقاً وثب فوق الحاجز وانزلق في حفرة الـ « شان دو مارس » .

وانقلب جان فالجان في الحال ، إلى منزله . والافكار تعصف في دماغه .

٢
ماريوس

كان ماريوس قد فارق مسيو جيلنورمان محزون النفس . لقد وفد عليه وفي صدره امل ضئيل جداً ، ثم غادره وبين جوانحه يأس هائل .

وإلى هذا – واولئك الذين لاحظوا تفتّح القلب البشري يفهمون ذلك – فأن تييودول ، الرماح ، الضابط ، الأبله ، ابن العم لم يترك أيما ظل في ذهنه . اجل ، لم يترك ظلاً مهما ضؤل . وقد يطمع الشاعر المسرحي ، ظاهرياً ، ببعض المضاعفات من وراء قالة السوء تلك يطلقها الجد في وجه الحفيد . ولكن ما تكسبه الدراما من ذلك يخسره الصدق . فقد كان ماريوس في تلك السن التي لا نصدق فيها اي سوء . وبعد ذلك تقبل السن التي نصدق فيها كل شيء . إن الشكوك ليست غير تجعدات . والشباب ، في ايامه الأولى ، لا يعرف شيئاً من ذلك . ان ما قد يقلق عطيل ينزلق فوق كانديد . أيشك في كوزيت ! ان ثمة مجموعة من الجرائم التي يجدر بماريوس ان يقترفها في سهولة أعظم .

وشرع يمشي في الشوارع ، وتلك حيلة اولئك الذين يتألمون . ولم يفكر في شيء يستطيع ان يتذكره . وعند الساعة الثانية صباحاً انقلب إلى غرفة كورفيراك ، والقى بنفسه ، وهو في ملابسه ، على فراشه . وكانت الشمس قد اشرقت عندما غلبه ذلك النوم الرهيب الثقيل الذي تروح الافكار وتجيء ، خلاله ، في الدماغ . حتى إذا أفاق وجد كورفيراك ، وآنجولراس ، وفويي ، وكومبوفير ، واقفين في الغرفة ، منهمكين جداً ، مستعدين للانطلاق . وعلى رؤوسهم قبعاتهم .

وقال له كورفيراك :

– « هل ستشيع جنازة الجنرال لامارك ؟ * »

* Lamarque جنرال وسياسي فرنسي (١٧٧٠ – ١٨٣٢) لمع نجمه كخطيب من خطباء المعارضة في مجلس النواب .

لقد بدا له ان كورفيراك كان يتكلم الصينية .

وغادر الغرفة بعدهم بقليل . ووضع في جيبه الغدارتين اللتين أودعه اياهما جافير عشية مغامرة الثالث من شباط ، واللتين ظلتا في حوزته . وكانت هاتان الغدارتان مشحونتين ما تزالان . ومن العسير علينا ان نقول أية فكرة غامضة كانت تراوده حين اصطحبهما معه .

وتسكع طوال النهار غير عالم إلى أين تقوده قدماه . وأمطرت السماء بين الفينة والفينة ، ولكنه لم يلاحظ ذلك . واشترى لغدائه كعكة من عند احد الخبازين ، ودسها في جيبه ، ثم نسيها . لقد كان يبدو للرائي انه ابترد في نهر السين من غير ان يعي ذلك . فثمة لحظات يكون في جمجمة المرء خلالها فرن . ولقد كان ماريوس يجتاز احدى تلك اللحظات . إنه لم يعد يرجو شيئاً ، ولم يعد يخشى شيئاً . لقد انتهى إلى تلك الحال منذ الليلة البارحة . وانتظر هبوط الليل بفروغ صبر محموم ، ولم يكن في رأسه غير فكرة واضحة واحدة : أن عليه أن يرى كوزيت في الساعة التاسعة . فقد كانت هذه السعادة الأخيرة هي الآن مستقبله كله ، وبعد ذلك يخيم الظلام . وبين الفينة والفينة ، فيما كان يذرع اشد الجادات انعزالا ، تبدّى له انه سمع اصواتاً عجيبة في باريس . وايقظ نفسه من تفكيره الحالم وقال : « اهم يتقاتلون ؟ »

وعند هبوط الليل ، في الساعة التاسعة تماماً ، كما وعد كوزيت ، كان في شارع بلوميه . حتى إذا اقترب من الباب الحديدي المقضب نسي كل شيء . لقد انقضت على رؤيته كوزيت آخر مرة اربع وعشرون ساعة ، وكان على وشك ان يراها كرة ثانية . وامحت جميع الأفكار الأخرى ، ولم يستشعر الآن غير ابتهاج عميق نسيج وحده . ان لهذه الدقائق التي نحيا خلالها قروناً هذه الخاصة السنية الرائعة : وهي انها لحظة تنقضي تملأ القلب كله .

وازاح ماريوس الباب الحديدي ، ووثب إلى الحديقة . ولم تكن

كوزيت حيث اعتادت ان تنتظره . واجتاز الأجمة ، ومضى إلى الحفرة المجاورة للسلم . وقال : « إنها تنتظرني . هناك . » ولم تكن كوزيت هنـــــاك . ورفع عينيه ، فرأى نوافذ البيت مغلقة . وقام بجولـــة حول الحديقة ، فاذا بالحديقة مهجورة . ثم ارتد إلى المنزل ، وراح يخفق مصراعي النافذة ، مخبَّلاً بالحب ، ثملاً مروَّعاً مغيظاً بالأسى والقلق مثل سيد يرجع إلى منزله في ساعة حرجة . وخفق ، وخفق كـــرة اخرى ، غير محاذر أن يرى النافذة تفتح ووجه الأب الكالح يطـــل ويسأله : « ماذا تريد ؟ » فلم يكن هذا ليقاس ، البتة ، عما شرع يراه الآن . حتى إذا اتم خفقه ذاك رفع صوته وصاح : « كوزيت ! » ثم كرر في تعاظم : « كوزيت » ، فلم يسمع جواباً . لقد قضي الأمر . لم يكن ثمـة احد في الحديقة ؛ لم يكن ثمة احد في المنزل .

وسمّر ماريوس عينيه اليائستين على ذلك البيت المأتمي ، الاســـود الصامت الاشد فراغاً من قبر . ونظر إلى المقعد الحجري حيث كـــان قد قضى كثيراً من الساعات المحببة مع كوزيت . ثم جلس على درجات السلم ، فياض الفؤاد بالرقة والعزم ، وبارك حبه في أعمـاق تفكيره ، وقال في ذات نفسه انـــه ما دامت كوزيت قد مضت نسبيلها فلم يبـق أمامه غير الموت .

وفجأة سمع صوتاً بدا وكأنه مقبل من الشارع ، صوتاً صـاح من خـــلال الاشجـــار :

— « مسيو ماريوس ! »

ونهض .

وقـال :

— « هيه ؟ »

— « مسيو ماريوس ، أهذا أنت ؟ »

— « نعم . »

واضاف الصوت :

— « مسيو ماريوس . اصدقاؤك ينتظرونك عند المتراس ، في شارع الـ « شانفريري » .

ولم يكن ذلك الصوت غريباً عليه بالكلية . كان يشبه صوت ايبونين الاجش الخشن . وهرع ماريوس إلى الباب الحديدي ، وازاح القضيب المتحرك ، وأمرّ رأسه من خلاله ، ورأى شخصاً بدا له وكأنه شاب اختفى سريعاً في الغسق .

٣

مسيو مابوف

كانت حافظة نقود جان فالجان غير ذات جدوى لمسيو مابوف . ذلك أنه ، في تقشفه الجليل الصبياني ، كان قد رفض هدية السماء ؛ لقد رفض ان يسلم ان في ميسور نجم من النجوم أن يسك نفسه لسيرة ذهبية لويسية . إنه لم يحزر ان ما وقع عليه من السماء انما جاء من غافروش . لقد حمل حافظة النقود إلى مفوض الشرطة في الحي ، بوصفها شيئاً ضائعاً يضعه الذي عثر عليه تحت تصرف المطالبين به وضاعت حافظة النقود حقاً . ولا نحتاج إلى النص على ان احداً لم يطالب بها ، ولم تسعف مابوف البتة .

وإلى هذا ، فقد واصل مسيو مابوف انحداره .

ولم تنجح تجاربه على نبات النيل في « حديقة النبات » باكثر مما نجحت في حديقته بأوسترليتز . ففي العام الماضي كان مديناً لمدبرة منزله بأجورها. أما اليوم فكان كما رأينا مديناً بثلاثة ارباع ايجار ذلك المنزل . وكان المرتهن قد باع ألواح « مجموعته النباتية » النحاسية بعد انقضاء ثلاثة عشر شهراً .

وكان احد الحدادين قد حولها إلى قدور معدنية ذات مقابض . واذ خسر ألواحه هذه ، ولم يعد قادراً حتى على إكمال نماذج « مجموعته النباتية » الناقصة التي كان لا يزال محتفظاً بها ، فقد تخلى عن الصفائح والنص ، بثمن بخس ، لأحد باعة الكتب المستعملة ، بوصفها « نفاية ورق كتاب ما » . وهكذا لم يبق لديه شيء من جهد حياته كلها . وبـــدأ يستهلك المال الذي باع بـــه تلك النماذج . حتى إذا رأى ان هذا المورد الهزيل يوشك ان ينضب تخلى عن حديقته وأهمل العناية بها . وقبل ذلك ، بل قبل ذلك بكثير ، كان قد تخلى عن البيضتين وقطعة لحم البقر الـــتي اعتاد ان يأكلها بين الفينة والفينة . لقد امسى يجتزيء في طعامه بالخبـز والبطاطس . كان قد باع آخر قطعة من أثاثه ، ثم جميع أدوات فراشه وملابسه ، واغطيته الاضافية ، ثم مجموعات نباتاته وصوره المطبوعـــة على الخشب . ولكنه كان لا يزال يملك كتبه الاكثر نفاسة ، وكان عدد غير قليل منها نادراً إلى ابعد الحدود ، ومن بينها *Les Quadrains Historiques de la Bible* طبعة عام ١٥٦٠ ، و « فهرست ألفاظ التوراة » * لبيير دو بيس ، و « زهرات ربيع زهرة الربيع » ** لجان دو لا هاي ، مـــع اهداء إلى ملكة نافار ، وكتاب « في منصب السفير وفضله » للســـيد دو فيبيه هوتمان *** و *Florilegium rabbinicum* يرجع عهده إلى ١٦٤٤ ونسخة من ديوان « تيبولوس » ****تعود إلى عام ١٥٦٧ وهي موسومة بهذا الاسم الرائـــع : *Venetii, in aedibus Manutianis* . واخيراً نسخة من كتاب « ديو جين لا يرس» ***** . طبعت في ليون عام١٦٤٤ محتوية على مختلف القراءات والروايات الشهيرة التي انطوت عليها المخطوطـــة

* *La Concordance des Bibles* de Pierre de Besse

** *Les Marguerites de la Marguerite* de Jean de la Haye

*** le livre *de la charge et dignité de l'ambassadeur* par le sieur de Villiers - Hotman.

**** Tibulle شاعر لاتيني تطغى على قصائدة مسحة من الكـآبة (حوالي٥٤ ق.م–حوالى١٩ ق.م.)

***** Diogéne Laérce مؤرخ يوناني الف مجموعة سير للفلاسفة.(القرن الثالث قبل المسيح.)

٤١١ ، القرن الثالث عشر ، في الفاتيكان ، وتلك التي انطوت عليهـا مخطوطتا البندقية ٣٩٣ و ٣٩٤ ، التي افاد هنري إيتيين * من مراجعتها اعظم الفائدة، وجميع المقاطع الواردة باللهجة الدورية ** في المخطوطة الشهيرة الموجودة في مكتبة نابولي والتي ترجع إلى القرن الثاني عشر . ولم يوقد مسيو مابوف اما نار في غرفته قط ، وكان من دأبه ان يأوي إلى فراشه قبل غروب الشمس لكي لا يشعل شمعة . لقد بدا وكأنما لم يبق له جيران . وكان الناس يجتنبونه حين يخرج من منزله ؛ لقد لاحظ ذلك . إن بؤس الطفل يثير اهتمام الامهات ، وان بؤس الشاب يثير اهتمام الفتيات ، أما بؤس الرجل العجوز فلا يثير اهتمام احد . إن ذلك البؤس هو اشد ضروب البؤس برودة . ومع ذلك فان الاب مابوف لم يكن قد خسر صفاءه الاطفالي خسراناً كاملا . وكانت حدقته تستعيد بعض بريقها حين تُسمَّر على كتبه ، وكان يبتسم كلما فكر في نسخة ديوان ديوجين ليرس ، التي كانت نسخة فريدة . وكانت خزانة كتبه المزججة هي قطعة الاثاث الوحيدة التي احتفظ بها بالاضافة إلى الادوات التي لا يُستغنى عنها .

وذات يوم قالت له الأم بلوتارك :

— « ليس عندي ما أشتري به طعام الغداء . »

ولم يكن ما دعته طعام الغداء غير رغيف واربع حبات أو خمس حبات من البطاطس .

فقال مسيو مابوف :

— « اشتري ذلك بالدين . »

— « انت تعرف جيداً أنهم يرفضون . »

وفتح مسيو مابوف مكتبته ، وامعن النظر في جميع كتبه واحداً

---

* احد افراد اسرة Estienne الشهيرة في تاريخ الطباعة الفرنسية .

** doric نسبة الى دوريسيا ، المقاطعة القديمة في بلاد اليونان الوسطى .

بعد آخر ، مثل والد مضطر إلى ان يقتلُ عشر اولاده فهو ينظر اليهم قبل الاختيار ، ثم تناول واحداً منها على عجل ، وتأبطه ، وخرج . وبعد ساعتين رجع وليس تحت إبطه شيء ، ووضع ثلاثين « سو » ، وقال :

— « سوف يكون في مقدورك ان تُعدّي بعض الطعام . »

ومنذ تلك اللحظة رأت الام بلوتارك حجاباً قاتماً على وجه الرجل العجوز الابيض القلب ، حجاباً لم يُرفع قط بعد ذلك .

وفي اليوم التالي ، وفي اليوم الذي بعده ، وفي كل يوم ، تعيّن عليه ان يبدأ من جديد . كان مسيو مابوف يغادر البيت ومعه كتاب ، ويرجع اليه ومعه قطعة نقدية فضية . وإذ وجد الكتبيون انه مضطر إلى البيع فقد اشتروا منه بعشرين « سو » ما كان قد اشتراه هو بعشرين فرنكاً من اولئك الكتبيين انفسهم في بعض الاحيان . ومجلداً إثر مجلد ضاعت المكتبة . وكان يقول في بعض اللحظات : « انا في الثمانين من عمري على اية حال ، » وكأنما كان يراوده أمل متريث في أنّ ينتهي إلى آخر ايام حياته قبل أن ينتهي إلى آخر كتبه . وتعاظم حزنه . ومع ذلك ، فقد داخله السرور ذات يوم . فقد خرج حاملا نسخة من كتاب طبعه روبير ايتيين * باعه بخمسة وثلاثين « سو » في الـ « كي مالاكية » ورجع حاملا نسخة من كتاب طبعه آلد ** اشتراها باربعين « سو » من شارع دو غري . وقال للام بلوتارك ، مشرق الوجه بالبهجة :

— « انا مدين بخمسة فلوس . »

وذلك اليوم لم يتناول طعام الغداء .

---

* Robert Estienne (١٥٠٣ — ١٥٥٩) احد افراد اسرة ايتيين الشهيرة في تاريخ الطباعة الفرنسية .

** Alde الاسم الاول لكبير أسرة Manuce المعروفة في تاريخ الطباعة الفرنسية ايضاً .

كان عضواً في «جمعية علم زراعة البساتين» . وكان القوم على علم بفقره هناك . وأقبل رئيس هذه الجمعية لزيارته ، ووعده بأن يحدث وزير الزراعة والتجارة في أمره ، ولقد فعل . وصاح الوزير : «ولكن ، كيف ذلك ؟ أنا لا أصدق ! عالم عجوز ! عالم في النبات ! رجل مسالم ! يجب ان نفعل شيئاً من أجله !» وفي اليوم التالي تلقّى دعوة إلى تناول طعام العشاء في منزل الوزير . وأطلع الام بلوتارك على الرسالة ، وهو يرتعش فرحاً وقال : «لقد نعمنا بالخلاص !» وفي الموعد المضروب مضى إلى بيت الوزير . ولاحظ ان رباط رقبته الرث ، وسترته العتيقة ، الواسعة ، المربعة ، وحذاءه المصقول بالبَيض قد أدهشت الآذنين . ولم يتحدث احد اليه ، حتى الوزير نفسه . وحوالى الساعة العاشرة مساء ، فيما كان لا يزال ينتظر ان توجه اليه كلمة ، سمع زوجة الوزير ، وهي سيدة جميلة ترتدي ثوباً يكشف عن جزء من صدرها ، ولم تكن قد جرؤت على الاقتراب منه – سمعها تتساءل : «من هذا الرجل العجوز يا ترى ؟» وانقلب إلى بيته عند منتصف الليل مشياً على القدمين ، تحت وابل من المطر العنيف . وكان قد باع كتاباً من طبع إيلزيفير * لكي يدفع اجرة عربة اقلته إلى بيت الوزير .

وكان قد تعود ان يقرأ كل ليلة ، قبيل ايوائه إلى الفراش ، بضع صفحات من ديوان ديوجين لايرس . وكان يعرف من اليونانية مقداراً مكنه من ان يستمتع بخصائص النص الذي كان يملكه . ولم يكن قد بقي له بعدُ غير هذه البهجة . وتصرمت بضعة اسابيع . وفجأة ، أقعد المرض الام بلورتارك . إن هناك شيئاً ادعى إلى الحزن من فقداننا ما نشتري به الخبز من الخباز ، وهو فقداننا ما نشتري به الادوية من الصيدلي . وذات ليلة ، كان الطبيب قد وصف لها دواء سائلا غالي الثمن

* Elzévir اسرة معروفة من الطابعين اشتهرت في لايدن ، ، ولاهاي ، واوترخت ، وأمستردام في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وابرز رجالها لويس ايلزيفير (١٥٤٠–١٦١٧)

جداً . وفوق هذا ، فقد كان داؤها يستفحل يوماً بعد يوم ؛ لقد أمست في حاجة إلى ممرضة . وفتح مسيو مابوف خزانة كتبه ؛ لم يكن قد بقي ثمة شيء . كان المجلد الاخير قد ولى . لم يكن ثمة غير ديوجين لايرس .

وتأبط النسخة الفريدة وغادر المنزل . كان ذلك في اليوم الرابع من حزيران عام ١٨٣٢ . ومضى إلى « باب سان جاك » ، إلى وارث « رويول » ، ورجع بمئة فرنك . ووضع كومة القطع النقدية ذوات الفرنكات الخمسة على طاولة مهجع الخادمة العجوز ، وانقلب إلى غرفته من غير ان يقول كلمة .

وفي اليوم التالي ، عند الضحى ، كان جالساً على النصب المنكوس في حديقته ، وكان في ميسور المرء ان يراه ، من فوق السياج ، جامداً لا يتحرك ، طوال النهار ، مطأطىء الرأس ، مسمّر العين في ذهول على مساكب النبات الذابلة . وذرف الدمع ، بين الفينة والفينة ، وبدا وكأن الشيخ العجوز لم يلحظ ذلك . وعند الاصيل ، انفجرت في باريس أصوات خارقة للعادة . كانت تلك الأصوات تشبه طلقات البنادق ، وصيحات الجماهير .

ورفع الأب مابوف رأسه . لقد رأى بستانياً يعبر السبيل ، وسأله :

ــ « ما هذا ؟ »

واجابه البستاني ، ومعزقته على كتفه ، في نبرة ليس اهدأ منها :

ــ « إنها فتن . »

ــ « ماذا ؟ فتن ؟ »

ــ « نعم : إنهم يتقاتلون ؟

ــ « علام يتقاتلون ؟ »

فقال البستاني :

ــ « آه ! ايتها السيدة العذراء ! »

وتابع مسيو مابوف :

— « في اية ناحية ؟ »

— « قرب دار الصناعة . » *Arsenal*

وانقلب الاب مابوف إلى منزله ، واخذ قبعته . وبحث في حركة آلية عن كتاب يتأبطه ، ولم يجد شيئاً من ذلك ، وقال : « آه ! هذا صحيح ! » ومضى لسبيله وعلى وجهه سيما ذاهلة .



الكتاب العاشر

اليوم الخامس من حزيران ١٨٣٢

١

ظاهر المسألة

ممّ كانت تلك الفتنة مؤلفة ؟ من لا شيء ومن كل شيء . من كهرباء انعتقت شيئاً فشيئاً ، من لهب اندلع على نحو فجائي ، من قوة تائهة ، من ريح عابرة . وهذه الريح تلتقي برؤوس تفكر ، وعقول تحلم ، ونفوس تتألم ، وأهواء تضطرم ، وضروب من الشقاء تعوي ، — تلتقي بها وتجرفها .

إلى أين ؟

بلا تبصّر ولا قصد . عبر الدولة ، عبر القوانين ، عبر رفاهيـة

الآخرين وغطرستهم :

إن المعتقدات المُهاجة ، والحماسة المغيظة ، والسخط المثار ، وغرائز الحرب المكبوتة ، والشجاعــة الفتية الممجدة ، والحوافز النبيلة ، والفضول ، وحب التغيير ، والظمأ إلى غير المتوقع ، وتلك العاطفة التي تجعلنا نبتهـج ونحن نقرأ الاعلان عن مسرحية جديدة ، والتي تجعل قرع جرس الملقن على المسرح صوتاً محبباً إلى القلوب ، والاحقاد الغامضة ، والضغائن ، وخيبات الامل ، وكل باطل يعتقد أن القدر كان سبباً في اخفاقه ، وضروب القلق ، والاحلام الفارغة ، والمطامح المطوقة بأسوار عالية ، وكل من يرجو مخرجاً من انهيار ، واخيراً ، في أعمـــق الاعماق ، أخلاط الناس ، ذلك الوحل الذي يشتعل – تلك هـــي عناصر الفتنة .

كل ما هنالك من عظيم مغال في العظمة وكل ما هنالك من وضيع ممعن في الضعة . إن اولئك المخلوقات الذين يطوفون بالليل خارج كـل شيء ، منتظرين فرصة ، متشردين ، ناساً من غير عمل ، متسكعين حول زوايا الشوارع ، اولئك الذين ينامون في الليل في بادية من البيوت سقوفها سحب السماء الباردة ، اولئك الذين يلتمسون خبزهم كل يوم من المصادفة لا من العمل ، أبناء الشقاء والعدم المجهولين ، ذوي الأذرع العارية ، والاقدام العارية – إن هؤلاء جميعاً هم ملك الفتنة .

وكل من يستشعر في روحه انتفاضة سرية ضد أي عمل مهما يكن من اعمال الدولة ، أو الحياة ، او القدر إنما يتاخم الفتنة . فما ان تطلع رأسها ، حتى يشرع في الارتعاد ، وفي الشعور بأن الزوبعة تجرفه .

الفتنة ضرب من الاعصار في الجو الاجتماعي يتشكل فجأة في بعض حالات الحرارة ، إعصار ما إن ينطلق مدوماً حتى يصعد ، ويعدو ، ويرعد ، ويمزق ، ويهدم ، ويسحق ، ويخرب ، ويقتلع ، ويجرف معه الطبائع الرفيعة والخسيسة ، الرجلَ القوي والعقل الضعيف ، جذعَ

الشجرة والقشة :

والويل لمن تجرفه ، والويل لمن تصطدم بـه على حد سواء ! إنهـا تضرب احدهما بالآخر فتحطمهما جميعاً .

إنها تبعث في نفوس من تستبد بهم قدرة غريبة خارقة . إنها تفعـم أول وافد بقوة الاحداث . إنها تصنع من كل شيء قذائف . إنها تصنع من حجر البناء غير المنحوت قنبلة ، ومن الحمال جنرالا .

وإذا كان لنا ان نصدق بعض هواتف السياسة المرائية ذات الوجهين ، فان قليلا من الفتنة مرغوب فيه ، من وجهة النظر الحكومية . المذهب : الفتنة تقوّي تلك الحكومات التي لا تسقطها . انها تختبر الجيش ، إنهـا تكتل البورجوازية ، إنها تمدد عضلات الشرطة ، إنها تحدد قوة الهيكل الاجتماعي . إنها تدريب رياضي ، وهي تكاد أن تكون صحية . والسلطة تكون احسن حالا بعد فتنة من الفتن كالرجل بعد عملية دلك .

والفتنة كان ينظر اليها ، منذ ثلاثين عاماً ، من زاوية اخرى ايضاً :

ان ثمـة نظرية في كل شيء تدعو نفسها « الحصافة » . فيلينت ضد آلسيست * ، وساطة تُقَدَّم بين الحق والباطل ، تفسير ، تبكيت ، تلطيف متغطرس بعض الشيء ، يحسب نفسه – لانه مزيج من اللـوم والعذر – حكمة ، وليس هو في كثير من الاحيان غير تظاهر بالعلم . ولقد انبثقت من ذلك مدرسة سياسية برمتها ، تدعى « بـين بين » . بين الماء البارد والماء الحار ، ذلك هو حزب الماء الفاتر . إن هذه المدرسة بعمقها المزعوم ، وسطحيتهـا الكامـلة ، هـذه المدرسة التي تشرّح النتائج من غير ان ترجع إلى الاسباب ، توجه التوبيخ ، من ذروة علم زائف ، إلى قلاقل الساحة العامة .

إسمع هذه المدرسة تقول : « ان الفتن التي عقّدت وقائع ١٨٣٠ قد

---

* Philinte احدى شخصيات مسرحية المستوحش Misanthrope لموليير ، وتمتاز هذه الشخصية بالتساهل على نقيض شخصية Alceste في الرواية نفسها .

سلبت ذلك الحدث العظيم جزءاً من نقائه . إن ثورة تموز كانت نسيماً عليلا من النسائم الشعبية عقبتها فجـأة سماء زرقاء . ولكن هذه الفتن اعادت الضباب إلى تلك السماء . لقد هبطت بتلك الثورة ، التي كانت في أول امرها رائعة جداً في الاجماع ، إلى درك الخصام والمشاجرة . ففي ثورة تموز ، كما في كل تقدم فجائي ، كانت ثمـة صدوع خفيـة فاذا بالفتن تجعل تلك الصدوع ملموسة . وفي ميسورنا ان نقول : « آه! هذه مكسورة . » بعد ثورة تموز لم نستشعر إلا الخلاص ، وبعد الفتن لم نستشعر إلا الكارثة ؛

« كل فتنة تغلق الدكاكين ، وتخفض الوفر ، وتروّع البورصة ، وتعطل التجارة ، وتعرقل الأعمال ، وتعجل في الافلاسات ؛ لا مـال بعد اليوم ، فالثروات الخاصة مزعزعة ، وثقة الناس بالدولة مقلقلة ، والصناعة مبلبلة ، ورأس المال متقهقر ، والعمل مطفّف الاجر ؛ الخوف ، في كل مكان ، والانتفاضات المضادة في جميع المدن . ومن هنا الهُوّى الفاغرة افواهها . لقد قدر المقدرون ان اليوم الاول من فتنة من الفتن يكلف فرنسة عشرين مليوناً ، واليوم الثاني اربعين ، واليوم الثالث ستين . إن فتنة ثلاثة ايام تكلف مئة وعشرين مليوناً ، يعني – إذا نظرنا إلى النتيجة المالية ليس غير – ما يساوي نكبة ، كارثة غرق أو خسارة معركة ، جديرة بأن تمحق اسطولا مؤلفـاً من ستين بارجـة حربية .

« وليس من ريب ، تاريخياً ، في ان الفتن كان لهـا جمالها . فحرب الشوارع ليست اقل عظمة واقل تأثيراً في النفس من حرب الأدغال . في احداهما روح الغابات ، وفي الاخرى فؤاد المدن . في احداهمـا جان شووان *Jean Chouan* وفي الاخرى جان *Jeanne* . لقد أضاءت الفتن ، بنورٍ احمر ، ولكن على نحو بهي ، جميع ثمرات الخلق الباريسي الاكثر اصالة ، السخاء ، والتفاني ، والبهجة العاصفة ، والطـلاب

مثبتين ان الشجاعة جزء من الذكاء ، والحرس الوطني راسخاً غير متزعزع ، ومعسكرات اصحاب الدكاكين الخلوية ، وقلاع «المتشردين» ، والازدراء بالموت عند عابري السبيل . لقد اصطدمت المدارس والكتائب. وعلى اية حال ، فبين المتقاتلين لم يكن ثمة غير فارق في العمر . انهم من العرق نفسه . انهم الرجال البواسل انفسهم الذين يموتون في سن العشرين من أجل عقائدهم ، وفي سن الاربعين من أجل عائلاتهم . وقاوم الجيش – الكئيب دائماً في الحروب الاهلية – الجسارة بالفطنة . وأدت الفتن ، فيما كشفت عن شجاعة الشعب ، إلى تهذيب البسالة البورجوازية .

« حسن جداً . ولكن أيساوي هذا كله الدم المسفوح ؟ وإلى الدم المسفوح أضف المستقبل المسود ، والتقدم المعوق ، والقلق المستحوذ على احسن الناس ، والاحرار المخلصين يائسين ، والطغيان الاجنبي مبتهجاً بتلك الجراح التي أنزلتها الثورة بنفسها ، ومغلوبي ١٨٣٠ منتصرين قائلين : « لقد قلنا لكم ذلك ! » أضف باريس وقد عظمت ، ربما ، ولكن بعد أن تقلصت فرنسة ، من غير شك . أضف ، إذ يتعين علينا ان نقول كل شيء ، المذابح التي كثيراً ما شانت انتصار النظام وقد غدا ضارياً ، على الحرية وقد غدت مجنونة . وعلى الجملة ، فالفتن كانت مشؤومة . »

هكذا تتكلم هذه الحكمة التقريبية التي تقنع بها البورجوازية ، أي الشعب كله تقريباً ، في كثير من الرضا .

أما نحن فنرفض هذه الكلمة الواسعة اكثر مما ينبغي ، والملائمة بالتالي اكثر مما ينبغي : الفتنة . فنحن نميز ونفرق بين حركة شعبية وحركة شعبية . اننا لا نتساءل اتكلف الفتنة مثل ما تكلف المعركة أم لا . ففي المحل الاول ، ولم المعركة ؟ هنا تنشأ مسألة الحرب . أتكون الحرب أقل حفولا بالآفات من حفول الفتنة بالبلايا ؟ وفوق هذا ، فهل جميع الفتن بلايا ؟ وما القول لو ان يوم ١٤ تموز كلف مئة وعشرين

مليوناً ؟ إن تثبيت فيليب الخامس في اسبانية قد كلف فرنسة ألفي مليون . وحتى لو تساوى الثمنان إذن لآثرنا الرابع عشر من تموز . وإلى ذلك ، فنحن نطرح هذه الارقام ، التي تبدو اسباباً ، والتي لا تعدو ان تكون كلمات ليس غير . اننا حين نعطى فتنة ندرسها في ذاتها . وفي كل ما قاله ذلك الاعتراض النظري المبسوط في الفقرات السابقة أخذت النتيجة بعين الاعتبار . اننا نلتمس السبب .

إننا نخصص .

٢
باطن المسألة

هناك الفتنة ، وهناك الثورة . ذانك غضبان اثنان . الأول على ضلال ، والثاني على صواب . وفي الدول الدعوقراطية ، وهي الحكومات الوحيدة المؤسسة على العدل ، يتفق في بعض الأحيان ان يعمد الجزء إلى الاغتصاب ، وعندئذ ينتفض الكل ، وقد يقتضيهم الاسترداد الضروري لحقهم ان يذهبوا إلى حد امتشاق الحسام . وفي جميع المسائل التي تنبثق من السيادة الجماعية ، تكون حرب الكل ضد الجزء ثورة ، وهجوم الجزء على الكل فتنة . وتبعاً لما اذا كان قصر التويلري ينطوي على الملك أو على « المؤتمر الوطني » يهاجم بحق أو بغير حق . والمدفع نفسه المصوب إلى الجمهور كان خاطئاً يوم العاشر من آب * ، ومصيباً في الرابع عشر من فانديميير ** . المظهر متشابه ، والكُنْهُ مختلف . إن

* يوم ١٠ آب ١٧٩٢ حين نشبت الثورة الباريسية نتيجة لعودة الوزراء الجيرونديين تلك الثورة التي انتهت الى اعتقال لويس السادس عشر وسقوط الملكية .

** يوم انتصر الجنرال بونابرت ، في داخل باريس ، على العناصر الثائرة ضد المؤتمر الوطني ، في ما بين ١٠ — ١٣ فانديميير (الشهر الاول من السنة الجمهورية الفرنسية ، من ٢٢ ايلول الى ٢١ تشرين الاول) عام ١٧٩٥ او السنة الجمهورية الرابعة

السويسريين قد دافعوا عن الباطل ، أما بونابرت فدافع عن الحق . فما قد صنعه الاقتراع العام بحريته وسيادته لا يمكن ان ينقضه الشارع . والشيء نفسه صحيح في شؤون التمدن الصرف . فغريزة الجماهير التي كانت أمس حديدة البصر قد تصبح في غد عشواء . والانتفاضة نفسها تكون مشروعة ضد تيراي * وتكون حمقاء ضد تورغو ** . إن تحطيم الآلات ، ونهب مستودعات البضائع ، وانتزاع قضبان السكة الحديدية ، وتخريب احواض السفن ، واساليب الجماهير الخاطئة ، وإنكار الشعب للعدالة من أجل التقدم ، وراموس *** وقد صرعه الطلاب ، وروسو وقد أخرج من سويسرة ، تحت وابل من الحجارة – كل اولئك فتنة . وانتفاضة اسرائيل في وجه موسى ، واثينا في وجه فوسيون **** ، وروما في وجه شيبيون ***** ، فتنة . أما انتفاضة باريس في وجه الباستيل فثورة . وتمرد الجنود على الاسكندر ، والملاحين على كريستوف كولومبوس عصيان ، عصيان كافر . لماذا ؟ لأن الاسكندر يعمل لآسية بالسيف ما يعمله كريستوف كولومبوس لأميركة بالبوصلة ؛

* Terray مراقب المالية (١٧١٥ – ١٧٧٨) في عهد الملك لويس الخامس عشر ، وكان قاسياً لا خلاق له .

** Turgot وزير المالية في عهد لويس السادس عشر ، وقد حاول ان يقوم باصلاحات كبيرة ، ولكنه لم يوفق . (١٧٢٧ – ١٧٨١)

*** Ramus فيلسوف ونحوي فرنسي (١٥١٥ – ١٥٧٢) قتل في مذبحة القديس بارتولوميوس ، وكان من دعاة الاصلاح ، والقائلين بضرورة النظر الى الأشياء على ضوء العقل ولو خالف ذلك ما قرره ارسطو وغيره من الفلاسفة القدماء .

**** Phocion جنرال وخطيب اثيني من الحزب الارستقراطي ، وكان مشهوراً بنزاهته وحبه للسلام . وقد حكم عليه ظلماً بان يشرب الشوكران السام (حوالى ٤٠٠ – ٣١٧ قبل الميلاد) .

***** Scipion قائد روماني شهير قهر هنيبعل في معركة زاما عام ٢٠٢ ق.م ، وقد اتهمه اعداؤه بعد ذلك بسرقة اموال الدولة فمات في المنفى (٢٣٥ – ١٨٣ قبل الميلاد) . وهو يعرف بـ « شيبيون الافريقي » .

الاسكندر ، مثل كولومبوس ، يكتشف عالماً . وهذه الهبة ، هبة عالم برمته ، إلى الحضارة هي امتداد للنور ضخم إلى درجة تجعل كل مقاومة لها مجرمة . في بعض الأحيان يزوّر الشعب الوفاء لنفسه . إن الغوغاء لتخون الشعب . وهل ثمة ما هو أعجب ، مثلا ، من ذلك الاحتجاج الطويل الدامي الذي قام به صانعو الملح المهربون ، وهي انتفاضة مشروعة مزمنة . ما إن حانت اللحظة الحاسمة ، يوم الخلاص ، وفي الساعة التي تم فيها النصر للشعب ، حتى مالأت العرش ، وأعادت « شووان » وانقلبت من ثورةٍ على ، إلى فتنةٍ من أجل ! روائع كالحة من الجهل ! إن صانع الملح المهرب ينجو من المشنقة الملكية ، وفيما لا تزال بقية من الحبل حول عنقه تجده يرفع الشارة البيضاء ! إن موت المكوس على الملح يولّد « فليحيى الملك » . سفاحو القديس بارتولوميوس* ، وقتلة ايلول** ، وذابحو آفينيون ، وسفكة كولينيي*** ، وسفكة مدام دو لامبال**** وسفكة برون***** وجماعات ال« ميكوليه »******

---

* Saint — Barthélemy مذبحة شهيرة ذهب ضحيتها عدد ضخم من بروتستانتيي فرنسة وقد وقعت ليل ٢٣ آب سنة ١٥٧٢ .

** اشارة الى المذابح التي راح ضحيتها ، في فرنسة ، عدد كبير من المعتقلين السياسيين ايام ٢ و٣ و٤ و٥ ايلول عام ١٧٩٢ . ويطلق لفظ الايلوليين او السبتمبريين على المسؤولين عن هذه المذابح .

*** Coligny احد زعماء البروتستانت الذين قتلوا في مذبحة القديس بارتولوميوس (١٥١٩ — ١٥٧٢)

**** Princesse de Lamballe صديقة ماري انطوانيت الحميمة ، وقد قتلت في سجن لا فورس خلال مذابح ايلول المشار اليها آنفاً (١٧٤٩ — ١٧٩٢) .

***** Brune مارشال فرنسة (١٧٦٣ — ١٨١٥) ، وقد قتل في آفينيون ايام الارهاب الابيض .

****** Miquelets عصابة اسبانية قديمة . وال« ميكوليه » الفرنسيون جند انشأه نابوليون ليقاوم به العصابات الاسبانية (١٨٠٨)

و « فيرديه » * ، وكاندونيت ، ورفاق يهوه ، ** ، وفرسان براسّار – تلك هـــــي الفتنة . إن حروب فانديه *** هي فتنة كاثوليكيـة كبرى .

إن صوت الحق الزاحف ليعرف نفسه ، وإنه لا ينبثق دائماً مـن زلزلة الجماهير الهائجة . إن ثمـة هيجانات حمقاء ؛ إن ثمة أجراسـاً مصدوعة . فليست النواقيس جميعاً لترن رنين البرونز . وتذبذب الأهواء والجهالات مختلف عن هزة التقدم . تمرد ، إذا شئت ، ولكن لـكي تَعْظُمَ . دلني في أي اتجاه أنت ماض . ليس ثمة ثورة إلا إلى أمام : وكل تمرد آخر هـــو شر . وكل خطوة عنيفة إلى الوراء هي فتنة . والارتداد عمل من أعمال العنف ضد الجنس البشري . الثورة هي فورة غيظ الحقيقة ؛ وحصباء-الطرق التي تنتزعها الثورة تطلق شرارة الحـق . وهذه الحجارة لا تترك للفتنة غير وحلها . دانتون ضد لويس السـادس عشر – تلك ثورة . أمـا هيبير ضد دانتون – فتلك فتنة .

ومن هنا نستطيـع ان نقول : « إذا كانت الثورة ، في بعض الأحيان ، كما قال لافاييت ، اشد الواجبات قداسة ، فان الفتنة ، قد تكون اشد الجرائم شؤمـاً . »

وثمة ايضاً بعض الاختلاف في حدة الحرارة . الثورة كثيراً ما تكون بركاناً . والفتنة كثيراً ما تكون ناراً في هشيم .

والتمرد ، كما قلنا ، كثيراً مـا يكون مـــن جـانب السلطة :

* Verdets هي العصابات الملكية التي عاثت فساداً في فرنسة بعد اليوم التاسع من تيرميدور والمئة يوم .

** Compagnies de Jéhu عصابات من السفاكين الملكيين ذهب ضحيتها عدد من الجمهوريين الفرنسيين بعد اليوم التاسع من تيرميدور .

*** Vendée هي الحرب الاهلية التي نشبت في غرب فرنسة خلال الثورة وحمل لواءها النبلاء باسم المبدأ الملكي ، عام ١٧٩٣

فـ« بولينياك » * كان متمرداً ، وكاميل دو مولين ** كان حاكماً .

وفي بعض الاحيان ، تكون الثورة بعثاً .

وإذ كان حلُّ كل شيء بالاقتراع العام واقعةً حديثة بكل ما في الكلمة من معنى ، واذ كانت جميع حقب التاريخ السابقة له ، منذ اربعة آلاف سنة ، حافلة بالحق المعتدى عليه وبآلام الشعب ، فأن كل عهد من عهود التاريخ يحمل معه الاحتجاج الذي يقدر عليه . ففي ظل القياصرة لم يكن ثمة بعث ، ولكن كان ثمة جوفينال *** .

إن الـ facit indignatio **** قد حلت محل الـ Graeques *****

وفي ظل القياصرة نجد منفيّ أسوان ، ونجد ايضاً إنسان «الحوليات» ******

اننا لا نتحدث عن منفيّ باثموس ******* الذي يرهق ، هو أيضاً ، العالم الواقعي باحتجاج باسم المثل الاعلى ، ويجعل من احدى الرؤى قصيدة هجائية ، هائلة ، ويقذف رومة — نينوى ، ورومة — بابل ، ورومة — سدوم بانعكاسات « رؤيا يوحنا » الساطعة :

---

* Polignac رئيس وزراء فرنسة ووزير خارجيتها في اواخر عهد الملك شارل العاشر . وهو الذي اصدر في ٢٩ تموز ١٨٣٠ ، القوانين الشهيرة التي ادت الى ثورة يوليو (١٧٨٠ – ١٨٤٧)

** Camille Desmoulins احد رجال الثورة الفرنسية المشهورين ، وقد سبق التعريف به .

*** Juvénal شاعر لاتيني ساخر هجاء ولد حوالى عام ٤٢ وتوفي حوالى عام ١٢٥ للميلاد . والاهاجي الأربع عشرة التي بقيت لنا من شعره تنضح بروح النقمة على مفاسد رومة .

**** كلام لاتيني أصله *facit indignatio versum* ومعناه : السخط يبعث الشعر . وهو من كلام جوفينال الآنف ذكره .

***** يقصد غييوس غراغوس Gaius Gracchus وأخاه تيباريوس Tiberius وكانا خطيبين ومصلحين يونانيين (١٥٣ ؟ – ١٢١ ق . م) و (١٦٣ ؟ – ١٣٣ ق.م.) .

****** Annales رائعة « تاسيت » (القرن الثاني للميلاد) في التاريخ الروماني منذ موت الامبراطور اوغوسطوس حتى موت نيرون . وفيها يقدم تاسيت الينا وصفاً رائعاً لحقيقة المجتمع الروماني في ظل الامبراطورية .

******* Pathmos جزيرة في بحر ايجه تؤلف جزءاً من الدوديكانيز ، وقد اشتهرت باقامة القديس يوحنا فيها بعد ان نفاه اليها الامبراطور الروماني دوميسيين ، حيث وضع كتابه المعروف برؤيا يوحنا Apocalypse .

ان يوحنا فوق صخرته ، اشبه بابي الهول فوق قاعدته . اننـا لا نستطيع ان نفهمه . إنه يهودي ، وهو يتكلم العبرية . ولكن الرجل الذي كتب « الحوليات » لاتيني ، ولنقل ، على الاصح ، إنه روماني .

وإذْ كان النيارنة * يحكمون على النحو الاسود ، فينبغي ان يصوَّروا على الغرار نفسه . إن العمل بالمنقاش وحده خليق به ان يكون شاحباً . ففي الاخاديد يجب ان يُفرغ نثر مركَّز من الضرب الذي يلسع .

الطغاة عون للمفكرين . فالرأي المصفد بالأغـلال رأي رهيب . والكاتب يضاعف اسلوبه ويثلثه حين يفرض سيد ما الصمت على الشعب. وانما ينبثق من هذا الصمت قوة غريبة ترشح وتتخثر إلى قُلز ** في الافكار . إن الضغط في التاريخ يولد الايجاز ، في المؤرخ . والصلابة الصوانية التي يتسم بها بعض المـأثور من النثر ليست غير تكثيف يقـوم به الطـاغية .

الطغيان يُكره الكاتب على ان يقصّر قطر الدائرة تقصيراً هو زيادة في القوة . والعهد الشيشروني ، الذي يكاد يكون كافياً في حق فيريس*** خليق بـه أن يتثلم في حق كاليغولا **** . بسطٌ اقل في العبارة ، وعنف اشد في الضربة . إن « تاسيت » ***** يفكر وذراعه متقلصة .

إن نبالة القلب الكبير ، مكثفةً إلى عدالة وحقيقة ، لتفعـل فعـل الصـاعقـة .

---

* جمع نيرون.

** القلز سبيكة من نحاس وقصدير .

*** Verrès قنصل روماني مطلق الصلاحية (١١٩ — ٤٣ ق.م.) اشتهر بارتهانه وبلجوئه الى النهب في مدن صقلية . وقد اتهمه شيشرون بسرقة مال الدولة .

**** كاليغولا امبراطور روماني (١٢ — ٤١ م .) وقد بلغت به القسوة حداً جعله يتمنى لو كان للشعب الروماني رأس واحدة حتى يقطعها بضربة واحدة ، وبلغ به الجنون حداً جعله يعين جواده اينسيتاتوس Incitatus قنصلا .

***** المؤرخ الروماني الشهير، وقد سبق التعريف به .

ولنقل على الهامش ان تاسيت ، تاريخياً ، ليس منضوداً فوق قيصر . إن التيباريين قد أفردوا له . إن قيصر وتاسيت ظاهرتان متعاقبتان يبدو ان اجتماعهما كان يُجتنب من قبل ذلك الذي ينظّم ، عند إخراج العصور والقرون المسرحي ، دخول الممثلين وخروجهم . قيصر عظيم ، وتاسيت عظيم . والله يدخر هاتين العظمتين بأن لا يوقع الصدام بينهما. والمتصدر للقضاء ، اذ يضرب قيصر ، قد يضربه بأعنف مما ينبغي ، ويجور عليه . إن الله لم يشأ ذلك . وحروب افريقية واسبانية الكبرى ، والقضاء على قراصنة سيليزيا ، وإدخال الحضارة إلى بلاد الغال ، وإلى بريطانية ، وإلى المانية ، هذا المجد كله يغطي الـ « روبيقون » * : إن ههنا لضرباً من لطافة العدالة الالهية ، فهي تتردد في أن تطلق المؤرخ الرهيب على المغتصب الماجد ، منقذة قيصر من تاسيت ، مانحة العبقرية الاسبابَ التخفيفية .

وليس من ريب في ان الاستبداد يظل هو الاستبداد حتى في ظل المستبد العبقري . إن هناك فساداً في ظل الطغاة الماجدين ، ولكن الطاعون الاخلاقي يكون أشد بشاعة في ظل الطغاة المرذولين . وفي هذه العهود ، لا شيء يحجب العار . وضاربو الامثال للاعتبار ، من مثل تاسيت وجوفينال ، يَلطِمون انفع ما يكون اللطم في حضرة الجنس البشري، ذلك الخزي الذي لا يعرف العذر .

إن رائحة رومة في عهد فيتيليوس ** أكرهُ منها في عهد سيلا ***

---

* Rubicon نهر في ايطالية الوسطى الشمالية ، على بعد عشرين ميلا من بحر الادرياتيك. وكان مجلس شيوخ رومة قد حرم عبور هذا النهر الذي كان يفصل بلاد غالة الخاضعة لنفوذ قيصر عن ايطالية نفسها ، ولكن قيصر اجتازه غير مبال بذلك الخطر فنشبت بينه وبين الحكومة الرومانية ، وكان على رأسها آنذاك بومبييوس ، حرب اهلية .

** Vitellius امبراطور روماني لم يحكم غير ثمانية اشهر وبضعة ايام من عام ٦٩ للميلاد ، وكان مشهوراً بفسقه وشرهه وقسوته .

*** Sylla امبراطور روماني سبق التعريف به .

وفي ظل كلوديوس * ودوميسيان ** نجـــد شناعة دناءة مطابقـــة لبشاعة الطاغية . إن خساسة العبيد نتيجة من نتائج المستبد المباشرة ، وإن أبخرة وبيئة لتتصاعد من هذه الضمائر النتنة التي تعكس صورة السيد . ان السلطات العامة غير نظيفة ، القلوب صغيرة ، والضمائر غائرة ، والنفوس كريهة الرائحة ؛ تلك هي الحال في عهد كركلا *** ، وتلك هي الحال في عهد كومودوس **** ، وتلك هي الحـــــال في عهـــد هيليو غاباالوس ***** فيما انبعثت من مجلس الشيوخ الروماني في عهد قيصر فحسب رائحة الروث التي تميز أوكار النسور .

ومن هنا مجيء امثال تاسيت وجوفينال ، ذلك المجيء الذي يبدو متأخراً . ففي ساعة الاثبات يبرز المعلّم .

ولكن جوفينال وتاسيت ، مثل أشعيا نفسه في العهود التوراتية ، ومثل دانتي نفسه في القرون الوسطى ، هما من بني الانسان . إن الفتنة والثورة هما الجمهور ، الذي يكون على ضلال حيناً ، وعلى حق حيناً .

وفي الاعم الاغلب تنبثق الفتنة من واقعة مادية . أما الثورة فهـــي ظاهرة اخلاقية دائمـاً . الفتنة هي ماسانيلو ****** أما الثورة فهي

---

* Claude الاول ، امبراطور روماني كان مريضاً وجباناً أجاز لامرأته آغريبين ان تسيطر عليه (١٠ ق.م – ٥٤ ب.م) .

** Domitien امبراطور روماني تولى الحكم عام ٨١ – ٩٦ للميلاد وكان عهده اول الامر سعيداً ولكنه ختمه بدكتاتورية طاغية .

*** Caracalla امبراطور روماني من اصل سوري دام حكمه من عام ٢١١ – ٢١٧ ، وقد تميز عهده بسلسلة من الجرائم والحماقات ، ويقال انه اهلك عشرين الف رجل .

**** Commode امبراطور روماني ، ابن مارك اوريليوس . وقد اشتهر بوحشيته . وقد قتل مسموماً (١٦١ – ١٩٢)

***** Héliogabale امبراطور روماني من اصل سوري ، وقد دام حكمه من عام ٢١٨ الى عام ٢٢٢ . وكان شديد القسوة ، معناً في الفسوق .

****** Masaniello ثائر شعبي من ثوار نابولي ، (١٦٢٣ – ١٦٤٧) وقد تزعم ثورة بناء نابولي على الاستبداد الاسباني .

سبارتاكوس * الثورة تتاخم العقل ، والفتنة تتاخم المعـــدة . إن غاستر ** لشديد الاهتياج ، ولكن غاستر ليس دائماً مـــن غـــير شك ، على ضلال . ففي حالات المجاعة تكون الفتنة — بوزانسيه مثلا — ذات مُنْطَلَقٍ حقيقيٍ عادل ، مثير لاشجان النفس . ومع ذلك تظل فتنة . لماذا ؟ لأنها برغم كونها على حق في الاساس ، كانت على خطأ ، في الشكل . إنها ضارية ، وان تكن محقة ؛ عنيفة ، وإن تكن قوية ، ولقد ضربت ضربتها في غير تبصر . لقد مشت مشية فيل أعمى ، ساحقـــة كل شيء . لقد خلفت وراءها جثث شيوخ ، ونساء ، واطفال . لقد سفحت ، من غير ان تدري لماذا ، دماء المسالمين والابرياء . إن تقديم الغذاء إلى الشعب غاية حسنة ، ولكن تذبيـــح الشعب وسيلة سيئة .

كل احتجـاج مسلح ، حتى الأكثر شرعية ، حتى اليوم العـــاشر من آب ، حتى اليوم الرابع عشر من تموز ، ينتهـي بالبلاء نفسه . وقبل ان ينطلق الحق من عقاله لا بد من جلبة وزبد . الانتفاضة تكون في البدء فتنة ، كما يكون النهر سيلا . وهي تنتهـي في العادة إلى هذا الاوقيانوس : الثورة . إلا انها إذ تندفع في بعض الاحيان من تلك الجبال السامقة التي تهيمن على الافق الاخلاقي — العدالة ، الحكمة ، العقل ، الحـــق — المصنوعة من ثلج المثل الاعلى الاشد نقاوة ، وبعد ان تسقط من صخرة إلى صخرة سقوطاً متطاولا ، وبعد ان تعكس السماءَ في شفافيتها وتتضخم بمئة رافد في طريقها الجليل المظفّر ، تتيه الثورة في بعض الحمآت البورجوازية كما يتيه الراين في أرض سبخة .

ذلك كلـــه من أمور الماضي ، أما المستقبل فشيء آخر . فالاقتراع العام هو من الروعة بحيث يذيب الفتنة في مبدأه ؛ ومن طريق التصويت

* Spartacus زعيم الثورة الزنجية في عهد الرومان ، وقد سبق التعريف به .

** Gaster احدى الشخصيات التي أبدعها الكاتب الفرنسي رابليه ، وهي ترمز الى البطن او الى المعدة .

للثورة يجردها من سلاحها . إن امحاء الحرب ، حرب الشوارع وحرب الحدود ، هو التقدم المحتوم . وأياً ما كان اليومُ ، فغداً سلام .

وإلى هذا فالبورجوازي ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، قليلا ما يعرف الظلال التي تميز الثورة عن الفتنة . كل ذلك ، في نظره ، شغَب ، مجرد عصيان ، تمرد الكلب على سيده ، محاولة نهش ينبغي ان تعاقب بالسلاسل والحبس ضمن جدران الكوخ ، مجرد عواء ، ونباح ، حتى اليوم الذي يبرز فيه رأس الكلب وقد تعاظم فجأة – في الظلام ، وعلى غير وضوح – وأمسى له وجه أسد من الاسود .

عندئذ يهتف البورجوازي : فليحي الشعب !

أما وقد قدمنا هذا التفسير ، فما هي – في نظر التاريخ – حركة حزيران ، ١٨٣٢ ؟ أهي فتنة ؟ أهي ثورة ؟

إنها ثورة .

وقد يتفق لنا ، في هذا الاخراج لحادثة رهيبة ، ان نلفظ في بعض الأحيان ، كلمة الفتنة ، ولكن لنشير إلى وقائع ظاهرية ليس غير ، مؤكدين دائماً على التمييز بين الشكل الذي هو فتنة ، والجوهر الذي هو ثورة .

لقد كان لحركة ١٨٣٢ ، في انفجارها السريع وخمودها المأتمي ، عظمةٌ بالغة تجعل حتى اولئك الذين لا يرون فيها غير فتنة لا يتحدثون عنها إلا باحترام . انها عندهم اشبه ببقية من عام ١٨٣٠ . وهم يقولون : إن الخيالات الهائجة لا تهدأ في يوم واحد . والثورة لا تنحسم عمودياً . ان بعض التموجات الضرورية لتصاحبها دائماً قبل العودة إلى حال السلم ، كالجبل في هبوطه نحو السهل . فليس ثمة جبال ألب من غير « جورا » * ، ولا جبال برانس (بيرينيه) من غير آشتوريس ** .

---

* Jura سلسلة جبال تفصل ما بين فرنسة وسويسرة ، ويبلغ طولها ثلاثمئة كيلو متر .

** مقاطعة اسبانية قديمة ، جبلية الارض ، تطبق عليها جبال البرانس (البيرينيه) .

هذه الازمة المؤثرة من ازمات التاريخ المعاصر التي تدعوها ذاكرة الباريسيين « **عهد الفتن** » هي من غير شك حقبة متميزة وسط حقب هذا القرن العاصفة . بقيت كلمة أخيرة قبل ان نستأنف القصة .

إن الاحداث التي نوشك على روايتها تمت بالنسب إلى تلك الحقيقة المسرحية الحية التي يهملها المؤرخ في بعض الأحيان لضيق الوقت والمجال. ومع ذلك ، فان فيها — ونحن نصر عـــلى ذلك — حياة الانسانية ، ونبضها ، وارتعاشها . إن الاحداث الصغيرة — كما سبق ان قلنا في ما نظن — هي إذا جاز التعبير توريق الاحداث الكبرى ، وانها لتضيع في أبعاد التاريخ . والحقبة الموسومة بـ « حقبة الفتن » تزخر بتفاصيل من هذا النوع . والتحقيقات القضائية ، لاسباب اخرى غير التاريخ ، لم تكشف عن شيء . بل لعلها لم تذهب إلى أعماق أي شيء . واذن ، فسوف نُظهر إلى النور ، بين الاحداث المعروفة والمنشورة ، اشياء لم تعرف قط من قبل ، ووقائع عفى النسيان على بعضها ، وعفى الموت على بعضها الآخر . ومعظم الممثلين في هذه المشاهد الضخمة قد زالوا . لقد اعتصموا ، منذ اليوم التالي ، بالصمت . ولكننا نستطيع ان نقول إننا قد رأينا ما سوف نرويه هنا . إننا سوف نغير بعض الاسماء ، ذلك بأن التاريخ يقص ولا يشي ، ولكننا سوف نصور الحقيقة . وبسبب من طبيعة هذا الكتاب الذي نؤلفه ، لن نُظهر غير جانب واحد وغـــير حادث واحد ، وذلك بلا ريب هو ما يجهله الناس اكثر ما يكون ، من يومي ٥ و ٦ حزيران ١٨٣٢ . بيد اننا سوف نفعل ذلك على نحو يمكن القاريء من ان يلمح ، تحت الحجاب القاتم الذي نوشك ان نرفعه ، الوجه الحقيقي لتلك المأساة العامة الرهيبة .

٣

دفنٌ . فرصة للبعث

في ربيع عام ١٨٣٢ ، وعلى الرغم من ان الكوليرا كانت قد اوقعت القشعريرة في جميع القلوب وألقت على اضطرابها هدوءاً فاجعاً يمتنع على الوصف ، كانت باريس مستعدة منذ زمن طويل لهزة عنيفة ؛ وكما قلنا من قبل ، تشبه المدينة الكبيرة مدفعاً ، فما إن يشحن بالمتفجرات حتى تكفي شرارة ساقطة لاندلاع النار . وفي حزيران ، ١٨٣٢ ، كانت الشرارة هي وفاة الجنرال لامارك .

كان لامارك ، رجل صيت وعمل . وكان قد تحقق ، في نجاح ، في ظل الامبراطورية والعهد البوربوني الجديد ، بالشجاعتين الضروريتين للعهدين : بسالة الميدان ، وبسالة المنبر . كان بليغاً بقدر ما كان باسلا ؛ ولقد استشعر الناس سيفاً في كلامه . ومثل فوى ، سلفه ، رفع لواء الحرية بعد ان رفع لواء القيادة . لقد اتخذ مكانه بين اليسار واليسار المتطرف ، وكان حبيباً إلى الشعب لأنه ارتضى حظوظ المستقبل ، وكان حبيباً إلى الجماهير لأنه قد اخلص في خدمة الامبراطور . كان ، مع الكونت جيرار * والكونت دروويه ** ، احد مارشالات نابوليون غير الرسميين . ولقد اعتبرته معاهدات عام ١٨١٥ إهانة شخصية . كان يبغض ولينغتون بغضاً مباشراً سرَّ الجماهير ؛ وطوال سبعة عشر عاماً

* Gérard مارشال فرنسة (١٧٧٣ - ١٨٥٢) لمع نجمه في معركتي ليني Ligny (١٨١٥) واستولى على انفرس (١٨٣٢) وتولى في عهد لويس فيليب وزارة الحربية ورئاسة مجلس الوزراء .

** Drouet مارشال فرنسة (١٧٦٥ - ١٨٤٤) لمع نجمه في المعارك التي خاضتها جيوش بونابرت في عهد الامبراطورية وابلى بلاء حسناً في واترلو . وفي عام ١٨٣٤ عين حاكماً للجزائر .

احتفظ في جلال بكآبة واترلو غير منتبه إلا بشق النفس إلى الاحداث المتخللة ما بين الفترتين . وفيما هو يعالج سكرات الموت ، في ساعته الاخيرة ، شد إلى صدره سيفاً كان ضباط « الايام المئة » قد أهدوه اياه . لقد مات نابوليون وهو يلفظ كلمة **الجيش** ، ومات لامارك وهو يلفظ كلمة **الوطن** .

وكان موته ، المرتقب ، موضع رهبة الشعب بوصفه خسارة ، وموضع رهبة الحكومة بوصفه فرصة . لقد كانت تلك الميتة حداداً . وككل ما هو مرير ، قد ينقلب الحداد إلى ثورة . وهذا ما حدث .

وعشية الخامس من حزيران وصباحه ، وهو اليوم المعين لدفن لامارك ، اتخذت ضاحية سان انطوان – وكان مقدراً للموكب أن يمسها مساً رفيقاً – مظهراً رهيباً . كانت شبكة الشوارع الصاخبة تلك ملأى بالشائعات . وتسلح الناس على النحو الذي وفقوا اليه . وحمل بعض النجارين ملازم طاولاتهم الحديدية لكي « يخرقوا الابواب » . وكان احدهم قد اتخذ من كلاّب لصنع الاحذية خنجراً ، وذلك بأن كسر الكلاب وشحذ بقيته الباقية . وكان آخر ، في حمّى الرغبة في « الهجوم » ، قد نام ، ثلاث ليال ، من غير ان يخلع ثيابه . والتقى نجار يدعى لومبييه برفيق له ، فسأله رفيقه هذا : – « إلى اين انت ذاهب ؟ » – « حسن ، ليس عندي سلاح . » – « ثم ماذا ؟ » – « انا ذاهب إلى مَشغلي المكشوف لأجيء ببركاري . » – « وما تعمل به ؟ » فقال لومبييه : « لست ادري . » وراح رجل يدعى جاكلان ، وكان من رجال الاعمال ، يدنو من اي عامل يلتقي به ويقول : « تعال ، انت ! » وكان يجيئه بمقدار من الخمر يساوي عشرة فلوس قائلا : – « أعندك عمل ما ؟» – « لا ! » – « إذهب إلى محل فيلسبير ، بين باب مونتروي وباب شارون ، وهناك ستجد عملا . » ووجدوا عند فيلسبير خراطيش وأسلحة . وقام بعض الزعماء

المعروفين بمهمة البريد ، يعني انهم انشأوا ينطلقون من بيت إلى بيت ليجمعوا الناس . وفي حانة بارتيلوميوس قرب « لا باريير دو ترون » ، وفي حانة كابيه ، في الـ « بيتي شابو » ، دنا بعض الشاربين إلى بعضهم ، وسيما الجد تغلب على وجوههم . لقد سمعوا يقولون : — « اين غدارتك ؟ » — « تحت دراعتي . » — « وغدارتك انت ؟ » — « تحت قميصي » . وفي شارع ترافرسيير ، تجاه معمل رولان ، وفي فناء الـ « ميزون بروليه » تجاه معمل برنييه صانع الماكينات كانت جموع من الناس تتهامس . ولوحظ بين اشدهم التهاباً رجل يدعى « مافو » ، وهو عامل ما كان ليشتغل اكثر من اسبوع واحد في معمل واحد ، لأن اصحاب المعامل كانوا يطردونه « لاضطرارهم إلى التشاجر معه كل يوم » . وقتل « مافو » في اليوم التالي في متراس شارع مينيلونتان . وساعد « مافو » هذا عامل آخر يدعى « بريتو » قدّر له ان يُصرع ايضاً في المعركة ، وكان إذا ما سئل : « ما غايتك ؟ » يجيب : « الثورة » . وكان بعض العمال المتجمهرين في زاوية شارع برسي ينتظرون رجلا يدعى لومارين ، وهو عميل ثوري مسؤول عن ضاحية سان انطوان . وكان القوم يتبادلون الشعارات وكلمات التعارف على نحو علني تقريباً .

في اليوم الخامس من حزيران ، اذن ، وهو يوم امتزج فيه المطر باشعة الشمس ، اخترقت جنازة الجنرال لامارك شوارع باريس بالابهة العسكرية الرسمية المألوفة ، وقد بولغ بها بعض الشيء على سبيل الحذر . لقد واكبت النعش فرقتان من الجند ، وطبول مجللة بالسواد ، وبنادق منكسة ، وعشرة آلاف من رجال الحرس الوطني وسيوفهم إلى جوانبهم ، ومدفعية الحرس الوطني . وجر الشباب مركبة الموتى . وتبعهم على الأثر ضباط مشوهي الحرب ، حاملين اغصان الغار . ثم اقبلت جماعات لا تحصى ، غريبة مهتاجة ، وأفواج « اصدقاء الشعب » ،

ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الطب ، واللاجئين من مختلف الجنسيات ، ورايات اسبانية ، وايطالية ، وألمانية ، وبولندية ، واعلام أفقية مثلثة الألوان ، وكل راية يمكن ان تخطر بالبال ، واطفال يلوحون بأغصان خضر ، وحجارون ونجارون كانوا مضربين في تلك اللحظة بالذات ، وطابعون متميزون بقبعاتهم الورقية ، يمشون اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، مطلقين الصيحات ، هازين العصي كلها تقريباً ، وبضعةٌ من السيوف ، في غير ما نظام ، ولكن بروح مفردة ، فهم جمهرة حاشدة حيناً ، وهم صف ضيق طويل حيناً . واختارت جماعات منهم زعماء لها : وبدا رجل مسلح بغدارتين ظاهرتين للعيان اتم الظهور وكأنه يستعرض رجالا آخرين وهم يبتعدون عنه في طوابير . وفي ازقة الجادات ، ووسط اغصان الاشجار ، وعلى الشرفات ، وفي النوافذ ، وعلى السطوح كانت حشود من الرؤوس : رجالا ونساء واطفالا . كانت أعينهم ملأى بالقلق . كانت جمهرة مسلحة تمرّ ، وكانت جمهرة مروَّعة تنظر .

والحكومة من ناحيتها ، كانت تراقب . لقد راقبت ، ويدها على مقبض السيف . ولقد كان في ميسور المرء ان يرى ، على قدم الزحف ، في ساحة لويس الخامس عشر — وقد زُودت بصناديق ملأى بالخراطيش وببنادق طويلة وبنادق قصيرة مشحونة — اربعَ كوكبات من الجند المسلحين بالبنادق الخفيفة ، ممتطين صهوات الخيل ، وإلى جانب رؤوسهم الابواق . وان يرى في « الحي اللاتيني » وفي « حديقة النبات » الحرسَ الوطني مصطفاً من شارع إلى شارع ، وان يرى في « لا غريف » نصف الفرقة الثانية عشرة الخفيفة ونصفها الآخر في الباستيل ، وفرقة الخيالة السادسة في سيليستين ، وان يرى فناء اللوفر غاصاً بالمدفعية . وكانت بقية الجيوش قد حجزت في الثكنات ، هذا إذا لم نذكر الكتائب التي كانت في ضواحي باريس . لقد علقت السلطة القلقة فوق رؤوس الجماهير المتوعدة اربعة وعشرين

الف جندي في المدينة ، وثلاثين الفاً في الضواحي .

وانتشرت اشاعات مختلفة في الموكب . لقد تحدث القوم عن مؤامرات يبيتها انصار الشرعية . تحدثوا عن الدوق رايشتات * الذي اعده الله للموت لحظة كان الشعب يعده للامبراطورية . واعلنت شخصية لا تزال مجهولة ان اثنين من كبار المستخدمين الذين كسبتهم القضية سوف يفتحان، في الميقات المحدد ، أبواب مصنع من مصانع السلاح . وكان التعبير الغالب على معظم جباه الحاضرين الحاسرة ينم عن حماسة ممزوجة بالضنى. وهنا وهناك — وسط هذا الجمع الغفير العاصفة به عواطف عنيفة لا عد لها ، ولكنها نبيلة ، كان في ميسور المرء ان يرى وجوه اشرار حقيقية ، وأفواهاً خسيسة تقول : « النهب! » إن ثمة بعض الاضطرابات التي تثير اعماق المستنقع ، وتطلع في الماء سُحباً من الوحل . وهي ظاهرة ليس رجال الشرطة « المتمرسون بالصناعة » غرباء عنها .

واتخذ الموكب سبيله ، في بطء محموم ، من دار الميت ، مجتازاً الجادات حتى الباستيل . وهطل المطر بين الفينة والفينة . ولم يحدث المطر اثراً ما في ذلك الحشد . وميزت تقدمَ الموكب عدة احداث : الانعطاف بالنعش حول عمود « فاندوم » ، والقاء الحجارة على الدوق دو فيتز جيمس ** الذي رؤي على احدى الشرفات معتمراً قبعته ، وتمزيق الديك الغالي*** من راية شعبية وجرّه في الوحل ، وجرح احد رجال الشرطة بضربة سيف عند باب سان مارتان ، وصياح احد

---

* duc de Reichstadt هو اللقب الذي حمله ابن نابوليون الاول ، اي نابوليون الثاني ، بعد عام ١٨١٤ ، وقد مات في ريعان الشباب بمرض عضال (١٨١١ — ١٨٣٢) اي في العام الذي يؤرخ له المؤلف في هذه الفصول .

** duc de Fitz — James حفيد المارشال فيتز جيمس ، وهو من اصل انكليزي ، وكان عضواً في مجلس الاعيان في العهد البوربوني الجديد ونائب مدينة تولوز في عهد لويس فيليب (١٧٦٦ — ١٨٣٨)

*** coq gaulois احد رموز فرنسة الوطنية .

ضباط الفرقة الثانية عشرة الخفيفة : « انا جمهوري ! » ، وصيحات « فلتحي مدرسة البوليتكنيك ! فلتحي الجمهورية ! » التي اطلقها طلاب تلك المدرسة بعد ان حُجزوا فيها . وعند الباستيل التحقت بالموكب صفوف طويلة من الفضوليين المروّعين الهابطين من ضاحية سان انطوان ، وشرع غليان فظيع يثير الجماهير .

وسُمع رجل يقول لآخر : « اترى ذلك الرجل ذا اللحية الحمراء ؟ إنه هو الذي سيقول متى يجب ان نطلق النار . ويبدو ان تلك اللحية الحمراء نفسها سنقع عليها في ما بعد تقوم بالمهمة نفسها في فتنة اخرى ، هي مسألة كينيسيه .

واجتازت عربة الموتى الباستيل ، وسايرت القناة ، وعبرت الجسر الصغير ، وانتهت إلى ساحة جسر اوسترليتز . وهناك كفت عن المسير . ولو ان المرء القى نظرة طائر على هذا الحشد اذن لتبدّى له منظر مذنّب رأسه عند الساحة ، في حين كان ذيله الممتد على الـ « كي بوردون » يغطي الباستيل ، وينتشر فوق الجادة حتى باب سان مارتين . وتشكلت حول عربة الموتى دائرة . وران الصمت على الحشود المترامية . وتكلم لافاييت وودع لامارك . كانت لحظة مؤثرة وجليلة ؛ كانت الرؤوس كلها حاسرة ، وكانت القلوب كلها خافقة . وفجأة ، بدا وسط الجمع رجل على صهوة جواد ، رجل يرتدي ثوباً اسود ، ويحمل علماً احمر ، أو حربة — كما يزعم بعضهم — تعلوها قلنسوة حمراء . وغض لافاييت طرفه . وانسحب ايكزيلمان * من الموكب .

هذا العلم الاحمر أثار عاصفة واختفى فيها . ومن « بوليفار بوردون » الى جسر اوسترليتز حركت الحشد احدى تلك الصيحات التي تشبه اضطراب الموج . وارتفعت صيحتان عجيبتان : « اذهبوا بلامارك إلى

---

* Exelmans مارشال فرنسة (١٧٧٥ — ١٨٥٢) . لمع نجمه في معركة « الموسكوفا » (بين نابوليون والروس) .

البانتيون ! اذهبوا بلافاييت إلى الاوتيل دو فيـــل ! » وقرن بعض الشبان انفسهم ، وسط هتافات الحشد ، إلى عربة الموتى ، وانشـأوا يجرون لامارك في عربته فوق جسر اوسترليتز ، ولا فاييت في احـــدى عجلات الكراء فوق الـ « كي مورلان » .

وفي الحشد الذي طوق لافاييت وهتف له ، لاحظ القوم واشـــاروا ببنانهم إلى الماني يدعى لودويك سنايدر ، الذي مات بعد ذلك عـن مئة عام ، والذي سبق له ان شهد حرب ١٧٧٦ * ، وحارب فـي ترنتون تحت قيادة واشنطون ، وفي برانديواين تحت قيادة لافاييت.

وفي غضون ذلك ، كانت الخيالة البلدية تتحرك عند الضفة اليسرى ، وكانت قد انجزت قطع الجسر . وعند الضفة اليمنى كان الخيـــالـــة المعروفون بالتنانين يغادرون الـ « سيليستين » ، وينتشرون على طـــول الـ « كي مورلان » . وفجأة ، لمحهم الرجال الساحبون لافاييت عنـــد زاوية الـ « كي » ، وصاحوا : « التنانين ! التنانين ! » وكان التنانين يتقدمون في مشية عسكرية ، وفي صمت ، وغداراتهم في جراباتهــــا الجلدية ، وسيوفهم في أغمادها ، وبنادقهم القصيرة في مساندها ، وقـد غلبت على وجوههم سيما من التوقع القاتم .

وتوقفوا على بعد مئتي خطوة من الجسر الصغير . واتخذت عجـلة الكراء التي كان لافاييت فيها سبيلها نحوهم ، ففتحوا لهـا صفـوفهم ، مفسحين لها الطريق ، ثم عادوا إلى وضعهم الأول كرة اخرى . وفي تلك اللحظـة تماس التنانين والجماهير . وفرت النسوة في ذعر .

ما الذي حدث في تلك الدقيقة المشؤومة ؟ لم يكن في ميسور أحـد ان يعرف . كانت هي اللحظة المظلمة التي تمتزج فيها سحابتان . بعضهم يقول انه سمع تبويقاً من ناحية دار الصناعة يؤذن ببـدء الحمـــلة ، وبعضهم يقول ان طفلا سدد إلى احد التنانين طعنة خنجر . والحقيقـــة

* حرب الاستقلال الاميركي .

ان ثلاثة عيارات نارية قد أطلقت فجأة ، أولها صرع رئيس كوكبة الفرسان ، شوليه ، وثانيها صرع عجوزاً صماء كانت تغلق نافذتها في شارع كونتر سكارب ، وثالثها أحرق كتافة احد الضباط . وصاحت امرأة : « إنهم يبدأون باسرع مما ينبغي ! » وفجأة ، رئيت من الناحية المواجهة للـ « كي مورلاند » كوكبة من الفرسان التنانين كانت قد بقيت في ثكناتها تنطلق خبباً ، شاهرة سيوفها ، من شارع باسومبيير وجادة بوردون ، جارفة كل شيء أمامها :

وتتعطل لغة الكلام ، وتفلت العاصفة من عقالها ، وتتساقط الحجارة كالوابل ، وتلعلع البنادق ، ويلقي كثير بانفسهم في ضفة النهر ويعبرون شعبة « السين » الصغيرة المطمورة اليوم . وتغص أفنية الـ « إيل لوفييه » ، تلك القلعة الجاهزة ، بالمقاتلين . ويقتلعون الاوتاد ، إنهم يطلقون النار من غداراتهم . ويرسمون الخطوط الكبرى لانشاء متراس من المتاريس ، ويجتاز الشبان الذي ردوا على اعقابهم جسر اوسترليتز وعربة الموتى تعدو عدواً ، ويهجمون على الحرس البلدي ، ويندفع الجنود ذوو البنادق القصيرة الخفيفة سراعاً ، ويُعمل الفرسان التنانين سيوفهم ، ويتفرق الحشد في كل سبيل ، وتتطاير شائعة الحرب في زوايا باريس الأربع ، ويصيح الناس : « الى السلاح » ويركضون ، ويتعثرون ، ويفرون ، ويقاومون . وجرف الغيظُ الفتنة ، كما تجرف الريح النار .

٤

فورات العهد الماضية

ليس ثمة شيء اكثر غرابة من تشكّل الفتنة الأول : ان كل شيء لينفجر في كل مكان دفعة واحدة . هل كانت متوقعة ؟ نعم : هل

أعِدت إعداداً ؟ لا . من اين تنبثق ؟ من حصباء الطريق . من ايـن تهبط ؟ من السحب . هنا تكون للثورة صفة المؤامرة ، وهناك تكون لها صفة الارتجال . ويستحوذ أول قادم على تيار من الدهماء ويقوده حيثما شاء . استهلال مليء بالذعر ممتزج به ضربٌ من البهجة الراعبة . في البدء تكون ثمـة صيحات استقباح ، وتقفل الدكاكين ، وتختفي معروضات النجار . ثم تنطلق بعض العيارات النارية المنعزلة ، ويولي الناس الادبار . وتصطدم اعقاب البنادق بأبواب العربات . وتسمع الخادمات يضحكن في افنية البيوت ويقلن : « سوف يحدث نزاع صاخب ! »

ولم تكد تنقضي ربـع ساعة حتى كان هذا ما حدث ، في الوقت نفسه تقريباً ، في عشرين نقطة اخرى من باريس :

في شارع « سانت كروا دو لا بروتونيري » ، دخل نحو من عشرين رجلا ، ذوي لحى وشعور طويلة ، إلى حانة ما ، وغادروها بعد لحظة واحدة حاملين علماً افقياً مثلث الالوان مغطى بنسيج حريري ، وعلى رأسـهم ثلاثة رجال مسلحين ، احدهم يحمل سيفاً ، والآخر يحمـل بندقية ، والثالث يحمل حربة .

وفي شارع دي نونينديير قدّم الخراطيش إلى عابري السبيل ، علناً ، رجـــل بورجوازي حسن البزة ، مبهـــور قصير النفس ، جهوري الصوت ، اصلع الرأس ، مرتفع الجبين ، اسود اللحية ، ذو شاربـين خشنين من ذلك الضرب الذي لا سبيل إلى تذليله .

وفي شارع سان بيير مون مارتر طوّف رجال حاسرو الاذرع بعلم أسود كان في ميسور المرء ان يقرأ عليه هذه الكلمات مكتوبة باحرف بيضاء : « الجمهورية أو الموت » . وفي شارع دي جونور ، وشارع دوكادران وشارع مونتورغوي ، وشارع ماندار برزت جموع تلوح بأعلام بدت عليها باحرف من ذهب ، كلمة « شعبة » مردفة برقم . وكان احد هذه الاعلام احمر وازرق بينهما رقعة بيضاء لا تكاد تُلحظ .

ونُهب مصنع من مصانع السلاح ، في جادة سان مارتان ، وثلاثة من دكاكين بائعي السلاح ، وأولها في شارع بوبورغ ، وثانيها في شارع ميشيل لو كونت ، وثالثها في شارع التامبل . وفي بضع دقائق استولت ايدي الحشد البالغ عددها الفاً على مئتين وثلاثين بندقية كلها مزدوجة الاسطوانات تقريباً ، وعلى اربعة وستين سيفاً ، وثلاث وثمانين غدارة . ولكي يكون في الامكان تسليح عددٍ من الناس اكبر اخذ احدهم البندقية ، واخذ الآخر الحربة .

وتجاه الـ « كي دو لاغريف » ، اقام نفر من الشبان المسلحين بالبنادق القديمة مع بعض النسوة لكي يطلقوا النار . وكان احدهم يحمل بندقية ذات خزانة من خزائن الإيراء . لقد قرعوا الاجراس ، ودخلوا ، وعكفوا على صنع الخراطيش . وقالت احدى النسوة : « لم اكن اعرف ما هي الخراطيش ، ان زوجي هو الذي عرفني بها . »

واقتحمت جماعة احدى محلات التحف النادرة في شارع دي فيي هودرييت ، واستولت على بعض اليطقانات * والاسلحة التركية .

كانت جثة بنّاء صُرع بطلقة من بندقية قديمة منطرحة في شارع دو لا بيرل .

وإلى هذا فعلى الضفة اليمنى ، وعلى الضفة اليسرى ، وعلى ارصفة النهر ، وفي الجادات ، وفي الحي اللاتيني ، وفي منطقة الاسواق قرأ النداءات رجال لاهثون ، وعمال ، وطلاب ، واعضاء في مختلف الشُّعب ، وصاحوا : « إلى السلاح ! » . وحطموا مصابيح الشوارع ، وفصلوا ما بين الدواب وعرباتها ، وانتزعوا حصباء الطريق ، واقتحموا المنازل ، واقتلعوا الاشجار ، وجاسوا خلال الاقبية ، ودحرجوا البراميل ، وكوموا حجارة الطرق ، والحصى ، وقطع الاثاث ، والالواح الخشبية ، واقاموا متاريس .

* اليطقان : سيف محدب . وقد وردت الكلمة في الاصل بهذا اللفظ yatagans .

وأكرهوا البورجوازيين على ان يساعدوهم . ودخلوا البيوتَ على النساء ، وحملوهن على اعطائهم سيوف ازواجهم الغائبين وبنادقهم ، وكتبوا على الابواب ، بطباشير هشة جداً : « لقد سُلمت الاسلحة . » ووقع بعضهم « باسمائهم » ايصالات بالبنادق والسيوف ، وقالوا : « اطلبوها غداً من مقر العمدة » . وجردوا الحراس المتوحدين في الشوارع من اسلحتهم ، وكذلك فعلوا بالحرس الوطني في طريق عودته إلى البلدية . وانتزعوا كتافات الضباط . وفي شارع « مقبرة القديس نقولا » التجأ احد ضباط الحرس الوطني – وكان يتعقبه حشد مسلح بالهراوات والسيوف المثلمة – إلى احد البيوت ، في كثير من العسر ، ولم يوفق بعد إلى مغادرته إلا ليلا ، وعلى نحو متنكّر .

وفي حي سان جاك خرج الطلاب من فنادقهم زرافات زرافات ، وصعدوا في شارع سان هياسينت إلى « مقهى البروغريه » ، أو هبطوا إلى مقهى الـ « سيت بيليارد » . وهناك ، أمام الابواب ، كان شبان واقفون على بعض الانصاب يوزعون الاسلحة . ونهبوا مستودع الخشب في شارع ترانسنونين لكي يقيموا المتاريس . وفي موضع وحيد ، قاوم السكان ، عند زاوية شارعي « سان آفوى » و « سيمون لو فران » ، حيث حطموا المتراس بانفسهم . وفي موضع وحيد اذعن المتمردون ؛ لقد هجروا متراساً بديء باقامته في شارع التامبل بعد ان اطلقوا النار على فصيلة من الحرس الوطني ، وولوا الادبار من خلال شارع الكورديري . وعثرت الفصيلة في المتراس على راية حمراء ، ورزمة خراطيش ، وثلاثمئة من كُرات الغدارات . ومزق الحرس الوطني الراية ، وحملوا المزّق على رؤوس حرابهم .

كل هذا الذي نرويه ههنا حدث ، في تؤدة وتعاقب ، في جميع نقاط المدينة وسط ضوضاء غامرة ، مثل جمهرة من البروق في هزيم واحد من الرعد .

وفي اقل من ساعة انبثق من الارض سبعة وعشرون متراساً في منطقة الاسواق وحدها . وفي الوسط ، كان ذلك البيت الشهير ، رقم ٥٠ ، الذي كان قلعة « جان » ورفاقها المئة والستة ، والذي هيمن — وقد عُزّز ، من جانب ، بمتراس في سان ميرّي ، ومن آخر بمتراس في شارع موبوويه — على ثلاثة شوارع : شارع ديزارسيس ، وشارع سان مارتان ، وشارع اوبري لو بوشيه الذي كان ذلك البيت يتصدره . وانكفأ متراسان ، على زاوية قائمة ، احدهما من شارع مونتورغوي إلى « الغراند ترويانديري » ، والثاني من شارع جيوفروا لانغيفين إلى شارع سان آفوى ، هذا من غير ان نعدد متاريس لا تحصى في عشرين حياً اخرى من باريس ، في الـ « ماريه » ، وفي جبل القديسة جونفيياف . وكان احدها في شارع مينيلمونتان ، حيث كان في ميسور المرء ان يرى باب عربات منتزعاً من رزاته ، وآخر قرب جسر « اوتيل ديو » أقيم بمسعر * حُلّ من وثاقه وقُلب رأساً على عقب ، على بعد ثلاثمئة خطوة من مديرية الشرطة .

وفي المتراس المقام في شارع مينيتربيه ، وزع رجل حسن البزة الأموال على العمال . وفي المتراس المقام في شارع غرينيتا برز فارس وقدّم إلى ذلك الذي بدا وكأنه زعيم المتراس ، رزمة تراءت اشبه شيء برزمة مال . وقال : « هذه من اجل تغطية النفقات ، الخمر ، إلى آخره . » وانطلق فتى ذو بشرة شقراء ، من غير رباط رقبة ، من متراس الى متراس حاملا أوامر . وكان آخر شاهرُ السلاح معتمرٌ بقبعة من قبعات البوليس ينصّب الحراس هنا وهناك . وفي الداخل ، ضمن المتاريس ، كانت الحانات واكواخ البوابين قد حُولت إلى مراكز حراسة . وإلى هذا ، فقد سلكت الفتنة مسلكاً متفقاً واكثر التكتيك الحربي سلامة . لقد اختيرت الشوارع الضيقة ، المعوجة ، الملتوية ، الملأى بالمنعطفات والزوايا ،

* المسعر (بكسر الميم) قضيب حديدي معقوف لتحريك النار وتأريثها .

اختياراً رائعاً ، وضواحي الاسواق ، بصورة خاصة ، وهي شبكة من الطرق اكثر تعقداً من غابة . وكانت جمعية « اصدقاء الشعب » ، في ما قيل ، قد تولت قيادة الثورة في حي سان أفوى . وحين فتش البوليس رجلاً صرع في شارع بونسو عثر معه على خريطة لباريس .

إن الذي تولى قيادة الفتنة حقاً كان نوعاً من الاحتدام المجهول ، الماثل في الجو . كانت الثورة قد بنت المتاريس ، فجأة ، باحدى يديها ، واستولت باليد الاخرى على جميع مراكز الحاميات . وفي اقل من ثلاث ساعات ، ومثل فتيل بارود مسته نار ، كان المتمردون قد غزوا واحتلوا ، على الضفة اليمنى ، دارَ الصناعة ، ومقر العمدة في الساحة الملكية ، والـ « ماريه » بكاملها ، ومصنع بوبينكور للسلاح ، والـ « غاليوت » ، والـ « شاتو دو » ، وجميع الشوارع المجاورة للاسواق ؛ وعلى الضفة اليسرى ثكنةَ الـ « فيتيرين » ، وسانت بيلاجي ، وساحة موبير ، ومصنع البارود في « دو مولين » ، وجميع أبواب المدينة . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر ، أمسوا سادة الباستيل ، و « لا لينجيري » والـ « بلانمانتو » . ومسّ كشافوهم « ساحة الانتصارات » ، وهددوا المصرف ، وثكنات « الآباء الصغار » ، والـ « اوتيل دي بوست » . كان ثلث باريس في الفتنـة .

وفي جميـع المواطن كان الصراع قـد بدأ على نطاق هائل . ومـن نزع اسلحة القوم ، والزيارات البيتية ، وغزو محلات بيع الاسلحة غزواً خاطفاً لم ينتج غير هذا : وهو ان الصراع الذي بدأ بالقاء الحجارة ، قد تواصل بطلقات البنادق .

وحوالى الساعة السادسة بعد الظهر ، غدا « مجاز سومون » ميدان حرب . كانت الفتنة في طرف ، وقوى الدولة في الطرف الآخر . وتبادلوا اطلاق النار من حاجز مشبّك إلى حاجز مشبك . ووجد احـد المراقبين ، احدُ الحالمين ، مؤلفُ هذا الكتاب ، الذي مضى ليرى إلى

البركان عن كثب — وجد نفسه قد وقع في ذلك المجاز بين النارين . ولم يكن ثمـة ما يحميه من القنابل غير سماكة الاعمدة المربوعة التي تفصل ما بين الدكاكين . وظل في ذلك الوضع الحرج نحواً من نصف ساعة .

وفي غضون ذلك قرعت الطبول معلنة اجتماع الجنود ، وسارع رجال الحرس الوطني إلى ارتداء ملابسهم وتنكّب سلاحهم ، وغادرت الفرق بيوت العُمُد ، وفارقت الكتائب ثكناتها . وتجاه « مجاز دو لانكر » تلقّى احد قارعي الطبول طعنة خنجر ؛ وهوجم آخر في « شارع السيني » من قبل ثلاثين شاباً مزقوا طبله وانتزعوا سيفه ؛ وقُتـــل ثالث في شـارع غرونيبه سان لازار ، وفي شارع « ميشيل لو كونت » خر ثلاثة ضباط صرعى ، واحداً اثر آخر . وانكفأ عدد من رجال الحرس البلدي بعد ان جرحوا في شارع اللومبارد .

وتجاه « ساحة باتاف » ، وجدت فصيلة من الحرس الوطني رايــة حمراء مكتوباً عليها : « الثورة الجمهورية ، رقم ١٢٧ . » أكانت ثورة في الواقع ؟

كانت الانتفاضة قد جعلت من قلب باريس شبه قلعة هائلة ، ملتوية ، مبهمــة .

هناك كانت بؤرة الاحترار . هناك كانت المسألة من غير ريـب ، وكل ما عدا ذلك لم يكن غير مناوشات. والذي أثبت ان كل شيء خليق به أن يُحسم هنــاك هو أنهم لم يكونـــوا قـد بدأوا القتال بعد فـــي ذلك طرن :

وفي بعض الكتائب كان الجند مترددين ، وذلك ما زاد في غموض الأزمة المروّع . لقد تذكروا الترحيب الشعبي الذي استُقبل بـه — في تموز ١٨٣٠ — حياد الكتيبة الثالثة والخمسين . وتولى القيادة رجلان باسـلان

مجربان في الحروب الكبيرة ، هما المارشال دو لوبو * والجنرال بوغو ** ؛ وبوغو تحت إمرة لوبو . وانطلقت إلى الشوارع المتمردة ابتغاء ريادتهـا دوريات هائلة مؤلفة من جنود مشاة تحيط بهم سرايا بكاملها من الحرس الوطني ويتقدمهم مفوض شرطة ذو وشاح . واقام المتمردون ، بدورهم ، أوتاداً في زوايا الشوارع ؛ وبجسارة وجهوا دوريات إلى خارج المتاريس . لقد راقبوا كلتا الناحيتين . وترددت الحكومة ، وفي يدها جيش . وكانت الشمس تجنح إلى المغيب ؛ وبدأ الناس يسمعون دقات ناقوس سان ميرّي . ورأى وزير الحربية آنذاك – المارشال سولت ، الذي شهد معركـة اوسترليتز – إلى ذلك في سيماء مظلمة .

إن اولئك الملاحين القدماء ، المتعودين ادارة الدفـة في ضبط ، والذين ليس لهم من حيلة ولا هادٍ غير التنظيم الحربي ، بوصلة المعارك تلك ، ليرتبكون امام ذلك الزبد الهائل الذي ندعوه غيظ الشعب . إن ريح الثورات ليست سهلة القياد .

وهرع حرس الضواحي الوطني ، في عجلة وفي فوضى . واقبل فوج من الفرقة الثانية عشرة الخفيفة من سان دونيز ، على جناح السرعـة . ووفدت كتيبة المشاة الرابعة عشرة من كوربفوا . وكانت مدفعية المدرسة الحربية قد تمركزت في الـ « كاروسيل » . وهبطت مدافـع مـن « فينسان » .

وخيمت الوحشة على التويلري . كان لويس فيليب مفعمـاً بالطمأنينـة .

---

* de Lobau مارشال فرنسة (١٧٧٠ – ١٨٣٨) وقد ابلى بلاء حسناً في واترلو ، وقد عينه لويس فيليب قائداً اعلى للحرس الوطني في باريس .

** Bugeaud مارشال فرنسة (١٧٨٤–١٨٤٩) وكان بغيضاً الى الفرنسيين لقسوته في قمع ثورة نيسان ١٨٣٤ .

٥
أصالة باريس

في خلال سنتين ، كما قلنا من قبل ، كانت باريس قد عرفت اكثر من ثورة واحدة . فخارج الاحياء المتمردة لم يكن ثمة ما هو اهدأ في العادة ، على نحو غريب ، من محيا باريس اثناء فتنة من الفتن . ان باريس لتكيّف نفسها ، في سرعة بالغة ، وفقاً لأي شيء — إنها فتنة ليس غير ، وهي مشغولة إلى درجة تجعلها لا تزعج نفسها بمسألة ضئيلة كهذه . ان هذه المدن الماثلة وحدها هي التي تستطيع ان تنطوي ، في الوقت نفسه ، على حرب أهلية ، وعلى هدوء غريب إلى حد لا سبيل إلى وصفه . وفي العادة ، ما إن تبدأ الثورة ، ويقرع الطبل ، ويسمع نداء التجمع ، ويستدعى الجند ، حتى يكتفي صاحب الدكان ، بمجرد القول :

— « يبدو ان هناك جلبة في شارع سان مارتان » ،

أو :

— « ضاحية سان انطوان . »

وكثيراً ما يضيف في لا مبالاة :

— « في مكان ما ، هناك . »

وبعد ذلك ، حين يميز هدير البنادق ونيران فصائل الجند المأتمي الممزق للفؤاد ، يقول صاحب الدكان :

— « لقد اخذت تحمى ، إذن ! هاي ، لقد اخذت تحمى ! »

وبعد لحظة ، إذا ما اقتربت الفتنة واستفحلت ، يغلق دكانه على عجل . ويسارع إلى ارتداء ثوبه العسكري ، يعني انه يضمن السلامة لبضاعته ، ويعرض شخصه للخطر .

إن ثمة اطلاق نار في زوايا الشوارع ، في احد المعابر ، في احد الازقة غير النافذة . إنهم يستولون على المتاريس ، ثم يفقدونها ، ثم يعاودون الاستيلاء عليها من جديد . وإن الدماء لتسيل ، وإن القذائف لتجعل واجهات المنازل اشبه بالغرابيل ، وان كُرات المدافع لتصرع الناس في سررهم ، وإن جثث القتلى لتسد الطريق . وعلى بعد بضعة شوارع من هناك ، كنت تسمع طقطقة كرات البليارد في المقاهي .

ويتحدث الفضوليون ويضحكون على بعد خطوتين من هذه الشوارع المفعمة بالحرب ؛ وتفتح المسارح ابوابها وتقدم التمثيليات الهزلية.وتطوّف عجلات الكراء في الشوارع ؛ ويمضي عابرو السبيل لتناول الطعام في المدينة . وفي بعض الاحيان في نفس الحي الذي يدور فيه القتال . وعام ١٨٣١ عُلّق تبادل اطلاق النار لكي يفسح السبيل امام موكب زفاف .

وخلال انتفاضة الثاني عشر من نوار ، ١٨٣٩ ، وفي شارع سان مارتان ، كان عجوز قميء واهن يجر عربة ذات يد تعلوها خرقة مثلثة الألوان مزودة بزجاجات مليئة بسائل ما ، وكان يغدو ويروح من المتراس إلى الجنود ومن الجنود إلى المتراس ، مقدماً في غير محاباة ، كؤوس الكاكاو — إلى الحكومة حيناً ، وإلى الفوضوية حيناً .

وليس ثمة ما هو اغرب من ذلك . وتلك هي الصفة التي تميز فتن باريس ، والتي لا نقع عليها في اية عاصمة اخرى . شيئان لا بد منهما لذلك : عظمة باريس ومرحها . إنه يتطلب مدينة فولتير ونابوليون .

ومع ذلك ، فقد استشعرت المدينة العظيمة ، هذه المرة ، في النزاع المسلح الذي نشب في الخامس من حزيران ١٨٣٢ ، شيئاً لعله كان اقوى منها نفسها . كانت خائفة . فكنت ترى ، في اكثر الاحياء انعزالا واشدها « تحرراً من الغرض » ، ابواباً ، ونوافذ ، ومصاريع مغلقة في وضح النهار . لقد تسلح الشجعان ، واختبأ الرعاديد . واختفى عابرو السبيل اللامبالون والمشغولون . وخلا كثير من الشوارع كما تخلو في الساعة

الرابعة صباحاً . وطوّفت قصص مخيفة ، وانتشرت شائعات مشؤومة . « أن « هم » كانوا يسيطرون على البنك » ؛ « أنه ، عند دير سان ميرّي وحده كان ستمئة قد تخندقوا وتحصنوا في الكنيسة » ؛ « أن خط الدفاع متقلقل » ؛ أن آرمان كاريل * قابل المارشـال كلوزيـل ** ، وان المارشال قال له : « لتكن لك كتيبة قبل كل شيء » ؛ « أن لافاييت كان مريضاً ، ولكنه كان قد قال لهم برغم ذلك : « أنا معكم . سـوف ألحق بكم إلى حيثما يوجد مكان لكرسي » ؛ « أن عليهم ان يأخـذوا حذرهم » ؛ و « أنه قـد يحاول اناس تحت جنح الظلام ان ينهبـوا البيوت المنعزلة في احياء باريس المهجورة (وفي هذا كان ذكاء الشرطة الذي هو آنّ رادكليف *** ممتزجةّ بالحكومة ، موضع التقدير) ؛ « ان قوة مدفعية قد اقيمت في شارع اوبري لو بوشيه » ؛ « أن لوبو وبوغو يتشاوران ، وانه عند منتصف الليل ، أو مع الفجر على الابعد ، سوف تنقض اربع كتائب دفعة واحدة على قلب الفتنة ، الاولى مقبلة مـن الباستيل ، والثانية من « باب سان مارتان » ، والثالثة من « لاغريف » ، والرابعة من الاسواق » ؛ « أن الجيوش ايضاً قد تخلي باريس وتنسحب إلى الشان دو مارس » ؛ و « أن احداً لا يعرف ما الذي سيحدث ، ولكن الذي لا شك فيه ان الوضع ، هذه المرة ، سوف يكون خطيراً » . كان يقلقهم تردد المارشال سولت . — « لماذا لا يهاجم عـلى التو ؟ » من الثابت انه كان مستغرقاً في التفكير . لقد بدا الاسد العجوز وكأنـه يستروح في تلك الظلمة هُولة مجهولة ما .

وهبط الليل ، ولم تفتح المسارح ابوابهـا . وقـام العسس بدورياتهم

---

* Carrel صحفي فرنسي ، (١٨٠٠ – ١٨٣٦) كان جمهوري النزعة ، وقد شن على « ملكية تموز » حرباً لا هوادة فيها .

** Clauzel مارشال فرنسة ، (١٧٧٢ – ١٨٤٢) لمع نجمه في الحملات الاسبانية عام ١٨١١ – ١٨١٢ ، وكان حاكماً عاماً للجزائر مرتين ، الاولى عام ١٨٣٠ والثانيه عام ١٨٣٥

*** Anne Radcliffe روائية انكليزية (١٧٦٤ – ١٨٢٣)

في اهتياج ، وفُتش عابرو السبيل ، والقي القبض على المشبوهين . وعند الساعة التاسعة كان عدد المعتقلين قد جاوز الثمانمئة ، وغصت مديرية البوليس بهم ، وغصت الكونسيرجيري ، وغص سجن لا فورس . وفي الكونسيرجيري ، بخاصة ، غطي الدهليز المدعو « شارع باريس » بحزم من القش انطرح فوقها حشد من السجناء راح رجل ليون ، لا غرانج ، يخطب فيهم ببسالة . وكان حسيس هذا القش كله ، اذ يحركه اولئك الرجال ، اشبه شيء بوابل من المطر . وفي كل مكان كـــان السجناء يتمددون في الهواء الطلق في أفنية السجن ، وقد تراكم بعضهم فوق بعض . كان القلق في كل مكان ، وكان ثمـة ارتعاد ما ، وتلك ظاهرة نادراً ما عرفت في باريس .

وتمترس الناس في بيوتهم ، وروّعت الزوجات والامهات ، ولم تكن تسمع غير هذا : **« آه ، يا الهي ! إنه لم يرجع بعد ! »** وفي المدى البعيد ، كان يسمع في أحوال نادرة جداً صدى عربات تجري . واصغى الناس ، على عتبات ابوابهم ، إلى الاشاعات ، والصيحات ، وضروب الجلبة ، والاصوات المبهمة غير الواضحة ، اشياء قالوا عنها : « **هـــذه هي الخيالة .** » أو « **هذه هي عربات المؤن الخاصة بالجند تعدو مسرعة .** » ، وإلى الابواق ، والطبول ، وإطلاق النار ، وفوق هذا كله ، إلى قرع ناقوس سان ميري على ذلك النحو الفاجع . لقد توقعوا ان يسمعوا اول طلقة من طلقات المدافع . وانبثق الناس عند زوايا الشوارع واختفـــوا صائحين : « ارجعوا إلى بيوتكم ! » وسارعوا إلى إغلاق أبوابهـــم بالمزاليج . وقالوا : « على اية صورة ستنتهي هذه الحال ؟ » ومـــن لحظـة إلى لحظـة ، فيما كان الليل يهبط ، بدت باريس ملونة ، على نحو اشد مأتمية ، بلهب الفتنة الراعب .

الكتاب الحادي عشر

الذَرّة تؤاخى الإعصار

١

بعض الايضاحات حول اصل أبيات غافروش الشعرية. اثر أحد رجال الاكاديمية في هذا الشعر

ولحظةَ كانت الانتفاضة الثورية ، المنبثقة من اصطدام الشعب بقوى الجيش امام دار الصناعة ، قد قررت حركةً ارتجاعية عند الجماهير التي كانت تتبع عربة الموتى ، والتي رزحت ـ إذا جاز التعبير ـ على رأس الموكب ، في تلك اللحظة حدث تقهقرٌ رهيب . لقد تقلقل الحشد ، وتحطمت الصفوف ،

وولى القوم جميعاً ، واندفعوا يركضون هـاربين ، بعضهم يطلق صيحات الهجوم ، وبعضهم يرين على وجوههم شحوب الفرار . إن النهر الكبير الذي غطى الجادات انشطر في لمحة ، وفـاض ذات اليمين وذات الشمال ، وتدفق سيولاً في مثني شـارع في آن معـاً ، بمثل اندفاع الماء من سد فتحت ابوابه . في هـذه اللحظة كان طفل رث الثياب يهبط شارع مينيلمونتان وفي يده غصن منوّر من ضرب من الوزال كان قد قطعه فوق مرتفعات بيلفيل ، فوقـع نظره في مقدمة احدى دكاكين السلع المستعملة عـلى غدارة عتيقة مـن غدارات الخيل . عندئذ طرح غصنه المنوّر على حصباء الطريق ، وصـاح :

— « يا الـّهي ، سوف استعير هذا السلاح . »

وانطلق هارباً بالغدارة .

وبعد دقيقتين التقى سيل من البورجوازيين المروعين الذين كانواهاربين من خلال شارع آميلو وشارع باسّ — التقوا الطفل يهز غدارته بيده ويغنـي :

« في الليل لا نرى شيئاً ،
وفي النهار نرى كل شيء ،
من كتابة مزيفة .
ويدهش البورجوازي ،
ويمارس الفضيلة ،
قبعة مقرّنة اشبه بمؤخرة الطفل ! »

كان هو غافروش الصغير ذاهباً إلى ميدان القتال .

وفي الجادة لاحظ ان الغدارة لم يكن لها زناد .

من نظم مَن كان ذلك المقطع الذي ساعده على ضبط ايقاع سيره ، وجميـع الاغاني الاخرى التي كان مولعاً ، في المناسبات ، بترديدها ؟

لسنا ندري . ومن يدري ؟ هو نفسه ، ربما . وإلى هذا ، فقد كان غافروش مطلعاً على مختلف الالحان الشعبية الدارجة ، وكان يمزج بها تغريده هو . كان بوصفه ، عفريتاً وصبياً شقياً ، يصنع من اصوات الطبيعة واصوات باريس اغنية متعددة الادوار ، مختلفة الألحان . كان يجمع ما بين معارف الطيور ومعارف المصانع . وكان يعرف بعض المبتدئين في فن الرسم ، وتلك عشيرة ملاصقة لعشيرته . لقد تتلمذ ، في ما يبدو ، ثلاثة اشهر ، على احد اصحاب المطابع . وكان قد صنع ذات يوم براءة لمسيو باوور لورميان ، أحد الاربعين * . لقد كان غافروش « متشرد » أدب .

وفوق هذا ، فان غافروش لم يخطر له ببال ، تلك الليلة الممطرة البائسة التي استضاف خلالها ولدين صغيرين في فيله ، انه انما كان يقوم بمهمة العناية الالـهية نحو اخويه نفسيهما . في المساء أخواه ، وفي الصباح ابوه ؛ كذلك كانت ليلته . وعند مغادرته شارع الباليه مع الفجر ، كان قد رجع على عجل إلى الفيل ، وسلّ الطفلين الصغيرين في فن ، وشاركهما ما استطاع ان يخترعه من فطور الصباح ، ثم مضى لسبيله مُوْدِعاً اياهما تلك الام الطيبة ، الشارع ، التي كانت قد نشّأته هو نفسه تقريباً . وعند مفارقته لهما تواعد معهما على اللقاء مساء في المكان نفسه ، وودعهما بهذه الخطبة : « انا اشق ، العصا ، أو بكلمة اخرى : أنا أهرب ، أو كما يقولون في المحكمة : أنا انسحب . ايها الولدان الصغيران ، إذا لم تجدا بابا وماما ، ارجعا إلى هنا هذا المساء . سوف انفحكما بعشاء ، واقدم لكما فراشاً تنامان عليه . » ولكن الطفلين لم يكونا قد رجعا ، ولعل احد رجال الشرطة قد القى القبض عليهما واودعهما السجن ، او لعل احد المشعوذين قد سرقهما ، أو لعلهما تاها في ذلك الصخب الباريسي الصيني الهائل ليس غير . والاعماق السفلى في

* يقصد أحد اعضاء الاكاديمية الفرنسية ، وعددهم اربعون .

المجتمع الواقعيّ ملأى بهذه الآثار الضائعة . ولم يكن غافروش قد رآها بعد ذلك . وكانت عشرة اسابيع أو اثنا عشر اسبوعاً قد تصرمت على تلك الليلة . وكان قد حك ، غير مرة ، قمة رأسه وقال : « يا للشيطان ! اين ولداي الصغيران ؟ »

وكان قد انتهى في غضون ذلك ، وغدارته في يده ، إلى شارع « بون أو شو » . ولاحظ انه لم يكن قد بقي في ذلك الشارع غير دكان واحد مفتوح ، ولفت نظره اكثر ان ذلك الدكان كان دكان بائع معجنات . وكانت تلك فرصة هيأتها له العناية الالهية لكي يلتهم فطيرة تفاح اخرى قبل ان يلج المجهول . ووقف غافروش ، وراح يبحث في بنطلونه ، ويتحسس جيبه الصغير ، ويقلب جيوبه باطنها ظاهرها ، حتى إذا لم يجد فيها شيئاً ، ولو فلساً واحداً ، انشأ يصيح : « النجدة ! »

إنه ليعز على المرء ان يخطىء قطعة الحلوى الاخيرة .

ومع ذلك ، تابع غافروش سبيله .

وبعد دقيقتين اثنتين انتهى إلى شارع سان لويس . وفيما هو يجتاز شارع الـ « بارك رويال » استشعر الحاجة إلى شيء ما ، يعوضه من فطيرة التفاح المستحيلة ، فأسبغ على نفسه بهجة غامرة بتمزيقه إعلاني المسرح الكبيرين في وضح النهار .

حتى إذا تقدم بضع خطوات إلى أمام ، ورأى نفراً من المخلوقات الاصحاء يجتازون الشارع وقد بدوا له وكأنهم من اصحاب الاملاك ، هز كتفيه ، وبصق في غير تبصّر هذه الجرعة من الصفراء الفلسفية :

— « هؤلاء الاغنياء ، ما أسمنهم ! إنهم يحشون انفسهم حشوا . إنهم يتنعمون في الموائد العامرة . سلهم أي شيء يصنعونه بأموالهم . إنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك . إنهم يأكلونها ، اجل ، يأكلونها ! ايّ مقدار منها يستولي عليه البطن . »

٢
غافروش يتقدّم

إن تلويح المرء بغدارة من غير زناد يحملها في وضح الشارع مهمة عامة إلى درجة جعلت غافروش يحس بأن معنوياته تقوى اكثر فاكثر مع كل خطوة من خطواته . وصاح ، بين فضلات المارسييز الذي كـان ينشـده :

— « كل شيء يجري جرياً حسناً . إن رجلي اليسرى تؤلمني جداً . وان الروماتيزم قد حطمتني تحطيماً ، ولكني سعيد ، ايها المواطنون . إن البورجوازيين لا همّ لهم إلا ان يكونوا ذوي هيئة حسنة ، ولسـوف اعطس بعض مقاطع الشعر المبيدة عليهم . من هم رجال الشرطة السرية ؟ إنهم كلاب . وحق الشيطان ، ينبغي ان لا نقصر في احترام الكلاب . هذا ، واني لاتمنى لو كان لديّ واحد لغدارتي * انا قادم من الجادة ، ايها الاصدقاء . انها بدأت تحمى ؛ إنها تغلي قليلا ، إنها تئز . لقد آن لنا ان نقشط الرغوة عن الاناء . إلى الامام ، ايها الرجال ! دع دماءهم غير الطاهرة تغمر الاخاديد . انا اقدم حياتي فداء للوطن ؛ أنا لن أرى سُرّيتي بعد اليوم . لن اراها ، أجل . لن اراها البتة . ولكنْ سيان : فليحي المرح ! فلنقاتل ، وحقك ! لقد شبعت من الاستبداد . »

وفي تلك اللحظة كبا جواد رمّاح من الحرس الوطني كان يجتـاز الطريق . فوضع غافروش غدارته على الرصيف ، ورفـع الرجل ، ثم ساعد على إنهاض الجواد . وبعد ذلك ، أمسك بغدارته ومضى لسبيله :

وفي شارع تورينيي كان الامن والصمت يخيمان على كل شيء . وكان هذا التبلد ، المميز لـ « ماريه » ، يتغاير مع الصخب العارم المحـدق

* الفرنسيون يدعون زناد الغدارة « كلب الغدارة » .

بذلك الشارع . وكانت اربع نسوة ثرثارات يتحدثن فوق عتبة باب من الابواب . كان لاسكتلندة ثلاثيّ من الساحرات ، ولكن باريس كان لها رباعي من النسوة الثرثارات . وإن قول القائل « سوف تصبح ملكاً » لخليق به ان يُطرح على نابوليون في ساحة بودوايه بمثل الشؤم الذي طُرح به على ماكبث في مرج آرمويير . لقد كان جديراً به أن يكون النعيب نفسه تقريباً .

وكانت نسوة شارع تورينيي منهمكات في شؤونهن الخاصة ليس غير : كن ثلاث بوابات ، وملتقطة خرق بسلّتها وكلاّبها الصغير .

وبدت النسوة الاربع وكأنهن واقفات عند زوايا الشيخوخة الأربع التي هي التداعي ، والهرم ، والتهدم ، والحزن :

كانت ملتقطة الخرق متّضعة . ففي مجتمع الهواء الطلق هذا تنحني ملتقطة الخرق ، وتحمي البوابة وتجير . وتلك نتيجة الكناسة ، التي تكون — كما تشاء البوابات — إما سمينة وإما هزيلة ، وفقاً لاهواء تلك التي تصنع الحكومة . إن المكنسة قد يكون فيها طيبة ورفق .

وكانت ملتقطة الخرق هذه سلة عارفة للجميل ، وكانت تبتسم ، وايّ ابتسام ، للبوابات الثلاث : ولقد تطارحن مثل هذه الاقوال :

— « آه ، إن قطتك شريرة دائماً ، اليس كذلك ؟ »

— « يا الـهي ! القطط ، انت تعرفين ، هي بحكم الطبع عدوة الكلاب . إن الكلاب هي التي تتشكى ؟ »

— « والناس ايضاً . »

— « ومع ذلك ، فان براغيث القطط لا تجري وراء الناس . »

— « ليس هذا هو البلاء ؛ الكلاب خطرة . وانا اذكر ان الكلاب تكاثرت في احدى السنوات إلى درجة اضطروا معها إلى الكتابة عن ذلك في الصحف . كان ذلك يوم كان في الت يلري خرفان كبار تجر العربة الصغيرة الخاصة بملك رومة : هل تذكرين ملك رومة ؟ »

— « أنا ، لقد احببت دوق بوردو اكثر . »

— « أما انا فقد عرفت لويس السابع عشر . إني احب لويس السابع عشر اكثر . »

— « إن اللحم هو الشيء الغالي ، يا مدام باتاغون . »

— «آه ، لا تحدثيني عن ذلك . إن الجِزارة رهيبة . رهيبة إلى حد مروِّع . ان الجزارين ليس عندهم غير اللحم القاسي في هذه الايام . »

وهنا تدخلت ملتقطة الخرق :

— « ايتها السيدات ، ان الاعمال كاسدة . إن أكوام القاذورات تدعو إلى الشفقة . والناس لا يطرحون شيئاً في هذه الايام . انهم يأكلون كل شيء . »

— «هناك أناس افقر منك ، يا فارغوليم . »

فأجابت ملتقطة الخرق في احترام :

— « آه ، هذا صحيح . فأنا عندي عمل . »

وران الصمت . ثم اضافت ملتقطة الخرق ، وقد اذعنت للنزعة إلى الابهة ، تلك الحاجة الملحــة الكامنة في أعماق الناس :

— « في الصباح ، حين ارجــع إلى غرفتي ، أنفش سلّتي الملأى ، واقوم بهجومي (ولعلها انتقائي) . وهذا ما يشكل اكواماً في غرفتي . وأضع الخرق في سلة ، وبقايا الفاكهة والخضر في وعاء خشبي ،والثياب الداخلية في خزانتي ، والمنسوجات الصوفية في الخزانة ذات الادراج ، والجرائد القديمة في زاوية النافذة ، والاشياء الصالحة للاكل في طبقي ، وقطع الزجاج في الموقد ، والاحذية العتيقة خلف الباب ، والعظــــام تحت فراشي . »

وكان غافروش ، الواقف وراءهن يصغي .

وقال :

– « أيتها العجائز ! ما الذي يجعلكن الآن تتحدثن في السياسة ؟ »
وانصب عليه وابل من القذائف مؤلف من استهزاء رباعي .
– « هوذا وغد آخر ! »
– « ما الذي يحمله في يده المبتورة ؟ غدارة ! »
– « اود ان اعرف ، هذا الشحاذ الطفل ! »
– « انهم لا يعرفون الهدوء ما لم يزعجوا الحكومة . »
وفي ازدراء ، لم يجب غافروش بغير رفع طرف أنفه بأبهامه فيما كان يفتح يده على مداها .
وصاحت ملتقطة الخرق :
– « يا له من حافي القدمين شرير ! »
وشبكت تلك التي نوديت باسم مدام باتاغون ، يديها في ذعر :
– « سوف تقع مصائب ، هذا مؤكد . فهذا الوغد الملتحي الذي هناك ، كنت أراه يمر كل صباح حاملاً شيئاً صغيراً ذا قبعة وردية تحت ذراعه . واليوم أراه يمر ، وقد حمل في ذراعه غدارة . إن مدام باشو تقول إنــه وقعت ثورة اثناء الاسبوع الماضي في ... في ... في ... – اين المــكان ؟ – في بونتواز . ثم انظرن ، هناك ، مع غدارتــه ، إلى ذلك المجرم الرهيب ! يبدو ان الـ « سيليستين » مليئة بالمدافــع . وماذا تردن ان تفعل الحكومة مع الاشقياء الذين لا عمل لهم غير اختراع الطرق لازعاج الشعب ، حين بدأنا نذوق طعم الهدوء قليلا بعد كل تلك البلايا التي حلت بنا ، يا الــهي الطيب ، وبعد تلك الملكة المسكينة التي رأيتها تجتاز الشارع في العربة الكارّة ! وهذا كله سيرفع سعر السعوط ايضاً . يا لها من فضيحة ! وليس من شك في اني سوف أراك تعــدم بالمقصلة : ايها الشرير ! »
فقال غافروش :
– « أنت مصابة بالخنان ، يا عجوزتي : غطي أكمتك البحرية ! »

ومضى لسبيله .

حتى إذا بلغ شارع بافيه ، تذكر ملتقطة الخرق ، فناجى نفسه هكذا :

— « انت مخطئة في إهانتك للثوار ، ايتها الام المتكوّمة في الزاوية . هذه الغدارة هي لمصلحتك . أنا أحملها لكي تدخل سلتكِ اشياء اكثر تصلح للأكل . »

وفجأة سمع ضجة خلفه . كانت هي باتاغون البوابة التي تبعته ، والتي كانت تهز جُمع كفها ، على مسافة ما ، تهدده صائحة :

— « انت لست إلا ابن زنا ! »

فقال غافروش :

— « اجل ، انا لا ابالي بذلك على نحو صارخ . »

وسرعان ما مر بأوتيل لاموانيون . وهناك اطلق هذا النداء :

— « هيا إلى المعركـة ! »

واستبدت بـه رعشة كـآبة . ونظر إلى غدارته نظرة مؤنبة بـدت وكأنهـا محاولة إلى ترقيقها .

وقال مخاطباً الغدارة :

— « سوف امضي أنا . أما أنت فلن تمضي . »

إن كلباً ما قد يصرف الانظار عن كلب آخر . كان كلب ذو وبر طويل مجعد ، كلبٌ بالغ الهزال ، يجتاز بالمكان . واثار مشهده الشفقة في قلب غافروش .

وقـال :

— « يا كلبـي المسكين ، هل ابتلعت برميلاً حتى تبدو منك جميع الحلقـات الحـديدية ؟ »

ثم وجّه خطاه نحو « أورم سان جيرفيه » .

٣

سخط مشروع
يستبدّ بأحد الحلاقين

كان الحلاق الجليل ، الذي طرد الصغيرين اللذين فتح لهما غافروش أحشاء الفيل الأبوية ، في دكانه تلك اللحظة ، منهمكاً في حلق لحية جندي من جنود الفرق المعروفة باللبيجيون سبق له أن خدم في ظل الامبراطورية . كانا يتجاذبان أطراف الحديث . وكان الحلاق قد حدّث الجندي العتيق ، طبعاً ، عن الفتنة ، ثم عن الجنرال لامارك ، ومن لامارك كانا قد انتقلا إلى الامبراطور . ومن هنا نشأت محاورة بين حلاق وجندي كان خليقاً ببرودوم ، لو سمعها ، بأن يغنّيها بالاشكال العربية (آرابيسك) ، وبأن يدعوها : « حوار بين الموسى والسيف . »

وقال المزين :

— « سيدي ، كيف كان الامبراطور يمتطي جواده ؟ »

— « على شكل رديء . انه ما كان يعرف كيف يقع . ومن اجل ذلك لم يقع قط . »

— « هل كانت عنده جياد كريمة ؟ لا ريب انه كان يملك جياداً كريمة ! »

— « يوم منحني صليب الحرب لاحظت دابته . كانت فرساً سريعة العدو ، بيضاء كلها . كانت اذناها متباعدتين جداً.وكان سرجها عميقاً، وكان رأسها جميلا مُعلَماً بنجمة سوداء ، وكان جيدها طويلا جداً ، وركبتاها راسختين ، ووركاها بارزتين ، وكتفاها منحدرتين ، وقائمتاها الخلفيتان قويتين . كان ارتفاعها خمسة عشر شبراً ، أو اكثر قليلا . »

فقال المزين :

— « فرس جميلة : »

— « كانت دابة جلالته . »

واستشعر المزين ان الاعتصام بقليل من الصمت ، بعد هذه الكلمة ، أليقُ بالموقف . فسلك وفقاً لذلك المقتضى ، ثم استأنف كلامه :

— « ان الامبراطور لم يُجرح قط إلا مرة واحدة ، اليس كذلك يا سيدي ؟ »

فأجاب الجندي العجوز بالنبرة الهادئة الجليلة التي يصدر عنها الرجل الذي كان هناك * :

— « في عقبه . في راتيسبون . أنا لم أره أحسن بزة مما كان في ذلك اليوم . كان نظيفاً مثل فلس . »

— « وانت ، يا سيدي الجندي العتيق ، لا شك في انك قد جرحت مرات عديدة ؟ »

فقال :

---

* يقصد الذي شهد تلك الموقعة .

— « أنا ؟ آه ، لم يكن ثمة اشياء خطيرة . لقد أصبت بجرحين في عنقي من ضربة سيف يومَ مارانغو ، واصابتني قذيفة مدفع في ذراعي الايمن ، يوم اوسترليتز ، واخرى في وركي الأيسر ، يوم يينا ، واصابني جرح من حربة ، يوم فريدلند ، وهناك ، في الموسكوفا أصبت بسبعة جراح أو بثمانية جراح لا أدري ، وفي لوتزن انفجرت قنبلة فبترت اصبعي ... آه ! أما في واترلو ، فقد اصابتني كرة حديدية من كرات المدافع في رجلي . ذلك كل شيء . »

فصاح المزين في نبرة بندارية ** :

— « ما أحلى الموت في ساحة القتال ! واني لاقسم لك بشرفي اني لأوثر ان تصيبني كرة من كرات المدافع في بطني على ان اموت في سريري ، صريع الداء ، موتاً بطيئاً ، قليلا قليلا يوماً بعد يوم ، بواسطة العقاقير ، واللزقات ، والمحاقن ، والطب . »

فقال الجندي :

— « انت لست متقزز النفس . »

ولم يكد ينهي كلمته حتى هزت الدكان قرقعة رهيبة . كان لوح من الواح الزجاج قد حُطم فجأة .

وشحب وجه الحلاق .

وصاح :

— « آه ، يا الـهي ! هذه واحدة ! »

— « ماذا ؟ »

— « كرة من كرات المدافع . »

ووقال الجندي :

— « ها هي ذي . »

** اي فخمة ، على طريقة الشاعر اليوناني بندار .

والتقط شيئاً كان يجري على ارض الدكان . كان حجراً .

وركض الحلاق إلى اللوح الزجاجي المكسور ورأى غافروش ، الذي كان يعدو بكامل قوته نحو سوق سان جان . حتى إذا وصل إلى دكان الحلاق ، لم يستطع غافروش ـ وكانت صورة الطفلين لا تبرح ذهنه ـ ان يقاوم الرغبة في ان يلقي عليه السلام ، فقذف لوحه الزجاجي بحجر .

وصاح الحلاق . وكان ابيضاض لونه قد استحال إلى ازرقاق :

ـ « انظر ! إنه يصنع الشر من اجل الشر . هل آذى أحد هذا المتشرد ؟ »



٤
الطفل يعجب للرجل العجوز

وفي غضون ذلك كان غافروش قد التحق – في سوق سان جان ، حيث جُردت الحامية من السلاح – بعصابة يقودها آنجولراس ، وكورفيراك ، وكومبوفير ، وفويي . كانوا مسلحين تقريباً . وكان باهوريل وجان بروفير قد التحقا بهم وضخّما الجمع . وكان آنجولراس يحمل بندقية صيد ذات اسطوانتين . وكان كومبوفير يحمل بندقية حرس وطني عليها رقم الفرقة الخاصة أو الليجيون ، وحول خصره غدارتان نمّت عنهما سترته الطويلة غير المزرّرة . أما جان بروفير فحمل بندقية قصيرة عتيقة من بنادق الفرسان ، واما باهوريل فحمل بندقية قصيرة خفيفة من النوع المعروف بالكارابين ، في حين شهر فويي سيفاً ، واندفع يمشي في المقدمة ، صائحاً :

– « فلتحي بولونيا ! »

لقد اقبلوا من الـ « كي مورلان » ، من غير اربطة عنق ، ومن غير قبعات ، لاهثين ، مشبعين بالمطر ، وقد أومض البرق في أعينهم . واقترب غافروش منهم في هدوء :

– « إلى أين نحن ذاهبون ؟ »

فقال كورفيراك :

– « تعال . »

وخلف فويي ، مشى ، أو على الأصح ، وثب باهوريل ، سمكة في مياه الفتنة . كان يرتدي صدرة قرمزية ، وكانت له تلك الكلمات التي تسحق كل شيء . واثارت صدرته احد عابري السبيل ، فصاح في جزع :

ــ « ها هم الحمر ! »

فأجاب باهوريل :

ــ « الحمر ! الحمر ! خوف مضحك ، ايهـــا البورجوازي . أمـا أنا ، فلست ارتجف أمـــام الخشخاش البري الاحمر . والقبعـــة الصغيرة الحمراء لا توقـــع في نفسي اي ذعر . صــــدقني ، ايهـــا البورجوازي ، يجب أن تــدع الخوف من اللون الاحمر للحيوانـــات ذوات القرون . »

ووقع نظره على زاوية من جدار ، حيث ألصِقت اهـدأ ورقـــة في الدنيا ، وكانت إذناً بأكل البيض ، امراً رعائياً خاصاً بالصوم الكبير ، وجّهه كبير اساقفة باريس إلى قطعانه (*ouailles*) .

وهتف باهوريل :

ــ « قطعان » (*ouailles*) ، وسيلة لطيفة لقول « إوزّ » (*oies*) .

ونزع الامر الرعائي عن الجدار . واجتذب ذلك غافروش . ومنـذ تلك اللحظة بدأ غافروش يدرس باهوريل .

ولاحظ آنجولراس :

ــ « باهوريل ، انت مخطىء . كان ينبغي ان تترك الامر الرعائي وشأنه ، فليست هذه هي مهمتنا . أنت تنفق غضبك على غير طائل . اقتصد في ذخيرتك . نحن لا نطلق النار خارج الصفوف ، لا بالروح ولا بالبندقية . »

فأجاب باهوريل في سرعـة وحدّة :

ــ « لكلٍّ طريقته ، يا آنجولراس . فهذا النثر الاسقفي يزعجني ، انا اريد ان آكل البيض من غير اذن من احد . أنت عندك الاسلوب البارد المحرق . إنني اتسلى . وإلى هذا ، فأنا لا أنهك نفسي ، إني اكتسب قوة جديدة . وإذا كنت قد مزقت ذلك الامر الرعائي ، قسَماً بـ « هرقل » *Hercle* ! فلكي يفتح ذلك شهيتي . »

وادهشت هذه الكلمة غافروش . كان يلتمس كل المناسبات لـــكي يثقف نفسه . وكان ممزق الاعلانات هـــذا قـــد اكتسب اعجـابـه . وسألـه :

— « ما معنى *Hercle* ؟ »

فأجابه باهوريل :

— « إنها اسم كلب مقدس في اللاتينية . »

وهنا تبيّن باهوريل عند احدى النوافذ شاباً شاحب الوجه ذا لحيـة سوداء ، كان ينظر اليهم فيما هم يجتازون الطريق ، ولعله ان يكون احد « اصدقاء الالفباء » . وناداه صائحاً :

— « عجّل ! الخراطيش ! مسدس حربي *para bellum* . »

فقال غافروش الذي أمسى يفهم اللاتينية الآن :

— « *bel homme* (رجل جميل) . هذا صحيح . »

ورافقهم موكب صاخب : طلاب ، وفنانون ، وشباب ينتسبون إلى جماعة الـ « كوغورد ديكس » ، عمال ، وشغيلة مرافيء ، مسلحون بالعصي والحراب . وكان قليل منهم ، مثل كومبوفير ، يحملون غدارات مقحمة في أحزمتهم . وكان يمشي مع هذه العصبة رجل عجوز بـــدا هرماً جداً . ولم يكن يحمل سلاحاً البتة ، وكان يغذ الخطى خشية ان يخلّفوه وراءهم ، على الرغم من انه كانت تبدو على وجهه أمارات الاستغراق في التفكير . ولمحه غافروش .

وقال لكورفيراك :

— « من هـذا ؟ »

— « هذا رجل عجوز . »

كان هو مسيو مابوف .

٥
العجـــوز

ينبغي ان نروي ما قــد حــدث .

كان آنجولراس واصدقاؤه في جادة بوردون ، قرب مستودعــات الحنطـة لحظـة اطلق « الفرسان التنانين » النار . وكان آنجولراس ، وكورفيراك ، وكومبوفير بين اولئك الذين اتجهوا نحو شارع باسومبيير صائحين : « إلى المتاريس ! » وفي شارع « ليديغيير » التقوا رجلا عجوزاً يمشي الهوينا .

وكان الذي لفت نظرهم ان مشية هذا الرجل كانت متعرجة كمشية الثمل . وإلى هذا ، فقد كان يمسك قبعته بيده ، على الرغم من ان المطر لم ينقطع طوال الصباح ، وعلى الرغم من ان السماء كانت تمطر مطراً غزيراً في تلك اللحظة عينها . وعرف كورفيراك فيه الأبَ مابوف . عرفه بسبب من انه كثيراً ما رافق ماريوس حتى باب غرفته . وإذ كان يعرف عادات وكيل الكنيسة العجوز المولع بالكتب القديمة — تلك العادات المسالمة ، الاكثر من هيّابة ، واذ اذهله ان يراه وسط هذا الجمع الصاخب ، على بعد خطوتين من نار الخيالة ، وفي غمرة من رصاص البنادق تقريباً ، حاسرَ الرأس تحت وابل المطر ، مطوفاً بين القنابل ، فقد تقدم نحوه ، وجرى بين الثائر ذي الخمسة والعشرين ربيعاً ، وبين العجوز الذي تعدّى الثمانين هــذا الحوار :

— « مسيو مابوف ، ارجع إلى البيت . »

— « لمــاذا ؟ »

— « سوف يقع اشتباك . »

— « حسن . »

— « ضربات سيوف ، رصاص بنادق ، يا مسيو مابوف : »

— « حسن . »

— « نيران مدافع . »

— « حسن . إلى أين أنتم ذاهبون ؟ »

— « إننا ذاهبون لنطرح الحكومة أرضاً . »

— « حسن . »

وأنشأ يتبعهم . ومنذ تلك اللحظة لم ينطق بكلمة . وكانت خطاه قد أمست ، فجأة ، ثابتة راسخة . وحاول بعض العمال ان يضعوا ذراعهم بذراعه ، ولكنه رفض في ايماءة برأسه . وتقدّم ، أو كاد ، إلى الصف الأمامي من الحشد ، وقد تكشّف في آن معاً عن حركة رجل يمشي قدماً ، ومحيّا رجل مستسلم للرقاد .

وغمغم الطلاب :

— « يا له من رجل طيب يائس ! »

وسرت في الجمع شائعة تقول انه كان عضواً سابقاً من اعضاء المؤتمر الوطني ، قاتلاً قديماً من قتلة الملوك .

وكان الجمع قد انعطف إلى شارع « لا فيريري » . وكان غافروش الصغير يسير على رأس الموكب منشداً هذه الاغنية بكامل قواه ، مما جعله ضرباً من البوق . لقد أنشد :

« هوذا القمر يبدو
متى سنذهب الى الغابة ؟
هكذا سأل شارلو شارلوت .

تو ، تو ، تو
لـ « شاتو » .

ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ، غير حذاء واحد .

ولأنهما شربا في الصباح الباكر ،
الندى والصعتر ،
كان اثنان من الصنونو في سكر شديد .

زي ، زي ، زي ،
لـ « باسي »
ليس لي غير الله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

وهذان الذئبان الصغيران المسكينان
كانا ثملين مثل سمانيَيْن ؛
وسخر نمر من ذلك في كهفه .

دون ، دون ، دون
لـ « مودون »
ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

وأقسم احدهما ، وراح الآخر يلعن
متى سنذهب الى الغابة ؟
هكذا سأل شارلو شارلوت .

تن ، تن ، تن ،
ا « بانتين » .
ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

واتخذوا سبيلهم نحو سان ميرّي ●

٦
مجندون جدد

وتعاظمت العصبة لحظةً اثر لحظة . وقريباً من شارع بيبيت التحق بالقوم رجل طويل القامة، وخطّ الشيب شعره ، رجل لاحظ كورفيراك وآنجولراس ، وكومبوفير سيماه الخشنة المقدامة ، ولكن اياً منهم لم يعرفه . ولم يلتفت غافروش إلى ذلك الرجل ، فقد كان منهمكاً في إنشاده ، وتصفيره ، ودندنته ، والتقدم إلى أمام وطرق مصاريع الدكاكين بعقب غدارته التي لا زناد لها .

واتفق ان اجتازوا ، في شارع الـ « فيريري » بباب كورفيراك .

وقال كورفيراك :

— « هذه مصادفة حسنة . لقد نسيتُ حافظة نقودي ،وخسرت قبعتي . »

وفارق الجمعَ ، وصعد إلى غرفته ، مرتقياً درجات السلم أربعاً أربعاً ، وتناول قبعة قديمة وحافظة نقوده . واخذ ايضاً صندوقاً كبيراً مربعاً ، في حجم حقيبة ضخمة ، كان مخبوءاً بين ملابسه المتسخة . وفيما هو يهبط السلم كرة اخرى ، نادته البوابة قائلة :

— « مسيو دو كورفيراك ! »

فأجابها :

— « ايتها البوابة ، ما اسمك ؟ »

وبهتت البوابة .

— « ولكن ... انت تعرف جيداً . انا البوابة ، انما أدعى الأم فوفين . »

— « حسناً ، إذا دعوتني مرة اخرى مسيو دو كورفيراك ، فسوف

ادعوك الام دو فوفين . والآن ، تكلمي، ما المسألة ؟ ماذا تريدين ؟»

— « هناك من يريد ان يتحدث اليك . »

— « من هو ؟ »

— « لست ادري . »

— « اين هو ؟ »

— « في كوخي . »

فقال كورفيراك :

— « يا للشيطان ! »

واضافت البوابة :

— « لقد سلخ اكثر من ساعة وهو ينتظر عودتك إلى البيت . »

وفي الوقت ذاته خرج من كوخ الأم فوفين شبه عامل شاب ، نحيل ، شاحب الوجه ، صغير الجسم ، منمّش البشرة ، يرتدي قميصاً ممزقاً وبنطلوناً مرقوعاً مخيطاً من قماش مخملي مضلع ، ويبدو وكأنه فتاة في ثوب صبي اكثر منه رجلا . وفي صوت لم يكن ليشبه ، بحال من الاحوال ، صوت امرأة ، قال لكورفيراك :

— « مسيو ماريوس ، من فضلك ؟ »

— « انه ليس هنا . »

— « هل سيرجع هذا المساء ؟ »

— « لست ادري شيئاً عن ذلك . »

واضاف كورفيراك :

— « أما انا فلن ارجع إلى البيت . »

وحدق الفتى نظره اليه ، وسأله :

— « ولم ذاك ؟ »

— « لأنه . »

— « وإلى أين سوف تذهب إذن ؟ »

— « وما علاقتك بذلك ؟ »

— « هل تريد ان احمل لك صندوقك ؟ »

— « انا ذاهب إلى المتاريس . »

— « أتريد أن أذهب معك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

— « إذا شئت . الطريق مفتوحة . والشوارع ملك للناس جميعاً . »

وانطلق يعدو لكي يلتحق باصدقائه . حتى إذا انضم اليهم ، قدم الصندوق إلى واحد منهم يحمله . ولم يلاحظ ، إلا بعد ربع ساعة ، ان الشاب كان قد تبعهم .

إن الحشود لا تمضي إلى حيث تشاء على وجه الضبط . ولقد اوضحنا ان هبة من ريح خليقة بأن تتلاعب بها . لقد اجتاز القوم إلى سان ميري ، ولكنهم وجدوا انفسهم ، من غير ان يعرفوا كيف ، في شارع سان دونيز .


الكتاب الثاني عشر
كورنث



١

تاريخ كورنث منذ تأسيسها

إن الباريسيين الذين يلاحظون اليوم ، عند دخولهم شارع رامبوتـــو من جانب الاسواق ، وإلى يمينهم ، تجاه شارع مونديتور ، دكان صانع سلال ، ذات علامة تجارية تمثل سلة على شكل الامبراطور نابوليـــون

الكبير ، وقد كتب عليها :

نابوليون قد صنع
كله من خيزران

نقول ان هؤلاء الباريسيين لا تخطر ببالهم البتة بعض المشاهد الرهيبة التي عرفها هذا المكان نفسه منذ ثلاثين سنة أو اقل .

فهناك كان شارع شانفريري ، الذي كانت اللافتات القديمة تدعوه شانفيريري ، والحانة الشهيرة المسماة كورنث .

والقاريء يذكر كل ما قيل على المتراس الذي أقيم في تلك النقطة ، والذي كسفه في مكان آخر متراس سان ميري . وعلى متراس شارع الـ « شانفريري » الشهير هذا ، الغارق اليوم في ظلمة عميقة ، نوشك ان نلقي قليلا من النور .

وليسمح لنا القاريء ان نلجأ ، ابتغاء الوضوح ، إلى الوسيلة البسيطة التي اصطنعناها من قبل في كلامنا على واترلو . وليس على الذين يريدون ان يتمثلوا ، في دقة وافية ، مجاميع البيوت التي نهضت في ذلك الحين قرب رأس سان اوستاش ، في الزاوية الشمالية الشرقية من اسواق باريس ، حيث يقع اليوم فم شارع رامبوتو ، إلا ان يتخيلوا ، على تماس بشارع سان دونيز عند قمتها ، وبالاسواق عند قاعدتها ، حرف N يمثل خطيه العموديين شارع « غراند تروواندري » وشارع شانفريري ، ويمثل خطه المعترض شارع «بيتيت تروواندري » . كان شارع موندیتور العتيق يقطع القوائم الثلاث عند زواياها الاكثر اعوجاجاً . بحيث ان التشابك المحيِّر الذي تشكله تلك الشوارع الاربعة كان كافياً لأن ينشىء — على رقعة مساحتها ستمئة قدم مربع ، بين الاسواق وشارع سان دونيز من ناحية ، وبين شارع « دو سيني » وشارع

الـ « بريشير » من ناحية اخرى – سبعة مجاميع منفردة من البيوت ، متقاطعة على نحو غريب ، وذوات احجام مختلفة ، وقائمة على شكل معوج ، وكأنما كان ذلك بمحض المصادفة ، ولا ينفصل بعضها عن بعضها إلا انفصالا ضئيلا ، مثل قطع الحجارة في مستودع الخشب ، بشقوق ضيقة .

نحن نقول « شقوق ضيقة » ، وليس في استطاعتنا ان نعطي فكرة أصح عن هذه الأزقة المظلمة ، المنقبضة ، المقرّنة ، المحاطة ببيوت عتيقة متهدمة ذات ثمانية أدوار . وكانت هذه البيوت من الهرم بحيث ان الواجهات ، في شارع الـ « شانفريري » وشارع بيتيت تروواندري ، كانت مدعمة بعوارض امتدت من بيت إلى آخر . كان الشارع ضيقاً ، وكان مجرى الماء واسعاً ، وكان عابر السبيل يمشي على الرصيف المندى دائماً ، محاذياً دكاكين اشبه ما تكون بكهوف ، ومعالم ضخمة مطوقة بالحديد ، واكوام من القاذورات هائلة ، وأبواب ازقة مسلحة بشباك حديدية ضخمة عريقة في القدم . لقد اكتسح شارع رامبوتو ذلك كله .

وهذا الاسم ، مونديتور (*) ، يصور على نحو رائع التواءات هذه الطرق كلها ، وإذا تقدمتَ أبعد قليلا وجدت صورة اقوى تعبيراً عنها في شارع بيرورويت (**) الذي يفنى في شارع مونديتور .

وكان عابر السبيل الوافد من شارع سان دونيز إلى شارع الـ « شانفريري » يرى الطريق تضيق تدريجياً أمامه ، وكأنما قد دخل في قمع متطاول . وعند نهاية الشارع ، الذي كان ضيقاً جداً ، كان يجد الممر مسدوداً من ناحية السوق ، فيحسب نفسه في زقاق غير نافذ ، إذا لم يسبق له ان لاحظ عن يمينه وعن شماله فتحتين سوداوين يستطيع ان يفر من خلالهما . وكان ذلك شارع مونديتور المتصل من ناحية بشارع الـ

---

* Mondétour وفي هذه الكلمة معنى الانعطاف والالتواء.

** Pirouette وفي هذه الكلمة معنى الدوران على رجل واحدة.

« بريشير » ، ومن اخرى بشارعي « دو سيني » و « بيتيت تروواندري » .
وعند نهاية هذا الضرب من الزقاق غير النافذ . عند زاوية الفتحة التي إلى اليمين ، كان يرى بيت اكثر انخفاضاً من سائر البيوت ، يشكل شبه رأس على الشارع .

في هذا المنزل المؤلف من دورين ليس غير ، استقرت في خفة وفرح ، منذ ثلاثمئة عام ، حانة شهيرة . وكانت هذه الحانة تطلق اصداء مرحة في ذلك الموطن عينه الذي شهره تيبوفيل العجوز بهذين البيتين :

هناك يقعقع الهيكل العظمي الرهيب
لعاشق مسكين كان قد شنق نفسه

وكان الموقع جيداً . وانتقلت ملكية الحانة من الآباء إلى الأولاد .

وفي عهد ماتورين رينبيه كانت هذه الحانة تدعى « اناء الورود » Pot aux Roses ، وإذ كانت الألغاز التصويرية زياً شائعاً في ذلك العهد فقد جعلوا لافتتها وتداً (*) مصبوغاً بلون أزهر . وفي القرن الماضي ، عمد ناتوار الجليل ، احد الفنانين الغريبي الاخلاق الذين تحتقرهم اليوم المدرسة المتصلبة ، بعد ان سكر عدة مرات في هذه الحانة ، على المائدة نفسها حيث استبد السكر بـ « رينبيه » ، نقول عمد ناتوار اعترافاً منه بالجميل فرسم عنقوداً من عنب كورنث على الوتد المصبوغ باللون الازهر . وغيّر صاحب الحانة لافتته ، ابتهاجاً ، ورسم تحت العنقود ، هذه الكلمات مذهّبة : **عنب كورنث** . ومن هنا اسم كورنث . وليس شيء اكثر طبعية ، بالنسبة إلى السكيرين ، من الاضمار . والاضمار هو تعرّج العبارة . فشيئاً بعد شيء خلعت كورنث « اناء الورود » عن العرش . وعمد آخر خمار في السلالة ، الاب هوشلو ، في غمرة من جهله حتى لذلك التقليد نفسه ، فصبغ الوتد بلون ازرق .

صالة سفلية حيث كانت مائدة المحاسبة ، وغرفة في الدور الاول حيث كانت مائدة البليارد ، وسلم خشبية لولبية تخترق السقف ، خمر على

* poteau على اعتبار المجانسة بين هذه الكلمة وكلمتي pot aux في اسم الحانة .

الموائد ، ودخان على الجدران ، وشموع في وضح النهار ، تلك كانت الحانة . وكانت سلم ذات باب مسحور في الصالة السفلى تقود إلى الكهف . وفي الدور الثاني كانت حجرات آل هوشلو . وكان المرء يصعد إلى هناك بسلم ، بل بمرقاة ، على الاصح ، لا سبيل إلى الدخول اليهـــا إلا من باب خلفي في القاعة الكبرى من الدور الأول . وتحت السطح ، كانت عليتان ذواتا كوتين ، خُصّصتا للخدم . وكان المطبخ يقســـم الطابق الارضي بحجرة المحاسبة .

ولعل الاب هوشلو كان كيميائياً بالفطرة ، ولقد كان طاهياً من غير شك . إن الناس ما كانوا يحتسون الخمر في حانته فحسب ، لقد كانوا يأكلون هناك . وكان هوشلو قد اخترع اكلة ممتازة لم تكن توجد إلا عنده ، كانت مؤلفة من عظام معاصم محشوة دعاها **عظام معاصم بالدسم** *Corpes au gras* . وكان هذا الطبق يؤكل على ضوء شمعة من الشحم الابيض ، أو على ضوء مصباح من عهد لويس السادس عشر ، عـــلى موائد كان القماش المشمع قد سمر فوقها ليقوم مقام غطاء الخوان . وكان الناس يفدون إلى هناك من مكان بعيد . وذات صباح جميـــل ، خطر لهوشلو أن من الخير له ان يعرّف عابري السبيل بـ « اختراعه » . فغمس فرشاة في اناء من الدهان الاسود ، واذ كانت له طريقة خاصـــة في الاملاء ، كما كانت له طريقة خاصة في الطبخ ، فقد ارتجل عـــلى جداره هذه الديباجة التي تلفت النظر :

Carpes Ho Gras

وذات شتاء ، بدا للامطار والعواصف ان تمحو الـ s التي تختـــم الكلمة الاولى . والـ g التي تستهل الكلمــة الثالثة ، فخُلّفت عـــلى هـــذا النحـــو : Carpe Ho Ras

وبعون من الزمن والمطر ، كان ذلك الاعلان المتواضع الخاص بالمآكل الفاخرة قد غدا نصيحة عميقة .

وهكذا اتفق ان الاب هوشلو وقد جهل الفرنسية قد عرف اللاتينية ، وانه قد أطلع من مطبخه فلسفة ، وانه وقد رغب في ان يتفوق على « كاريم » قد ساوى هوراس . وكان مما يوقع الدهش في النفس ان ذلك قد عنى ايضاً : ادخلوا إلى حانتي .

إن شيئاً من ذلك كله ليس يوجد الآن . فقد بُقر بطنه ووسع منذ عام ١٨٤٧ ولعله لم يعد اليوم قائماً . لقد غاب شارع الـ « شانفريري» وكورنث تحت ارصفة شارع رامبوتو .

وكما سبق منا القول ، كانت حانة كورنث احد المواطن التي يلتقي فيها ، ان لم نقل يجتمع فيها في حالات الخطر ، كورفيراك واصدقاؤه ؛ وكان غرانتير هو الذي اكتشف كورنث . كان قد دخل بسبب من Carpe Horas ، ورجع بسبب من Carpes aux Gras ؛ كانوا يعاقرون الخمر هناك ، وكانوا يأكلون هناك ، وكانوا يصيحون هناك . كانوا يدفعون قليلا ، وكانوا يدفعون دفعاً مطففاً ، وكانوا لا يدفعون شيئاً على الاطلاق ، وكانوا موضع الترحيب دائماً . فقد كان الاب هوشلو رجلا طيباً .

وكان هوشلو — الرجل الطيب ، كما قلنا اللحظة — طاهياً ذا شاربين : تنوّع مسلٍ . وكانت ترين على وجهه دائماً سيما الملل ، ويبدو وكأنه راغب في ان يرهب زبائنه ، ويتذمر من الوافدين على حانته ، ويظهر وكأنه اكثر استعداداً لأن يلتمس اسباب النزاع معهم منه لأن يقدم اليهم حساءهم . ومع ذلك فنحن نصر على القول إنهم كانوا دائماً موضع الترحيب . وهذه الغرابة جعلت سوق حانته نافقة ، وقادت الشبان اليه وبعضهم يقول لبعض : « تعالوا واسمعوا الأب هوشلو يتأفف . » وكان في ما مضى استاذاً في المسايفة . وكان ينفجر ، فجأة ، ضاحكاً . صوت خشن ، شيطان طيب . كان فؤاده كوميدياً ، وكان وجهه تراجيدياً . ولم يكن يطمع بشيء خيرٍ من ترويعك ، مثل علب السعوط تلك التي جُعلت على

شكل غدارة . ودويّ الانفجار عطسة .

وكانت الام هوشلو هي زوجته ،وكانت مخلوقة ذات لحية ؛مخلوقةقبيحة جداً

وحوالى عام ۱۸۳۰ توفي الاب هوشلو . وبموتـه ضاع سر « عظام المعاصم بالشحم » . وادارت الحانة من بعده ارملته . وكانت قليـلة التعزي ، ولكن المطبخ فسد ، وامسى مقيتاً . وأما الخمر التي كانـت دائماً رديئة فقد أمست مخيفة . ومع ذلك فقد واصل كورفيراك واصدقاؤه الذهاب الى كورنث — « بدافع الشفقة » كما قال بوسوويه .

كانت الأرملة هوشلو مبهورة قصيرة النفَس، شوهاء ، ذات ذكريات ريفية . وكانت تزيل ضجرهم بطريقة لفظها. وكان لهااسلوب فيقول الاشياء يُتبِّل ذكريات قريتها وايام ربيعها ، وكان من حظها — كما اكدت — أن سمعت ذات يوم « ذئاب الفجاج تغني في زعرور الاودية . »

وكانت حجرة الدور الاول ، حيث « المطعم » ، غرفة طويـلة واسعة مزدحمة بالمقاعد التي لا ظهور لها ، والمواطيء ، والكراسي ، والدكك ، والموائد ، وبطاولة بليارد عتيقة عرجاء . وكان المرء يبلغهـا بالسلم اللولبية المنتهية عند زاوية الغرفة إلى ثقب مربع اشبه ما يكـون بكوّة مركب .

وكان لهذه الغرفة ، المضاءة بنافذة مفردة ضيقة وبمصباح كان دائماً مشعلا ، مظهر عليّة . وكانت جميع قطع الاثاث القائمة على اربـع ارجـل تسلك وكأن ليس لهـا غير ثلاث . ولم يكن يزين الجدران المبيضة بالكلس غير هذه الرباعية التي نظمت على شرف مدام هوشلو :

« إنها تدهش على مدى عشر خطى ؛ انها تخيف على مدى خطوتين ،
وان ثؤلولا ليسكن في انفها الخطر.
وانك لترتجف كل لحظة خشية ان تتمخطه نحوك .
وخشية ان يجيء يوم صاح يسقط فيه انفها في فمها . »

كان ذلك مكتوباً بالفحم على الجدار .

وكانت مدام هوشلو ، الاصلية ، تروح وتجيءُ من الصباح إلى المساء ،

امام هذه الرباعية ، في هدوء كامل . وكانت خادمتان، تدعيان ماتولوت * وجيبولوت ** ، ولا يعرفهما احد بأي اسم آخر ، تساعدان مدام هوشلو في وضع اكواز الخمر الزرقاء ، على الموائد ، وفي وضع مختلف ضروب المرق التي كانت تقدم إلى الجائعين في اطباق فخارية . وكانت ماتولوت ، البدينة المدورة ، الصهباء، الصخابة، الاثيرة السابقة على فؤاد هوشلو الفقيد ، ابشع من اي هولة أسطورية . ومع ذلك، وإذ كان من المناسب ان تتخلف الخادمة عن سيدتها دائماً فقد كانت اقل بشاعة من مدام هوشلو. أما جيبولوت ، الطويلة القامة ، الرقيقة الحاشية ، البيضاء بياضاً ليمفاوياً ، المطوقة عيناها بدوائر مزرقة ، المتساقطة الاجفان ، المرهقة المنهوكة أبداً ، الرازحة تحت وطأة ما يمكن ان ندعوه السأم المزمن ، المستيقظة قبل الجميع ، الآوية إلى فراشها بعد الجميع — نقول أما جيبولوت هذه فكانت تخدم كل الناس ، حتى الخادمة الاخرى ، في صمت وفي دماثة ، مبتسمة من خلال التعب ابتسامة غامضة ناعسة .

وقبل أن تدخل إلى قاعة المطعم كنت تقرأ على الباب هذا البيت وقد كتب بالطباشير بخط كورفيراك :

تلذذ اذا استطعت وكل اذا جرؤت على الاكل .

٢
ابتهاج تمهيدي

كان ليغل دو مو ، كما نعرف ، يحيا مع جولي أكثر مما يحيا في اي مكان آخر .كان له مأوى كما أن للطير غصناً . وكان الصديقان

* Matelote ومعناها في الاصل طعام مركب من اسماك مختلفة الانواع مطبوخة بالسمن وشيء من العجين والخمر .

** Gibelotte ومعناها في الاصل لحم مخمر .

يعيشان معاً ، ويأكلان معاً ، وينامان معاً . كان كل شيء مشتركاً عندهما، حتى موزيشيتا إلى حد ما . كانا ما يعرف عند « اخوان القبعات » بـ *bini* . وفي صباح الخامس من حزيران ، قصدا لتناول الفطور في كورنث . وكان جولي ، المصاب بصداع ، يشكو زكاماً شديداً بدأ ليغل يشاركه فيه . كانت سترة ليغل خلقة بالية ، ولكن جولي كـان حسن البزة .

وكانت الساعة حوالى التاسعة صباحاً عندما فتحا باب كورنث .

وصعدا إلى الدور الأولى :

واستقبلتهما ماتولوت وجيبولوت :

وقال ليغل :

— « محارات ، جبن ، وفخذ خنزير . »

وجلسا إلى احدى الطاولات :

كانت الحانة خالية . ولم يكن فيها أحد غيرهما .

ووضعت جيبولوت ، وقد عرفت جولي وليغل ، زجاجـة خمر على الطـاولـة :

وفيما هما يتناولان أولى محاراتهما ، برز رأس مـن كوة السلـم ، وقـال صوت :

— « كنت ماراً ، فشممت في الشارع رائحـة جبن « بْري » اللذيذة، فـدخلت . »

كان ذلك هو غرانتير .

وأخذ غرانتير مقعداً من غير ظهر ، وجلس إلى الطاولة :

وإذ رأت جيبولوت غرانتير ، وضعت زجاجتي خمر على المائدة :

وهكذا صارت الزجاجات ثلاثـاً .

وسأل ليغل غرانتير :

— « اتعتزم ان تشرب هاتين الزجاجتين ؟ »

وأجاب غرانتير :

— « كلهم دهاة ، أما انت فساذج . إن زجاجتي خمر لم تدهشا احداً من الرجال في يوم من الايام . »

كان الآخران قد بدءا بتناول الطعام . وكان غرانتير قد بدأ بمعاقرة الخمر . وجرع نصف زجاجة في سرعة .

وأضاف ليغل :

— « ألديك ثقب في معدتك . »

فقال غرانتير :

— « الأمر الثابت أن لديك ثقباً في مرفقك . »

وبعد ان افرغ كأسه ، اردف :

— « والآن ، يا ليغل المرائي . إن سترتك عتيقة . »

فأجاب ليغل :

— « ارجو ذلك . هذا ما يجعلنا متفقين تمام الاتفاق : أنا وسترتي . لقد اقتبستْ جميع تجعداتي . فهي لا تربكني البتة . ولقد كيفست نفسها وفقاً لجميع قباحاتي . وانهـا لتساير جميع حركاتي . وأنا لا أحس بها إلا لأنها تحفظ عليّ الدفء . إن السترات القديمة اشبه شيء بالاصدقاء القدماء . »

فهتف جولي ، مشتركاً في الحوار :

— « هذا صحيح . الثوب (habit) العتيق صديق (abi) عتيق »

وقال غرانتير :

— « خاصة في فم انسان مزكوم . »

وتساءل ليغل :

— « غرانتير ، أقادم أنت من الجادة ؟ »

— « لا » .

— « لقد رأينا اللحظة ، أنا وجولي ، مقدمة الموكب تمرّ . »

فقال جولي :

— « انه مشهد رائـــع . »

وهتف ليغل :

— « ما أهدأ الشارع ! من الذي يظن ان باريس كلها قد قلبـــت رأساً على عقب ؟ وكما ترى ، فقد كانت الأديرة كلها هنا في ما مضى . وقد اورد « دو بريل » و « سوفال » لائحة بها ، وكذلك فعل الاب لوبوف . اجل كانوا كلهم في هذه الناحية ، ولقد تكاثروا ، متعلـين وحفاة ، حليقين وملتحين ، رماديين وسوداً وبيضاً ، فرنسيسكانيين ، ومينيميين ، وكبوشيين ، وكرمليين ، واوغسطينيين صغاراً ،واوغسطينيين كباراً ، واوغوسطينيين شيوخاً . كانوا يفرخون . »

فقاطعه غرانتير :

— « لا تتحدث عن الرهبان . إن ذلك يغريني بأن احك جلدي . »

ثم إنـه هتف :

— « بُه ، لقد بلعت اللحظة محاراً رديئاً . وها هي ذي السوداوية تعاودني . المحارات فاسدة ، والخادمات بشعات . انا اكره الجنس البشري . لقد مررت اللحظة بشارع ريشيليو ، امام المكتبـة العموميـة الكبيرة . والتفكير في ركام اصداف المحار ، الذي يدعونه مكتبـة ، يوقع الاشمئزاز في نفسي .كم قد استهلك من الورق ! ومن الحبر ! ومن الخربشة ! لقد كتب القوم ذلك كله ! ما اشد حماقة ذلك الذي قال ان الانسان كائن ذو قدمين من غير ريش ! وبعد ذلك التقيت فتاة مليحة أعرفها ، جميلة كالربيـع ، جديرة بأن تدعى فلوريال * ، مبتهجة ، متهللة ، سعيدة ، مـع الملائكة ، — ويا لها من مسكينة —

* Floreal الشهر الثامن من التقويم الثوري ، وكان يبدأ عندهم في العشرين من نيسان . وهو يحمل معنى الزهر .

لأن مصرفياً مخيفاً ، مثقب الوجه بالجدري ، تنازل أمس وابدى رغبته فيها . وأسفاه ! إن المرأة لا تترصد جابي المكوس بأقل مما تترصد الشاب المتأنق ؛ والقطط تتصيد الفئران والطيور جميعاً . وهذه الآنسة : كانت قبل شهرين اثنين فتاة طيبة في علية . كانت تثبت حلقات نحاسية صغيرة في ثُقَيبات المشدات ، ماذا تدعو ذلك ؟ كانت تخيط ، وكان عندها فراش على سيور . وكانت تقطن مع أصيص أزهار . وكانت بذلك راضية . أما اليوم فقد اصبحت صاحبة مصرف . وهذا التحول إنما تم الليلة البارحة . ولقد لقيت الضحية ، هذا الصباح ، مفعمة بالغبطة . والجانب البشع من المسألة . ان الوقحة كانت اليوم على مثل جمالها أمس. إن خبيرها المالي لا يبدو على وجهها . والواقع ان الورود تختلف عن النسوة ، قليلا أو كثيراً ، في هذه الخصلة : أن الآثار التي تخلفها الديدان عليها تكون منظورة . آه ، ليس ثمة اخلاق على سطح الارض ! وانا استشهد بالرند ، رمز الحب ، وبالغار ، رمز الحرب ، وبالزيتونة ، تلك البلهاء ، رمز السلام ، وبالتفاحة التي كادت تخنق آدم ببزرها ، والتينة ، جدة التنانير . أما الحقوق ، فهل تعلمون ما هي الحقوق ؟ الغاليون يطمعون بالكلوسيوم ، وروما تحمي الكلوسيوم ، وسلهم ما الذي فعله الكلوسيوم لهم ؟ ويجيب برينوس * : « ما الذي فعلته « البا » لكم ؟ ما الذي فعلته فيدين ** ؟ ما الذي فعله الايكيون ، والفولسكيون ، والسابينيون « لقد كانوا جيرانكم . أما الكلوسيون فكانوا جيراننا . ونحن نفهم الجوار مثلكم . لقد سرقتم ألبا ، ونحن نأخذ الكلوسيوم . . » وتقول رومة : « لن تأخذوا الكلوسيوم .»

---

* Brennus أحد الزعماء الغاليين ، وقد غزا أتروريا عام ٣٩٠ قبل الميلاد ، وسحق الرومان في موقعة آليا Allia واستولى على رومة وخربها .

** Fidène مدينة قديمة من بلاد السابينيين . وقد خضعت لرومة في ما بعد .

واخذ برينوس رومة . ثم صاح : « ! *vae victis* » * . تلك هي الحقوق . آه ! في هذا العالم ، ما اكثر الوحوش المفترسة ! ومـــا اكثر النسور ! إن فرائصي لترتعد من ذلك ! »

وأدنى كأسه من جولي ، فملأها له ، ثم شرب . واردف من غير ان تعترضه ، أو تكاد ، كأس الخمر تلك التي لم يلحظها احد ، حتى هو نفســه :

— « برونوس ، الذي يستولي على رومة ، نسر ، وصاحب المصرف الذي يستولي على الفتاة المغناج ، نسر . لا حياء هنا . ولا حياء هناك . واذن فلنتجنب الايمان بأي شيء . هناك حقيقة واحدة : أن نشرب الخمر . واياً ما كان رأيك ، وسواء أكنت من انصار الديك الهزيل ، مثل قضاء اوري ، أو من انصار الديك السمين مثل قضاء غلاري ، لا فرق ، فعليك بالشراب . انت تحدثني عن الجادة ، عن الموكب ، الخ . آه ، إذن ، فسوف تنشب الثورة من جـــديد ؟ هذا الفقر في الوسائل من جانب الرب الرحيم يدهشني . ان عليـــه ان يشحم ثلوم الحوادث على نحو متواصل . إنها تعلق، إنها لا تمشي . وفي الحال تقع ثورة . ويدا الرب تظلان سوداوين من دهن العربات الخبيث هذا ، دائماً . ولو كنت محله اذن لاشتغلت بصورة ابسط . لو كنت محله لمـــا « ملأت » ما كينتي كل لحظة ، كنت اقود الجنس البشري في رفـــق اكثر ، كنت ازرد الحقائق عقدة عقدة من غير ان اقطع الخيط ، كنت استغني عن الازمات والطواريء ، وعن اللوائح الاستثنائية . إن مـــا تدعونه ايها الاخوان تقدماً ، يمشي بمحركين : الناس والاحداث . ولكن من المحزن أن يكون الاستثنائي ضرورياً بين الفينة والفينة . وفي ما يتصل بالاحداث وفي ما يتصل بالناس ، لاتكفي الفئات العادية . ينبغي ان يبرز بين الناس عباقرة ، وان تظهر بين الاحداث ثورات . والحوادث العظمى هي القانون . ونظام

---

* تعبير لاتيني معناه « الويل للمغلوب » .

الاشياء لا يستطيع ان يتخذ سبيله بدونها . ولكي يرى المرء ظهور المذنبات يُغرى بالاعتقاد بان السماء نفسها في حاجة إلى ممثلين من النجوم. فلحظة يكون توقّعُك لها اضعف ما يكون يعلن الرب . على جدار الفلك ، عن ظهور مذنّب . وتقبل نجمة غريبة ما مؤكدة بذيل هائل . وهذا يقضي على قيصر . إن بروتوس يطعنه بمدية ، وان الرب يضربه بمذنب . كراك ، هوذا فجر شمالي ، هي ذي ثورة ، هو ذا رجل عظيم ، عام ١٧٩٣ بأحرف ضخام ، ونابوليون في سطر على حدة ، ومذنّب ١٨١١ في رأس الاعلان . آه . يا له من اعلان ازرق جميل ، متلألىء كله بأنوار غير متوقعة . بُم ! بم ! مشهد خارق للعادة . أنظروا إلى أعلى ، ايها السادرون ! كل شيء أشعث ، النجم ، والدرامة سواء بسواء . ايها الرب الرحيم ، ذلك اكثر مما ينبغي ، وذلك ليس بكاف . وهذه الموارد ، المصطنعة في الاحوال الاستثنائية ، تبدو بهاء ، وإنها لفقر . الثورة ، علام يدل ذلك ؟ على ان الرب في عسر . إنه يقوم بانقلاب . لأن ثمة محلول اتصال بين الحاضر والمستقبل ، ولأنه هو ، الرب ، عاجز عن ان يصل ما بين الطرفين . والحق ان ذلك يؤيد ظنوني الخاصة بثروة يهوه . فحين ارى كل هذا القلق فوق وتحت ، وكل هذه الدناءة وهذا الشح ، وهذا البخل ، وهذه الشدة في السماء وعلى الارض ، ابتداء من الطائر الذي لا يملك حبة من الذرة البيضاء ، إليّ أنا الذي لا أملك دخلا مقداره مئة الف ليرة سنوياً ؛ وحين ارى المصير الانساني ، البالي إلى ابعد الحدود ، بل والمصير الملكي الذي يكشف عن سداة النسج ، واشهد البرنس دو كونديه يُشنق ، وحين ارى الشتاء ، وهو ليس غير خرق في نقطة السمت تهب من خلال الريح ، وحين ارى كل هذه المزق حتى في ارجوان الصباح البالغ الجدة فوق اعالي التلال ، وحين ارى قطرات الندى ، تلك اللآلىء الزائفة ، وحين ارى الصقيع ، ذلك الألماس

الصناعي ، وحين ارى الانسانية مفتقة ، والاحداث مرقعة ، وكل هذه البقع على وجه الشمس ، وكل هذه الثقوب في جسم القمر ، وحين ارى البؤس في كل مكان ، يتراءى لي ان الله ليس غنياً . إنه يتظاهر بالغنى : هذا صحيح ، ولكني استشعر الضنك . إنه يقدم ثورة . مثلما يحيي تاجر فارغ الصندوق حفلة راقصة . يجب ان لا نحكم على الآلهة من مظاهرها . فتحت تذهيب السماء ألمح كوناً فقيراً . الخليقة قد افلست . من اجل ذلك تجدونني مستاء . انظروا . إنه الخامس من حزيران . والليل حالك الظلام . منذ الصباح وأنا أنتظر انبلاج الفجر ، ولكنه لم ينبلج . وانا اراهن انه لن يأتي اليوم البتة . إنه إهمال اشبه باهمال موظف حقير الأجر . أجل ، كل شيء مرتب ترتيباً رديئاً ، وليس هناك شيء يوافق شيئاً . وهذا العالم العجوز أعوج كله . أنا منضو تحت راية المعارضة . كل شيء يجري على نحو منحرف ، والكون كثير التنكيد . إنه اشبه بالاطفال : الذين يريدونه لا يفوزون به ، والذين لا يريدونه يفوزون به . الحاصل : أنا مغتاظ . وإلى هذا ، فليغل دو مو ، ذلك الأصلع ، يؤذي ناظري . وانا استشعر الذل حين افكر ان عمري يعدل عمر تلك الركبة . وفوق هذا ، فأنا انتقد ، ولكني لا أهين . الكون هو ما هو ، أنا اتكلم هنا من غير مقصد سيء ، ولكي أريح ضميري . تقبّل ، ايها الأب الأزلي ، اعتباري الفائق ، الأكيد . آه ، وحق جميع قديسي الاولومب ، وجميع آلهة الجنة ، أنا لم اخلق لأكون باريسياً ، يعني لكي أثب إلى الأبد ، مثل كرة الاطفال المريشة بين مِضْرَبَيْن ، من جماعة المتبطلين إلى جماعة المشاغبين ! لقد خلقت لكي اكون تركياً انظر طوال النهار إلى نساء غبيات يؤدين رقصات مصر اللذيذة ، الشيقة مثل احلام رجل عفيف ، أو فلاح بيوسي * ، او سيد بندقي محاط بمجموعة من العقائل ، أو امير الماني صغير يقدم

* beauceron نسبة الى مقاطعة « بوس » Beauce الفرنسية ، وعاصمتها شارتر Chartres

نصف جندي راجل إلى « الاتحاد الجرماني » ، ويشغل فراغه بتجفيف جواربه على سياج بيته . يعني على حدود إمارته ! ذلك هو القدر الذي خلقت من اجله ! اجل ، لقد قلت « تركياً » . وانا لا ارجع عما قلت . ولست ادري لماذا ننظر إلى الاتراك ، عادة ، هذه النظرة الازدرائية ؟ .... وعلى هذا ، أصر على معاقرة الخمر . الارض حماقة كبيرة . ويبدو انهم سوف يقاتلون - اعني جميع اولئك البلهاء - لكي يحطموا رؤوسهم ، ان يذبح بعضهم بعضاً . في قلب الصيف ، في شهر بريريال (حزيران) ، على حين يستطيع كل منهم ان ينطلق متأبطاً ذراع كائن ما لكي يستروح في الحقول فنجان الشاي الماثل الذي تقدمه الصائرة ! حقاً انهم حمقى اكثر مما ينبغي ! إن مصباحاً عتيقاً مكسوراً رأيته اللحظة في احد دكاكين السلع المستعملة ليوحي إلي بفكرة . لقد آن الأوان لتنوير الجنس البشري . أجل . ها هو الاسى يعاودني ، ما افظع التهام المرء محارة او ثورة بطريقة ملتوية ! إن الكآبة تستبد بي من جديد . آه ، يا للعالم القديم الرهيب ! إنهم يتكافحون ، وإنهم يتناهبون . إنهم يتعاهرون ، وإنهم يتقاتلون . ان بعضهم ليألف بعضهم الآخر ! »

وأصيب غرانتير ، بعد نوبة الفصاحة هذه ، بنوبة سعال كان يستحقها .

وقال جولي :

- « وعلى ذكر الثورة يبدو ان باريوس هو من غير شك مغرم . »

وتساءل ليغل :

- « أتعرفون عمن يتكلم ؟ »

- « اجل ! »

- « لا ؟ »

- « اجل ! انا اقول لكم . »

وهتف غرانتير :

— « عن غراميات ماريوس . أنا أراها الآن . ماريوس ضباب . ولا بد انه قد وجد بخاراً . ماريوس من زمرة الشعراء . ومن يقل « شاعر » فكأنه قال « مجنون » . Timbraeus Apollo. ماريوس وماري ، أو وماريا ، أو وماريت ، أو وماريون : لا ريب في ان هؤلاء يشكلون عشاقاً مضحكين . أنا اتخيل كيف يكون ذلك . نشوات ينسون فيها تبادل القبل . عفيفين فوق سطح الارض ، ولكن مقترنين في اللانهاية انها نفوس ذوات أحاسيس . إنهم ينامون معاً في النجوم . . »

كان غرانتير قد دخل في كأسه الثانية ، وربما في خطابه الثاني . عندما انبثق ممثل جديد من ثقب السلم المربع . كان غلاماً لم يبلغ العاشرة ، رث الثياب ، ضئيل الجسم جداً . اصفر اللون ، ذا وجه أشبه بالكوز ، وعين حادة ، وشعر طويل إلى حد هائل ، مبلل بالمطر ، وذا سيما راضية .

وتخير الغلام ، من غير تردد ، واحداً من الثلاثة ، على الرغم من انه ما كان يعرف اياً منهم من غير ريب ، فوجه الخطاب إلى ليغل دو مو ، متسائلا :

— « هل انت مسيو بوسوويه ؟ »

فأجابه ليغل :

— « هذا لقبي . ماذا تريد مني ؟ »

— « إسمع . ان رجلا أشقر ضخماً قال لي في الجادة : هل تعرف الأم هوشلو ؟ فقلت له : نعم ، شارع شانفريري ، أرملة الرجل العجوز . فقال لي : اذهب إلى هناك ، تجد مسيو بوسوويه ، فقل له من قبلي : « ألفباء A. B. C. » ، هذه مزحة يمزحونها معك ، أليس كذلك ؟ لقد أعطاني عشرة « سو » .

— « جولي ، أعرني عشرة سو » قال ليغل ذلك ، ثم التفت إلى

غرانتير واردف : « غرانتير ، أعرني عشرة سو : »
وهكذا اجتمع له عشرون سو قدمها إلى الطفل :
فقال الفتى الصغير :
— « اشكرك ، يا سيدي . »
وسأله ليغل :
— « ما اسمك ؟ »
— « نافيه . صديق غافروش . »
فقال ليغل :
— « إبق معنا . »
وقال غرانتير :
— « تناول طعام الصباح معنا . »
فأجاب الطفل :
— « لا استطيع . أنا مع الموكب . انا الذي يصيح : فليسقط بوليفياك ! »
ورد قدمه ردة طويلة إلى وراء ، وهي احفل الانحناءات الممكنة بالاقدام ، ومضى لسبيله .
حتى إذا غاب عن النظر استأنف غرانتير الكلام :
— « هذا هو **المتشرد** الخالص . إن ثمة صنوفاً عديدة من المتشردين ؛ فالكاتب العدل **المتشرد** يدعى *saute - ruisseau* والطاهي **المتشرد** يدعى *marmiton* ، والخباز **المتشرد** يدعى *mitron* ، والمتذلل **المتشرد** يدعى *groom* ، والبحري **المتشرد** يدعى *mousse* والجندي **المتشرد** ، يدعى *tapin* والرسام **المتشرد** يدعى *rapin* ، والتاجر **المتشرد** يدعى *trottin* ، والمتودد **المتشرد** يدعى *menin* والملك **المتشرد** يدعى *dauphin* ، والرب **المتشرد** يدعى *bambino* » .
وفي غضون ذلك ، كان ليغل يتأمل . لقد قال في صوت خفيض :
— « ألفباء .A . B . C ، يعني : جنازة لامارك . »

ولاحظ غرانتير :

- « إن الرجل الأشقر الضخم هو آنجولراس ، إنه قد ارسل الغلام ليحيطك علماً . »

وقال بوسوويه :

- « هل نذهب ؟ »

فقال جولي :

- « إنها تمطر . لقد أقسمت ان اذهب وسط النار ، لا تحت الماء . انا لا أريد ان اصاب بزكام . »

فقال غرانتير :

- « سوف ابقى هنا . انا افضل طعام الصباح على عربة الموتى . »

واضاف بوسوويه :

- « النتيجة : سوف نبقى . واذن ، فلنعاقر الخمر . وإلى هذا ، ففي استطاعتنا ان نفوّت الجنازة ، من غير ان نفوّت الفتنة . »

فهتف جولي :

- « آه ! الفتنة ، أنا هنا من اجل ذلك . »

وفرك ليغل يديه :

- « انهم سوف ينقحون ثورة ١٨٣٠ . الواقع ، أنهـا تشد الناس من آباطهم . »

فقال غرانتير :

- « انا لا ابالي كثيراً بثورتك هذه . أنا لا امقت هذه الحكومة . إنه التاج ملطّفاً بالقلنسوة القطنية . إنه صولجان منته بمظلة . ويخيل الي ، اليوم ، ان لويس فيليب سيكون في ميسوره ، في هذا الجو ، ان يستخدم ملوكيته من طرفيها ، فيلوّح بطرفها الأول ، الصولجان ، في وجه الشعب ، ويفتح طرفها الثاني ، المظلة ، في وجه السماء . »

كانت الحجرة مظلمة ، وكانت سحب ضخام تتمم تعطيل ضوء

النهار . ولم يكن ثمة احد في الحانة ، أو في الشارع : كان كل امرئٍ قد انطلق « ليرى الحوادث » .

وصاح بوسوويه :

– « اهو الظهر ام منتصف الليل ؟ ليس في استطاعة المرء ان يرى ذرة . جيبولوت ، شيئاً من النور . »

وكان غرانتير يعاقر الخمر محزون الفؤاد .

وغمغم :

– « آنجولراس يحتقرني . آنجولراس قال : جولي مريض . غرانتير سكران . انه إنما أرسل نافيه إلى بوسوويه . ولو انه جاء ليأخذني اذن لتبعته . سحقاً لآنجولراس . انا لن اشهد جنازته . »

حتى إذا تم اتخاذ هذا القرار أقام بوسوويه ، وجولي ، وغرانتير ، في الحانة لا يبرحونها . وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت الطاولة التي اتكأوا عليها مغطاة بالزجاجات الفارغة . كانت شمعتان تحترقان على الشمعدان النحاسي التام الخضرة ، والثانية في عنق قنينة عريضة الكعب مصدوعة . كان غرانتير قد اغرى جولي وبوسوويه بالشراب ، وكان بوسوويه وجولي قد اغريا غرانتير بالمرح .

أما غرانتير فكان قد اجتاز ، منذ الظهيرة ، مرحلة الخمر ، مصدر الأحلام الوسط : والخمر ، عند السكيرين الجديين ، لا تحقق غير نجاح هادىء : وهناك ، من حيث الثمل ، سحر أسود وسحر ابيض . والخمر سحر ابيض ليس غير . كان غرانتير شارب أحلام مقداماً . وكان سواد الثمل الرهيب الفاغر فمه أمامه لا يوقفه عند حده ؛ بل يجذبه اليه : كان قد اطرح الزجاجة جانباً وتناول القدح الضخم . والقدح الضخم هو الهاوية . وإذ لم يكن عنده لا أفيون ولا « حشيش » ، وإذ كان راغباً في ان يملأ دماغه بالضباب فقد فزع إلى ذلك المزيج الرهيب المؤلف من عرق . و « ستوت » ،

و « ابيسنت » والذي يحدث سباتاً فظيعاً . ومن هذه الاخرة الثلاثة ، الجعة والعرق والابيسنت ، يشكل رصاص الروح . انها ثلاث ظلمات ، والفراشة السماوية تغرق في لججها ، وهناك تنشأ ، في دخان غشائي يتكثف على شكل غامض إلى اجنحة خفافيش ، تسورات خرساء ثلاث ، الـكابوس ، والليل ، والموت ، حومة فوق « النفس » الهاجعة .

ولم يكن غرانتير قد انتهى إلى هذا الوجه الكئيب . لا ، كـان بعيداً عن ذلك . كان مبتهجاً على نحو عجيب ، ولم يتخلف بوسوويه وجولي عنه قط . لقد قرعا الكأس بالكأس . واضاف غرانتير ، إلى نبرات كلماته وافكاره غير المألوفة ، هذيان الايماءة . لقد أراح جمع كفه الايسر على ركبته في وقار ، وشكلت ذراعه زاوية قائمة . كـان رباط عنقه محلولا ، وكان مباعداً ما بين رجليه فوق مقعد لا ظهر له ، ممسكاً بكأسه المترعة بيده اليمنى ، رامياً الخادمة الضخمة ، ماتولوت ، بهذه الكلمات الجليلة :

— « فلتُفتح ابواب القصر ! فليعين كل امريء عضواً في الاكاديمية الفرنسية ، وليكن له الحق في معانقة مدام هوتشلو . فلنشرب ! »

ثم انه التفت إلى السيدة هوتشلو ، وأضاف :

— « أيتها المرأة العتيقة التي كرسها الاستعمال ، اقتربي حتى يكون في استطاعتي ان احدق اليك ! »

وهتف جولي :

— « باتولوت وجيبولوت ، لا تقدما إلى غرانتير شراباً اضافياً . انه ينفق في إسراف يائس ، فرنكين وخمسة وتسعين سنتيماً . »

واجاب غرانتير :

— « من الذي فك النجوم من غير اذني لكي يضعها فوق الطاولة على شكل شموع ؟ »

وكان بوسوويه ، وقد تعتعه السكر ، محتفظاً بهدوئه ،

كان جالساً عند النافذة المفتوحة ، مبللا ظهره بالمطر الهاطل ، محدقاً إلى صديقيه .

وفجأة ، سمع خلفه جلبة ، ووقع اقدام مسرعة ، وصيحات « الى السلاح ! » . والتفت ، فرأى آنجولراس يجتاز بشارع سان دونيز ، عند طرف شارع الـ « شانفريري » ، والبندقية في يده ، ورأى غافروش حاملا غدارته ، وفويي شاهراً حسامه ، وكورفيراك شاهراً سيفه ، وجان بروفير مسدداً بندقيته القصيرة ، وكومبوفير بندقيته ، وباهوريل بندقيته القصيرة الخفيفة ، وكامل الحشد المسلح العاصف الذي كان يلحق بهم ؛

كان طول شارع الـ « شانفريري » لا يكاد يبلغ مدى بندقية قصيرة . وارتجل بوسوويه من يديه الاثنتين بوقاً ناطقاً ، وصاح :

— « كورفيراك ! كورفيراك ! هو هاي ! »

وسمع كورفيراك النداء ، ولمح بوسوويه ، وتقدم بضع خطوات في شارع الـ «بشانفريري» ، مطلقاً صيحة « ماذا تريد ؟ » التقت في الطريق بصيحة « إلى أين ذاهب ؟ »

وأجاب كورفيراك :

— « اريد أن أقيم متراساً . »

— « حسن . هنا ! هذا مكان ممتاز . أقمه هنا ! »

فقال كورفيراك :

— « هذا صحيح ، يا ايغل . »

وبأشارة من كورفيراك هجمت العصبة إلى شارع الـ « شانفريري » .

٣
الليل يبدأ في التجمع فوق غراتنير

كان المكان قد اختير على نحو رائع حقاً . فمدخل الشارع عريض، وطرفه الاقصى ضيق ، وشبيه بزقاق غير نافذ ، وكورنت تخنقه ، وشارع مونديتور يسهل سده عن يمين وشمال ، وليس من سبيل إلى شن هجوم ما إلا من شارع سان دونيز ، يعني من قدام ، ومن غير وقاية . وكانت لبوسوويه ، النشوان بعض الشيء ، نظرة هنيبعل صائم .

وعند هجوم الحشد استبد الذعر بالشارع كله ، ولم يبق عابر سبيل إلا ولى الأدبار . وفي مثل لمح البصر ، في الطرف الاقصى ، وعن يمين ، وعن شمال ، أغلقت الدكاكين ، والحظائر ، وابواب الازقة ، والنوافذ ، ومصاريع النوافذ ، والكوى ، والمصاريع على اختلاف أحجامها ، اغلقت كلها من الارض إلى السطوح . وكانت امرأة عجوز مروعة قد ثبّتت حشيّة امام نافذتها فوق وتدين من اوتاد نشر الغسيل كدرع يقيها غائلة البنادق . وكانت الحانة هي الدكان الوحيدة التي ظلت مشرعة الابواب . وذلك لسبب وجيه ، وهو ان العصابة كانت قد انقضت عليها . وتنهدت مدام هوشلو :

— « آه يا الـٰهي ! آه يا الـٰهي ! »

وكان بوسوويه قد هبط ليلتقي كورفيراك .

وصاح جولي الذي كان قد مضى إلى النافذة :

— « كورفيراك ، ينبغي ان تأخذ مظلة . سوف تصاب بزكام . »

وفي غضون ذلك ، خلال بضع دقائق ، اقتُلع عشرون قضيباً حديدياً من واجهة الحانة المقضبة . وانتُزع البلاط من جزء من رصيف الشارع يبلغ طوله ستين قدماً . وكان غافروش وباهوريل قد استوليا ، عند

جزئه الضيق ،على عجلة نقل لتاجر من تجار الكلس يدعى آنسو وقلباها ، رأساً على عقب ، وكانت تلك العجلة تحتوي على ثلاثة براميل ملأى بالكلس كانا قد وضعاها تحت ركام بلاط الرصيف . وكان آنجولراس قد فتح باب القبو المسحور . وكانت جميع دنان الأرملة هوشلو الفارغة قد مضت لتدعيم براميل الكلس . وكان فويي ، بأصابعه المتعودة تلوين طيات المراوح الدقيقة ، قد رفد البراميل وعجلة النقل بركامين هائلين من حجارة . حجارة مرتجلة كسائر الاشياء ، جيء بها من مكان ليس يدريه احد . وكانت بعض العوارض الخشبية قد انتزعت من واجهة منزل مجاور ووُضعت فوق الدنان . وحين استدار بوسوويه وكورفيراك كان نصف الشارع قد سُد بسور أعلى من قامة الرجل . فليس ثمة ما هو ابرع من اليد الشعبية في بناء كل ما يمكن ان يبنى من طريق التخريب .

وكانت ماتولوت وجيبولوت قد انضمتا إلى العاملين . وانشأت جيبولوت تروح وتغدو مثقلة بسقط المتاع . لقد أسهم ضجرها في إقامة المتراس . كانت تحمل اليهم حجارة الرصيف في سيماء ناعسة ، شأنها حين تقدم اليهم الخمر .

واجتازت اقصى الشارع مركبة عامة ذات جوادين أبيضين .

ووثب بوسوويه فوق الرصيف ، وركض ، وأوقف السائق ، وحمل الركاب على النزول ، ومد يده إلى « السيدات » ، وسرّح السائق ، ورجع بالمركبة يقود جواديها بالعنان .

وقال :

— « المركبات العامة لا تمر أمام كورنث *non licet omnibus adire Corinthum*

وبعد لحظة كان الجوادان قد حررا من المركبة وانطلقا على هواهما في شارع مونديتور ، وكانت العربة قد اضطجعت على جانبها متممة سد الشارع .

وكان القلق قد استبد بمدام هوشلو ، ففزعت إلى الدور الأول .

كانت عيناها تائهتين ، وكانت تنظر من غير ان ترى ، صالحة في همس . كانت صيحاتها مذعورة ، ولم تكن لتجرؤ على الانطلاق من حنجرتها .

وغمغمت :

— « إنها نهاية العالم . »

وطبع جولي قبلة على عنق مدام هوشلو الخشن ، الأحمر ، المتجعد وقال لغرانتير :

— « يا صديقي العزيز ، لقد كنت دائماً أعتبر عنق المرأة شيئاً ناعماً إلى ما لا نهاية . »

ولكن غرانتير كان قد بلغ اسمى غايات الشعر المدحي : فحين انتهت ماتولوت إلى الدور الاول أمسك غرانتير بها من خصرها ، وجذبها نحو النافذة منفجراً بضحكات طويلة

وصاح :

— « ماتولوت قبيحة ! ماتولوت حلم القباحة ! ماتولوت كائن خرافي . اسمعوا سر مولدها : كان بيجماليون غوطي يصنع ميازيب كاتدرائيات ، فعشق ذات صباح واحداً من تلك الميازيب — افظع تلك الميازيب . وتضرع إلى الحب ان ينفخ الحياة في ذلك الميزاب ، فكانت ماتولوت . انظروا اليها ، ايها المواطنون ! ان شعرها في لون كرومات الرصاص ، مثل شعر خليلة تيتيان ، وإنها لفتاة طيبة . أنا أكفل لكم انها سوف تبلي بلاء حسناً . إن في بردي كل فتاة بطلا . أما الأم هوشلو فشجاعة عجوز . انظروا إلى شاربيها ! لقد ورثتها من زوجها . إنها فارسة حقاً . ولسوف تقاتل ايضاً . وهاتان المرأتان وحدهما ستوقعان الرعب في الضاحية . ايها الرفاق سوف نقلب الحكومة . هذا شيء لا شك فيه مثل وجود خمسة عشر حامضاً متوسطاً بين حامض الزباد والحامض النملي ،

هذه الحوامض التي لا ابالي بها ، في ما عدا ذلك ، البتة . ايها السادة ، لقد ابغضني والدي ابداً ، لانني لم اكن قادراً على فهم الرياضيات . انا لا أفهم غير الحب والحرية . انا غرانتير ، الولد الصالح . وإذ لم املك في يوم من الايام أيما مال ، فاني لم اتعوده قط ، وهكذا لم استشعر الحاجة اليه بحال من الاحوال . ولكن لو قد كنت غنياً إذن لما بقي ثمة فقراء ! ولكان في ميسوركم ان تروا ذلك ! أوه ! لو كانت القلوب الطيبة هي المالكة لحافظات النقود السمينة اذن لسار كل شيء سيراً افضل بكثير ! انا اتخيل يسوع المسيح مالكاً ثروة كثروة روتشيلد ! فكروا بالخير العميم الذي كان خليقاً به ان يصنعه ! ماتولوت ، عانقيني ! انت شهوانية وجبانة ! إن لك وجنتين تتطلبان قبلة من اخت ، وشفتين تتطلبان قبلة من محب . »

وقال كورفيراك :

— « إلزم الهدوء ، ايها الدن ! * »

فأجابه غرانتير :

— « انا كابيتول وسيد الالعاب الزهرية ! * »

ورفع آنجولراس ، الواقف فوق قمة المتراس ، وبندقيته في يده — رفع وجهه الكالح الوسيم . وكان في آنجولراس ، كما نعرف ، شيء من الاسبارطي والطهري . لقد كان خليقاً به ان يموت في تيرموبيل مع ليونيداس ** ، وان يحرق دروجيدا *** مع كروموبل .

وصاح :

— « غرانتير ، اذهب ونم مخموراً بعيداً عن هذا المكان . هذا موطن الثمل لا السكر . لا تسربل المتراس بالعار ! »

---

* الكابيتول capitoul اسم كان يطلق على قضاة تولوز . و « الالعاب الزهرية » اكاديمية ادبية انشئت في تولوز .

** Leonidas ملك أسبارطة من عام ٤٩٠ الى ٤٨٠ ق.م. وقد دافع عن بلاده ضد الفرس .

*** Drogheda مرفأ في جمهورية ايرلندة حيث انتصر وليم الثالث على جاك الثاني (عام ١٦٩٠)

وترك هذا الكلام الغاضب اثراً فريداً في نفس غرانتير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يعتقد ان وجهه قد رشق بكأس ماء بارد . لقد بـــدا وكأنمـا قـــد صحا على نحو مفاجيء . وجلس ، واستند إلى طـــاولة قريبة من النافذة . ونظر إلى آنجولراس في رقة لا سبيل إلى وصفها ، وقـال له :

— « دعني انام هنا . » .

فصاح آنجولراس :

— « اذهب ونم في مكان آخر ! »

ولكن غرانتير أجاب ، مسدداً نحوه دائماً عينيه المفعمتين بالرقـــة والقلـــق :

— « دعني أنام هنا — إلى ان اموت هنا . »

وحدجه آنجولراس بنظرة مزدرية :

— « غرانتير ، انت عاجز عن الايمان ، عن التفكير ، عن الإرادة، عن الحياة ، وعن الموت . »

وتمتم بضع كلمات اخرى غير مفهومـــة ، ثم سقط رأسه ثقيـــلا على الطـاولة . وما هي إلا لحظـة حتى استغرق في النوم ، وذلك اثرٌ مألوف لمرحلة الثمل الثانية الـــتي دفعه آنجولراس اليها ، في خشونـة وعلى حين غرة .

٤
محاولة لتعزية الارملة هوشلو

وفي نشوات المتراس الروحية ، صاح باهوريل :

— « هو ذا الشارع مرتدياً ثوباً كاشفاً عن العنق واعلى الصـــدر

ما أجمل منظره ! »

وسعى كورفيراك ، حتى فيما هو يخرب الحانة بعض الشيء ، إلى ان يوقع العزاء في فؤاد صاحبة الحانة الارملة .

— « ايتها الأم هوشلو ، ألم تكوني تتشكين ، ذلك اليوم ، من انك استُدعيتِ وغرِّمت لأن جيبولوت هزت سجادة من نافذتك ؟ »

— « نعم ، ايها السيد كورفيراك الطيب . آه ، يا الـٰهي ! هل ستُدخل هذه الطاولة ايضاً هَوْلَكُمْ ؟ وإلى هذا ، فبسبب من السجادة، ومن أصيص أزهار سقط من العليّة إلى الشارع دفّعتني الحكومة مئة فرنك غرامة . إذا لم يكن ذلك مقتاً ! »

— « حسن ، ايتها الأم هوشلو ، إننا ننتقم لك . »

وبدت الام هوشلو ، في هذا التعويض الذي كانوا يقدمونه اليهـا ، وكأنها لا تفهم فائدتها . كانت راضية على طريقة تلك المرأة العربية التي صفعها زوجها فمضت إلى أبيها تشكوه ، مطالبة بالثأر قائلة : « أبي ، يجب ان توجه إلى زوجي مثل الاهانة التي وجهها الي . » فسألها والدها: « على اي خد صفعك ؟ » فقالت : « على الخد الأيسر » . فصفعها ابوها على الخد الايمن وقال : « الآن تم لك الرضا . اذهبي وأخبري زوجك انه صفع ابنتي ، ولكني صفعت زوجته . »

وكف المطر عن التهطال ، وكانت الامداد قد اقبلت : وكان بعـض العمال قد حملوا ، تحت ظهاراتهم برميلا صغيراً من البارود ، وسـلة تحتوي على زجاجات من الزاج أو الكبريتات ، وشعلتين أو ثلاث من شعل الكرنافال ، وسلة ملأى بالمصابيح ، « بقايا عيد الملك » ، ذلك العيد الذي انقضى منذ فترة قريبة ، إذ احتُفل به في اول نوار . ولقد قيل ان هذه الذخائر جيء بها من عند بقال في ضاحية سانت انطوان يدعى بيبين. وحُطِّم المصباح الوحيد في شارع الـ « شانفريري » ، والمصباح المواجه لشارع سان دونيز ، وجميـع مصابيـح الشوارع المجاورة : شـــارع

مونديتور ، وشارع « دو سيني » ، وشارع الـ « بريشور » ، وشارعي الـ « غران تروونديري » والـ « بيتي تروواندري » .

وأدار آنجولراس ، وكومبوفير ، وكورفيراك كل شيء . كان ثمة متراسان يُنشآن في آن معاً ، وكل منهما مستند إلى حانة كورنث ومشكل معها زاوية قائمة . لقد سد اكبرهما شارع الـ « شانفريري » ، وسد الثاني شارع مونديتور من ناحية شارع دو سيني . وهذا المتراس الاخير ، الضيق جداً ، كان مقاماً من دنان ومن حجارة ارصفة ليس غير . وكان هناك نحو من خمسين عاملا ، ثلاثون منهم تقريباً مسلحون بالبنادق ، ذلك انهم في طريقهم كانوا قد عقدوا قرضاً بالجملة من دكان تاجر اسلحة .

ولم يكن ثمة ما هو اعجب ولا اكثر تنافراً من هذه العصبة . كان احدهم يرتدي سترة قصيرة ويحمل سيفاً من سيوف الفرسان وغدارتي خيل ، وكان آخر يرتدي أردان قميص ويعتمر بقبعة مستديرة ، وقد تدلى من جانبه وعاء بارود . وكان ثالث متدرعاً بتسع صحائف من ورق رمادي ومتسلحاً بمخرز صانع سروج . وكان هناك من صرخ : « **فلنهلكهم عن بكرة ابيهم ولنمت على رؤوس حرابنا !** » ولم يكن مع هذا الرجل حربة . وعرض آخر فوق سترته حزام ثور وصندوق خراطيش من صناديق الحرس الوطني وقد زين غطاء الصندوق بهذا السطر مرقوماً بصوف أحمر : « **امن شعبي** » . وكانت ثمة بنادق كثيرة تحمل ارقام فرقها ، وبضع قبعات ، وكثير من الاذرع العارية ، وبعض الحراب ، ولم يكن ثمة اربطة عنق البتة . اضف إلى هذه الاعمار كلها وهذه الوجوه كلها ، بعض الشبان الشاحبين الوجوه الضئيلي الاجسام ، بعض عمال الموانيء البرونزيي البشرة . كانوا كلهم يستعجلون ، وفيما هم يتبادلون المعونة كانوا يتحدثون عما يُحتمل ان يقع — أن نجدة سوف تقبل اليهم حوالى الساعة الثالثة صباحاً ؛ انهم كانوا واثقين من ان هذه

النجدة لن تقل عن كتيبة ؛ ان باريس سوف تنهض ؛ موضوعات رهيبة امتزج بها ضرب من المزاح المرح الودي . ولو قد رآهم المرء آنذاك لحسبهم اخوة ، أما هم فما كان بعضهم ليعرف اسماء بعضهم الآخر . ان للمخاطر العظمى هذا الجمال وهو انها تلقي النور على اخوّة الغرباء .

كانت نار قد أضرمت في المطبخ ، وكانوا يذيبون الاوعية المعدنية والاطباق والشوكات وجميع آنية الحانة القصديرية ويحولونها إلى رصاصات. وكانوا يشربون خلال ذلك كله . وتدحرجت الكبسولات ورصاصات الصيد الضخمة ، على الموائد ، كيفما اتفق ، مع زجاجات الخمر . وفي غرفة البليارد ، كانت مدام هوشلو وماتولوت وجيبولوت — وقد غيّرهن الذعر على نحو متفاوت ، فأحداهنّ ذاهلة ، والاخرى لاهثة ، والثالثة يقظة — يمزقن الخرق البالية ويصنعن نُسالة . وساعدهن ثلاثة متمردين ، ثلاثة أشداء طوال الشعور ذوي لحى وشوارب ، كانوا يمزّقون القماش بأصابع جرّاح ، ويوقعون الرعدة في اوصالهن .

وكان الرجل الفارع الطول الذي لاحظه كورفيراك وكومبوفير وآنجولراس لحظة التحق بالجماعة عند زاوية شارع دي بيليت يشتغل في المتراس الصغير ويقدم خدماته هناك . واشتغل غافروش في المتراس الكبير ، أما الشاب الذي انتظر كورفيراك في غرفته ، وسأله عن مسيو ماريوس ، فكان قد اختفى بعد أن قُلبت العربة العامة بقليل .

وكان غافروش ، وقد اشرق وجهه واستخفه الجذل ، قد عهد إلى نفسه في ان يجعل القوم كلهم على قدم الاستعداد . كان يروح ، ويجيء ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود ، ويدوّي ، ويتوقد ذكاء . لقد بدا وكأنه قد وُجد هناك لتشجيع الجميع . هل كان يحمل

مهمازاً ؟ اجل . من غير ريب ، ولم يكن ذلك المهماز غير بؤسه . هل كان له جناحان ؟ اجل ، من غير ريب : بهجته . كان غافروش زوبعة . لقد رأوه على غير انقطاع ، ولقد سمعوه على نحو موصول . لقد ملأ الهواء . إذ كان في كل مكان في آن معاً . كان ضرباً من كليّ الوجود مسخط أو يكاد ، فليس من توقّف ممكناً معه . لقد احس به المتراس الهائل فوق ظهره . لقد ازعج المتبلدين ، وأثار الكسالى ، ونشط المتعبين ، وأفرغ صبر المستغرقين في التفكير ، جاعلا بعضهم يبتهج ، وبعضهم يعكف على العمل ، وبعضهم يغضب ، وجميعهم يتحركون وينشطون ، ونخس تلميذاً ، وعض عاملا من العمال ، واتخذ موقعاً ، ووقف ، وانطلق من جديد ، وطار فوق الجلبة والجهد ، ووثب من هؤلاء إلى هؤلاء ، وغمغم ، وهمهم ، وحرض هذا القطار كله ؛ كان ذبابة على عربة الثورة الهائلة .

كانت الحركة السرمدية في ذراعيه الصغيرتين ، والصخب السرمدي في رئتيه الضئيلتين :

— « عظيم ! هات بلاطاً اضافياً ! هات دناناً اضافية ! هات اشخاصاً اضافيين ! اين يوجد شيء من ذلك ؟ سلة من جبسين لسد ذلك الثقب . ان متراسكم هذا اصغر مما ينبغي . يجب ان يرتفع إلى اعلى . اركموا كل شيء . دعّموه بكل شيء . اغرزوا حوله كل شيء . اهدموا المنزل . المتراس حفلة شاي الأم جيبو . انظروا ، هو ذا باب مزجج . »

وهذا جعل العمال يهتفون :

— « باب مزجج ؟ اي شيء تريدنا ان نصنعه بباب مزجج ، درنّة ؟ »

فأجابهم غافروش :

— « ايها الجبابرة ! إن وجود باب مزجج في متراس شيء ممتاز .

إنـه لا يحول دون الهجوم عليه ، ولكنه يزعجهم حين يحاولون انتزاعه . ثم ، ألم تسرقوا التفاح ، في يوم من الايام ، من جدار زُرع بالزجاجات المحطمة ؟ إن الباب المزجـج يحطم ابواق الحرس الوطني حين يحاولون أن يتسلقوا المتراس . يا الـٓهي ! الزجاج هو الشيطان ! آه ، ليس الكم يا رفاقي ، خيال جموح ! »

ومع ذلك ، فقد كان محتدماً غيظاً على غدارته التي لا زناد لهـا . ومضى من واحد إلى آخر مطالبـاً :

— « بندقية ! اريد بندقية ! لماذا لا تعطونني بندقية ! »

فقال كومبوفير :

— « تريد بندقية لك ؟ »

فأجاب غافروش :

— « حسن ، ولم لا ؟ لقد كانت عندي واحدة سنة ١٨٣٠ ، يوم نشب النزاع مع شارل العاشر . »

وهز آنجولراس كتفيه :

— « حين يكون عندنا ما يكفي الرجال نقدم الباقي إلى الاطفال . »

واستدار غافروش في اعتزاز ، واجابه :

— « إذا قُتلتَ قبلي ، فسوف آخذ بندقيتك . »

فقال آنجولراس :

— « متشرد ! »

فقال غافروش :

— « غِرّ ! »

وتشاغل متأنق كان يتسكع عند اقصى الشارع .

وناداه غافروش : صائحاً :

— « تعال معنا ، ايها الشاب ! حسن . هذه البلاد للعجوز ، انت لن تعمل شيئاً من اجلها اذن ؟ »

واطلق المتأنق ساقيه للريح .

٥
الاستعدادات

إن جرائد العصر التي قالت إن متراس شارع الـ « شانفزيري » ، تلك «المنشأة التي لا تُقهر أو تكاد » ، كما دعتها ، بلغ مستوى طابق ثان ، كانت مخطئة . الواقع انه لم يتعدّ ارتفاعاً متوسطاً مقداره ستة اقدام أو سبعة اقدام . لقد بني على نحو يمكّن المقاتلين ، تبعاً لمشيئتهم ، من ان يختفوا خلف الجدار أو يطلّوا من فوقه ، بل ان يتسلقوا ذروته بواسطة سلسلة رباعية من حجارة الرصيف نضّدت ورتبت مثل درجات السلم من باطن . أما واجهة المتراس من خارج ، وكانت مؤلفة من اكوام من بلاط وبراميل شد بعضها إلى بعضها بالعوارض والالواح الخشبية التي تداخلت في دواليب عربة آنسو والعربة العمومية المقلوبة ، نقول اما واجهة المتراس من خارج فكانت ذات مظهر شائك شديد التعقيد .

وكان قد تُركت بين جدار البيوت واقصى المتراس الاكثر بعداً عن الحانة فتحة تكفي لمرور المرء من خلالها ، بحيث كان الخروج ممكناً . وكان عريش العربة العامة قد وُجِّه إلى اعلى توجيهاً مستقيماً وشد بالحبال ، وكان علم احمر معلق بهذا العريش يرفرف فوق المتراس .

وكان متراس مونديتور الصغير ، المخبوء خلف الحانة ، متوارياً عن النظر . وكان المتراسان يشكلان ، مجتمعين ، حصناً حقيقياً . ولم ير آنجولراس وكورفيراك ان من الخير أن يمترسا الطرف الآخر من شارع مونديتور الذي يفتح ممراً إلى الاسواق من خلال شارع الـ « بريشور » ،

بسبب من رغبتهما — من غير شك — في ان يحتفظا باتصال ممكن مع الخارج . ولخوفهما بعض الشيء من ان يهاجم رجالهم من زقاق الـ « بريشور » الخطر العسير .

وباستثناء هذا الممر الذي ظل حراً ، والذي شكل ما كان خليقاً بـ « فولار » * ان يدعوه باسلوبه الستراتيجي مجازاً طويلا ضيقاً ، وإذا ذكرنا ايضاً الفتحة الضيقة المقامة عند شارع الـ « شانفريري » ، فان الجزء الداخلي من المتراس ، حيث كونت الحانة زاوية بارزة إلى الخارج كان اشبه شيء برباعيّ اضلاع غير مستقيم موصد من نواحيه جميعاً . وكانت عشرون خطوة ، أو نحوها ، تفصل ما بين المتراس الكبير والبيوت العالية التي شكلت نهاية الشارع ، بحيث نستطيع ان نقول ان المتراس استند إلى هذه البيوت الآهلة كلها ، ولكن الموصدة من أعلى إلى أدنى .

وإنما تم هذا العمل كله ، من غير عائق ، في اقل من ساعة ، ومن غير أن ترى تلك الحفنة من الرجال البواسل قبعة وبر ترتفع أو حربة تُشهر . فقد كان البورجوازيون القلائل الذين لم يفقدوا الجرأة ، في تلك المرحلة من الفتنة ، على الاقتراب من شارع سان دونيز يلقون نظرة على شارع الـ « شانفريري » ، ويلمحون المتراس ، ويضاعفون سرعة خطاهم .

حتى إذا تم انشاء المتراسين ، ورفعت الراية ، سحبت من الحانة مائدة . وارتقى كورفيراك تلك المائدة . وجاء آنجولراس بالصندوق المربع ، وفتحه كورفيراك . وكان هذا الصندوق مليئاً بالخراطيش . وحين بدت الخراطيش للعيان سرت في اوصال أشجع القوم رعدة ، وران الصمت لحظة .

ووزعها كورفيراك في ابتسامة .

وتلقى كل امرىء ثلاثين خرطوشة . وكان مع كثير منهم بارود ،

* Folard خبير حربي فرنسي (١٦٦٩ — ١٧٥٢)

فراحوا يعملون خراطيش اخرى بالكرات التي كانوا يصبونها . أما برميل البارود الصغير ، فكان وحده فوق طاولة ، مجاورة للباب ، وكان مدّخراً .

ولم يكن قرع الطبول ، الذي طاف باريس كلها ، قد انقطع بعد ؛ ولكنه كان قد أمسى مجرد صوت رتيب لم يعودوا يلقون اليه بالاً . وكان هذا الصوت يبتعد حيناً ، ويقترب حيناً ، في تموجات كئيبة .

لقد شحنوا بنادقهم وبنادقهم القصيرة الخفيفة ، في آن معاً ، من غير اضطراب ، وفي رصانة احتفالية . ووضع آنجولراس ثلاثة حراس خارج المتراسين ، احدهم في شارع الـ « شانفريري » ، وثانيهم في شارع الـ « بريشور » ، وثالثهم عند زاوية الـ « بيتيت تروواندري » .

ولحظة أكمل انشاء المتراسين ، وعُينت مراكز الجند ، وشحنت البنادق ، وسمي الحراس ، راحوا ينتظرون متوحدين في هذه الشوارع الرهيبة التي ما عاد احد يمر بها ، وقد احاطت بهم هذه البيوت الخرساء ، وكأنها ميتة ، حيث لم تختلج حركة بشرية واحدة ، ولفّتهم ظلال الغسق المتكاثفة ، الآخذة في السقوط ، ووسط تلك الظلمة وهذا الصمت اللذين أحسا من خلالهما اقتراب شيء فاجع ومروّع إلى حد يستعصي على التعبير — راحوا ينتظرون منعزلين ، مسلحين ، مصممين ، رابطي الجأش .

٦
في فترة الانتظار

وفي ساعات الانتظار تلك ، ماذا فعلوا ؟

يجب ان نروي ذلك ، لأنه جزء من التاريخ .

فيما كان الرجال يصنعون الخراطيش والنساء يصنعن النسالة ، وفيما كانت مقلاة ضخمة حافلة بالقصدير والرصاص المعدّين لقالب القذائف تطلق الدخان فوق موقد مضطرم ، وفيما كان الحرس يراقبون المتراسين والسلاح في ايديهم ، وفيما كان آنجولراس ، المتعذر على اي شيء أن يشغله ، يراقب الحرس ، كان كومبوفير ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وفويي وبوسوويه ، وجولي ، وباهوريل ، وبضعة نفر آخرين ، يبحث بعضهم عن بعض ويجتمع بعضهم إلى بعض ، شأنهم في أهدأ ايام لغوهــــم المدرسي واحفلها بالأمن . وفي احدى زوايا هذه الحانة التي حولت إلى سرداب معقد من سراديب الحصون ، على بعد بضع خطى من المتراس الذي أقاموه ، وبنادقهم القصيرة الخفيفة المشحونة بالبارود مسترِيحة إلى ظهور كراسيهم ، كانوا — وهم الفتيان الشجعان — المجاورون اشد المجاورة ساعتهم الاخيرة ، قد بدأوا يغنون اغاني الغرام :

إية أغانٍ ؟ ها هي ذي :

هل تذكرين حياتنا العذبة ،
حين كنا كلانا صغيرين جداً ،
وحين لم تعتلج في فؤادنا غير رغبة واحدة ،
هي ان نرتدي ثياباً انيقة وان يحب احدنا الآخر !

حين كنا اذا انضاف عمرك الى عمري
لا يبلغ مجموع عمرينا اربعين عاماً ،
وحين كان كل شيء ، في بيتنا المتواضع الصغير ،
ربيعاً بالنسبة الينا ، حتّى الشتاء نفسه !

يا لها اياماً حلوة ! كان مانيوويل فخوراً وحكيماً ،
وكانت باريس تجلس الى مآدب مقدسة ،
وكان فوا يشن الهجوم ، وكان في
النصف الاعلى من فستانك ، حيث
موضع غنجري ، دبوس.

لقد تأملك القوم كلهم . وكنت محامياً من غير دعاوى ،
يوم اصطحبتك الى متنزه برادو ،
فكنت جميلة الى درجة جعلت الزهور
توقع في نفسي انها تتململ .

لقد سمعتها تقول : ما أجملها !
ما اطيب عبقها ! ما اروع تموج شعرها !
انها تخفي تحت ردائها القصير جناحاً ،
وقبعتها الفاتنة لم تكد تبزغ .

وهمت على وجهي معك ، ضاغطاً على ذراعك الرخصة .
واعتقد عابرو السبيل ان الحب المسحور
قد زوّج ، في شخصينا السعيدين ،
شهر نيسان العذب الى شهر نوار الجميل.

نحن نحيا مختبئين ، راضيين ، مستسرين
ملتهمين الحب ، تلك الثمرة المحرمة الطيبة ،
ولم يكن فمي ليقول شيئاً
الا أجابه فؤادك في الحال .

وكانت السوربون هي البقعة الشعرية الرعائية
حيث كنت اعبدك من المساء حتّى الصباح .
هكذا تستعمل النفس العاشقة
تذكرة الـ « تاندر » * في البلدان اللاتينية .

إيه يا ساحة موبير ! إيه يا ساحة دوفين .
يوم سحبتُ ، في الكوخ البارد الربيعي ،
ذراعك فوق ساقك الناعمة ،
لقد رأيت نجماً في اقصى العليّة .

---

* بلاد تاندر ، او بلاد الرقة *Pays de Tendre* بلاد رمزية لا يشغل المرء فيها بغير الحب ، وقد تخيلتها الانسة سكوديري Mlle de Scudéry وغيرها من روائيي القرن السابع عشر . وتذكرة تاندر هي تذكرة هوية تلك البلاد وقد تخيلتها الكاتبة نفسها .

لقد قرأت افلاطون كثيراً ولكن لم يبق في ذهني شيء منه ،
كما لم يبق شيء من « مالبرانش » و « لامنيه » ،
لقد اريتني اللطف السماوي .
بزهرة قدمتها أنتِ الي .

لقد اطعتكِ ، وكنتِ انت طوع يدي .
إيه ايتها العلية المذهبة ! كم كنت أراك
رائحة غادية منذ الضحى في قميصك ،
تنظرين الى جبينك الغض في مرآتك العتيقة !

ومن ذا الذي يستطيع ان ينسى
أويقات الفجر تلك ، والقبة الزرقاء ،
والاوشحة والازهار ، والشفوف والانسجة المتموجة ،
حيث الحب يغمغم بلغة سوقية فاتنة !

كانت حدائقنا أصيصاً من الخزامى ،
وكنت تقنّعين زجاج النافذة بتنورة .
واخذت طاسة الغليون الفخارية ،
واعطيتك فنجان الخزف الياباني .

وتلك المصائب الكبرى التي كانت تضحكنا !
فروة يديك المحترقة ، وفروة جيدك الطويلة الضائعة !
وتلك الصورة الاثيرة من صور شيكسبير الالـهي
التي بعناها ذات مساء ، لتناول العشاء !

لقد كنت متسولاً ، وكنت أنت متصدقة ،
لقد قبّلت ، على الطائر ، ذراعيك الغضتين المدورتين
واتخذنا من دانتي ، في قطع نصف طلحية ، مائدة
لكي نأكل في ابتهاج مئة حبة من كستناء .

واول مرة اخذت فيها ، في غرفتي
الصغيرة ، قبلة من شفتيك الملتهبتين
حين تشعث شعرك وشاع الدم في وجهك ،
ظللت اصفر شاحباً وآمنت بالله !

هل تذكرين سماداتنا التي لا تحصى
وجميع تلك المناديل التي استحالت الى خرق !
اوه ! كم زفرة من قلبينا المفعمين بالظل
قد انطلقت في السماوات العميقة !

وكان في المناسبة ، والموقع ، وذكريات الصبا المستعادة هـذه ، والنجوم القليلة التي بـدأت تشـع في السماء ، والسكون المأتمي الذي ران على تلك الشوارع المهجورة ، ووشك وقوع الحادثة التي لا ترحم - كان في هذا كله ما خلع فتنة مؤثرة على هذه الأبيات ، التي راح جان بروفير يغمغم بها في الغسق ، بصوت خفيض . جان بروفير الذي كان كما قلنا من قبل شاعراً رقيقاً :

وفي غضون ذلك كانوا قد اضاءوا مصيبيحاً في المتراس الصغير ، واشعلوا في المتراس الكبير واحداً من تلك المشاعل الشمعية التي يراهـا المرء في ثلاثاء المرفع امام العربات المثقلة بالاقنعة ، القاصدة الـى الكورتي * . وإنما جـاءت هـذه المشاعل ، كما رأينا ، من ضاحية سان انطوان .

وكان المشعل قد وُضع في ضرب من القفص أغلق ببعض بلاطـات الطريق من جهات ثلاث لكي يقيها من الريـح ، وأُعِدّ على ان يجعل النور كله ينصبّ على الراية . وظل الشارع والمتراس غارقين في الظلمة ، ولم يكن يُرى غير العلم الأحمر ، المضاء على نحو رهيب ، وكأنما قد صُوِّب اليه مصباح هائل يَرى حامله به ولا يُرى .

وخلع ذلك الضوء على نسيـج الراية القرمزية وهجاً ارجوانياً يمتنـع على الوصف .

* Courtille حيّ من احياء باريس القديمة كانت تعجه نحوه الجماهير المحتفلة بثلاثاء المرفع .

٧

الرجل المجند في شارع الـ « بيليت »

كان الظلام قد خيم على الدنيا ، ولم يكن احد قد أقبل . كانت ثمة اصوات مختلطة ليس غير . وبين الفينة والفينة كانت تُسمع طلقات بنادق ، ولكنها طلقات نادرة ، متقطعة ، نائية . وكانت هذه الاستراحة ، المتطاولة على هذا الشكل ، دليلا على ان الحكومة كانت تفيد من الوقت وتحشد قواها . لقد كان هؤلاء الرجال الخمسون ينتظرون ستين الف رجل .

واستبد بآنجولراس فروغ الصبر ذاك الذي يستحوذ على النفوس القوية عند عتبة الاحداث الرهيبة . ومضى يبحث عن غافروش الذي كان قد انصرف إلى صنع الخراطيش في الحجرة السفلى على ضوء باهت منطلق من شمعتين وضعتا على منضدة المحاسبة ، خوفاً على البارود المنتثر على الموائد أن تمسه النار . ولم تكن هاتان الشمعتان ترسلان ايما شعاع إلى الخارج . وفوق هذا ، فقد حرص المتمردون على ان تُشعل في الادوار العليا انوار ما .

كان غافروش منهمكاً في تلك اللحظة انهماكاً شديداً ، ولكن انهماكه ذاك لم يكن في الخراطيش على وجه الضبط .

وكان الرجل المقبل من شارع الـ « بيليت » قد دخل اللحظة إلى الحجرة السفلى ، وكان قد جلس إلى المائدة الاقل فوزاً بالنور . وكان قد اصاب بندقيةً مشاة من طراز ضخم ، وكان يضعها بين ركبتيه . وحتّى تلك اللحظة ، لم يكن غافروش ، المشغول بمئة شيء « مسلٍّ » ، قد رأى حتّى هذا الرجل .

وحين دخل ، أتبعه غافروش ناظريه على نحو ميكانيكي ، معجباً

بندقيته . ولم يكد الرجل يجلس حتى نهض « المتشرد » فجأة . ولو قدّر لأحد ان يرى ذلك الرجل حتى تلك اللحظة إذن لرآه يراقب كل شيء في المتراس وفي عصبة المتمردين بانتباه فريد . ولكنه غرق منذ دخل إلى الغرفة في ضرب من التأمل ، وبدا وكأنه لم يعد يرى شيئاً مما كان يجري . واقترب « المتشرد » من هذه الشخصية المستغرقة في التفكير ، وشرع يدور حوله على رؤوس اصابعه كما يمشي المرء حين يكون قرب شخص يخشى ان يوقظه . وفي الوقت نفسه ، تعاقبت على وجهه الطفلي ، المتهتك إلى ابعد الحدود الجدي إلى ابعد الحدود في آن معاً ، المبتهج إلى ابعد الحدود المحزن إلى ابعد الحدود — نقول تعاقبت على وجهه جميع تصعرات الشيوخ التي تعني : «اوه ، عجباً ! مستحيل ! ان على عيني غشاوة ! أنا احلم ! هل هذا ممكن ؟ لا . انه غير ممكن ! اجل انه ممكن ! ، لا ، لا ، انه غير ممكن ! » الخ . واقام غافروش توازنه على عقبيه ، وشنج قبضتيه في جيبيه ، ولوى عنقه مثل طائر من الطيور ، وانفق في عبسة لا حد لها كل ما في شفته السفلى من حذق وفطنة . كان مشدوهاً ، مرتاباً ، قليل التصديق ، مقتنعاً ، مبهور البصر . كانت له سيما رئيس الخصيان في سوق الرقيق وقد اكتشف زُهرة (فينوس) بين نساء بدينات ، ومحيّا هاوٍ من هواة الفن يتبين نابغة مثل رافاييل وسط ركام من الصور التافهة التي يعوزها الاتقان . كان كل شيء فيه ناشطاً يعمل : الغريزة التي تستروح والفكر الذي يدبر . كان واضحاً ان حادثاً قد ألمّ بغافروش .

وقال آنجولراس :

— « انت صغير . إن احداً لن يراك . اخرج من المتراسين ، وتسلل على طول البيوت ، وألق نظرة سريعة إلى الشوارع ، ثم ارجع واخبرني ما الذي يجري هناك . »

وتصدّر غافروش ، وقال :

— « اذن فالصغار يصلحون لشيء ما ! هذا سار جداً ! سوف اذهب . وفي غضون ذلك ثق بالصغار ، ولا تثق بالكبار ... »

ثم انه رفع رأسه ، وخفض صوته، واضاف مشيراً إلى الرجل الذي أقبل من شارع « بيليت » :

— « اترى الرجل الضخم الذي هناك ؟ »

— « ثم ماذا ؟ »

— « إنه جاسوس . »

— « اواثق انت ؟ »

— « لم ينقض اسبوعان على شده لي من اذني في كورنيش « الجسر الملكي » حيث كنت اشم الهواء . »

وفي سرعة ، فارق آنجولراس « المتشردَ » ، وهمس بضع كلمات في اذن عامل من عمال المرافيء كان هناك . وغادر العامل الغرفة ، ورجع في الحال تقريباً ، يصحبه ثلاثة آخرون . ومضى الرجال الاربعة ، الحمالون الاربعة العراض الاكتاف ، وجلسوا ، من غير ان يعملوا اىما شيء يلفت النظر ، خلف الطاولة التي كان الرجل المقبل من شارع « بيليت » متكئاً عليها . كانوا مستعدين من غير شك لان ينقضّوا عليه انقضاضاً .

ثم إن آنجولراس اقترب من الرجل وسأله :

— « من انت ؟ »

عند هذا السؤال المفاجيء ، اجفل الرجل . وحدق النظر إلى اعماق عين آنجولراس الصريحة ، وبدا وكأنه ادرك ما يجول في خاطره . وابتسم ابتسامة لم يكن في العالم ما هو اكثر ازدراء ، وأشد قوة ، وأمضى عزماً منها ، وأجاب في وقار متعجرف :

— « إني أرى كيف تجري ... حسناً ، أجل ! »

— « انت جاسوس ؟ »
— « انا رجل من رجال السلطة . »
— « وما اسمك ؟ »
— « جافير . »

وأومأ آنجولراس إلى الرجال الأربعة . وفي لمح البصر . وقبل ان يجد جافير متسعاً من الوقت للالتفات ، كان الرجال قد اخذوا بخناقه ، وطرحوه ارضاً ، وأحكموا وثاقه ، وفتشوه .

وعثروا في جيوبه على بطاقة مستديرة ملصقة بين قطعتي زجاج ، نقش على احد وجهيها شعار فرنسة مع هاتين الكلمتين : **« سهر وحذر »** وعلى الوجه الاخر هذا التظهير : **« جافير ، مفتش شرطة ، عمره اثنتان وخمسون »** وتوقيع مدير الشرطة في ذلك العهد م. غيسكيه .

وكان يحمل إلى جانب ذلك ساعته وحافظة نقوده التي انطوت على بضع قطع نقدية ذهبية . وتركوا له الساعة وحافظة النقود . وتحت الساعة ، في قعر جيبه الصغير ، تحسسوا واستولوا على ورقة في ظرف . وفض آنجولراس الظرف ، وقرأ هذه السطور الستة مكتوبة بخط مدير الشرطة نفسه :

« حالما يتم المفتش جافير مهمته السياسية ، سوف يتحقق ، من طريق الدراسة الخاصة ، ما إذا كان صحيحاً ان الاشرار يفزعون إلى جُرف الضفة اليمنى من نهر السين ، قرب جسر يينا . »

حتى إذا انهوا التفتيش ، رفعوا جافير ، واوثقوا ذراعيه خلف ظهره وشدوه وسط الحجرة السفلى إلى ذلك الوتد الشهير الذي خلع اسمه ، في وقت مضى ، على الحانة .

واقترب غافروش — الذي شهد المشهد كله ووافق على كل شيء بهزات صامتة من رأسه — اقترب من جافير وقال له :

— « لقد قبضت الفأرة على الهرة . »

وإنما نُفّـذ هذا كله في سرعة بالغة بحيث أتيم لحظة تنبه اليه القوم العاملون قريباً من الحانة . ولم يكن جافير قد ارسل صيحة واحدة . وما إن رأى كورفيراك ، وبوسوويه ، وجولي ، وكومبوفير والرجال المتثرون حول المتراسين ، نقول ما إن رأوا جافير موثقاً إلى الوتد حتى هرعوا مقبلين .

وإذ وجد جافير نفسه مشدود الظهر إلى الوتد ، مطوقاً بالحبال على نحو لا يمكنه من ان يأتي بحركة ما ، فقد رفع رأسه بمثل الطلاقة الجديرة برجل لم يكذب في حياته قط .

وقال آنجولراس :

— « انه جاسوس . »

والتفت إلى جافير قائلا :

— « سوف تُقتل رمياً بالرصاص قبل ان يؤخذ المتراس بعشر دقائق . »

واجاب جافير بنبرته الاكثر صلفاً :

— « ولم لا يكون ذلك في الحال ؟ »

— « نحن نقتصد في البارود . »

— « اذن فاقتلوني بمدية . »

فقال آنجولراس الوسيم :

— « ايها الجاسوس . نحن قضاة ، ولسنا سفاحين . »

ثم نادى غافروش :

— « انت ! امض في عملك ! إفعل ما قلته لك . »

فصاح غافروش :

— « سوف اذهب . »

ثم وقف لحظة انطلق وأضاف :

— « بالمناسبة ، سوف تعطيني بندقيته ! اني اترك لك الموسيقي ،

ولكني اريد الكلارينيت * . »

وأدى المتشرد تحية عسكرية ، واجتاز مبتهجاً تلك الفتحة التي في المتراس الكبير .

٨
عدة علامات استفهام حول شخص يدعى « لو كابوك » لعله لم يكن « لوكابوك »

لن تكون الصورة الفاجعة التي بدأنا رسمها كاملة ، ولن يرى القاريء ، لحظات الولادة الاجتماعية والمخاض الثوري العظيمة ، في تضاريسها الحقيقية الدقيقة – هذه اللحظات التي امتزج فيها التشنج بالجهد – إذا اغفلنا ، في التخطيط المرسوم هنا – حادثة مفعمة بالذعر الملحمي والوحشي وقعت إثر ذهاب غافروش مباشرة ، تقريباً .

ان الجماهير ، كما نعلم ، اشبه شيء بكتل الثلج ، وهي تجمع ركاماً من الرجال الصخابين فيما هي تتدحرج . وهؤلاء الرجال لا يسأل بعضهم بعضاً من اين اقبلوا . ولقد كان بين عابري السبيل هؤلاء الذين التحقوا بالجماعة التي قادها آنجولراس وكومبوفير وكورفيراك شخص يرتدي صدرة حمال مهترئة الكتفين ، ويصيح مكثراً من الحركات اثناء الكلام ، وتبدو عليه سيما سكير وحشي . وكان هذا المدعو أو الملقب بـ « لو كابوك » *Le Cabuc* ، والذي كان إلى ذلك مجهولا بالكلية عند اولئك الذين حاولوا ان يتبينوه ، الثمل إلى حد بعيد ، أو المتظاهر بذلك ، – كان جالساً مع بضعة رجال آخرين إلى طاولة

* البراعة ، وهي آلة موسيقية .

سحبوها إلى خارج الحانة . وكان « كابوك » هذا يبدو - فيما هو يغري بالشراب اولئك الذين من حوله - وكأنه يحدق في سيما تأمل إلى البيت الكبير القائم في مؤخرة المتراس ، والذي كانت أدواره الخمسة تشرف على الشارع كله وتواجه شارع سان دونيز وفجأة هتف :

- « ايها الرفاق ، هل تعلمون ؟ من هذا المنزل بالذات يجب ان نطلق النار . اننا حين نكون خلف تلك النوافذ فلن يستطيع احد ، وحق الشيطان ، ان يجيء إلى الشارع . »

فقال احد الشاربين :

- « اجل ، ولكن البيت مغلق . »

- « نقرع الباب ! »

- « ولكنهم لن يفتحوا . »

- « نقتحم الباب . »

ويعدو « لو كابوك » إلى الباب الذي كان مزوداً بقارعة ضخمة ، ويخفقه . ولكن الباب لا يفتح . ويخفق كرة ثانية . ولكن احداً لا يجيب . ويخفق كرة ثالثة . فلا يقع إلا على الصمت نفسه .

ويصيح « لو كابوك » :

- « هل يوجد احد هنا ؟ »

ولا يتحرك شيء .

ثم يمسك ببندقية ويشرع يضرب الباب بعقبها . كان باباً زقاقياً عتيقاً ، ذا قوس ، وكان منخفضاً ، ضيقاً ، صلباً ، مصنوعاً كله من خشب السنديان ، مبطناً من داخل بطبقة من حديد مصفح وبأطواق حديدية . كان باباً حقيقياً من ابواب السجون الخفية المطلة على خندق ما .

وعلى اية حال ، فمن المحتمل ان يكون السكان قد اهتاجوا ، إذ رأى القوم آخر الامر نافذة صغيرة مربعة في الدور الثالث تضاء وتفتح ، وتبدو عند النافذة شمعة ، ووجه رجل تقي مروع أشيب هو البواب .

وكف الرجل القارع عن القرع .

وتساءل البواب :

– « ايها السادة ، ماذا تريدون ؟ »

فقال « لو كابوك » :

– « افتح ! »

– « ايها السادة ، هذا غير ممكن . »

– « افتح ، اقول لك ! »

– « مستحيل ، أيها السادة ! »

وتناول « لو كابوك » بندقيته وسددها إلى رأس البواب . ولكن لما كان هو تحت ، وكان الظلام حالكاً جداً ، فان البواب لم يره .

– « هل ستفتح ، نعم ام لا ؟ »

– « لا ، ايها السادة ! »

– « تقول لا ؟ »

– « اقول لا ، يا سادتي الـ ... »

ولم يتم البواب كلامه . لقد اطلقت النار . كانت الرصاصة قد اخترقت جسم الرجل ، تحت ذقنه ، وخرجت من مؤخر عنقه ، مجتازة حبل الوريد . وخر العجوز على الارض من غير ان يرسل زفرة ما : وسقطت الشمعة ، وانطفأت ، ولم يعد ثمة شيء تمكن رؤيته غير رأس جامد منطرح على حافة النافذة ، وقليل من الدخان الضارب إلى البياض وقد اخذ يطفو نحو السطح .

وقال « لو كابوك » تاركاً عقب بندقيته يسقط على الارض :

— « هكذا ! »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى استشعر يداً تنقض على كتفه بمثل ثقل براثن نسر ، وسمع صوتاً يقول له :

— « على ركبتيك . »

واستدار القاتل فرأى أمامه وجه آنجولراس البارد الابيض . وكان آنجولراس يحمل غدارة في يده .

كان قد وصل عند دوي الانفجار .

وكان قد امسك ، بيده اليسرى ، بتلبيب « لو كابوك » ، ودرّاعته ، وقميصه ، وحمالة بنطلونه .

وكرر :

— « على ركبتيك . »

وبحركة ترشح بالسلطة لوى ابن العشرين الهزيلُ الخيال القوي العريض المنكبين كما تلوى القصبة ، واكرهه على الركوع في الوحل . وحاول « لو كابوك » ان يقاوم ، ولكنه بدا وكأن قبضة فوق بشرية كانت قد استبدت به .

وكان آنجولراس شاحب الوجه ، عاري العنق ، متطاير الشعر ، وكان يرين على وجهه النسوي ، في تلك اللحظة ، شيء من «تيميس» * القديمة وكان في منخريه المنتفخين وعينيه المخفوضتين ما منح صورته الجانبية الاغريقية الحقود انطباعة الغيظ تلك ، وانطباعة الطهر تلك اللتين كانتا ، من وجهة النظر الخاصة بالعالم القديم ، من خصائص العدالة .

وهرع المتراس كله ، وتحلقوا كلهم في دائرة على مسافة ما ، مستشعرين ان من المستحيل التلفظ بكلمة في حضرة العمل الذي يوشكون ان يروه .

وقال :

* Thémis الـهة العدل ، وكانوا يمثلونها حاملة ميزاناً .

— « استجمع افكارك : صل أو فكر . عندك دقيقة . »

وغمغم القاتل :

— « عفوك ! »

ثم خفض رأسه ، وغمغم ببضع أيمان غير مفهومة .

ولم يرفع آنجولراس عينيه عنه ، لقد ترك الدقيقة تنقضي ، ثم أعاد الساعة إلى جيبه الصغيرة . حتى إذا تم له ذلك امسك بشعر « لو كابوك » ، الذي كان يتلوى على ركبتيه ويعوي ، واسند خطم غدارته إلى اذنـه . فلم يكن من كثير من اولئك الرجـال البواسل ، الذين خاضوا بكثير من الهـدوء اكثر المغامرات ترويعاً ، إلا ان اشاحوا بوجوههم :

لقد سمعوا الانفجار ، وخر القاتل مستقبلا الارض بوجهه ، وتصدّر آنجولراس والقى حوله نظرته العازمة القاسية :

ثم انه دفع الجثة بقدمه وقال :

— « اطرحوا هذه إلى الخارج . »

ورفع رجال ثلاثة جثة الشقي التي كانت تختلج بآخر التشنجات الميكانيكية لحياة انطفأت ، وطرحوه من فوق المتراس الصغير إلى زقاق مونديتور :

كان آنجولراس لا يزال مستغرقاً في التفكير . وكانت ظلمات ملغزة وعظيمة تنتشر شيئاً فشيئاً فوق هدوئه الرهيب . وفجأة رفع صوتـه وران الصمت :

وقال آنجولراس :

— « أيها المواطنون ، إن ما عمله هذا لرهيب ، وان ما عملتـه لفظيع . لقد قتل ، وهذا هو السبب الذي من أجله قتلته . لقد كنت مكرهاً على عمل ذلك ، لأن الثورة ينبغي ان يكون لها هنا سلطتهـا التأديبية : ومع ذلك فان القتل ليُعتبر هنا جريمة اعظم منه في ايما مكان آخر . اننا تحت عين الثورة ، إننا كهان الثورة ، إننا قرابين الواجب ،

وينبغي ان لا يتمكن احد من التجني على نضالنا : وهكذا قاضيت ذلك الرجل وحكمت عليه بالموت . أما أنا ، وقد اضطررت إلى القيام بذلك الصنيع ولكنني قمت به كارهاً له ، فقد قاضيت نفسي ايضاً ، ولسوف ترون وشيكاً بم حكمت على نفسي . »

وارتعدت فرائص اولئك الذين سمعوا كلامه .

وصاح كومبوفير :

– « سوف نقاسمك مصيرك . »

فأضاف آنجولراس :

– « ليكن ذلك . بقيت كلمة . لقد خضعت للضرورة في قتل ذلك الرجل . ولكن الضرورة هولة من هولات العالم القديم ، والضرورة يدعونها القدر . ولكن قانون التقدم ان تختفي الهولات في وجه الملائكة ، وان يتلاشى القدر امام الاخاء . وهذه ليست هي اللحظة التي تُلفظ فيها كلمة المحبة . ومع ذلك ، فانا ألفظها وانا امجدها . يا ايتها المحبة ، انت المستقبل . ويا ايها الموت ، إني استخدمك ، ولكني اكرهك . ايها المواطنون ، لن يكون في المستقبل لا ظلمة ولا صواعق ، لا جهل ضارٍ ولا ثأر دامٍ . وإذ لن يبقى ثمة ابليس فكذلك لن يبقى ثمة ميكائيل . في المستقبل لن يقتل شخص شخصاً ، والارض سوف تشع ، والجنس البشري سوف يحب . سوف يأتي ، ايها المواطنون ، ذلك اليوم الذي يسود فيه الوفاق ، والانسجام ، والنور ، والبهجة ، والحياة ، إنه سوف يأتي ، ومن اجل ان يأتي نعتزم ان نموت : »

وسكت آنجولراس . لقد اطبقت شفتاه العذراوان . وظل فترة واقفاً في البقعة التي سفح عليها الدم ، في مثل جمود الرخام . وكان في عينيه المسددتين ما جعل كل من حوله يتكلمون في همس .

وفي صمت شبك جان بروفير وكومبوفير يديهما ، واتكأ احدهما على

الآخر في زاوية المتراس ، وراحا يتأملان – في اعجاب يخالطه الحنان– هذا الفتى الصارم ، الجلاد والكاهن ، المتألق مثل البلور ، الصلب مثل الصخر ايضاً .

ولنقل هنا مباشرة انه حين نقلت الجثث في ما بعد ، إثر الحادث ، إلى معرض الجثث المجهولة وفتشت ، عثر في ثياب « لوكابوك » على بطاقة رجل من رجال الشرطة . وقد وقع في يدي مؤلف هذا الكتاب عام ١٨٤٨ ، تقرير خاص عن هذا الموضوع قدم إلى مدير البوليس عام ١٨٣٢ .

ولنضف إلى هذا – إذا اردنا ان نصدق رواية من روايات الشرطة غريبة ولكنها صحيحة في اغلب الظن – ان « لو كابوك » كان هو كلاكسو . فالواقع انه بعد موت « لو كابوك » لم يسمع عن كلاكسو شيء ما . ولم يترك كلاكسو ايما اثر يتصل باختفائه ، ويبدو أنه قد دُمج باللامنظور . كانت حياته ظلاماً ، وكانت نهايته ليلا .

وكان جمهور المتمردين كله لا يزال تحت وطأة انفعال هذه المحاكمة الفاجعة ، التي بدئت في سرعة بالغة وختمت في سرعة بالغة ، عندما رأى كورفيراك كرة اخرى ، في المتراس ، ذلك الشاب الضئيل الجسم الذي كان قد وفد على غرفته صباحاً وسأل عن ماريوس .

كان هذا الغلام ، الذي كانت تبدو على محياه أمارات الجسارة والتهور قد أقبل لينضم إلى المتمردين .

الكتاب الثالث عشر

ماريوس يدخل في الظلام

١

من شارع بلوميه الى حي سان دونيز

كان ذلك الصوت الذي نادى ماريوس عبر الغسق إلى متراس شارع الـ « شانفريري » قد بدا له اشبه شيء بصوت القدر . لقد اراد ان يموت ، وهاهي ذي الفرصة تسنح . كان يقرع باب القبر ، فاذا بيد في الظلام تقدم اليه المفتاح . وهذه الفروج الكئيبة التي يتكشف عنها الظلام أمام اليأس شديدة الاغراء . وازاح ماريوس القضيب الحديدي الذي كثيراً ما مكّنه من المرور ، وغادر الحديقة قائلا : « فلأمض ! »

وإذ ذهب الأسى بصوابه ، ولم يعد يستشعر أيما شيء محدد وصلب

في دماغه ، وعجز عن ان يتقبل شيئاً منذ اليوم من القدر ، بعد هذين الشهرين اللذين قضاهما في نشوات الشباب والحب ، واذ رزح في الوقت نفسه تحت مختلف ضروب التفكير اليائس فلم يعد يجد في ذات نفسه غير رغبة واحدة : أن يضع حداً لذلك في سرعة بالغة .

شرع يمشي على عجل . واتفق ان كان مسلحاً ، فقد كان يحمل غدارتي جافير .

وغاب الفتى ، الذي حسب انه رآه ، عن ناظريه في الشوارع .

واجتاز ماريوس ، الذي كان قد غادر شارع بلوميه من طريق الجادة – اجتاز الـ « اسبلاناد » ، وجسر الانفاليد ، وساحة الزيليزيه ، وميدان لويس الخامس عشر ، ودخل شارع ريفولي . كانت المحال التجارية مفتوحة ، وكان الغاز مشتعلا تحت العقود ، وكانت النسوة يشترين حاجاتهن من الدكاكين ، وكان الناس يتناولون المرطبات في مقهى « ليتيه » ، ويأكلون قطع الكاتو الصغيرة في « محل المعجنات الانكليزية » . غير ان عدداً قليلا من عربات البريد كان ينطلق مخبأً من « اوتيل الامراء » إلى « اوتيل موريس » .

ومن خلال مجاز ديلورم دخل ماريوس شارع سان هونوريه . كانت الدكاكين ههنا موصدة ، كان التجار يتجاذبون اطراف الاحاديث امام ابوابهم نصف المفتوحة ، وكان الناس يروحون ويجيئون ، وكانت المصابيح مضاءة ، وكانت النوافذ كلها ، فوق الطوابق الاولى ، منارة كالعادة . كان ثمة قوة من الفرسان في « ساحة القصر الملكي » .

وسلك ماريوس شارع سان هونوريه . وكلما ابتعد عن « القصر الملكي » قلّت النوافذ المضاءة ، كانت الدكاكين مغلقة كلها ، ولم يكن احد يتجاذب أطراف الحديث على العتبات ، وكان الشارع يحلولك ، وفي الوقت نفسه كان الحشد يزداد كثافة . ذلك ان عابري السبيل أمسوا الآن حشداً . وبدا وكأن احداً لم يكن يتكلم في ذلك الحشد ، ومع هذا

فقد انبعثت منه دندنة عميقة خرساء .

وقريباً من عين « لاربر سيك » كانت « احتشادات » ، جماعات جامدة كالحة كانت بين الغادين والرائحين اشبه شيء بالحجارة وسط جدول جار.

وعند مدخل شارع بروفير لم يعد الحشد يتحرك . كان كتلة من الناس مقاومةً ، متلاحمة ، صلبة ، كثيفة ، تكاد ان تكون ممتنعة على الاختراق ، كتلة متراكمة تتحدث في همس . كانت السترات السوداء والقبعات المستديرة قد اختفت أو كادت . ولم يبق غير دُرّاعات ، وظِهارات ، وقلنسوات ، ووجوه متنمرة قذرة . وماجت هذه الجمهرة مختلطة مشوشة في الليل المُضبِّ . لقد كان لهمسها مثل جرْس الارتجاج الخشن . وعلى الرغم من ان احداً لم يكن يمشي فقد سُمع وطء اقدام في الوحل . وخلف هذه الجمهرة الكثيفة ، في شارع « رول » ، في شارع الـ « بروفير » ، وفي امتداد شارع سان هونوريه ، لم يكن ثمة نافذة واحدة اضيئت فيها شمعة . وفي هذه الشوارع كانت صفوف المصابيح تُرى مترامية على نحو متوحد متناقص . كانت المصابيح في ذلك العهد تشبه نجوماً حمراء كبيرة تتدلى من حبال ، وكانت ترسل ظلا على الرصيف الذي كان له شكل رتيلاء ضخمة . ولم تكن هذه الشوارع خالية . فقد كان في ميسور المرء ان يتبين البنادق محزومة حزماً ، والحراب تتحرك ، والقوى تعسكر في العراء . ولم يتخطّ اىما فضولي هذه الحدود . هناك توقّف السير ، وهناك انتهى الحشد وبدأ الجيش .

واستبدت بماريوس ارادة اشبه بارادة الرجل الذي فقد الامل . لقد نودي ، فينبغي ان يذهب . ووجد الوسيلة إلى ان يشق طريقه من خلال الحشد ، وإلى ان يجتاز معسكر الجند ، مجتنباً العسس ، مفلتاً من الحرس وقام بدورة ، فانتهى إلى شارع « بيتيزي » ، واتخذ سبيله نحو الاسواق . وعند زاوية شارع « بوردونيه » لم يبق مصباح من مصابيح الشوارع .

وبعد ان اخترق طوق الحشد واجتاز تخم الجند ، وجد نفسه وسط شيء فظيع . لم يبق ثمة عابر سبيل ؛ لم يبة ثمة جندي ، لم يبق ثمة ضوء ، لم يبق ثمة احد . وحدة ، صمت ، ليل ، واستبدت به قشعريرة لا سبيل إلى وصفها . كان الدخول الى شارع من الشوارع اشبه بالدخول إلى كهف .

وتابع تقدمه .

وخطا بضع خطوات . واجتاز به شخص يعدو . هل كان رجلا ؟ هل كانت امرأة ؟ هل كانوا عدة اشخاص ؟ لم يكن في ميسور أحد ان يحزر . لقد اجتاز به ذلك الشخص واختفى .

وبحركة دائرية اثر حركة دائرية ، انتهى إلى زقاق قدّر انه شارع « لا بوتري » . وحوالى منتصف هذا الزقاق اعترضت سبيله عقبة . وبسط يديه . كانت عربة مقلوبة . وتبينت قدمه برك ماء ، ومستنقعات ، وحجارة ارصفة متناثرة ومركومة . لقد كان في النية اقامة متراس هناك ، ثم صُرف النظر عن ذلك . وتسلق ركام الحجارة ، فوجد نفسه في الجهة الاخرى من السد . ومشى في محاذاة معالم الطريق ، مسترشداً بجدران البيوت . ووراء المتراس بقليل بدا وكأنه لمح امامه شيئاً ابيض . واقترب ، فاتخذ ـ ذلك الشيء شكلا . كانا جوادين ابيضين ! جوادي العربة العامة اللذين حلهما بوسوويه في الصباح ، واللذين كانا قد طوّفا كيفما اتفق من شارع إلى شارع طوال النهار ، وكانا قد وقفا آخر الامر هناك ، بصبر البهائم المستنفَد ، تلك البهائم التي لا تفهم اساليب الانسان بأكثر مما يفهم الانسان اساليب العناية الالـهية .

وخلف ماريوس الجوادين وراءه . حتى إذا بلغ شارعاً وقع في نفسه انه شارع « العقد الاجتماعي » ، صفرت على مقربة منه رصاصة بندقية منطلقة من مكان مجهول ، عابرة الظلمة كيفما اتفق . وثقبت الرصاصة طبق حلاقة نحاسياً كان معلقاً عند باب احد المزينين . وطبق الحلاقة المثقوب هذا كان لا يزال في امكان المرء ان يراه ، عام ١٨٤٦ في شارع

« العقد الاجتماعي » ، عند زاوية اعمدة الاسواق .

كانت طلقة البندقية تلك تمور بالحياة ، وبعد تلك اللحظة لم يتاق شيئاً البتة .

لقد اشبهت الطريق كلها هبوطاً من على سلّم مظلم .

ومع ذلك ، فقد تقدم ماريوس إلى امام .

٢
نظرة بوم على باريس

لو استطاع كائن ان يحلّق فوق باريس ، في تلك اللحظة ، بجناح الخفاش أو البوم اذن لرأى تحت ناظريه مشهداً فاجعاً .

إن حي الاسواق العتيق كله ، ذلك الذي يشبه مدينة ضمن المدينة ، والذي اخترقه شارعا سان دونيز وسان مارتين ، حيث يتقاطع الف من الازقة ، والذي اتخذ منه المتمردون معقلا لهم وميداناً لتمرنهم — نقول إن هذا الحي كان خليقاً بأن يبدو له مثل ثقب هائل أسود شُق في قلب باريس . هناك وقعت العين في هاوية . وبفضل المصابيح المحطمة ، وبفضل النوافذ الموصدة انقطع هناك كل إشعاع ، وكل حياة ؛ كل صوت ، وكل حركة . وراقبت شرطة المتمردين غير المنظورة كل مكان ، وحفظت النظام ، يعني الليل . إن إغراق العدد الصغير في ظلمة عريضة ، ومضاعفة كل مقاتل بالامكانيات التي تنطوي عليها تلك الظلمة — إن ذلك هو تكتيك الثورة الضروري . فعند هبوط الليل كانت رصاصة قد أصابت كل نافذة مضاءة بشمعة . لقد أطفئ النور ، ولقد قُتل الساكن في بعض الاحيان . وهكذا لم يتحرك شيء . لم يكن ثمة غير الذعر ، والحداد ، والذهول في البيوت ؛ أما في الشوارع فكان ضرب من الرعب المقدس .

حتى صفوف النوافذ والطوابق الطويلة لم تكن منظورة ، وكذلك تسنّن المواقد والسطوح ، والانعكاسات الباهتة الملتمعة فوق الرصيف الموحل المندّى . كان خليقاً بالعين التي تنظر من علُ إلى ركام الظلال ذاك ان تلمح ههنا وهناك — ربما — ومن نقطة إلى نقطة ، اضواء غير واضحة مبرزة خطوطاً متكسرة وغريبة ، صوراً جانبية لمنشآت فريدة، شيئاً مثل ومضات شبَحية تروح وتجيء بين الخرائب ؛ تلك كانت المتاريس . أما الباقي فكان بحيرة من الظلمة ، بحيرة مُضبّة ، ثقيلة ، جنائزية ، ارتفعت فوقها ظلال سوداء مشؤومة لا حراك فيها ، ظلال برج سان جاك ، وكنيسة سان ميري ، واثنان أو ثلاثة من تلك الابنية الضخمة التي يجعل منها الانسان عماليق ويجعل منها الليل أشباحاً .

وحوالى هذا التيه المهجور المقلق ، في الأحياء التي لم تنقطع فيها حركة المواصلات الباريسية ، وحيث اضاءت بضعة مصابيح ليس غير ، كان خليقاً بالمراقب الجوي ان يتبين بريق السيوف والحراب المعدني ، ودويّ المدفعية المختنق ،وتحرك الكتائب الصامتة المتكاثرة من لحظة إلى اخرى — نطاق رهيب كان يضيق ويطبق في بطء على الفتنة .

ولم يكن الحي المحاصر غير ضرب من كهف ضخم إلى حد مخيف . لقد بدا كل ما فيه مضطجعاً أو جامداً لا حراك فيه . وكما قلنا اللحظة ، لم يكن اي من الشوارع التي قد ندخلها ليقدم شيئاً غير الظلمة .

ظلمة ضارية ، ملأى بالاشراك ، ملأى بالمناوشات المجهولة المخوفة ، حيث كان من الرهيب ان يدخل المرء ، ومن الراعب ان يبقى ، حيث ارتعد اولئك الذين دخلوا ، امام اولئك الذين ينتظرونهم ، وحيث ارتجف اولئك الذين انتظروا ، أمام اولئك الذين يوشكون ان يجيئوا .

لقد تمترس مقاتلون غير منظورين عند زاوية من زوايا الشوارع ، واختبأت مكامن القبر في كثافة الليل . لقد قضي الأمر . ولم يكن يُرتجى ان ينطلق من هناك منذ ذلك الحين اما ضياء غير وميض البنادق ، وأما لقاء إلا مع الموت المفاجيء السريع . اين ؟ كيف؟ متى ؟ إن احداً لم يكن يدري . ولكن ذلك كان امراً ثابتاً ومحتوماً . هناك ، في ذلك الموقع المختار للمعركة كان على الحكومة والثورة ، على الحرس الوطني والجمعيات الشعبية ، على البورجوازية والفتنة ، أن يتحسا سبيلهما في الظلام . فبالنسبة إلى هؤلاء ، وبالنسبة إلى اولئك ، كانت الضرورة واحدة . لم يكن قد بقي أمامهم غير شيء واحد : ان يخرجوا من هناك صرعى أو منتصرين . وضعٌ حرج إلى أبعد الحدود ، وظلمة طاغية إلى أبعد الحدود ، حتى لقد استشعر اجبنهم ان العزم يعمر قلبه ، واستشعر أشجعهم ان الذعر يملأ فؤاده .

وإلى هذا ، فقد استبد بكل من الجانبين قدر متساوٍ من الجيَشان ، والعناد ، والعزم . كان التقدم ، بالنسبة إلى هؤلاء ، يعني الموت ، ولم يكن احد ليفكر في التراجع . وكان البقاء ، بالنسبة إلى اولئك ، يعني الموت ، ولم يكن احد ليفكر في الفرار .

كان ضرورياً ان يتقرر كل شيء غداً ، وأن يسير النصر في ركاب هذا الفريق أو ذاك ، وان تصبح حركة التمرد إمّا ثورة وإما مجازفة خاسرة . وادركت الحكومة ذلك ، كما ادركته الاحزاب ، وحتى اصغر البورجوازيين استشعر الأمر . ومن هنا ذلك الشعور بالقلق الذي امتزج بظلمة هذا الحي الكثيفة حيث كان ينبغي ان يتقرر كل شيء . ومن هنا تعاظم الحصر النفسي حول هذا الصمت الذي توشك ان تنبثق منه كارثة. إن صوتاً واحداً ، ليس غير ، كان يُسمع ، صوتاً ممزقاً للقلب مثل حشرجة ، متوعداً مثل لعنة ، هو ناقوس سان ميرّي . ولم يكن شيء ادعى إلى ايقاع القشعريرة في الفؤاد من صيحات هذا الجرس العنيف اليائس المولول في الظلمات .

وكما يقع غالباً فقد بدت الطبيعة وكأنها اقامت انسجاماً بينها وبين ما كان الرجال يعتزمون القيام به . ولم يعكر شيء اتساقات ذلك الكل المأتمية . كانت النجوم قد اختفت ، وكانت سحب ثقيلة قد ملأت الافق كله بطياتها الكئيبة . كانت ثمة سماء سوداء فوق تلك الشوارع الميتة ، وكأن كفناً هائلا قد انتشر فوق ذلك القبر الهائل .

وفيما كانت معركةٌ سياسية كاملة تتأهب للعمل في ذلك الموقع ذاته الذي شهد من قبل كثيراً من الاحداث الثورية ؛ فيما كان الشباب ، والجمعيات السرية ، والمدارس ، باسم المباديء ، والطبقة الوسطى ، باسم المصالح ، تقترب لتتصادم ، وتتلاصق ليهزم بعضها بعضاً ؛ فيما كان كلٌ يسرع ويدعو ساعة الازمةِ الاخيرةَ الحاسمةَ ، بعيداً عن ذلك الحي المشؤوم وخارجه ، في أعمق تجاويف باريس التي لا قرار لها ، باريس العتيقة البائسة المختفية تحت زهو باريس السعيدة الموسرة — سُمع صوت الشعب الكالح يزمجر في سره .

صوت رهيب ومقدس ، يتألف من زمجرة البهيمة وكلام الله ؛ صوت يروّع الضعفاء ويحذر الحكماء ؛ صوت ينطلق في الوقت نفسه من ادنى ، مثل زئير الاسد ، ومن اعلى مثل هزيم الرعد .

٣
الحد الاقصى

كان ماريوس قد بلغ الاسواق .

هناك كان كل شيء اكثر هدوءاً ، واكثر غموضاً ، واكثر جموداً من الشوارع المجاورة نفسها . كان خليقاً بالمرء ان يقول إن طمأنينة القبر قد انبعثت من الارض وانتشرت في السماء .

ومع ذلك فان وهجاً احمر قصّ فوق هذه الخليقة القاتمة ، سطوحَ المنازل العالية التي سدت شارع الـ «شانفريري» من ناحية سان أوستاش. كان ذلك انعكاس الشعلة المضطرمة في متراس كورنث. ووجّه ماريوس خطاه نحو هذا الوهج ، فقادته إلى سوق السِّلق . ولمح فم شارع الـ «بريشور» المظلم . ودخله . ولم يلحظه حرس المتمردين القائم بالمراقبة عند الطرف الآخر . واستشعر انه كان قريباً جداً مما راح يلتمسه ، وانشأ يمشي على رؤوس اصابعه . وعلى هذا النحو ، بلغ منعطف نهاية شارع مونديتور القصيرة التي كانت ، كما نذكر ، نقطة الاتصال الوحيدة التي احتفظ بها آنجولراس مع الخارج . وعند زاوية المنزل الاخير ، إلى يساره ، أتلع عنقه . ونظ إلى نهاية شارع مونديتور هذه .

وبُعيد زاوية الزقاق السوداء وشارع الـ «شانفريري» الذي ألقى ظلا عريضاً وجد نفسه هو دفيناً فيه ، لمح ضياء على الرصيف ، بعضاً من حانة ، وخلف ذلك مصباحاً صغيراً يغمز بعينه في شبه حائط شائه ، ورجالا جاثمين على الارض والبنادق على ركبهم . وكان كل ذلك على مبعدة ستين قدماً منه . كان الجزءَ الداخليَّ من المتراس .

كانت البيوت المحاذية للزقاق الذي إلى يمينه قد حجبت عنه سائر الحانة ، والمتراس الكبير ، والراية .

ولم يبق على ماريوس غير خطوة واحدة يخطوها .

ثم ان الشاب التعس قعد على حجر . وطوى ذراعيه ، وفكر في أبيه .

فكر في الكولونيل بونميرسي الباسل ذاك ، الذي كان جندياً أنوفاً جداً ، والذي دافع عن حدود فرنسة في ظل الجمهورية ، وانتهى إلى حدود آسية في ظل الامبراطورية ، والذي شهد جنوى ، والاسكندرية ، وميلان ، ومدريد ، وتورين ، وفيينا ، ودرسدن ، وبرلين ، وموسكو ؛

والذي خلف فوق كل ميدان من ميادين النصر في اوروبا قطرات من ذلك الدم نفسه الذي يجري في عروقه ، هو ماريوس ؛ والذي اشتعل رأسه شيباً قبل الأوان تحت راية النظام والقيادة ؛ والذي عاش وحمالة سيفه مزررة ، وكتافتاه منحدرتان على صدره ، وشارة قبعته مسودّة بالبارود ، وجبينه مجعد من اثر الخوذة ، في الثكنة ، في المعسكر، في المعسكر الخلوي ، في عربة الاسعاف ؛ والذي رجع بعد عشرين سنة من الحروب الكبرى وعلى خده ندبة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، رجع بسيطاً ، هادئاً ، رائعاً ، طاهراً مثل طفل ، بسبب من انه عمل كل شيء من اجل فرنسة ولم يعمل شيئاً ضدها .

وقال في ذات نفسه ان يومه قد حان ايضاً ، أن ساعته قد دقت آخر الامر ، وأنه بعد أبيه يجب ان يكون ايضاً شجاعاً ، باسلا ، مقداماً ، وان يعدو وسط الرصاص ، وان يعري صدره للحراب ، وان يريق دمه ، وان يلتمس العدوّ ، ويلتمس الموت ، وان عليه ان يشن الحرب بدوره ، وان يقتحم ميدان المعركة ، وان ميدان المعركة الذي يوشك ان يقتحمه هو الشارع ، وان الحرب التي يوشك ان يشنها كانت الحرب الاهلية !

ورأى الحرب الاهلية تفغر فاها أمامه مثل هاوية ، وأدرك انه سوف يسقط في تلك الهاوية .

وعندئذ اصابته رعدة .

لقد فكر في سيف أبيه ذاك الذي باعه جده لاحد المتاجرين بالتحف والذي تأسف عليه هو أوجع التأسف . وقال في ذات نفسه انه سعيد بأن يكون ذلك السيف العفيف الباسل قد ضاع منه وولى مغضباً في الظلام . وانه إذا كان قد فر على هذا النحو فلأنه كان ذكياً ، ولانه تنبأ بالمستقبل . لأن قلبه أشعره بالفتنة قبل وقوعها ، أشعره بحرب السواقي ، حرب الارصفة ، بأطلاق الرصاص من منافذ الكهوف ، بالضربات

تُنزل بالناس ويتلقاها الناس من خلاف . لأنـه وقد اقبـل مـن « مارانغو » و « فريدلند » ٭ فلن يذهب إلى شارع الـ « شانفربري » ، ولأنـه بعد ان عمل ما عمله بيد الأب ، لن يعمل ذلك بيد الابن ! وقال في ذات نفسه : لو ان ذلك السيف كان هناك ، ولو انه كان قد تلقـاه من جانب فراش ابيه الميت وتجرأ على ان يتقلده ويمضي به لهذا الصراع الليلي بـين الفرنسيين عند زوايا الشوارع ، فليس من ريب في ان ذلك السيف كان خليقاً بأن يحرق يديه ويشتعل أمام ناظريه مثل سيف الملاك ! وقال في ذات نفسه ان من حسن الطالع ان لا يكون هناك وان يكون قد اختفى ؛ ان ذلك كان خيراً ، أن ذلك كان عـدلا ، أن جده كان الحارس الحقيقي لمجـد أبيه ، وأن المناداة على سـيف الكولونيل في المـزاد العلني ، وبيعـه لمشتري الادوات العتيقة ، ورميه وسط ركام الحـديـد القـديم افضل من اصطناعه اليوم في تمـزيـق اضلاع الوطن .

وعندئذ شرع يبكي بكاء مريراً .

كان ذلك رهيباً . ولكن ما الذي يستطيـع ان يعمله ؟ أن يعيش من غير كوزيت ، — ذلك ما لم يكن بقادر عليه . وما دامت قـد مضت لسبيلها ، فـلا ريب في ان عليه ان يموت . ألم يعدها وعد شرف بأنه سوف يموت ؟ لقـد مضت لسبيلها وهي تعلم ذلك ، وإذن فانه ليسرها ان يموت ماريوس . وإلى هـذا فقد كان واضحـاً أنها ما عادت تحبه ، بعد ان ولت على هـذه الصورة ، من غير ان تحيطه علماً ، من غير كلمة ، من غير رسالة ، وهي تعرف عنوانه ! اي فائدة ترجى من الحياة ولمَ يعيش بعد ؟ ولكن أيكون قد انتهـى ، حقاً ، إلى هذا الحد ، ثم يرتدّ ! ايكون قد اقترب من الخطر ثم يفر ! ايكون قد اقبل ونظر إلى داخل المتراس ثم ينسلّ هارباً ! ينسل مرتعد الاوصال قائلا : « في

٭ معركتان شهيرتان سبق التعريف بهما .

الواقع لقد شبعت من ذلك ، لقد رأيت ، هذا كاف ، انها حرب اهلية ، انا ماض لسبيلي ! » أيتخلى عن اصدقائه الذين كانوا ينتظرونه! الذين كانوا حفنة ضد جيش ! أيخفق في جميع الاشياء دفعة واحدة ، في حبه ، في صداقته ، في وعده ! أيخلع على جبنه رداء الوطنية ! لا، إن هذا مستحيل ، ولو ان طيف والده كان هناك في الظل ورآه يتراجع اذن لضربه بعرض سيفه وصاح في وجهه : « تقدم ، ايها الجبان ! »

وخفض رأسه وقد استبد به اضطراب أفكاره وتذبذبها .

وفجأة ، تصدّر. كان ضرب من التقويم الرائع قد دب في روحه . ولقد عرف امتداداً فكرياً ملائماً لجوار القبر ، فقربُ المرء من الموت يفتح عينيه على الحقيقة . ولم يعد العمل الذي استشعر انه ربما كان على وشك القيام به ليبدو له محزناً ، بل بهياً . وبمخاض من مخاضات النفس الداخلية المجهولة اتخذت حرب الشوارع ، فجأة ، شكلا جديداً رفيعاً أمام ناظري عقله . وعاودت تطويقه جميع علامات الاستفهام الصخابة التي ينطوي عليها الاستغراق في التفكير ، ولكن من غير ان تقلقه . إنه لم يغادر اياً منها بدون جواب .

فلنر ما الذي يثير سخط أبيه ؟ اليس ثمة أحوال يرتقي فيها العصيان إلى مرتبة الواجب ؟ وإذن فما الذي ينتقص من قدر ابن الكولونيل بونميرسي في الصراع الموشك ان ينشب ؟ إنها لم تعد لا « مونميراي» * ولا « شامبوبير » ** إنها شيء آخر . إنها لم تعد مسألة منطقة مقدسة ، ولكنها مسألة فكرة مقدسة . الوطن يتشكى ، لا بأس ، ولكن الانسانية تصفق . وإلى هذا ، فهل صحيح ان الوطن ينوح ؟ ان فرنسة يقطر الدم من جراحها ، ولكن الحرية تبتسم ، وامام ابتسامة الحرية تنسى

---

* Montmirail ، حيث هزم نابوليون الاول الروس والبروسيين في ١١ و١٢ شباط ١٨١٤

** Champaubert حيث تغلب نابوليون الاول على الروس بقيادة الجنرال اولسوفييف ، في ١٠ شباط ١٨١٤

فرنسة جرحها . وفوق ذلك ، إذا نظرنا إلى المسألة من موطن اعلى ، فما الذي يجعل الناس يتحدثون عن الحرب الاهلية ؟

الحرب الاهلية ؟ ما معنى ذلك ؟ وهل توجد حرب أجنبية ؟ اليست كل حرب بين الناس حرباً بين أخوة ؟ إن الحرب يجب ان لا توصف إلا على اساس من غايتها . فليس هناك لا حرب اجنبية ، ولا حرب أهلية . هناك حرب ظالمة وحرب عادلة ليس غير . وحتى ذلك اليوم الذي تُعقد فيه المعاهدة الانسانية الكبرى فان الحرب — أو على الاقل تلك التي هي نضال المستقبل المستعجل ضد الماضي المتخلف — قد تكون ضرورية . وايّ اعتراض يمكن ان يوجّه إلى مثل هذه الحرب ؟ إن الحرب لا تصبح عاراً ، والسيف لا يصبح خنجراً إلا عندما يريقان دم الحق ، والتقدم ، والعقل ، والحضارة . عندئذ تكون الحرب — اهلية كانت أو اجنبية — باغية ، وعندئذ يكون اسمها جريمة . وخارج ذلك الشيء المقدس ، العدالة ، بأي حق يزدري شكل من اشكال الحرب شكلا ؟ بأي حق يجحد واشنطون حربة كاميل ديمولين ؟ وايّ أعظم : ليونيداس * في وجه الاجنبي ، ام تيموليون ** في وجه الطاغية ؟ احدهما هو المدافع ، وثانيهما هو المحرر . أنستهجن ، من غير ان نزعج انفسنا بالتساؤل عن الهدف ، كل لجوء إلى السلاح في داخل المدينة ؟ إذن فلنجلبب بالعار كلا من بروتوس ، ومارسيل *** ، وآرنولد اوف

---

* Léonidas ليونيداس الاول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل الميلاد وهو بطل موقعة تيرموبيل حيث دافع عن بلاده ضد المغيرين من الفرس ، وقضى نحبه مع ثلاثمئة من الاسبارطيين .

** Témoléon رجل دولة اغريقي ، حرر سرقوسة ، وكان محباً للقانون والحرية الى حد جعله يترك اثنين من اصدقائه يقتلان اخاه تيموفان Timophane المتهم بأنه كان يحاول ان يجعل من نفسه ديكتاتوراً طاغية .

*** Etienne Marcel رئيس تجار باريس ، وقد لعب دورا هاماً في مجلس وكلاء المملكة او مجلس الطبقات Etats généraux من عام ١٣٥٥ الى عام ١٣٥٧ وعارض اشد المعارضة ولي العهد

بلانكنهايم ، وكولونيي * . حرب الادغـــال ؟ حرب الشـــوارع ؟ ولم لا ؟ إنهـا حرب آمبيوريكس ** ، حرب آرتافيلد *** ، حـرب مارنيكس **** ، حرب بيلاجيوس ***** . ولكن آمبيوريكس قاتل ضـد رومة ، وآرتافيلد قاتل ضد فرنسة ، ومارنيكس قاتل ضـــد اسبانية ، وبيلاجيوس قاتل ضد المسلمين . كلهم قاتلوا ضد الاجنبي . حسن ، الملكية هي الاجنبـي ؛ الاضطهاد هو الاجنبـي ؛ الحق الآلهي هو الاجنبـي . إن الاستبداد ينتهك حرمة الحدود الاخلاقية كما ينتهك الغزو حرمة الحدود الجغرافية . وطردك الطاغية أو طردك الانكليز يعني في الحالين ان تسترد بلادك . فقد تأتي ساعة ينتهـي فيها الاحتجاج إلى ان يصبـح غير كاف . وبعد الفلسفة ، يجب ان يُلجأ إلى العمـــل ،

شارل (الذي امسى فيما بعد شارل الخامس) وقتل في عام ١٣٥٨ بيدجان مايار Maillard لحظة كان ماضياً ليسلم باريس الى شارل الرديء ، ملك نافار . وكان قد حاول ان يقيم في فرنسة حكومة برلمانية .

* Cologny الاميرال غاسبار دو كولونيي ، زعيم البروتستانت الفرنسيين ، وكان قائداً عظيما قضى نحبه في مذبحة القديس بارتلماوس وقد سبق التعريف به (١٥١٩ — ١٥٧٢)

** Ambiorix ملك « الايبرون » وهم قوم من الغاليين ، وقد حاول ان يمبربلاد غالة (فرنسة) والبلجيك يوم كان قيصر في انكلترة . وقد هزمه قيصر في ما بعد ، ولكنه نجا من الوقوع في يديه (عام ٥٤ قبل الميلاد) .

*** Arteveldе صانع جعة وعمدة بلدةغان Gand وقدتزعم جماعاتالفلامنديين الثائرين ضدفرنسة وقضى نحبه في احدى الفتن . وتتجلى عظمته في انه سعى الى ان يحقق منذ القرن الرابع عشر اتحاد المناطق المترامية الاطراف التي تشكل اليوم دولة البلجيك (١٣٤٥)

**** Marnix أديب وديبلوماسي ، ولد في بروكسل وتوفي في لايدن (١٥٣٨ — ١٥٩٨) وقد عاون وليم اوف اورانج في صراعه ضد الاسبان . وهو ناظم النشيد الوطني الموسوم بالـ *Wilhelmuslied* .

***** Pélge احد ملوك اشتوريش ، ومؤسس المملكة الاسبانية ، وقد خاض عدة معارك ضد العرب (٧١٩ — ٧٣٧) .

فاليد القوية تتم ما رسمته الفكرة . إن « بروميثيوس مقيداً » * تبدأ ، وإن آريستوجيتون ** يتم . « الآنسيكلوبيديا » *** تنوّر النفوس ، والعاشر من آب يكهربها .فبعد آشيلوس **** يجيء ثراسيبولوس ***** وبعد ديدرو يجيء دانتون . إن عند الجماهير لنزعة إلى ان تتقبل سيداً . ومجموعها يركد بالخمول . إن الغوغاء تحشد نفسها في سهولة تحت راية العبودية . والناس ينبغي ان يستثاروا ، ان يُدفعوا ، ان يُهزوا بفوائد انقاذهم نفسها ، ان تُجرح أعينهم بالحق ، وان يُقذف اليهم النور في حفنات رهيبة . يجب ان يُصعقوا قليلا لمصلحتهم هم ، فهذا الجهر يوقظهم . ومن هنا الحاجة إلى نواقيس الخطر ، وإلى الحروب. إن الحروب العظيمة يجب ان تنشب ، أن تنور الشعوب بالجراءة ، وان تهز هذه الانسانية الحزينة التي يجللها ، بالظلمة ، الحقُّ الالـهي ، والمجد القيصري ، والقوة والتعصب ، والسلطان غير المسؤول ، والسيطرة المطلقة ؛ غوغاء منهمكة في بلاهة بالتحديق ، في بهائها الغسقي ، إلى انتصارات الليل المظلمة تلك . فليسقط الطاغية ! ولكن ماذا ؟ عمن تتكلم ؟ هل تدعو لويس فيليب

* Prométhée enchainé مأساة لأشيلوس ، وهي اثر ادبي رائع حافل باللوحات الفنائية البارعة ، حيث يجعل الشاعر من بروميثيوس المثل الالـهي للانسانية . لقد قاوم الاشراك التي نصبها له مبعوثو « زيوس » ولم يستطع شيء ما ، ان يكسر من شوكة كبريائه او ان ينتزع منه سره (حوالى القرن الخامس قبل الميلاد) .

** Aristogiton صديق هارموديوس ، وهو اثيني تآمر معه ضد ابني بيزيستّرات – هيبارك وهيبياس – (٥١٤ قبل الميلاد) وقد قتل الصديقان هيبارك .

*** يقصد الانسيكلوبيديا التي وضعها قبيل الثورة الفرنسية نفر من فلاسفة فرنسة ومفكريها ، ابرزهم ديدرو وفولتير وروسو ومونتيسكيو .

**** Eschyle ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م) ويعتبر واحداً من اعظم الشعراء الذين عرفتهم الانسانية ، وقد سبق التعريف به .

***** Thrasybule جنرال اثيني استطاع بمساعدة قوات « طيبة » ان يطرد اعضاء المجلس الذي فرضه الاسبارطيون على الاثينيين . وقد وفق الى ذلك عام ٤٠٤ ق.م. وكانت وفاته عام ٣٨٨ ق.م.

طاغية ؟ لا ، ليس اكثر من لويس السادس عشر . ان كلا منهما كان يمثل ما تعوّد التاريخ ان يدعوه ملكاً صالحاً . ولكن المبادىء لا تتجزأ ، ومنطق « الحقيقي » مستقيم ، وخاصةُ الحق أنه تعوزه المجاملة . لا تسوية ، اذن . فكل جور على الانسان يجب ان يُكبح . هناك حق الـٰهـي في لويس السادس عشر . هناك « لأنه بوربوني » في لويس فيليب . إن كلا منهما يمثل ، إلى حد ما ، مصادرة الحق ؛ ولـــكي يُمسَح الاغتصاب الشامل ، ينبغي أن يحارَبا . ينبغي ؛ وهنا تكون فرنسة هي التي تبدأ دائماً . وحين يسقط السيد في فرنسة ، يسقط في كـــل مكان . وبالاختصار ، فأية قضية أعدل ، وبالتالي أية حرب اسمى من اقامة الحق الاجتماعي ، واعادة الحرية إلى عرشها ، واعادة الشعب إلى الشعب ، واعادة السيادة إلى الانسان ، وإرجاع الارجوان إلى رأس فرنسة ، وإحياء العقل والعدالة في كمالهما ، وقمع كل جرثومة من جراثيم الخصومة بردّ كل امريء إلى نفسه ، وازاحة العقبة التي تقيمها الملكية في سبيــل الوفاق الكوني الهائل ، ورفع المستوى البشري كرة اخرى الى مستوى الحق ؟ هذه الحروب تنشىء السلم . ان قلعة ضخمة من الاهواء ، والامتيازات ، والخرافات ، والاكاذيب ، والمظالم ، وضروب التعسف ، والعنف ، والبغي ، والظلام ، لا تزال تتحدى العالم بابراجها التي هي ابراج البغض . ان هذه القلعة يجب ان تُدكّ . هذا الركام الرهيب يجب ان يقوَّض . إن الانتصار في اوسترليتز شيء عظيم . وان الاستيلاء على الباستيل شيء هائل .

ليس ثمة شخص لم يلحظ هذا في ذات نفسه : أن للنفس – وتلك اعجوبة وحدتها المعقدة وكلية وجودها – مقدرة بارعة على ان تفكر تفكيراً يكاد يكون بارداً في الشدائد الموئسة إلى أقصى الحدود . وكثيراً ما يتفق ان تعمد العاطفة المحزونة واليأس العميق ، حتى في آلام مناجاتهما الاشد قتاماً ، إلى درس الموضوعات ، ومناقشة الفكرات . إن المنطق ليمتزج بالتشنج ،

وان خيطاً من قياس منطقي ليطفو غير منقطع في عاصفة الفكر الكئيبة . تلك كانت حالة ماريوس الذهنية .

وحتى وهو يفكر على هذا النحو ، مرهقاً ولكن مصمماً ، متردداً مع ذلك ، مرتعداً امام ما كان يوشك ان يقدم عليه ، تاهت عينه مطوفة في داخل المتراس . كان المتمردون يتحدثون في همس ، من غير ان يتحركوا ، وكان المرء يستشعر ثمة شبه الصمت ذاك الذي يطبع آخر مرحلة من مراحل الانتظار . وفوقهم ، وعند كوة في طابق ثالث ، تبين ماريوس شبه شاهد أو رقيب بدا له شديد الانتباه على نحو فريد . كان هو البواب الذي قتله « لو كابوك » . ومن ادنى ، وعلى ضوء الشعلة المخبوءة بين حجارة الرصيف ، كان ذلك الرأس يُرى على نحو باهت . ولم يكن ثمة ما هو اغرب ، في ذلك الضوء القاتم المتردد ، من ذلك الوجه الشاحب ، الجامد ، المندهش ، بشعره الشائك ، وعينيه المحدقين ، وفمه الفاغر ، منحنياً فوق الشارع في فضول . لقد كان خليقاً بالمرء ان يقول إن ذلك الذي كان ميتاً إنما يحدق إلى اولئك الذين يوشكون ان يموتوا . كان خط طويل من الدم الذي جرى من رأسه قد سقط في قطرات مشربة بالحمرة من النافذة إلى اعلى الطابق الاول حيث انقطع .

الكتاب الرابع عشر

عظمة اليأس

١

الراية : الفصل الأول

ولم يكن أحد قد أقبل . كانت ساعة سان ميرّي قد اعلنت العاشرة ، وكان آنجولراس وكومبوفير قدجلسا،وفي يـد كل منهما بندقيته القصيرة الخفيفة ، قرب فتحة المتراس الكبير . ولم يكونا يتكلمان ؛ كـانـا يصغيان ، محـاولين ان يتصيدا ولو انأى وأخفت صدى من اصـداء الزحف .

وفجأة ، وسط هذا الهدوء الحدادي ، انبعث صوت واضح ، غض مرح ، بـدا وكأنه مقبل من شارع سان دونيز ، وبـدأ يغني في وضوح

على اللحن الشعبي القديم « في ضوء القمر » *Au clair de la lune* هذه الابيات التي تنتهي بضرب من الصرخة يشبه صياح الديك :

إن انفي يذرف الدمع
يا صديقي بوغو ،
أعرني اسنتك
حتى اقول لها كلمة .
في ثوب عسكري ازرق ،
وقلنسوة مريشة
هي ذي الضاحية !
كو - كو كو ريكو !

وشبك كل منهما يده بيد الآخر .

وقال آنجولراس :

— « إنه غافروش . »

فأجابه كومبوفير :

— « إنـه يحذرنا . »

ورنّق الشارعَ المقفر ركض عاجل . ورأى القوم مخلوقاً ارشق من مهرج يمتطي متن العربة العمومية ، ورأوا غافروش يثب إلى المتراس لاهثاً وهو يقول :

— « بندقيتي ! ها هم ! »

وسرت رعدة كهربائية في أوصال المتراس كله ، وسُمعت حركة أيد تتلمس البنادق .

وقال آنجولراس للمتشرد :

— « اتريد بندقيتي الخفيفة ؟ »

فأجابه غافروش :

— « اريد البندقية الكبيرة . »

واخذ بندقية جافير .

كان اثنان من الحرس قد انكفآ . وانتهيا إلى المتراس لحظة بلغه غافروش تقريباً . كانا الحارسَ القائم عند اقصى الشارع والرقيبَ العامل في الـ « بيتي ترووانديري » . أما رقيب زقاق الـ « بريشور » فلم يفارق مركزه ، مما دل على ان أحداً لم يكن مقبلا من ناحية الجسور والاسواق .

وتراءى شارع الـ « شانفريري » ، حيث كانت بعض حجارة الارصفة تبدو باهتة بانعكاس الضوء الملقى على الراية – تراءى ذلك الشارع امام اعين المتمردين وكأنه باب اسود ضخم منفتح في سحابة من دخان .

كان كل امرىء قد اتخذ موقعه للقتال .

كان ثلاثة واربعون متمرداً – بينهم آنجولراس ، وكومبوفير ، وكورفيراك ، وبوسوويه ، وجولي ، وباهوريل ، وغافروش – راكعين على ركبهم في المتراس الكبير ، ورؤوسهم على مستوى قمة الجدار ، وانابيب بنادقهم وبنادقهم الخفيفة مسددة فوق ارصفة الشوارع وكأنها تعمل من خلال كوى مفتوحة في الحصون ، وقد غلب عليهم الانتباه الشديد ، واستبد بهم الصمت ، واستعدوا لاطلاق النار . وكان ستة نفر ، بقيادة فويي ، قد تمركزوا ، متنكبين بنادقهم ، في نوافذ الدورين العلويين من كورنث .

وتصرمت بضع لحظات اخرى ، ثم سُمع في وضوح من ناحية « سان ليو » وقع اقدام ، موزونة ، ثقيلة ، عديدة . واقترب هذا الوقع – الذي كان خافتاً اول الامر ، ثم متميزاً ثم ثقيلاً ومرناناً – اقترب هذا الوقع شيئاً فشيئاً من غير توقف ، من غير مقاطعة ، وفي اتصال هادىء وفظيع . ولم يُسمع شيء غير هذا . كان في آن معاً صمت « تمثال القائد » وصوته ، ولكن هذه الخطوة الحجرية كانت هائلة

ومتعددة إلى حد لا يوصف حتى لقد اثارت في الاذهان فكرة الكتلة البشرية وفكرة الشبح في وقت واحد . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه سمع خطى « تمثال الليجيون » * المروّع . واقتربت تلك الخطوة . واقتربت اكثر ، ثم توقفت . لقد بدا للمرء وكأنه يسمع عند اقصى الشارع انفاس جمهرة من الناس . ومع ذلك ، فلم يروا شيئاً . بيد أنهم اكتشفوا عند ابعد نقطة في الشارع ، في تلك الظلمة الكثيفة ، مجموعة من الخيوط المعدنية ، دقيقة كالابر فهي لا تكاد تُلحظ ، تختلج مثل تلك الشبكات الفوصفورية الممتنعة على الوصف والتي نلمحها تحت اجفاننا المغمضة لحظة نمضي إلى النوم ، عندما يطلق السبات ضبابه الأول . كانت حراباً وانابيب بنادق اضيئت على نحو باهت بانعكاس الشعلة القصي .

كانت ثمة وقفة اخرى ، فكأن القوم في كلتا الناحيتين كانوا ينتظرون . وفجأة ، ومن اعماق ذلك الظلام ، صاح صوت تعاظم شؤمه بسبب من ان احداً لم يكن ليرى احداً وبسبب من أنه بدا وكأن الظلمة نفسها كانت تتكلم :

— « مَن هناك ؟ »

وفي الوقت نفسه سُمعت قرقعة البنادق المسددة .

وأجاب آنجولراس في جرس متغطرس مُرِنّ :

— « الثورة الفرنسية ! »

وقال الصوت :

— « النار ! »

والتمع برق خضَّبَ بالارجوان جميع واجهات الشارع ، لكأن باب فرن قد فُتح ثم أوصد فجأة .

وانفجر دوي رهيب فوق المتراس . وسقطت الراية الحمراء . كان

* الليجيون Légion اسم كان يطلق على بعض فرق الجند في فرنسة .

وابل الطلقـات ثقيلا جـــداً ، وكثيفاً جداً ، بحيث كسر ساريتها ، يعني طرف عريش العربة العامة نفسه . ودخلت المتراس بضع قذائف كانت قد ارتدت عن افاريز المنازل ، وجرحت عدة رجال .

كانت الانطباعة التي أوقعها هذا الوابل الأول في نفوس القوم انطباعة راعبة . كان الهجوم مخوفاً ، وذا طبيعة تحمل اكثر الناس شجاعة على التفكير . وكان واضحـاً انه كان عليهم ان يواجهوا كتيبة كاملة على الاقل .

وصاح كورفيراك :

— « ايها الرفاق ، لا تفرطوا بالبارود . فلنرجيء الأجابة إلى حين يدخلون الشارع . »

وقال آنجولراس :

— « وقبل كل شيء ، فلنرفع الراية مرة اخرى ! »

وتناول الراية التي كانت قد سقطت على قدميه نفسيهما .

ومن خارج ، سمعوا قعقعة الفتاشات في البنادق . كان الجنود يعيدون شحن الاسلحـة .

وتابـع آنجولراس :

— « من يملك قلباً شجاعاً هنا ؟ من الذي سوف ينصب الراية من جديد ، فوق المتراس ؟ »

ولم يجب احد . فقد كان ارتقاء المتراس لحظـةً لم يكن شك في ان الجند سوف يصوبون النار اليه كرة اخرى ، هو الموت بعينه . إن اشجع الناس ليتردد في الحكم على نفسه بالموت . واستشعر آنجولراس نفسُـه رعدة . وكرر :

— « اليس هناك متطوع واحد ؟ »

٢
الراية : الفصل الثاني

إن احداً لم يكد يلقي ايما انتباه إلى الاب مابوف منذ ان وصلوا إلى كورنث وبدأوا في إقامة المتراس . ومع ذلك ، فان مسيو مابوف لم يفارق الجماعة . كان قد دخل الدور الارضي من الحانة وجلس خلف منضدة المحاسبة . وهناك كان — إذا جاز التعبير — قد فني في ذاته . لقد بدا وكأنه لم يعد ينظر أو يفكر . ومرتين أو ثلاث مرات كان كورفيراك وغيره قد اقتربوا منه ،ليحذروه من الخطر ، ويحضوه على الانسحاب ، وكأنه لم يسمعهم . وحين كانوا يكفون عن توجيه الكلام اليه ، كانت شفتاه تتحركان وكأنهما تجيبان شخصاً ما . حتى إذا وُجهت اليه كلمة ما ، سكنت شفتاه ، وفقدت عيناه كل مظهر من مظاهر الحياة . وقبل بضع ساعات من الهجوم على المتراس ، كان قد اتخذ مكاناً لم يفارقه منذ تلك اللحظة ، ويداه على ركبتيه ، ورأسه منكّس وكأنه كان يحدق إلى هاوية . ولم يستطع شيء أن ينتزعه من هذا الوضع . لقد بدا وكأن ذهنه لم يكن في المتراس . وحين مضى كل امرىء واتخذ موقعه استعداداً للقتال ، لم يكن في الحجرة السفلى غير جافير موثقاً إلى الوتد ، وأحد المتمردين شاهرَ السيف مراقباً جافير ، وهو — مابوف . ولحظة الهجوم ، حين انفجر وابل الطلقات ، بلغته الهزة الجسدية فأيقظته أو بدت وكأنها ايقظته . فنهض فجأة ، واجتاز الغرفة . وفي اللحظة التي كرر آنجولراس فيها نداءه : « اليس هناك متطوع واحد ؟» شوهد العجوز على عتبة الحانة .

واحدث ظهوره شبه هزة في الجماعة . وارتفعت صيحة :

— « إنه المقترع ! إنه عضو المؤتمر الوطني ! إنه ممثل الشعب ! »
ومن المحتمل ان يكون العجوز لم يسمع ذلك .

ومضى قدماً نحو آنجولراس ، وتراجع المتمردون أمامه في خشية تقوية ، وانتزع الراية من آنجولراس الذي انكفأ متحجراً ، وعندئذ شرع هذا العجوز الثمانيني ، بعد ان لم يجرؤ احد على ايقافه ، أو مساعدته — شرع يرتقي في بطء ، مرتعش الرأس ولكن ثابت القدم، تلك السلم المبنية من حجارة الارصفة والمؤدية إلى المتراس . وكان ذلك قاتماً جداً ، وجليلا جداً ، حتى لقد صاح كل من حوله : « ارفعوا قبعاتكم ! » وكان ارتقاؤه كل درجة من درجات السلم رهيباً . وانبثق شعره الاشيب ، ووجهه الهرم ، وجبينه العريض الاصلع المتغضن ، وعيناه الغائرتان ، وفمه الفاغر المرتجف ، وذراعه العجوز ترفع الراية الحمراء — انبثق ذلك كله من الظلام ، وأمسى جليلا في ضياء الشعلة الدامي ، وتراءى لهم أنهم يرون شبح عام ٩٣ ينبجس من الارض ، وفي يده راية الارهاب .

وحين انتهى إلى اعلى الدرجة الاخيرة ، حين نهض ذلك الطيف المرتعد الفظيع واقفاً فوق ركام الانقاض امام الف ومئتي بندقية غير منظورة ، في وجه الموت ، وكأنه كان اقوى منه ، اتخذ المتراس كله في غمرة من الظلام مظهراً خارقاً هائلا .

وران صمت من تلك الصموت التي لا ترين إلا في حضرة المعجزات.

ووسط هذا الصمت لوّح العجوز بالراية الحمراء ، وصاح :

— « فلتحي الثورة ! فلتحي الجمهورية ! الاخاء ! المساواة ! والموت ! »

وسمعوا من المتراس همهمة خفيضة وسريعة مثل همس كاهن مستعجل ينجز صلاة . ولعل ذلك الصوت كان صوت مفوض الشرطة الذي كان يجري الاخطار الرسمي في الطرف الآخر من الشارع .

ثم ان الصوت المرنّ الذي سبق له ان صرخ : « مَن هناك ؟ » صـاح :

— « تراجعوا ! »

ورفـع مسيو مابوف ، شاحب الوجـه ، زائغ البصر ، ملتمـع العينين بلهب الجنون الفاجـع — رفـع الراية فوق رأسه وكـرر :

— « فلتحي الجمهورية ! »

وقال الصوت :

— « النار ! »

وانقضّ على المتراس وابل جديد اشبه ما يكون بوابل من قذائف المـدفعيـة .

وخر العجوز على ركبتيه ، ثم نهض ، وترك الراية تقع ، وسقط إلى الوراء فوق الرصيف ، مثـل لوح خشبـي ، على طوله كلـه ، متصالبَ الذراعين .

وجرت سيول من الدم من تحته . وبدا وجهه العجوز ، الشـاحب المحزون ، وكأنه ينظر إلى السماء .

واستبدت بالمتمردين احدى تلك العواطف المتفوقـة على الانسان ، والتي تجعلنا ننسى الدفاع حتى عن انفسنا ، واقتربوا من الجثة في ذعر يرشح بالاحترام .

وقال آنجولراس :

— « اي رجال هم قاتلو الملوك هؤلاء ! »

وانحنى كورفيراك فوق اذن آنجولراس :

— « هذا من اجلك فقط ، فأنا لا اريد أن أضعِف من الحماسة . ولكنه لم يكن من قتلة الملوك قط . انا اعرفه . انه يدعى مسيو مابوف . ولست ادري ما الذي أصابـه اليوم . ولكنه كان أبله شجاعـاً . انظر إلى رأسه . »

فأجاب آنجولراس :

– « رأس ابله وقلب بروتوس . »

ثم إنـه رفـع صوته :

– « ايها المواطنون ! هذا هو المثل الذي يضربه الشيوخ للشبان . لقد ترددنا ، أما هو فتقدم . وتراجعنا أما هو فـأقدم ! انظروا اي شيء يلقنـه اولئك المرتجفون بالشيخوخة لاولئك المرتجفين بالخوف ! إن هذا الجـد لمبجل في نظر الوطن . لقـد عاش حيـــاة طويلة ومات موتـاً رائعـاً ! فلنحم ، الآن ، جثمانـه ! وليدافـع كل امرىء عن هـذا العجوز الميت كما يدافع عن ابيه الحي . وليكن في وجوده بيننا ما يجعل المتراس أمنع من عقاب الجو ! »

وتبعت هذه الكلمات همهمة من الرضا القاتم المصمم .

وانحنى آنجولراس ، ورفع رأس الرجل العجوز ، وفي ضراوة طبع على جبينه قبلة ، ثم فصل ما بين ذراعيه ، وأمسك برأسه في عنـاية رفيقة ، وكأنما كان يخشى ان يؤذيه ، ونزع سترته ، وأطلع القوم كلهم على الثقوب الدامية ، وقال :

– « هو ذا علـّمنا بعد الآن ! »

٣

كان من الخير لغافروش ان يقبل بندقية آنجولراس الخفيفة

ونشروا فوق جثمان الأب مابوف شالاً طويلا أسود خاصاً بالارملة هوشلو . واتخذ ستة رجال من بنادقهم حمالة ، ووضعوا الجثمان عليها ،

ونقلوه ، حاسري الرؤوس ، في بطء احتفالي ، إلى المائدة الكبرى في الحجرة السفلية .

إن هؤلاء الرجال ، المستغرقين استغراقاً كلياً في المهمة الخطيرة المقدسة التي كانوا يؤدونها ، لم يعودوا يفكرون في الحالة الخطرة التي كانت تحيط بهم .

وحين امست الجثة على مقربة من جافير ، الذي كان ثابت الجنان ابداً ، قال آنجولراس للجاسوس :

— « انت ! في الحال ! »

وفي اثناء ذلك اعتقد غافروش — وكان الوحيد الذي لم يفارق مركزه والذي ظل يقوم بواجب المراقبة — انه شاهد نفراً من الرجال يقتربون من المتراس خلسة . وفجأة صاح :

— « احذروا ! »

وفي صخب ، فارق الحانة كل من كورفيراك ، وآنجولراس ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وجولي ، وباهوريل ، وبوسوويه . ولم يكن ثمة لحظة تضاع . ولمحوا كثافة متلألاة من الحراب تتموج فوق المتراس . لقد تسربت جماعة من الحرس البلدي ذوي القامة الطويلة ، بعضهم من طريق الوثوب فوق العربة العمومية ، وبعضهم من طريق الفتحة ، دافعين امامهم « المتشرد » الذي تراجع ، ولكنه لم يفر .

كانت اللحظة حرجة . كانت لحظة الطوفان الرهيبة الأولى ، عندما يرتفع النهر إلى مستوى الضفة ، وعندما تشرع المياه تتسرب من خلال صدوع السد . وبعد ثانية ليس غير ، كان المتراس قد سقط في ايدي الجند .

ووثب باهوريل على اول متسلل من رجال الحرس ، وقتله بانبوب غدارته نفسه . فما كان من الثاني إلا ان قتل باهوريل بحربته . وكان آخر قد هزم كورفيراك الذي راح يصيح : « النجدة ! » . واندفع

اضخم الجماعة ، وكان اشبه بعملاق من العمالقة ، نحو غافروش مسدداً حربته اليه . فتناول « المتشرد » بندقية جافير الضخمة بذراعيه الصغيرتين ، وسددها في تصميم إلى العملاق ، وضغط على الزناد . ولم ينطلق شيء . ذلك ان جافير لم يكن قد شحن بندقيته . وانفجر الحرس الوطني في ضحكة مدوية ، ورفع حربته فوق رأس الطفل .

وقبل ان تمس الحربة رأس غافروش سقطت البندقية من يدي الجندي، فقد اصابت الحرس الوطني قذيفة في وسط الجبين ، وخر على ظهره ٥ واصابت قذيفة اخرى الحرس البلدي الآخر ، الذي كان قد انقض على كورفيراك — اصابته في صميم صدره ، وطرحته على الرصيف .

كان ذلك هو ماريوس ، الذي دخل المتراس منذ لحظة .

٤
برميل البارود الصغير

كان ماريوس ، المختبئ حتى ذلك الحين عند زاوية شارع موندیتور ، قد راقب المرحلة الاولى من الصراع ، متردداً مرتعشاً ٥ ومع ذلك ، فانه لم يستطع ان يقاوم طويلا ذلك الدوار الغريب القاهر الذي نستطيع ان ندعوه نداء الهوة . وأمام وشك الخطر ، وأمام موت مسيو مابوف ، ذلك اللغز المأتمي ، وأمام باهوريل القتيل ، وكورفيراك الصائح « النجدة ! » ، وامام ذلك الطفل المهدد ، وامام اصدقائه الذين كان عليهم أن ينجدوه او يثأروا له — أمام هذا كله تلاشى التردد جميعه ، فاندفع نحو المعترك ، وفي يديه غدارتاه . وبالرصاصة الأولى انقذ غافروش ، وبالرصاصة الثانية خلص كورفيراك .

ولدى انطلاق الرصاصتين ، وصيحات رجلي الحرس الجريحين ، تسلق المتمردون المتراس ، الذي كان في استطاعة القوم الآن ان يروا فوق قمته كيف احتشد جماعات من الحرس البلدي والجند والمشاة ، وحرس الضواحي الوطني ، وانتصبوا فبدا من كل منهم اكثر من نصف قامته ، وبندقيته في يده . كانوا قد غطوا اكثر من ثلثي الجدار، ولكنهم لم يثبوا إلى السور ، لقد بدوا مترددين ، يخشون شركاً ما . ونظروا إلى المتراس المظلم كما ينظر المرء إلى عرين آساد . ولم يضيء نور الشعلة غير حرابهم ، وقبعاتهم الوبرية والجزء الاعلى من وجوههم القلقة المغضبة .

ولم يكن مع ماريوس سلاح ما . كان قد طرح غدارتيه المفرغتين ، ولكنه كان قد لاحظ برميل البارود الصغير في الحجرة السفلى قرب الباب .

وفيما هو يستدير نصف استدارة ، ناظراً في تلك الناحية ، سدد جندي سلاحه اليه . ولحظة اتخذ الجندي من ماريوس هدفاً له ، انقضت يد على انبوب البندقية ، وسدته . كان شخصاً وثب إلى أمام ، هو العامل الشاب ذو البنطلون المخملي . وانطلقت الرصاصة ، واخترقت اليد ، ولعلها ان تكون قد اخترقت العامل ايضاً فقد خر على الارض ، ولكن الرصاصة لم تبلغ ماريوس . وانما كان ذلك كله في غمرة من الدخان ، ومن هنا حزره القوم حزراً اكثر مما رأوه رؤية . وبشق النفس لاحظه ماريوس الذي كان يدخل الحجرة السفلى . ومع ذلك فقد كان قد لمح على نحو باهت تلك البندقية المسددة اليه ، وتلك اليد التي سدتها ، وكان قد سمع الطلق . ولكن في مثل تلك اللحظات تتذبذب الاشياء التي نراها وتندفع إلى أمام ، ولا نقف نحن من اجل شيء . إننا نستشعر على نحو غامض اننا مدفوعون إلى ظلمة اشد وأعمق ، وان كل شيء من حولنا ضباب .

وكان المتمردون قد جمعوا شملهم ، منذهلين ولكن غير مروعين .
وكان آنجولراس قد صاح : « انتظروا ! لا تطلقوا النار كيفما اتفق ! »
والواقع ان بعضهم كان خليقاً بـه ان يصيب بعضهم الآخر في غمرة الاضطراب الاول هـذه . وكان معظمهم قـد صعدوا إلى نافذة الطابق الثاني وإلى نوافذ العلية ، حيث اطلوا على المغيرين . وكان اشدهم تصميماً قـد اسندوا ظهورهم ، مـع آنجولراس ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، إلى البيوت الخلفية ، في اعتزاز ، وواجهوا ، من غير ما وقاية ، صفوف الجند والحرس المحتشدين في المتراس .
وتم ذلك كله في غير ما عجلة ، بتلك الرصانة الغريبة المتوعدة التي تسبق القتال . وفي كلتا الناحيتين كان المحاربون يسددون بنادقهم الـى اهدافها ، وقد كادت انابيب تلك البنادق ان تتماس . وكان الفريقـان من القرب بحيث يستطيعان ان يتحدثا في جرْس عادي . ولحظة اوشكت الشرارة أن تنطلق ، بسط ضابط ذو طوق معدني للعنق وكتافتين ضخمتين — بسط سيفه وقال :
— « سددوا بنادقـكم ! »
فقال آنجولراس :
— « النار ! »
وانطلق الانفجاران في وقت معاً ، واختفى كل شيء وسط الدخان :
دخانٌ لاسع خانق تلوى في غمرته ، في انين واهنٍ أبكم ، عـدد من القتلى والجرحى .
حتى اذا انجاب الدخان ، أمسى في ميسور المرء ان يرى المتقاتلين من الفريقين وقد نقص عددهم ولكنهم ما يزالون محتفظين بمواقعهم نفسها معيدين شحن اسلحتهم في صمت .
وفجأة ، سمع صوتٌ راعد ، يصيـح :
— « انصرفوا ، وإلا نسفت المتراس ! »
والتفتوا جميعاً نحو الجهة التي أقبل منها الصوت .

كان ماريوس قد دخل الحجرة السفلى ، وكان قد اخذ برميل البارود الصغير ، ثم كان قد أفاد من الدخان ومن شبه الضباب المظلم ذاك الذي ملأ السور المحصن لكي ينسلّ على طول المتراس حتى ذلك القفص المصنوع من حجارة الارصفة ، حيث رُكزت الشعلة . وكان اقتلاع الشعلة ، ووضعُ برميل البارود الصغير مكانها ، ودفعُ ركام الحجارة فوق البرميل الصغير ، الذي نزع أسفله في الحال ، بضرب من ضبط الذات رهيب – كان ذلك كله بالنسبة إلى ماريوس عمل انحناء وتصدّر . وفي خلال هذا راح القوم كلهم – من حرس وطني ، وحرس بلدي ، وضباط ، وجنود ، محتشدين في الطرف الآخر من المتراس – ينظرون اليه في رعب ، وقدمه على حجارة الارصفة ، والشعلة في يده ، ووجهه الصارم مضاء بعزم مهلك ، حانياً لهب الشعلة نحو الركام الرهيب حيث تبينوا برميل البارود الصغير ، ومطلقاً هذه الصيحة المروعة :

– « انصرفوا ، وإلا نسفت المتراس ! »

وكان ماريوس ، وقد وقف فوق هذا المتراس ، وبعد الرجل العجوز ذي الثمانين ، هو رؤيا الثورة الشابة إثر طيف الثورة العجوز .

وقال رقيب من الجند :

– « انسف المتراس ! وانسف نفسك ايضاً ! »

فأجاب ماريوس :

– « وسأنسف نفسي ايضاً ! »

وقرّب الشعلة إلى برميل البارود الصغير :

ولكن لم يكن قد بقي احد على الجدار . لقد تراجع المغيرون ، مخلفين قتلاهم وجرحاهم ، تراجعاً فوضوياً نحو طرف الشارع ، واختفوا كرة اخرى في الظلام . كان ذلك فراراً .

لقد أنقذ المتراس .

٥
نهاية قصيدة جان بروفير

واحاطوا كلهم بماريوس . ووثب كورفيراك إلى عنقه :

— « أنت هنا ! »

وقال كومبوفير :

— « اية سعادة ! »

وقال بوسوويه :

— « لقد جئت في اللحظة المناسبة ! »

وعاد كورفيراك إلى القول :

— « لولاك لكنت في عداد الموتى ! »

وأضاف غافروش :

— « ولولاك لكنت قد ابتُلعت ! »

وتساءل ماريوس :

— « اين الزعيم ؟ »

فقال آنجولراس :

— « انت الزعيم . »

كان فرن يضطرم في دماغ ماريوس طوال النهار ، اما الآن فقد استحال الفرن إلى زوبعة . واثرت فيه هذه الزوبعة الباطنية وكأنها مقبلة من خارج فهي تجرفه جرفاً . لقد بدا له وكأنما انتهى إلى مسافة بعيدة جداً عن الحياة . وتراءى له شهراه المشحان بالبهجة والحب ، المنتهيان فجأة عند هذه الهوة الرهيبة ، وكوزيت التي خسرها ، وهذا المتراس ، وموت مسيو مابوف من اجل الجمهورية ، واختياره هو

زعيماً للمتمردين – تراءى له ذلك كله مثل كابوس مروّع . وكان عليه يبذل جهداً عقلياً لـكي يقنع نفسه بأن كل هذا الذي يحيط بـه كـان واقعياً . ولم يكن ماريوس قد عاش غير فترة قصيرة لا تمكنه من ان يدرك أنه ليس ثمـة ما هو ادنى واقرب من المستحيل ، وان ما يتعين علينا دائماً أن تنتظر وقوعه هو الطاريء غير المتوقع . لقد شاهد مأساته الشخصية كما يشاهد المرء مسرحية لا يفهمها .

وفي ذلك الضباب الذي كان عقله يناضل في غمرة منه ، لم يتبين جافير الذي كان يحرك رأسه – وقد أوثِق إلى الوتد – طوال الهجوم على المتراس ، والذي راقب الثورة تضطرم من حوله بمثل إذعان شهيد ، وجلال قاضٍ . ولم يلمحـه ماريوس ولو مجرد لمح .

وفي غضون ذلك ، لم يأت المغيرون بحركة ما . لقد سُمعوا يزحفون ويتكاثرون عند اقصى الشارع ، ولكنهم لم يغامروا بالهجوم ، فلعلهـم كانوا ينتظرون الأوامر ، أو لعلهم كانوا ينتظرون الامداد قبل ان يهجموا على المتراس الممتنع الحصين كرة اخرى . وكان المتمردون قد أقامـوا حرساً ، وكان بعض الذين كانوا طلبة في مدرسة الطب قد انصرفوا لتضميد جراحات الجرحى .

كانوا قد طرحوا الموائد إلى خـارج الحـانة ، ما عدا اثنتين حُفظتا للنُّسالة والخراطيش ، وتلك المائدة التي سُجي عليها الأب مابوف . لقد اضافوها إلى المتراس ، واستعاضوا عنها في الحجرة السفلى بحشايا سرر الارملة هوشلو والخادمتين . وعلى هذه الحشايا ، كانوا قد مددوا الجرحى . اما المخلوقات الثلاث البائسة التي كانت تعيش في كورنث فلم يدر احد ما الذي حل بها . بيد انهن وُجدن ، آخـر الامر ، مختبئـات في القبـو .

كان انفعال مرير قد اخذ يكدر ابتهاجهم بالمتراس المنقَذ .

ونودي عليهم باسمائهم . كان احد المتمردين غائباً . ومن ؟ واحد

من آثرهم لديهم . واحد من اشدهم شجاعة ، جان بروفير . والتمسوه بين الجرحى ، فلم يقعوا عليه هناك . والتمسوه بين القتلى ، فلم يجدوه هناك ، لقد كان اسيراً من غير شك .

وقال كومبوفير لآنجولراس :

– « لقد اسروا صديقنا ، ولكنا أسرنا ضابطهم . هل عقدتَ العزم على قتل هذا الجاسوس ؟ »

فقال آنجولراس :

– « نعم ، ولكن اقل مما عقدته على حياة جان بروفير . »

وإنما جرى ذلك في الحجرة السفلية غير بعيد عن وتد جافير .

واجاب كومبوفير :

– « حسن . سوف اربط منديلي بعصاي ، وانطلق براية الصلح لاعرض عليهم ان يأخذوا رجلهم لقاء اعطائنا رجلنا . »

فقال آنجولراس ، واضعاً يده على ذراع كومبوفير :

– « إسمع ! »

كانت ثمة قعقعة سلاح معبرة في نهاية الشارع .

وسمعوا صوت رجل يصيح :

– « فلتحي فرنسة ! فليحي المستقبل ! »

وعرفوا في ذلك الصوت صوت بروفير .

والتمع وميض ، ودوّى انفجار .

وخيم الصمت من جديد .

وصاح كومبوفير :

– « لقد قتلوه ! »

فنظر آنجولراس إلى جافير وقال له :

– « لقد قتلك رفاقك اللحظة ، رمياً بالرصاص . »

٦

آلام الموت بعد آلام الحياة

من فوائد هـــذا النوع من الحرب أن الهجوم على المتاريس يتم دائماً ، تقريباً ، من امام ، وان المهاجمين يحجمون على العموم عـــن الالتفاف حول المواقع ، إما لأنهم يخشون الكمائن ، واما لأنهم يخافون التورط في الشوارع الملتوية . واذن ، فقد حُوِّل انتباه المتمردين كلــه نحو المتراس الكبير ، الذي كان من غير شك النقطة التي لا تزال مهددة ، وحيث كان محتوماً على القتال ان يُستأنف من جديد . ومع ذلك ، فقد فكر ماريوس بالمتراس الصغير ، ومضى نحوه . كان مهجوراً ، ولم يكن ليحرسه غير المصباح الصغير المرتجف بين الحجارة . وإلى هذا ، فقد كان الهدوء يخيم على زقاق موندبتور ، وامتدادي شارع الـ « تروواندري » الصغير وشارع « دو سيني » تخييماً تاماً .

وفيما كان ماريوس ينسحب ، بعد المناداة على الاسماء ، سمع اسمه يلفظ في خفوت ، وسط الدجنة :

— « مسيو ماريوس ! »

وارتعد ، ذلك انه تبين الصوت الذي كان قد ناداه قبل ساعتين من خلال الباب المقضب في شارع بلوميه .

كل ما في الامر أن هذا الصوت بدا له الآن مجرد نفَس .

واجال طرفه في ما حوله ، فلم ير احداً .

وحسب ماريوس أنــه خُدع ، وان ذلك لم يكن غير وهم أضافــه عقله إلى الوقائع الخارقة التي كانت تحتشد حوله . وخطا أولى خطواته في سبيل الابتعاد عن الفجوة المنعزلة التي كان المتراس قائماً فيها .

وكرر الصوت :

– « مسيو ماريوس ! »

هذه المرة لم يكن في ميسوره أن يشك . كان قد سمع النداء في وضوح . ونظر ، فلم ير شيئاً .

وقال الصوت :

– « عند قدميك .. »

وانحنى ، فرأى شكلاً ، في الظلام ، كان يجر نفسه نحوه . كان يزحف على الرصيف . وكان ذلك هو الذي خاطبه من قبل .

ومكنه المصباح من أن يتبين بلوزة ، وبنطلوناً ممزقاً من مخمل خشن . وقدمين حافيتين ، وشيئاً كان يشبه بركة دم . ولمح ماريوس وجهاً شاحباً ارتفع نحوه وقال له :

– « ألا تعرفني ؟ »

– « لا . »

– « ايبونين . »

وانحنى ماريوس في الحال . كانت هي في الحق تلك الطفلة التعسة . وكانت ترتدي ملابس الرجال .

– « كيف جئت إلى هنا ؟ ماذا تفعلين هناك ؟ »

فقالت :

– « أنا أموت . »

إن ثمة كلمات وحوادث تثير المخلوقات المرهفة . وصاح ماريوس مجفلا :

– « انتِ جريح ! انتظري ، سوف أحملك إلى الغرفة ! هناك سوف يضمدون جراحك ! هل هي خطيرة ؟ كيف استطيع ان انقلك بطريقة لا تؤذيك ؟ عونك ، يا الـهي ! ولكن من اجل ماذا جئت إلى هنا ؟ »

وحاول ان يُمر ذراعه تحتها لكي يرفعها .
وإذ كان يرفعها لمس يدها .
وأطلقت صرخة واهنة .
وسألها ماريوس :
— « هل اوجعتُك ؟ »
— « قليلا . »
— « ولكني لم امسّ غير يدك . »
ورفعت يدها نحو عيني ماريوس ، فرأى ماريوس في وسط تلك اليد ثقباً أسود .
وقال :
— « ما بال يدك ؟ »
— « إنها مثقوبة . »
— « مثقوبة ؟ »
— « نعم . »
— « بماذا ؟ »
— « برصاصة . »
— « كيف ؟ »
— « هل رأيت بندقية مسددة نحوك ؟ »
— « نعم ، ويداً سدتها . »
— « تلك كانت يدي . »
وارتعد ماريوس .
— « ايّ جنون ؟ يا لك من طفلة بائسة ! ولكن هذا ليس رديئاً جداً إذا كان ذلك كل شيء ؛ انه ليس شيئاً . دعيني احملك إلى سرير. إنهم سوف يعتنون بك . ان الناس لا يموتون بسبب من يد مثقوبة . »
وغمغمت :

— « لقد اخترقت الرصاصة يدي ، ولكنها خرجت من ظهري . لا فائدة في نقلك اياي من هنا . سوف اقول لك كيف تضمد جراحي خيراً مما يضمدها الطبيب الجراح . إجلس قربي على ذلك الحجر . »

وامتثل أمرها . ووضعت رأسها على ركبتي ماريوس . ومن غير ان تنظر اليه ، قالت :

— « أوه ! ما احسن ذلك ! انظر ، اني لم اعد احس بالألم ! »

واعتصمت بالصمت لحظة ، ثم ادارت رأسها في جهد ونظرت إلى ماريوس :

— « أتدري يا مسيو ماريوس ؟ لقـــد أزعجني دخولك إلى تلك الحديقة . كان ذلك حمقاً ، لأنني أنا الذي دللتك على ذلك المنزل . وفوق هـــذا فقـد كان علي ان اعرف جيداً ان شاباً مثلك ... »

وكفت عن الكلام ، واثبة فوق الالتفاتات القاتمة التي كانت في ذهنها من غير شك ، ثم اضافت في ابتسامة تمزق الفؤاد :

— « لقد وجدتني قبيحة ، اليس كذلك ؟ »

وتابعت حديثها :

— « انظر ، ها انت ذا هالك ! إن احداً لن يستطيع الخروج من المتراس ، الآن . إني انا الذي قدتك إلى ذلك ، اجل انا ! انت سوف تموت ، انا واثقة من هـــذا . ومع ذلك ، فحين رأيته يصوب النـــار اليك ، وضعت يدي على انبوب البندقية . كم كان ذلك مضحكاً ! ولكني اقدمت على ذلك لانني اردت ان اموت قبلك . وحين اصابتني هـــذه الرصاصة جررت نفسي إلى هنا . إن احداً لم يرني ، إن احداً لم يرفعني عن الارض . لقد انتظرتك ، وقلت : « ألن يجيء اذن ؟ اوه ! ليتك تعرف ، لقد عضضت بلوزتي ، لقد قاسيت آلاماً قاسية ! والآن ، انا في خير . هل تذكر يوم جئتُ إلى غرفتك ، ونظرتُ إلى وجهي في رآتك ، ويوم التقيت بك في الجادة قرب بعض النسوة العاملات بالمياومة ؟

ما كان اجمل تغريد العصافير ! إن ذلك لم يكن منذ زمن بعيد جداً .
ولقد أعطيتني مئة « سو » ، ولقد قلت لك : « انا لا اريد دراهمك.»
هل التقطت قطعتك النقدية على الأقل ؟ انت لست غنياً . ولم أفكر في
ان اقول لك ان تلتقطها . كانت الشمس مشرقة ، ولم يكن الجو بارداً .
هل تذكر ، يا مسيو ماريوس ؟ أوه ! إني سعيدة ! إننا كلنا سوف
نموت . »

كانت ترين على وجهها سيماء ذاهلة ، رزينة ، مؤثرة . وكشفت بلوزتها الممزقة عن حنجرتها العارية . وفيما كانت تتحدث أسندت يدها الجريح إلى صدرها حيث كان ثقب آخر انبعث منه مع كل نبضة سيل من الدم مثل انبجاس الخمر من فم برميل مفتوح .

وحدق ماريوس إلى هذه المخلوقة التعسة في حنان عميق .

وصرخت فجأة :

— « اوه ! لقد عاودتني . إني اختنق ! »

وأمسكت ببلوزتها وعضتها ، وتلوت قدماها على الرصيف .

وفي هذه اللحظة دوى صوت الصفير الشبيه بصوت ديك فتيّ ، من خلال المتراس . كان الطفل قد امتطى متن احدى الموائد لكي يشحن بندقيته ، وكان يتغنى في ابتهاج بتلك الاغنية الشديدة الذيوع آنذاك :

واذ رأوا لافاييت ،
كرر رجال الدرك ،
فلننج بانفسنا ! فلننج بانفسنا ! فلننج بانفسنا !

ورفعت ايبونين نفسها ، وأصغت ، ثم غمغمت :

— « إنه هو . »

ثم التفتت نحو ماريوس وقالت :

— « أخي هنا . ينبغي ان لا يراني . إنه سوف يؤنبني . »

فتساءل ماريوس الذي فكر ، في اعماق قلبه الاشد مرارة والأشد حزناً ، بالواجبات التي كان أبوه قد اوصاه بها نحو اسرة تيناردييه :

— « اخوكِ ؟ من هو اخوك ؟ »

— « هذا الصبي الصغير . »

— « الصبي الذي يغني ؟ »

— « نعم . »

وأتى ماريوس بحركة .

فقالت :

— « اوه ! لا تذهب ! لن يطول الأمر كثيراً . »

كانت جالسة على نحو منتصب تقريباً ، ولكن صوتها كان خفيضاً جداً ، تقطّعه الشهقات . وبين الفينة والفينة كانت الحشرجة تقاطعها . وقربت وجهها ، اكثر ما استطاعت ، من وجه ماريوس . واضافت في انطباعة عجيبة :

— « إسمع ، انا لا اريد أن اخدعك . ان في جيبي رسالة اليك . منذ امس . لقد كلفوني ان أضعها في البريد . ولقد احتفظت بها . أنا لم أرد أن تصل اليك . ولكن ذلك قد لا يرضيك مني حين نجتمع مرة اخرى بمثل هذه السرعة . لقد اجتمعنا كرة ثانية ، أليس كذلك ؟ خذ رسالتك . »

وفي تشنج ، امسكت يد ماريوس بيدها الجريح ، ولكنها بدت وكأنها ما عادت تستشعر الألم . ووضعت يد ماريوس في جيب بلوزتها . وأحس ماريوس بأن ثمة ورقة حقاً .

وقالت :

— « خذها . »

واخذ ماريوس الرسالة .

وقامت بحركة تؤذن بالارتياح والرضا .

— « والآن إكراماً لآلامي ، عِدني .... »

وترددت .

فسألها ماريوس :

— « ماذا ؟ »

— « عدني ! »

— « أعدك . »

— « عدني بأن تطبع قبلة على جبيني حين اموت . سوف اشعر بذلك . »

وتركت رأسها يسقط على ركبتي ماريوس ، وأطبقت اجفانها . وظن ان تلك الروح البائسة قد فاضت . لقد انطرحت ايبونين من غير حراك ، ولكن ما إن حسب ماريوس انها رقدت إلى الابد حتى فتحت ببطء ، عينيها اللتين بدا فيهما عمق الموت المظلم ، وقالت له في نبرة كانت حلاوتها قد بدت وكأنها قادمة من عالم آخر :

— « والى هذا ، فهل تعرف يا ماريوس ؟ إني اعتقد اني كنت عاشقة لك بعض الشيء . »

وحاولت ان تبتسم مرة اخرى ، وأسلمت الروح .

٧

غافروش ، حاسب عميق للمسافات

وأوفى ماريوس بعهده . لقد قبّل ذلك الجبين الشاحب الذي تحلّب منه عرق مثلوج . ولم يكن ذلك خيانة لكوزيت . كان توديعاً متأملا وعذباً لنفس تعسة .

ولم يكن قد تناول الرسالة التي اعطته كوزيت اياها من غير رعشة .

كان قد استشعر في الحال أنه أمام حدث ذي شأن . وكان شديد التوق إلى تلاوتها . إن فؤاد الانسان هكذا جُعل . فما ان اغمضت الطفلة التعسة عينيها حتى فكر ماريوس في ان ينشر تلك الورقة . فوضع الميتة على الارض ، في رفق ، ومضى لسبيله . لقد انبأه شيء ما بأنه لن يستطيع ان يتلو هذه الرسالة على مشهد من هذا الجثمان .

واقترب من شمعة في الحجرة السفلية . كانت مذكرة صغيرة ، طويت وختمت بعناية المرأة الانيقة . وكان العنوان مكتوباً بخط نسوي . وكان يجري على هذا النحو :

— « إلى سيدي، مسيو ماريوس بونميرسي ، منزل مسيو كورفيراك ، شارع الـ « فيريري » ، رقم ١٦ . »

وكسر الختم ، وقرأ :

— « يا حبيبي ، وا أسفاه ! إن والدي يريد ان يسافر في الحال . سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترة . كوزيت . ٤ حزيران . »

كذلك كانت براءة هذا الحب . حتى لقد عجز ماريوس عن معرفة خط كوزيت .

إن ما حدث يمكن ان يروى في بضع كلمات . كانت ابونين قد فعلت ذلك كله . فبعد مساء الثالث من حزيران ، راودتها فكرة مزدوجة : أن تحبط مؤامرة ابيها وقطاع الطرق على المنزل القائم في شارع بلوميه ، وأن تفصل ماريوس عن كوزيت . وكانت قد تبادلت الاسمال البالية مع أول أفاق رأى من المسلي ان يرتدي ثياب امرأة ، بينا تقنعت ابونين بملابس رجل . كانت هي التي قدمت إلى جان فالجان ، في الـ « شان دو مارس » ، ذلك التحذير المعبر : « انتقل من منزلك ! »

ورجع جان فالجان إلى المنزل ، وقال لكوزيت :

« سوف نسافر هذا المساء، ولسوف نذهب الى شارع الرجل المسلح مع تومين . وفي الاسبوع التالي سوف نكون في لندن . »

وسارعت كوزيت ، وقد جندلتها هذه الضربة غير المتوقعة ، إلى كتابة سطرين إلى ماريوس . ولكن كيف تستطيع ان تضع الرسالة في البريد ؟ إنها ما كانت لتخرج وحدها ، ولو قد كلفت توسين بذلك اذن لكانت خليقة بأن تعجب لهذه المهمة ، واذن لأطلعت مسيو فوشلوفان ، من غير شك ، على الرسالة . وفي غمرة من هذا القلق رأت كوزيت ، من خلال الباب الحديدي ، ايبونين في ملابس الرجال ، وكانت هذه قد بدأت تطوّف في غير ما انقطاع حول الحديقة . ونادت كوزيت « هذا العامل الشاب » ، وقدمت اليه خمسة فرنكات والرسالة ، قائلة له : « احمل هذه الرسالة إلى عنوانها في الحال . » ووضعت ايبونين الرسالة في جيبها . وفي اليوم التالي ، ٥ حزيران ، مضت إلى غرفة كورفيراك تسأل عن ماريوس ، لا لكي تعطيه الرسالة ، ولكن — وهذا شيء تستطيع ان تفهمه كل نفس غيور وعاشقة — « لكي ترى » . وهناك انتظرت ماريوس ، أو على الاقل انتظرت كورفيراك — « لكي ترى » ايضاً . وحين قال لها ماريوس : نحن ذاهبون إلى المتاريس ، أومضت في ذهنها فكرة . أن تقذف بنفسها في اشداق ذلك الموت ، كما كان خليقاً بها ان تقذف بنفسها في اشداق اي موت آخر ، وان تدفع ماريوس إلى مثل ذلك . وتبعت كورفيراك ، واستيقنت من الموقع الذي اقاموا المتراس فيه . وإذ تأكد لديها ، بسبب من ان ماريوس لم يتلق اي إعلام بعد ان احتجزت الرسالة ، أنه سوف يمضي عند هبوط الليل إلى موعده المسائي المعتاد ، فقد قصدت إلى شارع بلوميه ، وانتظرت ماريوس هناك ، وحملت اليه ، باسم اصدقائه ، ذلك النداء الذي كان ينبغي — في اعتقادها — ان يقوده إلى المتراس . لقد اعتمدت على اليأس الذي كان خليقاً بأن يصيب ماريوس حين يفتقد كوزيت ، ولم تكن مخطئة . أما هي فرجعت إلى شارع الـ « شانفريري » . ولقد رأينا ما عملت هناك . لقد ماتت بتلك البهجة الفاجعة التي تعصف بالقلوب الغيرى ، الدافعة من تحب إلى الموت معها ، قائلة : « إن احداً لن

يفوز بـه ! »

وأمطر ماريوس رسالة كوزيت بالقبل . لقد أحبته اذن ؟ وراودته لحظة فكرة تقول بـأنه لم يعد واجباً عليه الآن ان يموت . ثم قال في ذات نفسه : « إنهـا ذاهبة . ان اباها يريد ان يأخذها إلى انكلترة ، وجدي يرفض الموافقة على الزواج . إن شيئاً لم يتغير في القدر . » والواقع ان ذوي النفوس الحالمة ، مثل ماريوس ، يصابون عادة بهذا الضنى الرفيع ، ومن هنا تُختار السبل في يأس . إن إجهاد الحياة شيء لا يطاق ،وهكذا يمثُلُ الموت على نحو أعجل .

عندئذ فكر انه لا يزال ثمـة واجبان يتعين عليه ان يؤديهما : ان يخبر كوزيت بموته وان يبعث اليها بكلمة وداع اخيرة ، وان ينقذ من الكارثة المحدقة ، الزاحفة ، ذلك الطفل البائس ، اخا ايبونين وابن تيناردييه .

وكانت في جيبه حافظة اوراق ، هي نفسها التي سبق لها ان احتوت على الصفحات التي خط عليها كثيراً من خواطر الحب لكوزيت . وانتزع ورقة ، وكتب هذه الاسطر القليلة بقلم رصاصي :

« ان زواجنا مستحيل . لقد سألت جدي ، فرفض . أنا لا املك ثروة ، وكذلك انتِ . لقد هرعت إلى منزلك ، فلم اجدك ، انـت تعرفين ما عاهدتك عليه . سوف أنفذه ؛ سوف اموت ؛ انا احبك . وحين تقرأين هذه الكلمات ستكون روحي قريباً منك، وستبسم لك . »

وإذ لم يكن عنده ما يختم به تلك الرسالة، فقد اكتفى بأن طوى الورقة ، وكتب عليها هذا العنوان :

« الى الآنسة كوزيت فوشلوفان ، منزل مسيو فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح رقم ٧ »

وظل لحظة يفكر ، والرسالة مطوية ، ثم اخرج حافظة اوراقه مـن جديد ، وفتحها ، وكتب على الصفحة الاولى ، وبالقلم الرصاصي نفسه ، هذه الاسطر :

« إن اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي إلى منزل جدي ،

مسيو جيلنورمان شارع « فتيات كالغير ، رقم ٦ ، في الـ « ماريه » .

واعاد الدفتر إلى جيب سترته ، ثم نادى غافروش . وما ان سمع « المتشرد » صوت ماريوس ، حتى هرع بوجهه البهيج المتفاني .

— « هل ترغب في ان تقوم نحوي بخدمة ؟ »

فقال غافروش :

— « مهما تكن . يا الـهي الطيب ! لولاك لكنت طُبخت ، من غير شك . »

— « ترى هذه الرسالة ؟ »

— « نعم . »

— « خذها . اخرج من المتراس في الحال (واستبد القلق بغافروش، فشرع يخدش اذنه) وغداً صباحاً سوف تحملها إلى عنوانها ، إلى الآنسة كوزيت ، منزل مسيو فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

فأجابه الفتى الباسل :

— « آه ، حسناً ، وفي خلال ذلك ، سوف يستولون على المتراس، ولن اكون أنا هنا . »

— « ان المتراس لن يهاجَم من جديد قبل الفجر ، على ما يُفهم من جميع المظاهر ، ولن يُستولى عليه قبل ظهر غد . »

والواقع ان المهلة الجديدة التي مُنحها المتراسُ من قِبل المهاجمين قد مُددت . كانت واحدة من فترات انقطاع الحمّى تلك ، المألوفة في المعارك الليلية ، والتي تتبعها دائماً سورة مضاعفة .

وقال غافروش :

— « حسن ، وما قولك في ان احمل رسالتك غداً صباحاً ! »

— « عندئذ يفوت الاوان . من الجائز ان يحاصر المتراس . إن الحراسة سوف تُفرض على جميع الشوارع ، ولن يكون في ميسورك ان تخرج . إذهب ، في الحال ! »

ولم يحر غافروش جواباً . لقد وقف هناك ، متردداً ، يخدش اذنه في اكتئاب . وفجأة ، وبأحدى حركاته الشبيهة بحركات العصافير ، اخذ الرسالة .

وقال :

— « حسن . »

وانطلق راكضاً من خلال زقاق مونديتور .

لقد خطرت لغافروش فكرة جعلته يزمع على الانطلاق . ولكنه لم يصرح بها خشية أن يبدي ماريوس اعتراضاً ما عليها .

وكانت الفكرة هي هذه :

— « ان الليل لم يكد ينتصف ، وشارع الرجل المسلح ليس بعيداً ، ولسوف احمل الرسالة في الحال ، ولسوف ارجع في الوقت المناسب . »

الكتاب الخامس عشر

شارع الرجل المسلح

١

الورق النشاف، الثرثار

أي شيء هي تشنجات مدينة ما ، بالقياس إلى ثورات الروح ؟ إن الانسان يظل اعمق عمقاً من الشعب بكثير . ففي تلك اللحظة بالذات ، كان جان فالجان فريسة لجيَشان رهيب . كانت جميع المهالك قد فُتحت كرة اخرى في ذات نفسه . وكان هو ايضاً يرتعد ، مثل باريس على عتبة ثورة راعبة وغامضة . وكانت بضع ساعات كافية لذلك .لقد حجب الظلام ، فجأة ، قدرَه وضميره . وعنه ايضاً نستطيع ان نقول كما نقول عن باريس : كان المبدءان وجهاً لوجه . كان ملاك الضياء

وملاك الظلام على وشك ان يتصارعا فوق جسر الهاوية . ايّ الملاكين سوف يجندل الآخر ؟ من الذي سيستحوذ عليه ؟

وعشية ذلك اليوم نفسه ، الخامس من حزيران ، كان جان فالجان قد استقر به المقام ، تصحبه كوزيت وتوسين ، في شارع الرجل المسلح . كان تحوّلٌ ينتظره هناك .

ولم تكن كوزيت قد فارقت شارع بلوميه من غير ان تحاول المقاومة . فللمرة الأولى منذ سُكناهما معاً ، ظهرت ارادة كل من كوزيت وجان فالجان على نحو متميز ؛ صحيح ان الارادتين لم تصطدما ، ولكنهما تناقضتا على الاقل . كان ثمة اعتراض من ناحية ، وتصلب من الناحية الاخرى . وكانت النصيحة المباغتة « انتقل من منزلك ! » وقد قذف بها جانَ فالجان شخصٌ مجهول ، قد أرعبته إلى درجة جعلته جازماً . لقد اعتقد انه ملاحق مقتص الأثر . واضطرت كوزيت إلى الاذعان .

ووصلا معاً إلى شارع الرجل المسلح من غير ان ينبسا ببنت شفة ، وكل منهما مستغرق في تأملاته الخاصة . فأما جان فالجان فكان من القلق بحيث لم يلحظ حزن كوزيت ، وأما كوزيت فكانت من الحزن بحيث لم تلحظ قلق جان فالجان .

وكان جان فالجان قد اصطحب توسين ، وهو ما لم يفعله قط في غيباته السابقة . لقد رأى ان من الجائز ان لا يعود إلى شارع بلوميه ، ولم يكن بقادر على ان يخلّف توسين وراءه ، أو يطلعها على سره . وإلى هذا ، فقد استشعر انها كانت متفانية موثوقة . إن الخيانة ، بين الخادم والسيد ، تبدأ بالفضول . ولكن توسين لم تكن فضولية ، فكأنما كان مقدراً لها أن تكون خادماً لجان فالجان . لقد قالت من خلال تلجلجها ، في لهجتها الريفية الخاصة بابناء بارنفيل : « انا من مِثْل إلى مِثْل ؛ أنا اتأمل عملي . الباقي ليس عملي » . (أنا هكذا ؛ انا اقوم بعملي ، وسائر ذلك ليس من شأني .)

وفي هذه المغادرة لشارع بلوميه ، التي كادت ان تكون فراراً ، لم يحمل جان فالجان شيئاً غير الحقيبة الصغيرة المعطرة التي عمّدتها كوزيت خالعة عليها اسم « ممتنعة الانفصال » . ذلك بأن الحقائب الملأى كانت خليقة بان تحتاج إلى حمالين ، والحمالون شهود . وكانوا قد استدعوا عربة اجرة إلى الباب المطل على شارع بابل ، ومضوا لسبيلهم .

وفي صعوبة بالغة انتزعت توسين اذناً بأن ترزم قليلا من الملابس الداخلية ومن الثياب وبعض ادوات الزينة . أما كوزيت فلم تصطحب غير ادواتها المكتبية وورقها النشاف .

ولكي يزيد هذا الاختفاءَ وحشة وغموضاً ، كان جان فالجان قد رتب كل شيء بحيث لا يغادر البيت الصغير القائم في شارع بلوميه إلا عند انحسار النهار مما ترك لكوزيت متسعاً من الوقت لتكتب إلى ماريوس مذكرتها . ووصلوا إلى شارع الرجل المسلح ، بعد هبوط الليل .

وآوى كل منهم إلى فراشه في صمت .

كان المنزل الذي في شارع الرجل المسلح قائماً في فناء خلفي ، في الطابق الثاني ، وكان مؤلفاً من حجرتي نوم ، وحجرة طعام ، ومطبخ محاذ لحجرة الطعام ، وعلية فيها فراش ذو سيور خُصصت به توسين . وكانت حجرة الطعام هي في الوقت نفسه غرفة الانتظار ، وكانت تفصل احدى حجرتي النوم عن الاخرى . لقد اشتمل المسكن على جميع الاثاث الضروري .

إننا نستعيد الطمأنينة بمثل الحمق الذي نروّع فيه ؛ تلك هي الطبيعة البشرية . فما إن حل جان فالجان في شارع الرجل المسلح حتى تضاءل قلقه ، وشيئاً بعد شيء تبدّد بالكلية . إن ثمة مواطن مهدئة تؤثر ، بطريقة ما ، تأثيراً آلياً في العقل . فحين يكون الشارع مغموراً ، يكون السكان آمنين . واستشعر جان فالجان عدوى اطمئنان غريبة في زقاق باريس العتيقة ، ذاك ، الضيق إلى حد جعله مسدوداً في وجه العربات

بلوح خشبي ثخين معترض نُصب على وتدين ، الاصم الابكم وسط المدينة الصاخبة ، فهو غسق في وضح النهار ، العاجز عن الانفعالات ، إذا جاز التعبير ، بين صفي بيوته العالية البالغ عمرها قرناً من الزمان ، تلك البيوت الصامتة مثل العجائز الذين كانتهم . إن ثمة نسياناً راكداً في هذا الشارع . وتنفس جان فالجان هناك . بأي طريقة يستطيع اي امرىء ان يجده في ذلك المكان ؟

وكان اول ما اهتم بـه ان يضع « ممتنعة الانفصال » إلى جانبه .

ونام نوماً عميقاً . إن الليل ينصح ، وفي ميسورنا أن نضيف : الليل يهدىء . وفي صباح اليوم التالي نهض مبتهجاً أو يكاد . لقد خيل اليه ان حجرة الطعام فاتنة ، برغم أنها كانت رهيبة موثثة بمائدة مستديرة ونَضَد للمائدة منخفض تعلوه مرآة منحنية ، وكرمي نَخِر ذي ذراعين ، وبضعة كراسي اخرى مثقلة بصرر توسين . ومن خلال فتحة في احدى هذه الصرر كان في ميسور المرء ان يرى بزة الحرس الرسمية الخاصة بجان فالجان .

اما كوزيت ، فكانت قد سألت توسين ان تحمل قصعة من حساء إلى غرفتها ، ولم تبرز للعيان إلا عند المساء .

وحوالى الساعة الخامسة تقدمت توسين – وكانت تروح وتجيء منشغلة إلى ابعد الحدود بهذه النقلة اليسيرة وما اقتضته من ترتيب الاثاث في المنزل الجديد – ووضعت دجاجة باردة على مائدة حجرة الطعام وافقت كوزيت ، مراعاة لوالدها ، على ان تنظر اليها .

حتى إذا تم ذلك تذرعت كوزيت بصداع شديد ، وقالت « طابت ليلتك » لأبيها ، وقصدت إلى حجرة نومها واوصدت بابها عليها . وأكل جان فالجان أحد جناحي الدجاجة في شهية جيدة . واذ انحنى فوق المائدة ، وقد عاودته طلاقة الوجـه شيئاً فشيئاً ، استشعر الأمن والسلامة مـن جـديـد .

وفيما هو يتناول عشاءه المتقشف ذاك ، انتبه على نحو مشوش ، في مناسبتين أو ثلاث ، إلى تمتمة توسين التي قالت له : « سيدي ، هناك ضوضاء . إنهم يتقاتلون في باريس » . ولكنه ، وقد استغرق في جمهرة من التفاعلات الداخلية ، لم يلق اليها بالا . والصدق يقتضينا ان نقول إنه لم يسمع كلماتها تلك .

ونهض ، وبدأ يمشي من النافذة إلى الباب ، ومن الباب إلى النافذة . مستعيداً طمأنينته شيئاً بعد شيء .

ومع الطمأنينة عادت كوزيت ، همه الاوحد ، إلى أفكاره . ولم يكن ذلك لقلق الم به من ذلك الصداع ، فليس يعدو ان يكون اضطراباً في الاعصاب ، أو من ذلك العبوس الذي يرين على وجوه الفتيات الصغيرات ، فليس يعدو ان يكون سحابة عابرة لا بد ان تنقشع بعد يوم أو يومين ، ولكنه فكر في المستقبل ، وكدأبه دائماً فكر فيه بعذوبة . وعلى اية حال ، فانه لم ير ايما عقبة تحول دون عودة سعادتهما إلى مجاريها . ففي بعض الساعات يبدو كل شيء مستحيلا ، وفي بعض الساعات يبدو كل شيء سهلا . ولقد كان جان فالجان في احدى تلك الساعات السعيدة . إنها تجيء عادة بعد الساعات التعسة ، كما يعقب النهار الليل ، بحكم قانون التعاقب والتغاير القائم في أساس الطبيعة ، والذي تدعوه العقول السطحية « التضاد » . ففي هذا الشارع الآمن الذي فزع اليه جان فالجان ، تحرر من كل ما كان قد أقلقه منذ فترة ما . ولمجرد انه كان قد رأى كثيراً من الظلام بدأ يلمح شيئاً من السماء اللازوردية . كان تركُهُ شارع بلوميه من غير ما إشكال ولا حادث هو في ذاته فلذة من الحظ السعيد . ولعل من الحكمة ان يغادر البلاد ، ولو بضعة اشهر ليس غير ، وأن يذهب إلى لندن . حسناً ، سوف يذهبون . واي فرق بين ان يكون في فرنسة او ان يكون في انكلترة ، ما دامت كوزيت معه ؟ كانت كوزيت وطنه . وكانت كوزيت كافية لسعادته . أما الفكرة القائلة بان من الجائز

ن لا يكون هو كافياً لسعادة كوزيت ، تلك الفكرة التي كانت ذات يوم حُمّاه وسهده ، فلم تتمثل لعقله ولو مجرد تمثل . كانت آلامه الماضية كلها قد تلاشت ، وكانت تغمره موجة عارمة من التفاؤل . لقد بدت له كوزيت ، وهي في قربه ، وكأنها ملكهُ ؛ أثر بصريّ يعرفه كل امرىء بالتجربة . لقد رتب في ذات نفسه ، وفي كل سهولة ممكنة ، أمر الذهاب إلى انكلترة مع كوزيت ، ورأى إلى سعادته تزهو من جديد . بقطع النظر عن المكان ، على ضوء أحلامه .

وفيما هو لا يزال يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، في خطى وئيدة ، وقعت عينه فجأة على شيء غريب .

لقد رأى تجاهه ، في المرآة المنحنية التي تعلو نضَد المائدة ، وقرأ في وضوح الاسطر التالية :

« يا حبيبي ، وا أسفاه ! إن والدي يريد أن يسافر في الحال سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترة . كوزيت . ٤ حزيران . »

ووقف جان فالجان شارد اللب .

كانت كوزيت قد وضعت ورقها النشاف ، لدن وصولها ، على نضد المائدة امام المرآة ، وكانت لعظيم استغراقها في هلعها المحزون قد نسيته هناك ، من غير ان تلاحظ انها تركته منشوراً على مداه ، ومنشوراً عند الصفحة نفسها التي نشفت بها الاسطر الاربعة التي خطتها ، والتي حمّلتها ذلك العاملَ الفتى المار في شارع بلوميه . كانت الكتابة قد انطبعت على الورق النشاف .

لقد عكست المرآة تلك الكتابة .

وانما نتج عن ذلك ما ندعوه في الهندسة الصورة المتناظرة . بحيث ان الصورة المعكوسة على الورق النشاف قد صُححت بالمرآة . فاستردت شكلها الاصلي . وهكذا وجد جان فالجان تحت ناظريه تلك الرسالة التي

كتبتها كوزيت عشية البارحة ، إلى ماريوس .

كانت بسيطة وصاعقة .

ومضى جان فالجان إلى المرآة . وقرأ تلك الاسطر الاربعة كرة اخرى . ولكنه لم يصدقها قط . لقد تركت في نفسه مثل الاثر الذي تتركه رؤيا وسط وميض البرق . كان ذلك وهماً . كان مستحيلا . إن ذلك لم يكن .

وشيئاً بعد شيء أمسى ادراكه اكثر دقة . لقد نظر إلى ورق كوزيت النشاف ، وعاوده وعي الحقيقة الواقعة . وتناول الورق النشاف وقال : « إنما يجيئ ذلك من هنا » . وتأمل على نحو محموم في الاسطر الأربعة المنطبعة على الورق النشاف ، وقد جعل انعكاس الاحرف من تلك الاسطر خربشة عجيبة ، ولم يجد لها معنى البتة . ثم قال مخاطباً نفسه : « ولكن هذا لا يعني شيئاً . ليس ثمة شي مكتوب هنا . » واخذ نفساً طويلا ، وقد استشعر اطمئناناً لا سبيل إلى وصفه . ومن ذا الذي لم يستشعر مثل هذه المباهج الحمقاء في لحظات الذعر ؟ ان النفس لا تستلم لليأس إلا بعد ان تستنفد الاوهام كلها .

ورفع الورق النشاف بيده ، وحدق اليه ، سعيداً على نحو أبله ، وهو يكاد يضحك ساخراً من الوهم الذي خدعه . وفجأة ، وقعت عيناه كرة اخرى على المرآة ، وبصُر بالرؤيا من جديد . لقد ارتسمت الاسطر الاربعة ، هناك ، في وضوح لا يرحم . وهذه المرة لم تكن سراباً . إن تكرر الرؤيا يؤذن بأنها حقيقة . كانت ملموسة ، كانت الكتابةَ مقوَّمةً بالمرآة . وفهم .

وتمايل جان فالجان ، وافلت الورقَ النشاف . وارتمى في الكرسي العتيق ذي الذراعين المجاور لنضد المائدة ، منكّسَ الرأس ، زجاجيَّ العينين ، ذاهل اللب . وقال في ذات نفسه ان الامر واضح ، وان ضياء العالم قد كُسف إلى الابد ، وان كوزيت قد كتبت ذلك إلى شخص ما .

ثم سمع روحه ، وقد ارتدّت فظيعةً ، تطلق زئيراً أبكم في الظلام . اذهب اذن ، وانتزع من الاسد الكلب الذي في قفصه !

شيء غريب ومحزن . ففي تلك اللحظة بالذات لم يكن ماريوس قد تلقّى بعدُ رسالة كوزيت . كانت المصادفة قد حملتها ، كالخائنة ، إلى جان فالجان قبل ان تسلمها إلى ماريوس .

وحتى ذلك اليوم ، لم يسبق للمحنة أن قهرت جان فالجان قط . كان قد أخضِع لتجارب رهيبة ، ولم تكن قد وفرته ايما ضربة من ضربات الشقاء . كانت ضراوة القدر ، مسلحةً بضروب الانتقام والازدراء الاجتماعين كلها ، قد جعلت منه عبداً رقيقاً لها ، وطاردته في شره . ولم يتراجع قط ولم يستسلم قط أمام اي شيء . وكان قد ارتضى ، حين تعيّن عليه ذلك ، ضروب الشدائد على اختلافها . كان قد ضحى بحرمة رجولته المستعادة ، وتخلى عن حريته ، وغامر برأسه ، وخسر كل شيء ، وقاسى كل شيء ، وظل نزيهاً ثبت الجنان إلى درجة كانت تخيل إلى المرء في بعض الاحيان أنه غافلٌ عن نفسه ، مثل شهيد من الشهداء . وكان وجدانه ، المتمرس بكل ممكن من هجمات الشقاء ، خليقاً بأن يبدو ممتنعاً على المغيرين ، إلى الابد . ومع ذلك فلو قُدّر لامرىء ان يطّلع على دخيلة نفسه في تلك اللحظة اذن لاضطر إلى التسليم بأن الوهن قد اتخذ سبيله اليه .

ذلك ان هذا العذاب كان ، من بين جميع ضروب النكال التي اخضعه لها ديوان تفتيش القدر ، اشدها فظاعة وترويعاً . إن كلاّبتين من مثل هاتين لم تعضّاه قط ، في يوم من الايام . لقد استشعر الرعدة الغريبة التي تلازم كل انفعال خفي . استشعر قَرْصَ الانفعال المجهول . واأسفاه ، ان المحنة العظمى ، او على الاصح ، المحنة الوحيدة ، هي خسارتنا الكائنَ الذي نحب .

وليس من ريب في أن جان فالجان العجوز المسكين لم يحب كوزيت إلا كما يحب والد ولده . ولكن كما اشرنا من قبل ، كان ترمّل حياته

نفسهُ قد ادخل على هذه الأبوة كل حب . لقد احب كوزيت وكأنها ابنته ، واحبها وكأنها أمه،واحبها وكأنها اخته . وإذ لم تكن له في يوم من الايام حبيبة او زوجة ، ولما كانت الطبيعة دائناً لا يقبل احتجاجاً ، فان تلك العاطفة ايضاً ، وهي اشد العواطف ديمومة على الاطلاق ، قد امتزجت بالعواطف الاخرى ، غامضةً ، جاهلةً ، طاهرةً طهارة العمى ، غير واعية ، سماويةً ، ملائكيةً ، الـهية ، اقل شبهاً بعاطفة من العواطف منها بغريزة من الغرائز ، واقل شبهاً بغريزة من الغرائز منها بميل من الميول ، غير مدركة وغير منظورة ، ولكنْ حقيقية . والحب ، بحصر المعنى . كان منطوياً في حنوه العظيم على كوزيت ، كما ينطوي عرْق الذهب في الجبل ، قاتماً وبتولياً .

لنذكر حال القلب تلك التي اشرنا اليها اللحظة . لم يكن ايما زواج ممكناً بينهما ، حتى زواج النفوس ؛ ومع ذلك فقد كان واضحاً أن قدَرهما كانا مقترنين . فباستثناء كوزيت ، يعني باستثناء طفولة ما ، لم يعرف جان فالجان ، في حياته الطويلة كلها ، اياً من تلك الاشياء التي يستطيع المرء ان يحبها . ولم تكن ضروب العاطفة والحب التي يعقب بعضها بعضاً قد تركت في ذات نفسه ذلك الاخضرار المتتالي — اخضراراً زاهياً فوق اخضرار قاتم — الذي نلمحه على اوراق الشجر التي تجتاز فصل الشتاء ، وعلى الرجال الذين يجتازون سن الخمسين . وخلاصة القول ، وقد أصررنا على ذلك غير مرة ، أن ذلك الاتحاد الداخلي كله ، ذلك الاتفاق كله ، الذي كانت حصيلته فضيلة شامخة ، انتهى إلى جعل جان فالجان أباً لكوزيت . أبا غريباً مصوغاً من الجد ، والابن ، والاخ ، والزوج ، التي انطوت عليها نفس جان فالجان . أباً كان فيه حتى الأم ذاتُها ، أباً أحب كوزيت ، وعبدها ، وكانت له تلك الطفلة ضياءً ، وكانت بيتاً ، وكانت أسرة ، وكانت وطناً ، وكانت فردوساً .

وهكذا عندما رأى ان ذلك قد انتهى من غير ريب ، انها قد أفلتت منه ، انها قد انسلت من بين يديه ، انها قد غابت عنه ، أنها كانت سحابة ، انها كانت ماء ، وعندما وجد امام عينيه هذا الدليل الماحق : ان شخصاً آخر هو غاية فؤادها ، ان شخصاً آخر كان أمل حياتها ، ان هناك محبوباً ، وانه هو لم يعد غير أبيها ، وانه لم يبق موجوداً البتة ، وعندما قال في ذات نفسه : «إنها انفصلت عني» تخطى الألم الذي أصابه حد الاحتمال . أيكون قد عمل كل ما قد عمله لينتهي إلى هذا ؟ وماذا ! أن يصبح لا شيء ! عندئذ ، كما قلنا منذ لحظة ، أحس برعدة ثورة تعصف به من رأسه إلى أخمص قدميه . لقد أحسّ حتى جذورِ شعره بيقظة الانانية الهائلة ، وعوت «الانا» في هوة ذلك الرجل .

إن ثمة انهيارات داخلية . فنفاذ اليقين الموئس إلى الانسان لا يتم من غير أن تزيح وتحطم بعض العناصر العميقة التي هي الانسان نفسه في بعض الاحيان . والأسى ، حين يبلغ هذه المرحلة ، يكون فراراً تقوم به جميع قوى الروح . تلك ازمات مهلكة . وقليلون هم اولئك الذين يخرجون منها كما دخلوا ، وراسخي القدم في اداء الواجب . وحين يتخطى المرء حدود العذاب ، فان الفضيلة الاكثر ثباتاً ورباطة جأش تضطرب وتحار . وتناول جان فالجان الورق النشاف ، وأقنع نفسه من جديد . وظل منحنياً ، وكأنه قد استحال إلى حجر ، فوق الأسطر الأربعة التي لا سبيل إلى تكذيبها ، مسمّر العين . وتشكلت في ذات نفسه سحابة كانت من العظم بحيث يخيل إلى المرء ان باطن تلك النفس كله آخذ في الانهيار .

وفحص هذا الكشف ، من خلال قوى التفكير الحالم المضخّمة ، في هدوء ظاهري ورهيب . ذلك بأن من الفظاعة ان يبلغ هدوء الانسان برودةَ التمثال .

وقاس الخطوة الراعبة التي خطاها القدر من غير ان يستثير ريبه. واستعاد في الذاكرة المخاوف التي ألمت به في الصيف الماضي والتي بُدِّدت بتلك الحماقة كلها. وادرك الهوة. كانت لا تزال هي هي. كل ما في الأمر ان جان فالجان لم يعد على الحافة؛ كان في القعر.

شيء خارق وممضّ. لقد سقط من غير أن يعي. كان الضياء كله قد فارق حياته، وكان هو يعتقد أنه يرى الشمس ابداً.

ولم تتردد غريزته. وقرن بعض المناسبات إلى بعضها الآخر، وبعض التواريخ إلى بعضها الآخر، وبعض احمرار وجه كوزيت إلى بعضه الآخر، وبعض شحوبه إلى بعضه الآخر، وقال في ذات نفسه: «إنه هو.» إن تكهّن اليأس ضرب من قوس عجيب لا يخطىء هدفَه البتة. وبحدسه الاول، اصاب ماريوس. انه لم يعرف الاسم، ولكنه وجد الرجل في الحال. لقد لمح على نحو واضح، في قعر استحضار ذكرياته الحقود، ذلك المطوِّف المجهول في اللوكسومبورغ، ذلك الباحث الدنيء عن الحب، ذلك المتبطل الرومانتيّ، ذلك المعتوه، ذلك الجبان، لأن من الجبن ان يفد المرء ويرنو في تودد إلى الفتيات الجالسات قرب آبائهن الذين يحبونهن.

وبعد ان قرر على نحو يقينيّ ان ذلك الفتى كان وراء هذه الورطة، وان كل شيء جاء من هناك، نظر هو جان فالجان – الرجل الذي خُلِق خلقاً آخر، الرجل الذي انهمك طويلا في تهذيب نفسه، الرجل الذي انفق جهوداً كثيرة لكي يحل الحياة كلها، والبؤس كله، والتعاسة كلها ويذيبها في الحب – نظر هو جان فالجان إلى ذات نفسه، وهناك رأى شبحاً: الضغينة.

إن الآلام الكبيرة تنطوي على تثبيط. إنها تثبيط الوجود. وكل من تلمّ به يستشعر أن شيئاً قد ابتعد عنه. وفي الشباب، تكون زيارتها حِدادية، وفي السنوات التالية تكون تلك الزيارة مشؤومة. واأسفاه!

إذا كان اليأس شيئاً رهيباً حين يكون الدم حاراً ، حين يكون الشعر أسود ، حين يكون الرأس منتصباً فوق الجسد مثل الشعلة فوق المشعل ، حين تكون حزمة القدّر ملأى ما تزال . حين يكون القلب . المفعم بحب سعيد . لا تزال له نبضات يمكن ان يستجاب لها . حين يكون امامنا متسع من الوقت لاصلاح الخلل . حين تكون النساء كلهن أمامنا ، والبسمات كلها . والمستقبل كله ، والأفق كله . حين تكون قوة الحياة كاملة — إذا كان اليأس شيئاً رهيباً في هذه الحال . فكيف يكون في الشيخوخة ، حين تندفع السنوات ، وهي تزداد شحوباً على شحوب ، في تلك الساعة الغسقية التي نشرع فيها برؤية نجوم القبر .

وفيما هو يفكر ، دخلت توسين . ونهض جان فالجان ، وسألها :

— « في اي اتجاه هو ؟ هل تعرفين ؟ »

واستولى الدهش على توسين فلم تستطع ان تجيب بغير قولها :

— « من فضلك ؟ »

وتابع جان فالجان :

— « ألم تقولي لي الآن انهم يتقاتلون ؟ »

فأجابت توسين :

— « ، نعم ، يا سيدي . إنه في ناحية سان ميرّي . »

ان هناك بعض الاندفاعات الميكانيكية التي تجيئنا ، دون ان ندري ، من أعمق افكارنا . وليس من ريب في أنه تحت تأثير اندفاعة من هذا النوع لم يكد يشعر بها ، وجد جان فالجان نفسه بعد خمس دقائق في الشارع .

كان حاسر الرأس ، جالساً على المَعْلَم المجاور لمنزله . لقد بدا وكأنه يصغي .

كان الليل قد هبط .

٢

«المتشرد» عدوّ الضياء

ما المدة التي قضاها على هذا النحو ؟ أيّ شيء كان مدُّ ذلك التأمل الفاجع وجزره ؟ هل تصدّر ؟ هل ظل منحنياً إلى حد يخشى معه من ان ينكسر ؟ اكان لا يزال في ميسوره ان يتصدر ، وان يثبّت قدمه من جديد في ضميره فوق شيء صلب ؟ انه هو نفسه ما كان يدري في اغلب الظن .

كان الشارع مقفراً . ولم يلمحه ، بشق النفس ، غير بضعة بورجوازيين قلقين ، عائدين إلى بيوتهم على جناح السرعة . ففي ساعات الخطر لا يفكر المرء إلا بنفسه . وأقبل مُشعل المصابيح ، كالعادة ، ليضيء المصباح المتدلي مقابل باب المنزل رقم ٧ مباشرة ، ومضى لسبيله . ولو قدّر لامريء ما ان يدرس جان فالجان في ذلك الظلام اذن لما بدا له انساناً حياً . هنالك كان ، قاعداً على المَعْلم المجاور لباب بيته ، جامداً مثل مارد من ثلج . إن في اليأس تجمّداً . وسُمع ناقوس الخطر ، وسمعت اصوات عاصفة غامضة . ووسط تشنجات الناقوس هذه كلها ، الممتزجة باصداء الفتنة ، دقت ساعة سان بول الحادية عشرة ، في رزانة وفي غير عجلة . ذلك ان ناقوس الخطر هو الانسان ، والساعة هي الالـه . ولم يترك انقضاء الساعة أيما أثر في نفس جان فالجان ، إن جان فالجان لم يتحرك قط . ومع ذلك ففي تلك اللحظة نفسها تقريباً ، وقع انفجار عنيف في ناحية الاسواق ؛ وتبعه ثان ، اشد عنفاً . ولعله كان ذلك الهجوم الذي شُن على متراس شارع الـ «شانفريري» ، والذي رأينا منذ لحظة كيف صده ماريوس . ولدن سماع هذا الانفجار المزدوج الذي بدت سورته وكأنما ضاعفها انذهال الليل ، اجفل جان فالجان . لقد نهض في الاتجاه الذي

أقبل منه الصوت . ثم ارتمى على المعْلم من جديد ، وطوى ذراعيه . وسقط رأسه فوق صدره في بطء .

واستأنف حواره المظلم مع نفسه .

وفجأة رفع عينيه . كان شخص ما ، يمشي في الشارع . لقد سمع وقع خطى على مقربة منه . ونظر . وعلى ضوء المصباح ، في اتجاه الـ « آرشيف » ، لمح ، وجهاً شاحباً ، فتياً ، مشعاً .

كان غافروش قد وصل منذ لحظة الى شارع الرجل المسلّح .

كان غافروش ينظر إلى الفضاء ، ولقد بدا وكأنه يبحث عن شيء . لقد رأى جان فالجان في وضوح كامل ، ولكنه لم يلق بالاً اليه .

وبعد النظر إلى الفضاء ، راح غافروش ينظر إلى الارض . لقد رفع نفسه على رؤوس اصابعه ، ولمس ابواب الطابق الأرضي ونوافذه. كانت كلها مغلقة ، مثقلة بالحديد ، مطوقة بالسلاسل . وبعد أن وجد خمسة منازل أو ستة منازل ممترسة على هذا النحو ، هز « المتشرد » كتفيه ، واستهل الكلام مع نفسه بهذه العبارة :

— « وحق الالـه ! »

ثم شرع ينظر إلى الفضاء من جديد .

واستشعر جان فالجان — الذي كان في اللحظة السابقة ، وبحكم الحال العقلية التي كان عليها ، خليقاً بأن لا يتكلم مع احد ، بل أن لا يجيب احداً — استشعر انه مضطر على نحو لا يقاوَم إلى ان يوجه كلمة إلى هـذا الطفل .

وقال :

— « ايها الصبي الصغير ، ما خطبك ؟ »

فأجابه غافروش في لذع :

— « خطبي انني جائع . »

ثم أضاف :

— « الصغير هو أنت . »

وبحث جان فالجان في جيب صدرته الصغير ، واخرج قطعة نقدية من فئة الفرنكات الخمسة .

ولكن غافروش ، الذي كان من نوع الطائر المعروف بأم سكعكع ، والذي انتقل في سرعة من عمل إلى عمل ، كان قد التقط حجراً . كان قد لمح مصباحاً .

وقال :

— « هاي ! إن مصابيحكم لا تزال هنا . أنتم غير نظاميين ، يا أصدقائي . هذه فوضى . اكسروا لي هذا . »

وقذف المصباح بالحجر ، فسقط زجاجه في دوي جعل بعض البورجوازيين ، الجاثمين تحت ستائرهم في البيت المقابل ، يصيحون : « هناك ثلاث وتسعون ! » *

وتمايل المصباح في عنف ، وانطفأ . وأمسى الشارع مظلماً على نحو مفاجيء .

وقال غافروش :

— « ذلك هو ، ايها الشارع العجوز . إعتمر بقلنسوتك الليلية . »

والتفت نحو جان فالجان ، وأردف :

— « ما تدعو هذا النصب القائم هناك في أقصى الشارع ؟ انه الـ « آرشيف » ، أليس كذلك ؟ يجب أن تُشظّى هذه الاعمدة الضخمة الحمقى ، قليلا ، ويُصنع منها متراس من المتاريس في لطف . »

واقترب جان فالجان من غافروش .

وقال في همس ، مخاطباً نفسه :

— « يا له من مخلوق مسكين . إنه جائع . »

ووضع قطعة المئة « سو » في يده .

* يقصد ارهاباً كالذي وقع عام ١٧٩٣ خلال الثورة الفرنسية .

ورفع غافروش أنفه ، وقد استولى عليه الدهش لضخامة هذا الـ « سو » البالغة . لقد نظر اليه في الظلام ، وبهره بياض الـ « سو » الكبير . كان يعرف قطع الفرنكات الخمسة بالسماع . كانت شهرتها محببة إلى نفسه . ولقد أبهجه ان يرى إحداها عن كثب . وقال :

— « فلنتأمل النَّمِر . »

وحدق اليها بضع لحظات في اختطاف . ثم التفت إلى جان فالجان وقدم اليه القطعة النقدية ، وقال في عظمة :

— « ايها البورجوازي ، أنا افضل ان اكسر المصابيح . استرجع وحشك الضاري . انت لا تستطيع ان تفسدني . إن له خمسة براثن ، ولكنها لا تخدشني . »

وسأله جان فالجان :

— « ألك أم ؟ »

فأجابه غافروش :

— « لعل لي أكثر مما لك . »

فقال جان فالجان :

— « حسناً ، احتفظ بهذه الدراهم من أجل امك . »

واستشعر غافروش شيئاً من الطمأنينة . وإلى ذلك ، فقد سبق ان تبين منذ لحظة ان الرجل الذي كان يتحدث اليه لم يكن يعتمر بقبعة ، فأوقع ذلك الثقة في نفسه .

وقال :

— « حقاً ، انت لم تعطني اياها لكي تحول بيني وبين تحطيم مصابيح الشوارع ؟ »

— « حطمْ قدر ما تريد . »

فقال غافروش :

— « انت رجل رائع . »

ووضع قطعة الفرنكات الخمسة في احد جيوبه .
وإذ تعاظمت ثقته ، أضاف :
— « هل انت من الشارع ؟ »
— « نعم . لماذا ؟ »
— « هل تستطيع ان تدلني على رقم ٧ ؟ »
— « ماذا تريد من رقم ٧ ؟ »
وهنا كف الطفل عن الكلام . لقد خشي ان يكون قد قال اكثر مما ينبغي . وأقحم اظافره بعنف في شعره . واكتفى بأن اجاب :
— « آه ! هو ذاك . »
وخطرت لجان فالجان فكرة . إن للألم النفسي المرير مثل هذه الفطنة .
وقال للطفل :
— « أأنت الذي يحمل اليّ الرسالة التي أنتظرها ؟ »
فقال غافروش :
— « انت ؟ انت لست امرأة . »
— « الرسالة موجهة إلى الآنسة كوزيت ، أليس كذلك ؟ »
فغمغم غافروش :
— « كوزيت ؟ اجل ، اظن انها موجهة إلى صاحبة ذلك الاسم المضحك . »
فعاد جان فالجان إلى القول :
— « حسناً ، انا الذي ينبغي ان أسلمها تلك الرسالة . أعطني إياها . »
— « في هذه الحال ، ليس من ريب في انك تعرف انني مرسل من جانب المتراس ؟ »
فقال جان فالجان :
— « طبعاً . »

وأقحم غافروش يده في جيب آخر من جيوبه ، وسحب ورقة مطويــة .

ثم ادى تحيـة عسكرية .

وقـال :

— « الاحترام للرسالة . إنها مرسلة من الحكومة الموقتة . »

فقال جان فالجان :

— « أعطني اياها . »

ورفـع غافروش الورقة عالية فوق رأسه .

— « لا تحسب ان هذه الرسالة غرامية . انها موجهة إلى امرأة . ولكنها موجهة إلى الشعب . نحن الرجال نخوض الآن المعركة ، ولكننا نحترم الجنس . إننا لا نفعل ما يفعله أبناء الطبقة المترفة حيث توجـد اسود تبعث برسائل الغرام إلى النياق . »

— « أعطني إياها . »

وواصل غافروش :

— « في الواقع انك تبدو في نظري مثل رجل رائع . »

— « أعطني إياها في سرعـة . »

— « خذها . »

وقدم الورقة إلى جان فالجان .

— « وأسرع انت ايها السيد لا أعرف اسمه ، لأن الآنسة لا اعرف اسمها تنتظر . »

وكان غافروش فخوراً بأن يبدع هذه الكلمة .

وسأله جان فالجان :

— « ألى سان ميرّي يجب ان يرسل الجواب ؟ »

فهتف غافروش :

— « في مثل هذه الحال . سوف تعمل واحدة من تلك الفطائر التي

يدعونها في العامية « بريبوش » * . ان الرسالة آتية من المتراس الذي في شارع الـ « شانفريري » ، وأنا راجع إلى هناك . طابت ليلتك ، ايها المواطن . »

قال غافروش ذلك ومضى لسبيله ، أو على الاصح ، استأنف طيرانه مثل طائر هارب ، نحو البقعة التي أقبل منها . لقد عاود الغوص في الظلام وكأنما قد احدث فيه ثقباً ، بمثل سرعة القذيفة ودقتها . وأمسى شارع الرجل المسلح صامتاً متوحداً كرة اخرى . وفي طرفة عين ، غرق ذلك الطفل العجيب — الذي كان ينطوي على الظلمة والحُلم — في ضباب تلك البيوت السوداء القائمة صفاً ، وضاع ثمة مثل دخان في الدجنة . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسبه قد تبدد أو تلاشى لولا ما سُمع، بعد بضع دقائق انقضت على اختفائه ، من تحطم زجاج صارخ وسقوط رائع لمصباح ينقضّ على الرصيف ، فعاود إيقاظَ البورجوازيين الساخطين على نحو مفاجىء . كان غافروش يجتاز بشارع شوم .

٣

فيما تنام كوزيت وتوسين

ورجع جان فالجان حاملاً رسالة ماريوس .

وارتقى السلم متلمساً طريقه تلمساً ، سعيداً بالظلمة مثل بومة تمسك بفريستها ، وفتح الباب وأغلقه في لطف ، وأصغى ليرى ما إذا كان قد سمع صوتاً ما ، وقرّر أن كوزيت وتوسين كانتا نائمتين ، وغطّس ثلاثة اعواد أو اربعة اعواد ثقاب في زجاجة صندوق الصوفان قبل ان يستخرج شرارة ، فقد ارتعشت يده ارتعاشاً عظيماً . كان ثمة سرقة في ما كان يوشك ان يعمله .

* Brioches وهي حلوى تصنع بالدقيق والسمن والبيض .

واخيراً ، أضيئت شمعته . وأسند مرفقيه على الطاولة ، ونشر الورقة ، وقرأ .
إننا تحت وطـأة الانفعالات العنيفة لا نقرأ ؛ نحن نُذلّ ـ إذا جـاز التعبير ـ الورقـة التي نحملها ؛ نحن نخنقها مثل ضحية من الضحايا ؛ نحن نسحق الورقة ؛ نحن ننشب اظافر غيظنا أو بهجتنا فيها ؛ نحن نعدو إلى النهاية ، ونحن نثب إلى البداية . إن الانتباه لمحموم . إنه يفهم بالجملة ، تقريباً ، كل ما هو أساسي . إنه يتعلق بنقطة ما ، وعندئذ تتلاشى سائر النقاط . ففي مذكرة ماريوس إلى كوزيت ، لم ير جـان فالجان غير هذه الكلمات :

« ... انا أموت . وحين تقرأين هذه الاسطر ، سوف تكون روحي عـلى مقربة منك . »

وأمام هذين السطرين ، استبد بـه انذهال رهيب . وظل لحظة وكأنما سحقه تغير الانفعال الذي تم في ذات نفسه ، ونظر إلى مذكرة ماريوس في ضرب من الدهش الثمل . كانت امام عينيه تلك الروعة : مـوت الـكائن البغيض .

وأطلق صيحة رهيبة من الابتهاج الباطني . واذن ، فقد قضي الأمر . لقد اقبلت النهاية بأسرع مما جرؤ على ان يرجو . كان المخلوق الـذي عاق قدَرَه في طريقه إلى الزوال . كان ذاهباً بارادته ، عن رضاً ، وعن طيب نفس . ومن غير ما تدخل من جانبه ، جانبِ جان فالجان ، ومن غير ما خطأ من ناحيته هو . كان « هذا الرجل » على وشك ان يموت . بل لعله ان يكون قد مات وانتهى . وهنا اخذت حُمّاه تحسب وتقدّر . لا ، إنه لمّا يمت . كان واضحاً ان الرسالة كتبت لكي تقرأها كوزيت في الصباح . ومنذ سُمع هذان الوابلان من الرصاص بـين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، لم يقع شيء البتة . إن المتراس لن يهاجَم جدياً إلا عند منبلج الصباح . ولكن سيان ، لأنه في اللحظة التي يخوض فيها « ذلك الرجل » غمار تلك المعركة يلمّ به الهلاك . لقد وقع

في الشبكة . واستشعر جان فالجان انه قد أنقذ . إنه خليق بعد ذلك بأن يجد نفسه ، كرة اخرى ، وحيداً مع كوزيت . لقد انقضت المنافسة، وبدأ المستقبل من جديد . لم يكن يتعين عليه غير ان يبقي المذكرة في جيبه . عندئذ لن تعرف كوزيت ما الذي حل بـ « ذلك الرجل » أبداً .
« ليس علي إلا ان ادع الامور تتخذ سبيلها . ذلك الرجل لن يستطيع الفرار . إن لم يكن قد مات بعد ، فمن المؤكد انه سوف يموت . يا للسعادة ! »

حتى إذا قال ذلك كله في ما بينه وبين نفسه استشعر الكآبة والغم .

وبعد ساعة تقريباً ، خرج جان فالجان في لباس الحرس الوطني الكامل متنكباً سلاحه . كان البواب قد وجد ، في الجوار — بسهولة — كل ما كان ضرورياً لاتمام تسلحه . كانت معه بندقية مشحونة ، وجعبة ملأى بالخراطيش . ومضى في اتجاه الاسواق .

٤
اندفاع غافروش المفرط

وفي غضون ذلك وقع لغافروش حادث غير منتظر .

ذلك ان غافروش ، بعد ان رشق بالحجارة ، وفقاً لما املاه عليه ضميره ، مصباح شارع شوم ، شخص إلى شارع الـ « فيّي هودرييت » . وإذ لم ير « هرة » هناك ، فقد ظن ان الفرصة سانحة لكي يفرغ كل ما كان قادراً عليه من غناء . ولم يعق الغناء سيره . لقد ادى إلى تسارعه . وشرع ينثر على طول البيوت الهاجعة أو المروّعة هذه الادوار المضرمة للنار :

في المشى المظلل بالشجيرات راح العصفور يعلمن ويغتاب
زاعماً ان آتالا
ذهبت أمس مع رجل روسي .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

يا صديقي بيرو ، انت تثرثر
لان « ميلا » دقت ذلك اليوم
على زجاج نافذتها ونادتني .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

الفتيات الخالعات العذار لطيفات جداً .
ان سُمهن الذي يسحرني
يُضيع صواب مسيو اورفيلا .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

انا احب الحب وخصوماته الخفيفة ؛
انا احب آغنيس ، انا أحب باميلا
ولقد احترقت ليزا وهي تشعلني .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

بالامس حين رأيت خارّي
« سوزيت » و « زيلا » الاسودين الكبيرين
امتزجت روحي بطياتها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايها الحب ، حين تعتمر بورود
« لولا » في الظلام ، حيث تتألق
فاني اهلك هلاكاً ابدياً بسبب من هذا .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايه يا جانّ ، وقد جلستِ الى مرآتك تتزينين !
لقد اختفى قلبي ذات يومٍ صاحٍ .
وانا اعتقد ان جان هي التي استولت عليه .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

وفي المساء حين خرجت من الرقص
أريت « ستيلا » النجوم ،
وقلت لهنّ : انظرن اليها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

كان غافروش يسرف ، خلال إنشاده ، في ارسال الحركـات والايماءات . فالايماءة هي مرتكَز اللازمة الغنائية . واحدث وجهه ، وهو قائمة لا تنتهـي من الاقنعة ، تجهمات اكثر تشنجاً وغرابة من افـواه قماشة ممزقة تعبث بها ريـح عاتية . وإذ كان وحده ، وتحت جنـح الظلام ، فان ذلك لم يُرَ ـ لسوء الحظ ـ وما كان قابلا لأن يُرى . ان ثمـة مثل هذه الكنوز الضائعة .

وفجأة كف عن السير .

وقـال :

ـ « فلنقطع الاغنية . »

كانت عينه السنورية قد تبيّنت ، اللحظة ، في فجوة احد ابواب العربات ، ما يدعى في فن الرسم تناسقاً ، يعني مخلوقاً وشيئاً . أما الشيء فكان كارّة تُجر باليد ، وأما المخلوقة فكان رجلا من ابناء « اوفيرنْيْ » نائماً في داخلها .

لقد استند ذراعا الكارّة إلى الرصيف ، واستند رأس الرجل الافيرنيي إلى عارضة الكارة الخلفية . كان جسده ملتفاً فوق ذلك السطح المنحني . وكانت قدماه تمسان الارض .

وعرف غافروش ، بما تم له من تجارب في هذا العالم ، انه امام رجل سكران .

كان حمالاً ما ، اسرف في الشراب ، وأسرف في النوم .

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه :

— « لمثل هذا تصلح ليالي الصيف . ان الرجل الاوفيرنيي نائم في كارته . سوف نأخذ الكارة من اجل الجمهورية ، ونترك الاوفيرنيي للملكيــة . »

وكان عقله قد تلقّى هذه الايماضة منذ لحظة :

— « هذه الكارة تلائم متراسنا احسن الملاءمة . »

كان الاوفيرنيي يغط .

وفي رفق ، سحب غافروش الكارة من وراء ، والرجل الاوفيرنيي من أمام ، يعني من قدميه . وما هي إلا دقيقة حتى كان الاوفيرنيي ، الرابط الجأش ، منطرحاً على الرصيف .

لقد تم الاستيلاء على الكارة .

وكان غافروش الذي تعوّد ان يواجه كل ما ليس بمتوقع من الجهات جميعاً ، كامل العدة مستعداً لكل الاحتمالات . ومد يده إلى احد جيوبه ، وسحب قصاصة من ورق ، وبقية من قلم رصاصي أحمر مسروقاً من احــد النجارين .

وكتب :

« الجمهورية الفرنسية

تسلمت كارّتك . »

ووقّع : « غافروش » .

حتّى إذا تم له ذلك ، وضع الورقة في جيب الصدرة المخملية التي كان يرتديها الاوفيرنيي المستمر في غطيطه ، وامسك بذراعي الكارة بيديه الاثنتين ، وانطلق في اتجاه الاسواق ، دافعاً الكارة امامه في سرعة بالغة ، وفي صخب ماجد مظفّر .

وكان ذلك خطراً . فقد كان في المطبعة الملكية مركز للجند . ولم يكن غافروش قد فكر في هذا . وكان يحتل هذا المركز بعض رجال حرس الضواحي الوطني . وبدأت يقظة ما ، تثير الكتيبة ، فارتفعت رؤوسها فوق سُرر المعسكر . فقد كان تحطُّم مصباحين الواحد تلو الآخر ، وتلك الاغنية المنشَدة بأعلى الصوت ، شيئاً كثيراً بالنسبة إلى تلك الشوارع البالغة الجبن ، التواقة إلى الرقاد عند الغروب ، والمسارعة في ساعة مبكرة جداً إلى وضع المطفأة على شمعتها . فمنذ ساعة ، و « المتشرد » يطلق في تلك المنطقة الآمنة مثل طنين ذبابة في زجاجة . وأصغى ضابط الضاحية . كان رجلا فطناً .

وجاوز جري العربة المجنون حدود الابطاء الممكن ، وحمل الضابطَ على ان يحاول الاستطلاع .

وقال :

— « ان ههنا عصبة كاملة . يجب ان نمضي في تؤدة . »

كان واضحاً ان افعوان الفوضوية قد خرج من صندوقه ، وانشأ يضطرب في الحي .

وغامر الضابط فغادر المركز في خطى متسللة .

وفجأة ، فيما كان غافروش يدفع كارته ، وفيما كان على وشك ان ينبثق من شارع « فيي هودرييت » ، وجد نفسه وجهاً لوجه ، أمام بذلة عسكرية وقلنسوة ، وريشة قلنسوة ، وبندقية .

وللمرة الثانية كف عن الانطلاق .

وقـال :

— « هاي ! إنـه هو . صباح الخير ، ايها النظام العام . »

ولكنّ دهش غافروش كان قصيراً ؛ لقد ذاب ، في سرعة .

وصاح الضابط :

— « إلى أين انت ذاهب ، ايها المتشرد ؟ »

فقال غافروش :

— « ايها المواطن ، انا لم أدعُكَ بورجوازياً حتى الآن . لمـاذا تهينني ؟ »

— « إلى أين انت ذاهب . أيها الوغد ؟ »

فعاد غافروش إلى القول :

— « سيدي ، ربما كنتَ أمسِ رجلا أريباً . ولكنك عُزلت من منصبك هـذا الصباح . »

— « أنا اسألك إلى اين انت ذاهب ، ايها الجرو الطويل الشعر ؟ »

فأجابه غافروش :

— « انت تتحدث في لطف . حقاً ، إن احداً لا يستطيع ان يحزر ما عمرك . يجب ان تبيع شعرك كله ، لقاء مئة فرنك للشعرة الواحدة. وبذلك يجتمع لك خمسمئة فرنك ! »

— « إلى أين انت ذاهب ؟ إلى أين انت ذاهب ؟ إلى أين انـت ذاهب ، يا قاطع الطريق ؟ »

فأجاب غافروش :

— « هذه كلمات بشعة . فحين يرضعك المرء لأول مرة ، يتعين عليه أن يغسل فمك جيداً . »

وسدد الضابط رأس حربته ، وقال :

— « أتريد أن تخبرني ، آخر الأمر . إلى أين انت ذاهب ، أيها الدنيء ؟ »

فقال غافروش :

— « ايها الجنرال ، أنا ذاهب لآتي بطبيب لزوجتي طريحة الفراش . »

فصاح الضابط :

— « إلى السلاح ! »

إن من معجزات الرجال العظام ان ينقذوا انفسهم بواسطة ذلك الذي أهلكهم . واستعرض غافروش الموقف كله في لحظة . كانت الكارة هي التي عرضته للخطر ، وكان على الكارة نفسها أن تحميه

ولحظة كان الضابط على وشك أن يهجم على غافروش ، غدت الكارة قذيفة ، واندفعت عليه في ضراوة — بعد ان قذف بها « المتشرد » بكامل قوته . وخرّ الضابط ، وقد اصابته في صميم بطنه ، إلى الوراء ، في الساقية ، بينا وثبت بندقيته في الهواء .

ولم يكد رجال المركز يسمعون صيحة الضابط حتى اندفعوا في اختلاط وفوضى . لقد ادى صوت البندقية إلى اطلاق نار جماعي ، كيفما اتفق ، عاد بعده الجند إلى شحن اسلحتهم ، وشرعوا يطلقون النار من جديد.

ودام اطلاق النار هذا ، المرسل على غير هدى ، خمس عشرة دقيقة كاملة ، وقتل بضعة الواح من الزجاج .

وفي غضون ذلك كان غافروش — الذي ارتد في يأس ، قد وقف بعد ان اجتاز خمسة شوارع أو ستة شوارع من هناك ، وجلس لاهثاً فوق المعلم الذي يشكل زاوية شارع « الاطفال الحمر » .

واصغى في انتباه .

وبعد ان تنفس بضع لحظات ، التفت نحو الجهة التي كان اطلاق النار

جائشاً فيها ، ورفع يده اليسرى إلى مستوى أنفه . وقذف بها ثـلاث مرات إلى أمام ، ضارباً مؤخرة رأسه . في الوقت نفسه ، بيده اليمنى : حركة فخيمة كشّف فيها « المتشرد » الباريسي التهكمَ الفرنسي ، وكانت فعالة من غير شك ، إذ عُمِّرت ، حتى تلك اللحظة ، نصف قـرن من الزمان .

وعكر ابتهاجه ذاك تفكير مرير .

لقد قـال :

— « اجل ، انا اقهقه ، أنا ألوي نفسي ، أنا أفيض بالبهجة ، ولكني أضل عن سبيلي ، ويجب علي الآن ان اقوم بدورة . شرط ان اصل إلى المتراس في الوقت المناسب . »

وفي الحال استأنف انطلاقه .

وقال ، من غير ان يكف عن العدْو :

— « آه ، أجل ، أين كنتُ ؟ »

وبدأ ينشد اغنيته من جديد ، فيما غاص في الشوارع بسرعة . وتراجعت اصداء هـذه الابيات في الظلام :

ولكن لا تزال هناك سجون باستيل .
وانا اريد ان أطفىء الخصومة .
في النظام العام الذي هناك .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايريد احد ان يلعب لعبة الاساطين والكرات الخشبية ؟
ان العالم القديم كله ينهار ،
حين تجري الكرة الضخمة .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايها الشعب العجوز الطيب ، فلنكسر
بضربة عكاز هذا اللوفر ، حيث تُعرض
الملكية في زينتها وتخريجها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

لقد اقتحمنا القضبان المشبكة ،
وفي ذلك اليوم لم يحسن شارل
العاشر المقاومة ، وانحل غراؤه .

حيث تذهب الفتيات الجميلات
لونلا .

ولم يكن تقلّد رجال المركز لسلاحهم من غير ثمرة . لقد استولوا على الكارة ، واسروا السكير . فأما الأولى فوضعوها في مستودع الحطب ، واما الثاني فقد حوكم بعد ذلك امام المجلس الحربي بوصفه مشاركاً في الجريمة . لقد اتخذت نيابة ذلك العهد العامة من هذه الحادثة وسيلة لاظهار غيرتها التي لا تعرف الكلل من اجل الدفاع عن المجتمع .

إن مغامرة غافروش ، المصونة بين تقاليد حي التامبل وأحاديثه : هي احدى ذكريات بورجوازيي الـ « ماريه » القدماء ، الادعى إلى الرعب ، وهي تحمل في ذواكرهم هذا العنوان : هجوم ليليّ على مركز الجند في المطبعة الملكية .

تم المجلد الرابع

ويليه المجلد الخامس

مطبعة العلوم

حارة حريك - لبنان

فهرست القسم الرابع : قصيدة شارع بلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز

ص

الكتاب الاول : بضع صفحات من التاريخ

الكتاب الثاني : ايبونين

الكتاب الثالث : المنزل الذي في شارع بلوميه

الكتاب الرابع : العون السفلي قد يكون عوناً علوياً

الكتاب الخامس : حيث النهاية لا تشبه البداية

الكتاب السادس : غافروش الصغير

الكتاب السابع : لغة السوقة

الكتاب الثامن : رقى وأطلال

الكتاب التاسع : إلى اين هما ذاهبان

الكتاب العاشر : اليوم الخامس من حزيران ١٨٣٢

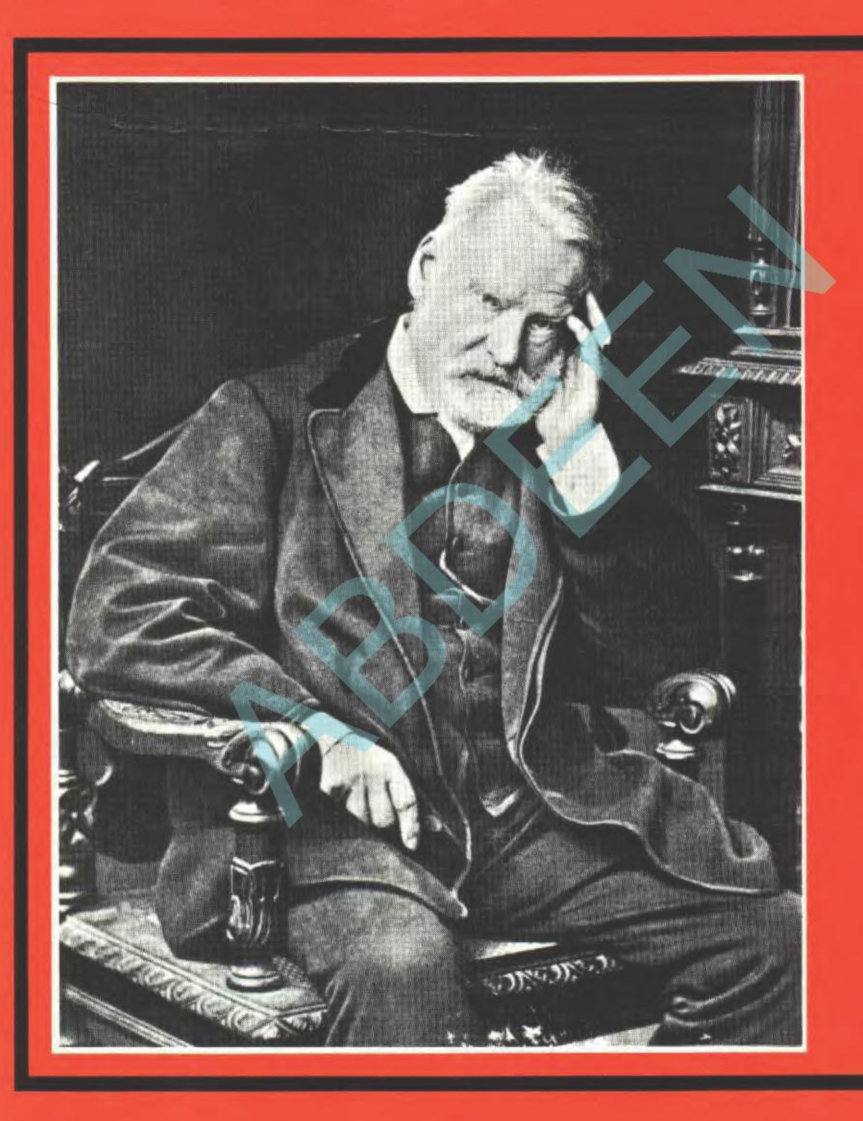
الكتاب الحادي عشر : الذرة تؤاخي الاعصار

الكتاب الثاني عشر : كورنث

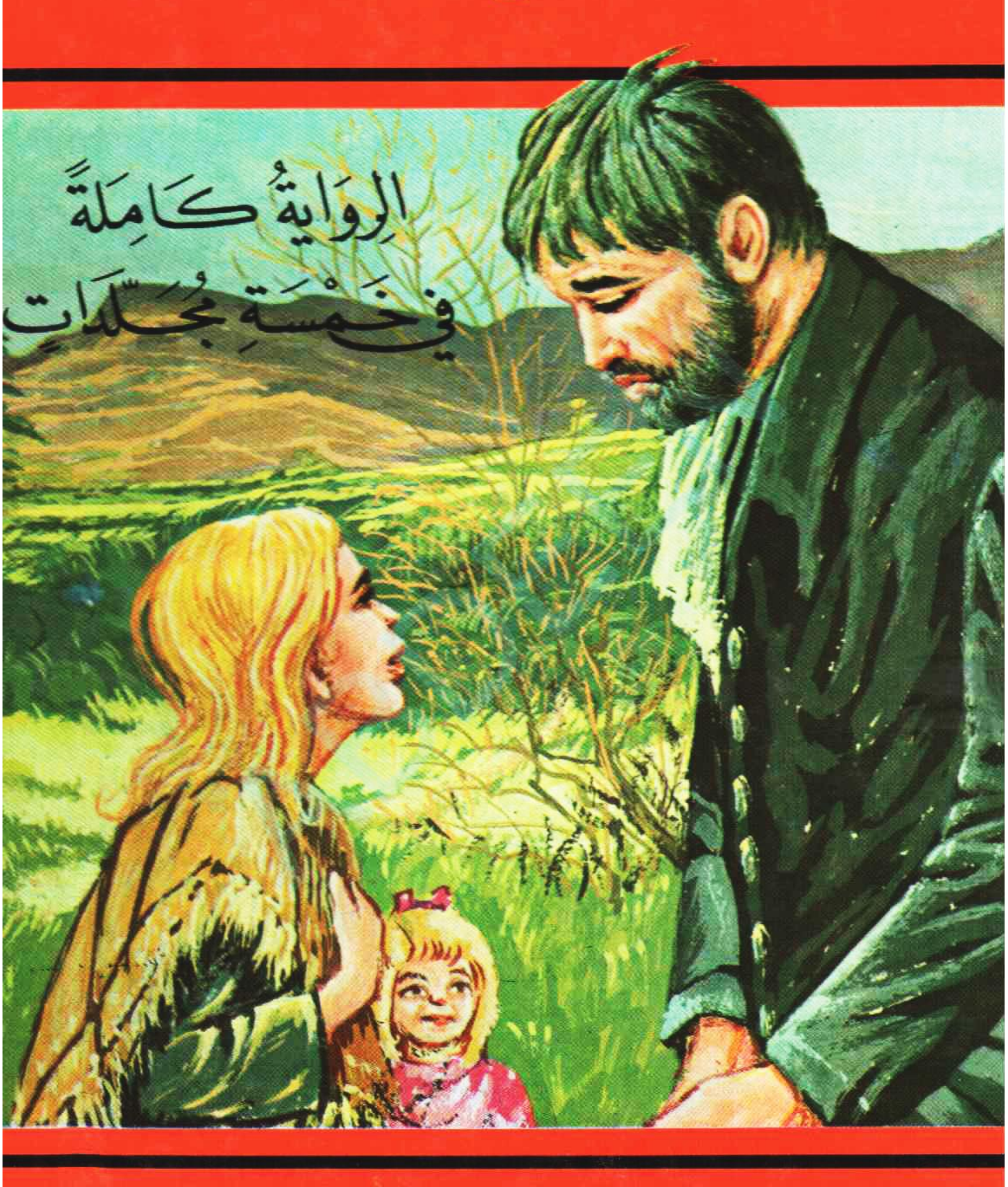
الكتاب الثالث عشر : ماريوس يدخل في الظلام

الكتاب الرابع عشر : عظمة اليأس

الكتاب الخامس عشر : شارع الرجل المسلح

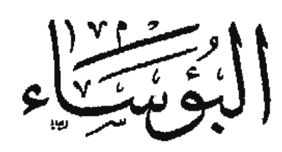


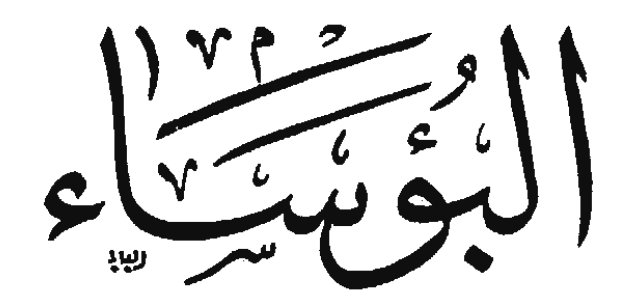
البؤساء



٥

دار العلم للملايين


البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الخامس

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القِسم الخامِسُ

جَانْ ڤالجَانْ

الكتاب الأول

الحرب بين أربعة جدران

١

« كاريبد » • ضاحية سان انطوان
و « سيلا » ضاحية التامبل

إن المتراسين الأشد رسوخاً في الذاكرة ، واللذين قد يشير اليهما مراقب الأمراض الاجتماعية ، لا ينتسبان إلى العهد الذي تقع فيه احداث هذا الكتاب . فهذان المتراسان — وكل منهما رمز ، ذو شكل مختلف ،

• كاريبد Charybde و Scylla تيارات مائية وصخور شهيرة في مضيق مسينا كان الملاحون القدماء يخافونها اعظم الخوف فيحاولون اجتنابها فلا يكادون ينجون من بعضها حتى يقعوا في بلاد الآخر .

لحالة رهيبة – إنما انبثقا من الأرض ايام ثورة حزيران ١٨٤٨ المشؤومة ، أكبر حرب شوارع شهدها التاريخ .

ولكن يتفق في بعض الأحيان ان ذلك القانط الكبير – الرعاع – يحتج ، حتى على المبادىء ، حتى على الحرية ، والمساواة ، والاخاء ، حتى على الاقتراع العام ، حتى على حكومة الجميع بواسطة الجميع . من اعماق آلامه المريرة ، من خيباتها ، من ضروب حرمانها ، من حميّاتها ، من شدائدها . من أبخرتها الوبيئة ، من جهالاتها . من ظلماتها . وعندئذ يشن السوقة الحرب على الشعب .

إن الصعاليك يهاجمون الحق العام ؛ ان حكومة الدهماء تتمرد على الشعب .

تلك أيام فاجعة . ذلك بان ثمة دائماً مقداراً ما من الحق في هذا الجنون . إن ثمة انتحاراً في تلك المبارزة . وهذه الكلمات ، التي يُقصد بها إلى الاهانة ، الصعاليك ، الرعاع ، حكومة الدهماء ، السوقة ، تثبت – وا أسفاه – خطيئة اولئك الذين يحكمون اكثر مما تثبت خطيئة اولئك الذين يتألمون . تثبت خطيئة اصحاب الامتيازات اكثر مما تثبت خطيئة المنبوذين .

اما نحن فلسنا نلفظ هذه الكلمات ، ابداً ، إلا في أسى وفي احترام . لانه حين تسبر الفلسفةُ الحقائق التي تتصل بها ، فانها كثيراً ما تجد فيها ضروباً من العظمة عديدة إلى جانب مظاهر البؤس والشقاء . لقد كانت اثينا خاضعة لحكم الدهماء . والصعاليك هم الذين صنعوا هولندة . والسوقة أنقذت رومة غير مرة . والرعاع اتبعوا يسوع المسيح .

ليس ثمة مفكر لم يتأمل في وقت ما عظمةَ الطبقة الوضيعة .

ولا ريب في ان القديس جيروم كان يفكر في هؤلاء الرعاع ، وفي جميع هؤلاء الفقراء ، وفي جميع اولئك الصعاليك ، وفي جميع هؤلاء البؤساء الذين انبثق منهم الرسل والشهداء ، عندما اطلق هذه

إن حفائظ هذه الجمهرة التي تتألم والتي تدمى ، إن عنفها في تحريف المبادىء التي هي حياتها ، ومقاومتها الفعالة للقانون ، كلها انقلابات شعبية ، وينبغي ان تُكبت . إن الرجل المخلص ليتفانى من اجل ذلك ، وهو يقاوم هذه النزعات بسبب من حبه نفسه لتلك الجمهرة . ولكن ما اكثر ما يستشعر أنها معذورة ، حتى وهو يعارضها ، وما اكثر ما يجلها حتى وهو يقاومها ! انها واحدة من تلك اللحظات النادرة التي نحس خلالها ، ونحن نعمل ما يجب ان نعمله ، شيئاً يحبط تدابيرنا وينصحنا بعدم الذهاب إلى أبعد . نحن نصر ونثابر ، إننا مكرهون على ذلك . ولكن الضمير ، على الرغم من ارتياحه ، محزون : واداء الواجب يشوهه انقباض في الفؤاد .

ولنسارع إلى القول إن حزيران عام ١٨٤٨ كان حادثاً خارقاً للعادة ، وانه يكاد يكون من المتعذر على المرء ان يصنفه في فلسفة التاريخ . وكل ما قلناه اللحظة ينبغي ان يوضع جانباً عندما ننظر في تلك الفتنة الفريدة التي نستشعر فيها قلقَ العملِ المقدسَ يطالب بحقوقه . كان ينبغي ان تُقمع . كان هذا هو الواجب . ذلك لانها هاجمت الجمهورية . ولكن ، اي شيء كان حزيران ١٨٤٨ في الحقيقة ؟ ثورة الشعب على نفسه .

وحين يظل الموضوع نصب العين لا يكون ثمة استطراد . فليسمح لنا اذن ان نلفت نظر القارىء إلى المتراسين الفريدين إلى ابعد الحدود ، اللذين تحدثنا عنهما اللحظة ، واللذين ميزا تلك الثورة :

لقد سد احدهما ضاحية سان انطوان ، وحمى الآخر منافذ ضاحية التامبل . واولئك الذين نهضت أمامهم ، تحت سماء حزيران الزرقاء النيرة ، هاتان الرائعتان الرهيبتان من روائع الحرب الاهلية ، لن ينسوهما ابد الدهر .

كان متراس سان انطوان هائلا مخيفاً ؛ كان يتألف من ثلاثة ادوار ، وكان طوله سبعمئة قدم . لقد سد فم الضاحية العريض من اقصاه إلى اقصاه ، يعني ثلاثة شوارع . ولقد نهض مخدداً ، ممزقاً ، مسنناً ، مجزءاً ، مثلّماً بشق هائل ، مسنّداً إلى أكوام من الحجارة كانت هي نفسها بروجاً بارزة ، دافعاً رؤوساً هنا وهناك ، متكئاً في قوة على أكمتي بيوت الضاحية الضخمتين – نهض مثل سد سيكلوبيّ * في اعماق تلك الساحة الرهيبة التي شهدت اليوم الرابع عشر من تموز . وتدرّج تسعة عشر متراساً على طول الشوارع ، خلف ذلك المتراس الرئيسي . ولوقد نظرت اليه مجرد نظر اذن لأحسست في الضاحية بذلك الألم الهائل المحتضر الذي بلغ تلك اللحظة الاخيرة التي تتحول فيها الشدة إلى كارثة . من اي شيء شُيد ذلك المتراس ؟ من انقاض ثلاثة بيوت ، كل منها ذو ستة ادوار ، سُوّيت بالارض لهذا الغرض ، – كذلك قال بعضهم . ومن اعاجيب الاحقاد جميعاً ، – كذلك قال بعضهم الآخر . كان له ذلك المظهر المبكي الذي تتخذه جميع اعمال البغض : الخراب . وقد تقول : من الذي أقام ذلك ؟ وقد تقول ايضاً ومن الذي دمره ؟ كان ارتجالَ الفورة. انظر ! هذا الباب ! هذا الحاجز المشبك ! هذا الافريز ! اطار النافذة هذا ! هذا الكانون المكسور ! هذا المرجل المصدوع ! إيتوا بكل شيء! اطرحوا كل شيء ! إدفعوا ، دحرجوا ، إحفروا ، خربوا ، إهدموا كل شيء ! كان تعاونَ الرصيف ، والحصاة ، ولوح الخشب ، والقضيب الحديدي ، والخرقة ، واللوح الزجاجي المحطم ، والكرسي المجرد من قشه ، وبقايا الملفوف ، والمزقة ، والثوب البالي ، واللعنة . كان عظيماً وكان صغيراً . كان الحفرةَ التي لا قرار لها زيّفها الاختلاط والعماء في

---

* نسبة الى جماعة السيكلوب الاسطورية ، وقد سبق التعريف بها . والمقصود مثل سدّ جبار .

الحال . الكتلة قرب الذرة ؛ شقة الحائط المهدومة والصحن المكسور . تآخٍ متوعد بين جميع الفضلات . كان ميسيف * قد طرح صخرته هناك ، وكان يعقوب قد طرح كسرة قِدره . وعلى الجملة فقد كان شيئاً فظيعاً . كان آكروبوليس الحفاة . كانت عربات مقلوبة توعّر المنحدر . وكانت عجلة نقل قائمة هناك ، بالعرض ، ومحورها مسدد إلى السماء ، فكأنه ندبة فوق تلك الواجهة الصاخبة . وكانت عربة عمومية مرفوعة في إبتهاج ، بقوة الايدي ليس غير ، فوق قمة الركام ، وكأنما أراد مهندسو تلك الوحشية ان يضيفوا الطيش إلى الرعب — نقول كانت تلك العربة يتقدم مجرّها المجرد عن دابته إلى خيول الهواء المجهولة . كانت تلك الكتلة الجبارة ، طمي الفتنة ، تمثل للعقل صورة اوسا فوق بيليون ** في كل الثورات . عام ٩٣ فوق عام ٨٩ ، التاسع من تيرميدور فوق العاشر من آب ، الثامن عشر من بروميير فوق الحادي والعشرين من يناير ، فانديمير فوق بريربال ، و١٨٤٨ فوق ١٨٣٠ . وكان المكان يستحق تلك المشقة ، وكان ذلك المتراس خليقاً بأن يبرز في نفس المكان الذي اختفى منه الباستيل . ولو ان الاوقيانوس استطاع ان ينشيء سدوداً اذن لبناها على هذا النحو . وكانت سورة الفيضان منطبعة على ذلك السد الشائه . أيّ فيضان ؟ الجمهور . كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى اللغط متحجراً . كان خليقاً به ان يظن انه سمع فوق ذلك المتراس ، وكأنما كانت هناك فوق قفيرها نحلات التقدم

---

* Sisyphe ابن إيول وملك كورنث ، وقد اشتهر بقسوته الفظيعة ، وتقول الاسطورة انه حكم عليه بعد موته بأن يدحرج في جهنم صخرة ضخمة فوق قمة جبل حيث كانت تلك الصخرة تعاود السقوط من غير انقطاع .

** Pélion جبل في تسالية يجاور لجبل أوسا Ossa . وتقول الاساطير انه يوم اراد « العمالقة » ان يصعدوا الى السماء ، بعد ان ثاروا على جوبتير ، وضعوا بيليون فوق اوسا . ومن هنا نشأ قولهم : « ركمّ بيليون فوق أوسا . » يعني بذل المستحيل للوصول الى غاية ما .

بالقوة ، تلك النحلات السوداء الهائلة الناشطة في الظلام . اكان دغلا ؟ أكان عيداً من اعياد باخوس ؟ أكان معقلا ؟ لقد بدا وكأن الدوار قد شيده بخفق الجناح . كان ثمة شيء من المستنقع في ذلك المتراس ، وشيء من اوليمبوس في تلك الفوضى . كنت ترى ، في عماء مليء باليأس، عوارض سقوف ، وقطعاً من علاليّ بورق جدرانها ، وأطُر نوافذ بزجاجها كله مزروعاً في الانقاض ، تنتظر المدفعية ، ومداخن مقتلعة ، وخزائن ، وطاولات ، ومقاعد ، في تقوّض نابح ، وألفاً من تلك الاشياء الحقيرة ، التي يأباها الشحاذ نفسه ، والتي تنطوي في آن معا على هيجان وعدم . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنها كانت حطام شعب ، حطاماً من خشب ، من حديد ، من برونز ، من حجارة ، وان ضاحية سان انطوان قد جرفتها هناك إلى بابها ، بضربة هائلة من مكنسة ، مشيدة متراسها من بؤسها . ثم ان بعض قُرم الحطب الشبيهة بقطع الخشب الغليظة القصيرة ، والسلاسل المفككة ، والهياكل الخشبية ذوات المساند الخاصة بالرفوف المتخذة شكل المشانق ، والدواليب الناتئة أفقياً من بين الانقاض — إن هذه كلها دغمت بصرح الفوضى ذاك صورةَ النكال القديم الذي تحمّله الشعب . لقد اتخذ متراس سان انطوان من كل شيء سلاحاً . لقد انبثق من هناك كل ما كان في ميسور الحرب الاهلية ان تقذف به رأس المجتمع . انها لم تكن معركة . كانت داء بلغ غاية استفحاله ، فالبنادق القصيرة الخفيفة التي دافعت عن ذلك المعقل والتي كان بينها بعض البنادق العادية ، نثرت فتاتاً من الخزف المطليّ ، وعُظَيمات ، وأزرار سترات ، وحتى دواليب طاولات صغيرة — قذائف خطرة بسبب من الرصاص . كان ذلك المتراس مجنوناً ؛ لقد أطلق نحو السحب ضجيجاً يمتنع على الوصف . وفي بعض الاحيان كان يتحدى الجيش فيغطي نفسه بالحشود وبالعاصفة . لقد توجته جمهرة من الرؤوس اللامعة ، وملأه تألبٌ متراصٌ . كانت قمته شائكة بالبنادق ،

والسيوف ، والعصي ، والفؤوس ، والحراب ؛ وكان علم احمر كبير يخفق مع الريح ، وكان في ميسور المرء ان يسمع صيحات القيادة ، واناشيد الهجوم ، وقرع الطبول ، وتنهدات النسوة ، وضحكات الجائعين المظلمة الضارية . كان ضخماً موارأ بالحياة . وانطلق منه هزيم رعود يخيّل اليك انه منطلق من ظهر بهيمة كهربائية . لقد حجبت روح الثورة بسحابها تلك القمة التي زمجر فيها صوت الشعب الشبيه بصوت الله . وانبعث جلال عجيب من ذلك العملاق المليء بالنفايات . كان كومة من الاقذار ، وكان جبلَ سيناء .

وكما قلنا من قبل لقد هاجم باسم الثورة ، ماذا ؟ الثورةَ . كان هذا المتراس — المصادفة ، الفوضى ، الانشداه ، سوء التفاهم ، المجهول — يواجه الجمعية التأسيسية ، وسيادة الشعب ، والاقتراع العام ، والامة ، والجمهورية . وكان هو الكارمانيول * متحدياً المارسييز . تحدّ مجنونٌ ولكنه باسل ، ذلك بأن هذه الضاحية العتيقة بطلة .

وتبادلت كل من الضاحية ومتراسها المعونة . لقد عضدت الضاحية المتراس ، وقوّى المتراس الضاحية . وامتد المتراس الضخم مثل جرُف تحطمت عليه ستراتيجية جنرالات افريقيا . إن كهوفه ، ونواميه الغريبة ، وثآليله ، وحدباته قد كشرت ، إذا جاز التعبير ، وضحكت ساخرة تحت الدخان . وتلاشت القذائف هناك في اللاشكل . وغاصت القنابل الصغيرة هناك ، والتُهمت ، وغارت . ولم توفق كُرات المدافع إلا إلى إحداث الحفر ، فأي فائدة من تسديد القذائف إلى العماء ؟ وأخذت الكتائب ، المتعودة اشد مشاهد الحرب وحشية ، تنظر بعين قلقة إلى هذا المتراس البهيمي الضاري ، الشبيه في تشوّكه بالخنزير البري ، وفي ضخامته بالجبل .

وعلى ربع فرسخ من هناك ، عند زاوية شارع التامبل الذي يصب

* نوع من الرقص الغنائي شاع عام ١٧٩٣ اثناء الثورة الفرنسية وقد سبق التعريف به .

في الجادة قرب «شاتو دو» ، إذا أتلعتَ عنقك في جسارة وراء النقطة التي تشكلها واجهة مخزن دالمانيْ ، تلمح في المدى البعيد ، خلف القناة ، في الشارع الذي يرتقي منحدرات الـ «بيغيل» ، عند قنة الكثيب ، جداراً غريباً يصل إلى الدور الثاني من واجهات المنازل ، ضرباً من صلة الوصل بين البيوت القائمة إلى اليمين والبيوت القائمة إلى اليسار ، وكأن الشارع طوى بنفسه ، كرة ثانية ، جداره الأعلى لكي يحتجب على نحو مفاجيء . كان ذلك الجدار مبنياً من حجارة الارصفة . كان مستقيماً ، صحيحاً ، عابساً ، عمودياً ، مسوّى بالزاوية المثلثة ، مشيداً بخيط البناء ، مقوّماً بالفادن . لم يكن فيه اسمنت البتة . من غير شك ، ولكن ذلك لم يوهن من معماريته الخشنة ، شأنه في هذا شأن بعض الاسوار الرومانية . ومن ارتفاعه كان في ميسور المرء ان يحزر عمقه . كان أعلى السور متوازياً ، رياضياً ، مع قاعدته . وههنا وهناك كان في استطاعتك ان تتبين ، على السطح الرمادي ، كوى تكاد لا تُلحظ ، تشبه خيوطاً سوداء . وكانت مسافات متساوية تفصل ما بين هذه الكوى . وكان الشارع مقفراً على مرمى النظر . وكانت النوافذ كلها والابواب كلها موصدة . وفي الخلفية ، نهض ذلك السد الذي جعل الشارع زقاقاً غير نافذ . جدار جامد هاديء . لم يكن في ميسورك أن ترى احداً ، أو أن تسمع شيئاً . لا صيحة ، لا صوت ، لا نفَس . قبر من القبور .

وغمرت شمس حزيران الباهرة هذا الشيء الرهيبَ بالضياء :
ذلك كان متراس ضاحية التامبل .

حتى إذا بلغ المرء الارض ورآها ، كان من المتعذر عليه ولو كان اكثر الناس جرأة ، ان لا يقلق أمام هذا الشبح الخفي . كان محكماً متداخلا ، متراكباً ، مستقيماً ، متناسقاً ، وفاجعاً . كان المرء يستشعر ان رئيس هذا المتراس كان عالماً بالهندسة ، أو شبحاً . كان المرء يراه ،

وكان يتكلم بهمس . حتى إذا غامر احد بين الفينة والفينة ـ جندي أو ضابط أو ممثل للشعب ـ وحاول ان يعبر الشارع المهجور ، سُمعت صفرة حادة وخفيضة ، وسقط عابر السبيل جريحاً أو صريعاً . أما إذا نجا فعندئذ كانت كرة من كرات المدافع تُرى غائبة في احد المصاريع الموصدة ، في فسحة بين حجري بناء ، في جص جدار من الجدران . وكانت تلك الكرة كبيرة في بعض الاحيان . ذلك ان رجال المتراس كانوا قد صنعوا من قطعتين من انبوب غاز حديدي مصبوب ، سُد احد طرفيه بالدسُر * وطين المواقد ، مدفعين صغيرين . وهكذا لم يبق ثمة هدر للبارود لا طائل تحته . كانت كل طلقة فعالة تقريباً . وكانت ههنا وههناك بضع جثث ، وبرك دم على الرصيف . وانا اذكر كيف راحت فراشة بيضاء تطوّف في الشارع جيئة وذهوباً . إن الصيف لا يتنازل عن عرشه .

وفي الجوار كانت ارصفة ابواب العربات مغطاة بالجرحى .

كنت تحس نفسك منظوراً من شخص لم تره ، وان الشارع بطوله كان معرضاً لنيران البنادق .

وإذ احتشدوا خلف صهوة الجواد التي يشبهها مدخل ضاحية التامبل ، راح الجنود المهاجمون ينظرون ، في هدوء ورباطة جأش ، إلى هـذا المتراس الحدادي ، إلى هذا السكون ، إلى هذا اللاتأثر ، الذي انبثق منه الموت . لقد زحف بعضهم على الارض حتى بلغوا أعلى منحنى الجسر ، محاذرين ان تبدو قلانسهم بأية حال .

وابدى الكولونيل مونتينار الباسل إعجابه بهذا المتراس بهزة من كتفيه . وقال لأحد المندوبين :

ـ « ما اعظم بناءه ! إنك لا ترى فيه حجراً يتقدم حجراً . إنه مصنوع من خزف صيني ! »

* الدسار étoupe خيط من ليف تشد به الواح السفينة ، ج. دسر .

وفي تلك اللحظة ، كسرت قذيفةٌ الصليبَ الذي كان على صدره ، وخرّ الكولونيل على الارض .

وقيل :

— « يا لهم من جبناء ! ولكن دعهم يبرزون ! دعنا نراهم ! إنهم لا يجرأون ! إنهم يختبئون ! » لقد صمد متراس ضاحية التامبل ، يدافع عنه ثمانون رجلا ويهاجمه عشرة آلاف ، صمد ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع فعلوا مثل مافُعِل في زاتشا * وفي قسنطينة ** . لقد ثقبوا البيوت ، ونفذوا من السقوف ، واستولوا على المتراس . إن احداً من الثمانين جباناً لم يفكر في الفرار . لقد قتلوا جميعاً ، ما عدا رئيسهم بارتيليمي ، الذي سنتحدث عنه اللحظة .

كان متراس سان انطوان صخَب الرعود ، أما متراس التامبل فكان الصمت . كان بين هذين المتراسين فرق ما بين الفظيع والمشؤوم .لقد بدا احدهما اشبه بالفم الفاغر ، وبدا الثاني وكأنه قناع .

وإذ سلمنا بأن ثورة حزيران المظلمة العملاقة كانت مؤلفة من غضب وأحجية ، فقد كان في استطاعتنا ان نستشعر التنين ، في المتراس الأول ، وان نستشعر أبا الهول في المتراس الثاني .

وقد بنى هذين المتراسين رجلان ، احدهما كورنيه ، والآخر بارتيليمي . فأما كورنيه فقد اقام متراس سان انطوان ، وأما بارتيليمي فقد اقام متراس التامبل . وكان كل من المتراسين صورة عن الذي بناه .

كان كورنيه رجلا طويل القامة ، كان ذا منكبين عريضين ، ووجه

---

* واحة مجاورة لبيسكره في مقاطعة قسنطينة بالجزائر وقد صمدت في وجه الحصار الفرنسي عام ١٨٤٩ صموداً باسلاً . ثم ان الفرنسيين شنوا عليها هجوماً عنيفاً فسقطت .

** قسنطينة ، من اعمال الجزائر ايضاً وقد قاومت الفرنسيين مقاومة بطولية عام ١٨٣٦ – ١٨٣٧

أحمر ، وقبضة ساحقة ، وقلب جريء ، ونفس وفية ، وعن سليمة الطوية فظيعة . كان باسلا ، ُهماماً ، سريـع الغضب ، عاصفاً ، وكان اكثر الناس وداً ، وأشد المقاتلين هولا . كانت الحرب ، والصراع ، والقتال هي الهواء الذي يحيا عليه ، والذي يجعله انيساً طلق المحيا. كان في ما مضى ضابطـاً بحرياً ، ومن حركاته ومن صوته كان في ميسورك ان تحس انه انبثق من الاوقيانوس ، وانه جاء من العاصفة ، لقد واصل الاعصار في المعركة . وفي ما عدا العبقرية كان في كورنيه شيء مـن دانتون ، كما كان في دانتون – في ما عدا الألوهية – شيء من هرقل .

أما بارتيليمي ، الهزيل ، القميء ، الشاحب ، السكّيت فكان ضرباً من « المتشرد » الفاجع ، الذي لطمـه احد رجال الشرطة ذات يوم ، فأنشأ يراقبه ، ويترصده ، حتى قتله ، فأدخل سجن المحكوم عليهـم بالاشغال الشاقة وهو في السابعة عشرة . ثم انه خرج من هناك ، وأقام ذلك المتراس .

وفي ما بعد – وذلك شيء فظيع – قتل بارتيليمي كورنيه ، وكانـا كلاهما لاجئين في لندن . كانت مبارزة فاجعة . وبعد فترة يسيرة ، وقع بارتيليمي في شرك واحدة من تلك المجازفات التي تمتزج فيها العاطفة ، تلك الكوارث التي ترى فيها العدالة الفرنسية اسباباً تخفيفية ، ولا ترى العدالة الانكليزية فيها غير الموت ، ثم شُنق بارتيليمي . إن الصـرح الاجتماعي المظلم مركّب على نحو جعل هذا الكائن البائس الذي انطـوى على ذكاء ، راسخ من غير شك ، وربما كان عظيماً ، نقول جعل هذا الكائن البائس يبدأ – بفضل الحرمان المادي ، والظلمة الاخلاقية – في سجن الاشغال الشاقة بفرنسة ، وينتهـي بالمشنقـة في انكلترة . ان بارتيليمي لم يرفـع ، في جميـع الاحوال ، غير رايـة واحدة ، هي الراية السوداء .

٢

ما الذي يمكن ان يُصنع في الهوة غير الكلام ؟

إن للستة عشر عاماً اثرها البعيد في التربية السرية للثورة ، ولقد فهمها حزيران عام ١٨٤٨ خيراً مما فهمها حزيران عام ١٨٣٢ . وهكذا فأن متراس شارع الـ « شانفريري » لم يكن غير رسم تقريبي خفيف ، وغير جنين بالقياس إلى هذين المتراسين الجبارين اللذين صورناهما منذ لحظة ، ولكنه كان بالنسبة إلى ذلك العهد شيئاً رهيباً .

وافاد المتمردون – تحت بصر آنجولراس ، ذلك لأن ماريوس ما عاد ينظر إلى شيء – افادوا من الليل . إنهم لم يرمموا المتراس فحسب ، ولكنهم كبّروه أيضاً . لقد رفعوه قدمين اثنين . وكانت القضبان الحديدية المغروزة في حجارة الأرصفة تشبه رماحاً في معتقل . وكانت مختلف ضروب النفايات المضافة والمنقولة من كل ناحية قد ضاعفت التعقد الخارجي . لقد حُوّل المتراس ، في براعة ، إلى جدار من الداخل ، وإلى دغل من الخارج .

لقد اعادوا بناء السلم المصنوع من حجارة الارصفة ، ذلك السلم الذي كان يمكّن المرء من الصعود مثل سور حصن من الحصون .

لقد نظموا المتراس ، ونزعوا الردم من الحجرة السفلى ، واتخذوا من المطبخ مستشفى ، وأتموا تضميد الجراح ، وجمعوا البارود المتناثر على الارض والطاولات ، وسبكوا كرات المدافع ، وصنعوا الخراطيش ، وحلجوا النُسالة ، ووزعوا اسلحة الصرعى . ونظفوا داخل المتراس ، والتقطوا الحطام ، وحملوا الجثث .

وركموا الموتى بعضهم فوق بعض في زقاق موندیتور ، وكانوا لا يزالون سادته . وظل الرصيف أحمز ، فترة طويلة ، في تلك البقعة . وبين القتلى كان اربعة من رجال حزس الضواحي الوطني . وكان آنجولراس قد رغب في ان توضع ملابسهم العسكرية جانباً .

ونصح آنجولراس القوم بأن يرقدوا ساعتين . وكانت النصيحة من آنجولراس أمراً . ومع ذلك فأن ثلاثة نفر أو اربعة أفادوا منها . واصطنع فوبي هاتين الساعتين لحفر هاتين الكلمتين على الجدار المواجه للخمارة :

« فلتحي الشعوب ! »

والواقع أن هاتين الكلمتين ، اللتين نقشتا في الحجر بواسطة مسمار ، كانتا لا تزالان مقروءتين على ذلك الجدار في عام ١٨٤٨ .

وأفادت النسوة الثلاث من استراحة الليل ، فاختفين نهائياً ، مما جعل المتمردين يتنفسون في حرية أعظم .

لقد وجدن ملجأ لهن في احد البيوت المجاورة .

وكان معظم الجرحى قادرين على متابعة القتال ، راغبين في ذلك . كان ثمة ، فوق فراش للدواجن وبعض حزم القش ، في المطبخ الذي أمسى الآن مستشفى ، خمسة رجال ذوي جراح خطرة ، اثنان منهم كانا من الحرس البلدي . لقد ضمدت جراحات الحرس البلدي اولا .

لم يكن قد بقي في الحجرة السفلى غير مابوف ، تحت غطائه الاسود ، وجافير موثقاً إلى الوتد .

وقال آنجولراس :

— « هذه غرفة الاموات . »

وفي داخل هذه الحجرة ، المضاءة على نحو باهت بشمعة ، وعند الطرف الاقصى نفسه ، وقد نهضت المائدة الجنائزية خلف الوتد مثل قضيب حديدي أفقي ، كان ضرب من صليب ضخم قاتم قد تكوّن من

جافير واقفاً ، ومابوف ممدداً .

كان عريش العربة العمومية ، رغم أن وابل القذائف قد ذهب بجزء منه ، لا يزال عالياً إلى درجة تمكنهم من ان يرفعوا عليه احدى الزايات .

وعلق آنجولراس ، الذي كان يتمتع بصفة الزعيم هذه ، وهي ان يعمل دائماً ما يقوله . علق سترة العجوز القتيل . المخروقة الدامية ، بهذا العريش .

ولم يكن في ميسورهم الآن ان يتناولوا اية وجبة من وجبات الطعام . فلم يكن ثمة لا خبز ولا لحم . كان رجال المتراس الخمسون قد استهلكوا وشيكاً . خلال الست عشرة ساعة التي قضوها هناك ، مؤن الحانة المزيلة . وبعد مدة بعينها . لا بد لكل متراس صامد من ان ينتهي إلى ما انتهت اليه « ميدوز » • . إن عليهم ان يستسلموا للمجاعة . كانوا في الساعات الاولى من يوم ٦ حزيران الاسبارطي حين طوق المتمردون « جان » ، في متراس سان ميري ، وراحوا يسألونها خبزاً صائحين : « نريد شيئاً نأكله ! » فما كان منها إلا ان اجابت جميع اولئك المتقاتلين بقولها : « ولماذا ؟ الساعة الآن الثالثة . وعند الساعة الرابعة سنموت ! »

وإذ لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، فقد حظر آنجولراس الشراب . لقد حرّم الخمر ، وقنّن العرق .

ووجدوا في القبو نحواً من خمسين زجاجة ملأى ، ومختومة ختماً محكماً . وفحصها آنجولراس وكومبوفير . وفيما هما يغادران القبو قال كومبوفير :

• Méduse باخرة غرقت على الساحل الغربي من افريقيا ، في ٢ تموز سنة ١٨١٦ وقد لجأ ١٤٩ من ركابها الى طوف انشيء على عجل ، واخذت الامواج تعبث به في عرض البحر . وبعد اثني عشر يوماً عثر على هذا الطوف ، وعلى جثث خمسة عشر شخصاً من كانوا على متن الـ « ميدوز » . اما الباقون فكانوا قد امسوا طعاماً للاسماك .

« انها من المخزونات العتيقة التي خلفها هوشلو الاب الـذي بـدأ حياتـه بقالا . »

ولاحظ بوسوويه :

— « ينبغي ان تكون خمراً أصلية . من حسن الحظ أن غرانتير نائم: ولو قد كان قائماً على رجليه اذن لكان علينا ان نبذل جهداً كبيراً لانقاذ هذه الزجاجات . »

وعلى الرغم من الهمسات ، وضع آنجولراس « الفيتو » على الزجاجات الخمس عشرة . ولكي لا يمسها احد ، ولكي تبدو وكأنها مقدسة ، امر بأن توضـع تحت المائدة التي سجي عليها الأب مابوف .

وحوالى الساعة الثانية صباحاً احصوا انفسهم . كان قد بقي منهـم سبعة وثلاثون .

كان الصبح قد آذن بالانبلاج . وكانوا قد اطفأوا ، منذ لحظـات ، تلك الشعلة التي أعيدت إلى مغرزها ، في حجارة الارصفة . وكان الجزء الداخلي من المتراس غارقاً في الظلمة ، وبدا من خلال الذعر الغسقي الغامض شبيهاً بسطح سفينة منزوعـة الصواري والقلوع . وفي غدوهـم ورواحهم ، تحرك المقاتلون فيه مثل اشكال سوداء . وفوق وكر الظلام الرهيب هذا ، كانت طوابق البيوت الخرساء ترتسم على نحو شاحب . وفي القمـة برزت المداخن المحزونة . وكانت السماء مصطبغة بذلك اللون الفاتن المتردد الذي قد يكون أبيض ، وقد يكون أزرق . كانت بعض الطيور ترسل ، فيما هي تنطلق في الجو ، اغاني بهيجة . وكان على سطح المنزل العالي ، الذي يشكل خلفية المتراس ، بوصفه متجهاً نحو الشرق ، انعكاس نور أزهر . وعند كوة الدور الثالث ، عبثت ريـح الصباح بشعرات رأس الرجل الميت ، البيضاء .

وقال كورفيراك لفويي :

— « انا سعيد لأطفائهم الشعلة . فتلك الشعلة المنشدهة وسط الريح ،

كانت تزعجني . لقد بدت وكأنها خائفة . إن ضوء الشعلة يشبه حكمة الجبان . انه غير واضح ، لأنه يرتجف . »

الفجر يوقظ العقول كما يوقظ الطيور . كان كل امرء يتحدث .
واستوحى جولي الفلسفة من هرة كانت تطوف حول احد الميازيب وهتف :

— « ما هي الهرة ؟ إنها تصحيح . ذلك ان الله بعد ان خلق الفأرة قال : « ولكن ، لقد ارتكبتُ حماقة . » ثم خلق الهرة . الهرة هي تصويب الفأرة . والفأرة ، زائد الهرة ، هي مسوّدة الخليقة منقحةً مصححة . »

وانشأ كومبوفير ، وقد احاط به الطلاب والعمال ، يتحدث عن الموتى ، عن جان بروفير ، عن باهوريل ، عن مابوف ، وحتى عن « لو كابوك » ، وعن حزن آنجولراس الكالح . قال :

— « هارموديوس * وآريستو جيتون ، بروتوس ، كيرياس ** ، كرومويل ، شارلوت كورداي *** ، صاند **** — كلهم عرفوا ، بعد الطعنة ، لحظات من الألم النفسي المرير . ان فؤادنا لشديد الارتعاش ، وان الحياة الانسانية هي من الغرابة بحيث انه في الاغتيال المدني نفسه ، وحتى في الاغتيال المحرِّر ، إذا كان ثمة اغتيال محرر ، نجد الندم على قتلنا رجلا ، يفوق البهجة بخدمتنا الجنس البشري . »

---

* Harmodius اثيني تآمر مع صديقه آريستوجيتون Aristogiton ضد ولدي بيسيسترات : هيبارك وهيبياس (٥٣٤ ق.م) .

** Chéréas هو الخطيب الشعبي الروماني الذي قتل الامبراطور الروماني الظالم كاليغولا ، عام ٤١ م .

*** Charlotte Corday هي الفتاة الشابة التي طعنت « مارا » ، في الحمام ، بخنجر ، انتقاماً للجيرونديين . وقد اعدمت في ١٧ تموز عام ١٧٩٣ وليس لها من العمر غير خمس وعشرين سنة .

**** Louis Sand وطني الماني اغتال الوزير كوتزيبو Kotzebue (١٧٩٥ — ١٨٢٠

وبعد لحظة – فذلك هو مسرى المحادثة – ومن طريق الانتقال من قصائد جان بروفير ، راح كومبوفير يقارن ما بين مترجمي « الجيبورجيك » * ، بين « رو » و « كورنان » ، وبين « كورنان » و « دوليل » ، مشيراً إلى بعض المقاطع التي ترجمها مالفيلاتر ، وبخاصة العجائب المتصلة بموت قيصر . ومن هذه الكلمة ، قيصر ، ارتد الحديث إلى بروتوس .

وقال كومبوفير :

– « لقد صُرع قيصر بحق . كان شيشرون قاسياً على قيصر ، وكان مصيباً . إن هذه القسوة ليست ذماً . فحين يتصدى زولوس ** لاهانة هوميروس ، وحين يتصدى ميفيوس لاهانة فيرجيل ، وحين يتصدى فيزيه لاهانة موليير ، وحين يتصدى البابا لاهانة شيكسبير ، وحين يتصدى فرينون *** لاهانة فولتير ، نجد أنفسنا أمام قانون قديم من قوانين الحسد والكراهية مطبقاً نافذاً . إن العبقرية تجتذب الاهانة ؛ وكبار الرجال يُنبح دائماً في وجوههم ، قليلا اوكثيراً . ولكن زولوس شيء ، وشيشرون شيء آخر . كان شيشرون قاضياً بالروح كما كان بروتوس قاضياً بالسيف . انا أنكر ، من ناحيتي ، تلك العدالة النهائية : السيف ؛ ولكن العصور القديمة رضيت بها . إن قيصر ، الذي انتهك حرمة الروبيكون **** ، والذي كان يخلع الرتب المنبثقة من الشعب وكأنها منبثقة

* Géorgiques ، او اعمال الارض ، قصيدة تعليمية ذات موضوع زراعي من نظم الشاعر فيرجيل .

** Zoïlus ناقد من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ، تهجم على هومير تهجماً مضحكاً (١٧١٨ – ١٧٧٦)

*** Frénon ناقد شهير كان خصماً لفولتير وغيره من « الفلاسفة » الذين هيأوا الجو للثورة الفرنسية .

**** نهر صغير يفصل ايطاليا عن غالة (فرنسة) ، وكان مجلس الشيوخ الروماني قد حظر اجتيازه على الرومان وقاية لرومة من عدوان القوات الفرنسية . ولكن قيصر هزىء بهذا الحظر واجتاز النهر .

من ذات نفسه ، والذي أبى ان يقف عند دخول الشيوخ – ان قيصر هذا قد مثل ، كما قال اوتروبيوس * ، دور الملك ، بل دور الطاغية تقريباً *regia ac poené tyrannica* . كان رجلا عظيماً ، لا فرق . الدرس أعظم . لقد أثرت جراحاته الثلاث والعشرون فيّ اقل مما أثر فيّ البصاق على وجه يسوع المسيح . لقد طُعن قيصر بأيدي الشيوخ ، أما المسيح فقد لطمه الخدم . وكلما عظمت الاهانة ، نستشعر وجود الله . »

وهتف بوسوويه ، وهو يطل على المتحدثين من أعلى ركام الحجارة ، وبندقيته القصيرة الخفيفة في يده :

– « ايه سيداتينيوم ، ايه ميرهينوس ، ايه بروباليث ، ايه يا منتهى اينتيد ! اوه ! من ذا الذي يهب لي القدرة على ان الفظ شعر هوميروس مثل اثيني من لوريوم أو من إيدابتيون ! »

٣
نور وظلام

كان آنجولراس قد مضى للقيام باستكشاف . لقد سلك زقاق شارع مونديتور ، زاحفاً في حذاء البيوت .

وينبغي ان نقول إن المتمردين كانوا مفعمين بالأمل . فالطريقة التي صدوا بها الهجوم اثناء الليل ، كانت قد قادتهم تقريباً إلى ان يزدروا ، مقدماً ، هجوم الفجر . لقد انتظروه ، ولقد ابتسموا له . لم يعد لديهم شك في نجاحهم ، كما لم يكن لديهم شك في قضيتهم . وفوق هذا ،

* Eutrope مؤرخ لاتيني من اهل القرن الرابع الميلادي وضع كتاباً مفيداً يعرف بـ « مختصر التاريخ الروماني » .

فقد كان واضحاً ان النجدة توشك ان تُقبل . لقد اعتمدوا عليها . وفي سهولة التنبؤ المظفّر ذاك ، الذي هو جزء من قوة الفرنسي المقاتل ، قسموا النهار الذي كان قد آذن بالانبلاج إلى ثلاث مراحل متميزة . ففي الساعة السادسة صباحاً سوف تقبل كتيبة « كانت قد عولجت » ، وعند الظهر يعم العصيان باريس ، وعند المغيب : الثورة .

لقد سمعوا ناقوس سان ميرّي الذي لم يسكت لحظة منذ المساء ؛ وكان ذلك دليلا على أن المتراس الآخر ، المتراس الكبير ، متراس جان ، لا يزال صامداً .

وتناقلوا هذه الآمال كلها في ضرب من الهمس البهيج ، الرهيب في وقت معاً ، همس كان شبيهاً بأزيز قفير من النحل في حالة حرب .

وظهر آنجولراس من جديد . لقد رجع من جولته النسرية القاتمة في الظلمة الخارجية . واصغى لحظة إلى هذا الابتهاج كله وهو متصالب الذراعين ، واحدى يديه على فمه . ثم إنه قال ، نضراً متورداً في بياض النهار النامي :

— « إن جيش باريس كله يقاتل . إن ثلث ذلك الجيش يضغط على المتراس الذي انتم فيه . وإلى جانب الحرس الوطني . لاحظت قلانس كتيبة المشاة الخامسة ، وراية الفرقة السادسة . سوف يُشن عليكم الهجوم خلال ساعة . أما الشعب ، فقد كان امس يغلي على نار ، ولكنه لا يتحرك هذا الصباح . ليس ثمة ما نتوقعه ؛ وليس ثمة ما نرجوه . ولن نفوز من احدى الضواحي بعد الآن باكثر مما سنفوز من احدى الكتائب . لقد تخلى القوم عنكم . »

وسقطت هذه الكلمات على ازيز الجموع ، فأحدثت مثل ذلك الأثر الذي تحدثه في النحل قطرات العاصفة الاولى . لقد اعتصموا كلهم بالصمت . كانت لحظة من لحظات ذلك السكوت الذي لا سبيل إلى وصفه

حين يكون في ميسور المرء ان يسمع حفيف اجنحة الموت .

وكانت تلك اللحظة قصيرة :

وصاح من اعماق الجموع الاشد إظلاماً ، صوت يخاطب آنجولراس :

— « ليكن ذلك . فلنجعل ارتفاع المتراس عشرين قدماً ، ولنبق كلنا فيه . ايها المواطنون ، دعونا نقدم احتجاج الجثث . فلنظهر للملأ انه إذا ما تخلى الشعب عن الجمهوريين فأن الجمهوريين لا يتخلون عن الشعب . »

وحررت هذه الكلمات اذهان الجميع من سحابة القلق الشخصي الأليمة . لقد استقبلت بهتاف حماسي .

ولم يعرف قط اسم الرجل الذي تكلم هكذا . كان رجلا مغموراً من لابسي الدُّرّاعات ، رجلا مجهولا ، منسياً ، بطلا عابراً ، ذلك الغفل العظيم الذي نقع عليه دائماً في الازمات الانسانية والولادات الاجتماعية ، والذي ينطق في اللحظة المناسبة ، وعلى نحو سامٍ ، بالكلمة الحاسمة ، والذي يتلاشى في الظلام بعد ان يمثّل ، لحظة من زمان ،على وميض البرق ، الشعبَ والله .

كان هذا العزم الصارم قد ملأ جو اليوم السادس من حزيران ١٨٣٢ إلى درجة جعلت المتمردين في متراس سان ميرّي يطلقون في الساعة نفسها تقريباً هذه الصيحة التي امست تاريخية والتي أوردت في المحاكمة: « سيان أجاءوا لمساعدتنا ام لم يجيئوا . فلنمت هنا حتى الرجل الأخير ! »

وهكذا نرى ان كلا من المتراسين اتصل بالآخر على الرغم من انهما كانا منفصلين مادياً .

٤
نقص خمسة وزيادة واحد

بعد ان تكلم الرجل المجهول الذي رسم « احتجاج الجثث » وبعد ان أعطى صيغة النفس المشتركة ، ارتفعت من جميع الشفاه صيحة راضية ورهيبة على نحو غريب ، صيحة حدادية المعنى ، مظفرة الجرس:

— « فليحي الموت ! فلنبق كلنا هنا ! »

فقال آنجولراس :

— « ولماذا كلنا ؟ »

— « كلنا ! كلنا ! »

وأضاف آنجولراس :

— « المركز منيع . والمتراس جيد . ثلاثون رجلا يكفون . لماذا نضحي باربعين ؟ »

فأجابوا :

— « لأن اياً منا لا يريد ان يغادر المكان . »

فصاح آنجولراس ، وكان في صوته ارتجاج يكاد يكون غاضباً :

— « ايها المواطنون ، الجمهورية ليست غنية بالرجال حتى تتحمل النفقات على غير طائل . الزهو اسراف . وإذا كان من واجب بعضنا أن يمضي لسبيله فان هذا الواجب ينبغي ان يؤدى كأي واجب آخر . »

وكان لآنجولراس ، رجل المبدأ ، على اخوانه في المذهب ، ضرب من السلطان الكلي الذي ينبثق من المطلق . ومع ذلك ، وبرغم هذا السلطان الكلي ، فقد كان ثمة دمدمة .

وإذ رأى آنجولراس ، وكان زعيماً حتى رؤوس اصابعه ، إلى القوم يدمدمون ، أصرّ على رأيه . ثم عاد إلى القول في شموخ :

— « على كل من يخشى ان لا نكون اكثر من ثلاثين أن يعبر عن رأيه . »

وتضاعفت الدمدمة .

ولاحظ صوتٌ منطلق من احد الجموع :

— « وإلى هذا ، فمن اليسير جداً ان نطالب المرء بالانصراف : المتراس محاصر . »

وقال آنجولراس :

— « ليس من ناحية الاسواق . إن شارع مونديتور سالك . ومن طريق الـ « بريشور » يستطيع المرء ان يصل إلى الـ « مارشيه ديزينوسانت » .

واضاف صوت آخر من بين الجمع :

— « وهناك سوف يلقون القبض عليه : انه سوف يقع هناك على جماعة من الحرس الحزبي أو من جند الضواحي . انهم سوف يرون رجلا يمضي وقد ارتدى دُرّاعة واعتمر بقلنسوة . فيسألونه : « من اين اقبلت ، يا هذا ؟ انت من جماعة المتراس ، اليس كذلك ؟ » وينظرون إلى يديك . ان رائحة البارود تعبق منك . ويعدمونك رمياً بالرصاص . »

ومن غير ان يجيب ، مس آنجولراس كتف كومبوفير ، وذهبا معاً إلى الحجرة السفلى .

ثم انهما رجعا بعد لحظة . كان آنجولراس يحمل بين يديه البذلات العسكرية الأربع التي كان محتفظاً بها . وتبعه كومبوفير ، حاملا الاحزمة المصنوعة من جلد الجاموس ، والقلانس العسكرية :

وقال آنجولراس :

— « بهذه الملابس العسكرية يستطيع احدكم ان يختلط بالجنود ويهرب . إن معي ما يكفي أربعة »

وطرح البذلات العسكرية الاربع على الارض غير المرصوفة :
ولم تستبد بالحشد الباسل هزة ما . وتولى كومبوفير الكلام فقال :

— « اسمعوا ، ينبغي ان يكون عندنا قليل من الرحمة . أتعلمون ما المسألة التي تواجهنا هنا ؟ إنها مسألة نساء . فلنرَ . هل ثمة زوجات ، نعم أم لا ؟ هل هناك اطفال ، نعم أم لا ؟ هل يوجد أم لا يوجد امهات يهززن المهد باقدامهن ويتراكم من حولهن عدد من الصغار ؟ إذا كان بينكم من لم ير قط ثدي امرأة مرضعة فليرفع يده . آه ، انتم تريدون ان تموتوا . انا اريد ذلك ايضاً ، أنا الذي يخاطبكم . ولكني لا اريد ان استشعر اشباح النساء تلف اذرعها من حولي . تريدون ان تموتوا ، ليكن لكم ذلك ، ولكن لا تميتوا الآخرين . ان انتحارات مثل هذه التي سوف تتم هنا لسامية رفيعة ؛ ولكن الانتحار ضيق . وهو لا يزيد توسيعاً . ولحظةَ يمسّ اولئك المجاورين لك . يصبح الانتحار قتلا . فكروا في الرؤوس الصغيرة الشقراء ، وفكروا في الشعور البيضاء. اسمعوا ، منذ لحظة ليس غير ، وقد اخبرني آنجولراس بذلك الآن ، رأى عند زاوية شارع الـ « سيني » شباكاً مضاءاً . شمعةً في نافذة حقيرة ، في الطابق الخامس ، وعلى زجاج النافذة رأى خيالا مرتعشاً لرأس امرأة عجوز يبدو انها سلخت الليل كله في الانتظار . إنها قد تكون ام واحد منكم . حسناً ؛ فليذهب هذا الرجل . وليهرع إلى أمه قائلا : « أماه ، ها انا ذا ! » وليطمئنّ فؤاده ، فأن العمل هنا سوف يظل سائراً على ما يرام ، وحين يعيل امرؤ اقرباءه بعمله ، فليس له الحق في ان يضحي بنفسه ؛ إن معنى ذلك تخليه عن اسرته . وأولئك الذين لهم بنات ، واولئك الذين لهم اخوات ! هل تفكرون في ذلك ؟ إنكم تريدون أن تُقتلوا ، ولنفرض انكم قد متم . هذا حسن ، والغد ؟ فتيات صغيرات ليس عندهن خبز ، ذلك شيء فظيع . الرجل يشحذ ، والمرأة تبيع . آه ، أولئك المخلوقات الفاتنات ، المليحات جداً ،

الناعمات جداً ، المعتمرات بقلانس من الازهار ، اللواتي يغنين ، اللواتي يثرثرن ، اللواتي يملأن البيت بالعفة ، اللواتي يشبهن عطراً حياً ، اللواتي يثبتن وجود الملائكة في الجنة بطهر العذارى على الأرض ، جانّ تلك ، ليزا تلك ، ميمي تلك ، هاته الكائنات المعبودة النبيلة اللواتي هن نعمتاك وموضع فخرك ، آه ايها الرب ، سوف يجعن ! ما الذي تريدون ان اقوله لكم ؟ إن ثمة سوقاً للاجساد البشرية ، وليس بايديكم الشبحية المرتعشة من حولهن تستطيعون ان تحولوا بينهن وبين الدخول إلى تلك السوق ! فكروا في الشارع ، فكروا في الرصيف المغطى بالسالكين ، فكروا في الدكاكين التي تغدو النسوة امامها ويرحن عاريات الاكتاف ، عبر الوحل . هاته النسوة ايضاً كن طاهرات . فكروا بأخواتكم ، اعني اولئك الذين لهم منكم اخوات . الشقاء ، البغاء ، الشرطة ، سان لازار *

— ذلك ما سوف تسقط فيه تلك الفتيات الجميلات الناعمات ، تلك المعجزات الواهنات اللواتي ابدعهن الحياء واللطف والجمال ، الأشد نضرة من زنابق شهر نوار ! آه ! لقد قُتلتم ! آه ، انتم لم تعودوا إلى جانبهم ! حسن جداً ، لقد رغبتم في انقاذ الشعب من الملكية ، فأسلمتم فتياتكم إلى البوليس . ايها الاصدقاء ، خذوا حذركم ، ليكن عندكم شيء من الرأفة . ان النساء ، النساء البائسات ، ليس من عادتهن أن يفكرن طويلا . نحن نعتز بأن النساء لم يتلقين ثقافة الرجال ، نحن نحظر عليهن القراءة ، نحن نحظر عليهن التفكير ، نحن نحظر عليهن الانهماك في السياسة . فهل تحظرون عليهن ، الليلة ، ان يذهبن إلى معرض الجثث المجهولة للتعرف إلى جثثكم ؟ اسمعوا ، إن اولئك الذين لهم عائلات يجب ان يكونوا اولاداً طيبين ، فيصافحونا ويمضوا لسبيلهم ، تاركين لنا مهمة العمل ، هنا ، وحدنا . أنا اعلم جيداً ان الانصراف يقتضي شجاعة ؛ إنه عسير . ولكن كلما ازداد الشيء عسراً كان اجدر

* سجن النساء واصلاحيتهن في ذلك العهد .

بالثناء والتقدير . قد يقول أحدكم : « إن عندي بندقية ، أنا في المتراس ، ليكن ما يكون ، سوف ابقى . » ليكن ما يكون ، هذه عبارة قد قيلت باكراً جداً . ايها الاصدقاء ، هنالك غد ؛ انتم لن تكونوا هنا في ذلك الغد ، ولكن أسَركم سوف تكون . ويا لها من آلام ! انتبهوا ، طفل جميل ، يمور بالصحة ، طفل ذو وجنتين مثل التفاح ، طفل يهذر ، ويثرثر ، ويلغو ، ويضحك ، ويعبق بالعبير تحت القبلة ، هل تعلمون ما الذي يحل به حين نتخلى عنه ؟ لقد رأيت واحداً ، صغيراً جداً ، لا يزيد طوله عن هذا المقدار . كان ابوه قد مات . وكان بعض الناس الفقراء قد تلقفوه بدافع الشفقة ، ولكن لم يكن عندهم خبز يأكلونه . كان الطفل جائعاً دائماً . وكانت الدنيا شتاء . ولم يبك البتة . لقد رأوه يحوم حول الموقد الذي لم ينطو على نار قط ، والذي كانت مدخنته ، كما تعرفون ، مجصصة بالطين الاصفر ؛ ونزع الطفل باصابعه الصغيرة شيئاً من ذلك الطين ، وأكله . كان يتنفس في عسر ، وكان وجهه شديد الشحوب ، وكانت رجلاه رخوتين ، وكان بطنه منتفخاً . إنه لم يقل شيئاً . وخاطبوه ، فلم يجب . لقد مات . لقد حُمل إلى « مستشفى نيكير » ليموت ، وهناك رأيته . كنت جراحاً في ذلك المستشفى . والآن ، إذا كان بينكم آباء ، آباء يبهج نفوسهم أن يتنزهوا يوم الاحد ممسكين بأيديهم الكبيرة القوية ايدي اطفالهم الصغيرة ، فليتخيل كل منهم ان ذلك الطفل كان ولده . هذا الطفل البائس ، وانا اتذكره جيداً ، يبدو لي انني اراه الآن ، وهو ممدد عارياً فوق مائدة التشريح ، وقد نتأت عظامه تحت جلده مثل القبور تحت أعشاب مقبرة . لقد وجدنا ضرباً من الوحل في معدته . وكان ثمة رماد في اسنانه . والآن ، دعونا نراجع ضمائرنا ونستشر قلوبنا . الاحصاءات تظهر ان نسبة الوفيات بين الاطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم تبلغ خمسة وخمسين بالمئة . أنا اعود فأكرر : المسألة

مسألة زوجات ، انها مسألة امهات ، انها مسألة فتيات صغيرات ، إنها مسألة أطفال . هل اخاطبكم من اجلكم انتم ؟ نحن نعرف جيداً من انتم . نحن نعرف جيداً انكم كلكم شجعان ، وحق الاله ! نحن نعرف جيداً ان في نفوسكم جميعاً بهجة افتداء القضية العظمى بأرواحكم وفخر ذلك الافتداء . نحن نعرف جيداً انكم تحسون بان كلا منكم قد اختير لكي يموت موتاً نافعاً رائعاً ، وان كلا منكم يعض بالنواجذ على نصيبه من النصر . حسن جداً . ولكنكم لستم وحدكم في هذا العالم . هناك كائنات اخرى يجب عليكم ان تفكروا فيها . ينبغي ان لا نكون انانيين . »

وحنوا رؤوسهم جميعاً وقد طغت على وجوههم سحابة قاتمة :

يا لمتناقضات القلب البشري الغريبة في اسمى لحظاته ! إن كومبوفير ، الذي تكلم هكذا ، لم يكن يتيماً . لقد تذكر امهات الآخرين ، ونسي امه : كان قد اختار الموت . كان « أنانياً » .

وكان ماريوس الصائم ، المحموم ، المسلوب آماله واحداً بعد آخر ، الجانح إلى الاسى ، اشد انواع الغرق قتاماً ، المشبع بالعواطف العنيفة، المستشعر ان النهاية تقترب – كان ماريوس يسترسل اكثر فأكثر في ذلك الذهول الخيالي الذي يسبق ساعة الهلاك ، دائماً ، حين نختارها بارادتنا .

كان خليقاً بالعالم الفيسيولوجي ان يدرس فيه الاعراض النامية لذلك الاستغراق الحمّي * المصنف والمعروف عند العلماء ، والذي هو بالنسبة إلى الألم اشبه بالانخطاف بالنسبة إلى اللذة . إن لليأس ايضاً انخطافه . وكان ماريوس قد انتهى إلى تلك النقطة . لقد شهد كل شيء وكأنما كان يفعل ذلك من خارج . وكما قلنا من قبل ، فقد بدت الاشياء ، الجارية امامه ، وكأنها نائية . لقد رأى الكل . ولكنه لم يتبين التفاصيل

* نسبة الحمى .

لقد رأى الغادين والرائحين من خلال وهج مذهل . وسمع الاصوات تتكلم وكأنما تنبعث من أعماق هوة .

ومع ذلك ، فقد هزه هذا . كان في ذلك المشهد حد مسنون نفذ اليه ، وأيقظه . وكانت تطوف في ذهنه الآن فكرة واحدة ليس غير : أن يموت ، ولم يكن راغباً في الانحراف عنها . ولكنه فكر ، في سرنمته * الفاجعة ، انه ليس من المحظر على المرء ، فيما هو يهلك نفسه ، ان ينقذ شخصاً آخر .

ورفع عقيرته قائلا :

— « آنجولراس وكومبوفير على حق . لا تضحيات على غير طائل ؟ أنا اضم صوتي إلى صوتهما ، وينبغي ان نسرع . ولقد قال لكم كومبوفير الاشياء الحاسمة . ان بينكم نفراً لهم اسَر ، لهم امهات ، لهم اخوات ، لهم زوجات ، لهم اطفال . فليغادر هؤلاء صفوفنا ! »

ولم يتحرك أحد .

وأعاد ماريوس :

— « على المتزوجين ومعيلي الأسر ان يغادروا الصفوف ! »

كانت سلطته عظيمة . صحيح ان آنجولراس كان زعيم المتراس ، ولكن ماريوس كان مخلّصه .

وصاح آنجولراس :

— « أنا آمركم بذلك . »

وقال ماريوس :

— « انا اناشدكم ذلك ! »

وعندئذ ، وبعد أن اثارتهم كلمات كومبوفير ، وهزهم أمر آنجولراس ، وحركتهم صلاة ماريوس ، راح هؤلاء الرجال الابطال يسعى بعضهم ببعض . فقال فتى منهم لرجل في منتصف العمر : « هذا صحيح .

* somnambulisme أو السير اثناء الرقاد .

انت والد أسرة . إذهب ! » فأجابه الرجل : « انت اولى بالذهاب ان لك اختين تعيلهما . » ونشب نزاع لم يُسمع بمثله من قبل . كمان. يدور حول من منهما ينبغي ان لا يسمح لنفسه بأن يوضع عند باب القبر .

وقال كومبوفير :

— « عجلوا ! بعد ربع ساعة يكون الاوان قد فات . »

وواصل آنجولراس :

— « ايها المواطنون ، هذه هي الجمهورية ، والاقتراع العام هو الذي يحكم . عينوا بانفسكم من الذي ينبغي ان ينصرف . »

وأطاعوا . وما هي إلا بضع دقائق حتى كان خمسة منهم قد عينوا بالاجماع ، فغادروا صفوف المقاتلين .

وهتف ماريوس :

— « إنهم خمسة ! »

ولم يكن ثمة غير اربع بذلات عسكرية .

فاندفع الخمسة يقولون :

— « حسن ان واحداً منا يجب ان يبقى . »

وكانت المسألة الآن : من الذي يجب ان يبقى ، ومن الذي سوف يجد اسباباً تبرر عدم بقاء الآخرين . ونشب النزاع الكريم كرة اخرى .

— « انت ، انت لك زوجة تحبك . » — « أما انت فان عندك امك العجوز . » — « انت ليس لك لا أب ولا ام ، فما الذي سيحل بأخوتك الثلاثة الصغار ؟ » — « أنت أب لخمسة اطفال . » — « إن لك الحق في ان تعيش . انك في السابعة عشرة . لم يئن الاوان بعد . »

كانت هذه المتاريس الثورية الضخمة مواعيد بطولات . كان غيرُ ممكن الوقوع سهلا هناك . ولم يدهش بعض هؤلاء الرجال من بعض .

وكرر كومبوفير :

— « عجلوا ! »

وصاح صوت من بين الجمع يخاطب ماريوس :

— « عين انت بنفسك من الذي يجب ان يبقى . »

فقال الخمسة :

— « اجل . إختر . سوف نطيعك . »

واعتقد ماريوس الآن أن ليس ثمة مكان لعاطفة ما . ومع ذلك فلم تكد تراوده هذه الفكرة ، فكرة اختيار رجل للموت ، حتى ارتد دمه كله إلى قلبه . وكان جديراً بلونه ان يشحب لو كان في ميسوره ان يزداد شحوباً .

وتقدم نحو الخمسة ، الذين ابتسموا له . وصاح كل منهم وقد امتلأت عينه بتلك الشعلة الشريفة التي نراها في أعماق التاريخ على الـ « تيرموبيل » * :

— « انا ! انا ! انا ! »

وعدهم ماريوس في ذهول . كانوا لا يزالون خمسة ! ثم وقعت عينه على البذلات العسكرية الأربع .

وفي تلك اللحظة سقطت بذلة خامسة ، وكأنما كان سقوطها من السماء ، فوق الاربع الأخر .

لقد انقذ الرجل الخامس .

ورفع ماريوس عينيه فرأى مسيو فوشلوفان .

كان جان فالجان قد دخل اللحظة إلى المتراس .

وسواء أكان ذلك بفضل توجيه من شخص ما ، أو بفضل الغريزة ، المصادفة فأنه كان قد اقبل من طريق شارع مونديتور . وبفضل

---

* Thermopyles فجاج مشهورة في تسالية ، بين جبل انوبيه وخليج مالياك حيث حاول ليونيداس مع ثلاثمئة رجل اسبارطي زحف الفرس الغزاة مظهراً بطولة تكاد تكون اسطورية .

ملابسه الخاصة بالحرس الوطني ، استطاع ان يجتاز الطريق في يسر .
ولم يطلق الحارس الذي اقامه المتمردون في شارع مونديتور اشارةالخطو قط من أجل رجل مفرد من رجال الحرس الوطني . لقد اجاز لـه ان يسلك الشارع قائلا في ذات نفسه : « لعله ان يكون مدداً ، وفي أسوأ الاحوال اسيراً . » كانت اللحظة بالغة الحرج فهـي لا تسمح للحـارس بأن يُشغل عن واجبه وعن مركز مراقبته .

ولحظة دخل جان فالجان المتراس لم يلحظه احد . كانت الاعين كلها مركزة على الرجال الخمسة المختارين وعلى البذلات العسكرية الأربـع . ورأى جان فالجان ، وفهم . وفي صمت ، نزع ملابسه ، وطرحها على ركام البذلات الاخرى .

وكان الانفعال ممتنعاً على الوصف .

وتساءل بوسوويه :

— « من هذا الرجل ؟ »

فأجابه كومبوفير :

— « إنه رجل ينقذ الآخرين . »

وقال ماريوس في صوت رصين :

— « أنا اعرفه . »

وكان هذا التوكيد كافياً للجميـع .

والتفت آنجولراس نحو جان فالجان وقال :

— « ايها المواطن ، اهلا بك . »

ثم اضاف :

— « انت تعلم انك سوف تموت . »

ومن غير ان يجيب ، ساعد جان فالجان المتمردَ الذي انقذه ، على ارتداء ثوبـه العسكري .

٥
اي افق يُرى من أعلى المتراس

كانت حال الجميع ، في ساعة الموت تلك ، وفي ذلك الموطن الذي لا يعرف الرحمة ، قد وجدت حاصلها وذروتها في كآبة آنجولراس العليا .

كان آنجولراس يجسّد في ذات نفسه كمال الثورة . ومع ذلك ، فقد كان ناقصاً ، بقدر ما يمكن للمطلق ان يكون ناقصاً . لقد تعلق اكثر مما ينبغي بسان جوست * ، واقل مما ينبغي بـ « آناشارسيس كاوتز » ** ، وبرغم ذلك فان عقله ، في جمعية « اصدقاء الالفباء » ، كان قد انتهى إلى ان يتلقى بعض الاستقطاب من أفكار كومبوفير . وكان قد شرع يطّرح ، منذ مدة ، شيئاً فشيئاً ، شكل العقيدة الضيق ، واجاز لنفسه ان يمضي في طرق التقدم اللاحبة ، وارتضى آخر الامر ، كتطور نهائي ورائع ، تحوّل الجمهورية الفرنسية العظيمة إلى جمهورية انسانية ضخمة . أما في ما يتصل بالوسائل المباشرة ، في حالة من حالات العنف، فكان يريدهم ان يكونوا ذوي عنف . وهو في هذا لم يتغير ؛ وكان لا يزال من تلك المدرسة الملحمية الرهيبة التي تلخّص في هذه الكلمة : ثلاث وتسعون . ***

كان آنجولراس واقفاً على السلم المصنوعة من حجارة الارصفة ،

* Saint — Just (١٧٦٧ – ١٧٩٤) عضو المؤتمر الوطني زمن الثورة ، وعضو لجنة السلامة الوطنية ، وكان شديد التطرف في ثوريته ، وقد مات على المقصلة مع روبسبير .

** Anacharsis Cloots عضو المؤتمر الوطني في عهد الثورة الفرنسية ، وكان احد مؤسسي « عبادة العقل » ، وقد لقب نفسه بـ « خطيب الجنس البشري » . وقضى نحبه على المقصلة مع الهيبريين (١٧٥٥ – ١٧٩٤)

*** يقصد عام ١٧٩٣ الذي ساد فيه الارهاب الثوري في فرنسة .

ومرفقه على انبوب بندقيته القصيرة الخفيفة . كان يفكر . واجفل وكأنما كان في غمرة من عصفات ريح . ان للمواطن التي يجثم فيهما الموت مثل هذه الآثار ذوات القوائم الثلاث . وانبعثت من عينيه ، المغمضتين بالبصر الباطني ، ضروب من النيران المطفأة . وفجأة رفع رأسه ، وارتد شعره الاشقر إلى الوراء مثل شعر الملاك فوق مركبته القاتمة المصنوعة من النجوم . كان اشبه بعفرة الاسد المروع وسط هالة من نور . وهتف آنجولراس :

— « ايها المواطنون ، هل تتصورون المستقبل ؟ شوارع المدن مغمورة بالضياء ؛ اغصان خضراء على عتبات المنازل ؛ الدول متآخية ؛ الناس متصفين بالعدل ؛ الشيوخ يباركون الاطفال ؛ الماضي محباً للحاضر ؛ المفكرون يتمتعون بحرية كاملة ؛ المؤمنون ينعمون بالمساواة ؛ السماوات للدين ، والرب كاهناً مباشراً ، وقد امسى الضمير مذبحاً ؛ لا بغض ؛ الاخاء يجمع ما بين المعمل والمدرسة ؛ الشهرة للمكافأة وللعقوبة ؛ العمل للجميع ؛ القانون في خدمة الجميع ؛ السلم فوق الجميع ؛ لا دماء مسفوحة ؛ لا حزوب ؛ الامهات تغمرهن السعادة ! إن اخضاع المادة هو الخطوة الأولى ، وتحقيق المثل الاعلى هو الخطوة الثانية . فكروا في الذي صنعه التقدم حتى الان . ففي العهود القديمة كانت العروق البشرية ترى في رعب إلى الافعوان الذي نفث فوق الماء ، والتنين الذي تقيأ ناراً ، والعُقاب — هولة السماء — الذي طار بجناحي نسر وبراثن نمر ، حيوانات رهيبة كانت فوق الانسان . بيد ان الانسان كان قد طرح أشراكه ، أشراك الذكاء المقدسة ، وكان قد اوقع بالهولات آخر الأمر .

لقد روّضنا الافعوانَ ، وهو يدعى المركب البخاري ؛ لقد روضنا التنين ، وهو يدعى القاطرة ؛ ونحن على وشك ترويض العُقاب ، وقد

أمسينا اليوم نملكه ، وهو يدعى المنطاد . ويوم يتمّ هذا العمل البروميثي *
ويوم يوفق الانسان إلى ان يسخر لارادته تسخيراً نهائياً وهمَ القدماء
الثلاثي ، الافعوان ، والتنين ، والعقاب ، فعندئذ يصبح سيد الماء ،
والنار ، والهواء ، وعندئذ يصبح بالنسبة إلى سائر الخليقة الناشطـــة
ما كانت الآلهة القديمة بالنسبة اليه هو . الشجاعة ، وإلى الامام ! أيها
المواطنون ، إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى العلم وقد جُعل حكومة ، إلى
قوة الاشياء وقد غدت وحدها القوة العامة الوحيدة ، إلى القـانـون
الطبيعي الحامل جزاءه وعقوبته في ذات نفسه والمعلَن رسمياً بالبرهـــان
الذاتي ، إلى فجر الحقيقة المطابق لفجر النهار . نحن ماضون نحو اتحـاد
الشعوب ؛ نحن ماضون نحو وحدة الانسان . لا أوهام بعد اليوم ؛ لا
طفيليات بعد اليوم . الواقعي محكوماً بالحقيقي ، تلك هي الغاية . ان
الحضارة سوف تقيم محاكمها فوق قمة اوروبة ، وبعد ذلك في وســط
القارات ، في برلمان للذكاء كبير . لقد رئي شيء مثل ذلك من قبل .
ن مجالس اليونان التمثيلية القديمة المعروفـــة بالآمفيكتيونات
كانت تعقد جلستين في العام ، الأولى في دلفي ، مقر الآلهة ، والثانية
في تيرموبيل ، مقر الأبطال . ولسوف يكون لاوروبة آمفيكتيوناتها ،
ولسوف يكون للكرة الارضية آمفيكتيوناتها . إن فرنسة لتحمل بـين
جوانحها هذا المستقبل السامي . ذلكم هو حَمْل ** القرن التـاسـع
عشر . فما رسمته بلاد الاغريق رسماً أولياً جدير بأن يتم على يـــد
فرنسة . أصغ الي اذن ، يا فويي ، ايها العامل الباسل ، يا رجـــل
الشعب ، يا رجل الشعوب . أنا أجلك . اجل ، انت ترى عصـــور
المستقبل في وضوح . اجل ، انت على صواب . انت لم يكن لك لا أب

* نسبة الى بروميثيوس الذي تروي الاساطير انه سرق النار من السماء ، وكان واضع حجر الاساس في الحضارة الانسانية ..

** الحمل هنا بمعنى الحَبَل .

ولا ام . فويبي . لقد اتخذتَ من الانسانية أماً لك ، ومن الحق أباً لك إنك سوف تموت هنا ، يعني سوف تنتصر . ايها المواطنون ، مهما يحدث اليوم ، وسواء انهزمنا أم انتصرنا ، فأننا سنصنع ثورة . ومثلما تضيء الحرائق المدينة بكاملها هكذا تنير الثورات الجنس البشري كله ؛ واي ثورة تلك التي سنصنعها ؟ لقد سبق لي ان قلت : إنها ثورة الحق: ومن وجهة النظر السياسية هناك مبدأ واحد ليس غير : سيادة الانسان على نفسه . وهذه السيادة التي لنفسي على نفسي تدعى الحرية . وحيث تتشارك اثنتان من هذه السيادات أو اكثر تبدأ الدولة . ولكن ليس في هذه المشاركة اي تنازل البتة . ان كل سيادة تتخلى عن جزء من ذاتها لكي تشكل الحق العام . وهذا الجزء متساو بالنسبة إلى الجميع . وتماثل المقادير التي تتخلى عنها هذه السيادات يدعى المساواة . والحق العام ليس غير حماية الجميع مشعةً على حق كلٍ ، لا اكثر ولا اقل . وحماية الجميع هذه لكلٍ تدعى الاخاء. ونقطة التقاطع بين هذه السيادات المتآلفة تدعى المجتمع . ولما كان هذا التقاطع التقاء ، فأن تلك النقطة هي عقدة: ومن هنا ما ندعوه الرابطة الاجتماعية . وبعضهم يقول العقد الاجتماعي ، وليس من فرق بين التعبيرين ، لأن لفظة العقد قد صيغت ، اشتقاقياً ، من فكرة الرابطة . فلنتفاهم في ما يتصل بالمساواة . لانه إذا كانت الحرية هي القمة فان المساواة هي القاعدة . المساواة لا تعني ، ايها المواطنون ، نهوض النبات كله على مستوى واحد ، مجتمعاً من اعشاب ضخمة وسنديانات صغيرة ؛ جواراً من ضروب الحسد يخصي بعضها بعضاً : إنه ، مدنياً ، تكافؤ الفرص أمام الكفايات كلها ؛ وسياسياً تساوي الاصوات جميعاً في القيمة ؛ ودينياً ، تساوي جميع الضمائر في الحقوق . إن للمساواة وسيلة : التعليم المجاني الالزامي الحق في الوصول إلى الالفباء ؛ يجب ان نبدأ بهذا . المدرسة الاولية الزاميةٌ للجميع ، والمدرسة الثانوية متاحةٌ للجميع ، ذلك هو القانون . ومن

المدرسة المتماثلة ينبثق المجتمع المتساوي . اجل ، التعليم ! الضياء ! الضياء ! كل شيء ينبعث من الضياء ، وكل شيء يرتد اليه « ايها المواطنون ، ان القرن التاسع عشر عظيم ، ولكن القرن العشرين سوف يكون سعيداً . وعندئذ لن يبقى بعدُ شيء مما يشبه التاريخ القديم . ولن يتعين على الناس بعدُ ان يخشوا ، شأنهم اليوم ، فتحاً ، أو غزوا ، أو اغتصاباً ، أو تنافساً بين الشعوب بالاسلحة ، أو اعتراضاً للحضارة متصلا بزواج ملك ، أو ولادة في انظمة الطغيان الوراثية ، أو تمزيقاً للشعوب بمؤتمر ، أو تجريئاً ناشئاً عن سقوط اسرة مالكة ، أو صراعاً بين دينين يلتقيان وجهاً لوجه ، مثل تيسين من تيوس الظلام ، فوق جسر اللانهاية . لن يتعين على الناس بعدُ ان يخشوا الجوع ، والاستغلال ، والبغاء بسبب من العوز ، والبؤس بسبب من انعدام العمل ، وان يخشوا المشنقة ، والسيف ، والمعارك ، وجميع لصوصيات المصادفة في غابة المصائب . بل ان في استطاعتنا أن نذهب إلى حد القول : لن تبقى بعدُ مصائب . ان الناس ســـوف يكونون سعداء . والجنس البشري سوف ينفّذ قانونه كما تنفذ الكرة الارضية قانونها . ولسوف يقام التناغم من جديد بين النفس والنجم . إن النفس سوف تنجذب حول الحقيقة كما ينجذب النجم حول الضياء . ايها الاصدقاء ، إن الساعة التي نعيش فيها ، والتي اخاطبكم فيها ، هي ساعة مظلمة ، ولكن ثمن المستقبل يكون فظيعاً دائماً . الثورة باب ، تؤدى عنـــده المكوس . اوه ، ان الجنس البشري سوف ينقَذ ، وتقال عثرته، ويوقع في قلبه العزاء . اننا نؤكد ذلك هنا في هذا المتراس . من اين ترتفـــع صيحة الحب إذا لم ترتفع من قمة التضحية ؟ ايه ايها الاخوة ، هذا مكان الاتصال بين اولئك الذين يفكرون واولئك الذين يتألمون . إن هذا المتراس ليس مصنوعاً من حجارة ارصفة ، أو من ألواح خشب، أو من حديد ؛ إنه مصنوع من ركامين ، ركام افـكار وركام آلام . إن البؤس ، هنا ، يلتقي بالمثل الاعلى . هنا يعانق النهـار الليل ،

ويقول له : « سوف اموت معك ، وانت سوف تولد من جديد معي . » ومن ضغط ضروب الحزن كلها ينبثق الايمان . إن الآلام لتحمل حشرجتها هنا ، وان الافكار لتحمل خلودها . وهذه الحشرجة وذاك الخلود سوف يمتزجان ويشكلان موتنا . ايها الاخوة ، إن ذلك الذي يموت هنا يموت تحت اشعاع المستقبل ، وإننا لداخلون إلى قبر مضاء بالفجر . »

وقاطع آنجولراس نفسه مقاطعة ، ولا تقول انتهى ، وراحت شفتاه تتحركان في صمت وكأنما كان لا يزال يخاطب نفسه . ونظروا اليه في انتباه ، محاولين ان يسمعوا شيئاً اضافياً . لم يكن ثمة تصفيق ، ولكنهم تهامسوا فترة طويلة . وإذ كان الكلام نفثاً ، فأن ارتجاف العقول يشبه ارتجاف اوراق الاشجار .

٦
ماريوس تائهاً ، جافير موجزاً

فلنروِ ما كان يدور في خلد ماريوس .

ينبغي ان نتذكر حالته الذهنية . فكما ذكرنا منذ لحظة ، كان كل شيء عنده ، الآن ، حلماً من الاحلام . وكان إدراكه مشوشاً . ويجب ان نؤكد أن ماريوس كان في ظل الاجنحة الكبيرة السوداء التي تنبسط فوق المحتضَرين من الناس . لقد استشعر انه دخل القبر ، وبدا له انه قد انتهى إلى الجانب الاخر من الجدار ، ولم يعد يرى وجوه الاحياء إلا بعيني ميت .

كيف ظهر مسيو فوشلوفان هناك ؟ لماذا كان هناك ؟ ما الذي كان يبتغي ؟ إن ماريوس لم يطرح اياً من هذه الاسئلة . وإلى هذا ، فبسبب

من ان ليأسنا تلك الخاصة التي تجعله يلف الآخرين كما يلفنا ، فقد بدا له ان من المنطقي ان يقبل كل امريء على الموت .

كل ما في الأمر أنه فكر بكوزيت منقبض الفؤاد .

وفوق هذا ، فان مسيو فوشلوفان لم يتحدث اليه ، ولم ينظر اليه ، بل انه لم يبد انه سمع شيئاً حين رفع ماريوس صوته لكي يقول : « أنا اعرفه . . »

أما ماريوس ، فقد كان في مسلك مسيو فوشلوفان هذا راحة له ؛ واذا جاز لنا ان نصطنع مثل هذه الكلمة لمثل تلك الانطباعات فيتعين علينا ان نقول ان ذلك المسلك قد سره . فلقد طالما استشعر ان من المستحيل عليه باتا حال من الاحوال ان يوجه كلمة إلى ذلك الرجل اللغز الذي كان في نظره مبهماً ومهيباً في آن واحد . وكان قد انقضى زمن طويل ايضاً على رؤيته اياه آخر مرة ، مما زاد في قوة تلك الاستحالة ، بالنسبة إلى ماريوس ذي الطبيعة الحيية المتحفظة .

وغادر الرجال الخمسة المعينون المتراس سالكين زقاق موندیتور. كانوا يشبهون رجال الحرس الوطني كل الشبه . ولقد غادر واحد منهم المتراس وهو يبكي . وقبل ان يمضوا لسبيلهم عانقوا اولئك الذين مكثوا .

حتى إذا انصرف الرجال الخمسة الذي أرسلوا إلى الحياة ، فكر آنجولراس في ذلك الذي حكم عليه بالموت . ومضى إلى الحجرة السفلية . كان جافير ، المشدود وثاقه إلى العمود ، مستغرقاً في التفكير .

وسأله آنجولراس :

— « هل تحتاج إلى شيء ؟ »

فأجاب جافير :

— « متى ستقتلونني ؟ »

— « انتظر . نحن في حاجة إلى كل خرطوشة من خراطيشنا فـــي هـــذه اللحظـــة . »

فقال جافير :

— « اذن ، فاعطوني ما اشربه . »

وقدم آنجولراس بنفسه كأساً من الماء اليه . واذ كان جافير مشدود الوثاق فقد ساعده على ان يشربه .

وعاد آنجولراس إلى الكلام :

— « اهذا كل شيء ؟ »

فأجاب جافير :

— « إن شدي إلى هذا الوتد يؤذيني . ولم يكن رفيقـــاً منكم ان تتركوني اقضي الليل هنا . شدوا وثاقي كما تريدون ، ولكن في استطاعتكم من غير ريب أن تمددوني على طاولة . مثل الرجل الاخر . »

وبحركة من رأسه ، أشار إلى جثمان مسيو مابوف .

كان في اقصى الغرفة ، كما نذكر ، مائدة عريضة كانوا قد صبوا فوقها القذائف وصنعوا الخراطيش . وإذ كانت الخراطيش كلهـــا قـــد صنعت ، وإذ كان البارود كله قد استُعمل ، فقـــد أمست تلك المائـــدة شاغرة .

ونزولا عند أمر آنجولراس ، فك اربعة متمردين وثاق جافير . وفيما كانوا يفكون وثاقه كان خامس يسدد إلى صدره حربة . لقد تركوا يديه موثقتين خلف ظهره . واحاطوا قدميه بحبل قصير ولكنه قوي كان يسمح له بأن يخطو خطوات طولها خمس عشرة بوصة مثل خطوات اولئك الصاعدين إلى المشنقة . وقادوه إلى المائدة في اقصى الغرفـــة ، فمددوه فوقها ، وشدوا جذعه اليها شداً محكماً .

وزيادة في الحيطة ، وبواسطة حبل مشدود إلى عنقه ، اضافوا إلى

مجموعة الاربطة التي جعلت كل هرب مستحيلا – اضافوا ذلك النوع من الرباط الذي يدعونه في السجون "حكَمة *". والذي ينطاق من مؤخر العنق ثم ينفصل فوق المعدة، ويُشَد إلى اليدين بعد ان يُمرّ بين الرجلين.

وفيما كانوا يوثقون جافير حدق اليه رجل، عند عتبة الباب، في انتباه فريد. وكان في الظل الذي أحدثه ذلك الرجل ما جعل جافير يدير رأسه. لقد رفع عينيه، وعزف جان فالجان. ولم يجفل مجرد إجفال. لقد غض طرفه في صلف، واكتفى بالقول: «ذلك طبيعي جداً.»

٧
الوضع يصبح خطراً

وتنفس الصبح في سرعة. ولكن اياً من النوافذ لم تفتح، واياً من الابواب لم يُفتح فتحاً يسيراً. لقد ارتفع الضحى، أما ساعة اليقظة فلم تكن قد حانت. وكانت الجيوش قد أخلت اقصى شارع الـ «شانفريري» تجاه المتراس، كما ذكرنا. لقد بدا سالكاً، منفتحاً للعابرين في هدوء مشؤوم. وكان شارع سان دينيز أخرس مثل جادة ابي الهول في ثيبة. لم يكن ثمة كائن حي عند مفارق الطرق التي كانت تبيضّ تحت أشعة الشمس. إن شيئاً ليس اكثر حدادية من اشراق الشوارع المهجورة ذاك.

ولم يكن في ميسور المرء ان يرى شيئاً، ولكنه كان في ميسوره ان يسمع. كانت حركة خفية تجري على مسافة ما. وكان واضحاً ان اللحظة

* الحكمة، بالتحريك، حديدة في اللجام تكون على انف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه. وسميت بذلك لانها تمنعه من الجري الشديد. وهي ترجمة لكلمة martingale التي في الأصل.

الحرجة قد حانت : وانسحب الحرس ، شأنهم في المساء . ولكنهم انسحبوا كلهم هذه المرة .

كان المتراس أقوى منه لحظةَ الهجوم الأول — لقد سمَوا به ، أعلى فأعلى ، بعد انسحاب الرجال الخمسة .

وما إن سمع آنجولراس إخطار الحرس الذي كان يراقب منطقة الأسواق ، حتى اتخذ قراراً خطيراً خشية ان تؤخذ قواته على حين غرة من خلاف . كان قد سد المجاز الصغير المؤدي إلى زقاق موندیتور الذي كان حتى ذلك الحين سالكاً . ولقد نزعوا ، من اجل ذلك ، حجارة الارصفة على محاذاة بضعة بيوت اخرى . وهكذا كان المتراس ، المحصن بثلاثة شوارع — من أمام ، بشارع الـ « شانفزيري » وعن يسار ، بشارع دو سيني ، و « لا بيتيت تروواندري » ، وعن يمين بشارع موندیتور — قد أمسى امنع من عقاب الجو أو يكاد . صحيح انهم كانوا مطوقين على نحو مشؤوم . كانت للمتراس ثلاث جبهات ، ولكن لم يبق له مخرج . وقال كورفيراك ضاحكاً :

— « معقل ، ولكنه مصيدة . »

وكان آنجولراس قد ركم قرب باب الحانة نحواً من ثلاثين حجراً من حجارة الارصفة « اقتُلعت على غير طائل » كما قال بوسوويه .

وكان الصمت قد غدا ، الآن ، عميقاً في الناحية التي ينتظر ان يشنّ منها الهجوم بحيث أمر آنجولراس كل رجل من رجاله بالعودة إلى موقعه المحدد له .

ووزِّعت على القوم جميعاً أنصبة من العرق .

وليس شيء اكثر غرابة من متراس يستعد للغارة . إن كل رجل يختار مكانه ، كالذي يقع في المسارح . انهم يتكئون على جوانبهم ، وعلى مرافقهم ، وعلى مناكبهم . وثمة نفر يتخذون لانفسهم من حجارة الارصفة كراسي ودككاً . وقد تكون ههنا زاوية حجارة مزعجة ، فهم

يبتعدون عنها ، وقد يكون ههناك حائط ذو زوايا يستطيع المرء ان يحتمي بـه فهم يفزعون اليه . والأعسرون من المقاتلين هم اعلاق نفيسة ؛ أنهم يتخذون المواقع التي لا تلائم سائر الجماعة . وكثير من المقـاتلين يعمدون إلى ترتيبات تمكنهم من القتال وهم قعود . إنهم يريدون ان يقتلوا في غير ما انزعاج ، وان يموتوا في رفاهية . ففي حرب حزيران ١٨٤٨ المشؤومة كان متمرد ذو اصابة رهيبة ، متمرد قاتلٌ من اعلـى سطيحة ، فوق سطح ، قد حمل كرسياً ذا ذراعين من نوع فولتير إلى هناك . إن وابلا من القذائف قد وجده فيه .

وما يكاد الزعيم يأمر بالاستعداد للقتال حتى تنقطع جميـع الحركات المشوشة . لا تبقى ثمـة مناوشات بين متمرد ومتمرد ؛ لا تبقى ثمـة تجمهرات ودية ، لا تبقى ثمة احاديث تدور بين كل شخصين على حدة ، لا يبقى ثمـة اعتزال . إن كل ما في الاذهان يتحول ، ويتغير في انتظار المهاجم . المتراس قبل الخطر فوضى ، ولكنه عند الخطر ضبط . ان الخطر يولد النظام .

ولم يكد آنجولراس يحمل بندقيته القصيرة الخفيفة ذات الاسطوانـة المزدوجة ، ويرتقي ضرباً من المرتفع كان قد احتفظ به لنفسه ، حتى ران الصمت على الجميع . وسُمعت على طول الجدار المشيد من حجارة الارصفة ضجـة صغيرة جـافة . غير واضحـة . كـانوا يشحنـون بنـادقهم .

وفوق هذا ، فقد كانت مسالكهم اكثر اعتزازاً واحفل بالثقة من ذي قبل . إن فرط التضحية توطيد . لم يعد عندهم أمل ، ولكنْ يأس . اليأس ، السلاح الاخير ، الذي يهب النصرَ في بعض الاحيان . ذلـك ما قاله فيرجيل . إن الأمداد العليا لتنبثق من العزائم المتطرفة . ان التخويض في الموت قد يكون الوسيلة إلى النجاة من الغرق . وهكذا يصبح غطاء التابوت لوحَ الخلاص .

وكما حدث في الليلة الفائتة ، كان انتباه الجميع قد تحول ، بل نكاد نستطيع ان نقول انه كان مستنداً ، إلى اقصى الشارع ، الذي غدا الآن مضاءاً ومنظوراً .

ولم يطل انتظارهم . واستؤنف النشاط استئنافاً ملحوظاً في ناحية سان لو ، ولكن ذلك لم يشبه حركة الهجوم الأول . لقد كان في جلجلة السلاسل ، وارتجاج الجمع المحتشد ارتجاجاً مهدداً ، وصليل النحاس المقصدر الواثب فوق حجارة الرصيف ، وفي ضرب من القعقعة الاحتفالية — كان في هذا كله ما يؤذن بأن جسماً مشؤوماً من حديد يتقدم ويقترب . وسرت رعدة في احشاء تلك الشوارع العتيقة الآمنة المشقوقة والمبنية لسير المصالح والافكار على نحو مثمر ، والتي لم تجعل لدوران دواليب الحرب الرهيب .

وكان تحديق المقاتلين جميعاً إلى اقصى الشارع قد غدا ضارياً .

وبدا مدفع .

ودفع الجند ذلك المدفع . كان على استعداد لاطلاق النار . كانت الدواليب الامامية قد نُزعت ، وكان مدفعيان يسندان العزبة ، واربعة عند الدواليب ، وآخرون يتبعونهم بعربة العتاد . لقد رئي دخان الفتيلة المشتعلة .

وصاح آنجولراس :

— « النار ! »

واطلق المتراس كله النار ، وكان الانفجار رهيباً . وغطت سحابة دخان المدفع والمدفعيين ومحتهم . وما هي إلا ثوان معدودات حتى تبددت السحابة ، وعاد المدفع والمدفعيون إلى الظهور . وعمد المكلفون بالمدفع إلى وضعه تجاه المتراس ، في تؤدة ، وفي ضبط ، وفي غير ما سرعة . إن رجلا ما لم يمس . ثم ان رئيس المدفعيين ، القى بثقله على مؤخر المدفع لكي يرفع خط الرمي ، وراح يسدد المدفع بوقار فلكي

يصوب تلسكوباً .

وصاح بوسوويه :

— « مرحى للمدفعيين ! »

وصفق المتراس كله .

وبعد لحظة ، كان المدفع قد وُضع بحزم في منتصف الشارع ، منفرج الساقين فوق الساقية ، مستعداً لاطلاق النار . كان شدقٌ مروّع قد فُتح على المتراس .

وقال كورفيراك :

— « هيا ، كونوا ناشطين ! هو ذا القظ . بعد الضربة بطرف السبابة يجيء دور اللكمة . إن الجيش يبسط برثنه الكبير نحونا . ان المتراس سوف يزعزع على نحو جديّ . البنادق تجسّ ، والمدافع تشتعل . »

ثم اضاف :

— « إنه مدفع برونزي تزن قذيفته ثمانية ارطال ، وهو يمثل نموذجاً جديداً . وهذه المدافع ، برغم انها لا تزيد على نسبة عشرة اجزاء من الصفيح إلى مئة من النحاس إلا زيادة طفيفة ، تظل عرضة للانفجار . إن فرط الصفيح فيهما يجعلها رقيقة باكثر مما ينبغي . وفي هذه الحال ، تنشأ فجوات وتجاويف في ثقب إشعال البارود . ولكي يتفادوا هذا الخطر ، ويكونوا قادرين على إطلاق النار عنوة ، فقد يتعين عليهم أن يرجعوا إلى طريقة القرن الرابع عشر ، التطويق بأُطر مستديرة ، وإلى تدعيم المدفع خارجياً بسلسلة من الحلقات الفولاذية بدون إلحام ، من مؤخره إلى محوره . وفي غضون ذلك يعالجون العلة جهد طاقتهم . ويكتشفون اين تقع الثقوب والفجوات في ثقب الأشعال بواسطة

سابر ما . ولكن ثمة طريقة افضل ، هي نجمة غريبوفال •
المتحركة . »

ولاحظ بوسوويه :

— « في القرن السادس عشر ، كانوا يفرّضون الجزء الداخلي
من المدفع . »

فأجاب كومبوفير :

— « نعم ، ذلك يزيد في القوة على رمي القذائف ، ولكنه يضعف
من حسن الاصابة . وإلى هذا ، ففي المدى القصير لا يكون لمسار
القذيفة ذلك العنف المطلوب . إن الخط العدسي ليبالغ فيه ، وإن سبيل
القذائف لا يكون من الاستقامة بحيث يمكّنها من اصابة جميع الاشياء
المعترضة ، ولكنه على اية حال ضرورة من ضرورات القتال تتعاظم
أهميتها كلما اقترب العدو وتسارع إطلاق النار . وضعفُ التوتر هذا في
خط القذيفة المنحني ، في مدافع القرن السادس عشر المفرّضة ، مرده
إلى ضعف الشحنة . والشحنات الواهنة المصطنعة في هذا الضرب من
السلاح تفرضها ضرورات علم القذائف ، من مثل صيانة سند المدفع
مثلا . وعلى الجملة فالمدفعية ، ذلك الطاغية المستبد ، لا تستطيع ان
تفعل كل ما تشاء ؛ القوة ضعف ضخم . إن كرة المدفع لا تزيد سرعتها
على ستمئة فرسخ في الساعة . اما الضوء فتبلغ سرعته سبعين الف فرسخ
في الثانية . تلك هي أفضلية يسوع المسيح على نابوليون . »

فقال آنجولراس :

— « أعيدوا شحن الاسلحة ! »

ما الذي سيحدث لغطاء المتراس حين تنصبّ عليه النار ؟ هل تحدث
فيه النار ثغرة ؟ ذلك كان هو السؤال . وفيما كان المتمردون يعيدون شحن

• Gribeauval قائد مدفعية فرنسي مشهور ابتدع نظاماً مدفعياً جعل من مدفعية فرنسة اقوى مدفعية اوروبية عند فجر الثورة (١٧١٥ – ١٧٨٩).

بنادقهم ، شحن المدفعيون المدفع .
واستبد بالمتراس قلق بالغ .
لقد انطلقت النار . ودوى الانفجار .
وصاح صوت مبتهج :
— « حاضر ! »
ومع انطلاق القذيفة انقض غافروش على المتراس .
لقد أقبل من طريق شارع دو سيني . وكان قد تخطى ، برشاقة ، المتراس الثانوي الذي كان يشكل واجهة تيه الـ « بيتيت تروواندري » .
وأحدث غافروش في المتراس اثراً أعظم من اثر القذيفة .
وضاعت القذيفة في فوضى الانقضاض . لقد كسرت ، على الأكثر ، دولاب العربة العامة ، وأجهزت على كارة آنسو العتيقة . وإذ رأى رجال المتراس إلى ذلك شرعوا يضحكون .
وصاح بوسوويه مخاطباً المدفعيين :
— « تابعوا ! »

٨

المدفعيون يتركون انطباعة جديدة

وأحاطوا بغافروش .
ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت لينبئهم بشيء . وانتحى به ماريوس ، وهو يرتعد ، جانباً .
— « ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »
— « اسكت ! وأنت ما الذي جاء بك ؟ »

وحدق إلى ماريوس بوقاحته الملحمية . واتسعت عيناه بالضياء الفخور الذي كان يمور فيهما .

وتابع ماريوس كلامه في جرْس صارم :

— « من قال، لك ان تعود ؟ هل أوصلت رسالتي على الاقل إلى عنوانها ؟ »

ولم ينـج غافروش من شيء من وخز الضمير في ما يتصل بتلك الرسالة . فبحكم رغبته في العودة العاجلة إلى المتراس ، كان قد تخلص منها تخلصاً بدلا من ان يسلّمها تسليماً . لقد اضطر إلى ان يعترف لنفسه بأنه عهد بها في شيء من الطيش إلى ذلك الرجل الغريب الذي لم يتبين ، هو غافروش ، وجهه مجرد تبيّن . صحيح ان ذلك الرجل كان حاسر الرأس ، ولكن هذا غير كاف . وعلى الجملة فقد عانى بعض التبكيت الباطني على ذلك ، وخشي ان يوجه غافروش اليه ضروب التأنيب . وسلك ، لكي ينجو من البلاء ، الطريق الأبسط . لقد كذب على نحو مقيت .

— « ايها المواطن ، لقد أسلمتُ الرسالة إلى البواب . كانت السيدة نائمة . ولسوف تتلقى الرسالة ساعة تستيقظ . »

كان لماريوس في ارسال ذلك الكتاب هدفان : أن يودع كوزيت ، وان ينقذ غافروش . ولقد اضطر إلى أن يقنع بنصف ما ابتغاه .

ومثلت أمام ذهنه هذه المطابقة : إرساله الكتاب ووجود مسيو فوشلوفان في المتراس . ولفت نظر غافروش إلى مسيو فوشلوفان :

— « هل تعرف هذا الرجل ؟ »

فقال غافروش :

— « لا . »

والواقع ان غافروش ، ، كما اشرنا اللحظة ، لم يكن قد رأى جان فالجان إلا في الظلام .

وتبددت الأحداس المقلقة السقيمة التي كانت قد نشأت في ذهن ماريوس . هل كان يعرف آراء مسيو فوشلوفان ؟ لعل مسيو فوشلوفان كان جمهورياً . ومن هنا وجوده الطبيعي في هذا المعترك .

وفي غضون ذلك كان غافروش قد انتهى إلى الطرف الآخر من المتراس ، صائحاً :

— « بندقيتي ! »

واصدر كورفيراك أمره باعطائه اياها .

وحذر غافروش « رفاقه » ، كما كان يدعوهم ، قائلا ان المتراس مطوق . لقد وجد صعوبة كبيرة في الوصول اليه . كانت كتيبة من المشاة ، كدست بنادقها في شارع الـ « البتيت تروواندري » ، تراقب ناحية شارع دو سيني . وفي الناحية المقابلة ، كان الحرس البلدي يحتل شارع الـ « بريشور » . وفي الخط الامامي كان القسم الاكبر من الجيش .

حتى إذا قدم غافروش هذه المعلومات اضاف قائلا :

— « أنا افوضكم أن تعطوهم حبة دواء كريهة . »

وفي غضون ذلك كان آنجولراس فوق مرتفعه يراقب ويصغي في انتباه بالغ .

وكان المهاجمون قد احجموا عن اطلاق النار كرة اخرى ، بعد ان خيبت محاولتهم الأولى آمالهم .

كانت سرية من المشاة قد أقبلت واحتلت اقصى الشارع ، خلف المدفع . واقتلع الجند حجارة الرصيف ، وأقاموا منها جداراً صغيراً منخفضاً ، ضرباً من الدريئة ، لم يكد يرتفع إلى أكثر من ثماني عشرة بوصة ، تجاه المتراس . وعند زاوية هذه الدريئة وإلى يسارها رأوا طلائع فوج الضواحي المتراص في شارع سان دونيز .

وحسب آنجولراس ، القائم بالمرصاد ، انه تبين الضجة الفريدة

التي تحدث عندما تُخرج صناديق القذائف من عربة العتاد ، ورأى رئيس المدفعيين يغير الهدف ويميل فوهة المدفع إمالة طفيفة نحو اليسار . ثم ان المدفعين راحوا يشحنون المدفع بالقذائف . وامسك رئيسهم بنفسه القضيب ذا الفتيلة المشعلة ، وقرّبه من ثقب الاشعال .

وصاح آنجولراس :

ـ « اخفضوا رؤوسكم ، إلزموا الجدار ! واركعوا على ركبكم جميعاً على طول المتراس ! »

وكيفما اتفق اندفعت نحو المتراس جموع المتمردين الذين كانوا متناثرين تجاه الحانة ، والذين كانوا قد تركوا مواقعهم عند وصول غافروش ، ولكن قبل أن ينفذ امر آنجولراس أطلقت النار مثل فُواق الكرات المدفعية الرهيب . ولقد كانت النار منطلقة من المدافع فعلا .

كانت النار مصوبة إلى مدخل المتراس ، ولقد ارتدت عن الجدار . وهذا الارتداد الفظيع قتل رجلين وجرح ثلاثة .

ولو تواصل هذا اذن لما كان في الامكان الدفاع عن المتراس . لقد كان غير ممتنع على القذائف المدفعية .

وسُمعت ضجة حزن شديد .

وقال آنجولراس :

ـ « فلنمنع الطلقة الثانية على الأقل . »

وخفض بندقيته القصيرة الخفيفة ، وسددها إلى رئيس المدفعيين الذي كان في تلك اللحظة منحنياً فوق مؤخر المدفع محاولا إحكام تسديده إلى الهدف .

كان هذا الرئيس رقيباً مدفعياً وسيماً ، غض الشباب ، اشقر ، عذب المحيا ، تطفو على وجهه تلك السيما الذكية الخاصة بذلك السلاح المختار الرهيب الذي ينبغي ، بحكم تكامله في الهول ، ان ينتهي بقتل الحرب .

ونظر كومبوفير ، الواقف قرب آنجولراس ، إلى هذا الشاب .

وقال كومبوفير :

— « واأسفاه ! ما أبشع هذه المذابح ! عندما لا يبقى ثمة ملوك لن يبقى ثمة حرب . آنجولراس ، انت تسدد النار إلى ذلك الرقيب ، انت لا تنظر اليه . فكر في أنه شاب فاتن ، إنه شجاع . انت ترى انه مفكر . إن هؤلاء المدفعيين الشباب يتمتعون بثقافة جيدة . إن له أباً ، وأماً ، وأسرة . ولعله ان يكون عاشقاً . إن عمره خمسة وعشرون ربيعاً على الاكثر . ولعله ان يكون أخاك . »

وقال آنجولراس :

— « إنه لكذلك . »

فقال كومبوفير :

— « اجل ، وأخي ايضاً . حسناً . فلنحقن دمه ! »

— « دعني وشأني . يجب ان نفعل ما يجب ان يُفعل . »

وفي بطء تحدرت عبرة على خد آنجولراس الرخامي .

وفي الوقت نفسه ، ضغط على زناد بندقيته القصيرة الخفيفة . وانطلقت النار . ودار المدفعي على نفسه مرتين ، باسطاً ذراعيه امامه ، رافعاً رأسه وكأنه كان يريد أن يستنشق الهواء ، ثم خر على جانبه فوق المدفع وانطرح هناك جثة هامدة . كان في امكان المرء ان يرى ظهره وقد انبجس منه على نحو عمودي سيل من الدماء . كانت القذيفة قد دخلت صدره واخترقت ظهره . لقد مات .

وتعيّن عليهم ان ينقلوه من هناك ويعهدوا في عمله إلى شخص آخر . والحق ان ذلك اكسب المقاتلين بضع دقائق .

٩

فائدة تلك البراعة القديمة في الصيد المحظور ، وتلك الطلقة النارية المعصومة التي اثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦

وتعارضت الآراء في المتراس . كان المدفع على وشك ان يطلق ناره من جديد . وما كان في مقدور المتمردين ان يصمدوا ربع ساعة تحت وابل من تلك النيران . كان ضرورياً أن يوهنوا تلك الضربات .

وأصدر آنجولراس أمره :

– « يجب ان نضع حشيّة هناك . »

فقال كومبوفير :

– « ليس عندنا شيء من ذلك . إن الجرحى ممددون فوقها . »

ولم يكن جان فالجان – الجالس على حدة فوق احد المعالم ، عند زاوية الحانة ، واضعاً بندقيته بين فخذيه – لم يكن حتى تلك اللحظة قد اشترك في الاحداث الجارية . لقد بدا له وكأنه يسمع المقاتلين يقولون من حوله : « هي ذي بندقية لا تقوم بأيما عمل . »

حتى إذا سمع أمر آنجولراس انتصب واقفاً .

والقارىء يذكر أنه عند وصول الكتيبة إلى شارع الـ « شانفريري » وضعت امرأة عجوز فراشها أمام نافذتها ، بعد ان توقعت اطلاق القذائف . وهذه النافذة ، نافذة عليّة من العلالي ، كانت على سطح منزل ذي ستة أدوار قائم على مسافة يسيرة من المتراس . وكان الفراش الموضوع بالعرض ، قد أسند أدناه إلى وتدين من أوتاد الغسيل ، وشُد أعلاه بحبلين بدوا من بعيد وكأنهما خيطان رُبطا إلى مسمارين دُقا في إطار الكوة . وكان هذان الحبلان يشاهدان على صفحة السماء مثل

شعرتين .
وقال جان فالجان :
– « هل يستطيع احد منكم ان يعيرني بندقية خفيفة ذات اسطوانة مزدوجة ؟ »
وقدم اليه آنجولراس بندقيته الخفيفة القصيرة ، وكان قد شحنها منذ لحظة .
وسدد جان فالجان البندقية إلى النافذة ، واطلق النار .
وقُطع واحد من حبلي الفراش .
وتدلى الفراش من خيط واحد ليس غير .
واطلق جان فالجان الطلقة الثانية . وأصاب الحبل الثاني زجاج النافذة.
وانزلق الفراش بين الوتدين وسقط في الشارع .
وصفق المتراس .
وصاح الجميع :
– « هي ذي حشيّة . »
فقال كومبوفير :
– « اجل ، ولكن من الذي سوف يذهب التماساً لها ؟ »
كانت الحشية قد سقطت ، في الواقع ، خارج المتراس ، بين المحاصَرين والمحاصِرين . وكان موت المدفعي قد اسخط الجيش ، فظل الجند بضع لحظات مستلقين على وجوههم خلف خط حجارة الارصفة الذي اقاموه . ولكي يعوضوا عن صمت المدفع الالزامي ، هذا المدفع الذي خرس ريثما يعاد تنظيم استخدامه ، فتحوا النار على المتراس . ولم يجب المتمردون على رصاص البنادق هذا ، توفيراً لذخيرتهم . وتحطم وابل الرصاص على صخرة المتراس ، ولكن الشارع الذي ملأه ذلك الوابل بالقذائف ، كان رهيباً .
وخرج جان فالجان من فرجة المتراس ، وولج الشارع ، واجتاز

عاصفة القذائف ، ومضى إلى الحشية . فرفعهـا ، ووضعها على ظهره، ورجع إلى المتراس .

ووضع الحشية بنفسه في الفرجة . وركزها على الجدار تركيزاً جعل رجال المدفعية لا يرونها .

حتى إذا تم له ذلك انتظر المتمردون ان تنصبّ عليهم نيران المدفعية . ولم يطل انتظارهم .

لقد تقيأ المدفع ، في تهدار ، مشحونهُ من الرصاص الضخم . ولكن لم يكن ثمة ارتداد . ان القذيفة قد اجهضت على الحشية . لقد فـاز المتمردون بمبتغاهم . ولقد أنقذ المتراس .

وقال آنجولراس لجان فالجان :

— « ايها المواطن ، الجمهورية تشكرك . »

وأخذ العجب بوسوويه وضحك . وهتف :

— « من غير الاخلاقي ان يكون لحشية هذه القوةُ كلها . انتصار ذلك الذي يخضع على ذلك الذي يصعق . ولكن سيان . المجد للحشية الـتي تنسخ مدفعاً . »

١٠
الفجر

في تلك اللحظة استيقظت كوزيت .

كانت غرفتها صغيرة ، نظيفة ، منعزلة ، ذات نافذة طويلة قائمة إلى ناحية الشرق ، تطل على فناء البيت الخلفي .

ولم تعرف كوزيت شيئاً ممـا كان يجري في باريس . إنها لم تغـادر غرفتها قط خلال الليل ، وكانت قد آوت اليها عندما قالت توسين :

« يبدو ان هناك صخباً . »

كانت كوزيت قد نامت بضع ساعات ، ولكن نوماً عميقاً . لقد رأت في ما يرى النائم احلاماً عذاباً ، ولعل ذلك راجع — جزئياً — إلى ان فراشها الصغير كان ناصع البياض . لقد رأت شخصاً هو ماريوس وكأنه مطوق بهالة . واستيقظت والشمس في عينيها ، مما احدث بادئ الامر مثل أثر استمرار الحلم .

وكان انفعالها الأول ، لدن خروجها من هذا الحلم ، بهيجاً . واستشعرت كوزيت الطمأنينة كاملة . كانت تمر ، شأن جان فالجان قبل بضع ساعات ، برجع الروح التي لا تريد الشقاء . لقد بدأت ترجو بكامل قواها من غير ان تدري لماذا ؟ ثم استبد بها انقباض الفؤاد . « ها قد انقضت ثلاثة ايام لم تر فيها ماريوس . ولكنها قالت في ذات نفسها انه لا بد قد تلقى رسالتها ، وانه يعرف اين كانت ، وانه كان عظيم الفطنة ، وانه سوف يجد وسيلة للوصول اليها . » « وهذا سوف يتم اليوم من غير شك ، وربما هذا الصباح بالذات . » « كانت الشمس قد اشرقت ، ولكن أشعتها كانت أفقية جداً . ولقد فكرت ان الوقت مبكر جداً . وان عليها ان تنهض ، برغم ذلك ، لكي تستقبل ماريوس . »

لقد استشعرت انها لا تستطيع أن تحيا بدون ماريوس ، وان هذا بالتالي كان كافياً ، وان ماريوس سوف يجيء . ولم يكن أيما اعتراض ممكن القبول . كان ذلك كله ثابتاً . ولقد كان رهيباً إلى حد كاف أن تقاسي الآلام ثلاثة ايام موصولة حتى الآن . ماريوس يغيب ثلاثة ايام ، — إن ذلك لفظيع وحق الاله . والآن كانت مناكدة السماء القاسية تجربة انتهى اجلها . كان ماريوس آتياً ، ولسوف يحمل اليها انباء طيبة . على هذا النحو خُلق الشباب ، إنه يكفكف دموعه على عجل ، إنه يعتقد ان الحزن لا طائل تحته ، وهو لا يقبله . الشباب بسمة

المستقبل امام كائن مجهول هو المستقبل نفسه . إن من الطبيعي ان يكون سعيداً . إنه يبدو وكأنه يتنفس الأملَ تنفساً .

وإلى هذا ، فـان كوزيت لم توفق إلى تذكّر ما كان ماريوس قـد قاله لهـا حول مسألة هذا الغياب الذي ما كان ينبغي ان يطول اكثر من يوم واحد ، أو تذكّر ما كان قد قدمه اليها من تفسير لهذا الغيـاب . إن كلا منا قد لاحظ بأية رشاقة تجري القطعة النقدية الساقطة على الارض وتختفي ، وبأي فنّ تجعل من المتعذر على المرء أن يكتشف مكانها . إن ثمـة افـكاراً تخاتلنا مثل هذه المخاتلة عينها . إنها تختفي في زاوية مـن دماغنا . لقد قضي الامر . لقد ضاعت . ومن المستحيل علينا بعدُ ان نتذكرها . واغتاظت كوزيت ، بعض الشيء ، لذلك الجهد الصغير الذي بذلته ذاكرتها على غير طائل . لقد قالت لنفسها ان نسيانها كلمـات نطق بها ماريوس كان عملا شريراً جداً اقدمت عليه ، بل عمـلا مجرمـاً جداً .

ونهضت ، وتوضأت الوضوءين ، وضوء النفس ووضوء الجسد ، صلاتها وزينة وجهها .

اننا قد نُدخل القاريء ، عند الضرورة ، إلى غرفة زواجية ، لا إلى غرفة بتولية . إن الشعر ليجرؤ على ذلك بشق النفس ، أما النثر فينبغي ان لا يفعل .

إنها باطن زهرة لـمّا تتفتح بعد . إنهـا بياض في الظل ؛ إنها الخلية الجوهرية لزنبقة مغلقة يجب أن لا ينظر اليها الانسان ما دامت الشمس لـمّا تنظر اليها بعد . إن المرأة في كمها مقدسة . إن هذا السرير البريء الذي ينكشف ؛ ونصف العري الرائـع ذاك الخائف من نفسه ؛ وتلك القدم البيضاء التي تلجأ إلى مشاية ؛ وذلك الصدر الذي يحتجب أمـام مرآة وكأن تلك المرآة عين ترى ؛ وذلك القميص الذي يسارع إلى الارتفاع وإخفاء الكتف لدن طقطقة قطعة من اثاث أو لدن مرور عربة،

وهذه العصائب المعقودة ، والأبازيم المنشّبة ، والأشرطة المشدودة ، وهذه الارتعادات ، وارتعاشات البرد والحياء ، وذلك الخجل اللذيذ في كل حركة ، وذلك القلق الذي يكاد يكون مجنّحاً حيث لا سبب للخوف ، وأطوار الملابس المتعاقبة ، الفاتنة كسُحب الضحى — إن هذا كله ليس من المناسب ان يوصف ، وانه لمن الكثير ، حقاً ، ان يشار اليه .

بل إن عين الرجل يجب ان تكون أتقى أمام بزوغ فتاة صغيرة منها أمام بزوغ نجم من النجوم . إن إمكانية اللمس يجب ان تزيد الاحترام . فزغب الدراق ، وغبار الخوخ ، وبلور الثلج المشع ، وجناح الفراشة المذرور بالريش — كل اولئك اشياء غليظة بالقياس إلى ذلك الطهر الذي لا يعترف حتى بمجرد انه طاهر . ان الفتاة الصغيرة ليست غير بارقة حلم ، وهي لـمّا تصبح بعد تمثالا . إن مخدع نومها مخبوء في ظلال المثل الاعلى . ولمس النظرة غير الرصين يشوه شبه الظل القائم هذا . فلأن تنظر هنا يعني ان تدنس .

إننا لن نُظهر ، اذن ، شيئاً من كل ذلك التشوش الطفيف العذب الذي اتسم بها استيقاظ كوزيت .

تروي حكاية شرقية ، ان الله خلق الوردة بيضاء ، ولكن آدم نظر اليها لحظةَ شرعت في التفتح ، فاستحيت واحمر وجهها . إننا من اولئك الذين يستشعرون انهم قاصرون أمام الفتيات الصغيرات والازهار لأننا نجدهن جديرات بالاحترام .

وارتدت كوزيت ملابسها في عجل بالغ ، ورجلت شعرها وسوته ، ذلك الشعر الذي كان شيئاً بسيطاً جداً ، عندما كان النساء لا يورّمن خصلهن وجدائلهن بوسائد ولفائف ، ولا يضعن نسيجاً صفيقاً في شعرهن . ثم فتحت النافذة ، واجالت طرفها في ما حولها راجية ان تكتشف شيئاً من الشارع ، زاوية منزل ، ناحية من رصيف ، وان توفق إلى ترقب ماريوس هناك . ولكنها لم تستطع ان ترى شيئاً من الشارع .

كان الفناء الخلفي مطوقاً باسوار عالية ، وكانت بضع جنائن ليس غير تبدو للعيان . وتراءت هذه الحدائق بشعة في عيني كوزيت ، وللمرة الأولى في حياتها وجدت الازهار قبيحة . ولقد كان خليقاً بأحقر جزء من ساقية من سواقي الشوارع أن يتراءى لها وكأنه اهم من ذلك كله . واخيراً ، شرعت تنظر إلى السماء ، إذ خيل اليها ان ماريوس قد يجيء من تلك الطريق ايضاً .

وفجأة اغرورقت عيناها بالدمع . لم يكن ذلك خفة منها . ولكن الضنى كان قد عطل آمالها . واستشعرت على نحو غير واضح ذعراً لا سبيل إلى تحديده . لقد طافت الاشياء في الهواء حقاً . وقالت في ذات نفسها انها غير واثقة من شيء . وان احتجاب المرء عن البصر يعني فقدانه . إن الفكرة القائلة بان ماريوس قد يعود اليها ، فعلا ، من السماء لم تعد تبدو فاتنة . بل امست مشؤومة .

ثم ان الهدوء عاودها ، فتلك هي طبيعة هذه الغيوم . كما عاودها الامل وضربٌ من الابتسام غير الواعي ، ولكن الواثق بالله .

كان كل امرئ لا يزال نائماً في ذلك المنزل . لقد خيم ثمة صمت ريفي . ولم يكن اي من مصاريع النوافذ قد فتح . كان كوخ البواب موصداً . ولم تكن توسين قد افاقت بعد . وكان من الطبيعي جداً ان تحسب كوزيت ان أباها كان نائماً . ولا ريب في انها قد تألمت كثيراً . وفي أنها كانت لا تزال تتألم ؛ ذلك انها قالت في ذات نفسها ان اباها كان غير كريم ، ولكنها كانت تعتمد على ماريوس . كان إلمام الضعف بمثل ذلك الضياء امراً مستحيلا بالكلية . وبين الفينة والفينة كانت تسمع على مسافة ما ضرباً من الارتجاجات الخرساء . وقالت: « من العجيب ان الناس يفتحون ابواب العربات ويغلقونها في هذه الساعة المبكرة جداً ». كان المدفع يقصف المتراس بقذائفه .

وعلى اقدام معدودات تحت نافذة كوزيت ، في افريز الجدار العتيق

الاسود ، كان عش سنونو ، وكان ذلك العش يحدث نتوءاً صغيراً خلف الافريز ، بحيث كان في ميسور المرء ان يرى إلى الجزء الداخلي من هذا الفردوس من عل . كانت الأم ، هناك ، باسطةً جناحيها مثل مروحة فوق صغارها . وطوّف الاب في الفضاء ، لقد انطلق لسبيله ، ثم رجع حاملا بمنقاره الطعام والقبلات . وذهّب الضحى المرتفع هذا الشيء السعيد. كان القانون العظيم ، « تكاثروا » هناك باسمَ الوجه جليلا ، وكانت هذه الغامضة العذبة تتفتح اكمامها في ظل مجد الصباح . وانحنت كوزيت ، وشعرها تحت أشعة الشمس ، وروحها مستغرقة في الأحلام ، وقد اضاءها الحب من داخل والضحى من خارج — انحنت على نحو شبه ميكانيكي . ومن غير ان تعترف بانها كانت تفكر في ماريوس في الوقت نفسه ، شرعت تنظر إلى هذه الاطيار ، إلى هذه الاسرة ، إلى ذلك الذكر وتلك الانثى ، إلى تلك الام وإلى هذه الصغار ، بمثل القلق العميق الذي يورثه العشُ احدى العذارى .

١١

الطلقة التي لا تخطىء أحداً ولا تقتل أحداً

وتواصل إطلاق النار من جانب المهاجمين . كانت البنادق تعمل حيناً ، والمدافع تعمل حيناً ، من غير ان تحدث — في الحق — اذى كبيراً . لقد أصيب الجزء الاعلى من واجهة كوزيت ليس غير بأضرار . وتشوهت شيئاً فشيئاً نافذة الطابق الاول وكوى السطح التي مزقها رصاص البنادق وقذائف المدافع تمزيقاً . وكان على المقاتلين المتمركزين هناك

ان ينسحبوا . وإلى هذا ، فذلك هو فن مهاجمة المتاريس : ان تطلق النار بتواتر ، فترة طويلة من الزمن ، ابتغاء استنفاد ذخيرة المتمردين ، إذا ما ارتكبوا خطيئة الرد . حتى إذا لوحظ ، من فتور نيرانهم ، انه لم يبق عندهم لا رصاص ولا بارود فعندئذ تُشن الغارة . ولم يقع آنجولراس في هذا الشرك . إن المتراس لم يردّ البتة .

وكلما اطلقت مفرزة من الجند نارها كان غافروش يورّم خده بلسانه ، علامةَ الازدراء المتشامخ .

وقال :

— « هذا صحيـح . مزقوا القماش . نحن في حاجة إلى نسالة . »

واستجوب كورفيراك القذائف عن السبب في انعدام تأثيرها ، وقال للمـدفـع :

— « لقد بدأت تصبح مسهباً ، ايها الرجل الطيب . »

في المعركة يشغل احد الفريقين بال الفريق الآخر ، كالذي يحدث في الحفلات الراقصة . ومن المحتمل ان يكون ذلك الصمت الذي ران على المتراس قد شرع يقلق المغيرين ، ويجعلهم يخافون حادثة ما ، غير متوقعة ، وان يكونوا قد استشعروا الحاجة إلى اختلاس النظر من خلال ركام حجارة الارصفة ، ومعرفة ما كان يجري خلف ذلك السور الممتنع على التأثر ، والذي كان يتلقى نيرانهم من غير أن يرد عليها . وفجأة لمح المتمردون خوذة تلمع في الشمس فوق سطح مجاور . كان إطفائي يسند ظهره إلى المدخنة الطويلة ، وبدا وكأنه يقوم ثمة بمهمة الحراسة . كانت عيناه مصوبتين إلى المتراس .

وقال آنجولراس :

— « هناك حارس مزعج . »

وكان جان فالجان قد اعاد البندقية القصيرة الخفيفة إلى آنجولراس ، ولكنه كان يحمل بندقيته .

ومن غير ان يقول كلمة ، سدد بندقيته إلى الاطفائي . وما هي إلا ثانية حتى اصابت الخوذة رصاصة اطاحت بها في صخب فوق ارض الشارع . وسارع الجندي المروّع إلى الاختفاء .

وحل محله حارس جديد . وكان هذا الحارس ضابطاً . وسدد جان فالجان بندقيته ، بعد ان جدد شحنها ، إلى القادم الجديد ، وأطاح بخوذة الضابط فالتحقت بخوذة الجندي . ولم يكن الضابط عنيداً ، فانسحب في سرعة بالغة . وهذه المرة فُهم الاخطار . ولم يعاود احد الظهور فوق السطح ، وأقلع المغيرون عن التجسس على المتراس .

وسأل بوسوويه جان فالجان :

— « لماذا لم تقتل الرجل ؟ »

فلم يجب جان فالجان .

١٢
الفوضى نصير للنظام

وهمس بوسوويه في اذن كومبوفير :

— « إنه لم يجب عن سؤالي . »

فقال كومبوفير :

— « إنه رجل يتلطف في طلقات البندقية . »

إن اولئك الذين يحتفظون بشيء من ذكرى تلك الحقبة التي امست الآن قصية يعرفون ان حرس الضواحي الوطني كان باسلا في مقاومة الانتفاضات . ولقد كان ضارياً ومقداماً في ايام حزيران ١٨٣٢ بخاصة . إن كثيراً من اصحاب الخمارات الطيبين في « بانتين » ، و « فيرتوس » أو « لاكونيت » ، الذين خلت « مؤسساتهم » من الزبائن بسبب من

الفتنة ، قد استأسدوا عند رؤيتهم صالات رقصهم وقد أقفرت من روادها ، وماتوا لكي يُقروا النظام الممثل بحانة الضاحية . وفي تلك الايام ، البورجوازية والبطولية في آن معاً . وفي حضرة افكار كان لها فرسانها ، كان للمصالح مغامروها . والدافع الذي يعوزه السمو لم يُفقد العمل شيئاً من بطولته . إن تناقص ركام من الريالات جعل اصحاب المصارف ينشدون المارسييز . لقد سفحوا دماءهم على نحو حماسي في سبيل منضدة المحاسبة . وفي اندفاع اسبارطي دافعوا عن الدكان ، ذلك المصغر الهائل للوطن .

وفي الواقع – وهذا ما ينبغي ان نقوله – انه لم يكن في ذلك كله شيء غير جديّ إلى أبعد الحدود . كانت العناصر الاجتماعية تتصارع في انتظار ذلك اليوم التي تنتهي فيه إلى توازن .

وعلامة اخرى من علامات ذلك العصر تلك الفوضى الممتزجة بالحكومية (اسم بربري للحزب الصحيح). كان الناس انصاراً للنظام مع عدم الانقياد . لقد قرع الطبل على حين غرة ، بأمر من احد زعماء الحرس الوطني ، بالمناداة على الاسماء على نحو اشتهائي . وكثير من الضباط مضوا إلى النار بدافع من الوحي .وكثير من رجال الحرس الوطني قاتلوا بسائق « الوهم » ، ولحسابهم الخاص . ففي اللحظات الحرجة ، في « الأيام » ، كان المرء يستشير رؤساءه اقل مما يستشير غرائزه . كان ثمة في الجيش النظامي عصابات حقيقية ، بعضها عصابات سيف مثل فانيقو ، وبعضها الآخر عصابات قلم ، مثل هنري فونفريد .

كانت الحضارة ، الممثلة في تلك الحقبة مع الاسف بحشد من المصالح باكثر مما مُثلت بحشد من المبادىء – كانت الحضارة في خطر ، أو خيل اليها انها في خطر . لقد اطلقت صيحة الخطر . وجعل كل امرىء نفسه مركزاً ، وراح يدافع عنها ، ويسعفها ، ويحميها ، على طريقته

الخاصة . واخذ كل امريء على عاتقه مهمة إنقاذ المجتمع .

إن الاندفاع يذهب في بعض الاحيان إلى حد الابادة . وهكذا فان بعض فصائل الحرس الوطني اقامت بنفسها . وبقوة سلطانها الخاص ، مجلساً حربياً ، واصدرت حكمها على اسير من المتمردين ونفذته ، في فترة لا تزيد على خمس دقائق . ولقد كان مثل هذا الارتجال مسؤولا عن مصرع جان بروفير . قانون « لنش » * ضار ، لا يحق لاي حزب ان يعبّر به الاحزاب الاخرى . إذ انه مطبّق على يد الجمهورية في اميركة وعلى يد الملكية في اوروبة سواء بسواء . وقانون « اللنش » هذا عرضة للاخطاء . فذات يوم من ايام الفتن طورد شاعر شاب ، يدعى بول اميه غارنييه ، في القصر الملكي . ورأس الحربة في ظهره ، ولم ينج إلا بالالتجاء تحت باب العربات من رقم ٦ . وكانت الصيحة : **« هوذا واحد آخر من اولئك السان سيمونيين »** ** وكانوا يريدون ان يقتلوه . ذلك انه كان يتأبط مجلداً من مذكرات الدوق سان‌سيمون *** وقرأ احد رجال الحرس الوطني على هذا الكتاب اسم **سان سيمون** فصاح : « اقتلوه ! »

وفي السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، ارتضت مفرزة من مفارز الحرس الوطني . يقودها الكابتن فانيقو المذكور آنفاً ، ارتضت هذه المفرزة ان يقتل منها خلق كثير في شارع الـ « شانفريري » لمجرد الهوس وبكامل الارادة المطلقة . وقد أقيم البرهان على هذه الحقيقة ، برغم غرابتها الظاهرية ، في التحقيق القضائي الذي أجري بعد ثورة

* كلمة انكليزية الاصل (Lynch) تفيد معنى محاكمة المرء ومعاقبته اعتباطاً من غير قانون ، وهو ما كان يصنعه البيض بالزنوج الاميركيين وما يزالون حتى اليوم .

** نسبة الى كلود هنري سان سيمون ، المفكر الاشتراكي المشهور (١٧٦٠ — ١٨٢٥) .

*** وهو كاتب فرنسي اشتهر بمذكراته (١٦٩١ — ١٧٢٣) .

١٨٣٢ . وتفصيل ذلك ان الكابتن فانيقو – وكان بورجوازياً جريئاً قليل الصبر ، ضرباً من جندي النظام المرتزق الذي وصفناه اللحظة ، حكومياً متعصباً جامحاً – لم يستطع ان يقاوم الرغبة في فتح النار قبل الموعد المحدد ، والطموحَ إلى الاستيلاء على المتراس بنفسه هو وحده ، يعني مع جنود مفرزته . لقد أثار سخطه تكررُ ظهور الراية الحمراء والسترة العتيقة التي حسبها الرايةَ السوداء ، فلام جميع القادة وزعماء القوات المقاتلة ، الذين كانوا يتشاورون في الموقف ، والذين لم يروا ان ساعة الهجوم الحاسم قد حانت ، فتركوا الثورة – وفقاً للتعبير المشهور الذي اصطنعه واحد منهم – « تنضج في عصيرها نفسه . » أما هو فقد حسب ان المتراس ناضج ، واذ كان يتعين على كل ناضج ان يسقط ، فقد قام بالمحاولة .

لقد قاد رجالا جسورين مثله ، رجالا « مسعورين » كما قال احد الشهود . وكانت مفرزته ، وهي نفسها التي كانت قد قتلت الشاعر جان بروفير ، أولى مفارز الكتيبة التي رابطت عند زاوية الشارع . ولحظة كان القوم اقل ما يكونون توقعاً لذلك ، قذف الكابتن المتراس بجنوده . وهذه الحركة ، التي نفذت في حماسة اكثر مما نفذت في فن حربي ، كلفت مفرزة فانيقو غالياً . وقبل ان تجتاز اكثر من ثلثي الشارع ، استُقبلت بوابل عام من رصاص المتراس . ولقد صُرع اربعة منهم ، كانوا اكثرهم جرأة ، وكانوا يندفعون في المقدمة – صرعوا بملامسة السلاح الناري للمرمى ، عند عتبة المتراس نفسها ، وهكذا تعين على هذا الجمع الباسل من الحرس الوطني – وهم رجال اولو شجاعة بالغة ، ولكن تعوزهم الصلابة العسكرية – ان ينكصوا على اعقابهم ، بعد شيء من التردد ، تاركين خمس عشرة جثة على ارض الشارع . وفسحت لحظةُ التردد هذه المجال امام المتمردين فأعادوا شحن اسلحتهم ، وانصبّ وابل ثان من رصاص – وابل مهلك جداً – على المفرزة قبل

ان تبلغ زاوية الشارع ، متفزعها . وفي لحظة واحدة سقطت بين وابلين من نار ، وانهالت عليها طلقات المدافع من المدفعية التي لم تتلق اي امر ، فلم تكفّ عن إطلاق نارها . وكان فانيقو ، القليل التبصر ، واحداً من الذين صرعتهم تلك النيران . لقد قُتل بالمدفع ، يعني بالنظام.

وهذا الهجوم ، الذي كان ضارياً اكثر منه جدياً ، اثار آنجولراس . وقال :

— « يا لهم من مجانين ! إنهم يلقون برجالهم إلى الموت ويستهلكون ذخيرتهم على غير طائل . »

لقد تكلم آنجولراس مثل قائد الفتنة الحقيقي الذي كانهُ . ان الثورة والقمع لا يتقاتلان البتة باسلحة متساوية . فالثورة ، النافدة في سرعة ، لا تملك غير عدد محدود من الرصاصات تطلقها ، وغير عدد محدود من المقاتلين تستهلكهم . فاذا ما فرغ صندوق خرطوش من صناديقها ، أو صرع رجل من رجالها لم يكن ثمة سبيل إلى التعويض عنهما . أما القمع فانه ، بسبب من كونه مالكاً للجيش ، لا يعدّ الرجال ، وبسبب من كونه مالكاً لـ « فينسين » ، لا يعدّ الطلقات النارية . والقمع يملك من الكتائب قدراً موازياً لما يملكه المتراس من الرجال ، ويملك من معامل السلاح قدراً موازياً لما يملكه المتراس من صناديق الخرطوش . وهكذا فنحن هناك أمام صراع بنسبة واحد إلى مئة ، صراع ينتهي دائماً بتدمير المتراس . إلا إذا استطاعت الثورة ، وقد انفجرت فجأة ، ان تلقي في الميزان بسيفها الملتهب الشبيه بسيف كبير الملائكة . وهذا قد يقع . وعندئذ يهبّ كل شيء ، وتبدأ الارصفة في الغليان ، وتتكاثر متاريس الشعب ، وتختلج باريس على نحو مفعم بالسلطان ، ويطلق سراح الـ *quid divinum* ، وتملأ الفضاء نُذُرُ يوم كيوم العاشر من آب ، ويلوح شبح يوم كيوم التاسع والعشرين من تموز في كل مكان ، ويبدو ضياء أعجوبي ، وينكفىء شدق القوة الفاغر ، ويرى الجيشُ ، ذلك

الاسدُ . أمامه . منتصباً هادئاً ذلك النبي . فرنسة .

١٣
ومضات تخبـــو

في عماء العواطف والاهواء التي تدافع عن متراس من المتاريس يوجد شيء من كل شيء . هناك الشجاعة . والشباب . والشرف . والحماسة . والمثل الأعلى . واليقين . وانهماك المقامر . وفوق ذلك كلـه فـترات الأمـل .

إن احدى تلك الفترات . احـدى رعشات الأمل الغامضة تلك ، مرت فجأة ، لحظـةً لم يكن يتوقعها أحد ، بمتراس شارع الـ «شانفريري» .

وعلى حين غرة . صاح آنجولراس الذي كان دائماً بالمرصاد :

— « اسمعوا ! يبدو لي ان باريس تستيقظ . »

من الثابت أنـه في صباح السادس من حزيران ، عرفت الثورة ، طوال ساعة أو ساعتين ، انتعاشاً جديداً . لقد أحيا عنادُ ناقوس سان ميرّي بعض الآمال الخابية . ففي شارع بواربيه ، وفي شارع غرافييه ارتسمت بعض المتاريس . وتجاه باب سان مارتين . هاجم شاب مسلح ببندقية قصيرة خفيفة كتيبةً من الفرسان بمفرده . ومن غير ما ستر ، في وضح الجادة . ركع على احدى ركبتيه ، وتنكّب سلاحه ، واطلـق النار ، فصرع قائد الكتيبة ، واستدار قائلا : « هوذا شخص آخر لن يُنزل بنا اذى اضافياً . » وطعنوه بحد السيف . وفي شارع سان دونيز ، اطلقت امرأة النار على الحرس البلدي من وراء شعرية نافذة مسدلة . ورئيت وصلاتُ الشعرية الخشبية ترتجف عند كل طلقة . وفي شارع الكوسونيري ، ألقي القبض على غلام في الرابعة عشرة وجيوبه مـلأى

بالخراطيش . وهوجم عدد من مراكز الجند . وعند مدخل شارع بيرتين بواريه استقبل وابل من رصاص البنادق حاد جداً وغير متوقع البتة كتيبة من الدارعين كان يسير على رأسها الجنرال كافينياك دو باراْنيْ . وفي شارع بلانش ميبري ألقوا على الجند ، من السطوح ، كِسَراً عتيقة من الآنية والادوات المنزلية . علامة سيئة . وحين رُويت هذه الحقيقة للمارشال سولت ، استغرق مساعد نابوليون العجوز ، وقد تذكّر كلمة سوشيه * في سرقسطة : « نحن نهلك حين تُفرغ النسوة العجائز مباولهن على رؤوسنا » .

هذه الاعراض العامة التي تكشفت لحظة اعتقد الناس ان الفتنة قد حصرت في موقع ما ، حتى الحقد هذه التي تمت لها الكلمة العليا كرة اخرى ، هذه الشرارات التي انطلقت هنا وهناك فوق تلك الاكوام العميقة من المواد المشتعلة التي تدعى ضواحي باريس — هذه كلها مجتمعةً أثارت القلق في نفوس الزعماء العسكريين . لقد أرجأوا ، حتى تنطفىء تلك الشرارات ، الهجوم على متاريس موبيه ، والشانفريري ، وسان ميرّي ، لكي لا تصطدم إلا بها ، ولكي يكون في ميسورهم ان يقضوا على كل شيء بضربة واحدة . لقد قذفوا بفصائل الجند إلى الشوارع الهائجة ، مكتسحةً كبراها ، سابرة صغراها ، عن يمين ، وعن شمال ، حيناً في حذر وعلى مهل ، وحيناً في سير خاطف كسَر الحملة . وحطم الجند ابواب البيوت التي سبق أن انطلقت منها النار ، وفي الوقت نفسه فرقت مناورات سلاح الفرسان الحشود المجتمعة في الشوارع الواسعة . وهذا القمع لم يتم من غير ضجة ، أو من غير تلك القرقعة الصاخبة التي تلازم الاصطدامات الواقعة بين الجيش والشعب . ذلك ما أدركه آنجولراس في الفترات الفاصلة ما بين طلقات المدافع وطلقات البنادق .

---

* Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ — ١٨٢٦) أبلى بلاء حسناً في اسبانية ، وبخاصة في معركة جرت قرب ساغونت .

وإلى هذا ، فقد كان قد رأى بعض الجرحى يجتازون اقصى الشارع على محامل ، وقال لكورفيراك :

— « هؤلاء الجرحى لا يأتون من عندنا . »

ولم يعمّر الامل طويلا .وخبا الوميض في سرعة . وفي اقل من نصف ساعة تلاشى ذلك الرجاء الذي كان يملأ الفضاء . كان اشبه ببرق خلّب ، واستشعر المتمردون وكأنما سقط عليهم ذلك الضرب من غطاء النعش الرصاصي الذي تلقيه لا مبالاة الشعب على اصحابِ الرأي الصليب المتخلّى عنهم .

كانت الحركة العامة التي بدت وكأنها رُسِمَتْ على نحو غامض — كانت هذه الحركة قد اجهضت . وأصبح في ميسور اهتمام وزير الحرب واستراتيجية القادة العسكريين ان يركّزا على المتاريس الثلاثة أو الاربعة التي كانت ما تزال قائمة .

وارتفعت الشمس فوق الأفق .

وخاطب احد المتمردين آنجولراس :

— « نحن جائعون هنا . هل سنموت هنا ، فعلا ، من غير ان نأكل ؟ »

وهز آنجولراس رأسه ، وكان لا يزال مستنداً إلى شرفته ، من غير ان يزيح عينيه عن اقصى الشارع .

١٤
حيث نقرأ اسم خليلة آنجولراس

وواصل كورفيراك ، الجالس على حجر من حجارة الارصفة قرب آنجولراس ، اهاناته للمدفع . وكلما انطلقت السحائب القاتمة من

القذائف التي ندعوها كرات المدافع ، بدويها الهائل ، تلقّاها بفورة من السخريـة .

— « انت ترهق رئتيك ، ايها البهيمة العجوز المسكينة : إنك تقلقني ؛ إنسك تفقـد ضوضاءك . هذا ليس رعداً . لا ، إنه سعال . »

وضحك الذين كانوا من حوله .

وشرع كورفيراك وبوسوويه ، اللذان كانت بشاشتهما تزداد في ساعات الخطر ، يستعيضان ، مثل مدام سكارّون ، عن الطعام بالدعابة . وإذ لم يكن عندهما خمر فقد صبّا البِشر للجميع .

وقال بوسوويه :

— « أنا معجب بآنجولراس . ان جراءته الممتنعة على التأثر لتدهشني . إنه يحيا وحيداً ، وهذا ما قد يجعله حزيناً بعض الشيء . إن آنجولراس يتألم من عظمته ، التي تشدّه إلى الترمل . اما نحن الباقين فان لنا جميعاً ، قليلا أو كثيراً ، خليلات تجعل منا مجانين ، يعني شجعاناً . فحين يكون المرء عاشقاً كالنمر ، فأقل ما يُنتظر منه ان يقاتل كالاسد . إنها وسيلة ننتقم بها لانفسنا من الحيل التي تدبرها لنا سيداتنا الفتيات المغناجات . إن رولان * يلقي بنفسه إلى الموت لكي يغيظ آنجيليكا * . جميع بطولاتنا تنبثق من نسائنا . الرجل من غير امرأة غدارةٌ من غير زناد . إن المرأة هي التي تجعل الرجل ينطلق . والآن ، إن آنجولراس لا امرأة له . إنه ليس عاشقاً ، وهو يجد الوسيلة إلى ان يكون باسلا . وانه لمن المعجـز ان يستطيـع المرء ان يكون بارداً كالثلج ، ومقداماً كالنار . »

ولم يبدُ ان آنجولراس كان يسمع . ولكن لو ان ايما امريء كان قربه اذن لسمعه يغمغم في همس : *Patria* **

وكان بوسوويه لا يزال يضحك عندما صاح كورفيراك :

---

* بطل « انشودة رولان » و « رولان الهائج » . وآنجيليكا زوجته .

** اللفظة اللاتينية التي تفيد معنى الوطن . »

— « شيء جديد ! »

وفي صوت حاجب يعلن نبأ وصول شخص ما . اضاف :

— « اسمي المدفع ذو القذيفة البالغ وزنها ثمانية ارطال . »

والواقع أن شخصية جديدة كانت قد دخلت المسرح . كان مدفعاً ثانياً .

وفي سرعة ، نفذ رجال المدفعية المناورة ،ووضعوا المدفع الثاني قرب المدفع الاول .

لقد اوحى ذلك بأن النهاية باتت قريبة .

وبعد بضع لحظات . شرع المدفعان — وقد حشيا على عجل — يطلقان نيرانهما على المتراس مباشرة وكانت نار قوات المشاة وجند الضواحي تدعم المدفعية .

وعلى مسافة ما ، سمع دوي وابل آخر من طلقات المدافع . وفيما كان مدفعان اثنان يقذفان بنيرانهما، متراس شارع الـ « شانفريري » كان مدفعان آخران مصوبان : احدهما في شارع سان دونيز والآخر في شارع اوبري لو بوشيه يمطران متراس سان ميري بوابل من قذائفهما. وتبادلت المدافع الاربعة أصداء كئيبة .

لقد تجاوب نباح كلاب الحرب المشؤومة .

ومن احد المدفعين اللذين كانا يقذفان بنارهما متراس شارع الـ « شانفريري » ، انطلقت قذائف ، على حين انطلقت من الآخر كرات حديدية .

كان المدفع المطلق للكرات مرتفعاً بعض الشيء ، وكان خط الرمي محسوباً بحيث تصيب الكرة الحافة القصوى من زاوية المتراس الناتئة العليا فتقطعت رأسها ، وفتتت حجارة الارصفة فوق رؤوس المتمردين وكأنها، وابل من قذائف .

وكان هذا المرمى الخاص مقصوداً به ان يقصي المقاتلين عن قمـــا

المتراس ، وان يكرههم على الاحتشاد في الداخل ؛ يعني ان ذلك قد أعلن الهجوم .

حتى إذا أقصي المقاتلون عن قمة المتراس بالكُرات ، وعن نوافذ الحانة بالقذائف ، أصبح في ميسور القوات المهاجمة ان تغامز في الدخول إلى الشارع من غير ان تراقَب ، بل ومن غير ان تكون تحت النار ، كما اصبح في ميسورها ان تتسلق المتراس فجأة ، كفعلها الليلة البارحة وان تستولي عليه — فمن يدري ؟ — بغتة .

وقال آنجولراس :

— « يجب على اية حال ان نخفض من إزعاج هذه المدافع . »

ثم صاح :

— « اطلقوا النار على المدفعين ! »

كانوا كلهم مستعدين . واطلق المتراس — الذي صمت فترة طويلة — النار في يأس . وتعاقبت سبع إطلاقات أو ثماني اطلاقات في ضرب من الغضب والبِشر . وافعم الشارع بدخان معتم . وبعد بضع دقائق ، ومن خلال هذا الضباب الذي اخترقه اللهب ، استطاعوا ان يتبينوا ، على نحو غير واضح ، ثلثي رجال المدفعية منطرحين تحت دواليب المدفعين . أما اولئك الذين ظلوا واقفين فقد واصلوا حشو المدفعين في هدوء صارم ، ولكن النار كانت قد تباطأت .

وقال بوسوويه لآنجولراس :

— « الامور تجري على ما يرام . نجاح . »

فهز آنجولراس رأسه وأجاب :

— « ربع ساعة اخرى من هذا النجاح ، ولن تبقى في المتراس عشر خراطيش . »

والذي يبدو ان غافروش قد سمع هذه الملاحظة .

١٥
غافروش في الخارج

وفجأة لمح كورفيراك شخصاً ما ، عند ادنى المتراس ، في الخارج ، وسط الشارع ، تحت وابل الكرات المدفعية .

كان غافروش قد اخذ سلة من الحانة ، وانطلق من فرجة المتراس ، وراح يفرغ في سلته وبهدوء ، صناديقَ الخرطوش الملأى تلك، التي خلّفها رجال الحرس الوطني الذين صرعوا على منحدر المتراس .

وقال كومبوفير :

— « ماذا تفعل هناك ؟ »

ورفع غافروش انفه .

— « ايها المواطن ، إني املأ سلّتي . »

— « ولكن ، ألا ترى القذائف المدفعية ؟ »

فأجاب غافروش :

— « حسناً ، انها تمطر . ثم ماذا ؟ »

فصاح كورفيراك :

— « إرجع ! »

فقال غافروش :

— « في الحال . »

وبوثبة انطلق إلى الشارع .

ويذكر القاريء أن فصيل فانيقو كان قد ترك وراءه، وهو ينسحب ، خطاً طويلا من الجثث .

كان نحو من عشرين قتيلا منثورين فوق الرصيف ، على طول الشارع . وكان ثمة عشرون صندوق خرطوش لغافروش . ذخيرة من

الخرطوش للمتراس .

كان الدخان في الشارع كالضباب . وكل من قُدّر له ان يرى سحابة تسقط في فج من فجاج الجبال بين منحدرين وعرين يستطيع ان يتخيل هذا الدخان محتشداً ، وان يتخيله وكأنـه يُكثّف بخطين مظلمين من بيوت شاهقة . لقد ارتفع في بطء ، وكان يتجدد على نحو موصول . ومن هنا تلك الظلمة التدريجية التي جعلت وضح النهار نفسه شاحباً . وأمسى المقاتلون لا يلمح بعضهم بعضاً ، إلا في عسر ، من اقصى الشارع إلى اقصاه ، على الرغم من انه كان قصيراً جداً .

هذه الظلمة ، ولعلها كانت مدبرة ومرغوباً فيها من جانب الزعماء الذين عُهِد اليهم في قيادة الهجوم على المتراس ، كانت ذات فـائدة لغافروش .

فتحتَ ثنايا حجاب الدخان هذا ، وبفضل ضآلة جسمه ، استطاع أن يُبعد في الشارع من غير ان يراه احد . لقد افرغ صناديق الخرطوش السبعة أو الثمانية الاولى دونما كبير خطر .

لقد زحف على بطنه ، وراح يعدو على يديه ورجليه ، حـاملا سلته بين أسنانه ، وتلوّى ، وانزلق ، وتموّج ، وتمعج من جثة إلى جثة ، وأفرغ احد صناديق الخرطوش كما يفتح قرد جوزة .

ولم يجرؤ المتحصنون في المتراس — وكان لا يزال على مدى السمـع منه — على أن يدعوه إلى العودة ، خشية ان يلفتوا الانظار اليه .

وفوق احدى الجثث ، وكانت جثة عريف ، وجد وعاء بارود .

وقال وهو يضعه في جيبه :

— « من اجل العطش . »

وبفضل التقدم المتعاقب بلغ نقطة كان ضباب الطلقات النارية قد امسى فيها شفافـاً .

وكانت هذه الشفافية شديدة بحيث ان مطلقي النار من المشاة ، المعبأين

المترصدين خلف جدارهم المقام من حجارة الارصفة ، وبحيث ان مطلقي النار من جند الضواحي المحتشدين في زاوية الشارع اكتشفوا فجأة شيئاً يتحرك في الدخان .

ولحظة كان غافروش يجرد رقيباً قرب مَعْلم الطريق من خراطيشه ، أصابت الجثةَ كرةٌ من كرات المدافع .

وقال غافروش :

— « يا للشيطان ! إنهم يقتلون أمواتي ! »

وفتتت كرة اخرى الرصيف الذي إلى جانبه . وقلبت ثالثة سلته رأساً على عقب .

ونظر غافروش ، ورأى انها اقبلت من جند الضواحي .

ونهض منتصباً على قدميه وقد عبثت الريح بشعره ، واضعاً يديه على خاصرتيه ، مسدداً بصره نحو رجال الحرس الوطني المطلقين النار ، وراح يغنّي :

ان المرء ليكون بشعاً في نانتير ،
وتلك خطيئة فولتير ،
واحمق في باليسو ،
وتلك خطيئة روسو .

ثم تناول سلته ، ووضع فيها الخراطيش التي سقطت منها من غير ان يضيع أياً منها ، وتقدم نحو وابل الرصاص ، وشرع يفرغ صندوق خرطوش آخر . وهناك أخطأته قذيفة رابعة ايضاً ، وما كادت . وغنّى غافروش :

انا لست كاتبا عدلاً ،
وتلك خطيئة فولتير

انا عصفور صغير
وتلك خطيئة روسو

ولم توفق قذيفة خــامسة إلى اكثر مــن انتزاع دور ثالث مــن غافروش :

البهجة شيمتي
وتلك خطيئة فولتير
والبؤس جهاز عرسي
وتلك خطيئة روسو

واستمر ذلك على هذا النحو فترة ما .

كان المشهد راعباً وفاتناً . كان غافروش . وقد صُوب اليه الرصاص، يسخر من الرصاص . لقد بدا وكأنه مبتهـج جداً . كان هو السنـونـو يضرب الجنود القناصة بمنقاره . ولقد اجاب على كل إطلاقة رصاص بدور من ادوار الغناء . وسددوا النار اليه على نحو موصول ، ولكنهم اخطأوه دائما . وضحك الجند ورجال الحرس الوطني وهم يصوبون الرصاص اليه . لقد انطرح على الأرض . ثم نهض . واختبــأ عنـد زاوية باب . ثم قفز ، واختفى . وعاود الظهور . وفر . وأجــاب على طلقات النار بالسخر ، ونهب في الوقت نفسه الخراطيش ، وافرغ صناديق الخرطوش ، وملأ سلته . وأتبعه المتمردون عيونهم . وقــد تقطعت انفاسهم قلقاً . كان المتراس يرتجف ، وكان هو يغني . لم يكن ذلك طفلا ، ولم يكن ذلك رجلا ، لقد كان « متشرداً » جنياً غريباً . ولقد كان خليقاً بمن يراه ان يقول إنــه قزم المعترك المعصوم عن الجراح . كانت القذائف تعدو خلفه ، وكان هو أرشق منها . كان يلعب مــع الموت لعبة « اختبيء والتمس » على نحو رهيب إلى حد لا يوصف .

وكلمـــا اقترب وجـه الشبـح الافطس . فرقع « المتشرد » اصابعه .

بيد ان رصاصة ، أشد غدراً أو مصوبة على نحو افضل من سابقاتها ، بلغت الطفل الشبيه بالشهاب الغازيّ . لقد رأوا غافروش يترنح ، ثم يقع. واطلق المتراس كله صيحة . ولكن كان ثمـة آنتييوس * في هذا القزم . لأن مسّ « المتشرد » الرصيف اشبه شيء بمس العملاق الارض . فلم يقع غافروش إلا لينهض من جديد . وظل قاعداً على مؤخرته ، وقد جرى على وجهه خط من الدم طويل ، ورفع ذراعيه في الهواء . ونظر إلى الناحية التي اقبلت منها الرصاصة . وبدأ يغني :

لقد سقطت على الارض
هذه خطيئة فولتير
وانفي في الساقية
هذه خطيئة ...

ولم يكمل . لقد حالت بينه وبين ذلك قذيفة ثانية من القناص نفسه . وهذه المرة خر على الرصيف مكباً على وجهه . ولم يتحرك بعدُ قط . كانت تلك الروح العظيمة الصغيرة قد فاضت .

١٦
كيف يصبح الاخ اباً

كان في تلك اللحظـة ذاتها في حديقة اللوكسومبورغ – ذلك ان عين المأساة يجب ان تكون ماثلة في كل مكان – طفلان يمسك احدهما بيـد الآخر . واغلب الظن ان احدهما كان في السابعة من عمره . والآخر

* عملاق من عمالقة الميثولوجيا القديمة ، ابن « نبتون » و « الارض » وقد خنقه هرقل (هيركول) بين ذراعيه ، واذ وجد البطل في صراعه ضد آنتييوس ان هذا العملاق كان ينعم بقوة جديدة كلا مسّ الارض فقد رفعه عنها ، فوفق بذلك الى ان يسلبه الحياة .

في الخامسة . وإذ نُقعا بالمطر ، فقد كانا يمشيان في مجازات الحديقة في الناحية المشمسة . كان الكبير يقود الصغير . وكانا شاحبين تعلو جسديهما اسهال بالية . لقد بدت عليهما سيما طائرين بريين : وقال اصغرهما :

– « أنا جائع جداً . »

وساق الأكبر ، وكان قد أصبح وصياً وحامياً ، اخاه بيده اليسرى ، حاملا باليد اليمنى قضيباً طويلا .

كانا وحدهما في الحديقة . وكانت الحديقة خالية . بعد أن أوصدت الابواب بأمر الشرطة بسبب من الثورة . وكان الجنود الذين عسكروا فيها قد طلب اليهم مغادرتها سداً لحاجات المعركة .

كيف وصل الطفلان إلى هناك ؟ هل هربا من باب مخفر نصف مفتوح ؟ هل اتفق ان كان ثمة في الجوار ، عند « باب الجحيم » ، أو « ساحة الاوبزر فاتوار » ، أو في الميدان المجاور الذي تشرف عليه تلك القوصرة * المكتوب عليها : *invenerunt parvulum pannis involutum* هل اتفق ان كان ثمة كوخ من اكواخ المشعوذين فرا منه ؟ هل قدّر لهما ، الليلة البارحة أن يغافلا عين حراس الحديقة ساعة الاقفال ، فملخا ساعات الليل في واحد من تلك الاكشاك التي يقرأ الناس فيها الصحف ؟ الواقع انهما كانا تائهين ، وانهما كانا حرّين في ما يبدو . ولأن يكون المرء تائهاً ولأن يبدو حراً يعني أنه هالك . ولقد كان هذان الصغيران البائسان هالكين حقاً .

هذان الطفلان كانا عين ذينك اللذين قلق غافروش عليهما ، واللذين يذكرهما القارىء . ولدَيْ تينارديه ، المؤجرين لـ « مانيون » ، المنسوبين إلى مسيو جيلنورمان ، واللذين أمسيا الآن ورقتين سقطتا من جميع هذه الأغصان التي تعوزها الجذور ، وعصفت بهما الريح مطوِّفة فوق الارض .

* القوصرة : مثلث يقام على واجهة بناء .

كانت ملابسهما النظيفة في عهد مانيون ، والتي كانت لهـا بمثـابة البيان في مسيو جيلنورمان ، نقول كانت ملابسهمـا قـد امست مزقـاً خلقة .

لقد أصبـح هذان المخلوقان ، منذ اليوم ، في عـداد « الاطفـال المهجورين » الذين يُبلغ البوليس عنهم ، ويجمعهم ، وينثرهم ، ثم يجدهم كرة اخرى في شوارع باريس .

كان لا بـد من قلق نهار كهذا حتى يمسي هذان الصغيران المسكينان في تلك الحديقة . ولو قد رآهما الحرس ، اذن لطردوا هذه الاسمال . فالاطفال الفقراء لا يستطيعون ان يدخلوا إلى الحدائق العامة . ومع ذلك فينبغي للمرء ان يفكر ان لهم ، كأطفال ، حقاً في الازهار .

لقد كانا هناك ، بفضل الابواب الموصدة . كانا هناك خارقَين القانون. لقد انسلاّ إلى الحديقة ، وبقيا هناك . إن الابواب الموصدة لا تسرّح الحرس المراقبين ، فمن المفروض ان تستمر المراقبة ، ولكنها تسترخي وتستريـح . وهكذا فان الحرس ، المثارين هم ايضاً بالقلق العام المنشغلين بالمسائل الخارجية اكثر من انشغالهم بالمسائل الداخلية ، لم يعودوا يلقون بالاً إلى الحديقة ، ومن ثم لم يروا المذنبين الصغيرين .

كانت السماء قـد أمطرت في الليلة البارحة ، بل كانت قد امطرت بعض الشيء ذلك الصباح . ولكن الامطار في حزيران لا اهمية لهـا . فليس يدرك المرء ، إلا في صعوبة ، بعد ساعة من العاصفة ، ان ذلك النهار الاشقر الجميل كان ماطراً . ان الارض في الصيف لتجف وشيكاً كما تجف وجنة طفل .

في لحظـة انقلاب الشمس هذه يكون ضياء القمر ، إذا جاز التعبير ، ثاقباً . إنـه يستبد بكل شيء . إنه يدأب وينشر نفسه فوق الارض في ضرب من الامتصاص . وإنه لخليق بالمرء أن يقول ان الشمس كانـت ظمأى . إن الوابل كأس من الماء . وان المطر ليُعبّ في الحال . فـي

الصباح يكون كل شيء راشحاً ، وبعد الظهر يكون كل شيء مغبراً .
وليس شيء أروع من اخضرار غسله المطر ومسحته اشعة الشمس . تلك هي البرودة الحارة . إن الحدائق والمروج ، وقد أفعِمت جذورها بالماء وحفلت ازهارها باشعة الشمس ، تنقلب الى مجامر بخور ، وتنفث عطورها كلها دفعة واحدة . إن كل هذه لتضحك ، وتغني ، وتعرض نفسها . نحن نستشعر ثملا عذباً . الربيع جنة موقتة . وأشعة الشمس تساعد على اغراء المرء بالصبر .

هناك اناس لا يطلبون شيئاً اكثر من ذلك ؛ وكائنات حية ما ان يروا السماء اللازوردية حتى يقولوا « هذا حسبُنا ! » ؛ وحالمون مستغرقون في الاعجوبة ، يغترفون من وثنية الطبيعة لا مبالاةً بالخير والشر ؛ ومتأملون في الكون منصرفون عن الانسان على نحو مشرق لا يفهمون كيف يستطيع اي امريء ان يشغل نفسه بجوع هؤلاء ، وظمأ اولئك ، وبعري الفقير في الشتاء ، والانحناء اللمفاوي في عمود فقري صغير ، بالفراش الحقير ، بالعلّية ، بالحبس المظلم ، بأسمال الفتيات الصغيرات المرتجفات ، حين يكون في ميسوره ان يحلم تحت الأشجار ؛ نفوس مسالمة وفظيعة ، راضية على نحو لا يعرف الرحمة . شيء غريب ؛ ان اللانهائي يكفيهم . أما حاجة الانسان العظمى ، النهائي ، الذي يجيز العناق ، فهم ينكرونها . النهائي الذي يسلّم بالتقدم ، والكدح السَّنِي لا يفكرون فيه . ان اللامحدود ، الذي يولد من امتزاج اللانهائي والنهائي امتزاجاً انسانياً وإلهيّاً ، ليفوتهم . إنهم يبتسمون ، شرط ان يكونوا وجهاً لوجه مع السعة التي لا نهاية لها . لا ابتهاج البتة ، ولكن انخطاف دائماً . قوام حياتهم أن يتلفوا . وتاريخ الانسانية عندهم ليس غير رسم تقسيمي . إن « الكل » ليس هناك ؛ إن « الكل » الصحيح لا يزال في الخارج . أي فائدة في أن نشغل انفسنا بهذا العرَض : الانسان ؟ الانسان يتألم ، هذا جائز . ولكن انظر إلى الدَّبَرَان البازغ هناك ! الأم قد جف

ثديها . والوليد الصغير يموت . أنا لا ادري شيئاً عن ذلك ، ولكـن أنظر إلى شكل الوردة المذهل الذي تؤلفه حلقة من حلقات لحاء الصنوبر تحت المجهر . قابل ذلك بأجمل ضروب الوشي الدقيق ! هؤلاء المفكرون ينسون ان يحبوا . إن فلك البروج ليهيمن عليهم بحيث يمنعهم من رؤية الطفل الذي يبكي . إن الله يكسف روحهم . وهناك اسرة من هـذه النفوس ، الصغيرة العظيمة في آن واحد . من هذه الاسرة كان هوراس ومنها كان غوته . ولعل لافونتين كان منها ايضاً . انانيو اللانهائـي الرائعون ، شهود الألم الهادئون . الذين لا يرون نيرون إذا كـان الجو جميلا . والذين تخفي الشمس عن اعينهم كومة الحطب المعدّة لاحراق المجرم . والذين يرون إلى المقصلة تعمل باحثين عن اثر من آثار الضياء. والذين لا يسمعون لا الصيحة ، ولا الزفرة ، ولا الحشرجة . ولا ناقوس الخطر . والذين يرون كل شيء حسناً ما دام ثمـة شهر يدعى شهـر نوار . والذين يعلنون ، ما دام فوق رؤوسهم سحائب ارجوان وذهب. انهم سعداء . والذين عقدوا العزم على ان يكونوا سعداء إلى ان ينفد ضياء النجوم ونشيد الطيور .

إنهم ذوو إشراق قاتم . وهم لا يشكّون في انهم ينبغي ان يرثى لهم. وليس من ريب في انهم بذلك جديرون . إن من لا يبكي لا يرى . ان علينا أن نعجب بهم ونرثي لهم ، كما نرثي ونعجب بكائن هو نـور وظلام في آن معاً . كائنٍ لا عينين تحت حاجبيه . ولكنّ في وسـط جبينه نجمـة .

وفي لا مبالاة هؤلاء المفكرين . كما يعتقد بعضهم ، تكمن فلسفـة متفوقة . ليكن ذلك . ولكن في هذا التفوق بعض الوهن . فقد يكون المرء خالداً واعرج . خذ فولكان * مثلا على ذلك . وقد يكون المرء اكثر من رجل واقل من رجل . واللاكامل الذي لا حد له موجود في

* الـه النار والمعادن عند الرومان .

الطبيعة . ومن ذا الذي يستطيـع ان يزعم ان الشمس ليست عمياء ؟

ولكن ثم مـــاذا ؟ عن نثق ؟ Solem quis dicere falsum audeat ؟

وهكذا فان بعض العباقرة انفسهم ، وبعض البشر الاكثر رفعة . الرجال الكواكب . قد يُخدعون ! إن اولئك الواقفين فوق . في الذروة ، في القمة ، عند سمت الرأس ، والذين يرسلون إلى الارض هذا الضياء كله، قد يرون قليلا . قد يرون في عسر ، قد لا يرون شيئاً ! أليس فـي ذلك مـا يوقـع اليـأس في النفس ؟ لا . ولكن ، اي شيء فوق الشمس اذن ؟ الله .

في السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، كانت حديقة اللوكسومبورغ ، المنعزلة المهجورة ، فاتنة . كانت مربعات الاشجار ومساكب الازهار تُبرز نفسها نحو الضياء في الراتينـج العطِر وجَهَر البصر . لقد بدت الاغصان مدلهة بأشراق الظهر ، وكأن بعضها يسعى إلى معانقة بعض . كان في شجرات الجميز جلبة دُخّلات ، وتهللت الطيور الجواثم ، وتسلقت الطيور ثقابات الخشب شجـــرات الكستناء ، ناقرة بمناقيرها ثقوب اللحاء . وتقبلت مساكب الزهور ملكية الزنابق الشرعية . فأفخم العطور هو ذلك الذي ينبثق من البياض . كان المرء يستنشق ريا القرنفل المفلفلة . وكانت زيغان ماري دي مديتشي العجائز صريعة العشق في الاشجار الضخام . وذهّبت الشمس الخزامى وأشعلتهـــا وسفحت عليها لون الارجوان ، الخزامى التي لم تكن غير مختلف ضروب اللهب حُولت إلى ازهار . وحول مساكب الخزامى طوفت جماعات النحل ، شرارات من هذه « الازهار — اللهب » . كان كل شيء يمور بالملاحة والبهجة ، حتى المطر الوشيك . وهذا المجرم العتيـق ، الذي كان جديراً بزهرات العسل وزنابق الوادي ان تفيد منه ، لم يحدث شيئاً من الانزعاج . وطارت جماعات السنونو على ارتفاع منخفض ، وكان ذلك وعيداً فاتناً . لقد استنشق من كان هنالك ريـح السعـادة .

كانت الحياة حلوة . وكانت تلك الطبيعة كلها تتنفس سلامةَ النية ، والغوث ، والمساعدة ، والابوة ، والملاطفة ، والفجر . وكانت الأفكار التي هبطت من السماء ناعمــة مثل يــد الطفل الصغيرة التي نقبّلها .

وكانت التماثيل القائمة تحت الاشجار . عارية بيضاء . مجلببة بأثواب من الظل مزقها الضياء . لقد أبلت أشعة الشمس اثواب هذه الآلهات . لقد تدلت منها إرَباً إرَباً من الجهات جميعاً . وحوالى الحوض الكبير ، كانت الارض قد جفت إلى حد اصبحت معه مخبوزة تقريباً . وكان ثمة ريــح قوية إلى درجة تمكّن من اثارة فنّ رملية صغيرة هنا وهناك . وطاردت بعض الأوراق الصفراء ، بقايا الخريف الماضي ، بعضها الآخر في مرح ، وبدت وكأنها تلعب لعبة « المتشردين » .

كانت وفرة الضياء تبعث الطمأنينة في النفوس على نحو لا سبيل إلى وصفه . لقد فاضت الحياة ، وفاض النسغ ، والدفء ، والعبير . كنت تشعر تحت الخليقة بضخامة مصدرها . وفي جميــع هذه النسائم المشبعــة بالحب ، وفي تذبذب انعــكاسات النور وارتداداته هذه ، وفي هــــذا الانفاق الاعجوبــي للاشعة ، وفي هذا التدفق اللامحدود للذهب المائع ، كنت تشعر بتبذير ما لا ينضب . ووراء هذا البهاء ، شأنك وراء حجاب من اللهب ، كنت تلمح الله ، مليونير النجوم .

وبفضل الرمل لم يكن ثمة أثارة من وحل . وبفضل المطر لم يكن ثمــة ذرة من غبار . كانت الباقات قد غسلت منذ لحظة . كانت المخمليات كلها ، والاطلسيات كلها ، والميناثيات كلها ، والذهبيات كلهــــا التي تنبثق من الأرض في شكل ازهار ــ كانت هذه كلها خلواً من العيب . وكان هذا البهاء نقياً . لقد ملأ الحديقة صمت الطبيعة السعيدة الكبير : صمت سماوي متساوق مع آلاف الألحان ، وهدهدات الاعشاش ، ودندنات النحل ، وخفقات الريــح . كان تناغم الموسم كله قد تحقــق في كلٍّ واحد لطيف . واتخذت مداخل الربيــع ومخارجه اماكنهــــا في

النظام الملائم . لقد انتهت الزنابق ، وأهلّ الياسمين . كانت بعض الازهار قد تأخرت ، وكانت بعض الحشرات قد اقبلت قبل إبانها . ولقد تآخت طليعة فراشات حزيران الحمراء مع ساقة فراشات نوار البيضاء . وكانت شجرات الدلب ترتدي جلداً جديداً . وكان النسيم يحفر تموجات في شجرات الكستناء ذات الضخامة الرائعة . كان ذلك متألقاً . ولقد نظر جندي عريق من عساكر الثكنات المجاورة عبر الباب الحديدي وقال :

— « هوذا الربيع تحت السلاح ، وفي كامل اللباس الرسمي . »

كانت الطبيعة كلها تتناول طعام الصباح ؛ كانت الخليقة جالسة إلى المائدة ؛ لقد حانت الساعة ، ولقد نشر غطاء المائدة الكبير الاخضر فوق الارض ، واشرقت الشمس ساطعة . وكان الرب يقدم الوجبة الكونية : ونال كل كائن طعامه أو علفه . لقد وجدت اليمامة بزر قنب ، ووجد البرقش ذرة بيضاء ، ووجد الحسون رتماً ، ووجد ابو الحناء ديداناً ، ووجدت النحلة أزهاراً ، ووجدت الذبابة نَقْعِيّات ، ووجد المخروطي المنقار ذباباً . لقد أكل بعضها بعضاً ، شيئاً ما من غير شك ، وذلك هو لغز الشر ممتزجاً بالخير ، ولكن أياً من الحيوانات لم يكن فارغ المعدة .

كان المخلوقان الصغيران البائسان قرب الحوض الكبير . وإذ اقلقهما ذلك الضياء كله بعض الشيء ، فقد حاولا ان يختبئا — وتلك غريزة البائس والضعيف أمام البهاء وان يكن مجهولا — وظلا خلف كوخ الاوز العراقي .

وههنا وههنالك ، بين الفينة والفينة ، كلما همدت الريح ، سمعا على نحو غامض صيحات ، وجلبة ، وضرباً من الحشرجات الصاخبة التي كانت طلقات بنادق ، وصنوفاً من الصرير الابكم التي كانت طلقات مدافع . كان ثمة دخان فوق السطوح في اتجاه الاسواق . ورن جرس

كان يبدو وكأنه يُقرع ، في المدى البعيد .

وتراءى هذان الطفلان وكأنهما لم يسمعا هذه الاصوات . وكزر اصغرهما بين الفينة والفينة ، في همس :

— « أنا جائع . »

وفي وقت واحد مع الطفلين تقريباً ، تقدم زوج آخر نحو الكبير . كان رجلا في الخمسين يقود بيده رجلا في السادسة . أب وابنه من غير شك . وكان الرجل البالغ السادسة من العمر يحمل في يده قطعة كبيرة من حلوى مصنوعة بالدقيق والسمن والبيض .

في ذلك العهد ، كانت لبعض البيوت المجاورة ، في « شارع السيدة » « وشارع الجحيم » ، مفاتيح لحديقة اللوكسومبورغ كان نزلاء تلك البيوت يستعملونها حين تكون الابواب موصدة ، وهو تساهل ألغي منذ ذلك الحين . ولعل هذا الاب وهذا الابن اقبلا من احد هذه الأبواب .

ورأى الصغيران البائسان إلى « هذا السيد » يتقدم ، وأحكما اختباءهما اكثر بعض الشيء .

كان بورجوازياً . ولعله عين ذلك الذي كان ماريوس قد سمعه ذات يوم ، رغم حمّى حبه ، قرب هذا الحوض الكبير نفسه ، ينصح ابنه بأن « يحذر التطرف » . كانت تزين على وجهه سيما أنيسة متغطرسة وكان فمه الذي لم يطبق قط يبتسم ابداً . وهذه الابتسامة الميكانيكية ، الناشئة عن فك هو من الكبر باكثر مما ينبغي وجلد هو من الضآلة باكثر مما ينبغي ، إنما تكشف عن الاسنان اكثر مما تكشف عن الروح . وبدا الطفل . يقطعة حلواه المقضومة التي لم يُنهها ، وكأنه متخوم . وكان الطفل يرتدي بزة جندي من جنود الحرس الوطني ، بسبب من الفتنة ، وكان الاب قد احتفظ بملابس المواطن المدنية ، بسبب من الفطنة .

ووقف الاب والابن قرب الحوض الذي كانت الاوزتان العراقيتان

تتسليان فيه . لقد بدا وكأن هذا البورجوازي معجب إعجاباً خاصاً بالاوزتين العراقيتين : وكان يُشبههما من هذه الناحية : أنه كان يمشي مثلهما .

في تلك اللحظة كانت الاوزتان تسبحان، وتلك هي موهبتها الرئيسية ، وكانتا بهيتين .

ولو قد أصغى الصغيران البائسان ، ولو قد كانا في سن تمكنهما من الفهم ، إذن لاستطاعا ان يتلقفا كلمات رجل رزين . لقد قال الأب لابنه :

— « العاقل يحيا قانعاً بالقليل . انظر إلي ، يا بني . انا لا أحب الأبهة . إن أحداً لم يرني قط في ثياب مزينة بالذهب والجواهر : انا اترك هذا المجد الزائف لذوي العقول الرديئة التنظيم . »

وهنا انفجرت الاصوات العميقة ، المنطلقة من ناحية الاسواق ، في قرع اجراس متضاعف وضوضاء متعاظمة .

وتساءل الطفل :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب الاب :

— « إنها أعياد فوضى ودعارة . »

وفجأة بصُرَ بالغلامين ذوَي الاسمال البالية واقفين في غير حراك خلف كوخ الاوز العراقي الأخضر :

وقال :

— « هذه هي البداية : »

وبعد لحظة ، أضاف :

— « لقد شرعت الفوضى تدخل إلى هذه الحديقة . »

وفي غضون ذلك قضم الطفل قطعة الحلوى ، وانشأ يصرخ فجأة :

وسأله الأب :

— « لماذا تبكي ؟ »

فقال الطفل :

— « أنا لم أعد جائعاً . »

وغدت ابتسامة الوالد عريضة .

— « ليس من الضروري أن تكون جائعاً حتى تأكل قطعة حلوى . »

— « إن هذه القطعة تزعجني . إنها بائتة . »

— « ألم تعد لك رغبة فيها ؟ »

— « لا . »

ودله الاب على الاوزتين .

— « ألقها إلى هذين الطائرين ذوي الاقدام الكفية . »

وتردد الطفل . فرغبة المرء عن قطعة حلواه ليست سبباً كافياً للتبرع بها .

وتابع الأب :

— « كن انسانياً . يجب أن تأخذنا الشفقة على الحيوانات . »

وأخذ قطعة الحلوى من ابنه وقذف بها إلى الحوض .

وسقطت الكعكة قرب الحافة .

كانت الاوزتان بعيدتين ، في وسط الحوض ، منهمكتين في فريسة ما . إنهما لم تريا أياً من البورجوازي أو قطعة الحلوى .

وإذ شعر البورجوازي أن قطعة الحلوى كانت مهددة بخطر الضياع ، وإذ أثاره هذا الغرق غير المجدي ، نذر نفسه لاهتياج تلغرافي لفت آخر الأمر انتباه الأوزتين .

لقد لمحتا شيئاً يطفو ، واستدارتا مثل السفن — وهل كانتا غير سفينتين ؟ — واتجهتا في تؤدة نحو قطعة الحلوى ، بذلك الجلال الصافي الذي يلائم الحيوانات البيضاء .

وقال البورجوازي ، وقد أبهجه ذكاؤه :

– « الأوز (*Cygnes*) يفهم الاشارات (*Signes*) .

وفي تلك اللحظـة تعاظمت من جديد ، وعلى نحو مفاجيء ، تـلك الضجة القصية المنبعثة من المدينة . إن ثمة رياحاً تنطق بوضوح يفوق ذلك الذي تنطق به الرياح الاخرى . والواقع ان تلك التي هبت في تلك اللحظة نقلت ، في وضوح ، قرع الطبول ، والصيحات ، ونيران فصائل الجند ، وأجوبة الناقوس والمـدفع المشؤومة . ووافق ذلك انتشارُ سحابة سوداء حجبت الشمس فجأة .

ولم تكن الاوزتان قد وصلتا إلى قطعـة الحلوى .

وقال الاب :

– « فلنرجع إلى البيت . إنهم يهاجمون التويلري . »

وأمسك بيد ابنه من جديد . ثم تابـع :

– « من التويلري إلى اللوكسومبورغ ، ليس ثمـة غير المسافة التي تفصل الملوكية عن الأشرافية . وهي ليست شاسعة . إن رصاص البنادق سوف ينهمر . »

ونظر إلى السحابة .

– « ولعل المطر نفسه أيضاً سوف ينهمر . إن السماء لتتدخل . ولقد صدر الحكم على الغصن الأصغر . فلنرجع على عجل . »

وقال الطفل :

– « اود أن أرى الأوزتين تأكلان قطعة الحلوى . »

فأجاب الأب :

– « ذلك خليق به أن يكون تهوراً . »

وقاد بورجوازيه الصغير .

وادار الابن رأسه ، آسفاً على الاوزتين ، نحو الحوض ، حتى حجبه عنه منعطف من صفوف الاشجار .

وفي غضون ذلك ، كان التائهان الصغيران قد اقتربا نحو قطعة الحلوى

لحظة اقتربت الاوزتان منها . كانت تطفو على سطح الماء . كان أصغر الطفلين ينظر إلى قطعة الحلوى ، وكان اكبرهما ينظر إلى البورجوازي وهو ينصرف .

ودخل الاب والابن في تيه الممرات الذي يقود إلى مرقاة مجموع الشجر الكبيرة ، ناحية شارع السيدة .

وما إن غابا عن النظر ، حتى سارع أكبر الطفلين إلى التمدد على بطنه فوق حافة الحوض المدورة . وتشبث بها بيده اليسرى ، متدلياً فوق الماء ، وقد أشرف على السقوط . وبسط يده اليمنى بعصاه نحو قطعة الحلوى . وحثت الاوزتان ، بعد ان رأتا العدوّ ، خطاهما ، وهكذا احدثتا بصدريهما أثراً كان مفيداً للصياد الصغير : لقد ارتدّت المياه امام الاوزتين ، ودفعت احدى هذه التموجات الرقيقة المشتركة المركز قطعة الحلوى في رفق نحو عصا الطفل . حتى إذا وصلت الاوزتان مست العصا قطعة الحلوى . وقام الطفل بحركة سريعة ، وسحب قطعة الحلوى ، مروّعاً الأوزتين ، وتناول قطعة الحلوى ، وانتصب واقفاً . كانت الكعكة مشبعة بالماء ، ولكنهما كانا جائعين ظمئين . وقسم الطفل الاكبر قطعة الحلوى قسمين ، احداهما كبيرة والاخرى صغيرة . واحتفظ بالقطعة الصغيرة لنفسه ، وقدم الكبيرة إلى اخيه الصغير ، وقال له :

— « ألصق هذه إلى بندقيتك . »

١٧
« الأب الميت يرثه ابنه حسب الشريعة »

كان ماريوس قد وثب إلى خارج المتراس . وكان كومبوفير قد تبعه . ولكنّ كان الاوان قد فات . لقد مات غافروش :

ورجع كومبوفير حاملا سلة الخرطوش ، ورجع ماريوس حاملا الطفل .

وفكر : « وا أسفاه ، إن ما عمله أبوه من اجل أبي اردّه انا اليوم للابن . مع فارق واحد هو ان تيناردييه عاد بأبي حياً ، على حين انـي اعود بالطفل ميتاً . »

وحين انقلب ماريوس إلى المتراس وغافروش بين ذراعيه . كان وجهه مثل وجه الطفل . مخضباً بالدم .

فلحظة انحنى لكي ينتشل غافروش كانت رصاصة قد مست جمجمته مساً رفيقاً . إنه لم ينتبه إليها .

ونزع كورفيراك رباط رقبته وعصب به جبين ماريوس .

وسُجي غافروش على الطاولة نفسها التي سجي عليها مابوف . ونُشر الشال الاسود فوق الجثمانين جميعاً . كان من الاتساع بحيث يغطـي العجوز والطفل .

ووزع كومبوفير الخراطيش من السلة التي كان قد رجع بها .

وهكذا نال كل مقاتل خمس عشرة رصاصة .

وكان جان فالجان لا يزال في المكان نفسه ، جامداً فوق مَعْلَمه . وحين قدّم اليه كومبوفير خراطيشه الخمسة عشر ، هز رأسه .

وقال كومبوفير لآنجولراس في صوت خفيض :

— « هوذا رجل نادر غريب الاطوار . إنه يجد وسيلة إلى ان لا يقاتل في هذا المتراس . »

فأجاب آنجولراس :

— « الأمر الذي لا يحول بينه وبين الدفاع عنه . »

وعاد كومبوفير إلى القول :

— « إن للبطولة رجالها الغريبي الاطوار . »

وأضاف كورفيراك ، الذي كان قد سمع الحديث :

— « إنه من ضرب آخر مختلف عن الاب مابوف : »

ومن الحقائق الجديرة بالذكر ، ان النار التي كان المتراس يُقذف بها لم تقلق الجزء الداخلي منه إلا بشق النفس : واولئك الذين لم يجتازوا قط بزوبعة هذا النوع من الحرب لا يستطيعون ان يتصوروا لحظات الهدوء الفريدة التي تمتزج بهذه الاضطرابات . فالرجال يروحون ويغدون؛ إنهم يتجاذبون أطراف الحديث ، وإنهم يتبادلون النكات ، وإنهم يتبلدون ويتكاسلون . ولقد سمع احد معارفنا مقاتلا يقول له تحت وابل من قذائف المدافع : « **هذا شيء اشبه بطعام العَزَب الصباحي .** » إن متراس شارع الـ « شانفريري » — ونحن نكرر ذلك — قد بدا هادئاً جداً من داخل . كان كل تحول وكل وجه من وجوه الحظ قد استُهلك أو على وشك ان يُستهلك . وكان الموقف قد انقلب من حرج إلى متوعد ، ومن متوعد كان قد انقلب في أغلب الظن إلى يائس . وكلما بدت الاوضاع أشد قتاماً خضب الوميض البطولي ذلك المتراس بالارجوان أكثر فأكثر . وفي رصانة ، نهض آنجولراس بعبء قيادته وكأنه اسبارطي شاب نذر سيفه المسلول لعبقرية أبيدوتاس الكالحة .

وكان كومبوفير يضمد جراح الجرحى وقد ارتدى مئزراً : وكان بوسوويه وفويي يصنعان الخراطيش بوعاء البارود الذي اخذه غافروش من العريف الصريع ، وقال بوسوويه لفويي : « عما قليل سوف نركب العربة العامة إلى كوكب آخر . » وكان كورفيراك ، فوق حجارة الارصفة القليلة التي احتفظ بها لنفسه قرب آنجولراس ، يرتب وينظم مصنع سلاح كاملا ، عصاه المسيّفة ، وبندقيته ، وغدارتي قربوس ، وغدارة جيب ، بمثل عناية فتاة ترتب صندوقاً صغيراً من صناديق أشغال الابرة . كان جان فالجان ينظر ، في صمت ، إلى الجدار المقابل . وكان أحد العمال يثبت على رأسه ، بواسطة خيط من خيوط القنب ، قبعة ضخمة من قش كانت ملكاً للام هوشلو « **خوفاً من ضربة**

الشمس » كما قال : كان شبان الـ « كوغورد ديكس » يتجاذبون أطراف الحديث ، في مرح ، وكأنما كانوا يتعجلون الكلام باللهجة الأقليمية للمرة الاخيرة . وكان جولي ، الذي نزع مزآة الأرملة ، يفحص لسانه بها . وإذ كان بعض المقاتلين قد اكتشفوا بضع كسرات الخبز ، العفنة أو تكاد ، في احد الأدراج ، فقد راحوا يلتهمونها في شره . وكان ماريوس مضطرب البال متسائلا اي سوف يقوله والده له .

١٨
العُقاب يصبح فريسة

إن علينا أن نفصّل القول في ظاهرة سيكولوجية خاصة بالمتاريس : فليس ينبغي ان يهمل شيء مما ميز حرب الشوارع العجيبة هذه .

وأياً ما كانت تلك السكينة الداخلية الغريبة التي تحدثنا عنها اللحظة ، فان المتراس يظل — في نظر الذين انطوى عليهم — رؤيا من الرؤى .

إن في الحرب الأهلية لرؤيا اشبه برؤيا القديس يوحنا . فكل ضباب المجهول يمتزج بهذه الشعل الوحشية — والثورات آباء هول * . وايما امرئ اجتاز بمتراس من المتاريس يعتقد أنه اجتاز بحلم من الاحلام .

إن ما يستشعره المرء في هذه المواطن ، كما اشرنا في كلامنا على ماريوس وكما سنرى في ما سوف يلي ، هو اكثر من الحياة وأقل من الحياة . فما إن يغادر المقاتل المتراس حتى ينسى اي شيء رآه فيه : لقد كان فظيعاً ، وهو لا يعرف ذلك . كان محوطاً بأفكار مقاتلة كانت ذات وجوه بشرية ، وكان رأسه مغموراً بضياء المستقبل . كانت

* جمع « ابو الهول » .

هنالك جثث مطروحة ، وأطياف منتصبة . وكانت الساعات طويلة إلى حد هائل ، ولقد بدت وكأنها ساعات الابدية . لقد عاش في الموت : ومرت ظلال . أي شيء كانت ؟ لقد رأى أيدياً مخضبة بالدم ، كان هديراً مروعاً ، وكان صمتاً رهيباً أيضاً . كانت ثمة أفواه فاغرة تصيح ، أوافواه فاغرة اخرى تعتصم بالصمت . كان في غمرة من الدخان ، أو ربما في غمرة من الليل . وهو يحسب انه قد مس رشحاً مشؤوماً من عماق مجهولة . إنه لا يرى شيئاً أحمر في أظافره . انه لم يعد يذكر شيئاً .

ولنعد إلى شارع الـ « شانفريري » .

وفجأة ، بين وابلين من رصاص ، سمعوا صوت ساعة نائية تدق .

وقال كومبوفير :

— « إنه الظهر . »

ولم تكن الدقات الاثنتا عشرة قد اكتملت عندما انتصب آنجولراس واقفاً وقذف من أعلى المتراس بهذه الصيحة الراعدة :

— « انقلوا بعض حجارة الارصفة إلى المنزل . حصنوا النوافذ بها ؛ ليتسلح نصف الرجال بالبنادق ، ونصفهم الاخر بالحجارة . حذار ان تضيعوا دقيقة واحدة . »

كانت مفرزة من الجند ، المتنكبين فؤوسهم ، قد برزت منذ لحظة . على قدم الاستعداد للقتال ، عند نهاية الشارع .

ولا يمكن أن يكون ذلك غير طليعة جند ؛ وأي جند ؟ جند الهجوم ، من غير شك . إن الطلائع ، المكلفين تقويض المتراس ، ينبغي ان يتقدموا دائماً العساكر ، المكلفين بتسلقه .

لقد وضح انهم كانوا يكادون يمسّون تلك اللحظة التي دعاها مسيو دو كليرمون تونير ، عام ١٨٢٢ ، « الجهد الجهيد » .

ونُفِذ أمر آنجولراس بالسرعة المضبوطة المميزة للسفن والمتاريس ،

وهي مواطن القتال الوحيدة التي يتعذر فيها الفرار . وفي أقل من دقيقة ، كان ثلثا الحجارة التي ركمها آنجولراس عند باب كورنث قد حُملت إلى الدور الأول وإلى العلّية . وقبل ان تتصرم دقيقة اخرى كانت هـذه الحجارة ، المنضد أحدها فوق الآخر في فن ، قد سدت نصف ارتفاع نافذة الدور الأول وكوى العلية . وكانت بضع فتحات . أعدها فويي ، البنّاء الرئيسي ، في عناية ، تمكّن انابيب البنادق من النفاذ خلالها . وكان تحصين النوافذ هذا ممكناً على نحو أيسر بعد أن كفت المدافع عن إطلاق النيران . كان المدفعان يسددان كُراتهما ، الآن ، إلى منتصف الجدار لكي يحدثا فيه ثقباً ، أو لـكي يحدثا ، إذا كان ذلك ممكنـاً ، ثغرة للهجوم .

حتى إذا اتخذت حجارة الأرصفة ، المعدة للدفـاع الأخـير ، مواطنهـا أمر آنجولراس رجـاله بأن يحملوا إلى الطابق الأول تـلـك الزجاجات التي كان قـد وضعها تحت المـائدة الممـدد عليهـا جثمانُ مابوف .

وسأله بوسوويه :

— « من الذي سيشرب هذا ؟ »

فأجابه آنجولراس :

— « هم . »

ثم إنهم مترسوا نافذة الحجرة السفلية ، وهيـأوا على مقربة منهـم العوارض الحديدية التي كانت تساعد على إيصاد باب الحانة ، من الداخل ، أثناء الليل .

كانت القلعة كاملة . كان المتراس هو السور ، وكـانت الحـانـة هي البرج .

وبحجارة الأرصفة الباقية ، سدوا الفتحة .

وإذ كان يتعين على حماة المتاريس دائماً أن يقتصدوا في إنفـاق ذخيرتهم ، وإذ كان المحاصِرون يعرفون ذلك ، فان المحاصِرين ينظمون

أعمالهم في ضرب من التمهل المثير ، معرضين انفسهم للنار قبل الأوان ، ولكن في الظاهر لا في الحقيقة ، وينعمون بالراحة . إن الاستعـــدادات للهجوم تُتخذ دائماً في شيء من البطء المنهجي ، وبعد ذلك تنقضّ الصاعقة .

وهذا البطء مكن آنجولراس من ان يراجع كل شيء . وان يخلع مسحة من الكمال على كل شيء . لقد استشعر انه ما دام مقدراً لهؤلاء الرجال ان يموتوا فينبغي ان يكون موتهم رائعة من الروائع .

وقال لماريوس :

— « نحن الزعيمان . سوف اصدر الأوامر الأخيرة في الداخـل ؛ ولسوف تبقى انت في الخارج ، وتراقب . »

واتخذ ماريوس من ذروة المتراس مقراً للمراقبة .

وأمر آنجولراس بتسمير باب المطبخ الذي كان ، كما نذكر ، بمثابة المستشفى المتنقل .

وقال :

— « لا وحل على الجرحى . »

واصدر تعليماته الاخيرة في الحجرة السفلى ، في صوت موجز ، ولكنه عميق وهادىء . واصغى فويي ، وأجاب باسم الجميع .

— « في الطابق الأول ، استعدوا لأن تقطعوا السلم بفؤوسكم . هل تحملونها ؟ »

فقـال فويي :

— « نعم . »

— « كم ؟ »

— « فأسان ، وفأس لشق الخشب . »

— « حسن . بقي عندنا ستة وعشرون مقاتلا . كم بندقية عندنا ؟ »

— « أربـع وثلاثون . »

— « اي بزيادة ثماني بنادق . أبقوا هذه الثماني مشحونة كغيرها وفي متناول أيديكم . تمنطقوا بالسيوف والغدارات . عشرون رجلا إلى المتراس . ستة يكمنون عند الكوى وعند نافذة الطابق الاول لكي يطلقوا النار على المغيرين من خلال المرامي التي بين حجارة الارصفة . حذار ان تقوموا بأي عمل لا طائل تحته هنا . وحالما يقرع الطبل إشارة الانطلاق يتعين على العشرين رجلا ، القائمين تحت ، ان يندفعوا إلى المتراس . والذين يصلون إلى هناك قبل غيرهم سوف يفوزون بالمواقع الفضلى . »

حتى إذا تمت هذه التدابير ، التفت إلى جافير وقال له :

— « انا لن أنساك . »

ووضع غدارة على الطاولة ، وأضاف :

— « ان آخر رجل يغادر هذه الغرفة سوف يحطم جمجمة هذا الجاسوس . »

وتساءل صوت :

— « هنا ؟ »

— « لا ، لا تتركوا هذه الجثة مع جثثنا . في استطاعتكم ان تتسوروا المتراس الصغير في زقاق مونديتور . إن ارتفاعه لا يزيد على اربعة أقدام . سوف تأخذونه إلى هناك ، وتعدمونه في ذلك المكان . »

كان ثمة ، في تلك اللحظة ، رجل واحد اكثر امتناعاً على التأثر ، من آنجولراس . وكان ذلك الرجل جافير .

وهنا برز جان فالجان .

كان في حشد المتمردين . وتقدم إلى أمام وقال لآنجولراس :

— « انت القائد ؟ »

— « نعم . »

— « لقد وجهت إلي الشكر منذ لحظة . »

— « باسم الجمهورية . ان للمتراس منقذَين : ماريوس بونميرسي وأنت : »

— « هل تظن اني استحق مكافأة ؟ »

— « طبعاً » .

— « حسناً ، انا اسألك مكافأة . »

— « وما هي ؟ »

— « أن احرق انا دماغ هذا الرجل . »

ورفع جافير رأسه ، ورأى جان فالجان ، واتى بحركة غير ملحوظة ، وقال :

— « هذا شيء ملائم . »

أما آنجولراس فكان قد شرع يشحن بندقيته القصيرة الخفيفة من جديد ، وأجال بصره في ما حوله :

— « لا اعتراض ؟ »

والتفت نحو جان فالجان وقال :

— « خذ الجاسوس . »

واستولى جان فالجان ، فعلا ، على جافير بأن جلس على اقصى المائدة . وأمسك بالغدارة ، وأعلن صليلٌ واهن انه قد رد انبوبتها إلى الوراء استعداداً لاطلاق النار .

وفي اللحظة نفسها تقريباً سُمعت أبواق .

وصاح ماريوس من أعلى المتراس :

— « احذروا ! »

وشرع جافير يضحك تلك الضحكة الصامتة الخاصة به . وسدد بصره إلى المتمردين وقال لهم :

— « لستم احسن حالا مني . »

وصاح آنجولراس :

— « إلى الخارج جميعاً ! »

ووثب المتمردون ، في صخب ، إلى أمام . وفيما هم يخرجون تلقوا في ظهورهم . وليُسمح لنا باصطناع هذا التعبير . هذه الكلمة من جافير :

— « إلى اللقاء القريب ! »

١٩
جان فالجان يثأر لنفسه

وحين خلا جان فالجان بجافير فك الحبل الذي كان يوثق الاسير من خصره . والذي كانت عقدته تحت المائدة . ثم أوعز اليه بأن ينهض .

وامتثل جافير الأمر . بتلك الابتسامة التي تمتنع على الوصف ، والتي تكثّف فيها رفعة السلطة المصفّدة .

وأمسك جان فالجان بجافير من سيره الجلدي كما يمسك المرء باحدى دواب الاثقال من لببها ، وجرّه خلفه ، وغادر الحانة في تؤدة ، لأن جافير المكبّل القدمين ، لم يكن قادراً على ان يخطو غير خطوات قصار .

وكان جان فالجان يحمل الغدارة بيده .

وهكذا اجتازا مربّع المتراس الداخلي المنحرف . وكان المتمردون ، المترقبون الهجوم الوشيك ، قد اداروا ظهورهم .

كان ماريوس ، القائم إلى جانب الطرف الايسر من الجدار ، هو وحده الذي رآهما يمران . واستعار اجتماع الضحية والجلاد هذا ضوءاً من الوميض القبريّ الذي كان في نفسيهما .

وساعد جان فالجان اسيره ، المكبل بالاغلال ، على تسوّر متراس

زقاق مونديتور الصغير ، في شيء من العسر ، ولكن من غير ان يفلته لحظـة .

حتى إذا تسلقا الجدار ، وجدا نفسيهما وحيدين في الزقاق . ولم يرهما الآن احد . لقد حجبتهما زاوية المنزل عن أعين المتمردين . وكانت الجثث المنقولة من المتراس قـد شيدت ركاماً هائلا على بضع خطوات منهمـا .

وفي ركام الموتى كان في ميسور المرء ان يتبين وجهاً شديد الشحوب ، وشعراً محلول العقدة ، ويداً مثقوبة ، وصدر امرأة نصف عار . كانت هي ايبونين .

ونظر جافير في انحراف إلى هذه الميتة ، وقال في همس ، وهو على اكثر ما يكون من الهدوء :

— « يخيل إلي اني اعرف هذه الفتاة . »

ثم التفت نحو جان فالجان .

ووضع جان فالجان الغدارة تحت ذراعه ، وسدد إلى جافير نظرة لم تـكن في حاجة إلى كلمات لكي تقول : « جافير ، هذا انا . »

واجاب جافير :

— « خذ بثأرك . »

واخرج جان فالجان من جيبه سكيناً ، وفتحها .

وصاح جافير :

— « مدية ! أنت على حق . هذا يلائمك اكثر . »

وقطع جان فالجان السير الجلدي المطوّق لعنق جافير ، ثم قطـع الحبال المطوقة لمعصميه ، ثم انحنى ، وقطع الحبل المكبل لقدميه . ثم انتصب وقال له :

— « انت طليق السراح . »

ولم يذهل جافير في يسر . ومع ذلك ، وبرغم سيطرته الكاملة على

نفسه ، فانه لم يستطع ان ينجو من بعض الانفعال . لقد ظل فاغر الفم جامداً لا حراك فيه .

وتابع جان فالجان :

— « انا لا اتوقع ان اغادر هذا المكان . ومع ذلك فاذا اتفق لي ، بالمصادفة ، ان افعـــــل ، فاني أعيش ، تحت اسم فوشلوفان ، في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

وغضّن جافير وجهه مثل نمر يفتح فمه نصف فتحة ، وغمغم من بين اسنانه :

— « خذ حذرك . »

وقال جان فالجان :

— « إذهب . »

واستأنف جافير :

— « قلتَ فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح ؟ »

— « رقم ٧ . »

وكرر جافير في همس :

— « رقم ٧ . »

وزرر سترته ، واعاد الصلابة العسكرية ما بين كتفيه ، واستدار نصف استدارة ، وطوى ذراعيه ، مسنداً ذقنه باحدى يديه ، ومضى لسبيله في اتجاه الاسواق . وأتبعه جان فالجان بصره . وبعد بضع خطوات التفت جافير وصاح مخاطباً جان فالجان :

— « انت توقع السأم في نفسي . ليتك قتلتني . »

ولم يلاحظ جافير انه لم يعد يخاطب جان فالجان بضمير المفرد .

وقال جان فالجان :

— « إمض لسبيلك . »

وابتعد جافير في خطى بطيئة . وبعد لحظة ، انعطف حول زاوية شارع

الـ « بريشور » :

وحين توارى جافير عن العيان ، أطلق جان فالجان نـار الغـدارة في الهواء .

ثم عاود الدخول إلى المتراس ، وقال :

— « لقد قضي الامر . »

وفي غضون ذلك كان الذي حدث هو هذا :

لم يكن ماريوس ، المنشغل بالشارع اكثر من انهماكه بالحانة ، قد نظر حتى ذلك الحين ، في انتباه ، إلى الجاسوس الذي كان موثقاً في مؤخرة الحجرة السفلى المظلمة .

حتى إذا رآه في وضح النهار يتسلق المتراس في سبيله إلى الموت ، تبيّنه وعرفه . وتمثلت في ذهنه ذكرى مفاجئة . لقد ذكر مفتش شرطة شارع بونتواز ، والغدارتين اللتين كان قد قدمهما اليه ، واللتين استعملهما — هو ، ماريوس — في هذا المتراس نفسه . ولم يتذكر الوجه فحسب ، بل لقد تذكر الاسم ايضاً .

بيد ان هذه الذكرى كانت ضبابية غير واضحة ، مثل افكاره جميعها ان ما وجّهه إلى نفسه لم يكن توكيداً ، وإنما كان سؤالا : « أليس هذا هو مفتش البوليس الذي قال لي ان اسمه هو جافير ؟ »

لعـله كان لا يزال ثمـة متسع للتدخل من اجل هذا الرجل ؟ ولكن يتعين عليـه ان يعرف ، أولا ، ما إذا كان هو جافير حقاً .

واستوضح ماريوس آنجولراس الذي كان قد اتخذ مكانه ، منذ لحظة ، في الطرف الآخر من المتراس :

— « آنجولراس ! »

— « ماذا ؟ »

— « ما اسم هذا الرجل ؟ »

— « من ؟ »

– « مفوض الشرطة . هل تعرف اسمه ؟ »
– « من غير ريب . لقد أخبرنا . »
– « ما اسمه ؟ »
– « جافير . »
وتصدّر ماريوس .
وفي تلك اللحظة سُمع طلق الغدارة الناري . وبرز جان فالجان من جديد وصاح :
– « قضي الأمر . »
وسرت رعشة كئيبة في فؤاد ماريوس .

٢٠

الموتى مصيبون والاحياء غير مخطئين

كانت حشرجة المتراس على وشك ان تبدأ .
وتلاقت الاشياء كلها في جلال تلك اللحظة العليا التراجيدي . الف قرقعة غريبة في الهواء ، وأنفاس الجماعات المسلحة المندفعة في الشوارع التي لم يكونوا قادرين على رؤيتها ، وخبب الفرسان المتقطع ، وزلزلة المشاة الثقيلة وهم يزحفون ، وتقاطع نيران المفارز ونيران المدافع في تيه باريس ، ودخان المعركة مرتفعاً على نحوٍ مذهّب خالص فوق السطوح ، وصيحات خفية قصية فظيعة على نحو غامض ، وبروق الخطر في كل مكان ، وناقوس سان ميرّي الذي غلب عليه الآن جرْس التنهد ، وعذوبة الفصل ، وبهاء السماء الحافلة بأشعة الشمس والسحب ، وجمال النهار ،

وصمت البيوت الرهيب .

ذلك بأنه ، منذ المساء ، كان صفّا البيوت في شارع الـ « شانفريري » قد امسيا جدارين ضاريين . كانت الابواب موصدة ، والنوافذ موصدة ، والمصاريع موصدة .

ففي تلك الايام ، الشديدة الاختلاف عن الايام التي نعيش فيها ، حين كانت تحين الساعة التي يرغب فيها الشعب في إنهاء وضعٍ دامَ اكثر مما ينبغي ، أو دستور ممنوح أو بلد دستوري ، وحين كان الغضب الشامل ينتشر في الفضاء ، وحين كانت المدينة توافق على اقتلاع حجارة ارصفتها ، وحين كانت الانتفاضة تجعل البورجوازية تبتسم بان تهمس بكلمتها السرية في أذنها ، فعندئذ كان ساكن المنزل المشبع بالفتنة ، إذا جاز التعبير ، يصبح نصيراً للمقاتل ، ويتآخى المنزل مع القلعة المرتجلة التي استندت اليه . وحين كانت الاحوال غير ناضجة ، وحين كانت الانتفاضة غير مقبولة في حزم ، وحين كانت الجماهير تنكر الحركة ، فعندئذ كان يُقضى الامر مع المقاتلين ، وعندئذ كانت المدينة تتحول إلى صحراء تحيط بالثورة ، والنفوس تتثلج ، والملاجىء توصد ابوابها ، والشارع ينقلب إلى ثغرة لمساعدة الجيش في الاستيلاء على المتراس .

إننا لا نستطيع ان نحمل الشعب على ان يسير في معارج التقدم بأسرع مما يبتغي . والويل لمن يكرهه على ذلك إكراهاً ! الشعب لا ينقاد . وعندئذ يترك الانتفاضة وشأنها ، ويصبح المتمردون مصابين بالطاعون . وعندئذ يصبح كل منزل منحدراً وعراً ، وكل باب رفضاً ، وكل واجهة بناء جداراً . وهذا الجدار يرى ، ويسمع ، ويأبى . إنه قد ينفتح وينقذك . لا . إن هذا الجدر قاضٍ . إنه ينغلق عليك ويدينك ؛ ما أظلم هذه البيوت الموصدة ! إنها تبدو ميتة ، ولكنها حية . ان الحياة شبه المعلقة في تلك البيوت ، لا تزال باقية . إن أحداً لم يخرج منها

منذ اربع وعشرين ساعة ، ولكن أحداً لم يُفقد . وفي داخل هذه الصخرة ، يروح الناس ويجيئون . إنهم يضطجعون ؛ وإنهم ينهضون ؛ وإنهم ليشعرون أنهم بين اهلهم هناك . إنهم يأكلون ويشربون هناك ، وانهم ليخافون هناك ، شيء فظيع ! الخوف يعذر سوء الوفادة الرهيب هذا . إنه يمزجه بالانشداه . وتلك اسباب تخفيفية . بل إن الخوف لينقلب في بعض الاحيان – وهذا امر مشاهد – إلى حمياً ، والذعر قد ينقلب إلى جيشان ، كما ينقلب التبصر إلى غيظ ، ومن هنا هذه الكلمة البالغة العمق : مسعورو الاعتدال . إن ثمة تألقات ذعر رفيع ينبثق منها الغضب مثل دخان كئيب . – « ما الذي يريده هؤلاء الناس ؟ ان الرضا لا يعرف سبيلا إلى نفوسهم . إنهم يعرّضون الرجال المسالمين للخطر . لكأننا لم يكفنا ما شهدنا من ثورات مشابهة ! ما الذي جاء بهم إلى هنا ؟ فلينجوا بأنفسهم الآن . لأمّهم الهبل ! تلك خطيئتهم هم . إنهم ينالون الجزاء الذي يستحقون . ذلك ليس من شأننا . هوذا شارعنا المسكين وقد غربلته القذائف المدفعية . إنها حزمة من الأدنياء الخلعاء . وفوق كل شيء ، لا تفتحوا الباب » . ويتخذ المنزل مظهر قبر . وامام ذلك الباب يكون المتمرد في نزعه الاخير . إنه يرى كُرات المدافع والسيوف المسكوبة مقبلة نحوه . فاذا ما نادى ، فهو يعرف أنهم سيسمعونه ، ولكنه يعرف ايضاً انهم لن يلبوا نداءه . ان ثمة جدراناً قد تحميه ، وإن ثمة رجالا قد ينقذونه . وهذه الجدران لها آذان من لحم ، واولئك الرجال لهم احشاء من حجارة .

من نتهم ؟

لا أحد ، وكل أحد .

العصر غير الكامل الذي نعيش فيه .

إن المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) لتحوّل نفسها دائماً ، مخاطرة بذاتها ، إلى انتفاضة ، ومن احتجاج فلسفي تصبح احتجاجاً مسلحاً ، ومن

« مينرفا » تنقلب إلى « بالاّ » . والمدينة الفاضلة التي تفقد الصبر وتصبح فتنة ، تعرف ما الذي ينتظرها . وهي تصل دائماً ، تقريباً ، باسرع مما ينبغي . وعندئذ ترضى بما كُتب لها ، وتتقبل ، في بسالة ، الكارثة بدلا من النصر . إنها تخدم ، من غير ان تتشكى ، اولئك الذين ينكرونها ؛ بل انها لتخدمهم وهي تبرىء ساحتهم ، وشهامتها قائمة على ارتضائها الجفاء والهجر . إنها جَموح أمام العوائق ، لطيفة أمام انكار الجميل.

ولكن أهو إنكار للجميل ؟

نعم ، من وجهة نظر الجنس البشري .

لا ، من وجهة نظر الفرد .

التقدم شيمة الانسان . وحياة الجنس البشري العامة تدعى التقدم . وسيرُ الجنس البشري الجماعيّ يدعى التقدم . التقدم يسير . إنه يقوم بالرحلة الانسانية والأرضية الكبرى نحو السماوي والالـهي . إن له مواقفه حيث يجمع شمل القطيع المتخلف ، وان له محطاته حيث يتأمل ، في حضرة « كنعان » بهيّ يكشف النقاب فجأة عن أفقه . ان له لياليه التي يرقد فيها . وإن من أشد ضروب القلق مضاضة على المفكر أن يرى الظل يلف النفس البشرية ، وان يتلمس التقدم ، في الظلام ، مستسلماً للرقاد ، من غير ان يكون قادراً على إيقاظه .

— « لعل الله قد مات » كذلك قال جيرار دو نيرفال * ، ذات يوم ، لكاتب هذه الأسطر ، خالطاً ما بين التقدم والله ، وحاسباً انقطاع الحركة موت الرب .

مخطىء ذلك الذي ييأس . ان التقدم ليستيقظ على نحو محتوم ؛ وعلى الجملة فان في ميسورنا أن نقول إنه يسير حتى في النوم ، لأنه قد نما وكبر . وحين نراه منتصباً كرة اخرى نجده اطول قامة . إن النزوع إلى المسالمة دائماً ليس من شيمة التقدم إلا بمقدار ما هو من شيمة

* Gérard de Nerval كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٨ وتوفي عام ١٨٥٥

النهر . فعدم إقامة اي سدّ يعني عدم القاء أيّ صخر . إن العقبات تجعل الماء يُزبد ، وتجعل الانسانية تفور . ومن هنا القلاقل ؛ ولكن بعد هذه القلاقل ندرك ان ارضاً ما ، قد كُسبت . وإلى ان يُقر النظام ، الذي لا يعدو ان يكون السلامَ الكوني ، وإلى ان يهيمن التناغم والوحدة فسيظل التقدم يتخذ من الثورات محطات له .

ما التقدم اذن ؟ لقد اجبنا عن ذلك منذ لحظة . انه حياة الشعوب السرمدية :

والآن . قد يتفق في بعض الاحيان ان تقاوم حياةُ الافراد الموقتة حياةَ الجنس البشري الأبدية ؛

ولنعترف من غير اكتئاب ، بأن للفرد أشواقه المتميزة ، وأنه قد يعظّم هذه الاشواق ، من غير ما خيانة ، ويدافع عنها . إن للحاضر نصيباً من الانانية قابلا للمعذرة . وإن للحياة المؤقتة حقوقها ، وهي ليست ملزمة بأن تضحي بنفسها ، على نحو موصول ، في سبيل المستقبل والجيل الذي حان الآن دوره في المرور فوق الارض ليس مضطراً إلى أن يختصره من أجل الاجيال — وهي أقرانه على اية حال — التي سوف يجيء دورها في ما بعد . — « انا موجود » ، كذلك يغمغم ذلك الكائن الذي يدعى « الكل » . — « أنا شاب واني لعاشق ؛ انا عجوز واني لفي حاجة إلى الراحة ؛ أنا رب اسرة ؛ أنا اعمل ؛ أنا موفق ؛ إن تجارتي لمزدهرة ؛ ان عندي بيوتاً ارغب في تأجيرها ؛ إن لي اموالا على الدولة ؛ أنا سعيد . إن لي زوجة واولاداً ؛ أنا أحبهم جميعاً ؛ إني احب ان اعيش . دعوني وشأني . » ومن هنا ذلك البرد الشديد الذي يصيب طليعة الجنس البشري الشهمة ، في بعض الاحيان .

وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نسلم بأن المدينة الفاضلة تنفصل عن فلكها المشعّ وهي تشن الحرب . إن حقيقة الغد لتستعير اسلوبها ، المعركة ، من اكذوبة الامس . إنه — المستقبل — ليعمل مثل الامس . وإنها

ـ الفكرة المحض ـ لتصبح وسيلة من وسائل العنف . إنها تعقّد بطولتها بعمل من اعمال العنف يكون من العدل ان تتحمل مسؤوليته ، عنفُ فرصة وانتهاز ، مناقضٌ للمباديء ، فهي تعاقب عليه بقضاء محتوم . إن « المدينة الفاضلة ـ الانتفاضة » لتقاتل والقانون العسكري العتيق في يدها . إنها تطلق النار على الجواسيس ؛ إنها تنفذ حكم الموت في الخونة ؛ إنها تعطل كائنات حية وتقذف بها إلى الظلمات المجهولة . إنها تسخّر الموت ، وذلك شيء خطير . ويبدو وكأن المدينة الفاضلة قد فقدت ايمانها باشعاع الضياء ، قوّتها التي لا تقاوَم والتي لا يعتريها الفساد . إنها تضرب بالسيف . ولكن ليس ثمة اِنما سيف بسيط . فلكل سيف حدان . ومن يجرح بأحدهما يجرح نفسه بالآخر .

حتى إذا قمنا بهذا التحفظ ، وفي قسوة بالغة ، يتعذر علينا ان لا نعجب ، سواء أنجحوا أم لم ينجحوا ، بمقاتلي المستقبل الماجدين ، بأساتذة المدينة الفاضلة . وحتى حين يخفقون يكونون موضع الاحترام ، ولعلهم إنما يتحققون في حال الاخفاق بالجلال الاعظم . إن النصر ، حين ينسجم مع التقدم ، ليستحق تصفيق الشعوب ، ولكن الهزيمة البطولية تستحق شفقتهم . احدهما بهيّ ، والآخر سنّي . أما نحن ، فأننا نؤثر الاستشهاد على النجاح . إن جون براون * اعظم من واشنطون ، وبيزاكان اعظم من غاريبالدي .

إن امرءاً ما ، ينبغي ان يكون في جانب المهزوم من غير ريب ؛

والناس غير منصفين لمجربي المستقبل الكبار حين يسقطون .

الثوريون متهمون بأنهم ينشرون الرعب . ان كل متراس ليبدو اعتداء. ان الناس ليؤثّمون نظرياتهم ، ويرتابون بهدفهم ، ويخشون سريرتهم ، ويتهمون ضميرهم . انهم يعيّرونهم بأنهم إنما يرفعون ويكوّمون ويركمون

* John Brown احد دعاة تحريم الرق في اميركا ، وقد شنق في تشارلزتاون (فرجينيا) لانه دعا الزنوج الى حمل السلاح .

في وجه الواقع الاجتماعي السائد كثيباً من ضروب البؤس ، من الآلام ، من الآثام ، من المظالم ، وباقتلاع كتل الظلام من الاعماق السفلى لكي يتمترسوا بها ، ويقاتلوا بواسطتها . ان الناس يصيحون في وجوههم : « إنكم تقتلعون بلاط جهنم ! » وفي استطاعتهم ان يجيبوا بقولهم : « وهذا هو الذي يجعل متراسنا مشيداً من مقاصد خيّرة . »

وخير الحلول هو ، من غير شك ، الحل السلمي . وعلى الجملة ، فلنعترف بأننا حين نرى حجارة الارصفة نفكر بالدب ، وهذا استعداد لا يرتاح اليه المجتمع . ولكن خلاص المجتمع رهن بالمجتمع نفسه : فالى ارادته الخيرة نوجه النداء . فليس ثمة حاجة إلى علاج عنيف : لندرس الشر في محبة ، ولنعيّنْه ، ثم لنتقدمْ إلى معالجته . ذلك ما ندعو اليه في إلحاح .

وأياً ما كان ، فحتى في حال سقوطهم ، وبخاصة في حال سقوطهم ، تجلبب العظمة اولئك الرجال الذين يقاتلون — في ارجاء الكون كله ، بأعين مسمّرة على فرنسة — من أجل العمل العظيم بمنطق المثل الأعلى الصلب الذي لا يلين . انهم يقدمون حياتهم هبة خالصة إلى التقدم . إنهم يحققون إرادة العناية الالـهية . إنهم يؤدون فرضاً دينياً . وفي الساعة المحددة ، وبمثل تجرد ممثل يصل إلى كلمته الاخيرة ، يدخلون إلى القبر طائعين السيناريو الالـهي . وهم إنما يرتضون هذا الكفاح اليائس وهذا الزوال البطولي لكي يقودوا إلى نتائجها الكونية البهية الرفيعة تلك الحركةَ الانسانية البديعة التي استُهلت على نحو لا يقاوَم ، في الرابع عشر من تموز ، ١٧٨٩ . هؤلاء الجنود هم كهان . والثورة الفرنسية عمل من أعمال الله .

ومع ذلك فان ثمة — ومن الخير ان نضيف هذا الفرق إلى تلك الفروق التي أشرنا اليها في فصل آخر — ان ثمة انتفاضات مقبولة ندعوها ثورات . وان ثمة انتفاضات مرفوضة ندعوها فتناً . إن

الانتفاضة التي تنفجر هي فكرة تُجري امتحانها أمام الشعب . وإذا ما رفض الشعب ان يعطيها صوته فعندئذ تصبح الفكرة فاكهة ذابلة . وعندئذ تصبح الانتفاضة مغامرة خاسرة .

إن المضيّ إلى الحرب عند اول دعوة وكلما رغبت المدينة الفاضلة في ذلك ليس من شيمة الشعوب . ان الامم لا تنعم دائماً ، وفي كل لحظة ، بمزاج الأبطال والشهداء .

إنهم ايجابيون . إن الانتفاضات لتثير اشمئزازهم ابتداء * . اولا ، لأنها كثيراً ما تتمخض عن كارثة . وثانياً لأنها تتخذ من التجرد نقطة انطلاق لها دائماً .

ذلك بأن اولئك الذين يضحون بأنفسهم إنما يضحون بأنفسهم –دائماً– وهذا شيء جميل – من اجل المثل الاعلى ، ومن اجل المثل الاعلى وحده . إن الانتفاضة حماسة . والحماسة قد يستبد بها الغضب ؛ ومن هنا الالتجاء إلى السلاح . ولكن كل انتفاضة موجهة ضد حكومة من الحكومات أو نظام من النظم تطمح إلى شيء اسمى . وهكذا ، مثلا ، يحسن بنا أن نكرر ان ما حاربه زعماء انتفاضة ١٨٣٢ ، وبخاصة متحمسي شارع الـ « شانفريري » الشبان ، لم يكن لويس فيليب على وجه الضبط . ان معظمهم – ولنقل ذلك في صراحة – كانوا يقرون بسجايا هذا الملك الذي كان وسطاً بين الملكية والثورة . إن اياً منهم لم يبغضه . ولكنهم هاجموا الفرع الاصغر للحق الالـهي في لويس فيليب كما سبق ان هاجموا الفرع الاكبر للحق الالـهي في شارل العاشر . وكان الذي يريدون اسقاطه باسقاط الملكية ، كما أوضحنا ، هو اغتصاب الانسان للانسان ، واغتصاب الامتياز للحق ، في العالم أجمع . إن باريس من غير ملك انما ينتج عنه ان يصبح العالم من غير طغاة . على هذا النحو كانوا يفكرون . كان هدفهم بعيداً من غير شك ، ولعله كان

---

* a priori

غامضاً . متراجعاً في وجه الجهد . ولكنه عظيم .

ذلك هو الواقع . وإنما يضحي المرء بنفسه من اجل هذه الرؤى ، التي هي في نظر الضحايا . دائماً تقريباً . أوهام . ولكنها اوهام تتصل بها – على العموم – الحقيقةُ الانسانية كلها . انه يقذف بنفسه إلى هذه الاشياء الفاجعة ، ثملاً بما يوشك أن يفعله . ومن يدري ؟ فقد تُكتب الغلبة لهذه الفئة . إنها فئة قليلة . إنهم يواجهون جيشاً كاملا . ولكنهم يدافعون عن الحق ، عن القانون الدولي . عن سيادة كل امرىء على نفسه – تلك السيادة التي لا يمكن التنازل عنها – . عن العدالة . عن الحقيقة . وعند الحاجة يموتون مثل اولئك الاسبارطيين الثلاثمئة . إنهم لا يفكرون في دون كيشوت . ولكن في ليونيداس . ويندفعون إلى أمام ، وما ان يشرعوا في القتال . حتى يمتنعوا على النكوص . ويطوّحوا بانفسهم قُدماً . آملين في نصر لم يُسبق إلى مثله . وفي الثورة مُنْجَزَةً . والتقدم مطلقَ السراح . وفي تكبير الجنس البشري . والخلاص العام . واضعين نصب اعينهم . في أسوأ الاحوال ، معركة كمعركة ترموبيل * .

هذا التسايف من اجل التقدم كثيراً ما يخفق . ولقد سبق لنا ان قلنا لماذا . ان الجمهور لجموح يستعصي توجيهه على الفرسان . وهذه الكتل الثقيلة . هذه الجماهير . الهشة بسبب من ثقلها نفسه . تخشى المغامرة . وان في المثل الاعلى لمغامرة .

وفوق هذا – وينبغي ان لا ننسى ذلك – فأن المصالح هناك ؛ وبين المصالح وبين المثل الاعلى وكل ما هو عاطفي ود مفقود . إن المعدة تشل الفؤاد في بعض الاحيان .

وعظمة فرنسة وجمالها قائمان على انها اقل عناية بالبطن من سائر

---

* هي معركة البطولية التي خاضها ليونيداس ، ملك اسبارطة ، مع قواته البالغة لاثمئة ليس غير ، ضد الفرس ، فقضى نحبه مع رجاله جميعاً ، عام ٤٨٠ ق.م.

الشعوب . إنها تشد الحزام على خصرها بأيسر مما يشده غيرها . وهي أول من يفيق ، وآخر من يستسلم للرقاد . إنها تمضي في الطليعة : إنها رائدة .

وما ذلك إلا لأنها فنانة .

إن المثل الاعلى لا يعدو ان يكون أوج المنطق ، مثلما ان الجميل ليس شيئاً غير ذروة الحقيقي . والشعوب الفنانة هي ايضاً الشعوب التي لا تعرف التناقض المنطقي . إن حُبّك الجمال يعني رؤيتك الضياء . وهذا ما جعل اليونان تحمل قبل غيرها شعلة اوروبة ، يعني شعلة الحضارة ، لتسلمها بعد إلى ايطالية ، ولتسلمها هذه بدورها إلى فرنسة . شعوب الـ ّهية رائدة ! *Vitaï lampada tradunt*

شيء رائع : إن شعر الشعب عنصر تقدمه . ومقدار الحضارة إنما يقاس بمقدار الخيال . والشعب الممدّن وحده يجب ان يظل شعباً فحلا . كورنث * ، نعم . سيباريس ** ، لا . ومن يتخنث يفسدْ ويفقد مزايا أصله . ينبغي ان لا نكون لا هواة ولا عباقرة في الفن ، ولكن ينبغي ان نكون فنانين . وفي موضوع الحضارة . يجب ان لا نفرط في الرقة ، ولكن يجب ان نصعّد في معارج السمو . وعلى هذا الشرط نعطي الجنس البشري نموذج المثل الأعلى .

إن للمثل الأعلى العصري مثاله في الفن ، ووسيلته في العلم . واننا من خلال العلم سوف نحقق رؤيا الشعراء الماجدة : الجمال الاجتماعي . سوف ننشىء جنة عدن كرة ثانية من طريق أ + ب . وفي هذه النقطة التي بلغتها الحضارة أمسى المضبوط عنصراً أساسياً من عناصر

* كورنث احدى مدن بلاد الاغريق القديمة الاكثر ازدهاراً ، وكانت تنافس اثينا واسبارطة .

** Sybaris مستعمرة آخية دمرت عام (٥١٠) ق.م. وكانت مشهورة برقة سكانها وتخنثهم .

الپهي ؛ والعاطفةُ الفنية لا تُخدَم بالاداة العلمية فحسب . بل تُكمَّل أيضاً . إن على الحُلم أن يحسِب . والفن . الذي هو الفاتح . يجب ان يتخذ من العلم . الذي هو المحرك . نقطة ارتكاز له . إن صلابة المطية شيء هام . والروح الحديثة هي عبقرية اليونان متخذةً من عبقرية الهند عربةً لها . إنها الاسكندر على متن فيل .

ان الامم التي تحجرت في العقيدة أو التي افسدها الربح ليست اهلا لأن تقود الحضارة . والسجود للصنم أو للدينار يوقع الهزال في العضلة التي تمشي . والارادة التي تمضي . والاستغراق الكهنوتي أو التجاري ينقص من اشعاع الشعب . ويخفض من افقه من طريق خفض مستواه . ويحرمه ذكاء الهدف الشامل ذاك . الانساني والالـهي في وقت معاً . الذي ينشيء الأمم المبشِّرة . إن بابل ليس لها مثل أعلى . وقرطاجة ليس لها مثل أعلى . أما اثينا وروما فأن لهما ؛ حتى خلال ظلام القرون الكثيف كله . هالات من الحضارة ؛ وانهما لتحتفظان بهذه الهالات .

وفرنسة تنتمي إلى نوع الشعوب نفسه الذي تنتمي اليه بلاد اليونان وايطالية . إنها أثينية بما هو جميل . ورومانية بما هو عظيم . وإلى هذا . فأنها خيرة . إنها تهَب ذاتها . وهي أعلق بروح التفاني والتضحية من الشعوب الأخرى . بيد ان هذه الروح تستحوذ عليها وتتخلى عنها . وهنا يكمن الخطر العظيم على اولئك الذين يركضون حين ترغب في ان تمشي . أو الذين يمشون حين ترغب في أن تقف . إن لفرنسة نكساتها نحو النزعة المادية . وفي بعض اللحظات نرى الافكار التي تسد ذلك العقل الرفيع وقد فقدت كل ما يذكّر بالعظمة الفرنسية . وان لها لمساحة كمساحة ميسوري أو كارولينا الجنوبية . ما الذي ينبغي أن يُصنع ؟ ان العملاقة لتمثل دور القزمة . إن لفرنسة اللانهائية أوهامها الاطفالية . هذا كل ما هنالك .

وليس ثمة ما يمكن أن يقال في هذا الصدد . فللشعب . كما

للكوكب ، الحق في الكسوف . وكل شيء حسن ، شرط ان يعـود الضياء . وان لا يفسد الكسوف وينقلب إلى ليل . إن الضحى والانتفاضة مترادفان . وعودة ظهور الضياء مماثلة لبقاء الأنا .

فلننصّ على هـذه الوقائـع في هـدوء . إن الموت في المتراس . أو الرمس في المنفى . بديلان مقبولان عن التفاني وبذل الذات . ان الاسم الحقيقي للتفانـي هو النزاهة . دع المتخلي عنهم ينقادون للتخلي . والمنفيين يخضعون للنفي . ولنقنع بان نتوسل إلى الشعوب الكبرى ان لا تتراجع — حين تتراجع — مسافات بعيدة جداً . يجب عليها ان لا توغل في الانحدار بحجة العودة إلى العقل .

المادة موجودة . واللحظة موجودة . والمصالح موجودة . والبطـن موجود . ولكن البطن ينبغي ان لا يكون هو الحكمة الوحيدة . إن للحياة الموقتة حقوقها . ونحن نسلّم بذلك . ولكن للحياة السرمديـة حقوقها ايضاً . وا أسفاه ! إن الارتقاء لا يحول دون السقوط . نحـن نرى ذلك في التاريـخ أكثر مما نود . تتوشح أمة بالمجد ؛ وتتذوق المثل الأعلى ، ثم تتمرغ في الحمأة . وتجدها سائغة ؛ وإذا ما سألنا لـمـاذا تستبدل فالـستاف * بسقراط اجابتنا : « لأنـي أحب رجال السياسة. »

بقي ان نقول كلمة قبل ان نعود إلى المعترك .

إن معركـة مثل هذه التي نصفها الآن ليست غير حركـة تشنجيـة نحو المثل الأعلى . والتقدم المصفّد عرضة للمرض . وان له ضـــروب الصرع الفاجعة هذه . وقد قدِّر لنا ان نلتقي في طريقنا بداء التقدم هذا : الحرب الاهلية . انها وجه مشؤوم — وجه هو في آن معاً فصل وفترة بين فصلين — من وجوه هذه المأساة التي محورها منبوذ اجتماعي . والتي عنوانها : التقدم .

---

* Falstaff ضابط وسياسي انكليزي جعل منه شكسبير في بعض مسرحياته نموذجاً للرجل الداعر الخالع العذار (حوالى ١٣٧٨ — ١٤٥٩) .

التقدم !

هذه الصيحة التي كثيراً ما نطلقها هي تفكيرنا كله . وفي المرحلة الحاضرة من مأساتنا نحسب ان من الجائز لنا — ما دام في الفكرة التي تنطوي عليها اكثر من محنة ينبغي ان نُخضع لها — لا ان نرفع الحجاب عن وجهها ، بل ان نجعل النور يشرق ، في وضوح . من خلالها على الاقل .

ان الكتاب الواقع في هذه اللحظة تحت نظر القارىء هو — من ألفه إلى يائه . في جملته وتفصيله . مهما تكن التقطعات والاستثناءات ونواحي الضعف — الانتقالُ من الشر إلى الخير . من الظلم إلى العدل . من الباطل إلى الحق ، من الليل إلى النهار . من الشهوة إلى الضمير . من العفونة إلى الحياة ، من البهيمية إلى الواجب ، من الجحيم إلى الجنة ، من العدم إلى الله . نقطة الانطلاق : المادة . الهدف : النفس . افعى هيدرية في البداية ؛ ملاك في النهاية .

٢١
الأبطال

وفجأة اعلنت الطبول بدء العمليات الحربية .

كان الهجوم أشبه بالزوبعة . ففي المساء ، تحت جنح الظلام ، كانت القوات الحكومية قد اقتربت من المتراس . في صمت ، وكأنها البوّاء * . أما الآن . في وضح النهار ، وعلى قارعة الطريق العريضة ، فقد كانت المباغتة مستحيلة بالكلية . وفوق هذا ، فقد كانت القوى الفاعلة حاسرة قناعها ، وكان المدفع قد شرع في التهدار ، وكان الجيش قد هجم على المتراس . كان الهياج الآن هو البراعة . لقد اندفعت في

* هي الحية المعروفة باللغات الاجنبية بال boa

الشارع ، بخطى سريعة . فرقة من سلاح المشاة يفصل ما بين جنودها في فترات متساوية رجال من الحرس الوطني والحرس البلدي عاـــى أقدامهم . وتدعمها جماعات كثيفة تُسمع ولكنها لا تُرى . وقُرعت الطبول . وضجت الابواق . وسُددت الحراب . وسار الاطفائيون في المقدمة . وانقضّت هذه القوات . ثابتة الجنان . على المتراس بمثل ثقل عمود برونزي ينقضّ على جدار .

وصمد الجدار .

وأطلق المتمردون النار في حميّة . وكان المتراس وقد تسوره المغيرون أشبه بعُفْرة من بروق . وكان الهجوم خاطفاً إلى درجة جعلت المتراس يغصّ لحظة بالمغيرين ، ولكنه زلزلَ الجند كما يزلزل الاسد الكلاب . وغُطي بالمحاصرين ولكن كما يُغطى الجُرف بالزبد لكي يعود بعد لحظة إلى الظهور شديد الانحدار . أسود ، رهيباً .

وإذا كانت فرقة المشاة قد اضطرت إلى التراجع إلا أنها ظلت متراصة في الشارع ، بلا ستر أو غطاء ، ولكنها فظيعة ، وردت على المتراس بوابل مروّع من نيران البنادق . وكل من رأى الالعاب النارية يوماً يذكر تلك الحزمة التي تتألف من تشبيك بعض الصواعق . والتي تدعى الباقة . تخيل الباقة ، وقد غدت الآن أفقية لا عمودية ، حاملةً كُرة مدفعية ، أو رصاصة ضخمة ، أو قذيفة عند نهاية كل نفثة من نفثات نارها . وموزعةً الموت بعناقيد رعودها . كان المتراس تحتها .

وفي كلتا الناحيتين كانت عزيمةٌ متكافئة . كان ثمة بطولة تكاد تكون بربرية . وكانت ممتزجة بضرب من الضراوة البطولية التي بدأت بالتضحية بنفسها . تلك كانت الايام التي قاتل فيها رجال الحرس الوطني مثـــل الجنود الفرنسيين في الجزائر . كانت القوات الحكومية تريد ان تضـــع حداً للحركـــة الثورية ، وكانت الحركة الثورية تريد ان تناضل . إن قبول الموت في ريعان الشباب وفي أوج الصحة يجعل من البسالة خبالا . لقـــد

استشعر كل امرىء في ذلك المعترك التضخيمَ الذي تحدثه الساعة الحاسمة .
كان الشارع مغطى بالجثث .

كان آنجولراس في طرف من المتراس . وكان ماريوس في الطرف الآخر . وكان آنجولراس . الذي حمل المتراس كله على رأسه . يدخر نفسه ويجنبها موارد التلف . ولقد سقط ثلاثة جنود . الواحد تلو الآخر ، تحت مرتفعه . ومن غير ان يلمحوه مجرد لمح . أما ماريوس فقاتل من غير ستر . لقد جعل من نفسه هدفاً . فقد وقف مبرزاً أكثر من نصف قامته فوق قمة المتراس . والواقع انه ليس ثمة مبذر أعنف من بخيـل يركب رأسه . وليس ثمـة رجــل اكثر ترويعاً عند العمل من حالم من الحالمين . ولقد كان ماريوس فظيعاً ومستغرقاً في التفكير . كان في المعركة وكأنه في حُلم . ولو قد رآه المرء اذن لحسبه طيفاً يطلق النار من بندقية .

كانت خراطيش المحاصَرين على وشك ان تنفد ، ولكن سخرياتهم لم تكن كذلك . ففي زوبعة الموت التي احاطت بهم كانوا يضحكون .

كان كورفيراك حاسر الرأس .

وسأله بوسوويه :

— « ماذا فعلت بقبعتك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

— « لقد أطاروها آخر الأمر بقذيفة من قذائف المدفعية . »

او كانوا يقولون اشياء متكبرة .

لقد هتف فويي في مرارة :

— « هل يفهم احد هؤلاء الرجال (وذكرَ اسماء ، اسماء معروفة ، بل مشهورة . وبعضها من رجــال الجيش القديم) الذين وعدوا بالانضمام الينا . واخذوا على انفسهم عهداً بأن يساعدونا ، والذين اقسموا على ذلك بشرفهم ، والذين هم قادتنا . والذين تخلوا عنا ! »

فأجابه كورفيراك في ابتسامة رصينة :

ـــ « ان ثمــة اناساً يراعون قواعد الشرف كما نراعي النجوم ، من مكان بعيد جداً . »

كان الجزء الداخلي مزروعاً بالخراطيش الممزقة إلى درجة يخيل معها إلى المرء ان السماء كانت تثلج .

كان للمغيرين تفوّق في العدد ، وكان للمتمردين تفوق في الموقــع : كانوا عند أعلى الجدار يمطرون الجنود بنيران منطلقة من انابيب بنادقهم، فيما كانوا يترنحون فوق القتلى والجرحى وقد سقطوا في الشرك عنـــد منحدر السور . كان هذا المتراس ـــ على النحو الذي شُيد عليه ، وقد سُنِّد تسنيداً رائعاً ـــ واحداً من تلك المواقع التي تعطل فيها حفنةٌ من الرجال فرقــة كاملة عن العمل . ومع ذلك ، فقد كان سلاح المشـــاة المهاجم يزوَّد دائماً بأمداد جديدة ويتضخم تحت وابل الرصاص ، وكان يتقدم في غير ما رحمة . واخيراً هصر الجيش المتراسَ . شيئاً فشيئاً ، وخطوة خطوة ، ولكن في ثقـــة ، كمـــا يهصر الاوابُ معصـــرة العنـــب .

وتبــع الهجومُ الهجومَ . وتعاظم الهول على نحو موصول .

ثم نشب ، فوق ركام حجارة الارصفة هذا ، في شـــارع الـ « شانفريري » ذاك ، صراع جدير بأسوار طروادة . لقد غدا هـــؤلاء الرجال الشاحبو الوجوه ، الممزقو الثياب ، المنهوكو القوى ، الذين لم يأكلوا منذ اربــع وعشرين ساعة ، والذين لم يذوقوا طعم النوم ، والذين لم يبق لديهم غير بضع رصاصات يطلقونها ، والذين تحسسوا جيوبهم الفارغة من الخراطيش ، والذين كانوا كلهم جرحى تقريباً ، وقد عُصبت رؤوسهم أو أذرعهم بقماش صدىء مسودّ ، وتبدّت الثقوب في ستراتهم حيث كان الدم يتدفق ، والذين كانوا مسلحين بشق النفس ببنادق رديئة وسيوف عتيقة مثلمة ـــ لقد غدا هؤلاء الرجال عمالقة . لقـــد

هوجم المتراس . وشُنت عليه الغارة . وتُسوِّر عشر مرات . ولكنه لم يسقط قط .

ولكي تكوّن فكرة عن هذا الصراع ، تخيّلِ النار وقد أضرِم بها ركام من البسالة الفظيعة ، وتخيل انك تشهد الحريق . إنه لم يكن قتالا ، لقد كان باطنَ تنور . هناك تنفست الافواه لهباً ؛ هناك كانت الوجوه رائعة . هناك بدا الشكل الانساني مستحيلا ؛ هناك تلألأ المقاتلون ، وكان من المتعذر عليك ان ترى سمندرات * المعترك هذه تروح وتجيء في ذلك الدخان الأحمر . اما مشاهد هذه المذبحة العظيمة فنحجم عن تصويرها . إن للملحمة وحدها الحق في ان تملأ اثني عشر الف بيت من الشعر بوصف معركة واحدة .

كان خليقاً بالمرء ان يقول انها كانت جحيم البرهمية . أفظع الهُوَى السبع عشرة ، التي يطلق عليها الـ « فيدا » اسم « غابة السيوف . »

لقد قاتلوا صدراً لصدر ، وقدماً لقدم ، بالغدارات ، بالسيوف ، بجمع الكف ، عن بعد ، وعن كثب ، من فوق ، ومن تحت ، من كل مكان ، من سطوح المنزل ، من نوافذ الحانة ، من كوى الاقبية التي كان بعضهم قد انزلق اليها . كانوا واحداً ضد ستين . وكانت واجهة كورنث ، نصف المدمرة ، رهيبة جداً . كانت النافذة التي وشّمتها القذائف قد فقدت الواحها الزجاجية وأطُرها . فهي الآن لا تعدو ان تكون ثقباً شائهاً سدته حجارة الارصفة على نحو مشوش . كان بوسوويه قد قُتل ؛ وكان فويي قد قتل ؛ وكان كورفيراك قد قتل ؛ وكان جولي قد قتل ؛ ولم يكن امام كومبوفير ، الذي اخترقت صدره طعنات حراب ثلاثٌ لحظةَ كان يرفع جندياً جريحاً — لم يكن امام كومبوفير غير متسع من الوقت نظر فيه إلى السماء ، ولفظ أنفاسه .

---

* جمع سمندر Salamandre وهو ضرب من الضفدعيات المذنّبة ، يقال ان له القدرة على اجتياز النيران من غير ان يحترق ...

وكان ماريوس ، المقيم على القتال ، مثخناً بالجراح ، وبخاصة حول رأسه ، إلى درجة جعلت محياه يضيع في الدم ، وإلى درجة كانت تخيل إلى المرء ان وجهه قد غُطي بمنديل أحمر .

كان آنجولراس وحده سليماً لم يمس . وحين اعوزه السلاح بسط يده يميناً وشمالا ، وقد وضع احد المتمردين ايما سلاح وُفق اليه في قبضته . لم يكن قد بقي لديه ، من أصل اربعة سيوف ، (اكثر من فرانسوا الاول في ماريغيان بواحد) غير فلذة من سيف .

يقول هوميروس : « ان ديوميد يذبح آكسيلوس ، ابن توثرانيس ، الذي يقطن في آريسبا السعيدة ، ويهلك اوريالوس ، ابن ميسيسته ، دريسوس وأوفيلتيوس ، وايسيبوس ، وبيداسوس ذاك الذي حبلت به عروس الماء آباربارية من بوكوليون الذي لا يُقهر . ويوليسيس يخلع بيديت دو بيركوس ، وآنتيلوخوس يخلع آبليروس ، وبوليبيتيس يخلع آستييالوس ، وبوليداماس يخلع اوتوس دو سيلين ، وتوسر يخلع آريتاوُن . ويقضي ميغانتيوس تحت طعنات حربة يوريبيلوس . ويهزم آغاممنون ، ملكُ الابطال ، ايلاتوس المولود في المدينة الوعرة المنحدر التي يغسلها نهر ساتنيو المرنان . » ففي قصائدنا الفخرية القديمة يهاجم اسبلانديان بنار ذات حدين المركيزَ العملاق سوانتيبور فيما كان يدافع عن نفسه برجم الفارس بحجارة ضخام كان يقتلعها من الابراج . ولوحاتنا الجدرانية القديمة ترينا دوقَيْ بروتانْي وبوربون مسلحين ، دارعين ، موسومين بسمة الحرب ، ممتطيين فرسيهما ، متواجهين ، وفي يد كل منهما فأس حربية ، متقنّعين بالحديد ، منتعلين بالحديد ، متقفّزين بالحديد ، احدهما مجلل بفرو السمور الابيض والآخر متشح باللازورد ، بروتانْي وقد تراءى أسده بين قرني تاجه ، وبوربون وقد تبدت زنبقة هائلة على حافة خوذته ؛ ولكن ليس من الضروري لكي يكون المرء بهياً ان يعتمر مثل إيفون *

* Adolphe Yvon رسام عسكري فرنسي تمور لوحاته بالحركة . (١٨١٧ – ١٨٩٣

بالخوذة الدوقية ، أو ان يقبض مثل ايسبلانديان على شعلة حية . أو أن يجلب من ايفير . مثل فيليس . ابي بوليداماس * . درعاً رائعة هدية من ملك الرجال اوفيتيس . حسبه ان يبذل حياته في سبيل معتقد ما أو ولاء ما . وذلك الجندي الساذج الصغير . الذي كان بالامس فلاحاً من بوسيا أو ليموزين ، والذي يطوّف بالليل ، ومدية الكرنب إلى جانبه ، حول مربيات الاطفال في اللوكسومبورغ ، وذلك الطالب الفتى الشاحب الوجه المنحني فوق قطعة تشريحية أو كتاب ، المراهق الاشقر الذي يشذب لحيته بالمقص ، خذهما معاً ، وانفخ عليهما نفخة الواجب ، وضعهما على نحو متقابل في ساحة « بوشيرا » أو زقاق « بلانش ميبراي » غير النافذ ، ودع احدهما يقاتل من أجل رايته ، والآخر من اجل مثله الأعلى ، ودعهما كليهما يتخيلان انهما يحاربان في سبيل الوطن ؛ ان الصراع سوف يكون جباراً ، والظل الذي سوف يلقى على ذلك الميدان الملحمي الكبير حيث تناضل الانسانية ، وقد تقاتلت السترة الزرقاء والمئزر الطبي ، سوف يساوي الظل الذي يلقيه ميغاريون ، ملك ليسيا المليئة بالنمور ، المتصارع جسداً لجسد مع آجاكس ** ، الهائل ، المساوي للآلهة .

٢٢
قدماً لقدم

وحين لم يبق احد من الزعماء حياً ، باستثناء آنجولراس وماريوس ،

ومن أشهر آثاره « المارشال ناي في تراجعه من روسيا » .

* Polydamas رياضي تسالي ذو قوة اعجوبية . وقد توفي وهو يحاول ان يسند صخرة ضخمة تدحرجت من مغارة فسحقته سحقاً .

** Ajax احد الابطال اليونانيين في حرب طروادة .

اللذين كانا في طرفي المتراس . تداعى الوسط الذي كان كورفيراك ، وجولي ، وبوسوويه ، وفويي ، وكومبوفير قد دافعوا عنه طويلا . وكانت المدفعية قد جوفت ، من غير ان تحدث ثغرة سالكة ، قلبَ المتراس تجويفاً كبيراً . هناك ، كانت قمة السور قد اختفت تحت القذائف ، وانهارت . وكانت الانقاض المنهارة ، في الداخل حيناً وفي الخارج حيناً ، قد أحدثت آخر الأمر ، بعد ان تراكمت على جانبي السور ، شبه منحدرين ، احدهما في الداخل والآخر في الخارج . وكان المنحدر الخارجي بمثابة سطح منحنٍ يجعل الهجوم على المتراس يسيراً .

وقام المغيرون بهجوم أخير ، وتكلل ذلك الهجوم بالنجاح . لقد اندفعوا شائكين بالحراب ، في خطوات خاطفة ، اندفاعاً لا يقاوَم ، وبدت جبهة المهاجِمين الكثيفةُ وسط الدخان عند أعلى منحدر السور . لقد قضي الأمر ، هذه المرة . لقد تراجع جمْع المتمردين المدافع عن الوسط تراجعاً فوضوياً .

ثم استيقظ حب الحياة الكالح في بعضهم . إن كثيراً منهم انتهوا الآن ، وقد سُددت اليهم غابة البنادق تلك ، إلى ان ينفروا من الموت . تلك لحظة تعوي فيها غريزة حفظ الذات ، ويعاود الحيوان الظهورَ في الانسان . لقد حُجزوا عند المنزل العالي ذي الأدوار الستة الذي شكّل مؤخرة المتراس . ولعله كان في ذلك المنزل خلاصهم . فقد كان هذا المتراس ممترساً ، شبه مسوّر من أعلى إلى أدنى . وقبل ان يصبح في ميسور الجند المهاجمين ان يبلغوا الجزء الداخلي من المتراس كان ثمة متسع من الوقت لانفتاح باب وانغلاقه . وكانت ومضةٌ كافيةً لذلك ؛ ولقد كان باب ذلك المنزل المنفتح نصف فتحة والمنغلق في الحال كرة اخرى ، بمثابة الحياة بالنسبة إلى هؤلاء الرجال اليائسين . في مؤخرة ذلك المنزل كانت الشوارع ، والفرار الميسور ، والفضاء . وشرعوا

يقرعون هذا الباب باعقاب بنادقهم ، وبرفسات أرجلهم ، منـــادين ، صائحين ، متوسلين ، مشبّكين أيديهم . ولم يفتح احد . ومن نافذة الدور الثالث اطل عليهم رأس الموت .

ولكن آنجولراس وماريوس ، وسبعة أو ثمانية متحلقين حولهما ، وثبوا إلى الامام وحموَهم . وصاح آنجولراس في وجـه الجنــود : « لا تتقدموا ! » حتى إذا امتنع أحد الضباط عن الاذعان ، قتلــه آنجولراس . كان الآن في فناء المتراس الداخلي الصغير ، مولياً ظهره بيتَ كورنث ، شاهراً سيفه بأحدى يديه ، مسدداً بندقيته القصيرة الخفيفة بالاخرى ، مبقياً باب الحانة مفتوحاً ، ساداً إياه في الوقت نفسه في وجه المغيرين . وصاح مخاطباً اليائسين : « ليس ثمـة غير باب واحد مفتوح . وهو هذا . » وغطاهم بجسده ، مواجهاً بمفرده كتيبة بكاملها . ومكنهم من المرور خلفه . واندفعوا كلهم إلى هناك . واختزل آنجولراس — فيما هو ينفّذ ببندقيته القصيرة الخفيفة ، التي استعملها الآن وكأنها عصاً ، ما يدعوه لاعبو النبابيت « الوردة المغطاة » — اختزل الحرابَ من حوله وأمامــه وكان آخر الداخلين . وكانت لحظةً رهيبة . فالجنود يحاولون ان يدخلوا ، والمتمردون يريدون أن يوصدوا الباب . لقد أغلقَ الباب في كثير من العنف حتى إنــه حين ارتــد إلى إطــاره ابـــدى عـــن أصابعَ خمسٍ مقطوعــة ملتصقة بالاطار — اصابع جندي كان قــد تشبث به .

وظل ماريوس في الخارج . كانت قذيفةٌ قد كسرت ترقوَته ، ولقد استشعر انه على وشك الاغماء ، وانه يشرف على السقوط . وفي تلك اللحظة ، وكانت عيناه قد أغمضتا — أحسّ وكأن يداً قوية تمسك به . ولم يُبق له اغماؤه الذي افقده وعيه غير متسع من الوقت لهذه الفكرة ، ممزوجةً بآخر ذكرى لكوزيت : « لقد وقعتُ في الاسر . ســوف يقتلونني رمياً بالرصاص . »

وراودت الفكرة نفسها آنجولراس حين لم ير ماريوس بين اولئك الذين لجأوا إلى الحانة . ولكنهم كانوا قد انتهوا إلى تلك اللحظة التي لا يجد فيها كل منهم متسعاً لغير التفكير في ميتته هو . وثبّت آنجولراس رتاج الباب ودعّمه بالحديد ، وأغلقه بأن أقفل الغلق والقفل على نحو مزدوج ، فيما كانوا يخفقونه في الخارج خفقاً رهيباً — الجنود بأعقاب بنادقهم ، والطلائع بفؤوسهم . لقد احتشد المغيرون عند هذا الباب . كان حصار الحانة قد بدأ الآن .

كان الجنود ، ولنقل ذلك ، مفعمين بالغضب .

كانت وفاة رقيب المدفعية قد اثارت غيظهم . وفوق هذا — وذلك شيء اشد شؤماً — فقد كان قد سرى في أوساطهم ، خلال الساعات القليلة التي سبقت الهجوم ، ان المتمردين يمثّلون بالاسرى ، وانه كانت في الحانة جثة جندي احتُز رأسه . وهذا الضرب من الاشاعات هو المرافق العادي للحروب الاهلية ، وان مثل هذه الاخبار الكاذبة هي التي سببت في ما بعد كارثة شارع ترانسنونين * .

وحين متُرس الباب ، قال آنجولراس لرفاقه :

— « فلنبع انفسنا بثمن غال . »

ثم تقدم نحو المائدة التي سجي عليها مابوف وغافروش . كان في ميسور المرء ان يرى ، تحت الغطاء الاسود ، شكلين مستقيمين متصلبين ، احدهما كبير والآخر صغير . وقد ارتسم الوجهان على نحو غامض تحت ثنايا الكفن الكالحة . لقد نتأت يد من تحت الكفن . وتدلت نحو ارض

* مذابح شارع ترانسنونين Transnonain ، وقد وقعت في ١٤ نيسان ١٨٣٤ اثناء الثورة التي انفجرت في باريس في حي سان ميري . وتفصيل ذلك ان الجنود اقبلوا لتقويض متراس شارع ترانسنونين فاطلقت عليهم النار من المنزل رقم ١٢ في ذلك الشارع فجرحت ضابطاً . فما كان من الجند الغاضبين الا ان اجتاحوا ذلك البيت وذبحوا كل من فيه .

الغرفة . كانت يدَ الرجل العجوز .

وانحنى آنجولراس وقبّل تلك اليد الجليلة . كما قد قبّل البارحة جبين الرجل .

كانت همـا القبلتين الوحيدتين اللتين طبعهما في حياته كلها .

فلنختصر . كان المتراس قد ناضل مثل باب من ابواب ثيبة . * وناضلت الحانة مثل بيت من بيوت سرقسطة ** . ان هذه المقاومات لضارية . لا صفح . لا تفاوض ممكناً . إنهم راغبون في الموت شرط ان يَقتلوا . وحين يقول سوشيه *** : « استسلموا ! » يجيبه بالافوكس**** « بعد حرب المدفع حرب السكين ! » لم يكن ثمة ما يعوز اقتحـــام حانة هوشلو . لا حجارة الارصفة المنهمرة من النافذة والسطح علـى رؤوس المغيرين مثيرة حنق الجنود بما احدثت من سحق رهيب . ولا طلقات الرصاص من الاقبية ومن كوى العلية ، ولا احتدام الهجوم ، ولا سَورة الدفاع ، ولا جنون الافناء المسعور . آخر الامر ، عندمـــا اقتُحم الباب . وحين اندفع المغيرون إلى الحانة ، وقد تعثرت اقدامهم بالواح الباب الخشبية المحطمة المتناثرة على الارض . لم يجدوا اىما مقاتل هناك . كانت السلم اللولبية التي بُترت بضربة فأس منطرحة وسط الغرفة السفلى ، وكان بعض الجرحى قد لفظوا أنفاسهم منذ لحظة . وكان جميع الذين لم يقتلوا معتصمين في الدور الاول . وهناك . من خلال الثقب

---

* Thèbes من مدن مصر القديمة ومن اشهر مدن العالم القديم ، وكانوا يطلقون عليها لقب « المدينة ذات الابواب المئة

** مدينة اسبانية معروفة ، وقد قاومت الفرنسيين في ضراوة فائقة وصمدت لحصارهم من حزيران ١٨٠٨ إلى ١٩ شباط ١٨٠٩

*** Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ – ١٨٢٦) وقد لمع نجمه في حروب اسبانية .

**** Palafox دوق سرقسطة ، وقد ابلى بلاء حسناً في الدفاع عن هذه المدينة ضد الفرنسيين عام ١٨٠٩ (١٧٨٠ – ١٨٤٧)

الذي في السقف والذي كان هو المدخل إلى السلم . انفجرت طلقات نار رهيبة . كانت البقيةَ الباقية من الخراطيش . حتى إذا نفدت . وحتى إذا لم يبق لدى هؤلاء الرجال المحتضرين الراعبين لا بارود ولا رصاص . تناول كل منهم اثنتين من تلك الزجاجات التي احتفظ بها آنجولراس . والتي تحدثنا عنها من قبل . ودافعوا عن المطلع بهذه النبابيت السريعة الانكسار على نحو رهيب . كانت زجاجات ملأى بماء الفضة . ونحن إنما نروي وقائع هذه المجزرة كما هي . فقد اتخذ المحاصرون — وا أسفاه — سلاحاً من كل شيء . والنار الاغريقية لم تَشِن ارخميدس ، والقطران الفائر لم يشن بايار * . إن الحرب رعبٌ كلها . وليس ثمة ما يُختار فيها . إن نار المحاصرين . على الرغم من صعوبتها ومن صعودها من ادنى إلى أعلى . كانت مهلكة . وما هي إلا لحظات حتى أحيطت حافة الثقب الذي في السطح برؤوس القتلى وقد سالت منها خطوط طويلة حمراء داخنة . كانت القرقعة ممتنعة على الوصف . وأحدث الدخان المحبوس المتقد شبه ليل فوق هذا الصراع . وإنما تعجز الكلمات عن الهول حين ينتهي إلى هذه الدرجة . لم يعد ثمة رجال في هذا الكفاح الذي غدا الآن جحيماً . لم يبق ثمة عمالقة ضد مردة . كان أشبه بميلتون ودانتي منه بهوميروس . لقد هاجمت ابالسةٌ . ودافعت اشباح . كانت بطولةَ الهولات .

---

* Bayard قائد فرنسي شهير سطع نجمه اثناء حروب شارل الثامن ، ولويس الثاني عشر ، وفرنسوا الأول (١٤٧٣ - ١٥٢٤)

٢٣

أوريست * صائماً وبيلاد * سكران

واخيراً شُنت الحملة على حجرة الدور الأول ، شنها نحو من عشرين محاصراً — جنوداً ، وحرساً وطنياً ، وحرساً بلدياً — وثب بعضهم فوق اكتاف بعض ، مستعينين بهيكل السلم ، متسورين الجدران ، متعلقين بالسقف ، مقطّعين آخر المقاومين إرباً إرباً ، متفرقين في هرجٍ ومرج ، مشوَّهاً اكثرهم بجرح في الوجه في هذا الصعود الرهيب ، مروِّعين أعماهم الدم وانقلبوا إلى وحوش ضارية . لم يكن ثمة ، الآن ، غير رجل واحد قائم على قدميه : آنجولراس . وإذ أعوزه الخرطوش ، واعوزه سيف يقاتل به ، فلم يبق في يده غير أنبوب بندقيته القصيرة الخفيفة التي كان قد كسر القسم المعوج من خشبتها فوق رؤوس الداخلين . كان قد وضع مائدة البليارد بينه وبين المغيرين . وكان قد ارتد إلى زاوية الغرفة ، وهناك ، بعينٍ فخور ، ورأس شامخ ، وفي قبضته تلك الشظية من السلاح ، كان لا يزال رهيباً إلى درجة تركت من حوله فسحة واسعة . وارتفعت صيحة :

— « هوذا الزعيم ! إنه هو الذي قتل المدفعي . وما دام قد وضع نفسه هناك فلا ريب في انه مكان جيد . فليبق هناك . ولنطلق عليه الرصاص حيث هو . »

وقال آنجولراس :

— « اطلقوا النار علي ! »

---

* Oreste ابن آغاممنون وكليتمنستر . وقد قتل أمه بالاتفاق مع اخيه ايلكترا اخذاً بثأر ابيه ، ثم امسى ملكاً على آرغوس ولاسيديمون . وكانت تربطه بـ « بيلاد » Pilade صداقة لا تزال الى اليوم مضرب المثل .

وطرح البقية الباقية من بندقيته الخفيفة القصيرة ، وطوى ذراعيه ، وفتح لهم صدره .

إن الجسارة التي تحمل صاحبها على ان يموت عزيزاً تحرك لواعج الرجال دائماً . فما ان طوى آنجولراس ذراعيه ، مرتضياً النهاية ، حتى خفت هدير الصراع في الغرفة ، وهدأت الفوضى فجأة في ضرب من الخشوع القبريّ . لقد بدا وكأن عظمة آنجولراس المتوعدة ، آنجولراس الأعزل الذي لا حراك فيه ، قد رزحت فوق ذلك الصخب. وبدا وكأن هذا الشاب الذي كان وحده خلواً من الجراح . بهياً ، مدمّى ، فاتناً ، لا مبالياً وكأنه ممتنع على الجراح – بدا وكأنه استطاع بسلطان عينه الهادئة وحده أن يُكره هذا الجمع المشؤوم على ان يقتله في احترام . إن جماله في تلك اللحظة ، وقد زادته كبرياؤه روعة ، كان بهاء متألقاً . كان نضراً أزهر . وكأنما امتنع على التعب كما امتنع على الجَرح . بعد الساعات الاربع والعشرين المروِّعة التي أوشكت ان تنقضي . ولعل ذلك الشاهد الذي تحدّث بعد ذلك أمام المجلس الحربي كان يقصده حين قال : «كان هناك ثائر سمعتهم ينادونه أبولو . » وخفض احد رجال الحرس الوطني المسدد بندقيته إلى آنجولراس – خفض سلاحه قائلا : « يبدو لي اني اطلق النار على زهرة . »

وشكّل اثنا عشر رجلا مفرزة في الزاوية المقابلة لآنجولراس ، وأعدوا بنادقهم في صمت .

وصاح رقيب :

– « سددوا بنادقكم ! »

وتدخّل ضابط :

– « إنتظر ! »

ووجّه الخطاب إلى آنجولراس فقال :

— « هل تريد ان تُعصب عيناك ؟ »
— « لا . »
— « هل صحيـح أنك انت الذي صرعت رقيب المدفعية ؟ »
— « نعم . »
وكان غرانتير قد استفاق منذ بضع دقائق .

ويذكر القاريء ان غرانتير كان قـد استسلم للرقاد منذ الليلة الماضية في الحجرة العليا من الحانة ، وانه كان جالساً على كرسي ، مكباً على وجهه فوق احدى الموائد .

لقد تمثلت فيه بكامل قوتها الصورةُ المجازية العتيقة : « سكـران ميت » . كان الشراب الرهيب ، المؤلف من كحول وأفسنتين وستوت ، قد قذف به في سبات عميق . واذ كانت طاولته صغيرة لا حاجـة للمتراس بها ، فقد تركوها له . وكان قد اقام على وضعه نفسه ، مطوي الصدر على الطاولة ، ملقى الرأس على ذراعيه ، محاطاً بالكؤوس والأباريق والزجاجات . لقد نام ذلك النوم الماحق الذي نعرفه من الدب الـذي أقرسه البرد ومن العلقة المتخمة . إن شيئاً ما لم يكن قادراً على التأثير فيه ، لا رصاص البنادق ، ولا كرات المدافع ، ولا القذائف التي مرقت من خلال النافذة إلى الغرفة التي كان فيها . بل لقد عجزت ضوضاء الهجوم العجيبة عن ان تؤثر فيه . بيد انه كان يستجيب في بعض الاحيان لدوي المدافع بشخرة . لقد بدا وكأنه ينتظر هناك أن تُقبل قذيفة فتكفيه مؤونة الاستيقاظ . كانت عدة جثث منطرحة حوله . ولاول وهلة لم يكن ثمة ما يميزه عن نائمي الموت المستغرقين هؤلاء .

إن الضجة لا توقظ السكران ، الصمت يوقظه . وهذه الفريدة قد لوحظت غير مرة . كان سقوط الاشياء كلها ، من حول غرانتير ، يضاعف تلاشيه . كان الدمار يهدهده . وكان ذلك الضرب من التوقف الذي الم بالصخب أمام آنجولراس صدمةً لنومه العميق . لكأنه عربة

منطلقة حُملت على الوقوف فجأة . إن النائمين ليفيقون من جراء ذلك . ونهض غرانتير مجفلا ، وبسط ذراعيه ، وفرك عينيه ، ونظر ، وتثاءب، وفهــم .

ان الثمَل الذي ينتهي اشبه بستار يمزق . اننا نرى ، على نحو إجمالي وبنظرة واحدة ، كل ما كان محجوباً . ويتمثل كل شيء ، فجأة ، في الذاكرة . وما ان يفتح السكير عينيه — السكير الذي لم يعرف شيئاً مما جرى طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يلمّ بكل ما حدث . إن افكاره لتعاوده في جلاء مفاجيء . وان فناء الثـمَل — وهو ضرب من البخار الذي يعمي الدماغ — ليتبدد ، وتحل محله انطباعات الواقع الواضحة الدقيقــة .

واذ كان منعزلا في احدى الزوايا ، وشبه ملتجيء خلف مائدة البليارد، فان الجنود المصوبين اعينهم إلى آنجولراس لم يكونوا قد لمحوه مجرد لمح، وكان الرقيب يستعد لتكرير الامر : « سددوا بنادقـكم ! » عندمــا سمعوا فجأة صوتاً قوياً يصيـح إلى جانبهم :

— « فلتحي الجمهورية ! أنا انتسب اليها . »

كان غرانتير قد نهض .

لقد بدا وهج المعركة كلها ، وهج المعركة التي فاتته والتي لم يشهدها، في النظرات الومضة المنطلقة من عيني السكران المنقلب من حال إلى حال. وكرر : « فلتحي الجمهورية ! » واجتاز الغرفة في خطى ثابتة ، ووقف امام البنادق إلى جانب آنجولراس .

وقال :

— « اقتلوا اثنين بطلقة واحدة . »

والتفت إلى آنجولراس ، في رفق ، وقال له :

— « هل تسمح بذلك ؟ »

وضغط آنجولراس على يده في ابتسامة .

ولم تكد الابتسامة تنتهي حتى سمع دوي الانفجار .

وظل آنجولراس ، بعد ان مزقته ثماني رصاصات ، مستنداً إلى الجدار وكأن تلك الرصاصات قد سمرته هناك . كل ما في الأمر انه حنى رأسه.

وصُعق غرانتير ، وخر على قدميه .

وبعد بضع لحظات عمد الجنود إلى اخراج آخر المتمردين الذين كانوا قد اعتصموا في أعلى المنزل . لقد اطلقوا النار من خلال شُباكة خشبية إلى العليّة . وتقاتلوا تحت سقف البناية الأعلى . وألقوا بالجثث من النوافذ ، وبعض اصحابها على قيد الحياة . وقُتل جنديان خفيفا السلاح — فيما كانا يحاولان رفع العربة العمومية المحطمة — برصاصتي بندقيــة قصيرة أطلقتا من الكوى . وطُرح على أم رأسه رجل يرتدي درّاعة ، بطعنة حربة في بطنه ، وانشأ يحشرج على الارض . وانزلق جندي ومتمرد معاً فوق منحدر السطح المقرمد ، وأبى كل منهما ان يفلت الآخــر ، وسقطا ، وقد تعانقا عناقــاً وحشياً . ودار صراع مماثل في القبــو . صيحات ، طلقات نارية ، وطء اقدام ضار . ثم ساد الصمت . لقد استولوا على المتراس .

وشرع الجنود في تفتيش البيوت المجاورة ، وفي تعقب الهاربين .

٢٤
في الأسر

كان ماريوس اسيراً في الواقع . أسيرَ جان فالجان .

كانت اليد التي امسكت به من خلافٍ لحظةَ سقط ، والتي استشعر قبضتها وهو يفقد الوعي ، هي يد جان فالجان .

ولم يقم جان فالجان بايما دور في المعركة غير تعريض نفسه للخطر .

ولولاه ، في تلك المعركة الحاسمة من لحظات الحشرجة ، لما فكر احد بالجرحى . وبفضله ، وكان ماثلا في كل مكان من المجزرة كالعناية الالـٰهية ، تُلُقِّفَ الذين سقطوا ، وحُملوا إلى الحجرة السفلى ، وضُمدت جراحاتهم . وفيما بين الفترة والفترة كان يرمم المتراس . ولكن اياً مما يشبه ضربة ، أو هجمة ، بل وحتى دفاعاً شخصياً ، لم ينطلق من يديه . كان معتصماً بالصمت ، وكان يسدي يد العون . وفوق هذا ، فلم يُصَب بغير خدوش طفيفة . كانت الرصاصات ترغب عنه . وإذا كان الانتحار جزءاً مما خطر له حين وفد إلى ذلك القبر فقد اخفق من هذه الناحية . ولكنا نشك في انه فكر بالانتحار ، وهو عمل مغاير للدين .

ولم يبد جان فالجان ، في سحابة الصراع الكثيفة ، وكأنه رأى ماريوس ؛ ولكن الواقع انه لم يرفع عينيه عنه . حتى إذا طوّح بماريوس طلق ناري ، وثب جان فالجان برشاقة نمر ، وانقض عليه كما ينقض وحش على فريسة ، وحمله إلى بعيد .

كانت زوبعة الهجوم قد تركزت في تلك اللحظة تركزاً ضارياً حول آنجولراس وباب الحانة حتى لقد غفل القوم جميعاً عن رؤية جان فالجان يجتاز حقل المتراس غير المعبد ، حاملا ماريوس الفاقد رشده بين ذراعيه ، ويختفي خلف زاوية بيت كورنث .

ويذكر القراء أن هذه الزاوية كانت ضرباً من الرأس الجغرافي في الشارع . لقد حمت من الرصاص والقذائف المدفعية ، ومن النظر ايضاً ، بضعة اقدام مربعة من الارض . وهكذا فان في الحرائق ، بعض الأحيان ، فسحة تمتنع على النيران ، وان في اشد البحار ضراوة ، خلف احد الرؤوس أو عند نهاية درب من دروب الصخور غير النافذة ، زاوية صغيرة هادئة . وفي هذا الضرب من مطاوي المربّع المنحرف الداخلي من المتراس توفيت ايبونين .

هناك وقف جان فالجان . لقد ترك ماريوس ينزلق إلى الأرض ، واسند ظهره إلى الجدار ، وأجال بصره في ما حوله .

كان الوضع رهيباً .

وطوال لحظة ، أو ربما طوال دقيقتين أو ثلاث ، كانت شقة الحائط تلك ملجأ وملاذاً . ولكن كيف السبيل إلى النجاة من هذه المجزرة ؟ لقد ذكر الالم النفسي المرير الذي ألمّ به في شارع بولونسو ، قبل ثماني سنوات ، وكيف وُفق إلى الفرار . كان ذلك عسيراً آنذاك ، اما اليوم فقد كان متعذراً . فأمامه كان ذلك المنزل الحقود الاصم ذو الطوابق الستة ، والذي بدا غير آهل إلا بذلك الرجل الميت المنحني على نافذته . وإلى يمينه ، كان المتراس المنخفض الذي سد شارع الـ « بيتيت ترووانديري » . لقد بدا اجتياز هذه العقبة يسيراً ، ولكن كان في ميسور المرء أن يرى فوق قمة الجدار صفاً من رؤوس الحراب . كانت سريةٌ من الجند متمركزةٌ خلف ذلك المتراس ، مترصدة . وكان واضحاً ان اجتياز المتراس معناه التعرض لنيران مفرزة من الجند ، وأن كل رأس قد يغامر في الارتفاع فوق أعلى الجدار المشيد من حجارة الارصفة سوف يكون هدفاً لستين بندقية . وإلى يساره ، كان ميدان المعركة . كان الموت خلف زاوية الجدار .

ما الذي ينبغي ان يفعله ؟

كان في ميسور العصفور وحده ان يفلت من هناك .

وكان عليه ان يقرر في الحال ، وان يجد وسيلة ما ، وان يتخذ موقفاً . كانوا يتقاتلون على بضع خطوات منه . ولحسن الطالع ، كان الجميع ملتحمين التحاماً ضارياً عند نقطة واحدة : باب الحانة . ولكن لو خطر لجندي ما ، جندي واحد ، ان يستدير حول المنزل ، أو ان يهاجمه على نحو جانبيّ ، اذن لانتهى كل شيء .

ونظر جان فالجان إلى المنزل المواجه له ، ونظر إلى المتّراس القائم

إلى جانبه ، ثم نظر إلى الارض ، في عنف الشدّة الحاسمة ، وفي يأس، وكأنما كان يريد أن يُحدث فيها ، بعينيه ، ثقباً .

وتحت هذه النظرة الموصولة تمثل شيء ملحوظ على نحو غامض في ألم الاحتضار ذاك ، وتشكّل عند قدميه وكأن ثمة قوة في العين قادرة على انشاء الشيء المطلوب . وعلى بضع خطوات منه ، عند ادنى الجدار الصغير المراقب والمحروس من الخارج على نحو لا يعرف الشفقة ، وتحت بعض حجارة الارصفة المنهارة التي كانت تحجبه جزئياً ، لمح شبكة حديدية منطرحة على الارض . وكانت مساحة هذه الشبكة ، المصنوعة من قضبان حديدية قوية مستعرضة ، تبلغ نحواً من قدمين مربعين . كان الاطار الحجري المحيط بها منزوعاً من مكانه ، وكأنما قد اقتُلع . ومن خلال القضبان كان في ميسور المرء ان يلمح فتحة غامضة ، شيئاً مثل انبوب مدخنة ، أو اسطوانة صهريج . ووثب جان فالجان إلى أمام . وصعد عِلم الهروب القديمُ إلى دماغه مثل ومض البرق . ونزع الحجارة ، ورفع الشبكة الحديدية ، وحمل ماريوس — الذي كان هامداً مثل جثة باردة — على منكبيه ، وهبط — وذلك الحمل على ظهره — مستعيناً بمرفقه وركبتيه إلى ذلك الضرب من البئر ، غير العميقة لحسن الحظ ، وترك ذلك الباب الآسر القوي الذي رُدت الحجارة فوقه إلى مكانها كرة اخرى — تركه يسقط على رأسه ، ووجد موطىء قدم فوق سطح مبلط يقع على عمق عشرة اقدام تحت الارض . وانما تم ذلك كله ، كما تتم الأشياء في الهذيان ، بقوة عملاق وسرعة نسر . لقد اقتضى بضع لحظات ليس غير .

ووجد جان فالجان نفسه ، وماريوس ما يزال غائباً عن الوعي ، في شبه مجاز نفقيّ طويل .

وهناك كان أمن عميق ، وصمت مطلق ، وليل .

وعاوده مثل الشعور الذي ألمّ به من قبل يوم هبط من الشارع إلى

الدير . إلا ان مـا كان يحمل الآن لم يكن كوزيت، ولكن ماريوس .
وأمسى الآن يسمع فوقه ، مثل همس غامض - وما يكاد - صخبَ الحانة الرهيب وقد اقتحمها الجند .



الكتاب الثاني

مِصْران لوياثان *

١

الارض وقد أفقرها البحر

كل سنة تقذف باريس بخمسة وعشرين مليوناً إلى البحر . وهذا من غير لجوء إلى المجاز . كيف ، وبأية طريقة ؟ ليلا ونهاراً . لأي غرض ؟ لغير ما غرض . بأية فكرة ؟ من غير تفكير البتة . مقابل ماذا ؟ لا شيء . من طريق اي عضو ؟ من طريق مَعْيها . وما معيها ؟ بالوعتها .

* لوياثان Léviathan هولة ورد ذكره في التوراة ، في سفر ايوب ، ومن ثم اصبح علماً على كل شيء هائل راعب .

خمسة ملايين هو اكثر الارقام التقريبية اعتدالا ، وفقاً لتقديرات العلم الخاص .

فالعلم يعرف اليوم ، بعد طول التجربة ، أن أكثر الاسمدة إخصاباً وفعالية سمادُ الانسان . لقد عرف الصينيون ذلك – وينبغي أن نقولها، ويا لعارنا – قبلنا نحن . ويخبرنا ايكيبرغ أن الفلاح الصيني لا يذهب البتة إلى المدينة من غير ان ينقلب ناقلا ، عند طرفي عمود البوص الهندي الذي يحمله ، دلوين مليئين بما ندعوه الغائط . وبفضل التسميد البشري لا تزال الأرض في الصين فتية كما كانت في أيام ابراهيم . والقمح الصيني يغل مئة وعشرين ضعفاً . وليس ثمة ذرق يوازي في الخصب نفاية العاصمة . ان المدينة الكبيرة هي أقوى الحشرات التي تعيش وسط الغائط . واصطناع المدينة لاخصاب السهل خليق به أن يقترن بالنجاح الأكيد . واذا كان ذهبُنا روثاً ، فأن روثنا هو ، بالمقابلة ، ذهب .

ما الذي يُصنع بهذا الروث الذهب ؟ إنه يُجرف إلى الهاوية .

إننا نوجه ، متحملين أعظم النفقات ، قوافل من السفن لكي نجمع من القطب الجنوبي ذرق النورس والبطريق ، * على حين نقذف إلى البحر بعنصر الثروة الجسيم الذي في متناولنا . ولو أن جميع الزبل البشري والحيواني الذي يخسره العالم قد أعيد إلى الأرض بدلا من ان يلقى به في الماء اذن لكان كافياً لتغذية العالم .

هذه الاكوام من الاقذار عند زوايا المعالم ، وهذه العجلات المحملة بالوحل الراجّة خلال الشوارع في موهن من الليل ، وهذه العربات الرهيبة المخصصة لاقذار البلدة ، وهذه السيول الطينية النتنة الجارية تحت الأرض والتي تحجبها حصباء الطريق عنك ، أتدري ما هي كلها ؟ إنها المرج المنوِّر ؛ إنها العشب المخضوضر ؛ إنها النمام والصعتر والمريمية ؛ إنها الطرائد ؛ إنها الماشية ؛ إنها الخوار الرضيّ تطلقه الثيران الضخام عند

* النورس Pétrel والبطريق Pingouin طائران .

المساء ، إنها الصائرة العطرة ، إنها القمح المذهّب ، انها الخبز على مائدتك ، انها الدم الحار في عروقك ، انها الصحة ، إنها البهجة ، إنها الحياة . كذلك شاءت تلك الخليقة الخفية التي هي تحوّلٌ على سطح الارض ، وتجلٍّ في السماء .

ضع هذا في البوتقة الكبيرة . إن خصبك سوف ينبثق من هناك فغذاء السهول يؤلف قوت الناس .

إن لك القدرة على ان تطّرح هذه الثروة ، وان تجدني فضلا عن ذلك سخيفاً . وعندئذ تكون قد بلغت اوج جهالتك .

تظهر الاحصاءات ان فرنسة وحدها تقذف بنصف مليار كل عام ، من خلال أفواه أنهارها ، في المحيط الاطلسي . انتبه إلى هذا : بخمسمئة مليون نستطيع ان تدفع ربع نفقات الحكومة . والانسان من البراعة بحيث يفضل ان يلقي بهذه الملايين الخمسمئة في الساقية . إن مادة الناس نفسها هي التي تُجرف ، نقطةً نقطة هنا ، وسيولا سيولا هناك ، من خلال تقيؤ بواليعنا البائس إلى الانهار ، وتقيؤ انهارنا الضخم في المحيط . إن كل شهقة من بواليعنا تكلفنا الف فرنك . ولهذا نتيجتان : إفقار الارض ، وتلويث الماء . الجوع طالعاً من الثلم ، والمرض منبعثاً من النهر .

ومن المشهور ، مثلا ، ان نهر التيمس يسمم ، في هذه الساعة ، مدينة لندن .

أما في باريس ، فقد تعيّن على السلطة ، في هذه السنوات الاخيرة ، ان تنقل معظم مصابّ البواليع إلى سافلة النهر تحت الجسر الاخير .

إن جهازاً انبوبياً مزدوجاً ، مزوداً بالصمامات والمنافذ ، يستقبل ويردّ ، جهازَ تصريفٍ بدائياً ، بسيطاً كرئتي الانسان ، منتشراً حالياً في كثير من قرى انكلترة ، خليق به ان يكفي لنقل مياه الحقول النقية إلى مدننا ولأعادة

مياه المدن الغنية إلى حقولنا . وهذا التحرك اليسر ذهاباً واياباً ، الأكثر بساطة في العالم ، قادر على أن يعيد إلى حوزتنا الملايين الخمسمئة المطّرحة. إننا نفكر في شيء آخر

إن الاسلوب الحالي يؤذي من حيث يحاول أن يفيد . القصد جيد ، ولكن النتيجة تعسة . ان الناس يحسبون أنهم يطهرون المدينة ، فـاذا بهم يُسقمون السكان . البالوعة سوء فهم . وحين يستطيع جهاز التصريف في كل مكان ، بمهمته المزدوجة ، بحيث يعيد ما يأخذ ، أن يحلّ محل البالوعة – ذلك الغسل البسيط المفقِر – فعندئذ ، وبالاشتراك مـع معطيات اقتصاد اجتماعي جديد ، يزداد نتاج الارض عشرة أضعاف ، وتخف وطـأة مشكلة الشقاء على نحو فريد . اضف قطع دابر التطفل ؛ ان مشكلته سوف تحل .

وفي غضون ذلك تندفع الثروة العامة إلى النهر ، ويستمر السيلان . السيلان هي الكلمة . إن اوروبة تدمر نفسها على هذا النحو من طريق الاستنزاف .

أما فرنسة فقد اشرنا منذ لحظـة إلى الرقم الذي تخسره . والآن ، ولما كانت باريس تضم جزءاً من خمسة وعشرين من مجموع السكان الفرنسيين، ولمـا كان الروث الباريسي اغنى انواع الروث ، فلسنا نعدو الصواب حين نقدر بخمسة وعشرين مليوناً نصيبَ باريس من خسارة نصف المليار التي تطّرحها فرنسة سنوياً . ولو قد انفقت هذه الملايين الخمسة والعشرون على الغوث والابهاج اذن لضاعفت بهاء باريس . ان المدينة تهدرها في البواليع . بحيث نستطيع ان نقول ان إسراف باريس العظيم ، وعيدها الرائع ، وحماقتها البوجونية * ، وافراطها في الاكل والسكر ، وسيول الذهب المتدفقة من راحتيها المبسوطتين ، وأبهتها ، وبذخها ، وسخاءها البالغ –

* نسبة الى بوجون Beaujon وهو مالي فرنسي خلع اسمه على احد احياء باريس (١٧٠٨ - ١٧٨٦)

كل ذلك هو بالوعتها .

وهكذا ، بعمى اقتصاد سياسي فاسد ، تغرق رفاهية الجميع ونجيز للجة ان تبتلعها فتغيب في الاعماق . ينبغي ان تكون هناك شباك من سان كلو للرخاء العام

واقتصادياً ، يمكن اختصار هذه الواقعة على النحو التالي : باريس سلة مثقوبة .

إن باريس ، تلك المدينة النموذجية ، ذلك المثال للعواصم الراقية الذي يحاول كل شعب ان يفوز بنسخة عنه ، حاضرة المثل الاعلى تلك ، ذلك الموطن الفخيم للمبادرة والحث والتجربة ، ذلك المركز والملاذ للعقل ، تلك المدينة الأمة ، خلية المستقبل تلك ، ذلك المركّب العجيب من بابل وكورنث ، إن باريس هذه لخليقٌ بها ، من وجهة النظر التي أشرنا اليها اللحظة ، أن تحمل فلاحاً من « فو – كيان » على ان يهز كتفيه .

قلد باريس ، تُتلفْ نفسك .

وإلى هذا ، وبخاصة في ذلك الاسراف العريق الخاطل ، تعمد باريس نفسها إلى التقليد .

وهذه الحماقات المذهلة ليست جديدة . فليس ثمة بلاهة غضة في هذا . لقد تصرف القدماء تصرّف المحدثين . يقول ليبيغ : « كانت بواليع رومة تمتص كامل رفاهية الفلاح الروماني » . وحين دمرت البالوعة الرومانية السهل المنخفض المحيط برومة أنهكت رومةُ ايطالية ، وحين وضعت ايطاليةَ في بالوعتها ، عادت فافرغت فيها صقليةَ ، ثم سردينية ، ثم إفريقية . إن بالوعة رومة قد ابتلعت العالم . لقد خلعت هذه البالوعة شراهتها على المدينة وعلى الكرة الارضية . *Urbi et orbi* * مدينة خالدة ، بالوعة لا قرار لها

وفي هذه الاشياء ، شأنها في أشياء اخرى ، تُعتبر رومة قدوة .

---

* كلمتان لاتينيتان تعنيان المدينة والكون .

وهذه القدوة تقتدي باريس بها ، بكل البلاهــة التي تتميز بهـــا المدن العبقرية .

ولضرورات العملية التي شرحناها اللحظة تقوم تحت باريس باريس* اخرى . باريسُ بواليع ، لهـا شوارعها ، ومفارقها ، وساحاتها ، ودروبها غير النافذة ، وشرايينها ، وحركة مواصلاتها . باريس بواليع هي وحل ولكن ينقصه الشكل الانساني .

ذلك بأن علينا ان لا نتملق احداً ، حتى ولو كان شعباً عظيمــاً . وحيث يوجد كل شيء تقع على الخزي إلى جانب الرفعة . واذا كانت باريس تنطوي على اثينا مدينة الضياء ، وصور مدينة القوة ، واسبارطة مدينة الفضيلة ، ونينوى مدينة الاعجوبة ، فانها تنطوي ايضـاً علــى « لوتيس » * مدينة الوحل .

وفوق هذا فأن خاتم قوتها هناك ايضاً ، وماخور باريس العمــلاق يحقق ، بين البدائع الاخرى ، ذلك المثل الاعلى العجيبَ الذي تحققــه الانسانية من طريق رجال من مثل ميكيافيلي ، وبيكون ، وميرابو : عظمة الحقارة .

إن باريس التي تحت الارض ، إذا استطاعت العين ان تخترق السطح ، لأشبه شيء بعرق لؤلؤ هائل . وليس في الاسفنجة ثقوب ومعابر اكثر مما في مَدَرة يبلغ مدارها ستة فراسخ تقوم عليها المدينة العظيمة العتيقة . وبصرف النظر عن الداميس ، التي يفصل ما بين كل منها كهف ، وبصرف النظر عن شبكات انابيب الغــــاز المعقدة ، ومن غير ان نذكر الجهاز الأنبوبي الهائل الذي يوزع مياه الينابيع والذي ينتهـي إلى الصنابير الرئيسية ، فان البواليع وحدها تشكل شبكة اعجوبية داكنة تحت الضفتين . تيه مفتاحه انحداره .

هنالك يُرى ، في العتمة الرطبة . الجرذ ، الذي يبدو وكأنه ثمرة مخاض باريس .

---

* Lutèce اسم باريس القديم .

٢
تاريخ البالوعة القديم

تخيلْ باريسَ وقد رُفعت مثل غطاء . وعندئذ تمثّلُ شبكة البواليع تحت الارضية ، منظوراً اليها نظرة طائر ، عند كل من الضفتين ، شبه غصن ضخم مطعّماً على النهر . ففي الضفة اليمنى تكون « البالوعة المطوّقة » جذع هـــذا الغصن ، والمجاري الثانوية أفنانه ، والدروب غير النافذة عساليجه .

وهذه الصورة ليست غير صورة عامة ونصف مضبوطة ، لأن الزاوية القائمة ، المـألوفة عادة في مثل هـــذه الشبكات تحت الارضية ، نادرة جداً في النبات .

ولسوف نشكل صورة اكثر شبهاً بهذا المخطط الهندسي ، بأن نفترض اننا نرى ، منشورةً على خلفية من الظلام ، بعضَ ابجديات الشرق العجيبة مشوشة مثل خليط ما ، وقد اتصلت بعض حروفها الشائهة ببعضها الآخر كيفما اتفق ، ظاهرياً ، وكأنما بفعل المصادفة ليس غير ، من زواياها حيناً ومن اطرافها القصوى حيناً آخر .

لقد لعبت المواخير والبواليع دوراً هاماً في القرون الوسطى ، وفي الامبراطورية البيزنطية والشرق القديم . فيها وُلد الطاعون ، وفيهـــا مات الطغاة . وكانت الجماهير تنظر في رعب يكاد يكون تقوياً إلى سُرر النتن هذه ، مهود الموت الرهيبة . إن جب قمل بيناريس * ليس أقل إذهالا من جب أسود بابل . ووفقاً للكتب التلمودية فأن تغلث فلاسر قد اقسم بماخور نينوى . ومن بالوعة مونستر أطلع جان الليدنيّ ** قمره

* Benarès مدينة على نهر الغانج مقدسة عند الهندوس .

** Jean de Leyde زعيم القائلين بتجديد العماد في مونستر ، احدى مدن بروسيا ، وقد قُتل اثناء حملة التعذيب الرهيبة التي جرت عام ١٥٣٦

الكاذب ، ومن جب – بالوعة في بلدة كش ّ أطلع شبيهه الشرقي « المقنّع » نبي خراسان المحجّب ، شمسه الزائفة .

إن تاريخ الناس ينعكس في تاريخ البواليع . ومعرض جثث المذنبين يروي قصة رومة . وانما كانت بالوعة باريس شيئاً فظيعاً في الزمـــن الماضي . كانت قبراً ، وكانت ملجأ . ففي هذا الثقب اختبأت الجريمة، والذكاء ، والاحتجاج الاجتماعي ، وحرية المعتقد ، والفكر ، واللصوصية ، وكل ما تلاحقه القوانين الانسانية أو قد لاحقته : فالمطرقيون * في القرن الرابع عشر ، والنشالون المتجولون ليــلا في القرن الخامس عشر ، والهوغونوت ** في القرن السادس عشر ، ومستنيرو مورين في القرن السابع عشر ، والوقادون في القرن الثامن عشر . ومنذ مئة سنة كانت طعنة الخنجر الليلية تنبثق من هناك ، وكان النشال الذي يلم به الخطر ينزلق إلى هناك . كان للغابة كهفها ، وكان لباريس بالوعتها . وكان التشرد ، ذلك البيكاريريا الغاليّ ، يرتضي البالوعة شعبة من « ساحة المعجزات » *** ، فكانوا يأوون في موهن من الليل ، ماكرين شريرين ، إلى مخرج موبوويه وكأنهم يأوون إلى مخدع .

وكان طبيعياً جداً أن الذين يعملون نهاراً في زقاق « فيد غوسيه » غير النافذ ، أو شارع « كوب غورج » ان يتخذوا مقامهم الليلي في جسر « الطريق الأخضر » أو قناة « هوربوا » . ومن هنا جمهرة من الذكريات . ان مختلف ضروب الاشباح لتألف هذه الأروقة الطويـلة المنعزلة ؛ والعفن والابخرة الوبيئة في كل مكان . وهنا وهناك تجد منفذاً

* Maillotins اسم أطلق على الباريـــين المتمردين في عهد شارل السادس ، وقد دعوا بذلك بسبب من المطارق الخشبية Maillets التي اخذوها من مصنع السلاح عام ١٣٨١

** بروتستانت فرنسة .

*** حي من احياء باريس القديمة ، وكان ملجأ الشحاذين والمتشردين في القرون الوسطى .

يتكلم فيون من داخله إلى رابليه في خارجه :

إن البالوعة ، في باريس القديمة ، هي ملتقى جميع القنوات وجميع التجارب . إن الاقتصاد السياسي ليرى فيها نفاية ، وان الفلسفة الاجتماعية لترى فيها ثُفلا :

البالوعة ضمير المدينة . إن الاشياء كلها تتجه اليها ، وتتقابل فيها : في ذلك الموطن المكفهر ظلمات ، ولكن ليس فيه أسرار . إن لكل شيء شكله الحقيقي ، أو على الاقل شكله الحاسم . فمن حسنات ركام الزبالة انه ليس كذاباً . لقد التجأت الصراحة اليه . اننا نجد ثمة قناع باسيل * ، ولكننا نستطيع ان نرى الورق المقوى ، والخيوط ، والباطن والظاهر ، وإن وحلا أميناً ليؤكده . إن أنف سكابين ** لعلى مقربة منه . وجميع قذارات الحضارة تقع ، حالما يستغنى عنها ، في حفرة الحق هذه ، حيث يوضع حد للانزلاق الاجتماعي الهائل . إنها تُبتلع ، ولكنها تتجلى هناك . وهذا الاختلاط هو اعتراف . فههنا تنعدم المظاهر الكاذبة ، ويتعذر كل تجصيص ، ويخلع القذر قميصه ؛ عري مطلق ، وانهزام للاوهام وضروب السراب ؛ لا شيء غير ما هو كائن ، متخذاً صورة الشيء الآفل الكالحة . الحقيقة والزوال . هنا ، يعترف قعر الزجاجة بالسُكْر ، وتروي يد السلة قصة الحياة المنزلية . هنا ، يعود قلب التفاحة الذي كانت له آراء أدبية قلبَ تفاحة من جديد ، وتتغطى الصورة التي على الـ « سو » الكبير بالزنجار على نحو صريح ، وتلتقي بصقة قيافا *** قيء فالستاف **** ، وتصدم الليرة اللويسية الذهبية

---

* بطل « حلاق اشبيلية » Barbier de Séville ، كوميدية بومارشيه الشهيرة ، وهو يعتبر مثال المرائي المتصف بالملاطفة والحرص على المال .

** Scapin أحد ابطال موليير وهو مثال الخادم المخادع ، الخبيث ، الماكر .

*** Caïphe الكاهن اليهودي الذي حكم بالموت على يسوع المسيح .

**** احدى شخصيات شكسبير ، وهو يمثل الرجل الداعر الوقح .

الخارجة من نادي القمار المسمارّ الذي يتدلى منه حبل الانتحار القصير ، ويتدحرج جنين ازرق ضارب إلى السواد مغلفاً بالترتر البراق الذي رقص في الاوبرا يوم ثلاثاء المرفع الاخير ، وتتمرغ قلنسوة حاكمت الناسّ إلى جانب نتانة كانت تنورة لمارغوتون . إنه اكثر من إخاء ؛ إنه غـــاية الغايات في الألفة والود . إن كل ما تبرّجَ يتسخ . إن الحجاب الاخير ليُنتزع . البالوعة بذيئة . إنها تروي كل شيء .

ان أمانة القذارة هذه لترضينا ، وإنها لتوقع الطمأنينة في النفس . فحين يقضي الانسان أيامه على الارض في احتمال سيما التظاهر والتكلف التي تقتضيها ضرورات الحكم ، والقسَم ، والحكمة السياسية ، والعدالة الانسانية ، والنزاهة المهنية ، وحراجة الموقف ، والاثواب التي لا سبيل إلى إصلاحها ، يكون من العزاء له ان يدخل إلى بالوعة ، ويرى الوحل الذي يلائمها .

إنها لتلقي درساً في الوقت نفسه . فالتاريخ ، كما قلنا اللحظة ، يمرّ من خلال البالوعة . إن المذابح الشبيهة بمذبحة القديس بارتليماوس لترشح هناك ، قطرةً قطرة ، عبر حجارة الارصفة . والاغتيالات العمومية الكبرى ، والمجازر السياسية والوطنية تجتاز قبو الحضارة هذا ، وتدفع صرعاها اليه هناك يتبدى لعين المفكر جميع القتلة التاريخيين راكعين في الظلمة الرهيبة ، وقد اتخذوا من اكفانهم مآزر لهم وراحوا ينظفون فعلاتهم على نحو حدادي . ان لويس الحادي عشر ليقيم هناك مـــع تريستان * ؛ وان فرنسوا الأول ليقيم هناك مع دوبرا ** ؛ وان شارل التاسع هناك مع أمه ؛ وان ريشيليو هناك مع لويس الثالث عشر ؛ إن

---

* Tristan كبير مارشالات فرنسة في عهد شارل الثامن ولويس الحادي عشر .

** Duprat القاضي الاكبر في فرنسة ايام الملك فرنسوا الاول . كان كردينالا ، وقد عقد كونكوردا بولونيا (١٥١٦) بين فرنسوا الاول والبابا ليو العاشر .

لوفوا * هناك ؛ وان لوتوليه ** وهيبر *** ومايار **** هناك ، يكشطون الحجارة ويحاولون ان يمحوا آثار أعمالهم . وتحت هذه الاقبية نسمع مكنسة هذه الاشباح . اننا نستروح هناك نتانة الكوارث الاجتماعية الهائلة . اننا نرى انعكاسات ضاربة إلى الحمرة في الزوايا . هناك تجري مياه فظيعة غُسلت فيها أيد دامية .

إن على المراقب الاجتماعي ان يدخل هذه الظلال . إنها جزء من مختبره . الفلسفة مجهر الفكر . كل شيء يرغب في الفرار منها ، ولكن شيئاً لن يفلت من بين ايديها . إن التردد غير مجْدٍ . ايّ وجه من وجوه شخصيتك تجلوه بالتردد ؟ الوجه الشائن . إن الفلسفة تتعقب الشر بانظارها النزيهة ، ولا تجيز له ان ينزلق إلى العدم . ففي امحاء الاشياء التي تختفي ، وفي صغر الاشياء التي تتلاشى تدرك كل شيء . إنها تعيد انشاء الارجوان من الخرقة ، والمرأة من المزقة . وبالبواليع تعيد تكوين المدينة ، وبالوحل تعيد تكوين عاداتها . إنها تستنتج من الكسرة القارورةَ أو الابريق . انها تدرك من أثر قلامة الظفر على رق من الرقوق الفرق ما بين الحي اليهودي « الجودنغاس » والحي اليهودي « الغيتو » . إنها تجد في الذي تبقّى ما كان : الخير ، والشر ، والباطل ، والحق ، ولطخة الدم في القصر ، وبقعة الحبر في القبو ، ونقطة الشحم في الماخور ، والتجارب

---

* Louvois رجل دولة فرنسي ، اعاد تنظيم قوات الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٩ – ١٦٩١) .

** Le Tellier رجل دولة فرنسي ، والد لوفوا المذكور في الحاشية السابقة ، وقد ساعد على إبطال براءة نانت (١٦٠٣ – ١٦٨٥) .

*** Hébert سياسي وصحفي فرنسي وافق على مذابح ايلول وكان له في مجلس كومون باريس نفوذ طاغ ، وقد مات على المقصلة مع عدد من رفاقه « الهيبريين » (١٧٥٧ – ١٧٩٤) .

**** Maillard ثوري فرنسي ، حاول ان يخفف من وطأة مذابح ايلول (١٧٦٣ – ١٧٩٤) .

المقتحَمة ، والاغراءات المرحب بها ، والتُخَم المتقيأة ، والتجاعيد التي تلقتها الشخصيات باتّضاع ، واثر البغاء في نفوس جعلتها خشونتها الخاصة قادرة عليه ، وتجد على صُدرات حمّالي رومة سمةَ مرفق ميسالينا *

٣

برونيسو

كانت بالوعة باريس ، في القرون الوسطى ، اسطورية . وفي القرن السادس عشر حاول هنري الثاني القيام بعملية سبر ما لبثت ان اخفقت. ومنذ أقل من مئتي عام ، بشهادة ميرسييه ** ، تُركت وشأنها ، فاصبحت ما كان في ميسورها أن تصبحه .

كذلك كانت باريس القديمة ، المسلّمة إلى المنازعات ، والتردد ، والتحسس في الظلام . لقد انغمست في الحماقة دهراً طويلا . وبعد ذلك اظهرت سنةُ ٨٩ *** كيف يلمّ الذكاء بالمدن . أما في الايام الخاليـة الصالحة فقد كان للعاصمة رأس صغير ، كانت لا تستطيع ان تدبر شؤونها لا معنوياً ولا مادياً ، ولم تكن تحسن كنس اقذارها إلا بمقدار ما تحسن ازالة عاداتها السيئة . كان كل شيء عقبة ، وكان كل شيء يثير مشكلة . كانت البالوعة ، مثلا ، متمردة على كل دليل خاص بالسفر أو السياحة . كان الناس عاجزين عن أن يعرفوا وجهتهم في طرقها كما عجزوا عن ان يفهموا انفسهم في المدينة . المبهم ، فوق . والمعقّد ، تحت . وتحت

---

* Messaline اولى زوجات الامبراطور الروماني كلود الاول ، وكانت منغمسة في الفسق والفجور .

** Mercier اديب فرنسي (١٧٤٠ — ١٨١٤)

*** يقصد سنة ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية .

اختلاط الالسن كان اختلاط الاقبية . إن « ديدال » * قد بطّن بابل .

وفي بعض الأحيان كان يخطر لبالوعة باريس ان تفيض ، فكأن هذا « النيل » المجحود فضله قد استبد به الغضب فجأة . كانت ثمة – وهو شيء فاضح – فيضانات بالوعة . فبين الفينة والفينة كانت معدة الحضارة هذه تهضم على نحو سيء ، فتفيض البواليع مرتدة إلى حنجرة المدينة ، وتتذوّق باريس خُلْفَ * وحلها . وهذه المشابه بين البالوعة ووخز الضمير كانت لها حسناتها . كانت ضروباً من التحذير ، ولكنها لم تكن تُستقبل إلا اسوأ استقبال . كانت المدينة تسخط إذ ترى إلى وحلها وقد تكشّف عن هذه الجراءة كلها ، ولم تكن ترتضي عودة الاقذار ، اطردوها على نحو افضل .

إن ذكرى فيضان ١٨٠٢ لا تزال ماثلة في اذهان الباريسيين الذين بلغوا الثمانين . لقد انتشر الوحل على شكل صليب في « ساحة الانتصارات » حيث يقوم تمثال لويس الرابع عشر . ودخل إلى شارع « سان هونوريه » من مصبّي بالوعة الـ « شان زيليزيه » ، والى شارع « سان فلورنتين » من بالوعة « سان فلورنتين » ، وشارع « بيير آبواسون » من بالوعة الـ « سونيري » ، وشارع « بوبينكور » من بالوعة « الطريق الأخضر » ، وشارع الـ « روكيت » من بالوعة شارع الـ « لابّ » . لقد غطى قناة شارع الـ « شان زيليزيه » حتّى ارتفاع خمسة وثلاثين سنتمتراً . وفي الجنوب ، بواسطة مخرج الـ « سين » المؤدي مهمته بطريق معكوسة ، نفذ إلى شارع « مازارين » ، وشارع « ايشيديه » ، وشارع الـ « ماريه » ، حيث وقف بعد ان بلغ امتداده

* معمار يوناني أقام تيه كريت الذي تزعم الاسطورة ان المينوتور (الكائن الخرافي الذي نصفه انسان ونصفه ثور) قد حُبس فيه .

* الخلف ، بضم الخاء ، آخر طَعْمٍ الطعام (arrière — goût)

مئة وتسعة مترات ، على بضع خطوات بالضبط من المنزل الذي كان راسين يسكنه ، محترماً – في القرن السابع عشر – الشاعرَ اكثر من الملك . ولقد بلغ عمقه الأعظمَ في شارع سان بيير حيث ارتفع ثلاثة أقدام فوق بلاطات الميزاب ، وبلغ امتدادُه الاقصى في شارع « سان سابين » ، حيث انتشر على رقعة طولها مئتان وثمانية وثلاثون متراً .

وفي مطلع هذا القرن ، كانت بالوعة باريس لا تزال موطناً خفياً . ان الوحل لا يمكن ان يكون حسن الصيت ، ولكن سوء السمعة انتهى هنا إلى حد الروع . لقد ادركت باريس ، ادراكاً غامضاً ، أن تحتها كهفاً فظيعاً . ولقد تحدث الناس عنه كما يتحدثون عن مستنقع ثيبسة الرهيب حيث احتشدت حُرُش * طول الواحدة منها خمسة عشر قدماً ، والذي كان جديراً به ان يكون مغطساً لـ « بهيموت » ** . إن أحذية رجال البواليع الضخمة لم تغامر قط في الذهاب إلى أبعد من نقاط معينة . كان الناس لا يزالون قريبي عهد بذلك العصر الذي كانت عربات رافعي الوحل – حيث تآخى على قمتها سانت فوا مع المركيز كريكي – تُفرّغ فيه بكل بساطة في البالوعة . أما مهمة التنظيف فكان يُعهد بها إلى سيول المطر التي كانت تعوق اكثر مما تجرف . وتركت رومة ، مع ذلك ، شيئاً من الشعر لبواليعها ، فخلعت عليها اسم « جيموني » *** أما باريس فأهانت بواليعها فدعتها « الثقب النتن » . وكان العلم والخرافة على اتفاق من حيث الرعب . فلم يكن « الثقب النتن » يناقض علم الصحة بأكثر مما يناقض الخرافة . كان « الراهب الشكس » تحت قوس « بالوعة موفتار » الآسن ، وكانت جثث الـ « مارموزيه » ****

---

* مفردها حريش ، وهي امّ اربعة واربعين .

** Béhémoth حيوان ذكر في التوراة ، ويظن انه فرس البحر .

*** Gemoniae وهي سلّم كان الرومان يعرضون عليها جثث المذنبين .

**** Marmousets اسم اطلق على مستشاري شارل الخامس الذين استمروا في القيام بوظائفهم في عهد الملك شارل السادس (كليسون ، مونتاغو ، لوميرسييه الخ .)

قد طُرحت في بالوعة باريليري . وكان فاغون * قـــد عزا حمى عام ١٦٨٥ الخبيثة الرهيبة إلى الثغرة الكبيرة التي في بالوعة الـ « ماريه » والتي ظلت فاغرة فاها حتى عام ١٨٣٣ ، في شارع سان لويس ، تجاه لافتة « الرسول الشهم » تقريباً . وكـــان مصب بالوعة شارع الـ « مورتيلري » شهيراً بالطواعين المنبعثة منه . فبشبكة قضبانه الحديديـــة المروّسة التي بدت أشبه بصف من الاسنان ، برز هذا المصب في ذلك الشارع مثل شدق تنين تنفخ الجحيمَ على الناس . وتبّل الخيال الشعبي البالوعةَ الباريسية الكالحة بمزيـج من اللانهاية رهيب إلى حد يمتنع على الوصف . كانت البالوعة عديمة القرار . كانت البالوعة هي البراتروم ** ولم تخطر فكرة ريادة هذه المناطق المجذومة حتى لرجال البوليس انفسهم. ومن ذا الذي كان يجرؤ على اقتحام ذلك المجهول ، وسبر تلك الظلمة ، والقيام برحلة استكشاف في تلك الهاوية ؟ كانت مروعة . ومع ذلك ، فقد برز شخص ما . إن للبالوعة كولومبسها .

ذات يوم ، من عام ١٨٠٥ ، وخلال احدى الزيارات النادرة التي كان الامبراطور يقوم بها لباريس مَثُلَ وزير الداخلية ، رجل من مثل دوكريه أو كريتيه ، بين يدي السيد لدن نهوضه من الفراش . وفي ساحة الفوارس كان يُسمع صليل سيوف جميع الجنود الاستثنائيين الذين أطلعتهم الجمهورية العظيمة ، والامبراطورية العظيمة . كان ثمة جمهرة مـــن الابطال عند باب نابوليون : رجال شهدوا الراين ، والأيسكو ***

---

* Fagon (١٦٣٨ — ١٧١٨) الطبيب الاول للملك لويس الرابع عشر .

** Barathrum لفظ لاتيني يعني جهنم .

*** Escaut نهر مشترك بين فرنسة والبلجيك وهولندة .

والآديج * والنيل . رفاق لجوبير ** ودوسيكس *** ومارسو **** وهوش ***** وكليبر ****** . منطاديو فلوروس ، ورماة قنابل في ميانس ، وبناة جسور في جنوا ، وفرسان نظرت اليهم الأهرام ، ومدفعيون لطختهم قذيفة جونو ******* ، ودارعون أغاروا على الاسطول الملقي مراسيه في « زوديرزي » . كان هناك جماعة لحقت بونابرت عبر جسر لودي . وثانية كانت مع مورا ******** في خنادق مانتو ، وثالثة تقدمت لان ********* في طريق مونتيبيلو المقعّرة . كان جيش ذلك العصر كله هناك ، في بلاط التويلري ، ممثلا بفرقة أو بمفرزة ، حارساً نابوليون المخلد إلى الراحة ؛ وكان ذلك في الفترة البهية يوم كانت مارنغو وراء « الجيش العظيم » ، واوسترليتز أمامه . وقال وزير الداخلية لنابليون : « مولاي ، لقد رأيت أمس أشجع رجل في امبراطوريتك » فقال الامبراطور على جناح السرعة : « من هذا

---

* Adige نهر في ايطالية .

** Joubert قائد فرنسي لمع نجمه في حملة ايطاليا (١٧٦٩ - ١٧٩٩)

*** Desaix جنرال فرنسي تبع نابوليون الى الشرق واحتل مصر العليا . (١٧٦٨ - ١٨٠٠) .

**** Marceau جنرال فرنسي لمع نجمه في الفانديه و « فلوروس » (١٧٦٩-١٧٩٦)

***** Hoche جنرال فرنسي يعتبر من اعظم وجوه الثورة وانبلها (١٧٦٨- ١٧٩٧) .

****** Kléber جنرال فرنسي أسهم في الحملة النابوليونية على مصر (١٧٥٣- ١٨٠٠) .

******* Juno قائد فرنسي حارب في ايطالية ومصر ، واستولى على لشبونة عام ١٨٠٧ . (١٧٧١ - ١٨١٣) .

******** Murat اخو زوجة نابوليون ، وقد نصبه ملكاً على نابولي من عام ١٨٠٨ الى عام ١٨١٥

********* Lannes مارشال فرنسة ، لمع نجمه في معركتي مونتيبيلو ومارنغو . (١٧٦٩ - ١٨٠٩) .

الرجل ، وما الذي فعله ؟ » – « إنه يريد ان يصنع شيئاً يا مولاي . »
– « ما هو ؟ » – « ان يزور بواليع باريس . »
كان ذلك الرجل حياً يرزق ، وكان يدعى برونيسو .

٤
تفاصيل مجهولة

وتمت الزيارة . كانت حملةً رهيبة ، معركة ليلية ضد الطاعون والاختناق . وكانت في الوقت نفسه رحلة استكشاف . بل إن احد الذين خرجوا من هذه الريادة احياء ، وهو عامل ذكي كان آنذاك غض الشباب ، قد روى منذ بضع سنوات تفاصيل اعتبر برونيسو ان من واجبه ان يحذفها في تقريره إلى مدير البوليس ، بوصفها غير لائقة بلغة الدواوين : كانت العمليات التطهيرية بدائية جداً في ذلك العهد . فما إن اجتاز برونيسو أولى شُعب الشبكة تحت الارضية حتى رفض ثمانية من العمال ان يذهبوا إلى أبعد من ذلك : وكانت العملية معقدة . وانطوت الزيارة على مهمة التنظيف . وهكذا كان على العمال ان ينظفوا ، وان يقيسوا الأبعاد في وقت معاً . كان عليهم ان يعيّنوا مدخل الماء ، وان يحصوا الشباك الحديدية والمصابّ ، وان يضعوا بياناً مفصلا بالشُعب ، وان ينصوا على مجاري المـاء عند نقاط الانفصال ، وان يفحصوا الحدو النسبية للاحواض المختلفة ، وان يسبروا البواليع الصغرى المفرّعة فوق البالوعة الرئيسية ، وان يقيسوا ارتفاع كل ممر تحت الغلَق ، والعرض أيضاً سواء عند مستهلّ العقد أو عند سطح الأرض ، وان يحددوا أخيراً نقاط تسوية الأرض على زاوية قائمة عند كل مدخل من مداخل الماء ، سواء من ارضية البالوعة أو من سطح الشارع . لقد تقدموا في عسر .

ولم يكن نادراً ان تغوص السلالم في الوحل إلى عمق ثلاثة أقدام وحشرجت الفوانيس في الأبخرة الوبيئة . وبين الفينة والفينة ، كانوا يخرجون عاملا من عمال البواليع أغمي عليه . وفي بعض المواطن كان العمال يقعون على هاوية . كانت الأرض قد غارت ، وكان بلاط الشارع قد انهار ، وكانت البالوعة قد تحولت إلى بئر ذات قعر رملي . إنهم لم يعودوا يجدون ارضاً صلبة . وفجأة اختفى رجل ، ولم يوفقوا إلى انتشاله إلا بشق النفس . وبناء على نصيحة فوركروا اضاءوا ، بين مرحلة واخرى ، في المواطن المطهرة تطهيراً كافياً ، اقفاصاً كبيرة ملأى بمشاقة الكتان ومشبعة بصمغ الصنوبر . وكان الجدار مغطى ، في بعض الأماكن، بفطريات شائهة ، بل لقد كان في وسع المرء ان يقول انه مغطى بالدمامل . لقد بدا الحجر نفسه مريضاً في هذا الوسط الذي لا يصلح للتنفس .

وتقدم برونيسو ، في ريادته تلك ، من عالية النهر إلى سافلته : وعند مفترق انبوبَي مياه الـ « غرات هورلير » قرأ في عسر ، فوق حجر ناتئ ، هذا التاريخ : ١٥٥٠ . وكان هذا الحجر يشير إلى الحد الذي انتهى اليه فيليبير دولورم الذي عهد اليه هنري الثاني بأن يزور قنوات باريس تحت الارضية . كان ذلك الحجر هو طابع القرن السادس عشر على البالوعة . كذلك وجد برونيسو اثر يد القرن السابع عشر العاملة في قناة شارع « بونسو » وقناة شارع « فيي دو تامبل » اللتين بُنيتا ما بين عام ١٦٠٠ وعام ١٦٥٠ ، واثر يد القرن الثامن عشر العاملة في الجزء الغربي من القناة المجمّعة ، التي جُسِّرت وقُنْطرت عام ١٧٤٠ . وكان هذان العقدان ، وبخاصة العقد الاقل عتقاً ، عقد ١٧٤٠ ، اكثر تشققاً وتهدماً من البالوعة المطوّقة التي ترق إلى عام ١٤١٢ ، يوم رُفعت مياه ينبوع مينيلمونتان إلى مقام بالوعة باريس العظمى ، وهو تقدم مماثل لتقدم فلاح

يصبح كبير فراشي الملك ، شيء من مثل « غرو جان » * وقد تحول إلى « لوبيل » ** .

وحسبوا انهم تبيّنوا هنا وهناك ، ومخاصة تحت قصر العدل ، بعض حجيرات السجون الضيقة المظلمة المبنية في البالوعة نفسها . سجن ديريّ تحت ارضيّ رهيب . كان غل حديدي يتدلى في احدى تلك الحجيرات . لقد سُدت كلها بالجدران . ووجدوا ثمة اشياء غريبة ، من بينها هيكل عظمي لقرد من نوع « اورانغ — اوتانغ » كان قد اختفى من « حديقة النبات » عام ١٨٠٠ ، وهو اختفاء لعله ان يكون ذا صلة بظهور الشيطان ذلك الظهور الشهير الذي لا يقبل الجدل ، في شارع الـ « بيرناردين » في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر . لقد انتهى الشيطان المسكين إلى الغرق في البالوعة .

وتحت الممر الطويل المقنطر الذي ينتهي عند « آرش ماريون » نالت اعجاب العارضين سلة ملتقط خرق كانت لا تزال مصونة اتم الصون . وفي كل مكان كان الوحل — الذي كان العمال قد أخذوا يمسكون به في جسارة — حافلا بالاشياء النفيسة : بالحلى الذهبية والفضية ، والحجارة الكريمة ، والقطع النقدية . ولو قد صفى عملاقٌ هذه البالوعة اذن لفاز في منخله بكنوز القرون . وعند مفترق شعبتي شارع التامبل وشارع سانت آفوا التقطوا مدالية بروتستنتية نحاسية فريدة تحمل على احد وجهيها خنزيراً يعتمر بقبعة كاردينال ، وتحمل على وجهها الآخر ذئباً على رأسه التاج البابوي .

وكان الكشف الأدعى إلى العجب هو مدخل البالوعة العظمي . كان هذا المدخل موصداً ، في ما مضى ، بشبكة حديدية لم يبق منها غير رزاتها . وكانت تتدلى من احدى تلك الرزات خرقة قذرة شائهة

* Gro - Jean اسم يطلق في اللهجة الفرنسية العامية على الأبله المتظاهر بالعلم .

** Lebel ضابط فرنسي كانت له خبرة خاصة بصناعة البنادق (١٨٣٨ — ١٨٩١) .

علقت هناك في طريقها من غير شك ، فأنشأت تطفو في الظلام حتى أمست آخر الامر مِزَقاً . وقرّب برونيسو فانوسه إلى هذه الخرقـة ، وفحصها . كانت من انفس القماش الكتاني الابيض الناعم ، ولقد تبين عند احدى الزوايا الاقل بلىً تاجاً نسَبياً أو شعارياً طُرِّز فوق هذه الحروف السبعة « لافبيسب » LAVBESP . وكان التاج تاج مركيز . وكانت الحروف السبعة تعني لوبيسبين Laubespine . وادركوا ان امام اعينهم قطعة من كفن مارا . فقد كانت لمارا ، في صباه ، غراميات. وكان ذلك حين كان يؤلف جزءاً من منزل الكونت دارتوا ، بوصفه طبيباً للاصطبلات . ومن هذه الغراميات ، المثبتة تاريخياً ، مع سيدة نبيلة كبيرة لم يبق له غير غطاء السرير هذا . لقية أو ذكرى . حتى إذا قضى نحبه كفّن به بوصفه قطعة القماش ، الأبيض الناعم بعض الشيء ، التي لم يكن غيرها في منزله. لقد جهزت بعض النسوة العجائز « صديق الشعب » الفاجع ، بجهاز القبر هذا الذي كان ينطوي على لذة .

وتابع برونيسو تقدمه . لقد تركوا هذه الخرقة حيث كانت . إنهم لم يُجهزوا عليها . أكان ذلك ازدراء أم احتراماً ؟ كان مارا يستحق الاثنين جميعاً . ثم إن القدر كان منطبقاً عليها إلى حد جعلهم يترددون في مسها . وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نترك أشياء القبر في الموطن الذي تختـاره . وعلى الجملة ، فقد كانت تلك الذخيرة غريبة . لقد نامت عليها مركيزة : ولقد انتن عليها مارا . لقد اجتازت البانتيون لكي تصل آخر الأمر إلى جرذان البالوعة . كانت خرقة المخدع تلك ، التي كان خليقاً بـ« واتو »* في ما مضى أن يرسم كل طية من طياتها ، قد انتهت إلى أن تصبح جديرة بنظرة من نظرات دانتي المحدّقة .

واستغرقت الزيارة الكاملة لشبكة البواليع الباريسية تحت الارضية سبع سنوات ، من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨١٢ . وفيها كان برونيسو لا يزال

---

* Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ - ١٧٢١)

يقوم بها ، عيّن كثيراً من الأعمال ، وادارها ، وانجزها . ففي سنة ١٨٠٨ خفض مستوى قناة بونسو ، واذ أنشأ خطوطاً جديدة في كل مكان ، مدّد البالوعة ، عام ١٨٠٩ ، تحت شارع سان دونيز ، حتى « ينبوع الابرياء » . وفي عام ١٨١٠ مددها تحت شارع « فروا مانتو » وشارع الـ « سالبيتريير » ، وفي عام ١٨١١ مددها تحت شارع « رو نوف دي بيتيت بير » ، وتحت شارع « ميل » وشارع الـ « ايشارب » ، وتحت القصر الملكي . وفي عام ١٨١٢ مددها تحت « شارع السلام » ، وتحت الـ « شوسيه دانتين » . وفي الوقت نفسه، طهر وأصلح الشبكة كلها . ومنذ السنة الثانية ساعد برونيسو صهرُه نارغو .

وهكذا نظف المجتمع القديم ، منذ مطلع هذا القرن ، قعره المزدوج ، وقام بتجميل بالوعته . ولم يزد تنظيفها في يوم من الأيام عن ذلك المقدار.

كانت بالوعة باريس القديمةُ ملتوية ، متصدعة ، مقتلعة البلاط ، متقلّعة ، معترَضة بالمستنقعات ، محطمة بمنعطفات غريبة ، مرتفعة ومنخفضة على غير منطق ، آسنة ، وحشية ، ضارية ، غارقة في الظلمة الرهيبة ، تعلو الندوب حصباءها والجراح جدرانها . تفرعات في كل اتجاه ، خنادق مهجّنة ، تشعبات ، مفارق طرق ، صدوع كالتي تنشأ عن الالغام ، أزقة غير نافذة ، دروب مسدودة ، عقود مغطاة بملح البارود ، بواليع نتنة ، ترشّح قوبيّ على الجدران ، قطرات ساقطة من السقف ، ظلام ؛ إن شيئاً لم يكن يَعْدِلُ هول هذا السرداب العتيق المفرّغ ، جهاز بسابل الهضمي ، الكهف ، القبر ، الهاوية التي تخترقها الشوارع ، التل الخلديّ العملاق الذي يتراءى للعقل فيه وكأنه يرى ذلك الخلد الأعمى الهائل — الماضي — يتلمس سبيله وسط الظلام ، في القذر الذي كان زهواً وسناه .

تلك كانت — ونكرر ذلك — بالوعة العهود الماضية .

٥
التقدم الحالي

أما اليوم فالبالوعة نظيفة ، باردة ، مستقيمة ، مضبوطة . انها تكاد تحقق المثل الأعلى لما يُفهم في انكلترة بكلمة « موقر » . إنها لائقة رصينة ؛ مخططة بخيط البناء ، بل نكاد نستطيع ان نقول إنها مغرقة في التأنق . انها تشبه ملتزم مؤن أصبح مستشاراً للدولة . وفي مستطاع المرء ان يرى فيها بوضوح ، أو يكاد . وسلك الوحل مسلكاً لائقاً . وللوهلة الأولى لا بد ان نحسبها تواً احد تلك المجازات تحت الارضية التي كانت في ما مضى شائعة جداً ومفيدة جداً لهرب الملوك والامراء في تلك العهود السالفة الصالحة يوم « كانت الشعوب تحب ملوكها » . البالوعة الحالية بالوعة جميلة ؛ ان الاسلوب الصافي ليهيمن هناك . ويبدو وكأن الوزن الالكسندري الكلاسيكي المستقيم ، وقد طُرد من الشعر ، التجأ إلى فن العمارة ، وامتزج بكل حجر من حجارة ذلك العقد الطويل المظلم الضارب لونه إلى البياض . إن كل قناة مفرَّغة هي قنطرة . إن شارع ريفولي ليُتخذ قدوةً حتى في البلاليع . وعلى أية حال . فاذا كان للخط الهندسي ان يوجد في اىما مكان فليس من ريب في انه يوجد في الخنادق البرازية الخاصة بالمدن الكبيرة . هناك ، يتعين على كل شيء أن يكون خاضعاً للطريق الأقصر . لقد اتخذت البالوعة الآن مظهراً رسمياً . وحتى تقارير البوليس التي تعالج في بعض الاحيان موضوعها ، لم تعد يعوزها الاحترام لها . ن الكلمات التي تميزها في لغة الدواوين قد ارتقت وشَرُفت . فما كان يدعى ممراً ضيقاً أمسى يدعى دهليزاً . وما كان يدعى ثقباً أمسى يدعى عيناً . لقد أصبح من المتعذر على فييون * أن يعرف مأواه القديم عند

* شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

الحاجة . صحيح ان هذه الشبكة من الأقبية كانت لا تزال محتفظة بسكانها العريقين من القواضم المتكاثرة أكثر من ذي قبل ؛ فبين الفينة والفينة كان احد الجرذان — شاربان عجوزان — يخاطر برأسه عند نافذة البالوعة ويتأمل الباريسيين . ولكن هذه الهوام نفسها كانت قد أمست أليفة ، راضية بحالها ذاك في قصرها القائم تحت الارض . لم يعد للبالوعة شيء من ضراوتها البدائية . ان المطر ، الذي كان يوسخ بالوعة العصور الماضية، ليغسلُ بالوعة العصر الحاضر . ولكن حذار ان تثق بها أكثر مما ينبغي . إن الأبخرة الوبيئة لا تزال تقطنها . انها مرائية أكثر منها كاملة خلواً من العيب . فقد ذهبت جهود مديرية الشرطة ومفوضية الصحة أدراج الرياح. إنها على الرغم من جميع عمليات التطهير تطلق رائحة غامضة مرتابة مثل تارتوف* ، بعد الاعتراف .

ولنسلم بأن تنظيف الشوارع ، إذا أخذنا جميع الاشياء بعين الاعتبار، طاعة تقدمها البالوعة إلى الحضارة . ولما كان ضمير تارتوف ، من وجهة النظر هذه ، يمثل تقدماً على أصطبل أوغياس** ، فمما لا ريب فيه أن بالوعة باريس قد تحسنت .

إنه أكثر من تقدم . انه تحوّل . إن بين البالوعة القديمة والبالوعة الحاضرة ثورة . من الذي قام بهذه الثورة ؟

الرجل الذي ينساه الناس جميعاً . والذي ألمحنا اليه . برونيسو .

* بطل احدى ملاهي موليير ، وقد سبق التعريف به .

** Augias ملك ايليدا وكانت له اصاطب (اصطبلات) تضم ثلاثة آلاف ثور . وقد ظلت هذه الاصاطب ثلاثين عاماً من غير تنظيف فأرسل « أوريستيه » هرقل للقيام بهذه المهمة .

٦
التقدم المقبل

إن شق بالوعة باريس لم يكن عملا ضئيلا . فقد اشتغلت القـــرون العشرة الماضية في حفرها من غير ان تقدر على اتمامها إلا بمقدار مـــا أكملت باريس . والواقع ان البالوعة تستقبل جميع العواقب الناشئة عن نمو باريس . فهي ، في باطن الأرض ، شبه اخطبوط مظلم ينمو تحت ، كلما نمت المدينة فوق . فما ان تشق المدينة شارعاً ، حتّى تبسط البالوعة ذراعاً . وكانت الملكية القديمة قد انشأت ثلاثة وعشرين الفـــاً وثلاثمئة متر من البواليع ليس غير . وكانت باريس آنذاك في مطلع كانون الثاني عام ١٨٠٦ . وابتداء من ذلك العهد ، الذي سنتكلم عليه في الحال ، استؤنف العمل وأكمل في جدوى ونشاط : فقد انشأ نابوليون — وهذه الارقام ممتعة — اربعة آلاف واربعمئة متر ؛ وانشأ لويس الثامن عشر خمسة آلاف وسبعمئة وتسعة أمتار ؛ وانشأ شارل العاشر عشرة آلاف وثمانمئة وستة وثلاثين متراً ؛ وانشأ لويس فيليب تسعة وثمانين الفاً وعشرين متراً ؛ وانشأت جمهورية ١٨٤٨ ثلاثة وعشرين الفاً وثلاثمئة وواحداً وثمانين متراً ؛ وانشأ النظام الحالي سبعين الفاً وخمسمئة متر . ومجموع ذلك كله ، في الساعة التي نحن فيها ، مئتان وستة وعشرون الفاً وستمئة وعشرة امتار ؛ ستون فرسخاً من البواليع . احشاء باريس الهائلة . تشعّبٌ مظلم هو ابداً قائم على قدم وساق ؛ إنشاء هائل وغير ملحوظ :

وهكذا نرى أن تيه باريس تحت الأرضي هو اليوم عشرة أضعـاف ما كانت عليه في مستهل القرن أو يزيد . ومن العسير على المرء أن يدرك أي مبلغ من المواظبة والجهد كان ضرورياً للانتهاء بتلك البالوعة إلى نقطة [illegible] النسبي الذي بلغتها اليوم . فالادارة الملكية ، ثم الادارة البلدية

في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر لم تستطيعا إلا في صعوبة بالغة ان تشقا البواليع البالغ طولها خمسة فراسخ والتي كانت موجودة قبل عام ١٨٠٦ . إن جميع ضروب العقبات كانت تعوق هذا العمل ، بعضها خاص بطبيعة التربة ، وبعضها ملتحم باهواء سكان باريس المجدّيـن واوهامهم نفسها . إن باريس مشيدة على طبقات معدنية في باطن الأرض متمردة تمرداً فريداً على المعول ، والمسحاة ، والمسبار ، والسيطـرة الانسانية . وليس ثمـة ما هو أعسر من أن تشق وتنفذ إلى هذا التكون الجيولوجي الذي نُضِد فوقه ذلك التكوّن التاريخي الرائع الذي ندعو باريس. فما ان يبدأ العمل ، تحت أي شكل من الاشكال ، ويغامر في ذلك الشارع الغربيّ حتى تتعاظم المقاومة تحت الارضية . إن ثمة صلصالا مائعاً، وينابيع ماء ، وصخوراً قاسية ، وهذه الوحول الرخوة التي يدعوهـا العلم التقني « خردلا » . والمعول إنما يتقدم بعناء إلى هذه الطبقات الكلسية التي يتراوح خلالها عروق من الصلصال البالغ الرقة وطبقات مُنضدّية ورقيّة مطعّمة بأصداف من محار عاصرت الاوقيانوسات السابقة لعهد آدم . وفي بعض الاحيان كان جدول يصدّع على نحو مفاجيء عقداً شُرع في تشييده ، ويغمر العمال ، أو يتحرك ذائب من السِّجّيل فيندفع ساقطاً بمثل جيَشان شلال ، ساحقاً أعظم عوارض التدعيم الخشبية وكأنها زجاج. وفي فييت ، منذ عهد قريب جداً ، يوم تعيّن على القوم ـ من غـير ان يوقفوا الملاحة أو يُفرغوا القناة ـ ان يمُروا البالوعة المجمّعة تحت قناة سان مارتين نشأ صدع في حوض القناة . وفاضت المياه فجأة في المشغل القائم تحت الأرض على نحو تجاوز طاقة مضخات النزح كلها . فاضطروا إلى التماس الصدع ، الذي كان في مدخل الحوض الكبير ، بواسطـة غطاس ما ، ولم يُرأب إلا بشق النفس . وفي مكان آخر ، قرب ال « سين » ، بل وعلى مسافة ما من النهر ، كما في « بيلفيل » و « غرانـد رو » و « ممر لوينير » مثلا ، نجد رملا ليناً تغوص فيه اقدامنا ، وقد

يغيب المرء وسطه عن العيان . اضف إلى ذلك الاختناقَ بالابخرة الوبيئة ، والتكفن تحت الاتربة المنهارة ، وانخساف القعر فجأة . أضف التيفوس ، الذي يتشربه العمال في بطء . وفي ايامنا هذه ، بعد أن شقوا « دهليز كليشي » ، مع طريق جسريّ لاستقبال انبوب مياه رئيسي من الـ « الأورك » ، وهو عمل نُفّذ في خندق يبلغ عمقه عشرة مترات ؛ وبعد ان قنطروا الـ « بييفر » من « جادة المستشفى » إلى الـ « سين » ، على الرغم من الانهيارات ، وبواسطة الحفريات التي كانت عفنة في كثير من الاحيان ، وبواسطة الدعائم ؛ وبعد ان عمدوا ، رغبة في انقاذ باريس من مياه مونمارتر السيليّة ولفتح منفذ لذلك المستنقع النهري البالغة مساحته تسعة هكتارات والذي ركدت مياهه قرب « باب الشهداء » — نقول بعد ان انشىء خط البواليع من « الباب الأبيض » إلى « طريق أوبرفيلييه » ، في اربعة أشهر ، بلياليها ، على عمق احد عشر متراً ؛ بعد أن أتم—وهو عمل لم نر له مثيلا من قبل — شق بالوعة كاملة تحت الأرض ، في شارع « بار دو بيك » ، من غير خندق ، على عمق ستة مترات تحت سطح الأرض ، بعد ذلك كله قضى مراقب الأعمال ، مونو ، نحبه . وبعد أن قنطر ثلاثة آلاف متر من البواليع فوق مختلف انحاء المدينة ، من شارع « ترافرسيير — سان — انطوان » إلى شارع لورسين ؛ وبعد ان انقذ مفرق « سانسييه موفتار » ، بامتداد آرباليت الفرعي ، من فيضانات الأمطار ؛ وبعد ان بنى بالوعة سان جورج على حجارة مرصوفة واسمنت في الرمل اللين ؛ وبعد ان اشرف على التخفيض الرهيب لسطح امتداد « سيدة الناصرة » ، بعد ذلك كله قضى المهندس دولو نحبه . وليس ثمة على اية حال سجل لاعمال البطولة هذه ، أكثر فائدة ، من سفاك الدماء في ميدان المعركة .

إن بواليع باريس كانت في عام ١٨٣٢ مختلفة جداً عما هي عليه اليوم. كان برونيسو قد أثار المسألة ، ولكن الأمر احتاج إلى الكوليرا لكي

تقرر السلطة إعادة إنشاء البواليع على نحو واسع ، هذه الإعادة التي بدئ بها منذ ذلك الحين . ومن المثير للدهش أن نقول ، مثلا ، انه في عام ١٨٢١ كان جزء من البالوعة المطوّقة ، المدعوة القناة العظمى . شأنها في البندقية (فينيسيا) ، لا يزال منتناً راكداً ، مكشوفاً في وجه السماء ، في شارع الـ « غورد » . ولم تجد مدينة باريس في جيبها مئتين وستة وستين ألفاً وثمانين فرنكاً وستة سنتيمات ، وهو المبلغ الضروري لتغطية هذا العار ، إلا في عام ١٨٢٣ . وآبار الـ « كومبا » والـ « كونيت » و « سان مانديه » المتصلة ، بأفواهها المصرّفة ، واجهزتها ، وبواليعها ، وامتداداتها المنقّبة لا ترقى إلى أبعد من عام ١٨٣٦ . لقد أعيد بناء قناة باريس المعوية من جديد ، وتعاظمت كما قلنا اكثر من عشرة أضعاف خلال ربع قرن .

منذ ثلاثين عاماً ، أيام ثورة الخامس والسادس من حزيران ، كانت البالوعة القديمة لا تزال في كثير من المواطن هي هي تقريباً . إن عدداً كبيراً من الشوارع ، المقنطرة اليوم ، كانت آنذاك طرقاً جسرية جوفاء . وكثيراً ما كنت ترى ، عند النقطة المنحدرة التي تنتهي فيها قنوات شارع أو مفرق طرق ، شباكاً مستطيلة كبيرة ذات أعمدة ضخام يلتمع حديدها وقد صقله وطء أقدام الجماهير ، شباكاً خطرة تزلق عليها العربات ، وتجعل الخيل تكبو . وكانت اللغة الرسمية الخاصة بالطرق والجسور تطلق على هذه المنحدرات والشباك لفظة Cassis * المعبّرة . وفي سنة ١٨٣٢ ، في كثير من الشوارع — شارع النجمة ، وشارع سان لويس ، وشارع التامبل ، وشارع فيي دو تامبل ، وشارع سيدع الناصرة ، وشارع فولي ميريكور ، وشارع الـ « كي أو فلور » ، الـ « بيتي موسك » ، وشارع نورماندي ، وشارع « بون أو بيش » وشارع الـ « ماريه » ، وضاحية سان مارتين ، وشارع سيدة الانتصارات ،

* وتعني قناة تعبر طريقاً .

وضاحية مونمارتر ، وشارع غرانج باتولير في الشان زيليزيه ، وشارع جاكوب ، وشارع تورنون – كانت البواليع القوطية القديمة لا تزال تفتح شدقيها في سخرية . كانت فجوات حجرية ضخمة متبلدة ، محاطة في بعض الأحيان بأنصاب حجرية ، ذات قحة بالغة .

كان لباريس ، عام ١٨٠٦ ، عدد البواليع نفسه تقريباً المحقق في نوار عام ١٦٦٣ : خمسة آلاف وثلاثمئة وثماني وعشرين قامة * . وحسب ارقام برونيسو ، كان ثمة في مطلع كانون الثاني عام ١٨٣٢اربعون الفاً وثلاثمئة متر . ومن عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨٣١ بني سنوياً ، في المعدل الوسطي ، سبعمئة وخمسون متراً . ومنذ ذلك الحين انشيء في كل عام ثمانية آلاف بل عشرة آلاف متر من الدهاليز ، بمواد بنائية صغيرة ثُبِّتت بكلس من ذلك الضرب الذي يتصلب في سرعة تحت الماء على اساس من الاسمنت .

واذا اعتبرنا نفقات المتر الواحد مئتي فرنك تكون بواليع باريس الحالية البالغ طولها ستين فرسخاً قد كلفت ثمانية واربعين مليوناً .

وإلى جانب التقدم الاقتصادي الذي اشرنا اليه في البداءة ، تتصل بهذا الموضوع الهائل – بالوعة باريس – بعض قضايا « علم الصحة العامة » الخطيرة :

تقع باريس بين ملاءتين اثنتين : ملاءة ماء ، وملاءة هواء . فاما ملاءة الماء ، التي تنبسط على عمق غير يسير تحت الأرض ، والتي وُفقنا إلى بلوغها من ثقبين ، فمزودة بطبقة من رمل أخضر قائمة بين الطباشير والكلس الجوراسي ، وفي ميسورنا أن نتصور هذه الطبقة على شكل قرص نصف قطره خمسة وعشرون فرسخاً . إن جمهرة من الأنهار والجداول لتترشح فيها .فنحن نشرب الـ « سين » ، والـ « مارن » ، والـ « يون » ، والـ « واز » ، والـ « إين » ، والـ «شير » ، والـ « فيين » والـ « لوار »

* القامة مقياس طوله ستة اقدام.

في كأس ماء من بئر غرونيل . إن ملاءة الماء نافعة للصحة ؛ إنها تنبثق من السماء أولاً ومن الأرض بعد ذلك . أما ملاءة الهواء فغير صحية ؛ انها تنبع من البالوعة . فجميع الابخرة الوبيئة المنبعثة من البواليع تمتزج بتنفس المدنية، ومن هنا ذلك النفس الكريه . والهواء الذي يتنشقه المرء من فوق مزبلة — وهذا ثابت علمياً — أطهر من الهواء الذي يتنشقه من فوق باريس » وفي فترة من الزمن بعينها ، حين يسعف التقدم ، وتبلغ الآلية كمالها ، ويتعاظم النور سوف يكون في ميسورنا ان نصطنع ملاءة الهواء . يعني لغسل البالوعة . ونحن نقصد بغسل البالوعة طبعاً : ارجاع الوحل لى الأرض ، واعادة الزبل إلى التربة ، والقذر إلى الحقول . ولسوف يفيد المجتمع كله ، من هذا العمل البسيط ، إنقاصاً للشقاء وزيادة في الصحة . وفي الساعة التي نحن فيها يمتد اشعاع امراض باريس إلى خمسين فرسخاً حول اللوفر ، بوصفه مركز هذا الدولاب الوبائي .

وفي ميسورنا ان نقول ان البواليع كانت ، طوال عشرة قرون ، داء باريس . ان البالوعة هي الآفة التي تحملها المدينة في دمها . والغريزة الشعبية لا تخطىء ابداً . فقد كادت صناعة البواليع ان تكون في الأيام الماضية خطرة وكريهة إلى الناس كصناعة القصّاب تقريباً ، هذه الصناعة التي ظلت مرهوبة زمناً والتي تُركت للجلاد . ولقد كانت السلطة تضطر إلى دفع راتب عال لكي تقنع بنّاء ما ، بالاختفاء في هذا الخندق النتن ؛ وكانت سلم حافر الآبار تتردد في الغوص فيه . وكان يقال في الامثال : نزول المرء إلى البالوعة كنزوله إلى القبر . وكانت جميعُ ضروب الخرافات الرهيبة تغطي بالذعر ، كما قلنا ، هذه البالوعة الهائلة ؛ بالوعة مروّعة تحمل آثار ثورات الكرة الأرضية كما تحمل آثار ثورات الناس ، ونقع فيها على آثار للفيضانات العظمى كلها منذ محارة الطوفان حتى خرقة مسارا .

الكتاب الثالث

وَحْل، ولكن رُوح

١

البالوعة ومفاجآتها

وفي بالوعة باريس بالذات وجد جان فالجان نفسه .

وشبه آخر بين باريس والبحر . إن الغاطس يستطيع أن يغيب فيها كما يستطيع ان يغيب في الاوقيانوس .

كان الانتقال خارقاً . فمن وسط المدينة ذاته كان جان فالجان قد غادر المدينة ؛ وبطرفة عين ، الوقت الضروري لرفع غطاء واعادته إلى مكانه ، كان قد انتقل من وضح النهار إلى الظلمة الكاملة ، من الظهر إلى منتصف الليل ، من الضوضاء إلى الصمت ، من هزيم الرعد إلى

ركود القبر . وبتحول أكثر إعجازاً من تحول شارع بولونسو نفسه ، من أقصى حدود الخطر إلى أقصى حدود الأمن .

سقوط مفاجىء في قبو ؛ اختفاء في حبس باريس المظلم . كانت لحظة مذهلة تلك التي تعيّن عليه فيها ان يغادر ذلك الشارع الماثل فيه الموتُ في كل مكان الى هذا الضرب من القبر الذي تسري فيه الحياة . وظل بضع ثوان وكأنه مصعوق ، وانشأ يصغي منشدهاً . كان فخ السلامة قد انفتح تحته فجأة . وكان اللطف السماوي قد غدر به بمعنى من المعاني . أشراك رائعة تنصبها العناية الالـٰهية !

مع فارق واحد هو ان الرجل الجريح لم يتحرك قط . ولم يدرِ جان فالجان ما إذا كان هذا الذي يحمله في ذلك القبر حياً أو ميتاً .

كان احساسه الأول هو العمى . إنه لم يعد يرى شيئاً . فجأة . وبدا له أيضاً انه قد أمسى أصم –في دقيقة واحدة . انه لم يعد يسمع شيئاً . وعاصفة التقتيل المسعورة الثائرة على مسافة بضعة اقدام فوقه لم تصل اليه ، كما قلنا ، بفضل سماكة الارض التي تفصله عنها ، إلا مخنوقة وغير واضحة ، مثل ضجة على عمق كبير . لقد استشعر ان الأرض صلبة تحت قدميه . ذلك كان كل شيء . ولكنه كان كافياً . وبسط احدى يديه ، ثم بسط الاخرى ، ومسّ الجدار من الجانبين ، وادرك ان المجاز كان ضيقاً . وزلت قدمه ، وادرك ان البلاط مبلل . وقدّم رجلا في حذر ، خائفاً ان تصادف ثقباً ، أو بالوعة ، أو هوة . واستيقن أن البــلاط متصل . وأنبأته هبّة من نتانة اين كان .

وبعد بضع لحظات عاودته القدرة على الابصار . لقد سقط ضياء قليل من المنفذ الذي انزلق منه ، واخذت عينه تألف هذا الكهف . وبــدأ يتبّين شيئاً . كان المجاز الذي ووري فيه – إن اىما كلمة اخرى لا تصور الوضع تصويراً أفضل – موصداً خلفه بجدار . كان واحداً من تلك الدروب غير النافذة التي تدعى في اللغة الفنية امتداداً فرعياً . وأمامه كان جدار

آخر ، جدار الليل . لقد تلاشى الضياء الوافد من المنفذ على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من النقطة التي كان جان فالجان واقفاً فيها ، ولم يكد يُحدث على بضعة أمتار من جدار البالوعة الرطب غير بياض شاحب . ووراء ذلك المكان كانت اللاشفافية كثيفة . وبدا اختراقها رهيباً ، وبدا الدخول اليها أشبه شيء بذهاب المرء ضحية التهام اللجة . بيد انه كان في مسور المرء ان يشق طريقه عبر جدار الضباب هذا ، وان عليه ان يفعل . بل إن عليه ان يعجل . وفكر جان فالجان ان تلك الشبكة الحديدية ، المنظورة من جانبه تحت بلاط الشارع ، يمكن ان يلاحظها الجنود أيضاً ، وإنما كان ذلك كله رهناً بالمصادفة . وكان في استطاعتهم أيضاً أن يهبطوا إلى هذه البئر ويفتشوا فيها . لم تكن ثمة دقيقة يمكن ان تضاع . كان قد وضع ماريوس على الأرض ، فجمع شتاته ــ وهذا أيضاً هو التعبير الصحيح ــ واعاد حمله على كتفيه ، وبدأ سيره . لقد دخل تلك الظلمة في عزم .

والحق انهما لم يكونا في نجوة من الخطر إلى الحد الذي خاله جان فالجان . لعل مخاطر من نوع آخر ، ولكنها ليست أقل شأناً ، كانت تنتظرهما . فبعد إعصار المعركة الساطع جاء كهف الابخرة الوبيئة والأشراك. وبعد العماء والاختلاط جاءت البالوعة . كان جان فالجان قد سقط من احدى دوائر الجحيم إلى اخرى .

وعند نهاية الخطوات الخمسين اضطر إلى التوقف . لقد برز سؤال . كان المجاز ينتهي إلى معبر آخر ضيق يلتقي به بالعَرض . وهكذا كان أمامه طريقان . فأيهما يسلك ؟ أيجب عليه ان يستدير إلى الشمال أم إلى اليمين ؟ كيف يتجه في هذا التيه الاسود ؟ كان لهذا التيه ، كما اشرنا من قبل ، مفتاح هو منحدره . وكان التزام المنحدر يعني الذهاب إلى النهر .

وفهم جان فالجان ذلك في الحال .

وقال في ذات نفسه انه ، غالباً ، في بالوعة الاسواق ، وانـه إذا اختار الاتجاه إلى اليسار وتابع سيره في المنحدر ، فعندئذ يصل في أقل من ربع ساعة إلى مصب ما على الـ « سين » بين « جسر الشانج » و « الجسر الجديد » ، يعني انه سيعاود الظهور في وضح النهار في أحفل اجـزاء باريس بالسكان . انه قد ينتهي إلى تجمع ما لبعض المتسكعين في الشوارع . ويصاب عابرو السبيل بالذهول لرؤيتهم رجلين مخضبين بالدم ينبثقان من باطن الأرض تحت أقدامهم . ويصل رجال الشرطة ، ويدعى الجند في مركز الحراس المجاور إلى تقلد السلاح . ويلقى عليه القبض قبل ان يتمكن من الخروج . كان من الافضل أن يغوص في التيه ، أن يثق بهذه الظلمة ، وان يتكل على العناية الالـهية في هذه المسألة .

واختار الاتجاه إلى اليمين ، وراح يصعد في المرتقى .

حتى إذا انعطف حول زاوية الدهليز ، اختفى ضوء المنفذ الضئيـل القصي ، وعاد حجاب الظلمة يجلله من جديد ، وغدا أعمى كرة اخرى ؟ ومع ذلك فقد واصل تقدمه ، وبأقصى ما استطاع من السرعة . كانت ذراعا ماريوس تحيطان بعنقه وكانت قدماه تتدليان خلفه . وامسك ذراعي ماريوس باحدى يديه ، وتحسس الجدار بالاخرى . ومس خد ماريوس خده والتصق به ، بوصفه دامياً . لقد احس بسيل حار ، منبثـق من ماريوس ، يجري فوقه ويخترق ثيابه . ومع ذلك ، فان دفئاً رطباً عند أذنه ، التي مست فم الرجل الجريح ، كان يؤذن بالتنفس ، ويؤذن من ثم بالحياة . كان المجاز الذي تحرك جان فالجان فيه الآن أقل ضيقاً من المجاز الأول . لقد مشى جان فالجان فيه بصعوبة فلم تكن امطـار اليوم السابق قد صُرِّفت كلها ، وكانت قد أنشأت سيلا صغيراً وسط البالوعة ؛ وكان مضطراً إلى الالتصاق بالجدار لكي يبقي قدميه خـارج الماء . وهكذا مضى لسبيله في الدجنة . لقد أشبه مخلوقات الليل المتلمسة طريقها في اللامنظور ، الضائعة تحت الأرض في عروق الظلام .

ومع ذلك . فشيئاً بعد شيء ،عاودته القدرة على بعض الإبصار الغامض ـ سواء بسبب من ان بعض المنافذ بعثت بقليل من الضوء الطافي في هذا الضباب الكثيف ، أو بسيب من أن عينيه أصبحتا تألفان الظلمة ـ وبدأ يُلم الماماً غامضاً بالجدار الذي كان يمسه ، حيناً . وبالعقد الذي كان يمشي تحته ، حيناً آخر . إن الحدقة تتسع في الظلام ، ثم تجد النهـار فيه ، كما تتسع الروح في الشقاء وتنتهي باكتشاف الله فيه .

وكان اهتداؤه إلى السبيل عسيراً .

إن تخطيط البواليع لبردد . إذا جاز التعبير ، صدى تخطيط الشوارع القائمة فوقها . كان في باريس ذلك العهد ألفان ومئتا شارع . فليتخيل كل امريء ، تحتها ، تلك الغابة من التشعبات المظلمة التي ندعوها البالوعة. ولو أن البواليع التي كانت موجودة في ذلك العهد وُصلت اطرافهـا في خط مستقيم اذن لبلغ طولها أحد عشر فرسخاً . ولقد سبق منا القول ان الشبكة الحاضرة لا يقل طولها ، بفضل النشاط الاستثنائي الذي تم في السنوات الثلاثين الأخيرة ، عن ستين فرسخاً

وبدأ جان فالجان بغلطة . لقد ظن انه تحت شارع سان دونيز . وكان من سوء طالعه انه لم يكن هناك . ان تحت شارع سان دونيز بالوعـة حجرية عتيقة ترقى إلى عهد لويس الثالث عشر ، وتمضي في خـــط مستقيم إلى البالوعة المجمّعة ، المسماة البالوعة العظمى . وهي ذات منعطف واحد ، إلى اليمين ، على ارتفاع « فناء العجائب » القديم ، وفرع واحد ، بالوعة سان مارتين ، تتقاطع أذرعه الاربعة على شكل صليب . ولكن دهليز الـ « بيتيت تروواندري » الذي كان المدخل اليه قرب حانة كورنث لم يتصل قط بالجزء القائم تحت الأرض من شارع سان دونيز . إنه ينتهي إلى بالوعة مونمارتر ، وفي هذه البالوعة بالذات كان جـان فالجان قد تورط . هناك كانت امكانيات الهلاك موفورة . فبالوعة مونمارتر من أعقد بواليع الشبكة القديمة وادعاها إلى الضلال . ومن حسن حظ

جان فالجان انه كان قد خلّف وراءه بالوعة الاسواق التي يمثل مخططها الهندسي جمهرة من سواري الببغاء المتشابكة . ولكنْ كان أمامه اكثر من لقاء مُربك ، واكثر من زاوية شارع — لأن هذه هي شوارع — تتمثل في الظلمة مثل علامة تعجب . كان إلى يساره ، اولا ، بالوعة الـ « بلاتريير » العريضة ، ضربٌ من الاحجية الصينية ، مُطيلةً ومشوِّشة عماءها المؤلف من اشكال تشبه حرفي T و Z تحت الـ « اوتيل دي بوست» وتحت البناء المدور المقبب الخاص بسوق القمح حتى الـ « سين » حيث تنتهي بما يشبه حرف Y . وكان إلى يمينه ، ثانياً ، رواق شـــارع « كادران » الملتوي بأسنانه الثلاث التي تتألف من جمهرة من الطرق غير النافذة . وكان إلى يساره ، ثالثاً ، امتداد الـ « ميل » المشتبك منذ مدخله تقريباً بضرب من امتداد المذراة ، المتقدم في خطوط متعرجة إثر خطوط متعرجة ، لينتهي آخر الأمر إلى سرداب اللوفر المفرّغ الضخم ، المقطّع والمتشعب في جميع الاتجاهات . وأخيراً ، كان إلى يمينه مجاز شـــارع « الجوتور » غير النافذ ، عدا المواطـن المنعزلة هنـا وهناك ، قبل أن يصل إلى البالوعة المركزية التي تستطيع وحدها ان تقوده إلى منفذ ما قصي إلى درجة تجعله آمناً .

ولو قد كان لجان فالجان أي معرفة بما ذكرناه اللحظة اذن لادرك في سرعة ، من مجرد مس الجدار ، انه لم يكن في الدهليز تحت الأرضي من شارع سان دونيز . وبـدلاً من الحجر العتيق المنحوت ، وبدلا من الهندسة المعمارية القديمة ، المتعجرفة والملوكية حتى في البالوعة ، ذات الارضية والمداميك الغرانيتية والملاط الكثيف الكلس ، التي تكلف الياردة الواحدة منه ثمانمئة ليرة ، بـدلا من هذا كله كان خليقاً به أن يستشعر تحت يده الرُّخص المعاصر والتدبير الاقتصادي ، وحجارة الرحى المنثورة فوق ملاط مائي على طبقة من الاسمنت يكلف المتر الواحد منها مئتي فرنك ، وهندسة المعمار البورجوازية المعروفة بمواد البناء الصغيرة . ولكنه

ما كان يعرف شيئاً من ذلك كله .

وتقدم إلى أمام ، في حصر ، ولكن في هدوء ، غير مبصر شيئاً ، غير عارف شيئاً ، غائصاً في المصادفة ، يعني مغموراً بالعناية الالـهية .

وشيئاً بعد شيء – ويتعين علينا ان نقول ذلك – ساوره شيء من الرعب . لقد دخل الظلام الذي غلّفه إلى عقله . كان يمشي في احجية . ان قناة البالوعة هذه لرهيبة ، إنها تتشابك على نحو يوقع الدوار في الرأس . وإنه لشيء كئيب أن يقع المرء في شرك باريس الظلمة هذه . واضطر جان فالجان إلى أن يكتشف ، بل إلى أن يخترع تقريباً ، طريقه من غير ان يراها . وفي ذلك المجهل كان من الجائز ان تكون كل خطوة يغامر في القيام بها هي الخطوة الأخيرة . كيف السبيل إلى خروجه من هناك ؟ أيتعين عليه ان يجد مخرجاً ؟ وهل سيوفق إلى اكتشافه في الوقت المناسب؟ هل ستجيز له هذه الأسفنجة ، تحت الارضية ، الهائلة ذات الخـلايـا الحجرية ان ينفذ اليها ويخترقها ؟ هل يواجه عقدة ظلام غير متوقعة ؟ هل يلاقي ما هو مستعص وما لا يمكن تجاوزه ؟ هل يموت ماريوس من نزف الدم ، ويموت هو من الجوع ؟ هل يهلكان كلاهما ، هناك ، آخر الأمر ، ويصبحان هيكلين عظمين في زاوية من زوايا ذلك الليل ؟ لم يكن يدري . لقد طرح على نفسه هذه الاسئلة كلها ولكنه عجز عن الجواب . ان مصران باريس هاوية . لقد كان جان فالجان ، شأن النبي ، في جوف الهولة .

وفجأة استبد به الدهش . فلحظة كان اقل ما يكون توقعاً لذلك ، ومن غير ان يكف عن السير في خط مستقيم ، اكتشف انه لم يعـد يصعد البتة . لقد اخذت مياه الجدول تصدم عقبيه بدلا من ان تصدمه عند أعلى قدميه . لقد انخفضت البالوعة ، الآن . ماذا ؟ هل يصل قريباً إلى «السين» ؟ كان هذا الخطر عظيماً ، ولكن خطر الارتداد كان اعظم. وواصل تقدمه .

إنـه لم يكن يتجه نحو الـ «سين» . والسنام الذي تشكله طوبوغرافيا باريس على الضفة اليمنى يُفرغ احد منحدريه في الـ «سين» ، والآخر في البالوعة العظمى . وقمة هذا السنام التي تعيّن انقسام المياه تتبع خطاً مُقلباً إلى حد بعيد . اما الذروة ، التي هي نقطة انقسام السيل ، فهي في بالوعة سان آفوا ، وراء شارع ميشيل دو كونت ، في بالوعة اللوفر، قرب الجادات ، وفي بالوعة مونمارتر ، قرب الاسواق . وإلى تلك الذروة كان جان فالجان قد وصل . كان يتخذ سبيله نحو البالوعـــة المطوّقــة ، كان يسلك الطريق الصحيح . ولكنه لم يعرف من ذلك شيئاً .

كان كلما انتهى إلى تشعب جديد تلّمسَ الزوايا ، فاذا وجد الفتحة أقل عرضاً من الرواق الذي كان فيه لم يدخل ، وتابع طريقه ، مقدراً بحق ان كل طريق أضيق لا بد ان تنتهي إلى زقاق غير نافذ ، وان تبعده عن الهدف ، يعني عن المخرج . وهكذا اجتنب الوقوع في الشرك الرباعي الذي نصبته له في الظلام تلك المتايهُ الأربعة التي عددناها منذ لحظـة .

وفي احدى اللحظات ، استشعر انه يبتعد من تحت باريس التي حجّرتها الفتنة ، حيث عطلت المتاريس حركة المواصلات ، وانه كان يعاود الدخول إلى ما تحت باريس الناشطة السوية . وفجأة ، سمع فوق رأسه صوتاً كالرعد ، قصياً ولكنه موصول . تلك كانت اصداء العربات المنطلقـة .

كان قد سلخ نحواً من نصف ساعة وهو يمشي ، وفقاً لحسابه على الأقل ، ولم يكن قد فكر بعد في الراحة . كل ما في الأمر أنه غيّر اليد التي كانت تحمل ماريوس . كانت الظلمة احلك منها في اي لحظة مضت، ولكن هذا العمق أعاد الثقة إلى نفسه .

وفجأة رأى خياله أمامه . لقد برز فوق احمرار واهن يكاد يكون غير واضح ، خضّب الأرض عند قدميه والعقدَ فوق رأسه بالارجوان

تخضيباً غامضاً ، وانزلق إلى يمينه وإلى يساره على جداري الرواق الدبقين.
واستدار في ذهول :

ووراءه ، في ذلك الجزء من الدهليز الذي اجتازه ، وعلى مسافة بدت له هائلة ، توهج – مرسلا اشعته إلى الظلمة الكثيفة ، شبهُ كوكب رهيب بدا وكأنه ينظر اليه .

كانت نجمة البوليس القائمة هي التي اخذت تطلُع في البالوعة .

وخلف هذه النجمة كان يتحرك ، في غير نظام ، ثمانية أو عشرة أشكال سوداء ، مستقيمة ، فظيعة ، غير واضحة .

٢
تفسير

في اليوم السادس من حزيران كانت السلطة قد اصدرت أوامرها بتفتيش البواليع . لقد خشيت أن يفزع اليها المغلوبون ، فكان على مدير الشرطة جيسكيه ان يفتش باريس المستورة ، وكان على الجنرال بوغو أن يكنس باريس العمومية ؛ عملية متشابكة مزدوجة اقتضت استراتيجية مزدوجة من القوات العامة الممثلة في المحل الأعلى بالجيش وفي المحل الادنى بالبوليس . ورادت ثلاث مفارز من رجال الشرطة وعمال البواليع شوارع باريس تحت الأرضية : الأولى رادت الضفة اليمنى ، والثانية رادت الضفة اليسرى ، والثالثة طوّفت في المدينة .

كان رجال الشرطة مسلحين بالبنادق القصيرة الخفيفة ، والنبابيت ، والسيوف ، والخناجر .

وكان الذي وُجّه في هذه اللحظة إلى جان فالجان هو فانوس العسس المطوفين في الضفة اليمنى .

وكان هؤلاء العسس قد زاروا ، منذ لحظة ، الدهليز الملتوي والدروب الثلاثة غير النافذة الممتدة تحت شارع « كادران » . وفيما كانوا يجيلون مشعلهم في قعر هذه الدروب غير النافذة ، كان جان فالجان قد صادف في طريقه مدخل الدهليز ، وكان قد وجده أضيق من المجاز الرئيسي ، فلم يدخله . كان قد تجاوزه ، وكان رجال الشرطة قد ظنوا ، عند دهليز « كادران » ، انهم سمعوا وقع أقدام في اتجاه البالوعة المطوّقة . كان ذلك في الحق وقع خطوات جان فالجان . ورفع قائد العسس فانوسه وشرعت الفرقة تحدق في الظلام إلى حيث انبعث الصوت :

تلك كان لحظة لا سبيل إلى وصفها ، بالنسبة إلى جان فالجان :

واذا كان قد رأى الفانوس جيداً ، فان الفانوس لم يره ، لحسن حظه ، إلا على نحو رديء . كان الفانوس ضياء ، وكان هو ظلاماً : كان بعيداً جداً ، يغمره سواد المكان . وانزوى في جانب الجدار ، ووقف .

ومع ذلك ، فانه لم يكوّن فكرة عما كان يمشي خلفه هناك . كان الأرق والجوع والانفعال قد القت به ، هو ايضاً ، في الحالة الوهمية . لقد رأى التماعاً ، ورأى حول ذلك الالتماع بعض البرقانات * . أي شيء كان ذلك ؟ إنه لم يفهم .

حتى إذا وقف جان فالجان انقطعت الضجة :

واصغى العسس ، فلم يسمعوا شيئاً ، ونظروا ، فلم يروا شيئاً . وتشاوروا .

وكان على هذه النقطة من بالوعة مونمارتر ، آنذاك ، شبه مفرق طرق يدعى « دو مرفيس » ألغي منذ ذلك الحين بسبب من البحيرة الداخلية الصغيرة المتشكلة فيه نتيجة لانحصار مياه الامطار وسيولها ، هناك ، اثناء العواصف القوية . وكان في ميسور العسس ان يتجمعوا في مفرق

* البرقانة ، دودة تتحول الى حشرة .

الطرق ذاك .

ورأى جان فالجان هذه البرقانات تشكل شبه دائرة . وتقاربت رؤوس هذه الكلاب الكبيرة ، وتهامست .

وكانت نتيجة هذا المؤتمر الذي عقدته كلاب الحراسة ان القوم كانوا مخدوعين ، وانه لم تكن ثمة ضجة ، ولم يكن ثمة احد ، وان من العبث الذي لا طائل تحته ان يتورطوا في البالوعة المطوقة ، وان ذلك مضيعة للوقت ، ولكن عليهم أن يسرعوا في اتجاه سان ميرّي ، وانه إذا كان ثمة ما يُعمل واذا كان ثمة « قبعة بحرية » يجب ان يُقْتَصّ اثرها فينبغي ان يتم هذا في ذلك الحي .

فبين الفينة والفينة تضع فرق الجند نعالا جديدة لاهاناتها العتيقة . وفي عام ١٨٣٢ كانت كلمة « قبعة بحرية » *bousingot* تمثـــل مرحلة الانتقال بين كلمة « يعقوبي » *jacobin* التي كانت قد بليت ، وكلمة « ديماغوجي» *demagogue* التي كانت قد أمست غير مستعملة تقريباً والتي كانت قد أدت منذ ذلك الحين خدمة ممتازة ضخمة جداً .

واصدر الضابط أمره بالانحراف يساراً نحو منحدر الـ « سين » . ولو قد خطر لهم ان ينقسموا فرقتين ويمضوا في كلا الاتجاهين اذن لوقع جان فالجان في الاسر . كان ذلك متوقفاً على هذا الخيط الواهي . واغلب الظن ان تعليمات مديرية البوليس ، وقد توقعت نشوب معركة وقدرت ان يكون عدد المتمردين كبيراً ، حظرت على العسس ان يتفرقوا . واستأنفت الدورية سيرها ، مخلفة جان فالجان وراءها . ومن هذه الحركات كلها لم يحس جان فالجان إلا بكسوف الفانوس الذي استدار في الحال .

ولكي يريـح الضابط ضميره البوليسي اطلق نار بندقيته القصيرة ، قبل مغادرته المكان ، في اتجاه النقطة التي كانوا يغادرونها ، اي نحـــو جان فالجان . وكرّ الدوي من صدى إلى صدى في العقد مثل قرقرة ذلك المعي الهائل . وكان في بعض الجبسـين الذي تساقط في السيل فأهاج المياه

هياجاً خفيفاً على بضع خطوات من جان فالجان ما جعله يدرك ان الرصاص كان قد اصاب العقد فوق رأسه .

وتصاعدتْ خطوات بطيئة موزونة على ارض الشارع فترة من الزمن ، وكانت تلك الاصداء تزداد وهناً على وهن كلما تعاظم تباعد المسافة التدريجي ، وغاب الجمع ذو الاشكال السوداء ، وتذبذب وميضٌ وانشأ يطنو ، محدثاً في العقد قوساً ضارباً إلى الحمرة تضاءل ثم اختفى ،وامست الظلمة عميقة كرة اخرى ، وعاد العمى والصمم فاستبدا بالعتمة من جديد . وظل جان فالجان ، ولم يكن قد جرؤ بعد على الحركة ، واقفاً فترة طويلة مولياً الجدار ظهره ، مرهف الاذنين ، متسع الحدقتين ، مراقباً تلاشي دورية الاشباح تلك .

٣
المطاردة المتربصة

وينبغي ان نعترف لشرطة ذلك العهد بأنها كانت تؤدي واجباتها الحراسية والصحية ، حتى في أشد الازمات الشعبية خطراً ، في هدوء ورباطة جأش . انها ما كانت لترى في نشوب الفتنة ذريعة لالقاء حبل الاشرار على غواربهم ، أو لأهمال المجتمع لأن الحكومة في خطر . كان الواجب الاعتيادي يؤدى على احسن وجه بالاضافة إلى الواجب الاستثنائي ، ولم يكن هذا الاخير ليعوق الاول . ففي غمرة من وقوع حدث سياسي ضخم ، وتحت ضغط من ثورة قد تنشب ، كان ضباط الشرطة يطاردون اللصوص في تربص ، غير مجيزين للفتنة وللمتراس ان يصرفاهم عن مهمتهم .

إن شيئاً مثل ذلك بالضبط حدث بعد ظهر اليوم السادس من حزيران

على شاطىء الـ « سين » ، منحدر الضفة اليمنى ، وراء جسر الانفاليد بقليل .

وليس ثمة اليوم منحدر لتلك الضفة ، فقد تغيرت معالم المكان ؛

لقد بدا وكأن رجلين ، تفصل ما بينهما مسافة ما ، كانا يتخالسان النظر ، عند ذلك المنحدر ، ويحاول كل منهما أن يجتنب الآخر . كان الرجل المتقدم يحاول أن يوسع الشقة الفاصلة ، وكان الرجل المتخلف يحاول أن ينقصها .

كان ذلك اشبه بلعبة شطرنج تُلعب من بعيد ، وعلى نحو صامت ؛ ان اياً منهما لم يبد مسرعاً ، ولقد مشيا كلاهما في بطء ، وكأن كلاً منهما كان يخشى ان يكون في مبالغته في الاسراع ما يضاعف سرعة خطوات مُلاعبه .

كان في ميسور المرء ان يقول انها شهوة إلى الطعام تطارد فريسة ما ، من غير أن يبدو وكأنها تفعل ذلك عن عمد ؛ وكانت الفريسة مخادعة ، وكانت تلتزم الحذر .

وروعيت النسب المطلوبة بين النمس المطارَد والكلب المطارِد . كان لذلك الذي يحاول ان يفر مشية واهنة ومحيا مهزول . وكان ذلك الذي يحاول المطاردة — وهو رجل فارع الطول — قاسيَ المظهر ، ولا ريب في انه كان قاسي المخبر .

كان الأول ، وقد استشعر انه اضعف الرجلين ، يحاول التخلص من الثاني ، ولكنه كان يفعل ذلك على نحو ضارٍ جداً . ولو قدر لأحد ان يلاحظه اذن لرأى في عينيه ضغينة الفرار القاتمة ، وجميع ما في الخوف من توعد .

كان الشاطيء مهجوراً . لم يكن ثمة احد من عابري السبيل . بل لم يكن ثمة ربابنة زوارق أو ناقلو بضائع من السفن إلى البر فوق القوارب

المسطحة المربوطة بالأقلاس * هنا وهناك .

ولم يكن في الامكان روئية هذين الرجلين في يسر إلا من رصيف النهر المقابل . ولقد كان خليقاً بذلك الرجل ، الماشي في المقدمة ، ان يبدو لمن قدّر له ان يراه من تلك المسافة ، وكانه مخلوق شائك ، ممزق الثياب ذليل ، قلق مرتعد تحت درّاعة بالية ، وخليقاً بذلك الرجل الآخر ان يبدو مثل شخص كلاسيكي رسمي يرتدي معطف السلطة مزرراً حتّى الذقن .

ولعله كان في ميسور القاريء ان يعرف هذين الرجلين لو رآهما من مسافة أقرب .

ما كانت غاية الرجل الأخير ؟

لعلها كانت إلباسَ الأول ثياباً أكثر دفئاً .

فحين يطارد رجل يرتدي ملابسه باسم الدولة رجلا يرتدي اسمالا بالية فهو إنما يفعل ذلك لكي يلبسه هو أيضاً ملابس من عمل الدولة . إن اللون وحده هو الذي يقرر المسألة كلها ، فالملابس الزرقاء تضفي عليك المجد ، والملابس الحمراء تثير كراهيتك .

إن ثمة ارجوانَ أعماق .

ولعل الرجل الأول كان يرغب في اجتناب مكروه ما ، أو الفرار من مثل هذا الضرب من الارجوان .

واذا كان الآخر يجيز له ان يتابع سبيله من غير أن يلقي القبض عليه فقد كانت جميع المظاهر تدل على انه كان يفعل ذلك املا في ان يراه ينتهي إلى موعد ذي شأن ، أو إلى عدد من المغانم السمينة . وهذه العملية الدقيقة تدعى « المطاردة المتربصة » .

والذي يرجح هذا الظن هو ان صاحب السترة المحكمة التزرير ، وقد لمح من الشاطيء عجلة كراء تمر بالرصيف فارغة ، اشار إلى السائق ،

* القلس : حبل ضخم للسفينة من خوص او غيره .

وفهم السائق ، مدركـاً من غير شك من الذي كان يخـاطبه ، وادار حصانه ، وشرع يتبع الرجلين في القسم الأعلى من الرصيف باكثر ما تستطيعه العربة من بطء . إن الشخص المبهم الرث الثياب ، الماشي في الجهة الامامية ، لم يلحظ ذلك ؛

وكرت العجلة بحذاء اشجار الشان زيليزيه . كان في امكان المرء ان يرى جذع السائق يتحرك فوق الحاجز ، والسوط في يده .

إن تعليمات الشرطة السرية لرجالها تنطوي على هذه المادة : « ليكن في متناولكم دائماً عربة تستطيعون امتطاءها عند الحاجة . »

وفيما كان هذان الرجلان يناوران ، كل من ناحيته ، باستراتيجيـة خلو من العيب ، اقتربا من احد منحدرات الرصيف الهابطة حـتى الشاطىء ، والتي كانت تساعد سائقي العربات القادمة ، في ذلك العهد ، من « باسي » ، على الذهاب إلى النهر لاطفاء ظمأ خيولهم . ولقد ازيـل هذا المنحدر ، منذ ذلك الحين ، ابتغاء الانسجام . إن الخيل لتموت ظمأ ، ولكن العين قريرة .

لقد بدا أن من المتوقع أن يصعّد الرجل ذو الدراعة في هذا المنحدر لكي يحاول الفرار إلى الشان زيليزيه ، وهو موطن مزدان بالاشجار ، ولكنه غاصّ برجال الشرطة ، حيث كان في إمكان الرجل الآخر أن يقبض عليه بيد قوية .

وهذه النقطة من الرصيف قريبة جداً من المنزل الذي حمله الكولونيل براك من موريه إلى باريس ، عام ١٨٢٤ ، والمدعو بيت فرنسيس الأول. كان ثمة مركز للحراسة قائم على مقربة دانية من هناك .

ولكن الرجل المطارَد لم يتخذ سبيل منحدر المنهل ، مثيراً بذلك دهشة المراقب البالغة . لقد واصل تقدمه على الشاطىء في محاذاة الرصيف .

كان وضعه قد أمسى حرجاً على نحو واضح .

واذا لم يكن يقصد إلى القاء نفسه في الـ « سين » فما الذي يبتغي

أن يفعله ؟

لم يعد ثمة ، منذ الآن، ايما وسيلة لارتقاء الرصيف . لم يكن هنالك لا منحدر ولا سلم . وكانا جد قريبين من تلك البقعة التي ينعطف الـ « سين » عندها نحو جسر إيينا ، حيث يضيق الشاطيء شيئاً بعد شيء لينتهي بلسان طويل ، ويغيب تحت الماء . وهناك كان لا بد من ان يجد نفسه محصوراً بين الجدار الشديد الانحدار ، إلى يمينه ، والنهر إلى يساره وتجاهه ، والسلطة وراءه .

صحيح ان أقصى الشاطيء هذا كان محجوباً عن النظر بركام من الردم يتراوح ارتفاعه ما بين ستة أقدام أو سبعة أقدام ، نتيجة لتخريب ما . ولكن أكان هذا الرجل يطمع في الاختباء ، على نحو مفيد ، خلف ركام الردم هذا الذي لم يكن على الرجل الآخر إلا ان يستدير حوله ؟ لقد كان خليقاً بتلك الحيلة ان تكون صبيانية . وليس من ريب في انه لم يفكر بها البتة . إن براعة اللصوص لا تبلغ هذا الحد .

واحدث ركام الردم ضرباً من الرابية ، عند حافة الماء ، تطاول مثل رأس أرضي حتى جدار الرصيف .

وبلغ الرجل المطارَد هذه التلة الصغيرة ، وتجاوزها بحيث لم يعد في ميسور الآخر أن يراه .

واذ لم يعد في ميسور الرجل الآخر أن يرى فانه ما عاد يُرى . وأفاد من هذا الوضع لكي يتخلى عن المواربة كلها ، ولكي يغذّ السير . وما هي إلا بضع ثوان حتى انتهى إلى ركام الردم واستدار حوله . وهناك ، وقف في انشداه . كان الرجل الذي طارده قد اختفى .

لقد ألمّ بالرجل ذي الدراعة كسوف كامل .

ولم يكن طول الشاطيء المتمد خلف ركام الردم ليزيد على ثلاثين خطوة ، ليغوص بعد ذلك في المياه المتلاطمة على جدار الرصيف .

لقد كان من المتعذر على الآبق ان يقذف بنفسه في الـ « سين » ، أو

ان يتسور رصيف النهر من غير ان يراه ذلك الذي كان يتعقبه . ما الذي حل به ؟

ومشى الرجل ذو السترة الطويلة المحكمة الازرار إلى أقصى الشاطىء ، ووقف هناك لحظة مفكراً ، وقد تشنج جمعا كفيه ، وشرعت عيناه تبحثان . وفجأة ضرب جبينه براحة يده . كان قد لاحظ في النقطة التي انتهت اليابسة عندها وبدأ الماء ، شبكة حديدية عريضة منخفضة ، مقوسة ، ذات قفل ثقيل وثلاث رزات ضخام . وكانت هذه الشبكة الحديدية ، وهي ضرب من الباب اقيم في قعر الرصيف ، تنفتح على النهر بقدر ما تنفتح على الشاطيء . وجرى من تحتها جدول ضارب إلى السواد . وكان هذا الجدول يصب في نهر السين .

وخلف قضبانها الثقيلة الصدئة كان في استطاعته ان يتبين ضرباً من الرواق المقنطر المظلم .

وطوى الرجل ذراعيه ، ونظر إلى الشبكة الحديدية نظرة توبيخ .

واذ كانت هذه النظرة غير كافية فقد حاول أن يدفع الشبكة . ثم انه هزها ، فقاومت في ثبات . كان من الراجح أنها فتحت منذ لحظة ، على الرغم من ان صوتاً ما لم يسمع ، وتلك ظاهرة فريدة بالنسبة إلى شبكة حديدية على مثل هذا الصدأ كله . ولكن كان من الثابت انها قد أوصدت كرة اخرى . وهذا ما يؤذن بأن الشخص الذي انفتح هذا الباب في وجهه منذ لحظة لم يكن يحمل كلاّباً صغيراً ولكن مفتاحاً .

لقد التمعت هذه الحقيقة الواضحة فجأة في ذهن الرجل الذي كان يبذل قصارى جهده لتحريك الشبكة الحديدية ، وانتزعت منه هذه الخاتمة الحكمية :

— « شيء رائع ! مفتاح من مفاتيح الحكومة ! »

ثم انه هدأ نفسه في الحال ، وعبر عن عالم كامل من الفكرات الباطنية بهذه النفخة من الكلمات الوحيدة المقطع ، الموقعة توقيعاً يكاد يكون

تهكمياً :

— « حسن ! حسن ! حسن ! حسن ! »

حتى إذا قال ذلك ، وقف على قدم الحذر خلف ركام الردم ، بمثل السورة الصبور التي يتكشف عنها كلب من تلك الكلاب التي توقف قرب الطرائد بانتظار وصول الصياد ، وان كان احد لا يدري أكان يرجو من وراء ذلك ان يرى الرجل يخرج من هنالك ام أن يرى رجالا آخرين يدخلون .

أما عجلة الكراء ، التي تابعت حركاته جميعاً ، فكانت قد وقفت فوقه قرب الحاجز . واذ توقع السائق انتظاراً طويلا فقد ادخل خطمي فرسيه في كيس الشوفان الرطب الذي يعرفه الباريسيون جيداً ، والذي تصطنعه الحكومات — ولنقل ذلك بين معترضتين — معهم في بعض الاحيان . وأدار بعض عابري السبيل فوق جسر ايينا رؤوسهم ، قبل ان يبتعدوا ، لكي يروا لحظة إلى هذين المنظرين الطبيعيين الجامدين : منظر الرجل على الشاطيء ، ومنظر عجلة الكراء على رصيف النهر .

٤
وهو ايضاً يحمل صليبه

كان جان فالجان قد استأنف تقدمه ، من غير ان يقف كرة اخرى . وغدا هذا التقدم اكثر إجهاداً . إن مستويات هذه العقود لتتفاوت . وان ارتفاعها المتوسط ليبلغ نحواً من خمسة اقدام وست بوصات ، مقدراً على اساس من قامة رجل من الرجال . واضطر جان فالجان إلى الانحناء لكي لا يصيب ماريوس من العقد أذى ما . كان عليه ان يطأطيء رأسه كل لحظة ، ثم يتصدر من جديد ، ويتلمس الجدار من غير انقطاع .

وكانت رطوبة الحجارة ولزوجة الأرض قد جعلت منها نقاط ارتكاز ديئة ، سواء لليد أم للقدم . كان يترنح في مزبلة البلد الرهيبة . وكانت انعكاسات النور المتقطعة المنبعثة من منافذ الضوء لا تتبدى إلا في فترات متباعدة جداً ، وعلى نحو خابٍ إلى درجة جعلت نور الظهيرة يبدو أشبه بضوء القمر . وكان كل ما عدا ذلك ضباباً ، وابخرة وبيئة ، وعدم شفافية ، وسواداً . كان جان فالجان جائعاً وظمآن . وكان ظمآن بوجه خاص ؛ وهذا الموطن ، كالبحر ، مليء بالمياه التي لا يستطيع المرء ان يشربها . وكانت قوته ، الاعجوبية كما نعرف ، والتي لم توهن منها السن ، بفضل حياته العفيفة الزاهدة ، كانت قوته هذه قد بدأت رغم ذلك تضعف وتتراخى . واستبد به التعب ، وكان في تناقص قوته ما زاد في ثقل حمله . كان وزن ماريوس — ولعله قد قضى نحبه — ثقيلا كسائر الاجساد التي لا حياة فيها . لقد حمله جان فالجان على نحوٍ يقي صدره من الضغط ، ويجعل تنفسه حراً ، دائماً ، جهد الطاقة . لقد استشعر انسلال الجرذان السريع بين رجليه . وكان احدها قد ذُعر إلى حد إقدامه على عضه . وكانت تفدُ عليه ، بين الفينة والفينة ، من خلال مآزر افواه البالوعة ، نسمة هواء جديد تنعشه .

ولعلها كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما وصل إلى البالوعة المطوَّقة .

ودهش باديء الامر لهذا الاتساع المفاجئ . وفجأة ، وجد نفسه في دهليز ما كانت يداه المبسوطتان لتبلغا جدرانه ، وتحت عقد ما كان رأسه ليمسّه . إن البالوعة العظمى ليبلغ عرضها ، في الحق ، ثمانية اقدام ، وعلوها سبعة .

وحيث تتصل بالوعة مونمارتر بالبالوعة العظمى كان دهليزان تحترضيان* آخران ، دهليز شارع بروفانس ودهليز شارع الآباتوار ، يلتقيان فيشكلان مفرق طرق . ولقد كان خليقاً بايما رجل أقل حكمة من جان

---

* اي ممتدان تحت الارض .

فالجان ان يتّردد امام هذه الطرق الأربع . ولكن جان فالجان سلك السبيل الاعرض ، يعني البالوعة المطوّقة . ولكن السؤال ما لبث ان نشأ، ههنا ، من جديد : أيهبط ، أم يصّعد ؟ وفكر أن الوضع حرج ، وان عليه ان يبلغ الـ « سين » مهما تكن المخاطر . وبكلمة اخرى ، كان عليه ان يهبط . وانعطف إلى اليسار .

وحسناً فعل . ذلك ان من الخطأ ان نحسب أن للبالوعة المطوقة منفذين أحدهما نحو بيرسي ، والآخر نحو باسي ، وأنها كما يوحي اسمها الحزام التحتّضي لباريس الضفة اليمنى . ان البالوعة العظمى التي لا تعدو ان تكون ، كما ينبغي ان نتذكر ، جدول مينيلمونتان العتيق ، تنتهي حين نصّعد فيها إلى زقاق غير نافذ ، يعني إلى منطلقها القديم ، الذي كان ينبوعها ، عند سفح تل مينيلمونتان . وليس ثمة اتصال مباشر يربطها بالامتداد الذي يجمع مياه باريس تحت حي بوبينكور ، والذي يصب في الـ « سين » من طريق بالوعة آميلو فوق جزيرة لوفييه القديمة . وهذا الامتداد ، الذي يتمم البالوعة المجمّعة مفصول عنها ، تحت شـــارع مينيلمونتان نفسه ، بجدار صلب يعيّن نقطة انقسام الماء إلى مياه عليـا ومياه سفلى . ولو قد صّعد جان فالجان في ذلك الدهليز اذن لانتهى بعد ألف جهد ، وقد هده الاعياء واشرف على الهلاك وسط الظلام — إلى سور . لو قد فعل اذن لكان الهلاك مصيره .

وبكلمة دقيقة ، فبالنكوص على عقبيه قليلا ، والدخول إلى مجـــاز « بنات كالفير » ، إذا لم يتردد عند مفرق بوشيرا ، وباجتياز رواق سان لويس ، ثم — إلى اليسار — ممر سان جيل ، وبعد ذلك بالانعطاف إلى اليمين واجتناب المرور في دهليز سان سيباستين كان من الممكن ان يبلغ بالوعة آميلو ، ومن هناك — شرط ان لا يضل في ذلك الضرب من حـــرف الـ F الذي تحت الباستيل — كان من الممكن ان يبلغ المنفذ الذي على نهر السين قرب « دار الصناعة » . ولكن كان يتعين عليه ، حتى يتم

له ذلك ، ان يكون على احسن العلم بتلك البالوعة الهائلة المتشعبة تشعب المرجان ، بجميع امتداداتها وجميع منافذها . بيد أنه ، كما يجب ان نكرر ، ما كان يعرف شيئاً من شبكة السبل الرهيبة هذه التي كان يشق طريقه خلالها . ولو ان امرءاً سأله اين كان ، اذن لكان خليقاً بــه أن يجيب : « في الليل . »

وخدمته غريزته خدمة صالحة . كان الهبوط ، في الواقع هو السبيل الوحيدة إلى الخلاص .

لقد ترك عن يمينه المجازين اللذين يتشعبان على شكل مخلب تحت شارع « لافيت » وشارع سان جورج ، ورواق الـ « شوسيه دانتين » الطويــل المتشعب .

ووراء احد السواعد بقليل ، وكان هذا الساعد في أغلب الظن امتداداً للـ « مادلين » ، كف عن المسير . كان متعباً جداً . وتسرب نور يكاد يكون ناضراً من احدى نوافذ الضوء ، لعلها الثقب الذي في شارع آنجو ووضع جان فالجان ، بمثل رفق اخ بأخيه الجريح ، ماريوس على حافة البالوعة . وبدا وجه ماريوس المضرج بالدم ، على ضوء النافذة الابيض، وكأنه في قعر قبر . كانت عيناه مغمضتين ، وكان شعره ملتصقا بصدغيه مثل فرشاة جُففت في الصبغ الاحمر ، وكانت يداه متدليتين في غــير حياة ، وكانت رجلاه باردتين ، وكان على زوايا فمه دم متخثر . كانت جلطة دم قد اجتمعت في عقدة رباط رقبته . كان قميصه قد انغرس في الجراح ، وكان قماش سترته يمس الجراح الفاغرة فاها في اللحم الحي . وازاح جان فالجان الملابس باطراف أصابعه ، ووضع يده على صدر ماريوس . كان القلب لا يزال يخفق . ومزق جان فالجان قميصــه ، وضمد الجراح أحسن ما استطاع ان يضمدها ، واوقف الدم المتدفق . ثم انه انحنى في ذلك الغسق فوق ماريوس ، الذي كان لا يزال غائبــاً عن الرشد فاقداً الحياة تقريباً ، ونظر اليه في كراهية لا سبيل إلى التعبير عنها .

وكان قد وجد ، حين فتح ثياب ماريوس ، شيئين اثنين في بعض جيوبه : قطعة الخبز التي نُسيت هناك منذ البارحة ، وحافظة اوراق ماريوس . فأكل قطعة الخبز ، وفتح حافظة الأوراق . وعلى الصفحة الأولى ، وجد الاسطر الاربعة التي خطها ماريوس . إن القارىء ليتذكرها .

— « اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي إلى منزل جدي ، مسيو جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، في الماريه . »

وعلى ضوء منفذ النور ، قرأ جان فالجان هذه الاسطر الاربعة ، ووقف لحظة وكأنه مستغرق في ذات نفسه ، مكرراً في همس : « شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، مسيو جيلنورمان . » واعـــاد حافظة الأوراق إلى جيب ماريوس . كان قد أكل ، وكانت القوة قد عاودته . وحمل ماريوس على ظهره كرة اخرى ، واضعاً رأسه في عناية فوق كتفـــه اليمنى ، واستأنف هبوط البالوعة .

ويبلغ طول البالوعة العظمى ، إذا سلك المرء طريق وادي مينيلمونتان ، فرسخين تقريباً . وإن جزءاً كبيراً منها لمعبّد .

إن مشعل اسماء الشوارع الباريسية التي نضيء به للقارىء تقدُّم جان فالجان تحت الارضي ، إن هذا المشعل لم يكن جان فالجان يملكه . ان شيئاً ما لم يخبره باي منطقة من المدينة كان يجتاز ، ولا أي طريـــق كان قد سلك . كل ما في الأمر أن الشحوب المتعاظم الذي أصـــاب ومضات الضياء ، تلك الومضات التي كان يلمحها بين الفينة والفينة ، آذن بأن الشمس كانت تنسحب من حصباء الطريق ، وان الليل يوشك ان يهبط . ومن جري العربات فوق رأسه . ذلك الجري الذي تحوّل من موصول إلى متقطع والذي انتهى إلى أن ينقطع انقطاعاً كاملا تقريباً ، استنتج انه لم يعد تحت باريس المركزية ، وانه يقترب مـــن احدى المناطق المنعزلة ، في جوار الجادات الخـــارجية أو ارصفة النهر القصية . وحيث تكون المنازل قليلة ، والشوارع قليلة ، تكون

منافذ الضياء أقل في البالوعة . وتكاثفت الظلمة حول جان فالجان . ومع ذلك ، فقد واصل تقدمه ، متلمساً سبيله في الظلمة .

وفجأة ، أمست هذه الظلمة فظيعة .

٥
ان للرمل ، كما للمرأة ، رقة خادعة

لقد استشعر أنه يلج الماء ، وانه لم يعد تحت قدميه حجارة ، ولكن وحل .

وقد يتفق احياناً ، في بعض شواطيء بريتانيْ أو اسكتلندة ، ان يكون المرء — رحالة كان أو صياد سمك — ماشياً على الشاطيء ، في فترة الـجزر ، بعيداً عن الضفة ، فيلاحظ فجأة أنه مشى منذ بضع لحظات بشيء من العسر . إن الشاطيء تحت قدميه أشبه بالزفت ؛ إن نعله ليلتصق به . إنه لم يعد رملا ، لقد أصبح دبِقاً . ان الشاطيء جاف كل الجفاف ، ولكن ما ان يرفع الماشي قدمه ، في كل خطوة من خطاه ، حتى يمتليء الاثر الذي تخلّفه بالماء . ان العين لم تلاحظ تغيراً ما ، على اية حال ، وإن الشاطيء الرحب أملس هاديء ، وللرمل كله مظهر واحد ، فليس ثمة ما يميز السطح الصلب عن السطح الذي لم يعد كذلك . وتواصل سحابة براغيث الرمل الصغيرة البهيجةُ وثوبها الصاخبَ على رجلي العابر . ويتابع الرجل طريقه ، ويتقدم إلى امام ، وينعطف نحو اليابسة ، ويحاول ان يزداد قرباً من الساحل . إنه ليس قلقاً . قلقاً من اي شيء ؟ كل ما هنالك انه يحس بطريقة ما ، وكأن ثقل قدميه تزايد اثر كل خطوة يخطوها . وفجأة تغوص قدماه . انهما تغوصان إلى عمق يتراوح ما بين بوصتين وثلاث بوصات . وليس من ريب في انه

لا يسلك الطريق الصحيح . ويقف لكي يحدد اتجاهه . وفجأة . ينظر إلى قدميه . لقد اختفت قدماه . ان الرمل يغطيهما . ويسحب قدميه من الرمل ، ويرغب في النكوص على عقبيه ، ويستدير إلى الوراء . فلا تزداد قدماه إلا غوصاً . إن الرمل ليرتفع إلى كاحليه ؛ وينتزع نفسه وينطرح إلى اليسار ، ويرتفع الرمل إلى منتصف رجله ؛ وينطرح إلى اليمين . ويرتفع الرمل إلى باطن ركبتيه . وعندئذ يدرك . في ذعر ممتنع على الوصف ، أنه وقع في شرك الرمل الخاسف ، وان تحته ذلك الوسط الرهيب الذي لا يستطيع المرء ان يسير فيه إلا بمقدار ما تستطيع السمكة ان تسبح خلاله . ويطرح حمله إذا كان مثقلا بحمل ، ويتخفف كما تتخفف السفينة في ساعة الشدة . ولكن الاوان يكون قد فات ؛ ان الرمل قد انتهى إلى ما فوق ركبتيه .

وينادي ، ويلوّح بقبعته أو بمنديله ، ويغمره الرمل اكثر فأكثر . واذا كان الشاطيء مهجوراً ، واذا كانت اليابسة نائية اكثر مما ينبغي ، واذا كانت كومة الرمل ذات شهرة بغيضة أكثر مما ينبغي ، واذا لم يكن في الجوار بطلٌ ما . فعندئذ ينتهي كل شيء . ويُقضى عليه بالغوص في الرمل المتحرك . إنه مقضيٌّ عليه بذلك الدفن الرهيب ، الطويل ، الحقود ، المتعذر ابطاؤه أو تعجيله ، الدفن الذي يدوم ساعات ، والذي لا ينقضي ، والذي يستحوذ عليك وانت قائم ، حر ، وفي كامل عافيتك ، والذي يجرك من قدميك إلى أعمق بعض الشيء كلما بذلت جهداً وكلما اطلقت صيحة ، والذي يبدو وكأنه يعاقبك على مقاومتك بتشديد قبضته على نحو مضاعف ، والذي يعيد المرء ثانية ، في بطء ، إلى التربة تاركاً إياه طوال الوقت ينظر إلى الافق ، والاشجار ، والحقول الخضراء ، ودخان القرى في السهل ، واشرعة السفن في البحر ، والعصافير الطائرة المغردة ، واشعة الشمس ، والسماء . ان الغوص في الرمل المتحرك هو القبر الذي يتحول إلى مد ، والذي يرتفع في اعماق الارض نحو كائن

حي . إن كل دقيقة تكفينٌ لا يعرف الرحمة . ويحاول الضحية ان يجلس ، ان يتمدد ، ان يزحف . إن كل حركة يأتيها تدفنه ؛ ويتصلب ، ويغوص ، ويستشعر ان الارض تبتلعه . ويولول ، ويتوسل ، ويجأر إلى السحب ، ويلتاع توجعاً ، وييأس . انظر اليه غائصاً في الرمل حتى الخصر ؛ إن الرمل ليبلغ صدره ، فهو لا يعدو ان يكون تمثالا نصفياً . ويرفع ذراعيه ، ويطلق أنات خانقة ، وينشب اظافره في الشاطيء ، راغباً في التعلق بتلك القشة ، ويتكئ على مرفقيه ليخرج نفسه من ذلك الغمد المائع ، ويتنهد ، في سُعر ؛ ويرتفع الرمل . إن الرمل ليبلغ منكبيه ، إن الرمل ليبلغ عنقه ؛ وإن وجهه وحده هو المنظور الآن . ويصيح الفم ، فيملأه الرمل ؛ ويرين الصمت . وتظل العينان تحدقان . فيغلقهما الرمل ؛ ويسود الظلام . ثم يتناقص الجبين ، ويصفق شعرٌ قليل فوق الرمل ، وتنبثق يد ، وتخرق سطح الشاطيء ، وتتحرك وتلوّح ، وتختفي. امحاء مشؤوم ينتهي به رجل .

واحياناً يغوص الفارس مع فرسه ؛ واحياناً يغوص السائق مع عربته ؛ كل شيء مظلم تحت الشاطيء . إنه الغرق في مكان آخر غير الماء . إنها الأرض تغرق الانسان . إن الارض ، وقد تخللها الاوقيانوس ، لتصبح شَرَكاً . إنها تقدّم نفسها وكأنها سهل ، وتفغر فاها وكأنها مغارة . ان للهوة مثل هذه الخيانات .

وهذه الكارثة المشؤومة ، الممكن حدوثها دائماً في هذا الشاطيء أو ذاك من شواطيء البحر ، كانت ممكنة ايضاً ، منذ ثلاثين سنة ، في بالوعة باريس .

فقبل أن تبدأ الأعمال الهامة عام ١٨٣٣ كانت شبكة باريس تحت الارضية عرضة لانخسافات فجائية .

لقد نفذ الماء إلى بعض البقاع التحتية ، وبخاصة إلى التربة السريعة التفتت . ولقد انطوت الأرضية ، التي كانت من حجارة مرصوفة ، كما

هي الحال في البواليع القديمة ، أو من كلس سريع التصلب على اسمنت، كما هي الحال في الدهاليز الجديدة ، بعد ان فقدت سنادها . والانطواء في أرضية من هذا الضرب هو صدع ، هو انهيار . وانهارت الأرضية في مسافة بعينها . وهذا الانصداع ، انفلاق لجة من الوحل ، كان يدعى في اللغة الخاصة الخسف *fontis* . ما الخسف ؟ انه رمل الشواطيء المتحرك يلقاه المرء فجأة تحت الأرض ؛ إنه شاطيء « جبل سان ميشيل » في بالوعة . ان التربة المنقوعة تكاد تكون ذائبة . وإن جميع جزئياتها لتتدلى في وسط مائع . إنها ليست جزءاً من اليابسة ، وإنها ليست جزءاً من البحر . وقد يكون عمقها عظيماً جداً في بعض الاحيان . وليس ثمة ما هو أدعى إلى الرعب من مثل هذه المصادفة . واذا هيمن الماء فعندئذ يكون الموت رشيق الحركة ؛ إن هناك ابتلاعاً . واذا هيمنت اليابسة فعندئذ يكون الموت بطيئاً ؛ إن ثمة غوصاً في الرمل المتحرك .

هل تستطيع ان تتصور مثل هذه الميتة ؟ وإذا كان الغوص في الرمل المتحرك رهيباً على شاطيء البحر ، فكيف يكون في البالوعة ؟ فبدلا من الهواء الطلق ، والضياء الساطع ، ووضح النهار ، وذلك الافق الصافي ، وتلك الاصوات الرحبة ، وتلك السحب الحرة التي تنسكب منها الحياة ، وتلك القوارب المرئية في المدى البعيد ، وذلك الأمل المتخذ مختلف الأشكال ، وعابري السبيل الممكنين ، والنجدة الممكنة حتى اللحظة الأخيرة — بدلا من ذلك كله تقع هناك على الصمم ، والعمى ، وعلى عقد أسود ، وجوف قبر معدّ سلفاً ، وعلى الموت في الوحل تحت غطاء ! وعلى الاختناق البطيء بالقذر ، وعلى صندوق حجري حيث ينشب الموت اختناقاً مخلبه في الحمأة ويأخذ بخناقك ، وعلى النتانة ممزوجةً بحشرجة الموت . وحل بدلا من الرمل ، هيدروجين مُكبرَتٌ بدلا من الأعصار ، واقذار بدلاً من الاوقيانوس ! هناك تصرخ منادياً ، وتصر على اسنانك ، وتتلوى توجعاً ، وتناضل ، وتحشرج ، وقد جهلتْ تلك المدينة الهائلةُ القائمة فوق

رأسك كل ما انت فيه من بلاء .

إن الموت على هذا النحو هولٌ لا سبيل إلى وصفه ! وفي بعض الاحيان يكفّر الموت عن قسوته البالغة ببعض الشرف الرهيب . فعلى الخازوق ، وفي السفينة الغارقة ، قد يكون المرء عظيماً . في اللهب ، كما في الزبد ، يكون الوضع البهيّ ممكناً . انك لتتألق وانت تسقط في تلك الهاوية . ولكنْ ليس هنا البتة . إن الموت هنا قذر . وان العار من تلفظ انفاسك . إن آخر الرؤى الطافية لحقيرةٌ . الوحل مرادف للعار . إنه وضيع ، بشع ، مرذول . الموت في برميل خمر يونانيّ ، مثل كلارنس * ، قد يكون مقبولا . أما الموت في حفرة رافع الوحل ، مثل ايسكوبلو ، فذلك شيء رهيب . إن النضال في جوف تلك الحفرة لفظيع . ففيما انت تحشرج يصيبك الوحل . ان فيها لظلمة كافية لجعلها جحيماً ؛ وان فيها لوحلا كافياً لجعلها حمأة ليس غير ، ولا يدري الرجل المحتضر هل سيصبح شبحاً أم علجوماً ** .

القبر مظلم في كل مكان ، أما هنا فهو شائه .

وكان عمق الخسف يتفاوت ، كما يتفاوت طوله وغلاظته ، تبعاً لمدى الرداءة التي يتسم بها باطن الأرض . ففي بعض الاحيان كان عمق الخسف ثلاثة أقدام أو أربعة ، وفي بعضها الآخر كان ثمانية أقدام أو عشرة . واحياناً لم يكن للخسف قرارٌ البتة . كان الوحل ههنا صلباً أو يكاد ، وكان ههناك مائعاً أو يكاد . ففي خسف لونيير كان اختفاء المرء يقتضيه يوماً كاملا ، على حين كان في ميسور حمأة « فيليبو » ان تبتلعه في خمس دقائق . وصمود الوحل رهن بكثافته ، إنْ قليلةً فقليل ، وإنْ كثيرة

---

* Clarence أخو ادورد الرابع ملك انكلترة . ولخيانته هذا الاخير حكم عليه بالموت . ويقولون انهم تركوا له حق اختيار وسيلة الموت ، فاختار الاغراق في برميل ملء بالخمر اليونانية malvoisie (١٤٤٩ – ١٤٧٨)

** الملجوم : ضفدع الجبل .

فكثير . وقد ينجو الطفل حيث يهلك الرجل . وأول قواعد السلامة ان تجرد نفسك من كل حمل . واطّراح كيس الادوات ، أو السلة ، أو حوض الملاط ، هو أول ما يفعله عامل البواليع عندما يستشعر أن الأرض تنخسف تحت قدميه .

وكانت للخسف اسباب مختلفات : سهولةُ تفتتِ التربة ، وانصداعٌ ما على عمق يعجز المرء عن بلوغه ، وامطار الصيف الغزيرة العنيفة ، وعواصف الشتاء الموصولة ، والرذاذ الرقيق الطويل . وفي بعض الأحيان كانت وطأة البيوت المجاورة على تربة سجّيلية أو رملية تضغط على عقود الدهاليز تحت الأرضية وتلويها ، وقد يتفق أن تتشقق أرضية الدهليـــز وتتصدع تحت هذا الضغط الماحق . والواقع ان تثاقل وطأة البانتييون ، بهذه الطريقة ، قد محا ، منذ قرن ، جزءاً من كهوف جبل « ســانت جانفييف » . وحين كانت احدى البواليع تنهار تحت ضغط البيــوت كان الخلل يتكشّف أحياناً ، فوقُ ، في الشارع ، بضرب من الانفصال بين بلاطات الطريق شبيهٍ بأسنان المنشار . وكان هذا التشقق يتكون في خط لولبي يمتد على طول العقد المتصدع ؛ واذ كانت العلة ملحوظة فان في ميسور العلاج ان يكون عاجلا . وكثيراً ما يتفق ايضاً ان لا يتكشف العطل الداخلي من طريق اي ندبة خارجية . والويل لعمال البواليع في هـــذه الحال . انهم قد يهلكون بسبب من دخولهم إلى البالوعة الغائرة ، في غير ما حذر . والسجلات القديمة تذكر بعض العمال الذي دُفنوا في الخسف ، على هذا النحو . انها تذكر عدة أسماء . ومن بين هؤلاء ذلك العامل الذي هلك في حمأة غائرة تحت قناة شارع « كاريم برونان » ، والذي كـــان يدعى بليز بوترين . وكان بليز بوترين هذا أخاً لنقولا بوترين الذي كان آخر حفار قبور في الجبانة المدعوة « شارنييه ديزينوسان » عام ١٧٨٥ ، وهو التاريخ الذي ماتت فيه هذه الجبانة .

وكان ثمة ايضاً الفيكونت ديسكوبلو ، الشاب الفاتن ، الذي تحدثنا

عنه ، وهو أحد أبطال حصار لبريدا ، حيث كان المهاجمون مرتدين الجوارب الحريرية ، يتقدمهم عدد من الكمانات * . وتفصيل ذلك ان ديسكوبلو بوغت ذات ليلة عند ابنة عمه الكونتس دو سورديس ، فغرق في مَوحل من مواحل بالوعة بوتريبي كان قد فزع اليه فراراً من وجه الدوق . وحين وُصف موته لمدام دو سورديس طلبت زجاجة الشم ، ونسيت ان تبكي لكثرة ما استنشقت من الاملاح ** . فليس ثمة غرام يصمد في مثل هذه الحال . البالوعة تطفئه . إن هيرو *** ترفض ان تغسل جثة ليياندر . وان تيسبيه تسد انفها امام بيرام **** وتقول : «أف» .

٦
الخسف

لقد وجد جان فالجان نفسه أمام خسف ما .

وكان هذا الضرب من الانهيار مألوفاً آنذاك في تحتربة الشان زيليزيه ، شبه الممتنعة على الاعمال المائية ، والقليلة الصيانة للمنشآت تحت الأرضية ، بسبب من ميوعتها المفرطة . وهذه الميوعة تفوق حتّى ميوعة رمال حي السان جورج التي ما كان من الممكن التغلب عليها إلا برصف الحجارة في الماء على طبقة من الاسمنت ، وميوعة التّربة الطينية المنتنة بالغاز في

* جمع كمان ، الآلة الموسيقية المعروفة .

** يقصد املاح الشم ، وهي التي تستعمل للتخلص من الأغماء والصداع .

*** هيرو Hero ولييياندر Léandre عاشقان تروي قصة غرامها قصيدة اغريقية متأخرة ، وكانت هيرو كاهنة لفينوس ، وقد غرق حبيبها لييياندر في الدردنيل .

**** Pyrame شاب بابلي اشتهر بحبه لتيسبيه Thisbé وتروي الاسطورة ان بيرام قتل نفسه حين رأى دماً توهم انه دم تيسبيه ، حتّى اذا علمت تيسبيه بالامر انتحرت بدورها .

« حي الشهداء » ، تلك التربة المائعة إلى درجة جعلت شق المعبر تحت دهليز الشهداء غير مُجدٍ إلا باصطناع انبوب معدني . حتى إذا هدموا ، عام ١٨٣٦ ، ابتغاء إعادة بنائها ، البالوعةَ الحجرية العتيقة تحت ضاحية سان أونوريه ، التي نرى جان فالجان في هذه اللحظة متورطاً فيها ، شكّل الرمل المتحرك ، الذي يؤلف التحتّربة الممتدة من الشان زيليزيه إلى الـ « سين » ، عقبةً كأداء إلى حد جعلت العمل يستمر ستة اشهر تقريباً ، مما أثار اعتراضات شديدة من أصحاب الاملاك القائمة على ضفة النهر ، وبخاصة من أصحاب الفنادق والعربات الفاخرة . كان العمل أكثر من عسير ، كان خطِراً . ولقد كان ثمة ، في الحق ، اربعة اشهر ونصف من المطر ، وثلاثة فيضانات لنهر السين .

وكان الخسف الذي صادف جان فالجان ناشئاً عن أمطار اليوم السابق ، الغزيرة ؛ وكان انخساف بلاط الشارع ، بعد ان خذله الرمل التحتيّ ، قد أدى إلى احتجاز مياه الامطار . حتى إذا حدث الارتشاح ، تبعه الانخساف . وكانت الأرضية ، المتفككة ، قد اختفت في الوحل ؛ إلى أية مسافة ؟ من المتعذر على المرء أن يحزر . كانت الظلمة أحلك منها في أيما مكان آخر ؛ كانت حفرةً من وحل في مغارة من ليل ؛

واستشعر جان فالجان البلاط يغور تحته . وولج هذه الحمأة . كانت ماء على السطح ، ووحلاً في القعر . إن عليه ان يجتازها بأية حال . فقد كان الارتداد مستحيلا . كان ماريوس مشرفاً على الموت ، وكان جان فالجان خائر القوى . وإلى أي مكان غيره يستطيع أن يذهب ؟ وتقدّم جان فالجان . وإلى هذا ، فأن الوحل بدا غير عميق في الخطوات الأولى ؛ ولكن قدميه كانتا تمعنان في الغوص كلما أمعن في التقدم . وسرعان ما وصل عمق الوحل إلى منتصف ساقيه ، وانتهى الماء إلى أعلى من ركبتيه ؛ وتابع سيره ، حاملا ماريوس بذراعيه أعلى ما استطاع حمله فوق الماء ؛

وانتهى الوحل الآن إلى ركبتيه ، وبلغ الماء خصره . ولم يعد في طوقه أن يرتد . وغاصت قدماه أعمق فأعمق . كان واضحاً ان هذا الوحل ، الكافية كثافته لثقل رجل واحد ، عاجز عن احتمال رجلين اثنين . ولو قد كان كل من جان فالجان وماريوس منفرداً اذن لكان له أمل في النجاة . وواصل جان فالجان تقدمه ، حاملا ذلك الرجل المحتضر ، الذي ربما كان جثة هامدة .

وارتفعت المياه إلى إبطيه ؛ واستشعر أنه يغرق ؛ ولم يوفق إلى التحرك في أعماق الوحل الذي كان فيه إلا في مشقة . فالكثافة ، التي كانت السناد ، كانت هي العقبة ايضاً . كان لا يزال رافعاً ماريوس . وفي بذل للقوة لم يُسبق إلى مثله ، تقدّم إلى أمام ، ولكن قدميه غاصتا أكثر . كان رأسه وحده ، الآن ، خارج الماء ، وكذلك ذراعاه الرافعتان ماريوس . إن بين صور الطوفان القديمة أماً ترفع طفلها على هذا النحو .

وغاص أعمق فأعمق ، وردّ وجهه إلى الوراء اجتناباً للماء ، ولكي يكون في مقدوره أن يتنفس . ولو قدّر لأحد ان يراه في تلك الظلمة اذن لخيل إليه أنه يرى قناعاً عائماً في الظلام . ولم يلمح فوقه رأس ماريوس المنكس ووجهه الشاحب ، إلا على نحو غامض . وبذل جهداً يائساً ، ودفع قدمه إلى أمام ؛ ووقعت قدمه على شيء صلب . كانت نقطة ارتكاز . وكان ذلك في الوقت المناسب .

ونهض ، وتلوى متوجعاً ، وثبت نفسه فوق هذا المرتكز في ضرب من السُعر . واحس وهو يفعل ذلك وكأنه يضع قدمه على أولى درجات من سلم يصعد به ثانية إلى الحياة .

وهذا المرتكز ، المكتشف في اللحظة الأخيرة وسط الوحل ، كان مستهل منحدر الارضية الآخر ، تلك الأرضية التي كانت قد التوت من غير أن تتحطم ، وتحدبت مثل لوح خشبي وبوصفها قطعة واحدة .

إن الأرضيات المحكمة البناء لتشكل عقداً ، وان لها مثل هذا الرسوخ . وكانت تلك القطعة من أرضية الدهليز ، المغمورة جزئياً ، ولكن الصلبة، منحدراً حقيقياً ، فما يكادان يبلغان هذا المنحدر حتى ينجوا . وارتقى جان فالجان هذا السطح المنحني ، وانتهى إلى الجانب الآخر من الموحل .

وفيما كان يخرج من الماء تعثرت قدمه بحجر ، فخرّ على ركبتيه ، وبدا ذلك الحادث ملائماً في نظره ؛ وظل على هذا الوضع فترة ، واستغرقت روحه في صلاة للرب غير ملفوظة .

ونهض ، مرتعداً ، مثلوجاً ، آسناً ، محدودباً تحت هذا الرجل المحتضر الذي كان يجره ، وقد سال الوحل من اقطار جسمه كلها ، وامتلأت روحه بضياء عجيب .

٧
قد نجنح الى الشاطىء احياناً حيث نظن اننا نهبط الى اليابسة

واستأنف سيره كرة اخرى .

بيد أنه إن يكن لم يترك حياته في ذلك الخسف فالذي يبدو انه ترك قوته . كان هذا الجهد الفائق قد أنهكه . وكان خوره من الشدة بحيث امسى مضطراً إلى أن يأخذ نفساً ، كل ثلاث خطوات أو اربع ، ويستند إلى الجدار . وذات مرة ، تعين عليه ان يجلس على الحافة لكي يغير وضع ماريوس ، وخيل له أن عليه ان يبقى هناك . ولكن إذا كانت قوته قد ماتت ، فأن عزيمته لم تمت . ونهض .

ومشى في يأس ، وفي سرعة تقريباً ، طوال مئة خطوة ، من غير

ان يرفع رأسه ، ومن غير ان يتنفس تقريباً : وفجأة ارتطم بالجدار . كان قد انتهى إلى زاوية البالوعة ، واذ وصل إلى المنعطف منكس الرأس التقى الجدارَ . ورفع عينيه . وعند أقصى الدهليز ، هناك أمامه ، بعيداً بعيداً جداً ، لمح ضوءاً . وهذه المرة ، لم يكن الضوءَ الرهيبَ . كان الضوء الخيّر الابيضَ . كان ضوءَ النهار :

لقد رأى جان فالجان المخرج .

ان النفس الهالكة التي يقدّر لها ، من وسط الاتون ، ان تلمح فجأة مخرجاً من جهنم خليقٌ بها ان تشعر بما شعر به جان فالجان . إنها تطير في سعر ، بالبقية الباقية من جناحيها ، نحو الباب المشع . ولم يعد جان فالجان يستشعر الاعياء ، ولم يحس بثقل ماريوس ، ووجد ركبتيه الفولاذيتين كرة أخرى ، وانطلق راكضاً أكثر منه ماشياً . وفيما هو يقترب ، كان المخرج يتخذ شكلا أوضح فأوضح . كان قوساً دائرياً ، أقل ارتفاعاً من العقد الذي غار شيئاً بعد شيء ، وأقلَّ عرضاً من الدهليز الذي ضاق كلما انخفض العقد . وانتهى النفق ، من داخل ، على شكل قمع . تضييق سقيم ، منقول من بُوبيات السجون . تضييقٌ معقول في سجن ، ولكنه غير معقول في بالوعة ، وقد صُحح منذ ذلك الحين .

ووصل جان فالجان إلى المخرج .

وهناك وقف .

كان هو المخرجَ حقاً ، ولكن جان فالجان لم يستطع الخروج منه .

كان القوس موصداً بشبكة حديدية قوية . وكانت الشبكة الحديدية — التي لم تكن تدور ، كما تدل جميع المظاهر ، على رزاتها الصدئة ، إلا نادراً — مشدودة إلى إطار حجري بقفل غليظ بدا ، وقد احمر من الصدأ ، وكأنه آجرة ضخمة . كان في ميسور المرء ان يرى ثقب المفتاح ولسان القفل القوي مغموراً غمراً عميقاً في الرزة الحديدية . كان القفل مغلقاً ، على نحو منظور ، غلقاً مزدوجاً . كان واحداً من أقفال الباستيل

التي كانت باريس العتيقة شديدة السخاء بها .
ووراء الشبكة الحديدية ، كان الهواء الطلق ، والنهر ، وضوء النهار ، والشاطيء – الضيق جداً ولكن الكافي لتمكين المرء من المرور – وارصفة النهر النائية . وباريس – تلك الهوة التي يستطيع المرء الاختفاء فيهـا بسهولة – والأفق العريض ، والحرية . وتبيّن إلى يمينه ، في سافلة النهر ، جسر ايينا ، وإلى يساره ، في عالية النهر ، جسر الانفاليد . كانت البقعة ملائمة للترصد في الليل وللفرار . كانت احدى نقاط باريس الاكثر انعزالا ، الشاطيء المواجه لـ « غرو كايو » . ودخل الذباب وخرج من خلال قضبان الشبكة الحديدية .
لعلها كانت الساعة الثامنة والنصف مساء . كان الليل قد هبط .
ووضع جان فالجان ماريوس على أرضية الدهليز في محاذاة الجدار ، ثم مضى إلى الشُباكة الحديدية ، وأمسك بقضبانها بكلتا يديه . كان الهز مسعوراً ، ولكن الاهتزاز كان صفراً . إن الشُباكة الحديدية لم تتحرك . وقبض جان فالجان على القضبان الحديدية ، واحداً بعد آخر ، راجيـاً ان يوفق إلى انتزاع أقلها صلابة ، وأن يتخذ منه مخلاً يمكنه من رفع الباب أو كسر القفل . ولكن أياً من القضبان لم يتحرك . إن أسنان النمر ما كانت اكثر صلابة في مغارزها . لا مخل ، لا جهدَ قادراً على الرفع . كانت العقبة عصية لا تقهر . ولم تكن ثمة وسيلة لفتح الباب .
أيتعين عليه ، اذن ، ان يموت هناك ؟ ما الذي يجب ان يفعله ؟ أينقلب على عقبيه ؟ أيرتد سالكاً تحت الطريق الرهيبة التي اجتازها منذ لحظات ؟ لم تكن له القوة الكافية لذلك . وإلى هذا ، كيف السبيل إلى عبور ذلك الموحل ، كرة اخرى ، وهو الذي لم ينج منه إلا بمعجزة ؟ وبعد الموحل ألم تكن ثمة دورية الشرطة التي لا يستطيع المرء ، من غير ريب ، ان ينجو منها مرتين ؟ وفوق هذا كله ، إلى أين يذهب ؟ أي اتجاه يتخذ ؟ إن هبوط المنحدر ما كان ليُبلغه هدفه . ولو انه انتهى

إلى مخرج آخر ، اذن لوجده مسدوداً بباب أو بشبكة حديدية . كانت جميع المخارج موصدة على هذا النحو من غير شك . كانت المصادفة قد انتزعت الشبكة الحديدية التي دخلا منها ، ولكن مخارج البالوعة الأخرى كانت موصدة من غير جدال . إنه لم يوفق إلى غير الفرار إلى سجن .

لقد قضي الأمر . كان كل ما فعله جان فالجان عقيماً . إن الله لم يشأ .

كانا كلاهما قد علقا في نسيج الموت المظلم الهائل ، وأحس جان فالجان بالعنكبوت الرهيبة تمشي فوق تلك الخيوط السوداء المرتعدة في الظلام .

وادار ظهره إلى الشبكة الحديدية ، وخرّ على الحصباء ، مكباً على وجهه أكثر منه جالساً ، إلى جانب ماريوس الذي كان ما يزال فاقد الحركة ، وغار رأسه بين ركبتيه . لا مخرج . تلك كانت آخر قطرة من قطرات الألم النفسي المرير .

فيمن فكر وهو ينوء تحت ذلك الخور البالغ ؟ انه لم يفكر لا في نفسه ولا في ماريوس . لقد فكر في كوزيت .

٨
ذيل الستزة الممزق

وفي غمرة من هذا الاعياء مست كتفَه يدٌ ، وخاطبه صوت مهموس قائلا :

— « أعطني النصف ! »

شخص في الظلام ؟ ليس كاليأس شيء يشبه الحلم : وخيّل لجان

فالجان أنه يحلم . إنه لم يسمع وقع خطى ما . أكان ذلك ممكناً ؟
رفع عينيه .
كان أمامه رجل .
وكان الرجل يرتدي دُرّاعة ؛ كان حافي القدمين . وكان يمسك نعليه بيده اليسرى . كان من الواضح انه خلعهما لكي يكون قادراً على الوصول إلى جان فالجان من غير ان يحس به .
ولم يتردد جان فالجان لحظة . ولئن كان ذلك اللقاء غير متوقع البتة ، فقد كان هذا الرجل معروفاً عنده . كان هذا الرجل هو تيناردييه .
وعلى الرغم من ان جان فالجان أوقظ ، إذا جاز التعبير ، في إجفال فانه – وهو المتعود ان يكون يقظاً وعلى حذر من الضربات غير المتوقعة التي يتعين عليه ان يتقيها بسرعة – استعاد حضور ذهنه الكامل في الحال. وإلى هذا ، فان الاحوال لا يمكن أن تكون اسوأ من ذلك ، فهناك درجة من الشدة تمتنع على الزيادة . وتيناردييه نفسه لم يكن في ميسوره ان يضيف شيئاً إلى سواد ذلك الليل .
وكانت لحظةُ توقُّع .
ورفع تيناردييه يده اليمنى إلى ارتفاع جبينه ، وظلل عينيه بها ، ثم زوى ما بين حاجبيه بينا غمزَ بعينيه على النحو الذي يميّز ، مع قَرص طفيف للفم ، ذلك الانتباه الثاقب الذي يتكشف عنه رجلٌ يحاول ان يتبين شخصاً آخر . ولم يوفق الى ذلك البتة . لقد أدار جان فالجان ظهره للضوء ، كما قلنا من قبل ، وكان فوق هذا مشوّه الصورة ، ملطخاً بالوحل ، مضرجاً بالدم إلى حد خليق بأن يجعل تعرُّفه متعذراً حتى في قاب الظهيرة . أما تيناردييه – وكان الضوء المنبعث من الشبكة الحديدية ، وهو ضوء شاحب من غير شك ولكنه دقيق في شحوبه ، ينير وجهه – أما تيناردييه هذا فقفز ، كما تقول الصورة المجازية المبتذلة ، إلى عيني جان فالجان في

الحال . وكان في هذا التفاوت بين الوضعين ما ضمن لجان فالجان شيئاً من الامتياز في تلك المبارزة الخفية التي كانت على وشك أن تنشب بين الوضعين والرجلين . لقد تم اللقاء بين جان فالجان محجباً وبين تيناردييه منزوعَ القناع .

وأدرك جان فالجان ، في الحال ، أن تيناردييه لم يعرفه .

وحدق أحدهما إلى الآخر ، لحظة ، في ذلك الغسق ، وكأنما كان كل منهما يقيس صاحبه . وكان تيناردييه أسرع إلى قطع حبل الصمت .

— « ما الذي ستعمله من أجل الخروج ؟ »

ولم يجب جان فالجان .

وتابع تيناردييه :

— « من المستحيل فتح القفل بكُلاّب . ومع ذلك ، فأن عليك أن تخرج من هنا . »

فقال جان فالجان :

— « هذا صحيح . »

— « حسن . أعطني النصف . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « لقد قتلتَ الرجل . هذا حسن . أما أنا ، فمعي المفتاح . »

واشار تيناردييه إلى ماريوس . وتابع كلامه :

— « انا لا أعرفك ، ولكني أود أن اساعدك . لا شك انك صديق . »

وبدأ جان فالجان يفهم . لقد حسبه تيناردييه سفاحاً . وعاد تيناردييه إلى القول :

— « اسمع ، ايها الرفيق ، انت لم تقتل هذا الرجل من غير ان تنظر إلى ما في جيوبه . أعطني حقي في النصف . سوف افتح الباب لك . »

وسحب من تحت دراعته الملأى بالثقوب مفتاحاً كبيراً وأبرزه ابرازاً نصفياً ، ثم أضاف :

— « أتحب أن تعرف شكل مفتاح الهرب ؟ دونك إياه . »

« وظل جان فالجان أبله » — والتعبير لكورناي العجوز — إلى حد الشك في ان ما رآه كان حقيقياً . كانت العنايةَ الالـٰهية في قناع من الهول ، والملاكَ الخيِّر منبثقاً من باطن الارض على صورة تيناردييه .

واقحم تيناردييه جمع كفه في جيب ضخم مخبوء تحت دراعته ، واخرج حبلا ، وقدمه إلى جان فالجان .

وقـال :

— « خذ . لقد أعطيتك الحبل بالاضافة إلى ذلك . »

— « حبل ؟ ولأي غرض ؟ »

— « وتحتاج إلى حجر أيضاً ، ولكنك ستجد حجراً في الخارج . إن هناك ردماً . »

— « حجر ؟ ولأي غرض ؟ »

— « ما دمت ستقذف بجثة الرجل في النهر فانت محتاج إلى حجر وحبل . وإلا عامت على سطح الماء . »

وأخذ جان فالجان الحبل . وليس ثمة شخص لم يتقبل بعض الاشياء على مثل هذا النحو الميكانيكي .

وفرقع تيناردييه أصابعه وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة :

— « والآن ، أيها الرفيق ، ما وسيلتك إلى الخروج من ذلك الموحل الذي هناك ؟ انا لم اجرؤ على المغامرة بنفسي فيه . أف ! انت لا تشم جيداً . »

وبعد فترة ، أضاف :

— « أنا أوجه اليك أسئلة ، ولكنك على حق في عدم الاجابة عنها . إن هذا تدرّبٌ على ربع الساعة اللعينة التي ستقضيها مع قاضي التحقيق .

وإلى هذا ، فانك بعدم الكلام بتاتاً تجتنب مغامرة التحدث بصوت أعلى مما ينبغي . وانك لتخطىء على كل حال إذا حسبت ، لمجرد اني لا ارى وجهك ولا أعرف اسمك ، اني لا أعرف من أنت وماذا تريد . معروف . لقد سحقتَ هذا الرجل ، بعض الشيء . والآن تريد ان تخفيه في مكان ما . انت في حاجة إلى النهر ، مخبأ الحماقة الكبير . ولسوف اخلصك من ورطتك . ان مساعدة فتى طيب نزلت به محنة تُلبسني حذائي . »

وفيما كان يقرّ جان فالجان على اعتصامه بالصمت ، راح يعمل بصورة واضحة على إغرائه بالكلام . لقد دفع منكبه لكي يحاول أن يرى صورته الجانبية ، وهتف ولكن من غير ان يرتفع إلى ما فوق النبرة المعتدلة التي احتفظ بها صوته :

— « وعلى ذكر الموحل ، يبدو لي انك حيوان فخور . لماذا لم تقذف بالرجل هناك .؟ »

واعتصم جان فالجان بالصمت .

واستأنف تيناردييه كلامه ، رافعاً إلى جوزة حلقه تلك الخرقة التي قامت عنده مقام رباط الرقبة ، وهي حركة تتمم سيما الحصافة عند الرجل الجديّ :

— « لعلك ، في الواقع ، تصرفت بحكمة : إن العمال حين يجيئون غداً لكي يسدوا الثقب لا بد ان يجدوا الجثة منسية هناك ، وعندئذ يكون في استطاعتهم ، خيطاً خيطاً ، وقشة قشة ، أن يلتقطوا الاثر ، ويصلوا اليك . هل اجتاز أحد البالوعة ؟ مَن ؟ من اين خرج ؟ هل رآه أحد يخرج ؟ ان للبوليس دماغاً كبيراً . والبالوعة غادرة ، وهي تشي بك . ومثل هذا الاكتشاف نادر ، وهو يلفت الانتباه ، فقليل من الناس يستخدمون البالوعة في اعمالهم ، على حين أن النهر في خدمة الناس جميعاً . ان النهر هو القبر الحقيقي . وفي نهاية الشهر يصيدون الرجل

بشبكات سان كلو . حسن ، ما محصول ذلك ؟ جيفة ، من غير شك ! من قتل ذلك الرجل ؟ باريس . والعدالة لا تكلف نفسها عناء السؤال عن ذلك . لقد احسنت صنعاً . »

وكلما ازداد تيناردييه ثرثرة ازداد جان فالجان بكماً . ودفع تيناردييه كتف جان فالجان كرة اخرى .

— « والآن دعنا ننجز الصفقة . فلنقتسم . لقد رأيتَ مفتاحي فأرني دراهمك . »

كان تيناردييه شكساً ، ضارياً ، مبهماً ، ومتوعداً بعض الشيء . ومع ذلك فقد كان ودياً .

وكان ثمة شيء غريب . فقد كان مسلك تيناردييه غير طبيعي ، إنه لم يبدُ مطمئناً كل الاطمئنان . صحيح أنه لم يصطنع سيما خفية ، ولكنه تكلم في صوت خفيض . فبين الفينة والفينة كان يضع اصبعه على فمه ويغمغم : « صه ! » وكان من العسير على جان فالجان ان يحزر لماذا . فلم يكن هناك احد غيرهما . وفكر جان فالجان ان من الجائز أن يكون بعض قطاع الطرق الآخرين مختبئين في احدى الزوايا المحجوبة غير بعيد عنهما ، وان تيناردييه لم يكن مهتماً بأن يقاسمهم ما يطمع في الحصول عليه .

وعاد تيناردييه إلى الكلام :

— « فلنختم . كم كان في جيوب الرجل ؟ »

وبحث جان فالجان في جيوبه هو .

كان من عادته دائماً ، كما يذكر القارئ ، ان يحمل بعض المال . ذلك ان حياة الحيل المظلمة التي حُكم عليه بأن يحياها جعلت هذا قانوناً بالنسبة اليه . بيد أنه هذه المرة أُخِذ على حين غرة . فحين لبس ، أمس ، ثوب الحرس الوطني كان قد نسي ، في استغراقه الحدادي ذاك ، ان يأخذ حافظة نقوده معه . لم يكن معه غير بعض القطع النقدية في جيب

صدرته ، وكان ذلك يبلغ نحواً من ثلاثين فرنكاً . وجعل داخل جيوبه خارجها ، وكانت كلها منقوعة بالوحل ، وعرض على حافة البالوعة ليرة لويسية ذهبية ، وقطعتين من فئة الفرنكات الخمسة ، وخمس قطع أو ست قطع من فئة الـ « سو » الكبير .

ومد تيناردييه شفته السفلى ، وصعر خده على نحو ذي مغزى .

وقال :

— « لقد قتلته بثمن بخس . »

وبدأ يجس جيوب جان فالجان وماريوس في دالة بالغة . ولم يعارضه جان فالجان ، فقد كان يهمه في المحل الأول ان يدير ظهره للنور . وفيما كان تيناردييه يتحسس سترة ماريوس ، وجد — بمثل حذاقة مشعوذ — الوسيلة ، من غير ان يلفت نظر جان فالجان ، لانتزاع مزقة منها اخفاها تحت دراعته ، معتقداً في أغلب الظن ان مزقة القماش هذه قد تساعده في ما بعد على التعرف إلى القتيل والقاتل . بيد أنه لم يجد اكثر من ثلاثين فرنكاً »

وقال :

— « هذا صحيح . انكما معاً لا تملكان أكثر من ذلك »

واخذ كل شيء ، ناسياً قوله : « اعطني النصف » .

وتردد قليلا أمام قطع الـ « سو » الكبيرة . وبعد تفكير ، اخذها ايضاً مدمدماً :

— « لا بأس ! ذلك يعني قتل الناس بالخنجر بسعر رخيص أكثر مما ينبغي . »

قال ذلك ، وعاود اخراج المفتاح من تحت دراعته .

— « والآن ، ايها الصديق ، يجب ان تخرج . هذا أشبه بالسوق الموسمية حيث يدفع المرء عند خروجه . ولقد دفعت انت ، فاخرج . »

وشرع يضحك .

هل كان ينتوي ، بتقديمه مساعدةً هذا المفتاح لرجل مجهول وبتمكينه شخصاً آخر غيره من الخروج من ذلك الباب – هل كان ينتوي بذلك على نحو خالص ونزيه انقاذ سفاح من السفاحين ؟ ذلك شيء يجيز المرء لنفسه الشك فيه .

وساعد تيناردييه جان فالجان لحمل ماريوس على كتفيه كرة اخرى . ثم مضى على رؤوس أصابعه نحو الشبكة الحديدية ، واشار إلى جان فالجان بأن يتبعه ، ونظر إلى الخارج ، ووضع إصبعه على فمه ، ووقف بضع ثوان وكأنه نهبُ التردد . حتى إذا اتم مراقبته هذه ، وضع المفتاح في القفل . وانزلقَ لسان القفل ، ودار الباب . لم يكن ثمة لا قرقعة ولا صرير . لقد تم ذلك في سكينة بالغة . وكان واضحاً ان هذه الشبكة الحديدية برزاتها ، المزيتة في عناية ، كانت تُفتح على نحو متواتر اكثر مما يُظن . وكانت هذه السكينة مشؤومة . كنت تستشعر الرواح والمجيء السريين ، ودخول رجال الليل وخروجهم الصامتين ، وخطوات الجريمة التي لا صوت لها . لا ريب في ان البالوعة متواطئة مع عصابة خفية ما . كانت تلك الشبكة الحديدية الصموت مخبّئةً للمسروقات .

وفتح تيناردييه الباب نصف فتحة ، بحيث يمكّن جان فالجان من المرور مجرد تمكين ، واغلق الشبكة الحديدية من جديد ، وادار المفتاح في القفل مرتين ، وغاص كرة اخرى في الظلام ، من غير ان يحدث من الضجيج شيئاً أكثر من نفَس . لقد بدا وكأنه يمشي بمثل رجلي النمر المخمليتين .

وبعد لحظة ، كانت تلك « العناية » الرهيبة قد ولجت اللامنظور من جديد .

ووجد جان فالجان نفسه في الخارج .

٩
ماريوس يبدو ميتاً في عيني خبير

وترك ماريوس ينزلق فوق الشاطىء .

كانا في الخارج .

كانت الابخرة الوبيئة ، والظلمة ، والهول ، خلفهما . وكان الهواء الصحي النقي ، الحي ، البهيج ، المستنشق في حرية يغمره من أقطاره . وفي كل مكان حوله كان صمت ، ولكنه الصمت الفاتن المرافق لغروب الشمس في سماء صاحية . كان الغسق قد ران ، وكان الليل قد هبط — الليل ، ذلك المحرر الكبير ، وصديق جميع اولئك الذين يحتاجون إلى رداء من اردية الظلام لكي ينجوا من الألم المرير . وانبسطت السماء من كل ناحية مثل هدوء هائل . واقبل النهر إلى قدميه بمثل صوت قبلة . وسمع محاورة الاعشاش الاثيرية وهي تتبادل التمنيات بقضاء ليلة سعيدة في شجرات الدردار بـ « الشان زيليزيه » . وكانت بضع نجوم مخترقة على نحو باهت زرقة سمت الرأس الشاحبة ، ومنظورة بالتخيل ليس غير — كانت هذه النجوم قد أحدثت تألقات صغيرة لا سبيل إلى ادراكها في الفضاء الرحب . كان المساء ينشر فوق رأس جان فالجان جميع ملاطفات اللانهاية .

كانت تلك الساعةَ الحائرة البديعة التي تخرج الصمت عن لا ونعم . كان ثمة قدر من الليل كاف لأن يجعل المرء يضيع وسطه على مسافة قصيرة ، وكان لا يزال ثمةً قدر من النهار كاف لأن يجعل العين تتبين المرء عن كثب .

وطوال بضع ثوان استبد كل هذا الصفاء الجليل الملاطف بضع لحظات بجان فالجان استبداداً لا سبيل إلى مقاومته . إن ثمة مثل لحظات

النسيان هذه . فالألم يرفض إبرام اليائس ، وكل شيء ينكسف في الفكر . ويلف السلامُ الحالمَ وكأنه ليل ، وتحت الغسق الذي يرسل أشعته ، وتقليداً للسماء التي تتهلل ، تشرق النفس اشراق النجوم . ولم يتمالك جان فالجان ان يحدق في ذلك الظل الرحب الصافي المنبسط فوقه . وخلال استغراقه في التفكير اخذ — في صمت السماء الابدية الجليل حمّاماً من الصلاة والنشوة الروحية . ثم انحنى فجأة ، وكأن شعوراً بالواجب قد عاوده ، فوق ماريوس،وغرف قليلا من الماء في باطن يده ونضح وجه ماريوس في رفق ببضع قطرات منه . ولم تنفصل اجفان ماريوس ، ولكن فمه نصف المفتوح تنفس .

وكان جان فالجان يعاود غمس يده في النهر ، كرة اخرى ، عندما استشعر ضيقاً ممتنعاً على الوصف كذلك الضيق الذي نستشعره حين يكون امرؤ واقفاً خلفنا ، من غير ان نراه .

لقد سلفت منا الاشارة إلى هذا الاحساس الذي يعرفه الناس جميعاً . واستدار .

وكشأنه منذ فترة ، كان شخص ما واقفاً خلفه حقاً .

كان رجل فارع الطول ، ملتف بمعطف طويل ، متصالب الذراعين ، يحمل بيده اليمنى هراوة في ميسور المرء ان يلمح الكرة المعدنية التي في رأسها — نقول كان هذا الرجل واقفاً منتصب القامة خلف جان فالجان الذي كان منحنياً فوق ماريوس .

كان ذلك ، بمساعدة من الظلام ، ضرباً من الشبح . ولقد كان خليقاً بالرجل البسيط ان يخافه بسبب من الغسق ، كما كان خليقاً بالرجل المفكر ان يرهبه بسبب من الهراوة .

وعرف جان فالجان جافير .

ولا ريب في ان القارئ قد حزر ان متعقّب تيناردييه لم يكن غير جافير . وكان جافير قد قصد ، بعد ان فارق المتراس على نحو غير

متوقع ، إلى مديرية الشرطة ، فرفع تقريراً شفهياً إلى مدير الشرطة نفسه اثناء مقابلة قصيرة ، ثم انقلب في الحال لأداء مهمته التي انطوت — والقارئ يذكر تلك الورقة التي وجدت في جيبه — على مراقبة لشاطىء الضفة اليمنى من الـ « شان زيليزيه » الذي أثار انتباه البوليس منذ فترة من الزمان . هناك ، كان قد رأى تيناردييه ، وكان قد تعقبه . أما البقية فمعروفة .

ومفهوم أيضاً أن فتح تلك الشبكة الحديدية بكثير من التفضل في وجه جان فالجان كان عملا صدر فيه تيناردييه عن دهاء . لقد استشعر تيناردييه ان جافير كان لا يزال هناك ، فللرجل المراقَب قوة شم لا تَكْذِبُهُ ، ان عظماً ينبغي ان يُطرح لذلك الكلب . سفاح ، يا لها من نعمة غير متوقعة ! كان ذلك السفاح هو الفداء الذي لا سبيل إلى رفضه . إن تيناردييه ، باخراجه جان فالجان بدلا عنه ، قدم إلى رجال الشرطة ضحية ، وأبعدهم من طريقه ، وجعلهم ينسونه في غمرة قضية أعظم ، وأثاب جافير على انتظاره ، وهو ما يرضي الجواسيس دائماً ، وكسب ثلاثين فرنكاً ، وتعلقت آماله من غير ريب — من ناحيته هو — بالهرب مستعيناً بهذا الالهاء .

كان جان فالجان قد انتقل من مَهلكة إلى مَهلكة .

وكانت هاتان المصادفتان الموصولتان ، وكان وقوعه من تيناردييه على جافير ، أمراً بالغ القسوة .

ولم يتبين جافير جان فالجان الذي لم يعد ، كما قلنا ، يشبه نفسه ، لقد ظل متصالب الذراعين ، ولكنه سارع بحركة غير ملحوظة إلى الأمساك بهراوته بجمع كفه ، وقال في صوت هادئ موجز :

— « من انت ؟ »

— « أنا . »

— « أنت من ؟ »

— « جان فالجان . »

ووضع جافير الهراوة بين اسنانه ، وطوى ركبتيه ، ووضع يـديه القويتين على كتفي جان فالجان ، وتشبثتا به مثل كلابتين ، وحدق اليه فاحصاً ، وعرفه . كاد وجهاهما أن يتماسا . وكانت نظـرة جـافير فظيعـة .

ووقف جان فالجان جامداً تحت قبضة جافير مثل أسد قدّر له ان يستسلم لبراثن وشق * .

وقال له :

— « أيها المفتش جافير ، لقد القيت القبض علي . وإلى هذا ، فقد اعتبرت نفسي ، منذ هذا الصباح ، أسيرك . أنا لم أعطك عنواني لكي أحاول الفرار منك . قدني حيث تشاء . ولكنْ تكرّمْ علي بشيء . »

وبدا جافير وكأنه لم يسمع . وسمّر عينه على جان فالجان . كانت ذقنه المتجهمة قد دفعت شفتيه نحو أنفه ، علامة الاستغراق في التفكير على نحو ضارٍ . وأخيراً أفلت جانَ فالجان ، ونهض في مثل استقامـة عصا ، وعاود إمساك هراوته بجمع كفه في قوة ، وطرح هذا السؤال ، مغمغماً وكأنه في حلُم أكثر منه ناطقاً :

— « ماذا تفعل هنا ؟ ومن هذا الرجل ؟ »

وأجاب جان فالجان ، وقد بدا وكأن جرْسه أيقظ جافير :

— « ذلك بالضبط ما أردت ان أحدثك عنه . تصرف بي كما تشاء ، ولكن ساعدني أولاً على ان أحمله إلى منزله . أنا لا اسألك شيئاً غير ذلك . »

وتقلص وجه جافير ، كما يقع له كلما بدا وكأنَّ مخاطبه يعتقد أن في مقدوره — هو جافير — التسليم بشيء . ومع ذلك فلم يقل لا .

وانحنى كرة اخرى ، واخرج من جيبه منديلا ، فغمسه في المـاء ،

---

* الوشق حيوان يشبه الفهد .

ومسح به جبين ماريوس المضرج بالدم .

وقال في همس ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « هذا الرجل كان في المتراس . انه ذلك الذي دعوه ماريوس . »

جاسوس من الطراز الأول ، لاحظ كل شيء ، وأصغى لكل شيء، وسمع كل شيء ، والتقط كل شيء ، وقد اعتقد انه على وشك ان يموت ؛ جاسوس قام بمهمته حتى في حشرجة الموت ، ودوّن ملاحظاته وقد توكأ على الدرجة الأولى من درجات القبر .

وأمسك بيد ماريوس ، مستطلعاً نبضه .

وقال جان فالجان :

— « إنـه جريح . »

فقال جافير :

— « إنه ميت . »

فأجابه جان فالجان :

— « لا . لم يمت بعد . »

ولاحظ جافير :

— « لقد حملته ، اذن ، من المتراس إلى هنا ؟ »

ولا ريب في ان قلقه كان عظيماً اذ لم يلح قط في التساؤل عن ذلك الفرار المربك من خلال البالوعة ، بل لم يلاحظ مجرد صمت جان فالجان بعد سؤاله .

وبدا جان فالجان — من ناحيته — وكأن فكرة وحيدة استبدت به . وأضاف :

— « انه يسكن في الماريه ، شارع فتيات كالفير ، في منزل جده — لقد نسيت اسمه . »

وبحث جان فالجان في سترة ماريوس ، واخرج منها حافظة الأوراق وفتحها عند الصفحة الحاملة خط ماريوس بقلم رصاصي ، وقدمهـا

إلى جافير .

كان لا يزال في الهواء قدرٌ من النور الطافي يمكّن المرء من القراءة . وإلى هذا ، فقد كان في عين جافير ذلك الوهج السنّوري الذي تتميز به طيور الليل . وحل ألغاز الأسطر القليلة التي خطها ماريوس ، وغمغم : « جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ . »

ثم صاح : « سائق ! »

والقاريء يذكر عجلة الكراء التي كانت تنتظر لوقت الحاجة .

واحتفظ جافير بمحافظة أوراق ماريوس .

وبعد لحظة كانت العجلة ، الهابطة من منحدر المنهل ، قد أمست على الشاطيء . ومُدد ماريوس على المقعد الخلفي ، وجلس جافير إلى جانب جان فالجان في المقعد الأمامي .

وحين أغلق الباب ، انطلقت العجلة في سرعة . مصعّدة في الرصيف باتجاه الباستيل .

وغادروا الرصيف ودخلوا إلى الشارع . وألهب السائق — وكان في مقعده اشبه بصورة ظلية — ألهب بالسوط فرسيه المهزولين . وران الصمت المثلوج على العربة . وبدا ماريوس — الفاقد الحراك ، المستند جسده إلى زاوية العربة ، المنكس رأسه فوق صدره ، المتدلي الذراعين ، المتصلب الرجلين — بدا وكأنه لا ينتظر إلا التابوت . وبدا جان فالجان وكأنه خُلق من ظلام ، وبدا جافير وكأنه خُلق من حجارة . وفي تلك العربة المفعمة بالليل ، والتي تراءى داخلُها كلما مرت بأحد المصابيح وقد شحب شحوباً شديداً ، وكأن ذلك بفعل وميض متقطع — في تلك العربة جمعت المصادفةُ وبدت وكأنها التفت على نحو حدادي ما بين ضروب الجمود الفاجعة الثلاثة : الجثة ، والشبح ، والتمثال .

١٠

عودة الابن الباذل حياته

وعند كل رجة فوق حصباء الطريق كانت قطرة من الدم تسقط من شعر ماريوس .

ولم تصل العجلة إلى رقم ٦ في شارع فتيات كالفير إلا بعد منتصف الليـــل .

وترجل جافير أولا ، وتثبّت بنظرة من الرقم المدوّن فوق بـــاب العربات ، ورفع القارعة الثقيلة المصنوعة من حديد مطاوع ، والمزينة على الطريقة العتيقة بتيس وساطير * يتحدى أحدهما الآخر ، وخفق الباب خفقاً عنيفاً . وفُتح مصراع الباب على نحو جزئي ، ودفعه جافير . وبرز البواب ، متثائباً ، نصف يقظان ، وفي يده شمعة .

كان كل من في البيت نائماً . فالناس يأوون إلى فراشهم باكراً في الـ « ماريه » ، وبخاصة في أيام الفتنة . إن ذلك الحي العتيق الصالح ، الذي اذهلته الثورة ، ليفزعُ إلى الرقاد ، كما يسارع الاطفال إلى اخفاء رؤوسهم تحت الدثار كلما أحسوا بأن « الغول » قد جاء ...

وفي غضون ذلك رفع جان فالجان والسائق ماريوس ، وأخرجاه من العربة . لقد حمله جان فالجان من إبطيه ، وامسك بـــه السائق من ركبتيه .

وفيما كانا يحملان ماريوس على هذا النحو دس جان فالجان يده تحت ثيابه ، التي كانت ممزقة ، وتلمّس صدره ، واستيقن أنه ما يزال يخفق ؛ بل لقد خفق خفقاناً أقل وهناً ، وكـأن حركـة العربة قد قيضت لـــه انبعاثاً جديداً .

---

* الساطير في الخرافات ، انسان ذو رجلين كرجلي التيس كان يسكن الغابات .

وصاح جافير في وجه البواب بتلك النبرة التي تلائم الحكومة ، أمام بواب رجل متمرد :

— « شخص ما ، يدعى جيلنورمان ؟ »

— « إنه هنا . ماذا تريد منه ؟ »

— « نحن نحمل اليه ابنه . »

فقال البواب في انشداه :

— « ابنه ؟ »

— « لقد مات . »

وأوماً جان فالجان — الذي أقبل خلف جافير رث الثياب وسخاً ، والذي نظر اليه البواب في رعب — أوماً اليه برأسه انه لم يكن ميتاً .

وبدا وكأن البواب لم يفهم لا كلمات جافير ، ولا ايماءة جان فالجان .

وتابع جافير كلامه :

— « كان قد ذهب إلى المتراس . وها هو ذا . »

وصاح البواب :

— « إلى المتراس ؟ »

— « لقد جلب على نفسه القتل . اذهب وأيقظ أباه . »

ولم يتحرك البواب .

واندفع جافير يقول :

— « لماذا لا تذهب ؟ »

وأضاف :

— « سوف تكون هنا جنازة غداً . »

ذلك ان احداث الشارع العام الاعتيادية كانت مصنفة ، عند جافير ، تصنيفاً مطلقاً ، هو أساس التبصر والحذر ، ولقد كان لكل طاريءٌ عنده خانتُه الخاصة . كانت الحقائق المحتملة شبه منضودة في أدراج ، فهي تخرج منها ، وفقاً للمناسبة ، في مقادير متفاوتة ؛ كان في الشارع لغط ، وفتنة ،

وكرنفال ، وجنازة .

واجتزأ البواب بايقاظ باسك . وأيقظ باسك نيقوليت ، وايقظت نيقوليت العمة جيلنورمان . أما الجد ، فتركوه نائماً معتقدين أنه سوف يعرف النبأ وشيكاً ، على أية حال .

وحملوا ماريوس إلى الدور الأول ، ولكن من غير أن يلمح ذلك احد في أقسام المنزل الاخرى ، ووضعوه على مقعد عتيق في غرفة الانتظار الخاصة بمسيو جيلنورمان . وفيما ذهب باسك لاستدعاء أحد الاطباء ، وراحت نيقوليت تفتح خزائن الملابس التحتية ، أحس جان فالجان بأن جافير يمس كتفه . وفهم ، وهبط السلم ، تتعقبه خطى جافير .

ورآهما البواب ينصرفان كما رآهما يصلان ، في نعاس مذعور .

وامتطيا العربة من جديد ، وجلس السائق في مقعده الخاص .

وقال جان فالجان :

— « ايها المفتش جافير . تكرّم عليّ ، بعدُ ، بشيء واحد . »

فسأله جافير في خشونة :

— « ما هو ؟ »

— « دعني أذهب إلى منزلي لحظة . ثم افعل بي بعد ذلك ما تريد . »

واعتصم جافير بالصمت بضع ثوان ، وقد أخفى ذقنه في قبة سترته الطويلة ، ثم انزل زجاج النافذة الامامي .

وقال :

— « ايها السائق ، إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

١١
ارتجاج في المطلق

ولم يعاود اي منهما فتح فمه طوال الطريق .

ما الذي كان يريده جان فالجان ؟ أن يتم ما كان قد بدأه ؛ ان يخبر كوزيت ، ان يقول لها اين ماريوس ، وربما ان يعطيها بعض المعلومات المفيدة الاخرى ، ان يتخذ ـ إذا استطاع ـ بعض التدابير النهائية . أما في ما يتصل به ، أما في ما كان يعنيه شخصياً ، فكان كل شيء قد انقضى . لقد قبض عليه جافير ، ولم يقاوم . ولعل امرءاً غيره كان جديراً بأن يفكر ، في تلك الحال ، تفكيراً غامضاً بذلك الحبل الذي اعطاه إياه تيناردييه وبالقضبان الحديدية الخاصة بأول حبس مظلم ضيق سوف يدخله . ولكن منذ ان تعرّف إلى الاسقف ، كان قد نشأ في ذات نفس جان فالجان ، تجاه اي محاولة عنيفة ، ولو كانت ضد حياته ـ ولنكرر ذلك ـ نقول كان قد نشأ في ذات نفسه تردد خشوعي عميق .

كان الانتحار ، ذلك الهجوم الخفي على المجهول ، والذي قد ينطوي إلى حد ما على موت النفس ، شيئاً متعذراً على جان فالجان .

وعند مدخل شارع الرجل المسلح ، وقفت العربة ، فقد كان ذلك الشارع أضيق من أن تلجه العربات . وترجل جافير وجان فالجان .

وفي اتضاع أبان السائق « للسيد المفتش » ان مخمل عربته الموسوم بمخمل اوترخت قد تلوث كله بدم القتيل ، ووحل القاتل . ذلك ما كان قد فهمه . وأضاف قائلاً إنه يستحق تعويضاً . وفي الوقت نفسه ، اخرج دفتره من جيبه ورجا السيد المفتش ان يتكرم بأن يكتب له «شهادة صغيرة بهذا المعنى » .

ورد جافير الدفتر الذي قدمه السائق اليه وقال :

— « كم ينبغي ان تأخذ بما في ذلك انتظارك ورحلتك ؟ »
فأجاب السائق :
— « لقد مضت سبع ساعات وربع ، ولقد كان مخملي جديداً تماماً. ثمانون فرنكاً ، يا سيدي المفتش . »
واخرج جافير من جيبه اربع ذهبيات نابوليونية ، وصرف العربة . وظن جان فالجان ان في نية جافير ان يقوده مشياً على الاقـــدام إلى مخفر « بلان مانتو » او إلى مخفر « الأرشيف » القريبين جداً .
ودخلا الشارع . كان مقفراً كشأنه دائماً . وتبع جافير جان فالجان . ووصلا إلى رقم ٧ . وقرع جان فالجان . وفُتح الباب .
وقال جافير :
— « حسن . إصعد . »
وأضاف في نبرة غريبة ، وكأنما كان يبذل جهداً في الكلام علـى هذا النحو :
— « سوف أنتظرك هنا . »
ونظر جان فالجان إلى جافير . كان هذا الاسلوب قليل الانسجام مع عادات جافير . ومع ذلك ، فلم يتعجّب جان فالجان كثيراً لأن يكون جافير يستشعر ضرباً من الثقة المتعجرفة فيه ، ثقة الهرة التي تمنح الفأرة حرية بطول برثنها ، برغم صدق عزيمته على الاستسلام وإنهاء كل شيء . وفتح الباب ، ودخل المنزل ، وخاطب البوابَ الذي كان في فراشه ، والذي كان قد جذب الحبل من غير ان ينهض بقوله : « هذا أنا » ، وارتقى السلم .
وعند وصوله إلى الدور الأول ، وقف . إن لجميع الممرات الأليمة مواقفها . وكانت النافذة المطلة على المنبسَط — وهي نافذة منزلقة — مفتوحةً ، وكانت السلم تستقبل الضوء ، شأنها في كثير من البيوت القديمة ، كانت تطل على الشارع . وكان مصباح الشارع ، القائم تجاه السـلم

مباشرة ، يلقي عليها شيئاً من الضوء ، مما كان يحدث اقتصاداً في الانارة .

وأطل جان فالجان من هذه النافذة ، إما لكي يأخذ نفساً أو على نحو آلي . وانحنى مشرفاً على الشارع . إنه شارع قصير ، ولقد كان المصباح يضيئه من أقصاه إلى أقصاه . واستبد الذهول بجان فالجان . لم يكن ثمة أحد هناك .

كان جافير قد مضى لسبيله .

١٢
الجد

كان باسك والبواب قد حملا ماريوس إلى حجرة الاستقبال ، وكان طوال تلك الفترة ممدداً على المقعد الذي وضع عليه عند مجيئه . وكان الطبيب الذي استدعي قد وصل . وكانت العمة جيلنورمان قد استيقظت .

وذرعت العمة جيلنورمان الغرفة جيئة وذهوباً ، مذعورة ، شابكة يديها ، غير قادرة على ان تعمل شيئاً إلا القول : « يا الـهي ، أهذا ممكن ؟ » وكانت تضيف بين الفينة والفينة : « كل شيء سوف يغطى بالدم ! » وحين زايلها الذعر الأول ، اشرقت على عقلها فلسفة للحادث ، وعبرت عن نفسها بهذه الصيحة : « كان لا بد لذلك من ان ينتهي على هذا الشكل ! » ولم يبلغ بها ذلك إلى حد القول « هذا ما كنت أقوله دائماً » ، وهي العبارة المألوفة في مثل هذه المناسبات .

وبناء على أمر الطبيب ، كان سرير ذو سيور قد وضع قرب المقعد . وفحص الطبيب ماريوس . وبعد ان قرر ان قلبه ما يزال ينبض ، وأن

الجريح لم يكن مصاباً بأي جرح بليغ في صدره ، وان الدم الذي حول زوايا شفتيه انبثق من تجويف الانف ، مدده على السرير ، من غير وسادة ، ورأسه على مستوى واحد مع جسده ، بل اكثر انخفاضاً بعض الشيء ، وقد عُرّي صدره ، لكي يسهّل التنفس . وانسحبت الآنسة جيلنورمان عندما رأتهم ينزعون ثياب ماريوس . وراحت تصلي في غرفتها مستعينة بالسبحة .

ولم يكن الجسد قد أصيب بجرح باطني . كانت الرصاصة قد انحرفت بعد ان اوهنتها حافظة الاوراق ، واستدارت حول الضاوع محدثة خرقاً فظيعاً ، ولكنه غير عميق ، وبالتالي غير خطر . وكان السير الطويل تحت الارض قد أتم انخلاع لوح الكتف المكسورة ، وكانت اختلالات خطيرة هناك . كانت ثمة جراحات سيف على الذراعين . ولم تشوه ندبة ما وجهه . بيد ان رأسه بدا وكأنه مغطى بحزوز وفروض . اي اثر سوف تتركه هذه الجراح على الرأس ؟ هل وقفت عند جلدة الرأس ؟ هل اثرت في الجمجمة ؟ ذلك ما لم يكن ثمة سبيل إلى الاجابة عنه وكان من الاعراض الخطيرة انها سببت الاغماء ، والناس لا يثوبون إلى رشدهم ، عادة ، من مثل هذه الغيبوبة . وإلى هذا ، فقد كان نزف الدم قد استنفد قوى الجريح . وابتداء من الخصر ، كان القسم الأدنى من الجسد مصوناً خلف المتراس .

ومزق باسك ونيقوليت الاقمشة البيضاء وصنعا منها ضمادات . كانت نيقوليت تخيطها ، وكان باسك يطويها . واذ لم يكن ثمة نسالة ، فقد اوقف الطبيب تدفق الدم من الجراح ، موقتاً ، بلفافات من القطن المندوف . وإلى جانب السرير ، كانت ثلاث شمعات تضيء فوق طاولة نشرت عليها الادوات الجراحية . وغسل الطبيب وجه ماريوس وشعره بماء بارد . واستحال دلو الماء المملوء أحمر ، في الحال . ووقف البواب ، والشمعة في يده ، يبدد بها الظلام .

وبدا الطبيب وكأنه يفكر في كآبة . وكان يهز رأسه بين الفينة والفينة، وكأنما يجيب عن سؤال ما ، كان قد طرحه على نفسه باطنياً . وهــذه المحاورات الخفية التي تدور بين الطبيب وبين ذاتــه نــذير للمريض بسوء .

ولحظة كان الطبيب يمسح الوجه ويمس بأصبعه ، وفي رفق ، الاجفان التي ما تزال مغمضة ، فُتح باب في الطرف الاقصى من حجرة الاستقبال ، وبرزت صورة طويلة شاحبة .

كان هو الجد .

كانت الفتنة قد اثارت مسيو جيلنورمان إلى ابعد الحدود وأسخطته واستأثرت بتفكيره كله طوال يومين اثنين . إنه لم ينم الليلة الماضية ، وكانت الحمى تستبد به طوال النهار . وفي المساء ، كان قد أوى إلى فراشه في ساعة مبكرة جداً ، موصياً بأن توصد جميع ابواب البيت بالحديد ، واستسلم للرقاد بعد ان هدّه الأعياء .

ان رقاد الرجال العجائز ميسور الانقطاع . كانت حجرة مســيو جيلنورمان محاذية لغرفة الاستقبال . وكانت الضجة قد أيقظته برغــم الاحتياطات التي اتخذوها . واذ ادهشه النور الذي رآه من خلال شــق الباب ، نهض من فراشه ، وانشأ يتلمس طريقه تلمساً .

كان على العتبة ، واضعاً احدى يديه على تفاحة الباب نصف المفتوح، ناكس الرأس بعض الشيء متذبذباً ، متلفعاً بمنامة بيضاء مستقيمة ليس فيها ثنيات فهي أشبه ما تكون بالكفن . كان مشدوهاً ، وكانت تبدو عليه سيما شبح ينظر إلى قبر .

ولمح السرير ، ولمح على الحشية ذلك الفتى الدامي ، ابيضَ بلــون الشمع ، مغمض العينين ، فاغر الفم ، شاحب الشفتين إلى حد بعيد ، عارياً حتى الخصر ، مثخناً جسده كله بالجراح الحمراء ، جامداً لا حراك به ، مضاء على نحو ساطع .

وسرت في جسم الجد ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، رعدة كانت أعنف ما يمكن للاوصال التي استحالت إلى عظم أن تعرفه . وكانت عيناه ، اللتان اصفرت قرنيّتهما بالشيخوخة ، محجوبتين بضرب من اللمعان الزجاجي . وفي لحظة ، اتخذ وجهه تلك الزوايا الترابية التي تميز رأس الهيكل العظمي ، وتدلت ذراعاه وكأن نابضاً قد كُسر فيهما ، وتجلى انشداهه بتباعد أصابع يديه العجوزين المرتعشتين ، والتوّت ركبتاه إلى امام كاشفتين من خلال فتحة منامته ، عن رجليه العاريتين المهزولتين الشائكتين بالشعر الأشيب . وغمغم :

— « ماريوس ! »

فقال باسك :

— « سيدي ، لقد جيء اللحظة بسيدي إلى المنزل . كان قد ذهب إلى المتراس ، و ... »

وصاح الرجل العجوز في صوت فظيع :

— « ومات ! آه ، يا لقاطع الطريق ! »

ثم ان ضرباً من التحول القبريّ جعل هذا الرجل العجوز منتصب القامة مثل فتى في ريق الشباب .

وقــال :

— « سيدي ، أنت الطبيب . قل لي شيئاً واحداً . لقد مات ، أليس كذلك ؟ »

واذ كان يستبد بالطبيب حصرٌ نفسي بالغ ، فقد اعتصم بالصمت .

والتاع مسيو جيلنورمان ألمـاً وانفجر ضاحكاً على نحو رهيب :

— « لقد مات ! لقد مات ! لقد عرّض نفسه للقتل في المتاريس . لكرهه اياي . لقد فعل ذلك برغمي ! آه ، يا لشارب الدماء ! تلك هي الطريقة التي يرجع بها الي ! يا لشقاء حياتي ، لقد مات ! »

ومضى إلى نافذة ، وفتحها على مصراعيها وكأنه يختنق . لقد وقف

أمام الظلام ، وانشأ يتكلم موجهاً الخطاب إلى الشارع والليل .

— « إنه مثقّب ، مثخن بضربات السيف ، ذبيح ، مستأصَل ، ممزق ، مقطّع إرباً ارباً . هل رأيتموه ، المتشرد ! لقد عرف جيداً اني سوف اكون في انتظاره ، واني قد اعددت غرفته لاستقباله ، واني قد علقت رسمه الراجع إلى عهد طفولته فوق سريري ! لقد عرف جيداً أن ليس عليه إلا أن يعود ، واني سلخت سنوات وانا أناديه ، واني قعدت في الليالي امام الموقد ويداي على ركبتيّ ، غير عارف ماذا أعمل ، واني أصبت بالعُتْه من أجله ! كنت تعرف جيداً انه ليس عليك إلا ان تدخل وتقول : « هذا أنا » ، وانك سوف تصبح سيد البيت ، وانني سوف اطيعك ، وانك تستطيع ان تعمل ما تشاء بهذا الجد العجوز البليد . لقد عرفتَ ذلك جيداً ، وقلتَ : « لا ، إنه ملكيّ ، لن اذهب! » وذهبت إلى المتاريس ، وعرّضت نفسك للقتل بسبب من عناد الاولاد ! لكي تنتقم لنفسك مما قلته لك عن الدوق دو بيري . هذا شيء معيب . اذهب إلى فراشك ، اذن ، ونم نوماً هادئاً . لقد مات . وهذه هي يقظتي . »

فلم يكن من الطبيب ، الذي امسى قلقاً من ناحيتين ، إلا ان ترك ماريوس لحظة ، ومضى إلى مسيو جيلنورمان ، وأمسك بذراعه . واستدار الجد ، ونظر اليه بعينين بدتا منتفختين داميتين ، وقال في تؤدة :

— « اشكرك يا سيدي . أنا رابط الجأش ؛ انا رجل ؛ لقد شهدت موت لويس السادس عشر ؛ انا اعرف كيف اتحمل المصائب . ولكن هناك شيئاً واحداً فظيعاً ، ان تفكر ان جرائدك هي التي تسبب الاذى كله . سوف نحصل على مؤلفين مكثرين في اسفاف ، وعلى محدثين ، ومحامين ، وخطباء ، ومنابر ، ومناقشات ، وتقدُّم ، وانوار ، وحقوق الانسان ، وحرية الصحافة ، وهذه هي الطريقة التي يحملون بها أولادك إلى بيتك . آه ! ماريوس ! هذا فظيع ! أينطرح قتيلا ، ميتاً أمـام ناظري ! متراس ! آه ، يا لقاطع الطريق ! ايها الطبيب ، أنت تقطن

في الحي ، على ما أظن . اوه ، انا اعرفك جيداً . أنا ارى عربتك تمر تحت نافذتي . سوف اقول لك . إنك تخطىء إذا اعتقدت اني غاضب . إن المرء لا يغضب من ميت ، تلك حماقة . ان هذا طفل أنا نشأته . لقد كنتُ عجوزاً عندما كان لا يزال صغيراً جداً . وكان يلعب في التويلري بعجرفته الصغيرة وكرسيه الصغير . ولاجتناب توبيخ المراقبين كنت املأ بعصاي تلك الحفر التي أحدثها في الارض بعجرفته . وذات يوم صاح : « فليسقط لويس الثامن عشر ! ومضى لسبيله . انها لم تكن غلطتي . كان شديد تورّد الوجنتين ، شديد الشقرة ، وكانت امه قد ماتت . هل قدّر لك ان تلاحظ ان جميع الاطفال الصغار شقر ؟ ما سبب ذلك ؟ إنه ابن واحد من قطاع طرق اللوار ؛ ولكن الاطفال ابرياء من جرائم آبائهم . انا اذكر حين كان على مثل هذا الطول . انه لم يكن يحسن النطق بحرف الدال . كان كلامه ناعماً جداً وغامضاً جداً حتى لقد كان يخيل اليك انه عصفور . واذكر انهم تحلقوا حوله ، أمام الـ « هيركول فارنيز » وانشأوا يحدقون اليه في اعجاب ودهش ؛ لقد كان طفلا جميلا ! كان له رأس كذلك الذي نراه في اللوحات الفنية . كنت اتحدث اليه بصوتي الخشن ، وكنت اروّعه بعصاي ، ولكنه يعرف جيداً اني كنت امزح . وفي الصباح ، حين كان يدخل إلى غرفتي ، كنت أوبخه ، ولكن ذلك كان أشبه بأشعة الشمس بالنسبة الي . انك لا تستطيع ان تدافع عن نفسك أمام هؤلاء الصغار . انهم يغضبون عليك ، انهم يتشبثون بك ؛ انهم لا يفلتونك ابداً . والحق أقول ، اني لم أعرف حباً كمثل حبي لذلك الطفل . والآن ، ما الذي ينبغي ان أقوله في لافاييت ، وبنجمان كونستان ، وتيركوير دوكورسيل الذين قتلوه ! ان الوضع لا يمكن ان يستمر هكذا . »

واقترب من ماريوس ، الذي كان لا يزال شديد الشحوب جامداً لا حراك فيه ، والذي كان الطبيب قد رجع اليه ، وبدأ يتلوى ألماً .

وتحركت شفتا الرجل العجوز البيضاوان وكأنهما تتحركان اوتوماتيكياً ، وأطلقتا كلمات تكاد تكون غير واضحة ، كلمات اشبه بهمسات في حشرجة ، كانت لا تُسمع إلا بشق النفس : « آه ، يا عديم القلب ! آه ، يا عضو النوادي ، آه ، ايها الأثيم ! آه ، أيها الأيلولي ! » تقريعات يهمسها رجل محتضر في أذن جثة باردة .

وشيئاً بعد شيء — إذ لا بد للتفجرات الباطنية ان تنطلق دائماً — استعادت كلماته تسلسلها ، ولكن الجد بدا وكأنه فقد القدرة على النطق بها . وكان صوته خافتاً مخنوقاً إلى درجة بدا معها وكأنه ينبعث من الجانب الآخر من احدى الحفر .

— « سيان عندي ، أنا سوف أموت أيضاً . وأن يقال انه لم يكن في باريس مخلوقة صغيرة كان يسعدها ان تجعل هذا المسكين سعيداً ! وغدٌ ذهب إلى القتال ، بدلا من ان يعبث ويستمتع بالحياة ، وعرّض نفسه لقذائف المدافع مثل بهيمة من البهائم . ومن آجل من ؟ ومن اجل ماذا ؟ من أجل الجمهورية ! بدلا من ان يذهب ليرقص في الـ « شوميير » كما ينبغي للشباب أن يفعلوا . ان كون المرء في العشرين من العمر لأمر يستحق العناء . الجمهورية ، تلك الحماقة الجميلة اللعينة . ايتها الامهات المسكينات ، أنجبن اذن اولاداً وسيمين . ولكنْ ، لقد مات . ذلك يعني جنازتين تمران بباب العربات . واذن ، فقد قمت بذلك كله اكراماً لعيني الجنرال لامارك الجميلتين ! ما الذي صنعه من اجلك ، الجنرال لامارك هذا ؟ جندي لا يفقه شيئاً من فنون الحرب ! ثرثار ! تعرّض نفسك للقتل من أجل رجل ميت ! اذا لم يكن في هذا ما يخبّل المرء فما الذي يخبّله ! فكر في ذلك ! في العشرين من العمر ! ومن غير ان يدير رأسه لكي يرى ما إذا كان يترك وراءه شخصاً ما ، أم لا ! ها هم العجائز المساكين الذين كُتب عليهم ان يموتوا وحيدين . مت في زاويتك ، ايها البومة ! حسناً ، نعم هذا في الواقع . ذلك ما

كنت أرجوه ، إنه سوف يقضي عليّ قضاء كاملا . أنا هرم اكثر مما ينبغي . إن عمري مئة عام ، إن عمري مئة الف عام . ولقد كان من حقي ان أموت منذ عهد بعيد . وبهذه الضربة ، ينتهي كل شيء . لقد قضي الأمر اذن ، يا للسعادة ! أي فائدة من حمله على تنشق محلول النشادر وجميع هذه الكومة من العقاقير ؟ إنك تضيع تعبك ، ايها الطبيب الأحمق ! تابعْ ؛ انه ميت ، ميت مثل صخر . أنا أفهم ذلك، أنا الميت أيضاً . إنه لم يقم بالأمر على نحو جزئي . اجل هذه الايام شائنة ، شائنة ، شائنة ، وهذا هو رأيي فيك ، وفي افكارك ، وفي انظمتك ، وفي سادتك ، وفي حكمائك ، وفي أطبائك ، وفي كتّابك الادنياء ، وفي فلاسفتك الشحاذين ، وفي جميع الثورات التي روعت طوال ستين عاماً أسراب الغربان في التويلري ! ولما كنتَ من عدم الرحمة بحيث تعرّض نفسك للقتل على هذه الشاكلة ، فلن أستشعر ولو مجرد حزن على وفاتك ، أفهمت ، أيها السفاح ؟ »

وفي هذه اللحظة ، رفع ماريوس جفنيه في بطء ، واستقر نظره ، الذي ما يزال محجباً بدهشه السُّباتي ، على مسيو جيلنورمان .

وصاح الرجل العجوز :

— « ماريوس ! ماريوس ! يا صغيري ماريوس ! يا ولدي ! يا بنيّ الحبيب ! انت تفتح عينيك ، انت تنظر الي ، انت حيّ ، شكراً . »

وخرّ مغشياً عليه .

الكتاب الرابع

جافير يتنكب الطريق

كان جافير قد ابتعد في خطى وئيدة ، عن شارع الرجل المسلح .

لقد مشى ناكس الرأس ، للمرة الأولى في حياته ، ويداه خلف ظهره ، للمرة الأولى في حياته أيضاً .

فحتى ذلك اليوم كان جافير قد اصطنع من مسلكَيْ نابوليون الاثنين ، ذلك الذي يعبر عن العزم ليس غير : شبْك الذراعين على الصدر . أما ذلك الذي يعبر عن التردد — شبْك الذراعين خلف الظهر — فلم يكن معروفاً عنده . والآن ، كان ثمة تغيرٌ قد حدث ؛ كان شخصه كله ،

شخصه المتباطئ الكالح ، يحمل طابع الحصر النفسي .
وغاص في الشوارع الصامتة .
ومع ذلك ، فقد اتخذ اتجاهاً واحداً .
لقد اتخذ الطريقَ الأقصر نحو الـ « سين » ، وبلغ الـ « كي ديزورم » ، وسار في محاذاة رصيف النهر ، واجتاز الـ « غريف » ، ووقف على مسافة قصيرة من مخفر ساحة الـ « شاتيليه » ، عند زاوية جسر « نوتر دام » . ان الـ « سين » يشكّل هناك بين جسر « نوتر دام » وجسر الـ « شانج » من ناحية ، وبين رصيف الـ « ميجيسّري » و « رصيف الازهار » من ناحية ثانية – نقول ان الـ « سين » يشكل شبه بحيرة مربعة يخترقها تيار مائي سريع .
هذه النقطة من نهر الـ « سين » يرهبها الملاحون . ان شيئاً ليس اكثر خطراً من هذا التيار ، الذي حُصر في تلك الحقبة واستثير غيظه بالاوتاد المدعّمة لمطحنة الجسر ، التي لم يعد لها وجود اليوم . والجسران ، القريب أحدهما من الآخر إلى أبعد حدود القرب ، يزيدان الخطر حدة ، وقد اخذت المياه تسرع تحت العقود على نحو رهيب . إنها تتدحرج في ثنيّات عريضة مروعة . إنها تتجمع وتتراكم . ويُفرغ الفيضان جهده عند دعائم الجسر وكأنما يريد ان يقتلعها بحبال ضخمة مائعة . إن من يسقط هناك لا تراه العين بعدُ أبداً . إن خير السابحين ليغرقون في تلك اللجج .
وأسند جافير كلا مرفقيه إلى الحاجز ، مطوقاً ذقنه بيديه ، وفيما كانت أصابعه منشبة ميكانيكياً في لحية عارضَيْه ، انشأ يفكر .
كان يعتمل في أعماق وجوده شيء جديد ، ثورة ، كارثة . وكان فيها ما يدعو إلى فحص الضمير .
كان جافير يقاسي آلاماً رهيبة .
فمنذ بضع ساعات وجافير في حال غير طبيعية . كان قلقاً مشغول

البال . وكان ذهنه ، الشديد الصفاء في عماه ، قد فقد شفافيته . كان ثمة سحابة في هذا البلور . لقد استشعر جافير ان الواجب كان قد شرع يضعف في ضميره ، ولم يكن في ميسوره ان يخفي ذلك عن نفسه . فحين التقى جان فالجان ، في كثير من عدم التوقع ، فوق شاطئ الـ «سين» ، كان في ذات نفسه شيء من الذئب ، الذي يمسك بفريسته من جديد ، والكلب الذي يعثر على سيده كرة اخرى .

لقد رأى أمامه طريقين متماثلين في الاستقامة . ولكنه رأى طريقين ؛ وقد روّعه ذلك — روّعه هو ، هو الذي لم يعرف قط في حياته غير طريق مستقيم واحد . وكان مما اورثه الألم الممضّ ان هذين الطريقين كانا متناقضين . إن واحداً من هذين الطريقين الاثنين ينفي الآخر . اي الطريقين هو الطريق الصحيح ؟

كانت حالته تمتنع على الوصف .

كان الذي جندله ان يكون مديناً بحياته لشرير ، وان يرتضي ذلك الدين ويفيه ؛ وان يكون ، بالرغم منه ، على مستوى واحد مع هارب من العدالة ؛ وأن يبادله خدمة بخدمة ؛ وان يجيز له ان يقول : « امض لسبيلك ! » ويقول له هو ، بدوره ، « أنت مطلق السراح ! » ؛ وان يضحي بالواجب ، تلك الفريضة العمومية ، على مذبح الدوافع الشخصية ؛ وان يستشعر في هذه الدوافع الشخصية شيئاً عمومياً أيضاً ، وربما شيئاً سامياً ؛ وان يخون المجتمع لكي يكون وفياً لضميره ؛ وان تتحقق هذه الاستحالات كلها ، وان تتراكم عليه هو .

كان شيء قد أثار دهشه : أن يكون جان فالجان قد غفر له ؛ وكان شيء قد حجّره : أن يكون هو ، جافير ، قد غفر لجان فالجان .

أين كان ؟ والتمس نفسه ، فلم يجد نفسه .

ما الذي يتعين عليه ان يفعله الآن ؟ أيسلم جان فالجان إلى السلطات؟

ان ذلك شر . أيترك جان فالجان طليقاً ؟ ان ذلك شر أيضاً . ففي الحال الأولى يهبط رجل السلطة إلى أحط من درك الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وفي الحال الثانية يرتفع الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى مستوى أعلى من مستوى القانون ويدوسه بقدمه . وفي كلتا الحالين عار عليه ، هو جافير . وأياً ما كانت الطريق التي سيسلكها فثمة زلة . إن للاقدار بعض الحدود القصوى المتحدرة على المستحيل ، والتي لا تعدو الحياة ان تكون ، وراءها ، هوة ليس غير . كان جافير قد بلغ واحداً من تلك الحدود القصوى .

وكان من أسباب حصره النفسي انه كان مكرهاً على التفكير . كان مجرد عنف هذه العواطف كلها يجبره على ذلك . وكان التفكير شيئاً غير مألوف عنده ، فهو أليم إلى حد فريد .

إن ثمة دائماً قدراً معيناً من الثورة الباطنية في الفكر . ولقد هاجه ان يجد ذلك في ذات نفسه .

كان التفكير في اىما موضوع ، مهما يكن ، خارج نطاق وظيفته الضيق — كان هذا التفكير ، في جميع الاحوال ، حماقة في نظره ومدعاة للتعب . ولكن التفكير في اليوم الذي تصرّم منذ فترة يسيرة كان عذاباً ونكالا . ويتعين عليه ، مع ذلك ، ان يلقي نظرة على ضميره بعد صدمات مثل هذه ، وان يقدم حساباً عن نفسه إلى نفسه .

كان ما قد صنعه اللحظة قد أوقع الرعدة في أوصاله . كان قد ارتأى هو جافير ، ان من الخير ان يقرر ، برغم أنظمة الشرطة جميعاً ، وبرغم التنظيم الاجتماعي والقضائي كله ، وبرغم القانون كله ، إطلاق سراح متهم . كان ذلك قد أرضاه ، لقد قدم مصالحه الخاصة على المصالح العامة . أليس هذا شراً لا سبيل إلى وصفه ؟ كان كلما واجه هذا العمل الذي لا اسم له ، هذا العمل الذي ارتكبه ، يرتعد من قمة رأسه إلى اخمص قدميه . ما الذي ينبغي له ان يقرره الآن ؟ لم تبق أمامه غير

سبيل واحدة : أن يرجع في الحال إلى شارع الرجل المسلح ، ويلقي القبض على جان فالجان . كان واضحاً ان ذلك هو ما يتعين عليه فعله . ولكنه لم يستطع .

لقد سد شيء ما ، الطريقَ في وجهه من هذه الناحية .

شيء ما ؟ ماذا ؟ وهل ثمة في العالم شيء غير المحاكم ، وأحكام القضاء ، والشرطة ، والسلطة ؟ واضطرب ذهن جافير .

محكوم مقدس بالاشغال الشاقة ! محكوم تقصر يد العدالة عن الوصول اليه ! ومن المسؤول عن ذلك ؟ هو جافير !

أليس فظيعاً ان ينتهي جافير وجان فالجان ، الرجل الذي خلق للقسوة والرجل الذي خلق للخضوع ، أليس فظيعاً ان ينتهي هذان الرجلان ، اللذان كان كل منهما شيئاً من أشياء القانون ، إلى نقطة يضعان فيها نفسيهما كليهما فوق القانون ؟

ماذا اذن ؟ أتقع مثل هذه الفواحش ولا يعاقب أحد ؟ أمن الجائز ان يتعين عليه تحرير جان فالجان ، وقد أمسى اقوى من النظام الاجتماعي كله ، ثم يواصل هو ، جافير ، أكل خبز الحكومة !

وشيئاً بعد شيء غدت هذه الافكار رهيبة .

وكان في ميسوره ، من خلال هذه التأملات أيضاً ، ان يقرع نفسه قليلا في ما يتصل بذلك المتمرد الذي حُمل إلى شارع فتيات كالفير . ولكنه لم يفكر في هذا . لقد ضاعت الخطيئة الصغرى في الخطيئة الكبرى. وإلى هذا ، فقد كان واضحاً ان ذلك المتمرد رجل ميت ، والموت – في عرف الشرع – يخمد الملاحقة .

واذن فجان فالجان كان هو الحمل الذي يُثقل عقله .

لقد أذهله جان فالجان . إن جميع الحقائق البدهية التي تنهض عليها حياته كلها قد انهارت أمام هذا الرجل . لقد ارهقه إحسان جان فالجان اليه ، هو جافير . وعاودته بعض الاعمال ، التي تذكّرها والتي كان

يعتبرها حتى ذلك الحين اكاذيب وحماقات ، وتبدت له بوصفها حقائق . وبرز مسيو مادلين ، كرة اخرى ، خلف جان فالجان ، والتقت الصورتان حتى شكلتا صورة واحدة ، صورة جليلة جديرة بالاحترام . واستشعر جافير ان شيئاً رهيباً كان ينفذ إلى روحه . الاعجاب بمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . الاحترام لعبد من عبيد سجن الاشغال الشاقة ... هل هذا معقول ؟ وارتعد لتلك الفكرة ، ومع ذلك فلم يستطع ان يزحزحها . كان النضال عبثاً لا طائل تحته ، وكان قد اضطر إلى الاعتراف أمام محكمته الباطنية الخاصة بسمو هذا الرجل البائس . وكان ذلك بغيضاً اليه .

شرير محسن ؛ محكوم عليه بالاشغال الشاقة يملأ قلبه الحنان ؛ عذب ؛ معوان ؛ حليم ؛ يقابل الشر بالخير ؛ ويرد على البغض بالعفو ؛ محب للرأفة اكثر من حبه للانتقام ؛ يؤثر تحطيم نفسه على تحطيم خصمه ؛ وينقذ ذلك الذي طعنه ، ويركع على قمة الفضيلة ؛ أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر . لقد اضطر جافير إلى الاعتراف بأن هذا الكائن الجبار موجود .

وما كان لهذه الحال ان تستمر هكذا .

وليس من ريب — ونحن نصرّ على ذلك — في أنه لم يستسلم من غير ما مقاومة لذلك الجبار ، لذلك الملاك المرذول ، لذلك البطل الشنيع ، الذي كان جافير مشمئزاً ساخطاً عليه بقدر ما كان مشدوهاً به تقريباً . فعشرين مرة ، فيما كان في تلك العربة وجهاً لوجه مع جان فالجان ، زمجر النمر التشريعي في ذات نفسه . وعشرين مرة سولت له نفسه ان ينقضّ على جان فالجان ، وينشب اظفاره فيه ، ويلتهمه ، يعني ان يلقي القبض عليه . وهل ثمة ما هو أبسط من ذلك حقاً ؟ أن يصيح لدن وصوله إلى أول مخفر اجتازاه : « هو ذا هارب من وجه العدالة ، مخالف للحكم الصادر بحقه ! » ، ان ينادي رجال الدرك ويقول لهم :

« هذا الرجل ملك لكم ! » ويمضي لسبيله ، ان يخلّف هذا الرجل الهالك هناك ، وان يتجاهل الباقي ، ويقطع كل صلة له به . إن هذا الرجل هو أسير القانون إلى الأبد ، ولسوف يفعل القانون به ما يشاء . اي شيء أكثر عدالة من ذلك ؟ كان جافير قال ذلك كله في ذات نفسه ، كان قد رغب في ان يذهب إلى أبعد من هذا ، ان يعمل ، ان يلقي القبض على الرجل ؛ وفي ذلك الحين ، شأنه الآن ، عجز عن ذلك . وكلما ارتفعت يده على نحو متشنج نحو عنق جان فالجان ارتدت وكأنها مثقلة بحمل هائل . وكان قد سمع في أعماق عقله صوتاً ، صوتاً غريباً يخاطبه بقوله : « حسن . اطلق سراح منقذك . وجيْ بحوض بيلاطس البنطي * ، واغسل براثنك . »

ثم ارتد تفكيره إلى نفسه . وإلى جانب جان فالجان ، المعظّم ، رأى نفسه ، هو جافير ، مهيناً ذليلاً .

كان المحسن اليه رجلا محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

ولكن لماذا اجاز لهذا الرجل ان ينقذ حياته ؟ كان من حقه ، في ذلك المتراس ، ان يُقتل . ولقد كان ينبغي له ان يفيد من هذا الحق . ولقد كان خيراً له لو دعا المتمردين الآخرين إلى مساعدته على جان فالجان ، وان يحصل بالقوة على رصاصة يموت بها .

وكان ألمه الأعظم ناشئاً عن فقدانه اليقينَ كله . لقد استشعر انه مقتلَع من جذوره . لم يعد القانون غير أرومة في يده . ولقد كان عليه ان يواجه وساوس من نوع مجهول . لقد ألهِم إحساساً مختلفاً كل الاختلاف عن توكيد القانونِ ، مقياسِهِ الوحيد حتى ذلك الحين . إن التزامه فضيلته

* هو حاكم « اليهودية » من قبل الرومان ، وقد أسلم يسوع المسيح الى قضاته الدينيين بالرغم من عدم اقتناعه بانه اقترف جريمة ما . ولكي يُفهم اليهود انه يحملهم تبعة موت يسوع طلب شيئاً من الماء ، وغسل يديه وقال : « انا بريء من دم هذا البارّ . »

القديمة لم يكن كافياً . لقد نشأ نظام كامل مؤلف من حقائق غير متوقعة، وهيمن عليه . لقد تبدى لروحه عالم جديد بالكلية . إحسان يُقبَل ويُرَدّ ؛ تفان ؛ حنان ؛ رأفة ؛ اعمال عنف تشنها الشفقة على الصرامة؛ احترام الاشخاص ؛ لا قضاء نهائياً بعد الآن ؛ لا لعنة أبدية ؛ إمكانية ترقرق الدمعة في عين القانون ؛ عدالة خفية وفقاً للرب متناقضة مع العدالة وفقاً للبشر . لقد لمح في الظلام الاشراقَ الرهيب لشمس اخلاقية مجهولة . لقد روعته واصابت عينيه بالجهرَ . بومة تضطر إلى ان تنظر نظرات نسر .

وقال لنفسه ان ذلك صحيح اذن ، وان ثمة شواذ ، وان السلطة قد تصاب بالقلق ، وان القاعدة قد تتعطل فجأة امام عمل من الاعمال ، وان نص القانون لا ينتظم كل شيء ، وان غير المتوقع قد يفرض سلطانه حتى الخضوع ، وان فضيلة احد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قد تنصب شركاً لفضيلة الموظف ، وان الرهيب قد يكون إلهياً ، وان للقدر مكامن كهذه ، وفكّر في يأس أنه نفسه ليس في نجوة من الحيرة والانشداه .

واكره على الاعتراف بوجود الرفق . لقد كان هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة رجلا رفيقاً ، وكان هو نفسه — وهو أمر غريب — رفيقاً أيضاً . وإذن فقد فسُد .

وألفى نفسه نذلا خسيساً . كانت نفسه توقع الرعب في نفسه .

لم يكن مثل جافير الأعلى أن يصبح انسانياً ، ان يصبح عظيماً ، ان يصبح سامياً . كان مثله الأعلى ان يصبح خلواً من العيب .

وها هو ذا الآن قد اخفق ؛

كيف انتهى إلى هذه النقطة ؟ كيف حدث ذلك كله ؟ لقد عجز عن ان يجيب نفسه ؛ وطوف رأسه بكلتا يديه ، ولكن على غير طائل ؛ إنه لم يستطع ان يفسر ذلك لنفسه .

وكان يعتزم دائماً ، من غير شك ، ان يعيد جان فالجان إلى القانون الذي كان أسيره ، والذي كان هو جافير عبداً رقيقاً له . ولم يكن قد اقر بنفسه ، لحظة واحدة ، فيما كان ممسكاً به ، أنه فكر باطلاق سراحه . لقد اتفق ليده بطريقة ما ، وعلى غير علم منه ، ان انفتحت وأطلقته .

وتراقصت أمام عينيه علامات الاستفهام على اختلاف ضروبها . لقد طرح على نفسه ، ولقد أجاب ، عن تلك الاسئلة ؛ وروعته أجوبته تلك . لقد سأل نفسه : « هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هذا الرجل اليائس ، الذي لاحقته حتى الاضطهاد ، والذي وجدني مرة تحت قدميه ، والذي كان في ميسوره ان ينتقم لنفسه ، والذي كان يتعين عليه ان يفعل ذلك إرواء لانتقامه وضماناً لسلامته في وقت معاً — هذا الرجل ، ما الذي فعله عندما منحني الحياة ، عندما عفا عني ؟ واجبه ؟ لا . شيئاً اكثر . والآن ، بعفوي عنه مقابل ذلك ، ما الذي فعلته ؟ واجبي ؟ لا . شيئاً اكثر . واذن ، فثمة شيء اكثر من الواجب . » وأجفله ذلك . لقد اختلت موازينه . إن احدى الكفتين قد هبطت في الهاوية ، وان الأخرى قد صعدت في السماء ، واستشعر جافير من تلك المصّعدة بقدر من الذعر متكافىء مع ذلك الذي استشعره من تلك الهابطة . ومن غير ان يكون بحال من الاحوال ما يدعى فولتيرياً ، أو فيلسوفاً ، أو زنديقاً ، وعلى الرغم من انه كان على عكس ذلك شديد الاحترام ، بالغريزة ، للكنيسة الراسخة ، فلقد عرفها بوصفها جزءاً فخيماً من الكل الاجتماعي ليس غير . كان النظام عقيدته الجوهرية ، وكانت تلك العقيدة تكفيه . فمنذ ان بلغ مبلغ الرجال والموظفين ، كان قد وقف دينه كله على الشرطة . وذلك بأنه كان جاسوساً — ونحن نستعمل الكلمات هنا في أحفل معانيها بالجد ، ومن غير ايما أثارة من السخرية — كما يكون الناس كهاناً . كان له رئيس ، هو مسيو جيسكيه . وكان نادراً ما فكر ، حتى تلك اللحظات ، بذلك الرئيس الآخر : الله .

هذا الرئيس الجديد ، الله ، أحس به جافير بغتة . واربكه ذلك الاحساس .

وأوقعه ذلك الوجود غير المتوقع في حيرة : ولم يدر ما الذي يتعين عليه ان يفعله بهذا الرئيس ، هو الذي لم يكن يجهل ان المرؤوس مضطر دائماً إلى الخضوع ، وان عليه ان لا يعصي ، أو يلوم ، أو يناقش ، وانه ليس للمرؤوس من سبيل — في حضرة رئيس يثير دهشهُ اكثر مما ينبغي — غير الاذعان .

ولكن أنى له ان يبعث باستقالته إلى الله ؟

وكيفما كان ذلك ، وكان يرجع إلى هذا على نحو موصول ، فأن شيئاً واحداً سيطر عنده على كل شيء ، وهو انه ارتكب منذ لحظات خرقاً رهيباً للقانون . كان قد غض طرفه عن آثم آخر صادر في حقه حكمٌ ما لبث ان نقضه . كان قد اطلق سراح محكوم عليه بالاشغال الشاقة . لقد فعل ذلك . ولم يستطع ان يفهم نفسه . إنه لم يكن واثقاً من ان شخصيته ما تزال هي هي . لقد غابت عنه اسباب عمله نفسها . ولم يبق له منها غير دُوارها . كان قد عاش حتى تلك اللحظة بذلك الايمان الاعمى الذي تنجبه النزاهة المظلمة . ولكن هذا الايمان كان قد زايله ، ولكن هذه النزاهة كانت قد أعوزته . كان كل ما سبق له ان آمن به قد تبدد . وحاصرته حقائق لم يكن راغباً فيها حصاراً لا يعرف الرحمة . ولا ريب في أنه قد أمسى منذ ذلك الحين رجلا آخر . وعانى تلك الآلام الغريبة التي يقاسيها ضمير اجريت له ، فجاءة ، جراحة لانتزاع الماء الازرق . لقد رأى ما اشمأز من رؤيته . لقد أحس انه مستنزَف ، عديم الفائدة ، مقتلع من حياته السالفة ، مخلوع ، منحلّ . لقد ماتت السلطة فيه . ولم يبق ثمة ما يبرر وجوده .

حالة رهيبة ! أن تحركك العاطفة .

ان تكون صواناً ، وأن تشك ! ان تكون تمثال العقاب مفرّغاً بوصفك

قطعةً مفردة في قالب القانون ، ثم تلمح فجأة ان تحت صدرك البرونزي شيئاً مستحيلا ، عصياً يكاد يشبه قلباً من القلوب ! وان يقودك ذلك القلب إلى أن تجزي الخير بالخير ، على الرغم من انك ربما اعتدت ان تقول ، حتى ذلك اليوم ، ان هذا الخير كان شراً ! ان تكون كلب الحراسة ثم تداهن ! ان تكون ثلجاً ثم تذوب ! ان تكون كلاّبة وتنقلب إلى يد ! ان تستشعر اصابعك تنفتح على نحو مفاجئ! ان تُرخي قبضتك ، شيء رهيب !

أن لا يعرف « الرجل القذيفة » سبيله بعد الآن ، وان ينكص على عقبيه .

أن يضطر إلى الاعتراف بهذا : أن العصمة من الضلال ليست معصومة؛ وأنه قد يكون في العقيدة الجوهرية خطأ ما ؛ وان القانون حين يتكلم لا يقول كل شيء ؛ وان المجتمع ليس كاملا ؛ وان السلطة مشوبة بالتردد ؛ وأن التصدع في ما هو غير قابل للتغير ممكن ؛ وان القضاة ناس من الناس ؛ وان القانون قد يُخدع ؛ وأن المحاكم قد تخطىء ! أن يرى صدعاً في بلور القبة الزرقاء الهائل .

ان ما كان يجري في ذات نفس جافير كان تخلخُل ضمير مستقيم ، واقصاء نفس عن طريقها ، وسحق صلاحٍ أطلق ، على نحو لا يقاوم، في خط مستقيم وانكساره عند الله . وليس من ريب في ان ذلك كان عجيباً : أن تجندل وقّاد النظام ، مهندسَ السلطة ، الممتطي متن فرس الطريق الصلب الحديدية العمياء ، بضعُ خيوط من الضياء ! أن يكون في إمكان المنيع ، المباشر ، القويم ، الهندمي ، السلبي ، الكامل ، أن يلتوي ! ان يكون ثمة طريق تنتهي بالقاطرة إلى دمشق !

الله ، النفسي دائماً بالنسبة إلى الأنسان ؛ المستعصي ، وهو الضمير الحق ، على الضمير الباطل ، المحرّم على الشرارة ان تنطفىء ، الآمر الشعاعَ بأن يذكر الشمس ؛ الموصي النفسَ بان تعترف بالمطلق الحقيقي

حين تواجه المطلق الوهمي : الله الذي هو الانسانيـةُ خالدةً ، والقلب البشري باقياً ، هذه الظاهرة السّنية — ولعلها أجمل اعاجيبنا الباطنية — هل فهمها جافير ؟ هل نفذ اليها جافير ؟ هل كوّن جافير فكرة عنها ؟ لا ، من غير ريب . ولكنْ تحت ضغط من هذا الممتنع على الفهم ، غير المماري فيه ، استشعر جافير ان جمجمته تكاد تنفجر .

كان ضحيةَ هذه المعجزة أكثر منه متحولا بواسطتها إلى شخص أكثر سمواً . لقد خضع لها ، ساخطاً . إنه لم ير فيها غير صعوبة وجود هائلة . لقد بدا له أن تنفسه سوف يكون منذ اليوم مُعوقاً إلى الابد .

إنه لم يألف أن يُصلَت المجهول فوق رأسه .

فحتى تلك اللحظة كان كل ما فوقه سطح أملس ، بسيط ، رائق في نظره . لا شيء مجهولا هناك ، لا شيء غامضاً . لا شيء مما هو غير محدود ، غير متسق ، غير منظم ، غير مضبوط ، غير دقيق ، غير واضح الحدود ، غير مقيد ، غير منغلق ، غير متنبأ به كله . كانت السلطة شيئاً مسطحاً ، لا تعثّر فيه ، ولا دوران أمامه . إن جافير لم يقدّر له من قبل ان يرى المجهول إلا تحت . كان الشاذ ، وغير المتوقع ، ومنفذ العماء * غير المتسق ، وإمكان الانزلاق إلى هاوية — كان ذلك كله خاصاً بالمناطق الدنيا ، بالثائرين ، بالاشرار ، بالبؤساء . أما الآن فقد انقلب جافير إلى الوراء ، ولقد رُوّع فجأة بهذه الرؤيا الرهيبة : هوةٌ فوق .

ماذا اذن ؟ لقد دُمرت أسواره تدميراً كاملا ! لقد أسقط في يده بالكلية ! بأي شيء يتعين عليه ان يثق ؟ لقد انهار ذلك الذي كان مقتنعاً به !

ماذا ؟ أيمكن ان يكتشف بائس شهم نقص المجتمع ؟ ماذا ؟ أيمكن

---

* chaos

لخادم مخلص من خدم القانون ان يجد نفسه فجأة بين جريمتين : جريمة اطلاق سراح رجل ، وجريمة القاء القبض عليه ! إن كل شيء لم يكن يقينياً في الأمر الذي تصدره الدولة إلى الموظف ! قد يكون ثمـــة في الواجب دروب غير نافذة ! ماذا اذن ! اكان ذلك كله حقيقياً ؟ اكـان صحيحاً ان يوفّق لص عتيق ، مثقل بالأحكام القضائية ، إلى ان ينهض وإلى أن يكون آخر الأمر على حق ؟ أكان ذلك ممكن التصديق ؟ اكان ثمة ، اذن ، حالات يتعين فيها على القانون ان يتراجع أمام جريمة مجلببة بالسناء ، وهو يغمغم بالمعاذير ؟

أجل ، كان ثمة حالات مثل هذه ! ولقد رآها جافير ! ولقد مسها جافير ! إنه لم يكن عاجزاً عن إنكارها فحسب ، بل لقد كان له فيها دور أيضاً . كانت حقائق . وكان من المقيت ان يكون في ميسور الحقائق الفعلية أن تبلغ هذا المبلغ من الشناعة .

ولو ان الحقائق أدتْ واجبها اذن لاجترأت بأن كانت براهين القانون : الحقائق ، إن الله هو الذي يرسلها . اكانت الفوضوية اذن على وشك ان تهبط من الأعالي ؟

وهكذا — وتحت قوة الألم المرير المضخـمة ، وفي وهم الانشداه البصري ، تلاشى كل ما كان في ميسوره أن يقيد انطباعته ويصححها ، ومنذ ذلك الحين اختُصر المجتمع ، والجنس البشري ، والكون في عينيه في مظهر واحد بسيط وفظيع — وهكذا فان العقاب ، والشيء المحاكم ، والقوة الجدير بالقانون ان يتمتع بها ، وقرارات المحاكم السيدة ، والقضاء ، والحكومة ، والاحتياط والقمع ، والحكمة الرسميـــة ، والعصمة التشريعية ، ومبدأ السلطة ، وجميع المعتقدات الجوهرية الـتي تستند اليها السلامة السياسية والمدنية ، والسيادة ، والعدالة ، والمنطق المنبثق من القانون ، والمطلق الاجتماعي ، والحقيقة العمومية ، كل هذه هـي فوضى ، واختلاط ، وعماء . وأنـه ، هو جافير ، شرطي النظام ،

العامل بنزاهة في خدمة البوليس ، درواس• العناية الالـٰهية المسخر لصالح المجتمع ، قد قُهر وُهزم . وكان يقف فوق هذا الدمار كله رجل يعتمر بقلنسوة خضراء وتحيط بجبينه هالة من نور . ذلك هو الانقلاب الذي كان قد انتهى اليه . تلك كانت الرؤيا الرهيبة التي كانت في ذات نفسه .

هل كان في الامكان الصبر على ذلك ؟ لا .

حالة غير طبيعية ، اذا كان ثمة شيء مثل ذلك . ولم يكن هناك غير سبيلين اثنين للخروج منها . الأول ان يمضي في حزم إلى جان فالجان ويعيد الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى المحبس المظلم . والثاني...

وغادر جافير الحاجز . واتخذ طريقه ، في خطى ثابتة ، غير منكس الرأس هذه المرة ، نحو المخفر الذي كان احد المصابيح يشير اليه في بعض زوايا ساحة الـ « شاتيليه » .

حتى إذا بلغه ، رأى من خلال النافذة شرطياً ، ودخل . إن رجال الشرطة يعرف بعضهم بعضاً من مجرد الطريقة التي يدفعون الباب بها . واعلن جافير عن نفسه ، وابرز بطاقته للشرطي ، وجلس إلى طاولة المخفر ، حيث كانت تشتعل شمعة . كان على الطاولة ريشة ، ومحبرة من رصاص ، وبعض الورق المعد للتقارير الطارئة ، والاوامر الموجهة إلى العسس .

وهذه الطاولة ، المصحوبة دائماً بكرسيها القشيّ ، هي في الواقع مؤسسة . إنها موجودة في جميع مخافر الشرطة . وهي مزدانة على نحو لا يتغير بصُحَيفة من خشب البقس ملأى بالنُشارة ، وصندوق من الورق المقوى مليء ببرشامات حمراء للختم ، وهي الدرجة الدنيا من الأسلوب الديواني . إن أدب الدولة انما يبدأ فوقها .

• الدرواس : الكلب العظيم الرأس .

وأمسك جافير بالريشة وبقصاصة من الورق ، وبدأ يكتب . ودونك هذا الذي كتبه :

بعض الملاحظات لخير المصلحة

« أولا ، أرجو سيدي مدير الشرطة أن يلقي نظرة على هذا .

« ثانياً : إن السجناء ، عند عودتهم من الاستنطاق ، ينزعون أحذيتهم ويظلون واقفين حفاة ، على البلاط ، ريثما يفتَّشون . إن كثيراً منهم ليسعلون حين يرجعون إلى السجن . وهذا يكلف الدولة نفقات مستشفى .

« ثالثاً : الملاحقة المترصدة حسنة ، على أن يحل بعض رجال الشرطة محل بعضهم الآخر بين الفينة والفينة . ولكن يجب ان يكون ثمة ، في الحالات الخطيرة ، شرطيان لا يرفع احدهما بصره عن الآخر ، بحيث إذا ما ألمّ الضعف بواحد منهما ، لأيما سبب مهما يكن ، راقبه الآخر وقام مقامه .

« رابعاً : من العسير على المرء ان يفهم لماذا يحظر النظام الخاص بسجن المادلونيت اعطاء السجين كرسياً ، ولو دفع اجراً على ذلك .

« خامساً : في سجن المادلونيت لا يوجد غير قضيبين حديديين لنافذة المحل الخاص ببيع المأكولات للسجناء ، مما يمكن البائعة من ان تدع السجناء يمسون يدها .

« سادساً : إن السجناء ، الذين يدعونهم النابحين ، والذين ينادون السجناء الآخرين إلى حجرة الاستقبال ، يكرهون السجين على ان يدفع اليهم درهمين ثمناً لرفع صوتهم باسمه في وضوح . إن هذه سرقة .

« سابعاً : إنهم يستبقون عشرة « سو » من أجر السجين ، في دكان الحياكة ، مقابل الخيط المهمل . وهذا ظلم من جانب المتعهد ، لأن جودة القماش لم تتأثر »

« ثامناً : من المزعج ان يضطر زائرو سجن لا فورس إلى ان يعبروا « ساحة الاطفال » لكي يصلوا إلى حجرة استقبال « القديسة مريم المصرية » .

« تاسعاً : من الثابت ان رجال الدرك يُسمعون كل يوم وهم يقصّون في فناء مديرية الشرطة ، استنطاقات اولئك الذين سيقوا للمثول بين يدي القضاة . إن الدركي الذي يكرر ما سمعه في حجرة الاستنطاق – والذي كان ينبغي له ان يصون هذه الاقوال بوصفها مقدسة – إنما يرتكب خطأ خطيراً .

« عاشراً : إن مدام هنري امرأة أمينة . ان نافذة دكانها الخاص ببيع المأكولات للسجناء نظيفة جداً ، ولكن من غير الحسن أن تحرس امرأة بُويبَ الباب المسحور الخاص بحجيرات السجن السرية . ان ذلك غير لائق بسجن أمة ذات حضارة عظيمة . »

كتب جافير هذه الأسطر بخطه الاكثر هدوءاً وضبطاً ، غير مهمل فاصلة ، جاعلا الورقة تصوّت في قوة ، تحت ريشته . وتحت السطر الأخير وقّع :

« جافير
« مفتش شرطة من الدرجة الاولى
« مخفر ساحة الشاتيليه
« ٧ حزيران ، ١٨٣٢ حوالى الساعة الواحدة صباحاً .

وجفف جافير حبر الورقة الطريء ، وطواها كما تطوى الرسالة ، وختمها ، وكتب على ظهرها : « مذكرة للادارة » ، وتركها على الطاولة وغادر المخفر . وانغلق الباب المزجج المقضّب بالحديد خلفه .

واجتاز ساحة الـ « شاتيليه » ، على نحو قَطْري ، كرة اخرى ، وانتهى إلى رصيف النهر ، وعاد في دقة آلية إلى النقطة نفسها الّتي غادرها قبل ربع ساعة ، واتكأ هناك ، فألفى نفسه في الوضع ذاته ، على بلاطة الحاجز نفسها . لقد بدا وكأنه لم يتحرك قط .

كانت الظلمة كاملة . وكان ذلك في اللحظة القبرية الّتي تعقب منتصف الليل . لقد حجب النجومَ سقف من السحب . ولم تكن السماء غير عمق مشؤوم . لقد أطفئت جميع بيوت المدينة . وخلت الشوارع من عابري السبيل . كان كل ما استطاع أن يراه من الشوارع ومن رصيف النهر مهجوراً . وبدت نوتردام وأبراج قصر العدل وكأنها ملامح الليل . وحمّر مصباحٌ حافةَ الرصيف . وتشوهت صور الجسور الظلية في الضباب ، بعضُها خلف بعض . وكانت الأمطار قد ضخمت النهر .

وكان الموطن الذي اتكأ جافير عنده ، كما يذكر القاريء ، واقعاً فوق تيارات السين تماماً ، على خط عمودي فوق تلك الدوامة الرهيبةالّتي تنحل ثم تنعقد ثانية مثل لولب لا نهاية له .

وحنى جافير رأسه ، ونظر . كان كل شيء أسود ، ولم يكن في ميسوره ان يتبين شيئاً . وسمع صوت الزبد ، ولكنه لم ير النهر . وبين الفينة والفينة ، في ذلك العمق الذي يوقع الدوار في الرأس ، تبدّى وميض وتمعجَ على نحو غامض ، اذ ان للماء هذه القوة الّتي تمكّنه في أشد الليالي حلكة ، من اقتباس الضياء – وليس يدري احد من أين – وتحويله إلى أفعوان . وتلاشى الوميض ، وعاد كل شيء غامضاً من جديد . وبدا اللامحدود مفتوحاً هناك . إن ما كان تحته لم يكن ماء ولكن هاوية : وبدا جدار الرصيف – موجزاً ، مختلطاً ، ممزوجاً بالبخار ، وقد غاب عن البصر فجأة – وكأنه منحدر اللانهاية .

لم ير شيئاً ، ولكنه استشعر برودة الماء البغيضة ، ورائحة الحجارة الندية التافهة . لقد انبعثت ريح ضارية من تلك الهوة . وكان تضخم

النهر ، المحزور حزراً بأكثر مما كان ملموحاً لمحاً ، وهمسُ الفيضان الفاجع ، واتساع قناطر الجسر على نحو حدادي ، والسقوط المتخيَّل في ذلك الفراغ الكالح ـ كان ذلك الظلام كله مفعماً بالهول .

وظل جافير بضع دقائق جامداً من غير حراك ، محدقاً إلى فتحة الظلام تلك . لقد تأمل في اللامنظور بتركيز يشبه الانتباه . وخرّ الماء . وفجأة ، رفع جافير قبعته ، ووضعها على حافة الرصيف . وبعد لحظة ، بدا واقفاً على الحافة شكلٌ أسود كان خليقاً بعابر سبيل متأخر ان يحسبه عن بعد شبحاً من الاشباح . وانحنى ذلك الشكل نحو الـ « سين » ، ثم انتصب ، وسقط في الظلمات على نحو عمودي . وسُمع هدير موج خافت . وكان الظلام وحده في مكنون تشنجات ذلك الشكل المربدّ الذي اختفى تحت الماء .



الكتاب الخامس

الحفيد والجد

١

حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك كرة اخرى

بعد فترة وجيزة انقضت على الاحداث التي رويناها منذ لحظات استشعر السيد بولاتروويل انفعالا عارماً .

ولعل القارىء يذكر ان بولاتروويل كان رجلا منهمكاً في اشياء كدرة متباينة . كان يكسر الحجارة وينزل الاذى بالمسافرين على الطريق العام . وبوصفه حفاراً ولصاً كان يراوده حلم . كان يؤمن بالكنوز الدفينة في غابة مونفيرماي . وكان يرجو ان يجد المال ذات يوم ، في

بطن الارض ، عند سفح شجرة من الاشجار . وفي انتظار ذلك ، كان يرغب في البحث عن ذلك المال في جيوب عابري السبيل .

ومع ذلك ، فقد اصطنع الحكمة مؤقتاً . كان قد نجا ، منذ قريب ، من موقف حرج . فنحن نعرف انه كان اصطيد في كوخ جوندريت الحقير مع قطاع الطرق الآخرين . وتلك جدوى الرذيلة : كان سُكره قد انقذه . فلم يكن في ميسور الشرطة ان تجزم أكان سارقاً أم مسروقاً . كان قد أطلق سراحه أمرٌ بمنع المحاكمة بني على حالته الثملة المثبتة اثباتاً واضحاً ليلة الكمين . لقد استعاد حرية الغابات . ورجع إلى طريقه الموصلة بين غانيي ولانيي لكي يكسر الحجارة لحساب الدولة ، تحت الاشراف الاداري ، منكّس المحيا ، مستغرقاً في التفكير ، وقد خمد شوقه بعض الشيء للسرقة ، التي كادت تُنزل الخراب بساحته ، وانصرف في شغف أشد نحو الخمر ، التي انقذته منذ فترة يسيرة .

أما الانفعال العارم الذي ألمّ به بعُيد عودته إلى الاستظلال بسطح كوخه الخاص بعمال الطرق ، المصنوع من العشب ، فهو هذا :

ذات صباح ، فيما كان بولاترويل ماضياً إلى عمله وفقاً لعادته ، ولعله كان يترصد أحداً ، لمح وسط الاغصان رجلا لم يكن في ميسور عامل الطرق ان يرى غير ظهره ، ولكن مشيته ، في ما بدا له ، من خلال البعد والغسق ، لم تكن غريبة عنه بالكلية . فقد كان لبولاترويل ، برغم ادمانه الخمر ، ذاكرة دقيقة جلية ، وهو سلاح دفاعي لا يستغني عنه كل من كان على صراع ضئيل مع النظام الشرعي .

وساءل نفسه :

— « أين رأيت ، بحق الشيطان ، شيئاً مثل هذا الرجل ؟ »

ولكنه لم يستطع أن يجيب نفسه إلا بالقول إنه يشبه شخصاً انطبعت له في ذاكرته صورة غامضة .

وأجرى بولاترويل ، خارج نطاق الهوية التي لم يستطع ان يتذكرها

آجيد ، بعض المقارنات والحسابات . ان هذا الرجل لم يكن من ابناء تلك الديار . كان قد وفد اليها . سعياً على قدميه ، من غير شك . فليس من عربة عمومية تجتاز مونفيرماي في تلك الساعة . كان قد مشى طوال الليل . من أين كان قد جاء ؟ من مكان غير بعيد جداً . إذ انـــه لم يكن يحمل لا جراباً ولا صرة . من باريس ، بلا شك . لم كان في تلك الغابة ؟ لم كان هناك في مثل هذه الساعة ؟ ما الذي جـــاء بـــه إلـى هنـــاك ؟

وفكر بولاتروويل في الكنز . وبفضل التنقيب العميق الذي اجراه في ذاكرته تذكر أنه استشعر ، منذ بضع سنوات ، مثل هذا الرعب فيما يتصل بشخص بدهه انه قد يكون هذا الرجلّ نفسه .

وفيما كان يتأمل حنى رأسه ، تحت وطأة ذلك التأمل نفسه ، وهو امر طبيعي ، ولكنه ليس أريباً جداً . حتى اذا رفع رأسه من جديد لم يعد ثمة شيء . كان الرجل قد اختفى في الغابة والغسق .

فقال بولاتروويل :

— « يا للشيطان ! سوف أجده من جديد . سوف اكتشف أبرشية هذا الابرشي . إن لهذا الرجل سراً ، ولسوف اهتدي إلى ذلك . لن يكون لأحد سر في غاباتي من غير ان يكون لي اصبع فيه . »

وحمل معوله الذي كان حاداً جداً .

وغمغم :

— « ههنا شيء تحفر الارض به ، ورجُل . »

وكما يصل امرؤ خيطاً بخيط ، ظالعاً جهده في الطريق الذي لا بـــد ان يكون الرجل قد سلكه ، اتخذ سبيله خلال الغابة .

وما إن تقدم نحواً من مئة خطوة حتى ساعده الفجر الذي كان قد أخذ بالانبلاج . كانت آثار الاقدام المنطبعة على الرمل ههنا وههناك ، والعشب المدوس ، والخلنج المسحوق ، والأفنان الملوية في الدغل والمنتصبة من

جديد في بطء لطيف ، مثل ذراعي امرأة جميلة تتمطى عند النهوض من النوم – كان ذلك كله يدله على طريق ما . واتبع هذه الطريق ، ثم ضل عنها . كان الوقت ينقضي . وتابع تقدمه في الغابة ، وانتهى إلى شبه رابية . وأوحى اليه قناص صباحي يجتاز من بعيد ممراً ويصفر لحن الـ « غويلري » ، بفكرة تسلق شجرة. وعلى الرغم من شيخوخته ، فقد كان رشيقاً . كانت على مقربة منه شجرة مُرّان فارعة الطول جديرة بتيتيروس * وبولاترودويل . وتسلق بولاترودويل شجرة المران أعلى ما يستطيع ان يتسلقها .

كانت الفكرة جيدة . فمن طريق ريادة المكان الموحش من الناحية التي كانت الغابة متشابكة فيها إلى أبعد الحدود ، ضاربة إلى أبعد الحدود، لمح بولاترودويل الرجلَ فجأة .

ولم يكد يلمحه حتى غاب عن بصره .

ودخل الرجل ، أو على الأصح ، انزلق إلى بقعة جرداء نائية ، محجبة باشجار باسقة ، ولكن بولاترودويل كان يعرفها جيداً ، إذ كان قد لاحظ هناك ، قرب ركام كبير من حجارة الرحى ، شجرة كستناء جريحة ومعصوبة بصفيحة من الزنك مسمرة على لحائها . وهذه البقعة الجرداء هي تلك التي كانت تدعى في السابق ارض بلارو . ان ركام الحجارة ، المعدّ لأمر لا يعرفه أحد ، والذي كان في ميسور المرء ان يراه هناك قبل ثلاثين سنة ، لا يزال ثمة من غير ريب . وليس في العالم ما يضاهي ركام الحجارة طولَ عمرٍ ، إلا ان يكون ركامَ حجارة خاص بسياج خشبي . إنه هناك إلى حين . وايّ داع إلى البقاء !

وفي رشاقة البهجة ، سقط بولاترودويل عن الشجرة ، ولا نقول هبط منها . لقد اكتُشِف جحرُ الأرنب ، وكانت المسألة تقتضيه الآن الامساك بالطريدة . لعل كنز أحلامه الشهير كان هناك .

* Tityre احد راعيين ورد ذكرهما في اولى قصائد فيرجيل الرعائية .

ولم يكن الوصول إلى تلك البقعة الجرداء أمراً هيناً . فمن طريق الممرات الممهدة ، والمشكَّلة ألفَ خط متعرج مناكد ، كان بلوغها يقتضيه ربع ساعة تماماً . أما اذا سار في خط مستقيم ، من خلال الأجمة ، التي كانت هناك كثيفة جداً ، شائكة جداً ، وعدوانية جداً ، فكان الوصول اليها يقتضيه نصف ساعة بطولها . وتلك كانت غلطة بولاترووبل . لقد آمن بالخط المستقيم . وهمٌ بصريّ جليل ، ولكنه يقضي على كثير من الناس . لقد بدت الأجمة في نظره ، برغم انها كانت شائكة جداً ، وكأنها الطريق الفضلى .

وقال :

– « فلنسلك شارع ريفولي الخاص بالذئاب » .

وارتكب بولاترووبل ، المتعود ان يسير في انحراف ، غلطة السير في خط مستقيم هذه المرة .

واندفع في عزم نحو اكثف الأدغال .

كان عليه ان يواجه آساً برياً ، وقُرّاصاً ، وزعروراً ، ونسريناً ، وشوكَ جِمال ، وعوسجاً قوياً سريع الغضب . وخُدِّش جلده تخديشاً .

وفي قعر المسيل ، وجد جدولاً يتعين عليه عبوره .

واخيراً وصل ، بعد اربعين دقيقة ، إلى بقعة بلارو الجرداء ، راشحاً بالعرق ، مبلل الثياب ، لاهثاً ، ممزقاً ، ضارياً .

ولم يكن في البقعة الجرداء احد .

وركض بولاترووبل إلى ركام الحجارة . كان الركام لا يزال في مكانه : إن أحداً لم يكن قد نقله .

أما الرجل ، فكان قد اختفى في الغابة . كان قد فر . إلى أين ؟ من اية ناحية ؟ في اي دغل ؟ كان من المتعذر عليه ان يحزر .

وزاده مضاضةً أن وجد خلف ركام الحجارة ، أمام الشجرة ذات

صفيحة الزنك ، تربة نُبشت منذ قريب ، ومعولا منسياً أو مهجوراً ، وحفرة .

كانت هذه الحفرة فارغة .

وصاح بولاتروويل ، وهو يهز كلتا قبضتيه في وجه الافق :

— « اللص ! »

٢
ماريوس ، وقد نجا من الحرب الاهلية ، يستعد للحرب المنزلية

ظل ماريوس فترة طويلة متأرجحاً بين الموت والحياة . لقد استبدت به طوال بضعة اسابيع حمى مصحوبة بهذيان ، وأعراض دماغية خطيرة نشأت عن الارتجاج الذي احدثته جراحات رأسه اكثر مما نشأت من الجراحات نفسها .

وكرر اسمَ كوزيت لياليَ بطولها في ثرثرة الحمّى الحِدادية وعناد الحشرجة الكالح . وكانت ضخامة بعض الجراح تشكل خطراً عظيما — لأن تقيّح الجراح البليغة معرّض دائماً للامتصاص ثانية ، ومن ثم إلى قتل المريض — بفعل بعض العوارض الجوية . فعند كل تغير في حالة الجو ، وعند هبوب اضأل العواصف ، كان القلق يستولي على الطبيب ، فهو يكرر : « عليكم ، فوق كل شيء ، ان تجنبوا المريض الاهتياج والانفعال . » كانت الضمادات معقدة صعبة ، اذ لم يكن ربط العصائب باللّزوق قد ابتُدع في تلك الحقبة . وقالت نيقوليت انها اصطنعت نُسالة من غطاء سرير « ضخم كالسقف » . ولم تتمكن ضروب الغسول المُكَلْوَرة

ونترات الفضة من ان تضع حداً للغنغرينة إلا بشق النفس . وطوال مدة الخطر كان مسيو جيلنورمان ، الشارد اللب أمام سرير حفيده ، مثل ماريوس : لا هو بميت ، ولا هو بحيّ .

وكل يوم ، وفي بعض الاحيان مرتين كل يوم ، كان رجل حسن البزة . أبيض الشعر — ذلك هو الوصف الذي أعطاه البواب — يفد لكي يطمئن على صحة الجريح ، ويترك رزمة كبيرة من النسالة للضمادات .

واخيراً ، وفي السابع من أيلول ، بعد اربعة اشهر انقضت على ذلك اليوم الذي حُمِل ماريوس فيه وهو يحتضر إلى بيت جده ، أعلن الطبيب زوال الخطر عنه . وبدأ دور النقاهة . ومع ذلك ، فقد تعين على ماريوس ان يظل اكثر من شهرين ممدداً على كرسي طويل ، بسبب من الطوارئ الناشئة عن انكسار لوح الكتف . ان ثمة دائماً جرحاً اخيراً مثل هذا يأبى ان يندمل ، ويخلّد الضمادات ، مثيراً اعظم السخط في نفس المريض .

وعلى أية حال ، فان هذا المرض المتطاول ، وهذه النقاهة المتطاولة ، انقذاه من الملاحقة . ففي فرنسة ، ليس ثمة غضب ، ولو حكومياً ، لا تخمده اشهر ستة . إن الفتن ، في أوضاع المجتمع الحاضرة ، تقع تبعتها على الناس جميعاً بحيث تعقبها حاجة ما إلى اغماض العينين .

ولنضف ان قرار غيسكيه الشائن ، الذي فرض على الاطباء أن يبلغوا السلطة عن المرضى ، كان قد أثار سخط الرأي العام ، بل ونقمة الملك قبل غيره من الناس . وتدرّع الجرحى واحتموا بهذا السخط ؛ وباستثناء اولئك الذي أُسروا على ارض المعركة نفسها لم تجرؤ المحاكم العرفية على ازعاج احد . وهكذا تُرك ماريوس في سلام .

وعرف مسيو جيلنورمان بادئ الأمر صنوف الألم المرير جميعاً ، ثم صنوف الانخطاف جميعاً . لقد وجدوا عسراً شديداً في منعه من قضاء

الليل كله ، يومياً ، مع الرجل الجريح . كان يطلب اليهم ان ينقلوا كرسيه الكبير ذا الذراعين إلى جانب سرير ماريوس . وكان يصر على أن تتخذ ابنته من أنفس ما في البيت من أقمشة عصائبَ وضمادات . والتمست الآنسة جيلنورمان – بوصفها الشخص الأرشد الحكيم – الوسيلةَ إلى توفير تلك الاقمشة النفيسة ، فيما اوقعت في نفس الجد ان اوامره قد نُفذت . ولم يسمح مسيو جيلنورمان لامرىء بأن يشرح له أن القماش القصبي ليس اجود ، في صنع النسالة ، من الكتان الخشن ، وان القماش الجديد ليس اجود من القماش العتيق . لقد أشرف بنفسه على وضع جميع الضمادات ، وهو ما كانت الآنسة جيلنورمان تنأى بنفسها عنه في حياء . وحين كان اللحم الميت يُقطع بالمقص ، كان يقول : « آيي ! آيي ! » ولم يكن ثمة ما هو أدعى إلى التأثر من رؤيته يقدّم إلى الجريح ، بارتعاشته العذبة الهرمة ، كأساً من مغليّ ماء الحشائش . لقد أثقل كاهل الطبيب بالاسئلة . ولم يكن ينتبه إلى أنه كان يسأل دائماً الاسئلة نفسها .

ويوم أعلنه الطبيب ان ماريوس اجتاز مرحلة الخطر ، أصيب الرجل العجوز بهذيان . لقد أنعم على بوابه ببشارة مقدارها ثلاث لويسات ذهبية . وفي المساء ، حين أوى إلى غرفته ، رقص رقصة الـ «غافوت» جاعلاً من إبهامه وسبابته صناجتين ، وراح ينشد هذه الاغنية :

جانّ مولودة في فوجير
عشّ حقيقي لراعية
أنا أعبد تنورتها
المغناج .

ايها الحب ، انت تحيا فيها ؛
ذلك انك تضع في
حدقتيها ، هي ، كنانتك .

الماكرة !

أما أنا ، فاني أغني
وأحب اكثر من ديانا نفسها ،
جان" وثدييها
البر وتانيين .

ثم انحنى على احد الكراسي ، وكان باسك – الذي راقبه من خلال الباب نصف المفتوح – واثقاً من انه يصلي .

وكان حتى تلك اللحظة لا يؤمن بالله البتة .

ومع كل وجه جديد من وجوه التحسن ، الذي ازداد تجلياً يوماً بعد يوم ، كان الجد يهذي . لقد قام بعشرات من الاعمال الميكانيكية المفعمة بالجذل . كان يرتقي السلم ويهبطها من غير أن يدري لماذا . ودهشت احدى جاراته ، وكانت امرأة جميلة ، اذ تلقت ذات صباح باقة من الزهر ، كان مسيو جيلنورمان هو الذي ارسلها اليها . وعصفت الغيرة بالزوج فغضب وثار . وحاول مسيو جيلنورمان ان يُقعد نيقوليت على ركبتيه . واطلق على ماريوس لقب « السيد البارون » . وهتف : « فلتحي الجمهورية ! »

وفي كل لحظة كان يسأل الطبيب : « لم يبق من خطر ، أليس كذلك ؟ » ونظر إلى ماريوس بعينَيْ جَـدّ . كان يحضنه وهو يأكل . ولم يعد يعرف نفسه ، ولم يعد يتكل على نفسه . كان ماريوس هو سيد البيت . وكان في ابتهاجه تنازل . كان حفيدَ حفيده .

وفي هذا الطرب الذي عراه ، كان اكثر الاطفال توقيراً . فلخوفه من ان يُتعب الشاب الناقه أو يزعجه كان يقف خلفه لكي يبتسم له . كان سعيداً ، مبتهجاً ، منتشياً ، فاتناً ، غض الأهاب . وخلع شعره الاشيب جلالا عذباً على الضياء البهيج الطافح به وجهُه . وحين

تجتمع الطلاوة والتجاعيد يصبح الوجه ساحراً حتى العبادة . إن ثمة فجراً عجيباً في الشيخوخة السعيدة .

أما ماريوس فكانت تستحوذ على ذهنه ، فيما كان يمكنهم من أن يضمدوا جراحه ويعنوا بحاله ، فكرة متسلطة : كوزيت .

ومنذ ان زايلته الحمى والهذيان ، لم يكن قد نطق بذلك الاسم . ولعلهم قد حسبوا انه ما عاد يفكر فيه . لقد اعتصم بالصمت لسبب واحد ، هو ان روحه كانت هناك .

انه لم يدر ما الذي حل بكوزيت . كانت قضية شارع الـ « شانفريري » كلها أشبه بسحابة في ذاكرته . كانت ظلال ، غامضة تقريباً . تطفو في ذهنه : ايبونين ، غافروش ، مابوف ، تيناردييه وزوجته ، وجميع اصدقائه وقد امتزجوا على نحو حدادي بدخان المتراس . وكان مرور مسيو فوشلوفان الغريب في تلك المأساة الدامية قد خلّف في ذات نفسه مثل أثر الاحجية في عاصفة . إنه لم يفهم شيئاً في ما يتصل بحياته هو . انه لم يدر كيف ، وبفضل من ، نجا . وما كان احد من الذين حوله يعرف ذلك . كل ما استطاعوا ان يقولوه إنه حُمل ليلا إلى شارع فتيات كالفير في عربة كراء . كان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل لا تعني كلها ، عنده ، غير ضباب فكرة غامضة . ولكن كان في هذا الضباب نقطة غير متحركة ، ملمَح واضح دقيق ، شيء من صوان ، عزم ، إرادة : أن يجد كوزيت من جديد . كانت فكرة الحياة عنده غير منفصلة عن فكرة كوزيت . كان قد قرر في فؤاده ان لا يقبل احداهما بدون الاخرى ، وكان قد وطد العزم اقوى ما يكون التوطيد على ان يطلب إلى كل من قد يرغب في اكراهه على الحياة ــ سواء أكان المكره جده ، أو القدر ، أو الجحيم ــ ان يعيد اليه فردوسه الضائع .

ولم يخفِ عن نفسه ما في ذلك من مصاعب .

ولنؤكد نقطة واحدة هنا : إن عناية جده كلها ولطف جده كله لم يعطفا قلبه ولم يلطفا من حاشيته إلا قليلا . إنه لم يكن ، في المحل الأول ، جاهلا ذلك كله . ثم إنه ، في استغراقه وهو على فراش المرض ، في التفكير ، الذي ربما كان لا يزال محموماً ، كان قليل الثقة بهذا اللطف ، بوصفه شيئاً جديداً وغريباً ، الغرضُ منه إخضاعه . وظل بارداً . لقد أنفق الجد ابتسامته المسكينة العجوز على غير طائل . وقال ماريوس في ذات نفسه ان كل شيء حسن ما دام هو ، ماريوس ، لم يتكلم ولم يبدِ مقاومة ما . ولكن ما إن تُبحث مسألة كوزيت حتى يجد محيا آخر ، وحتى ينزع القناع عن مسلك جده الحقيقي . وعندئذ سوف يشهد انتكاساً رهيباً إلى المسائل العائلية ، وسوف يواجه ضروب التهكم كلها ، وضروب المعارضة كلها دفعة واحدة : فوشلوفان ، كوبلوفان ، الثروة ، الفقر ، البؤس ، والأثقال في العنق ، والمستقبل . مقاومة عنيفة . والنتيجة ، الرفض . وتوترت أعصاب ماريوس مقدماً .

ثم إنه ، كلما رسخت قدمه أكثر في الحياة ، عاودته الاحزان القديمة ، وتفتحت قروح ذاكرته العتيقة ، وفكر في الماضي كرة اخرى . وبرز الكولونيل بونمرسي ، مرة ثانية ، بين مسيو جيلنورمان وبينه هو ، ماريوس . ومع الصحة ، عاوده ضرب من الخشونة نحو جده . واحتمل العجوز ذلك في دعة .

ولاحظ مسيو جيلنورمان ، من غير أن يظهر ذلك بأية حال ، ان ماريوس ، منذ أن حُمل إلى البيت واستعاد وعيه لم يقل له مرة « يا أبي » . إنه لم يقل « مسيو » ، هذا صحيح ، ولكنه وجد الوسيلة إلى أن لا يقول هذه أو تلك من طريق ادارة الجمل على نحو ما .

كان واضحاً أن أزمة توشك ان تعصف .

وكما يحدث دائماً ، تقريباً ، في مثل هـذه الاحوال ، قـام ماريوس ، لكي يختبر نفسه ، ببعض المناوشات قبل أن يقـاتل. وذات صباح ، اتفق لمسيو جيلنورمان ، بعد ان وقعت صحيفة بين يديه ، انه تحدث في استخفاف عن « المؤتمر الوطني » ، وقذف دانتون ، وسـان جوست ، وروبسبيير ، بخاتمة حكمية ملكية . فقال ماريوس في قسوة : « لقد كان رجال ١٧٩٣ عمالقة » . واعتصم الشيخ بالصمت ، ولـم يهمس بقيةَ النهار .

ورأى ماريوس ، الماثلة في ذهنه ابـداً صورة الجد العنيد الذي عرفه في السنوات الخالية ــ رأى في هذا الصمت تركيزاً للغضب كثيفاً ، وتوقّع ان يعقبه صراع حادّ ، وضاعف استعداداته للمعركة ، في زوايا فكره الخلفية .

وقرر ، في حـال الرفض ، أن يمزق ضماداته ، ويخلع كتفه ، ويعرّي سائرَ جراحه ويفتحهـا ، ويرفض كل غذاء . كانت جراحه هي عتاده الحربي . فأما كوزيت ، وإما الموت .

وانتظر اللحظة الملائمة في أناة المريض المدارية .

وسنحت اللحظة .

٣
ماريوس يهاجم

وذات يوم انحنى مسيو جيلنورمان ــ فيما كانت ابنته ترتب القناني والكؤوس على ظهر الخوان الرخامي ــ فوق ماريوس وقال له في جرْسه الاكثر رقة :

ــ « أترى ، يا صغيري ماريوس ، لو كنت مكانك لآثرت ان

آكل اللحم بدلا من السمك . إن سمكة موسى مقليسة استهلال ممتاز لدور النقاهة . ولكن المريض يحتاج ، لكي يقف على قدميه ، إلى ضلع جيّد محشو . »

واستجمع ماريوس ، الذي كان قد استعاد كامل قواه تقريباً ، جميع هذه القوى ، واتخذ في سريره جلسة مستقيمة ، واسند قبضتيه المتشنجتين إلى غطاء الفراش ، وحدق النظر إلى وجه جده ، وغلبت عليه سيما رهيبة ، وقال :

– « هذا يقودني إلى أن أقول لك شيئاً . »

– « ما هو ؟ »

– « هو أني اريد ان أتزوج . »

– « موافق . »

قال الجد ذلك ، وانفجر ضاحكاً .

– « موافق ؟ كيف ؟ »

– « اجل ، موافق . إنك سوف تفوز بفتاتك . »

وذهل ماريوس ، وغلب عليه الانشداه ، وارتعدت اوصاله جميعا.

وتابع مسيو جيلنورمان :

– « اجل سوف تفوز بفتاتك الصغيرة ، الحلوة الوسيمة . إنها تجيء كل يوم في شكل رجل عجوز لتطمئن عنك . ومنذ ان جُرحتَ ، وهي تنفق وقتها في البكاء وصنع النسالة . لقد تقصيتُ حالها . انها تسكن في شارع الرجل المسلح ، رقم سبعة . آه ، اننا على استعداد ! حسناً . سوف تفوز بها ! هذا يوقعك في الشرك . لقد بَيَّتَّ مؤامرتك الصغيرة ؛ لقد قلتَ في ذات نفسك : سوف اقذف بهذا ، بعزم ، في وجه ذلك الجد ، في وجه مومياء عهدَيْ الوصاية والادارة تلك ، في وجه ذلك الوسيم العتيق ، في وجه دورانت الذي أمسى جيرونت ؛ لقد كان له هو أيضاً طيشه ، وغرامياته الموقتة ، ومحبوباته

المفناجات ، و « كوزيتاته » . كان له عهد تباهى فيه بنفسه ، عهدٌ كان له فيه جناحان ، عهد أكل فيه خبز ربيعه ، إن عليه ان يذكر ذلك جيداً . سوف نرى . معركة . آه ، إنك تمسك الخنفساء من قرنيها . هذا حسن ، انا اقترح ضلعاً محشواً ، فتجيب أنت : « بالمناسبة ، اريد ان اتزوج . » هذا ما ادعوه انتقالا . آه ، لقد اعتمدتَ على شيء من الخصام الطفيف . انك لم تعرف اني كنت جباناً عجوزاً . ما قولك في ذلك ؟ أنت مغتاظ . إنك لم تتوقع ان تجد جدك اكثر بلاهـة منك نفسك ؛ انك تخسر الخطاب الذي اعددته لي ، يا سيدي المحامي . ذلك يثير السخط . حسناً ، لا بأس ، إستشطْ غضباً . انا أفعل ما ترغب فيه ، فذلك يفحمـك ، ايها المخبول . اسمع . لقد قمـت ببعـض التحقيقات ؛ أنا مـاكر أيضاً . إنها فاتنة ؛ إنها حسنة السيرة ؛ الرمّاح غير مصيب . لقد صنعتْ اكواماً من النسالة ؛ إنها جوهرة ؛ إنها تعبدك ولو انك مت ، اذن لكنا ثلاثة . وعندئذ يصاحب نعشها نعشي . ولقد عزمت ، منذ ان تماثلتَ للشفاء ، ان اركزها بكل بساطة أمام سريرك ، ولكنْ في الروايات فحسب يقدّمون الفتيات ، في غير احتفال ، إلى سرير الجرحى الوسيمين الذين يهمهم شأنهم . هذا غير ممكن . اي شيء كان خليقاً بعمتك ان تقوله ؟ لقد كنتَ عارياً تماماً ، ثلاثة ارباع الوقت ، يا صاحبي . اسأل نيقوليت ، التي لم تفارقك دقيقة ، ما اذا كان بامكان امرأة أن تكون هنا . وإلى هذا ، فـأي شيء كان خليقاً بالطبيب ان يقوله ؟ ان الفتاة الجميلة لا تشفي من الحمى . وأخيراً ، هذا حسن ، فلنقلع عن الكلام على هذا الموضوع . لقد تم كل شيء ؛ لقد قضي الامر ؛ لقد أنجـز . خذها . تلك هي قساوتي . أترى ؟ لقد ادركتُ انك لم تحبني . فقلتُ : ما الذي استطيع ان أفعله اذن لكي احمل هذا الحيوان على حبي ؟ وقلتُ : إسمع ! إن كوزيت الصغيرة تحت يدي . ولسوف أعطيه اياها وعندئذ لا ريب في انه سوف يحبني بعض الشيء،

أو يخبرني لماذا . آه ، لقد حسبتَ ان الرجل العجوز سوف يثور ، ويصطنع الصوت الغليظ ، ويصرخ « لا » ، ويرفع عصاه فوق هذا الفجر كله . على الاطلاق . كوزيت ؟ فليكن . الحب ؟ فليكن . انـا لا اطمع في ما هو أفضل . انهض بعبء الزواج ، يا سيدي . كـن سعيداً ، يا طفلي الصغير . »

حتى إذا قال ذلك ، عصفت بالعجوز عاصفة من النحيب .

وأمسك برأس ماريوس ، وشـده بين ذراعيه إلى صدره العجوز ، وانخرط كل منهما في البـكاء . ذلك شكل من اشكال السعادة العليا .

وهتف ماريوس :

— « أبي ! »

فقال العجوز :

— « آه ، انت تحبني اذن ! »

وتصرمت لحظة لا سبيل إلى وصفها . وخنقتهما الدموع ، ولم يستطيعا كلامـاً .

واخيراً غمغم العجوز :

— « كفى ! لقد انحلت العقدة . لقد ناداني يا ابي ! »

وحرر ماريوس رأسه من بين ذراعي جده ، وقال في رقة :

— « ولكن أما وقد استعدت صحتي الآن ، يا أبي ، فـأن في استطاعتي ان اراها . »

— « موافق أيضاً . سوف تراها غداً . »

— « ابي ! »

— « مـاذا ؟ »

— « ولم لا يكون ذلك ، اليوم ؟ »

— « حسن ، اليوم . ليكن ذلك ، اليوم . لقد ناديتني « يا ابي » ثلاث مرات ، وهـذه المناداة تستحق ذلك . سوف أتولى ذلك . سوف نجيء

بها اليك . قلت لك اني موافق . لقد صبغ ذلك شعراً قبل اليوم . إنه خاتمة مرثية اندريه شينييه الموسومة بـ « المريض الفتى » ، اندريه شينييه الذي قتله الآثم ... أعني عمالقة عام ١٧٩٣ »

وحسب مسيو جيلنورمان أنه لمح على جبين ماريوس عبوساً طفيفاً ، على الرغم من ان الفتى في الواقع — كما ينبغي ان نقول — لم يعد يصغي اليه ، بعد ان استحوذ عليه الانخطاف الروحي ، واستغرق في التفكير بكوزيت اكثر من استغراقه في التفكير بعام ١٧٩٣ . وسارع الجد ، مرتعشاً لأقحامه اسم اندريه شينييه إقحاماً غير موفق ، إلى القول من جديد :

— « إن « قتله » ليست هي الكلمة المناسبة . الواقع ان العبقريات الثورية الكبيرة ، والذين لم يكونوا اشراراً — هذا امر لا خلاف فيه — والذين كانوا ابطالا ، وحق الاله ، وجدوا ان اندريه شينييه ازعجهم بعض الشيء ، فساقوه إلى المقصلة ... يعني ان اولئك الرجال العظام ، في اليوم السابع من تيرميدور ، ومن اجل السلامة العامة ، قد توسلوا إلى اندريه شينييه ان يتفضل بالذهاب ... »

وغص مسيو جيلنورمان بجملته نفسها ، وعجز عن متابعة الكلام . واذ لم يستطع ان يتم الجملة أو ان يستدركها ، فيما كانت ابنته تسوي الوسادة خلف ماريوس ، فقد قذف الرجل العجوز بنفسه — وقد غمرته ضروب من الانفعالات كثيرة — إلى خارج حجرة النوم ، باسرع ما مكنته شيخوخته ، من ذلك . ورد الباب خلفه ، ارجواني الوجه ، مختنقاً ، مزبداً ، جاحظ العينين ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام باسك الامين الذي كان يصقل الاحذية في غرفة الانتظار . واخذ بخناق باسك ، وصرخ في وجهه بأعلى صوته ، في سعر : « وحق نساء الشيطان الثرثارات المئة الف ، إن قطاع الطرق اولئك قد قتلوه ! »

— « من ، يا سيدي ؟ »

— « اندريه شينييه ! »
فقال باسك ، في ذعر :
— « نعم ، يا سيدي . »

٤
الانسة جيلنورمان تنتهي بان لا تجد غضاضة في دخول مسيو فوشلوفان الى البيت متأبطاً شيئاً ما

وكحل كل من كوزيت وماريوس عينيه ، كرة اخرى ، برؤية الآخر .

أما اللقاء فنحجم عن وصفه . إن ثمة اشياء يتعين على المرء ان لا يحاول تصويرها . والشمس في عداد هذه الاشياء .

كانت الاسرة كلها ، وفيها باسك ونيقوليت ، مجتمعة في حجرة ماريوس ، عندما دخلت كوزيت .

لقد برزت على العتبة . ولقد بدا وكأنها هالة من نور .

وفي تلك اللحظة بالضبط كان الجد على وشك ان يتمخط . وكفّ عن ذلك في الحال ، ممسكاً بأنفه خلف منديله ، وناظراً إلى كوزيت من فوقه .

وهتف :

— « فاتنة ! »

ثم تمخط في صوت مرتفع .

كانت كوزيت نشوى ، مسلوبة الفؤاد ، ذاهلة ، في الجنة . كانت

مذعورة بقدر ما يصاب المرء بالذعر بسبب من السعادة . وتمتمت ، شديدة الشحوب ، شديدة التورد ، راغبة في ان تلقي بنفسها بين ذراعي ماريوس ، غير متجرئة على ذلك . لقد استحييت أن تظهر حبها أمام هؤلاء الناس جميعاً . اننا لا نعرف الرحمة للمحبين السعداء ، اننا نبقى هناك حين يكونون على اشد الرغبة في ان يخلو احدهم إلى الآخر إنهم ، مع ذلك ، في غير حاجة إلى الناس ، على الاطلاق .

ومع كوزيت ، ووراءها ، دخل رجل أشيب ، وقور ، يبتسم برغم ذلك ، وإن تكن ابتسامته غامضة ممضة . كان هو « مسيو فوشلوفان » ، كان هو جان فالجان .

كان حسن البزة جداً ، كما سبق للبواب ان قال ، وكان يرتدي بذلة سوداء جديدة ، ورباط رقبة ابيض .

وكان البواب على بعد الف فرسخ من ان يتبين في هذا البورجوازي القديم ، في الكاتب العدل المحتمل هذا ، حامل الجثة الرهيب ذاك الذي ترجل عند بابه ليل السابع من حزيران ، رث الثياب ، ملطخاً بالوحل ، مروّعاً ، شرساً ، مقنعاً وجهُهُ بالدم والقذر ، حاملاً ماريوس الفاقد الوعي بين ذراعيه . ومع ذلك فقد أوقظ عنده ذكاء البواب . فحين أقبل مسيو فوشلوفان مع كوزيت لم يتمالك البواب ان يسر هذه الملاحظة إلى زوجته : « لست أدري لماذا يخيل الي أني رأيت ذلك الوجه في مكان ما . »

وفي غرفة ماريوس ، ظل مسيو فوشلوفان قرب الباب ، وكأنه معتزل . كان يتأبط رزمة شبيهة بمجلد من قطع الثُمن ، ملفوف بورقة . كانت ورقة الظرف ضاربةً إلى الخضرة ، ولقد بدت عفنة .

وفي صوت خفيض وجهت الآنسة جيلنورمان ، التي لم تكن تحب الكتب قط ، هذا السؤال إلى نيقوليت :

— « هل يتأبط هذا الرجل الكتب على هذا النحو دائماً ؟ »

وبالنبرة نفسها أجاب مسيو جيلنورمان الذي كان قد سمطها :

— « حسناً ، إنه عـالم . ثم ماذا ؟ اهي غلطته ؟ إن مسيو بولارد الذي عرفتـه ، ما كان يغادر بيته ، هو الآخر ، من غير كتاب ، وكان من دأبـه ان يضم إلى فؤاده على هـذه الصورة مجلداً عتيقاً . »

وانحنى ، وقال في صوت عال :

— « مسيو ترانشلوفان .... »

ولم يفعل الأب فوشلوفان ذلك عن عمد ، ولكن الغفلة عن اسماء العلم كانت عنده احدى العادات الارستوقراطية .

— « مسيو ترانشلوفان ، يشرفني أن اطلب منك يد الآنسة لحفيدي السيد البارون ماريوس بونميرسي . »

وانحنى مسيو ترانشلوفان .

وقال الجد :

— « قضي الأمر . »

والتفت نحو ماريوس وكوزيت ، بذراعين مبسوطتين مباركتين ، وهتف :

— « في ميسور كل منكما أن يعبد الآخر . »

ولم يتركا له مجالا لأن يقولها مرتين . وبدأت الزقزقة . لقد تحدثا في صوت خفيض ، وقد اتكأ ماريوس على كرسيه الطويل ، ووقفت كوزيت إلى جانبه . وغمغمت كوزيت : « آه ، يا الـهي ! أنـا اراك كرة اخرى ! هذا انت ! هذا أنت ! وذهابك إلى القتال على هذا النحو ! ولكن لماذا ؟ ذلك شيء رهيب ! لقد كنت ميتة طوال اربعة أشهر . أوه ، كم كان قبيحاً منك أن تشترك في تلك المعركة ! اي ذنب اقترفته نحوك ؟ أنا اغفر لك ، ولكنك لن تعود إلى مثلها ثانية . وفي هذه اللحظة ، حين جاءوا يدعوننا إلى الحضور اعتقدت كرة اخرى اني سوف اموت ، ولكن الموت كان من شدة الفرح . كنت محزونة جداً .

أنا لم اضع اي وقت في ارتداء ملابسي . لا شك ان منظري يوقع الرعب في النفوس . ما الذي سوف يقوله اقرباؤك حين يرونني وقد ارتديت طوق عنق بالياً . ولكن تكلم الآن . انت تتركني أتكلم وحدي . نحن لا نزال نسكن في شارع الرجل المسلح . يبدو أن كتفك ... كان ذلك فظيعاً . لقد اخبروني انه كان في استطاعتهم ان يضعوا جُمع كفهم في داخلها . ثم يبدو انهم قطعوا لحمك بالمقراض . ان هذا هو الامر الرهيب . لقد بكيت ، أنا لم تبق لي عينان . من المضحك أن يكون في ميسور المرء ان يتألم على هذه الشاكلة . إن لجدك مظهراً يدل على طيبة بالغة . لا تزعج نفسك ، لا تتكىء على مرفقك ، حذار ، انك سوف تؤذي نفسك . اوه ، ما أعظم سعادتي ! واذن فقد انقضى البلاء كله ! انا بلهاء إلى ابعد الحدود . كنت أود ان اقول لك اشياء ، ولكني نسيتها نسياناً كاملا . الا تزال تحبني ؟ اننا نسكن في شارع الرجل المسلح . ليس هناك حديقة . أنا أنفق وقتي كله في صنع النسالة . انظر يا سيدي ، إنها غلطتك ، لقد تصلبت اصابعي . » فقال ماريوس : « ملاك ! »

ان كلمة « ملاك » هي الوحيدة التي لا تبلى بين كلمات اللغة كلها . إن أيما كلمة اخرى لا تستطيع أن تصمد لاستعمال العشاق لها على نحو لا يعرف الشفقة .

وإذ كان ثمة أناس في الغرفة ، فقد كفا عن الكلام ، ولم ينطقا بايما لفظة اخرى ، مكتفين بلمس احدهما يد الآخر في رقة بالغة .

والتفت مسيو جيلنورمان نحو كل من كان في الغرفة وصاح :

— « تكلموا ، انتم الآخرون ، بصوت عال . أحدثوا بعض الضجة ، خلف الكواليس . هيا ، شيئاً من الضجة ، يا للشيطان ! حتى يستطيع هذان الطفلان ان يتطارحا الحديث من غير انزعاج . »

واقترب من ماريوس وكوزيت ، وقال لهما في صوت خفيض جداً :

— « تغازلا . لا ترتبكا . »

وشهدت العمة جيلنورمان ، في ذهول ، هذا الغزو الذي قام بـه الضياء لباطنها العجوز . ولم يكن هذا الذهول عدوانياً البتة . إنه لم يكن، بأية حال ، تلك النظرة المكلومة الحاسدة التي تلقيها بومة على يمامتين . كانت نظرة بليدة تلقيها فتاة بريئة مسكينة في السابعة والخمسين مـن العمر . كانت هـي الحياة الناقصـة ناظرة إلى ذلك النصر : الحب .

وقال لها أبوها :

— « ايتها الآنسة جيلنورمان الكبرى ، لقد قلت لك في وضوح ان ذلك سوف يحدث . »

وظل صامتاً لحظة ، ثم أضاف :

— « انظري إلى سعادة الآخرين . »

ثم التفت نحو كوزيت ، وقال :

— « ما أجملها ! ما أجملها ! إنها لوحة من لوحات « غروز » * . واذن فسوف تنعم بها وحدك ، ايها الولد الطائش ! آه ، ايها الوغد ، لقد نجوت من موقف حرج معي ؛ انك لمحظوظ ؛ ولو لم اكن اكبر مما ينبغي بخمسة عشر عاماً لتبارزنا بالسيف لنرى أينا يجب ان يفوز بها . اسمعي ! أنا متيم بك ، ايتها الآنسة . هذا طبيعي جداً . هذا حقك . آه ، يا للعرس الصغير الجميل الفاتن الذي سوف ينتج عن هذا الحب! إن « سان دونيز دو سان ساكرمان » هي ابرشيتنا ، ولكني سوف انتزع إعفاء يمكنك من الزواج في « سان بول » . الكنيسة افضل . لقد شيدها اليسوعيون . ذلك اكثر دلالا . انها تقع تجاه نبع الكاردينال دو بيراغ . ان رائعة فن العمارة اليسوعي هي في نامور . انها تدعى « سان لو » . يجب ان تذهبي إلى هناك حين تتزوجين . ان تلك الكنيسة تستحق الرحلة ايتها الآنسة ، أنا من رأيك تماماً ، أنا أريد من الفتيات ان يتزوجن ،

* Grause رسام فرنسي امتاز برسم صور الاشخاص (١٧٢٥ — ١٨٠٥)

لقد خلقن من أجل ذلك . إن ثمة قديسة اسمها « سانت كاترين » احب ان اراها دائماً حاسرة الرأس . ان صيرورة المرأة عانساً شيء رائع ، ولكنه بارد . الكتاب المقدس يقول : « تكاثروا ! » . لكي ننقذ الشعب نحتاج إلى جان دارك ، ولكن لكي نصنع الشعب نحتاج إلى الام جيغونِني . وهكذا تزوجن ، ايتها الجميلات . انا في الواقع لا ارى فائدة ما في إحجام المرأة عن الزواج حتى تصبح عانساً . انا اعرف جيداً ان ثمة معبداً مستقلا في الكنيسة ، وانهم يتحدثون كثيراً عن أخوية العذراء ، ولكني اقسم بحق الشيطان ان الزوج الوسيم – الفتى الصالح – وان الطفل الممتليء الاشقر ، الذي يرضع ثديك ، عند انقضاء عام ، في ابتهاج ، والذي تحفل رجلاه بطبقات من الدهن ، والذي يعتصر اللبن من ثديك حفنات حفنات باظفاره الصغيرة الوردية ، فيما هو يضحك كالفجر ، ان هذا افضل ، على اية حال ، من حمل شمعة في صلاة العصر أو الغروب وإنشاد « السور العاجي ! *Trris eburnea* »

ورقص الجد على رجل واحدة ، على عقب رجله البالغ عمرها تسعين عاماً ، وشرع يتحدث من جديد مثل نابض ينطلق ثانية :

وهكذا ، بتضييق حقل احلامك
يا آلسيب ، سوف تتزوجين حقاً عما قريب .

– « وبالمناسبة ! »
– « ماذا ، يا ابي ؟ »
– « ألم يكن لك صديق حميم ؟ »
– « نعم . كورفيراك . »
– « ما الذي حل به ؟ »
– « لقد مات . »
– « حسن . »

وجلس قربهما ، وأجلس كوزيت ، وأمسك أيديهما الأربع بيديه العجوزين المتجعدتين .

— « إنها لذيذة ، هذه الفتاة اللطيفة . ان كوزيت هذه رائعة ! إنها فتاة صغيرة جداً ، وسيدة عظيمة جداً . إنها لن تصبح إلا بارونة ، هذا نزول عن مرتبتها الخاصة ، فقد ولدت مركيزة . يا ولديّ ، ثبّتا في رأسيكما انكما على صواب . ليحب احدكما الآخر . كونا مخبولين في ذلك . الحب هو حماقة الناس ، وحكمة الله . ليعبد كل منكما الآخر . ولكن » — اضاف الجد وقد اغتم فجأة — « يا للمصيبة ! هذا ما أفكر فيه ! إن اكثر من نصف ما أملك هو رُقبى أتمتع بها ما دمت حياً . فما دمت على قيد الحياة ، فسوف يكون كل شيء على ما يرام . ولكن عقب موتي ، بعد عشرين عاماً ، آه ، يا ولديّ المسكينين ، لن تنالا دانقاً واحداً . ان يديك الجميلتين البيضاوين ، يا سيدتي البارونة . سوف يكون لهما شرف شده من ذنبه . »

— « إن عند الآنسة اوفرازي فوشلوفان ستمئة الف فرنك . »

كان ذلك الصوت صوت جان فالجان .

لم يكن قد نطق بعد بكلمة ، بل ان احداً لم يبد وكأنه كان يعرف انه هناك ، وانه كان واقفاً من غير حراك خلف هؤلاء الناس السعداء جميعاً .

وتساءل الجد ، مشدوهاً :

— « ومن هي الآنسة اوفرازي هذه ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « أنا . »

واضاف مسيو جيلنورمان :

— « ستمئة الف فرنك ! »

فقال جان فالجان :

— « ناقص اربعة عشر الف فرنك أو سبعة عشر الف فرنك ، ربمـا »

ووضع على الطاولة تلك الرزمة التي حسبتها العمة جيلنورمان كتاباً .

وفتح جان فالجان الرزمة بنفسه . كانت حزمـة اوراق نقـديـة . وتصفحوها ورقة ورقة ، وأحصوهـا . كانت تتألف من خمسمئة ورقة من ذوات الالف فرنك ، ومئة وثماني وستين ورقة من ذوات الخمسمئة فرنك .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « هذا كتاب نفيس . »

وغمغمت العمة :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! »

ثم إن الجد أضاف :

— « هذا سوف يسوي الأمور أحسن تسوية ، اليس كذلك ايتهـا الآنسة جيلنورمان الكبرى ؟ لقد وجد لك ماريوس الشيطان مليونـيرة مغناجة في شجرة الاحلام ! واذن فلتكن لك ثقة في غراميات الجيـل الطالع ، هذه الأيام ! الطلاب يجدون طالبات يملكن ستمئة الف فرنك . الكروبيم * يشتغل احسن مما يشتغل روتشيلد . »

وكررت الآنسة جيلنورمان في همس :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! خمسمئة واربعة وثمانون ! وفي استطاعتك ان تقول انها ستمئة الف حقاً ! »

أما ماريوس وكوزيت فكانا يتبادلان النظرات طوال تلك الفترة . إنهما لم يوليا هذه النقطة إلا أقل الاهتمام .

---

* من الملائكة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس .

٥

لأن تستودع مالك غابة ما ، خير لك من ان تستودعه كاتباً عدلا ما

لا ريب في ان القاريء قد ادرك ، من غير أن يحتاج إلى شرح مسهب ، ان جان فالجان استطاع ، بعد قضية شانماتيو — وبفضل هربه الأول الذي استمر بضعة أيام — ان يشخص إلى باريس ، وان يسحب المال الذي كسبه باسم مسيو مادلين ، في مونتروي سور مير ، من مصرف لافيت في الوقت المناسب . وأنه ، كان قد خبأ — خشية ان يقبض عليه من جديد ، وهو ما حدث فعلا بعد فترة قصيرة — ودفن ذلك المال في غابة مونفيرماي ، في الموطن المعروف بأرض بلارو . وكانت تلك الثروة . البالغة ستمئة وثلاثين الف فرنك ، والمؤلفة كلها من اوراق نقدية ، ذات حجم صغير ، وكانت موضوعة ضمن علبة . ولكي يقي العلبة من الرطوبة ، وضعها في صندوق من خشب البلوط ، مليء بنشارة الكستناء . وفي الصندوق نفسه ، كان قد وضع كنزه الآخر : شمعدانيّ الاسقف . والقاريء يذكر انه كان قد حمل هذين الشمعدانين عند هربه من مونتروي سور مير . وكان الرجل الذي لمحه بولاتروويل ذات مساء ، أول مرة ، هو جان فالجان . وفي ما بعد ، كان جان فالجان كلما احتاج إلى مال ، قصد الى بقعة بلارو الجرداء التماساً لشيء منه . ومن هنا غيابه المتكرر الذي تحدثنا عنه . كان عنده معول في ناحية ما من الدغل ، في مخبأ ليس يعرفه أحد غيره . وحين رأى إلى ماريوس ينعم بالنقاهة ، واستشعر اقتراب الساعة التي قد يصبح فيها ذلك المال ذا فائدة ، مضى التماساً له أيضاً . وكان هو الذي رآه بولاتروويل

آنذاك في الغابة ، ولكن صباحاً هـذه المرة ، لا مساء . وورث بولاترووبل المعول .

كان المبلغ الحقيقي خمسمئة واربعة وثمانين الفاً وخمسمئة فرنك . ولقد اخذ جان فالجان خمسمئة فرنك لنفسه . وفكر : « سوف نرى في ما بعد . »

وكان الفرق بين هذا المبلغ والستمئة وثلاثين الف فرنك المسحوبة من مصرف لافيت يمثل نفقات عشر سنوات ، من ١٨٢٣ إلى ١٨٣٣ . إن السنوات الخمس التي قضاها في الدير لم تكلفـه غير خمسة آلاف فرنك.

ووضع جان فالجان الشمعدانين الفضيين على الموقد ، حيث أضاءا ، مُوقعين في نفس توسين أعظم الاعجاب .

وإلى هذا ، فقد عرف جان فالجان انه قـد أنقذ من جافير . كان قد ذُكر على مسمع منه ، وكان قد تثبّت من صحة الواقعة من طريق صحيفة « المونيتور » التي نشرت أن مفتش شرطة يدعى جافير وُجـد غريقاً تحت مركب احدى الغسالات بين جسر الـ « شانج » و « الجسر الجديد » ، وان ورقة تركها هذا الرجل ، الذي كان خلواً من العيب متمتعاً بأعظم التقدير من رؤسائه ، قادت إلى الاعتقاد بأنه انتحر اثر نوبة جنون أصابته . وقال جان فالجان في ذات نفسه : « الواقـع ، انـه ما دام قد اطلق سراحي بعد ان قبض علي ، فلا ريب في أنه كان قد اصيب قبل ذلك بالخبل . »

٦

العجوزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ، لكي تكون كوزيت سعيدة

واتخذت جميـع الاستعدادات للزواج . وحين استشير الطبيب أعلن ان

في الامكان عقده في شباط . وكان القوم آنـذاك في كانون الاول . وتصرمت بضعة أسابيـع فاتنة من السعادة الكاملة .

ولم يكن الجد اقلهم سعادة . كان يقضي بين الفينة والفينة فترة تزيد على ربع ساعة وهو يحدق إلى كوزيت .

وهتف مرة :

— « يا للفتاة الجميلة الرائعة ! ويا ما أعذب اخلاقها وأطيبهـا ! وليس ثمة فائدة ، يا حبيبي ، في ان اعبر لك عما يختلـج في فؤادي . إنها اجمل فتاة رأيتها في حياتي . وإلى هذا فانها سوف تحمل اليك فضائل ذات عبير اشبه بعبير البنفسج . إنها نعمة ، حقاً . ليس في استطاعتك الا ان تحيا ، في نبل ، مع مخلوقة كهذه . ماريوس ، يا بني انت بارون ، انت غني ، لا تمـارس المحاماة بغير نجاح ، أتوسـل اليك . »

كانت كوزيت وماريوس قد انتقلا فجـأة من القبر إلى الجنة . ولم يكن في ذلك الانتقال غير حذر ضئيل . ولقد كان جديراً بهما ، لو لم يصبهما الجهَر ، ان يصابا بدوار .

وقال ماريوس لكوزيت :

— « هل تفهمين شيئاً من ذلك ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « لا . ولكن يخيل الي أن الله اللطيف يحيطنا بعنايته . »

وعمل جان فالجان كل شيء ، وسوّى كل شيء ، وأصلح كـل شيء ، وسهّل كل شيء . لقد اسرع نحو سعادة كوزيت بمثل اللهفة ، وفي ما يبدو بمثل البهجة ، التي اندفعت بها كوزيت نفسها .

واذ كان في ما مضى عمدة ، فقد عرف كيف يحل مشكلة دقيقـة كان هو وحده واقفاً على سرها : مشكلة وضع كوزيت المدني . فلو انه ذكر اصلها في قساوة اذن لحال ذلك — من يدري ؟ — دون الزواج.

لقد اخرج كوزيت من المصاعب كلها . ولقد نظم لها أسرة من الموتى، وهي وسيلة مضمونة لعدم إثارة اعتّراض ما ؛ وكانت كوزيت هي البقية الباقية من تلك الاسرة البائدة ؛ إن كوزيت لم تكن بنته ، ولكن بنت فوشلوفان آخر . كان أخوان من آل فوشلوفان قد عملا بستانيين في دير بيكبوس الصغير . وذهب القوم إلى هذا الدير . وكانت الأدلة الفضلى والشهادات الأحفل بالاحتّرام موفورة هنـــاك . فالراهبات الصالحات لمتمتعات باقل القدرة على سبر قضايا الأبوة واقـل الرغبة في ذلك ، واللواتي ما كن يفهمن الخبث على الاطلاق ، لم يعرفن قط على وجه الضبط ابنة ايٍّ من الفوشلوفانين كانت كوزيت . لقــــد قلن مــا كان مطلوباً منهن ، وقلن ذلك في اندفاع . وحُرر محضر بهذا أمام الـــكاتب العدل . واصبحت كوزيت ، امام القانون ، الآنسة اوفرازي فوشلوفان. لقد أعلنت يتيمـــةَ الاب والام . ورتب جان فالجان الاشياء بحيث يُنص على انه ، تحت اسم فوشلوفان ، وصي على كوزيت،وان مسيوجيلنورمان وكيل وصي عليها .

أما الخمسمئة والاربعة والثمانون الف فرنك فكانت هبة بوصية ، تركها لكوزيت شخص ميت كان قد أبدى رغبته في أن يظل مجهولا . وكانت الهبة الأصلية خمسمئة واربعة وتسعين الف فرنك ، ولكن عشرة آلاف فرنك كانت قد انفقت على تعليم الآنسة اوفرازي ، منها خمسة آلاف فرنك دفعت إلى الدير نفسه . وكان لهذه الهبة ، المودعة في يدي فريق ثالث ، ان تقدَّم إلى كوزيت عند بلوغها سن الرشد ، أو عند زواجها . وكان هذا كله مقبولا جداً ، كما نرى ، وبخاصة على اساس من نيف ونصف مليون . وكانت ههنا وهناك ، في الواقع ، بعـض الاشياء الغريبة ، ولكن احداً لم يلاحظها . كان احد المعنيين بهذا الأمر معصوب العينين بالحب ، وكان الآخر معصوب العينين بالفـرنـكات الستمئة الف .

وعلمت كوزيت انها لم تكن بنت ذلك العجوز الذي دعته أباها طوال فترة مديدة . لقد كان مجرد نسيب من أنسبائها ؛ كان أباها الحقيقي فوشلوفان آخر . ولقد كان خليقاً بهذا ، في أيما وقت آخر ، أن يكسر فؤادها . ولكنه لم يكن في تلك الساعة ، الممتنعة على الوصف ، غير ظل ، غير اربداد ، ولقد كانت تنعم بقدر من البهجة كبير جعل تلك السحابة قصيرة الأجل . كان لها ماريوس . لقد جاء الرجل الشاب ، وامحى الرجل العجوز . تلك هي الحياة .

وإلى هذا ، فقد اعتادت كوزيت ، طوال سنين عديدة ، ان ترى نفسها محاطة بالاحاجي . وكل من كانت طفولته غامضة خفية يكون أبداً على استعداد لبعض التنازلات .

وعلى كل حال ، فقد ظلت تقول لجان فالجان : « يا ابي » .

وكانت كوزيت ، في جذلها البالغ ، كلفة بالجد جيلنورمان . صحيح أنه أثقلها بالقصائد الغزلية القصيرة وبالهدايا . وبينا كان جان فالجان يبني لكوزيت وضعاً سوياً في المجتمع ، وملكاً لا مرية فيه ، كان مسيو جيلنورمان يسهر على هدية العرس . وما كان ليسره شيء بقدر جعلها فخمة رائعة . وكان قد قدم إلى كوزيت ثوباً من البريم المعروف بـ « بريم بينش » تحدر اليه من جدته . وقال : « لقد درجت هذه الازياء من جديد . إن الناس جميعاً يميلون إلى الاشياء العتيقة ، وهكذا فأن فتيات شيخوختي الصغيرات يلبسن مثل عجائز طفولتي . »

ونهب خزائنه الجليلة المستديرة الكروش ، المصقولة بلك* كورمنديل والتي لم تفتح منذ سنوات عديدة ، وقال : « فلنحمل هذه الارامل على الاعتراف . ولنر ما الذي تنطوي عليه » . وهكذا افترع ، في صخب ، تلك الادراج العميقة الملأى بحلى زوجاته جميعاً ، وخليلاته جميعاً ، وجداته جميعاً . واخرج منها منسوجات حريرية موشاة من نوع

* اللك laque ضرب من الصمغ كانوا يتخذون منه مادة لصقل الخزائن الثمينة .

« بيكين » ، ودمقساً ، وانسجة حريرية صينية ، ومنسوجات متموجة مزدانة بالتصاوير ، واثواباً من حرير « تور » المتوهج ، ومناديل هندية موشاة بذهب يمكن غسله ، واقمشة من نوع « دوفين » مصقولة الوجهين لم يمسها مقص ، وتخاريم جنوا وآلانسون ، وحلى عتيقة ، وعلب ملبس عاجية مزدانـة بمعارك ميكروسكوبية ، وملابس ، وعصائب ، وأغدقها كلها على كوزيت . وحلمت كوزيت ـ المنشدهة ، المحبة لماريوس حباً عارماً ، العامر صدرها بعرفان للجميل طاغ نحو مسيو جيلنورمان ـ حلمت بسعادة لا حدود لهـا مجليبـة بالأطلس والمخمل . وتراءت لها سلة عرسها وقد حملتها ايدي الساروفيم * . لقد حلقت روحها في اللازورد على اجنحة من تخاريم مالين **

ولم يكن ثمة ما يضارع نشوة العاشقين ، كما قلنا ، غير انخطـاف الجـد . لكأن انغام الابواق كانت تصدح في شارع فتيات كالفير .

وكل صباح كانت كوزيت تتلقى من الجد هدية جديدة من تلك النفائس العريقة . ونورت ضروب الحلى على اختلافها ، من حولها ، تنويراً بهياً .

وذات يوم ، قال ماريوس الذي كان مولعاً بالكلام في رصانة وسط سعادته ، وذلك لمناسبة حادث لست اعرف ما هو :

ـ « إن رجال الثورة هم عظام إلى درجة جعلتهم ينعمون منذ زمن بتقدير الأجيال ، مثل « كاتون » *** ، و « فوسيون » **** وكل منهم

---

* ارواح سماوية تعتبر في الطبقة الاولى بين الملائكة ، عند اليهود والمسيحيين .

** Maline مدينة بلجيكية اشتهرت بوشيها وتخريمها .

*** Caton حد مشاهير الرومان ، وكان معروفاً بعدائه لقرطاجة ، حتى لقد كان ينادي دائماً بضرورة تدميرها . ٢٣٢ – ١٤٧ ق.م)

**** Phocion جنرال وخطيب اثيني ، وكان شهيراً بنزاهته وحبه للسلم . وقد حكم عليه ان يشرب الشوكران السام حوالى ٤٠٠ – ٣١٧ ق.م)

يبدو وكأنه ذكرى عريقة في القدم . » (*mémoire antique*)

فهتف العجوز :

— « منسوجات متموجة عريقة في القـــدم ! (*moire antique*) شكراً لك ، يا ماريوس . تلك هي ، على وجه الضبط ، الفكرة التي كنت أبحث عنها . »

وفي اليوم التالي أضيف إلى سلة عرس كوزيت ثوب رائع مصنوع من نسيـج متموج عتيق شبيه لونــه بلون الشاي .

واستخرج الجد حكمة من هذه الأسمال :

— « الحب ، هذا شيء حسن . ولكنه في حاجة إلى هذه . ان السعادة لا تستغني عن غير المفيد . السعادة ليست إلا الضروري ليس غير فتبّلوهـا لي تتبيلا هائلا بكل ما هو فضلة . قصرٌ وقلبُهـا . قلبهـا واللوفر . قلبهـا ومناهل فرساي الغزيرة . اعطوني راعيتي ولتكن دوقة إذا أمكن . إيتوني بفيليس متوجةً بزهرات نبات الجُليجلة ، وأضيفوا اليها مئة الف ليرة من الدخل السنوي . افتحوا لي قصيدة ريفية في نجوة من الانظار تحت صف من أعمدة رخامية . أنا اوافق على القصيدة ، كما اوافق على صنيـع الجن في الرخام والذهب . السعادة الجافة اشبه بالخبز الجاف . اننا نأكل ، ولكننا لا نتعشى . انا ارغب في ما هـو زائد ، في غير المفيد ، في الغريب الأهوس ، في المبالغ فيه ، في ذلك الذي لا يصلح لشيء . انا اذكر اني شاهدت في كاتدرائية ستراسبورغ ساعة يبلغ ارتفاعها ارتفاع بيت ذي ثلاثة ادوار ، ساعة تعين الوقت ، أو تتفضل بتعيين الوقت ، ولكنها لا تبدو وكأنها جُعلت لمثل ذلك . ساعة ما ان تعلن حلول الظهر أو نصف الليل — الظهر ، موعد الشمس ، ونصف الليل ، موعد الحب — أو اي ساعة تشاء انت ، حتى تعطيك

القمر والنجوم ، والبر والبحر ، والأطيار والاسماك ، وفيبوس * وفيبيه ** وجمهرة من الاشياء تخرج من كوة ، والرسل الاثني عشر ، والامبراطور شارل الخامس (شارلكان) ، وايبونين *** وسابينوس ، ومجموعة من الرجال الضئيلي الأجسام ، المذهّبين ، النافخين في البوق ، فضلا عن ذلك . هذا إذا لم نذكر قرع الاجراس المتناغم الفاتن الذي كانت تبدده في الهواء ، في جميع المناسبات ، من غير ان يدري احد لذلك سبباً . هل نستطيع القول ان الساعة الشريرة العارية عرياً كاملا ، والتي تجتزيء بالدلالة على الوقت ، تساوي هذه الساعة ؟ اما أنا ، فأتفق في الرأي مع ساعة ستراسبورغ الضخمة ، وافضلها على « الساعة الوقواق » في الغابة السوداء . »

وهذى مسيو جيلنورمان في موضوع الزفاف على نحو خاص ، ومرت كيفما اتفق ، جميع مرايا القرن الثامن عشر القائمة بين الكوى ، من خلال مدائحه المغالى فيها .

وصاح :

— « انتم تجهلون فن الافراح . انتم لا تعرفون كيف تحيون يوماً من أيام البهجة في هذا العصر . ان قرنكم التاسع عشر قرن ضعيف . إن الافراط يعوزه . وهو ينكر ما هو غني ، وينكر ما هو نبيل . إنه مجزوز في كل شيء جزاً مفرطاً . ان طبقتكم الثالثة **** لا طعم لها ، ولا لون ، ولا رائحة ، ولا شكل . أحلام بورجوازيتكم التي

---

* Phébus اسم يطلق على ابولو ، الـه الضياء والفنون عند الاغريق والرومان .

** Phébé اسم مستعار للالاهة الاغريقية آرتيميس والقمر .

*** Eponine بطلة من الغاليين (الفرنسيين القدماء) ، كانت زوجة لسابينوس ، الوارد ذكره في المتن ايضاً . وكانت قد عاهدت نفسها على ان تنقذ الغاليين من نير الرومان ، ولكنها أخفقت ، فحكم عليها بالموت .

**** المقصود بالطبقة الثالثة ، هنا ، طبقة العوام .

تقيم بناء ، كما يقولون : بهو للسيدات صغير وجميل ، مزدان منذ عهد قريب بخشب بنفسجي اللون وبنسيج قطني . أفسحوا ! أفسحوا ! السيد غريغو يتزوج الآنسة غريبيسو . زهو وبهاء ! لقد الصقوا ليرة لويسية ذهبية إلى احدى الشموع . ذلك هو العصر . انا أرجو ان أفر إلى ما وراء بلاد « السارمات » * آه ، في سنة ١٧٨٧ تنبأت بأن كل شيء قد ضاع ، يوم رأيت الدوق دو روهان ، والبرنس دو ليون ، والدوق دو شابو ، والدوق دو مونبازون ، والمركيز دو سوبيز ، والفيكونت دو توار ، صير فرنسة ، يقصدون إلى لونشان في عربة صغيرة ذات مقعدين ! لقد آتى ذلك ثماره . ففي هذا القرن ، يتاجر المرء ويقامر ، بالبورصة ، ويكسب المال ، ويغلب عليه البخل الشديد . الناس في هذا العصر يعنون بالظاهر ويصقلونه . إنهم يغالون في التأنق ، انهم يغسلون بشرتهم بالماء ، وبالصابون ، إنهم يكشطون جلودهم ويحلقون ذقونهم ، ويسرحون شعورهم ، إنهم مشمّعون ، مملّسون ، مُفَرْشَوْن ، منظفون من خارج ، منزهون عن العيب ، مصقولون مثل الحصاة ، أصحاب فطنة ، شديدو النظافة ، وفي الوقت نفسه – وحق خليلتي – يحملون في اعماق ضميرهم مزابل وبواليع خليقة بأن تجفل راعية بقر اعتادت ان تتمخط باصابعها . أنا امنح العصر الحاضر هذا الشعار : نظافة قذرة . ماريوس ، لا تغضب ، دعني اتكلم ، أنا لا أهين الشعب ، كما ترى ، ان فمي مليء من شعبك ، ولكني اجد من الخير ان اضرب البورجوازية بعض الشيء . أنا واحد منهم . إن من يحب كثيراً ، يضرب كثيراً . وعلى هذا ، فاني اقولها من غير مجاملة : ان الناس يتزوجون اليوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتزوجون . آه ، هذا صحيح ، أنا آسف على الطرق الجميلة التي كانت متبعة في الايام الخالية . أنا آسف عليها كلها.

* اصقاع واسعة في اوروبة الشرقية كان يقطنها في ما مضى شعب يعرف بالشعب السارماتي . وقد قضى القوط على قوتهم في القرن الثالث للميلاد .

تلك الاناقة ، تلك الفروسية ، تلك الاساليب المصقولة الفاتنة ، ذلك الترف البهيج الذي كان ينعم به كل انسان ، والموسيقى وقد ألفت جزءاً من العرس ، السيمفونية فوق ، وقرع الطبول تحت ، وضروب الرقص ، والوجوه المستبشرة الجالسة إلى المائدة ، والقصائد الغزلية المعقدة ، والاغاني ، والاسهم النارية ، والضحك المرسل ، وإبليس وحاشيته ، وعُقَد العصائب الكبيرة . أنا آسف على رباط ساق العروس . ان رباط ساق العروس ابن عم لحزام فينوس . ما الذي هاج حرب طروادة ؟ الذي هاجها ، وحق السماء ، رباط ساق هيلانة . لماذا يتقاتلون ؟ لماذا يحطم ديوميد * الالٓهي تلك الخوذة البرونزية الضخمة ذات الرؤوس العشرة على رأس ميريونس ؟ لماذا يتبادل أخيل وهكتور طعنات حراب بليغة ؟ لأن هيلانة مكنت « باريس » من ان يأخذ رباط ساقها . وبرباط ساق كوزيت كان خليقاً بهوميروس ان يبدع الالياذة . كان خليقاً به ان يدخل في قصيدته ثرثاراً عجوزاً مثلي ، وان يسميه نسطور . ايها الاصدقاء ، في الايام الخالية ، في تلك الايام الجميلة الخالية ، كان الناس يتزوجون على نحو علميّ ، كانوا يوقعون عقداً صالحاً ، ثم يمدون مائدة صاخبة صالحة . فما إن يخرج كوجا ** حتى يدخل غاماش *** . ولكن المعدة هي ، حقاً ! ، حيوان لطيف يطالب بحقه ، ويرغب في ان يعقد زفافه أيضاً . كانوا يتناولون عشاء دسماً ، وكانوا يضعون قريباً منهم ، إلى المائدة ، جارة جميلة ، لا ترتدي لباس صدر ، ولا تخفي جيدها إلا باعتدال ! اوه ، يا للافواه العريضة الضاحكة ، ويا للبهجة البالغة التي

---

* Diomedes أحد المقاتلين الاغريق في حرب طروادة ، وهو الذي ساعد اوديسيوس على سرقة خيل ريسوس وتمثال البالاديوم .

** Cujas متشرع فرنسي شهير (١٥٢٢ – ١٥٩٠)

*** Gamache فلاح غني ورد ذكره في رواية دونكيشوت ، وقد أقام عند زواجه مأدبة باذخة ضرب بها المثل في الاسراف البالغ .

كانت تتكشف عنها في تلك الأيام . كان الشباب باقة . كان كل شاب ينتهي بغصن من الليلك أو بحزمة من الورود . فاذا كان المرء مقاتلا ، كان راعياً . واذا اتفق ان كان قائداً من قواد الفرسان التنانين ، كان يجد وسيلة لأن يدعى فلوريان . * كانوا يصطنعون كل شيء لكي يتحلوا بالجمال . كانوا يوشّون انفسهم ، وكانوا يصبغون انفسهم بالارجوان . كان للبورجوازي مظهر زهرة ، وكان للمركيز مظهر حجر كريم . ان المرء ما كان يشد سيوراً تحت حذائه ، انه ما كان يلبس حذاء ذا رقبة . كان المرء أنيقاً ، مصقولا ، متموجاً ، اسمر ذهبياً ، مرفرفاً ، لطيفاً ، مغناجاً ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من ان يحمل في جنبه سيفاً . ان للطائر الطنان منقاراً وأظفاراً . كان ذلك عصر « جزر الهند الغزلة » . كان الناعم هو أحد جانبي العصر ، وكان البهي هو جانبه الآخر . وكان المرء ، وحق الشيطان ، يلهو ويعبث . اما اليوم فالناس جديون . البورجوازي بخيل ، والبورجوازية مغالية في التعفف . إن عصركم منكود الحظ . فالناس قد يطردون آلهات الجمال ** لمجرد ان اثوابهن تكشف عن اجيادهن بعض الشيء . وا أسفاه ! انهم يخبئون الجمال وكأنه قبح . ومنذ الثورة ، أمسى كل شيء يرتدي البنطلون ، حتى الراقصات . ان على الراقصة ان تكون رصينة . إن رقصاتكم مذهبية . ينبغي أن نكون أجلاء . اننا نغضب إذا لم تكن ذقوننا مقحمة في أربطة اعناقنا . والمثل الأعلى الذي يطمح اليه الصبي الذي يتزوج ، وهو في العشرين من العمر ، ان يكون مثل مسيو روايبه كولار . وهل تدري إلامَ سوف ننتهي بهذا الجلال ؟ إلى أن نصبح صغاراً . تعلّم هذا : الابتهاج ليس بهيجاً فحسب ؛ إنه عظيم أيضاً .

---

* Florian من كلمة fleur وتعني الزهر .

** Graces في الميثولوجيا اليونانية . وهي ثلاث : آغلاييه Aglaé ، وطالي Thalie واوفروزين Euphrosine .

فكونوا اذن عاشقين في بشر ، يا للشيطان ! وتزوجوا ، حين تتزوجون بحمّى السعادة ، ودوارها ، ولغطها ، وفوضاها ! الرصانة في الكنيسة ، ليكن ذلك . ولكن ما إن ينتهي القداس ، حتى يتعين علينا ان نجعل الحلم يعصف من حول العروس . الزواج ينبغي ان يكون ملوكياً وخيالياً . ينبغي ان يسير في موكب من كاتدرائية ريمس إلى هيكل اصنام شانتلو . إن الذعر ليلفتني من العرس البليد . كونوا في الاولمب ، ذلك اليوم فحسب على الاقل . كونوا آلهة . آه ، في استطاعة المرء ان يكون جناً ، ان يكون الـه بهجة ، أن يكون آرجيراسبيد . انتم عفاريت . يا اصدقائي ، إن على كل زوج جديد ان يكون البرنس آلدو برانديني . فأفيدوا من هذه اللحظة الفريدة من حياتكم لكي تفروا إلى عليين مع الأوز والنسور ، على ان تبقى لكم حريتكم في ان ترتدّوا ، في غد ، إلى بورجوازية الضفادع . لا تقتصدوا في الزفاف أبداً ، لا تقلّموا بهاءه ، لا تقتّروا اليوم الذي تشعّون فيه . الزفاف ليس تدبير منزل . اوه ، لو اردت ان اطيع هواي ، اذن لكان ذلك أنيقاً ظريفاً ، كنت اسمعكم انغام الكمان تُعزف في الاشجار . ذلك هو برنامجي : زرقة سماوية وفضة . لو اردت ان اطيع هواي لأدخلت الالاهات الريفيات في الحفلة ، ولدعوت اليها جنيات الأحراج وحوريات البحر . اعراس آمفيتريت * ، سحابة وردية ، إلاهات مياه رُتّب شعرها احسن ترتيب عارية عرياً كاملا ، وعضو في الاكاديمية يقدم الرباعيات إلى الالاهة ، عربة تجرها هولات بحرية :

إن سمندر الماء قد خب قدام ، واستل من صدفه
اصواتاً كانت من الفتنة بحيث تفتن كائناً من كان .

إن للحفلات برامج ، وهوذا واحد منها ، وإلا لم تكن لي معرفة بها ، وحق الشيطان ! »

---

* Amphitrite الاهة للبحر ، وزوجة نبتون في الميثولوجيا القديمة .

وفيما كان الجد ، المتدفق تدفقاً غنائياً كاملا ، يصغي لنفسه ، كانت كوزيت وماريوس منتشين بتبادل النظرات في حرية .

وشهدت العمة جيلنورمان ذلك كله في وداعتها الهادئة . كانت قد عرفت منذ خمسة اشهر أو ستة اشهر عدداً من الانفعالات . لقد رجع ماريوس ؛ لقد أعيد ماريوس دامي الجراح ؛ لقد حُمل ماريوس من احد المتاريس ؛ ماريوس قد مات ؛ ثم عاش ؛ ماريوس قد استُرضي ؛ ماريوس قد خُطب له ؛ ماريوس يتزوج شحاذة ؛ ماريوس يتزوج مليونيرة . وكانت الستمئة الف فرنك هي آخر مفاجآتها . ثم إن لامبالاتها التناولية الأولى عاودتها . كانت تذهب على نحو نظامي إلى القداس ؛ وكانت تُمرّ حبات سبحتها تحت أصابعها ؛ وتقرأ في كتاب صلواتها ؛ وتهمس بـ « السلام الملائكي » في جانب من المنزل ، بينا كان يُهمس بـ « أحبك » في الجانب الآخر ، وكانت ترى ماريوس وكوزيت وكأنهما طيفان . كانت هي نفسها الطيف .

إن ثمة حالة من النسك العادم الحركة حيث النفس ، المعادلة بالخدر ، الغريب على ما نستطيع ان ندعوه مسألة العيش ، لا تلمح — باستثناء الزلازل والكوارث — أياً من الانطباعات البشرية . سواء منها الانطباعات المستحبة ، والانطباعات الاليمة . وقال الجد جيلنورمان لابنته : « هذا التُقى يطابق زكاماً في الرأس . انت لا تشم شيئاً من الحياة . لا رائحة كريهة ، ولكن لا رائحة زكية أيضاً . »

وإلى هذا ، فان الستمئة الف فرنك كانت قد حسمت تردد العانس . كان ابوها قد اعتاد ان لا يدخلها في حسابه إلى حد جعله يُغفل استشارتها في موضوع الموافقة على زواج ماريوس . كان قد تصرف في تهور ، وفقاً لهواه ، وقد سيطرت على عقله — وهو الطاغية الذي أمسى عبداً — فكرة واحدة ، هي ارضاء ماريوس . أما العمة ، أما ان العمة كانت موجودة ، وانه قد يكون لها رأي ، فذلك ما لم يفكر فيه مجرد تفكير . وعلى الرغم من انها كانت نعجة بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد غاظها ذلك . واذ ثارت بعض الشيء باطنياً ، ولكنها احتفظت

بامتناعها على التأثر ، خارجياً ، فقد قالت في ذات نفسها : « ان والدي قد بتّ في مسألة الزواج بمعزل عني ، ولسوف ابتّ في مسألة الميراث بمعزل عنه . » كانت موسرة ، في الواقـع ، ولم يكن ابوها موسراً . وهكذا كانت قد احتفظت بقرارها في شأن ذلك . وكان من المحتمل ، لو كان الزفاف هزيلا ، ان تتركه هزيلا . فلأم السيد ، ابن اخي ، المبـّـل ! انه يتزوج شحاذة ، فليكن شحاذاً . ولكن نصف المليـون الذي كانت تملكه كوزيت سرَّ العمة ، وغيّر مشاعرها نحو هـذيـن العاشقين . إن علينا أن نولي بعض الاعتبار لستمئة الف فرنك ، وكان واضحاً انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً غير ترك ثروتها إلى هذين الشابين ، ما داما قد أمسيا في غير حاجة اليها .

واتخـذت الترتيبات لكي يسكن الزوجان في منزل الجد . واصـر مسيو جيلنورمان اصراراً شديداً على إعطائهما غرفته ، وهي أجمل غرف المنزل . وأعلن قائلا : « إن ذلك سوف يجدد شبابي . هذا مشروع قديم . لقد كنت دائماً افكر في اقامة عرس في غرفتي . » . وملأ هذه الغرفة بمجموعة كبيرة من الاثاث القديم الانيق . وجلل الجدران والسقف بقماش نادر كان يحتفظ بثوب منه كامل ، وكان يعتقد أنه من أوترخت: خلفيّة من أطلس مع حوذان ذهبي وآذان دب مخملية . * وقـال : « بمثل هذا القماش جُـلل سرير دوقة آنفيل في الـ « روش غويون » . ووضع على الموقد دمية من دمى ساكس تحمل فرواً من فراء اليدين فوق بطنها العاري .

وأمست مكتبة مسيو جيلنورمان مكتب المحاماة الذي كان ماريوس في حاجة اليه . وكان هذا المكتب ، كما يذكر القراء ، شيئاً تحتمه قواعد النظام المتبع .

---

* الحوذان وآذان الدب نوعان من النبات .

٧
آثار حلم ممزوج بالسعادة

ورأى كل من المحبّين صاحبه يومياً . كانت كوزيت تفد مع مسيو فوشلوفان . وقالت الآنسة جيلنورمان : « إنه لعكسٌ لطبيعة الاشياء ان تجيء المخطوبة إلى البيت لكي تغازَلَ على هذا النحو . » ولكن نقاهة ماريوس كانت قد قادت إلى نشوء هذه العادة . كما ان الكراسي ذوات الاذرع في شارع فتيات كالفير ، وهي اكثر ملاءمة للاحاديث الطويلة من الكراسي القشية التي في شارع الرجل المسلح ، كانت قد جذّرتها . واجتمع كل من ماريوس ومسيو فوشلوفان ، ولكنهما ما كانا يتبادلان الأحاديث . وبدا ذلك أمراً مفهوماً . فكل فتاة في حاجة إلى رفيق حارس . وما كان في ميسور كوزيت ان تجيء من غير ان يصاحبها مسيو فوشلوفان . كان مسيو فوشلوفان هو ، عند ماريوس ، شرطَ كوزيت . وقبِل ذلك الشرط . ومن طريق التعرض لقضايا السياسة ، على نحو غامض وعام ، من زاوية الرغبة في التحسين الشامل لأوضاع الناس جميعاً ، وُفّقا إلى أن يقولا شيئاً اكثر قليلا من تبادل لفظتي « نعم » و « لا » . وذات يوم ، وكان الموضوع موضوع التعليم ، الذي اراده ماريوس مجانياً والزامياً ، مضاعفاً تحت الاشكال جميعاً ، مغدقاً على الجميع كالهواء واشعة الشمس ، وبكلمة واحدة ، ممكناً تنشّقه من جانب الناس جميعاً – نقول في ذلك اليوم انتهيا إلى ألفة ، بل كادا يتطارحان حديثاً . ولاحظ ماريوس في تلك المناسبة ان مسيو فوشلوفان يجيد الحديث ، بل يجيده في شيء من سمو اللغة . ولكن كان ثمة شيء يعوزه ، على كل حال . كان في مسيو فوشلوفان شيء اقل من رُجل مجتمع ، وشيء اكثر .

وباطنياً ، وفي أعماق نفسه ، أحاط ماريوس مسيو فوشلوفان هذا ، الذي كان بالنسبة اليه محسناً وبارداً ليس غير ، بمختلف ضروب الاسئلة الصامتة . وبين الفينة والفينة ، كانت تساوره شكوك حول ذكرياته هو . كان في ذاكرته خرم ، موطنٌ أسود ، هوة جوفتهـا اربعة اشهر من العذاب الاليم . كانت اشياء كثيرة قد ضاعت فيها . وانتهى إلى ان سأل نفسه ما اذا كان صحيحاً ، انه قد رأى ، حقاً ، مسيو فوشلوفان ، مثلَ هذا الرجل ، البالغ الجد والبالغ الهدوء ، في المتراس .

بيد أن هذا لم يكن هو الغيبوبة الوحيدة التي خلفهـا في عقله مثول الماضي واختفاؤه . وينبغي أن لا نفترض انـه أنقذ من جميـع تلـك الفكرات المتسلطة التي تكرهنا ، حتى ونحن في غمرة من السعادة والرضا ، على الالتفات إلى وراء في غم وكـآبة . إن الرأس الذي لا يلتفت نحو آفاق الماضي ، لا ينطوي لا على فكر ولا على حب . وبـين حين وآخر ، كان ماريوس يغطي وجهه بيديه ، وكان الماضي الغامض يخترق ، في صخب ، ذلك الغسق الذي ملأ ذهنه . لقد رأى مابوف يخر على الأرض من جديد ، وسمع غافروش يغني تحت نيران القذائف ، واستشعر على شفتيه برودة جبين ايبونين ، ونهض آنجولراس ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وبوسوويه ، وغرانتير وجميع اصدقائه — نهضوا امامه ، ثم تبددوا . هذه الكائنات ، الغالية ، المحزونة ، الباسلة ، الفاتنة أو الفاجعة ، هل كانت أحلاماً ؟ هـل وُجدت حقاً ؟ كـانت الفتنة قد لفت كل شيء بدخانها . إن لهذه الحمّيـات الكبيرة أحلامـاً كبيرة . واستجوب نفسه ؛ وتلمّس طريقه في ذات نفسه ؛ كانت هذه الوقائع المتلاشية قد أصابته بدوار . أين كانوا كلهم اذن ؟ هل صحيح أنهم أمسوا كلهم أمواتاً ؟ كان السقوط في الظلمة قد قضى عليهم جميعاً ، باستثنائه هو . وبدا له أن كل شيء قد اختفـى وكأنه خلف ستار في مسرح . إن ثمة مثل هذه الستر التي تُسدل في الحياة . الرب ينتقل إلى

الفصل الثاني .

وهو ، اكان لا يزال الرجلَ نفسه ؟ كان — هو الفقير — قد أمسى غنياً . كان — هو المتخلي عنه — ذا أسرة . وكان — هو اليائس — في سبيله إلى الزواج من كوزيت . لقد بدا له وكأنه اجتاز قبراً ، وأنه دخل إلى هذا القبر اسود ، وخرج منه أبيض . وفي هذا القبر كان الآخرون قد بقوا . وفي بعض الاحيان ، كانت جميع كائنات الماضي هذه ، العائدة الماثلة ، تشكل حلقة حوله وتوقع في نفسه الغم . وعندئذ كان يفكر في كوزيت ، فتعاوده بشاشته . ولكن لم يكن في ميسور شيء أقل من هذه السعادة أن يمحو تلك الكارثة .

وكان لمسيو فوشلوفان موضع ، تقريباً ، بين هذه الكائنات المتلاشية . وتردد ماريوس في الاعتقاد بأن فوشلوفان المتراس كان هو نفسه فوشلوفان هذا ، بلحمه ودمه ، الجالس في كثير من الرصانة قرب كوزيت : كان الأول ، في أغلب الظن ، واحداً من تلك الكوابيس التي تروح وتجيء مع ساعات هذيانه ؛ وفوق هذا ، فلما كانت طبيعتاهما وعرتين ، فما كان من الممكن أن يوجَّه اِيما سؤال من ماريوس إلى مسيو فوشلوفان . بل ان مجرد الفكرة لم تخطر له ببال . ولقد سبقت منا الاشارة إلى هذه الحادثة المميِّزة .

رجلان يجمعهما سر مشترك ، ولا يتبادلان — بضرب من التفاهم المضمَر — كلمة واحدة في الموضوع . ان شيئاً مثل ذلك هو أقل ندرة مما يظن المرء .

ومرة واحدة ليس غير ، قام ماريوس بمحاولة . لقد أدخل شارع الـ « شانفريري » في المحادثة . التفت نحو مسيو فوشلوفان ، وقال له :

— « هل تعرف ذلك الشارع جيداً ؟ »

— « أي شارع ؟ »

— « شارع الشانفريري ؟ »

فأجاب مسيو فوشلوفان بنبرة ليس اكثر منها طبيعيـة في العالم :

— « ليس عندي أية فكرة عن اسم ذلك الشارع . »

وبدا الجواب ، الذي دار على اسم الشارع ، لا على الشارع نفسه — بدا لماريوس جازماً اكثر مما كان .

وفـكر · « لا ريب في اني كنت أحلم . لقـد ألمّت بي هلوسة . كان ذلك شخصاً آخر يشبهه . مسيو فوشلوفان لم يكن هناك ؟ »



٨

رجلان من المتعذر الاهتداء اليهما

ولم تمحُ الرُّقية ، على الرغم من ضخامتها ، شواغلَ اخرى من ذهن ماريوس .

ففي خلال الاستعداد للزفاف ، وفيما كان ينتظر الميقات المضروب ، أجرى بعض المباحث الارتدادية العسيرة ، الدقيقة .

كان مديناً بالمعروف من عدة نواح . كان مديناً ببعض ذلك المعروف بسبب من أبيه ، ومديناً ببعضه لحسابه هو .

كان ثمة تيناردييه ، وكان ثمة ذلك الرجل المجهول الذي حمله ، هو ماريوس ، إلى منزل مسيو جيلنورمان .

وحرص ماريوس على العثور على هذين الرجلين ، غير معتزم أن يتزوج ، ان يكون سعيداً ، ان ينساهما ، وخائفاً ان تلقي ديون الواجب غير المسددة هذه ، ظلا على حياته التي امست مشرقة منذ اليوم . كان من المتعذر عليه ان يخلّف كل هذا الدين وراءه ، من غير سداد . ولقد اراد ، قبل ان يدخل إلى المستقبل ، ان يبرىء ذمته من

الماضي .

وكون تيناردييه مجرماً لا يغير شيئاً من هذه الواقعة ، وهي انه انقذ الكولونيل بونمبرسي . كان تيناردييه قاطع طريق ، في عيني كل انسان ، ما عدا ماريوس .

ثم ان ماريوس ، الجاهل حقيقة ما وقع في ميدان واترلو ، لم يعرف هذه النقطة الفريدة ، وهي ان اباه كان في ما يتصل بتيناردييه على هذا الوضع الغريب : كان مديناً له بالحياة من غير ان يكون مديناً له بعرفان الجميل .

ولم ينجح احد من الرجال الذين استخدمهم ماريوس في الاهتداء إلى أثر تيناردييه . لقد بدا الامحاء كاملا من هذه الناحية . كانت تيناردييه الزوجة قد ماتت في السجن خلال التحقيق في الجريمة . وكان تيناردييه وابنته آزيلما ، الاثنان الوحيدان اللذان بقيا من هذا المجموع الفاجع ، قد غاصا في الظلام كرة اخرى . كانت لجة « المجهول الاجتماعي » قد أطبقت في صمت على هذين المخلوقين . بل لم يعد في امكان احد ان يرى ، على السطح ، تلك الدوائر المشتركة المركز ، المرتعشة ، المرتجفة ، الغامضة ، التي تعلن ان شيئاً قد سقط هناك ، وان في ميسورنا أن نلقي بالمسبار .

واذ ماتت تيناردييه الزوجة ، وأبعد بولاترويل من القضية ، واختفى كلاكسو ، وفر المتهمون الرئيسيون من السجن ، فان النظر في دعوى كمين بيت غوربو العتيق كان جهيضاً تقريباً . لقد تُركت القضية في ظلام عميق . واضطرت محكمة الجنايات إلى الاجتزاء بمشاركين ثانويين في الجريمة ، بانشو المعروف بـ « برانتانييه » أو « بيغروناي » و دومي لبيار المعروف بـ « دو ميبار » اللذين حوكما وحكم عليهما بالحبس عشر سنوات في سجن الاشغال الشاقة . ولفظت المحكمة حكم الاشغال الشاقة مدى الحياة على شركائهما الذين فروا وابوا المثول بين يدي القضاة .

وحكم على تيناردييه ، بوصفه رئيساً للعصابة ، بالموت لانه أبى المثول امام المحكمة أيضاً . وكان هذا الحكم هو كل ما بقي من تيناردييه ، ملقيـاً على هذا الاسم الدفين وهجـه المشؤوم ، مثل شمعة إلى جانب نعش .

وإلى هذا فـأن ذلك الحكم ، بارجاعه تيناردييه إلى الاعماق السفلى ، خشية أن يُقبض عليه ثانية ، زاد في كثافة الظلمـة التي اكتنفت هـذا الرجـل .

أما الشخص الآخر ، اما الرجل المجهول الذي انقذ ماريوس ، فقد انتهت المباحث عنه باديء الامر إلى نتيجة ما ، ثم توقفت فجأة . لقد وفقوا إلى العثور على عربة الكراء التي حملت ماريوس إلى شارع فتيات كالفير ليل السادس من حزيران . واعلن السائق انه « جُمّد » في اليوم السادس من حزيران ، بأمر من احد ضباط البوليس ، من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الليل ، على رصيف الشان زيليزيه ، فوق منفذ البالوعة العظمى ؛ وان شُباكة البالوعة المؤدية إلى شاطيء النهر فتحت حوالى الساعة التاسعة مساء ؛ وان رجلا قد خرج منها ، حاملا رجلا آخر على كتفيه كان يبدو وكأنه ميت ؛ وان ضابط البوليس الذي كان يراقب في تلك النقطة ألقـى القبض على الرجل الحي وأمسك بالرجل الميت ؛ وأنـه استقبل ، هو السائق ، بناء على أمر الضابط ، « كل هؤلاء الناس » في عربته ؛ وانهم شخصوا أولا إلى شارع « فتيات كالفير » ؛ وانهم تركوا الرجل الميت هناك ؛ وان الرجل الميت كان مسيو ماريوس ، وأنـه هو — السائق — قد عرفه جيداً ، على الرغم من انه كان حياً ، « هذه المرة » ؛ وانهم امتطوا بعد ذلك متن عربته من جديد ، وأنه الهب خيله بالسوط ، وانه قد طُلب اليه أن يتوقف على بضع خطوات من باب « الارشيف » ؛ وانه قد قبض اجرته ، هناك في الشارع ، ومضى لسبيله ؛ وان ضابط البوليس اقتاد الرجل الآخر ؛ وأنه ما كان يعرف شيئـاً

اضافياً ، وان الليل كان دامساً .

ولم يتذكر ماريوس ، كما قلنا ، شيئاً من ذلك . كل ما تذكره ان يداً قوية أمسكت به من خلاف لحظة سقط على ظهره وسط المتراس ، وبعدها امحى كل شيء بالنسبة اليه . إنه لم يستعد وعيه إلا في منزل مسيو جيلنورمان .

وتاه في الاحداس والظنون .

إنه لم يستطع ان يشك في هويته . ولكن ، كيف اتفق له ، وهو الذي سقط في شارع الـ « شانفريري » ، أن يلتقطه ضابط البوليس ، على ضفة الـ « سين » ، قرب جسر الانفاليد ؟ إن شخصاً ما ، قد حمله من حي الاسواق إلى الشان زيليزيه . وكيف ؟ عبر البالوعة . تفانٍ لم يُسبق إلى مثله من قبل .

شخص ما ؟ من هو ؟

كان هذا الرجل هو الشخص الذي يبحث عنه ماريوس .

ولم يجد من هذا الرجل ، الذي كان منقذه ، شيئاً ، لم يجد اثراً . لم يجد اقل اشارة تدل عليه .

ودفع ماريوس مباحثه حتى ادارة الشرطة ، على الرغم من انه كان مضطراً إلى اصطناع كثير من الحيطة في هذا المجال . ولكن المعلومات التي حصل عليها هناك لم تكن ادعى إلى انارته من تلك التي فاز بها من مصادر اخرى . كانت ادارة الشرطة تعرف أقل مما عرفه سائق العربة . إنها لم تعرف بأي اعتقال تم في السادس من حزيران عند شباكة البالوعة العظمى . إنها لم تتلق من رجالها ايما تقرير حول هذه الواقعة ، التي اعتُبرت — في ادارة الشرطة — مجرد خرافة. وعزا رجال الشرطة اختراع هذه الخرافة إلى السائق . فالسائق الذي يطمع في مبلغ اضافي فوق الاجرة قادر على كل شيء ، حتى على الخيال . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الواقعة ثابتة ، ولم يكن في وسع ماريوس ان يشك فيها ، إلا اذا شك

في هويته ، كما اشرنا منذ لحظة .

كل شيء في هذه الاحجية الغريبة كان ممتنعاً على التفسير .

هذا الرجل ، هذاالرجل الخفي ، الذي رآه السائق ينبثق من شباكةالبالوعة العظمى حاملا ماريوس الغائب عن الوعي على ظهره ،والذي اعتقله ضابط الشرطة المراقب متلبساً بجريمة إنقاذ متمرد من المتمردين ، ما الذي حل به ؟ ما الذي حلّ بضابط الشرطة نفسه ؟ لماذا اعتصم هذا الضابط بالصمت ؟ هل وفق الرجل إلى الفرار ؟ هل رشا ضابط البوليس ؟ لماذا لم يتكشف هذا الرجل عن ايما أمارة من أمارات الحياة لماريوس المدين له بكل شيء ؟ إن نزاهته لم تكن اقل اثارة للعجب من تفانيه . لمَ لمْ يعاود هذا الرجل الظهور ؟ لعله كان فوق الثواب ، ولكن ليس ثمة احد فوق عرفان الجميل . هل مات ؟ اي نوع من الرجال كان ؟ ما شكله ؟ لم يكن في ميسور احد ان يحزر . لقد اجاب سائق العربة قائلا : « كان الليل دامساً . » وكان باسك ونيقوليت قد اكتفيا ، في غمرة انشداههما ، بالنظر إلى سيدهما الشاب مضرجاً بالدم . وكان البواب، الذي أضاءت شمعته وصول ماريوس الفاجع ، هو وحده الذي لاحظ ذلك الرجل ، وهذا هو الوصف الذي وصفه به : « كان هذا الرجل رهيباً . »

وكان ماريوس قد احتفظ بالملابس الدامية التي كان يلبسها لحظة أعيد إلى منزل جده ، رجاةَ ان يستمد منها العون في مباحثه . وعند فحصه السترة لاحظ ان أحد أهدابها كان ممزقاً على نحو عجيب . كان يعوزها قطعة ما .

وذات مساء ، تحدث ماريوس ، أمام كوزيت وجان فالجان ، عن هذه المغامرة الفريدة كلها ، وعن المباحث التي قام بها ، وعن ذهاب جهوده ادراج الرياح . وكان في محيا « مسيو فوشلوفان » البارد ما جعله يفقد صبره . وهتف في حيوية كادت تنطوي على ارتجاج الغضب :

– « اجل ، ذلك الرجل ، كائناً من كان ، كان ماجداً . هل تعرف ماذا فعل ، يا سيدي ؟ لقد تدخّل مثل ملاك اكبر » ولا ريب في أنه قد ألقى بنفسه في غمرة المعركة ، وانتزعني منها ، وفتح البالوعة ، وقادني اليها ، وحملني عبرها ! ولا بد انه سار أكثر من فرسخ ونصف خلال دهاليز تحترضية رهيبة ، ملوياً ، منحنياً ، في الظلام ، في البواليع ، اكثر من فرسخ ونصف يا سيدي ، وعلى ظهره جثة ! ولأي غرض ؟ ابتغاء إنقاذ تلك الجثة ليس غير . وكنت أنا تلك الجثة ! لقد قال في ذات نفسه : « لعله لا يزال ههنا ومضة من حياة . سوف اخاطر بحياتي من اجل تلك الشرارة البائسة ! » وحياته هذه لم يخاطر بها مرة واحدة ، ولكن عشرين مرة ! وكل خطوة كانت محفوفة بالخطر . والدليل على ذلك أنه ما إن خرج من البالوعة حتى اعتقل . هل تعرف ، يا سيدي ان ذلك الرجل قد فعل ذلك كله ؟ ولم يكن في ميسوره ان يتوقع ثواباً ما . اي شيء كنت انا ؟ متمرداً . اي شيء كنت أنا ؟ رجلا مغلوباً . اوه ، لو كانت آلاف كوزيت الستمئة لي .... »

فقاطعه جان فالجان :

– « إنها لك . »

فأضاف ماريوس :

– « حسن ، اذن لدفعتها ثمناً للعثور على ذلك الرجل ! »

واعتصم جان فالجان بالصمت .

الكتاب السادس

الليلة البيضاء

١

١٦ شباط ، عام ١٨٣٣

كان ليل السادس عشر من شباط ، عام ١٨٣٣ ، ليلا مباركاً . ففوق ظلمته ، كانت ابواب السماء قد فُتحت . كان موعد زواج ماريوس وكوزيت .

كان النهار رائعاً .

إنه لم يكن العيد السماوي الزرقة الذي حلم به الجد : مشهداً جنيّاً يختلط فيه الملائكة وآلهة الحب فوق رأسي العروسين ، ولكنه كان عذباً طروباً .

إن زي الزواج لم يكن ، عام ١٨٣٣ ، ما هو اليوم . لم تكن فرنسة قد استعارت بعد ، من انكلترة ، تلك اللطافة البالغة التي تجعل الزوج يخطف زوجته ، ويفر عند مغادرته الكنيسة ، ويختبيء خجلا من سعادته الشخصية ، ويمزج ما بين سلوك المفلس وتهللات نشيد الاناشيد . إن الفرنسيين لم يكونوا قد تعلموا اي عفة ، واي روعة ، واي ظرف ينطوي عليه رج المرء فردوسه في عربة بريد ، وتفصيل لغزه بالتكتكات ، وحسبان سرير الحانة سرير العرس ، وأن يترك الانسان وراءه ، في المخدع المبتذل في كثير من الليالي ، اقدس ذكريات الحياة الفوضوية مع مناجاة سائق العربة العمومية وخادمة الحانة .

في هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي نعيش فيه لم يعد يكفينا العمدة ووشاحه ، والكاهن وحلة قداسه ، والشريعة والله ؛ إن علينا ان نتم هؤلاء جميعاً بسائق عربة لونجومو ؛ صدرة زرقاء ذات اطراف حمراء ، وازرارٌ جلاجل ، وصفيحة تطوق الذراع ، وسروال من جلد أخضر ، وشتائم موجهة إلى خيل نورمندية معقودة الأذيال ، وضفائر زائفة ، وقبعة مشمعة ، وشعر خشن منضوح بالذرور ، وسوط ضخم ، وحذاء ثقيل . وفرنسة لـمّـا تذهب بعد بالاناقة إلى حد إمطار عربة العرس ، كما يفعل نبلاء الانكليز ، بعاصفة من البوابيج المثنيّة إلى الداخل ، والاحذية العتيقة ، إحياء لذكرى تشرشل ، ثم مارلبورو ، أو مالبروك ، الذي هوجم يوم زفافه بغضبة من عمة حملت اليه حظاً سعيداً . إن الاحذية البالية والبوابيج لم تصبح بعد جزءاً من احتفالاتنا الاعراسية . ولكن صبراً ، فما دام الذوق الرفيع يواصل انتشاره ، فلا بد ان ننتهي إلى ذلك .

وفي عام ١٨٣٣ لم يكن الزواج يتم على وجه السرعة .

كان القوم لا يزالون يتخيلون في تلك الحقبة — وهو أمر غريب

حقاً – ان الزواج عيد حميم واجتماعي ، وان المائدة الأبوية لا تفسد الجلال المنزلي ، وأن الابتهاج ، ولو مفرطاً ، شرط ان يكون لائقاً ، لا يؤذي السعادة . واخيراً أن من الجلال والخير ان يبدأ التحام هذين المصيرين ، اللذين سوف تنبثق منهما أسرة ، في المنزل ؛ وأن تكون غرفة العرس شاهداً على الزواج منذ اليوم .

وكان عندهم القحة لأن يتزوجوا في المنزل .

واذن ، فقد تم الزواج ، وفقاً لذلك الزي الذي أصبح الآن مماتاً ، في منزل مسيو جيلنورمان .

وبرغم ان مسألة الزواج هذة كانت امراً طبيعياً وعادياً إلى ابعد الحدود ، فان الاعلان الذي ينبغي أن ينشر في الكنيسة والصكوك التي ينبغي ان تحرر ، ومقر العمدة ، والكنيسة ، تجعلها دائماً معقدة بعض الشيء . ولم يكن في ميسورهم ان يكونوا على استعداد قبل السادس عشر من شباط .

واتفق – ونحن نذكر ذلك لمجرد الرغبة في الدقة – ان ذلك اليوم السادس عشر كان يوم ثلاثاء المرفع . وكان ترددٌ ، ووساوس ، وبخاصة من جانب العمة جيلنورمان .

وهتف الجد :

– « ثلاثاء المرفع . هذه زيادة في الخير . ان ثمة مثلا يقول :

من يتزوج في ثلاثاء المرفع
لا يُرزق اولاداً عاقين ابداً .

فلنمض في سبيلنا . ليكن ذلك في السادس عشر ! هل تريد ان تؤجله انت يا ماريوس ؟ »

فأجاب العاشق :

– « لا ، طبعاً . »

فقال الجد :

— « فلنتزوج اذن . »

وهكذا تم الزواج في اليوم السادس عشر ، برغم الابتهاج الشعبي . لقد امطرت السماء ذلك اليوم ، ولكن في السماء دائماً رقعة صغيرة زرقاء في خدمة السعادة ، رقعة يراها العشاق ، على الرغم من ان سائر الخليقة قد تكون تحت مظلة من المظلات .

وفي الليلة السابقة ، كان جان فالجان قد قدم إلى ماريوس ، في حضرة مسيو جيلنورمان ، الخمسمئة والاربعة والثمانين الف فرنك .

واذ اجري الزواج وفقاً لقانون التعاقد على جعل بعض املاك الزوجين مشاعاً بينهما ، فقد كانت الاجراءات بسيطة .

وأمست توسين ، منذ ذلك الحين ، عديمة الفائدة لجان فالجان . كانت كوزيت قد ورثتها ، ورفعتها إلى مرتبة وصيفة .

أما جان فالجان ، فكانت ثمة في منزل جيلنورمان غرفة جميلة أثثت خصيصاً من أجله ، وكانت كوزيت قد قالت له : « ابي ، أتوسل اليك » وقالتها على نحو لا يقاوَم إلى درجة جعلته يعِدُ ، أو يكاد ، بأن يجيء ويحتلها .

وقبل بضعة أيام من اليوم المحدد للزواج وقع حادث لجان فالجان . لقد سُحق إبهام يده اليمنى بعض الشيء . ولم يكن ذلك خطيراً ، ولم يجز لأحد ان ينشغل به ، أو أن يضمده ، بل ان يرى إلى الاذى النازل به ، حتى كوزيت نفسها . بيد أن ذلك اضطره إلى أن يلف يده بعصابة ، وان يرفع ذراعه إلى صدره ، ومنعه من التوقيع على اي شيء .

ولن نقود القارىء لا إلى مقر العمدة ولا إلى الكنيسة . إننا نادراً ما نتبع العشاق إلى ذلك المدى ، ونحن في العادة نولي الرواية ظهرنا حالما تضع باقة العريس في عروته . ولسوف نجتزىء بذكر حادثة وسمت ، على

الرغم من ان شهود العرس لم يلاحظوها ، تقدّمَ الموكب من شارع فتيات كالفير إلى كنيسة القديس بولس .

كانوا يعيدون ، في ذلك الوقت ، تعبيد الطرف الشمالي من شارع سان لويس . وكان قد سُيج ابتداء من شارع « بارك رويال » . وكان من المتعذر على عربات العرس ان تمضي إلى كنيسة القديس بولس مباشرة . كان من الضروري ان يغيروا الطريق ، وكانت أقصر الطرق تقتضيهم أن ينعطفوا من ناحية الجادة . ولاحظ أحد المدعوين أنهم كانوا في ثلاثاء المرفع ، وان الجادة خليقة بأن تكون غاصة بالعربات . وتساءل مسيو جيلنورمان : « لماذا ؟ » — « بسبب من الاقنعة » . فأجاب الجد : « ممتاز . فلنمض من هناك . هذان الشابان على عتبة الزواج ؛ إنهما يوشكان أن يدخلا إلى أشياء جدية في الحياة . وإنه لمما يهيئهما لذلك أن يريا شيئاً من المساخر . »

وسلكوا طريق الجادة . كانت اولى عربات العرس تنتظم كوزيت والعمة جيلنورمان ومسيو جيلنورمان وجان فالجان . أما ماريوس ، الذي كان ما يزال مفصولا عن خطيبته ، وفقاً للعادة ، فكان يتبعهم في العربة الثانية . وامتزج موكب العرس ، لدن مغادرته شارع بنات كالفير، في صف العربات الطويل الذي شكل سلسلة لا نهاية لها من الـ « مادلين » إلى الباستيل ، ومن الباستيل إلى الـ « مادلين » .

وغصت الجادة بالاقنعة . وامطرت السماء ، بين الفينة والفينة ، على غير طائل . كان المهرجون والمُجان عنيدين . ففي دماثة شتاء عام ١٨٣٣ ذاك ، كانت باريس قد تقنعت بقناع فينيسيا . إننا لا نرى ثلاثاء مرفع كهذا ، في هذه الأيام . لأنه بعد ان أصبح كل شيء كرنافالا شائعاً ، لم يبق ثمة اما كرنافال .

كانت الازقة الجانبية غاصة بالسابلة ، وكانت النوافذ غاصة بالفضوليين ، وكانت السطائح التي تتوج اروقة المسارح المعمّدة مهدّبة بالمشاهدين .

وإلى جانب الاقنعة ، لاحظوا صف العربات المختلفة الاصناف ، ذلك الصف المميز لثلاثاء المرفع ولونشان أيضاً : عجلات كراء ، وعربات « سيتادين » ، وعربات نزهة ضخام ، وعربات صغيرة ذات دولابين ومظلة ، وعربات خفيفة ، تمشي كلها في نظام ، وقد ثُبّتت احداها خلف الاخرى في قساوة ، نزولاً على أوامر الشرطة ، فكأنها تمشي على خطوط حديدية . وكل من يمتطي احدى تلك العربات يكون مشاهِداً ومشاهَداً في وقت معاً . وأبقى رجال الشرطة هذين الصفين المتوازيين اللانهائيين على الجوانب الدنيا من الجادة – أبقوهما متحركين حركة متعاكسة ، وراقبوهما بحيث لا يعوق شيء هذا التيار المزدوج الممثل في جدولي العربات الجاريين : احدهما نزولاً ، والآخر صعوداً ؛ احدهما نحو مرتفع آنتين ، والآخر نحو ضاحية سان انطوان . ولزمت عربات نواب فرنسة والسفراء ، تلك العربات المنقوش عليها شعارات الشرف ، منتصف الطريق ، فهي تروح وتجيء في حرية . وتمتعت بعض المواكب الفخمة البهيجة ، وبخاصة موكب « الثور السمين » ، بالامتياز نفسه . وفي فرحة باريس هذه ، تعاظمت انكلترة ؛ إن عربة اللورد سيمور ، المغيظة بلقب شعبي ، اجتازت الطريق في جلبة بالغة .

وفي ذلك الخط المزدوج ، الذي خب رجال الحرس البلدي على طوله مثل كلاب الراعي ، كانت بعض العربات العائلية الأمينة ، المثقلة بالجدات والجدود ، تعرض عند ابوابها مجموعات طريئة من الاطفال المقنعين ، مهرجين في السابعة من العمر ، ومهرجات في السادسة ، مخلوقات صغيرة فاتنة ، شاعرة بانها كانت رسمياً جزءاً من الجذل الشعبي ، متأثرة بجلال تهريجها ، ومصطنعة وقار الموظفين .

وبين الفينة والفينة كانت تعترض موكب العربات عقبة ، وكان هذا الصف الجانبي أو ذاك يتوقف ريثما تحل العقدة . إن عربة معوقة كانت كافية لأن تشل الخط كله . ثم ان العربات كانت تستأنف السير

بعد ذلك .

وكانت عربات العرس في الصف المتجه نحو الباستيل ، والمتحرك في محاذاة الناحية اليمنى من الجادة . وعند شارع الـ « بون أو شو » توقف السير فترة . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، في الناحية الاخرى من الجادة ، توقف الصف الآخر المتجه نحو الـ « مادلين » ، أيضاً . كان في هذه النقطة من الخط حمل عربة من الأقنعة .

وهذه العربات ، أو على الاصح ، أحمال الـكارّات هذه ، يعرفها الباريسيون جيداً . فاذا لم تظهر في ثلاثاء المرفع ، أو منتصف الصوم الكبير ، توقّع الناس شيئاً ، وقالوا : « ان وراء الأكمة ما وراءها . لعل الوزارة سوف تتغير . » . ركام من العجائز المضحكين ، والمزاحين اللابسين اثواباً مخيطة من رقع مختلفة الالوان ، يرتجّ فوق عابري السبيل . مختلف ضروب الصور المضحكة ، من التركي إلى المتوحش ، هراقلة * تسند مركيزات ، ونساء غليظات الكلام خليقات بأن يجعلن رابليه ** يوصد اذنيه ، كما حملت السكيرات الفواجر آريستوفان على ان يغمض عينيه . شعر مستعار من مُشاقة الكتان ، واقمطة زهراء ، وقبعات متظرفين ، ونظارات متصعرين ، وقبعات « جانو » ثلاثية القرون تزعجها فراشة من الفراشات ، وصيحات موجهة إلى المشاة ، وأذرع على الخواصر ، وأوضاع غير محتشمة ، واكتاف عارية ، ووجوه مقنّعة ، ووقاحات منزوعة الكمامات ، وعماء من السفاهة يطوف به سائق متوج بالازهار . تلك هي هذه المؤسسة .

---

* جمع هرقل ، وهي تعني هنا الجبابرة.

** ديب فرنسي كبير سبق التعريف به ، وكان معروفاً باسلوبه المقذع الحافل بالالفاظ غير المهذبة .

كانت بلاد الاغريق محتاجة إلى مركبة تيسبيس * . وفرنسة في حاجة إلى عربة فاديه ** .

كل شيء يمكن ان يزوّر ، حتى التزوير نفسه . ان أعياد الآله الزمان عند الرومان ، تصعّر الجمال العتيق ذاك ، قد تطورت تدريجياً إلى ثلاثاء المرفع . وأعياد الآله الخمر ، التي كانت متوجة في الايام الخالية باغصان الكرمة ، مغمورةً باشعة الشمس ، كاشفةً عن اثداء من الرخام في شبه عري الآلهي ، والتي أمست اليوم مائعة تحت أسمال الشمال المبللة ، انتهت بأن تدعو نفسها الـ *Chie — en — lie*

وتقليد عربات الاقنعة يرقى إلى أقدم عهود الملكية . فحسابات الملك لويس الحادي عشر تمنح قاضي البلاط « عشرين سو مضروبة في مدينة « تور » من اجل ثلاث من عربات التنكر في زوايا الشوارع . » وفي ايامنا ، تُحمل هذه الحشود الصاخبة ، عادة ، في عربة عتيقة ما ، يُثقلون أعلاها ، أو يُبهطون بجمعهم الضاج عربة من عربات الضرائب ذات غطاء ممزق . ان عشرين منهم يحتلون عربة تتسع لستة اشخاص . إنهم يمتطون المقعد ، والكرسي الصغير ، وقوسي الغطاء ، ومجرّ العربة . بل انهم يمتطون مصابيح العربة . فانت تراهم واقفين ، منطرحين ، قاعدين ، منطويةً معاطف سيقانهم ، متدلية ارجلهم . إن النسوة ليجلسن على ركب الرجال . وإن المرء ليرى اهرامهم المجنونة ، من مسافة بعيدة ، فوق تجمهر الرؤوس . إن أحمال العربات هذه لتحدث جبالا من الفرح الشديد وسط الحشود . وإن كوليه *** ، وبانار **** ،

* Thespis شاعر يوناني يعتبر مبدع التراجيديا الاغريقية . (القرن السادس قبل الميلاد) .

** Vadé شاعر فرنسي يعتبر مبدع النوع المعروف بالـ poissard اي القصيدة الفاحشة الملأى بالالفاظ التي يعوزها الاحتشام .

*** Collé مؤلف أغان ، وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٠٩ — ١٧٨٣)

**** Panard مؤلف اوبيرات وأغان فرنسي (١٦٧٤ — ١٧٦٥)

وبيرون * ليسيلون منها ، ولكن على نحو غني بلغة السوقة . انهم يبصقون التعليم الديني المقذع على رؤوس الناس . ان لهذه العربة ، وقد غدت لانهائية الاتساع بالحمل الرازحة تحته ، سيما الفاتحين . فالهدير في مقدمتها والفوضى في مؤخرتها . انهم يصخبون فيها ، ويغنون ، وينبحون ، وينفجرون ، ويتلوون بالسعادة . ان البهجة تزأر هناك ، وان السخرية تتوهج ، وان المزاج الفرح لينتشر وكأنه داء الحصبة . إن فرسين غير أصيلين يقودان التمثيلية المضحكة المتهللة بالتمجيد . إنها مركبة الضحك المظفرة .

ضحك مبالغ في السخرية بحيث يتعذر عليه ان يكون صريحاً . والواقع أن هذا الضحك موضع الريبة . إن لهذا الضحك رسالة . ومهمته ان يثبت الكرنافال للباريسيين .

هذه العربات الخالعة العذار ، التي نستشعر فيها ظلمة تمتنع على التحديد ، تدعو الفيلسوف إلى التفكير . فيها نضع اصبعنا على ملاءمة خفية بين الرجال الداعرين ، والنسوة العاهرات .

وليس من ريب في انه لمن المحزن ان تقدم هذه القباحات المركومة حاصلا من البهجة ، وان يُجتذب الشعب بتكديس الخزي فوق العار ؛ وان يؤدي التجسس العامل في خدمة البغاء وتدعيمه إلى إلهاء الحشود فيما هو يهينها ، وان تولع الجماهير بتتبّع سير هذه الكومة الرهيبة من الأحياء ، التي هي أسمال وبهارج في وقت معاً ، والتي نصفها قذر ونصفها ضياء ، والتي تعوي وتغني فوق عجلات العربة الأربع ؛ وان يصفق الناس لهذا المجد المؤلف من كل ضرب من ضروب العار ؛ وان لا يكون للجماهير عيد إلا إذا عرض البوليس وسطهم هذا الضرب من افعوان الابتهاج ذي المئة رأس . ولكن ما العمل ؟ إن عربات الوحل الموشح المزدان بالازهار ليهينها الضحك العام ويغفر لها . والضحك الاجماعي

* Piron شاعر فرنسي الف عدداً كبيراً من الاغاني والأهاجي (١٦٨٩-١٧٧٣)

شريك السخط العام في الجريمة . إن بعض الاعياد الوخيمة تفسد الشعب، وتجعله سوقة . والسوقة ، كالطغاة ، في حاجة إلى مهرجين . إن للملك روكولور ، وللشعب باياس . وباريس هي المدينة الحمقاء الكبرى ، كلما اخفقت في ان تكون المدينة الجليلة الكبرى . ان الكرنافال جزء من سياستها . إن باريس – وعلينا ان نسلم بذلك – تزود نفسها ، مختارة ، بالملهاة من طريق الفحشاء . إنها لا تسأل أسيادها – حين يكون لها أسياد – غير شيء واحد : « زوقوا لي الوحل ! » وروما كان لها المزاج نفسه . لقد احبت نيرون . كان نيرون ناقلا عملاقاً ينزل البضائع من السفينة إلى البر .

وشاءت المصادفة – كما ذكرنا اللحظة – ان تقف احدى هذه الحزم الشائهة ، حزم المقنّعين والمقنّعات ، المنقولة في عربة ضخمة ذات اربع دواليب ، إلى يسار الجادة فيما وقف موكب العرس إلى يمينها . ومن جانب الجادة إلى جانبها نظرت العربة المحملة بالاقنعة إلى العربة المواجهة، التي كانت تُقلّ العروس .

وقال قناع :

– « انظروا ! عرس ! »

فأجاب آخر :

– « عرس زائف . نحن العرس الحقيقي . »

واذ كان القناعان أبعد من أن يقدرا على استجواب المحتفلين بالزفاف ، واذ خافا إلى جانب ذلك صيحة رجال الشرطة ، فقد حولا نظرهما إلى مكان آخر .

وبعد لحظة قامت العربة المقنّعة كلها بأعمال كثيرة جعلت الجماهير تصوت لها ساخرة ، وتلك هي ملاطفة الرعاع لجماعة المتنكرين . واضطر القناعان اللذان تكلما اللحظة إلى ان يوجها وجهيهما نحو الشارع ، مع سائر رفاقهما ، ولم يكن عندهم قدر كاف من قذائف الاسواق المدخرة

يمكنهم من الاجابة على ضربات شدق الشعب الهائلة . وتبادلت الاقنعة وافراد الحشد سيلا رهيباً من التعابير المجازية .

وفي الوقت ذاته كان قناعان من اقنعة العربة نفسها : رجل اسباني ضخم الانف ، ذو محيا مسنّ بعض الشيء وشاربين اسودين هائلين ، وامرأة مقذعة اللغة مهزولة - فتاة طرية العود ذات قناع من مخمل أسود - كان هذان القناعان قد لاحظا المحتفلين بالزفاف أيضاً . وفيما كان رفاقهم وعابرو السبيل يتبادلون الاهانات ، دار بينهما حوار في صوت خفيض .

وطغت الضجة على حديثهما المنفرد ، فضاع فيها . كان المطر قد بلل العربة المكشوفة كشفاً كاملاً ؛ إن ريح شباط ليست حارة ، وحتى فيما كانت الفتاة تجيب الاسباني ارتجفت ، في ثوبها الكاشف عن أعلى الصدر ، وضحكت ، وسعلت .

وكان هذا الحوار :

- « قولي ، اذن . »

- « ماذا يا ابي ؟ »

- « هل ترين هذا الرجل العجوز ؟ »

- « اي رجل عجوز؟ »

- « هناك ، في العربة الأولى من عربات العرس الواقفة إلى جانبنا . »

- « الرجل ذو اليد المعلقة برباط عنق أسود ؟ »

- « نعم . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « أنا واثق من اني أعرفه . »

- « آه ! »

- « اود لو ان احداً يحتز حنجرتي وان اكون لم اقل

قط في حيـاتي أنتِ أو أنـا إن كنت لا اعرف هذا البانتيني . * »
— « إن باريس اليوم هي بانتين . »
— « هل تستطيعين ان تري العروس اذا انحنيت قليلاً ؟ »
— « لا . »
— « والعريس ؟ »
— « ليس هناك عريس في تلك العربة . »
— « أشك في ذلك . »
— « إلا اذا كان هو الرجل العجوز الآخر . »
— « انحني جيداً إلى أمام وحاولي ان تري العروس . »
— « لا أستطيع . »
— « على كل حال ، انا واثق من اني أعرف هذا الرجل المصاب بشيء في يده . »
— « وماذا تفيدك معرفته ؟ »
— « لا احد يدري . أحياناً ! »
— « أما أنـا فـلا ارى متعـة كبيرة فـي العجـائـز مـن الرجـال . »
— « أنا أعرفه ! »
— « إعرفـه على مهلك . »
— « ما الذي جاء به — يا للشيطان ! — إلى العرس ؟ »
— « وها نحن نفسنا فيه أيضاً . »
— « من أين أقبل موكب العرس هذا ؟ »
— « وهل أعرف ؟ »
— « إسمعي . »
— « مـاذا ؟ »

* يقصد الباريسي .

— « يجب أن نصنع شيئاً . »
— « مـــاذا ؟ »
— « اخرجي من عربتنا ، واتبعي موكب العرس . »
— « لمـــاذا ؟ »
— « لنعرف إلى أين يذهب وما هو . عجلي في الخروج . اركضي ، يا بنيّتي ، فأنت صغيرة . »
— « لا أستطيع ان أغادر العربة . »
— « ولم لا ؟ »
— أنا مستأجَرة . »
— « آه ، يا للشيطان ! »
— « أنا مدينة بيومي هذا لادارة الشرطة . »
— « هذا صحيح . »
— « إذا غادرت العربة ، فان أول شرطيّ يراني يلقي القبض علي . انت تعرف ذلك جيداً . »
— « أجل ، اعرف . »
— « لقد اشترتني الحكومة اليوم . »
— « سيان . إن ذلك العجوز يضجرني . »
— « الرجال العجائز يضجرونك . انت لست مع ذلك فتـــاة صغيرة . »
— « إنه في العربة الأولى . »
— « ثم ماذا ؟ »
— « في عربة العروس. »
— « وبعد ؟ »
— « اذن فهو أبوها . »
— « واي شأن لي بذلك ؟ »

— « اقول لك انه ابوها . »

— « ليس هناك أب آخر . »

— « إسمعي . »

— « ماذا ؟ »

— « من ناحيتي ، أنا لا أكاد استطيع الخروج إلا إذا كنت مقنّعاً . أنا مخبوء هنا ؛ ان احداً لا يعرف أني هنا . ولكنْ غداً ، لن تبقـى اقنعة . إنه اربعاء الرماد . سوف اعرض نفسي للاعتقال . يجب ان أعود إلى ثقبي . أما انت فطليقة . »

— « ليس إلى حد بعيد . »

— « أكثر مني ، على كل حال . »

— « حسن ، ثم ماذا ؟ »

— « يجب ان تحاولي أن تعرفي إلى أين يذهب موكب العرس هذا . »

— « إلى أين يذهب ؟ »

— « نعم . »

— « أنا اعرف ذلك . »

— « إلى اين يقصد اذن ؟ »

— « إلى الكادران بلو . »

— « قبل كل شيء ، ان الكادران بلو ليس في هذا الاتجاه . »

— « حسن ! إلى لا رابيه . »

— « أو إلى مكان آخر . »

— « إنه حر . الاعراس حرة . »

— « هذا ليس كل شيء . اقول لك ان عليك ان تعرفي لي ما هو هذا العرس ، وإلى من ينتسب هذا العجوز ، واين يسكن أصحـاب العرس . »

— « هذا شيء مضحك على الأغلب ! إنه ملائم ان يعثر الانسان ،

بعد ثمانية أيام ، على موكب عرس مر بباريس في ثلاثاء المرفع ! دبوس في مستودع هشيم ! هل هذا ممكن ؟ »

— « مهما يكن ، فأن عليك ان تحاولي . هل سمعت ، يا آزيلما؟»

واستأنف صفّا العربات حركتهما في اتجاهين متعاكسين على جانبي الجادة ، ولم يعد في ميسور عربة الاقنعة ان ترى عربة العروس .



٢

جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه الى صدره

تحقيق الحلم الذي يدغدغ المرء . من الذي أنعم عليه بذلك ؟ لا شك في ان ثمة انتخابات في السماء تدور حول هذا الموضوع . اننا جميعاً مرشحون غير واعين ، وإن الملائكة لتقترع . لقد انتُخبت كوزيت وماريوس .

وكانت كوزيت في مقر العمدة وفي الكنيسة ، ساطعة ومؤثرة : كانت توسين ، تساعدها نيقوليت ، قد ألبستها ثياب العرس .

وارتدت كوزيت ، فوق تنورة من نسيج حريري أبيض ، ثوبها المخيط من بريم بينش * ، وحجاباً من تخريم انكلترة ، وعقداً من جواهر رقيقة ، وتاجاً من زهر الليمون . وكان ذلك كله ابيض ، وكانت هي – في هذا البياض – متألقة . كانت سلامةَ سريرة طيبةً انبسطت وتحولت إلى سطوع . كان خليقاً بكل من يراها ان يقول انها كانت

* Binche بلدة في بلجيكا .

عذراء على وشك ان تصبح إلاهة .

كان شعر ماريوس الجميل مصقولا معطراً . وههنا وههناك كان في ميسور المرء ان يتبين ، تحت كثافة الغدائر ، خطوطاً شاحبة كانت هي ندوب المتراس .

وكان الجد بهياً ، مرفوع الرأس ، مازجاً في زينته ومسالكه ، اكثر من أي وقت مضى ، كل ما في عصر باراً * ؛ وكان يقود كوزيت . لقد حل محل جان فالجان الذي لم يستطع ان يعطي يده إلى العروس إذ كانت ذراعه مرفوعة إلى صدره .

وتبعهم جان فالجان ، مرتدياً ثوباً أسود ، وابتسم .

وقال له الجد :

— « مسيو فوشلوفان ، هذا يوم سعيد . أنا اعطي صوتي لانهاء الكروب والاحزان . يجب ان لا يبقى ثمة اما حزن في اما مكان ، منذ اليوم . وحق الاله ! أنا اصدر امري بأن يعم الابتهاج ! ليس للشر حق في أن يكون . إن وجود أناس بائسين هو ، في الحق ، عار على السماء الزرقاء . الشر لا يصدر عن الانسان ، الذي هو — في الواقع — خيّر . إن جميع ضروب الشقاء الانساني حاضرتها وحكومتها المركزية جهنم ، المدعوة بطريقة أخرى « تويلري الشيطان » . حسن . ها أنا ذا اقول كلمات دماغوجية الآن ! أما أنا ، فلم تبق لي اما آراء سياسية . كل ما أطلبه هو أن يكون جميع الناس أغنياء ، يعني ان يكونوا سعداء . »

وبعد أن أتمّا جميع الطقوس ، وبعد أن لفظا أمام العمدة والكاهن كل نعم ممكنة ، وبعد أن وقّعا على سجلات البلدية والسكرستيّا ، وبعد أن تبادلا خاتميهما ، وبعد ان ركعا — ومرفق احدهما

---

* Barras سياسي فرنسي كان عضواً في المؤتمر الوطني ثم في حكومة الادارة . وقد وضع مذكرات ممتعة . (١٧٥٥ — ١٨٢٩)

إلى مرفق الآخر – تحت النقاب المصنوع من نسيج متموج ابيض ، في دخان المبخرة ، وقد تشابكت يداهما ، وأعجب بهما القوم كلهم وحسدهما القوم كلهم ، وتقدمهما – ماريوس في ثوب أسود ، وهي في ثوب ابيض – الحاجب المزدان بكتافتي كولونيل ، ضارباً الأرض بحربته ، بين سياجين من المشاهدين المنشدهين ، ووصلا إلى باب الكنيسة المفتوح على مصراعيه ، واستعدا لامتطاء متن العربة كرة ثانية وقد انتهى كل شيء – بعد هذا كله لم يكن في ميسور كوزيت ان تصدق ذلك . لقد نظرت إلى ماريوس ، ونظرت إلى الحشد ، ونظرت إلى السماء . لقد بدا وكأنها كانت تخشى اليقظة . وأضفت عليها تلك السيما المندهشة الذاهلة فتنة لا سبيل إلى وصفها . ولكي يعودوا أدراجهم صعدوا إلى العربة نفسها : ماريوس إلى جانب كوزيت ، ومسيو جيلنورمان وجان فالجان تجاههما . كانت العمة جيلنورمان قد تراجعت خطوة واحدة ، فهي تمتطي العربة الثانية . وقال الجد : « يا ولدي ، ها انتما السيد البارون والسيدة البارونة ، ومعكما ثلاثون الف فرنك في العام . » وانحنت كوزيت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى ماريوس وداعبت أذنه بهذه الهمسة الملائكية : « صحيح اذن . انا أدعى ماريوس . أنا قرينتك . »

وتألق هذان المخلوقان . كانا في اللحظة المحتومة وغير المكتشفة ، في النقطة المُعْشِية التي يتلاقى عندها الشباب كله والبهجة كلها . لقد حققا أبيات جان بروفير . فهما – مجتمعَين – لم يكونا قد بلغا الأربعين من العمر . كان الزواج متسامياً ، وكان هذان الطفلان زنبقتين . ان احدهما لم ير الآخر ؛ لقد تأمل أحدهما الآخر . ورأت كوزيت ماريوس في هالة من نور ، ورأى ماريوس كوزيت فوق مذبح . وفوق ذلك المذبح ، وفي تلك الهالة ، وقد امتزج التمجيدان ، في الخلفية ، على نحو خفيّ ، وراء سحابة بالنسبة إلى كوزيت ، وفي تلألؤ بالنسبة إلى ماريوس ، كان

المثلُ الأعلى ، الشيء الواقعي ، موعدُ القبلة والحلم ، وسادةُ العرس .

إن جميع الآلام التي ألمت بهما عاودتهما الآن في نشوة . لقد بدا لهما ان الاحزان ، والارق ، والدموع ، والآلام النفسية المريرة ، والذعر ، واليأس ، وقد أمست ملاطفات وإشعاعاً ، قد زادت الساعة الفاتنة التي كانت تقترب سحراً على سحر ، وان احزانهما كانت خدماً لا يحصون يشاركون في تزيين فرحتهما . يا للآلام التي تنزل بالانسان في سالفات أيامه ما أحسنها ! لقد أحاط الأسى الماضي سعادتهما الحاضرة بهالة من نور . ان آلام حبهما النفسية المبرحة قد انتهت إلى سمو .

كان في هذين النفسين التهللُ عينه ، مظللا باللذة عند ماريوس ، وبالحياء عند كوزيت . وقال أحدهما للاخر في همس : « سوف نذهب ونرى حديقتنا الصغيرة في شارع بلوميه ، كرة اخرى . » كانت ثنيّات ثوب كوزيت فوق ماريوس .

إن يوماً مثل هذا لهو مزيج من الحلم واليقين لا سبيل إلى وصفه. إن المرء ليملك ، وإنه ليفرض . وإن مجال الخيال لا يزال مفتوحاً امامه . وانها لعاطفة تمتنع على التعبير ، في ذلك اليوم ، ان يكون المرء في الظهيرة ، وان يفكر بمنتصف الليل . ولقد فاضت بهجة هذين القلبين على الحشد ، وخلعت المسرة على عابري السبيل .

ووقف الناس ، في شارع سان انطوان أمام كنيسة القديس بولس ليروا ، من خلال نافذة العربة ، إلى زهرات البرتقال ترتجف على رأس كوزيت .

ثم انهم رجعوا إلى شارع فتيات كالفير ، إلى بيتهم . وصعد ماريوس – جنباً إلى جنب مع كوزيت ، مظفَّراً متألقاً – تلك السلم التي حُمل عليها محتضراً . وتجمّع الفقراء امام الباب ، وباركوهما بعد أن شاركوهما في ما كانا يحملان من مال . وكانت الازهار في كل

مكان . إن المنزل لم يكن اقل عبقاً بالرائحة الزكية من الكنيسة ، فبعد البخور ، جاء دور الورود . وحسبا انهما سمعا اصواتاً تنشد في اللانهاية؛ كان الله في قلبيهما ، وبدا القدر في أعينهما مثل سقف من الكواكب ؛ لقد رأيا فوق رأسيهما وميض شمس مشرقة . وفجأة دقت الساعة . ونظر ماريوس إلى ذراع كوزيت العارية ، الفاتنة ، وإلى الاشياء الوردية التي لمحها على نحو باهت من خلال الوشي الذي ازدان به النصف الأعلى من ثوبها .وحين رأت كوزيت نظرة ماريوس شاع الدم في وجهها حتى اطراف أذنيها .

كان عدد كبير من اصدقاء اسرة جيلنورمان القدماء قد دُعوا . وتزاحموا حول كوزيت في لهفة . وتنافسوا في دعوتها « السيدة البارونة » .

وكان الضابط ، تيبودول جيلنورمان ، وقد أمسى الآن رئيساً (كابتن) قد وفد من شارتر ، حيث كان مرابطاً مع الحامية ، ليشهد عرس ابن عمه بونميرسي . ولم تعرفه كوزيت .

أما هو ، المتعود ان تراه النساء جميل الطلعة ، فلم يتذكر كوزيت اكثر من تذكره ايما فتاة اخرى .

وقال الجد جيلنورمان في ذات نفسه : « لقد كنت على حق في عدم تصديق حكاية الرمّاح تلك . »

ولم تكن كوزيت في يوم من الأيام اكثر رقة مع جان فالجان . وكانت على تناغم مع الجد جيلنورمان . ففيما كان هو يجسّد البهجة في حكم موجزة وجوامع كلم ، كانت هي تتضوع بالحب والحنان مثل عطر من العطور . السعادة تريد ان يكون الناس جميعاً سعداء .

وارتدّت ، في حديثها مع جان فالجان ، إلى جرْس صوتها الذي كان لها وهي بعد فتاة صغيرة . ولاطفته بابتساماتها .

وكانت مائدة قد مُدت في حجرة الطعام .

والاغراق في الاضاءة من لوازم البهجة الكبيرة . فالسعداء يرفضون

الغسق والظلمة . انهم لا يوافقون على ان يكونوا مظلمين . الليل ، نعم. أما الظلمة ، فلا . فاذا لم يكن ثمة شمس ، فيتعين على المرء ان يصنع شمساً .

كانت حجرة الطعام بوتقة اشياء بهيجة . ففي الوسط ، فوق المائدة البيضاء المتألقة ، كانت ثريا من ثريات فينيسيا ذات صفائح مسطحة ، مزدانة بجميع ضروب الطير الملونة ، من زرقاء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وخضراء ، جاثمة وسط الشموع . وحول الثريا كانت شمعدانات مشعّبة ، وفوق الجدار كانت مرايا تزيينية ذات اغصان مثلثة ومخمسة . وكانت المرايا ، والبلور ، والزجاجيات ، وآنية المائدة ، والآنية الصينية ، والخزف المطليّ ، والفخار ، والآنية الذهبية والفضية— كانت كلها تتلألأ وتبتهج . وكانت المسافات التي بين الشمعدانات المشعبة ملأى بباقات الزهر ، يعني انه حيث لم يكن ضوء كانت زهرة .

وفي حجرة الانتظار كانت ثلاث كمانات ومزمار تعزف بعض رباعيات هايدن في صوت خفيض .

وجلس جان فالجان على كرسي في حجرة الاستقبال ، خلف الباب ، الذي انطوى مصراعاه عليه على نحو يكاد يخفيه . وقبل بضع لحظات من اتخاذهم مقاعدهم إلى المائدة أقبلت كوزيت ، وكأنما كان ذلك بحافز مفاجيء ، وانحنت له في احترام ، ناشرة ثوبها العرائسي بيديها الاثنتين ، وسألته في نظرة تنضح بالمرح الحنون :

— « أبي ، هل انت راض ؟ »

فقال جان فالجان :

— « نعم ، أنا راض . »

— « حسن ، اذن فاضحك . »

وبدأ جان فالجان يضحك .

وبعد بضع لحظات أعلن باسك ان المائدة قد مدت .

ودخل الضيوف حجرة الطعـام ، يتقدمهم مسيو جيلنورمان متأبطـاً ذراع كوزيت ، واتخذوا مقاعدهم ، وفقاً للنظـام المعـين ، حـول المـائدة .

ووُضع كرسيان كبيران ذوا أذرع عن يمين العروس وعن يسارها ، الأول لمسيو جيلنورمان ، والثاني لجان فالجان . واتخذ مسيو جيلنورمان مقعده . وظل الكرسي الآخر ذو الذراعين شاغراً .

وبحثت الأعين كلها عن جان فالجان .

إنه لم يكن هناك .

ونادى مسيو جيلنورمان باسك ، وسأله :

ـ « هل تعرف أين مسيو فوشلوفان ؟ »

فأجاب باسك :

ـ « السيد ، تماماً . السيد فوشلوفان اخبرني ان اقول لسيدي انـه يتألم قليلا من يده العليلة وانه لا يستطيـع ان يتناول طعام العشاء مـع سيدي البارون وسيدتي البارونة . وانه يرجوهما ان يعذراه ، وانه سوف يرجع غداً صباحاً . لقد مضى منذ لحظة . »

هذا الكرسي الشاغر اوقع القشعريرة ، لحظة ، في عشاء العرس . ولكن إذا كان مسيو فوشلوفان غائباً ، فان مسيو جيلنورمان كان هناك ، ولقد تألق الجد تألق اثنين . لقد أعلن أن مسيو فوشلوفان أحسن صنعاً فـي مضيّه إلى الفراش باكراً ، اذا كان متألمـاً ، ولكن ذلك لم يكن غـير « خدش » . وكان هذا التصريـح كافياً . وإلى هذا ، فأي شأن لزاوية ظلام واحدة في هذا الطوفان من البهجة ؟ كانت كوزيت وماريوس في احدى اللحظات الانانية والمباركة حين لا تكون لنا غير القدرة على رؤية السعادة . ثم إن جيلنورمان خطرت له فكرة . « وحق الالـه ، إن هذا الكرسي شاغر . تعال إلى هنا يا ماريوس . ان عمتك ، على الرغم من ان لها حقاً فيه ، سوف تجيز لك ذلك . هذا الكرسي ذو الذراعين لك .

هذا شرعي ، وهذا لطيف . السعيد إلى جانب السعيدة » . تصفيق من ارجاء المائدة جميعاً . وحل ماريوس محل جان فالجان قرب كوزيت . واستقامت الامور على نحو جعل كوزيت ، المحزونة باديء الأمر لغياب جان فالجان ، تشعر آخر الامر بالارتياح لذلك . فمنذ ان امسى ماريوس بديلا من جان فالجان لم يكن في ميسور كوزيت ان تتحسر . لقد وضعت قدمها الصغيرة الناعمة المغلفة بالاطلس الابيض فوق قدم ماريوس .

وما ان احتل ماريوس الكرسي ذا الذراعين حتى محي مسيو فوشلوفان . ولم يكن ثمة غائب ما . وبعد خمس دقائق كانت المائدة كلها تضحك ، من اقصاها إلى اقصاها ، بكامل حميا النسيان .

وحين جاء دور الحلوى والفاكهة وقف مسيو جيلنورمان ، وفي يده كأس من الشامبانيا نصف مليء حتى لا تهرقه ارتعاشات سنيه الاثنتين والتسعين ، وشرب نخب العروسين .

وهتف :

— « إنكما لن تفلتا من عظتين . ففي هذا الصباح سمعتما عظة الكاهن ، وفي هذه الليلة سوف تسمعان عظة الجد . أصغيا الي ، فلسوف اقدم اليكما نصيحة : تبادلا الحب حتى العبادة . أنا لن أبني ركاماً من الكلمات المزوقة . إني أسرع إلى الغاية : كونا سعيدين . ليس في الخليقة من عقلاء غير القماري . الفلاسفة يقولون : اقتصدوا في مباهجكم . اما انا فأقول : أطلقا لها العنان . كونا متيمين كالابالسة . كونا مسعورين . الفلاسفة يهذون . اني لاتمنى لو أعيد فلسفتهم إلى حناجرهم . أمن الممكن ان يكون ثمة قدر اكثر مما ينبغي من العطور ، قدر اكثر مما ينبغي من الأكمام المنورة ، قدر أكثر مما ينبغي من العنادل المغردة ، قدر أكثر مما ينبغي من الاوراق الخضراء ، قدر أكثر مما ينبغي من الفجر في الحياة ؟

هل يستطيع العاشقان ان يتحابا أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيعان ان يتوادا أكثر مما ينبغي ؟ خذي حذرك ، يا ايستيل ، انت وسيمة اكثر مما ينبغي ! وخذ حذرك ، يا نيمورين ، انت جميل اكثر مما ينبغي ! يا للبلاهة النادرة ! هل يستطيع العاشقان ان يفتن احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يلاطف احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يسحر احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع المرء ان يكون متمتعاً بالحيوية أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع ان يكون سعيداً أكثر مما ينبغي ؟ اقتصدوا في مباهجكم ! آه ، هذا سخيف ! فليسقط الفلاسفة ! التهلل هو الحكمة . تهللوا ! تهللوا ! هل نحن سعداء لاننا صالحون ، ام نحن صالحون لاننا سعداء ؟ هل دعيت الـ « سانسي » باسم « سانسي » لأنها كانت ملكاً لهارلي دو سانسي * أم لأنها كانت تزن مئة وستة (*cent - six*) قراريط ؟ لست ادري شيئاً من ذلك . الشيء المهم هو ان تملك الماسة ، والسعادة . كونا سعيدين من غير مماحكة . أطيعا الشمس طاعة عمياء . ما هي الشمس ؟ انها الحب . ومن قال الحب فكأنه قال النساء . آه ! آه ! ان ثمة شيئاً واحداً كلي القدرة ؛ إنه المرأة ، اسألوا ماريوس الديماغوجي هذا أليس هو العبد الرقيق لهذه الطاغية المدعوة كوزيت ؟ وبكامل موافقته ، يا له من جبان ! المرأة ! ليس ثمة روبسبيير يستطيع ان يصمد ؛ المرأة تتربع على العرش . انا لم أعد ملكياً باستثناء هذا الضرب من الملكية . ما آدم ؟ إنه مملكة حواء. ليس ثمة عام ١٧٨٩ بالنسبة إلى حواء . كان هناك الصولجان الملكي المتوج بزهرة الزنبق ؛ كان هناك الصولجان الامبراطوري المتوج بكرة أرضية ؛ كان هناك صولجان شارلمان الذي كان من حديد ؛ كان هناك صولجان لويس الرابع عشر الذي كان من ذهب ، ولكن الثورة

---

* Harley de Sancy رجل دولة فرنسي كان يملك ماسة مشهورة دعيت باسمه (١٥٤٦ - ١٦٢٩).

لونها كلها بين إبهامها وسبابتها مثل قشتين من تبن لا تساويان دانقين . لقد انتهت تلك الصوالجة جميعاً ؛ لقد تحطمت ؛ إنها على الأرض ؛ لم يبق ثمة صولجان ؛ ولكن أعطوني بعض الثورات على هذا المنديل الصغير الموشى العابق برائحة البتشول ! اود أن أراكم تفعلون . جربوا ! ما الذي يجعله وطيداً ؟ كونه خرقة . آه ، أنتم القرن التاسع عشر ! حسن ، ثم ماذا ؟ نحن القرن الثامن عشر ، ولقد كنا على مثل ما انتم عليه من الحماقة . لا تتخيلوا انكم غيرتم شيئاً كثيراً في الكون لأن هواءكم الأصفر غير المعدي يدعى الكوليرا ، ولأن رقصة البوريه تدعى عندكم رقصة الكاشوشا . لا بد انكم في أعماق قلوبكم مقيمون على حب النساء . انا أتحداكم ان تقلعوا عن ذلك . إن هاته الشيطانات هن ملائكتنا . أجل ، الحب ، المرأة ، القبلة ، تلك هي الحلقة التي أتحداكم ان تخرجوا منها . أما أنا ، فالحق اني شديد التوق إلى أن أعاود الدخول اليها . اي منكم رأى الكوكب الزهرة (فينوس) ، مغنساجة الهاوية الكبيرة ، « سيليمين » الاوقيانوس ، ترتفع إلى اللانهاية ، مهدئة كل ما تحتها ، محدقة إلى الامواج مثل امرأة ؟ الاوقيانوس آلسيست * جافية . حسن ، إنه يوبخ عبثاً . وتبرز فينوس ، فهو مضطر إلى أن يبتسم . ان ذلك الوحش ليذعن . نحن كلنا هكذا . غضب ، عاصفة ، رعود ، وزبد حتى السماء . وتدخل المسرح امرأة ، ويطلع كوكب ، فتخر مكباً على وجهك ! كان ماريوس يقاتل ، منذ ستة اشهر ، في الميدان . اما اليوم فأنه يتزوج . ولقد أحسن صنعاً . اجل ، يا ماريوس ، اجل ، يا كوزيت ، انكما على حق ، ليعش احدكما ، بجسارة ، من أجل الآخر ؛ تبادلا الغزل ، واجعلانا نموت من الغيظ لأننا لا نستطيع ان نفعل قدر ما تستطيعان ؛ ليعبد كل منكما الآخر . إلتقطا بمنقاريكما كل

---

* Alceste ابنة « بيلياس » وزوجة « آدميت » ، وقد ارتضت الموت انقاذاً لزوجها . ثم ان هرقل ، كما تقول الاسطورة ، دخل الى جهنم لكي يخرجها منها .

ما على الأرض من قش السعادة الصغير ، وابنيا لنفسيكما عشاً مدى الحياة . وحق الاله ، لأن يكون الانسان عاشقاً ، ولأن يكون معشوقاً، ولأن ينعم بمعجزة كونه غض الأهاب ! لا تتصوروا انكما اخترعتما هذا . أنا ، أيضاً ، كانت لي نفس أشبه بضياء القمر . الحب طفل عمره ستة آلاف سنة . الحب يستحق لحية طويلة بيضاء . وميتوشالح ليس غير فتى لا خلاق له أمام كوبيد . ومنذ ستين قرناً والرجل والمرأة يتخلصان من الورطة بتبادل الحب . إن الشيطان ، الذي هو خبث ، شرع يبغض الرجل ؛ والرجل ، الذي هو اشد خبثاً ، شرع يحب المرأة . وبهذه الطريقة عاد على نفسه بخير يفوق ما أنزله به الشيطان من أذى . وهذه الحيلة إنما اكتُشفت في عهد الفردوس الأرضي . ايها الصديقان ، الاختراع عتيق ، ولكنه جديد تماماً ، أفيدا منه . كونا دافنيس وكلوويه * ، في انتظار ان تصبحا فيليمون وبوسيس ** وهكذا تصرّفا بحيث لا يعوزكما ، حين تلتقيان ، شيء البتة ، وبحيث تكون كوزيت هي الشمس لماريوس، ويكون ماريوس هو الكون لكوزيت . كوزيت ، ليكن الجو الجميل ، في نظرك ، ابتسامةَ زوجك . ماريوس ، ليكن مطرك دموعَ زوجتك . واجتهدا ان لا يكون ثمة في منزلكما مطرٌ البتة . لقد سرقتما الرقم الرابح في اليانصيب : زواج الحب . لقد فزتما بالجائزة الكبرى ، فحافظا عليها جيداً . أقفلا عليها ؛ لا تبعثراها ؛ ليعبد كل منكما الآخر ، ولا تهتما بالباقي . صدقا ما أقوله لكما . إنه منطق سليم . والمنطق السليم لا يقوى على الكذب . ليكن احدكما ديناً بالنسبة إلى الآخر . إن لكل امرىء طريقته في عبادة الله . وحق الشيطان ، إن خير طريقة لعبادة الله ان يحب المرء زوجته . انا احبك ؛ ذلك هو تعليمي الديني . وكل من يحب هو

* Daphnis et Chloé بطلا رواية عاطفية ريفية تحمل هذا الاسم .

** Philémon et Baucis زوجان شهيران في الميثولوجيا ، وقد اصبح اسماهما رمزاً للحب الزوجيّ .

مستقيم الرأي . إن تجديف هنري الرابع يضع القداسة بين الشراهـــة والسكْر . « مذهب البطن الثمل المقدس » . انا لست على دين ذلك التجديف . فالنساء منسيَّة فيه. هذا ما يثير عجبي في ما يتصل بتجديف هنري الرابع . ايها الصديقان ، فلتحي المرأة ! يقولون اني شيخ ؛ ومدهش كيف اشعر اني اعود شاباً من جديد . إني لأحب ان أمضي وأصغي إلى مزامير القِرَب في الغابات . وان الاطفال الذين ينعمون بالجمال والسعادة ليفقدونني صوابي . وانه لخليق بي ، انا نفسي ، ان اتزوج إذا ما رغب احد في ذلك . ومن المتعذر علينا ان نتخيل ان الله قد خلقنا لغرض غير هذا : أن نحب ، أن نهــدل ، ان نتبرج ، ان نكون حمائم ، ان نكون ديكة ، أن نلتقط حَبّ غرامنا من الصباح إلى المساء ، أن نفتخر بزوجاتنا الصغيرات ، ان نكون مختالين ، ان نكون مظفرين ، ان نكون متعجرفين ؛ تلك هي غـــاية الحياة . ذلك ، ولا يسوءكما ما أقول ، ما كنا نعتقده ، نحن العجائز ، في أيامنا حين كنا شباباً . آه ، وحق الشيطان ، كم كان في تلك الحقبـــة من نساء فاتنات ، ومن وجوه صبيحة ، ومن فتيات صغيرات ! هناك كنت امارس فساد الخلاقي . وإذن فليحب أحدكما الآخر . وإذا لم يحب بعض الناس بعضاً فعندئذ لا أرى أي فائدة من وجود شيء اسمه الربيع. وعندئذ يكون خليقاً بي ان اصلي لله كي يحزم جميع الاشياء التي يرينا اياها ، ويستردها منا ، ويعيد الازهار ، والطيور ، والفتيات الجميلات إلى صندوقه . يا ولديّ ، تقبّلا بركة الرجل العجوز . »

كانت الليلة حية ، بهيجــة ، أنيسة . وكانت دماثة الجدّ المهيمنة قد حددت اللحن للحفلة كلها ، ولقد كيّف كل امريء نفسه وفقاً لمحبـــة الجد القلبية التي يبلغ عمرها قرناً من الزمان أو يكاد . ورقصوا قليلا ، وضحكوا كثيراً . كان عرساً صالحـــاً طفلياً . ولقد كان خليقاً بهم ان ان يدْعوا الرجل الطيب القلب « **الماضي** ». والحق انه كان هناك في شخص

الجد جيلنورمان .

كان ثمة صخب ، ثم صمت .

واختفى العروسان .

وبعد منتصف الليل بقليل أمسى منزل مسيو جيلنورمان هيكلا .

وهنا نقف . إن ملاكاً مبتسماً ، واضعاً إصبعه على شفته ، ليقف على عتبة ليالي الأعراس .

وتستغرق الروح في التأمل أمام هذا المعبد ، الذي يُحتفل فيه بعيد الحب .

ينبغي ان يكون ثمة أشعة فوق هذه البيوت . إن الابتهاج الذي تنطوي عليه يجب ان يفر في الضياء من خلال حجارة الجدران ، ويشع على نحو قاتم في الظلمة . ومن المستحيل ان لا يبعث هذا العيد المقدس ، المحتوم، إشعاعاً سماوياً إلى اللانهاية . الحب هو البوتقة السَّنية التي يتم فيها اتحاد الرجل والمرأة . إن الكائن الواحد ، الكائن الثلاثي ، الكائن النهائي، الثالوث البشري لينبثق منه . وولادة هذه النفس الواحدة من نفسين اثنتين لا بد ان توقع في نفس الظلمة اضطرابا . إن المحب كاهن ؛ وان العذراء المستغرقة في الانخطاف ليصيبها الذعر . وبعض هذا الابتهاج يمضي إلى الله. فحيث يكون زواج صحيح ، يعني حيث يكون الحب ، فهناك يمتزج المثل الاعلى به . إن سرير الزفاف يرسم هالة في الظلام . ولو قد قُيض للعين التي هي من لحم ان ترى المشاهد الرهيبة الساحرة الخاصة بالحياة العليا اذن لرأينا ، في أغلب الظن ، اشكال الليل ، والغرباء المجنحين ، وعابري سبيل اللامنظور الزُّرق ، ينحنون – على هيئة حشد من الرؤوس القاتمة – فوق البيت النيّر ، سعداء ، مباركين ، يدل بعضهم بعضاً على العروس العذراء ، المروَّعة في رفق ، وقد بدا على وجوههم الالٓهية انعكاس السعادة البشرية . ولو قُدّر ، في تلك الساعة السَّنية ، للعروسين اللذين اصابتهما البهجة بالجهر وظنا نفسيهما منفردين – لو قدر لهما ان

يصغيا ، اذن لسمعا في غرفتهما حفيف اجنحة مضطربة . ان السعـاد الكاملة تنطوي على تماسك الملائكة . وإن ذلك المخدع الصغير الغامض يتخذ من السماء كلها سقفاً له . فحين يقترب فمان ، جعلهما الحـب مقدسين ، ابتغاء الخلق والابداع ، فمن المتعذر ان لا يكون فوق تلك القبلة ، التي لا توصف ، قشعريرة في لغز النجوم الهائل .

تلك هي السعادات الحقيقية . ولا بهجة وراء هذه المباهج . الحب هو وحده الانخطاف الروحي ، وكل ما عداه يبكي .

حسبُ المرء ان يحِب وان يحَب . فـلا يطلبنّ احد شيئاً اكثر . ليس ثمة جوهرة اخرى يمكن ان يُعثر عليها في ثنايا الحياة المظلمة . إن الحب إنجاز .

٣
ممتنعة الانفصال

ما الذي كان قد حل بجان فالجان ؟

فبُعَيْد ضحكه ، نزولاً عند طلب كوزيت الرفيق ، ومن غير ان يلاحظه أحد ، كان قد نهض من مقعده ، وانتهى إلى حجرة الاستقبال . كانت هي الحجرة نفسها التي سبق له ان دخلها قبل ثمانية اشهر ، أسـوّد بالوحل ، والدم ، والبارود ، حاملا الحفيد إلى منزل الجد . كـانت ألواح الجدران الخشبية القديمة مكللة بالاوراق والأزهار ؛ وكان الموسيقيون جالسين على المقعد الذي مُدد عليه ماريوس من قبل . وكان باسك يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً قصيراً ، وجوربين ابيضين ، وقفازين ابيضين أيضاً . وكان يرتب تيجان الزهور حول كل من الاطباق التي كانت على وشك أن يُسكب فيها الطعام . وكان جان فالجان قد أراه يده المرفوعة

إلى صدره ، وعهد اليه في ان يفسر للقوم سبب غيـابـه ، ومضى لسبيله .

كانت نوافذ حجرة الطعام تطل على الشارع . ووقف جان فالجان ، بضع دقائق ، من غير حراك ، في الظلمة ، تحت تلك النوافذ المشعة . واصغى . لقد انتهت اليه اصداء المـأدبة المختلطة . ولقد سمع كلمات الجد العالية ، الآمرة ، والحان الكمانات ، وقعقعة الاطباق ، ورنين الكؤوس ، ودويّ الضحك . ومن خلال ذلك الصخب البهيج كله ميّز صوت كوزيت العذب الجذلان .

وغادر شارع بنات كالفير ، ورجـع إلى شارع الرجل المسلح .

ولكي يرجع ، اتخذ سبيله من شارع سان لويس ، وشارع « كولتور سانت كاترين » وشارع الـ « بلان مانتو » . كانت تلك الطرق أطـول بعض الشيء ولكنها كانت الطريق التي اعتاد طوال ثلاثة اشهر — ابتغاء تجنب العوائق والوحول في شارع « فييْ دو تامبل » — ان يسلكها كل يوم في ذهابه من شارع الرجل المسلح إلى شارع فتيات كالفير ، مـع كوزيت .

كانت هذه الطريق التي سارت عليها كوزيت قد نفت عنده كـل طريق اخرى .

ورجع جان فالجان إلى منزله . واضاء شمعته وارتقـى السلم . كانت الشقة شاغرة . إن توسين نفسها لم تعد هناك . واحدثت خطى جان فالجان ضجة في الغرف اعظم من المـألوف . كانت جميـع الخزائن مفتوحة . ومضى إلى حجرة كوزيت . لم يكن ثمة أغطية على السرير . كـانـت الوسادة ، المجردة من غطائها ومن وشيها ، مطروحة على الاغطية المطوية عند قدم الحشية التي بدا قماشها والتي ما كان لأحد أن يرقد فيها بعد . كانت جميـع الاشياء الانثوية الصغيرة التي تعلقت بها كوزيت قد نُقـلت . لم يبق ثمة غير الاثاث الثقيل والجدران الأربعة . كان فراش

توسين قـد عُري أيضاً . كان سرير واحـد معداً ليس غير ، ولقد بدا وكأنه ينتظر شخصـاً مـا . وكان ذلك السرير هو سرير جـان فالجـان .

ونظر جان فالجان إلى الجدران ، واغلق بعض ابواب الخزائن ، واخذ يروح ويجيء من غرفة إلى اخرى .

ثم انه وجد نفسه كرة ثانية في غرفته ، ووضع شمعتـه علـى الطـاولة .

كان قد أطلق ذراعه من رباطها ، وأنشأ يستعين بيده اليمنى وكأنه ما كان يتألم منها .

واقترب من سريره ، ووقعت عينه — اكان ذلك مصادفة ؟ اكان ذلك عن عمد ؟ — على « ممتنعة الانفصال » التي كانت كوزيت تغار منها ؛ وقعت عينه على صندوق الامتعة ذاك الصغير ، الذي ما كـان يفارقه ابداً . وفي اليوم الرابع من حزيران ، لدن وصوله إلى شـارع الرجل المسلح ، كان قد وضعها على الطاولة المدورة القائمة على عمود في وسطها ، قرب مقدّم سريره . لقد مضى إلى تلك الطاولة في ضرب من الرشاقة ، واخرج من جيبه مفتاحاً ، وفتح الحقيبة .

واخرج منها ، في بطء ، تلك الثياب التي غادرت فيها كوزيت ، قبل عشر سنوات ، مونفيرماي ؛ الثوبَ الصغير الاسود اولا ، ثم منديل العنق الاسود ، ثم الحذاء الضخم الثقيل التي كانت كوزيت عاجزة تقريباً عن انتعاله لشدة صغر قدميها ، ثم الصدرة المصنوعة من نسيج قطني غليظ ، ثم التنورة المسرودة ، ثم المئـزر ذا الجيوب ، ثم الجوربين الصوفيين . وكان هذان الجوربان — اللذان ما يزال منطبعـاً عليهما ، في رفق ، شكل الرجل الصغيرة — لا يكادان يبلغان طول يـد جان فالجان . وكانت هذه الملابس كلها سوداء ، وكان جان فالجان هو الذي حمل لها تلك الثياب إلى مونفيرماي . حتى إذا أخرجها من الحقيبة ،

وضعها على السرير . كان يفكر . لقد تذكّر . كان ذلك في الشتاء ، في شهر من شهور ديسمبر القارسة ، ولقد ارتعدت نصف عارية في الأسمال ، واحمرت قدماها الصغيرتان البائستان احمراراً كاملا في حذائها الخشبي . وكان هو ، جان فالجان ، قد جردها من تلك الاسمال لكي يلبسها هذا الثوب الحدادي . ولا ريب في أن الأم كانت سعيدة في قبرها لرؤيتها ابنتها مرتدية ثوب الحداد عليها ، وان ترى بخاصة انها كانت كاسية ، وانها كانت تنعم بالدفء . وفكر في غابة مونفيرماي تلك . كانا قد اجتازاها معاً ، كوزيت وهو . وفكر في الحالة الجوية ، في الاشجار الجرداء ، في الغابة العاطلة عن الطيور ، في السماء التي لا شمس فيها . سيان ؛ فقد كان ذلك كله فاتناً . ورتب الاشياء الصغيرة على السرير : منديلَ العنق إلى جانب التنورة ، والجوربين إلى جانب الحذاء ، والصدرة إلى جانب الثوب ، وانشأ ينظر اليها واحداً بعد آخر : ان كوزيت لم تكن اطول من هذا المقدار ؛ كانت تحمل دميتها الكبيرة بين ذراعيها ؛ وكانت قد وضعت ليرتها اللويسية الذهبية في جيب هذا المئزر ؛ لقد ضحكت ، ولقد سارا وقد امسك احدهما بذراع الآخر ؛ لم يكن لها غيره في الوجود .

ثم ان رأسه ، الأبيض الجليل ، سقط على السرير ، وتفطّر ذلك القلب العجوز الثّبت ، وغُمر وجهه — إذا جاز التعبير — في ثياب كوزيت : ولو قد مر احد بالسلم في تلك اللحظة اذن لسمع نحيباً رهيباً .

٤
جيكور الخالد

ومن جديد ، بدأ الصراع المروّع القديم ، الذي رأينا عـدداً من وجوهـه .

لقد تصارع يعقوب والملاك ليلة واحدة ليس غير . وا أسفاه ، كم مرة رأينا جان فالجان وقد أمسك به ضميره — جسداً لجسد — وسط الظلام ، فهو يصارع ذلك الضمير على نحو يائس !

صراع لم يُسبق إلى مثله . في بعض اللحظات تزل القـدم ، وفـي بعض اللحظات تميد الارض . كم مرة اخذ ذلك الضمير ، المسعور أمام الحق ، بخناقه وطرحه ارضاً ! كم مرة ركزت الحقيقة ، التي لا تعرف الشفقة ، قدمها على صدره ! كم مرة صاح ، وقد طرحه النور ارضاً ، ملتمساً منه الرحمة ! كم مرة ، عمد ذلك النور الحقود ، الذي أضرمه الاسقف في ذات نفسه ومن فوقه ، إلى ان يوقع الجهَر في عينيه كلما رغب في ان يكون اعمى لا يرى ! كم مرة نهض في ذلك الصراع ، مشدوداً إلى الصخر ، متكئاً على السفسطة ، متمرغاً في التراب ، وقـد تمكّن من ان يقهر ضميره حيناً ، وتمكن ضميره من ان يقهره حينـاً آخر ! كم مرة ، بعد كلام مبهم ، بعد تفكير أناني غادر ممـوّه ، سمع ضميره الهائج يصيح في اذنه : « زلة ! ايها الشقـي ! » كم مرة حشرج فكره المتمرد حشرجة متشنجة تحت دليل الواجب ! مقاومة الرب . عرَق مـأتمي ! كم جرح خفي استشعر هو وحده انهـا كانت تدمى ! كم خـدش لوجوده البائس ! كم مرة نهض من فراشه دامياً ، مثخناً ، محطماً ، مضاءاً ، يفعم اليأس قلبه وتملأ الطلاقة روحه ! مهزوماً ، شاعراً أنه هو المنتصر . وبعد أن قطّع الضمير أوصاله ،

ومزقه ، وحطمه ، وقف فوقه ، رهيباً ، نيراً ، هادئاً ، وقال له :
« والآن ، امض في سلام ! »

ولكن أيّ سلام حدادي هذا الذي واجهه لدن خروجه من ذلك الصراع الكالح إلى هذا الحد ، وا أسفاه !

ومع ذلك ، فقد استشعر جان فالجان أنه كان يخوض ، تلك الليلة ، معركته الأخيرة .

لقد برز له سؤال ممض .

إن التقادير ليست مستقيمة كلها ، انها لا تتكون على صورة شارع مستقيم أمام من كُتبت عليه . انها دروب غير نافذة ، أمعاء معوجة ، منعطفات مظلمة ، مفارق مربكة تتكشف عن طرق متعددة . كان جان فالجان قد وقف في هذه اللحظة عند أخطر تلك المفارق .

كان قد انتهى إلى التمازج الأخير بين الخير والشر . كان ذلك التقاطع المظلم امام عينيه . وهذه المرة أيضاً ، كما قد اتفق له من قبل في أزمان أليمة اخرى ، انفتحت أمامه طريقان اثنتان : الأولى فاتنة ، والثانية راعبة . فأي الطريقين يتعين عليه أن يسلك ؟

لقد نصحه بسلوك الطريق الراعبة ذلك الأصبع الخفي المشير الذي نلمحه ، جميعاً ، كلما ركزنا اعيننا على الظلام .

كان على جان فالجان ان يختار ، كرة اخرى ، بين الملاذ الرهيب ، والشرّك المبتسم .

اذلك صحيح اذن ؟ ان النفس قد تشفى ؛ أما المصير فلا . شيء رهيب ! قدّر عضال !

وكان السؤال الذي واجهه هو هذا :

بأي طريقة يتعين على جان فالجان ان يسلك تجاه سعادة كوزيت وماريوس ؟ هذه السعادة كان هو الذي رغب فيها ، وكان هو الذي صنعها . كان قد أقحمها في فؤاده ، وكان خليقاً ان يستشعر ، في هذه

اللحظة ، وقد نظر اليها ، مثل ارتياح صانع أسلحة يرى طابع مصنعه على مُـدية فيما هو يستلهـــا ، وقـد خضب الدم جسمه كله ، من صدره .

لقد فازت كوزيت بماريوس ، ولقـــد امتلك ماريوس كوزيت . كانـا يتمتعـــان بـكل شيء ، حتى بالثروة ، وكـان ذلـك مـــن صنعـــه .

ولكن ما الذي كان ينبغي ان يفعله ، هو جان فالجان ، بهذه السعادة ، بعد أن تحققت ، وبعد أن أمست هناك ؟ أيفرض نفسه على هـــذه السعادة ؟ ايعاملها وكأنها ملك له ؟ لا ريب في ان كوزيت كانت لرجل آخر ؛ ولكن ايتعين عليه ، هو جان فالجان ، ان يحتفظ من كوزيت بكل ما استطاع ان يحتفظ به ؟ أينبغي ان يظل ذلك الضرب من الأب ، الذي يُرى نادراً ولكنه ينعم بالاحترام ، والذي كانه حتى تلك اللحظة ؟ هل يقدّم نفسه ، في هدوء ، إلى منزل كوزيت ؟ هل يحمل ماضيه ، من غير ان يقول كلمة ، إلى هذا المستقبل ؟ هل يمثُـل هناك بوصفه صاحب حق ، وهل ينبغي له ان ان يفـد ويتخذ مقعده ، محجَّباً ، في تلك الدار المتألقة ؟ هل يمسك بأيدي هذين المخلوقين البريئين — فيما هو يبتسم لهما — بيديه الفاجعتين ؟ هل يضع على مساند الحطب الآمنة ، في حجرة استقبال مسيو جيلنورمان ، قدميه اللتين كانتا تجران خلفهما ظلمة القانون الشائنة ؟ هل يدخل في مشاركة بالحظوظ مع كوزيت وماريوس ؟ هل يتعين عليه ان يكثّف الظلمة فوق رأسه والسحابة فوق رأسيهما ؟ هل يجعل من نكبتـه رفيقاً لسعادتهما ؟ هل يظل معتصماً بالصمت ؟ وبكلمة ، ايجوز له ان يكون ، إلى جانب هذين المخلوقين السعيدين ، أبكمَ القدَر المشؤوم ؟

إن علينا ان نكون معوّدين لقـــاء الاقدار لكي نجرؤ على رفع أعيننا حين تجابهنا بعض المسائل في عريها الرهيب . ان الخير أو الشر ليكمن

وراء علامة الاستفهام القاسية هـذه . ويسأل أبو الهول : « مـا الذي سوف تصنعه ؟ »

وكانت لجان فالجان هذه الألفة مع التجربة . لقد حدق إلى أبي الهول على نحو موصول .

وقلّب المشكلة القاسية على اختلاف وجوهها .

وكانت كوزيت ، ذلك الوجود الفاتن ، هي قارب النجاة في ذلك الغرق . ما الذي ينبغي ان يفعله ؟ ايتشبث بالقارب ، أم يفلته ؟

إذا تشبث بـه نجا من الـكارثة ، وارتفـع كرة اخرى إلى الشمس، وترك الماء يرشح من ثيابه وشعره ، ونجا ، وعاش .

أما إذا أفلته ؟

فعندئذ ينتهي إلى الهاوية .

وهكذا راح يستشير أفكاره ، في مرارة . أو على الأصح ، يتصارع معها . لقد عصفت في ذات نفسه ثورة ، وانشأ ينقضّ على ارادته حيناً ، وعلى يقينه حيناً آخر .

وكان من حسن حظ جان فالجان أنه استطاع البكاء . لعل ذلك قد أضفى عليه شيئاً من النور . ومع ذلك ، فقد كانت البداءة ضارية . لقد انطلق في صميمه إعصار أشد عنفاً من ذلك الذي كان قد ساقه في وقت مضى إلى آراس . لقد عاوده الماضي وجهاً لوجه مع الحاضر . وقارن ، وانتحب . وما إن فُتح سد الدموع ، حتى تلوّى الرجل اليائس ألمـاً وحسرة .

لقد شعر أنه قد أوقِف .

وأسفاه ! ففي هذه الملاكمة المستميتة بين انانيتنا وواجبنا ، حين نتراجع هكذا خطوة اثر خطوة أمام مثلنا الأعلى المنيع ، ذاهلين ، هائجين ، حانقين للاستسلام ، متصارعين مع الارض ، تواقين إلـى امكانية الفرار ، ملتمسين مخرجاً ما — في هذه الملاكمة المستميتة كم تكون

مقاومة الجدار الذي خلفنا مفاجئة ومشؤومة !

إننا نستشعر الظل المقدس يعترض الطريق .

اللامنظور الذي لا يعرف الرحمة ! يا له من فكرة متسلطة على العقل !

واذن فليس لنا مع الضمير نهاية البتة . فاختر سبيلك ، وقفه ، يا بروتوس ، واختر سبيلك ، وقفه ، يا كاتون . إنه — بما هو الله — لا قرار له . إننا نلقي في هذه البئر عمل حياتنا كلها ، إننا نلقي فيها حظنا ، نلقي فيها ثروتنا ، نلقي فيها نجاحنا ، نلقي فيها حريتنا أو وطننا ، نلقي فيها هناءتنا ، نلقي فيها راحتنا ، نلقي فيها سعادتنا . اكثر ! اكثر ! أفرغ الاناء ! أمل الجرة ! إن علينا آخر الأمر ان نلقي فيها فؤادنا .

إن ثمة في مكان ما من ضباب الجهنمات القديمة مثل هذا البرميل .

اليس يُعذر المرء إذا ما رفض آخر الأمر ؟ هل يستطيع الممتنع على النضوب ان يدّعي شيئاً ؟ اليست السلاسل التي لا نهاية لها فوق القوة البشرية ؟ ومن ذا الذي يلوم ، اذن ، سيسيفوس * أو جان فالجان اذا ما قال : « في هذا كفاية ! »

ان عبودية المادة محدودة بالاحتكاك ؛ أليس ثمة حد لعبودية الروح ؟ إذا كانت الحركة السرمدية مستحيلة فهل يكون التفاني السرمديّ مطلوباً ؟

ان الخطوة الأولى ليست شيئاً ، الخطوة الاخيرة هي العسيرة . اي شيء كانت قضية شانماتيو إذا ما قورنت بزواج كوزيت وكل ما انطوى عليه ؟ واي شيء كان هذا : الذهاب إلى سجن الاشغال الشاقة ، بالقياس إلى هذا :

* Sisyphe ، في الميثولوجيا ، ابن ايول Eole وملك كورنث . كان قاسياً شديد الوحشية وقد حكم عليه بعد موته بان يرفع ، في الجحيم ، صخرة ضخمة الى قمة جبل ، ولكن الصخرة كانت ترتد ، كل مرة ، الى الهاوية ...

الدخول في العدم ؟

ايه ايتها الدرجة الأولى من درجات النزول ، كم أنت داكنة ! ايه ايتها الدرجة الثانية كم انت سوداء !

كيف يستطيع ان لا يدير رأسه هذه المرة ؟

الاستشهاد تسام ، تسام قارض . إنه تعذيب يكرس ويرسم . انك قد تقره في الساعة الأولى وتجلس على عرش الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتضع على جبينك تاج الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتتلقى الكـــرة الارضية المصنوعة من الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتأخذ صولجان الحديد الحامي حتى الاحمرار ، ولكن لا يزال عليك ان ترتدي معطف اللهب ، افلا يكون ثمة لحظة يثور فيها اللحم المسكين ، ويتنازل فيها المرء عن النكال والتعذيب ؟

واخيراً دخل جان فالجان في سكينة اليأس .

لقد راز ، ولقد فكر ، ولقد تأمل مختلف السبل التي يخيره بينهـــا ذلك الميزان الخفي ، ميزان النور والظلام .

أن يفرض سجن اشغاله الشاقة على هذين الطفلين الفاتنين ، أو أن يستهلك بنفسه غرقه العضال . في ناحية : التضحية بكوزيت ؛ وفي ناحية: التضحية بنفسه .

عند أي حل وقف ؟ ايّ قرار اتخذ ؟ ما كان ، في صميم ذاته ، جوابه الاخير عن طلب القدَر العفيف ؟ ايّ باب اعتزم أن يقرع ؟ اي جانب من حياته وطن النفس على أن يوصد أو يسد ؟ ومن بين جميع هذه الهُوى التي لا غور لها ، والتي تحيط به ، ايّ واحدة اختار ؟ اي طرف ارتضى ؟ لأي من هذه اللجج حنى رأسه ؟

لقد استمر تفكيره ، الموقـــع الدوار في الرأس ، طوال الليل .

وظل هناك حتى الفجر ، في الوضع نفسه ، منطوياً طيتين فوق السرير ، ساجداً تحت ضخامة القدَر ، ولعله كان مسحوقاً ، وأسفاه ، متشنج

الاصابع ، مبسوط الذراعين على زاوية قائمة ، مثل رجل نُزع عن الصليب وطُرح على وجهه فوق الأرض . لقد ظل اثنتي عشرة ساعة - اثنتي عشرة ساعة طويلة من ساعات ليلة من ليالي الشتاء - مثلوجاً ، من غير ان يرفع رأسه ، ومن غير ان ينبس بكلمة . كان جامداً مثل جثة ، فيما كان فكره يتلوى على الأرض ويطير ، حيناً كالثعبان ، وحينا كالنسر. ولو رأته عين هكذا من غير حراك اذن لظنته ميتاً . وفجأة ، ارتعش في تشنج ، وقبل فمه ثياب كوزيت ، وكان مسمّراً عليها . وعندئذ كان جديراً بتلك العين ان ترى أنه حي .

اية عين ؟ ما دام جان فالجان وحده ، وما دام احد لم يكن هناك ؟

« العين » التي في الظلام .

الكتاب السابع

آخر قطرة في الكأس

١

الدائرة السابعة والسماء الثامنة

ان اليوم الذي يلي العرس يومٌ تكتنفه العزلة . فنحن نحترم خلوة السعيدين ، ومن هنا فقليلا ما نعوق رقادهما. وصخب الزيارات والتهنئات لا يبدأ إلا في ما بعد . وفي صباح اليوم السابع عشر من شباط كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعض الشيء عندما سمع باسك ، وكان يرتب قاعة الانتظار متأبطاً مئزره ومنفضة غباره ، قرعاً خفيفاً على الباب . إن احداً لم يقرع الجرس ، وهو شيء ينم عن التكتم في يوم كهذا . وفتح باسك الباب ، ورأى مسيو فوشلوفان . وأدخله إلى قاعة

الاستقبال ، التي كانت ما تزال مزدحمة مقلوبة رأساً على عقب ، والتي بدت عليها سيما الميدان الذي شهد مباهج احتفال الليلة الفائتة .

ولاحظ باسك :

— « وحق الاله ، يا سيدي ، لقد افقنا في ساعة متأخرة . »

وسأله جان فالجان :

— « هل استيقظ سيدك ؟ »

فأجاب باسك :

— « كيف حال ذراع سيدي ؟ »

— « أحسن . هل استيقظ سيدك ؟ »

— « ايهما ؟ القديم أم الجديد ؟ »

— « مسيو بونميرسي . »

فقال باسك متصدراً :

— « سيدي البارون ؟ »

ان المرء ليكون باروناً عند خدمه قبل كل شيء . إن شيئاً من ذلك ينعكس عليهم . فهم يملكون ما يستطيع الفيلسوف ان يدعوه « رشاش اللقب » ، وهم بذلك يعتزون . ولنقل ههنا ، بين معترضتين ، ان ماريوس الجمهوري المناضل ، ولقد اقام الدليل على ذلك ، كان الآن باروناً بالرغم منه . كانت ثورةٌ صغيرة قد نشبت في الاسرة حول هذا اللقب . ففي الوقت الحاضر كان مسيو جيلنورمان هو الذي تشبث به ، وكان ماريوس هو الذي استخف به . ولكن الكولونيل بونميرسي كان قد كتب « ان ابني سوف يحمل لقبي » . وأطاع ماريوس . ثم ان كوزيت ، التي بدأت المرأة تشرق في أعطافها ، كانت تستشعر اعظم الحبور لكونها بارونة .

وكرر باسك :

— « سيدي البارون ؟ سوف اذهب وأرى . سوف اقول له ان

مسيو فوشلوفان هنا . »

— « لا . لا تقل له ذلك . قل إن شخصاً ما ، يسأل ان يتحدث اليه على انفراد ، ولا تذكر له اي اسم . »

فقال باسك :

— « آه ! »

— « أود ان أبادره بمفاجأة . »

فأضاف باسك :

— « آه ! »

معطياً نفسه آهته الثانية كتفسير لآهته الأولى .

وغادر الحجرة .

وظل جان فالجان منفرداً .

وكانت الفوضى كما قلنا ، تسود حجرة الاستقبال . لقد بدا وكأن المرء كان لا يزال قادراً ، إذا ما ارهف سمعه ، على ان يسمع جلبية العرس الغامضة . كان ثمة مختلف ضروب الازهار ، التي سقطت من الاكاليل ومن القبعات ، على الارض . وكانت الشموع ، التي اشتعلت حتى محاجرها ، قد اضافت إلى بلور الثريات رواسب من شمع . لم تكن قطعة من قطع الاثاث في مكانها . وفي الزوايا ، كانت كل ثلاثة أو اربعة من الكراسي ذوات الاذرع قد تقاربت وشكلت دائرة ، وبدا وكأنها ما تزال تواصل حديثاً ما . وكان مجموع ذلك ضاحكاً . إن ثمة جمالا ما في الأعياد الميتة . لقد كانت هذه الحجرة سعيدة . وعلى تلك الكراسي المختلطة ، وبين هذه الازهار الآخذة في الذبول ، وتحت هذه الاضواء المنطفئة ، كان القوم قد فكروا افكاراً بهيجة . لقد خلفت الشمس الثريا ، ولقد دخلت في بشر إلى حجرة الاستقبال .

وتصرمت بضع دقائق . كان جان فالجان جامداً من غير حراك في النقطة التي تركه باسك فيها . كان شاحباً جداً . وكانت عيناه غائرتين

في محجريهما ، بسبب من الأرق ، إلى درجة جعلتهما لا تكادان تبدوان إلا في عسر . وكانت ترين على سترته السوداء تلك التغضنات المرهقة التي تبدو عادة على السترة التي سلخت الليل بطوله . وكان مرفقاه قد ابيضّا بذلك الزغب الناشيء عن دعك القماش . كان جان فالجان ينظر إلى النافذة التي رسمتها الشمس ، عند قدميه ، فوق ارض الحجرة .

وسمع ضجة لدى الباب ، ورفع عينيه .

ودخل ماريوس ، مرفوع الرأس ، باسم الثغر ، مشرق الوجه بنور لا سبيل إلى وصفه ، وضاح الجبين ، مظفّر العين . إنه هو الآخر لم يعرف النوم .

وهتف لدن رؤيته جان فالجان :

— « هذا أنت ، يا ابي ! يا لباسك الأحمق الذي رانت على وجهه سيماء خفية ! ولكنك جئت مبكراً جداً . فلم تنقض على الظهر غير ساعة واحدة . ان كوزيت لا تزال نائمة . »

تلك الكلمة « ابي » يقولها ماريوس لمسيو فوشلوفان كانت تعني : السعادة العظمى . لقد كان ثمة بينهما دائماً ، كما نعرف ، حاجز وبرود وتحفظ ، ثلج للكسر أو للذوبان . كان ماريوس قد انتهى إلى تلك المرحلة من النشوة التي يأخذ الحاجز عندها بالسقوط ، والثلج بالذوبان ، وكان مسيو فوشلوفان بالنسبة اليه ، شأنه بالنسبة إلى كوزيت ، أباً .

وتابع . لقد فاضت الكلمات منه ، وهو ما يميز نهايات الابتهاج الالـهية هذه :

— « ما أعظم سعادتي برؤيتك ! لو كنت تعرف كيف افتقدناك أمس ! صباح الخير ، يا ابي . كيف يدك ؟ أحسن ، أليس كذلك ؟ »

وإذ قنع بالجواب الخيّر الذي قدمه هو نفسه ، مضى يقول :

— « لقد اكثرنا ، كلانا ، من الحديث عنك . إن كوزيت تحبك حباً جماً ! أنت لن تنسى ان غرفتك هنا . نحن لا نريد شارع الرجل المسلح بعد اليوم . لا ، لا نريده بعد اليوم البتة . كيف استطعت ان تـذهب وتقطن في شارع مثل ذاك ، شارع مريض ، شارع مدمدم ، شـارع بشع ، شارع يقوم عند احد طرفيه حاجز ، حيث تصاب بالبرد ، وحيث لا تستطيع ان تدخل ؟ سوف تأتي ، وتستقر هنا . ولسوف تفعل ذلك اليوم . وإلا نشأ بينك وبين كوزيت نزاع . إنها تعتزم ان تقودنا كلنا من انوفنا ؛ انا احذرك . لقد رأيت غرفتك ؛ إنها جد قريبة إلى غرفتنا ، وهي تطل على الحديقة ؛ لقد جعلنا لها قفلا ، وأقمنا السرير ، وكل شيء جاهز . وليس عليك إلا ان تجيء . لقد وضعت كوزيت كرسياً قديماً واسعاً ذا وسادة من مخمل اوترخت إلى جانب سريرك وخـاطبته قائلة : «أبسط ذراعيك له . » وكل ربيع يأتي عندليب الى مجموعة شجر الأكاسيا المواجهة لنوافذك . إنك سوف تقع عليه بعد شهر . وعندئذ يكون عشها إلى يسارك ، وعشّنا إلى يمينك . ويغرد لك العندليب ليلا ، وتتحدث كوزيت نهاراً . إن غرفتك قائمة إلى الجنوب تماماً . ولسوف ترتب لك كوزيت كتبك هناك ، « رحلة الكابتن كوك » ، و « رحلة فانكوفيه » ، وسائر أشيائك . وهناك ، في ما اعتقد ، حقيبة صغيرة انت حريص عليها جداً ، ولقد اخترت لهـذه زاوية شرف . لقد قهرتَ جدي ، انت تناسبه . انتما سوف تعيشان معاً . هل تعرف الهويست * ؟ انك سوف تأنس إلى جدي إذا عرفت الهويست . ولسوف تصحب كوزيت إلى النزهة يوم أكون غائباً في قصر العدل ، ولسـوف تعطيها ذراعك ، كما تعلم ، شأنك في حديقة اللوكسومبورغ ، في مـا مضى . لقد عقدنا العزم عقداً مطلقاً على ان نكون سعيدين جداً . وانت جزء من سعادتنا ، أتفهم ، يا أبي ؟ آه ، قل لي ، هل تتناول طعام

* Whist ضرب من لعب الورق .

الصباح معنا اليوم ؟ »

فقال جان فالجان :

— « سيدي ، ان عندي شيئاً واحداً أقوله لك . أنا رجل ُحكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة . »

إن حدود الاصوات الحادة المدرَكة يمكن ان يتجاوزها العقل بمثل السهولة التي تتجاوزها فيها الأذن . إن هذه الكلمات « انا رجل حكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة » ، خارجةً من فم مسيو فوشلوفان داخلةً في اذن ماريوس ، إنما ذهبت إلى أبعد من الممكن . ولم يسمع ماريوس . لقد بدا له ان شيئاً قد قيل له اللحظة ؛ ولكنه لم يدر ما هو . لقد وقف فاغر الفم .

ثم انه ادرك ان الرجل الذي يحدثه كان رهيباً . إن الجهَر الذي اصاب عينيه كان قد حجب عنهما ، حتى تلك اللحظة ، ذلك الشحوب الفظيع .

وفك جان فالجان رباط العنق الأسود الذي كان يسند ذراعه ، ونزع القماش الملفوف حول يده ، وعرّى إبهامه ، وأراه لماريوس .

وقال :

— « ان يدي سليمة . »

ونظر ماريوس إلى الابهام :

وتابع جان فالجان :

— « وهي لم تكن غير سليمة في يوم من الايام . »

لم يكن ثمة ، في الواقع ، أيما أثر لجرح .

وواصل جان فالجان :

— « كان من الأفضل ان لا أحضر زفافك . ولقد تغيبت اكثر ما استطعت ان أتغيب . لقد تظاهرت بهذا الجرح لكي لا اقوم بتزوير ، لكي لا أدخِل البُطلان على وثائق الزواج ، لكي أعفى من التوقيع . »

وتلجلج ماريوس :

— « ماذا تريد ان تقول ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « اريد ان اقول اني كنت في سجن الاشغال الشاقة . »

فهتف ماريوس في ذعر :

— « انت تجعلني مخبّلا ! »

وقال جان فالجان :

— « مسيو بونمرسي ، لقد سلخت تسع عشرة سنة في سجن الاشغال الشاقة . بسبب من السرقة . ثم حكم علي بالسجن مدى الحياة . بسبب من السرقة . بسبب من تكرر الجرم . إني في هذه اللحظة هارب من العدالة . »

وكان من غير المجدي ان يرتدّ ماريوس أمام الحقيقة ، ان يرفض الواقعة ، أن يقاوم الدليل ، لقد اضطر إلى الاذعان . وشرع يفهم ؛ وكما يقع دائماً في مثل هذه الاحوال ، فهم ما وراء الحقيقة . لقد استشعر رعدة وميض باطني رهيب . لقد خطرت بباله فكرة جعلته يرتجف . لقد لمح في المستقبل قدراً رهيباً مقدوراً له .

— « قل كل شيء ، قل كل شيء ! انت والد كوزيت . »

وارتد إلى الوراء في سيماء من الذعر لا سبيل إلى وصفها .

ورفع جان فالجان رأسه ، في جلال جعله يبدو وكأنه يرتفع إلى السقف .

— « من الضروري ان تصدقني في هذا ، يا سيدي . على الرغم من ان أيمان امثالنا غير مقبولة في نظر العدالة . »

وهنا اعتصم بالصمت . ثم إنه اضاف ، في ضرب من السلطان المهيمن ، القبريّ ، لافظاً الكلمات في بطء ، ومؤكداً مقاطعها :

— « .... سوف تصدقني . أنا والد كوزيت . أما أمام الله ، فلست

والدها . سيدي البارون بونميرسي ، أنا فلاح من فافيرول . لقد كنت اكسب رزقي من تشذيب الاشجار . إن اسمي ليس فوشلوفان . انـي ادعى جان فالجان . أنا لا أمتّ بنسب إلى كوزيت . اطمئن ! »

وتمتم ماريوس :

— « ومن يثبت ذلك لي ؟ »

— « أنا . ما دمت اقول ذلك . »

وحنى جان فالجان رأسه وكأنه يقسم يميناً . ثم تابـع كلامه قائلا :

— « ايّ صلة تربطني بكوزيت ؟ صلة عابر السبيل . قبل عشر سنوات ، لم اكن أعلم أنها في الوجود . انا أحبها ، هذا صحيح . اننا حين نبلغ سن الشيخوخة نحب الطفلة التي سبق لنا ان رأيناها وهي صغيرة . وحين يبلغ الرجل سناً عالية يحس أنه جد لجميع الأطفال . ان باستطاعتك في ما يخيل الي ان تفترض ان لي شيئاً يشبه الفؤاد . لقد كانت يتيمة . يتيمة من غير أب أو ام . كانت في حاجة الي . ذلك هو السبب الذي من اجله بدأت أحبها . إن الاطفال هم من الضعف بحيث يستطيع اءما امرىء ، وحتى ولو كان رجلا مثلي ، ان يكون لهم حامياً . وقد قمت بهذه المهمة في ما يتصل بكوزيت . ولست احسب ان احداً يستطيـع حقاً ان يدعو هذا الشيء الضئيل جداً عملا صالحاً . ولكن اذا كان هو عملا صالحـاً فاذكر اني انا الذي قمت به . دوّن هذا الظرف المخفّف . إن كوزيت تغادر اليوم حياتي . ان سبيلينا يفترقان . انا لست بقادر على ان اؤدي لها اءما خدمة اضافية ، منذ اليوم . انها مدام بونميرسي . لقد تغير حاميها . ولقد كسبت كوزيت بهذا التغير . كل ذلك حسن . اما الستمئة الف فرنك فانت لم تحدثني عنها ، ولكني استطيـع ان اعرف ما الذي يجول في خاطرك . إنها وديعة . كيف انتهت هذه الوديعة إلى يدي؟ واي أهمية لذلك ؟ انا اسلم الوديعة إلى أهلها . ان شيئاً اكثر من ذلك لا يمكن ان يطلب مني . انا أتم الاعادة بالنص على اسمي الحقيقي .

وهذا شيء يتعلق بي أيضاً . فأنا نفسي ارغب في ان تعرف من أنا . »
ونظر جان فالجان إلى ماريوس في وجهه .

كان كل ما استشعره ماريوس مبلبلا غير متلاحم الاجزاء . إن بعض هبّات القدر لتحدث مثل هذه الامواج في نفوسنا .

لقد عرفنا ، كلنا ، مثل لحظات الاضطراب هذه . التي يتبدد خلالها كل شيء في ذوات نفوسنا . إننا نقول أول الاشياء التي ترد على ذهننا ، وهي ليست دائماً ، على وجه الضبط ، ما ينبغي ان نقوله . ان ثمة ضروباً من الكشف المفاجيء عن الاسرار لا نستطيع ان نحتملها ، فهي تسكرنا مثل خمر مهلكة . لقد شُدِه ماريوس امام الحالة الجديدة التي كُشفت لعينيه إلى درجة جعلته يخاطب هذا الرجل وكأنه غاضب عليه أو يكاد ، لاعترافه ذاك .

وصاح :

— « ولكن ، لمَ تقول لي ذلك كله ؟ ما الذي يكرهك على ان تفعل ذلك ؟ كان في استطاعتك ان تحتفظ بالسر لنفسك . إن احداً لم يش بك ، ولست ملاحقاً او متعقَّباً . ان عندك سبباً يدعوك إلى ان تكشف عن هذا السر ، طوعاً واختياراً . أكمل . هناك شيء آخر . بمناسبة أي شيء تدلي بهذا الاعتراف ؟ بدافع من اي شيء ؟ »

فاجاب جان فالجان ، في صوت خفيض وغائر إلى درجة كانت تجيز للمرء ان يزعم انه كان يتحدث إلى نفسه لا إلى ماريوس :

— « بدافع من اي شيء ؟ حقاً ، بدافع من اي شيء يجيء هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ويقول : انا محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ حسن ، اجل ! الدافع غريب . إنه دافع الشرف . اجل ، إن سوء حظي حبل احمله هنا في قلبي ، فهو مُحكم وثاقي . وحين يبلغ المرء سن الشيخوخة تكون هذه الحبال قوية بخاصة . إن الحياة كلها لتبيد من حولها ، ولكنها تصمد وتقاوم . ولو كنت قادراً على ان اقتلع هـذا

الحبل ، ان اقطعه ، ان أحل العقدة ، أو أقطعها ، أن أقصد إلى مكان بعيد ، اذن لنجوت ، ولم يكن علي إلا أن امضي لسبيلي . ان ثمة عربات عامة في شارع بولو ا ، انتما سعيدان ، فلامض لسبيلي . لقد حاولت ان اقطع ذلك الحبل ، لقد شددته ، ولكنه قاوم في ثبات ؛ إنه لم ينقطع ؛ لقد كنت اقتلع قلبي معه . ثم قلت : إني لا استطيع ان احيا بعيداً عن هذا المكان . يجب ان أبقى . اجل ، ولكنك على صواب ، انا مخبول ، فلماذا لا أبقى بكل بساطة ؟ انت تقدم الي غرفة في المنزل ، والسيدة بونميرسي تحبني كثيراً ، وهي تقول لذلك الكرسي ذي الذراعين : ابسط ذراعيك له ، وجدك لا يطمع في اكثر من ان اكون إلى جانبه ، فأنا الاثمه ، ولسوف نحيا كلنا معاً ، ونأكل كلنا معاً ، ولسوف أعطي ذراعي لكوزيت ... إلى السيدة بونميرسي ، عفواً ، فانا اقول ذلك بحكم العادة ، ولن يكون لنا غير سقف واحد ، ومائدة واحدة ، ونار واحدة ، وزاوية الموقد نفسها في الشتاء ، والنزهة نفسها في الصيف ، تلك هي البهجة ، تلك هي السعادة ، ذلك هو كل شيء . سوف نحيا كأسرة واحدة ، كأسرة واحدة ! »

وعند هذه الكلمة غدا جان فالجان ضارياً . لقد طوى ذراعيه ، وحدق إلى الأرض ، عند قدميه ، وكأنه كان يود ان يحفر هوة فيها . وغدا صوته ثاقباً على نحو مفاجىء .

— « اسرة واحدة ! لا ، أنا رجل بلا أسرة . أنا لست من اسرتكم. انا لست من اسرة الناس . ففي البيوت التي يكون فيها الناس بين اهليهم اكون انا فضلة زائدة . هناك أسَر ، ولكنها ليست لي . انا البائس ؛ أنا خارج النطاق . هل كان لي اب وأم ؟ أنا أكاد اشك في ذلك . ويوم زوجتُ هذه الطفلة انتهى كل شيء . لقد رأيت انها سعيدة ، وأنها مع الذي أحبت ، وان ثمة عجوزاً صالحاً ، أسرة من ملاكَيْن ، وان جميع المباهج في هذا المنزل ، وان كل شيء

حسن ، قلت لنفسي : لا تدخل . لقد كان في استطاعتي ان اكذب ، هذا صحيح ، ان اخدعكم جميعاً ، ان أظل مسيو فوشلوفان . لقد كان في ميسوري أن اكذب ما كان الكذب من أجلها ، اما وقد أصبح الكذب من أجلي أنا فليس ينبغي لي ذلك . وكان حسبي ان أظل صامتاً ، هذا صحيح ، وعندئذ يستمر كل شيء . انت تسألني ما الذي يكرهني على الكلام ؟ شيء غريب : ضميري . لقد كان من اليسير جداً ، على اية حال ، أن اظل صامتاً . ولقد سلخت الليل وانا احاول إقناع نفسي بذلك . انت تطلب مني اعترافاً ، وما جئت لاخبرك به هو من الغرابة بحيث يكون من حقك ان توجه الي هذا الطلب . اجل ، لقد سلخت الليل وانا اقدم إلى نفسي اعذاراً ، ولقد قدمت اليها اعذاراً جيدة جداً ، لقد بذلت جهدي ، ولكن على غير طائل . بيد أنه كان ثمة شيئان لم أوفق اليهما . أنا لم اوفق لا إلى قطع الحبل الذي يجعل فؤادي مثبتاً ، مسمّراً ، مرسّخاً هنا ، ولا إلى إخراس ذلك الذي يتحدث الي في صمت حين اخلو إلى نفسي . وذلك هو الذي يجعلني اجيء واعترف لك بكل شيء هذا الصباح . بكل شيء ، أو بكل شيء تقريباً . فمن غير المجدي ان اخبرك بما يهمني أنا وحدي . إني احتفظ بذلك لنفسي . الشيء الاساسي انت تعرفه . وهكذا أخذت لغزي ، وحملته اليك . ولقد بقرتُ سري امام عينيك . ولم يكن ذلك قراراً يسهل اتخاذه . فطوال الليل كنت في صراع مع نفسي . آه ، انت تحسب اني لم أقل لنفسي ان هذه القضية لا تشبه قضية شانماتيو . واني باخفائي اسمي لا اؤذي احداً ، وان اسم فوشلوفان قد اعطاني اياه فوشلوفان نفسه عرفاناً منه لجميل أسديته اليه ، وان في ميسوري ان احتفظ به ، واني سوف اكون سعيداً في هذه الغرفة التي تقدمها الي ، واني لن اتدخل في شيء ، واني سوف اكون منتحياً زاوية صغيرة ، وانه فيما تمتلك انت كوزيت ينبغي ان تراودني فكرة البقاء معها في البيت نفسه . وعندئذ كان خليقاً بكل

مريء ان ينعم بنصيبه الحق من السعادة . كان الاستمرار في انتحال شخصية فوشلوفان جديراً بأن يسوي كل شيء . اجل ، ما عدا روحي . كان ثمة بهجة تحيط بي من كل جانب ، ولكن اعماق نفسي كانت لا تزال سوداء . ليس يكفي المرء ان يكون سعيداً ، إن علينا ان نكون راضين عن أنفسنا . ولو اني بقيت مسيو فوشلوفان اذن لكنت اخفي وجهي الحقيقي ؛ اذن لكنت ، في حضرة جذلكم ، احمل لغزاً ؛ اذن لكنت ظلمة في وضح نهاركم ؛ اذن لكنت ادخلت سجن الاشغال الشاقة إلى منزلكم من غير أن أطلق كلمة التحذير في صراحة ؛ اذن لجلست إلى مائدتكم وأنا افكر بانكم لو عرفتم من أنا لطردتموني من هنا ؛ اذن لاجزت لنفسي ان يقدم الي الطعام خدم لو عرفوا لقالوا : يا للهول ! ، اذن لكنت لمستك بمرفقي الذي يحق لك ان تشمئز منه ؛ اذن لكت اختلست جُمع كفك ! لو فعلت ، اذن لكان في منزلكم قسمة للاحترام بين شعر أبيض جليل ، وشعر أبيض يلفه العار . وفي لحظاتكم الاكثر حميمية ، حين تحسب قلوبكم كلها ان بعضها منفتح لبعضها الآخر حتى الاعماق ، وحين نكون اربعتنا معاً ، جدك ، وانتما الاثنان ، وأنا ، فعندئذ يكون ثمة رجل غريب مجهول . لو فعلت ، اذن لكنت جنباً إلى جنب معكم في وجودكم وليس لي غير هم واحد هو أن لا أزيح غطاء بئري الفظيعة ابداً . وهكذا اكون أنا ، انا الرجل الميت ، قد فرضت نفسي عليكم ، انتم الأحياء . وعندئذ اكون قد قسرتها على الارتباط بي إلى الأبد . وعندئذ تصبح انت ، وكوزيت ، وأنا ثلاثة رؤوس في قلنسوة خضراء ! ألا ترتعد ؟ أنا لست الآن إلا أكثر الناس بؤساً ، ولو احتفظت بشخصيتي المنتحلة اذن لأصبحت اكثر الناس فظاعة . واذن لتعين علي ان ارتكب هذه الجريمة كل يوم ! واذن لتعين علي ان اكذب هذه الكذبة كل يوم ! واذن لتعين علي ان احمل وجه الليل هذا كل يوم ! واذن لكنت قدمت اليكم نصيبكم من عاري كل يوم !

كل يوم ! اليكم انتم ، يا أحبتي ، انتم ، يا اولادي ، انتم ياابريائي ! الاحتفاظ بالسكينة هين ؟ الاعتصام بالصمت بسيط ؟ لا ، انه ليس هيناً ولا بسيطاً . إن ثمة صمتاً يكذب . ولو قد لجأت إلى الصمت اذن لتجرعت كذبي ، وخداعي ، وخزيبي ، وجبني ، وخيانتي ، وجريمتي ، قطرة قطرة ، واذن لتعين علي ان ابصقها ، ثم اتجرعها من جديد ، واذن لانتهيت في منتصف الليل وبدأت من جديد عند الظهيرة ، واذن لكانت تحيتي التي أطلقها في الصباح كاذبة ، وتحيتي التي اطلقها في المساء كاذبة ، واذن لكنت انام عليها ، وآكلها مع خبزي ، واذن لنظرت إلى كوزيت في وجهها وأجبت عن ابتسامة الملاك بابتسامة الملعون ، واذن لكنت مداجياً مرذولا ! ولمَ افعل ذلك ؟ لكي اكون سعيداً ! وهل لي ، أنا ، الحق في ان اكون سعيداً ؟ أنا خارجَ الحياة ، يا سيدي . »

وكفَّ جان فالجان عن الكلام . واصغى ماريوس . مثل هذه السلسلة من الافكار والآلام النفسية المبرحة لا يمكن ان تقاطع . وخفض جان فالجان صوته من جديد ، ولكنه لم يعد ذلك الصوت الغائر . لقد أمسى صوتاً مشؤوماً :

— « أنت تسأل لماذا أتكلم . أنت تقول ان احداً لم يش بي ، واني لست مطارداً ولا متعقباً . اجل ! لقد وُشي بي ! اجل ! أنا مطارد ! اجل ! أنا متعقب ! ممن ؟ من نفسي . اني انا نفسي الذي اوصد الطريق في وجه نفسي ، وانا اجرّ نفسي ، وانا أدفع نفسي ، وانا اوقِف نفسي ، وأنا أعدِم نفسي . وحين يكون قياد المرء في يده هو يكون قياده ذاك في يد أمينة . »

وأمسك بسترته هو بيده المطبقة في إحكام وقال وهو يسحبها نحو ماريوس :

— « انظر إلى هذه اليد الآن . ألا ترى أنها تمسك برقبة هذه

السترة على نحو لا سبيل إلى الافلات معه ؟ حسن ، ان الضمير لا يعدو ان يكون قبضة يـد أخرى ! إذا اردنا ان نكون سعداء ، يا سيدي ، فينبغي أن لا نفهم الواجب ابداً ، إذ ما إن نفهمه حتى يمسي حقوداً . وقد نستطيع القول انه يعاقبك لفهمك اياه . ولكن لا ، انه يكافئك على هذا ، ذلك بأنه يضعك في جحيم تستشعر فيه ان الله إلى جانبك . وما إن يتمزق فؤادك حتى يُعقد الصلح بينك وبين ذاتك . »

وفي توكيد مرير أضاف :

— « مسيو بونمرسي ، هذا ليس منطقاً عاقلا ، ولكني رجل مستقيم. إنني بتحقيري لنفسي في عينيك أرفع من قدرها في عيني . ولقد حدث لي ذلك مرة من قبل ، ولكنه كان أقل إيلاماً ، آنذاك ؛ انه لم يـكن شيئاً . أجل ، رجل مستقيم . وما كنت لأكون رجلا مستقيماً لو أقمتَ بسبب من خطأي ، على احترامي . اما الآن ، وقد أصبحت تحتقرني ، فانني رجل مستقيم . لقد كتب عليّ هذا القدَر : لما كنت عاجزاً إلى الابد عن الفوز باكثر من الاحترام المسروق فأن ذلك الاحترام يـذلني ويرهقني باطنياً ، ولكي احترم نفسي يتعين علي ان اكون موضـع الازدراء . ثم إنـي تصدرت . انا عبد رقيق من ارقاء الاشغال الشاقة يطيع ضميره . إنـي اعرف جيداً ان هذا بعيد الاحتمال . ولكن ما الذي تريدني ان افعله ؟ إن الامر لكذلك . لقد اخذت عهوداً على نفسي، وانني لأفي بها . إن ثمة احداثاً تقيدنا ، إن ثمة مصادفات تقودنـا إلى واجبات . اترى ، يا مسيو ماريوس ، لقد وقعت لي في حيـاتـي أحداث . . »

وتمهل جان فالجان كرة اخرى ، بالعاً ريقه في عسر ، وكأنما كانت لكلماته خُلفة مريرة ، ثم استأنف الكلام :

— « حين يكون المرء مثقلا بمثل هذا الهول فليس يملك الحق في ان يجعل الآخرين يشاركونه إياه من غير علمهم ؛ ليس له الحق في ان

يعديهم بطاعونه ؛ ليس له الحق في ان يجعلهم ينزلقون إلى هاويته من غير ان يحذرهم منها ؛ ليس له الحق في ان يترك قلنسوته الحمراء تنسحب فوق رؤوسهم ؛ ليس له الحق في ان يزعج سعادة الآخرين ، على نحو أمراء ، بشقائه هو . ان اقترابك من السالمين ومسّك اياهم ، في الظلام ، بقرحتك اللامنظورة شيء رهيب . لقد أعارني فوشلوفان اسمه عبثاً ؛ أنا لم يكن لي الحق في ان أفيد منه . كان في استطاعته ان يعطيني اياه ، ولكن لم يكن في استطاعتي ان آخذه . ان الاسم هو الأنا . اجـل ، يا سيدي ، لقد فكرت بعض الشيء ، ولقد طالعت بعض الشيء ، على الرغم من اني فلاح ، وانت ترى اني اعبر عن نفسي على نحو مقبول. أنا اكوّن فكرتي الخاصة عن الاشياء . ولقد زودت نفسي بثقافة خاصة بي . اجل ، إن اختلاس اسم ما والاختباء تحته عمل غير شريف . إن احرف الابجدية يمكن ان تُسرق مثل حافظة نقود أو ساعة سـواء بسـواء . أن تكون امضاء مزوراً بلحم ودم ، أن تكون مفتاحاً مقلداً حياً ، أن تدخل إلى بيوت الشرفاء من الناس بتزوير أقفالهم ، أن لا تنظر بعد اليوم البتة ، بل ان تنظر بحوَل ، ان تكون شائناً في قرارة نفسك ، لا ! لا ! لا ! من الافضل ان تتألم ، أن تدمى ، ان تبكي ، أن تنزع الجلد بالاظافر عن اللحم ، ان تسلخ الليالي بالتلوي ألمـاً ، بالوجع النفسي المرير ، أن تبلى جسداً وروحاً . هذا هو السبب الذي حملني على ان اجيء واخبرك بهذا كله . اني افعل ذلك بمجرد طوعي واختياري ، كما تقول . »

وتنفس في صعوبة ، وقذف هذه الكلمة الاخيرة :

— « لكي أعيش ، سرقت ذات يوم رغيفاً . واليوم ، لكي اعيش ، لا اريد ان اسرق اسماً . »

فقاطعه ماريوس :

— « لكي تعيش ! انت في غير ما حاجة إلى ذلك الاسم لـكي

تعيش ! »

فأجابه جان فالجان وهو يرفع رأسه ويخفضه عدة مـــرات علـى التعــاقب :

— « آه ، لقد فهمت . »

وران السكوت . لقد اعتصم كل منهما بالصمت ، لقد غرق كل منهما في هاوية من الافكار. وكان ماريوس قدجلس إلى جانب احدى الطاولات ، وكان يسند زاوية فمه على احدى أصابعه الملوية . وكان جان فالجان يذرع الحجرة جيئة وذهوباً . ثم انه وقف أمام احدى المرايا وظل جـــامداً من غير حراك . واخيراً قال ، ناظراً إلى تلك المرآة التي لم ير فيهـــا نفسه ، وكأنما كان يجيب عن حجة باطنية :

— « على حين أني ، في الوقت الحـــاضر ، استشعر الراحـــة والعــزاء . »

واستأنف سيره ، ومضى إلى الطرف الآخر من حجرة الاستقبال . ولم يكد يستدير حتى لمح ان ماريوس كان يراقب سيره . وقال له في نبرة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— « انا اجر احدى قدمي بعض الشيء . انت تعرف سبب ذلـك الآن . »

ثم استدار نحو ماريوس :

— « والآن ، يا سيدي ، تصور هذا : أني لم أقل شيئاً ، أني ظللت مسيو فوشلوفان ، أني أخذت مكاني في بيتكم ، اني واحـد منكم ، اني في غرفتي ، اني أجيء لتناول طعام الصباح في مباذلي ، اننا نذهب ثلاثتنا عند هبوط الليل إلى المسرح ، اني اصحب السيـدة بونميرسي إلى التويلري وإلى القصر الملكي ، واننا كلنا معاً ، وانكـم تحسبونني نظيراً لكم . وفيما اكون ذات يوم هناك ، وفيما تكونون انتم هناك ، وفيما نحن نتحدث ، وفيما نحن نضحك ، تسمعون صوتاً يصيح

بهذا الاسم : جان فالجان ! وترون تلك اليد الرهيبة ، البوليس ، تنبثق من الظلام وتنزع القناع فجأة عن وجهي ! »

وكف عن الكلام كرة اخرى . كان ماريوس قد نهض في رعدة : واستأنف جان فالجان حديثه :

— « ما قولك ؟ »

وكان صمت ماريوس جواباً .

واضاف جان فالجان :

— « انت ترى جيداً اني على حق في عدم الاعتصام بالصمت . امض، كن سعيداً ، كن في الفردوس ، كن ملاكاً لملاك ، كن مغموراً باشعة الشمس ، وكن راضياً بذلك ، ولا تزعج نفسك بالطريقة التي يصطنعها رجل هالك مسكين لكي يفتح صدره ويؤدي واجبه . ان أمامك رجلا بائساً ، يا سيدي . »

وعبر ماريوس حجرة الاستقبال في تؤدة ، حتى إذا أمسى على مقربة من جان فالجان بسط يده له .

ولكن كان على ماريوس ان يأخذ تلك اليد التي لم تعرض نفسها ؛ إن جان فالجان لم يمانع ، ولقد بدا لماريوس انه يصافح يداً من رخام .

وقال ماريوس :

— « ان لجدي اصدقاء . ولسوف احصل لك على العفو . »

فأجاب جان فالجان :

— « لا فائدة . إنهم يحسبونني ميتاً ، وهذا كاف . الأموات غير خاضعين للمراقبة . إن من المفروض ان تصيبهم العفونة في سكينة . الموت صنو العفو . »

وسحب يده من يد ماريوس المتشبثة بها ، وأضاف في ضرب من الوقار الذي لا يعرف الرحمة :

— « وإلى هذا فأن قيامي بواجبي هو الصديق الذي افزع اليه . وأنا

في غير ما حاجة إلا إلى عفو واحد ، هو عفو ضميري . »

وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب في رفق عند الطرف الآخر من حجرة الاستقبال ، وأطل رأس كوزيت . انهما لم يريا غير وجهها العذب؛ كان شعرها أشعث على نحو فاتن،وكانت عيناها ما تزالان متورمتين بالرقاد. وأطلقت حركة اشبه بحركة طائر يخرج رأسه من عشه ، ونظرت أولا إلى زوجها ، ثم إلى جان فالجان ، وخاطبتهما ضاحكة ، حتى لقد كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى ابتسامة في اعماق وردة :

— « انا اراهن انكم تتحدثون في السياسة . يا للحماقة ! بدلا من ان تكونوا معي ! »

وارتعد جان فالجان .

وتلجلج ماريوس :

— « كوزيت ! »

ثم سكت . ولو قد رآهما امرؤ لحسب أنهما مجرمان .

وواصلت كوزيت ، متألقة ، النظر اليهما جميعاً . كان مرح الجنة في عينيها :

وقالت :

— « لقد قبضت عليكما متلبسين بالجرم المشهود . لقد سمعت اللحظة من خلال الباب ، ابي فوشلوفان يقول : « الضمير ... أداء الواجب...» هذه سياسة ، هذه . انا لا اريدها ، ما كان ينبغي لكما ان تتحدثا في السياسة في مثل هذا اليوم . هذا شيء لا يجوز . »

فأجاب ماريوس :

— « انت مخطئة ، يا كوزيت . نحن نتحدث في التجارة . اننا نتدارس افضل الطرق لتوظيف فرنكاتك الستمئة الف .... »

فقاطعته كوزيت :

— « هذا ليس كل شيء . أنا آتية . هل ترغبان في وجودي هنا ؟ »

واجتازت الباب في عزم ، ودخلت إلى حجرة الاستقبال : كانت ترتدي ثوباً صباحياً أبيض فضفاضاً ، ذا ألف ثنية ، وذا ردنين عريضين؛ ثوباً يبتدىء من العنق ويهبط حتى القدمين . إن في السماوات الذهبية التي نقع عليها في اللوحات القوطية القديمة مثل هذه الاثواب الفاتنــة يرتديها الملائكة .

ورأت نفسها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين في مرآة ضخمة ، ثم هتفت في تفجّر نشوة روحية تمتنع على الوصف :

— « كان في غابر الزمان ملك وملكة : أوه ، ما أشد سعادتي ! »

قالت ذلك ، وحنت رأسها احتراماً لماريوس ولجان فالجان .

واضافت :

— « ها أنا ذا أستقر ، بالقرب منكما ، على كرسي ذي ذراعين . سوف نتناول طعام الفطور بعد نصف ساعة ، وعندئذ تقولان كل ما ترغبان في قوله . أنا اعرف جيداً ان الرجال يجب ان يتكلموا ، ولسوف اكون عاقلة جداً . »

وامسك ماريوس بذراعها وقال لها في حب :

— « نحن نتحدث في مسائل تجارية : »

فأجابت كوزيت :

— « بالمناسبة ، لقد فتحت نافذتي فوجدت مجموعة كبيرة مـــن الـ *pierrots* (عصافير الدوري أو الاقنعة) في الحديقة . عصـــافير أعني ، لا أقنعة . اليوم اربعاء الرماد ، ولكن ليس للطيور : »

— « اقول لك انا نتحدث في مسائل تجارية ؛ اذهبي ، يا حبيبتي كوزيت : دعينا لحظة . نحن نتحدث حول الارقام . إن ذلك سوف يتعبك . »

— « لقد لبستَ رباط عنق فاتناً ، هذا الصباح ، يا ماريوس . انت تحب الزينة كثيراً ، يا مولاي . ان ذلك لن يتعبني . »

— « اؤكد لك انه سوف يتعبك . »

— « لا . لأنك أنت . انا لن افهمكما ، ولكني سوف أصغي اليكما . فحين نسمع اصواتاً نحبها نكون في غير حاجة إلى ان نفهم الكلمات التي تقولها . ان اجتماعي بكما ، هنا ، هو كل ما اريده . سوف ابقى معكما ، أجل سوف ابقى ! »

— « انت كوزيت حبيبتي ! مستحيل. »

— « مستحيل ! »

— « نعم . »

فأجابت كوزيت :

— « حسن جداً ، كنت جديرة بأن اقدم اليك الاخبار . كنت جديرة بان اخبرك ان جدي لا يزال نائماً ، أن عمتك تشهد القداس ، ان الموقد في غرفة ابي فوشلوفان يتسرب منه الدخان ، ان نيقوليت قد استدعت منظف المداخن ، وان توسين ونيقوليت قد اخذتا تتشاجران منذ اليوم ، وان نيقوليت تسخر من تلجلج توسين . حسن ، انك لن تعرف شيئاً . آه ، هذا مستحيل ؟ انا بدوري — كما سترى — يا سيدي ، سوف اقول : هذا مستحيل . وعندئذ من الذي يقع في الشرك؟اتوسل اليك ، يا حبيبي ماريوس ، دعني أبقى هنا معكما . »

— « اقسم لك ان علينا ان نبقى وحدنا . »

— « حسن ، وهل انا شخص ما ؟ »

ولم ينطق جان فالجان بكلمة . والتفتت كوزيت اليه وقالت :

— « قبل كل شيء ، اريد منك ، يا أبي ، ان تجيء وتقبّلني . ما الذي تفعله هنا هكذا صامتاً لا تنطق بكلمة ، بدلا من ان تؤيدني ؟ من الذي أعطاني أباً مثل هذا ؟ انت ترى في وضوح اني تعيسة جداً في حياتي المنزلية . ان زوجي يضربني . تعال ، قبلني في الحال . »

وتقدم جان فالجان .

واستدارت كوزيت نحو ماريوس .

ــ « أما أنت ، يا سيدي ، فاني امد لساني اليك . »

وقدمت جبينها إلى جان فالجان .

وخطا جان فالجان في اتجاهها خطوة .

وارتدت كوزيت .

ــ « ابي ، انت شاحب الوجه : هل تؤلمك ذراعك ؟ »

فقال جان فالجان :

ــ « لقد شُفِيتُ . »

ــ « هل أرقت الليلة البارحة ؟ »

ــ « لا . »

ــ « هل انت حزين ؟ »

ــ « لا . »

ــ « قبلني . اذا كنتَ في صحة جيدة ، اذا كنت قد نمت نوماً عميقاً ، واذا كنت سعيداً فلن اعنفك . »

وقدمت له جبينها كرة اخرى .

وقبّل جان فالجان ذلك الجبين الذي كان يطفو فوقه انعكاس سماوي .

ــ « إبتسمْ : »

وأطاع جان فالجان . كانت ابتسامة شبح .

ــ « والآن انتصِرْ لي على زوجي . »

فقال ماريوس :

ــ « كوزيت ! ... »

ــ « إغضب ، يا أبي . قل له إني يجب ان أبقى . في استطاعتكما من غير شك أن تتحدثا أمامي . واذن ، فانّما تحسبان اني بلهاء جداً .

واذن ، فأنه لعجيب جداً هذا الذي تقولانه ! تجارة ، وضعُ مـال في مصرف ، هذه مسألة خطيرة . الرجال يتظاهرون بالتكتم لغير داع . اريد ان ابقـى . أنا جميلة جداً هذا الصباح . أنظر الي ، يا ماريوس ! »

وفي هزة كتفين فاتنة ، وفي إظهار للاستياء رائع إلى حد يكاد يمتنع على الوصف ، نظرت إلى ماريوس . فكأن برقاً سرى بين هذين الكائنين. ولم يهمهما ان يكون في الحجرة شخص آخر .

وقال ماريوس :

— « احبك ! »

وقالت كوزيت :

— « اعبدك ! »

وارتمى احدهما ، برغمه ، بين ذراعي الآخر .

ثم ان كوزيت استأنفت كلامها ، معدلة احدى طيات ثوبها ، مطيلة شفتيها على نحو مظفَّر :

— « سوف أبقى . »

فأجاب ماريوس ، في نبرة متوسلة :

— « لا . لا . إن عندنا شيئاً ينبغي أن ننجزه . »

— « ألا تزال تقول لا ؟ »

واصطنع ماريوس نبرة وقوراً :

— « أؤكد لك ، يا كوزيت ، ان هذا مستحيل . »

— « آه ، انت تتكلم بلهجة الرجال ، يا سيدي . حسن جداً ، سوف اذهب . وانت يا ابي ، انك لم تنتصر لي . سيدي الوالد ، سيدي الزوج ، انتما طاغيتان . سوف اشكوكما إلى جدي . إذا كنتما تحسبان أني سأعود وأخوض معكما في شيء من الهراء تكونان مخطئين . أنا فخور . سوف انتظركما الآن . ولسوف تريان انكما انتما اللذان ستتعبان بدوني . أنا ذاهبة ، حسن جداً . »

ومضت لسبيلها .

وبعد ثانيتين فتح الباب من جديد ، واطل وجهها كرة اخرى من بين مصراعيه ، وصاحت قائلة لهما :

— « أنا غاضبة جداً . »

وأغلق الباب ثانية ، وعادت الظلمة .

كانت اشبه بشعاع تائه اخترق الليل فجأة من غير ان يتوقعه احد .

وتثبّت ماريوس من ان الباب محكم الايصاد .

وغمغم :

— « مسكينة كوزيت ! حين تعلم ... »

وعند هذه الكلمات ارتعدت اوصال جان فالجان كلها . وسدد إلى ماريوس عيناً مشدوهة .

— « كوزيت ! آه ، اجل ، هذا صحيح ، انت سوف تخبر كوزيت بهذا . قف ، أنا لم افكر في ذلك . ان لنا القوة على شيء ما . ولكن ليست لنا القوة على شيء آخر . سيدي ، انا اتضرع اليك ، أنا اتوسل اليك ، يا سيدي ، ان تعاهدني باقدس ما عندك ان لا تعلمها بذلك . اليس يكفي ان تعرفه انت ؟ إن في استطاعتي ان اقول ذلك بطوعي من غير ان اكون مكرهاً عليه ، وان أعلنه على الكون ، على الناس جميعاً ، فليس في هذا ما يضيرني . ولكن هي ، إنها لا تعرف ما ذاك ، ان ذلك خليق به ان يروعها . محكوم بالاشغال الشاقة ، ماذا ! سوف يتعين عليك ان تشرح ذلك لها ، ان تقول لها : إنه رجل كان حبيساً في سجن الاشغال الشاقة . لقد رأت قافلة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ذات يوم . اوه ، يا الـهي ! »

وارتمى في احد الكراسي ذوات الذراعين ، وحجب وجهه بكلتا يديه . لم يكن في ميسور المرء ان يسمعه ، ولكن كان في ميسوره ان يرى ، من اهتزاز منكبيه ، انه كان يبكي . ان الدموع الصامتة دموع

فظيعة .

إن ثمة اختناقاً في النحيب . واستبد به ضرب من التشنج ، وانقلب على ظهر الكرسي ذي الذراعين وكأنه كان يلتمس النفس ، تاركاً ذراعيه تتدليان ، ومجيزاً لماريوس ان يرى وجهه مغسولا بالعبرات . وسمعه ماريوس يغمغم في جرس خفيض إلى درجة بدا معها وكأن صوته ينبعث من عمق لا قرار له : « أوه ، ليتني أموت ! »

فقال ماريوس :

— « كن هادئاً ، سوف أحتفظ بسرك ولن أطلع عليه احدا . »

لعل ماريوس كان أقل انعطافاً مما كان ينبغي له ، ولكنه وجه نفسه خلال ساعة مضت مضطراً إلى أن يروض ذاته على مفاجآة رهيبة ، وقد رأى ، شيئاً فشيئاً ، رجلا أشغالياً يوضع امام عينيه فوق مسيو فوشلوفان. واستحوذت عليه شيئاً فشيئاً ، هـــذه الحقيقة المشؤومة ، وقادته نزعة الموقف الطبيعية إلى ان يحدد الشقة التي اخذت تفصل ما بينه وبين هذا الرجل . واضاف ماريوس :

— « من المتعذر علي ان لا اقول لك كلمة عن الوديعة التي أعدتهـــا في كثير من الاخلاص والأمانة . انه عمل من اعمال الصلاح . ومـــن العدل ان تقدم اليك مكافأة على ذلك . حدد المبلغ بنفسك يُدفع اليك . لا تخشَ أن تحدده على نحو مرتفع جداً . »

فأجاب جان فالجان في رقة :

— « انا اشكرك ، يا سيدي . »

وظل مستغرقاً في التفكير لحظة ، مُمـراً طرف سبابته فوق ظفر ابهامه على نحو آلي ، ثم رفع صوته :

— « لقد انتهى كل شيء تقريباً . بقيت مسألة واحدة ... »

— « مـاذا ؟ »

لكأنما عرف جان فالجان تردداً أخيراً . وتلجلج — ولا نقول قال —

في غير صوت ، بل ومن غير تنفس تقريباً :

— « والآن ، وقد أصبحت تعرف ، هل تظن يا سيدي — وأنت صاحب الأمر — انه يتعين علي ان لا أرى كوزيت كرة اخرى ؟ »

فأجاب ماريوس في برود :

— « أعتقد ان هذا هو الأفضل . »

وتمتم جان فالجان :

— « أنا لن اراها بعد اليوم . »

ومضى نحو الباب .

ووضع يده على تفاحة الباب ، وأذعن لسانُ القفل ، وانفرج الباب بعض الشيء ، ففتحه جان فالجان حتى يكون في ميسوره اجتيازه ، ووقف لحظــة من غير حراك ، ثم أوصد البـــاب ، والتفـــت إلى ماريوس .

إنه لم يعد شاحب الوجه ؛ لقد غدا ازرق ضارباً إلى السواد . لم يبق ثمة دموع في عينيه ، ولكنْ ضربٌ من اللهب الفاجع . كان صوته قــد أمسى ، كرة اخرى ، هادئاً إلى حد غريب .

وقــال :

— « ولكن ، يا سيدي ، سوف أعود — إذا أجزت لي ذلك — لكي أراها . اؤكد لك أني حريص على هذا أشد الحرص . ولو لم اكــن متشبثاً برؤية كوزيت لمــا اقررت بالاعتراف الذي قمتُ به ، لو لم اكن متشبثاً بذلك لمضيت لسبيلي ؛ ولكن رغبتي في البقاء حيث تحيا كوزيت وفي الاستمرار في رؤيتها ، هي التي حملتني على ان اخبرك ، في اخلاص ، بكل شيء . انت تتابع تفكيري ، اليس كذلك ؟ ان ذلك شيء يفسر نفسه بنفسه . انت ترى ، انها كانت ، طوال تسع سنوات مضت ، إلى جانبي ؛ لقد عشنا باديء الأمر في ذلك البيت العتيق القائم علــى الجادة ، ثم في الدير ، ثم قرب حديقة اللوكسومبورغ . وهناك رأيتها

انت للمرة الأولى . انت تذكر قبعتها الزرقاء المصنوعة من نسيج ذي وبر . ثم عشنا بعد ذلك في حي الانفاليد حيث كان باب حديدي وحديقة . شارع بلوميه . لقد قطنت في فناء خلفي صغير حيث كنت اسمع عزفها على البيان . تلك كانت حياتي . اننا لم نفترق البتة . ودام ذلك تسع سنوات وبضعة اشهر . كنت مثل ابيها ، وكانت هي ابنتي . انا لا ادري ما اذا كنت تفهمني ، ايها السيد بونمرسي ، ولكن من العسير علي ان لا اراها البتة منذ اليوم ، ان لا اتحدث اليها بعد ، أن أحرم كل شيء بالكلية . وإذا لم تجد في ذلك سوءاً ، فسوف أجيء ، بين الفينة والفينة ، لأرى كوزيت . انا لن اكثر من التردد عليكم . ولن اطيل المكث عندكم . قد تقول إني ينبغي ان أستقبَل في الحجرة الصغيرة السفلى . في الدور الاسفل . اني مستعد لأن ادخل من الباب الخلفي ، المخصص للخدم ، ولكن ذلك قد يثير الاستغراب . من الافضل ، في ما أعتقد ، ان ادخل من الباب العادي . صدقني ، يا سيدي ، انا ما زلت محتاجاً إلى ان ارى كوزيت . ان اراها نادراً إلى الحد الذي ترغب فيه . ضع نفسك مكاني ؛ إنها كل ما أملك . وإلى هذا فان علينا ان نأخذ حذرنا . إذا انقطعت عن المجيء انقطاعاً كاملا ، ترك ذلك اثراً سيئاً ، وخليق به ان يُعتبر ظاهرة غريبة . ان ما استطيع ان أفعله ، مثلا ، هو ان اجيء في المساء ، عند هبوط الليل . »

فقال ماريوس :

— « انك سوف تأتي كل مساء . ولسوف تنتظرك كوزيت . »

فقال جان فالجان :

— « انت رجل كريم ، يا سيدي . »

وانحنى ماريوس لجان فالجان ، وقادت السعادةُ اليأسَ إلى الباب ، وافترق هذان الرجلان .

٢

الظلمات التي قد ينطوي عليها

افشاء السر

كان ماريوس يستشعر قلقاً بالغاً .

لقد وجد ، الآن ، تفسيراً لتلك النفرة التي طالما احس بها نحو الرجل الذي رآه مع كوزيت . كان ثمة شيء لغزيّ غريب في هذا الشخص الذي سبق لغريزته ان حذرته منه . وكانت تلك الاحجية هي أبشع ضروب الخزي : سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . إن مسيو فوشلوفان هذا كان هو الاشغالي جان فالجان .

إن وقوع المرء فجأة ، وهو في غمرة السعادة ، على مثل هذا السر ، اشبه باكتشاف عقرب في عش قماريّ .

هل فُرض على سعادة ماريوس وكوزيت ، منذ اليوم ، ان تخضع لهذا الجوار ؟ أكان ذلك امراً واقعاً ؟ اكان قبول ذلك الرجل يشكل جزءاً من الزواج الذي تم ؟ ألم يكن ثمة ما يُعمل ؟

هل تزوج ماريوس الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة أيضاً ؟

فغير مُجْدٍ ان تُتوّج بالضياء وبالبهجة ، وغير مجد ان تنعم بلحظة الحياة الارجوانية الملوكية ، الحب السعيد . مثل هذه الصدمات تستطيع ان تُكره حتى كبيرَ الملائكة في نشوته الروحية ، وحتى نصف الاله في مجده ، على الارتعاد .

وكالذي يحصل دائماً في مثل تبادل الرأي هذا ، سأل ماريوس نفسه أليس ثمة تأنيب ينبغي ان يوجَّه اليه هو ؟ أكان يعوزه حسن التكهن ؟ اكان يعوزه التبصر ؟ هل أصابه الانشداه على نحو غير إرادي ؟ قليلا ،

وبما . هل ولج – من غير ما احتياط كاف لالقاء الضوء على المناطق المجاورة – هذه المغامرةَ الغرامية التي انتهت إلى الزواج من كوزيت ؟ وقرر–وهكذا تمثل هذه التقريرات المتعاقبة التي نتخذها بانفسنا في ما يتصل بانفسنا تسمو بنا الحياة شيئاً بعد شيء–قرر الجانبَ الخيالي من طبيعته، الجانبَ المأخوذ بالاوهام ، وهو ضرب من السحابة الباطنية الملازمة لبعض الطبائع ، والتي تنبسط في ذروة الانفعال والالم – حين تتغير حرارة الروح – وتجتاح الانسان اجتياحاً كاملا ، إلى حد يحيله إلى مجرد وعي مندّىً بالضباب. ولقد اشرنا غير مرة إلى هذا العنصر المميز من عناصر شخصية ماريوس . لقد تذكّر أنه – في نشوه حبه ، في شارع بلوميه ، خلال تلك الاسابيع الستة أو السبعة الحالمة – لم يتحدث إلى كوزيت ، ولو مجرد حديث ، عن مأساة بيت غوربو الحقير حيث اعتصم المعتدى عليه بالصمت ، على نحو غريب ، اثناء الصراع ، ولاذ بالفرار في ما بعد . كيف تأتّى له ان لا يتحدث إلى كوزيت عن ذلك ؟ ومع هذا ، فقد كان ذلك غريباً جداً ، ورهيباً جداً . كيف تأتّى له ان لا يذكر أمامها اسم تيناردييه واهله ، ولو مجرد ذكر ، وبخاصة في ذلك اليوم الذي التقى فيه ايبونين ؟ لقد وجد الآن عسراً بالغاً في ان يفسر لنفسه صمته السابق . ومع ذلك فقد وجد مبرراً له . لقد ذكر دُواره ، وثمله بكوزيت ، وقد استغرق الحب كل شيء ، ورفع كل منهما الآخر إلى مقام المثل الاعلى ، وربما ايضاً – فيما يمتزج مقدار العقل اللامدرَك بهذه الحالة العنيفة الفاتنة من حالات النفس – تلك الغريزةَ الغامضة الكليلة التي حفزته إلى أن يخبىء ويلغي في ذاكرته هذه المسألة الرهيبة التي كان يخشى ان يمسها ، والتي لم يشأ ان يلعب فيها اي دور ، والتي تملص منها ، والتي لم يكن يستطيع ان يكون فيها لا راوية ولا شاهداً من غير أن يكون متهماً . وإلى هذا ، فتلك الاسابيع القليلة لم تكن غير ومضة ؛ لم يكن لديهما مجال لاي شيء ، غير الحب . واخيراً ، إذا

ما وزن كل شيء ، وقلّبه ، ودرسه ، ما النتائج التي كان يمكن ان تنشأ لو اخبر كوزيت بقصة كمين بيت غوربو العتيق وذكر امامها اسم تيناردييه وأهله ؟ وحتى لو انه اكتشف ان جان فالجان محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، أكان ذلك يغيّره هو ، ماريوس ؟ اكان ذلك يغيرها هي ، كوزيت ؟ اكان يرتد على عقبيه ؟ اكان يعتري حبه لها ضعف أو وهن؟ اكان يتردد في الزواج منها ؟ لا . واذن فليس ثمة ما يوجب الاسف ، وليس ثمة ما يؤاخذ نفسه عليه ؟ كان كل شيء حسناً . ان هناك رباً لهؤلاء السكيرين الذين ندعوهم العشاق . وهكذا فان ماريوس كان قد سلك ، في عماه ، تلك الطريق التي كان خليقاً به ان يختارها لو قدّر له ان يراها بوضوح . كان الحب قد عصب عينيه — ليقوده إلى أين ؟ إلى الجنة .

ولكن هذه الجنة كانت معقدة ، منذ اليوم ، بمصاحبة جحيمية .

إن نفرة ماريوس السابقة من هذا الرجل ، من فوشلوفان هذا الذي أمسى جان فالجان ، غدت الآن ممزوجة بالرعب .

وفي رعبه — كما يتعين علينا ان نقول — كان شيء من الشفقة ، وكان شيء من الدهش أيضاً .

كان هذا السارق ، هذا السارق المحكوم عليه مرتين بالاشغال الشاقة ، قد أعاد وديعة . وأية وديعة ؟ ستمئة الف فرنك . كان هو وحده مطلعاً على سر تلك الوديعة . كان في امكانه ان يحتفظ بهذا المال كله ، ولكنه أسلمه كله .

وإلى هذا ، فقد كان قد كشف القناع عن وضعه مختاراً . ان شيئاً لم يكن يكرهه على ان يفعل ذلك . واذا كان ثمة من يعرف هويته فهو مدين بهذه المعرفة اليه هو . لقد كان في ذلك الاعتراف شيء اكثر من قبول الاذلال ، كان فيه قبول الخطر . فالقناع ، عند الرجل الصادر فيه حكم قضائي ، ليس قناعاً ؛ إنه ملاذ . لقد تخلى عن ذلك الملاذ .

والاسم الزائف أمن ؛ ولقد اطّرح هذا الاسم الزائف . لقد كان في استطاعته ، وهو الأشغالي ، ان يخفي نفسه إلى الابد في اسرة شريفة ؛ ولكنه قاوم هذا الاغراء . وبأي دافع؟ بدافع من تردد الضمير. لقد شرح بنفسه هذه المسألة بنبرة الحقيقة التي لا تقاوَم . وباختصار ، فأياً ما كان جان فالجان هذا فقد كان له ضمير يقظ من غير شك . كان فيه اعادة اعتبار خفيّة مستهَلة ؛ والـذي يبـدو ، تبعاً لجميـع المظاهر ، ان الضمير كان سيد هذا الرجل منذ زمن بعيد . ان مثل هذا الأفراط في العدالة والطيبة ليس من شيمة الطبائع الوضيعة . ويقظة الضمير لا تعدو ان تكون عظمة النفس .

كان جان فالجان مخلصاً . وهذا الاخلاص ، المرئـيّ ، الملموس ، الذي لا يحتمل الشك ، الواضح حتى بالآلام التي انزلها به ، جعل البحث والتحقيق عديمي الجدوى ، وخلع الثقة على ما قاله هذا الرجل . وهنا عرف ماريوس عكساً غريباً للاوضاع . ما الذي انبثق من مسيـو فوشلوفان ؟ الحذر . ما الذي تدفق من جان فالجان ؟ الثقة .

في هذه الميزانية الخفية التي وضعها ماريوس بكثير من الروية ، في ما يتصل بجان فالجان هذا ، تثبّت مما له ، وتثبت مما عليه ، وحاول ان يصل إلى موازنة . ولكن ذلك كله كان وكأنه وسط إعصار : إن ماريوس ــ وقد حاول ان يكوّن فكرة جلية عن هذا الرجل ، ولاحق جان فالجان ، إذا جاز التعبير ، في أعماق تفكيره ــ قد ضيعـه ثم وجده كرة اخرى في ضباب مشؤوم .

كان رد الوديعة في أمانة ، وكان الاعتراف النزيه الطاهر يرشحـان بالخير . كانا أشبه بانقشاع في سحابة . ولكن السحابة ما لبثت ان عادت سوداء من جديد .

وعلى الرغم من شدة الاختلاط في ذكريات ماريوس فان ظلاً منهـا عاوده .

ما كانت على وجه الضبط مغامرة مسكن جوندريت الحقير تلك ؟ لماذا عمد ذلك الرجل ، لدن وصول الشرطة، إلى الفرار بدلا من ان يشكو أمره إلى رجال الأمن ؟ هنا وجد ماريوس الجواب . لأن هذا الرجل كان هارباً من وجه العدالة .

وسؤال آخر : لماذا جاء هذا الرجل إلى المتراس ؟ ذلك ان ماريوس رأى الآن تلك الذكرى في وضوح ، بعد ان عاودت الظهور وسط هذه الانفعالات كالحبر العادم اللون أمام النار . لقد كان هذا الرجل في المتراس . إنه لم يقاتل هناك . ما الذي جاء به اذن ؟ امام هذا السؤال انتصب شبح ، وقدم جواباً . جافير . لقد تذكر ماريوس أحسن التذكر ، في هذه الساعة ، مشهد جان فالجان المأتمي وهو يقود جافير موثقاً إلى خارج المتراس ، وسمع من جديد دوي الغدارة المروع خلف زاوية زقاق مونديتور . لعله كان ثمة كراهية بين هذا الجاسوس وهذا الاشغالي . كان احدهما يعوق الآخر . كان جان فالجان قد قصد إلى المتراس لكي يثأر لنفسه . وكان قد وصل متأخراً . ولعله كان يعرف ان جافير كان اسيراً هناك . كانت نزعة الثأر الكورسيكي * قد تسربت إلى بعض الاعماق السفلى ، وغدت قانوناً لها . وهي نزعة طبيعية جداً بحيث لا تثير دهش النفوس نصف المرتدة نحو الخير . وهذه القلوب قد رُكّبت على نحو قد يجعل المجرم ، الآخذ سبيله إلى التوبة ، متعففاً عن اللصوصية ، ولكنه غير متعفف عن الثأر . كان جان فالجان قد قتل جافير . هذا ، على الاقل ، ما بدا واضحاً .

واخيراً ، سؤال ختامي ، ولكن لم يكن ثمة جواب عن هذا السؤال . لقد احس ماريوس بهذا السؤال وكأنه كُلابة . كيف اتفق لوجود جان فالجان ان لازم كوزيت هذه الفترة الطويلة كلها ؟ ايّ قدر غامض من

* حالة من المداوة يتسع نطاقها في كورسيكة حتى تشمل جميع افراد الأسرة اثر عدوان او قتل يتعرض له احد المنتسبين الى تلك الاسرة . (Vendette corse)

من اقدار العناية الالـهية وضع هذه الطفلة على اتصال مستمر بهـذ الرجل ؟ هل السلاسل المزدوجة القارنة تُطـرّق اذن في الأعالي أيضاً ، وهل يرضى الرب ان يجمع ما بين الملاك والشيطان ؟ هل في استطاعة الجريمة والبراءة اذن أن تعيشا تحت سقف واحد في سجن الشقاء الخفي ؟ وفي مضيق الُبمدانين هذا، الذي ندعوه القـدر البشري ، هل يستطيـع جبينان ان يتقاربا حتى التماس ، وأحدهما ساذج والآخر رهيب ، وأحدهما مندّى ببياض الضحى الالـهي والآخر شاحب إلى الابد بوهج برق ازلي ؟ من الذي استطاع ان يقرر هذا الاقتران الذي لا تفسير له؟ بأي طريقة ، ومن خلال اية اعجوبة أقيمت وحدة الحياة بين هذه الطفلة السماوية وهذا البائس العجوز ؟ من الذي تمكن من ان يشد الحمل إلى الذئب وان يشد الذئب ــ وهو شيء اشد امتناعاً على التفسير ــ إلى الحمل ؟ ذلك ان الذئب احب الحمـل ، ذلك ان الكائن الضاري قدّس الكائن الضعيف ، ذلك ان الملاك كان ــ طوال تسع سنوات ــ يتخـذ من الهولة سناداً . كانت طفولة كوزيت وصباها ، ورؤيتها النور ، ونموها البتولي نحو الحياة والضياء مصونة بهذا التفاني الشائه الرهيب . هنـا تقشرت الاسئلة ــ إذا جاز التعبير ــ عن احاجي لا حصر لها ، وانفتحت الهُوى في اعماق الهُوى ، ولم يعد في ميسور ماريوس ان ينحني فوق جان فالجان من غير ان يصيبه الدوار . فأي شيء ، اذن ، كان هـذا الرجل الهوّة ؟

إن رموز سفر التكوين القديمة سرمدية . ففي المجتمع البشري ، كما هو اليوم وكما سيكون ، حتى ذلك اليوم الذي سوف يغمره فيه ضياء اعظم ، يوجد دائماً رجلان ، أحدهما فوقيّ ، والآخر تحتيّ . فأما الذي يتّبع الخير فهو هابيل ، واما الذي يتّبـع الشر فهو قايين . من كان هذا اللص المستغرق على نحو تقوي في حب فتاة عذراء ، والسهر عليها ، وتنشيئها ، وحمايتها ، وتبجيلها ، واحاطتها ــ وهو غير الطاهـر ــ

بالطهر ؟ من كان هذا البالوعة الذي أجلّ هذه البراءة إلى حد جعلها خلواً من أية شائبة ؟ من كان جان فالجان هذا المشرف على تثقيف كوزيت ؟ من كانت شخصية الظلام هذه التي لم يكن لها من همّ غير ان تحمي ، من كل ظلمة وكل سحاب ، طلوعَ كوكب من الكواكب ؟

ههنا كان سر جان فالجان ، وههنا أيضاً كان سر الله .

وأمام هذا السر المزدوج ، ارتد ماريوس . إن احدهما طمأنه ، بطريقة ما ، في ما يتصل بالآخر . كان الله منظوراً في هذه المغامرة بقدر ما كان جان فالجان منظوراً . إن لله ادواته . وهو يصطنع الأداة التي تروق له . إنه غير مسؤول تجاه الانسان . هل نعرف اساليب الله ؟ كان جان فالجان قد وقف جهوده على كوزيت . كان قد شكّل ، إلى حد ما ، تلك النفس . هذا شيء لم يكن يحتمل الجدل . ولكن ، ثم ماذا ؟ كان الصانع رهيباً ، ولكن الأثر كان رائعاً . ان الله يجترح معجزاته على النحو الذي يبدو له صالحاً . كان قد أنشأ كوزيت الفاتنة هذه ، وكان قد اصطنع جان فالجان في ذلك . لقد سره ان يصطفي هذا المعاونَ الغريب . ايّ حساب نستطيع ان نطلبه منه ؟ أهي المرة الأولى التي نرى فيها المزبلة تساعد الربيع على تكوين الوردة ؟

وقدم ماريوس هذه الأجوبة إلى نفسه ، وتبيّن له انها صالحة . وفي جميع النقاط التي اشرنا اليها اللحظة لم يجرؤ على ان يلحّ على جان فالجان في السؤال ، من غير أن يعترف لنفسه بأنه لا يجرؤ . كان يعبد كوزيت ، وكان يملك كوزيت . وكانت كوزيت طاهرة على نحو رائع . وكان ذلك حَسْبَهُ . فألى أي تفسير كان يحتاج ؟ كانت كوزيت ضياء . وهل يحتاج الضياء إلى شرح ؟ كان يملك كل شيء ، ففي اي شيء يطمع بعد ؟ اليس يكفيه هذا الكل ؟ إن شؤون جان فالجان الشخصية لم تكن تعنيه . وفي انحنائه فوق ظل هذا الرجل المشؤوم ، كان يتشبث

بهذا الاعلان المهيب الذي أطلقه ذلك المخلوق البائس : « أنا لا أمتّ إلى كوزيت بنسب . منذ عشر سنوات ، لم أكن اعرف بوجودها . »

كان جان فالجان عابر سبيل . لقد قال هو نفسه ذلك . حسن ، ولقد كان يمضي لسبيله . فأياً ما كان هذا الرجل ، فان دوره قد انتهى. لقد كان على ماريوس ان ينهض ، منذ اليوم ، باعباء العناية الالـهية نحو كوزيت . وكانت كوزيت قد أقبلت لتجد في اللازورد ، كرة اخرى ، نظيرها ، وحبيبها ، وزوجها ، ورجلها السماوي . لقد تركت كوزيت ، وقد طارت مجنحةً متسامية ، يفَعتَها * ، جان فالجان ، فارغةً رهيبة على الارض .

وفي ايما حلقة من الافكار دار ماريوس ، كان يرتد منها دائماً وفي نفسه ذعر ما ، من جان فالجان . ولعل ذلك الذعر كان ذعراً مقدساً إذ كان يستشعر كما قلنا منذ لحظة « شيئاً مقدساً » *quid divinum* في هذا الرجل . ولكنه مهما عمل ، ومهما التمس من تلطيف ، كان مضطراً دائماً إلى الوقوع على هذا : لقد كان اشغالياً محكوماً عليه بالسجن ، يعني ذلك المخلوق الذي ليس له في السلم الاجتماعية ، مكان ما بوصفه تحت آخر درجة من درجات تلك السلم . فبعد احط الناس يجيء المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . إن الاشغالي لم يعد ، إذا جاز التعبير ، نظير الاحياء . لقد حرمه القانون كل ذلك القدْر من الانسانية الذي يستطيع نزعه من إنسان ما . ففي المسائل الجزائية ، كان ماريوس — على الرغم من نزعته الديموقراطية — لا يزال متشبثاً بالنظام الذي لا يعرف الرحمة ، وكان يحمل في ما يتصل باولئك الذين يضربهم القانون افكارَ القانون كلها . إنه لم يكن قد اعتنق بعد — ولنقل ذلك — جميع الفكرات

* اليفعة Chrysalide أو Chrysalis في علم الاحياء هي الخادرة pupa او القشرة الصلبة التي تغلف الحشرة قبل ان تصبح فراشة .

التقدمية . لم يكن قد انتهى بعد إلى التمييز بين ما كتبه الانسان وما كتبه الله ، بينْ القانون والحق . إنه لم يدرس ولم يزن قط ذلك الحق الذي ينتحله الانسان للتخلص مما لا يُردّ ومما لا سبيل إلى التعويض عنه . إنه لم يثر على كلمة **الانتقام** . كان يرى طبيعياً ان تُتبع بعض المخالفات للقانون المكتوب بعقوبات سرمدية ، ولقد اعتبر الهلاك الابدي الاجتماعي طريقة من طرائق الحضارة . كان لا يزال عند تلك النقطة ، وكان لا بد له من ان يتقدم في ما بعد ، بحكم طبيعته الخيرة ، المكونة في أعمق اعماقها من تقدم كامن .

من وسط هذه الفكرات برز له جان فالجان شائهاً مقيتاً . كان المنبوذ . كان المحكومَ عليه بالاشغال الشاقة . كانت هذه الكلمة أشبه عنده بآخر نفخة في صُوْر يوم الحساب . وبعد أن تأمل في جان فالجان فترة طويلة انتهى إلى ان يشيح بوجهه عنه *Vade retro* .

وينبغي أن نذكّر بل ان نلح في التذكير ان ماريوس — على الرغم من استجوابه جان فالجان إلى حد جعل جان فالجان يقول له : أنت تطلب مني اعترافاً — لم يكن قد وجه اليه سؤالين حاسمين أو ثلاثة اسئلة حاسمة . وليس ذلك لأن هذه الاسئلة لم تتمثل في ذهنه ، ولكن لأنه كان خائفاً منها . مسكن جوندريت الحقير ؟ المتراس ؟ جافير ؟ ومن يدري أين يمكن للاسرار المهتوكة الستر ان تقف ؟ ان جان فالجان لم يكن ، في ما يبدو ، ذلك الرجل الذي يعرف الانكفاء . ومن يدري، فقد يرغب ماريوس في كبح جان فالجان بعد ان يكون هو قد ألحف عليه في السؤال ؟ ألم يتفق لنا جميعاً ، في بعض الظروف ، أن وضعنا اصابعنا في آذاننا — بعد ان طرحنا سؤالا ما — خشية أن نسمع الجواب؟ وهذا الجبن يستحوذ علينا ، بخاصة ، حين نعشق . فليس من الحصافة أن نغالي في السؤال عن الحالات المشؤومة ، وعلى الخصوص حين يكون ذلك الجزء اللامنحلّ من حياتنا نحن ممتزجاً بها امتزاجاً محتوماً . ان بعض

الضوء الرهيب قد ينبثق من شروح جان فالجان اليائسة ، ولكن مـن الذي يضمن له ان لا ينعكس هذا النور المخيف على كوزيت نفسها ؟ ومن يكفل له ان لا يبقى ضرب من الوهج الجحيمي على جبين ذلك الملاك ؟ ان رشاش البرق ليس خلواً من الرعود . فللأقدار مثل هـذا التكافل ، حيث تنطبع البراءة نفسها بالجريمة بحكم القانون الكالح الخاص بالانعكاسات الملوّنة . ان أطهر الوجوه قد تحتفظ إلى الآبد بانعكاسات جوار رهيب . كان ماريوس خائفاً ، سواء أكان في ذلك على خطأ أم على صواب . لقد انتهـى إلى أن يعرف ، حتى الآن ، اكثر مما ينبغي. وكان يلتمس التعمية على نفسه اكثر مما يلتمس تنويرها . لقد حمـل كوزيت ، في وَلَه ، بـين ذراعيه ، مغمضاً عينيه عن جان فالجان .

كان ذلك الرجلُ من الليل ، من الليل الحيّ الفظيع . كيف يجرؤ على سَبْره حتى القعر ؟ إن استجواب الظلمة لرهيب . فمن يـدري ما الجواب الذي تصدر عنـه ؟ إن الفجر قـد يسودّ من جرّائـه إلى الأبـد .

في هذه الحال النفسية كان ممـا يقلق ماريوس إلى حد مرير ان يفكر في ان هذا الرجل سوف يكون له ، منذ اليوم ، اتصال مهما يـكن بكوزيت . وهذه الاسئلة المروّعة ، التي سبق له ان ارتد أمامها ، والتي كان من الجائز ان ينبثق منها قرار حاسم حقود ، اخذ الآن يعنّـف نفسه ، أو يكاد ، لعدم طرحه اياها . لقد حسب نفسه طيباً أكثر مما ينبغي ، ليناً أكثر مما ينبغي ، ضعيفاً – ولنقل اخيراً الكلمة – اكثر مما ينبغي . هذا الضعف كان قد قاده إلى تسليم غير حصيف . لقد اجاز لنفسه بأن تتأثر . ولقد اخطأ في ذلك . كان عليه ان ينبذ جان فالجان في بساطة . كان جان فالجان أشبه شيء بذلك المتاع الذي يُترك للحريق انقاذاً للباقي ، ولقد كان عليه ان يخلّص البيت من هذا الرجل . واغتاظ من نفسه . اغتاظ من عنف ذلك الاعصار الانفعالي الذي أصمّه ، وأعماه،

وقاده . كان ناقماً على نفسه .

ما الذي يجب ان يصنع الآن ؟ كانت زيارات جان فالجان بغيضة اليه . اي فائدة لذلك الرجل في هذا البيت ؟ اي شيء ينبغي له ان يعمله؟ وتشاغل عن ذلك ؛ إنه لم يكن راغباً في التنقيب ، لم يكن راغباً في ان يذهب إلى أعمق . كان قد وعد ، كان قد أجاز لنفسه ان يساق إلى إعطاء وعد . لقد فاز جان فالجان بوعد منه . وحتى مع محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، بل مع المحكوم عليه بالاشغال الشاقة على وجه خاص ، يتعين على المرء ان يفي بالوعد . ومع ذلك ، فقد كانت كوزيت هي واجبه الأول . وعلى الجملة ، فقد استبد به تقزز غلب على كل شيء آخر .

وقلّب ماريوس كل هذه المجموعة من الفكرات في ذهنه تقليباً مشوشاً ، منتقلا من واحدة إلى اخرى ، مُثاراً بها جميعاً . ومن هنا ذلك الاضطراب العميق . ولم يكن يسيراً عليه ان يخفي ذلك الاضطراب عن كوزيت ، ولكن الحب موهبة ، ولقد وُفق ماريوس إلى ذلك .

وإلى هذا فقد طرح ، من غير ما هدف واضح ، بعض الاسئلة على كوزيت ، التي كانت سليمة الطوية بقدر ما تكون الحمامة بيضاء ، فلم ترتَبْ في شيء . لقد تحدث معها عن طفولتها وعن صباها ، واقنع نفسه اكثر فاكثر بأن هذا الاشغاليّ وقف من كوزيت اطيب موقف يستطيع ان يقفه انسان ، واكثره حفولا بالابوة والاجلال . كان كل ما رآه ماريوس على نحو باهت وكل ما حدس به حقيقياً . كان ذلك القرّاص الكالح قد أحب هذه الزنبقة وحماها .

الكتاب الثامن

شحوب الغسق

١

الحجرة السفلية

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، قرع جان فالجان باب العربات من منزل جيلنورمان . واستقبله باسك . لقد اتفق ان كان باسك في الفِناء في الوقت المناسب ، وكأنما كان هناك نزولا عند أمر صادر اليه . فقد يتفق في بعض الاحيان ان يقول امرؤ لخادم : ترقب السيد الفلاني ، فاذا به يجيء .

ومن غير ان ينتظر وفود جان فالجان عليه ، خاطبه باسك قائلا :

— « لقد كلفني سيدي البارون ان اسأل السيد أيرغب في الصعود إلى

الدور الأعلى أم في البقاء تحت ؟ »
فأجابه جان فالجان :
ـ « سوف أبقى تحت . »
وفتح باسك ، الذي كان في ما عدا ذلك ناضحاً باحترام مطلق ، باب الحجرة السفلية ، وقال :
ـ « سوف اخبر السيدة . »
كانت الغرفة التي ولجها جان فالجان حجرة تحتية رطبة ذات عقود ، وكانوا يتخذون منها سرباً عند الحاجة . كانت تطل على الشارع ، مفروشة ببلاط احمر ، ومضاءة على نحو قاتم بنافذة ذات شُباكة حديدية .
ولم تكن الحجرة من تلك الحجرات التي تُزعَج كثيراً بالفرشاة ، والمنفضة ، والمكنسة . كان الغبار مستقراً فيها . هناك لم يكن اضطهاد العناكب قد نُظّم بعد . وكان يزين احد الواح النافذة الزجاجية نسيج عنكبوت جميل ، منبسط انبساطاً فسيحاً ، نسيج اسود فاحم مزدان بذباب ميت . وكانت الحجرة الصغيرة المنخفضة ، مؤثثة بركام من الزجاجات الفارغة كدست في احدى الزوايا . وكان الجدار قد طلي بطلاء بلون المغرة الصفراء كان قد اخذ يتقشر صفائحَ صفائحَ . وفي اقصى الحجرة كان موقد خشبي ، دُهن باللون الأسود ، ذو رف ضيق . كانت النار قد أضرمت ، مما يدل على ان شخصاً ما ، كان قد توقع جواب جان فالجان : « سوف ابقى تحت . »
كان كرسيان من الكراسي ذوات الأذرع قد وضعا عند زاويتي الموقد . وبين الكرسيين امتد ، بدلا من السجادة ، بساط صغير من بُسط النوم ، بساط تكشّف عن أمراس اكثر مما تكشّف عن صوف .
كانت الحجرة مضاءة بالنار المضرمة في الموقد ، وبضوء الغسق المنبعث من النافذة .
وكان جان فالجان متعَباً . إنه لم يعرف ، منذ بضعة أيام ، لا طعاماً

ولا رقاداً . وارتمى في واحد من الكرسيين ذوَيْ الاذرع .

ورجع باسك ووضع شمعة مضاءة على الموقد ، وانسحب . ولم يلاحظ جان فالجان ، المنكس الرأس المسند الذقن إلى اعلى الصدر ، لا باسك ولا الشمعة .

وفجأة تصدّر مجفلا . كانت كوزيت خلفه .

إنه لم يرها تدخل ، ولكنه استشعر أنها دخلت .

واستدار . وحدق اليها . كانت جميلة على نحو يغري بالعبادة . ولكنّ ما تطلّع اليه بتلك النظرة العميقة لم يكن جمالها ولكن روحها .

وهتفت كوزيت :

– « آه ، هي ذي فكرة ! أبي ، لقد كنت أعلم انك غريب الاطوار ، ولكني لم اكن اتوقع قط شيئاً مثل هذا . لقد قال لي ماريوس انك تريد مني ان استقبلك هنا . »

– « اجل ، أنا طلبت ذلك . »

– « لقد توقعت الجواب . حسن ، أنا أحذرك اني سوف اخاصمك . فلنبدأ من البداية . أبي ، قبّلني . »

وقدمت اليه خدها .

وظل جان فالجان جامداً لا يتحرك .

– « أنت لا تتحرك . أنا ارى ذلك . انت تسلك مسلك المتهمين . ولكن لا بأس ، أنا أصفح عنك . السيد المسيح قال : أدر خدك الآخر . ها هو ذا . »

وأدارت خدها الثاني .

ولم يتحرك جان فالجان . لقد بدا وكأن قدميه كانتا مسمرتين إلى أرض الغرفة .

فقالت كوزيت :

— « الأمر أخذ يصبح جدياً . ما الذي فعلته لك ؟ أنا أعلن انـي مرتبكـة . يجب عليك ان تصالحني . سوف تتناول طعام العشاء معنا . »

— « لقد تعشيت . »

— « هذا غير صحيح . سوف أطلب من مسيو جيلنورمان ان يوبخك . الاجداد قد جُعلوا لتوبيخ الآباء . تعال . اصعد معي إلى حجرة الاستقبال حالا . »

— « مستحيل . »

وهنا تراجعت كوزيت بعض الشيء . وكفّت عن إصدار الأوامـر وانتقلت إلى توجيه الاسئلة .

— « ولكن لم لا ؟ وانت تختار أبشع غرفة في المنزل لكي تجتمع بي. ان هذا المكان رهيب . »

— « انت تعرفين ، يا سيدتي ، اني غريب الاطوار . إن لي اهوائي الخاصة . »

وشبكت كوزيت يديها الصغيرتين .

— « سيدتي ! انت تعرفين ! ها أنت تعيد ذلك كرة اخرى . ما معنى هذا ؟ »

وسدد جان فالجان اليها تلك الابتسامة المحزنة التي كان يفزع اليهـا بعض الاحيان .

— « لقد اردتِ ان تكوني سيدة . وها انت كذلك . »

— « ليس بالنسبة اليك ، يا أبي ؟ »

— « لا تناديني يا أبي ، بعد اليوم . »

— « مـاذا ؟ »

— « ناديني مسيو جان » أو جان ، إذا شئت . »

— « أنت لم تعد ابي ؟ أنا لم أعد كوزيت ؟ مسيو جان ؟ ما معنى هذا ؟ ولكن هذه ثورات ، هذه ! ما الذي حدث ؟ انظر اليّ في

وجهي قليلاً . وانت لن تسكن معنا ! أنت لن تأخذ غرفتي ! ما الذي فعلته لك ؟ ما الذي فعلته لك ؟ هل ثمة شيء اذن ؟ »

— « لا شيء . »

— « وإذن ؟ »

— « كل شيء كالمعتاد . »

— « لماذا تغير اسمك ؟ »

— ولكنك انت غيرتِ اسمك أيضاً . »

وابتسم من جديد تلك الابتسامة نفسها ، وأضاف :

— « ما دمت السيدة بونميرسي ففي استطاعتي من غير شك ان اكون مسيو جان . »

— « لست افهم شيئاً من ذلك . هذا هراء كله . سوف اطلب لك الاذن من زوجي لكي تكون مسيو جان . وآمل ان لا يوافق على ذلك . انت تسبب لي كثيراً من البلاء . قد تكون لك اهواؤك الغريبة ، ولكن يتعين عليك ان لا توقع الأسى في نفس حبيبتك كوزيت . هذا خطأ . ليس لك الحق في أن تكون شريراً ، أنت المفعم بالطيبة . »

ولم يجب بشيء .

وأمسكت بكلتا يديه في شدة ورفعتهما ، في حركة لا تقاوَم ، نحو وجهها ، وضغطتهما على عنقها تحت ذقنها ، وتلك علامة عميقة من علامات المحبة والحنان .

وقالت له :

— « اوه ، كن كريماً ! »

ثم استأنفت كلامها :

— « هذا ما ادعوه الكرم : ان تكون لطيفاً ، ان تجيء وتسكن هنا ، ونعاود القيام بنزهاتنا الحلوة الصغيرة ، فههنا يوجد طيور كما في شارع بلوميه ، وان تعيش معنا ، وتترك ذلك المسكن الضيق الذي في

شارع الرجل المسلح ، وان لا تعطينا ألغازاً نحلها ، وان تكون مثل سائر الناس ، وان تتعشى معنا ، وتتناول طعام الصباح معنا ، وان تكون أبي . »

واطلقت يديه .

– « انت لم تعودي في حاجة إلى أب . لقد أصبح لك زوج . »

وثارت ثائرة كوزيت :

– « لم اعد في حاجة إلى أب ! الواقع ان المرء لا يعرف بماذا يجيب عن هراء مثل هذا ! »

واجاب جان فالجان ، مثل رجل يبحث عن مستندات ويتعلق بكل قشة :

– « لو كانت توسين هنا اذن لكانت أول من اعترف بانه كانت لي دائماً مسالكي الغريبة . ليس في هذا شيء جديد . لقد كنت دائماً احب زاويتي المظلمة . »

– « ولكن هذه الحجرة باردة . ان المرء لا يرى فيها بوضوح ؛ وانه لمن المستهجن أيضاً أن ترغب في أن تكون مسيو جان . انا لا أريد ان تكلمني على هذا النحو . »

فأجاب جان فالجان :

– « في هذه اللحظة ، وأنا قادم إلى هنا ، رأيت قطعة من أثاث في شارع سان لويس . عند احد نجاري الابنوس . لو كنتُ امرأة جميلة لأهديت نفسي هذه القطعة من الاثاث . نَضَدُ تزيّن رائع جداً ، على الزي الحالي . ما تسمونه خشب الورد ، في ما اظن . إنه مرصع . ومرآة ضخمة إلى حد بعيد . إن له أدراجاً . إنه جميل . »

فأجابت كوزيت :

– « أوه ، يا للدب البشع ! »

وفي ظرافة فاتنة ، أطبقت بعض اسنانها على بعض وباعدت ما بين

شفتيها ، ونفخت على جان فالجان . كانت الآهة جهال تقلد هرة .
وقالت :
— « أنا حانقة . منذ البارحة وكلكم تثيرون غضبي . كل امرىء منكم يغيظني . انا لا أفهم . انت لا تنتصر لي على ماريوس . وماريوس لا ينصرني عليك . لقد أصبحت وحيدة . ارتب حجرةً الطف ترتيب . ولو كان في استطاعتي ان اضع الرب فيها ، لما أحجمتُ . ولكنك تترك غرفتي مهجورة . إن المستأجر عندي يفلسني . أنا أطلب من نيقوليت تعدّ عشاء شهياً صغيراً ، ولكن احداً لا يريد عشاءك ، يا سيدتي . وابي فوشلوفان يرغب في أن أدعوه مسيو جان ، وان استقبله في سرّب رهيب ، عتيق ، بشع ، عفن ، حيث للجدران لحية ، وحيث الزجاجات الفارغة تقوم مقام الكؤوس ، وأنسجة العنكبوت مقام السجف والستائر . أنت غريب الاطوار ، أنا اسلم بذلك ، وهذه هي طريقتك ، ولكن من الواجب ان تمنح هدنة ما إلى الناس حين يتزوجون . ما كان ينبغي لك ان ترجع إلى اطوارك الغريبة فجأة . واذن فسوف تكون راضياً كل الرضا في شارعك المقيت ذاك ، شارع الرجل المسلح . لقد كنت أنا يائسة جداً ، هناك . ماذا تنقم مني ؟ انك تسبب لي كثيراً من المتاعب . »
وغلب عليها الجد فجأة ، وسددت نظرها إلى جان فالجان وأضافت :
— « واذن فأنت لا تريد سعادتي ؟ »
ان السذاجة تنفذ في بعض الاحيان ، على نحو غير واع ، إلى بعيد جداً . فهذا السؤال ، البسيط عند كوزيت ، كان قاسياً عند جان فالجان . لقد ارادت كوزيت ان تخدش ، ولكنها مزقت .
وشحب وجه جان فالجان . واعتصم بالصمت لحظة ، ثم غمغم مخاطباً نفسه في نبرة لا سبيل إلى وصفها :
— « لقد كانت سعادتها هي هدف حياتي . والآن ، قد يومىء الله

الي بالانصراف . كوزيت ، انت سعيدة ، لقد انتهت مهمتي . »

وهتفت :

– « آه ، لقد خاطبني بضمير المفرد ! »

ووثبت إلى عنقه .

وفي وله ، ضمها جان فالجان إلى صدره ، ضماً محموماً . لقد تراءى له انه كاد يستردها من جديد .

وقالت كوزيت له :

– « شكراً لك ، يا أبي ! »

كان الجذل قد أمسى مُمضاً لجان فالجان . وفي لطف ، انسحب جان فالجان من بين ذراعي كوزيت ، وتناول قبعته .

وقالت كوزيت :

– « والآن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

– « سوف اتركك يا سيدتي . انهم في انتظارك . »

ومن على عتبة الباب ، أضاف :

– « لقد خاطبتك بضمير المفرد . قولي لزوجك ان هذا لن يحدث كرة اخرى . انا ارجو عفوك . »

وخرج جان فالجان ، تاركاً كوزيت مشدوهة لهذا الوداع اللغزي :

٢

خطوات اخرى الى الوراء

وفي اليوم الذي تلا ، في الساعة نفسها ، أقبل جان فالجان .

ولم توجه كوزيت ايما سؤال إليه . إنها لم تعد تُظهر الدهش ، لم تعد

تهتف قائلة انها تستشعر البرد ، لم تعد تتحدث عن حجرة الاستقبـــال . لقد تجنبت التلفظ بـ « يا ابي » أو بـ « مسيو جان » . لقد تركته يتحدث كما يشاء . ولقد أجازت لنفسها ان تخاطب بلفظ « السيدة » . بيد أنهـــا تكشفت عن قدر من البهجة أقلّ . كان من الجائز أن تكون محزونة ، لو كان الحزن ممكناً بالنسبة اليها .

ولعله قد جرى بينها وبين ماريوس حديث من تلك الأحاديث الـتي يقول فيها الرجل المحبوب كل ما يشاء ، ولا يشرح شيئاً ، ويفوز برضا المرأة المحبوبة . ان فضول المحبَّين لا يذهب إلى ما وراء حبهما بكثير.

كانت الحجرة السفلية قد اتخذت زينتها بعض الشيء . كان باسك قد ازال الزجاجات ، وكانت نيقوليت قد ازالت العناكب .

وكل يوم ، كان جان فالجان يفـد في الساعة نفسها . كان يجـيء يومياً ، بعد ان استشعر انه عاجز عن ان لا يأخذ كلمات ماريوس اخذاً حرفياً . واتخذ ماريوس ترتيبات تجعله غائباً عن المنزل كلما وفد جـان فالجان اليه . وألِـفَ المنزل طريقة مسيو فوشلوفان الجديدة في الحياة . وساعدته توسين على ذلك ، فـكانت تكرر : « لقد كان سيدي هكذا دائماً » . واصدر الجد هذا المرسوم : « إنه شخص شاذ الاطوار » وكانت تلك كلمة الفصل . وإلى هذا ، ففـي التسعين يتعذر عقد علاقة جديدة . كل شيء قد رُصف ووضع إلى جانب غيره ؛ إن ايما وافد جديد عامل ازعاج ؛ لم يبق ثمة متسع ، كانت جميـع العادات قد شُكلت . مسيو فوشلوفان ... مسيو ترانشلوفان ... إن الجد جيلنورمان لم يكـن يطلب شيئاً خيراً من تخليصه من « ذلك السيد » . واضاف : « ليس شيء اكثر شيوعاً من هؤلاء الاشخاص الشاذين : إنهم يقومون بمختلف ضروب الاشياء الغريبة . لا دافع على الاطلاق . كان المركيز دو كانابل أسوأ . لقد اشترى قصراً ليعيش في مستودع للحبوب . إنها مظاهر غريبة يتخذها الناس . »

إن احداً لم يلحظ الظلمة التي في الأعماق . وإلى هذا ، فمن الذي كان في استطاعته ان يحزر شيئاً كهذا ؟ ان ثمة مثل هذه المستنقعات في الهند . فالماء يبدو غريباً ، ممتنعاً على التعليل ، مرتعشاً حيث لا ريح تعبث به ، هائجاً حيث ينبغي له ان يكون هادئاً . انت ترى على السطح هذا الغليان الذي لا سبب له ؛ انت لا تلمح الافعى الهيدرية الزاحفة في القعر .

وهكذا فأن لكثير من الناس هولة سرّية ، مرضاً يَغْذونه ، تنيناً يقرضهم ، يأساً يَعْمر ليلهم . مثل هذا الرجل يشبه سائر الناس ؛ إنه يروح وإنه يجيء ، وليس يدري احد انه ينطوي على ألمٍ طفيلي رهيب ذي ألف ضرس ، ألمٍ يحيا في ذلك الرجل البائس الذي يموت به . ان احداً لا يعرف ان هذا الرجل هاوية . إنه راكد ، ولكنه عميق . وبين الفينة والفينة يتبدّى على سطحه اضطراب لسنا نفهم منه شيئاً . إن تغضناً غريباً يتراءى ، ثم يتلاشى ، ثم يعاود الظهور ؛ فقاعة هواء ترتفع وتنفجر . إنه شيء ضئيل ، إنه فظيع . إنه تنفّس الهولة المجهولة .

إن بعض العادات الغريبة ، من مثل المجيء حين يذهب الآخرون ، والانكماش لحظة يتفاخر الناس ، والتجلبب دائماً بما يمكن ان يدعى المعطف الذي بلون الجدار ، والتماس الممر المتوحد ، وتفضيل الشارع المهجور ، وعدم الاهتمام بالمحادثات ، واجتناب الحشود والأعياد ، وظهور امارات النعمة ثم العيش عيش الفقراء ، ووضْع المرء – برغم ثروته – مفتاحه في جيبه وشمعته عند البواب ، ودخوله من الباب الجانبي ، وارتقائه السلم الخلفية ، كل هذه الغرائب الضئيلة ، – هذه التجعدات ، فقاقيع الهواء ، الثنيّات الزائلة – كثيراً ما تنبعث من قعر راعب .

وتصرمت على هذا النحو بضعة اسابيع . وشيئاً فشيئاً استحوذت على

كوزيت حياة جديدة ، العلاقات التي تخلقها الزواج ، والزيارات ، والعناية بالمنزل ، والمتع ، هذه المهام الكبيرة . ولم تكن متع كوزيت عالية الثمن ، كان قوامها شيء واحد : أن تكون مع ماريوس . الخروج معه ، البقاء في المنزل معه ، ذلك كان شاغل حياتها الأكبر . كانا يجدان مسرة جديدة بالكلية في الانطلاق ، متشابكي الذراعين ، في وجه الشمس ، في وضح الشارع ، غير متسترين ، وعلى مرأى من الناس جميعاً ، وليس معهما احد البتة . وكان ثمة شيء واحد يسوء كوزيت . إن توسين لم تستطع التفاهم مع نيقوليت ، بعد ان تعذر إدغام احدى العانسين بالأخرى ، ومضت لسبيلها . وكان الجد يتمتع بصحة جيدة . وكان ماريوس يترافع بين الفينة والفينة في بعض القضايا . وعاشت العمة جيلنورمان في دعة ، قرب ربة البيت الجديدة ، تلك الحياة الجانبية التي كانت تكفيها ، وكان جان فالجان يجيء كل يوم .

كان في اقلاعه عن مخاطبتها بضمير المفرد ، وفي اصطناع لفظ « السيدة » و « مسيو جان » ما جعله شيئاً آخر في نظر كوزيت . وكانت العناية التي حاول ان يفصلها بواسطتها عنه قد نجحت معها . لقد غدت مرحة اكثر فأكثر ، رؤوفاً اقل فأقل . بيد أنها ظلت تحبه حباً عظيماً ، ولقد استشعر هو ذلك . وذات يوم ، قالت له فجأة : « لقد كنت ابي ؛ انت لم تعد ابي . لقد كنت عمي ؛ انت لم تعد عمي . لقد كنت مسيو فوشلوفان ؛ أنت الآن جان . من انت اذن ؟ انا لا احب هذا كله . لو لم اكن أعرف انك طيب إلى أبعد الحدود لأخذني الخوف منك . . »

وظل يسكن في شارع الرجل المسلح ، غير قادر على توطين العزم على الابتعاد عن الحي الذي تقطن فيه كوزيت .

وفي المرات الأولى كان يمكث مع كوزيت بضع دقائق ليس غير ، ثم يمضي لسبيله .

وشيئاً بعد شيء تعوّد ان يجعل زياراته أطول . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنه أفاد من المثل الذي ضربته الأيام الآخذة في الطول : اصبح يجيء أبكر ، وينصرف في ساعة اكثر تأخراً .

وذات يوم قالت له كوزيت سهواً : « ابي ! » وأضاء وجهَ جان فالجان القاتم وميضٌ من الابتهاج . واجابها : « قولي جان . » فاجابته وقد انفجرت بالضحك : « آه ! صحيح ، مسيو جان . » فقال : « حسن » واستدار لكي لا تراه يكفكف عبراته .

٣

يتذكران حديقة شارع بلوميه

كانت تلك هي المرة الأخيرة . وابتداء من هذه الومضة الختامية رأن انطفاء كامل . لا دالة بعد اليوم ، ولا تحية صباح مع قبلة ، ولا كلمة « ابي ! » العذبة إلى أبعد الحدود . لقد طُرد ، بطلب منه وباشتراكه هو ، من كل وجه من وجوه السعادة على نحو متعاقب . لقد تجرع هذا الشقاء : أنه بعد أن فقد كوزيت برمّتها في يوم واحد ، اضطر في ما بعد إلى أن يفقدها جزءاً بعد جزء .

إن العين لتنتهي إلى أن تألف نور الكهف . وعلى الجملة ، فقد كان حَسْبه أن يكحل عينيه بمرأى كوزيت كل يوم . كانت حياته كلها قد تركزت حول تلك الساعة . كان يجلس إلى جانبها ، وينظر اليها في صمت ، أو يحدثها عن السنين الخوالي ، عن طفولتها ، عن الدير ، عن اصدقائها في تلك الأيام .

وذات أصيل — كان ذلك في احد أيام نيسان الأولى ، وكان الجو قد أمسى دافئاً ، ولكنه لا يزال على شيء من البرودة ، في تلك اللحظة التي تنعم فيها الشمس بابتهاجها الاعظم ، وقد استشعرت الحدائق المجاورة لنوافذ ماريوس وكوزيت انفعال اليقظة ، وشرع زعرور الأودية يطلع ، وانتظم صف من المنثور المرصع بالجواهر على الجدران العتيقة ، وتثاءبت زهرات أنف العجل في شقوق الحجارة ، وبدأ العشب يُطلع ، على نحو فاتن ، اقاحيَ وأزرار ذهب ، وبرزت فراشات العام البيضاء لأول مرة ، وجربت الريح — عازفة الكمان في العرس السرمدي — في الاشجار أول ألحان تلك السيمفونية الفجرية * العظمى التي دعاها الشعراء القدامى « عودة الربيع » *renouveau* — في ذلك الاصيل قال ماريوس لكوزيت: « لقد قلنا اننا سوف نذهب لنرى حديقتنا في شارع بلوميه كرة اخرى . فلنذهب . ينبغي ان لا نكون عاقّين . » وطارا مثل السنونو نحو الربيع. وتركت تلك الحديقة التي في شارع بلوميه مثل اثر الضحى في نفسيهما . كانا قد خلّفا وراءهما في الحياة شيئاً أشبه بربيع حبهما . كان منزل شارع بلوميه ، بوصفه قد أجِر ، لا يزال ملكاً لكوزيت . وقصدا إلى تلك الحديقة وإلى ذلك المنزل . ووجدا نفسيهما فيه كرة اخرى ، ونسيا نفسيهما هناك . وعند المساء ، في الساعة المعتادة ، وفد جان فالجان إلى شارع فتيات كالفير . وقال له باسك : « لقد خرجت السيدة مع السيد ، ولما يرجعا حتى الآن . » وجلس في صمت ، وانتظر ساعة . ولم ترجع كوزيت . وحنى رأسه ومضى لسبيله .

وكانت كوزيت منتشية جداً بنزهتها إلى « الحديقة » ، وسعيدة جداً بكونها « قد عاشت يوماً كاملا في ماضيها » حتى انها لم تتحدث في اليوم التالي عن ايما شيء آخر . ولم يخطر لها ببال انها لم تر جان فالجان .

---

* نسبة الى الفجر .

وسألها جان فالجان :

— « كيف ذهبتما إلى هناك ؟ »

— « مشياً على الاقدام . »

— « وكيف رجعتما ؟ »

— « في عربة كراء . »

منذ فترة من الزمان وجان فالجان يلاحظ الحياة المقتصدة التي يحياها الزوجان الشابان . وازعجه ذلك . كان اقتصاد ماريوس قاسياً ، وكان للكلمة معناها المطلق عند جان فالجان . وغامر في السؤال :

— « لم لا تقتنيان عربة خاصة ؟ ان عربة جميلة ذات اربع عجلات لا تكلفكما غير خمسمئة فرنك شهرياً . انت غنية . »

فأجابت كوزيت :

— « لست أدري . »

وأضاف جان فالجان :

— « وهذا هو الشأن مع توسين . لقد مضت لسبيلها ، ولكنك لم تستعيضي عنها بغيرها . لماذا ؟ »

— « نيقوليت تكفي . »

— « ولكن ينبغي ان يكون لك فرّاشة . »

— « ألست املك ماريوس ؟ »

— « ينبغي ان يكون لك بيت خاص ، وخدم مخصوصون، وعربة ، ومقصورة في المسرح . ليس ثمة نِعَمٌ لا تستحقينها . لماذا لا تفيدين من ثرائك ؟ الثروة تضاعف السعادة . »

ولم تجب كوزيت بشيء .

ولم تتقاصر زيارات جان فالجان . ما أبعد ذلك عن الصواب ! فحين ينزلق القلب لا تتوقف فوق المنحدر .

وكلما اراد جان فالجان ان يطيل زيارته ، ويجعل الساعات تنقضي من

غير انتباه ، كان يأخذ في اطراء ماريوس ؛ كان يذهب إلى أنه وسيم ، نبيل ، شجاع ، ذكي ، فصيح ، طيب . وكانت كوزيت تزايده في ذلك . وكان جان فالجان يأخذ في الاطراء من جديـــد . إنهما لم يعرفا الصمت قط . فماريوس كلمة لا يتطرق اليها النفاد . كانت ثمـة مجلدات في هذه الاحرف الستة . وهكذا كان جان فالجان يوفق إلى البقاء فترة طويلة . كان يستعذب رؤية كوزيت والنسيان بقربها استعـــذابـاً كبيراً . كان ذلك هو الضمادة لجرحه . واتفق عدة مرات أن كان باسك هبط إلى الحجرة السفلية مرتين متواليتين ليقول : « مسيو جيلنورمـان أوفدني لأخبر سيدتي البارونة أن مائدة العشاء قد أعدت . »

وفي تلك الايام كان جان فالجان ينقلب إلى منزله وهو مستغرق في التفكير .

هل كان ثمة اذن بعض الصدق في تشبيه جان فالجان باليَفَعَة ، ذلك التشبيه الذي تمثّل لعقل ماريوس ؟ هل كان جان فالجان ، في الواقع ، يفعة عنيـــدة ، يفعة تفـدُ لزيارة فراشتها ؟

وذات يوم مكث اكثر من المـألوف . وفي اليوم التالي لاحظ انه لم يكن في الموقد نار . وقال في ذات نفسه : « ماذا ! لا نار . » وقـدم إلى نفسه هذا التفسير : « هذا طبيعي جداً . نحن في شهر نيسان . لقد انصرمت الايام الباردة . »

وهتفت كوزيت عند دخولها :

— « يا الـهي ! ما أبرد هذه الحجرة ! »

فقال جان فالجان :

— « ولكن لا . »

— « واذن فأنت الذي قلت لباسك ان لا يضرم النار ؟ »

— « نعم . لقد أشرفنا على شهر نوار . »

— « ولكننا نضرم النار حتى حزيران . وفي هذا الكهف يحتاج المرء لى النار طول السنة . »

— « لقد حسبتُ ان النار غير ضرورية . »

فأجابت كوزيت :

— « هي ذي واحدة من فكراتك ! »

وفي اليوم التالي كان في الموقد نار . ولكن الكرسيين ذوَيْ الذراعين كانا قد وضعا في الطرف الآخر من الحجرة ، قرب الباب . وفكر جان فالجان : « ما معنى هذا ؟ »

ومضى التماساً للكرسيين ، وأعادهما إلى مكانهما المألوف قرب الموقد.

ومع ذلك فقد شجعته هذه النار المضرمة من جديد . واطال المحادثة اكثر من المعتاد . وفيما كان ينهض للانصراف ، قالت له كوزيت :

— « لقد قال لي زوجي شيئاً مضحكاً أمس . »

— « وما هو ؟ »

— « قال : ان لدينا دخلا مقداره ثلاثون الف فرنك . سبعة وعشرون تملكينها انت ، وثلاثة اعطاني اياها جدي . فقلت : هذا يجعلها ثلاثين . فسألني : هل تملكين الجرأة على ان تعيشي على الثلاثة الآلاف ؟ فأجبته: نعم ، وعلى لا شيء ، شرط ان يكون ذلك معك . ثم سألته : لماذا تقول لي هذا ؟ فأجاب : لكي اعرف . »

ولم يقل جان فالجان كلمة . ولعل كوزيت كانت تتوقع منه تفسيراً ما . لقد أصغى اليها في صمت فاجع . وانقلب إلى شارع الرجل المسلح : كان مستغرقاً في التفكير إلى درجة جعلته يخطىء الباب . وبدلاً من ان يدخل بيته هو ، دخل البيت المحاذي . ولم ينتبه إلى غلطته إلا بعد ان كاد يصل إلى الدور الثاني ، فهبط السلم كرة اخرى .

كانت الظنون تنكّل بعقله تنكيلا : فقد كان واضحاً ان ماريوس يرتاب في أصل هذه الفرنكات الستمئة الف ، ومن يدري فلعله كان يحسب ان مصدرها غير طاهر . أو لعله كان قد اكتشف ان هذا المال جاء منه هو ، جان فالجان . ولعله ان يكون قد تردد امام هذه الثروة

المريبة ، فكرهَ أن يجعلها ملكاً له ، موثراً ان يظل هو وكوزيت فقيرين، على ان ينعم بثراء تحيط به الشكوك .

وإلى هذا ، فقد استشعر جان فالجان ، على نحو غامض ، انه قد صُرف في خشونة .

وفي اليوم التالي اصيب ، لدن دخوله إلى الحجرة السفلية ، بشيء كالصدمة . كان الكرسيان ذوا الاذرع قد اختفيا . بل لم يكن ثمة كرسي من اي نوع .

وهتفت كوزيت وهي داخلة :

— « والآن ، لا كراسي ! أين الكرسيان ذوا الذراعين اذن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد وليا . »

— « هذه مسألة طريفة . »

وتمتم جان فالجان :

— « لقد قلت لباسك ان يخرجهما من هنا . »

— « وما سبب ذلك ؟ »

— « أنا لن أبقى غير بضع دقائق اليوم . »

— « إن بقاءك فترة قصيرة ليس سبباً كافياً لوقوفك ما دمت هنا . »

— « أحسب ان باسك قد احتاج إلى بعض الكراسي ذوات الاذرع لغرفة الاستقبال . »

— « لماذا ؟ »

— « لا ريب في ان عندكم ضيوفاً اليوم . »

— « ليس عندنا احد . »

ولم يستطع جان فالجان ان يقول كلمة اضافية .

وهزت كوزيت كتفيها .

— « تطلب إخراج الكرسيين ! وفي ذلك اليوم طلبت ان لا تضرم

النار ! ما أغرب اطوارك ! »

ودمدم جان فالجان :

— « استودعك الله . »

انه لم يقل : « استودعك الله ، يا كوزيت . » ولكنه لم يقوَ على القول « استودعك الله ، يا سيدتي . »

ومضى لسبيله مثقلاً بالغم .

كان هذه المرة قد فهم .

وفي اليوم التالي لم يجيء . ولم تلاحظ كوزيت ذلك إلا مساء . وقالت :

— « غريب . ان مسيو جان لم يجيء اليوم . »

وألمّ بها شيء أشبه بانقباض ضئيل في الصدر ، ولكنها لم تلحظ ذلك الا بشق النفس ، إذ شغلتها عنه ، في الحال ، قبلة من ماريوس .

وفي اليوم الذي بعده ، لم يجيء أيضاً .

ولم تلق كوزيت بالا إلى ذلك ، لقد أمضت السهرة ، ونامت ليلها ذاك ، كالعادة ، ولم تفكر في المسألة إلا بعد ان استيقظت . كانت سعيدة إلى أبعد الحدود ! ووجهت نيقوليت على جناح السرعة إلى منزل مسيو جان لترى ما إذا كان مريضاً ، ولماذا لم يأت البارحة . ورجعت نيقوليت بجواب مسيو جان . إنه لم يكن مريضاً . لقد كان مشغولا . ولسوف يجيء في وقت قريب . في اقرب وقت ممكن . وإلى هذا ، فقد كان يعتزم القيام برحلة صغيرة . والسيدة تذكر انه كان من عادته الارتحال بين الفينة والفينة . فلا داعي للقلق . ولا داعي لأن يشغل احد نفسه بالتفكير فيه .

وكانت نيقوليت قد كررت ، لدن دخولها منزل مسيو جان ، كلمات سيدها بالحرف الواحد . ان السيدة قد بعثتها لتستطلع « لماذا لم يأت مسيو جان البارحة . » فقال جان فالجان في رقة : « لقد تخلفت عن المجيء يومين

متواليين . »

ولكن هذه الملاحظة اخطأت انتباه نيقوليت فلم تنقل شيئاً منهـــا إلى كوزيت .

٤
انجذاب وانطفاء

خلال الأشهر الأخيرة من ربيـع ١٨٣٣ والاشهر الأولى من صيف ذلك العـــام ، لاحظ عابرو السبيل المتناثرون في الـ « ماريه » ، واصحاب الدكاكين ، والمتعطلون على عتبات الأبواب – لاحظوا رجلا عجوزاً مرتدياً ثوباً نظيفاً يخرج كل يوم ، حوالي الساعة نفسها ، عند هبـوط الليل ، من شارع الرجل المسلح ، في اتجاه شارع « سانت كروا دو لا بروتونوري » ، ويجتاز بـ « البلان مانتو » ، إلى شارع « كولتور سانت كاترين » ، ثم ينتهي إلى شارع الـ « إيشارب » ، وينعطف إلى اليسار ، ويدخل شارع « سان لويس » .

هناك كان يمشي في خطى وئيدة ، منكس الرأس ، غير مبصر شيئاً ، غير سامع شيئاً ، مصوّب النظرات على نحو ثابت ، نحو نقطة واحدة ، لا تعرف التغير ، بدت له وكأنها مرصعة بالنجوم ، نقطة لم تكن غير زاوية شارع فتيات كالفير . حتى إذا اقترب من زاوية ذلك الشارع ، كان وجهه يتهلل ، وكان ضرب من البهجة يضيء عينيه مثل هـــالة باطنية ، وعلت وجهه سيما مفتونة مشفقة ، وتحركت شفتاه حركـــات غامضة وكأنما كان يحدّث شخصاً لم يكن يراه ، ويفترّ ثغره عن ابتسامة كليلة ، ويتقدم بأقصى ما يستطيـع من البطء . كان في ميسور المرء ان يقول انه على الرغم من رغبته في الوصول إلى مكان ما ، كان يخشى

اللحظة التي يقترب فيها منه . حتى إذا لم يبق بينه وبين ذلك الشارع الذي بدا وكأنه يجذبه غير بيوت قليلة كانت خطاه تنتهي إلى بطء شديد حتى لتحسب في بعض الأحيان أنه كفّ عن السير . كان تذبذب رأسه وثبات عينه يذكرانك بالابرة الباحثة عن القطب . بيد أنه كان يصل آخر الأمر ، مهما بذل من اجل تأخير ذلك . كان يصل إلى شارع فتيات كالفير . وهناك كان يقف ، وكان يرتعد ، وكان يضع رأسه بضرب من الجبن القاتم خلف زاوية المنزل الأخير ، وينظر إلى ذلك الشارع ، وكان في تلك النظرة الفاجعة شيء يشبه الانشداه بالمستحيل وانعكاس اضواء فردوس محرّم . ثم إن دمعة كانت قد تجمعت شيئاً فشيئاً في زاوية عينه ونمت إلى حد يمكنها من الانحدار كانت تنزلق على خده وتقف في بعض الأحيان عند فمه . وكان الرجل العجوز يذوق مرارتها . وكان يظل هكذا بضع دقائق ، وكأنه قد تحول إلى حجارة . ثم إنه كان يرجع من الطريق نفسها وبالخطوة نفسها . وكلما ابتعد انطفأت تلك النظرة .

وشيئاً بعد شيء كف هذا العجوز عن التقدم حتى زاويةِ شارع فتيات كالفير . كان يقف عند منتصف شارع سان لويس . وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أبعد قليلا ، وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أقرب قليلا . وذات يوم ، وقف عند زاوية شارع « كولتور سانت كاترين » ونظر إلى شارع فتيات كالفير من بعيد . ثم إنه حرك رأسه ، في صمت ، من اليمين إلى الشمال ، وكأنه كان يأبى على نفسه شيئاً ، وارتد على عقبيه .

وما هيَ إلا فترة قصيرة حتى أقلع عن التقدم إلى شارع سان لويس نفسه . كان ينتهي إلى شارع « بافيه » ، ويهز رأسه ، ويعود أدراجه . ثم إنه ما عاد يمضي إلى أبعد من شارع الـ « تروا بافيون » ؛ ثم أمسى لا يتخطى الـ « بلان مانتو » . لكأنه رقاص ساعة لم يدوَّر ، فذبذباته تتقاصر ريثما تقف نهائياً .

وكل يوم ، كان يغادر بيته في الساعة نفسها ، ويشخص إلى الغاية نفسها ، ولكنه يرتد قبل بلوغها ، ويقصّرها ـ وربما على نحـو غير واع ـ تقصيراً موصولا . كان محياه كله يفصح عن هذه الفكرة الوحيدة : ما الفائدة ؟ كانت حدقته قـد خبت ، فليس فيهـا بعدُ إشعاع . وكانت الدمعة قد ولت أيضاً ، إنها لم تعد تتجمع عند زاوية الجفن . كـانت تلك العين المفكرة جافة . كان رأس الرجل العجوز منكساً ما يزال ؛ وكانت ذقنه ترتعش في بعض الاحيان ؛ وكان النظر إلى تجعدات رقبته المهزولة يوقع الألم في النفس . واحياناً ، حين تكون الحال الجوية سيئة ، كان يتأبط مظلة لا يفتحها ابداً . وكانت نسوة الحي الطيبات يقلن : « إنه ساذج » . وكان الاطفال يلحقون به ضاحكين .



الكتاب التاسع

ظلمة عظمى وفجر أعظم

١

شفقة للتعيس ولكن رفق بالسعيد

أن نكون سعداء — ذلك شيء فظيع ! ما أشد سرورنا بهذا ! وما اكثر ما نجده كافياً ! وما اكثر ما ننسى ، حين نملك هدف الحياة الزائف ، السعادة ، الهدفَ الحقيقي منها : الواجب !

ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول إن من الظلم ان نلوم ماريوس .

إن ماريوس لم يوجه قبل زواجه — كما سبق منا القول — أيما سؤال إلى مسيو فوشلوفان ، ولقد خشي ، منذ زواجه ذاك ، ان يوجه أيما

سؤال إلى جان فالجان . كان قد ندم للوعد الذي اجاز لنفسه أن تُستدرج اليه . وكثيراً ما قال في ذات نفسه انه أخطأ في تساهله مع اليأس . لقد اجتزأ بالعمل لابعاد جان فالجان ، شيئاً بعد شيء ، عن منزله ، ولمحوه جهد الطاقة من ذهن كوزيت . لقد وضع نفسه على نحو موصول — وبطريقة ما — بين كوزيت وجان فالجان ، واثقاً من انها ، على هذه الصورة ، لن تلحظه ولن تفكر فيه البتة . كان ذلك اكثر من محو ، كان كسفاً .

لقد عمل ماريوس ما قدّر أنه ضروري وصائب . لقد اعتقد انه كانت لديه — لاقصاء جان فالجان ، في غير خشونة ، ولكنْ في غير ضعف — اسباب جدية رأينا بعضها من قبل ، وسنرى بعضها الآخر في ما بعد . لقد اتفق له ان اجتمع ، في قضية كان يترافع فيها ، بموظف عجوز في مصر لافيت ، فاطّلع — من غير ان يسعى إلى ذلك — على بعض المعلومات الغامضة التي لم يستطع ، في الواقع ، آن يسبر غورها احتراماً منه لذلك السر الذي وعد بصيانته ، ومراعاةً منه لمركز جان فالجان المحفوف بالخطر . ولقد اعتقد ، في تلك اللحظات نفسها — ان عليه واجباً خطيراً يجب اداؤه ، وهو إعادة الستمئة الف فرنك إلى شخص ما ، راح هو — ماريوس — يبحث عنه باكثر ما يكون من الحذر . وفي غضون ذلك تفادى استعمال هذه الثروة .

أما كوزيت فلم تكن على علم بأي من هذه الأسرار . ولكن من القسوة ادانتها أيضاً .

كانت تفيض من ماريوس نحوها مغناطيسية كلية القدرة تضطرها إلى ان تعمل ، غرَزياً بل آلياً تقريباً ، ما يتمناه ماريوس . لقد استشعرت ، في ما يتصل بـ « مسيو جان » ، ارادة من ماريوس ؛ وأذعنت لها . ولم يكن عند زوجها شيء يقوله لها . لقد عرفت ضغط رغباته غير الملفوظة ، ولكنِ الواضحة ، وخضعت له خضوعاً أعمى .

وكان خضوعها هنا ينهض على عدم تذكّرها ما نسيه ماريوس . وما كان لها أن تبذل أيما جهد في ذلك . فمن غير أن تدري هي نفسها لماذا ، ومن غير ان يكون ثمة أيما دليل يساعد على لومها ، كانت روحها قد غدت روحَ زوجها بحيث أن كل ما جلله الظلام في ذهن ماريوس أظلم في ذهنها .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نذهب إلى بعيد جداً . ففي ما يتصل بجان فالجان لم يكن هذا النسيان وهذا المحو إلا سطحيين . كانت ذاهلة اكثر منها ناسية . كانت في أعمق أعماقها تحب ذلك الذي طالما نادته « يا ابي ! » . ولكنها أحبت زوجها اكثر . كان ذلك هو الذي ذهب بتوازن ذلك القلب ، المائل في ناحية مفردة .

واتفق لكوزيت ان تحدثت ، ذات مرة ، عن جان فالجان واظهرت دهشها . فما كان من ماريوس إلا أن هدأ روعها : « انه غائب ، في ما اظن . ألم يقل انه سوف يقوم برحلة ؟ » فقالت كوزيت في ذات نفسها : « هذا صحيح . كان من عادته الاختفاء على هذه الشاكلة . ولكن غيابه لم يكن يطول إلى هذا الحد . » ومرتين أو ثلاث مرات ارسلت نيقوليت لتسأل في شارع الرجل المسلح ما إذا كان مسيو جان قد رجع من رحلته وكان جان فالجان يجيب أن لا .

ولم تجدد كوزيت السؤال بعد . فقد كان لها مطلب واحد في هذا الوجود : ماريوس .

ويتعين علينا ان نقول إن ماريوس وكوزيت كانا بدورهما غائبين أيضاً. كانا قد ذهبا إلى فيرنون . كان قد مضى بكوزيت إلى ضريح أبيه .

كان ماريوس قد استل كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، من جان فالجان. وانقادت كوزيت لارادته .

وإلى هذا ، فأن ما ندعوه بكثير من القسوة ، في بعض الأحوال ، عقوق الاولاد ليس ، دائماً ، شيئاً يستحق اللوم بقدر ما نعتقد . إنه

عقوق الطبيعة . فالطبيعة ، كما قلنا في مكان آخر ، « تنظر إلى أمام » . والطبيعة تقسم الكائنات الحية إلى مقبلين وموّلين . فأما المولون فتوجّه وجوههم نحو الظلام ، وأما المقبلون فتوجّه وجوههم نحو النور . ومن هنا ينشأ تباعد هو ، من ناحية الشيوخ ، محتوم ، ومن ناحية الجيل الطالع غير إرادي . وهذا التباعد ، غير المدّرك في بادىء الأمر ، يتعاظم تدريجياً ، ككل تباعد بين الاغصان . ان الأفنان لتبتعد عن الجذع من غير ان تنفصل عنه . هذه ليست خطيئتها . الشباب يمضي إلى حيث الابتهاج : إلى الاحتفالات ، إلى الاضواء الساطعة ، إلى الحب . والشيخوخة تمضي إلى غايتها . إن احدهما لا يغيب عن بصر الآخر ، ولكن الصلات بينهما تتراخى . ان أفراد الجيل الطالع يستشعرون برد الحياة ، والشيوخ يستشعرون برد القبر . فيتعين علينا أن لا نلوم هؤلاء الأطفال المساكين .

٢
آخر خفقات المصباح
الذي نفد زيته

وذات يوم هبط جان فالجان سلّم منزله ، وخطا في الشارع ثلاث خطوات ، وجلس على معلم من معالم الطريق ، ذلك المعلم عينه الذي وجده غافروش جالساً فوقه ، ليل الخامس من حزيران ، مستغرقاً في التفكير . ومكث هناك بضع دقائق ، ثم عاود الصعود إلى منزله من جديد — كانت هذه آخر ذبذبة من ذبذبات الرقاص . وفي غد ، لم يغادر غرفته ؛ وفي اليوم الذي تلا ، لم يغادر فراشه .

ونظرت بوابته – التي قدمت اليه طعامه الهزيل : بعض الكرنب وقليلا من البطاطس مع شيء من شحم الخنزير – نظرت إلى القصعة الفخارية السمراء ، وهتفت :

– « ولكنك لم تأكل اي شيء أمس ، ايها الرجل البائس العزيز . »

فأجاب جان فالجان :

– « اجل ، لقد فعلت . »

– « القصعة ما تزال ملأى . »

– « انظري إلى آنية الماء . إنها فارغة . »

– « هذا يُظهر انك شربت . إنه لا يظهر انك أكلت . »

فقال جان فالجان :

– « حسناً ، وافرضي اني لم اكن جائعاً إلا للماء ؟ »

– « هذا يدعى العطش . وحين لا يأكل المرء شيئاً في الوقت نفسه ندعو ذلك حمّى . »

– « سوف آكل غداً . »

– « أو في عيد الثالوث الأقدس . لماذا لا تأكل اليوم ؟ هل يقول الناس : سوف آكل غداً ! انك تترك لي قصعتي كلها من غير ان تمسها ! إنها ملفوفاتي التي كانت جيدة جداً . »

وأمسك جان فالجان يد المرأة العجوز ، وقال لها في صوته العطوف :

– « أعدك بأن آكلها . »

فأجابت البوابة :

– « أنا لست راضية عنك . »

ولم ير جان فالجان قط كائناً بشرياً غير هذه المرأة الصالحة . إن في باريس شوارع لا يسير فيها أحد ، وبيوتاً لا يفد إليها أحد . وكان

جان فالجان في واحد من هذه الشوارع ، وكان في واحد من تلك المنـــازل .

وكان قد اشترى ، قبل ان ينقطـع عن الخروج من منزله ، صليباً نحاسياً صغيراً من عند احـــد النحاسين ، مقـابل بضعــة دريهمات ، وكان قـــد علق ذلك الصليب — وقد نُحـت عليه جسد المصلوب — تجاه سريره . ان الصليب شيء يحسن النظر اليه دائماً .

وتصرم اسبوع ، ولم يكن جان فالجان قد خطا في غرفته أيما خطوة. كان لا يزال في سريره . وقالت البوابة لزوجها : « إن الرجل الـــذي فوق لم يعد يقوم من فراشه أبداً ، لم يعد يأكل ابداً ، وهو لن يعيش طويلا . إن له احزانه . وليس في استطاعة احد ان ينزع من رأسي هذه الفكرة : أن ابنته لم توفق في زواجها . »

وأجاب البواب ، في نبرة السيادة الجديرة بالازواج :

— « إذا كان غنياً فليستدع طبيباً . وإذا لم يكن غنياً فلا داعي لأن يستدعي طبيباً . وإذا لم يستدع طبيباً فعندئذ يموت . »

— « وإذا استدعى طبيباً ؟ »

فقال البواب :

— « يموت أيضاً . »

وشرعت البوابة تحرث الارض ، بسكين عتيقة ، حول عشب كان قد نجم في ما كانت تدعوه رصيفها . وفيما كانت تقتلــع العشب ، غمغمت :

— « شيء مؤلم . رجـل عجوز نظيف جداً . إنـه أبيض مثــل الدجاجــة . »

ورأت طبيباً من اطباء الحي يجتاز بأقصى الشارع . فأخذت على عاتقها التوسل إليه أن يصعد .

وقالت له :

— « إنـه في الدور الثاني . ليس عليك إلا ان تدخل . إن المفتاح هو دائماً في الباب بعد ان عجز الرجل عن مفارقة سريره . »

ورأى الطبيب جان فالجان ، وتحدث اليه .

وحين هبط السلم استجوبته البوابة :

— « حسناً ، أيها الطبيب ؟ »

— « إن مريضك مريض جداً . »

— « مم يشكو ؟ »

— « من كل شيء ، ومن لا شيء . إنـه رجـل يستدل من جميع المظاهر انـه فقد شخصاً أثيراً لديه . إن المرء ليموت بسبب من ذلك ؟ »

— « ماذا قال لك ؟ »

— « لقد قال ان حاله حسنة . »

— « هل سترجع كرة ثانية ، أيها الطبيب ؟ »

فـأجاب الطبيب :

— « أجل . ولكن شخصاً آخر غيري ينبغي أن يرجع . »

٣

ريشة ترهق ذلك الذي رفع كارّة فوشلوفان

وذات مساء وجد جان فالجان عسراً في رفع نفسه على مرفقـه وجسّ معصمه ، فلم يجد اي نبض . كان نفَسـه قصيراً ، وكان ينقطع بين الفينة والفينة ، وادرك انه أضعف ممـا كان في أيما وقت مضى . ثم إنـه بذل جهداً ، تحت ضغط رغبة عليا من غير شك ، وجلس في

فراشه ، وارتدى ملابسه : لقد لبس ثوبه العمالي العتيق . كان قد عاد إليه ، بعد أن أقلع عن الخروج من غرفته ، وكان يؤثره . وتعين عليه أن يتمهل عدة مرات اثناء اللبس . وكان في مجرد ارتدائه صدرته ما جعل العرق يتحدر على جبينه .

ومنذ أن أمسى وحيداً كان قد وضع سريره في غرفة الانتظار لكي يحتل هذا البيت المهجور اقل ما يكون الاحتلال .

وفتح الحقيبة ، وأخرج ملابس كوزيت .

ونشرها على سريره .

كان شمعدانا الأسقف في مكانهما ، على الموقد . واخرج شمعتين من احد الادراج ، ووضعهما في الشمعدانين . ثم اشعلهما ، على الرغم ان الشمس ما زالت مشرقة ، فقد كان الفصل صيفاً . إننا نرى المشاعل مضاءة في وضح النهار ، أحياناً ، في الغرف التي يستلقي فيها الأموات .

كانت كل خطوة يخطوها في الانتقال من احدى قطع الاثاث تضنيه ، وكان مضطراً إلى الجلوس . إنه لم يكن ذلك التعب العادي الذي ينفق القوة لكي يجددها ، كان بقيةَ الحركة الممكنة . كان هو الحياة المستنفَدة تُعتصر قطرةً قطرةً في جهود مرهقة لن تُبذل كرة ثانية .

وكان احد الكراسي التي ارتمى فيها قائماً أمام تلك المرآة ، المشؤومة جداً بالنسبة إليه ، السماوية جداً بالنسبة إلى ماريوس ، التي كان قد قرأ فيها مذكرة كوزيت ، مقلوبة على ورق النشاف . لقد رأى نفسه في هذه المرآة ، فلم يعرف نفسه . كان في الثمانين . أما قبل زواج ماريوس فكان المرء لا يحسب أنه في الخمسين إلاّ بكثير من العسر . كانت هذه السنة بمثابة ثلاثين سنة . إن ما ران على جبينه الآن لم يكن تغضّن الشيخوخة ، ولكن أمارة الموت الخفية . كنت تلمح هناك أثر المخلب الذي لا يعرف الرحمة . كان خداه غائرين ، وكانت بشرة

وجهه ذات لون يوحي بأن الثرى قد علاها منذ الآن . وكانت زوايا فمه قد انخفضت وكأنها في ذلك القناع الذي كان القدماء ينحتونه على قبورهم . وكان ينظر إلى الفراغ نظرة تأنيب ، ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسبه واحداً من تلك الكائنات الجليلة الفاجعة التي تنهض شاكية شخصاً ما .

كان في تلك الحال — آخر مراحل الأعياء — التي ينقطع فيها الألم عن الجريان . لقد تخثّر ، إذا جاز التعبير . لكأن النفس قد غطيت بجلطة بأس .

كان الليل قد هبط . وفي كثير من العناء جر احدى الطاولات وذلك الكرسي العتيق ذا الذراعين إلى مقربة من الموقد ، ووضع على الطاولة ريشة ، وحبراً ، وورقاً .

حتى إذا تم له ذلك أصيب بأغماء . وحين ثاب إلى رشده ، شعر بظمأ . واذ عجز عن رفع آنية الماء ، فقد حناها نحو فمه ، في مشقة ، وشرب جرعة .

ثم التفت إلى السرير ، ونظر — وهو لا يزال جالساً لأنه لم يستطع البقاء واقفاً — إلى الثوب الاسود الصغير وجميع تلك الاشياء الاثيرة لديه .

مثل هذه التأملات تدوم ساعات تبدو وكأنها دقائق . وفجأة ارتعد ، واستشعر ان البرد قد أصابه . وانحنى فوق الطاولة المضاءة بشمعداني الاسقف ، وامسك بالريشة .

واذ كان كل من الحبر والريشة لم يستعمل منذ عهد بعيد ، وكان رأس الريشة مرتداً إلى الوراء ، وكان الحبر قد جف ، فقد اضطر إلى ان ينهض ويضع في الحبر بضع قطرات من الماء ، وهو شيء لم يستطع ان يقوم به من غير ان يتمهل ويقعد مرتين أو ثلاث مرات ، وقد اضطر إلى ان يكتب بظهر الريشة . وكان، بين الفينة والفينة، يمسح جبينه .

وارتعشت يده . وفي بطء ، خط الاسطر القليلة التالية :

« كوزيت ، إنني اباركك . سوف اقدم اليك تفسيراً . لقد كان زوجك على حق في إشعاري بأن علي ان انصرف . ومع ذلك فان ثمة بعض الخطأ في الذي اعتقده ، ولكنه كان على حق . إنه ممتاز . وحين اموت ، أحبيه دائماً حباً جماً . وانت يا مسيو بونميرسي ، أحب دائماً طفلتي الحبيبة . كوزيت ، إن هذه الورقة سوف توجد ، هذا ما اريد ان اخبرك إياه ، ولسوف تقرأين ارقاماً ، إذا كانت لي القدرة على تذكرها ؛ إسمعي جيداً ، إن هذا المال هو لك حقاً . وهذه هي القصة كاملة : إن الكهرمان الابيض يجيء من نروج ، والكهرمان الاسود يجيء من انكلترة ، وتقليدها الزجاجي الأسود يجيء من المانية . والكهرمان اخف ، وأنفس ، أغلى . وفي استطاعتنا ان نقلده في فرنسة كما يقلدونه في المانية . وهو يقتضي سنسداناً صغيراً مساحته بوصتان مربعتان ومصباحاً على الكحول لأسالة الشمع . وكان الشمع يصنع في ما مضى من صمغ الصنوبر وسواد الدخان ، وكانت الاوقية تكلف اربعة فرنكات . وقد تراءى لي ان أصنعه من صمغ اللك وصمغ البطم . وهذا لا يكلف غير ثلاثين سو ، وهو أفضل بكثير . والابازيم تصنع من زجاج بنفسجي نلصقه بواسطة هذا الشمع بقطعة صغيرة مدورة من حديد أسود . والزجاج يجب ان يكون بنفسجياً للحلى الحديدية ، وأسود للحلى الذهبية . واسبانية تشتري مقادير كبيرة منها . تلك هي بلاد الكهرمان .... »

وهنا كف عن الكتابة ، وسقطت الريشة من بين اصابعه ، وأطلق احدى تلك الزفرات اليائسة التي كانت تصعد احياناً من أعماق وجوده . وامسك الرجل البائس رأسه بين يديه ، وانشأ يفكر .

وهتف في ذات نفسه — وتلك صيحات محزنة لا يسمعها غير الله :

— « اوه ! قضي الأمر . أنا لن اراها بعد اليوم . إنها ابتسامة

عبرت فوقي : سوف ادخل في الظلام من غير ان اراها مجرد رؤية ، كرة اخرى . اوه ! دقيقة ! لحظة ! لكي اسمع صوتها ، لكي ألمس ثوبها ، لكي انظر اليها ، هي ، الملاك ! وبعد ذلك اموت . ليس الموت شيئاً ذا بال ، ولكن الشيء الرهيب ان اموت من غير ان اراها : انها خليقة بأن تبتسم لي ؛ وانها خليقة بأن تقول لي كلمة . هل في ذلك ما يؤذي احداً ؟ لا ، لقد قضي الأمر ، إلى الابد . ها انا ذا في وحدة مطلقة . يا الـٰهي ! يا الـٰهي ! انا لن اراها بعد ابداً . »

وفي تلك اللحظة خفق شخص الباب .

٤

زجاجة حبر لا توفق الى اكثر من التبييض

في ذلك اليوم نفسه ، أو في ذلك المساء نفسه على الأصح ، لحظة غادر ماريوس المائدة وأوى إلى مكتبه ، إذ كان لديه ملف اوراق ينبغي ان يدرس ، قدم اليه باسك رسالة وقال :

— « إن الشخص الذي كتب هذه الرسالة هو في غرفة الانتظار . »

كانت كوزيت قد تأبطت ذراع جدها ، وراحت تتجول في الحديقة .

إن الرسالة قد يكون لها ، كما للرجل ، مظهرٌ مقيت . ورق خشن ، طية غليظة ، إن مجرد النظر إلى بعض الرسائل ليسوء . ولقد كانت الرسالة التي حملها باسك من هذا الضرب .

وتناولها ماريوس . كانت رائحة التبغ تفوح منها . وليس ثمة ما

يوقظ الذكريات مثل الرائحة . وعرف ماريوس هذا التبغ . ونظر إلى العنوان : « إلى سيدي ، السيد البارون بوميرسي . في قصره . » وقادته معرفته للتبغ إلى أن يعرف الخط . وفي استطاعة المرء ان يقول ان للدهش بروقهُ . لكأن ماريوس كان قد استضاء بواحد من تلك البروق .

وأحيت حاسةُ الشم ، ذلك المذكِّرُ الخفي ، عالماً كاملا في ذات نفسه . هنا كان الورق نفسه ، وطريقة الطي ، وشحوب الحبر ، هنا كان في الواقع ذلك الخط المعروف ؛ وفوق كل شيء ، هنا كان التبغ . وبدا أمامه مسكن جوندريت الحقير .

وهكذا ، نزوة غريبة من نزوات المصادفة ! ان أحد ذينك الاثرين اللذين طالما بحث عنهما ، ذلك الاثر الذي عاد فبذل مؤخراً جهوداً كبيرة للاهتداء إليه والذي اعتقد انه ضاع إلى الأبد ، إن ذلك الآثر جاء بنفسه اليه .

وكسر الختم في لهفة ، وقرأ :

« سيدي البارون ، لو ان الكائن الأسمى اعطاني المواهب لذلك ، اذن لكان من الجائز ان أكون البارون تينار ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، ولكني لست كذلك . انا احمل الاسم نفسه ليس غير ، واني اكون سعيداً إذا ما كان في هذه الذكرى ما يدخلني رحاب جودك . والمنة التي ستشرفني بها سوف تكون متبادلة . انا املك سراً يتصل بشخص ما . وهذا الشخص يهمك . واني لأحتفظ بالسر واضعاً اياه بتصرفك ، راغباً في ان أتشرف بأن اكون ذا فائدة لك . سوف اقدم اليك الوسيلة البسيطة لكي تطرد من اسرتك النبيلة ذلك الشخص الذي لا حق له فيها ، باعتبار ان السيدة البارونة ذات محتد رفيع . إن هيكل الفضيلة لا يستطيع ان يؤوي الجريمة اكثر مما فعل من غير ان يتخلى عن مكانته .

« أنا أنتظر في غرفة الانتظار أوامر سيدي البارون ...
مع الاحترام » .
وكانت الرسالة موقعة هكذا : « تينار » .
ولم يكن ذلك التوقيع كاذباً . لقد كان مختصراً بعض الشيء ، ليس غير .
وإلى هذا ، فان ذلك الانشاء المتهافت وذلك الخط أتمّا كشف النقاب . كانت شهادة المنشأ كاملة . ولم يكن ثمة مجال لأيما شك .
وكان انفعال ماريوس عميقاً . فبعد شعور المفاجأة استحوذ عليه شعور بالسعادة . فليجد الآن الرجلَ الآخر الذي التمسه ، الرجل الذي انقذه ، هو ماريوس ، وهل كان ثمة ما يتمناه غير ذلك ؟
وفتح احد ادراج مكتبه ، واخرج بعض الاوراق النقدية ، ووضعها في جيوبه . واغلق درج المكتب ، وقرع الجرس . وفتح الباب نصف فتحة :
وقال ماريوس :
— « أدخله . »
ونادى باسك :
— « مسيو تينار . »
ودخل رجل .
مفاجأة اخرى لماريوس . كان الرجل الذي دخل مجهولا عنده بالكلية.
وكان هذا الرجل — العجوز — ذا أنف ضخم ، وذقن ملتصقة برباط رقبته ، ونظارتين خضراوين ذواتي عاكستين للنور من حرير اخضر فوق العينين ، وشعر مصقول ومملّس ، وجبين قريب إلى الحاجبين ، مثل الشعر المستعار الذي يرتديه سائقو العربات الانكليز العاملون في خدمة النبلاء . كان شعره أشيب . وكانت ثيابه سوداء كلها ، من أعلى الرأس

لى أخمص القدم ، وكانت تلك الثياب بالية . ولكنها نظيفة . وكانت حزمة من الجواهر الرخيصة المتدلية من جيب صدرته توحي بأنه يحمل ساعة . وكان يمسك بيده قبعة عتيقة . ولقد مشى في انحناء ، ولقد زاد انحناء ظهره في انخفاض سلامه .

وكان الذي لفت نظر ماريوس للوهلة الأولى ان ثوب هذا الرجل ، الفضفاض اكثر مما ينبغي ، على الرغم من انه مزرّر في عناية ، بدا وكأنه لم يُجعل له اصلا .

وهنا لا بد من استطراد قصير .

كان في باريس ، لذلك العهد ، في مسكن عتيق بشارع « بوتربيبي » ، قرب دار الصناعة ، يهودي نابغة مهنته تحويل النذل إلى رجل فاضل . ولكن ليس إلى فترة طويلة جداً ، مما قد يكون مربكاً للنذل . وكان ذلك التحويل يُجرى بالنظر ومن غير مقياس ، ليوم أو يومين ، مقابل ثلاثين سو يومياً ، بواسطة بذلة تشبه إلى أقصى حدود الامكان بذلات الافاضل من الناس على العموم . وكان مؤجر البذلات هذا يدعى «المغيّر» كان لصوص باريس قد خلعوا عليه هذا الاسم ، فهم لا يعرفونه إلا به . كانت عنده خزانة ملابس كاملة إلى حد ما . وكانت الاسمال التي يُلبسها زبائنه محترمة تقريباً . كانت سلعه تنقسم إلى صنوف وانواع . وفوق كل مسمار في دكانه ، كانت حالة اجتماعية تتدلى بالية رثة . فهنا ثوب الحاكم ، وهناك ثوب الكاهن ، وهنالك ثوب المصرفي . وفي هذه الزاوية ثوب الجندي المتقاعد ، وفي تلك الزاوية ثوب الاديب ، وفي مكان أبعد ثوب رجل الدولة . وكان هذا الرجل هو الذي يقدم الملابس للدرامة الهائلة التي يمثلها المكر في باريس . كان كوخه هو المقصورة التي تنطلق منها اللصوصية ، وينقلب اليها الاختلاس . ووفد على هذه الخزانة نذل رث الثياب ، ودفع ثلاثين سو ، واختار – وفقاً للدور الذي أراد ان يمثله ذلك اليوم – الثوبَ الذي يلائمه ، وحين رجع

إلى الشارع كان النذل قد أمسى شخصاً ما . وفي اليوم التالي ، اعيدت الثياب في أمانة ؛ إن « المغيّر » الذي استودع اللصوص كل شيء لم يُسرق قط . وكانت لهذه الملابس علة واحدة ، وهي انها « لا تلائم » . كانت بوصفها غير مخيطة خصيصاً لمن يلبسونها ضيقة على هذا الرجل ، فضفاضة على ذاك ، غير مناسبة لأحد . وكان كل لص متجاوز للمتوسط البشري في الضآلة أو الضخامة لا يستشعر الراحة في ثياب « المغير » . ان عليه ان لا يكون بديناً أكثر مما ينبغي ، أو هزيلا اكثر مما ينبغي . لقد أعد العدة للرجال العادين فحسب . وكان قد أخذ مقاييس النوع في شخص أول وغد صادفه ، ولم يكن هذا الوغد لا بديناً ولا هزيلا ، ولم يكن لا طويلا ولا قصيراً . ومن هنا بعض التعديلات ، العسيرة احياناً ، التي كان زبائن « المغير » يستعينون بها لتحقيق اغراضهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . أما الشواذ فلأمهم الهبل ! فثوب رجل الدولة ، مثلا ، الأسود من أعلى إلى أدنى ، والموافق بالتالي ، قد يكون كبيراً اكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « بت » ، وصغيراً اكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « كاستلسيكالا » . وكان ثوب « رجل الدولة » موصوفاً على النحو الآتي في بيان « المغير » — ونحن ننسخ ذلك نسخاً : « سترة من جوخ أسود ، وبنطلون جلدي من صوف أسود مقصّر ، وصدرة حريرية ، وحذاء عالي الساق ، وبياضات . » وكان في الهامش : « سفير قديم » وملاحظة ننسخها هنا أيضاً : « في صندوق خاص لمة مستعارة مجعدة على نحو دقيق ، ونظارتان خضراوان ، وجواهر زهيدة القيمة ، وقلمان صغيران من ريش الطير طول كل منهما بوصة ملفوفان بالقطن . » كان هذا كله خاصاً برجل الدولة ، السفير القديم . وكان هذا الثوب كله ، إذا جاز لنا ان نصطنع الكلمة ، مضنىً . كانت الدرزات قد اخذت في الابيضاض ، وكانت عروة غير محددة تبرز في احد المرفقين ، وفوق هذا كان احد الازرار يعوز الثوب فوق صدر السترة . ولكن هذه لم

تكن غير مسألة ثانوية . ولما كان من الواجب ان تظل يد رجل حوة داخل الثوب دائماً ، وفوق القلب ، فقد كانت وظيفتها اخفاء [illegible] الغائب .

ولو ان ماريوس كان على معرفة بمؤسسات باريس الخفية اذن لتبيّن في الحال ، على ظهر الزائر الذي ادخله باسك اللحظةَ عليه ، سترةَ رجل للدولة المستعارة من خزانة « المغير » .

وانقلبت خيبة أمل ماريوس — لدن رؤيته شخصاً آخر يدخل عليه غير الذي توقعه — إلى كراهية للوافد الجديد. وأجال بصره فيه من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، فيما انحنت الشخصية في افراط ، وسأله في نبرة حادة :

— « ماذا تريد ؟ »

واجاب الرجل في تكشيرة أنيسة تستطيع ابتسامة التمساح الملاطفة ان تعطي فكرة عنها :

— « يبدو لي من المستحيل ان لا اكون قد حظيت حتى الآن بشرف رؤية سيدي البارون في المجتمع . انا أعتقد في الواقع اني لقيته على نحو خصوصي منذ بضع سنوات في قصر السيدة الأميرة باغراسيون ، وصالونات صاحب السمو الفيكونت دامبري ، عضو المجلس الاعلى . »

إنها لوسيلة ناجحة دائماً ، في عالم اللصوصية والنذالة ، أن تعرف شخصاً لست تعرفه .

وأصغى ماريوس ، في انتباه ، إلى صوت هذا الرجل . وترصّد نبرته واشاراته في لهفة ، ولكن خيبة أمله تعاظمت . كان لفظاً أخن ، مختلفاً كل الاختلاف عن الصوت الحاد الجاف الذي توقّعه . واخذه انشداه كامل .

وقال :

— « لست اعرف لا مدام باغراسيون ، ولا مسيو دامبري . أنا لم أطأ طوال عمري بيت هذه أو ذاك . »

كان الجواب فظاً . ولكن الشخص اصر ، رغم ذلك ، في لطف :
ــ « إذن فينبغي ان اكون قد رأيت سيدي في بيت شاتوبريان !
أنا أعرف شاتوبريان جيداً . إنه لطيف جداً . وهو يقول لي احياناً :
تينار ، يا صديقي ، اتحب ان تشرب معي كأساً ؟ »
وغدا جبين ماريوس كالحاً اكثر فأكثر :
ــ « أنا لم اتشرف في يوم من الايام بزيارة مسيو دو شاتوبريان .
اختصر ! ماذا تريد ؟ »
وتجاه الصوت الاشد قسوة ، انحنى الرجل انحناءة اكبر .
ــ « سيدي البارون ، تنازلْ وأصغِ الي . إن في اميركة ، في منطقة
باناما ، قرية تدعى لا جويا . وهذه القرية مؤلفة من بيت واحد . بيت
ضخم ، مربع ، ذي ثلاثة ادوار بنيت من لبن ، وطول كل ضلع
من أضلاع المربع خمسمئة قدم ، وكل دور يرتدّ اثني عشر قدماً وراء
الدور القائم تحته ، بحيث يترك امامه سطيحة تحيط بالبناء ؛ وفي الوسط
فناء داخلي فيه مؤن وذخائر . لا نوافذ ولكن كوى . لا ابواب ، ولكن
مراقٍ ، مراقٍ للصعود من الارض إلى السطيحة الأولى ، ومن الأولى إلى
الثانية ، ومن الثانية إلى الثالثة ، مراق للهبوط إلى الفناء الداخلي . لا
أبواب للغرف ، ولكن مداخل أفقية . لا سلالم إلى الغرف ، ولكن
مراقٍ . وفي الليل تغلق المداخل الافقية ، وتسحب المراقي إلى الوراء ،
وتُسدَّد البنادق القصيرة والبنادق الخفيفة من الكوى . لا وسيلة إلى
الدخول . بيت في النهار ، قلعة في الليل . ثمانمئة نسمة . تلك هي
القرية . لم هذا الحذر كله ؟ لأن تلك المنطقة خطرة ، إنها ملأى
بأكلة لحوم البشر . واذن فلماذا يذهب الناس إلى هناك ؟ لان تلك المنطقة
رائعة ، الذهب موجود هناك . »
فقاطعه ماريوس ، وكان قد شرع ينتقل من خيبة الأمل إلى فراغ
الصبر :

— « ما الذي جاء بك ؟ »

— « من أجل هذا ، يا سيدي البارون . أنا ديبلوماسي عتيق مرهق . لقد استنفدتني الحضارة القديمة . أنا احب ان أجرب المتوحشين . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « سيدي البارون ، الأنانية قانون العالم . ان المرأة الريفية الكادحة التي تشتغل في النهار تستدير حين تمر العربة العامة ، اما المرأة الريفية المالكة التي تشتغل في حقلها هي فلا تستدير . وكلب الفقير ينبح على الغني ، وكلب الغني ينبح على الفقير . كلٌ يفكر في مصالحه . المصلحة هي هدف الناس . الذهب هو حجر المغناطيس . »

— « وبعد ؟ إختم . »

— « انا ارغب في الذهاب إلى « لا جويا » والاستقرار فيها . نحن ثلاثة . إن عندي زوجتي ، وابنتي الصغيرة ، وهي فتاة جميلة جداً . الرحلة طويلة وغالية . انا في حاجة إلى شيء من المال . »

فسأله ماريوس :

— « وما علاقتي انا بذلك ؟ »

وأتلع الرجل المجهول رقبته من خلال رباط عنقه ، وهي حركة من حركات العقاب ، واجاب في ابتسامة مزدوجة :

— « واذن ، فسيدي البارون لم يقرأ رسالتي ؟ »

ولم يكن ذلك بعيداً عن الصواب . فالواقع ان محتوى الرسالة فات ماريوس . لقد رأى الخط اكثر مما قرأ الكتاب . وكان لا يذكر شيئاً من ذلك ، أو يكاد . ومنذ لحظة كان مفتاح جديد قد قُدم اليه . لقد لاحظ هذه الواقعة : « زوجتي ، وابنتي الصغيرة » . وسدد عيناً فاحصة إلى الرجل المجهول . وما كان في ميسور قاض من قضاة التحقيق أن يفعل خيراً من ذلك . لقد بدا وكأنه يكمن له . وأجاب :

— « إشرح . »

وأقحم الرجل المجهول يديه في جيبي سترته ، ورفع رأسه من غير ان يقوّم عموده الفقري ، مدققاً النظر بدوره في ماريوس من خلال نظارتيه الخضراوين .

— « ليكن ، يا سيدي البارون . سوف اشرح . إن عندي سراً اريد ان ابيعك اياه . »

— « سر ؟ »

— « اجل ، سر . »

— « سر يتصل بي ؟ »

— « بعض الشيء . »

— ما هذا السر ؟ »

وتأمل ماريوس الرجل ، اكثر فأكثر ، فيما كان يصغي اليه .

فقال الرجل المجهول :

— « سوف ابدأ بالمجان . سوف ترى ان حديثي ممتع . »

— « تكلم . »

— « سيدي البارون ، إن في بيتك لصاً وسفاحاً . »

وارتعد ماريوس .

وقـال :

— « في بيتي ؟ لا . »

ومسح الرجل الغريب قبعته بردنـه ، وتابـع كلامه رابط الجأش :

— « سفاح ولص . إنتبه ، يا سيدي ، إلى أنني لا اتحدث هنا عن وقائع قديمة ، بالية ، هرمة ، يمكن ان تسقط بمرور الزمن في نظـر القانون ، أو بالتوبة في نظر الله . انا اتحدث عن وقائع حديثة ، عن وقائع فعلية ، وقائع تجهلها العدالة حتى هذه الساعة . سوف أتابـع . ان هذا الرجل قد تسلل إلى ثقتك ، بل إلى أسرتك تقريباً ، تحت اسم زائف . سوف اقول لك اسمه الحقيقي . وسوف اقوله لك لقـاء

لا شيء . »

ـ « أنا مصغ إليك . »

ـ « ان اسمه جان فالجان . »

ـ « أعرف ذلك . »

ـ « وسوف اقول لك ، لقاء لا شيء أيضاً ، من هو . »

ـ « قـل . »

ـ « إنه أشغالي ّ قديم . »

ـ « اعرف ذلك . »

ـ « انت تعرف ذلك منذ كان لي شرف إعلامك به . »

ـ « لا ، أنا اعرف ذلك من قبل . »

وكان في نبرة ماريوس الباردة ، وهذا الجواب المزدوج . « اعـرف ذلك » . وايجازه المربك للحوار ما أثار بعض الغضب المكبوت في نفس الرجل المجهول . ورشق ماريوس بنظرة ضارية مختلسة ما لبثت ان خبت . وعلى الرغم من سرعتها البالغة ، فان هذه النظرة كانت واحدة من تلـك النظرات التي تدرك بعد أن ترى مرة واحدة ؛ إنها لم تفت ماريوس . إن بعض الالتماعات لا يمكن ان تنطلق إلا من نفوس بعينها . ان العين ، نافذة الفكر تلك ، لتتوهج بها . وليس في استطاعة النظارتين ان تخفيا شيئاً . ضع زجاجة على الجحيم ، اذن .

واستأنف الرجل المجهول كلامه ، وهو يبتسم :

ـ « لست اسمح لنفسي ان أناقض سيدي البارون . وعلى اية حال ، ينبغي ان ترى اني حسن الاطلاع . والآن ، ان ما اريد ان اخبرك اياه لا يعرفه احد غيري . إنه يتصل بثروة السيدة البارونة . إنـه سر استثنائي . سر للبيع . أنا أقدمه اليك أولاً . ثمن رخيص . عشرون الف فرنك . »

وقال ماريوس :

— « أنا اعرف هذا السر كما اعرف بقية الاسرار . »

واستشعر الشخص الحاجة إلى أن يخفض سعره قليلا .

— « سيدي البارون ، قل عشرة آلاف فرنك ، وعندئذ اتكلم . »

— « اكرر القول انه ليس عندك شيء تحبطني به علماً . انا اعرف ما تريد اخباري اياه . »

واومض في عين الرجل بريق جديد . وهتف :

— « ومع ذلك ، فينبغي ان اتعشى اليوم . إنه سر استثنائي ، اقول لك . سيدي البارون ، سوف اتكلم . أنا اتكلم . أعطني عشرين فرنكاً . »

وثبّت ماريوس نظراته عليه وقال :

— « أنا أعرف سرك الاستثنائي ، تماماً كما عرفت اسم جان فالجان، وكما عرفت اسمك . »

— « اسمي ؟ »

— « نعم . »

— « هذا ليس عسيراً ، يا سيدي البارون . لقد تشرفت بكتابته اليك وإعلامك به . تينار . »

— « ... دييه » .

— « ايه ؟ »

— « تيناردييه . »

— « من هذا ؟ »

أمام الخطر ، يطلع الدُلدل * أشواكه ، ويتظاهر الجُعَل بالموت ، ويشكل الحرس الوطني القديم مربعاً . أما هذا الرجل فقد بدأ يضحك .

ثم إنه نفض ، بضربة من سبابته ، ذرة من غبار عن ردن ثوبه .

* porc — épic وهو حيوان شائك .

وتابع ماريوس :

— « وأنت أيضاً العامل جوندريت ، والكوميدي فابانتو ، والشاعر جانفلو ، والاسباني دون الفاريز ، والمرأة باليزار . »

— « أية امرأة ؟ »

— « وكان عندك مطعم حقير في مونفيرماي . »

— « مطعم ؟ ابداً . »

— « وانا اقول لك انك تيناردييه . »

— « انا انكر ذلك . »

— « وانك نذل . خذ . »

واخرج ماريوس من جيبه ورقة مالية ، وقذف بها في وجهه .

— « شكراً ! عفواً ! خمسمئة فرنك ! سيدي البارون ! »

وأمسك الرجل بالورقة المالية ، ذاهلا ، منحنياً في احترام ، وانشأ يتسأملها .

وكرر في دهش :

— « خمسمئة فرنك ! »

وتلجلج في همس :

— « خمسمئة فرنك جدية . »

ثم هتف :

— « حسن ، فليكن . فلنأخذ راحتنا . »

وفي رشاقة قرد خلع محياه كما يخلع المرء قبعته ، رادّاً شعره إلى وراء مقتلعاً نظارتيه ، مخرجاً من انفه ومنتشلا قلمي ريش الطير اللذين تحدثنا عنهما منذ لحظة ، واللذين سبق ان رأيناهما في صفحة اخرى من هذا الكتاب .

والتمعت عينه . وبرز جبينه مثلّماً ، غير مستو ، محدّباً في مواطن ، مغضّناً من فوق على نحو بشع . وغدا انفه حاداً مثل منقار . وتبدّت

من جديد الصورة الجانبية الضارية الذكية الخاصة بالجوارح من الناس .

وفي صوت صاف لم تبق فيه أيما خنّة ، قال :

— « ان سيدي البارون معصوم عن الخطأ . أنا تيناردييه . »

وقرّم ظهره المنحني .

كان تيناردييه — فقد كان هذا الرجل هو تيناردييه حقاً — مندهشاً على نحو غريب ، ولقد كان خليقاً به أن يضطرب ويقلق لو ان ذلك ممكن بالنسبة اليه . كان قد وفد ليُوقع الدهش ، فاذا به يتلقاه . وهذه الاهانة عادت عليه بخمسمئة فرنك ، ولقد قبلها بعد ان قلّب الأمر على مختلف وجوهه . ولكنه ظل مع ذلك منذهلا .

لقد رأى البارون بونميرسي هذا للمرة الأولى . وعلى الرغم من تنكّره عرفه البارون بونميرسي ، وعرفه معرفة كاملة . ولم يكن هذا البارون تام الاطلاع على كل ما يتصل بتيناردييه فحسب ولكنه بدا كامل الاطلاع على كل ما يتصل بجان فالجان أيضاً . من كان هذا الشاب الأمرد أو يكاد ، المثلوج إلى أبعد الحدود والسخي إلى أبعد الحدود ، الذي يعرف اسماء الناس ، الذي يعرف جميع اسمائهم ، والذي يفتح حافظة نقوده لهم ، والذي يهين الأوغاد مثل قاضٍ ويدفع اليهم المال مثل أحمق ؟

والقاريء يذكر ان تيناردييه ، على الرغم من انه كان جاراً لماريوس، لم يقدّر له قط أن يراه ، وهو امر مألوف في باريس . لقد سمع ذات مرة بناته يتحدثن عن شاب فقير جداً يدعى ماريوس كان يسكن في المنزل نفسه . وكان قد كتب اليه ، من غير ان يعرفه ، الرسالة التي نعرفها . لم يكن ممكناً ان تقوم في ذهنه أيما صلة بين ماريوس والسيد بارون بونميرسي .

أما فيما يتصل باسم بونميرسي فالقاريء يذكر ان تيناردييه لم يسمع

منه ، في ساحة القتال بواترلو ، غير المقطعين الاخيرين اللذين كان ينظر اليهما دائماً نظرة الازدراء الشرعي التي نوجهها عادة لما هو مجرد شكر ليس غير .

وإلى هذا ، فمن خلال ابنته آزيلما التي كان كلفها بتعقب اثر العروسين يوم السادس عشر من شباط ، ومن خلال مباحثه الخاصة ، كان قد وفق إلى اكتشاف اشياء كثيرة . ومن اعماق ظلمته كان قد وفق إلى الامساك باكثر من خيط خفي . كان قد اكتشف ، بفضل الصناعة ، أو على الاقل حزرَ ، بفضل الاستقراء ، ذلك الرجل الذي لقيه ذات يوم في البالوعة العظمى . ومن الرجل ، انتهى في سهولة إلى الاسم . لقد عرف ان السيدة البارونة بونمبرسي كانت كوزيت . ولكنه اعتزم ان يكون ، من هذه الناحية ، حكيماً . من كانت كوزيت ؟ إنه هو نفسه ما كان يدري على وجه الضبط . لقد لمح ثمة لا شرعيةً ما . وكانت قصة فانتين قد بدت له غامضة دائماً ، ولكن ما الفائدة من الخوض في ذلك الموضوع ؟ لكي يتقاضى ثمن سكوته ؟ كان عنده ، أو كان يحسب ان عنده ، شيء يبيعه خير من ذلك . وجميع المظاهر تدل على ان الذهاب إلى البارون بونمبرسي وكشف النقاب امامه ، من غير ما دليل ، عن هذا الأمر : **زوجتك ابنة زنا** لن يجذب غير حذاء الزوج إلى ظهر الكاشف .

كانت المحادثة مع ماريوس لمّا تبدأ بعد في نظر تيناردييه . لقد اضطر إلى التراجع ، إلى تعديل استراتيجيته ، إلى اخلاء موقع ، أو تغيير جبهة ، ولكنه لم يخسر شيئاً اساسياً ما ، ولقد كانت في جيبه خمسمئة فرنك ؛ وإلى هذا ، فقد كان لديه شيء حاسم يقوله . وحتى أمام هذا البارون بونمبرسي المطلع إلى أبعد الحدود المسلح إلى أبعد الحدود ، استشعر أنه قوي . إن كل حوار هو معركة في عرف من كانت له طبيعة كطبيعة تيناردييه . وفي ذلك الصراع الذي يوشك ان

ينشب ، ما كان وضعه ؟ إنه ما كان يعرف من يخاطب ، ولكنه كان يعرف عمن كان يخاطبه . واجرى على نحو خاطف هذا الاستعراض الباطني لقواه ، وبعد ان قال : انا تيناردييه ، تمهل .

وظل ماريوس مستغرقاً في التفكير . لقد أمسك ، آخر الأمر ، اذن، بتيناردييه . هذا الرجل الذي طالما ود لو يعثر عليه من جديد كان الآن أمامه . ان في ميسوره اذن ان ينفذ وصية الكولونيل بونمرسي . وأخزاه ان يكون هذا البطل مديناً بشيء ما لهذا اللص ، وان يظل سند الدفع الذي حوّله اليه ابوه من اعماق قبره غير مدفوع حتى ذلك اليوم. لقد بدا له أيضاً ، في الحالة المعقدة التي ألمت بذهنه في ما يتصل بتيناردييه ، ان ههنا فرصة مناسبة للانتقام للكولونيل من نكد الطالع ذاك الذي جعله مديناً بحياته لمثل هذا الوغد . وايا ما كان ، فقد كان يشعر بالارتياح . كان على وشك ان ينقذ طيف الكولونيل ، آخر الأمر ، من هذا الدائن غير الجدير به ، وتراءى له انه يوشك ان يحرر ذكرى أبيه من السجن بسبب الدّين.

وإلى جانب هذا الواجب كان عليه واجب آخر : ان يلقي الضوء — إذا استطاع — على مصدر ثروة كوزيت . لقد بدا وكأن الفرصة قد سنحت لذلك . ومن يدري ، فلعل تيناردييه يعرف شيئاً ما . وقد يكون من المفيد سبر هذا الرجل حتى الأعماق ، وبدأ من هنا .

كان تيناردييه قد أزلّ « الخمسمئة فرنك الجدية » في جيب صدرته ، وكان ينظر إلى ماريوس في وداعة تكاد تكون حنوناً .

وقطع ماريوس حبل الصمت :

— « تيناردييه ، لقد قلت لك اسمك. والآن هل تريد مني ان أعلمك بسرك ، بذلك الذي جئت تخبرني به ؟ ان لي انا أيضاً استعلاماتي » وسوف ترى اني اعرف عن ذلك اكثر مما تعرف انت . إن جان فالجان كما قلتَ ، سفاح ولص . لص ، لأنه سرق صناعياً غنياً ، مسيو

مادلين ، كان هو سبب افلاسه . وسفاح ، لأنه سفح دم ضابط الشرطة ، جافير . »

فقال تيناردييه :

— « لست افهم ، يا سيدي البارون . »

— « سوف اوضح كلامي . إسمع . كان في مقاطعة الـ « با دو كاليه » حوالى ١٨٢٢ ، رجل كانت له مشكلة قديمة مع العدالة ، وكان قد تاب وأصلح متخذاً اسم مسيو مادلين . كان قد امسى رجلا مستقيماً ، بكل ما في الكلمة من معنى . وبواسطة احدى الصناعات . صناعة الخرز الأسود ، كان قد انشأ ثروة مدينة بكاملها . اما ثروته الخاصة . فكان قد انشأها أيضاً ، ولكن على نحو ثانوي . وبوجه ما . بالمصادفة . كان أبا الفقراء الحاني . لقد اسس مستشفيات . وفتح مدارس . وعاد المرضى ، ومنح البائنة للفتيات ، وأعان الارامل على العيش . وتبنى الايتام . كان اشبه ما يكون بوصي على المنطقة . وكان قد رفض الوسام . وكان قد اختير عمدة . وعرف أشغالي مطلق السراح سر عقوبة أنزلت ذات يوم بهذا الرجل . وسعى به عند السلطة ، فاعتقل . وافاد من اعتقاله فوفد على باريس وسحب من لافيت المصرفي — لقد عرفت هذه الواقعة من امين الصندوق نفسه — بتوقيع زائف مبلغاً يزيد على نصف مليون كان ملكاً لمسيو مادلين . وهذا الاشغالي الذي سرق مسيو مادلين هو جان فالجان . أما في ما يتصل بالواقعة الاخرى فليس عندك ما تخبرني به أيضاً . لقد قتل جان فالجان جافير . قتله بغدارة . وانا ، انا الذي اخاطبك ، كنت حاضراً . »

والقى تيناردييه على ماريوس تلك النظرة الراشحة بالسلطان ، التي يلقيها رجل مهزوم أمسك بتلابيب النصر كرة اخرى ، واسترجع منذ لحظة ، وفي دقيقة واحدة ، كامل الأرض التي خسرها . ولكن الابتسامة ما لبثت أن عادت في الحال . ان الادنى لا يستطيع ان ينتزع من

الارفع غير انتصار رقيق ، واجترأ تيناردييه بأن قال لماريوس :

— « سيدي البارون ، نحن نضل الطريق . »

واكد هذه العبارة بأن راح يدير حزمة جواهره الرخيصة على نحو معبّر .

واجاب ماريوس :

— « ماذا ! هل تنكر ذلك ؟ هذه حقائق . »

— « إنها أوهام . ان الثقة التي يشرفني بها سيدي البارون تجعل من واجبي ان اقول له ذلك . الحقيقة والعدالة قبل كل شيء . أنا لا احب ان ارى الناس يُتهمون اتهاماً ظالماً . سيدي البارون ، إن جان فالجان لم يسرق مسيو مادلين قط ، وجان فالجان لم يقتل جافير قط . »

— « انت تتحدث في قوة ! كيف ذلك ؟ »

— « لسببين اثنين . »

— « ما هما ؟ تكلم . »

— « هوذا الأول : إنه لم يسرق مسيو مادلين ، لأن مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان نفسه . »

— « ما هذا الذي تقوله لي ؟ »

— « وهوذا الثاني : إنه لم يقتل جافير ، لأن الذي قتل جافير هو جافير . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « إن جافير انتحر . »

فصاح ماريوس وقد استبد به القلق والاضطراب :

— « برهن ذلك ! برهن ذلك ! »

فاستأنف تيناردييه الكلام مقطّعاً جملته كما يُقطّع وزن الشعر الالكسندري القديم :

— « ان — رجل — الشر — طة — جا — فير — قد — و جد — غري — قاً —

تحت — قارب — قرب — جسر — الشا — نج . »

— « برهن ذلك اذن ! »

واخرج تيناردييه من جيبه ظرفاً ضخماً رمادي الورق بدا وكأنه ينطوي على اوراق مطوية ذات احجام متفاوتة .

وقال في هدوء :

— « ان عندي وثائقي . »

واضاف :

— « سيدي البارون . من اجل مصلحتك اردت ان اعرف جان فالجان حتى القعر . انا اقول إن جان فالجان ومادلين شخص واحد ؛ وانا اقول ان جافير لم يقتله احد غير جافير . وحين اتكلم اقدم البراهين على كلامي . لا براهين مخطوطة . فالكتابة موضع ارتياب . الكتابة ملاطفة ، ولكن براهين مطبوعة . »

وفيما كان تيناردييه يتكلم اخرج من الظرف صحيفتين . صفراوين . ذابلتين ، مشبعتين بالتبغ إشباعاً قوياً . وكانت احدى هاتين الصحيفتين ، المنكسرة عند طياتها جميعاً ، المتساقطة قطعاً مربعة ، تبدو اشد عتقاً من الاخرى .

وقال تيناردييه :

— « حقيقتان ، وبرهانان . »

ونشر الصحيفتين ، وقدمهما إلى ماريوس .

والقاريء يعرف هاتين الصحيفتين . إن احداهما وهي الاقدم — نسخة من عدد « الراية البيضاء » الصادر في ٢٥ تموز ١٨٢٣ والمنطوي على نص يستطيع القاريء ان يجده على الصفحة ١٠٢ من المجلد الثاني من هذا الكتاب — تقيم الدليل على ان مسيو مادلين وجان فالجان شخص واحد . والثانية ، عدد صحيفة « المونيتور » الصادر في ١٥ حزيران ١٨٣٢ ، تثبت انتحار جافير ، وتضيف قائلة إنه يستفاد من تقرير شفهي

قدمه جافير إلى مدير الشرطة ان جافير ، وقد أسير في متراس شارع الشانفريري ، كان مديناً بحياته لشهامة متمرد عمد ، على الرغم من انه — جافير — كان تحت رحمة غدارته ، إلى اطلاق النار في الهواء بدلا من اطلاقها على رأسه .

وقرأ ماريوس . كان ثمة دليل ، وتاريخ ثابت ، وبرهان لا سبيل إلى الشك فيه . إن هاتين الصحيفتين لم تطبعا خصيصاً لتأييد أقوال تيناردييه . وكانت الكلمة المنشورة في الـ «مونيتور» بلاغاً رسمياً صادراً من مديرية الشرطة . ولم يكن في ميسور ماريوس ان يشك . كانت المعلومات التي استمدها من امين الصندوق الموظف في المصرف خاطئة ، وكان هو نفسه مخدوعاً . وانبثق جان فالجان — وقد تعاظم فجأة — من وسط السحب . ولم يستطع ماريوس ان يكتم صيحة فرح :

— «حسن ، اذن ، فهذا الرجل التعس رجل رائع . لقد كانت تلك الثروة كلها ثروته حقاً ! انه مادلين ، النعمة المقيّضة لمنطقة برمّتها ! إنه جان فالجان ، منقذ جافير ! إنه بطل ! إنه قديس ! »

فقال تيناردييه :

— « إنه ليس قديساً ، وإنه ليس بطلاً . إنه سفاح ولص . »

واضاف في نبرة رجل شرع يستشعر بعض السلطان :

— « فلنكن هادئين . »

لص ، سفاح ، كانت هاتان الكلمتان اللتان افترض ماريوس انهما اختفتا ، واللتان رجعتا كرة اخرى ، قد سقطتا عليه كسقوط وابل مثلوج .

وقال :

— « أيضاً . »

فأجاب تيناردييه :

— « اجل ! إن جان فالجان لم يسرق مادلين ، ولكنه لص . إنه لم يقتل جافير ولكنه سفاح . »

فعاد ماريوس إلى القول :

— « اتريد ان تتكلم عن تلك السرقة التافهة التي قام بها منذ اربعين سنة ، والتي كفّرتْ عنها ، كما يستفاد من صحيفتيك نفسيهما ، حياةٌ كاملة من التوبة ، وانكار الذات ، والفضيلة ؟ »

— « لقد قلتُ سرقة وقتلا . وانا اكرر اني اتكلم عن وقائع حقيقية . إن ما اريد ان اكشف لك النقاب عنه مجهول تماماً . إنه مما لم ينشر من قبل . ولعلك ان تجد فيه مصدر الثروة التي قدمها جان فالجان، في حذق ، إلى السيدة البارونة . أقول في حذق ، لأن انسلاله بهبة من هذا النوع إلى بيت شريف سوف يشارك هو في مناعمه ، واخفاءه في الوقت نفسه جريمته ، واستمتاعه بسرقته ، ودفنه اسمه ، واختلاق اسرة لنفسه ... كل ذلك ليس شيئاً تعوزه البراعة كثيراً . »

فلاحظ ماريوس قائلا :

— « في ميسوري ان اقاطعك هنا . ولكن أكمل . »

— « سيدي البارون ، سوف اخبرك بكل شيء . تاركاً المكافأة إلى كرمك . إن هذا السر يساوي كومة من الذهب . سوف تقول لي : لماذا لم تذهب إلى جان فالجان ؟ لسبب بسيط جداً : أنا أعرف انه تخلى عن كل شيء ، وتخلى عن كل شيء لصالحك ، وأنا أرى ان ذلك التدبير بارع ؛ ولكنه لم يبق معه درهم واحد ؛ إنه سوف يريني يديه الفارغتين ، ولما كنت في حاجة إلى شيء من المال من أجل رحلتي إلى « لا جويا » فأنا افضلك ، انت الذي تملك كل شيء ، عليه ، هو الذي لا يملك شيئاً . أنا متعب بعض الشيء ، اسمح لي بأن اجلس . »

وجلس ماريوس ، واومأ اليه أن يجلس .

لقد استقر تيناردييه في كرسي مزوّد بحشيّة ، واستعاد صحيفتيه ،

وأقحمها في الظرف ، وغمغم ناقراً « الراية البيضاء » بظفره : « لقد اقتضاني الحصول على هذه جهداً شاقاً . » قال ذلك ، ووضع رجلا على رجل ، واستلقى على ظهر كرسيه ، وهو وضع مميز للنـاس الواثقـين مما يقولون ، ثم دخل في الموضوع في نبرة من الجـد ، مـؤكـداً الكلمـات :

– « سيدي البارون ، في اليوم السادس من حزيران ، ١٨٣٢ ، منذ سنة تقريباً ، وفي يوم الفتنة ، كان رجل في بالوعة باريس العظمى ، قرب مصب البالوعة في الـ « سين » ، بين جسر الانفاليد وجسر ايينا . »

وفجأة قرّب ماريوس كرسيه إلى كرسي تيناردييه . ولاحظ تيناردييه هذه الحركة ، وتابع كلامه في تؤدة متحدث مسيطر على من يخاطبه ، مستشعر خفقان قلب خصمه تحت كلماته :

– « كان هذا الرجل ، المضطر إلى إخفاء نفسه ، لاسباب لا صلة لهـا بالسياسة ، قد اتخذ من البالوعة مأوى له ، وكان يملك مفتاحاً لها . وكان ذلك – وأنا أكرر هذا – في السادس من حزيران . ولعل الساعة كانت الثامنة مساء . وسمع الرجل صوتاً في البالوعة . واذ اخذه الدهش الشديد ، فقد اختبأ ، وترصد . كان وقعَ خطى ؛ ان شخصاً كان يمشي في الظلام ؛ ان شخصاً كان يتقدم نحوه . شيء غريب ، لقد كان ثمة في البالوعة شخص آخر غيره . ولم تكن شباكة منفذ البالوعة بعيدة . ومكّنه الضوء الضئيل النافذ من خلالها من ان يتبين الوافد الجديد ، وان يرى انه كان يحمل على ظهره شيئاً . لقد مشى محدودباً . وكان الرجل الماشي محدودباً رجلا حُكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة ، وكان ما حمله على كتفيه جثة . قتلٌ بالجرم المشهود ، إذا كان ثمة شيء مثل ذلك . أما السرقة فتتبع طبعاً . فالمرء لا يقتل رجلا من أجل لا شيء . وكان ذلك الاشغاليّ يعتزم ان يلقي الجثة في النهر . ولإنها لحقيقة جديرة بالذكر أن هذا الاشغالي الذي اقبل من مكان بعيد في البالوعة كان قد اضطر ،

قبل ان يصل إلى منعقده . [illegible] ان يجتاز موحلاً [illegible]
يعتزم ترك الجثة فيه . ولكن في هذه [illegible] . كان حتماً [illegible]
العاملين في الموحل . أن يجدوا في اليوم التالي جثة الرجل القتيل . و[illegible]
هذه بغية القاتل . من أجل ذلك آثر ان يمضي بحمله عبر الموحل . ولا
ريب في ان جهوده التي بذلها كانت رهيبة . ومن المستحيل تعريض
حياة امرىء لخطر أعظم من ذلك . أنا لا أفهم كيف خرج من هناك
حياً . »

واقترب كرسي ماريوس اقتراباً اضافياً . واغتنم تيناردييه هذه الفرصة
لكي يأخذ نفساً طويلا . ثم أكمل :

— « سيدي البارون . البالوعة ليست الشان دو مارس .. إن المرء
يعوزه كل شيء هناك . حتى المجال . وحين يكون رجلان في البالوعة
فلا بد لهما من ان يلتقيا . وهذا ما حدث . واضطر المقيم وعابر
السبيل إلى ان يتبادلا التحية . على كره منهما لذلك . وقال عابر السبيل
للمقيم : « انت ترى ما أحمله على ظهري . إن عليّ ان اخرج . ان
معك المفتاح . أعطني اياه . » وكان ذلك الاشغالي رجلا ذا قوة فظيعة .
ولم يكن الرفض ممكناً . ومع ذلك . فقد عمد صاحب المفتاح إلى المفاوضة
ابتغاء كسب الوقت ليس غير . لقد فحص الرجل الميت . ولكنه لم
يستطع ان يرى شيئاً . ما خلا انه كان شاباً . حسن البزة . غنياً في
ما يظهر . مشوهاً بالدم تشويهاً كاملا . وفيما هو يتحدث وجد
وسيلة إلى ان يقطع وينتزع من وراء . دون ان يلحظ القاتل ذلك ،
جزءاً من سترة القتيل . وثيقة مؤيدة للتهمة ، كما تعلم . وسيلة لتعقب
آثار المسألة . ولأقامة الدليل على جريمة المجرم . ووضع تلك الوثيقة
في جيبه . وبعد ذلك فتح الشباكة الحديدية ، ومكن الرجل من الخروج
وحمله على ظهره . واقفل الشباكة من جديد وفرّ ، حريصاً اقل
الحرص على ان يتورط في بقية المغامرة ، وغير راغب على الخصوص

في أن يكون حاضراً حين يلقي القاتل القتيلَ في النهر . انت تفهم الآن . ان ذلك الذي كان يحمل الجثة ، هو جان فالجان . وذلك الذي كان يحمل المفتاح يخاطبك الآن ، والقطعة المنتزعة من السترة ... »

وانهى تيناردييه العبارة بأن سحب من جيبه ، ورفع إلى مستوى عينيه بين إبهاميه وسبابتيه ، قطعة من جوخ اسود بال ، مغطاة كلها ببقع داكنة .

كان ماريوس قد نهض ، شاحباً ، مبهوراً ، مسددَ العين إلى قطعة الجوخ الأسود . ومن غير ان ينطق بكلمة ، ومن غير ان يرفع عينه عن هذه المزقة ، تراجع إلى الجدار ؛ وبيده اليمنى الممدودة خلفه راح يتلمس الجدار باحثاً عن مفتاح كان في قفل خزانة قائمة قرب الموقد . ووجد ذلك المفتاح ، وفتح الخزانة ، واقحم ذراعه فيها من غير ان ينظر ، ومن غير ان يرفع عينيه المذعورتين عن المزقة التي كان تيناردييه يعرضها عرضاً .

وفي غضون ذلك تابع تيناردييه كلامه :

— « سيدي البارون ، ان عندي اقوى الاسباب للاعتقاد بأن القتيل الشاب كان غريباً مثرياً استدرجه جان فالجان إلى فخ ، وحاملا لمبلغ مالي ضخم . »

وهنا صاح ماريوس ، طارحاً على السجادة سترة عتيقة سوداء ملطخة كلها بالدم :

— « هذا الشاب هو أنا . وهذه هي السترة ! »

ثم انتزع المزقة من بين يدي تيناردييه ، وانحنى فوق السترة . ووضع تلك الخرقة في المكان الممزق منها . وتلاءمت أطرافها تلاؤماً كاملا . ان المزقة قد أكملت السترة .

وتحجّر تيناردييه . وقال في ذات نفسه : « لقد هُزمت . »

ونهض ماريوس ، مرتعداً ، يائساً ، متألقاً .

وبحث في جيبه ، ومشى ، هائجاً ، نحو تيناردييه ، مقدماً اليه ، بل دافعاً نحو وجهه تقريباً ، قبضته الملأى بالاوراق المالية ذات الخمسمئة فرنك والالف فرنك .

— « أنت نذل ! أنت كذاب ، مفترٍ ، مجرم . لقد جئت تتهم هذا الرجل ، فبرأتـهُ . اردتَ ان تحطمه فلم توفق إلا إلى تمجيده . وانما أنت ، أنت اللص ! وانما انت ، أنت السفاح ! لقد رأيتك ، يا تيناردييه ، يا جوندريت ، في ذلك الوكر الذي في « جادة المستشفى » . أنا اعرف عنك ما يكفي لارسالك إلى سجن الاشغال الشاقة . بل إلى أبعد من ذلك ، إذا شئت . خـذ ، هـذه الف فرنك ، ايها المتحذلق الشقـي ! »

وقذف بورقة الف فرنك إلى تيناردييه .

— « آه ! جوندريت تيناردييه ، ايها النذل الخسيس ! ليكن ذلك درساً لك ، ايها المتعيّش بالاسرار ، المتاجر بالخفايا ، الباحث في الظلام ! وغد ! خذ هذه الخمسمئة فرنك ، واترك هذا المكان . ولتصنْك واترلو . »

وغمغم تيناردييه واضعاً الخمسمئة فرنك في جيبه مع الالف فرنك :

— « واترلو ! »

— « اجل ، ايهـا السفاح ! لقد انقذتَ هناك حياة كولونيل ... »

فقال تيناردييه رافعاً رأسه :

— « حياة جنرال . »

فأجاب ماريوس في هياج :

— « حياة كولونيل . أنا لا ادفع فلساً واحداً من اجل جنرال . وجئت إلى هنا لكي ترتكب مخازيك ! اقول لك انك اقترفت الجرائم جميعاً . اذهب ! اغرب عن وجهي ! كن سعيداً بمفردك ، هذا كل

ما ارغب فيه . آه ! ايها الهولة ! لا يزال هناك ثلاثة آلاف فرنك . خذها . سوف تسافر غداً إلى اميركة ، مع ابنتك ، لأن امرأتك قد ماتت ، ايها الكذاب المقيت ! سوف اتدبر أمر سفرك ، ايها اللص ، ولسوف ادفع لك ، عندئذ ، عشرين الف فرنك . اذهب وعرّض نفسك للشنق في مكان آخر . »

فقال ماريوس ، وهو ينحني حتى الارض :

— « سيدي البارون ، أنا اعترف بجميلك إلى الأبد . »

وخرج تيناردييه ، غير فاهم شيئاً ، ذاهلا ومنتشياً بهذا الانسحاق العذب تحت اكياس الذهب وبهذه الصاعقة المنفجرة فوق رأسه اوراقاً نقدية .

كان مصعوقاً ، ولكنه كان سعيداً أيضاً . ولقد كان خليقاً به أن يغضب غضباً شديداً لو أعطي مانعة صواعق بدلا من تلك الصاعقة .

فلننته من هذا الرجل في الحال . فبعد يومين انقضيا على الاحداث التي نرويها في هذه اللحظة ، سافر ، باشراف ماريوس وعنايته ، إلى اميركة ، تحت اسم زائف ، تصحبه ابنته آزيلما ، وفي جيبه حوالة على نيويورك بعشرين الف فرنك . ولكن تيناردييه ، شقاء تيناردييه الأخلاقي ، هذا البورجوازي المنهار ، كان ممتنعاً على العلاج . كان في اميركة ما كانه في اوروبة . إن لمسة من رجل شرير كثيراً ما تكفي لأفساد عمل صالح واستخراج شيء رديء منه . فبأموال ماريوس ، أمسى تيناردييه نخاساً .

وما ان خرج تيناردييه ، حتى هرع ماريوس إلى الحديقة حيث كانت كوزيت لا تزال تتمشى .

وصاح :

— « كوزيت ! كوزيت ! تعالي ، تعالي بسرعة . فلنذهب . باسك ، إيتنا بعربة كراء ! كوزيت ، تعالي . اوه ، يا الـهي ! إنه

هو الذي انقذ حياتي ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! ضعي شالك عليك . »

وحسبته كوزيت مخبولا ، وأطاعت .

ولم يأخذ نَفَساً ، ووضع يده على قلبه لكي يكبت خفقاته . وأنشأ يذرع المكان جيئة وذهوباً في خطى واسعة ، وعانق كوزيت قائلا :

— « أوه ! كوزيت ! أنا رجل تعس ! »

كان ماريوس ذاهلا . لقد بدأ يرى في جان فالجان هذا صورة محزونة شامخة على نحو غريب . وبرزت امامه فضيلة لا تضاهى ، فضيلة سَنية ووديعة ، متواضعة في عظمتها . لقد تحول الاشغاليّ إلى يسوع المسيح . وشُده ماريوس بهذه المعجزة . إنه لم يدر على وجه الضبط ما قد رأى ، ولكن ما رآه كان جليلا .

وفي لحظة ، كانت احدى عربات الكراء بالباب .

وساعد ماريوس كوزيت في امتطاء متن العربة ، ثم وثب هو اليها . وقال :

— « إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ ، ايها السائق . »

وانطلقت العربة .

وقالت كوزيت :

— « اوه ! يا للسعادة ! شارع الرجل المسلح ! أنا لم اجرؤ على ان احدثك عنه كرة اخرى . اننا سوف نرى مسيو جان . »

— « ابوكِ ! كوزيت ، ابوك اكثر منه في ايما وقت مضى . كوزيت ، لقد حزرتُ . لقد اخبرتني انك لم تتسلمي قط الرسالة التي وجهتها اليك مع غافروش . لا بد انها قد وقعت في يديه . كوزيت ، لقد مضى إلى المتراس لكي ينقذني . واذ كان شيئاً ضرورياً عنده أن يكون ملاكاً ، فقد أنقذ — خلال ذلك — الآخرين أيضاً . لقد انقذ

جافير . لقد اختطفني من تلك الهوة لكي يمنحك اباي . لقد حملني على ظهره في تلك البسالوعة الرهيبة . اوه ! أنا كافر بالنعمة على نحو رهيب . كوزيت ، لقد كان هو العناية الالـهية بالنسبة الي ، بعد ان كان العناية الالـهية بالنسبة اليك . حسبك ان تفكري انه كان ثمة موحل مخيف كاف لاغراقه مئة مرة ، لأغراقه في الوحل ، يا كوزيت، وانه حملني عبر ذلك الموحل . كنت غائباً عن الوعي ، انا لم ار شيئاً ، أنا لم اسمع شيئاً ، ولم يكن في ميسوري ان اعرف شيئاً عن مصيري نفسه . سوف نرجع به إلى بيتنا ، سوف نصطحبه ، سواء أرضي أم لا ، ولن يتركنا بعد اليوم ابداً . شرط أن يكون في المنزل فقط ! شرط ان نجسده فقط ! أنا على استعداد لأن أنفق بقية عمري في توقيره واجلاله . أجل ، لا شك ان هذا ما وقع ، ألا تـرين يا كوزيت ؟ لا ريب في ان غافروش قد أسلمه رسالتي . لقد فسر كل شيء . أنت تفهمين . »

ولم تفهم كوزيت كلمة .

وقالت له :

— « لقد أصبت . »

وفي غضون ذلك ، جرت العربة .

٥
ليل يعقبه فجر

وأدار جان فالجان رأسه لدن سماعه قرعاً على باب غرفته .

وقال في وهن :

— « أدخل . »

وفتح الباب . وبرزت كوزيت وماريوس .
واندفعت كوزيت إلى الغرفة .
وظل ماريوس على العتبة ، متكئاً على قائمة الباب .
ــ « كوزيت ! »
قال جان فالجان ذلك ، ونهض في كرسيه ، باسط الذراعين ، مرتعداً ، ذاهلا ، شديد الشحوب ، كالح الوجه ، مفعم العينين بابتهاج عظيم .
وارتمت كوزيت ، وقد خنقها الانفعال ، على صدر جان فالجان .
وقالت :
ــ « أبي ! »
وتمتم جان فالجان ، وقد استبد به اضطراب عاصف :
ــ « كوزيت ! هي ؟ انت ، ايتها السيدة ! هذا أنت ! آه ، يا الهي ! »
وهتف ، وهو مهصور بين ذراعي كوزيت :
ــ « هذا أنتِ ! انت هنا ! انت تغفرين لي اذن ! »
وخفض ماريوس جفنيه لكي يمنع دموعه من التحدر ، وتقدم خطوة ، وغمغم بين شفتيه اللتين كانتا متقلصتين في تشنج لكي تكبتا الزفرات :
ــ « أبي ! »
فقال جان فالجان :
ــ « وأنت أيضاً تغفر لي ! »
ولم يستطع ماريوس أن يقول كلمة . واضاف جان فالجان :
ــ « شكراً ! »
ونزعت كوزيت شالها ، وطرحت قبعتها على السرير .
وقالت :

— « انهما يضايقاني ؟ »

وجلست على ركبتي العجوز . وبحركة فاتنة ازاحت شعره الاشيب ، وطبعت على جبينه قبلة .

ولم يبد جان فالجان ، في انشداهه ، اية معارضة .

وضاعفت كوزيت — التي لم تفهم ذلك إلا فهماً مشوشاً — ملاطفاتها ، وكأنما كانت تريد ان تفي دين ماريوس ؟

وتلجلج جان فالجان :

— « ما أحمق الانسان ! لقد ظننت أنني لن أراها ثانية البتة . حسبك ان تفكر ، يا مسيو بونميرسي ، انني كنت اقول لنفسي ، لحظة دخلتما: قضي الأمر . هوذا ثوبها الصغير ، أنا رجل بائس ، أنا لن ارى كوزيت بعد اليوم . كنت اقول هذا وأنتما ترتقيان السلم . هل كنت أبلـه ؟ اجل ، ما اكثر ما يصيبنا البله ! ولكننا لا ندخل الله في الحساب . يقول الله : انت تظن انك سوف تُهجر ويُتخلى عنك ، ايها الاحمق ؟ لا . لا ، ان الامور لن تجري على هذه الشاكلة . هيا ، إن ثمة رجلاً بائساً في حاجة إلى ملاك . ويجيء الملاك ، وأرى كوزيت من جديد ! وارى حبيبتي كوزيت من جديد ! أوه ! لقد كنت بائساً جداً ! »

وظل لحظة عاجزاً عن الكلام ، ثم تابع :

— « كنت حقاً في حاجة إلى أن أرى كوزيت ، فترة قصيرة ، بين الفينة والفينة . ان القلب ليحتاج إلى عظم يقرضه . ومع ذلك ، فقد شعرت جيداً أنني عقبة في الطريق . وقدمت إلى نفسي اعذاراً : إنهم في غير حاجة اليك ؛ إبق في زاويتك ؛ ليس لك الحق في البقاء إلى الابد . آه ! تبارك الله ، إنني اراها من جديد ! هل تعرفين ، يا كوزيت ، ان زوجك وسيم جداً ؟ آه ! ان طوق ثوبك الموشى لجميل ؛ نعم ، نعم ، أنا أحب هذا الرسم . إن زوجك هو الذي اختاره ، اليس كذلك ؟ وإلى هذا ، فينبغي ان يكون عندك ثياب مخيطة من

نسيج كشمير . أيها السيد بونمرسي ، دعني اخاطبها بضمير المفرد . ان ذلك لن يدوم طويلا . »

وتابعت كوزيت من جديد :

— « كيف اجزت لنفسك ان تفارقنا على هذه الصورة ؟ إلى أين ذهبت ؟ لماذا طالت غيبتك إلى هذا الحد ؟ ان رحلاتك في الايام السابقة ما كانت تستغرق أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة أيام . لقد ارسلت نيقوليت ، فكان الجواب دائماً : انه غير موجود . ومتى كانت عودتك ؟ لماذا لم تحطنا علماً ؟ هل تعلم انك تغيرت كثيراً ؟ آه ، يا للأب الحبيب ! لقد كان مريضاً ، ونحن لا نعرف ذلك ! ماريوس ، إلمس يده ، ما اشد برودتها ! »

وكرر جان فالجان :

— « واذن فأنت هنا ! أيها السيد بونمرسي ، إنك تغفر لي ! »

وعند هذه الكلمات ، التي كان جان فالجان قد أعادها للمرة الثانية ، وجد كلُّ ما فاض في قلب ماريوس منفذاً . فانفجر قائلا :

— « كوزيت ، هل تسمعين ؟ ذلك شأنه دائماً ! إنه يلتمس عفوي . وهل تعلمين ايّ خدمة اسداها الي ، يا كوزيت ؟ لقد انقذ حياتي . لقد فعل اكثر من ذلك . لقد اعطاني اياك . وبعد أن انقذني . وبعد أن اعطاني اياك ، يا كوزيت ، ما الذي فعله بنفسه ؟ لقد ضحى بنفسه . هوذا الرجل ! وهو يقول لي ، أنا الكافر بالجميل ، أنا الكثير النسيان ، أنا العديم الرحمة ، أنا المجرم — يقول لي : شكراً ! كوزيت ، لو انفقت حياتي كلها على قدمي هذا الرجل لكان ذلك أقل مما ينبغي . لقد اجتاز ذلك المتراس ، تلك البالوعة ، ذلك الاتون ، ذلك المستنقع ، بل لقد اجتاز كل شيء من اجلي ، من اجلك يا كوزيت ! لقد حملني عبر ضروب الموت كلها ، التي ازاحها عني وارتضاها لنفسه . إنه يتحلى بالشجاعات كلها ، بالفضائل كلها ، بالبطولات كلها ، بالقداسات كلها .

كوزيت ، إن هذا الرجل ملاك ! »

— « صه ! صه ! لماذا تقول هذا كله ؟ »

فهتف ماريوس في غضب مشوب بالاجلال :

— « ولكن أنت ! لمَ لمْ تبح بذلك ؟ انها غلطتك أيضاً . انت تنقذ حيوات الناس وتخفي ذلك عنهم ! بل انت تذهب إلى أبعد من ذلك ، بحجة رفع القناع عن وجهك ؛ انت تفتري على نفسك . هذا شيء راعب . »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد قلت الحق . »

فقال ماريوس :

— « لا . الحق هو الحق كاملا . وانت لم تقل الحق كاملا . لقد كنتَ مسيو مادلين ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ لقد انقذتَ جافير . فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ أنا مدين لك بحياتي ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ »

— « لأني فكرت مثلك . لقد وجدت انك على صواب . كان من الضروري أن أمضي لسبيلي . ولو انك عرفت مسألة البالوعة تلك اذن لأبقيتني معك . وهكذا كان علي ان ألتزم الصمت . ولو اني تكلمت لأربكتكم جميعاً . »

— « اربكتَ ماذا ! اربكت من ! هل تظن انك سوف تبقى هنا ؟ سوف نصحبك معنا . آه ، يا الـهي ! حين افكر اني لم اعرف هذا كله إلا مصادفة ! سوف نصحبك معنا . انت جزء منا : انت أبوها وأبي . انك لن تقضي يوماً آخر في هذا المنزل الراعب . لا تتخيل انك سوف تكون هنا غداً . »

فقال جان فالجان :

— « غداً لن اكون هنا ، ولكني لن اكون في بيتكم . »

فأجاب ماريوس :

— « ماذا تعني ؟ آه ، فهمت ، اننا لن نسمح لك بالقيام بأي رحلة بعد اليوم . انك لن تفارقنا كرة اخرى . أنت مِلكٌ لنا . اننا لن ندعك تذهب . »

واضافت كوزيت :

— « سوف يكون ذلك إلى الأبد ، هذه المرة . ان معنا عربة تحت . سوف ارفعك . ولسوف الجأ إلى القوة . إذا كان ذلك ضرورياً . »

وضحكت ، وقامت بحركة توحي بأنها سوف ترفع الرجل العجوز بين ذراعيها حقاً .

وتابعت :

— « إن غرفتك لا تزال في بيتنا . ليتك تعرف ما أبهى الحديقة في هذه اللحظة . ان الغار الشيحيّ لينمو نمواً حسناً . والمجازات مفروشة برمل النهر . إن ثمة بعض الاصداف البنفسجية الصغيرة . ولسوف تأكل شيئاً من توتي الافرنجي . إني اسقيه بنفسي . وليس هناك بعد اليوم « سيدتي » وليس هناك « مسيو جان » أيضاً . نحن جمهورية ، وكل الناس يستعملون ضمير المخاطب المفرد ، أليس كذلك يا ماريوس ؟ لقد تغير البرنامج . ليتك تعرف يا أبي ، لقد كنت محزونة ، كان ثمة عصفورة من عصافير « أبي الحناء » أقامت عشها في فجوة بالجدار ، فجاء هرّ رهيب وأكلها لي ! مسكينة عصفورتي تلك الصغيرة الجميلة ! لقد وضعت رأسها على نافذتها ونظرت اليّ ! وبكيت عليها ! ولقد كنت مستعدة لأن اقتل الهرة . أما الآن ، فأن احداً لا يبكي . القوم كلهم يضحكون ، القوم كلهم سعداء . انت سوف تذهب معنا . ما أعظم السعادة التي ستغمر جدي ! سوف تكون لك مسكبتك في الحديقة ، ولسوف تعنى بزراعتها بنفسك : ولسوف ترى هل سيكون

توتك الافرنجي جميلا مثل توتي ؟ ثم اني سأعمل اي شيء تريده ، ثم انك ستطيعني . »

وأصغى جان فالجان لها من غير ان يسمعها . لقد سمع موسيقى صوتها اكثر مما سمع معاني كلامها . ونبعت في عينه ، ببطء ، احدى تلك العبرات الكبار ، التي هي لآلىء النفس القاتمة . وغمغم :

— « إن وجودها هنا هو الدليل على رحمة الله . »

وصاحت كوزيت :

— « أبي ! »

فتابع جان فالجان :

— « صحيح جداً ان حياتنا معاً سوف تكون فاتنة . إن اشجارها حافلة بالطيور . ولسوف أتمشى مع كوزيت . إن من الجميل ان يكون المرء مع أناس يحبون ، ويتبادلون التحية ، ويتنادون إلى الحديقة . ولسوف يرى كل منا الآخر منذ الصباح . ولسوف يعنى كل منا بزراعة زاويته الصغيرة . سوف تدعني آكل توتها الافرنجي ، ولسوف ادعها تقطف ورودي . سوف يكون ذلك فاتناً . لولا ... »

وتمهل ، ثم قال في وهن :

— « يا للخسارة ! »

ولم تتحدر الدمعة ؛ لقد ارتدت على عقبيها ، واستعاض جان فالجان عنها بابتسامة .

وأمسكت كوزيت بيدي العجوز كلتيهما بيديها .

وقالت :

— « يا الهي ! لقد أمست يداك أبرد مما كانتا . هل انت مريض ؟ هل تحس بألم ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « لا . أنا في حال جيدة جداً . لولا ... »

وكف عن الكلام .

– « لولا مـاذا ؟ »

– « سوف أموت في الحال . . »

وارتعدت كوزيت وماريوس .

وصاح ماريوس :

– « تموت ! »

فقال جان فالجان :

– « اجل . ولكن هذا ليس شيئاً ذا بال . »

وتنفس ، وابتسم ، وتابـع :

– « كوزيت ، انت تتحدثين الي . تابعـي ، تحدثي من جديد ، لقـد ماتت عصفورتك الصغيرة اذن ؟ تكلمـي ، دعينـي اسمـع صوتـك ! »

وحدق ماريوس ، وقد تحجر ، إلى الرجل العجوز .

وأطلقت كوزيت صيحة ثاقبة :

– « أبي ! أبي ! سوف تحيا . لا بد ان تحيا . سأجعلك تحيا ، أسامع انت ! »

ورفع جان فالجان رأسه ، نحوها ، في تقديس .

– « آه ، اجل ، حظّري عليّ الموت . من يدري ؟ لعلي اطيع . لقد كنت على عتبة الموت حين جئت . ولقد حال ذلك بيني وبـين الموت . لقد بدا لي اني ولدت من جديد . »

فهتف ماريوس :

– « انت مفعم بالقوة والحياة . أتحسب ان الناس يموتون على هذه الصورة ؟ لقد ألمّ بك حزن ، ولكنك لن تعرف الحزن بعد اليوم . أنا اسألك العفو الآن ، واسألك اياه راكعاً على ركبتيّ ! انك سوف تحيا ، تحيا معنا ، وتحيا طويلا . سوف نرجـع بك إلى بيتنا . ولن يـكون

لأحد منا كلينا غير همّ واحد ، منذ اليوم ، هو إسعادك . »
واضافت كوزيت والدمع يتحدر من عينيها :
— « انت ترى ان ماريوس يقول انك لن تموت . »
وظل جان فالجان يبتسم .
— « إذا ارجعتني معك ، ايها السيد بونمرسي ، فهل يجعلني ذلك غير ما أنا ؟ لا . لقد فكر الله كما فكرت انت وفكرت أنا ، وهو لم يغير رأيه ، من الخير ان امضي لسبيلي . الموت تسوية جيدة . الله يعرف حاجاتنا اكثر مما نعرفها نحن . لا ريب في ان سعادتكما ، وفوز مسيو بونمرسي بكوزيت ، واقتران الشباب بالصبح ، وكونكما محاطين ، يا ولديّ ، بالزنابق والعنادل ، وكون حياتكما واحة خضراء تحت أشعة الشمس ، وامتلاء نفسيكما برُقَى السماء جميعاً، واحتضاري الآن ، أنا الذي لا أصلح لشيء ، لا ريب في ان هذا كله حسن . إسمع ، يجب ان نكون عاقلين ، ليس ثمة شيء آخر ممكن الآن ؛ أنا واثق من ان كل شيء قد انتهى . منذ ساعة ، أغمي علي . ثم اني ، في الليلة الماضية ، شربت ذلك الاناء المليء ماء . ما اطيب زوجك ، يا كوزيت ! إنك معه اسعد منك معي . »
وسُمع صوت لدى الباب . كان الطبيب قد أقبل .
وقال جان فالجان :
— « مرحباً ، ايها الطبيب ، ووداعاً . ها هما ولداي المسكينان . »
واقترب ماريوس من الطبيب . ووجه اليه هذه الكلمة المفردة :
« سيدي ؟ ... » ولكن كان في طريقة تلفظه بها سؤال كامل .
واجاب الطبيب عن السؤال بنظرة معبّرة .
وقال جان فالجان :
— « إن كون الاشياء غير سارة ليس سبباً يبرر ظلمنا لله . »
وساد صمت . كانت الصدور كلها منقبضة .

والتفت جان فالجان نحو كوزيت . وشرع يحدق اليها وكأنه يأخذ نظرة ينبغي أن تدوم عبر الأبدية . وفي اعماق الظلمة التي كان قد انحدر اليها ، كان لا يزال في ميسوره ان ينعم ، من طريق النظر إلى كوزيت ، بالنشوة الروحية . لقد اضاء انعكاسُ ذلك المحيا العذب وجهه الشاحب . إن القبر قد يكون له سحره أيضاً .

وجس الطبيب نبضه .

وغمغم ، ناظراً إلى كوزيت وماريوس :

— « آه ، انكما انتما اللذان كان في أمّس الحاجة اليهما . »

ثم انحنى فوق اذن ماريوس ، واضاف في صوت خفيض جداً :

— « لقد فات الأوان . »

والقى جان فالجان على الطبيب وماريوس ، من غير ان يكفّ عن التطلع إلى كوزيت تقريباً ، نظرة تنضح بالصفاء . وسمعا هذه الكلمات ، التي ما تكاد تبين ، تخرج من بين شفتيه :

— « الموت ليس شيئاً . الشيء الرهيب هو ان لا تعيش . »

وفجأة نهض . إن رّجعات القوة هذه تكون احياناً أمارة من أمارات الاحتضار . ومضى في خطى ثابتة إلى الجدار ، مزيحاً من طريقه ماريوس والطبيب اللذين حاولا مساعدته ، ونزع عن الجدار الصليب النحاسي الصغير — وعليه جسد المسيح — المعلق هناك ، وعاد ، وجلس في حرية التحرك المميزة للعافية الموفورة ، وقال في صوت مرتفع ، واضعاً المصلوب على الطاولة :

— « هوذا الشهيد العظيم . »

ثم غار صدره ، وترنح رأسه ، وكأنما استبد به دوار القبر ، وشرع يُنشب ظفره — ويداه على ركبتيه — في قماش بنطلونه .

وأسندت كوزيت كتفيه ، وانتحبت ، وحاولت ان تخاطبه ، ولكنها لم تستطع . كان في ميسور المرء ان يتبين ، بين الكلمات الممزوجة بذلك الرضاب

الفاجع الذي يصاحب الدموع ، جملا مثل هذه : « ابي ! لا تتركنا . امكن ان نكون قد وجدناك ثانية لكي نفقدك نهائياً ؟ »

في استطاعتنا القول ان حشرجة الموت تتلوى . إنها تروح ، وتجيء ، تتقدم نحو القبر ، وترجع نحو الحياة . ان في فعل الموت تلمساً في الظلام .

واستجمع جان فالجان قواه ، بعد شبه الاغماء هذا . وهزّ جبينه وكأنه كان يبغي ان يطرح الظلمات ، واستعاد صفاءه . أو كاد ، استعادة كاملة . وأمسك بطرف ردنها ، وقبّله .

وصاح ماريوس :

— « إنه يعود إلى الحياة ! ايها الطبيب ، إنه يعود إلى الحياة ! »

— « إن كلا منكما لكريم . سوف أقول لكما ما الذي آلمني . الذي آلمني ايها السيد بونمرسي . انك كنت راغباً عن مسّ ذلك المال . إن ذلك المال ، هو ملكٌ لزوجتك حقاً . سوف اشرح الأمر لكما ، يا ولديّ ، ومن اجل ذلك أنا سعيد بأن أراكما . إن الكهرمان الأسود يجيء من انكلترة . وإن الكهرمان الابيض يجيء من نروج . وكل ذلك تجدانه في الورقة التي تريانها هناك ، والتي سوف تقرآنها . أما في ما يتصل بالأساور ، فقد اخترعتُ الاستعاضةَ بالمشابك المصنوعة من صفيح ملويّ ، عن المشابك المصنوعة من صفيح مُلْتَحِم . ذلك أجمل ، وأفضل ، وأرخص . وانتما تفهمان اي ثروة يمكن ان تجنى من وراء ذلك . وهكذا فأن ثروة كوزيت هي ملكها حقاً . انا اعطيكما هذه التفاصيل حتى تطمئن نفساكما . »

كانت البوابة قد ارتقت السلم . وراحت تنظر من خلال الباب نصف المفتوح . وأمرها الطبيب بالابتعاد ، ولكنه لم يستطع ان يمنع تلك المرأة الطيبة الغيور من ان تخاطب الرجل المحتضر بصوت عال ، قبل مغادرتها المكان :

— « هل تريد كاهناً . »

فأجاب جان فالجان :

— « عندي كاهن . »

وبدا وكأنه يومىء باصبعه إلى نقطة فوق رأسه حيث كان في امكانك ان تقول إنه رأى شخصاً ما .

لعل الاسقف كان يشهد احتضاره حقاً .

وفي لطف ، أزلّت كوزيت وسادة تحت ظهره .

واستأنف جان فالجان حديثه :

— « ايها السيد بونمرسي ، لا تخف . أنا أقسم لك . إن الفرنكات الستمئة الف هي ملك كوزيت حقاً . واني اكون قد خسرت حياتي إذا لم تستمتع بها ! لقد نجحنا نجاحاً كبيراً في صناعة الخرز هذه . لقد نافسنا ما يدعى حليّ برلين . والواقع ، ان الزجاج الألماني الأسود لا يمكن ان يقارَن ببضاعتنا . فالغروصة الواحدة ، التي تحتوي على الف ومئتي حبة حسنة القطع ، لا تكلف غير ثلاثة فرنكات . »

حين يكون امرؤ أثير لدينا على وشك ان يموت ننظر اليه نظرة تتشبث به ، نظرة تودّ ان تحتفظ به . وهكذا وقفا كلاهما أمامه ، وقد اخرسهما الالم النفسي المرير ، غير عارفين ما يقولانه للموت ، يائسين مرتعدين ، ويدُ كوزيت في يد ماريوس .

ومن لحظة إلى اخرى ، كان جان فالجان يزداد وهناً على وهن . كان يتلاشى ؛ كان يقترب من الافق المظلم . كان تنفّسه قد امسى متقطعاً ؛ ان حشرجة ضئيلة اعترضته . ووجد صعوبة في تحريك معصمه ، وكانت قدماه ، قد فقدتا القدرة على القيام بايما حركة . ولحظة تضاعف عجز اوصاله وخوَرُ جسده ارتفع جلال الروح كله وتجلى على جبينه . كان ضياء العالم المجهول قد اضحى منظوراً في عينيه .

وشحب وجهه . وابتسم في آن معاً . لم تعد ثمة حياة ؛ كان ثمة

شيء آخر . وتلاشى نفسه ، وتعاظمت نظرته . كانت جثة تستشعر ان لها جناحين .

واومأ إلى كوزيت بأن تقترب ، ثم إلى ماريوس . كان واضحاً انها الدقيقة الأخيرة من الساعة الاخيرة ، وشرع يخاطبهما في صوت واهن إلى درجة جعلته يبدو وكأنه ينبعث من مكان بعيد ، حتى لقد يخيل إلى المرء ان جداراً كان قد انتصب منذ اللحظة بينه وبينهما .

– « اقتربا اكثر ، اقتربا اكثر ، كلاكما . أنا احبكما حباً جماً . اوه ! جميل ان يموت المرء هكذا ! أنت أيضاً ، انت تحبينني يا كوزيت . لقد عرفت جيداً انه كان لا يزال عندك بعض الحب لصاحبك العجوز . كم كان لطيفاً منك ان تضعي هذه الوسادة تحت ظهري ! انتما سوف تبكيان عليّ قليلا ، أليس كذلك ؟ ولكنْ ليس أكثر مما ينبغي . أنا لا اريد ان يلمّ بكما أيما أسىً عميق . يجب ان تستمتعا بالحياة استمتاعاً كثيراً ، يا ولديّ . لقد نسيت ان اخبركما ان في امكان المرء ان يربح من الابازيم التي لا ألسنة لها اكثر مما يربح من سائر الاصناف . ان الغروصة ، أو الاثنتي عشرة دزينة ، تكلف عشرة فرنكات ، وتباع بستين . هذه في الواقع تجارة رابحة ، واذن ، فينبغي ان لا تدهش للفرنكات الستمئة الف ، ايها السيد بونمرسي . انه مال حلال . في استطاعتكما ان تكونا موسرين في اطمئنان . ينبغي ان تكون لكما عربة خاصة ، ومقصورة في المسارح بين الفينة والفينة ، وثياب رقص جميلة يا كوزيت . ثم يحسن بكما ان تقيما مآدب عامرة لاصدقائكما ، وان تكونا سعيدين جداً . لقد كنت اكتب ، منذ لحظات ، إلى كوزيت . سوف تجدان رسالتي . اني اوصي لها بالشمعدانين اللذين على الموقد . إنهما من فضة ، ولكنهما عندي من ذهب ، بل من ألماس . إنهما يحوّلان الشموع التي توضع فيهما إلى شموع مقدسة . انا لا ادري ما اذا كان ذلك الذي منحني اياهما راضياً عني في الاعالي . لقد

عملتُ على قدر طاقتي . يا ولديّ . انتما لن تنسيا انني رجل فقير .
ولسوف تدفنانني في اقرب زاوية من الارض تحت حجر يعيّن موضعي .
تلك هي وصيتي . ولا تنقشا اي اسم على الحجر . وإذا ما زارتني
كوزيت قليلا في بعض الأحيان كان ذلك مبعث سرور لي . وأنت أيضاً .
ايها السيد بونمرسي . يجب أن أعترف بأني لم احبك دائماً . انا اسألك
العفو . والآن ، هي وانت لا تعدوان ان تكونا شخصاً واحداً في
نظري . انا عظيم الاعتراف بجميلك . أنا أشعر انك تُسعد كوزيت .
لو كنت تعرف ، ايها السيد بونمرسي ، لقد كانت وجنتاها الورديتان
الجميلتان هما بهجتي . كنت احزن إذا رأيتها شاحبة بعض الشيء . ان
في الخزانة ورقة مالية ذات خمسمئة فرنك . أنا لم امسها . انها للفقراء .
كوزيت ، هل ترين ثوبك الصغير ، هناك ، على السرير ؟ هل تعرفينه ؟
ومع ذلك ، فقد كان هذا من عشرة أعوام ليس غير . ما أسرع ما تمر
الأيام ! كنا سعيدين جداً . لقد قضي الأمر . يا ولديّ ، لا تبكيا ،
أنا لست ذاهباً إلى مكان بعيد جداً . سوف أراكما من هناك . وليس
عليكما إلا أن تنظرا حين يهبط الليل ، وعندئذ تجدانني أبتسم . كوزيت ،
هل تتذكرين مونفرماي ؟ كنتِ في الغابة ، كنتِ خائفة جداً . هل
تذكرين يوم أخذتُ مقبض الدلو المليء ماء ؟ كانت تلك أول مرة لمست
فيها يدك الصغيرة البائسة . كانت باردة جداً ! آه ، كانت لك يدان
حمراوان في تلك الأيام ، ايتها الآنسة ، أما اليوم فيداك شديدتا البياض .
والدمية الكبيرة ! هل تذكرينها ؟ لقد دعوتِها كاترين . لقد ندمتِ
لأنك لم تحمليها إلى الدير . وكم أضحكتِني في بعض الاحيان ، يا ملاكي
العذب ! وحين أمطرت السماء ، ألقيتِ بعض القذى في القنوات ،
ورحتِ تراقبينها . وذات يوم ، اعطيتك مضرب كرة من خيزران ،
وكرة ذات ريش اصفر وازرق واخضر . لقد نسيتِ ، انتِ ، ذلك .
لقد كنتِ كثيرة الشيطنة في طفولتك ! كنت تلعبين . كنتِ تضعين حبات

كرز في اذنيك . هذه الاشياء هي جزء من الماضي . الغابات التي اجتزتها مع طفلتي ، والاشجار التي تنزهنا في ظلها ، والأديار التي اختبأنا فيها ، والألعاب ، وضحك الطفولة الطلق ، كل ذلك طواه الظلام .
لقد تخيلت ان هذا كله ملك لي . وههنا كانت تكمن حماقتي . لقد كان تيناردييه وزوجته شريرين . يجب ان نغفر لهما . كوزيت ، لقد آن الأوان لاخبارك باسم امك . كان اسمها فانتين . تذكري هذا الاسم : فانتين . اركعي على ركبتيك كلما لفظته شفتاك . لقد تألمت كثيراً . وأحبتك كثيراً . لقد تجرعتْ كأس التعاسة مترعة كما تجرعتِ كأس السعادة مترعة . هكذا يقسم الله الاشياء بين الناس . إنه في الأعالي ؛ إنه يرانا جميعاً ، وهو يعرف ما يعمله وسط كواكبه العظمى . واذن ، فسوف أرحل ، يا ولديّ . تحابّا دائماً أعظم الحب . فليس في العالم شيء ، تقريباً ، غير التحابّ ، ولسوف تفكران احياناً في الرجل العجوز البائس الذي مات هنا . آه ، يا حبيبتي كوزيت ! إنها ليست غلطتي ، حقاً ، إذا لم ارك طوال هذا الوقت ؛ لقد تفطّر قلبي بسبب من ذلك ؛ لقد مضيت حتى زاوية الشارع ، ولقد كنت خليقاً بأن أبدو مضحكاً في نظر الناس الذين يرونني أمشي هناك ؛ لقد بدوتُ أشبه بالمخبول ، وذات يوم خرجت من غير قبعة . يا ولديّ ، أنا لم اعد أرى ، الآن ، في وضوح كثير ؛ كانت عندي اشياء اخرى احب ان اقولها ، ولكن لا بأس . فكرا فيّ قليلا . أنتما مخلوقان مباركان . لست ادري ماذا ألمّ بي ؛ إنني ارى ضياء . اقتربا اكثر . انا اموت سعيداً . قربا رأسيكما العزيزين المحبوبين لكي اضع يدي فوقهما . »

وخر ماريوس وكوزيت على الأرض راكعين ، مصعوقين ، تخنقهما العبرات ، وأمسك كل منهما بأحدى يدي جان فالجان . كانت هاتان اليدان الجليلتان قد فقدتا الحركة بالكلية .

كان قد انكفأ إلى وراء ، وكان نور الشمعدانين يضيء وجهه ،

وكان وجهه الابيض ذاك ينظر إلى السماء . وترك كوزيت وماريوس يغمران يديه بالقبلات ؛ لقد مات .

كان الليل عاطلا من النجوم ، وكان دامساً . وليس من ريب في ان ملاكاً عظيماً ما ، كان واقفاً في الظلمة ، باسطّ الجناحين ، ينتظر تلك النفس .

٦
العشب يحجب والمطر يمحو

في جبانة « بير لا شيز » ، في جوار مقبرة الفقراء والمجهولين ، بعيداً عن الحي الانيق من مدينة القبور تلك ، بعيداً عن جميع تلك الاضرحة الغريبة التي تعرض في حضرة الابدية ازياء الموت الرهيبة ، وفي زاوية مهجورة ، في محاذاة جدار عتيق ، تحت زَرْنَبَة * ضخمة يتسلق عليها اللبلاب ، بين النَّجيل ** والطحالب — في تلك الجبانة كان حجر . وهذا الحجر لم يعد بريئاً — اكثر من غيره — من جذام الدهر ، والعفن ، والأشنة ، وذرق الطيور . ان الماء يخضّره ، والهواء يسوّده . وهو غير قريب من أيما مجاز أو ممر ، والناس لا يحبون ان يذهبوا إلى تلك البقعة ، لأن العشب مرتفع ، ولان اقدام المرء تُبلل هناك في الحال . وحين تلقى الشمس بعض أشعتها ، تنطلق الحراذين . إن ثمة ، حول البقعة كلها ، حفيف شوفانٍ بري . وفي الربيع ، تغرد الدُّخّلات في الشجرة .

وهذا الحجر عارٍ عن اي زخرف . فلم يفكّر ، عند إعداده ، إلا

* الزرنب نبات طيب الرائحة ، ويدعى ايضاً رجل الجراد .

** النجيل : نبات من نوع الحمض .

في حاجات القبر الضرورية . ولم يُعنَ بغير جعل هذا الحجر كافياً ، من حيث الطول والعرض ، لتغطية رجل .

ولم يكن ثمة اسم ما .

بيد ان يداً خطت على ذلك الحجر بقلم الرصاص – منذ عدة سنوات – هذه الابيات الاربعة التي انتهت تدريجياً إلى ان تصبح غير مقروءة ، تحت المطر والغبار ، والتي امحت اليوم في اغلب الظن :

انه يرقد . وعلى الرغم من أن القدر كان بالنسبة
اليه غريباً جداً ،
فقد عاش . لقد مات عندما فقد ملاكه .
ان الأمر يحدث ، ببساطة ، من تلقاء نفسه ،
كما يهبط الليل حين يولي النهار .

تمت الترجمة الكاملة

لرواية البؤساء

فهرست القسم الخامس : « جان فالجان »

•

ص

الكتاب الاول : الحرب بين اربعة جدران

الكتاب الثاني : مصران لوياثان

الكتاب الثالث : وحل ، ولكن روح

ص

الكتاب الرابع : جافير يتنكب الطريق ٢٣٣

الكتاب الخامس : الحفيد والجد

الكتاب السادس : الليلة البيضاء

الكتاب السابع : آخر قطرة في الكأس

الكتاب الثامن : شحوب الغسق

الكتاب التاسع : ظلمة عظمى وفجر اعظم

مَطْبعَة العُلوم
حارة حريك - لبنان

